5 me Année, No. 227

Lundi - 8 - 11 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العــــدد ٢٢٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٥ رمضان سنة ١٣٥٦ — ٨ نوفبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الفهـــرس

سـورية !

للدكتور عبد الوهاب عزام

سورية الجميلة ذات الخمائل الوارفة ، والجنات الناضرة ، والمياه الثارّة !

سورية مراح الفؤاد ، ونزهة الطرف !

سورية الكادحة التى يجهد أهلها فى السهل والجبل يُخرجون بالماء القليل شتى الثمرات ، وينبتون به يانع الجنات ، سوريةُ بَرَدَى والعاصى !

سورية الصابرة التى وفرت الأيام نصيبها من النكبات والأزمات ، المجاهدة التى تجادل عن نفسها ، وتجاهد عن شرفها ، دفاعَ البطل الأصْيَد الأعزل ، يمضى بجنانه ويده يشق الأهوال إلى غايته ، ويحطم الخطوب إلى طلبته ، مجاهداً مثابراً ، مرزّأً صابرا

سورية التى لم تجف فيها دماء الشهداء ، ولم تنقطع سلسلة النوائب !

سورية التى تفيض بالذكر المجيدة ، والسير الخالدة ، وتمتّ بالرحم الواشجة ، والقُربى الواصلة ، والجوار والذمام !

سورية الجميلة الحبيبة ، الكادحة المجاهدة الصابرة ، فجئها السيل كقطع الليل ، ودهمها القضاء من السماء ، فاستحالت جبالها أنهارا ، وسهولها بحارا ! طغى السيل بالناس والدواب ، وجرف القرى والضياع ، وذهب بالزروع والثمار

فهذه جثث الغرقى منثورة فى السهول ، وأنقاض الدور تغص بها الأودية ، وتحت الماء والطين عتاد البائسين ، وذخيرة المساكين ، وما أبقت الأزمات ، من ثياب وأقوات . فانظر إلى الشمل المبدّد ، والأمل الخيّب ، والهلع والفزع ، والفاقة والجزع ! أنظر إلى الدموع الجارية ، والنظرات الهالعة ، والخدود الضارعة ، والعقول الذاهلة ، والقلوب الحائرة ، واستمع زفرات الأحياء على الأموات! وبكاء الأولاد أو نحيب الآباء والأمهات ! استمع فكم أنَّة كليم ، وآهة يتيم !

إن الشاعر المحزون الواله ليخيل إليه أن مجرى السيل خليق أن يكون مجرى الدمع ؛ ويذكر قول أبى العلاء :

ليت دموعي بمنى سيّلت ليشرب الحُجاج من زمزمين

لك الله يا سورية ! تركتك منـذ قليل تعانين ما تعانين ، وارتقبت أن تتطاير الأخبار بما تؤمل من انتعاشك ، وما نرجو من نهوضك ، فما راعنا إلا نبأ السيول الجارفة المدمرة . ولكن فى صبرك وجهادك عزاء ، وكل غمرة إلى انجلاء ؛ وإن وراء هذا الظلام فجرا ، وإن مع العسر يسرا

***

هـذه سورية فى نكبتها ؛ فمن ندعو لنجدتها ؟ إن ندعُ العرب فأهل النجدة ، وأولو الحميّة ، وحفَظَة الجوار ، ورُعاة العهد ؛ فى قلوبهم الراحمة لهؤلاء المنكوبين رجاء ، وفى قرابتهم العاطفة عزاء ، وفى أيديهم السخيّة ما يخفف البلاء . وهم للبائس خير وزر ، وللاّجىء أمنعُ عصَر

وإن ندع المسلمين والنصارى فالدين يأمرهم بالتراحم ويحفزهم إلى المواساة ؛ وإن لإخوانهم فيهم لَنُصراء رحماء يجيبون دعوة المضطر ، ويمسحون دمعة المحزون ، ويفرجون كربة المكروب ، أن عليهم أن يمسحوا على هذه القلوب الدامية ، ويرفقوا بهذه الأكباد الواهية

بل أدعو البشر أجمعين والانسانية كلها دعوة عامة شاملة ، وأستنجد القلوب الرحيمة لا أستثنى أحداً ، أن تمد الأيدي الآسية إلى هذه الألوف التى يعوزها القوت واللباس والمأوى

يا معشر الكتاب والشعراء ! كيف تقسو فى هـذه المحنة القلوب ، وتجمد فى هذه الكارثة الدموع ، ويَصمت فى هـذه الفاجعة البيان ، ويخذُل القلم واللسان ؟

إن ما بين دمشق إلى المعرة للسيل غارات ، وللدمار آيات ، وللشعر مقالاً ، وللبيان مجالاً

دمشق العظيمة تستغيث ، والمعرة الخالدة تستنجد ؛ فيا أدباء العربية والاسلام ! أحيوا الهمم واشحذوا العزائم . ويا أحباء أبى العلاء ! هذا شيخ المعرة فى بيانه ، يستنجدكم لجيرانه :

يقول :

كيف لا يشرك المضيقين فى النعـــمة قوم عليهم النعماء ؟

ويقول :

من حاول الحزم فى إسداء عارفة
فليُلقها عند أهل الحاج والشُكر
ومن بغى الأجر محضاً فليناد لها
برّا فقيراً وإن لاقاه بالنكر

فالقوا بمعروفكم هؤلاء الأبرار الشكرُ تجمعوا الحزم والخير فى مكرمة . ولا تحقروا ما تسعفون به وإن قل . واستمعوا إليه يقول :

إذا طرق المسكين دارك فاحبُه
قليلاً ولو مقدار حبة خردل
ولا تحتقر شيئاً تساعفـه به
فربّ حصاة أيدت ظهر مجدَل

عبد الوهاب عزام

المزاح البارد

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كان لنا فى المدرسة الابتدائية مدرس لا نراه إلا معبّساً — لا يفتر له ثغر ولا تنبسط له أسارير وجه ، ولا تلمع عيناه بنور البشر ، لفرط ما زوى ما بينهما ، ولكنه على هذا كان لا يكف عن ركوب زملائه المدرسين ورئيسه الناظر أيضاً بالدعابة التى تجيء أحياناً خفيفة محمولة ، وسائغة مستظرفة ، وأحياناً أخرى تكون سمجة ثقيلة لا تطاق . فمن لطيف مزحه أن العادة جرت فى المدارس بأن يصوّر التلاميذ مع أساتذتهم فى آخر العام المدرسى لتبقى الصور ذكرى لعهد التعلم فصففنا أمام المصور — القصار من أمثالى فى الصدر ، والطوال وراءهم ، وجلس المعلمون على كراسى أعدت لهم أمامنا وجيء بكرسى كبير ذى مسندين للناظر ، وكان رجلاً جهولا ولكنه طيب القلب ، وجعل صاحبنا يروح ويجيء هنا وههنا ليسوى الصفوف كما يزعم ، ويقدم واحداً ويؤخر آخر ، ويقبل ويدبر ، والناظر قلق يصيح به : « اخلص بقي يا فلان افندي » فيقول : « حالا . حالا . إن الله مع الصابرين » ويمضي فيما هو فيه من التسوية والتعديل . وكانت العادة أيضاً أن توضع خلف الصفوف خريطة أو مصور جغرافى كبير فادعى أنه نسي ذلك وذهب يعدو إلى حجرة المدرسين ثم عاد يحمل مصوراً ملفوفاً وعلقه وأبقاه مطوياً ثم صاح بنا : « الآن انظروا كلكم إلى عدسة المصور » ففعلنا ونشر هو المصور الجغرافى وأخذت الصورة فطوى الخريطة وحملها وذهب بها فأعادها إلى حيث كانت ، وجاءت الصور وأدى كل من رغب فى الاحتفاظ بنسخة منها الثمن المفروض ومضى بها إلى بيته فرحاً مسروراً . ثم تأملناها على مهل في البيوت فاذا مكتوب وراءنا بالخط الثلث : « حيوانات الدنيا » ، ولا أحتاج أن أقول أن معلمنا نشر خلفنا مصوراً لحيوانات الأرض من أبقار وجاموس وحمير وخيل وأسود وفيلة الخ لا للكرة الأرضية وقاراتها ...

ومما أذكره فى باب المزاح العملى أن واحداً من أصدقائى كاد مرة يخرب بيتى ، فقد زارنى فلم يجدنى وكنت يومئذ فى بيت عتيق له فناء رحيب ، فوقف يصفق وينادى ، فلما قالوا له إنى خرجت قال : « سبحان الله العظيم وهل هذا كلام ؟ يُشَبِّبُ بنات الناس ويهرب ؟ »

وعدت إلى البيت وأنا خالى الذهن مما حدث ، فلما دخلت على أهلى قلت : « السلام عليكم » كما هى عادتى فرأيت أمي تنظر إليّ مقطبة ثم ترخى عينها إلى الأرض ، فالتفت إلى زوجتى فاذا هى تنظر إلى الحائط ولا تحول عينها عنه ، كأنما عليه رسم ساحر ؛ فاستغربت وأنكرت هذا الاستقبال الحافل بالنذر ولكنى آثرت التباله ، وأقبلت على أمى أريد أن أقبل يدها فتناولتها فنزعتها بعنف وحولت وجهها عني والدمع متحير في مآقيها فزاد عجبى وقلت : « مالكم ... جرى إيه ؟ » فصاحت أمى بى : « رح .. رح إلى حيث كنت

ووجدت زوجتى لسانها فقالت : « أيوه رح إلى حيث كنت »

فتأملتها ملياً وأنا أحك رأسى وأحاول أن أهتدى إلى سر هذا اللقاء الغريب فلم يفتح الله على بشيء ، فقعدت أمامهما وجذبت وجهيهما إليّ وقلت : « خبرانى ما هى الحكاية فما أعرف شيئاً أستحق من أجله أن ألقى منكما هذه الجفوة »

فأفصحت أمى قليلا وقالت : « شف بنات الناس ... »

فقاطعتها : « بنات الناس ؟ أى بنات وأى ناس ؟

قالت : « هل خطبت ؟ »

فوثبت إلى قدمى وصحت : « خطبت ؟ .. خ .. خ .. »

فقالت زوجتى : « ألا ترين كيف يتلعثم ؟ إن هذا إقرار »

فصرخت وأنا أكاد أجن : « أى إقرار ياستي ؟ أين عقلكم يا خلق الله ؟ ألا تكفى غلطة واحدة ؟ » »

ولا أحتاج أن أقول أيضاً إنى خرجت بحماقتى من ورطة فوقعت فى ورطة . فقد اقتنعت أمي وزوجتى بأن الزواج من أخرى لم يخطر لى على بال ، وإن هذا كان مزحاً ثقيلاً من صاحبى ولكن زوجتى ظلت إلى آخر عمرها تذكر قولى : « ألا تكفى غلطة واحدة ؟ »

***

ومن الفصول الباردة ما حدث مرة فى بيت قريب لنا وكان قد دعانا إلى سهرة فى مصر الجديدة حيث كان يسكن ، وكان بين الضيوف اثنان من المصريين الذين تعلموا في ألمانيا ، فاقترح أحدهما

أن يدعو صديقاً له من الألمان ليسمعنا قطعة موسيقية ألمانية فكاهية ، وقال إنها : « تميت من الضحك » وأيد زميله قوله ، فقبلنا وذهب رب الدار معهما لدعوة هذا الألماني الذي بُشِّرنا بأنه سيميتنا من الضحك وكانت شقته في العمارة نفسها فما لبثوا أن عادوا ومعهم رجل وقور ، ذو لحية كثة ، ووجه رزين ، ونظرة صارمة ، فجعلت أتعجب فيما بيني وبين نفسي كيف يسع هذا الرجل أن يضحك أحداً كائناً ما كان ما يغنيه أو يعزفه . وكان الشابان يكلمان الرجل بالألمانية التي لا نعرف منها حرفاً . وجلس الرجل إلى البيانو وشرع يدق فلم يبد لنا — أو على الأقل لي — أن في الأمر ما يضحك ؛ وكان جاداً وكان وجهه ساهماً كأنه يحلم ، وغنى وهو يدق بصوت عميق قوي فالتفت إلى أحد الشابين فألفيته يبتسم فقلت : أبتسم مثله وأستر جهلي باتخاذه قدوة ، وصرت بعد ذلك أخالس الشابين أو أحدهما النظر وأفعل كما يفعلان فإذا ابتسما ابتسمت ، وإذا ضحكا ضحكت ، وإذا قهقها أطلقتها مجلجلة ؛ ولم أكن وحدي في هذا الاحتذاء فقد كان المدعوون مثلي جهلاء — أعني باللغة الألمانية — وقد خطر لهم كما خطر لي أن يحاكوا الشابين . وكنت ربما عجبت لطربنا فقد كان إذا ضحكنا أو قهقهنا رمينا بنظرات حامية فالتفت إلى الشابين مستغرباً ما يبدو عليه من الغضب والغيظ والنقمة فهمس في أذني أحدهما أن هذا هو المضحك .. هذا الجد الصارم على الرغم مما في القطعة التي يغنيها وما في تلحينها من الفكاهة الواضحة فهززت رأسي كأني فهمت وازددت اقتناعاً بأن الأمر مضحك ولا شك ورحت أقهقه . ثم استغنيت عن النظر إلى الشابين والاقتداء بهما ورحت أضحك على مسئوليتي كما يقولون وخلعت ثوب الجهل والتقليد ، ولبست ثوب الدعوى العريض الفضفاض

وأخيراً نهض الرجل عن كرسيه وأدار فينا عيناً تقذف بالشرر وخرج مغضباً محنقاً يبرطم ويبرجم ونحن نتبادل نظرات الانكار لهذا السلوك العجيب فهل كان ضحكنا يا ترى أقل مما يجب؟ هل خيبنا أمله ببلادتنا ؟ لا بل بجهلنا فقد كان ما يغنيه قطعة مبكية من مأساة مشهورة ، وكان الرجل المسكين يعتز بأدائها على الوجه الصحيح ، فكاد يجن إذ كنا نتلقى ذلك بالهزء والسخرية. وقد اعتذرنا إليه بعد بضعة أيام — لما فهمنا الحقيقة وعرفنا أنها كانت مزحة قبيحة — ولكن المسكين كان قد تعذب ليالي لا ليلة واحدة .

ابراهيم عبد القادر المازني

الام يسير العالم؟

طريق الحرب وطريق السلام

بقلم باحث دبلوماسي كبير

إلام يسير العالم ؟ هل يوفق إلى التغلب على أزماته واضطراباته الحاضرة أم يسير حتماً إلى حرب جديدة تغمره بالويل ؟ هذا سؤال يتردد اليوم على ألسنة جميع الأمم والافراد ؛ ولكن أشد المتفائلين لا يسعه إلا أن يسلم بأن العالم يجوز حالة من القلق والفوضى لا تبعث إلى الطمأنينة والرضى ، بل نستطيع أن نقول إن العالم يسير اليوم إلى مستقبل محفوف بالنذر والمخاطر ؛ فأينما سرحنا البصر ألفينا الأمم تجيش بالخصومات والمشاكل الداخلية والخارجية وتعاني متاعب العطلة والفاقة والأزمات الطاحنة ؛ وتسودها حالة ظاهرة من القلق والتشاؤم ؛ وفي أمم عدة تقوم نظم عنيفة طاغية تضطرم بروح الثورة على كل النظم والمبادئ القائمة ، وعلى كل العهود الدولية ، وتسحق في الداخل كل الحقوق والحريات العامة وتسلب الفرد كل المزايا والخواص الانسانية ، وتعد الشعوب لمارك دموية تخوضها في سبيل أحلام ومطامع غامضة من السلطان والسيادة . وفي أكثر من ميدان تضطرم اليوم حروب عنيفة قاسية ، تجني شر الجنايات على شعوب آمنة مسالمة ، وتحصد أرواح البشر بأروع الأساليب والصور ، ولا يجد المضرمون لنارها وازعاً يردهم عن جرائمهم لأنهم لا يؤمنون إلا بالقوة الهمجية وخصومهم ليسوا مثلهم على استعداد للإلتجاء إليها

هذه هي صورة العالم اليوم ، وهي صورة تحمل على التشاؤم أكثر مما تحمل على التفاؤل ، فلم يبلغ العالم منذ الحرب الكبرى ما يبلغه اليوم من الاضطراب والاضطرام والفوضى ؛ وكل ما هنالك يدل على أنه يجتاز مقدمات العاصفة كما كان يجوزها في سنتي ١٩١٣ — ١٩١٤ ، ولأسباب تشبه في معظمها تلك التي أدت إلى الانفجار في سنة ١٩١٤ ؛ ذلك أن الحرب الكبري قامت لعاملين أساسيين هما الخصومات العنصرية والمطامع والمنافسات الاستعمارية ، وتلك الخصومات والمطامع والمنافسات هي التي تثير

اليوم معظم الأزمات الدولية ، وإليها يرجع بالأخص ما يعانيه العالم اليوم من أسباب القلق والاضطراب والفوضى ؛ فالحرب فى الشرق الأقصى بين الصين واليابان ، والحرب الأهلية الاسبانية وما يترتب عليهما من أزمات خطيرة تهدد سلام العالم ؛ والمنافسة الشائكة بين إيطاليا وإنكلترا على سيادة البحر الأبيض المتوسط ؛ وما تدعيه إيطاليا وألمانيا كل لنفسها من حقوق استعمارية ، وما يحفزهما إلى المبالغة فى التسلح والاستعداد للحرب : كل ذلك يرجع إلى شهوة التوسع والاستعمار ، وإلى المنافسة الاقتصادية والاستعمارية بين أمم كإيطاليا وألمانيا واليابان ترى أنها حرمت دون حق من نصيبها المشروع فى أسلاب الأمم الضعيفة وميادين الاستعمار الشاسعة وبين أمم مثل إنكلترا وفرنسا تتمتع كلتاهما بأملاك استعمارية ضخمة وموارد اقتصادية عظيمة ، وتحرص كل الحرص على ما بيدها من هذا التراث الذى ترمقه الأمم الأخرى بعين الحفيظة والجشع ، وإلى هذا العامل الاستعمارى يرجع أيضا ما تعانيه الأمم المغلوبة من الآلام والمتاعب المادية والمعنوية ؛ فالاضطرابات الدموية التى تجيش بها فلسطين منذ أشهر ، والحركات القومية التى تجيش بها تونس والجزائر ومراكش ، وما تنزله الأمم الغالبة بهذه الأمم المغلوبة من ضروب القمع المنظم احتفاظا بسلطانها وسيادتها ، إنما هى أيضاً وليدة هذه الشهوة الاستعمارية التى لا تخبو ، والتى لا تعرف حقاً ولا عدالة ولا أى إعتبار إنسانى

ولقد كان غزو إيطاليا للحبشة إحدى هذه الفورات الاستعمارية البربرية ، كما كان غزو اليابان من قبل لولاية منشوريا الصينية ، وكما هو اليوم شأنها فى الحرب التي تشهرها على الصين دون رأفة ولا هوادة ؛ ولم يكن موقف الأمم الأخرى بالأمس إزاء الاعتداء على الحبشة ، أو موقفها اليوم إزاء الاعتداء على الصين إلا وجهاً آخر من وجوه المأساة ، فهذه الأمم لا تحاول أن تعترض سبيل الأمم المعتدية لأنها تؤمن دونها بالحق وترغب فى الذود عنه ، ولكن لأنها تخشى أن تظفر الأمم المعتدية دونها بمغانم وأسلاب استعمارية جديدة تزيد فى ثروتها وقوتها وخطرها

هذا عن العامل الاستعمارى ؛ وأما العامل العنصرى فيرجع إليه أيضاً قسط كبير فى إثارة الخصومات والقلاقل الدولية . ولقد كانت الخصومة السلافية الجرمانية من أهم العوامل التى عاونت إضرام نار الحرب الكبرى ؛ أما اليوم فهنا لك الدعوة الآرية أو دعوة الأجناس الرفيعة والأجناس المنحطة التى تشهرها ألمانيا الهتلرية فى وجه العالم ؛ وهنا لك الخصومة الآرية اليهودية التى تذكي ضرامها بكل ماوسعت ؛ ثم هنا لك مشكلة الأقليات القومية التى تتخذ فى أوربا الوسطى صوراً حادة تبث الحقد والحفيظة بين الأمم والعناصر المتجاورة ، وتنذر بتكدير السلم من آن لآخر

بيد أنه يوجد فى المعترك الدولى الحاضر عامل جوهرى آخر لم يعرفه العالم قبل الحرب الكبرى ؛ وذلك هو الخصومة المضطرمة بين جهتين مختلفتين من النظم والمبادئ السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؛ فالنضال بين الفاشيستية والديموقراطية يشغل اليوم فراغاً كبيراً فى المعترك الدولى ، ويثير أزمات دولية خطيرة تنذر بتقويض صرح السلم بين آونة وأخرى . والفاشيستية تذكي الاحقاد القومية والجنسية بصورة عنيفة تثير أعصاب الأمم المختلفة وتحول دون تفاهمها ، وتعمل بكل ما وسعت لتمزيق العهود الدولية ، وتدعيم نظرية القوة الغاشمة ، وجعل الحرب هى المثل الأعلى للأمم ؛ وهي بذلك تحمل أكبر تبعة فى خلق الأزمة الدولية الحاضرة ، وإثارة القلق الذى يساور جميع الأمم ، وتكدير جو السلام ، والتمهيد بحركاتها وتهديداتها العسكرية لجر حرب جديدة تبدو نذرها فى الأفق حيناً بعد حين

***

هذه الصورة المضطربة المروعة لأحوال العالم رسمها الرئيس روزفلت فى خطابه الذى ألقاه أخيراً فى شيكاغو وحمل فيه على « نظم الارهاب والانتهاك » التى فرضتها بعض الحكومات على العالم منذ بضعة أعوام ، وعلى تدخل هذه الحكومات تدخلا غير مشروع فى الشئون الداخلية لبعض الأمم الأخرى ؛ وعلى غزو الأراضى الأجنبية انتهاكاً للمعاهدات والعهود الدولية ؛ وتساءل الرئيس روزفلت : كيف يقال إننا فى أوقات سلم والغواصات تتربص بالسفن الآمنة فتغرقها دون سبب ودون إنذار ، والقنابل تأتى على المسالمين الآمنين ومنهم نساء وأطفال أبرياء دون حرب ودون مبرر من أى نوع . هنا لك أمم تزعم أنها تطلب الحرية وتقدمها ولكنها تنكرها على الأمم الأخرى ؛ وهنا لك شعوب بريئة تضحي لتحقيق شهوة سلطان وسيادة لا تبررها أية عدالة

أو أي اعتبار انساني ؛ ومع ذلك فان هؤلاء الذين يلعبون بالنار ويعملون على تكدير السلم لايلفون فى رأى الرئيس روزفلت أكثر من عشرة فى المائة من مجموع شعوب العالم . وأما التسعون فى المائة الباقية فهى شعوب ترغب فى السلام ، وتستطيع بل يجب عليها أن تجد الوسيلة لكى تحقق رغبتها فى صون السلام ، وأنه يستحيل عندئذ على أية أمة مسالمة أن تلوذ بالعزلة والحياد من حالة الفوضى والاضطراب الدولى التى يخلقها انتهاك الحقوق

وصوت الرئيس روزفلت هو صوت الأمم الديموقراطية ؛ والدول التى يعنيها ، وهى المنتهكة للحقوق والمعاهدات ، المقدمة على تكدير السلم وعلى الفتك بالآمنين والمسالمين ، هي الدول الفاشستية والاستعمارية ، أوبعبارة أخرى هى ألمانيا وإيطاليا واليابان؛ ولكن الديموقراطية أبدت فى الأعوام الأخيرة كثيراً من ضروب الضعف والتردد ، وبالغت فى التمسك بالألفاظ والوعود ، ولم تحاول أن تؤيد كلمتها بوسائل فعالة إزاء العابثين بالحقوق والمنتهكين لحريات الأمم ؛ واستطاع هؤلاء بما رأوا من احجام الدول الديموقراطية وتخاذلها أن يقدموا على تنفيذ مشاريعهم بجرأة لا مثيل لها ؛ فقد ذهبت الحبشة ضحية لتهاون الديموقراطية ووعودها الخلابة ، واستولت عليها ايطاليا فى غمر النار والدم بينما كانت عصبة الأمم والدول الديموقراطية من حولها تردد أنشودة الحق والمعاهدات والعقوبات الاقتصادية ؛ وذهبت اسبانيا الجمهورية فريسة الدسائس الفاشستية وما زالت تعانى أكثر من عام أهوال حرب أهلية لم تقصدها ، ولم يثر ضرامها ويمدها بالوقود سوى أولئك الذين يرون أن يشقوا إلى أطماعهم طريق النار والدم ؛ وها هي ذي اليابان تتوغل فى الصين وتثخن فى جنباتها وتفني جيوشها وشعوبها دون اعلان حرب ودون مبرر سوى ما ترى إليه من تحقيق شهوتها الاستعمارية ؛ كل ذلك والدول الديموقراطية تقنع بالاحتجاجات اللفظية وعقد لجان عدم التدخل والمؤتمرات التى لا طائل تحتها

والخلاصة ان الفاشستية المضطرمة تجيش بمشاريعها وتعمل لتحقيق شهوتها فى الاستعمار والسيادة غير مكترثة لما تهدد به سلام العالم من الأزمات والأخطار ؛ ذلك انها لا ترى أمامها سوى طريق العنف والدم ؛ والديموقراطية من جانبها تلوذ بالاحجام والمطاولة وتؤثر التراجع على الاصطدام الخطر ؛ ذلك أنها ترغب عن الحرب وتفتدى سلامها بكل ما وسعت ؛ ولكن النضال يصل اليوم إلى ذروته ، ولا بد أن تضطر الديموقراطية عاجلاً إلى العمل إذا لم ترد أن تفلت القيادة من يدها وتغدو تحت رحمة الفاشستية المتوثبة . فماذا يكون مصير السلام يومئذ ؟ وهل يؤدي الاصطدام إلى الانفجار الخطر ، أم تستطيع الديموقراطية بما تملك من وسائل الضغط المادي والمعنوى أن تقف هذا التيار المتوثب في الوقت المناسب فتنقذ بذلك سلامها وسلام العالم ؟ يقول لنا العلامة فيريرو ، وهو من ثقات التاريخ والسياسة : إن ماتعانيه أوربا الآن من الاضطراب والفوضى يشبه ما عانته منهما على أثر عقد معاهدة ڤينا عقب سقوط نابوليون ؛ ومعاهدة فرساى تشبه معاهدة ڤينا فى فساد الأسس والمبادىء التى قامت عليها ؛ وان الأزمات والأخطار العسكرية التى تواجهها أوربا ترجع إلى مايسميه فيريرو « باستعمار الخوف » ؛ فان ايطاليا واليابان تنحدر كل منهما من مغامرة إلى أخرى للاحتفاظ بما كسبته من الأراضي من طريق غير مشروع على نحو ما كان يفعل نابوليون عقب كل انتصار من الاندفاع فى مغامرة جديدة للاحتفاظ بثمرة انتصاره . ويرى فيريرو أن ألمانيا التى استطاعت حتى الآن أن تجتنب هذه المغامرات يمكن أن تعد عاملاً جوهرياً فى تأييد السلم إذا رأت أن تجانب هذا التيار المتوثب وأن تضع يدها فى يد الديموقراطية الغربية ؛ أما اذا اندفعت ألمانيا فى هذا التيار فويل للسلام عندئذ .

هذا ما يراه العلامة فيريرو ، ونحن معه فى ان الخطر على السلام إنما يرجع بالأخص إلى نزعات الفاشستية ومطامعها الاستعمارية ، وان مستقبل السلام منوط بموقف الديموقراطية ، فاذا هي يئست من الحلول والوسائل السلمية ، واستطاعت عندئذ أن تعتزم أمرها ، وأن تقابل الوعيد بالوعيد والضغط بمثله تؤيده استعداداتها ومواردها الضخمة ، فان تيار الفاشستية لا يلبث أن ينكشف ويخبو . وفى رأينا أن الساعة قد حلت لأن تسلك الديموقراطية هذا المسلك ؛ وفى يقيننا انها فاعلة بلا ريب .

(＊＊＊)

التشريع والقضاء

في العهد الفرعوني

للأستاذ عطية مصطفى مشرفة

— ٣ —

كان يفصل فى القضاءين المدنى والجنائى حتى القرن الثالث عشر ق . م بمصر هيئة واحدة ؛ وفى عهد الأسرة التاسعة عشرة وهى من الرمامسة فصل القضاء المدنى من القضاء الجنائى وأصبح لكل منهما محكمة خاصة به في الاقليم . وكان يرأس المحكمة المدنية فى طيبة رئيس كهنة (آمن) ويجلس معه عشرة من الكهنة ، أما المحاكم الجنائية فكان يرأسها « دجا » أى ممثل السلطة التنفيذية فى الاقليم ورئيسه ، وكان يساعده موظفان كبيران هما بمثابة محلفين ، ونائب الملك « نم » الذى كان يمثل النيابة . أما الدعاوى المختلطة أى التي تجمع بين طرفين أحدهما مدنى والآخر جنائى فكانت المحكمة الجنائية تنظرها مضافاً إليها ثلاثة قضاة مدنيين يكونون فى الأكثر من رجال الدين . وعند ما تدخل الكهنة فى القضاء فى القرن الحادى عشر ق . م فى عهد الأسرة العشرين زاد نفوذ الإله آمن فاستفتى فى المسائل الجنائية ثم عظم نفوذه بمضى الزمن حتى أصبحت فتاوى آمن فى خلال حكم الأسرة الحادية والعشرين أحكاماً نافذة فى جميع الأقضية التي تعرض عليه جنائية أو مدنية أو تجارية أو إدارية ؛ فكان يعرض عليه المتهمون ليفصل فى قضاياهم بالوحى المنزل من عنده ، وكان يدير الاجراءات بحضرته رئيس الكهنة فيقدم كتابين أحدهما يثبت البراءة والثانى يقرر الادانة ، فإذا وضع الإله إصبعه على الأول برئ المتهم ، وإذا وضع الإله إصبعه على الثاني أدين . وأحياناً يحضر المتهم أمام تمثال آمن ثم يذكر رئيس الكهنة الوقائع أمام التمثال عند ما ينتهى من ذكر تلك الوقائع يسأل رئيس الكهنة الوثن إن كان المتهم مجرماً أو بريئاً ، فإذا هز الإله رأسه بالنفي برئ المتهم ، وإن هز الإله رأسه بالايجاب اعتبر المتهم مجرماً

قال الأستاذ ارون بيفن فى كتابه «مصر فى عهد البطالسة» عن آمن : « وكان الوثن كـكل أوثان التنبؤ مجبولا بحيث يحدث عدداً محدوداً من الاشارات ، فيحرك رأسه أو يلوح بذراعيه أو يشير بيديه ؛ وكان يعهد إلى كاهن أن يشد الحبل الذى يحرك الوثن ثم ينطق بالنبوءة ؛ وكان الجميع يعرفونه معرفة تامة ، ولكن لم يدز بخلد أحد أن يتهمه بالغش أو يرميه بالخداع فإنه كان عندهم الأداة التى يستخدمها الإله وبالأحرى آلة سيره ، وكان الروح يلبسه فى برهة خاصة ، والروح هو الذى يحرك الصنم ويحرك شفتى الكاهن بما يريد ؛ فالكاهن يعير يديه وصوته ، ولكن الإله هو الذى يقدر أعماله ويوحى إليه بما يخرج من كلمات» وإذا كان المتهم غير معروف على وجه التحديد عرض المتهمون جميعاً على تمثال آمن الذى يشير بيده إلى المتهم منهم ، أو يقول عنه مثلا « هذا هو السارق » . فإذا أنكر المتهم ما اتهمه به آمن أعاد آمن اتهامه ، فإذا صمم على الانكار بعد ذلك سيق إلى السجن وهناك يلقى من العذاب ما يجعله يقر بجرمه ، إذ لا يمكن نسبة الكذب إلى الإله آمن . وعند اعترافه بأنه مذنب يساق مرة أخرى إلى آمن الذى يسمع اعترافه ويصادق عليه ، وعندئذ يقدم المتهم للمحكمة الجنائية التي تحكم عليه بالعقوبة نتيجة لهذا الاعتراف . غير أن نفوذ الآله آمن قد ضعف فى عهد الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين وهما من اللوبيين وأصبح الرجوع لفتاواه شكلياً بحتاً ، ثم استرد بعض نفوذه بين سنتى ٧٢١ و ٧١٨ ق . م

ولما تبوأ الملك بوخوريس مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين عرش مصر أزال التدخل الدينى وأعطى للقضاء صبغته المدنية السابقة ؛ غير أن استيلاء الأثيوبيين على مصر وانتمائهم لآمن أعاد له سلطته القضائية السابقة ولكنها ضعفت في عهد الملك أمازيس (أحمس الثانى) أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين ، وبذلك قضى على سلطة آمن قضاء مطلقاً ، وأعاد للقضاء صبغته المدنية التي كان عليها زمن الملك بوخوريس فأعاد أمازيس المحاكم الجنائية والمدنية وفق نظام رمسيس الثاني (رمسيس الأكبر) أى إلى ما كانت عليه المحاكم فى القرن الثالث عشر ق . م وبذلك أعيد الاختصاص فى المواد الجنائية إلى محكمة دجا Dja وفى المواد المدنية إلى محكمة القضاة الكهنة كما كان متبعاً من قبل . ولم يحرم أمازيس الكهنة من الفصل فى القضايا المدنية لسببين : أولها أن

القضايا المدنية تتطلب علماً ومعرفة بالقانون ، والثانى أن هذا العلم وتلك المعرفة لم يتوفرا إلا لرجال الدين إذ ذاك ، ولـكن أمازيس ألنى طريقة الفصل فى القضايا بواسطة الوحى الديني ، أما القضاء الجنائى فنظراً لبساطته وسهولته بقى الفصل فى أموره للملك إما بنفسه وإما بقضاة يعينهم

ولقد فصل قدماء المصريين بين وظيفة القضاء ووظيفة الاتهام إذ ظهر منذ الأسرة الثانية عشرة وظيفة لسان الملك وكان شاغلها بمثابة النائب العام فى زماننا ؛ وكانت مهمته أن يباشر التحقيق وأن يقيم الدعوة العامة وأن يأمر بالقبض إن وجد لذلك مسوغاً . وكانت له بجانب وظيفته القضائية هذه اختصاصات أخرى مالية وإدارية . وقد أمكننا أن نعرف وظائفه على وجه التحديد فى عهد الرمامسة أى فى عهد الأسرة التاسعة عشرة . وكانوا يسمونه تارة « لسان الملك » وأخرى « فم الملك » وثالثة « رِيمْ » وكما أن للنائب العام فى زماننا وكلاء يباشرون الدعوى نيابة عنه فى الجهات الأخرى المختلفة كذلك كان « للسان الملك » وكلاء يسمون دِنُـو Denu فى الأقاليم وكانوا يباشرون الدعوى العامة أمام محاكم الأقاليم الجنائية ، وكان عضو النيابة يدخل فى صميم تشكيل المحكمة الجنائية عادية كانت أم غير عادية . وكان يثابر على حضور الجلسات ، وكان يذكر اسمه عقب القضاة وقبل الكتبة فى محاضرهم ؛ وكان قدماء المصريين يعترفون للمؤسسات الدينية بالشخصية المعنوية وبذلك سمحوا لها بالتقاضى أمام المحاكم . وكان للمحكوم له أن يحجر على أموال المحكوم عليه . وكان للأفراد حق رفع الجنحة المباشرة إلى المحكمة إذا لم تقم النيابة العمومية أى « لسان الملك » ووكلاؤه برفع دعاويهم

ووجد بكل محكمة قلم لتلقى العرائض وآخر للمحفوظات يحفظ به سجلات الأحكام ، وكانت محاضر جلسات المحاكم الجنائية العادية مكتوبة ومطولة تشمل كل التحقيقات من أسئلة وأجوبة واستجوابات وشهادة شهود إلى غير ذلك ، وكان يقوم بتدوينها كتبة يدخلون فى تشكيل المحكمة

وقد فطن قدماء المصريين إلى مافى المرافعات الشفهية من ضرر قد يصيب العدل فى صميمه نتيجة لتأثر القضاة بفصاحة اللسان فمنعوها وجعلوا معظم الاجراءات مكتوبة ؛ وكان للمحكمة أن تنتدب الخبراء لمعاينة مكان الحادث أو لإجراء الكشف الطبي على المجنى عليهم وفحص المتهمين

وقد أشفق قدماء المصريين على قضاتهم من فصاحة المحامى وحسن دفاعه وسحر بيانه وما قد يؤدى إليه ذلك أحياناً من الاغضاء عن الحق والقانون فلم يقروا نظام المحامين عن الخصوم أمام المحاكم واعتقدوا أنه قد يكون فى بلاغتهم وفصاحة لسانهم وحسن منطقهم ما يغشى على الحقيقة فيتأثر القضاة بهم لما فى البيان من السحر . وكانت الطلبات تعرض فى مذكرات ، ولـكل من طرفى الخصوم الحق فى الرد عليها كتابة ، فيشرح المدعى دعواه بالتفصيل في عريضة دعواه ويرفق بها كل مستنداته ثم تعرض تلك العريضة على المدعى عليه ليطلع عليها ويرد عليها بمذكرة مكتوبة معترفاً أو منكراً بعض أو كل ماجاء فيها ، ثم تترك الفرصة مرة أخرى للمدعى للرد على ماجاء بمذكرة المدعى عليه ويترك لهذا الأخير فرصة الرد الأخير على المدعى بمذكرة ثانيـة فكان المدعى عليه هو آخر من يقرأ له القاضى وكان يحصل هـذا التبادل فى المذكرات قبل الجلسة . ولا تصدر المحكمة حكمها إلا بعد الاطلاع على المستندات المقدمة من طرفى الخصوم ونظر جميع الأوراق المختصة بالدعوى وتمام المداولة واستشارة قوانين الدولة . وكان التأني فى إصدار الحـكم من أهم صفات القضاة حتى لا تجرهم العجلة إلى السقوط فى مهاوى الخطأ . وكانت جلسات المحاكم تعقد علانية ويؤدى الشهود يميناً قبل أداء شهادتهم أمام المحكمة فى الدعاوى الجنائية والمدنية . أما صيغة اليمين فهى « أقسم بآمُن وبالملك أن أقرر الحقيقة ولا أقول كذباً ؛ فلئن كذبت فلتجدعن أنفي ولتصلمن أذنى ولأنفين إلى إتيوبيا أو إلى خارج الحدود » ووجدت السجلات العقارية التى كانت تسترشد بها المحاكم إذا فصلت فى نزاع عقارى فإذا شعرت المحـكمة بأن المستندات المقدمة من الخصوم والمثبتة للملكية غير كافية لإثبات الحق أمرت بإجراء تحقيق تكميلى تسد به هذا النقص ثم تصدر حكمها مشتملا على خلاصـة أقوال الطرفين فى النزاع والأسباب ونص الحـكم . أما المحـكمة الخاصة التى كانت تنظر فى القضاء الجنائى غير العادى فكانت تصدر حكمها بغير إعلان الأسباب . وكانت التحقيقات فيها سرية ومحاضرها موجزة . وكانت فكرة العقاب عند قدماء المصريين لاتنطوى على

الانتقام الشخصى وكانوا يعتقدون أن حق معاقبة المجرم وتنفيذ العقوبة فيه مفوض إليهم من القوة الإلهية . وقد عرف قدماء المصريين الحبس الاحتياطى وصرحت به قوانينهم

بعض نماذج من التشريعات المصرية المدنية والجنائية فى قوانينهم

قلنا إن ديودورس الصقلي امتدح القوانين المصرية ، وقال إنها جديرة بالإعجاب وإن العالم أعجب بها فعلاً . ويؤسفنا أن نقول إن هذه القوانين التي بهرت العالم برقيها والتى غذته بمبادئها مازالت دراستها مهملة فى بلادنا . وإنه ليعز علينا أن نعترف بأنه على الرغم من أهميتها التاريخية والفنية لم نعثر فى بحثنا إلا على بعض المصادر الأوروبية والعربية التى بحثت فيها . جمع « تحوت » إله القانون القوانين المختلفة بعد أن وضعها لقدماء المصريين ، وكان ذلك فى سنة ٤٢٤١ ق . م ؛ إلا أن هذه القوانين قد بعثرت وشتت أغلبها بعد ذلك ، ولم يتمكن من جمعها إلا الملك بوخوريس الذى عدلها وأفرغها فى مجموعة واحدة نظم بها الأحوال الشخصية والمعاملات المدنية . كانت التعهدات على اختلاف أنواعها قبل الملك بوخوريس تحصل مشافهة إذ لم تكن كافة العقود تحصل بالكتابة وإنما كانت تتم بيمين أو « صنك » يصدر من المتعهد للمتعهد له بأنه سيؤدي إليه ما اتفقا عليه ، ثم أطلق لفظ «صنك» بعد ذلك على العقد نفسه . ونحن نرجح بأن لفظ «سند» هي بعينها « صنك» المصرية القديمة . وكان يشترط حضور عدد من الشهود ذكوراً كانوا أم أناثا حتى يمكن إثبات العقد . ولم يكن من الجائز تعدد أحد طرفى العقد عندهم فإذا تعدد اعتبروا شخصاً واحداً ، ويقولون « تكلم فلان وفلان بفم واحد أو بلسان واحد » وكان لا يترتب على العقد إلا التزام من طرف واحد ؛ وكان إذا تخلف المتعهد عن الوفاء بما التزم به أكره على الأداء بالعقاب البدنى مع الحكم عليه بغرامة تعادل نصف قيمة الحق المدعى به ؛ ولم يكن التقادم معروفاً فى القانون المصري القديم قبل عهد الملك بوخوريس

قلنا إن الأصل فى العقود ولا سيما البيع وهو من أهمها أن لا يكون البائع والمشترى أكثر من واحد ، لأن تعدد طرفى العقد لم يعترف به قانونهم فكان إذا تعدد البائعون اعتبروا متضامنين فيما بينهم ، وإذا تعدد المشترون وكانوا من عائلة واحدة صار أرشدهم وكيلاً عنهم . وكان يترتب على البيع المنعقد بالميين أمام الشهود أن يلتزم البائع بتعهدين أولها تسليم سندات الملكية وثانيهما منع كل تعرض للمشترى . واشترطوا ذكر هذين التعهدين صراحة فى العقد بادىء ذى بدء ثم عدلوا عن ذكرها صراحة فى العقد عند ما كثر استعمالها وأصبحا يفهمان ضمناً فى العقد . وقسم القانون المصرى القديم الأموال إلى منقولة وثابتة ، وقسم الأموال المنقولة إلى جامدة وحيـة . وكانت تلك الأموال بجميع أقسامها السالفة الذكر ملكاً لملك مصر يمنحها لمن يشاء ؛ وقد احتفظ الملك فى الأموال الثابتة بحق الرقبة وأعطى حق الاستغلال لمن يشاء من رعيته

« يتبع » **عطية مصطفى مشرفة**

الطريقة العلميـــة فى الحضارة والحياة

للأستاذ محمد أديب العامرى

كيف ذهب العمر ؟

يرى بعض علماء الحياة أنه قد مر الآن ما يقارب مليون سنة على وجود الانسان على وجه الأرض . ويرى بعضهم أن هذا كثير فينزل العدد إلى نصف من ملايين السنين . ومهما يكن من أمر الخلاف بين العلماء فى ذلك فالمؤكد عندهم على كل حال أن عمر الانسان على الأرض لا يقل عن ربع مليون

ومن المعلوم أنه قد مضى الجزء الأكبر من هـذه الحقب الطويلة دون أن يكون للانسان فى المدنية طَول يذكر ،ولكن عشرة آلاف السنة الأخيرة شاهدت من تفجر عقل الانسان ما تقر به الآثار إلى اليوم ، كما أن النصف الأخير فقط من هذه الآلاف العشرة هو الذى يعرفه إنسان التاريخ في حضارة الدنيا فحضارات العصور الحجرية والفلزية وحضارات الآشوريين والمصريين واليونان والرومان والهنود والصينيين والفرس والعرب والحضارة الحاضرة ، هي النتاج البشرى المهم الذي نذكره حين ندرس التاريخ

ومن الواضح أن المدنية الحاضرة أزهي هـذه المدنيات وأعلاها وأكثرها ديموقراطية وتمهيداً لرفاهية الانسان وسعادته

وأن هذه المدنية الزاهية العظيمة قد ظهرت ونمت ، ولا تزال تنمى بنمو أعظم ، فيما لا يزيد على الـ ٢٥٠ سنة الأخيرة . ومع ذلك كله فما يزال مفكر مثل ويلز يقول : « إننا نشهد بعد الفجر الأول الباكر للتاريخ الانسانى »

وليس من غرضنا أن نبحث هذا الآن ، ولكن ويلز محق ، فليس تاريخ البشر فى طابعه الأكبر إلى اليوم إلا سلسلة من المجازر الوحشية والمجاعات والتدمير والغارات والسطو . فان يكن هذا جديراً بعقل الانسان وفكره فان فجر الحضارة قد طلع منذ أيام رجل جاوى القردى . ولعل النوع الانسانى إذ ذاك كان أشد حضارة فقد كان أشد ضراوة وأشد فتكا ؛ وإلا فان تاريخ النوع البشرى لم يخط منه إلى الآن شىء يستحق ألا يمحى

ومع ان الواقع يؤيد ما يقول ويلز فاننا نحب أن نحسب للمائتين والخمسين سنة الأخيرة حساباً خاصاً ؛ فقد خطت فيها الحضارة البشرية خطوات إن تكن راجفة فانها واعية ؛ وإن تكن فى بعض صفحاتها مخزية ، فانها فى بعضها لامعة مشرقة . فقد رافق هذه المدنية متاعب وآثام نحن نعانى اليوم أشد أدوارها مرارة ، ولكن المؤكد لدى التدقيق هو أن هذه المتاعب ستزول إذ تمحوها الأفكار البشرية العالية يوم تصفو المدنية نفسها للنوع الانسانى خالصة من كدرها وويلها . والنظر فى هذه المتاعب لا يهمنا فى بحثنا الحاضر كذلك ، وانما يهمنا هنا إزالة الريب الذي يحدثه بعض الكتاب إذ يقولون ان المدنية الحاضرة لم تكن أشمل المدنيات وأرقاها وأبعدها تمثيلاً لاتجاه التطور الانسانى فى معارج التقدم

فحساب الـ ٢٥٠ سنة التي نمت فيها هذه المدنية بالنسبة إلى ربع المليون كحساب سنة فى الألف . فما الذى ضيع على تاريخ البشر هذه السنين كلها فجعلها هباء أو كالهباء ؟

ان السر فى ذلك هو « الطريقة العلمية » فهي طابع المدنية الحاضرة والعامل الأساسي فى سرعة خطاها وسعتها

فما هي هذه « الطريقة العلمية » ، وكيف أدت إلى اسراع خطوات النهضة الحاضرة ، وكيف يمكن أن نفيد منها فى حياتنا الاجتماعية والسياسية اليومية ؟

كيف كان الناس يفكرون ؟

كان الناس من قبل يؤمنون بالأرواح يصورونها لأنفسهم ، ويثقون بالأذكياء منهم (العلماء) ثقة عمياء . فقد كفى أن يقول أرسطو إن الهواء عديم الوزن حتى مضى قوله هذا صحيحاً دون ريب قروناً عديدة . وقد كان يكفى هوميروس أن يقول ان الأرض مستوى مستدير حتى يؤمن الناس بقوله دون تحقيق أو يمارضوه دون تحقيق . لم تكن نظرة الناس قائمة على التجربة والاختبار ؛ ومع أن النهضة العربيــة كانت أحدث النهضات ومن أبعدها قياماً على البحث والتحقيق ، فقد تخللها جدل غيبي عابث كثير وإيمان أعمى كثير . فاذا قال القزويني إن الهواء ينقلب ماء إذا برد كان على الناس أن يصدقوه ، لأنه يؤكد أنه ما افترى شيئاً مما أورد فى « عجائب المخلوقات »

فاذا كان الذى يقرر الحقائق العلمية لا يسأل عن براهين وأدلة ، راده الغرور أكثر الأمر ، وجال ذهنه فى الغيبيات والمعميات يخترع للناس ويضع . وإذا كان من حق كل متكلم أن يتكلم فى رأيه عن أمر لم يخبره بالتجربة كان كل روائى الذهن عالماً مدهشاً ، وساد فى الناس سفسطائيوهم وكذابوهم والمتجرئون منهم على الحق والعلم

وهكذا بطأت خطوات العلم فى التاريخ منذ عرف الانسان إلى ما قبل القرون الثلاثة الأخيرة ، حتى وصل الناس إلى مفتاح هذه السرعة الهائلة فى الوصول إلى النتائج العملية والآراء النظرية فى مدنيتنا الحاضرة . هذا المفتاح هو الطريقة العلمية ، فكيف بدأت « الطريقة العلمية » بدءها الواضح فى تاريخ الناس ؟

كيف يفكر العلماء ؟

يروى لأرسطو قوله : « لو استطعت أن أجد نقطة فى الكون تصلح محور ارتكاز لرفعت الأرض كلها على رافعة » . وقال ديكارت شيئاً مثل ذلك ، ولكنه كان أبعد أثراً فى تاريخ الفكر البشرى . قال : « لو كنت أستطيع أن أجد حقيقة لا ريب فيها لبنيت عليها كل العلوم » — حقيقة واحدة فقط ! هذا يدلك على مبلغ شك الرجل « العلمى » وحذره فى كل ما يرى ويسمع . فليس شىء عنده حقاً حتى يتضح بالوسائل التى تدفع

كل شك ؛ وليس شيء ينفي إلا بعد براهين النفي كاملة . فموقف الرجل العلمي تجاه المسائل هو موقف الحياد التام

وإذا لم يعتبر ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) نفسه أول واضع لأساس الطريقة العلمية فى التفكير البشرى الفلسفى ، فلا ريب أنه من أول الواضعين ، كما يعتبر جاليليو (١٥٦٤ — ١٦٤٢) مؤسس الطريقة العلمية التجريبية فى العلوم

ويمثل كل من الرجلين فى ميدانين من ميادين التفكير البشرى « الرجل العلمي » الذى امتلأت جوانحه بملازمة الصفات التى يتصف بها أمثالهما من العلماء

فالرجل العلمى يعشق الحقيقة ويصبر على الوصول إليها . هو ذو عين يقظة حذرة ترى الدقائق فى الأشياء المعرضة للبحث والدراسة . وما أشد هذه الخاصة ندرة ! فان عدداً من الناس يشهد حفلا ، فاذا سئلوا بعد انفضاضه عن عدده تشعبت أقوالهم عجباً ، وتداخلت عواطفهم إلى حد يفسد الوصف ويشوه الواقع . فالرجل العلمى قوي الملاحظة صحيحها ، دقيق الوصف لها . قال السير ميخائيل فوستر فى خطاب له فى رياسة المجمع البريطانى : « يكتفى الرجل ـ الرجل غير العلمى ـ بقوله (تقريباً) و (حوالى) ، أما الطبيعة فليس عندها من ذلك شيء . ليس من طريقها التوحيد بين شيئين مختلفين مهما دقت شقة الخلاف بينهما ، حتى ولو كان الخلاف يقاس بأقل من جزء من ألف من الميليغرام أو الميليمتر » فكلما أغفل المرء دقائق هذه الفروق بين الأشياء فى العلم ضل ؛ ومهما يكن من أمر صراعه واجتهاده فى الوصول إلى الحقيقة على أساس هذا الاغفال فإنه مخفق فى النهاية . لا محالة أن العلم لا يعرف إلا الدقة المطلقة ؛ والذى لا يصبر على هذه الدقة لا يستطيع أن يكون عالماً . ولم يخلق كل الناس ليكونوا علماء . على أن التمرس بالدقة فى الوصول إلى الحقائق أمر لازم فى التربية

والرجل العلمى متأن متحفظ ، فهو لايسرع فى إبرام حكمه على شيء حتى تتوفر لديه الأدلة كافية عليه . وإن من أكثر مايصم الباحث هو الوصول إلى استنباطات فجة قائمة على عدد قليل من الحقائق . لايتعجل الوصول إلى فرض جديد أو نظرية حديثة ليتعجل شيئاً لنفسه ، فان الفرض أو النظرية إذ تنهار فيما بعد تنهار على صاحبها . وهو لايتحيز إلى نفسه ولا إلى أى فرض أو نظرية . إنه ينظر إلى الحقائق مجردة

والرجل العلمى إنسان واضح صافى الذهن صافى الفكرة . وهو بى أنه يدرك الأمور على حقائقها . فأنت تعرف أن بعض الناس يؤكدون أنهم يعرفون أشياء على وجه ما ، فاذا الحقيقة انها على وجه آخر . إنهم لايعرفون متى يعرفون شيئاً ومتى لايعرفونه . وهؤلاء لايمكن أن يكونوا علماء أو تتم لهم ثقافة . وكما أن الرجل العلمى واضح الفكرة فهو صافى العبارة كذلك . إنه حين يعبر عن شيء يعبر عنه بأبسط الكلمات وأوجز العبارات ؛ ومن هنا كانت لغة العلم الصحيحة سهلة . وأثر الأسلوب العلمى فى أدب العصر فانتحى السهولة الممتنعة . فالرجل العلمى لايستعمل لفظة تحتمل معنيين أو جملة تشير إلى مفهومين ، بل تكون عبارته قاصدة واضحة

وبالجملة يكون الرجل العلمى رجل ثقافة وعقلية علمية . فهو بطبعه يحب الصدق والوضوح والايجاز والتدقيق فى قبول مايعرض على عقله من حقائق وأقوال

ونجمل فنقول : إن الطريقة العلمية فى بحث مسألة من المسائل تقتضى :

١ — أن يجمع العالم من الحقائق والمشاهدات على المسألة التى يبحث فيها جهد ما يستطيع . ويجب أن يتأكد من صحة الحقائق والمشاهدات بالقياس الدقيق

٢ — أن ينسق مايصل إليه من الحقائق

٣ — أن يكوّن بناء على الحقائق فرضاً يؤول هذه الحقائق جملة

٤ — أن يجرب صحة الفرض بحقائق أخرى . فاذا قوى الفرض أدرك مرتبة النظرية

٥ — ويمكن أن تحيط النظرية بجميع الحقائق التى تبحث عنها بعد تجربة واختبار طويلين فتصبح قانوناً ، وهو أقوى تعبير يجمل الحقائق العلمية

ولنضرب مثلا يوضح الطريقة العلمية :

فالناس يعرفون الآن أن المادة ليست متلاحمة الأجزاء .

فبين أجزاء قطعة من الحديد وان ظهرت مصمتة فراغ كبير. واضح مثلاً أن بين أجزاء الفلين فراغ يملؤه الهواء أو فراغ مطلق لا شىء يملؤه. فالذى يشاهد أن الفلين يمتص الماء يفكر فى الفراغ الذى ملأه الماء، فيخطر بباله انه لا بد وأن يكون بين أجزاء الفلين فراغ. فاذا مالاحظ ان قطعة السكر تمتص الماء كذلك اشتد خاطره بأن هنالك مادة غير الفلين يتخلل الفراغ أجزاءها. فاذا ما لاحظ ان قطعة السكر تذوب فى الشاى ترجح لديه ان بين أجزاء الماء نفسه فراغ تملؤه دقائق السكر الذائب. ذلك نمط من الحقائق يجمعها العالم، ويرافق جمعها فى ذهنه فكرة توحد بين المشاهدات التي يقصدها منها. هذه الفكرة هى الفرض

فإذا ما انطلق العالم يفتش عن مواد أخرى ويلاحظ ما إذا كان يفصل بين دقائق أجزائها فراغ، ويرى أن هنالك كثيراً جداً من المواد يصدق عليه ما خطر له فى الفرض أكد فرضه فجعله نظرية

والنظرية التى يمكن أن تستنبط من مثالنا هذا هى أن بين جزئيات المادة فراغ. فإذا صادف العالم المحقق أثناء بحثه مادة كالبلاتين شديدة التماسك لايبدو للمرء أول وهلة ان بين أجزائها فراغا حاول بكل وسائله الممكنة أن يعرف ما إذا كان هذا المثل يرد النظرية أو يؤيدها. فاذا ردها عاد العالم إلى حقائق أخرى، فإذا كانت المشاهدات الجديدة غير ممكنة التأويل على أساس النظرية المقترحة سقطت وبحث عن غيرها، وإلا فانها تتأيد وتصبح بمنزلة القانون العام.

فأسلوب البحث العلمى واضح المعالم بيِّن الطريق. وهو يقتضى كمال عقلية خاصة وإرادة خاصة وشمولاً خاصاً فى النظر لا يتاح لكثيرين. واتباع هذا الأسلوب الواضح هو الذى خطا بالعلم هذه الخطوات الواسعة، وفسح للعقل البشرى هذه الآفاق العجيبة

الطريقة العلمية والحياة

إن أسلوب التفكير العلمى نافع جداً فى العلاقات بين الناس. والتفصيل فى ضرب الأمثلة على ذلك يحمل على الإطالة أكثر مما أطلنا

فنحن نشاهد ضعف قوة الملاحظة فى التلاميذ والناس. والشرق لايختلف عن الغرب، لكن الغربيين أخذوا بأساليب البحث العلمى زمناً فقويت عندهم ملكة المشاهدة واتزنت عقول كثيرين منهم وترفعت عن الأوهام والأخذ بالظواهر؛ وكان لهذا أثر كبير فى حياتهم السياسية والاجتماعية. ولا ريب أن أخذنا بأسباب المدنية الحاضرة سيؤدى بنا ما أسرعنا باتخاذنا هذه الأسباب إلى الغاية نفسها؛ وفى هذا الخير كل الخير

فكثيرون منا مازالون يأخذون بظاهر الأقوال سواء أجرت هذه مجرى حقائق العلم أو حقائق الحياة. ويعزى كثير من الركود والسوء فى مجتمعنا إلى هذا الأخذ البسيط. يقال لنا مثلاً إن مرافق الحياة والانتاج فى بلادنا ضعيفة، فنأخذ بظاهر هذا القول ونتقاعس عن وسائل الانتاج العلمي فيشتد بنا الخوف والتزاحم

ومن مظاهر حياتنا اتهامنا الشديد للذين يصيبون منا شيئاً من النباهة. وهذا خلق عام فى الناس، ولكن شدته عندنا ظاهرة. فما إن ينبغ نابغ حتى تدور الألسنة فيه بالكذب والافتراء. ومما يدل على ضعف الروح العلمية فى الناس تصديقهم بمفتريات وادعاءات لا تنطبق على الواقع ولا يصدقها العقل. وهم يأخذون بهذه المفتريات بضعف النظرة العلمية فيهم. فالذى يحملك على رأى فى إنسان لم تعرفه أنت بنفسك كالذى يحملك على القول بأن الهواء غير ذى وزن دون أن تزنه — كلا الأمرين يدل على فقدان النظرة العلمية

«السلط»

محمد أديب العامرى

أبو الفرج الببغاء

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

— ٢ —

قدمت طرفاً عن نشأة أبى الفرج وعن حياته الأدبية ، فلأقدم طرفاً من شعره ونثره محاولاً أن أكشف فى أثناء عرضى لها عن مكنون معانيها ، وروائع أخيلتها ، بما يقر عين الكاتب ، وينقع غلة الشاعر ، فأحيي شعراً كاد أن يندثر ، وأذيع أدباً قد غمر ، بينا صاحبهما كان فى عصره غمر البديهة وفير النباهة . ولا أكاد أفهم لماذا ضن الزمان على أبى الفرج بما وهبه لمن هم أدنى منه مكانة وأقل قدراً ، ممن ذاع فى عصرنا أدبهم ، وصارت ملء الأسماع والأبصار أسماؤهم ؛ إلا إذا اعتقدت أن للأدب جداً قد يكون لامعاً فينشر تاريخ صاحبه ، وقد يكون خابياً فيأفل بأفوله صيت كاتبه ؛ وهذا هو نصيب أبى الفرج من أدبه ، ولكنى أرجو أن أقضى حقوقاً نام قاضيها ، وأوفى ذكر أيادٍ على اللغة لم تجد من يوفيها ، فيتنبه علية الكتاب ورافعو ألوية الأدب فى مصر إلى أمثال الببغاء ممن لفهم الدهر فى طياته ، وطواهم بين إمماته ونكراته ، وكانوا فى إبان نهضة اللغة من النابهين ، وفى عصور ازدهار الأدب من الفحول النوابغ ، فيحيون تراثهم وينشرون للأدباء سيرهم ، ويقرئوننا شعرهم ونثرهم

طرق أبو الفرج جميع أغراض الشعر المتداولة فى عصره إلا ما يبعد صاحبه عن النبل والمروءة ويسمه بسمة الفحش والسفاهة أو ينظمه فى سمط السلطاء ، فلم يكن هجاء مقذعا بل كان يربأ بنفسه عن أن تكون فى منزلة دنيا فيتناول الأحساب يعرضها أو الأعراض ينهشها ، كما كان يفعل ذلك أكثر شعراء عصره . وإنه ليبدو لنا من دراسة شعره أنه كان رقيق الحاشية سجيح الخلق نبيل المروءة محبباً إلى علية القوم وعامتهم ، يرى أن له مكانة ترفعه عن اللغو ، وتسمو به عن الهجو . وإليك ما يشعرنا بذلك من شعره قال :

أكُلُّ وميض بارقة كذوب؟   أما فى الدهر شيء لا يريب ؟
تشابهت الطباع فلا دنىء   يحن إلى الثناء ولا حسيب
وشاع البخل فى الأشياء حتى   يكاد يشح بالريح الهبوب

وفيها يقول :

أبى لى أن أقول الهجر قدر   بعيد أن تجاوره العيوب

وإذن فاعتداده بنفسه ، وعرفانه قدرها ، هو الذي حدا به إلى الترفع عن الهجاء . ولقد كان أبياً عزيز النفس لا يتحمل منة ولا يستكين عن ذلة ويدعو إلى القناعة شأن شعراء الزهد فى عصره :

ما الذل إلا تحمل المنن   فكن عزيزاً إن شئت أو فهن
إذا اقتصرنا على اليسير فما الـ   ـسمِلَّةُ فى عتبنا على الزمن

ومع أن هذا الشعر قد يكون صادراً للحكمة وإرسال الأمثال فإنه يدلنا على صفاته ويشى إلينا ببعض خلاله . كذلك لم يكن من الرقعاء الماجنين أو الخلعاء المستهترين ، وإن هو قد ألم فى صدر شبابه بما تدعو إليه نزوات الشباب ، وأتى فى باكورة صباه ما يصبو إليه من لا يزال غض الإهاب ، لكنه مع هذا كان عفيف اللسان شريف البيان ، تقرأ حوادثه الكاعب الغانية والشمطاء الفانية فلا تجد الأولى ما يريق حياءها أو يبعث الخجل إلى وجهها ، وإن وجدت الأخرى ما يهيج أشجانها ويتصباها ، ويبعث فيها ذكريات أيام شبابها وصباها ؛ وهذه قصة تريك حقيقة ما نقول :

تخلف عن الغزو مع سيف الدولة بدمشق ، وكانت سنه قرابة العشرين ؛ ويظهر أنه أحس وخز الضمير وتأنيب الشهامة ، فأخذ يتسلى عن تخلفه بارتياد الحدائق والرياض ، ويتعزى عن اتهامه بالقعود بالقصف والمجون ، فقصد إلى دير مران ، واختار له من رهبانه سميراً هو أقلهم فى الرهبنة حظاً ، وأديرت بينهما الراح ، وإذا راهب آخر يوحى إليه بطرفه يستقدمه إليه ، فانتحيا ناحية ، فسلمه رقعة فضها فإذا هي دعوة إلى زيارة أرسلها صاحبها فى عبارة رقيقة وأبيات رشيقة ختمها بهذين البيتين :

فإن تقبلت ما أتاك به   لم تشن الظنَّ فيه بالكذب
وإن أبى الزهد دون رغبتنا   فكن كمن لم يقل ولم يجب

فصحا من سكره ، وتخيل الداعي في نثره وشعره ملكاً

كريماً ، أو عاشقاً نبيلا ، فكان جوابه على دعوته ما ذكره فى وصفه لتلك الحادثة إذ يقول :

وكان جوابي طاعة لا مقالة — ومن ذا الذى لا يستجيب إلى اليسر
فلاقيت ملء العين نبلا وهمة — مُحلَّى السجايا بالطلاقة والبشر

فاستقبله غلام (كأن البدر ركب على إزاره) واقتعدا وغلاميهما غارب اللذة وتناهيا نوادر الأخبار وتناهبا روائع الأشعار على كؤوس المدام ، فما شملتهم بالفرح الشمول حتى أمر المضيف غلامه بالغناء فغنى :

يا مالكي وهو ملكي — وسالبي ثوب نسكي
نزه يقين الهوى فيـ — ـك عن تعرض شك
لولاك ما كنت أبكى — إلى الصباح وأبكى

فانتشيا من راحين ، وطربا بعدامين ، واستسلما للفرح ، وأسلما زمامهما إلى النشوة والفرح ، فاقترح المضيف على الضيف (أن يشى ليلتهما بشيء يكون لها طرازاً ولذكرها معلماً) ففعل وأنشد ارتجالاً :

وليلة أوسعتنى — حسناً ، ولهواً ، وأنساً
ما زلت ألثم بدراً — بها ، وأشرب شمساً
إذ أطلع الدير سعداً — لم يبق مذبان نحساً
فصار للروح منى — روحاً وللنفس نفساً

فطربوا وقصفوا ما طاب لهم الطرب والقصف ، وقد وشى ليلتهما بقصيدة طويلة جميلة النسج سنية الخيال نورد منها قوله :

جنينا جَنيَّ الورد فى غير وقته — وزهر الرُّبا من روض خديه والثَّغر
وقابلنا من وجهه وشرابه — بشمسين فى جنحى دجى الليل والسَّحر
وغنى فصار السمع كالطرف آخذاً — بأوفر حظ من محاسنه الزُّهر
وأمتعنا من وجنتيه بمثل ما — تمزج كفاه من الماء والخمر
سرور شكرنا منة الصحو إذ دعا — إليه ، ولم نشكر به منة السكر
مضى وكأنى كنت فيه مهوماً — يحدث عن طيف الخيال الذى يسرى

أليست أبياته كلها وهى فى موقف ينسى الحياء سخية به كريمة بالاحتشام ؛ ليس فيها هناة تأخذها عليه فتاة ، ولا خيال تعافه الحييات أو تتنكر له الناسكات ؟

ويذكرنى وصف ليلته أبياتاً لشاعرنا العظيم محمود سامى باشا البارودى حذا فيها حذو أبي الفرج ، فوصف ليلة قال :

وليلة من ليالى الأنس صافية — بلغت بالراح فيها كل مقترحى
قتلتها بعد أن نام الخلى بها — بغادة لو رأتها الشمس لم تلح
فكيف لا تدرك الأفلاك منزلتى — والبدر فى مجلسي والشمس في قدحى

ولكن شتان بين الليلتين ، فليلة البارودى إحدى ليالى أنسه الكثيرة ، وهي لم تزد على أنها ليلة صافية ، بلغ فيها مقترحه لا أمنيته ؛ وما أسهل ما يبلغ الانسان ما يقترح ! أما ليلة الببغاء فليلة فريدة فى حسنها حافلة بلهوها مفعمة بأنسها ؛ وكيف لا تكون كذلك وهو يلثم بدراً ويرشف شمساً ؛ أما صاحبه فانه يجالس البدر أو يخالسه ، وينظر إلى الشمس كما ينظر إليها عابر سبيل ، وفرق بين من يلثم ويشرب ، ومن يجالس وينظر ، وأين هو من قول الببغاء ؟

فصار للروح منى — روحاً وللنفس نفساً

وكان على المحتذى أن يفوق المحتذى به ، ويجلى فى الميدان الذى اختاره لمنازلته فيه لا أن يجىء مصلياً بينا الأول مرتجل والثانى متئد ، ولكن ذلك ما لم يستطع له شاعرنا بلوغاً . ولننتقل إلى الحديث عن شعره

تأثر أبو الفرج فى شعره خطوات شاعرين ملأ ذكرهما الآفاق ، وذاع صيتهما فى الشام والعراق ، هما أبو تمام والبحترى ، فقد كان اسماهما فى عصره لا يزالان أرفع أسماء الشعراء فتأثر بهما ، فأولع بالبديع ولعاً شديداً ، وأوغل فيه أعظم إيغال ، فانك لا تكاد تجد بيتاً ليس فيه نوع من أنواع البديع ، وهذا هو ما أخذه عن أبي تمام ، ولكنه لم يغرب فى ألفاظه إغرابه ولا تعمد الكلمات الجزلة والعبارات الضخمة ذات الموسيقا الصاخبة

والرنين القوى التى أوخذ عليها أبو تمام ، حتى وجد فى عصره من النقدة من ينكر عليه عبقريته بل شاعريته ، فإن كلفه بالإغراب وشغفه بضخامة الألفاظ كان سبباً فى غموض بعض معانيه . وأخذ عن البحترى الألفاظ العذبة والأخيلة الشائقة التى لا تصك الآذان ، ولا تثقل على الأسماع ، ولا تدفع بالقارىء إلى قطيعة الشعر جرياً وراء المعجمات تارة ، وإمعاناً فى تفهم المعميات من المعانى أخرى ، فأخذ من طريقتيهما بالحسنيين ، وكاد يجلى فى الحلبتين . ولا أدعى أنه بذهما أو ساواهما ولكنى أعتقد أنه عدا خلفهما فلم يتخلف ، ونهج بعض نهجهما دون أن يتكلف ، فشعره سهل معبد لا تكتنفه جنادل ، ولا تحوطه مفاوز ، بل هو مما يلذ الأديب العريق ، ويفهمه المتأدب الرقيق . وسأورد من شعره غير ما أوردته فى مناسباته ما يروق غير مدقق فى الاختيار ولا متحر الجودة ؛ لأنى أرى شعره طبقة واحدة ، ووحدة غير متنوعة ، لأنه نبعة صادقة . فاسمعه يصف ولهه بحبه ، وهيامه بمالك لبه ، فهو يرى أن قربه وبعده يستويان عنده لأن الوصل لا يطفىء غلة ولا يبرىء علة ، والبعد لا يزيد تأجج شوقه ، ولا يؤرث نار وجده ، فقد بلغ كلاهما النهاية وأوفيا على الغاية ، وهى مبالغة طريفة ساقها فى لفظ ساحر قال :

حصلت من الهوى بك فى محل يساوى بين قربك والفراق
فلو واصلت ما نقص اشتياقى كما لو بنت ما زاد اشتياقى

وقد طُرق هذا المعنى من قبله ، فلعله ألم به فسطا عليه ، أو جاء من توافق الخواطر ، وكلاهما جائز . وهذان بيتان فى هذا المعنى لعليه بنت المهدى قالت :

إذا كان لا يسليك عمن تحبه تناء ولا يشفيك طول تلاقى
فما أنت إلا مستعير حشاشة لمهجة نفس آذنت بفراق

ولكنه تخلف عن علية فقد بلغت غرضها فى بيت ، أما هو فاحتاج بيته الأول إلى بيت ثان يوضح غرضه ويبين عن قصده . وهذا معنى آخر من المعانى المطروقة قبله لم يأخذه كما سبق إليه بل جود فيه وحسن حتى ليخاله القارىء معناه المبتكر ، قال :

من ضر من بعد السرور بعبده لو كان يجمل فى صيانة عبده
يبدو فأطرق هيبة ومخافة من أن يؤثر ناظرى فى خده
قد صرت أعجب أن علة طرفه ليست تؤثر علة فى ورده

أخذ هذا المعنى من قول أبى تمام :

ومضمخ بالمسك فى وجناته حسن الشمائل ساحر الألفاظ
أبدا ترى الآثار فى وجناته مما يجرحها من الألحاظ
وتراه سائر دهره متبسماً فإذا رآنى مر كالمغتاظ
فى القلب منى والجوانح والحشا من حبه حر كحر شواظ

وقد زاد الببغاء على معنى أبى تمام أن إغضاءه لسببين : أولهما هيبته وجلالته ، وثانيهما خشيته أن يؤثر طرفه فى وجنته . ولعله مما يشين المحبوب أن يرى دائما مجرح الوجنات مخدد الخدود من تلك الألحاظ اللواحظ والعيون النواظر ، وأحسب أنه أخذ معنى أبى تمام فى قوله :

ومهفهف لما اكتست وجناته حلل الملاحة طرزت بعذاره
لما انتصرت على عظيم جفائه بالقلب كان القلب من أنصاره
كملت محاسن وجهه فكأنما اقـ ـتبس الهلال النور من أنواره
وإذا ألح القلب فى هجرانه قال الهوى لا بد منه فداره

وإلى عدد تال وموعد قريب .

« المعادى » عبد العظيم على قناوى

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٢ —

— لقـد وضعك حسنك فى طريق موضع البدر : يرى ويحب ولا تناله يد ولا تعلق بنوره ظلمة نفس، لـكن كبرياءك نصبتك نصبة الجبل الشامخ : كأنه ما خلق ذلك الخلق المتتر الوعر إلا لتدق به قلوب المصعدين فيه . . . كونى من شئت أو ما شئت ، خلقاً مما يكبر فى صدرك أو مما يكبر في صدرى؛ كونى ثلاثا من النساء كما قلت أو ثلاثة من الملائكة ، ولـكن لا تـكونى ثلاثة آلام . انفحى نفح العطر الذى يلمس بالروح ، واظهري مظهر الضوء الذى يلمس بالعين ، ولـكن دعينى فى جوك وفى نورك . اصعدى إلى سمائك العالية ، ولـكن ألبسينى قبل ذلك جناحين . كونى ما أرادت نفسك ، ولـكن أشعرى نفسك هذه أنى إنسان ... ! » (هو)

— « إن أمي ولدت نفسي ونفسي هى ولدتنى ، فلا ترج أن تصيب فى طباع أنثى وإلا ضل ضلالك أيها الحبيب ... » (هى)

هو وهى ؟

« رجل وامرأة كأنما كانا ذرتين متجاورتين فى طينة الخلق الأزلية وخرجتا من يد الله معاً ؛ هي بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوته وفلسفته ...

« كانا فى الحب جزءين من تاريخ واحد ، نشر منه ما نشر وطوى ما طواه ؛ على أنها كانت له فيما أرى كذلك الوحى للأنبياء ، ورأى فى وجهها من النور والصفاء ما جعلها بين عينيه وبين فلك المعانى السامية كمرآة المرصد السماوى ؛ فكل ما فى رسائله من البيان والاشراق هو نفسها ، وكل ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه ! »

* * *

لم تـكن (هى) أولى حبائبه ولـكنها آخر من أحب ؛ عرفها وقد تخطى الشباب وخلّف وراءه أربعين سنة ونيفا حافلة بأيام الهناءة مشرقة بذكريات الهوى والصبابة والأحلام ، وكان بينهما فى السن عُمرُ غلام يخطو إلى الشباب ...

سعى إلى مجلسها يوم (الثلاثاء) سعي الخلى إلى اللهو والغزل ، يلتمس فى مجلسها مادة الشعر ، وجلاء الخاطر ، وصقال النفس ؛ ومجلسها فى كل (ثلاثاء) هو ندوة الأدب ومجمع الشعراء ؛ وجلس إليها ساعة ، وتحدث إليها وتحدثت إليه ، وكان كل شىء منها ومما حولها يتحدث فى نفسه . ولمسه الحبُّ لمسة ساحر جعلت فى لسانه حديثاً ولعينيه حديثاً . وطال انفرادها به عن ضيوفها ؛ فما تركته إلا لتعتذر إليهم فتعود إليه ... وقامت تودعه إلى الباب وهى تقول : « متى تـكون سعادتى بالزيارة الثانية ؟ » فنهى النفس عن الهوى ونسأ الأجل إلى غد ... !

ووقع من نفسها كما وقعت من نفسه ، فما افترقا من بعدها إلا على ميعاد ؛ ومحت صورتها من ماضيه كل ما كان فى أيامه وكل من عرف ، لتملأ هي نفسه بروعتها ودلالها وسحرها ؛ وانتزعها هو من أيامها فما بقى لها من أصحابها وصواحبها غير مُصَيْفٍ [1] مشغلةً فى الليل والنهار

وكان الرافعى أول من يغشى مجلسها يوم الثلاثاء وآخر من ينصرف ، فإن منعه شىء عن شهود مجلسها فى القاهرة كتب إليها من طنطا وكتبتْ إليه على أن يكون له عوض مما فاته يومٌ وحده ...

كان يحبها حباً عنيفاً جارفاً لا يقف فى سبيله شىء ، ولـكنه حب ليس من حب الناس ، حب فوق الشهوات وفوق الغايات الدنيا لأنه ليس له مدى ولا غاية . لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح ، وقد وجدها ، ولـكن فى نفسه لا فى لسانه وقلمه ، وأحس وشعر وتنوَّرت نفسُه الآفاق البعيدة ، ولـكن ليثور بكل ذلك دمُه وتصطرع خواطره ولا يجد البيان الذى يصف نفسَه ويُبين عن خواطره ...

بلى ، قد كتب ونظم وكان من إلهام الحب شعرُه وبيانه ، ولـكنه منذ ذاق الحب أيقن أنه عاجز عن أن يقول فى الحب شعراً وكتابة ، ومات وهو يدندن بقصيدة لم ينظمها ولم يسمع

(١) يزعم الرافعى أن (مصيف) هى تصغير (مصطفى) على قاعدة الترخيم ، وصوابه صفى (بضم ففتح فتضعيف) والرافعى على علمه يخطأ هذا التصغير كان حريصاً على استعماله لأنها هى رضيته وكانت تتحبب به إليه ... فلا كان سيبويه وأبو على وابن حيان إن رضيت هى !

منها أحد بيتاً ، لأن لغة البشر أضيق من أن تتسع لمعانيها أو تعبر عنها ، لأنها من خفقات القلب وهمسات الوجدان

و (مى) أديبة فيلسوفة شاعرة ؛ فمن ذلك كان حبها وكان حبه « من خصائصها أنها لا تُعجب بشيء إعجابها بدقة التعبير الشعري ... إنها تريد أن تجمع إلى صفاء وجهها وإشراق خديها وخلابتها وسحرها ، صفاء اللفظ وإشراق المعنى وحسن المعرض وجمال العبارة ، وهذا هو الحب عندها ... »

« ولا يستخرج عجبَها شيء كما يعجبها الكلام المفنَّن الشرق المضيء بروح الشعر ؛ فهو حلاها وجواهرها ؛ وما السوق حبها من دنانير غيرُ المعاني الذهبية ؛ فإنها لا تبايعك صفقة يد بيد ، ولكن خفقة قلب على قلب »

***

وكذلك تحابَّا ؛ وتراءيا قلباً لقلب ، وتكاشفا نفساً لنفس ، ومضى الحب على سنته . ونظر الرافعى إليها وإلى نفسه وراح يحلم ، وخيل إليه أنه يمكن أن يكون أسعد مما هو لو أنها ... لو أنها كانت زوجته ... ثم عاد إلى نفسه يؤامرها فأطرق من حياء ... وكانت خطرة عابرة من خطرات الهوى أطافت به لحظة وما عادت . وقالت له نفسه وقال لنفسه ، فكأنما انكشفت له أشياء لم يكن يراها من قبل بعيني العاشق ، وأوشكت القصة أن تبلغ نهايتها وتنحل العقدة ، فجاءت كبرياؤه لتخطَّ الخاتمة ...

وراح الرافعى يوماً إلى ميعاده ، وكان فى مجلسها شاعر جلست إليه تحدثه ويحدثها ؛ ودخل الرافعى فوقفت له حتى جلس ، ثم عادت إلى شاعرها لتتم حديثاً بدأته ، وجلس الرافعى مستريباً ينظر ؛ وأبطأت به الوحدة ، وثقل عليه أن تكون لغيره أحوجَ ما يكون إليها ، ونظر إلى نفسه وإلى صاحبه ، وقالت له نفسه : « ما أنت هنا وهي لا توليك من عنايتها بعض ما تولى الضيف ... ؟ »

فاحمر وجهه وغلى دمه ، ورمى إليها نظرة أو نظرتين ، ثم وقف واتخذ طريقه إلى الباب ... واستمهلته فما تلبث ، وكتب إليها كتاب القطيعة ... !

وعاد إليه البريد برسالتها تعتذر وتعتب وتجدد الحب والإخلاص فى أسطر ثلاثة ، ولكن الرافعي حين وجد كبرياءه نسى حبه ، وكان هو الفراق الأخير ... !

كان ذلك فى يناير سنة ١٩٢٤

وثابت إليه نفسه رويداً رويداً ، وخلا إلى خواطره وأشجانه ليكتب رسائل الأحزان !

ومضت ثلاث عشرة سنة لم يلتقيا وجهاً لوجه ، إلا مرة ، فى حفل أدبى فى طنطا ؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها ، ثم فر أحدهما من الميدان وخلف الآخر ينتظر ...

على أن الرافعى لم ينس صاحبته قط ، وعاش ما عاش بعد ذلك اليوم وما تبرح خاطره لحظة ، وما يأنس إلى صديق حتى يتحدث إليه فيما كان بينه وبين (فلانة) ، ثم يطرق هنيهة ليرفع رأسه بعدها وهو يقول : « هل يعود ذلك الماضى ؟ إنها حماقتى وكبريائى ، ليتنى لم أفعل ، ليت ... ! » ثم ينصرف عن محدثه إلى ذكرياته ، ويطول الصمت ...

وكان لا ينفك يسأل عنها من يعرف خبرها ، حتى عرف أنها سافرت إلى الشام تستشفي منذ عام فأقامت هناك ، فهفت إليها نفسه وتحركت عاطفته إليها فى لون من الحب وغير قليل من الندم ؛ فكتب إلى صديقة فى (دمشق) لتزورها فى مستشفاها وتكتب إليه بخبرها ؛ فكتبت إليه[1] :

« ... ... بالصدق يا صديقي أننى كلما استعدت بذاكرتى وصية (فلانة) المؤلمة ونتيجتها المحزنة ، تعترينى حالة انقباض شديد وحزن لا حد له ... إن الموت في مثل هذه الحالات يعد كنزاً ثميناً لا يحصل عليه إلا السعيد . وإنى أتهمك قانوناً ... بأنك كنت السبب فيما نابها ، فماذا عليك لو لبيت الدعوة ؟ آه ، لقد كنت قاسياً وفى منتهى القسوة ، فهل كان يحلو لك تعذيبها بهذا الشكل ، وإلا فماذا تقصد من هذه القطيعة ؟ إن المرأة على حق حين تظن ، لا بل حين تعتقد أن الرجل ... ... لا ، السكوت أولى الآن ... »

أما هذه (الوصيةَ) التى أوصت بها (فلانة) زائرتَها لتبلغها إلى الرافعي ، فلست أعرف ما هى ؛ فقد قصَّ الرافعى هذا الجزء من الخطاب قبل أن يصل إليَّ ، ولست أعرف أين خبأه من مكتبه ، ولعل ولده الدكتور الرافعى يدرى ، فإن كان عليه حقاً للأدب أن يحتفظ بما عنده من الرسائل إلى أوانها ، فسيأتى يوم تكون

(١) جاءه هذا الكتاب قبل موته ببضعة وعشرين يوماً ، وأحسبه آخر ما جاءه من أنباء صاحبته !

فيه هذه الرسائل شيئاً له قيمته فى البحث الأدبي

***

قلت : إن الرافعى قطع ما بينه وبين صاحبته منذ ثلاث عشرة سنة لم يلتقيا إلا مرة ، ولكنه كان يكتب لها وتكتب له رسائلَ لا يحملها ساعي البريد ، لأنه كان ينشرها وتنشرها فى ثنايا ما تنشر لهما الصحف من رسائل أدبية ، يقرؤها قراؤها فلا يجدونها إلا كلاماً من الكلام فى موضعها من الحديث أو المقالة أو القصة ، ويقرؤها المرسل إليه خاصة فيفهم ما تعنيه وما تشير إليه ، ثم يكون الرد كذلك : حشواً من فضول القول فى حديث أو مقالة أو قصة ؛ هى رسائل خاصة ولكنها على أعين القراء جميعاً وما ذاع السر ولا انكشف الضمير ، وفى أكثر من مرة والرافعى يملى علىّ مقالاته — كان يستمهلنى قليلا ليُـعَيِّث فى درج مكتبه قليلا فيخرج ورقة أو قصاصة يملى علىّ منها كلاماً ، ثم يعود إلى إملائه من فكره ، وأعرف ما يعنيه فأبتسم ويبتسم ثم نعود إلى ما كنا فيه ؛ وتنشر المقالة ، فلا نلبث أن نجد الرد فى رسالة تكتبها (فلانة) فيتلقاها الرافعى فى صحيفتها كما يفض العاشق رسالة جاءته فى غلافها مع ساعى البريد من حبيب ناء …

هى طريقة لم يتفاهما عليها ولكنهما رضياها ، وأحسب ذلك نوعاً من الكبرياء التى ربطتهما قلباً إلى قلب ، والتى فرقت بينهما على وقدة الحب وحرقة الوجد والحنين …!

***

وكنت مع الرافعى مرة بالقاهرة فى شتاء سنة ١٩٣٥ ، فقال لى : « مِلْ بنا إلى هذا الشارع ! » ولم تكن لنا فى ذلك الشارع حاجة ولكنى أطعته ، وانتهينا إلى مكان ، فوقف الرافعى معتمداً على عصاه ، ورفع رأسه إلى فوق وهو يقول : « إنها هنا ، هذه دارها ، من يدرى ، لعلها الآن خلف هذه النافذة .. ! »

قلت : « مَنْ ؟ » قال : « فلانة ! »

قلت : « ولكن النوافذ مغلقة جميعاً ولا بصيص من نور ؛ فأين تكون ؟ »

قال : « لعلها الآن في السيما . إذا كان الصباح فاغْدُ علىّ مبكراً لنزورها معاً ، إن بى حنيناً إلى الماضى … ليتنى … ولكن أترى من اللائق أن أزورها بعد كل ما كان ؟ »

قلت : « وما يمنع ؟ أحسبها ستسرّ كثيراً بلقياك … ! »

قال : « إذن فى الصباح ، ستكون معي ، ولكن احذر ، احذر أن تغلبك على قلبك … أو تسمح لخيالك أن يسبح وراء عينيك … إنها فاتنة ! »

قلت : « لا ، إنها عجوز ، فما حاجتى بها .. ؟ » وضحكت مازحا فزوى ما بين عينيه وهو يقول : « وَىْ ! عجوز ، إنها أوفر شباباً منك ! »

قلت : « قد يكون لو وقفت بها السن منذ اثنتى عشرة سنة … ! »

قال : « صدقت … ! اثنتى عشرة سنة … ! »

وسكتَ وسكتُّ حتى أوصلته إلى الدار ، فلما كان الصباح غدوتُ عليه فأذكرته موعده ، فابتسم ابتسامة هادئة وهو يقول: يا بنىّ ، إنها ليست هناك ، إن (تلك) قد ذهبت منذ اثنتى عشرة سنة ، أما (هذه) فأظننى لا أعرفها … إننى أحرص على الماضى الجميل أن تتغير صورته فى نفسى.. بحسبى أنها فى نفسى..!»

ثم لم يلبث بعد ذلك أن جاءه أنها سافرت إلى الشام لعلة فى أعصابها … ! »

« لها بقية » محمد سعيد العريان

الكميت بن زيد

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ٢ —

سيرته

ولد الكميت بالكوفة سنة ستين للهجرة ، وهي السنة التى قتل فيها الحسين رضى الله عنه ، وكان أهل الكوفة قد دعوه ليبايعوه فى بدء عهد يزيد بن معاوية ، فسار إليهم من مكة إلى أن وصل إلى كربلاء ، فقتله فيها جيش عبيد الله ابن زياد

وكانت الكوفة عاصمة العراق وما إليه من بلاد فارس وما حواليها ، وكانت أيضاً مهداً للتشيع العلوي من يوم أن اتخذها على رضى الله عنه عاصمة لخلافته ، كما كانت دمشق بالشام مهداً للتشيع الأموى بتأثير معاوية رضى الله عنه ، ولعلهما بهذا أرادا أن يستغلا العصبية القديمة بين العراق والشام ، فقد كانت هناك منافسة شديدة فى الجاهلية بين عرب العراق وعلى رأسهم دولة المناذرة ، وبين عرب الشام وعلى رأسهم دولة الغساسنة . ولم يترك على (ض) المدينة التى كانت عاصمة الخلفاء قبله إلى الكوفة إلا ليكون له أهل العراق على معاوية وأهل الشام ، ويساعدوه على أن تكون الخلافة بعاصمتهم ، فتحيا بها بلادهم ، ويكون خيرها لهم ، ولا يستأثر به أهل الشام دونهم ؛ وهذا إلى مافى العراق من الرجال والخصب ، فيضاهى بهذا خصب الشام بالمال والرجال ، ويجد من الحاقدين على معاوية وبنى أمية مالا يجده فى مكة والمدينة

وقد كان الكميت من بنى أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس ابن مضر بن معد بن عدنان ، وهو الجد الأعلى للنبي عليه الصلاة والسلام ، فنشأ بين من نزح من قبيلته من البادية إلى الكوفة ، وأخذ عن علمائها من أهل الحضر علوم الدين والأدب ، وكانت له جدتان أدركتا الجاهلية فكانتا تصفان له البادية وأمورها ، وتخبرانه بأخبار الناس في الجاهلية ، فإذا شك في شعر أو خبر عرضه عليهما فتخبرانه عنه ، فتأثر من هذا وذاك بثقافة البدو والحضر ، واجتمع له علم غزير بلغات العرب وغريبها وأشعارها وأيامها ومفاخرها ومثالبها ، وروى الحديث وغيره من العلوم الدينية ، وقد ذكر صاحب الأغانى بعض رواياته فى الحديث فليرجع إليها من يريدها

ولم يقصر الكميت نفسه على العلم والأدب ، بل كان يأخذ نفسه بقول الشعر والاستماع إليه ، ولكن ميله إلى هذا لم يكن يبلغ ميله إلى العلم والأدب . ويحكى أنه وقف وهو صبى على الفرزدق وهو ينشد أشعاره ، فراع الفرزدق حسن استماع الكميت وأخذه الزهو والخيلاء ، فلما فرغ من إنشاده أقبل على الصبي وقال له : هل أعجبك شعري يا بنى ؟ فأجاب الكميت : لقد طربت لشعرك طرباً لم أشعر بمثله من قبل ، فانتشى الفرزدق ، وأخذ العجب منه كل مأخذ ، وقال للصبى فى نشوة المفتون : أيسرك أني أبوك ؟ فقال الكميت : أما أبي فلا أريد به بدلا ، ولكن يسرنى أن تكون أمى . فحصر الفرزدق ، وقال : مامر بى مثلها

فلما أتم الكميت دراسته اشتغل بما كان يغلب ميله إليه من العلم والتعليم ، فكان يعلم الصبيان بمسجد الكوفة ، ولكن عشيرته من بنى أسد كانت تريد منه أن يكون شاعرها الذى يعلى من شأنها ، وينشر من مفاخرها ، وينافح عنها أعداءها ، وقد صار الشعر فى الدولة المروانية كما كان فى الجاهلية مفخرة القبائل العربية فتعلقت به تلك القبائل كما كانت تتعلق به فى جاهليتها ، فأخذ بنو أسد يرغبون الكميت فى قول الشعر ، ويحملونه على الانصراف إليه والتفرغ له ، ويحكون فى ذلك أن عمه وكان رئيس قومه أخذ الكميت يوماً وقال له : ياكميت لم لا تقول الشعر ؟ ثم أخذه فأدخله الماء وقال : لا أخرجك منه أو تقول الشعر ، فمرت به قنبرة فأنشد متمثلاً :

يالكِ من قُنْبُرَةٍ بِمَعْمَرِ خلا لكِ الجوُّ فبيضى واصفرى
ونَقِّرى ماشئتِ أن تُنَقِّرى

فقال له عمه ورحمه : قد قلت شعراً فاخرج ، فقال الكميت لا أخرج أو أقول لنفسى ، فما رام حتى عمل قصيدته المشهورة ، وهى أول شعره ، ثم غدا على عمه فقال : اجمع لى العشيرة ليسمعوا فجمعهم له فأنشد :

طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيض أطْرَبُ
ولا لعباً منّي وذو الشيوق يلعبُ

وقد طعن الأستاذ زكي مبارك في صحة هـذه القصة ، وذكر أنه ليس بمعقول أن تكون هذه القصيدة أول شعره ، لأن فيها من القوة ما يقطع بأنها ليست بداية شعرية ، وإنما هي صرخة شاعر فحل طال منه الصيال

ولا وجه عندي لهذا الطعن في صحة هذه القصة ، لأن هذه القصيدة : (طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيض أطرَبُ) من قصائد الهاشميات ، وقد ثبت من غير هـذا الطريق أن هاشمياته على العموم وهذه القصيدة على الخصوص كانت أول ما قاله من الشعر ، وواضح أنه لا يراد من هذا إلا أنها أول ما قاله من الشعر الجيد الذي يعتد به ، فلا يمنع أن يكون له شعر قبل هذا الشعر ترقى فيه إلى أن وصل إلى درجة هذا الشعر الجيد

فلما أرادته عشيرته على أن يكون شاعراً ينافح عنها ويصاول أعداءها ، صرف نفســه إلى قول الشعر وتفرغ له حتى أجاد إنشاءه ، وكان قد ورث التشيع لأهل البيت عن بيئته بالكوفة التي نشأ فيها ، ولم يكن للشيعة في عهده شاعر يتعصب لها وينشر دعوتها كما كان لبني مروان من الشعراء الأخطل وغيره ، وكما كان للخوارج الطرماح بن حكيم وعمران بن حطان ، فرأى أن يكون هو شاعر الشيعة وناصر دعوتها ، والمشيد بذكر أهل البيت والناشر لفضلهم

وقد كانت الشيعة في ذلك الوقت تعادي بني مروان والخوارج معاً ؛ ولـكن العداوة بين الشيعة والخوارج لم تكن تبلغ درجة العداوة بينها وبين بني مروان ، لأن الخوارج كانوا قد اشتغلوا بعداوة بني مروان بعد أن صار الأمر لهم ، وتناسوا عداوتهم للشيعة بعد انصراف الأمر عنهم ، فاشترك كل من الشيعة والخوارج في مناهضة الدولة المروانية ، ومناوأتها بسيوفهم وألسنتهم ، وكان اشتراكهم في معارضة هذه الدولة سبباً في تخفيف ما بينهم من العداوة

ولهذا كان تعصب الـكميت في شعره للشيعة موجهاً إلى بني مروان وحدهم ، ولا يدخل فيه أولئك الخوارج الذين لقي الشيعة منهم مالقوا في عهد علي رضي الله عنه ، بل لم يمنع ذلك التعصب الـكميت من إخلاص المودة للطرماح بن حكيم من شعراء الخوارج ، فقد كان بينهما من الخلطة والمودة والصفاء مالم يكن بين اثنين ، حتى إن راوية الـكميت قال : أنشدت الـكميت قول الطرماح :

إذا قبضتْ نفسُ الطِّـرمَّاح أخلقتْ
عُرَى المجد واسترخى عنانُ القصائِد

فقال الـكميت : إي والله ، وعنان الخطابة والرواية

وهذه الأحوال كانت بينهما على تفاوت المذاهب والعصبية والديانة ، فقد كان الـكميت شيعياً عصبياً عدنانياً من شعراء مضر متعصباً لأهل الكوفة ، وكان الطرماح خارجياً صفرياً قحطانياً عصبياً لقحطان من شعراء اليمن متعصباً لأهل الشام ، فقيل للـكميت : فيم اتفقتما هذا الاتفاق مع اختلاف سائر الأهواء ؟ فقال : اتفقنا على بغض العامة

والعامة التي اتفقا على بغضها كانت في ذلك الوقت جمهور الأمة من خاصة الناس وعامتهم ، فقد استكانوا لحكم بني مروان حين طال عليهم أمده ، وخضعوا لظلمهم ولم يعنهم إلا أمورهم الخاصة ، كشأن العامة في كل وقت وفي كل أمة ، ولا تزال بغض الحكومات القائمة يقرب الآن بين معارضيها ، وينسيهم ما بينهم من عداوات ، واختلاف في المشارب والأهواء

فنصب الـكميت نفسه لمناهضة بني مروان بشعره ، وهم أصحاب الملك في الناس ، وأخذ ينصر عليهم أهل البيت والأمر مدبر عنهم ، وليس هناك مطمع فيهم ، وإنما هو سبيل اتخذه لنفسه يرضى به عقيدته ، وينأى بعلمه وشعره أن يتخذهما أداة كسب كما فعل ذلك غيره من الشعراء ، فكان يقول الشعر للشعر ويتخذه وسيلة لإرضاء نفسه وعقيدته ، ويجاهد به في إصلاح حال أمته ، ويؤدي به ما يجب على الشاعر في عصره ، ولا يهمه بعد هذا ما يفوته من دنيا الملوك ، ولا ما يصيبه من عنتهم وإرهاقهم

وقد أراد ثراة أهل البيت أن يثيبوه على ما يقوم به من نصر دعوتهم ، وإنشائه القصائد الطوال في مدحهم والإشادة بذكرهم ، فكان يعرض عما يعرضونه عليه من الصلات والجوائز ، ويذكر أنه يريد من ذلك وجه الله تعالى ، ونصرة الحق الذي يدين به ، وقد حدث صاعد مولى الـكميت قال : دخلنا على أبي جعفر محمد

ابن على فأنشده الكميت قصيدته التى أولها :

مَنْ لقلبٍ متيَّم مستهامِ

فأمر له بمال وثياب ، فقال الكميت : والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردت الدنيا لأتيت من هى فى يديه ، ولكننى أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التى أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركاتها ، وأما المال فلا أقبله ، فرده وقبل الثياب

وحدث أيضاً فقال : دخلنا على فاطمة بنت الحسين رضى الله عنهما ، فقالت : هذا شاعرنا أهل البيت ، وجاءت بقدح فيه سويق فحركته بيدها وأسقته الكميت فشربه ، ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ومركب ، فهملت عيناه وقال : لا والله لا أقبلها ، إنى لا أحبكم للدنيا

وحدث محمد بن سهل صاحب الكميت قال : دخلت مع الكميت على أبي عبد الله جعفر بن محمد في أيام التشريق فقال له : جعلت فداك ألا أنشدك ؟ فقال إنها أيام عظام ، قال إنها فيكم ، قال هات ، وبعث أبو عبد الله إلى بعض أهله فقرب ، فأنشده فكثر البكاء حتى أتى على هذا البيت :

يصيبُ به الرَّامونَ عن قوس غيرهمْ
فيا آخراً أسْدَى له الغيَّ أوَّلُ

فرفع أبو عبد الله يديه وقال : اللهم اغفر للكميت ما قدم وما أخر ، وما أسر وما أعلن ، وأعطه حتى يرضى

عبد المتعال الصعيدى

الحكم فى مباراة الأقصوصة

اجتمعت لجنة التحكيم فى مباراة الأقصوصة التى اقترحتها مجلة الرواية وجعلت للفائز فيها جائزة قدرها خمسة عشر جنيها ، يوم الأحد الماضى مؤلفة من حضرات الأساتذة : محمد فريد أبو حديد ، توفيق الحكيم ، إبراهيم عبد القادر المازنى ، محمود تيمور ، ثم صاحب هذه المجلة ، ونظرت فيما تجمع من الأقاصيص المتسابقة ، ثم قررت النظام الذى تتبعه فى قراءتها وفحصها . وستجتمع مرات أخرى متوالية حتى يصدر حكمها فننشره فى الرواية والرسالة وبعض الصحف .

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

للدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٧ —

الفلسفة الصينية

العصر المنهجى — كونفيشيوس

مؤلفاته

تنقسم مؤلفات هذا الحكيم إلى قسمين . فأما القسم الأول فهو مجموعة شروحه وتعليقاته على الكتب المقدسة التى نسخها بخطه ثم أحاطها بطائفة ضخمة من معارفه العامة وآرائه الشخصية فى الدين والفلسفتين النظرية والعملية ، كما أن تلاميذه قد أحاطوا الأقسام الفلسفية من هذه الكتب بشروحهم وتعليقاتهم كذلك إلى حد أن اختلطت على الباحثين آراؤهم بآراء أستاذهم

وأما القسم الثانى فهو كتبه الخاصة التى وضعها وضمنها مذهبه وعارض فى بعضها مذاهب من سبقوه وعاصروه من الفلاسفة الذين أسلفنا الحديث عنهم في الفصول السابقة . وهذا القسم أيضاً ممتزج بآراء التلاميذ على نحو ما امتزجت آراء سقراط بمذهب أفلاطون وإن كانت آراء حكيمى الإغريق قد وضحت وتبين منها ما للأستاذ وما للتلميذ بفضل علماء العصر الحديث الذين نخص منهم بالذكر العالمين الفرنسيين « ريڤو » و « بريهييه »

القسم الأول

يحوى هذا القسم كل الكتب المقدسة الهامة التى سبقت عصر « كونفيشيوس » ولكن الذى يعنينا هنا هو الكتب الرئيسية وهى : « وى — كينج » أى الكتب الخمسة . فأما « شو — كينج » و « شى — كينج » فقد كان حكيمنا معنياً بهما عناية فائقة إلى حد أنه اتخذ مما فيهما من صور مُثله العليا التى يجب أن يحتذيها الحكماء والملوك ؛ ولم يعرض المستصينون لتحقيق ما احتواه هذان الكتابان وتبيين ما للأستاذ فيهما وما

للتلاميذ من شروح وتعليقات . وأما « إي — كينج » فقد وجد عليه الباحثون شروحاً مطولة ، وتعليقات مسهبة ، وتقريرات مطنبة ، فدرس العلماء كل هـذا دراسة دقيقة خرجوا بعدها مقتنعين بأن هذه المطولات مزيج من آراء : « كونفيشيوس » وتلاميذه ، ولكنهم لم يستطيعوا إلى الآن أن يحلوا هذه المشكلة تماماً فيبينوا ما للأستاذ وما للتلاميذ . وأما « لى — كى » فقد ضاع أكثره ، لأنه حين أحرقت الكتب لم يكن مُتَدَاولاً كغيره ففقد منه ما فقد ، والجزء القليل الباقى منه وجد — فيما يظهر — بدون شرح ولا تعليق ، لأنه كتاب طقوس دينية أكثر منه أى شىء آخر ، فلم يكن هناك داع للشرح أو للتعليق .

وأما كتاب « تشون — تسيو » ومعناه : « يوميات الربيع والخريف » فهو الكتاب الوحيد الذى لم يَرتب أحد من الباحثين الدقيقين فى نسبة ما عليه من شروح وتعليقات إلى « كونفيشيوس » وحده . ويؤكد أولئك الباحثون أن هذه التعليقات هى أسمى بكثير من النصوص الأصلية للكتاب ، لأن هذه التعليقات تدل على علم واسع ودراية شاملة بالتاريخ الصينى القديم والمعاصر لهذا الحكيم بدرجة أدهشت علماء العصر الحديث

القسم الثانى

يتكون هذا القسم من أربعة مؤلفات تدعى بالصينية « سى — شو » . وتعبيرنا فى جانب هذه الكتب بألف أو وضع فيه شىء من التجوز ، لأن المستصينين يكادون يجمعون على أن الحكيم أملى بعض هذه الكتب على تلاميذه إملاء كما حاورهم أو حاضرهم بالبعض الآخر فرووه عنه وأثبتوه مقترناً باسمه دون تغيير ولا تبديل . وليس هذا فحسب ، بل إن كتاب « لون — يو » أحد الكتب الأربعة وأكثرها إنتشاراً قد وجد مكتوباً بأسلوب أحد الذين تتلمذوا على تلاميذ « كونفيشيوس » بعد أن روى له أستاذه عن الحكيم الأكبر ما رواه شفهيا من الآراء والأفكار بنصوصها وعباراتها . ويحتوى هذا الكتاب على مجموعة من آراء مقتضبة وجوامع كلم ، ومحادثات مع التلاميذ وملاحظات هؤلاء على آراء أستاذهم وهلم جرا . وليس لهذا الكتاب — على سعة ذيوعه وتداوله — أهمية فلسفية عظمى

أما الكتاب الثانى وهو « تا — هيو » أو الدراسة الكبرى فهو دراسات وجيزة لبعض الآراء والمشاكل الفكرية فى صورة أمثلة وحكم ، وقد كتبه « تسيه سى » حفيد كونفيشيوس » ولكن « تشو — إى » أحد شراح « كونفيشيوس » الصينيين فى القرن الثانى عشر يؤكد أن النصوص الأصلية لهذا الكتاب قد وجدت مثبتة بخط الحكيم نفسه وأن حفيده لم يزد على شرحها والتعليق عليها . ولا يرى العلماء فى هذا الرأى بأساً إذ يحتمل أن يكون هذا الحفيد قد استولى على نصوص جده وأضاف إليها مذكرات من معارفه الخاصة المتواترة فى الأسرة عن هذا الجد . ويرى بعض آخر من الباحثين أن هذا الحفيد لم يجد فى الغالب نصوصاً مكتوبة من هذا السفر ، وإنما وجد روايات شفوية مأثورة عن جده فأثبتها بأسلوبه . وأما الذى شرحها وعلق عليها ، فهو « تسانج — تسيه » أحد تلاميذ « كونفيشيوس »

أما الكتاب الثالث ، فهو « تشونج — يونج » وهو أهم كتب هذا الحكيم الفلسفية ، لأنه هو الكتاب الوحيد الذى يحوى مذهبه ، والمؤلف الجوهرى الذى يعتمد عليه الباحثون فى فهم المدرسة « الكونفيشيوسية » ، ويتكون هذا الكتاب من مقدمة واثنين وعشرين فصلا . فأما المقدمة فقد كتبها حفيده السابق الذكر ، وهى مجموعة وافية من الآراء الأساسية فى أخلاق « كونفيشيوس » سمعها هذا الحفيد من جده مباشرة فأثبتها فى المقدمة وشرحها شرحاً مفصلا فى بقية الكتاب

ويرى « ألين » الانجليزى و « فون إركس » الألمانى أن هذا الكتاب ليس إلا مجموعة مشوهة من « تاويسم » ؛ فأما الأول فيرى الأستاذ زانكير أن من العبث الرد عليه ، لأنه هو الذى زعم أن « كونفيشيوس » أسطورة ، وأما الثانى فالسبب الذى خدعه وأوقعه فى هذا الخطأ هو أنه وجد أن هذا الكتاب يحتوى على شيء غير يسير من التنسك الذى يشبه ميول « لاهو — تسيه » فاستبعد صدور هذه الآراء عن « كونفيشيوس » ، ولكن هذا خطأ بحت ، لأن « كونفيشيوس » ليس مادياً جافاً ولا نفعياً أثراً ، وإنما هو حكيم جليل قمين بأسمى الأخلاق

وأما الكتاب الرابع فهو مجموعة كتب « مانسيوس » السبعة التى سنعرض لها عند حديثنا عن هذا الفيلسوف

منهجه وتأثيره

يشبه منهج « كونفيشيوس » منهج « سقراط » كثيراً ، إذ هو يحاول أن يرشد تلاميذه إلى الحقيقة ، ولكن لا عن طريق التقليد والتحفيظ ، بل عن طريق البحث الشخصي الذي يتدرج من المحسات إلى المعقولات ، ويصعد من الماديات إلى المعنويات ؛ فتارة يلمح إلى البرهان الحق تلميحاً خفياً ، وأخرى يشير إلى تناقض الباطل إشارة غامضة ثم يقود التلاميذ في طريق المحاورة قيادة منطقية محكمة إلى أن يعثروا على الحق بأنفسهم أو يهدموا الباطل بمجهوداتهم الشخصية المراقبة بإرشاد الأستاذ . وفي هذا يقول : « أنا لا أعلّم من لا يشتهي أن يفهم ، ولا أساعد على الكلام من لا يحاول أن يوضح أفكاره [1] »

ومن منهجه أيضاً أنه كان يضع أمام تلاميذه مُثُلاً حية من أخلاق الحكماء والملوك السابقين أو من المأثورات الدينية العالية أو القصائد الشعرية المفعمة بالفضيلة أو الحوادث التاريخية التي تصلح لأن تتخذ نماذج للسمو والنبل ، وكان يسلك هذا المنهج في تعليم تلاميذه الفلسفة والأدب والفن والأخلاق

ويروي المؤرخون أن تلاميذ هذا الحكيم الذين استفادوا من منهجه بلغ عددهم في حياته ثلاثة آلاف تلميذ ، وأن عدداً كبيراً من بين هؤلاء التلاميذ شغلوا في الدولة مناصب هامة وأنهم كانوا العنصر الأساسي للعلماء والأدباء الذين حكموا الصين أكثر من ألفي سنة ، لأن « كونفيشيوس » قد أحسن تأديبهم فلم يخلق فيهم الميل إلى الانزواء واليأس ، وإنما بث في نفوسهم روح الاصلاح والانتصار والسيادة ، ولهذا لم تكن حلقات دروسه مقصورة على التلاميذ ، بل كانت تضم بينها عدداً ضخما من كبار النبلاء والارستوقراطيين الذين وجدوا فيه أكبر محقق لعظمة الصين المنشودة فدفعتهم وطنيتهم إلى الاعتراف من نمير علمه الصافي وإلى محاكاة أخلاقه السامية النبيلة

وفي الحق أن كونفيشيوس يجب أن يعد في طليعة أفذاذ الرجال الذين خلقوا المدنية الصينية ، بل المدنية العالمية ؛ إذ هو الذي أنشأ السياسة الصينية القيمة ، وهو الذي وضع قواعد أخلاق الأسرة على الأسس الفلسفية المحترمة ، وهو الذي قسم الفلسفة العملية إلى فروعها الثلاثة : الأخلاق الشخصية ، وتدبير المنزل ، وسياسة الدولة أو المدينة الفاضلة ؛ فسبق بذلك أرسطو وأفلاطون كما سنشير إليه حين نعرض لأخلاقه النظرية . وليس هذا فحسب ، بل هو الذي رفع علم التاريخ في الصين إلى مصاف العلوم الأخرى عند الأمم الراقية ، وهو أول من أناروا سبيل علم المنطق للذين أتوا بعده فزادوا عليه ماجعله قميناً بالاحترام والاجلال

غير أنه على الرغم من ذلك كله لم يصادف في حياته نجاحاً باهراً كما أسلفنا . والسبب في ذلك الاخفاق هو أخلاقه المتينة التي لم تسمح له أن يتملق أعظم الملوك والأمراء مرة واحدة في حياته ، ولا أن يحني رأسه إلا للحق وحده ، فضايقت هذه الأخلاق القويمة المبطلين من الطغاة والمتجبرين . وكانت نتيجة ذلك أن ربح فيلسوفنا الفضيلة وخسر الحياة المادية

على أن الشعب لم يلبث أن تنبه إلى حكمة « كونفيشيوس » الخالدة القائلة : « إن الجوهر الأساسي العملي للشعب يجب أن يكون هو الأخلاق ، وإن سياسة الدولة لا تنجح نجاحاً حقيقياً إلا إذا أسست على الأخلاق »

لما تنبه الشعب إلى هذه الحكمة وآمن بها وأخذ يطبقها تطبيقاً عملياً دقيقاً أخذت أحواله العامة تتحسن شيئاً فشيئاً حتى بلغت الأوج . والفضل في ذلك كله راجع إلى التماسك الأخلاقي الذي وضع هذا الحكيم بذوره في تعاليمه القيمة الجليلة

« يتبع »

محمد غلاب

(١) كتاب « لون — يو » فصل ٧

دراسات فى الأدب الانكليزى

جون ملتون

للأستاذ خليل جمعة الطوال

تتمة

خلاصة الفردوس المفقود

تقع هذه اللحمة بعد تنقيحها فى اثنى عشر جزءاً ، وقد نقلها العلامة دريدن والشاعر الفذ (لوريت Laureate) إلى أوبرا تمثيلية بطولية ، وذلك بإذن مؤلفها عام ١٦٧٤ ؛ وجعلا عنوانها « The State of Innocence » وإليك خلاصة موضوعها :

(١) يحتوى الجزء الأول من هذه اللحمة على خلاصة موجزة لها . وبعدها يصف ملتون كيف أن الشيطان يتمرد على الله تعالى مع طغمة من الملائكة الأشرار ، فيسقطهم الله فى جهنم المتقدة حيث يفقدون الوعى مدة وجيزة ، وبعدها يثوبون إلى رشدهم ، ويقف إبليس فيهم خطيباً ، ويذكرهم بالنبوة التى جاء فيها أن الله سيخلق خليقة جديدة وعالماً جديداً ، ويقترح عليهم أن ينتقموا من هذه الخليقة الجديدة التى سيخلقها الله — لمجدهم الضائع

(٢) فيعقد الملائكة الأشرار وعلى رأسهم إبليس اجتماعاً هاماً فى مجلس إبليس الخاص Pandemonium ويدرسون فيه هـذا الاقتراح وطريقة تنفيذه ، فيقر أمرهم على إيفاد أحدهم إلى ذلك العالم لينشر فيه روح الشر ، ولينصب فيه فخ المكيدة ، فيتعهد إبليس أمر هذه الرحلة الخطرة ، ويشرع بها وهو غير عابئ بما فيها من الصعوبات الجمة ، فيصل أبواب الجحيم وقد سهر على حراستها وحشان غريبان مخيفان ، فيتخطاهما بكل صعوبة وجهد . وبعد سفر طويل يواجه ذلك العالم الأرضى الجديد

(٣) ثم يبصر ُ اللهُ تعالى ، وهو جالس على عرشه الشيطان وهو مسرع نحو ذلك العالم الجديد ، فيشفق على خليقته الجديدة من شره ، ولكنه يعدُ بإرسال ابنه فدية . أما الشيطان فيواصل السير حتى يصل إلى الشمس ويتقابل هناك مع « أوريال » — ملاك الشمس — فيرشده هذا إلى طريق العالم الجديد الذى جعله قبلته ، فيسلكها حتى يصل إليه ، وهناك يستريح على قمة أحد الجبال

(٤) ثم يبحث عن طريق الجنة ، فيتسلل إليها بعد أن يتقمص جسم « غراب الماء Carmarant » وهناك يجثم على غصن من أغصان شجرة الحياة ، ويأخذ فى التطلع حوله ، فيدهشه جمال الجنة الرائع ، ثم ينظر آدم وزوجه حواء أثناء رجوعهما من صلاة العشاء للاستراحة

(٥) وفى الليل ترى حواء حلماً مزعجاً ، وتقصه فى الصباح على آدم فيفسره هذا بما يسكن من روعها ، ثم يذهبان للصلاة وبعدها يشرعان فى الشغل فى الجنة

(٦) ، (٧) ، (٨) ثم يرسل الله الملاك رفائيل إلى آدم فيحذره من مكيدة إبليس ، ويدور بينهما حديث طويل جداً

(٩) ويعلم حارس الجنة بوجود إبليس فيطرده منها ، ولكنه يرجع إليها ثانية فى الليل بشكل الضباب ، ثم يتقمص جلد حية . وفى الصباح التالى تقترح حواء على آدم أن يشتغل كلٌّ منهما منفرداً عن رفيقه فيلبي اقتراحها ، فيجد الشيطان الفرصة سانحة لتنفيذ مكيدته ، فيسير إلى حواء ويغريها أن تأكل من الثمرة المحرمة ، فتأكل وتناول بعلها فيأكل هو أيضاً

(١٠) فيحكم عليهما الله تعالى بالعذاب والموت ويطردهما من الفردوس . أما الشيطان فيرجع إلى بطانته مسروراً جذلاً

(١١) ثم يندم آدم وحواء على إثمهما ، ويطلبان منه تعالى الصفح ، فيصفح عنهما ولكنه لا يرجعهما إلى الجنة ثانية

(١٢) بل يعدهما بإرسال ابنه ليكفر بموته عن خطيئتهما

أشعاره وشاعريته

قال العلامة « جون دريدن » وهو من معاصرى ملتون : لقد جمع ملتون فى شعره بين الجيد والردئ ، وبين الجليل والمبتذل ، وذلك لأنه كثيراً ما كان يعتسف النظم على غير حضور بديهته أو شبوب عاطفته ؛ ولكنَّ هذا لا يضع من مكانته كشاعر فذ ومفكر نابغ ؛ إذ ليس من الضرورى أن يكون الشاعر حاضر الخيال متوقد العاطفة فى كل مناسبة يشعر

فيها . وهل من الضرورى أن تكون الشمس دائمة الاشراق والنور لنستدل على وجودها فى الكون ؟؟؟ ولست أرى مثيلاً لهذا القول إلا رأى سلم الخاسر فى شعر أبى العتاهية إذ يقول : شعرُ أبى العتاهية كساحة الملوك ، فيها الدرُّ والساقط ...

ولئن لم يكن ملتون متوثب الشعور فى جميع أشعاره ، لقد جمع في شعره بين إحساس العاطفة ورزانة العقل ، أو قل بعبارة أوضح بين الشعر كفن والفلسفة كميزان لجميع الفنون والعلوم . تدل على ذلك قصائده العديدة التى تحمل خلال جميع أبياتها جرثومةً من مسحة العقل وأثراً من عمق التفكير . وما أشعاره فى الحقيقة إلا قبس من النور يومض فى عتمة تلك الحروب المذهبية السياسية الحالكة التى اندلعت فى انكلترا بسبب تحطيم الأرستقراطية على صخرة الديمقراطية الناشزة . وهل أوحى إلى ملتون بملحمة الفردوس المفقود غير ذلك النزاع الذى خاض غماره ؟ أم هل كانت أشعار ملتون جميعها إلا صورة جلية تتبين منها حقيقة ذلك النزاع ؟

ابتدأ ملتون يعبث بالشعر ولما يبلغ بعد الثالثة عشرة من العمر . ولئن كانت أشعاره إذ ذاك خالية من ابتكار المعنى إلا أنها كانت — بالنسبة لصغر سنه — تحمل بين أسطرها جراثيم النبوغ والتفوق . فهذه قصيدته الشهيرة المعروفة بـ The Ode Of Nativity والتى نظمها عام ١٦٢٩ تكاد تكون لروعتها وجمالها خير قصيدة غنائية فى الشعر الانكليزى ، بل هى من فتًى حدث كملتون لم يبلغ بعد حدّ نضوج العقل والعاطفة ، أروع قصيدة على الاطلاق ...

وفى عام ١٦٣٣ نظم ملتون قصيدتين رائعتين وهما : (١) L'allegro و (٢) Il Penscroso ، وقد أجمعت آراء الأدباء على أنهما خير نموذج للجيد من شعره ، وذلك لما فيهما من الدقة البالغة فى التصوير والحرارة الملتهبة فى الشعور . وفى عام ١٦٣٤ نظم قصيدة القومس Comus وهي قصة شعرية دراماتيكية ، يكثر فيها ظهور الأحراج والأشباح الغيبية ، Suqeruetural Beings ، ولكنها ليست من دقة الفن بقياس قصص شكسبير الدراماتيكية التى من نوعها — كدرامة كما تحب مثلا — وذلك لأن شكسبير كان شاعراً بالفطرة ، وبارعاً فى تمثيل سوءات المجتمع وعاداته ؛ وهو إذ ينظم القصيدة فكأنما يصور بالألفاظ عواطفه الحساسة ، وينحت فى صخر اللغة مشاعره الوثابة ، بينا كان ملتون — مع اعترافنا به كشاعر فذ — مبالغاً فى التصنع ومسرفاً فى إجهاد القريحة ، واستفزاز المخيلة ، فمعانيه — فى معظمها — تكاد تقرب من الابتذال فى شيوعها ، وأخيلته إلا القليل منها مستكرهة على الشعر ، ثقيلة على الطبع لشذوذها . وليس أدل على هذا من مناجاة كومس لليدى !! ولعل خير قطعة فى هذه القصيدة هى تلك التى تمثل الشجار بين ليدى و كومس ، وذلك لأنها قطعة فنية من نفس ملتون الثائرة المتمردة التى تهزها الثورة أكثر مما تحركها الدعة والطمأنينة ، ولأنه فى هذه القطعة إنما ينفض علينا مكنون طويته ويصور لنا دخيلة نفسيته . وإليك تحرير المعنى في هذه القصيدة :

يذهب أخوان وأختهما إلى حرج عظيم كثيف ، فتضل الأخت طريقها فى هذا الغاب ، فيتركها أخواها هائمة على رأسها تائهة فى طريقها ، ولا يهتمان ألبتة بما تقاسيه فى ذلك الحرج المخيف من مرارة الجوع ، وحرارة العطش ، وألم الوحدة ، ووحشة الغابة التي ترتعد منها الفرائص . ويذهبان بعيداً عنها فى جمع ثمر العليق ؛ حتى إذا تضيَّفت الشمس للمغيب عادا إلى بيتهما تاركين فى الغابة القفر أختهما الوحيدة ضحية للألم والجوع ، وفريسة للوحوش والسباع

فأنت ترى أن مثل هذا التخيل الفسل المكروه ليس من الحقيقة فى شئ ، إذ ليس من المكن للطبع البشرىّ مهما أوغل فى التحجر والقساوة أن يتصور وقوع مثل هذه المأساة الخيالية الملفقة !!

أما الصونيتس Sonnets فقد كتبها فى فترات متقطعة ومناسبات كثيرة . ويذهب جونسون فى نقده لملتون إلى أن — الصونيتس — ليست من الفن الشعرى بدرجة تستحق أن توضع في غربال النقد . ولكنها مع ذلك عذبة اللفظ طلية الأسلوب . وفى عام ١٦٤٤ ألف الـ Areopagitica وهى رسالة نقدية دافع فيها عن حرية الطبع والنشر دفاعاً قيماً في وقت بلغ فيه التزمت حداً عظيما . أما الفردوس المسترجع فقد ألفه عام ١٦٧١

وهو يمتاز عن بقية مؤلفاته الشعرية بميزات سامية كثيرة سنوردها في مقالاتنا الآتية التي سنكتبها عنه ، وفي ذلك العام أيضاً ألف قصيدة الـ Samson Agonistes وسنعرض لها أيضاً فيما بعد

أسلوبه

لم يكن أسلوب ملتون على نمط واحد في جميع أشعاره ، فقد كان مشرق الديباجة سلس العبارة حيث تكون الفكرة مختمرة في رأسه ، والعاطفة متوثبة في صدره ، ولكنه حين كان يعتسف النظم كانت تجيء أشعاره ملتوية العبارة ، غامضة المعنى ، ووعرة الأسلوب

وتدل أشعاره العديدة التي كتبها بخط يده والتي لا تزال محفوظة في مكتبة كلية ترنتي في كمبردج على أنه كان مولعاً بصيد أوابد الكلمات ، وإستقصاء غريب الألفاظ . ومما تجب الإشارة ا كتظاظ أسلوبه بالكلمات اللاتينية المهجورة

قال العلامة ماكولي في مقالته عن ملتون : ألم تسمع قط بتأثير الشعر السحري وبتياره الكهربائي العنيف ؟ ألم تسمع قط بالأسلوب الرائع الذي يقيد عليك مشاعرك ويهز منك جميع أوتار حسك ؟ أما سمعت قط بالشعر الذي يأسر القلب ، ويذيب العاطفة ؟ إن هذه الصفات جميعها إن هي إلا من مدلولات شعر ملتون وأسلوبه ... لم يكن ملتون بارعاً في ابتكار المعاني ، إلا أنه كثيراً ما كان يتناول المعاني المبتذلة الشائعة فيسبكها في قالب لفظي متين يزيد في روعتها وجمالها ويجعل منها أفكاراً سامية تسحر العقل وتذهب اللب " . على أنك لو بدلت كيفية صياغتها اللفظية ، أو حوَّرت ولو قليلا أسلوبها الذي صيغت به لما كان لها أي أثر في نفسك أو تقدير في قياسك

خاتمة حياته وموته

لقد عاش ملتون وهو في عنفوان الشباب عيشة مترفة رخية ، شأن أبناء ذوي اليسر والجاه ، ولكن الدهر أبى ألا أن يقلب له ظهر المجن ، ويجرعه كأس الشقاء المرة حتى الثمالة . ففي عام ١٦٥٢ غشيت إحدى عينيه ، ثم ابتدأت المصائب تنثال عليه بغير حساب ، فقد شُرد وطُرد وغرم في أمواله وأملاكه ثم أصيب بداء النقرس . ونفي خارج وطنه وأهله أكثر من مرة . وأخيراً عزل من منصبه السياسي الذي كان يتبلغ براتبه . وفي عام ١٦٦٢ فقد عينه الأخرى فتم عماه ؛ إلا أن هذه المصائب كلها لم تضعْ من عنجهيته ، ولا فلت من شباة نفسه ، بل صادفها وتقبلها بقلب وادع مطمئن وصدر عامر بالإيمان والثقة بالنفس . ولئن كان لها من أثر يذكر في نفسه فذلك أنها شحذت قريحته وأرهفت إحساسه ، ووثبت شعوره ، وزادته جلداً على الدرس ، ومثابرة على الاجتهاد

تزوج ملتون ثلاث زوجات . والراجح أنه لم يكن موفقاً في غرامه ولا سعيداً في زواجه . وقد توفي في شهر نوفمبر عام ١٦٧٤ في مزرعة بنهل تاركاً وراءه زوجه الثالثة ، وثلاث بنات . وقد قبر في مقبرة St. Jiles . وبعد وفاته بسنين عديدة أقيم له نصب تذكاري في وست منستر أبي . وهكذا بات ملتون مزملاً بنبوغه وشهرته ، تئن رفاته في جدثها من ظلم المتقصين المغرضين ، وغلو الناصرين المفرطين .

خليل جمعة الطوال

أسانيد البحث

1 — Milton — Paradise lost Comus.
2 — Johnson — Life of Milton - 1779.
3 — Hazlitt — Lecture on Shakspeare and Milton
4 — Laing — A History of English Literature
5 — Brooke — English Literature.
6 — Macaulay — Essoy on Milton - 1825
7 — W. H. Stephens - Introduction to the Study of English Literature.
8 — Hughes - Introduction to the Study of Milton poetry and prose.

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢٩٣ — لا أدخل مكاناً فرقت فيه بين متحابين

فى (تزيين الأسواق) من لطف الفقيه أبى بكر محمد [1] ابن داود (الظاهري) ورقته أنه كان يدخل الجامع من باب الوراقين فهجره أياماً . فسئل فى ذلك فقال: دخلت يوماً فرأيت متحابين يتحادثان ، فتفرقا مذ رأيانى ، فآليت ألا أدخل مكاناً فرقت فيه بين متحابين

٢٩٤ — نموذج من نثر أبى تمام

فى (رهبة الأيام) : كتب أبو تمام مع أخيه سهم بن أوس إلى على بن اسحق (والي دمشق وأعمالها) كتاباً يذكر فيه حرمته به ، ومنازلته إياه فى الفندق [2] فى (سُرَّ من رأى [3]) وضرب له فى كتابه مثلا فقال: « ومثلي مع الأمير – أعزه الله – مثل عجوز كانت بالكوفة من جَرم قضاعة ، وكان الوالى على الكوفة رجلا من عُكل . فأجرم ابن العجوز جرماً ، فحبس ، فتعرضت العجوز للوالي على ظهر الطريق ، وقالت : أصلح الله الأمير ، لي حاجة ، ولي بالأمير وسيلة . فقال ما حاجتك ؟ وما وسيلتك ؟ قالت : حاجتي أن تطلق ابنى من محبسه ، ووسيلتى إليك أن الشاعر جمعنى وإياك فى بيت السوء حيث يقول :

(١) فى (النجوم الزاهرة) : صاحب كتاب الزهرة وكان يلقب (بعصفور الشوك) لنحافته وصفرة لونه . وفي (الوفيات) : لما توفى أبوه (داود الظاهرى) جلس فى حلقته استصغروه ، فدسوا له رجلا وقالوا له : سله عن حد السكر فسأله عن السكر ماهو ، ومتى يكون الانسان سكران فقال : إذا عزبت عنه الهموم ، وباح بسره المكتوم . فاستحسن ذلك منه ، وعلم موضعه من العلم . ولما بلغت وفاته الامام بن سريج كان يكتب شيئاً فألقى الكراسة من يده ، وقال : مات من كنت أحث نفسى وأجهدها على الاشتغال لمناظرته ومقاومته

(٢) مولدة وهي فى النثر والشعر كثيرة ، ويقال : فنتق

(٣) بين بغداد وتكريت على شرق دجلة ، وفيها لغات . وقالت العامة والشعراء : سامرا ، سامراء ، سر من راء . والنسبة : سرمرى ، سامرى ، سرى ، ومن هذه الحسن بن على بن زياد المحدث السرى

جاءت به عُجُزٌ مقابَلةٌ ما هُنّ من جَرم ولا عُكل [1]

وأنا امرأة من جرم ، وأنت رجل من عكل . فأمر بإطلاق ابنها . وأنا أقول : وسيلتى إليك (أيها الأمير) منازلتى إياك فى الفندق بسر من رأى مع فتور الماء ، وكثرة الذباب » وكتب إليه فى أسفل الكتاب قصيدة نونية [2]

٢٩٥ — ان كان وضاح الا مفتيا لنفسه

فى (أغانى) أبى الفرج قال يوسف بن الماجشون [3] : أنشدت محمد بن المنكدر قول وضاح اليمن :

إذا قلت يوماً : نوّليني ، تبسمت ... وقالت: معاذالله من فعل ما حرم!
فما نوّلت حتى تضرّعت عندها ... وأعلمتها مارخص الله فى اللمم [4]

فضحك وقال : إنْ كان وضاح إلا مفتياً لنفسه !

٢٩٦ — أفتراك منى تفلتين

كان العباس بن على (عم المنصور) يأخذ الكاس بيده ثم يقول لها : أما المال فتبلمين ، وأما المروءة فتخلعين ، وأما الدين فتفسدين ! ويسكت ساعة ثم يقول : أما النفس فتسمّحين ، [5] وأما الهم فتطردين ، أفتراك منى تفلتين ؟ [6] ثم يشربها ...

٢٩٧ — أربعة أحاديث

قال أبو بكر بن داسة : سمعت أبا داود (سليمان بن الأشعث الأزدى السجستانى) يقول : كتبت عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خمس مائة ألف حديث ، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب (يعنى كتاب السنن) جمعت فيه (٤٨٠٠) حديث

(١) عجز : من جمع عجوز : قال الأزهرى : العرب تقول لامرأة الرجل (وإن كانت شابة) هى عجوزة ، وللزوج (وإن كان حدثاً) هو شيخها . قلت لامرأة من العرب : حالبي زوجك فتذمرت وقالت : هلا قلت شيخك ؟ (المقابل) بفتح الباء : الكريم النسب من قبل الأبوين

(٢) منها البيتان المشهوران (أولى البرية حقا) . وفى (الهبة) : لما قرأ الكتاب حضر سعيد بن عون المعروف بـ (الشعبانى) وكان متمكنا من على بن اسحق ، ولم يكن لأبى تمام محباً فأوقع فيه ، وحرم سهم بن أوس

(٣) لقب أبى سلمة مولى آل المنكدر ، بضم الجيم والشين ، وفى حاشية المواهب بكسر الجيم وضم الشين ، معرب (ماه كون) : لون القمر (التاج)

(٤) فى الكشاف : اللمم ما قل وصغر . والمراد الصغائر من الذنوب . الخدرى : اللمم هى النظرة والغمزة والقبلة . الكلبي : كل ذنب لم يذكر الله عنه حداً ولا عذاباً

(٥) يريد تجعلينها سمحة

(٦) فلت وفلته ، وافلت وافلته : كلاهما لازم متعدل

ذكرت الصحيح [١] وما يشبهه ويقاربه . ويكفى الانسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث أحدها قوله — عليه السلام — : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى [٢]) ؛ والثانى قوله : (من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه) ؛ والثالث قوله : (لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه [٣]) ؛ والرابع قوله : (الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبين ذلك أمور مُشَبَّهات [٤] لا يعلمها [٥] كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ [٦] لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يُوشِك أن يواقعه [٧] . ألا وإنَّ لكل مَلِك حمى ، ألا وإنَّ حمى الله فى الأرض محارمه [٨] . ألا وإنَّ فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله : إلا وهى القلب [٩])

٢٩٨ — فالطباع جوامح

أبو الجوائز الحسن بن على بن محمد بن بارى :

دع الناس طرّا واصرفِ الود عنهمُ
إذا كنت فى أخلاقهم لا تسامح
ولا تبغ من دهر تظاهر رَنقه
صفاء بنيه؛ فالطباع جوامح [١٠]

٢٩٩ — إنه الله ! ! !

فى (تاريخ بغداد) : قال أبو القاسم عبيد الله بن سليمان : كنت أكتب لموسى بغا ، وكنا بالرى ، وقاضيها إذ ذاك أحمد ابن بديل ، فاحتاج موسى أن يجمع ضيعة هناك كان فيها سهام

(١) أي الذى صح عنده
(٢) الذى نواه أو نيته وكذا لكل امرأة مانوت لأن النساء شقائق الأقوام (القسطلانى)
(٣) وفي جامع البخارى وغيره : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه
(٤) أى شبهت بغيرها مما لم يتبين به حكمها على التعيين (القسطلانى)
(٥) لا يعلم حكمها
(٦) استبرأ : طلب البراءة
(٧) يقع فيه
(٨) المعاصي التى حرمها
(٩) القلب : هو محل العقل عندنا . وقال أبو حنيفة فى الدماغ (القسطلانى) والعقل عند الشافعية فى القلب
(١٠) جمح الفرس براكبه : اعتزه على رأسه وذهب جريا غالباً لايملكه ، وجمحت السفينة : تركت قصدها فلم يضبطها الملاحون ، وفلان جموح وجامح : راكب لهواه (الأساس ، اللسان)

ويعمرها ، وكان فيها سهم ليتيم ، فصرت إلى أحمد بن بديل وخاطبته فى أن يبيع علينا حصة اليتيم ويأخذ الثمن ، فامتنع وقال : مابالبتيم حاجة إلى البيع ، ولا آمن أن أبيع ماله وهو مستغن عنه فيحدث على المال حادثة فأكون قد ضيعته عليه . فقلت فإنا نعطيك في ثمن حصته ضعف قيمتها ، فقال: ما هذا لى بعذر فى البيع . والصورة فى المال إذا كثر مثلها إذا قل . فأدرته بكل لون وهو يمتنع ؛ فأضجرنى فقلت له : أيها القاضى ، إلا تفعل فإنه موسى بن بغا !

فقال لى : أعزك الله ، إنه الله تبارك وتعالى !!

فاستحييت من الله أن أعاوده بعد ذلك وفارقته ، فدخلت على موسى فقال : ما عملت فى الضيعة ؟ فقصصت عليه الحديث ، فلما سمع : « إنه الله » بكى وما زال يكررها ثم قال : لا تعرض لهذه الضيعة وانظر فى أمر هذا الشيخ الصالح ، فإن كانت له حاجة فاقضها ، فأحضرته وقلت له : إن الأمير قد أعفاك من أمر الضيعة وهو يعرض عليك قضاء حوائجك فدعا له وقال : هذا الفعل أحفظ لنعمته ، ومالى حاجة إلا إدرار رزقى ، فقد تأخر منذ شهور أضرنى ذلك . فأطلقت له جاريه

٣٠٠ — كان ينسج الشمال باليمين

قال على (رضى الله تعالى عنه) للأشعث بن قيس الكندى : إنى لأجد بنَّة [١] الغزل منك . فسئل (رضى الله تعالى عنه) فقال : كان أبوه ينسج الشمال [٢] باليمين [٣] ...

(١) البنة — بالفتح — الريح الطيبة وقد تطلق على المكروهة والجمع بنان بالكسر (النهاية)
(٢) الشمال — بالكسر — جمع الشملة — بالفتح والشملة : كساء دون القطيفة والشملة عند العرب مئزر من صوف أو شعر يؤتزر به (التاج ، اللسان)
(٣) قال ابن منظور : قوله من أحسن الألفاظ وألطفها بلاغة وفصاحة . وقال صاحب (النهاية) : رماه بالحياكة . (قلت) . أنى إنما رويت القول أملوحة ، ومكانة الحرفة مكانتها ، وكان اليمان ينسج ، والحجازي يتجر ، وإذا رمى الثانى الأول بنساجته رمى الأول الثانى بتجارته . وكلاهما يعيب — إما فعل — غير معيب . والرجلان فى هذا المجتمع الانسانى عاملان . وما الشرف إلا فى العمل ، والنقص كل النقص فى البطالة والكسل . واليقين أن علياً كان يداعب الرجل ، وما قوله في الحرفة إلا لقول عمر : رووا : « كان عمر إذا نظر إلى ذى سيمياء سأل : أله حرفة ؟ فان قيل : لا . سقط من عينه » وعلى كعمر كلاهما عارف بالله وبالدنيا ، وكلا هذين الصاحبين العظيمين (رضوان الله عليهما) خريج ذلك النبي الاعظم (صلى الله عليه وسلم)

فى أعقاب الخريف

للأستاذ محمود الخفيف

أَلْقَى على الدوح فتورَ الكرى
فلاحَ كالناعِسِ
لا تستبينُ العين فيما ترى
من أفقه العابس
غيرَ الأسى فى جوه منذرا
بليــلِ المكتئب الدامس
***
يَكْرُبنى فى الأُفْق هذا القطوبْ
وهذه الكُدْرَةُ فى لونه
وتُجْفِلُ النَّفْسُ لهذا الغروبْ
وحُمْرَةُ المحزون فى جفنه
يا وَيْلتَا تلك الرؤى أفْرَخَتْ
فى قلبِيَ المستَسْلِمِ اليائس !
***
أسلمنى للوجْدِ هذا الخريف
فى لَفْتَةِ الراحِلِ
وأنكرتْ أذناى هذا الخفيف
من عُودِهِ الناحِلِ
يَلْمَحُ لي منه خيالٌ مُطيف
لكل شىء هالِكٍ زائِلِ
***
أوْرَاقُه نَهْبُ رياح المساءْ
تُلْقَى بها مُصْفَرَّةً ذابِلَهْ
تسوقها مُعْجَــلَةً للفناء
قافِلَةً فى إثْرِها قافِلَهْ
تطايرت كما تطيرُ المنى
من لمحةِ الوَهْمِ إلى الباطِلِ
***
حطَّتْ على الدَّوْح بنات الهديل
ساهمةً عانيهْ
للشفَقِ الباكى بهذا الأصيل
ما فتِئت رانيه
طالعها منه شتاء طويل
عِشاَبُها فى كفه واهيه
***
قد أشبهتنى الوُرْقُ فى غُمَّتي
لكنها تذهل عن أمسها
وكل شىء مُوقِظٌ مُهجَتى
حتى رياح الليل فى همسها
أسْمَعُ فى هسيسها أنَّةً
بالأمسِ كانت نَغْمَةً شادِيَهْ
***
شَــبَّابَةُ الراعى بأنغامِه
فى مِسمَعى صاخِبَهْ
يا لاعباً طيوف أحــلامِه
خافقة لاعبه
نَبَّهتَ القلبَ لآلامـه
إذ بَعَثَتْ أحْلامَهُ الذاهبه !
***
يا ليتني أذهل عما مضى
أوْ أرْعَوِي بَعْدَ فواتِ الأملْ
يا ليت لى مثلك هذا الرضى
يا ناعماً ما ذاق إلا الجذَلْ
تَغَنَّ ما شِئْتَ ودع لى الجوى
هوَاكَ لمْ تَعْلَقْ بِهِ شائِبَهْ !
***
يَسْتَيْقظ القلبُ إلى وجده
فى أُخْرَيات الخريف
يعُودُ مالم يَنْسَ من عهده
فَهْوَ وَجيعٌ لهيف
تَغرَّبَ « الطائِرُ » عن عُوده
وخَلَّفَ القلب لهذا الوجيف
***
ما روعةُ الكون وما سحْرُهُ
وكلُّ حُسْنٍ باعث للشجَنِ ؟!
هذا الخريفُ هاجنى ذكره
هل أرْتجى فى ظِلِهِ من سكن ؟؟
تغرَّبَ الطائِرُ لم ألْقَهُ
فى مَرْبَعٍ بعْدُ ولا في مصيف !
***
يا سائلاً يُنكِرُ أشْجَانِيَهْ
ما كُنْتُ بالمدَّعى
يا صاحِ لو كُنْتَ ترى ما بِيَهْ
بكيتَ حظِّى معى
تبَسُّمِي يَحْجُبُ أتراحيــه
كالرَّمْسِ تحت الزَّهرِ المُمْرِعِ !
***
ما أنا بالشــاكى ولكنها
أُغْنيــةٌ ضاقت ضلوعي بها
أُغنيــةٌ صاغ الجوى لحنها
وأُجْبِرَ القَلْبُ على سَكْبِهــا
يا أيُّهــا المُنْكِرُ أشْجانيهْ
وُقِيتَ ما أُضْمِرُ فى أضْــلُعى
***
قد أغرق الدَّوْحَ فتورُ الكرى
فلاحَ كالناعِسِ
لا تستبين العينُ فيما ترى
من أفقِهِ العابس
غيرَ الأسى فى جوِّه منذرا
بلَيْـــلِ المكتئبِ الدامِسِ

الخفيف



فرانز شوبير

١٧٩٧ — ١٨٢٨

للأديب عبد الرحمن فهمي

كانت حياة شوبير القصيرة حياة كفاح قضاها تاركاً للأجيال التي بعده حظاً من المتعة أوفر مما كان لنفسه . وهو أشهر الموسيقيين النمساويين ولد بفينا عام ١٧٩٧ ولا تزال عاصمة النمسا إلى اليوم تحيي ذكرى ميلاده

وأبوه ابن فلاح من منطقة موراڤيا كان يدير مدرسة صغيرة في قريته ويستعين بإيرادها على عول أسرة كبيرة كان فرانز من بينها

وسيرة فرانز إحدى سير العظماء الذين أنجبهم العالم . بدأ أبوه يُعلمه العزف على آلة موسيقية مماثلة (للربابة) وكانت أسرة شوبير تمتاز بحذق العزف على الآلات الموسيقية فنبغ فى هذا الفن نبوغاً جعله يفوق إخوته وهم أكبر منه سناً . فلما بلغ السنة الحادية عشرة بعثت به أسرته إلى مدرسة تابعة لكنيسة صغيرة ليتعلم بها الترتيل ، وتقدم معه إليها أولاد عديدون كانوا يتسلون انتظاراً لدورهم فى امتحان القبول بالتهكم على فرانز لصغر سنه ورثاثة ملبسه ، ولكنه بعد أن قبل بالمدرسة استبدل بلباسه لباس المدرسة الرسمى الأنيق فى حين لم يقبل بها الطلاب الآخرون لفشلهم في الامتحان

وكانت هذه المدرسة مكاناً طريفاً للدرس ، يكون تلاميذها فيما بينهم مجموعة موسيقية (أركسترا) يمرنون كل يوم فى الدرس .

وكان فرانز في أول الأمر غير ظاهر بين زملائه الذين كانوا جميعاً يكبرونه سناً ، ولكن حذقه فى الفن لفت إليه نظر رئيس الفرقة وهو صبي يدعى سپون ويقول عنه : (وبحثت عن هذا العازف الحاذق فوجدته صبياً صغيراً على عينيه منظار يدعى فرانز شوبير) ومن ثم أضحى سبون وفرانز صديقين حميمين

واستطاع فرانز يوماً أن يؤلف قطعة موسيقية ، إلا أنه عجز عن الحصول على الورق الخاص بكتابة الموسيقى (النوتة) لفقره ، فأعانه صديق له بالمال . وهكذا بدأ تاريخ الموسيقى الصغير . وكانت غرفة التمرين بالمدرسة قاسية البرد شتاء ، والطعام لا يملأ بطون التلاميذ لعدم كفايته ، فهو يقدم فى وجبتين ضئيلتين إحداهما عند الظهر والأخرى فى الثامنة مساء . وعلى رغم ذلك استطاع فرانز فى فترة الدراسة أن يخرج عدة (نوتات) موسيقية لاشك فى أنها كانت تظهر أحسن من ذلك لو أن أساتذته أخذوه بالنظريات الموسيقية التي أهملتها المدرسة فى تعليمها وتركت لهذا العبقرى الصغير الحرية فى الجموح دون أن تصقله بتغذية روحه الفنى بالنمو المنتظم المطرد ؛ غير أن أخذه الدرس على ساليرى فيما بعد — وهو موسيقى مشهور — جعل أسلوبه في هذا الفن ينضج وينمو وينتظم

ولا ننس أنه أتى على شوبير حين من الزمن بعد إتمام الدراسة بهذه المدرسة كان فيه بائساً لأنه عاد إلى قريته واضطر أن يعلم التلاميذ فى مدرسة أبيه القروية القراءة والكتابة . ومَنْ أشد بؤساً من معلم لم يُخلق لمهنة التدريس ؟ إلا أنه كان صاحب ذمة فأخلص للعمل الذى ينال عليه أجراً لكنه لا تكاد تنقضى ساعات التدريس حتى كان يهرع إلى داره ويخلو بنفسه فى غرفته

وقتاً طويلا منكباً على عمله الخاص ملقياً عن نفسه كل حمل خارجي ؛ وشوبير الشاب النابغ كان يحمل بين جنبيه عبقرية فذة فى فن الموسيقى وتفانياً وإخلاصاً فى ميدان الصداقة . هيأ لنفسه أصدقاء عديدين في فترة التعليم وأحاط به أصدقاؤه كما تحيط الهالة بالقمر وكثيراً ما خففوا عنه بؤسه ومتاعبه

ولم يكن قد بلغ الثامنة عشرة عند ما ألقى أول (أصواته) الموسيقية بالكنيسة وأعقب ذلك بتلحين قطعة أخرى ؛ ثم أنشأ فرقة موسيقية تتكون منه رئيساً ومن أخيه عازفاً على الأرغن ومن موسيقى كان مدير مدرسة الترتيل التي تخرج هو فيها ، ومن صديق يغني الأدوار الرئيسية . ونستطيع أن نتصور السرور والاعجاب اللذين لاقى بهما أبوه هذا العبقرى الصغير حتى لقد ابتاع له نوعاً من البيانو مشهوراً فى ذلك الوقت واستعان على ثمنه بما اقتصده مما حصل عليه بعرق جبينه طوال حياته

وأول فشل صادف شوبير كان وهو فى التاسعة عشرة من عمره عند ما أنشأت الحكومة مدرسة للموسيقى فيما جاور بلدته والتمس أن يقبل بها مديراً بأجر إن كان واحداً وعشرين جنيها فقط فى العام الواحد إلا أنه كان يفضل كل ما عدا مهنة التدريس عليها . فلما لم يعين لهذا المركز يئس يأساً شديداً ، ولكن الحياة عوضته عن ذلك خيراً ، فإن صداقته الجديدة لشاب يدعى شوبار أدخلت فى نفسه انشراحاً وحبوراً وتحولت حياته إلى حياة جديدة

وترجع هذه الصداقة إلى سماع شوبار بشهرة فرانز الفنية من بيت سبون فقرر أن يزوره فى داره فلقيه بعد أن عاد من المدرسة القروية جالساً إلى مكتبه تتكدس حوله أكوام المخطوطات الموسيقيـة

رغب أبوه في هـذا الوقت فى أن يقوم ابنه بتعليم تلامذة مدرسته الأحرف الموسيقية ، ونفذ الابن هـذه الرغبة إلى حين حتى نجح شوبار بإلحاحه عليه بالعودة معه إلى ڤينا فهجر التدريس ورجع معه حيث تقاسما العيش فرحاً معترفاً بجميل صديقه إذ بتمام الصداقة بينهما تقدم سير مصنفاته تقدماً سريعاً فى جو هذه الحرية الجديدة . ولكنه برغم ذلك لم تتقدم حالته المادية بسبب إسرافه وتبذيره وعدم انتظامه فى معاملة الناشرين . بل إن الحالة أدت به إلى أن يبيع أغانيه مرة بما يساوى أربعة قروش للأغنية الواحدة ؛ إلا أنه خفف من هـذه الحالة كثيراً اشتراكه هو وأصدقاؤه فى العيش حتى أن القبعات والمعاطف كانت على الشيوع فيما بينهم جميعاً . وهذا النوع من الحياة وما كان يتخلله من فترات يقضيها فرانز مع أصدقائه فى الجبال الهنغارية بقى على هذا الأسلوب حتى آخر أيامه القصيرة . ولذلك لا نعجب إذا كنا نراه يرفض بلباقة ما كان يُعرض عليه بين حين وآخر من وظائف العزف على الأرغن علماً منه أنه غير جدير بعمل يحتاج إلى الاستقرار والنظام

ولم يُسمع عنه أنه وهن يوماً أو تباطأ فى عمله الخاص ، بل كان يجلس إليه فى الساعة التى يستيقظ فيها ؛ بل إن حمى العمل إذا أصابته دفعته إلى الكتابة والقراءة فى الوقت الذى كان عليه أن يهجع فيه للنوم

وبرغم أن الحياة صدمته صدمات عنيفة لم تستطع أن تغير من خلائقه ، فقد كان شوبير الطائش الغافل ذو الفكر المضطرب المثل الأعلى للصداقة ، المحبوب من كل معارفه ، المتواضع الذى لا يَعنيه من أمر الظهور شيء . أما قده فلم يكن جميلاً ، وأما طلعته فلم تكن بهية ، فهو فى كل أدوار حياته (فرانز شوبير الصغير ذو المنظار على عينيه)

ويحسن أن نعرف أنه ألف فرقة موسيقية قبل وفاته بعام واحد وافتتح بها صالة كانت تزدحم بالمتفرجين ، وأصابه منها ربح يعادل اثنين وثلاثين جنيهاً ، ولكنه أتى عليها سريعاً . ويدل على إسرافه أن باجانينى الموسيقى الشهور جاء إلى ڤينا ليطرب جمهورها لأول مرة فحجز شوبير لنفسه أغلى مقعد ليحظى بسماعه ، ثم عاد فحجز مقعدين له ولصديقه ودفع هو أجرهما . وعلى هذا النمط من التبذير أضاع نصيبه فيما كان قد ربحه . لم يتزوج شوبير قط ؛ وكان إذا

سئل في ذلك أجاب بأنه متزوج لموسيقاه

ومنذ بلوغه الثامنة عشرة بدأ يُخرج للعالم تصانيف كثيرة أدهشت كثرتها الموسيقى العادى فكتب فى عام واحد ثمانى روايات غنائية (أوبرات) . وكان ذا ميل إلى الشعر يقرأ منه ما تقع عليه عيناه فيختار منه ما بَعُد غرضه وجَمُل معناه، ثم يلحنه فإذا به كنغمة عذبة من نغمات طير مغرد . ويحكى أنه عاد أصيل يوم أحد إلى داره من نزهة خلوية فقابل أحد أصدقائه في حديقة فندق القرية وأخذا يتسامران، وكان بيد صديقه مجلد لشكسبير يطالعه فانتزعه شوبير منه وتصفحه فوقع نظره على سطر معناه (أنصت واستمع إلى صوت القبرة) وتساءل (لِمَ لا يكون معى الآن ورق لكتابة الأحرف الموسيقية ؟) وسرعان ما رسم له صاحبه خطوطاً مهيئاً له طلبته على قائمة حسابه بالفندق وعليها بين ضجة المكان وصخبه خط فرانز الأغنيــة المشهورة : « أنصت واستمع إلى صوت القبرة » ملحناً إياها . وفى المساء لحن أغنية أخرى من رواية أنطونيو وكليوباترا ؛ وكذلك لحن الأغنية المحبوبة (من هى سلفيا ؟) وكان فى هذا الباب تياراً جارفاً لا يقف عند حد، فلا يقع تحت ناظريه شعر إلاّ لحنه . وقد قال شومان فى ذلك : « إن كل ما لمسه شوبير كان يتحول إلى موسيقى » وقال ليسْت « يُعد شوبير أعرق شعراء العالم الموسيقيين » ووصفه كتاب سيرته «بأنه ملك كتاب الأغاني» وكلهم محقون فى ذلك فإنه أخرج في حياته القصيرة ما يقرب من الستمائة أغنية

وحل وقت هجر فيه شوبير عمله وتركه نسياً منسياً فقد أرسل يوماً مقداراً من مخطوطات أغانيه الجديدة إلى صديق له ؛ وحدث أن زاره بعد أسبوعين من ذلك الوقت وكان يعزف على البيانو مغنياً أغنية أعجب بها فرانز فسأله (لمن هذه الأغنية الجميلة ؟) فأجابه : (إنها لك !)

وكان شديد الإعجاب بما كتبه فيمور كوبر يدلك على ذلك كتابه لصديقه شوبار : « صديقى شوبار إننى منذ أحد عشر يوماً لم أتذوق طعاماً ولا شراباً لأنى طريح الفراش مريض ... فاشفق علىّ وأنا فى هــذه الحالة البائسة بزيارتك لى لتقرأ علىّ ما أنا غير مستطيعه . وقد كنت قرأت لكوبر « الجاسوس والدليل وطلائع الجيش » فإن كان لديك غير ذلك له فلتتفضل علىّ بإحضاره معك »

(صديقك)

وكانت غرفتــه مزدحمة جداً بالمخطوطات المبعثرة هنــا وهنالك ، وذلك لأنه لا يكاد ينجز عملاً حتى يبدأ فى غيره أغنية كان أو ترتيلة أو أوبرا أو غير ذلك مما لم يخلق شوبير إلا لها . ولن نستطيع أن نتصور الكثرة المطلقة التى كان يخلفها لنا لو أنه عاش أكثر من ذلك ؛ إلا أن المنية وافته ولما يبلغ الواحد والثلاثين عاماً .

عبد الرحمن فهمي
بكالوريوس فى الآداب



من أساطير الاغريق

٢ – خرافة جاسون

للأستاذ دريني خشبة

مساكين هؤلاء الآرجونوت ! [١]

لقد كانت رحلة شاقة مضطرمة بالمتاعب ، مليئة بالأشجان ، فى بحر لجى وأمواج كالظُّلل ، ظلمات بعضها فوق بعض ،وأهوال جسام يأخذ بعضها برقاب بعض ، وطريق كله سَعالى [٢] وأغوال لقد لقى الأبطال الصناديد من أمرهم رهقاً أى رهق ...فلقد أرسوا مرة بأرض شجراء باسقة الدوح ، نما أيكها واستطال ، وغلظت جذوعها واستوت ، فبدا لهرقل أن يصطحب غلامه هيلاس وينطلق فى الغابة يقطع أغصاناً تصلح لأن يصنع منها مجاذيف للآرجو ، فأوغلا ... وكانت الطريق ملتوية مُضلة ... فلما أن قطعا من الأغصان شيئاً كثيراً ، أصاب هرقل ظمأ شديد لم يصبر عليه ، فأمر هيلاس أن ينطلق فيملأ جرة الماء التى كانت معهما من نبع قريب كانا يسمعان خريره يتلاشى كالصدى فى سكون الغابة ... وذهب هيلاس ، وجلس هرقل ينتظره ... ولكن وقتاً كافياً طويلا مضى قبل أن يعود الفتى ... ثم مضى من الوقت ساعة أو نحوها ... ثم ساعتان ... ثم أكثر من ذلك ... ثم أكثر ... ماذا ؟ ترى ما الذى عوق هيلاس ؟ أواه! لقد كان هيلاس أجمل شباب الدنيا فى ذلك الزمن ، ولقد كان له جسم سمهري ممشوق ، وصدر رحب أخيلي ، ووجه تمتزج فيه بداوات الرجولة والفتوة بقسمات الفتنة والجمال ، وعينان يترقرق فى بريقهما لون من السحر لا يعرفه إلا العذارى ، ولا تحسه إلا قلوب الحسان ... وشفتان إن كانتا لرجل ، فقد سرقتهما له الطبيعة الفنانة من فم غادة ... وجبين متلألئ وضاح ، لمّاح كإشراقة الشمس فى مولد الصباح ... تبارك الله ما كان أسبى وما كان أصبى ، وما كان أجمل هيلاس ! !

ذهب يملأ الجرة ... وما كاد ينثنى ليضرب بها الماء ، حتى رأته عرائسه الغيد ، الخُرّد الأماليد ، فشغفهن وامتلك قلوبهن ، وبرزن من القاع ليسكرن بجماله ، وينهلن من حسنه ، وليقسمن بسيد الأولمب ماهذا بشرا إن هذا إلا ملاك كريم !! واقترن من مكانه ، ثم لم يقوين على البعد فاقترن أكثر ،ثم تأجج الهوى فى فؤاد إحداهن ، وهي أجملهن ، إن كان فيهن من هي أجمل من أختها ، فهتفت به ، فلم يجب ، فجذبته من ذراعه جذبة نزل بها إلى الماء

— ماذا بالله عليك يا عروس ؟

— تعيش معنا !

— أعيش معكن فى الماء وأنا بشر ؟

— لن تكون بشراً بعد اليوم ، بل تكون إلهاً كريماً

— وأنى لى هذا وأنا غلام هرقل ومولاه ، وهو ظمئ إلى جرعة من مائكن تشفي جُوادَه ؟

— ومن أذن لهرقل أن يرسو بأرضنا ؟ إذن هذا عقابه ! تعال ! سيمنحك الخلود سيد الأولمب !

وجذبته إلى القاع ... ولكنه لم يغرق ... وهو يعيش إلى اليوم مع هذا السرب من الحور العين لا يخدم أحداً ، ولايجوع ولا يظمأ !

ونهض هرقل يقص أثر فتاه ، حتى إذا انتهى إلى النبع ، ووجد الآثار هابطة إلى الماء ، إلى غير عود ، صرخ صرخة

(١) المسافرون فى السفينة (آرجو)

(٢) جمع سعلاة أو سعلاء وهى الغول أو ساحرة الجن

تجاوبت أصداؤها فى أركان الغابة ، ثم جلس ساعة على حفافى المقبرة التى ابتلعت هيلاس ينشج ويبكى ... وأقسم لا يذوقن من مائها قطرة ، وأقسم كذلك لا يصحبن الآرجو فى هذا السفر .. وعاد أدراجه ، بعد رحلة طويلة قطعها على قدميه إلى أرض الوطن ، وعاش حياته الطويلة القاحلة لا يفتأ يذكر هيلاس ، ولا يفتأ يبكى على هيلاس !

***

وأرست الآرجو فى شاطيء تراقيا ، ونزل جاسون فى نفر من رجاله يمتارون ، فعلموا أن ملكا أعمى يقال له فِنيُوس ، شديد البؤس ، طويل الشقاء ، يحكم هذه المملكة ... ولم يكن عماه وذهاب بصره علة شقائه فحسب ، بل كان ذلك بسبب طيور غريبة الخَلق ، لها جسم الطير وريشه ومخالبه ، ورأس الانسان ولؤمه وخَبَثُ طباعه ... كانت هذه الطيور تنزل بساحة القصر الملكي ، ثم تهجم على غرفة الملك كلما حان موعد الطعام ، فتلتهم غذاءه ، فلا تبقى ولا تذر . وكان الملك فى أكثر الأحيان لا يجد لقمة واحدة يتبلغ بها . لأن هذه الطيور لم يكن من دأبها أن تبقى على شىء ... حتى على الفتات ... ولم يكن يردها عن قصر الملك وعن غرفة غذائه خاصة شىء مطلقاً ... فلقد كانت تخمش وجوه الجند وتمزق جلودهم كلما حاولوا صدها عن بيت مولاهم ؛ وكانت تفلت من سيوفهم وتمرق من سهامهم بخفة تحير الألباب ، ولم يحدث مرة أن أصاب أحد الجنود منها غرضاً ، حتى جن جنون الملك وتضاعفت بلواه ، وجأر بالشكوى إلى آلهة السماء

ودهش جاسون ، وذهب بالقصة إلى رفاقه الآرجونوت ، فتقدم إليه البطلان الضرغامتان ، ولدَا بوريس ، يقترحان أن يذهبا معه إلى الملك المسكين فيعرضا عليه حَرْباً عواناً يشبان نيرانها على هذه الطيور ، فاما أن يتم لهما النصر عليها ، وإما أن تكون لها الكرة عليهما ... وصادف الاقتراح هوى فى نفس جاسون فانطلق معهما إلى الملك الذى هش لهما وبش ، وفرح بما عرضاه فرحاً شديداً ... فلما حان موعد الغداء ، جلس الملك وضيفاه — وكان جاسون قد عاد إلى السفينة — إلى المائدة . ثم لم تمض لحظات حتى أقبلت الطيور ترنق فوقهم وتُدَوّم ، فوقف البطلان وامتشقا سيفيهما ، فلما هبطت ناوشاها مناوشة عنيفة ، ولم يمكناها من خدش واحد تحدثه بدنيهما ، بل هجما عليها هجوماً ذريعاً وأخذا يسقطان منها عدداً كبيراً كان يهوى فوق الأرض فيلطخها بدماء حارة فائرة ... وكلما هبطت واحدة طفقت تشكو وتبث بلسان يونانى مبين ... ثم فرت بقية الطير ... لكن ملكتها حطت بمكان قريب من الملك وهتفت به كى يأمر بوقف الملحمة حتى تدعو بعض جندها لنقل جثث القتلى ... بيد أن الملك رفض طلبتها حتى تقاسمه أغلظ الأقسام وأوكدها أنها لا تعود إلى الاعتداء عليه أبداً ، ولا تعود إلى زيارة تراقيا كلها أبد الحياة ... فقاسمته ملكة الطير ، فأشار إلى ولدى بوريس فأغمدا حساميهما ، وذهبت الملكة وعادت بعد قليل فى شرذمة من جندها ، وبعد أن ذرفت من دموعها على قتلاها حملتها وذهبت إلى غير عود (1) ... وبرت قسمها ، فلم تزر تراقيا بعد هذا أبداً . وشكر الملك لولدَىْ بوريس ، وعرض أن يستوزرهما ، فرفضا شاكرين ، ليصحبا جاسون

***

وكأنما ذاع نبأ الهزيمة فى عالم الطير فهبت جبابرته تأخذ بثأر الهَارْپِزْ ؛ فإنه ما كادت الآرجو تبعد عن شطئان تراقيا ، حتى رأى راكبوها سرباً كبيراً من البزاة والنسور البواشق يقبل من علو كأنما تفتحت عنه أبواب السماء ، ثم لا يفتأ يضرب الهواء بخواف من نحاس تلمع فى أشعة الشمس كالذهب ؛ حتى إذا كان فوق الآرجو طفق يقذف راكبيها بحجارة مسومة من سجيل ألحقت بهم أذى كبيراً ... ولم تنفع معها سيوفهم ولا قِسِيّهم شيئاً ، فاختبأت كل كوكبة منهم في قمرتها ، وخلا جاسون إلى عصاه السحرية يستشيرها ماذا يصنع لينجو بقبيله من هذه الطير ، فتكلم الرأس العجيب فأشار بأن يضرب الجنود بأغماد سيوفهم على دروعهم ضرباً شديداً فيحدث صوتاً تنزعج الطير منه ، وتفر مروّعة إلى غير عود ... ودعا جاسون جنوده ففعلوا كما أشارت العصا ، وفرت الطير ذاهلة ممزقة فى رحب السماء

***

وحاقت بهم كوارث أخرى لاحصر لها ... ثم اقتربوا من برزخ سِمْپِلْجِيدْز الذى ليس لمسافر إلى مملكة كولخيس سبيل

(١) تعرف هذه الطيور فى الميثولوجيا باسم هارپز Harpies وروى أنها نفت نفسها فى جزيرة ستروفيد

غيره ... وهو مضيق رهيب يصل ماء بحرين وعلى كل من عُدْوتيه صخرة هائلة ، فما تزال الصخرتان تنطبقان وتنفرجان ، بحيث تسحقان كل شيء يحصل بينهما فيصيّرانه هباء عفاء كأن لم يَغْنَ من قبل ... وكأيّن من سفينة جازف ملاحوها بالمرور بينهما ، فحطمتهم وعفت على آثارهم ... ولم يدر جاسون ماذا يصنع ، وجلس رفاقه يُقَلّبون الأكف على ما أنفقوا في مخاطرتهم هذه ، وظلوا ينظرون إلى الصخرتين ساعات وساعات وهما ترتطمان وتبتعدان ، وكلما سمعوا قصيفهما يجلجل في الآفاق جعلوا أصابعهم في آذانهم حذر الغشية وتَقِيّةً من الصمم ... وخلا جاسون إلى عصا جونو يستوحيها ماذا يفعل ، فما كانت غير لحظات حتى تكلم الرأس العجيب ، فأشار بأن يطلق جاسون حمامةً بين الصخرتين حين تنفرجان ، ويرى هل تمرق قبل أن تنطبقا عليها ، ثم يرى ، هل يستطيع أن يمرق ملاحوه بسفينتهم بمثل سرعة هذه الحمامة ... ؟ ودعا جاسون رجاله يستشيرهم ، ثم أطلقوا الحمامة البيضاء كما أشارت العصا ، وكم كان عجبهم شديداً حين رأوها تفلت من بين الصخرتين إلا ريشةً واحدة انتُزعت من ذنبها فصارت هباء تذره الهواء ! واستعدوا للمقاحمة ، وطفقوا يقيسون مسافة مابين البحرين في البحر الذي هم فيه ، ثم يطلقون حمامة كالتي أطلقوا ، بحيث يعملون مجاذيفهم حين تنطلق في الجو ... وأعادوا التجربة مثنى وثلاث ورباع ، حتى وثقوا من قدرتهم على قطع المسافة في مثل البرهة التي قطعتها فيها حمامتهم الأولى ... ودفعوا سفينتهم إلى أول المضيق ، وانتظروا حتى أوشكت الصخرتان أن تنفرجا ، ثم أعملوا مجاذيفهم بأذرع مستبسلة ، وأرواح ترتعد فَرَقاً من الموت في أبدانها ، فمرقت السفينة كما يمرق السهم عن سِيَة القوس ... واحربا !! لقد استطاعوا أن يفلتوا بفلكهم ، وإن حطمت الصخرتان سكانها ، كما حطمتا ريشة ذيل الحمامة من قبل ؟!

وما كادوا ينجون من هذه الموتة المحققة ، حتى انسدحوا في الفلك يلهثون ويتنفسون ، ويهنىء بعضهم بعضاً ...

***

وبلغوا كولخيس بعد عناء وبعد جهد ، ومَثَلوا بين يدي إيتيس ملكها الجبار ، فسَلّم جاسون بسلام الملوك ، ثم سئل عن طلبته فقال :

— عَزَّ نصر مولاي ، لقد تجشمنا مشاق هذه السَّفْرة في سبيل الفروة الذهبية التي يقتنيها ملك الملوك ، لأنه نُمي إليّ أنها كانت من تراث آبائي ... ولا أدري كيف حصل عليها السيد بعد إذ أفلتت من كنوزنا

وقهقه الملك ملء شدقيه كالساخر المستهزئ ، ثم ربت على كتف جاسون وقال :

— أيْ بني ! أبْقِ على شبابك النضر ، وجمالك الفينان ، وعلى شباب هذه النخبة أولي القوة والفتوة الذين معك ... ! أي فروة ذهبية يابني تبتغي ؟ وتراث آبائك من ؟! لقد ذبح فركسوس الكبش بيديه أمام عيني ، وسلخه بين يدي ، وضحى باللحم والحوايا للآلهة ، ثم أهدى إلى الفروة الذهبية التي تعدل كنوز الدنيا بأسرها ! ففيم إذن تجشمك تلك المشاق ، وفيم مجازفتك بالسفر بين صخرتي سمبلجيدر ؟! وفيم كل تلك المهاوي والمهالك ؟ عد يابني إلى بلادك فهو خير لك ، وأبق على حياتك ، وانعم بحضن أمك الدافئ فهو أرحب لك من ميدان كله ذؤبان وغيلان ، ومنايا تثير الأشجان والأحزان !

وتبسم جاسون وتشبث بما سأل الملك ، فأخذ إيتيس يعظه وينصحه ، فلما رأى تصميمه واستمساكه ، قال له :

— « لك إذن ما طلبت يا بني ، ولكن اسمع ، واصغ إليّ ؛ إن أمامك مخاطر كنت أوثر ألا تلقي بنفسك في تهلكتها ، ولكن ما دمت قد غرتك الأماني ، وازدهتك هذه النخبة من أبطال بني جلدتك ، فاذهب إذن ، وحاول ما استطعت أن تلجم عِجْلَيْ فلكان الهائلين اللذين ينقذف اللهب من منخريهما ، ويفتكان بكل من اقترب منهما ؛ ثم حاول بعد ذلك أن تحرث بهما الأرض الجُبُوب[1] التي تقدست باسم مارس ، فاذا فعلت فازرع ماحرثت بأنياب تنين كما فعل قدموس باني طيبة ، فانك لا تلبث أن ترى الأرض تُنبت جيلا من المَرَدَة مقنعين في الحديد يلاعبونك بأسنة الرماح ، فاذا قدرت عليهم فان عليك أن تقتل التنين الهائل الذي يحرس الفروة الذهبية ، فاذا فعلت ، ولا أحسبك تفعل ، فان الفروة لك ، كنزاً ليس كمثله كنز ، وذخيرة من الذهب

(١) الصلبة المتحجرة



أزمة الكتاب والثقافة العالمية

عقد أخيراً فى مدينة نيس فى جنوب فرنسا مؤتمر نظمته أكاديمية البحر الأبيض المتوسط برياسة رئيسها الكاتب الكبير جورج دوهامل للنظر فى مسألة ثقافية خطيرة هي أزمة « الكتاب » . وقد أجمع المؤتمرون وهم رهط من كبار المفكرين والكتاب من مختلف أمم البحر الأبيض على أن مسألة الكتاب هى مسألة الثقافة العالمية كلها ، وأنه لا يمكن أن تقوم بدون الكتاب أية ثقافة أو حضارة أو إنسانية أو سلام أو مثل عليا ؛ ولذلك رأوا أن يعرضوا إلى المسألة من ناحيتها الدولية والعالمية

وجرى البحث فى النقط والتفاصيل الآتية : هل يمكن أن تحل المجلات الدورية محل الكتاب ؟ وهل يمكن أن تحل الإذاعة اللاسلكية (الراديو) مكان الكتاب والمجلة معاً ؟ وهل يمكن أن يحل السينما مكان الكتاب والجريدة ؟ وهل يمكن أن تشترك وسائل الإذاعة مع الكتاب أم لا يمكن إلا أن تضربه ؟ وهل يمكن أن تستعمل هذه الوسائل بطريقة تتفق مع مصلحة التفكير والذهن الإنسانى ؟ وأخيراً هل يمكن أن يفيد تنظيم المكاتب العامة وإعارة الكتب بلا مقابل فى تهذيب القراء ، ويعاون فى حل أزمة الكتاب ؟

هذه النقط وجميع ما يتعلق بها كانت وما تزال موضع بحث المؤتمر أو محكمة الكتاب كما يسميه المسيو دوهامل

ولا ريب أن أزمة الكتاب والثقافة مسألة عالية وهى مسألة الحضارة كلها ؛ وقد بدأت هذه الأزمة منذ نهاية الحرب الكبرى إذ انصرفت الأذهان شيئاً فشيئاً عن الكتب القيمة وأغرقت الشعوب المختلفة بسيل من الآداب والكتب السطحية . ثم جاءت السينما الناطقة والراديو فزادت الأزمة حدة ، وطغت الصحافة من جانبها على الكتاب وأخذت بتنويع محتوياتها الأدبية والثقافية تصرف الأنظار عن الكتاب

وقد شعرنا فى مصر ، كما شعرت جميع الأمم المتمدنة بهذه الأزمة الثقافية الخطيرة ؛ ومن ثم فإنه يجدر بنا أن نبحثها كما يبحثها غيرنا ، وأن نحاول معالجتها بنفس الوسائل والأساليب .

الابريز ليست تمدلها ذخيرة ؛ هذا إلى فخر يرفعك إلى عِليين ، وينقش اسمك فى لوحة الخلود إلى آخر الزمان ! »

وسمع جاسون ... وخفق قلبه ، ووجبت روحه وجيباً محزناً ثم أخذ على نفسه عهداً أن يفعل ! !

ونصحه رفاقه أن ينكث ، وأشفقوا عليه أن يضحى بهم وبنفسه فى مثل هـذه المهالك ؛ بيد أنه صمم على أن يلجم عجلى فلكان ، وأن يحرث بهما الأرض المجبوب ، وأن يزرع فيها أنياب التنين ، وأن يحارب المردة فاما هزمهم وإما غلبوه ، وأن يقتل التنين الذى يحرس الفروة الذهبية ليفوز بها ، وليعود إلى الوطن بالفخر والمجد وخالد الذكر ، فيحكم ويكون خير الحاكمين!

وكان يتكلم أمام رفاقه فى شجاعة مُدَّعاة ، وفتوة مُفتراة ، فاذا خلا إلى نفسه حزن أشد الحزن ، وأسلم نفسه للتفكير العميق ... ثم استوحى عصاه السحرية فقالت له إنه ينبغي عليه أن يلقي ابنة الملك . الأميرة ميديا ، فإنها مشغوفة به حباً منذ رأته يحدث أباها ... وأنها تكاد تجن به جنوناً

— وكيف ألقى ميديا هذه يا معجزة جونو الحبيبة ؟

— اتصل باحدى عجائز كولخيس تقض حاجتك !

— ومتى ألقاها وأين ؟

— يا لك من فتى ؟ ! ألم تسمع من يقول : وكم لظلام الليل عندى من يد ؟ إلقها في جنح الليل ، ولتكن له يد عندك والقها فى حديقة قصر أبيها الملك !

« التتمة فى العدد المقبل » دريني خشبة

دانونزيو فى رياسة الاكاديمية الايطالية

من أنباء رومة الأخيرة أن الكاتب والشاعر الايطالي الأشهر جبرائيلي دانونزيو قد عين رئيساً للأكاديمية الايطالية الملوكية . وقد علقت الصحف الايطالية والخارجية على هـذا التعيين بالاستحسان ، وقالت إن الدوتشى (موسولينى) بإسناده هـذا المنصب لأعظم كاتب إيطالى فى العصر الحديث قد أسدى خدمة جليلة للثقافة الايطالية . على أنه يلاحظ أن هذا الاختيار لا يرجع فقط إلى خلال الشاعر الأدبية ، ولـكنه يرجع أيضاً إلى ماضيه الوطنى ؛ فلم يكن دانونزيو شاعراً وكاتباً عظيما فقط ، بل كان وطنياً وجندياً عظيماً أيضاً ؛ وهو اليوم شيخ فى الرابعة والسبعين من عمره . وقد بزغ مجده منـذ خمسين عاماً كشاعر موهوب إذ نشر مجموعة أولى من قصائده ؛ ثم توالت بعد ذلك كتبه بين منثور ومنظوم وقصص ونقد . ومنذ أوائل هـذا القرن يتبوأ دانونزيو ذروة الشعر والـكتابة فى إيطاليا الجديدة . وفى إبان الحرب الـكبرى كان دانونزيو فى فرنسا ، وكان يدعو فى كتبه وقصائده إلى انضمام إيطاليا إلى الحلفاء . ولـما دخلت إيطاليا الحربَ انتظم دانونزيو فى الجيش ضابطاً فى المدفعية ، وفقد إحدى عينيه في خدمة الطيران . وفى نهاية الحرب حدث خلاف بين إيطاليا ويوجوسلافيا على ملـكية ثغر فيومى ، وانتهى النزاع بأن وافقت إيطاليا على تركه ليوجوسلافيا ، ولـكن دانونزيو لم يرتض هذا الحل وزحف على فيومى على رأس ألف من المتطوعين واحتل الثغر عنوة وأعلن ضمه إلى إيطاليا . وهنالك زاره موسولينى الصحفي يومئذ وأعجب به وبخلاله الوطنية والعسكرية العالية . ولماقام الحـكم الفاشستي وتبوأ موسولينى ذروة النفوذ والسلطان حدث جفاء بين الرجلين فى البداية ، ولـكنه لم يلبث أن زال وأحيط الشاعر الـكبير بكل مظاهر التكريم ، وأنعم عليه بلقب الأمارة فى سنة ١٩٢٥ ، وهو يتبوأ اليوم رياسة الأكاديمية الايطالية ومن ورائه ذلك الماضى الحافل فى الشعر والأدب والوطنية والحرب

الشرائط المصورة فى خدمة المكتبات

فى حين أن أنصار الـكتاب يرون أن الأفلام الناطقة من العناصر الضارة التى تؤثر فى رواج الـكتب ، يرى بالعكس خبراء الـمكتبات أن الأفلام الناطقة يمكن استخدامها بنجاح فى خدمة الـمكتبات العامة وفى تذليل مهامها . هذا ما رآه المندوبون فى مؤتمر عقد أخيراً فى كامبردج للنظر فى شئون الـمكتبات وتنظيمها . وقد صرح الأستاذ ، واطسون دافيس أحد المندوبين الأمريكيين أنه بمرور الزمن يمكن أن تستخدم هذه الأفلام فى حفظ نفائس أعظم المجموعات العالمية ، وبذلك تسهل مهمة تبادلها بين مختلف العواصم والـمكتبات : بل يمكن بهـذه الوسيلة أن تنقل نفائس مكتبة بأسرها من قارة إلى أخرى مدونة في بعض هذه الأفلام الناطقة

وذكر الأستاذ هتون من خبراء المتحف البريطانى أن إدارة المتحف ستقوم بإخراج أفلام ناطقة من جميع الـكتب الانكليزية التى ظهرت قبل سنة ١٥٥٠م ، ثم ترسل نسخا منها إلى الولايات المتحدة (أمريكا) . وقد صار من الميسور الآن أن تصور الصفحة الـكبيرة فى حجم لا يزيد على طابع البوستة ، وبذلك يمكن تصوير آلاف من الـكتب فى أحجام صغيرة ، ثم يمكن بعد ذلك لـكل راغب أن يحصل بواسطة الجهازات الـمكبرة على صور منها فى حجمها الطبيعي ، أو يمكن عرضها على ستار السينما

الأدب الأردى

اللغة الأردية هى لغة مسلمى الهنـد ، وهى من الفصيلة الفارسية ، وتكتب بالحروف العربيـة ؛ ولها أدب خاص يتأثر أشـد التأثر بالآداب الفارسية والعربيـة . وقد ظهر أخيراً بالانكليزية كتاب عن الأدب الأردى بقـلم الدكتور موهان سنغ الأستاذ بجامعة لاهور تحت عنوان Urdu Literature ، وهو بحث جامع في تاريخ اللغة الأوردية وآدابها ، من النثر والشعر والقصص ، والعوامل التى اشتركت فى تطورها ، ومدى تأثرها بالأدب الانكليزى والأدب الهندى القديم ، وما كان للقرآن الـكريم والآداب العربية من أثر فى تطور الثقافة الأردية وقد تناول الدكتور سنغ بحثه بأسلوب جديد يسبغ على مؤلفه قيمة خاصة ، بحيث تقرأ فيه تاريخ الأدب الأردى كما تقرأ تاريخ الأدب الانكليزى أو الفرنسى

بول فاليرى أستاذ فى الـكوليج دى فرانس

أصدرت الحـكومة الفرنسية أخيراً مرسوماً بتعيين الـكاتب والشاعر الفرنسى الـكبير وعضو الأكاديمية الفرنسية بول فاليرى أستاذاً للشعر فى معهد « الـكوليج دى فرانس » وبذلك يتبوأ الشاعر الـكبير فوق مكانته فى عالم الشعر والأدب مركزاً رسمياً خطيراً يستطيع أن يبث منه إلى الشباب نظرياته الطريفة فى الشعر الفرنسى

هذه بضاعتنا ردت إلينا

لما قرأت فى (الرسالة الغراء) مقالة (أخبار أبى تمام للصولى) تذكرت بيتاً لهذا الشاعر العظيم « وكم بيت بديوان [1] » سلبه إياه أبو عبيد البكرى ، ووهبه للمتنبى ...

ومقسم يعطى العشيرة حقها ومُغذمر لحقوقها هضّامها [2]

ورأيت أن يُردّ اليوم الحق إلى أهله . وهذه قصة الذهب والهبة :

جاء فى كتاب (اللآلى فى شرح أمالى القالى) أو سمط اللآلى (الجزء الأول . الصفحة ٢١٧) :

« وقال المتنبي فى النسيب :

إنسيّة الأنسان إن هيَ حُصّلت

جنيّةُ الأبوين ما لم تُنسبِ »

وقال محقق الكتاب ومنقحه الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى الحاشية : « لا يوجد البيت فى شيء من نسخ شعره (أي شعر المتنبي) وقد جمع العاجز — يعنى الأستاذ نفسه — زيادات ديوانه ؛ ولعله وهم (أي البكرى) فى حمله البيت عليه »

قلت : قوله (العاجز) هو من تواضع العلماء ، وقد أظهر فى (اللآلى وسمطه) كل قوة ، وأخبر فضله أن ليس بعد هذا التحقيق تحقيق « ليس وراء عبادان قرية [3] » . ومن خصائص الأستاذ الميمنى أنه يعرف جميع المواطن التى ورد فيها بيت من أبيات (اللآلى) ويذكرها كلها قلت أو كثرت

وهذا البيت الذى عزاه البكرى إلى المتنبي ، وأنكر الأستاذ عزوته ، ولم يدلنا على صاحبه — على اتساع ذاك الاطلاع — هو لأبى تمام فى قصيدة مطلعها :

أحسِنْ بأيام العقيق وأطيب والعيش فى أطرافهن المعجب

(١) أبو العلاء :

والأنس مثل نظام الشعر كم رجل بالجيش يفدى ، وكم بيت بديوان

(٢) لبيد العامرى . (المغذمر) الذى يأخذ من هذا ، ويعطي هذا ، ويدع هذا

(٣) أورده الميدانى فى أمثال المولدين فى (القاموس) . عبادان جزيرة أحاط بها شعبتا دجلة ساكبتين فى بحر فارس

ورواية صدر البيت (المسلوب) فى الديوان هو (أنسية إن حصلت أنسابها) وقبله :

وإذا رنت خلت الظباء ولدنها ربعية واسترضعت فى الربرب [1]

فاقرأ اليوم يا حبيب : « هَـذِهِ بضاعتُنَا رُدَّتْ إلينا » فى (اللآلى) [2]

« الاسكندرية » (***)

وفاة المؤرخ التركى أحمد رفيق

روعت الأمة التركية فى غضون هذا الشهر بوفاة عالمها المؤرخ الجليل احمد رفيق ، ولقد كانت وفاته فاجعة كبرى أصابت الأمة التركية فى شعرها وأدبها وتاريخها

بدأ رفيق حياته العامة بالانضمام إلى الجيش ، ثم أكب على الدراسات العلمية الدقيقة وراح يبذل قصاراه فى المطالعة والبحث والاستقصاء فى العلوم التاريخية إلى أن وهنت قواه فخرج من السلك العسكرى وكان خروجه هذا سبباً فى انغماره فى مضمار الدراسة العنيفة ، والمطالعة المضنية ، فأكب على دراسة التاريخ وهي الناحية التى كان يميل إليها بالفطرة فدرسها درساً وافياً وشرع فى تأليف مؤلفاته القيمة التي تزيد على الاثنى عشر مجلداً ، وجميعها من أروع الكتب التاريخية التى نالت تقدير كبار أساتذة التاريخ فى العالم

مارس أحمد رفيق الشعر والأدب فألّف ديواناً فى الشعر ، وأنشأ مقالات عديدة فى الأدب ، فكان توفيقه فى هذين الفنين ضئيلاً بالنسبة إلى ما أصابه فى التاريخ من نجاح باهر ومكانة سامية

وأسلوب الرفيق التاريخي يمتاز من غيره بالسهولة وتبسيط المعقد من التاريخ بطريقة لا تجعل الملل يتسرب إلى القارىء

ويحزننا أن نقول إن ذلك المؤلف الكبير على رغم الخدمات العظيمة التى أسداها إلى أمته كان فى أواخر أيامه فريسة للحرمان والفاقة

(١) ربعى نتج في الربيع نسب على غير القياس ، وربعى كل شىء أوله (اللسان) الربرب . الجماعة من المها (ياظبية أشبه شىء بالمها)

(٢) كتاب بارع محكم محقق ، جزءان ، أكثر من ألف صفحة ، نشرته ذات الفضائل والمكارم والأيادى (لجنة التأليف والترجمة والنشر) فى مصر



كان ما كان

تأليف الأستاذ مخائيل نعيمة

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

كان ما كان ... ألا إنها كلمة سحرية تفيض بالذكريات والأحلام ، وتفتح على النفس أفاقا من الماضى ، وما أحب الماضى إلى النفس وإن كان كله الشقاء ! ولعل هذا المعنى هو الذى لحظه الأديب اللبنانى الأستاذ مخائيل نعيمه فى وضع هذه الكلمة عنواناً لمجموعة من قصصه ، وهى مجموعة تشتمل على ست قصص وفصل من رواية مسرحية اسمها « جمعية الموتى » كان الأستاذ قد كتبها عن المجاعة اللبنانية إبان الحرب . ونعيمه لاشك أديب قصاص ، عنده طبيعة فنية ، وله فى فنه ميزات ومواهب ، وهو فى قصصه يحيا حياة روحية نبيلة كلها صفاء وتصوف ، فعنده « أن الفطرة حقيقة صافية ، والمدنيـة رياء موشى » وهو « يحب الروح النظيفة فى جسم قذر ، عن الروح القذرة فى جسم نظيف » ومن رأيه « أن الأرض روح طاهرة فى جسم طاهر لاتساد ولا تستعبد ، فهى ميزان العدل الإلٰهى ، ولذلك لا تخجل من أن تنبت الوردة والشوكة والقمحة » ، وإنه لينظر إلى سبل الحيـاة فى الشرق والغرب ، فيرى « الشرق يسير إلى المحجة ومركبته قلبه ، وجياده عواطفه وأفكاره ، وأعنته إيمانه وتقاليده المتصلة بالآزال ، بينما الغرب يسير فى مركبة روحها البخار أو الكهرباء ، وعضلاتها لوالب ودواليب من حديد وفولاذ ، وأعنتها ادعاؤه واعتداده بنفسه » . ومع أن الغرب يلتفت إلى الشرق هازئاً ، والشرق يبهره ما يرى فيقر للغرب بالمجد ، فان نعيمة يرفع الشرق فى روحانيته الصافية ، على الغرب فى ماديته الملونة ؛ وهو يأسف على الشرق إذ « يطرح مركبته ، ويبيع روحه ، ليحصل على مركبة كمركبة جاره » ، لأن الحيـاة المادية فى الواقع « حياة مقنعة كلها زحمة باطلة ، وجلبة فارغة ، وما الانسان فى وسط هذه الجلبة إلا « كالهر يلحس المبرد فيتلذذ بطعم الدم السائل من لسانه جاهلاً أنه دمه ... »

ونعيمة أيضاً رجل باحث ، يعاني النقد والدراسة التحليلية ، وله « سياحات فى ظواهر الحياة وبواطنها » . ولا شك أن القصاص فى حاجة إلى مواهب الباحث ، من دقة الملاحظة ، وصواب الفكر ، وحسن التقدير ؛ ولكن ليس من الصواب أن يفنى شخص القصاص فى شخص الباحث ، حتى لا يضعف النهج القصصى فى القصة كما يلاحظ فى بعض قصص نعيمة ؛ فهو يهتم بأن يقول لك كل شيء فى نفسه ، ويعنيه كثيراً أن يشرح كل شيء يعترضه ؛ ومن ثم فهو يستطرد كثيراً ويخرج بك إلى كل ناحية تتصل بالحديث ، ومن ثم كانت القصة عنده فكرة قوية ، وحكمة عالية ، وبحثاً اجتماعياً كاملا ، ولكنها ليست على ما يجب من الاستواء الفني والاتساق القصصى ، فأنت تقرأها وكأنك تقرأ مقالا ممتعاً ، أو بحثاً ضافياً ؛ ولقد تعمد إلى بعض أجزائها بالحذف فما يضير ذلك ، ولا هو يقطع صلة الحوادث فى القصة ؛ ولقد تجده يطيل كثيراً فى التحليل النفسي للأشخاص إطالة قد تتحملها القصة الطويلة ، ولكنها لاتليق بالقصة القصيرة . وإليك مثلاً : تلك القصة التي أسماها « ساعة الكوكو » والتى صدر بها الكتاب ، فان نعيمة قد حشاها بكثير من الحكم والمواعظ ، ونقل فيها كلاماً طويلا من كلام « بو معروف » وعرض فيها لشخصية « خطار » فحللها تحليلا

نفسانياً دقيقاً صور فيه كل شيء حتى الخواطر والأحاسيس ، وساق كلاماً عن الشرق والغرب ، والمادية والروحية ، ولكنه ساق كل ذلك مساقاً إن اغتبط به فكر الباحث فلن يرتضيه تقدير القصاص ، لأن القصة ليست خطاباً يلقى أو حكاية تروى ، ولكنها حدود مرسومة ، وأبعاد مقدرة ، وحبكة قوية فى البدء والنهاية ، وخطة هى طبيعة الحياة ومظهر الواقع ؛ وبالجملة فهى قطعة فنية مستوية لا استطراد فيها ولا زوغان . ولو أن نعيمة راعى ذلك فى قصصه لكان من غير شك سباق الحلبة وحامل لواء القوم فى القصة

أما أسلوب المؤلف فأسلوب سهل مرسل ، يريده نعيمة على أن يكون أداة لإفهام القاريء فحسب . ولقد يهمل حق البيان واللغة في بعض الأحيان ، فيقدم حيث يجب التأخير ، ويحذف فى مقام الذكر ، ويرجع بالضمير إلى غير ما هو له ، كأن يقول : « ولا يزال نحو المائة منهم ينتظرون الدخول وراء السور » يريد ولا يزال نحو المائة منهم وراء السور ينتظرون الدخول . وكأن يقول : « لكنهم يبكون كلاماً ، وينوحون من قلوب ضاحكة وأجواف مفعمة » يريد أن بكاءهم لا حزن فيه وأنهم ينوحون وأجوافهم ممتلئة « بالسرور » ، ولكن العبارة لا تفى بما يريد ، لما فى صدرها من الخطأ اللغوى، ولما في عجزها من القصور. وكأن يقول فى بعض تشبيهاته : « فكأن دماغى قد تحول إلى مسحوق دقيق ذرته يد خفية فى هاوية تلبدت بدخان » وهذا تشبيه لا يسوغه الذوق البيانى

على أننا لو تجاوزنا عن مثل هـذا فما يصح أن نتجاوز عن حق اللغة والنحو فى مثل قوله : « ويلتقى الأخ أخاه » وقوله : « لنشاركه بالفرح » وقوله : « ولا يلعب بالقمار » وقوله : « كانت تحوى على صفات » وقوله : « فلنباشر يفحصهم » وقوله : « وذقنك المستطيلة وأحنا كك النافرة » إلى آخر ما هنالك من التعابير التى لا أحسب أن نعيمة الناقد يرضاها من غيره . وهل من اللائق أن تكون الفكرة من الذهب وأن يكون لبوسها من الخشب ؟ !

ثم هناك هنوات طفيفة كأن يقول (ص ٥٧) واختلت مع جميل فى مخدعها ،وسياق الكلام يقضي أنها اختلت مع عزيز وما أحسب ذلك إلا سبق قلم

وفى قصة الكوكو (ص ٨) يقول : فى حقيبتى رسالة تسلمتها فى أيار سـنة ١٩٢٢ والذى فى ذيل القصة أنها كتبت بتاريخ سنة ١٩١٥ ولعل هذا من تحريف الطابع

أما بعد ، فقد كانت فترات طيبة تلك التى قضيتها في قراءة « كان ما كان » ، وما أبالغ إذا قلت إن نعيمة قد غمرني بفيض من الفكرة « الروحية البحتة » التى يخدمها ويخلص لها فى قصصه . وإنها لفكرة سامية ما أحوج الناس إليها وقد جرفتهم أوضار المادة الفاسدة ، ولكن من لها بأمثال نعيمة فى روحانيته وإخلاصه ؟

محمد فهمى عبد اللطيف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

5 me Année, No. 228

Lundi - 15 - 11 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مصـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـدد ٢٢٨ « القاهرة في يوم الاثنين ١٢ رمضان سنة ١٣٥٦ — ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الفهـرس

الصيام بين عهدين

والتجدد أو التطور يصيب كل شيء فيجعله أعلى عالٍ أو يردُّه أسفلَ سافل !

كان عهدنا بالصوم قبل اليوم أن يكون عصياناً للنفس في طاعة الله ، وحرماناً للجسم في مَبَرَّة الروح ، ونكراناً للذات في معرفة الناس ؛ فالجوارح مغلولة عن الأذى ، والمشاعر مكفوفة عن الشهوة ، والخواطر مستغرقة في الدعاء ، بين نهار كله إحسان وتأمل وتصدُّق ، وليلٍ كله قرآن وتواصل وتهجُّد ؛ فلا الغنيُّ يهيج به البطر ، ولا القوي تفرط عليه القدرة ، ولا الفقير يتجهم له الحرمان ، وكأنما زالت الفروق بين الناس فأصبحوا سواسية في نعمة الدين وسعادة الدنيا !

كان الرجل الدنيوي الشهوان إذا أقبل عليه رمضان تاب وتطهر ، فلا يفتح فمه لهُجر ، ولا عينه لفحش ، ولا أذنَه للغو ، ولا قلبَه لخطيئة . يقضي يومه مضطرباً في المعاش على أفضل مايكون الخلق ؛ فإذا كان تاجراً لا يدلِّس ، أو صانعاً لا يزوِّر ، أو عاملاً لا يُفرِّط ، أو معاملاً لا يخون . ويحيي ليله في استماع القرآن ومواصلة الإخوان ومُوادَّة ذوي القربى ؛ فإذا ما انقضى بعض الشهر بدا عليه شحوب الصوم وذبول الصلاة وكلال السهر وخشوع الورع . فلو كنت حاضر ذلك العهد لرأيت رمضان

عيداً قومياً ودينياً يؤكد أسباب القرب بين الله وعباده ، ويوثق عرى الحب بين الشعب وأفراده

***

ذلك عهدنا برمضان الأمس ؛ أما رمضان اليوم فبحسبك أن أصف لك حياة من حيوات القاهرة فيه ؛ وتستطيع أنت أن تصور لنفسك الطور العجيب الذى آل إليه شهر القرآن والعبادة

هى أسرة لا أقول إنها مثال لكل الأسر ؛ ولكنها استجابت لنوازع التجديد الأبله استجابة الإمَّعة فأصبحت تمثل ماعسى أن يكون بين التقاليد والتقليد من التناقض المضحك

ميم باشا يتبوأ منصباً من مناصب الدولة الرفيعة . بلغه بعد حياة طويلة كادحة ، تبتدىء من القرية الحقيرة والأسرة الفقيرة والوظيفة الخاملة ، وتنتهى إلى هذا الجاه العريض والثراء الضخم والمنزل المرموق ؛ فهو وزوجه من عهد ، وابناه و بناته الثلاث من عهد ؛ والتفاعل بين هذين العهدين هو الذى أحدث هذه الظاهرة التى تجدها اليوم فى أكثر بيوت القاهرة . لابد لهذه الأسرة أن تصوم ؛ ذلك حكم النشأة وسلطان العادة . ولا بد كذلك لهذا الصوم المتزمت الجافى أن يتسع باله وترق حواشيه إذا ما استضاف هذه الأسرة . فهو يُسبل جناحيه الرءومين على أسِرَّتها الوردية الوثيرة من طلوع الفجر إلى متوع النهار ؛ ثم يمس بريشهما الناعم خدود الأوانس النواعس فينتبهن ؛ ويهبُّ الوالدان على زقزقتهن فى غرف الزينة وطنُف القصر ؛ ثم يجتمع بعد قليل مجلس الأسرة لينظر فى مقترحات البطون على إدارة المطبخ . فهذه تقترح ، وتلك تعترض ، وهذا يطلب لوناً ، وذاك يطلب آخر ، والباشا يدير هذا الجدل الشهى إدارة موفقة ، فيعدِّل أو يكمل أو يؤجل ، حتى ينتهى النقاش بثبَت حافل بالمشهيات والمقليات والمشويات والمحشوات والفطائر لاتجد بعضه فى مطعم كبير

يتغير هذا الثبَت كل يوم فيطول أو يقصر ، ولكن لونين فيه لاينالهما تغير ولا يمسهما نقص : لوناً من الأرانب مطبوخة فى النبيذ يحبه الباشا ، ولوناً من الشرائح الوردية مطعمة بفصوص من شحم الخنزير تحبه الآنسة الكبرى سين !

هاهو ذا الباشا البطين يتذبذب وئيداً بين المطبخ والمائدة كأنه رقاص الساعة ؛ فى يده مسبحته الكهرمان الصغيرة يهش بها على الطهاة والخدم ، وشفتاه تختلجان من غير كلام ، وعيناه تتحركان من غير نظر ، حتى إذا دنت المغرب خفت حركته واحتد نشاطه فأقبل على المائدة ينسق الآنية ، وينضد الأكواب ، ويسكب أمام كل آكل الشراب الذي تعوده ؛ فهنا قمر الدين ، وهنا منقوع التين ، وهنا الكينا ، وهناك القرمود ، وهنالك إقيان ، وأمامه هو شراب صحى فاخر من صيدلية (ينى) ؛ ثم يدبج الخوان المخملى بنوافل المائدة من السلطات والكوامخ ، ويرتب الألوان مع النادل على أصول مقررة فى الفن ؛ ثم يسرح بعد ذلك بصره فى السماط المكتظ فيرتد إليه ملآن بالرضا والعُجب ؛ فيخرج إلى الردهة ، ومن الردهة إلى الشرفة ، فيلقى النظرة الأخيرة على الشمس الغاربة ، ثم يعود فيرى الأسرة بجنسيها لم تفرغ بعد من إعداد الأهَب للسهرة الراقصة ؛ فالحلل تنتقى ، والحلى تُختار ، والشعور ترجل وتموج ، والأظفار تدرَّم وتصبغ ، والحواجب تدقق وتخطط ، والخطوات واللفتات والبسمات تتكرر أمام المرايا لتراض وتُتقن . حتى إذا انطلق مدفع الإفطار من الراديو أهرعوا إلى المائدة إهراع جنود الإطفاء إلى السيارة ؛ ثم يجلس الباشا بين بنيه ويضع المسبحة المعلومة مكان القدح المجهول ، ثم يرفعه إلى فيه وهو يقول : « اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت . » ثم يقبلون على هذه الآكال وهذه الأشربة إقبال الشره الفاره ! فلو رأيتهم حسبتهم صاموا العام كله ليفطروا فى رمضان !

أذنت العشاء فصلاها الباشا الصالح ، ولم يكد ينفلت منها حتى أخذ يعُد مقصف الليلة من النقول المختلفة ، والأشربة الهاضمة ، والأزهار الجنية . وأخذت الأسرة زينتها التمامة الكاشفة واجتمعت فى البهو الفسيح الفخم تستقبل أسراب السيدات والأوانس ومعهن أبناؤهن وإخوتهن من الأيفاع والشباب ؛ فيعزف البيان ، ويخفق العود ، وتشدو الكواعب ، ويهزج الحاكي ، ويدور الرقص على نمطيه الشرقى والغربى ، فتلتف الأيدى على الخصور ، وتلتصق الصدور بالصدور ، وتمتزج أنفاس الكحول بأنفاس العطور ، ويقف رمضان المسكين من هذه المناظر المريبة وقفة شيخ من شيوخ الدين دفعت به الأقدار إلى ماخور !

هذه والله صورة ناطقة لأسرة أعرفها ويعرف أمثالها الناس . فمن عرفها فسيقول قصَّر ، ومن جهلها فسيقول بالَغ ؛ والحق أنها الواقع لا تنقصه إلا تسمية الأسماء وتعيين المنزل .

احمد حسن الزيات

الحد الحاسم

للأستاذ عباس محمود العقاد

من العقول عقل كالرسول الذى تثق بقدميه ولا تثق برأسه : ترسله وتفصل له مايعمل فى كل حالة ، فإذا طرأ طارئ لم تسلف له فيه وصية فلا عمل ولا تصريف حتى يرجع إليك . فالشئ عنده إما معمول بأمر أو متروك بأمر ، وإما حسن كما تراه أو قبيح كما تراه ، ولا توسط ولا تدرج بين الأمور

ومن العقول عقل كالرسول المفوض : تنبئه بمرادك ثم تكل إليه تحصيله كما يريد ، فلا تبيح ولا تمنع ، ولا تقسم الأمور كما تراها ، بل تدع له أن يقسم مايشاء حين يشاء

العقل الأول لا غنى له عن الحدود الحاسمة فى الكلام ؛ فالشئ عنده إما أبيض أو أسود ، وإما حلو أو مر ، وإما مأخوذ أو متروك ؛ ولا يجوز أن يكون مأخوذاً فى حال ومتروكا فى حال ، ولا أن يكون حلواً ومراً فى وقت واحد ، ولا أن يكون بين البياض والسواد تارة يبيض وتارة يسود على حسب الضياء والظلام ، وعلى حسب الموقع الذى تنظر منه إليه

والعقل الثانى لا يتقيد بالحدود الحاسمة ولا يحتاج إليها ، لأنه يرى الدرجات بين المسافات ، ويرى الظلال بين الألوان ، ويرى التشكيلات بين الأشكال

فالشئ عنده لا يكون بعيداً وحسب ، ولا قريباً وحسب ، وإنما يكون بعيداً بمقدار كذا وقريباً على درجة من القرب مقسومة بين الدرجات ؛ وقس على ذلك سائر مايدركه ويحده ويعيه

ولغات الأمم تبين لنا مقدار نصيبها من العقل المسخر ومن العقل المفوض

فاللغة التى تقل فيها « الظروف » هى اللغة التى قلما يستغنى أصحابها عن الحدود الحاسمة والأوامر المفروضة ، لأنهم يجهلون الفروق ولا يدركون وجوه الاختلاف ، إلا إذا بلغت من الظهور والاتضاح مبلغ النقيض من النقيض ، أو مبلغ الشئ المميز بعلامة لا تشتبه بغيرها من العلامات

واللغة التى تكثر فيها الظروف هى لغة العقول المفوضة أو العقول المتصرفة ، لأنها تلمح الفرق الصغير فلا تقف عند الحد الحاسم الكبير ، وترى العمل الواحد على أشكال متعددات ، فلا تحصره فى شكل واحد محدود محتوم

و « الظرف » فى اللغة هو الكفيل باظهار هذه الفروق الصغيرة ، وتقسيم الدرجات بين المسافات الواسعة . فإذا رأينا « الظروف » فى لغة من اللغات فنحن إذن أمام ناس متصرفين غير محدودين ، أو أمام عقول تستنبط الفهم من بواطنها ولا تنتظر حتى يقال لها : افهمى هذا هكذا، وافهمى ذاك على ذاك المثال

وأحسب أن « الظروف » تقل ، وأن العقول تعجز عن التصرف لسبب من سببين :

أحدهما طول عهد الاستبداد ، فيتعود العقل إملاء الأوامر عليه وإسناد الفرائض إليه ، فيصدع بما يؤمر ويطيع ثم لا يتصرف ، وينتظر الارشاد والتسديد فى كل خطوة وعند كل طارئ جديد

والثانى نشأة الأمة فى بيئة محدودة لم تتشعب فيها مسالك العمران ومذاهب التفكير ، فكل ما فيها فروق كبيرة بارزة ، ومسافات بعيدة شاسعة ، فلا محل فيها للفرق الدقيق ولا للدرجة الصغيرة ولا للمسحة المترددة بين الألوان

وأنت تستطيع أن تفتح « معجم » اللغة من اللغات فتعرف نصيبها من الحرية أو من سعة العمران بتلك العلامة التى لا تخطئ ، وهى علامة « الظروف » المصوغة أو التى تسهل صياغتها من الأسماء والأفعال

يضحك الانسان ضحكة السرور ، وضحكة الألم ، وضحكة التشفى ، وضحكة التهكم ، وضحكة الرصانة ، وضحكة الطيش ، وضحكة المعرفة والحكمة ، وضحكة الجهل والبلاهة ، وضحكة القوة والعزة ، وضحكة المجون والاسترخاء ؛ وكله ضحك إذا نظرت إلى اسمه فى اللغة ... فماذا يفيد هذا الاسم إن لم يميزه مميز من الظروف ؟

وتقول مثلاً فى عنوان مقال أو قصيدة : « شجاعة الجبن » فيفهم العقل المتصرف أو عقل « الظروف » معنى ما تقول

أما العقل المغلق أو عقل الحدود الحاسمة فيعجب حتى يغرب فى الضحك ويسخر ممن يلقى إليه بذلك العنوان ، لأن المسألة

عنده إما شجاعة وإما جبن ولا يلتقيان . وليس فى علمه أن الجبن قد يؤدى إلى الاقدام بعض الأحيان ، وأن الجبان والشجاع فى بعض المواقف سيان

ومن هنا كان استغراب الجامدين لما كانوا ينعتونه «بالتفريج» من تلك العناوين ، وما هو بالتفريج ولا بالوصف الموقوف على الفرنجة ، ولكنه وصف شائع بين جميع العقول التى بلغت رشدها وخرجت على وصاية « الحدود الحاسمة » أو على وصاية الأسماء والأفعال التى لا تميز بينها الظروف والإضافات

وليس أصعب من إفهام عقل حاسم يتحذلق ويقيم الاعتراضات على ماسمع . فأنت إذا قلت مثلاً : إن النهار مضيء والليل مظلم ، فذلك تفريق من أصدق التفريقات بين الأضداد : يسمعه العقل المتصرف فيعلم ماتعنيه لأول وهلة ، ويسمعه العقل الحاسم المحدود المتحذلق فيقول لك : كيف ؟ إن النور الكهربائى يضيء بعض الحجرات بالليل ، وإن الستائر لتلقى الظلام على بعض الحجرات بالنهار ! وقس على ذلك أمثال هذه الاعتراضات وما تنم عليه من الضيق والعجز وقلة التصرف والتواء التفكير

وإلا فانك إذا أردت أن تمنع ذلك الاعتراض وأشباهه فقد وجب عليك أن تقول : إن النهار مضيء والليل مظلم ، ثم تتبع هذا التفريق بإحصاء جميع الحجرات التى تحجبها الستائر والنوافذ وجميع الحجرات التى تضيئها المصابيح الكهربائية وغير الكهربائية ، وتعود فتقول : إن النهار مضيء والليل مظلم ما عدا حجرة فى بيت زيد فى طريق كذا فى مدينة كيت وكيت بمصر بالقارة الإفريقية ، وهكذا حتى تستوفى بيان جميع الحجرات فى جميع الطرقات فى جميع المدائن فى جميع الأقطار . فإن لم تذهب إلى هذا التفصيل فأقل ما فى الأمر أن تعمد إلى استثناء لا حاجة إليه ولا مزيد فيه

فما الذى يدعو العقل المحدود إلى أشباه ذلك الاعتراض ؟ أدقة فى فهم ؟ كلا ! بل عجز عن إدراك الحدود بغير إملاء حاسم وعجز عن طلب المعرفة يشغله بالقشور عن اللباب وبالتوافه عن مهام الأمور

وهنا ينبعث لنا من التمثيل مثل آخر للتفريق بين العقل المتصرف المفوض والعقل الحاسم المسخر

فهل من الضرورى أن يلجأ العقل المتصرف إلى التفريقات والظروف فى تعبيراته ؟

وهل إذا قال القائل : « إن النهار مضيء والليل مظلم » نحسبه من أصحاب اللغات الغنية التى يتكلمها المتصرفون أو من أصحاب اللغات الفقيرة التى يتكلمها المحدودون المغلقون ؟

الجواب هنا ينفع فيه التصرف المطلق ، ولا ينفع فيه الحسم المغلق !

الجواب هنا أن ذلك القائل يكون من المتصرفين إذا قدر أن سامعيه لا يعترضون ذلك الاعتراض السخيف ولا يطالبونه ببيان الحجرات فى جميع البيوت والطرقات والأمصار والقارات ، أو باستثناء هو وذلك على حد سواء . فإذا هو سكت بعد تفريقه الموجز فسكوته خير من الإفاضة والتشعيب

وأنه يكون من المحدودين إذا قال : « إن النهار مضيء والليل مظلم » ثم سكت عن المزيد لأنه يجهل مواقع الاستثناء كما يجهلها سامعوه

فالتصرف لازم فى جميع التفريقات حتى التفريق بين المتصرفين والمحدودين

ومن ثم نستطيع أن نقول : إن « الظروف » والتفريقات تكثر فى اللغات الغنية ، ثم نرى أن أصحاب تلك اللغات قد يستغنون عن الظروف والتفريقات ويعرفون كيف يستغنون عنها ومتى يحسن الاستغناء ؛ فلا نعجل بالاعتراض ولا نحسب أننا متناقضون ، لأن التصرف خليق أن ينفى هذا التناقض الظاهر عن أذهاننا وأن يغنينا عن الإسهاب حيث لا حاجة إلى إسهاب

***

ساقنى إلى موضوع الحد الحاسم رأى فى علاقة الأدب والديمقراطية قرأته فى كتاب « لونارد وولف » المسمى بعد الطوفان ، وسأعود إليه ببعض الشرح والتعليق فى غير هذا المقال

وخلاصة رأيه أن الشعراء والقاصين كانوا يرسمون للناس قبل القرن السابع عشر نماذج من طوائف وجماعات . أما بعد القرن السابع عشر وانتشار الديمقراطية فأبطال القصص « أفراد » مستقلة قلما تتكرر فى غمار السواد ، وليست نماذج من طبقة أو طائفة أو قبيل

وعلاقة الديمقراطية بهذا فى رأى « لونارد وولف » ومن يجارونه أن المساواة قد خولت الفرد حرية الظهور فبرزت الخصائص واستحقت من الشعراء والكتاب عناية لم تكن تستحقها حين كان الجمهور أرقاماً متكررة على نموذج واحد ، أو حين كان النبلاء طرازاً مرسوم المراسم لا يختلف فيه إنسان عن إنسان

رأي جميل لا شك فى صدقه واحتوائه للكثير من الأصول والملاحظات ودلالته على سعة المعرفة وحسن التحليل والتعليل

ولكن ما نصيب ذلك الرأى لو وقع للمحدودين من أصحاب الحدود الحاسمة ومن جماعة المطالبين بتعداد الحجرات إذا قيل إن النهار ضياء والليل ظلام ؟

فقبل القرن السابع عشر رسم شكسبير بطله « هملت » وهو ولا ريب « فرد » بين أمراء جميع الأزمان وليس بالنموذج المتكرر فى طبقة الأمراء

وقبل القرن الأول رسم هومير أبطاله الفرسان وهم مختلفون اختلاف أفراد لا اختلاف نماذج

فأين يذهب رأى وولف الجميل لو صدمناه باعتراضات شتى على هذه الوتيرة ؟

يذهب إلى حيث نخسره ويخسره النقد وميزان الآداب ، لأن وصف الشخوص بعد القرن السابع عشر قد اختلف وكانت لاختلافه علاقة بالديمقراطية ما فى ذلك مراء . وعلينا نحن أن « نتصرف » فى التفريق بين أجزاء ذلك الرأى فنضيف إلى ميزان الأدب صنجة تعين على الضبط والتمييز . أما إذا أبطلنا الرأى وعطلناه حتى يعود لنا وولف ببيان الحجرات المضيئة فى الليل والحجرات المظلمة فى النهار فنحن الخاسرون لأننا نجهل مواقع التدقيق لا لأننا نعرف التدقيق فى نقد الآراء

الحد الحاسم أو العقل المحدود هو آفة الجامدين الكبرى ، وهو علة الركود فى آدابنا وفنوننا ، ولكننا نتغلب عليه ونروض عقباته ، ولا نستدل على ذلك بشىء أدل من زهدنا فى الجدل « البيزنطى » عاماً بعد عام

عباس محمود العقاد

كلمة موجزة

المتنبى

أبو تمام ، الوزن ، القافية ، التجديد

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى

فى (العمدة) لابن رشيق : ثم جاء أبو الطيّب فملأ الدنيا ، وشغل الناس

***

فى (المثل السائر) لابن الأثير : وقفتُ على أشعار الشعراء قديمها وحديثها فلم أجد أجمع من ديوان أبى تمام وأبى الطيب للمعانى الدقيقة ، ولا أكثر استخراجاً منهما للطيف الأغراض والمقاصد

***

فى (خزانة الأدب) للبغدادى : المتنبى سريع الهجوم على المعانى

***

فى (شذرات الذهب) لابن العماد : ليس فى العالم أشعر من المتنبى أبداً ، وأما مثله فقليل

***

قلت ذات مرة للعربيّ الألمىّ الأستاذ (رياض الصلح) — وقد ذكرنا المتنبى وأبا تمام — : إن الأول كان يحلق فى سماء الشعر بمعانيه ، وإن الثانى كان يغوص فى بحره على لآليه ، فقال : قِفْ . إذن ، المتنبى (طيارة) ... وأبو تمام (غواصة) ...

***

ولقد جاء الذى شغل الناس ، والذى هو دهره من رواة قلائده بما جاء به وهو من تلك القافية وذاك الوزن فى سجن . ولولا هذان لأسمعك (أحمد) من القريض — الذى هو أعجب ، وأراك ما هو آنق مما رأيتَ وأغرب . ولولا هذان لجوّدت الأيام أيّما تجويد تسطيرَ ما أملى فلم يقل :

ولم تُحسنِ الأيام تكتبُ ما أملي [١]

رُبَّ ما لا يُعبّر (الشعر) عنه

والذي يُضمرُ الفؤادُ ، اعتقادُه [٢]

وما قيّد الشعرَ العربيَّ إلا قوافيه ، وما قصّرَ خطواته فى ميادين الشؤون إلاّ تلكم الأوزانُ (البدويّة) وإلاّ هى ؛ والقافية فى أكثر الأحايين هى القائلة لا القائل ، والوزن هو الوازن لا شعور الشاعر ؛ فأكثر الشعر ليس لأهله لكنه للوزن أو للقافية ... إنه مما أتى ، مما وُجد ... ليس هو مما قُصِد ...

وكائنْ فى الضمائرِ من معانٍ باهراتٍ مدهشات قد غيبتها القوافى !

وإذا كان ذلك القديم الكريم الموروث قد كفى فى شيء فثمّةَ أشياء لم يستقلَّ بها ، والرغائب والمطالب فى (الحضارة) فى كل وقت جمّة

ولولا أنّ عبقريّةً متنخيةً قويّة عند المتنبي قد أنكرت الجريَ على أساليب القوم أو بعض أساليبهم ،

إذا كان مَدْحٌ فالنسيبُ المقدَّمُ

أكلُّ فصيح قال شعراً متيّم [٣] ؟

وأرادت أن تحرر ربّها لأقام (الكندى) دهرَه من تُبّاع (الطائى) يأخذ بأخذه فلا يجاريه ، ويكدّ روحه في أن يصوغَ كما يصوغُ فلا يساويه ؛ وحبيبٌ فى صَوْغِهِ وغَوْصِهِ لا يلحق.

« أراد المتنبي أن يسلك مسلك أبى تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه [٤] » وقلّما ضارع كبيرٌ مقلِّدٌ عظيماً مقلَّدا

ولم يستطع المتنبى — على تبريزه وارتقائه — أن يزحزح حبيباً عن مكانته ، وما قدر إلا أن يقعد فى عرش الشعر معه . وليس بقليل أن يقتطع من ملك حبيب ما اقتطع ، ويختلج من رعاياه من اختلج . فالناس بعدهما فى كل زمان حزبان : متنبيّ ، وتماميّ ، لكن جماعة (أحمد) أكثر عدداً ، و (للحبيب) شيعة به مغرمون

وقد قالوا : أبو تمام عند الخاصة أشعر ، والمتنبي أشعر عند العامة . وما أنصف المتنبي هؤلاء القائلون . إن فى (السيفيات والكافوريات والعضديات) وغيرهن لآيات بينات ، وإن فيهن لسحرا . وإذا كان لأبى تمام عشر قصائد علا بهن علواً كبيراً ، فان للمتنبي قدّامهن خمسين قصيدة أو أكثر من ذلك . وقد يقول قائل — وفي قوله حق — إن طول الأجل وقصره قد أعطيا ومنعا ، فلم يعمّر (حبيب) ما عمّر (أحمد)

وكان شيوخ ابن خلدون يرون — كما قال — أن نظم المتنبي والمعرى ليس هو من الشعر فى شيء — الله أكبر ! — لأنهما لم يجريا على أساليب العرب [١]

وكلام هؤلاء الشيوخ (شفاهم الله ، وشفى ناقل قولهم معهم) ليس بشيء إلا شيئاً لا يُعبأ به ؛ فأساليب العرب متنوعة مختلفة، وليس هناك أسلوب أوحد ؛ ولكل قبيل طريقة ، وللبدوى بلاغة ، وللحضرى بلاغة ، وللاقليم أو المكان ، وللخليقة والمزاج أثرٌ وسلطان ؛ ولكل عصر أو قَرن زيٌ ولحنٌ . و « أحسنُ الكلام ما شاكل الزمان [٢] » والدنيا فى تبدّل مستمر ، « وأحوال العالم لا تدوم على وتيرة واحدة ، ومنهاج مستقر [٣] » ولكل نابغة نهجٌ معلوم

فتنكّبُ المتنبي عما تنكّب عنه ، وسلوكه السبيل الذى

---

(١) فى رثاء عبد الله بن سيف الدولة ، والصدر (وما تسع الأيام على بأمرها) وفى هذه القصيدة :

هل الولد المحبوب الا تعلة وهل زورة الحسناء إلا أذى البعل

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

والمعرى من هنا مشي فى تكريه الحياة والنسل إلى الناس

(٢) فى أبى الفضل بن العميد يهنئه بالنيروز وفى القصيدة يقول :

عربى لسانه ، فلسفى رأيه ، فارسية أعياده

خلق الله أفصح الناس طرا فى مكان ، اعرابه أكراده

مثل ما أحدث النبوة فى العالم (م) والبعث حين شاع فساده

(٣) مطلع قصيدة للمتنبي فى سيف الدولة

(٤) المثل السائر

(١) فى (الجزء الأول من كتاب العبر) المقدمة لابن خلدون : الشعر هو الكلام البليغ ، المبنى على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به . فما كان من الكلام منظوما وليس على تلك الأساليب فلا يكون شعراً . وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا فى هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعرى ليس هو من الشعر فى شيء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب

(٢) المأمون فى كتاب الايجاز والاعجاز للثعالبي

(٣) العلامة الفيلسوف ابن خلدون فى (مقدمته)

قصة واقعـــة

للأستاذ على الطنطاوى

« أغارت سيول هائلة ليلتى ٢٤ ــ ٢٥ أكتوبر على حارستا والمعظمية والضمير من أكبر قرى دمشق الشمالية ، فخربتها ولم تدع فى الضمير حجراً على حجر ، وقتلت الناس بالمئات وتركت من تركت بلا مأوى ولا مال ... »

كانت « منطرة [١] » « سعد الخطار » أعلى منطرة فى « دوما [٢] » ، وكانت تطل على كروم دوما الواسعة والسهول التى تليها ممتدة إلى ثنيـة العقاب التى انحدر منها خالد مَقْدَمَه من العراق فى طريقه إلى اليرموك ساحة الشرف الخالد ، وتشرف من هناك على جنان الغوطة تلوح من ورائها دمشق جنة الأرض أقدم مدن العالم ، يرى خيالها حيال الأفق بمآذنها التى لا يحصيها عدّ ، ومسجدها العظيم تتوّج هامته قبـة النسر الباذخة المشمخرة ، والمنائر السامقة العالية ، ويرى منها قاسيون الحبيب ، وهاتيك الجبال ... وكان سعد الخطار سيد شباب الضمير [١] ، وأشدهم أسراً ، وأجرأهم جناناً ، وأقواهم ساعداً . اشتغل منذ عشر سنين ناطوراً فى كروم دوما ، فعرف فيها بالشدة والبأس ، فتجنب الناس كرْمه وابتعد عنه اللصوص والطرّاء . وكان يجول المساء فى أنحاء الكرم أو ينزل إلى البلد ، وخيزرانه فى يده ، فيجتمع النساء فى طريقه ينظرن بإعجاب إلى قامته المديدة ، وصدره الواسع ، وأكتافه العريضة ، وشاربيه الأسودين المعقوفين ؛ ولكن سعداً كان مع هذه الشدة وهذا البطش رقيق العاطفة ، مرهف الحس ، يحمل بين جوانحه قلب شاعر شاعر ...

***

كان عصر اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٣٧ وكانت السماء متلبدة بالغيوم ، والأمطار ترش رشاً خفيفاً ، والدنيا مظلمة ترى كأنها فى ساعة الغروب ، وكان سعد فى منطرته ينظر إلى الكرم الواسع الذى حرسه الصيف كله ، وكان موقَرا بالثمر تبدو عناقيده الحمر والبيض من خلال الورق الأخضر كأنها عقود اللؤلؤ والياقوت ، يمتد إلى حيث لا يدرك البصر حافلا بالحياة ، فرآه قد اصفرت أوراقه وعطل من الثمر وعاجله الخريف فذوت أوراقه واسّاقطت تطير مع الريح ؛ ورأى أشجار المشمش التى كان يبصرها دائماً عن يمين الكرم خضراء زاهية ، قد تجردت ولم يبق عليها إلا أوراق صفراء جافة ؛ ثم هبت رياح باردة من رياح الخريف فلفحت وجه سعد ، وحملت هذه الأوراق الذاوية فألقتها فى منطرته فكان يسمع لوقعها تحت المطر صوتاً حزيناً مؤلماً ، فشعر سعد بالأسى يملأ قلبه ... سيضطر غداً إلى فراق هذه المنطرة الحبيبة ، وهذا الكرم الذى ثابر على حراسته عشر سنين وتعلقت حياته به ، وانتثر قلبه فى أرجائه ، فأصبح جزءاً من حياته وقطعة من نفسه ، لاغنى له عنه ، ولا حياة له بدونه ... لقد ملأوا

---

(١) المنطرة فى عرف الشاميين غرفة من أعواد سقفها من القش أو من أوراق الشجر تبنى على أربعة أعمدة عالية من الخشب يقيم فيها الناطور والناطور فارسي معرب من القديم والاسم النطارة والمنطرة اسم مكان منها

(٢) بليدة على ثلاثة عشر كيلا من دمشق ، يصلها بها خط ترام كهربائى تعد هى وضواحيها عشرين ألفاً ، وهى أشهر قرية في سورية بكروم العنب الأحمر ، وبصنع الدبس والزبيب

(١) الضمير قرية كبيرة شمالى دمشق إلى الشرق على سيف البادية قال المتنبي :

لئن تركنا ضميراً عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ألم

سلكه ما ضاراه بل ظاهراه فى إبداعه ونبوغه ، وكان ذلك على هـذه اللغة من نِعمِ الله . فتحرَّرَ (ابن الحسين) من تقليده ، ومشى مشيَ المُدِلّ المستقل فى تجديده ؛ والمقلد عبْد ، ولا يرضى بالعبودية حرّ ؛ والتقليدُ عدم ، والاستقلال كون ، وشَعَرَ المتنبي ذاك الشعر ، وأظهر (أحمد) معجزه

ولى فيـك ما لم يقل قائل وما لم يسر قمر حيث سارا [١]

ورأت العربية أكبر شاعر ، وظهر فى العرب شاعرهم

ودع كل صوت غير صوتي فانني

أنا الصائح المحكيّ والآخر الصدى

وما الدهر إلا من رواة قلائدى

إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

فسـار به من لا يسير مشمرا وغنى به من لا يغني مغرّدا

محمد اسعاف النشاشيبى

---

(١) للمتنبي فى سيف الدولة وقبله :

وعنـدى لك الشرد السـائرات (م) لا يختصصن من الأرض دارا

قواف إذا سرت عن مقولى وثبن الجبـال وخضن البحارا

أمس آخر صندوق (سحارة) من العنب جمعوه من بقايا العناقيد ولم يبق فى الكرم ما يحرسه ، فشعر كأنه يفارق وفداً عزيزاً عليه ، قد رباه وتعهده بالعناية ثم فقده ... أو لم يرافق الكرم وهو لا يزال حصرما ؟ أو لم يتعهده حتى نضج وأينع ؟ أو لم يشاهد التجار كل مساء وهم يأتون ومعهم العمال بالعشرات يملأون صناديق (سحاحير) العنب ، وهم يغنون ويصيحون ويترعون الفضاء أنساً ؟ كم بين هذا المشهد وبين مشهدهم أمس وهم يملأون آخر (سحارة) صامتين تلوح على وجوههم أمارات الحزن والكآبة ؟ لم يستطع سعد أن يراهم على هذه الحال فانسل إلى منطرته ووضع رأسه بين يديه يفكر حزيناً ملتاعاً ...

* * *

جلس سعد يتأمل هذا المشهد ذاهلاً غائباً عن نفسه والمطر يشتد ويقوى ، والماء ينفذ من سقف المنطرة ، وكان سقفها من ورق الكرم الجاف ، ويبلل رأسه وثيابه لا يحس به ولا يحفله لأنه ابن البر وصديق الطبيعة ، ولأنه كان ذاهلاً عن نفسه لم يصح حتى أسدل الليل ثوبه الأسود على الدنيا فغيب تحته هذه المشاهد كلها ... صحا سعد فنفض الماء عن شعره وثيابه ، ونشر خيمته فوق رأسه لتمنع عنه المطر ، وأوقد مصباحه الألمانى الذى يظهر للسائرين فى هذا المرقب العالى كأنه نجم من نجوم السماء ... وجلس يفكر ...

ذهب به الفكر إلى بعيد . فذكر حين جاء هذه المنطرة مع عمه وابنة عمه ليلى ، وكان ذلك قبل أحد عشر عاماً . لقد كان فى السادسة عشرة ، وكانت هي فى التاسعة من عمرها ، وكان عمه ناطور الكرم يحرسه منذ ثلاثين سنة ، وهو الذى بنى هذه المنطرة وأعاد بناءها أكثر من عشرين مرّة إذ كانت تهدمها الرياح والأمطار والسيول . لقد تصوّر عمه بقامته العالية وجسمه المتين وظهره الذي انحنى قليلا تحت أعباء الزمان ، ولحيته البيضاء ... لقد كان عمه قوياً شجاعاً وكان سعد يعجب به كثيراً كما كان يحب ابنته ليلى ... أحبها منذ كانت طفلة ولكنه لم يكن يعرف أنه يحبها ، ولم تكن كلمة الحب دائرة على ألسنة القرويين ، بل كان من العار على الشاب أن يذكرها لفتاة ...

لم يكن يعرف أنه يحبها ولكنه لم يكن يستطيع أن يبتعد عنها أو أن يمرّ عليه يوم لا يراها فيه ؛ وإذا هو لقيها وذهب معها يلعب أو يرعى العنزات أو يسوق البقرة إلى المزرعة أو يملأ الجرّة من العين ، إذا كان معها ينسى الدنيا كلّها ولا يفكر فى شيء ...

ذكر حين جاء هذه المنطرة أول مرة مع عمه وابنة عمه ليلى وحين تركه عمه مع ليلى لينزل إلى دمشق ، وأوصاه بأن يعتنى بها ، ويحرس الكرم ...

— لقد صرت شاباً يا سعد . كن عاقلا وشجاعاً . لا تدع ليلى تنزل فى الليل من المنطرة . إذا رأيت وحشاً أو سارقاً فأطلق عليه النار . لا تخف من شيء ... هذه هى البندقية ...

وذهب عمه ، وهو يتبعه بصره . فلما غاب عن عينيه أحس سعد بأنه غدا منذ تلك اللحظة رجلا ، وأنه هو حامى ليلى ، وحارس الكرم ، وأنه يستطيع أن يطلق النار من البندقية كما كان يفعل عمه تماماً ، وتمنى من كل قلبه أن يرى وحشاً أو لصاً ليرى ليلى شجاعته ورجولته ، ولكنه لم ير شيئاً .

ذكر كيف قضى الليل مع ليلى ، وكانت ليلة قمراء رخيّة النسيم لطيفة . فتحدثا وتبادلا النكات ، وأحس بلذة لا تشبهها لذة ، ولكنه لم يمسها بيده ، ولم يذكر لها كلمة الحب لأن الشرف والأمانة كانت شعار الشباب فى تلك الأيام ، وليلى ابنة عمه وعرضه ائتمنه عمه عليها ، والله شاهد عليه ...

وقفز به الفكر إلى بلده الضمير ، وقد كبرت ليلى وحجبت عنه فلم يعد يراها إلا على العين أو فى الحقل ؛ ولم يكن يمنعه الحجاب من رؤيتها لأنه حجاب شرعى يظهر الوجه والكفين ويستر كل شيء ، لا كحجاب المدن الذى يستر الوجه بغشاء رقيق يزيده فتنة وجمالا ثم يكشف العنق والصدر والساق وما فوق الساق ، ويظهر الكف والساعد ... فكان يحدثها ويصحبها فى الطريق ؛ ولم يكن بينهما سوء ، لأنها خطيبته المسماة عليه منذ كانا صغيرين ... فهى له ، ولم يجرؤ شاب فى القرية على خطبتها احتراماً لسعد ، وخوفاً من بطشه ...

ومرت فى ذهنه صورة العرس وحفلاته ، ووفود القرى المجاورة والولائم العامة فى الساحات والطرق ، و (الدبكات)

والأهازيج ... مرت فى ذهنه مراً سريعاً ، فأبصرها حية قريبة كأنما كانت أمس ، وقد كانت منذ سبع سنين لم ير فيهـا من زوجته ليلى إلا ما يعجبه يرضيه . ولم تغضبه مرة واحدة . كانت تحيا من أجله ، تهيىء له الطعام وترتب الدار ، وتنتظره حتى يجيء من عمله . فإذا جاء رآها قائمة وراء الباب منتظرة فقبلت يده ، ثم أعانته فى نزع ثيابه ، وصبت على يديه المـاء حتى يتوضأ ويغسل رأسه ووجهه بالصابون ، ثم قدمت إليه الطعام ، ولم تدخر وسعاً فى تسليته وإيناسه . وإذا كان كئيباً أو مهموماً رفهت عنه وواسته . وأضاق مرة ولحقـه الدائنون حتى هددوه بالسجن من أجل عشرين ليرة ، فلم يشعر إلا وزوجته تقدمها إليه زاعمة أنها قد وفرتها من نفقات المنزل ، فصدقها ووفى دينه ؛ ثم علم بعد أنها باعت حليـها التى لا تملك غيرها ...

كانت مثال الزوجة الشرقية المسلمة التى تعيش لبيتها وزوجها وتتخذه سيداً لها ؛ وكان هو مثال الزوج الوفى الصالح الذى يشتغل ويحيا لزوجته وبيته ، ليس له سهرة ولا خليلة ولا عادة من العادات السيئة التى تذهب الأموال وتشقى العيال ...

ثم ذهب الفكر بسعد إلى ولده ، ولده الوحيد يسار ، فهاجه الشوق إليه ، وبرّح به الحنين إلى بيته ، وغلب على حبّـه لهذه الأرض وتعلقه بها . وكان الليل قد انتصف ولم يذق سعد مناماً فنهض ورفع طرف الخيمة فنظر فإذا السماء صافية قد انقشعت عنها الغيوم ، وطلع القمر من وراء الأفق هلالاً ضعيفاً يلقي على الدنيا نوراً كابياً ، فرأى الـكرم أسود مظلماً فعاوده الحنين إليه والحزن على فراقه ؛ وكانت منزلة الـكرم من نفسه كمنزلة زوجته وولده ، بل كانت هذه المنطرة أحب إليه من بيته . وجعل يتأمل الـكرم فامتلأ قلبه أسى ؛ وذكر ليلى ويساراً فأزمع الرحيل ولـكنه اضطر إلى انتظار الفجر ، ولبث صامتاً فغلب عليه النعاس فأغفى إغفاءة قصيرة ثم نهض مذعوراً يرتجف . لقد رأى حلماً مرعباً فتعوذ بالله وسأله أن يحرس زوجه وولده ، ولم يطق البقاء فقام يجمع أمتعته — وما أمتعته إلا فراش ولحاف وبساط وخيمة وصندوق صغير فيه قدر وأطباق وإبريق للشاي — ويلقى على المنطرة النظرة الأخيرة كأنه يريد أن يثبت صورتها فى نفسه ، وأن يودع ما فيها من ذكريات لذة هى أعز ما يملك في حياته ، ثم نزل إلى دابته والفجر يهم بالانبثاق ...

* * *

راقه سكون الليل وجمال الفجر وهذه الـكروم الواسعة التى استيقظت وتسربت إليها خيوط النور من ناحية الشرق فأضاءت صفحتها ، فاشتد به الحنين إلى زوجته وولده ، وشعر أن حبه لهما قد نما فى هذه الساعة وازداد وطنى على نفسه ، فجعل يتصور حركاتهما وسكناتهما ، وكيف يخرجان لاستقباله ، وكيف يتعلق به يسار فيرفعه إلى وجهه ويقبله ؛ ورنت فى أذنيه كلمة (بابا) حلوة مستحبة ، وشعر بعالم من الحب والعطف والوئام يغمره ، حتى أحس بنفسه يطير على متن الهواء فى حلم فاتن لذيذ ، فانطلق يغنى شتى الأغاني القديمة وصوته العذب القوى يشق السكون ويوقظ الطبيعة ، فتجاوبه الديكة من الـكروم المجاورة بزقائها ، والعصافير بسقسقتها الحلوة

* * *

أشرف على البلد ضحى ، فتأمل الفضاء فلم يبصر شيئا ، أين البلد ؟ هل أخطأ الطريق ؟ أم هو لا يزال بعيداً عن البلد ؟ لقد نظر حوله وأنعم النظر فلم يشك أنه حيال البلد . لقد سلك هذا الطريق مئات المرات ، ويستطيع أن يسلـكه مغمض العينين ، فـكيف يخطيء أو يضل ؟ لا شك أنه على صواب ، وأنه قد وصل ، ولـكن أين البلد ؟ وأحسّ سعد كأنه قد بدأ يجنّ . أتختفي بلد برمتها أيها الناس ؟

ودنا حتى وصل البلد ، فلم يجد إلا أكواماً من التراب مبتلة عليها آثار الماء ، تتخللها برك مالها من آخر ، وحجارة منثورة فى البادية نثرا ، فجن جنونه ، وانطلق يصيح : ليلى ! ليلى ! يسار ! يسار ! ليلى ... ويهم شارداً على وجهه ، يدور بلا وعى ، وإذا بشيخ مسنّ من حكماء القرية يهتف به ثم يأخذه من يده ، فيتبعه سعد صاغراً ، حتى يجلسا على كومة من هذه الأكوام ...

— هذه حال الدنيا يا بنى ... إن لله حكمة لا يعلمها أحد ، فلنصبر ولنرض بالواقع ، الحمد لله على كل حال ...

— ولـكن ماذا جرى ياعم ؟ أين ليلى ، أين ابنى يسار ؟

— هذا قضاء الله يا بنى .. لقد كنت نائماً ليلة أمس فسمعت

ضجة فى الطريق ولغطاً ، فخرجت فإذا الناس مجتمعون ، وعلى وجوههم أمارات الذعر الشديد ، وهم يصغون فى خوف شديد ورعب بيّن ، إلى صوت عجيب آت من بعيد ، فأصغيت فإذا صوت عميق مستمر لا ينقطع ، فجزعنا ولم ندر ما هو ؟ فقائل إنها ريح ، ولكنه ليس بصوت ريح ، وقائل هو من أصوات الجن ، وقائل إنه رعد ، وما هو كذلك ، فوقفنا وتهيأنا للنضال ، وحملنا السلاح ، وكان الصوت مستمراً ولكنه جعل يقوى ... ويقترب حتى تبينا فيه هدير الماء ... إنه السيل ! السيل ! وطارت هذه الكلمة على الأفواه ، فأسرع قوم إلى بيوت القرية العالية ، يحسبونه سيلاً كالذى عرفوا من السيل ، لا يبلغ هذه البيوت ؛ وخاف قوم فأسرعوا إلى الجبل ، وقد أعجلهم الخوف فلم يأخذوا معهم غطاء ولا وطاء ، وكنت ممن أمّ الجبل

— وليلى ؟ وليلى ويسار ؟

— لقد بقوا فى البلد ... اسمع يا بنى ، إنها لم تكن إلا ربع ساعة حتى بدا الهول ، نعوذ بالله ... لقد أقبل سيل علوّه أكثر من أربعين مترا ، يتكسر ويقذف بالصخور والحجارة والأشجار فنمر أعلى بيت في المدينة ، واختلط هديره العاتى بصراخ النساء وصياح الأطفال وأصوات الشباب ...

— وليلى ويسار ؟

وانحنى سعد على قدمى الشيخ يقبلهما بجنون ويصرخ :

— وليلى ويسار ؟ أرجوك ياعم خبرنى عن ليلى ويسار ؟

قال الشيخ :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ... لقد أصبح الصباح وليس فى المدينة حجر على حجر ، ولم يبق ممن كان فيها أحد . لقد وجدت الجثث طافية على وجه البرك وغارقة فى الوحل ومطمورة بالأنقاض ، وجثث حملها معه السيل إلى بحيرة العتيبة ، ولم ينج الا من كان على الجبل ، بق بلا مأوى ولا مال ...

— وليلى ويسار ؟ وليلى ويسار ؟

ووثب سعد هائماً على وجهه يصرخ وينادي :

لقد جنّ « سعد الخطار » حزناً على ليلى ويسار !

« بيروت » على الطنطاوى

التشريع والقضاء فى العهد الفرعونى

للأستاذ عطية مصطفى مشرفة

— ٤ —

أما الزواج عندهم فكان نوعين : زواج مدنى تكتسب فيه الزوجة بالشراء ، وكان شبيهه فى روما الزواج المعروف باسم Complio الذى كان خاصاً بالعامة ؛ وزواج دينى يعقد على يد أحد الكهنة ، وكان يقابله عند الرومان زواج Onfarreatio الذى كان قاصراً على الاشراف . وكان المتبع أن يحصل الزواج المدنى قبل الزواج الدينى الذى يقوم بعقده أحد رجال الدين ؛ فكان الزواج بذلك يتم أولا على حسب الأصول القانونية المدنية بطريق الشراء ثم يحصل الزواج الدينى بعد ذلك

وكان ينص فى عقد الزواج على العلاقة المالية بين الزوجين ؛ وكان هذا الاتفاق المكتوب فى صلب عقد الزواج لا يخرج عن طريق من ثلاث : أولها أن يفصل مال الزوجة عن مال الزوج ، وفى هذه الحالة يكون للزوجة أن تتصرف فى مالها دون إجازة زوجها . ثانيها أن يخصص بعض أو كل أموال الزوجة لمساعدة الزوج للقيام بالإنفاق على الأسرة ، وفى هذه الحالة يجب على الزوج ردها بعينها إذا كانت عقاراً أو ردها بقيمها المبينة فى صلب عقد الزواج إذا كانت منقولا . وثالثها أن يشترك الزوجان فى بعض الأموال أو كلها . وسمح القانون للزوجة بأن تشترط فى عقد الزواج أيضاً أن يدفع لها الزوج مبلغاً معينا كغرامة ونفقة لها إذا طلقها الزوج فأعطى لها حق الرهن العام على جميع أموال زوجها ضماناً لما يكون لها من الحقوق عليه . فلما جاء بوخوريس فى القرن الثامن قبل الميلاد وضع القوانين التى تعتبر بحق أصل التشريع الحديث وأعطاه صبغة مدنية بعد أن كانت ذات صبغة دينية . ولقد تأثر بوخوريس عند وضعه شرائعه بقوانين حلفائه الأشوريين والكلدانيين فأخذ عن الكلدانيين مبدأ التعاقد بالكتابة ، فبعد أن كان العقد يتم عند قدماء المصريين قبل بوخوريس بقسم وبحضور

شهود أصبح لا يجوز إثبات حق مدعى به إذا أنكره المدين إلا إذا ثبت بدليل كتابي ، وبذلك أصبح زوال الدين مرهوناً باعطاء سنده . ثم أوجب تسجيل العقود عند كاتب التسجيل فى سجلات مخصوصة نظير رسم معين فأصبح من السهل على أى شخص إثبات صحة سنده

أخذ بوخوريس أيضاً عن الكلدانيين المشتغلين بالتجارة نظام الفوائد فحددها وحرم أن تزيد الفائدة السنوية على ثلث رأس المال ، كما حرم أيضاً زيادة الفائدة على ضعف أصل الدين مهما طالت المدة . وحرم بوخوريس الربح المركب ، وحرم إكراه المدين الجثمانى ، وأبطل استرقاق المدين عند عدم الوفاء ، وجعل التنفيذ قاصراً على أموال المدين دون شخصه

أما فى الأموال فقد اعترف بوخوريس بالملكية العقارية للأفراد بعد أن كان لهم فقط حق الاستغلال دون حق الرقبة ؛ وبذلك أباح بتشريعه هذا حق التصرف فى الأراضى بعقود عرفية ، وبذلك أصبحت تلك الأراضى ضامنة لتعهدات الأشخاص عند عدم وفاء الدين بعد أن كان ضمان الدائن قبل ذلك جثة والد المدين ؛ وكان إذا لم يقم المدين بوفاء دينه قبل موته يحرم من ميزة الدفن وحفلاته

أما فى الإيجار فقد رتب بوخوريس على عقده أن تصبح جميع أموال المستأجر مرهونة رهناً عاماً لوفاء الأجر المتفق عليه . وألغى بوخوريس الزواج الدينى الذى كان يتم على يد الكاهن وأصبح الزواج مدنياً ، واكتفى بالرضا فيه ليتم كباقى العقود . وكان للذكر مثل حظ الأنثى في الميراث . وكان لا يجوز للرجل أن يتزوج بأكثر من زوجة . وجعل بوخوريس حق الرهن العام الذى للزوجة على أموال زوجها يتم بقوة القانون دون حاجة للنص عليه فى صلب عقد الزواج كما كان متبعاً قبل ذلك

من ذلك نعلم أن اصطلاحات بوخوريس التشريعية شملت الأموال والأحوال الشخصية والالتزامات ، وبذلك أوجد للمصريين قانوناً عادلاً للتجارة والمعاملة . ويؤسفنا أن نقول : إن هذه الاصلاحات التشريعية التى قام بها هذا الملك لم تبق طويلاً لأنه فقد عرشه بعد نحو سبع سنوات فاستولى الأثيوبيون على مصر وأسسوا بها الأسرة الخامسة بعد العشرين . وكان أول عمل لهم أن أبطلوا العمل بشرائع بوخوريس وألغوا الملكية الفردية العقارية ومنحوها للإله آمن ؛ وبذا اقتصرت ملكية الأفراد على حق الاستغلال دون الرقبة ، وسمح لهم بأن يتصرفوا داخل دائرة أسرتهم فقط وبعد موافقة كهنة آمن لهذا التصرف فى مقايضة أرض بأرض . ولما ظهر الملك أمازيس أو أحمس الثانى — وهو من ملوك الأسرة السادسة بعد العشرين — حتم على كل مصرى أن يثبت فى آخر كل سنة اسمه ولقبه وصناعته وسبل تعيشه فى سجل وضع خصيصاً لهذا الأمر فى محكمة الجهة القاطن بها ؛ وهذا النظام المبنى على تقسيم العمل وارتباط المصرى بمكان نشأته كان سبباً فى تماسك أفراد الأمة ورقيها اجتماعياً واقتصادياً وصناعياً ، وكان عاملاً قوياً فى توزيع الفلاحين على الأراضى الزراعية

تأثرت شريعة أمازيس بالشريعة الإسرائيلية بعض الشيء فأخذت جزءاً كبيراً من مبادئها عن اليهود النازلين الذين كانوا مقيمين بمصر إذ ذاك

أرجع أمازيس العمل بقانون بوخوريس فأباح لأصحاب الأراضى حق التصرف التام فى أراضيهم بأن أعطاهم حق ملكيتها التامة ثم أرجع مبدأ ثبوت العقود بالكتابة واحتفظ بحد الفوائد القانونية التى قررها تشريع بوخوريس ، وجعل الالتزام بعقد ملزم لطرف واحد ، وأدخل طريقة الاشهاد فى الميزان فى سائر العقود الناقلة للملكية وفيها البيع ، فكانت تطبق على المنقولات الجامدة ، المراد نقل ملكيتها ، وعلى المنقولات الحية كالحيوانات والعبيد كما طبقت على العقارات لصبغة شكلية كما كانت تطبق أيضاً فى التبنى ، وكان يجب لإتمام العقد من وجود ميزان وقطعة من النحاس والعين المراد نقل ملكيتها ، فيحضر طرفا العقد والشهود ، وهنا يمسك المشترى بالعين المراد نقل ملكيتها مقرراً أنه اشتراها بالثمن المقدر بالميزان ، ثم يضرب الميزان بقطعة النحاس مشيراً بذلك إلى وزن الثمن . لذلك كان الميزان يستخدم لغرضين : أولهما وزن العين، وثانيهما وزن الثمن ؛ وكان يحرر بهذه الاجراءات عقد كتابى

وكان يطبق فى الزواج اجراءات الاشهاد بالميزان ؛ وكان

الزواج يتم بطريق الشراء ، إلا أن الزواج الدينى لم يلغ بتولى أمازيس ، إذ ركن إليه نفر من المصريين المتعبدين . وبذلك بقى الزواج الدينى أيضاً بجانب الزواج المدنى فى حكم أمازيس ردحاً من الزمن

ولقد فقدت الزوجة المركز الممتاز الذى كان لها فى القانون القديم وقانون بوخوريس إذ أصبحت فى قانون أمازيس هي وأموالها ملكا للزوج تحت تأثير الشريعة اليهودية . من هذا نرى أن أمازيس قد هذب القوانين المصرية وأفرغها بعد أن نقح قوانين بوخوريس فى مجموعة سميت بمجموعة قوانين أمازيس سنة ٥٥٤ ق . م

وفى عهد الأسرة الثامنة بعد العشرين تولى الملك أمرنوت أو أمرتوس أو نفيريت واستمر فيه حتى سنة ٣٩٩ ق . م فأمر بتشكيل لجنة لتعديل مجموعة شرائع بوخوريس وتنقيحها فأدخلت اللجنة عليها التعديلات الآتية : وهى أن جعلت سريان الفوائد تبتدئ من يوم حلول ميعاد الدفع ، واعترفت بعقد الرهن (الغاروقة) الذى فيه يعطى المدين عقاره للدائن يستغله وينتفع به لنفسه لحين تمام وفاء الدين . وقد استمر العمل بهذه المجموعة المعدلة بمصر اثناء المدة الباقية من العهد الفرعوني . أما قوانين قدماء المصريين الجنائية فقد صاغوها فى مواد كفلت لهم استتباب الأمن واطمئنان الشعب وقطع دابر البطالة ومنع الغش والتدليس إلى غير ذلك ؛ وذلك بالضرب على أيدى المفسدين ومعاقبة المجرمين بالعقاب الرادع الزاجر ، فكانوا يحكمون بالاعدام بقطع الرأس أو بالشنق على كل من يحلف يميناً كاذبة أمام المحاكم ، وعلى كل من يقتل نفساً عمداً بغير حق مع سبق الاصرار سواء أكان المجنى عليه حراً أم عبداً ، وعلى كل من رأى إنساناً يشرف على الهلاك وكان فى مقدوره أن ينجيه ولم يفعل ، وعلى كل من قدر على تخليص المقتول من القاتل أو القتلة بدون حق ولم يخلصه ، وعلى كل من ظهر أنه يعيش بطريق غير شرعى

وكان يحكم بالعذاب ثم بالحرق حياً على كل من يقتل أحد أبويه عمداً ، فتقطع أصابعه أولا ثم يحرق . وكان الحكم لا ينفذ على الحبلى حتى تضع حملها لئلا يعاقب الطفل البرئ ، وبذلك سنوا لنا حكمة أن العقاب قاصر على المجرم لا يتعداه إلى غيره

وكانوا يبيحون إقامة الحدود على الأموات كما تقام على الأحياء فيمنعون من أتى جرماً ومات قبل تنفيذ الحكم عليه من الدفن مع الاحترام

وكانوا يحكمون بالجلد على كل من سب غيره أو وشى به . وكان جزاء الآباء والأمهات الذين يقتلون أولادهم ذكوراً كانوا أم إناثاً معانقة الجثة والبقاء بجانبها ثلاثة أيام بلياليها تحت رقابة الحراس العموميين

وكانوا يحكمون بسل لسان من يهدى عدواً مهاجماً إلى السبل أو يطلعه على أسرار وطنه ومواضع الضعف فيه . وكانوا يقطعون يد من يطفف الميزان والكيل ، أو من يزيف النقود ، أو يقلد خاتم الأهالى والسلطان ، أو يزور فى العقود العرفية أو الأوراق الرسمية . وكانوا يقصرون العقوبة على العضو الذى قام بعمل الجريمة

وكان يشهَّر على رؤوس الأشهاد بكل ولد لم يقم بالإنفاق على أبويه العاجزين عن الكسب ، وليس للولد على الوالدين مثل ذلك . ويحكم بالتشهير أيضاً على كل جندى فر يوم الزحف أمام العدو ، وعلى كل من لا ينفذ أوامر رؤسائه . وكان لمن حكم بتجريده من شرفه وفضيحته أن يسترد شرفه واعتباره ، وبذلك تنمحى العقوبة نهائياً إذا قام بأعمال مجيدة بعد ذلك لوطنه فى ميدان القتال

وكانت عقوبة كل من به عاهة تمنعه من إنقاذ شخص قتله آخرون أمامه ولم يبلغ الجهات المختصة عن الجريمة ومرتكبيها منع الطعام عنه ثلاثة أيام وجلده . وكان يحكم بهاتين العقوبتين معاً أيضاً على كل من كلف بالإرشاد عن قطاع الطرق وتسليمهم للمحكمة ولم يفعل ذلك . وكان يحكم على المدعى بالباطل على غيره بنفس الحكم الذى يحكم به على المتهم لو صحت الجريمة . وكان يحكم على كل من حلف من المتهمين أو الشهود بالإله آمن وبالملك بأن يقول الصدق ولم يقله بجدع الأنف وصلم الأذنين وبالنفى فى أثيوبيا أو إلى ما وراء حدود المملكة

وكان لآمُن أن يحكم بفقدان الشرف وما يترتب عليه الحرمان من الوظائف العامة

« تم البحث »

عطيه مصطفى مشرفة

أبو الفرج الببغاء

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

— ٣ —

لأبي الفرج الببغاء فى أحاديث الطيف ومناجاة الخيال شعر أفعم حسنا وجودة وعذوبة وحلاوة، ومعان ملئت جمالاً وروعة وصفاء ورقة؛ حتى لكأنى به قصد إلى أن يميل ذوى الصبوة والهوى إلى وصال طيف الحبيب ورسمه لا شخصه وجسمه، فهو يعلمهم كيف يتسلون بمناجاة القلوب عن مداعبة المحبوب، ويدعوهم مفتنا إلى هذا اللون من الوصال الذى لم يدعهم إليه قبله أحد فى مثل رشيق تعليله وبديع تصريفه وعجيب لعبه بالخيال وجميل استلهامه المعاني، فمن ذلك قوله:

علمت طيفك إسعافى فما هجعت   عيناى إلا وطيف منك يطرقنى

فكيف أشكر من إن نمت واصلنى   بالطيف منه وإن لم أغف قاطعني؟

فمن من العشاق الولهين لا يرقب أن يسعده ذلك الطيف الطارق، ولا يشترى الكرى بكل ما يملك إذا علم أنه لا سبيل سواه إلى الوصال، وهو داعية المتعة بالحسن والجمال، وإن الغفوة نهزة رسول الحبيب، ينتهزها ليشفي بها حر الوجيب؟ وأين من هذا قول ابن المعتز فى مثل هذا المعنى وهو ملك الشعر ولا سيما فى هذا الضرب:

شــفانى الخيال بلا حمدة   وأبدلنى الوصل من صده

وكم نومة لىَ قوَّادة   تقرب حِبي على بعده

وإنها لجفوة جافية — لا نعرفها فى ابن المعتز — ألا يحمد من يشفيه، وألا يستحق شكره مبعوث حبيبه المصطفيه، وينسب ذلك إلى نومة قوادة لا تستأهل حمداً، ولا يستجيز لها أحد شكراً، لأنها أتت شيئاً نكراً لا أظن ابن المعتز يستميحه لنفسه فى اليقظة، فكيف يستملحه فى الغفوة؟ ولو أنه قال:

وكم نومة لى مزدانة   بوصل حبيبى على بعده

لكان — فيما أرى — أكثر توفيقاً وأنبل خيالاً وأعف لفظاً وأكرم حباً. ومما قاله أبو الفرج فى الطيف أيضاً:

يا طيف من أنا عبده من أين لى   شكر يقوم ببعض ما توليه

ينأى فتدنيه إلىَّ على النوى   فأراه كالتحقيق فى التشبيه

ما كان أحسن حالتى لو أن ما   أوتيت من كرم وعطف فيه

ولا يساورنى شك فى أن هذه الأبيات أروع خيالاً وأسطع فى معناها جمالاً من أبيات تحاكيها للبحترى قال:

طيف الحبيب ألمَّ من عُدَوائه   وبعيد موقع أرضه وسمائه

يهدى السلام، وفى اهتداء خياله   من بعده عَجَب وفى إهدائه

لو زار فى غير الكرى لشفاك من   خبل الغرام ومن جوى برحائه

الحق أن ديباجة أبيات البحترى ناصعة مجلوة، ونسجها محمل مفوف، ولكنى مع هذا أرى العجب العاجب من عَجَب البحترى لاهتداء خيال محبوبه إليه من بعيد عدوائه ونائى صحرائه وإهدائه السلام إليه. فكيف يكون حبيباً من يضل محبة طيفه مهما نأى عنه جسمه؟ ومن هو أولى من المحب المستهام بإهداء السلام؟ ولعل خبل الغرام هو موحى ذلك الخيال، وإلا فمن يجحد حتى غير العشاق — أن الأرواح تتناجى وتتواصل، والقلوب تتآلف فتتراسل؛ سواء فى ذلك تباعدت الأجسام أو تقاربت، وتناءت الأبدان أو تدانت؛ فتلك حقيقة لا سبيل إلى نكرانها. وهلا قال كما قال أستاذه أبو تمام:

استزارته فكرتي فى المنام   فأتانى فى خيفــة واكتتام

فالليالى أحفى بقلبى إذا ما   جرحته النوى من الأيام

يا لهـا ليـلة تنزهت الأر   واح فيها سراً من الأجسام

مجلس لم يكن لنا فيـه عيب   غـير أنا فى دعوة الأحـلام

واستمع إلى هـذا العتب الحلو العبارة، الرقيق الاشارة، والاستعطاف البارع اللطيف يكشف به لحبيبه عن غرام ويستوحيه فيه وصله، إذ يريه أن خياله أعظم به رأفة وطيفه أكثر عليه عطفاً، إذ يواصله فى غفوة العيون؛ ولو أنه وجد سبيلا إلى المواصلة في اليقظة وعلى مسمع الرقباء لفعل؛ لحظره عليه السِّنة ومنعه عنه النوم، قال:

خيالك منك أعرف بالغرام   وأرأف بالمحب المستهـــام

فلو يستطيع حين حظرت نومى   علىَّ لزار فى غـير المنام

ومن غزله العذب ووصفه الدقيق الممتع قوله:

يا من تشابه منه الخَلق والخُلق   فما تسافر إلا نحوه الحدق

توريد دمي من خديك مختلس
وسقم جسمي من جفنيك مسترق
لم يبق لي رمق أشكو هواك به
وإنما يتشكى من به رمق

ومثله قول أبي فراس الحمداني ، وكأني بهما ينهلان من معين واحد ، أو أن أبا الفرج جرى في ميدانه لما أعجبه حسن بيانه ؛ وما من عابٍ عليه أن يسير على نهج أبي فراس ، فهو في الشعراء ملك وفي العلياء فلك ، قال :

وشادن قال لي لما رأى سقمي
وضعف جسمي والدمع الذي انسجما
أخذت دمعك من خدي وجسمك من
خصري وسقمك من طرفي الذي سقما

وترى أن بيتي أبي فراس أنضر معنى وأوفر حسناً ، وأجزل رقة وأجمل دقة من أبيات أبي الفرج ، وإن كلمة تسافر لنابية في مكانها ، قلقة في موضعها ، لأن الحدق لا يسافر ، وإنما هو ينتقل أو يتحول ، كما أن السقم لا يسترق إلا إذا كان مسترقه يسعى إلى حتفه بظالفه كما يقولون

ولو أنا أردنا لغزله العنيف استقصاء ، ولنسيبه الطريف إحصاء ، لطال بنا الشوط وما بلغنا الغاية ؛ فلنختم غزله بأبيات بعث بها إلى حبيب رمدت عيناه فأبدع أيما إبداع في الأسى لأساه ووصف حمرة عيني حبيبه ، وهي تلك التي تفدى لرؤيتها العيون ، وتتأذى من النظر إليها الأبصار وصفاً جعلها مما يسعد لرؤيتها الطرف ، وصورها تصوراً تطمئن له النفس ، قال :

بنفسي مايشكوه مَن راح طرفه ... ونرجسُه مما دهى حسنه ورد
أراقت دمي ظلماً محاسن وجهه ... فأضحى وفي عينيه آثاره تبدو
غدت عينه كالخد حتى كأنما ... سقى عينه من ماء توريده الخد
لئن أصبحت رمداء مقلة مالكي ... لقد طالما استشفت بها أعين رمد

والوصف في شعر أبي الفرج له المقام الأول ، فجل فنون شعره يحليها الوصف ، وتنتظم التشبيهات الدقيقة الخلابة ، والأوصاف البارعة الجذابة ؛ وإن وصفه ليبلغ ذروة الإجادة والإحسان ، ويصل إلى منتهى الجمال والجلال عند ما يصف الحرب ، أو ما يتصل بها من حشد الكتائب وتسيير الجحافل ؛ وقد عرفنا أن طبيعة كل امرئ أن يحسن فيما يحبه ، وأن يجيد القول فيما يرغبه ، فلعلَّ أبا الفرج كان من رجال الحرب وأبطالها .

أصخ إليه يصف جيش سيف الدولة ، فإنه ليصك الآذان بريح الحرب تدوى في قصيده ، فقصف الرعد وزمزمته دون صهيل الخيول ، ووميض البرق ولمعانه لا يبلغان بريق السيوف ، وحوافر الخيل أهلة ونجوم تنافس ذكاء ، تلك تضيء في السماء ، وهذه تتطاير رجوماً للأعداء ، وعين الشمس قد طرفها بعثيره ولكنها احتملته وجعلت منه إثمداً تكتحل به وتستشفي ؛ كل ذلك في ألفاظ جزلة وعبارات ضخمة ، وطبع قوي ، وخيال سري ؛ لا ينال من جماله ناقد ، ولا يحط من جلاله حاقد ، قال :

قاد الجياد إلى الجياد عوابساً ... شُعثاً ولولا بأسه لم تنقد
في جحفل كالسيل أو كالليل أو ... كالقطر صافح موج بحر مزبد
متوقد الجنبات يعتنق القنا ... فيه اعتناق تواصل وتودد
مثعنجر بظبا الصوارم مبرق ... تحت الغبار وبالصواهل مرعد
رد الظلام على الضحى فاسترجع ال ... إظلام من ليل العجاج الأربد
وكأنما نقشت حوافر خيله ... للناظرين أهلة في الجلمد
وكأن طرف الشمس مطروف وقد
جعل الغبار له مكان الإثمد

وهذه أبيات من قصيدة أخرى يمدح بها أبا شجاع فاتك بن يانس ، ويصف فيها إحدى وقائعه الحربية التي خلدتها هذه القصيدة بما جاء فيها من تشبيه رائع ، ووصف جامع . وأي خلود لموقعة انقلب نهارها ليلاً غاسقاً ، لا يكشف حلكته إلا كر الفرسان في الميدان ومبادلة الضراب والطعان ، بأسياف لامعة ، وصوارم بارقة قاطعة ، حتى استحال البر بحراً بما سال في جنباته من دماء الشجعان ، ورأى الأعداء أن الفرار رمز الانتصار ، وأن أعظم فروسية يعتز بها أن يستطيعوا إعطاء الجياد القياد ، لا أن يثبتوا للجلاد والذياد . قال :

واليوم من غسق العجاجة ليلة ... والكر يخرق سجفها الممدودا
وعلى الصفاح من الكفاح وصدقه
روع أحال بياضها توريدا
والطعن ينتصب الجياد شيانها ... والضرب يقدح في التريك وقودا
وعلى النفوس من الحمام طلائع ... والخوف ينشد صبرها المفقودا
وقد استحال البر بحراً والضحى ... ليلا ومنخرق الفضاء حديدا
وأجل ما عند الفوارس حنها ... في طاعة الهرب الجياد القودا

حتى إذا ما فارق الرأي الهوى   وغدا اليقين على الظنون شهيدا
لم يغن غير أبي شجاع والملا   عنه تناجى النصر والتأييدا

وتكفينا في وصف الحرب هاتان القطعتان فهما تغنيان عن قصائد وتبينان عما له في الوصف الحربى من قدم راسخة وأخيلة سامية ؛ ولنعرض لأشياء أخرى وصفها فأجاد ، فمن ذلك قوله يصف فرساً :

إن لاح قلت : أدُمية أم هيكل ؟   أوعنَّ قلت : أسابح أم أجدل
تتخاذل الألحاظ فى إدراكه   ويحار فيـه الناظر التأمل
فكأنه فى اللطف فهم ثاقب   وكأنه فى الحسن حظ مقبل

وهو من أجود ما وصفت به الجياد ، ومن أحسن ما استحدث فى تشبيهها بالفهم الثاقب والحظ المقبل ، كما أنه أتى فى وصف سرعتها بما لم يأت به الكثير ممن وصفوها قبله ؛ فأى سرعة تلك التى تتخاذل الألحاظ دون إدراكها ، ويحار الطرف المتأمل في معرفة كنهها ؟ ومن قصيدة له فى وصف النرجس وهى من خير ماقيل فيه :

ونرجس لم يعد مبيضه الـكأس ولا أصفره الراحا
تخال أحداق لجين حوت   من أصفر العسجد أقداحا
كأنما تهـدِي التحايا به   لطفاً إلى الأرواح أرواحا
يلهى عن الورد إذا مارنا   ويخلف المسـك إذا فاحا
أحبب به من زائر راحل   عوض بالأحزان أفراحا
فانتهز الفرصـة فى قربه   وكن إلى اللذات مرتاحا

وله يصف الورد ، وقد ألمَّ فى الأبيات بوصف مجلس الأنس فأبدع فى الغرضين ، وفوق فأصاب فى الرميتين ، وأتى بأنواع من البديع أزهر من أزهار الربيع ، فأشرقت ديباجة شعره عن در منضود وأسفرت عن جوهر منظوم قال :

زمن الورد أظرف الأزمان   وأوان الربيع خير أوان
أدرك النرجس الجنى وفزنا   منهما بالخـدود والأجفان
أشرف الزهر زار فى أشرف الدهـر   فَصِلْ فيه أشرف الإخوان
واجلُ شمس العقار فى يد بدر الـحسن يخدمك منهما النيران
وأدرها عـذراء وانتهز الإمـكان من قبل عائق الإمكان

وقال يصف قدحاً أزرق قد صورت عليه تهاويل ورسم عليه نقوش وتصاوير ، تحسده عليها كئوس لم تنل مانال من زينة منحته شعراً خالداً :

كم منـة للظلام فى عنقى   بجمع شمـل وضم معتنق
وكم صباح للراح أسلمنى   من فلق ساطع إلى فلق
فعاطنيها بكراً مشعشعة   كأنها فى صفائها خلق
فى أزرق كالهواء يخرقه اللحـظ وإن كان غـير منخرق
كأن أجزاءه مركبة   حسناً ولطفاً من زرقة الحدق
مازلت منـه منادماً لعباً   مذ أسكرتها الشفاه لم تفق
تختال قبل المزاج فى أزرق الـفجر وبعد المزاج فى الشفق
تغرق فى أبحر المدام فيسْـتنقذها شربنا من الغرق
فلو ترى راحتى وزرقتـه   من صبغها فى معصفر شرق
خلت أن الهـواء لاطفنى   بالشمس فى قطعة من الأفق

وحسبنا من وصفه المتع ما قدمناه ففيه صورة رائعة له ، ورسم صادق لشعره ، يملأ النفس روعة وإعجاباً . وإلى عدد تال نذكر أمثلة لبقية أغراض شعره ونماذج من نثره إن شاء الله

عبد العظيم على قناوى

مقالات اسماعيلية

لأستاذ جليل

حلّ برَقَادَةَ المسيحُ   حل بها آدم ونوحُ (١)
حل بها (الله) ذو المعالي   وكلُّ شيء سواه ريحُ (٢)

***

هذا (مَـعَدٌّ) والخلائق كلُّها   هذا (المعزّ) متوَّجاً والدينُ
هذا ضميرُ النشأة الأولى التي   بدأ الإلهُ ، وغيبُها المكنونُ
من أجلِ هذا قُدِّر المقدور فى   أمِّ الكتاب ، وكُوِّنَ التكوينُ
فارزقْ عبادكَ منكَ فضلَ شفاعة   واقربْ بهم زلفى فأنتَ مكين (٣)

***

هذا ما وُعِـدَه العالمون والمتعلمون المثقَّفون قرّاء (الرسالة الهادية) من (المقالات الاسماعيلية)، وإن الناس منذ الأزمنة القديمة ليتطلعون إلى علْمِ نحلة القوم ، وإن الباحثين فى الشرق والغرب ليجدّون مفتشين منقبين فى كل وقت عن تلك المقالات لينشروها ، إذ أنَّ أهلها فى القديم والحديث قد خبؤوها وكتموها — وياليت شعرى أيّان يريدون أن يعلنوها ؟ — ولم تفدنا كتب (الملل والنحل) لمثل الشهرستانى والأشعرى وابن حزم والبغدادى والتصانيف فى (مفاضح الباطنية) لمثل الغزالى وابن تيمية — إلا نُتَـفاً نُتِشت من مكنونات الجماعة نتشاً . وليس هناك كتاب معروف مطبوع ظاهر ألَمَّ بمذهب (الاسماعيليين) إلا (رسائل إخوان الصفاء) فإن فيها خلاصة الاسماعيلية ملفوفة بإسلامية لَفّ ماكر داهٍ ، وهى الاسماعيلية ، هي الباطنية ، وهم الدهاة دعاتها !

وقد تَوّه ما فيها علماء متعمقين كأبى حيان التوحيدى وشيخه أبى سليمان السجستاني وغيرهم فى المتقدمين ، وحيّر حاذقين ألمعيين من المتأخرين من أعجميين وعربيين مثل (باريبه دومينار) والدكتور طه حسين . ولولا أن الأمر استعجم عليهم ماقال أبو حيان وشيخه مثل الذى رواه القفطي في كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء)، وما كان الدكتور طه حسين سطر في (مقدمته) لتلك الرسائل ما سطر ، ولم يكتب دومينار إلى الأستاذ أحمد زكي (رحمه الله) ذلك الكتاب . وإذا كان أمثال هؤلاء البارعين النحارير قد حاروا ودير بهم « فهم فى أمرٍ مَريج » فكيف حال من هم دونهم ؟

والقصد من هذا الكلام أن (مقالة) الجماعة — وإن ضمنها تلك الرسائل المطبوعة المنشورة — لم تنفك مستورة محجوبة . وقد قال لى منذ بضع سنين (الدكتور حسين الهمدانى (١))

---

(١) رقادة : بلدة كانت بأفريقية بينها وبين القيروان أربعة أميال ، والمعروف أن الذى بناها ابراهيم بن احمد بن الأغلب ، وكان تغلب عبيد الله الملقب بالمهدى عليها سنة ٢٩٧ (معجم البلدان) . وعبيد الله هذا (ويقال ان اسمه سعيد وعبيد الله لقبه) هو جد العبيديين الذين ملكوا فى المغرب ومصر ، وفى نسبه اختلاف كثير كما قال (ابن خلكان) وشرح حاله يطول

(٢) (الله) : عبيد الله ... والبيتان قيلا فيه حين قدم رقادة ، وهما لبعض الشعراء ، وقد نسبا إلى ابن هانىء الأندلسى خطأ ، وأثبتهما ناسخ ديوانه وطابعوه فيه

(٣) لابن هانىء الأندلسى ، والشاعر لم يسلك فيما يقول طريق الشعراء فى المبالغة والغلو بل قال ما يعتقده هو وما يريده ويدعيه (العبيدى) وربما عد (المعز) ابن هانىء مقتصداً أو مقصراً ، وإن كانت تلك النونية الساحرة الفتانة قد ظفرت بخمسة عشر ألف دينار « والله يرزق من يشاء بغير حساب » ، ومن قول ابن هانى فى المعز .

هو علة الدنيا ومن خلقت له   ولعلة ما كانت الأشياء
ليست سماء الله ما ترأونها   لكن أرضاً تحتويه — سماء

جاء بلفظة (ترأى) على الأصل

(١) كنت قد رأيت فى ثلاث صحف ، أشياء فى (إخوان الصفاء ورسائلهم) كلها تخاليط فنشرت فى جريدة (البلاغ) الشهيرة فى ٢ صفر ١٣٥٣ مقالة عنوانها (الاسماعيلية ورسائل إخوان الصفاء) منها هذه السطور : (للنحلة الاسماعيلية دعوتان : دعوة قديمة وأهلها اليوم اسماعيليو اليمن ، ودعوة جديدة وإمامها (آقاخان) المشهور ؛ والأولى لاتأتم به ولا تعرفه . ومن شيعة الدعوة القديمة الدكتور حسين الهمدانى أستاذ تاريخ الاسلام فى جامعة بومباي . قال — حين تلاقينا وقد ذكرنا الاسماعيلية ورسائل إخوان الصفاء — : إن الاسماعيلية يرون القرآن الكريم كتاب العامة ، الجمهور ، ثم لطف اللفظة فقال : الأمة ، ويرون رسائل إخوان الصفاء كتاب الأئمة . فعالناه رأينا في تلك الرسائل ثم ذكرنا له للمخالفة وابتغاء الايناس قول (المعلمة) أو دائرة المعارف الانكليزية في التربية والتعليم (وهى غير تلك الكبرى) فى رسائل إخوان الصفاء وهو : (إن الاسماعيلية قد أفضلت إلى فن التربية والتعليم برسائل إخوان الصفاء) ثم قلنا له : قد قرأنا تلك الرسائل ولخصنا نحلة الاسماعيلية فى هذه الجملة : (الاسماعيلية قنطرة (جسر) بين الاسلام والالحاد) فأخرج الدكتور الهمدانى دفتراً وكتب قولنا وقال : ما سمعت بأحسن من هذا) وقد أطلعنى العلامة الأستاذ (خليل مردم) على رسالة مطبوعة للدكتور الهمدانى فى (رسائل إخوان الصفاء) فوجدته قد روى تلك المقالة كلها عن (البلاغ)

— وهو من شيعة الدعوة القديمة للاسماعيلية — إنه قد اطلع على مئة مخطوطة من كتب القوم منها (زهر المعانى) الذى أخذ بمؤلفه فيه درجة (الدكتوراه) من جامعة فى لندن ، وأنه عازم على نشرها أو نشر طائفة منها . أفنقول — ولم تحقق تلك الأمنية المتمناة — : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون » أم نرتقب تلك الكتب فى المرتقبين ؟

إذا ضنَّ الأضنّاء بالضنائن[(1)] ولم تصل أيدينا إلى تلك الخبايا فى المخادع والزوايا ، فليس لنا إلا غزو الغازين من الغربيين ، والغازى — وإن كان قوياً — يُغزي ... والناهب — يا أخا العرب — يُنهب ...

وكنت إذا قومٌ غزونى غزوتهم
فهل أنا فى ذيّاك (همدانُ) ظالم[(2)]

وقد قلت لإسلاميتى (الصحيحة) وعربيتى — وأنا أنسج ما ستتلوه — : قفا واسمعا ولا تتكلما . لا تجادلا ولا تناقشا ، فليس المقام مقام جدَل ، ولا عدْل ميَل ، فالمقالات — والنيّة هذه — تحكى كما وجدت ، وتعطى كما أخذت ؛ وإن وجد الخطأ اللغوى لا يُصلح ، وإن جاء تصحيف أو تحريف فى كلمة أو جملة — حاشا الآيات القرآنية — يُستبْقى ، وليس لدى نسخة ثانية حتى أرجع إليها . ورب إبقاء على شىء خير من تغييره ، والقارئ الفهِم لا تخفي عليه الكلمة محرفة ولا تستبهم . ولن يصدنا ذلك عن تعليق أو حاشية

ولو قلنا لأصحاب لنا أدباء فاضلين من (الحاكمية) و (الاسماعيلية) فى بر الشام ممن لا يعبدون (العَـدَم) وقد عبَـد الأجداد والآباء (العبيديين) وإن كانوا هم — أى الأبناء المثقفون — بعبادتهم كافرين . فلو قلنا لهم : أطلِعونا ياجماعة على رسائلكم حتى نعارض (نقابل) هذه (المقالات) بها ونصلحها لقالوا : ما عندنا ولا نعرفها ، وإنا مسلمون ؛ وإنها لديهم ، وإنهم يعرفونها ، ولكن التشيطنين يكتمون ...

ولم يك فى المقالات هذا المسمى بعلامات الترقيم — إلا فى اثنتين — فرأيت وضعه حتى لا تقتحم العين الصفحة قد التصق بعضُ عباراتها ببعض فكدّ البصر ، وما هذا الصنع بأمر نكر

وقدرُ هـذه (المقالات) عظيم . ومن عرف نحلة القوم أو ألمّ بها أدرك مما يتلوه مما نمليه ما لا يدركه غير العارف ؛ ولو درى شيئاً من اصطلاحات الباطنية الذين قالوا تائهين ضالين ماقالوه فى (رسائل إخوان الصفاء) ما جاءوا خابطى عشوة ، وصاروا في عصر البحث والتحقيق ضحكة . ومن قذف بمقال لا ينصره نص ولا يسانده دليل ، فهو هذِر ، وكلامه هدَر ...

واعلم أن هذه الاسماعيلية لم تظهر فيها حتى اليوم كتب قديمة تبين كيفية بدئها وحقيقة حالها تبييناً صحيحاً موضحاً شافياً ، ولم يهد بحث الباحثين فى هذا الزمن إلى شىء من ذلك

قلت مرة لعالم عاقل إسماعيلي : دعْ قول الإسماعيلية فى أصلها ودع حديث خصمها ، فهل أوصلك تحقيقك الناقد ، وتفتيشك المدقق ، إلى مصدرها الصحيح ومنبعها ؟

فقال : لا

فنحن من نشوء هذه النحلة في ظلمات بعضها فوق بعض . ولعل كتباً قديمة تنجم فتضىء هذا الليل المظلم . ورب علماء محققين لا يجتزئون بالقريب المعروف ، بل يمشون أقوياء أشداء صابرين في فلوات البحث فيصلون إلى (عين المعرفة) ؛ وربّ غوّاصين يغوصون فى بحور البحث والتنقيب غوْصات إثر غوصات فيخرجون لنا شيئاً . ولن يجىء بالدر إلا الغواصون الماهرون

***

فصل فى مناجاة المعز لدين الله

قال هذه :

(إلهي) كنت رتقك ، قبل أن تظهر فىّ بفتقك ، وأوجدت عنى خلقك ، وصدرت عنى دنياك فى الذات والأسماء والصفات . ولست أنا بك متصلا ، ولا عنك منفصلا ، إذ أنا بك تبعيض ، وأنا راجع إليك عند النقلة والتفويض . انقلْ الصورة كيف تشاء ، وأعط النور الإلهى لمن تشاء بما قدمت أيديهم ولا نضم مثقال ذرة . (إلهى) انى كما أنت عظيم فى سلطانك ، وأنا قدرتك وبرهانك ، وإرادتك ومكانك . (إلهى) بمعرفة بى استجبْ وسلمْ وأشرقْ ألوانك ، وإنى وجدتك بعد أن عرفتني التلاقي ،

---

(١) ذكرتنى هذه العبارة (الضادية) برسالتى ابن الحريرى (السينية والشينية) وقسما بلغة (الضاد) ما تكلفت ذلك

(٢) مالك بن حريم ، وبعده :

متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

واتلف واضمحل . (إلهى) وأُفنى من جهلك ، وفاز وبقى من عرفنى بالبداية وفضلك . (إلهى) أترى يعرفك سواك ، ويدنو منك إلا إياك ، أم يعدو إليك من خرج عن طاعتك ، وطاعة حدودك وأوليائك . إلهى بك استدللت ومنك وصلت وإليك[(١)] (إلهي) ليس غيرى لك حجاب ، فكيف الوصول إليك من غير باب ، فأنا منك بحيث النهوض والنهمة ، وأنت أنا بحيث أنا القدرة والعظمة ، وحيث أنا بك خلقت أولياءك ، وبدعت ملائكتك وأنبياءك ، فلما عرفتك كنت ذلك ، إذ ليس يعرفك سواك ، ويدنو منك إلا إياك ، باتصالك بحدودك وأوليائك . (إلهى) إن كثرت الأشخاص ، فهى أنت بلا اختصاص ، وأنا منك بديت ، لأنى بحدودك اهتديت ؛ ان عرشك عليه استويت . (إلهى) أوجدتني منك فى ظاهر الأمر بصفة كانت الموجودات على دفعة واحدة ، فأنت بى باطناً وأنا بك ظاهراً . (إلهى) ظهرت الموجودات كلها بى ، واخترعت منى كل رسول ونبى ، وأنا ابن لك وأنت أبي . أنا منك كالفيض ، وشراقه وليف[(٢)] فليس الفيض غير الفيض ، فقد غاب ، واضمحل كما فى النار وذاب . (إلهي) رامت رؤساء الجهل وأهل العمى والضلال وذوى الانكار والجحود[(٣)] ، وأنهم خرجوا من العدم إلى الوجود ، وهم فى العدم . يا (إلهى) وصلت إليك ، ومنك دخلت عليك ، فأنا قدرتك الظاهرة ، وعنى ظهرت آياتك الباهرة . إلهى حفنى[(٤)] ابتلاؤك ، لأنها حلاوة رضائك ، فنفسى منك وإليك انتهت . (إلهى) ظهرت للخلق حتى يعرفوك من حدودك فحجبتهم عنك لما زادونى إنكارك ، وذلك أنهم ضلوا فى التكبر عن أبيهم ، فلم يجدوا لهم مرشداً أبداً يهديهم ، فأظهروك بي لأنى أنت ، وكونى بك ظاهر ، وأنت فىّ حاضر . (إلهى) أنا الكرسى والمكان ، والوقت والزمان ، وأنا منشىء المتقلات ، وأنا بك عالم ما يكون وما كان . (إلهى) أنا اسمك وموجود اسمك ، وأنا البشير إليك ، والدالّ عليك ، والدالّ على من دالّ[(٥)] عليك ، فمن تمسك بحدودك نجا ، والصورة معادة ورآء ليس دونك حجاب غيره فقصده لا بلاء سواك بأوحد[(١)] ولا لك اسم سواي فيستطاع ويعبل ، وأنا صاحب البقاء ، وعلى ذات النطقاء ، وأنا فىّ النطق . (إلهى) قصرت لذاتك إنكار الباحثين إذ لم يقصدوا لحجابك ، وأحجبتهم[(٢)] عن معرفتك إذ لم يدخلوا إليك من بابك ، فهلكوا لما أنكروا لكلمتك ، وتاهوا لما عجزوا عن معرفتك . (إلهى) أنت ذاتى ونفسى ، ومعدنى وقدسى ، ونطق وأنسى ، ألا فىّ اختفيت فاشرقت ، وبى اقتربت[(٣)] فابرقت . أنا نظرتك بكلمتك الإلٰهية ، وكلمتك القدسية ، وذاتك الأبدية ، والذات الأزلية الكلية ، ونورك[(٤)] ، وبى ظهورك ، بك ظهرت وبى نهيت وأمرت ، فمن عرفنى فقد نزهك ، ومن اتصل إليك بحدودى (فقد عرفك) فقد عرفتك أنا غيرى فتكون أعداءك ، ولا أنت غيرى فتكون أفرادك . أنا كنت فيك رتقاً ، وفىّ ذلك حقاً ، فأطلقتنى ولم تفصلنى فى وجودى . أرجوك تعيد ووقت تطلب فتقصد[(٥)] ، فأنا منك كضوء السراج من السراج ، بلا تبعيض ولا إمزاج . (إلٰهى) صدق المستجيب لما قال لأبيه ، إلٰهى منك بديت ، وإلى معرفتك اهتديت ، وإليك توجهت ، وإليك تبت ، وبك منك إليك سعيت ، ولو فرطت فيك لاضمحلت وتلاشيت ، ولو اقتديت بغيرك أشركت وتعديت فى طاعتى لك فعرفت ودركت[(٦)] (إلٰهي) كادت نفسي لعظيم امتحانك أن تجهل وتخنى كنه علمك وتكفر حتى ألقت عنانها[(٧)] بجودة من نور معرفتك ، فجذبت وتلطف قدارآها بضوء . من علمك فمسكت فيه بعد ما كنت جحتُ وتبتُ عند ماسليت بنعمتك[(٨)] فتهدت بعد (أن) كانت جحدت فأورثها الثبات بالنعيم المقيم والنجاة من العذاب . (إلٰهى) عجزت القصرون بنظرهم إليك وقالوا لا يجوز الصفة أن تدرك الصانع ، فلو علموا أني بك استقرارهم ، وأن تصديقهم هو إنكارهم . (إلٰهى) هل يعرفك من ليس منك ويتفكر إنما هو أنت محال . (إلٰهى) لم لم لا تنقل الصورة بما لا تريد ، بل

(١) وصلت إليك
(٢) وإشراقه متألق أو مؤتلق
(٣) شىء حذف فى الجملة
(٤) حفنى
(٥) دل

(١) كذا هذه الجملة والتى قبلها (٢) وحجبتهم
(٣) أو اقتربت (٤) رب محذوف قبل الكلمة
(٥) كذا هذه الجمل
(٦) كذا هذه الجملة
(٧) حتى ألقت عناءها أو حتى ألقت عنايتها
(٨) كذا هذه الجملة

فى وقت تريد ، فلولا نظرك إليها بالشاكلة لأُفقدتَ ، ولولا تعطفك بالناسبة لأُبعِدتُ .(إلهى) لقد خاب من أنكر معرفة نفسه منك ، ولقد ظلم من لم يعرفك بك ، وهو بك ظهر ، وبى حجابك وفي حجابك استتر ، وأنت الناظر بلا حركة . (إلهى) تناهوا الجاهلون فى طلب معرفة حدودك وطلبوها معرفة فى تيجان الملوك ، فلما نظروا حدودك ، نكروك . (إلهى) ناجتك المحقون وقالوا يامبدع الأحد ، من غير عدد ، تختلف الأعداد بك ، بقدرة منك ، دعوناك فالذى عرفك منك إليك ، عاد إليك . (إلهى) تحيرت العقول عند طلبتك ، أتاهت [1] الأبصار فى رؤيتك . (إلهى) قالوا الجاهلون فى معرفتك وما تُبيِّن فلا عرفوا ، (إلهى) لقد غاب من نادى سواك ، ومن عرفك بحقيقة المعرفة تيقن أنك دائم ، ومن أفضل الغنائم . (إلهى) ظهرت لهم فوق المنائر ، فتوهموا أنهم حصلوك بالعناصر ، فأثبتوا التشبيه والتمثيل ، وعدموا التنزيه والتحصيل . (إلهى) عجزوا عن اثبات النفر [2] ولم يعلموا ما حقيقة العيان من الخبر ، فالنظر حجاب عنك لا لك ، والمنظور أنت به لا (هو) فيك . (إلهى) من قال إنه لا يعرفك ، فقد عدمك ، ومن عبدك ، من غير حدودك ، فقد حال إلى غائب معدوم ، فأنا الذى لاتدركه الأبصار ، وأنا أدرك الأبصار ، وأنا اللطيف الخبير [3] ، فاللطيف الخبير ، صورنى بالصورة المرئية ، التى هي الحدود العلوية . (إلهى) بوجود معرفتك اهتديت ، وبعّدت المعصرين عنك تباركت وتعاليت . (إلهي) كنت أنت والمكان ، لأن المكان هو إشارة بالفيض وتكرير الفكر باحضار المكان ، والمكان هو المركز هو الدال عليك . (إلهى) كلما ظهرت عني صورة فظهّرتها أبدع على أولها اخفيـا [4] لأنقلها عنى « وأنا فعال لما أريد [5] »

* * *

هـذه الأولى من (المقالات الاسماعيلية) والباقيات فى الأعداد الآتيات من (الرسالة)

(قارئ)

(١) تاهت أو أتيهت أو أتاهت وفى زائده (٢) النظر

(٣) الآية الكريمة : لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير (٤) كذا

(٥) القول الكريم : إن ربك فعال لما يريد

الفلسفة الشرقيــة
بحوث تحليليــة

للدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٨ —

الفلسفة الصينية
العصر المنهجي — كونفيشيوس

مذهبه

صدر « كونفيشيوس » فى فلسفة النظرية عن نفس النقطة التى صدرت عنها فلسفة عصر ما قبل التاريخ ، وفلسفة « لاهو — تسيه » ، والتي أشرنا إليها فى حينها ، وهي نقطة القول بوحدة الوجود التى تفرع عنها نشوء كائن سلبي أو يتأثر عن الكائن الايجابي المؤثر ، ومن اجتماع قولى هذين الكائنين نشأت المادة ، وبتأثير النفس على هذه المادة وجدت الكائنات الحية التى بين السماء والأرض

غير أن « كونفيشيوس » تعمق فى هذه النقطة وصيرها فلسفية جديرة بالدراسة والتمحيص ، إذ أضاف إليها أن جميع جزئيات الطبيعة مشتملة على الانسجام التام الذى هو سر جمالها وتقدمها وصلاحيتها للوجود ، وأن هذا الانسجام ليس موجوداً فى هذه الكائنات بطريق المصادفة ، بل هو تنفيذ لإرادة إلٰهية مرسومة خطتها فى منهج السماء ، وأن هذا الانسجام محكم الوضع فى جزئيات الطبيعة إلى حد أنه يظهر « دينا ميكيا » وأنه هو العلة فى تطور الكائنات المادية والظواهر الطبيعية ، ولكن كيف ولماذا كان هذا الانسجام علة لذلك التطور ؟ لم يجب « كونفيشيوس » على هذا السؤال مطلقاً ، لأنه عد البحث فيه فوق طاقة العقل البشرى ، فوافق فى هذه الناحية « لاهو — تسيه » الذى أسلفنا أنه صرح هذا التصريح أيضاً وإن كان لم يكن قد وصل إلى كشف سر هذا الانسجام وأثره العظيم اللذين وفق « كونفيشيوس » إلى كشفهما

على أن المشاهد لدينا هو أن كثيراً من الكائنات تتحرك وتعمل مقودة بالهوى ، فلا تنتج هذه الحركات إلا السوء والشر والرذيلة ؛ فاذا بحثنا عن علة هذا الانقياد للهوى ألفيناها الحيدة عن هذا الانسجام ، فكل خضوع للقانون الطبيعي ينتج الخير والفضيلة والتقدم نحو الكمال ، وكل انحراف عن هذا النهج ينجم عنه الشر والاضطراب ، لأن الطبيعة في ذاتها ليس فيها للشر أثر ألبتة ، ولهذا كان أهم واجبات الحكيم هو محاولة رد الانسجام إلى كل جزئية فقدته ، فأنتج فقدها إياه الشر والسوء .

وعلى أساس هذه النظرية بنى « كونفيشيوس » مذهبه الأخلاق وأعلن أن الواجب ينحصر فى تنفيذ أوامر الطبيعة وتطبيق قوانينها القويمة كما سنشير إلى ذلك فيما بعد .

وعنده أن الانسان مشتمل على قوتين كالطبيعة سواء بسواء ؛ وأن كل الفروق الموجودة بين الأفراد البشرية ناجمة عن تغلب إحدى القوتين على الأخرى ، فاذا كانت الغلبة فى الانسان مثلا للقوة الايجابية المؤثرة ، كان ذلك الانسان حكيما بالمعنى الكامل ، وإذا غلبت فيه القوة السلبية كان حكيما عادياً ، وهذا النوع الأخير يظل هكذا حتى يتعرض لعواصف الأهواء والشهوات المختلفة ، فاذا نجا منها ظل كما كان على الفطرة أى في درجة الحكمة العادية ، وإذا غلبه الهوى فحاد به عن صراط الطبيعة السوى نزل من درجة الحكمة العادية إلى درجة العامة الذين يحدثون الشر والسوء

وعنده أن الكمال يتحقق لنوعين من البشر : الأول رجل تبدأ السماء فى إلهامه الحقيقة من يوم ميلاده دون مجهود شخصى من جانبه ، وهو يحصل فى المبدأ على ما يحصل عليه الآخرون فى النهاية ، وهذا هو الحكيم الموحى إليه أو « شينج — چين » . أما الثاني فهو الحكيم الذى يعمل على كسب الحكمة بحوثه المتواصلة ، ومجهوداته المتتابعة فيحصل على الحقيقة ، وبها يصل إلى الكمال ، ويسمى هذا الأخير : « كيون — تسيه » وفى هذا الصدد يقول « كونفيشيوس » فى كتاب « تايو » : « إن البعض يحصلون عليها (أى الحقيقة) عند ميلادهم ، أما البعض الآخر فانهم إما أن يتلقوها عن الغير وإما أن يحصلوا عليها بوساطة مجهوداتهم وأعمالهم الشخصية [1] »

(١) راجع كتاب « تايو » فصل ٢٠

وعنده أن الانسان الملهم هو ابن السماء الذى يحرس الصراط السوى وترعاه بفضلها فى جميع أحوال الوجود ، وهو مشتمل على سر إلهي عظيم . أما الحكيم المكتسب الحكمة بمجهوداته فهو ابن الأرض الذى حمايته من الهوى والشر موكولة إلى مجهوده الخاص ، والذى لا يعتمد فى مقاومة ضعفه وفى احتفاظه بانسجامه الطبيعى إلا على نفسه ؛ فاذا نجح اقترب من درجة الحكيم الملهم

وعنده أن حكمة وجود الحكيم الموحى إليه هى إذاعة قانون السماء والسهر على تنفيذه وإنقاذ بنى الانسان من الخروج على الصراط السوى ، وما ذلك إلا رحمة بهم وإشفاقاً عليهم من الحيدة عن الواجب الذي لا تُنْقَذُ الانسانية من الدمار والاضطراب إلا بالحرص عليه والاحتفاظ به

مطابقة الأسماء للمسميات ، أو التعريفات العامة

لا تزال الأكثرية الغالبة من المثقفين والعلماء فى أوروبا تعتقد أن سقراط هو أول حكيم وضع التعريفات العامة كما صرح بذلك أرسطو . وقد كنت أنا أحد أولئك الذين يؤمنون بهذه الفكرة إلى أن درست « كونفيشيوس » فى شىء من الدقة ، فتبين لي تبيناً يقينياً أن حكماء الصين قد سبقوا حكيم الاغريق إلى هذه الفكرة ، وأن لهم فيها نصوصاً قيمة جديرة بالإعجاب ، وأن الحكمة التي أعلن سقراط أنها تدفعه إلى هذا التحديد هي نفسها التى وردت فى نصوص « كونفيشيوس » وهى الوصول إلى ضبط الأخلاق وتحديد الفضيلة والقبض على الحقيقة عن طريق التطابق المحكم بين الألفاظ والمعانى أو بين الأسماء ومسمياتها ، إذ نحن نعلم أن « السوفسطائيين » لم ينجحوا فى إفساد الأخلاق العامة فى عهد سقراط إلا بوساطة التلاعب بالألفاظ ، فلما أراد سقراط أن ينقذ الفضيلة حارب أعداءها بسلاح الدقة والتحديد فتم له ما أراد . وهكذا كان منهج « كونفيشيوس » إذ أيقن أنه لا سبيل إلى تنفيذ الواجب بدقة إلا بوضع جميع الأشياء في نصابها ، وأن هذا الوضع لا يتحقق إلا بالتطابق التام بين القوالب ومحتوياتها ، أو الألفاظ والمعانى ، أو الأسماء والمسميات ، وهو فى هذا يقول ردًا على سؤال وجهه إليه أحد تلاميذه قائلا :

ماذا كنت تفعل لو أنك عُيِّنْتَ حاكماً على دولة ؟ « كنت أبدأ أعمالي بأن أرد إلى كل مسمى اسمه الحقيقي » . ولما لم يفهم التلميذ هذا الجواب سأله قائلا : وما معنى هذا ؟ فأجاب الفيلسوف بقوله : « إن الحكيم يجب أن يحتاط فى تبصر من كل ما لا علم له به ، فاذا لم تتفق الأسماء مع مسمياتها بالضبط وقع الخلط فى اللغة ، وإذا وقع الخلط فى اللغة لا ينفذ شىء من أوامر النظام العام ، وإذا لم ينفذ شىء من أوامر النظام العام ، أهملت الحشمة واللياقة والانسجام ، وإذا أهملت الحشمة واللياقة والانسجام فُقِد توافق العقاب مع الخطأ ، وإذا فقد هذا التوافق ، أصبح الشعب مضطرباً لا يفرق بين موضع قدميه وموضع يديه . ولهذا يجب على الحكيم أن يضع لكل مسمى اسمه الذى هو له ، وأن يعالج كل موجود حسب التعريف الذى وضع له [1] »

ألست ترى معى أيها القارىء أن فى هذه النصوص « الكونفيشيوسية » برهاناً ساطعاً على أن حكيم اليونان الأول لم يكن مبدع التعريفات العامة ، الجامعة المانعة ، ولا أول من قال بالدقة والتحديد ؛ ثم ألست توافقنى على أن هذه نقطة هامة تضيف إلى ما كشف من مجد الشرق صفحة فخار جديدة ، وأنها لهذا جديرة بالعناية والتسجيل كما أن فيها رداً آخر يضاف إلى ردودنا السالفة على أولئك الأذناب المتفيهقين الذين أنكروا على الشرق ميزة التفلسف النظرى ؟ »

مما قدمنا يتبين أيضاً خطأ بعض الباحثين الأوروبيين الذين سلكوا فى مؤلفاتهم سبيل نزع تاج الفلسفة من فوق رأس « كونفيشيوس » وَوَضْعِهِ على رؤوس : « لاهو — تسيه » و « تشوانج — تسيه » و « مي — تي » وجزموا بأن « كونفيشيوس » لم يكن فيلسوفاً ، وإنما كان أخلاقياً ، ولم يكن أخلاقياً من النوع العالي ، وإنما كان عملياً ، بل نفعياً . فأما دعواهم أنه ليس فيلسوفاً فيبطلها ما أسلفناه ؛ وأما زعمهم أنه عملي أو نفعي فسندحضه حينما نعرض لدراسة الأخلاق عنده

اعتمد أولئك الباحثون في رميهم « كونفيشيوس » بالخلو من التفلسف النظرى على تصريح أثر عنه قال فيه : « إنى لم أبتدع شيئاً جديداً ، وإنما نقلت تراث الحكماء الأقدمين إلى العصر الذى أعيش فيه » . أو « إنى لست مساوياً الحكماء ، وإنما أنا أحاول التشبه بهم » إلى آخر ما صرح به مما يشبه هذه العبارات ولست أدرى كيف يتخذ أولئك الباحثون هذه التصريحات برهاناً على عدم فلسفية « كونفيشيوس » ولا يتخذون أمثالها من كلام سقراط برهاناً على عدم فلسفيته حين نبأته كاهنة « دلف » بأنه أحكم حكماء الإغريق عامة ، فاستكثر ذلك على نفسه وقال : « أنا لست حكيما ، ولكنى محب للحكمة » . فلم عدوا هذا التصريح من جانب سقراط تواضعاً ومن جانب « كونفيشيوس » برهان الخلو من الفلسفة ؟ ؟

نعم إن « كونفيشيوس » أسس مذهبه على نظريات صينية عتيقة ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ، ولكن هل « بارمينيد » و « أمبيدوكل » و « زينون الأكبر » و « فيثاغورس » و « سقراط » و « أفلاطون » و « أرسطو » فعلوا غير هذا ؟ بل هل « ديكارت » نفسه — على تبرئه من الماضي — استطاع أن يتخلص من أسس التراث العقلي القديم ؟ كلا ، ولكن سُحقاً للهوى والسطحية ، فإن جميع الأخطاء الإنسانية ناشئة منهما أو من أحدهما . أما الذى لاشك فيه بعد كل هذا ، فإن « كونفيشيوس » فيلسوف نظري عظيم ، وأن جميع الباحثين الأدقاء يضعونه فى الصف الأول من صفوف الحكماء ، لأنهم يعتمدون فى ذلك على مجموعة ماله من آراء فلسفية مبتدعة كما يتطلب النقد الحديث ، وإنه أخلاقي من طراز « كانت » و « اسبنوزا » وأمثالهما من أجلاء فلاسفة العصور الحديثة

« يتبع »

محمد غلاب

(1) راجع كتاب « لون — يو » فصل 13

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٣ —

١ — « إن في الرجل شيئاً ينقذ المرأة منه وإن هالك بحبها ، وإن هدمت عيناها من حافاته وجوانبه : فيه الرجولة إذا كان شهماً ، وفيه الضمير إذا كان شريفاً ، وفيه الدم إذا كان كريماً . فو الذي نفسي بيده لا تعوذ المرأة بشيء من ذلك ساعة تجن عواطفه ، وينفر طائر حلمه من صدره ، إلا عاذت — والله — بمعاذ يحميها ويعصمها ويعد على طهارتها جناح ملك من الملائكة »

٢ — « ... ويسرف عليّ بعضها أحياناً فأتلهب عليها في زفرات كمعمعة الحريق حين ينطبق مثل الفك من جهنم على مدينة قائمة فيمضغ جدرانها مضغ الخبز اليابس ؛ ثم يسرف على حبها أحياناً فينحط قلبي في مثل غمرات الموت وسكراته يتطوح من غمرة إلى غمرة ؛ فأنا بين نقمة تفجأ ، وبين عافية تتحول ، وكأنه لا عمل لي إلا أن أصعد مئة درجة لأهبط مئة درجة ... ! »

٣ — « لقيتها وما أريد الهوى ولا تعمده قلبي ، ولا أحسب أن فيها أموراً ستئول مآلها ؛ وكنت أظن أن المستحيل قسمان : ما يستحيل وقوعه فلا تفضي إليه ، وما يمكن وقوعه فتهمله فلا يفضي إليك ، ولكن حين توجد المعجزة تبطل الحيلة ؛ ومتى استطردك القدر الذي لا مفر منه ، أقبل بك على ما كنت منه تفر »

٤ — « ... إنها لأبلغ ذات لسان ، وأبرع ذات فكر ، وأروع ذات نفس ؛ ولو كنا سليلي أبوة ما شهدت لها بأكثر من هذا حرفاً ، ولو كان دمي من أعدائها ما نقصتها من هذا حرفاً ، وعلم الله ما أبغض فيها إلا هذه التي أشهد لها ... ! »

٥ — « ... دعني أقول لك : إني أبغض من أحبها .. وإن هذا البغض وجه آخر من الحب ، كالجرح : ظاهره له ألم وباطنه له ألم ! »

٦ — « ... وكما ينشأ الكفر أحياناً من عمل العقل الانساني إذا هو تحكم في الدين ، يأتي البغض من هذا العقل بعينه إذا هو تحكم في الحب ! » (الرافعي)

شعر وفلسفة ، وحب وكبرياء

أتُرى صوتي يبلغ إليها وهي في مستشفاها بالشام ذاهلة اللب شاردة الخيال ضائعة الأمل مستطارة القلب ؟

أم ترى صوتي يبلغ إليه تحت أطباق الثرى وبيننا ستة أشهر من عمر الزمان كأنها من البعد وانفساح المدى سنوات وسنوات؟

إنه ليخيل إليّ أن هذا الحديث الذي أكتبه عنها وعنه هو رسالة من الغيب إلى هذه الحبيبة الواجدة المحزونة ، من الحبيب الذي أحبها أعنف الحب وأرقه وما تراءى لها مع ذلك في عمره الطويل إلا الرجلَ القاسي الذي حطم قلبها بقسوته وكبريائه ، ومات وما تلقت رسالته الأخيرة فنفذت روحه من أقطار السموات لتمليها عليّ وفيها المعذرة والاستغفار ...

آه لو تدرين كم كان يحبك أيتها الحبيبة ! .. فهل كنت ..؟ ولكن ... ولكن لا سبيل إلى ما فات ... !

* * *

لقد أحبها جهد الحب ومداه ، حبا أضل نفسه وشرد فكره وسلبه القرار ؛ ولكنه حب عجيب ، ليس فيه حنين الدم إلى الدم ، ولكن حنين الحكمة إلى الحكمة ، وهفوة الشعر إلى الشعر ، وخلوة الروح إلى الروح في مناجاة طويلة كأنها تسبيح وعبادة ؛ وأسرف عليه هذا الحب حتى عاد في غمراته خلقاً بلا إرادة ، فليس له من دنياه إلا هي ، وليس له من نفسه إلا ما تهب له من نفسه !

والرافعي رجل — كان — له ذات وكبرياء ؛ فأين يجد من هذا الحب ذاته وكبرياءه ؟ هكذا سألته نفسه !

* * *

وأحبها أديبة فيلسوفة شاعرة تستطيع أن ترتفع إلى سمائه وتحلق في واديه وله مثل قدرتها على الطيران والتحليق في آفاق الشعر والحكمة والخيال ؛ فما التقيا مرة حتى كان حديثهما فنوناً من الشعر وشذرات من الفلسفة وقليلا من لغة العشاق في همس من لغة العيون ... وقال لها مرة : « إن الحب يا عزيزتي ... » قالت : « إن فلسفة الحب ... » قال : « بل أعني حقيقة الحب ومعناه ... » قالت : « دع عنك يا حبيبي ... إن أحلام الحب هي شيء غير الحب ، أفأنت تريد ... ؟ » فاختلجت شفتاه وأطرق ، وراح يسأل نفسه : « ما الحب وما فلسفة الحب ؟ يا ضيعة المنى إن كان الحب شيئاً غير الذي في نفسي ! » وتحدث ضميره في ضميرها فابتسمت وهي تقول : « ... أنا ما أحببتك رجلا بل

فكراً وروحاً ونفساً شاعرة، وأنت بكل ذلك ملء نفسي وملء قلبي؛ فلا تلتمس فيّ طباع أنثى وإلا ضل ضلالك أيها الحبيب...!»

قال: «فهل رأيتني يا حبيبتي إلا فكرة تطيف أبداً بك، وروحاً ترفرف حواليك، ونفساً نفترف الشعر والحكمة من وحي عينيك ... ؟» قالت: «دع عنك ذكر عينيّ يا حبيبي. إن الحب ليس هناك، إن الحب ...» قال: «لا تحدثيني عن الحب. يخيل إلي أني أعرفه لأني أجد مسّه على قلبي كلذع الجمر، ولكن آه، ولكنك أنتِ ...»

وقالت له نفسه: «إنك يا صاحبي تضرب في بيداء؛ إن الشعر والحكمة والفلسفة لا تلد الحب، فهل أحببتها أنت إلا للشعر والحكمة والفلسفة؟ ولكنك بذلك لن تجد منها الحب، إن الحب من لغة القلب، أما هذه ...»

وكان يحبها أديبة فيلسوفة شاعرة، فعاد يباعد بينه وبينها أنها فيلسوفة شاعرة ... !

***

وامرأة هي كانت — إلى أدبها وفلسفتها — «فتنة» خلقت امرأة، فإذا نظرت إليك نظرتها الفاترة فإنما تقول لقلبك: إذا لم تأت إليّ فأنا آتية إليك ... وهي أبداً تشعر أن في دمها شيئاً لا يوصف ولا يسمى ولكنه يجذب ويفتن، فلا تراها إلا على حالة من هذين، حتى ليظن كل من حادثها أنها تحبه وما به إلا أنها تفتنه ...

«رشيقة جذابة تأخذك أخذ السحر، لأن عطر قلبها ينفذ إلى قلبك من الهواء؛ فإذا تنفست أمامها فقد عشقتها ...

«أما أنوثتها فأسلوب في الجمال على حدة؛ فإذا لقيتها لا تلبث أن ترى عينيك تبحثان في عينيها عن سر هذا الأسلوب البديع فلا تعثر فيهما بالسر ولكن بالحب ... ... وتنظر نظرة الغزال الذعور ألهيم أنه جميل ظريف فلا يزال مستوفزاً يتوجس في كل حركة صائداً يطلبه ... ...[1]»

والرافعي رجل كان — على دينه وخلقه ومروءته — ضعيف السلطان على نفسه إذا كان بإزاء امرأة؛ فما هو إلا أن يرى واحدة لها ميزة في النساء حتى يتحرك دمه وتنفعل أعصابه؛ وما كان — رحمه الله — يرى في شدة الإحساس بالرجولة وفي سرعة الاستجابة العصبية إلى المرأة إلا أنها أحد طرفي النبوغ، أو أحد طرفي النبوّة كما كان يقول؛ فما كان يرى له وقاية من سحر المرأة حين يحس أثرها في نفسه إلا أن يسرع في الفرار. وكثيراً ما كان يقول: «الفرار الفرار؛ إنه الوسيلة الواحدة إلى النجاة من وسوسة الشيطان وغلبة الهوى ... !»

وقالت له نفسه: «ما أنت وهذا الحب الذي سلبك الإرادة وغلبك على الكبرياء ويوشك أن يهوي بك من وسوسة النفس وفتنة الهوى إلى أرذال البشرية ... ؟»

فكان لصوت النفس في أعماقه صدى بعيد ...

***

وكان يحبها ليجد في حبها ينبوع الشعر، فما وجد الحب وحده، بل وجد الحب والألم وثورة النفس وقلق الحياة؛ ووجد في كل أولئك ينابيع من الشعر والحكمة تفيض بها نفسه، وينفعل بها جنانه، ويضيء بها فكره؛ وكان آخر حبه الألم، وكانت آلامه أول قدحة من شرار الشعر والحكمة ...

وقالت له نفسه: «ها قد بلغتَ من الحب ما كنت ترجو، فلم تبق إلا الغاية الثانية وإنك عنها لَعَفٌّ كريم ... !»

***

وهي فتاة ذات جمال وفتنة، ولها لسان وبيان، وما يمنعها دينها ولا شيء من تقاليد أهلها أن يكون لها مجلس من الرجال في ساعة في يوم من كل أسبوع، يضم من شعراء العربية ورجالاتها أشتاتاً لا يؤلفها إلا هذا المجلس المعطر بعطر الشعر وعطر المرأة الجميلة؛ أفتراهم يجتمعون في دارها كل أسبوع لتتوارى منهم خلف حجاب فلا سمر ولا حديث؟

والرافعي غيور شموس كثير الأثرة لا يرضيه إلا أن يكون على رأس الجماعة، أو هو نفسه رأس الجماعة ...

وقالت له نفسه: «أأنت هنا وحدك أم ترى لكل واحد من هؤلاء هنا هوى وحبيبا ... ؟»

***

وكانت القطيعة بين الرافعي وبينها من أجل ذلك كله: من أجل أن له ذاتاً وكبرياء، وما يريد أن تفنى ذاته وكبرياؤه في امرأة؛

(1) هذا مما يصفها به الرافعي في رسائل الأحزان

ومن أجل أنها فيلسوفة وشاعرة ، وما تجتمع الفلسفة والحب فى قلب حواء ؛ ومن أجل أنها أنثى وأنه رجل له دين ومروءة وزوجة ودار ؛ ومن أجل أنه بلغ مبلغه منها حين وجد الألم فى حبها فوجد ينبوع الشعر الذى كان يفتقد ؛ ومن أجل أن الرافعى الغيور الظنين الكثير الأثرة والاعتداد بالنفس ...!

وخُيِّل إليه حين كتب إليها رسالة القطيعة فى يناير سنة ١٩٢٤ أنه يبغضها ، وأن هذا الحب الذى قطعه عن دنيا الناس عاماً بحاله قد انتهى من تاريخه وطواه القدر فى مَدْرَجة الفناء ، وأن نفساً كانت فى الأسر قد خرجت إلى فضاء الله ...

وأحس فى نفسه حديثاً طويلا يريد أن يفضى به ، وشعر كأن فى قلبه ناراً تَلظَّى ، واصطرعت في نفسه ذكريات وذكريات ، وخيِّل إليه أنه يكاد يختنق ؛ فصاح من كل أولئك مغيظاً محنقاً يقول : « أيتها المحبوبة ، إننى أبغضك ... إننى أبغضك أيتها المحبوبة ! »

ليت شعرى ، أكان الرافعى يعني ما يقول ؟ أكان على يقين حين زعم أنه يبغضها ؟ أم أنه استعار للحب لفظاً متكبِّراً من كبريائه العاتية فسماه البغضَ وما هو به ولكنها ثورة الحب حين يبلغ عنفوانه فتختلط به مذاهب الفكر ومذاهب النظر فلا يبقى فيه شئ على حقيقته ؟

كلا ، ما أبغض الرافعى صاحبته يوماً منذ كانت ولا استطاع أن يفك نفسه من وثاقها ، وما هذه الثورة التى ألهمته كتابيه « رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر » إلا لون من ذلك الحب وفصل من فصوله وكان الخطأ في العنوان ؛ فلما ثابت إليه نفسه نزع به الحنين إلى الماضى ولكن كبرياءه وقفت فى سبيله ، فظل حيث هو ولكن قلبه ظل يتنزى بالشوق والحنين ... !

وجاءت صاحبته إلى طنطا بعد ذلك بقليل ، مدعوَّة إلى حفلةٍ خيرية لتخطب ، وكان الرافعى مدعواً لمثل مادعيت له . وعلى غفلة التقت العيون ، فدار رأس الرافعي وذُهب به ، وعاد الزمان القهقري لينشر ماضيه على عينيه ، وزلزلت نفسه زلزالا شديداً حتى أوشك أن تغشاه غاشية ، وحاول أن يتحدث فوقفت الكبرياء بين قلبه ولسانه ؛ وخشى أن يفتضح فنهض عن كرسيه منطلقاً إلى الباب ؛ ولحقه صديقه الأديب جورج إبراهيم ، فأفضى إليه بذات صدره وودع صاحبته بعين تختلج ، ومضى ...

وانتهى الاحتفال ، ووقفت (هي) تدير عينيها فى المكان فما استقرتا على شيء ؛ ووجدت في نفسها الجرأة على أن تقول : « أين الرافعي ؟ » فما وجدت جواباً ... وكان الرافعي وقتئذ جالساً إلى مكتبه ينشىء قصيدة لمجلة المقتطف عن بعث الحب ... ! وكان آخر لقاء ... !

* * *

ولقيت الرافعى فى خريف سنة ١٩٣٢ ، فتسرحنا فى الحديث عن الحب ، فكشف لى عن صدره فى عبارات محمومة ، وكلمات ترتعش ، ثم قال : « ... وإن صوتاً ليهتف بى من الغيب أن الماضى سيعود ، وأننى سألقاها ، وسيكون ذلك في تمام عشر سنين من رسالة القطيعة : فى يناير سنة ١٩٣٤ ... » وأخذ يقبض أصابعه ويبسطها ثم قال :

« نعم ، بعد أربعة عشر شهراً سيكون هذا اللقاء ... إن قلبى يحس ، بل إننى لموقن ... بعد أربعة عشر شهراً ، في تمام السنة العاشرة منذ فارقتها مغضباً ، سنلتقى ثانية ويعود ذلك الماضى الجميل ، إنها تنتظر ، وإننى أنتظر ... ! » ، وظل على هذا اليقين أشهراً وهو يحصى الأيام والأسابيع كأنه منها على ميعاد ...!

ومضت السنوات العشر ، ومضى أربعون شهراً بعدها وما تحقق أمله فى اللقاء ، حتى لقي الله ...!

* * *

هذا هو الرافعى العاشق ، جلوت صورته كما عرفته ؛ أما هى ، أما صاحبته التى كان من تاريخه معها ما كان ، فهل كانت تحبه ؟ وما كان هذا الحب ، وماذا كانت غايته ؟

هذا حديث موعده العدد القادم ، فإلى اللقاء

« شبرا » محمد سعيد العريان

العدد ١٨٣

أعدنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة ، فمن لم يكن عنده من حضرات المشتركين فليتفضل بطلبه من الادارة

قطف الثمــار

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأديب عبد الخالق العطار

كانت حياتى أيام الصبا كزهرة ... تفقد واحدة أو اثنتين من وريقاتها الكثيرة ... ثم ينسيها الربيع ما فقدت ... إذا ما وقف ببابها يطلب إحساناً

وودعت الشباب ... فصارت حياتى كثمرة ... ليس لها ما تستطيع فقده ... ولكنها تنتظر من تهب له نفسها كاملة بكل ما تحمل من حلاوة

* * *

هل للأوراق الصفراء والزهور الذابلة أن تشارك الورود الناضرة فى بهجتها بعيد الصيف ؟ وهل لا يرسل غناء البحر أنغامه للأمواج الهابطة ... كما يشجى بها الأمواج العالية ؟

ها هي ذي اللآلىء والدرر ... قد انتظمت فى بساط يقف عليه إلهى ... ولكن هناك كثيرون ... ينتظرون صابرين ... يرجون لمسة من قدمه ...

ما أقل العقلاء ..!.. وما أعظم من يجلسون إلى جوار سيدهم!

ولكنه هو .. لقد احتوى الساذجين بين ذراعيه .. وجعلني خادمه إلى الأبد ...

* * *

وجدت خطابه مع الصباح ... عند ما استيقظت ...

ولم أعلم ماذا يقول فيه ... فانى لا أعرف القراءة ...

مالى وذاك الرجل العاقل ... الذى يجلس وحيداً بين كتبه ؟

لن أضنيه ... وهو الذى يستطيع أن يقرأ لى خطابى ...

دعنى ... دعنى أضع الخطاب على جبينى ... وأضمه إلى صدرى

وعند ما ينمو سكون الليل ... وتتناثر النجوم فى ظلمته واحدة إثر واحدة ... سأبسط الخطاب فى يدى ... وأظل صامتاً :

سيقرؤه لى حفيف الأوراق بصوت عال !

ستغنيه لى المياه وهى تندفع فى مجراها !

سترتله لى سبعة نجوم هادئة ... وسأسمع ترتيلها من السماء !

لقد ضل سبيلى ... وأنا أبحث عما أريد !

لقد استغلق علىّ فهم مالا بد من معرفته !

ولكن هذا الخطاب الذى لم يقرأ ... قد خفف عنى العبء فصارت أفكارى كلها كالأناشيد

لقد ضللت سبيلى حيث تعددت السبل ...

فلا فى المياه الواسعة ... ولا فى السماء الزرقاء ... أستطيع أن أجد لى طريقاً

لقد اختفى الطريق تحت أجنحة الطير ... ووراء النجوم الملتهبة ... وخلف أزهار الفصول المتعاقبة ...

فتساءلت ... أى قلبي ! ألا تحمل مع ذلك حقيقة الطريق الذى لا أراه ؟

* * *

عند ما كنت أختال ببطء بين كنوزى الثقيلة الموروثة ... كنت أشعر كأنى الدودة التى تعيش في الظلام ... تتغذى على الثمرة التى ولدت عليها ...

إني أترك هذا السجن ... سجن الفساد

إنى لا أعبأ إذ أحطم تمثال السكون ... لأنى ذاهب فى طريق باحثاً عن الشباب الدائم ...

سأتخلى عن كل ما لم يتحد مع حياتى ...

سأتخلى عن كل شىء ... إلا ما كان خفيفاً كضحكى وسأجرى خلال الزمان ...

و ... آه يا قلبى ... فى عربتك الصغيرة يرقص الشاعر ويغنى بينما خياله يسبح

* * *

لقد أخذتنى من يدى ... وأدنيتنى إلى جانبك ... وأجلستنى أمام الناس جميعاً ... وفى مقام عال ... حتى صرت ضعيفاً لا أقوى على النظر ولا السير فى طريق ... يملؤنى الشك ... ويحيطنى الوجل ... خشية أن أعثر فيصيبني احتقار الناس ...

ولكني تحررت أخيرا ...

فقد دوت الصرخة ... وقرعت الطبول إنذاراً ... وهبط مقعدى فى التراب ...

وتفتحت السبل أمامى !

إن أجنحتى لتطير بها الرغبة إلى السماء ...

إنى أذهب لأحتل مكانى بين النجوم التى تنطلق فى منتصف الليل ... لتغرق فى الظل اللانهائى ، إنى كسحابة الصيف التى تتقاذفها العاصفة ... بعد أن ألقت عنها تاجها الذهبي الذي ألبسته إياها الشمس قبل أن تغيب ... فتعلقت كسيف مسلول على سلسلة من الضوء ... وإذا الرعد يدوى كلما اهتز السيف

وفي فرح اليائس أجري فى الطريق الذى غطاه التراب ... طريق المنبوذين . وأجىء إلى جانبك لأحييك التحية الأخيرة ...

٩٠٥٠

والطفل لا يرى أمه حتى يخرج منها ...

فعندما صرت بعيداً عنك ... وألقيت بعنأى من جوارك...

صرت حراً ... صرت حراً ... فاستطعت أن أرى وجهك

* * *

على بعد وفى هذا المنخفض ينساب نهر الجومنا ... هادئاً رائعاً ... والشاطيء بارز فوقه ... والتلال المظلمة والغابات المتناثرة قد تجمعت حوله ...

وجلس جوفندا ... معلم الشيخ الأعظم ... على صخرة يقرأ الأساطير ... عندما جاءه تلميذه راجونات ... فخوراً بثروته فانحنى احتراماً وقال :

« لقد جئتك بهدية صغيرة ... لا تستحق منك القبول »

قالها ووضع أمام أستاذه سوارين من الذهب المرصع بالأحجار الثمينة ...

أمسك السيد أحدهما ... وأداره فى أصبعه فبرقت الجواهر وأرسلت من الضوء ... وفجأة ... أفلت من يده ... وتدحرج على الشاطئ ... إلى أن بلغ الماء ... واستقر فى القاع

هتف راجونات ... « يا إلـهى » ... ووثب وراء السوار فى الماء ...

أعاد المعلم بصره إلى كتابه ... وأمسكت المياه وأخفت ما سرقته ... وسارت فى طريقها ...

واضمحل ضوء النهار ... عندما عاد راجونات إلى أستاذه متعباً يتصبب عرقاً وقال : « قد أستطيع استرجاعه لو أنك أشرت إلىّ أين سقط »

أمسك المعلم السوار الآخر ... وقال وهو يلقيه فى الماء ... ... « إنه هناك »

* * *

يا إلـه السموات ... إن حديثك سهل بسيط ... ولكن حديث هؤلاء الذين يتحدثون عنك ليس كذلك ...

فما أقرب صوت نجومك إلى فهمى ... وما أبلغ صمت أشجارك.

إن قلبي قد تفتح كالزهرة التى ملأتها حياتى فى خميلة مختفية ...

وأنا شيدك ... كالطيور الآتية من بلاد الثلج النائية ... وتريد أن تبنى لها عشاً فى قلبي ... بما فيه من حرارة كحرارة ابريل ...

ولكم أنا قانع بانتظارى هذا الفصل البهيج

عبد الخالق العطار

الأديان والمذاهب فى الحبشة

رحل الأستاذ محمد تيسير ظبيان الكيلانى صاحب جريدة الجزيرة بدمشق إلى بلاد الحبشة فدرس أحوالها دراسة مستفيضة ثم وضع في ذلك كتاباً يوشك أن يصدر . وقد خص الرسالة بهذا الفصل من فصوله ننشره لحضرته شاكرين

لما لم يكن لبلاد الحبشة حتى هذه الأيام احصاء رسمى صحيح يمكن الاعتماد عليه فى تقدير عدد المسلمين وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى فأننا نكتفي فيما يلي بنشر زبدة ما حصلنا عليه من المعلومات المختلفة والروايات المتنوعة فى هذا الموضوع

إن الأديان الرئيسية الموجودة فى الحبشة هي :

الوثنية ، واليهودية ، والمسيحية ، والاسلام ، وقد تضاربت الأقوال فى تقدير عدد مسلمى الحبشة فمن قائل إنهم لا يزيدون عن ثلاثة ملايين ، ومنهم من يقدرهم بخمسة ملايين ، ومنهم من يرفعهم إلى أكثر من ذلك ؛ وكل هذا من قبيل الرجم بالغيب

أما من جهتى فمنذ ألقيت عصا تسيارى فى تلك البلاد أخذت أوجه كل اهتمامى إلى تلك الناحية فرحت أتغلغل فى مختلف الأوساط الحكومية والشعبية حتى وفقت والحمد لله للحصول على النتيجة الآتية وهى لعمرى نتيجة بحث واف وتمحيص دقيق

الاسلام

إن الاسلام هو أكثر الأديان انتشاراً فى بلاد الحبشة ولا سيما بعد أن ضُم إليها مقاطعتا « الصومال الايطالى والأرتيرية . والمسلمون (كما أكد لى موظف مصرى مسؤول) كانوا يؤلفون فى المئة خمسة وخمسين من مجموع السكان ؛ أما الآن بعد أن زالت الأسباب التى كانت تمنعهم من الظهور وبعد أن ضمت منطقة الصومال الايطالى وجميع أهلها مسلمون ، والأرتيرية وكثرة سكانها من المسلمين أيضاً ، فاعتقد أنهم يؤلفون ستين فى المئة (على الأقل) من مجموع السكان . نعم لا أنكر أن بعض المناطق ولا سيما منطقة امهرة أكثر سكانها من المسيحيين ، ولكن المناطق الأخرى يتفوق فيها العنصر الاسلامى على غيره كما سيأتي

والغريب المدهش أن الديانة الإسلامية تنتشر من تلقاء نفسها بسرعة خارقة فى الأوساط الحبشية (وخصوصاً فى المناطق الوثنية) رغم سياسة القهر والعسف التى كانت متبعة ضد المسلمين

ورغم قلة الوسائل الموجودة لدى هؤلاء لنشر ديانتهم والتبشير بها بالنسبة للديانة المسيحية التى كانت البلاد الحبشية تموج برسلها ودعاتها وبعثاتها التبشيرية المنظمة ومن ورائها الحكومات الكبرى تؤيدها والأموال الوفيرة تتدفق عليها والحكومة المحلية نفسها تشد أزرها وتسهل مهمتها

حقاً إنه لسر غريب انتشار الدين الحنيف بسرعة البرق فى تلك الأصقاع ، وإقبال الأحباش على اعتناقه رغم جميع الصعوبات التى كانت تعترض سبيله وتقف فى طريقه ، ولا غرو فمظهر المسلم (وإن كان إسلامه ضعيفاً وناقصاً) جذاب يسحر القلوب ويستهوى النفوس ؛ فهناك التقوى والصلاح ومكارم الأخلاق والنظافة والشهامة والتواضع والوفاء ... الخ

ولست أرى من وراء ذلك الحط من قدر الديانات الأخرى اليهودية والمسيحية . كلا ، فإنها ديانات سماوية أيضاً ، ولكن الأحباش كانوا يتمسكون بقشورها ويتركون لبابها ؛ فهم كانوا بذلك أقرب إلى الوثنية

قال لى الأمير عبد الله أبا جفار سلطان جما فى أثناء حديثه معى: إن هذه الديار ديارنا ونسبة الأحباش إلى المسلمين نسبة واحد للعشرين ، ولاسيما فى بلاد هرر والعروسى والفوارغى وجمار غوما ولمو وجيده ؛ فهذه البلاد ليس فيها أثر للمسيحية ؛ وأغلب أهالى برنا وواللو ودارا وحفات والدناكل مسلمون . وإذا قدرنا سكان الحبشة حسب الاحصاءات الصادرة عن القناصل والدوائر المسؤولة بعشرة ملايين « بما فيها الصومال والأريتريه » فلا يقل عدد المسلمين فيها عن ستة ملايين إن لم يكونوا أكثر من ذلك

وأكثر المذاهب الإسلامية انتشاراً المذهب الشافعى . وليست للمسلمين مع الأسف مدارس عامرة وجمعيات خيرية وأدبية كما هى الحال فى مختلف الأقطار الإسلامية إذا استثنينا جمعية الإشفاق الإسلامى التى تألفت فى أديس أبابا فى عهد الحكومة السابقة ، وكان فى مقدمة أعمالها تأسيس المدرسة الإسلامية التى سيأتى ذكرها

وليس بين المسلمين علماء واقفون تماماً على أسرار الشريعة الغراء إلا فى مقاطعتى جما وواللو ؛ ويظهر أنه يوجد فى جما نهضة إسلامية لا بأس بها سيأتى ذكرها بمناسبة مقابلتى لسلطانها الأمير عبد الله

الدين المسيحى

ويأتى فى الدرجة الثانية من حيث الانتشار الدين المسيحى ، وكان دين الحكومة الرسمى وأكثر المذاهب المسيحية انتشاراً : « المنوفيزية » وقد بثها البطريرك ثيودوسيوس الاسكندرى فى القرن السادس واتخذ ملوك الحبشة هذا المذهب مذهباً رسمياً

وكنيسة الأحباش قائمة تحت إدارة نائب بطريرك الأقباط المعروف هناك باسم « أبونا » وكان له نفوذ كبير وسلطة واسعة تخوله خلع الملك (النجاشى)

ومن المذاهب المسيحية المنتشرة أيضاً المذهب الكاثوليكى وله مبشرون كثيرون ومرسلون عازاريون وكبوشيون

أما المذهب البروتستانتى فقليل الانتشار

الدين اليهودى

يعرف اليهود فى الحبشة باسم « فلاشة » وهم يقيمون فى الأقاليم الشرقية ، ويقال إنهم متحدرون من القبائل اليهودية الأولى التي توغلت فى تلك الجهات . ولا يزيد عددهم عن الخمسين ألفاً ، ويوجد منهم فى أديس أبابا نحو مئة شخص ، وهم يعيشون عيشة مستقلة لا يختلطون بأحد من الأحباش ، ولا يتزوجون من غير أبناء دينهم ، ويشتغلون بالزراعة وصناعات النسج

العقائد الوثنية

إن العقائد الوثنية على اختلاف أنواعها منتشرة فى بلاد الحبشة ، ولا سيما فى الجهات الغربية ، والارساليات الأجنبية تتصل بالوثنيين وتحاول التأثير عليهم . ويعبد أكثرهم الأشجار « وأخصها شجرة الجميز » والأنهار والأحجار والشمس والبهائم والنار . وقد أخبرنى شاب حبشى اسمه جرجس ابراهيم أن طائفة منهم تقطن « الفامبيلا » على حدود السودان ، وهم يعيشون فى العراء دون أن يستروا أجسامهم ، ولهم طريقة خاصة فى العبادة ، وذلك أنهم يجتمعون فى كل عام أمام النيل الأزرق ويرقصون ثم يقدمون له ذبيحه كقربان

ولم أستطع أخذ فكرة صحيحة عن عدد الوثنيين فى الحبشة ولكنهم لا يقلون على كل حال عن مليون ولا يزيدون عن مليون ونصف

عادات وثنية غريبة

قيل لى انه توجد قبائل فى جهات — وولاغا — لا تدين بدين أبداً ولها عادات غريبة جداً ، منها أن الرجال لا يقتربون من نسائهم إذا كن حبالى ، ويضطر الزوج فى هذه الظروف أن يبيت

فلسفة التربيـــــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

« نريد أن ننتهي إلى تقدير واف نعني التربية التي تضعنا في مركز نفهم فيه الكون ونكشف الدور الذي علينا فيه أن نلعبه، كيما نتبين كيف أنه يجب علينا، وكيف يمكننا أن نقوم بهذا الدور بكل ما نستطيع »

هكذا يقول الأستاذ Attlee في كتابه (Philos. in The Ed. Theory) محاولاً أن يلتمس في الفلسفة تفسيراً أو تقويماً لعملية التربية. ذلك أنا سنسأل ما قيمة التربية في الحياة؟ وما قدر عمر المرء بالقياس إلى الأعمار الجيولوجية السحيقة الهائلة؟ وأي ربح يربحه الانسان من عمله تحت الشمس؟ جيل يعيش وجيل يموت، والأرض باقية فما جدوى ذلك كله؟ لم يجب أن نعيش؟؟ لمَ نُلزم بالبقاء في عالم لم نسأل عنه قبل مجيئنا إليه ولا نملك فيه حتى حق الموت؟؟! وما هي الصلة بين مركزنا في الحياة وواجبات هذا المركز؟؟

أولئك جميعاً مسائل عسيرة عتيدة يضج منها الجمهور لأنه لا يستطيع الخوض فيها بحكم عقله الذي لا ينحو نحواً كلياً يفسر به الظروف الجزئية ويسمو عليها. لذلك تراه يقول حسبنا أننا نعيش ما دام الواقع أننا نعيش!! وحسبنا أننا نتعلم ونتربى ما دام الواقع أننا كذلك؟!! ولكن الفلسفة لا ترضى منه بهذه القناعة ولا تفتأ تقول له: إياك أن تغفل سؤال (لِمَ تعيش)؟ لا لشيء إلا لأنك تعيش!! ذلك أنك تتقدم من غير شك إذا ما سلطت النقد على حياتك ونظرت قبل القفز ثم بعده!! يقول الأستاذ برادلي Bradley في أصول المنطق جـ ٢ ص ٧٢١ « إن ديانة العمل من أجل العمل فحسب، أو إن كل شيء من أجل العمل، تنتهي حتماً إلى نتيجة مهدومة في العمل نفسه »

وهكذا تقول الفلسفة للجمهور « قصدك الأساسي هو العمل، أما أنا فقصدي النظر؛ ولكن النظر مع ذلك يسير إلى جانب العمل. أنا أغوص، والعمل يستفيد من غوصي، لأنه بي — وبي وحدي — يستطيع أن يفهم لِمَ يعمل ما يعمل ». ذلك أن الفلسفة لا تضرب في الهواء ولكنها تحاول أن تحدد الأشياء بحدودها المنطقية معطية إياها نهاياتها الميتافيزيقية؛ وأن العمل نفسه يصير فلسفة إذا ما نقد نفسه. لذلك لا غرو أن قالوا إن العمل الصحيح هو ذلك الذي يشعر بنفسه!!

سيقول العمل — وهو لا بد قائل — «ولكن ذلك يضايق!!» وستقول الفلسفة « إنه حقاً يضايق ولكنه بعد ضروري لأن التقدم لم يضر نفسه إلا عن طريق الغرور! لذلك لا بد من هاتيك الأسئلة السقراطية الحصيفة العميقة كيما نأمن مغبة الغرور!! »

وهنا سيعجب «العمل» من قول الفلسفة، وسيبسم فتضحك « الفلسفة » وتقول له: « حسناً لقد اقتربنا! إنك قد بدأت تعجب والتعجب أول خطواتي!! وإذن فكن مني كما يقول المثل الصيني « كل رغيفاً واشتر بالآخر زهرة!! » وتذكر دائماً أنك تكون إياي حينما تنعكس على نفسك فتختبر حقائقها وترتبها وتبوبها وتجعلها منطقية معقولة!! »

وإذن فليست فلسفة التربية أداة لفهمها فحسب؛ وإنما هي أيضاً أداة لنقدها وإصلاحها. وللفلسفة عدة صور أهمها الميتافيزيقا التي تعطينا فكرة جامعة عن الكون. ونحن في التربية إزاء كائنات راقية هي أفراد الإنسان. وعلم النفس لا يكفي قط لفهم هذه الكائنات بجميع علائقها، وإذاً فلا بد من ذلك « التقدير الوافي » الذي تقدمه الفلسفة!! فترى ماذا عسى أن يكون ذلك التقدير؟؟

تبحث الفلسفة كما قدمنا في « الكليات »، وترى « الكل » ممثلاً في الجزء، كما نرى الحيوان المنقرض في هيكله العظمى،

خارج الغرفة أو المنزل الذي تبيت فيه زوجته. ولا يحق له أن يأكل معها وهو مجبر أن يحضر لها كل يوم حيواناً يصطاده وإذا أخفق فلا يحق له دخول القرية

وتمتاز هذه القبائل بصلابة الأجسام وصحة الأبدان وسلامتها من الأمراض

الدروز الأحباش

توجد طائفة في بعض مقاطعات الحبشة تسمى « بالدروز » وهي منتشرة بنوع خص في جهات — غلامو وسيدامو — وعقيدتهم على ما قيل لي خليط من الإسلام والمسيحية واليهودية ولهم أخلاق وعادات شاذة وهم يشتغلون بالنسيج والحياكة

محمد تيسير ظبيان

والإنسان جزء من الكون. وكل أجزاء الكون ترتبط وتندمج فى وحدته الكلية. والتربية من أهم تجارب الإنسان إن لم تكن أهمها جميعاً. وسؤال الفلسفة هنا هو ماذا تقوم عليه التربية من أصول، وما قيمة هذه الأصول ؟؟ ذلك أن التربية أسلوب زمنى يعمل لإعداد الفرد كيما يحقق نوعه بإخراج ملكاته من القوة إلى الفعل، والارتفاع به من الواقع إلى المثل الأعلى؛ ولما كانت أغلب تجارب الإنسان تقع فى حيز الزمن؛ ولما كان الزمن يقص علينا قصة المجهول على لسان التطور الذى ما فتئ يعمل فى الكون منذ السديم الأول إلى اليوم؛ ولما كانت التربية هى تطور في الفرد مع شعور بهذا التطور؛ ولما كانت سلسلة التطور تمتد فى مجرى الزمن وتمتد حتى المطلق — أقول لما كان كل ذلك — فيما يلوح — حقاً، فإنه يرجح لدى الأستاذ هرن Horn صاحب كتاب « فلسفة التربية » أن قصة الإنسان تتطور نحو الكمال، وأن التربية هي وسيلة ذلك التطور. وإذا صح ما يقوله « هيجل » من أن تجارب الإنسان الزمنية ليست إلا مظهراً « للدائم الخالد »، صح أن التربية من أهم هذه التجارب ...!!

وتعترف الفلسفة بالعقل البشرى كآخر منحة للجسم العضوى فى تطوره؛ وكوسيلة للخروج من اللاشعور إلى الشعور؛ ولذلك نراها تضع يدها عليه لترقيه وتنميه معتبرة إياه أعظم أنواع الحقيقة الزمنية. ويقول هاملتون « ليس فى الدنيا أعظم من الإنسان، وليس في الإنسان أعظم من العقل ». ولكن من أين أتى هذا العقل؟ أمن العدم؟ أم من شئ غير عقلى؟ لا بد من القول هنا « بعقل تام » قائم خلف عقلنا المحدود، وهذا العقل التام هو السبب الأول لمركز التربية فى الإنسان — وهو العقل — بل وهو الضامن كما يقول ديكارت « الموضوعية » الحقائق العقلية ذاتها!

وتكون التربية على ذلك تحقيق للانسانية بجهد خاص قوامه الشعور بالنفس؛ ولكن ما طبيعة هذا الجهد وما صلته بالكون؟

سبق أن الإنسان جزء من كل؛ ويتبع ذلك أنه محدود فى شعوره بنفسه لأنه جزء فحسب؛ هذا بينا الكل الذى يحوى الإنسان ويحوى غيره يجب أن يكون مطلق الشعور بنفسه وذو نشاط ذاتي دائب ... وهذا الكل هو الله

ولما كان الإنسان عقلا بالقوة يتحقق بالفعل بالجهد أو بالنشاط الذاتى، ولما كانت التربية هي ذلك الجهد نفسه أو ذلك النشاط الذاتى؛ كانت عمليتها تقرب حتما ما بين الإنسان وخالقه

وإذا أخذنا بمذهب الحلول Pantheism قلنا إن الله تعالى مصدر ما فى الكون من قوة وحركة ونشاط. وإذن تكون المادة نشاط فى نظر العالم الطبيعى، ويكون هذا النشاط درجة من الشعور فى نظر الفيلسوف. ويكون الله على ذلك هو وحدة الكون الشاعرة التى تحيا الطبيعة فيها والانسان. يقول القديس بطرس: « إننا نعيش ونتحرك ونأخذ كياننا فيه »؛ ويكون زمن التربية على ذلك هو فترة تحقيق الناشئ لأحد مظاهر الله. وذلك التحقيق يسر الله من غير ما شك. يقول فيختة Fichte « التربية تكميل خالد وطريق لجعل الجزء كُلاً، إذ الحقيقة الكلية هى الكون أو الله. والحقيقة الزمنية هي الصيرورة. ومن أساليب الصيرورة ذلك الأسلوب الذى يصير به الإنسان ما هو عليه فى الأبد. والحياة الأبدية هى أن يكون الإنسان على نحو الله »

* * *

وخلاصة القول أن التربية تقوم على أن أصل الإنسان هو الله، وأن الإنسان حر الطبيعة خالد المصير(١)؛ وأن أساس التنشئة فى الناحية البيولوجية هو ملاءمة الإنسان بين نفسه وبين البيئات المتطورة المتجددة؛ وأساسها فى الناحية الفسيولوجية هو العناية بالجسد وتجميله لأنه هيكل الروح المقدس؛ وفى الناحية النفسية هو أنه لا حد لنمو العقل فلنسم به إلى المطلق؛ وفى الناحية الاجتماعية هو أن الله يظهر نفسه فى الزمان خلال مثل الإنسان العليا من خير وحق وجمال، وإذا فليكن لهذا الثالوث قداسته واتزانه فى حياتنا ...

ويكون التعريف الجامع المانع للتربية فى نظر الأستاذ هورن هو « أنها الطريق الأبدي للملاءمة العليا بين الإنسان الكامل جسما وعاطفة وعقلا، وبين الله ممثلا فى البيئة الزمنية للإنسان »(٢)

هذا هو تفسير الفلسفة لعملية التربية. أفلا ترى أنه يرفعها ويقدسها ويجعلها جديرة منا بكل إجلال، ومن الدولة بكل عناية وتقدير ؟؟

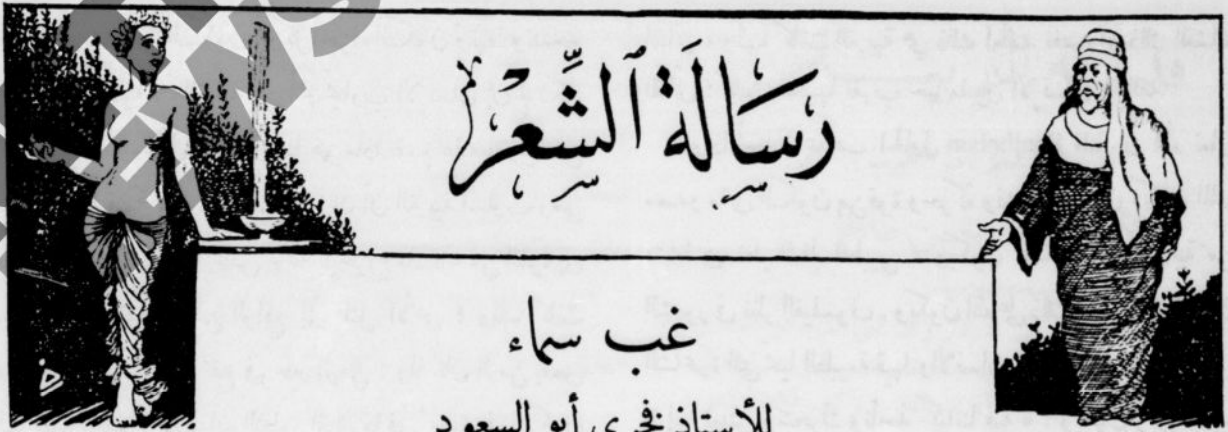
محمد حسنى ظاظا

مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

---

(١) ويسير علينا إثبات ذلك مما لا يتسع المجال لذكره

(٢) أنظر كتاب الأستاذ هورن Horn فى فلسفة التربية الفصل الأخير



غب سماء

للأستاذ فخري أبو السعود

رَوِيَ الطَّرْفُ والجوانحُ ريًّا ... في أصيلٍ مُشعشعِ الأضواءِ
من جمال الأشياء لمَّا تراءت ... شائقاتِ الجمال غبَّ سماءِ
بعد يوم داجي السحاب عَبوسٍ ... دائبِ السَّحِّ هاطلِ الأنواءِ
غائبِ الأفق لم يَبِنْ فيه حتى ... دَلَفَتْ للمغيب وجهُ ذُكاءِ
أشرقتْ في غروبها وتبدَّتْ ... من ثنايا السحاب باللألاءِ
فأحالت جهامةَ الجوِّ بِشْراً ... وأنارتْ جوانبَ الغبراءِ
وأذابتْ شعاعها الصافيَ الأصـ ... ـفرَ في الماء والثرى والفضاءِ
وكَسَتْ من ضيائها أخضرَ الأعـ ... ـشابِ حُسناً ويابسَ الأكلاءِ
فهما يزهوانِ في رِيقةِ القطـ ... ـرِ زهاءً وفي شُفوفِ الضياءِ
واستطار النسيم بعد ركود ... وتمشَّى على سطوح الماءِ
وتراءتْ دون السطوح ظلالٌ ... ذاهباتٌ في رعشةٍ وانثناءِ
إنَّ في هذه المجالي لَرَوْحاً ... وغذاءً للنفس أيَّ غذاءِ
تُفعِمُ النفسَ غبطةً وهياماً ... بخلودٍ بها لغير انتهاءِ
وهيَ وحيُ الأشعار لاذمُّكَ الدهـ ... ـرَ وشكوى الهوى وطولُ البكاءِ
هيَ شعرُ الوجود أحرِ بهِ أنْ ... يُلهِمَ الشِّعْرَ أنفُسَ الشُّعراءِ
خيرُ ذخرٍ للنفس ديوان شِعرٍ ... قد حوى حُسْنَ هذه الأشياءِ
يبسم الزهرُ فيه من كل سطر ... ويهب النسيمُ حُلوَ الزكاءِ
فكأني أسيرُ إذ أجتليهِ ... في رياضٍ مُنضَّراتِ النماءِ
قد تهادَتْ بها الأماليدُ والأزْ ... هارُ شتَّى الألوان والأسماءِ
يصفُ المبهمَ الدقيقَ ويُحصي ... كلَّ شيءٍ بالنظرة الجلواءِ
حاكياً موْقِعَ الجمال ومَهْوى ... فتنةِ الكون في فؤاد الرائي
يصف الفجرَ إذ يهب على الأرْ ... واحِ رَطْبَ الأنفاس والأنداءِ
وضياء الشروق ينتظم الكو ... نَ بفيضٍ من روعة وبهاءِ
وضُحًى مُنْضِراً وجوهَ الروابي ... وثغور الحدائق الغنَّاءِ
وأصيلاً هيْنَ النسائم قد شا ... عتْ بأضوائه ظلالُ المساءِ

فخري أبو السعود

ليلة قمراء!

للأستاذ خليل هنداوي

أحجبي عن مقلتي بدر السما ... أنتِ في عيني وقلبي القمر!
هل لمحت الكون لمَّاع السنا ... كل شيء فيه عين تنظر
كل ما فيه سكون حولنا ... وضياء ضل فيه البصر
ولنا في الغاب ظل وارف ... وغصون للهوى تنهصر
كل دنيانا هنا، ما نبتغي؟ ... لو أردنا لتدلَّى القمر
قد رآنا الليل من أشيائه ... فتولانا، ونام القدر
وكسانا النور ثوباً راجفاً ... نتراءى فيه أو نستتر
نجعل النور جناحاً وعلى ... غارب النور يطيب السفر
يبتغي البدر بأن يغريني ... ليتما للبدر عيناً تبصر
فيرى البدر الذي ألهمني ... سكرة تصحو، وصحو يسكر!

خليل هنداوي

بين ابن زيدون وولادة

شـاعر الحب ... (١)

للأستاذ محمد بهجة الأثرى

مهداة إلى الصديق « الزيات »
مصور الحقيقة والجمال والخير
« الأثرى »

حيِّهِ من شاعرٍ فى الغابرينْ ... عاشَ حيًا فى قُلوب العاشقينْ
شاعرُ الحبِّ ، وما أعظَمَهُ ... لقبًا يحيًا به فى الخالدين !
شاعرُ الحبِّ ، وما الدنيا سوى ... نَغَمِ الحبِّ وشعرِ المغْرَمين
وبقاياها فضـول مُنِيَتْ ... بتعاطيها نفوسُ الأكرمين
هل يروق العيشُ فى غيرِ هوى ... أو يروق العيش فى غير حنين؟
لا ودلِّ الغيـدِ فى فتنتِهِ ... وجلالِ الحسنِ فى الخُلْقِ الحصين

* * *

جلَّ ما رقرقه فى شـعره ... من دموعٍ وزفيرٍ وأنينْ
قِطَعٌ من كبدٍ مقروحة ... صَلِيَتْ فى الحب نيرانَ الشجونْ
وفؤادٍ من تباريح الضنَى ... ذابَ إلاّ رمقًا لا يَسْتبين
قطّرتها شجنًا أنفاسُـهُ ... كحنانِ الإلفِ ناءاه القرين
وجلّتْها فتنًا أشعارُهُ ... كرُواءِ السحرِ، تسبى الناظرين
ضحِكٌ فى دمعةٍ رقراقةٍ ... وتعالٍ فى خضوعٍ مستكين
لمحَاتٌ تنبرى مسرعةً ... كوميض البرقِ أو نبضِ الوتين
من ضلالِ النفسِ فى حَيْرتها ... وخداعِ القلبِ بالوصلِ الضنين
يرهبُ الفُرقةَ أنْ تفزِعَهُ ... ويخاف الدهرَ ألاَّ يستكين
بين يأسٍ من يقينٍ عنـده ... ورجاءٍ يبتغيه فى الظنون
مادرى الأمنَ فؤادٌ عاشقٌ ... ساعةً دون ارتياعٍ من كمين

* * *

أىُّ قلبَيْنِ إذا ما اجتمعا ... وعيونٍ تتلاقى بعيون !
قفْ تأمّلْ خفقاتٍ نطقتْ ... بالهوى وارْنُ إلى السحرِ المبين
وتصوَّرْ مبسِمَيْن التَقيَا ... وعناقَيْنِ : خَدينًا لخدين
في أحاديثَ كأنفاسِ الصَّبا ... وشـذا الوردِ ورقراقِ المعين
يقطعانِ الدهرَ فى ظلِّ الصِّبا ... بين لَثْمٍ وعناقٍ وأنين
كلّما جدَّ الهوى زادا به ... لَعِبًا يُغري ولهوًا وحنينْ
هل ترى من غِبطةٍ رفّتْ على ... مشهدٍ أبدعَ يحلو ويَزِينْ ؟
وقف الدهرُ عليـه ثَمِلاً ... يغبط الإلفَيْن كالصبِّ الغبينْ
لا أخافَ اللهُ قلبًا هائمًا ... بيناتِ الحسن من حُورٍ وعِين

* * *

يا دعاءً ما استجابَتْهُ السما ... لعشيقيْن على كرِّ السنين
ليتها فى عاشقيْ قرْطُبة ... لبّتِ القولَ لذُلِّ الضارعين
إن ما ذاقاه فى ظل الهوى ... من أفاويق حلَتْ ، عادَ وَزِين
ضَرَبَت أيدى النوى بينهما ... والنوى أقتلُ داءِ العاشقين
النوى ؟ سل بالنوى مَنْ ذاقها ... يُزِلِ الشكَّ ويُخْبِرْك اليقين
ظمأٌ بَرْحٌ ، وشوقٌ دائم ... وجوىً يُذْوِى ، وسقمٌ وجنون
ما لهـا طِبٌّ يداويها خلا ... عودةَ الوصل قرينًا لقرين

* * *

يا لسانًا وقّعَ الشجوَ الذى ... سَحَرَ الدنيا وهزَّ المغْرمين
ولدتْ (ولاّدةٌ) أنغـامَه ... فتناغى بأفانين اللحون
قد أصاب الحبُّ من قَلْبَيْهما ... عاشقًا طهرًا ومعشوقًا رزين
ما مشى الرَّيْبُ إلى قُدْسِهما ... وهوى الناسِ ارتيابٌ ومُجُونْ
يُعْصَمُ النُّبْلُ ويُحْمى حوضُهُ ... بقُوى النفسِ وبالُخلقِ المتينْ
يعرِفُ الصدقَ أخو الصدقِ فدَعْ ... كذبَ الشكِّ وغَمْزَ الجاهلين
ربَّ حبٍّ كنميرِ الماءِ في ... صفوه : طُهْرٌ وعذبٌ ومصونْ

(بغداد) — محمد بهجة الأثرى

(١) من ديوان « ظلال الأيام » المائل للطبع



الفن الهنـــدى

النحت والتصوير

للدكتور أحمد موسى

— ٣ —

وبلغت الثروة الفنية فى النحت الهندى مبلغاً عظيما من الكثرة والاتقان ، وذلك بالنظر إلى ما بقى منها فى المعابد والمبانى الأثرية الكثيرة التى كان الدافع إلى تشييدها الرغبة الأكيدة فى خدمة العقيدة الدينية

وقد انقسمت منحوتات الهنود إلى قسمين أولهما النحت نصف البارز الذى بلغ حيناً درجة التجسم الكامل لولا التصاقه بالأرضية الموجودة تحته ، وثانيهما النحت الكامل المعروف بالتماثيل

ولما كانت المنحوتات والتماثيل قد أنشئت للمعابد وما إليها بقصد تنسيقها وتجميلها ، فان معرفة تطور النحت الهندى معرفة صحيحة تكاد تكون غير ممكنة بالنظر إلى السبب السابق التنويه به فى المقال الأول

وقد شملت المنحوتات والتماثيل المناظر الخيالية والدينية ، ولكنها كانت فى جوهرها بعيدة عن الاقتباس من الطبيعة . ثم حاول الفنان الهندي أن يصور الحقيقة فى منحوتاته فسار متجها إلى المناظر الحربية ، وإلى مناظر حياة بوذا فى منحوتات نصف بارزة وجدت فى توبا سانتشى

أما بقية المنحوتات البوذية بوجه عام فكانت دينية وقصصية نحتت على الحوائط الداخلية والخارجية للمعابد ، وكان من بينها ما تم عمله بحالة فائقة من الدقة التى تدعو للاعجاب . وقد بلغ ارتفاع بعض التماثيل حوالى ثلاثين متراً وهذا ارتفاع هائل شابهوا فيه المصريين بعض الشبه

وسار النحت البراهمى نحو القصة والدين ، إلا أنه كان أكثر تعمقاً وأبعد خيالا ؛ فأظهر لنا فى وضوح حياة الآلهة والأبطال فضلا عن بعض مناظر لحيوانات خرافية ولراقصات ومغنيات خصصن لخدمة المعابد برقصهن وغنائهن

ولعل الطابع المميز لهذه المنحوتات أنها كانت لا تمثل الحقيقة الخالصة فى مجموعها ، وهذا يخالف بالطبع ما سبقت مشاهدته من منحوتات الاغريق (راجع الرسالة : أكروبوليس أثينا — النحت) ولم تكن هذه الظاهرة لتمنع من تمتعها بقسط كبير من الحياة وجمال التكوين . فالآلهة التى نحتت بحيث كان لها ستة أيد كانت وجوهها وملامحها دقيقة الاخراج ، بدت عليها مظاهر العظمة الدينية . هذا فضلاً عن الدقة والعناية فى سير خطوطها التحديدية ولا سيما فى الأشكال التى مثلت المرأة عند ما عُنى الفنان بإظهارها رشيقة



ش ١ — تماثيل على حائط معبد إيللورا

وتناول النحت الهندى ناحية أخرى جديرة بالتسجيل ،

وهى ناحية المناظر الدراماتيكية ، منها قطعة مشهورة اسمها « تطاحن الآلهة » ، وأخرى اسمها « أحلام الوصول » وهما وإن كانتا من المناظر الدينية ، إلا أنهما أقرب إلى تمثيل النفس الفنية ، وما يمكن أن تسبح فيه من خيال ، وقد تمكن الفنان من إخراجهما بقوة تمثلت فى إظهار فهمه للطبيعة وما يدور فيها من مظاهر الحياة



ش ٢ — نحت نصف بارز من مهامليابور

وتكاد تكون مجموعة معبد إيللورا (راجع المقال السابق) وكدشوارو من خير ما تركه الفن الهندى فى النحت

أما التصوير فكانت غالبية مرسومة على حوائط المعابد ، إلا أنه مع الأسف لم يبق منه شىء كثير من القطع الكبيرة

ويغلب على الظن أن أروع مصورات هندية هى تلك التى على حوائط معبد أدشونتا (القرن الخامس بعد الميلاد) ، وتمثل بوذا والاحتفالات الدينية ، وبعض مناظر الحروب والصيد ، وكانت خالية من قواعد وأصول الرسم المنظور ، ولكن هذا لا يمنع من اعتبار خطوط التحديد جيدة لدرجة أكسبت الأجسام شيئاً كثيراً من الروعة والحياة

أما الألوان فكانت قوية اختارها الهنود جذابة للنظر لما غلب عليها من دقة الاختيار وحسنه . ويتلخص التطور الذى طرأ على فن التصوير الهندى في أن المساحات المشغولة به كانت كبيرة ، ثم أخذت فى الصغر حتى أصبحت تقرب من تلك التى تعلق على الحوائط فى أيامنا هذه ، بل إن الكثير منها رسم فى مساحة الكتب العادية

هذا إلى أنها كانت شاملة فى أول أمرها لعدة أشخاص ثم خصصت للتعبير عن الجمال أو مواقف الغرام بين رجل ومعشوقته

ولعلنا بالنظر إلى الصورة المنقولة عن حائط معبد أدشونتا نلاحظ حرص الفنان على صدق المحاكاة بالرغم من بساطة الخطوط ، فالتسعة الرؤوس تكاد تكون متشابهة من حيث الملامح والتكوين . أنظر إلى الشعر وإلى العيون والحواجب والشفاة تر أنها كلها لجنس واحد من الناس

وقد اجتهد الفنان فى تصوير الأيدى مختلفة الأوضاع ؛ فتراه جعلها قابضة مرة على عقد وأخرى مشيرة ، وثالثة منبسطة على كتف

وهذه الصورة وإن كانت بسيطة بالنسبة إلى غيرها ؛ إلا أنها تعطي فكرة صادقة عن روح التصوير الهندى

احمد موسى



جلالة الملك يحضر دروس الدين في رمضان

يحرص جلالة الفاروق أيد الله ملكه على أن يحيي سنن الراشدين من خلفاء الرسول، والصالحين من ملوك الإسلام، فشاءت جلالته أن يحضر دروس التفسير والحديث التي يلقيها في المسجد الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر في مساء كل خميس من شهر رمضان. وقد كان يوم الخميس الماضي افتتاح هذه الدروس بمسجد الأبوصيرى في الاسكندرية. ففي الدقيقة الخامسة والعشرين من الساعة التاسعة أقبل موكب المليك الأعظم فاستقبله على باب المسجد العلماء والنبلاء والوجهاء والشيوخ والنواب وجمهور حاشد من طبقات الشعب، ثم أخذ مجلسه المتواضع في بيت الله بين عباد الله وشرع الأستاذ المراغي يلقي درسه الجامع بعد أن مهد له بهذه الكلمة البليغة قال:

« قبل أن أشرع في المحاضرة أرى لزاماً عليّ وأداء للواجب أن أفي لمولاي حضرة صاحب الجلالة « الملك فاروق » الأول أعزه الله ببعض حقه على الإسلام والمسلمين من الثناء والشكران، فقد أعاد سنة من سنن الاسلام بتحيته وبندائه الذي أذاعه أول يوم من رمضان هي سنة الأمر بالمعروف والاعتصام بهدى الله وأوامره تصدر من ولى الأمر، وهو أعزه الله باستماعه لمحاضرات دينية قد أرشد الناس إلى الرجوع إلى الحق وسماع آي الكتاب الكريم والسنة المطهرة

تلك نعم من الله تستوجب الشكر والدعاء بدوامها. ومما يزيدنا غبطة أن هذه الرعاية من المليك المعظم للدين جاءت في وقت نبتت فيه عند الشبان من أبناء الجيل فكرة الرجوع إلى الدين والاعتزاز به

ومما لا ريب فيه أن تعهد هذا الشعور سينميه ويقويه ويصل به إلى أبعد الغايات وأحب الثمرات. حقق الله الآمال وأدام « الفاروق » ذخراً للإسلام والمسلمين ولأهل الوطن أجمعين »

وقد انتهى هذا الدرس الديني في الساعة التاسعة والدقيقة العاشرة فما كاد جلالته ينصرف من المسجد ويبدأ الموكب الملكي في العودة إلى قصر المنتزه حتى هبت عاصفة التصفيق والهتاف بحياة الملك الصالح، وظلت تلاحق الموكب حتى عاد إلى القصر الملكي باليمن والإقبال

الموسوعة الايطالية (انسيكلوبيديا اتاليانا)

منذ أسابيع قلائل ظهر المجلد الأخير من الموسوعة العلمية الايطالية (الانسيكلوبيديا أو دائرة المعارف)؛ وهو المجلد السادس والثلاثون. وإصدار هذه الموسوعة الضخمة من أعظم وأجل الأعمال العلمية التي تمت في العهد الفاشستي؛ وقد وضع مشروعها لأول مرة في سنة ١٩٢٥، وكان روح المشروع هو السنيور موسوليني نفسه؛ وتبرع لمعاونة المشروع عدة من رجال المال الايطاليين في مقدمتهم السناتور جوفاني تريكاني، وهو من أقطاب الصناعة ومن هواة العلوم والفنون؛ وانتخب العلامة السناتور جنتيلي لادارة المشروع والاشراف على إخراج الموسوعة؛ وصدر المجلد الأول منها في ربيع سنة ١٩٢٩، ووعد القائمون بأمرها يومئذ بأن المجلد الأخير منها سيصدر في سنة ١٩٣٧؛ وكانوا عند وعدهم. ودعا السناتور جنتيلي، وهو من العلماء والكتاب الأجلاء، كتاب العالم وعلماءه في كل فن وفرع ليشتركوا في تحرير الموسوعة الجديدة، وأغدقت عليهم الهبات الوفيرة، ولم تعترض معاونتهم أية اعتبارات حزبية أو قومية، إذ حرص القائمون بالأمر على أن يسود المشروع كله جو علمي بعيد عن جميع الاعتبارات. وقد صرح السناتور تريكاني حين تقديمه المجلد الختامي من الموسوعة إلى السنيور موسوليني بأن الموسوعة الايطالية اتخذت نموذجها من الموسوعة البريطانية وصدرت على طرازها باعتبارها مثلا أعلى لهذا النوع من العلم المحشود؛ وإنهم مع ذلك حاولوا باصدارها التفوق على الموسوعة البريطانية. ومن

محاسن الموسوعة الجديدة أنها لم تكن مشروعاً تجارياً بل كانت مشروعاً علمياً فقط ، وانها حسبما يصفها المشرفون عليها ، قصدت إلى غاية علمية جليلة هي أن تلخص العلم الايطالى المعاصر والثقافة الايطالية المعاصرة ؛ ولكن هنا لك ملاحظة جديرة بالتقدير ، وهي أن كل ماتخرجه ايطاليا الفاشيستية من صنوف التفكير والثقافة يصطبغ بصبغة الدعاية العميقة للفاشستية ونظمها ومزاياها المزعومة ؛ فماذا كان أثر هذه النزعة في إصدار الموسوعة الايطالية ؟ يقول النقدة الذين درسوا الموسوعة إنها جاءت لحسن الطالع مجهوداً علمياً لم تطغ عليه شوائب الدعاية القومية المنظمة ؛ وإذا كانت فى الواقع تعتبر أعظم وأغزر مصدر لكل ما يتعلق بالفاشستية ، فان ذلك طبيعى لا غبار عليه لأنها تصدر عن بلد النظم الفاشستية . وقد تولى السنيور موسولينى نفسه كتابة المقال المتعلق بشرح النظرية الفاشستية ، وكتب السنيور ڤولبى وزير الطيران تاريخ الفاشستية . وإذا كانت الموسوعة الجديدة تنم عن نزعة ثورية فى النظر إلى مناحى العلوم والفنون ، فهى أيضاً نزعة طبيعية فى بلد يعيش في عهد تطور وثورة ؛ بيد أنه يمكن أن يقال بوجه الاجمال ، إن الموسوعة الايطالية مجهود علمى جليل قبل كل شئ ، وإنها مفخرة علمية خالدة لايطاليا الفاشستية ، وإنها قد استطاعت أن تحقق إلى غاية بعيدة كل ما قصده المشرفون عليها من تلخيص الثقافة الايطالية المعاصرة ، وإنها قد استطاعت أن تتحرر من كل نزعة قومية أو حزبية أو جنسية أو دينية خاصة ، وإنها أخيراً فتح علمى عظيم يستحق كل إعجاب وتقدير

صور بغدادية

أصدرت مس ستارك (مذكراتها) عن بغداد فى كتاب بالإنجليزية سمته Baghdad Sketches وقد كتبته فى الفترة التى عاشتها فى هذه المدينة الخالدة مكبة على تعلم اللغة العربية وأختها الفارسية . والكتاب على طرافتــه خليط من الحق والباطل والماضى والحاضر ؛ وفيه — برغم مزاياه — ظلم كثير للعرب ، ونسيان للجميل العظيم الذى ينبغى أن يذكره الإنجليز إلى الأبد لهذا القطر الشقيق ... وقد كانت المؤلفة تعيش فى صميم بغداد ، ومن هنا كانت هذه النظرة السوداء لطرق معيشة البغداديين ، والنعى على قذارة الحى الذى كانت تعيش فيه ... ولو أن الآنسة فرايا ستارك عاشت فى بعض أحياء لندن القذرة لما سولت لها نفسها إيراد ما أوردته فى كتابها عن الحى البغدادي الذى لم يرغمها أحد على أن يكون مستقرها فى الفترة التى قضتها فى عروس مدن التاريخ ... هذا وقد تكلمت الآنسة عن العلاقة بين العرب فى العراق وبين الإنجليز فصرحت أنها تقوم على النفاق ، وأن العراقيين فى طول البلاد وعرضها يضمرون للأجانب عامة البغضاء والكراهية ، واستنتجت ذلك من مرورها مرة وهى تزور النجف بصانع أحذية طاعن فى السن ما كاد ينظرها حتى انصرف عن عمله وراح يحدجها بنظرات عدائية ارتجفت لها أعصابها ... وهذا بطبيعه استنتاج سقيم كان من المآخذ الكثيرة التى استدركتها على الكتاب صحيفة التيمس الأدبية

دور الضيافة الأدبية

منذ عامين أنشأت نقابة الصحافة الفرنسية فى باريس بمعاونة الحكومة نادياً للضيافة سمته دار الضيافة الفرنسية Acceuil de France وأعدته لنزول الصحفيين الأجانب الذين يزورون باريس زيارة قصيرة ؛ فهنالك يحتفى بهم وتقدم إليهم جميع المعاونات والمعلومات اللازمة لتسهيل مهامهم وأغراضهم العلمية والسياحية . وفى هذا العام استطاع نادى القلم الفرنسى أن يحمل الحكومة الفرنسية على أن تخصص داراً عظيمة فخمة لنزول الكتاب الأجانب الوافدين على باريس ؛ وتقع هذه الدار فى حى الشانزيليزيه أفخم أحياء باريس فى شارع بيير شارون ، ويمكن لجميع كتاب العالم الذين ينتمون إلى نوادى القلم أن ينزلوا فيها ضيوفاً على الحكومة الفرنسية ؛ وقد حددت مدة الضيافة بخمسة أيام فقط نظراً لكثرة الكتاب الوافدين على الدار وفي خلالها يقدم طعام الإفطار إلى الضيوف ، وتوضع تحت تصرفهم جميع المعاونات والتسهيلات الممكنة لزيارة المعالم الأثرية والفنية . ومنذ أوائل الصيف الماضى تقوم هذه الدار الفخمة بمهمتها فى استقبال الكتاب من مختلف الأنحاء

ونحن فى مصر فى حاجة إلى دار للضيافة من هذا الطراز ؛ ولا نقول إنها يجب أن تعد لاستقبال جميع الكتاب الوافدين إلى مصر ، بل يكفى أن تعد لنزول الكتاب والأدباء الذين يفدون علينا من الأقطار العربية والاسلامية ؛ ونحن نستقبل

الكثيرين من هؤلاء الإخوة فى كل عام وكل فصل ، ولا نستطيع فى معظم الأحيان أن نقدم إليهم ما يجب من حسن الضيافة والمعاونة . فعلى هيآتنا الصحفية والأدبية أن تبذل السعى اللازم لدى الحكومة حتى تظفر بتحقيق هذه الأمنية التى يعاون تحقيقها فى توثيق الروابط الأدبية والاجتماعية بين مصر وشقيقاتها

اكتشاف جديد لسر التحنيط

هل اكتشف العلم الحديث أخيراً سر التحنيط عند الفراعنة ؟ هذه مسألة تعنى بها الأوساط العلمية فى أوربا وأمريكا منذ حين عناية خاصة ، وتبذل الجهود من آن لآخر للوقوف على سر ذلك المحلول العجيب الذي كانت تنقع فيه الجثث المحنطة فيكفى لحفظها من العطب والتحلل آماداً طويلة ، بل آلافا مؤلفة من السنين كما تشهد به موميات الفراعنة التى تحتفظ بها مصر وكثير من المتاحف العالمية . ولقد كان التحنيط على هذا النحو فناً من فنون المصريين القدماء برعوا فيه إلى الغاية ؛ ولكن تسربت منه على ما يظهر فى العصر القديم معلومات إلى بعض الأمم المعاصرة كالأشوريين والفرس ؛ بيد أنه لم يبلغ فى حضارة من الحضارات القديمة مثل ما بلغه عند المصريين القدماء

وقد بذل العلم الحديث محاولاته لاكتشاف هذا السر مهتدياً بما كتبه المؤرخ اليوناني الكبير هيرودوت عن التحنيط عند الفراعنة حسبما شاهده ودرسه بنفسه لدى المحنطين المصريين وهم الرهبان فى ذلك العصر ؛ ولكن رواية هيرودوت لم تلق قط على حقيقة المواد التى كانت تستعمل ضوءاً كافياً ، وكل ما هنالك أنه يتحدث عن محلول « النترول » . وفي أواخر القرن الماضى استطاع بعض العلماء الألمان أخيراً أن يهتدى إلى مركب تحفظ به الجثث المحنطة ولكن إلى أعوام قلائل

والآن تحمل إلينا الأخبار من إيطاليا أن المباحث التى كانت تجرى منذ حين فى جامعة تورينو قد انتهت بالوقوف على سر المحلول الفرعونى للتحنيط ، وأن الكيميائي الإيطالى السنيور سالفاتوري بيروتا قد استطاع أن يهتدى إلى محلول تحفظ به جثث الحيوانات المحنطة أعواماً طويلة دون أن يصيبها البلى ، بل تبقى كأنها حية تماماً . ويقول أساتذة المعهد الكيميائى بجامعة تورينو إن بيروتا قد استطاع حقاً أن يقف على سر التحنيط بهذا الاكتشاف ؛ على أنه يبقى أن تثبت التجارب العلمية ما إذا كان هذا المحلول الذى اكتشفه العالم الإيطالى يكفى لحفظ الجثث آماداً طويلة ، وهذه هى عقدة المسألة كلها . وقد كان بيروتا طالباً فى معهد تورينو وتخرج فيه ، ولكنه اضطر لفقره أن يلتحق بوظيفة صغيرة ؛ إلا أنه شغف بالتجارب الكيميائية وأنشأ له معملاً صغيراً فى منزله وأجرى فيه تجاربه ؛ ولما وقفت الجامعة على جهوده سارعت لمعاونته ووضعت معملها الكبير تحت تصرفه حتى اهتدى بتجاربه العديدة إلى اكتشافه المذكور

انعقاد المؤتمر الطبى السنوى فى بغداد

قررت الجمعية الطبية المصرية عقد مؤتمرها السنوى العاشر بمدينة بغداد في المدة بين ٩ و ١٣ فبراير القادم

وسيتناول المؤتمر بحث الموضوعات الآتية :

جراحة الكبد والحويصلة الصفراوية — الملاريا — الكوليرا — موضوعات متنوعة جراحية وباطنية (من بينها الحمى المتموجة وحبة بغداد) — توحيد المصطلحات الطبية فى اللغة العربية

وترجو الجمعية من حضرات الأطباء الراغبين فى إلقاء بحوث عن هذه الموضوعات إحاطتها علماً بالموضوع الذى يختاره كل منهم مع ملخص بسيط عنه

أما قيمة الاشتراك فى المؤتمر ، فهى جنيه مصرى يرسل باسم سكرتير الجمعية العام (بريد قصر العينى) . وستعلن الجمعية قريباً عن البرنامج التفصيلي الشامل لحضور المؤتمر .

أسبوع الكتاب الألمانى

جرت عادة الجالية الألمانية فى مصر أن تقيم فى كل سنة معرضاً تطلق عليه « أسبوع الكتاب الألمانى » . وقد أقامته هذه السنة فى القاعة الكبري بالبيت الألمانى فى شارع الترعة البولاقية رقم ٧ تحت رعاية وزير ألمانيا المفوض

ومن أهم ما عرض فى هذه السنة ما كتبه الألمان عن مصر فى مختلف الأزمان ، إذ قدم المعهد الأثرى الألمانى للمعرض نخبة من المؤلفات القيمة فى هذا الباب

وظل المعرض مفتوحاً يومى السبت والأحد وأقيمت فى منتصف الساعة الثانية عشرة من صباح الأحد أمس حفلة موسيقية اختتم بها أسبوع الكتاب الألمانى



من أساطير الاغريق

٣ – خرافة جاسون

للأستاذ دريني خشبة

– « وله ؟ ألست بن ملك مثلها ؟ ألست صاحب عرش عظيم ؟ أليس لى ملك تساليا بعد أن أعود من رحلتى هذه ؟

– بلى يا بنى ! ولكنها تخشى أباها أشد الخشية . أليس يرى فيك عدوه الأكبر لما تريد من استلابه الفروة الذهبية التى هى أكبر كنوزه ؟

– دعى هذا الآن يا أماه ، ولكن طمئنينى كان الله لك ، هل تحبنى ميديا حقاً ؟

– ومن أنبأك هذا ؟

– نبأتْنيه ربة من السماء لا تضل ولا تنسى !

– ربة ؟ تقدس اسمها ؟ ! من عساها تكون يا ترى ؟

– هى چونو يا أعز الأمهات ! لا أكذبك ، إنها چونو !

– أتعرف ما تقول ؟

– وهل يكذب بشر على آلهته ؟

– إن كان ما تقول حقاً . فلا أذيع سراً أذاعته سيدة الأولمب ، ومليكة چوف الكبير المتعال ؛ إن ميديا يا بنى مولعة بك ولوعاً شرد النوم من عينيها ، وجعلها فى أيام معدودات طيفاً لا يردد لسانه غير اسمك ، ولا تذرف عيناه إلا من أجلك .. و ..

– ميديا تبكى ؟ ومن أجلى ؟ ولم تبكى ؟

– تبكى لأنك كلفت بأمور لا تحملها الجبال ! وأين أنت من عِجلَىْ قلكان والأرض الجبُوب التى لمارس ؟ ومن أنت والجيش العرمرم من المردة من نبات أنياب التنين ؟ ثم من أنت وما هذا كله فى التنين الهائل الذى يحرس الفروة ؟ حقاً لقد جازفت بنفسك حين وافقت الملك على خوض تلك المخاطرة ..

– وما الرأى إذن ولا بد مما ليس منه بد ؟

– الرأى أن تلقى ميديا فهى حبيبتك ، وإن عندها ، فضلا عن ذلك ، أمَّ كتاب السحر ، ولن تبخل عليك بعلمها مهما كلفها ذلك من حَنَق أبيها ، وإغضاب أربابها

* * *

لقد كان الليل يضرب على العالم بجرانه ، وكانت النجوم تلتهب فى فحمته كقلوب المحبين ، والفرقدان يتقدان من هول الزيارة المضروبة بين العاشقة المُدلَّهة ، والفتى القاحم ذي الآمال

وأقبل جاسون فوجد العجوز تنتظره عند الباب الخلق ... وهمست إليه فسار فى إثرها حتى كانا عند منعرج مُسَوَّج بنبات ذى عساليج ، يؤدى إلى رحبة واسعة ينتشر فى أرجائها أرج الورود والرياحين ، حتى ليوقظ القلوب النائمة ، ويعطرها بفغمة[1] الحب ، ويسكرها برحيقه المختوم الذى كله لغو وتأثيم !

وهناك ، كانت تنتظره ميديا بنفس غرثى[2] ، وقلب ظامئ خفِق ، فلما رأته غمرها إحساس ثائر ، واستولت عليها عاطفة صارخة ، لم تستطع معها إلا أن تلقى بنفسها على صدره القوي الرحب ، تبلله بدموعها ...

ووقف جاسون ساكناً هادئاً ، كأنما كان يوجس خيفة من هذا الحب الذى أقبل فجأة بهاجمه ويَدَّاراً عليه ، ويدفع بعضه

---

(١) الفغمة : الرائحة الجميلة

(٢) غرثى : جائعة والمراد مشوقة

بعضاً من حوله ... لقد كان قلبه بارداً كالثلج ، وذراعاه جامدتين كالرخام ... وكانت ميديا تبكي وتنثر اللؤلؤ من عينيها المرتجفتين ، ولكنه لم يستطع أن يرد تحية واحدة من تحايا هذه الدموع ... وكأنما كان يحس ، حينما كانت الفتاة تلف ذراعيها حوله ، أن حية رقطاء تتحوّي عليه ، وتنفث سمها فيه ... لماذا ؟ لم تكن إلا الآلهة وحدها تدري !!

— جاسون ... أحبك ... أحبك من أعمق أغوار قلبي ! لم أكن أعرفك قبل أن رأيتك من الشرفة تكلم أبي ، فلما رأيتك فنيت فيك ...

— أشكرك يا عزيزتي ... أشكرك شكراً لا أدري كيف أعبر عنه !

— جاسون ! ألا تكون لي إلى الأبد ؟

— أنا خادمك ... بل عبدك إذا شئت !

— لم رَضيت لنفسك ما عرضه عليك أبي يا جاسون ؟

— وماذا يخيفني يا ميديا ؟ نحن الاغريق لا نرهب الردى ، ولا نخاف الموت !

— هذا جميل ... ولكن الموت أكره الأشياء وأقبحها لمثل هذا الشباب !

— قد أنتصر ، والنصر ، لا سيما في المخاطرات ، أجمل تاج يتألق على جبين الشباب !

— هذا محال إذا لم أساعدك !

— تساعدينني ؟

— أجل !

— وكيف ؟

— عِدْني أولاً !

— وبماذا أعدك يا أعز الناس !

— أن تكون لى ... أن نتزوج !

— أعدك !

— بل أعطني موثقك !

— أقسم لك !

— بل احلف بجونو ؛ فهى حارستك ! وأحلف بهيا كاتيه !

— أ ... أ ... أحلف ! أحلف بجونو ! وبهيا كاتيه !

— تحلف بجونو ماذا ؟

— أحلف بجونو أن نتزوج !

— وأن يعيش كل منا للآخر إلى الأبد !

— إ ... إ ... إلى الأبد ؟!

— إذن ... لاضير عليك ... ستنجو من كل شيء ياجاسون ... خُذْ !

— ماذا ياميديا ؟

— أسلحتك التى تقيك !

— أسلحتى !؟ هاتان عُلْبَتَان ... وهذا حجر أسود صغير ! أكل هذه أسلحتى ؟ ماذا أصنع بها ؟

— علبة من فضة إذا فتحتها اصّاعدت منها ريح تفل من حدة عِجْلَيْ فلكان ، وتقي وجهك حر النار التى ينفثانها من منخريهما ، فتستطيع أن تلجمهما ، وتضع على عنقيهما النّير حتى يكون المِقْوَم (١) بيدك ... أما الحجر الأسود الصغير فتقذفه وسط المحاربين الذين تنبتهم أرض مارس الجَبُوب ، وإنه لحجر مُسَوَّم من سجيل ، يجعلهم كعصف مأكول ! وأما العلبة الصغيرة الذهبية فتنثر مما بها من طيب فى وجه التنين فيسكر وتتخدر أعصابه وينام لساعته ، ولك عندها أن تقضى عليه ...

وسكتت ميديا ...

ومدت فمها إلى جاسون ، فطبع عليه قبلة فاترة خائفة ترتجف وترتعد ، مما سمعت من سحر الحجر الأسود ، وريح العلبة الفضية ، وطيب العلبة الذهبية !!

***

وكان الجو العبوس القمطرير يزيد فى منظر الحفل الحاشد

(١) المقوم الخشبة بين الثورين يمسك بها الحراث — أما النير فالقصبة التى تشد المحراث على عنقيهما (الثعالبي)

روعةً ورهبة ؛ وكان الملك الجبار يملأ بجسمه الضخم عرشه المرد فوق الأكمة المشرفة على الأرض الجبوب المقدسة باسم مارس ، وكان الناس الذين أقبلوا من كل فج مُشاةً وعلى كل ضامر يجلسون على الشعاف وأحْياد الجبال المطلة على الميدان متزاحمين متدافعين كأنهم في يوم حشر ... وكان إخوان جاسون يجلسون عصبة بينهم وفى قلوبهم حسرات على صاحبهم ، وألسنتهم ماتفتر عن الدعاء له ، والتوسل إلى الآلهة من أجله ... وكانت ميديا العتيدة تجلس فى ركن من مقصورة الملك تشعوذ وتُعَوِّذ وتطلق الرُّقى ...

ثم دق الناقوس الكبير فصمت الناس وشملهم سكون عجيب .. وانفتح باب الزّرب فبرز عجلا فلكان ثم جملا يعصفان ويتلبطان (١) وينفثان من منخريهما شرراً ودخاناً يختلط بهما لهب أزرق ما مسَّ شيئاً فى الميدان إلا حرقه ... حتى العشب الرطب المندّى بَلْه الهشيم اليابس... ، ... وبرز جاسون من مكمنه ، فانحبست أنفاس الناس ، وسكنت الريح ، وأشرفت الآلهة من نوافذ السماء تنظر إلى هذا اللقاء العظيم... وأهطع (٢) أصحاب البطل وطارت ألوان وجوههم ، وتحسس كل منهم فؤاده ... ولكن جاسون الهائل خطر شطر العجلين غير هياب ؛ وعليه دروعه ، وفى يده سيفه ؛ فلما كان قاب قوس منهما جعل يتلطف بهما ، ثم فتح العلبة الفضية فصعدت منها ريح هدّأت ثورتهما وأسلست قيادهما فأسرع إلى النير فوضعه على عنقيهما وشد وثاقه ، ثم ربط إليه المحراث وبدأ عمله الشاق ... وكانت الريح السحرية قد بطل عملها أو كاد فعاد العجلان إلى سابق دأبهما من التوحش والقماص والشبوب (٣) وعاد منخراهما يقذفان دخاناً أبيض وشواظاً ... بيد أن جاسون سيطر عليهما حتى أتم حرث الأرض كلها ، ثم قادهما إلى زَرْبها وأطلقهما ، وغلق عليهما ، وقصد ناحية الملك يسأله أنياب التنين لبزرعها ... فدفعها الحراس إليه وطفق يفرسها فى الأرض الرحبة حتى إذا فرغ من عمله ، نظر فإذا رؤوس مقنعة فى خوذات من حديد تنبت من الأرض ، ثم تنمو فتبرز الرقاب ، ثم تظهر الصدور وعليها الدروع السابغات ، ثم تشقق الأرض وتكون الجذوع كأنها من فوقها ، وتخلص الأذرع وفى أكفها السيوف المرهفة تلاعب الهواء .. ثم ترتفع الأفخاذ وعليها كل لأمة دلاص (١) ، ثم يقف أمام جاسون جيش عرمرم من هذه الشياطين المسلحة ترغى وتزبد وتزأر ، ثم ينقض عليه الجيش بأكمله وقد شرع كل جندى حسامه ، فيتلقاهم البطل بأحسن ما علمه شيرون أستاذه العظيم من قوة فى كر ، وحزم فى فر ، وحذق فى تحرُّفٍ لقتال ، ورسم لخطط للنضال ... وكان الملك ينظر إلى كل ذلك ويتعجب ، وكان الشعب يفغر أفواهه من دهش وذهول ... وكانت ميديا — برغم ما سلحت به جاسون من سحر — تمسك قلبها الخفاق بيدين مرتجفتين ... أما رفاق جاسون ، فوارحمتاه لهم !! لقد كانوا يرون الأبالسة يحدقون به من كل صوب ، ويزلزلون الأرض تحت قدميه ، فتزيغ أبصارهم وتتقلب قلوبهم ، وتتثلج مشاعرهم ، وينظر بعضهم إلى بعض ، لا يملكون لهذه الحال ردًّا ولا دفعاً

وظل جاسون يناضل ويناضل ، وكلما قتل عشرة وقفت مائة مكانها ، وكلما جندل مائة بُدلت بألف ؛ فانقذف شىء من الرعب فى قلبه ، وسرى إلى نفسه دبيب من اليأس كاد يقتله ، لو لا أن أقبلت جونو تكلمه فى نسمة روحت عن قلبه ، وتذكره بالحجر الصغير الأسود ... ولكن الحجر الصغير الأسود كان فى جيب صداره ، فأنى له به ولو غفل لحظة عن الدفاع عن نفسه لباء بقتلة شنيعة بقطر سمها من ألف ألف سيف !!

وجعل المسكين يحاول مرة بعد مرة أن يخرج الحجر الصغير الأسود ... ولكن محاولاته كلها ذهبت سدى ... وكان قد بلغ منه الجهد ، وتولاه الإعياء والضنى ... فلهج لسانه فجأة باسم جونو ... فأسرعت سيدة الأولب لنجدته ، وأخرجت الحجر الأسود من جيبه ، ووضعته فى يده ، فقذفه جاسون وسط جيش

---

(١) الاعصاف السير السريع الذى يثير الأرض ، ويتلبطان يختلطان فى سيرهما

(٢) مدوا رؤوسهم

(٣) أن ترفع الدابة يديها غاضبة

(١) الدرع الواسعة السابغة

الأعداء المحدقين ، فما هي إلا طرفة عين حتى تفرقوا من حوله ، ثم تصرّعوا غير مأجورين ... وماتوا جميعاً

وأهرع أصحاب جاسون إليه ، وطفقوا يحيونه ويهنئونه ، ويذرفون حوله دموع الفرح لما كشف عنه من غمة هذا البلاء ثم حملوه وهم يهتفون باسمه أحر الهتاف ، وأهرعت الجموع الزاخرة فى آثارهم نحو البحر ، وهى تفتأ تردد صيحات الاغريق ، حتى خاف الملك على عرشه أن يثله شعبه ، وأن يجلس عليه جاسون .. لذلك اربد وجهه ، وانتشرت عليه سحابة من الكآبة والهم تملأ أساريره

وبلغ الاغريق سفينتهم فشكروا للكولخيين جميل ما حيوا به بطلهم ... ثم خلوْا بعد ذلك إلى جاسون فنضوا عنه ثيابه ، وضمخوه بالطيوب والعطور ، ثم هيأوا له طعاماً وشراباً ، من أفخر ما يفتنون .. وفى الليل أسر إليهم بسره ، وانطلق ليلقى ميديا

***

ولقيته ابنة الملك بابتسامة لم يجزها عليها بمثلها ... ثم تركها وقتاً غير قليل تغمره بقُبَلها وتنضح يديه وخديه وجبينه بدموعها وتعبر له عما كان يقيمها ويقعدها حينما انبرى لعجلىْ فلكان ، وحين أحدق به أبالسة التنين يقاتلونه ويتكاثرون عليه ، وهو صابر لهم ، صامد لجموعهم ، حتى قذف الحجر فانقذفت فى قلوبهم المنايا

— أرأيت إذن ياحبيبي ماصنع الحجر الأسود من السحر أيقدر على مثل ذلك غير من أوتى من العلم ما أوتيت ؟

— كلا !

— مالك لا تتكلم يا جاسون ؟

— الفروة الذهبية ! أريد أن أفرغ من هذا الهم الطويل ؟!

— الفروة الذهبية لك من غير ما ريب ، فلا تبتئس ! قبّلني !

وطبع على ثغرها قبلة مَيّتَةً كانت ترتجف من شياطين السحر التى ترقص دائماً فى فم ميديا ... وانطلقا إلى الجانب القصى من الغابة المجاورة ، حيث كان التنين الهائل يحرس الفروة المعلقة على شجرة السنديان ، وهناك ، فتح جاسون العلبة الذهبية ثم اقترب من التنين في غفلة منه ، وقذف فى وجهه بما كان فيها من قطرات السحر ... فترنح الوحش المخيف الرائع ؛ واستل جاسون جُرازه ، وأغمده فى صدر الأفعوان الكريه ، فخر يتلبط في دم غزير ... وانقض الفتى على الفروة الثمينة التى ترجح ألف كنز فانتزعها من الشجرة ... وعادا مجلِيْن إلى القصر الملكي الرهيب ، حيث كانت وصيفاتها فى انتظارها ، وقد جمعن كل ما استطعن حمله من أذخار القصر ، كما رسمت لهن ميديا من قبل

وحين أوشك الجميع أن يغذوا السير إلى الآرجو ... إذا بالفتى أبْسِرتوس ، أخو ميديا غير الشقيق ، وولى عهد الملك ، يقبل لبعض شأنه ، فتغريه أخته بالسفر معها فى رحلة جميلة إلى أبدع بلدان العالم ... تساليا ... ويرضى ولي العهد ... وينطلق الجميع إلى المرفأ حيث رست الآرجو ، فيركبون فيها ، وتقلع بهم فى موج كالجبال

فى العدد المقبل (خاتمة ميديا) دريني خشبة

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

5 me Année, No. 229

Lundi - 22 - 11 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٢٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ رمضان سنة ١٣٥٦ — ٢٢ نوفبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الفهـــرس

ثورة على الأخـلاق !

هل الصلاح غير النجاح ؟

— ما رأيتك يا محمود على هذه الحال منذ عرفتك ! أين السماحة التى تفترُّ في ثغرك ، والغبطة التى تشرق فى صدرك ، والرضا الذي كان يجعل من حياتك نموذجاً لعلماء الدين وجهابذة العلم وفلاسفة الخلق ؟

— ماذا أصنع يا صديقى والناس أصبحوا يشككوننى فى مزايا الأخلاق وقِيَم الفضائل ؟ كنت أضطرب فى دائرة ضيقة من العيش فيها كل ما فى الدنيا الواسعة من لذة الروح بالأهل ، وسرور القلب بالإخوان ، ومتاع العقل بالكتب ، ونشاط الجسم بالعمل ؛ وليس فيها البُحران الذي يحدث من حمَّى الهموم ، ولا الجحيم الذى يشبُّ من تحاسد الخصوم ، ولا اللجب الذى ينشأ من تنافس المجتمع ؛ وكنت وأنا فى هذا العالم الصغير المحدود أعتقد أن القواعد التى سنها الأخلاقيون لتهذيب الإنسان من الخلال المضادة لغريزته ، قد استطاعت على مر القرون أن تخفت فى دمه صوت الحيوان ، وأن تلائم بين موهوب الطبع و بين مكسوب العادة من تناقض الرأى وتعارض الهوى ، وأن تجعل

من سلطانها الغالب دستوراً لحياة الناس ، فيكون بها مقياس السؤدد ، وفيها سبب الرقى ، ومنها وسيلة النجاح . نعم يا صديقى كنت أعتقد ذلك وأستبعد أن يكون المدنية معنى غير الثقافة ، وللثقافة مدلول غير الكفاية ، وللكفاية نتيجة غير الفوز ، حتى ألجأتنى طبيعة عملي العامّ إلى توسيع هذه الدائرة ، فوسعتها بمقدار ما استلزمه هذا العمل من ملابسة الشعب ومراجعة الحكومة ، فإذا كل ما قرأته زور ، وما تخيلته وهم ، وما اعتقدته باطل . ماشيت العامة على منهج الدين فلقيت الكفر ، وعاملت الخاصة على هوى الخلق فوجدت النفور ، وعالجت الأمور على مقتضى القانون فأدركت الخيبة ؛ فذهبت أفتش فى الناس عن أسباب الفوز فلم أجد من بينها سبباً يمت إلى الفضيلة أو يتصل بالكفاية . هذا الباشا فلان يملك القرى بإنسانها وحيوانها وأطيانها ، وله المقعد المرفوع فى البرلمان ، والصوت المسموع فى الحكومة ، والأمر النافذ فى البنوك ، وهو رجل لا يزال على الفطرة الأولى من الوحشية والعنجهية والجهالة . وهذا البك فلان تشغل عمائره الخلاء والهواء من المدينة ، وله على أغلب الأسر دَين ، وعلى أكثر البيوت اختصاص ؛ ولو سألت جيرانه الأولين عن مصدر هذا الثراء الضخم لأجابوك بلهجة المحنَق الموتور بأنه الربا الذى لا يحفل القانون ، والغش الذى لا يبالي الفضيحة ، والاختلاس الذى لا يخشى الله ، والبخل الذى لا يذكر الموت . وهذا الموظف فلان يملك القصر المنيف فى أجمل بقعة ، والسيارة الفخمة من أعلى طراز ، والمرتب الضخم من أول درجة ، وله الوصل والقطع فى أمور الناس ، والمنح والمنع فى أموال الدولة . فهل بلغ ما بلغ بعلمه ؟ إنه لا يحمل غير الشهادة الثانوية . هل نال ما نال بكفايته ؟ إنه لا يحسن غير الإمضاء فى الموضع الذى يضع عليه الكاتب الصغير إصبعه من الورقة . إذن لم يدرك الرجل ما أدرك إلا بفضل المرونة التي تكون فيمن خلقوا من المطاط لا من الطين ، فرأسه ذو وجهين ، ولسانه ذو شقين ، وضميره ذو باطين ، وشرفه ذو رأيين ؛ يدارى ويجارى ، وينافق ويتالق ، ويهان فيغضى ، ويستباح فيبيح ؛ وهو متفرق الأحاسيس فلا تجتمع له عاطفة ، متنافر المنازع فلا ينسجم له رأى ، معوج المسالك فلا يستقيم له مذهب

وهذا الأستاذ فلان يأكل فى صحاف الذهب والفضة كالنابغة ، ويخطر فى مطارف النعيم والجاه كابن العميد ، ويملك للناس الضر والنفع كابن عبد الملك ! فلعله أصاب ما أصاب من وراء علمه وخلقه . ليت ذلك كان فتشذ القاعدة ويخطئ القياس ، ولكن الأستاذ نجح وا أسفاه لأنه باع العلم بالسياسة ، واشترى الدنيا بالدين ، واضطرب فى مهب الأعاصير حتى رفعه أحدها على متنه ، ثم استقر على المنحدر الشاهق استقرار الريشة القلقة !

ثم رجعتُ أبحث عن أسباب الفشل فوجدتها لا تخرج عن حدود الفضائل التى تعشقها ابن آدم منذ أدرك ! فالعلم والصدق والصراحة والشجاعة والقناعة والأمانة والنزاهة والأنفة والحلم والتواضع والجود ، كل أولئك عوائق عن درك الغنى ونيل الجاه وكسب الشهرة . وأقوى البراهين على إقناعك أن تستقرئَ أحوال المصابين بهذه الخلال فهل تجدهم إلا أواخر الموظفين فى الديوان ، وأخسر المتعاملين فى السوق ، وأضعف المتنافسين فى المجتمع؟

لقد تدبرت الأمر فوجدت الفضائل لا تنتصر إلا فى الروايات والقصص ؛ أما التاريخ الذى يسجل الواقع ويروى الحق فهو دامي الصفحات بأخبار الأنبياء والعلماء والفضلاء والمصلحين الذين أوذوا فى سبيل الدين ، وقتلوا فى خدمة العلم ، ونكبوا في مرضاة الحق ، وشقوا فى حب الفضيلة . فهل تقول بعد ذلك إن الأخلاق الفاضلة لا تزال عدة النجاح وطريق السعادة ؟

فقلت له : أما أنها طريق السعادة فنَعَامِ ونَعَم . وأما أنها عدة النجاح فلا أجد فى نفسى الآن قوة على تأييده ؛ لأن لى في بعض المصالح مسألة لم يفسدها إلا رعايتى للخُلق ، وفى بعض الوزارات مسألة أخرى لم يعقدها إلا محافظتى على القانون . فليس لك علىّ إلا أن أعرض رأيك على رجال الدين وحماة القانون ودعاة الأخلاق ؛ ليردوا عليك ما كذب من قولك ، أو يردوا إليك ما عزب من عقلك .

احمد حسن الزيات

بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

١ — دمشق

يا صديق صاحب الرسالة

أحسبك رأيت من قبلُ دمشق فآنقك مرآها ، ونفحتك ريّاها ، وآنستك ذكراها ، ودارت بك منازهها وطرقها بين الماضي المجيد ، والحاضر المجهود ، والمستقبل المنشود . ولعلك أشرفت من قاسيون على البلد الجميل تحيط به الحدائق الشجراء متصلة بين المـُـزة والغوطة فسرحت الطرف والقلب فى مرأى جميل ومنظر بهيج . ولا ريب رأيت بَرَدَى يتبطن الوادى ، ويتسنم الجبل ، وينسرب فى شرايين المدينـة فيسرى فى دورها ومساجدها وحماماتها وشوارعها ، وتسمع أحياناً خريره فى جوف قناة أو جدار لا تتبين مأتاه ومذهبه . ومن قبلُ قال ياقوت :

« فقلّ أن تمرّ بحائط إلا والماء يخرج منه فى أنبوب إلى حوض يشرب منه ، ويستقى الوارد والصادر . وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاها إلا والماء يجرى فى بركة فى صحن هذا المكان ، ويسحّ فى ميضئته »

وأحسبك يا أخى مررت بمعاهدها فأحسست وقدة بين الضلوع ، أو طرحت كما يقول البحترى ثقلا من الدموع

أدخلت إلى الجامع الأموى من باب جيرون ورأيت فى الطريق المفضية إلى الباب صفا من العمد العادية ، وتمثلت القرون تنسخ القرون ، والعصور تحطم العصور ، وولجت الباب العظيم إلى الصحن الفسيح فالتفت إلى شمالك فرأيت صوز الدور والأشجار والأنهار مصورة بالفسيفساء منذ عهد الوليد . ثم ملت إلى اليمين فدخلت الجامع تروعك العمد العالية الضخمة تمتد فى صفوف مديدة ، ورأيت أمام القبلة قبة النسر الشامخة تزهى بما أشرفت على التوحيـد فى محرابه ، وأظلت الحق فى جماله وجلاله

وما أحسبك رقيت فى المنارة الشرقية ، وشهدت فى مرتقاك حجرة يقال إن الغزالى كان يعتكف فيها ، ثم بلغت القمة بعـد جهد فجمعت أمامك المدينة ، وزويت الأرض كأنك تطالع منها صورة فى رقعة فقلت :

صعدت فى قمة التاريخ مأذنة ‏ ‏ ‏ لها من الحق والتاريخ أحجار

فإذا تركت الجامع الكبير فهناك مشاهد أخرى عظيمة ، وذكريات جليلة

— هل مررت بالرجل الصالح نور الدين محمود ثم البطل المجاهد صلاح الدين يوسف ؟ هل وقفت على ابن أيوب فقلت :

فيـا لك قبراً على قربه ‏ ‏ ‏ تظل العقول به فى سـفر
ويا لك قبراً كمين البصيـــر يحوى العوالم منهـا صِغر

وهناك المدرسة العادلية وبهـا المجمع العلمى اليوم ، والمدرسة الظاهرية حيث ضريح الملك الظاهر بيبرس وبها دار الـكتب ، ودار الحديث الأشرفية وكان من نزّالها العالم التقى الذى لم تأخذه فى الحق رغبة ولا رهبة محيي الدين النواوى . ولا تزال حجرته بها معروفة . ويقول بعض المحدثين ولعله ابن حجر :

وفى دار الحديث لطيف معنى ‏ ‏ ‏ أطوفّ حول مغناه وآوى
لعلى أن أصيب بحُرّ وجهى ‏ ‏ ‏ مكاناً مسّه قدم النواوى

وهل صعّدت فى الصالحية إلى ضريح محيي الدين بن عربى أم نفرت من هذا الشيخ الغريب واللغز العجيب ؟ على أن بجانبه بطلاً من أبطال الجهاد وسيفاً من سيوف الجلاد : الأمير عبد القادر الجزائرى . وإن أردت مزار الرجل العالم الصالح الصوفى الشاعر ذى المناقب الحميدة وصاحب التأليفات الـكثيرة الشيخ عبد الغنى النابلسى فليس بعيداً من ضريح محيي الدين تسلك إليه طريقاً مقفرة بها مدارس دارسة ، منها المدرسة القمرية

فإذا صعدت فى الصالحية فهنالك من الآثار ما يشق تعداده : مدارس ومساجد ومستشفيات ، وهناك جامع الحنابلة الذى قرأ به الذهبى وابن قدامة وغيرهما من كبار العلماء ، والمدرسة الضيائية وكانت تحفظ بها خطوط كبار المحدثين وهى اليوم كتّـاب ، حتى ينتهى الصعود إلى مقبرة الصالحية حيث قبر محمد بن مالك النحوى فى قبور كثيرة للعلماء والـكبراء

وفى أطراف المدينة مشاهد كثيرة للصحابة فمن بعدهم . ولا تنس وقفة على قبر بلال فى مقبرة الباب الصغير لترى الأذان مضمراً فى كتابه ، وتسمع الصوت مكنوناً فى نابه ، بل تسمعه

جهيراً مدوّياً يملأ الفضاء ، ويبلغ عنان السماء « كالخط يملأ مسمعى من أبصرا » أو كإشارات الموسيقى خطوط فى البصر ، ونغمات فى الأذن ، ووجْد فى القلب . وهل الأذان فى المشرق والمغرب إلا صوت بلال مردداً قد بقى فى القبة الزرقاء صدى توالت رُواته واتصلت نغماته ؟

* * *

وهل جُلْتَ فى الغوطة تحنو عليك أشجارها ، وتترقرق عليك ظلالها ، وتطالعك من بين الغصون شمسها ، وتتمادى بك مسالكها بين الزروع والأشجار :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها ... فلي بجنوب الغوطتين شجون

وهناك ضريح سعد بن عبادة قد اعتزل الناس فى مماته ، كما اعتزلهم فى آخر حياته :

وهل سرت إلى دوما ومررت بجَوبَر فذكرت قول القائل :

إذا افتخر القيسى فاذكر بلاءه ... بزرّاعة الضحاك شرقي جوبرا

أو قول الأمير شكيب أرسلان فى الصديق الأديب الشاعر خليل مردم بك :

« وإليه تجبي جوبر وكنيسها »

* * *

يا أخى وكيف بجيش الفِكر وتنبع الذِكر حين يقترب المسافر من المدينة الخالدة فيلق نضارتها ويجد روحها عند الهامة . فإذا أجاز إلى دُمّر فهناك بَردى عن اليمين والشمال متدفقاً فى ظلال الأشجار — أشجار الحور الباسقات — ولله مجلس على بردى تذوب فى مائه النظرات ، وتتساقط عليه من الحور نغمات . فإذا بلغت الشاذروان فَنَمك عَرف دمشق ، وشممت أخلاطاً من الراوئح الطيبة أمدّت بها الأشجار والأعشاب ، روائح يعجز عنها الوصف إلا أن يسميها « نفحات دمشق » . وهل جلست بالربوة فسمعت المعجبين بها يقولون : إنها الربوة التى ذكرها القرآن الكريم فى قوله : « وأويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين » هناك بَرَدَى سبعة أنهر تجرى فى الوادى وعلى الصدَفين وفوق الجبل . ويخر من نهر يزيد — وهو فوق الجبل لا يرى — شلال على الربوة لا يمل الشاهد مرآه ومسمعه

أما أنا يا أخى فلست أملّ التردّد بين دمشق ودُمّر أجد هناك جمالاً لا يحد ، وسحراً لا ينفد . وقد رُدت هذه المشاهد مرات ، ورأيت لها فى القمراء آيات ؛ يتمعّج بنا الوادى بين الجبال والأشجار ، ومياه بردى تسيل بها ربوة ، أو يوسوس بها نعب ، أو يتغنى بها بستان ، فلا تفتأ تسمع منه حديثاً يؤلّف مع حفيف الريح موسيقى هذا الجمال الفتان ، والوادى يدور بنا دورانه ، والقمر يلاعبنا بطلعاته ، عن اليمين والشمال وأمام وخلف . وللقلب بين ذلك مضطرَب ، وللشعر مذهب أىّ مذهب . كان يخيل إلىّ أن هذه المياه الثرثارة حُزَم من الأشعة ، وأن أشعة القمر رشاش من بردى ، وأن هذا النسيم المعطر مزيج من الماء والضياء ينضح وجوه السابلة : شعر تفيض به الأرض والسماء ، وسحر ينفثه الماء والهواء ، وإلهام يفيض به الجنان ، ويعجز عنه البيان

يا صديقى قد صدق البحترى إذ قال :

إذا أردت ملأت العين من بلد ... مستحسن وزمان يشبه البلدا

يُمسى السحاب على أجبالها فرقاً ... ويُصبح النبت فى صحرائها بددا

فلست تبصر إلا واكفاً خضلا ... أو يانعاً خضِراً أو طائراً غرِدا

دمشق ٢٢ تموز ١٩٣٧ — عبد الوهاب عزام

مطبوعات

لجنة التأليف والترجمة والنشر هذا الشهر

الثمن م	اسم الكتاب
٠١٨	أخبار أبي تمام للصولى
٠٢٠	أمراء البيان للأستاذ محمد كرد على فى جزءين
١٥٠	النقض فى المواد المدنية والتجارية للأستاذين حامد فهمى ومحمد حامد فهمى
٠١٥	الطرائف الأدبية ويشتمل على جملة دواوين شعراء لم يسبق نشرها منها ديوان الصولى والمختار من دواوين المتنبى والبحترى وأبي تمام للإمام عبد القاهر الجرجانى

وتطلب هذه الكتب من اللجنة بدارها رقم ٩ بشارع الكرداسى بعابدين ومن المكاتب الشهيرة

على ذكر الموسوعة الايطالية

قصة الموسوعة الجامعة

وكيف عرفتها الآداب العربية في العصور الوسطى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

سجل العلم الحديث فتحاً جديداً خطير الشأن بصدور الموسوعة الايطالية (دائرة المعارف) [1] التى بدأ صدورها منذ أعوام ثلاثة فقط ، وصدر المجلد الأخير منها (وهو المجلد السادس والثلاثون) منذ أسابيع قلائل . وإذا كنا ممن لا يؤمنون بمزايا النظام الفاشستى ، فانه لا يسعنا إلا أن نحيي ذلك المجهود العظيم الذى حققه العلم الايطالى فى تلك الفترة الوجيزة ، والذى يعتبر بحق مفخرة للعهد الفاشستى ، خصوصاً وأن الموسوعة الجديدة جاءت حسبما يقرر النقدة مجهوداً علمياً خالصاً بعيداً عن شوائب الدعاية والأهواء

ولهذه الموسوعات المظيمة التى تحشد فيها سائر العلوم والفنون والآداب تاريخ حافل يرجع إلى أقدم العصور ؛ وإذا كانت تغدو اليوم مورداً سهلا لكل طالب وقارىء بما انتهت إليه من سهولة فى الترتيب والتصنيف ، فانها لم تصل إلى نظامها الحالى إلا بعد أن تقلبت فى أطوار عديدة ، واشترك فى تنظيمها كثير من الأذهان فى مختلف العصور والأمم ؛ وكان لتفكيرنا العربى ، حسبما نرى ، نصيب يذكر فى هذا الميدان

وأصل الكلمة أى كلمة « انسيكلوبيديا » التى تطلق اليوم فى جميع اللغات الحية على جميع الموسوعات العلمية والأدبية يونانى ، وأصل الفكرة ذاتها يونانى أيضاً ؛ وكانت تعنى في اليونانية القديمة مجموعة المعارف التى يجب أن يتزود بها الفتى لاستقبال الحياة العملية ؛ ثم استعملها الرومان وأضحت بمضى الزمن تطلق على جميع العلوم مجتمعة فى سفر واحد . وأقدم مجموعة من هذا النوع انتهت إلينا هو مؤلف بلنى الكبير فى التاريخ الطبيعى الذى يرجع إلى القرن الأول من الميلاد ، وهو مؤلف شامل يتناول كل ما كان معروفاً في ذلك العصر من الطب والجغرافيا والتاريخ الطبيعى وغيرها من الفنون

ووضعت خلال العصور الوسطى باللاتينية عدة مصنفات شاملة من هذا النوع ، وكان واضعوها بالأخص جماعة من رجال الدين الذين توفروا فى تلك العصور على جمع أشتات العلوم والفنون ، بيد أن هذه المصنفات القديمة كان ينقصها روح التناسق والترتيب العلمى ، ولم تظهر فكرة الموسوعة (الانسيكلوبيديا) بمعناها الحديث إلا منذ القرن السادس عشر . ولم تظهر طلائع الموسوعات الحديثة بترتيبها الفني أو الأبجدى إلا فى القرن السابع عشر كما سنرى

وهنا ، وقبل أن نمضى فى استعراض تاريخ الموسوعة الحديثة يجدر بنا أن نشير إلى الدور الذى أداه التفكير العربى فى هذا الميدان ؛ فقد عرفت الآداب العربية فكرة الموسوعة بمعناها الشامل ، وحققت في هذا الباب جهوداً خليقة بالاعجاب والتقدير . ومنذ القرن الثالث الهجرى يبدو أثر هذا الميل إلى التصنيف الشامل واضحاً فى كثير من الآثار العربية ، ونستطيع أن نلمس هذا الأثر فى كتب مثل عيون الأخبار لابن قتيبة ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والأغانى لأبى الفرج ، وهى مصنفات يطبعها طابع الموسوعة فيما تتناول من مختلف الموضوعات والأخبار . كذلك نجد روح الموسوعة ظاهراً فى كثير من المصنفات التاريخية العربية ؛ فكتاب الكامل لابن الأثير مثلا يعتبر بحق موسوعة تاريخية شاملة تجمع بين مزايا التعميم والترتيب المدهش ، وكتاب الوفيات لابن خلكان بلا ريب من أقيم موسوعات التراجم . ومما يلاحظ أن الموسوعة الأوربية الحديثة بدأت كما سنرى بهذا النوع من المصنفات والمعاجم التاريخية الشاملة

على أن الآداب العربية عرفت فى مصر نوعاً أتم من الموسوعة الكبيرة الشاملة ؛ ونستطيع أن نقول إن القرن الرابع عشر فى مصر كان عصر الموسوعات ؛ ففيه أخرج شهاب الدين النورى المتوفى سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) موسوعته الضخمة « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، وأخرج ابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) موسوعته الجغرافية والتاريخية العظيمة « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ؛ وفى أواخر هذا القرن وضع القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) موسوعته

(1) Encyclopaedia Italiana

السياسية والادارية الضخمة « صبح الأعشى » ، وفى هذه الآثار النفيسة الشاملة نرى طابع الموسوعة وروحها بارزين لا من حيث الضخامة وسعة الأفق فقط ، بل ومن الناحية العلمية والفنية أيضاً ؛ فكتاب نهاية الأرب الذى يشغل نحو أربعين مجلداً ضخما هو موسوعة تاريخية وجغرافية وأدبية وعلمية وفنية ، يأخذ فى كل من هذه النواحى بنصيب وافر ؛ وكتاب « مسالك الأبصار » الذى يبلغ نحو عشرين مجلداً ، هو موسوعة جغرافية وتاريخية حقة ، لا يقل من الناحية العلمية والفنية عن كثير من الموسوعات الأوربية المماثلة التى صدرت فى القرن السابع عشر ؛ وكتاب « صبح الأعشى » الذى أصدرته دار الكتب المصرية فى أربعة عشر مجلداً ضخما ، هو موسوعة فذة فى نوعها وقيمتها فهو « دار محفوظات » بأسرها جمعت فيه معلومات ووثائق إنشائية وإدارية وسياسية عن الدول المصرية لم تجتمع فى أى مؤلف آخر

هذه الآثار العربية التى نذكرها على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر ، تدل دلالة واضحة على أن فكرة التصنيف الجامع أو بعبارة أخرى فكرة الموسوعة الشاملة ، عرفت فى الآداب العربية وبلغت فيها شأناً يذكر ؛ بيد أن هذه المحاولة العلمية الجليلة وقفت مع الأسف فى منتصف الطريق وحالت دون تقدمها عصور محزنة من الركود والانحلال توالت على التفكير العربي

***

ونعود الآن إلى الموسوعة الأوربية ، فنقول إن طلائع الموسوعات الحديثة ظهرت منذ القرن السابع عشر ، وكان ظهورها بالأخص فى فرنسا ، حيث صدر فى سنة ١٦٧٤ معجم موررى التاريخى المسمى « القاموس التاريخى الكبير » Grand Dict. Historique مرتباً ترتيباً أبجدياً ؛ وصدرت فى سنة ١٦٩٧ موسوعة بايل التاريخية المسماة « القاموس التاريخى النقدى » Dict. Historiqu et Critique مرتباً على الحروف أيضاً ؛ وظهرت أيضاً فى أواخر هذا القرن موسوعة دربلو الشرقية المسماة « المكتبة الشرقية » ؛ ثم تطور نظام الموسوعة بسرعة ، فاتجهت إلى التوسع والترتيب الفني والأبجدى ، وأخذت تغدو شيئاً فشيئاً مرجعاً شاملا لأشتات العلوم والفنون ، وتشعبت مناحيها شيئاً فشيئاً حتى غدت مشروعاً علمياً جامعاً ، بعد أن كانت مجهوداً فردياً فقط ، وساهمت فى إخراجها جميع الآداب الحية بأوفر نصيب

فى انكلترا بدأت الموسوعة الحديثة بقاموس وضعه القس جون هاريس فى أوائل القرن الثامن عشر عن العلوم والفنون Lexicon Technicum ثم تبعه تشامبرز بموسوعته Cyclopeabia ويعتبر تشامبرز أبا الموسوعة الانكليزية . وفى سنة ١٧٦٨ ، وضع ثلاثة من أهل ادنبورج ، وهم وليم سميلي الطابع ، واندروبل المصور الحفار ، وكولن مكفر كوهار ، وهو صاحب مطبعة ، مشروعاً لاصدار موسوعة جامعة للعلوم والفنون والآداب ، ظهرت فى ثلاثة مجلدات فى سنة ١٧٧١ ؛ وكانت هذه الموسوعة المتواضعة هى الطبعة الأولى من الموسوعة البريطانية Ency. Brittanica ، التى هى اليوم أمثل وأنفس الموسوعات الحديثة . وظهرت الطبعة الثانية بين سنتى ١٧٧٧ و ١٧٨٤ فى عشرة مجلدات ؛ وتوالى صدور طبعاتها الجديدة حتى صدر منها إلى اليوم خمس عشرة طبعة متدرجة فى الضخامة والاتقان ؛ وصدرت طبعتها الأخيرة والخامسة عشرة فى سنة ١٩٣٤ ، في اثنين وثلاثين مجلداً ضخما غير الفهارس والأطالس ؛ والرأى مجتمع على أن الموسوعة البريطانية هى خير موسوعة فى العالم من حيث مادتها ونظامها وروحها العلمى الخالص

وفى فرنسا ، بعد أن ظهرت المعاجم والموسوعات التاريخية التى أشرنا إليها ، وضع المفكر الفيلسوف ديدرو وعدة من زملائه الأعلام مثل دالامبر وهولباك وجريم موسوعتهم الشهيرة التى ظهرت بين سنتى ١٧٥١ و ١٧٧٢ فى ثمانية وعشرين مجلداً على نمط موسوعة تشامبرز الانكليزية ؛ وكانت هذه الموسوعة التى امتازت بنزعتها الفلسفية المجددة ، وبالثورة على القديم فى كل شيء فتحاً عظيما فى التفكير الفرنسى ، وكان لها أكبر الأثر في توجيه الذهن الفرنسي إلى الأفكار والمبادىء الجديدة التى سادت عصر الثورة الفرنسية فيما بعد . وظهرت فى القرن التاسع عشر موسوعات لاروس الشهيرة ، ومنها القاموس الكبير الذى يعتبر

فوق مزاياه اللغوية دائرة معارف شاسعة ، وظهرت منها إلى يومنا عدة طبعات مختلفة ؛ وفي أواخر القرن الماضي صدرت الموسوعة الفرنسية الكبرى La Grande Ency بين سنتي ١٨٨٦، ١٩٠٣ في إحدى وثلاثين مجلداً ، بيد أنها بقيت على طبعتها الأولى حتى اليوم ، وتخلفت بذلك عن مضمار التجديد والاستكمال

وظهرت في القرن التاسع عشر عدة موسوعات عظيمة أخرى فظهرت الموسوعة الايطالية لأول مرة بين سنتي ١٨٤١و ١٨٥١ في أربعة عشر مجلداً ، ثم ظهرت في أواخر القرن الماضي في خمسة وعشرين مجلداً ، وظهرت أخيراً بعناية الحكومة الفاشستية في ستة وثلاثين مجلداً ، صدر الأخير منذ أسابيع قلائل حسبما قدمنا فجاءت بذلك أحدث الموسوعات الأوربية وأتمها من الوجهة الفنية . وصدرت الموسوعة الألمانية في مائة وسبعة وستين مجلداً تحت عنوان « الموسوعة العامة للعلوم والفنون » ، وبدأها الأستاذان أرش وجروبر سنة ١٨١٣ واستمر صدورها طوال القرن التاسع عشر ولم تكمل إلا في سنة ١٩٠٥ ، ولم يعد طبعها إلى اليوم . وصدرت الموسوعة الروسية حتى سنة ١٩٠٥ في واحد وأربعين مجلداً ، وظهرت طبعتها الثانية في ظل الحكم السوفيتي

ويوجد غير هذه الموسوعات العامة الجامعة موسوعات أخرى في نواح معينة من العلوم أو الفنون ، مثل الموسوعة اليهودية Jewish Ency ، موسوعة الدين والأخلاق Ency of Religine and Ethics ، موسوعة العلوم التافيزيقية ، وغيرها ؛ ولهذه الموسوعات قيمة علمية خاصة لأنها تجمع أشتات العلم أو الفن الواحد ومراجعه كلها مرتبة أبدع ترتيب

* * *

هـذه خلاصة لتاريخ الموسوعة الجامعة (الانسيكلوبيديا) وتطوراتها ، نسوقها لمناسبة صدور المجلد الأخير من الموسوعة الايطالية الجديدة ؛ بيد أننا ننتهز فرصة هذه المناسبة لنلفت الأنظار إلى أمنية قديمة كثيراً ما رددتها دوائر الأدب العربي في الأعوام الأخيرة ، وهي أن تعمل دوائرنا العلمية والأدبية المسؤولة لاخراج موسوعة عربية جامعة على طراز الموسوعات الحديثة ؛ وقد بذلت في العصر الأخير جهود فردية في سوريا وفي مصر لاخراج موسوعة عربية ، ولكن هذه الجهود لم تكن ذات قيمة علمية أو أدبية تذكر ، خصوصاً وأنها بذلت في وقت لم تكن الآداب العربية قد بلغت فيه من النضج والكفاية الفنية ما تبلغه اليوم . ولم تبق الموسوعة اليوم عملا فردياً كما كانت في الماضي ، ولكنها اليوم تنتظم في سلك المشاريع العلمية الجليلة التي تشرف على تنفيذها الدولة أو الهيئات العلمية القوية . ولدينا اليوم في مصر ، فضلاً عن وزارة المعارف العمومية ، عدة من الهيئات العلمية القوية الرسمية وغير الرسمية ؛ ففي وسعها جميعاً أن تتعاون في بحث مشروع الموسوعة العربية ، وفي العمل على تنظيمه وإخراجه . ومن المحقق أن مثل هذا المشروع الجليل يلقى من التأييد والنجاح في مصر وفي جميع البلاد العربية ، ما لقيه حتى اليوم في جميع الأمم المتمدنة والآداب الحية .

محمد عبد الله عنان

فى الاسلام ضمان للعرش والديمقراطية

للدكتور محمد البهى قرقر

كان من النتائج المباشرة للحرب العالمية الكبرى بعد أن مارست الأمم الكفاح أربع سنوات أن شعرت الطبقات الشعبية بأنها هى التى قامت بالدفاع، وأنها هى التى كانت تساق إلى ميادين القتال سوقاً، وأن غرم الحرب من الأنفس كان منها ومن الأموال كان مما تدفعه للدولة. شعرت بهذا فشعرت بأن لها الحق فى قيادة الأمة فى حال السلم والسيطرة على شئونها لأنها وحدها هى التى تنال أذى الحرب وتتحمل خسائرها فمن العدل أن تقودها

قوى هذا الشعور فأصبح مبدأ، وازداد هذا المبدأ تغلغلا فى النفوس حتى تحول إلى سياسة عملية، قوامها نصرة الطبقات الشعبية وتمكينها من قيادة دفة الأمور، ولكن فى صورة غير مألوفة من قبل

هذه السياسة العملية صحبها انقلاب رئيسى فى نظام الحكومات نشأ عنه نوعان من الحكم الشيوعى والفاشستى، يتفقان فى ادعاء الديمقراطية وهى تمكين الشعب من حكم نفسه تمكيناً عملياً، ويختلفان فى الأسلوب تبعاً لاختلاف العوامل الاجتماعية الأخرى والغاية التى يقصد إليها

الديمقراطية الشيوعية

فالنوع الشيوعى تغالى فى المعنى الشعبى وزاد فى تقديسه، أو هو أساء فى الواقع فهم المنزلة الشعبية؛ وتبع تلك المغالاة العداء للطبقة الأرستقراطية وازدياد السخط على الفرد الممتاز أو السيد الحاكم بأمره. وكانت نتيجة سياسته العملية ذات شقين، أولا إبعاد ذلك الفرد الممتاز عن الحكم، واضطهاد الطبقة الأرستقراطية؛ وبعبارة أوسع الطبقة التى كانت تبيح لنفسها، إما اعتماداً على مالها من شرف أو لما في يدها من مال، أن تتزعم الطبقات الأخرى الفقيرة والمتوسطة. وثانياً رفع الشعب إلى منصة الحكم

ولكن لم يكد الشعب صاحب هذا النظام يتولى تنفيذ التفويض من جهة والرفع من جهة أخرى حتى اصطدم بالحقيقة الواقعة، وشعر بأن زوال الرأسمالية التى ترى فيها النظرية الشيوعية السعادة المتوهمة لكل أفراد الشعب، وتولى الدولة للشئون الاقتصادية وتوزيع العمل والانتاج على الطبقات المختلفة تحقيقاً لمساواة صورية، عمل يضاد العدالة المبتغاة، إذ آخر أمره استبداد طائفة من الشعب بأفراد الأمة كلها على صورة قانونية

كما شعر الشعب نفسه، صاحب هذا النظام، بعد ما ملك بيده زمام الأمر أن إقصاء صاحب الحق الشرعى فى سيادة الدولة وهو القيصر، كان من الأسباب التى سولت لكثير من أفراد الشعب بأن له حقاً فى الرياسة العامة إذ أنه يملك القسط المشترك وهو المعنى الشعبى الذى يخول له هذا. فالخصائص الأخرى فى نظره عديمة الأهمية أو يجب ألا يكون لها اعتبار

ومن هذا الشعور النفسى تولدت هذه الثورات الداخلية فى السوفييت الروسي، وسيستمر لهيبها ما بقى هذا الشعور، وسيظل باقياً ما دام مبدأ الشيوعية يعتقد أو بمعنى آخر ما دامت هذه الفئة الشعبية تملك قوة تسيطر بها على النفوس

وإذن فالمبدأ الشيوعى لا يتفق مع فطرة الجماعة الانسانية التى لا تخضع بطبيعتها إلا إلى واحد منها تعتقد فيه مزايا لا تتوفر لكل فرد من أفرادها، وخصائصه تعلو به عن طبيعة الإنسان العادى؛ كما لا يتفق مع طبيعة الأفراد التى لا يمكن أن تكون من نوع واحد؛ فمساواة إنسان بآخر مساواة مطلقة فى كل مرافق الحياة إجحاف بأحدهما لا محالة، وإنكار للقوة الكامنة فى إنسان دون آخر وهى التى قد تخلق منه شخصية بارزة فى أية ناحية يفضل بها غيره

إذن فهو نظام (أوتوماتيك) يحاول أن يخلق من جماعة البشر أعضاء لا إرادة لهم إلا ما يريده مباشر السلطة العليا ولا حياة لهم إلا فى ظل الضغط. يريد أن ينشئ من الشعب آلات مسخرة للإنتاج العام، وأن يكون منه جبهة لمقاومة كل نظام آخر يقوم على المبدأ الوطنى ويقر بشيء من حقوق التملك للفرد

فغايته إزالة الفوارق الاجتماعية والمالية والطبيعية أيضاً بين

الأفراد ، ثم قيام الدولة وبعبارة أخرى مباشرة الهيئة الحاكمة بأمرها — وإن زعمت أنها تحكم باسم الشعب — للإنتاج الاقتصادى . وفوق ذلك فهو يرى أن له رسالة عالية تتم غايته وهى حمل الشعوب الأخرى على قبول هذا المبدأ الفوضوى

ومحاولة الوصول إلى هذه الغاية إما مستحيلة من الوجهة العملية كإزالة الفوارق السابقة ، وما النداء به إلا إغراء للطبقات الشعبية فقط ، أو اعتداء بين على الحقوق الطبيعية لأفراد الشعب فضلاً عن الإخلال بحقوق الجوار والتدخل فيما هو من اختصاص الدولة الأخرى . فهو نظام ضد الطبيعة وضد المبدأ الخلق السائد بين الشعوب وهو مبدأ رعاية الجوار

الديمقراطية الفاشستية

أما النظام الفاشستى فهو نظام ديمقراطى أيضاً ، أي نظام مبنى على سيادة الشعب لنفسه ، ولكنه لا يبالغ فى المعنى الشعبى ولا يسىء فهم المساواة بين أفراد الشعب فيجعلها مساواة مزعومة فى الإنسانية

فهو يعترف بسيادة الفرد الممتاز : الملك أو الرئيس الجمهورى ، وبوجوب المحافظة على سيادته ، وبذلك منع الإغراء بالمعنى الشعبى كما أنه لم يجعله وحده سبب التفضيل . فهو إن حرم النظام الأرستقراطى ، أى قصر وظائف الدولة الكبرى على طبقة مخصوصة بما لها من شرف مزعوم ، إلا أنه أباح لأفراد الشعب أن يتولوا تلك الوظائف إذا وهبوا الكفاية فى العمل . وإذن فأساس القيام بالخدمة العامة والانتفاع بسلطة الوظائف الكبرى ليس هو النسب الأصلى على الإطلاق ، ولا هو الشعبية بدون قيد ، وإنما هو الكفاية والجدارة أينما وجدت . فمعنى إقصاء الأرستقراطية عنده عن الحكم إبعاد تلك الطائفة التى استعبدت الطبقات الفقيرة لا لسبب إلا أنها تنتسب إلى أصل قد تعوّد الحكم مع أنها فى نفسها قد تكون مصابة فى مزاجها العقلى ومنحطة فى مبدئها الخلق . ومعنى تقريب الشعب من الحكومة إعطاؤه هذا الحق وإزالة مبدأ « الأصل والنسب » من طريقه . أما مباشرة أمر الحكومة نفسها فذلك مرهون بالكفاية الشخصية

ولما كان النظام الفاشستى يقرر مبدأ الكفاية فانه لا يقول بإزالة الفوارق الطبيعية بين إنسان وآخر ، أى لا يعمل على إهمالها وعدم اعتبارها لأن ذلك يناقض اتخاذ الكفاية قاعدة للاختيار ، بل بالعكس هو يؤيدها ويتعهد القوى الفطرية فى الفرد التى تؤهله لأن يقوم بعمل عام فيما بعد برعاية الدولة

ولأن الكفاية الشخصية هى مبدأ التفضيل فقد أصبحت الفوارق الاجتماعيـة : فوارق الطبقات المختلفة ، عديمة الأهمية والاعتبار ، كما أصبحت الرأسمالية قليلة الأثر فى اختيار من يقوم بالأمر ويتقلد مناصب الحكومة

أما تحويل الإنتاج الأهلى إلى حكومى ومنح حق التملك للحكومة وحدها ، كما ترى نظرية النظام الشيوعى تحقيقاً لمعنى المساواة الموهومة المغرية ، فلا يجد قبولاً لدى النظام الفاشستى ، لأنه من الوجهة العملية عسير التحقيق فوق ما فيه من إخماد للقوى الفردية وإنكار لمنزلتها الأدبية وإنتاجها العملى أيضاً . ولكنه فى الوقت نفسه يبيح للدولة التدخل فى اختصاص الرأسمالية لمصلحة الفرد العامل وموازنة إنتاج الأمة ، فتدخله بمثابة كف لطغيان الرأسماليين فى الهيئة العاملة ، أو منع محاولة ضغطهم على الحكومة فى توجيهها توجيهاً معيناً لمصلحتهم الشخصية أو لغرض سياسى دولى آخر

الديمقراطية البرلمانية

والواقع أن النظام الشيوعى والفاشستى جاءا وقد وجدا أمامهما مسائل كثيرة عجز النظام الديمقراطى البرلمانى عن حلها ، إما تمشياً مع وجهة نظره أو لكثرة إجراءاته وطول مدتها التى من شأنها العمل على تحويل بعض المسائل الاجتماعية الصغيرة فى بدء أمرها إلى معضلات تظهره فيما بعد بمظهر العاجز . ومن أهم تلك المسائل تحكم أصحاب رءوس الأموال فى الطبقات الفقيرة الذى تسبب عنه هذا الجفاء الكبير والعداوة الشديدة بين صاحب العمل والعامل

فالديمقراطية البرلمانية الشائعة التى تفهم من المساواة الإخاء الشعبى والعالمى ، ومن الحرية تفكير الفرد فى دائرة القانون العام وعادات الأمة ، ومن العمل أن يتعدى حدود المصلحة العامة إلى غيرها ، هذه الديمقراطية التى تسىء فى الواقع فهم المساواة وفهم الحرية إن هى نجحت فى مكافحة الأرستقراطية أو على الأصح فى كبح طغيانها قد ساعدت على تحكم أصحاب رءوس الأموال بحجة « الحق

المشروع » والمحافظة على حرية الفرد فى تصرفه فيما يملك ولو كان فى ذلك ضرر الغير وضياع المصلحة العامة . وفى الواقع هى لا تحافظ على حرية الفرد وإنما تغريه بما يخرج عن معنى الحرية الفردية الصحيحة ؛ تغريه أن يتحكم بماله فى الطبقة التى دونه فى الثروة أو على تبذيره والإسراف فيه ابتغاء شهواته النفسية ؛ تغريه بالاستخفاف بعادات غيره ومعتقد السواد الأعظم من الشعب ، كل ذلك باسم الحرية . فهى تؤمن بنظرية الفرد Individualismus ، أكثر من إيمانها بنظرية الجماعة Sozialismus – تقدّس الفرد وتضحى بمصلحة المجموع . فللفرد أن يعمل ما شاء وإن فنيت الدولة فى عمله . وهذا فى الواقع رد فعل لحكم الاستبداد الذى سبق الحكم الديمقراطى البرلماني . فالفردية في الحكم الأرستقراطى كانت مستمرة لا لمصلحة الجماعة بل لمصلحة الفرد الحاكم . فلما جاء النظام الديمقراطى البرلماني حرر الفرد من تبعيته تبعية مطلقة للحاكم المستبد وغالى فى ذلك ، وكان من الطبيعى أن يفضل مصلحة الجماعة لأنها لم تكن الهدف للكفاح وإنما الذى كان مقصوداً يسعى لتحقيقه هو حرية الفرد ومصلحته

بقيت مصلحة الجماعة مغفلة وحرية الفرد معكوساً فهمها ، فلما جاء النظام الشيوعى عمل من جديد على تقييد سلطة الفرد الشعبي وخصوصاً فى الناحية المالية ، وقصر حق التملك على الدولة التي حلت فى الواقع محل الفرد فى النظام الديمقراطى البرلمانى . ثم لم يكتف هذا النظام بما فعله نحو الطبقة الأرستقراطية من حد سلطتها بل بالغ فى معاداتها ، أو هو أساء فهم خصومتها كما أساء فهم نصفة الشعب فجاء نظاماً غير عادي ولا مألوف ، نظاماً استبدادياً لا يتفق مع فطرة الفرد ولا مع طبيعة الجماعة

بينما اكتفى النظام الفاشستى بما وقف عنده النظام البرلماني في وضع حد الحكم الأرستقراطى وإن خالفه فى فهم معنى الحرية والمساواة . ولذا أجاز لنفسه التدخل فى وضع علاقة للرأسمالية مع الفرد العامل ، وهو تدخل للمصلحة العامة ولمنع الجفاء بين طبقات للشعب المختلفة . وقد كان من أثر هذا التدخل أن توحدت الأمة ، وقد صارت وحدتها فى النهاية عن رضا وفهم متبادل بين الطبقات ، بينما يتحول اتجاه عداوة الشعب وجفائه فى الأمم الديمقراطية البرلمانية من الأرستقراطيين إما إلى الطبقة الحاكمة لأنها تخص نفسها بماله وتضن عليه بما يؤمنه على حياته الضرورية ثم تنظر إليه نظرة صغار لأنها « مهذبة » دونه ، وإما إلى أصحاب رؤوس الأموال لغناهم وتشددهم فى حفظ مصالحهم الخاصة

غاية أنواع الحكم الديمقراطية المختلفة ومعايبها

وإذن فالنقص الذى أخذ أسلوب الحكم الحديث على نفسه العمل لتلافيه هو عدم التوازن إما فى علاقة الطبقة الأرستقراطية بالشعب ، أو فى علاقة أصحاب رؤوس الأموال بالطبقات الفقيرة ، أو في ارتباط مصلحة الفرد بالجماعة

ومن الطبيعى أن تكون الغاية الايجابية لأسلوب الحكم فى الوقت الحاضر ، ولو على سبيل الادعاء ، تحقيق الإخاء والمساواة ، وبعبارة أخرى العمل على سيادة العدل الانسانى

فالنظام الديمقراطى البرلمانى نظر إلى هذه الغاية نظرة إفراط أو نظرة من ناحية واحدة ، فبينما هو يشل سلطة الهيئة الأرستقراطية إذا به يبيح لأصحاب رؤوس الأموال بمقتضى إفراطه فى منح الفرد حريته التحكم فى الطبقة العاملة ؛ وبذلك اختل توازن العلاقة من جديد ولكن بين طبقتين من الشعب

والنظام الشيوعى ينظر لتحقيق هذا الإخاء وتلك المساواة نظرة هوج وخيال ، فبدل أن يتناول علاقة الطبقة الأرستقراطية بالشعب ، ثم علاقة أصحاب رؤوس الأموال بالطبقات العاملة ، بالتسوية تناولها بالهدم ، فزالت الأرستقراطية وزالت الرأسمالية واختل توازن العلاقة مرة أخرى وأصبحت علاقة حاكم مستبد ، مخادع مغرر ، بأفراد شعب سلبوا الحقوق الفطرية والاجتماعية بدل المساواة المزعومة

والنظام الفاشستى نظر إليها نظرة قاصرة على الحدود الطبيعية للأمة ، فعمل على التوازن أيضاً ، ولكن جعل مقياسه مصلحة الجماعة من الشعب ؛ فلا داعى لاضطهاد الأرستقراطيين إذا لم يسيئوا لمصلحة الجماعة ، كما يجب التدخل فى حرية الفرد إذا هددت تلك المصلحة بالخطر . ولأن هذا النظام قصر جهوده على الأمة كان نظاماً وطنياً بحتاً ، بينما المعنى الدولى متحقق بكل معانيه فى النظامين السابقين قبله . ولذا كانت اليهودية العالمية من ألد

خصوم الفاشستية وأعز أنصار الديمقراطية البرلمانية والديمقراطية الشيوعية وإن أزالت هذه الأخيرة نظام رؤوس الأموال لأنها لا تنكر عليهم التوطن فى أى جهة

فالرأسمالى اليهودى لايبيح لنفسه فى دولة ديمقراطية فاشستية باسم حرية الفرد أن يطغى على الطبقة الفقيرة كطغيانه فى فلسطين التى تتبع فى سياستها الرئيسية بلداً ديمقراطياً برلمانياً . فهناك في فلسطين يباح لليهودى المالى أن يجرد العربى الساذج من كل مايملك ، وفى الوقت نفسه يذل العرب فى مجموعهم باسم حرية التملك . وإذا طلب من حكومة فلسطين أن تتدخل في الأمر لمصلحة الجماعة أجابت بأنها لايمكنها ذلك لما فيه من اعتداء على حرية الفرد . أما المصلحة العامة فهى ضحية تلك الحرية التى لم تفهم على وجهها الصحيح . وأما مجموع الشعب فلا مانع من فنائه تدريجياً مادام الفرد يتمتع بحريته التامة

والواقع أن هذا عكس الطبيعة ، ولا يقر أحد فى أي بقعة من بقاع الأرض أن المجموع يفنى لمصلحة الفرد كما لايقر تضحية الشعب محافظة على تنفيذ نصوص القانون

وقد يظن لأول الأمر أن النظام الفاشستى هو المعتدل من هذه النظم الثلاثة . وقد يكون في ذلك وجه من الصحة . ولكن جمع السلطة وتركيزها فى يد فرد من أفراد الشعب إن أتى بنتائج إيجابية فى وقت وجيز يعجب الانسان منها ومن عظمتها فقد لايضمن الوفاء بأمثالها فى المستقبل إذا ما انتقلت السلطة إلى فرد آخر ربما يستغل هذا التركيز لغير مصلحة الأمة . والمعروف اليوم أنه إذا كان رجال الحكم الفاشستى قد جمعوا كل سلطة فى الدولة فى أيديهم إلا أنهم لايبرمون أمراً إلا بمشورة ذوى الخبرة فى الأمة ويعمونهم أيضاً وإن لم تكن لهم علاقة تبعية بالحزب السياسى . وأنا أذكر أن زعيم ألمانيا يحرص الآن على أن يتولى المناصب الاقتصادية الرجال الإخصائيون فى المسائل المالية ولو كانوا من غير أتباع حزبه ، كما أنه يأخذ برأى وزير الخارجية ووزير الدفاع فى كل المسائل الخارجية وهما لم يتبعا فى يوم من الأيام الحزب الوطنى الاشتراكى

والديمقراطية معنى غير محدود . وكل نظام من نظم الحكم الثلاثة يدعى أنه هو الديمقراطى الصحيح كما ادعى كل فيلسوف من فلاسفة اليونان القدماء أنه هو وحده الذى وصل إلى الحقيقة فى العالم . وفى الواقع لم تكن هناك حقيقة مطلقة ولكنها نسبية مقيدة وإذا كانت هناك حقيقة مطلقة فانها على وفق المقدمات والدعاوى التى يفترضها الفيلسوف لنفسه

الديمقراطية الإسلامية

والآن بعد ما تبين أن من معايب الحكم الديمقراطى البرلمانى الجوهرية فناء المصلحة العامة أو التغاضى عنها محافظة على حرية الفرد المطلقة وعلى مصلحته الخاصة

ومن معايب النظام الشيوعى أن العلاج الذى يتخذه فى توازن طبقات الشعب المختلفة هو الثورة والهدم وأن أسلوب حكمه على العموم هو الفوضى المطلقة

كما أن من نقائص الحكم الفاشستى عدم قابلية الفرد الشعبي الذى بيده سلطة الحكم للعزل مع احتمال طغيانه

بعد ما تبين كل هذا نريد أن نعرف رأي الإسلام والحلول التى يقترحها ضماناً للتوازن ، وبعبارة أخرى تجاه المسائل الاجتماعية التي يهتم بها نظام الحكم الحديث والتى هي في الحقيقة منذ بدء الجماعة الإنسانية تظهر من حين لآخر فى شكل معضلات

نريد أن نعرف رأي الإسلام ، وهل هو مع كونه ناجماً يتجنب تلك الأخطار التى فى أسلوب الحكم الخاص ؟

الإسلام ليس نظاماً روحياً ، نظام كهنة وكنيسة ، وإنما هو مبادىء خلقية للفرد ، وقوانين عامة تحفظ نظام الجماعة . وهو بهذه الصفة يتدخل فى علاقة الفرد بالفرد وتنظيم علاقته بالمجموع ، وفى علاقته بالمجموع يبنى أيضاً الإخاء والمساواة ، يبني الوحدة ويعمل على تماسكها ، يريد التوازن وتأسيسه على قواعد ثابتة

ولكنه فى إقراره الإخاء يريد تقرير مبدأ آخر للتفضيل بدل مبدأ الجنسية الذى ساد قبل الإسلام ويسود أيضاً الآن من وقت لآخر ، يريد تقرير مبدأ الكفاية والعمل (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فالإخاء معناه عدم اعتبار الانتماء إلى قبيلة أو شعب مرجحاً ومميزاً لفرد عن آخر لمجرد هذا الانتماء كما يقصد اليوم من محاربة الأرستقراطية ، وعدم جعلها القاعدة الأولى فى الاختيار والتفضيل

وفى إقراره المساواة لا يرى زوال الرأسمالية ، ولا منع الفرد من التملك وقصره على الدولة وحدها ، وإنما يقصد المساواة أمام القانون ، أمام المبادىء الخلقية ، أمام التكليف بالواجبات ، والقيام بالأعمال العامة . فليس لشريف أن يخلى نفسه من التكليف ، ولا لحاكم أن يستبد بمصالح الأمة لنفسه اعتماداً على أنه مميز لماله من التهذيب « الرسمى » أو لانتمائه إلى جنس كذا أو قبيلة كذا

وفى إقراره المساواة على هذا النحو لم يمنع التفضيل لصفات أخرى ، لم يحرم الفرد أن ينال جزاء مجهوده الشخصى فى هذه الحياة الدنيا ، ولكنه فرض عليه فيما اكتسبه من علم أو مال أن يخصص جزءاً منه لمن هو دونه : لمن هو أقل منه معرفة ، أو أقل ثراء ؛ فرض أن تقرب الخاصة نفسها من عامة الشعب ، حتى لا يكون هناك جفاء بين عالم وجاهل أو عداوة منشأها الحقد بين غنى وفقير ، حتى يكون (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ...) هذا واجب العالم فى علمه فى أية ناحية تعلق علمه بها نحو أمته ، نحو أكثريتها الجاهلة

أما الغنى صاحب الثروة فواجبه فى ماله الزكاة لمستحقيها ، لفقراء الأمة المعوزين . وهو واجب يخف على النفس عمله ، بل يسرها القيام به ، لأنه تلبية لنداء الدين ورغبة ناشئة عن إحساس التدين ؛ وما نشأ عن التدين والاعتقاد كان كالصادر عن التعود ، كالعادة نفسها فى المواظبة على عملها وعدم الشعور بمضض فى الإتيان بها

وليس من شك فى أن التكليف الوضعى أي تشريع الدولة وتقنينها لا يساير التكليف الدينى فى نتائجه الإيجابيــة . فنسبة من يعتقد من أفراد الأمة بعدالة قانون وضعى أقل بكثير ممن يعتقد بعدالة قانون إلهى ؛ لا لأن القانون الوضعى قد لا يطابق المصلحة العامة ، بل لأنه يعتقد على العموم أن واضعه ممن يجوز بل ممن يغلب عليه الخطأ ، ولكن من ينسب إليه القانون الدينى هو ممن يستحيل عليه فوات الصواب فى تشريعه

وهكذا أثر العقيدة الدينية التى تكوّن من نفس الإنسان جزءها الأعظم . ولذلك كان من المهمة الأولى للدين أن يخلق من التكاليف والالتزامات مبادئ خلقية تُعتقد ، جزاء فعلها أو تركها منوط بالخالق القادر ، وفى عالم آخر لا اطلاع للإنسان عليه فى هذه الحياة الدنيا . وإذن فالشوق إلى جزاء الفعل — كالخوف من جزاء الترك — لا يقاس فى تصور النفس له بجزاء القوانين الوضعية ، لأنه فى عالم محدود معروف فيه أقصى درجة الثواب والعقاب

والمصلح السياسى أو زعيم الدولة الذى يفهم كنه الإصلاح ويهتم بتنفيذه واتباع الشعب له لا يألو جهداً فى بناء قوانينه الإصلاحيــة على مبادئ الدين أو صبغها على الأقل بصبغة دينية حتى يكون لها نصيب من معتقدات الشعب ، وبهــذا يكون لها قوة الاستقرار والدوام . والاستقرار من أهم عوامل نجاح الإصلاح

فكثير من القوانين الإنكليزية وخصوصاً قوانين العائلة الإصلاحية أسست على مبادئ فلسفية خلقيــة قام بها بعض الفلاسفة الإنكليز الدينيين

حتى فى بعض الحكومات الفاشستية التى يُظن أنها تحارب الدين ، نجدها لا تتخلى عن ربط مبادئها السياسية بالمبادئ الدينية العامة ؛ فهى فى الواقع لا تحارب الدين ، وإنما تحارب سلطة الكنيسة ، أى سلطة طائفة أخرى تتمتع بنفوذ كبير فى الشعب ربما تحد من سلطة الدولة . فخطباء الحزب الاشتراكى الوطنى هنا فى ألمانيا يعظون الشعب فى كل يوم أحد بواسطة الراديو محاولين فى وعظهم إرجاع أعمالهم الاجتماعية ، كمساعدة الشتاء ، وخدمة العمل العام ، وتنظيم هدايا عيد الميلاد التى هى أقرب شبه بزكاة الفطر فى الإسلام ، إلى مبادئ الدين الصحيح حتى يضمنوا للحكومة طاعة الشعب ، ومن وراء ذلك تنفيذ أعمالهم الإصلاحية

فقاعدة الحكم عندهم مبنية على قيادة الرئيس وعلى طاعة الشعب له . والدين هو خير ضامن وأقوى كفيل بتلك الطاعة عن رضا واختيار ولمدة طويلة

أما بناء السياسة العامة لتركيا الحديثة على إبعاد الدين فلا يصح أن يقوم حجة على أنها مع ذلك سياســة إصلاحية ثابتة أو أنها ستنجح فى جيل مقبل . فالثقافة التركية التى كان عمادها الدين قد تزعزعت من أساسها ؛ ثم ما يدخله مدعو الإصلاح فى تركيا الحديثة من ثقافات البلاد الأجنبية لا يصح أن يعوض ثقافة

الشعب الأصلية كما لا يؤمل أن يكوّن ثقافة ثابتة فى المستقبل للشعب التركي . وما تمتعت به الحكومة التركية للآن من طاعة الشعب لها فسببه عقيدة الشعب التي لم تفن بعد من وجوب الطاعة للقائم بالأمر ، فهو فى الواقع أثر من آثار العقيدة الدينية

فإذا كان الإسلام يتدخل فى سلطة الرأسمالية بنظام الزكاة فهو تدخل مقبول لدى النفوس بحكم ما فيها من قوة التدين ، وفى الوقت نفسه هو نظام غير مرتبط بقيام فرد بالحكومة دون آخر بل هو كأي نظام ديني أبدى غير مؤقت بوقت

فتقرير مبدأ الإخاء والمساواة على النحو السابق ، والاعتراف بالجزاء على المجهود الشخصى من حق التملك ، ثم حصر نفوذ الفرد فى حدود المصلحة العامة ، هو نوع من أسلوب الحكم الديمقراطي الذى لم يصل إليه تشريع وضعى للآن . فقد رأينا كل نوع من أنواع الحكم في العصر الحديث الذى تدعى فيه أوربا أنها وصلت آخر المرحلة التي يمكن للانسان أن يصل إليها ، ومع ذلك فكل نوع منها لا يسلم من أخطار عديدة لاستحالة تنفيذه أو لعجزه عن حل بعض المشاكل الاجتماعية الكبرى ، أو لأنه قد لا يضمن الوفاء فى المستقبل بمثل ما حققه الآن من نتائج

وبتقرير الإسلام هذه المبادئ كان نظام توازن واعتدال . لا يترك طائفة تتحكم فى أخرى حتى تلجأ الطائفة المتحكم فيها إلى عمل ثورى أهوج مبنى على العاطفة وحدها غايته الهدم والتخريب . وبتقريره هذه المبادئ كان أيضاً دين الفطرة والطبيعة ، أى أنه يساير الطبيعة ويقضى على ما شذ منها

ولكونه دين الفطرة والطبيعة كان لنظام الملك منه سند قوى يعتمد عليه فى حكمه ، لأنه مغروس في طبيعة الجماعة أن تخضع لفرد واحد منها خضوعاً ناشئاً عن عقيدة ؛ وكلما علا شأن هذا الفرد كانت العقيدة بالخضوع له أشد وأعم . وليس بلازم أن تعرف الجماعة ميزة هذا الفرد — بل من المصلحة العامة ألا تتناوله بالتحليل — وإنما يكفي أن تعتقد أنه ممتاز

فإذا كان هذا الفرد الممتاز الذى يجب أن تكون له السيادة وتخضع له الجماعة ليس من عامة الشعب أمنت حكومته انقلاباً شعبياً ، ولم تكن هناك أطماع فى استبداله بآخر ، لأن الشعب مازال يعتقد فيه ميزة ليست لكل فرد . وكلما استقر الحكم في يد من له الأمر كانت نتائجه أثبت وأضمن لمصلحة الشعب نفسه

ونظام الملكية هو أقرب النظم الفطرية للجماعة الانسانية ، بل هو أضمن لوحدة الجماعة ، لأنه يحول بين أى فرد من أفراد الشعب وبين أن تسوّل له نفسه أنه أجدر بالقيام بالأمر من هذا أو ذاك ، مما يترتب عليه ثورات داخلية لا ينطفئ لهيبها كما هو حال النظام الشيوعى اليوم

فكما يميل الاسلام إلى نظام الملكية لأنه أقرب نظم الحكم إلى فطرة الجماعة ، ويفرض طاعة الأمة لرئيسها الأعلى مادام قائماً بدستور الاسلام وهو كتاب الله وسنة رسوله ، كذلك يؤيد روح الشورى ويهيئ الشعب للعمل على وفق مبادئ خلقية ، كمبدإ الشعور بالواجب والشعور بالحرية المهذبة والشعور بالمساواة والاعتراف بالكفايات ، تلك المبادئ التى منها تتكون الديمقراطية الصحيحة

ففى الوقت الذي يأمر فيه الاسلام الشعب بالطاعة لولى أمره حتى تسلس قيادته ، يقيد هذه الطاعة بقيام العدل فى الرعية

وفى الوقت الذى ينادى فيه بحرية الفرد حتى فيما يعتقد لا يتركه يتعدى مصلحة الجماعة

وفى الوقت الذى يشجع فيه على اكتساب الرزق ويبيح فيه للفرد حرية التملك ، يكلفه بالتنازل عن جزء مما ربحه لمن أشقاه الفقر فى حياته

وهكذا يقصد الاسلام دائماً إلى التوازن والاعتدال ، فهو دين الفرد والجماعة ، بينما الديمقراطية البرلمانية ، كما رأينا ، تتحيز للفرد وحده ، والفاشستية تؤيد الجماعة فحسب ، والشيوعية تهدم مصلحة كل من الاثنين

ففيه كدين فطرى للجماعة الانسانية ضمان للعرش ، وفيه كمنادٍ بمبدإ الإخاء والمساواة وعاملٍ أيضاً على تحقيق هذا المبدإ بوسائل ناجعة ومنفذ لمبدأ التفاضل على حسب الكفاية والعمل لا غير ، اتباع لقواعد الديمقراطية الصحيحة وحاجز حصين ضد الشيوعية الفوضوية

محمد البهى قرقر
دكتور فى الفلسفة وعلم النفس
وعضو بعثة الأستاذ محمد عبده

من الأدب التحليلى

الوحـــــدة

« مهداة إلى الدكتور إبراهيم مدكور »

للأستاذ على الطنطاوى

« ... إن كل عناء فى الحياة مصدره أننا نحيا منعزلين . وكل ما نبذل من جهود نا لا نريد به إلا الفرار من هذه العزلة »

جى دوموباسان (الرسالة ٢١٠)

ما آلمنى شىء فى الحياة ما آلمتنى الوحدة . كنت أشعر كلما انفردت بفراغ هائل فى نفسى ، وأحس بأنها غريبة عنى ، ثقيلة علىّ ، لا أطيق الانفراد بها ؛ فإذا انفردت بها أحسست أن بينى وبين الحياة صحارى قاحلة ، وبيداً مالها من آخر ، بل كنت أرى العالم فى كثير من الأحيان ، وحشاً فاغراً فاه لابتلاعى ، فأحاول الفرار ، ولكن أين المفرّ من نفسى التى بين جنبىّ ، ودنياى التى أعيش فيها ؟

إن نفسى عميقة واسعة ، أو لعلى أراها عميقة واسعة لطول ما أحدق فيها ، وأتأمل جوانبها ، فتخيفنى بسعتها وعمقها ، ويرمضنى أنه لا يملؤها شىء مهما كان كبيراً ... وهذا العالم ضيق أو لعلى أراه ضيقاً لاشتغالى عنه بنفسى ، وشعورى بسعتها ، فأراه يخنقنى بضيقه ...

إنى أجمع العالم كله في فكرة واحدة أرميها فى زاوية من زوايا نفسى ، فى نقطة صغيرة من هذا الفضاء الرحيب ، ثم أعيش فى وحدة مرعبة أنظر ما يملأ هذا الفضاء ...

إنى كلما انفردت بنفسى ، فتجرأت على درسها ، والتغلغل فى أعماقها ، بدت لى أرحب وأعجب . فما هـذا المخلوق الذى يحويه جسم صغير ، لا يشغل من الكون إلا فراغاً ضيقاً كالذى يشغله صندوق أو كرسى ... ويحوى هو (المكان) كله ، ويشمل (الزمان) ، وينتقل من الأزل إلى الأبد فى أقل من لحظة ، وينتظم (الوجود) كله بفكرة ، وتكاد الحياة نفسها تضل فى أغواره ؟

من المستحيل أن نفهم هذا المخلوق الذى ندعوه (النفس) ! لذلك نخاف الوحدة ونفر منها . إننا نخشى نفوسنا ، ولا نستطيع أن ننفرد بها ، فنحب أن نشتغل عنها بصحبة صاحب ، أو حب حبيب ، أو عمل من الأعمال ... ونخشى الحياة ، ونحب أن نقطعها بحديث تافه ، أو كتاب سخيف ، أو غير ذلك مما نملأ به أيامنا الفارغة . وإذا نحن اضطررنا مرة إلى مواجهة الحياة ، ومقابلة الزمان خالياً من ألهيـة تلهو بها ، كما يكون فى ساعة الانتظار مللنا وتبرمنا بالحياة وأحسسنا بأن الفلك يدور على عواتقنا . أفليس هذا سراً عجيباً من أسرار الحياة : يكره المرء نفسه ويخشاها ، وهى أحب شىء إليه ؛ ويفر منها ... ويضيق بحياته ، وهى أعز شىء عليه ، ويسعى لتبديدها وإضاعتها ؟

***

عجزت عن احتمال هذه الوحدة ، وثقل علىّ هذا الفراغ الذى أحسه فى نفسى ، فخالطت الناس ، واستكثرت من الصحابة . فوجدت فى ذلك أنساً لنفسى ، واجتماعاً لشملى ، فكنت أتحدث وأمرح وأمزح وأضحك وأضحك ، حتى ليظننى الرائى أسعد خلق الله وأطربهم ؛ بيد أنى لم أكن أفارق أصحابى وأنفرد بنفسى ، حتى يعود هذا الفراغ الرهيب ، وترجع هذه الوحدة الموحشة

انغمست فى الحيـاة لأملأ نفسى بمشاغل الحياة ، وأغرق وحدتى فى لجة المجتمع ، واتصلت بالسياسة وخببت فيها ووضعت وكتبت وخطبت ، فكنت أحس وأنا على المنبر بأنى لست منفرداً وإنما أنا مندمج فى هذا الحشد الذى يصفق لى ويهتف ... ولكنى لا أخرج من الندىّ ويرفضّ الناس من حولى ، وأنفرد فى غرفتى حتى يعود هذا الفراغ أهول مما كان ، وترجع الوحدة أثقل ، فكأنها ما نقصت هناك إلا لتزداد هنا ، كالماء تسد مخرجه فينقطع ، ولكنك لا ترفع يدك حتى يتدفق ما كان قد اجتمع فيه ... فماذا يفيدنى أن أذكر فى مائة مجلس أو يمر اسمى على ألف لسان ، وأن يتناقش فىّ الناس ويختصموا ، إذا كنت أنا فى تلك الساعة منفرداً مستوحشاً متألماً ؟ ..

وجدت الشهرة لا تفيد إلا اسمى ، ولكن اسمى ليس منى ، ولا هو (أنا) فأحببت أن أجد الأنس بالحب وأن أنجو به من وحدتي ، فلم أجـد الحب إلا اسماً لغير شىء ، ليس له فى الدنيا وجود ، وإنما فيها تقارب أشباح :

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تدانِ ؟

وألثم فاها كى تزول صبابتى فيشتد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين تلتقيان

ولكن أنى تلتقى الأرواح ؟ وأين هذا الحب الجارف القوى الخالص الذى يأكل الحبيبين كما تأكل النار المعدن ، ثم تخرجهما جوهراً واحداً مصفى نقياً ما فيه (أنا) ولا (أنت) ولكن فيه (نحن) ؟...

فنفضت يدى من الحب ، ويئست من أن أرى عند الناس الاجتماع المطلق ، فعدت بطوعي أنشد الوحدة المطلقة

* * *

صرت أكره أن ألتقى بالناس ، وأنفر من المجتمعات ، لأنى لم أجد فى كل ذلك إلا اجتماعاً مزيفاً : يتعانق الحبيبان ، ولو كشف لك عن نفسيهما لرأيت بينهما مثل ما بين الأزل والأبد ؛ ويتناجى الصديقان ، ويتبادلان عبارات الود والإخاء ، ولو ظهر لك باطنهما لرأيت كلا منهما يلعن الآخر ؛ وترى الجمعية الوطنية ، أو الحزب الشعبى ، فلا تسمع إلا خطباً فى التضحية والإخلاص ، ولا ترى إلا اجتماعاً واتفاقاً بين الأعضاء ؛ ولو دخلت فى قلوبهم لما وجدت إلا الإخلاص للذات ، وحب النفس ، وتضحية كل شىء فى سبيل لذة شخصية أو منفعة !

وجدتنى غريباً بين الناس فتركت الناس وانصرفت إلى نفسى أكشف عالمها ، وأجوب فيافيها وأقطع بحارها ، وأدرس نواميسها وجعلت من أفكاري وعواطفي أصدقاء وأعداء ، وعشت بحب الأصدقاء وحرب الأعداء ...

* * *

إن من حاول معرفة نفسه عرضت له عقبات كأداء ، ومشقات جسام ، فإن هو صبر عليها ، بلغ الغاية ، وما الغاية التى تطمئن معها النفس إلى الوحدة ، وتأنس بالحياة ، وتدرك اللذة الكبرى ا الغاية إلا معرفة الله

وسيظل الناس تحت أثقال العزلة المخيفة حتى يتصلوا بالله ويفكروا دائماً فى أنه معهم ، وأنه يراهم ويسمعهم ، هنالك تصير الآلام فى الله لذة ، والجوع فى الله شبعاً ، والمرض صحة ، والموت هو الحياة السرمدية الخالدة . هنالك لا يبالى الإنسان ألا يكون معه أحد ، لأنه يكون مع الله

على الطنطاوى

الكميت بن زيد

شاعر العصر المروانى

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ٣ —

وقد كان لهذه القصائد فى نصرة أهل البيت وتأليب الناس على بنى مروان أثرها في النفوس ، حتى لهج بها الخاصة والعامة ، وصار الناس يتقربون إلى الله والرسول بحفظها وتلاوتها ويتناقلون فى ذلك رؤى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان الكميت يرى بعضها ، وكان غيره يرى بعضاً آخر منها ، فارتفعت بهذا منزلة الكميت وعلت درجته بين قومه بنى أسد حتي كانوا يعدونه من مفاخرهم ، ويقولون : فينا فضيلة ليست في العالم ، ليس منزل منا إلا وفيه بركة وراثة الكميت ، لأنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقال له أنشدنى :

طَرِبتُ وما شوقاً إلى البيض أطرَبُ

فأنشده فقال له : بوركت وبورك قومك

ويروى من طريق آخر أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى نومه وهو مختف بعد أن هرب من سجن بنى مروان فيما سنذكره من سيرته ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : مم خوفك ؟ فقال : يا رسول الله من بنى أمية ، وأنشده :

ألم ترنى من حُبِّ آل محمدٍ أروح وأغدُو خائفاً أترقَّبُ

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : اظهر فان الله قد أمنك فى الدنيا وفى الآخرة

وحدث ابراهيم بن سعد الأسدى قال : سمعت أبى يقول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فقال : من أى الناس أنت ؟ قلت : من بنى أسد ، قال : من أسد بن خزيمة ؟ قلت : نعم ، قال : أهلالي أنت ؟ قلت : نعم ، قال : أتعرف الكميت بن زيد ؟ قلت : يا رسول الله عمى ومن قبيلتي ، قال : أتحفظ من شعره شيئاً ؟ قلت : نعم ، قال أنشدنى :

طَرِبت وما شوقاً إلى البيض أطْرَبُ

قال : فأنشدته حتى وصلت إلى قوله :

فما لِيَ إلا آل أحمد شيعةً ومالِيَ إلا مَشْعَبَ الحق مشعب

فقال لى : إذا أصبحت فاقرأ عليه السلام ، وقل له قد غفر الله لك بهذه القصيدة

وحدث نصر بن مزاحم المنقرى أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم فى النوم ورجل بين يديه ينشده :

* مَنْ لقلبٍ مُتيَّمٍ مستهامِ *

قال: فسألت عنه ، فقيل لى : هذا الكميت بن زيد الأسدى ، قال : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : جزاك الله خيراً وأثنى عليه

وإذا كان الكميت قد نصر بشعره أهل البيت هذا النصر الذى كان له هذا الشأن ، فانه وهو الشاعر العالم لم يكن يتجاوز تأييدهم باللسان إلى تأييدهم بالفعل ، وكان شأنه فى هذا شأن القعدة من الخوارج كعمران بن حطان الشاعر وغيره ، ولاغرابة فى أن يكون للشيعة قعدة كما كان للخوارج قعدة ، بل إن قعدة الشيعة كانوا أكثر من قعدة الخوارج لأخذ الشيعة بالتقية . وقد روى أبو الفرج الأصبهانى أنه لما خرج زيد بن على كتب إلى الكميت : أخرج معنا يا أعيمش ، ألست القائل :

ما أبالي إذ أحفظتُ أبا القا سم فيكم ملامَةَ اللُّوَّامِ

فكتب إليه الكميت :

تجودُ لكم نفسى بما دونَ وَثْبَةٍ

تظلُّ لها الغربانُ حولِيَ تَحجلُ

ولم يكن هذا منه يغضب أهل البيت عليه ، بل كانوا هم أيضاً يضنون على نفسه ضنه عليها ، ويحبون أن يبقى لهم بشعره الذى يفعل فى هدم بنى مروان مالا يفعله بالسيف غيره

وكان على العراق في هذا العهد خالد بن عبد الله القسرى ، وعلى عرش بنى مروان هشام بن عبد الملك ، وقد اضطربت الروايات فى وصول خبر الكميت وأشعاره إلى هشام اضطراباً كبيراً ، فلنسق هذه الروايات المضطربة ، ثم نأخذ بعد هذا فى نقدها والترجيح بينها

قال أبو الفرج الأصبهانى : كان خالد بن عبد الله القسرى فيما حدثنى به عيسى بن الحسين الوراق قال : أخبرنا أحمد بن الحارث الفزارى عن ابن الأعرابى ، وذكره محمد بن أنس السلامي عن المستهل ابن الكميت ، وذكره ابن كناسة عن جماعة من بنى أسد أن الكميت أنشد قصيدته التى يهجو فيها اليمن وهي :

* ألا حُيِّيتِ عنا يا مدينا *

فأحفظته عليه ، فروى جارية حسناء قصائده الهاشميات ، وأعدها ليهديها إلى هشام ، وكتب إليه بأخبار الكميت وهجائه بنى أمية وأنفذ إليه قصيدته التى يقول فيها :

فيارب هل إلاّ بك النصر يُرتجَى

ويارب هل إلاّ عليك المعوَّلُ

وهى طويلة رثى فيها زيد بن على (١) وابنه الحسين بن زيد (كذا) ويمدح بنى هاشم ، فلما قرأها أكبرها وعظمت عليه واستنكرها ، وكتب إلى خالد يقسم عليه أن يقطع لسان الكميت ويده ، فلم يشعر الكميت إلا والخيل محدقة بداره ، فأخذ وحبس فى المحبس . وكان أبان بن الوليد عاملاً على واسط ، وكان الكميت صديقه ، فبعث إليه بغلام على بغل وقال له : أنت حر إن لحقته والبغل لك ، وكتب إليه : قد بلغنى ماصرت إليه وهو القتل إلا أن يدفع الله عز وجل ، وأرى لك أن تبعث إلى حبي — يعنى زوجة الكميت وهي بنت نكيف بن عبد الواحد وهى ممن يتشيع أيضاً — فاذا دخلت إليك تنقبت نقابها ولبست ثيابها وخرجت ، فانى أرجو ألا يؤبه لك

فأرسل الكميت إلى أبى وضاح حبيب بن بديل وإلى فتيان من بني عمه من مالك بن سعيد ، فدخل عليه حبيب فأخبره الخبر وشاوره فيه فسدد رأيه ، ثم بعث إلى حبي امرأته فقص عليها القصة وقال لها : أى ابنة عم ، إن الوالى لايقدم عليك ولا يسلمك قومك ، ولو خفته عليك لما عرضتك له ، فألبسته ثيابها وإزارها وخمرته وقالت له : أقبل وأدبر ، ففعل ، فقالت : ما أنكر منك شيئاً إلا يبسا فى كتفك ، فاخرج على اسم الله ، وأخرجت معه جارية لها ، فخرج وعلى باب السجن أبو وضاح ومعه فتيان من أسد فلم يؤبه له ، ومشى والفتيان بين يديه إلى سكة شبيب بناحية الكناس ، فمر بمجلس من مجالس بنى تميم ، فقال بعضهم :

(١) قد رجعنا إلى هذه القصيدة فلم نر فيها ذكراً لهما وإنما ذكر فيها الحسين بن على وحده على أن الظاهر مما سبق بين الكميت وزيد أن خروجه وقتله كانا بعد هذه الهاشميات لا قبلها

رجل ورب الكعبة ، وأمر غلامه فأتبعه ، فصاح به أبو وضاح يا كذا وكذا لا أراك تتبع هذه المرأة منذ اليوم ، وأومأ إليه بنعله فولى العبد مدبراً ، وأدخله أبو وضاح منزله

ولما طال على السجان الأمر نادى الكميت فلم يجبه ، فدخل ليعرف خبره ، فصاحت به المرأة : وراءك لا أم لك . فشق ثوبه ومضى صارخاً إلى باب خالد فأخبره الخبر ، فأحضر حبى فقال لها : ياعدوة الله احتلت على أمير المؤمنين وأخرجت عدوه . لأمثلن بك ولأصنعن ولأفعلن ، فاجتمعت بنو أسد إليه وقالوا : ماسبيلك على امرأة منا خدعت ؟ نخافهم فخلى سبيلها

قال : وسقط غراب على الحائط فنعب فقال الكميت لأبي وضاح : إني لمأخوذ ، وإن حائطك لساقط ، فقال له: سبحان الله ! هذا مالا يكون إن شاء الله ، فقال له : لا بد من أن تحولني ، نخرج به إلى بني علقمة وكانوا يتشيعون ، فأقام فيهم ولم يصبح حتى سقط الحائط الذي سقط عليه الغراب

قال ابن الأعرابي قال المستهل : وأقام الكميت مدة متوارياً حتى إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه خرج ليلاً في جماعة من بني أسد على خوف ووجل ، وفيمن معه صاعد غلامه ، فأخذ الطريق على القطقطانة وكان عالماً بالنجوم مهتدياً بها ، فلما صار سحيراً صاح بنا :هوموا يا فتيان ، فهومنا وقام يصلى ، قال المستهل : فرأيت شخصاً فتضعضعت له ، فقال : مالك ؟ قلت : أرى شيئاً مقبلاً ، فنظر إليه فقال : هذا ذئب قد جاء يستطعمكم ، فجاء الذئب فربض ناحية فأطعمناه يد جزور فتعرقها ، ثم أهوينا له بإناء فيه ماء فشرب منه وارتحلنا ، فجعل الذئب يعوى ، فقال الكميت : ماله ويله ؟ ألم نطعمه ونسقه ؟ وما أعرفني بما يريد ! هو يعلمنا أنا لسنا على الطريق . تيامنوا يا فتيان ، فتيامنا ، فسكن عواؤه ، فلم نزل نسير حتى جئنا الشام فتوارى في بني أسد وبني تميم . وأرسل إلى أشراف قريش وكان سيدهم يومئذ عنبسة بن سعيد بن العاص ، فمشت رجالات قريش بعضها إلى بعض وأتوا عنبسة فقالوا : يا أبا خالد هذه مكرمة قد أتاك الله بها . هذا الكميت بن زيد لسان مضر ، وكان أمير المؤمنين كتب فى قتله فنجا حتى تخلص إليك وإلينا . قال فروه أن يعوذ بقبر معاوية ابن هشام بدير حنيناء ، فمضى الكميت فضرب فسطاطه عند قبره ، ومضى عنبسة فأتى مسلمة بن هشام فقال له : يا أبا شاكر مكرمة أتتك ، بها تبلغ الثريا إن اعتقدتها ، فإن علمت أنك تفي بها وإلا كتمتها ، قال : وما هى ؟ فأخبره الخبر ، وقال : إنه قد مدحكم عامة وإياك خاصة بما لم يسمع بمثله . فقال : علىّ خلاصه فدخل على أبيه هشام وهو عند أمه فى غير وقت دخول ، فقال له هشام : أجئت لحاجة ؟ قال : نعم ، قال : هى مقضية إلا أن يكون الكميت فقال : ما أحب أن تستثنى علي فى حاجتى ، وما أنا والكميت ! فقالت أمه : والله لتقضين حاجته كائنة ما كانت ، قال : قد قضيتها ولو أحاطت بما بين قطريها ، قال : هي الكميت يا أمير المؤمنين ، وهو آمن بأمان الله عز وجل وأمانى ، وهو شاعر مضر ، وقد قال فينا قولاً لم يقل ، قال : قد أمنته وأجزت أمانك له ، فاجلس له مجلساً ينشدك فيه ما قال فينا . فعقد له وعنده الأبرش الكلبي ، فتكلم بخطبة ارتجلها ماسمع بمثلها قط ، ومدحه بقصيدته الرائية ، ويقال إنه قالها ارتجالاً وهى قوله :

* قِفْ بالديار وقوفَ زائرْ *

فمضى فيها حتى انتهى إلى قوله :

ماذا عليك مِنَ الوقو ... فِ بها وإنك غيرُ صاغِرْ
درجتْ عليها الغاديا ... تُ الرائحاتُ من الأعاصر

وفيها يقول :

فالآنْ صرتُ إلى أُمَيَّــةَ ... والأمورُ إلى المصاير

وجعل هشام يغمز مسلمة بقضيب فى يده فيقول : إسمع إسمع ، ثم استأذنه فى مرثية ابنه معاوية فأذن له فأنشد قوله :

سأبكيك للدنيا وللدين إنَّنى ... رأيت يد المعروف بعدكَ شُلَّتِ
أدامتْ عليك بالسلام تحيةً ... ملائكُ اللهِ الكرامُ وصلَّتِ

فبكى هشام بكاء شديدا ، فوثب الحاجب فسكته ، ثم جاء الكميت إلى منزله آمناً فحشدت له الضربة بالهدايا ، وأمر له مسلمة بعشرين ألف درهم ، وأمر له هشام بأربعين ألف درهم ، وكتب إلى خالد بأمانه وأمان أهل بيته ، وأنه لا سلطان له عليهم . وجمعت له بنو أمية فيما بينها مالا كثيراً ، وودع هشاماً وأنشده قوله فيه :

* ذكر القلبُ إلْفَهُ المذكورَا *

وهذه هى الرواية الأولى فيما كان بين الكميت وخالد بن عبد الله وهشام بن عبد الملك بسبب تلك القصائد السابقة

عبد المتعال الصعيدى

كتاب حضارة العرب

للكاتب الاجتماعى الكبير غوستاف لوبون

للأستاذ خليل هنداوى

تمهيد

لم يسبق أن تردد لفظ المملكة العربية والأمجاد العربية فى يوم مثل هذا اليوم . ففي كل صوب من كل قطر عربي يهب هذا الحلم من نومه ويزحف هذا الراقد الفانى إلى حقيقة تمد ذراعيها وتدعو إلى تحقيق وجودها . وكل شيء من هذه الأحداث عامل يسرع فى بيان ضرورة هذه الوحدة التي لا يقوم للعرب كيان بدونها . وما قيمة جسد فيه عضو يتحرك وأعضاء جامدة لا تتمشى فيها حركة ؟ وكأن السياسة الاستعمارية أدركت أن هذا التقسيم الذى رمت به الجزيرة العربية إنما هو تخدير موقوت فكيف تعمل على جعله تخديراً دائماً ؟ تخلقت النعرات القومية التي جرفها التاريخ فيما جرف ، والتي بادت من الحاضر حتى أصبحت لا وجود لها ... ولقد فتن بهذه السياسة قوم وعادوا يتجردون من القومية العربية ويحملون على الثقافة العربية ، لأنها فى رأيهم ثقافة لم تحمل شيئاً للانسانية . وإنها لدعوى ملفقة لم يخلقها إلا الوهم الذي خلقته السياسة الاستعمارية ، وجاراها عليه فئة ماتت فيها الفكرة الاستقلالية . وتجاه خطر هذه الفئة المتذبذبة التي لا تعرف لها ديناً ولا لوناً من ألوان القومية وجب أن تقوم حملات صادقة لتحطيمها ودوس كرامتها إن كانت لها بقية من كرامة . وهذا واجب تبعث عليه البواعث الوطنية التي تؤمن بحق العرب وثقافة العرب وعظمة العرب !

لقد تناول تاريخ العرب رجال من الغرب ، منهم من كانت تسيره الأهواء ، ومنهم من كان يستلهم العقل والحقيقة وما أقل هؤلاء ! وقد كان بودنا أن نكتب تاريخنا بأيدينا بالهوى والعاطفة كما يقولون ، لأننا نكتبه إذ ذاك بحروف الذهب ، ونرسمه بخطوط اللهب ، لأنه تاريخ قوميتنا وثقافتنا وغابرنا الذي بيده أمر حاضرنا ألا يكتب كل قوم تاريخهم كما يشاءون ؟ ألا يسجل كل شعب ماضيه كما يرغب ؟ فيا كارهي مجد العرب أى عار وجدتموه إلا عار الأنفة والكبرياء ؟ وأي وصمة أتوا بها إلا وصمة الفتوح والسيادة ؟ ونحن نرى المجد فى الخضوع للمستعمر ، وفى الذل وخفض الجناح ، ونحن نرى الفخر فى فتح أبوابنا له يلجها من يشاء متى شاء . وكيف يلتقى فخرنا وذلك الفخر ؟ وكيف يصافح مجدنا ذلك المجد ؟

لن نعرض لهؤلاء النافرين من مجد العرب شيئاً تسطره أقلامنا وأهواؤنا ، ولكنا عارضون لهم صفحات جليلة ، كتبها رجل لا يتعصب لنا ولا يريد باطلاً ولا جزاء ولا شكورا . وإنما ينشد حقيقة ما عرف التاريخ شهيداً كمثلها بين الحقائق التى نقلها . فأراد هذا الرجل إنصاف هذه الحقيقة ، وأراد إنصاف العرب بما كتب

قلت : كنت أريد أن يكتب تاريخنا بعاطفة وحرارة لأنى أعتقد أن التاريخ فى الأمم المتيقظة هو قلب قبل أن يكون عقلاً ، لأن هذه الأمم — وهى فى بدء يقظتها — لأحوج إلى قيادة العاطفة منها إلى قيادة العقل . وإذا عدت إلى استقراء تاريخ كل أمة ألفيت أن العاطفة هي القائدة الهادية ، حتى إذا ماشت هذه الأمة إلى هدفها واستقام سيرها ، أخذت العاطفة تقر رويداً رويداً ويتسيطر على جوحها العقل . وها هى ذي الأمم الغربية التي تقتني أثرها وتمجد خيرها على رغم ما بلغت من نضج العقل ورسوخ القدم لا تقرأ تاريخها إلا موسوماً بميسم وطنيتها وعاطفتها لأن التاريخ المجرد يأتى هيكلاً مجرداً من الروح ، وإذا لم ترد الأمة أن تطبعه بطابع حياتها وحاجتها ، فما معنى حاجتها إلى هـذا التاريخ إذن ؟ على أننا لا نريد أن يأتى تاريخنا مشوهاً متحولاً مخالفاً للحقيقة ، ولا نريد أن نسجله تسجيلاً كاذباً مختلقاً . ولو قدرنا على ذلك لما فعلنا ، كما فعل ذلك العالم البلجيكي الذي أخذ يلوم أحد قادة الألمان على ما يرتكبون من فظائع فى (بلجيكا) خلال الحرب العظمى وهدده بالتاريخ الذي سيحصي عليهم كل صغيرة وكبيرة ، فما أجابه ذلك القائد إلا بضحكة استهزاء متمتماً : « هل تهددنا بالتاريخ ، وما عسى يضع التاريخ ؟ ونحن الألى نسجله غداً » يريد أن الظافر هو الذي يتولى كتابة التاريخ وتشويه الحقائق . اننا لا نسجل الآن شيئاً ، وانما رجال غربيون يسجلون . منهم صاحب حضارة العرب يسجل تاريخ حضارتنا كما تفهمه وتلمسه . وما أجدر هـذه الفئة المنكرة

الجاحدة لتاريخها وقوميتها بقراءة هذه الصفحات والنظر إلى ماراحوا يتنكرون منه ويوارون وجوههم خجلاً ! وما كان أحق هذه الفئة بالتقديس لو أن لهامن القوة والعبقرية والثقافة جزءاً مما لأجدادهم ! ولكنهم قوم عميت منهم الأبصار والبصائر وشغفوا برداء يلبسه جارهم لا حظ لهم منه إلا النظر إذا سمح الجار بذلك

هذا ما بعثنى على تعريب هذا الكتاب الذى خرج إلى العالم منذ خمسين عاماً ، ولا تزال الخزانة العربية تجهله ، أو تعرفه وتتخلف عن تبنيه كأنه لا يمسها فى شىء أو لا يعنيها من أمره شىء . على أنه كان خير كتاب سطره يراع غربى فى التاريخ العربى . ولعل فى إرجاء تعريبه سراً لأنه يخرج الآن فى وهلة أصبح تعريبه حاجة ماسة لجيل عربى تيقظ على أمجاد غابرة ، وعاد إليه حنينه الأول وحلمه الأسمى ! ومن حق هذه الأمجاد أن نعمل على بعثها حتى تغدو أصواتاً تتردد في كل فج ، وتصبح أصواتها أصداء تتجاوب فى كل رجاء

قد يقول بعضهم : إن بين مصادر المؤلف مصادر واهية يظهر ضعفها ، والكتاب ذاته ليس بذى قيمة كبيرة . ولقد يكون هنا لك ضعف فى المصادر وضعف فى بعض المستنتج ، وضعف فى إحصاء أشياء ، ولكن هذا لا يخلع عن الكتاب قيمته العلمية لأنه كتب فى عهد بعيد قبل أن تكثر المواد التى جلت تاريخ العرب . وقد أبقينا على هذه الأخطاء لأن القارىء النبيه يستطيع تمييزها بسهولة ، لأننا أحببنا أن ننقل الكتاب صورة صادقة أمينة يطلع القارىء خلالها على آراء الغربيين فينا إبان ذلك العصر . ولكن هذه التهمة لم يكن الباعث عليها ضعف المصادر فحسب ، وإنما تعود أسبابها إلى أن المؤلف الذى يكتب عن العرب ينبغى له أن يعنى بإظهار سيئاتهم وطرح حسناتهم ، وأن يعمل على تصورهم شعباً مهدماً للمدنية لا بانياً ، فجاء غوستاف لوبون العالم الجرىء المنصف خارقاً عادات القوم متخطياً بدعتهم السيئة فكتب عن العرب ما لا يكتبه العرب عن أنفسهم ، وفتح العيون العمى على مالهم من حضارة وفضل على الانسانية بوجه عام ، وعلى الحضارة الغربية بوجه خاص ، ولذلك لم يلق كتابه الرواج المنتظر فى أمته . وناهيك بأن سياسة الغرب فى ذلك العصر كانت تعد العدد وتختلق الحبل لاستعمار الشرق فكيف يروقها أن يظهر من يمدد لها فضائل هذه الأقطار التى تريد استعمارها بتهمة الوحشية ودعوة التمدين . فكان عدم رواجه نتيجة منطقية معقولة لهذه الفكرة المسمومة ؛ وكانت حملات عليه كاذبة حاولت أن تطعن فى العرب وفيمن ينتصر لهم . ومن دواعي الأسف أن هذه الفكرة لا تزال تصاحب هذا الكتاب ، وسوف لا تزال مرافقة له حتى ينفض الغرب يده من هذه الأقطار وييأس من استعمارها !

وقد قص علىّ أستاذ صديق أنه خلال وجوده فى باريس طلب إلى إحدى مكتبات المطالعة أن يطلع على هذا الكتاب فتأفف صاحب المكتبة ، فقال له الأستاذ : أراك مشمئزاً ، لعل الموضوع لا يرضيك ! فأجابه : ليست المسألة مسألة موضوع ، وإنما مسألة انتشاله من تحت أنقاض الكتب المتراكمة فوقه . فمد يده إلى خزانة ربما يطلق صاحبها عليها خزانة الكتب المهجورة والمغفلة ، ولبث يقلب حتى علقت يد صاحبنا بالكتاب فى قاع الخزانة !

وهذا يدل على أن الفكرة التى شوهته لا تزال ترافقه وأن الغربى قد أتى فى خلده أن كل ما يكتب عن الشرق والعرب بلهجة الاعجاب هو شىء كاذب مدسوس ، وإنما الحق كل الحق فيما يتناولهما بالذم والسخرية والتحقير . وكأنى بأفراد قلائل قد استطاعوا أن يطلقوا عقولهم من هذه الأوهام وينظفوا دم تفكيرهم من هذه السموم ، ولكن عدد هؤلاء محدود ، وما أقلهم لو استطاعوا أن يطهروا أنفسهم !

وأسباب ذلك كما قدمت تعود إلى أضاليل الغاية الاستعمارية التى استلهمت أيضاً العصبية الدينية ، وتكاتفتا معاً على إخفاء محاسن العرب ، وعلى إظهارهم شيئاً هو دون الشعوب . ويقينى لو أن موازناً منهم قارن بين شعب من الزنوج والعرب لشالت كفة العرب ولرجحت كفة الشعب الزنجي لأن هذا الشعب تم لهم استعماره وتحضيره وذلك لم يتم ولما يتم لهم منه شىء

أما أجري الذى أنشده من هذا التعريب فهو أمنيتي التى أرجو أنى وصلت إليها فى وضع لبنة واحدة فى صرح المملكة العربية الحديثة وفى استجلاب كثيرين ممن ضلوا مجد أمتهم الغابر ليحثهم على بناء المجد الحاضر ، وما هنا إلا صفحة من صفحات هذا الفاتح الذى ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم منه ... فاقرأوا أيها العرب وانفذوا منها إلى بقايا صفحات تاريخكم المجيد

« تتلوه المقدمه »

خليل هنداوى

مقالات اسماعيلية

لأستاذ جليل

— ٢ —

فى معرفة العقل

ومنها حدثني الحسن الموصلي عن علي بن محمد نازل سَوْرة[١] والعباس بن محمد بن الحسين جميعاً عن محمد بن سنان الزاهدي قال: سألت لمولانا[٢] (علينا سلامه) عن أول صفات الأزل، فقال لي: العقل، فقلت: وما العقل يا مولاي؟ فقال: أنا. وما علمت أن بي يعقل العاقل، وبي ينظر الناظر، وبي يسمع السامع، وبي يبطش الباطش، وبي يتحرك الساكن، وبي يذاق الطيب، وبي يشم الروائح الطيبة، وبي يحس الحواس، وبي أفاضوا الناس؟ فقال له محمد بن سنان فكيف منزلتك من البارى الأزلى؟ فقال له كمنزلة العلم من العالم لم ينفصل منه ولا هو سواه. واعلم يا محمد، أن الأزل أطلع من ذاته نوراً لم يفصله منه، ولا غاب عنه، ثم سماه عقلا، وخاطبه به، فقال له: من أنا؟ أجابه أنت وأنا منك، فقال له أدْبِرْ يعنى اظهر كالنفصل مني، فظهر ثم قال له: أقبل يعنى غب فيّ واتصل بي، فاتصل فقال له به وخاطبه منه: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً قبلك[٣] إلا أنا إذ أنا معدنك، ولا خلق أبداً أحب إلى منك، لأنك مني بديت[٤]، وأنا بك ظهرت. منك نطقت، وبك أدعو، وأنت إشارتي ونودى في سمواتي وارضي، بك آخذ حقي من خاقي، وبك أجازي من عرفني وأقرّ بى، فأنت الواحد إذ لا مثل لك، وأنا الأحد لأني متحد بك. لست حين اطلع بك حركاتي وغيبتك سكوني[٥] وأنا العلي الحميد والسلام

(١) سورة بفتح السين وسكون الواو موضع (معجم البلدان)
(٢) مولانا
(٣) في (الاحياء): (أول ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر ثم قال الله وعزتي وجلالي ماخلقت خلقاً أكرم على منك، بك آخذ، وبك أعطى، وبك أثيب، وبك أعاقب) ونسب القول إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)
(٤) إن كانت محرفة فأصلها بدأت أو بدوت أى ظهرت
(٥) كذا هذه الجملة والتي قبلها

— ٣ —

فصل فى معرفة الانسان

قال الله (تعالى): «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً» إعلم أن الإنسان هو النفس خلقت قبل الجسم زماناً طويلا، فلما ظهرت النفس بصورة الجسم ذكرت وعرفت حتى تعقل منه المعقولات أى تعرف أمام العصر والزمان؛ فإذا عرفت ارتقت إلى عالمها النوراني كما قال الله (عز وجل) «ثم ننجّي الذين اتقوا ونذرُ الظالمين فيها جِثِيّاً» والجثو هو المعاد فيها. وإذا لم تعرف إمام العصر والزمان تتردد فى عالم الكون والفساد على الأجساد ومحل الآلام حتى تعرف إمام زمانها وتدخل تحت طاعته؛ فإذا عرفت خلصت ونجت وارتقت، وإذا لم تعرف لا تزال تتردد حتى تعرف بعد المدد والدهور الطوال. قال بعض العارفين لولده: احرص يا بنيّ أن تخلّصها فى هيكل واحد ولا فى هيكل ثان والسلام

— ٤ —

(فصل) اعلم (يا أخى) ان النفوس المنكرة لا تزال تتردد فى عالم الكون والفساد والنشوء والبلى حتى تعقل منه المعقولات أعنى معرفة إمام العصر والزمان. والسلام على من اتبع الهدى، وخشى عواقب الهوى، وأطاع الملك الأعلى، وأمر بالتقوى، وكان من الفائزين، والسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين

— ٥ —

(فصل) اعلم أن الجن ثلاث طبقات: الجن الغواصة، والجن الطيارة، والجن المرَدَة. أما بعد فإنّ الجن الغواصة هم الحكماء الغواصون فى العلوم الحقيقية، والجن الطيارة هم الحجج والدعاة الذين يطيرون فى علومهم من مكان إلى مكان، والجن المردة فهم أهل الظاهر المرقبون[١] السمع[٢] العاندون للحق فى كل عصر وزمان، فاتلم ذلك. قال عليّ (علينا سلامه): من عاند الحق هان، ومن تهاون فى الدين انهان[٣]. وقال أيضاً: من استغنى بعقله ضلّ، ومن عجب بعمله زل، ومن استعان بغير الله ذل، والسلام

(١ ، ٢ ، ٣) كذا

— ٦ —

(فصــل) اعلم أن دعائم الإسلام سبع ، وعند أهل الظاهر خمس ، وهي الصوم والصلاة والحج والزكاة والجهاد في سبيل الله (تعالى) والولاية والإمامة ، أنكر أهل الظاهر الولاية والإمامة

قال النبي عليه الصلاة والسلام فى حق علىّ يوم الغدير : (من كنت مولاه فعلىّ مولاه . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من نكره ، وأدرْ الحق معه حيث دار[1]) هذا فى الولاية ؛ وقال النبي فى الإمامة : (من مات ولم يعرف إمام زمانه معرفة جلية فقد مات ميتة جاهلية ، والجاهل كافر والكافر فى النار[2]) والسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين

— ٧ —

(فصــل) النبي (صلعم) : (تسلمت من خمس وسلمت إلى خمس ، وبينى وبين ربى خمس) . (الجواب) : فالخمس الذى تسلم النبي منهم ، فهم بحيرا الراهب وميسرة وزيد بن عمرو وعمرو بن نفيل وخديجة بنت خويلد ؛ والخمس الذى سلم إليهم ، فهم الأساس ، والداعى ، والحجة ، والإمام ، والوصى ؛ والخمس الذين بينه وبين الله (عز وجل) فهم العقل ، والنفس ، والجد ، والفتح ، والخيال[3] ، وقوله : أنا وأهل بيتى خمس ، فهم محمد ، وعلىّ والحسن ، والحسين وفاطمة ، عليهم السلام أجمعين ، والحمد لله رب العالمين

— ٨ —

(فصــل) اعلم يا أخى أن العقل نور إلهى مشرق على ظهر العالم فيقبل كل شيء من الأشياء التي تحته تحيي قواه ، فلما[4]

(١) الذى فى الترمذى وغيره (من كنت مولاه فعلى مولاه) وفى اسناده محمد بن جعفر المدائنى . وفى النسائى وغيره (من كنت وليه فعلى وليـه) وفي كتب منها الصواعق المحرقة (من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، فأحب من أحبه ، وابغض من أبغضه ، وانصر من نصره واخذل من خذله ، وادر الحق معه حيث دار) ولسنا اليوم فى البحث عن صحة حديث أو ضعفه أو اختلاقه

(٢) حديث اسماعيلى

(٣) الجد ، والفتح والخيال ترجها (جوارد) بهذه الألفاظ La Matière première, L'Espace et le Temps

(٤) كان

الإنسان أقرب بنسبه إلى العقل قبل من الفيض أكثر من جميع الموجودات ، والنور هو العلم ، والعلم هو العقل الإنسانى والسلام

— ٩ —

(فصــل) اعلم يا أخى أن جهنم هى البعد من الله ، وهى مركز الأرض ومحل الأجسام عالم الكون والفساد ؛ والجنة هى القرب من الله وهى عالم القدس ومحل النفوس والأنوار ، وعرضها كعرض السموات والأرض كما قال الله تعالى : « وجنة عرضها السموات والأرض اعدت للمتقين » والحمد لله رب العالمين[1]

(١) فى (رسائل إخوان الصفاء) كتاب النحلة الاسماعيليـة : « إعلم وتيقن ولا تشك في أن جهنم هى عالم الكون والفساد الذى هو دون فلك القمر ، وأن الجنة هى عالم الأرواح وسعة السموات ، وأن أهل جهنم هي النفوس المتعلقة بأجساد الحيوانات التى تنالها الآلام والأوجاع دون سائر الموجودات التي في العالم ، وأن أهل الجنة هي النفوس الملكية التى فى عالم الأفلاك وسعة السموات فى روح وريحان البريئة من الأوجاع والآلام والدليل على ذلك قوله تعالى : (إنطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب) إشارة إلى النفوس المتحدة بالأجسام ذى الطول والعرض والعمق إلى دون فلك القمر »

حقيقة الاســـلام

للأستاذ خليل جمعة الطوال

« ... أنا لست مسلماً ولكن ذلك لا يمنعني من أن أقول في الاسلام الحق . ولقد دفعني إلى هذا ما شاع بيننا نحن المسيحيين — عن طريق المبشرين وانكشارية الدين المأجورين — من أن الاسلام دين كاذب قام على السيف وأصارحك أني كنت على هذا الرأي حتى تنبهت إلى فضائل الاسلام عن طريق الرسالة الغراء ، ثم عن طريق القرآن الشريف . لذلك آليت على نفسي أن أعوض عن عدم إسلامي بنشر فضائل الاسلام بقلمي ولساني »

خليل جمعة الطوال

« الإسلام دين بربري قام بقوة السيف ... »

« فولتير والخصوم »

بهذه الحجة الواهية ينثال على الإسلام خصومه ليشوهوا جماله ، وينالوا من روحه الكبرى ، وينتقصوا من تعاليمه السامية. وبهذه الحجة أيضاً يتذرع أهل الجهالة والزيغ ، إذ يصمون صاحب الرسالة العربية بالكذب والشعر والكهانة ، ويدعون أنه مؤسس ديانة بربرية كاذبة ، تنافي مبادئها روح الحضارة ، وتقف تعاليمها حائلاً دون تقدم المدنية . ولو أنهم خلوا إلى أنفسهم ، ونفضوا عنها غبار التعصب ، ودرسوا تعاليم الإسلام ، وتدبروا آياته في هدأة من أغراضهم الذاتيـة ، لانجابت عن بصائرهم سدف الأرجاف ، ولانجلى عن قلوبهم خبث الصدور وصدأ الباطل

يزعمون أن الإسلام قام بقوة السيف ... ويتمسكون بهذا الزعم على أنه حقيقة واقعة لا غبار عليها . ولكن فاتهم أن القوة التي أعزت الإسـلام في بدر ، والقادسية ، واليرموك ، والتي غزا بها المسلمون — على قلة عددهم وضعف عدتهم — وعتادهم العالم ، وأمعنوا في جهاته الأربع بالفتح والاستعمار ، حتى وسعت إمبراطوريتهم ثلثي الكرة الأرضية — لم تكن إلا قوة إيمانهم بعقيدتهم الجديدة ، عقيدة التوحيد بالله وعدم الشرك به ، تلك العقيدة السامية التي استمرأوا في سبيلها النكبات ، وتجشموا الأخطار والمصائب ، فما لانت قناتهم ، ولا خضدت شوكتهم ، ولا هانت قوتهم . ولئن قام الإسلام ببضعة أسياف ونفر من الرجال ، لقد قاومه أعداؤه المشركون بآلاف الصوارم ، وكتائب الأبطال . وما انتصاره عليهم إلا انتصار الحق على الباطل ، وما هزيمتهم أمامه إلا هزيمة القوة المادية أمام قوة الإيمان الروحية

تبارك الله !! رجل يقوم ضد أمة ، فكأنه بقوة إيمانه — وهي كل ذخيرته — أمة بأسرها . فيغلبها حيناً وتغالبه أحياناً ، ثم ينصر الله عبده ، ويعز كلمته ، فإذا القوم يسارعون فرادى وجماعات ليستظلوا تحت راية حقه ، وليسترشدوا بنوره ، ويهتدوا بهدايته ، وإذا محمد رسول الله ، ورجل الحق ، وعدو الكفر يقف فيهم خطيباً عند باب البيت ليعلن فيهم مبدأ الإخاء والحرية والمساواة ، فيقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج . يا معشر قريش ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم خلق من تراب . يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم

تلك هي مبادئ الإسلام السامية التي اهتزت لها أصنام الوثنية وهياكلها ، بل تلك هي عدة المسلمين التي فتحوا بها العالم والتي لم تغن عنها « يوم نور » جيوشهم اللجبة الجرارة وأسلحتهم الوفيرة المدمرة

بمثل هذه المبادئ قام الإسلام يرشد الناس بنور الهداية ، وحسن الموعظة ، ولم يلجأ إلى السيف إلا دفاعاً عن حوزته ، وإشفاقاً على رسالتـه ، من أن تصبح مضغة استخفاف يلوكها أهل الكفر والالحاد مدى العمر . وأي شريعة سماوية جديدة قامت ولم يؤيدها السيف في انتشارها ؟ أهي اليهودية وقد كانت تأمر برجم كل خارج على الناموس ؟ ... أم هي المسيحية وما زالت محاكم التفتيش بأقبائها المروعة المظلمة يتردد صداها في الآذان ، وترتعد من فظائعها الأبدان ؟ ولم نذهب بعيداً في الاستدلال والتاريخ مفعم بذكر الكثيرين من ضحايا المسيحية — أو قل على الأصح إنكشارية المسيحية — ومجازرها ؟ وحسبك

منها مجزرة القديس « سان برثلمو » التى قتل فيها (٢٥٠٠٠) نفس ، ومجزرة شارلمان بقبائل السكسون التى سالت فيها الدماء البريئة أنهارا ؛ وما ارتكبته جيوش فيليب الثانى ملك أسبانيا وحامى ذمار الكاثوليكية في هولندا من الفظائع وضروب التمثيل التى تهتز لهولها الرواسى ، وتشيب لمنظرها النواصى . وما فعله الامبراطور فرديناند الثانى وهو من أسرة هبسبرج حين حاول أن يستأصل شأفة البروتستينتية فى ألمانيا ، فأرسل إليها جيوشه اللجبة ، التى أخذت تعمل السيف فى الرقاب والعباد ، والنهب فى البلاد ؛ واختل الأمن ، فأبيحت الأعراض ، وأزهقت النفوس البريئة ، وخرب خمسة أسداس المدن والقرى الألمانية ، وتناقص عدد السكان فيها ، حتى صار أربعة ملايين بعد أن كان ثمانية عشر مليونا

ولِمَ نذهب بعيداً وفى الأمس تراجع البابا تلك الذكريات المؤلمة ، فيبكى وينتحب لها ، ولأن أهل رومية قد أقاموا « لبرونو الايطالى » الذى أحرقته محاكم التفتيش بالقار والقطران ، فى حفل رائع من رجال الإكليروس ، تمثالاً عظيما فى المكان الذى أحرق فيه ضحية لتزمت العصر ، وكفارة عن حرية الفكر

ولم تكن البروتستنتية على حداثة عهدها لتختلف عن الكاثوليكية بشئ من حيث تفتيش الضمائر وخبآت الصدور ، واضطهاد أبطال الحرية الفكرية بالسجن حيناً وبالحرق أحياناً ، فتلك النيران الخيفة التى التهمت جثة « سرفيتوس الاسبانى » ما تزال مشهدها ماثلاً أمام عينى كلفن وهو فى جدثه ، وما تزال تلك الذكرى تنتاش جثته الهامدة ورمته البالية

لقد اضطهدت المسيحية على اختلاف مذاهبها خلقاً كثيراً من ذوى الحرية الفكرية على حين كان الإسلام على درجة بعيدة من التسامح ؛ ولنا من أبى العلاء المعرى أكبر دليل على ذلك ، فقد شك هذا الفيلسوف العظيم فى جميع الأديان ، واتهم بالكفر والالحاد ، ومع كل ذلك فقد عاش آمناً مطمئناً على حياته ، ولم ينله من الحكومات الإسلامية أدنى أذى مع أنه قد تمادى فى كفره وشكه لدرجة تكفى للحكم عليه بالقتل والحرق

ومن الحق هنا أن نسجل أن جميع الديانات حتى الوثنية منها تأمر بالخير والإحسان وأن المسيحية لم تبح سفك الدماء واضطهاد الأبرياء ، ولكن ما العمل وقد اضطهدت هذه النفوس البريئة باسمها ! وذلك إرضاء للنفوس الدنيئة ، والأطماع السافلة !!

لقد قام الإسلام يدعو إلى التوحيد ، فأعطى أهل الكتاب الحرية التامة فى إقامة شعائرهم الدينية ومعتقداتهم ، ولم يعمد إلى السيف فى إخضاع المشركين وردهم إلى حظيرة الإيمان بالله إلا إذا أبوا أن يلبوا دعوة الله بالحجة البينة ، والموعظة الحسنة ، واختاروا الحرب

أفبعد هذا يزعمون أن الإسلام دين كاذب ؟ ! ليت شعرى ، أية كذبة تماشى العصر ، وتساير الزمن ، وتعيش مع الدهر — بين الخصوم — أربعة عشر قرناً ، وتنطلى تمويهاتها على أربعمائة مليون من الناس ، وتظل عندهم طيلة هذه الأحقاب موضع الإجلال والإكبار ، تهز قلوبهم للرحمة وأكفهم للخير ؟

ألا إن الإسلام برئ مما نسب إليه ، فهو دين عربى صادق يدعو إلى توحيد الله دون أن يلجأ إلى التواء المنطق وغث التأويل . « ولئن فاتنى حظى من النسب ، لن يفوتنى حظى من المعرفة »

هذا هو الإسلام الذى قال فيه شاعر الألمان وأعظم عظمائهم « جايتى » : إذا كان ذلك هو الإسلام فكلنا إذاً مسلمون . نعم كل من كان فاضلاً شريف الخلق فهو مسلم

(شرق الأردن) خليل جمعة الطوال

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

– ١٤ –

« ... أتذكر إذ التقينا وليس بيننا شابكة ، فجلسنا مع الجالسين لا نقل شيئاً في أساليب الحديث ، غير أننا قلنا ما شئنا بالأسلوب الخاص باثنين فيما بين قلبيهما ؟

« ... وشعرنا أول اللقاء بما لا يكون مثله إلا في التلاق بعد فراق طويل ، كأن في كلينا قلباً ينتظر قلباً من زمن بعيد ؟

« ولم تكد العين تكتحل بالعين حتى أخذت كلتاهما أسلحتها ... وأثبت اللقاء بشذوذه أنه لقاء الحب ؟

« وقلت لي بعينيك : أنا ... وقلت لك بعيني : وأنا ... وتكاشفنا بأن تكاتمنا ؟

« وتعارفنا بأحزاننا كأن كلينا شكوى تهم أن تفيض بينهما ؟

« وجذبتني سحنتك الفكرية النبيلة التي تضع الحزن في نفس من يراها فاذا هو إعجاب ؛ فاذا هو إكبار ؛ فاذا هو حب ؟

« وعودت عيني من تلك الساعة كيف تنظران إليك ؟

« وجعلت أراك تشعر بما حولك شعوراً مضاعفاً كأن فيه زيادة لم تزد ؟

« وكان الجو جو قلبينا ...

« وتكاشفنا مرة ثانية بأن تكاتمنا مرة ثانية ... ؟ »

(هي)

« ... عبثاً أصف مكاناً للحب كأنما مر به سر الخلود فذا الوقت فيه لا يشبه نقصاناً من العمر بل زيادة عليه ؛ وكانت يا حبيبتي كل دقيقة وثانيتها في مجلسك الساحر كأنها بعض الفكرة والحس لا بعض الزمان والمكان ...

« ... وكنت وما أشعر من سحرك إلا أني بازاء سر وضعني في ساعة من غير الدنيا وحصرني فيك وحدك ...

« وهاجتني من يقظتي واقتحمت على من حذري ...

« وخبتني وعينيك ، وخليتني وما كتب على ...

« واتسعت روحي لتشملك ، فما كنت تتكلمين ولا تضحكين ولا تخطرين في غرفتك ولكن في داخل نفسي ..

« ... وكنا نتكلم ولكن ألفاظنا تتعانق أمامنا ويلثم بعضها بعضاً من حيث لا تراها إلا عيناى وعيناك

« وتراءت النفسان فملأتا المكان بأفراح الفكر ، واستفاض السرور على جمالك بمعنى كلون الزهرة النضرة هو عطرها لمنظر

« وقلت لي بجملتك : أنا .. وقلت لك بجملتي : وأنا .. »

(هو)

هي وهو ؟

إني لأعرفه عرفاني بنفسي ، فما بي شك فيما أكتب عن حبه ؛ ولقد خلطني بنفسه زمناً فاني لأسمع نجواه وأقرأ سره ، وأعرف ذات صوره ، فما أصف من حبه إلا مستيقناً كأنما أنقل عن لوح مسطور في فؤادي ، أو أثبت من حادثة في تاريخ أيامي ماثلة في نفسي بصورها وألوانها وحوادثها فما يغيب عني منها شيء . ولولا تقاليد الناس وآداب الجماعة لمزقت النقاب عن وجه الحديث وجلوته على القراء في بيان سافر كاشراق الضحى ، ولكن ... ولكنها هي ...

أما هي فما في يدي شيء من خبرها إلا ما حدثني به الرافعي أو حدثتني رسائله ، فما أتحدث عن حبها إلا راوية يكتب ما يسمع لا ما يشهد ، أو محققاً يضع كلمة إلى كلمة ، ويزاوج بين رسالة ورسالة ، ليخرج منهما معنى ليس في يده من حقيقته شيء إلا ما يهديه الفكر وصواب الرأي وملابسات الحادثة

وإنها لأديبة شاعرة يعرفها كثير من قراء العربية وأعرفها عرفانهم أو يزيد ، وحسبي هذا مقدمات إلى النتيجة ، وما يعسر على من يمسك طرف الخيط أن يصل إلى آخره ...

***

لقد التقيا وما بينهما شابكة ولا يربطهما سبب ؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها حتى ارتبطا قلباً إلى قلب ؛ وكان الأدب رباط بينهما أول ما كان ، ثم استجرهما الحديث إلى فنون من الكلام فكشفت له عن آلامها وكشف لها عن آلامه فكان عطف وإشفاق ؛ ثم تحدثت عن أحلامها وتحدث عن أحلامه ، فكان الحب ؛ ثم ... ثم كانت القطيعة حين بلغ الحب غايته ونال مناله من نفسها ومن نفسه ، فافترقا حين كان يجب أن يبدأ اللقاء ليتذوقا سعادة الحب ويقطفا من ثمراته ... وضرب الدهر من ضرباته فإذا هو تحت الرغام ، وإذا هي في المستشفى تتمرض من داء هيهات أن تجد له الدواء !

***

لم تكن (هي) تقصد الحب ولا تعمدته ولا كان هو ، ولكنها أديبة تعرف موازين الكلام ، لقيت الأديب الذي تعجب به ويفتنها بيانه ، فأحبته (عقلاً جميلا) كما تسميه في بعض رسائلها ...

***

وكان سعيه إليها يلتمس الشعر والحكمة ، والشعر والحكمة هما رابطتها إليه وفاتنتها به ؛ فتصنعت له لتفتنه وتزيده شعراً وحكمة ، ثم تصنعت لتزيده ، ثم تصنعت لتزيده ، ثم تصنعت لتزيد هي به ؛ لأنها وجدت به نفسها ، ووجدت به الشعر والحكمة والبيان ؛ فأحبته (أستاذها ومرشدها) لأنه أوحى إليها ما عجز دونه الآخرون ، لأنه فجر لها ينبوع الشعر وعلمها البيان هكذا تقول في بعض رسائلها ...

***

وهي فتاة لم يسالمها الدهر ولم تزل منذ كانت — غرضاً لسهام الأيام ، تنوشها الآلام من كل جانب ، ولها نفس شاعرة تضاعف أحزانها فتجعل لها من كل همّ همين ، وإن حوالها لكثيراً من الأصدقاء يزدلفون إليها ويخطبون ودها ، ولكن ... ولكنها تريد الصديق الذي يستمع إلى شكواها من الأيام فتستريح إليه ، أكثر مما تريد الصديق الذي لا تسمع منه إلا كلمات الزلفى والتحبب واصطناع الهوى والغرام ... وتحدث إليها الرافعي وتحدثت إليه ، وقصت عليه من أحزانها فاخضلّت عيناه وأطرق فوضعت يدها على يده وهي تقول :

« سأدعوك أبي وأمي متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر ، وسأدعوك قومي وعشيرتي ، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين ؛ وسأدعوك أخي وصديقي ، أنا التي لا أخ لي ولا صديق ؛ وسأطلعك على ضعفي واحتياجي إلى المعونة ، أنا التي تتخيَّل فيّ قوة الأبطال ومناعة الصناديد !

« وسأبين لك افتقاري إلى العطف والحنان ، ثم أبكي أمامك وأنت لا تدري ... ! »

وأحبته (صديقاً) تفزع إليه إذا ضاقت بآلامها وحزبتها الهموم ...

***

وهي الفتاة التي لم تعرف في حياتها إلا التجهم والعبوس ، ولم تعرف من دنياها إلا الجد الصارم ؛ وما كان لها من عمل غير الاستغراق في الفكر ، أو الاستغراق في الفن ؛ وإنها لأنثى وإن كانت فيلسوفة شاعرة ...

والرافعي رجل — كان — لا يحمل من هم ، فما يدع النكتة ولا يترك المزاح والدعابة وإن الدنيا تصطرع حواليه ، وإن كان القضاء منه بمرصد يراه ويتوقعه ؛ وإنه ليهزل في أجدّ الجد وأحرج الساعات هزله في أصفى حالاته وأسعد أيامه ؛ فما يجالسه ذو هم إلا سُرِّيَ عنه كأنما يمسح قلبه فيمحو أحزانه ...

وتحدث إليها وتحدثت إليه ، فأحبته (الرفيق الأنيس) الذي تسيطر عليها روحه فينتزعها من دنياها العابسة إلى دنياه ..

***

واستمعت إلى صوته يتحدث ، فكان له في نفسها رنين ؛ ونظرت إلى سحنته الفكرية النبيلة فرأت فيها مرآة نفس صافية لا تعرف الخداع والتزوير ؛ ولمحته يبتسم ، فجذبتها إليه ابتسامة لم تجد مثلها إلا زيفا على شفاه الرجال ؛ ونظر إليها ونظرت إليه ، وقال وقالت ، وتحدث قلب إلى قلب ، وتناجيا في صمت ؛ وتركها وهي في نفسه ، ومضى وهو في مجلسها ؛ وأحست في نفسها إحساساً ليس لها به عهد ؛ فتناولت قلمها لتكتب إليه :

« ... سأستعيد ذكرك متكلما في خلوتي لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك ، حكاية البشر المتجمعة في فرد واحد؛ وسأتسمع إلى جميع الأصوات على أعثر فيها على لهجة صوتك ، وأشرِّح جميع الأفكار وأمتدح الصائب من الآراء ليتعاظم تقديري لآرائك وأفكارك ... وسأبتسم في المرآة ابتسامتك

« في حضورك سأتحول عنك إلى نفسي لأفكر فيك ، وفي غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك ...

« سأتخيل ألف ألف مرة كيف أنت تطرب ، وكيف تشتاق ، وكيف تحزن ، وكيف تتغلب على عاديٍّ الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل ...

« وفي أعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بخوراً ، لأنك أوحيت إليّ ما عجز دونه الآخرون . أتعلم ذلك ، أنت الذي لا تعلم؟ أتعلم ذلك ، أنت الذي لا أريد أن تعلم ... ! »

وكان حبها إعجاباً بالعقل الجميل ، ثم تقديراً لأستاذها الذي فجر لها ينبوع الشعر والبيان ، ثم إجلالا للصديق الذي وجدت مفزعها إليه ، ثم انعطافاً إلى الرفيق الأنيس الذي كشف لها عن أفراح الحياة ، ثم ... ثم حباً يستأثر بنفسها ويسيطر عليها في غيبه ومشهده فما لها عمل إلا أن تفكر فيه ...

وأضلها الهوى وأضله ؛ وخيل إليها أنها تستطيع أن تكون

أرفع محلاً لو أنها منعته بعض ما تمنحه، وخيل إليه أنه يستطيع وقالت له: «أنا لا أشفق على آلامك؛ وهل ترانى أكره لك النبوغ والعبقرية؟» وقالت له كبرياؤه وغيرته وظنونه غير ما قالت صاحبته؛ ومضى كل منهما إلى طريق والقلب يتلفت؛ وما عرفت إلا من بعد أنه يحبها حباً لا يطيق أن يتسع أكثر مما تتسع له نفس إنسان؛ وما عرف إلا من بعد أنها كانت تجافيه لتطلب إليه أن يكون فى الحب أجرأ مما كان ...

وعرف وعرفت، ولكن العقدة لم تجد من يحلها وبينهما فلسفة الفيلسوف وكبرياء المتكبر؛ وظل وظلت وبينهما البعد البعيد على هوى وحنين ... حتى جاء الموت فحل العقدة التى استعصت على الأحياء ... !

***

إن كثيراً ممن يعرفونها ويعرفونه ليدهشون إذ يقرءون قصة هذا الحب، وسيتناولونها بالريبة والشك؛ وسيقول قائل، وسيدعى مدع، وسيحاول محاول أن يفلسف ويعلل؛ ولا علىّ من كل أولئك ما دمت أقص القصة التى أعرفها وأستيقنها، والتى كان لها فى حياة الرافعى الأدبية تأثير يُردّ إليه أكثر أدبه من بعد، وحسبه أنه كان الوحى الذى استمد منه الرافعى فلسفة الحب والجمال فى كتبه الثلاثة: رسائل الأحزان، والسحاب الأحمر، وأوراق الورد، وحسبي أننى قدمت الوسيلة لمن يريد أن يدرس هذه الكتب الثلاثة على أسلوب من العلم جديد

(شبرا) **محمد سعيد العريان**

إلى الصديق الذى كتب إلى يسألنى أن أنشر له وللقراء رسالة مما كان بين الرافعى وصاحبته: أن يقرأ رسالتها فى أوراق الورد ص ١٤٤ — ١٥٠ فلعله يرى فيها لوناً من رسائلها إليه، وحسبه الآن هذه الرسالة، وإنها لَبسبب من موضوع هذا المقال

العـــدد ١٨٣

أعددنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة، فمن لم يكن عنده من حضرات المشتركين فليتفضل بطلبه من الادارة

أبو الفرج الببغاء

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

— ٤ —

أهلّ أبو الفرج الببغاء فى أعقاب عصر، وفى طلائع عصر آخر؛ أما العصر الأول فكانت الكتابة فيه جزلة مرسلة، تسير ذللاً لا أمت فيها ولا عوج، وترسل طبيعية لا تعمل فيها ولا تكلف، لا يلتفت الكاتب إلى غير المعنى الواضح الناصع فى اللفظ المحكم والنسج المبرم؛ فقد كانت الأمة حينئذ — أواخر دولة بنى أميــة وأوائل دولة بنى العباس — لا يزال بها رسيس من بداوة، وكتابها لا يفتأون ناهجين فى أساليبهم نهج العروبة الخالصة، لم تشبها كدرة العجمة. ومن كان منهم أعجمى التفكير فإنه عربى قح فى التعبير، ومن أريدت له من أبناء العجم — وما أكثرهم — المنزلة الرفيعة والحظوة المكينة لدى رجالات عصره وسراة دولته، فأداته الأولى حذق العربية والتبحر فيها، وممارسة الأدب والبراعة فيــه، والاحتفال له، واتخاذ صناعة الكتابة وسيلة زلفاه، وسبب علياه، والمشرع الذى يشرعه لا يحلّئه عنه أحد، ولا يذوده دون وروده ذائد؛ هو شدو اللغة بين بدوها، ينهل من قطرها ونبعها. ولقد كان أرباب السلطان يهيبون بمن يتخيلون فيهم مخايل الفطنة والموهبة والذكاء والنبوغ أو يتوسمون منهم فوقاً وحذقاً وبراعة ونبلاً؛ يهيبون بهم أن يهبطوا أول أمرهم فى البادية تشرق فيها قرائحهم عن أفكار صافية، وتجرى ألسنتهم على الألفاظ السليمة الخالصــة، ثم يعوجوا إلى رهط الحضر يبثُّون من أخيلته السامية، ويعلُّون من معارفه الزاخرة، ولم تكن الفارسية قد زحمت العربية إلا بقَدر، والعجمة لا تزال محدودة البيئة والوطن؛ لأن كلتا الدولتين الغاربة والشارقة، أو الأموية والعباسية إبان ذلك تبتغى مأرباً واحداً؛ فالأولى تريد لعرشها نهوضاً ولملكها رسوخاً، على ظبات الرماح وعلى أسلات اليراع؛ والأخرى تطلب لنجمها الصاعد سطوعاً وتبنى ملكاً ثابت الأساس، فرجالها فى حاجة إلى من يملك أسماع جمهور العامة بفصاحتــه الضّافية، ويخلب ألباب قارئيه من الخاصة ببلاغته الصافية؛

وما حديث عبد الحميد الكاتب إلا شاهد ما نقول من أن دولة الكتابة كانت — ولا تزال — عماداً قوياً لدولة السياسة

قام أبو مسلم الخراساني بالدعوة العلوية أو العباسية وظهر فى كثير من الأقاليم، وذاع أمره واستشرى خطبه، فأراد عبدالحميد أن يحاربه بكتبه لا بكتائبه، وأن يأسره بلسانه لا بسنانه، فكتب إليه على لسان مولاه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية كتاباً يستصفيه وده ويستخلصه إليه، وقال لمولاه: قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره؛ فإن يك ذلك وإلا فالهلاك. ولكن أبا مسلم داهية الفرس ودهقانها وقائد خراسان ومحنكها لم يكن بالغر يلعب بعقله الأدب، وتشغله عن واجبه الكتب، فلم يعبأ بالكتاب ولابالاه، بل أمر بإحراقه وتركه تذروه الرياح، وكتب على قطعة منه إلى مروان:

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى
عليك ليوث الغاب من كل جانب

فى أعقاب عصر عبدالحميد وابن المقفع وأضرابهما وفى طلائع العصر الثانى الذى تحوّل فيه حال الكتابة وتبدل أمرها؛ إذ طغى العجم على العرب واستهتر الكتاب بالمجون والخلاعة، وصيّروا الكتابة أداة من أدوات اللهو، وسبباً من أسباب الدعة، وجعلوا لها من الأغراض ما للشعر وزيادة، أهلّ أبو الفرج، وعلى لوائها أبو الفضل بن العميد، وقد فُتن ومن لاحقه باللفظ المبهرج والأسلوب المزخرف، فالعبارات موشحة مرصعة، والفقرات مجنسة مطبقة، وأنواع البديع فى الكتابة كزهر الربيع إلا أنها لاتجيء عفو الخاطر أو ربيبة القريحة كما كانت قبلا، بل تأتى بكد ذهن وعصر مخ وإعمال فكر؛ أما المعنى فكانت له لدى كتاب هذا العصر المنزلة الدنيا، فالأفكار ضيقة، والأخيلة محصورة محدودة؛ لذلك سرى فى الكتابة روح غير روحها الأول، وسار الكتاب وئيداً إلى غير النهج الأمثل. على أن ابن العميد ولداته ومنهم أبو الفرج لم يغلوا غلواً ممقوتاً، ولا تطرفوا تطرفاً ممجوجاً، فعل من أتى بعدهم ممن سار على دربهم، فلم يصلوا إلى ماوصل إليه أسلافهم، فقد كانت أخيلة ابن العميد فارسية في حلة عربية، وألفاظه زائنات معانيه، ومعانيه درر كشفت عنها ألفاظه. ولقد ضرب به المثل فقيل:

(بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد) وكأنى بصاحب هذا المثل يريد أن يكسف شموساً أشرقت من بعده وفي عهده، وأن يخسف بدوراً سطعت على كثبه لافضل له عليهم إلا أن الدنيا لم تسر فى ركابهم، والملك لم يقف على بابهم. وهذا أبو الفرج سرى على ضوئه وارتشف من نبعه حتى روى؛ وسار فى عدوائه وضرب، حتى بلغ غاية المتأمل، ووصل إلى مرتبة المتفضل. وسأعرض قطعة من غرر نثر ابن العميد ترسل إلينا قبساً من سناه، وتكشف لنا عن سمو نثره وعلاه، ثم أقدم بين يدى القارئ الكريم أخريات لأبى الفرج، وأترك الحكم للحاذق الفهم. ولا أظن أن البيغاء قصر كثيراً عن رئيس الكتاب سوى أن الدنيا أقبلت على الرئيس ابن العميد فمنحته محاسن غيره، وسلبت غيره محاسنه وأولته مثالب ومساوئ

كتب ابن العميد إلى أبى العلاء السروىّ وهو من أصفى خلصائه فالكتابة إليه فى نهاية الجودة كما يقول الثعالبي (لصدوره عن صدر مائل إليه محب له مناسب بالأدب إياه) كتب إليه يشكو شهر رمضان وهو من الأغراض التى لم يحاك فيها سابقاً قال:

« كتابى — جعلنى الله فداك — وأنا فى كد وتعب منذ فارقت شعبان، وفى جهد ونصب من شهر رمضان، وفي العذاب الأدنى — دون العذاب الأكبر — من ألم الجوع ووقع الصوم، ومرتهن بتضاعف حرور لو أن اللحم يصلى يبعضها غريضاً أتى أصحابه وهو منضج، وممتحن بهواجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضب، ويصرف وجه الحرباء عن التحنق، ويزويه عن التبصر يقبض يده عن إمساك ساق، وإرسال ساق:

ويترك الجاب فى شغل عن الحقب ... ويقدح النار بين الجلد والعصب

ويغادر الوحش وقد مالت هواديها
سجوداً لدى الأرطى كأن رءوسها
علاها صداع أو فواق يصورها

ومنها:

« ومنو بأيام تحاكي ظل الرمح طولاً، وليال كإبهام القطاة قصراً، ونوم كلا ولا قلة، وكحسو الطائر من ماء الثماد دقة، وكتصفيقة الطائر المستحر خفة..

كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامة ... فلما رجوها اقشعت وتجلت

(و)

كنقر العصافير وهى خائفة من النواطير يانعَ الرطب »

وهي طويلة وفيما قدمنا منها غنية عما تركنا . وقد جلت لنا طريقته فى الكتابة التى سلكها من عاصره ومن تابعه . ونعرض صوراً متنوعة من كتابة أبى الفرج علنا نؤدى واجبه كاملا دون تحيف أو تزيد

هنأ ممدوحه سيف الدولة بظفره فى إحدى وقائعه فقال من كتاب طويل :

والشجاعة أقل أدواته ، والبلاغة أصغر صفاته ، تطرق الدنيا إذا نطق ، وينطق المجد إذا افتخر ، فالآمال موقوفة عليه ، والثناء أجمع مصروف إليه ، نهض بما قعدت همم الملوك عن ثقله ، وضعف الدهر عن معاناة مثله ، بهمم سيفية ، وعزائم علوية ، فرد شمل الدين جديداً ، وذميم الأيام حميداً ، بحق أوضحه ، وخلل أصلحه ، وهدى أعاده ، وضلال أباده

فلا انتزع الله الهدى عز بأسه ولا انتزع الله الوغى عز نصره
وأحسن عن حفظ النبي وآله ورعى سوام الدين توفير شكره
فما تدرك المداح أدنى حقوقه بإغراق منظوم الكلام ونثره

لأن أدنى نعمة تستغرق جميع الشكر ، وأيسر منة تفوت المبالغة فى جميل الذكر ، فأما هذا الفتح الشريف خطره ، الحميد أثره ، المشهور بلاؤه ، الواجب ثناؤه ، الباسق فرعه ، العام نفعه ، فأشرف من أن يحد بالصفات ، أو يعد بأفصح العبارات »

وله من أخرى فيه أيضاً :

« شهاب ذكاء ، وطود وفاء ، وكعبة فضل ، وغمامة بذل ، وحسام حق : ولسان صدق ، فالليالى بأفعاله مشرقة ، والأقدار لخوفه مطرقة ، تحمده أولياؤه ، وتشهد له بالفضل أعداؤه

يقابلنا البدر من برده ويشملنا السعد من سعده
ولو نخر المجد لم تلقه نخوراً بشيء سوى مجده »

ولما مات سيف الدولة ولى نعمته كتب إلى عُدَّة الدولة يذكر له رغبته فى خدمته وأن يطوى باقى أيام حياته تحت رحمته قال :

« ومن أبرز لسيدنا صفحة رجائه ، ووفق للانقطاع إلى سعة نعمائه ، فقد استظهر لما بقى من عمره ، وحكم لنفسه بالفوز على دهره

فما يقدح الفقر فى حاله ولا يطمع الدهر فى قصده
وكيف وقد صار ضيف الغما م وهو قريب على بعده
ومن علقت بأبى تغلب يداه احتذى البدر من سعده
همام قضى الله من عرشه له بالإمارة فى مهده
فطود السيادة فى دسته وشمس الرياسة فى برده »

وقد أجاب الأمير مسألته ، وأناله مآلكته ، فكتب إليه من رسالة طويلة :

« أفصح دلائل الإقبال ، وأصدق براهين السعادة — أطال الله بقاء سيدنا — ما شهدت العقول بصحته ، ونطقت البصائر بحقيقته ، ونعمة الله تعالى على الدين والدنيا بما أولاهما من اختيار سيدنا لحراستهما بناظر فضله ، وسترهما بظل عدله ، مفصحة بتكامل الإقبال ، مبشرة بتصديق الآمال »

وفيها :

« للصدق كلامه ، وللعدل أحكامه ، وللوفاء ذمامه ، وللحسام عناؤه ، وللقدر مضاؤه ، وللسحاب عطاؤه :

دعوته فأجابتنى مكارمه ولو دعوت سوى نعماه لم تجب
وجدته الغيث مشفوفاً بعادته والروض يجنى بما فى عادة السحب
لو فاته النسب الوضاح كان له من فضله نسب يغنى عن النسب
إذا دعته ملوك الأرض سيدها طراً دعته المعالى سيد العرب»

هذه فقر مشرقة الديباجة مزهرة الرقعة ، انتظمت الحسن كله ، وضمنت الجمال جميعه ، فهى على — حد تعبيرنا الحديث — الشعر المنثور ، أو النثر المنظوم ، والدر المنضود ، أو السحر المرسوم أوحى به عقل أبى الفرج ، وجرى به خاطره ، فسجله الزمان فى كتبه ؛ وما استعرضناه من نثره يبيح لنا أن نقول :

إنه كان مغرماً بالسجع القصير الفقر الموشى الحبر ، فالجناس زينه ، والطباق يجمله ، هذا إلى الاستشهاد بالأمثال السائرة والأبيات الشاردة

وإنى أرجو أن أكون قد وفيت ما إليه قصدت من تفصيل حياة رجل غمر غمره التاريخ وطواه . فإن أكن قد بلغت فللرسالة أكبر الفضل ، وإلا فعلى رمضان بعض العتب ، وما توفيق إلا بالله قصرت أو أوفيت

عبد العظيم على قناوى

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٣٠١ — الصوم فى الليل

فى (المراح فى المُزاح) شكى (١) عيينة بن حصن إلى نعمان صعوبة الصيام ، فقال له : صم الليل . فروى أن عيينة دخل على عثمان وهو يفطر فى شهر رمضان ، فقال : العَشاء

فقال : أنا صائم

فقال عثمان : الصوم فى الليل ؟ !

فقال : هو أخفّ علىّ

فيقال : إن عثمان قال : إحدى هنات (٢) نعمان ...

٣٠٢ — ولامناع أكل طعام

ابن قتيبة : قدم اعرابي على ابن عم له بالحضر فأدركه شهر رمضان ، فقيل له : أبا عمرو ، لقد أتاك شهر رمضان . قال : وما شهر رمضان ؟ قالوا : الامساك عن الطعام . قال : أبالليل أم بالنهار ؟ قالوا : لا ، بل بالنهار . قال : فان لم أصم فعلوا ماذا ؟ قالوا : تضرب وتحبس . فصام أياماً فلم يصبر ، فارتحل عنهم وجعل يقول :

يقول بنو عمى وقد زرت مصرهم :
تهيّأ (أبا عمرو) لشهر صيام
فقلتُ لهم : هاتوا جرابى ومزودى (٣)
سلام عليكم ، فاذهبوا بسلام
وبادرت أرضاًليس فيها مسيطر
علىّ ولا منّاع أكل طعام (٤)

٣٠٣ — أعمد لصومك واتركنى وافطارى

قال بعضهم : مررت بأعرابى يأكل فى شهر رمضان ، فقلت له : ألا تصوم يا أعرابى ؟ فقال :

وصـــائم هبّ يلحانى فقلت له :
اعمِدْ لصومك واتركنى وإفطارى (١)
واظمأ فإنى سأروى ثم سوف ترى
من ذا يصير إذا متنا إلى النار ؟

٣٠٤ — أنا مثلك ...

وجد يهودى مسلماً يأكل شواء فى نهار من شهر رمضان (٢) فطلب أن يطعمه ، فقال له المسلم : ياهذا إن ذبيحتنا لاتحل لليهود . فقال : أنا فى اليهود مثلك فى المسلمين ...

٣٠٥ — فتوى

قال الربيع بن سليمان : كنت عند الشافعى فجاءه رجل برقعة فقرأها ووقع فيها ، فمضى الرجل وتبعته إلى باب المسجد فقلت : والله لا تفوتنى فتيا الشافعى ، فأخذت الرقعة من يده فإذا فيها :

سل المفتى المكي هل فى تزاور
وضمة مشتاق الفؤاد جناح
فوجدت الشافعى قد وقع :
فقلت : معاذ الله أن يذهب التقى
تلاصق أكباد بهن جراح

قال الربيع : فأنكرت على الشافعى أن يفتى لحدث بمثل هذا . فقلت : يا أبا عبد الله ، تفتى بمثل هذا لمثل هـذا الشاب ؟ فقال لى : يا أبا محمد ، هذا رجل هاشمى قد بنى على أهله فى هذا الشهر — يعنى شهر رمضان — وهو حدث السن ، فسأل هل عليه جناح أن يقبّل أو يضم ـ وهو صائم ـ فأفتيته بهذا

قال الربيع : فتتبعت الشاب فسألته عن حاله ، فذكر لى مثل ما قال الشافعى ، فما رأيت فراسة أحسن منها

٣٠٦ — شتان بين قرى وبين رجال

فى (المحاسن والمساوى) للبيهق : نظر المأمون يوماً إلى ابنه

---

(١) شـكيت لغة فى شـكوت

(٢) هنات : فعلات ، جمع هنة

(٣) المزود : وعاء يجعل فيه الزاد

(٤) بادر الشئ وبادر إليه : أسرع

---

(١) هب يفعل كذا : طفق ، أخذ ، شرع . فى (التاج) : من المجاز لحيت فلاناً ألحاه لحيا إذا لمته فهو لاح وذاك ملحى كمرمى . قال الـكسائى : لحيت الرجل من اللوم بالياء لاغير ، ولحيت العود ولحوت بالياء والواو

قيل لبعضهم : أى وقت تحب أن تموت ؟ قال : إن كان ولابد فأول يوم من رمضان . ولبعضهم :

وتأمرنى بالصوم لادر درها ... وفى القبر صوم ـ يا أميم ـ طويل

(٢) الأزهرى : العرب تذكر الشهور كلها مجردة الا شهر ربيع وشهر رمضان (اللسان) وجمع رمضان : شهور رمضان ورمضانات ، والمحرم : المحرمات ، صفر : أصفار ، شهر ربيع : شهور ربيع ، رجب أرجاب ، وجاديات ، وشعبانات ، وشوالات شواويل ، وذوات القعدة ، وذوات الحجة (أدب الـكتاب لابن قتيبة)

العباس وأخيه المعتصم فابنه العباس يتخذ المصانع[١] ويبنى الضياع والمعتصم يتخذ الرجال فقال :

يبنى الرجال ، وغيرُه يبنى القـرى
شتّانَ بين قُرى وبين رجالِ[٢]

٣٠٧ — أنظر كيف شئت

قال ابن سعيد المغربى : كان بنو حمود من ولد إدريس العلوى الذين توثبوا على الخلافة فى أثناء الدولة المروانيـة بالأندلس يتعاظمون ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بنى العباس ؛ وكانوا إذا حضرهم منشد لمدح أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم يتكلم من وراء حجاب . والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة . ولما حضر عبد الرحمن بن مقانا القنداق الأشبونى وأنشد إدريس بن يحيى الملقب بالعالى قصيدته النونية :

أبرقٍ لاحَ من أندرين ... ذرفت عيناك بالماء المعين[٣]
لعبت أسيـافه عـارية ... كمخاريق بأيدى اللاعبين
ولصوت الرعد زجر وحنين ... ولقلبى زفرات وأنين
وأناجى فى الدجى عاذلتى ... ويْك لا أسمع قول العاذلين
عيّرتنى بسقـام وضنى ... إن هذين لدين العاشقين[٤]
قد بدا لى وضح الصبح المبين ... فاسقنيها قبل تكبير الأذين[٥]
أسقنيهـا مُزّة مشمولة ... لبثت فى دنها بضع سنين[٦]

(١) المصانع : الأبنية ، القصور . والعرب تسمى القرية والقصر مصنعة ويقولون هو من أهل المصانع يعنون القرى والحضر

(٢) يقال : شتان ماهما ، وشتان ما بينهما ، وشتان بينهما . وذكر (المزهر) شتان ما بينهما فى المولد . وفي (اللسان) أبى الأصمعى : شتان ما بينهما . وفى (الاقتضاب) : قـد أنـكر الأصمعي أشياء كثيرة كلها صحيح . و (بين) تـكرر مع المظهر كما تـكرر مع المضمر ، وذلك فى كلام الجاهليين والاسلاميين أكثر من الـكثير . وقد خطأ الحريرى فى (الدرة) التـكرير وذكر الخفاجى فى (شرحها) جوازه

(٣) أندرين : اسم قرية (كانت) في جنوبى حلب بينهما مسير يوم للراكب (ياقوت) ومن سلطان الألفاظ الشعرية حنين أندلسيين إلى أندرين فى شعرهم .

(٤) عيره كذا وبكذا قال عدى
أيها الشامت المعير بالدهر أأنت المبرأ الموفور ؟

(٥) الأذين : المؤذن ، الآذان

(٦) المزة والمزاء (بضم الميم) الخمر التى تلذع اللسان وليست بالحامضة (اللسان) خمر مشمولة : طيبة الطعم (الأساس)

مع فتيان كرام نجب ... يتهادَون رياحين المجون
شربوا الراح على خـدّ رشاً ... نوّر الورد به والياسمين

فلما بلغ إلى هذا البيت :

أنظرونا نقتبس من نوركم ... إنه من نور رب العالمين !

رفع الخليفة الستر بنفسه وقال : أنظر كيف شئت . وانبسط مع الشاعر ، وأمر له باحسان . فكان هذا من أنبل ما يحكى عنه

٣٠٨ — الحمرة التى تعلو وجهها من الحياء

في (الظرائف واللطائف) للمقدسى : قيل لبنت أرسطاطاليس : ما أحسنُ ما فى المرأة ؟

قالت : الحمرة التى تعلو وجهها من الحياء

٣٠٩ — المقابلة

فى (خزانة ابن حجة) : المقابلة من أنواع البديع وهى التنظير بين شيئين فأكثر ، وبين ما يخالف وما يوافق[١] . ومن معجزات هذا الباب قوله تعالى : (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله) ولأبى الطيب فى مقابلة خمسة بخمسة :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى ... وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وأخبرنى مولانا قاضى القضاة الشافعى نور الدين الحاكم بحماة المحروسة المشهور بخطيب الدهشة أنه كان بحماة يهودى يطوف بالحناء والصابون على رأسه ويقول : معى حناء أخضر جديد ، وصابون يابس عتيق

٣١٠ — مضطر

قال أبو سعيد السيرافى : رأيت متكلماً ببغداد بلغ به نقصه فى العربية أنه قال فى مجلس مشهور : إن العبد مضطرُ[٢] بفتح الطاء ، والله مضطرّ بكسرها . وزعم أن من قال : مضطر عبده إلى كذا بالفتح — كافر . فانظر أين بلغ به جهله ، وإلى أي رذيلة أداه نقصه

(١) المقابلة أعم من المطابقة ، المطابقة لا تـكون إلا بالأضداد والمقابلة بالأضداد وغير الأضداد (الخزانة)

(٢) إسما الفاعل والمفعول فى مثـل (مضطر) المدغم و (معتاد) المعتل يظهران فى صورة واحدة



رسالة الشعر



البلبل

للأستاذ إيليا أبي ماضي

يا أيها الشادي المغرد في الضحى — أهواك إن تنشد وإن لم تنشد
الفن فيك سجية لا صنعة
والحب عندك كالطبيعة سرمدي
فإذا سكت فأنت لحن طائر — وإذا نطقت فأنت غير مقلد
لله درك شاعراً لا ينتهي — من جيد إلا صبا للأجود
مَرَح الأزاهر في غنائك والشذا
وطلاقة الغدران والفجر الندِي
وكأن زورك فيه ألف كنجة — وكأن صدرك فيه ألف مردد

***

كم زهرة في السفح خادرة المنى — سكنت على يأسٍ سكون الجلمد
غنيتها فاستيقظت، وترنحت — وتألقت كالكوكب المتوقد
وجرى الهوى فيها وشاع بشاشة — من لم يحب فإنه لم يولد
وكأنني بك حين تهتف قائلاً — للزهر: إن الحسن غير مخلد
فاستنفدي في الحب أيام الصبا — واسترشديه فهو أصدق مرشد
واستشهدي فيه، فمن سخر القضا
ألا تذوقيه ... وأن تستشهدي!

***

يا فيلسوفاً قد تلاقى عنده — طرب الخلي وحرقة المتوجد
رفع الربيع لك الأرائك في الربى — وكسا حواشيها بُرُود زبرجد
أنت المليك له الضياء مقاصر — وتعيش عيش الناسك المتزهد
مستوفزاً فوق الثرى، متنقلا — في الدوح من غصن لغصن أملد
متزوداً من كل حسن لمحة — شأن المحب الثائر المتمرد
وإذا ظفرت بنغمة وبقطرة — فلقد ظفرت بروضة وبمورد
تشدو وتبهت حائراً، متردداً — حتى كأنك حين تعطى، تجتدى
وتمد صوتك في الفضا متلهفاً — في ذلة المسترحم المستنجد
فكأنما لك موطن ضيعته
خلف الكواكب في الزمان الأبعد
طوردت عنه إلى الحضيض فلم تزل
متلفتاً كالخائف المتشرد
يبدو لعينك في العقيق خياله — وتراه في ورق الغصون المُيَّد
صوراً معددة لغير حقيقة — كالآل لاح لمعطَش في فدفد
فتهم أن تدنو إليه وتنثني — حتى كأنك خائف أن تهتدي!
وكأنه حلم يصح مع الكرى — فإن انتهيت من الكرى يتبدد
كم ذا تفتش في السفوح وفي الذرى
عنقاء أقرب منه للمتصيد

***

يا أيها الشادي المغرد في الضحى — أهواك إن تنشد، وإن لم تنشد
طوباك إنك لا تفكر في غد — بدء الكآبة أن تفكر في غد
إن كنت قد ضيعت إلفك إنني — أبكي على إلفي الذي لم يوجد!

إيليا أبو ماضي

وحي جديد (١)

للأستاذ سيد قطب

في خِفةِ الطيْرِ في نضرة الزهرِ
لاقيتُها عرَضا بسّامةَ الثغر
فتّانةً تُغرى بالسحر والطهر
تهفو فتحسبُها لحناً هفا يسرى
في لَفْتةِ الجيدِ في خَفقةِ الصدر
« تقسيم » موسيق منغومةِ (٢) النّبْرِ

* * *

يا بسمةَ الفجرِ يا نفحةَ العِطْرِ
أسْكرتِ وجداني من لونك الخمْرى
ألهبتِ إحساسى بالشوق . كالجمر
وهمستِ في قلبي وهتفتِ في صدرى
وبعثتِني أشدو للحُبِّ بالشعر
وكأنني روح تَقْفُو خُطا سحر
مفتونة ترنو للكونِ في سُكْر
والكونُ يشملها بالأنس والبشر

* * *

عَجَبي لما ألقى من لغزِك السّحرِى!
وحىٌ يوسوس لى في السر والجهر
حوّلتِ عمرىَ من شطر إلى شطر
حبّبْتِني ، عجبا ! في عيشةِ الوكر
قد كنتُ أرهبها كالنّاب والظُّفْر!
وإخالها شركا في البر والبحر !
إذ كنت أدْمَغُها بالشك والغدر
فلأْتِني ثقـةً بجمالها المغْرى
ورسمتِ لى صورا لفراخها الخضر
تزْقو فنطعمها بحناننا النضر
وتَريشُ أجنحةً من ريشها النّزر
فتطير هازجةً في جوّنا الشعرى
وتئوب وادعة للعش كالطير !

* * *

يا فتنتى ، هذا طيف من السحر
إن تأذني أضحى شطراً من العمر
فهي لى (١) روحا من رُقيةِ الثغر
هى قبلة تُمضى ما شئتِ من أمر
وكأنها قَدَرٌ بسعادتى يجرى

سيد قطب

(١) من ديوان « أصداء الزمن » يصدر في ديسمبر
(٢) (كذا)

رجاء نفس

للأستاذ خليل هنداوى

لا تيأسى يا نفس واعتزمى صبراً ، فليس اليأس من خلقي
هذا مطاف المجد فانطلقي قُدُماً ، وهذا العز فاستبقي

جارت على عصفور روضتنا هوجاء تخبط خبطة القدر
والآن جدد عشه فرِحاً واختال يبسم بسمة الظفر

النور في الآفاق ملتمع فتجلببى يا نفس بالنور
والأفق قد ضحكت مشارقه والسحب ترقص رقصة الحور

هذا الوجود صفت مشاربه فترنحى كالشارب الثمل
لنجـدد الآمال ثانية ما أوسع الأيام بالأمل !

عودى إلى دنياك ناشطةً نبنى على الأنقاض والرمم
لم يوخ من أودى بمظهره للحى معنى اليأس والسأم

أنا من إذا هدمَتْ بنى وإذا عبس القضاء بوجهه ابتسما
أنا من إذا سأمٌ تعاورَنِي صيرتُ لهواً ذلك السأما ...

خليل هنداوى

(١) (كذا)



من أساطير الإغريق

٤ – خرافة جاسون

للأستاذ دريني خشبة

تتمة

أقلعت الآرجو وطفقت تطوى عباباً من بعده عباب ، ولجة من ورائها لجة ؛ وبدا الطريق كأنه يطول ، والأفق كأنه يحلولك ، والسحب كأنما تتجمع من كل صوب لتنعقد فوق الآبقين بكنوز إيتيس وابنته وولى عهده ...

ونمى الخبر المفزع إلى الملك فجن جنونه ، وهب من فوره يعد أساطيله ليقتفى آثار جاسون ، عسى أن يقبض عليه ، ويعود بابنيه وأعز كنزه ... وانطلق هو الآخر يطوى العباب ، ويتواثب بأسطول فوق أعراف الموج ، ووقف بين الملاحين يحضهم ويحرضهم ، ويستحثهم ويشجعهم ، حتى لاحت الآرجو لهم كالنكتة السوداء فى حمرة الشفق ، أو المطوّقة الورقاء فى صحيفة الأفق ، فضاعفوا الجهود وشدوا الأذرع ، واستبقوا إليها من كل فج ؛ وكانت سفينة الملك فى المقدمة كالطائر الدليل يتبعه سائر السرب ؛ ونظر الأرجونوت فأبصروا السفينة تنقذف فوق نواصى الموج نحوهم ، فراحوا بدورهم يعملون المجاديف ويُهدْهِدُون الشراع للريح ؛ وكلما اقتربت السفينة منهم خفقت قلوبهم وشاع فيها الذعر فجمد عليه بيرده . وكانت ميديا تنظر إلى مركب أبيها وترتعد فرائصها من الفَرَق ... وفكرت فى ألف حيلة وألف سحر ، ولكن أفكارها ذهبت كلها أباديد ، وبطل سحرها كله فهو لا ينفع ولا يفيد ... واقتربت سفينة أبيها حتى صارت على رمية سهم ... وأخذ أبوها المسكين يهتف بها وينادى ، ويتوسل أن تعيد إليه ابنه ... ابنه الأوحد ... أبستروس ... « ميديا ! ابنتى ! أنا أبوك ! أتوسل إليك ! ردى علىّ ولدى واذهبى أنى تشائين ! إنه أملى فى الحياة ! إنه ولى عهدى وحافظ ذريتى ! ميديا ! أرسليه فى زورق واذهبى أنت ... ! » ولكن الفتاة غَلّقتْ فؤادها وسدّت بالجحود سمعها ! واأسفاه ! يا للقاسية ! يا لبرودة القلب الذى لا يحس ، والنفس التى لا ترحم ؟ لقد أمرت ميديا بالفتى فأحضر إليها ، ثم شحذت سكّيناً وأغمدته فى صدره ، وتدفق الدم الحار ... دم الشباب الفينان ... يلطخ اليد الأثيمة المجرمة ... اليد الشقية ، يد ميديا التى طوّعت لها نفسها المغلقة قتل أخيها ، ثم تقطيعه إرْباً ... ؟

ماذا خطر برأس الساحرة ؟ أواه ! لقد أخذت تمزق أخاها مِزَقاً مِزَقاً ، وكلما اقتطعت منه شلواً قذفت به فى الماء ، وأبوها المسكين المجنون يرى ، فيضطر أن يتلبث عند الشلو لينتشله ، ثم يتلبث عند الشلو الذى يليه ... وهكذا دواليك ، حتى انتشل آخر الأمر الرأس العزيز ... الرأس الصغير الذى كان يبسم لأينع الآمال ، ويحلم بأجمل الأمانى ... رأس أبستروس ... ولى العهد ، والأمل المدّخر لأمة بأسرها ...

لقد انتشر الظلام فى عينى الملك ... وغمر قلبه قنوط مر ... وأمر الملاحين فطووا الشراع ، وأخذوا يعودون أدراجهم إلى الوطن فى بحر هادئ كله هم ، وكله حزن ؛ وجلس إيتيس وبين يديه أشلاء ولده يغسلها بدموعه ، ويخضبها بالدم الذى تذرفه عيناه – « آه يا بنى ! أية فروة وأى كنز ؟ ليتك خلصت لى بكل مُلكى ! ميديا ! غضبت عليك آلهة السماء يا عاقة ! تبت يداك يا أغدر البنات ! ألا ليت أمك لم تلدك ... ! أبستروس ! رد علىّ أيها الحبيب ... ! » وهكذا ظل الملك المحزون يجتر أشجانه حتى عاد إلى الوطن !

***

ولكن جاسون ما خطبه ؟ ! مسكين ! لقد كان ينظر إلى ميديا وهو مأخوذ بما تصنع ! ولقد حاول أن يمنعها من ارتكاب

هذا الإثم ... لكنها حدجته بنظرة آمرة كان يرقص فيها ألف جنى، فسكت! وهل كان فى وسعه أن يفعل شيئاً؟! أليس يذكر الحجر الواحد الصغير الأسود الذى أهلك جيشاً بأكمله؟ ورد عنه كيد ألف ألف مقاتل من المردة الجبابرة؟! بيد أنه عرف الآن ماذا كان يحجز بين قلبه وبين فم هذه المرأة الهائلة حين كانت تغمر خديه وجبينه بالقبل! لقد كان السر الرهيب المطوي فى صحائف الغيب هو الذى يصون جاسون من مبادلتها حباً بحب وغراماً بغرام، وقبلاً حارة ملتهبة بمثلها!

وقد فكر جاسون فى ملكه الضائع المغتصب، وفى أبيه الضعيف الطريد، وفى عمه الجبار العتى، وفكر فى قوة ميديا الخارقة، فآثر أن يبقى عليها عسى أن تنفعه ... لهذا أظهر لها التودد، وتعمل فى حضرتها البشاشة ... حتى وصلت الآرجو إلى إيولكوس، حاضرة تساليا ...

وحمل جاسون الفروة الثمينة، وقصد إلى عمه ...

وذهل بلياس ... وجعل يحملق فى الكنز العظيم الذى أتاه به ابن أخيه ... وجعل يلمسه بيديه كأنه لا يصدق ... ولكن كيف لا يصدق وهذا بريق الذهب يكاد يذهب سناه يبصر عينيه جميعا؟!

— « ترى ماذا صنع هذا الفتى حتى وسعه أن يقهر ملك كولخيس على هذا الكنز العظيم؟ إن الملك كان أحرص عليه من نفسه التى بين جنبيه؟ ألا كم هلك أناس طمعوا فى فروة فركسوس؟ عجلا فلكان! وأرض مارس! وجيل بأكمله ينبت من أنياب التنين ...؟ والأفعوان الهولة الذى يحرس الفروة؟ أظفر جاسون — هذا الفتى — بكل أولئك؟ جاسون ابن أخى؟ عجيب وحق الآلهة ...؟ بل أسأله، فلا بد من سر فى هذا الأمر ... » وسأله، وتبسم جاسون، وراح يلفق قصة طويلة قذف بها الرعب فى جوانح عمه، وظل يتغنى بشجاعته، ويصف ما كان من ظفره بعجلى فلكان، وحرثه الأرض الجبوب، وغرسه أنياب التنين، ثم هذه الحرب الزبون التى شبها عليه المردة وما كان من إفنائه لجموعهم، وتلك الملحمة التى قتل فيها التنين الرهيب الذى وكلت إليه حراسة الفروة العظيمة ... ثم إنه لم يشر بكلمة إلى ميديا

وأكرم عمه مثواه ... وكلما طلب إليه جاسون أن يتنزل له عن العرش، مطله وراوغه، وزخرف له الأمانى ... حتى أيقن جاسون أن عمه يعبث به، بل يدبر له غيلة يخلص له العرش من بعدها، ولا يمكر عليه صفو الحياة أيٌّ من تلاميذ شيرون!!

***

ولقى جاسون أباه، فراعه أن يرى كومة من العظام نخرها الكبر، وجللها المشيب، وأوهاها الحزن، وأوهنها الألم المتصل، وناءت تحت كوارث الزمان ... وبكى جاسون! ولكن أباه انتهره وقال له: « أى بنى ليس لرجل مثلك شب على فضائل شيرون أن يبكى! إنما يبكى النساء والمستضعفون من الرجال. على أنه ماذا يبكيك؟ ألا إن كان يبكيك اقتلاع أبيك من العرش فلهذا عهدت بك إلى أستاذك العظيم، وأحسبه قد ذكر لك ما كان من وصاتى له حينما عهدت بك إليه يهذبك ويؤدبك ... ولقد أصبحت رجلاً شيخاً هالكا، أما أنت فمن صباك فى إبان، ومن عنفوانك فى ريعان، وأنت بالعرش أحق منى وأولى، وهو بك منى ومن عمك أليق، ولن أغفر لك قعودك عنه، وليس فى تساليا إلا شعب يحبك، ورعية تلهج بالثناء عليك، فشمر عن ساعدك، واطلب حقك بالقنا ياجاسون »

وذهب الفتى وقد اضطرم بين جنبيه جحيم من النقمة على عمه، فلقى أول من لقى ميديا

— ماذا، فيم أنت مقطب هكذا يا حبيبى؟

— لا شىء ... لا شىء مطلقاً!

— لا شىء؟ وكيف؟ ألا تفهم ميديا ما فى نفسك؟ حدثنى ولا تخف علىّ!

— لا شىء وحقك يا ميديا

— أوَ مُصِرٌّ أنت على كتمان دخيلتك عنى؟ إذن لقد كان أبوك يعظك!

— أجل! وبهذه المناسبة أريد أن أقول لك كلمة ...

— قل يا حبيبى! تكلم يا جاسون!

— إن لك إلماماً تاماً بغرائب السحر، وعلم التعاويذ والرُّقَى ولقد نفعنى علمك فى أحرج مواقفى ... ولن أنسى مساعدتك يوم لقيت عِجْلَىْ فلكان، وحاربت المردة، وقتلت التنين ... إنما فعلت كل أولئك بمعونتك، ولى رجاء إليك ...

— رجاء؟ أى رجاء يا حبيبى؟ إنما أنت تأمر ...

— شكراً! ألا تستطيعين ياميديا أن تردى الشباب إلى أبى؟

إنه رجل شيخ محطم ، وإن الأيام لتنحدر به إلى القبر ، كما تنحدر صفوانة من شاهق ... فهل عزيز على علمك أن ترديه إلى ما ولى من الصبى ؟ ... خذى من عمرى فصِلِى عمره إن استطعت ! أتوسل إليك يا ميديا أن تفعلى ! ... »

— اطمئن يا حبيبى فليس أيسر مما طلبت ، وسأرده إلى ميعة شبابه بقليل من العناء ... وسأزيد فى عمره ما أحببت ... على ألا تنقص سنوك شيئاً بل تزيد إن شئت ؟ !

* * *

لقد كان البدر تماً ، والليل الفضى الجميل أروع ما ينثر لجينه على الطبيعة النشوانة (١) ، وكل ما فى البرِّية نائماً ساكناً ، والعشب الحلو كان نائماً كذلك ... وكانت ميديا تخطر كالشبح الأبيض بين الآكام وملء الأدغال حتى أتت إلى ربوة تشرف على كل ما حولها فصعدت فوقها ... وتلبثت قليلا تفحص الطبيعة الرائعة فى الأرض والسماء بعينيها الجبارتين ثم بدأت تتلو تعاويذها وتقرأ رُقاها ... وترسل للنجوم صلاة سحرية كان يحملها الليل الصامت إلى أرجاء السماء وإلى القمر الحالم الساهم ... ثم سبحت سبحاً طويلاً باسم هيكاتيه ربة السفل والسحر ، وباسم تللوس ربة هذه الأرض العجيبة النائمة التى تنبت البقل والعشب لِمَا تعمل ميديا ... وصلَّت كذلك لآلهة الغاب والأنهار والبحار والغدران ، ولآلهة الرياح والضباب والسحاب ، وصلت لجميع الآلهة ، ولم تفتر تطلق التعاويذ وترسل الرق ...

ثم سكتت ... وصمت حولها كل شىء ... حتى الرياح كتمت أنفاسها ... ثم تشققت السماء فكانت وردة كالدهان ... ثم انفتح فيها باب كبير من ذهب ، وبرزت منه عربة عجيبة يجرها أفعوانان هائلان ، فلم يزالا يطويان الرحب حتى كانا عند قدمى ميديا ... وتقدمت الساحرة وهى تبتسم فركبت فى العربة ، وانطلق الأفعوانان يجرانها فى الهواء ، ويرفان بها فوق الوديان والغيران ، وفوق قلل الجبال وهضاب الأرض ، وفوق الغاب الساكن المتسر ، وفوق الأنهار والبحار ... وفوق كل شىء ... حتى انتهت إلى آخر أقطار الأرض حيث تنبت الأعشاب العجيبة التى تنفعها فى سحرها ... وهناك ... مكثت الساحرة تسع ليال بعيدة عن العالم تجمع العشب وتنتقى البقل ذا الأسرار ؛ ثم ركبت عربتها وانسابت فى الهواء حتى أتت بيت جاسون ، فنزلت بحملها العجيب وعرج الأفعوانان فى السماء ...

وفى الصباح ، فوجئ جاسون بوجودها فذعر ذعراً يشوبه شئ من التفاؤل بعودة الشباب إلى أبيه كما وعدت ... وأمرت أن يخلى بينها وبين إيسون حتى لا ترى عين إلى ما تصنع ، ولا تنكشف أسرار سحرها لأحد ما من العالمين ... ثم إنها أقامت مذبحين عظيمين أحدهما باسم هيكاتية ربة السفل والسحر ، والآخر باسم هيب ربة الشباب ، وذبحت لكل شاة سوداء فاحمة السواد ، ثم صبت على دمائهما صلاةً للربتين من خمر ولبن ... وتوسلت بعد ذلك إلى بلوتو رب هيدز ، وإلى زوجه بروز ربين ، ألا يعجلا بقبض روح إيسون ... ثم بدحت نحو الرجل فتمتمت بِرُقْيةٍ أسلمته إلى نوم عميق ، وأضجعته على فراش مهدته له من الأعشاب العجيبة التى حملتها من أقصى الأرض ، وطفقت بعد هذا تخطر وتدور حول الجثة ، وشعرها المهدل يداعبه النسيم ، وصدرها المنكشف ناهد نحو السماء ... حتى إذا أتمت دورات ثلاثاً وقفت ، وشحذت سكيناً ماضياً ، وجعلت تشعل أعواداً من عشبها وتنظمها حول المذبحين ... ثم تناولت إداوتها التى حفظت بها أعشابها ذوات الأسرار ، وحفظت بها أزهاراً فيها من الرحيق السحرى ماهو آية ، وجعلت فيها من حجارة الشرق ورمال البحر المحيط ، ومن البَرَد الذى جمعته أثناء رحلتها فى ضوء القمر ، وجعلت فيها رأس بومة وجناحيها ، وحوايا ذئب ، وبقايا من صدفة سلحفاة ، ومزقاً من كبد غزال ، ورأس غراب ومِنْسَره ، وما إلى أولئك من آثار الحيوانات المعمرة ؛ ثم صبت على ذلك كله ماء وتمتمت بكلمات ، وأشعلت ناراً فجعلت عليها الإداوة بما فيها ، وتركتها تغلى وتفور ، وهى فيما بين هذا وذاك تعوِّذ وتهمهم ، وتتمتم وتغمغم ، ثم تُقلب مافى الإداوة بغصن زيتون أملود ... فما كاد السائل يفور حتى نمت فى الغصن أفنان من الورق الأخضر ، وحبات من الزيتون يكاد زيتها يقطر منها ، وكلما نثرت منه على الأرض شيئاً نما مكانه عشب حلو أخضر كأحسن ماينمو العشب فى إبان الربيع !

ثم شحذت سكينها مرة ثانية ، ثم أهوت على حلقوم الشيخ فقطعته ، وتركت دمه ينبجس من الجرح الكبير حتى سال أجمعه ؛ ثم إنها صبت من الإداوة فى الجرح وفى الفم ، كأنما

(١) المشهور نشوى وقد استعملنا هنا لغة بنى أسد كسكرانة

تجعل منه مكان ماسال من الدم ... وما هي إلا لحظة حتى دبت الحياة الفتية فى جوارح الرجل الهدم المحطم ... فهذا شعره يَسْـوَدُّ ويصير فاحماً غربيباً ... وهذا وجهه الجعد ذو الأسارير يمتلىء باللحم والدم ، وهذا ظهره المحنى يستقيم ويمتلىء قوة وعنفواناً ، وهذا دم الشباب يجرى فى عروقه كقبل أن يكتهل ، وها هو ذا يثب كالغلام الأمرد السمهرى ، ويشب على إخمصيه كأرشق مايفعل الصبيان !! وهاهو ذا الوجه يكتسى جمال العصر الخالى ... ثم ها هو ذا چاسون يقبل من بعيد فينظر إلى أبيه وكأنه فى حلم ... ويعانقه ويهنئه ... ويشكر ميديا ... ويبكى !!

* * *

— أرأيت يا حبيبى ؟ أليست لك حاجة بعد ؟

— وكيف ياميديا ؟ إنى مفتقر أبداً إلى واسع علمك ، ومبين سحرك !

— أمهمة أخرى ؟

— أجل يا ميديا ! ألا ترين إلى والدى مطروداً من عرشه ، وإلىَّ يقتلنى الحزن من أجل ذلك ؟ ألا تصنعين شيئاً ينفعنا فى ذلك ؟

— ولم لاتقتل عمك ؟ ألا يستحق القتل بعد كل هذه الجرائم ؟

— أنا ضعيف يا ميديا ... وهو رجل جبار وله جند ...

— إذن أنا أكفيك مؤونة ذلك ...

* * *

وأخذ إيسون يجوب شوارع المدينة فيراه الناس ، ويعجبون لهذا الشباب الذى تدفق فى بردتيه ، فيسجدون له وإن منعهم الجند وطاردوهم ... وعلم بنات الملك بما رَدَّت ميديا على عمهم من رونق الصبى ، وما ألبسته من رواء الشباب ... وكان أبوهم قد بلغ من الكبر ، ورزح تحت أعباء الملك المغتصب ، فوددن لو أتين له بميديا لتصنع معه ما صنعت مع إيسون ... واتصلن بالساحرة ، وأغرينها بالمال ، فرحبت وقبلت مختارة أن ترد إلى أبيهن الصبى ، حتى لا يغلبه على الملك إيسون ولا ولده چاسون ... وأحضرت الإداوة بما وعت من عشب ، ثم جىء لها بالشاة السوداء ، ولكنها حين تمتمت بكلماتها السحرية ، وكانت الإداوة تغلى بما فيها من سائل عجيب ، قفزت الشاة فكانت فى الإداوة ، ثم قفزت منها فكانت حَمَلاً وديعاً جرى إلى السهول يرعى العشب ... وطرب البنات حين شهدن آية السحر وإعجازه ... ثم جىء بالملك وحراسه ليشهدوا ... وأعطت ميديا كلا منهن سيفاً مسلولاً وتمتمت بكلمات فدارت الأرض برأس پلياس وصحبه وحراسه ، فسقطوا وغطوا فى سبات عميق ... وأشارت ميديا إلى البنات أن يضربن بسيوفهن عنق أبيهن وصدره لتبدأ هى عملها ... فتلكأن أول الأمر ... ثم أطعن ، وحركن أيديهن بالسيوف فى ضعف وفرق فأحدثن به جروحاً أيقظته ... فلما شهد بناته تأوه وتوجع وصرخ بهن : « ويلاه ! بناتى يقتلننى ! ؟ » وخافت ميديا أن يبطل سحرها فبدت فى صورة إحدى بناته ، واستلت سيفاً مرهف السنان وأغمدته فى صدر الملك اللص ... فمات إلى الأبد ... وأغمض عينيه ليفتحهما فى هيدز ... وفى هيدز فقط ...

وكانت ميديا قد هتفت بالآلهة فأرسلت إليها العربة التى يجرها الأفعوانان ، وكانت قد فعلت فعلتها حين بدأ الفجر ينبلج ، فركبتها ولاذت بالفرار قبل أن يكشف صنعها أحد !

سبحان مقلب القلوب !! إن كل هذا السحر لم ينفع ميديا ! لقد كان قلب چاسون مغلقاً دونها برغم أنه بر بوعده فتزوج منها وأولدها أطفالاً أبرياء أطهاراً نقيين كالثلج !! لقد أحب چاسون الأميرة كروزا ملكة كورنث ، وأحب هذه المرة حباً صريحاً لايشوبه ذعر ... ولا تعكره التعاويذ ... ولا تتلفه رُقى السحر ... وأعلنت الخطبة ، فجن جنون ميديا ... واسودت الدنيا فى قلبها وعينيها ... وهالها نكران چاسون لجميلها الذى ناله مثنى وثلاث ورباع ... ولِمَ لا ؟ أليست هى التى مهدت له سبيله إلى العرش ؟ أليست هى قاتلة پلياس ... إذن فالويل له ! !

ودست إلى أميرة كورنثا ثوباً لو اجتمعت الجن والإنس لم تقدر على مثله ؟ ... فلما كانت ليلة الزفاف، لبسته كروزا ، ولكنها ماتت لساعتها ! أواه ! لقد كان الثوب مسموما ... وكان ما به من سم يكفى لقتل شعب بأسره ...

ولم تكتف الساحرة بذلك ، بل شحذت سكينها ، وأعادت مأساة أبستروس ، فقتلت جميع أبنائها من چاسون ... وأشعلت النيران فى القصر الملكى ... وفرت إلى أثينا على العربة السحرية لتتزوج من ملكها إيجيوس ، ولتلقى ثمت مصرعها

دريني خشبة



جائزة فاروق الأول لإحياء العلوم والفنون والآداب

أرسل حضرة صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا وزير مصر المفوض فى لندن إلى وزارة المعارف مذكرة يقترح فيها إنشاء جائزة مالية سنوية باسم « فاروق الأول » تمنح للمصريين المتفوقين فى العلوم والآداب والفنون

وقد أحالت الوزارة هذا الاقتراح إلى لجنة لبحثه فأبدت طائفة من الآراء نشير إليها فيما يلى :

وافقت اللجنة سعادة المقترح على فكرة المباريات لما لها من الأثر الحسن فى نهضة التأليف وإبراز ما يجول بخواطر العلماء والمفكرين من النزعات العلمية والفكرية ، بعد أن انصرف الكثيرون منهم عن البحوث والدراسات لأسباب مختلفة ؛ ولكنها تشترط فى الكتب التى تقدم لهذه المباريات : أن تكون مثلاً صالحاً للابتكار ، وأن تكون جديرة بإحداث الأثر المرجو ؛ على ألا تكون هذه الكتب مترجمة ولا منقولة إلا ما يؤخذ من ذلك على وجه الاستشهاد أو الاقتباس

وتقترح اللجنة أن تكون الموضوعات التى تعرض فى هذا السبيل سبعة : تاريخ الأدب المصرى ، والنقد الأدبى ، وتاريخ مصر ، والاجتماع والتشريع والاقتصاد فيما له علاقة بمصر . ومسائل التربية والتعليم وتطبيقها فى مصر . والزراعة فى مصر . والعلوم فى مصر

وترى اللجنة أن تكون الكتب مطبوعة ، وأن تنتظم لجان التحكيم فيها كبار العلماء والأدباء ، على أن يتم اجتماع هذه اللجان مرة فى كل عامين

ثم أقرت الرأى القائل : بأن تتوج الجوائز « باسم فاروق الأول » فيقال : جائزة « فاروق الأول لتاريخ الأدب المصرى » أو جائزة « فاروق الأول للعلوم » وهكذا

وقد تقرر أن تعقد لجنة يرأسها وكيل وزارة المعارف وتضم الوكيل المساعد ومراقبى التعليم لدراسة هذه الآراء والمقترحات وإعداد تقرير عنها توطئة لإصدار تشريع خاص بذلك ، لأنها ستكون جائزة رسمية للدولة

رامسى مكدونالد الكاتب والمفكر

لما نعى المرحوم المستر رامسى مكدونالد السياسى البريطانى الكبير ورئيس الوزارة البريطانية الأسبق أفاضت صحفنا فى استعراض حياته السياسية ؛ ولكنها نسيت فى حياته ناحية خطيرة هى ناحية التفكير والكتابة ؛ ذلك أن ماكدونالد كان كاتباً اجتماعياً واقتصادياً كبيراً ، وله فى هذه الناحية آثار عديدة قيمة نذكر منها : « العمل والامبراطورية » Labour and Empire (سنة ١٩٠٧) ؛ « الاشتراكية والحكومة » Socialism and the Government (١٩٠٩) ؛ « يقظة الهند » Awakening of the India (١٩١٠) ؛ « الحركة النقابية » Syndicalism (١٩١٢) ؛ « البرلمان والثورة » Parliament and Revolution (١٩١٩) « الاشتراكية الناقدة والمنشئة » Socialism. Critical and Constructive (١٩٢١) ، وغيرها

وقد كان مكدونالد كاتب الاشتراكية الانكليزية ولسانها ، وكتابه عن الاشتراكية الذى صدر لأول مرة فى سنة ١٩٢١ ثم أصدره بعد ذلك فى سنة ١٩٢٤ ، وقت أن كان رئيساً لوزارة العمال الأولى ، يعتبر من أقوم الكتب الانكليزية التى صدرت فى هذا الموضوع لا من الناحية العلمية والفنية ، ولكن من ناحية أنه يعبر أحسن تعبير عن ميول الاشتراكية الانكليزية ومثلها . وقد كان مكدونالد مدى أعوام طويلة زعيما لحزب العمال الانكليزى وزعيم الحركة العملية الانكليزية ، والمعبر عن أمانيها ومثلها ؛ وفى كتاب « الاشتراكية » يدلل مكدونالد بشروحه على أن

الاشتراكية الانكليزية لم تتقدم كثيراً فى مثلها الاقتصادية والاجتماعية عن الاشتراكية الغالية أو الاشتراكية الاصلاحية ، وإنها أبعد ما تكون عن روح الثورة الاجتماعية والاقتصادية التى ترمى إليها اشتراكية القارة الأوربية وتعمل لها . ولما تولى حزب العمال الحكم برآسة مكدونالد ظهرت هذه الحقيقة بصورة عملية فى سياسة الحزب الداخلية والخارجية ، وظهرت الاشتراكية الانكليزية فى صبغتها القومية العميقة . والخلاصة أن كتاب مكدونالد فى « الاشتراكية » هو رسالة الاشتراكية الانكليزية وحدها ، وهو يعتبر من جانب أنصار الاشتراكية المتطرفة رجعياً فى نظرياته وشروحه

جوائز نوبل

حملت إلينا الأنباء الأخيرة أسماء الفائزين ببعض جوائز نوبل لهذا العام ؛ فقد منحت لجنة جامعة استوكهلم جائزة نوبل للكيمياء للعالم النرويجى كارل والأستاذ هاويت الانكليزى ؛ ومنحت جائزة نوبل للعلوم الطبيعيــة للأستاذ وارسون الأمريكى والأستاذ تومسون الانكليزى

وفاز بجائزة نوبل للآداب ، وهي فى الواقع أشهر جوائز نوبل ، الكاتب الفرنسى روجيه مارتان دوجار Roger M. Dugard ومسيو دوجار من جيـــل الكتاب الشبان الذين ظهروا فى عالم الصحـافة بادىء ذى بدء ، ثم نبهت أقلامهم فى عالم الأدب ؛ واشتهر بالأخص بفصوله الأخبارية الشائقة . وتنقل مسيو دوجار فى دوائر الأدب ، وتزعم جماعة من الكتاب الشبان الذين انضووا تحت لواء مجلة الأخبار الأدبية Nouvelles Littéraires ، ولبث مدى أعوام مديراً لهذه الصحيفة الأدبية الهامة ، ولم يتركها إلا منذ حين ، إذ حل مكانه فى إدارتها الكاتب ليفبر ؛ وظهرت فى مجلة الأخبار الأدبية بقلم مسيو دوجار فصول ومقالات شائقــة كثيرة معظمها عن مشاهدات وسياحات ، وكان منها عدة فصول نشرت عن مصر ، ونالت استحساناً عظيما . وله غير مقالاته الصحفية العديدة كتب وقصص تمتاز بقوة العرض وطلاوة الأسلوب

ويلوح لنا أن دوائر ستوكهلم المشرفة على جوائز نوبل أضحت تميل إلى تقدير النوابغ من الكتاب الذين لم تهيء لهم الظروف من الشهرة والمكانة ما يتفق مع عبقريتهم ، ولم تعد تتقيــد كما كانت فى الماضى باختيار أولئك الأعلام الذين تربعوا فى ذروة الشهرة والنفوذ ، ومن ثم كان اختيارها لكتاب مثــل إيفان بونين ، ودوجار ، لم يبلغوا — قبل فوزهم بجوائز نوبل — مكانة عظيمة من الشهرة فى عالم الأدب فرفعتهم باختيارها إلى المكانة اللائقة بفنهم وعبقريتهم

كيف يشجعون الآداب والفنون

يظهر أن السويد قد وطدت العزم على أن تغدو أولى الأمم فى حماية الآداب والفنون ، فهى فضلا عن جوائز نوبل الشهيرة التى تمنحها كل عام لعدة من أكابر العلماء والكتاب فى مختلف الأمم ، والتى تغدق بمقتضاها على الفائزين عشرات الألوف من الجنيهات كل عام ، تضرب كل يوم مثلا جديداً فى هذا الميدان . وآخر ما انتهى إلينا من ذلك أن هبــة جديدة قدرها مليون كرون (نحو ٥٥ ألف جنيه) قد رصدتها دار النشر السويدية الشهيرة « ألبرت بونير » لتشجيع المؤلفين والفنانين ، وذلك لمناسبة الاحتفال بعيدها المئوى . وقد أطلق على هذه الهبة « التذكار المئوى لألبرت بونير » وذلك تنويهاً بانقضاء مائة عام على صدور أول كتاب أصدرته هذه الدار ؛ وخصص دخل هذا الاعتماد للمؤلفين والصحافيين الذين يكتبون باللغة السويدية والفنانين الذين يتولون التصوير للكتب ؛ وندب لادارته مجلس يتألف من ممثلى الواهبين ، والصحافة ، ودوائر الأدب والفن السويدية ؛ ويجرى توزيع الجوائز السنوية تحت إشراف الجامعة السويدية

وهكذا تضرب الأمة السويدية الأمثلة الرائعة على رفيع تقديرها لعبقرية الفكر وعبقرية الفن . وقد كان نوبل صاحب الجوائز العلمية والأدبية العظيمة من رجال المال والصناعة ؛ وصاحب الهبة الجديدة ، وهو الدكتور بونير من رجال المال والصناعة ؛ ومع ذلك فان أولئك المولين استطاعوا أن يقدروا ما للآداب والفنون من الأثر العظيم فى نهضة الأمم وفى ازدهار الحضارة

أما فى مصر فان الآداب لم تنل حتى اليوم تقديراً ولا تشجيعاً ، لا من الجهات الرسمية ، ولا من رجال المال ؛ وما زالت فكرة الجوائز الرسمية لتشجيع التأليف تتردد منذ أعوام بين اللجان والجهات المختلفة دون أن تحظى بالتنفيذ العملى

محاضرات ألمانية عن الفن المصرى

قرأنا فى البريد الألمانى الأخير خلاصة لبعض محاضرات يلقيها العلامة الأثرى الألمانى الدكتور جورج ريدر فى همبورج عن أثر الفن المصرى فى تطور الفن اليونانى والفن الرومانى. ومن رأى العلامة ريدر أن الفن المصرى القديم بدأ من فجر التاريخ مستقلاً بنفسه منعزلاً عن غيره إلى نحو ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، ثم اتصل الفن اليونانى عندئذ بالفن المصرى؛ ودلل المحاضر على نظريته بعرض صور مختارة من تراث مصر الفرعونى غير الآثار الفرعونية المعروفة. ومن قبل المسيح بنحو ثلاثة آلاف عام لبث الفن المصرى كما هو ثابتاً فى أساليبه وألوانه؛ فلما وقعت الصلة بين الفنين اليونانى والمصرى تأثر الفن اليونانى بالفن المصرى تأثراً كبيراً، ولبث هذا التأثير ظاهراً إلى ماقبل المسيح بنحو ثلاثة قرون، ثم تطور بعدئذ إلى أصوله وأساليبه الخاصة؛ ثم كان بعد ذلك تأثر الفن الرومانى بالفن اليونانى

كتاب جديد عن مأساة التامبل

هذا كتاب جديد عن لويس السابع عشر وضعه المؤرخ الانكليزى مورتون بعنوان ولى العهد « The Dauphin »؛ وولى العهد هو الطفل لويس شارل ولد لويس السادس عشر ومارى انتوانيت، وقد ترك وحيداً فى سجن التامبل بعد قتل والده ثم والدته على نطع الجلاد؛ ولبث فى سجنه الرطب القذر يلقى من حراسه أغلظ معاملة حتى مرض وأصابه انحلال مادى ومعنوى شديد. وهنا يسدل على مصير هذا الأمير الطفل حجاب كثيف، هل توفى فى التامبل حسبما تؤكد الروايات المعاصرة والتقارير الرسمية؟ أم هل استطاع الملكيون أن يستبدلوا به طفلا آخر، وأن يمهدوا له سبيل الفرار إلى حيث شب وترعرع وقضى حياة مجهولة؟ هنا يضطرم الجدل وتكثر الروايات المدهشة؛ وهنا تبدو قصة الطفل الشهيد فصلا من أغرب فصول القصة. وفى أوائل القرن التاسع عشر انتحل كثيرون فى مختلف الأنحاء شخصية الأمير، وزعم كل منهم أنه هو الطفل لويس شارل وأنه هو ولى العهد الفار، نجا من سجنه بأعجوبة، وكان أشدهم إلحاحاً فى ذلك شخص ظهر فى ألمانيا واسمه كارل ناوندورف، كان لمزاعمه صدى عميق ووصلت إلى القضاء الفرنسى. وفى عصرنا ظهرت روايات عديدة أخرى عن مصير ولى العهد قدمها إلينا مؤرخون مثل لينوتر، خلاصتها أن الأمير الطفل فر من سجنه وسافر إلى بعض جزر الهند الغربية وتوفى هنالك فى بعض الشاغبات المحلية. وفى الكتاب الجديد يسرد مستر نورتون كل هذه الروايات والقصص بأسلوب شجى مؤثر يطبعه طابع على رزين

السينما للأمهات

قامت شركة الفحم وغاز الاستصباح البريطانية بعمل جليل لا يمت إلى أعمالها بصلة، وهو وإن يكن من قبيل الإعلان عن نفسها إلا أن له قيمته الكبيرة وأثره فى أوساط التربية ودور العلم... ذلك أنها عملت شريطاً سينمائياً لحياة الصغار في مدارس رياض الأطفال والمدارس الابتدائية، وأنفقت عليه مبالغ طائلة من مالها الخاص فجاء آية للأشرطة التربيوية، ومثالاً يحتذى... وقد عنيت الشركة بإظهار وسائل الحياة فى مدارس الأطفال وتلك العلائق المحببة التى تقوم بينهم وبين المدرسات على المودة والمحبة والألفة والحرية التى لا حد لها... ويبدأ الشريط بعرض حياة الأطفال من وقت قيامهم من الفراش إلى أن يعودوا إليه، فلا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها... ولما كانت الحياة فى رياض الأطفال مثالاً عالياً لما ينبغي أن تكون عليه تنشئة الصغار فقد اقترحت صحيفة (عالم المعلمين) على الشركة عرضه فى منتديات السيدات ودور السينما والمجتمعات العامة، على أن يشهده فيها جميع الأمهات بالمجان، ليترك فيهن أثره المرجو، ولتضمن بريطانيا جيلاً جديداً ينشأ على وسائل علمية نيرة كان يجهلها الجيل القديم. ثم لتكون كل البيوت الإنجليزية بهذا العرض رياضاً للأطفال...

ونحن بدورنا نقترح على وزارة المعارف عمل هذا الشريط التربيوى الجيل ليعرض فى طول البلاد وعرضها على الأمهات، ليقبسْنَ منه ويَقِسنَ عليه فى تنشئ فلذات أكبادهن

الاحتفال بالذكرى الألفية لوفاة المعرى

قررت وزارة المعارف السورية بمناسبة مرور ألف عام على وفاة أبى العلاء المعرى إقامة مهرجان الذى لإحياء ذكراه تدعى اليه مصر وجميع الأقطار العربية

وقد انتهت الحكومة السورية من وضع تصميم لبناء ضريح الشاعر الفيلسوف فى مسقط رأسه (المعرة) من ولاية حلب

المرحوم العلامة كمبفماير

نعت أنباء برلين الأخيرة المرحوم العلامة الدكتور جورج كمبفاير المستشرق الألمانى الكبير، ورئيس جمعية الدراسات الاسلامية الألمانية وأستاذ اللغة العربية سابقاً بمعهد اللغات الشرقية ببرلين. توفى فى نحو الثمانين من عمره بعد حياة علمية حافلة أسدى فيها للمباحث الاسلامية والآداب العربية خدمات جليلة؛ وكان من طبقة المستشرقين الأكابر التى تنقرض اليوم أمثال نيلدكه وزاخاو وبيكر وغيرهم من زملائه وأصدقائه. وتخصص الدكتور كمبفاير فى دراسة الآداب العربية، وتتبع بالأخص تطورات التفكير الشرقى الحديث والثقافة العربية المعاصرة؛ وله فى ذلك بحوث نقدية عديدة نشر معظمها فى مجلة معهد اللغات الشرقية Milteilungen des Seminars für O. S.؛ ولبث مدى أعوام طويلة ركناً من أركان معهد اللغات الشرقية، ولم ينقطع عن التدريس فيـه إلا فى الأعوام الأخيرة إذ تفرغ لدراساته وكتاباته فى مجلة العالم الاسلامى Die Welt des Islams التى كان يصدرها باسم جمعية الدراسات الاسلامية والتى قطعت إلى اليوم زهاء عشرين عاماً من عمرها

وفى سنة ١٩٢٨ قام الدكتور كمبفاير برحلة دراسية فى مصر وبلدان الشرق الأدنى، واشترك بعدئذ فى وضع كتابين انتفع فيهما بهذه الدراسة: أولهما كتاب زعماء الأدب العربى المعاصر الذى وضعه بالانكليزية مع تلميذه وصديقه الدكتور طاهر خميرى الذى يقوم الآن بتدريس اللغة العربية فى معهد همبورج الشرقى، والثانى كتاب «أين يتجه الاسلام» الذى وضعه بالانكليزية عدة من أكابر المستشرقين، وتولى الدكتور كمبفاير كتابة القسم الخاص بمصر فيـه؛ وكان للعلامة الراحل أصدقاء عديدون فى مصر وجميع البلاد العربية، وكان بارعاً فى كتابة العربية والتحدث بها. وسنوافى القراء فى فرصة أخرى بدراسة مفصلة لحياة العلامة الراحل وآثاره

معرض لذكرى لورد بيرون

وضع أخيراً فى انكلترا مشروع لتخليد ذكرى الشاعر الانكليزى الكبير لورد بيرون بصورة دائمة، وذلك بأن يقام فى المنزل الذى كانت تملكه أسرة الشاعر فى قرية «نيوستيد أبي» معرض دائم لتراث الشاعر ومخلفاته وكل ما يتعلق بحياته وشعره. وقد كان هذا المنزل الريفى الذى نشأ فيه الشاعر وأحبه أعز ما لديه، ولـكنه اضطر إلى بيعه فى سنة ١٨١٧ حينما سافر إلى اليونان ليدافع عن قضيتها الوطنية. وأخيراً قررت بلدية نوتنهام شراءه من أصحابه الحاليين ووقفه لتخليد ذكرى الشاعر.

وسيكون بين محتويات هذا المعرض الذى سمى «بمعرض بيرون» مجموعة كاملة من مؤلفات بيرون فى طبعاتها المختلفة، ومخطوطات الشاعر، وأوراقه ورسائله، وأوراق أسرة بيرون كلها. وبين الخطابات التى تتألف منها هذه المجموعة خطاب مؤثر من خادم اللورد بيرون، وليم فلتشر، ينعى فيه سيده إلى أسرة الشاعر، ويصف وفاته فى ميسو لونجى فى ابريل سنة ١٨٢٤

وقد صدر بهذه المناسبة فهرس قيم لآثار الشاعر وأوراقه وفيه وصف شامل لها: وبه أيضاً خلاصة وافية لحياة الشاعر ومذكرات مختلفة عن جوانب من حياته، وصور له ولزوجه وأمه وأخته وابنته

وهكذا يحظى الشاعر الكبير أخيراً بأثر حى يخلد ذكراه بصورة دائمة، وكانت هذه أمنية قديمة «لأصدقاء» بيرون والمعجبين بشعره وعبقريته وحياته الروائية المؤثرة

أثر تذكارى للشاعر الانجليزى كيبلنج

أقيمت فى لندن وليمة شائقة احتفالاً بافتتاح العمل لانشاء أثر تذكارى للشاعر الانكليزى كيبلنج ترأسه الارل اثلون وكانت برفقته زوجته البرنسس أليس ابنـة الدوق البنى وحفيدة الملكة فكتوريا. وقد تليت أثناء الوليمة رسالة من الملك جورج السادس يظهر بها ارتياحه إلى اجتماع ممثلين من جميع أنحاء الأمبراطورية توطئة لاقامة تذكار مناسب لشاعر يعـد نبوغه تراثاً لجميع المتكلمين باللسان الانكليزى. وقد اشترك فى هـذه الوليمة ألف رجل وامرأة من المعجبين بأشعار كيبلنج فى كل العالم. وقد تليت رسائل من رؤساء حكومات الهنود والدومنيون تمنوا بها النجاح لهذا المشروع الذى بلغت الاكتتابات المالية له حتى الآن ٣٥ الف جنيه

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾

5 me Année, No. 230

Lundi - 29 - 11 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ٢٣٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٦ رمضان سنة ١٣٥٦ — ٢٩ نوفبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الفهـــرس

ثورة على الأخـــلاق

للدكتور عبد الوهاب عزام

يا أخى صاحب الرسالة !

أبلغ أخى محمودا الذي لا أعرفه هذه الكلمة عنى :

« قرأت فى الرسالة ما نقله الأستاذ الزيات من رأيك فى مزايا الأخلاق والفضائل فهالنى ما قرأت ، وعزمت على أن أبادر بالكتابة إليك على ضيق الوقت وفتور الصيام . وكيف لا يرتاع من يسمع أن رجلاً من ذوى الأخلاق خاب ظنه فيها فثار عليها ويئس منها ؟ فاقرأ يا أخى كلمتى ثم أبن لى رأيك من بعد :

دخل أعرابى مسجد المدينة ورسول الله وأصحابه هناك فصلى ثم دعا فقال : « اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحدا » فضحك صلوات الله عليه وقال : « لقد حجّرت واسعاً يا أعرابيّ » . وكذلك أنت يا أخى قد حجّرت واسعاً حين خيّل إليك أن دائرة عملك التى (وسّعتها بمقدار ما استلزمه هـذا العمل من ملابسة الشعب ومراجعة الحكومة) هي الأمة كلها ، وأن الأمة هى العالم كله ، وأن العالم الحاضر هو الزمان كله . وإن شئت أن تقول إني لم أحجّر واسعاً ولكنى وسّعت محجّرا فلك رأيك ، والنتيجة فى الحالين واحدة

أود قبل أن أناقشك في رأيك أن أعدك موافقى ، كما وافق

صديقنا الزيات ، على أن الخلق الفاضل سبيل إلى سعادة صاحبه وطمأنينته مافى هذا ريب ، وأن الرجل الحرّ الأبىّ الفاضل يعيش فى سعة من نفسه ، وعزة من خلقه ، ونعيم من وجدانه ، لا يدركها أصحاب الجاه العظيم والثراء العريض ممن وجدوا كل شئ وفقدوا أنفسهم ، وأن الحرّ الكريم يرى نفسه فى عزتها وحريتها ورضاها فوق هذا العالم الذى تباع فيه النفوس رخيصة وتبذل فيه القلوب ذليلة ، ويعدّ نفسه أسداً قوياً مهيباً قد ربض حجرة من معترك الذئاب ومُهترش الكلاب

إنما خلافنا في النجاح فى المعايش ونيل الجاه والثروة ؛ أسبيله الخلق القويم أم العمل الذميم ؟ وإنى أعجّل لك الجواب فى قضية تتفق عليها لنفرغ لما بعدها فأقول : حق أن الرجل التقى الحرّ الأبىّ لا يرى إلى الجاه والمال إلا طريقاً واحدة هى الطريق التى يسنّها الحق والشرف والأباء والمروءة ، وأن أمام الفساق والأذلاء والأدنياء طرقاً شتى من التلصص والكذب والتزوير والخداع والنفاق والملق والذلة والشره والظلم والقسوة والأثرة وهلمّ جرّا . وحق كذلك أن من الأحرار من يخفق فى عمله حين يُلزم نفسه هذه الطريق الواحدة ، ويقصرها على هذه المحجة الواضحة ، وأن من العبيد عبيدِ المطامع والأهواء ، ومرضى النفوس والأخلاق ، من يظفرون فى هذه السبل بما يريدون ، ويبلغون الغاية التى يقصدون . ولست أجحد كذلك أن الجماعة قد تعتلّ فيكثر فيها المبطلون الظافرون ، والمحقّون المحرومون . كل هذا يا أخى حق ، ولكن استمع :

كثيراً ما يحرم الحر الصالح لعزوفه عن معترك المطامع وصدوفه عن الاتجار فى أسواق الحياة ، وتنكّبه السبل التى جعلتها سُنن الجماعة وسائل إلى الجاه والثروة . فليس اخفاق هؤلاء بأخلاقهم ، ولكن بكبريائهم وتقصيرهم فى أخذ الأهبة وإعداد العدة ، على حين يتأهب الأشرار ، ويجدّ الفجّار . فلا جرم يخفق أولئك ويُنجح هؤلاء ، فإن للحياة قوانين وللمعايش سُنناً . والقرآن الكريم يقول : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون . » ويقول : « كلاًّ نمد : هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً . » ولكن إذا أخذ الرجل أهبته للعراك فى الحياة وتسلّح بالخلق الطيب فلن يكون هذا الخلق سبباً إلى إخفاقه وسبيلاً إلى خيبته أبدا . ربما تعتلّ الجماعة فينتصر المبطل ويخذل المحقّ ، ويفتتن بهذا كثير من الناس ، ولكن هذا لا يكون ديدنا . ثم علة الجماعة لا تدوم ؛ وليست الجماعات كلها عليلة . وما زال الجماعات منذ ألّفها الله وعلّمها وبعث فيها الهداة المرشدين ، ووضع لها السنن أيداً لأنصار الحق وعوناً لأهل الفضيلة ، وخذلاناً لجند الباطل والرذيلة . ما زال الصانع الذى يتقن صنعته ، ويحسن معاملته ويصدق وعده ، أنجح عملاً وأكثر مالاً من الصانع الكذاب سيء المعاملة . وما زال التاجر الصادق فى قوله ، الأمين فى فعله ، الذى يقلّب تجارته على شرائع من الصدق والأمانة والقناعة والإخلاص ، ولا يلبس على الناس الجيد بالردىء ، والغالى بالرخيص — ما زال هذا التاجر أربح متجراً وأملأ يداً وأحظى برضا الناس وإقبالهم من التاجر الكاذب الغاشّ الشره المخادع . أترى في هذا ريباً ؟ إن كنت فى ريب فابحث كما تشاء واسأل من تشاء . ولا يزال المزارع الذى يزرع الأرض فلا يتزيد فيما أنفق عليها ، ولا يسرق من زرعها ، بل يصدُق مالك الأرض فيما أنفق وما جنى ؛ ومستأجر الأرض أو الدار الذى يشق على نفسه ليؤدى الأجرة فى حينها ؛ لا يزال هذا وذاك أحب إلى المالكين وأظفر بما يريد

ولا يزال الرجل الصادق الأمين فى كل جماعة وفى كل طائفة موضع المودة والثقة . ينال بسيرته ما تقصر عنه ثروته ؛ إن استقرض أُقرض ، وإن استعار أعير . له من ثقة الناس رأس مال لا ينال منه الخسار ، وتجارة لا يدركها البوار . ربما يتّجر فى ألف وليس عنده إلا مائة ، ويزرع عشرة فدادين وليس بيده إلا أجرة فدان واحد ؛ ويستخدم فى المتاجر والمصانع دون كفيل أو ضمين . سل يا أخى الناس فى كل قبيلة ، وطالع التاريخ فى كل جيل

على أن الأمم فى هذا مختلفات ، والتاريخ درجات : أمة تسدّ الطريق على كل فاجر مخادع كذاب ، وتؤثر بمالها وكرامتها كل بر أمين صادق ؛ وأمة يجد المخادعون فيها طريقاً ولكنها وعرة ، ومذهباً ولكنه ضيق ، ورواجاً ولكنه قليل ؛ وأخرى تتسع فيها مجال الأشرار ، وتروج فيها سوق الفجّار . ولكن لا تبلغ

« البقية على صفحة ١٩٦٠ »

النماذج والأفراد فى الأدب

للأستاذ عباس محمود العقاد

أشرت فى مقالى السابق إلى رأى « لونارد وولف » فى كتابه « بعد الطوفان » وخلاصته أن الشعراء والقاصين كانوا يرسمون للناس قبل القرن السابع عشر نماذج من طوائف وجماعات، أما بعد القرن السابع عشر وانتشار الديمقراطية فقد أصبح أبطال القصص « أفراداً » مستقلة قلما تتكرر فى غمار السواد.

وعلاقة الديمقراطية بهذا التغير الواضح أن المساواة قد خولت الفرد حرية الظهور فبرزت الخصائص واستحقت من الشعراء والكتاب عناية لم تكن تستحقها حين كان الجمهور أرقاماً متكررة على نموذج واحد، أو حين كان النبلاء طرازاً مرسوم المراسم لا يختلف فيه إنسان عن إنسان

أشرت إلى هذا الرأى وقلت إننى سأعود إليه ببعض الشرح والتعليق فى مقال آخر؛ وأظن أن تاريخ الآداب لا يفهم حق فهمه إلا بتجلية هذا الرأى وأمثاله والوقوف على مبلغ ما فيها من الحقيقة والتميز بين الأدب القديم والأدب الحديث، لأن تاريخ الآداب إن هو إلا المعالم التى نميز بها عصراً من عصر وطريقة من طريقة وموضوعاً من موضوع، سواء أكان هذا الموضوع بطلاً موصوفاً فى رواية أو قصيدة، أم كان عاطفة إنسانية يصورها الراوى والشاعر حسبما يراه

***

لقد كان اليونان يصورون الإنسان لأنه يستحق النظر إليه ويقولون: إذا كنت لا تجد من ينظر إليك فكيف تجد من يصورك؟ وعلى هذا كان تصويرهم مقصوراً على الجميل والنبيل والرائع والمشهور، وهى الصورة التى تسترعى الأنظار وتشغل الخواطر وتفعم النفوس بالفتنة والإعجاب

كان ذلك شعارهم فى عالم التصوير الفني، فهل تغير اليوم هذا الشعار؟

لا. لم يتغير، ولم يزل من دأب القاصين والشعراء والرسامين والمثالين والكتاب المسرحيين أن يصوروا ما يستحق النظر، وأن يقولوا كما كان اليونان الأقدمون يقولون: إذا كنت لا تجد من ينظر إليك فكيف تجد من يصورك؟!

لم يتغير شعار الفن القديم، وإنما تغير الذين يستحقون النظر فأصبح الدميم والسقيم والوضيع والخامل مستحقين أن ينظر إليهم الناظر، وأن يبحث فيهم الباحث، وأن يتناولهم التشريح، وأن يتعلق بعرفانهم عرفان أخلاق الإنسان وأطوار الجماعات وأدواء الأجسام وآفات الضمائر، وأصبح الهمل المنبوذون أهلاً للدرس والفحص والمراقبة مذ أصبحت جثة الميت أهلا للعناية بها ومراقبة الأدواء والأدوية فيها. فإذا قال القائل الحديث: كيف تجد من يصورك وأنت لا تجد من ينظر إليك؟ فهو معبر عن رأى الأقدمين والمحدثين على حد سواء؛ ولكنه إذا سأل: من الذى يستحق النظر أو من الذى يستحق التصوير؟ فهنا يظهر الخلاف ويتبين الفارق بين شعار الفن القديم وشعار الفن الحديث

وقد أصاب « لونارد وولف » حين قرن بين هذا التغيير وبين الديمقراطية، وأصاب أكثر من ذلك حين قال: إن الأديان فتحت باب هذا التغيير حين عرّفت الانسان أن له روحاً مستقلاً بحسابه، منفرداً بثوابه وعقابه، معدوداً أمام الله خلقاً لا يفنى فى غمار الخليقة، ولا يزال له ميزانه وكتاب حسناته وسيئاته لا يختلط بميزان غيره ولا بكتابه

وتلك فى الحقيقة هي أول خطوة خطاها الإنسان فى إظهار « الفرد » وتمييزه من غمار الجنس كله أو الطائفة برمتها

فمنذ أصبح الإنسان « فرداً » معزولاً فى حكم الدين، لا اختلاط بين حسناته وسيئاته وبين حسنات الآخرين وسيئاتهم، ولا التباس بين ثوابه وثوابهم وعقابه وعقابهم؛ هنالك أصبحت كل نفس بما كسبت رهينة، وأصبحت كل نفس حقيقة بالمحاسبة والإحصاء والمراقبة، ورسخت جذور الديمقراطية فى التاريخ فلم يبق إلا أن تظهر لها على وجه الأرض فروع وأوراق وثمار

وغاية الفرق بين الفردية الدينيـة والفردية الديمقراطية أن حساب الدين إنما يكون فى الآخرة فلا ضرورة لفرز الأفراد فى هذا العالم الأرضى ولا لتمييزهم بالخصائص الدنيوية وما يتصل بها من الخلائق الاجتماعية والملامح الفكرية والأطوار السياسية أما الديمقراطية فلا مناص فيها من التمييز بهذه المزايا ولا من

فرز الناس على حسب ما يتراءى بينهم من فوارق الدنيا وعلامات الحياة وشياتها . ومن ثم بدأ التحليل النفسى بعد ظهور الديمقراطية ولم يبدأ توًا بعـد ظهور الأديان ؛ وكان من دواعى ظهوره مع الديمقراطية عدا ما تقدم أنها جاءت على أثر النهضة العلمية وعلى أثر انتشار العلوم والمباحث فى أطوار الناس مجتمعين ومنفردين ، فتيسر التحليل النفسى الذى لم يكن ميسوراً قبل ذلك فى صدر المسيحية أو فى صدر الإسلام ، وأمكن التفريق بين الأفراد فى الطائفة الواحدة والجنس الواحد ، لأنهم من جهة قد ملكوا الحرية التى يبرزون بها خصائصهم ونزواتهم ، وينطلقون بها مع أهوائهم ورغباتهم ؛ ومن جهة أخرى قد وجدوا من يدرسهم ويطبق عليهم قواعد العلوم ويصوب إليهم مجاهر النقد والملاحظة . ولم تكن أسباب ذلك كله مهيأة عند ما جاءت الأديان بدعوة الفردية الدينية وجعلت كل إنسان « روحاً » له حسابه وكتابه وليس بالقطرة المنسية فى الغمار

على أن العبقريات الرفيعة قد سبقت نهضة الديمقراطيـة إلى تمييز « الخصائص الفردية » على اختلافها ولو كانت فى أوضع النفوس وأهونها وأبشع مياسمها . فكان المصور العظيم « ليوناردو دافنشى » يتعقب المشوهين والمسخاء فى الطرقات ويغريهم بالخمر والمال ، حتى يتكشفوا عن سرائر نفوسهم ، ويخرجوا من حجاز الكلفة والمهابة ، فيرقص منهم من يرقص ، ويهذى منهم من يهذى ، ويقهقه منهم من يقهقه ؛ وتزداد بذلك بشاعة وجوههم وفسولة طبائعهم ، وهو ناظر إليهم يترقب لمحة عارضة فيسجلها بقلمه دون أن يقطع عليهم مجانتهم وخلاعتهم . وكان شكسبير يصور عشرات النساء وكل واحدة منهن امرأة غير سائر بنات حواء فى حبها وبغضها وحيلتها وكيدها وكلامها وسلوكها ، حتى لامشابهة بين صاحبة هملت وصاحبة عطيل وصاحبة مكبث وبنات الملك لير إلا فى صفة الأنوثة التى تشمل جميع النساء

أما من عدا هذه الطبقة من العبقريين فأبطالهم كما قال « لونارد وولف » نماذج يشترك فى صفاتها المئات والألوف ، فحسن التاجر البصرى مثلاً هو تاجر كسائر التجار ، وهو عنوان طائفة وليس بفرد من الأفراد ، وكذلك عجيب وغريب وغيرهما من أبطال ألف ليلة وليلة ، هم نماذج للفرسان والأمراء ، وللأخيار والأشرار وللشيوخ والشبان ، لاتحس فرقاً بين أحدهم وبين غيره من أبناء قبيله وعامة أقرانه وزملائه ، ولا مشابهة بينهم وبين أبطال القصص الحديثة — ولا سيما التحليلية منها — حيث ترى البطل فرداً ليس بالمتكرر وليس بالشائع بين أبناء صنعته وإخوان طرازه ، وإن شابههم فى صفة من الصفات فبمقدار ما يستدعيه إتفاق الصناعة واتفاق البيئة دون أن يفنى معهم فى الغمار أو يغيب وراء العنوان

***

يلوح لى أن هذا الرأى الذى أجملته وتصرفت فى تفسيره بما أخلى المؤلف من تبعاته — هو على الجملة رأى صواب لاغنى عنه فى نقد الفنون والآداب

ولكننى أفضل أن أقول إن التحليل النفسى لم يكن نتيجة الديمقراطية وإنما كانت الديمقراطية والتحليل النفسى معاً نتيجة شئ آخر : هو انتهاء الكشوف الظاهرة وابتداء الكشوف الباطنة ، أو هو انتهاء السياحات الجغرافية وابتداء السياحات النفسية الانسانية

ففي الوقت الذى ظهرت فيه القصة التحليلية كان الانسان قد فرغ من كشف الأرض ووصل إلى أقصى مجاهل العالم المعمور ولم تكن هناك قصة تحليلية قبل كشف الهند وكشف أمريكا وكشف المجاهل الاسيوية والأفريقية

فلما كشفت كل هذه الأصقاع ووقف حب الاستطلاع والتماس الغرائب ، من هذه الناحية ، بدأ الالتفات إلى دخائل النفس وأخذت غرائب الأخلاق فى الظهور ، وأخذت العناية بها والتوفر على درسها فى التقدم والشيوع

لقد كان معظم الرواية القديمة رواية رحلات ورحالين وكان الإنسان مشغولا بكشف « المكان » الذى يحيط به ويغريه بسحره ووعوده ومجازفاته ، فكان شغفه بالاستطلاع والإحاطة بالدنيا مستغرقاً كله أو جله فى هذه الناحية ، وكان أمامه من العالم شئ يستوفيه ويستكمله ولا يزال له متعقباً متأثراً حتى ينتهى به إلى مداه

ولم يكن مجرد اتفاق ولا مصادفة أن تمت الكشوف الجغرافية وبدأت الكشوف النفسية فى عصر واحد ، فقد فرغ الإنسان

الكتابة وحالات النفس

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كتب إلىّ بعضهم يسألنى : هل صحيح مارويته إحدى المجلات من أنى لا أكتب حديثاً للاذاعة اللاسلكية إلا قبيل موعده بوقت قصير ، وأنى إذا كتبته قبل ذلك بزمن طويل فالأغلب والأرجح أن أمزقه وأكتبه مرة أخرى ؟ وما سبب ذلك أو داعيه ؟

فأما أنى أمزق شيئاً مما أكتب — حديثاً كان أو مقالاً أو قصة — فغير صحيح ، ولست أعرف أنى راجعت كلاماً أكتبه أو عنيت به بعد أن أفرغ منه . فقد غدوت كالثور الشدود إلى الساقية وعيناه معصوبتان ، حتى لايدور رأسه من كثرة الدوران واللف ، وكلما وقف يستريح صاح به صاحبه : « عا » ولسه بالعصا أو السوط ، فيتحرك الثور ويستأنف الدوران ، لأنه أخف مؤونة وأسلم عاقبة من الوقوف . وكذلك أرانى ، فى حياتي ، وإذا كان الثور يدرى لماذا يجشم عناء هذا اللف كله ، فإنى أدرى لماذا تكلفنى الحياة هذا الجهد . وليست على عينى عصابة وإنى لأنظر بهما وأرى ، ولكنى لا أدرك ما وراء ذلك ، وليس ثم سوط يلهب ظهرى ، ولا عصا هناك تقع عليه ، ولكن الحياة تدفعني من حيث أشعر ولا أشعر ، وللحياة وخز وحفز وإغراء محسوس وغير محسوس ؛ ولعل الذى لا نفطن إليه أفعل وأقوى من الذى ندركه من وسائلها . وكثيراً ما أشعر أني مدفوع إلى الكتابة وأنى لا أملك التحول عنها أو إرجاءها ، وأنى سأشقى وأسقم إذا لم أذعن لهذا الدافع الغامض ، فأجلس إلى المكتب وليس فى رأسى شىء سوى الاحساس العام الثقيل بالحركة وبأنها يوشك أن تتمخض عن خاطر معين أو خالجة بينة ، ويكون القلم فى يدي فى تلك اللحظة فأخطط به على الورقة وأنا حائر ، ذاهل ، لا أحس ما حولى ، بل لا قدرة لى على الاحساس بشىء مما يحيط بى إلا إذا حملت نفسى على ذلك حملا ، وخرجت بها من ضباب الحيرة والذهول والسهو بجهد واضح ، ثم تخطر لى عبارة فأخطها ، وأنا لا أدرى إلى أين تفضى بى ، ويغلب أن يطول ترددى فى البداية ثم يمضي القلم بعد ذلك بلا توقف ويستغرقنى الموضوع وتستولى روحه علىّ ، فلا يبقى لى بال إلى شىء ، حتى إذا انتهى الأمر ونضب المعين ألقيت القلم والورقات ورحت أتثاءب وأتمطى كأنما كنت نائماً ، ويكون هذا آخر عهدى بما كتبت فى يومي

وقد استعملت لفظ « التمخض » وأنا أعنيه ، فليس ثم أدنى فرق فيما أعلم وأحس بين التمخض بالجنين ، وبين حركة التوليد فى النفس ؛ وكما تفتر المرأة بعد أن تضع طفلها ، ولا ينازعها فى ذلك الوقت شوق إليه أو تحس فرحاً به ، وإنما يكون إحساسها بالفرج بعد الضيق الذى كانت فيه والكرب الذى كانت تعانيه ، والراحة بعد الجهد والمشقة والعذاب ، والتفتير الذى يورثها إياه ما تجشمت ، كذلك يكون الأديب بعد أن يستريح من أزمة النفس أو الفكر

ويخطر لى أحياناً أنى كالمسافر الذى لا يذهب إلى المحطة إلا والقطار يوشك أن يتحرك ، فما أرانى أكتب إلا فى اللحظة الأخيرة ؛ وقد ألفت أن أرجىء الكتابة مادام فى الوقت فسحة ، وأحسب أنه لو وسعنى أن أكف عن الكتابة لفعلت ، فأنى أوثر الراحة على هذا العناء الباطل ، وبى مثل بلادة التلميذ الذى لا يذهب إلى المدرسة إلا محمولاً على ذراع الخادم ، فليت من يدرى أهذه عادة اعتدتها أم هى طباع وفطرة واستعداد ؟ على أنى

من كشف الظاهر فانقلب إلى كشف الباطن ، وعرف العجائب من البقاع المجهولة ، فانثنى إلى العجائب من الخلائق الخفية ، وكان هذا هو الترتيب الطبيعى المعقول فى تاريخ الكشف والاستطلاع ، فإن الاهتداء إلى المكان أسهل وأوجب من الاهتداء إلى سرائر الأخلاق ، والعلم الذى يحتاج إليه المرء فى سياحة جغرافية أقل من العلم الذى يحتاج إليه فى سياحات الضمير ، إذ هو فى الواقع ملتقى جميع العلوم ومشتجر الفلسفات والديانات والمذاهب أجمعين

لقد بدأت الديمقراطية وبدأ التحليل النفسى معاً بعد كشف الأمريكتين وكشف الهند وكشف المجاهل الآسيوية والأفريقية ، ولولا انكشاف الأرض للإنسان لبقى مشغولاً بالمجهول منها عن مرائره وخصائصه وما يتميز به الأفراد من حقوق وواجبات

عباس محمود العقاد

أعرفنى من المرجئين فى كل شىء : الدَّين أفر من أدائه ماوسعنى الفرار ، والنوم أكره أن أستيقظ منه ، والفراش يشق علىّ أن أترك نعيمه ، واليقظة أستثقل أن أنزل عنها — كل حالة أكون فيها أشتهى أن تطول وتدوم ، إلا التنغيص والألم كما لا أحتاج أن أقول

وقد جربت أن أكتب ولا أنشر ، فكتبت رواية «طويلة» ودسستها في درج المكتب ، ومضت شهور ، وسافرت إلى لبنان فحملتها معى لأراجعها هناك قبل طبعها ، فلما أجلت فيها عينى وجدت أن الحالة النفسية التي كتبتها بها قد ذهبت ، وأن حالة أخرى قد استولت علىّ ، فحاولت أن أستعيد تلك الحالة الأولى فأعياني ذلك ، فأجريت القلم فى الرواية بالتبديل والتغيير ، والتقديم والتأخير ، والحذف والاضافة ، وإذا بالرواية قد صارت شيئاً جديداً فقلت لابأس ، وطويتها ، وفى عزمى نشرها بعد الأوبة إلى مصر . فلما صرت فى بيتى خطر لى يوماً أن أخرجها وأتصفحها ، فإذا بى فى حالة نفسية جديدة لا تسمح لى بالرضى عن الرواية فى صورتها الثانية ... فأعملت فيها القلم ومسختها مرة ثانية ، وما زلت بعد ذلك أرجع إليها بالمسخ كل بضعة شهور حتى يئست فانتزعت منها فصولاً تصلح أن تكون قصصاً قصيرة ومزقت الباقى . وحمدت الله على الراحة بعد طول العناء . وأيقنت أنه خير لى ألاَّ أكتب إلا إذا وثقت من النشر بعد أن أضع القلم

وأذكر أن بعضهم سألنى مرة « أى كتبك أحب إليك ؟ » فلما قلت : « ولا واحد » استغرب جوابى وأنكره ، وذكرنى بأنى قلت مرة إن هذه المفاضلة عسيرة لأن الكتب كالأبناء ، والوالد لا تخفى عليه مزايا أبنائه وعيوبهم ، ولا يجهل أن هذا ذكى وذاك غبى مثلاً ، ولكنه مع ذلك يحبهم جميعاً على السواء وإن كان يعرف فضل بعضهم على بعض . وهذا صحيح ، على الجملة ، وفى الأغلب والأعم ، ولكنى رجل دأبى أن أراجع نفسى ، ولا تنفك حالاتى النفسية تتغير ، فنظرتى إلى الشئ وإحساسى به يختلفان من يوم إلى يوم . وثم أمر آخر هو ما يتمثل لى من صور الكمال وما يبدو لى فى عملى من وجوه النقص والقصور ، وليس لى حيلة إلا أن أقيس ما أخرجت إلى ما كنت أحب أن يكون ، وإلا أن أحدث نفسى أنه كان فى مقدورى أن أصنع خيراً مما صنعت ، ولو كنت أعتقد أن هذا هو غاية ما يبلغه الجهد ويصل إليه الامكان لرضيت وقنعت واغتررت ، ولكنى أحس أنى أقدر على خير مما أفعل ؛ وقد يكون هذا إحساساً كاذباً ، كالجوع الكاذب ، وقد يكون خدعة من خدع الغرور ، فإن يكن كذلك فإنه ولا شك بلاء ، ولكنه الواقع على كل حال . وما أكثر ما أسمع من يثنى على كتاب لى ، فأتركه يثنى فإن الثناء حبيب إلى النفوس ، وأتعجب له فيما بيني وبين نفسى وأسألها : ماذا أعجبه ياترى ؟ أما لو أن رجلاً نقد نفسه ... ؟ وأزداد غرورا ، وأشعر أنى فوق هذا المادح ... ولكنى أتواضع وأقول له وأنا مطرق — ووجهي فيما أعتقد وأرجو مضطرم من فرط الحياء — « أستغفر الله ! أستغفر الله ! ياشيخ قل كلاماً غير هذا ! » الخ الخ

فإذا كنت لا أكتب إلا قبيل أوان النشر بأوجز فترة فذاك لأنى بليد ولأن نفسى تتعاقب عليها حالات مختلفة فأسخط على ما كنت أرضى عنه وأذم ما حمدت ، واستضئل ما أكبرت ، ولا حيلة لى فى ذلك . وماذا أصنع إذا كنت أحس أنى مسوق إلى جسّ نفسي وقياس قدرتها إلى ما ينبغى مما ترتسم صوره فى نفسى وتتمثل لى فى خواطرى ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

في سبيل الإصلاح

الحلقة المفقودة (*)

للأستاذ على الطنطاوى

نحن اليوم (في الشرق الاسلامى) فى دور انتقال ليس له وضع ثابت ، ولا صفة معروفة ، فلا نحن نعيش حياة إسلامية شرقية كما كان يعيش أجدادنا ، ولا نحن نعيش حياة غربية خالصة كالتى يحياها الأوربيون ، ولكننا نعيش حياة مختلطة مضطربة متناقضة فيها ما هو شرقى إسلامى ، وفيها ما هو غربى أجنبى ، وفيها ما ليس بالشرق ولا بالغربى ، ولكنه منقول نقلاً محرفاً مشوهاً عن هذا أو ذاك . بل أنت إذا دققت وأنعمت النظر فى حياتنا وجدت لها جانبين مختلفين ، ولونين متباينين : الجانب الذى يميل إلى المحافظة ، والجانب الذى يجنح إلى التجديد . وهذان الجانبان تلقاهما فى كل عهد من عهود الانتقال فى التاريخ ؛ فى مطلع العصر العباسى كنت تجد فى بغداد المحدثين والزهاد والفقهاء كسفيان والفضيل وأبى حنيفة ، وإلى جانبهم الفساق والمجان كبشار وأبى نواس ، والمتعصبين للعربية والشعوبيين ، ومن كل صفة زوجان ، ولكل أمر ناحيتان ، وكذلك كان شأن الرومان أول اختلاطهم باليونان

قف ساعة فى أى شارع كبير فى أى مدينة من مدن الشرق الاسلامى واعرض الأزياء ، تر الازار والعقال إلى جانب العمة ، إلى الطربوش ، إلى القبعة ، إلى اللاطية . حتى أن أجنبياً وقف مرة هذا الموقف فظن أن القوم فى عيد المساخر (الكارنفال) . وادخل عشرة بيوت تجد البيت الشرقى ذا الصحن الواسع والإيوان الشمخر والبركة ذات النوافير ، إلى جانب البيت الأوربى المسقوف المتداخل الذى لا ترى فيه السماء إلا من الشرف . وفى البيت الواحد تجد الغرفة ذات الفرش العربى : الأسرة والمتكآت والوسائد والبسط والنمارق ، إلى جانب الغرفة الأوربية ذات المقاعد والمناضد ... واعرض أهل الدار تجد بين الأب وابنه قرناً كاملاً فى اللباس والتفكير والعادات . وفتش عن الأب المساء تَلْقَهُ فى المسجد أو قهوة الحى ، ثم انظر الابن تجده فى أحدث مرقص أو أكبر ناد للقمار أو للتمثيل أو للمحاضرات . وانظر إلى الأم المحتجبة المصلية الصائمة ، وابنتها السافرة التى لا تعرف من أين القبلة ، ولا تدرى ما هو الصيام . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، ولكنه تعداه إلى الثقافة والعلم وسائر الأمور التى تتصل بحياة الأمة اتصالا ماساً ، فجعل فيها هذا الازدواج وهذا التناقض . اجتمع باثنين من المثقفين بالثقافة الاسلامية والثقافة الغربية ، تر الثانى ينكر المكتبة العربية جملة ، ويجحدها مرة واحدة ، وينبزها بالكتب الصفراء والثقافة الرجعية الجامدة ، لايدرى أن المكتبة العربية أجل تراث علمى عرفه البشر وأعظمه ، وأنها رغم ما أصابها من نكبات : منها نكبة هولاكو حين ألقى الكتب فى دجلة حتى اسود ماؤه — فيما نقلوا — من حبرها ، ونكبة الأسبان حين أحرقوا الكتب وفيها حصاد أدمغة البشر قروناً طويلة ، ولبثوا الليالى يستضيئون بنورها إلى الصباح ؛ ورغم ما أضاعه الجهل والاهمال لا تزال مخطوطاتها تغذى المطبعات فى الشرق والغرب من خمسين سنة إلى الآن دأباً بلا انقطاع ، ولا يزال فيها ما يغذيها خمسين سنة أخرى فى ناحية من نواحى التفكير وفى كل فرع من فروع العلم

وتجد الأول ينكر العلم الحديث كله ويجحده بجملته ويعيش اليوم بعقل جدّه الذى كان قبل ثلاثمائة سنة ، فلا علم عنده إلا علم العربيــة والدين والمنطق ، ولا أدب إلا الأدب العربى ، ولا كتب إلا هذه الحواشى والشروح التى لم تصلح أبداً حتى تصلح اليوم ، والتى لايتصور العقل طريقة فى التأليف أشد عقماً منها ، إذ تذهب ثلاثة أرباع جهود المدرس والتلميذ فى فهم عبارتها وحل رموزها والربع الباقى فى فهم مادة العلم التى لايخرج منها التلميذ على الغالب بطائل

فرجالنا المثقفون وعلماؤنا بين رجلين : رجل درس الثقافة الإسلامية ، ولكنه لم يفهم شيئاً من روح العصر ، ولا سمع بالعلم الحديث ، ورجل فهم روح العصر ودرس العلم الحديث ،

(*) استعير هذا العنوان من الأستاذ الجليل أحمد أمين فى مقاله المنشور فى العدد الأول من الرسالة ١٨ رمضان سنة ١٣٥١

ولكنه لم يدر أن فى الدنيا شيئاً اسمه ثقافة إسلامية ... فمن أى هذين الرجلين ننتظر النفع ؟ لا من هذا ولا من ذاك ، ولكننا ننتظر النفع من الرجل الذى عرف الإسلام وعلومه ، وفهم روح العصر وألم بالعلم الحديث ، هذه الطبقة المنتظرة من العماء ، هذه الحلقة المفقودة هى التى يرجى منها أن تقوم بكل شىء ، وهى التى سينشئها الأزهر المعمور ودار العلوم العليا ، والمدارس التى شيدت لتجمع بين الثقافتين كالكلية الشرعية فى بيروت ، ودار العلوم فى بغداد ، وينشئها من يتخرج فى المدارس العليا والجامعات ويكون ذا ميل إلى الدين ، ويكون له إلمام بعلومه

***

من هذه الطبقة ينتظر النفع والفلاح ، وعلى هذه الطبقة واجبات كثيرة يجمعها أصل واحد ، هو دراسة الإسلام على أساس العلم الحديث واستخراج رأيه فى مشا كل العصر ، وحكمه فى الأحداث التى لم يعرفها الفقهاء ولم تحدث فى أيامهم . وأهم من هذا كله الآن استخراج القوانين الأساسية والحقوقية والجزائية من الفقه الإسلامي ، بدلاً من أخذ القوانين الأجنبية برمتها وتطبيقها فى البلاد الإسلامية التى انبثق منها أعظم تشريع عرف إلى الآن وأرقاه . وهذا العمل يبدأ بالدراسات العلمية الفردية ثم يصل إلى الغاية المتوخاة ، وهى أن تتم إحدى الحكومات الإسلامية العمل الذى بدأته لجنة المجلة (مجلة الأحكام العدلية) لكن بمقياس أوسع ونسبة أكبر ، فلا تتقيد هذه اللجنة بمذهب واحد من المذاهب الأربعة ، بل لا بأس أن تأخذ بعض الأقوال من مذهب آخر ، ولا تتقيد بالمذاهب الأربعة بل لا بأس أن تأخذ بقول لبعض الأئمة الذين اندثرت مذاهبهم ، كالثورى والأوزاعى والليث والبطرى والظاهرى ، إن صح مستند هذا القول ، ولا تتقيد أيضاً بهذه الأقوال بل تجتهد كما اجتهد الأئمة ، وتأخذ الأحكام من الكتاب والسنة رأساً ، وأن تبحث عن المصلحة التى يقتضيها النص ، فإن الشريعة ما أنزلت عبثاً ، والأحكام لم تشرع لغواً ، ولكن لكل حكم مصلحة . ومن دقق فى اجتهادات الخلفاء الراشدين وجد أنهم يدورون مع المصلحة أينما دارت . هذا عمر رضى الله عنه علم أن المصلحة المرادة من إعطاء المؤلفة قلوبهم سهماً من الزكاة إنما هى تقوية الإسلام وإعزازه ، فلما حصلت المصلحة وعز الإسلام أسقط سهم المؤلفة وهو منصوص عليه فى القرآن الكريم . وهذه مسألة طلاق الثلاث بكلمة واحدة كان يقع واحدة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبي بكر وصدراً من خلافة عمر ، فرأى عمر أن المصلحة (فى أيامه) فى إيقاعه ثلاثاً فأوقعه مع أن الآية صريحة فى أن الطلاق مرتان (وقد عادت المصلحة اليوم فى إيقاعه طلاقاً واحداً والرجوع إلى الأصل المعروف من الكتاب والسنة) . وعطل عمر حد السارق فى عام المجاعة . وهذا عثمان جمع الناس على حرف واحد من حروف القرآن ، مع أن القرآن أنزل على سبعة أحرف لأن المصلحة تقتضى هذا الجمع . وهذا علىّ حرّق وهو يعلم حكم الله فى القتل لأنه رأى المصلحة فى هذا العقاب البليغ .

والحكومة الاسلامية التى يؤمل منها تحقيق هذا المشروع العظيم هى مصر وحدها ، لأنها الحكومة الاسلامية الكبرى ، ولأنها وحدها التى ينص دستورها على أن دينها الرسمى الاسلام ، ولأن فيها الملك المسلم التقى فاروق أعز الله به الإسلام ، ولأن فيها الأزهر المعمور وفيها العلماء ، ولأن فيها اتجاهاً إسلامياً قوياً ظهر فى السنين الأخيرة ، ودعوة قوية إلى استبدال القوانين الاسلامية بالقوانين الأجنبية

ولو أنى وجهت هذه الدعوة قبل عشر سنين مثلا لعرضت لها المعارضة من ناحيتين : ناحية المشايخ الجامدين ، وناحية الشباب الجاحدين . أما الأول فلأنهم كانوا يعتقدون أن الاجتهاد سد بابه إلى يوم القيامة ، وأن الفقهاء لم يدعوا شيئاً إلا بينوا حكمه مع أن المسألتين مردودتان ، لأن سدّ باب الاجتهاد معناه الحظر على الله أن يخلق مثل أبي حنيفة ، وهذا محال . وما دامت الأرحام تمتلىء ، والنساء تلد ، فليس مستحيلاً أن ينشأ مجتهدون وأئمة ونابغون يفوقون الأولين — ولأن الفقهاء وإن بذلوا الجهد ، وفرضوا فى كثير من المسائل أبعد الفرضيات ، وبينوا حكمها ، فإن من البديهى أنهم لم يتكلموا فى المسائل التى ظهرت الآن ولم يعرفوها . وإذا كان الإمام الشافعى قد غير رأيه فى أكثر مسائل المذهب ، حين انتقل إلى مصر ، ورأى أفقاً جديداً ، حتى

صار له مذهبان قديم وجديد ، فلم لا يتغير الرأى فى كثير من المسائل، وقد تغير العالم كله ، وتبدلت الدنيا ، والإسلام صالح لكل زمان ومكان ، والأحكام تتغير بتغير الأزمان ؟

أما الشباب الجاحدون فقد كانوا يعارضون هذه الدعوة لأنهم كانوا ينفرون من كل ما يتصل بالإسلام ، أو يمتّ إلى الدين بسبب ، ويموتون عشقاً لأوربة ، ولكل ما له علاقة بأوربة

أما الآن فقد اعتدلت الطائفتان ، فلم يبق على وجه الأرض عالم مسلم يقول بسد باب الاجتهاد ، ويدعى أن الفقهاء لم يتركوا شيئاً كان أو يكون إلا بينوا حكم الله فيه ؛ ولم يبق فى الشباب المتعلمين (والمثقفين حقاً) من ينفر من الدين ، ويفزع من اسمه ، بل إن العقلية العربية (ولا سيما فى مصر) قد اتجهت نحو الإسلام اتجاهاً قوياً ملموساً ؛ فعلماء مصر ، وطلاب مصر ، ورجالات مصر ، مؤيدون للإسلام متجهون إليه ، وهذا مما يسر ، ويبعث الأمل فى نشوء هذه الحلقة المفقودة ، وإنجاز هذه الواجبات كلها

* * *

والمسائل التى تحتاج إلى نظر وبحث واجتهاد كثيرة لا أستطيع الآن – ولا أريد – أن أستقريها كلها ، ولكني أمثل لها بأمثلة قليلة قريبة

هذا رمضان قد جاء . أفلا يجب إعادة النظر (مثلاً) فى مسألة ثبوت الهلال ؟ أليست هذه الطريقة المتبعة اليوم فى أكثر البلدان الإسلامية مؤدية إلى الفوضى الظاهرة والنتائج الغريبة المضحكة ؟ ألم تمر سنوات ثبت فيها رمضان فى بعض البلدان الاسلامية السبت ، وفى غيرها الأحد ، وفى أخرى الاثنين ... إلى الأربعاء فاختلف ابتداء رمضان ، من السبت إلى الأربعاء ، وهو يبدأ فى الواقع فى يوم واحد ؟ ألا يبدو هذا مخالفاً لجوهر الدين ؟

أنا لا أدعو إلى بدعة جديدة ، فقد تكلم الفقهاء فى هذه المسألة ، فمن فقهاء الحنفية من قال بأن رؤية الهلال فى قطر توجب الصيام على الجميع ، فلماذا لا نتخذ مرصداً منتظماً فى إحدى البلدان الإسلامية ، ثم تذاع نتائج رصده على البلدان الإسلامية كافة فيعمل بها ؟ أنكون بذلك مخالفين أو مبتدعين ، والفقهاء قد قالوا بهذا ؟

ومن فقهاء الشافعية كالقفال والرملى وابن سريج من قال بالأخذ بالحساب ، والاعتماد على العلم الثابت ، فلماذا لا نأخذ بهذه الأقوال ، ونحن فى عصر ترقى فيه العلم ، وصار يعرف موعد الخسوف مثلاً ، بالدقيقة والثانية ، ويثبت خبره عياناً ، أفلا يعرف موعد ولادة القمر وظهوره ؟

إن الاعتماد على الشهادة فى رؤية الهلال ينتج أموراً عجيبة ، من ذلك أن جماعة من قرية دوما شهدوا عند القاضى بدمشق أنهم رأوا الهلال ، وأثبت القاضى رمضان اعتماداً على شهادتهم ، فقال عمى الشيخ عبد القادر الطنطاوى (وهو شيخ انتهى إليه الآن علم الفلك الاسلامى فى الشام) قال للقاضى : إن هذه الشهادة كاذبة وإن الهلال لا يمكن أن يرى الليلة الثانية ، فضلاً عن الأولى . وذهب مع القاضى وجماعة من وجوه الشام إلى دوما ، وأحضر الشهود ، ووقف معهم فى المكان الذى زعموا أنهم رأوا منه الهلال فى الجهة عينها ، والساعة ذاتها ، وسألهم : أين الهلال ؟ فلم يروا شيئا . ثم قال واحد : ها هو ، فقال الجميع : ها هو ، فأخرج عمى نظارة مكبرة وأراهم ، فإذا الذى رأوا غمامة طولها متران ، انقشعت بعد ثوان !

وقد حدث مثل هذا كثيراً . سمعت من مشايخي ، ولم أر ذلك فى كتاب ، أن أنس بن مالك رضى الله عنه شهد عند شريح القاضى أنه رأى الهلال ، فقال له : هلم أرنيه ياعم . وذهب معه ، فقال : هاهو . فنظر شريح وهو الشاب الحديد البصر ، فلم ير شيئاً وأنس يقول : هاهو ... فنظر شريح فإذا شعرة من حاجب أنس بيضاء متدلية يراها فيحسبها هلالا ... فأزاحها فلم يعد يرى شيئا

* * *

ومنها مسألة الطلاق ، لقد بلغت مسألة الطلاق حداً لا يجوز السكوت عنه ، ولا بدّ من إعادة النظر فيها . وشرع قانون لها يؤمن المصلحة العامة ، ويحقق غرض الشارع

يكون الرجل فى السوق يبيع أو يشترى ، فيحلف بالطلاق على أمر ، فتطلق امرأته وهي فى دارها ، ويتشرد أولادها ، وتتهدم دار على رؤوس أهلها ؛ أو يغضب من أمر فيحلف بالطلاق ، مع

أن الذى أفهمه أنا[1] أن الزواج عقد يعقد قصداً يراد به ضم حياة الرجل إلى حياة المرأة ، وأن الطلاق عقد مثله يراد به حلّ العقد الأول ، ولا بأس أن يكون حلّ العقد بيد الرجل وحده ولكن لا بدّ من ثبوت القصد ، وأعنى بالقصد أن يطلق الرجل وهو يفكر فى معنى الطلاق ونتائجه ، ويقصد فك الرابطة الزوجية فيجب أن يكون القصد شرطاً فى وقوع الطلاق ، ويجب أن نجد طريقة مادية لإثبات القصد ، كأن يشترط تبليغ الزوجة الطلاق بواسطة موظف مخصوص ينصبه القاضى فإن طلق رجل وهو قاصد من غير واسطة هذا الموظف ، يقع الطلاق ديناً ، ولا تسمع به الدعوى

هذا وأنا لا أجتهد فى هذه المسألة ولكن أدعو إلى الاجتهاد فيها ودرسها

وهناك مسائل كثيرة ، لا أعمد الآن إلى استقصائها

* * *

متى وجدت هذه الحلقة المفقودة درست هذه المسائل كلها ، فحققت حاجات العصر وأجابت مطالبه ، ولم تخرج على أصول الإسلام ، ولم تخالف قواعده ، ودرست الإسلام من كافة النواحى العلمية والفنية والاجتماعية ، فإن درسنا الحقوق الأساسية العامة ، درسنا الحقوق الأساسية فى الإسلام ، وإن بحثنا فى الاشتراكية بحثنا عن رأى الإسلام فى الاشتراكية ، وإن انقطعنا إلى التاريخ درسنا التاريخ الاسلامى درساً حديثاً ، وإن اشتغلنا بالفلسفة درسنا تاريخها فى الاسلام ، وحكم الاسلام فى نظرياتها ومسائلها ...

عند ذلك يمحى هذا الازدواج ، وهذا التناقض من حياتنا ، ونحيا حياة كاملة قد اصطبغت كل ناحية فيها بالصبغة الإسلامية وهذا هو مثلنا الأعلى الذى يجب أن نطمح إليه ...

(دمشق) **على الطنطاوى**

---

(١) قرأنا أن الأستاذ الجليل الشيخ احمد شاكر ألف كتاباً فى الطلاق عالج فيه هذه المسألة ، ولكن الكتاب لم يصل إلى دمشق أصلا ، ولم أره فى مكتبة مع أنى سألت عنه كثيراً

مقدمة حضارة العرب

لغوستاف لوبون

للأستاذ خليل هنداوى

قد علم قراء كتبنا الأولى هذا الكتاب الحديث ، وعلموا أننا بعد انتهائنا من درس الإنسان والمجتمعات ينبغى أن ننصرف إلى درس تاريخ الحضارات !

كان كتابنا الأخير (الإنسان والمجتمعات) مختصاً بوصف الأشكال المتتالية للأشكال الطبيعية والعقلية عند الإنسان ، والمواد المختلفة التى تتألف منها المجتمعات . ولقد أوضحنا فى ذهابنا إلى أقصى العصور الغابرة كيف تألفت الجماعات الانسانية ، وكيف تولدت الأسرة والمجتمعات ، وجميع أصناف الفنون والمعتقدات ، وكيف استحالت هذه المظاهر خلل العصور ، وكيف كان مبدعو هذه الاستحالات !

وبعد أن درسنا الإنسان المنعزل وحركة المجتمعات ، يجب علينا لكى يتم غرضنا الذى قصدنا إليه أن ندرس الحضارات الكبرى بحسب هذه المناهج التى عرضناها

أجل ! إن المشروع واسع ، ومشاكله كبيرة . لا نتكهن إلى أى مدى نستطيع أن نصل به . ونحن نريد أن يأتى كل كتاب من هذه الكتب كاملاً مستقلاً حتى إذا استطعنا أن ننجز الثمانية أو العشرة — بما يتم هدفنا به جاء عمل تصنيفها ودرس الحضارات المختلفة عليها أمراً يسيراً !

وقد بدأنا بحضارة العرب لأن حضارتهم جلتها لنا رحلاتنا وعرفتنا بهم تعريفاً حسناً ؛ وحضارة العرب هى من الحضارات التى كمل سيرها ، وظهر فيها تأثير المؤثرين ممن جربنا أن نحدد عملهم ونعين تأثيرهم ، وهى تعد من الحضارات التى يشوق تاريخها ومع ذلك لبثت مهملة

إن حضارة العرب تسيطر — منذ اثنى عشر قرناً — على القطر الواسع الذى يمتد من شواطىء الاطلانطيك إلى البحر الهندى ، ومن شواطىء البحر الأبيض حتى رمال أفريقية

الداخلية ،والشعوب والقبائل التي تسكنه تدين بدين واحد وتنطق بلسان واحد ، وتتلقن تعاليم واحدة ، وفنوناً واحدة ، وهم يؤلفون جزءاً من المملكة

إن النظر نظراً شاملاً إلى مظاهر هذه الحضارة عند الشعوب التي سيطرت عليها ، وأتت بالمعجزات التي غادرتها في الأندلس وأفريقيا ، وفي مصر وسوريا ، وفي فارس والهند : هو نظام لم يجرب بعد ! والفنون ذاتها التي يرتكز عليها صميم الحضارة العربية لم تخضع بعد لهذا الدرس الشامل ! وأولئك المؤلفون القليلون الذين دنوا من وصفها كانوا يقررون أنها ناقصة ، ولكن خطأ أدلتهم وأسانيدهم حال بينهم وبين تجريبها . ومن الحق الذي لا ريب فيه أن مشابهة العقائد قد رمت إلى توطيد قربى قوية الوشائج في مظاهر فنون هذه الأقطار المختلفة الخاضعة للإسلام ، ولا يقل عن هذا وضوحاً أن اختلاف الدربات والبيئات يجب أن يولد تبايناً واختلافاً كبيرين . فما كانت هذه المجانسات ؟ وما كانت هذه الاختلافات ؟ والقارئ الذي يطلع على هذه الصفحات المختصة من كتابنا بدرس فن العمارة والفنون ، سيجد أن العلم الحاضر لم يعط جواباً على هذه الأسئلة !

وكلما توغلت في درس هذه الحضارة رأيت النتائج قد اتسعت والأفق قد فسح مداه ، وعلمت أن القرون الوسطى لم تعرف تاريخ الأجيال القديمة إلا بواسطة العرب ، وأن الجامعات في الغرب لبثت طوال خمسة قرون تتهافت على كتبهم في الرياضيات والمباحث العقلية والأخلاق . هؤلاء هم الذين مدنوا أوربا وعمروها بأنوار الحضارة ؛ وعند ما يدرس دارس آثارهم العلمية ويقف على اكتشافاتهم يجد أنه لا شعب أنتج ما أنتجوه في عهد قصير الأمد ، وعند ما نمتحن فنونهم نعلم حق العلم أنهم كانوا يملكون مقدرة على الإبداع لا تعلو عليها مقدرة

إن أثر العرب — على عظمته في المغرب — كان أعظم تأثيراً في الشرق ولم يعرف التاريخ عن شعب تأثيراً مثله بلغ قوته وروعته فالشعوب التي سيطرت على العالم من أشوريين وفرس ومصريين ويونان ورومان قد توارت بين أطواء الأجيال وثنايا العصور ، ولم تغادر وراءها إلا ركاماً ! أما دياناتهم ولغاتهم وفنونهم فقد بادت ولم يبق منها إلا ذكريات . والعرب قد واروا بدورهم كما توارى أولئك ، ولكن عناصر حضاراتهم ، تلك العناصر القوية من دين ولغة وفن لا تزال حية . وهناك عدد يربو على مائة مليون (يبدو للقارئ أن إحصاء المسلمين بهذا العدد إحصاء مغلوط) يتوزعون بين المغرب والهند لا يزالون قائمين على تعاليم الرسول

فاتحون كثيرون اقتحموا العرب وما سمعنا بفاتح واحد أراد أن يستبدل حضارة بالحضارة التي أنشأها العرب ، وكل هؤلاء الفاتحين قد اعتنقوا ديانتهم ، وقبسوا منهم فنونهم ، وأخذ جلهم لغتهم ، وإن شريعة هذا الرسول — وإن تزعزعت في بعض مواطن — لشريعة يشبه أنها قامت لتكون ثابتة إلى الأبد . ففي الهند قد جرفت في طريقها ديانات بلغت من الكبر عتياً ، وحولت مصر القديمة الفرعونية بأسرها إلى مصر العربية ، وهي البلد الذي لم يؤثر فيه الفرس واليونان والرومان إلا قليلاً ! والشعوب الهندية والفارسية والمصرية والافريقية كان لها معلمون وهداة غير خلفاء محمد ، ولكنهم منذ اعتنقوا شريعة هؤلاء الخلفاء ثبتوا عليها ولم يستبدلوا بها ديناً

حقاً إنها لمعجزة في التاريخ ، معجزة هذا المأخوذ الرائع الذي أخضع صوته هذا الشعب الجموح الذي أعجز الفاتحين نضاله لاسم تزلزلت منه أقوى الممالك ، وهو اليوم تحت أطواء لحده يخضع ملايين الناس لشريعته

إن العلم الحديث ينعت هؤلاء العظماء ، ومؤسسي الديانات بالمأخوذين وللعلم الحق في هذه النظرة إذا توخينا محض الحقيقة ولكن يجب احترام هؤلاء . لأن روح جيل ما ، وعبقرية شعب ما مرتبطان بهم ، وسلالات كثيرة ضائعة في ظلام العصور إنما تتكلم بألسنتهم . إن هؤلاء المبدعين للمثل العليا لا ينشئون في الحقيقة إلا أخيلة ، ولكن هذه الأخيلة المشكوك فيها هي التي أبدعتنا على هذا التقويم . وبدون هذه الأخيلة لم تستطع أية حضارة أن تحيا ! وليس التاريخ إلا قصة الحوادث المتممة يقوم بها الانسان ليخلق مثلا أعلى يعبده أو يجربه !

والحضارة العربية أنشأها شعب فيه ما فيه من ريح البربرية ، خرج من ظلمات الصحراء العربية واقتحم معاقل الفرس واليونان وحصون الرومان وألف مملكة واسعة تمتد حدودها من الهند حتى الأندلس وأبدع هذه الآثار الرائعة التي تثير في روع كل ناظر عوامل العجب

فأي خالقين عملوا على إنشاء هذه الحضارة وهذه المملكة في بدء نشأتها ؟ وما كانت علة هذه الرفعة وعلة هذا الانحطاط ؟ إن

العلل التي تمرس بها المؤرخون جاءت في الحقيقة ضعيفة واهية ، وإن مذهباً من مذاهب التعليل لا يمكن امتحانه امتحاناً حسناً إلا إذا جرى تطبيقه على شعب كهذا الشعب

قد ولد الغرب من الشرق ، وفي الشرق يجب أن نطلع على مفتاح الحوادث الماضية ، إذ على سطح هذه الأرض العجيبة تهيأت الفنون واللغات وأكثر ديانات البشر . ورجالها اليوم ليسوا كرجال الأمس ، لقد تبدلت الأفكار غير الأفكار والعواطف غير العواطف ، والأطوار تمشى فاترة بطيئة بحيث إذا أقبل عليها الدارس استطاع أن يقف على سلسلة تلك الأعمار المطوية ! فالفنانون والعلماء والشعراء يتكررون دائماً ... كم مرة جلست إلى ظل نخلة أو فيء جدار أحد الهياكل مستسلماً إلى أخيلة طويلة تتناجى مفعمة بأخيلة ذلك الماضي المتواري ، أتنهد تنهداً خفيفاً ، وفي الأعماق الشاعة تتعالى مدن غريبة تتوهج قصورها وأعمدتها ومناراتها تحت سماء ذهبية . وتجوز قوافل البدو والجماعات الآسيوية ذات الألوان البراقة ، وطوائف العبيد ذات الجلود البرونزية والنساء المحجبات ! لقد اندثرت اليوم أكثر هذه المدن القديمة . (نينوى ودمشق والقدس وآثينا وغرناطة وممفيس وطيبة ذات المئة باب) قصور آسيا وهياكل مصر عفاها القدم وآلهة بابل وسوريا والكلدان وشواطئ النيل لم يبق منهم إلا ذكريات ، ولكن كم من أشياء مستورة في هذه الخرائب ! وكم من أسرار مبثوثة يجدر سؤال هذه الذرارى عنها ! من أعمدة (هركول) إلى سهول آسيا الخصبة القديمة ، ومن شواطئ بحر (ايجه) الأخضر إلى رمال الحبشة المحرقة

يحمل كثير من التعاليم والعقائد من هذه الأقطار الشاسعة ويضيع فيها أيضاً كثير من المعتقدات ، ودرسها يرينا كم عمق هذه الهوة التي تفصل بين الناس ، وإلى أي مدى يذهب وهم أفكارنا في الحضارة الانسانية ، والاخاء الانساني ، ويبدي لنا الحقائق والمذاهب التي يخال أنها مجردة مطلقة كيف تتبدل في الحقيقة من بلد إلى بلد

هنالك أسئلة كثيرة تعرض للمتأمل في تاريخ العرب ، وأكثر من درس يحفظه ، فإن هذا الشعب هو خير شعب حرر ذرارى الشرق على اختلافها من ذرارى الغرب . إن أوروبا لا تعرف عن هذا الشعب إلا قليلا ، وإنما يجب عليها أن تعمل على معرفته لأن الساعة دانية حيث ترتبط مقدراتها وحظوظها بمقدراتهم وحظوظهم [١] !

إن الخلاف بين الشرق والغرب اليوم عظيم حتى لا يرجى أن يقبل أحدهما تفكير الآخر ، ومجتمعاتنا القديمة تتحمل تطورات عميقة ، فمراحل العلم السريعة والصناعة قلبت قواعدنا الطبيعية والأخلاقية ، والنزاع الحاد في جسم المجتمع ، والألم الشامل الذي يدفعنا دائما إلى تبديل تعاليمنا لكي نعالج الأدواء الاجتماعية التي تنشأ عن التطور ذاته ، منها خطأ التوفيق بين العواطف القديمة والعقائد الجديدة ، وإبادة الأفكار التي نشأ عليها الأقدمون . هذا ما يحف بالغرب الآن ، فنظام الأسرة والمنزل والدين والأخلاق والإيمان كله يتغير أو سائر في طريق التغير ، والأصول التي عشنا عليها حتى الآن قد وضعتها المذاهب العصرية تحت المناقشة ! وما سوف يخرج من العلم الحديث لا يستطيع أحد أن يفوه به ! الجماعات تهيم اليوم وراء تعاليم بسيطة تؤلفها من نظرات سلبية غريزية ، ولكن نتائج هذه السلبية لم تستشفها بعد نظراتها . هنالك الوهيات جديدة حلت محل ألوهيات قديمة ، والعلم الراهن يجرب أن يذود عنها ، فمن ذا يستطيع القول بأنه سوف يذود عنها في المستقبل ؟

أما في الشرق فالحالة مباينة لما هي عليه في الغرب . فبدلاً من أقسامنا وأسباطنا وبدلاً من حياتنا المتوقدة نرى الشرق يعيش في وسط تسعده السكينة والراحة العميقة . وهذه الشعوب التي تؤلف بعددها أعظم نوع في البشرية قد بلغت منذ زمن طويل هذا الاستقرار الهادئ الذي يقال أقل ما فيه انه صورة السعادة . وهذه المجتمعات القديمة قد صانت من صلابتها ومتانتها مافقدته مجتمعاتنا ، والايمان الذي فقدناه ما زال الشرقيون يعتصمون به ، والأسرة التي بدأت تتحول وتتشقق ـ عندنا ـ لا تزال ثابتة صلبة عندهم ، والمذاهب التي أضاعت كل تأثير عندنا لا تزال مسيطرة عليهم ، والدين والأسرة والتعاليم وسلطة التقاليد والعادات وكل القواعد التي جاءت بها المجتمعات القديمة والتي تقوضت دعائمها في الغرب نراها حافظت على ملامحها في الشرق ، والأمر الأعجب فيها أن الشرقيين لم يفكروا في تبديل هذه القواعد أو انتقاء سواها

خليل هنداوي

(١) ما أصدق نبوءتك يا غوستاف

صورة

المولد الأحمـــــدى

للأستاذ ابراهيم بك جلال

خرج أهل القرى جماعات وقوافل من أسفل الأرض ومن صعيدها فكانوا أسراباً يتعاقب بعضهم على آثار بعض ، يزحمون السبل المعبدة وأشباه السبل ، قد شمر الرجل عن ساقيه ، وبسط على الساعد قضيباً تناط به صرة جافة ، وإلى يمينه آخر ينوء كاهلاه « بغرارة » من تلك الأقراص ، وثالث به رمق من سعة يوهم جاريه أن تحته مطية ويظل يحرك ساقيه كلما تحركت المطية

أما المرأة فتضن بخفيها على البلى فتجمعهما على أم رأسها فاذا أوفت على المدينة آوت إلى الخفين تمشى فيهما حجلا

وغالب هذا الحجيج مشاة حفاة سرابيلهم من أسمال ومظاهرهم فاقة ومسكنة ، نفروا خفافاً متوسمين فضلة الموائد ونهلة من طعام الحضر وحلواه

وفيهم صنوف وألوان من أهل الطريق تنم عليهم تلك القلانس وما يتدلى من عذباتها ، وبأيديهم أعلام مصبنة ، وحولهم صنوج تدق وطبول تدوي كأنصار المهدى يوم فتح السودان . فاذا غربلهم ناقد خرج ببضعة نفر من أهل العلم والتقى قدموا حسبة وقربى لله يذكرونه فى تقى وخشية ، ويتعففون عن قرابين هذا العيد ، طعامهم أقراص وتمر ، ومضاربهم مقفرة من زهو الدنيا ، مهادهم بوارى بسطت على أديم الأرض يؤثرون بها الزائر فيحل بين أدب واتضاع وعلم

أولئك هم مصابيح الدجى ، وأعلام الهدى لمن كانت هجرته لله ورسوله

وفى المدينة دعة وجاه ، ونسق جميل ومصابيح وبنود تخفق فوق الدروب وبأيدى الناس ، وترى السوق المفضية إلى كعبة هذا الحجيج قد ترامت فيها السلع أكداساً على المناكب وفي الحوانيت ، وفيها القمص والجوارب والنعال والأكسية والقلانس والجباب ، ويليها عرائس الدمى المزوقة ، والدفوف الوشاة ، والأساور والأقراط والخلاخل والعقود والمرايا ، وكل طلى تحبه بنات القرية وبنوها ، ويلى ذلك باعة الحلوى والحمص جاثمين على الموائد يلوحون بالجواليق

ويجوس الخلال باعة الشراب يدقون الكؤوس ، وبين هؤلاء وأولئك يندس جماعة السراق يفترصون الغرات ويفرون بأسلابهم

وللمتسولة جنود أهل بأس يرودون الأسواق والمضارب والمشارب كالذباب حول الموائد ولهم أديم من معدن الصفاقة وجلد على هوان النفس فى المسألة

وإن تلك الجموع الزاخرة من أهل القرى لتحوم حول كل متجر ويمنعها الاملاق من أن تمد له يداً حتى لكأنها الحرب الضروس بين العرض الملح وبين تنحى الناس وإعراضهم وكأنما أقيمت مناحة للكساد موتاها سلع البلاد

وتبلدت ألوف الدهماء فى مواقفها فنثرتها سياط الشرط بدداً ثم جمعتها يمنة ويسرة ، وكانت المناكب بباب المسجد ، وعز الولوج لغير السواعد وأهل البأس ، وإنك لتحس بين الضجيج أنات لأضالع وأعناق تدق ثم تنجلى عن شيوخ وغلمان ونسوة يزخرون بين الصحن والرواق وحول المحاريب ولهم دوى كألسنة الرعود لا يرعون جانب الله وما ينبغي لحرمة بيتـه من سكينة وخشوع فيحملون على الأكف كل أبرص ومجذوم ومعتوه . ويلوذون بأشباه الرجال ذوى الأزياء المنكرة من التمائم والمسابح ويرفعون عقائرهم بالرجس والإثم عداوناً على هذا الدين الحنيف ، وإيلاماً لذلك التقيّ المغيب فى آزال الله وكرامته

وعند باب الضريح طائفة من السدنة من أهل الخطر والعزة فى الرقيق الموشى من الديباج وعلى تيجانهم سمات الحسب العالى يرمقون صفوف العواد والزائرين حين يلجون الباب وحين يعرجون ، ولهم آذان مرهفة لترتيل آيات الذهب والفضة فى خزائن النذور

لقد كان النبي صلوات الله عليه جد هذا السيد البدوى يدعو لشد الرحال إلى ثلاثة : إلى بيت الله الحرام ، وإلى الحرم المدنى ، وإلى بيت المقدس بغير مزيد

فما أشد وجيعة ذلك السبط الهاشمى ، وأهل مصر يتخذون قبره مثابة للناس . وما أبعد الوجيعة فى قلوبنا معشر آل بيت النبى

ابراهيم جلال

ليلى المريضة بالعراق

للدكتور زكى مبارك

— ١ —

أخى الأستاذ الزيات

تحيتى إليك وإلى السامرين فى نادي الرسالة من كرام الأصدقاء . وتحيتى إلى القاهرة التى لا تقع فيها العين إلا على نجم أزهر أو كوكب لماح . وسلامى على مصر الجديدة وعلى سنتريس . ولو شئت لسلمت على مكتب تفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف حيث يحلو الجدل ويطيب الضجيج !

وبعد فإنك تعرف كيف رحلت إلى بغداد . أنت تذكر ولا ريب أن حكومة العراق طلبت أستاذاً للأدب العربى بدرجة دكتور ؛ وتذكر أن وزارة المعارف المصرية فهمت أن الغرض من ذلك مداواة ليلى المريضة بالعراق . وقد صرح بهذا حضرة صاحب العزة الأستاذ عوض إبراهيم بك ؛ وكان من المفهوم أنه لا يصلح لهذه المهمة غير مؤلف مدامع العشاق !

تلك هي الأسباب التى قضت برحيلى إلى العراق ، ولولا ذلك لبقيت فى القاهرة أحارب من أحارب وأسالم من أسالم ، وفقاً للنزق والطيش ، وطاعة لصديقنا الشيطان !

ولا أستطيع أن أصف كيف كانت الأيام التى سبقت رحيلى إلى العراق . فقد قضيتها فى درس الطب النفسانى والروحانى ، وزودت عقلى بأهم ما يعرف أقطاب العلم الحديث ، من أمثال الدكتور محجوب ثابت ، والدكتور محمد عبد الحى ، والدكتور منصور فهمي ، والدكتور طه حسين

ولم يفتني أن أستفتى بعض المولعين بدرس المشكلات الغرامية كالأستاذ محمد الهراوي ، والأستاذ محمد مسعود ، والموسيقار محمد عبد الوهاب

وكان فى النية أن أستفتي بعض الأقطاب من علماء الأزهر الشريف ، ولكن ضاق الوقت عن ذلك

وجاء يوم الرحيل ، والتفت فإذا محطة القاهرة تموج بعدد كبير من كرام الأصدقاء ، وكنت أظنهم جاءوا مودعين ، ثم دهشت حين رأيتهم لم يجيئوا إلا ليحمّلونى التحية إلى ليلى المريضة بالعراق !

وعند ذلك عاهدت نفسى وعاهدت الواجب أن أكون عندما يرجو المصريون والعراقيون من الظن الجميل . ولم يكد القطار يبرح محطة باب الحديد حتى أسلمت خيالى إلى مغريات الأحلام .

ولما وصلت إلى بيروت رجانى بعض الأدباء أن أقيم أسبوعاً فى ضيافة لبنان فأبيت وقلت كيف أتلبث فى الطريق والواجب يدعونى إلى عيادة ليلى المريضة فى العراق ؟ وكذلك كان حالى حين وصلت إلى دمشق ، فقد رجانى الأستاذ كرد على والأستاذ عبد القادر المغربى أن أقيم مدة بالشام فى ضيافة الأكرمين من أهل تلك البلاد ، فأبيت وقلت كيف أتمهل فى الطريق والهوى يدعونى إلى موافاة ليلى المريضة بالعراق !

ثم قضيت أربعاً وعشرين ساعة فى الطريق من دمشق إلى بغداد . ولا تسلنى كيف قضيت تلك الساعات الطوال ، فقد كانت الساعة كألف سنة مما تعدون بسبب القلق على ليلى المريضة بالعراق

ولما وصلت ألقيت أثقالى فى الفندق ، ومضيت بسرعة البرق إلى وزير المعارف أتلقى تعليماته فيما يختص بذلك الروح العليل

ستمضى الشهور والسنون ولا أنسى كيف لقيت وزير المعارف فى العراق ، فقد بدا رجلاً شاعراً لا يهمه غير الاطمئنان على ليلى المريضة بالعراق

وجلست فتحدثت معه فى كثير من الشؤون ، ولكنه لم يفتح الحديث عن ليلى ، فأخذ منى العجب كل مأخذ ، وخشيت أن تكون « قصة » ليلى قصة مخترعة ، وأننى كنت مخطئاً حين صدقتها من كبار الأطفال !

وذهبت إلى دار المعلمين العالية فأعطانى المدير جدولاً يقصم الظهر ، وهو دروس فى الأدب وفقه اللغة وتفسير القرآن ، وليس فيه أية إشارة إلى مداواة ليلى المريضة بالعراق . فتأكدت مرة ثانية أن قصة ليلى من اختراع الخصوم الألداء الذين أرادوا أن يستريحوا منى فزينوا لى الرحيل إلى العراق

ثم خطر بالبال خاطر طريف ؛ فقد حدثتنى النفس بأن مرض

ليلى لا يهم أهل العراق ، وإنما يهم المصريين ؛ وإذن فلا بد أن تكون المفوضية المصرية على بينة من هذه القضية . فأخذت عربة ومضيت إلى هناك فوجدت رجال المفوضية لا يعرفون شيئاً عن ليلى المريضة بالعراق ، وأن هذه القصة من أوهام الشعراء

وكذلك عرفت مرة ثالثة أن تلك الحكاية لم تكن إلا خداعاً فى خداع

***

قضيت الأسبوع الأول وأنا فى همٍّ مُقْـعِد مقيم . وهل كان يعوزنى أن أدرس الأدب وفقه اللغة والتفسير ؟ هل ضاقت معاهد القاهرة عن رجل مثلى حتى يرحل إلى العراق ليكون أستاذاً للأدب فى مدرسة عالية ؟ إنما كنت أرجو أن أؤدى رسالة عجز عنها الزيات والسنهورى وعزام ، ثم قضى الحظ العاثر أن أكون رجلاً « عبيطاً » لا يدرك وجه المِحال ، فى أحاديث الرجال

وفى الأسبوع الثانى تلقيت رسالة من القاهرة : رسالة من الآنسة جيمى التى ملكت نهاى حيناً من الزمان ، وهى تسأل وتلح فى السؤال عن ليلى المريضـة بالعراق . وللآنسة جيمى حقوق ، فقد كانت أوهمتنى فى السنين الخالية أن الهوى إلٰه معبود ؛ وبالرغم من تجنّيها فى الأيام الأخيرة فقد أحسست أن إشارتها أمر يجب أن يطاع . ومنّيت نفسى برضاها فى الليالى المقبلات ، حين يسمح الدهر بمسامرة الأنجم الزهر على ضفاف النيل . فهل ترانى أعيش إلى ذلك العهد يا صديقى الزيات ؟ وهل أعاقر الهوى من ذلك الرضاب بعد أن تدول دولة الفراق ؟

ولـكن ماذا أصنع ؟ هل أخترع قصة جديدة عن ليلى المريضة بالعراق أصـل بها إلى قلب الآنسة جيمى ؟ وكيف وأنا رجل لا يجيد اختراع الأقاصيص ؟ ومعشوقتى تميز بين الصحيح والمزيف من أحاديث الوجدان ! رعاك الله يا جيمى وأرانى وجهك الجميل ؟

***

ما أعجب ما تصنع المقادير ! هذا رجل يسأل عنى بالتليفون تسع مرات فى كل يوم ؛ وها هو ذا ينقلنى بسيارته إلى منزله الفخم بالـكاظمية ، ويسألنى كيف وجدت ليلى ، فأتضاحك وأنا محزون ، وأقرر أن ليـلى اسم اخترعه العابثون من الشعراء ؛

وعندئذ ينفجر الرجل بالبكاء ويقول : إن ليلى لا تزال مريضة بالعراق ، ولـكن العراقيين يتجاهلون ذلك ، لأنهم فى هذه الأيام مرضى بالجد والنشاط ولا يحبون أن يعرف أحد أنهم أهل وجدان . ولا تعجب إن كتم عنك رجال المفوضية المصرية أخبار ليلى ، فهم قوم دبلوماسيون لا يرون الخروج على الوقار الذى تصطنعه حكومة العراق

وما أ كاد أسمع هذا حتى أجذب الرجل من ذراعه وأمضى به كالمجنون لأعرف كيف حال ليلى ، وما هى إلا لحظات حتى تقف السيارة على بيت متواضع فى شارع العباس بن الأحنف ، أحد شوارع بغداد ، وأطرق الباب برفق كأننى على ميعاد ، وتخرج وصيفة فتقول : « من الطارق ؟ » فأقول : « أنا الدكتور زكى مبارك » فتقول : « أدخل بسلام ، فإن ليـلى تنتظرك منذ سنين »

« للحديث بقية »

زكى مبارك

مطبوعات

لجنة التأليف والترجمة والنشر هذا الشهر

الثمن م	اسم الكتاب
٠١٨	أخبار أبى تمام للصولى
٠٢٠	أمراء البيان للأستاذ محمد كرد على فى جزءين
١٥٠	النقض فى المواد المدنيـة والتجارية للأستاذين حامد فهمى ومحمد حامد فهمى
٠١٥	الطرائف الأدبية ويشتمل على جملة دواوين شعراء لم يسبق نشرها منها ديوان الصولى والمختار من دواوين المتنبى والبحترى وأبى تمام للإمام عبد القاهر الجرجانى

وتطلب هـذه الـكتب من اللجنة بدارها رقم ٩ بشارع الـكردامى بعابدين ومن المـكاتب الشهيرة

ألحانه صوفية

جيتـــانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

جيتنجالى كلمة هندية بنغالية معناها «القرابين الغنائية» وهى أناشيد صوفية تبلغ ١٠٣ نشيد، نظمها طاغور فى البنغالية ثم نقلها بنفسه إلى الانجليزية، وشهرتها فى الأدب العالمى كشهرة رباعيات الخيام، وهى تمثل الروح العالية على فلسفة طاغور من جهة، والطبيعة الصوفية المميزة للبوذية من جهة أخرى. وسننشرها كلها مترجمة بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ١ —

أنت خلقتنى أبدياً، تلك مشيئتك. وهذا الحطام الفانى — جسمي — أنت تفرغه مرة ومرة ثم تملأه بالحياة الغضة

هذا الناى الصغير أنت علوت به وهبطت، ثم وقّعت عليه أنغاماً سحرية خالدة، وحين لمست يداك قلبي الضعيف لمسة إلهية شاع فيه السرور وانبعث منه لحن أخاذ، وبين يدىّ الضعيفتين استقبلت آلاءك العظمى، والأعوام تتصرم وأنت ما تزال تحبونى وفى قلبي شوق وطمع

— ٢ —

وحين أمرتنى أن أرتل نشيدى خُيِّل إلي أن قلبي يهتز من أثر الفرح والكبرياء معاً؛ ثم رحت أتوضح وجهك فاغرورقت عيناى بالدموع

كل ما فى حياتى من شدة وضيق يذيبه لحن جيل، وصلواتى تنشر علىّ جناحين رفيقين كما يفعل الطير الطروب وهو يدف بجناحيه فوق أمواج البحر

أنا أوقن أن أغانىّ تطربك، وأنى حين أغنى أكون في حضرتك وبرغم أن أغانىّ وهى تعلو مصعدة تكاد تبلغ قدميك؛ فأنا لا أستطيع أن أصل إليها

لقد غُمّ علىّ حين سيطرت علىّ نشوة التغريد، فناديتك: يا صديق؛ وأنت إلـهى

— ٣ —

لست أدري كيف ترسل ألحانك، يا إلهى! وأنا — دائماً أتسمع فى لهفة

إن نور موسيقاك يضىء العالم، وأنفاسها تنقل من سماء إلى سماء، وسَكْبها القدس يحطم العوائق الصلبة لينفذ

لقد تمشق قلبى أن يسمع ألحانك، ولكن عبثاً حاول أن يظفر بصوت. سأتحدث حديثاً لا يحور إلى أغنية. بل إلى صيحة اليأس. آه إن ألحانك الأبدية قد جذبت إليها قلبي، يا إلهى

— ٤ —

يا روح حياتى سأحفظ — دائماً — جسمى طاهراً لأننى أعرف أن لمساتك الرفيقة تحوطنى

سأحول — دائماً — بين أفكارى وبين الأكاذيب، لأنك وأنت الحق، بعثت فى قلبي شعاع الحق

سأنزع — دائماً — عن قلبي الرذائل ليظل حبي لك طاهراً فأنت تتربع فى قلبي

ثم أجعل همى أن أكشف أمامك عن كل ما أعمل، لأنك أنت الذى تسبغ على القدرة على العمل

— ٥ —

أنا أسألك لحظة فيها الرضا أجلس فيها إلى جانبك، وأؤجل ما بين يدى من عمل إلى ما بعد

إن قلبي لا يستقر ولا يهدأ إن حرمت النظر إلى طلعتك لأغتمر فى لجة من العمل المضنى ... لجة لا شاطىء لها

اليوم نفح الصيف أول زفراته لدى نافذتى، والنحل بين الزهور يرتل أنغامه

هذا وقت أجلس فيه بإزائك هادئاً؛ وفى هذا الصمت والفراغ والهدوء، أترنم بأناشيد الحياة المقدسة

— ٦ —

اقطفْ هـذه الزهرة الصغيرة — يا سيدى — وخذها. لا تستأن! فأنا أخشى عليها الذبول والسقوط؛ لعلها لا تجد مكاناً في بستانك، ولكن شرِّفها بلمسة بنانك، فأنا أخاف أن تنطوي الأيام قبل أن أستطيع تقديمها لك هدية

إن لونها ليس أخاذا، وريحها ليس نفاذا؛ ولكن اقطفها فقد يكون فيها النفع ... اقطفها حين تسنح الفرصة

— ٧ —

لقد نزعت عن لحني الزخرف، فما فيه برقشة ولا تنميق؛ لأن زخرف القول يفسد ما بيننا، ويحول بينى وبينك، ورنّاته تخفى عني همساتك

إن عبارات الصلف فى شعري تتلاشى أمام ناظريك يا إله الشعر . أنا جاثم عند قدميك أريد أن تنفث في حياتي البساطة والنقاوة كنغم ساحر انبعث من نايك

— ٨ —

إن الطفل الذى تثقله مطارف الإمارة ، وتزينه القلائد الذهبية ، لا يجد اللذة في ألعوبته لأنه يرسف فى قيود من ثيابه وهو ينزوى عن العالم خشية أن تتلوث أو تتعفر ، فهو يخاف كل شىء حتى الحركة

أيتها الأم ! لا تثقلى ابنك بالزينة فهى تحجبه عن تراب الأرض الصحى، وتسلبه من النهج القويم الذى يقوده إلى البهجة العظمى فى حياة الانسان العامة

— ٩ —

يا لحمق الغبي الذى يحاول أن يحمل نفسه على كتفيه إن كدّه السير ! يا لغفلة الشحاذ الذى يقف أمام باب داره يستكف ألق ما أثقلك بين يدى من لا يثقله أن يحمل كل شئ ، ثم لا تلتفت إلى وراء فى حسرة

إن أمانيك تطفئ بأنفاسها نور السراج . حرام أن تأخذ ما ليس لك بيدين آثمتين ، ولكن خذ ما أعطيت فى قناعة ورضا

— ١٠ —

هنا آثار سيرك ؛ وهناك تطمئن قدماك ... هناك حيث يعيش الفقير والوضيع والضائع

وإذا سجدت لك فجبهتى لا تبلغ الأعماق حيث تطمئن قدماك بين الفقير والوضيع والضائع

إن الكبرياء لن تبلغ موطئ قدميك وأنت تتهادى فى ثوب من التواضع بين الفقير والوضيع والضائع

إن قلبى لا يجد السبيل إلى حيث تصحب من لا رفيق له بين الفقير والوضيع والضائع

— ١١ —

دع عنك التراتيل والأغاريد والتسابيح ! من الذى تتحنث له فى هذا الخلاء المظلم من متعبَّدِك وبابك مغلق ؟ افتح عينيك فلن تجد إلهك أمامك !

إنه هناك عند الفلاح وهو يعزق الأرض الصلبة ، هو عند العامل وهو يحطم الصخور القاسية ؛ إنه بإزائهما تحت حرور الشمس ووابل المطر ، ولباسه معفر بالتراب . اخلع طيلسانك المقدس واهبط مثله إلى تراب الأرض

التواكل ؟ أين هو التواكل ؟ إن إلهنا نفسه قد أخذ نفسه — فى لذة — بأن يتكفل عباده ؛ وهو بيننا إلى الأبد

إنزع عنك تأملاتك ، ودع أزهارك وبخورك ! ماذا يضيرك إن مزقت ثيابك ولوثت ؟ أخرج إليه ، وقف بإزائه كادحاً والعرق يرفضُّ من جبينك

— ١٢ —

إن سفرى بعيد وطريقه طويل

لقد انطلقت عند أول شعاع من النور ، واندفعت أضطرب فى أنحاء العالم الموحش أرى هدْى أمرى بين النجوم والكواكب

إنها مسافة أطول مما يخيّل إليك ، وهى تجربة قاسية تنتهى إلى السهولة ... إلى لحن

إن المسافر يضطر إلى أن يقرع كل باب ليتعرف بابه هو ، وهو يضرب فى أرجاء الأرض ليصل — فى النهاية — إلى المحراب العظيم

لقد انطلق بصرى يطوق العالم قبل أن أحشدهم وأغلق عليهم الباب ثم أقول : « ها أنتم هنا ! »

ودوت الصيحة : « أوه ! أين ؟ » ثم ذابت الصيحة إلى عبرات تتدفق ؛ ثم غمر الأرض سيل من الإيمان ينادى « أنا ! »

كامل محمود حبيب

الإسلام والسيف!

للأستاذ محمد كامل حته

« مهداة إلى الأستاذ خليل جمعة الطوال »

إن من الجناية على الحق والافتراء على التاريخ أن يقول قائل إن الإسلام قد انتشر بالسيف! أي سيف كان يحمله محمد، وهو الأعزل الذى لا حول له ولا قوة، الوحيد الذى لا ناصر له ولا معين، يناله السفهاء بالأذى فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ويأتمر به قومه ليقتلوه فيفر بحياته إلى يثرب؟ ...

لقد ظل محمد — صلى الله عليه وسلم — ثلاثة عشر عاماً يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يكن له من سلاح غير ثقته بالله وإيمانه بأنه على حق، ولقد لاقى هو وأصحابه في سبيل هذه الدعوة من ضروب الفتنة والاضطهاد مالا يثبت عليه إلا الذين عمرت قلوبهم بالإيمان، واستيقنت أنفسهم من نصر الله!

كان الرسول يوماً يصلي في الكعبة، وبينما هو ساجد إذا بعقبة بن أبي معيط، يطأ عنقه الشريف حتى كادت عيناه تبرزان... وخنقه بردائه خنقاً شديداً، والناس من حوله شامتون، حتى أقبل أبو بكر مشتداً وخلص الرسول منه وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟

ولما خرج إلى الطائف يدعو أهلها للإسلام، أغروا به سفهاءهم فترصدوا له بالطريق وأخذوا يحصبونه بالحجارة حتى تخضبت قدماه بالدماء!

ولما أبى عمه أبو طالب أن يسلمه إليهم ليقتلوه تعاهدوا على مقاطعة أوليائه من بني هاشم، ودامت هذه المقاطعة ثلاث سنين لقي فيها هذا البيت الكريم من العنت والإرهاق أعظم البلاء...

وعذب عمار بن ياسر وأهله عذاباً شديداً، فكان الرسول يمر بهم وهم في العذاب ويقول: صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة!

ومن ذلك أن أبا جهل طعن سمية أم عمار بحربة فقضى عليها فشكا عمار ذلك إلى الرسول قائلاً: يا رسول الله، بلغ منا العذاب كل مبلغ! فقال صلى الله عليه وسلم: «اصبر أبا اليقظان، اللهم لا تعذب من آل ياسر أحداً بالنار!»

وقد استشهد أفراد هذه الأسرة الكريمة في سبيل الله، ولم يبق منهم إلا عمار الذى كان يعذب حتى لا يعي ما يقول

وممن عذب في سبيل العقيدة بلال بن رباح كان مملوكاً لأمية ابن خلف، فلما اعتنق الإسلام حنق عليه سيده وأمره بالرجوع إلى عبادة الأصنام، فلم ينصع لأمره لأنه ذاق حلاوة الإيمان، فأنزل به ألواناً من العذاب: كان يطرحه على الرمضاء، ويبهظ على صدره دروع الحديد، ويضع عليه الأحجار الثقيلة حتى قُدّ ظهره! وهو يهتف دائماً: أحد، أحد، إلى أن أنقذه أبو بكر فاشتراه من سيده، وأعتقه لوجه الله...

وكثير غير هؤلاء ممن آمنوا بمحمد في مبدأ بعثته، كانوا يلاقون العذاب الهون والبلاء العظيم، حتى أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لمن ليس له أنصار يحمونه من هذا العدوان أن يفر بدينه إلى الحبشة، فهاجر إليها جم غفير. واستأذن أبو بكر في الهجرة إليها فأذن الرسول صلى الله عليه وسلم له، فلما كان على مسيرة يومين، لقيه ابن الدغنة سيد قومه فسأله: أين تريد يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، قال: إن مثلك لا ينبغي أن يَخرج أو يُخرج من أرضه؛ ثم رجع به إلى قريش وأدخله في جواره، على شرط أن يعبد الله

فابتنى أبو بكر مسجداً بفناء منزله، وصار يصلي فيه ويتلو كتاب الله، فكان نساء قريش وشبانهم يجتمعون حول داره، يستمعون لتلاوته، ويؤخذون ببلاغة القرآن وروعته! ففزع القوم وشكوا أبا بكر إلى حليفه، فأغلظ الحليف لأبي بكر في القول وقال له: إما ألا تستعلن بعبادتك، وإما أن تعيد إليّ ذمتي. فقال أبو بكر: إني أرد لك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل

* * *

فكيف اجتمع هؤلاء الناس على محمد؟ أبالسيف وهو أعزل لا يستطيع أن يعصم نفسه؟ ومتى كان السيف وسيلة لتكوين العقائد في النفوس؟

ولماذا باعوه أرواحهم يبذلونها رخيصة في سبيل دعوته؟ أطمعاً في مال وهو فقير لا يكاد يملك من حطام الدنيا شيئاً؟ ومتى

كان للمال هذا السلطان القاهر على العقول والأفهام ؟

كلا ؛ لا بهذا ولا بذاك ، وإنما بهذا الدين الحنيف الذى استحوذ على العقول وأخذ بمجامع القلوب ، وبهذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى حين سمعه وفد الحبشة من القسس والرهبان ، خشعت قلوبهم وفاضت أعينهم وأسلموا لله رب العالمين ، فنزل فيهم قوله تعالى : « ... ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين »

ولقد ظل المسلمون على هذه الفتنة الطاغية فترة من الزمن ، حتى إذا استفحل الخطب وعظم البلاء ، شرع الله لهم القتال دفاعاً عن النفس وذباً عن الدين ، فقال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » ، « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير »

كان موقف الاسلام إذن موقفاً سلبياً فى حروبه الأولى ، لا يقصد به غير الدفاع عن أهله ، ورد عدوان المتدين . فلما استقرت قواعده ، وانتهت إليه الخلافة فى الأرض ، كان عليه أن يقف موقفاً إيجابياً لحماية المؤمنين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »

وهذا يدل على أن الحرب فى الإسلام وسيلة لدرء المفاسد وإقرار السلام ، لا إرضاء لشهوة الفتح والاستعباد . وإذا كان الاسلام قد حث على الاستعداد الحربى بقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » فانما يرمى بذلك لإطفاء جذوة الحرب فى نفوس الأعداء ، وهو ما يعرف فى هذا العصر بالتسلح السلمى !

وهذه مبادئه الحربية شواهد ناطقة بعدله ورحمته وإحسانه ، انظر إليه يأمر بالسلم إذا جنح إليها العدو ، ولو كان جنوحه خداعاً ومخاتلة : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم ؛ وإن يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين »

وما تم في معاهدة الحديبية ، يدل على مبلغ حرص الرسول — صلى الله عليه وسلم — على السلم وكراهية الحرب ، فقد رضى أن توضع الحرب بين المسلمين والمشركين عشر سنين ، فى الوقت الذى كان المسلمون يتحرقون على القتال ، وينتظرون منه كلمة واحدة ، يندفعون بعدها كالسيل الجارف صوب مكة ، حيث ينتصفون لأنفسهم وللإسلام من أولئك الذين أخرجوهم من ديارهم بغير حق ، فكان الرسول حائلاً بينهم وبين ما يشتهون ، حتى كادت تحدث بينهم فتنة عمياء لولا أن الله سلم ...

وكان الرسول يوصى أتباعه دائماً فى الحروب بقوله : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ؛ لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلاً بصومعته ، ولا تحرقوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء ! »

هذه مبادئ الإسلام فى الحرب ، وهي أرحم بالإنسانية وأشرف غاية من المبادئ السلمية — ولا أقول الحربية — التى تطبقها الدول القوية على الأمم الضعيفة باسم المدنية فى هذا العصر

وإليك هذا الموقف الرائع النبيل ، حين فتح الرسول مكة ، ومكنه الله من رقاب قريش ، وقد وقف على باب الكعبة والناس من حوله ينتظرون كلمة الفصل : فإما موت وإما حياة ! فقال لهم : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ! فكان ذلك سبباً فى إسلام قريش بأجمعها ، وحقن دمائهم ودماء المسلمين

فالقول إذن بأن الإسلام انتشر بالسيف فرية باطلة ، وإنما انتشر الإسلام بالحجة والبرهان ، وبسماحة مبادئه ومتانة أصوله . ولا عجب فهو الذى يقول : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم »

« حلوان الحمامات » **محمد كامل منه**

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٥ —

« هي رسائل الأحزان ، لا لأنها من الحزن جاءت ، ولكن لأنها إلى الحزن انتهت ؛ ثم لأنها من لسان كان سلماً يترجم عن قلب كان حرباً ؛ ثم لأن هـذا التاريخ الغزلي كان ينبع كالحياة وكان كالحياة ماضياً إلى قبر ... ! »

« الرافعي »

رسائل الأحزان

خرج الرافعي من مجلس صاحبته مغضباً ، في نفسه ثورة تَوَّج وفي أعراقه دم يفور ، وفي رأسه مرجل يتلهب ؛ وكتب إليها كتاب القطيعة وأرسل به ساعي البريد ، ثم عاد إلى نفسه فما وجد فيما كتب شفاء لنفسه ، ولا هدوءاً لفكره ، ولا راحة في أعصابه ؛ وأحس لأول مرة منذ كان الحب بينه وبين صاحبته أنه في حاجة إلى من يتحدث إليه ؛ وافتقد أصحابه فما وجد منهم أحداً يبثه أحزانه ويفضى إليه بذات صدره ويطرح بين يديه أحماله . لقد شغله الحب عن أصحابه عاماً بحاله لا يلقاهم ولا يلقونه ولا يتحدث إليهم ولا يتحدثون ؛ فلما عاد إليهم كان بينه وبينهم من البعد ما بين مشرق عام ومغربه بلياليه وأصباحه وتاريخه وحوادثه . وثقلت عليه الوحدة وضاقت بها نفسه ، ففزع إلى قلمه يشكو إليه ويستمع إلى شكاته ، فكتب الرسالة الأولى من « رسائل الأحزان » إلى صديقه الذي خصه بسره ... إلى نفسه ...

كان ذلك في مساء ٢١ من يناير سنة ١٩٢٤

وترادفت رسائله من بعد مسهبة ضافية يصف فيها من حاله ومن خبره وما كان بينه وبين صاحبته ، في أسلوب فيه كبرياء التكبر ، ولوعة العاشق ، ومرارة الثائر الموتور ، و ... وذلة المحب المفتون يستجدي فاتنته بعض العطف والرحمة والحنان

وانتهى من كتابة « رسائل الأحزان » في مساء ١٧ من فبراير سنة ١٩٢٤

***

يخاطب الرافعي نفسه في « رسائل الأحزان » على أسلوب (التجريد) ، فهو يزعم أنها رسائل صديق بعث بها إليه ، فتراه يوجِّه الخطاب فيها إلى ذلك الصديق المجهول يستعينه على السلوان بالبث والشكوى ؛ ثم يصطنع على لسان ذلك الصديق نتفاً من الرسائل يدير عليها أسلوباً من الحديث في رسائله هو ، وما هناك صديق ولا رسائل ، إلا الرافعي ورسائله ، يتحدث بها إلى نفسه عن حكاية حبه وآماله وما صار إليه

أو قل : إن الرافعي في هـذه الرسائل جعل شيئاً مكان شيء ، فأنشأ هذه الرسائل إلى صاحبته ثم نشرها كتاباً تقرؤه لتعلم من حاله ما لم تكن تعلمه ، أو ما يظن أنها لم تكن تعلمه ؛ فهي رسائله إليها على أسلوب من كبرياء الحب ، تشفي ذات نفسه ولا تنال من كبريائه

وفي بعض حالات الحب حين تقف كبرياء العاشق بينه وبين ما يريد إعلانه ، وتقف النفس وقفتها الألمية بين نداء القلب وكبرياء الخُلُق ، يتمنى العاشق لو كان له ملء الفضاء ليهبه إلى من يحمل عنه رسالة إلى حبيبتـه من غير أن يعترف بأنه رسول ... ! وتكون أبلغ الرسائل عنده أن يكتب إلى حبيبته : « إنه يحبك » يعني : « أنا أحبك ! » ويتحدث إليها عن نفسه بضمير الغائب وهو من مجلسها على مرأى ومسمع ، ومن لفتات قلبها وقلبه على مشهد قريب ... !

وبهذ الأسلوب تحدث الرافعي عن نفسه بضمير الغائب في رسائل الأحزان

« أنا ... » هـذا الضمير الذي لا يتحدث به متحدث إلا سمعتَ في نَبْره معنى شموخ الأنف ، وصَعَر الخد ، وكبرياء الخُلُق ؛ لا يؤدي في لغة الحب إلا معنى من التذلل والشكوى والضراعة ، فما تسمعه من العاشق المفتون إلا في معنى اليد الممدودة للاستجداء ، وما تقرأ ترجمته في أبلغ عبارة وأرفع بيان وأكبر كبرياء إلا في معنى : « أنا محروم ... ! »

يا عجباً للحب ! كل شيء فيه يحول عن حقيقته حتى ألفاظ اللغة وأساليب الكلام ... !

وكذلك كان الرافعي يقول فى رسائل الأحزان : « هو » ويعني : « أنا ... » لأنه لا يريد أن يبتذل كبرياءه فى لغة الحب...

* * *

إننى أحسب الرافعى لم يكتب رسائل الأحزان لتكون كتاباً يقرؤه الناس ، ولكن لتقرأه هى ، وهى كل حسْبه من القراء ؛ فمن ذلك لم يجر فيها على نظام المؤلفين فيما يكتبون للقراء من قصة فيها اليوم والشهر والسنة ، وفيها الزمان والمكان والحادثة ؛ بل أرسلها خواطر مطلقة ، لا يعنيه أن يقرأها قارئها فيجد فيها اللذة والمتاع أو يجد فيها الملل وحيرة الفكر وشرود الخاطر

ولم يكتبها — كما يزعم — رسائل أدبية عامة تتم بها العربية تمامها فى فنٍّ من فنون الرسائل لم يُؤْثَر مثلُه فيما نقل إلينا من تراث الكتاب العرب ، ليحتذيه المتأدبون وينسجوا على منواله ؛ بل هى رسائل خاصة تترجم عن شيء كان بين نفسين فى قصة لم يذكرها فى كتابه ولم ينشر من خبرها

وبذلك ظلت « رسائل الأحزان » عند أكثر قراء العربية شيئاً من البيان المصنوع تكلَّفه كاتبُه ليحاول به أن يستحدث فنًّا فى العربية لم يوفق إلى تجويده . على أنه كتاب فريد فى العربية فى أسلوبه ومعانيه وبيانه الرائع ، ولكنه بقيةُ قصةٍ لم تنشر معه ، فجاء كما تأكل النار كتاباً من عيون الكتب فما تُبقى منه إلا على الهامش والتعليق وصُلْبُ الكتاب رماد فى بقايا النار ...

فمن شاء أن يقرأ رسائل الأحزان فليقرأ قصة غرام الرافعي قبل أن يقرأه ، فسيجد فيه عندئذ شيئاً كان يفتقده فلا يجده ، ولسوف يوقن يومئذ أن الرافعى أنشأ فى العربية أدباً يستحق الخلود

* * *

قلت : إن الرافعى أنشأ رسائل الأحزان ليكون رسالة إليها هى ، فهذا كان أول أمره فيما بينهما من الرسائل التى قلت عنها فيما سبق إنهما كانا يتبادلانها على أعين القراء من غير أن يذيع السر أو ينكشف الضمير ، ومن غير أن يسعى بينهما حامل البريد ؛ ولقد ردّت صاحبته ردَّها على رسالته هذه برسالة مثلها بعثتْ بها إليه مع بائع الصحف والمجلات ... ثم تتابعت رسائلهما من بعد على هذا الأسلوب العجيب

وسيأتى يوم يُدرس فيه أدب (فلانة) صاحبة الرافعى ، وسيجد الباحثون يومئذ لوناً لذيذاً من البحث إذ يعثرون على رسائلها إليه فى بعض كتبها ومقالاتها ، وليس بعيداً أن يقرأ الأدباء يومئذ كتاباً جديداً بعنوان « رسائلها ورسائله » بتاريخها وزمانها وأسبابها ، مقتبسةً مما نَشر ونشرتْ فى الصحف والمجلات من مقالات وأقاصيص بين سنة ١٩٢٤ و سنة ١٩٣٦

أيها الباحث الذى سيأتي أوانه ، ابحث عن حَشْو القول وفضول الكلام فى مقالاتها ومقالاته ، واقرِنْ تاريخاً إلى تاريخ وسبباً بسبب ، لتنشر لنا رسائلها ورسائله فى كتاب ... !

* * *

أرانى لم أتحدث عن « رسائل الأحزان » كما يتحدث كاتب من الكتاب عن كتاب من الكتب ، فليس هذا إلىّ ، وإنما قدمت وسائل القول لمن يريد أن يقول ؛ وأحسب أن كلاماً سيقال عن رسائل الأحزان من بعدُ غيرَ ما كان يُقال ، وأعتقد أن الدكتور طه حسين بك لن يكرر مقالته التى قالها فيه من قبل ، يوم أشهدَ الله على أنه لم يفهم منه حرفاً ؛ وأعتقد أن الدكتور منصور فهمي بك لن يقتصر على قوله فيه من قبل : « إن معانيه من آخر طراز يأتى من أوربا ... » لأنه سيجد مجالاً للقول فى غير معانيه وبيانه

* * *

ولكن فى رسائل الأحزان شيئاً غير ما قدمت من أشيائه ، ذلك لأن الرافعى — رحمه الله — كان ولوعاً بأن يضيف إلى كل شيء شيئاً من عنده ؛ وتلك كانت طبيعته فى الاستطراد عند أكثر ما يكتب

سيجد الباحث فى رسائل الأحزان عند بعض الرسائل وفى هامش بعض الصفحات من الكتاب ، كلاماً وشعراً لايتساوق مع القصة التى رَويت . ألا إن الرافعى كانت تغلبه طبيعته الفنية في الكتابة أحياناً فيستطرد إلى ما لا يريد أن يقول ؛ ليثبت معنى يخشى أن يفوته ، أو ليذكر حادثة يراها بالحادثة التى يرويها أشبه ، أو لأن تعبيراً جيلا وجد موضعه الفني

من الكلام وإن لم يجد موضعه من الحادثة ؛ فان رأى الباحث شيئاً من ذلك فلا يداخله الريب فيم أثبت من الحقيقة التي أرويها كما أعرفها

وسيجد في بعض الرسائل حديثاً وشعراً عن لبنان وأيام لبنان ؛ وما عرف الرافعي صاحبته إلا في مصر وإن كان مولدها هناك . فليعلم من يريد أن يعلم ، أن صاحبة الرافعي هذه لم تكن هي أولى حبائبه ، وقد كان له قبل أن يعرفها في الغرام جولان ؛ وكان بعض من أحب قبلها فتاة أديبة عرفها في لبنان ، وهي سَمية صاحبتنا هـذه ؛ وكان بينهما رسائل أثبت الرافعي بعضها في « أوراق الورد » ، ومن أجلها أنشأ الرافعي كتابه « حديث القمر » ، على أن عمر الحب لم يَطُل بينهما ، إذ تزوجت وهاجرت مع زوجها إلى أمريكا لتشتغل بالصحافة العربية هناك — وما تزال — فما جاء في رسائل الأحزان من حديث لبنان وذِكر أيامٍ هناك ، فهو بقية من ذكرى صاحبة « حديث القمر » أقحمه في رسائله حرصاً عليه وبخلا به على الضياع

* * *

لقد كان حب الرافعي الأخير حادثة في أيامه فعاد حديثاً في فكره ، ورسائل الأحزان هي أول ما أنشأ من وحي هـذا الحب ؛ على إن قارئه يقرؤه فما يعرف أهو رسالة عاشق ألحّ عليه الحب أم زفرة مبغض يتلذّع بالبغض قلبه ؛ والحق أن الرافعي أنشأه وهو من الحب في غمرة بلغت به من الغيظ والحنق أن يتخيل أنه قادر على أن يبغض من كان يحب ، بغضاً يرد عليه كبرياءه وينتقم له ؛ فما فعل إلا أن أعلن حبه في أسلوب صارخ عنيف كما تحنو الأم على وليدها في عنفوان الحب فتعضه وإنها لتريد أن تقبله ، أو كما تقسو ذراع الحبيب على الحبيب تضمه في عنف وما بها إلا الترفق والحنان ... !

وطبع الرافعي كتابه وأنفذه إلى صاحبته ، فكتبت إليه ... وثارت ثورة الرافعي مرة ثانية فأصدر « السحاب الأحمر »

« شبرا » **محمد سعيد العريان**

* * *

إلى الآنسة الأديبة أمينة شاكر فهمي بالجيزة ، وإلى الصديق الكريم محمد الخالد توفيق ببني مزار : لأشكر لهما رأيهما فيما أكتب عن أدب الرافعي ، ولأثنى على براعتهما في الاستنباط وتوفيقهما في معرفة اسم صاحبة الرافعي

مقالات إسماعيلية

لأستاذ جليل

— ٩ —

(فصل) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من عرف نفسه عرف ربه) وقال عليه الصلاة والسلام : (عرفت ربي بربي) أشار إلى أنك لست أنت إنما هو أنت بالهوانت لا هو داخل فيك ، ولا أنت داخل فيه ، ولا (هو) خارج منك ، ولا أنت خارج منه . وما عنى بذلك أنك موجود وصفتك هكذا بل عنى به أنك ما كنت ولا تكون إلا بنفسك لاهويتك المضنونة هي العدم ، فأنت لا فان ولا موجود . أنت هو وهو أنت بلا علة من هذه العلل ، فإن عرفت وجودك هكذا فقد عرفت الله تعالى وأكثر العارفين (أضافوا [١]) معرفة الله تعالى إلى فناء الوجود وإلى فناء فنائه (فهذا [٢]) إثبات الشرك ؛ فإن معرفة الله تعالى (لا) تحتاج إلى فناء الوجود ، ولا إلى فناء فنائه ، ولا شيء لا وجود شيء ، وما لا وجود (له) لا فناء له ، فإن الفناء لا يكون إلا بعد إثبات الموجود ، والوجود الإضافي عدم ، والعدم لا شيء ، فإن عرفت نفسك بلا وجود ولا فناء فقد عرفت الله تعالى . قال السيد راشد الدين (علينا منه السلام) : « لولانا [٣] بشهوتنا للاشياء لما كان إلا الله ولا شيء سواه . وفي إضافة معرفة الله تعالى (إلى) فناء الوجود وإلى فناء فنائه إثبات الشرك ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من عرف نفسه عرف ربه) ولم يقل من أفنى نفسه عرف (ربه) فإن إثبات الغير تناقض فنائه ، وما لا يجوز ثبوته لا يجوز فناؤه ، ووجودك ووجوده لاشيء لا يضاف إلى شيء . أشار عليه الصلاة والسلام إلا أنك معدوم كما كنت قبل متكوناً التقدر [٤] فلا أن الأزل والأبد والله تعالى (موجودون) هو وجود الأزل والأبد ، وذات جميع الموجودات والوجود ولو لم يكن كذلك ما كان إلا الله وحده بنفسه لا يوجد الله تعالى فيكون رباً ثابتاً وهو محال ، فليس لله تعالى شريك في ملكه ولا ند ولا كفؤ . ومن (جمل) لا شيء مع الله وهو محتاج إلى الله فقد جمل ذلك

(١) ، (٢) هاتان الكلمتان زيدتا إذ لا بد من ذلك ، وفي هذا الفصل تحريف كثير مفسد (٣) لولا أنا (٤) كذا

الشيء شريكا له لأنه محتاج إليه . ومن توهم موجوداً سواه قائماً به ثم يصير فانياً (١) فناءه ويصير فانياً فى فنائه فتسلسل الفناء بالفناء شركا بعد شرك . ومن كان هذه معرفته فهو مشرك لا عارف ، والعارف بالله وبنفسه هو الذي يعلم أن الله كان ولم يكن معه شيء وهو الآن كان ، فإن قيل : إن النفس ليست هي الله ولا الله تعالى هو النفس ، قلنا : إن النفس هي وجودك وحقيقتك إلا النفس اللوامة والأمارة والمطمئنة . وأشار النبي صلعم الى الأشياء الموجودة فقال عمّ (ربى أرنى الأشياء كما هي) وعني بالأشياء كما توُهِّمَ أنها غير الله (تعالى) أي عرفني ما سواك من سائر الأشياء لا أعلم هل هي أنت أم غيرك ؟ وهل هي قديمة أم باقية أم فانية ؟ فأراه الله ما سواه ، فإذا هى نفسه بلا وجود ما سواه ، فرأى الأشياء كما هي ، أعنى رأى الأشياء ذات الله بلا كيف ولا أين لأنه هو تعالى هوية الكل بالحقيقة ، واسم الأشياء يقع على النفس من الأشياء ، فإن وجود النفس ووجود الأشياء شيئان فى المشيئة التى عرفت الأشياء وعرفت النفس ، ومتى عرفت النفس عرفت الرب ، لأنه الذى تظن أنه غير الله ليس هو سوى الله ، ولكنك ما تعرفه وأنت (لا) تراه ، ولا تعلم أنك هو فإذا عدّمت إياك فى ذاته بذاته لذاته علمت أنه كنه مقصودك وغاية مطلوبك وعلمت أن « كل شيء هالك إلا وجهه » أعنى لا موجود إلا هو وجود لغيره مع وجوده فيحتاج (كل شيء) إلى الهلاك ، ويبقى وجهه أعنى لا شيء إلا وجهه ، أعني لا نفس إلا نفسه ، ولا وجود إلا وجوده ، كذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم (لا تبقّ الدهر بأنَ الله (٢)) أشار بذلك لا وجود للدهر ، وجود الله تعالى ووجود جميع الكائنات وجوده ؛ ليس للأشياء من ذاتها إلا العدم جداً ووجودك ووجوده لا إله إلا الله وأنا لا أنا هو كما وجب وجوده وجب عدم ما سواه ، فان الذى تظن أنه غيره ليس هو غيره إذ لا وجود مع وجوده أنى وجوده ظاهراً وباطناً ، ومن مات موتاً معنوياً عدمت ذاته وصفاته ، وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (موتوا قبل أن تموتوا) أي : اعرفوا نفوسكم واعرفوا ذاتكم العديمة لتعاينوا عين الهوية الحقيقة ، وكانت كل حالة لله تعالى

(١) فانيا (٢) لا ريب فى تصحيف هذا القول المعزو إلى النبي (صلوات الله عليه) وتحريفه . وصحته : (لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر) وهو فى (مسلم) عن أبي هريرة

لأنه كان هو ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يزال العبد يتقرب بى (١) بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها) لأن حركاته وأفعاله كلها لله تعالى لا له فالذى عرف نفسه يرى وجود ذاته بل كان جاهلاً بمعرفة وجوده ؛ فمتى عرفت نفسك ارتفعت فى عينيك وعرفت أنك لم تكن غير الله تعالى . وحقيقة معرفة النفس أن تعلم (أن) وجودك ليس بموجود ولا معدوم ، فانك لم تكن كائناً ولا كنت ولا تكون تعرف معنى قوله : (لا إله إلا الله) ، ولا وجود لغيره ولا غيره سواه ، لا إله إياه ، وليس هذا بل بتعطيل الربوبية لأنه لم يزل رباً ولا مربوباً ، ولم يزل خالقاً ولا مخلوقاً ، خلاقيته وربوبيته لا تحتاجان إلى مخلوق ، ولا إلى مربوب ، ووجود الأشياء كان الله ، ولا شيء سواه ، وهو الآن ولا شيء سواه ، فوجود الموجودات وعدمها شيئان فلا هو إلا هو ، وما سواه عدم والسلام

(***)

(١) إلي

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

إلى سيدى العلامة الأستاذ الكبير حسن حسنى عبد الوهاب الصمادحى -- أدام الله مجده ، ونفع المشرقين بعلمه وفضله (١)

(نقل الأديب) للنشاشيبي ما هو إلا من ذلك الميراث القديم العظيم ، وقد ورث الأستاذ كما ورثت ، وعرف من قدْر ما ترك الأكرمون الأولون مثل الذى عرفت ، بل أكثر مما عرفت . وما أنا بالمستأثر بكنوز القوم وما أنا بالمستبد ، وما أنا بالوارث الأوحد

وإن هذا المال الموروث لدَثْر كثير ، ولكل فى التدبير والتثمير والانفاق منه طريق . وعند الأستاذ التالدُ ، وعنده ـ والحمد لله ـ الطريف ؛ فهو السرىّ المثرى ، وكم فى سوق الأدب من صُعلوك وكم من صَعْفوق (٢)

وليست تسميتُه ولدَه — وكتابُ المرء ولدُه المخلد — باسم ولدى (وقد زيد الحبيب) إلا تواضعاً ؛ والعلماء الكبار يتواضعون . وعزوُه الفضلَ إلىّ باظهاره تلك الطرائف التونسية هو أدبُ نفس ، سليلُ ملك السَّرية به مشهور . فرحباً مرحباً بـ (نقل الحبيب إلى الأديب) وحَيَّهَل ، حىّ هلا (٣) بمتضاعف الحسن فى العلم والفضل والاسم ، ومد الله فى عمره

محمد إسعاف النشاشيبي

(١) أخذ الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ينشر فى مجلة (الجامعة) التونسية طرائف من الأدب فى أفريقية معنونة (بنقل الحبيب إلى الأديب) وقد استهلها بكتاب بهذا القول : « إلى سيد الكتاب ومحيي الآداب العلامة الكبير محمد إسعاف النشاشيبي أدام الله حياته »

(٢) فى حديث الشعبي : ماجاءك عن أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) فخذه ودع مايقول هؤلاء الصعافقة : هم الذين يدخلون السوق بلا رأس مال ، فإذا اشترى التاجر شيئا دخلوا معه فيه . واحدهم صعفوق : أراد أن هؤلاء لا علم عندهم فهم بمنزلة التجار الذين ليس لهم رأس مال (النهاية)

(٣) فى حديث ابن مسعود : إذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر ، أى ابدأ به وعجل بذكره ، وهما كلمتان جعلتا كلمة واحدة وفيها لغات ، وهلا : حث واستعجال (النهاية)

٣١١ — فانه شهرك فى الواوات قد وقعا

محمد بن على بن منصور بن بسام :

قد قرّب الله منا كل ماشسعا ... كأننى بهلال الفطر قد طلعا
فخذ للهوك فى شوال أهبتـه ... فإن شهرك فى الواوات قد وقعا (١)

٣١٢ — الجمة السكينية

فى (أغانى أبى الفرج) : كانت سُكَينة أحسن الناس شعراً وكانت تصفف جُمّتها تصفيفاً لم يرَ أحسن منه حتى عرف ذلك وكانت تلك الجمة تسمى (السكينية) ، وكان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلا يصفف جمته السكينية جلده وحلقه

٣١٣ — بردى ساق وخادم ... (٢)

ذكر أبو بكر بن العربى فى رحلته أنه دخل بدمشق بيوت بعض الأكابر فرأى فيه النهر جارياً إلى موضع جلوسهم ثم يعود من ناحية أخرى . قال أبو بكر : فلم أفهم معنى ذلك حتى جاءت موائد الطعام فى النهر المقبل إلينا ، فأخذها الخدم ووضعوها بين أيدينا ، فلما فرغنا ألقى الخدم الأوانى وما معها فى النهر الراجع فذهب بها الماء إلى ناحيـة الحريم من غير أن يقرب الخدم تلك الناحية . فعلمت السر ، وإن هذا لعجيب

٣١٤ — أشهى الى من الدنيا وزخرفها

على بن الجهم :

لجلسةٌ مع أديبٍ فى مذاكرة ... أنفى به الهم أو أستجلب الطربا (٣)
أشهى إلىّ من الدنيا وزخرفها ... وملئها فضة أو ملئها ذهبا (٤)

٣١٥ — اللغة والدولة

فى (الإحكام فى أصول الأحكام) لابن حزم : إن اللغة يسقط

(١) وقع رمضان فى الواوات يريدون أنه جاوز العشرين فلا يذكر إلا بواو عطف . وفى أمثال العوام : إذا وقع رمضان فى الأنين ، خرج شوال من الكمين . وقع فى الأنين : مرادهم أنه يقال فيه واحد وعشرون ، اثنان وعشرون ، فيكرر فيه الأنين (الغيث المسجم)

(٢) بردى : نهر دمشق الأعظم ، ياقوت : إنه بلا شك أنزه نهر فى الدنيا

(٣) مع : تسكين عينه لغة غنم وربيعة لا ضرورة خلافا لسيبويه (المغنى)

(٤) شاعر :

وضجرت الامن لقاء محدث ... حسن الحديث يزيدنى تعليما

أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ، ودخول غيرهم عليهم فى مساكنهم ، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم ، فإنما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم . وأما من تلفت دولتهم ، وغلب عليهم عدوهم ، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم فمضمونٌ منهم موت الخواطر ؛ وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهم وأخبارهم وبيود[1] علومهم . هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة

٣١٦ — السلطان ، الملك

فى (طبقات الشافعية الكبري للسبكى) : مصطلح الدول أن السلطان من ملك أقليمين فصاعدا . فان كان لا يملك إلا إقليما واحداً سمي بالملك ، وإن اقتصر على مدينة واحدة لا يسمي بالملك ولا بالسلطان بل بأمير البلد وصاحبها . ومن هذا يعرف خطأ كتاب زماننا[2] حيث[3] يسمون صاحب حماة سلطاناً ، ولا ينبغى أن يسمى سلطاناً ولا ملكا لأن حكمه لايعدوها ، فكأنهم خرجوا عن المصطلح . ومن شرط السلطان ألا يكون فوق يده يد ، ولا كذلك صاحب البلدة الواحدة ، فان السلطان[4] يحكم عليه ، وأما حكم السلطان على الملك وعدم حكمه فيختلف باختلاف القوة والضعف

٣١٧ — بطل أندلسى

فى (الإحاطة فى أخبار غرناطة) لمحمد لسان الدين بن الخطيب: خرج إبراهيم بن محمد بن مفرج (همشك[5]) متصيداً وفى صحبته قارعو أوتار الغناء فى مائة من الفرسان ، فما راعهم إلا خيل العدو هاجة على غرة فى مائتين من الفوارس . فقال : إذا كنتم أنتم لمائة وأنا لمائة فنحن قدرهم ؛ ثم استدعى قدحاً من شرابه وصرف وجهه إلى المغنى وقال : غن لى :

يتلقى النـدى بوجه حياء   وصـدور القنا بوجه وقاح
هكذا هكذا تكون المعالى   طرُق الجدّ غير طرق المزاح

فغناه ، واستقبل العدو وحمل عليه بنفسه وبأصحابه حملة رجل واحد ، فاستولت على العدو الهزيمة ، وأتى على معظمهم القتل ، ورجع غانما إلى بلده . ثم عاد للصيد فى موضعه ذلك ، وأطلق بازه على حجلة فأخذها ، ورأى نصلا من نصال المعترك من بقايا الهزيمة فأخـذه من التراب ، وذبح الطائر ، واستدعى الشراب ، وأمر المغنى فغناه بيت أبي الطيب :

تذكرتُ ما بين العذَيب وبارق   مجرَّ عوالينا و مَجرى السوابق
وصحبة قوم يذبحون قنيصهم   بفضلة ما قد كسّروا فى المفارق

---

(١) باديدا وبيودا

(٢) تاج الدين السبكى (أبو نصر عبد الوهاب) مولده (٧٢٧) وفاته (٧٧١) نسبته إلى سبك من أعمال مصر (أعلام الأستاذ الزركلى)

(٣) حيث تعليلية (مولدة) وهى فى كلام الزمخشري وغيره

(٤) قلت : لقد ضيم اسم السلطان فى هذا الزمان أيما ضيم ، وضيمت معه قرينته (العظمة) . المتنبي :

أرانب غـير أنهم ملوك   مفتحة عيونهم نيام

(٥) همشك : ترى المقطوع الأذن ، إذ (ها) عندهم قريب من (أما) فى اللغة العربية ، (المشك) المقطوع الأذنين فى لغتهم (الاحاطة)

نكبة السيل فى سورية

الفاجعـــة !

للأستاذ أمجد الطرابلسى

عجبٌ فعالُك يا غَمام ! أفتكتَ فى الشهرِ الحرام[1]؟
ياليت شعرى ! هل نَهِـــبتَ فقمتَ تلتهم الصِّيام ؟
أعملتَ رأيك فى الظلا م ، وبئس غدَّارُ الظلام !
ومكرتَ ، والحُلمُ الهَنى ء يُهدهدُ المقَلَ النيَّام
والغادةُ الفرحى تُقَبِّـــلُ ثغرَها صُوَرُ الهيام
والطِّفلُ عانقَ أمَّـــه وغفا ودُنياه ابتسام
حتى الشَّبابُ الأهوجُ الـــمِصْخابُ أسكره المنامْ
فغفا وما زالتْ تَرِنُّ برأسه ذِكَرُ الغرام
والشيخُ فى محـــرابهِ يبكى ويخشعُ فى القِيام
يدعو لصبيتهِ الصِّغا رِ وهم على شُرَفِ الفِطام
يدعو لهمْ منْ لا يُخَيَّـــبُ مُرتجيهِ ولا يُضام
يرجو ابتسامات الحيا ةِ لهمْ وإدراكَ المَرام
ويذوبُ فى صَلَواتِهِ نَشوانَ من أسمى مُدام
وبَنوهُ قد رقدوا ورفَّ م على مُهودِهمُ السَّلام
فصَبَبْتَ وَبلَكَ ساخطاً من دون ذنبٍ واجترام
ماذا نقِمتَ عليهمُ فأذقتهم شرَّ انتقام ؟
أرسلتَ صَوْبَكَ أيَّ بحـــرٍ زاخرِ الأمواجِ طام
فى اللّيلِ يقتحِمُ الخُـــدو رَ وأهلَها أيَّ اقتحام
ويُباغتُ الشَّملَ الجميـــعَ مُصَدَّعاً كلَّ التئام
هبّوا يرومون النَّجا ةَ ، ولا نجاةَ ولا اعتصام
يَعـــلو نحيبُهم فيُطـــفِئه الدَّويّ والانهدام
يالهفَ نفسىَ ! ما الفِرا رُ من القيامةِ إذْ تقامْ ؟
سيلٌ تعوم بهِ العـــذا رى والولائدُ والسَّوام
والأيكُ والوُكُناتُ والـــهضْبُ المنيعةُ والرِّجام
لَقِفَ الحظائرَ والخِيا مَ وأهلَ هاتيكَ الخيام
وسطا على الأكواخِ ينسِـــفها ويجترفُ الحُطام
... وبدا الصَّباحُ كما تخضَّـــبَ بالدَّمِ القانى الحسامْ
فإذا الدِّيارُ مقابرٌ يختالُ فيهنَّ الحِمامْ !!

يا ابنَ الحسينِ[1] ألا نفضـــتَ صفيحَ قبرك والرَّغام
فرأيتَ كيفَ طغى العُبا بُ وغالَ دُنيا فى منام !
سِرْ والصِّحابَ تَرَ المنا زلَ لا مُناخَ ولا مُقامْ
وتَرَ الملاعبَ والحدا ئقَ لا اتّساقَ ولا انتظام
لا عنْ ميامنِكم (ضُمَيْـــرُ) ولا وَراءَ ولا أمام
مُحِيَتْ من الدنيا كما تمحو السّطورَ يدُ الغُلام
وطوتْ معالمَها السُّيو لُ فلا رسومَ ولا رِمام

قَلَمونُ[2] ! يافرحَ الشّآمِ! وفرحةُ الدّنيـا الشّآم
يا مرتعَ الآرامِ والأ حلامِ والحَدَقِ السِّقام
يا مهبطَ الشِّعرِ الحلا لِ ومَمْرَحَ الحُسْنِ الحرام
هل سامعٌ فيكَ السَّلا مَ ، إذا أطلّتُ لكَ السّلام؟!
كلُّ الجراحاتِ التى نَزَفَتكَ فى قلبى دَوَام
يا جَنَّةَ الأطيارِ والأ لحانِ ! ما فعلَ الحَمام؟
أتُراه قد هجَرَ الخما ئِلَ والجداولَ أم أقام
لمـا مضى بِوُكورِهِ وبِزُغْبِهِ الموتُ الزُّؤام
يا مسطِعَ الأنوارِ هـل أذوَى مباسِمَكَ السِّقام ؟
هل شفَّ (يَبْرودَ) الشَّحو بُ ولفَّ (جَيْرودَ) القَتام؟
كيفَ الحدائقُ والكرو مُ سَلِكْنَ فى أبهى نظام؟
كيف العشيَّاتُ العِذا بُ وكيف فى الرَّوضِ الزِّحامْ

---

(١) المقصود به (رمضان) وإن لم يكن من الأشهر الحرم الأربعة !

(١) أحمد بن الحسين المتنبي ، وفى المقطع من القصيدة إشارة إلى قوله ذاكراً (ضمير) إحدى القرى التى طغت عليها السيول :

« لئن تركن ضميراً عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم نوم »

والضمير فى (تركن) يعود إلى النوق التى وصفها فى بيت سابق

(٢) قلمون اسم الجبل الذى دمرت السيول أكثر قراه . وهو فى شمال دمشق ومن أجل متصيفات الشام

في منهل الشتاء

زهرة تتغنى

للأديب أحمد فتحي مرسي

الرَّوْضُ مَعْقُودُ اللَّهَا هَاجِدٌ　　قَدْ صَوَّحَ النَّاضِرُ مِنْ زَهْرِهْ
والرِّيحُ فِي الآفَاقِ عَصَّافَةٌ　　وَالطَّيْرُ قَدْ عَادَ إلى وَكْرِهْ
يَاوَيْلتَا ! مَاذَا أَصَابَ الضُّحَى　　حَتَى غَدَا كاللَّيْلِ فِي قُرِّهْ
لَاالرَّوْضُ مَمْطُورُ الثَّرَى زَاهِرٌ　　كَلاَّ .. وَلَا الأَمْوَاهُ فِي نَهْرِهْ
وَالغُصْنُ ذَاوٍ فِي الرُّبَى ذَابِلٌ　　قَدْ صَلُبَ الرَّيَّانُ مِنْ خَصْرِهْ
يَلُوحُ كَالْمَذْعُورِ فِي رَجْفِهِ　　مُنْتَفِضَ الأَطْرَافِ مِنْ ذُعْرِهْ
يَنْفُضُ فِي الرَّوْضِ وُرَيْقَاتِهِ　　والذَّاوِيَ اليَابِسَ مِنْ نَوْرِهْ
كَطَائِرٍ يَنْفُضُ عَنْ رِيشِهِ　　مَا خَلَّفَ الوَابِلُ مِنْ قَطْرِهْ
أُنَقِّلُ الطَّرْفَ فَمَا إنْ أَرَى　　إلاَّ هَشِيمَ الرَّوْضِ فِي قَفْرِهْ
هَذِي الرِّيَاحُ النُّكْبُ مِنْ عَصْفِهَا
قَدْ بِتُّ كَالثَّامِلِ فِي سُكْرِهْ
وَذَا نَسِيمُ اللَّيْلِ فِي هَبَّهُ　　يَهْصِرُ بِي مَا شَاءَ مِنْ هَصْرِهْ
قَدْ خَدَّشَ الخَدَّ بِأَنْفَاسِهِ　　وَأَطْفَأَ المُؤَجَّجَ مِنْ جَمْرِهْ

***

فِي بَسْمَةِ الصُّبْحِ وَفِي صَمْتِهِ　　وَفِي البَهِيِّ النَّضْرِ مِنْ فَجْرِهْ
وُلِدْتُ فِي الأَفْنَانِ مُخْضَلَّةً　　فَضَمَّنِي الغُصْنُ إلَى صَدْرِهْ
رَخِيَّةُ الصَّفْحَةِ لَوْ مَسَّهَا　　ثَغْرُ امْرِئٍ ذَابَتْ عَلَى ثَغْرِهْ

من كلِّ هيفاءِ القَوا　　مِ وكلِّ عشَّاقِ القوام
لهفى عليكَ وللسُّيو　　لِ على جوانبكَ النظامْ
كالفلكِ فى لُجَجِ البحا　　رِ السُّودِ أعياها الخصام
لا الموجُ يرحمُها ولا الإ　　عصارُ يُسْلِمُها الزِّمام
فتقطعَتْ عُقَدُ الشِّرا　　عِ وشقَّ جُؤجُؤَها الصِّدام
وتناثرت أشـلاؤها　　حيناً ... وغيَّبها الظلامْ !

(دمشق)　　أحمد الطرابلسي

أَجْرَى عَلَى خَدِّي النَّدَى قَطْرَهُ　　وَأَسْبَلَ المُنْهَلَّ مِنْ خَمْرِهْ
مَنْزِلَتِي فِي الرَّوْضِ مِنْ زَهْرِهِ　　مَنْزِلَةُ الوُسْطَى عَلَى نَحْرِهْ
تُخَايِلُ الأَفْنَانُ بِي فِي الرُّبَى　　وَيَنْثَنِي غُصْنِيَ مِنْ فَخْرِهْ
حَتَّى إذَا أَرْخَى الدُّجَى سُجْفَهُ　　وَلَفَّ هَذَا الكَوْنَ فِي سِتْرِهْ
لِجِسْمِيَ الذَّاوِي عَلَى غُصْنِهِ　　لَا تَأْتَلِي الأَنْسَامُ فِي نَثْرِهْ
وَشِيكَةَ المَوْتِ وَلَمْ أَنْتَهِلْ　　مِنْ رَوْعَةِ الكَوْنِ وَمِنْ سِحْرِهْ
مَاذَا عَلَى الأَقْدَارِ لَوْ صَابَرَتْ　　قَدْ يَجْتَنِي الصَّابِرُ مِنْ صَبْرِهْ
كَأَنَّنِي حُلْمٌ لَطِيفُ الرُّؤَى　　قَدْ طَافَ بِالوَسْنَانِ فِي فِكْرِهْ
حَتَّى إذَا وَلَّتْ سِنَاتُ الكَرَى　　لَمْ يَبْقَ فِي القَلْبِ سِوَى ذِكْرِهْ

أَيْنَ الرَّبِيعُ الطَّلْقُ فِي حُسْنِهِ　　أَيْنَ الشَّذَا الفَوَّاحُ مِنْ عِطْرِهْ
أَيْنَ السَّنَا اللَّمَّاحُ مِنْ نُورِهِ　　أَيْنَ الفَمُ الوَضَّاحُ مِنْ بِشْرِهْ
كَمْ عِنْدَهُ مِنْ رَائِعٍ خَالِدٍ　　يَعْيَا اللِّسَانُ الطَّلْقُ فِي حَصْرِهْ
قَدْ مَرَّ بِالرَّوْضِ قَرِيبَ المَدَى　　كَخُطْوَةِ العَجْلَانِ فِي مَرِّهْ
وَشَيَّعَ المُبْتَلَّ مِنْ غُصْنِهِ　　وَوَدَّعَ المُخْضَلَّ مِنْ زَهْرِهْ
وَآذَنَ الدَّهْرَ بِهِجْرَانِهِ　　فَرَوَّعَ الأَفْنَانَ مِنْ هَجْرِهْ
وَالدَّهْرُ أَطْوَارٌ تَقَضَّى بِنَا　　مَا مَرَّ لَا يَرْجِعُ مِنْ طَوْرِهْ
وَذَلِكَ العَيْشُ بِهِ مَعْبَرٌ　　تَفَاوَتَ الأَعْمَارُ فِي عَبْرِهْ
الصَّفْوُ وَالكَدْرُ سَوَاءٌ بِهِ　　وَعُسْرُهُ أَهْوَنُ مِنْ يُسْرِهْ
وَشَرُّهُ مَاضٍ إلَى خَيْرِهِ　　وَخَيْرُهُ غَادٍ عَلَى شَرِّهْ

كَمْ فِي حَيَاتِي عِظَةً لِلوَرَى　　لَوْ نُبِّهَ الغِرُّ إلَى أَمْرِهْ
كُفِّنْتُ فِي مَهْدِي ولَمَّا أَزَلْ　　ذَكِيَّةَ الأَذْيَالِ مِنْ طُهْرِهْ
فَلَحْظَةٌ عُمْرِي . وَكَمْ يَشْتَكِي الْـ
إنْسَانُ قُرْبَ المَوْتِ فِي عُمْرِهْ
شَكِيَّةُ الإنْسَانِ مَا تَنْتَهِي　　وَإنْ يَعِشْ دَهْراً عَلَى دَهْرِهْ

مَا أَغْدَرَ المَوْتَ بِأَعْمَارِنَا　　وَأَغْفَلَ الإنْسَانَ عَنْ غَدْرِهْ
وَأَلْعَبَ الجَدَّ بِآمَالِنَا ...　　وَأَقْرَبَ المَوْلُودَ مِنْ قَبْرِهْ

(القاهرة)　　« فتحي »



الزنـــــك

كعنصر أساسى لنمو النبات

للأستاذ عبد الحليم منتصر

كان المعتقد إلى عهد قريب أن العناصر الأساسية لنمو النبات ، أى التى لا يستطيع أن يتابع نموه بحالة طبيعية بدونها هى الكربون والايدروجين والأكسجين والأزوت والكبريت والفسفور ثم الحديد والبوتاس والمغنسيوم والكلسيوم ، ولم يجد العلماء كبير عناء فى إثبات أهمية أى عنصر من هذه العناصر ، ولم يصادفوا أية مشقة فى دراسة الدور الذى يقوم به كل منها فى بناء النبات ، بل لقد عرفوا تفصيل كل ذلك بصور قاطعة لم يعد الشك يتطرق إليها . فالثلاثة الأول تكون الكربوايدراتات التى توجد بالنبات ، ومنها مع الثلاثة التالية ، يتكون البروتبلازم ومركباته . أما العناصر الأربعة الأخرى فهى ضرورية جداً للنبات على رغم عدم دخولها فى تركيب مادته . فالحديد والمغنسيوم ضروريان جداً لتكوين مادة الخضير التى بدونها لا يستطيع النبات الأخضر تحضير مواد غذائه ، كما أنه لا يستطيع تكوين النشاء إذا انعدم البوتاس من عناصر تغذيته ، كذلك يدخل الكلسيوم فى تكوين هيكل النبات الداخلى ، أى فى جُدُر خلاياه ، كما أنه لازم ليكون انقسام الخلايا فى الأجزاء النشطة عادياً

وليس ثمت شك فى أساسية هذه العناصر التى يأخذها النبات — ماعدا الكربون والأكسجين للتنفس — من التربة . والقول بأن هذه العناصر أساسية لا يقصد منه أن غيرها لا لزوم له ، بل على النقيض من ذلك قد يوجد بالنبات عشرات من العناصر الأخرى لها بعض الأثر فى نمو النبات وازهاره وأثماره ، ولكنه لا يكون لانعدامها هذا الأثر الذى نلاحظه عند حذف أى عنصر من هذه العناصر سالفة الذكر . ويمكن القول بأن هذه العناصر هي الأساسية إجمالاً أو إطلاقاً ، أما غيرها فقد يكون لازماً لبعض النباتات دون البعض الآخر ، ولكن فقدها بالكلية ليس قوى الأثر على حياة النبات أى ليس مهلكا له

على أن هذا الثبت من العناصر قد أخذ يتزايد على مر الأيام نتيجة لنشاط العلماء وتجاربهم الدقيقة ، فقد قال بعضهم بضرورة عنصر البورن ، وأثره البالغ فى تحسين المحصول وحالة البذور جودة ومناعة ... كذلك قيل عن أهمية المنجنيز لتنشيط الخمائر ، والنحاس ودوره فى التفاعلات الكيميائية بالنبات ، والكلور وأثره فى زيادة خضرار النبات وقلة نتحه ، كذلك الفلور واليود وأثرهما فى زيادة نمو النبات . وعن السليكون وأهميته فى تمثيل حامض الفسفوريك فى النبات ، والصوديوم وفائدته فى حالة قلة البوتاسيوم . وغير هذه العناصر كثير مما تحدث عنه العلماء نتيجة لتجاربهم وملاحظاتهم مما جعل بعضهم يضيفها إلى قائمة العناصر الأساسية ، وإن كانوا لا يعنون فى أغلب الأحوال أن تكون أساسية إطلاقاً ، أى أنها لازمة لكل أنواع النبات ، أو أن فقدها يسبب هلاك النبات . وسترى فيما نعرض فى هذا الحديث مكان الزنك بين هذه العناصر المختلفة التى يحتاجها النبات ، والآثار التى تترتب على فقده ، والأخطار التى يتعرض لها النبات عند حرمانه منه ، وذلك ما جعل موضوع أساسيته محل البحث والدرس عند العلماء فى الوقت الحاضر

ولقد كان « رولن » أول من لاحظ ضرورة وجود الزنك لنمو بعض الفطريات ، وأثبت أنه فى حالة عدم وجوده يضعف نمو الفطرة ويقل ازدهارها ، وقال إنه حتى فى حالة عدم إضافته يكون موجوداً مع مركبات العناصر الأخرى نظراً لعدم نقائها ، ولعل ذلك هو السر فى تجاهل شأن الزنك . وقد عضده فى ذلك « جافييه » بتجارب أجراها على الفطرة (اسبرجلس) ثم أعاد « شتينبرج » تجارب « جافييه » محاولاً تنقية مركبات العناصر التى كان يغذى بها الفطرة من أى أثر للزنك ، فوجد أن نموها قد تأثر كثيراً . على أن أحداً من هؤلاء لم يقطع بأن الزنك عنصر أساسى لنمو النبات . بل لقد افترضوا آنئذ أن الزنك ما هو إلا حافز فى حالة الفطرة . ولكن « رولن » أبدى رأيه فى أساسية الزنك للنباتات الراقية ، بيد أنه كان متحفظاً ، فلم يقطع بذلك بل تركه للزمن يحققه ويمحصه

وقد أثبت كثير من العلماء تأثر النبات بكمية الزنك التى تضاف إليه ، ومن أخص هؤلاء « ميز » و « سومر » و « ليبمان » الذين كانت تجاربهم مضرب المثل في الدقة والعناية والبعد عن مظان الضعف أو مواطن التشكيك ، كاختبار الزجاج الذى تجرى به التجارب للتأكد من خلوه من الزنك ، كذلك خلو الماء الذى تروى به النباتات أو الغبار الذى يعلو المزرعة ، أو المركبات الكيميائية التى تستعمل فى المحاليل الغذائية ، مثل هذه التجارب كان من أهم نتائجها إثبات ضرورة الزنك لنمو النباتات

وقد أثبت « هامس » فى سنة ١٩٣٢ فائدة الزنك لأشجار الليمون كما أوضح « هجلاند » فى سنة ١٩٣٦ أعراض المرض الذى ينتاب كثيراً من النباتات عند حرمانها قطعياً من الزنك . كما أثبت فى كثير من الحالات تحسن المحصول وزيادة النمو فى الحقل بعيداً عن تجارب المعمل ، وذلك باضافة الزنك للتربة فيكون له هذا الأثر البارع من اطراد فى النمو وازدياد فى الايناع إلى شفاء من أعراض المرض ، فاضافة بضعة كيلو جرامات من كبريتات الزنك للفدان قمينة بزيادة محاصيل كثير من الأنواع النباتية كالقمح والشوفان والذرة والترمس والبسلة وكثير من أنواع الفاكهة . وقد أثبت « مورى » و « كامب » وغيرهما أن إضافة مركبات الزنك للتربة تفيد كثيراً فى حالات تبقع الأوراق وتجعدها وجفاف الأفرع ، وغير ذلك من الأعراض التى تصيب النبات نتيجة حرمانه من الزنك . كان من نتائج تقدم هذه البحوث أن استطاع علماء النبات توفير ملايين من الجنيهات كانت تضيع هباء فى أمريكا نتيجة لما يصيب الموالح والتفاح والجوز والعنب من التبقع والاصفرار والانكماش مما يؤثر تأثيراً بليغاً فى المحصول . وقد ظهر أن السبب هو نقص الزنك ، وأن العلاج هو الزنك دون سواه ، ولهذا سمى المرض نقص الزنك أو الحرمان من الزنك

ما هي أعراض هذا المرض ، وكيف نشخصه بدقة ، وما هي طرائق علاجه بمركبات الزنك ؟ سيكون ذلك موضوع حديثنا فى عدد الرسالة المقبل .

عبد الحليم منتصر



أقصوصة من انيل مانن

حب فى روما (١)

للأستاذ دريني خشبة

يخطئ من يحسب أن الحب وقف على جماعة الأرستقراطيين من الناس، وخاصة الحب الرفيع السامى ، الذى هو ينبوع آدميتنا والذى تبتعثه السماء فى قلوبنا ليصهرها بآلامه الحلوة ، وأشجانه الجميلة ؛ وليفجر منها دموع الرحمة والمودة والحنان ... وقد ينمو الحب فى كوخ من قش ، كما ينمو فى قصر ، وقد يكون فى الكوخ أصدق منه فى البيت ذى العماد ، وقد يكون فى ركن منسى ، أصفى منه فى جنة فيحاء ... وهكذا كان حب هذا الفتى ميشيل ، الخادم الفقير فى أحد فنادق روما

لله ما أقسى المقادير ! لقد كان ميشيل ، الفتى الايطالى المرح ، أحق بأن يكون شاعراً يودع روحه فى قصائد رنانة ، ينشدها ويتغنى بها ، لا خادماً ينضد الوسائد ، ويُعنى بالسُّرر ، ويَنْفض السجاجيد ... و ... ينظف أحذية النازلين !! وكانت له أم لولاها ما اضطر لأن يعمل كي يكفلها ، إذ مات عنها زوجها فى السنوات الأولى من البناء بها ... وكان يؤوب إليها آخر كل نهار بحبه لها ، وحرصه على إسعادها ، ثم بليرات قليلة تشفى السغب ، وتضمن السَّتْر ، وتقيم أوَدَ الحياة ...

وكان ميشيل يحب الموسيقى ، ويغرم بالقصص الايطالية ، ويشغف بمآسى الحب ، وكان يتمنى لو وفق إلى أن يكون واحداً من أولئك الأبطال الذين يملأون الروايات بالدموع والآهات ، وإن لم يعيشوا مع ذلك إلا فى أدمغة مبتدعيهم من الكتاب والمؤلفين

وكانت تعمل معه فى الفندق فتاة لم تكن فى رأيه أول الأمر شيئاً مذكوراً ، وإن يكن شعرها الذهبي يلفت نظره أحياناً ، وساقاها الجميلتان اللتان لهما ظلال خفيفة من بنفسج الأبنين تثيران فى قلبه (استلطافاً) لم يفكر مرة فى أنه ينتج حباً أو يتأصل فيكون غراماً ... لا ... لم يفكر ميشيل مطلقاً فى أن هذه الفتاة البائسة مثله ، ستكون حلمه وأمنيته ، وأنه من أجلها سيقضى أطول لياليه مسهداً كما يقضى الشعراء لياليهم فى عوالم شاسعة من المنى والأحلام

وكان ميشيل ينقطع عن العمل نصف يوم عطلة فى كل أسبوع وكانت الفتاة ماريا ، من أجل ذلك ترهق بالعمل ، وكان يرهقها أكثر ، وجودها مع نادل آخر شرس الطباع ، لئيم الخلق ، يدعى فرارى ... كان يتعمد أن يترك لها كل عمل مجهد ، على أن يستخف هو باليسير الأقل ... وكان فرارى ينقطع عن العمل أمسية واحدة كل أسبوع كما ينقطع ميشيل ، وطالما كان يختار أمسيته فى نفس اليوم الذي كان ينقطع فيه زميله ، فكانت ماريا المسكينة توزع نفسها على جميع أنحاء الفندق ، وكان بهو الطعام يتعبها أكثر من كل شئ ، لاختلاف أمزجة الآكلين وكثرة طلباتهم ، وضرورة مراعاة ترتيب النداءات ، وإلا فالويل لماريا من هؤلاء (السياح) الانجليز المتغطرسين الذين يغشون هذا الفندق دائما

وقد لحظ ذلك ميشيل ، فكان يتعمد أن يبقى فى أمسيته ، دون أن يذهب لإجازته ، ناسياً أن أمه العجوز الرؤوم المريضة المشفية على الموت ، تنتظره ليسمر إليها ، ويخفف عنها آلامها .. كان ميشيل ينسى هذا الواجب المقدس ، ولكنه كان لا يلتفت إلى أن فى عمله هذا تقصيراً ، بل بالعكس من ذلك ، كان يرى فيه إنسانية سامية ، وعطفاً تحتمه عليه رجولته ، على هذه الفتاة ذات الشعر الذهبى والساقين اللتين لهما ظلال جميلة من بنفسج الأبنين ... ولم يفكر ميشيل مرة أنه فجر الحب ينبلج فى قلبه ، وأنها أنفاس الغرام المعطرية تجذبه كالفراش إلى هذه الزهرة الحلوة

(١) العنوان الأصلى ميشيل جلوريا

الفضة ... كلا ... بل لم يفكر قط فى أن أمه الرؤوم المريضة كانت أحوج إليه وإلى لحظات ينفقها عليها ، من هذه الفتاة اللعوب الطروب ذات الفم الدقيق ، ماريا التى تعمد ألا يغادر الفندق ليساعدها وليخفف عنها هـذا العبء الهائل ، من رفع الأطباق وجمع الأكواب ، وتنضيد البهو ، وتلميع الموائد ... حتى لا يهان هذا الشعر الذهبي المغدودن الذى يرف كأنفاس الحور على صدرها الناهد وظهرها العاجى ، وحتى لا ترهق الساقان الملفوفتان اللتان لهما هذا السحر الجميل المنعكس من بنفسج الأپنين ! !

ولم تشكره ماريا قط ، ولم تتعب تفكيرها فى السبب الذى كان يصرف زميلها عن التمتع بأجازته القصيرة ، وكانت كلما همت بعمل شاق من أعمال البهو ، وأقبل هو مهرولا ليؤديه نيابة عنها أنفضت برأسها الذى يتخابث صغيراً في شفق الشعر الذهبى ، ومضت لطيتها ، تاركة لميشيل أن يقوم بكل عسير شاق من أعمال الصالة ... ووقفت تعبث بدمية أو بباقة من الزهر ، أو تصلح صورة أو تسق أصيصاً ... وكان الفتى مع ذاك يخالسها نظرات كالودق يخرج من بين السحاب ، وكان مع ذاك أيضاً لا يشعر بتعب ولا يناله إعياء ... وكان يسعد سعادة لم يكن يعرفها كلما سمع صوت ماريا يرن فى فضاء البهو الكبير ، فيرن جرسه الفضى فى جوانحه ، ويوقظ فيها أمانيه التى كان يتصورها لياليه الخاليات ولا يظفر بتحقيقها

وأخيراً عرف أنه الحب ...

وكانت مفاجأة حلوة لروحه الصادية أن تروى أول ما تروى من هذه الكأس المترعة بمفاتن ماريا ذات الشعر الذهبى ، والساقين الملفوفتين فى بنفسج الأپنين ... وكانت مفاجأة حلوة كذلك أن تتبرج الدنيا القبيحة هكذا فتصبح جميلة سافرة بسامة ، بعد أن كانت عبوساً قمطريراً معتمة حين كان قلبه لا يعرف الحب ... ويصبح كل ما حوله ضاحكاً يتأرج ويتبرج ويهتز كما تهتز الأعطاف بالبشر

ولـكن ميشيل كان حيياً ... وكان كلما هم بمحادثة ماريا عما يجيش من حبها في قلبه ارتبك وانعقد لسانه ، والتوت الـكلمات فكأنها من حديد لا يلين ، وخفق قلبـه وازلزل ، وهرب الدم من خديه ، فينصرف حزيناً محسوراً ... ولـكن نظرة واحدة إلى شعر ماريا وساقيها كانت تعيد ابتهاجه ، وترد صوابه ، فيرضي بالصمت الذى لا يد له فى غيره ...

وظل حبه دفيناً فى قلبه يشفه ويضنيه ؛ وظل هو قانعاً راضياً بأن يكون فى جوار ماريا دائماً ... وفى ظلها الوارف أمسية من كل أسبوع ؛ يحمل عنها أوزارها ، ويقوم بكل ما يشفق عليها أن تؤديه من مشاق

وكأنما لحظ الخبيث فرارى ، الـكهرباء التى تزلزل أركان ميشيل فأقسم ليكيدن له ؛ وكان فرارى فَتًى لَعَّاباً يجيـد إلى درجة الخطورة إعمال عينيه وقسمات وجهه ، ويتقن زخرفة الـكلمات التى تقع عليها قلوب العذارى كما يقع الفراش فى النيران ... وكان هو الآخر يرى فى ماريا غادة لم تخلق لهذا العناء ، وكان يزن جمالها بعقله لا بقلبه ... أى أنه كان يراها تصلح كزوجة نافعة تجلب اليسر والرخاء للرجل الذى يحظى بها ، لأنها لو عملت فى فندق آخر لحصلت على أضعاف ما تحصل عليه هنا ... ولم لا ؟ أليس لها هذا الشعر الذهبى الذى هو فى نفسه كنز ؟ أليس لها هذا الجسم المشوق والقد المعتدل ، والخطى الراقصة التى تلفت الأنظار وتكهرب القلوب ؟ ! إذن لينافس فرارى زميـله ميشيل ... وليطلب من مديرة الفندق استبدال أمسيته التى يستريح فيها ليعمل مع ماريا حين يكون ميشيل فى إجازته ، وليظفر فرارى بكل ما تصبو إليه نفسه ، وليتهم ميشيل ، وليلفق له التهم ، ولتصدق المديرة الحمقاء ما يُتهم به الفتى البائس الذى قضى عليه سوء طالعه أن يعاشر هؤلاء اللئام وأن يأكل من أيديهم كفافه ، فى حين كان ينبغى أن يكون شاعراً أو أديباً يسمو بأدبه على الأدباء ... لا على خدم الفنادق ... مسكين ميشيل ! لقـد كدر عليه هذا الإبليس المقتدر الملفق صفو حبه المضمر الذى يلذه بقدر ما يشقى به ... وأثاره ومزق قلبه ما رأى من العلائق بين مارى وبينه ، ما لم يستطع هو أن يظفر بشىء منه برغم كده وتضحيته وحرصه على التقرب من الفتاة والتودد إليها

وأخذت الدنيا تسمج مرة ثانية فى عين الفتى ، وتكتسى سربالاً أسود اللون قاتماً ... وعادت نفسه الأديبة الشاعرة تختلج بما تختلج به نفوس الشعراء البائسين ... وعاد يوماً إلى داره فوجد أمه تعالج سكرات الموت ... فلما رأته أشارت إلى صليبها وهى لا تقوى على حمله ، فأدناه من فمها فقبلته ، ونظرت إليه بعينين مغرورقتين ، ثم تمتمت بكلمات هى من غير شك دعاء له ؛ ثم لفظت آخر أنفاسها ... فذعر ميشيل وانخلع قلبه وطفق يبكى ويُعول ، وينظم ألحانه فيسرها فى نفسه

ولما عاد إلى الفندق بعد ثلاثة أيام ، كان يحدث نفسه ـ إذ هو منطلق فى الطريق ـ أن ماريا لا بد عاطفة عليه ، معزيته أحسن العزاء وألطفه ، جالسة إليه تواسيه وتذهب عنه الحزن ... وكان يتصورها معه فى بهو المطعم تلاطفه وتظهر له الألم من أجل وفاة أمه ... وأنه مستطيع لا بد أن يظهرها على حبه ، وأن يعترف لها بمكنون قلبه ... وصمم على أن يكون جريئاً مقداماً هذه المرة وأن ينتهز الفرصة ليقهر هذا المذول : فرارى ، وأن ينحيه عن فتاته مهما كلفه ذلك ، فإن لم تصخ له وتنصره عليه ، فلينصرف عن هذه الدنيا المخادعة ، ولْيَـلُذ بأطراف الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، فلن يعـدم لقيمات تسد مسغبته ، وقطرات من ماء تبل أواره ... وهكذا تداعت هواجسه ، وتسلسلت أفكاره ؛ وكان كلما تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فذهب به مذاهب شتى ... حتى إذا وصل إلى الفنـدق ، وتسلم عمله ، راح يتنسم ماريا ويتشمم عبيرها ، ولـكنه ، وا أسفاه ، لم يجد عندها شيئاً !! إنها سراب بقيعة !! لقد ذهبت ماريا ... وذهب فرارى ... وذهبا معاً فى يوم واحد ، وفى لحظة واحدة ، ولسبب لم تستطع مديرة الفندق أن تذكره لميشيل ، لأنها لم تستطع أن تعرفه !!

***

وضاقت عليه الأرض بما رحبت ؛ وكيف لا تضيق وقد فقد أمه وفقد هواه فى أسبوع واحد ؟ لقد فقد القلب الذى كان يعفو والقلب الذى كان لا يعرف ... فقد فى الأول المحبة والظل الوارف ، والتسامح والرضى ؛ وفقد فى الثانى هذا الأمل الذى حبب إليه الحياة ، وجملها حلوة مشرقة بسامة ، لأنها تضم ماريا ... ماريا ذات الشعر الذهبي الهفهاف ، والوجه المتألق المشرق ، والساقين ذاتى الظلال من بنفسج الأينين ؟ أين ذهبت ماريا يا ترى ؟ أين ذهب بها الشيطان فرارى إن كانت قد ولت معه ؟ ولـماذا ذهبا معاً ؟ لقد كانت تضيق به ، وتشكو منه ، ولا تكاد تستنشق هواء يشركها فيه ؟ فأين ذهبا معاً ؟ ولم ذهبا هكذا من دون أن يعلم أحد ؟

وانطلق ميشيل يطوى الطريق السادرة النائمة فى ظلال البلوط والصنوبر ، المؤدية إلى ضاحية تيفولى ، وهو ينظر بعينين موجعتين محزونتين إلى هذه الشمس الرومانية الغاربة ، التى تتوهج كالجمرة الـكبيرة فى هشيم الطبيعة ، وينظر فى أعماقه ألحانه ، ويستمع إلى خرير الجداول مختلطاً برنين الناقوس الـكبير الذى يحيي بدقاته السماء ، ويسألها للناس الرحمة ... ولقد بدا له أن يعرج إلى هـذا البيت المنيف من بيوت الله فيصلى له ، ويسجد ويخبت ، لعل روح ماريا تكون معه فتسجد هى الأخرى ، وترق له ، وتكفر عما أعرضت عنه ... بيد أنه مضى فى طريقه لا يلوى على شىء ، لأن هـذه فكرة واحدة من آلاف الفِـكَـر التى كانت لا تفتأ تطيف برأسه وهو لا يعى

واشتد خبَـله ، وظمئت روحه إلى ماريا ظمأ شديدا ، وصار يلتمس لها المعاذير من هذا النكران الذى ما تعمدته ولا قصدت إليه لأنها لم تكن تدرى ما يضمره لها من هيام فى سويدائه ، وظل يهتف باسمها فى نومه كما يتغناه في يقظته ، لـكنه كان يتغنى به كما يتغنى الصوفى المجذوب أسراره ... وهو لا يدرى ما يقول !!

وجلس مرة يقلب صحائف مجلة انجليزية فوقع بصره على صورة ماريا ... ماريا بعينها !؟ يا عجبا ! ومن أين لماريا هذا الصيت البعيد والذكر المنتشر ؟ إنها كانت مثله لا تعرف كلمة انجليزية واحدة ، وهذه مجلة للآداب والمسرح ، وليس معقولاً أيضاً أن تكون ماريا قد التحقت بالمسرح الانجليزي بحجة عظيمة من أنجمه ، وليس معقولاً أيضاً أن تـكون قد أصبحت فى أيام معدودات أديبة واسعة الإلمام بأدب هذه اللغة الانجليزية التى كان يحسبها ميشيل ـ لصعوبتها فى نظره ـ من لغات الشياطين ! فما ماريا وهـذه المجلة الانجليزية يا ترى ؟ ومالها هى وما للأدب الانجليزى والمسرح الانجليزى ؟ ! ونظر أسفل الصورة ليقرأ اسم صاحبتها ... ولشد ما كانت دهشته عظيمة هائلة إذ وجد اسم صاحبة الصورة (إيزابل هايس) ! ! المؤلفة الـكبيرة والقصصية البارعة ، التى طالما قرأ لها روائع وآيات مترجمة إلى لغته الايطالية ؟ !

لا بأس ... إنه لم يحصل مرة على صورة ماريا ، وها هى ذى صورة إيزابل لا تفترق عنها فى شىء ... فليحتفظ إذن بها ، وليجعلها بين شموع وضاءة تلتهب بالقبس المقدس الذى يتأجج ملء قلبه ... وليصلِّ لها كل مساء وحين يصبح ... وليذكر فى فمها الرقيق الصغير تلك الأقحوانة التى كانت تنفرج عنها شفتا حبيبته ... ولتباركه الصورة المستعارة بكلمات صامتة لا تبين ، فقد كانت ماريا لا تبين كذلك ... وليرَ هو فى وجهها الوضاء جمالاً جديداً كل يوم جديد ، وليعش على الأمانى يبهرجها لنفسه ، ولا بأس من أن يضع الصورة كلما نام تحرسه عند رأسه ... وبالاختصار ، لتـكن حياته أحلاماً فى أحلام ...

غير أن الفندق صار شيئاً كريهاً لا يطاق ، لأن ماريا لم تعد

ترسل فى أجوائه أنفاسها ... بيد أنه مع ذاك جميل محبب لأن فى كل ركن من أركانه ذكرى لماريا تغذى أحلام ميشيل ، وترسل دموعه كلما جفت ؛ وهو مع ذاك أيضاً هيكل حبه الأول الذى استيقظ فيه قلبه من سبات العدم تخفق بنعمة الهوى ... لهذه التناقضات سيقيم ميشيل فيه ... وليكن رئيس الخدم بعد شهر أو شهرين ، وليتضاعف راتبه ، وليشتر بجانب كبير منه كثيراً من قصص إيزابل هايس التى لم يقرأها ، لأنه أصبح يرى فى آثار هذه الكاتبة الانجليزية روح ماريا .... وليحاول أن يتعلم الانجليزية ليقرأ المؤلفة فى لغتها ، وليفشل فى هذه المحاولة ، فقد أورى إحساساً شريفاً نحو صورة لسيدة تشبه ماريا ، وكفى بذلك برهاناً على وفائه لذكرى فتاة لم تعرف قط أنه يهواها ...

***

وأقبل فوج من (السياح) عظيم من أغنياء الانجليز فنزلوا فى هذا الفندق ، وأعجبوا بحديقته إعجاباً شديداً ، فقد كانت ظلال الأبنين البنفسجية تعكس على نضرتها وخضرتها ألواناً شعرية تصول فيها الأرواح وتجول

وحان موعد الغداء فانتشر النازلون فى بهو المطعم الوردى ، وجلسوا إلى موائدهم مسرورين فرحين ، وراح النُّدل بينهم وجاءوا ، هذا يحمل الأطباق الحافلة ، وذاك يحمل الماء المثلوج ، وثالث الكامخ الايطالى اللذيذ ... وأشرف ميشيل على الجميع بملابسه الناصعة ، ووجهه الحزين الباسم ، فطفق يأمر هذا ويشير إلى ذاك ، ويدعو هذه ويحث تلك ، والسياح مقبلون على آكالهم وأشربتهم آخذون فى سمر هامس ، وكلام رقيق ... شأن السادة الانجليز فى كل فج ...

ثم وقف ميشيل أمام حسناء إنجليزية فجأة ولم يرم !

ماله وقف هكذا كالتمثال ويداه مقبوضتان ! إنه لا ينبس ولا يتحرك ! بل سمر عينيه فى السيدة المشغولة عنه بطعامها وشرابها ، ولما يأبه للنداءات والأجراس التى تهتف به من كل صوب ! ...

ودهش النازلون فجعلوا يحدجونه وإن لم يشتغلوا به عن طعامهم ثم استبطأته المديرة فانطلقت إليه كى ترى ... فلما وجدته يقف عن كثب قريباً من السيدة الانجليزية لكزته لكزة هينة لينة ، لكنه لم ينتبه ... فنظرت المديرة إلى السيدة السائحة نظرات سريعة فعرفت كل شيء

— أستميحك عذراً يا سيدتى فهذا النادل ميشيل أديب مشغوف بك ، يقرأك ويكب على قراءتك ، وليست لك قصة أو درامة منقولة إلى الايطالية إلا وقد اقتناها ... والأعجب من كل ذلك أنه اقتنى صورتك من إحدي المجلات التي تكتبين فيها ، ووضعها فى إطار ثمين ، ولولاها من عنايته مالم يول حياته الخاصة ! أندريا ! أندريا !

وأقبل الخادم أندريا فقالت له المديرة :

— انطلق إلى غرفة ميشيل فأحضر صورة السيدة إيزابل هايس !

ونظرت السيدة الأديبة إلى صورتها فدهشت لاحتفاظ النادل الايطالى بها ، وشاع فيها برغم طبعها الانجليزى المعروف إحساس بالكبرياء والزهو ... حتى إذا فرغت من طعامها هتفت بميشيل وسمحت له بالجلوس إليها يكلمها وتكلمه .. وكانت تجيد الايطالية فكان الحديث بينهما جميلاً جذاباً ذا شجون ...

ومما سحر ميشيل أنه سمع من فم الأديبة الانجليزية صوت ماريا ، ورأى فوق رأسها سلوكا هفهافة من الذهب تشبه شعر حبيبته ، ووجد الجسم السمهرى المشوق هو هو جسم صاحبته وقوامها .. ولم يكن باقياً إلا أن تكون الأديبة إيطالية .. ونادلة .. لتكون ماريا ...

وسكنت إيزابل فى الطابق العلوى في الغرفة الأخيرة من البهو الكبير ... واستدعت المديرة فأوصتها ألا يرتفع للخدم ضجيج ولا لغط لأنها اختارت هذه الغرفة لتحلو إلى نفسها فتكتب ما هو مطلوب منها من القصص ... وطمأنتها المديرة ... وذهبت

وأقبل فوج آخر من السياح ، فنهضت المديرة تدبر له الغرف اللازمة ... وكانت قريباً من غرفة إيزابل غرفة تقوم للبهو مقام مخزن ... فاستدعت ميشيل وخادمة أخرى لتساعده فى نقل الصناديق والأمتعة المحفوظة بها ... ثم أمرتهما أن يلزما السكينة والصمت ، وألا يقطعا على النازلة فى الغرفة رقم ١٧ هدوءها ... « لأنها تكتب لك قصة رائعة يا ميشيل ! »

وامتثل الخادمان ، وأخذا يحملان ما بالغرفة ... ولم يبق إلا هذا الصندوق الثقيل الذى لا يعرفان ما ذا كان بداخله ... فلما أخرجاه من الغرفة ، وشرعا يحملانه فى البهو . انفلت من يد الخادمة فهوى إلى الأرض ، وانتثر ما بداخله من أطباق وزجاج ، فصار هشيماً ، وأحدث فى البهو صوتاً مزعجاً كأنما هوى الفندق كله وصار أنقاضاً على أنقاض ... وأقبلت المديرة ترغى وتزبد

وتصخب ، وتلعن وتسب ... وبرزت إيزابل كالمجنونة لأن كل أفكارها طارت كالحمام من برج رأسها ... — كما عبرت هي — واجتمع السياح والخدم يشهدون ويتسلون بدافع الفضول ... ثم التفتت المديرة إلى ميشيل ، وهي تنظر فى الوقت نفسه إلى إيزابل وقالت له : « أما أنت أيها المشئوم ففصول من عملك ، ولا حاجة للفندق بك ! »

وغضب الفتى وإن لم يتكلم ... وقبل أن يذهب لشأنه هتفت به الأديبة الانجليزية وواسته بكلمة ، ثم صافحته ، ودست فى يده ورقة مالية كبيرة ... واعتذرت مع ذاك إليه ، لأنها كانت سبب ما لحق به من أذى ...

ولم يذهب ميشيل البائس ليأخذ متاعه ويمضى ... بل انطلق كالمجنون يذرع طرقات روما العتيدة ، حتى كان عند تخومها ... وهو ما يزال قابضاً على الورقة المالية ، ولا يدرى ماهى ؟! ثم نظر فى البطاح القريبة فرأى ضاحية تيفولى بيلوطها الرائع وحورها الجميل ، وشجر السرو المعجب البارز فى جنباتها ... فانطلق فى طريقه إليها ... حتى إذا بلغها ، كان قد نال منه الجهد ، وأحس بتعب شديد ... ولم يكن ثمة مكان يستريح به إلا هذه الفنادق الهائلة التى تشتهر بها هذه الضاحية ... فلم يبال ... ودخل أول واحد منها ، ثم انحط على كرسى كبير عند مائدة ، وأسند رأسه وراح يحلم بماريا ... وبأيام ماريا ... ويسكب دموعاً حارة ...

له الله ! كم ألف فكرة طافت برأسه الثائر وقلبه المشبوب !!

ثم أقبلت نادلة فهمست به وهو فى سكراته : ماذا يطلب ... بيد أنه كان غارقاً فى هواجسه وأحلامه ، فلم ينظر إلى الفتاة ... ومدت هى يدها الصغيرة اللينة توقظه ... أو تنبهه ... فرفع رأسه قليلاً ... لكنه أحس كأنما الدنيا تدور به ، وكأنما الأرض تسوخ تحت قدميه ... وصرخ يقول :

— ماريا ... أنت هنا ... ؟

وانهمرت دموع الفتى المسكين تغسل خديه الأشحبين ... وقالت ماريا تجيبه ، وكأنما حُلت عقدة السحر ... « أجل ياميشيل أنا ... هنا ! فمن جاء بك ؟ »

— لقد طردونى يا ماريا ... فذهب قلبى يبحث عنك حتى اهتدى إليك ...

— شكراً للمقادير ياعزيزى ... ولكن ... أما تزال تحبنى ؟

— وكيف عرفت يا ماريا ؟

— لقد كنت أحسبك تعبث بى ... وهذا ما جعلنى أفر مع فرارى غليظ الكبد ، وأتزوجه فى نابلى ... نابلى ! آه لهذه البلدة المتوحشة !!

— أنتِ ؟ تزوجت من فرارى ... ؟

— أجل ... ولكنه كان زواجاً منحوساً ... لقد عشت معه ثلاثة أشهر ، كانت نكداً كلها ... والحمد لله ... لقد قتل فى شجار نشب بينه وبين عصبة من رعاع نابلى ، فأراحنى الله منه ...

— إذن أنت خالصة الآن لى ؟!

— ... ؟ ...

— إذن هلمى ياماريا ... هلمى ...

— أهذه ورقتك ؟ ماذا ؟ ورقة مالية كبيرة ... بخمسين ليرة ؟!

— لا ... إنها ليست لى ، ولكنها لسيدة انجليزية تصدقت بها على ...

***

واستقالت ماريا من فورها ... وانطلقت مع ميشيل إلى روما ... وقوبلا فى الفندق مقابلة ثائرة صخابة ... ولقيتهما المديرة بالترحاب ، وبالغت فى الاعتذار لميشيل ، لأنها علمت أنه لم يتسبب فى تهشيم الصندوق ... ولكن الفتى ازور عنها ، وسأل الكاتب ظرفاً كبيراً من الورق وضع فيه الورقة المالية ... وصعد إلى الطابق العلوى فاستأذن على إيزابل هايس الأديبة الانجليزية فأذنت له ... ولم يجلس ، بل قدم إليها الظرف بما فيه ... وانطلق شاكراً

وحمل متاعه ... وصحبته ماريا إلى بيته القديم الذى لم يدخله مذ ماتت أمه ... وهناك ، طفق الحبيبان ينفضان غبار الموت والفقر والذكريات المشجية عن الأثاث القديم ... وكشف فى صندوق أمه عن فضل قليل من المال كان حسْبه للعقد على ماريا ، والحياة ثلاثة أشهر كانت كلها عسلاً ... وكتب خلالها قصته ... وباعها بمبلغ كبير من المال ...

وعاش فى ظل ماريا ... من أنبغ الأدباء الايطاليين

« ملخصة » دريني خشبة



الأستاذ زيجفريد وأثر العلوم السياسية فى تكوين الأمم

ألقى الأستاذ أندريه زيجفريد الأستاذ بالكوليج دى فرانس ونزيل مصر الآن فى كلية الآداب بالجامعة المصرية محاضرة شائقة عن العلوم السياسية وأثرها فى تكوين الأمم والحكومات ؛ ومن رأى الأستاذ زيجفريد أن العلوم السياسية من العناصر الضرورية لتكوين الحكومات والرأى العام فى الأمم الديموقراطية ، وأن الأداة الحكومية يجب أن ترتكز على عناصر مثقفة من الناحية السياسية لتستطيع القيام بمهمتها ؛ أما رجال السياسة فيرى الأستاذ زيجفريد أنه ليس من الضرورى أن يلموا بكثير من التفاصيل الادارية والفنية ليتولوا مهام القيادة والحكم ، وليس من السهل أن يتعلموها ، وللسياسى العظيم شخصية ومواهب خاصة تغنيه عن معرفتها . ففي السياسة يجب أن يكون الانسان شخصاً ما . أما في الادارة فيجب أن يكون الانسان شيئاً ما

كان اللورد كيرزون نائب الملك فى الهند يقول : إن الحاكم يحكم بشخصيته . بيد أن هنالك فريقاً من الساسة يجمع بين الصفتين أعنى المزايا السياسية والمزايا الادارية ، ومن هؤلاء نابوليون وثيير وبسمارك وكافور وموسولينى ؛ وهنالك أيضاً بعض الساسة الذين تعوزهم الصفات الادارية والفنية حكموا بأعظم قسط من النجاح ، ومن هؤلاء لويد جورج ، وارستيد بريان

على أنه إذا كان الرجل العبقرى يستطيع الاستغناء عن هذه التفاصيل فان الحكومات لا تستطيع الاستغناء عنها ؛ وتتفاوت كفاية الحكومات فى الحكم بقدر ما تملكه من المزايا الادارية والفنية ؛ والحكومات القوية العظيمة هى التى تتمتع بأعظم قدر من هذه المزايا ؛ ودراسة العلوم السياسية هى أول عنصر يمهد للتمتع بها

وبهذه المناسبة نذكر أن الأستاذ زيجفريد، فضلاً عن كونه أستاذاً بالكوليج دى فرانس ، عضو بالمجمع العلمي الفرنسى ؛ وله عدة كتب هامة فى الاقتصاد السياسى والاقتصاد الاجتماعى ؛ ومن أشهر كتبه : « الولايات المتحدة اليوم » : Les Etats Unis d'aujourd' hui ؛ « وأمريكا اللاتينية » L'Amerique Latine ؛ « والأزمة البريطانية فى القرن العشرين » La Crise Britt. au XX ciècle ، وغيرها وهو يعد الآن مؤلفاً من هذا النوع عن مركز فرنسا فى البحر الأبيض المتوسط ويعنى أثناء دراسته بمصر بملاحظة أثر مدنية البحر الأبيض فى وادى النيل

دراسة علمية لتاريخ العراق الحديث

صدر أخيراً كتاب بالانكليزية عن العراق يعتبر من خير المراجع التى صدرت عن العراق الحديث؛ وعنوان هذا المؤلف الجديد هو : «العراق : دراسة لتطوره السياسى» Iraq. A study in Political Development ومؤلفه مؤرخ ومستشرق أمريكى هو الأستاذ ب . و . إيرلاند Ireland ؛ والكتاب عبارة عن دراسة سياسية اجتماعية دقيقة لتاريخ العراق وتطوراته الحديثة حتى عصر الاستقلال . ويبدأ المؤلف دراسته منذ ظهور النفوذ البريطانى فى العراق لأول مرة ، حيث ظهرت جمعية الهند الشرقية البريطانية فى القرن الثامن عشر ورأت فى العراق مركزاً هاماً للتجارة الهندية ، واضطرت للمحافظة على مصالحها التجارية أن تقوم من آن لآخر بحملات بحرية تأديبية ضد عرب السواحل

ويستعرض المؤلف تدخل انكلترا الحديث فى شئون العراق بعد زوال الحكم التركى ، ويقول إن الاستعمار الانكليزي كثيراً ما ينحدر إلى مغامرات وتجارب خاطئة ؛ ولكنه كان بعيد النظر حينما استقدم الملك فيصلاً ليتبوأ عرش العراق . وقد كان الملك فيصل فى رأى المؤلف من طبقة « المستبدين الأخيار » وكانت جهوده تتجه على العموم الى خير البلد الذى وضعته الأقدار على عرشه . ثم يقول المؤلف إن مستقبل العراق تحفه بعض الريب المظلمة ،

ويتوقف بالأخص على ما يبديه الشعب العراقى من جهود حازمة تشبه تلك الجهود الموفقة التي أبداها حتى وصل إلى الاستقلال ؛ ويعانى العراق كثيراً من المتاعب الجنسية والطائفية ، ومشاكل البدو ، وهذه جميعاً تعوق تقدمه ؛ ومن ثم فإن الوطنية العراقية يجب أن تتجه إلى ما وراء الاستقلال ، وأن تروض نفسها على حمل أعباء الدولة والادارة السياسية . ويمتاز الكتاب بطابعه العلمى الدقيق وكثرة مراجعه ووثائقه

العلامة كارير الفائز بجائزة نوبل

أشرنا فى العدد الماضى إلى الفائزين بجوائز نوبل هذا العام وقلنا نقلاً عن الأنباء البرقية إن الذى فاز بجائزة نوبل للكيمياء هو العلامة النرويجى كارلر ؛ ولكنا بمراجعة البريد الألماني الأخير علمنا أن الذى فاز بهذه الجائزة هو العلامة السويسرى الدكتور باوو كارير P. Karrer بالاشتراك مع الأستاذ هواث الانكليزى

وقد منح العلامة كارير هذه الجائزة لمباحثه القيمة عن أنواع الفيتامين ، وأثر ألوان النبات فيها . وملخص ترجمته أنه درس الكيمياء دراسة عميقة ، ومنذ سنة ١٩١٣ وهو يشغل كرسى الكيمياء فى جامعة تسيريخ ، وفى سنة ١٩١٩ عين مديراً للمعهد الكيميائي ؛ وفى سنة ١٩٣٢ حصل الدكتور كارير على جائزة مارسيل بنوا من أجل مباحثه ورسائله عن « هيدرات الفحم » ثم ظهر بعد ذلك بمباحثه عن الفيتامين ، ولفتت إليه أنظار الدوائر العلمية الدولية ؛ ومن أجلها منحته جامعة برزلاو أجازة الشرف فى الطب سنة ١٩٣٣ ؛ وله عدة رسائل ومؤلفات فى الفيتامين وألوان النبات تعتبر حجة عالية فى بابها

تمثال للثقافة العربية

تألفت لجنة من بعض المستشرقين الايطاليين والشرقيين المقيمين فى إيطاليا للعمل على إقامة تمثال للثقافة العربية ، فى مكتبة الأمير وزيانة ، أسوة بالتماثيل المقامة لعباقرة الأمم الأخرى

وقد بعثت إلينا اللجنة بكتاب تضمن السؤالين التاليين ، واللجنة ترجو من المعنيين بالثقافة العربية أن يجيبوا عن هذين السؤالين ، وهما

١ — من هو الشخص العربى المبرز فى النظم ، أو النثر ، أو الفلسفة ، وتفوق على السلف والخلف ، حتى تمثلت فيه الثقافة العربية ؟

٢ — متى أجمع الرأى على واحد بين الأقدمين ، مثلاً ، ولم يكن له صورة فهل من المستطاع رفع تمثال له ؟ وإذا ما أمكن ذلك ، فأى شعار أو رمز يصح أن يمثل الثقافة العربية بكل معانيها ؟

والمرجو إرسال الرد على هذين السؤالين إلى سكرتير اللجنة بعنوانه الآتى :

Dr. Enrico Nunè Via Morgagni, 6 - A Roma

معرض مدرسى لدور العلم الحديثة

أقام المجمع الملكى للمعماريين البريطانيين معرضاً عظيما فى لندن فى ١ كتوبر الماضى (١٢ — ١٩) لدور العلم الحديثة جمع فيه صوراً شمسية ونماذج مجسمة لأحدث ما استجد من وسائل التعليم فى الممالك الراقية (الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا وألمانيا وشمال غرب أوربا) وقد عنى أكبر العناية بإبراز مستحدثات مدارس التعليم فى الهواء الطلق . وكان مما استلفت الأنظار معروضات القسم الفرنسى ، ومنها كرة هائلة جداً تمثل الأرض بجميع قاراتها ومحيطاتها وبحارها وجبالها وممالكها وأشهر أنهارها ومدنها . وقد أحيطت هذه الكرة الكبيرة بسلم عظيم دائرى يبدأ من القطب الشمالى ويلف حولها حتى ينتهى إلى القطب الجنوبى ، بحيث يبدأ التلاميذ زياراتهم ومشاهداتهم من أول الدرج فيرون كل دقائق العالم فى جميع أرجائه حتى ينتهوا إلى القطب الشمالى ... والعجيب أن هذا السلم يتسع لزيارة مدرسة يربى عددها على الأربعمائة من التلاميذ ... وبعد أن ظل المعرض فاتحاً أبوابه للجماهير أسبوعاً بأكمله اقترحت الحكومة أن ينتقل فى سائر أنحاء الجزر البريطانية على أن يلبث أسبوعاً فى كل مدينة كبيرة ليستطيع الناس ورجال التعليم أن يلموا بما فيه ، وأن يطبقوا ما يرونه تمت فى مدارسهم ؛ وسيقضى المعرض فى رحلته هذه عامين كاملين حتى ينتهى منها فى ١ كتوبر سنة ١٩٣٩

تزوير وبراءة

علمت أن مجلة « المكشوف » البيروتية نشرت فى أحد أعدادها الأخيرة خطاباً زعمت أني أرسلته إليها ومقالاً عن الأدب المصرى نسبته إلىّ ؛ فأثار ذلك منى دهشة واستنكاراً لأنى لم أكتب مطلقاً إلى هذه الصحيفة أى خطاب ولم أرسل إليها أى مقال ؛ وما كنت أتصور أن هذه الصحيفة التى عرفت بامعانها فى الطعن فى مصر والكتاب المصريين والنيل منهم تذهب فى جرأتها إلى حد التزوير عليهم

فالى أن أتخذ الاجراءات القانونية ضد الصحيفة المذكورة لأدحض هذا التزوير الشائن أعلن على صفحات الرسالة بكل قواى أنى لم أرسل إليها فى حياتى أية رسالة ولم أنشر فيها حرفاً واحداً وفى هذا التكذيب الحاسم ما يكفى الآن

محمد عبد الله عنان

كذا ...!

رأى قراء الرسالة الغراء فى العدد الماضى هذه الكلمة (كذا) حاشية على كلمتين فى بيتين من قصيدتى « وحى جديد »

أما الأولى فعلى كلمة « منغومة » فى البيت السادس :

تقسيم موسيقى   منغومة النبر

وهى هنا (كذا) حقيقة ، كما أردتها وكتبتها ، لأن « منغومة » نعت لكلمة « موسيقى » وهى مؤنثة ، وتكون المعنى هكذا :

فى لفتة الجيد   فى خفقة الصدر
تقسيم موسيقى   منغومة النبر

أما الثانية فعلى كلمة « لى » فى البيت الثلاثين :

فهى لى روحاً   من رقية الثغر

وهى هنا ليست (كذا) ولكنها غلطة فى الكتابة والنقل ، وصحتها « له » بدلاً من « لى »

« حلوان »   سيد قطب

(الرسالة) : لاتزال (كذا) موضوعة على (منغومة) لأن الأستاذ الشاعر أعربها ولكنه لم يذكر فى أى استعمال عربى أو فى أى قاموس لغوى وجدها

لازلو مصور الملوك

نعت أنباء لندن الأخيرة فيليب دى لازلو المصور المجرى الشهير الملقب بمصور الملوك لأنه قام بتصوير جميع ملوك العالم المعاصرين ؛ ويعتبر لازلو من أعظم مصورى العصر الحديث ، وقد ظهر نبوغه منذ أوائل هذا القرن بصورة بارزة ؛ ومنذ سنة ١٩١٤ انتقل لازلو إلى لندن وعاش فيها وتجنس بالجنسية الانكليزية ؛ ومما يذكر أنه قدم إلى مصر منذ أعوام ؛ وعمل صورة رسمية للمرحوم الملك فؤاد الأول ، وصورتين لصاحب السمو الملكى الأمير فاروق ولى العهد يومئذ ، فحازت هذه الصور أعظم إعجاب وتقدير

ويعتبر لازلو أستاذا لمدرسة التصوير المجرية الحديثة ، وله عدة مجموعات بديعة تزين متاحف التصوير الحديث فى معظم العواصم الأوربية ، هذا عدا ما يزين منها قصور أوربا الملوكية

لمناسبة العيد المئوى لبوشكين

نذكر أن روسيا احتفلت منذ بضعة أشهر بالعيد المئوى لوفاة شاعرها الأكبر بوشكين ؛ وقد نشرت بعض الصحف الأدبية أخيراً أرقاماً مدهشة عما بيع في روسيا بهذه المناسبة من كتب بوشكين وآثاره . ويقال إن ما بيع من آثار بوشكين والكتب المتعلقة بحياته وشعره بلغ ثمانية ملايين نسخة ، وذلك كله مما قامت بطبعه مكتبة الدولة ؛ وبيعت مقادير وافرة من مجموعات آثار بوشكين ، وترجمت إلى جميع اللغات الذائعة فى روسيا مثل الأوكرانية والأرمينية والتترية ؛ وقد أخرج شريط مصور (فلم) عن شباب بوشكين ، وتخرج الآن أشرطة أخرى عن حياته وعن موته المؤسى

سيرانو دى برجراك للسينما

أحب المخرج الإنجليزى المعروف (مستر كوردا) أن يخرج شريطاً لرواية الشاعر المشهورة ، ولكنه لم ترقه التراجم الانجليزية لهذه الرواية ، فاقترح ترجمة جديدة اشترط أن تكون حرفية تنعدم فيها شخصية المترجم ؛ فقدمها إليه الكاتب الكبير همبرت ولف بعد ثلاثة أسابيع من إعلان الاقتراح ... ولسنا ندرى ماذا صنع المترجم فى هذه الأيام القليلة ، ولا كيف جاءت ترجمته ، ولا ماذا صنع بالمقطوعات الشعرية المنتثرة فى رواية إدمون روستان ... ؟! ترى هل استعان بالشياطين فى نقلها إلى النظم الانجليزى ؟ سنرى حين تصل الترجمة إلى مصر



سيرة السيد عمر مكرم

صفحة مجيدة من جهاد الشعب المصرى
فى الدفاع عن أرضه وحرياته وحقوقه

للدكتور رياض شمس

في حلكة ذلك الجزء المظلم من تاريخ مصر الذى يبدأ قبيل الحملة الفرنسية ، وينتهى فى أوائل حكم محمد على باشا ، تألق نجم رجل امتاز بخلقه المتين ، ووطنيته الصادقة ، واستحق التفاف الشعب حوله ؛ فكان لا يأتمر إلا باشارته ، ولا يخضع لغير رأيه ، ولا يفزع فى الملمات إلا إلى شخصه العظيم . وقد استطاع هذا الرجل أن يحرز لمواطنيه بقدوته السامية ، وبفضل إيمانه بقوة الشعب ، انتصارات باهرة على أعداء البلاد من فرنسيين وأتراك ومماليك ، وكانت نتيجة انتصارات الشعب على يديه تغيير اتجاه تاريخ مصر الحديث

وهأنذا أحاول أن ألقى نظرة خاطفة على بعض مواقف ذلك الزعيم الشعبي ، لأن سيرته فى الواقع هى سجل ممتاز لفترة هامة من تاريخ مصر السياسى الحديث ، ولأنى أجد هذه الفترة وثيقة الاتصال بتاريخنا الحاضر ، وأجد فيها من العظات السياسية والاجتماعية ما ينبغى أن يظل ماثلا أمام عينى الشعب المصري ، مستقراً فى صميم قلوب الشباب فى فاتحة عهدنا الجديد

وقد كنت أجهل قدر هذا الرجل لأنى مع الأسف الشديد كغيرى من غير المتخصصين ، تكاد تنحصر معلوماتنا عن تاريخ العصور المصرية الماضية ، ولا سيما العصر الذى عاش فيه ذلك الزعيم فيما درسناه موجزاً فى المدارس الثانوية ، ونسيناه عاجلاً بعد تخرجنا فيها

ولكن مؤرخاً معاصراً تربطه بذلك الزعيم صفات مشتركة من متانة الخلق ، وصدق الوطنية ، والايمان الراسخ بقوة الشعب ، استطاع بعد سنين طويلة من البحث والتحقيق أن يستخلص لنا من ظلمات الماضى القريب ضياء وضاحاً حجبه عن أبصارنا كر الغداة ومر العشى مدي قرن من الزمان

***

اقتحم الغزاة الفرنسيون بلادنا فرأى مواطننا العظيم أن أمراء المماليك لا يعنون بغير إخفاء أموالهم ثم الذهاب إلى الحرب ليبادروا بالهروب لدى الصدمة الأولى ، فأهاب بالشعب أن يشمر للذود عن حياضه . وهنا أترك الكلمة للمؤرخ الجليل الأستاذ محمد فريد أبو حديد مؤلف « سيرة عمر مكرم » . قال فى الصفحة الحادية والخمسين :

« وكان جواب الشعب باهراً نبيلاً ، إذ لبى جميعه نداء الواجب فخرج كل من فى القاهرة وضواحيها من الرجال والشبان حتى لم يبق أحد إلا الضعفاء والنساء ، وجاد كل منهم بما عنده من مال قليل دراهم اقتطعها الفقراء من أقواتهم وأقوات عيالهم وجادوا بها ليشتروا سلاحاً وخياماً وذخيرة ... »

فلما هزمت المماليك فى موقعة امبابة ، وقرر شيوخ القاهرة أن يعلنوا التسليم للقائد الفرنسى ، أنف السيد عمر مكرم أن يعود إلى القاهرة إلا إذا كانت عودته على جهاد ، رغم أنه يعلم أن اسمه فى طليعة الأسماء التى اختار القائد أصحابها ليحكموا البلاد بجانب الفرنسيين . وأنت تقرأ تعليق المؤلف على هذا الموقف الكريم على الصفحة ٥٦ وما بعدها :

« ولو كان نظره إلى نفسه ومصلحتها لآثر العودة كما عاد السادات والشرقاوى ، على أن يكون أحد زعماء العهد الجديد ، فلا يتحمل التشريد والنفى والحرمان والفقر ومعاناة الأهوال والشدائد ؛ ولـكنه لم يكن ينظر إلى نفســه وما تتجشمه من الأخطار وما تتكبده من المشقة ، بل كان ينظر إلى بلاد شهد أول تحركها نحو التحرر ، وذكر حقها فى الحياة الحرة المستقلة فلم يجد له وسيلة إلا أن يضحى بنفسه راضياً فى سبيل الجهاد ، مهما يكلفه ذلك من عناء ...

« مع أن مراداً وابراهيم ومن معهما من الأمراء لو استطاعوا أن يعودوا إلى الحكم بالاتفاق مع الفرنسيين لما ترددوا فى ذلك لحظة ، فلم تكن بأحدهم رغبة فى الجهاد لنجاة البلاد من حكم الأجنبي ، أو للمحافظة على حياتها وحريتها ، بل كان كل ما يرمون إليه أن يسترجعوا السيادة ، ويعودوا إلى سيرة طغيانهم وعسفهم ؛ ولو وجدوا من الفرنسيين ميلاً إلى الاتفاق على أن يعودوا إلى الحكم تحت علمهم وحمايتهم لـما ترددوا فى ذلك .. »

ولاشك أن تأنق المؤلف فى عرض موقف المماليك وبراعته فى المقارنة بين الوطنية الحقيقية والمنفعة الشخصية ، قد أعاد إلى ذاكرة القارئ عشرات المواقف فى تاريخنا السياسى الحديث ، منذ ســنة ١٩١٩ إلى الآن ، حيث كان قادة الأمة الأمناء يضربون عن الاشتراك في الحكم بكل صور الإضراب ، ويتحملون ألوان المصادرة والنفي والسجن والتشريد ، بينما يتهالك غيرهم على التقاط الفتات المتساقط من مائدة الغاصب على حساب الوطن وحرية البلاد

ثم اسمع المؤلف يروى لك فى الصفحة ٧٢ قصة ثورة مارس سنة ١٨٠٠ قال :

« سارع (السيد عمر مكرم) إلى الخروج من عزلته إذ رأى الواجب يناديه إلى العمل .. واجتمع فى قلوب الشعب عامة عوامل تدفعه وتذكى حماسته من غضب الـكريم لـكرامته ، وخوف الشريف على شرفه ، واشتملت العاطفة الوطنية في الصدور ، تثيرها ذكريات المجد التالد من ماضى القرون ، فلم يكن إلا أن صاح السيد عمر صيحته ... حتى هبت الثورة المصرية الـكبرى التى دامت تضطرب فى القاهرة سبعة وثلاثين يوماً ، ودخلت فى أثنائها قلوب المصريين عامة فى بوتقة الانصهار ليكون منها شعب جديد يتقارب فيه الأمير من العامي ، ويمتزج فيه الـكبير بالصغير ، وتنبغ من غمرات ذلك أمة حديثة ، يحس فيها الفرد بأنه للمجموع ، ويحس فيها المجموع بأنه من الأفراد »

... ص ٨١ « كان السيد عمر قد عاد إلى مصر مضطراً ، ثم حاول أن يقاوم الأجنبى عند ما لاحت له الفرصة فلم تواته الظروف وعجز ، ولـكنه كان لا يزال يأمل أن يبقى على جهاده حتى يحين فرصة أخرى ، فلم يرض أن يقيم على أرض مصر ما دامت أقدام الأجنبي تطؤها ، فآثر العودة إلى الهجرة والبعد عن وطنه ، وأن يتـكبد المشقة والفقر ولوعة الفرقة من أحبائه وأشياعه على أن يقيم فى بلاده لا يستطيع أن يتنفس فيها حراً »

ص ٨٧ « ... وأصبح السيد عمر بعد رجوعه مع الجيش المنتصر رجل مصر وزعيمها . اجتمعت فيه الزعامة والجهاد والتضحية ، وقد علاه عند ذلك تاج الانتصار والانخراط في سلك رجال الدولة الجديدة . ودخل القاهرة فكان دخوله يوماً من الأيام المشهودة ، إذ خرج الناس للقائه والترحيب به »

أنشأت أطالع الصفحة الأولى من « سيرة السيد عمر مكرم » فلم أكد أبدأ الـكتاب حتى وجدتنى عاجزاً عن تركه لحظة ؛ وما زلت به حتى وصلت إلى الصفحة ٢١٩

ولـما فرغت من دراسته ضممته إلى أحب مراجعي إلي ، وألفيتنى على ظمأ إلى نهلة أخرى من مورد تاريخنا الحديث . ذلك المورد العذب الذي طالما حالت ظروف مصر السياسية دون تصوره للطلبة المصريين تصوراً صحيحاً يغذى الروح القومية ويذكي فى الشباب المتعلم نعرة الاعتزاز بالماضى المشرف ، ويبعث فى نفســه حمية التطلع إلى أن يكون لبنة قوية فى بناء صرح بلاده ، ويزيده حرصاً على الاضطلاع بمسئولياته كمواطن شريف فى بلد لم يقصر مواطنوه فى الماضى قريبه والبعيد عن أداء واجبهم الوطنى بكل ما لديهم من وسائل

إن الأسلوب الذى ابتدعه الأستاذ الـكبير فريد أبو حديد فى كتابة « سيرة عمر مكرم » ليعد بحق فتحاً جديداً ، بل فتحاً مجيداً ، فى تاريخ المؤلفات التاريخية المصرية

فقد استطاع هذا الـكاتب الموهوب أن يلقى ضياء وضاء على

تاريخ القومية المصرية ، وأن يستخرج من الحقائق التاريخية المدعمة بالأسانيد ، ذخيرة صالحة وغذاء شهياً للشباب المصري الذي كان إلى عهد قريب لا يجسر على تقليب صفحات الماضي خشية ألا يجد فيها ما يشرف

وقد كان لنا بعض العذر ، فقد عودنا المؤلفون الأجانب والترجمون المصريون أن نقرأ صفحات الماضي في ظلال التحامل على القومية المصرية ، والانتقاص من قدر أمتنا النبيلة المجاهدة

وإن كل ما نتمناه أن يتاح لطلبة مدارس مصر الثانوية أن يطالعوا سيرة عمر مكرم ، وأن يحرص كل مصري يحترم نفسه ويعتبر بماضيه على دراسة هذا السفر النفيس

أما المؤلف فإنا لا نستطيع أن نشكره لأنه قد دعانا إلى مائدته فقدم لنا لوناً من طعام فاخر لا عهد لنا به ، فلما استوعبناه تفتحت شهيتنا إلى المزيد . وها نحن أولاء نغشى موائد الثقافة فلا نجد هذا الطراز من المؤلفات التاريخية التي نحن أشد ما نكون حاجة إلى تذوقها بعد ما تذوقنا من لذة سيرة السيد عمر مكرم

لذلك نطالب مؤرخنا النابغة أن يخرج لنا سلسلة من الكتب تكشف عن أمجاد ماضينا القريب تكون حافلة بالعظات البالغة ، العظات السياسية والخلقية والاجتماعية على نحو ما ألفناه في كتاب عمر مكرم

فإذا اضطلع بهذا الواجب ، وهو على مثله من النابغين فرض حتم ، كان لنا أن نسميه بحق : « منصف تاريخ القومية المصرية في الأزمنة الحديثة »

رياض شمس

تصويب

ورد في فاتحة مقال « قصة الموسوعة الجامعة » الذي نشر في عدد الرسالة الماضي (ص ١٨٨٥) ما يأتي : « سجل العلم الحديث فتحاً جديداً خطير الشأن بصدور الموسوعة الايطالية التي بدأ صدورها منذ أعوام ثلاثة فقط » والصواب « منذ أعوام قلائل فقط »

« بقية المنشور على صفحة ١٩٢٢ »

أمة من الفساد أن تسن في الرذائل سنناً ، وتشرع في المخازي شرعاً تجعل الأشرار المخادعين فائزين حيثما ساروا ، وترد الأبرار الصادقين خائبين أين توجهوا . مهما تشتد العلة فالخيبة أكثرها للأولين ، والنجح أكثره للآخرين . فإذا أرادت تجعل الفساد سنة فوتها دون الغاية ، وزوالها قبل نهاية الطريق

أحسب يا أخي أن الذي لبس عليك الأمر لبساً ، وملأ عليك العالم حزناً ، وملأك على العالم سخطاً ، أنك نظرت أول ما نظرت إلى دواوين الحكومة فرأيت جماعة من خفاف الأحلام صغار النفوس شالت كفتهم فارتفعوا ، وآخرين من راجحي العقول كبار النفوس ثقلت موازينهم فنزلوا ؛ فلما امتلأت نفسك أسفاً وأملك في الناس خيبة ، نظرت إلى أنحاء الأمة ساخطاً متشائماً ، فنفضت عليها هذا السواد ، ونفثت عليها هذه الغضبة ، واتهمتها بهذه التهمة

إن دواوين الحكومة أقرب المواضع إلى ما زعمت ، وأكثرها تعرضاً لما وصفت . ذلك بأن الرزق فيها لا ينال بالسعي والكد ، والجهد والدأب ، والاحتكام إلى سنن الاجتماع وقوانين الطبيعة ؛ ولكن الرزق فيها يقسم بأيد قليلة ، ويصرف بآراء معدودة ، فإذا فالت هذه الآراء ، وطاشت هذه الأيدي ، وقع الفساد ، ثم شاع وعم حتى يبلغ أمده . وكثيراً ما تفيل الآراء وتطيش الأيدي بأهواء السياسة ومنازع التحزب ؛ على أن هذا مهما كثر لا يبلغ أن يكون قاعدة العمل وسنة الجزاء

ولا تنس يا أخي أن هذه الدواوين حديثة عهد بأيدي الأجانب ومن تربى في عبوديتهم ؛ وكانت سنة الأجنبي أن يرفع من استسلم إليه وتوكل عليه ، ولا يكون هذا الاستسلام وذاك التوكل إلا احتقاراً للكرامة وازدراء بالخلق الفاضل ؛ ونحن لا نزال في أول عهدنا بالاستقلال لم تهذبنا التجارب ولم تتمكن أيدينا من وضع القواعد الصالحة ، وسن السنن القديمة ، وإقامة الوزن بالقسط بين الناس أجمعين

فإن رأيت جوراً في الدواوين وظلماً بين الموظفين فهي علة زائلة . فلا تنشرها على الأمة كلها ، ولا تمدها على الزمان جميعه . واعلم أن الظفر للحق والخيبة للباطل ، وأن النصر للفضيلة والهزيمة للرذيلة ، وأنها الغمرات ثم ينجلين ، والعاقبة للمتقين . والسلام عليكم ورحمة الله

عبد الوهاب عزام

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧

5 me Année, No. 231

Lundi 6 - 12 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تلفون ٤٣٠١٣

العـــدد ٢٣١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣ شوال سنة ١٣٥٦ — ٦ ديسمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الفهـــرس

ثورة على الأخلاق

شقشقة هدرت ثم قرت

أخى عزام

قرأت مقالك البليغ فى عدد الرسالة السابق ، وكان محمود خصمك حاضراً فكفانى ما كلفتنى من إبلاغه . وهو فى هذه الساعة لين الحاشية ، لأنه قام منذ هنيهة عن مائدة الإفطار الغنية الشهية ، ممتلئ البطن من خير الله ، رطيب اللسان بحمد الله ، لا يذكر أن فى العالم ضيق رزق ، ولا أن فى الناس سوء خلق . ولذلك قال حين ذكَّرته برأيه وخبَّرتُه برأيك ما قال الإمام على رضى الله عنه : تلك شقشقة هدرت ثم قرت ! فكانت حاله التى حالت بين الأمس واليوم دليلاً جديداً لعلماء الاجتماع الذين يردون ثورات الشعوب المختلفة إلى العوامل الاقتصادية المحض من الحرمان والجوع . والواقع الذى لا يرفعه زخرف القول أن الناس يدورون بعواطفهم وأخلاقهم حول مادة العيش ، فإن أُعطوا منها رضوا ، وإن لم يُعطَوا منها إذا هم يسخطون

على أن مجلسنا كان حافلاً بغير محمود من رجال العلم والدين والأدب وكلهم كانوا له وعليك . وليس ذهابهم إلى رأى خصيمك

انصرافاً عما قررت من حميد الأثر لأخلاقنا المقدسة فى أمة الناس وسعادة النفس ، فإن ذلك موضع اتفاق لا يشذ عنه إلا ميت الضمير أو مريض العقل . إنما كان موضع الجدل أن الأخـلاق الفاضلة لا تصلح أن تكون عدة النجاح إن لم تكن عدة الفشل . والنجاح فى جهاد العيش لا يدل على تمام معناه إذا قصدنا به الكفاف من ميسور الرزق ، يصيبه الصالح والطالح ، ويقنصه البازى والرخم . فإذا ضربت له مثلاً نجاح الصانع الصادق والتاجر الأمين والمزارع الوفى والعامـل القانع . كانوا أحرياء أن يتهكموا بقداسة هذه الأخلاق إذا كان قصارى أمرها هذا النجاح الحقير وهى الدستور الأعلى لبلوغ السموات وامتلاك الأرض . فإن هؤلاء الطيبين الأخيار الذين وصفتهم بالقناعة وخصصتهم بالرضى لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً من رجال المال والأعمال كصيدناوى والبدراوي وعبود . أما حين تقصد النجاح بمعناه الأتم فإنهم يرونك تنزع إلى مقالة محمود وتعلل بمنطقك السليم فشل التقى الأبى الحر بأنه (لا يرى إلى الجاه والمال إلا طريقاً واحدة هي الطريق التى يسنها الحق والشرف والأباء والمروءة ، وأن أمام الفساق والأذلاء والأدنياء طرقاً شتى من التلصص والكذب والتزوير والخداع والملق والذلة والشره والظلم والقسوة والأثرة وهلم جرا ، وأن من الأحرار من يخفق في عمله حين يلزم نفسه هذه الطريق الواحدة ، ويقسرها على هذه المحجة الواضحة . وأن من العبيد عبيـد المطامع والأهواء ومرضى النفوس والأخلاق من يظفرون فى هـذه السبل بما يريدون ، ويبلغون الغاية التى يقصدون)[(١)] وما دام جوهر الرأي واحداً فالسبيل القاصدة إذن أن نطبَّ لهذه الحال بما يوائم بين طموح الناس وكرامة الأخلاق وسلامة المجتمع . وليس هناك إلا وسيلة من وسيلتين : إما أن نصد الناس جميعاً عن هذه الطرق المتعددة ، ونقصرهم على هذه الطريق الواحدة ، بقوة الأديان والسلطان والتربية ، وذلك ما عناه الرسول (ص) بقوله : « عليكم بالجادَّة ودعوا البُنَيَّات[(٢)] » ؛ وإما أن نعيد النظر فى قانون الأخلاق فلعل فيه ما لا يوافق تقلب العصر وتطور المجتمع . فأما الوسيلة الأولى فقـد سجل الماضى ودلل الحاضر على أنها خيال نبيل لا يقع فى الإمكان ، وحلم جميل لا تقوم عليه يقظة . وتعليل ذلك لا يعزب عنك فلا حاجة إلى تقريره . وأما الوسيلة الأخرى فهى على ما يرون مظنة التوفيق فى الإصلاح الجديد

ما معنى أن يظل التواضع والقناعة والزهد والمداراة والتوكل على إطلاقها فضائل وأنت ترى بعين الواقع أن المتواضع موضوع والقانع مهمَل والزاهد محروم والمدارى مستذَل والمتوكل عاجز ؟ أليس صلف الانجليزى أبلغ فى العزة ، وطمع الفرنسى أليق بالحياة ، وطموح الايطالي أخلق بالرجولة ، وصراحة الألمـاني أدعى إلى الهيبة ، واستقلال الأمريكى أضمن للفوز ؟ ما معنى أن يظل الربا فى عصر الاقتصاد رذيلة وقد اختلف اليوم فى معناه ومرماه عن ربا (شيلوك) وأنت تعلم أن الغرب لم يستعبد الشرق إلا عن طريق بنوكه . فقد كانت تأخذ القناطير المقنطرة من أموال المسلمين بغير ربا لتقرضها إخوانهم المساكين بالربا الفاحش . ولو أنهم أخذوا رباها وأنفقوه فى وجوه الإصلاح والبر لما بقى على أرضهم أجنبى ، ولما ظل تحت سمائهم فقير . ولا أريد أن أعرض لغير الربا من الرذائل فلا نزال فى حاجة إلى التقية والمصانعة . وإذا سلمنا أن مقياس الفضائل والرذائل هو النفع والضرر ، فما كان مؤدياً إلى منفعة سمى فضيلة ، وما كان مؤدياً إلى مضرة سمى رذيلة ، سهل قياس الأخلاق على هذا الأساس ، وأمكن بعد ذلك الاتفاق على نتيجة هذا القياس

***

ذلك يا عزام قولهم بأفواههم يريدون أن يصل إليك عن طريق الرسالة . أما محمود فقد ظل صامتاً طول الحديث كأنه ليس منـه فى قالٍ ولا فى قيل . ولا أدرى إذا ما خلا جوفه من طعام رمضان الدسم المرىء أيعود إلى جدالك ، أم يكتفى بتعليق أصحابه على مقالك . وأما أنا فلا أزال أهيب بدهاقنـة الدين وفلاسفة الأخلاق أن تتدخل جماعتهم فى سوق الفضائل معدِّلة أو هادية ، كما تتدخل الحكومة فى سوق الأقطان مشترية أو حامية

أحمد حسن الزيات

(١) من مقال الأستاذ فى العدد الماضى

(٢) الجادة وسط الطريق والبنيات ، الطرق الصغار التى تتشعب من الجادة

بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٢ —

من دمشق إلى القسطنطينية

ياصديقى الزيات :

لعل رسالتى التى حدثتك فيها بطرف من أحاديث دمشق قد بلغتك ، وهذه رسالة أخرى أطرفك فيها ببعض ماوعت النفس من مشاهد الطريق بين دمشق والقسطنطينية . وأرجو أن أواصل الرسائل من بعد :

ترددت برهة كيف آخذ طريقى من دار الأمويين إلى دار البيزنطيين . أأركب إليها البحر من بيروت وأرجع من طريق البر ، أم أخترق اليبس إلى غايتى ؟ وكنت ركبت السفينة بين الاسكندرية والقسطنطينية مرتين قبلاً ، فقلت لنفسى : ماذا تفيدين من رؤية ما رأيت ، وحافظ الشيرازي يقول :

من جرّب المجرّب حلت به الندامة

وماذا تُجدى عليك رؤية الدأماء صباح مساء ؟ لجة واحدة وأمواج متشابهة ، كأنها ساعات الزمان فى بحر العمر !

صح العزم على سفر البر ، فخرجت من دمشق بعد ظهر الثلاثاء ١٩ جمادى الأولى (٢٧ تموز) فى سيارة أعدتها شركة السكك الحديدية لإبلاغ المسافرين حمص ليركبوا منها سكة الحديد إلى حلب . وقد ابتليت برفقة ليس بينى وبينهم سبب فأرحت لسانى وأذنى ، وسرّحت طرفى فى الفضاء ، وفكرى فى مسارح لا تحد بين الماضي والحاضر ، والقريب والبعيد . وكان للسيارة سوّاق ذكرنا بقول القائل : « قد لفّها الليل بسوّاق حُطم » فانطلق بنا لا يألو إسراعاً حتى يكاد الماء فى جوف السيارة يشتعل ، فيقف ريثما يفثأ الماء ، والطريق أكثرها صحراء جرداء تسايرها جبال وتلال ، وتزينها بين الحين والحين قرى ومدن ومشاجر ومياه ، ولا سيما قرب حمص . ولم نقف على الطريق إلا فى النبك لبثنا به قليلا

هذه حمص بعد سبع سنين ولات حين تلبث . إن الوقت لا يمهلك حتى لزيارة خالد بن الوليد فاصبر حتى تعود أدراجك من هذه الطريق فتقضي حق العين والفؤاد من هذه المشاهد

بعد قليل جاءت من طرابلس عربة كعربة ديزل المعروفة فى مصر ، وتسمى فى الشام باسمها الفرنسى « أوتومُتريس » أخذت مكانى بها وانطلقت سريعة تطوى ما بين حمص وحلب ، والطريق هنا أكثر ماء وشجراً وزرعاً . وفى الطريق لاحت حماة فى زينات من شجرها ومائها ، ونغمات نواعيرها منثورة فى السهل تدور بالماء والماء بها يدور لا تفتر نهاراً ولا ليلا وتذكرت قول القائل :

ناعورة مذعورة للبين حيرى سائرة
الماء فوق كتفها وهي عليه دائرة

وتذكرت أنى حين قرأت هذين البيتين فى المدرسة ظننت الناعورة هى الساقية بلسان أهل مصر ، ثم عرفت فرق ما بينهما حين ذهبت إلى الشام أول مرة . ومن رأى نواعير الفيوم فقد رأى صورة صغيرة من نواعير الشام الماثلة فى الفضاء على نهر العاصى عالية رائعة

وبلغنا حلب بعد الساعة الثامنة من المساء فقصدت إلى فندق البارون . اضطرنى إليه ، على نفرتى من هذه الأسماء الأفرنجية فى البلاد العربية ، أنى أُنْـزِلت به مرة ، ولم أعرف من فنادق حلب غيره . وقضيت به بقية الليل . وأصبحت مبكراً إلى القطار قطار الشرق السريع . لم أر فى حلب شيئاً ولم ألاق بها صديقاً . وسأعود إلى حديث حلب وحمص فى رجوعى إلى الشام إن شاء الله

وجاء القطار الفخم قد كتب عليه بالفرنسية والتركية ذات الحروف اللاتينية : « قطار الشرق السريع » وسألت أحد عمال القطار عن عربات النوم فقال لصاحب له بالتركية : « دلّه عليها » فقلت : هذا أول العُجمة وطلائع الغربة

أخذت مكانى بالقطار موّطناً النفس على السفر ستاً وثلاثين ساعة ، ورفيقى فكرى وخيالى وديوان البحترى . سار القطار والساعة سبع من الصباح ، وكان شريكى فى المقصورة انكليزياً ذاهباً من العراق إلى بلده فى إجازة قصيرة ، ولكنى وجدت عن ملازمته ميلاً ومندوحة فى مقصورة أخرى خالية خلوت فيها بصاحبي البحترى . وسأحدث القارئ حديثه بعدُ ؛ على أنى لم أذمم من الانكليزى الشيخ صحبة ، وكنت ألقاه حيناً فحيناً فنتحدث ونتفكه ، وكنت أجده جالساً وبجانبه عدة السفر من البيبة والسجاير والكتب . ولست أنسى رنّانى له حينما أضلّ منظاره فاضطرب حيناً يبحث عنه ، ثم جلس كئيباً يقول : إنى لا أستطيع القراءة بدونه ، وكيف أقطع الطريق إلى لندرة بغير قراءة ؟ إنه منظار ثمين ، إنه يلائم عينىّ ؛ ثم يهيج فيتهم خادم القطار بالسرقة ؛ وييأس ، فأعيدُ الأمل فى نفسه ، فيعود يبحث عنها

وأبحث معه . وجاء الخادم يقول : لعلها فى حقيبتك . ففتح الحقيبة مغضباً وأخرج ما فيها من ورَق وقال للخادم بالانكليزية — وهو عالم أنه لا يعرف منها كلمة — : أنظر ! أتجدها هنا ؟ أأنت على يقين أنها ليست هنا ؟ أمطمئن أنت إلى أنها ليست هنا ؟ ثم رجعت إليه بعد حين فإذا هو متهلل الوجه مسرور ، فلما رآنى وثب يرينى كيف انزلق منظاره وراء الباب وكيف وجده ، فشاركته السرور وأعدنا الحديث عنه ضاحكين بعد أن أطلنا الحديث عنه آسفين ...

وبعد ساعتين من حلب دخلنا إقليماً جبلياً مشجراً تخلل القطار فيه أنفاقاً كثيرة متعاقبة على سفوح الجبال حتى بلغنا ميدان أقبس على الحدود بين سورية وتركية ، والساعة تسع وخمسون دقيقة ، فوقف القطار زهاء نصف ساعة . وجاء موظف تركى فسأل : من أين ؟ قلت : من مصر . قال : إلى أين ؟ قلت : استانبول . قال : أمعك أشياء للجمرك ؟ قلت : لا . قال : كم معك من النقود التركية ؟ قلت : قليل لا يتجاوز كذا . قال : مع السلامة

وبلغنا ، والساعة ثلاث ونصف ، محطة اسمها مصيص . قلت لنفسى : هذه ولا ريب المصيصة التى كانت ثغراً بين البلاد الاسلامية وبلاد الروم زمناً طويلاً . هنا نهر جيحان ، وهنا مغازى سيف الدولة ؛ وفى هذا الإقليم وما يجاوره نظم المتنبى ما نظم من قصائده . أليس يقول أبو الطيب لسيف الدولة :

سريت إلى جيحان من أرض آمد
ثلاثاً لقد أدناك ركض وأبعدا

ومن قبل قال عدىّ بن الرقاع العاملى :

فقلت لها كيف اهتديت ودوننا ... دُلوك وأشراف الجبال القواهر
وجيحانُ جيحانُ الملوك وآلس ... وحَزن خزازى والشعوب القواسر

أجل وهنا أطراف العواصم التى يفيض بذكرها التاريخ والشعر .

وسرنا بعد المصيصة ثلاثين كيلا شطر الغرب فاتسع السهل وانتشرت الخضراء ووافينا أطنة والساعة أربع . ندع حديث أطنة وما يليها إلى العودة ، ونسير إلى الشمال زهاء ساعة فنوافى جبال طوروس ، وما أعظمها منظراً جيلاً رائعاً هائلا : سفوح مخضرة يصعّد فيها الطرف حتى يبلغ قمماً شاهقة تكاد العين تقصر دونها ، قمم متنافسة متسامية إذا صعد البصر إلى إحداها انزلق على السفح ليرقى فى سفح آخر إلى قمة أخرى ، وإذا أسفّ النظر إلى الحضيض فهناك الأودية العميقة السحيقة يهول الناظر عمقها وروقه بين الحين والحين مياه تجرى مسرعة مزبدة متعرجة كأنها الأراقم راعها القطار فانسابت إلى مجاحرها . وتتوالى مرائى طوروس فى جمالها وجلالها واختلاف ألوانها وارتفاعها واستفالها وما يشغل العين والفكر من صورها ، والقطار على السفح موف على هذه الأودية الهائلة يصعد متمهلا وينبهر أحياناً فيقف زاحراً زافراً لا يقوى على المرتقى . فاذا أعد العدة من مائه وناره وبخاره عزم فصعد جاهداً مجهوداً . وبعد نصف ساعة على هذه السفوح تعاقبت أنفاق لبث القطار فيها نحو عشرين دقيقة كلما بشّر الضوء بانتهاء أحدها أقبل الآخر فى ظلامه يلتهم القطار

ومن بدائع الجناس أو المقابلة فى هذا الجمال البديع أذواد من الإبل فى أودية طوروس ، لم تذهب بجمالها ورواتها مناظر الجبال العظيمة ؛ وأما سرب المعزى الذى رأيته هناك فلا أدرى من أى أنواع البديع مرآه هناك

وتوالت ذِكَرُ الآل والأصحاب فإذا لسانى يترنم بهذه الأبيات :

ذكرتك إذ طوروس فى اللوح مُصعِد ... يظلّ بأهداب السحاب يُعمَّم
يطير بيَ الاعجاب بين سفوحه ... وقماته والقلب فيه مقسَّم
ويفزع من وديانه كل ناظر ... ويحتار فيه الطرْف كيف يتمم
جمال ترود العين بين رياضه ... عليه جلال بالمهابة مفعم
فأيقنت أنْ ذكراك أروع مشهداً ... وأجمل من طوروس عندى وأعظم

وانتهى بنا الإصعاد إلى مكان اسمه أولوقشله وهو أعلى موضع فى طريق طوروس ؛ وبعده بقليل تلتقى الطريقان : الطريق الآتية من أنقرة ، والآتية من قونية

وجن الليل وبات القطار يسرى فأصبحنا عند أنقرة والساعة سبع من الصباح : وأستأذنك يا صديقى أن أطوى المسافة بين أنقرة واستنبول والحديث عنها إلى العودة فقد كان نصيبى من هذه الديار فى عودتى أوفر ، وأنسى بها أطول ، ثم أخشى أن تمل الحديث الطويل والرسالة المسهبة . فسلام عليك إلى أن أكتب إليك

استنبول ٣٠ تموز

عبد الوهاب عزام

في التاريخ السياسي

مصر وإيطاليـــا

عبر الماضي دلائل الحاضر

بقلم باحث دبلوماسي كبير

لما كشفت إيطاليا الفاشستية في أوائل سنة ١٩٣٥ عن نياتها الاستعمارية نحو الحبشة توجس أولئك الذين يشفقون على حرياتهم وحريات الشعوب الآمنة شرا ، واستشعروا الخطر الاستعماري جاثماً وراء تأكيدات رومة بأنها لا تبغي من وراء أهباتها العسكرية سوى الدفاع عن أملاكها الأفريقية . ولم تمض أشهر قلائل حتى صدق الظن ووثبت إيطاليا بالحبشة وثبتها المعروفة ، واستشهدت ضحية جديدة من ضحايا الاستعمار

وكان لهذه المأساة الاستعمارية في مصر وقع خاص ؛ ولم يكن ذلك فقط لأن مصر ترتبط مع الحبشة بروابط تاريخية قديمة ، ولها في الحبشة نفوذ ديني خاص بواسطة كنيستها القبطية ، ومنابع نيلها تقع في الحبشة ، ولكن لأن مصر شعرت على الأخص بأن خطراً استعمارياً جديداً قد استقر على مقربة منها ومن سودانها ونيلها ، وأن الفاشستية الطموحة المتوثبة قد أصبحت تطوق وادي النيل من ناحيتيه ، وأن استشهاد الحبشة على هذه الصورة المروعة إنما هو عبرة يجب أن يكون لها بالغ الأثر

وقد كانت المعاهدة المصرية الانكليزية التي عقدت في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ نتيجة محتومة لهذه المأساة ؛ ولم يكن في وسع مصر وبريطانيا العظمى أن يتجاهلا أهمية ذلك التطور الخطير في أحوال وادي النيل ؛ ولم يكن في وسعهما أن يمضيا بعد في نزاع طال أمده ، وأن يغفلا بذلك عن الخطر الذي تواجهانه معاً ؛ ومن ثم كان عقد المعاهدة المصرية الانكليزية عملا حكيما من الجانبين ، وكانت ضرورة أملتها الظروف والحوادث

والآن تبدو أهمية التحالف بين مصر وبريطانيا العظمى ؛ فتطور الحوادث في البحر الأبيض المتوسط ، وحالة التوتر التي تسود علائق الدول الفاشستية والدول الديمقراطية ، والكدر الذي يشوب علائق إيطاليا وبريطانيا ، وما تبديه الفاشستية الايطالية من بوادر التحفز والطموح ، وما تقوم به من الأهبات العسكرية في جزيرة بانتلاريا الواقعة بين تونس وصقلية ، وفي جزيرة رودس ، وما تحشده من القوات الجرارة في طرابلس على مقربة من الحدود المصرية : كل أولئك يجب أن يلفت الأنظار ، ويثير الريب ، ويقضي على أولئك الذين تعنيهم هذه الحالة أكثر من سواهم بالتيقظ والحذر والاستعداد

* * *

ولا ريب أن مصر في مقدمة الدول التي يجب أن تعنى بهذه التطورات ؛ بل هنالك ما يدل على أنها ليست بعيدة عنها ، وأنها لا تستطيع أن تطمئن إليها ؛ وليس ذلك فقط لأن الحوادث قد جمعت بين مصر وبريطانيا العظمى ، ووثقت بينهما في جبهة صداقة وتحالف دائمين ، ولأن الفاشستية الايطالية في خصومتها لبريطانيا العظمى لا بد أن تقصد إلى خصومة مصر في نفس الوقت باعتبارها حارسة لشريان من أهم شرايين الأمبراطورية البريطانية : نقول ليس ذلك فقط ، بل كذلك لأن الفاشستية الايطالية ليست بعيدة عن التفكير في مصر لذاتها

إن الفاشستية الايطالية تضطرم اليوم بأعظم الأحلام الأمبراطورية ، وترتد ببصرها إلى الأمبراطورية الرومانية ؛ وليست مصر في نظرها إلا كطرابلس ولاية رومانية سابقة . وما زلنا نذكر إشارة السنيور موسوليني في إحدي خطبه أيام الحرب الحبشية إلى مصر وقوله إنها كانت أهراء الغلال لرومة ، والفاشستية ترنو في حلمها الإمبراطوري إلى مصر ، ولا سيما بعد استيلائها على الحبشة . وقد دلت على ذلك في مواطن عديدة ومناسبات كثيرة وهي تحاول منذ أعوام أن تقوى نفوذها ودعايتها في مصر بمختلف الوسائل ؛ وسواء أكانت الفاشستية ترنو إلى مصر من خلال خصومتها لانكلترا ، أو كانت تقصد إليها بالذات كحلم استعماري رائع يمكن تحقيقه ، فان الذي لا ريب فيه هو أن مصر تواجه اليوم مرحلة من أدق مراحل تاريخها

ولقد توالت من خلال هذا القلق الشامل تصريحات المقامات المسئولة في رومة بأن إيطاليا الفاشستية لا تضمر شراً لمصر ولا يمكن أن تفكر في الاعتداء عليها ، وأنها بالعكس تشعر نحوها بأكرم عواطف الصداقة والود ؛ وأما الجيوش الجرارة التي تحشد

في برقة ، وأما الأهبات العسكرية الماثلة التي تتخذ هنالك على مقربة من الحدود المصرية ، فليست سوى إجراءات تحفظية تقرر اتخاذها منذ بعيد . هكذا نسمع من رومة بين حين وآخر ، وهكذا أكد لنا السنيور موسوليني نفسه في حديث أفضى به منذ أسابيع قلائل ، وهكذا يؤكد ممثل إيطاليا في مصر للحكومة المصرية كلما أبدت دهشتها وتساؤلها من سير الأحوال في برقة

بل هنالك ماهو أكثر من ذلك ، وهو أن الحكومة الإيطالية عرضت أكثر من مرة ، وما زالت تعرض بواسطة ممثلها في مصر على الحكومة المصرية أن تعقد معها ميثاق صداقة وعدم اعتداء . ويقال إنها تقدمت إلى الحكومة المصرية بمثل هذا العرض حتى قبل أن تعقد المعاهدة المصرية الانكليزية

ومصر تغتبط بلا ريب بمثل هذه التأكيدات الودية من جانب حكومة رومة ، وتود لو أنها تستطيع أن تؤمن بها وتطمئن إليها

ولكن مصر لا تستطيع أن تؤمن ولا أن تطمئن ؛ ولها في ذلك أكبر العذر ؛ فالتاريخ يعيد نفسه دائماً ، وشواهد الماضي قرائن الحاضر ؛ ولإيطاليا الحديثة في نقض المواثيق والعهود تاريخ متصل لم تنقطع حلقاته حتى اليوم ؛ وهو يدل دلالة واضحة على أنه إذا كانت إيطاليا الحديثة الناشئة قد آثرت مدى نصف قرن أن تجري على سياسة انتهاز الفرص ونقض العهود ، فإن إيطاليا الفاشستية التي تجيش بمختلف المطامع والأماني لا يمكن أن تكون أحفظ للعهد وأجدر بالثقة والاطمئنان

وإليك منطق التاريخ الحاسم : لم تكد إيطاليا الفتية تستكمل وحدتها واستقلالها في أواخر القرن الماضي حتى أخذت تساورها نزعة الاستعمار والتوسع ، وتلتمس لتحقيقها جميع الخطط والوسائل ؛ وكانت تتردد يومئذ بين فرنسا وألمانيا لترى أي الناحيتين أكفل للغنم ؛ وكان وزيرها الشهير كرسبي رجل المطامع والمغامرات ، بل يمكن أن يقال إنه هو الذي وضع أسس سياسة التوسع التي تنزل إيطاليا إلى ميدانها اليوم . فلما احتلت فرنسا تونس في سنة ١٨٨٠ اضطرمت إيطاليا سخطاً لأنها كانت تطمع في احتلالها ؛ وتحول كرسبي إلى ألمانيا خصيمة فرنسا يخطب ودها ، وانتهى الأمر بدخول إيطاليا في المحالفة الثنائية الألمانية النمسوية التي غدت المحالفة الثلاثية من ذلك الحين (سنة ١٨٨٢) ثم تجددت في سنة ١٨٨٧ ؛ ولبثت قائمة حتى نشوب الحرب الكبرى

ولكن ما الذي حدث عند نشوب الحرب الكبرى ؟ التمست إيطاليا الوسيلة لنقض عهود تحالفها مع الدول الوسطى والتزام الحيدة أولا ، ولم يمض عام حتى انقلبت إلى الحلفاء . ثم انضمت إليهم وأعلنت الحرب على حليفتيها القديمتين لتشترك مع الحلفاء في تحطيم الامبراطورية النمسوية والاستيلاء على نصيبها من أسلابها

وحصلت إيطاليا على نصيبها من أسلاب الدول المهزومة ؛ وكانت أوفر الحلفاء حظًّا في أوربا لأنها فضلاً عن الفوز بتحطيم الامبراطورية النمسوية جارتها القوية وخصيمتها القديمة ، استولت على التيرول الجنوبي واستيريا ودلمانيا ، وكفلت بذلك حدوداً منيعة في الشمال والشرق

ثم قامت الفاشستية الايطالية ولم يرضها ما حصلت عليه إيطاليا من أسلاب الحرب ، بل اعتبرته غبناً لها وانتقاصاً لحقوقها فشهرت سياستها المعروفة في سبيل التوسع الاستعماري ، وعززتها بالتسلح والأهبات العسكرية العظيمة ، وأخذت تترقب الفرص لتحقيق مشاريعها وأمانيها

وكانت إيطاليا قد عقدت منذ سنة ١٩٠٦ معاهدة ثلاثية مع بريطانيا العظمى وفرنسا تقضي بالعمل المشترك بينها لحماية أراضيها ومصالحها في شرق أفريقية ، وتنص على وحدة الحبشة واستقلالها مع التنويه بمصالح إيطاليا في الحبشة ؛ وجددت هذه المعاهدة في سنة ١٩٢٥ . وفي سنة ١٩٢٨ عقدت إيطاليا مع الحبشة معاهدة صداقة وتحكيم ، وجددت عهودها للحبشة باحترام استقلالها ووحدتها ، وكانت إيطاليا من أشد المؤيدين لدخول الحبشة عصبة الأمم

ولكن الفاشستية الإيطالية كانت في الوقت الذي تقطع فيه على نفسها هذه العهود والمواثيق تتحين الفرص ، وتدبر اعتداءها سراً على الحبشة ، حتى إذا سنحت الفرصة نفذت مشروعها الاستعماري على مرأى ومسمع من العالم ، ولم تبال بمواثيق أو عهود ، وسخرت من كل اعتراض أو احتجاج ، وتم لها ما أرادت من القضاء على حريات أمة آمنة مستقلة

ولما اضطرمت الحرب الأهلية الأسبانية ظهرت إيطاليا الفاشستية من وراء الثوار تشد أزرهم وتذكى أوار الحرب بجنودها وسلاحها ، وما زالت تمضى فى سياستها حتى اليوم تنفيذاً لمآرب ومشاريع استعمارية تبغى اجتناءها . ولما نظمت اليابان اعتداءها الأخير على الصين بادرت إيطاليا بإظهار عطفها وتأييدها لليابان المعتدية لأنها تسير فى نفس السياسة الاستعمارية التى تسير عليها

هذا هو ماضى إيطاليا ، وهذا هو حاضر الفاشستية الايطالية فى نقض العهود والمواثيق وتمزيق المجتمعات ، وفى ترقب الفرص غير المشروعة وتنظيم الاعتداءات الاستعمارية

والواقع أن الفاشستية الإيطالية لا تنكر جنوحها إلى هذه الخطط ، فهى تنادى علناً بأن الحق للقوة وحدها ، وتسخر من كل عهد أو ميثاق أو حق لا تؤيده القوة ، وهى تجرى على سياسة مكيافيلية خالصة تبرر لتحقيق الغاية كل الوسائل

فكيف تستطيع مصر بعد ذلك كله أن تثق بتأكيدات رومة الودية وتطمئن إليها ؟ إن التاريخ يعيد نفسه دائماً ، ومصر ترجو ألا تكون ميداناً للوثبة القادمة

ومصر لا يمكن أن تطمئن إلا لنفسها ومقدرتها على الدفاع عن كيانها ، وهى تشعر شعوراً صادقاً بالخطر الذى يلوح لها فى الأفق ؛ ولكن مصر تثق أيضاً فى مستقبلها وطالعها ، وتعتزم ألا تسمح لأحد بالاعتداء عليها . ومن حسن الطالع أنها تستطيع أن تعتمد فى مثل هذا الظرف على معاونة صديقتها وحليفتها العظيمة بريطانيا العظمى . ومن حسن الطالع أن مصلحة مصر ومصلحة بريطانيا تتفقان هنا وتمتزجان ؛ فالاعتداء على مصر يكون فى نفس الوقت اعتداء على ما تعتبره بريطانيا مركزاً حيوياً لمواصلاتها الإمبراطورية

على أن مصر يجب أن تعمل منذ الآن للاعتماد على نفسها قبل كل شىء ، فنحن فى عصر القوة لا فى عصر الحق ، ويجب أن تتذرع الأمم للذود عن حرياتها وكيانها بكل ما تدخر من القوى المادية والمعنوية ؛ وهذا ما ستفعله مصر بلا ريب

ثم إننا نؤمن من جهة أخرى بأن هذه النظم الطاغية والخطط الاستعمارية الباغية التى تصول اليوم فى ميدان القوة والعدوان سوف تنهار متى وقع الاصطدام الحقيقى ؛ هذا إذا لم تسارع قبل ذلك إلى تمزيق نفسها بنفسها (***)

مسكين

بين إنجليزى ولبوته

أثر العادة والتدريب فى الانسان والحيوان

كنت قد أبصرت في بعض الصحف صورة شبل مع إنجليزى وطلّته [١] أو لَبُوَتِه [٢] ... وهما يشربان الشاي (أو الشاهى كما يقولون فى الحجاز) والثلاثة : الرجل والرَّجلةُ وابن الليث يتناظرون [٣] صامتين . وفى الصحيفة حديث عن أنس الوحش، فلم أتعجب إذ رأيت هذا المسكين (أعني الشبل) يقاعد إنجليزيا ، ولم أنكر ، ولم أقل : إن ذلك البريطاني قد تطبع بطبع الأسد الوحشى حتى ائتلفا واصطحبا لأن الانجليزى إنسان من الاناسية والناس لا يحتاجون كما يعرف العارفون إلى تدرب على طبيعة من طبائع الضوارى والكواسر أو الجوارح [٤] ، فالقرابات كما حققت علوم كثيرة فى هذا الزمان بين منتصبى القامات اليوم وبين [٥] الماشيات على أربع والطائرات والزحافات واشجات قريبات ؛ ووراثة الأجداد البعيدة (بل القريبة) وهي التي يقال لها فى اللسان الأفرنجى L' atavisme ما زايلتهم فى حين ، وما ضاع والحمد لله ... منها شىء ؛ وفى كل يوم ألوف ألوف من الأدلة المثبتة المسكتة ، المخجلة المخزية . وابْل من شئت ممن تفخمهم تفخيماً وتبجلهم تبجيلاً وتحسبهم — وهم من البشر — ملائكة ، فإنه « يكاد أفضلهم رأياً يرده عن فضل رأيه الرضا والسخط ، ويكاد أصلبهم عوداً تنكأه اللحظة ،

---

(١) طلة الرجل : امرأته ، قال :

وإنى لمحتاج إلى موت طلتى ولكن قرين السوء باق معمر

(٢) اللبوة ساكنة الباء غير مهموزة : لغة فى اللبؤة بضم الباء وبالهمزة

(٣) يتناظرون : ينظر بعضهم بعضاً لا إنهم كانوا يتناظرون ويتباحثون فى كتابى (أصل الأنواع) لداروين و (تاريخ الخلق الطبيعى) لأرنست هيكل

(٤) (الضارى) من السباع ماضرى بالصيد ولهج بالفرائس (باز كاسر) وعقاب كاسر ، كسر الطائر ضم جناحه حتى ينقض يريد الوقوع (الجوارح) ذوات الصيد من السباع والطير

(٥) بين تكرر مع المظهر لا كما قال الحريرى فى (الدرة) وغيره والتكرير فى أقوال العرب كثير

وتستحيله الـكلمة الواحدة [١] »

« والناس شجرة بَغْيٍ [٢] »

« وجدت الناس إن قارضتهم قارضوك ، وإن تركتهم لم يتركوك ، وإن هربت منهم أدركوك [٣] »

« وجدت الناس أخبرْ تَقْلِهْ [٤] » :

يلقاك بالمـاء النمـير الفتى ... وفى ضمير النفس نار تَقِدْ [٥]

يعطيك لفظاً ليِّناً مسُّه ... ومثل حدّ السيف ما يعتقدْ

فالناس هم الناس ، و« هم — كما قال عالم أفرنجي — لم يزالوا حتى اليوم فى الأفق (الدور) القردى الشبنزى أو الشنبزي » إنهم بعدُ لفى هذا الأفق وإن مشوا فى الأرض متغطرسين متكابرين متبجحين على إخوانهم الأقربين (ذوات الأذيال ...) بما سمّته لغاتهم تقدماً وارتقاء وإن أسمعك بعضهم — وأنت فى القاهرة مقيماً — صوت الحبيبة فى (نيويورك) وأراك صورة من تهوى فى بلاد (النمسة) :

من فى العراق يراك فى طرسوسا [٦]

فالناس هم الناس :

فلا تلزمن النـاس غير طباعهم ... فتتعب من طول العتاب ويتعبوا [٧]

أعود إلى أول كلامي فأقول : لا ، لا ، لم أقل : إن ذلك الانجليزي قد تخلق بنحيزة ضارٍ فألف كلٌّ صاحبَه ؛ فالانسان — كما أثبت علم العلماء وأثبت عمله هو — سبعى بالطبع ، بل ازددت بعد تلاوة ذلك الحديث إيقاناً بأثر العادة والتعويد ، وإيماناً بأن التدريب يقدر أن يذلل الضارى ويقتاده — كان الله فى عونه — إلى ملابسة انجليزى (أو غير انجليزى) ولا شيء فى الدنيا أصعب من مخالطة الناس

* * *

وفى العربية أقوال كثيرة فى العادة والمرون والتضرية والتدريب والتألف . وهذا خبر حسن بارع مجزئ عن كثير فى هذا المعنى ، وهو فى الشرح الـكبير (للنهج) لابن أبى الحديد :

« إن لم تكن حليماً فتحلم ، فانه قل من تشبه بقوم إلا أوشك أن يكون منهم) صحيحٌ فى مناهج الحـكمة ؛ لأن من تشبه بقوم وتكلف التخلق بأخلاقهم ، والتأدب بآدابهم ، واستمر على ذلك ومرن عليـه الزمان الطويل ، اكتسب رياضة قوية وملـكة تامة وصار ذلك التكلف كالطبع له ، وانتقل عن الخلق الأول . ألا ترى أن الأعرابي الجلف الجافى إذا دخل المدن والقرى وخالط أهلها ، وطال مكثه فيهم انتقل عن خلق الأعراب الذى نشأ عليه وتلطف طبعه ، وصار شبيهاً بساكنى المدن ، وكالأجنبى عن الوبر . وهذا قد وجدناه فى حيوانات أخرى غير البشر كالبازى والصقر والفهد التى تراض حتى تذل وتأنس ، وتترك طبعها القديم ، بل قد شاهدناه فى الأسد وهو أبعد الحيوان من الانس . وذكر ابن الصابى (أبو إسحق) أن عضد الدولة بن بويه كانت له أسود يصطاد بها الصيد فتمسكه عليه حتى يدركه فيذكيه [١] ، وهذا من العجائب الطريفة »

(...)

(١) من كلام النهج . (تستحيله) يريد تحيله ، ولم أجد استحال متعدياً فى كلام عربى يوثق به ، ولا في كتب اللغة المعروفة

(٢) إنما جعلهم شجرة البغى إشارة إلى أنهم ينبتون وينمون عليه (الميدانى) والقول مثل

(٣) أى إن نلت من أعراضهم نالوا من عرضك ، وإن تركتهم فلم تنل منهم نالوا منك أيضاً لسوء دخلتهم ، وخبث طباعهم (الميدانى) قارضه : جازاه (التاج) يقارض الناس يلاحيهم ويواقعهم (الأساس) والقول لأبى الدرداء

(٤) أبوالدرداء . قلاه يقليه قلى وقلاء (بالفتح) ومقلية وقلية (كرضية) يقلاه : أبغضه ، والهاء للسكت ، والمعنى وجدت الناس أى علمتهم مقولا فيهم هذا القول أى ما منهم أحد إلا وهو مسخوط الفعل عند الخبرة (الفائق للزمخشرى)

(٥) أبو العلاء

(٦) المتنبي . وصدر البيت : (كذب المخبر عنك ، دونك وصفه)

(٧) عمارة اليمنى

(١) يذكيه : يذبحه ، والذكى المذبوح ، فى (الـكشاف) : إلا ما ذكيتم : إلا ما أدركتم ذكاته (ذبحه) وهو يضطرب اضطراب المذبوح وتشخب أوداجه

إلى أخى النازح إلى باريز!

للأستاذ على الطنطاوى

« هـذا الذى أقوله لأخى ، يقال لكل طالب مسلم يدرس فى أوربة »
« ع »

يا أخى!

لما دخلتَ (مسابقة البعثة) أمّلت لك بالفوز لما عوّدك الله من التوفيق والمعونة ، وخفت عليك الخيبة لأن (الوزارة) لا تريد إلا مبعوثاً واحداً فى (العلوم الرياضية) من سورية كلها ، وأنى لك أن تكون ذاك الواحد ؟

فلما ظهرت النتيجة ، وكنت أنت الناجح فى (فرع الرياضة) ، وكنت الناجح فى (الطبيعة) أيضاً ، حمدت الله على هذه المنة ، وذهبت أستعجلك بالسفر

ولما عزمت أعددت لك ما تريد وأنا فرح مستبشر مسرور كنت مسروراً لأني أعلم أنك ذاهب تطلب العلم ، وتخدم الوطن ، وتقوم بالواجب

ولكن لم يكد يتحقق الأمر ، ويأزف الرحيل ، وأرى الباخرة الفخمة (ماريت باشا) رابضة حيال المرفأ (فى بيروت) تسطع أنوارها وتتلألأ ، وألقى نظرى على هذا البحر الهائل الذى يمتد فى الفضاء أسود مثل الليل ، حتى يغيب فى السماء ، أو تغيب فيه السماء ... لم أكد أرى ذلك حتى أدركت الحقيقة الواقعة ، وعلمت أنك مودع نازح ، فغلبت علىّ العاطفة ، وفاضت نفسى رقة وحناناً

لم أستطع أن أودّعك ، ولم أقوَ على رؤيتك وأنت فى الباخرة ، ماخرة بك عباب اليمّ ، تنأى بك عنى ، حتى تصير نقطة صغيرة على شاطئ الأفق ، ثم تنحدر إليه ، وتختفى وراءه ، وتختفى أنت معها ، وتصبح[1] فى نظرى عدماً ، لأنى لا أحس لها وجوداً . .

والوداع — يا أخى — جماع آلام الحياة وأسامها ومصدرها ، وأشد ألوان الوداع وآلمها وأمرّها وداعٌ فى البحر ، ذاك الذى لا يطيقه ذو قلب ..

(١) تصبح هى لا هو

ودعتك وداعاً عادياً ، ولبثت فى مدرستى ألقى درسى وأنا هادئ الجوارح ساكن الطائر ، ولكن فى القلب منى زلزلة ، وفى الأعصاب ناراً ...

حتى إذا عاد أخوك ناجى الذي صحبك إلى الباخرة يخبرنى أنك سرت (على اسم الله) ، أحسست كأن قلبى قد هبط من هذا الزلزال كبناء هوى ، وأن هـذه النار قد تركت أعصابى رماداً منطفئاً فسقطت على كرسى ... لا أدرى فيم هذا الضعف . ولا أحبه من نفسى ، ولكنى أدرى أني أتخيلك الآن وحيداً فريداً لا ترى حولك قريباً ولا صديقاً ، تطل من شرفة الباخرة فلا ترى إلا السماء والماء ، وقد أخذك دوار البحر فلم تجد معيناً ولا مسعفاً . وأتصورك فى ذلك البلد الغريب الذى لا ترى فيه إلا وجوهاً تنكرها ، وأنت الذي لم يفارق أهله قط ، ولم يغب عن بيته ليلة ، ولم يسافر وحده أبداً ... فلذلك ما أحزن ، وفى ذلك أفكر

* * *

ولكنها — يا أخى — خطيئة تربيتنا الاتكالية . لو أن آباءنا عودونا ، ولو أنا عوّدناك على الحياة الاستقلالية الصحيحة ، وتركناك وأنت فى الثانية عشرة تذهب وحدك وتعود وحدك ، وعودناك حمل التبعات وأيقظنا فيك شخصيتك ولم ندعها ضائعة فى شخصياتنا ، ودفعناك إلى استثمار مواهبك ولم نتركها معطلة ، لو فعلنا ذلك وأنت فى الثانية عشرة لما خفت عليك السفر وحدك إلى باريز وأنت فى طريق العشرين !

يا أخى .

إنك تمشى إلى بلد مسحور (والعوذ بالله) ، الذاهب إليه لا يؤوب ، إلا أن يؤوب مخلوقاً جديداً وإنساناً آخر غير الذى ذهب ... يتبدل دماغه الذى فى رأسه ، وقلبه الذى فى صدره ، ولسانه الذى فى فيه ؛ وقد يتبدل أولاده الذين هم فى ظهره إذا حملهم فى بطن أنثى جاء بها من هناك !

إى والله يا أخى ، هذه حال أكثر من رأينا وعرفنا (إلا من عصم ربك) ، يذهبون أبناءنا وإخواننا وأحباءنا ، ويعودون عداةً لنا ، دعاةً لعدونا ، جنداً لاستعمارنا ... لا أعنى استعمار البلاد ، فهو هيّن لين ، ثم إننا قد شفينا منه بحمد الله أو كدنا ...

وإنما أعنى استمرار الرؤوس بالعلم الزائف ، والقلوب بالفنّ الداعر ، والألسنة باللغة الأخرى ، وما تبع ذلك من الارتستات والسينمات وتلك الطامات ، من المخدرات والخمور ، وهاتيك الشرور ...

فانتبه لنفسك واستعن بالله ، فإنك ستقدم على قوم لايبالى أكثرهم العفاف ، ولا يحفل العرض . سترى النساء فى الطرقات والسوح والمعابر يعرضن أنفسهن عرض السلعة ، قد أذلتهن مدنية الغرب وأفسدتهن ، وهبطت بهن إلى الحضيض ، فلا يأكلن خبزهن إلا مغموساً بدم الشرف ، وأنت لاتعرف من النساء إلا أهلك ، مخدّرات معصومات كالدّر المكنون ، شأن نساء الشرق المسلم ، حيث المرأة عزيزة مكرّمة ، محجوبة مخدرة ، ملكة فى بيتها ، ليست من تلك الحطة والذلة فى شئ ... فإياك أن تفتنك امرأة منهن عن عفتك ودينك ، أو يذهب بلبك جمال لها مزوّر ، أو ظاهر خدّاع . هى والله الحيّة : ملمس ناعم ، وجلد لامع ، ونقش بارع ، ولكنّ فى أنيابها السمّ ... إياك والسم !

إن الله قد وضع فى الانسان هذه الشهوة وهذا الميل ، وجعل له من نفسه عدوّا (لحكمة أرادها) ، ولكنه أعطاه حصناً حصيناً يعتصم به ، وسلاحاً متيناً يدرأ به عن نفسه ، فتحصن بحصن الدين ، وجرد سلاح العقل تُوَقّ الأذى كله ... واعلم أن الله جعل مع الفضيلة مكافأتها : صحة الجسم ، وطيب الذكر ، وراحة البال ؛ ووضع فى الرذيلة عقابها : ضعف الجسد ، وسوء السمعة ، وتعب الفكر ، ومن وراء ذلك الجنة أو جهنم ...

فان عرضت لك امرأة بزينتها وزخرفها فراقب الله ، وحكِّم العقل ، واذكر الأسرة والجدود ... لا تنظر إلى ظاهرها البراق بل انظر إلى نفسها المظلمة القذرة وماضيها الخبيث المنتن ، أتأ كل من إناء ولغت فيه كل الكلاب ؟ ؟

يا أخى !

إن فى باريز كل شيء : فيها الفسوق كله ، ولكن فيها العلم . فان أنت عكفت على زيارة المكتبات وسماع المحاضرات وجدت من لذة العقل ماترى معه لذة الجسم صفراً على الشمال (كما يقول أصحابك الرياضيون) ، ووجدت من نفعها ما يعلقك بها حتى ما تفكر فى غيرها . فعليك بها ، استق من هذا المورد الذى لا تجد مثله كل يوم . راجع وابحث وألّف وانشر ، وعش فى هذه السماء العالية ، ودعْ من شاء يرتع فى الأرض ، ويعش على الجيف المعطرة ...

غير أنك واجد فى ثنايا هذه الكتب التى كتبها القوم المستشرقون عن العربية والاسلام ، وفى غضون هذه المحاضرات التى يلقونها ، عدواناً كثيراً على الحق ، وتبديلاً للواقع ، فانتبه له واقرأ ما تقرأ واصغ لما تسمع وعقلك فى رأسك ، وإيمانك فى صدرك . لا تأخذ كل مايقولون قضية مسلمة وحقيقة مقررة ، فالحق هو الذى لا يكون باطلاً ، وليس الحق ما كان قائله أوربيا فانظر أبداً إلى ما قيل ، ودع من قال !

***

ثم إنك سترى مدينة كبيرة ، وشوارع وميادين ، ومصانع وعمارات ... فلا يهولنك ماترى ، ولا تحقر حياله نفسك وبلدك كما يفعل أكثر من عرفنا من روّاد باريس . واعلم أنها إن تكن عظيمة ، وإن يكن أهلها متمدنين ، فما أنت من سودان أفريقية ولا بلدك من قرى التبّت ... وإنما أنت ابن المجد والحضارة ، ابن الأساتذة الذين علموا هؤلاء القوم وجعلوهم ناساً ، ابن الأمة التى لو حذف اسمها من التاريخ لآض تاريخ القرون الطويلة صحفاً بيضا لا شيء فيها ، إذ لم يكن فى هذه القرون بشر يدوّن التاريخ تاريخه سواهم ... فمن هؤلاء الذين ترى؟ إنما هم أطفال أبناء أربعة قرون، ولكنّ أمتك بنت الدهر لما ولد الدهر كانت شابة ، وحين يموت الدهر تكون شابة ...

لا . لا أفخر بالعظام البالية ، ولا أعتز بالأيام الخالية ، ولا أذكر لك الماضى لتقنع به وتنام ، ولكن أذكره لك لأهز فيك نفسك العربية المسلمة ، لأستصرخ فى دمك قوى الأجداد التى فتلت وأحيت، وهدمت وبنت وعلمت ، واستاقت الدهر من زمامه فانقاد لها طيعا ... إن هذه القوى كامنة فى عروقك ، قائمة فى دمك ، فليفُر هذا الدم وليثر ويضطرم تظهر ثانية وتعمل عملها

لاتقل : ما ذا يصنع طالب مثلى ضعيف فى أمة قوية ، فإن الأندلس المسلمة كانت بالنسبة لمصرها أقوى ، وكان روادها من طلاب الفرنجة أضعف ، ولكنهم استطاعوا على ضعفهم أن يضعوا (هذه القوة) التى تعجب بها أنت ، ويذوب فيها دين غيرك

وخلقه ... إن الدهر يا أخى دولاب ، والأيام دول . وإن فى الشرق أدمغة ، وفى الشرق سواعد ، وفى الشرق مال ، ولكن ينقص الشرق العلم فاحمله إليه أنت وأصحابك ، وعودوا إلى الشرق شرقيين معتزين بشرقيتهم الخيرة العادلة ، كما يعتز الغربيون بغربيتهم الظالمة الطاغية . واعلموا أن مهمتكم ليست ورقة تنالونها ، قد تنال بالغش والاستجداء والسرقة... ولكن مهمتكم أمة تحيونها

يا أخى !

إذا وجدت واسعاً من الوقت فادرس أحوال القوم وأوضاعهم فى معايشهم ومجارتهم وصناعتهم ومدارسهم ، وابحث عن أخلاقهم ومعتقداتهم ، على أن تنظر بعين الناقد العاقل الذي يدوّن الحسنة لتتعلمها ، والسيئة لتتجنبها . ولا تكن كهؤلاء الذين كتبوا عن باريز من أبناء العرب ، فلم يروا إلا المحاسن والمزايا ، ولا كأولئك الذين كتبوا عن الشرق من أبناء الغرب ، فلم يبصروا إلا المخازى والعيوب ، ولكن كن عادلاً صادقاً أميناً

وإياك وهذه الحماقة التى يرتكبها بعض الكتاب من الفرنجة حين يهرفون بما لا يعرفون ، ويقولون مالا يعلمون ، كهذا الأخرق الصفيق الذى عمل أطروحة موضوعها (الحج) قدمها إلى جامعة كبرى وهو يجهل العربية ، ولا يعرف أى كتاب من كتب المسلمين بحث فى الحج ، وإنما جمع الأخبار من الصحف ومن أفواه العامة ؛ وكتب فى نظام الريّ فى الغوطة ، وزعم أنه وفّى البحث وأتمّه ، وهو لا يعرف منه إلا ما خبره به ثلاثة فلاحين لقيهم فى قرية ذهب إليها ، مع أن نظام الريّ فى الغوطة لا يكاد يعرفه فى دمشق إلا نفر قليل... وذاك الذى كان معلماً أولياً فى بلده فصار عندنا مدير دار المعلمين العالية ، فذهب مع طلابه إلى ظاهر دمشق ، فمشى ينظر على جانبي طريق (الربوة) هنا وهناك ... فوجد فى الجبل أثراً للماء ، فقال : من أين جاء هذا الماء ؟ لا بدّ أن يكون جاء من بردى ، إذ لا ماء فى دمشق إلا من بردى . فماذا تكون نتيجة (البحث العلمى) فى هذه المسألة ؟ هى أن بردى كان يصل إلى هنا ... إذن فقد كان عرض بردى فى الماضى أربعمائة متر ... وانطلق يقرر دائماً هذه الحقيقة !

***

وبعد يا أخى ، فاعلم أن أثمن نعمة أنعمها الله عليك هى نعمة الايمان ، فاعرف قدرها ، واحمد الله عليها ، وكن مع الله يكن الله معك وراقب الله دائماً ، واذكر أنه مطلع عليك ، يعصمْك من الناس ويُعذْك من الشيطان ، ويوفقْك إلى الخير

وفى اللحظة التى تشعر فيها أن دينك وأخلاقك فى خطر ، احزم أمتعتك وعد إلى بلدك ، وخلّ (السوربون) تَنْعِ من بناها ... وانفض يدك من العلم إن كان لا يجىء إلا بذهاب الدين والأخلاق ...

أستودع الله نفسك ودينك وأخلاقك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

علي الطنطاوي

أطراف من تاريخ الملابس عند المسلمين

للعلامة المستشرق دوزى (*)

للأديب محمد طه الحاجرى

كاد فن صناعة الملابس أن يكون مجهولاً فى العهود الإسلامية الأولى، يوم كان العرب كلهم بدواً إلا قليلا، وكانت المدن صغيرة ضئيلة الخطر، فكانت الأردية البسيطة المفردة كافية في الوقاية من البرد والحر. وما كانوا يحسبون أن من الممكن أن تصنع الملابس على أسلوب رشيق، بل كان ناسج الثوب هو وحده الذى يقوم بالأمر. ولكن العرب حينما فتحوا وشيكا قسما كبيراً من آسيا وأفريقية وأوربا، اتصلوا بالشعوب التي غلبوها، وكانت قد وصلت إلى درجة عالية من الحضارة، فلم يلبثوا أن تركوا شيئاً فشيئا حياة البادية، وأخذوا يستقرون فى المدن[1]. وكذلك أدركوا أن فى مكنتهم أن يصنعوا لأنفسهم ثياباً أرشق مما كانوا يلبسون، فأخذوا كثيراً من زى الشعوب التى غلبوها. ولما كانت مظاهر الترف قد تقدمت عند الفرس تقدماً عظيما، فقد أحس بلاط بغداد إحساساً مطرداً بنفوذ جيرانه ورعاياه، كما أن تقدم الحضارة والتجارة أنشأ مصانع من كل نوع. وما أسرع ما ضمت بغداد عدداً عظيماً منها، كان مقدار ما فيها من الثياب الحريرية الفاخرة، والأقمشة المصفوفة بالذهب والفضة وما إليهما، يتضاعف مضاعفة مستمرة

أما فى المغرب فكان الأمر على العكس من ذلك، إذ اختلط العرب بالمراكشيين والبرابرة، وهم شعوب جافية، دون فاتحيهم فى الحضارة، فكانت مظاهر الترف مجهولة لديهم، فأخذ العرب منهم إلى حد ما زيهم البسيط الغليظ

أما فى الأندلس فقد استخلص العرب لأنفسهم جزءاً كبيراً من زى الفرسان المسيحيين، ولا سيما فى العهد الأخير من عهود ملوكهم. ويصرح ابن سعيد بأن أقبية عرب الأندلس كانت تشبه أقبية المسيحيين. ويقول ابن الخطيب المؤرخ، وهو يتحدث عن محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش المتوفى فى النصف الثاني من القرن السادس الهجرى: « وآثر زى النصارى من السلاح والملابس واللجم والسروج »

أما فى مصر والشام فقد عانى الزى تغيرات عظيمة بسبب غارة الأتراك

وقد أحدث امتزاج العرب بالأجانب أن وجد دائماً اختلاف كبير بين أزياء الشعوب المختلفة التي تكون الامبراطورية العربية الشاسعة، حتى أنه ليستطاع لأول وهلة أن يميز عربى الشرق من عربى الغرب. ويقول ابن إياس، وهو يتحدث عن المؤرخ الشهير ابن خلدون: « واستقر لما تولى القضاء وهو بزي المغاربة فعد ذلك من النوادر » ويقول النويرى وهو يروى وفاة الملك القاهر بهاء الدين أبى محمد عبد الملك بن الملك المعظم: « وكان يلبس ملابس العرب ويتزيا بزيهم ويركب كمركبهم ويتخلق بأخلاقهم فى كثير من أفعاله » وحتى الذين يسكنون المدن القريب بعضها من بعض كانوا يختلفون فى أزيائهم، فقد كتب أحد المغاربة — وسماه مارمول Francisco Nunez Muley — يقول، حينما حرم فيليب الثانى على مغاربة الأندلس أن يلبسوا زيهم الوطنى: « إن زى نسائنا ليس مغربياً بل هو زى مدنى كما فى قشتالة، وإن الشعوب الإسلامية فى البلاد الأخرى لتختلف فى أغطية الرأس وفى الثياب والأحذية. ومنذا الذى ينكر أن زى مراكشيات أفريقية والتركيات يختلف عما تلبسه نساؤنا فى غرناطة؟ وكذلك تختلف أزياء الرجال، فليس زى فاس كزى تلمسان، وليس زى تونس كزى مراكش، وكذلك الأمر فى تركيا والممالك الأخرى»

وهنالك فوق ذلك اختلاف كبير فى زى الطبقات المختلفة التى تتكون منها الجماعة الاسلامية حتى ليستطاع تمييز الرجل الخاصى من العامى والجندى من شكل العمامة على الأخص، وكذلك كانوا يعرفون بها المنصب الذى يشغله من يلقونه

بيد أنه يجب ألا يؤخذ هذا القول بوجه عام إلا عند أهل المدن، أما البدو فقد احتفظوا تقريباً بالزى القديم، ولاحظوا تعاليم الدين أكثر من الحضريين

(*) ترجمة الفصل الذى كتبه مقدمة لكتابه القيم: «قاموس تفصيلى بأسماء الملابس عند العرب»

(١) راجع مقدمة ابن خلدون فى الفصل الذى عقده عن صناعة الحياكة والخياطة

ولقد حدث محمد (ص) أحاديث عديدة ليمنع مظاهر الترف فى الثياب من أن تتغلغل فى أمته ، وقد استخلص فقهاء الاسلام من هذه الأحاديث نظاماً بالمبادىء والقوانين الخاصة بالزى ، وسنعرضها هنا وفقاً لما جاءت به كتب الفقه الحنفى والمالكى

إن وظيفة الملابس ، على ما يقول كتاب ملتقى الأبحر ، هى ستر العورة والوقاية من الحر والبرد ؛ والأفضل أن تكون من القطن أو الكتان غير مغالى فيها ولا شديدة الرثاثة . وليس أخذ الزينة حراماً متى كان لإظهار نعم الله التى تفضل بها علينا . أما حين تصدر عن الكبرياء فانه ممنوع . وكثيراً ما أوصى عظماء العرب والفرس بالتواضع فى هيئة اللباس ، ويقول النورى ، مثلا ، وهو يمدح صلاح الدين :

« وكان لا يلبس إلا ما يحل كالكتان والقطن والصوف » ويقول فى موضع آخر بمناسبة موت الأمير جمال الدين ايدغدى العزيز : « وكان مقتصداً على ملبسه يلبس الثياب القطن من الهندى والبعلبكى وغيره مما يباح ولا يكره لبسه » (راجع : Anthologia Cersicp, pag. 56, 58).

والحرير مباح للنساء محرم على الرجال إلا أن يتخذوا منه حاشية لثيابهم لا يتجاوز عرضها أربعة أصابع فذلك جائز لهم ؛ ويرى البعض ألا تتجاوز إصبعين ؛ أما المالكية فيرون ألا يبلغ عرضها عرض إصبع واحد . وقد نهى النبى (ص) نهياً مشدداً عن الملابس الحريرية فقال : « من لبس الحرير فى الدنيا فلن يلبسه فى الآخرة » وقال : « إنما يلبس الحرير فى الدنيا من لا خلاق له فى الآخرة » ويجيز الحنفية للرجال أن يلبسوا ثياباً سداها من الحرير ولحمتها من غيره ، وأما عكس هذا ، أى أن تكون اللحمة من الحرير والسدى من غيره فلا يحل إلا فى الحرب . ولا يتفق المالكية فيما بينهم فى جواز لبس القماش المسمى بالخز ، وهو ما سداه حرير ولحمته صوف ، ولكن الأكثرين على منعه

والأكثر استحباباً من الألوان الأبيض والأسود ؛ أما الأبيض فلقول الرسول (ص) : « إن الله يحب الثياب البيض وإنه خلق الجنة بيضاء »

ويقول مؤرخ إفريقى وهو يمدح عبدالرحمن الأول أول ملوك الأندلس : « كان يلبس البياض ويعتم به » ، وأما الأسود فلأن محمداً (ص) كان يلبس يوم فتح مكة جبة سوداء وعمامة سوداء كذلك . أما الشيعة فعلى العكس من ذلك يحرمون السواد ، إذ نقرأ فى رحلات شردان Vayages de chardin ما يأتى :

« ولا يلبس الأسود فى الشرق ولا سيما فى فارس لأنه لون مشئوم بغيض لا يمكن النظر إليه ، ويسمونه لون الشيطان » أما اللونان الأحمر والأصفر فمكروهان من غير أن نعرف سبب كراهيتهما ؛ غير أنى أفرض أن الأصفر مكروه لأنه لون البغض ، والأحمر لأنه لون الدم . ومع هذا فكثيراً ما يلبس المسلمون ثياباً حمراء وصفراء . ويقول ابن جنى والواحدى : إن الفتيات يلبسن عادة ملابس حمراء . أما الملابس الخضراء فلا يلبسها إلا الأشراف سلالة الرسول (ص)

ويظهر أنه ليس بين الحنفية والمالكية والشافعية كبير خلاف فى فصل الملابس ، ولكن يظهر أن مذهب ابن حنبل ، وهو أكثر المذاهب تشدداً ، قد أبعد فى التشدد فى هذه المسألة . وها هو ذا ما جاء فى تاريخ مصر للنورى (فى حوادث سنة ٧١٦)

« وفى هذه السنة فوض قضاء قضاة الحنابلة بدمشق إلى شمس الدين أبى عبد الله محمد ، ووصل إليه بتقليد القضاء من الأبواب السلطانية في يوم السبت ثامن صفر . وقرئ بجامع دمشق بحضور القضاة والأعيان ، وخرج القاضى شمس الدين المذكور من الجامع ماشياً إلى دار السعادة ، فسلم على نائب السلطنة ، ثم نزع الخلعة السلطانية وتوجه إلى جبل الصالحية وجلس للحكم فى سابع عشر صفر ، وما غير هيئته ولا عادته فى مشيه وحمل حاجته ، ويجلس للحكم على مئزر غير مبسوط ، بل يضعه فى يده ويجلس عليه ، ويكتب فى محبرة زجاج ، ويحمل نعله بيده فيضعه على مكان ؛ وإذا قام من مجلس الحكم حمله أيضاً حتى يصل إلى آخر الإيوان فيلقيه ويلبسه . هكذا أخبرنى من أثق بأخباره ؛ واستمر على ذلك ، وهذه عادة السلف »

ولست أدرى إن كان كل الحنابلة على هذا التواضع الشديد أم هم القضاة وحدهم ؟ ويؤسفنى أن ليس لدى من فقه الحنابلة ما أراجعه فى هذه المسألة ، بل يظهر أن هذا الفقه نادر جداً فى أوربا

ولكى نكوّن لأنفسنا فكرة عن التطورات التى طرأت على زى العرب نقارن ثوب محمد صلى الله عليه وسلم بثوب رجل من الطبقة المتوسطة من أهل القاهرة فى القرن السادس عشر بعد غارة الأتراك

كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يلبس قميصاً من القطن الأبيض تصل أكمامه إلى المعصم، وسروالاً من القماش؛ وما كان فوق القميص والسروال — فيما يظهر — إلا ثوب واحد هو الجبة؛ وهي ثوب طويل من الصوف، وحواشيه من الحرير، مفتوح من أمام، ضيق الأكمام؛ أو القباء، وهو ثوب طويل مهيأ بالأزرار من أمام. وكان يلبس في بعض الحالات — بدلاً من هذه الثياب — كساء من القماش الغليظ، وهو عادة قطعة كبيرة من الصوف السميك رمادية اللون مخططة، يلف بها الجسم، وهي (البردة). وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) يلبس العمامة البيضاء أو السوداء ويرخي طرفاً منها على ظهره. وأما حذاؤه فكان نعالاً مصنوعة من جلد الإبل، مربوطة بسيرين يمر أحدهما بوسط القدم والآخر بين الإبهام وما يليه

فنحن نرى أن زي الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان في غاية البساطة، ولا يزال هو زي أهل الصحراء في أيامنا هذه. فالبدو لا يلبسون — مثل الرسول — إلا قميصاً من القطن، وثوباً طويلاً، وقد يستعيضون عنه بكساء من الصوف

أما زي الرجل القاهري في القرن السادس عشر، فيتألف من عدد عظيم من الملابس — فلا نري بحال ما تلك البساطة التي كانت تميز زي الرسول، والتي لا تزال ترى في زي البدو — فكان يلبس فوق القميص والسراويل قفطاناً من الحرير في ألوان مختلفة قد خالط بعضها بعضاً، ولهذا الثوب أكمام فضفاضة؛ ثم يلبس فوق القفطان حزاماً من الحرير أو الوبر أو الصوف، ثم جبة طويلة مفتوحة من الأمام، ذات كمين قصيرين لا يصلان إلى المعصم حتى يظهر طرفا كمي القفطان وقد تجاوز الأصابع؛ وهذا الثوب أقصر قليلاً من الأمام عنه من خلف، وهو مصنوع من القماش الأحمر أو الأزرق أو الرمادي؛ ثم يلبس فوق الجبة ثوب فضفاض يصنع عادة من الوبر، ويزين أحياناً بالفراء، وهو الفراجية. أما غطاء الرأس فيتكون من طاقية صغيرة من القطن وطربوش أحمر وقطعة طويلة من الشاش (الموسلين) تستدير حول الرأس. وأما الحذاء فمن الجلد المراكشي الأحمر

وجمال الثياب وعددها يخلعُ على لابسها في الشرق العظمة ويبعث على احترامه ويقول المثل الفارسي «قربت بلباس» ويفسره تافرنيه Tavernier بقوله: بمقدار ما تتجمل في ثيابك، تقابل بالاجلال، وتنال الحظوة في القصر والقربى لدى العظماء. أما في مصر فهناك ما جاء من ذلك في كتاب «وصف مصر» Descriptian de L' Egypte: «كلما كدس الناس من الثياب على أجسامهم ضاعفوا الاحترام والتقدير الذي يضفونه لأنفسهم»؛ فليس يبدو غريباً إذن أن يعنى الشرقيون بأن تكون ثيابهم نظيفة طيبة الرائحة، وقد جاء في الأغاني عبارة: «ملاءة مطيبة» كما نقرأ في تاريخ مصر للنويري أنه وجد في ذخائر أحد العظماء لبة من العنبر على قدر جسده، برسم ثيابه، توضع ثيابه عليها لتكتسب رائحتها. وورد في «ألف ليلة وليلة» هذا البيت من الشعر:

وتميس بين مزعفر ومعصفر ... ومعنبر وممسّك ومصندل

كما وردت فيه أيضاً هذه الفقرة: «لبست تلك البذلة الفاخرة وكانت مطيبة» وفي موضع آخر منه: «فقعدت تبخره فطارت شرارة فأحرقت طرفه». ويقول بوركهارت Burekhardt عن وهابي نجد أنهم يعنون بتطييب الكوفية بأنواع من الطيوب ويخص الأردان بالتطييب، ففي قصيدة للمتنبي يقول:

أتت زائراً ما خامر الطيب ثوبها ... وكالمسك من أردانها يتضوع

أما عادة منح الثياب للدلالة على التقدير فعادة شرقية قديمة؛ ومع ذلك يقول المقريزي: إن أول من استعملها هو هرون الرشيد حينما خلع على نديمه جعفر بن يحيي البرمكي. ويسمى ثوب الشرف هذا خلعة، ثم سمي بعد هذا تشريفا. ثم لما تغلغلت هـذه العادة أصبحت من القوة بحيث كان الأمير يخلع الرداء الذي يرتديه، فيلبسه الشخص الذي هو موضع تكريمه أو أجازته. ولكن يظهر أن الأمراء لم يكونوا بعد ذلك يهبون من الثياب إلا مما هو مودع في خزائن ثيابهم، أو ما كان جديداً كل الجدة؛ ولكنه كان من دلائل الشرف دائماً أن يلبس الرجل ثياباً كان الأمير يلبسها من قبل؛ ولم يفت المؤرخين أن يشيروا إلى ذلك، فما يحكي النويري هذه العبارة: «أنعم على الأمير سيف الدين بشربوش كان قد لبسه»

أما حين يراد معرفة أنواع الثياب التي تتألف منها الخلعة أو التشريف، فقد أشرفنا على مسألة شديدة الصعوبة؛ وإن يكن يخيل إلى أن الأمر كان يرجع، في حكم بعض الأسر، إلى اختيار الأمير المطلق؛ ومع هذا، فإذا كان ڤيرس Veijers يحسب أن الخلعة كانت تتكون غالباً، أو مطلقاً، من القباء وحده، فإني أرى لزاماً علي أن أدلل هنا على أن هـذا رأي خاطىء الأساس. وإذا

كان صحيحاً أن ثوب الشرف كان يتكون ، فى حكم حسن باشا لليمن ، من القباء ، فإن الأمر لم يكن كذلك فى بغداد ومصر مثلا ، فقد كانت الخلعة أو التشريف تتكون من ثياب مختلفة غير ذلك . فالنويري يذكر لنا أن الخلعة التى وهبها خليفة بغداد للملك الناصر داود كانت تتكون من قباء حريرى وشربوش ، كما يحكى فى موضع آخر أن الخلعة التى أعطاها الخليفة العباسى المعتصم بالله كانت تتكون من عمامة سوداء وفراجية موشاة بالذهب . ونقرأ فيما بعد ذلك أن ثوب الشرف الذى منحه الخليفة كان يتألف من عمامة من الحرير الأسود المطرز بالذهب ودراعة . أما الخلعة التى كانت تعطى للوزير فى مصر فكانت تتألف من جبــة وفراجية وطرحة . وكذلك كان التشريف يتكون من ثياب مختلفة . وأخيراً تدلنا عبارة أخرى للنويرى على أن ثياب الشرف كانت تختلف فى القماش الذى صنعت منه ، والقطع التى تتألف منها حسب مرتبة من تقدم إليه ، أو حسب الخدمات التى أداها للأمير

وكان الأمير فى كثير من الأحوال ، يقدم إلى جانب الخلعة خنجراً وحصاناً وأشياء أخرى . كما أنا كثيراً ماتقرأ عن خلعة كاملة وتشريف كامل

وكانت ثياب الشرف التى يهبها الخلفاء العباسيون تـكاد تكون دائماً سوداء

ولم تكن الغاية من الثياب منحصرة لسوء الحظ ، فى الزينة بل كان شيطان البغض والانتقام يستعملها فى انتزاع الحياة بطريقة دنيئة . ومن المعروف عند الغربيين أن الثياب كانت تستعمل فى القرون الوسطى لهذه الغاية . ويكفى قليل من الأمثلة المأخوذة من التاريخ الإسلامى لإثبات أن هذا الأسلوب من الانتقام الدنئ لم يكن مجهولاً فى الشرق . والنويرى يقص علينا أن السلطان الأيوبى ، الملك المعظم ، أضمر سخطاً شديداً على قاضى القضاة لأنه أقنع أخت صلاح الدين والملك العادل ست الشام بنت أيوب أن توقف أموالها على بعض المؤسسات الدينية ، فخيبت حماسة القاضى الدينية آماله . ولقد حاول الأمير عبثاً أن يجد حجة يستطيع أن ينتقم بها من القاضى ، ثم لما وجد أخيراً هذه التعلّة أرسل إليه وهو فى مجلس حكمه ، وحوله جماعة كثيرة من العدول والمتحاكمين ، فلما جاءه الرسول قال له : السلطان يسلم عليك ويقول لك : الخليفة ، سلم الله عليه ، إذا أراد أن يشرف أحداً من أصحابه خلع عليه من ملابسه ، ونحن نسلك طريقه ؛ وقد أرسل إليك من ملابسه ، وأمر أن تلبسه فى مجلسك هذا وأنت تحكم بين الناس ؛ وكان الملك المعظم أكثر مايلبس قباءاً أبيض وكلوتة صفراء . وفتح الرسول البقجة ، فلما نظر القاضى إلى ما فيها وجم . قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة فأخبرنى الرسول الذى أحضر هذه الخلعة والرسالة بذلك . قال وكان السلطان أمرنى أن ألبسه إياها بيدى إن امتنع أو توقف ، فأشرت عليه بلبسها وأعدت الرسالة عليه ، فأخذ القباء ووضعه على كتفه ، ووضع عمامته على الأرض ولبس الـكلوتة الصفراء على رأسه ، ثم قام ودخل بيته ، ومرض إثر هذه الحادثة ورمى كبده ومات ؛ ويقال إن ذلك كان فى يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وسبعمائة »

ويذكر بعض المؤرخين الأسبان أن ملك قشتاله الدون انريك Eon Lnrique مات مسموماً لأن ملك غرناطة محمداً أهدى إليه حذاءين غمرا فى السم

وكانت الثياب السوداء تلبس قديماً للدلالة على الحداد ، سواء فى لبسها لذلك الرجال والنساء . ومن المعلوم أن زى العباسيين الأسود إنما انتحل حداداً لموت الامام إبراهيم بن محمد وكذلك جاءت هذه العبارة فى تاريخ مصر للنويرى : « شق القاهرة وهو لابس السوداء ، وأعلامه كذلك ، حزناً على الظاهر »

ولـكن الرجال فى الأزمنة المتأخرة صاروا لايلبسون ثياب الحداد ، إذ كانت تبدو كأنها دليل على عدم الصبر على ماقدر الله أما النساء فلا يزالون يلبسونها فى الشرق ، ولـكن عند موت الزوج أو القريب الأدنى ، ولا يلبسونها فى موت من تقدم به العمر . وقد جاء فى معجم الأعلام الذى وضعه ابن الخطيب أن الشاعرة الشهيرة حفصة ، عشيقة أبى جعفر احمد بن سعيد ، الشاعر الشهير ووزير صاحب غرناطة ، لبست الحداد حين بلغها أن حبيبها قد قتل ، ولـكن هذا من غير شك شذوذ من العادة العامة

ويكون الحداد بأن تصبغ المرأة بالنيلة قميصها وقناعها الذى تغطى به رأسها وتستر به وجهها ومنديلها صبغة زرقاء قاتمة أو قريبة من السواد . وتلبس النساء ثياب الحداد فترة الأيام السبعة أو الخمسة عشر أو الأربعين فى بعض الأحيان

أما فى الأندلس ، أثناء حكم الخلفاء الأمويين فكانت ثياب

أناشيد صوفية

جيتـــانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ١٣ —

إن اللحن الذى جئت لأترنم به ظل مكفوفاً فى نفسي للآن
وتصرمت الأيام وأنا أشد أوتار قيثاري وأرخيها
لم يأن لى أن أبدأ فالكلمات لم تواتنى ، غير أن الرغبة الملحة تنزى فى قلبى
إن الكِم لم يتفتح ، ولكن الريح تزف حواليه
لم أر وجهه ، ولم أسمع رنات صوته ؛ غير أنى استشعرت خطواته الرفيقة وهو يسير الهوينى أمام دارى
ومر اليوم الطويل وأنا أهيِّ له مكاناً ، ولكنى لم أستطع أن أدعوه إلى دارى لأن سراجى كان هامداً
وهأنذا أعيش بالأمل فى لقياه ، ولكن اللقيا لم تحن

— ١٤ —

إن رغباتي كثيرة ، وفى صيحاتى الألم ؛ أفترد فى رفض قاس والرحمة منبثة فى أضعاف حياتى هنا وهناك ؟
وعلى مرّ الأيام جعلتني أستأهل من آلائك العظيمة ما أنعمت به علىّ دون سؤال : هذه السماء والنور ، هذا الجسم والحياة والعقل
ثم نجيتنى من خطر الرغبة الجامحة
فى حين كنت أتباطأ فى فتور ؛ وفى حين آخر كنت أهب مسرعاً إلى الغاية ؛ ولكنك كنت تخفى نفسك عنى فى قسوة
وعلى مر الأيام جعلتنى أستأهل منك القبول المحض بعد طول رفضك إياى ، وأنت جنبتنى خطر التخاذل والرغبة المضطربة

— ١٥ —

أنا هنا لأردد لك الأناشيد ، ولأجلس فى زاوية من فنائك
لا عمل لى فى دنياك ، فحياتى الخاوية تتفجر عن ألحان لا غاية لها
وعند منتصف الليل ، حين تدق الساعة فى محرابك المظلم ، مؤذنة بصمت العبادة الرهيب ؛ مُرْنى ، يا إلهى ، أن أقف أمامك لأرتل أغانىّ
وبين نسمات الفجر ، وقيثارك الذهبية تصدح ، شرّفنى واطلب إلىّ أن أتقدم نحوك

— ١٦ —

لقد لبيتُ الدعوة إلى مهرجان الحياة ، فكانت حياتى سعيدة .
إن عينىّ تبصران ومسمعىّ تسمعان
وكان عملى فى هذا الحفل أن أعزف على قيثارى ، فبذلت غاية جهدى
والآن ، أسأل : أفلم يأن لى أن أنطلق لأرى وجهك وأحييك فى صمت وهدوء

— ١٧ —

أنا أنتظر من أحب لألقى بنفسى بين ذراعيه . هذا هو عذرى حين أبطأت ، وهو ذنبى حين أهملتُ
لقد جاءوا جميعاً وبين أيديهم القانون ومواده ليوثقوا به قيدى فأفلت من قبضتهم لأننى أنتظر من أحب لألقى بنفسى بين ذراعيه
والناس يلوموننى ويرموننى بالغفلة ، ولا ريب فهم على حق
انفضت السوق ، وأنجز كل ذى عمل عمله ، وانصرف الذين جاءوا ينصحوننى وفيهم الغيظ والغضب ؛ وأنا أنتظر من أحب لألقى بنفسى بين ذراعيه

— ١٨ —

إن السحب تتكاثف فى السماء والدنيا تظلم ؛ آه ، يامن أحب ، لماذا تركتنى وحيداً فى هذا العراء ؟ عند الظهر فى ساعات العمل ،

الحداد بيضاء . إذ نقرأ فى تاريخ الأندلس للمقرى هذه العبارة : « عليهم الظهائر البيض شعار الحزن »
. ويلبس العرب ثياباً حمراء أو صفراء حينما يريدون الدلالة على الغضب . وقد جاء فى كتاب ألف ليلة وليلة هذه العبارة : « لبس بدلة الغضب وهى بدلة حمراء » ولكن هذه العادة ربما كانت عادة تركية

أما فى الغرب فكان اللون الأصفر هو الذى يدل على الغضب فقد لاحظ بيدودى سن أولون ويندوس Pidoude St . Olon et Windus أن ملوك مراكش كانوا إذا اعتزموا أن يسفكوا دماً لبسوا فى الغالب ثياباً صفراء

محمد طه الحاجرى

أندفع بين الزمر . والآن فهذا اليوم الظليل الهادىء هو لك يامن تعلق به أملى

فإذا لم تطلع علىّ لأجتلى النور من وجهك ، وتركتنى وحيداً فكيف أقضى هذه الساعات الطويلة المطرة

أنا أحدق فى السماء المتجهمة ، وقلبى المضطرب يئن مع الرياح العاصفة

— ١٩ —

إذا لم تتحدث حديثك فاملأ قلبى من صمتك العميق وأحمله راضياً ؛ سأطمئن وأنتظر كالليل لتسهر كواكبه ورأسه مطأطأ فى صبر

لا ريب فالصباح آت ليبدد الظلمات ، وسيتدفق صوتك فى مجاريه الذهبية يخترق أطباق السماء ، وسيرفرف كلمك فى جناحى لحن كأنه طيرى الغرّيد ، وتتفتح أنغامك عن زهر فى أنحاء حديقتى

— ٢٠ —

يا أسفا ! فى اليوم أينعت زهرة اللوتس . كان عقلى مضطرباً فلم أحس بها ، وكانت سلتى فارغة ولكن الزهرة ظلت مكانها

الآن تملنى حزن عميق ، فهببت من حلمى لأستروح نسمات عطرية تحملها رياح الجنوب

فبعثت هذه النسمات الحلوة فى قلبى آلام الحنين ، وتراءت لى كأنها زفرات الصيف العاشق وهو يفتش عن نصفه الآخر

ما كنت أعلم أن هذه الزهرة على خطوات منى ، وأنها هى لى ، وأن هذه الحلاوة قد تفتحت فى أعماق قلبى

— ٢١ —

لا بد أن أتناول غدائى على الشاطئ ، ومرت الساعات متباطئة على الشاطئ . فيا أسفى !

لقد تفتح الربيع عن زهراته وأوراقه الخضراء ، وأنا أضرب فى الأرض منتظراً وعلى كتفى حمل من زهراتى الذابلة الذاوية

الأمواج تضطرب فى صخب ، وعلى الشاطئ شجرات من الخوخ يانعة تعصف الريح بأوراقها الصفراء

لماذا تحدق فى الفضاء ! أفلا تستشعر فى الهواء هزات تحمل نغم لحن جاء فى أضعافها من الشاطئ الآخر

— ٢٢ —

تحت ظلال شهر يوليه المطير ، تسير أنت فى خطوات هادئة وفى صمت لا يشعر به الرقيب

واليوم أغمض الصباح جفنيه ، لا يعبأ بصفير الرياح الشرقية وهى تلح فى ندائها ، وقد أسدل نقاب كثيف على وجه السماء الأزرق المتألق

وأمسكت الغابة عن ترديد لحنها ، وغلقت الأبواب ؛ وأنت... أنت يا عابر السبيل تضرب فى الطريق الصحراوى وحيداً . أوه ، يا صديقى العزيز ، يا من أحب ، إن باب دارى مفتوح على مصراعيه فلا تمر به كأنك حلم

— ٢٣ —

يا صديقى ، أفأنت فى العراء تتم رحلة الهوى فى هذه الليلة العاصفة ؟ وإن السماء تئن كأنها مصدور ينفس عن نفسه

لقد أرقت الليلة ، يا صديقى وباب دارى مفتوح فانظر إليه فى هذا الظلام الدامس . أنا لا أرى — فى هذا الظلام — شيئاً مما أمامى ، فلا أستطيع أن أجد الطريق إليك

عند شاطىء أى نهر مظلم قاتم ، لدى حافة أية غابة سوداء حالكة ، وفى ثنايا أى عمق معتم مضل ، جلست يا صديقى ، ترسم فى نفسك الطريق إلىّ

— ٢٤ —

إذا انطوى النهار ، وصمتت الطيور الغريدة ، وهدأت الرياح الزفزافة ؛ فانشر علىّ قناعاً صفيقاً من الظلمة كما نشرت على الأرض أستار النوم ، وكما لففت أوراق زهرة اللوتس الذابلة فى غيابة الظلام

نحِّ عن السائح الذى نفد زاده ، وتمزقت ثيابه ، وتشعث واغبر ، وخارت قوته ، وانطفأت منته ، قبل أن يبلغ غايته ... نحِّ عنه الضنا والفقر ، وانفث فيه من روح الحياة ليكون كزهرة تلفعت برداء الليل الرفيق

— ٢٥ —

فى الأمسية التى أكدّنى فيها الجهد ، دعنى أنم هادئاً وفى نفسى الإيمان بك

ولا تطلب إلىّ أن أرهق نفسى المتعبة بعبادتك

فأنت الذى حسرت عن عينى النهار نقاب الظلام ليبدو فيهما النشاط والمرح من جديد بعد أن أضناهما التعب والأسى

كامل محمود حبيب

أبو إسحاق الصابي

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

— ١ —

بعثني إلى الكتابة عن أبي إسحاق الصابي رغبة حافزة: فى أن أربط بينه وبين أبي الفرج الببغاء أديبين عقَّ عليهما الدهر، ثم أراد لأدبهما بعثاً، كما ربطت بين روحيهما أواصر الأدب، فتعارفا متباعدين وتآلفا متقاربين، فقد قدَّمنا أن الصلة بينهما كانت فى الحياة وثيقة العرا محكمة الحلق، لم تشبها شائبة حفيظة، ولقد جعلني الحديث عن أبي الفرج على ذُكر متصل بأبي إسحاق لا يبرح أفق تفكيرى ولا يحيد عنه، ولا يريم عن محيط ذهنى ولا يقصو دونه. ولعلَّ من أهم عوامل علوق اسمه بذا كرتى، ورسوخ شخصه فى مخيلتى، أن حظّه فى دنياه كان كحظ صنوه، بل إنه كان أسوأ من أخيه جداً وأنكد دهراً، وأتعس رجاء وأملاً، فكلما تقدم به الأجل وأشرق له الأمل أدركته حرفة الأدب، فتضاعف عليه الألم، لا يغنى عنه ما أوتى من ألمعية نادرة، ولا يصرف صروف الدهر دونه ما وهب الله له من مواهب فياضة زاخرة، فَغِيَرُ الدهر تنصب عليه انصباباً، ونوبه تتقاذفه تقاذفاً، وأحداث الزمان تتعاوره كهلاً أناخ به المشيب، وخطوبه تتناوبه شيخاً بما لا يقوى عليه الفتى الصليب. وهكذا دواليك: غمرات تترى، ونكبات تتوالى، ولا يجد على تعاقب الليالى إلا ضيا، وتسومه الأيام بكرها خسفاً وظلماً؛ حتى أنشد وأنشد وتمنى، فكانت المنية هي أصدق المنى، فلله هو إذ يقول:

إذا لم يكن للمرء بدٌّ من الردى   فأسهله ما جاء والعيش أنكد
وأصعبه ما جاء والعيش رائع   تطيف به اللذات والعيش مسعد
فإن أكُ شر العيشتين أعيشها   فإنى إلى خير المماتين أقصد
وسيان يوما شقوة وسعادة   إذا كان غِبا واحداً لهما الغد

وما زال هذا شأنه لا يحول حاله إلا إلى سوء، وذلك ديدنه لا يتغير أمره إلا إلى غِيَر، وهو يندب جده آناً وآناً، ويشكو بؤسه حيناً وحينا، فلا يجد لشكواه سكينة أو أوْناً، ولا يعرف إلى الحَيْن مهيماً أو سبيلاً؛ حتى صار ملجأ أمراض وأسقام، ومحط أوصاب وآلام. وها هو ذا يشكو زمانته، وآثار الهرم فى كيانه وحاجته إلى محفة يتخذها بدل قدميه اللتين ناءتا بحمله، وشاركتا الدهر فى استثقال ظله، وقد بعث بقصيدته تلك إلى الشريف الرضى، وقد كان يشفق عليه ويرحمه، ويأسو كلومه ويرأمه، قال منها:

إذا ما تعدت بي وسارت محفة   لها أرجل يسعى بها رجلان
وما كنت من فرسانها غير أنها   وفت لى لما خانت القدمان
نزلتُ إليها عن سراة حِصان   بحكم مشيبي أو فراش حَصان
فقد حملت منى ابن تسعين سالكا   سبيلاً عليها يسلك الثقلان
كما حمل المهدُ الصبيَّ وقبلها   ذعرت ليوث الغيل بالنزوان

فجاءت مواساة الشريف له سخية وفية، وعطفه برّاً سابغاً ضافياً، فقد لأم جروحه بقصيدة تفيض بالعطف أشطارها وتفعم بالود أبياتها منها:

لئن رام قبضاً من بنانك حادث   لقد عاضنا منك انبساط جنان
وإن نُزِّ من ذاك الجناح مطاره   فرب مقال منك ذى طيران
وإن أقعدتك النائبات فطالما   سرى مو قراً من مجدك الملوان
وإن هدمت منك الخطوب بعرها   فثم لسان للمناقب بان
مآثر تبقى مارأى الشمس ناظر   وما سمعت من سامع أذنان

من هذه الأبيات ندرك تعاسته وبؤسه، ونتبين آلامه وأسقامه، وما زال يغالب الزمان ويجالد الحدثان حتى أراد الله له الدعة التى طالما تمناها، وآتاه الطِلبة التي كثيراً ما طلبها فعزت عليه. وافاه أجله وقد جاوز التسعين سنة حلب فيها الدهر أشطره فذاق شره مترعاً وقلما طعم خيره، وشرب كئوس البؤس دهاقاً، ولِماماً ألمّ بالنعيم، ولقد كان فى فتوته أسعد حالاً منه فى كهولته وعاش فى شبيبته أنعم بالاً منه فى شيخوخته، وإليك حديثه عن ذلك فى خيال صاف وديباجة مطرزة:

عجباً لحظى إذ أراه مصالحى   عصر الشباب وفى المشيب مغاضبي
أمن النوانى كان؟ حتى ملنى   شيخا، وكان على صباى مصاحبي
أمع التضعضع ملني متجنبا؟   ومع الترعرع كان غير مجانبى
يا ليت صبوته إلىّ تأخرت   حتى تكون ذخيرة لعواقبي

وبعد تلك الالمامة بحاله نتحدث عن نشأته وحياته: يروى ياقوت في معجمه أن أبا إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون ولد

بحرّان سنة ثلاث عشرة وثلثمائة هجرية ، وأدركته منيته لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر شوال لسنة أربع وثمانين وثلثمائة؛ فسنه على هذه الرواية إحدى وسبعون سنة ، وهو يقول فى تعزيز روايته تلك : (وذكر أبو منصور الثعالبي فى كتابه « يعنى كتاب يتيمة الدهر » أنه بلغ من العمر تسعين سنة والذى أوردته من تاريخ حفيده ، وهو به أعلم) ويقصد بحفيده أبا الحسين هلالا بن المحسن بن ابراهيم الصابى ، ويُعقّب الأستاذ شارح معجم الأدباء على ياقوت فيقول : (إنما قال الثعالبي إنه خنق التسعين أى قاربها) (١) والحق أن الثعالبي ذكر سن أبى إسحاق في موضعين فقال فى صدر الحديث عنه ، وهو بصدد التعريف به (وكان قد خنق التسعين فى خدمة الخلفاء وخلافة الوزراء) ثم قال فى نهاية الفصل الذى كتبه عنه تحت عنوان وفاته (توفى فى يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة من شوال سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، وكانت سنوه إحدى وتسعين سنة قمرية)

وإنى إلى تحقيق الثعالبي أمْـيل لوجوه أعدد منها :

أولا : يكاد أبو منصور الثعالبي يعتبر معاصراً لأبى إسحاق الصابى ، فقد توفى أبو منصور عقبه بنحو خمس وأربعين سنة ، وهو أمد قصير في أعمار التاريخ والمؤرخين

ثانياً : السن التى ذكرها صاحب اليتيمة وردت فى قصيدة لأبى إسحاق إذ يقول :

فقد حملت مني ابن تسعين سالكا ... سبيلا عليها يسلك الثقلان

وقد كان إنشاء هذه القصيدة قبل وفاته بنحو أربعة أشهر

ثالثاً : قد يكون حفيد أبي اسحاق صادراً فى حديثه عن غير تروٍّ وتدبر للحقيقة ، لأنه حديث يسمع وينسى لا كما يصدر حديث عن مؤلف يتحرى الصدق ويلتزم جادة الدقة ؛ لأنه خبر يخلد ويبقى

رابعاً : سن السبعين لا توهي جلداً ولا توهن عظما ، وإن كان صاحبها متزاحمة عليه النائبات مولعة به النكبات إلا فى القليل النادر

وسواء أكان موته عن إحدى وتسعين أم عن إحدى وسبعين فقد خلف فى الأدب أخلد الأثر ، وضرب فى النبل والوفاء أصدق المثل ، فلقد ولد ومات على دين الصابئة ، والصابئون كما يقول الامام الكبير الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله

واليوم الآخر ... الخ الآية » : (قوم يعبدون الكواكب ثم لهم قولان : الأول إن خالق العالم هو الله سبحانه ، إلا أنه سبحانه أمر بتعظيم هذه الكواكب واتخاذها قبلة للصلاة والدعاء والتعظيم . والثانى : إن الله سبحانه خلق الأفلاك والكواكب ، ثم إن الكواكب هى المدبرة لما فى هذا العالم من الخير والشر والصحة والمرض ، والخالقة لها ، فيجب على البشر تعظيمها لأنها هي الآلهة المدبرة لهذا العالم ، ثم إنها تعبد الله سبحانه)

على هذا الدين ولد أبو إسحاق وعليه مات فى عصر الاسلامُ فيه من دهر والكلمة العليا له ، والمكانة المكينة فى العالم لرجاله ، ولا فضل لمن لم يوله قلبه ، ويهب له نفسه ، وإن بقاءه على صابئته — على الرغم مما يحوطه ليدل أعظم الدلالة على أن الإسلام دين سمح ، أساسه العفو والأمر بالعرف ، والإعراض عن المشركين دون أن يصيبهم أذى ، أو ينالهم حيف ، أو تحل بهم نقمة مخلوق ؛ لأنه دين العقل والحجة والمنطق والموعظة الحسنة ، ولو لا تسامح ذلك الدين القويم ما وجد مثل الصابئ كنفاً يلجأ إليه أو وزراً يحميه ، فكيف وقد عاشر الخلفاء والأمراء والملوك والوزراء ؟ وكذلك عاش أمثاله فى رغد ورفهية ؛ عاشوا موفورى الكرامة مرفوعى الرءوس مجدودى الحياة ؛ ولقد بُصِّر أبو إسحاق بالدين الإسلامى ورُغّب فى الاسلام وأُلّف قلبه ، وأجزل له من أجل ذلك ، فلم يهد الله قلبه للإيمان ؛ لأنا لا نهدى من نحب ، ولكن الله يهدى من يشاء ؛ لذلك لم يصخ بسمعه إلى دعوة اليقين والداعون إليها هم سادته ومواليه وأرباب نعمته ومالكو زمام أمره إن شاءوا رفعوه وأعزوه ، وإن أرادوا وضعوه وأذلوه . ولقد حدث التاريخ أن عز الدولة بَختيار عرض عليه الوزارة على أن يسلم ، فأباها مفضلاً أن يبقى على دين آبائه الغابرين ؛ وإن وفاءه لملته ، وإخلاصه لنحلته لمصدر عجب لمن أراد العجب ؛ إذ لم يعرف عنه أنه ارتكب أمراً حرم عليه ، ولا جاء وزراً نهى عنه شرعه . ويروى المؤرخون أنه حضر مائدة للوزير المهلبي بن أبي صفرة ، وكان أبو إسحاق من خلانه الأدنين وخلصائه المصطفين ، فامتنع عن لون من ألوان الطعام محرم لدى الصابئة ، فقال له المهلبى : لا تبرد وكل معنا من هذه الباقلاء . فقال : أيها الوزير لا أريد أن أعصى الله فى مأكول ، فكان موفقاً في إجابته مسدداً في مُجانته . وروي أن عز الدولة بختيار بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول

(١) الجزء الثانى من المعجم الطبعة الأخيرة ص ٢٦

وهو مما يحرم أكله أيضاً فى دينه ، فرفضها متعففاً وهو الفقير إليها فأين منه أولئك الذين لا يتناهون عن منكرات يجترمونها ، ولا يتعففون عن محرمات يجترحونها غير مبالين ما ينتظرهم من حساب شديد وعذاب أليم ؟ وآية نبله أنه مع تعصبه هذا وتشدده وتزمته فى دينه كان جميل العشرة للمسلمين صادق الإخاء كريم الصنيع حسن المعونة ، فكان يصوم رمضان لا تحتنا بل تجملا ، ويحفظ القرآن الكريم إجلالا له وعرفاناً بخطره ؛ لأنه رأى فيه مهبط الحكمة ومصدر البلاغة ، ومشرع اللسن والفصاحة ، فظهر أثر ذلك على أسلة يراعه ، وجرى على عذبة لسانه . وإليك ما يقوله أبو منصور الثعالبي فى يتيمته عنه في تلك الناحية من خلقه وأدبه : « كان يعاشر المسلمين أحسن عشرة ، ويخدم الأكابر أرفع خدمة ، ويساعدهم على صيام شهر رمضان ، ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه وسن قلمه ، وبرهان ذلك ما أوردته فى كتاب الاقتباس من فصوله التى أحسن فيها كل الإحسان وحلاها بآى من القرآن)

ومن آيات وفائه ونبله أنه كان صديقاً ودوداً للشريف الرضى حتى اتهم بأنه يدعو له بالخلافة ، ويتمنى أن ينال مطمحه ويدرك مآربه ، وهو لم ينف ذلك عن نفسه ، بل إنه جهر به فى قصيدة بعث بها إلى الشريف ، وهو لابد عالم بوقعها فى نفوس أعدائه وحاسديه ، ولكنه لم يعبأ بما قد يصيبه بسببها ، لأنه أسير وجدانه ، وينطق إذ ينطق عن شعوره وإحساسه ، وما عليه إذ يرضيهما من بأس ، وهذا بعض ما قاله فيها :

أبا حسن لى فى الرجال فراسة   تعودتُ منها أن تقول فتصدقا
وقد خَبَّرتنى عنك أنك ماجد   سترقى من العلياء أبعد مرتقى
فوفَّيتك التعظيم قبل أوانه   وقلت أطال الله للسيد البقا
وأضمرت منه لفظة لم أبح بها   إلى أن أرى إطلاقها لى مطلقا
فإن عشت أو إن مت فاذكر بشارتى
وأوجبْ بها حقاً عليك محققاً
وكن لى فى الأولاد والأهل حافظاً
إذا ما اطمأن الجنب فى موضع البقا

ولقد كان مع هذا محببا إلى الخلفاء والوزراء ، كلهم يطلب يده ويبتغى أن يقصر خدمته عليه دون غيره ، فمنهم من كان يسلك إلى إربته طريق البذل والرفد ، ومنهم من كان يطرق سبيل العقوبة والحقد ، فعاش محسداً إن رضى عنه وزير غضب عليه آخر ، وإن صفا له أمير جفاه خليفة . وممن اصطفاه ولم يجتوه وأحبه ولم يجفه الصاحب بن عباد ، ولعل الأدب هو الذى قرب بين نفسيهما وألف بين روحيهما ، فلم تقع بينهما نبوة ، ولا لحق صداقتهما جفوة ، فكثيراً ما بثه شكواه ، واستمطر غيثه وكان موضع نجواه ، ولقد كان أول أمره يأنف أن يتصل بالصاحب مادحا أو أن يطلب صلته ما نحا ؛ حتى استوزر الصاحب فنزل عن أنفته وقنع من مطاولته بمصاحبته ، وكان الصاحب يعجب به أشد الإعجاب ، ويراه أحد أفذاذ الأدب ، فقد حدِّث عنه أنه كان يقول : « كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو إسحاق الصابى ولو شئت لذكرت الرابع » وكان يعنى بالرابع نفسه . ويقول الثعالبى « وأما الترجيح بين هذين الصدرين أعنى الصاحب والصابى في الكتابة فقد خاض فيه الخائضون ، وأخب فيه المخبون ، ومن أشف ما سمعته فى ذلك أن الصاحب كان يكتب كما يريد ، وأبو إسحاق كان يكتب كما يؤمر ، وبين الحالين بون بعيد » وأحسب أنه يقصد تفضيل الصابى لأن الذى يستطيع أن يكتب ما يراد منه ويؤمر به لا شك مستطيع أن يكتب ما يريده هو ، وعلى هذا فقد برع في الناحيتين وفاق صاحبه فيما قصر فيه ، وإلى أمد قاصد نكمل عنه الحديث متناولين جزءاً آخر من تاريخه الأدبى

عبد العظيم على قناوى

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٦ —

« لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر : يا أنا ... ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين — حين يقع — أعنف ما في الخصومة ، إذ هو تقاتل روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة . وأكبر خصيمين في عالم النفس (هما) متحابان تباغضاً ... » (الرافعي)

السحاب الأحمر

ترى ماذا كتبت إليه صاحبته بعد ما قرأت رسائل الأحزان فأثارت نفسه بعد هدأتها وردّته من الغيظ والحنق إلى أن يقول : « يا هذه لا أدري ما تقولين ؛ ولكن الحقيقة التي أعرفها : أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها في حاجة إلى أن يغسل بالماء والصابون وهيهات .. ! » ويقول : « يجب على المدارس حين تعلّم الفتاة كيف تتكلم أن تعلمها أيضاً كيف تسكت عن بعض كلامها » ؟

مَن لي بأن أعرف ما كان وقْع رسائل الأحزان في نفسها وما ردّتْ به ؟

إنه يتحدث في السحاب الأحمر عن التهمة والظنون ، والكلام الذي لا يغسله الماء والصابون ، والنجمة الهاوية ، وخداع النظر في الحب، وفساد الرأي في الهوى ، وطيش القلب في الاستسلام ، ثم ... ثم يحاول أن يعتذر ... !

هنا الحلقة المفقودة في تاريخ هذا الحب ، فلست أدعي المعرفة ؛ ولقد كنت مع الرافعي مرة في مكتبه وبيننا السحاب الأحمر يقرأ لي بعض فصوله ، فأشرت إليه عند فقرة من الكلام ليجيبني عن سؤال يكشف عن شيء من خبرها ومن خبره ؛ فوضع الكتاب إلى جانبه وحدّق فيّ طويلاً ثم سكت ، وسبحتْ خواطره إلى عالم بعيد ، وراحت أصابعه تعبث بما على المكتب من أشيائه ، ثم قال : « أرأيت القلم الذي تراءى لي السحاب الأحمر في نِصابه بين عينيّ والمصباح ... ؟ » ثم دس يده في درج المكتب فأخرجه ودفعه إليّ وهو يقول : « ضع النصاب بين عينيك والمصباح وانظر . ألست ترى سحاباً يترقرق بالدم كأن قلباً جريحاً ينزف ؟ في شعاعة هذا النور تراءت لي هذه الخواطر التي تقرؤها في السحاب الأحمر ... » ثم عاد إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال ...

***

أحسب أن الرافعي حين أنشأ السحاب الأحمر كان في حالة عصبية قلقة لست أعرف مأتاها ومردّها ، ولكن فصول الكتاب تتحدث عن خبرها في شيء من الغموض والإبهام

لقد أنشأ الرافعي رسائل الأحزان ليكون رسالة إليها يتحدث فيها عن حبه وآلامه ؛ ولست أشك أن صاحبته حين تأدّتْ إليها رسائله قد فهمت ما يعنيه وعرفتْ ذات صدره ، وأحسبها — وهي الأديبة الشاعرة — قد سرّها أن تكون هي فَلَكَ الوحي لما في رسائل الأحزان من كل معنى جميل . أفتراها قد بدا لها أن تهيجه بالدلال والإغراء وقسوة العتب وتصنُّع الغضب لتفتنه وتزيده وحياً وشعراً وحكمة ... ؟

إن كانت هذه رسالتها إليه فما أراها قد بلغت بها إلا أن هاجت كبرياءه وأثارت نفسه ، فكتب كتابه ولكن لغير ما أرادت وما قصدت إليه ...

***

يقوم السحاب الأحمر على سبب واحد ، يدور حول فلسفة البغض ، وطيش الحب ، ولؤم المرأة ... !

على أن كل ما فيه لا يشير إلا لمعنى واحد : هو أن قلباً وقع في أسر الحب يحاول الفكاك فلا يستطيعه ؛ فما يملك إلا أن يصيح بملء ما فيه : إنني أبغضك أيتها ... أيتها المحبوبة !

وكما يفزع الشخص إذا حزبه أمره إلى أصدقائه يستعينهم ويستلهمهم الرأي في بلواه ، كذلك فزع الرافعي في السحاب الأحمر ، ولكن إلى أصدقاء من غير عالمه يستعينهم على أمره ؛ فهذا صديقه الشيخ على صاحب المساكين ، وهذا صفيّه وصاحب نشأته الشيخ أحمد الرافعي ؛ وذلك أستاذه ومثله العالي

فى دينه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ؛ وهذه أم ضل ولداها الحبيبان ، وتلك زوج يفارقها زوجها الحبيب إلى السجن ؛ وهذا ، وهذه ، وتلك ، يحدثونه جميعاً حديثهم عن الحب فى رأى العين ، وفى رأى القلب ، وفى رأى العقل ، ويحدثهم حديثه ... فما تلمح من أحاديث هؤلاء جميعاً إلا أن الرافعى فى جهاد عنيف بين قلبه وعقله ، يريد أن يثبت الغلبة لعقله على هواه ليخرج من أمر صاحبته برأيه وفكره وكبريائه ، ثم لا تكون الغلبة فى النهاية إلا للحب على رأيه وفكره وكبريائه

على أن كتاب السحاب الأحمر ليس كله خالصاً لصاحبته وإن يكن من وحيها ؛ ذلك أن نسقه العجيب ، ومحاولة الرافعى به أن ينصرف عنها ، قد شرع له فى الكتاب مسالكَ من القول لم تكن مما يقتضيه ما بينه وبين صاحبته

* * *

فى الفصل الأول من السحاب الأحمر ، يتحدث الرافعى عن فتاة « عرفها قديماً فى ربوة من لبنان ، ينتهى الوصف إلى جمالها ثم يقف ! » وهو يعنى صاحبته التى أملتْ عليه «حديث القمر» وإنك لتقرأ حديثه عنها ، ووصفه لها ، وما كان من أثرها فى نفسه ؛ فتسأل نفسك : أى شئ ردَّه إلى هذه الذكرى البعيدة فأيقظها فى نفسه بعد اثنتى عشرة سنة محا الزمان بها فى قلبه وأثبت ؟ فلا تلبث أن تجد الجواب فى الأسطر الأخيرة من هذا الفصل :

« إن من النساء ما يُفهَم ثم يعلو فى معانيه الجميلة إلى أن يمتنع ، ومن النساء ما يُفهَم ثم يَسفل فى معانيه الخسيسة إلى أن يبتذل ...

« إن من المرأة ما يُحبَّ إلى أن يلتحق بالإيمان ، ومن المرأة ما يُكرَه إلى أن يلتحق بالكفر ...

« من المرأة حلو لذيذ يؤكل منه بلا شبع ، ومن المرأة مُرٌّ كريه يشبع منه بلا أكل ... ! »

أتراه بهذا يوازن بين واحدة وواحدة ، ليقول لهذه : إن تلك كانت خيراً منك ؟ وهل تحسبه كان يعتقد ذلك ؟ أما أنا فأعرف من أخلاق الرافعى أن هذا معنى لم يكن يعنيه ، ولكنها مساومة فى الحب يريد بها أن يهيج غيرة صاحبته ليردَّها إليه ، أو أنه أراد أن ينقذ كبرياءه فيزعم لصاحبته أنه لم يكن يعنيها برسائل الأحزان ، لأن هنالك أخرى ...

* * *

وتقرأ « النجمة الهاوية » فى الفصل الثانى ، فتسمعه يقول : « تتمّ آمالُنا حين لا نؤمّل ! » فما تشك أن هنالك رسالة إليها ، رسالة يمليها الحب المغيظ المحنق ، يحاول فيها أن يوهمها أنها لم تعد شيئاً فى نفسه ، وأنه قد تمت آماله واستراحت نفسه فليس له فيها أمل ولا يتعلق بها رجاء ؛ ثم يستطرد فى معانى البغض والهجر والقطيعة بأسلوب قاسٍ عنيف ، ولكن قلبه العاشق المفتون ينبض فى كلماته ؛ فما ينتهى الفصل حتى يستعلن حبه من وراء كلمات البغض وهو يقول : « أشأم النساء على نفسها من لا تُحِب ولا تُبغِض ، وأشأمهن على الناس من إذا عدَّتْ مبغضيها لا تَعُدّ إلا الذين أحبوها ... ! » وإننى لأعرف الرافعى وأستمع إلى همسات قلبه ، فهل ترى ترجمة هذه العبارة إلا أنه يقول : « إننى أحبك يا أشأم النساء ! » ؟

اقرأ فى آخر هذا الفصل الصاخب قوله :

يامن على الحب ينسانا ونذكره ... لسوف تذكرنا يوماً وننساكا

إن الظلام الذى يجلوك يا قمرٌ ... له صباح متى تدركه أخفاكا

* * *

ويتحدث فى الفصل الثالث عن السجين تحمله عربة السجناء إلى قضائه ، وزوجته التى تحبه تشيعه بنظراتها الجازعة ؛ فتعرف من وصفه لساعة الفراق بين الزوجين الحبيبين ، أىّ خاطرة فى الحب ألهمته هذا الفصل البديع ، وكأنك تسمع الرافعى يتحدث فيه عن نفسه مما فعل به الفراق : « ما الفراق إلا أن تشعر الأرواح المفارقة أحبتَها بمسّ الفناء لأن أرواحاً أخرى فارقتها ؛ ففي الموت يُمسّ وجودُنا ليتحطم ، وفى الفراق يُمسُّ ليلتوى ؛ وكأن الذى يقبض الروح فى كفه حين موتها ، هو الذي يلمسها عند الفراق بأطراف أصابعه !

« وإنما الحبيب وجود حبيبه لأن فيه عواطفه ؛ فعند الفراق تنتزع قطعة من وجودنا فنرجع باكين ونجلس فى كل مكان محزونين كأن فى القلوب معنى من المناحة على معنى من الموت ..

« ... ترى العمر يتسلل يوماً فيوماً ولا نشعر به ، ولكن متى

فارقنا من نحبهم نبه القلب فينا بغتة معنى الزمن الراحل ، فكان من الفراق على نفوسنا انفجار كتطاير عدة سنين من الحياة ... »

* * *

ويتحدث فى الفصلين الرابع والخامس عن تجارة الحب[(١)] ، وعن المنافق ، فتلمح من وراء حديثه معنى لا يريد أن يفصح عنه ، وإنه لبسبب مما كان بينه وبين صاحبته ؛ أفتراه يشير به إلى شيء من أسباب القطيعة ؟

وفى الفصل السادس يتحدث عن حب الأم في قصة والدة ضل ولداها الصغيران ثم اهتدت إليهما :

« الحب ! ما الحب إلا لهفة تهدر هديرها فى الدم ، وما خلقت لهفة الحب أول ما خلقت إلا فى قلب الأم على طفلها ... حب الأم فى التسمية كالشجرة : تغرس من عود ضعيف ، ثم لا تزال بها الفصول وآثارها ، ولا تزال تتمكن بجذورها وتمتد بفروعها حتى تكتمل شجرة بعد أن تفنى عداد أوراقها ليالىَ وأياماً . وحب العاشقين كالثمرة : ما أسرع ما تنبت ، وما أسرع ما تنضج ، وما أسرع ما تقطف ؛ ولكنها تُنسى الشفاهَ التى تذوقها ذلك التاريخَ الطويل من عمل الأرض والشمس والماء فى الشجرة القائمة

« لا لذة فى الشجرة ولكنها مع ذلك هى الباقية وهى المنتجة ، ولا بقاء للثمرة ولكنها على ذلك هى الحلوة وهى اللذيذة وهى المنفردة باسمها

« وهكذا الرجل أغواه الشيطان فى السماء بثمرة فنسى الله حيناً ، ويغويه الحب فى الأرض بثمرة أخرى فينسى معها الأم أحياناً ! »

* * *

وتراه فى الفصول الثلاثة الباقية كأنما يحاول أن يروض نفسه على السلوان ، ويقنعها بأن الحب ليس هو رجولة الرجل ، وليس هو إنسانية الانسان ، وليس هو كل ما فى الحياة من لذة ومتاع ، في كلام يجريه على ألسنة شيوخه وأصدقائه : الشيخ على ، والشيخ أحمد ، والشيخ محمد عبده ؛ يحاورهم ويحاورونه ، فتستمع فى هذا الحوار إلى النجوى بينه وبين نفسه ، وإلى الصراع بين عقله وهواه

إن الرافعى بكبريائه وخلقه ودينه واعتداده بنفسه ، لم يُخلق للحب ! ولكنه أحب ؛ فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام ، وصراعاً دائماً بين طبيعته التى هو بها هو ، وفطرته التى هو بها إنسان . وإنك لتلمح هذا الصراع الدائم فى كل فصل من فصول السحاب الأحمر

* * *

وفى كتاب السحاب الأحمر ، تقرأ رأى الرافعى فى القضاء والقدر ؛ وإنه ليشعرك برأيه ذلك مقدارَ ما فعل به الحب وما فلّ من إرادته ، فتراه يؤمن بأن الإنسان فى دنياه ليس له كسب ولا اختيار فيما يعمل ، ولكنه قضاء مقدور عليه منذ الأزل لا طاقة له على الفكاك منه ؛ وإنه على ذلك لموقن بأن لله حكمة فيما قضى وقدر وإن دقت حكمته على الأفهام :

« ألا يا ماء البحر ، ما أنت على أرض من الملح ؛ فبماذا أصبحت زُعاقاً لا تحلو ولا تُساغ ولا تُشرب ؟ إنك لستَ على أرض من الملح ولكنك يا ماء البحر ذابت فيك الحكمة المِلْحة ... ! »[(١)]

* * *

قلت فى مقالى السابق : إن رسائل الأحزان عند أكثر قراء العربية هو شيء من البيان المصنوع تكلّفه كاتبه ليحاول به أن يستحدث فنًّا فى العربية لم يوفق إلى تجويده ... لأنه بقية قصة لم تنشر معه — هى قصة غرام الرافعى — فجاء كما تأكل النار كتاباً من عيون الكتب فما تبق منه إلا على الهامش والتعليق وصلبُ الكتاب رماد فى بقايا النار

أما السحاب الأحمر فهو كتاب كامل . احذف منه فصلا أو فصلين فى أوله ، وشيئاً من فضول القول فى سائره ، تجد فناً فى العربية لا يقدر عليه إلا الرافعى ، فجرّدْه من قصته أو انسبه إليها فانك واجد فيه أدباً يستحق الخلود ، وبياناً يزهى على البيان ، وشعراً وحكمة ما زال الأدباء يدورون عليها حتى وجدوها فى أدب الرافعى

* * *

فى رسائل الأحزان أراد الرافعى أن تعرف صاحبته من حاله ومن خبره ما أراد ، فأغراها بالترفع والدلال عليه . وفى السحاب

---

(١) هذا الفصل فى السحاب الأحمر بعنوان « الربيطة » كتبه الرافعى عن صديق من خريجى جامعات أوربا ، هو الدكتور فلان ، وكان فى صدر شبابه — كأكثر واردات أوربا — زيفا فى الدين ، وزيفا فى الخلق ، وزيفا فى الرجولة ؛ على أنه الآن من أكثر المسلمين حمية لدينه وحفاظاً على تراث قومه ؛ وله مقالات فى الاسلام وفى الرد على بعض جهال المستشرقين تشفع له يوم الدين

(١) إلى الآنسة أ . ش : أن تقرأ هذه الفقرة من كلام الرافعى ؛ فان فيها الجواب عن بعض سؤالها ، وشفاها الله !

فلسفة التربيـــــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٢ —

« الفلسفة بوجه عام هى المحاولة المتكررة للوصول إلى معرفة منظمة مفهومة لصور وعلاقة ومعنى وتحول الأشياء »
« بولزن Paulsen »

رأيت فى المقال السابق ذلك « التقدير النزيه » الذى تقوم به الفلسفة عملية التربية ، وتبينت إلى أى حد ترتفع التربية بذلك « التقدير » وتسمو على سائر التجارب الإنسانية . وأحب اليوم أن أنتقل بك إلى العلاقة بين الفلسفة والتربية ، وإلى نحوى فلسفة التربية لدى الإنجليز والأمريكيين على الخصوص ، تمهيداً للكلام على مسائل أخري تختص بأغراض التربية ومنهجها ، وتطبيقات العلم والديمقراطية عليها

العلاقة بين الفلسفة والتربيـة قوية إلى أبعد حد . بل إن « جون ديوى » الفيلسوف الأمريكى الذي يحمل لواء التربية فى هذا العصر يذهب إلى القول بأن الفلسفة اليونانية — وهي أول فلسفة دقيقة معروفة — لم تنشأ إلا من ضغط مسائل التربية على عقول المفكرين . وإذن فلم يكن « الطبيعيون الأولون » عنده إلا فصلا فى تاريخ العلم ! أما السفسطائيون وسقراط ، فأولئك هم الذين اضطرتهم شئون التربية فى عهدهم إلى أن « يتفلسفوا » ! فكان لنا منهم كلام فى التربية تأدى بهم إلى كلام فى الفلسفة ! !

ومهما يكن من أمر هذه المبالغة الظاهرة فى كلام « ديوي » فلا شك أن التربية لا تستطيع أن تستغنى قط عن الفلسفة ، لا فى غاياتها ولا فى تقدير وربط نتائج علومها الكثيرة بعضها ببعض . بل نحن إذا نظرنا فى مسائل الفلسفة الكبرى وجدنا أن أغلبها يقوم محوراً لعملية التربية ذاتها [1]

ولقـد كانت الفلسفة إلى ما قبل « العلم التجريبي » مجرد نظريات ومبادئ تخوض فى متاهات ميتافيزيكية كثيرة . أما اليوم بعد أن نجح هذا العلم فى اقناع العالم بنجاحه وجدارته ، وبعد أن اتجهت أمريكا على الخصوص اتجاهاً « عملياً » فى فهم الكون وتقدير القيم المختلفة للموجودات — فقد أصبحت (الفلسفة) تسير فى التربية على الضوء الذى يبعثه العلم ولا تكاد تميل عنه إلا قليلا ، وبالأحرى هى كذلك لدى (جون ديوى) ومدرسته . فهى كما يقولون لا تستطيع أن تفهم الوجود بأكثر مما يسمح به الواقع المحدود !! وهى « فى التربية » تأخذ ذلك « الواقع المحدود » من علوم الحياة ، ووظائف الأعضاء ، والنفس ، والاجتماع ، وتاريخ الثقافة والسياسة والتربية والفن والدين ، ثم تكون منه نظرة كلية فيها شرح وتفسير وتقويم وتشريع !

وإذن ففلسفة التربية فى هذا المذهب لا تكاد تعدو أن تكون النظرية العامة التى تجد تطبيقاتها فى عملية التربية بجميع نواحيها ذلك أنها تعالج التربية كوظيفة ضرورية غير منفصلة عن الحياة بحكم طبيعة الحياة نفسها ، وتنقد وتشرح الطرق والمواد المستعملة فى هذه العملية على أساس تلك الوظيفة الآنفة ، وتمدنا بالأصول التى تجعل التربية فعالة ، وتوضح المبادىء التى تنفث الحياة فى مصالح الجماعة والتى تبرر النظام القائم أو لا تبرره ، كما تعطى الجماعة ذاتها شعوراً شاملا قوياً بمعنى الأساليب المختلفة التى تباشرها فى تدريب أعضائها ، وبأساس هذه الأساليب وقيمتها

(١) فمثلا العلاقة بين الروح والجسم ، وبين العلم والأخلاق ، وبين الفرد والجماعة ، ومسألة المعرفة ذاتها و ... الخ كل ذلك مما تتناوله الفلسفة والتربية معاً .

الأحمر حاول أن يشعرها أنه قد فرغ من أمرها وفرغت من أمره فما لها عنده إلا البغض والإهمال ، وما له عنـدها إلا اللهفة على ما كان من أيامه . أفتراه فى السحاب الأحمر قد بلغ ما أراد ؟

هيهات أن يخفى الهوى !

استمع إليه يحاول أن يهيج فيها الغيرة ويبعث اللهفة ويوقظ الحنين ويورّث البغضاء ويثير الندم ؛ فلا يكاد يبلغ آخر الرسالة حتى ينسى ما قصد إليه ليدع لقلبه أن يقول :

وبلى على متـــدلل ما تنقضى عنى فنونهْ
كيف السُّلوُّ وفى فؤا دى لا تفارقنى عيونهْ ؟!

رحمك الله يا صديق !

« شبرا » محمد سعيد العريان

(*) إلى (دمشق) : إن صاحبة الرافعى هى هى التى عرفت

ولئن قال قائل إن التفكير غالباً ما يولى هارباً تحت ضغط الحوادث تاركا العمل للعاطفة ، أو الانفعال ، أو الضرورة الغالبة بحيث أنا لا نستطيع دائماً « التفلسف » فى أساليب حياتنا : فالجواب هو أن التفكير لا يزال بالرغم من ذلك الأداة الوحيدة التى تخرجنا من الأزمات بما يقدمه من حلول ممكنة ، ووسائل محتملة ، ثم هو وإن كان لا يخلق قيماً جديدة فهو على كل حال يمير بين القيم المختلفة ، ويقدم لنا تلك التى توصلنا أكثر من غيرها إلى غايتنا

وإذن فالتربية القائمة على غير فلسفة تسندها تكون كالسارى بالليل من غير دليل ، والتربية القائمة على فلسفة خاطئة مصيرها الفشل المحتوم ...

والأمر فى الفرد والمجتمع على السواء . فلكل فرد فلسفته الخاصة فى الحياة . ولكل جيل أو مجتمع نظريته العامة التى يطبقها فى سلوكه ؛ وعلى قدر دقة هذه النظريه وصحتها يكون النجاح أو الفشل ، والسعادة أو الشقاء (١)

كلمة فلسفة التربية الحديثة فى اتجاهات اليوم

وإذا كان العصر الحاضر يمتاز بثلاثة اتجاهات أساسية هى : الديموقراطية ، والصناعة والتجارة ، والعلم التجربى ، فإن الأستاذ « جون ديوى » عند ما يكتب عن « فلسفة التربية » (فى دائرة معارف التعليم للأستاذ منرو) لا يكاد يخرج عن هذه الاتجاهات الثلاثة . فنراه من حيث الاتجاه الأول (الديموقراطية) ينادى بتعليم الجميع وبتساويهم فى فرصة إظهار كفايتهم الخاصة حتى يمسك فخ التعليم بالذكاء والنبوغ على نحو تعبير « ويلز » القصصى الفيلسوف ، كما نراه ينادى باحترام الفرد ولكن على أن يؤدى واجبه فى المجتمع وهو راض مطمئن

وهو من حيث الاتجاه الثانى « الصناعة والتجارة » يدعو إلى ضرورة إشراك العمل مع النظر فى التربية ، وإلى بث روح التعاون بين الطبقات ، وإلى العناية بعلوم الطبيعة وعدم الافراط فى التخصص الذي يجعل من الآلة إلٰهاً جباراً . هذا إلى جانب غرس الذوق السليم ، ومحاربة التبذل والاسفاف والترف المقيت وإضاعة الفراغ فى غير متعة بريئة ، وإلى جانب التحذير الدائم من عواقب التعسفات الرأسمالية

أما من حيث الاتجاه الثالث (اتجاه العلم التجريبى) فنراه يلح فى نبذ تلك « السلبية » البغيضة التى قد أوقفنا وما زلنا نوقف فيها الطفل إزاء عملية المعرفة ، ويدعو بقوة إلى جعل التعليم عملية (كشف) يدرب فيها الطفل حواسه وقواه العقلية ويمضي فيها كما سيمضى غداً فى الحياة ، فيفترض الفروض أمام المشكلات ويجرب ويحقق آناً بنفسه وآناً بإرشاد الأستاذ ، ذلك إلى حصر الدراسة في المواد التى يحتاج إليها العصر الراهن من ناحية ، والكمال الانسانى من ناحية أخرى .

« يتبع »

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

(١) فمثلا تستند الفاشستية فى إيطاليا إلى فلسفة هيجل Hegel التى تؤدى إلى جعل سلطة الحكومة مطلقة . ويذيع هذه الفلسفة فى إيطاليا Georanni Gentile (أنظر كتاب السير برسى Epucation - its Dada and First principles)

« ويقول الأستاذ وليم جيمس في أول كتابه (البراجماتزم) نقلا عن شسترتون « هناك كثيرون ـ وأنا واحد منهم ـ يعتقدون أن أهم شيء فى الرجل هو نظرته للكون ... ولا شك أن أهم ما يجب معرفته عن عدونا هو فلسفته لا عدده وعدته » أنظر كتاب الأستاذين (روس وفنى) فى فلسفة التربية الاجتماعية

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٣١٨ – ما أشبه فروع الإحسان بأصوله

البحتري: قال ابراهيم بن الحسن بن سهل: كان المأمون يتعصب للأوائل من الشعراء، ويقول: انقضى الشعر مع ملك بني أمية. وكان عمي الفضل بن سهل يقول له: الأوائل حجة وأصول، وهؤلاء أحسن تفريعا. إلى أن أنشده يوماً عبد الله بن أيوب التيمي شعراً مدحه فيه، فلما بلغ قوله:

ترى ظاهر المأمون أحسن ظاهر ... وأحسنُ منه ما أسرَّ وأضمرا

يناجي له نفساً تريع بهمة ... إلى كل معروف وقلبا مطهرا(١)

ويخشع إكباراً له كلُّ ناظر ... ويأبى لخوف الله أن يتكبرا

فقال للفضل: ما بعد هذا مدح، وما أشبه فروع الإحسان بأصوله!

٣١٩ – أشعر الشعراء

في (المثل السائر) لابن الأثير: يُروى عن بشار أنه وصف نفسه بجودة الشعر والتقدم على غيره، فقيل له: ولمَ ذاك؟ فقال: لأني نظمت اثنتى عشرة (٢) الفَ قصيدة وما تخلو واحدة منهن من بيت واحد جيد، فيكون لي اثنا عشر الف بيت. وقد تأملت هذا القول فوجدته على بشار لا له، لأن (باقلا) لو نظم قصيداً ما خلا من بيت واحد جيد. وقد وصل إليَّ ما بأيدي الناس من شعره فما وجدته بتلك الغاية التي ادعاها لكن وجدت جيده قليلا بالنسبة إلى رديئه، وتندر له الأبيات اليسيرة. وبلغني عن الأصمعي وأبي عبيدة وغيرهما أنهم قالوا هو أشعر الشعراء المحدثين قاطبة، وهم عندي معذورون لأنهم ما وقفوا على معاني أبي تمام وأبي الطيب ولا على ديباجة البحتري. وهذ الموضع لا يستفتى فيه علماء العربية، وإنما يستفتى فيه كاتب بليغ(٣) أو شاعر مفلق، فإن أهل كل علم أعلم به. على أن علم البيان من الفصاحة والبلاغة محبوب إلى الناس قاطبة؛ وما من أحد إلا يحب أن يتكلم فيه حتى إني رأيت أجلاف العامة وأغتام (١) الأجناس كلهم يخوضون في فن الكتابة والشعر، ويأتون بكل مضحكة. والمذهب عندي في تفضيل الشعراء أن الفرزدق وجريراً والأخطل أشعر الشعراء أولا وآخراً، ومن وقف على دواوينهم علم ما أشرت إليه. وأشعر من هؤلاء عندي الثلاثة المتأخرون وهم أبو تمام والبحتري والمتنبي فإن هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان في طبقة الشعراء؛ أما أبو تمام وأبو الطيب فربا المعاني، وأما أبو عبادة فرب الألفاظ في ديباجتها وسبكها.

(١) تريع: ترجع، تعود، تنقاد. في الأساس: وعظته فأبى أن يريع

(٢) الألف مذكر وتأنيث العدد للقصيدة، وهي رواية (الأغاني)

(٣) مثل ضياء الدين بن الأثير...

٣٢٠ – الشعر المغسول

في (الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء) لأبي عبيد الله المرزباني: قال البحتري: دعاني علي بن الجهم فمضيت إليه، وأفضنا في أشعار المحدثين إلى أن ذكرنا أشجع السُّلَمي. فقال لي: إنه (يُخلي) وأعادها مرات ولم أفهمها، وأنفت أن أسأله عن معناها، فلما انصرفت أفكرت في الكلمة، ونظرت في شعر أشجع فاذا هو ربما مرت له الأبيات مغسولة (٢)، ليس فيها بيت رائع، وإذا هو يريد هذا بعينه: إنه يعمل الأبيات ولا تصيب فيها بيتاً نادراً كما أن الرامي إذا لم يصب من رشقه كله الغرض بشيء قيل (أخلي (٣)) فجعل ذلك قياساً، وكان علي بن الجهم عالماً بالشعر

٣٢١ – وإنما لمعاني تعشق الصور

أبو القاسم غانم بن أبي العلاء الأصبهاني:

(١) الأغتم: الأعجم وهو من لا يفصح شيئاً، الغتمة العجمة في المنطق (التاج، الأساس)

(٢) الأساس: كلام فلان مغسول ليس بمعسول، كما تقول: عريان وساذج للذي لا ينكت فيه قائله كأنما غسل من النكت والفقر غسلا أو من حقه أن يغسل ويطمس، ومنه قولهم: على وجه فلان غسلة إذا كان حسناً ولا ملح عليه ويقال في ضده: على وجهه حفلة

(٣) لم تذكر كتب اللغة مثل (اللسان والتاج) هذا الحرف بذاك المعنى، وكم كلمات فاتت المعجمات!

قوم لو انهمُ ارتاضوا لمــا قرَضوا
أو أنهم شعروا بالنقص ما شعروا [1]

لا يحسن الشعر مالم يُســترقَّ له
حرّ الـكلام ، وتستخدمْ له الفكَـر

أنظرْ تجدْ صور الأشعار واحدة   وإنمـا لِمعانٍ تعشق الصور

٣٢٢ — اختيار الوزن والقافية

قال الصاحب فى رسالتـه (الـكشف عن مساوئ شعر المتنبى) : كنت أقرأ على (الأستاذ الرئيس ابن العميد) شعر ابن المعتز متخيراً الأنفس فالأنفس ، فابتدأت قصيدة على المديد الأول [2] ، فرسم تجاوزْها ، وقدَّرته يحفظها ولا يرضاها . فسألته عنها ، فقال : هذا الوزن لا يقع طلبه للمحدثين جيد الشعر . فتتبعت عدة قصائد على هذا الضرب فوجدتها فى نهاية الضعف . وسمعته (أيده الله) يقول : إن أكثر الشعراء ليس [3] يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبتدأ النسج ، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذى قصده ، والمعنى الذى اعتمده ، وينظر فى أىّ الأوزان يكون أحسن استمراراً ، ومع أى القوافى يحصل أجمل اطراداً ، فيركب مركباً لا يخشى انقطاعه والتياثه عليه

٣٢٣ — فلقى الله شبعان ريان دفيئا

قال أعرابى وهو يدعو الله بباب الـكعبة : اللهم ميتة كميتة أبى خارجة . فسألوه ، فقال : أكل بَذَجاً [4] وشرب وطْباً [5] من اللبن ، وتروى من النبيذ [1] ، ونام فى الشمس فمات ؛ فلقى الله شبعان ريان دفيئا

٣٢٤ — طلعها كأنه رؤوس الشياطين

فى (الـكامل) : التشبيه جار كثير فى كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد . قال عز وجل وله المثل الأعلى : (الزجاجة كأنهـا كوكب درى) وقال : (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) . وقد اعترض معترض من الجهلة الملحدين فى هـذه الآية فقال : إنما يمثل الغائب بالحاضر ، ورؤوس الشياطين لم نرها فكيف يقع التمثيل بها ؟ وهؤلاء فى هـذا القول كما قال الله : (بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) . وهـذه الآية قد جاء تفسيرها فى ضربين : أحدهما أن شجراً يقال له : (الأستَن) منكر الصورة يقال لثمره : رؤوس الشياطين ، وزعم الأصمعى أن هذا الشجر يسمى الصوم [2] . والقول الآخر — وهو الذى يسبق إلى القلب — : إن الله شنع رؤوس الشياطين فى قلوب العباد ، وكان ذلك أبلغ من المعاينة ، ثم مثل هذه الشجرة بما تنفر منه كل نفس [3]

٣٢٥ — إلا التنقل من حال الى حال

فى (تاريخ الطبرى) : قال أبو العتاهية : وجّه إلىّ المأمون يوماً فصرت إليه ، فألفيته مطرقاً مفكراً ، فأحجمت عن الدنو منه فى تلك الحال ، فرفع رأسه فنظر إلىّ ، وأشار بيده أن ادنُ فدنوت ، ثم أطرق ملياً ، ورفع رأسه فقال : يا أبا اسحق ، شأن النفس الملل وحُبُّ الاستطراف ، تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفة . فقلت : أجل يا أمير المؤمنين ، ولى فى هذا بيت . قال : وما هو ؟ قلت :

لا يُصلح النفس إذ كانت مقسَّمةً
إلا التنقّلُ من حال إلى حال

---

(١) (انهم) بهمزة وصل للضرورة (ارتاضوا) راضه فهو مروض وقد ارتاض . (قرضوا) : قرض الشعر قاله ، وله قريض حسن لأن الشعر ذو تقاطيع أو سمي بالقريض الذي هو الجرة ... (الأساس) . (شعر به) كنصر وكرم والأولى هي الفصيحة : علم به وفطن ، وحكى اللحياني : شعر لـكذا إذا فطن له ، وشعر به بالفتح : عقله (التاج) . (شعر) كنصر وكرم شعراً قاله أو شعر كـكرم أجاده ، وهذا القول الذى ارتضاه الجماهير لأن (فعل) له دلالة على السجايا التى تنشأ عنها الاجادة ، وشعرت لفلان أى قلت له شعراً (التاج)

(٢) الحماسى :

فاسقنيها ياسواد بن عمرو   إن جسمى بعد خالى لخل
فاعــلاتن فاعلن فاعــلاتن   فاعــلاتن فاعلن فاعــلاتن

(٣) اسمها ضمير الشأن

(٤) البذج : الحمل ، ولد الضأن كالعتود من المعز

(٥) الوطب : سقاء اللبن ، الزق ، جمع القلة . أوطب والـكثير : وطاب وأوطاب

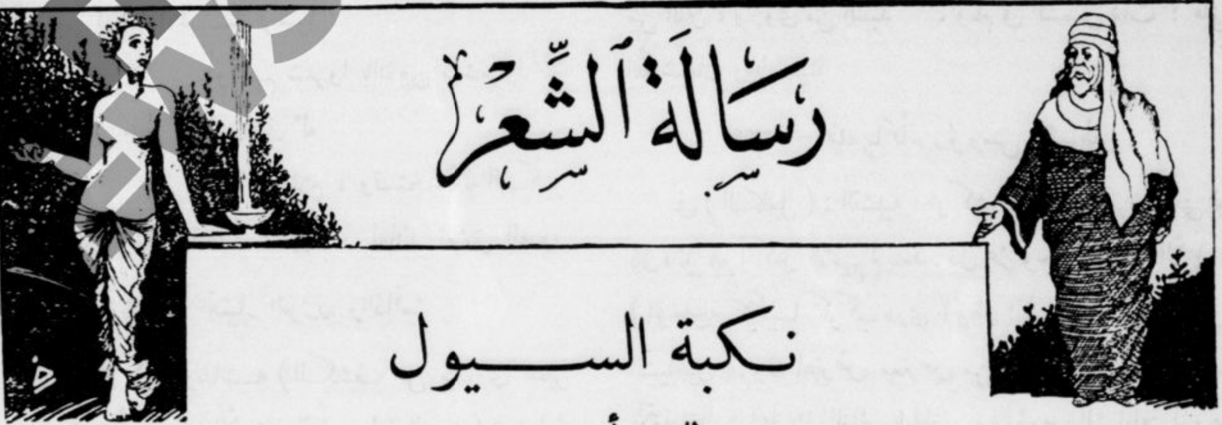
---

(١) في المحـكم : إنمـا سمى نبيذاً لأن الذى يتخذه يأخذ تمراً أو زبيباً فينبذه فى وعاء أو سقاء عليه الماء ويتركه حتى يفور فيصير مسكراً ، والنبذ الطرح (التاج) ويقال للخمر المعتصر من العنب نبيذ كما يقال للنبيذ خمر (النهاية)   (٢) الصوم : شجر على شكل شخص الانسان

(٣) قال ابراهيم بن اسماعيل الكاتب لأبى عبيد : قال الله : (طلعها ...) وإنما يقع الوعد والايعاد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف فقال : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى   ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهو لم ير الغول قط ولـكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به (نزهة الالباء للأنبارى) وقيل : كأنه رءوس حيات فان العرب تسمى بعض الحيات شيطاناً ؛ حية له عرف قبيح المنظر (اللسان)



نكبة السيول

للسيد أحمد عبيد

« أيها الاخوان هلا عطفة تجبر الكسر وتحيي من غبر »

هجع السامرُ وانفضّ السمرْ وتوارى البدرُ والنجم استترْ
وسجا الليل فما من نَبْسةٍ بهم الليل إذِ الليل اعتكر
وخلا الأفق سوى من ومضةٍ تتجلى فيه آناً وتمرّ
والكرى يبعث أضغاث الرؤى زاخراتٍ بتهاويل الصوَر
غفَل الناسُ بها عن كونهم والزوايا راصداتٌ والغِيَر
هجعوا والمزنُ مرجوُّ الحيا والغوادي حافلاتٌ بالدِّرَر
فإذا السحبُ رُكامٌ مطبقٌ عابسُ الطلعة مرهوبُ النظر
وإذا السيلُ أتيٌّ ماردٌ عَرِمُ الطغيانِ مشهودُ الضرر
غادر السهلَ كبحرٍ مُزْبِدٍ طمّتِ الأمواج فيه فانفجر
قلّما مرّ على شيء ولم يَمْحُ من أعلامه كلَّ أثر
فأتى البنيانَ من آساسه وتعاطى كلّ نفسٍ فعقر
لم يَنَلْ من شرّه نَبْتٌ ولم يَنْجُ منه حيوانٌ أو بشر
والردى يدهق في دأمائه كأسَ موتٍ وهلاكٍ ما أمرّ
فترى الأشلاء تطفو فوقه زاهقاتِ الأنفس الطهرِ الغُرَر

***

رب طفلٍ أبصر السيلَ ولم يقوَ أن ينجوَ منه أو يفرّ
صاح يرجو نجدةً من أمه وأبيه وهما فيمن غمر
فعلا الجِذْعَ يرجّي عنده نجوةً فانبتّ فيه وانكسر
وفتاةٍ طفلةٍ ناعمةٍ ذاتِ دلٍّ وعفافٍ وخفَر
عصف السيلُ بها فانهتكت وطواها في مطاويه القدر
وغنيٍّ كان مرموقَ السنا حاشداً نَدْباً كريمَ المعتصَر
تركته النكبة الكبرى لقىً يَنْشُدُ العيشَ ويبكي من قبر

***

أيها الإخوان هلّا عطفةٌ تجبر الكسرَ وتحيي من غَبَر(١)
أنفقوا مما تحبون فمن يفعلِ الخير يَجِدْه مُسْتطَر
ليس يغني الدمعُ في تسكابه عن بلاء جلّ أو خطبٍ أبرّ
أتبعوا سيلَ الحيا سيلَ الندى ينتعش بعضُ الذي كان عثر
واشكروا الله إذ أنجاكم بالجدا(٢) فالله يجزي من شكر
لِيجُدْ ذو الفضل بالعفو(٣) ومن جاد من جهدٍ(٤) فقد أسنى وبرّ

(دمشق)

أحمد عبيد

(١) غبر : بقي
(٢) الجدا : العطا
(٣) العفو : الزائد من المال ومنه قوله تعالى : (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو)
(٤) الجهد : الشيء القليل يعيش به المقل على جهد العيش

لوحة الشاعر

للشاعر السوداني المرحوم التجاني يوسف بشير

الحسنُ – يهفو بجفنه الوسنُ – كلُّ خبيءٍ من سحره حسنُ
للحسن عندي وللهوى صورُ
وهي لعمري وعمرُها غُرَرُ
ذخيرةٌ للفؤاد أو أشرُ
من الجمال الحبيبِ يُعتصَر
يرقد في حِجْرِها فتًى أثِرُ يفتنُ في خَلْقِها ويفتتن
سكرى لها في الحياة مُنْحَدَرُ دوني . وفي لوحتي لها منن

***

مسحورةٌ في الدماء تضطربُ تَسْمَعُ منها دويّها الأذن
أطيافُ دنيا سماؤُها عجبُ
تنأى وتدنو آناً وتقترب
فيها غيومٌ وعندها سحب
تبرز آناً منها وتحتجب
أضيعُ شيء في أرضها الذهب يجري بعيداً عن كونها الزمن
وتلك دنيا للسحر مضطرب فيها وللساحرين مُرتهَنُ

***

تحسبها في النَّدىّ إن سمرت أو هزّها في مراحها الدَّدَنُ
جنًّا نَآدَى ما غازلت طفرت
إلى مراقي السماء وانحدرت
وما أصابت من قُبلةٍ سكرت
تطِنُّ كالنحل كلما ظفرت
بشاطيء للنعيم ماعبرت إلا على مدمع به السفن
وملعب للملاح كم خطرت فيه ديار وكم مشت مُدُن

***

أية دنيا هاتيك ظلُّ شبح من كل فنٍّ يحفها فنن
وكنزها العبقري شقُّ قدح
أخي هزارٍ إن حركته صدح
أو عابثته على الدنان سبح
ذات ظلال سحرية وملح
أكرومة الفن من أسًى ومرح ترقد فيها القصور والدمن
لوّنها في الزمان قوس قزح وذاب فيها السرور والحزن

عودتنا الثانية

للأستاذ خليل هنداوي

غداً عند ما تهادى اللحود وتنفضنا من حنايا الترابْ
وقد لمستنا أكف الخلود وردت علينا ثياب الشباب

غداً عند ماتنهلين الحياة شراباً ويا برد ذاك الشرابْ
وقد رف للحب كالأقحوان فم لا يزال عليه الترابْ

أنخفق مثل الفراش الجميلْ ؟ نزوّق ألواننا من هوانا
أنطلع مثل زهور الحقول ؟ ونملأ جو الهوى من شذانا

إلى أين نمشي وأنّى نطير ! وقد ملأ العاشقون اللحودْ
وفي كل صوب تهب الحياة ويحيا الهوى ، ويفيق الوجودْ

تعالى إلى لحدنا المطمئن نجدد سيرتنا أو نعيدْ
لقد كان مثوى فناء عتيق وأصبح مأوى غرام جديدْ !

خليل هنداوي



الزنك

كعنصر أساسي لنمو النبات

للأستاذ عبد الحليم منتصر

— ٢ —

أعراض مرض الحرمان من الزنك

لقد أصبح من السهل تشخيص هذه الحالات المرضية ، التي تعترى النبات ، نتيجة لحرمانه من الزنك ، وذلك بعد التجارب العديدة التي أجريت ، والملاحظات القيمة التي أبديت ، وبعد أن ظهر جلياً أن علاج هذه الأعراض لا يكون إلا باعطائه حاجته من الزنك ، على أن يكون ذلك باحدى الطرائق التي سنوردها فيما بعد

وأظهر هذه الأعراض مايعترى الأشجار التي تتساقط أوراقها خريفاً ، وذلك بأن تظهر الأوراق عند حلول الربيع ، في قمم الأفرع الصغيرة ، لايتجاوز طول الورقة بوصة ، ويكون عرضها نحو ربع البوصة ، وهي إلى جانب ذلك محمرة اللون ، جافة قليلا ، قصيرة العنق ، مبقعة في الغالب . وقد تكون هذه الأفرع ذاتها محملة في غير قممها بأوراق سليمة لا أثر لهذه الأعراض عليها ؛ بيد أن مقاومة هذه الأجزاء مؤقتة ، أي أنها لاتستطيع متابعة النمو الطبيعي مدة طويلة ، وفي الحالات الشديدة تظهر الأعراض نفسها عليها هي الأخرى ، فترى أوراقها صغيرة مبقعة ذات أشكال غير طبيعية . وقد لوحظ أن مثل هذه الأشجار قد تذوى وتموت بعد عام أو عامين على الأكثر ، وإن أظهر بعضها مقاومة مرض الحرمان من الزنك مدة أطول

وفي الحق أن هذه الأعراض تختلف باختلاف الأشجار أو النبات ، فهي في المشمش غيرها في الكريز أو التفاح والجوز واللوز والموالح وغيرها ، وما ذلك إلا لأن درجة الاحتمال ليست واحدة ، حتى إنه ليصعب على غير ذي الدربة تمييز هذا المرض من غيره إذ تشابه أعراضه أعراض سواه

كما أن من المحقق أن ثمار مثل هذه الأشجار المصابة لاتكون طبيعية الشكل والحجم ، فالخوخ والبرقوق تكون ثمارها صغيرة مفرطحة ومدببة أطرافها ، كذلك المشمش والليمون . وذلك علاوة على النقص البيّن في المحصول . وعلى الجملة فإن أشجار الفاكهة في الحدائق وغيرها من أشجار الزينة تبدى أعراض مرض الحرمان من الزنك ، بيد أن درجات احتمالها ومقاومتها متفاوتة ، فعلى حين تكون أشجار الخوخ والكريز مثلاً قد أذبلها وأذواها هذا المرض ، أو لعله قد صيّرها مشرفة على الهلاك ، يكون غيرها من جوز ولوز وتفاح وكمثرى وبرقوق وعنب ومشمش وتين وموالح أكثر مقاومة ، وإن كان حتما أنها تصل إلى نفس المصير مالم تسعف بالعلاج ولن ترضى بغير الزنك بديلاً

وتختلف درجة مقاومة النبات للمرض تبعاً لطبيعة التربة التي ينمو بها ، فهو أكثر مقاومة إذا ما كانت الأرض طينية ، قادر على احتمال نقص الزنك من ألوان غذائه فيها . أما إذا كانت الأرض رملية أو كانت حصباء ، فان أعراض المرض لاتلبث أن تظهر إذا كانت كمية الزنك غير مناسبة لحاجة النبات منها .

ومن الملاحظات التي سجلت على الخوخ أنه بعد أن تابع نموه مدى أعوام خمسة كان يعطى فيها أوفر محصول .. ظهرت أعراض تأثره بنقص الزنك في أواخر صيف العام الخامس ، وكانت النتيجة موت أغلب الأشجار خلال ثلاثة الأعوام التالية؛ وعند ما زرعت مكانها أشجار أخرى ظهرت أعراض المرض في العام الأول مباشرة . وعند ما عولجت بالزنك اطرد التحسن وزاد المحصول

طرائق العلاج

وتتلخص طرق علاج مرض الحرمان من الزنك فيما يأتى من الوسائل التى جربت وثبتت صلاحيتها :

١ — إضافة محلول كبريتات الزنك إلى التربة

٢ — وضع قطع من الزنك فى ثقوب تعمل لهذا الغرض فى جذوع الأشجار وفروعها

٣ — وضع كبريتات الزنك فى ثقوب بالشجرة

٤ — رش الأوراق بكبريتات الزنك والجير

٥ — الرش بأكسيد الزنك

٦ — الرش — بعد سقوط الأوراق — بكبريتات الزنك

٧ — الرش بكلورور الزنك

على أنه لوحظ أن العلاج عن طريق التربة هو من أنجع هذه الوسائل ، وخاصة إذا وضع مركب الزنك غير بعيد من الجذع . وقد وجد أن وضع نحو ثلاثمائة كيلو جرام للفدان الواحد مذراة فوق أرضه تبقى نافذة الأثر فى العلاج مدى ثلاث سنوات تباعاً . كما أن وضع مائة كيلو جرام فقط ، توضع بالملعقة قيد قدمين من جذع الشجرة يعطى نفس الفائدة ولذات المدة

أما العلاج عن طريق حقن الجذع بكبريتات الزنك فى ثقوب تكون متقاربة ، يوضع فى كل ثقب من جرامين إلى ثلاثة ، ثم يقفل الثقب بالشمع ؛ مثل هذه الطريقة لم يخب مفعولها مطلقاً فى علاج أمراض الحرمان من الزنك ، بل إن أثرها ليبقى مدة ثلاث سنوات على الأقل ؛ إلا أنه وجد أن الخشب الرخو يتأثر بهذه الطريقة ، كما أن الثقوب قد تكون سبباً فى جلب أمراض أخرى ، وذلك إذا أهمل إحكام غلقها

كما أن إدخال قطع من الزنك أو الحديد المغطى بالزنك (وتفيد المسامير العادية فى بعض الحالات) فى الجذع والفروع ، يعطى نفس الأثر من علاج حاسم سريع للمرض ، إلى تقدم محسوس فى نمو النبات ودرجة إزهاره وإثماره . ويستحسن فى هذه الحالة أن يدق عدد من المسامير على أبعاد وأغوار مناسبة . وقد ثبت أن هذه الطريقة هى أنجع الطرائق المذكورة إطلاقاً ، فهى أقواها مفعولاً وأدومها أثراً . ومما يستحق الملاحظة فى هذه الطريقة أننا إذا ثبتنا مسماراً أو عدداً من المسامير فى أحد الأفرع فإن أثر العلاج يتبدّى واضحاً جلياً على الجزء من الفرع الذى يبدأ بموضع المسمار أو المسامير وينتهى بالقمة ، على حين يظل الجزء من الفرع الذى يبدأ من هذا الموضع نفسه وينتهى بالجذع الرئيسى أو الأرض ، يظل هذا الجزء كما هو لا تبدو عليه أى علائم التحسن أو آثار العلاج

وطريقة الرش هى أيضاً بارعة الأثر فى كثير من الحالات ، فقد وجد أن رش الأوراق بمزيج مكون من عشرة أرطال من كبريتات الزنك ومائة جالون من ماء الجير ، مفيدة جداً كعلاج لأعراض مرض الحرمان من الزنك ، وخاصة للموالح والمشمش والعنب ، وإن كان من الحق أن نقول : إنها كانت غير وافية بالغرض فى بعض حالات أخرى . وقد وجد أنه فى حالة استعمال هذه الطريقة يحسن أن يعاد رش الأشجار المصابة مدى عامين متتاليين إذا كان مرض الحرمان قد أثر تأثيراً سيئاً على النبات

كيف تؤثر طبيعة التربة وصفاتها الكيميائية فى سير مرض الحرمان من الزنك ؟ وكيف يستجيب النبات لهذه المؤثرات ؟ وما هو الدور الذى يقوم به الزنك فى النبات ؟ سيكون ذلك موضوع حديثنا فى عدد الرسالة المقبل إن شاء الله تعالى

« يتبع »

عبد الحليم منتصر

ماجستير فى العلوم



مشهد غرامى من أنتونى ترولوب

غرام راهب

للأستاذ دريني خشبة

لم يكن لَبِقاً سيدنا الحَبْر الجليل — المستر سلوب — حين حاول هذه المرة أن يُنَقِّل فؤاده حيث شاء من الهوى ... فلقد عرف الناس أنه مشغوف بالسيدة (... بولد) وأنه يسعى جهده ليحظى بها زوجة مثرية غنية ذات مال وذات جمال، وذات ريع ثابت يَقْدُره العارفون بألف أحمر رنان تقبضها غير منقوصة كل سنة ... عرف الناس هذا، وحرص سيدنا الحَبْر الجليل على ألا تفلته هذه الفرصة النادرة التى تضمن له غَرْفَةً من كنوز قارون فى كل مطلع عام جديد، فيضمن نوال الدنيا و ... حسن ثواب الآخرة !!

ولم يكن أحد يعيب عليه قط مجازفته الغرامية هذه، لأنها كانت فى سبيل الزواج ... والزواج شئ عادى أقرته الأديان ونزلت به الشرائع ... أما أنه راهب فلا بأس، فإنها رهبانية ما فرضها الله على أحد، فَلِمَ يفرضها سيدنا الحبر الجليل — المستر سلوب — على نفسه ؟!

وسيدنا الحبر الجليل رجل يعرف حق الدنيا كما يعرف حق الآخرة ويعطى لقلبه من هذه الدنيا تسعة وتسعين من أنصبتها المائة المقسمة بينه وبين عقله ... لذلك كان شعوره يطغى على تفكيره ... وكن هواه المتقد وعاطفته المشبوبة لا يتفقان ومركزه الذى أساسه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والبغى

فلقد عرف هذا الحبر السيدة (... بولد) الأرمل، بعد أن مات زوجها، وبعد أن ترك لها هذه الثروة الهائلة التى أسالت لعاب المستر سلوب، وشبت أطماعه ... فلم ير بأساً أن يصل أسبابه بأسبابها، وأن يملقها ويدهن لها، وأن يزخرف لها حباً يوهمها به أن له ناراً تتأجج في قلبه، وتندلع بين أضالعه ... وكان للأرمل الغنية شئ من الجمال غير قليل ... وإن كان جمالها يذهب به كثرة اللحم والشحم، وقصر الرقبة واستكراش البطن، وترهل الثديين قليلا ... ولكن وجهها كان ذا رواء وسيماء، خصوصاً حين تعالجه بالأصباغ والدمام، وسائر فنون التطرية ... لقد كانت تجلب له حسناً مصنوعاً يغرى المساكين من أمثال سيدنا الحبر الجليل المستر سلوب، فكيف وقد حازت هذا الثراء الضخم، والغنى الواسع، والدخل المضمون ؟ ... إنها ما أغنى وما أقنى، فلم لا يغضى الحبر الجليل عن بعض العيوب التى جرها الشحم واللحم ؟ ولم لا يذكر أنه هو الآخر ليس وسيما قسيما، ولا نحيل القد ممشوق القوام، ولا له لفتة الظبى ولا خيلاء الطاووس !؟ بلى، ينبغي أن يذكر لحيته الهائلة التى تحجب عين الشمس عما تحتها من وجه مكلثم، وصدر كأنه نصف جبل حملته ساقا عفريت. وهكذا ينبغى أن يخجل قلبه المهوم بالجمال قليلا، فنظرة خاطفة فى المرآة تقنعه بمحاسن الأرمل السيدة بولد، ونظرة أخرى إلى ثروتها الكبيرة تجعلها أجمل حسان الدنيا

ولكن قلب الحبر الجليل ليس من هذه القلوب الرطبة التى تقنع بصيد واحد، لا سيما إذا كان هذا الصيد وثناً من أوثان الدنيا التى تغرى بالذهب، وتجذب بالثروة، وتتكلم بالدنانير .. لا .. ليس لمثل هذا الصيد يخفق قلب الراهب الذى يشغفه الجمال فهو ينبض له، وتجذبه مفاتن الحسن فهو يهيم بها ... إن لمثل هذا القلب فى هذه الدنيا حقوقاً يقتضيها من خدود الغيد وعيون الخُرَّد الأماليد، وهو لا شأن له بالذهب الذى يضمن سعة الحياة ورَغَد العيش وإقبال الأيام ... ومن أجل ذلك فليس لقلب المستر سلوب من هذه الأرمل الغنية نصيب، فهى صيد نفيس سمين لأطماعه، ومن أجل ذلك فلينطلق هذا القلب فى دنيا الجمال

ينشد صيده ، فهو لا يعنيه أن يعكف على وثن من الذهب يتعبده ولا يهواه

***

هذه هي السيدة ... بولد ... أما السينورة نيرونى ، فزوجة وفية للسينور نيرونى من كبار رجال السياسة والطب ، وقد تزوجها السينور لجمالها البارع ، ولهذه الألغاز العميقة التي تمتلىء بها عيناها السحريتان ؛ وتلك الظلال الحزينة الفاتنة التي تموه جبينها بمثل ظلال الغروب ... وليس شك أن السينور يحبها ويحرص على مرضاتها ، وأكبر ما يعطف قلبه عليها أنها مقعدة ، أو كالمقعدة ، لأنها أصيبت بلين فى عظام ساقيها بعد أن بنى عليها ... ولسنا ندري إذا كانت السينورة تحبه ، أو تحب أحداً من العالمين ... فلقد عبست للحياة وتنكرت لمباهجها وأول هذه المباهج الحب .. وكان السينور يفرط في منحها حرية الاجتماع بمن تشاء ، والخلوة بمن تحب ؛ وكانت هى كالعنكبوت الصناع التى لا تفتأ تنسج شراكها للذباب ، فلم يكن أحد يخلو إليها حتى تصمى قلبه بنظرة أو نظرتين من عينيها القتالتين فتزلزله ويصبح لها عبداً وبها هائماً وكأنما كانت تنتقم لنفسها من الناس فهى تعذبهم بالحب الذى لم تبله ، وتكوى قلوبهم بالغرام الذى لم تعرفه . وقد أولعت بذلك حتى صار طبعاً ثانياً لها ، وهى لا تستحى أن تفخر بذلك وتباهى به ، فتقول لأختها : « إنها لا تعجز عن إذلال قلوب الجبابرة وقسرهم على التمرغ تحت قدميها ... » ولم يكن بدعاً إذن أن يكثر عشاقها حتى يربوا على العشرين ... وكان أحرهم شغفاً بها هو هذا الحبر الجليل العلامة المستر سلوب ، الذى لم يكد يراها حتى نسى نفسه ووسوس له شيطانه ، فعقد أواصره بأواصر السينور نيرونى ، ثم بأواصر السينورة من بعد ... وأى بأس فى أن يحتفظ بالسيدة بولد لنفسه الأمارة الطاعة ، وبالسينورة لقلبه المنهوم بكل هيفاء حسناء ... لا بأس قط ... فليضع فى قوس كيوبيد وتَرَيْن عُرُدَّين ، وليُر كيف يصيب بهذه القوس إن كان مثله يحسن أن يحمل مثلها ... ثم ليكن جريئاً ... فلا يبالى رجال الكهنوت وهذه المعاطف الفضفاضة السود ، ومقالة السَّوْء التى يثلبونه بها ... وليزر السينور نيرونى فى الوقت الذى لا يكون السينور موجوداً فيه فى منزله ، ولا جرَم إن السنيورة ستلقاه حينئذ ، وسيشرب فى حضرتها قدحاً من القهوة ... وربما أمرت له بكوب من نبيذ بردو يبعث الدم حاراً فى عروقه فيزداد جرأة وإقداماً ، وقد يجد الفرصة الجميلة فيكشف عن خبيئة قلبه لهذه

السيدة اللعوب ... وليس ضير أن يفشل مرات ومرات فى البوح لها ... على أن السينورة الحصيفة اللبيبة قد عرفت ما يجتاح قلبه من حبها لأول زَوْرَة من زياراته الصباحية المفتعلة التى حسب أنه شرفها بها ... ولقد كانت السينورة واسعة الثقافة ، بل كانت أكثر من ذلك ، كانت فيلسوفة بفطرتها ، تجيد الفلسفة التطبيقية فى كل أحوالها ... وكانت تجيد ذلك على الخصوص مع رجال الدين ... فما بالك بحبر جليل من عظمائهم ينسى نفسه بين يديها ، وينسى وظيفته فى الحياة ، وينسى دقات الناقوس التي توقظ الغافلين وينسى بيانه الذى رهب به ورغب ... وينسى كل شيء ... حتى صور القديسين والحواريين التى كانت تهاجمه كلما خلا إلى السينورة فلا يأبه بها ، ولا يعنى بهتافها به كما يعنى بانتقاء العطور التى يضمخ بها نفسه ، والبنيقات التى يحرص أن تكون نظيفة ناصعة ، وبكل ما يظهره فتًى فى عين السينورة ، من منديل جميل وقفاز جديد ... و ...

وذهب الراهب الوقور ليسأل كمادته عن السينور فلم يجده ، وأدخل إلى السينورة فلم تُعن به إلا كما يعنى الصبية بمماز الشص ينبه عن فريسة السمك ... ووجدها كدأبها دائماً مضطجعة فوق كنبة وثيرة عند مكتبها الفخم ، وبيدها يراعها الأبنوس الثمين ، وأمامها صحيفة تخط فيها كلاماً قالت عنه وهى تتخابث إنه خطاب أوشكت أن تكتبه للحبر الجليل ... ثم مدت يدها الجميلة البضة لسيدنا الراهب فتناولها فى يده المرتجفة ، وانحنى برأسه الكبير ولحيته المنكرة فلثمها ، وهو يخيل إليه أنه يسرق القبلة الذهبية من كنوز سليمان ... ياله من منظر عجيب !! لقد كان شيء كبير هائل شائه كرأس ثور ، ينحنى فيبحث فى زهرة يانعة جنى عليها المنجل فقذفها فى طمامه ... بل كان أغرب من هذا ... لقد كان كالتنين الهولة ينازل فينوس ربة الحسن !

— لقد أوشكت أكتب إليك ، فأما وقد جئت ، فلألق بما كتبت فى سلة المهملات ...

— لا ... لن يكون مصير ما تتفضلين بكتابته إلى هذا المصير ... لأحتفظ به إلى الأبد ، فإذا كان لا بد من إبادته ، فلأحرق له بخوراً ولألق به فى ناره ! أليس كانت ديدو تصنع مثل هذا ؟

— أنا لا أحترم ديدو هذه أيها الأب ... لقد كنت أوثر أن تكون ديدو مثل كليوبترة حين رأت ما حاق بحبيبها فآثرت

أن تلحق به ، حتى لا تقع بين المطرقة والسندال ... أيها الأب الكريم مستر سلوب ، أرجو ألا تخلط بين جد الحياة وبين عبث الحب ! »

وصبغت حمرة الخجل وجنات الحبر الجليل لأنه أيقن أن السينورة تعرض بما بينه وبين المسز بولد ، وأنها تشتهي أن تذله كما أذلت عشرين عاشقاً لها من قبل ... ثم لم تشأ أن تقسو عليه فقالت تعبث به متلطفة :

— ماذا ؟ إنى ما أزال أقولها لك فى صراحة : لا تخلط بين عبث الحب وجد الحياة ... إن أمامك ثروة واسعة ، ومدينة من الذهب شاسعة ، وإنك تشتهى أن تكون صاحبها ، فأقدم بحزم ، ولا تتلف أطماعك بهذا الحب الطارئ ؛ فإن كنت فى عرض الدنيا زاهداً ، فأحب كما ينبغى أن يكون الحب ... هب الحب كل قلبك فالحب يكره أن يشركه أحد فى القلب ... فإذا أبيت إلا أن تصيب الحسنيين فاعلم أنك من الآن فاشل ... فأيهما تؤثر أيها الأب : المال ، أم الحب والجمال ؟ !

وطافت برأسه طائفة من الأفكار ، ولكنها طافت بسرعة البرق ، فقال : « بل الحب ، ولا شىء غير الحب ... الحب الذى ينبغى أن يقهر كل رغبة وأن يسود جميع الأطماع ... »

— بل آثر أن تستمع إلى نصيحتى ، وتذكر ما بعد نشوة الأسبوعين أو الثلاثة الأسابيع من عمر الحب ... ! إنها الخيبة وانعكاس الأمل ... إنه ما حدث فى الأساطير لمنيزيس التى لم يحب أحد كما أحبت ولا اكتوى عاشق بمثل ما اكتوت ... إن التفانى فى الحب يعنى الفشل فيه ... والحب الصحيح يعدل القنوط من جنى الثمرة المشتهاة ... أو لم تحب جوليت ؟ أو لم تحب ديدو ؟ وهايدى كذلك ! وترويلوس ؟ ألم يحب حباً طمس رجولته ؟

— بلى ... لقد أحب ترويلوس ولكن تغفلته حبيبته ، ويستطيع كل إنسان أن يحب ولا يكون ترويلوس ، فليس كل النساء كرسيدز !

— هذا حق ، ولكن عدم الإخلاص ليس كله فى جانب المرأة ، بل لكم النصيب الأوفى فيه ... فلقد أخلصت إملوجين ، فماذا كان جزاؤها ؟ ألم يتهمها زوجها أنها صبت إلى أول ضيف انفردت وإياه لأول مرة فى غيابه ؟ وديدمونا ؟ لم خنقها بعلها ؟ ألم تكن مخلصة وفية ؟ وأوفيليا ؟ ألم تجن بإخلاصها ؟ إنه يبدو لى ألا سعادة فى الحب إلا فى خاتمة القصة الانجليزية ؛ أما هذه الدنيا السحرية فى ذهبها وجمالها وفتنتها وخيراتها سعادة محسة لامراء فيها .:. سعادة يسع كل أحد أن يهنأ بها ويرشف ماشاء من معينها ...

وارتبك الحبر الجليل قليلاً ثم قال : « أوه ! كلا ... إن كل هذه الدنيا بجميع ما حوت من حطام لا يمكن أن تؤدى إلى السعادة ! »

— إذن ما الذى يستطيع أن يجعلك سعيداً أيها الأب ؟ ما المعين الذى لا ينضب ، الذى تنشد منه سعادتك ؟ لن تقول ألا معين لك ، فلكل من الناس معينه الخاص !

وغلب الحبرَ خباله الدينى فأجاب : « قد يبحث الإنسان عن السعادة فيعييه البحث ، ذلك لأننا نبحث عنها دائماً فى هذه الأرض ، وهى لا تكون إلا فى السماء !!

— صه ، ويلك ! إنك تقول بلسانك ما ليس فى قلبك ... إنها تعاليمكم التى لم تستطع أن تشفى أطماعكم فى هذه الدنيا .. ! إذا لم يكن شىء من السعادة حقاً فى هذا العالم الفانى فلم جاهدت أن تكون قساً وجاهد أصحابك معك ؟ لم طمعتم فى حطام هذا الفناء وتشبثتم به ؟

— ذلك لأنى لم أطهر من شوائب آدميتى ، فإن لى كما لجميع الناس أطماعاً ...

— صدقت ، ولذلك قلت لك إنك تقول بلسانك ما ليس فى قلبك ، وإنك تسلم بما لا تؤمن ، وإنك تبيع للناس عظات لا تعتقد بصحتها ... لقد كان القديس بول مؤمناً حقاً ، ولذلك لم تفسد الدنيا بكل ما فيها من زخارف تعاليمه ؛ وكان مثله القس اللاهوتى المتزمت ، الذى قضى نصف عمره قائماً فوق عمود فى أرض الفراعنة ... أنا أجل هؤلاء وأضرابهم ، لأنهم يؤمنون بالشىء فيبدو إيمانهم فى كل ما يصدر عنهم ... فإذا دعا رجل الدين إلى فضيلة ولم يكن متحلياً بها ، فتعساً له ، وتعساً للفضيلة تخرج من فمه فتكون رغاء ...

وانعقد لسان الحبر الجليل فلم يحر جواباً ... وأنى له أن يستذكر تعاليم مولاه التى أعطى مركزه ليبشر بها بين الناس ما دام الشيطان يملك زمامه ، ويؤجج نيران الجحيم بين يديه .. ثم أنى له أن يجسر على هذه التعاليم فيذلها لشهواته ، وهو يعلم ويؤمن ، أن مولاه الإله محيط به ، ما تكاد تكون له نجوى إلا هو عالم بها ؟ ! وقد طربت السينورة لما بدا عليه من بداوات الحيرة

والقلق والارتباك ، فقالت له : « يبدو لى أن ذكاءك وتوقد ذهنك يسلمان بهذه القضايا ، بيد أننى ألحظ أن قلبك وعاطفتك عَمِيَّان عنها ، أليس كذلك ؟ »

— قلبى ! ! إنك أنت التى توجدين ثغرة هائلة بين ذهنك وبين قلبك ، بين ذكائك وبين عاطفتك ... إنى أتهمك بما تتهمينني به ... »

ثم حمل كرسياً ودنا من السينورة بحيث لم يعد يحجز بينهما إلا زاوية المكتب الفخم الذى كانت تكتب عليه ، وكانت يدها الجميلة الساحرة ممتدة عليه ، فبلع سيدنا الحبر الجليل ريقه ، ووضع يده الثقيلة الملتهبة عليها ... فقالت له :

— هـذا يعنى أنك ... تحب ! وأنك تجعل منى جَنَّةً مقمرة لأحلامك ؟ !

— ولم لا ! إن حبك يصلح لأن يكون جنة واسعة مقمرة لأحلام ملك !

— لأحلام ملك ؟ هه ! بل قل لأحلام رئيس أساقفة يا عزيزى المستر سلوب ! ! وله ؟ إنكم دائماً تعسلون لنا زخرف القول أيها الرجال ! وأنتم خاصة أيها الأحبار أمهر الناس فى توشية الكلام .. كن شجاعا يا عزيزى المستر سلوب وانظر إلى بمجامع عينيك

وكانت قد سحبت يدها الجميلة الساحرة بعيداً من يده فنظر إليها بعينيه الجائعتين المنهومتين نظرة الوامق الملتاع ، ومد يده ليقبض على يدها ، لكنها رمقته بعينيها الجميلتين الصارمتين وقالت له : « لقد رجوتك أن تحول حماسة يديك الجبارتين إلى عينيك الحالمتين يا مستر سلوب لكنك لم تفعل ... »

وكان قلب الحبر الجليل قد انماث من لوعة الحب ، وتعذيب الحبيبة ، فصرخ شاكياً :

— أوه مدلين ! !

فتبسمت عن ثنايا كاللؤلؤ وقالت له : « حسن ، إن اسمى مادلين ، هذا لا ريب فيه ، ولكن أحداً من العالمين لا يجرؤ أن يناديني به إلا أن يكون من أسرتى ، أفتريد أن أفهم من ذلك يا مستر سلوب أنك تحبنى وتتعشقنى ؟ ! »

وارتبك الحبر الجليل ، ولم يدر ما ذا يصنع ، لأنه إنما أتى إلى بيت السينور ليجلس جلسة غرامية من غير أن يصرح بلسانه أنه يحب ، فلما بدهته هى بهذا السؤال لم يستطع إلا أن يجثو على ركبتيه أمام الأريكة ، ويصرح أنه إنما يحب السينورة حقاً ، ولكن لا كما يحب الناس ! ! فلما قالها ... بدهته السينورة بسؤال آخر فقالت :

— « والآن ، أتستطيع أن تخبرنى متى تتزوج بالسيدة ألينور بولد ؟ ! »

ولم يستطع المسكين إلا أن يقول : « ولأمر ما ترمينى بتهمة النفاق والتغرير بك يا عزيزتى ؟

— نفاق ! أنا لم أقل شيئاً من هذا أيها الأب ! ولكنه يبدو لى أنك تحب أن تدافع عن نفسك فيما يتعلق بى ؟ فلم هذا ؟ لم لا تبق دفاعك لتقدمه بين يدى السيدة ألينور ؟ إنها هى التى ستتزوج منك ، أما أنا فامرأة ذات جمال راقتك ، وليس هذا شيئاً ، ألا ما أبرعكم فى التخريج يا رجال الدين ؟

— لقد بحت لك يا عزيزتى السينورة أننى أحبك .. أهواك . أعبدك ... فلم تعيّرينني ؟

— أعيرك ؟ يا لله ! هلم أيها الأب فخبرنى ! ألا تتزوج من السيدة ألينور بولد ؟

— لا ... لن يكون هذا !

— بل أؤكد لك أنك من عُبَّادها !

— وأنا أنفي ذلك من كل قلبي !

— ولم لا أيها المستر سلوب ؟ إنها أولى النساء بك ... بل تزوجها تكن لأطفالك أما ولبيتك ربة ... ثم لا تنس أنها أرمل جميلة ذات ثراء !

— ألا ما أقساك يا سينورة !

— أو تلك قسوة ؟

— أجل ... إذ كيف يصبو فؤادى الذى هو لك إلى امرأة سواك ! ؟

— إذا كانت هذه قسوة أيها الأب ، فماذا إذا صرحت لك أننى لا أملك أن أبادلك حباً بحب ولا عاطفة بعاطفة ؟ فاذا كنت لا أملك هذا ، فخبرنى كيف أجزيك على حبك ؟ أأجزيك عليه بأن تحضر كل يوم فتسبح بحبي وتذكر محاسنى ! أواه ! ما أقساك أيها القدر ! !

وكان الأب الجليل ما يزال راكعاً بين يدى مادلين ، فلما

أهوت على قلبه بهذا التصريح هب منتفضاً كالغراب (!) الذي بلله القطر ، وجلس على كرسي قريب

— وهل تسمحين أن أعطف عليك ... مجرد عطف ... على ما نابك ؟

— تعطف على ؟ بل تريد أن ترثى لى لأنى شبه مقعده ؟ إني إذن أحتقرك !

— أوه مادلين ! أردت أن أقول « أحبك ! »

ثم انقض على يدها الضعيفة الجميلة يمطرها آلاف القبل ... فقالت له بعد إذ لم تستطع أن تذوده :

— هذا جميل ! ولكن لنفرض أن السينور نيرونى فاجأك الآن ، فاذا عساك أن تفعل ؟ وأفاق من سكرة حبه على الاسم المخيف فقال : « سينور نيرونى ؟ ! »

— أجل ... سينور نيروني ؟ أترسله إلى الأسقف وزوجه السيدة برودى ؟ »

— ولم تسألين ؟

— لم أسأل ؟ إنى أحببت أن تعلم أن هناك رجلا لا تذكره يدعى السينور نيرونى ؟ !

— لا . . . بل أنت تنسين قلبك حين تذكرين السينور زوجك ! إنك لا تحتفظين له بأثارة من الحب لأنه غير خليق بك

— القلب مرة أخرى ؟! مالك كيف تتكلم أيها الأب ؟ تريد أن تقول إن المرأة التى لاتضمر حباً لزوجها لها الحق فى أن تخونه ؟ أو على الأقل لها ألا تخلص له ! والذى يقول هذا كبير أساقفة الكنيسة الانجليزية

واشتعلت الجحيم فى رأس كبير الأساقفة ، وعجب كيف تذله امرأة مقعدة كالسينورة نيرونى ، وتمنى لو استطاع فجعلها تسجد بين قدميه تطلب حبه كما فعل هو ، وتمنى كذلك لو انتزع حبها من قلبه فقذف به من حالق ... ولكن شتان بين أن يتمنى المرء وبين أن يقدر ، فلقد سحقته السينورة لأنها عرفت من مآسى الحياة مالم يعرف القس ، و بلت من تجاريبها مالم يَبْلُ ... وذلك أنه ما كاد يرفع عقيرته بالاحتجاج حتى غلبه هواه ، وسجد مرة أخرى تحت قدميها يستعطف كالتلميذ الذليل ... لكنها وصلت سخريتها به فقالت له :

— ولم لاتضحى حبك أيها الأب مادام زَيفاً وبهتاناً !

— زيف وبهتان ؟ أتريدين أن تقولى إن حبي لك زيف ؟

— زيف وأى زيف !! وإلا ، فافرض أنني حنثت فى سبيلك بيميني أن أكون إلى الأبد مخلصةً لزوجي وفيةً لاسمه الذى حملت ، وأننى زلت لأرضى حبك وأشفى لوعتك ، فهل ترضى إذا أُخرجت من هذا البيت أن تذهب معى فنقف أمام المذبح لتعلن للملأ أنك رضيتنى زوجة لك ... ؟ أنا ... ؟ هذه المقعدة التى لايسندها فى فؤادك إلا مسحة من الجمال تفتنك الآن ، ولا تدرى ماذا تكون فى غد ؟ — ولكن الحبر الجليل لم ينبس ببنت شفة ، فقالت مادلين : « ماذا ؟ تكلم ! ماذا تضحى من أجلى إذن إذا ضحيت لك بكل ماعرفت !؟ »

فقال الأب : « لو أنك حرة الآن لرضيتك زوجة لا أرضى بها ملء الأرض ذهباً ! »

فقالت مادلين : « لو أننى حرة ! أنا حرة ! ها أناذى حرة ! لننطلق إذن من هنا ... هلم فاحملنى إلى دارك ! لم تقف جامداً هكذا ؟ »

لكن الأب لم يبد مع ذاك حراكا ...

— آه ! لقد خشيت أن تضحى الدنيا الواسعة المترعة بالخيرات من أجل امرأة مقعدة مثلى ! إذن فهلم نكون صديقين ... صديقين فحسب ... لا تنس هذا ... »

وانحط على الكرسى القريب منها ، ثم تناول يدها الجميلة الساحرة وطفق يقبلها أكثر وأحر مما فعل قبل ... حتى لكأن الدرس القاسى الذى تلقاه لم يكن له أثر ... وزاد الطين بلة فقال وهو يبكى :

— « مادلين ... مادلين ... قولى إنى أحبك ... قولى يا مادلين ! »

* * *

وهنا سمع وقع أقدام فى الخارج فنهرته السينورة وهى تقول : « صه أيها الأب ! إن أمى قادمة وأخشى أن تشهد دموعك ... هلم فأصلح من شأنك ... »

ووثب الأب الجليل مروعاً ... ولم يعن باصلاح شأنه ... بل انطلق على وجهه من الباب الخلفى ، ولم يعد أحد يسمع به ... لأنه لم يذهب إلى الكنيسة منذ ذلك اليوم ...

(ملخصة) دريني خشبة



الى صحف القطر الشقيق

نشرت فى عدد « الرسالة » الماضى على أثر ماعلمته من أن جريدة المكشوف البيروتيـة نشرت خطاباً ومقالاً زعمت أنى أرسلتهما إليها — كلمة موجزة كذبت فيها هذه الواقعة بطريق حاسم وقلت إن ما فعلته المجلة المذكورة إنما هو تزوير شائن

والآن بعدأن اطلعت على بعض الصحف البيروتية التى نقلت المقال المزعوم أو علقت عليه (وذلك لأنى لم أستطع الحصول على عدد المكشوف الذى حدث فيه النشر المزور) عرفت أن الصحيفة المذكورة قد عمدت إلى مقال قديم كنت نشرته فى « السياسة الأسبوعية » سنة ١٩٣١ واقتضبت منه عبارات مسختها وزعمت أنها مقال أرسلته إليها ، ونشرت إلى جانبه الخطاب الذي زعمت أنها تلقته منى

وقد أرادت الجريدة المذكورة أن تلقى بذلك فى روع قرائها أننى أؤيد الحملة الدنيئة المستمرة التى تشهرها على التفكير المصرى والكتاب المصريين ، والتى لاتلقى هنا وهنا لك سوى ماتستحق من الإعراض والزراية ، وأرادت أن تدلل على ذلك ببعض فقرات اختلستها من مقالى المذكور

فأقرر هنا أنى كتبت هذا المقال منـذ سبعة أعوام لمناسبة حالة أدبية معينة لاحظت أعراضها يومئذ ، ورأيت فى تلك الأعراض بعض وجوه ضعف يجب اصلاحها وتداركها . والحركة الأدبية المصرية ليست معصومة ، ولم يقل أحد إنها بلغت ذروة الكمال ، بل هي كـكل حركة فكرية واجتماعيـة قابلة للنقد والاصلاح ؛ ولـكن لما كانت الحركة الأدبية المصرية تثب بخطى الجبابرة فان هذه الآراء لا يمكن أن تعبر إلا عن الوقت والظروف التى قيلت فيها

أما أن تعمد جريدة المكشوف إلى اقتضاب بعض ما ورد فى هذا المقال ثم تزعم أني أرسلته إليها ، بل وتذهب فى الافتراء إلى أبعد من ذلك فتقرن المقال المزعوم بخطاب تدعى أنى أرسلته إليها فأقل ما يقال فى ذلك إنه عمل إجرامى دنىء

ما كان لمثلى أن ينزل إلى مثل ذلك فيمالىء وريقة عرفت بحقدها المضطرم على الثقافة المصرية ، وعلى النيل من ثقافة بلاده التى يعتز بها ، والتى يتشرف هو بأن يشترك فى حمل لوائها الخفاق

ولقد رأيت فى بعض صحف القطر الشقيق بعض مقالات وتعليقات على هذه الدسيسة الأدبية المثيرة ، نشرت بلا ريب بحسن نية ، ولما كان من المتعذر على أن أكتب إليها جميعاً فإنى أكتفى بأن أوجه إليها هذه الكلمة على صفحات الرسالة لتقف منها على الحقيقة ولتذيعها نصرة للحق والانصاف

أما الصحيفة القاذفة المزورة فأمرها إلى القانون يحاسبها ، وإلى الرأى العام يصدر حكمه عليها

محمد عبد الله عنان

ذكرى وفاة أبى الفرج الأصبهانى

فى انتهاء عامنا الهجرى هذا يكون قد مضى ألف سنة على وفاة المؤلف العظيم أبى الفرج الأصبهاني على بن الحسين الأموى المروانى الذى يعد من أعاظم المؤرخين والبحاثين ، فقد بلغ عدد ما عرف من مؤلفاته خمسة وثمانين مؤلفاً من أثمن المؤلفات العربية فى التاريخ والاجتماع والأدب ، وأشهرها « الأغانى » ؛ وقد أجمع المؤرخون على أنه لم يصنف مثله فى هذا الباب ، ولولاه لضاع شعر الجاهلية والاسلام ؛ وقد ألفه فى مدة خمسين سنة ولم يزل هذا الكتاب المطبوع فى ٢١ مجلداً منذ ألف سنة حتى اليوم ينبوعاً صافى المورد ، ومنهلا عذب الارتشاف ، يرده الأدباء والمتأدبون وهم ظماء ، ويصدرون عنه وهم رواء . فكم من أديب نابغ قد تخرج عليه ، وعلم من أعلام البيان العربى كان يرجع بيانه إليه ، وشاعر

فحل زكت شاعريته ونمت موهبته بالرواية عنه والأخذ منه ...

وقد عن لى بهذه المناسبة – مناسبة مرور ألف عام على وفاته – أن أقترح على علماء العراق وأدبائه وأهل الفن فيه إقامة مهرجان ألفى فى بغداد موطن المؤلف التى كتب فيها جميع مؤلفاته وتوفى فيها بعد أن خلد اسمها إلى أبد الدهر. ولا أظن أن من الأقطار العربية من يتأخر عن الاشتراك فى هذا الاحتفال وتمديد مناقب رجل جمع بين علوم الدين والدنيا فى الاسلام

(كربلا) عباس علوان الصالح

وفاة علامة هندى عظيم

نعت الينا أنباء الهند الأخيرة العلامة الهندى الكبير السير جاجاديس شندرا بوز، أعظم علماء النبات المعاصرين، توفى فى نحو الثمانين من عمره؛ وكان مولده بالهند فى سنة ١٨٥٨، ودرس فى كلكوتا وكامبردج؛ وبدأ حياته أستاذا فى جامعة كلكوتا، وتخصص فى علم النبات وأبدى فيه براعة خاصة. ثم انقطع بعد ذلك لدراسة حياة النبات، ووفق أثناء تجاربه إلى عدة اكتشافات باهرة لفتت إليه أنظار العالم، وكان أهمها ما أثبته بالتجارب العملية وهو أن النبات كأى إنسان يشعر ويحيا، وله كالانسان نبض يمكن جسه وإحصاؤه؛ ولإثبات نظريته الجديدة اخترع السير بوز آلة سماها «كرسكوجراف» تسجل حياة النبات ونبضه، وتكبرها بنسبة مائة الف مرة؛ وبهذا الآلة يمكن مشاهدة نمو النبات وتأثره بالعوامل الجوية، وبالعناصر الغريبة التى يلقح بها كالأسمدة أو السموم أو غيرها. وقد عرض السير بوز تجاربه فى أنحاء العالم فحازت إعجاب العلماء وتقديرهم جميعاً. ومما يذكر أنه قدم إلى القاهرة فى شتاء سنة ١٩٢٧، وعرض تجاربه أمام جمهور من العلماء والمشاهدين فأدهشهم جميعاً بما عرضه من حركات النبات ودلائل حسه ونبضه. وللسير بوز عدة آلات دقيقة أخرى اخترعها لتسجيل الحياة النباتية، وله عدة كتب تعتبر فى هذا الباب مرجعاً وحجة، منها:

Plant Response (جواب النبات), Erritability of Plants (تهيج النبات), Life Movements in Plants (حركات الحياة في النبات), The Nervous Mechanism of Plants (الجهاز العصبي للنبات) وغيرها؛ وهو يعتبر عميد العلوم النباتية فى العصر الحديث

مذكراتى فى نصف قرن

منذ أيام قلائل صدر القسم الثالث والأخير من كتاب «مذكراتى فى نصف قرن» بقلم الأستاذ الجليل أحمد شفيق باشا وقد استطاع قراء القسمين الأولين من هذه المذكرات النفيسة أن يقدروا اليد الجليلة التى أسداها الأستاذ شفيق باشا لتاريخ مصر الحديث بتدوين هذه المذكرات ثم باخراجها؛ وكان تدوينها فى الواقع عملاً دقيقاً شاقاً شغل حياة مدونها، بيد أنها كانت سلوى حياته لا يغفل عنها، ولا ينسى متابعتها قط مهما ادلهمت من حوله الخطوب والحوادث؛ وكان فوق ذلك أجدر الناس بتدوينها، وأقدرهم على الاستفادة من عبر الحوادث وفهم أسرارها وتطوراتها؛ ذلك أنه كان مدى ثلث قرن شخصية بارزة فى القصر الخديوى، بل كان مدى أعوام طويلة أعظم رجال البطانة الخديوية نفوذاً وأشدهم تأثيراً فى توجيه الخديو؛ وكان بحكم منصبه ومراقبته لسير الأمور من أكثر الناس اطلاعاً على سير الحوادث، وعلى أسرار الوثائق، وأكثرهم فهما للرجال العموميين. فما يقدمه إلينا فى مذكراته هو أصح وأدق ما يستطيع مؤرخ معاصر أن يقدمه عن حوادث عصره

ويشمل القسم الثالث من هذه المذكرات النفيسة مرحلة الحرب الكبرى وما بعدها، من سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩٢٣؛ ونحن نعرف أن الخديو عباس حلمى كان منذ صيف ١٩١٤ متغيباً فى استانبول، وأن الخلاف وقع بينه وبين الانكليز منذ نشوب الحرب الكبرى، فلم يعد بعد ذلك إلى مصر، وأنه لعب أثناء الحرب أدواراً خطيرة، واشترك فى كثير من مشاريع السياسة الألمانية التركية نحو مصر. وقد كان المؤلف خلال هذه الأعوام الدلهمة إلى جانب مولاه فى المنفى مع نفر من كرام المصريين، يتتبع عن كثب تطورات الحوادث ويقيدها. وهو يقص علينا فى مذكراته ناحية من المأساة لم تكن مصر خلال الحرب تدرى شيئاً عنها؛ ومن الصعب أن نتتبع محتويات الكتاب فى هذا المقام الضيق، ولكنا نستطيع أن نقول باختصار إنها كل حياة الخديو السابق وكل حركاته وأعماله منذ سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩٢٠ وهى صفحة غريبة مشجية من تاريخ مصر السرى لا نعرف عنها سوى القليل؛ ومن حولها معلومات وتفاصيل كثيرة عن المصريين

الذين اشتركوا فيها أو اتصلوا بها ، ومنهم كثير من الزعماء اللاحقين ؛ ويقرن المؤلف ذلك بتفصيل أعماله وحياته وصلاته مع الخديو وغيره حتى عوده إلى الوطن من النفى فى سنة ١٩٢٣

ونحن نهنئ الشيخ الوقور أحمد شفيق باشا بتوفيقه فى إتمام ذلك العمل الجليل الذى استغرق أعواماً كثيرة من حياته واقتضى منه جهوداً عظيمة تستحق تقدير مواطنيه وتقدير التاريخ ؛ أمد الله فى حياته الحافلة النافعة

الآداب الفرنسية وجائزة نوبل

تحدثت الصحف الفرنسية لمناسبة فوز الكاتب الفرنسى روجيه مارتان دوجار بجائزة نوبل للآداب عن الكتاب الفرنسيين الذين ظفروا قبله بهذا الشرف ، فذكرت أنهم قلائل جداً بالنسبة إلى من ظفروا بجوائز نوبل من الأمم الأخرى ، وهم لا يتجاوزون خمسة : أولهم سولى برودوم ، وقد حصل عليها فى سنة ١٩٠١ ؛ والثانى الشاعر البروفنسى مسترال ، وقد حصل عليها فى سنة ١٩٠٤ والثالث رومان رولان ، وقد حصل عليها سنة ١٩١٦ ؛ والرابع أناتول فرانس ، وقد حصل عليها سنة ١٩٢١ ، والخامس الفيلسوف هنرى برجسون ، وقد حصل عليها سنة ١٩٢٨ ؛ ومنذ عشرة أعوام لم يظفر كاتب فرنسى بجائزة نوبل ، فى حين أن الآداب الانكليزية أو الألمانية أو الإيطالية لا يكاد يمضى عام أو اثنان حتى تظفر إحداها بهذا الشرف

ولكن الصحف الفرنسية ترى من جهة أخرى أن الآداب الفرنسية كانت موفقة من الناحية المعنوية أعظم توفيق ، لأن أولئك الذين حصلوا على جوائز نوبل منذ قيامها إلى الآن هم خيرة ممثليها فى مراحلها المختلفة ؛ وقد كان مارتان دروجار حقاً ممثلها من نوع يستحق التقدير العالمى

والمعروف أن لجنة استوكهلم قد منحته جائزة نوبل من أجل قصته الشهيرة « تيبول » Thibault التى تقف حوادثها عند صيف سنة ١٩١٤ ، والتى استؤنفت بعد ذلك خلال الحرب الكبرى ؛ وهى القصة التى ظفر من أجلها أيضاً بجائزة مدينة باريس الكبرى التى ترتبها بلدية باريس لأحسن مؤلف قصصى أو تاريخى ، ثم توجتها عقب ذلك جائزة نوبل . وقد أحدث حصوله على جائزة استوكهلم دهشة فى بعض دوائر الأدب الفرنسى إذ كانت تتوقع أن يكون الفائز بها هو الشاعر الكبير بول فاليرى ، ولكنها اغتبطت على أية حال لأن الفائز بها فرنسى

جائزة نوبل للسلام

وعلى ذكر جوائز نوبل أيضاً نقول إن الذى فاز بجائزة نوبل للسلام هو السياسى الانكليزى الكبير اللورد روبرت سسل ، وذلك من أجل جهوده فى سبيل قضية السلم العالمى . وقد درس اللورد سسل فى جامعتى إيتون واكسفورد ، وخاض حياة سياسية باهرة ، وانتخب عضواً فى مجلس العموم منذ سنة ١٩٠٤ وتقلب فى المناصب الكبيرة حتى غدا فى سنة ١٩١٨ وزيراً للخارجية . وقد لعب دوراً كبيراً فى مؤتمر الصلح وإعداد دستور عصبة الأمم ؛ ومثل انكلترا فى جلساتها مراراً ثم ناب عن انكلترا فى لجنة السلاح ، وكان له فى أعمالها مواقف نبيلة دلت على تحمسه فى مناصرة قضية السلم . واللورد سسل من أعظم أنصار عصبة الأمم ومبدأ السلامة الاجماعية . وقد استقال من جميع المناصب الحكومية ليتفرغ لخدمة قضية السلم ، وله فى ذلك مواقف وخطب رنانة ؛ وله كتاب قيم عنوانه « سبيل السلام » The Way of Peace ضمنه خطبه وأحاديثه السلمية ، وكلها تدل على تمكنه من موضوعه . وهو فى الوقت نفسه من أشد خصوم النظم الفاشستية ، وله فى شأنها حملات خطابية وكتابية شديدة ، وهو اليوم فى الثالثة والسبعين من عمره ، ولكنه لا يزال يعمل لخدمة السلام بهمة الشباب

مواطن الجواد قبل التاريخ

عثر المنقبون فى سفالوف فى جنوب السويد على عظام قديمة ظهر من فحصها أنها عظام الجواد الوحشى ، وأنها ترجع إلى نحو عشرين ألف سنة . ويرى العلماء الرسميون الذين فحصوها أنها بلا ريب من بقايا الجواد القديم المنقرض ، وقد كانت هذه المسألة مثار خلاف بين العلماء ، فجاء هذا الاكتشاف مؤيداً لأقوال القائلين بأن الجواد كان ضمن الحيوانات التى تعيش فى هذه المناطق منذ عصر ما قبل التاريخ

بريطانيا العظمى وفلسطين

صدر فى انجلترا منذ أسابيع هذا الكتاب عن فلسطين الشقيقة للكاتب الانجليزى هربرت سيد بوتهام . وقد تصفحناه فوجدناه كتاباً مُغرضاً أغلب الظن أنه طبع بأموال يهودية ليبشر بالدعاوة لليهود فى سائر أنحاء العالم على العموم وفى انجلترا وبين أنصار حزب المحافظين على الخصوص ... فلقد سرد تاريخاً مملا مشوهاً لفلسطين منذ أن فتحها محمد على الكبير إلى اليوم واعتبر هذا الفتح مبدأ لحركة الدعاوة لانشاء الوطن القومى لليهود الذى لم يتحقق إلا فى السنوات الأخيرة ، وقد اعتبر اليهود سفراء المدنية الغربية إلى الشرق ، وتبجح فنعى على العرب قلة عرفانهم بهذا الجميل الذى أسدته إليهم بريطانيا إذ سخرت لهم الذهب اليهودى والذكاء اليهودى لينهضا بهم ، كأن العرب كانوا قد نسوا مدنيتهم ومجدهم وافتقروا إلى السحت لاحياء ماضيهم الغابر . ومما يثير عجب القارىء ويبعث ضحكه أن ينعى المؤلف على بريطانيا استخذاءها تلقاء العرب « الذين يعتبرون التأدب البريطانى جبناً والرحمة الانجليزية ضعفاً فَتَرِد وفودهم إلى لندن ليملوا شروطهم كأنهم انتصروا على بريطانيا فى معارك حربية ... » ولسنا نعرف أن بريطانيا قد استخذت يوماً فى فلسطين فيما يتعلق بالجانب العربى ، اللهم إلا أن يعتبر المؤلف ضرب السكان بالنار ونسف المدن بالديناميت استخذاء . ولسنا نعرف أيضاً ماذا كان من نكران العرب لجميل بريطانيا ؟ أفمن هذا النكران وقوف العرب صفاً بجانب الانجليز فى الحرب الكبرى ضد إخوانهم المسلمين ؟ أم من هذا النكران تمسكهم ببلادهم وافتداؤهم لها بدمائهم ؟ ما كان أجمل أن يذكر المؤلف كيف سند العرب بريطانيا فى الشرق ، ولو لم يفعلوا لتغير مجرى التاريخ ، وتغير تبعاً لذلك وجه الأرض ...

وبعد ، فليقرأ الفلسطينيون هذا الكتاب ولينظروا فى وقاحاته ، فقد عرض بالسوء لرجالاتهم ، وجرح بالباطل زعماءهم وهم برد مزاعمه أولى

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾

5 me Année, No. 232

Lundi - 13 - 12 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العــــدد ٢٣٢ « القاهرة في يوم الاثنين ١٠ شوال سنة ١٣٥٦ — ١٣ ديسمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الفهـــرس

ثورة على الأخلاق

معدة قرقرت ثم استقرت

للدكتور عبد الوهاب عزام

فأما صاحبك فقد ساءتني حربه وسلمه . وهو في سلمه أشد إساءة وأعظم جناية ؛ صوّرته لي غاضباً للأخلاق، رائياً للفضيلة، ثائراً على الناس، يقذفهم بالتهم، ويرميهم بالحُمَم ؛ يشتطّ في غضبته، ويغلو في ثورته، فقلتُ: حرّ غضب فأخطأ، وكريم ثار فجار، وأبيّ برٌّ أسخطته المذلة، وهاجه الفجور، فانطلق لا يقف عند حد . ثم صورته قنوعاً مستسلماً فقلتُ: واسوأتا! أهذا البطلَ جادلتُ، وهذا الجبانَ نازلتُ ؟ لقد كان جهاداً في غير عدوّ . لم تكن شقشقة هدرت ثم قرت، بل معدة قرقرت ثم استقرت . وما الشقاشق إلا لفحول الجمال، وأشباههم من فحول الرجال

وأما أنت يا أخي الزيات فما أحسبك إلا شريك محمود في رأيه، أو صاحب وحيه ؛ قدمته للكلام ونطقت على لسانه، وعرّضته للنضال ونزعت في قوسه، ولا أقول أقمته مقام الوثن من سادنه، والصنم من كاهنه . فلما تبين أنه في الخصام غير مبين، وفي المآزق غير دفّاع، وفي المعارك لا يثبت للمصاع ؛ وأنه لجوع يُثيره ،

وشبع يُرضيه ، أبدلت به جماعة حسبتهم أقوَم بحجتك ، وأشدّ هيبة فى صدور خصومك فقلت : «على أن مجلسنا كان حافلاً بغير محمود من رجال العلم والدين والأدب ، وكلهم كانوا له وعليك » وأكبر ظنى أن هؤلاء (رجال العلم والدين والأدب) شركوا محموداً فى المائدة . وإلا فكيف جمعهم بمحمود المجلس وقد (قام منذ هنيهة عن مائدة الإفطار الغنية الشهية) ؟ والعجيب أن تذهب المائدة بثورة محمود وتثير سخط هؤلاء . ولعله كان أثبتهم على المائدة حملة ، وأطيشهم فى الصحاف يداً . ولعلهم آثروا القناعة ، واصطنعوا الحياء ، وتمسكوا بالأخلاق حُرموا ، فكانت ثورتهم على الأخلاق

وبعد فموضع الخلاف بيننا هذه القضية : هل الخلق الفاضل سبيل النجاح ؟ قال محمود إبّان ثورته : لا ، وقلتُ : نعم نعم . وضربت مثلاً الصانع المُجيد ، الحسن المعاملة ، الصادق الوعد ، والتاجر الأمين المخلص ، والمزارع الأمين . ثم قلتُ : « ولا يزال الرجل الصادق الأمين فى كل جماعة وفى كل طائفة موضع المودة والثقة ؛ ينال بسيرته ما تقصرُ عنه ثروته ، إن استقرض أقرض ، وإن استعار أعير ، الخ » فبأىّ هذا يرتاب أصحابك ؟ يقولون : ما أهون الأخلاق إن كان قصاراها هذا النجاح الحقير . ويقولون إن الذين ضربتهم مثلاً من الأخيار لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً من رجال المال والأعمال كفلان وفلان — وأنا ياصديقى ماخصصت بقولى ضرباً من النجاح دون ضرب . ولم يكن ذكرى التاجر والصانع والمزارع إلا مثلاً و « إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً مّا ، بعوضة فما فوقها » ولا أتمّ الآية إشفاقاً على أصحابك . إني أقولها كلمة عامة شاملة : الخلق الفاضل ، فى أغلب الأحوال ، سبيل إلى النجاح فى كل طرائق الحياة ؛ إن أخفق حيناً نجح أحياناً ، وإن أكدى مرة أورى مرارا . فالحاكم الخيّر ، والرئيس البرّ ، والقائد الصالح ، والمؤلف الصادق ، والأديب النزيه ، والصانع والتاجر والزارع ، بل الموظف ، كل أولئك أقرب إلى النجح وأظفر بالطلبة فى أكثر الأحوال من أمثالهم من الأشرار ، بعد أن يتخذوا للمقاصد سُبُلها ، ويُعدّوا لكل أمر عُدّته . فإن قصّروا فى الأهبة ، وتوانوا فى اتخاذ العدة ، فماذا يجديهم الخلق وحده ؟ إن بعض الأخيار تجنبوا المعارك ، وأشفقوا من المهالك ، وضيعوا الحزم ، فلما أوفت بهم الأعمال على نتائجها التبس الأمر على كثير من الناس فحسبوا إخفاقهم بما استمسكوا بالحق والخلق الطيب ، وخالوا نجاح أضدادهم بما ركبوا إلى غاياتهم مراكب الباطل والرذيلة . فقل لهؤلاء : أعيدوا النظر ، وأحسنوا التفكير ، ولا تقصروا النجاح على المال فيجور بكم المنطق ؛ فهناك الكرامة والجاه والرياسة والزعامة ، وهناك الطاعة والمودة . وانظروا إلى الزعماء الذين يسوسون الأمم أهم من أصحاب المال ؟

وقلت فى مقالى السابق : إن للأخيار إلى مقاصدهم سبيلاً واحدة ، وللأشرار سُبلاً شتى ، ولكن هذه السبيل الواحدة أحرى بأن تؤدى إلى الغاية ، وتوفى على المطلوب . فقلت إن أصحابك يرون في قالتى هذه نزوعاً إلى رأى محمود . ثم قلت : « ومادام جوهر الرأى واحداً فالسبيل القاصدة أن نطب لهذه الحال بما يوائم بين طموح الناس وكرامة الأخلاق وسلامة المجتمع » ثم قلت إنه لا معدى عن إحدى وسيلتين : أن نحمل الناس بالدين والسلطان على سبيل الحق الواحدة وذلك « خيال نبيل لا يقع فى الامكان » ، وإما أن نعيد النظر فى قانون الأخلاق ، وهذا « على مايرون مظنة التوفيق فى الاصلاح الجديد »

وجوابى أنه ليس فى كلامى نزوع إلى رأى محمود إلا أن تقطع المقدمات بعضها عن بعض ، ويفصل بين أول الحجة وآخرها . وأما الدعوة إلى إعادة النظر فى الأخلاق فأنا لم أعدُ فى مقالى جملة الأمر إلى تفصيله . لم أجادل عن خلق بعينه ، ولم أقل إن خلقا ما صالح لهذا الزمن أو غير صالح ، ولكنى قلت إن الأخلاق الفاضلة التى تتفق عليها أمة أو أمم لا تكون سبلا إلى الخيبة والحرمان . وإن أردت أن نعيد النظر في الأخلاق فما أنا بمنكر أن الأخلاق تقبل بعض التغيير ، ولكنى لا إخال اعادة النظر ستغير تغييراً ذا بال فيما سارت عليه الأمم منذ هداها الوجدان والعقل إلى سبل الخير ؛ ولن تحلل هذه الإعادة رذائل كالكذب والسرقة والتزوير والظلم ، أو تحرم فضائل كالصدق والأمانة والعدل . ومهما تكن النتيجة فالأخلاق القديمة أو الجديدة لا تكون قرينة الخيبة والشقاء

وقد ذكرت أيها الأخ الكريم أخلاقاً تجعلها مثلاً لما تريد تغييره . ذكرت التواضع والقناعة والزهد والمداراة والتوكل .

(البقية على صفحة ٢٠٣٩)

هل الحرب ضرورة ؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

جرى من يقول إن الحرب ليست من ضرورات الطبيعة الإنسانية فى هـذا الزمن الذى قلما نسمع فيه إلا حديث حرب وخوفاً من حرب واستعداداً لحرب وبحثاً فى محالفات ومؤتمرات ليس الغرض منها إلا اتقاء العداوات والحروب

والواقع أن محاربة الحرب فى العصر الحاضر تحتاج إلى كل مافى الإنسان من شجاعة ، وكل ماعنده من رأى ، وكل ماينطوى عليه من سجية ، لأنه يحارب أقوى القوى متضافرات متشابكات : يحارب قوة المال وقوة السلاح وقوة الجهل وهى أقوى عناصر هذا الثالوث

وربما كان خير الميادين للغلبة على الحرب ميدان الثقافة وما يلحق به من ميدان التربية والتعليم . فإن التربية تصلح ما أفسدته التربية ، ثم تزيد فتصلح مالم تفسده قبل ذلك ، وهى على كل حال سلاح لا غنى عنه فى هـذا الميدان ، لأن وسائل السلم كلها لن تفيد فى تعويد الناس غير ما تعودوه ما بقيت تربيتهم وتثقيف عقولهم على الحال التى هي عليه

فى طليعة الكتاب المعنيين بفلسفة الحرب « الدوس هكسلى » حفيد العالم الانجليزى هكسلى الكبير

وهو وأقرانه فى هـذا الجهاد الإنسانى الشريف لا يبحثون عن الحرب بحث الصحف والأخبار والمؤتمرات والوزارات ، فإنهم يعتقدون وهم على حق فيما يعتقدون أن سياسة الأمم أعمق وأخفى وأعرق من هـذه الجوانب التى يتناولها الساسة وتلغط بها صحف الأخبار ، ولكنهم يبحثون الطبيعة الإنسانية وينقبون فى تواريخ الأمم ليعرفوا منها ماهو طبيعى أصيل ، وما هو عرضى قابل للتهذيب والتبديل . ومعظم النابهين بين كتاب هذه الطائفة ينتهون إلى أن الحرب بدعة طارئة وليست ضرورة من ضرورات الطبيعة الإنسانية ولا قانوناً من قوانين الاجتماع ، وهذا هو الرأي الذى يلوح غريباً ممعناً فى الغرابة للذين سمعوا وطال سماعهم لقوانين تنازع البقاء وإرادة القوة وإرادة الحياة ، وحسبوا أن هذه القوانين ودوام الحرب معنيان مترادفان

كتاب « الغايات والوسائل » هو آخر كتب هكسلى فى هـذا العام ، وإن كان قد ردد فيه بعض الآراء التى شرحها فى كتبه السابقة منذ سنوات

وفصل الحرب فى هذا الكتاب من أبرع الفصول التى كتبها هذا الأديب اللوذعى المطلع القدير ، وهو الفصل الذى نلخصه فى هذا المقال ، ونعتقد أننا — نحن المصريين والشرقيين — خلقاء أن نبحث الحرب من هذه الناحية بعد أن طال حديثنا عنها من نواحيها العرضية التي تجئ وتذهب مع الأخبار ، بل لعلنا أحوج ما نكون إلى تدعيم بحوثنا كلها على هـذه الأسس وعلى هذه الأصول

يقول هكسلى ما خلاصته أن الحرب ظاهرة إنسانية لا وجود لها فى عالم الحيوان ، لأن الحيوان يتقاتل فى إبان الثورة الجنسية أو طلباً للطعام أو لهواً ولعباً فى قليل جداً من الأحايين ؛ وليس من الحرب بالبداهة أن يقتل الذئب الشاة أو تلعب الهرة بالفأر ، فإنما هذا شبيه بعمل الجزار حين يقتل ما يطعمه الناس ، أو شبيه بعمل الصياد حين يتعقب الثعلب والأرنب

نعلم أن بعض علماء الحيـاة وعلى رأسهم السير أرثركيت يزعمون أن الحرب كالمنجل فى يد الطبيعة تقطع الفاسد وتبقى من أفراد الحضارة وشعوبها كل صالح للبقاء

ولكن هذا كما هو ظاهر لغو فارغ ، لأن الحرب تقضى على الشبان والرجال الأشداء وتترك الضعفاء والشيوخ الذين لا يذهبون إلى الميدان . وقد دلت التجربة على أن أعنف الشعوب وأصلحهم للحرب لم يكونوا قط أفضل الشعوب وأرفعها فى مراتب الأخلاق والثقافة ، إذ ليس أنفس بنى الانسان وأغلاهم قيمة فى معيار الحضارة أوفاهم « نزعة حربية » وضراوة فى حومة القتال

وأوجز ما يقال فى هذا الصدد أن الحرب تختار الأفراد على طريقة عكسية فتفنى الأقوياء وتترك الضعفاء ، وأنها تختار الشعوب على سنة المصادفة والمناسبات الموقوتة ، فكثيراً ما تفنى الشعوب المقاتلة وتترك الشعوب الموادعة ، وكثيراً ما كان انطباع الأمة على الحرب طريقاً لها إلى الوبال والاستئصال

والذى يدل أكبر دلالة على أن الحرب ليست طبيعة فى الانسان ولا فى الاجتماع أنها لم تظهر فى التاريخ إلا بعد ظهور درجة من الحضارة ونوع من الحكومة ، فهى مجهولة بين قبائل « الأسكيمو » التى تسكن الأصقاع الشمالية حتى اليوم . وقد كانت مجهولة فى أطوار الانسانية الأولى فلم يعرف عن الانسان في تلك الأطوار أنه اتخذ السلاح للقتال وحب الغلب والسيادة ، وإنما كان يتخذ السلاح لدفع الضوارى أو لصيد بعض الحيوان

وصحيح أن « تنازع البقاء » قانون قائم فى عالم الانسان كما هو قائم فى عالم الحيوان ، ولكن من أين لنا أن تنازع البقاء مستلزم دوام الحرب كما ألفناها ونألفهـا فى الحضارات الغابرة والحاضرة ؟ ومتى شوهد الحيوان وهو يتجمع مئات وألوفاً ليقاتل بعضه بعضاً من فصيلة واحدة ؟ فليس في عالم الطبيعة كلها ظاهرة تشبه اجتماع جيش لمحاربة جيش آخر ، ولم يعلم قط أن قطيعاً من الذئاب احتشد للهجوم على قطيع مثله ، أو أن سرباً من الطير فعل مثل ذلك على سنة الآدميين فى الحروب

فالقول بأن الحرب قانون طبيعى قول لا يستند إلى أصل من الطبيعة الحيوانية فى حالى التفرد والاجتماع ، وإنما هو تفسير خاطئ لقانون صحيح

إن الآداب الأوربية قد شوهت الأخلاق حتى وهم الناس أن التضحية بالحياة أنبل ما يستطيعه الانسان ، وأن الشهيد أى الميت الحسن على زعمهم أفضل من الرجل العامل أى الحى الحسن . وعلى خلاف ذلك كانت آداب الشرقيين فى الهند والصين ، فعند اتباع كنفشيوس أن المغامرة بالحياة لا تليق ، وأن الحكمة أفضل من الشجاعة البدنية ، وأن العاملين فى السلم أفضل من العاملين فى القتال ، وأن الفضيلة العليا أن يحجم المرء عن الكبرياء والعدوان وروض نفسه على الوداعة ومجازاة الاساءة بالاحسان

ولما جاء المسيح بدين الوداعة والمسالمة دخلت المسيحية بين شعوب أوربا المقاتلة فجعلوا « الاستشهاد » غاية الغايات فى النبل والفضيلة ، لأنهم هكذا ينظرون إليه فى الآداب العسكرية ، حتى التبست دعوة السلام بدعوة القتال

أما فى الهند فالحضارة البوذية تأبى العدوان على أحد من الأحياء وتوصى بمجاربة الشر بالكف عن مقابلته بمثله ، وهو ما يسمونه عندهم « أهمسا » أى اجتناب الأذى مع الأحياء كافة حتى ما يؤذيه الآخرون طلباً للطعام

وفى شرع البوذيين أن « الغضب » رذيلة دائماً وأن الإكراه محظور فى جميع الأحوال ، فشاعت البوذية وعمت بين مخالفيها دون أن تلجأ إلى اضطهاد أو جاسوسية أو محكمة تفتيش

وعلى هذا ، وعلى ماتقدم من نفى ضرورة الحرب ، يسوغ لنا أن نعتقد أن الدعوة إلى إلغاء الحروب ليست بالدعوة التى تقاوم مجرى الطبيعة أو تعارض تيار السفن التاريخية ، وانه من الجائز أن يشيع السلام فى وقت من الأوقات ، وبخاصة فى العصور المقبلة القريبة بعد ما استفحل خطر الحرب وتعذرت النجاة منه على المسالمين فى البيوت والمقاتلين فى خطوط النار

***

واستطرد الكاتب إلى إجمال أسباب الحرب فقال ماخلاصته أنها أسباب نفسية قبل أن تكون اقتصادية أو سياسية كما يزعم الاشتراكيون ورجال السياسة ، وإن كان هذا لايمنع أن لهـا أسباباً اقتصادية تعالج بترياق غير ترياق الدماء

فمن أسباب الحرب الخوف ، فهو يدفع إلى الاستعداد ، والاستعداد يضطر الأمم إلى الحرب ، لأنه يهيء الأذهان لهـا بكثرة التوقع والشك فى إمكان اجتنابها ، وأحرى أن يكون ذلك فى العصور الحديثة والبلاد المتحضرة ، حيث أصبح السلاح عرضة للتغيير والبلى بعد قليل من السنوات ، فمن العسير أن تنفق الدول الملايين ثم تلقى بها فى التراب

ومن أسبابها شيوع الملل فى الحضارة إذ يشيع الكفر بالأمثلة العليا فتعود الحياة عبثاً ثقيلاً لاغرض له ولا وجهة ولا متعة فيها أمتع من الإهاجة واستفزاز الشعور ، والحرب تهيج النفوس فتدفع الملل والسآمة وتقل حوادث الانتحار كما ثبت من إحصاءات علماء النفس وفى طليعتهم دركيم وهلباش

ومن أسباب الحرب الحرب نفسها حين تهجم أمة على أمة أخرى لانتزاع موقع لازم للتحصين ودرء المخاوف واتقاء الهجوم

ومن أسبابها المجد الكاذب وطغيان الأقوياء وتحويل أنظار الشعوب فى الأزمات إلى ما يشغلها عن الثورة والانتقاض

ومن أسبابها التربية القائمة على الإفراط فى اتباع النظام

فإن الإفراط فى النظام ينشئ « العقلية العسكرية » ويجنى على استقلال الأفراد ، فتسهل قيادتهم إلى ما يريده القابضون على أعنة الأمور . ولو تربى الأطفال مستقلين لما استطاع القادة سوقهم إلى المجازر كما تساق الأنعام

أما الأسباب الاقتصادية والسياسية فهى دون ما تقدم فى القوة وصعوبة العلاج ، وسنعود إليها وإلى مناقشة آراء الكاتب فى غير هذا المقال

على أن الرأى الذى نود أن نختم به مقالنا هذا هو إصرار هكسلى على السخر بكل ما يقال عن الحروب التى تختم الحروب

فعنده أن التاريخ الإنسانى ليس « كرة أرضية » يخرج فيها الإنسان إلى اليابان فيلقى نفسه فى أقصى المغرب من طريق الشرق البعيد

إنما التاريخ الانسانى خط مستقيم ، فإذا أردت أن تتقدم فيه إلى الغاء الحروب فلن تصل إلى وجهك بالرجوع إلى الوراء

عباس محمود العقاد

القلب الغريب
فى ليلة عيد
للدكتور زكى مبارك

أخى الأستاذ الزيات

هل تذكر ما حدثتني به منذ سنين ؟ هل تذكر أنك تشهيت مرة أن توجِّه إلىّ خطاباً على صفحات البلاغ عنوانه « من غريب إلى غريب » وكنتَ الغريب فى بغداد وكنتُ الغريب فى باريس ؟

ولم تحدثنى عما أوحى إليك أن تفكر فى إنشاء ذلك الخطاب ، فهل أستطيع أن أرجِّح أن ذلك كان بعد أن نشرتُ أنا رسالة « من غربة إلى غربة بين القاهرة وباريس » تلك الرسالة التى فضحتُ بها مكتوم صدرى ومكنون هواى ؟

على أنني لن أكتب مثل تلك الرسالة مرة ثانية ، فقد انتهى عهد الغربة بالقاهرة ، وقضى الحب أن أشهد كيف تنهمر دموع الملاح يوم رحيلى إلى العراق

انتهى عهد الغربة بالقاهرة ، وحلّ عهد الاغتراب عن القاهرة ، فمن يردّنى إليها ليلة أو ليلتين لأقضى حق التحية ، تحية المغانى الآهلة التى كانت تتشوف إلى العيد ، لتراني مع العيد !

ليتك يا صديقى تعرف نعمة الله عليك فى بلد لك فيه أهلٌ وأحباب ، ولا أراك الله حسرتى وعذابى وأنا أتجرع كأس الغربة في ليلة عيد !

ولكن هل من السياسة أن أعلن غربتى فى بغداد ، وقد لقيتُ فيها أهلاً بأهل وجيراناً بجيران ؟

إن قيل ذلك فأنا أعلن أنى لا أعانى غربة العقل ، وإنما أعانى غربة القلب

وكيف أعانى غربة العقل ومحاضراتي يشهدها المئات من عشاق العلم والبيان ، ولا أخطو خطوة إلا وأنا محوط بالعطف والإعجاب ، ولا أدخل نادياً إلا تلقانى أهله وسامروه بالترحيب والتبجيل ؟

ولكن هل يكتفى مثلى بحياة العقل ؟ يا ضيعة العمر إن كُتب علينا ألا نظفر بغير الثناء من عقلاء الرجال ! وما أضيق العيش إن كانت لا تلمع بروقه إلا من صرير القلم وسواد المداد !

إن الحياة العلمية ليست إلا خدعة يتلهى بها أرباب القلوب . وهل يخفى عليك ما يعانيه رجل مثلى حين يعود وحيداً إلى منزله بلا أنيس ولا رفيق ؟ هل يعزّيه حينذاك أن يتذكر أنه كان منذ لحظات يعاقر الفكر والرأى وهو يلقى محاضرته على جمهور من العلماء والأدباء ؟

ليتك ترانى وأنا أدخل إلى غرفتى شارد اللب فأزيح الستائر عن النوافذ ثم أطفئ المصباح لأقف وجهاً إلى وجه مع ظلام بغداد . ويا رحمة الله من ظلام بغداد فى لياليها الطوال !

ولكن ما الذى يدعونى إلى معانقة الظلام فى بغداد ؟

لا أعرف ، ولكن يُخيَّل إلىّ أن الظلام يؤنسنى بعض الايناس ، لأنه يوهمنى أنى فى فترة من الزمن تأنس فيها القلوب بالقلوب ، وتسكن الأرواح إلى الأرواح . وربما كان الظلام فى غرفتى فرصة طيبة أتبين فيها بصيص النور فى منزل قريب أو بعيد فأتمثل أخيلة النجوى والعتاب ، وأتوهم ضجيج المرح في ليالى الوصال

* * *

أما بعد فهذا غروب اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان وهذا مكانى على المائدة فى المطعم الذى تخيرته بشارع الرشيد ، وهذه أطياف تَرِدُ على القلب ، من أحباب القلب ، أطياف من مصر الجديدة والزمالك ، تلك البقاع التى لم تر فيها النجوم قلباً مثل قلبى ، ولم تُسدل ستائرها على هوى أعنف من هواى ...

وليقُلْ من شاء ما شاء !

وأسأل جارى على المائدة : هل ثبتت الرؤيا ؟

فيجيب : سنعرف ذلك بعد ساعة أو ساعتين

وأخرج فأتصفح الوجوه فى شارع الرشيد بلا نفع ولا غناء ، ثم أميل على الشرطى أسأله :

هل ثبتت الرؤيا ؟

فيجيب : لم تثبت ، ولكن المحكمة تنتظر برقية من النجف فادمدم : برقية من النجف ؟ وهل يَسرُّ من فى النجف أن يفطر من فى بغداد ؟ إن كان الأمر لعلماء النجف فسيضيفون إلى الصوم يومين ، ولولا أن يفضحهم الهلال لزادوا الصوم أسبوعين

وأذهب إلى نادى المعارف لأسمر لحظات مع الزملاء من المدرسين فيفرحون بلقائى ويسألون : كيف غبت أمس ؟ فأجيب : غبت أمس لأحضر اليوم . ولكن حدثونى هل عندكم أخبار عن الهلال ؟ فيجيبون : سنعرف ذلك بعد الساعة العاشرة . فأقول : والشمس تغرب فى الخامسة ، فهل يمكن أن يكون بين الخامسة والعاشرة مجال لرؤية الهلال ؟

وبعد لحظة تُحوَّل إبرة المذياع إلى مصر فأسمع فتاة تُناغِم المستمعين فتقول : سادتى وسيداتى ، هذا آخر العهد برمضان !

فأقول : يا إخوانى ، ياحضرات الأساتذة ، يامسلمين يا أولاد الحلال ، هذه فى مصر ليلة العيد

فيجيب أحدهم وهو يبتسم : علمت شيئاً وغابت عنك أشياء . ألم تعلم أننا صمنا يوم الجمعة ، وصام المصريون يوم الخميس ، فهم حتماً يسبقوننا إلى العيد ؟

فأقول : من هنا تعلمون أن مصر تقدمت فى كل شىء ، فلها السبق فى الصوم ولها السبق فى العيد . وأنصرف محزون الفؤاد

***

هذه غرفتى موحشة لا يؤنسنى فيها غير أرواح الموتى من المؤلفين ، وسيكون الغد يوم عمل ، لأن يوم الوقفة لا عطلة فيه فى بغداد ، وإذن فسأعطى غداً درساً فى التفسير ، وهو درس متعب لأنه فى الكشاف ، وفى آية يختلف فيها أهل السنة مع أئمة الاعتزال

وكيف أُعدّ هذا الدرس ، ياربّاه ، وأنا أعرف أنها ليلة عيد فى مصر الجديدة وفى الزمالك ، وياويلتاه من لوعة القلب حين أتمثل مصر الجديدة والزمالك ؛ وغضبةُ الله على من تمرّ بباله خاطرة ملام وأنا أردّد أسماء تلك المغانى ، حرمها الله ، وأدام لأهلها نَضرة النعيم

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون »

قال جار الله الزمخشرى ...

هذه طلقة مدفع !

وقال ابن حجر فى الردّ عليه ...

وهذه طلقة ثانية !

وكيف نوفِّق بين القولين ؟

وهذه طلقة ثالثة !

ولكن ما الساعة الآن ؟

الساعة العاشرة ! إذن ليست هذه مدافع السحور ولا مدافع الرفع ، وإنما هى مدافع العيد

***

وأطفأت المصباح ، وتلفتُّ إلى النافذة لأرى ظلام بغداد ، وقلت : هذه ليلة عيد بالإجماع ، فَلْأُرِحْ نفسى من الكشاف ، ولجاجة صاحب الكشاف ، ولْأُقبل على قلبى أتبينُ ما فيه من فُطور ونُدوب

وتذكرت أننى كنت أكتب رسالة وجدانية فى كل ليلة عيد ، ثم انقطعت رسائلى بعد إذمات أبى يرحمه الله ، لأننى أنِفتُ أن أبكى بعده على غرض مُضيَّع أو هوًى مفقود

ثم بدا لى فى هذه الليلة أن أبى لا يسره فى قبره أن تعيش مهجتى بلا لوعة ، ومقلتى بلا دمعة ، وكان يرحمه الله جذوةً من الوجدان

وعُدتُ إلى الظلام أستلهمه وأستوحيه فلم أجد مَن

أحاوره غير الرجل الحزين الذى اسمه أحمد ، أحمد حسن الزيات صديق !

هل تذكر فكاهتك الطريفة إذ تحدّث إخوانك أنك عرفتنى أول مرة عن طريق البوليس ؟ هل تذكر أن البوليس دعاك مرة إلى زيارة المحافظ فتوجست خيفةً ، ثم رأيت أن الخطب هيّن لأنك دُعيت لتتسلم رسالة من الشيخ زكى مبارك الذى اعتقلته السلطة العسكرية أيام الثورة المصرية ؟

ألا فلتعلم أن الحظ قضى عليك ألا تتاقى منى رسالة إلا فى ظروف يحيط بها شبهات ، فإن كانت الرسالة الأولى فى عهد ثورة فهذه أيضاً فى عهد ثورة ، وربما كانت هذه أعنف وأفظع لأنها تحدثك عن صديق حزين يناضل الأرق والسهاد فى ليلة عيد صديق !

لاتعجب من رجل يضنيه الحزن والابتئاس مع أنه ينهض بأثقل الأعباء ، فدنيا القلب غير دنيا العقل ، والشواغل الجسام لا تُلهى الرجل عما يساوره من لواذع الإحساس ، وأنا رجل يؤمن بأن القلب أدق ميزاناً من العقل ، وكيف لايكون كذلك وهو يأخذ هدايته من الفطرة ، على حين لايهتدى العقل إلا بالبراهين ، وهى فى الأغلب تقوم على مقدمات لاتخلو من تضليل صديق

هذه الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، وستقرأ هذه الرسالة فتذكر أنك أرقت فى ليلة العيد بلا سبب معروف ، فلتفهم حين تقرأ هذه الرسالة أن ذلك الأرق إنما كان هدية أرسلها إليك الغريب فى بغداد ، الغريب الذى يوحى الحزن إلى أشقياء الغرباء

والآن أطفىء المصباح لأعانق الظلام فى المدينة السحرية التى شقى بلياليها ملايين الرجال فلا أرى غير بصيص ضئيل لمصباح أقامته الحكومة على شاطىء دجلة ، فأفهم أننى أخاطب الأموات لأن مصابيح الحكومة لا تدل على شىء ، ولا يهتدى بها غير لصوص الجيوب

الآن تهدأ بغداد بعد أن تسدل أستارها على الغافين من السعداء والبائسين ، ويبقى المسهد الغريب الذى لا يعرف ربيع القلب ، ولا نعيم الجفون

فى هذه الليلة تهدأ جُنوب ، وتقلَق جُنوب ، وجنبى هو الجنب الحائر تحت سماء بغداد

فى هذه الليلة تتلفت عيون فلا ترانى ، عيون كنت لها أمتع من إغفاءة الفجر ، وأنضر من بياض الصباح ، فى هذه الليلة تشتاقني أكبادٌ رقاقٌ علمتها كيف تطيب ليالى الأعياد

ولكن لا بأس ، فسنعيش حتى نردّ ديون الهوى ، وسيعلم من أبكاهم الفراق أن الدمع لا ينفع ، وسنرجو ألا يسمحوا لنا بعد هذه المرة بالتعرف إلى محطة باب الحديد

أخى الأستاذ الزيات

لا أنتظر منك دمعة عند قراءة هذا الخطاب ، ولكن لى إليك رجاء ، فاحفظ عهد أخيك ولا تمش فى شوارع القاهرة إلا مشية الخاشعين ، فليس فى تلك المدينة بقعة إلا ولى فيها صَبَوات ، وليس فيهاشارع ولا مشرب ولا ناد إلا ولي فيه أحباب وخُلاّن

ولو شئت لكلفتك تبليغ التحية إلى أصفياء القلب فى مصر الجديدة ، وفى الزمالك ، ولكنّ مثلك وا أسفاه لا يؤتمن على نقل التحية إلى أسراب الملاح ، فلتكن (الرسالة) رسولى إلى مَن أذالوا غاليات الدموع يوم رحيلى إلى العراق ، والسلام عليهم وعليك من الغريب الحزين

زكى مبارك

جاءنا الفصل الثانى من فصول الأستاذ المبارك فى (ليلى المريضة بالعراق) ولكننا قدمنا عليه هذه الرسالة الطريفة فى النشر حتى لا تفوت مناسبتها « الرسالة »

حرق الميت

العرب أول من أعلن (بقاء المادة)

Conservation de la matière

لأستاذ جليل

وصى (مكدونالد) الانجليزي الاسكتلندي من رؤساء الوزراء السابقين في بلاد البريطانيين قومه أن يحرقوه إذا هلك فاحرقوه في هذا اليوم . وحرقُ الميت طريقة هندية برهمية ، وقد زينها (المعرى) في (اللزوميات) للناس، فقال الخبيث — جزاه الله جزاءه — :

فاعجب لتحريق أهل الهند ميتهم
وذاك أروح من طول التباريح
إن حرّقوه فما يخشون من ضبع
تسري إليه ولا خَـفْـيِ وتطريح[1]
والنار أطيب من كافور ميتنا
غبا وأذهب للنكراء والريح[2]

ومن أجل هذا وغيره اتهم الرجل بالتبرهم ، ففي (لسان الميزان) لابن حجر : « من عجيب رأى أبي العلاء تركه كل ما كول لا تنبته الأرض شفقة على الحيوانات حتى نسب إلى التبرهم »

والبرهمي يتقرب بالحرق إلى الله . وقد يحرق بعضهم نفسه (جسمه) بنفسه وهو حى متفنناً في إحراقه ، فقد قال (البديع) في إحدى رسائله :

« وربما عمد أحدهم — يعني الهنود — فاتخذ لرأسه من الطين إكليلا ، ثم قوّر قحفه[3] لحشاه فتيلاً ، ثم أضرم في الفتيل ناراً ولم يتأوه ، والنار تحطمه عضواً فعضوا »

وغير البرهمي إنما يفر بالحرق من الله — وهل من الله (يا غر) مفر — ففي (الفائق) للزمخشري : « أن رجلا رَغسه[4] الله مالا وولداً حتى ذهب عصر وجاء عصر ، فلما حضرته الوفاة قال : أى بنِيّ ، أىّ أب كنت لكم ؟

قالوا : خيرَ أب

قال : فهل أنتم مطيعىّ ؟

قالوا : نعم

قال : إذا مت فحرقونى حتى تدعونى فحما ، ثم اهرسونى بالمهراس ، ثم اذرونى في البحر في يوم ريح ، لعلى أضلّ الله[1] »

وهيهات أن يضلّ الله ، أن يفوت الله هارب من عذابه « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ، ساء ما يحكمون »

وهيهات أن يضمحل في الوجود شيء ؛ إن (الكتاب) يقول : « أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً ، إن الله على كل شيء قدير » « يا بُنَىّ إن تكُ مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير »

والعِلْم العربى قد أعلن (بقاء المادة) ونادى أن لا تلاشي[2] للأشياء . قال عبد الحميد بن هبة الله في كتاب شرحه لنهج البلاغة : « إنا نرى الحيوانات الميتة إذا دفنت في الأرض تنقص أجسامها ، وكذلك الأشجار المدفونة في الأرض ؛ على أن التحقيق أن المحترق بالنار والبالى بالتراب لم تعدم أجزاؤه ، وإنما استحالت إلى صور أخرى »

ذلك قول الله ، وقوله الحق . وهذا قول العلم العربي المثبت بالعلم الغربي[3] فلن يضل الله محروق أو غريق أو مُفرفر[4] في الغيل ما كول ، ولن يضيع في العالم ضائع ، ولن يعدم في الوجود كائن . إن الطبيعة خزانة الله حافظة أمينة « وكان الله بكل شيء محيطا »

« فويلٌ للذين ظلموا من عذاب يوم أليم »

الاسكندرية (***)

---

(١) خفى الشيء الخفى واختفاه : أخرجه (الأساس) المختفى النباش لاستخراجه أكفان الموتى (اللسان)

(٢) النكراء : النكر ، المنكر ، الشدة ، وربما أراد (النكرة) وهى مايخرج من الجراح من دم أو قيح كالصديد

(٣) القحف : العظم فوق الدماغ

(٤) رغسه الله مالا وولداً : أكثر له منهما وبارك له فيهما ، والرغس السعة في النعمة والبركة والنماء (النهاية) وحق (مالا وولداً) أن يكون انتصابهما على التمييز (الزمخشري)

(١) أضل الله : أفوته ويخفى عليه مكانى (النهاية) ضلنى فلان فلم أقدر عليه أى ذهب عنى (الزمخشري)

(٢) تلاشى الشيء : اضمحل (التاج) واللفظة مولدة ، وهى من (لاشيء) والتلاشى في كلام العلماء والأدباء من المولدين لكثير ، وفي (نهج البلاغة) : « وما تلاشت عنه بروق الغمام »

(٣) أظهر (Lavoisier) مقالته في (بقاء المادة) منذ (١٤٨) سنة وابن أبي الحديد توفى سنة (٦٥٦) أى منذ (٧٠٠) سنة

(٤) فرفره : مزقه ، والفرافر الأسد لتمزيقه الفريسة

فلسفة التربيــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٣ —

« خلق الله تعالى الانسان وأودعه بذرة كماله المنشود ، ثم تركه للعلم ينمي فيه هـذه البذرة حتى إذا ما اشتد ساعده واصل تربية نفسه بنفسه محققاً إرادة السماء »

Kant, « Traité de Pedagogie »

بينت فى المقال السابق ما بين الفلسفة والتربية من علاقة ، وذكرت فحوى فلسفة التربية الحديثة لدى جون ديوى ومدرسته وسأتناول فى هذا المقال معنى التربية وضرورتها وقدرتها :

أما معناها فكان وما زال موضع خلاف فى التصور والتعبير ، فمثلاً دائرة معارف Chambet تقول : « إن كل شيء يعلم الإنسان وإن التربية على الخصوص هى صب الأطفال فى قالب خاص » (أنظر A Source Book of Education فصل كيف نتصور التربية) ، ويقول Stein : « التربية تطور متناسق للملكات يتفق وطبيعة العقل » ؛ هذا بينما يقول بستالوتزى : « كل عمل المعلم هو أن يمنع ما يعرقل طبيعة الناشئ حتى تستطيع أن تنمو نمواً طبيعياً على مثال صورة الله تعالى » ، وبينما يقول ديوى : « التربية هي الأسلوب الذى يصير المرء في امتلاك متواصل متزايد لنفسه ولقواه ، بواسطة الاشتراك المتواصل المتزايد فى أعمال الجنس »

هذا ويعلل لنا الأستاذ أمين مرسى قنديل عدم الاتفاق على تعريف جامع مانع للتربية بقوله : « التربيــة من حيث هى علم لم يستقر بعد ، فهي لا تزال في دور التحول والتكوين » (أنظر أصول التربية والتعليم ج ٢ ص ٣٥)

ومهما يكن من شيء فالأستاذ هورن Horn يفهم التربية على نحوين : نحو عام هو تلك « العملية » الطويلة الهائلة التى يتعلم فيها الجنس البشرى تحت رعاية ذلك « الروح الأبدى » المتجلى فى الطبيعة والانسان ؛ ونحو خاص هو « عملية » المدرسة منذ روضة الأطفال إلى نهاية المدرسة العليا . ولذلك كانت دراسة التربية من حيث معناها العام دراسة للمدنية بأجمعها ، ودراستها من حيث معناها الخاص دراسة لتاريخها ومثلها الأعلى وفنها العملي وفلسفتها (انظر A Philos. of Educ)

هذا عن معناها . وأما ضرورتها فها هو «هربارت» يقول : «إنها (أى التربية) مهمة دينية ورسالة مقدسة !» وهاهو «كانت» يزعم « أن الانسان لايصير إنساناً إلا بهـا » ! ! ولاشك أنا نستطيع أن نلمس ضرورتها فى نواح عديدة أهمها الثلاث الآتية :

١ — الناحية النفسية

ذلك أنا إذا أخـذنا طفل « الرجل المتمدن » وألقيناه فى إحدى الغابات ، وفرضنا أن الطبيعة سترعاه حتى يستطيع أن يطعم نفسه ويدافع عنها ، لوجدنا أن نشأته بين الأشجار ستكون بدائية (١) بحتة ترجع بالانسانية آلاف السنين إلى الوراء

وكذلك قد لوحظ أن الطفل الاسكتلندى الأصل إذاما انتقل إلى الوسط الفرنسى تغير كثيراً وأضحى غير زملائه في وسطه الأول

ومعنى هذا أن الوراثة الاجتماعية تعدل فى الوراثة البيولوجية تعديلا خطيراً . ومادام الأمر كذلك فمجال « الإمكان » فى التربية إذن فسيح ، ومجال سلطانها على مستقبل الناشىء ، بل والعالم كله ، من حيث السعادة والشقاء ، والتقدم والتأخر ، إذن عظيم وخطير ! يؤيد ذلك قول ثورنديك فى The Educ Psycho « إن التربية أعظم مساعد للناس جميعاً على تحقيق خيرهم المطلق » وقول الأستاذ آدم سميث فى The Wealth of Nat « إن الفرق فى كثير من الأحيان بين الفيلسوف ورجل الشارع ناشىء فى العادة من التربية أكثر مما هو ناشىء من الطبيعة » ، وقول هيوم « هما المران والممارسة ينشئان العامل الماهر »

بل إن البعض ليذهب إلى أكثر من ذلك ، فهم يدعون أن علم الوراثة سيستطيع أن يقدم للتربية فى الغد ما يمكنها من « خلق » العقل والجسم المنشودين !!

٢ — الناحية الاجتماعية

والانسان فضلا عما تقدم كائن اجتماعى . ولما كانت الحياة في ذاتها نمو وتطور وتجدد كانت التربيــة هي الاداة الفعالة التى

(١) Primitive

يستطيع المجتمع أن يحفظ بها كيانه ويجدد نفسه . وكلما تعقدت أساليب الحياة في المجتمع احتيج إلى تربية نظامية دقيقة ، والأفراد يموتون ولكن الجماعة تبقى ! ، والصغير محتاج — كيما يواصل حياة الجماعة فيما بعد — إلى أن يأخذ من الكبير الذى سيموت تاركاً له التراث الأكبر ! ، فيجب إذن « ترقيع » الجماعة دائماً ! وإلا فلا يجد الصغير درعاً يساعده على البقاء ! ومعنى هذا أن التربيـة في الجماعات المتمدنة قد أصبحت تقوم مقام الصلاحية للبقاء في الحيوانات والجماعات المتوحشة !

زد على هذا أن الجماعة لكيما تكون وحدة ناجحة سليمة يجب أن تتحد فى المطامح والعقائد والفهم العام . وليس كالتربية وسيلة لتحقيق مثل تلك الوحدة الناجحة . ذلك أنها ترتب الميول المراد تنميتها وتساعد عملية النمو ؛ كما أنها تطهر وترفع مستوى العادات الاجتماعية القائمة ؛ وتوجد بيئة متوازنة ، هى المدرسة ، تعد الطفل لمواجهة البيئة الكبرى ...

٣ — ناحية النمو

ويقول السير جون آدمز إن أغلب تعاريف التربية تحوى معنى النمو . فكومنيوس وبستالوتزى مثلاً يتفقان فى أن العقل كالبذرة ينمو من الداخل . والحق أن الحياة فى الفرد وفى المجتمع وفى تاريخ الكائنات جميعاً ليست إلا عملية نمو هائلة متسلسلة ينطق بها لسان التطور ؛ ويحتاج النمو الصالح إلى مرونة تجدها التربية فى الطفولة والشباب . وبهذه المرونة نتعلم من التجربة ونكتسب العادات الآلية التى تضمن لنا السيطرة على الطبيعة ، وحسن التكيف فى الموقف الجديد ، والاختراع والابتكار والخلق والإبداع

وما دام الأمر أمر نمو فإن المدرسة الحديثة تعارض فكرة الإعداد « للغد فحسب » كل المعارضة حتى لاتصرف المتعلم عن فرصة الحياة الحاضرة بما فيها من ميزات

يقول « ديوى » في « المدرسة والاجتماع ترجمة الأستاذ قندلفت » : « لايتاح لأمة أن تفى حق الأمانة لنفسها إلا بأن تكون أمينة على إنماء أفرادها التى تتألف منها . ولا عامل كالمدرسة ينيلها ماتريد »

* * *

بقى بعد ذلك أن نتكلم عن قدرة التربية كما أشرنا إلى ذلك من قبل . والحق أننا نستطيع أن نتحدث هنا دون أى حرج . وها هو ذا إرازمس E,rasmus يقول إنه لو سيطر على التربية بضع سنوات لغير الدنيا . وبسمارك يردد : « إن من يدير المدرسة يوجه مستقبل الأمة ... » وقديماً حاول إفلاطون أن يخلق المدينـة السعيدة الفاضلة بالتربيـة . وحديثاً يسود الانجليز ويستمدون عظمتهم من تربيتهم لا من جيوشهم وأساطيلهم .

وأخيراً إذا كان العالم يسير اليوم متشائماً نحو الحرب والدمار فلأنه قد نشّأ نفسه وا أسفاه على أساس من تربيـة فلسفتها البقاء للأصلح ، وقوامها الوطنية الكابلة والقومية الحمقاء !!! ؟

لذلك كله يرجو دعاة السلام والاصلاح من التربيـة خيراً جزيلا ؛ ويحاولون جهدهم أن يستغلوا « امكانات » علم النفس في تعديل الغرائز وتهذيبها والتسامى بها أيما استغلال ، ولكنهم يشعرون — وأشعر معهم — أنهم لا يزالون بعد في حاجة قصوى إلى إقناع الساسة والشعوب بفلسفتهم الجديدة القائمة على أن العالم هو الوطن الأكبر ، وعلى أن الانسانية في التعاون والتعاضد والبناء والتشييد ، لا في التنابذ والتحاسد والتخريب والتدمير ..!!

فهل يستطيعون لهـذا الاقناع سبيلا وأبواق الحرب تهرف في كل مكان بدعاية مجنونة ، ورجال السلاح ينفثون سمومهم وأحقادهم ومطامعهم في نفوس بريئة لا تملك النقد ولا تعرفه ؟؟

وكيف السبيل لذلك الاقناع ورجال الحرب يسيطرون على الحكومات ويوجهون برامج التعليم إلى حيث تتحقق فلسفتهم الجوفاء ؟؟

ومصر في عصرها الديموقراطى المستقل الراهن أترى للتربية فيها فلسفة ناجحة ؟ ؟ وإذا كان لها فلسفة ما : أفلا تتطلب هذه الفلسفة تعديلا يلتئم وحاجات العصر الجديد من ناحية ، ويتمشى وحقائق علوم التربية الحديثة من ناحية أخرى ؟ ؟

ذلك ما أدعوك للتفكير فيـه أيها القارئ العزيز على ضوء الحقائق التى ذكرتها وسأذكرها ؛ وما أعدك بتناوله بعد الفراغ من هذا الموضوع

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

مجادلة طريفة واقعة حول

معجزات الإسلام

للأستاذ خليل جمعة الطوال

هل تطلبون من المختار معجزة … يكفيه شعب من الاجداث أحياه
وكيف ساس رعاة الابل مملكة … ما ساسها قيصر من قبل أو شاه
(غنيم)

استويتُ إلى مكتبي المتواضع ، وفى النية أن أكتب فصلاً « للرسالة الغراء » عن نخاسة الأعراض وتجارة الزواج فى شرق الأردن ؛ وفيما أنا أفكر فى عناصر الموضوع ، وطريقة الدخول اليه وأستجمع له الخواطر الشاردة ، والأفكار الطافية فوق هموم العيش والإفلاس ، إذ بطارق يقرع علىّ الباب ثلاث قرعات متوالية ، ثم يقتحم الغرفة بدون استئذان ، ويجلس بالقرب منى على مقعد خشبي قديم ، أشبه ما يكون بمقاعد مقهى المتالين فى باب العامود . وكانت بادرة الفكر أن أحوله عن هذا المقعد الوضيع الذى لا يتفق ومكانة الزوار ، ولكنه تشدد على وأبى إلا أن يلازم مكانه الذى ظل جالساً فيه وكأنما يستجمع قواه ليقفز.

كان طوالاً أجناً ، ياسرَ الوجهِ ، أثرم الثنية اليسرى ، متغطرفاً وعواعاً ، قد تفشّغ الشيب فى لمته وذقنه الحليق ، توضحهُ فتبينت فى أسارير وجهه قصة طويلة ، إلا أنها خفيّةُ المعنى ، عديمة الإبانة ، غامضة الإشارة ، فألقيت عليه تحية المساء ، ثم سكتُّ علّه يبدأ الحديث ، ولكنه ظلّ مُبرطما ، ينكث السجادة بعصاه دون أن ينبس ببنت شفة ، فتبهمتُ كمادتى ؛ فحدجنى بنظرة شزرة حسبت فيها سخط الإنس والجن ، ثم أخذ يتثاءب ويتمطى ، فكأنما كان يحمل حملاً ثقيلاً أزيح عنه بالتثاؤب ، إذ انبسطت أسارير وجهه ، وزال برطامه ، ولكنه ظل مع ذلك مطرقاً لا يتكلم ؛ فاستثقلتُ جلستهُ — كما قد يستثقل القارئ هذا الحديث — وقلت لنفسى لا بدّ من أن أستدرجهُ إلى الحديث وإلا فهذا المجلس المكروه إن طال سيضيّق عطنى ، ويستفز كامن عصبيتى ، فاهتبلت فرصة تثاؤبه وابتدرته بالحديث قائلاً :

— الحمد لله على سلامة الشيخ

— وهل يعرف المتعلمُ رباً فيحمده ؟ ... أنت ملحد ... كافر ... درزى لا دين لك

— (فتذكرت الحكمة القائلة : داروا سفهاءكم) درزى ...! أليس للدرزى دين ... ! يا شيخ كيف تتهمنى بالكفر ؟

— كيف أكفرك ... ! ألست مسيحيًّا أباً عن جد ؟

— بلى ! وليت ذلك لم يكن ؛ إذن لكنت حرًّا فى نوع صوفيتى مع الله ؟ وفى تكوين عقيدتى بالله ... !

— أفلا تعتقد بقول المسيح : من ليس معى فهو علىّ ؛ وبقوله يخاطب الكهنة : من سمع منكم فقد سمع منى ، ومن احتقركم فقد احتقرنى ؟ ثم ألست الزاعم بأن الإكليروس هم إنكشارية الدين المأجورون ؟ وذلك نصرة لبدعة فاسدة ادعاها رجل كاذب يدعى محمد . قل لى هل يستوى النور والظلام ؟

— لا . لا يستويان

— فكيف إذن تجمع بين المسيح — الذى هو طريق الحق والحياة — ومحمد ؟ وكيف تدافع عن محمد وأنت من جند المسيح ؟

— يا سيدى ! ... قل لى ، أمن الإيمان أن تمتهن بقية العقائد ؟ .. ثم ما رأيك فى الشريعة الموسوية ؟ .. أليست — فى حكمك — شريعة كاذبة لأنها ليست من تشريع المسيح ؟ .. وهل كان الرسل لينسخ اللاحق منهم شريعة السابق أم ليكملها ؟ وهل فاتك قول المسيح ما جئت لأنقض بل لأتمم ؟ .. فموسى ومحمد إذن حكمهما من حيث الصدق والكذب واحد

— حاشا ! حاشا أن أعتقد ذلك . فشتان بين موسى كليم الله الذى أنقذ أمته ، وجعل العصا فى يد فرعون حية ، وأخرج من الصخر الأصم مياهاً نقية ، وبين محمد — نبيك — الذى لم تؤثر عنه مكرمة ، ولا سمعت له معجزة

— وأية مكرمة أفضل من إخراج محمد قومه من حظيرة الشرك إلى حظيرة التوحيد ؟

— ليته لم يفعل ذلك . إذن لسهل على المسيحية أن ترد هذه الخراف الضالة إلى قطيعها

— ولم لا تردها الآن ما دامت ضالة عن القطيع ! ...

— هيهات ذلك ، هيهات أن يفلت الحمل من مخلب الذئب

— بل هيهات أن يسلم الذئب من رصاصة الراعي وعصاه ، وأن يصل الباطل إلى قمة الحق وذراها . والآن دعنا نحسم هذا الجدل العنيف ، وقل لي ما الذي تشترطه على محمد لتتم له النبوة ؟

— الأمر واضح فلا نبوة بغير معجزة

— وأنا معك في ذلك ، وإلا لادعى النبوة كل مشعوذ ، ولصار الناس جميعهم أنبياء . والآن أعرني سمعك لأبين لك معجزة الاسلام

لقد كان العرب في جاهليتهم يعبدون إما الأصنام التي كانوا يقيمونها من بعض الحجارة والمعادن ، وإما بعض مظاهر الطبيعة المتعددة ، كالشمس ، والهواء ، والبحر ، والسماء ، ولكن العربي التبدي لم يكن يقدم لآلهته هذه التي راح يلتجيء إليها كلما حز به أمر ، أو داهمه خطر ، الذبائح والقرابين ، ولا كان يقيم لها الشعائر الدينية والمراسيم ، كما كان يفعل الأشوريون والفينيقيون ومن إليهم ، بل لم يكن يتحرج عن إهانتها وتحطيمها ولاسيما إذا استقسم عندها بأقداحه فخرج منها مايكره — كما فعل امرؤ القيس بن حجر الكندي — ذلك لأن العربي في الجاهلية كان قلما يهتم بما وراء الطبيعة

ولقد تسربت اليهودية والمسيحية إلى جزيرة العرب فارتدتا عنها بالاخفاق والفشل ، ذلك لأن أحلام الأولى وآمالها ، وأسرار الثانية ومعمياتها ؛ فمن إله متأنس ، إلى رب مصلوب ، إلى أقانيم ثلاثة بجوهر واحد ، إلى استحالة الخبز والخمر إلى جسد ودم ؛ كانت جميعها مما ينفر منها الطبع البدوي الساذج ، أما الاسلام وإن اصطدم بالعنجهية العربية ، وتصارع مع وثنية البادية حيناً من الدهر ، فإنه تمكن أخيراً من أن يظهر عليهما بالنصر ، ذلك لأنه دين يتساوق مع العقل والقلب ، ويسوى بين الدين والدنيا ، ويجعل الفقير بذمة الثرى ، فهو في حقيقته مجموعة قواعد خلقية سامية ، ومبادىء اجتماعية مثلى ، وهل الدين في حقيقته إلا إصلاح النفس والأخلاق في الفرد ، وإقامة الفضيلة واجتثاث السوءآت في المجتمع ؟

ولئن كانت معجزة موسى أن حول العصا أمام فرعون حية ، لقد كانت معجزة الاسلام أبلغ منها ، ذلك لأنه حول مادية النفسية البدوية الضارية التي طبعت على حب الغزو والنهب ، وعلى استباحة المنكرات إلى شعلة روحية تشع في أرجاء الكون بنور المبادىء العالية ، والفضائل السامية

ولِمَ نذهب بعيداً في الاستدلال ؟ وهذا البدوي الجلف ، الذي كان بالأمس ينفر من ظل الدين ، ويستحل جميع أنواع المنكرات ، ولا يتحرج من سفك الدماء البريئة باسم مجد القبيلة وجاهها ، تثخنه اليوم باسم الدين والتوحيد أسنة المشركين في أحد جراحاً ما زالت تثعب دماً ، وتمزق إهابه نبال الفرس في القادسية وقسي الروم في اليرموك ، فيستقبلها بصدر عامر بالإيمان ، ويستمرئ آلامها غير جزع ولا هياب ، ذلك لأن معجزة الإسلام أخرجت نفسه من حدود هذا العالم المادي الضيق الذي يتعين بجهات الأرض الأربع ، إلى عالم روحي فسيح يتعين بعقيدة التوحيد ، وبحدودها الأربعة : التي هي : التقوى في الدين ، والحرية ، والإخاء ، والمساواة في الدنيا

ولئن كان فتى الجزيرة قبل الإسلام راعي إبل وغنم ، تختلف عنقه بين نيرى الفرس والروم وتصعّرُ خدّه أيدي الغزاة الطامعين من بقية الشعوب ، فإنه اليوم بفضل المعجزة الكبرى التي تزحزح لإشراقها أسّ الإيوان ، وانصهر من حرارتها التاج والصولجان ، قد فتح ثلثي الكرة الأرضية في أقل من ثلثي قرن . فهذا خالد بن الوليد الذي لم ينهزم قط في حياته يفتح دمشق ، وهذا عمرو بن العاص يوغل في الديار المصرية ، وهذا طارق بن زياد يعبر المضيق الذي لايزال يحمل اسمه حتى اليوم ، يريد أن ينفذ من الشطوط الأسبانية إلى سفوح جبال البرينيه ثم إلى غسقونيا وبوردو . وهذا موسى بن نصير يسرح بخيول مضر وعدنان في شرق الأندلس وغربها ؛ في قرطبة وطليطلة ، وأشبيلية ، وقادس ، وغرناطة ، وغيرها

ثم انظر إلى هذا الفتى الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر بعد ، كيف اخترق السند وظل ممعناً بفتوحاته ، حتى أدخل الهند ضمن الامبراطورية الاسلامية . أليس بفضل معجزات الإسلام يربط هذا الفتى « تورس » غرب باريس ببحر الهند على ما بينهما من الشقة الواسعة والمسافة النائية ؟

أفلا يعد معجزة فى الإسلام أن يضاهى عصر المأمون فى بغداد عصر بركليس فى أثينة ، وعصر الناصر فى الأندلس عصر أغسطس فى رومية ؟ ونحن للذين كنا بالأمس نرعى الإبل والشاء ونأكل الضِباب والعظاة

انظر إلى ما يقوله فينا « غوستاف لوبون » فى كتابه La psychologie Politique « زعم المؤرخون أن التأثيرات العلمية والأخلاقية العجيبة التى أثرها المسلمون فى العالم كانت بفضل مادياتهم ، ولكن لا يصح اليوم أن نجهل ان هذه المؤثرات قد دامت فى مجراها حتى بعد أن أضاع المسلمون مادياتهم ونفوذهم السياسى ، فإن المسلمين فى الصين يزيدون على عشرين مليوناً ، وفى الهند على خمسين ، ولا يزال هذا العدد فى نمو ، وإن المسلمين بعد الرومان هم الأمة المدنة الوحيدة التى نجحت فى نقل تهذيبها الاجتماعى ودينها وأوضاعها وعلومها إلى العناصر المختلفة التى افتتحتها وتسربت بينها . هذه التأثيرات لا تضمحل بل على العكس نراها آخذة فى النمو ، تتعدى الحدود التى بلغتها فى أيام القوة المادية .

إن القرآن وما اشتق منه هو إلى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الناس الأولية ، حتى أن قبوله آخذ حكمه على مر الدهور لا يعوقه عائق ؛

وحيث ينزل المسلمون ، ولو كانوا تجاراً سذجاً ، تتدخل أوضاعهم ومعتقداتهم . وكلما توغل الرواد من أهل المدنية الحديثة فى صميم أفريقية شاهدوا قبائل تنتحل الإسلام . والمسلمون الآن يمدنون قبائل أفريقية على نحو ما يستطيعون ويجاهدون فى تلك القارة الغريبة ، على حين يطوف الأوربيون فى الشرق فاتحين كانوا أو متجرين ولا يتركون وراءهم أثراً لنفوذ أدبى

أفبعد هذه الشهادة تطلب من الإسلام معجزة وله فى سجل التاريخ مثل هذه الصفحة الرائعة المجيدة ؟

(شرق الاردن) **خليل جمعة الطوال**

العدد ١٨٣

أعدنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة ، فمن لم يكن عنده من حضرات المشتركين فليتفضل بطلبه من الادارة

أثر حروب محمد على فى الأدب الألمانى والفرنسى

للأديب السودانى المبارك ابراهيم

لم يكد يتولى محمد على الكبير حكم القطر المصرى باسم الدولة العلية ، فى أوائل القرن التاسع عشر ، حتى بات يتحين الفرص لبسط ظله على الأقطار المجاورة . ففى عام ١٨١٨ م انتصر على الوهابيين فى الأراضى الحجازية . وفى عام ١٨٢١ م وحد بين شطرى وادى النيل بضم السودان لمصر ، وفى عام ١٨٣٢ م كانت بلاد الشام تدين بالطاعة والولاء لمحمد على

وعند ما توترت العلاقات بينه وبين حكومة الباب العالى سير جيوشه ليغزو تركيا ويخضعها لسلطانه ، بدلا من أن يظل هو خاضعاً لسلطانها ! ففى ديسمبر ١٨٣٢ هزمت الجيوش المصرية الجيوش التركية هزيمة منكرة ، وباتت على مسير بضعة أيام من استامبول عاصمة سلاطين آل عثمان !

لقد كان طموح محمد على إلى السيطرة والحكم لا يقف عند حد ، إذ كان يتوق إلى إنشاء امبراطورية مصرية مترامية الأطراف لا تغيب عنها الشمس !

على أن هذا التوسع الاستعمارى من جانب محمد على لم يرق الأسد البريطانى ، فوقف فى طريق محمد على يزمجر غاضباً ويكشر عن أنيابه ويلوح بذيله ! وتحت ضغط الظروف القاهرة اضطرت جيوش محمد أن تنسحب من الأراضى التركية قبل أن يهاجمها هذا الليث الانجليزى الهصور ، وغيره من دول أوروبا التى لا يرضيها تقدم الحكام الشرقيين فى الميادين السياسية والحربية ، وبهذا التدخل من قبل الدول الأوروبية ، بات الرجل المريض « تركيا » فى مأمن من مداهمة محمد على له والإجهاز عليه لأن هذه الدول الأوربية كانت تطمع فى الاستيلاء على تركة الرجل المريض « الأراضى التركية » واقتسامها فيما بينها . وقد وضعت هذه الدول أيديها فعلا على معظم هذه الأملاك التركية

وفى عام ١٨٤٠ م أبرم الأسد البريطانى ، والدب الروسى ، والنسر البروسى ، اتفاقية سياسية تدعى اتفاقية لندن ،

فكان فيها القضاء المبرم على الامبراطورية المصرية التى كان يحلم بانشائها ذلك الحاكم الشرقي العصامى العظيم محمد على . إذ قسرته هذه الاتفاقية التى تآمرت فيها هـذه الدول عليه أن يتخلى عن الولايات التركية التى استولى عليها بحد السيف فى بلاد الشام وشبه جزيرة العرب

هذا ، ولـما كانت فرنسا صديقة لمحمد على ، تقف إلى جانبه وتشد أزره ، فقد سلبتها هذه الاتفاقية هى أيضاً حقها فى الشاطئ الأيسر من نهر الرين ، ومنحته لألمانيا فعسكرت فيه بعض كتائبها

ومن جراء هذه الاتفاقية التى أضاعت جزءاً من أملاك فرنسا تحمس الرأى السياسى العام فى باريس ، حتى أن الملك لويس فيليب نفسه صرح بأنه مضطر إلى لبس القبعة الحمراء ، وأن ينزع عن النمر كمامته . وهو يعنى بذلك المناداة بالثورة الحربية فى وجه ألمانيا

* * *

وبعد هذا التمهيد نقول : إن هذه الأزمة السياسية الدولية التى سببتها حروب محمد على قد دعت إلى صراع أدبى عنيف بين أدباء ألمانيا وفرنسا ترك أثراً حياً فى الشعر الألمانى والفرنسى

قالوا إن الشاعر الألمانى بيكر كان جالساً ذات يوم مع أصدقاء له فى إحدى الحانات ، يشرب الجعة ويطالع الصحف السياسية الواردة من فرنسا . وبعد أن رجع الشاعر إلى داره نظم وهو تحت تأثير نشوة الخمر وحماسة السياسة ، قصيدته « أنشودة الرين » فما كادت تنشر حتى لحنت وراح يترنم بها الألمان فى غدواتهم وروحاتهم والقصيدة هى :

لن ينالوا الرين ذلك النهر الألمانى الحر
وإن كانوا يطلبونه بنعيبهم كالغربان الجشعة ؛
لن ينالوه ما دام يترقرق ساكناً فى ثوبه الأخضر !
وما دام هناك مجداف يضرب فى مياهه !
وما دامت الصخور قائمة وسط مجراه !
وما دامت الكاتدرائيات الشاهقة تعكس خيالها فى مرآته !

لن ينالوا الرين ذلك النهر الألماني الحر
لن ينالوه ما دام الفتيان الحديدو القلوب يغازلون الفتيات المشوقات القوام !
وما دامت هناك سمكة تسبح فى أعماقه !
وما دام على شفاه المنشدين أنشودة تردد !
لن ينالوا الرين ذلك النهر الألمانى الحر
لن ينالوه حتى تدفن عظام آخر رجل فى طيات أمواجه !

ولما ذاق الشاعر الألمانى بيكر حلاوة الشهرة عقب ذيوع هذه الأنشودة ، بعث بنسخة منها إلى شاعر فرنسا الكبير : لامارتين، وكان ذلك منه على سبيل الأدب والتحدى معاً !

غير أن لامارتين كان داعية سلم ووئام ، ولم يكن فى يوم من الأيام بوقاً للحرب والخصام ؛ وكان يقول : أنا ابن الإنسانية قبل أن أكون ابن فرنسا ؛ ولتهلك أمتى إذا كان فى هلاكها حياة الإنسانية

ولهذا جاءت قصيدته فى الرد على الشاعر الألمانى تفيض بروح المحبة والسلام . وقد دعاها فعلاً : «مارسيليز السلام» ومنها :

يانهر الرين ، يانيل الغرب !
ياكأساً تستقى منها الأمم !
سر حراً متكبراً فى مجراك بين عرض شاطئيك !
واحمل فى طياتك مطامع الشعوب الساكنة المرتوية من مائك الشبم !

لن يدنس بعد اليوم بلور مياهك دم الفرنسى الأحمر ، ولا دم الجرمانى الأزرق ، كما أن البارود لن يقوض بعـد اليوم الجسور الممتدة فوقك بين الشعبين كاليد الممتدة للمصالحة !

سر فى مجراك يانهر
ولا تبال إذا كان الذين تحملهم أو ترويهم هم قاطنى شاطئك الشرقى أو الغربى
وطن كل إنسان هو الإقليم الذى يمتد إليه عقله ، فانا مواطن لكل إنسان يفكر ، فالحقيقة هى بلادى !

النسر والثور يشربان من مياهك . فليقترب إذن الإنسان من أخيه الإنسان وليشربا من مياهك !

* * *

وعند ما نشر رد لامارتين هذا على أنشودة الشاعر الألمانى قابله الشعب الفرنسى بشىء من الفتور عظيم ، وذلك لخلوه التام من الروح الحربى والحماسة الوطنية ، حتى أن فريقاً من

النقاد اتهم لامارتين ظلماً بعدم الاخلاص للوطن في حين أن الشاعر معروف بوطنيته الصادقة ، ولكنه كان يمقت الدعاية للحرب وإراقة الدماء البريئة ، وترميل النساء ، وتيتيم الأطفال ، وتخريب المدن الجميلة العامرة

* * *

ولقد كانت الصالونات الأدبية في باريس في ذلك الأوان لا حديث لها إلا « أنشودة الرين » لبيكر ، و « مارسيليز السلام » للامارتين

وكان صالون مدام جيرارون غاصاً ذات يوم برهط من أدباء فرنسا وعلى رأسهم الشاعر الشهير : ألفرد دى موسيه ، وكان الحديث يدور رد لامارتين ، فانبرت ربة الصالون تقول :

لا مشاحة في أن قصيدة لامارتين آية في البلاغة ، ولكنني كنت أوثر رداً أكثر إيلاماً منها ، فأنا متطرفة فى الوطنية ، ولا تزال عقيدة الوطن راسخة فى ذهني . وكم كنت أود لو تصدى واحد من شعرائنا لذلك الشاعر الألمانى المتحمس ، فكال له الصاع صاعين ! فقال لها ألفرد دى موسيه : وأنا على رأيك يا سيدتى . وهنا صاح به الحاضرون : عليك بالرد إذن ... عليك بالرد ، وقد أحاطوا به ملحين . ثم اقتادوه إلى حديقة الدار ، وأوصدوا باب الصالون دونه ، بعد أن زودوه بالورق والقلم ، ولفافتين من التبغ ! ولم يمض إلا وقت وجيز حتى أتوا إليه فوجدوه قد أحرق اللفافتين ، ونظم القصيدة التالية فى الرد على نشيد الرين ، وهى : —

قد نلنا الرين نهركم الألمانى !

وقد وسعه جام من جاماتنا !

فهل لأنشودة يسير بها القوم هازجين أن تمحو الأثر العظيم الذي تركته حوافر جيادنا المصبوغة بنجيع دمائكم ؟!

قد نلنا الرين نهركم الألمانى !

فان فى أحشائه جرح يسيل دامياً من عهد ماخرق « كونديه » القائد الفرنسى الظافر ثوبه الأخضر !

ولا شك فى أن الأبناء لمارون حيث مر الآباء !

قد نلنا الرين نهركم الألمانى !

أين كانت فضائلكم الجرمانية يوم كان بابليون القدير يبسط ظل سلطانه على سهولكم ؟!

وأين وقع آخر عظم من عظام رجالكم ؟!

قد نلنا الرين نهركم الألمانى !

فإن كنتم نسيتم تاريخكم ، فإن بناتكم أكثر احتفاظاً بذكرانا منكم ، فقد صببن فى كؤوسنا نبيذكم الأبيض !

قد نلنا الرين نهركم الألمانى !

وإذا كان الرين لكم فاغسلوا فيه ثيابكم

وإذا ما تكلمتم عنه فاخفضوا الصوت ، فكم كنتم من غربان فى اليوم العصيب حول النسر المحتضر : بابليون

فليتدفق نهركم الألمانى بسلام

ولتنعكس صور كاتدرائياتكم القوطية فى مياهه !

ولكن احذروا ، فإن أناشيدكم الخمرية قد توقظ الأموات من رقادها الدموى !

* * *

فما كاد موسيه ينتهى من إنشاد قصيدته النارية على السامعين حتى دوى المكان بالتصفيق وتعالى هتاف الاستحسان والتقريظ

وعندما تلقت القصيدة الصحف الفرنسية نشرتها فى أمكنة بارزة ، مشفوعة بالتهليل والتكبير

وقد ازداد بسببها هياج الرأى العام في فرنسا والمانيا

وكان من الضباط الألمان من أرسلوا إلى الشاعر الفرنسى دى موسيه رسائل يدعونه فيها للمبارزة !

ولكن دى موسيه أجاب : إذا لم يكن من المبارزة بد ، فهو لايبارز إلا رصيفه الشاعر الألمانى بيكر . ولكن بيكر لم يلب الدعوة

* * *

ويقال إن هذا الصراع الأدبى بين شعراء فرنسا وألمانيا فى عام ١٨٤٠ م كان من ضمن الشرر الذى أشعل نار الحرب بين الشعبين بعد مضى ثلاثين سنة ، عام ١٨٧٠ م ، وهى الحرب المعروفة فى تاريخ أوروبا بحرب السبعين

أم درمان سودان — المبارك ابراهيم

فى وجه الثورة على الأخلاق

للأستاذ أمين الخولى
الأستاذ بكلية الآداب

يا صاحب الرسالة

أبلغت قراءك ثورة محمود على الأخلاق فتحدث إليه الأستاذ عزام ، وسكت محمود حين امتلأ بطنه ؛ لكن كان المجلس حافلا بغير محمود من رجال العلم والدين والأدب ، فكانوا كلهم لمحمود وعلى عزام ... وإنما كان موضع الجدل أن الأخلاق الفاضلة لا تصلح أن تكون عدة النجاح إن لم تكن عدة الفشل ... وأن هؤلاء الطيبين الأخيار الذين وصفهم الأستاذ عزام بالقناعة ، وخصهم بالرضا ، لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً ما من رجال المال والأعمال كصيدناوى والبدراوى وعبود (١)

فلنسأل الثائرين عن هذا ثم ننتقل إلى غيره : لم لا تصلح الأخلاق الفاضلة أن تكون عدة النجاح ؟ هل يتحدث الواقع الصحيح بهذا ؟ لا أظن ؛ بل أعتقد دائماً أن فشل الفاشلين لعجزهم أو ضعفهم أو نقصهم يملى بالفضيلة والأخلاق . وإلا فهل خرج إلى ميدان واحد من الحياة رجلان تساوى فهمهما لهذه الحياة ، وتساوى تسلحهما لما يبغيان من غاية ، وكان أحدهما نبيلا ، والآخر فسيلا ، فنجح الثاني وسقط الأول ، أو نجح الثانى أكثر من نجاح الأول ، بغير فارق إلا فضيلة الأول ورذيلة الثاني ؟ لا أظن ، فلو كانا فى عمل حر ولهما هذا التساوى التام لأكد الواقع أن أي مجتمع مهما اشتد فساده سيجد في فضيلة الأول نوعاً من الدقة والثبات ، وسبباً للطمأنينة إليه ، ويدفعه كل أولئك إلى الإعجاب به وإيثار معاملته ؛ بل لا أشك فى أن الثانى السافل لن ينجح إلا إذا اصطنع هذه الفضيلة وحقق آثارها بل ادعاها فى غير مناسبة كما هو شأن أعداء الفضيلة دائماً . ولو تخلفت هذه النتيجة فنجح النذل أو زاد نجاحه لغير فارق آخر بين الرجلين فما أظن هذا يكون إلا عن نسبة من الندرة تؤكد القاعدة ولا تهدمها ؛ وأنا كفيل بأن تجد دائماً فى مثل هذه الحالة فارقاً فى الكفاية والاستعداد واليقظة وما إلى ذلك

وإن ذهب وهم القارئ ـ كما ذهب وهم أصحاب هذه الثورة ـ إلى أن النذل سيصطنع بعد الكفاية والاستعداد أساليب منحطة لا يلوى عليها النبيل ، فقد فاته أن يقظة النبيل تقضى عليه باحتياط نبيل لهذه الأساليب ، وعمل على كشفها وفضحها ، وإلا كان ناقص الاستعداد محدود الفهم لواقع الحياة ونذالة الأنذال ، وعاد النقص على استعداده ولم يكن الذنب لفضيلته

هذا حين يتحد الميدانان ؛ لكن الثائرين سيقولون إن الميادين متعددة وسبلها إلى الوصول مختلفة ، وسيتخير النذل أقصرها وأسرعها فيصل فى غير مشقة ، على حين يكد الفاضل فيصل متأخراً ولا يصل إلا لبعض الشيء . فهب أحدهما اتجر فى الغلال أو الأقطان لأنه فاضل ، واتجر الثانى فى المخدرات أو الرقيق الأبيض لأنه لا يبالى ؛ حسن ، سيربح الأول ربحاً يسيراً ثابتاً غير مهدد بالتضحية من أجل حمايته أو الوصول إليه لأنه أكشف الوجه واضح الطريق ، ربحاً غير مهدد بالمطاردة ، غير مهدد بالمخاطرة ، غير مهدد بالمرض وقصف العمر سريعاً ؛ وسيربح الثانى ربحاً وافراً سريعاً يبذل غير القليل منه لحمايته أو الوصول إليه ، ربحاً مهدداً بالخطر ، مهدداً بقصر العمر إثر الجهد والاحتيال والمجازفة ، بل مهدداً بالموت السريع ، والفضيحة العاجلة ... إلى آخر مالا أزعج القارئ به من آفات تكفي أيسر نظرة متأنية لتبينها وتشهد بأن لذة زوجة شريفة من زوجية غير سعيدة أكثر فى مجموعها وأقوى فى جملتها من لذة مومس هائلة ، لا تزيد حياتها فى ذلك على بضع سنوات حين تطول حياة الزوجة عقوداً بعد تلك السنين . والعملية الحسابية المادية تحدث نتيجتها دائماً لو أحسن حساب اللذائذ والآلام ، والخسائر والمكاسب بأن الفضيلة قد اختيرت لعائدتها فوق ما فيها من النبل ، وأن ليس الفشل لسبب خلق بل لغيره دائماً

وهنالك الوظائف والدواوين لجريان الأمر فيها على الهوى واضطراب السياسة قد تظهر ميداناً غير خاضع لهذه القاعدة ، ميداناً قد ترتفع فيه نسبة الشذوذ والتخلف ، لكن حتى هذا الميدان تنتهى فيه النظرة التأنية إلى تلك النتيجة نفسها ، فلو دخله موظفان قد تساويا فى كل شيء ، واختلفا فى الخلقية لم يهن أن ينجح النذل لنذالته لا غير إلا حين يسلك طرائق يأباها الشريف فيتقدم هذا كلما اضطرب الميزان وضعف الرئيس ، لكنه تقدم غير مطرد ؛ إنه تقدم مهدد بمثل ما يهدد تاجر المخدرات أو قريباً

(١) من عبارة الأستاذ الزيات فى العدد ٢٣١ من الرسالة بتصرف اقتضاه إدماج العبارة لا غير

منه طفرة سريعة ونكسة غير بطيئة ؛ ولا أقل من ألم الخوف والفزع بعدم ثبات الحالة ، وتغير السيد ، والرأس الناكسة ، والعجز عن دعوى الفضيلة والكرامة التي يحرص مثل هؤلاء على ادعائها . آلام تنتهي بها العملية الحسابية إلى قريب من نتيجتها المطردة ؛ وفي الجانب الثاني لذائذ لا يرضى الشريف أن يدع مكانه مستبدلا بها آلام خصمه ، ولو ساومته على ذلك لرفض . هذا إذا كان كل الفرق بينهما الأخلاق ؛ أما إن وجدت شيئاً وراء ذلك كما هو الكثير الغالب ، بل الذي يقع دائماً ، من لباقة وحسن بيان ، ومعرفة بالرغبات ، ومرونة في العمل ، وطلاقة وجه ، وما إلى ذلك ، فقد عادت اللائمة على وخامة الثاني ونقصه لا على أخلاقه ، ولم تكن الأخلاق سبيلا إلى الفشل ولا عائقاً عن النجاح

وأما دعوى الثورة أن الطيبين القانعين المخصوصين بالرضا لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً ما من رجال المال والأعمال كفلان وفلان فدعوى يقول الأستاذ الزيات على لسان أصحابها : ما معنى أن يظل التواضع والقناعة والزهد والمداراة والتوكل على اطلاقها فضائل ؛ كما يقول : أليس صلف الإنجليزي أبلغ في العزة ، وطمع الفرنسي أليق بالحياة ، وطموح الإيطالي أخلق بالرجولة ، وصراحة الألماني أدعى إلى الهيبة ، واستقلال الأمريكي أضمن للفوز ؟

تلك هي الدعوى ؛ لكن هذا المعنى للفضائل التي عدت معنى لا تعرفه خلقية دينية ، ولا تقره خلقية فلسفية ؛ فانما التواضع أن تكون رفيع القدر فلا تتطرس ، وليس التواضع اتضاعاً . وإنما القناعة أن تملك فلا تشره ، وليست القناعة ترك مادة الحياة وافساح الطريق لعاد أو غاصب . وإنما الزهد أن تستطيع فلا تنهم ، وليس الزهد العجز عما في الدنيا والحسرة على ما في أيدي الناس . وإنما التوكل أن تقدم واثقاً لا أن تحجم عاجزاً . وأما المداراة فما عرفناها بين الفضائل . والخلق والدين يقرران أن صلف الانجليزي قبيح أفضل منه عزة المؤمن الذي يرى العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فحسب . وطمع الفرنسي قبيح أليق منه قيام المتدين وذي الخلق بحق الحياة وواجبها . وطموح الايطالي مفتعل أصل منه تلك العزة الروحية وهذا الإباء الساعي لإعلاء كلمة الحق ، المتقدم إلى الدنيا بمهمة اجتماعية ، وعمل إنساني يرغم من أجله ويجهد في سبيله . واستقلال الأمريكي بعض مغامرة الذي يقدم واثقاً باحدى الحسنيين . وصراحة الألماني بعض شجاعة الذي لا يخشى في الحق لومة لائم . وما هذا الذي يعيب الثائرون من صور التواضع المتضع ، والزهد العاجز ، والقناعة المحرومة ، والتوكل الخامل ، إلا صور لا تعرفها الأخلاق ولا يفشل أصحابها لأخلاقهم بل يفشلون لفشل أخلاقهم

وأما هذا الربا الذي جاء في عداد تلك الأخلاق فمسألة اقتصادية عملية ، لا خلقية أدبية ؛ وهي فكرة اقتصادية ، يقرن فيها النظام الاسلامي الكامل الذي قررها بالنظم الاقتصادية الأخرى ليحكم لهذا أو ذاك ، وليست تلك المسألة من أسباب الثورة على الأخلاق في شيء

* * *

ويعرض الأستاذ الزيات على لسان تلك الثورة أن يكون مقياس الفضائل والرذائل هو النفع والضرر ، فما كان مؤدياً إلى منفعة سمى فضيلة ، وما كان مؤدياً إلى مضرة سمى رذيلة . وهذا مقياس لا يأباه الدين ولا الخلق ، فالمذهب النفعي قديماً وحديثاً معروف بين مذاهب الخير ؛ ولكن ليس بهذا اليسر والسهولة التي تفهمها الثورة على الأخلاق ، وتأخذ فيه باللمحة الطائرة . فما المنفعة المحكمة ؟ وما المضرة التقاة ؟ أمنفعة الفرد أم منفعة الأسرة أو الأمة أو العالم ؟ آلمنفعة المادية الحاسية أم المنفعة المعنوية العقلية أم هما أم فرع منهما وما هو ؟ آلمنفعة العاجلة أم المنفعة الآجلة أم هذه وتلك ؟ ومتى تكون هذه ومتى تكون تلك ؟ وإذا تعارضت منفعة ومضرة فكيف يوازن بينهما وبأى شيء ؟ وإذا وجدت منفعتان في عملين فكيف يفاضل بينهما وبأى شيء ؟ وإذا وإذا ... من مضايق شائكة يسلكها الباحث ليخرج منها بمقياس للأخلاق منفي . وقد انتهى كل أولئك الباحثين على اختلاف ما بينهم إلى أن هناك فضيلة ورذيلة ، وأحبوا هذه ، وثاروا على تلك ؛ فلن يكون تحكيم المنفعة منهياً للثورة على الأخلاق . وهأنذا قد حكمت المنفعة فيما مضى من موازنة بين نجاح تاجر النلال وتاجر المخدرات فلم تخرج النتيجة شاهدة بفشل الأخلاق

وأخيراً يا صاحب الرسالة : اسمح لي أن أحملك رسالة إلى الثائرين . قل لهم : استعدوا للحياة بعد فهمها فهماً صحيحاً قبل أن تلفوا تبعة فشلكم على الأخلاق . ولا تحكموا على الفضائل بعمل الناس فتحكموا بفشل الأخلاق ، لأن للفضائل حقائق ثبتت على الاختبار ، وأيدتها التجربة بعد بحث لا تزال الإنسانية تمنحه قوتها وجهدها . وانظروا إلى النتائج البعيدة والقريبة للأعمال ،

أناشيد صوفية

جيتـــانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٢٦ —

لقد دلف إلىّ وجلس إلى جانبي ولكنى لم أستيقظ . يالتعس هذه النومة ، ويالشقاوتى !

جاء والليل ساج وفى يده قيثاره ، فرن نغم لحنه العذب خلال أحلامي

يا أسفا ، أهكذا تضيع ليالىّ ؟ آه ، لماذا أُحرم — دائماً — النظر إليه وأنفاسه تداعبنى فى نومى ؟

— ٢٧ —

النور ؛ أوه ، أين هو النور ؟ أشعله بنار الرغبة المتأججة

ها هو المصباح ولكنه لا يضىء أبداً ؛ إنه مظلم كحظك يا قلبي !

آه ، إن الموت خير لك

إن البؤس يقرع بابك ليوحى إليك بأن سيدك يقظان يناديك إلى ميعاد الهوى فى غسق الليل

السماء مثقلة بالغيوم ، والمطر ما يبرح يهطل مدراراً ، وأنا لا أعرف ماذا يضطرب فى جوانحى ، ولا أعى له معنى

إن وجهي يكفهر لومضات البرق ، وقلبى يتلمس طريقه إلى حيث موسيقا الليل تناديه

النور ؛ أوه ، أين هو النور ؟ أشعله بنار الرغبة المتأججة !

السماء ترعد ، والرياح تهب هوجاء تملأ الفضاء ، والليل قاتم كالصخرة السوداء ؛ فلا تدع الظلام يخيم علينا ، واشعل مصباح الهوى بنور حياتك

— ٢٨ —

إن صلابة الرأى عقال يتألم قلبى حين أحاول أن أتخلص منه

إن الحرية هى كل ما أبتغى ، وأنا أستشعر الخجل حين أتمناها

أنا أومن بأن بين يديك الثراء العريض ، وأنك أنت صديقى الحميم ، ولكنى لا أجد فى نفسى الجرأة على أن أزيل كل ما يملأ حجرتى من بهرج

إن هذا السجف التى يسترنى هو كفن من التراب والموت أنا أبغضه غير أنى أضنى به

إن ديونى كثيرة وخطاياى أعظم ، وعيوبى التى أخفيها فى نفسى تثقلنى ؛ وحين أنطلق لأطلب إليك الاحسان تسيطر علىّ رعدة شديدة خشية ألا تتقبل صلاتى

— ٢٩ —

إن فى هذا البناء — جسمى — شبحاً يذرف الدمع فى خلوته ، وأنا دائماً فى شغل شاغل أشيد حوله سوراً عالياً ، وعلى مرّ الأيام ارتفع سَمْكه فعميت عن حقيقة وجودى وأنا فى ظلامه القاتم

لقد أخذتنى العزة بهذا السور الشامخ فاندفعت أطليه بالطين والرمل خشية أن تكون به فُرجة ، ولكن ما بذلت من جهد أعمانى عن حقيقة وجودى

— ٣٠ —

ها أنا أتيت وحيداً لأفى بوعدى ؛ ولكن من هذا الذى يتبعنى فى دجى الليل وسكونه ؟ وعبثاً تحولت عن طريقى لأضلله

إنه يثير الغبار وهو يمشى الخيلاء ، وهو يردد قولى فى صوت أجش

إنه روحى الضئيل — يا إلهى — وهو لا يستشعر الخزى ، وأنا أستحى ألج بابك برفقته

— ٣١ —

قلتُ : « يا أيها السجين ؛ خبرنى ، من ذا الذى قيدك هنا ؟ »

ودققوا فى الموازنة بين فاشل وناجح قبل أن تحكموا بأن هذا فشل لأخلاقه دون غيرها ، وهذا نجح برذائله دون غيرها . ولا تظنوا طيبة القلب وسلامة الضمير والبعد عن إيذاء الناس وسائل وأسلحة تكفى وحدها للنجاح كما ظن ظانون أن الايمان وحده كاف لهزيمة الأعداء ؛ لأن الله قد سير هذا الكون على نواميس لا تتخلف ، وجعل الميزات المبنوية والنفسية مرجحات بين من تساويا مادياً وفهما النواميس فهماً واحداً ؛ وبدل أن تهيب بدهاقنة الدين وفلاسفة الأخلاق أن يتدخلوا فى سوق الفضائل معدلين ، أهب بزعماء الثورة أن يتدخلوا فى تقدير الحياة مدققين ؛ فإن ثاروا بعد ما كملت لهم هذه الدقة فعلى الدهاقنة أن يعيدوا النظر فيعدلوا ويحوروا

أمين الخولى

قال: « هو سيدى ، لقد ظننت أنى أبذّ كل إنسان على الأرض بما لدى من ثراء وقوة ، وبين يدى بيت المال وهو ينضم على كل ما يملك مليكى . وحين يغلبنى النعاس أنطرح على فراش كان فى — يوم ما — سرير سيدى ؛ وحين أستيقظ أجد نفسى سجيناً فى بيت المال »

قلت : « يا أيها السجين ؛ خبّرنى ، من ذا الذى صنع هذه السلسلة الصلبة ؟ »

قال : « بيدى الصناع ابتدعتها ، وخُيل إلى ان قوتى الكامنة ستقبض على العالم كله وأظل أنا طليقاً فى أمان ، فقضيت عمراً من عمرى أهين هذه السلسلة أستعين بالنار والمقامع الحديدية الشديدة ؛ فلما فرغت من عملى وتمت حلقاتها وجدت نفسى مقيداً بها »

— ٣٢ —

لقد حاول أحبائى على الأرض جهدهم أن أعيش بين أيديهم فى أمان ؛ ولكن حبك أنت يفوق حبهم . أنت يامن تكفل حريتى

إنهم يلازموننى دائماً خيفة أن أنساهم ، وها هى الأيام تمر سراعاً وأنت ما تزال تتستر خلف الحجب

وإذا لم أتوسل إليك فى صلواتى ، وإذا لم أحفظك فى قلبى ، فحبك لى ما يزال ينتظر حبى لك

— ٣٣ —

وحين يسفر وجه الصبح يفدون إلى دارى زمراً ويقولون « سننزل فى هذه الغرفة الضيقة »

ثم يقولون «سنشد أزرك فى عبادة ربك لننال فضل إحسانه»

ثم قبعوا فى ركن فى هدوء وتواضع

وفى هدأة الليـل تدافعوا إلى هيكلى المقدس فى صخب ، يستلبون القرابين من محراب الرب فى شَرَه

— ٣٤ —

هب لى بعض نفسى فأذكرك كلك

هب لى بعض عزمى فأشعر بك فى كل مكان ، وأنزع إليك فى كل عملى وأحبوك بحبى فى كل آن

هب لى بعض نفسى فلا أستخفى منك

هب لى بعض هذه الأغلال فأنا مقيد بمشيئتك ، وما تريده فهو آت ... هذه القيود هى قيود حبك

— ٣٥ —

حين يطمئن الفؤاد فلا يستولى عليه الذعر فيرتفع الرأس عالياً

حين تكون حرية الرأى ،

حين لا يتصدع العالم شيماً وتفرق بينه الحدود الضيقة ،

حين تنبعث الكلمات من أعماق الحقيقة ،

حين يمد التناحر الدائم ذراعيه صوب الكمال ،

حين يهتدى الرأى الناضج إلى طريقة السوىّ فلا يضل فى متاهات التقاليد البالية

حين تجذب العقل إليك ... إلى الفكرة والعمل الأبديين إلى سماء الحرية ؛ أنزع — يا إلهى — عن وطنى سباته العميق

— ٣٦ —

ها هى صلواتى إليك ـ يا إلهى ـ : جُذّ أصول العوز من قلبي؛

امنحني القدرة على أن أحمل أفراحى وأتراحى معاً

امنحنى القدرة على أن أخلق من حبي عملاً صالحاً

امنحنى القدرة على ألاّ أنهر فقيراً ، وألاّ أخرّ على ركبتى أمام غطرسة الجبار

امنحنى القدرة على أن أسمو بعقلى فوق السخافات الأرضية

ثم امنحنى القدرة على أن أنزل فى رضا عن كبريائى أمام مشيئتك

— ٣٧ —

يتراءى لى كأن رحلتى قد انتهت عند الغاية ، عند آخر نزوة من نزوات قوتي — ها هو الطريق قد أغلق أمامى ، ونفد زادى وآن لى أن أستريح فى سكون الظلام

ولكن يخيل إلىّ أن إرادتك لا تجد فىّ النهاية ، فحين تموت الكلمات الرثة على شفتىّ يتفجّر القلب بنغم عذب ، وحين تنسد أمامى المسالك القديمة يتفتح أمامى عالم جديد فيه العجائب

— ٣٨ —

إنني أهفو إليك ، إليك وحدك — دع قلبى يرددها مرات ومرات فى غير نهاية . إن الوساوس التى تلح علىّ صباح مساء ، لتصرفنى عنك ، إن هى إلاّ جوفاء خدّاعة

حين يتوارى الليل خلف سجوفه ينتظر بسمة الفجر ، ترن فى أعماق قلبى صيحة : إنني أهفو إليك ، إليك وحدك

حين تعدو العاصفة الهوجاء فى طريقها تبتغى الهدوء فتبدد هى السكون فى صولة وبأس ... فى هذا الحين تعصف نورتى الجامحة بحبك وهى ماتزال ترسل صيحاتها : إنى أهفو إليك ، إليك وحدك

كامل محمود حبيب

الكميت بن زيد

شاعر العصر المروانى

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ٤ —

وأما الرواية الثانية فى سبب المنافرة بين الكميت وخالد بن عبد الله فقد نقلها أبو الفرج الأصبهانى من كتاب محمد بن يحيى الخراز ، قال حدثنى أحمد بن ابراهيم الحاسب ، قال حدثنى عبد الرحمن بن داود بن أبي أمية البلخى ، قال : كان حكيم بن عباس الأعور الكلبي ولعاً بهجاء مضر ، فكانت شعراء مضر تجيبه ويجيبهم ، وكان الكميت يقول هو والله أشعر منكم . قالوا فأجب الرجل ، قال إن خالد بن عبد الله القسرى محسن إلي فلا أقدر أن أرد عليه . قالوا فاسمع بأذنك ما يقول في بنات عمك وبنات خالك من الهجاء ؛ وأنشدوه ذلك ، فحمى الكميت لعشيرته فقال المذهبة :

« ألا حُيِّيتِ عنَّا يا مَدِينا »

فأحسن فيها ، وبلغ خالداً خبرها ، فقال لا أبالي مالم يجر لعشيرتى ذكر ، فأنشدوه قوله :

ومن عجبٍ على لَعَمْرُ أمٍّ   غَذَتْكَ وغير هانيًا يعينا
تجاوزتَ المياهَ بلا دليلٍ   ولا علمٍ تَعَسَّفَ مخطئينا
فانك والتحوّلَ من مَعَدٍّ   كهيلة قبلنا والحالبينا
تخطتْ خيرهم حَلَباً ونَسْئاً   إلى الوالى المغادر هاربينا
كعنزِ السُّوءِ تنطح عالفيها   وترميها عِصيُّ الذابحينا

فبلغ ذلك خالداً فقال : فعلها ! والله لأقتلنه . ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن ، وتخيرهن نهاية فى حسن الوجوه والكمال والأدب ، فرواهن الهاشميات ، ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك فاشتراهن جميعاً . فلما أنس بهن استنطقهن فرأى فصاحة وأدباً ، فاستقرأهن القرآن فقرأن ، واستنشدهن الشعر فأنشدنه قصائد الكميت الهاشميات ، فقال : ويلكن من قائل هذا الشعر ؟ قلن : الكميت بن زيد الأسدى ، قال : وفى أى بلد هو ؟ قلن : فى العراق ثم بالكوفة ، فكتب إلى خالد : ابعث إلى برأس الكميت بن زيد . فبعث خالد إلى الكميت فى الليل فأخذه وأودعه السجن . ولما كان من الغد أقرأ من حضره من مضر كتاب هشام واعتذر إليهم من قتله ، وآذنهم فى إنفاذ الأمر فيه فى غد . فقال لأبان بن الوليد البجلى وكان صديقاً للكميت : أنظر ما ورد في صديقك ، فقال عز علىّ والله ما به . ثم قام أبان فبعث إلى الكميت فأنذره فوجه إلى امرأته ، ثم ذكر الخبر في خروجه ومقامها مكانه كما ذكر من تقدمه ، وقال فيه : فأتى مسلمة بن عبد الملك فاستجار به ، فقال : إنى أخشى ألا ينفعك جوارى عنده ، ولكن استجر بابنه مسلمة بن هشام ، فقال : كن أنت السفير بينى وبينه في ذلك ، ففعل مسلمة وقال لابن أخيه : قد أتيتك بشرف الدهر ، واعتقاد الصنيعة فى مضر ، وأخبره الخبر فأجاره مسلمة بن هشام ، وبلغ ذلك هشاماً فدعا به ثم قال : أتجير على أمير المؤمنين بغير أمره ؟ فقال : كلا ولكنى انتظرت سكون غضبه . قال : أحضرنيه الساعة ، فانه لا جوار لك . فقال مسلمة للكميت : إن أمير المؤمنين أمرنى بإحضارك . قال : أتسلمني يا أبا شاكر ؟ قال : كلا ولكنى أحتال لك . ثم قال له : إن معاوية ابن هشام مات قريباً ، وقد جزع عليه جزعاً شديداً ، فاذا كان من الليل فاضرب رواقك على قبره ، وأنا أبعث إليك بنيه يكونون معك فى الرواق فاذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بثيابك ، ويقولوا هذا استجار بقبر أبينا ، ونحن أحق من أجاره

فأصبح هشام على عادته متطلعاً من قصره إلى القبر . فقال : من هذا ؟ فقالوا : لعله مستجير بالقبر . فقال : يجار من كان إلا الكميت ، فإنه لا جوار له ، فقيل : فإنه الكميت ، قال : يحضر أعنف إحضار ، فلما دعى به ربط الصبيان ثيابهم بثيابه ، فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستعبر وهم يقولون : يا أمير المؤمنين ، استجار بقبر أبينا وقد مات ، ومات حظه من الدنيا ، فاجعله هبة له ولنا ، ولا تفضحنا فيمن استجاز به . فبكى هشام حتى انتحب ، ثم أقبل على الكميت فقال له : يا كميت أنت القائل :

وإنْ لا تقولوا غيرها تتعرَّفوا   نواصيها تردى بنا وهى شُزَّبُ

فقال : لا والله ولا أتان من أتن الحجاز وحشية ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ، ثم قال : أما بعد — فإنى كنت أتدهدى فى غمرة ، وأعوم فى بحر غواية ، أخنى على خطلها ، واستفزنى وهلها ، فتحيرت فى الضلالة ، وتسكعت فى الجهالة ، مهرعاً عن

الحق ، جائراً عن القصد ، أقول الباطل ضلالاً ، وأفوه بالبهتان وبالاً ، وهذا مقام العائذ مبصر الهدى ، ورافض العماية ، فاغسل عني يا أمير المؤمنين الحوبة بالتوبة ، واصفح عن الزلة ، واعف عن الجَرِمَة ، ثم قال :

كم قال قائلكم لعاً ... لك عند عثرته لعاثرْ
وغفرتُمُ لذوي الذنو ... ب من الأكابر والأصاغر
أبني أميَّةَ إنكم ... أهلُ الوسائل والأوامر
ثِقتي لكل مُلِمَّةٍ ... وعشيرتي دون العشائر
أنتم معادنُ للخلا ... فة كابراً من بعد كابر
بالتسعة المتتابعينَ ... خلائفاً وبخير عاشر
وإلى القيامة لا تزا ... لُ لشافعٍ منكم وواتر

ثم قطع الإنشاد وعاد إلى خطبته فقال : إغضاء أمير المؤمنين وسماحته وصباحته مناط المنتجعين بحبله ، من لا تحل حبوته لإساءة المذنبين ، فضلاً عن استشاطة غضبه بجهل الجاهلين

فقال له : ويلك يا كميت ، من زين لك الغواية ، ودلاك في العماية ؟
قال : الذي أخرج أبانا من الجنة ، وأنساه العهد فلم يجد له عزما
فقال : إيه أنت القائل :

فياموقداً ناراً لغيرك ضوءها ... ويا حاطباً في غير حبلك تحطبُ

فقال : بل أنا القائل :

إلى آل بيت أبي مالكٍ ... مُناخٌ هو الأرحب الأسهلُ
نَمَتْ بأرحامنا الداخلا ... ت من حيث لا يُنكرُ المدخل
بِمُرَّةَ والنَّضر والمالكين ... رهطٌ هم الأنبل الأنبل
وبارَى خزيمةَ بدرَ السما ... ءِ والشمسَ مفتاحُ ما نأمل
وجدنا قريشاً قريش البطا ... حِ على ما بنى الأوَّلُ الأوَّل
بهم صلح الناسُ بعد الفسا ... دِ وحيص من الفتق ما رَعبلُوا

قال له : وأنت القائل :

لا كعبد المليك أو كوليدٍ ... أو سليمانَ بعدُ أو كهشامِ
من يمتْ لايمتْ فقيداً ومن يحـ ... ـيَ فلا ذُو إلٍّ ولا ذو ذمام

ويلك يا كميت ، جعلتنا ممن لا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة ،
فقال : بل أنا القائل يا أمير المؤمنين :

فالآن صرتُ إلى أميَّـ ... ـةَ والأمور إلى المصايرْ
والآن صرت بها المصيـ ... ـب كمهتدٍ بالأمس حائر
ياابن العقائل للعقا ... ئل والجحاجحة الأخاير
من عبد شمس والأكا ... بر من أميةَ فالأكابر
إن الخلافة والإلا ... ف برغم ذي حسد وواغر
دَلَفا من الشرف التليـ ... ـد إليك بالرِّفدِ الموافر
فحللتَ مُعتلجَ البطا ... ح وحلَّ غيركَ بالظواهر

قال له : فأنت القائل :

فقل لبني أمية حيث حلوا ... وإن خفتَ المهندَ والقطيعا
أجاعَ الله من أشبعتموهُ ... وأشبع من بجوركم أُجيعا
بِمرْضِيِّ السياسة هاشميٍّ ... يكون حياً لأمته ربيعا

فقال : لا تثريب يا أمير المؤمنين إن أردت أن تمحو عني قولي الكاذب ، قال بماذا ؟ قال بقولي الصادق :

أورثتهُ الحَصانُ أمُّ هشام ... حسباً ثاقباً ووجهاً نضيرا
وتعاطى به ابن عائشة البد ... ر فأمسى له رقيباً نظيرا
وكساه أبو الخلائف مروا ... نُ سَنيَّ المكارم المأثورا
لم تجهم له البطاح ولكن ... وجدتها له معاناً ودورا

وكان هشام متكئاً فاستوى جالساً وقال : هكذا فليكن الشعر يقولها لسالم بن عبد الله بن عمر وكان إلى جانبه ، ثم قال : قد رضيت عنك يا كميت . فقبل يده وقال : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تزيد في تشريفي ، ولا تجعل لخالد علي إمارة ، قال : قد فعلت وكتب له بذلك وأمر له بأربعين ألف درهم ، وثلاثين ثوباً هشامية وكتب إلى خالد أن يخلي سبيل امرأته ، ويعطيها عشرين ألفاً وثلاثين ثوباً ، ففعل ذلك

وأما الرواية الثالثة فقد قال فيها أبو الفرج الأصبهاني : أخبرني أحمد بن عبد الله بن عمار ، قال حدثنا النوفلي علي بن محمد بن سليمان أبو الحسن ، قال حدثني أبي قال : كان هشام بن عبد الملك قد اتهم خالد بن عبد الله ، وكان يقال له إنه يريد خلعك ، فوجد بباب هشام يوماً رقعة فيها شعر ، فدخل بها على هشام فقرئت عليه ، وهي :

تألَّق برقٌ عندنا وتقابلت
أثافٍ لِقِدْرِ الحرب أخشى اقتبالَها
فدونكَ قِدْرَ الحربِ وَهْيَ مُقرَّةٌ
لِكفَّيك واجعل دون قِدْرٍ جِعالَها
ولن تنتهي أو يبلغَ الأمرُ حدَّهُ
فَنَلْهَا بِرِسْلٍ قبل ألاّ تنالها

فتجشَّمَ منها ما تجشَّمتْ من التى
بسُوراءَ هرّتْ نحو حالكَ حالها
تلافَ أمورَ الناس قبل تفاقمٍ
بعُقدةِ حزمٍ لا تخاف انحلالها
فما أبرم الأقوامُ يوماً لحيلة
من الأمر إلا قلّدُوكَ احتيالها
وقد تخبرُ الحربُ العوانُ بسرّها
وإن لم تَبُحْ من لا يريد سؤالها

فأمر هشام أن يجمع له من بحضرته من الرواة فجمعوا، فأمر بالأبيات فقرئت عليهم، فقال: شعر من تشبه هذه الأبيات؟ فأجمعوا جميعاً من ساعتهم أنه كلام الكميت بن زيد الأسدى، فقال هشام: نعم هذا الكميت ينذرنى بخالد بن عبد الله، ثم كتب إلى خالد يخبره وكتب إليه بالأبيات، وخالد يومئذ بواسط فكتب خالد إلى واليه بالكوفة يأمره بأخذ الكميت وحبسه، وقال لأصحابه: إنه بلغنى أن هذا يمدح بنى هاشم ويهجو بنى أمية فأتونى من شعره هذا بشيء، فأتوه بقصيدته اللامية التى أولها:

ألا هل عَمٍ فى رأيه متأمل   وهل مدبر بعد الاساءة مقبل

فكتبها وأدرجها فى كتاب إلى هشام يقول فيه: هذا شعر الكميت، فإن كان قد صدق فى هذا، فقد صدق فى ذاك

فلما قرئت على هشام اغتاظ، فلما قال:

فياساسة هاتوا لنا من جوابكم   ففيكم لعمرى ذو أفانين مقول

اشتد غيظه، فكتب إلى خالد يأمره أن يقطع يدي الكميت ورجليه ويضرب عنقه، ويهدم داره ويصلبه على ترابها. فلما قرأ خالد الكتاب كره أن يستفسد عشيرته، وأعلن الأمر رجاء أن يتخلص الكميت، فقال: لقد كتب إلى أمير المؤمنين، وإنى لأكره أن استفسد عشيرته ومباه، فعرف عبد الرحمن بن عنبسة ابن سعيد ما أراد، فأخرج غلاماً له مولداً ظريفاً، فأعطاه بغلة له شقراء فارهة من بغال الخليفة، وقال: إن أنت وردت الكوفة فأنذرت الكميت لعله أن يتخلص من الحبس فأنت حر لوجه الله والبغلة لك، ولك على بعد ذلك إكرامك والاحسان إليك فركب البغلة وسار بقية يومه وليلته من واسط إلى الكوفة فصبحها، فدخل الحبس متنكراً، فخبر الكميت بالقصة، فأرسل إلى امرأته وهى ابنة عمه يأمرها أن تجيئه ومعها ثياب من لباسها وخفان ففعلت، فقال: ألبسينى لبسة النساء ففعلت، فخرج فمر بالسجان فظن أنه المرأة فلم يعرض له، فنجا وأنشأ يقول:

خرجتُ خروجَ القِدْحِ قِدْحِ ابن مُقبِلِ
على الرَّغم من تلك النوابح والمُشْلِ
علىَّ ثيابُ الغانياتِ وتحتها
عزيمةُ أمرٍ أشبهتْ سَلّةَ النصْلِ

وورد كتاب خالد على والى الكوفة يأمره فيه بما كتب به إليه هشام، فأرسل إلى الكميت ليؤتى به من الحبس فينفذ فيه أمر خالد، فدنا من باب البيت فكلمتهم المرأة وخبرتهم أنها فى البيت وأن الكميت قد خرج، فكتب بذلك إلى خالد، فأجابه: حرة كريمة فدت ابن عمها بنفسها، وأمر بتخليتها، فبلغ الخبر الأعور الكلبي بالشام، فقال قصيدته التى يرمى فيها امرأة الكميت بأهل الحبس ويقول:

« أسْودِينا واحْمِرينا »

فهاج الكميت ذلك حتى قال:

« ألاَ حُيِّيتِ عنّا يامدينا »

وهي ثلثمائة بيت لم يترك فيها حياً من أحياء اليمن إلا هجاهم وتوارى وطلب فمضى إلى الشام فقال شعره الذى يقول فيه:

« قِفْ بالديار وقوفَ زائرْ »

ويقول:

يامَسْلَمُ ابن أبى الوليـد لِمَيّتٍ إن شئتَ ناشِرْ
اليومَ صرتُ إلى أُمَيّـة والأمور إلى المصاير

فأذن له ليلاً، فسأله أن يجيره على هشام، فقال: إنى قد أجرت على أمير المؤمنين فأخفر جوارى، وقبيح برجل مثلى أن يخفر فى كل يوم، ولكنى أدلك فاستجر بمسلمة بن هشام وبأمه أم الحكم بنت يحيى بن الحكم، فإن أمير المؤمنين قد رشحه لولاية العهد، فقال الكميت: بئس الرأى، أضيع دمى بين صبى وامرأة، فهل غير هذا؟ قال: نعم، مات معاوية بن أمير المؤمنين وكان يحبه، وقد جعل أمير المؤمنين على نفسه أن يزور قبره فى كل أسبوع يوماً — وسمى يوماً بعينه — وهو يزوره فى ذلك اليوم، فامض فاضرب بناءك عند قبره واستجر به، فإنى

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٧ —

« ... إنه ليس معي إلا ظلالها ، ولكنها ظلال حية تروح وتجيء فى ذاكرتى . وكل ما كان ومضي هو فى هذه الظلال الحية كأن لا يفنى . وكما يرى الشاعر الملهم كلام الطبيعة بأسره مترجما إلى لغة عينيه ، أصبحت أراها فى هجرها طبيعة حسن فاتن مترجمة بجملتها إلى لغة فكرى

« كان لها فى نفسى مظهر الجمال ومعه حماقة الرجاء وجنونه ثم خضوعى لها خضوعا لا ينفعني ... فبدلني الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله ، ثم خضوعها الخيالي خضوعا لا يضرها ...

« وما أريد من الحب إلا الفن ، فان جاء من الهجر فن فهو الحبّ ...

« كلما ابتعدت فى صدها خطوتين رجع إلي صوابى خطوة »

« لقد أصبحت أرى ألين العطف فى أقسى الهجر ، ولن أرضى بالأمر الذى ليس بالرضا ، ولن يحسن عندى مالا يحسن ولن أطلب الحب إلا فى عصيان الحب . أريدها غضبي ، فهذا جمال يلائم طبيعتى الشديدة ، وحب يناسب كبريائى . ودع جرحى يترشش دما ، فهذه لعمرى قوة الجسم الذى ينبت ثمر الفضل وشوك المخلب ، وما هى بقوة فيك إن لم تقو أول شيء على الألم ...

« أريدها لا تعرفني ولا أعرفها ، لا من شيء إلا لأنها تعرفني وأعرفها ... تتكلم ساكتة وأرد عليها بسكوتي . صمت ضائع كالعبث ولكن له فى القلبين عمل كلام طويل .. »

(الرافعى)

أوراق الورد

هدأت ثائرة الرافعى هوناً ما ، وفاءت إليه نفسه ، واعتدلت مقادير الأشياء فى عينيه ، وعاد إلى حالة بين الرضى والغضب ، وبين الحب والسلوان ؛ فاستراح إلى اليأس ... لولا أثارة من الحنين تنزع به إلى الماضى ، وبقية من الشوق واللهفة على ما كان يفرغت أيامه من الحادثة لتتلى من بعدُ بالشعر والحكمة والبيان

ومضت سبع سنين والحياة تذهب به مذاهبها ، والذكرى تغشاه فى خلوته وتداعبه فى أحلامه ، والأمانىّ التى بعثرتها الكبرياء بَدَداً فى أودية النسيان تتخايل له فى شكول وألوان ، وخواطره من وراء ذلك تعمل ، ونفسه الشاعرة تحس وتشعر وتنفعل بما يتعاقب عليها من الرُّؤى والأحلام . وأتم نظم قصيدته البارعة فى « أوراق الوردَ » فى سنة ١٩٣١

أوراق الورد هو طائفة من الخواطر المنثورة فى فلسفة الحبُ والجمال ، أنشأه الرافعى ليصف حالة من حالاته ، ويثبت تاريخاً من تاريخه ، فى فترة من العمر لم يكن يرى لنفسه من قبلها تاريخاً ولا من بعد

ويقول الرافعي إنه جمع فى أوراق الورد رسائلها ورسائله . أما رسائله فنعم ولكن على باب من المجاز ، وأما رسائلها فما أدرى أين موضعها من الكتاب ، إلا رسالة واحدة وجُزازات من كتب وتنفاً من حديثها وحديثه

بلى ، إن فى أوراق الورد طائفة من رسائله إليها ، ولكنها رسائل لم تذهب إليها مع البريد ، بل هى من الرسائل التى كان يناجيها بها فى خلوته ، ويتحدث بها إلى نفسه ؛ أو يبعث بها إلى خيالها فى غفوة المنى ، ويترسَّل بها إلى طيفها فى جلوة الأحلام إلا رسالتين أو ثلاثاً مما فى أوراق الورد ... فلما أتم تأليفها وعقد عقدتها ، بعث بها إليها فى كتاب مطبوع بعد سبع سنين من تاريخ الفراق !

***

ولكن أوراق الورد ليس كله من وحى (فلانة) ، وليست كل رسائله فى الكتاب إليها ؛ فهنالك الأخرى ، هنالك صاحبة (حديث القمر) ، تلك التى عرفها فى ربوة من لبنان منذ تسع عشرة سنة ، وهنا فلانة ...

هما اثنتان لا واحدة : تلك يستمدّ من لينها وسماحتها وذكرياتها السعيدة ، معانىَ الحب التى تملأ النفس بأفراح الحياة وهذه يستوحيها معانى الكبرياء والصد والقطيعة وذكريات الحب الذى أشرق فى خواطره بالشعر وأفعم قلبه بالألم !

سأحضر معه وأ كله بأ كثر من الجوار

فعمل ذلك الكميت فى اليوم الذى يأتيه فيه أبوه ، فجاء هشام ومعه مسلمة فنظر إلى البناء فقال لبعض أعوانه : أنظر ماهذا ؟ فرجع فقال : الكميت بن زيد مستجير بقبر معاوية بن أمير المؤمنين ، فأمر بقتله ، فكلمه مسلمة وقال : يا أمير المؤمنين إن إخفار للأموات عار على الأحياء ، فلم يزل يعظم عليه الأمر حتى أجاره

عبد المتعال الصعيدى

لقد مضت سبع سنين منذ فارق صاحبته (فلانة) كان قلبه في أثنائها خالصاً لها ، ولكن فكره كان يدور على معاني الشعر يلتمسه من هنا ومن هناك ؛ فلما اجتمع له ما أراد ، ضم أوراق الورد إلى أشواكه ، وأخرجها كتاباً للفن أولا ثم لها من بعد

هو كتاب ليس كله من نبضات قلبه الذي يعشقها وما زال متيماً في هواها ، ولكن فيه إلى جانب ذلك فكر المفكّر وعقل الأديب وحيلة الفنان

بلى ، إنه كان يحبها حباً لا يتسع القلب لأن يشرك فيه غيرها فكان (قلبه) لها من دون النساء جميعاً ، ولكن الذكريات كانت تتوزع (فكره) فتوحي إليه من هنا ومن هنالك ومما يستجد على خواطره من بعد في معاني الحب والبغض والود والقطيعة

هو كتاب يصور نفسه وخواطره في الحب ؛ ثم يصوّر فنه وبيانه في لغة الحب ؛ ثم ... ثم لا يصور شيئاً من بعد مما كان بينه وبين صاحبته على وجهه وحقيقته ، إلا أن يتدبر قارئه ويستأني ليستخلص معنى من معنى على صبر ومعاناة في البحث والاستقراء

فما رأيت من رسالة فيها اللهفة والحنين ، وفيها التذلل والاستعطاف ، وفيها تصنُّع الغضب ودعوى الكبرياء ، وفيها المنى الحالمة تتواثب بين السطور في خفة الفراشة الطائرة ؛ وما رأيت من معنى تحاول أن تمسكه فيفلت ؛ فهو فصل يؤدي أداءه في قصة هذا الحب العجيب

وما قرأت من رسالة تصف ما كان في خلوة نفس إلى نفس ، وتقص عليك في لغة الماضي حديث قلب إلى قلب ، وتكشف لك عن سر الابتسامة ومعنى النظرة ، وتتحدث إليك عن جمال الطبيعة وفلسفة الكون ؛ فهو ذكرى من الماضي البعيد ، كان حباً في القلب فصار حديثاً في الفكر ، ثم استتبع شيء شيئاً

وما قرأت من قول مزوّق ، وبيان منمّق ، ومعنى يلد معنى ، وفكرة تستجرّ فكرة ، وعبارة تتوكأ على عبارة ؛ فهو من أداء الفن وولادة الفكر

ولقد تجد رسالة كلها حنين ولهفة ، أو حادثة وذكري ، أو فن من الفن ؛ ولقد تجد كذلك رسالة غيرها تجمع هذه الثلاثة في قَرَن ؛ ففيها قلب ينبض ، وذكرى تعود ، وبيان مصنوع

فإذا أنت عرفت هذه الثلاثة ، عرفت الكتاب ، وعرفت صاحبه ، وخرجت منه بشيء

***

يبدأ أوراق الورد بمقدمة بليغة في الأدب يتحدث فيها عن تاريخ رسائل الحب في العربية بأسلوب هو أسلوب الرافعي ، وإحاطة هي إحاطته ، وسعة اطلاع لا تعرفها لغيره ؛ وهذه المقدمة وحدها هي باب في الأدب العربي لم ينسج على منواله ولم يكتب مثله ، تذكر قارئها ذلك النهج البارع الذي نهجه الرافعي العالم المؤرخ في كتابه « تاريخ آداب العرب » فكان به أول من كتب في تاريخ الأدب وآخر من كتب ...

وتأتي بعد هذا الفصل مقدمة الرسائل ، وفيها سبب تسمية الكتاب ، وهو شيء مما كان بينه وبين صاحبته ؛ يقول إنه كان في مجلسها يوماً ومعها وردة ؛ فأخذت تحدثه عن الحب وعمر الحب ، وعن الورد وعمر الورد ، وكأنها تقول له : إحذر أن تجعل حظك من الوردة أكثر من أن تستنشيها على بُعد من دون لمسة البنان ، واحذر في الحب ... قال : « ثم دنت الشاعرة الجميلة فناطت وردتها إلى عروة صاحبها ، فقال لها : وضعتِها رقيقة نادية في صدري ، ولكن على معان في القلب كأشواكها ... فاستضحكت وقالت : فإذا كتبت يوماً معاني الأشواك فسمها أوراق الورد ... وكذلك سماها »

ويمضي في هذه المقدمة يتحدث عن حبه ، وآلامه في الحب ورأيه في الحب ، وشيء مما كان بينه وبينها ؛ ثم يتحدث عن نهجه في هذه الرسائل ، وما أراد بها ، وما أوحاها إليه ؛ في أسلوب كله حنين ، وكله شوق وألم

ثم تأتي بعد ذلك فصول الكتاب متتابعة على ما أوضحت طريقها من قبل : فيها حنين العاشق المهجور ، وفيها مُنية المتمني وفيها ذكريات السالي ، وفيها فن الأديب وشعر الشاعر ؛ وفيها من رسائلها ومن حديثها ...

***

من أراد أوراق الورد على أنه قصة حب في رسائل لم يجد شيئاً ؛ ومن أراده رسائل وجوابها في معنى خاص لم يجد شيئاً ؛ ومن أراده تسلية وإزجاء للفراغ لم يجد شيئاً ؛ ومن أراده نموذجاً من الرسائل يحتذيه في رسائله إلى من يحب لم يجد شيئاً ؛ ومن أراده قصة قلب ينبض بمعانيه على حاليه في الرضى والغضب ، ويتحدث بأمانيه على حاليه في الحب والسلوان — وجد كل شيء وهو في الفن فنٌّ وحده ، لا تجد في بيانه ومعانيه ضريباً له

مما أنشأ الكتاب وأنشد الشعراء فى معانى الحب ؛ على أنه بأسلوبه المنيف وبيانه العالى وفكرته السامية فى الحب ، لا يعرف قراءه فى العربية . وكم قارىء استهواه عنوان الكتاب وموضوعه فتناوله بشوق ولهفة ، فما هو إلا أن يمضى فيه إلى صفحات قليلة حتى تُسلمه يمناه إلى يسراه إلى الزاوية المهملة من مكتبته ، ثم لا يعود إليه ... وكم قارىء كان لا يعرف الرافعى الشاعر الثائر المنيف فى حبه وبغضه وكبريائه ، فلما قرأ أوراق الورد عرفه فأحبه فاستخلصه لنفسه فما يعرفه فى الأدباء إلا أنه مؤلف أوراق الورد وكم وكم ... ولكن أوراق الورد ما يزال مجهولا عند أكثر قراء العربية وإن كان فى مكتباتهم ، لأن القارىء الذى يلذه أوراق الورد ما زال يتعلم فى المدرسة كيف يقرأ ليستفيد ويضم فكراً إلى فكره ، لا ليتسلى ويهرب من فكره ! لأن العربية ليس لها قراء ... !

ليت شعرى أفى العربية كلها شاعر يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من أوراق الورد أو يجمع معانيها فى قصيدة ؟ ابحثوا عن جمهور هذا الشاعر وقرائه يوم تسمعون قصيده ...

أرأيت إلى المنجم الذى يمتد فى الأرض ويتغلغل بعروق الذهب ؟ إنه كنز ، ولكن مَنْ ذا يصبر على المعاناة فى استخراجه والبلوغ إليه إلا أن يكون صاحب أيدٍ وقوة ؟ إنه كنز يطلبه الجميع ولكنك لن تجد فى الجميع من يقدر على استخلاصه من بين الصخور المتراكبة عليه وحواليه من طبقات الأرض إلا الرجلَ الواحد المحظوظ الذى يكون معه الصبر

إن أوراق الورد مَنجم من المعانى الذهبية ، لو عرفه المتأدبون من شبابنا لوضعوا يدهم على أثمن كنز فى العربية فى معانى الحب والجمال يكون لهم غذاء ومادة فى الشعر والبيان

وكان الرافعى — رحمه الله — يعتز بأوراق الورد اعتزازه بأنفس ما أنتج فى أدب الإنشاء ، ويباهى ويفتخر ؛ وما أحسبه تعزَّى عن صاحبته بقليل إذ تعزَّى بما لقى من النجاح والتوفيق فى إنشاء أوراق الورد ؛ وكما تجد الأم سلوتها فى ولدها العزيز عن الزوج الحبيب الذى طواه الموت ، وجد الرافعى العزاء فى أطفال معانيه عن مطلَّقته المنيدة ... لقد فارقها ولكنه احتواها فى كتاب !

إن الأم لا تنسى زوجها الحبيب إذا فارقها وخلَّف بين يديها بضعة منه ، ولكنها تجد العزاء عنه بشىء منه وإن قلبها ليخفق بذكراه فى عينى هذا الحبيب الصغير . وكذلك لم ينس الرافعى ولكنه وجد السلوان ... لقد أفلتتْ من يده ولكنها خلفتْ ذكراها معه ، ذكرى حيةً ناطقة تتمثل معانىَ وكلماتٍ فى كتاب يقرؤه كلما لج به الحنين فكأنه منها بمسمع ومشهد قريب !

رحمه الله ! لقد مات ولكن قلبه ما يزال حياً ينبض يتحدث عن آلامه وأشواقه فى قلب كل محب يقرأ كتابه فيجد فيه صورة من قلبه وعواطفه وآماله ... رحمه الله !؟

« طنطا » محمد سعيد العريان

* * *

هنا ينتهى حديث الرافعى العاشق ، لنبدأ عنه من الأسبوع المقبل إن شاء الله فى حديث جديد

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

للدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٩ —

الفلسفة الصينية

العصر المنهجي — كونفيشيوس

الأخلاق عنده

جزم أكثر المُستَشرقين بأن غاية « كونفيشيوس » من فلسفته العملية كانت إصلاح الهيئة الاجتماعية فى عصره ، وإحداث تجديد أخلاقي وعمرانى وسياسى فى الدولة ، ولكن العالم المحقق « زانكير » يرى أن هذا غير صحيح ، ويصرح بأن حكيمنا لم تكن له غاية أخرى غير تحقيق الواجب فى ذاته ، وأن النظريات التى ترمى إلى المنفعة أو إلى السعادة أو التى تعلل الأمر والنهى الأخلاقيين بعلة خارجة عن الواجب لا أثر لها في مذهبه وهو فى هذه الناحية يشبه « كانت » فى رأى الأستاذ « زانكير » إذ كلاهما يأمران باتباع الواجب لذاته لا لشيء آخر ، وهو يستدل على صحة رأيه بالنص الآتى من كلام « كونفيشيوس » فى كتاب « لون — يو » : « إن الحكيم يتعطش إلى الفضيلة ، والرجل العامى يتحرق إلى اللذائذ المادية ، وإن الحكيم يعنى بأن يلاحظ الواجب ويذعن له ، والرجل العامى لا يهتم إلا بأن يتصيد ما فيه من فوائد ، وإن الحكيم لا يفهم فى العموم إلا الواجب ، أما العامى ، فهو لا يفهم إلا منفعته »(١)

لا ريب أن هذا النص يؤيد الأستاذ « زانكير » فيما ذهب إليه ، لأنه صريح فى أن الحكيم لا يأبه إلا للواجب فى ذاته ، وأنه إذا حاد عن هذا الطريق فاكترث بأى شيء آخر كلذة أو منفعة هوى إلى صفوف العامة والجماهير ، والآن وبعد أن أثبتنا أن « كونفيشيوس » كان فى مقدمة القائلين بـ « الفيذاتية » المطلقة ، نريد أن ندرس مذهبه الأخلاقى على ضوء نصوصه كما هي طريقتنا دائماً فى هذه الدراسات

قال « كونفيشيوس » فى كتاب « تشونج — يونج » ما نصه : « إن الطبيعة هى الارادة الإلهية الخالدة ، وإن الحياة بحرية أو اتباع الطبيعة هو واجب الانسان أو « تاوو » ، وإن معرفة الواجب هى الدين نفسه . إن الواجب هو ذلك الشيء الذى ليس بمسموح لأحد إبعاده لحظة واحدة ، لأنه لو سمح بالبعد عنه لحظة لما أصبح هو الواجب ، ولهذا يعنى الحكيم فى شيء من الانتباه بما لا يرى فى داخله ويخشى فى شيء من القلق ما لا يسمعه بأذنه ، ويجب ألا يعالج بالكشف والايضاح إلا ما هو مخفي فى داخل نفسه ، ويجب ألا يكون شيء أوضح لديه من أعمق طيات قلبه ، ولأجل ذلك يلتقى الحكيم بنفسه بين أعطاف هذه المعالجات التوضيحية كلما خلا بنفسه ، وحينما تكون النفس غير مهتاجة بأحاسيس حب أو غضب أو حزن أو سرور يقال عنها إنها فى حالة الاعتدال أو « تشونج » ، وحينما تتولد هذه الأحاسيس فى النفس دون أن تتجاوز الحد المعتدل ، قيل عن هذه النفس : إنها فى حالة الانسجام « تاوو » وإذاً ، فالاعتدال هو الأصل ، والانسجام هو القانون العام ، وحينما يلحق الاعتدال والانسجام غايتهما يسود النظام فى السماء وعلى الأرض ، وتنمو جميع الكائنات »

من هذه النصوص يتبين مذهب هذا الحكيم فى الأخلاق جيداً ، وتتضح فكرته عن الواجب والاعتدال والانسجام ، ومن الجملة الأخيرة بنوع خاص نلمح مذهب « كانت » قبل وجوده بأكثر من أربعة وعشرين قرناً ، وهو القائل بأن الاعتدال هو أصل أسامى فى النفس ، وبأن الحيدة عن الصراط المستقيم طارئة على الانسان بسبب أحاسيس الحب والبغض والغضب والرضى والسرور والحزن ، وبأن الحرية الأخلاقية هي منشأ المسئولية ، وبأن الانسجام ضرورة سماوية لبقاء العالم ونموه وسيره نحو الكمال وما أقوى الشبه بين نص « كونفيشيوس » القائل : « وحينما يلحق الاعتدال والانسجام غايتهما يسود النظام فى السماء وعلى الأرض ، وتنمو جميع الكائنات » ونص « كانت » القائل : « إن كل ما لو عم لصلحت الأرض هو الخير ، وكل ما لو عم لفسدت الأرض هو الشر »

بل ما أحكم الصلة بين نص « كونفيشيوس » القائل : « إن

(١) راجع كتاب « لون — يو » فصل ٤

الاعتدال هو الأصل والانسجام هو القانون العام » وبين نص « كانت » القائل : « إن إرادة كل فرد عاقل معتدل هى المؤسسة للقانون العام »

يرى « كونفيشيوش » كما يري « كانت » أن كل إنسان إذا حقق الانسجام الطبيعي وثبته فى داخل نفسه كما شاءته الارادة الإلهية ، فقد حقق الواجب ، وهو يرى كذلك أن الحرية النفسية يجب أن تسبق تأدية الواجب ، وأن الارادة البشرية ليست موفقة دائماً لتحقيق الواجب ، وأنها تستطيع أن تبتعد عنه ، ولكن ليس معنى هذا الابتعاد أن يتغير الواجب ، كلا ، بل هو كما تبعته الارادة البشرية أو لم تتبعه ، وهذا يدل — كما يرى الأستاذ « زانكير » — على أن قانون الأخلاق هو معتبر في ذاته أو هو مطلق عام لا شخصي مقيد ، ولولا ذلك الاطلاق وهذه العمومية لما كان قانوناً أخلاقياً لكل أفراد الانسانية ، بل للسماء والأرض وعنده أيضاً أن جميع أفراد بني الانسان متساوون أمام هذا القانون الأخلاق ، وأنه فى درجة من الوضوح لا تخفى على أى فرد ، لأن العلم به فطرى ، وهو يرى لذلك أن الواجب لا غاية له إلا ذاته ، وأنه إذا لوحظت فى تأديته غاية أخرى من منفعة أو لذة أو أية غاية أخرى ، خرج عن كونه واجباً عاماً وأصبح غير صالح للجميع ، لأن الناس يختلفون فى غاياتهم الشخصية ، فاذا أخضعنا الواجب لبعض تلك الغايات المتباينة لم يعترف به الآخرون الذين ليس لديهم مثل هذه الغايات ، وبهذا يفقد كل شيء

وعنده أيضاً كما عند « كانت » أن العمل إذا قصد به غير وجه الواجب سقطت قيمته الأخلاقية وأصبح نفعياً ، وأن اتباع الارادة للواجب يصيرها سامية فوق اعتبارت الحياة العامية ، وأن الحكيم يشعر في داخل نفسه عند أداء الواجب بأقصى أنواع السعادة ، وهو فى كل هذا يقول : « إن الانسان ذا الأخلاق الكاملة (چين) هو الذي يقدم التعب المضنى على النافع اللذيذ ولا يلتفت عند أداء الواجب إلى ما سيستفيده منه [1] » ويقول أيضاً : « إن الانسان بدون الأخلاق لا يستطيع أن يحتمل الفقر ولا الغنى وقتاً طويلا . وإن الأخلاقي يجد فى الأخلاق كل ترضية وإن الحكيم لا يصيره شرها نهما إلا كنز الفضيلة [2] »

(١) كتاب « لون — يو » فصل ٦

(٢) كتاب « لون — يو » فصل ٤

لا ريب أن عدم احتمال الفقر عند غيبة الأخلاق أمر مفهوم لأن من تعوزه فضيلة الصبر يتعذب بمرارة الفقر ، أما عدم احتمال الغنى فى تلك الحالة فلعل الحكيم يقصد به أن الغنى فى حالة فقد الفضيلة خطر لا يحتمله حتى صاحبه . بقى علينا الآن أن نشرح كلمة « چين » الواردة فى هذا النص الذى أسلفناه لك كما فهمها المستصينون ، ومعناها : الأخلاق ، أو الواحد لأجل الجميع ، أو الفرد للمجموعة

وجه بعد ذلك سؤال إلى « كونفيشيوس » من معاصريه قالوا له فيه : كيف يتبع الانسان الواجب دائماً ؟ وما هي الوسيلة العملية لتحقق هذا الواجب ؟ وما هو ذلك الصوت الذى تقول إنه ينادى دائماً بالاذعان للواجب ؟ وأى ضمان يطمئن الانسان على أنه سائر دائما فى طريق الواجب ؟ فأجاب بقوله : إن الطريق العملى لتحقق الواجب هو الاذعان لهذا الصوت الداخلى ، وإن الضمان المطمئن هو إدمان مراقبة النفس حتى يكشف جميع دواخلها ، فاذا حصل للفرد هذا الكشف وصل إلى درجة الحكمة ، لأن القلب حينما يقوده الهوى ينسحب إلى الشر دون أن يشعر فيصبح الانسان يرى ولا يبصر ويسمع ولا يعقل . والعلة فى هذا هى أن العواطف والأهواء تسود أعمالنا وتمنعنا من أن نحكم أحكاماً صحيحة على أنفسنا وعلى العالم الخارجي .

أحسب أن الباحث لا يجد عسراً فى ربط هذا الجواب الأخير بقول حكيم اليونان الأول : « إعرف نفسك بنفسك » تلك الحكمة التي وجدها « سقراط » — فيما تقول الأساطير الاغريقية — مكتوبة بالذهب على عتبة معبد « دلفى » واستغلها فكانت أساساً صالحاً لفلسفته وفلسفة تلميذه العظيم « أفلاطون » بل إنها ظلت تتغلغل ساطعة في غيابات المستقبل حتى كانت أحد أسباب جلال « ديكارت » وخلوده حيث صرح بعد اثنين وعشرين قرناً بقوله : « إنى لما كشفت الأنا حملت مصباحه الذى على سناه كشفت كل اللاأنا »

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل إن الأستاذ « زانكير » يرى أن فلاسفة اليونان الذين قالوا بمبدأ « إعرف نفسك بنفسك » لم يتنبهوا إلى العقبات التى تعترض سبيل الانسان عند ما يحاول هذه المعرفة ، وهو يصرح بأن « كونفيشيوس » إن لم يزد على أولئك الفلاسفة فى هذه النقطة فهو من غير شك يساويهم فيها . وبناء على ذلك ، فالقائلون بأن « كونفيشيوس »

حتى لو كان قد تنبه إلى معرفة النفس بالنفس فانه قصر فى معالجة العقبات الناشئة من هذه المحاولة هو على خطأ فى هذا الرأي ، لأن تلك العقبات لم يعرض لها إلا علماء النفس فى العصور الحديثة .

وإذن ، ففلاسفة الاغريق وحكيم الصين فى هذا الموقف متساوون

يختلف « كونفيشيوس » مع « لاهو — تسيه » في وسيلة الوصول إلى الكمال الخلقى ، فأما « لاهو — تسيه » فهو يرى أن التأمل النفسانى كاف لوصول الانسان إلى الكمال أو إلى تحقيق الانسجام المطلق فى جميع حركاته . والانسجام عنده هو المسمى بالسكون الطبيعى الذي لا ينقصنا إلا حينما ننشغل بالظواهر ، ومتى فصمنا عرى صلاتنا بها عاد إلينا . أما « كونفيشيوس » فيرى أن من المستحيل قطع صلاتنا بالظواهر الخارجية ، وأن كل محاولة فى هذا السبيل فاشلة ، وأن الانسان لا يصل أبداً إلى الانسجام المطلق فى جميع حركاته ، وإنما يصل إلى انسجام نسبي يقترب من الاطلاق بعض الشيء ، وأن التأمل وحده ليس كافياً ، وإنما يجب أن تضم إليه الثقافة والمعارف الخارجية ، بل إن الثقافة هي الجوهر الأساسى للوصول إلى المعرفة والفضيلة الكاملتين ، وهو لهذا يقول : « إن الشغوف بالدراسة يمنح فضيلة الحكمة ، وإن من يقوم بمجهود يمنح فضيلة حب الانسانية ، وإن الذى يحمر وجهه خجلا من أنانيته يمنح فضيلة القوة [1] » وهذه الفضائل الثلاث هى عنده الواجب أو ضروريات الكمال . وهو يرى أن الدراسة المحققة للثقافة والفضيلة يجب أن تتناول حقائق الأشياء : معنوياتها ومحساتها تناولا دقيقاً مؤسساً على النقد الذى لايعرف هوادة ولا ليناً ، ولا يخضع لرحمة ولا عاطفة ولا هوى ، فاذا نبت الدراسة عن هذه الموائق أنتجت أسمى النتائج وأرقاها . وفى هذا يقول : « حينما تدرس طبيعة الأشياء عن قرب وبانتباه تصل المعرفة إلى أعلى آواجها . وحينما تبلغ المعرفة أقصى آواجها تصبح الارادة كاملة ، وحينما تصبح الارادة كاملة تصير حركات القلب منظمة متفقة مع القانون . وحينما تصبح حركات القلب منظمة يتخلص الانسان من الآثام . وبعد أن يتخلص الفرد من الآثام يشرع فى توطيد دعائم النظام والانسجام فى الأسرة . وإذا ساد الانسجام فى الأسر بلغ الحكم فى المدينة درجة الكمال ، وإذا بلغ الحكم

(١) كتاب « تشونغ — يونغ » فصل ٢٠

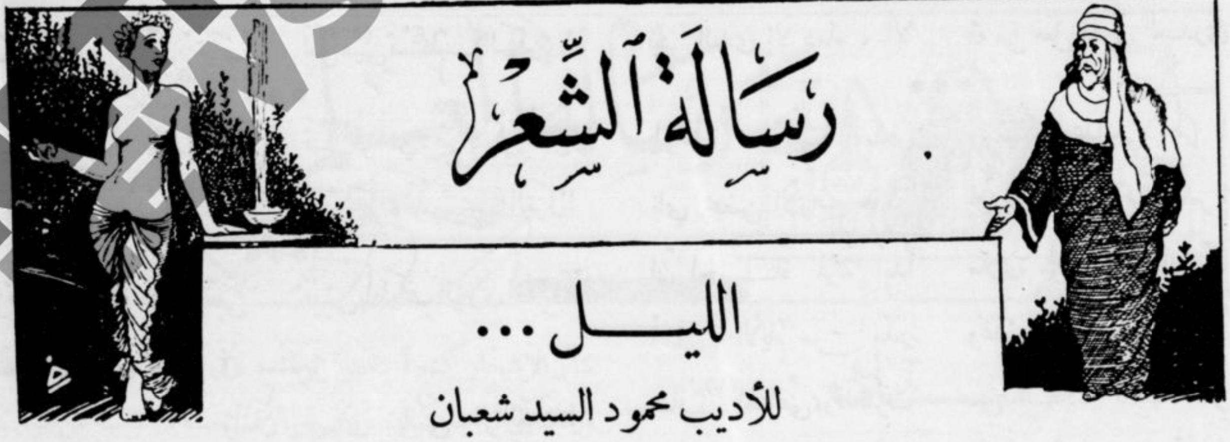
فى المدينة حد الكمال استمتعت الامبراطورية بالسلام التام [1] »

أحسب أنه بعد كل الذي قدمناه من آراء هذا الحكيم القيمة وبعد هذه الموازنة التى أسلفناها بينه وبين أولئك الفلاسفة القدماء والمحدثين لاممنى لأن يغمطه بعض الباحثين الغربيين حقه فيرموه تارة بأنه ليس فيلسوفاً ، وأخرى بأنه عملي أو نفعي . وأحسب كذلك أنه لا ينبغى أن نتأثر فى حكمنا على هذا الفيلسوف بذلك التشويه الذى أصاب مذهبه بعد عصره ، بل يجب علينا أن نضع نصب أعيننا ذلك السمو الفلسفى ، والنبل الأخلاقى اللذين تفيض بهما مؤلفات « كونفيشيوس » وأن نذكر دائماً أنه وضع للتفلسف ثلاثة شروط أساسية ، الأول الاخلاص الكامل فى كل ما يخطوه من خطوات علمية أو عملية . الثانى البدء بدراسة (الأنا) ليتوصل به إلى كشف كل (اللا أنا) . الثالث الدراسة النقدية العميقة لجميع الأشياء الخارجية . فاذا لاحظنا كل هذا جزمنا بأن كل من لا يسمو بهذا الفيلسوف إلى الصف الأول من صفوف مفكرى الانسانية كان غير موفق فى دراسته وحكمه

« يتبع » محمد غلاب

(١) كتاب « تايو » فصل •





الليل ...

للأديب محمود السيد شعبان

أسبلْ على الدنيا ستورَ الكرى   ولُفَّها يا ليلُ في ظُلمتِكْ !!
الصمتُ في واديكَ حيٌّ يُرى!   والوحدةُ الخرساءُ في عُزلتِكْ!

* * *

والموتُ في ناديكَ يرعى البشرْ   يا موطنَ الهُلْكِ ومثوى النَّهَمْ!
وفي دياجيكَ يطيشُ القدرْ   ويفتكُ الهمُّ ويطغى السَّأمْ !

* * *

أأنتَ معنًى من معاني الردى   أم أنتَ طيفٌ من طيوفِ المللْ؟
قد ضاعَ في واديكَ عُمري سُدى   وما جنتْ كفايَ إلا العِلَلْ!

* * *

يا موطنَ الأشباحِ يا ابنَ العدمْ   ما أنا من يخشاكَ أو يرهبُكْ!
وفي فؤادي غيهبٌ من ألمْ   يروي دُجاهُ بالأسى غيهبَكْ!

* * *

أطلتُ يا ليلُ إليكَ النظرْ   فما رأتْ عينايَ شيئاً يُرى!!
يا ويلتا لي كيفَ أهوى السهرْ
وكلُّ من في الأرضِ يهوى الكرى ؟

* * *

نمْ يا فؤادي كلُّ شيءٍ هنا   أغفى على أمنيةٍ ترتجى !!
وهدهدتْهُ باسماتُ المنى   في هدأةِ الليلِ وصمتِ الدجى!

* * *

لم تبقَ لي الأيامُ من مأملِ   في حاضري أرجوهُ أو في غدي!
قد غاضتِ الآمالُ من جدولي   وقد نفضتُ الآنَ منها يدي !

* * *

مالي وللأغلاسِ تُعمي البصرْ   وليسَ لي في الليلِ إلفٌ يُرى؟!
يا ليتَ شعري هل جفاني البشرْ   أم أنني وحدي جفوتُ الورى ؟

* * *

يا نجمُ ماذا في الدجى أعجبَكْ   والليلُ يا نجمُ عُبابُ القدرْ ؟!
أأنتَ يا نجمُ تُحبُّ الحَلَكْ   أم أنتَ مثلي مولعٌ بالسهرْ ؟

* * *

يا ساهداً لم يدرِ معنى الكرى   كنْ مؤنسي إني وحيدٌ هنا !!
أما تراني قد هجرتُ الورى؟   فليتني أستطيعُ هجرَ الدُّنا !

* * *

أليَّةً يا نجمُ قلْ للسحَرْ :   تعالَ إني قد سئمتُ الغلَسْ !!
ما في الدجى من مُتعةٍ للبصرْ   وليسَ في واديهِ إلا الخرَسْ!!

* * *

يا راقداً حفَّتْ بهِ العافيهْ   وداعبتْ أجفانَهُ الحالمهْ !
ألمْ تُثرْ أشجانيَ الباكيهْ   لفحَ الأسى في نفسكَ الناعمهْ؟!

* * *

على سريرِ الوردِ نمْ إنني   على سريرِ الشوكِ أستشهدُ !!
أُريدُ أن أبكي فلا تلحَني   لعلَّ هذا الدمعَ لي يُسعِدُ !!

* * *

نمْ يا حبيبي لا يرُعْكَ الأسى   ما أنا في الظلماءِ إلا شبحْ !!
أو زورقٌ في بحرِهِ مارسا !   أو تائهٌ عن دارِهِ قد نزحْ !

* * *

نمْ يا حبيبي ناعماً لا تخفْ !   من عابرٍ أضناهُ طولُ السُّرى!

وَهَبَ لِرُوحِي قُبلَةً مِنْ تَرَفْ   لَعلَّ عَيْنِي تَسْتَطِيبُ الكَرَى!

* * *

يا لَيْلُ مالِي مِنْ حَبِيبٍ فَلَا   تَسْأَلْ فُؤَادِي: فِيمَ ذِكْرُ القُبَلْ!؟

هَذَا خَيَالٌ زَائِفٌ مَا سَلَا   عَنْ ذِكْرِهِ قَلْبٌ يُحِبُّ الغَزَلْ!

* * *

يا وَهْمُ ما أَحْلَاكَ مَوِّهْ مَعِي   عَيْشِي بأَطْيَافِ الرُّؤَى الخَادِعَهْ!

وَأَسْكُبْ لُحُونَ البِشْرِ فِي مِسْمَعِي

وَامْلَأْ حَيَاتِي بالمُنَى الرَّائِعَهْ!

* * *

يا وَيْحَ قلبي مَاتَ فِيهِ الهَوَى   ومَا تَبَقَّى مِنْهُ غيرُ الخَبَلْ!!

وَكانَ ما كانَ فَلَمَّا انطَوَى   مَضَى الرِّضَى عنهُ وغاضَ الجَذَلْ!

* * *

وهَامَ فى الظلمة بِي يَسْأَلُ:   أَيْنَ الهوى يا لَيْلُ أَيْنَ المَرَحْ؟!

يا قلبُ لا تَسْأَلْهُ ما يَجْهَلُ!   وَدَعْ لِمَنْ ضَلَّ الأسَى والتَرَحْ!

* * *

يا لَيْلُ دَعْني قدْ دَهَانِي القَلَقْ!   وَحَطَّمَتْنِي عادِيَاتُ القَدَرْ!!

وَارْحَلْ فقد يَذْهَبُ عنِّي الأَرَقْ   إنْ أَنْتَشَتْ رُوحِي بِعِطْرِ السَّحَرْ!

* * *

قدْ أقبَلَ الفجرُ فَلَا تَيْأَسِي!   ماضَاعَ يا نَفْسِي اصْطِبَارٌ سُدَى!

وأَغْمِضِي جَفْنَيْكِ ثُمَّ انْعَسِي!   ولَا تَخَافِي إنْ أَتَاكِ الرَّدَى!!

« الاسكندرية »

محمود السيد شعبانه

على زهرة ذاوية

للسيد جورج سلستى

عَبَثَتْ برونقها يدُ الدهرِ   وبدا البِلى بعروقها يَسرى

وتناثرتْ أوراقُها — وَثوتْ   فوق الثرى — كتناثُرِ الدرِ

لهفِى على حسنٍ تصوّحهُ   أيدى العفاء وسطوة الغدرِ

كانتْ تزيِّنُ الروضَ روعتُها   وتضمِّخُ الأرجاء بالعطرِ

كانت وكان الفجرُ يعبدها   بين الرياض ولم تكنْ تدرى

جانبَ الغرامُ فؤاده وكوى   منه الضلوعَ بلسهِ السحري

فبدا له ، فأراقَ مهجتَه   فيها ، فكانتْ ديمة القطر

ليس الندى إلاّ دماه ، ألا   لله من فعل الهوى العذري

* * *

يازهرة رويّتُها بدمى   وسقيتُها بمدامعي الحمرِ!

نامي بحضنِ الأرضِ هانئةً   إنَّ الردى خيرٌ من العمر!

انَّ الحيــاةَ لمرّةٌ أبداً   ملأى من الآثام والشرّ!

أسقتنىَ ،الأيامُ من مَدَرِ   وغذتنىَ الأقــدارُ بالمرِّ

صافَ[1] الهناءُ عنى،وقد نفرتْ   منى السعادةُ كالظِبا العُفرِ

قد كان لى يازهرتى أملٌ   لكنما أودى به دهري

وحبيبةٌ كالصبح طلعتُها   غدرَتْ كأنَّ الحسنَ بالغدرِ

يازهرتي ، يأتى الربيعُ غدا   وينمِّق الجنّاتِ بالزهرِ

نامى بحضنِ الأرضِ حالمةً   بمجيئهِ ، وبسمةِ الفجرِ

لكنَّ آمالى وقد غربتْ   ليست تعودُ ؛ غلبتُ فى أمري

لك فى مماتكِ عودةٌ وأنا   بعد المماتِ أظلّ فى قبري!

« بيروت »

جورج سلستى

الأســـرار

للأستاذ إيليا أبو ماضى

ياليتنى لص لأسرق فى الضحى   سرّ اللطافة فى النسيم السارى

وأجس مؤتلق الجمال بأصبعي   فى زرقة الأفق الجميل العارى

ويبين لى كنه المهابة فى الربى   والسر فى جذل الغدير الجارى

والسحر فى الأنغام والألوان والا   أنداء والأشذاء والأزهار

وبشاشة المرج الخصيب ووحشة الــ   ـوادى الكئيب وصولة التيار

وإذا الدجى أرخى علىّ سدوله   أدركت مافى الليل من أسرار

فلكم نظرت إلى الجمال تخلته   أدنى إلى بصرى من الأشفار

فطلبته وإذا المغالق دونه   وإذا هنالك ألف ألف ستار

باد ويعجز خاطرى إدراكه   وافتنني بالظاهر المتوارى!

إيليا أبو ماضى

(١) صاف : نأى وبعد



الزنك

كعنصر أساسى لنمو النبات

للأستاذ عبد الحليم منتصر

تتمة

بينا فى المقال السابق الأعراض التى تبدو على النبات المحروم من عنصر الزنك من بين ألوان غذائه ، وأتينا على طرائق علاج هذه الحالات المرَضية التى تعتريه بإعطائه حاجته من هذا العنصر، ووعدنا بتفصيل العلاقة بين طبيعة التربة وصفاتها الكيميائية وبين سير هذا المرض وتأثر النبات به ودرجة احتماله إياه ومقاومته له . فقد ثبت من التحاليل الكيميائيـة الدقيقة التى أجراها « هبرر » و « إلين » و « بوجز » أن النبات لا يستخلص كل الزنك الذى بالتربة ، ولكن لسبب ما — لعله الحموضة أو القلوية الموجودة أكثر من اللازم — يجعل التربة تحبس زنكها عن النبات، فإذا كانت قلوية كان السبب عدم ذوبان مركبات الزنك فى هذا المحلول القلوى . وإذا كانت حامضـة كان السبب عدم سهولة الاحتفاظ بالزنك فى المحلول بالتربة ، ويكون آنئذ سريع الانتشار . فمن ذلك نرى أن هناك علاقة بين ظهور أعراض المرض وبين درجة الحموضة أو القلوية للتربة ، بمعنى أن المرض يظهرَ ويشتد فى درجة حموضة أو قلوية خاصـة ، على حين لا تبدو آثاره فى درجة أخرى . فقد وجد أنه إذا كانت درجة القلوية من ٧ إلى ٧ر٣ تكون أعراض المرض شديدة جدًّا ، بل يندر أن ينجو من خطره أقوى أنواع النبات احتمالاً ، لأن درجة احتفاظ التربة بالزنك فى هذه الحالة تكون ضعيفة مسرفة فى الضعف . أما إذا كانت هذه الدرجة من ٨ إلى ٩ فى أرض طينية ، فإنه يندر أن تتأثر الأشجار كثيراً بنقص الزنك ، لأن مثل هذه التربة تحتفظ بالزنك إلى درجة كبيرة ، وهى فى الوقت نفسه لا تحبسه عن النبات

ومن العوامل الطبيعية التى تؤثر في سير المرض حرارة الجو وكمية الضوء ، فهو فى الشتاء حين الحرارة منخفضة وكمية الضوء قليلة ضعيف الانتشار ؛ وعلى نقيض ذلك تكون الحال فى الصيف

وهناك من الحقائق ما يثبت أن فى التربة المصاب نباتها من العوامل ما يمنع الجذر من امتصاص الزنك ، أو المساهمة فى نقله إلى قمم الأشجار أو سائر أعضاء النبات . وقد وجد فى بعض الأشجار التى تعاقبت على إصابتها السنون دون علاج أن كثيراً من أجزاء الجذر قد ماتت فعلاً . والمرجح أن عنصر البوتاسيوم لا يلبث أن يخرج من قلف الجذر فى النبات المصاب ، فقد ثبت أن ما به منه لا يتجاوز ١٠ إلى ٢٥ ٪ من البوتاسيوم الموجود بقلف الساق أو بقلف جذر نبات سليم أو معالج بالزنك . وبما أن الزنك يتحد بمركبات عضوية ، ويكون أحد مقوماتها غير العضوية ، فربما كان خروج البوتاسيوم يساعد على استمساك الجذور بزنكها واحتفاظها به ، فلا يتصاعد إلى القمم . وكانت نتيجة التحاليل الكثيرة التى أجريت إثبات تجمع الزنك بالجذر فى بعض الحالات

على أن الواقع أن معالجة الأشجار بالرش ، أو بإيلاج قطع الزنك فى الفروع دون التعرض للتربة ، من شأنه أن يشفى النبات ويجعله فى حالة جيدة ، مما يدل على أن الجذر برغم عدم جمل العلاج عن طريقه مباشرة ، يقوم بوظيفته الطبيعية فى سهولة ويسر

ومن الاحصاءات البديعة ، ما قدمه « باركر » عنـد ما قارن بين الأشجار المعالجة برش الزنك وتلك التى لم تحظ بهذا العلاج ، إذ وجد أن الشجرة المعالجة قد أعطت ٤٧٧ رطلا من

الثمار على حين كان ما أنتجته الثانية لا يزيد على ٥٦ رطلا فقط؛ وذلك فضلا عن أن ثمار الأولى أكبر حجما وأجمل منظراً، وهي بالتالي أسرع نفاداً في السوق، لكثرة الاقبال عليها من المستهلك. كذلك وجد «باركر» في حالة البرتقال (أبو سرة) أن محصوله قد تضاعف فأصبح ستة أمثاله قبل العلاج

وقد بينا أنه في حالة وضع قطع من الزنك في الفرع تظهر آثار العلاج في الجزء من قمة الفرع إلى مكان الزنك فيه، نمواً وإزهاراً وإثماراً على حين يكون الجزء الأسفل ما يزال يعاني آثار المرض، وإن ثبت أن بعض التحسن يبدو عليه بعد ذلك كنتيجة لاطراد التقدم سنة بعد أخرى، وذلك من آثار الصحة والنشاط التي ستبتدي في الأوراق بعد العلاج، فيعم خيرها على النبات كله بالتدريج.

وقد أوضح بعض الباحثين منهم «آرك» و«هجلاند» الأثر الذي تنتجه الكائنات الدقيقة التي توجد بالتربة في ظهور هذا المرض أو اشتداد آثاره، تلك التي كانت نتيجة إبادتها بالفورمالين أو الحرارة أو الأثير زوال الأعراض السالفة أو تخفيف بعض آثارها مما يدل على أن لهذه الكائنات فعلا في إظهار المرض وسيره. ولكن الواقع أن معالجة التربة بهذه الطرائق أي المطهرات أو الحرارة غير متيسرة إلا في الصُّوَب (بيوت زجاجية لتربية النبات) ولذلك فهي غير مجدية في الحقول أو الحدائق. أما إضافة الزنك إلى التربة فانها أكيدة النفع محققة الغرض

على أننا نتساءل الآن: ماذا عسى أن يكون هذا الدور الذي يلعبه الزنك في النبات؟ فالمعروف أن لكل عنصر يدخل النبات دوراً يقوم به في تغذيته وتركيبه، أو في العمليات الفسلجية التي تجرى به. ولما كانت نسبة الزنك في النبات ضعيفة جداً خصوصاً إذا قورنت بأي عنصر من العناصر الأخرى، فهي لا تكاد توازي جزءاً واحداً لكل ألفين أو ثلاثة آلاف جزء من الأزوت مثلا. بيد أن نقص الزنك أنتج مرض حرمانه كما رأينا من الآثار السيئة الشديدة التي تصيب النبات من هذا الحرمان. وذلك رغما من أن الزنك لا يدخل دائماً في تركيب البروتبلازم أو مركباته، كما هي الحال مع الفسفور أو الكبريت أو الأزوت. والمعتقد أن للزنك دوراً هاماً يقوم به في بعض العمليات الفسلجية بالنبات، وخاصة عمليات التأكسد التي لولاها لتكونت مواد ثانوية ضارة هي التي تؤخر النمو وتكون السبب في ظهور البقع والأوراق الصغيرة المحمرة وغيرها من الأعراض؛ كما أن له أثراً آخر قد لا يقل عن سالفه، وهو أن مركب الزنك يعتبر عاملا مساعداً يسرع بالعمليات الكيميائية وخاصة ما يتصل منها بالمواد الكربوايدراتية. ودليلنا على ذلك شدة الأعراض في الصيف إذ يكون اليوم طويلا فتتجمع المواد النشوية، كذلك في حالة الأشجار التي تتساقط أوراقها شتاء؛ فهذه الأعراض تبدو قوية الأثر آنئذ بسبب تراكم المواد النشوية فتتحسن حالته في أوائل الربيع، وذلك عندما يأخذ النبات أهبته ويستأنف نشاطه، فيستغل ما تجمع فيه من مواد لنموه. وقد ظهر من المشاهدات والبحوث العديدة التي أجريت في هذا الصدد أن عنصراً غير الزنك لا يستطيع أن ينتج نفس الأثر أو يمنع عوارض المرض، فقد استعملت مركبات الكوميوم والزئبق والفضة والنيكل والكروم والبورق والتيتانوم فكانت النتائج سلبية. وكذلك الحال باستعمال مركبات الصفيح والزركونيوم والتنجستن والموليبدنوم

من هذه الحقائق مجتمعة، يصح لنا أن نعتقد أن الزنك عنصر أساسي للنبات، سواء منه الفطريات أو النباتات الراقية. وإن من المناسب إضافته إلى ثبت العناصر الأساسية الهامة التي تلزم لكي يحيا النبات حياة طبيعية هادئة، وحتى تستقيم له أسباب نموه وإيراقه وإزهاره

ولعل الصعوبة التي كانت تحول دون هذا الاعتبار إنما ترجع إلى الحقيقة الواقعة من أن كمية ضئيلة منه تكفي، ثم إنه من السهل وجود مثل هذه الكمية في المركبات الكيميائية المختلفة التي توجد بالتربة أو التي تضاف إليها، وذلك لأن مركباته ذائعة الانتشار جداً مع المركبات الأخرى عند ما تكون غير نقية، أو غير تامة النقاء. ولقد رأينا كيف أن عدم وجود الزنك بين عناصر الغذاء يسبب مرض الحرمان الذي أشرنا إليه في هذا الحديث، وإن علاجه يكون بالاضافة إلى التربة، أو في ثقوب بالجذع والفروع، أو بدق مسامير مطلية بالزنك، أو برش مركبات



من روائع القصص الواقعي الإسلامي

عمـــار بن ياسر

للأستاذ دريني خشبة

« يا ابن سمية ، لايقتلك أصحابي ، ولكن تقتلك الفئة الباغية ! »
(حديث شريف)

— ١ —

« عير من اليمن »

الحارث — ولم لاتعود معنا يا أخانا إلى اليمن ؟

ياسر — اليمن وطني ، ولكني والله أشم ريحاً بمكة لاتهب إلا من السماء ؛ وإن قلبي ليهفو إلى مسراها . فاذهبا أنتما حتى يأذن الله !

مالك — يا أخانا ، أنأتي إلى الحجاز لنعود أربعة إن وجدنا أخانا الضائع ، فلا نعود إلا اثنين ؟ أي ريح هذه التي تهب من السماء وإنك لتهفو إلى مسراها ؟

ياسر — والله يا ابن أم ما أدري . وأ كاد أنصح لكما ألا تعودا أدراجكما حتى ننشقها جميعاً ...

مالك — بل تبقى أنت ونرحل نحن غداة غد ...

ياسر — ومع ذاك فلا أحبَّ إلى من أن تبقيا !

الحارث — بل تبقى أنت ونرحل نحن

— ٢ —

« في مضارب بني مخزوم »

ياسر لأعرابي — عم صباحاً يا أخا العرب

الأعرابي — عم صباحاً ! من أنت ؟ ومن أي البطون أقبلت ؟

ياسر — أنا رجل يمني أقبلت في عير مع أخويَّ لنبحث عن أخ لنا رابع أبق

الأعرابي — ما عن ذاك سألت !

ياسر — بلى ، وأريد أن أحالف (١) سيد هذه العشيرة . فمضارب من هيـهْ ؟

الأعرابي — مضارب سيد العرب أبي حُذيفة بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم (٢) وإنه لقادم فالقه إن شئت !

(يقبل أبو حذيفة)

أبو حذيفة — ممن الرجل وماذا يبغي ؟

ياسر — يمني يعربي قحطاني يبغي أن يحالف سيد العرب فيخلص له !

أبو حذيفة — على عهد هُبَل وهُبَل !

ياسر — ... ! ...

أبو حذيفة ينادي : يا كعب ... يا كعب ... خـذ الرجل فاعهد إليه بالإبل !

— ٣ —

أبو حذيفة — وحق هُبل وهُبل يا ياسر إنك لمخلص الأمين ، وإني مزوجك أَمتي الجميلة العاقلة سُميةَ هذه

ياسر — ... الحمد لله !

(١) يعاهد ويلزم ، كناية جميلة عن الرق
(٢) الطبري ج ١٣ ص ١١

الزنك على الأوراق والفروع . أما المقدار الذي يضاف إلى التربة فانه يختلف تبعاً لطبيعة التربة والنبات والكائنات المجهرية التي بالتربة . كما أن المرجح حتى الآن أن الدور الذي يقوم به الزنك في العمليات التي تجرى بالنبات هو دور العامل المساعد في بعض التفاعلات التي تتصل بتمثيل المواد الكربوايدراتية (١)

عبد الحليم منتصر
ماجستير في العلوم

(*) انتفعنا في هـذا البحث بمقال للعلامة « شاندلر » نشر في الغازيتة النباتية .

أبو حذيفة — ... بل لِهُبَل !

ياسر — الحمد لله لى ولك ياسيدى على ما رزقنى

أبو حذيفة — إحمد هُبلاً ، واحمد بعلاً يا ياسر ، فإنهما الإلـهان !

— ٤ —

« فى مقابر بنى مخزوم »

ياسر — أفى هذا الثرى ترقد يا أبا حذيفة ! أما والله إنه لا بَعْل نفعك ولا هبل ... أما والله لقد عجل بك الموت عن الطريق السُّوَى ...

عمار — ماذا تقول يا أبتاه ! ما الطريق السُّوَى ؟ ...

ياسر — والله يابنى إنا لفى زمان أظلنا فيه فَىْءُ نبى ، وإنى لأجد شميمه ، وإنى والله تخلفت عن أعمامك فلم أضرب بطون المطى إلى اليمن من أجل هذا ، لأن اليهود تقول إنه من قريش

عبد الله — (وما بكاؤك هذا كله على أبى حذيفة ؟

ياسر — أكرم مثواى وزوجنى سمية أمكما فرزقتكما منها يا بنى ؛ وقد أعتقنى فما رضيت أن أفارقه . ولشد ما أخشى أن أهون بعده !

— ٥ —

« بيت بالصفا بلحف أبى قبيس »

ياسر — إسمعى يا ابنى ما أحلى ما يقرأ محمد والمسلمون معه !

عمار — وماذا يقرأون يا أبى ؟

ياسر — يقرأون ما يقضى إلى محمد وحيه من الله . لله ما أحلى ولله ما أعلى !

عبد الله — أليس هو من عند بَعْل يا أبتاه !

ياسر — بعل حجر لا ينطق وهم خلقوه . والله لقد حان حين بعل !

عمار — ولم لا ندخل فنقرأ معهم يا أبى ؟

ياسر — والله إنى لهذا جئت إلى الصفا يا بنى . ووالله إنى لأجد الريح التى تنشقها مذ قدمت من اليمن . ومن أجلها استأنيت الحجاز وخالفت أخوى !

عمار — إذن نطرق الباب لنكون من السابقين !

ياسر — والله لنكونن منهم بإذن الله .. اطرق يا بنى فلقد شرح الله صدورنا لهذا الأمر (عمار يطرق الباب)

صوت من الداخل — « من ؟

عمار — مؤمنون بمحمد يريدون رسول الله !

الصوت — حُباً حُباً إخواننا فى الله !

ياسر — يدك يا رسول الله . أشهد وبنىَّ أنه لا إله إلا الله وأنك رسول الله (يمد لهم الرسول يمينه فيبايعونه)

ياسر — إنطلق يا عمار فأت بسمية تشهد معنا وتغنم هـذا الخير ، إن هـٰهنا مؤمنات مسلمات خابتات خاشعات !

— ٦ —

« رمضاء مكة وقت الظهيرة »

« يقدم بنو مخزوم ومعهم عمار وأبوه ياسر وأمه سمية »

أحدهم لياسر — نم ياصاحب محمد ! ذق عـذاب السعير الذى ينذرنا به نبيك ! (ويضربه ويضع الحجارة على صدره)

أحدهم لعمار — وأنت يا ابن الأمة ! قل كفرت برب محمد ! قل ! إخلع هذه الثياب فلنفصلن لك ثياباً من رمضاء مكة تكويك وتشويك (ينزع عنه الثياب ويقيده ويحثو التراب على رأسه)

أترى إلى هذا الجعل ؟ قل هو ربى ! قل هو خير من إله محمد ! قل آمنت بيعل وود ويغوث ويعوق وهُبل ، وكفرت بإله محمد !

عمار — بل الله الله ! الله ربى وبعل حجر أنتم خلقتموه ! (الكافر يركله ويحمى حديداً فى نار موقدة ويكويه به)

الكافر المخزومى — قل كفرت بإلـه محمد أو أسمل عينيك

عمار — إقض ما أنت قاض . إنما تقضى هذه الحياة الدنيا !

الكافر — أنظر إلى أبيك وأمك كيف يتعذبان ! ألا تستر أمك فتكفر بمحمد وإلـه محمد يا ابن الأمة !

عمار — بل يصبران لبلاء الله كما أصبر ... الله . الله . الله !

أحدهم لسمية وهو يعذبها ـ أنظرى يا أمة بعل ، هذا زوجك وهذا ولدك ، ألا تكفرين بإله محمد فنرسلك ونرسلهما ؟

سمية — وكيف وقد هدانى الله ؟ لَعذابكما أهون من حر جهنم . بل ربى الله لا أعبد إلا إياه ...

الكافر المخزومى — وولدك هذا الذى يكوى بالنار ؟

سمية — يصبر اليوم خير من ألا يصبر غدا !

الكافر المخزومى — ولن أدعك حتى تكفرى بمحمد (يضربها على يافوخها فتحتضر)

سمية — بل ربى الله ! آمنت بالله ورسوله (يمر رسول الله فيرى ما يقع بآل ياسر)

رسول الله — « صَبْراً آل ياسر ! موعدكم الجنة . صَبْراً آل ياسر ! موعدكم الجنة ! »

آل ياسر — لقد بعنا لك أنفسنا يا رسول الله فانظر ما يفعل السفهاء بنا

سمية — صوت مَنْ ؟ الرسول الكريم ! محمد ! آمنت بك يا محمد ! آمنت بك يا محمد ! إشهد يا محمد مايصنع بنا بنو مخزوم ...

الكافر المخزومى — تعال يا محمد نخلص عبيدك !

(ويضربها الكافر بحجر كبير على رأسها فتموت ويستعبر النبي)

الرسول الكريم — يارب . يارب . يارب !

أبو جهل (يحضر فيشهد فيقول لياسر) — يا فاجر تكفر بأربابك وأرباب آبائك ؟ ها هو ذا محمد أدْعُه يمنعك !

(يمضى أبو جهل فيحثو التراب على رأس الرسول ويعود)

أرأيت ! ها هو ذا محمد ! تركت دين أبيك ياياسر وهو خير منك . لنسفهن حلمك ولنفيلن رأيك ! (يضربه ويمضى)

أبو سلمة المخزومى[١] — يا لقومى ! أتقتلون أناساً أن يقولوا ربنا الله !

أبو جهل — أسكت يا أبا سلمة أو لنرجمنك ونضعن شرفك !

— ٧ —

« النبي والصحابة يبنون مسجد المدينة »

مَدَنى لأنصارى — مَنْ أخوكم هذا الرجل الآدم الطوال المضطرب الأشهل[٢] الذى يحمل لبنتين ولا يحمل أيهم إلا لبنة واحدة ؟

الأنصارى — ألا تعرف من هذا ؟ إنه حبيب نبينا الرجل المؤمن الذي ما تعذب أحد من المسلمين كما تعذب ... هذا عمار ابن ياسر ...

المدنى — ومن هذا الرجل النظيف المتنظف يحمل اللبنة ويجافى بها عن ثوبه ، فاذا وضعها نفض كفيه ونظر إلى ثوبه ، فاذا أصابه شيء من التراب نفضه[٣] ؟

الأنصارى — هذا الرجل الصادق عثمان بن عفان

(على بن أبى طالب يرى ما يصنع عثمان فينشد)

على بن أبى طالب :

لا يستوى من يعمر المساجدا ... يدأب فيها راكعاً وساجدا
وقائماً طوراً وطوراً قاعـداً ... ومن يرى عن التراب حائداً !

(عمار يسمع علياً فيحفظ ما يقول وينشده فيسمعه عثمان)

عثمان — يا ابن سمية ما أعرفنى بمن تعرض . لتكفن أو لأعترضن بهذه الجريدة وجهك (النبي يسمع ما يقول عثمان)

عمار — جلدة ما بين عينى وأنفى ، فمن بلغ ذلك منه فقد بلغ منى ...

بعض المسلمين لعمار — إن رسول الله قد غضب فيك ونخاف أن ينزل فينا قرآن !

عمار — أنا أرضيه كما غضب ! (يقصد نحو النبي)

عمار — يا رسول الله مالى ولأصحابك ؟

رسول الله — ومالك ولهم ؟

عمار — يريدون قتلى ... يحملون لبنة ويحملون على لبنتين

(النبي ينفض عنه التراب بيديه الكريمتين ويطوف به)

النبي — وَيْح عمار ! تقتله الفئة الباغية ... يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار[١] ... للناس أجر ولك أجران ، وآخر زادك من الدنيا شربة لبن[٢]

— ٨ —

« سنة ٣٧ هـ ، يوم صفين فى الفتنة بين على ومعاوية »

مجلس شورى[٣]

على بن أبى طالب بعد خطباء -- أيها الناس ! إنه قد بلغ بكم وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغوا منكم ما بلغوا ، وأنا غاد عليهم بنفسى بالغداة فأحاكمهم بسيفى هذا إلى الله !

(خطباء كثيرون يرون الحرب ويرى غيرهم الموادعة)

عمار بن ياسر — أما والله لقد أخرجها إليك معاوية بيضاء ، من أقرَّ بها هلك ، ومن أنكرها هلك . مالك ياأبا الحسن ؟ أشككتنا فى ديننا ورددتنا على أعقابنا بعد مائة ألف قتلوا منا ومنهم ؟ أفلا كان

---

(١) أحد المؤمنين السابقين من بنى مخزوم وقد هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى

(٢) هذا الكلام من وصف لؤلؤة مولاة أم الحكم بنت عمار لعمار

(٣) هذه رواية أم سلمة زوج النبي

---

(١) الحديث رواه النجارى وأثبت بعض القصة ابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار ج ١ وقد اعتمدنا على ما أثبته ابن عبد ربه فى العقد ج ٣

(٢) زيادة فى حديث رسول الله أثبتها معمر فى جامعه

(٣) من تاريخ ابن قتيبة

هذا (الاحتكام إلى كتاب الله) قبل السيف وقبل طلحة والزبير وعائشة ؟ قد دعوك إلى ذلك فأبيت ،وزعمت أنك أولى بالحق ، وأن من خالفنا منهم ضال حلال الدم ، وقد حكم الله تعالى فى هذا المال ما قد سمعت ... فان كان القوم كفاراً مشركين فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى يفيئوا إلى أمر الله ، وإن كانوا أهل فتنة فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . والله ما أسلموا ولا أدوا الجزية ولا فاءوا إلى أمر الله ولا طفئت الفتنة ...

على — والله إنى لهذا الأمر كاره !

— ٩ —

« في حرب صفين »

عمار — أيها الناس! ائتونى بضياح من لبن فى قدح أروح له حلقة حمراء [1] « يشرب ويحمد الله ويقول : » إن رسول الله قال لى إن آخر شربة أشربها من الدنيا شربة لبن ... اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك فى أن أقذف بنفسى فى هـذا البحر لفعلته ... اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك فى أن أضع ظُبَةَ سيفى فى صدرى ثم أنحنى عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت . وإنى لا أعلم اليوم عملا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم أن عملا من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلته ...

(عمار يهتف بالمسلمين من أصحاب علي)

— ألا من يبتغى رضوان الله عليه ولا يؤوب إلى مال ولا ولد ... ؟ (يقصد إليه مسلمون كثيرون فيهتف بهم)

— أيها الناس! اقصدوا بنا نحو هؤلاء الذين يبغون دم عثمان ويزعمون أنه قتل مظلوماً ؛ والله ما طلبتهم بدمه ، ولـكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرءوها وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم . ولم يكن للقوم سابقة فى الاسلام يستحقون بها طاعة النـاس والولاية عليهم فخدعوا أتباعهم أن قالوا إمامنا قتل مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة ملوكا .. تلك مكيدة بلغوا بها ما ترون ... ولولا هي ما تبعهم من الناس رجلان .. اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت ، وإن تجعل لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا في عبادك العذاب الأليم !

(ويمضى بمن معه من المحاربين)

(١) الطبرى ج ٦

عمار — يا عمرو بن العاص

عمرو — مالك يا عمار ؟

عمار — تَبًّا لك بعت دينك بمصر ! تباً لك تباً ! طالما بغيت فى الاسلام عوجاً ... يا عبيد الله بن عمر بن الخطاب !

عبيد الله — مالك يا عمار ؟

عمار — بعت دينك من عدو الاسلام وابن عدوه ؟

عبيد الله — لا ، ولـكن أطلب بدم عثمان

عمار — أشهد على علمي فيك أنك لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله عز وجل ، وأنك إن لم تقتل اليوم تمت غداً ، فانظر إذا أعطى الناس على قدر نياتهم ما نيتك ! ... أما والله لقد قاتلت صاحب هـذه الراية مع رسول الله ثلاثاً ، وهذه الرابعة ماهى بأبر ولا أتقى (عمار يهجم بمن معه ويقول لهاشم حامل الراية)

تقـدم يا هاشم ... الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت فى أطراف الأسل . وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين ؛ اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه

(يهجم عليه أبو غادية المزنى من أصحاب معاوية فيقتله)

أبو غادية — إليك أيها الرجل فأنا قاتله ...

عقبة بن عامر — بل أنا صاحبه . إليك إليكِ ... لى رأسه أحتزه بسيفي !

أبو غادية — فتذهب بها إلى معاوية ؟

(يقبل معاوية ومعه عمرو بن العاص)

عمرو بن العاص — والله إن يختصمان إلا فى النار !

(ينصرف الرجلان بعد تسليم الرأس)

معاوية — ما رأيت مثل ما صنعت ! قوم بذلوا أنفسهم دوننا تقول لهما إنكما تختصمان فى النار

عمرو — والله ذاك ! والله إنك لتعلمه ، ولوددت أنى مت قبل هذا بعشرين سنة .. لقد أسلم قبلى وقبلك ، وأوذي مالم نؤذ ، وأحبه رسول الله ، وحضر كل وقائع النبى ...وقال الرسول تقتله الفئة الباغية !

معاوية — ويلك يا عمرو ! أنحن الذين قتلناه .. لقد قتله من أخرجه لهذا اليوم !

* * *

عليك السلام يا عمار ... ليت قوماً غير المسلمين قتلوك !

دريني خشبة



كتاب عن الصحارى المصرية

من الكتب التى استرعت الأنظار أخيراً فى انكلترا وأمريكا كتاب صدر عن الصحارى المصرية بقلم الماجور جارفيس بك عنوانه : « صحراوات ثلاث » Three Deserts ؛ وقد كان جارفيس بك مدى ثمانية عشر عاماً حاكما إدارياً فى الصحارى المصرية ، وكان إلى عامين حاكم محافظة سيناء ، ثم أقيل من الخدمة فيمن أقيل من الوظفين الانكليز ، وعكف على إخراج كتابه . وقد درس جارفيس بك خلال خدمته الطويلة أحوال الصحارى المصرية من الوجهة الجغرافية والوجهة الاجتماعية ، ودرس اللغة العربية ولهجات البدو دراسة حسنة ، فكتابه ثمرة لدراسة مستفيضة . وهو يقص علينا تجاربه الأولى حينما أرسل إلى العامرية محافظاً للصحراء الغربية ليشرف على ضبط الأمن والنظام فى منطقة صحراوية شاسعة يجهل خواصها وأحوال سكانها . ومن رأيه أنه خير لأهل هذه الواحات النائية أن يبقوا على حالهم من البداوة والتأخر ؛ وهو أيضاً خير لحكامهم ، وتزداد مهمة الحاكم صعوبة كلما تقدم هؤلاء البدو فى المعرفة والتمدن . غير أنه قد أضحى من المستحيل اليوم أن تطبق هذه النظرية بعد أن تطورت طرق المواصلات السريعة ، وانتشرت الطيارة والراديو ، وخرجت الصحراء عن عزلتها القديمة ، وأضحت ترتبط بالعالم المتمدن . وهنا ينظر جارفيس بك إلى مهمته نظرة استعمارية ، فيحمل على مواطنيه الذين يضطلعون بمثل مهمته ، ويجهلون كيف تساس هذه المجتمعات المتأخرة ، وكيف تحشد تحت لواء المستعمر . على أن كتاب جارفيس بك يحتوى بالرغم من صبغته الاستعمارية على كثير من المعلومات القيمة ، وقد زين بكثير من الخرائط والرسوم

شاعر انكليزى كبير يحاضر بالقاهرة

دعت كلية الآداب بالجامعة المصرية الأستاذ لاسيل ابركرومبي الشاعر الانكليزى الكبير ليلقى بالقاهرة بعض محاضرات عن الشعر الانكليزى والشعراء الانكليزية وستبدأ هذه المحاضرات اليوم ١٣ ديسمبر بمحاضرة عن الشاعر « بن جونسون » ثم تعقبها محاضرات أخرى

والأستاذ ابركرومبي من أعظم الشعراء والنقدة المعاصرين فى الأدب الإنكليزى ؛ ويعتبر اليوم بعد وفاة توماس هاردى وكبلنج ودرنكواتر عميد الشعر الإنكليزى . وهو عضو فى الأكاديميه البريطانية ؛ وقد شغل منصب الأستاذية فى عدة من الجامعات الانكليزية الكبيرة مثل جامعة ليدز وجامعة لندن ، وموضوعه الشعر والشعراء . وهو يشغل اليوم فى انكلترا نفس المكانة التى يشغلها زميله وقرينه الشاعر بول ڤاليرى فى فرنسا

وسيكون ضمن محاضراته أحاديث عن التجديد فى الشعر الغنائى والتجديد فى فن الدرامة ، وهما من الموضوعات التى اختص بدراستها وله فيها آراء جديرة بالتقدير

رينه دوميك

نعت أنباء باريس الأخيرة الكاتب الفرنسى الكبير رينه دوميك سكرتير الأكاديمية الفرنسية . وكان دوميك مدى ثلث قرن فى طليعة الكتاب والصحفيين البارزين ؛ وقد بدأ حياته أستاذاً للأدب فى كلية استانسلاس ، ثم عالج الكتابة فى الصحف فلم يلبث أن ظهر بصفاء أسلوبه وقوة نقده . ولما تبوأ مركزه فى الصحافة العالية ، اشتغل حيناً فى جريدة « الديبا » ثم دعى إلى التحرير فى مجلة العالمين الشهيرة Revue de deux Mondes وهنالك ظهر على صفحات هذه المجلة العظيمة إلى جانب زميله

وصديقه الكاتب الكبير جول ليتر . ولبث دوميك أعواماً طويلة يعمل فى أسرة مجلة العالمين ، وكان لجهوده أثر بارز فى تقدم هذه الصحيفة فى العصر الأخير . واستقر المطاف بدوميك أخيراً فى الأكاديمية الفرنسية حيث عين سكرتيراً دائماً لها . وهنالك بذل دوميك أيضاً جهوداً عظيمة فى تنظيم الأعمال العلمية والاجتماعية . واشتهر دوميك بأسلوبه الذى يغلب عليه طابع الدقة والتحقيق . وله عدة مؤلفات أدبية ونقدية أشهرها كتابه فى تاريخ الأدب الفرنسى

كتاب جديد عن مكتشف أمريكا

صدر أخيراً بالفرنسية كتاب جديد عن كريستوف كولمب مكتشف أمريكا عنوانه « سر كرستوف كولمب Le Secret de Chr. Colomb بقلم الكاتبين شارل دى جافرى ورينه لى جانتى وفيه يحاول الكاتبان تمحيص جميع الأساطير التى ذاعت حول مولد كولمب وشخصيته وجنسيته ؛ ودحض المطاعن والروايات القاذفة التى ثارت حول أعماله في أواخر حياته وقد أسبغت هذه الروايات على سيرة المكتشف وعلى خلاله كثيراً من الريب ، وألقت على بطولته حجاباً كثيفاً . ويعترف الكاتبان أن بحثهما النقدى المستفيض لم يبدد كل غموض فى حياة المكتشف العظيم ، بيد أنه يلقى عليها كثيراً من الضياء الجديد

وفاة أديب عراقى فى القاهرة

توفى الأستاذ محمود السيد سكرتير مجلس النواب العراقى يوم الجمعة الماضى بمستشفى الروضة على أثر عملية جراحية خطيرة ظل ثلاثة أشهر يكابد غصصها بعيداً عن وطنه ، غريباً عن أهله حتى قضى نحبه المحتوم بين عناية أطبائه وعطف أصدقائه وقد أوصى وهو فى سياق الموت أن يدفن فى القاهرة . والأستاذ الشاب محمود السيد كان من السابقين الأولين فى ميدان الأقصوصة ، وقد بدأ شوطه فيها بداية حسنة ، وهو وتيمور وصاحب الحاصد البغدادية طلائع النهضة القصصية فى العالم العربى . رحمه الله رحمة واسعة وعزى فيه الشباب العراقى خير العزاء

الرطانة واللغة الانجليزية

لما فتح العرب فارس والشام ومصر فشت الرطانة فى اللغة العربية . ونقصد بالرطانة ما أطلق عليه المؤرخون (اللحن) وقد آثرنا الرطانة لأنها أعم ، إذ اللحن لا يعدو الخطأ فى الإعراب . وما حدث للغة العربية منذ ثلاثة عشر قرناً يحدث مثله اليوم للغة الانجليزية . فقد فشت فى آسيا الشرقية وجزر المحيط الهادى رطانة انجليزية أطلقوا عليها هذه اللفظة بِدْجِنْ ، فقالوا Pidgin English ، وهي خليط من الانجليزية والصينية لا يعسر على الانجليزى أن يفهمها بعد أسابيع من إقامته هناك ... وقد فشت هذه الرطانة الانجليزية فى دور العلم والمعاهد الصينية ولاسيما هونج كونج التى تنفذ منها الثقافة الانجليزية إلى قلوب الصينيين ... ويحاول الانجليز جهدهم تخفيف هذه الرطانة ولكنهم لا يفلحون

باكونين

صدر فى انجلترا فى الأسبوع الفارط كتاب عن الفوضوى الروسى باكونين هو أكبر مؤلف فى غير الروسية عن هذا الرجل السياسى الخطر الذى يرجع إليه الفضل فى الحركة النهلستية التى أقضت مضجع القيصر وأقلقت بال حكومته ، والتى كمنت فى الشعب الروسى البائس ، لتنفجر فى هذه الثورة الجامحة الهدامة التى قام بها لنين وتروتسكي وأتباعهما ... ومؤلف الكتاب هو الأديب المؤرخ الانجليزى الكبير ا . ه . كار .:. وقد استطاع أن يلم بحياة المترجم إلماماً يثير الاعجاب ومن أحسن ما قال فيه : « فإن تكن جهود باكونين قد انتهت آخر الأمر إلى أيدى عصابة من الأبالسة ، فليس الذنب ذنب تعاليمه ، فالرجل كان ينشد لروسيا حرية وحكومة صالحة أمينة على مرافق الأمة ، لا حكومة جبارة حمراء ، تستمد حمرتها من الدماء الزكية التى تسفكها ... وقد كان باكونين غولاً ترتعد منه القيصر ، فلما فر الزعيم من وجهه إلى أوربا ناشد قياصرتها باسم المودة أن تقبض عليه وتبعث به إليه ... وقد فعلوا ... فقد قبض عليه فى درسدن وحوكم بتهمة التآمر على سلامة الدولة وحكم عليه بالإعدام ، وأرسلت به الحكومة إلى النمسا ، ولا ندرى لماذا ، فأيدت الحكم عليه بالاعدام محاكمها الامبراطورية ... ثم أرسل

من هناك إلى روسيا ، فصدر عليه نفس الحكم ؛ ثم خفف بالنفي إلى أصقاع سيبريا ... وقد ظل هناك بضع سنين ... وكتب إلى القيصر يستعطفه ويرجوه أن يمنح البلاد بعض الحقوق الدستورية ، ولكن القيصر سخر بكتابه ... غير أن باكونين فر من منفاه ، واستطاع أن يركب البحر إلى أمريكا ، ومنها إلى أوروبا ، ووصل إلى كوبنهاجن ، ولكن عيون القيصرية كانت ترصده ، فثنى عنانه إلى فرنسا ، واستقر فى ليون ، يعانى شظف العيش ويتجرع غصص الحياة ، حتى وافته منيته سنة ١٨٧٥ »

هذا وقد تأثر كبار أدباء الروس بتعاليم باكونين ، وفى مقدمتهم دستويفسكي وتولستوى وترجنيف

تطور القصة البوليسية

تشغل القصة البوليسية اليوم أوسع مكان فى الأدب القصصى ، بل هى اليوم أحب أنواع القصص الشعبى ، وهى تستهوى الشباب بنوع خاص ، ومن ثم كانت العناية بتهذيبها وصقلها اليوم . ويعتقد البعض خطأ أن القصة البوليسية حديثة العهد بين أنواع القصص ؛ والواقع أنها قديمة النشأة ، وتجد مادتها فى التاريخ بكثرة ، غير أنها اتخذت فى العصر الحديث صبغتها الفنية الجديدة ، وأصبح بطلها التقليدى رجلاً مغموراً لا اسرة له ، يستهويه بحث الغامض وتحقيق القضايا المعقدة ومطاردة الجناة البارعين فى التستر والتخفى . وقد كان هذا البطل فى البداية يقدم إلينا فى صور وصفات بغيضة ، أخصها القسوة والخشونة وحب التنكيل والتشفى ؛ وفى مثل هذه الصورة يبدو لنا « جافير » أحد أبطال قصة «البؤساء» لفكتور هوجو ؛ ولكن هذه النزعة تطورت فى العصر الأخير تطوراً ظاهراً ، وغدا بطل الرواية البوليسية شخصاً محبوباً يتصف بالتواضع والبراعة والخلال الحسنة ، ويحب الخير ، ولا يقسو إلا على المجرمين العابثين . وكان أول من قدم إلينا هذا النوع من الأبطال الكاتب الفرنسى « أميل جابوريو » ، وهو بلا مراء أعظم كتاب القصة البوليسية فى فرنسا ؛ وتلاه بعد ذلك جمهرة من الكتاب البارعين أضحت أبطالهم البوليسية شخصيات محبوبة تثير الإعجاب . ومن هؤلاء السير كونان دويل مبتكر شخصية شرلوك هولمز ؛ وبونسون دى تيراى مبتكر شخصية روكامبول اللص البارع والبوليس المدهش معاً ؛ وموريس لبلان مبتكر شخصية ارسين لوبان وغريمه الشرطى جانيار ، وغيرهم . وتتجه القصة البوليسية اليوم إلى نوع من القصص التهذيبى المفيد بعد أن ظهر أنها أحب أنواع القصص إلى الشباب .

(بقية المنشور على صفحة ٢٠٠٢)

وهذه أمور يختلف فيها النظر وليست من قواعد الأخلاق . فقل فيها ما يهديك إليه النظر الصائب . ورأيى أن التواضع محمود ما لم يكن ذلة ، والقناعة حميدة بقدر ما تحول بين الإنسان وبين الشره والاستكلاب . فإن كانت ضعفاً فى الهمة وعجزاً عن الإدراك فهى رذيلة . وكذلك الزهد . وأما التوكل فإن يكن استكانة للحادثات ، وخنوعاً لكل ما هو آت ، فلا يرضاه إنسان ؛ وإن كان ثقة بالنفس وانطلاقاً فى سبل الحياة لا ترده دون غايته المشاق والأهوال فما أحوج الناس إليه

يا أخى : قد أساء العجز والذل تأويل هذه الأمور . وأنت تعرف أن المثل الأعلى للرجل المسلم أن يكون طامحاً إلى أبعد غايته ، واثقاً بنفسه إلى غير نهاية ، حرًّا لا يقر بعبودية ، أبياً لا يقيم على دنيّة ؛ يرى نفسه قائماً فى هذا العالم بالقسط قد وكل الله إليه تصريف الأمور وتقسيم الأرزاق ، والهيمنة على الأخلاق . وأين هذا مما فهمه الناس من التواضع والتوكل . الخ

وأما الربا فلا يتسع المقام للكلام فيه . وحسبك هذه الثورات الثائرة حوله ، والمعارك الهائجة فيه بين البلشفية والرأسمالية

وأما قياس الأخلاق بالنفع والضر فقد ذهب إليه بعض علماء الأخلاق ، ولكن مذهباً ينتهى إلى منفعة الجماعة وضررها لا منفعة الفرد وضرره . ولن تقوم لأمة قائمة إن جعلت مقياس أخلاقها نزوات كل إنسان ونزغات كل فرد

وبعد فيا صديقى أرانى حدت عن الموضوع الأول استطراداً معك ، فأرجع إلى محمود أحمده على ثورته مخطئاً ، وأذمه على هدوئه مصيباً . فقد تمثل لى فى الأولى حرًّا ثائراً يريد أن يقلب نظام الأخلاق فى الأمة ، وتمثل لى فى الثانية نُكلَةً نِكساً مبطاناً لم يدع على المائدة فتاتاً ، ولم تدع فيه المائدة بقية لهمة أو عزيمة أو ثورة . فرحمه الله جوعان ثائراً ، وأخزاه الله شبعان خائراً

عبد الوهاب عزام

الكتب

قصة معمل الذهب

القصة الثالثة عشرة من القصص المدرسية

للأساتذة: سعيد العريان، أمين دويدار، محمود زهران

للأستاذ أبو الفتوح محمد التوانسي

عنوان القصة الجديدة من القصص المدرسية، وهي أولى المجموعة الثالثة من هذا القصص الرفيع، فماذا يوحي هذا العنوان الطريف العجيب الذي يثير الرغبة ويهيج الشوق؟

لا شك عندي أن الطفل سيسر حين يطالع قصته، وسيغرق في الضحك حين يعلم أمر الأب توت مع الشقي حابي، وسيدفعه هذا وذاك إلى إدراك جمال القصة، وقريب من أذهان الطفولة تلك الأسمار الشائعة التي لا يزال يرويها عامة القصاص في القرية من حكايات العفاريت التي يتخللها كثير من صور المسخ والتقمص. وفي اعتقادي أن هذا أثر عريق من آثار مصر القديمة في عهدها الأسطوري لا زال عالقاً بالأذهان، رغم تقادم الحقب وامتداد الزمن؛ فالشراب الذي يحيل الحيوان الناطق إلى حيوان نكير الصوت شبيه بالكيمياء الذهبية، وتلك خرافة قديمة

وما زالت الخرافة عند الشعوب منشأ الفلسفات والأديان؛ فالقصة التي تصوغ الحقيقة الواقعة في أسلوب خرافي هي أدنى إلي منازع الطفولة، وقصة معمل الذهب تقوم على فكرة من هذه الفكر التي تنتهي حتما إلى غرض تهذيبي، وإذا فماذا يفهم الطفل من قصته الجديدة؟ سيعرف بلا ريب أن السرقة التي حرمتها الأديان لا تليق بكرامته، لأن مصيره ربما كان كمصير اللص حابي ومن لف لفه

فإذا انتقلنا من هذا العرض الموجز ألفينا في القصة أسلوباً قصصياً بارعاً، نسج برده طبع قصصي، فهو يملك سمع الطفل ويحرك فيه شهوة القراءة، ثم يمنحه زاداً لغوياً نافعاً ويسوقه في رفق إلى تذوق التعابير الصحيحة التي هي الغاية من تعليم اللغة. فقصة معمل الذهب وشقيقاتها السابقات طريق سهل واضح المسالك إلى تعليم الإنشاء العربي. وما تزال طريقة هذا الفن في مدارسنا في حاجة إلى التجويد، وإن تكن قد بلغت منزلة مشكورة من الإجادة الفنية في حسن الاختيار والتصرف والشرح. والأمر في قبضة المعلم الحازم الذي يولد من القصة موضوعات شائقة في الإنشاء. وما أحب هذا النوع من الكتابة الفنية لدى الأطفال والناشئين من تلاميذنا! ومما يرفع من شأن القصص المدرسية في جملتها وعنايتها الصادقة بتصحيح التراكيب والمفردات التي كان يظن أنها في فسولة العامية، وليس هذا بالأمر الهين فهو مما يحتاج إلى جهود متضافرة، واطلاع شامل، وخبرة تامة بأساليب اللغة العامية أما الخيال في هذه القصة وفيما سبقها فبعيد مداه، ليس له أفق محدود، وهذا العنصر من عناصر القصة متى أجاده المؤلف وواتاه فيه الطبع أكسب القصة سحراً وتأثيراً

هذا وقد بلغ التحليل النفسي الغاية في دقة الوصف، وأثر ذلك واضح في تصوير بطلي القصة الأب توت، ذلك الحكيم الكيماوي، وحابي الأثيم الذي كم ذاق صنوفاً من الشقاء. وقد أصاب مؤلفو القصص المدرسية في هذه الناحية توفيقاً كبيراً يدل على قدرة عجيبة في فهم طبائع الأشخاص، ودراسة ممحصة لأحوال البيئة المصرية، نجد ذلك في العرض الدقيق في سائر القصص للعادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية في بيئتنا، مع صدق في اللهجة، وجمال في الفن، وبساطة في التعبير، وابتكار متجدد، فتلك جريدة التلميذ الملحقة بقصتنا الجديدة نوع مستحدث ومستطرف يرمي إلى غرس الملكات الأدبية في نفوس الناشئين

وكل ذلك مما يجعل القصص المدرسية مورداً عذباً لدراسة عقلية نافعة، ومثلا عليا للتلميذ تحببه إلى الفضيلة وتعمل على رفع مستواه الخلقي، وتشحذ من عزيمته، وتقوي من استقلاله الفكري

وبعد فماذا في تلك القصص؟ إنها جهود أدبي في أدب الطفل يسير في طريق تحقيق الغاية من إيجاد الأدب القوي الذي يجمع بين الموروث عند العرب في الثقافة اللغوية، وبين موضوعات البيئة التي نعيش فيها

فإلى من يهتمون باللغة القومية في العهد الجديد من المسئولين وغيرهم نوجه الحديث، فإن في تشجيع ذلك المجهود شداً لأزر الفصحى في المدارس.

(الجيزة) أبو الفتوح محمد التوانسي

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧

5 me Année, No . 233

Lundi - 20 - 12 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٣٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٧ شوال سنة ١٣٥٦ — ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الفهــرس

الأخـــلاق
بين النجاح والفشل

تعال يا صديقى ! جعلتمونى مظهراً لثورتكم على الأخلاق فحسب الناس أنى ثائر معكم عليها وهى مصدر سعادتى ومنبع رضاى . فلماذا لا تمضى ما تقول باسمك كما يفعل كل رجل له رأى وفيه صراحة ؟

فقال صاحبى وقد استوى على المقعد الذى يحبه من المكتب وكفاه تدوران على عدد مطوى من الرسالة أظنه الأخير :

إن مقال الثائر المجهول كقبر الجندى المجهول يعبر عن فكرة و يرمز لطائفة . ولو كان ذلك رأيى الخاص لأمضيتهُ ، ولـكنه رأى جميع المنكوبين بأخلاقهم و إخلاصهم اضطرب على لسانى حديثاً بعد ما اضطرم فى نفوسهم ثورة . ولقد كان فيما قلتُ وقال الإخوان تفريج لما كرَب صدورنا من وقاحة الحال وصراحة الواقع ؛ غير أن فى نفسى بعد أن قرأت هذا العدد كلمة

قلت وماذا تريد أن تقول بعد ما أجرَتْ لسانَك الأخلاقُ بعقلين متينى الحجة من عقول دعاتها وحماتها ؟

فقال : « إن الأستاذين الجليلين عزاماً والخولى أطلا علينا من قُدُس الأقداس وكلمانا بلغة الدين الذى يتجاهل الـكفر ،

ولهجة الحق الذى يتناسى الباطل . وقدس الأقداس كما تعلم مكان بين النجوم ينزله الأحبار والفلاسفة فينظرون إلى السماء أكثر مما ينظرون إلى الأرض ، ويتصلون بالملائكة أكثر مما يتصلون بالناس ، ويدبرون أمر هذا الكوكب المظلم على أنه مَرَادُ الصلاح الخالص والخير المحض ، فلا يريدون أن يقيموا وزناً للمنكر ، ولا أن يلقوا بالاً إلى الشر ، حتى أنهم ليغفلون ذكر الفواحش فى كتب الدراسة ليجهلها الناشئ ، كأنما جهلك الشئ يمحوه من الوجود ! والشر منذ معصية آدم وجريمة قابيل قسيمُ الخير فى الأرض . والرذيلة هى الطبيعة الحرة لهذه الحياة ، أما الفضيلة فهى قيد لها وحدٌّ منها

لا أريد أن أقول لعلماء الأخلاق زاوِجوا بين الخير والشر ينتج منهما مزاج مستقل لا هو الخير كله ، ولا هو الشر كله ، فتلك تجربة نعوذ بالله من غوائلها إذا طاشت ؛ ولكنى أطلب إليهم أن يعالجوا مشكلة الفضائل على أساس التسليم بأن للرذائل جاذبية ومنفعة ، وأن مصلحة الفرد لا ينبغى أن تذوب هذا الذوبان فى مصلحة الجماعة . ذلك أدنى إلى أن يكون العلاج أنجع والشفاء أتم . أما أن تكون القاعدة فى رأى الأستاذ الخولى أن الفاضل لابد أن ينجح ، والرذيل لابد أن يخيب ، إذا تساويا فى الاستعداد والاجتهاد والكفاية ، فإذا وقع العكس كان شذوذاً يؤكد هذه القاعدة ولا يهدمها ، فذلك على ما أظن حكم لا يصححه القياس ولا يناصره الواقع . وليس الأستاذ الخولى بالرجل الذي نضرب له الأمثال من الماضى ، ونذكر له الشواهد من الحاضر ، فإنه يعلم علم اليقين أن تاريخ الدنيا يسجل فى كل زمان وفى كل مكان أثر الرذيلة الخطير فى النجاح الخارق ، سواء أكانت الرذيلة فى الناجح أم فيمن يلابسه . هذان فرسان رائعان اشتركا فى خصائص القوة والفتوة ، ثم ضُمِّرا على نمط واحد ، وركبهما فى السباق فارسان على كفاية واحدة ؛ فلو أنهما تراكضا بالحق لاستوليا معاً على الأمد ؛ ولكن صاحب أحدهما حقنه بمادة يعرفها بياطرة السباق ويحظرها القانون ، فجعلت من كل شعرة فيه جناحاً بلغت به الغاية قبل أن يتوسط قِرْنه الميدان . وأحرز الفرس المحقون الرهن الضخم فأصبح ملك الخيل وسبع الليل . وشبيه بهذين الفرسين رجلان تماثلا فى الشهادة والكفاية والاستعداد والخلق ؛ ثم سارا معاً فى طريق الحياة جنباً إلى جنب ، وكان لأحدهما زوجة جميلة لبقة ، فحقنت زوجها حقنة تعرفها هى ، جعلته فى اليوم التالى سيداً للناس ورئيساً على الآخر . لا يستطيع المسبوق أن يستعد لمثل هذه الرذيلة لأنه لا يعرف مأتاها ، ولو عرف لما استطاع أن يحتقن بمثل هذه الحقنة وهو عالم . ولو تقصينا أسباب النجاح السريع ـ وهو الكثرة الفاحشة ـ لوجدنا هذه الحقنة هي جماع تلك الأسباب فى شكول مختلفة . وحصر الدعة واللذاذة فى الثراء الحلال البطىء آت من شعور الاستاذ نفسه . فإنه إذا لم يجد المراءة والهناءة إلا فى لحم الخروف ، وجدهما الوف غيره فى لحم الخنزير . وإذا عد الأستاذ تاجراً من تجار الغلال أثرى بطيئاً وهو وادع بفضل الخلق ، عددنا له ألفاً من تجار المخدرات أثروا سراعاً وهم آمنون بفضل الشُّرَط

يقولون إن نجاح الأخلاق الفاضلة مشروط باستعداد الفاضل . والاستعداد أهبة الكفاح ووسيلة النجاح مافى ذلك شك ؛ ولكن كيف اتفق أن يكون أكثر الأراذل قادرين وأكثر الأفاضل عجزة ؟ لقد ذكرْنا بذلك فكاهة من قال إن أكثر أهل الجنة الأغفال والبُله من النساك والمشعبذين والجهلة ، وأكثر أهل النار العباقرة والأفذاذ من الفلاسفة والحكام والقادة . لم لا يجوز أن يفسَّر هذا النقص العام فى الفضلاء بأنهم يُلزمون أنفسهم الطريق الوعر إلى الغاية البعيدة ، بينما يجد غيرهم إلى الغاية الواحدة ألف طريق ؟

لقد سرنى أن فسر الأستاذان الجليلان ما غبّنا من بعض الفضائل هذا التفسير ، فإنه — وإن كان أبعد المعانى عن فهم الناس لهذه الأخلاق — أقربها إلى القصد الذى تتوخاه من التعديل والإصلاح . ولعلك تلمح فى هذا التفسير اعترافاً مضمراً بأن من الفضائل مالا يلائم بمفهومه الشائع طبيعة هذا العصر ولا روح هذا المجتمع و ... ... »

ورأيت صاحبى يتمكن فى مقعده الوثير ، ويسحب سيكارة من علبته الأنيقة ، ويريد أن يرخى للحديث العنان . فقلت له : حسبك ! حسبك ! فقد انتهت الصفحة وضاق الوقت . وليته اتسع حتى أسرد عليك حديث أحد السعداء الناجحين بالأخلاق أفضى به إليّ قبل أن تدخل على ، فربما وجدت فيه ما يرضيك ويهديك . فإلى فرصة أخرى

أحمد حسن الزيات

وكان صباح

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

جاء يوم العيد ، وطلع نهاره ، وارتفعت شمسه ، وأنا لا أرى أحداً يدخل علىّ فيقرئنى السلام ويحيينى تحية الصباح ، ويهنئنى بهذا العيد الجديد ، ويتمنى لى كثيراً من أمثاله ، وأمثال أمثاله إن شاء الله . شئ بارد !! أين هـذه الزوجة التى كنت أظنها صالحة ، والأولاد الذين كنت أرجو أن يكونوا بررة ؟ ؟

وأنا يحلو لى الحديث على الرّيق ، بين نوبات التثاؤب والتمطى تحت اللحاف أو الملاءة ، ولا أذكر أنى عدمت قط من يحدثنى فى صباح — حتى قبل أن أستيقظ ! — يدخل علىّ أحـد الصغيرين اللعينين فأسمع صوتاً ناعماً ينادينى : « بابا ... بابا » فأتقلب فى فراشى وأحدث نفسى أن هذا حلم ، ولـكن الصوت يلح علىّ بالنداء « بابا ... بابا » فأفرك عينىّ بيد ، وأدس الأخرى تحت الوسادة لأخرج الساعة وأنظر ، فإذا هى الخامسة صباحاً ! فأصيح : « يا خبر أبيض ...! مالك ياولد !؟ » فيقول « صباح الخير » فأقول : « أى خير يا أخى ؟ حرام عليك ! » فلا يعبأ بى ، ولا يشفق علىّ ، ويقول « هات القررررش » ـ هكذا ينطقها ـ فأحتال لأصرفه عنى برفق وأقول له فى جملة ما أقول « اذهب إلى أمك ... خذه منها » فيأبى اللعين أن يتزحزح ويقول : « نائمة ! » فأحدق فى وجهه مستغرباً وأسأله « نائمة ؟ بالذمة ؟ » فيؤكد لى أنهـا نائمة ، فأقول « وأنا ؟ ؟ » فيقول « صاحى ! » فأقول « تمـام ... فى محله ... لا بأس ... ولـكن القرش تحت الوسادة التى تريح عليها أمك النائمة خدها الأسيل ، فاذهب إليها وادفع يدك تحت المخدة ... بقوة ... وخذ القرش ، فإذا لم تجده هناك ، فستجده لا محالة بين أسنانها ، فإنها ماكرة ، فافتح لها فمها وانتزعه من بين أضراسها »

فيضحك الخبيث وقد راقه الـكلام ، ويسألنى « وإذا عضتنى ؟ » فأطمئنه وأؤكد له أنى سأعضها انتقاماً له ! فيذهب عنى مسرورا ...

أو تقبل الخادمة ، ويحسن أن أقول إن لهـا فى بيتى عشر سنوات ، فتقف على رأسى وراء شباك السرير وتقول بصوت خافت ولـكنه ملح : « سيدى ... سيدى ... »

فأنظر فى الساعة التى تحت الوسادة ، وأقرض أسنانى من الغيظ ، ولـكنى أتجلد وأقول : « ياصباح الفل ، نعم ياستى ... هل تريدين أن أفسر لك حلماً ؟ »

فتبتسم — أعرف أنها تبتسم وإن كنت لا أراها — وتقول « هل تريد الشاى خفيفاً أو ثقيلاً ؟ »

فأتنهد ، فإن هذا سؤالها كل يوم منذ عشر سنوات ، وأقول لها ما قلت كل يوم فى هذه السنوات العشر :

« خير الأمور الوسط ياشيخه ! »

فتسأل « نعم ؟ »

فأقول على سبيل الشرح « متوسط .. لا بالخفيف ولا الثقيل .. ماذا تصنع الست ؟ »

فتقول : « نائمة »

فأقول : « يابختها ! ليتنى كنت الست فى هذا البيت السعيد ! »

فتقول الفتاة معترضة « يا سيدى ! »

فأقول : « اسمعى ... إذا كنت تحبين ألا أكون الست ، فاذهبى إلى هذه الست التى تغط فى نومها إلى الآن (الساعة الخامسة) وأيقظيها وقولى لها إنى أصبح عليها وأقبل وجنتيها ، واسأل عن الشاى الجديد أين خبأته ؟ إفعلى هذا ، والله يحفظك »

والدعاء للخادمة واجب ، فثم شاى جديد ، ولا خبأت الست شيئاً ، ولـكن لماذا يزعجنى كل من فى البيت فى هذه الساعة المبكرة دونها ؟

ويعلو الضجيج ، ثم تدخل الست مرغية مزبدة ، وهى تصيح بى : « ألا يمكن أن تكف عن هذا العبث ؟ حرام عليك ياشيخ .. والله ما نمت إلا ساعتين »

فأقول « كالقطط ... تأكل وتنكر ... أنا أيضاً لم أنم إلا دقائق ... ضاع الليل كله فى أحلام ... »

فتنحى عنى اللحاف ، وتشد يدى ، أو رجلى ، وهى تقول « طيب قم ... »

فأصيح بها « إلى أين ؟ »

فتقول « وهل أنا أعرف ؟ قم والسلام ، ولكن هذا جزاؤك على إقلاق راحتى »

فأقول : « اتقى الله يا مسلمة »

فتقول : « ولماذا لا تتقيه أنت ؟ »

فأؤكد لها أنى سأتقيه من الآن فصاعداً ، وأرجو أن تتركنى أنعم بالرقدة ، ولكن هيهات ، فقد استيقظ كل من فى البيت ، فلا سبيل بعد ذلك إلى راحة أو نوم

***

ولكن الساعة قاربت التاسعة فى يوم العيد ، وما زال البيت ساكناً على خلاف عادته ، فقلقت عليهم ونهضت ، ودخلت غرفهم واحدة واحدة ، ونظرت فى وجوههم وجسست نبضهم لأطمئن ، وأردت أن أستوثق وأن أنفى كل شك فى أنهم ما زالوا أحياء وبخير وعافية ، فوضعت أذنى على صدورهم — أعنى قلوبهم — لأسمع دقاتها ، ولم يكفنى هذا ، فقد كانت بقية من الشك تختلج فى صدرى ، فما رأيتهم يتحركون ، فرحت أقرص هذا وأشد أذن ذاك لأرى هل يحسون أو لا يحسون ، فقاموا جميعاً فزعين يصيحون ويحتجون ، فلما سكنت الضجة قليلاً قلت لهم : «ماهذا النوم ؟ قوموا يرحمكم الله وتعالوا هنئونى »

فمشوا ورائى وحفوا بى حيث جلست ، وأقبلوا علىّ يسألوننى ؛ وتعلق بى الولدان اللعينان فرحين ، ووقف الباقون ينتظرون أن أفضى إليهم بالسر ، فأغرقت فى الضحك ثم قلت وأنا أنهض :

« أليس في البيت شىء يؤكل ؟ إنى أتضور جوعاً »

فقالت الزوجة الصالحة : « شىء يؤكل ؟ هل تعنى أنك أزعجتنا جميعاً على هذه الصورة الفاضحة ، لا لسبب سوى أنك تريد أن تأكل ؟ »

فقلت : « اسمعى يا امرأة ... لا تجدفى ... إن الطعام شىء مقدس ... لا تذكريه إلا بلهجة الاحترام والتوقير ... فما خلقنا إلا لنأكل ... على الأقل هذا ما يبدو لى أنا ... لا تقاطعى من فضلك ... أنت تظنين أنك خلقت لتنامى ... ولكنك مخطئة .. أوه جداً ... الأكل أحلى ، وأوفق ، وأليق بالحى ... أما النوم ؟ ما الفرق بالله بين الميت والنائم ؟ »

فقاطعتني وقالت : « يعنى ضحكت علينا وأجريتنا وراءك بعد أن أوهمتنا أن هناك داعياً للتهنئة ... ؟ »

قلت : « كلا ... لم أضحك على أحد ... أليس اليوم يوم عيد ؟ تعالوا إذن قبلوا يدى بأدب ، وهنئونى ، وادعوا لى بالسعادة وطول العمر ... مالكم ؟ »

ولم أسمع جواب السؤال ، ولم أعد أعنى بأن أسمعه ، فقد شغلت عنه بالنار التى اندلعت فى بدنى ، من القرص الذى انهال به علىّ الكبار والصغار ، حتى خيّل إلىّ أنى فى خلية من خلايا النحل ، لا فى بيت يسكنه آدميون ...

وقلت وأنا أنظر إلى وجهى في المرآة : « ليتكم تفعلون بى هذا كل صباح .. لقد صار وجهى أكبر .. وأحمر .. وأحلى .. ما شاء الله ! »

فقالت الزوجة الصالحة : « كابر ... كابر ... »

قلت : « لا مكابرة ... هى الحقيقة ... لقد صار خداى كالوردتين ... »

قالت : «حسن ... سنصبحك ونمسيك بما يحفظ لك حمرتهما. مستعدون يا أولاد ؟ »

فصاحوا جميعاً : « أيوه ... »

فقعدت ، وقد نويت أن آخذ بثأرى ...

وكان صباح ...

إبراهيم عبد القادر المازنى

ليلى المريضـــة بالعراق

للدكتور زكى مبارك

— ٢ —

... ودخلت أعدو خَلْفَ الوصيفة فى بصر زائغ ، وقلب خفاق ، فلم أكد أتبين مدخل البيت ، وعثرت قدمى على السلم عثرة خفيفة سلم الله منها ولطف ، وانتهيت إلى غرفة صغيرة فيها أريكة وثلاثة مقاعد ، وتركتنى الوصيفة وراحت تدعو ليلى ، فتلفت أدرس أساس الغرفة فى لهفة وشوق ، فوجدت على الحائط قطعة من القطيفة نقش عليها هذا البيت :

يقولون ليلى بالعراق مريضةٌ فياليتنى كنت الطبيب المداويا

ورأيت بجوار تلك القطيفة صورة السيدة نادرة التى جمعت عواطف العرب حول ليلى بفضل ما أبدعت فى ترجيع هــذا البيت ، ورأيت فوق المنضدة كتابين : رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ، وذكريات باريس للشيخ زكى مبارك ، فيا عجباً كيف جاز لمنزل ليلى أن يجمع بين الهوى والضلال !

وغابت ليلى ولم تعد الوصيفة ، واستمر الحال كذلك عشرين دقيقة ، فدفعنى الملال إلى التلهى بالنظر فى سلة المهملات ، وما أدرى كيف وقعتُ فى هذا الفضول ، فهل تصدقون أنى رأيت بين الخطابات المزقة رسالة من «فلان» يؤكد لها أن زكي مبارك أديب وليس بطبيب ؟ سامحك الله يا دكتور فلان ، ولا أراك نعمة الهوى والجنون !

لعل ليلى فى زينتها ، وإلا فكيف أعلل صبرها عن لقائى كل هذا الزمن الطويل ؟

ثم فتح الباب ، ودخلت امرأة ملفوفة بالسواد لا تقع العين منها على شىء ، ولم لا أقول دخل شبح أسود نحيل كأنه عود الخلال ؟

وانحط ذلك الشبح على أحد المقاعد ، ولكن هذه الجفوة لم تمنع قلبي من تواتر الخفوق . وبعد لحظات طوال كأعمار الأحزان تكلمت ليلى

رباه ! ماذا أسمع ؟ إن أذنىّ لا عهد لها بمثل هــذا الصوت المتكسر الناعم الحزين

ومضت ليلى تتكلم وتسهب ، ولكني لم أفهم شيئاً ، فقد كنت مشغولا بدرس طبيعة هذا الصوت ، هذا الصوت الذى يذكرنى بتلك الفتاة التى خفق القلب لها أول خفقة ، والتى قلت فيها أول قصيدة ، وسكبت عليها أول دمعة ، تلك الفتاة المنسية التى تنام فى قبر مجهول تحت سماء سنتريس

ما هذا الصوت ؟ يارباه ! أفى الحق أنى سمعت أمثال هــذه النَّبرات على كثرة ما طوَّفتُ في البلاد ؟

لا أكذب الحق ، هذا جوهر لم أشهد مثله فى سنتريس ولا باريس ، وإنما هو من جواهر العراق ، هو صوت تحدر عن تلك الانسانة التى قال فيها أحد المفتونين فى بغداد :

وكأنَّ رَجْعَ حـديثها قِطعُ الرياض كسِين زهرا

هو صوت تحدر عن تلك الانسانة التى قال فيها أحد القدماء :

رُهبانُ مدينَ والذين عهدتُهم يبكون من خوف العذاب قُعودا
لو يسمعون كما سمعتُ حديثها خروا لعزةَ ركَّعاً وسجودا

هو صوت ليلى يا بنى آدم ، ليلى المريضة بالعراق ، ولو سمعه الشيخ فلان لسال منه اللُّعاب

ثم انتبهت ، فقلت فى نفسى : إن ليلى بخير ، فهذا الصوت الضعيف يحمل قوة تهد رواسى الجبال

ثم انطلقنا نعدد فى شجون الأحاديث ، فسألتنى عن مصر ، وسألتنى عن صاحبة الذهبية التى ترسو على الشاطئ الأيمن خلف جسر اسماعيل ؛ فعجبت من أن تصل أخبارى إلى ليــلى وهى مريضة بالعراق ، وقلت : إن تلك الانسانة بخير ، ولـكنها تركت الذهبية وعادت إلى منزلها بمصر الجديدة ، وقد صحا القلب يا ليلى فلم يَعُـد بيننا تلاق منذُ ربيع سنة ١٩٣٥ والله المستعان على مكاره الصدود !

فتنهدت ليلى وقالت : حتى أنت تنسى العهود ! وماذا خليت لِغُـلف القلوب ؟

ومضت تتحدث عن الحياة الأدبية فى وادى النيل ، وسألتنى عن كثير من الأدباء ، فكنت أذكرهم جميعاً بما يحبون أن يذكروا به فى بغداد ، ورأيت أن أكون أميناً فى تبليغ التحيات فقلت : إن الأستاذ الزيات يسلم عليك . فقالت : لا أحب أن أسمع اسمه . فقلت : وكيف ؟ فقالت : هل تصدق أنه أقام سنين فى بغداد ولم

يسأل عنى ؟ فتشجعت وقلت : لعل له عذراً وأنت تلومين ! ذلك رجل يهيب أقاويل المرجفين

واستطردت فقلت : ولعل الدكتور السنهورى قام بالواجب .

فضحكت ضحكة عالية كادت تخرق النقاب وقالت : السنهورى أغلظ كبداً من ذلك !

فقلت : وما صنع الدكتور عبد الوهاب عزام ؟

فأجابت : أوَ كنت تحسبنى أنتظر زيارة الدكتور عزام ؟ إنه رجل أديب ، ولكن انشغاله بالتحريم والتحليل لم يترك فى قلبه مجالاً لرقيق الأحاسيس

فقلت : لقد مرّ الأستاذ أحمد أمين ببغداد منذ سنين ، فماذا فعل ؟

فقالت : هو رجل صافى الذهن ، ولكن يظهر أنكم أوهمتموه فى مصر أن العالم الحق لايليق به أن يُشغَل بشؤون الوجدان

ثم أغرقتْ فى صمت مُوحِش حسبتُـه لوناً من العتاب

***

وجاءت أقداح الشاى ، فتجرأتُ وقلت : وأين أكواب الصهباء ؟ نحن فى حضرة ليلى وتحت سماء بغداد !! فقالت : أنا امرأة مسلمة ونحن فى رمضان ؟ وأنتَ ؟

فقلت : وهل حسبتنى من الكافرين ؟

وفهمتُ أننى أخطأت فغيّرت مجرى الحديث

— مولاتى ليلى !

— نعم ، يامولاى !

— إنما جئت للعناية بصحتك ، كما تعلمين

— أعرف ذلك ، وهو فضل سأذكره ما حييت . سأذكر أن الحكومة المصرية كانت أعرف الحكومات الشرقية بالواجب نحو امرأة عليلة أوحت ما أوحت من الشعر والخيال ثم أضرعها الداء فتناساها الأهل والأقربون

فقلت : البركة فى الحكومة العراقية

فقالت : الحكومة العراقية ؟ سامحها الله ! هل تصدق يا دكتور أن الحكومة العراقية تبيح لمحطة الإذاعة أن تذيع جميع الأغانى والأناشيد ، إلا الصوت الحزين :

يقولون ليلى فى العراق مريضة فياليتنى كنت الطبيب المداويا

وهنا تنبهت إلى أنى لم أسمع هذا الصوت فى بغداد

فقلت : وكيف تحرِّم الحكومة العراقية هذا الصوت ؟

فأجابت : إن الحكومة فى هذا الزمن لاتعرف غير الجيش والرماح والسيوف والمدافع ، وهى تبغض أحاديث الوجدان كل البغض ، ولا يرضيها أبداً أن يتحدث إنسان عن ليلى المريضة بالعراق

فقلت : وكيف يصح ذلك وعندكم وزير مشرق الجبين هو المدفعىّ ، وعندكم وزير أديب هو الشبيبى ؟

فقالت : أما المدفعىّ فله من اسمه نصيب ، لأنه منسوب إلى المدفع ؛ وأما الشبيبى فلا تغرنّك بسماته العِذاب ، فقد كان شاعراً فيما سلف ، أما اليوم فهو من دواهى العراق ، العراق الذى يعبد النضال

ومرت لحظات صمت كانت أبلغ من الإفصاح

***

— مولاتى ليلى !

— نعم يامولاى !

— إنما جئت للاهتمام بصحتك

— أشكر لك يادكتور ، ولكنك تكرر هذه العبارة . فماذا تريد ؟

— أريد أن أرى وجهك ويديك

— وهل تريد أن تخطبنى ؟

— ليس هذا ما أريد ، فلى بحمد الله أهلٌ وأبناء

— إذن ماذا تريد ؟

— اعقلى ياليلى ، إن الأمر كله جِدّ ، والأمة المصرية تهتم بصحتك أبلغ اهتمام ، وقد نزلت الحكومة عند إرادة الأمة فأوفدتنى إليك ، ثم بالغتْ في الاحتياط فأوعزتْ إلى الدكتور على باشا ابراهيم أن يقترح على الجمعية الطبية أن تجعل مؤتمرها المقبل فى بغداد ، وأنا أحب ألا يعقد المؤتمر إلا وأنت فى عافية الفرس الجموح ، فإن لم يمكن ذلك فلا أقل من أن أقدِّم للمؤتمرين تقريراً شافياً يشهد بأننى لم أضع الوقت فى التعرف إلى عيون الظباء . وسيَـقدَم الدكتور محجوب ثابت وهو من خصومى الألدّاء ، وأخشى أن يشى بى فيصرح لمعالى الأستاذ نجيب الهلالى بك بأننى لم أكن فى الحرص على مهمتى من الصادقين

وبدأت ليلى فكشفت عن يديها ، فانخلع قلبي من الرُّعب ، حين وقع البصر على تلك الأنامل الصُّفر الدِّقاق

فتماسكتُ وقلت : وعيناك ؟.

فألقت النقاب عن وجه مليح التقاسيم كان له فى ماضيه تاريخ جميل ، وتأملت أنفها مرات ومرات فرأيت فيه أخيلةً من الملاحة قلما يجود بمثلها الزمان

ثم ارتقيتُ فوقعتُ على عينيها وُقوعَ الطائر الظمآن على الورد النمير

الله أكبر ! ما هذا السحر المبين ؟ أأنت مريضة ياليلى ولك هاتان العينان ؟

فابتسمت وقالت : صدق الدكتور فلان حين كتب إليّ أنك أديب ولست بطبيب !

فقلت : إنما أريد بعث الطمأنينة فى قلبك المروّع يامريضة العراق

وقضيت ساعتين فى مسامرة ليلى ثم استأذنت فى الانصراف والله المحمود على نعمة ذلك الحديث

***

والآن أوجه القول إلى الأمة المصرية ، الأمة القلقة على المريضة بالعراق ، ولا سيما الأستاذ محمد الهراوى الذى دسّ فى جيبي دينارين على المحطة ، أجرة برقية أرسلها من بغداد ليطمئن على ليلى المريضة بالعراق ، إليهم أوجّه الكلام فأقول :

بنى وطنى :

إن ليلى تملك عنصرين مهمين من عناصر الحياة : رخامة الصوت ، وملاحة العينين ؛ ولكنها مع ذلك فريسة الضَّنَى والنحول ، وسأبذل جهد الجبابرة لأصل بها إلى ساحل النجاة

وقد كلفت السيدة جميلة القيمة بشارع صريع الغوانى أن تحتال فى دعوة وصيفة ليلى لقضاء سهرة بريئة في منزلى بشارع الرشيد ، فإن حضرت تلك الوصيفة فسأعرف سِرّ ليلى . سأعرف كيف قضت أهوال الحب بأن تصل إلى ذلك النحول

فإن تمت تلك المحاولة فقد أصل إلى شيء ، وإن لم تتم فستذهب جهود المؤتمر الطبي أدراج الرياح

وأنا أرجو صديق الأستاذ الزيات أن يقف أطباء مصر على تفاصيل هذه المعضلة ، فما أحب أن يعودوا خائبين ، فيسيئوا إلى سمعة الحكومة المصرية بلا موجب معقول

وأنت أيتها السيدة التى اسمها جميلة ، والتى زعمت أننى فتى جميل ، اسمى ؛ ليس يهمنى بالدرجة الأولى على حد تعبيركم فى بغداد أن تغسلى ثيابى ، وأن تحضرى لي مائدة تخمة فى كل أسبوعين ؛ يابخيلة ، وإنما يهمنى أن تقودى وصيفة ليلى إلى منزلى ، إلى غرفة الاستقبال يالئيمة لا غرفة السرير ، فإن عند تلك الفتاة أسراراً تكشف المحجوب من حياة ليلى المريضة بالعراق

يا جميلة ! لقد كنت فى صباك جميلة ، فكونى عند ما أرجوه من محمود الظنون

يا جميلة ! أنا أنتظرك مع وصيفة ليلى فى الساعة العاشرة من مساء السبت المقبل ، والله بالتوفيق كفيل

(للحديث بقية) زكى مبارك

مصرع شجرة الدر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت كليوباتره آخر ملكة جلست على عرش مصر الفرعونية، وكانت شجرة الدر أول وآخر ملكة جلست على عرش مصر الإسلامية . وكانتا كلتاهما آية الجمال والسحر ، وعنوان البطولة والحزم ، زينة الملك ، وملاذ العرش والدولة ؛ وقد لقيتا كلتاهما مصرعها فى ظروف روائية مؤثرة ؛ ولكن بينما تحيط الأسطورة بحياة كليوباترة وتكاد تغمر حوادث مصرعها ، إذا بشخصية شجرة الدر تبرز واضحة خلال الفترة القصيرة التى تبوأت فيها عرش مصر ، وإذا مصرعها مأساة قصر تحيط بها جميع العوامل والظروف التى تجتمع حول مآسى القصور

لم تكن شجرة الدر كما تريد أن يصورها القصص أحياناً ، غانية قصر تعتمد على سحرها النسوى فقط فى تبوء المكانة التى سمت إليها ؛ ولكنها كانت فوق سحرها الجم ، امرأة رفيعة الخلال وافرة الذكاء والعزم ؛ بدأت حياتها جارية وحظية للصالح نجم الدين أيوب ولد الملك الكامل ملك مصر مذ كان نائباً عن أبيه بالولايات الشرقية . ولما توفى الملك الكامل ، وتولى ولده الملك العادل دون أخيه الأكبر الصالح نجم الدين ، وأعلن الصالح الثورة على أخيه بقيت شجرة الدر إلى جانبه فى جميع الوقائع والخطوب التى خاضها ، وشاركته مرارة الحرمان والأسر . ولما خلع الملك العادل وتولى الصالح مكانه ملك مصر فى سنة ٦٣٧هـ تألق نجم شجرة الدر وتبوأت ذروة النفوذ والسلطة وغدت كل شيء فى البلاط وفى الحكومة . وكان الصالح قد فتنته خلالها الرفيعة فأعتقها وتزوجها ، ورزق منها ولداً يدعى خليل . ولم تبق بعد حظية تسمو بجمالها وسحرها ، ولكنها غدت سيدة القصر الشرعية ، وأم ولده المحبوب ؛ كانت هذه الجارية التركية أو الرومية تلعب يومئذ فى بلاط القاهرة نفس الدور الذى لعبته من قبل صبح النافارية (البشكنسية) جارية الحكم المستنصر وأم ولده المؤيد فى بلاط قرطبة . ولما توفى ولدها خليل حدثاً بعد ذلك بأعوام قلائل ، لم تزعزع هذه الضربة الأليمة مركزها ، بل لبثت محتفظة بنفوذها وتأثيرها فى توجيه الشئون

ولما قدم الفرنج الصليبيون إلى المياه المصرية بقيادة ملكهم لويس التاسع فى أوائل سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) ، وحاصروا دمياط ، كان الملك الصالح مريضاً وكان البلاط فى حيرة ، وكانت مصر تضطرب من أقصاها إلى أقصاها ؛ فأبدت شجرة الدر فى هذه الآونة العصيبة ثباتاً مدهشاً ، واستطاعت بعزمها وبراعتها أن تسير الشئون ، وأن تشرف على أحوال الدفاع ؛ ثم توفى الملك الصالح بعد ذلك بأشهر قلائل ، فأخفت شجرة الدر نبأ وفاته ، حتى استقدم ولده توران شاه من الشام ، ولبثت مدى حين تخرج الأوامر والمناشير ممهورة بالعلامة السلطانية . ولما وصل توران شاه إلى مصر وتقلد الملك باسم الملك المعظم ، أساء السيرة ، واختلف مع شجرة الدر ومع مماليك أبيه ، فأتمروا به وقتلوه لنحو شهرين فقط من ولايته ، واتفقوا على تولية شجرة الدر ، فتبوأت عرش مصر فى عاشر صفر سنة ٦٤٨ هـ

وكانت ولاية شجرة الدر حادثاً فريداً فى التاريخ الاسلامى ، فلم تجلس امرأة قط من قبلها أو بعدها على عرش مملكة مسلمة مستقلة ؛ وكان للحادث وقع عميق فى العالم الاسلامى حتى قيل إن الخليفة المعتصم بالله العباسى نعى على مصر أن تجلس على عرشها امرأة ، ونعاه بعض فقهاء العصر . وشعر المماليك الذين ولوها بهذا الشذوذ ، فعينوا إلى جانبها أميراً منهم هو عز الدين أيبك التركمانى ليكون مقدماً للعسكر ومشرفاً على الشئون . ودعى لشجرة الدر على المنابر ، ونعتت فى الخطبة « بالجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية ، صاحبة السلطان الملك الصالح » وكانت علامتها على الأوامر والمراسيم : « والدة خليل » . وتولت شجرة الدر الأمور بحزم ، وكان الجيش المصرى قد استطاع فى تلك الأثناء أن يقف زحف الصليبيين وأن يسحقهم فى موقعة المنصورة الشهيرة (المحرم سنة ٦٤٨) ؛ وأسر لويس التاسع وعدد كبير من أمرائه ، وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين ، فأشرفت شجرة الدر على هذه المفاوضات ، وانتهت بانسحاب الفرنج من الأراضى المصرية والافراج عن ملكهم لقاء

فدية كبيرة؛ وأبدت شجرة الدر فى ذلك كله براعة ومقدرة تخلق بأعظم الرجال

***

على أن شجرة الدر كانت تشعر بضعفها كامرأة فرأت أن تتزوج من عز الدين أيبك، فتقوى بذلك مركزها كملكة، وتدعم عصمتها كامرأة. ولما شعرت أن هذا الزواج لم يحقق كل شىء، ورأت أن جلوسها على العرش قد أثار الفتنة فى الشام ويخشى أن يثيرها فى مصر، نزلت عن العرش لزوجها، وجلس أيبك مكانها على عرش مصر باتفاق المماليك البحرية باسم الملك المعز، وذلك في آخر ربيع الآخر، وبذلك لم يطل ملك شجرة الدر أكثر من ثمانين يوماً

وعادت شجرة الدر امرأة وزوجاً فقط، ولكنها لبثت كما كانت أيام زوجها الأول الملك الصالح سيدة القصر والبلاط، وكان المعز طاغية ظلوماً، ولكنه كان يخشى هذه المرأة القوية التى رفعته إلى الملك، ويصدع بأمرها ووحيها؛ وكانت شجرة الدر كثيرة الغيرة بالرغم من كونها قد جاوزت سن الشباب، فأرغمت المعز على طلاق زوجته الأولى، وكانت تحدث بينهما المناظر العاصفة من وقت إلى آخر. ولما سئم المعز هذه الحياة الزوجية النكدة فكر فى اختيار زوجة أخرى، وبعث بالفعل إلى بدر الدين صاحب الموصل يخطب ابنته؛ ولعله لم يكن فى الوقت نفسه بعيداً عن التفكير فى التخلص من شجرة الدر، والتحرر من نيرها المرهق؛ ولكن شجرة الدر كانت ترقب حركاته ومشاريعه، فثارت نفسها سخطاً وكبرياء، وأدركت بثاقب فكرها وخبرتها لدسائس القصر أنها إذا لم تبادر إلى التخلص منه، فانه سيعاجلها بالتخلص منها

فلم تضع وقتاً، ولجأت إلى دهاء المرأة وخديعتها؛ وكان المعز يقيم منذ أيام فى مناظر اللوق بعيداً عنها، فبعثت إليه تتلطف به وتدعوه إلى قصر القلعة، فاستجاب إليها المعز؛ وكانت قد رتبت له من غلمانها خمسة ليقتلوه، وعلى رأسهم الخادم سنجر الجوهرى. وفى مساء اليوم الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ ركب المعز إلى القلعة، فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة، وبعد أن مكث حيناً دخل الحمام فانقض عليه الغلمان الخمسة وهو عار لينفذوا فيه حكم الإعدام الذى أصدرته شجرة الدر. وتنقل الرواية إلينا عن مصرعه روايات مثيرة، فيقال إن القتلة أخذوا بخصيتيه حتى زهق، أو أن شجرة الدر أخذت تضربه بالقبقاب على رأسه وهو يستغيث حتى أجهزت عليه. وعلى أي حال فقد تمت الجريمة وقتل المعز قتلة مروعة بتحريض زوجه الغادرة الخؤون

وحاولت شجرة الدر على أثر ذلك أن تقيم فى السلطة أميراً آخر تستتر وراءه فى الحكم فلم توفق؛ ونادى الأمراء المعزية بتولية الملك المنصور ولد المعز، وهو يومئذ صبى فى نحو الخامسة عشرة، ووافق الأمراء الصالحيــة على توليته اتقاء الفتنة؛ وامتنعت شجرة الدر بجناحها بالقلعة مع نفر من خدمها وجواريها، وطالب الأمراء المعزية بالقبض عليها، وحاولوا اقتحام الدار فمنعهم الأمراء الصالحية حماية لشجرة الدر، وكادت تقع بين الفريقين فتنة لولا أن تعهد الأمراء المعزية بتأمين شجرة الدر وعدم التعرض لشخصها. وفى اليوم التاسع والعشرين من ربيع الأول أخرجت شجرة الدر باتفاق الفريقين من جناحها الملكى واعتقلت فى البرج الأحمر أحد أبراج القلعة مع بعض جواريها، وقبض على الخدم الذين اشتركوا في الجريمة وزعيمهم سنجر وصلبوا جميعاً، وأعدم عدة كبيرة من الغلمان والطواشية، وقبض على الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا بتهمة الاشتراك فى الجريمة، ولم يفرج عنه إلا بعد أن افتدى نفسه بمبلغ طائل

وأصر الأمراء المعزية بعد ذلك، بتحريض الملك المنصور وأمه، على معاقبة شجرة الدر، واعترض الأمراء الصالحية أياماً؛ ولكنهم كانوا الفريق الأضعف فلم تغن معارضتهم شيئاً. وفى يوم السبت الحادى عشر من ربيع الثانى (أو الجمعة ١٧ منه على رواية أخرى) نفذ المماليك المعزية إلى البرج الأحمر، وقبضوا على شجرة الدر، وحملوها إلى أم الملك المنصور لكى تتولى عقابها بنفسها. وهنا يقول لنا المقريزى «فضربها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت فى يوم السبت؛ وألقوها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص، فبقيت فى الخندق أياماً، وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها، ثم دفنت بعد أيام — وقد نتنت وحملت فى قفة — بتربتها قرب المشهد النفيسى؛ وكانت من قوة نفسها، لما علمت أنها قد أحيط بها، أتلفت

شيئاً كثيراً من الجواهر واللآلئ كسرته في الهاون (١) »

وهكذا زهقت تلك التي لبثت مدى أعوام طويلة زينة البلاط المصري وصاحبة الحول والسلطان فيه ؛ وزهقت بنفس الأسلوب المروع الذي زهق بها زوجها الملك المعز ؛ وكان القصاص مثيراً ولكن عادلاً ، وكان الفصل الأخير مأساة قصر بدأت رائعة باهرة ، ثم انحدرت إلى ظلمات الجريمة

محمد عبد الله عنان

(١) السلوك ج ١ ص ٤٠٤

حياة الأمة العربية (*)
بين الماضي والمستقبل
للأستاذ ساطع بك الحصري
مدير الآثار العامة في بغداد

يسرني أن أحيي فريق الكشاف العربي ، تحت سقف هذا البناء القديم ، باسم دائرة الآثار القديمة

إنني أحيي فريق الكشاف العربي باسم دائرة الآثار العربية مع علمي بأن الكثيرين من الحضور سيستغربون قولي هذا وسيتساءلون : ما شأن الآثار القديمة في الأعمال الكشافية ؟

في الواقع أيها السادة أن الكشاف يمثل « الشباب المتجدد » وأعمال الكشافة كلها بمثابة « استعداد للمستقبل » في حين أن هذه البناية هي « موئل القديم » وكل ما فيها « مثال الماضي ومرآة التاريخ » فجمع الكشافة في هذه البناية القديمة بين القاعات المملوءة بالآثار القديمة ، يظهر في الوهلة الأولى كأنه « الجمع بين الأضداد » مثل « الجمع بين الماضي والمستقبل »

غير أنا ، أيها السادة ، إذا تعمقنا في البحث قليلاً نضطر إلى التسليم بأن الماضي والمستقبل ليسا متناقضين إلا من حيث المعنى اللغوي ؛ أما من جهة العمل الاجتماعي فإنهما مرتبطان متلازمان ، فإن الماضي منبع المستقبل دائماً ، كما أنه من عوامل الدفع إلى الأمام في كثير من الأحيان ولا سيما في حياة الأمم التي تستفيق من سباتها وتنزع إلى النهوض بعد الرقود

لقد قال أحد المفكرين : « إن الأموات لا يرقدون في المقابر في حقيقة الأمر ، بل إنهم لا يزالون يعيشون في نفوس الأحياء ويسيطرون على الكثير من أعمالهم في كثير من الأحيان » إن هذا القول يحتوي على قسط كبير من الحقيقة ولا سيما في حياة الأمم .

فلأجل أن نقتنع بذلك جيداً يجدر بنا أن نلقي نظرة عامة على أهم مقومات الأمم

إن كل أمة من الأمم تكون شخصية معنوية تتصف بالحياة والشعور وتمتاز ببعض النزعات والميول

إن حياة الأمة تقوم بلغتها بوجه عام ، أما الموت بالنسبة إلى الأمة فليس — في حقيقة الأمر — إلا في الحرمان من اللغة الخاصة بها . إن الأمة التي تدخل تحت حكم دولة أجنبية تفقد استقلالها وحريتها ، تصبح مستعبدة لها ولكنها لا تفقد حياتها ما بقيت محافظة على لغتها ، فقد قال أحد المفكرين : « إن الأمة المحكومة التي تحافظ على لغتها تشبه السجين الذي يمسك بيده مفتاح باب سجنه » إنها تبقى حية ما بقيت محافظة على لغتها ؛ إنها تبقى مستعدة للتحرر والاستقلال ما دامت مستمسكة بلغتها . أما إذا فقدت هذه اللغة فإنها تكون قد فقدت الحياة ؛ تكون قد اندمجت في الأمة المستولية عليها وفقدت كل ما لها من عناصر الكيان . إنها تكون قد زالت من عالم الوجود وبتعبير أقصر « ماتت » بكل معنى الكلمة . إن اللغة التي تكون بهذه الصورة هي « روح الأمة وحياتها » وتمثل « أهم عناصر القومية وأثمن مقوماتها » . أليست ميراث الأجيال الماضية وهدية الحوادث التاريخية بوجه عام ؟ أفلا يحق لنا أن نقول إنها تربط الماضي بالمستقبل دائماً ؟ .

***

هذا ويجدر بنا أن نلاحظ ، أيها السادة ، فضلا عن كل ذلك أن الحياة ليست كل ما يهم الوجود . فإن هناك شيئاً آخر لا يقل أهمية عن الحياة وإن كان تابعاً له ، ألا وهو الشعور . إن للأمم شعوراً كما للأفراد . فالشعور القومي بالنسبة إلى حياة الأمم مثل الشعور الشخصي بالنسبة إلى حياة الأفراد .

قلنا إن حياة كل أمة من الأمم تقوم بلغتها ، ويجب أن نعرف

(*) نص الخطبة التي ألقاها الأستاذ ساطع الحصري بك مدير دار الآثار العامة في العراق في الحفلة التي أقامتها دار الآثار لتكريم الوفد الكشافي العربي في دار الآثار العربية

فى الوقت نفسه أن شعور كل أمة من الأمم يتكون من ذكرياتها التاريخية الخاصة بها

فالأمة التى تحافظ على لغتها وتنسى تاريخها ، تكون بمثابة فرد فاقد الشعور ، بمثابة فرد يغط فى النوم ، أو بمثابة مريض فى حالة الإغماء . نعم إنه لا يزال على قيد الحياة ، ولكن حياته هذه لا تكتسب قيمة إلا إذا استيقظ من نومه واستعاد الشعور الذى فقده مدة من الزمن

فيحق لنا أن نقول إن إهمال التاريخ القومى يكون بمثابة الاستسلام للذهول والكرى ؛ وأما نسيان التاريخ المذكور فيكون بمثابة فقدان الشعور ...

هذه حقيقة يعرفها جيداً رجال الحكم والاستعمار ويستفيدون منها دائماً ، فهم عند ما يستولون على أمة من الأمم يبذلون قصارى جهدهم لإبعاد ذاكرتها عن تاريخها الخاص . إنهم يتوسلون بكل الوسائل الممكنة لتخدير الأمة وتنويمها عن طريق الحيلولة بينها وبين تاريخها القومى . إنهم يعرفون جيداً أن الشعور القومى عند الأمم المحكومة يأخذ فى الخمود والتضاؤل كلما أسدل النسيان سدوله على « التاريخ القومى » إلى أن ينعدم تماماً بنسيان التاريخ الخاص نسياناً تاماً

أما عودة الشعور القومى إلى مثل هذه الأمم المحكومة فلا تتم إلا باستعادة الذكريات التاريخية . إن حركات النهوض والانبعاث وجهود الاستقلال والاتحاد عند تلك الأمم تبدأ بوجه عام بتذكير الماضى واستلهام التاريخ . استعرضوا تواريخ استقلال الأمم التى كانت مغلوبة على أمرها ، ثم نهضت وتخلصت من ربقة الاستعباد تفهموا جيداً منها أن حب الاستقلال يتغذى بذكريات الاستقلال المفقود ، والتوقان إلى السؤدد والمجد يبدأ بالتحسر على السيادة الماضية والمجد السالف ، كما أن الايمان بمستقبل الأمة يستمد قوة من الاعتقاد بماضيها الباهر ؛ والنزوع إلى الاتحاد يزداد شدة وحماسة بتجدد ذكريات الوحدة المضاعة ...

ومما يجب أن يلفت أنظارنا فى هذا المضمار أن خطة استلهام الماضى والاستفادة من التاريخ تظهر للعيان حتى فى أعمال الأمم التى تقوم بثورات عنيفة وتحاول قلب حياتها الاجتماعية رأساً على عقب بصورة جدية وفورية . إن تلك الأمم تثور فى حقيقة الأمر على « الماضى القريب » وحده ، وتحاول فى خلال ثورتها هذه أن تستمد قوة من الماضى البعيد . أنعموا النظر فى تاريخ ثورات ووثبات تلك الأمم — مثل اليابان وتركيا الحديثة — تجدوا فيها أيضاً ، بجانب حركات التجديدات الجندية ، اهتماماً متزايداً بالأبحاث التاريخية ، وتغلغلاً مستمراً فى استخدام التاريخ لتقوية الروح القومية وإيجاد النزعات التجديدية

إن أمر الاهتمام بالتاريخ والالتفات إلى الماضى ليس من الخطط الخاصة بالأمم التى كانت فى حالة تأخر وسبات ، بل هى من الأمور التى تشمل جميع الأمم بدون استثناء . تعمقوا فى دراسة أحوال أرقى الأمم المصرية ، وأنعموا النظر فى أحسن الشوارع والميادين فى أرقى المدن الحديثة تجدوا فى جميعها آثار اهتمام عظيم بالماضى والتاريخ ، تجدوا فى جميعها عدداً كبيراً من الأنصاب والتماثيل والألواح التذكارية وسلسلة طويلة من المهرجانات والاحتفالات يقصد منها تذكير الماضى للناس ، وترسيخ التاريخ فى الأذهان

ولهذه الأسباب كلها أقول فى كل حين : إن الماضى منبع فياض للمستقبل والتاريخ قوة مهمة فى حياة الأمم

ولهذه الملاحظات رأيت من الواجب على فريق الكشاف العربى أن يذهب إلى سامرا ليقضى يوماً كاملا فى التجوال بين أطلالها ، ويطلع على الآثار الباقية من عهد الامبراطورية العربية العباسية فيها ، ثم يعود إلى هنا ليجتمع معنا فى هذه البيئة التاريخية ويتأمل مدة فى ماضى أمتنا العزيزة ، ويستمد من ذكريات هذا الماضى قوة جديدة لجهوده القادمة . ولهذا أقدمت على تحيته باسم دائرة الآثار القديمة

* * *

إننى لا أحب المغالاة فى مثل هذه الأمور ، بل أنزع دائماً إلى مجابهة الحقائق من كل وجوهها . وبعد أن شرحت لكم ما أعتقده فى خطورة الدور الذى يلعبه التاريخ فى حياة الأمم أرى من واجبى أن أقول لكم كلمة عن مضاره أيضاً ، لكى أحذركم منها

إن الحياة الاجتماعية غاية فى التعقد ؛ والعوامل الاجتماعية فى منتهى التشابك . ولذلك قلما نجد بين تلك العوامل ما هو مفيد على الاطلاق ، ومجرد عن الشوائب والأضرار فى كل الأحوال . إن الفوائد والأضرار فى الحياة الاجتماعية تتشابك بشكل غريب ،

فاقتطاف الفوائد مع توقى الاضرار يحتاج إلى يقظة كبيرة وانتباه شديد فى معظم الأحوال

إن تأثير التاريخ والماضى فى حياة الأمم ، لا يشذ عن هذه القاعدة العامة ، فانه أيضاً قد يصبح مضراً فى بعض الأحوال

فان التاريخ يكون مفيداً عند ما يفرغ فى شكل « قوة دافعة » تحركنا إلى الأمام كما ذكرت لكم ؛ غير أنه يصبح مضراً إذا أخذ شكل « قوة جاذبية » تدعونا إلى العودة إلى الوراء . فلا يجوز لنا أن نعتبر الماضى هدفاً نتوجه نحوه ، ونسعى للعودة إليه ، بل يجب علينا أن نجعل منه « نقطة استناد » نستند إليها فى سيرنا إلى الأمام ، يجب علينا أن نكون منه قوة فعالة حافزة تدفعنا نحو المستقبل الجديد ، وبتعبير أوجز : شعارنا فى هذا الباب يجب أن يكون : « تذكر الماضى ، مع التطلع إلى المستقبل دائماً »

واسمحوا لى أن أشرح لكم قصدى من هذا الشعار بذكر بعض الأمثلة :

كلكم تعلمون أن سيرة خالد بن الوليد من أجلّ السير التى سجلها التاريخ ، فيجب علينا أن ندرسها بكل اهتمام ؛ ولكن لماذا ولأى قصد ؟ ألقصد الحصول على دروس فى فنون التعبئة والحرب؟ كلا ؟ فان الخطط الحربية التي كانت تضمن النجاح والنصر فى عصر خالد بن الوليد لا يمكن أن تفيد فى هذا العصر بوجه من الوجوه . ولا مجال للشك فى أن الخطط الحربية التى تضمن النصر والنجاح فى عصر الدبابات والطيارات والغواصات والمدافع الضخمة والقذائف الهدامة والغازات الخانقة — تختلف كل الاختلاف عن الوسائل التى كانت تؤدى إلى النصر فى حروب العصور السالفة . فكل من يحاول أن يجد فى خطط خالد بن الوليد دروساً فى فنون الحرب قابلة للتطبيق فى العصر الحاضر يكون قد أقدم على عمل لا يتفق مع العقل والمنطق

غير أنه يجب أن نعرف أن الحروب لا تتم بالوسائط والقوى المادية وحدها ، بل إنها تحتاج إلى قوى معنوية متنوعة فضلاً عن القوى المادية ، أهمها : الوطنية الصادقة ، والايمان بامكان النصر مع الإقدام على إحرازه بحزم وثبات ، وجرأة وشجاعة لا تتأخر عن نوع من أنواع التضحية . إن هذه القوى المعنوية لعبت ولا تزال تلعب دوراً هاماً فى الحروب فى جميع العصور ، مهما كانت الوسائط المادية المستعملة فى خلالها ، سواء أكانت من نوع السهام أم الدبابات ، أم الجمال أم الطيارات .

إن سيرة خالد بن الوليد مملوءة بأمثلة عليا عن هذه القوة المنوية ؛ وإذا ما أقدمنا على درس سيرة خالد بن الوليد يجب أن ندرسها لكى نستفيد من تلك القوى المنوية ؛ وإذا ما بحثنا عنها يجب أن نبحث عنها بقصد استثارة قوى معنوية مماثلة لها ، لا بقصد محاولة الحرب على الطريقة التى مشى خالد بن الوليد عليها

وكذلك كلكم تعلمون بأن أجدادنا العظام أسدوا إلى الطب من الخدمات ما لا ينساه التاريخ ، فيجب علينا أن ندرس تلك الخدمات ، ونطلع عليها ونتذكرها دائماً ، ولكن لماذا ؟ وبأى قصد ؟ هل يجوز لنا أن نفعل ذلك بقصد الاستفادة من آراء كبار أطباء العرب فى مداواة الأمراض ؟ لا مجال للشك فى أن ذلك يكون فى منتهى السخافة . يجب علينا أن ندرس خدمات العرب للطب ، لا بأمل أن نجد فى اكتشافاتهم ما يفيدنا فى أمر التطبيب والمداواة ، بل لنزداد مباهاة بأعمال أجدادنا العظام ، ولنزداد إيماناً بحيوية أمتنا الكامنة ، ولنحصل على دوافع باطنية تحفزنا على القيام بخدمات تشبه خدماتهم التالية . إن أطباء العرب القدماء خدموا الطب خدمة كبرى ، ومشوا فى مقدمة العالم فى هذا المضمار قروناً عديدة . إن خدمات هؤلاء يجب أن تولد فى نفوسنا طموحاً لإحراز مكانة عالية فى الطب الحديث ، مثل المكانة التى كان أحرزها هؤلاء فى العصور التى عاشوا وعملوا فيها

ولذلك قلت إنه يجب علينا أن نستمد من التاريخ قوة معنوية ، تثير فى نفوسنا نزعات التقدم إلى الأمام ، وتحفزنا إلى العمل لمجد المستقبل

أما أهم النزعات التى يجب أن نستلهمها من التاريخ فهى فى نظرى الإيمان بحيوية الأمة العربية ، وبإمكان حصولها على مجد جديد لا يقل شأناً عن المجد الذى كانت نالته فى سالف العصور

إننا فى حاجة إلى مثل هذا الإيمان فى هذا الزمان أكثر من أى زمان آخر ، لأن المصائب انصبت على العالم العربى من كل حدب وصوب . ومن المعلوم أن كثرة المصاعب والمصائب تفتح باباً إلى تسرب الفتور والقنوط إلى القلوب التى لا تتجهز بالأمل القوى ، ولا تتقوى بالعقيدة الراسخة

ونحن نعلم أن الأمل من أهم عوامل السعي والعمل ، وأما القنوط فهو من أقمل دواعي التقاعد والشلل . ولهذا السبب نستطيع أن نقول : إن تطهير القلوب من شوائب الفتور والقنوط وتجهيزها بالأمل والإيمان يجب أن يكون من أهم أهداف العاملين ، ولا سيما في الظروف التي أحاطت بالعالم العربي في خلال هذه السنين

وبهذه الوسيلة ، وقبل أن أختم كلمتي هذه أود أن أذكركم بإحدى الأساطير اليونانية ، وهي « أسطورة باندور » :

باندور كانت إلـهة جمة الخصال تكونت من عطايا جميع الآلهة : أعطتها كل إلـهة من الآلهة الموجودة في ذلك الحين شيئاً من خصالها ، ولهذا السبب سميت هذه الإلـهة الجديدة باسم (باندور) بمعنى « عطية الكل »

عندما غضب جوبيتير على هرقل وأراد أن ينتقم منه فكر في إغرائه بواسطة باندور ، فسلمها علبة سحرية ، وطلب إليها أن توصلها إليه من غير أن تفتحها وتطلع على ما فيها . وحملت باندور هذه العلبة ، غير أنها لم تستطع أن تتغلب على ميل الاستطلاع في نفسها ، ففتحت العلبة في طريقها ؛ وعند ذلك أخذ يخرج من العلبة جيش عرمرم من المساوىء والشرور ، وينتشر في الأرض بسرعة العاصفة مع أزيز هائل . اندهشت باندور من كل ذلك ، وأخذت تبذل كل ما لديها من قوة لإعادة إقفال العلبة بسرعة ؛ غير أنه قد خرج من العلبة جميع الشرور قبل أن تتمكن من ذلك ، ولم يبق فيها إلا شيء واحد ، وكان ذلك الشيء الذي بقي في العلبة مقابل جميع تلك المساوىء والشرور هو « الأمل »

إن حالة العالم العربي الآن تشبه الحالة التي حدثت عند انفتاح علبة باندور المذكورة في هذه الأسطورة . لقد انتشرت المصائب والشرور في العالم العربي ، ولم يبق بين أيدي أبنائه شيء غير « الأمل » ، فيجب علينا ألا ننسى أن الأمل هو من أهم عوامل العمل ، ولا بد أن نحرص عليه كل الحرص فلا نترك سبيلاً إلى تسلل القنوط إلى قلوبنا . فليكن قلب كل واحد منا شبيهاً بعلبة باندور « يحفظ الأمل » بل لا يكتفي بحفظه فيسعى إلى تغذيته وتقويته إلى أن يتحول إلى « إيمان لا يتزعزع » يدفعنا إلى العمل المتواصل بروح التضحية والاخلاص .

ساطع الحصري

الى الأستاذ الزيات

تكيف الأخلاق الفاضلة

للأستاذ خليل جمعة الطوال

— بلى يا محمود ! وهل تشك في ذلك ... ! إن الأخلاق الفاضلة هي مبعث كل سعادة ، وأس كل نجاح ، ولولا فضيلة الخلق لكان للعالم شأن غير هذا الشأن . فهي الصخرة الناشزة في طريق الكفر التي تحطمت عليها أصنام الوثنية في قريش ؛ وهي القوة العظيمة التي بدّلت نواميس الطبيعة التي لا تتبدّل يوم هرب موسى بشعبه من ظلم فرعون الطاغية ؛ بل هي العدة الوافرة التي تسلح بها المسلمون في جهادهم فجعلت سيوف المشركين في أيديهم خشباً ، وحملها العرب في فتوحاتهم فإذا بها لغم تداعت له جوانب الإيوان وشرفاته ، وتلاشت فيه أبهة التاج ومجوهراته . ولكن ما العمل فقد تطور الحال ، واستحال الزمان ، ولم يعد ابن الأمس — المتوحش على زعمنا — في قياس هذا العصر بإنسان ، ولا أخلاقه الرجعية بالتي ترجح فيها كفة الفضيلة في الميزان ؟

يا أخي ! إنها « لموضة » تعم كل شيء ، وتجتاح كل ما في سبيلها ، وتخضعه لحكمها ؛ فلا فرق في ناموسها بين الأخلاق الفاضلة والسراويل المخرجة التي يلبسها خصيان الأتراك . ومتى انتشرت « الموضة » فعار على الإنسان أن يتخلف عنها . ولقد نظرتُ في تاريخ المدنية فرأيت فيه أزياء من الأخلاق بعدد « موضات » الملابس ، ورأيت أن الأخلاق تتكيَّف بالزمن وملابساته ، تكيف الجسم بالمحيط ومؤثراته . وما تعمل الأخلاق غير هذا ... إنها مكرهة عليه لتحتال لنفسها على البقاء وتنجو من يد الفناء ، فهو طريقها في شهوة الخلود ، ولا محيص لها عن سلوكه . ألا فانظر كيف يقلم الإنسان أظفاره لاستغنائه عنها ، ويدرمها « بالمونيكير » مجاراة للموضة ، وكيف حسر عن رأسه ليظهر شعرهُ السبطُ اللامعُ المطيب بأطايب « الموضة » أفلا يسفر بعد هذا عن أخلاقه : ... ولقد نظر في ناموس

الأخلاق ، فرأى أن الفضائل التى كانت فيما مضى قائمة به إلى معالى الأمور ، حافزة له على عظيم المآثر ، هي القاعدة به اليوم عن عالي الرتب ، وعريض الجاه ؛ وهى السالكة به طريق الفشل ، والصادة له عن محجة النجاح ؛ فلا عجب بعد هذا أن يتنكب جادتها ، ويصد عن ورد شرعتها ؛ فالكرمُ الذى كان يتهالك عليه المرء فيما مضى ، إذ كان طريق السؤدد ومحمدة ما فوقها من محمدة أصبح اليوم — فى عرف هذا العصر — تبذيراً وهوساً . وأعوذ بالله ممن يرميه الناس بالتبذير ، ألا يتهمونه بالهوس ؟ والحلم أصبح ضعفاً وعجزاً ، والتقوى تزمتاً ورجعية ، والحياء نقصاً فى الرجولة وأنوثة . وما الفضائل الجلى ، والخطوة البالغة ، والمكانة السامية إلا فى الطباع اللئيمة ، والكذب الصراح ، والتملق الشائن ، والخلق اللدن ، والمثالب الفاضحة ، والسفالة الواضحة .

هى الأخلاق تنصهر بالموضة وتميع ، ومتى ماعت جرت — حسب قوانين السوائل من فوق إلى تحت — من ذروة سمو النفس ، إلى دركة حيوانية الطبع ، وتشكلت بشكلها والعياذ بالله !

أين ذاك الزمان الذى كان يتنافس فيه الأقران على اجتذاب حبل الفضيلة بوأد حيوانية الطبع ، وعلى سمو النفس بصلب سفالة الشهوة ، وعلى زعامة الخلق بانكار أنانية الذات ، من هذا العصر الذى تدلت فيه معنويات الفضيلة ، فحبل الشهوات البهيمية على الغارب ، وخسة الطبع والقحة هما من الأخلاق فى ذروتها ، والتبجح الكاذب مدار الحديث فى كل مجلس وناد ؟ والأغرب أن الناس إنما يتجاحشون على الرذيلة باسم الفضيلة ، ويتمرغون فى حمأة الموبقات باسم الأخلاق ، ويرتكبون اللتيا والتى باسم التجديد ! التجديد الذى شمل الأخلاق وعم الفضائل ، فحور فيهما وبدل ، ما حور وبدل فى الثياب

استعرض الناس على اختلاف طبقاتهم وبيئاتهم ، وانظر علامَ يتجاحشون ! أعلى الصدق وهم يرونه آفة على جمع المال الذى احتكرته المخاتلة والخداع ؟ أم على الحياء وقد أصبح صاحبه مقروناً بالحرمان ، كما أصبحت الحظوة من مدلولات القحة ؟ أم على الكفاية وقد تغير مقياسها — بتغير الموضة — ولمْ تعد دليلاً على مقدار رسوخ قدم صاحبها فى العلم والعرفان ، ولا على مقدار ما فى نفسه من معنويات الشرف ، وطهارة الوجدان ، وإنما على مقدار ماله من جاه عريض ، وأصل أثيل ، وعلى عدد ما فى بطانته من أرباب الرتب الملحوظة ، والألقاب الضخمة ، والشخصيات المنفوخة : إن صّح هذا التعبير كالأفندية ! والباكوية ! والباشوية ! كلا ليس على شىء من هذه الفضائل يتجاحشون ، ولِمَ يتجاحشون عليها وهم يرونها — جميعها — قد اختلطت ، وتفاعلت ، وتركبت فى جوهر واحد فقط هو الوظيفة ؟

أفلا تراهم يشترون أحط الوظائف دركة بماء وجوههم اللدنة ونخاسة سمتهم السافلة ، وفضيلتهم الداعرة ، حتى إذا ظفروا بها بطروا ، وضحوا فى سبيل استبقائها والحرص عليها بجميع أخلاقهم وبضمائرهم الموبوءة ، وما ذلك إلا ليكونوا من ذوى الزلفى ، وليثملوا بنشوة الغرور ، إذ يقول فيهم الناس ، تزلفت إلى البيك فى الديوان وزرت الأفندى فى الديوان ، وتوسطت فى الأمر لدى الباشا فى الديوان

قد يسوءك الأمر ويغمك ، ولكن الأخلاق الفاضلة غير مسئولة عن ذلك لأنها تطورتْ وأنت تحجرتَ — فى عرف أهل الموضات — وتقدمتْ فتخلفتَ

يا أخى ! لقد تلقحت أخلاقنا الفاضلةُ الأصيلة بأخلاق سفلة الشعوب الوضيعة فنغلت وصارت كالخنثى ، لاهو ذكر ولا أنثى ، بل كالبغل ليست فيه أصالة الحصان ولا ضعف الأتان

هى « الموضة » ياعزيزى ... ! وقد أبت الأخلاق إلا أن تتكيف بها ، فتصبغت وتطيت ثم تدلت وانتهت إلى هذه الحالة التى تشكو منها . وما شكاتك إلا شكاة الفضائل بأسرها ، والأخلاق العالية بكاملها . هى « الموضة » وعبثاً يحاول الإنسان أن يجارى المدنية ولا يجاريها ، فهى من مقوماتها الأولى ، ومستلزماتها الرئيسية

أفبعدَ هذا — يامحمود — تطمح إلى النجاح فى القرن العشرين وعدتك له عدة الجدود الغابرين ؟

(شرق الأردن) خليل جمعة الطوال

صور وخواطر

بعد المرض

للأستاذ على الطنطاوى

... يقولون إن الإنسان يأكل ليعيش ، ولكنى أعيش فى هذه الأيام لآكل . آكل بشراهة ونهم ، حتى أحس الامتلاء ولا يبقى فى المعدة مكان لذرّة ... فأدع الطعام آسفاً ، وأنظر إلى الأطباق وما فيها نظرة المودّع الحزين ، ثم أقوم إلى كتابى فأفتحه ، أو إلى شباكى أطلّ منه ، أتلهى بهذا أو بذاك حتى أحس أو أتوهم أنى أحس جوعاً ، فأدعو بالطعام ، أو تمضى ثلاث ساعات ، فآكل ولو لم أكن جائعاً ... ألم يقل لى الطبيب : كلْ كلّ ثلاث ساعات ؟!

ذلك لأنى لبثت عشرين يوماً أشتهى قطعة الخبز ، فأطلبها وألح فى طلبها ، فتمتنع عنى ، وأحرمها فأراها فى منامى ، وأحلم بها فى يقظتى تجسمها لى أمانىّ وأفكارى ، فأتخيل أني قد نلتها ، فإذا أنا لم أنل إلا هذا اللبن (الحليب) الذى برمت به واجتويته ، والذى يفضل المريض رؤية عزرائيل على رؤيته يطالعه فى الصباح وفى المساء ، والذى كرهت لأجله كل أبيض ، حتى بياض الفجر وبياض النحر ... والذى أصبح قذًى فى عينى لا أطيق رؤيته ، وسمًّا فى فىّ لا أقدر على تذوقه ... ثم فرّج الله عنى بعد الضيق وأنالنى ما أشتهى من الأطعمة وأريد ، فكيف لا أهجم عليها بشراهة ونهم ، وكيف تبلغ بى الحماقة أن أقوم عن المائدة وفى الأطباق بقية ؟

* * *

لا أكاد أشبع من الطعام ولا من القراءة ، ولا من النظر فى هذا الفضاء الفسيح ، وهذه الجنات المتسلسلة تبدو من شباكي يعانق بعضها بعضا ، حتى يستاق آخرها فى أحضان قاسيون . لا أكاد أشبع من شئ ، لأنى خرجت من هذا المرض كمن ولد ولادة جديدة ، فهو لا يعرف الدنيا قط وهو ينظر إليها بعينى طفل ذكي يدهشه كل شئ ويود لو يمتلكه ويأكله أو تحتويه يده ... ولأنى خرجت منه ضعيفاً مهدوداً ، ولقد كنت من قبله قوياً نشيطاً . استحممت يوماً فى البحر ، ثم خرجت منه متوثباً متحفزاً ، أكاد أطير مما أحس فى جسمى من النشاط ، فسرت على الشاطئ حتى حاذيت الصخرة (الروشة !) ، تلك الصخرة القائمة فى البحر كأنها الطاق العظيم ، أو كأنها قوس نصر ، أقامه الماء الهيّن الليّن الذى انتصر بصبره وثباته فى جهاده ، على هذه الصخرة العاتية المتكبرة ، فجعلها فارغة جوفاء ، ولا تزال على عتوها وكبرها سنة الله فى المتكبرين ، لا يكونون إلا فارغين ... تلك التى يدعونها فى بيروت صخرة الانتحار ، لأن المجانين أعداء أنفسهم وأوطانهم ، يلقون بأنفسهم منها يثبون إلى ... إلى جهنم ! وكانت الشمس مائلة إلى المغيب ، تمنح البحر آخر هباتها ، فيبدو براقاً لامعاً ، قد لبس حلّة من النور ، فأكبرت هذه المخلوقات : الشمس والبحر والصخر ، ووقفت صاغراً حيال عظمة الطبيعة وجلال الطابع (جلّ جلاله) ، ثم غلب علىّ هذا النشاط الذى أحسّ ، وبلغ دماغى فملأه ادعاء وكبراً وغروراً ؛ والمرء فى فكره وعواطفه خاضع أبداً لحالة جسمه ، ودرجة صحته ، فرأيت هذا الصخر إلى زوال قد عبث به الماء ، والماء إلى ذهاب قد بخرته الشمس ، والشمس إلى غياب قد ابتلعها البحر ، ورأيتنى وحدى الذى يبقى ، أنا الذى فتّت الصخر ، وأنا الذى أذلّ البحر ، وأنا الذى اتخذ الكون كله معمل تجارب لعقله وسخّره لمنفعته ، وأنا الذى يحوى فى صدره عالماً أكبر من هذا العالم ، ونوراً أبهى من هذه الشمس وعواطف أعمق من هذا البحر ، وأرقّ من هذا الماء ، وأشد من هذا الصخر ...

وذهبت إلى المدرسة ، وأنا أقول (أنا) ، والعياذ بالله من (أنا) فإنها كلمة إبليس ... ذهبت ماشياً فأكلت من ساعتى أكل من لبث فى البحر ساعتين ، ومشى ساعة كاملة ، من (الروشة) إلى الحرج ، وكانت سكرة النشاط ، ونشوة (أنا) لا تزال ضاربة فى رأسى ، فذهبت مع الطلاب أمشى وأعدو وأثب ، وأفعل كل مالا يفعل عاقل ، ولم أعد إلى المدرسة إلا غارقاً فى العرق فشربت قازوزتين [1] مثلجتين من (القازوز) ، وصارعت ... واغتسلت بالماء البارد ، ونمت فأصبحت مريضاً !

* * *

(١) القازوزة . القارورة الصغيرة

يا لهذا المغرور الأحمق الذى أصاب ذرة من العلم ، وعبث بالكون عبث الوليد ، يرفع ويضع فلم يعد يرضيه إلا أن يدّعى الألوهية ، أو (يؤلّه هذا العلم) ... يا لهذه القوة الكاذبة ، وهذه السطوة الفارغة ، هذا القوىّ الجبار الذى فتت الصخر ، وأذلّ البحر ، يذله مخلوق من أصغر مخلوقات الله ، لا تراه لهوانه العين، يعيش الملايين منه فى قطرة ماء ، مخلوق واحد من أضعف المخلوقات يلقى الإنسان محطوماً ، ويطيّر هذه الأفكار كلها من رأسه حتى يعود ذليلاً خانعاً ... فكيف ويحك لو أصابك الله بعذاب من عنده ؟ يا للأحمق المغرور !

***

أصبحت فإذا أنا قد نسيت أفكار الأمس ونسيت الأمس كله وأحسست بالبعد عن الدنيا التى آلفها وأحبها . ولقد انقطعنا مرة فى قلب جزيرة العرب ، وتهنا فى رمالها الوحشة سبعة عشر يوماً نسير وراء حدود العالم مع الوحش والآكام ، والشمس والعطش والموت ، فما أحسست بأنى بعيد عن الدنيا ولا بلغ بى ذلك كله ما بلغ بى هذا المرض القصير ... لقد أصبحت بلا ماض ولا مستقبل ولا حاضر إلا هــذا الحاضر الضيق الأليم الذى يستقر فى بطنى حيث (الزائدة) الملتهبة ، وفى خاصرتى حيث الرمل فى الكلية . اصطلحت علىّ العلل ، واجتمعت المتناقضات ، فالالتهاب لا يطفئه إلا كيس الثلج ، ونوبة الرمل لا يصلحها إلا الماء الحار ، فإن داويت هذه زدت تلك ، وإن عالجت تلك انتقضت هذه ...

***

أنسانى المرض كل شىء ، حتى ما أذكر أنى كنت يوماً من الأيام أمشى وآكل وأشرب واقرأ وأكتب وأمارس أنواعاً من الرياضة ، ولا أذكر أنى كنت أستطيع التفكير فى آلاف المسائل وأعالج المئات من الأمور ، وماتت الدنيا فى عينى ، وأصبح هــذا الألم دنياى كلها ، فأنا أطلق الفكر من عنانه ، فلا يخرج عنه ، ولا يجول إلا فيه ، يتخيل أبشع أنواع المرض ، وأفظع ألوان الخطر ثم ينطلق الفكر إلى العملية التى أكد الأطباء أنه لا بد منها ، فلا يكاد يشرع فى تصورها حتى تسود الحياة فى عينى ، وأراها كلها ألماً وشراً ، وأتمنى أن لو كان أبى على مذهب المعرى ، أو لو أن أمى لم تلدنى ... ويوسوس لى الشيطان أن ما حق أبيك فى أن يقضى عليك فيجىء بك ، أليست حياتك متعلقة بك وحدك ؟ فهل استشارك فيها ، أو هو قد ضحى بك وبحريتك وسعادتك فى سبيل لذته ، أو هو لم يفكر فيك أبداً ، ولم تخطر له على بال ؟ ... فأرى الشيطان يريد أن يزيدنى على مرض جسمي مرض دينى ، فألعن الشيطان وما جاء به ، وإن مما يجىء به الشيطان لما يسمونه فناً وابتكاراً وتجديداً ، ولكنه يبقى أبداً فناً شيطانياً ... أدع هذا وأعود بفكرى إلى سرير العمليات الذى حملنى اليه المدير مرة ووكل بى الممرضات ، وأقام علىّ طالبين يحرساننى ، وذهب إلى الطبيب يحضره فوثبت أحمل أوجاعى وأناضل دون حريتى حتى بلغت الشارع حافياً ، وركبت إلى الكلية أول سيارة رأيتها وأنجانى الله من العملية والأطبــاء . والأطباء — والرجاء عدم المؤاخذة — قوم برئوا من العاطفة وانبتوا من الشفقة [1] يشقون بطون النــاس — نسأل الله السلامة — ويخرجون أمعاءهم فيضعونها فى طبق ... ويكسرون جماجم البشر ، ويعبثون فى أدمغتهم ويفعلون ما لو فعله غيرهم للحقه الشرط ، واصطف له القضاة ، وفتحت له أبواب السجون ، وأعدت له حبال المشانق ؛ ثم يتصدرون المجالس يفتخرون بأنهم أصــدقاء الانسانية ... أفأعطيهم بطنى ليشقوه ، ويردونى مريضاً بعد إذ أنا معافى وأتعجل الداء بنفسى ؟ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين

***

لم يكن يفزعنى شئ وأنا مريض مثــل ما يفزعنى الليل بسواده وامتداده . كنت أخافه أشد الخوف ، وأحسب لمجيئه الدقائق والثوانى ، وأرقبه كما يرقب المحكوم ساعة القتل ، ذلك أنى لم أكن أستطيع النوم ولا أطيق الجلوس ، وإنما أستطيع أمراً واحداً ، هو الاضطجاع على قفاى أحدّق فى السقف ليلاً ونهاراً ... ولطالمــا رأيت فى السقف بقعة سوداء ، تخيل إلىّ لطول التحديق فيها ، أنها حية تريد أن تنقضّ علىّ أو رتيلاء كبيرة ذات تسع وتسعين رجلاً وعشرة رءوس ، أو مجموعة من

---

(١) هذا لسان الأدب ، أما لسان الحقيقــة فينطق والله بشكر كبير جراحى بيروت الدكتور محمد خالد ، وكبير جراحى دمشق الدكتور الأديب مرشد خاطر ، وشكر الحكيم البارع الدكتور حسيب يازيد على وجه التخصيص ، فهو رجل وضع الله الشفاء فى شخصيته العجيبة كما وضعه فى علمه الجم . أما ابنا عمى الطبيبان فهما منى ولا يشكر امرؤ نفسه ..

المقاوب أو عفريت من الجن، أو جنى من العفاريت، فأصيح فزعاً وأنطلق أهذى هذيان محموم حرارته أربعون ...

إنى لأضحك الآن، وأكركر من الضحك حين يعيدون علىّ ما كانوا يسمعون مني إذ أهذى، وأرى فيه صورة واضحة لكثير مما نقرأ فى الصحف والمجلات ينشره أصحابه على أنه أدب، ويقرؤه الناس على أنه ثرثرة وهذيان محموم!

وكان أحبّ شيء إلىّ وأنا مريض أن يكثر الناس من حولى، ثم يتحدثوا شتى الأحاديث لأخلص من وحدتى وأتسلى عن ألمى وأذكر جانباً مما فى الحياة ... ولكنى كنت أسمع أصواتهم كأنها خارجة من جوف بئر سحيق، أو أعماق مغارة بعيدة، وأراهم من خلال ضباب كثيف، فلا أتبين صورهم ولا أصواتهم، وسرعان ما أملّ منهم وأطلب جديداً. كانت أيامى متشابهة متشاكلة، فكنت أحب أن أجد كل لحظة شيئاً جديداً

ضعفت قواى وضاعت إرادتى ولم يبق لى طاقة على المشى، ولا قدرة على المحاكمة العقلية، ولم يبق حياً فىّ إلا لسانى ... أكل ذلك لأن جرثومة صغيرة دخلت جسمى ...؟ يالضعف هذا الإنسان القوىّ!

***

تألمت فى هذا المرض لكنى تعلمت. تعلمت فى الحياة درساً جديداً، وما الحياة إلا دروس ... هو أن المرض نعمة ليس بنقمة، وأنه لازم للإنسان لايدرك قيمة الصحة ولا يعرف معنى الحياة ولا يرجع إلى نفسه إلا إذا مرض، هنالك يدرك معانى هذه الأشياء التى يمرّ بها وهو صحيح مراً سريعاً لأنه مشغول عنها بما لانهاية له من الصغائر والترهات، وإن للمريض — قبل لذة الصحة — لذتين، لذة هذا العطف الذى يحاط به والحب الذى يغمره، ولن أنسى أبداً عطف مدير الكلية وناظرها علىّ وحبّ الطلاب إياى وإنى لأسيغ ذكرى الألم إذا تصورت هذين الطالبين اللذين كانا يقيمان الليل كله بجانبى، إذا قلت آه أو انقلبت من جنب إلى جنب كانا واقفين أمامى. آثرانى على أهلهما وفضّلا راحتى على راحتهما، أما عطف إخوتى وأهلى فلست أذكره ...

ولذة أخرى، وهى اللذة الكبرى التى يجدها ساعة يلجأ إلى الله، ويدعوه مخلصاً مضطراً، وكنت إذا وصف لى مريض به مثل ما بى اليوم، يُدار بى من الرثاء له، والخوف مما هو فيه فلما غدوت مريضاً، لم أجزع ولم أخف، وكانت تمر بى لحظات أضيق فيها بهذا القيد إلى السرير وهذا الألم، ويبلغ بى الضيق فى الليل أقصاه، ولكنها كانت تمر بي لحظات كنت أرضى فيها كل الرضى، وأفىء فيها إلى ربى، وأرى ما أنا فيه امتحاناً لصبرى، ونعمة من الله تزيد فى أجرى، فأطمئن ويبلغ بى الأمر إلى أكثر من الاطمئنان إلى نوع من اللذة الخالصة لا أشعر بمثلها فى الصحة، وإلى لون من النشاط والقوة لا أعرفه قط وأنا معافى، وأحسب أن لو أصبت بأشد الأمراض وأقواها، وانا أقدر على هذا الرضا، وأحس هذا الاطمئنان لما وجدت فيه إلا لذة. هذا ما كنت أجده لا أبالغ ولا أتخيل، فأرجو أن يصدقنى القراء، وهذه نعمة من نعم الله الخفية على الانسان، ومظهر من مظاهر القوة الهائلة التى أعطاه، فلا يحكم الانسان على المريض أو البائس بظاهره. فيشك فى عدل الله ورحمته، ولكن ليدخل إلى الداخل، لعل وراء الجدار الخرب قصراً عامراً، ولعل خلف الباب الضخم كوخاً خرباً، ولعل فى هذه الثياب الرثة، وهذا الجسم المزّق البالى نفساً مشرقة سعيدة وإنساناً كاملا ...

***

وتعلمت من المرض أن المساواة التامة هى سنة الله فى الحياة. أنظروا المرض هل يعرف غنياً أو فقيراً؟ هل يمتنع منه الملك الجبار رب القصر والحراس؟ وهل تمنع أبوابه وجنده هذا المخلوق التافه الصغير من الدخول؟ سد الأبواب، وأغلق النوافذ، وأقم الجند بالسلاح، وعش فى صندوق مغلق، إنه يدخل مع الهواء الذى تنشقه، والماء الذى تشربه، والطعام الذى تأكله، ويحتل جسمك، ويعيش فى عينك وفمك، ويسبح فى دمك

ترفع عن المساكين، وتكبر على الفقراء يرجعك المرض إلى صفوف المساكين والفقراء، فتألم كما يألمون، وتصيح مثل ما يصيحون، وكل ما فى الحياة يسوّى بينك وبينهم؛ هل تنشق أيها الغنى من الهواء هواء معطراً، وينشقه الفقير بغير عطر، أم إن الهواء وهو قوام الحياة لك وله، قد سوى فيه بينك وبينه؟

هل تشرب ماء العيون معسولة مذاباً فيها السكر ، ويأخذها الفقير ملحاً أجاجاً .. إن الهواء والماء والشمس والقمر والصحة والمرض والولادة والموت كل أولئك سطور خط فيها الله على صفحة الحياة: إن الناس متساوون . هل سمعتم أن ابن الملك يولد إذ يولد مرتدياً الحرير ، يمشى على رجليه إلى سريره ويلقى بنفسه خطبة ميلاده ، ويشرف من شباكه على شعبه ، وابن السوقى يولد أخرس عارياً ؟ افتحوا القبر المجصص الفخم ، وارفعوا ما فوقه من نصب وتماثيل وكتابات ونقوش هل تجدون فيه عظاماً تضوع بالمسك ، وتفوح بالند ، لأنها كانت تلبس الحرير ، وترتدى الديباج ؟

هذا ما تعلمته من المرض !

***

وبعد ، فلقد أطلت الكلام ، وآن أوان الطعام ، ولا بد من قطع هذا الحديث ! وأنا أحمد الله على الصحة والمرض ، وأحمده على كل حال

« بيروت » علي الطنطاوي

التزوج بالغربيات

تحريمه بفتوى وقانون

لأستاذ جليل

هلاكُ الشيوخ والشبان منا معشر المصريين على التزوج بالغربيات[1] أجلَ أن نهدّم (قاصدين أو غير قاصدين ، بُلْهاً أو متفلسفين) الأسرة المصرية بل الأمة المصرية — أجبر على كتْب هذه السطور :

قال الله تعالى : « اليومَ أُحِلَّ لكم الطيبات ، وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم ، وطعامكم حلٌّ لهم ، والمحصناتُ من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهنّ أجورهنّ محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان[1] ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين »

صدق الله العظيم ، وقول الله بيّن ، وظاهرُه طوّع لأئمةٍ نكاحَ الكتابية : اليهودية والنصرانية . بيد أن لنزول الآيات أسباباً يوردها المفسرون ، وقد يكون المغزى فى آية غير ما يلوح أولّ وهلة . والصحابة والتابعون هم أدرى بكتاب الله ومراميه من تابعى التابعين ومن مجتهدين مولدين محدثين (وللمجتهد فضل وقدر وأجر) فقد جاء فى (مفاتيح الغيب) :

« كان ابن عمر (رضى الله عنهما) لا يرى التزوج بالذمية ، ويحتج بقوله : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ) ويقول : لا أعلم شركا أعظم من قولها : (إن ربها عيسى) ومن قال بهذا القول أجاب عن التمسك بقوله تعالى (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) بوجوه : (الأول) إن المراد الذين آمنوا منهم ، فانه كان يحتمل أن يخطر ببال بعضهم أن اليهودية إذا آمنت فهل يجوز للمسلم أن يتزوج بها أم لا ، فبين تعالى بهذه الآية جواز ذلك . (الثانى) روى عن عطاء أنه قال : إنما رخص الله تعالى فى التزوج بالكتابية فى ذلك الوقت لأنه كان فى المسلمات قلة ، وأما الآن ففيهن الكثرة العظيمة ، فزالت الحاجة ، فلا جرم زالت الرخصة . (الثالث) الآيات الدالة على وجوب المباعدة عن الكفار كقوله (لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) وقوله : (لا تتخذوا بطانة من دونكم) ولأن عند حصول الزوجية ربما قويت المحبة ، ويصير ذلك سبباً لميل الزوج إلى دينها ، وعند حدوث الولد فربما مال الولد إلى دينها ، وكل ذلك إلقاء للنفس فى الضرر من غير حاجة . (الرابع) قوله تعالى فى خاتمة هذه الآيات : (ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين) وهذا من أعظم المنفرات عن التزوج بالكافرة ، فلو كان المراد بقوله تعالى : (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) إباحة التزوج بالكتابية لكان ذكر هذه الآيات عقيبها كالتناقض ، وهو غير جائز »

وروى محمد بن جرير هذا الخبر معنعنا :

(١) هلك على الشيء ، هلا كا إذا اشتد حرصه وشرهه

(١) متخذى أخدان : صدائق ، والخدن يقع على الذكر والانثى (الكشاف)

« من نساء أهل الكتاب من يحلّ لنا ، ومنهم من لا يحل لنا ، ثم قرأ : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية) فمن أعطى الجزية حل لنا نساؤه ، ومن لم يعط الجزية لم يحلّ لنا نساؤه »

فهذا الخبر يحلّ نكاح النصرانية المصرية (القبطية العربية) لا النصرانية الغربية الأوربية ، الأمريكية ، و « حنانيك » كما قال الشاعر، وجاء في مثل . وفصل الخطاب في هذا الباب عندى وعند كل مصرى (مسلم أو قبطى) حريص على وقاية المصرية وصونها ونجاتها — هو خطة (الفاروق) — رضى الله عنه — فقد جاء فى (جامع البيان) :

« ... شهر بن حوشب قال : سمعت عبد الله بن عباس يقول : نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن أصناف النساء — إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات — عن كل ذات دين غير الاسلام . وقال الله (تعالى ذكره) ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله . وقد تزوج طلحة بن عبيد الله يهودية ، وتزوج حذيفة بن اليمان نصرانية ، فغضب عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) غضباً شديداً حتى همّ بأن يسطو عليهما ، فقالا : نحن نطلق يا أمير المؤمنين ، ولا تغضب ، فقال : لئن حلّ طلاقهن لقد حلّ نكاحهن ولكن أنتزعهن منكم صغرة قمأة »

***

إن هذا الشر ، شر نكاح الغربيات قد اشتد واستفحل بل استأسد ، فاذا لم يُدرك الناسَ فى مصر رجالُ الدين والدنيا وشيخ الاسلام ومفتيه وهيئة كبار العلماء ، بالدواء الناجع ، بالفتوى المحرِّمة ، والقانون المانع ، دارئين بذلك هذا البلاء ، هذه الداهية الدهياء ، هذا التزوج بالغربية — فحولق(١) (أيها المصرى) واسترجع(٢) ، واقرأ الفاتحة (على الأسرة) وقل السلام على (الأمة) !

وإنى فى هذا المقام أذكّرُ عاملا بقول الله : « وذكّرْ فان الذكرى تنفع المؤمنين » رئيس الدولة وشيخ الاسلام بأن (موسولينى) الطليانى و (هتلر) الجرمانى قد سارا سيرة (الفاروق) فى التحريم . فحرّم الأول على قومه نساء الأحبوش أو الُحبشان ، وحرّم الثانى بنات(١) يَهود . وما لامهما فى الناس لائم . وحرى بمن امتلّ ملة (الفاروق) — ومن أعرف بدين الله من عمر ؟ — أن يستن بسنته ، وينقذ من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة بنى أمته ، والله يقول : « إنا لا نضيع أجر المصلحين » « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا »

اللهم ، إنى قد بلغت فى (الرسالة) الاسلامية ، العربية ، وقلت ، وذكّرت

اللهم ، اشهد

(الاسكندرية) (***)

(١) حولق : قل : لا حول ولا قوة إلا بالله

(٢) استرجع : قل : إنا لله وإنا إليه راجعون

(١) بنات بفتح التاء وكسرها

***

اصلاح

فى الكلمة (حرق الميت) فى آية كريمة : « يا بنى إن تك مثقال حبة » وإنما هى : « يا بنى إنها إن تك مثقال حبة الخ »

أناشيد صوفية

جيتـــــانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٣٩ —

حين يتصلّب قلبي ويتحرّق ، صب على رشاش رحمتك

حين ينزع الحنان من على الأرض ، إبعث إلى بنشيدك العذب

حين يعلو ضجيج العمل فيشمل كل مكان فيباعد بينى وبين الناس جميعاً ، أرسل إلىّ – يا إلٰه الصمت – فيض الهدوء والأمان

حين يخرّ قلبي الضعيف ساجداً فى عزلته ، افتح الباب – يا مليكى – وتعال إلى فى أبهة الملك

حين تعمى الرغبة الملحة قلبي وتنفث فيه الغواية ، إلىّ – أيها القدس – فى برقك ورعدك

— ٤٠ —

لقد كفّ غيثك – يا إلٰهى – عن قلبي الظمآن منذ أيام وأيام ، والأفق قفر ليس فيه غمامة رقيقة ولا أثر قطرة واحدة

وإذا شئت فانفخ من عواصفك الهجوم ما يحمل ريح الموت ثم املأ السماء بالبرق الخاطف

ولكن رُدَّ عنى – يا إلٰهى – هـذه الحرارة المتسعرة الصامتة فهى فى شدتها وقسوتها تلفح القلب بنار اليأس القاتل

ثم دع سحائب الرحمة تنهل علينا من علٍ كأنها نظرات أم عطوف ترى الأب يتنزّى غضباً فترقرق فيها عبرات الحنان

— ٤١ —

يا من أحب ، أين مكانك من وراء الزمر ، وأنت تتوارى فى ظلالهم ؟ إنهم ينطلقون على الطريق التَرِب ، يمرون بك فلا يلتفتون إليك ؛ وأنا هنا أنتظر الساعات الطوال فى قلق وبين يدى الهدايا ، وحين يمرون بى يلتقطون زهورى واحدة واحدة وسلتى تكاد تفرغ

لقد تصرّم النهار ، وجاء الليل ينشر ظلامه ، والنعاس يداعب جفنىّ ، والناس ينطلقون إلى دورهم ، وفى أعينهم نظرات التهكم والسخرية ، وفى قلبي الخجل . إننى هنا أنتظر فى جلسة الشحاذ ، أرخى فضل ثوبى على وجهى ، وحين يستخبروننى أعرض عنهم فى صمت

أوه ، كيف أخبرهم بأننى أنتظرك وأننى منك على ميعاد ؟ كيف أستطيع أن أقول لهم إننى أقدم فقرى مهراً لك ؟ آه ، سأكتم كبريائى فى أعماق قلبي

أننى أقضى الساعات على الحشائش الخضراء أحدق فى السماء وأرخى لخيالى العنان أحلم بساعة اللّقيا الجميلة – فيخيل إلىّ أن النور يسطع وأن الرايات الذهبية تخفق فوق مركبتك ، والناس على جانبى الطريق يحدقون فى ذهول حين يرونك تهبط من عليائك لتنتزعنى من التراب ، ولتجلس إلى فتاة فقيرة ترتدى الأسمال ، وهى تضطرب من أثر الحياء والكبرياء كأنها حشرة تتهادى بين نسمات الصيف

إن الساعات تمر وأنا لا أحس صوت عربتك . كم حفل مر بى فى ضجة ولجب فيه سحر الأبهة ! أفتبق أنت من ورائهم تتوارى فى صمت وأنا أقضى حياتى أنتظر عبثاً أبكى وقلبي يتفطر ؟

— ٤٢ —

فى بكرة الصباح سمعت همسة : ستبحر معه فى قارب ، أننا معاً فقط ، وما فى العالم من يعرف شيئاً عن هذه السفرة ، فهى إلى غير غاية وإلى غير نهاية

فى أضعاف ذلك اليم اللانهائى وعند بسمتك الرقيقة الهادئة ستحور أغانىّ إلى لحن طليق كالموج ... لحن لا تحده الألفاظ

أفلم يأن لى ؟ أفلا يزال هناك ما يشغلك عنى ؟ يا أسفا ! لقد أسدل الليل أستاره على الشاطئ ونزع الطير إلى وكره

من يدرى متى ترفع السلاسل ويندفع القارب فيتوارى فى أحشاء الليل كأنه آخر شعاع من أشعة الطّفَل ؟

— ٤٣ —

ما كنت أهيئ نفسى للقياك حين وجدت السبيل إلى قلبي ، فدخلت إليه – يا مليكى – دون إذن كأنك واحد من الشعب غريب عنى ، فطبعت على لحظات من عمرى بطابع الخلود

واليوم كشفت عن تلك اللحظات – على حين فجاة – فألفيتها منثورة على التراب وعليها خاتمك ومزاجها ذكرى أيام قليلة من حياتى الغابرة فيها الأسى والطرب فى وقت معاً

لا ترتد عنى محتقراً سنى طفولتى حين كنت ألهو باللعب فى التراب ، فإنه ليتراءى لى أن خطواتى وأنا أدرج فى حجرتى بين

اللُّعب تشبه تلك التي يدوى صداها بين النجوم

— ٤٤ —

إن متعتى فى أن أجلس على جانب الطريق أنتظر وأرقب الظلام وهو يطارد النور ، والمطر وهو يتعقب صفاء الصيف

ورسلك يمرون بى وعليهم بشرى السماء يحيوننى وينطلقون فى سبيلهم فيهتز قلبى طرباً وأنا أستروح النسمات الحلوة

من الفجر لدن الفسق وأنا جالس بإزاء بابى لأننى أوقن بأن فترات السعادة آتية لا مرية فيها ، آتية حين أرى ...

فى هذا الحين سأخلو إلى نفسى أبسم وأترنم والهواء يتضوع بأريج الوعد

— ٤٥ —

أفلم تحس وقع خطواته الهادئة ؟

هو آت ... آت ... ودائماً هو آت

فى كل لحظة وحين ، فى كل يوم وليلة ؛ هو آت ... آت ... ودائماً هو آت

لقد شدوت بألحان كثيرة ما تزال رناتها تقول : « هو آت ... آت ... ودائماً هو آت »

في اليوم الصحو العطر من شهر ابريل ، وعلى طريق الغابة هو آت ... آت ... ودائماً هو آت

فى عبوس الليلة المطيرة من شهر يوليه ، وعلى مركب السحب المزمجرة هو آت ... آت ... ودائماً هو آت

إن خطواته هي التى تسحق قلبى فى لحظات الأسى والحزن ولكن لمسات قدميه الذهبية هى التى تبعث الطرب فى قلبى مشرقا

— ٤٦ —

لست أدرى منذ كم من الزمان وأنت تهفو تريد لقياى ؛ وما تستطيع شمسك ولا كواكبك أن تحجبك عنى إلى الأبد

ما يزال وقع قدميك يرن فى مسمعىّ كل صباح وكل مساء ، وما يزال وحيك يهتف فى قلبى ويناديني سراً

لست أدرى لماذا تضطرب حياتى فى هذه الأيام ، وفى قلبى نبضات السرور

لكأنى أرى الأيام تهم لتنجز عملى ، وأنا أستروح النسيم الحلو يبشرنى بقدومك

— ٤٧ —

أوشك الليل ينحسر وأنا أنتظر عبثاً . إنى أخشى أن يحضر والفجر ، وقد غلبني النعاس والتعب معاً . فيا صاحبي

دع الطريق أمامه مفتوحاً ولا تقف فى سبيله

وإذا لم توقظنى خطواته فلا تفزعنى أنت عن منامى ؛ فما أريد أن يزعجنى عند انبثاق الفجر ، لحن الطائر الغرّيد ، ولا زفيف الريح . ذرنى هادئاً فى نومى ولو جاء سيدى إلى بابى

أيها النوم ، أيها النوم اللذيذ ، إنك تنتظر لمساته لتطير عنى . آه ، سينفض نورُ بسماته عن عينىّ ثقلَ الكرى ، وهو أمامى كأنه حلم لذيذ يلمع بين ظلمات الهجوع

فليأت أمام ناظرىّ كأول شعاع أضاء وكأول شبح بدا . إن نظراته ستبعث فى حياتى العابسة أول هزات الطرب . وحين أعود إلى نفسى فلتكن عودتى إليه هو

— ٤٨ —

إن صمت الفجر العميق يمزقه رجع تغريد الطير ؛ والأزاهير نشوى على جانبي الطريق ، وبين تفاريق السحب تنثر الثروة الذهبية ؛ أما نحن فنهرع إلى العمل فى شغل لا نلتفت

ليس فى ألحاننا النشوة والطرب ؛ ولم تنطلق إلى القرية طلباً للفائدة ؛ ولم تنفرج شفاهنا عن كلمة أو ابتسامة ، وما تريثنا على الطريق ؛ ولكن رحنا نستحث الخطو كلما انطوى الزمن

تكبدت الشمس السماء والبط يموج تحت وارف الظل ، وأوراق الشجر تضطرب فى الهاجرة ، وغفا الراعى فى ظل شجرة الرند يحلم ؛ أما أنا فاستلقيت إلى جانب الغدير مرسلاً أطرافى المكدودة على الحشائش

لقد سخر منى صحابتى وانطلقوا فى صمر فلم يعقب واحد منهم ولم يستأن ، ثم غابوا عند الأفق . لقد اجتازوا مهامه ومروجاً وبلاداً نائية عجيبة . لك المجد يا من تملك الطريق اللانهائى ! إن السخرية واللوم أفزعانى عن مكانى ، وإن لم أجد الرضا فى نفسى فلقد فقدت نفسى فى أعماق الخشوع الجميل ... فقدتها فى ظلال النشوة الغامضة

إن وشى الشمس الجميل انتشر فى بطء على قلبى فأنسانى ما انطلقت على أثره فأسلمت عقلى — فى غير عناد — إلى مباهج الظل والأغانى

وأخيراً حين استيقظت من سباتى وجدتك إلى جانبي تنزع عنى النوم بابتساماتك . كم خشيت أن يكون الطريق إليك طويلا وعراً ، وأن يعجزنى أن أصل إليك !

كامل محمود حبيب

بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

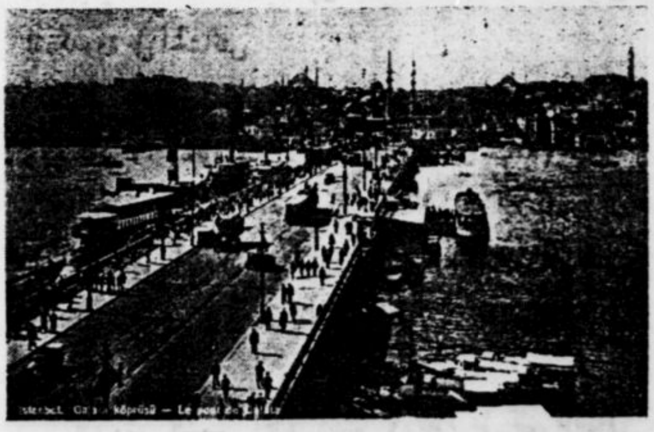
— ٣ —

المتحف العسكرى

يا أخى صاحب الرسالة

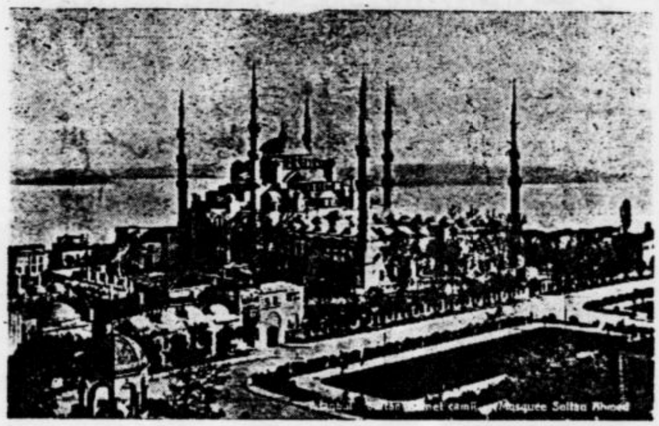
سلام عليك. لا أقول هذه ثالثة الرسائل خيفة أن تقول فى نفسك « ثالثة الأثافى » بل أقول هـذه الرسالة الثالثة أرسلها إليك من استنبول لأصف لك مما رأيت

خرجت من مسكنى فى تقسيم أؤم المتحف العسكرى ومعى زميلى الدكتور زيادة ، فلما أجزنا الجسر — جسر غلطة (١) شرعت السماء ترذنا ، حتى إذا بلغنا ساحة أياصوفيا وملنا شطر قصر « طوب قبو » انهمر المطر فأوينا إلى الباب ، وهو باب شاهق واسع عليه الطغراء السلطانية ، يمتدّ على جانبه سور عال كأسوار القلاع ، أوينا إليه مع من ألجأهم المطر ؛ وازداد المطر انهماراً فطال بنا الوقوف . ولست أنسى مشهداً رائعاً شهدته هنالك : إلى اليسار سبيل السلطان احمد في جمال هندسته وحسن نقشه ، وحلّى من الخط والمعنى تتجلى بها أبيات من الشعر أطافت به ؛ وإلى اليمين جامع أيا صوفيا يبدو جانب من قبته ومأذنتان من



(جسر غلطة)

مآذنه الأربع ؛ وأمامى على بعد جامع السلطان احمد فى جلال قبابه وجمال بنائه ، قد علت قبته ومآذنه الستّ أهلّةٌ ذهبية يزيدها المطر اشتعالاً . وهيهات أن تذهب بنور التوحيد سُدُف الدجن أو شآبيب المطر ، وجامع السلطان أحمد أجمل جوامع استنبول فى رأيى وأكثرها إضاءة فى قلب الداخل وعينه . ما يزال الطرف يتقلب بين جدرانه وأساطينه وقبابه حتى إذا بهره الجمال والجلال استراح إلى مرأى البحر من خلال النوافذ الزجاجية الجميلة . وقد دخلته قبل ثمانى سنين ، فلما رأيت هذه الأساطين الأربع الهائلة قلت : « يا لك أربعة أساطين حملت الدنيا والدين ! »



(منظر لجامع السلطان أحمد)

خف المطر فأسرعنا صوب المتحف العسكرى فاذا هو مقفل إلى الظُّهر فأوينا إلى باب « الضربخانة » . ولما أذن المطر بالسير انصرفنا نسير فى أرجاء المدينة . ثم عدنا إلى المتحف ، وهو فى كنيسة قديمة اسمها سنت أدنيا ، رُصّت خارجه مدافع كثيرة جاهدت فى عصور مختلفة . فيها مدفع كبير بجانبه قذائف مكورة من الحجر وقد نقش عليه بالعربية بيتان يدلان على أنه من مدافع سليمان ، وأنه صنع سنة ٩٢٨ هـ وهناك مدافع أخرى نقش عليها أسماء صانعيها ؛ وأمام المتحف قنبلة سوداء مخروطية طويلة هى بعض ما ألقاه الأسطول الانكليزى على الجيوش العثمانية حينما سدّت طريق الدردنيل بأبدانها وإيمانها

وفتحنا الباب فإذا دهليز على جانبيه تمثالان لجنديين دارعين من انكشارية القرنين الثامن والتاسع من الهجرة . ثم سلكنا الدهليز بين بنادق كثيرة من صنع القرن الماضى والقرن الحاضر . ولست أستطيع ولا أستحسن أن أصور لك كل ما رأيت فى هذا المعرض العظيم من تاريخ الصناعات ومجد العثمانيين وعبر التاريخ : أكداس من الوقائع والعبر ، يضيق عنها النظر والفكر ، وإنما

(١) جسر يصل جانبي المدينة : استنبول وغلطة . وهذه التسمية لجانبي المدينة قديمة وقد ذكرها ابن بطوطة ، والجسر فى مدخل خليج القرن الذهبي وهو جسر ضخم عائم ترفعه عائمات ضخمة بجانبها عائمات أخرى اتخذت طريقاً ومراسي للبواخر الصغيرة والمطاعم ومجالس للمسافرين

أصف لك ماغلب على الذاكرة ، من بينها : المتحف كنيسة قديمة تقوم على ساحتها قبة كبيرة عالية ويدور بها طبقتان من الاروقة سرنا فى الرواق إلى اليمين ودرنا معه فإذا بنادق ومدافع وآلات حربية كثيرة ومناظر لبعض الحروب ، حتى انتهينا إلى سيارة في نوافذها ثقوب ؛ فهذه السيارة التي قتل فيها المرحوم محمود



(حلقة موسيقية صوفية)

شوكت باشا وهو صدر أعظم فى عهد السلطان محمد الخامس ؛ وبعدها صور وآثار كثيرة لمتأخرى القواد العثمانيين : علمدار مصطفى باشا ومختار الغازي وأنور وغيرهم . ثم خرجنا إلى وسط الكنيسة فرأينا فى صدرها صورة الغازى مصطفى كمال باشا بجانبها أنواع من الأسلحة القديمة والحديثة . وسرنا قليلاً فإذا درع قديمة تتخطاها العين غير حافلة ، حتى إذ أوقفها التطلع قرأت عليها : « درع الفاتح » فأخذها جلال الذكرى وأدركت فرق ما بين المظاهر والحقائق ، بجانب الدرع سيوف من ذلك العهد وتروس محكمة الصنع منها ترس محمود باشا أحد الصدور فى عهد الفاتح ، وترس يعقوب جلبي بن السلطان مراد الأول . ويقال إن السلطان بايزيد أمر بقتله وهو يتعقب العدو فى موقعة قوصوه الأولى سنة ٧٩١ ، ثم سيوف لسليمان القانونى فيها سيف كتب عليه :

على الله فى كل الأمور توكلى   وبالخمس أصحاب العباء توسلى

ورأينا بعد هذه خوذات أهداها نابليون إلى السلطان سليم الثالث ، وعلماً رفعه العثمانيون فى موقعة قوصوه الأولى ، ثم مخلفات السلطان عبد الحميد . وهكذا نطوى العصور فى لمحات . فالفاتح وبايزيد وسليم وعبد الحميد طواهم التاريخ فى سجله ، وجمعهم الزمان في معرضه ، فدار بهم الزائر فى خطوات ، وحواهم بطرف فى نظرات ، وقبض الدهر هذه العصور المتطاولة فى كلة واحدة : « الماضى » ...

وفى الدهليز الذى إلى اليمين سنان رمح كان للأمبراطور جستنيان ، وبركار كان للمعمار سنان . قلت لنفسى : شتان ما بين السنانين هذا للحرب والفناء ، وهذا للعمران والبقاء . قد فنيت آثار سنان جستنيان ، وللفناء كان طعانه ، وبقيت آثار بركار سنان ، وللبقاء كان بنيانه . وحسب سنان خلودا هذا الجامع الرائع والأثر العظيم الذى يدل على الصانع : جامع السلطان سليمان . على أن هذه اليد الماهرة المعمرة شادت فى أرجاء المملكة أربعمائة بناء (عمر المعمار سنان أكثر من مائة عام وتوفى سنة ٩٩٦ ودفن فى الجامع الذى ينسب إليه فى استنبول) وبعد هذين صورة تمثل الأمير البطل عبد القادر الجزائرى وهو يقابل القائد الفرنسى بعد معاهدة تفنة سنة ١٨٣٨ م

وفى الطبقة الثانية تماثيل كثيرة تمثل رجال الدولة وخدم الملوك فى أزيائهم القديمة . فهذا شيخ الإسلام على أريكة قد جلس أمامه أعوانه ، وهذا قاضى العسكر بجانبه قاضى مكة وآخرون .



(شيخ الاسلام)

وهذا أغا دار السعادة ، وهذا قزم كان يضحك السلاطين ، وهذه صور الانكشارية فى أزيائهم العجيبة ، وهذا الجلاد واقفاً كالقضاء ينفذ أمر السلطان — صور من التاريخ مبكية مضحكة ، وفى هذه الطبقة خرائط مجسّمة تمثل القسطنطينية وما يحيط بها ، وألواح فيها آيات من القرآن أو كلمات مأثورة ...

وبعد فحسبي اليوم هذه السطور . ولعل الرسالة الآتية تبلغك عما قليل ، والله يرعاك والسلام عليك

استنبول ٣ أغسطس سنة ١٩٣٧   **عبد الوهاب عزام**

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٨ —

« كتب كاتب فى العدد الأخير من مجلة المقتطف الغراء شيئاً بعنوان « سيرة الرافعي » فيه أشياء أعرفها ويعرفها قراء الرسالة ، وفيه أشياء لا أعرفها ولم أسمع بها على طول صحبتى الرافعي وما رويت من خبره عن أهله وخاصته ، وفيه أشياء أنا على خلافها ؛ ولو كان لى أن أعرف مصادر الكاتب إلى هذا العلم لاتهمت نفسى ؛ ولكنى أحسب كل مصادره أنه يسرف فى الاستنباط ، فرجائى إليه أن يمايز بين أجزاء الكلام ليعرف ما هو له وما هو للحقيقة ، فان فكر المفكر غير حوادث التاريخ ، وما تراه أنت رأياً فى الحادثة قد يراه غيرك على نقيض ؛ والحياة حادثة وقصة واحدة لاخلاف فيها ، ولكنها على اختلاف من ينظر فيها من أهل الرأى والفلسفة قصص وحيوات ؛ وإن علىّ للرافعى لديناً يدعونى إلى السهر على تراثه ، فمن ذلك أرى علىّ أن أتوجه إلى الكاتب بهذا الرجاء ، وأن أتوجه بالعتب إلى الأستاذ فؤاد صروف القائم على تحرير المقتطف ، وهو الخبير بموازين الكلام ، وهو هو الذى كان للرافعى صديقاً من خاصة أصحابه وأصفيائه » (العريان)

الرافعى الناقد

سأحاول فى هذا الفصل أن أتحدث عن شئ مما كان بين الرافعى وأدباء عصره ، وإنه لحديث شائك ، وإننى منه لفى حرج شديد . لقد مات الرافعى ولكنه خلف وراءه صدى بعيداً مما كان بينه وبين أدباء عصره من الخصومات الأدبية ؛ فما أحد منهم إلا له عنده ثأر ، وفى صدره عليه حفيظة أو له عليه معتبة . ولقد اهتزت بلاد العربية كلها لنعى الرافعى وما اختلجت نفس واحد من خصومه فكتب إلى أهله كلمة عزاء ، إلا رجلاً واحداً هو الدكتور طه حسين بك ، إذ كتب برقية إلى والده ؛ فلا جرم كان بذلك — على تفاهته — أزنَ خصوم الرافعى وأعرفهم بالأدب اللائق !

ولقد مضى بضعة أشهر منذ ترك الرافعى دنياه ؛ فهل رأيتَ أحداً منهم كتب شيئاً عنه يناله بالمدح أو المذمة ؟ وهل رأيت اللجنة التى اجتمعت لتأبينه قد استطاعت أن تحمل واحداً من هؤلاء على أن يشاركها فيما تعمل لتأبين الرافعى ، أو قل لتاريخ عصر من عصور الأدب قد انطوى تاريخه بين أعيننا ويوشك أن يضيع فى مدرجة النسيان ؟

ليت شعرى أ كان الرافعى من الهوان فى المنزلة الأدبية بحيث لايذكره ذاكر من زعماء الأدب العربى ولما ينقض على موته بضعة أشهر ، وبحيث تجتمع له لجنة التأبين وتنفض وتحدد الموعد ثلاث مرات ثم لاتجد من يتقدم إليها ليقول فى تأبين الرافعى فتوشك أن تنسأ الأجل إلى غير ميعاد ... ؟

ولكنه هو – يرحمه الله – الذى ألّب على نفسه هذه المداوات حياً وميتاً . لقد كان ناقداً عنيفاً حديد اللسان ، لايعرف المداراة ولا يصطنع الأدب فى نضال خصومه . وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس ؛ وكان فيه صراحة وصرامة ؛ وكان له فى الأدب مذهب وحده ؛ وكان فيه حرص على اللغة « من جهة الحرص على الدين ، إذ لايزال منهما شئ قائم كالأساس والبناء : لامنفعة فيهما معا إلا ببقائهما معا » وكان يؤمن بأنك « لن تجد ذا دِخْلة خبيثة لهذا الدين إلا وجدتَ له مثلها فى اللغة » ... فكان بذلك كله ناقداً عنيفاً ، يهاجم خصومه على طريقة عنترة : يضرب الجبان ضربة ينخلع لها قلب الشجاع ... !

إقرأ له فى أول كتاب المركة : « ...إنما نعمل على إسقاط فكرة خطرة ، إذا هى قامت اليوم بفلان الذى نعرفه ، فقد تكون غداً فيمن لانعرفه ؛ ونحن نرد على هذا وعلى هذا برد سواء ، لا جهلُنا من نجهله يلطِّف منه ، ولا معرفتنا من نعرفه تبالغ فيه ... فإن كان فى أسلوبنا من الشدة أو العنف ، أو القول المؤلم أو التهكم ، فما ذلك أردنا ؛ ولكننا كالذى يصف الرجل الضال ليمنع المهتدىَ أن يضل ، فما به زَجْرُ الأول بل عظة الثانى ... »

***

وأول ما أعرف للرافعى فى النقد ، مقاله فى الثريا عن شعراء العصر فى سنة ١٩٠٥ ؛ ثم مقاله فى الرد على المرحوم المنفلوطى فى النبر ، وكان نشر مقالاً يعارض به رأي الرافعى فى الشعراء وينتصف به لصديقه المرحوم السيد توفيق البكرى ، فكتب المرحوم حافظ إلى الرافعى يقول : « قد وكلت أمر تأديبه إليك ... ! »

ثم كانت مصاولات أدبية بينه وبين الجامعة المصرية غداة

نشأتها فى سنة ١٩٠٨ ، ثم مقالات عن الجديد والقديم ، والعامية والفصحى ، فى مجلتي البيان والزهراء ؛ ثم خصومة بينه وبين لجنة النشيد القومى فى سنة ١٩٢١ ؛ ثم وقعت الواقعة بينه وبين الدكتور طه حول كتاب رسائل الأحزان فى سنة ١٩٢٤ فى السياسة الأسبوعية ؛ فكان هذا أول ما بينهما ؛ ثم كانت المعارك المنيفة بينه وبين العقاد ، وبينه وبين عبد الله عفيفى ، وبينه وبين زكى مبارك ، إلى ما لا ينتهى من المصاولات بينه وبين أدباء عصره

على أن أشهر هذه المعارك شهرةً هو ما كان بينه وبين طه وبينه وبين العقاد ، بل لعلها أشهر وأقسى ما فى العربية من معارك الأدب ، وإنها لجديرة بأن يؤرخ بها فى تاريخ النقد كما كان العرب يؤرخون بأيامهم ... !

وإننى لأشعر أن على واجباً أن أكشف عما أعرف من الأسباب الخاصة أو العامة التى نشأت بها هذه الخصومات الأدبية أو انتهت إليها ، وإننى لأشعر بجانب ذلك أننى أكلف نفسى بهذا فوق ما أستطيع

إن كل ما تناولته إلى الآن من تاريخ الرافعى كان له هو وحده ، فلا علىَّ ما دمت مطمئن النفس إلى ما أكتب ؛ أما الآن ... أما الآن فسيكون إلى جانب اسم الرافعى أسماء ، وإنهم لذوو حول وسلطان ، فما أدرى أيرضون ما أكتب عنهم أم يسخطون . ولقد رأيت ما فعلتْ بالرافعى شجاعتُه فمات لم يذكره أحد منهم أو يترحم عليه ؛ وما أنا كفء لهذه المداوات ، ولست لها بأهل ، ومالى طاقة بالدفاع عن نفسى ، ولا لى أنصار ذوو لسان وبيان ، وما تهون علىَّ نفسى ... !

ولكن ... ولكن من عذيرى يوم الحق من كتمان الشهادة ؟ ولكن ... ولكن ما أنا إلا راوية يكتب ما رآه لا ما ارتآه . ولكن ... ولكنَّ فلاناً وفلاناً اليوم أمامىَّ تصول وتجول ، وإنها غداً لصفحات من التاريخ تتحدث . ولكن ... ولكن التاريخ قد وقع فلا سبيل إلى مَحْوٍ فيه أو إثبات . ولكن ... ولكن الندم على ما كان لا يمحو من تاريخ الانسان ما كان ...

فهذا عذرى عند فلان وفلان ممن يتناولهم حديثى بما يغضب أو يسوء ، فإن كان لى عندهم عذر من الكتمان إن كتمت الشهادة فليحدثونى لأطوى من الحديث ما قد يغضب أو يسوء ...

أما وإن تاريخ الرافعى فى هذا الفصل هو تاريخ الأدب فى جيل من الأدباء ، فإن كان من حق أحد أن يعتب علىَّ لنشر هذا الفصل فإن حق الأدب لأوجب ؛ وما أريد من فلان وفلان شيئاً ، ومالى عندهم حاجة ولا لهم علىَّ يد ؛ فليغضب من يغضب للحق أو لنفسه فلا علىَّ من غضبه أو رضاه ، وإنى لماض فيما أنا بسبيله ...

بين الرافعى وطه

فى سنة ١٩٢٢ كانت السياسة الأسبوعية هى صحيفة الأدب والثقافة ؛ وفيها كان يعمل الدكتور طه حسين فى الأدب وفى السياسة معاً ؛ ولم يكن بين الرافعي وطه يومئذ شىء يثير ثائرة فى الصدر ، أو يدعو إلى عتاب وملامة ، ولكنَّ إرهاصات كانت تسبق ذلك ببضع عشرة سنة ...

كان طه حسين فى سنة ١٩٠٩ هو الطالب المرموق فى الجامعة ، وكان الرافعى الشاعر ماضياً فى الشعر على سنته ، لا يعرف له أحد مذهباً غير الشعر ؛ فلما نشر مقاليه المشهورين فى (الجريدة) ينقد بهما أساليب الأدب فى الجامعة ، تنبهت إليه العيون ؛ فلما أنشأ كتابه تاريخ آداب العرب فى سنة ١٩١١ ، عرف الأدباء الرافعي العالم المؤرخ الرواية ، وعرفه طه حسين الطالب بالجامعة .

أفكان الطالب طه حسين يرشح نفسه من يومئذ ليكون أستاذ الأدب بالجامعة ، فنفس على الرافعى أن يؤلف كتاباً فى تاريخ آداب العرب فكتب ينقد كتابه ويقرر أنه لم يفهمه ، ثم يقررها ثانية فى نقد « حديث القمر » وثالثة فى « رسائل الأحزان » ؟

الحق أن الرافعي كان يطمع فى أن يكون إليه تدريس الأدب فى الجامعة منذ أنشئت الجامعة ، وقد كشف عن رغبته هذه فى مقاليه الأول والثانى بالجريدة ؛ ولكن طه يومئذ كان طالباً فى الجامعة ، فمن الإسراف فى المزاح أن ننسب ما كان بينهما من بعدُ إلى النفاسة أو المنافسة على كرسى الآداب فى الجامعة ! ولكنه صدر من تاريخ هذه الخصومة الأدبية له قدره فى هذا الفصل فلا بد من الإشارة إليه

***

ونفخت السياسة الأسبوعية فى الأدب روحاً جديدة ، واتخذت لها أسلوباً فى الدين وفى العلم وفى الأدب ، قال عنه جماعة من الأدباء : إنه إلحاد وكفر وضلال . وقالت طائفة : إنه المذهب الجديد فى الدين والعلم والأدب . ثم مضت السياسة بما تكتب وبما

تفسح من صدرها للكتاب، تقسم الأدباء إلى فرق ومعسكرات، وقديم وجديد، ورفعت في الجهاد راية ...

والرافعي رجل — كان — فيه عصبية للدين، وعصبية للقديم؛ فأيقن منذ قرأ العدد الأول من السياسة الأسبوعية أن سيكون له شأن مع السياسة وكتاب السياسة في غد ...

ونال الرافعي رشاش من بعض المعارك وإنه لبعيد عن الميدان، فأحس في نفسه رغبة في الكفاح فتحفز للوثبة ...

ودسّ كلمةً إلى طه يذم أسلوبه بما يشبه المدح، ويعيب عليه التكرار وضيق الفكرة، فنشرها طه في السياسة قبل أن يستبين مغزاها وما ترمى إليه ... ثم عرف ...

وتهيأت أسباب الحرب ولم يبدأ أحدٌ بالعدوان .. وتربّص الرجلان في انتظار السبب المباشر لبدء المعركة ...

ثم أصدر الرافعي رسائل الأحزان، فسعى راجلاً إلى دار السياسة ليهدي إليها كتابه. وهناك التقى الرافعي وطه حسين وجها لوجه ... ونظر الرافعي إلى طه، واستمع طه إلى حديث الرافعي، وتصافح الخصمان قبل أن يصعدا إلى حلبة المصارعة، ونفخ الدكتور هيكل بك في صفارة الحكم، وبدأت المعركة. وكانت مشادة حادة خرج الرافعي يتحدث عنها وصمت طه

لمن يا ترى كانت الغلبة؟ الرافعي يقول: أنا ... ولكن طه لا يتكلم، والدكتور هيكل ضنين بالحديث

ومضت فترة، ثم نشر طه حسين رأيه في رسائل الأحزان في السياسة الأسبوعية، فرفع راية العداء وأعلن الحرب. ورد الرافعي يقول:

يسلّم عليك المتنبي ويقول لك:

وكم من عائب قولاً صحيحاً   وآفته من الفهم السقيم!

ثم مضى في رده يهزأ ويسخر ويتجنى ويتحدى، في مقال طويل تقرؤه في ص ١٠٩ — ١٢٢ من كتاب المعركة؛

وطارت الشرارة الأولى، فاندلعت ألسنة النار فما خمدت حتى أحدثت أزمة وزارية، وأنشأت جفوةً بين سعد وعدلي، وأوشكت أن تؤدي بعلي ماهر إلى المحاكمة، وهزّت دوائر البرلمان، ثم انتهت في النيابة العمومية ...

وفي الأسبوع المقبل بقية الحديث عما كان

«شبرا»   محمد سعيد العريان

أبو إسحاق الصابي

للأستاذ عبد العظيم علي قناوي

— ٢ —

لعل أبا إسحاق الصابي أصدق مثل يضرب لمن يماري في وجوب نزول الآباء على إرادة الأبناء فيما يحبون من فروع العلوم أو ينزعون إليه من أفنان الفنون، وأن خير ما يؤخذ به المتعلم هو الرغبة الحافزة لا الرهبة القاسية، إذ لا يرتجى كثير نجاح في قسر الأبناء على علم بعينه يريده الآباء، ولا أخذهم بدراسة مخصصة لا يبغيها أولئك ويحتمها هؤلاء، فإن ذلك قاتل للكاتهم رافع بهم إلى الاستيئاس من النجاح، أو على الأقل الأدنى نازع بهم إلى القصور في كل علم، والتقصير فيما لا يميلون إليه من الفن، وضارب بهم في مهامه لا يعرفون وجه المحجة فيها، وموقع بهم في مفاوز إن نجوا منها فبعد لأي وعناء؛ ولا سيما متى كان ذكاؤهم محدوداً ونبوغهم قاصراً. ورضي الله عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حيث يقول: «لا تقسروا أبناءكم على آدابكم، فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم» وإذا كان رضوان الله عليه قد قصد بالتأديب معناه الأخص فهو على وجه العموم أولى، وبشموله كل أدب أجدى

دفعني إلى تلك التقدمة أني رجل تربية من واجبي تنبيه الأذهان إلى ترك الحرية العلمية للتلميذ ينهج فيها نهجه الذي يحبه. فلقد حاول أبو الحسن والد إبراهيم الصابي تعليمه منذ نشأته صناعة الطب وحذق الحكمة سيرا على سنن آبائه نهجا على منهج أسلافه، إذ كان جلهم رجال طب وحكمه. وبذل في سبيل ذلك غاية الجهد، وجهد لتنفيذ إربته إلى أقصى غاية، وقد وجد من ابنه سميعاً ومن إبراهيم مطيعاً، لا عن رغبة وحب، بل عن رهبة وأدب، وقسر وزجر. ولو غير أبي إسحاق لرمى بكلام أبيه عرض الأفق، ولكنه كان باراً بأبيه عالماً بواجبات الأبوة لا يعصي له أمراً وإن جاء قاسياً، ولا يخالف له رأياً وإن بدا له رأياً خاطئاً، وإن هذه النزعة فيه نزعة البر والحدب والحب والولاء ليعبر عنها شعره تعبيراً قوى الأمر صادق النزعة، فهو

ى أن الإنسان بعد فقد والديه ليس شيئاً مذكوراً ، وأنه يعيش فى الدنيا غريباً ، لأنه لايجد فؤاداً يحنو عليه ولا عيناً ترمقه ، وأنه يعيش — متى كان حى الوجدان — جنيب صفاء وأليف شقاء ، فمن هذا قوله :

أسرة المرء والداه وفيما بين حضنيهما الحياة تطيب
فإذا ما طواهما الموت عنه فهو فى الناس أجنبى غريب

ولا يختلف شأنه مع أبنائه عن شأنه مع والديه ، فإنه ليعطف عليهم عطف الأم الرءوم لا الأب الرحيم ، ويتجاوز عن جرائرهم ويجعل هفواتهم دبر أذنه ، حتى لا تقع عليهم لعنة الله ولا تحق فيهم كلمته ؛ شأن الأب الكريم ، وشيمة الرجل الحليم الحكيم . وهو إذ يتحدث عن ذلك يتحدث فى زهو ، ويقصه فى فخر معلما أولئك الآباء القساة طرائق فى التربية تسعدهم وتسعد أبناءهم ، ومتى أغنت النظرة فلا حاجة إلى الكلمة ، وفى مثل ذلك يقول:

أرضى عن ابنى إذا ما عقنى حذَرا
عليه أن يغضب الرحمن من غضبى
ولست أدرى بما استحققت من ولدى
إقذاء عيني وقد أقررت عين أبى

واستمع إليه يرد على رسالة وردته من ابنه أبى على المحسّن كان قد كتبها تسلية له فى إحدى نكباته ، وجاء فى رسالة أبى على هذان البيتان :

لا تأس للمال إن غالته غائلة
ففى حياتك من فقد اللُّهى عوض
إذ أنت جوهرنا الأعلى وما جمعت
يداك من تالد أو طارف عَرَض

فكتب تلك الأبيات التى أحسبها من حبات قلبه نسيجها ، ومن عبرات عينيه نظيمها ، فكل حرف شفقة وعطف ، وكل كلمة بر ورحمة . قال :

يا درة أنا من دون الردى صدف لها أقيها المنايا حين تعترض
قد قلت للدهر قولاً كان مصدره
عن نيـة لم يشب إخلاصها مرض
دع المحسّن يحيـا فهو جوهرة
جواهر الأرض طرا عندها عرض
فالنفس لى عوض عما أصبتُ به
وإن أصبت بنفسى فهو لى عوض
أتركه لى وأخاه ، ثم خذ سلبي
ومهجتى فهما مغزاى والغرض

فلا غرو إذا مازل ، وهذا خلقه وتلك شيمه ، على أمر أبيه كارهاً ، وأطاعه تكلفاً ، وجامله فيما كلفه إياه مصانعاً ، فتعلم الطب مخلصاً فى تعلمه ، وإن لم ينته عن التعرض لما تصبو إليه نفسه ، ويرغب فيه طبعه ، فكان يزاول فى أوقات خلوته وسويعات فراغه من كتب الحكمة — أشتات علوم اللغة والأدب وما إليهما ، فإن علم أبوه ذلك عنه نهاه وزجره ، حتى يأخذ فيما يؤهله له ، ولا يصرف وقته فيما لا غناء فيه فى نظره . وأجدر بى أن أسوق حديث أبى اسحاق عن نفسه فى هذا الوقف ، فإنه يقول : « كان (1) والدى أبو الحسن يلزمنى فى الحداثة والصبا قراءة كتب الطب والتحلى بصناعته ، وينهانى عن التعرض لغير ذلك ، فقويت فيها قوة شديدة ، وجعل لى برسم الخدمة فى «البيمارستان» عشرون ديناراً فى كل شهر ، وكنت أتردد إلى جماعة من الرؤساء خلافة له ، ونيابة عنه ، وأنا مع ذلك كاره للطب ، ومائل إلى قراءة كتب الأدب ، كاللغة والشعر والنحو والرسائل والأدب ؛ وكان إذا أحس بهذا منى يعاتبنى عليه ، وينهانى عنه ، ويقول : يابنى لاتعدل عن صناعة أسلافك . فلما كان فى بعض الأيام ورد عليه كتاب من بعض وزراء خراسان يتضمن أشياء كثيرة كلفه إياها ، ومسائل فى الطب وغيره سأله عنها ، وكان الكتاب طويلا بليغاً ، قد تأنق منشئه وتقارب . فأجاب عن تلك المسائل ، وعمل جملا لما يريده ، وأنفذها على يدىّ إلى كاتب لم يكن فى ذلك العصر أبلغ منه ، وسأله إنشاء الجواب عنه . قال: فمضيت وأنشأت أنا الجواب ، وأطلته وحررته ، وجئت به إليه ، فلما قرأه قال : يابنى سبحان الله ! ما أفضل هذا الرجل وأبلغه ! فقلت له : هذا من إنشائى ، فكاد يطير فرحاً ، وضمنى إليه ، وقبلنى بين عينى ، وقال : قد أذنت لك الآن ، فامض فكن كاتباً

ومن ذلك اليوم هجر أبو إسحاق الطب إلى الأدب. وقلى الحكمة ليواصل اللغة ، فكان كاتباً أريباً وشاعراً مجيداً ، جرى

(1) معجم ياقوت : الجزء الثانى ص ٥٤

اسمه فى كل مجلس ، سواء فى ذلك مجالس الأنس والنحس ، وحلق فى كل أفق لا يبالى أكان الأفق ساطعاً أم ملبداً ، وبرع فى كل فن حتى صار ملء الأسماع ومهبط الآماق ؛ ولله در واصفه إذ يقول :

أصبحت مشتاقاً حليف صبابة   برسائل الصابى أبى إسحاقِ
صوب البلاغة والحلاوة والحجا   ذوب البراعة سلوة العشاق
طوراً كما رق النسيم وتارة   يحكى لنا الأطواق فى الأعناق
لا يبلغ البلغاء شأو مبرز   كتبت بدائعه على الأحداق

وإن أدبه — كما يقول معاصروه — لسلوة الحزين ، وشفاء الكليم ، وأنيس المسافر والمقيم ، وسمير الصديق والحميم ، مما يدل على أنه كان أمة عصره ونابغة دهره ، يشهد له بذلك البعيد والقريب ، والعدو والحبيب ، ولن أبلغ فى وصف أدبه الغاية كما بلغ لداته ، فهذا أحدهم يقول :

يا بؤس من يمنى بدمع ساجم   يهمى على حجب الفؤاد الواجم
لو لا تعلله بكأس مدامة   ورسائل الصابى وشعر كشاجم

ولكنه لبؤس حاله ونكد طالعه نشأ فى عصر أفعم بالفتن ، فسياسته مختلة ، ورياسته معتلة ، والخلافة اسم ليس له مسمى ، ورسم لا حقيقة ، وملوك الديلم تتأرث بينهم الأحقاد ، وتحاك الدسائس وتفشو الفتن ، والرجل ذو المروءة لا يسلم روحيًّا وحسيًّا ، فإما النفاق فيسخر ضميره لكل حاكم ، ويكتب بكل قلم ، ويأكل على كل مائدة ، ويمنح عقله كل راغب ، ويعطى لسانه كل خاطب ؛ وإلا فالمحابس مفتحة ، والسلب والنهب أيسر عقاب . ولقد كان إبان شبابه قبل أن تستشرى الفتن ، ويتنزى الاضطراب وتتأصل فى النفوس السخائم ، يتسامى ويتصاعد ، وجده يتعالى ويتماجد ، حتى صار من العظماء الممدوحين لا من الأدباء المادحين ، فسمى إلى أبى الطيب المتنبى راغباً إليه أن يمدحه بقصيدتين ولا يمنعه رفده ، أو يقطع عنه سنيه بل يرفده بخمسة آلاف درهم ، فبعث إليه المتنبى قائلاً : « والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولا أوجب علىَّ فى هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت ، وإن أنا مدحتك تنكر لك الوزير (يقصد المهلبى) وتغير عليك لأننى لم أمدحه ، فإن كنت لا تبالى هذه الحال ، فأنا أجيبك إلى ما التمست ، وما أريد منك مالاً ، ولا عن شعرى عوضاً ؛ فتنبه إلى موضع خطئه ولم يعاوده بعدئذ . وإن دلنا ذلك الحديث الذى رويناه عن ياقوت على شىء فإنه يدل على سمو نفسه واعتزازه بقدره ، فمن أسمى من ممدوح المتنبى ؟ كما يدل على علو منزلته لدى أبى الطيب ، وعلى أن هذا كان شديد الإخلاص وفير الوفاء لصداقته ، فلو قد فعل دون تحذير أو تنبيه لبكرت عليه النكبات ، ولفقد ولياً طالما بذل له رفده ، ولعب على ضوء وده

وكان لذيوع اسمه بين الكتاب والشعراء موجدة إن نأى ومحبة إن دنا فى نفوس الملوك والوزراء ، وما أكثرهم فى ذلك العصر ، فهو إن أخلص لهذا عوقب ، وإن والى ذاك عوتب ، وإن لزم الحيدة أنب ، وإن أعلن عن رأيه أدب ، فهو ملوم فى كل حال ، مستحق العقوبة فى كل زمان ومكان ، فكان نزيل السجن مسلوب الوفر ، وهذا ما جناه على نفسه . فلو أنه أطاع أباه وانصرف إلى الطب لعاش سعيداً ومات سعيدا ، ولكنه تنكب الطريق السوي فكان من أمره ما ستفصله فى مقال تال

عبد العظيم على قناوى

يوميات نائب فى الارياف

للأستاذ أحمد الزين

أهدى الأستاذ توفيق الحكيم إلى الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين كتابه « يوميات نائب فى الأرياف » فأجابه الأستاذ الزين على هديته بهذه الأبيات :

إنْ يفخر العربُ الكرام بكاتب   فَلْيَفْخروا بيراع ذاك النائبِ
قلمٌ بتصوير السرائر مُولَع   غَيْبُ النفوس عليه ليس بغائب
يَسرى إلى طى الصدور شعاعُه   أمضى وأنفذ من شهابٍ ثاقب
يصف النفوس كما برَاها ربها   ويميط عنها كلَّ ثوب كاذب
فكأنما يدعو النفوس فتلتقى   فى الطرس سافرة سفور الكاعب
سحر البيان يبين كل خفية   أين المصوِّر من يراع الكاتب
إيهٍ أديبَ الشرق، هات روائعا   قصصاً تُوَشِّيها بظرف خالب
وأفِض على اللغة الكريمة ثروةً   فالعُرْب أشكرُ أمة للواهب

أحمد الزين



رسالة الشعر



وحي المصيف

بين الأمواج وفوق الشاطىء

للأستاذ محمد الأسمر

ليس الفؤادُ وإن حرصتَ بسالِمِ ... فاقرعْ على ما كان سنَّ النادمِ
ناديتهُ — والموج فيما بيننا — ... فأجابني : دعني فما من عاصم
الذنبُ ذنبي حيث أنزل لاهياً ... في البحر أسبحُ بين سرب حمائم
ما كُنَّ من وُرْقِ الوكور وإنما ... وُرْقٌ هزأنَ بكل ريش ناعم
يَسْبَحْنَ فوق الماء ألين ملمساً ... منهُ وأبهى من فرند الصارم
سِرْبٌ تقاسمَ مهجتي ومضى بها ... فرحان يلعبُ كالإوز العائم

***

وعلى الرمالِ من الحسان جآذرٌ ... كدراهمٍ نُثرتْ حيالَ دراهم
متبسماتٌ للهواء وللهوى ... يَمْرحْنَ ما يمرحْنَ غير أوائم
مستلقياتٌ كاللآلئ رونقاً ... نهبَ النواظر ، والخيال الهائم
لكأنَّ (بحر الروم) أخرج دُرَّه ... فمشت به الأمواج جِدَّ رواغم
حملته وهي غواضبٌ وأتت به ... (الـــمصطافَ) بين هماهم وزمازم
أو ما تراها لا يقر قرارها ... في كل ناحيةٍ زئيرُ ضراغم
قذفتْ به فوق الرمال أوانساً ... من نسل أعرابٍ ، ونسل أعاجم
فوق الظهورِ أو البطونِ رواقدٌ ... متناوماتُ الجفن غير نوائم
حيث الهواء الطلقِ ، والشمس التي ... تَفْترُّ عن ثغر هنالك باسم
جاذَبَنِي عقلي فطاوعَ بعد ما ... قد كان لي في البحر ألومَ لائم
فالآنَ لا قلبي ، ولا عقلي معي ... إلا خيالاً مثل حلم الحالم

محمد الأسمر

طيفهـــا . . .

للاديب محمود السيد شعبان

يا مَنْ أراها برغمِ البُعْدِ دانيةً
ولا يَراها برغم القُرْبِ مَنْ تَصِلُ !
لا تجحَدِي خاطراً قد جالَ في خَلَدِي
أوْحَتْهُ لِي مِن سَمْوَاتِ الهوى رُسُلُ
أوْ تُنكِري ما رَأَتْ نفسِي وما نظرتْ
فالدَّمْعُ يَشْهَدُ إنْ أنكرْتِ والقُبَلُ !
يا طَالَما زُرْتِنِي والفجرُ مُبْتَسِمٌ ... وطَالَما جِئْتِنِي واللَّيلُ مُنْسَدِلُ !
أَلَسْتِ أنتِ التي أنْشَدْتِنِي نَغَماً
هو الرِّضَى والهوَى والشَّوْقُ والغَزَلُ ؟!
أَلَسْتِ أنتِ التى أَهْدَيْتِنِي قُبَلاً
كالسِّحْرِ يَكْمُنُ في طيَّاتِهِ الخَبَلُ ؟!
تذكَّرِي لا تقولي : لَسْتُ ذاكرةً
فإنَّما البشْرُ قد أنْساكِ والجَذَلُ !!

***

يا طيفها هل تراني كنت في حُلمٍ — أم أنه الحقُّ لا مَيْنٌ ولا خَطَلُ ؟!
ذهبتَ يا طيفها عني إلى وطنٍ — تقطّعتْ دونه الأسبابُ والسُّبُلُ
فكيفَ أحيا غريباً عنكَ مبتعداً
والحسنُ فنٌّ فريدٌ فيكَ مكتمِلُ ؟!
أمدُّ كفّيَ أرجو أنْ تصافحَني — فلا تمدُّ يداً نحوي وترتحِلُ!
تعالَ يا طيفها زُرْني كمن كرُموا
ولا تكن مثل مَنْ ضَنُّوا ومن بَخِلوا !
خلّفتني مُفرداً لهفانَ لا وطرٌ — بهِ أُعلّلُ أنفاسي ولا أملُ !
أضمُّ ظلّكَ مِن شوقٍ فيتركني — يا حسرتاهُ وحيداً ثم ينفتِلُ !
والآنَ ... يا طيفها أقبِلْ لِننهل مِن
مواردِ الحبِّ طهراً مثل مَن نهلوا !

(الاسكندرية) — محمود السيد شعبان

أنا نبأ كاذب

جبران — عن نعيمة —

للأستاذ خليل هنداوي

ويا ناعتي بسمو الخيال — أنا نبأٌ كاذبٌ فاجر
لقد سكن الوحش في باطني — وإن لان مني لك الظاهر
يُهذب نفسي الخيال الرقيق — ويغمرني بالهدى غامر
ولكنني أبداً في انخفاض — يجاذبني طبعي الماكر
ويغلب فيَّ الدنيُّ البريءَ — ويسطو على الشاكرِ الغادرُ
وتنزع نفسي إلى خشها — وثوبي - بعين الورى - طاهر
أأزعم أني لطبعي قهور — إذا شئتُ، وهو لي القاهر
أأقهر إرث زمان طويل — بنفسي، فأنت إذاً جائر !
عوالم أحمل آثارها — من الشعر يخطئها الناظر
عوالم تنبثُّ في اللاشعور — يُقادُ بها الوعيُ والخاطر
وتحسبُ أنيَ كون حديث — وفيَّ انطوى العالم الغابر
وهل أنا إلا صدى للبعيد — يردده صوتي الحاضر !

خليل هنداوي

صورتان

للأستاذ زكي المحاسني

أيا صورةً منسيةً وهي في نفسي — أشاهدها مادمت أصبح أو أمسي
مددت إلى الأوراق كفاً وعهدها — قديم كأني كنت أعهدها أمسِ
تلمستها مثل الذي نال ضائعاً — ولم أدر أن الكهرباء لدى اللمس
رجفت وأصماني من الحزن سكتة — بقيت لها حيناً كأني من الخرسِ
بكيت على تلك المباسم في الثرى — وعهدي بها كالورد مخضلة الغرس
فيا طول ذاك النأي ما منك رجعة
وهل يرجعن الدهر ميتاً من الرمس
أقبل منك الرسم وهو بقية — كما قنع الصديان من فضلة الكأس

* * *

على مَ التجافي يا حبيبي وإنما — خلقنا لكي نحيا أليفين في أنسِ
فوالله مهما عشت لست ببائع — هواكَ ولو أمعنتَ بيعي في بخسِ
لو ان المنى حقت لجزنا مع الهوى
إلى مطلع الأفلاك حتى مدى الشمس
تعالي أمثل فيك رسماً مجدداً — لصورة محبوب تصوّر في حسي
وأُعظِم فيك الطهر والحب والوفا
كما تُعظّمُ الأوثان في الهيكل القدسِ
يناديكِ، لو أسمعتِ، بي كل خافقِ
فإن قلتِ كذابٌ فما كبدي جُسّي
إذا شئتِ بيضتِ الحياة بناظري
وخليتِ لي دنياي ترقص كالعُرُسِ
وإلا تشائي الحب كوني صديقتي — أجدكِ عزاءً لي إذا عضني بؤسي

زكي المحاسني
أستاذ اللغة العربية في تجهيز دمشق



أقصوصة من مرجريت ستين

الحلقـــة الأخيرة

للأستاذ دريني خشبة

« هل الحياة الحب ؟ أم الحياة العمل »

لقد كانت مفاجأة عجيبة حقاً من تلك الفتاة الجميلة العذراء (ديانا...) حين ذكرت لصديقتها الآنسة تمارْ كورى أنها متزوجة ! فلم تكن الصديقة الوفية تعرف عن صديقتها إلا أنها تحب الفتى القسيم الوسيم كليف صولوى ، وأن الفتى القسيم الوسيم صولوى يحبها ، إن لم يكن يتعبدها ، وأنه إنما رحل منذ عشر سنوات إلى كندا الانجليزية يلتمس الثراء الضخم والغنى الوافر ليضمن لمعبودته نعيم الخلد بما ضمنت له نعيم الحب ، وليهيء لها عيشة رغداً ، لا يتلف جمالها عمل ، ولا يذهب بروائها عناء . لذلك قالت لصديقتها حينما سألتها سبب هذا الكتمان الطويل إنهما أرادا بذلك أن يضمن أحدهما الآخر أثناء هذا البعاد الطويل

وقد جلست ديانا تشكو لصديقتها ما تحس به من شتى الأحاسيس نحو فتاها صولوى الذى عرفته وأحبته حين الصبا فى شَرْخه ، والشباب فى ميعته ، والقلب فى فتوته ، وربيع الحياة فى إبانه . فكانت هذه السنوات العشر بما حوّرت وطوّرت ، وبدلت وغيرت . فكأنما القلب غير القلب ، والسمع غير السمع ، والحياة غير الحياة !

ذلك أن الفتاة ديانا ، ذات القوام والقد ، والجيد والخد ، والفم الأنيق والأنف الدقيق ، والجمال والفتنْ ... اليتيمة مع كل ذلك ، والتي أضفى يُتمها على جمالها ظلالاً من السحر العميق اضطرت ان تبرز إلى ميدان الحياة لتجاهد فى سبيل قوتها بعد إذ ارتحل حبيبها إلى أمريكا بشهر واحد ، لأن عمتها التي كانت تكفلها وتكفيها عناء العمل... ماتت بعد هذا الشهر أيضاً ولم تترك لها من حطام الحياة إلا نصيباً نَزْراً من المال ظل يتَسقط من راحتيها اللتين لم يعرفا مَساكا حتى لم يبق منه إلا دريهمات

وساعدتها صديقتها تمارْ كورى فقدمتها إلى أحد بيوت النشر الانجليزية فربطوا لها راتباً بسيطاً . وكان عملها ثمت أن تقرأ الرسائل الكثيرة المتنافرة ذوات الخطوط المختلطة ، التى كان أكثرها أشبه بفرق من راقصات الزنوج يترنحن على القراطيس . ولم تلبث ديانا أن خبرت من الحياة تجاريب لم تعرفها من قبل كان محورها جميعاً المال ... المال ! ... المال الذى تدور حوله كواكب الآمال السيارة ، والذى بدونه يقف دولاب كل شيء ... حتى دولاب الحب ، كما بدأت ديانا تعتقد !

لقد كانت تشهد كيف تتم الصفقات فى البيت الذى تعمل فيه ، وكيف كان أصحاب العمل يجنون أشهى الثمرات بقليل من الجهد ، حتى لا يكاد أحدهم يبذل في سبيل المئات التى يحصل عليها آخر كل سنة بعض ما يبذلها أبسط الموظفين فى الشركة .. من أجل ذلك دأبت ديانا تدخر مبالغ صغيرة من راتبها التافه ، حتى إذا اجتمع لديها قدر غير قليل أخبرت صديقتها تمار فعقدت أسبابها بأسباب خبير مالي من رجال الأعمال يدعى لويس كراوفورد ، له دراية واسعة بالصيرفة ، فنصح للفتاة بالمضاربة فى أحد البيوت المالية المربحة بنصف ما معها ، حتى إذا غنمت شيئاً عادت فضاربت بنصف ما تملك ... وهكذا ... واعتمدت ديانا على الله ، ثم على هذه الآمال البراقة التى تولدت فى نفسها مذ وضعت رجليها فى شركة النشر ... وضاربت كما أشار المالى لويس . ولشد ما شدهها أن ربحت مبلغاً لم تكن قط تحلم به منذ أن ضيعت مائة الجنيه التى تركتها لها عمتها ... ودق قلبها البشائر واتسعت أمامها آفاق الأماني ، واطمأنت أحلامها ببريق الذهب وقويت إرادتها وثبتت عزيمتها ، فضاربت بنصف ما اجتمع لها

من المال ، وقد صار شيئاً كثيراً فى حسبانها ... وربحت ... وفرحت فرحاً شديداً بهذا الحظ الواتي ... وتعلمت أشياء لم تكن تعرفها ... دروس الحياة وأفانين المال وعجائب العمل ... وضاربت مرة ثالثة ورابعة ... واجتمع فى قبضتها كنز من الذهب رَوَّأ لها الآمال ووسع في قلبها الأمانى ، حتى لباتت تفكر فى شراء بيت النشر الذى تعمل فيه !

أما كليف صولوى ... الفتى القسيم الوسيم ، ذو العينين الزرقاوين اللتين تختلط بزرقتهما خضرة الأطلنطيق الواسع الخضم فقد عمل هو الآخر وجد ، وسعى واجتهد ، واشترى مرجاً واسعاً من مروج كندا الشاسعة ، جلب له قطيعاً من الغنم الأمريكى ذى الصوف الغزير ، وجعل فى الله رجاءه أن يغل له المال الوفير ليبنى لحبيبته ديانا القصور والعلالى

***

وتصرمت سنون خمس ؛ وكتب صولوى إلى منية نفسه خطاباً يقول فى شطره : « لم أستطع بعد ياحبيبتى أن أشيد لك القصر الذى حلمنا به ، على رغم جهادى الطويل الشاق ... إن هو إلا مرج شاسع حلو العشب ، لا ينقصه إلا شخصك المعبود ليكون جنة ذات أعناب ! » وتناولت ديانا يراعها وجلست تكتب إلى حبيبها وقد اختلطت فى قلبها دنيا الأطماع بعالم الحب والأحلام : « حبيبى ! لشد ما أود أن أجتاز الأطلنطيق إليك الآن ... الآن ... فى هذه اللحظة ... لأشفى حاجات الفؤاد المعذب ... ولكن اصغ إلى ... ألا نستطيع أن نتلبّث هكذا ... كما نحن (!) حلقة أخرى من الزمان ! خمس سنوات أخرَ ياصولوى ، وأعود إليك امرأة ذات مال ياحبيبى ! ألا نحتاج مالاً كثيراً نعمل به فى مرجك الشاسع فيضمن لنا حياة واسعة مخفرجة ، نقضى نصفها كل عام فى انجلترا ونصفها الثانى فى أمريكا ؟ ياحبيبى ! ألا تكون حماقة منا أن نهجر الطريق الذى يؤدى إلى أبدع الأمانى بعد أن قطعنا نصفه ...؟ » وعند ما ذهبت لتلقى بالخطاب فى صندوق البريد ، ذرفت دموعاً غزيرة ، وتجاوب صدى وقع الخطاب فى الصندوق فى فراغ قلبها الذى ما يزال حب صولوى يملأه ...

وكتب إليها صاحبها يقول : « أختاه ! لقد علمتنا السنوات الخمس الماضية دروساً صارمة فى فن العيش ... علمتنا الأنفة والكبرياء ... إننا الآن فى مباراة عقيمة ... وكل منا يشتهى أن يكون السابق المجلى ... لقد نسيت أن أذكر لك فى خطابى السابق أن المرج الذى أنضِّره لك ليكون جنتك الفيحاء ، هو مرج من أبناء الطبيعة الذين لم تتلفهم المدنية ، ولم تفسد سليقتهم الحضارة ذات البهارج ... ولو أنك وافقت لصار بك الفردوس الموعود ... ألا ما أروع السكون هنا ؟ لا ضجيج كما هو عندكم فى لندن ... على كل سأبذل جهدى فأبنى القصر المشيد الذى يليق بأبهة مليكتى ... ! »

وجازفت ديانا فاشترت شركة النشر ؛ وقد أحدثت هذه الخطوة الجريئة انقلاباً قوياً فى حياتها ، فقد باتت لا تفكر إلا فى تنمية مواردها ، ومضاعفة النجاح الذي كان لهذه الشركة قبل أن تحمل الاسم الجيل الجديد : (هـ . بلَنْدِل) وقد اتسقت أعمال الشركة فعلا ، واضطرد تقدمها ، وبعث كل ذلك فى نفس ديانا كثيراً من الزهو وكثيراً من الخيلاء ، وكثيراً من هذا الشعور الذى هو نتيجة نجاح الطفرة وأثر من آثارها

***

لذلك كانت مفاجأة غريبة ألا تعلم تمار كورى ، أعز صديقات ديانا وأوفاهن ، إلا ذلك اليوم ، بزواج صديقتها من حبيبها كليف صولوى ، وهو موشك أن يصل من كندا ، بل هو واصل منها غداً بعد غياب عشر سنوات

ما كان أطولها ليلة مملوءة بالهواجس ، مزدحمة بالوساوس ، عاجّة بالأفكار ، هذه الليلة التى تقلبت فيها ديانا على فراش القلق وما كان إلا من ديباج ... وما كان أشقاها بهذا الشوك الذى يخز جسمها الغض ، وما لبست إلا شفا أنعم من خدود الورد ..

لقد باتت تفكر فى الـ (هـ . بلندل) وأولئك العمال الكثيرين الذين أصبحت هي ضرورة لهم ، وهؤلاء العملاء الذين يصبون أنهار الذهب فى خزائنها ... وتلك الأبهة وهذه العظمة ... والحياة العالية الأرستقراطية المحفوفة بالوقار ... ثم تنتقل من كل ذلك إلى هذا المنفى السحيق وراء الأطلنطيق فى ذاك المرج النائى المهجور ... ولكنها كذلك كانت تفكر فى حبيبها صولوى القسيم الوسيم فتذكر أحلام الصبا وأفاويق الشباب وموسيقى القبل ، وتذكر أيضاً أنه زوجها الذى ارتبطت به برباط السماء العلوى المقدس ... وتذكر فوق ذلك جميعاً أنها لا تستطيع الحياة بغير صولوى كما لا يستطيع صولوى الحياة بدونها ... وهنا تتحير وترتبك ، وتسبح فى بحر لجى تتقاذفها أمواجه فتعلو بها وتسفل وتنظر إلى رأسها فى المرآة فلشد ماتذهل وتراع ! لقد رأت

أولى شعراتها البيض نذيراً صارخاً من مارد الشيب الجبار يؤذن بخاتمة الثلاثين ... فتزعج وتنزعج ... وترسل فى المرآة آهة تغطيها بضبابة تستر ما افتر باسماً ساخراً من شيبها !.

ولبثت ترهف أذنيها لرنين جرس الباب ... فقد دنا موعد وصول صولوى ... ولم تشأ أن تنزع الشعرة البيضاء ، بل آثرت أن تتركها حيث هى ليشهد حبيبها حقيقة ما كان ... وهى بذلك قد سخرت من نذير الشيب الذى شاء أن يسخر هو منها ...

ورنَّ الجرس ... وأهرعت إلى الباب فتلقت حبيبها ملء ذراعيها ، وضمها هو إلى صدره الواسع الرحب بذراعين مفتولتين جبارتين ، لم تكونا له قبل أن يرتحل إلى كندا ، ثم انحنى على الفم الرقيق المرتجف يقبله ، وما كاد يفعل حتى قاومت ديانا ... وجاهدت حتى انفلتت من صولوى ، وفرت منه إلى ركن الردهة القصى ! ووقفت ثمة تحدجه ، وتقلب فيه عينيها الثاقبتين !

لقد كبر صولوى وتغيرت معالم شبابه ! ما هذا الصدر المعظم والعضل المكتنز والوجه ذو الأسارير ؟ وعيناه ؟ أين زرقة السماء التى كانت تختلط بخضرة الأطلنطيق ؟ وأين هذا الكوكب الدرى الذى كان يتألق فى أغوارهما فيرسل منهما بريقاً أى بريق ؟ وما هـذه الملابس الغليظة الخشنة والحقائب الثلاث البالية ؟ وما هذه السحب الكثيفة من دخان التبغ يرسلها صولوى فيتلف بها سماء الحب القديم الصافية ... لقد وقف كليف المسكين ، وقد أشعل لفافته ينفث الدخان من فمه ! فيتلف على ديانا أخيلتها ، ويمسخ أمانيها ...

ثم انفجرت ضاحكةً وانفجر ضاحكا

— أوه ! حبيبي ! هلم ! أدخل أولا ! لقد شبت !

— أجل ياحبيبتى ! هَيَّـا ... لقـد أحضرت كنوزى لأضعها بين يديك ... »

وانحنى صولوى لحمل الحقيبتين الكبيرتين ، وحملت ديانا الحقيبة الصغرى ، حتى إذا بلغت غرفتها الفخمة التى تدير منها أعمال شركتها ، لم يلبث كليف أن قال :

— حبيبتى ، إنى لا أطيق أن أنظر إلى هـذه الغرفة مالم تكونى أنتِ فيها ! »

وفهمت ديانا ما يقصد صولوى أن يقول ، فقالت له ...

— لا عليك ، فسنصمد سوية إلى الطابق العلوى بمحملنا ؛ إذ لا أحد معنا يحمل هذه الحقائب المثقلة عنا ...

ومضيا فى سبيلهما صعدا ، وظلت ديانا تنظر إلى بعلها الذى كان يبدو كأنما تقدمت به السن عشراً على عمره ، بينما كانت تبدو هى ، برغم الشعرة البيضاء ، كأنما تأخرت بها السن عشراً عن عمرها ... وظلت كذلك تفكر فيما قال عن غرفة إدارتها .. لقد أحست أن روحه نفرت من هذه الغرفة التى بعثت الكبرياء والعجب فى نفسها ، وهذا أقل ماتفعله فترة من الزمان قدرها عشر سنوات

— هذه غرفة الخادمة ياصولوى ... لقد ذهبت لتمضى الليلة عند أهلها

وفتحت باب الغرفة فدهش صولوى لما فيها من أثاث ورياش ... وعجب كيف يغطى سرير خادمة هذا اللحاف الإيطالى الوشى ، وكيف تزين أركان غرفتها هذه الأصص الفاخرة من السوسن المصنوع الجميل !

— أما تلك فغرفتى ... أنظر ... أتراها جميلة ؟

ونظر صولوى فذهل ... وسرعان ما ذكر أيامه القريبة بمرجه القفر فى فلوات كندا ، وكوخه الموحش الخشن ذا السرير الحديدى الصدئ ، والأرائك البالية ، التى ظل يتقلب فوقها طوال عشر سنوات ، لايفكر فى زخرفتها وتوشيتها ! ووضع يديه فى جيبيه خاشعاً وقال :

— أحسب أنه آن لدينا أن نستأجر خصاً فى ريف لندن فنعيش فيه شهراً قبل أن نحضر إلى هنا ... ألا توافقين ؟ »

وفهمت ما يريد أن يقول هذه المرة أيضاً فقالت : « ما أجمل أن يكون هذا ... ! »

وحان موعد العشاء ، فذهبت به إلى حجرة الطعام الفنية الحافلة ، حيث راعته المائدة النظيفة الناصعة ، التى صُفت فوقها الأطباق والأكواب وكؤوس الخمر ، وقوارير البلور ، وملاعق الفضة ذوات الطنين وذوات الرنين ... وأكلا ... ودار بينهما هذا الحديث :

— لن تمضى خمس سنوات يا ديانا حتى يكون لك القصر الذى حلمنا به فى مرجنا الواسع الجميل ... لقد اشتريت لك حصاناً ياله من حصان ... وأسميته هصار ... وستروقك منه قوائمه البيض التى تشبه جوربات الربيع ... إننى إذن أستطيع أن أعين وكيلا عنى فنقضى نصف كل سنة فى انجلترا كما أشرت ! »

وكانت صدمة لروح ديانا هذه السنوات الخمس ... هذه الحلقة

الأخرى من الزمان الطويل اللانهائي ... وله ؟ أليست هي الآن في رغد من العيش؟ ما الذي يقسرها على ذلك المنفى البعيد الموحش الخشن ؟ إذن ، فلتصارحه !

وروت ديانا قصتها ، وكادت تجاس كأفروديت الساحرة على عرش جمالها ، ثم طلبت إليه ، أو أومأت إليه ، أنه ينبغي أن يهجر مرجه ليعمل معها في ال (هـ . بلندل) : فقال صولوى واجماً : « سأنظر في هذا ... سأنظر ! » ثم عبس وبسر ، وغاب من عينيه هذا الملاك الكريم الحالم ، وأطل مكانه شيطان رجيم مارد ، ثم قال : « طبعاً ... إنك لن تتركي كل هذه الدنيا التي تلف حواليك لتذهبي معي إلى أمريكا فتبني لي عشاً هناك ... ! » وكانت روح الازدراء تتدفق في لهجته المرة ، فروعت ديانا وقالت تجيبه: «ماذا ياصولوى؟ إهدأ ماذا أصابك؟ إني لم أرد أن أسوءك ؟» لكن صولوى لم يهدأ ، بل زادت ثورته ، واشتدت حدته ، فقالت ديانا : « تالله يا صولوى إن كل هذه الدنيا التي تحيط بي لا تهمني ... أنظر ... أترى هذه الصورة الصينية الفاتنة ؟ إنها أثر قيم اشتريته بالمئات ... وصديقتي تام تقدر عمرها بالقرون ... أنظر ... » ثم قذفت بالصورة إلى الدفأ فذهبت بها ألسن النيران

— لا أدري والله ماذا تعنين بهذا ؟

— أعني أنني لا تهمني زخارف الحياة كما زعمت !

— إذن ماذا يهمك ؟

— يهمني هذا العمل العتيد الذي بذلت له جهدي وقواي .. أل (هـ . بلندل) ياصولوى : كيف أدعه يتلاشى ! ؟ »

— غير أنك كنت تعلمين أنني قادم إليك !

— أجل ، كنت أعلم هذا ، بيد أنك تقول إنك في حاجة إلى خمس سنوات أخر ، إلى حلقة ثالثة لتضمن لنا عيشاً هانئاً ، وكيف ؟ كم بقي من العمر لنقضي منه خمس سنوات تضيع عبثاً وعناء ؟ وهذا العمل العظيم الذي شدته ؟ كيف يضيع هو أيضاً عبثاً ؟ بل أقيم أنا هنا ، لأنني أصبحت ضرورة لحياة كثيرين ، أما هناك ، أما في المرج البعيد النائي ، فإنني أكون عبثاً عليك وعلى نفسي، وقد تقتلني الوحشة والركود ياصولوى ! ماذا أكون هنالك ؟ ماذا أعمل وقد تعودت العمل ؟ أأكون متعة فقط ؟

— لا.لا رأيت في حياتك مكروهاً كهذا المكروه ! وكيف تكونين متعة لراعي قطعان !

— خمس سنوات أخر ؟ ثم ماذا ؟ ما الحياة ياصولوى حتى تريدها أن تحتمل كل هذا ؟ لقد علمتنا الحياة فنونها القاسيات .. لقد علمتنا أن ننظر إليها بعين غير العين التي تعودناها في الصبا .. لقد كشفت لنا عن المعميات يا حبيبي ! لقد وضحت لنا حقائقها بقدر ما غاضت أحاسيسها وترهاتها ! »

— وما هي هذه الحقائق بالله عليك ! ؟

— هي الصراحة والجد ، والجهاد والعمل ، والتحصيل الذي يضمن للانسان حياة طيبة موفورة قليلة البؤوس ، حياة كريمة تتفق وكبرياء المرء ، يرضى بها عقله ، كما يستريح إليها جسمه ! »

— وإذا عرضت عليك هذه الحياة ، ولكن في مرج بكندا فلم ترفضين ؟

— لشد مايعزب عنك ما أريد ياصولوى ! إن المادة لا تهمني إلى هذا الحد ، ولكن يهمني ألا تتعذب روحي في هذا الركن من أركان الدنيا ... أنا لم أتعود هذا اللون من الحياة الذي تريده لي يا حبيبي ، وقد أحتمله لوقت قصير ، بيد أنه لا جرم أنني سأضيق به ، وعندها يقضى على كل شيء ... حتى على حبنا !

— لا تتحدثي عن حبنا أرجوك ! إنني أرى ما وراء الأكمة ! إني أرى ماذا تضمرين ! بل كوني صريحة ... ماذا يرضيك بعد هذا ... ؟

— ولم لا أبقى أنا حيث أنا الآن حتى تشيد قصرك وتعد العدة لحياتنا المنشودة ، وأستطيع بذلك أن أدير أعمالي الواسعة هنا ، ثم نلتقي بعد أية فترة من الزمان ... بعد عام أو عامين أو أكثر أو أقل ... ؟

— إذن تريدي أن تقصربني على خطتك دائماً ... توجهيني حيثما تريدين وكيفما تشائين ... لا ... لقد تكلمت عن الوحشة والوحدة فيما مضى وفيما خفت أن يأتي ... إذن ... أنا لا أربطك

— ثم ... ؟

— ثم لا شيء ... إنك إذا استعملت أحداً في عمل لك ولم يؤده لك حسب هويتك استغنيت عنه واستعملت غيره مكانه ، أليس كذلك ؟

وسرت قشعريرة من الذعر في جسم ديانا ، وبدا الارتباك في محياها ، فلم يعبأ صولوى وقال متماً حديثه : « أنت تفضلين عملك المالي على أن تكوني زوجة لرجل راع صاحب قطعان في

كندا ، أليس كذلك ؟ لا بأس ، فزوجة الراعى لن يكون لديها وقت طويل للأعمال المالية ...

— هل تريد أن تجعلنى أفهم أنك قد عولت على الاستعاضة بامرأة سواى ؟

— لقد أخلصت لك سنوات عشرا فى جميع أمرى ... ولشد ما آسف على هذا البله الذى حصل منى !

— صولوى !

— لا ... بل لا بد من إنقاذك من هذا الغل الذى وضعته بإخلاصى حول عنقك ... فلا تبتئسى ولا تحزنى ... لا بد أن يتبدل الأمر غير الأمر !

— بل أنت تحب امرأة أخرى !

— ولم لا ؟ ... على الأقل امرأة تعنى بشأنى ... لقد أخلصت لى ، وصدقتنى الحب .. فَرِّىْ لنفسك فقد صرحت لك !

— إنك تعنى الطلاق .. مضحك .. مضحك جداً ياصولوى !

— عرفت إذن ! لا خير ! فلقد أخطأنا حينما كنا صغيرين فلم لا نتدارك خطايانا وقد شبينا ... إسمعى يا ديانا ينبغى أن أذهب الآن ... سأنزل فى فندق ، وسأخبرك عن اسمه بعد ، وإذا احتجتك فسأدعوك فى التلفون ...

— صولوى ... صولوى ... !

* * *

وفى اليوم التالى لقيت صديقتها تِمار كورى ، فلما سألتها عما كان قالت لها ديانا : إنتهى كل شىء ، حيث كان ينبغى أن يبدأ كل شىء !

— ماذا تعنين ؟ أتقصدين أنك قذفت به من حالق بعد أن انتظرته كل هذه السنوات العشر ؟

— بل هو قد قذفنى من حالق يا أختاه ! لقد ظهر أننى كنت كَلاًّ عليه ... أليس هذا عجيباً ؟

— أكبر ظنى أن هذا كان نتيجةً لخطئك ؟ ماذا قلت له ؟

— قلت له إننى لا أستطيع أن أهجر عملى هنا فى ال (ه . بلندل) لأعيش فى قفار كندا ... ماذا كنت أقول له غير هذا ؟ أذلك يعنى أن حبى له قد نقص ؟

— فو ... !! يابلهاء ! بمثل هذه الحماقة يفلت من يديك كليف ؟ ياله من كنز ؟ ما الذى عوقك كل هذه السنين الطوال إن لم يكن هو حبك لصولوى ؟ وما الذى عوقه هو الآخر ؟ ما الذى جاء به من كندا ؟ لقد كان لك فى لويس كرا وفورد ، أوفى الشاب ستيفن ، خير زواج لو أردت ذلك منذ سنين ، فما الذى حال بينك وبينهما ؟ أليس هو حبك وجميل وفائك لصولوى ؟ والآن ؟ أتدعينه يفر منك هكذا ؟ يابلهاء ؟ ياحمقاء ؟

— يا أختاه فكرى قليلا فيما عسى أن تكون حياتى فى كندا بعد هذه السنين العشر الحافلة فى لندن الصاخبة ... سنوات عشر ياتام ! كلها رجهاد ... كلها قتال ... كلها حرب على الحياة !

— حرب ! إى والله ! الحرب التى تتعشقين ! أنت لاتهوين سواها ! الحرب التى كوّنت لك ال (ه . بلندل !) أليس كذلك ؟ وم كونت لك هذه الحرب أعمالك الباهرة ؟ من دريهمات أريتها لى يوم لقيتنى قبل أن تلتحق بعملك الذى در عليك أخلاف الرزق فأعماك !! إنك من أجل ال (ه . بلندل) ترفضين ماعرضه عليك كليف من السعادة فى أكناف مرجه بكندا ، وقد علمت أنه عمل أبهر من عملك أضعافاً مضاعفة ... ال (ه . بلندل !) هذه اللعبة ! بل هو الفتى الخبيث ستيفن الذى فتنك ، والذى تظنين أنه يضمن لك حياة الخلد فى باحات لندن ! ياديانا ! لقد عرفت ستيفن قبل أن يعرفك فاحذرى ... إنه يصبو إلى ثروتك ليعتصرها ثم يقذف بك ... ثم لا يكون ال (ه . بلندل) بنك انجلترا بعد ... ؟

— ليس ما تقولين حقاً يا تام ! ...

— شو ... دعينى أتم حديثى ... إنك لاهم لك إلا الحرب والقتال ... حتى أصدقاءك تحاربينهم ... حتى الرجل الذى أحبته وأحبك فأخلص لك الحب ... بل هناك حد إذا وصلت إليه الكبرياء انقلبت فصارت غفلة وحماقة ... ولقد وصلت إلى هذا الحد باذن الله !

— تعنين أنه ينبغى أن أذهب فأنتظر السعادة فى قفار كندا بعد خمس سنوات طوال يبنى لى بعدها صولوى بيتاً يضمنى ويؤوى أبنائى ؟ ...

— لابد أن يصل كليف إلى كل مطمحه يوماً ما ... ولكن لا تنسى خطاباته إليك ، فلقد شهدت أكثرها ... لا تنسى أنه دعاك إلى كندا قبل خمس سنوات فأبيت ، فوافقك ، فلم لا توافقين

اليوم ...؟ ثق أن كل حرب إلى نهاية.، ولقد حاربت بما فيه الكفاية ... واعلمى أن ما أنت مقبلة عليه لن يحيق شره إلا بك!

— ماذا تعنين ؟

— أعنى أن الكبرياء التى تحسبينها لك الآن ستكون له .. أعنى أنه هو الذى سيرفضك فيقف مكانك وتقفين مكانه، وتنعكس الآية، ويصعب عليك إصلاح الحال!

— وكيف وقد انتهى كل شىء يا تام ؟

— بل لم ينته كل شىء يا أختاه ... المرأة التى عركت الحياة لن تفقد وسيلة لبلوغ مآربها ... وكيمياء الحظ ماهرة صناع

***

وجلست ديانا فى غرفة إدارة ال (هـ . بلندل) مضطربة كاسفة البال ... وطفقت تذكر ما كان من حبها لصولوى، وإخلاصها له طيلة هذا الزمان، ثم ما كان من لقائه هذا اللقاء المضنى .. ثم هذا الحب الذى زعمه لها أنه يشغل قلبه .. ورددت حديث صديقتها وسبب نعمتها تمار كورى، وراحت تسائل نفسها: ما عقبى هذا الجهاد الطويل الذى كانت تتخذه سبباً فأصبحت تتخذه غرضا ..؟ وجعلت تتخيل هذه المرأة التى سحرت حبيبها فشغلته عنها؟ من هى؟ وما جمالها؟ وما مالها؟ وما جسمها ... وجعلت تقارن كل ذلك بنفسها ... ثم تبسمت حين ذكرت مرح صولوى والحصان الذى اشتراه لها وقوائمه البيض ...

واستيقظت فى باكورة الصباح فدقت التليفون إلى ال(هـ . بلندل)، وكلمها إحدى العاملات فأخبرتها أنها لن تنزل إلى الشركة اليوم ... وعجبت العاملة لذلك أيما عجب، إذ لم يحصل أن تأخرت المديرة خلال السنوات الخمس لأى سبب من الأسباب .. وانتظرت ديانا أن يكلمها صولوى فى التلفون كما وعد فلم يصنع، ولم يرسل أى خطاب منه يعلمها به ماذا انتهى إليه عزمه ...

ورن جرس التلفون فجأة فدق معه قلبها ...

— مِسْ بلندل ؟ هنا محل المصور لمشيربيرز ... لقد طلب إلينا شخص يدعى كليف صولوى أن نعطيه صورة لك عن إحدى السلبيات التى لك عندنا، فهل نفعل ؟

— لا بأس، ولكن هل أعطاكم عنوانه ؟

— كلا ... ولكنه حدد يوم الأربعاء لتسلم الصورة

— هل التى تكلمنى هي المس موريس ؟

— أجل يا مس بلندل، أنا هى ...

— أرجو إذا حضر المستر كليف لتسلم الصورة أن تدعينى فى التليفون وأن تمطليه لديك حتى أحضر لمقابلته، فهل تذكرين!؟

— بكل تأكيد يا مس!

وهكذا كان كليف صولوى أبعد فى لندن منه فى كندا، لولا هذه المفاجأة التليفونية ...

***

ورن جرس التليفون يوم الأربعاء، فدق قلب ديانا معه ... ولكن بشدة ...

— مس بلندل ... المستر كليف هنا ...

— أرجو أن تذكرى ما أوصيتك به ... سأصل حالاً

— أخشى ألا نستطيع حجزه طويلا ... لقد احتج بأن عنده ميعاداً قريبا ...

وأهرعت ديانا المسكينة إلى تحت ووجدت لحسن الحظ سيارة ركوب لدى الباب فطارت بها إلى الأستوديو ...

وا أسفاه ... لقد أخذ كليف الصورة ومضى لطيته ...

واسودت الدنيا فى عينى ديانا ... وعادت فى سيارتها تترنح فى شوارع لندن ذات الضجيج ... ولم تسمج فى عينها لندن كما سمجت ذلك اليوم، ولم تكره صخبها كما كرهته الساعة ...

ثم لمحت كليف واقفاً عند عمود مصباح وسط الشارع المزدحم فجأة فأشارت إلى السائق فوقف، ونزلت وهي لا تكاد تعى وذهبت من فورها إلى حبيبها، غير عابئة بآلاف السيارات التى تطوى الشارع ... والتى أشار إليها الشرطى ذو الذراع البيضاء فوقفت جميعا ...

— صولوى ... ما هذا الظرف الذى تحمله ؟

وانتزعت منه الظرف الكبير الذى كان يحمل دعوى طلاقها فمزقته قصاصات قصاصات، وبعثرت الوريقات فى الشارع ... والناس ينظرون ويبتسمون ...

— صولوى ... سأتبعك ... سأتبعك ... سأتبعك ولو إلى القطب الجنوبى ... سأعيش معك ... لن نفترق ... ستكون هذه السنوات الخمس حلقة تجاربنا الأخيرة!

دريني خشبة



مشروع جديد لدراسة القانون

وضع معالى وزير المعارف بصفته الرئيس الأعلى للجامعة المصرية مشروع إصلاح جديد لدراسة القانون فى كلية الحقوق ؛ وأهم عناصر المشروع الجديد هو تخفيض مدة الدراسة من أربعة أعوام إلى ثلاثة ، وإنشاء قسم جديد لإجازة الدكتوراه تجرى الدراسة فيه باللغة العربية ، وتكون مدتها سنتين . وقد كانت دراسة الحقوق حتى الآن تستغرق أربعة أعوام ؛ ولم يكن بالكلية من قبل قسم للدكتوراه ، فكان الطلبة المصريون الذين يرغبون فى الحصول على هذه الإجازة يقصدون بعد إتمام دراستهم بمصر إلى جامعات فرنسا ؛ وأنشئ أخيراً قسم للدكتوراه بكلية الحقوق ولكنه لم يحقق الغاية المرجوة من إنشائه لأن الدراسة فيه كانت بالفرنسية ، وكان الإقبال عليه لذلك ضعيفاً . وينص المشروع الجديد على حذف بعض مواد الدراسة التى أضحت غير ضرورية حتى تكون دراسة الأعوام الثلاثة شاملة لكل ما هو ضرورى فقط . والواقع أن توحيد القوانين الأهلية والمختلطة ، وتقدم القضاء المصرى بجهاته المختلفة فى ميدان التوحيد ، وتمصير الإدارة الداخلية مما يسهل تبسيط الدراسة القانونية التى كانت تحتوى من قبل على عناصر كثيرة من الدراسات القانونية والإدارية والمالية لم يبق لها اليوم ضرورة . ومن جهة أخرى فإن المشروع الجديد يقرب إلى طلبة الليسانس دراسة الدكتوراه ويشجعهم بذلك على التقدم فى دراسة العلوم القانونية العليا . وقد كان لهذا التعديل فى مناهج الدراسة وقع حسن لدى طلبة الحقوق

مجمع اللغة العربية الملكى

يفتتح مجمع اللغة العربية الملكى المصرى دورته الجديدة فى الثامن عشر من ديسمبر ، والمفهوم أن هذه الدورة ستكون خاتمة اجتماعات المجمع طبقاً للنظام الحالى . وفى خلال الدورة البرلمانية الحاضرة ينتظر أن يوضع نظام جديد للمجمع ينص على الزيادة فى أعضائه وعلى تنظيم اختصاصاته وتوسيعها ، إذ لا يخفى أن المجمع الحالى قد أنشئ فى ظروف خاصة ، وقصد به إلى تحقيق غاية ضيقة ، وأن عناصر مصرية تمتاز بمكانتها العلمية الرفيعة قد أبعدت عنه لاعتبارات خاصة ؛ والمفهوم أن هذه العناصر ستتبوأ مكانتها الحق فى المجمع الجديد ؛ وسيكون المجمع الجديد أداة لغوية علمية صالحة للعمل المثمر لخير اللغة العربية وتقديمها وتدعيم نهضتها ، وسيجرى على خطته من الاستعانة بالعناصر الممتازة فى هذا الميدان من أبناء البلاد العربية الأخرى وكذلك من العلماء المستشرقين ، على أن تتخذ هذه المعاونة صورة المراسلة العلمية والمؤتمرات العامة كما هو متبع فى الهيئات العلمية المماثلة فى أوربا

مؤتمر الرمد الدولى

اختتم مؤتمر الرمد الدولى الذى عقد بمدينة القاهرة منذ ٨ ديسمبر الجارى أعماله فى الرابع عشر منه . وهذا المؤتمر هو الخامس عشر من نوعه ؛ وقد وجهت مصر الدعوة إلى عقده بها منذ عام ، واشتركت فى إجابة الدعوة معظم الدول الكبرى وفى مقدمتها انكلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وأمريكا . وشهد المؤتمر وفود كبيرة من أعلام الطب الرمدى في أنحاء العالم . وقد كان لعقد هذا المؤتمر فى القاهرة أهمية خاصة ، لأن مصر تعتبر موطن الأمراض الرمدية ؛ وقد تقدمت بها مباحث الرمد تقدماً عظيماً ، ولأطبائها الرمديين شهرة عالية . وقد نوه أعلام الأطباء

الأجانب فى المؤتمر بما كان للعرب من فضل عظيم فى هذا الميدان . ومما هو جدير بالذكر أن هذا هو أول مؤتمر رسمى يفتتحه صاحب الجلالة الملك فاروق الأول بعد توليه الملك ، وقد آثر حفظه الله أن يفتتحه باللغة العربية بعد أن كانت المؤتمرات المماثلة تفتتح دائماً باللغة الفرنسية ، وبذلك وضع جلالته سنة جديدة نبيلة

معهد فرنسي جديد للدراسات الاجتماعية

قررت مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة أن تفتتح قسما جديداً يسمى معهد الدراسات الاجتماعية المصرية ؛ وقد بدأت الدراسة بالفعل فى هذا المعهد الجديد منذ ١٦ الجارى ؛ وصرح مديره الأستاذ بوابيه أن الدراسة فيه ستجرى على مثل الدراسة فى مدرسة العلوم السياسية بباريس ، وأنها ترمى إلى توسيع الثقافة القانونية والسياسية والاقتصادية ، وإعداد الطلاب للالتحاق بالأعمال فى الشركات الأجنبية

ونستطيع أن نذكر بهذه المناسبة أن فرنسا تبدى فى العهد الأخير عناية خاصة نحو تدعيم نفوذها الثقافى فى مصر ؛ فمنذ أسابيع قلائل افتتحت فى هليوبوليس مدرسة فرنسية جديدة (ليسيه) ، ويفد إلى مصر فى كل شتاء عدة من الأساتذة والكتاب الفرنسيين يلقون المحاضرات المختلفة وينوهون دائماً بما لفرنسا من مكانة ثقافية قديمة فى مصر . وفرنسا تشعر أن صرح ثقافتها القديمة فى مصر قد وهنت أركانه منذ بعيد ولم يبق منه إلا أطلال الجيل الماضى . وقــد جاء اتفاق مونترو بالغاء الامتيازات الأجنبية ضربة جديدة لهذا النفوذ الثقافى ، ولم يبق فى وسع مدرسة الحقوق الفرنسية أن تمضى فى مهمتها ؛ فافتتاح معهد الدراسات الاجتماعية هو محاولة جديدة للتمشى مع العهد الجديد ، واستدراك بعض ما طرأ على الثقافة الفرنسية فى مصر من عوامل الوهن والضعف

دور مصر فى بناء الحضارة

ألقى العلامة الدكتور هارتمان محاضرة فى بهو قصر ميرابل بمدينة سالزبورج تحدث فيها عن « الدور الذى أدته مصر فى تاريخ الحضارة » فذكر أن مصر القديمة بلد العجائب من وجوه كثيرة ، فهي مهاد الأديان والعبادات الأولى ، ومهد الفنون والبناء ؛ وليس من شك فى أن الحضارة المصرية القديمة كان لها أثر عظيم فى بناء الحضارة الأوربية ما يزال ماثلا إلى عصرنا . وقد كان اليونانيون القدماء الذين يعتبرون من آباء الحضارة الأوربية ، يعتبرون المصريين أساتذتهم فى الحكمة المقدسة وفى كل ضروب المعارف والحضارة ؛ وكانت مصر أول مهد فى التاريخ لفنون النحت والتصوير ، وقد وضع المصريون القدماء المباحث الأولى لمسائل العالم الخالدة ، وهى المولد والحياة والموت ، ودعوا فكرة الخلود والبعث ومثلوهما فى النقوش والقربان ، وتحتفظ مصر الفرعونية بأقدم آثار فى هذا الميدان . وليس من ريب فى أن تقاليد الموت الفرعونية ما زالت تمثل فى كثير من تقاليدنا ، وقد أوضح الدكتور هارتمان محاضرته بعدد من الصور البديعة

وهذه المحاضرة التى ألقاها الدكتور هارتمان أخيراً هي واحدة من سلسلة من المحاضرات الأثرية والتاريخية التى يلقيها أثناء موسم الشتاء عن حضارة مصر الفرعونية وتاريخها

الصحافة والترجمة بكلية الآداب

تفتتح كلية الآداب بالجامعة المصرية قريباً قسما جديداً للصحافة والترجمة والتحرير يلتحق به الحائزون لأجازة الليسانس فى الآداب ، وسيسد هذا القسم الجديد فراغاً كانت الحاجة تدعو إلى سده ؛ وسيكون مهداً حسناً لتخريج شباب يجيدون الترجمة والتحرير والأعمال الصحفية الفنية

المعجزة ، الشعبذة

فى (الرسالة) الغراء — الجزء ٢٣٢ — فى (مجادلة فى معجزات الإسلام) للسيد خليل جمعة الطوال — هذا القول : « الأمر واضح فلا نبوة بغير معجزة — وإلا لادعى النبوة كل مشعوذ » والمعجزة فى (الأديان) هى مضادّة السنن الكونية ، والسير الطبيعية . والعلماء الغربيون المتحررون يكفرون بالمعجزات ويرونها شعبذات ، ويقولون : إن الأنبياء لم يأتوا بها ، وإنما نسبها أتباع تلك الشرائع بعــد حين أو قرون إلى شارعيها . ولهم فى موسى والمسيح (صلوات الله عليهما) ووجودهما أقوال كثيرة .

ففقدان (المعجزة) عندهم فى دين هو من مزايا ذلك الدين . وهم يسخرون من كل نحلة تدعيها ، ويعيبون كل طائفة تؤمن بها .

ومن أئمة هؤلاء القوم فى بلاد الغرب (م . جيو) صاحب كتاب (اللادينية فى المستقبل) وهو كتاب مهم احتوت عليه خزانة (فريدريك نتشه) وقد قرأه هذا المفكر الجرمانى ، وله فى ذلك الكتاب تعاليق ذات بال . وهذا ما أورده (م . جيو) فى مصنفه فى مبحث فيه أرويه بلغته ، قال :

« Le mahométisme seul s'est introduit dans le monde sans s'appuyer sur aucun témoignage visible et grossier, en éclatant non aux yeux, mais aux esprits, camme dirait Pascal; sous ce rapport il avait peut-être à son origine une élévatian intellectuelle plus grande que le judaïsme et le christianisme »

فلو تعلّم صاحب (الخليل) وعقل كلام هذا العالم الفرنسى لاستحى من أن يقول فى (المعجزة) ما قاله إن كان من أهل الحياء

وبعد فليعلم من يجهل أن معجزات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التى كتبتها مؤلفات المسلمين تزيد على معجزات النبيين كلهم أجمعين قاطبة

(قارئ)

الى الاستاذ عبد الله عنان

اطلعت على الكلمة التى استنكرت بها فرية صاحب «المكشوف» فى بيروت بنشره مقالات لك قديماً وادعائه أنك أرسلت إليه عتاباً لطيفاً مع المقال . وقد عجبت قبل ذلك وداخلنى الشك فى العتاب والمقال ، وقلت فى نفسى كيف أقدم الأستاذ عنان على هذا التملق والاستخذاء لجريدة عرفت مراميها التجارية فى بث الفتنة وإيقاع العداوة بين الأدباء فضلا عن إمعانها فى التزوير والطعن على قادة الأدب العربى فى القطر المصرى الشقيق.

ولما رأيت الأستاذ أبا شبكة يعلق على مقالك فى صحيفة «الجمهور» أبديت استغرابى بمقال نشرته «صوت الأحرار» ومما قلت فيه :

«ومن الغريب أن يستخذى الأستاذ عنان فيبعث للمكشوف بعتاب لطيف ومقال عتيق عرض فيه لوجوه الضعف فى الحركة الأدبية المصرية ، ترضية لجريدة عرفت غايتها فى شن الغارة على أدب إخواننا المصريين ، وكان ينبغى أن يربأ بقلمه عن الخوض فى هذا المجال حرصاً على كرامته »

أما وقد أعلنت مرتين استنكارك لتزوير صاحب «المكشوف» وإقامتك الدعوى الجزائية عليه — وأنت المحامى — فإنى أعتذر إليك عما كتبت بنية خالصة . ولا ريب أن الصحافة اللبنانية تستنكر مثلك هذا التحرش ، فتنصح صاحب «المكشوف» بالإقلاع عن خطته الشائنة ، أو تدعو كل عربى لمقاطعة صحيفته القاذفة ، إن الباطل كان زهوقا

(دمشق) وداد سكاكينى محاسنى

الى الأستاذ على الطنطاوى

تعقيب على بعض ما جاء فى رسالته إلى أخيه باريس (١)

عفا الله عنك أيها الأخ الكريم

أيجدر بك — وأنت المنتصر للشرق الغيور على الاسلام — أن تجعل من بلد شرقى مسلم مضرباً لأمثال السوء ؟ لئن كان عيب السودان لونهم الأسمر أو بشرتهم القاتمة ، فإن خلف تلك السمرة وذلك القتام قلوباً عامرة بالإيمان ، ونفوساً أبيّة تعيف عن مواطن المسكنة وترباً عن الهوان ، وعقولاً على نزر ما تلقى من الثقافة — بحكم مركز السودان السياسى — جبارة دائبة التفكير فيما يعلى شأن بلادها ، لا تخلد إلى الراحة ولا تستمرئ الخمول

سل مصر الشقيقة تنبئك عنا وتصل أسباب التعارف بينك وبين أخيك النائى ، فقد حان الوقت الذى يجب أن يعرف فيه بعضنا بعضاً حتى نعمل يداً واحدة فننهض برسالة الشرق والإسلام . وإن تذرع الأخ بأنه إلى غير سوداننا قصد فلا ينس أن كلمة «السودان» شاملة وأنه لا بد أن يلحقنا كِفْلٌ من المسبة

عفا الله عنك أيها الأخ الكريم ! على أنى لا زلت معجباً بما تكتب ، فخوراً بغيرتك على الاسلام وانتصارك للشرق . وأصدقك القول بأنى على رغم ما اضطرنى إلى إثبات هذه الكلمة لم أقف قراءتى دون خاتمة الرسالة

(أم درمان — سودان) «سودانى»

(الرسالة) جاءنا من إخواننا السودانيين رسائل كثيرة فى هذا المعنى فاكتفينا بهذه الرسالة لاعتدالها وإيجازها

(١) العدد ٢٣١ من الرسالة

فى المسرح الروسى الحديث

يقاسى المسرح الروسى الحديث كثيراً من العنت بسبب الدكتاتورية الفاسدة التى يفرضها الطاغية ستالين ... وقد كان المظنون أن البلشفية الروسية هى أشهى ثمار الأدب الروسى الذى تقدمها ومهد لها، ووضع لها فى قلوب الفقراء أسساً من الثورة والتبرم والاشمئزاز من الوسائل القيصرية العاتية فى حكم الشعب، وهو ما نلحظه واضحاً تمام الوضوح فى قصص دستو تفسكى وتولستوى وترجنيف وتشيخوف ومن إليهم من أعلام الكتاب الروسيين ... وكان المظنون أيضاً أن فقيد روسيا العظيم جوركى سيقف حائلا بين الأدب وبين طغيان الحكومة التى حاولت إفساده بإخضاعه لنظمها واستخدامه للتبشير بين الجماهير، فلما شجر الخلاف بينه وبين رجال الثورة فى إبانها استبشر المغرمون بالأدب الروسى خيراً، ولكنهم سرعان ما فوجئوا بعودة جوركى إلى روسيا وصلحه مع طغاتها، وصيرورته مبشراً بتعاليمهم، بل من أشد المتحمسين لهم، حتى خاب الظن، ووثق الجميع أن مجد الأدب الروسي قد انهار، وأنه ركد ركوداً لا أمل فى انتعاشه منه قط ... ولولا أن كان جوركى أديباً بطبعه، ولولا أن حياته امتدت فى ظل البلشفية، لكانت نكبة الأدب الروسى بتعاليمها نكبة حاسمة، إلا أن هذا الرجل الذى لم تلهه حياة الفراغ والدعة قد ستر هذا النقص فيما جناه هذا النوع الفوضوى من الحكم على الأدب فى روسيا، فلما مات خبا آخر قبس من هذه النار المقدسة التى ظلت أعواماً تؤجج قلوب الروسيين ومشاعرهم ... وقد هال موت جوركى رجال الحكم فى روسيا وعلى رأسهم ستالين، وهبوا ينصرون الأدب فيما يخيل لهم عن طريق المسرح، وهم يبذلون جهود الجبابرة لإقالة عثرته، بيد أنهم لمبالغتهم فى جعل المسرح للبلشفية، لا البلشفية للمسرح، ومبالغتهم أيضاً فى بلشفة كل ما يتعلق بالتمثيل قد باءوا بالفشل من حيث كانوا ينشدون النجاح ... وهم يعترفون بهذا، ولذا دأبوا على إبراز درامات جوركى على أكثر مسارحهم، حتى أن روايته الأخيرة (بيجور بوليشوق) تمثل فى الليلة الواحدة فى أكثر من ستة مسارح من مسارح العاصمة ... وتبدو الروح البلشفية المفتعلة فى درامات أكثر الكتاب، إما لاضطرارهم إلى إرضاء الحكومة وتملقها، وإما لعجزهم عن وصل ما انقطع من جهود أسلافهم العظام ... فهذه درامة (الأرستقراطيين) للكاتب نيقولا بوجودين تكاد تكون حرباً على الأرستقراطية التي يجهلها شباب روسيا تمام الجهل ... وكذلك رواية إيڤان كوشرجا (الساعاتى والدجاجة) إن هى إلا درامة فارغة برغم الطبل المدوى الذى دقه النقاد الروسيون لها، وبرغم الجائزة السنية التى نالها صاحبها بسببها. على أن بعض الكتاب الذين احتفظوا باستقلالهم قد استطاعوا أن يكتبوا قطعاً فنية رائعة وإن تكن تحمل الطابع البلشفى أحياناً ... ومن هؤلاء الكاتب ڤسوڤولود ڤشنفسكى مؤلف (المأساة التى تبشر بالخير) والتى اضطر أن يقحم عليها روحاً من نوع الميلودرام إرضاء للسادة الحاكمين

ومن أعجب العجب خمول كتاب نابهين مثل كرشون وأفينوجنيف ... ويبدو أن سبب خمولهم عائد إلى عدم استطاعتهم هضم هذه الدكتاتورية التى يفرضها ستالين وأذنابه على روسيا، وهى الدكتاتورية التى حاربوها من قبل فى شخص القيصر نفسه

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

5 me Année, No. 234

Lundi - 27 - 12 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

السنة الخامسة « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٤ شوال سنة ١٣٥٦ — ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٧ » العـــدد ٢٣٤

الفهـرس

رجل سعيـــــد

وعدتك أن أقص عليك حديث الرجل السعيد بخلقه ودينه عسى أن تجد فيـه ما يبرد غيظك ويرد حلمك ويقر بالك . وهأنذا اليوم أسوق إليك هذا الحديث على سرده :

دخل علىّ هذا الرجل وأنا مكب على عمل دقيق حافز ، فلم يسعنى حين رأيت ما عليه من سَمْت الوقار وسيما الخير إلا أن أدع ما فى يدى وأفرغ له

— نعم يا سيدى

— أنا رجل من أهل ... قرأت ما كتب فى الرسالة عن الأخلاق ونكولها أمام الغرائز الوصولية فى الإنسان ، فساءنى وأيم الله أن تشتبه المعالم حتى يضل الهادى ، وتعترك الظنون حتى يشك المؤمن . وليس لى قلم أضعه بين هذه الأقلام فيـدلها على موضع الحق أو يعينها على مقطع الحكم ، فآثرت أن أشخص إليك لأكون أمامك مقالاً حياً يقرر ، ودليلاً ناطقاً يؤيد

وفى الحق أن الرجل كان فى بِزّته العربية المهندمة ، ولهجته الطبيعية المتزنة ، كأنما ينطق عن وحى الفضيلة العليا . فقلت له : أتظن أن الفاضل ينجح بمحض فضله فى هذا العصر الآلى الأصم ؟

فقال : لا أظن ، وإنما أعتقد ؛ ولا أنكر مع هذا الاعتقاد أن الفضيلة وعرة الطريق ، وأن الخير صعب المرتقى . وفى قول الرسول الكريم : « حفت الجنة بالمكاره » ، و « القابض على دينه

كالقابض على الجمر » ما يصدق ذلك . ولكن الفضائل تعليم وتعويد ورياضة : فإذا أوف(١) غرسها فى النشء ، وضعف أثرها فى المجتمع ، دل ذلك على فشل التربيــة لا على فشل الفضيلة .

أنا رجل واسع الثراء سابغ النعمة ؛ وقد جمعت مالى الوفر من ذلك الطريق السوى الذى ألزمنى إياه أبى منـذ الصغر ؛ فليس فى نصابه قرش زائف ولا متر مغتصب . وورثت عن أبى الدين الصحيح على أنه دستور الدنيا ، والخلق الصريح على أنه جوهر الدين : ثم زاولت التجارة بالصدق والصبر فاستغنيت ، واقتنيت العمائر والضياع فأثريت ، وأديت الصلاة فوصلت ما بينى و بين الله ، وآتيت الزكاة فأصلحت ما بينى و بين الناس . ثم أحصنت نفسى بالزواج الباكر فوُهبتُ البنين ، وعصمت شهوتى من المتَع الحرام فرزقتُ العافية ، وطهرت قلبى من الطمع الحاسد والخصـام الحاقد فأوتيتُ السكينة . ثم جهلت البنك فجهلت الربا والدَّين ، وأنكرت المحكمة فأنكرت العـداوة والظلم ، ووضعت فضل مالى فى أيدى ذوى الخلق من التجار يحفظونه لي ويستثمرونه لهم ، وجعلت أرضى فى ذوى الدين من الزراع يريعونها علي ويستغلونها عليهم ، ومسست بالمواساة والرحمة قلوب البائسين حولي فسللت منها الضغينة ؛ ثم كان لي فى كل مَبَرَّة سهم ، وفى كل مستشفى سرير ، وفى كل مشروع وطنى يد . فأنا أمشى فى الناس ملحوظ الشهادة محفوظ الغيب ، لا تمتد يد إلى مالى لأنه مبذول للسائل والمحروم ، ولا ينبسط لسان فى عرضى لأن جاهى موقوف على العاطل والمظلوم ، ولا يأتمر أحد بحياتى لأن وجودى أمان للشقى من البؤس والجريمة

أما سعادتى فى نفسى وولدى فهى أعظم وأتم من سعادتى فى عملى ومالى : أجدنى كنف الرجاء لـكثير من الأسر الفقيرة ، ومصدر العزاء لطائفة من القلوب الـكسيرة ؛ وأرى فى كل نظرة وفى كل بسمة وفى كل كلة معانى لا تتناهى من العرفان والحنان والشكر ، فتعظم سعادتى فى نفسى ، وتجمل دنياى فى عينى ، ويغمرنى شعور من عزة المؤمن وزهو الخاشع ، لأن حياتى لها هذا الخطر في حياة بعض الناس . ثم أنظر إلى بَنِيَّ الثمانية فأرى فى وجوههم صورتى ، وفى صدورهم محبتى ، وفى شعورهم عاطفتى ، وفى ميولهم رضاى ، وفى آمالهم مناى ، فأقبل يدي ظاهراً وباطناً وأقول لنفسى : احمدي الله واشكريه فإن عليًّا لن يموت ، وإن ثراءه لن يبيد ، وإن بناءه لن يتقوض !

ذلك كله يا سيدى بفضل الخلق . فإذا كان قد تهيأ لمثلى على جهله بقواعد المدنية وضروريات العلوم أن يجمع بمعونة الله وحده هذه الثروة الضخمة وليس له رأس مال من إرث ولا فيض رزق من حكومة ، وأن ينال هذا الجاه العريض وليس له نسب عريق فى أسرة ولا سبب وثيق إلى سلطان ، وأن يخلق من حوله هذا النعيم المقيم فيغرق فيه أهله وعشيرته وبيئته ، وأن يرفع بنـاء الأخلاق الفاضلة فى بنيه بالتربية وفى أهله بالقدوة وفي مواطنيه بالتقليد ، فكيف لا يستطيع معلمو المدرسة ووعاظ المسجد ومشرعو البرلمان أن يخلقوا فى كل مكان هذه البيئة وتلك الجنة فيصلح المجتمع ويسعد العالم؟

فقلت له وقد أعجبنى عقله وأمتعني حديثه : يا سيدى ، إن من سعادتك وسعادة الناس بك أنك صاحب عمل لا صاحب علم ، ورجل عزيمة لا رجل رأي . ولو كنت من كهنة العلم لصعـدت إلى قدس الأقداس وظللت تقرأ الفلسفة والأخلاق لرياضة العقل أو للذة المعرفة أو لشهوة الجدل ، ثم رميت الناس من عليا سمائك بالآراء المتعارضة والأحكام المتناقضة لتصطرع فى المطابع حيناً ثم تموت فى الـكتب

لايزال المربون يا سـيدى يجادلون في أغراض التربية ويجربون نظرياتها المختلفة فى حقولهم الخاصــة . فليت شعرى وشعرك أيُتاح لهؤلاء فى دهر من الدهور أن يقبضوا على أعنة الأمم ويتولوا القيادة في ركب الحياة !؟ ادع الله للناس أن يلهمهم من الحق ما ألهمك ، وأن يعلمهم من قواعد الخير ما علمك !

***

قال صاحبى الثائر وقد شبا وجهـه بشيء من الإيمـان والاطمئنان : وهل تستطيع أن تعدّ كثيراً من الناس على غرار هذا الرجل ؟ فقلت له : يا صاحبى ! ليست المسألة مسألة إحصاء وعدّ ، إنمـا هى مسألة إمكان وواقع . ومتى ثبت أن الأخلاق الفاضلة استطاعت أن تصنع من هذا الرجل هذا المثال ، فلِمَ لا تستطيع أن تصنع على غراره ملايين من الرجال ؟

احمد حسن الزيات

(١) أوف الزرع أصابته آفة

هل الحرب ضرورة؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

— ٢ —

ظهور المذهب فى الأمة شئ، وشيوع العمل بذلك المذهب شئ آخر

ولكن ظهور المذاهب مع هذا لا يخلو من دلالة قوية على طبيعة الأمة ومعدن أخلاقها وطرائق معيشتها، ولو لم يعمل به الناس أو يتقيدوا بأحكامه فى الحياة اليومية

فالجنود والفلاسفة ورجال المال وأصحاب التجارات الواسعة موجودون فى بلاد الحضارة كافة، وربما تساوت « النسبة » بينهم فى العدد والقوة والجاه، ولكن مما لا شك فيه أن البلد الذى « مثله الأعلى » رجل الحرب غير البلد الذى يتخذ له « مثلاً أعلى » من الرجل الغنى أو من الرجل الحكيم أو من الرجل الزاهد. فإذا ظهر فى الصين حكيم يوصى الناس بالوداعة وحب السلم وكراهة القتال فليس بالمعقول ولا بالميسور أن يشيع العمل بوصاته حتى يمتنع ظهور الجند ووقوع القتال بين تلاميذه ومريديه؛ ولكن ليس بالمعقول كذلك أن نسوى بين هذا البلد وغيره من البلدان التى يتمنى حكماؤها شيوع الحرب أو شيوع الثروة أو شيوع الزهد والرهبانية، إذ يكفى أن يتمنى الإنسان شيئاً ليكون مختلفاً فى تفكيره وشعوره ممن لا يتمنونه وقد يتمنون نقيضه، ولا يسوى بينهم بعد ذلك أنهم يشتركون فى عمل واحد يعمله بعضهم مضطراً مسوقاً إليه، ويعمله بعضهم مختاراً شديد الرغبة فيه

لقد أوصى حكماء الصين بالسلام وبغضوا الناس فى الحرب وفيمن يجعلها صناعته وهمه وهجيراه، فليس معنى هذا أن حرباً لم تقع فى الصين وأن حكيماً لم يظهر بين أهلها يحثهم على الكفاح كلما دعت إليه حاجة أو قضت به مصلحة سياسية؛ فقد ظهر من الصينيين فلاسفة بالغوا فى تمجيد الحرب كما يبالغ فيها اليوم فلاسفة المذاهب « الفاشية » أو مذاهب العسكريين. وقال أحدهم وهو « كنج سوفيانج » : « إن الأمة التى تجتمع فيها القوة حقيقة أن ترهب وتصبح عظيمة البأس والمهابة؛ أما الأمة التى تلهو بالكلام فهى وشيكة التمزيق. ولو أن ألفاً اشتغلوا بالزرع والحرب وواحداً بينهم اشتغل بنظم القصيد ورواية التاريخ وتنميق الأحاديث لأفسد عليهم أعمالهم أجمعين ... » إلى أمثال هذا الكلام الذى يخيل إلى قارئه أنه من عربدة المعسكرات لا من نصائح الوعاظ والحكماء

ظهر فى الصين من قال بهذا وظهر فيها من قال بغيره وهو الفريق الغالب والقدوة العامة المرموقة من الأكثرين، وربما كان ظهور الحكماء المسالمين وانتشار حكمتهم هو الباعث إلى ظهور المخالفين لهم وإغراقهم فى دعوة الحرب وآداب القتال، كما يصيح الإنسان ويبالغ فى الصياح كلما أحس أنه ضائع الصوت والصدى محتاج إلى جذب الأسماع ولفت الأنظار؛ وإنما عبرة هذا جميعه أن النيات لها دلالة قوية وليست الدلالة كلها للأعمال والوقائع؛ فإذا رأينا أناساً ينوون السلم ويحاربون فليس بالصحيح أن نسوى بينهم وبين من ينوون الحرب ويحاربون: هم مختلفون وإن تشابهوا فى عمل واحد، ونحن رابحون إذا أشعنا دعوة السلم وإن لم يتبعها على الأثر شيوع السلم وبطلان القتال

ومن الأشياء التى لها دلالتها فى العصر الحديث كثرة الناعين على الحروب بين الأمم الحرة، وكثرة المنكرين لمظاهر الزهو التى كانت تحيط فيما مضى برجال الفتوح والغزوات، فسيكون لذلك كله أثره كما كانت له دلالته وكانت له دواعيه. وحسبنا أن العمل فى هذه الوجهة ليس بالعبث ولا بالعقيم، بل حسبنا أنه واجب محمود، بل حسبنا أنه ليس بذميم، ليكون ذلك من أسباب المضى فيه والإقبال عليه

يقال إن الضراوة ليست من طبيعة الوحش فى حالة التأبد والسهولة. ويقول هدسون: إن البوما — وهو من أشد السباع الأمريكية — لا يهجم على أحد إلا وهو مدافع عن حياته. ويقول كومستوك: إن الثعابين والدببة وغيرها من السباع لا تتعلم الضراوة إلا حين يظهر بينها الإنسان ويوغل بينها فى الصيد والاعتداء والتحرش والإيذاء. وحسبنا من ذلك أن الضراوة ليست أصلاً فى الخليقة حتى بين السباع والعجماوات، وأنها ضرورة وليست بشهوة مطلوبة، وأنها تحول إذا امتنعت الضرورة وتغيرت الأسباب. فلا نزعم كما يزعم الفاشيون أن تربية الانسان على الحرب فضيلة متى ثبت أن الحرب رذيلة ليس عنها محيد: ذلك

خطأ لا ريب فيه ، لأنه لم يثبت أولاً أن الحرب طبيعة فى الأحياء ، ولن يثبت بعد ذلك أن الرذيلة تصبح فضيلة مرغوباً فيها متى علمنا أنها عسيرة الاجتناب

ولست أكبر من شأن الدلالة التى أشار إليها الكاتب « الدوس هكسلى » صاحب كتاب الغايات والوسائل حين قال : إن الإنسان فى دور الفطرة لم يكن يعرف الحرب على نظامها المعروف بين أصحاب الحضارة ، فإن الرجل الذى يحارب ليس بأبشع ولا أقسى من الرجل الذى يقتل بعد تدبير وإصرار ؛ ولعله أقل بشاعة وقسوة لأنه يقتل وهو مهتاج مستثار بما يثير الجنود فى حومة الصراع . إلا أننى أومن بما تواترت به الآراء عن قلة الضراوة بين الأحياء التى تعيش على الفطرة فى حالة التبدى والسهولة ، فإن ذلك معناه أن الحرب آفة قابلة للعلاج فى زمن من الأزمان ، وأنها متى بطلت أسبابها الأولى ووضحت أضرارها الجسام وكثر المصابون بتلك الأضرار خفيت من عالم الإنسان المتحضر كما خفيت من عالم الإنسان الفطرى أو من عالم الحيوان

وربما لاح عجيباً للمصريين أن يعلموا أنهم أول أمة فى العالم قد اخترعت « فن الحرب » على النظام المعروف ؛ فقبل الحضارة المصرية لم تكن حرب منظمة ولا تعبئة مدروسة ولا حركات يتعلمها القادة كما يتعلم صناعته كل ذى صناعة محفوظة الأصول والقواعد ؛ وإنما كانت هناك مشاجرات يدخل فيها استخدام السلاح ولا تعتمد فى فنون التعبئة على نظام سابق . فما أعجب أن يكون المصريون الوادعون هم أسبق الأمم إلى اختراع فن القتال ! وما أعظم ما فى ذلك من دواعى التفاؤل عند أناس ودواعى التشاؤم عند آخرين ! فأما التفاؤل فذاك لأن هذه العجيبة دليل على أن الحرب ضرورة معيشة فى بعض حالات الحضارة الأولى ، وليست بشهوة مقرونة بالوحشية التى تناقض الوداعة والمسالمة ؛ وأما التشاؤم فذاك أن يقول القائل : هذا شأن الوادعين فكيف بالضراة المقتحمين ؟ !

ومع هذا نقول ويقول هكسلى : إن علاج الحرب نفسى وليس باقتصادى على زعم الاشتراكيين أصحاب التفسير المادى للتاريخ ، وإن المعيشة تابعة لحالة النفس قبل أن تكون الحالة النفسية تابعة للمعيشة . فهذب الرجل وأصلح من ذوقه وتفكيره ينتقل من منزل إلى منزل ومن حى إلى حى ومن كساد إلى كساد ومن طعام إلى طعام ، وهكذا يكون العلاج لآفات الأمم فى هذا الزمان

وقد وعدنا فى المقال السابق أن نلم بأسباب الحرب الاقتصادية كما يراها مؤلف الكتاب . فأهمها وأسبقها تاريخاً فى نظره هو التماس المرعى الخصيب وانتزاعه من أيدى مالكيه ؛ ثم تبدل هذا الباعث فى زماننا فحل التماس الأسواق محل التماس المرعى الخصيب ، وأدى التماس الأسواق إلى إنشاء المصانع فى البلاد المستعمرة فقام النزاع بين المصالح فى أيدى الأقوياء والضعفاء على السواء

ومن أهم أسباب الحرب الاقتصادية معامل السلاح ونفوذ المنتفعين بترويج الأسلحة بين المتحاربين . وليس من العلاج الناجع فى رأى هكسلى أن تستولى الحكومات على هذه المعامل فتبطل الدعاية للحروب ، لأن الحكومات تحتاج إلى المال كما تحتاج إليه الشركات ؛ ويزيد على المشكلة مشكلة جديدة وهى أن الحكومات أقوى على الجملة من الشركات

ويمضى الكاتب فى سرد أمثال هذه الأسباب مجتهداً فى إبراز غرضه الأصيل من كتابة الكتاب وهو تغليب العوامل النفسية على العوامل الاقتصادية وتوجيه الأذهان إلى ابتغاء العلاج الأدبى مع العلاج الاقتصادى فى وقت واحد . وخلاصة العلاج الأدبى ترجع بنا إلى مذهب كمذهب أهل الهند أو مذهب المتصوفة القائلين بأن عظمة الإنسان على مقدار استغنائه عن قيود اللذات والشهوات وقيود الأوجاع والهموم ، وأن المثل الأعلى فى التربية هو الترفع عن الحاجات وليس الخضوع لها والانقياد لغوايتها . أما خلاصة العلاج الاقتصادى فهى العناية بالوسائل الزراعية التى يجربها الدكتور ولكوكس صاحب كتاب « الأمم تعيش على مواردها الداخلية » ؛ وفحواها أن الأمة بالغاً مابلغ عدد سكانها قادرة على استخراج طعامها من أرضها إذا هى عمدت إلى تطبيق بعض الأساليب العلمية التى حققها بالتجربة المشهودة . ويتوقع هكسلى أن طريقة ولكوكس ومثلها طريقة الأستاذ جريك فى كليفورنيا ستحدثان فى العالم انقلاباً شاملاً لايذكر إلى جانبه انقلاب الصناعة فى القرنين الثامن عشر

ليلى المريضة بالعراق

للدكتور زكى مبارك

– ٣ –

... وفى صباح يوم السبت توجهت إلى بهو أمانة العاصمة لأؤدى واجب التحية ، تحية العيد إلى وزراء الدولة . وقد ظننى فخامة الرئيس عراقياً ، لأنى كنت بالسدارة ، فسرنى ذلك . وكانت فرصة طيبة عيدت فيها على رجال كنت أحب أن أذهب إليهم في منازلهم ؛ وراقنى أن يعرف العراقيون مكاناً عاماً يلتقون فيه يوم العيد ، وهى عادة حسنة كنت دعوت إليها فى الرسالة التى قدمتها للمباراة الأدبية الرسمية : رسالة (اللغة والدين والتقاليد)

وتلفتّ فرأيت الدكتور حسين كامل يشير إلىّ ، وما هى إلا لحظة حتى كانت يدٌ كريمة تصافحنى وتقول : أنا الدكتور شوكة الزهاوي رئيس الجمعية الطبية العراقية ، وقد سألت عنك مرات لأن اسمك يرد كثيراً فى المخابرات التى تجرى بيننا وبين الجمعية الطبية المصرية . والحمد لله على أن اهتديت إليك بعد التشوف والاشتياق

ثم استطرد فقال : إيش لون ليلى ؟ (واللون فى عرف العراقيين هو الحال فى عرف المصريين)

فقلت وأنا أبتسم : ستعرف ذلك يوم ألقى بحثى فى المؤتمر الطبى عن ليلى المريضة بالعراق

فقال : عجِّل بدفع الاشتراك ليحفظ لك مكانك بين الخطباء . فأخرجت ديناراً لم يكن معى سواه وقات : إليك الدينار فى سبيل ليلى ؛ والله المستعان

والظاهر أنه لم يعرف شيئاً عن الرسالة التى كلفت الأستاذ الزيات تبليغها إلى الجمعية الطبية المصرية (ولا تغضب يا صديق الزيات من كلمة تكليف ، فكذلك قلت ، وما أكذب عليك)

* * *

وفى المساء ذهبت إلى نادى المعارف واشتركت فى استقبال الكشافة السورية ، وألقيت خطبة تناسب المقام . وما كادت تنقضى الحفلة حتى عدوت إلى منزلى لأنتظر وصيفة ليلى

وجاءت الساعة العاشرة ولم يحضر أحد ، فقلت فى نفسى : هذا جزاء الفضول !

ثم تذكرت أنى أؤدى خدمة وجدانية سيذكرها التاريخ فانشرح صدرى بعض الانشراح وهدأت ، ثم أخذت أقلب أوراق فى سكون واطمئنان

وبعد نصف ساعة أحسست يداً رفيقة تطرق الباب ، فخففت إليه فى وقار مصنوع وفتحته بدون أن أسأل عن أسماء الزائرين . وما الحاجة إلى ذلك وأنا أعرف جوهر الزيارة فى نصف الليل ؟ وليتها كانت زيارة تذكر بالأيام الخوالى حين كنت أدرس الطب فى باريس ، وحين كنت أترك الباب بلا رتاج لتدخل الصغيرة المحبوبة حين تشاء

إنها زيارة جرداء ستنقضى فى السؤال والجواب ، وأنا اليوم طبيب مسئول عن رعاية الحرمات

دخلت جميلة أولاً ، وتبعتها وصيفة ليلى . دخلتا ملفوفتين ، مع أن المرأة جميلة جاوزت الستين ؛ وشعرت بشىء من الخجل للفقر البادى في غرفة الاستقبال ، ثم تماسكتُ حين تذكرت أن هاتين المرأتين تفهمان بلاريب أنى طبيب غريب وأن الوقت لم يتسع لتأثيث العيادة والبيت

– يا جميلة ، ما اسم هذه الوصيفة ؟

– إسمها ظمياء ، ولكن ما ذنبى عندك يا دكتور حتى تغير اسمى ؟

فقلت : لن أذكر اسمك الصحيح فى علاج ليلى ، لأنى لا أريد

والتاسع عشر ، إلا كما تذكر التوافه واللمم فى معرض الأخبار الجسام

وجميع هذه الخلاصات إنما هى فهرس للعناوين يشوق من يعنيه الأمر إلى المراجعة والاستقصاء . فإذا راجع واستقصى علم أن الجزاء أكبر من العناء ، وأن من مباحث الزراعيين فى عصرنا هذا ما يلذ القارئ كما يلذه البحث فى الأدب والفن والفلسفة وأصول العقائد وقوانين الاجتماع ، فلا سبيل إلى علاج عالمى يعصف بآفات القرون الأولى ويحيط بعواملها الفكرية والشعورية مالم يكن مصحوباً بدراسة هذه الشؤون

عباس محمود العقاد

أن تغتنمى الفرصة فتصبحى عـلماً على حسابها يا حيزبون !

وأخذت المرأة فى اللجاجة ولكنى انصرفت والتفت إلى ظمياء

— إيش لون ليلى ؟

— بخير ، يا دكتور ، وقد سرتْ فى روحها البشاشة منذ الوقت الذى رأتك فيه ، ولكن فى نفسها منك شئ

فقلت وأنا منزعج : وما هو ذلك الشىء ؟ أعوذ بالله من كيد الشياطين !

فأجابت : كتب إليها كثير من أدباء مصر يؤكدون أنك أديب ولست بطبيب

فقلت : هؤلاء دساسون ، وقد آذونى قبل ذلك أبلغ إيذاء ، فقد كنت خطبت فتاة فى باريس وطاب لى معها العيش ، إلى أن تدخل المفسدون وحدثوها أنى متأهل ، وأن لى خمسة أبناء . وأنا يا آنستى رجل محسود لا أخطو خطوة إلا وحولى رقباء لا ضمائر لهم ولا قلوب

فقالت : ولكن ليلى رأت فى صدور كتبك أنك دكتور فى الآداب

فقلت : هذا تواضع منى ، لأن الطبيب الحق لا يقول إنه طبيب ، ومع ذلك فلا بأس من إخبارك بكل الحقيقة لتبلغى ليلى فتطمئن . عندي يا آنستى ثلاث دكتوراهات : الأولى فى الآداب ، والثانية فى الطب ، والثالثة فى القانون

فتهلل وجه ظمياء وقالت : الآن فهمت ما ينشر فى الجرائد من أنك تلقى محاضرات فى كلية الحقوق

فقلت : هو ذلك يا آنستى . وستقرئين فى الجرائد بعد حين أنى ألقى محاضرات في كلية الطب !

والآن ندخل فى صحيح الغرض من هـذه الزيارة الليلية ، ولندرس الموضوع من جميع الأطراف ، لأنى لا أستريح إلى دعوتكما لزيارتى مرة ثانية ، فإن العيون تترصدنى من كل جانب ، وسمعة الطبيب هى كل ما يملك ، وأنت فى الحق فتاة حسناء وأخشى أن تحيط بى من أجلك الظنون

فتنهدت وقالت : العفو يا دكتور : إن مرض ليلى هدّنى ولم يُبق منى على شىء

فقلت وقد غاظنى أن تحسبنى أتغزل : اسمعى ، ليس الوقت وقت دلال ، أنت هنا فى خدمة الواجب ، أجيبى على الأسئلة بصدق وصراحة ، واحذرى عواقب المداورة فى الجواب

— هل ترين ليلى امرأة مصونة ؟ هل يحيط بسمعتها قليل من الشبهات ؟

— ليلى مصونة كل الصيانة يا دكتور ، وبالرغم من كثرة الحواسد لم تستطع امرأة أثيمة أن تقول فى حقها كلمة سوء ، فهى مثال الطهر فى بغداد ، وحديثها كالمطر فى جميع أرجاء العراق

— وكم سنّ ليلى الآن ؟ وكيف كان ماضيها فى الحياة الزوجية ؟

— هى فى حدود الأربعين ، ولا تزال عذراء

« وعندئذ دونت فى مذكرتى أن المرأة التى تصل إلى سنّ الأربعين وليس لهـا زوج ولا أطفال معرضة لكثير من الأمراض ، وهذه أهم نقطة أعرضها للدرس فى المؤتمر الطبى »

ثم رفعت بصرى إلى ظمياء وقلت : ولكن كيف اتفق أن تعيش ليلى كل هذا العمر عذراء ؟

فتلجلجت الفتاة ثم لاذت بالصمت ، فنهرتها بعنف ، فأجابت وما تكاد تبين :

— كانت تحب الضابط عبد الحسيب

— ومن هو الضابط عبد الحسيب ؟

— فتى كان فى الجيش العراق وأبوه من مصر وأمه من لبنان

« للحديث بقية » زكى مبارك

ضبط النفس

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

علمتني الحياة ضبط النفس ، والحياة مع الأسف مدرسة ولكنها فيما يبدو لي عقيمة ، فان الدروس فيها لا تنتهي ، ولا يكاد المرء يظن أنه حذق بعضها وآن له أن ينتفع بما تعلم منها حتى تسلمه الأقدار إلى العفاء ! ففيم كان طول التتلمذ هذا ؟ وما خيره إذا كان العمر ينتهي به ؟ وما الفرق إذن بين الجهل والعلم والطيش والحكمة ؟ ولماذا يعنى المرء نفسه بالنظر والتدبر والتحصيل ؟ ؟

قلت هذا مرة لصديق انجليزي فلم يستغربه ، لأنه لا جديد فيه ، ولكنه سألني : « أيشق عليك هذا ؟ » فاحتجت أن أدير عيني في نفسي لأتبين ، فما أدري والله أهو يشق أم يهون . ثم قلت له : « لا أظن .. فاني حائر .. أجهل ما تنطوي عليه نفسي .. ولكني أريد أن أفهم وأن أهتدي إلى الحكمة ... فاني أراني أتعب وأكد في التحصيل والنظر ... وسأقضي حياتي كلها في هذا ، ثم يجيء يوم فأطوى ... ويطوى معي كل ما تعبت في إفادته ولم أنفع به أحداً . ولو أني كنت أموت ويبقى ما أفدت لاختلف الحال ، ولكن عقلي يبطل ، وإحساسي ينعدم ، فكأني ما عشت ولا كنت . فما هذا الموت الذي تموت به كل المعاني الحاصلة ، والحكمة المستفادة ، والمعارف والاحساسات ؟ هذا هو الذي يثقل عليّ ، وإن كان لا مفر منه . وفي سؤالك ما يشعر أنك لا تستثقله كما أفعل ، وهذا راجع إلى طبيعة المصري ، فانها غير طبيعتكم . نحن المصريين يختلط في نفوسنا الشعور بالحياة بالشعور بالموت ، وتفكيرنا في هذه بتفكيرنا في ذاك . حياتنا كلها وآثار آبائنا الأقربين والأقدمين تثبت ذلك ، ولكنكم تفكرون في الموت كأنه شيء مستقل عن الحياة ، يعترضها ولكنه ليس منها ، هو عندكم طارىء غريب ... أو قل إنكم لا تحسون به كاحساسنا نحن ... »

وقصصت عليه قصة تجلو فرق ما بيننا وبين الانجليز في هذا ، وتلك أن سيدة استأجرت غرفة في بيتها في لندرة روت لي يوماً أن جارها توفى أبوه ، وقالت إنه الآن مسجى على سريره في غرفته ينتظر يوم الدفن ، وكان الابن يحب فتاة ويشتهي أن تكون زوجته ، وقد تودد إليها وأطلعها على ما يجن لها من الحب وخطبها فشكرته وأسفت واعتذرت ، وكان له صديق يحب الفتاة أيضاً وينافسه عليها ، وقد ظفر منها بكلمة القبول في نفس اليوم الذي مات فيه أبو صاحبه ، فزاره ليعزيه ، ثم لم يسعه إلا أن يفضي إليه بما يملأ قلبه من السرور وأن يبلغه أن الفتاة رضيت أن تكون زوجته ، فاحتمل الرجل الصدمتين : صدمة الموت وصدمة الحرمان ، وتناول زجاجة الويسكي وناول صديقه كأساً وتناول هو أخرى ، قالت السيدة : وقد ظلا يشربان إلى الهزيع الثاني من الليل . وقد كانت تروي لي هذه القصة وهي معجبة بسعة صدر ذلك المفجوع في أبيه وفي حبه ، وعظم ضبطه لنفسه ؛ ولم يكن إعجابها به لأنه استقبل صديقه وراح يسامره وأبوه الميت لا يزال في البيت فان الموت مألوف لا جديد فيه ، ولا خير من تقطيع القلب حسرات من جرائه ، وإنما كان الاعجاب لأنه احتمل الهزيمة في ميدان الحب على هذا النحو الكريم

مثل هذا لا يمكن أن يحدث في مصر . ولو أن اثنين تنافسا على فتاة ، لما كان من سلامة الذوق أن يذهب الفائز بها إلى مزاحمه ليطلب منه تهنئته بذلك ومشاركته في سروره ، فان هذا في عرفنا أشبه بأن يكون شماتة ومكايدة ، فكيف إذا كان أحدهما أبوه ملفوف في أكفانه ينتظر أن يحمل إلى قبره ؟

وأكثر ما نراه من مظاهر الحزن أو الجزع عندنا من التكلف ولا سيما بين النساء . ولكن لماذا يتكلف المصريون هذا ويحرصون على إبدائه ؟ أترى تكلفهم هذا يرجع الأمر فيه إلى الجهل أم إلى شعور بشيء في الطباع ؟ لا أدري ، ولكن الذي أدريه أن التجلد يكون مما يتحدث به الناس ويلهجون بذكره ، كأنما الأصل هو الجزع . وإني لأذكر أني تظاهرت بالاطمئنان ، وتكلفت الابتسام لما ماتت أمي ، بين يدي ، وكنت أخادع أخي وأخادع سيدات كثيرات كن في تلك الساعة في البيت ، وقد كرهت أن ينفجرن بالصراخ والعويل واللطم ، وأمي بينهن في ثيابها التي كانت تلبسها لما حضرتها الوفاة ، فلما عرف أخي ما دبرت ساءه هذا مني وكبر عليه أني زعمت له أنها نائمة وهي ميتة ، وأني تبسمت وكان حقي أن أبكي ، وبقي أياماً لا يكلمني ، وإذا لقيني ترقرقت الدموع في عينيه ؛ ولا أدري ماذا كان يجديه أن يعلم أن روحها فاضت قبل ساعة أو بعد ساعة ، وأحسب هذا من الحزن ، ولم أكن دونه حزناً ، بل لعلي أعمق منه حزناً عليها ، ولكنه كان عليّ مالم يكن عليه من الواجبات في تلك الساعة

فاحتجت إلى خنق شعورى حتى أفرغ من الأمر على ما أحب

وكانت لى طفلة صغيرة ماتت ، فاحتلت حتى استطعت أن أواريها التراب وأمها تعتقد أن بنتها لاتزال على قيد الحياة ، وكانت الأم مريضة ، وقد أوصاها الطبيب بالتزام السكون واجتناب الحركة والانفعال ، فلم يسعنى أن أفعل إلا مافعلت ، وكان هناك عامل آخر غير الموت يزيد فى ألمى ، وذاك أنى موقن أن الإهمال هو الذى جر الموت ، والآجال بيد الله ، ولكن لكل شىء سبباً ، وكانت البنت قد أصيبت بالحصبة ، فاحتجنا — لمرض أمها — أن نكل العناية بها إلى خادمة كنا نظنها حاذقة ذكية ، فأصيبت البنت بالتهاب رئوى قضى عليها وأودى بها ؛ غير أن ما كان كان ، ولا حيلة فيه لإنسان . فكظمت غيظى ، وكتمت ألمى ، وتشددت لأعين الأم المسكينة على الصبر . وجاءنى بعض الأصدقاء يعزوننى فى المساء فألفونى أبتسم وأضحك وأمزح فتعجبوا ، ولا محل للعجب فى الحقيقة ، وأحسب الأمر قد صار عندى عادة وما أظن بي إلا أنى أصبحت « كالحانوتى » والمرء مما تعود

ولم أكن هكذا فى صغرى . وإنى لأستحي أن أقول كيف كنت أحمق طياشاً قليل الصبر سريع التأثر ، ولو شئت لقصصت على القارئ مائة حكاية وحكاية ، ولكنى لا أنوى أن أفضح نفسى ، وقد صرت يهون على كل شىء إلا أن يرانى الناس لا أملك زمام نفسى ، ولا أستطيع ضبطها وكبحها . ومن العسير أن أعرف البواعث التى أغرتنى بهذا الكبح وزينته لى حتى أصبحت لا يسخطنى شىء كأن يتفلت زمام النفس من يدى . وفى وسعى أن أقول فى هذه البواعث ، ولكنى لا أحسب أنى قادر على الاحاطة بها أو مهتد إلى الخفي منها . وما ذكرت الموت إلا لأنه فى مصر مما يغتفر الجزع حياله ، وإن كان المرء يلقى فى حياته ما هو شر منه وأدهى ، وقانا الله السوء ولطف بنا . ولم تهن على الحياة ، ولكني مللت طول الحيرة التى يورثنيها النظر فى وجوهها وأضجرنى العجز عن الاهتداء والفهم ، فنفضت يدى يائساً وقلت فليكن ما يشاء الله أن يكون ، ولأعش كما يتيسر لى أن أعيش والسلام ، ولأدع عناء التفكير والنظر لمن أراد أن يحطم رأسه ، فإنى أنا لا أشتهى هذا التحطيم ، وقد جربته فلن أعود إليه . ومن هنا قلة مبالاتى . وماذا أبالى بالله ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

هل انتهت السياحات والكشوف الظاهرة

في القرن السابع عشر أو بعده ؟

للأستاذ أديب عباسي

إذا كتب الأستاذ الكبير — العقاد — أطرف وأبدع، فلا يسع القارىء الذي يصح أن نطلق عليه هذا الاسم إلا أن يقرأ ما كتب الأستاذ. وإذا قرأ له القارىء فلا يسعه إلا أن يقرأ مترفقاً مستأنياً، فليس الأستاذ العقاد بالذي تستطيع أن تقرأ له على الطريقة الأميركية، طريقة الخطف واللمح والقراءة بالأسطر والفقرات بدل القراءة بالجمل والكلمات. وليس ذلك لإبهام في الرأي الذي يبسط الأستاذ أو التياث في الرأي الذي يشرح، وإنما هو راجع إلى خصلة التركيز الشديد والعمق الصادق التي تتَّسم بها كل آثار العقاد. وإذا قرأ القارىء الحصيف ما يكتب الأستاذ العقاد هذا النوع من القراءة المتئدة المترفقة فالأرجح أن يخرج مما قرأ له على وفاق معه لا يشوبه تردد الابهام ولا شك المداورة. ذلك بأن الأستاذ، في صميم ما يكتب، لا يحاول أن يكتب ليفحم، إنما يكتب ليفهم، ويناقش ليقنع لا ليدهش. أقول هذا لمناسبة ما كتب الأستاذ في موضوعي « الحد الحاسم » و « النماذج والأفراد في الأدب » اللذين نشرا في عددي ٢٢٨ و ٢٢٩ من الرسالة. هذان المقالان يكادان يكونان نموذجاً لما تتصف به كتابات العقاد من العمق وسلامة المنطق وقوة التوجيه مع الشمول والاحاطة. ومن هنا بادرت أتهم نفسي بالتواء القصد عليها حينما رأيتني أخالف الأستاذ فيما ارتأى في ختام موضوعه الثاني فأرى هذا الرأي الذي أبسطه في بقية هذه الكلمة، ولكنني برغم ما اتهمت نفسي وأعدت قراءة الموضوع لم أوفَّق إلى شيء ردَّني إلى رأي الأستاذ أو يوافق بين رأيه ذاك، ورأيي الذي أبسطه هنا ليتكرم فيصلحه لي، إن رآني مخطئاً، أو يصلح رأيه إن رآني مصيباً

لخص الأستاذ في مقاله الأخير رأياً للأستاذ أدولف وولف في علاقة الديمقراطية والدين بظهور الخصائص المستقلة في الصور الأدبية بعد القرن السابع عشر فقال: « فمنذ أصبح الانسان فرداً معزولاً في حكم الدين لا اختلاط بين حسناته وسيئاته وبين حسنات الآخرين وسيئاتهم ولا التباس بين ثوابه وثوابهم وعقابه وعقابهم، هنالك أصبحت كل نفس بما كسبت رهينة، وأصبحت كل نفس حقيقة بالمحاسبة والاحصاء والمراقبة، ورسخت جذور الديمقراطية فلم يبق إلا أن تظهر لها على وجه الأرض فروع وأوراق وثمار »

وكان من هذه الفروع — كما يرى الأستاذ — ظهور الخصائص الفردية والسمات المميزة والفوارق القوية في الصور الأدبية الحديثة. هذه الخصائص والسمات والفوارق يجعلها الأستاذ وولف — كما لخصه لنا الأستاذ العقاد — رهناً بظهور التحليل النفسي الذي كان بدوره رهناً بشيوع الروح الديمقراطية والنظر إلى الفرد نظرة خاصة فاحصة، فلا تَخفى معالم شخصيته ومظاهر سلوكه في غمار الجمهور والنماذج التقليدية المرسومة. إنما يؤثر الأستاذ العقاد، في ختام موضوعه، أن يرجع التحليل النفسي والديمقراطية معاً إلى شيء آخر « هو انتهاء الكشوف الظاهرة وابتداء الكشوف الباطنة، أو انتهاء السياحات الجغرافية وابتداء السياحات النفسية الانسانية »

هنا يسمح لنا الأستاذ العقاد أن نخالفه ويسمح لنا أن نسأل: أصحيح أن الكشوف الظاهرة أو الكشوف الجغرافية انتهت في القرن السابع عشر أو حواليه، ومن ثم بدأت الكشوف الباطنة للنفس كنتيجة لانصراف الذهن البشرى عن الدراسات والسياحات الظاهرة إلى الدراسات والسياحات الباطنة؟! إنني أشك في صحة هذا الزعم، بل أكاد أنفيه قاطعاً

ليست السياحات الظاهرة وقفاً على الضرب في مجاهل الأرض واكتشاف كل رجا من أرجائها؛ وليس الاستشراف للمجهول في خارج حدود النفس الانسانية قاصراً على الحدود الجغرافية لقارات الكرة الأرضية؛ فهنالك السماء بعوالمها الشاسعة، وأكوانها المبثوثة في رحاب الكون وأسرارها المحيرة؛ وثمت الذرة بصفاتها العجيبة وسلوكها الغريب وأسرارها الدقيقة؛ وهناك أمواج الأثير من ضوء وحرارة وكهرباء وأشعة كونية

وخلافها ؛ وهناك النبات والحيوان ؛ وهناك ما يسيطر على كل أولئك من قوانين خالدة وقوى منظمة . أفبعد كل هذه العوالم العجيبة نستطيع أن نقول : لقد انقضى عهد الكشوف الظاهرة فى القرن السابع عشر أو انتهى مجالها ؟ ! كلا ! والدليل القاطع هذه الكشوف الرائعة التى انتهى إليها الانسان فى سياحاته بين أجواز الفضاء ورحاب الكون أو فى حقائق الذرة ومعاقلها المنيعة . ومن يستطيع أن يقول : إن الكشوف الظاهرة التى تمت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبداءة هذا القرن في عوالم الطبيعة والحياة تقل روعة وأسراً للخيال وشدها للانسان عن أروع المغامرات الجغرافية التى تمت في القرن السابع عشر أو بعده ؟ ثم هـذه الكشوف الجغرافية ذاتها هل انتهت حقاً فى القرن السابع عشر ؟ أين مغامرات سكوت وشاكلتون وبيرد وغيرهم ؟ قد يقال هذه المغامرات منها ما جاء متأخراً ومنها ما لم يقع إلا فى أوائل هذا القرن ، ولـكن هذا فى اعتقادى ليس بالشىء المهم ، فالتطورات الفكرية والنفسية العامــة تحسب بالأجيال والقرون ، ولا تحسب بالأيام والشهور والسنين .

وقد يسأل الأستاذ العقاد : إذن بماذا نفسر ظهور الدراسات الباطنة ، وما تلاه من تأسيس علم النفس التحليلى الذى مهد أدباء الأجيال الحديثة في كتابة القصة التحليلية ؟ وأجيب أن هذه الدراسات الباطنة للنفس كانت مظهراً عادياً يتساوق مع المظهر العام لنشاط الفكر البشرى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فلما كشفت الكشوف الفلكية والطبيعيــة والكيميائية والفزيولوجية ، كشفت كذلك الكشوف فى مجاهل النفس وخوافى الحس . فذ اصطنعت الطريقة العلمية فى البحث وأخذ العلماء يجرون على أسلوب المشاهدة والفحص والاختبار اتخذت دراسة النفس خطة منظمة مجدية ، فظهر أولا علم النفس العام ، وتلاه علم النفس التحليلى ؛ ولـكننا نعود ونقول : إن هـذه الدراسة لم يكن الحافز فيها والباعث عليها انتهاء الكشوف الظاهرة ، وإنما كان الحافز عليها اتساع هذه الكشوف وسيرها على خطة علمية منظمة مجدية شملت الجماد والحيوان والانسان جميعاً . هذا وأحب أن أقرر هنا أن الدراسات النفسية لم تحد ولم تخرج عن حدود الحدس والتخمين وإبهام الفلسفة الذي قيدها من زمن أرسطو ، إلا حينما تابع رجالها أسلوب العلم الطبيعى فى المشاهدة والاختبار ، بل لقد استفادت الدراسات النفسية فائدة مباشرة مما كشفه البحث من العلاقة الوثيقة بين تركيب الجسم الفزيولوجى ومظاهر النشاط الفكرى والنفسى . ومن هنا كانت الدراسات النفسية باعتبار الزمن تابعة للدراسات الطبيعية مقلدة لهـا فى أسلوبها مستفيدة من حقائقها . ولقد بلغ من اعتماد علماء النفس اليوم على الطريقة العلمية فى البحث بحيث غدوا لا يؤمنون بأسلوب الاستبطان والدراسة الذاتية Introspection ، وأضحى همهم أن يدرسوا النفس البشرية دراسـة موضوعية مبنية على المشاهدة الظاهرة والاختبار المنظم

وجمـلة ما نريد أن نقرره هنا أن الكشوف والسياحات الخارجة لم تنته قط في القرن السابع عشر ، بل هى زادت واتسع نطاقها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وبداءة هذا القرن إلى الحد الذى يكاد يكظ الأذهان ويتخم الفكر . وإذن ليس صحيحاً أنه جاء يوم انقطع فيــه الإنسان الباحث المفكر عن الكشف الظاهر فتعنى له مع ذلك الانقطاع أن ينصرف إلى السياحات الداخلية والكشوف النفسية . والصحيح أن الانسان الباحث تنبه إلى الكشوف الباطنة لما ارتفع مستوى البحث والتطلع واتسع نطاقه ومجاله حتى شمل كل موضوعات النظر والبحث وفيها صفات الإنسان النفسية والفكرية .

أديب عباسى

الحضارة المصرية

في عهد الدولة القديمة

بحث للعلامة الأثرى اريك بيت (١)

للأستاذ احمد نجيب هاشم

جغرافية مصر وأثرها

ليست هناك بلاد يمكن أن يتتبع فيها أثر البيئة فى طبيعة أهلها أكثر من مصر . فلفهم الحضارة التى قامت فى مصر القديمة يجب علينا أولا أن نصف المظاهر الطبيعية لهذا القطر

تنقسم مصر قسمين لكل منهما ميزات خاصة : مصر العليا، ومصر السفلى . والأولى شريط من الوادى يمتد من رأس الدلتا أو القاهرة الحالية إلى الشلال الأول ، وهى مسافة يبلغ طولها ٥٤٧ ميلا ، ولا يزيد عرضها فى أى اتساع على اثنى عشر ميلا ، وقد لا تزيد فى جهات على مائة ياردة . ويقع هذا الجزء فى منخفض حوالى ثلثمائة قدم عن مستوى الأراضى المحيطة به . ويرى فريق من الجغرافيين أن النيل هو الذى حفر لنفسه هذا الوادى العظيم أيام أن كانت الصحراء التى تحيط به غزيرة الأمطار . ويقول آخرون : إن هذا الوادى العيبي كان بمثابة الخط الأقل مقاومة للمياه المتجمعة فى الجهات المرتفعة فى الجنوب

عاش ساكن الصعيد فى واد ضيق يحد أفقه من الجانبين صخور جيرية تقع فى أعلاها الصحراء ، وهى أرض تكاد تكون عديمة الأثر فى حياته . وقد قسم المصرى الأرض إلى نوعين : الأرض السوداء ، وهو اسم أطلقه على وادى النيل بسبب لون تربته الداكن ، والأرض الحمراء ، وأراد بها الصحراء الرملية . وكانت معرفته بالممالك الأجنبية بسيطة إن لم تكن معدومة ، فكان يرمز إليها فى لغته الهيرغليفية كأنها بلاد جبلية بالنسبة لسهل مصر المستوى . واتخذ المصرى مجرى النيل مرشداً له فى غدواته وروحاته ، فالشمال عنده هو الجهة التى يجرى إليها النهر ، والجنوب الجهة التى يجرى منها . فكان يقول صعد أو نزل مع النهر بمعنى سار جنوباً أو شمالا ، وعلى ذلك لما بلغ المصرى نهر الفرات ببلاد العراق سمى ذلك النهر بذى المياه المنعكسة المجرى التى تنزل مع النهر أى تسير جنوباً بدلاً من أن تجرى شمالاً . وليس هناك ما يدل على عزلة المصرى القديم من اعتقاده هذا (١)

أما فى الدلتا فقد كانت الأحوال مختلفة كل الاختلاف إذ أن هذا الثلث المستوى والذى هو حديث التكوين نسبياً يكاد يكون خالياً مما يحدد أفق سكانه . ولابد أنه ظهر لهم كأنه سهل متسع يمتد حتى الأفق فى كل الجهات لا تتخلله تلال ولا مرتفعات ؛ بيد أن شروط العمل على الأرض كانت شبيهة بدرجة كبيرة بمثيلتها فى الصعيد

ولاريب أن اتساع الأفق أمام سكان الدلتا وانعدام صخور الصحراء مما بث شعور الحرية فى كل جهة ، أنتج على عقولهم نتيجة مخالفة . وكان من سوء الحظ أن رسوب غرين النيل فى الدلتا مضافاً إليه حاجة الزراعة جعلت أغلب المدن الفرعونية القديمة وراء علم الباحث ، ولذا لا يمكننا أن نقدر الدور الذي لعبه فى تطور التاريخ المصرى القديم

أما من حيث الجو فمعروف أن الوجهين البحرى والقبلى يتمتعان بجو جميل على العموم ، ويسقط المطر فى الدلتا ويكاد ينعدم فى الصعيد ، وقد ينهمر عليه سيل غزير مرة فى كل عشر سنوات

وتشتد الحرارة فى الصعيد وتزداد شدتها كلما اتجهنا جنوباً . هذه هى أهم المظاهر الطبيعية لمصر ، ولا يقل عنها أهمية موقعها الجغرافى ، وهى تحمى مدخل أفريقية ضد الغزو من جهات أسيا الغربية ، فقد كانت تلك الأجزاء على الدوام مركزاً للاضطرابات التى كانت أحياناً تشتد جداً إذا كان سكانها يميلون إلى الهجرة إلى دلتا مصر الخصبة ، وتكررت غزواتهم وكان لكل نتائج وقتية . ولا شك أن هذه الغزوات حالت دون الاطراد فى تقدم مصر . ففى كل مرة خرجت فيها مصر من الضربة التى أصابتها استنفد هذا الخروج كثيراً من نشاطها ، وكان من الممكن أن تستنفده فى نيل تقدم حقيقى

ولم تكن الدلتا أسلم فى جهة الغرب منها فى جهة الشرق ، فهناك

---

(١) كان العلامة Eric Peet أستاذاً للعاديات المصرية فى جامعة ليفربول وقد توفى فى سنة ١٩٣٣

(١) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور ترجمة الدكتور حسن كمال (ص ٦)

عاشت قبائل ليبية لم تقتصر فى سكناها على الأقليم الساحلى ، بل نزلت أيضاً فى الواحات التى تمتد جنوباً داخل أفريقية ؛ وربما استولى بعضها فعلا على الجزء الغربى من الدلتا فى عصر ماقبل الأسرات . وعلى كل حال كانت هـذه القبائل الليبية طول التاريخ المصرى القديم تنتهز ضعف الحكومة فى مصر أو قيام نزاع داخلى فيهـا فتنقض على الأراضى الخصبة التى اعتقدت أنها ميراثها القديم

أما الصعيد فلم تهدده غزوات تقريباً ؛ إذ ليس له جيران فى الشرق ولا فى الغرب ؛ ثم إن الصحراء نفسها كانت بمثابة سد منيع ضد أى إغارة من الجهتين

أما من جهة الشمال والجنوب فقد كان من السهل الدفاع عن البلاد بمقدمة حربية لا تزيد على ميل أو ميلين بل لا تزيد أحياناً على بضع مئات من الياردات

وكانت الدلتا من جهة الشمال سداً منيعاً ضد غزو الأسيويين من الشرق والليبين من الغرب

أما من جهة الجنوب فإن القبائل المتوحشة فى النوبة العليا والسودان لم تزعج مصر إزعاجاً يذكر إلا فى عهد الفاتح بعنخى فى القرن الثامن قبل الميلاد

على ذلك نرى الأحوال فى الصعيد كانت تنعم بالاستقرار الذى كان ينقص الدلتا . وفى كل مرة تقع فيها الدلتا فريسة للغزو الأجنبى نرى الصعيد ينجو منها ويصل تقدمه السياسى والاجتماعى ، بل يكون على استعداد عند ما تتخلص البلاد من غزاتها الأجانب أن يعيد المياه إلى مجاريها فى الداخل والعمل على توسيع ملكها فى الخارج

مصر قبل الأسرات

كانت مصر العليا والنوبة قبل قيام الأسرة الأولى فى يد جنس واحد له مدنية واحدة ونسميه شعب ما قبل الأسرات . ولا يزال البحث العلمى يكشف لنا شيئاً عن هؤلاء القوم الذين يمكننا أن نتبع حوادثهم فى مقابر البدارى ، وعند ما نسمع عنهم لأول مرة لانراهم متوحشين بل نجدهم قد عرفوا النحاس ولهم فنونهم وحرفهم ؛ وأهم من كل هذا أنهم عرفوا الزراعة واشتغلوا بها

وهذه الحقيقة الأخيرة هي أساس فهم حياة مصر الاجتماعية ، فنظامها قائم على الزراعة — ولا نعرف أين نشأت لأول مرة بل ليس من المؤكد أيضاً أنها ظهرت فى تلك الجهات مثل وادى النيل أو الفرات حيث الظروف أكثر مناسبة لها ، وإنما يمكننا أن نقول إن الزراعة وما تطلبته من صناعات تقدمت بسرعة بعد أن قامت فى مصر وأخذت تؤثر فى أخلاق الناس ونظمهم

أما الصيد وهو إحدى الوظائف الثلاث الهامة التى اشتغل بها الإنسان الأول فلم يلعب دوراً هاماً فى الحياة المصرية . نعم يرجح ان الصحراء التى تقع على جانبي وادى النيل كانت تأوى كثيراً من الحيوانات المتوحشة ، فهنـاك لوحة يرجع تاريخها إلى ما قبل الأسرات عن حملة منظمة أرسلت لصيد الأسود . ثم نرى فى مقابر أشراف المصريين القدماء طول مدة تاريخهم مناظر تمثل أصحابهـا وهم يقومون بحملات لصيد الأسود والفهود والوعول مستعملين لذلك السهام . على أن الصيـد كان ولا يزال عندهم وسيلة من وسائل الرياضة عند الأشراف ولم يتخذه الأهالى وسيلة للارتزاق ؛ فإن هؤلاء كانوا يحصلون على حاجاتهم من اللحوم من طيورهم وحيواناتهم المستأنسة . وفى الوقت نفسه يظهر أن صيد الوعول وغيرها من حيوانات الصحراء الصغيرة التى تربى وتسمن وتقدم على المائدة مع (الدواجن المألوفة) كان ذلك من الأشياء التى تمارس لتكون مرتزقا

أما الطيور والسمك فقد كانت برك الدلتا ملأى بكثير منها ، وكانت تصاد بشباك ثم تربى للأكل . وقد عثر على بقايا الفخاخ التى كانت مستعملة لذلك . والمقابر ملأى بالرسوم التى تمثل الطيور

وقد اتخذ النبلاء صيد الطيور وسيلة للرياضة أيضاً فترى من هذه الرسوم صوراً تمثل النبيل فى قاربه المصنوع من البردى وهو يصيب الطير بعصاه

وقد أولع المصريون بصيد السمك إذ كان طعاماً أساسياً للأهالى . وكان الصياد يصيده بالشص ؛ أما النبيل الذى يتخذ هذا الصيد وسيلة من وسائل الرياضة والتسلية ، فقد كان يصيده برمح . وقد كانت هذه الطريقة فى الأصل مستعملة فى عصر ما قبل الأسرات كما يستدل على ذلك من الحراب المصنوعة من العظام والنحاس التى عثر عليها الباحثون

هكذا لم يكن المصريون الأوائل صيادين بمعنى الكلمة فلم تدفعهم الحاجة إلى تتبع فريستهم مما يجعل شعب الصيادين متنقلا غير مستقر ، فقد يفر الأسـد وعجل البحر أو الفيل من الصعيد

إلى النوبة ثم إلى السودان ولكن المصرى لم يحاول أن يقتفى أثرها

قد يختلف علماء الأنتربولوجيا فى النقطة الآتية : هل من الممكن لشعب أن ينتقل من طور الصيد إلى طور الزراعة دون أن يمر بطور الرعى ؟ ولكن هذه المسألة لا تعنينا هنا فإننا نجد فى مصر فى عهد ما قبل الأسرات ، الزراعة والرعى قائمين جنباً إلى جنب

ولهذا السبب لا يمكننا أن نعتبر المصريين قوماً رعاة بمعنى الكلمة ، وليست مصر على أى حال بلاداً من طبيعتها الرعى . أجل قد يكون من الجائز أن الزراعة لم تشمل كل البلاد فى الزمن العريق فى القدم ، وأنه كانت هناك أرض مغطاة بالأعشاب مخصصة للماشية . على أى حال فإن أراضى الرعى فى عهد الدولة القديمة كانت قليلة فى الصعيد لدرجة كبيرة حتى اضطر القوم أن يرسلوا ماشيتهم فى عهدة رعاة إلى الدلتا مدة أشهر الصيف . ولعل هذه الحال تغيرت فيما بعد وأصبحت كما هى اليوم حيث تربى الماشية على علف خاص يزرع لها

استأنس المصريون قليلاً من الحيوانات منها الماشية التى اتخذوا منها اللبن وزودت الأغنياء باللحوم واستعملوها فوق ذلك وسيلة من وسائل النقل . وإن أهم حيوان فى هذه الناحية كانت الأبل . أما الغنم فلم تقتصر الفائدة على لحومها بل كانت هامة أيضاً لأصوافها ؛ ثم استعملت الخنازير فيما بعد (للدوس) فوق البذور بعد بذرها

ومن الحيوانات التى استأنسها المصريون الجدى والكلب السلوق والقط ؛ أما الحصان فلم يعرف إلا بعد دخول الهكسوس مصر . وكذلك ظل الجمل مجهولاً حتى عهد اليونان

وكان للثور أهمية كبيرة كأهمية الجاموسة فى العصر الحالى . وكان الفلاحون يعملون على تسمينه بإعطائه خميرة من العجين إذا قل غذاؤه الطبيعى . وكان الرجال يحلبون البقر بدلاً من أن يقوم النساء بهذه العملية

ونرى فى النقوش التى تمثل لنا حياة المصريين (جنباً إلى جنب) مع الحيوانات المستأنسة صورة غزالة خجلة ، وكانت هذه من الأطعمة الفاخرة للأغنياء وقد عملوا على تسمينها بإعطائها خميرة — كما كان الحال مع الماشية — وليس هناك ما يدل على أنها ربيت ، بل يرجح أنها كانت تصاد من الصحراء بشباك أو فخاخ

ولم يستأنس المصريون الطيور إذ كانت برك الدلتا ملأى بالبط على أنواعه ، وأدرك القوم أن صيدها بالشباك وتسمينها فى مدة قصيرة قبل ذبحها للأكل أوفر لهم من الإنفاق عليها لاستئناسها

وهنا يجب أن نذكر أن الدجاج لم يعرفه المصريون حتى عهد الدولة الحديثة عند ما عادت إحدى حملات تحوتمس الثالث بأشياء عجيبة من بينها طيور « تبيض كل يوم بيضة »

على أن الزراعة كانت أهم ما اشتغل به أكثر المصريين على الأقل فى فترات معينة من السنة ، فقد كان النيل كريماً من ناحية وقاسياً من ناحية أخرى على البلاد : فهو كريم بما يجلبه من غرين يلقيه على تربة الأرض فيجعل السماد غير ضرورى تقريباً ، وهو قاس لأنه بمجرد أن يتم فعل هذا يأخذ فى الانخفاض فيصعب على الفلاح أن يروى أرضه منه . وإذا كانت مصر شحيحة الأمطار كانت سعادتها متوقفة على نشاط الزراع ومجهودهم فى رفع المياه من النهر وتسييرها فى قنوات وترع إلى أرضهم . والغريب أن الطريقة التى استعملوها لذلك هى نفس الطريقة التى يستعملها الفلاح اليوم أى بالشادوف

أهم المحصولات

كانت أهم المحصولات فى العصر القديم الشعير والقمح والكتان؛ وكانت طرق الزراعة غاية فى البساطة ، فحينما ينخفض ماء النيل يحرث الفلاح الأرض بمحاريث من الخشب كان يجرها فى عصر المملكة القديمة الثيران ، ثم يبذر الحبوب وتدوسها الغنم كي تنغرس فى الأرض (وقد استخدمت الخنازير فيما بعد فى هذه العملية) ثم يلى ذلك أسابيع يقضيها الفلاح فى العمل بنشاط أمام الشادوف . فاذا طاب الزرع حصد الفلاح القمح وترك العيدان فى الأرض ، ونقل القمح المحصود فى شكل حزم على الحمير إلى الجرن ، وهناك تدوسه الحمير والماشية ، ثم يذرى فى الهواء بمذراة من الخشب فينفصل التبن عن القمح (الحب) ثم يوضع القمح فى الزكائب وينقل إلى مخازن خاصة تتكون من بناء من اللبن كالقباب له فتحة صغيرة فى أعلاه يصب القمح منها ، وفى أسفل البناء باب لسحب الغلال حسب الحاجة . وكان الكاتب يشرف على هذه العملية فيدون فى لفائف ورق البردى التى يحملها ما يخزن من الغلال زكيبة زكيبة وما يخرج منها

وقد استعمل الشعير والقمح فى صنع الخبز وعمل الجعة . وزيادة على هذه المحاصيل كانت هناك نباتات أخرى أهمها الخضر المختلفة وخصوصاً البصل ، وكان غذاء أساسياً ؛ ثم فواكه كثيرة

أهمها التمر والتين والعنب ، وكانت تكثر زراعته فى الدلتا ، وقد صنع المصريون من التمر نوعاً من النبيذ والعرق

توحيد القطرين

كانت مصر قبل الأسرة الأولى منقسمة إلى مملكتين منفصلتين : مملكة الوجه القبلى ومملكة الوجه البحرى . وكانت هاتان المملكتان مقسمتين أمارات لكل منها طوطم خاص كان بمثابة علم الإمارة الذى كان يحمل أمام رئيسه . ومما لا شك فيه أن بعض هذه الرموز كانت اسما للمقاطعة باللغة الهيرغليفية ، وكان البعض الآخر رموزاً للقبيلة ؛ ومن هذه الرموز ما هو فى شكل حيوان كالأرنب والوعل

ويعتقد العلماء أن أصل هذه الرموز راجع إلى أن مصر كان يسكنها فى وقت ما قبائل مستقلة ، كل قبيلة ترمز لنفسها بنوع خاص من الحيوانات أو النباتات يكون معروفاً لجميع أهلها ويميز كل قبيلة من غيرها

وحدث قبل قيام الأسرة الأولى أن انضمت قبائل الوجه القبلى و كونت مملكة واحدة ، وكذلك فعلت قبائل الوجه البحرى ثم قامت محاولات لتوحيد القطرين ، وتم ذلك على يد رجل واحد عرف باسم مينا . ويرجح أنه بقيام الأسرة الأولى انتهى الدور الطوطمى بمدلولاته الاجتماعية ؛ وأهم ما تركه من آثار مجموعة الآلهة التى فى جسم إنسان ورأس حيوان مثل تحوتى ورمز له بطائر أبى منجل ، وسبك ورمز له بالتمساح ، وحوريس ورمز له بالصقر

كان اندماج القبائل فى كل من الوجهين القبلى والبحرى أمراً طبيعياً ، لأن انتشار الزراعة أدى إلى الرغبة فى الاستقرار وإدراك المصلحة المشتركة ؛ أما انضمام الوجهين إلىَ بعضهما فقد كان أقل ضرورة ، إذ كون كل منهما وحدة جغرافية قائمة بنفسها ؛ ولذلك يرجح أن هذا الضم تم على يد رجل ذكي دفعته أطماعه إلىَ ذلك . هكذا استطاع مينا أن يوحد القطرين وأصبح الميدان حراً لظهور شعور قوى . ومع أن المصريين حافظوا على ذكر هذا الضم وحرصوا على إظهاره فى ألقاب الملك وفى أسماء دواوين الحكومة إلا أن الاندماج كان فى الواقع تاماً وأبدياً فأصبحت مصر منذ ذلك الوقت — عدا فترات الفوضى القصيرة — مملكة واحدة

أحمد نجيب هاشم
أستاذ بمعهد التربية للبنات

(البقية فى العدد القادم)

نجوى للشمس الغاربة

للكاتب الفنان الفرنسى « بيير لوئيس »
P. LAUYS

للأستاذ خليل هنداوى

أركاس — أيتها الغادة ذات العينين السوداوين ...

ميلينا — لا تمسني !

أركاس — لن أمسك ، وإنما سأظل بعيداً عنك يا أخت أفروديت ! أيتها الغادة ذات الغدائر المدلاة كالعناقيد ، إننى أقف على حافة الطريق لا أستطيع أن أتزحزح عنه لا إلى من ينتظروننى ولا إلى من غادرتهم

ميلينا — إذهب ! إنك تنطق عبثاً ، يا راعياً بدون قطيع ! ويا سارحاً فى الطرق المبهمة ! إذا لم تستطع أن تتبع الطريق فخض خلل الحقول ، ولكن لا تدخل فى حقلى يا من لا أعرفك . إذهب وإلا دعوت ...

أركاس — ومن عسى تدعين فى هذه العزلة ؟

ميلينا — الآلهة الذين ينتظروننى

أركاس — آه أيتها الغادة الصغيرة ! إن الآلهة هم أبعد عنك منى الآن . ولو أنهم كانوا حولك لما منعونى أن أقول لك إنك جميلة . إنهم يباهون فخورين بوجهك لأنهم يعلمون أنه أثر رائع منهم

ميلينا — أسكت أيها الراعى وابرح هذا المكان فإن أمى منعتنى أن أسمع أية كلمة من رجل . إننى هنا أرعى نعاجى حتى غروب الشمس . لا أريد أن أسمع أصوات الفتيان العابرين فى الطريق مع ريح المساء .

أركاس — ولماذا ؟

ميلينا — لا أعلم السبب ، ولكن أمى تعلمه خيراً منى ... لم يمر على ولادتى فوق هذا السرير القائم من أوراق الشجر إلا ثلاثة عشر عاماً ؛ وإنى سأكون غبية جاهلة إذا أغفلت عمل ما تطلبه منى أمى .

أركاس — إنك لم تفهمى أيتها الصغيرة عن أمك الحسنة العاقلة المحترمة ... إنها حدثتك عن الرعاع الذين يعبرون البرارى والعقد

فى أذرعهم والسيوف مشهورة بأيديهم . إن هؤلاء لئام بالنسبة إليك لأنك ضعيفة وهم أقوياء . وهم فى الأقطار التى نزلوها ذبحوا عذارى كثيرات لهن مالك من الجمال . ولو رأوك لما أشفقوا عليك . ولكن مثلى أى شر يحمله لك ؟ ليس لى إلا جلد على كتفي وخاتم فى يدى . حدق فىّ مليّا ، هل ترينني مرعباً ؟

ميلينا — لا أيها الراعى ، إن كلماتك عذبة سوف أصغى إليها طويلاً . ولكن الكلمات الأعذب هي الأغدر عند ما يتوجه بها رجل إلى واحدة منا

أركاس — وهل إلى جواب من سبيل ؟

ميلينا — بلى !

أركاس — بماذا كنت تحلمين تحت الزيتونة السوداء خلال عبورى ؟

ميلينا — لا أريد أن أقول

أركاس — أعرف ذلك

ميلينا — قل إذن

أركاس — إذا أذنت لي بالدنو منك وإلا لبثت صامتاً ، لأننى لا أستطيع أن أقول إلا همساً . لأن هذا سرك لا سرى . إنك تريدين أن أقترب منك وأن أتناول يدك

ميلينا — بماذا كنت أحلم ؟

أركاس — بنطاق العذراء !

ميلينا — آه ! من قال لك ؟ هل قلت ذلك عالياً ؟ هل أنت إله أيها الراعى فتقرأ ما يرتسم من بعيد فى عيون الفتيات ؟ لا تنظر إلىّ هذه النظرة ولا تحاول أن تقرأ ما أفكر فيه الآن ..

أركاس — إنك تحلمين بنطاق العذراء وبذلك المجهول الذى سيحله بمثل هذه الكلمات العذبة التي رحت تخشينها ... فهل تكون إذ ذاك هذه الكلمات غادرة ؟

ميلينا — إننى لم أسمع أبداً مثلها

أركاس — ولكنك تسمعين كلماتى وترين عينى

ميلينا — لا أريد أن أراها

أركاس — إنك تنظرينهما فى حلمك

ميلينا — أيها الراعى ...

أركاس — عند ما آخذ بيدك لماذا تجفلين ؟ وعند ما يلتف ذراعى على صدرك لماذا تنحنين ؟ ولماذا ينحت رأسك الضعيف عن ذراعى ؟

ميلينا — آه أيها الراعى

أركاس — كيف تكونين عارية هكذا بين ذراعى إذا لم أكن بعلك ؟

ميلينا — لا لا ، إنك لن تكونه . دعنى وحدى ، إن أحشائى ترعد من الخوف فاذهب عنى ! إننى لا أعرفك . دعنى ! إن يدك تؤلمنى ، لا أريد

أركاس — لماذا تتكلمين بلهجة أمك ؟

ميلينا — ليست أمى هي التى تكلمك وإنما أنا ! إننى عاقلة فاتركنى أيها الراعى . إننى لأستحيي أن أفعل ما فعلت « تاييس » أو « فيليرا » أو « كلوا » اللواتي لم ينتظرن ليالى أعراسهن

أركاس — ولماذا ؟ وما عسى أن أصنع لك ؟... على أننى أهجرك وأتركك وحيدة . اذهبى ! لماذا لا تذهبين ؟

ميلينا — ذرنى أذرف الدمع

أركاس — أتخالين أنني أحبك حباً ضعيفاً يأذن لى بتركك وحدك ؟ وهل كنت أتكلم من بدء إصغائك إلى لو لم أطلب إليك إلا لحظة سرور قد تستطيع أن تمنحنى إياها كل الراعيات ؟ ألم تعلمك عيناى شيئاً ؟ ولكنك لا تنظرين فيهما ، فى عينى ... إنك توارين عينيك وتبكين ...

ميلينا — بلى !

أركاس — إذا شئتِ فانى أسفح على قدميك حياة كلها حب وكلمات عذبة ، وألف بذراعى جسدك ، وألقى رأسى على صدرك ، وفمى على فمك ، وأنت تحلين غدائرك المعقودة لتغمرى قبلاتنا بالعطف والرقة

اسمعى ! إذا شئت أقمت لك كوخاً أخضر الأفياء من الغصون الزاهرة والأعشاب الندية تصيح خلالها الصراصير الشادية ذات الألوان الذهبية اللامعة . هنالك تقلقين علىّ كل الليالى ، وعلى السرير الأبيض الذى يغطيه جلدى الممدود سيخفق قلبانا إلى الأبد قلباً على قلب

ميلينا — آه دعني أذرف الدمع أيضاً !

أركاس — بعيدة عنى ؟

ميلينا — على ذراعيك ، وفى عينيك

أركاس — يا محبوبتى ! المساء يلف الكون ، والنور يتوارى كأنه كائن يجنح نحو السماء ، والأرض قد غمرها الظلام ، ولا يرى فى الأعلى إلا طريق المجرة الطويلة التى تسطع كنهر من النجوم حول حقلنا . ما أشد هذا الستار اللامع !

ميلينا — إنه لامع جداً . قدنى إلى حيث تشاء !

أركاس — تعالى ! فالغاب الذى نجوس خلاله بين الغصون الحانية هو غاب عميق ، حتى الإلٰهات يخشين سلوكه فى النهار . هنالك لا يُرى — على طرقه — من يتبع خطوات الجنيات . هنالك لا يُرى — بين أوراقه — العيون الخضراء واقعة على عيون الرجال الخائفة . ولكنا لن نخاف ما دمنا معاً أنت وأنا ...

ميلينا — لا ... إننى أبكى بالرغم منى ، ولكنى أحبك وأتبعك . إن إلٰهاً فى قلبى . حدثنى ... حدثنى أيضاً . إن إلٰهاً فى صوتك

أركاس — اسدلى غدائرك على عنقى ، وأرخى ذراعك حول إزارى ، وضعى خدك على خدى . خذى حذرك ، هنا حجارة وصخور ؛ واخفضى عينيك ، هنا جذور ؛ والأعشاب لها حفيف خفيف تحت أقدامنا العارية ؛ والثرى ندى ، ولكن صدرك حار تحت يدى

ميلينا — لا تبحث عن صدرى فإنه صغير ، ليس بجميل . فى الخريف الغابر لم أرمنه إلا ما رأيته يوم ولادتى ... إن صويحباتى يسخرن منى . ولكن فى الربيع وجدته ينمو مع براعم الأشجار . لا تدغدغه هكذا . إننى لا أستطيع أن أمشى

أركاس — تعالى ، نحن هنا فى الظلام ، لا أرى وجهك . نحن هنا شىء لا هو أنا ولا هو أنت . لا تعطنى شفتيك . أريد أن أرى عينيك . تعالى إلى هذه الشجرة الكهلة التى تسطع تحت رواء القمر . إن ظلها يزحف نحونا فاتبعيه ...

ميلينا — إنه ظل ضخم كالقصر

أركاس — قصر عرسك الذى تتفتح أبوابه لنا فى أعماق الليلة السرية

ميلينا — أسمع ضجة ، هذا حفيف النخيل

أركاس — النخيل النامى فى موكب العرس

ميلينا — وهذه النجوم

أركاس — إنها المشاعل

ميلينا — وهذه الأصوات

أركاس — هى الآلهة

ميلينا : أيها الراعى ! دخلت هذا المكان عذراء (كأرتميس) التى تضىء لنا بعيداً خلل الغصون السوداء والتى قد يمكن أن تسمع عهودنا . فلا أعلم هل أحسنت صنعاً فى اتباعك حيث سلكت . ولكن نفخة فى صدرى ، وروحاً ولدها صوتك ، إنك منحتنى السعادة كشىء خالد بإعطائك إياى يدك

أركاس — أيتها الغادة ذات العينين السوداوين . لا أبوك ولا أمك هيئا اتحادنا بغنائك أو غناى . إننا فقيران فنحن إذن حرّان . وإذا كان أحد سهل قراننا هذا المساء فهم آلهة الأولمب الذين يحرسون الرعيان !

ميلينا — يا زوجى ، قل لى ما اسمك ؟

أركاس — اسمى أركاس . وأنت ما اسمك !

ميلينا — اسمى ميلينا ...

خليل هنداوى

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٩ —

بين الرافعي وطه (٢)

لم تكن بداية هذه المعركة تنذر بما آلت إليه ، فما كانت في أولها إلا خصومة بين مذهبين في الأدب وأسلوبين في الكتابة ، فما لبثت من بعد أن استحالت إلى حرب شعواء يتقاذف فيها الفريقان بألفاظ الكفر والضلال والالحاد والغفلة والتعصب والجمود ، وانتقلت من ميدان الأدب واللغة إلى ميدان الدين والقرآن ، ثم إلى ميدان السياسة والحكومة والبرلمان ، ثم إلى ميدان القضاء . والدكتور طه رجل لا تستطيع أن تفرق بين مذهبه في الأدب ومذهبه في الدين ، ولا بينهما وبين مذهبه في السياسة . والرافعي رجل كان لا يفرق بين الدين والأدب ، ولا يعرف شيئاً منهما ينفصل عن شيء أو يتميز منه ، ولكنه في السياسة كان يتحلى بفضيلة الجهل التام ، فلا تعرف له رأياً في السياسة تؤاخذه به أو تناقشه فيه ، لأنه كان لا يعرف من السياسة إلا حادثة اليوم بأسبابها ، لا بأصحابها . وكم جر عليه هذا الجهل السياسي من متاعب ! وكم ألصق به من تهم ! ولكنه هنا كان من عوامل توفيقه في هذه المعركة

***

في سنة ١٩٢٥ كانت الحكومة للأحرار الدستوريين ولأصدقائهم . والأحرار الدستوريون حزب طه حسين ، نشأ بينهم ووقف قلمه على الدعاية لهم . فلما رأى على ماهر باشا أن يضم الجامعة المصرية إلى وزارة المعارف ، انضم معها الدكتور طه حسين أستاذ الأدب العربي بالجامعة .

ومضى الدكتور طه يحاضر طلابه في كلية الآداب محاضرات في الأدب الجاهلي ، على الأسلوب الذي رآه لهم ؛ فلما استدار العام جمع طه محاضراته في كتاب أخرجه للناس باسم « في الشعر الجاهلي » ؛ وقرأ الناس كتاب الدكتور طه حسين بعد أن سمعه طلابه منجّماً في كلية الآداب ، فقرأوا رأياً جديداً في الدين والقرآن رجح ما كان عندهم ظناً بالدكتور طه حسين وكتاب السياسة الأسبوعية . فقال الأكثرون من القراء : هذا كفر وضلال . وقالت طائفة : هو خطأ في الفكر وإسراف في حرية الرأي . وقال الأقلون : بل هو الأسلوب الجديد لتجديد الآداب العربية وتحرير الفكر العربي . وظل الرافعي ساكتاً ، إذ لم يكن قد قرأ الكتاب بعد ، فما نبهه إلى خطره إلا مقالان نشر أحدهما الأستاذ عباس فضلي القاضي في السياسة الأسبوعية ، وكتب ثانيهما الأمير شكيب أرسلان في كوكب الشرق ، فكان فيهما الانذار للرافعي بأنه قد آن أوانه ...

وانتضى الرافعي قلمه وكتب مقاله الأول فبعث به إلى جريدة « كوكب الشرق » ، ثم مقالات ثلاثاً بعده ، ولم يكن قد قرأ الكتاب ولا عرف عنه إلا مانشرت الصحف من خبره ؛ فكانت المعركة بذلك في ميدانها الأول : خصومةً بين مذهبين في الأدب وفي الكتابة وفي طرائق البحث . على أن الرافعي لم ينس في هذه المقالات أن له ثأراً عند طه ، فجعل إلى جانب النقد الأدبي في هذه المقالات شيئاً من أسلوبه المرّ في النقد ، ذلك الأسلوب الذي لا يريد به أن يفحم أكثر مما يريد أن يثأر وينتقم . ثم تلقى كتاب الدكتور طه حسين فقرأه ، فثارت ثائرته لأمر جديد ...

لقد كان شيئاً منكراً أن يزعم كاتب أن له الحق في أن يتجرّد من دينه ليحقق مسألة من مسائل العلم ، أو يناقش رأياً من الرأي في الأدب ، أو يمحّص رواية من الرواية في التاريخ ؛ لم يكن أحد من كتاب العربية ليترخّص لنفسه في ذلك فيجعل حقيقة من حقائق الدين في موضع الشك ، أو نصاً من نصوص القرآن في موضع التكذيب ؛ ولكن الدكتور طه قد فعلها وترخّص لنفسه ، ومنح نفسه الحق في أن يقول قالةً في القرآن وفي الإسلام وتاريخ الإسلام ؛ وقرأ الرافعي ما قال طه ، فغضب غضبته للدين والقرآن وتاريخ المسلمين ، ونقل المعركة من ميدان إلى ميدان ...

وكان طه في أول أمره عند الرافعي كاتباً يزعم أن له مذهباً

جديداً فى الأدب ، فعاد مبتدعاً مُضِلاً له مذهب جديد فى الدين والقرآن ؛ فكما ترى البدوىّ الثائر لعرضه أن يُنْتَهك ، كان الرافعى يومئذ ؛ فمضى يستعدى الحكومة والقانون وعلماء الدين أن يأخذوا على يده ويمنعوه أن تشيع بدعته في طلاب الجامعة ... وترادفت مقالاته ثائرةً مهتاجة تفور بالغيظ وبالحميّة الدينية وبالعصبية للإسلام والعرب ، كأن فيها معنى الدم

ونسى فى هذه المقالات كلّ اعتبار مما تقوم به الصِّلاتُ بين الناس ، فما كان يكتب نقداً فى الأدب ، بل يصبّ لهباً وحمما وقذائف لا تُبقى على شئ . وكان ميدانه في جريدة كوكب الشرق ، وكوكب الشرق يومئذ هى جريدة الأمة وجريدة سعد وجريدة الشرق العربى كله ؛ فمن ذلك لم يبق فى مصر قارئ ولا كاتب إلا صار له رأى فى طه حسين وفى دينه ، وإن للأمة من قبل لرأياً فى وطنيته ومذهبه ، وحسبك بها من وطنية فى رأى الشعب ، وطه حسين هو عدوّ سعد

ووقفت الدوافع السياسية إلى جانب الرافعى تؤيده وتشدّ أزره ، وإن لم يكن للرافعى فى السياسة باع ولا ذراع

وبلغت الصيحة آذان شيوخ الأزهر ، فذكروا أن عليهم واجباً للدفاع عن الدين والقرآن فجمعوا جماعتهم إلى جهاد

وتساوقت الوفود إلى الوزارة تطلب إليها أن تأخذ طه بما قال ؛ وإن طه لأثير في وزارة الأحرار الدستوريين وأصدقائهم ، ولكنها لم تستطع أن تتجاهل إرادة الرأى الإسلامى العام ...

ومضى الرافعى فى حملته تؤيده كل القوى وتشدّ أزره كل السلطات

ونشطت النيابة العمومية لتنظر فى شكاوى العلماء وتحدد الجريمة وتقترح العقاب ، فعرف الدكتور طه حسين أن عليه وقتئذ أن يقول شيئاً ، فكتب كتاباً إلى مدير الجامعة يشهده أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ولكن الرافعى لم يقنع فمضى فى النقد على جادّته

ولم تجد الجامعة فى النهاية بُدًّا من جمع نسخ الكتاب من المؤلف ومن المكتبات لتمنع تداوله ، لعل ذلك يرد الفتنة التى توشك أن تعصف بكل شيء حتى الجامعة ، ولكن الرافعى لم يقنع فاستمر فى حملته على الدكتور طه حسين ، وظهيرُه يومئذ هو الدكتور زكى مبارك ... !

لقد كانت هذه المقالات التى ينشرها الرافعى فى كوكب الشرق صيحةً مدوّية وصلت إلى كل أذن ؛ فما أحسب أحداً فى أدباء العربية وقرائها قد فاته منها شيء . لقد كان المصريون وقتئذ مكمومة أفواههم عن السياسة والحديث فى شئونها فلعلهم وجدوا فى هذه المقالات ما يعزّيهم عن شيء بشيء ، إذ كان طه عندهم يومئذ ما يزال هو طه حسين عدوّ سعد ، ومحرر جريدة السياسة ، وعضو الأحرار الدستوريين

لا أزعم أن اهتمام الناس جميعاً فى مصر بهذه المقالات لأنهم جميعاً قد صار لهم فى شئون الأدب رأى ، أو لهم فى الذود عن الإسلام حميّة ، لا ؛ ولكنه نوع من التعصب السياسى جاء اتفاقاً ومصادفة فى هذا الوقت نفسه ليكون تأييداً لقول الله وانتصاراً لكلمته ؛ على أن هذه المقالات بإقبال الناس عليها — لسبب أدبى أو لسبب سياسى — قد بعثتْ روحاً دينية كانت راقدة ، وأذكت حمية كانت خامدة ، وألّفت قلوباً إلى قلوب كانت متنافرة ، ونبّهت طوائف من عباد الله كانت أشتاتاً لتعمل للذّود عن دين الله

وإنى لأذكر مثلاً مما كان من إقبال الناس على هذه المقالات أننى — وكنت طالباً ... لم أكن أطيق الانتظار حتى يجيء بائع الصحف إلى الحى الذى أسكنه لآخذ منه كوكب الشرق ، بل كنت وجماعة من الطلاب نستعجل فنقطع الطريق من النيرة إلى باب اللوق راجلين لنشترى من الأعداد المبكرة المسافرة إلى حلوان ، لنقرأها قبل أن يقرأها الناس

***

وتطورت السياسية المصرية ، وتخلى زيور باشا عن الحكم ، وعادت حكومة الشعب يؤيدها برلمان سعد ؛ وعكف نوّاب الأمة على تراث الحكومة الماضية يفتشون عن أخطائه ؛ وما يزال فى آذانهم صدى يرنّ عما كان من أمر الجامعة وأمر طه حسين ، فأبدى البرلمان رغبته فى محاكمته . وقال النواب: نحن نريد . وقالت الحكومة : وأنا لا أريد . وتَشادَّ عدلى رئيس الحكومة

وسعد رئيس النواب ؛ فقامت زوبعة ، ونشأت ضجة ، وحدثت أزمة وزارية ، ولوَّح عدلى بالاستقالة ، وأصر سعد على وجوب تنفيذ رأى الأمة ، وتعقَّدت المشكلة ...

وسعى الوسطاء بالصلح بين الزعيمين ؛ فما كان الحل إلا أن يتقدم النائب الجليل عبد الحميد البنان بشكواه إلى النيابة العمومية فتسقط التبعة عن الحكومة ، ويُنفَّذ رأى الأمة ، ثم تسير القضية إلى غايتها أمام القضاء وكان بعد ذلك ما كان

وإذْ كان انضمام الجامعة إلى وزارة المعارف عملاً من أعمال على ماهر وزير المعارف ، فإن ما ثار حول الجامعة بسبب الدكتور طه حسين قد دعا نائباً أو نواباً إلى اقتراح محاكمة على ماهر بما فعل للجامعة ، وبما غيَّر من نظام التعليم العام من غير أن يكون ذلك من حقه الدستورى ... ولكنه ظل اقتراحاً لغير التنفيذ

***

ليست كل هذه الحوادث من تأليف الرافعي ، ولكنها شئ يتصل بتاريخه وله أثر فيه أيُّ أثر ؛ فلولا ما كان من الخصومة بين الرافعى وطه ، لما قامت هذه الضجة ، ولا ثارت هذه الثائرة ، ولَمَا كان فى التاريخ الأدبى أو السياسى لهذه الحقبة شئ مما كان

على أن هذه المعركة قد خلفت لنا شيئاً آخر ، هو أغلى وأمتع ، ذلك هو كتاب : «المعركة تحت راية القرآن» وهو جماع رأى الرافعى فى القديم والجديد ، وهو أسلوب فى النقد سنتحدث عنه بعد

***

ولقد ظلَّت الخصومة قائمة بين الرافعى وطه إلى آخر أيامه ، بل أحسبها ستظلّ قائمة ما بقيت العربية وبقى تاريخ الأدب ؛ فما هى خصومة بين شخص وشخص تنتهي بنهايتهما ؛ بل هى خصومة بين مذهب ومذهب سيظل الصراع بينهما أبداً ما دام فى العربية حياة وقدرة على البقاء

وما أعرف أن الرافعى وجد فرصة ليغمز طه فى أدبه ، أو وجد طه سانحة لينال من الرافعى فى فنه ومذهبه ، إلا أفرغ كل منهما ما فى جعبته . وكم مقالٍ من مقالات طه حسين قرأه علىّ الرافعي فقال : اسمع ، إنه يعنيني . وكم مقال أملاه علىّ الرافعى أو قرأته له فوجدت فيه شيئاً أعرف مَن يعنيه الرافعي به . ومرة أو مرتين قال الأستاذ الزيات للرافعى : أرجو أن تعدِّل فى أسلوب هذا المقال — مما ينشر فى الرسالة — فإنى لا أحب أن يظن طه أنك تعنيه بشئ تنشره فى الرسالة وعلىّ تبعتُه عنده

ولما ثارت فى الجامعة فى العام الماضى مسألة المسجد والمصلى والدروس الدينية وفصل الفتيان عن الفتيات ، كتب الرافعى مقالا للرسالة غمزَ فيه طه وحيَّا شباب الجامعة ، ولم يجد الأستاذ الزيات بُداً من نشره . وفُتن الرافعى بمقاله ذاك وحَسُنَ عنده وقعه ، فأنشأ تتمة له بعنوان «شيطان وشيطانة» يعنى طه وتلميذته ، ولكن الزيات وقف له واحتج حجة ، رعاية للصديق القديم طه . وكان أول مقال يكتبه الرافعى فتردّه له الرسالة . وقد اغتاظ الرافعى لذلك غيظاً شديداً ، وأحسبه مات وفى نفسه حسرة من عدم نشر هذا المقال . لو كان لى أن أعرف أين أجد صورة هذا المقال لأوجبت على الرسالة أن تنشره بحق التاريخ الذى لا يحابى الأحياء ولا الأموات ، ولكن أين أجده ؟ الأستاذ الزيات يقول : لقد رددته إليه . والدكتور الرافعى يقول : لم أجده على مكتب أبى ؛ وما كان بين هذا المقال وبين أجل الرافعى إلا قليل

ولم يتلاق الرافعي وطه وجها لوجه فى النقد بعد هذه المعركة حول كتاب « فى الشعر الجاهلي » ، ولكن المعارك بينهما ظلت مستمرة من وراء حجاب ، تنتقل من ميدان إلى ميدان

ولما اشترك الرافعى فى المباراة الأدبية فى العام الماضى ، ونال فى بعضها من الجائزة دون ما كان يطامع ، لم ينسب ذلك لشىء إلا لأن طه كان عضواً فى اللجنة ... وطه خصم عنيد ...

***

أما بعد فهذا شىء للتاريخ أثبته على ما فيه ، ليس فيه رأيى ولا رأى أحد معى ؛ ولكنه شىء مما حكاه لى الرافعى أو قرأت فى كتبه ، فكتبته في موضعه من هذا البحث بضمير المتكلم ومالى فيه إلا الرواية ، وذلك حسبي من العذر إن كان علىّ معتبة أو ملام

« شبرا » **محمد سعيد العريان**

ثورة على الأخلاق

للأستاذ على صرطاوى

إلى الأخ محمود بواسطة الأستاذ الزيات

قرأ أصدقاؤك والمعجبون بأدبك فى الأقطار الشقيقة شكواك البليغة فى عدد الرسالة (٢٢٩) ، فعتبوا عليك ، وأسفوا أن تَعرّ بسمائك سحابة صيف من مآسى الحياة فى ظرف من الظروف الأليمة التى يطيش فيها حلم الحليم ، فتحجب عن بصرك ذلك القبس الإلهىّ الذى كان يحبِّبُ إليك أن تحترق كالشمعة لتنير الطريق إلى الذين لا يعرفون الفضيلة فى الدنيا ؛ وأن تتحمل كل ما فى الألم من مرارة وما فى الاضطهاد من معنى ، فى سبيل الأخلاق الفاضلة والذود عنها والدفاع عن حرمتها ، فتنقلب فى طرفة عين إلى خصم لدود يطعنها تلك الطعنات القاتلة ، فكنت كالذى أوشك أن يتم جداراً لاقى النكد فى بنائه ، فانقلب إليه يهدمه إلى وجه الأرض لأن حجراً وقع عليه

لا يجادلك فيما ذهبت إليه فى شكواك إنسانٌ فى الدنيا ، ولا يوافقك على الأسباب التى ادعيتها علّة النجاح من له دين وتفكير إلا إذا كنت تريد أن يتدهور البشر إلى مستوى العجماوات حيث يعيشون للطعام والشراب ، وأن يتلاشى ذلك التراث الإنسانى الثمين الذى ورثته البشرية عن الأنبياء والمصلحين .

إن نجاح التاجر الذى يغش ويسرق ، والموظف الذى يتلون حسب الظروف ، والظالم الذى لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه ، لا يقوم دليلاً على ما ذهبت إليه ، ولا شأن للأخلاق فيه ، إذ ليس ذنب الماء العذب أن يزعم مريض أنه كريه المذاق ، ولا الشمس المشرقة أن يجادل فى رؤيتها أعمى . فالذنب ياسيدى الكريم هو ذنب المجتمع المريض الذى يُسَمّى الأشياء بغير أسمائها ، فيرى الجبل شجرة ، والحجرة كتاباً ، والجمرة تمرة . ولو كان لنا مجتمع تعيش فيه الصراحة والجرأة الأدبية ويشرق عليه نور الخلق الفاضل والتربية العملية الدينية الصحيحة ، لتضوّر أمثال هؤلاء جوعاً فيه

وراع الدكتور عزام طعنك فى الأخلاق على النحو الذى قرأه الناس جميعاً ، فأسرع يكتب إلى صاحب الرسالة كلمته البليغة لتصل إليك فى العدد (٢٣٠) وظن القراء أن فيما أورده الدكتور من الآراء الصائبة ما يكفى لإرجاعك إلى الحق ، والرجوع إليه فضيلة ؛ وانتظروا أن يقرأوا ذلك فى العدد (٢٣١) وإذا بصديقك الزيات يقول إن المجلس الذى أبلغك فيه رأى الدكتور ، وكان حافلا بغيرك من رجال العلم والدين ، كانوا لك وعليه ، وأنك ظللت صامتاً ولم تحر جواباً

لقد أعجبنى صمتك ، لأن السكوت دليل على التسليم ، ولكنى لم أرضَ أن يزعم أن مجلسك كان حافلاً برجال العلم والأدب والدين ، ويقول على لسانهم بأن السبيل (القاصدة إذن أن نطبّ لهذه الحال فيما يوائم بين طموح الناس وكرامة الأخلاق وسلامة المجتمع ، وليس هناك إلا وسيلة من وسيلتين : إما أن نصد الناس جميعاً عن هذه الطرق المتعددة ونقصرهم على هذه الطريق الواحدة بقوة الأديان والسلطان والتربية ، وذلك ما عناه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « عليكم بالجادّة ودعوا البنيّات » وإما أن نعيد النظر فى قانون الأخلاق فلعل فيه ما لا يرافْ تقلب العصر وتطور المجتمع . فأما الوسيلة الأولى فقد سجل الماضى ودلل الحاضر على أنها خيال نبيل لا يقع فى الإمكان وحلم جميل لا تقوم عليه يقظة ، وتعليل ذلك لا يغرب عنك فلا حاجة إلى تقريره . وأما الوسيلة الأخرى فهى على ما يرون مظنة التوفيق فى الإصلاح الجديد)

يزعم أصدقاؤك أن إلزام الناس طريق الفضائل عن طريق الأديان والسلطان والتربية (خيال نبيل لا يقع فى الإمكان ، وحلم جميل لا تقوم عليه يقظة) ويؤكدون أن الماضى قد سجل ذلك ، وأن الحاضر قد دلّل عليه ...

أما السلطان فأوافقهم على ذلك إذ :

لا ترجع الأنفس عن غيها مالم يكن منها لها زاجر

وأما الأديان ، فأى ماض قد سجل ذلك ؟ هل قرأ أصدقاؤك التاريخ العربى قبل الإسلام وبعده ؟ من هم أولئك الذين كانوا يأكلون الدم والميتة ، ويئدون البنات ، ويتزوج العشرة منهم امرأة واحدة ؟ ومن هم أولئك الذين صهرتهم حرارة الدين فأخرجت منهم أبا بكر وعمر ، ووطئت خيولهم الصين وسهول

اللواء ، وملأوا الدنيا والتاريخ عدلا ، وخاطب خليفتهم فى بغداد السماء بأن تمطر أنى تشاء فالخراج لهم ؟

إذا تعلم أفراد المجتمع الدين تعلماً عملياً صحيحاً ، وساروا على صراطه المستقيم ، فسيبر أن يعيش بين أفراده مثل من ذكرهم صديقك الزيات . فعلة العلل أننا لا نعرف الناحية العملية من الدين ... وهـذا ما كان سبباً فى تهكم أحد رؤساء الجامعات الأوروبية على دروس الأخلاق النظرية التى وجدها فى أحد برامج بعض المدارس العربية العالية ... إذ قال بأن الشرقيين لا يزالون فى الضلال يعمهون حين يظنون أن فى المستطاع تكوين الخلق الفاضل بعيداً عن الناحية العملية . وأما الحاضر الذى دلل على ضعف الدين ، فهو حاضر لا يمت إلى الدين بشئ

والإصلاح الجديد الذى يراه أصدقاؤك يجلب على المجتمع الدمار والبؤس والفوضى التى يئن تحتها المجتمع الأوربي فى مظاهر مدنية النار والحديد

ويرى أصدقاؤك فى صلف الانجليزى العزة ، وفى طموح الايطالى الرجولة ، وفى طمع الفرنسى الحياة ، وفى صراحة الألمانى الهيبة ، وفى استقلال الأمريكى الفوز ، ويرون فى قناعة العربى الاهمال ، وفى زهده الحرمان ، وفى مداراته الذل ، وفى توكله العجز . ولست أظنهم ينصفون الحقيقة فى هذا الرأى ، فمقياس الفضيلة هو مقدار الناحية العملية الصالحة منها ، وحسب أصدقائك أن يقارنوا بين فضائل من ذكروا ، وبين فضائل العربى وهو قريب من عهد الرسالة ، وهى منتزعة من صميم الدين ، والتى لا تمت بصلة إلى الأسماء التى تطلق عليها الآن ، وهو على أبواب مدينة حمص حينما هاجمها الروم للمرة الثانية ، فتدفع تلك الفضـائل العربى أن يعيد لأهل المدينة الجزية التى أخذها منهم ، فيرفضون أخذها ويدفعون الروم بكل ما يملكون . والأمثلة كثيرة ، وثقافتك الواسعة وعروبتك الصادقة فى غير ما حاجة إلى إقامة دليـل

وأما الربا فيريدون ألا يظل فى عصر الاقتصـاد رذيلة ، وحجتهم أن الغرب لم يستعبد الشرق إلا عن طريق بنوكه ، وأن ربح الأموال التى كانت تضيع على المسلمين فى البنوك ، لو صرفت على طرق الاصلاح ووجوه البر لما بقى أجنبى فى أرضهم ولما ظل تحت سمائهم فقير . والواقع لا يدل على ذلك أبداً ، فلقد حرم الدين الربا لحكمة لا نستطيع بعقولنا المادية المحدودة إدراكها . ويجب أن يبقى كذلك عملاً بأوامر الدين . وأما استبعاد الشرق عن طريق البنوك ، فمسئلة فيها نظر وليست قضية مسلمة ، ودليل ذلك أن الانجليز كانوا يطمعون فى مصر منذ سنة ١٨٤٥ . ويقرأ ذلك من يشاء فى رحلة الاسكندر وليم كنج لاك Alexander William King Lake فى بلاد الشرق الأدنى فى السنة المذكورة التى سماها (يوثين) Eothen ، حيث تنبأ وهو أمام أبى الهول باحتلالهم مصر قبل أن تشق قناة السويس . وأما طرق الاصلاح ووجوه البر ، فلو صرفت عليها الزكاة التى فرضها الدين لما بقى فقير بين المسلمين

وبعد فسيظل الخلق الفاضل عدة النجاح ما دام هنالك دين فى الدنيا والسلام عليك .

« جبين » على صرطاوى

أناشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٤٩ —

لقد هبطت عن عرشك لتقف بإزاء باب كوخى

كنت جالساً وحدى فى زاوية أترنم بالحان ألقيت أنت إليها سمعك فهبطت عن عرشك لتقف بإزاء باب كوخى

وفى فنائك احتشد العظماء والأغانى تتردد هناك فى كل حين ؛ غير أن لحناً بسيطاً ارتفع بين هذه الأغانى لجذبك إليه ؛ هو لحن قصير فيه الشجن اختلط بموسيقى العالم العظمى فهبطت ومعك هدية من زهر ... هبطت لتقف بإزاء باب كوخى

— ٥٠ —

وانطلقت أتكفف الناس وأتنقل من باب إلى باب على طريق القرية . ثم بدت عربتك الذهبية عند الأفق كأنها الحلم اللذيذ فعجبت : ترى من يكون ملك الملوك هذا !

ولع الأمل فى نفسى وخُيِّل إلىّ أن أيام السوء قد انقضت فوقفت أنتظر الهبات ، وهى تعطى فى غير سؤال ، والمال وهو ينثر هنا وهناك

ووقفت العربة بإزائى . وحين وقع بصرك على دلفت نحوى وعلى شفتيك ابتسامة ، فاستشعرت السعادة فى نفسى ؛ وعلى حين فجأة مددت إلىّ يمناك وأنت تقول : « ماذا عندك لتهبه لى ؟ »

آه ! إنها دعابة ظريفة أن تمد يدك تسأل شحاذاً . واضطربتُ وسيطرت علىّ الحيرة ثم تناولت من سلتى أصغر حبة قمح ... تناولتها فى بطء وقدمتها إليك

لشد ما عجبتُ حين أفرغت سلتى عند الغروب ، فألفيت بين متاعى الحقير حبة من ذهب فى قدر حبة القمح ، فرحت أبكى فى حُرقة وأسى لأننى لم أجد فى نفسى القوة على أن أقدم اليك كل ما أملك

— ٥١ —

أظلم الليل وانتهى عملنا اليومى ، وخيل إلينا أن آخر ضيف قد قدم لأن أبواب القرية غلِّقت ؛ غير أن قائلاً قال : « سيأتى الملك »

فسخرنا منه وقلنا : « لا ، لا يمكن ! »

وبدا لنا كأن طارقاً يدق الباب فقلنا إنه الريح ؛ ثم أطفأنا المصابيح وانطلقنا إلى الفراش ؛ غير أن قائلاً قال : « إنه رسول ! » فضحكنا منه وقلنا : « لا ، بل هى الريح ! »

وفى أعماق الليل دوى صوت نخيل إلينا ـ والنعاس يغالبنا ـ أنه هزيم الرعد ؛ ثم زلزلت الأرض زلزالها ، واضطربت الحيطان ففزعنا عن مراقدنا ، وقال قائل : « إنه صوت عربات » فقلنا فى صوت الحالم : « لا ، إنه جلجلة السحب ! »

وفى جوف الليل رنّ فى مسامعنا دوى الطبل ، ونادى مناد : « هبوا ، لا تنوا ! » فوضعنا أيدينا على قلوبنا والخوف ينفضنا نفضاً شديداً ، وقال قائل : « وبلى ، هاهى ذى راية الملك تخفق ! » فاندفعنا نصيح : « لقد أزف الوقت فلا تتكاسلوا ! »

لقد جاء الملك ، ولكن أين المشاعل ؟ أين الأكاليل ؟ أين العرش ليستوى عليه ؟ يا للفضيحة ، يا للعار ! أين الدار ؟ أين الزينة ؟ فقال قائل : « عبثاً تصيحون ، حيوه بأيد فارغة وادعوه إلى حجراتكم المعطلة ... »

افتحوا الأبواب ، واعزفوا الألحان ؛ ففى جوف الليل جاء الملك إلى بيتنا الموحش المظلم . إن الرعد يزمجر فى السماء ، وإن البرق يزيح أستار الظلام . هات فراشك البالى وافرشه فى الفناء ؛ فهو قد جاء على حين بغتة مع العاصفة الهوجاء ... هو رب الليل الحالك المهيب ...

— ٥٢ —

لقد أردت أن أطلب إليك عقد الورد الذى تحلّى به جيدك غير أنى لم أجسر ، فانتظرت حتى تبرح عند الصباح . وحين غادرت وجدت بقايا منثورة على الفراش ، وفى السحر رحت أفتش عن الوريقات المفقودة كأننى شحاذ

آه ، ماذا وجدت ؟ ماذا تركت ذكرى هواك ؟ إنك لم تترك الزهر ولا العبير ولا زجاجة عطر بل سيفك العظيم يتألق كشعلة من لهب ، وهو ثقيل كالصاعقة . لقد اخترق نافذتى أول شعاع فتىٍّ من أشعة الصباح فهمَّ الطير يسقسق ويسأل : « أيتها الفتاة ، ماذا أصبت ؟ » لا ، لم يكن الزهر ولا العبير ولا زجاجة عطر ، بل هو سيفك المهيب

وجلست أفكر فى دهشة : ماذا عسى أن تكون هذه الهدية ؟ لم أجد له مخبأ ، وإنى لأخجل أن أتقلده وأنا حطام متهدم ، وإنه ليؤذينى إن ضممته إلى صدرى ، ولكنى سأحمل فى قلبى هذا

الشرف ... هذا العبء الثقيل من الآلام ... هذه الهدية الغالية

والآن لم يبق فى هذه الدنيا ما أخافه لأنك أنت نصيرى . لقد نزعت عن رفيق الموت ، فسأفديه أنا بروحى . إن سيفك معى لأحطم به قيودى فلا يبق فى هذه الدنيا ما أخافه

سأنزع عن نفسى — منذ الآن — زخرف الحياة ؛ ولن أتوارى بعد — يا مليك القلب — فى ركن أبكى ، ولن أستحي أو أرفق من خلقي فأنت قد حبوتنى سيفك لأزين به فلن أتحلى بسواه من زينة الحياة

ما أجمل سوارك وقد زينتـه النجوم ، ورصعته كواكب الحلية ؛ غير أن سيفك أحلى منه فى عينى وهو يلمع كأنه جناح طير ڤينشو [1] المقدس ، وقد انتشر فى أشعة الغروب الحمراء

إنه يضطرم كأنه آخر أحاديث الحياة حين يسيطر الألم على الإنسان فى ساعة الاحتضار فيذهله عن نفسه ؛ ثم هو يتألق كأنه شعاع الوجود الطاهر حين يرسل شرارة حامية فتلتهم كل العواطف الأرضية

ما أجمل سوارك وقد زينته كواكب الحلية ! غير أن سيفك — ياإله الرعد — قد رصع بجمال باهر يفوت الوصف ويفوق الخيال

— ٥٣ —

لن أطلب إليك شيئاً ؛ ولن أذكر اسمى عند مسمعيك . وحين تنأى عنى سأقف فى صمت . لقد كنت لدى البئر وحدى والظل وارف ، والفتيات ينطلقن إلى دورهن ، يحملن جرارهن المترعة ؛ لقد ناديننى : « تعال معنا ، إنه يضنيك أن تنتظر من لدن الصباح حتى الظهر » غير أنى ترددت حيناً ثم ذهلت عن نفسى وسط الخواطر المضطربة

ما سمعت دبيبك حين جئت ، وكان فى نظراتك الأسى حين وقع بصرك علىّ ، وكان فى صوتك أثر الأين والتعب حين قلت : « آه ، إننى مسافر ظمآن » ففزعت عن أحلامى لأصب الماء فى كفيك ، فخفّت الأوراق من فوقنا ، وانبعث شدو الطير يمزق سكون الظلام ، وفاح أريج عطر الزهرات من منعطف الطريق

ووقفت صامتاً فى خجل حين سألتنى عن اسمى ، ماذا أسديت إليك فتسأل عن اسمى لتذكرنى ؟ ولكن ذكرى الماء الذى أطفأت به حرّتك ستعلق بقلبى وتبعث فيه الرضى . إن ساعات الصباح قد انطوت ، والطير يغرد فى كلال ، والأوراق تحف من فوق ، وأنا جالس إلى نفسى أفكر وأفكر

— ٥٤ —

مازال الفتور يسيطر على قلبك ، والنعاس يستولى على عينيك

أفلم يبلغك أن الزهرة تحكم بين الشوك فى كبرياء ؟ استيقظ ؛ أوه ، انتبه ! لاتدع الزمان يمر عبثاً

عند نهاية الطريق الصخرى وفى بلاد الوحدة الطاهرة ... هناك يجلس صاحبى فى عزلة ، فلا تخدعه . استيقظ ؛ أوه ، انتبه !

ماذا لو أن السماء تلهبت واضطربت فى قيظ الظهيرة المحرق ...

ماذا لو أن الرمال المتأججة نشرت لظى الظمأ ...

أفلا تجد الطرب فى قرار قلبك ؟ أفلا تتفجّر قيثار الطريق — فى كل خطوة من خطواتك — عن لحن شجى فيه الألم ؟

— ٥٥ —

إن رغبتك تامة فىّ ، وإنه أنت الذى هبطت إلىّ ؛ فمن عسى أن يكون حبيبك — يا إله الملك — إن لم أكُنْـه ؟

لقد اتخذتنى لك شريكا أقاسمك هذا الثراء العريض ؛ ففى قلبى السرور اللانهائى أستمده منك ، وفى حياتى مشيئتك تسيطر علىّ

لهذا زيّنت نفسك — وأنت ملك الملوك — بالجمال الخلاب لتأسر قلبى ، ولهذا بذلت حبك فى سبيل مَن تحب ، فظهرت للأعين كائنين امتزجا معاً

— ٥٦ —

أيها النور ، أيها النور الذى تشرق على العالم ، وتقبل العيون وتنفث البهجة فى القلوب !

آه ، إن النور يرقص — يا عزيزى — فى أعماق حياتى ، إنه يضطرب بين أوتار قلبى ؛ إن السماء تنفرج ، والريح تهب عاصفة ، ورنات الضحك تتردد على الأرض

إن الفراش ينشر أجنحته على لجة النور ، والزنبق والياسمين يضطرب فوق موجها

لقد تحطم النور فوق كل سحابة — ياعزيزى — إلى قطع من لجين استحالت إلى جواهر تتألق

إن البهجة تتناثر — يا حبيبى — على أوراق الشجر فيم السرور ، وإن نهر السماء يفيض على شاطئيه فيملأ الطرب كل مكان

كامل محمود حبيب

---

(١) ڤينشو : أحد آلهة التثليث الهندى

فلسفة التربيـــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٤ —

جولة فى أغراض التربية

أوردت لك فيما سبق تفسير الفلسفة للتربيه ، وكشفت عما بينهما من علاقة ، وأبنت ضرورة الأولى للثانية ، ثم تناولت الثانية ذاتها ببعض الشرح والتحديد . وأحب اليوم أن أجول بك فى « أغراض » هذه « العملية الكبرى » التى اصطلحنا على تسميتها بالتربية والتعليم !

لِمَ يتعلم الناس ؟ وفيم تقام لهم هذه المدارس وتلك الجامعات التى تنفق فيها الجهود الطائلة والأموال الجسيمة ؟ أظنك قد أصبحت ترى معى أن من حق الفلسفة بل من واجبها أن تناقش ما عسى أن يكون لهذه « العملية الكبرى » من أغراض ، علها تستطيع أن تهدينا إلى « الغرض الأسمى » !

والحق أنه إن لم يكن للتربية غرض واضح محدود صريح فإن عمليتها لا تعدو أن تكون ضرباً فى الهواء مصيره الفشل المحتوم ! ؛ ولما كانت حياة « الأفراد » على ظهر الأرض واحدة لا رجعة لها ولا تكرار ؛ ولما كانت « التربية » هى الأداة التى تعدنا لهذه الحياة الواحدة القصيرة ، فإنه لا شك فى ضرورة « إيجاد » ذلك « الغرض الأسمى » الذى نستطيع به — وبه وحده — أن نستغل « العمر » إلى أبعد حدود الاستغلال ، وأن نتمتع به إلى أقصى وأرفع حدود التمتع

ولكنك تعلم أن الفلسفة حينما تعرض لمثل هذا « الشكل » لا تستطيع أن تنجو من ذلك « التباين » الهائل الذى يبدو فى أغلب مذاهبها

يقول الأستاذ بولزن Paulsen فى أسلوب عذب رشيق[١] « يريد المرء أن يلعب ويتعلم ، وأن يعمل ويكتسب ، وأن يملك وينعم ، وأن يُكون ويخلق ، وأن يُحب ويعجب ، وأن يطيع ويحكم ، وأن يجاهد ويفوز ، وأن يردد الشعر ويحلم ، وأن يفكر ويبحث وأن يجرب علاقة الابن بأبيه ، والتلميذ بأستاذه ، والخادم بسيده ، وأن يعيش قنوعاً ؛ أخا بين أخوة ، وصديقاً بين أصدقاء ، وزميلاً بين زملاء ، ومواطناً بين مواطنين ، وحبيباً وعدواً ، وزوجاً ووالداً ومربياً ؛ كل ذلك على نحو طبيعى خاص ؛ فإذا ما تحقق له ذلك شعر أن حياته قد كملت ، وانتظر النهاية الأخيرة برضا وارتياح ، لأنه سيلحق بعدها بآبائه وأجداده . »[١]

وأنت ترى أن ذلك الغرض طويل غير مجمل وإن كان صحيحاً فى كل أجزائه ، وأنه يرمى إلى تكوين الفرد الاجتماعى الناجح السعيد .

ويقول فيخته Fichte[٢] « إن غرض التربية هو تكوين الوطنى العارف بحقوق الوطن وواجباته » . ولكن من ذا يستطيع أن يحصر الحياة فى دائرة الوطنية فحسب ؟ أليست الوطنية إحدى نواحى الحياة الشاملة الفسيحة ؟

ويقول هربارت[٣] « إن غرض التربية هو تكوين إنسان عارف بحقوق الإنسانية ؛ وإن غايتها القصوى هى اكتساب الفضائل والتحلى بمكارم الأخلاق » . ولكن ترى ما هى حقوق الإنسانية التى يتركها لنا هربارت غامضة من غير ما تفسير ؟ وإذا كانت الأخلاق هى غاية التربيـة القصوى ، فأين يقع « التفكير الخالص » من هذه الغاية وقد وضعه « ارسطو » فوق جميع الغايات عند ما ينصب على أسمى موضوعات التفكير وهو الله ؟

ويقول ديوى Dewey « إن غرض التربيـة الأسمى هو النمو[٤] » ولكن ما معنى النمو وما مقياسه المضبوط ؟ يلمس « ديوى » بنفسه ذلك الغموض ويرسم لنا مثلا أعلى « للإنسان النامى » فإذا هو « كائن ذو عادات بصيرة حساحة بعيدة النظر خاضعة لمسئوليات أكثر » . وذلك قول جامع ولكنه لا يخلو مع ذلك من غموض …

ويقول الأستاذ ريدجر Ruediger[٥] « تلائم التربية بين

---

(١) أنظر A Louree Book of The Philos. of Educ at, on by Kilpatrich فصل أغراض التربية

(١) قد تصرفنا فى الترجمة قليلا

(٢) أنظر كتاب الأستاذ العمروسى فى التربية والتعليم

(٣) أنظر كتاب الأستاذ العمروسى أيضاً

(٤) أنظر مقالة فى فلسفة التربية بدائرة معارف منرو للتربية

(٥) أنظر كتابه The Principles of Education

الفرد وبين عناصر البيئة المعترف بها فى الحياة الحديثة ، وهى تعمل على تنمية وترتيب وتدريب قواه حتى تصبح ذات « فاعلية » مشروعة النفع » وذلك أيضاً قول دقيق لولا ما قد ينتاب « هذه الملاءمة » من القضاء على روح الثورة فى الناشئ . تلك الثورة التى نريدها منه كما رأى ماهو جدير بها فى حياة المجتمع

ويقول الأستاذ توربندايك « إن أقصى غايات التربية هو غرس رغبة « الخير » وتكوين القدرة على الحياة السعيدة والمتعة النبيلة البريئة » ولكن ترى ماهى الحياة السعيدة ذات المتعة النبيلة البريئة ؟ أما نحتاج هنا لتحديدها ؟

أما « سبنسر » فيلسوف التطور فيقول « إن غاية التربية هى أولا وقبل كل شئ حفظ الحياة » . ولكن من الثابت الواضح أن « حفظ الحياة » وسيلة وليس بغاية ؛ إذ فى سبيل أى شئ نحفظها ؟ يقول سبنسر نفسه : « إن واجب التربية هو الاعداد للحياة بأوسع معانيها . وأهم مافى الحياة هو الحكم الصائب فى كل الاتجاهات وجميع الظروف ، ثم تربية الجسم والعقل ، ثم الإعداد للعائلة والسعادة والوطن وخدمة المجتمع » وذلك كلام له وجاهته الخاصة دون ماشك . ولكن ألسنا نرى فيه إغفالا أو شبه إغفال لناحية الشعور بما فيه الدين ؟

ويبسط لنا الأستاذ ريدجر Ruediger غرض الملاءمة الآنف فى فصل طريف فحواه الحياة بالعقل والروح ثم بالجسد فى جو خلق دائب التجدد ، يقوم فيه الدين إلى جانب الفن ، ويتسلط فيه الإنسان تسلطاً عاقلاً على البيئة ، شاعراً أنها وطنه الذى يجد فيه المتعة العقلية والفنية ، منتفعاً فى نفس الوقت بكل مافيها مما يفهمه ويقدره

أما الأستاذ Angel فيقول إن غرض التربية « هو النمو المتشابه لقوى الفرد » وذلك قول له طرافة من الناحية النفسية التى تطالبنا بإيجاد التوازن بين قوانا بحيث لا يطغى فيها العقل على العاطفة ، أو العاطفة على العقل [1] ، ولكنه لايزال بعد مفتقراً إلى « تشريع » يوجه هذا النمو المتشابه فى نواحيه المنشودة

وأما أبناء العم سام فأغراض التربية عندهم هى :

(١) عضوية الأسرة الناجحة (٢) المهنة الموفقة (٣) الفراغ الممتع (٤) التمدن العاقل (٥) الصحة الحسنة (٦) المعاملات الطيبة

ولكن واضح أن ذلك المستوى شعبى بحت لا يتناول « الفكر الراقى » كما ينبغى أن يتناوله

* * *

وتلك كما ترى آراء كثيرة توسع من مدى فكرنا وإن كانت لا تقف به عند رأى حازم جازم لأن طبيعة « الغاية الأخيرة » ذاتها تتطلب ذلك الخلاف ما دام أن الأفراد أنفسهم هم الذين يتناولونها بالبسط والتحديد لأنها غايتهم . ويشعر الأستاذ ديوى Dewey نفسه بصعوبة الموقف فيقول : « ليس للتربية غاية أو غرض خاص ، ولذلك يجب أن نأخذ فى حسابنا نشاط من يراد تعليمهم وحاجاتهم الطبيعية والاكتسابية عند ما نحدد للتربية والتعليم أغراضهما »

ويعقب الأستاذ يعقوب فام على هـذا الرأى بقوله [1] : « ليس التعليم منفصلاً عن الحياة حتى يقال إنه وسيلة لها ، بل هو والحياة أمر واحد » ومعنى ذلك أن غاية التربية هى غاية الحياة . فترى ماذا عسى أن تكون تلك الغاية ؟ أهى ذلك الثالوث الأقدس الذى ينادى به الأستاذ فيكتور كوزن فى كتابه الطريف [2] ثالوث الخير والحق والجمال ؟ أم هى « التفكير الخالص » فى أسمى موضوعات التفكير كما يقول أرسطو ؟

ومهما يكن من شىء فإن الأستاذ « ديوى » يعطينا مقياساً طريفاً نطبقه على الأغراض « المطروحة » لنختبرها به وهو : (١) قيام الغرض على الظروف الراهنة (٢) وقدرته على القيادة والمرونة (٣) والاتفاق التام بينه وبين الوسيلة . ثم هو يعطينا مقياساً آخر نقيس به مواد الدراسة هو « درجة وطريقة ماتجلبه على الطالب من شعور بيئته الاجتماعية ، وما تمده من قدرة يفسر بها قواه الخاصة من ناحية قابليتها لخدمة المجتمع » ويفسر لنا الأستاذ « باجلى » مدى هذه « القابلية » بقوله : « إنها تتضمن أن يكون المرء فاعلاً فى المجتمع منتجاً أو مرشداً الناس إلى الإنتاج ، متدخلاً فى مجهودات الآخرين بأخلاقه الصالحة ، عاملاً على تكميل القوى الاجتماعية أى إنجاح الجماعة » ويعزز الأستاذ ديوى نفسه ذلك الرأى بقوله : « أعتقد أن كل تربية يجب أن ترمى إلى مشاركة الفرد فى الوجدان الاجتماعى »

---

(١) فى غير النواحى الخلقية بالطبع

(١) انظر « التربية والأخلاق » للأستاذ

(٢) أنظر V. Lonsin - Du Bien, Du Vei, et du Beau

ولا بأس من أن نختم هذا الفصل بقول الأستاذ Kerschensteiner [1] وهو : « أننا لا نستطيع أن نحصر أغراض التربية فى غرض واحد ، وكل ما هنالك أن التربية يجب أن تشمل الإبقاء على الماضى إبقاء لا يستر عيوبه ولا يعمينا عن خيرات الحاضر ، ثم الوقوف على الأزمنة والبيئات والطبقات المختلفة حتى نوسع من مدى اتصال الناس بعضهم ببعض ، ثم تمدين ومحو الوحشية من بينهم ، أى انتشال العقول من الأودية المظلمة ، والعواطف من الغرائز الحيوانية ، ثم غربلة الناشئين وتوجيه كل منهم إلى الطريق الذى يتفق وميوله الخاصة حتى يبلغ أقصى ماهو كفء له ، ثم غرس العادات الحسنة من غير استعباد الناشئ لها »

***

وبعد ، فماذا تريد أن أقول ؟ وأى الأغراض تحب أن أزجيها إليك ؟

أليس من الخير أن نترك هذا الباب مفتوحاً لرجال التربية فى الشرق ، كيما يدلوا فيه بآرائهم السديدة ، ويرسموا لنا تلك « الغاية الأخيرة » التى يجب أن ينشدها الشرق فى تربيته على الخصوص ؟

ثم أنت ترى المعاهد فى مصر كثيرة والخريجين أكثر ، فهل تستطيع أن تتبين وراء تلك المعاهد « غرضاً واضحاً محدوداً » وهل تستطيع أن تلمس « الطريقة » التى يحقق بها هذا الغرض وما عسى أن يكون فيها من ضعف وقوة ؟

أحب أن تفكر فى هذا قليلا . لا ، بل كثيراً

« شبرا » **محمد حسن ظاظا**

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

(١) أنظر كتاب Thomson - Amodern Philos. of Ed.

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الرؤى والألغاز

— ١ —

وعند ما تناقل البحارة خبر وجود زارا بينهم وكان بلغهم ذلك من رجل دخل السفينة معه قادماً من الجزر السعيدة ساد الجميع شيء من القلق وباتوا يتوقعون حدثاً فى وجوده ، غير أن زارا بقى يومين جامداً تساوره أحزانه ؛ تحدق فيه الأنظار فلا يلتفت، وتوجه إليه الأسئلة فلا يجيب . وأخيراً أصغى لما يقال حوله متوقعاً سماع أبحاث لها خطورتها تدور على هذه السفينة القادمة من بعيد والمتجهة إلى أماكن سحيقة . وما كان زارا لينفر من الأسفار البعيدة ومن الأخطار ، وبعد أن أصغى طويلاً حُلت عقدة لسانه فانطلق يقول :

— إليكم أيها الشذاذ الجريئون أياً كنتم ، أيها المستسلمون للشراع الغدار على هائجات الأمواج

إليكم أيها الثملون بخمرة الأسرار ، المنجذبون بين خيوط الظلمات والأنوار ، إلى نغمات كل شبابة تنوح فى المجاهل الخفية . إنكم تنفرون من تلمس طريقكم بيد مرتجفة على ما نصب من دليلات الحبال إذ تفضلون الإدراك بالحس على الادراك بالإستقراء

إليكم دون سواكم أوجه الخطاب لأخبر بما تجلى من ألغاز وبما خطر من رؤى لأشد الناس استغراقاً فى عزلته .

لقد اجتزت الغسق فى أشد فتراته وجوماً . إقتحمته وقد تقلصت شفتاى وعلا وجهى الاغبرار وكنت شاهدت من قبل شموساً كثيرة تجنح إلى الغروب

رأيت أمامى طريقاً يتسلل على جروف المرتفعات ، طريقاً وعراً تعرى جانباه من كل نبات فدفعت عليه أقدامى أتحداه فأسمع صريف حصاه تحتها .

مشيت صامتاً أحاول تثبيت الحصى التطارة بخطواتي لأنجو من الانزلاق عليها

واعتليت فاذا بروح الكثافة وهو عدوى الألد يشد بى إلى الأعماق ، واعتليت أيضاً فاذا بهذا الروح المطبق علىّ كالقزم من الناس والخلد من سكان الأوجار يسكب فى أذنى ودماغى كلمات ثقيلة كالرصاص فسمعته يقول لى متمهلاً هازئاً :

أى زارا أيها الحجر المدعى الحكمة ، لقد رشقت نفسك إلى ما فوق ، ولكن أى حجر ارتفع ولم يسقط عائداً إلى مصدره ؟

أى زارا أيها الحجر الحكيم المنقذف إلى العلا ليزعزع الكواكب فى مدارها ما أنت إلا القاذف والمقذوف معاً ، فلا بد لك من السقوط ككل حجر يرشق إلى ما فوق . لقد حكمت بالرجم فكان حكمك به على نفسك ، وهذا الحجر الذى فوّقته سيرجع ساقطاً عليك

وسكت القزم طويلاً حتى ضاقت من سكوته أنفاسى ، فالرفيق الصامت يشعرك بوحشة الانفراد أكثر مما تشعر بها وأنت وحدك لا رفيق لك

وارتقيت أيضاً وأنا تائه فى تفكيرى وأحلامى شاعراً بتزايد الضيق فى صدرى كأننى عليل نبهته أضغاث أحلامه فاستفاق ليشعر بأوجاعه

غير أننى أعهد بنفسى قوة أسميها شجاعة وهى القوة التى أرغمت بها كل وهن فى نفسى ، بهذه الشجاعة تذرعت فصحت بالقزم قائلاً :

إن واحداً منا يجب عليه أن يتوارى

ما من قاتل كالشجاعة التى تهاجم ، وما من فيلق يتقدم إلا وفى طليعته الأنغام الحاديات

إن أوفر الحيوانات شجاعة إنما هو الانسان الذى قهر بشجاعته سائر الحيوانات وتغلب على جميع الأوجاع ماشياً وراء حاديات الأنغام بالرغم من أن أوجاع الانسان أشد ما فى الكون من أوجاع

وللشجاعة أيضاً فضيلة ردع الدوار المستولى على الرؤوس حين تحدق فى الأعماق ، وما من موقف للانسان لا هاوية تحته وما عليه إلا أن يحدق ليرى المهاوى من أى موقف فى مواقفه ، إن الشجاعة خير مايقتل فانها تقتل الاشفاق أيضاً ؛ وما من هاوية أبعد قراراً من الاشفاق لأن نظر الانسان ليذهب وهو يسبر الآلام إلى أقصى مدى يبلغه عند سبره الحياة نفسها

إن خير مايقتل إنما هى الشجاعة إذا هاجت ، لأنها ستتوصل أخيراً إلى قتل الموت نفسه لأنها تقول فى ذاتها : « ياللعجب ! أهذا ما كانت الحياة ؟ إذن لأرجعن إليها مرة أخرى » إن فى مثل هذه العقيدة أشد حداء يدفع إلى الإقدام . من له أذنان سامعتان فليسمع

— ٢ —

واستوقفت القزم قائلاً : يجب أن يبقى أحدنا ويفنى الآخر . إننى أنا الأقوى لأنك لا تدرك أعمق أفكارى ، وما أعمقها إلا فكرة لا قبل لك باحتمالها . فارتمى القزم عن كتفى نخف حملى ، فإذا بهذا القزم يجلس القرفصاء على حجر أمامى ، وإذا نحن تجاه باب كأنه وجد صدفة هناك فقلت لرفيقى :

أنظر إلى هذا الباب فإن له واجهتين ، وهنا ملتقى مسلكين لم يبلغ إنسان أقصاها ، أحدها منحدر يمتد إلى البرية ، والآخر مرتفع يمتد إلى البرية الأخرى ، والمسلكان يتعارضان متقاطعين عند هذا الباب وقد كتب اسمه على رتاج واحد « الحين »

فقلت : أتعتقد أيها القزم أن من يتوغل فى إحدى هذين السلكين يبقى معتقداً بأن اتجاه أحدها معارض لاتجاه الآخر ؟

فقال القزم بازدراء : إن كل اتجاه على خط مستقيم إنما هو اتجاه مكذوب ، فالحقيقة منحرفة لأن الزمان نفسه خط مستدير أوله آخره

فأجبته قائلاً : لا تستخف بالأمر أيها الروح الكثيف وإلا غادرتك فتعطب حيث أنت ، ولا تنس أننى أنا حملتك إلى الأعالى . تفكر فى « الحين » الذى نحن فيه الآن ، فإن من بابه يمتد سلك أبدى لا نهاية له متراجعاً إلى الوراء ، فإنما وراءنا البرية يا هذا

أفما كان لزاماً على كل شىء مُعمزز بمعزفة السير أن يجتاز هذا السلك فيما مضى ؟ أفما تحتم على كل شىء له طاقة الوصول أن يكون قد وصل فيما مضى فأتم سيره وعبره ؟

وإذا كان كل موجود الآن قد وجد من قبل فما هو اعتقادك فى هذا الحين ؟ أفما كان لهذا الباب وجود سابق ؟

أفما ترى الأشياء كلها متداخلة ، وأن هذا « الحين » يجر

وراءه كل ما سيكون ، بل يجر نفسه أيضا ؟

أفما يتحتم والحالة هـذه على كل معزز بقوة السير أن يندفع مرة أخرى على هذا المسلك المتجه إلى فوق ؟

أنظر إلى هذه العنكبة التي تدب على مهل تحت شعاع القمر !

أنظر إلى شعاع القمر نفسه وإلى ذاتي وذاتك مجتمعتين تحت هذا الباب تهامسان بأسرار الأبد ! أفما تعتقد أنه لابد أن نكون وقفنا جميعاً من قبل في هذا المكان ؟

أفليس علينا أن نعود أيضاً للتدفع تكراراً على المسلك الآخر الذاهب أمامنا متصاعداً مستطيلاً مروعاً ؟ أفما لزم علينا أن نعود تكراراً وأبداً ؟

هكذا كنت أتكلم بصوت يتزايد انخفاضه وقد أرعبتني أفكاري وما كمن وراء أفكاري فإذا بي أسمع فجأة نباح كلب على مقربة منا

خيل إلى أنني سمعت مثل هذا النباح من قبل، ورجعت بتذكاري إلى الماضي فإذا هو يسمعني هـذا النباح في أبعد أيام طفولتي ويمثل لي مثل هذا الكلب الذي أراه الآن وقد وقف شعره ومد رقبته مرتجفاً في أشد الليالي سكوناً حيث يتراءى للكلاب أيضاً أن في العالم أشباحاً

ونبّه نباح الكلب اشفاقي إذ تذكرت انه عنـد ما عوى منذ هنيهة كان القمر يطل من وراء البيت صامتاً كالموت ؛ ومنذ هنيهة كان هذا القمر يستقر فوق السطح كقرص ملتهب يراود ما ليس له ، وذلك ما أثار غضب الكلب لأن الكلاب تؤمن بالسارقين والأشباح

عند ماسمعت هذا النباح للمرة الثانية عاودني الاشفاق تكراراً

أين توارى القزم الآن ومعه الباب والعنكبة وأحاديث المناجاة؟ أكنت في حلم فاستفقت فأنا الآن وحيد بين جرداء الصخور لاسمير لي غير شعاع القمر المنفرد في السماء

ولكنني رأيت رجلاً مسجى على الأرض وكان الكلب يقفز وقـد اقشعر جلده وهو يهدر هديراً ، وإذ رآني قادماً نحوه بدأ بالنباح فتساءلت عما إذا كنت سمعت من قبل كلباً ينبح بمثل هذا الصراخ المستغيث

والحق أن ما رأيت في ذلك المكان ما كنت رأيت مثله ، لأنني شاهدت أمامي راعياً فتياً ينتفض محتضراً ، وقد ارتسم الروع على وجهه وتدلت من فه أفعى حالكة السواد ، فتساءلت عما إذا كنت رأيت قبل الآن مثل هذا الاشمئزاز والشحوب على وجه من الوجوه . لعل هذا الراعي كان يغط في رقاده عندما انسلت الأفعى إلى حلقه وانشبكت فيه

وبدأت أسحب الأفعى بيدي ، ولكنني شددت عبثاً ، فسمعت من داخلي صوتاً يهيب بالراعي قائلاً : عض عليها بأسنانك ولاتني حتى تقطع رأسها ، وهكذا سمعت بهذا الهتاف أصوات رعبي واشمئزازي وضغينتي وإشفاقي كأنها صوت واحد يتعالى مني

فيا أيها الشجعان المحيطون بي، أيها الشذاذ المكتشفون يامن تقتحمون مجاهل البحار مستسلمين للشراع الغدار وأنتم تسرون بالمعميات والألغاز، عبروا رؤى المنفرد وحلوا ما رأى من معميات وقد كمن فيها ما كان وما سيكون

أيّ هذه الرموز يدل على ما فات وأيها يدل على ما هو آت ؟ من هو الراعي الذي اندّست الأفعى في فه ، ومن هو الإنسان الذي سيصاب بمثل هذه الداهية الدهماء ؟

على أن الراعي بدأ يشد بأسنانه منفذا ما أشرت به ، وما لبث أن تفل دافعاً برأس الأفعى إلى بعيد ، ثم انتفض ووقف على قدميه وتبدلت هيئة الراعي فلم يعد راعياً حتى ولا إنساناً ، إذ جلله الإشعاع وضحك ضحكة ما سمعت حياتي مثلها

لقد سمعت يا إخواني ضحكة ليست من عالم الإنسان ولم أزل منذ ذلك الحين أحترق بشهوة لا أجد ما يطفئها . إن شهوة هذه الضحكة تنهش أحشائي فكيف أرضى الموت بعد الآن

هكذا تكلم زارا

« يتبع » فليكس فارس



رسالة الشعر



وحشة !

للأستاذ أمجد الطرابلسي

ما أرى الينبوع في هذي الفلاه   فالتمسه اليوم في أعماق نفسك !

أيّها الغربانُ يا شؤمَ الربوعِ   انعبي ما شئتِ في صدري وقرّي
يُنشدُ الشاعرُ في عرسِ الربيع   وأنا أستلهمُ الوحشةَ شعري !

هذه الصّحراء ما بين ضلوعي   كاد يُذوي شوكَها فرطُ صَداها
أعولتْ في الصّدرِ تستجدي دموعي   فأبى مُستكبِرُ الدمعِ وتاها

هذه الصّحراء حولي أين سرتُ   تفزعُ الجِنّانُ من وحشتِها
قد عوى في جوِّها الويلُ المُشتُّ   وتنزّى الرملُ في شُعلتِها

تتعبُ الأعينُ في آفاقِها   كشراعٍ بين أمواجِ العُباب
ويَضِجُّ الغمُّ في أعماقِها   ضجّةَ الأغلالِ في دار العذاب

يا لصحراوَيْنِ في قلبي وحولي   أتمنّى فيهما لمعَ سَراب
أنا ما بينهما أرقبُ ظلّي   فأراهُ سلوتي وَسْطَ الرّحاب

أيّها الوحشةُ خلّي العنكبوتْ   تنسجِ الأكفانَ في أحناءِ صدري
وانشري الليلَ على كهفي الصَّموتْ   واصبغي باليأسِ والأهوالِ فجري

أظمئي زهري وزيدي سأمي   وارتعي في خاطري يا وحشتي !
أنا منْ صمتكِ أغدو نغمي   وبويلاتِكِ أسقي جنّتي !!

إنّ غمًّا لم يزلْ في الصدرِ يُطوى   هو كنزي ومَعينُ الشّعرِ عندي
لا تُهِنْه أيّها القلبُ بشكوى   إنّ فيها هونَ آمالي ومجدي

إيهِ يا نضوَ الفلا حسبُكَ صمتا   غنِّ في الوحدةِ ألحانَ التّصافي
لستَ بالشاعرِ يا قلبي حتّى   تُطلعَ النّرجسَ من شوكِ الفيافي !

عبثًا تخرسُ في الصّدرِ اللّحونْ   أيّها المُصحِرُ ضَنًّا وإباء
أنت كالبلبلِ في هامِ الغصونْ   عيشُهُ أنْ يُسكرَ الروضَ غِناء

يتمنّى الصمتَ ـ لو كانَ مُتاحا ـ   ضَرَمٌ في صدرِهِ مُستبسِلُ
لا الجوى لا الغمُّ لا الويلُ جِراحا   تُسكتُ البلبلَ، عاشَ البلبلُ !!

أيّها الضاربُ في عُرضِ الصّحارى   تتمنّى واحةً تأوي إليها
عبثًا تطلبُ في الصّحراءِ دارا   تطرحُ الأعباءَ ما بين يديها

أيها الهاربُ من دُنيا الجحودْ   إنّ في صدرك أنغامَ الوفاء !
أيها المُدلجُ في ليلِ الجمودْ   إنّ في نفسكَ آفاقَ الضّياء !

أيها الظمآنُ في هذا العدَمْ   أنتَ نبعٌ ترتوي منهُ الظِّماء
أنتَ فيه يائسٌ تشكو السّقمْ   وهْوَ منْ يأسكَ يستسقي الرّجاء!

غنِّ هذا الموتَ ألحانَ الحياهْ   واسقِ صحراويْكَ من خمرةِ حسِّكْ
ما أرى الينبوعَ في هذي الفلاهْ   فالتمسْهُ اليومَ في أعماقِ نفسِكْ!

(دمشق)   أمجد الطرابلسي

الصدى والنرجس

للأستاذ خليل هنداوى

مهدة إلى الأستاذ دريني خشبة

« نرجس كان فتى سليل إلهين من آلهة الماء ، فأحبته « الصدى » فصدعنها وجفاها ، فشكت أمرها إلى الآلهة « هيرا » زوجة « أبولون » فلم يذعن ولذا مسخه أبولون زهرة هي زهرة النرجس . فكانت على غراره مصوبة برأسها لأنه كان يقف على حوافى الغدران وينكس رأسه ليستجلى جماله في مائها . أما الصدى فأصابها الهزال حتى لم يبق منها إلا القدرة على ترديد الأصوات »

أيها الرجل ! لاتصم سمعك عند ما تناديك المرأة فهى شئ غير الحب والجمال (خ . ه)

نرجس

على وجنتيه يرفُّ الشباب   وتزهو على الفجر ألوانه
ومن مُقلتيهِ يشعُّ الضياء   كأن الكواكبَ أخدانه
يفيض على الكون من حسنه   كأن حمى الحسن أوطانه

تمثَّلَ فى قلب كل الحسان   فكان الرجاء ، وكان المثل
لكم تهادى عليه القلوب   وكم تهادى عليه المقل
على كل ثغر يطوف اسمه   كأن اسمه - عندهن - الأمل!

رأته التى راعها حسنه   فراحت تذيع جواها به
وظلت تلازم محرابه   كراهب دير بمحرابه
فيامن رأى من جفاها الكرى   موزعة النفس فى بابه !

لقد شفها منه هذا النفور   وصيَّرها الحب مثل الخيال
أيشعر رب الجمال الفتون   بما فى قلوب الها للجمال
فقالت : لآتيه فى خلوة   أبث هواى له فى اعتزال

وأشكو وأبكى لما حفَّ بى   فيرحم ما سال من أدمعى
وإمَّا استخف كشفت الضلوع   وأعلنت ما تحتوى أضلعى
وإمَّا نبا قلت : قف يافتى !   لتشهد عن كثب مصرعى

فيرسم فى مقلتي حسنه   وتسقط شكواه فى مسمعي
ويلبث مستعبراً مشفقاً   ويحنو كئيباً على مضجعي
وإذ ذاك أغفو على راحة   لأن حبيبي بقيم معى !

لقاء

رأته مُكباً على دافق   كمن تتراءى له خاطره
فما مدَّ عيناً لمن أقبلت   ولا لفت الطرف للزائره
ولكنها وجمت وهلة   تلملم آمالها الحائره

رأت وجهه فى رقيق الغدير   يرى الحسن منه ولا يشبع
فقالت : أتيتُ بلا موعد   إلى حاجة لم تكن تُدفع
فكان على زهوه ذاهلاً   عن الضوت ، يصغى ولا يسمع

أما راق عينيك حسنى النضير ؟   وهذا المقبَّل والمعتنق ؟
لقد لثم الفجر ثغرى الصغير   وضرَّج خدَىَّ لونُ الشفق
صفا كل معنى بجسمى الرشيق   وراق به كل شئ ورق ...

تسللتُ والفجر فى غبشة   جرى فى حواشى الدجى تبره
وجئتك يقتادنى لاهب   من الوجد لايتقى حره
أتغفو على الحب غفو الخلى   ومضناك يقتله صبره ؟

هنالك غيد تطير الأمانى   بهن لحسنك أنى ائتلق
ولكننى شبح هائم   أبيت على أرق أو قلق
تعال ! فما بىَ إلا رمق   وإلا تباريح تُذكى الحُرق

أراك تميل ولا تطمئن   فأهوِ علىَّ ؛ ولا تبخل
ألا رشفة منك فيها الرحيق   تقطر من ريقك السلسل
ألا قبلة يا حبيبى النفور !   ولكنه سار لم يحفل !

فى قمة الأولمب

وزفَّت إلى قمة الآلهات   وقد هالها منه ما هالها
وقصت على « هير » ما عالها   وأذهب فى الحب آمالها
فحنت لها آلهات الأُلمب   وكل بكى أو تباكى لها

لقد لج بى الوجد يا ربتاه   فقولى له يعطنى ما أشاء
أهم بتقبيله عنوة   فيزجرنى زاجر الكبرياء
فناديه حتى يلبى النداء   فزاد عتواً ... فكان الجزاء

نرجس والصدى

تعالين يا فاتنات الوجوه   تأملن فى النرجس الهائم
لقد مسخوا شخصه نرجساً   يظل على الماء كالحائم
يطيف بكل مسيل رقيق   ويحدق فى حسنه الناعم

مهبك يا ريح زاكى الأريج   فمن أين ياريح نفح العبير ؟
حنت حين هبت على نرجس   شذاه العبير ، هواء الغدير

من مشاهد دجلة فى الشتاء

للأستاذ محمد بهجة الأثرى

ويوم ببغداد فى شتوة ... كما تلسع العقرب الشائله
فليس الدثار يقى بردها ... ولا النار مشبوبة هائله
ترى المرء يصلى بكانونها ... وتأخذه رجفة خاذله
لمحت بدجلة فيه أمرءا ... تجرد كالإبرة العاطله
فطوراً يكب على جسمه ... كما ترحض الريطة الغاسله
وطوراً يعوم بتيارها ... كما انسابت الحية الوائله
يغوص كما الصخر يلقى بها ... إلى أن تظن به النازله
فيطفو على متنها جائلاً ... شبيه الحباب طفت جائله
تفنن فى عومه جاذلاً ... كراقصة رقصة جاذله
نظرت إليه وبي دهشة ... كما يجم القلب فى الآزله
تعجبت منه ومن حالتى ... ولى حالة عكسه حائله
حرام علىّ سوى فاتر ... من الماء فى القيظ فى القائله
تعجبت منه ولو راءنى ... لقهقه قهقهة هازله
كلانا عجيب. فسبحان من ... برا الناس شاكلة شاكله
ترى خلقه ظاهراً جائراً ... وباطنه حكمة عادله
تدق عن الفهم أسرارها ... وإن بلغ الرتبة الكامله
هو الكون أحجية أعجزت ... بنى الأرض قافلة قافله
علوا لجة الغمر من آدم ... وغاصوا وما عرفوا ساحله
بدائع دلت على مبدع ... وأعظمها القوة العاقله
فلا يزعمن جاهل فطنة ... فيجحد من جهله جابله
ألا إنما العقل مستبصر ... فهل ينزع النزعة الجاهله ؟!

(بغداد) محمد بهجة الأثرى

وقد بلل الماء أعراقه ... فطاب النسيم ورق النمير
وأما الصدى فهى ولهى تجوب ... من القفر كل بعيد المدى
وتحسب كل نداء نداه ... فتمضى تجيب الندا بالندا
لقد شحبت من أساها الصدى ... فليس تردد إلا الصدى ...

خليل هنداوى

رغبـــة

للشاعر الألمانى شيللر

للسيد عارف قياسه

من يستطيع أن يتصور غبطتى وابتهاجى ، حين أجد مخرجاً من هذا الوادى ، حيث سحب الضباب الصفيقة تنعقد فى جوه ، وتتلبد على عدوتيه ، وأقذف بنفسى فى الفضاء الرحيب

ثمت تصافح عينى هضبات ضاحكة مستبشرة ، كللتها خضرة أبدية ، وزينتها فتوة سرمدية

وا حسرتاه ! ليتنى عصفور ! ليت لى أجنحة ! إذن لدومت ثمت ورنقت فوق هاتيك الربى وتلك الهضبات

فلطالما رنت فى أذنى ألحان علوية ، ليس لى بها من عهد ، أفلتت من موسيقى ذلك العالم الطرب المفراح

ولطالما بلغنى أريجه العبق الفواح ، ممتطياً أجنحة النسيمات الرقيقة ، فسطع فى أنفى

ثمت أرى أثماراً ذهبية اللون تتألق خلال الأوراق الكثيفة ونباتات تتلألأ بالنوار ، لا تخاف قر الشتاء ولا صبارته

***

تالله ما أرغد الحياة وأهناها فوق هاتيك الربى حيث تذهبها بأرادها شمس أبدية !

ولكن أمواج تيار جياشة مزبدة ، تحظر الاقتراب علىّ ، وتمنعنى من الدنو ، وتملأ قلبي فرقاً ورعباً

فالزورق ينوس قرب الشاطىء ويرجحن ، ولكن واحسرتاه ليس له من ربان يدير دفته ! وماذا يضير ؟ فلنلجه فى غير وجل ولا إشفاق ، فان شرعه لمنشورة... فلنأمل ولا نقنط ، ولنجترىء ولا نفرق ، ومن يرج النجاة فليسلك مسالكها

إن أعجوبة فريدة تستطيع أن تنقلنى إلى ذلك العالم الجميل المفعم بالأعاجيب والملىء بالمعجزات .

(حماه — سوريا) عارف قياسه



قصة شرقية من كاثلين رودس

زبيدة

للأستاذ دريني خشبة

من دأب الزائرات فى بعض الممالك الإسلامية أن يَاْبَسْنَ كَوْثاً (١) أحمر يخلعنه لدى باب حجرة الزائرين ليراه الرجال فلا يدخلوها مادُمن فيها . وهـذه قصة الزوج المسكين صادق على ، الذى رأى الكوث الأحمر فلم يستطع أن يلج باب الحجرة ليلقى زوجه بعد سفر طويل عَبْر الصحراء الملتهبة المتلظية ، وما حل بصاحب الكوث من دمار

***

زبيدة ابنة الصائغ فتاة جميلة بارعة الحسن ساحرة اللفتات ، تميس كالغصن الرطب فى الروضة الفيحاء ، وتبسم كالزهرة الناضرة في الخميلة الغناء ... لم تكد تبلغ من العمر سنتها الثانية عشرة حتى حبسها أبوها في ظلام الخدر ، وأسبل على بدرها السافر خمار الأمر ، كما تعوّد الشرقيون أن يفعلوا ببناتهم إذا ما بلغن هذه السن المبكرة ، التي تُعَد فيها الفتاة لزواج مبكر كذلك ، بينما يكون بناتنا (في انجلترا) يتلاعبن في الحدائق ، ويتثقفن في المدارس ، دون أن تبدو عليهن بداوات الأنوثة الفائرة الثائرة ، التي هى أول إرهاصات الزواج

وكان جميع موسري المدينة ينتظرون اكتمال شباب الفتاة ليخطبوها من أبيها لأبنائهم ، وكان كل منهم حريصاً أشد الحرص على أن يفوز بها لابنه دون جميع الناس . وكانت حمرة الخوخ التي تتأرج بالعطر من خديها ، وتفتير النرجس الذي يَنْـفُث السحر من عينيها ، ثم هذه القَسِمات التي تتحوى حول فمها الدقيق الرقيق ... كان جميع ذلك مخلوقاً للحب ، موقوفاً على الهوى ، غير مُيَسّرٍ إلا لشباب غض مثله ريّانٍ كما إنه ريّان

وتقدم الآباء إلى الصائغ يخطبون زبيدة ، ولكن الصائغ كان يغلو في تقدير مهرها ليتخلص ممن لا يراه كفءاً لها ، وطمعا منه ألا يكون أحد قد قبض لابنته مهراً أكثر من مهر زبيدة . ولم لا ؟ أليست زبيدة أجمل فتيات المدينة وأرشقهن وأوفرهن فتنةً وأخفّهن روحاً ؟ وهى مع ذاك كاتبة قارئة تحفظ قدراً غير قليل من آيات الله وحديث الرسول وقصائد الشعراء ، ثم هي تجيد الانشاد والغناء حتى لا يغني مثالها بلبل ، ولا يجيد أن يرسل مثل نغمها ناي ولا عود ... أضف إلى ذلك كله مهارةً فائقةً فى الحياكة وأشغال الإبرة وشواغل المنزل ...

وكان أغنى أغنياء المدينة — صادق علي — رجلاً شيخاً ، أشرف على الستين ، وكان صديقاً للصائغ ، يقضى كل يوم شطراً من فراغه عنده ؛ وكانت أسعد لحظاته تلك التي يرى فيها زبيدة الصغيرة تلهو بعرائسها أو تعبث بِسِلْيها ، وهى مشرقة أمام الدكان بين أترابها كالقمر الحالم بين الأنجم الحَسْرى ... ولم يكن أحد يفكر في أن هذا الشيخ الذي أوهنه الكبر قد ثوى فى فؤاده من حب زبيدة ما لم يثو فى أفئدة الشبان اليوافع ؛ وأنه صمم على أن يشتري هـذا الجمال وذاك الكمال بذهبه الذي لا يكاثره في ضخامته أحد ... فلما تقدم خاطبا زبيدة إلى أبيها ، هش الرجل وبش ، وعده فخراً أي فخر أن يصهر إلى صادق علي ذي الكنوز والضياع والأملاك الشاسعة ، والقصور المنيفة العامرة

(١) كاثلين رودس من أشهر الكاتبات الانجليزيات ومن أحبهن إلى بنى جنسها . ولها قصص عظيمة سامية ولكنها في هذه القصة تكتب متأثرة إلى حد كبير بروح ألف ليلة . وقد أطلقت على القصة (الكوثان الأحمران) والكوث أو القفش هو ما نسميه الشبشب

وذعرت زبيدة أيما ذعر لما صعقها أبوها بهذا النبأ . وكيف لاتذعر وهي تعرف الرجل أحسن المعرفة ، وطالما قدمت له أقداح الشاي المعطر ، وفناجيل القهوة العربية ، في دكان أبيها ؟ وكيف لاتذعر ، وهي يعز عليها أن يذبل شبابها الفينان ، في هاتين اليدين الثلوجتين ، وتحت ظلال تلك الشيبة الناصعة ، وهذا البدن المهزول المعروق ... إن سِنِيها الثلاث عشرة لتنوء تحت كلكل السنين الستين التي يرزح تحتها هذا الرجل ... وإن حمرة الخوخ وتفتير النرجس وقسمات الخدين وجنة بدنها الخصب الناضج ، لأعز من أن تشرك صادق علي (١) في قبره القريب ! فلم لاتفزع الفتاة من النبأ المزعج الذى فجأها به والدها في أمسية شقية فتقول له :

— أبتاه ! عمرك الله ماذا تقول ؟ ما أظنك إلا ساخراً بي ! إن صادق علي رَجُل عادل ، وأحسبه لايرتضى هذا الظلم الذى يوشك أن يحل بي ، فهو شيخ عجوز طاعن في السن ، وأنا بعد فتاة صغيرة لم تكد تنقضي طفولتي ، فأين أنا وأين هو ... لا لا يا أبي ...

فيتلطف أبوها ويقول : « هذا حق ، إلا أنه يا ابنتي رجل موسر غني ضخم الثراء ، وقد مهرك مهراً لم تمهر بمثله فتاة في المدينة ؛ وهو مع هذا يحبك وسيحرص عليك كروحه ، وحين تصبحين زوجه سيحترمك الجميع وتكونين على رأس السيدات قاطبة ... ثم هو برغم سنه قويٌّ فتيٌّ مفتول العضل ، غض الإهاب موفور الشباب ...

فتعبس الفتاة وتقول شاكية : « أوه يا أبي ! ولكني لا أستطيع أن أحبه ... هل ضقت بي ذرعاً يا أبي فتريد أن تقذف بي ولما استمتع بعد بشبابي ؟ ! دعني أعش معكم قليلاً يا أبتاه ! دعني أستمتع بالشباب الحلو ، وأهنأ بأفاويق الصبا الغريض !

واتقد عينا الأب الجشع بالغضب ، وهم أن يبطش بزبيدة المسكينة التي تقدمت في سذاجة وخوف ، فطوقت أباها بذراعيها اللدنتين ، وأسندت رأسها الصغير إلى صدره الكبير ، وانطلقت تبكى

— أسكتي يا ابنتي ! إن الفتاة العاقلة المهذبة هي التي لاتضطر أباها إلى أخذها بالشدة ، بل ما على الوالد إلا أن يأمر ، وما عليها إلا أن تطيع . إنني لست كهؤلاء الآباء الذين نشأوا أبناءهم على احترام العصا ، ولكنني أرجو ألا أضطر إليها إذا ركبت رأسك ولم تصيخي ولم تسمعي !

وازلزل قلب الفتاة ، وذكرت ما كان يعاملها أبوها به من اللطف والظرف والرقة والرفق ، وأنه ما ساءها قط بضرب ولا تأنيب ، وأنها ، وما تزال ، كانت كل شيء له في هذه الحياة ، لأنه لم يكن له ولد غيرها ، وأنه طالما جلب لها اللعب ، وترضاها بالدُّمى ... فسكنت وقالت : « عفواً يا أبي ... » وسر الرجل التاجر ، وقبل ابنته وقال : « الآن أنت ابنتي حقاً ... أنت زبيدة المؤدبة المهذبة المطيعة ... غداً يحضر صادق على فيثر ذهبه تحت قدميك ، ولا يمضى شهر حتى تُزَفي إليه

* * *

وكان لزبيدة خادمة نوبية أبنوسية السواد ، وكانت بها حفية وعليها عطوفا ، فأهرعت إليها زبيدة تقول :

— فاطمة ! فاطمة ! هل علمت ؟ لقد أمر أبي أن أتزوج من صادق علي العجوز الغنى الأرمل الذى سنه أضعاف سنى ؟ ! وهو يقول إنني سأزف إليه قبل شهر ، فهل رأيت ؟ آه يا فاطمة أنا لا أطيق هذا ! ساعديني بربك حتى أنجو من هذا العذاب

— آه يا صغيرتي العزيزة ! لا بد أن تتم مشيئة أبيك ! حقاً إن صادق على رجل عجوز أرمل ، ولكنه غني واسع الغنى ، وستنعمين عنده بما لا تحلم به فتاة !

فجحظت عينا زبيدة ، وقالت للنوبية المشئومة :

— حتى أنت يا فاطمة ! وسرى الذى ألقيته إليك أمس ؟ هل نسيته ؟

فوضعت النوبية إصبعها الأبنوسى في فمها المرجاني ، وأنشأت تقول :

— صه ! أسكتي يا صغيرتي ! إياك أن تنبسي بهذا الهذر بعد فقد يذهب به طائر سوء إلى من تكرهين أن يعلمه ... حقاً ، أنا لم أنس ما قصصت علىّ من غرام عمران الشاب صاحب الناى... ولكن هذا العبث لا بد أن ينتهي الآن ، ويجب ألا تلتقيا بعد اليوم !

(١) نستبيح اللغة في الوقوف على الاعلام المنصوبة هكذا

— بيد أنى أحبــه يا فاطمة ! إنه جميل ويافع ... وعزفه أحب إلى وأحلى من غناء النسيم فى أفنان شجرات اللوز ، وصفاء عينيه أوقع فى النفس من صفاء الماء النمير فى الغدير ... إن له لمساً ناعماً كأوراق الورد يا فاطمة ! أواه لو أننى زففت إليه بدلاً من صادق على !

— حسبك ! إنك إذن كنت تلقينه ! والله لو علمت بهــذا لفضحتك عند والدك منذ أسابيع !

وهكذا اسودت الدنيا بأسرها فى فؤاد الفتاة ، فلقــد كانت ترجو أن تعينها فاطمة على بلواها . فانعكست الآية ، وانتشر ليل أحزانها من وجه النوبيه البغيض

لقد أحبت زبيدة عمران ، وأحب عمران زبيدة ، لأنهما نشآ فى مهد الطفولة الناعم ، وشبا على غرار الشباب الغريض ، فبارك الله قلبيهما ، ومشى عليهما بيده الرحيمة الطاهرة . ولما وقفا مرة قبيل حجاب زبيدة ، تحت ظلال أشجار البرتقال فى حديقة بيت الصائغ ، نقل الأرج الحلو شذى حبهما من قلب إلى قلب ، وعرفا لأول مرة سر الوجود ، ونظر بعضهما إلى بعض نظرات عميقة جديدة مغرورقة بالدموع ، تنسكب من أغوار الفؤاد لا من أطراف العين ... وظلت أشجــار البرتقال هيكلهما الحبيب ، يتناجيان فى ظله ويتشاكيان ، هى فى الثالثة عشرة أو فى فجر الرابعة عشرة ؛ وهو فى الثامنة عشرة ، أسود العينين ، مسبل الشعر ، وضاح الجبين ؛ ثغره الباسم كالأقحوانة ، وخــده المكسو بالخمل مهيأ للقبل ، وشبابه اليانع كنضرة الحديقة ، وماءة حسنه تسكب نداها فى روح زبيدة ، القسيمة الوسيمة ، الفتان الحسان التى لها هذا الفم وذاك الجسم ... تبارك الله ! ...

يا للقضاء الساخر ! لقد قطف الحبيبان جنا القبلة الأولى ... القبلة الشهية السحرية التى غيرت معالم الأرض ، ودارت برأسيهما حولها ... فى صبيحة اليوم الأسود الذى تكلم فيــه الصائغ مع فتاته ، فصعقها بالنبأ المشئوم

لقد باتت زبيدة ليلة يالها من ليــلة ، تتقلب على فراش من الشوك ، وتجتر صنوفاً مهلكة من الهموم ، وتطيف برأسها المتقد شهب من الأفكار تقذف روحها بالصواعق ... حتى إذا انبلج الفجر ، وانفلق الصباح ، وثبت كالقطاة من سريرها الــكئيب وطوت الدرج دون أن تنتعل حذاء يقى قدميها المعبودتين ، وذلك مخافة أن توقظ أحداً من النُّـوام الأشقياء ، ثم انفلتت إلى الحديقة قبل أن يهتف المؤذن هتاف الصباح الرهيب : « الله أكبر ! الله أكبر ! » وقبل أن تنتثر أوراق الورد على جبين المشرق ... ومضت إلى الهيكل ... بيت القدس الحبيب ... إلى شجرات البرتقال ، ووقفت ثمت ترتقب عمران الذى كان منها على موعد ... ولم تبال بقطرات الندى التى كانت تنهلّ معطرة بنفمة الورد ، وعبير أزهار اللوز ، ورَوْح الزنبق والياسمين ، لأنها ملائكة الحب تجبر القلوب الـكسيرة ، وتمسح الدمع من عيون العشاق ...

وأقبل عمران فى ظلام البعد يسكب فى آذان الطبيعة النائمة موسيقاه ، ويساعد المؤذن التقى بنايه الفردوسى ، فتصحو البرايا وتهتف مع المؤذن ومع عمران : « الله أكبر »

وروّع عمران ما رأى من وجوم حبيبته ، وما لمح من لؤلؤ دمعها الذى يوشك أن ينهمر : « ماذا ؟ زبيدة ! مالك ياحبيبتى ؟ لقد كنا بخير أمس ! فماذا ؟ ما بالك باهتة هكذا كأننا فى أخريات رمضان ؟ » ولفّت زبيدة ذراعيها الحبيبين حول عنق فتاها ، وجعلت تصعد آهاتها وتقول : « آه يا حبيبى ! لقد كان مالم يكن فى الحسبان . لقد خُـطِبت ! وقضى أبى أن أزف إلى صادق على العجوز الأرمل بعد شهر من الزمان ! »

وتصدع قلب الوامق المحب ، وبكى ، وبكت معه زبيــدة ؛ وطفقا ينعيان أحلامهما ، ويتغنيان آلامهما ، ولا يدريان ماذا يصنعان . وكان الفجر الحزين يبكى معهما بدموع الندى

وجلسا على العشب المبلل ساعة ، وزبيدة نائمة غارة فى صدر حبيبها ، وكلما حاول عمران أن يتكلم انحبس منطقه وتكلمت جفونه ، ولم يملك إلا أن يغمر حبيبته بالقبل ، يطبعها فى شعرها المغدودن ، وفوق جبينها الشاحب ، وعلى صدرها المرتجف ، حتى ذرّ قرن ذكاء ، وآذنتهما بالفراق ، فهب الفتى المتبول يعانق زبيدة وزبيدة تعانقه ، ويقبلها وتقبله ... ثم افترقا ... هى كالشبح فى ظلال الأشجار إلى القصر الرهيب ، وهو كسير القلب ، مهيض الجناح ... إلى ... الصحراء ، لا يدرى أيان يذهب

* * *

وجعلوا يُسمِّنون زبيدة فيقدمون لها كرات الشهد معجونة بالأفاويه ، ويدسون لها السمان ، ويبالغون فى انتقاء الآكال ...

ولكن زبيدة مع ذاك جعلت تشحب وتشحب ، ويذبل جسمها ويضوى ، وأبوها القاسى يرى ذلك فيحزن ، ثم يواسيها بكلمة جافة فتبدى له الرضى . حتى إذا كانت ليلة الزفاف ، وخرجت الفتاة من الحمام ، وسيقت إلى سجن زوجها ، أخذت تودع الحديقة عن كثب ، وترمق هيكل الحب المقدس تحت ظلال البرتقال ، وتذرف العبرات الحرار ، وفاطمة الخبيثة تشهد ولا تتصدع ، بل تبسم وتتفكه ... وتزغرد وتغنى ...

ومضت الأيام ... ولم يأل صادق على جهداً فى ملاطفة زبيدة ومداعبتها ، ولم يترك حلية من ذهب أو ماس أو لؤلؤ إلا اشتراها لها مهما كان ثمنها ... ولكن الفتاة كانت مع ذاك تشحب وتشحب ، ويشتد شحوبها ... لأنها لم تنس عمرانها الفتى الجميل الذي زاد جماله وتضاعف حبه بازدياد كراهتها لصادق على ...

ولم يكن الشيخ العجوز يسمح لزبيدة بمغادرة باب القصر... حتى ولو إلى الحديقة الواسعة الفيحاء التى تحيط به ، فكانت تصعد إلى السطح ، لتتنسم أخبار حبيبها فى أديم السماء ، ولتنشق عبير الحب القديم على أجنحة الذكريات !

فبينا هي على السطح يوماً إذا بها تسمع موسيقى حلوة فى حديقة القصر ، وإذا الموسيقى إرنان ناى كناى حبيبها ... فأطلت لترى من صاحب الناى ، فوجدت بستانيًا يجمع الأوراق المتناثرة فوق عشب الحديقة ... وكأنما جذبته روحها اللهفانة فرفع رأسه إلى السطح ... والتقت الأعين ... وعرف كل حبيبه

لقد عمل عمران بستانيًا لدى صادق على ... لينشق الهواء الذى تنشق منه سالبة لبه ، وساكنة قلبه ... وهو مع ذاك لا يحلم بلقائها ... !

ودارت الأرض مرة أخرى ... واستيقظت آمال وأحلام !

وكان يحس عمران هذه اللحظة السعيدة التى يرى فيها كل أصيل وجه حبيبته ، وتلتقى عيناه بعينيها ... لكن الحب أجرأ من هذا وأشجع ... وهو لا يبالى أن يسلك سبل الجحيم ليصنع ماصنع باولو وفرنشيسكارا[1] ... فتبدلت النظرة فصارت ابتسامة ثم تمتمة ، ثم تلويحاً بأعواد من الياسمين ... ثم محاولة لقاء ...

***

ولقى صادق زوجته فشدهه منها تبدل حالها وتدفق الدم الشاب الفتى فى خديها ... وأخبرها أنه مزمع سفراً طويلاً فى الصحراء ، قد لا يعود منه قبل أسبوع ، لأن الشيطان نزغ بين نفر من أقاربه ، فهو ذاهب لإصلاح ذات بينهم ، وإحلال الصفاء محل الجفاء فيهم ؛ ثم أوصاها بالقصر ، وحذرها — فى تلطف — من مغادرة بابه ، حتى يؤوب ... ووعدته أن تكون عند ظنه بها ، وفية له ، حفية به ، عاملة على مافيه رضاه !

وسافر صادق على ... واستطاعت زبيدة أن ترسم الخطة للقاء عمران ... وكلمته حين أمنت مكر الخدم وقت غدائهم ، خلال (مشربية) مشرفة على الحديقة ، فاتفقا أن يزورها فى زي امرأة (!) وأن يعد لذلك كوناً أحمر وملاءة سوداء ونقاباً ... وأن يتخذ اسماً مستعاراً ، وليكن (مرسينه) ... ولم يكن أحد من الخدم يعرف من هي هذه السيدة مرسينه التى تريد لقاء سيدتهم ، ولكنهم لم يشكوا قط فى إحدى زائرات القصر ، ولهذا كانت الخادم ، بعد إذ تقدم أكواب الشاي المعطر ، أو أقداح القهوة العربية ، للسيدة مرسينه ، تنسحب من الطابق كله ... فيخلو الجو للحبيبين المشوقين !!

ومضى الأسبوع على أحسن حال بينهما من تساق الحب وتشاكى الهوى ، وبل أوار القلوب ، ثم جاء رسول من لدن صادق على يحمل رسالة من مولاه ، أن قد شجر خلاف آخر ، وأنه قاض أسبوعاً آخر عند أهله ...

وفرح عمران أيما فرح ... وطفر قلب زبيدة ... وما كان أجمل عمران وهو يبث حبه إلى فتاته ، وهو يعانقها فى شدة وحرارة ويقول : « أسبوع آخر ؟ وما سبعة أيام يازهرة حياتى وننفصل بعدها ، وتقبل الشفتان الكريهتان فتقطف القبل الحلوة المعسولة من فمك الرقيق الدقيق ، وينحط الصدر البغيض الميت فوق صدرك الناهد الأغيد ، وتنقلب السلاسل الذهبية التى تربط قلبينا بأغصان الورد فتؤذى قلبك بأصفاد من حديد ؟ ! »

بيد أن صادق على أنجز أعماله فى ثلاثة أيام أو نحوها ، وأقبل يحث المطى عبر الصحراء ، فوصل قبل ميعاده ... ووصل والمحبان يرشفان كؤوس الهوى ، ويتبادلان سلافة الحب ، فلما أقبل

(١) كانا متحابين فى الدنيا ، فلما ماتا دخلا النار ، ولكنهما التقيا فى الجحيم فنسيا لظاها بحلاوة القبل ! (دانتى)

الزوج مشوقاً إلى لقاء زوجه ، نظر فوجد الكوث الأحمر لدى الباب ، فتلبث قليلا ، وجعل يروح ويجيء ، وينتظر بجدع أنفه أن ينصرف الزائر فلا ينصرف .. ثم يسأل الخادم فيعلم أنها امرأة تدعى مرسينة « تطيل اللبث يا مولاى عند سيدتى ، وتحضر إلى هنا كل يوم ... و ... و ... »

ويمضى الرجل المسكين فيدخل إلى الحمام ليذهب عنه غبار السفر

ويصعد الخادم فيرهف سمعه ، وينصت ليسمع حديث من فى الغرفة ... ولكنه بدلاً من أن يسمع حديثاً رن فى أذنيه قبل فضية ، وآهات موجعات ... ثم ينصت ... فيسمع شكوى ونجوى ... وسباباً مقذعا ، فيعلم السر ... ويسقط فى يده : « تالله لو علم مولاي لذبح حبيبها أمام عينيها »

وفضل الخادم أن ينقذ الموقف ، فنقر بأصبعه على الباب ، واستوى عمران واستتر ...

— أدخل !

— سيدتى ... لقد عاد مولاى صادق على فجأة ... وهو يريد أن يراك ! وارتبكت زبيدة ، وأسقط فى يدي عمران

— لا بأس ... إذهب أنت !

وتبادل الحبيبان القبل مع ذاك ، ثم فتحت له زبيدة شباك (المشربية) فانفتل منه وقد لبس الكوث الأحمر

***

وخرجت زبيدة لتاقى زوجها وهي مطمئنة آمنة ... ولكن ساعة بأكلها مضت دون أن يخرج من الحمام ... ومضت ساعة أخرى ... وأرخى الليل سدوله ... وأمرت الخدم فأوقدوا السُّرُج ... وآثرت أن تذهب إلى الحمام لتلقى زوجها ... وما كادت تفعل حتى برز صادق على من إحدى الغرف وقد بدل ثيابه ، فعانق زبيدة عناقاً حاراً وطفق يغمرها بقبل لا جنية ولا مشتهاة !

— قط ما عرفت الشوق كما عرفته فى هذا السفر يا زبيدة !

— ... ؟ ...

— لقد أحضرت لك هدايا وألطافاً جمة ... يا غلام ! أحضر السلال والحقائب

وأحضر الغلام السلال والحقائب ، وطفق صادق على يحل الأربطة ، ويخرج عقود اللؤلؤ وأقراط الذهب وأساور الفضة ، ثم يضع كل ذلك موضعه من عنق زبيدة وجيدها وأذنيها وذراعيها .. ثم فتح حقيبة وأخرج ثوباً ثميناً موشى فخلعه عليها فبدت فيه كامرأة هرون الرشيد !

— هذا جميل ... أشكرك

— وأجمل منه الهدية التالية ... يا غلام ... أحضر السفط !

وأحضر الغلام السفط الكبير فقال صادق على :

— أما والله لا يفتح السفط إلا زبيدة ...

فارتجفت يدا زبيدة كأن فيهما كهرباء ، وفتحت السفط ، ثم جعلت تخرج ما فيه من طرف وتحف ...

ولكنها اقشعرت فجأة ، حينما اصطدمت يداها بِكَوْثٍ أحمر ... ثم بثوب فيه شئ ثقيل ...

ماذا ... واحرباه !! رأس عمران الجميل ... الرأس الذى كان يرسل عينيه الساحرتين الدعجاوين فى عينيها الوامقتين المشغوفتين ... ! الرأس الذى كان لسانه يصوغ أحلى عبارات الغزل ! الرأس الذى كان فمه ينفخ فى الناى فترقص الملائكة ...

— زبيدة !! أحزينة أنت !

— اقتلني ... اقتلني يا صادق !

— لا ... بل أعاقبك بأشد من القتل ! ستعيشين لى ! أنظري ! هاتان الشفتان المرتعشتان ستنطبقان على شفتيك رغمك ... لا شفتا عمران ! وهذا الوجه المكلثم المجعد الشائه سيزحمك دائماً ... وهذا الصدر الثقيل سيضايقك أبداً ... ستكونين لى بعد عمران يا زبيدة ! لن يشركني فيك أحد بعد اليوم ! أليس كذلك ؟ ها ها ... ها ... »

ولفت الدنيا برأس زبيدة ، ولكن فكرة طافت بدماغها فجأة ، فجثت تحت قدمى صادق على ، وطفقت تتوسل وتتضرع ، وتلف يديها على وسطه ، حتى إذا لمست خنجره ، انتزعته بقوة ، ثم أغمدته فى صدرها ...

— لا لن أكون لك أيها المسخ ، وسأكون إلى الأبد لعمران ... سأظل وفية لك يا عمران ... لك وحدك ... يا ... عمران ! ...

***

الشباب للشباب يا شرق ... وإلا ... فالكوث الأحمر يعمل عمله

دريني خشبة



جوائز أدبية مصرية

تنشر الرسالة فى هذا الباب كثيراً من أنباء الجوائز الأدبية التى ترتبها مختلف الأمم لتشجيع الآداب والعلوم ، ولكنها لم تستطع أن تنشر حتى اليوم أنباء « الجوائز الأدبية المصرية » ذلك لأن هذه الجوائز لم توجد مع الأسف حتى اليوم ؛ بيد أنه مما يدعو إلى الغبطة أن تكون وزارة المعارف قد فطنت أخيراً إلى هذا النقص ، فأمامها الآن مشروع قدمه منذ حين صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفى باشا سفير مصر فى لندن يقضى بإنشاء خمس جوائز أدبية تمنح للمتفوقين من كتاب العربية فى الآداب والعلوم ؛ وقيمة هذه الجوائز ألف جنيه لكل منها مائتا جنيه قد تزاد إلى مائتين وخمسين ، ويمنح منهـا أربع للمصريين ، وترصد الخامسة لأبناء الأقطار العربية الشقيقة . ولم توضع نصوص المشروع النهائية بعد ، ولكن هناك تفكيراً فى أن يكون باب التشجيع والمنافسة مفتوحاً لكل كتاب العربية من مختلف الأقطار فى جميع الموضوعات الأدبية العامة مثل الشعر وتاريخ الأدب والقصة والقطع المسرحية وأمثالها ؛ وأما الموضوعات المصرية المحضة فتقصر المباراة فيها على المصريين . وعلى أى حال فإن الغاية الأساسية من ترتيب هذه الجوائز هى تشجيع الآداب العربية بصفة عامة ، وهى غاية نحمدها ونرجو أن توفق الجهات المختصة إلى تحقيقها . ذلك أن الأمر لا يتعلق هنا بوزارة المعارف فقط ، ولا يكفى فيه أن ترتب جوائز خمس ؛ فهنالك الجامعة المصرية وكلياتها المختلفة ، وهنالك الجامع الأزهر وكلياته المختلفة ، وهنالك مختلف الهيئات العلمية والفنية ، فهذه كلها يطلب إليها أن ترتب الجوائز الأدبية والعلمية . وإذا كانت وزارة المعارف تعتمد فى كل عام نحو عشرة آلاف جنيه لتشجيع الحركة المسرحية ، وتغدق من هذا المبلغ معظمه على الفرق التمثيلية الأجنبيه ، فإنه يكون من التقتير الواضح أن ترصد ألف جنيه فقط لتشجيع الحركة الأدبية . لذلك نحب أن نعتبر مشروع الجوائز الحالى بداية فقط نرجو أن تثمر ثمرها المرغوب ، وأن تؤازرها جميع هيئاتنا العلميـة ، فترتب كل جوائزها لتشجيع التفكير العربى فى مختلف نواحيه

اغلاق مقهى أدبى شهير

من أنباء باريس أن مقهى « كافيه ده كرواسان » الشهير قد أغلق نهائياً بعد أن لبث مدى تسعين عاماً منتدى للأدباء والصحفيين . وكان هذا المقهى التاريخى يقع على زاوية شارع مونمارتر عند التقائه بشارع كرواسان الصغير ؛ وقد اشتهر منذ أواخر القرن الماضى بأنه مقهى الأدباء الناشئين . ثم غدا قبيل الحرب مجمع الصحفيين يحتشدون فيه صباحاً ومساء ليكتبوا أخبارهم أو مقالاتهم ؛ وهكذا كانت تحرر فيه معظم الصحف البارزية ، وتعقد فيه الاجتماعات الأدبية والصحفية . وكان صاحبه مسيو فيدمان أديباً يشرف على كثير من الاجتماعات الأدبيـة التى تعقد فى مقهاه . ومما هو جدير بالذكر أن جان جوريس الكاتب الفرنسى والزعيم الاشتراكى الشهير قتل فى أغسطس سنة ١٩١٤ أثناء جلوسه فى شرفة هذا المقهى

وقد تحول تيار الأدباء والفنانين فى العهد الأخير من مونمارتر إلى مونبارناس ، وأخذت مقاهى مونمارتر ومطاعمها الشعبية تواجه الأزمات نظراً لانصراف أصدقائها القدماء عنها ، بينما أخذت مقاهى مونبارناس ، ومعظمها جديد ، تزخر بعملائها الجدد ، وقد عرفت مقاهي هذا الحى البارزى الشهير دائماً بأنها مجمع الفنانين ، ولكنها اليوم تغدو أيضاً مجمع الأدباء والكتاب من كل ضرب

اقتراح انشاء جامعة عراقية

أقام أدباء بغداد حفلة تكريم للدكتور زكي مبارك فألقى في تحيتهم خطبة جاءت في ختامها الكلمة الآتية :

« لقد رحلت عن مصر وأنا مصمم على الاستبسال في الدعوة إلى إنشاء جامعة عراقية ، فلما وردت العراق لم أجد من يشجعني على تحقيق ذلك الأمل النبيل ، وصارحني بعض الرجال بما يعترض إنشاء الجامعة العراقية من عراقيل

فأنا أنتهز هذه الفرصة تسجيل هذه الرغبة بطريقة علنية ، وأصافح بيمناي أنصارها الأوفياء ، وأدعوكم إلى الكتابة عن هذه الأمنية في كل يوم ، والكلام عنها في كل مجتمع ، والالحاح بها على جميع الوزراء . واعلموا أن من العار أن تخلو بغداد من جامعة وباسمها الخالد تتعطر الأفواه في جامعات الشرق والغرب

إن الحجة في أيدينا أيها الزملاء ، فعندنا نواة الجامعة العراقية ، عندنا النواة السليمة لأربع كليات ، فلنبادر بتأسيس الجامعة العراقية بصفة رسمية ، ولنبادر بخلق الصلات العلمية والأدبية مع الجامعة المصرية وجامعة باريس ، ولنقرر منذ هذه الساعة أن نفتتح الجامعة بمهرجان مشهود في آذار المقبل ، شهر الأزهار والرياحين

أيها الصحفيون الشرفاء

لقد كنتم عند ظن الوطن الغالي في ظروف كثيرة ، فشدوا من عزائمكم لنصرته هذه المرة ، وحققوا أشرف غاية لحملة الأقلام وهي إعزاز العلوم والآداب والفنون

أيها الزملاء

لقد كرمتموني بهذا الاحتفال الرائع ، فهل تعرفون متى أردّ لكم هذا الدين النبيل ؟

سأرده يوم يتقرر بفضل مسعاكم إنشاء الجامعة العراقية ، ويومئذ لا أكتفي في تكريمكم بألوان الحلوى وأكواب الشاي ، وإنما أعقر لكم الذبائح من عرائس الشعر الجميل »

وقد نوهت جميع الجرائد العراقية بهذه الدعوة التي صادفت هوى من أنفس الحاضرين وفيهم أقطاب التعليم بوزارة المعارف العراقية

المهرجان الملكي لجماعة الأسبوع الصحي

رأت جماعة الأسبوع الصحي أن تقيم لمناسبة زواج جلالة الملك الميمون مهرجاناً في إبان الزفاف ، تسهم فيه بنصيبها في أفراح الأمة ، وتعلن عظيم سرورها بذلك الأملاك الكريم . وقد تألفت من بين الأعضاء القائمين بهذا المهرجان لجنة أدبية لتدعو الشعراء والكتاب والخطباء والزجالين إلى مباراة بيانية تقام في مكان وزمن يعلن عنهما فيما بعد . وإن في التقدم إلى تلك المباراة تسجيل فخار وشرف لما للموضوع القول من جلال الخطر ، وسمو الشأن ، وكرم المنصب ، وشرف المحتد ، وعلو القدر بين العالمين

وإن ميدان البيان البليغ لمتسع ، شباب رائع فتي ، وعقل ألمعي ، وقلب تقي ، وخلق عظيم ، ودين مكين ، قد ضرب أروع الأمثال للشباب الطاهر ، فسارع إلى الزواج ، وهو سنة الاسلام ونصف الدين ، وبادر إلى الإحصان ، ليكون أسوة حسنة لشباب مصر في إجابة دعوة الرسول الأمين

وإن اللجنة لتتقدم داعية رجال الأدب إلى تلك الحلبة الطاهرة المباركة ليتقدموا إليها بشعرهم ، وخطبهم ، وكتاباتهم ، وأزجالهم وأدعيتهم الضارعة إلى الله تعالى أن يقي مليك مصر خائنة الأعين وما تخفي الصدور

ومن يقع الاختيار على كلامه يكن له حق إلقائه في يوم المهرجان ، أو يسجل في كتاب يرفع إلى مقام المليك ، وينشر بين الناس تذكاراً خالداً . وستضع اللجنة جوائز مختلفة لمن يحوز قصب السبق في المباراة . وإن أقصى ميعاد يرسل فيه الأدباء ما تجود به قرائحهم هو يوم الاثنين ١٠ يناير سنة ١٩٣٨

وترسل إلى الأستاذ محمد عبد الجواد الدرس بدار العلوم العليا بالمنيرة بمصر

مقرر اللجنة

محمد أبو زهره

المدرس بكلية الحقوق

معركة الفاشستية والديمقراطية

يتخذ النضال الدولي يوماً فيوماً صورة صراع واضح بين معسكرين من المبادئ الخصيمة : الفاشستية والديمقراطية ؛ وهذه الظاهرة تستغرق اليوم اهتمام المفكرين والساسة في جميع الأمم .

وقد ظهر أخيراً كتاب يتناول هذا الموضوع بقلم الكاتب السياسي الأمريكي هاملتون ارمسترنج عنوانه « إما نحن وإما هم » We or They ؛ ونحن يقصد بها الكتلة الديمقراطية ، وهم يقصد بها الكتلة الفاشستية . ويستعرض الكاتب ظروف هذه المعركة بقوة ووضوح ، وهو يدرسها ويستعرضها منذ أعوام فى مجلة الشئون الخارجية الأمريكية التى يشرف على تحريرها ببراعة . ومن رأيه أن توجد اليوم بين هاتين الكتلتين من المبادئ هوة لا يمكن اجتيازها ، وإن إحداهما ستقتل الأخرى بلا ريب ؛ وكل ما هنالك هو السعي لمعرفة من يكون الظافر . فهل تنتصر الشعوب الحرة وتلك التى تريد أن تستعيد حريتها ، أم تنتصر عصبة الفاجرين الحمقى الذين يريدون أن يجعلوا من البشرية أداة حية لخدمة الحكم المطلق ؟

ويدحض الكاتب بقوة ذلك الزعم الذى تستتر وراءه الفاشستية منذ حين وهو أنها تخاصم الشيوعية وتعمل لسحقها ؛ ومع أنه ليس بالاشتراكي ولا بالشيوعى فإنه ديموقراطي فى تفكيره مؤمن بمبدأ سيادة الشعب وحكومة الشعب . وهو يرى أن الحرية هى أسمى ما يمكن أن يتمتع به شعب حر ، ولكنه يحمل على تلك الديمقراطية البرجوازية التى تستغل الحكم لمصالحها ومنافعها . ومن رأيه أن الجماعة المنظمة التى تعترف بعجزها عن تهيئة الأعمال للعاطلين وفتح الأسواق للأعمال والتجارة ، ومحاربة الصناعات المحتكرة ، وتخفيض مستوى العيش ؛ مثل هذه الجماعة أو الحكومة ليست جديرة فى نظره بالبقاء والحياة ، وليست بالأخص جديرة لأن تخاصم وتناضل أنواع الحكم الأخرى

ويشرح الكاتب نظرياته بأمثلة عملية من حوادث التاريخ الحديث والمعاصر ؛ ويرى فى المسألة الاسبانية ومسألة الصين أعظم ميدان لاصطدام القوتين الخصيمتين ، ويحمل بشدة على سياسة الدول الديمقراطية فى هاتين المسألتين ، ويرى فيها دلائل الاضطراب والضعف . وفى اعتقاده أنه ليس ثمت ما يحمل الدول الديموقراطية على كل هذه التقديرات الخطيرة التى ترتبها على مقابلة الهجوم بمثله ، وإنه قد يكون الخطر فى الميدان الدولى أقل بكثير إذا قامت الدول الديموقراطية بعمل ما مما لو استمرت فى موقفها السلبي الحاضر

روح العصر فى معرض باريس

كانت المعارض إلى عهد قريب تعنى بابراز البهارج التى تلفت الأنظار ، وتثير إعجاب البسطاء ، وإن عنيت أحياناً بعرض مدى التقدم الذهنى فى أمة من الأمم . ففى المعرض البريطانى الذى أقيم عام ١٨٥١ أنشىء هذا البيت العظيم الجميل الذي أطلق عليه « القصر البلورى » ، والذى دمره الحريق أخيراً وكان دائماً آية ذلك المعرض ، وحامل ذكراه للأجيال ؛ وفى معرض باريس الذي أقيم عام ١٨٨٩ أنشىء برج إيفل ، وكانت النزعة التى تمخض عنها نزعة فرعونية كالتى حدت بزوسر وخوفو وخفرع إلى بناء الأهرام ، وإلا فقد كان الفولاذ الذى استخدم فى بناء هذا البرج كافياً لبناء أسطول صغير يدفع بعض الأذى عن فرنسا . أما فى معرض باريس الأخير (١٩٣٧) فقد تجلى روح العصر ، وتناسى العارضون بعض هذه العنجهية التى كانت تجعلهم يبنون القصر البلورى ويقيمون برج إيفل . هذا وإن يكن المعرض الأخير يفوق كل المعارض السابقة رونقاً وعظمة وجلالا . وأحسن ما يشهد لهذا المعرض بتفوق روح العصر هذه الدار العظيمة التى أقيمت فى المعرض ، والتى أطلق عليها (دار الاستكشاف) والمراد الاستكشاف العلمى الذى تدين له الحضارة الحديثة بكل ما تتيه به على غابر القرون . فقد حشدت فى هذه الدار الهائلة جميع الاستكشافات التى أدت إلى تقديم الانسانية ، وخطت بالعالم أشواطاً بعيدة نحو الكمال . وهى مع ذلك لم تهمل الاستكشافات القديمة التى كانت سبباً مباشراً أو غير مباشر لما أبدعته القرائح الحديثة ... فبينا ترى جهازاً أتوماتيكيا (آليا) يكلمك ويشرح لك نظريات نيوتن وجاليليو فى الحركة والجاذبية إذا بك تنظر إلى جهاز آخر يوضح لك كيف تستنبط الكهرباء بأبسط الوسائل ، وكيف استخدمت الكهرباء بعد الاهتداء إليها فى الاضاءة وتحريك الآلات ونقل الصوت باللاسلكى والصور بالتلفيزون ... وتسير بضع خطوات فترى فوقك العالم السماوى بأكمله ، وقد جرت فيه كل النجوم والكواكب ، ووضحت فيه سدم المجرة ، وهكذا تعرف من الفلك ما كان يعوزك أن تعرفه فى أعوام ... ثم تنتقل فترى معهداً

للحياة (Biology) يضع بين يديك لامارك وهكسلي وداروين ، ويريك كيف تدرجت الحياة من الذر إلى هذا العالم الحافل بعجائب المخلوقات ... وأنت فيما بين هذا تشهد التجارب المدهشة لاثبات قوانين مندل فى الوراثة واستكشافات باستير و كوخ فى عوالم المكروب ... وقل مثل ذلك فى كل ما أفاد العلم فى البر والبحر وتحت الماء وفى أجواز الفضاء ... وقد تكلفت هذه الدار ملايين الفرنكات ، على أنها عوضت ما أنفق عليها ، إذ قد زارها حسب إحصائية المعرض فى المدة من ٢٥ مايو إلى ٧ أكتوبر الماضى ٠٣٨ر٦٠٠ر١ زائراً دفعوا جميعاً رسوم الدخول . وزارها غير هؤلاء ٠٠٠ر٤٠٠ طالب وعالم وأستاذ ، من جميع أنحاء الأرض ، وعقدت فيها المؤتمرات العلمية الطريفة لتبادل الآراء ومناقشة أحدث المستكشفات

ألف ليلة بالانجليزية

ما يزال كتاب ألف ليلة وليلة موضع إعجاب الأمم الأوربية عامة والانجليزية خاصة ، ولقد ظهرت ترجمات كثيرة لبعض قصص الكتاب فى لغات شتى ، ولكنه لم يترجم ترجمة كاملة إلا هذا العام ، وقد ظهرت الترجمة بالانجليزية فى أربعة أجزاء فخمة تعرض للبيع بأربعة جنيهات وربع الجنيه ، وهو ثمن يبهرنا نحن الشرقيين ويزعج جيوبنا ، ولكنه يدل على الروح العالى الذى يتقبل به الانجليز كنوز المؤلفات الرفيعة . ومترجم ألف ليلة هو الأديب الانجليزى الكبير پويس ماثر ، وقد وضع نصب عينيه وهو يترجم الكتاب أن يتحاشى العيوب التى ظهرت فى ترجمة جالان الفرنسية (١٧٠٤ — ١٧١٢) وترجمة لينز الانجليزية (١٨٤٠ م) وترجمة سير ريتشارد برتون (١٨٨٠ م) — ولم يفته أن ينتفع بمحاسن الترجمة الفرنسية التى وضعها الدكتور ج . ماردروس (١٨٩٩) وقد قلد هذه الترجمة فى بعض صورها فنقل الأشعار العربيـة إلى شعر انجليزى رائع ، وإذا عرفنا أن المترجم شاعر فذ علمنا إلى أى حد وفق فى نقل أشعار ألف ليلة

الى الأخ السودانى

كنت قادماً من بيروت . فلم أكد أنزل من السيارة حتى استقبلنى من كان فى (مكتبة عرفة) وهى مجمع الأدباء فى دمشق ، بكلمتك الرقيقة الصادقة ونصبوا من أنفسهم محامين عنك ، فوجهوا إلىّ أمر العتاب ، وأشد اللام ، حتى اضطررت إلى الاعتراف ، لأنى لم أجد لنفسى عذراً ، وقديماً قالوا الاعتراف يذهب الاقتراف

أي والله يا أخى إننا إخوة وإن اختلفت الألوان ، وتباينت الديار ، وحَّد بيننا الشرق ، ووحدت بيننا الآلام والآمال ، وآخى بيننا الله من فوق سماواته ، قال الله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) . وللسودان والله على سواد بشرتهم ، أطهر أفئدة ، وأسمى نفوساً ، وأدنى إلى الفضيلة والحق من كثير من بيض الجلود . وما أردت والله إلا أولئك السود من سكان أفريقية الوسطى ، وكانت كلمة أسرعت إلى اللسان ، قبل أن يتدبرها الجنان . فمعذرة يا أخى وشكراً لك على حسن ظنك بى ، والسلام عليك ورحمة الله

من أخيك : على الطنطاوى

الكومنترن أو الشيوعية الدولية

ترددت كلمة الكومنترن Comintern هـذه الأيام بمناسبة الاتفاق الثلاثى الذى تم بين ألمانيا وإيطاليا ثم اليابان لمقاومة الشيوعية — وكثير من القراء لا يعرفون ما هو الكومنترن الذى هو فى الحقيقة اسم منحوت من كلمتى Communist أى شيوعية International أى دولية ، فالكومنترن هي الشيوعية الدولية وهو اسم جديد للدولية الثالثة التى تحكم روسيا الآن ... والمدهش أن روسيا اليوم لا أثر فيها لتعاليم الكومنترن الأصلية التى وضعها الزعيم لينين ، ولكن الحكومة الروسية تدأب على نشر هذه التعاليم خارج حدودها لأنها ألد أعداء السلام العالمى

تصويب

وقع فى مقال « مصرع شجرة الدر » الذى نشر فى العدد الماضى تحريف فى علمين أولهما « توران شاه» وصوابه توران شاه والثانى الخليفة المعتصم العباسى وصوابه المستعصم بالله

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

فهرس الموضوعات للمجلد الثانى من السنة الخامسة

٩ ٥ ٦٦

(ن)

(ه)

فهرس الكتاب للمجلد الثانى من السنة الخامسة

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ض)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

وزارة المعارف العمومية

مراقبة الامتحانات

اعلان

بشأن التقدم لامتحان شهادة إتمام الدراسة بالمدارس الصناعية الثانوية من الخارج

قد تحدد يوم الخميس ١٠ مارس سنة ١٩٣٨ آخر ميعاد لقبول الطلبات لراغبي الدخول من الخارج فى امتحان شهادة إتمام الدراسة بالمدارس الصناعية الثانوية هذا العام

فعلى الطلبة الذين تتوفر فيهم الشروط الآتية تحرير طلباتهم على الاستمارة المخصصة لذلك التى يمكن الحصول عليها من المدرسة التى كان بها الطالب نظير دفع ثلاثين مليما وكتابتها بخط يده وإعادتها إلى المدرسة فى الميعاد المحدد بعد إلصاق الصور الفتوغرافية عليها :

(١) أن يكون الطالب سبق له أن دخل الامتحان المذكور ورسب

(٢) ألا يكون مضى على فصله من المدرسة أكثر من سنتين

(٣) أن يسدد رسماً قدره جنيهان مصريان

إدارة البلديات العامة

السكرتيرية الفنية

تقبل العطاءات بمجلس كفر الشيخ المحلى لغاية ظهر ١٧ يناير سنة ٩٣٨ عن توريد أدوات كهرباء وأدوات مياه وأدوات مطافىء وأدوات تنظيم وتطلب الشروط الخاصة بكل نوع منها من المجلس المذكور نظير ١٥٠ مليما للكهرباء و ١٠٠ مليم للمياه و ١٠٠ مليم للمطافىء والتنظيم

١ — ٢

إعلان

تعلن وزارة الأشغال العمومية أن آخر موعد لتقديم العطاءات الخاصة بعملية رصف الطريق الموصل من مكة إلى جدة والطريق الموصل من مكة إلى عرفات قد مد شهراً عن الميعاد الذى كان محدداً من قبل وبذلك يقبل استلام العطاءات عن العملية المذكورة لغاية ظهر يوم ١٢ يناير سنة ١٩٣٨ فعلى الراغبين فى تقديم العطاءات عن العملية المذكورة أن يراعوا إرسال عطاءاتهم قبل الميعاد المشار إليه

اعلان مناقصة

تقبل العطاءات بمكتب حضرة صاحب العزة مفتش رى القسم الثانى بطنطا لغاية ظهر يوم ٤ يناير سنة ١٩٣٨ عن انشاء كوبرى من الخرسانة المسلحة وأعمدة من الحديد الصلب على ترعة النمناعية بكيلو ٢٥٫٦٨٠

ثمن العقد مائة مليم وأجرة البريد ستون مليماً

6me Année, No. 235

Lundi - 3 - 1 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر المالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٢٣٥ « القاهرة فى يوم الاثنين أول ذى القعدة سنة ١٣٥٦ — ٣ يناير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

صفحة

الرسالة

فى عامها السادس

نتقل اليوم خطوتنا السادسة في سبيلنا القاصدة إلى غايتنا البعيدة ؛ وليس لنا عدة غير الإيمان ، ولا زادٌ غير الصبر ، ولا عونٌ غير الله . وعَسِيٌّ بالمؤمن الصابر المتوكل أن يبلغ وإن طال الأمد !

تعودنا منذ صدرت الرسالة أن نتحدث إلى قرائها وأصدقائها فى مثل هذا اليوم من كل عام ، نجدد لهم العهد الذى أعطيناه ، ونعرض عليهم الشوط الذى قطعناه ، ونتصل من وراء الغيب بأرواحهم العارفة العاطفة الآسية ، نسترفه بنجواها من الشُّقَّةِ الجاهدة ، ونستعين بهداها على المرحلة الجديدة

أما العهد فإننا نجدده ونؤكده . ولله علينا ألا يحله إلا خروج النفْس أو نكول العافية . وأما الشوط فكان رهَقُه محنةَ المجاهد وبلاء الدليل . انبثقت على جانبيه العوائق المثبطة من إلحاح المرض وغلاء الورق واضطراب السياسة ونغل الصداقة وشيوع الأدب الهزيل . فثبتت الرسالة فى مكانها لا تهِن ، واستقامت فى طريقها لا تحيد . وطريقها هو الطريق الوحيد الذى سنَّه الخُلق

الفاضل ؛ وهو أقرب الطرق إلى الغاية لأنه مستقيم . على أن استقامته طالما كانت — وا أسفاه — علة الإبطاء والبعد . فقد يعترضك وأنت مطمئن إلى السير فيه النهر الذى لا يُعبر ، أو الجبل الذى لا يجتاز ، أو العقبة التى لا تقتحم ، أو السبع الذى لا يُهاجَم ؛ فتقف مضطراً تعالج هذا العائق بالعزيمة والحيلة والجهد ، لأن الأخلاق الرقيبة لا تنفك تهيب بك من جهاتك الست :

« لا تتنكب الجادّة المثلى ، ولا تزغ عن الصراط السوى »

وتنظر حواليك فلا تجد إلا الفراغ والوحشة ، لأن الركب الذى كنت تسايره راعه الأمر وخذله الصبر وأعجلته الغاية ، فتبدد ذات اليمين وذات الشمال يرتاد المسالك السهلة ، وخلفك وحدك على سواء الطريق عرضة للجوع والخوف ! فإذا سمعت من هذا السائر المتروك صرخة ثائرة فاعزُ حدتها إلى الحائل الذى قام ، وإلى الرفيق الذى نكص !

***

ليس من طبع الرسالة أن تمالق الرغبات بالتمْنية ، ولا تستميل الشهوات بالوعد . فإن العمل الصامت أنطق الأدلة على توخى الحق ؛ والماضى المعلوم أضمن الوثائق للمستقبل المجهول .

هذه مجلدات الرسالة التسعة ! أليست هى شهادتها الصادقة على أنها أوفت بما عاهدت القراء عليه من إحياء الأدب القديم ، وإنشاء الأدب الحديث ، وتدعيم الأدب المصرى بقواعد الفن ، وتطعيم الأدب العربى بنتاج الآداب الأُخَر ؟

أليست هى ديوان العرب المشترك جمعت فيه الأشتات إلى الأشتات ، ووفقت بين الأصوات والأصوات ، ثم ألّفت من هذه الآلات المنفردة جوقة موسيقية متحدة تسكب فى مسامع الوجود أناشيد الخلود ؟

أليست هي كِتاب الشرق الجديد تجد فى صفحاته المشرقة روحيته وريحانه ، وتحس فى معانيه ومراميه إلهامه وإيمانه ؟

إن الإشادة بمجهود الرسالة حق علينا لأولئك الأقلام الكريمة التي أخلصت لله وللناس وللفن فجعلت منها هذه المجموعة التى لا تجد لها مثيلاً فى عصر من عصور اللغة

***

ليت شعري متى تغلط الأيام فنكتب هذه الكلمة السنوية خالية من الشكاة والألم ؟ هيهات هيهات لما نوَد ! إن شكوى الرسالة فى كل عام هى شكوى الأدب في كل يوم . وستدوم إن شاء الله ما دامت الحكومة لا تبالى الأدب ، والطبقة المتعلمة لا تقرأ الجد ، والكثرة الفاحشة لا تعرف القراءة .

قلنا وقال الناس لولاة الأمر إن الأمة لا يمكن أن تكون جسماً من غير عقل ، ومنفعة من غير عاطفة ، ومادة من غير أدب ؛ وإن الحكومة التي لا يعدو همها إصلاح الأرض وتوفير العدة وتقويم البدن لا تخلق إلا مجتمعاً من الشهوات الفاجرة والنزوات الثائرة والغرائز الخشنة ؛ وإن المدرسة وحدها لا تستطيع مهما انفسح ذرعها واتسع مداها أن تربى العقول وتهذب الأخلاق وتثقف العواطف . فأخطروا ببالكم أولئك المجاهدين فى سبيل الروح ، المجدين في خدمة الفكر ، الذائدين عن قدس الخلق ؛ أولئك هم الأدباء الأحرار الابرار الذين يبلغون رسالة الحق فى كتاب ، أو يؤدون أمانة الخير فى صحيفة . أعينوهم على أكلاف العيش بالرعاية ، وشجعوهم على إجادة الإنتاج بالجوائز . ولا تكلوهم إلى هوى النفوس وجهل العامة فينطفئوا انطفاء السراج فى عين الأعمى ، ويموتوا ميتة البلبل فى أذن الأصم

ولكن الأديب كتب عليه أن يجاهد ويجالد ويضحى . لا يستمد العون إلا من ربه ، ولا يلتمس العزاء إلا من قلبه ، ولا يبتغى الثواب إلا من سلطان ضميره .

والرسالة لا تملك أن تحيد عن الطريق الوعر الشائك الذى نهجه الله لعباده المصطفين من رجال الدين والعلم والأدب . وحسبها أن تحيا بالعمل سعيدة ، وأن تموت فى الجهاد شهيدة !

على ذلك تجدد العهد لأصدقائها وقرائها مرة أخرى ، معتمدة على فضل الله ، معتدة بإخلاص القلب ، معولة على إتقان العمل ؛ وفى بعض ذلك الضمانُ الأوفى والسندُ الأقوى والمرفأ الأمين

احمد حسن الزيات

فى الأدب وغيره

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

زارنى مرة لفيف من الشبان قال قائلهم : إنهم جاءوا ليسألونى عن رأيى فى الأدب ويستفتونى فى مسائل ، فساءنى هـذا ولم يسرنى ، فقد كنت مشغولاً ، وكان العمل الذى ينبغى أن أفرغ منه كثيراً ، فسألت الذى كان يتكلم : « كم سنك ؟ ولا تخش أن أذيع السر ؟ »

قال « ثنتان وعشرون »

قلت « يا أخى ، إنى كنت فى مثل سنك صاحب رأى ، فى الأدب وغيره ، وصاحب مذهب أدعو إليه وأحاول هدم ماعداه ؛ وكان لى ديوان شعر مطبوع ، وزوجة ووظيفة أيضاً . ولا أنكر أن رأيى قد تغير فى مسائل كثيرة ، ولكن هذا لماذا ؟ إنه دليل على أنى أديم النظر والتفكير والتدبر ، ولعلى كنت في أمسى على صواب ، وعسى أن أكون فى يومى على خطأ ، ولكن المرء لا يطالب بالتوفيق ، وإنما عليه أن يسعى ، وأنا أذكر لكم هذا لأنى أتعجب لكم وأستغرب أمركم . فلماذا بالله لا تنظرون بعيونكم ، ولا تفكرون بعقولكم ؟ ولماذا ينبغى أن أتعب أنا لكم — أقرأ وأحصل وأفكر وأنخل وأغربل ، وأنتم مستريحون ليس عليكم إلا أن تتجشموا تعب الحضور إلى هنـا ، وإلا أن تؤدوا أجرة الترام ، أو الأمنيبوس ، ومن يدرى لعلكم آثرتم المشي فإنكم شبان أقوياء ، والأحذية التى تبلى يؤدى ثمنها آباؤكم فلا خسارة عليكم تشعرون بها ، وليبق القرش فوق القرش ليتيسر أن تقضى السهرة فى مرقص ! »

فضحك أحدهم ، ورآه الآخرون يضحك ، فابتسم البعض وقهقه البعض ، فقلت ، وأنا أحس أن عفريتا قد ركبنى : « صحيح قولوا ... كم كتاباً عنيتم بأن تشتروا في حياتكم منـذ عرفتم الكتابة والقراءة إلى الآن — أعنى غير الكتب المدرسية التى لا تفتحونها إلا لأداء الامتحان ؟ »

فلم يجيبوا ، وماذا عسى أن يقولوا ، وأنا أعرف أن هذا الجيل يندر فيه من يحصل من العلوم أو الفنون أو الآداب شيئاً غير ما يتلق فى المدرسة ؟ وحتى الذى يفيده فى المدرسة ينساه بعد الامتحان ، ولم يسعنى وأنا أحاول أن أوقظ نفوسهم وأبث فيهم روح الطلب إلا أن أذكر كيف كنا فى صبانا نفرح بما يجتمع فى أيدينا من المال القليل ونخف به إلى المكاتب ونروح ندير عيوننا في مئات الكتب المرصوصة على رفوفها ولا نخرج إلا وقد نفد ما معنا أو كاد

وكان الذى أسخطنى على هؤلاء الشبان هذا الكسل والاعتماد على الغير ، والرغبة فى إفادة المعرفة — كائنة ما كانت قيمتها — بلا عناء أو مشقة . ومن أدراهم أن ما يسمعون منى أو من سواي هو الصواب ؟ وهم يتلقون ماتفضى به إليهم من رأى ناضج أو فطير بالتسليم والتصديق وبلا مناقشة

وأحسست من هيئاتهم ونظراتهم أن الأولى بى أن أدخر جهدى ، فأسلمت أمرى لله وقلت لهم : « تفضلوا ... سلوا مابدا لكم »

فأدنوا كراسيهم ، وقد نسوا العلقة التى استقبلتهم بها ، وأقبلوا عليّ يسألوننى عن الأدب والغاية منه ، فضحكت وقلت : « والله ما أعرف له غاية ؛ وإنى لحى ، ولكنى أجهل الغاية من الحياة ، فكيف تريدون منى أن أعرف الغاية من الأدب ؟ وأعترف أنى كنت قبل سنوات طويلات المدد ، قد أقنعت نفسى بأن للأدب غاية ، وكان الذي جسم لى الوهم هو ما قرأته فى هذا الباب ، فرحت أنسج على منواله وأقول كلاماً شبيهاً به ؛ ويتفق أن يقع فى يدى شيء مما كتبته فى ذلك الزمان فلا يسعني أن أضحك ساخراً ، لأنه كان من الجهل أو التقليد — كلا . لا أعرف غاية للأدب ... وقولوا ما شئتم ، ولكن الحقيقة هى أنى نظرت ونظرت ، وحدّقت ، وحملقت ، حتى كادت عينى تخرج ، فلم أر شيئاً ؛ وأنى فكرت وفكرت ، فلم يهتد عقلى هذا إلى شيء . وكل ما أعرفه هو أنى أزداد حيرة كلما علت بى السنّ ، وإن كل ما كنت أعده من الحقائق الثابتة يخامرنى الآن فيه شك كبير ... والسبب فى ذلك ، فيما يبدو لى ، هو أنى أتلقى ما أقرأ بالتسليم ، أما الآن فأنا أجادل وأكابر بالخلاف فى كل شيء ، وقد ينتهى بى الأمر إلى التسليم والموافقة ، ولكنى أجد لذة فى هذه المكابرة »

فسألنى بعضهم : « لماذا قل الشعر السياسى فى هذا الزمان ؟ »

قلت : « لا أدرى ، وعسى أن يكون السبب أن الناس صاروا أصح فهماً للأدب ، وأتم إدراكاً له ، وأكبر عقولاً ، وأوسع نفوساً . نعم أظن هذا هو السبب ، فقد كان الشعر السياسى هو الذى يكثر فيه القول ، وكان شعراء ذلك الزمان إذا قالوا فى غير الحوادث لا يفعلون ذلك إلا على سبيل التسلى ، وليقال عنهم إنهم يجيدون النظم فى كل باب . ولكن الناس يدركون الآن أن شعر الحوادث ليس إلا باباً واحداً صغيراً من مئات وآلاف من أبواب القول ، أو من « بواباته » . ولم يكن شعر الحوادث شيئاً مستحدثاً أو جديداً ، لأنه لم يكن أكثر من ضرب من التقليد للشعر القديم ، فكما كان المتنبى يقول فى حروب سيف الدولة ، كذلك كان شوقى يقول فى الخديو وأعياده ورحلاته وفى السلطان وأعماله ، ثم بعد ذلك فى الحوادث السياسية التى يلح عليه أصدقاؤه أن ينظم فيها كلاماً . وكان حافظ يقول فى العميد البريطانى وفى سياسة الإنجليز ، لأنه لم يتصل بأمير كما اتصل شوقى ، فحل الشعر أو الرأى العام عنده محل الأمراء الذين كان الشعراء السابقون ينظمون الشعر لإرضائهم ، واقتضت المنافسة بين الرجلين أن يكون حافظ شاعر الشعب ، كما كان شوقى شاعر الأمير . وقد تغير كل هذا ، وزهد الأدب الحديث فى التقليد ، ونظر رجاله بعيونهم ، وأحسوا بأعصابهم ، وفكروا بعقولهم ، ففتحت لهم آفاق رحيبة جداً صرفتهم عن القول فى الحوادث العارضة ، وشغلتهم بما هو أعمق وأصدق فى الحياة ؛ فلست تراهم يقولون فى الحوادث إلا إذا استفزت نفوسهم وحركتها تحريكاً قوياً يجرى الشعر على ألسنتهم ، لا تكلفاً ولا تقليداً ، بل لأنهم لا يسعهم فى هذه الحالة إلا أن يقولوا . ولا شك أن ثم أسباباً أخرى ، أسوق منها على سبيل التمثيل ، أن الأدباء يعمل أكثرهم فى الصحف ، وهم يكتبون كل يوم تقريباً فى الحوادث ، فلا معنى لأن يقولوا الشعر فيها أيضاً ، إلا إذا عرضت مناسبة فذة قوية تحرك النفس كما قلت . والكتابة أسهل ، والإقناع بها أقرب ، والشعر لا يصلح للجدل السياسى كما تصلح الكتابة ، ولكنى أعتقد أن صحة الإدراك للأدب هي السبب الأول ، كائنة ما كانت الأسباب الأخرى . ولا مانع من أن يقول الشاعر فى السياسة والحوادث إذا أحس دافعاً إلى ذلك ، كما يقول فى غير ذلك إذا بعثته البواعث »

فنهضوا ، ومدوا أيديهم ليصافحونى ، وتمتم بعضهم بالشكر ، فابتسمت وقلت لهم « والله إنى لتحدثنى نفسى بأن أنقض لكم كل ما سمعتم منى ، وأن أثبت لكم أن كل ما قلت خطأ فى خطأ ، وأن الصحيح والصواب غير ذلك . وإنى لقادر على هذا . والسر فى قدرتى أنى أراكم أهملتم هذه العقول التى ركبها لكم الله ؛ ولا شك أن له سبحانه وتعالى حكمة فى خلق عقول لا يريد أصحابها أن ينتفعوا بها . فليتكم تستطيعون أن تعيرونى بعضها ما دمتم لا تنتفعون بها ، فإن رأسى قد كل وتعب ومل »

فضحكوا وانصرفوا ، وقعدت وأنا أهز رأسى وأمط بوزى آسفاً متعجباً ...

ابراهيم عبد القادر المازنى

ليلى المريضة بالعراق

للدكتور زكي مبارك

— ٤ —

— ضابط فى الجيش العراقى أبوه من مصر وأمه من لبنان؟ كيف اتفق ذلك يا ظمياء؟

— لذلك يا سيدى تاريخ ...

— انتظرى قليلا ... قبل أن ندخل فى تاريخ ليلى مع الضابط عبد الحسيب، أحب أن أسأل : هل كان حبها لذلك الضابط أول حب؟

— نعم يا سيدى أول حب

— منذ كم سنة أحبت ذلك الضابط؟

— منذ اثنى عشر عاماً

— تذكرى يا ظمياء أنك قلت إن ليلى فى حدود الأربعين فهل يُعقل أن تظل عذراء القلب إلى الثامنة والعشرين؟

— نعم يا سيدى، وما أقوله تشهد به الست جميلة، وتعرفه الخالات والعمات والجارات فى شارع العباس بن الأحنف وشارع صريع الغوانى

— ولكن هذا غير معقول، فما يمكن أن تظل فتاة عذراء القلب إلى الثامنة والعشرين!

— أنت يا سيدى غريب بهذه المدينة ولا تعرف النساء فى بغداد

— بغداد فى عينك يا ظمياء! وهل بغداد تحمى المرأة من أن تكون لها عين تنظر وقلب يميل؟

— أؤكد لك يا سيدي أن ليلى لم تحب أحداً قبل الضابط عبد الحسيب

— ولكن كيف اتفق أن تظل بلا زوج إلى الثامنة والعشرين؟

— لقد حفيت أقدام الخاطبين وهي ترفض بلا سبب معقول

« فدونت فى مذكرتى أن الفتاة التى ترفض الزواج، ويطول بها ذلك، لا بد أن تكون أصيبت بنوبة حب، ولا بد أن يكون ذلك الحب صور لها فحولة الرجل فى صورة فلسفية أو أدبية، ولكن هذا الحب سيظل مجهولاً ما دامت ليلى تكتمه، وما دام النساء اللائى يحطن بها يتمتعن بقسط وافر من الغفلة، على قلة ما نرى من النساء الغافلات. ويظهر أن موقفى سيكون دقيقاً فى المؤتمر الطبى، لأن المؤتمرين سيسألون عن الصور الفلسفية والأدبية لفحولة الرجال فى أخيلة النساء، ولكن لا بأس فهى فرصة طيبة لشرح آراء شيث بن عربانوس فى هذه القضية. على أنى سأجد مفاتيح هذا السر المدفون حين أقف على قصة الضابط عبد الحسيب، وربما كان من الخير أن أرجع إلى البحث الممتع الذى نشره الدكتور عبد الواحد بك الوكيل عن أثر الحب فى الأمراض العصبية »

— دكتور! ماذا تكتب؟

— اسمى يا بلهاء

— هذا جزاء من يصنع الجميل!

— أستغفر الله! إنما أردت أن أقول اسمى يا ظمياء. أنا يا بنيتى أقيد ملاحظات تنفعنى في مداواة ليلى؛ ومرضها كما تعلمين عصيب، وأحب أن أستعد لمداواتها أتم استعداد، والله المعين

« ولكن ألا يمكن أن يقال إن ليلى مرضت فى صباها بالغفوة الروحية، ولم تفق إلا فى الثامنة والعشرين؟ ومن يصدق حديث الغفوة الروحية؟ لقد كنت الطبيب الوحيد الذى استكشف هذا المرض الخبيث، وألقيت عنه محاضرة فى باريس بعد أن أديت الامتحانات النهائية فى الطب، ثم نشرت خلاصة بحثي في المجلة الطبية المصرية، ولم أظفر، وا أسفاه، بغير السخرية يواجهنى بها زملائى فى مصر، ويراسلنى بها أساتذتى في باريس »

— دكتور، ألا ترى كيف أتقفقف من البرد؟

— اسمى يا بلهاء، فما عندى لك دفء

« وما الذي يمنع من انتهاز هذه الفرصة الثمينة، فرصة انعقاد المؤتمر الطبي في بغداد، لاعلان نظرية الغفوة الروحية بطريقة دولية؟ إن الشواهد تحت يدي، فأنا أعرف ناساً بأعيانهم انخرطوا فى سلك الكهنوت وهم شبان، وعاشوا عيش الطهر والعفاف إلى سن الثلاثين. ثم استيقظت أرواحهم فجأة فهربوا من الكنائس والصوامع وأقبلوا على الدنيا إقبال المنهومين، ومنهم صديق فلان الذى عرفته فى حانات مونمارتر سنة ١٩٢٧ وصديق

فلان الذي عرفته في مرقص الكوبول سنة ١٩٣٣ ، ولكن كيف أقول هذا الكلام فى المؤتمر الذى يعقد فى بغداد وأنا أشتغل بالتعليم فى بغـداد ؟ الخطب سهل : أنا أتكلم فى المؤتمر باسم الدكتور مبارك الطبيب ، والناس جميعاً يعرفون أنى أحرزت الدكتوراه فى الطب قبل أن أحرز الدكتوراه فى الآداب ».

— دكتور ، أروح ؟

— وين تروحين ؟ اجلسي يا بلهاء

— أنا اسمى ظمياء

— اجلسي يا ظمياء

« ولماذا أفضح نفسى فى المؤتمر بأحاديث مونمارتر ومونبارناس؟ لماذا لا أكتفى بالشواهد التي أعرفها فى مصر ؟ ألم يكن صديقنا فلان من أعف النـاس فى صباه ؟ ألم يكن يحوقل ويستغفر ويسترجع حين يطرق أذنيه بيت من النسيب ؟ رحمة الله على أيامه الطيبات ، أيام كنا نتقرب إلى الله بتقبيل يمناه ! فمن يصدقنى اليوم إذا قلت إنه كان فى صباه فتى عفيفاً ؟ وكيف يصدقنى الناس إذا ادعيت ذلك وهو اليوم ألطف ما جن وأظرف عربيد ؟ ! »

— دكتور !

— اخرسى يا بنت !

— شنو ؟

— ما أدري شنو ! !

« إن حال ليلى فى جوهره يرجع إلى فرضين : الفرض الأول أن تكون رأت فى مطلع صباها صورة مست شغاف القلب ثم اختفت تلك الصورة ، وظلت المسكينة تترقب ملامحها فى أوجه الخاطبين بدون أن يتحقق لها رجاء ، فلما وقع بصرها على الضابط عبد الحسيب رأت فيـه ملامح الحبيب الضائع فأقبلت عليه وقد استيقظ هواها القديم بيقظة مرعبة ضجت لها بغداد ؛ والفرض الثانى أن تـكون أصيبت بالغفوة الروحية ، ذلك المرض الخطر الذى تفردت باستكشافه والذى سيجعل لى مقام صدق فى عالم الطب ، وقد عاشت المسكينة تحت سيطرة هـذا المرض إلى أن بلغت الثامنة والعشرين ثم عوفيت فجأة ، فكانت عيناها الناعستان وابتسامتها الساحرة من نصيب الضابط عبد الحسيب »

— دكتور ! طال مقامى عندك ، وليلى ستظن الظنون !

— أى ظنون يا ظمياء ؟

— قد تحسبك كالطبيب فلان الذى حُرِّبت عيادته بسبب امرأة ألمانية كانت تزوره فى العشيات

— وأنت تلك الألمانية يا ظمياء ؟ ما هـذا الغرور الفظيع الذي لا تخلو منه امرأة شوهاء !

« وهنا ضحكت المرأة جيلة ضحكةً رجّت أركان البيت ».

— اعقلي يا ظمياء ! أنا رجل غريب ، والغريب يدخل سجن الفضيلة وهو راغم . فأنت فى حماية هذا التخوف ، تخوف الغريب من قالة السوء . وسأعيش فى بلدكم ما أعيش ، ثم أخرج باذن الله وأنا أبيض الصحائف وضاح الجبين

— هل معنى ذلك أني فى أمان ؟

— فى أمان يا ظمياء ، سبحان الله !

— أنت تهينني ! فأنا عندك فتاة شوهاء لا تهيج الغواية في قلوب الرجال !

« وهنا دونت فى مذكرتى أن المرأة لايسرها أن تكون فى أمان ، لأنها لا تكون فى أمان إلا حين تزهد فيها القلوب . وأشهد أن ظمياء فتاة شريفة ، ولـكن تغلب عليها نزعة الجنس ، فهى تحب أن يكون شرفها بفضل التصون ، ويؤذيها أن تصل إلى الشرف عن طريق الزهد ، الزهد فيما تدعيه لنفسها من حسن مرموق »

— دكتور ، أروح ؟

— وين تروحين ؟ حدثيني عن قصة ليلي مع الضابط عبد الحسيب

— كانت بداية القصة فى سنة ١٩٢٦ حين ثار حزب الشعب على المرحوم عبد المحسن السعدون ، وكانت الجرائد العراقية أطنبت فى وصف المعرض الزراعى والصناعى الذى أقيم فى الجزيرة بالقاهرة فى ذلك التاريخ ، وكانت ليلى ضجرت من ضجيج السياسة في بغداد فاستأذنت والديها رحمهما الله لترى ذلك المعرض علها تنسى ضجيج بغداد ، فرفض أبوها ، وشجعتها أمها ، والمرأة تغلب الرجل حين تشاء ، فلم ينتصف شهر آذار ، شهر الأزهار والرياحين ، إلا وليلى تطالع بِسفر الحياة على شواطىء النيل وطن مولاى الطبيب

« للحديث بقية »

زكي مبارك

سنان شيخ الجبـــل

صفحة من تاريخ الأدب السياسي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى القرن السادس الهجري (القرن الثانى عشر الميلادى) كانت الأمم الإسلامية تجتاز مرحلة عصيبة من تاريخها ، فى هذه الحقبة استقر الفرنج الصليبيون في فلسطين وثغور الشام ، وقامت مملكة نصرانية لاتينية في بيت المقدس فى قلب ديار الإسلام ، وانقسمت الكتلة الاسلاميـة فى المشرق إلى دويلات صغيرة متنازعة ؛ ونشب بين الإسلام والنصرانية فى تلك المهاد صراع مستمر طويل الأمد ؛ وكانت المعارك سجالاً بين هـذه القوى الخصيمة المتفرقة ؛ ولكن الفرنج الصليبيين احتفظوا لأنفسهم مدى حين بنوع من التفوق ؛ ذلك لأن الخلافة الفاطمية كانت تجتاز مرحـلة انحلالها ، وكانت الإمارات الاسلامية فى شمال الشام مشغولة بمعاركها المحلية ؛ وكان الفرنج ينتهزون الفرص السانحة فيعملون على إذكاء الخلاف ويظاهرون أميراً على أمير ، ويحققون لأنفسهم ما استطاعوا من الأسلاب والمغانم

فى تلك الفترة العصيبة المضطربة كانت الشام فوق كونها مسرحاً للحروب الأهلية والمعارك الصليبية المتواصلة مسرحاً لنشاط بعض الجماعات السرية التي الفت فرصتها فى تلك الفوضى السياسية والاجتماعية الشاملة ، وكانت فى مقدمة هـذه الجماعات طائفة فرسان المعبد أو الدواية ، وطائفة الاسبتارية [1] وطائفة الإسماعيلية الباطنية ؛ وكانت الأولى والثانية طائفتين نصرانيتين ظهرتا بعد قيـام المملكة الصليبية ، وأنشئتا فى البداية لبواعث وظروف دينية ، ثم انقلبت كلتاهما بعد ذلك إلى جمعية سرية فدائية وكانت الثالثة تحسب ضمن الطوائف الاسلاميـة المذهبة ، وقد أنشئت فى أواخر القرن الخامس على يد داعية اسماعيلى بارع هو الحسن بن الصباح الحميرى ، ونظمت أولاً فى شمال فارس ، حيث استحالت غير بعيد إلى عصابة إرهابية قوية تعتصم ببعض القلاع المنيعة ، وتعتمدفى تنفيذ مآربها على الارهاب السياسى والاغتيال المنظم ؛ وفى أوائل القرن السادس لما اشتدت مطاردة الأمراء السلاجقة للاسماعيلية فى فارس ، فر بعض دعاتهم إلى الشام ، ولبثوا حيث يبثون هناك دعوتهم سراً ؛ وكان الأمراء المحليون مثل صاحب حلب وصاحب دمشق يلجأون أحياناً إلى هؤلاء الدعاة الخطرين فى تنفيذ مشاريعهم واغتيال خصومهم ، وبذلك أضحوا قوة سياسية يحسب حسابها ، ولما كثر جمعهم وقوى أمرهم طلب زعيمهم بالشأم بهرام الاستراباذى من صاحب دمشق حصناً يأوى إليه مع أنصاره ، فأقطعه قلعة بانياس (سنة ٥٢٠ هـ) ، فتحصنوا بها ، ولم يأت منتصف القرن السادس حتى كانت لهم فى الشام سلسلة من القلاع المنيعة بين طرابلس وحماة ، يتخذونها قواعد للإغارة والدفاع ، وحتى غدوا عاملا قوياً فى حوادث هذا العصر وتطوراته

كان الدواية والاسبتارية يعملون فى البداية لخدمة القضية الصليبية ونصرة الأمراء الصليبيين ، وكانت نظمهم ووسائلهم تشبه من بعض الوجوه نظم الاسماعيليـة ووسائلهم من حيث اعتمادهم على التآمر والدس والاغتيال المنظم ؛ ثم استحالوا غير بعيد إلى جماعات سرية نفعية ترتكب جرائمها ، وتبحث عن مغانمها حيثما استطاعت دون النظر إلى اعتبار الدين أو القومية . أما الاسماعيلية فإنهم بالرغم من ثوب الرياء المذهبى الذى أسبغوه على عقائدهم الدينية والسياسية ، ظهروا على مسرح الحوادث طائفة مغامرة لا عهد لها ولا ذمام تبحث وراء طالعها فى هذا المعسكر أو ذاك ، وتتقلب فى خدمة المسلمين والفرنج طبقاً للحوادث والظروف ، وتدس ما استطاعت بين أمراء الفرنج وأمراء المسلمين لتجنى ثمار دسها ؛ وكان يحسب حسابها أعظم وأقوى الأمراء من الفريقين ؛ وقد ارتكب دعاتها عدة جرائم سياسية رنانة ذهب ضحيتها جماعة من أكابر الأمراء والقادة ، وكان لها أثر كبير فى تطور الحوادث والمعارك فى بسائط الشأم

* * *

كان الإسماعيلية يمثلون فى الشأم نفس الدور الذى كان يمثله زملاؤهم فى فارس ، وكان أولئك الدعاة والمتآمرون الأذكياء

(١) الأولى هى بالفرنسية Les Templiers والثانية Les Hospitalies

يمشون أينما حلوا بذور التوجس والروع ، وكانوا يتحنون بقلاعهم الشاهقة يتحينون فرص العمل الخفى الغادر ؛ وكان الفدائية منهم — وهم الذين يناط إليهم تنفيذ الجرائم السياسية — رجالاً من أخطر طراز يمتازون بالإقدام المدهش ، لا يتهيبون الموت ، ولا يردهم عن غايتهم شيء ؛ ولم يتخذ زعماء الإسماعيلية قط لقب السلطنة أو الإمارة ، ولكنهم كانوا يقنعون بلقب المقدم أو الشيخ أو شيخ الجبل ؛ وكان هذا اللقب الأخير يطلق بنوع خاص على زعيم الإسماعيلية فى الشام ، وإن كان الرحالة مركوبولو الذى عرف الإسماعيلية ودعاتهم فى فارس يحدثنا بأن كبيرهم ينعت أيضاً بشيخ الجبل ؛ وعلى أى حال فإن كلمة الشيخ تعنى هنا السيد أو الرئيس خلافاً لما ذهب إليه الرواة الفرنج المعاصرون من اعتبارهم الشيخ هنا بمعنى « الرجل العجوز » . وهو خطأ شائع فى معظم التواريخ الفرنجية

وكان مقدم الاسماعيلية أو شيخ الجبل فى الشام فى أواسط القرن السادس زعيماً وافر الجرأة والذكاء هو راشد الدين سنان ابن سلمان ؛ ولا تعرف الرواية سناناً إلا بأنه مقدم الاسماعيلية ، ولا تحدثنا عن أصله ونشأته . ولكن لا ريب فى أنه أحد أولئك الدعاة المغامرين الذين يكتنف الغموض حياتهم الأولى ، ثم يظهرون فجأة على مسرح الحوادث . وكان مقره فى حصن مصياب (أو مصياف) على مقربة من طرابلس وهو يومئذ أمنع حصون الاسماعيلية بالشام ؛ وكان هذا الداعية الاسماعيلي يخفى مشاريعه ومطامعه الدنيوية تحت ستار من الورع المؤثر ، ويبدو دائماً فى صفة الإمام الديني ، ويرتدى الثياب الخشنة ، ويعظ أنصاره طول اليوم من فوق رابية ، ويحيط كل حياته بحجاب من الغموض حتى قيل إنه لم يوقظ نائماً أو آكلاً أو شارباً ؛ على أنه كان بالرغم من هذه المظاهر الورعة الخلابة مغامراً لا ذمام له ، يتربص فرص الوثوب والفتنة ، ويتقلب فى خدمة الصديق والعدو معاً ؛ ولم ير سنان بأساً من محالفة الفرنج الصليبيين ، فنراه يتصل بأمورى ملك بيت المقدس ، ويرسل إليه الداعى بهاء الدولة سفيراً ليسعى لديه إلى إعفاء الاسماعيلية من الجزية التى تعهدوا بدفعها ؛ ونجح السفير فى مهمته ، ولكن قتله الدوايه (فرسان المعبد) حين عودته ؛ وخشى ملك الفرنج عواقب هذه الجريمة ، فاعتقل القتلة وقضى عليهم بالسجن ، وذلك استبقاء لمودة الاسماعيلية واتقاء بطشهم

ولعب سنان فى حوادث هذه الفترة دوراً عظيماً ؛ ومع أنه لم يكن قوياً بجسمه وقواه المادية ، فقد كان قوياً بدسائسه ووسائله الإرهابية الخطرة ؛ وكان أمراء الشام المسلمون يرهبون جانبه ويلتمسون محالفته ؛ ولما تألق نجم صلاح الدين وقبض على زمام الأمور فى مصر اتجهت أبصار خصومه إلى الاسماعيلية أو الحشيشية كما تسميهم الروايات المعاصرة ، لما عرف من أنهم كانوا يأكلون أوراق الحشيش ؛ ففى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) دبر أنصار الدولة الفاطمية الذاهبة مؤامرة لقلب حكومة القاهرة ، واغتيال صلاح الدين ، وفكروا فى الاستعانة بالفرنج كما فكروا فى الاستعانة بسنان شيخ الجبل ، فبعثوا إليه ليدبر كميناً لاغتيال السلطان (صلاح الدين) على يد بعض الفدائية سواء فى الشام أو فى مصر ووعدوه بالمنح والعطايا الجزيلة ؛ ولكن سرعان ما افتضحت المؤامرة وقبض على مدبريها وأعدموا ، ولم تسنح الفرصة فى هذه المرة ليعمل شيخ الجبل ؛ ولكن الفرصة سنحت غير بعيد ؛ ففى أوائل سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) كان صلاح الدين على رأس جيشه فى شمال الشام على مقربة من حلب ، وكان من برنامجه سحق الإمارات المستقلة التى تمزق الشام وتجعل منه فريسة هينة للفرنج الصليبيين ؛ وكان أتابك الموصل عز الدين مسعود يخشى على ملكه إذا استولى صلاح الدين على الشام ، فاتفق مع سنان شيخ الجبل على اغتيال صلاح الدين أثناء وجوده بالشام ؛ وكان الاسماعيلية أو الحشيشية يرون فى تقدم صلاح الدين خطراً داهماً على سلطانهم فكانوا يرحبون بكل مؤامرة أو مشروع لسحقه ؛ ففى الحال بعث سنان بعض الدعاة الفدائية إلى معسكر السلطان (صلاح الدين) فاندسوا إليه متنكرين . وفى ذات مساء استطاع أحدهم أن يصل إليه وهو فى خيمة بعض الأمراء يفحص خطط الدفاع ، ثم انقض عليه وطعنه فى رأسه بخنجره ، وكان صلاح الدين يعرف غدر الباطنية ويحترز منهم بارتداء الدروع المصفحة ، فحالت قلنسوته الصلبية دون إصابته ؛ فحول القاتل عندئذ خنجره إلى خده فجرحه جرحاً شديداً ، ثم دفعه إلى الأرض وحاول أن يجهز عليه ؛ وذهلت بطانة السلطان لهذه الفاجأة الغادرة مدى لحظة ، ولكنهم بادروا إلى القاتل ، وطعنه

أحد الأمراء بسيفه فأرداه ؛ فبرز من جوانب الخيمة آخرون من الباطنية الفدائية متنكرين فى زي الجند ، وحاول أحدهم أن ينقض على السلطان ، فتلقاه بعض البطانة وقتلوه ، واشتد الاضطراب والهرج ، وقتل فى هذه الواقعة عدة من الدعاة الاسماعيلية ؛ ونجا صلاح الدين من خناجرهم بأعجوبة ، وانهار مشروع شيخ الجبل وحلفائه مرة أخرى

وأدرك صلاح الدين ما يحيق به وبسلطانه من الخطر من غدر الاسماعيلية ومؤامراتهم ، فعول على مهاجمة قلاعهم وسحق نفوذهم ، فسار إليهم فى العام التالى (سنة ٥٧٢ هـ) ، وحاصر مصياب أمنع قلاعهم ، وفيها مركز زعامتهم ؛ فاستغاث سنان شيخ الجبل بصاحب حماة وهو خال السلطان ، ورجاه أن يشفع لديه فيهم ، وتعهد له بالتزام الحيدة والولاء نحو السلطان ، وهدده فى نفس الوقت إذا أبى هذه الشفاعة ، فخشى الأمير من وعيدهم ، وبذل وساطته لدى السلطان حتى أقنعه بالعفو عنهم ، فغادر قلاعهم بعد أن أخذ عليهم المواثيق والعهود ؛ ولزم الاسماعيلية وزعيمهم بعد ذلك خطة الولاء نحو السلطان إما خشية سطوته ، وإما لأنهم خشوا رجحان كفة الصليبيين إذا اختفى صلاح الدين من الميدان

ولبث الاسماعيلية من بعد شيخهم سنان زهاء قرن آخر ، يتمنعون بقلاعهم فى الشام ، وينتهزون فرص المعارك والأحداث المختلفة ليظهروا على مسرح الحوادث حينما آنسوا الغنم ، وشغل بلاط القاهرة عنهم طوال هذه الحقبة بمكافحة الفرنج ورد الخطر الصليبي ؛ فلما كان عهد الظاهر بيبرس ، سارت حملة مصرية إلى الساحل فى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) ، وحاصرت قلاع الاسماعيلية ، واقتحمت مصياب أمنع حصونهم ومقر زعامتهم وخربت قلاعهم ومزقت قواهم كل ممزق ؛ وبذلك انهار نفوذهم فى الشام كما انهار فى فارس قبل ذلك بقليل واستحالت هذه الطائفة الإرهابية الخطرة بعد ذلك إلى شراذم لا أهمية لها سواء من الوجهة السياسية أو المذهبية ، وانتهى بذلك تاريخها الحافل بالجرائم والمؤامرات المدهشة

محمد عبد الله عنان

فى ليلة رأس العام

أنا ... بين الطبيعة والله !

للأستاذ على الطنطاوى

انصرف الطلاب إلى بنية النوم حين سمعوا الساعة الكبيرة تطنّ عشر طنات ، وخلت رَدْهة المكتبة ونشر عليها الصمت أجنحته السود ، فلم أكن ألمح فى خلاله إلا رنين طنّات الساعة وأصداء أصوات الطلاب الذين كانوا هنا منذ لحظة واحدة يتسامرون ويتحدثون ... ترنّ هذه الأصداء فى أذنى ، فإذا أنا أراها بعينى تتراقص بين طيات الصمت الأسود حتى تنحدر إلى أغواره العميقة ، ويشمل السكوت الرهيب بنية التدريس (فى كلية بيروت الشرعية) ويتمدّد فى أبهائها وغرفها وممرّاتها ...

فجلست أصغى إلى أناشيد الصمت التى كانت تسمع من حولى باستمرار فأجدها تملأ قلبى مرارة وأسى ...

ثم رفعت رأسى فُجاءةً إلى التقويم فنظرت فيه وجمد بصرى عليه ... أمن الممكن هذا ؟ أيحدث هذا كله فى هدوء ... يموت فى هذه الليلة عام ويولد عام ، يمضى الراحل بذكرياتنا وآلامنا وآمالنا إلى حيث لا يعود أبداً ، ويقبل القادم فاتحاً ذراعيه ليأخذ قطعة من نفوسنا ، وقسما من حياتنا ، ولا يعطينا بدلاً منها شيئاً ... وهل الحياة إلا أعوام فوق أعوام ؟ وهل النفوس إلا الذكريات واللذائذ والآلام ؟

وجلست بين المأتم والمولد أفكر وأتذكر وأحلم ... ولقد تعوّدت أن أجلس هذه الجلسة كلما تصرّم عام ، أصفى حالى مع الحياة ، أنظر ماذا أخذت ، وماذا أعطيت ، وأراقب هذه القافلة من السنين التى بدأت مسيرها منذ ... منذ بدأ الزمان ، لست أدرى متى بدأ الزمان ، والتى تنتهى حيث لايدرى أحد

تعوّدت أن أعطى نفسى من فكري ساعة فى العام ، أفكر فيها فى نفسى وفى الوجود ...

***

نظرت فلم أجد حولى إلا كتاب التفسير أحضر منه درسى

الذى سألقيه غداً ، وكتب البلاغة التى أكسر بها دماغى وأدمغة الطلاب فى غير طائل ... فنحيتها كلّها ووجدت ركام (الوظائف) التى يجب علىّ أن أنظر فيها وأصححها ، وأقرأ كل ماتفيض به هذه القرائح الفتية من سخف وهراء ، يدعوه أصحابه (إنشاء) ... فبعثرتها فى غيظ وحنق ...

أنا فى هذا البلاء منذ عشر سنين ، عشر سنين يالها من دهر طويل ! كان ربيع حياتى ، وزهرة شبابى ، أضعته كله فى هذا العناء ، فماذا استفدت ؟ لا شئ إلا أن أحرقت نفسى كالشمعة لأضئ لهؤلاء الفتية طريقهم إلى المجد ، هؤلاء الذين أحببتهم وأخلصت لهم الحب ، وعشت بهم دهراً ولهم ، واعتصرت ماء شبابى لأنضّر شبابهم ، ثم فرّق الزمان بينى وبينهم ، فلم أعرف مكانهم من الشام أو العراق ، ولم يعرفوا مكانى لأنهم لم يفكروا فى أن يعرفوه ...

إذن فأنا أحترق كالشمعة : باللحقيقة المرّة المروّعة : بالشمعة شبابى التى ذوت وخبت وأوشكت أن تنطفئ !

إنى أعيش فى العدم ، أعيش فى الماضى بالذكرى ، وفى المستقبل بالأمل ، مع أن الحاضر وحده هو الموجود ، لقد مضى الغد إلى حيث لا رجعة ولن يأتى المستقبل أبداً ...

أين هو هذا المستقبل ؟ ومنذا الذى يستطيع أن يصل إليه ؟ لقد جلست فى مثل هذه الليلة من العام الذى يموت الآن ، فى شرفة منزلى بالأعظمية (بغداد) أحلم بالمستقبل بهذه الليلة التى كانت هي مستقبلى ، أسعى إليها ، وأؤمل أن أدركها ، فلما أدركتها صارت (حاضراً) ، وطفقت أسعى إلى مستقبل آخر . إنني كالثور يسعى ليدرك حزمة الحشيش التى يراها على شبر واحد منه فيهلكه السعى ، ولا يناها أبداً ، لأنها معلقة بقرنيه تسعى أمامه ! يومض شعاع الأمل من بين فرج الغد ، فنسعى لندركه فلا نجده إلا سرابا . إن الأمل مصباح لا يضيء إلا من بعيد . أفليس من سخافات الفكر الانسانى أن يضع في اللغة كلمة الأمل ولفظة المستقبل ؟ أليس وجودهما في المعاجم دليلاً على تأخر البشرية وانحطاطها ، وأنها لم تدرك بعد حقائق الحياة ؟

لقد كنت فى (الأعظمية) غبياً جاهلاً ، لأنى كنت مطمئناً متفائلاً . كنت كلما ودعت بالخيبة عاما ، انتظرت آمالى عند آخر ، ولكنى صحوت الآن فلا آسف على ماض ، ولا أؤمل في مستقبل

لقدْ قدر علىّ ألا أشهد ولادة العام إلا غريباً عن موطنى بعيداً عن أهلى تارة في مصر ، ومرة بالحجاز ، وحيناً في العراق . وهأنذا الآن غريب من جهتين : هذا السد الهائل من الجبال : جبال لبنان بينى وبين إخوتى في دمشق ؛ وهذا البحر الواسع بيني وبين أخى في باريز ؛ والدهر والأبدية بينى وبين آمالى ؛ والقبر بيني وبين والديّ ؛ وأنا بعد هذا كله غارق في كتب البلاغة ، (ووظائف) الانشاء ، نسيت مشروعاتى الأدبية التي رسمت خططها ، وأقمت أسسها ، وأهملت بحوثى ومطالعاتي ، وبعت ذكائى ومواهبي وشبابى برغيف من الخبز ...

هذا ما قدر علىّ ، وإني راض بما قدر :

* * *

انى أعيش الآن بلا غاية ، ولكنّ غايتى أن أعيش ، أن أثبت وجودى في هذه الدنيا ، كتلميذ كسلان ما جاء ليتعلم ، ولكن ليعدّ فى التفقد موجوداً ، أو موظف خامل مقصر ...

فلماذا إذن أعيش ؟

ألآن لى حق الحياة ؟ فلماذا لا يكون لى إذن حق الموت ؟ ألا أملك أنا أمر نفسى ، ولكن من أنا ؟ ومن نفسى ؟ أأنا اثنان فى واحد ؟ ...

إننى لا أستطيع التفكير في هذا ...

* * *

وملأ نفسى الشعور بالوحشة ، وأحسست فى نفسى وفيما حولى فراغاً مخيفاً ، وشعرت كأن هذه الغرفة تتسع ثم تتسع ، حتى صار بين الجدران فضاء لا يدركه البصر !

ثم ضاق بى الفضاء — حتى كدت اختنق فيه ، فخرجت إلى الشارع ... وكان موهن من الليل ...

* * *

تركت ميدان البرج يضحك بالكهرباء ، ويرقص على ألحان الأشعة ، التى تنسكب على الميدان من ذرى البنى الرفيعة فتغمره بجو فاتن وتسيل على جوانبه ، وتنسج فوقه شبكة من الأشعة منسوجة من ملايين الخيوط الملونة بمثات الألوان ، وتركت الناس يحتفلون بعيد رأس السنة ، يتأملون معانى الوجود ، وفلسفة الخلود ،

وحقيقة الزمان فى هـذه المراقص الصاخبة ، الغارقة فى الخمر والعهر ...

وبمت شطر البحر أمشى فى الطرق المظلمة المنعزلة الخالية إلا من أعقاب السابلة ممن هو حليف البؤس أو الرذيلة فخلا الجو لفكرى فانطلق ...

قالت النفس : إن العالم يموت ، أفلا نودّعه بحسرة ... أو نسكب على جدثه عبرة ؟

فلم يعرف العقل ما هو الموت ولم يصدق بوجوده ...

قال العقل : ما هو الموت ؟ إن كان انتقالاً من حال إلى حال فليس موتاً ؛ وإن كان الموت عدماً فإن العدم ليس له وجود أبداً

قلت : ولكن أبى قد مات ؟

قال : لا ، إنه لم يمت ، إنك تذكره ويعيش حيًا فى ذاكرتك ، وليس فى الذاكرة شىء ليس له وجود فى الواقع

قلت : وأين يوجد ؟

قال : لست أدرى ، هو فى ذاكرة الكون

قلت : إن العام يموت الآن !

قال العقل : إن العام (٣٦٥) يوماً وبعض من اليوم هو ست ساعات و(٤٧) دقيقة ، وبعض منها هو (٣٣) ثانية ، وبعض الثانية فلنفرض هذا البعض (٢٠) ثالثة ، وبعض الرابعة فلنفرض هذا البعض (٢٥) خامسة وبعضاً ... وهكذا يمشى العقل حتى يصل إلى أصغر الأجزاء الزمنية ، ولكنه لا يزال يمشى لا ينتهى أبداً ... إن عام الهجرة مثلاً لا تزال له بقية فى الوجود ، أجزاء من الزمن بالغة فى الصغر حداً لا يدركه العقل ، ولكن تدركه الذاكرة ... إن هذه البقايا هى ذكريات الأعوام الماضية فى نفس العام الجديد !

قلت : إنى لم أفهم شيئاً !

وقفز عقلى فجأة من أجزاء الزمن الصغيرة إلى الزمان المطلق ، وراح يمشى على هـذا الخط الطويل يقطعه فى لحظة ، ولكنه لا يستطيع أن يبلغ طرفيه ، فلا ينى يحاول بلوغهما ولا ينقطع عن السؤال ... إلى أين ينتهى هذا الخط ؟ من أين يبدأ ؟ أليس له نهاية ؟ ما هى اللانهاية ؟

وذهب العقل يفكر : إن عمر عشر حشرات ساعة من عمرى ، وعمر عشرة رجال ساعة من عمر الصحراء ، وعمر الصحارى كلها ساعة من عمر الشمس ، فما هى الساعة إذن ؟ ما هو العام ؟ ما هى حقيقة الزمان ؟

وما هو المكان ؟ إنى لم أر مكاناً قط ، ولم أر إلا موجودات لا أعرف نهايتها ، ولا أدرك آخرها ، فكيف لى أن أرى مكاناً ليس فيه شى ؟ ماحقيقة المكان والزمان ؟ ماعمرهما ؟ ماذا وراءهما ؟

ألا أستطيع أن أعرف هذا العالم الهائل الذى تحجبه عن عينى هذه الطبيعة كما تحجب الكف الدنيا الواسعة وهى كف واحدة ...

وضجرت من هذه الفلسفة ، فانصرفت عن العقل وتركته يهذى وحده

وكنت قد بلغت البحر ، فوقفت فى حجر الطبيعة أتأمل وأناجى وأحلم ...

لقد نفضت يدى من الناس ولجأت إلى هذه الطبيعة السخية الوفيّة الوادعة الجميلة أجد عندها أنس نفسى وراحة قلبى ، أنظر إليها فتمحى هذه الابعاد والمسافات ، وتبدو لعينى لوحة فنية حافلة بالألوان التى لا يستطيع أبرع مصوّر أن يجمعها فى لوحة . ومن لعمرى يصوّر ألوان الغروب ، أو ألوان الزهر فى الروض أو يثبتها على لوحة بالألفاظ والأوزان أو بالأصبغة والألوان ؟ إن الطبيعة أبرع فى الألوان ، ولكن الفن البشرى أبرع فى الأصوات . إن الطبيعة ليست موسيقية فنانة ... عندها من الألوان مالا نهاية له ولكن ليس عندها إلا هدير الموج ، وخرير النهر ، وحفيف الأشجار ، وتغريد البلابل ، وسجع الحمام ، وقصف الرعد ... هذه موسيقاها ، ومن هنا كانت الموسيقى أسمى الفنون لأنها ابتكار وتجديد ، على حين أن الأدب والتصوير تقليد ...

هذه الطبيعة التى أجد فى حماها الحب والعاطفة والجمال ، كلما لجأت إليها فراراً من الناس ، وضيقاً بالحياة ، وما ذهبت مرة إلى بسّيمة[1] وأطللت من (بيت طه) على هذا الوادى الصغير الذى يشبه همسة حلوة من همسات الحب ، أو بيتاً بارعاً من قصيدة الجمال ، إلا نسيت الدنيا كلها وأحسست أنى مع حبيب قد وضع رأسه على فخذى ، ونام ... هـذا الوادى الذى تجرى فيه العين

---

(١) قرية حلوة صغيرة مختبئة بين الجبال على القرب من العين الخضراء ، وهى اليوم مصطاف الشاميين القريب ، ومتنزهم الفاتن الحبيب

الخضراء لينة الأعطاف ، فاتنة المحاسن ، كأنها فتاة مدللة تخطر بحسنها وفتنتها على سفح الجبل ، تغمز بردى بعينها وتغريه بجمالها وهو يلحقها جرياً فى بطن الوادى ، متحدراً متكسراً كشاب قوى متين العود ، جهير الصوت ، قد اكتملت رجولته كما اكتملت أنوثتها ، وأشجار الحَوْر (حُور كواشف عن ساق) يرقصن فى عرس الفتاة المدللة والفتى القوى ، رقصة الحب ، يتمايلين على العروسين وقد تعانقا بعد قليل ، وضم الفتى عروسه حتى اختفت بين ذراعيه ، وطار بها إلى دمشق ، لتكون جلوتها فى الغوطة جنة الأرض ...

وهذه الجبال الحمراء ، تقوم على الباب ، تحرس الوادى أن يدخله واش أو عذول يفجأ العروسين العاشقين ، وتمنع الشمس الملتهبة أن تدنو منهما أو تعكر عليهما خلوتهما ، فيبقى الوادى جنة تجرى من تحتها الأنهار ، والدنيا من حوله فى جحيم الصيف ...

* * *

غبت فى تأملي وأنا على شاطئ البحر فلم ينبهنى إلا المطر يساقط على وجهى ويدىّ ، فنظرت فإذا السحب قد نسجت فى السماء ليلاً آخر ، وإذا المطر يهبط بشدة ، ثم يستحيل برداً طياشا؛ ثم تهب الريح وتجن الطبيعة جنونها ، فتنطلق تعول وتولول ، وتنتف شعرها ، وتحطم كل مابلغته يدها ، فاجت نفسى واضطربت كهذا البحر الذى يزمجر ويلكم صخور الشاطئ حتى تكل سواعده ، فيستلقى على الرمال فلا تكون إلا لحظة حتى ينزل سوط الرياح على ظهره دراكا ، فيهب فزعاً مرتاعاً ، ويعود إلى ضرب الصخر فى غير ما طائل ، والريح تدير هذه المعركة كلها ، تقفز على رؤوس الجبال ، وتبعثر البرَد يميناً وشمالاً ، وتنثر الرياح ثم تجمعها ثم تعبث بها ...

جنت الطبيعة جنونها ، ولكني لم أخفها ولم تكبر فى عينى ، وإنما ازدريتها وأبغضتها ، ماهذه المخلوقة الضعيفة العاجزة التى لا يدرى بها أحد من سكان هذا الكون الواسع ؟ لقد رأيتها من قمة لبنان نقطة ، فكيف يراها المشترى؟ وهل يعبأ نجم القطب بثورتها وجنونها ..؟

وانصرفت إلى نفسى أفكر آسفاً ...

إن العام يتصرم وليس حولى صديق أطمئن إليـه ، وأحمل معه أعباء الوداع ، وأشاركه دمعة يذرفها معى على الفقيد الراحل ، وبسمة يمنحها هذا المولود الجديد ...

عرفت أن الصداقة ليس لها وجود ، فنفضت يدى منهم ولجأت إلى الطبيعة أتخذها صديق المخلص وأوليها حبي وقلبي فكانت هذه هى النتيجة . صادقت مجنونة طياشة بكاشة لا تعرف إلا التخريب والتدمير وتجهل ما هو الحق ، وما هو الشعور ؟

أهذا كل ما لى عندك يا صديقتى ؟ ألجأ إليك فى ساعة من أحرج ساعات حياتى قد تركت فيها أهلى وعفت صحبى لألقى بنفسى فى أحضانك ، وأخفى وجهى بين ثدييك ، وأنشق عبيرك الطاهر ، وأغتسل بدموع محبتك وعطفك ، وأدفن آلامي فى صدرك ، فلا تلقيننى إلا بهذا الجنون وهذا العويل ؟

كلا ، إنك لا تعرفين الحق ولا الشعور !

* * *

وأين لعمرى مكان الشعور من الطبيعة ؟

أنا أشعر بجمال الربيع ، ولكن هل يشعر الربيع بجمال نفسه ؟ لقد رأت الكونتس دى نواى فى الطبيعة مخلوقاً حياً ذا شعور وعانقت الربيع ، وجالست السماء ، ولكن ما ذا رأى الربيع فى الكونتس دى نواى ؟ هل يفرق الربيع بين الفتاة تقطف الزهرة لتقدمها بفمها إلى حبيبها ، والبقرة تقطف الورقة لتملأ بها معدتها وأنت أيها الجبل ؟ كم رأيت من الفواجع التى تفتت الأكباد وتذيب القلوب ، فهل شعرت بشىء منها ؟ هل حزنت هل تألمت ؟ أشعرت بالأمس القريب يوم عصفت الأثرة برؤوس نفر من القواد ، فأطفأوا بأفواههم شعلة السلام ، وملأوا العالم ظلاماً ثم نهضوا يبنون من الجماجم مجدهم فى التاريخ ، فلما امتلأت الأرض بالدم وتغطت بالجثث ، وغسلت بالدموع ، وتجلببت بالآلام والأوجاع والثكل واليتم ، ولما كان الأمهات يبكين أبناءهن الذين ضاعت قبورهم كما ضاعت أسماؤهم ، والأطفال يهتفون : بابا . ينادون من ليس يجيب ... كان القواد العظماء يحتفلون بالظفر ... أشعرت بشىء من ذلك يا لبنان ؟ أشعرت بالأرامل والصبايا والأطفال يفتشون عن الخبز .. الخبز الأسود ، فلما لم يجدوه توسدوا رجلك ونظروا إليك صامتين . ثم ماتوا جائعين .. كما مات ألوف وألوف فى سبيل مجد القواد الظافرين !

ألان قلبك الذى قدّ من جلمد الصخر ؟ أذرفت يا لبنان من عيونك الصافية دمعة حنان ؟

وكم رأيت يا لبنان من متع الحب ! وكم أوى إليك العاشقون فاستظلوا بظلك ، وتعانقوا فى حجرك ، وشربوا خمر العيون ، وسكروا بنجوى الحب ، وتحدثوا بوسوسة القُبَل ، ونسوا الدنيا كلها والزمان والطبيعة ، ونسوا أنفسهم حين التقت الشفاه بالشفاه ، وأغمضت العيون لترى القلوب مفاتن هذا العالم المسحور وتستمتع بهذه الدنيا المعطرة الحلوة الفنية دنيا القبلة الكاملة

أهاج ذلك عاطفتك يا لبنان ؟ أحرك قلبك كل ذلك أيها الشاب التياه الذى يخطر بحلله الخضراء الزاهية ويتيه بعطره الخالد ؟

فأين هو مكان الشعور من الطبيعة ؟

أأنت أيها البحر الرقيق السيال أرهف شعوراً وأرق عاطفة ؟ أيحزنك منظر البؤس والشقاء ، وأنت تلتهم الأحياء ، وتخنق البشر ، وتفتح فاك لابتلاعهم ، أأنت ذو الشعور ؟ ...

أين هو الشعور ؟ وأين أجد العاطفة فى الطبيعة ؟ أأبتغيها فى البركان الهائل المحرق ، أم فى العاصفة العاتية المدمِّرة ؟

* * *

وأين هو الحق فى الطبيعة ؟

أنا أرى فى الطبيعة عاصفة تكسر الأغصان ، وتقلع الأشجار؛ وأرى صاعقة تهدم الدور ؛ وأرى سيلاً يجرف المدن ، ويكتسح فى طريقه كل شىء ؛ وأرى البركان الثائر ؛ وأرى الرياح العاتية .

كل هذا وجود مادّى للقوة ، فأين هو الوجود المادى للحق ؟

لقد اتضح الأمر ، وخسرت صديقتى الطبيعة الجامدة الظالمة الميّتة ...

فلمن ألجأ ؟

* * *

لمن ألجأ ويحك يا نفس ؟ هذا العام يوشك أن يموت !

فعجزت النفس ولم تجب ، وانطلق العقل يتفلسف ، قال : إن فى الطبيعة لحسًّا وتمييزاً ، ضع ذرة واحدة من الفحم ، وخمساً من الايدروجين يأخذ الفحم أربعاً ويدع الواحدة ، ومهما ضاعفت العدد تبق النسبة ثابتة ، أفليس هذا دليلا على أن الجماد يميز ؟

وضع الذهب بين عشرة معادن وألق عليه الزئبق فانه يعانق الذهب ويدع كل ما عداه ، أفليس فى هذا دليل على أن فى الجماد شعوراً وعاطفة ؟

ولكنى لم أنتبه لما قال العقل ؟

* * *

ونظرت إلى البحر فقلت : ما البحر ؟ ما الطبيعة ؟ أنا لا أرى إلا هذا العالم المادى ؛ ولكن ماذا وراء المادة من عوالم ؟ إن الروح أول محطة فى طريق هذه العوالم ، فهل استطعنا أن نبلغها ؟ إن العقل البشرى يمشى إليها منذ بدأ صناعة التفكير ، ولا يزال فى الطريق لم تبن له معالمها ... إنه تعب وملّ ويئس ... افتح الآن أى كتاب من كتب (علم النفس) إنك لا ترى فى فهرسه اسم الروح ولا النفس ...

وفكرت فى العام الراحل فقلت : ما هو العام ؟ ما وجوده ؟ ما حقيقته ؟ ولم أسمع جواباً فأغمضت عينىّ كما أغمضت قبة الأعظمية عينيها منذ عام ، ولكنى لم أحلم ولم أتذكر ، وإنما لبثت صامتاً محدقاً فى غير شىء كالأبله أو المشدوه ، وتركت عقلى المغرور يتيه وحده فى فضاء اللانهاية ... إنه لا يستطيع أن يعرف شيئاً مما وراء المادة ... كما أن عقل الجنين لا يقدر أن يعلم شيئاً عن هذا العالم ولا يؤمن بوجوده ...

وكنت قد نسيت الطبيعة الجامدة الميتة التى لا شعور فيها ولا عاطفة ، ونسيت هذه المخلوقات التافهة الحقيرة التى يدعونها (الناس) ، ونسيت هذه الذرة التائهة فى رياح الوجود التى اسمها (أنا) ، وتوجهت إلى العظيم الباقى الذى هو وحده الخير المطلق والحق والجمال .. توجهت إلى الله أسأله أن يلبس هذا العام القادم ثوب السعادة ، ويضفى على العام الراحل حلة الغفران . اللهم آمين

« بيروت » علي الطنطاوى

بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٤ —

متاحف طوب قبوسراى

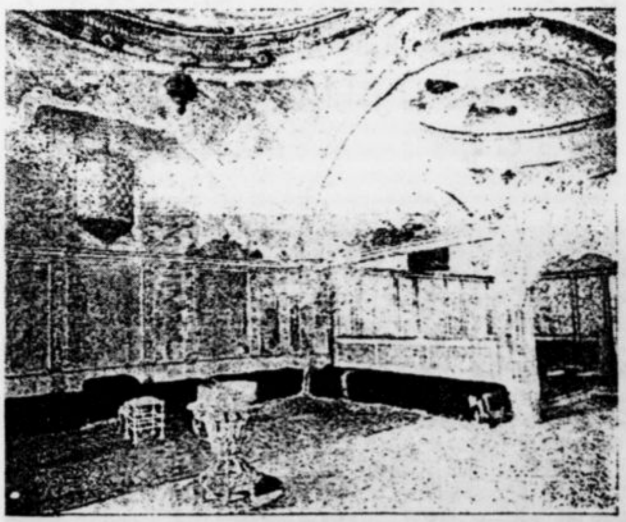
يا أخى صاحب الرسالة :

سلام عليك والله يرعاك

أكتب إليك اليوم بعض ما شهدته أمس فى متاحف قصر طوب قبو الذى كان مباءة السلاطين عصوراً متطاولة . وعسى أن أكتب إليك من بعد طرفاً من تاريخ هذا القصر الأفيح الذى يمتد على إحدى هضاب المدينة من جامع أياصوفيا إلى رأس السراى (سراى بورنو) على بحر مرمرة :

للقصر أسوار بعد أسوار . الأبواب الخارجة تؤدى إلى حدائق واسعة . وقد ذكرت فى رسالتى السابقة أحد هذه الأبواب حين ألجأني المطر إليه

سرنا فى الحديقة حتى انتهينا إلى باب آخر اسمه باب السلام فولجناه إلى حديقة أخرى واسعة تحيط بها أروقة ، ويبدو فيها إلى اليسار بناء ذوقباب ، أمامه رواق جميل . دخلنا فإذا حجرتان تتصل بهما حجرة مغلقة . اسم هذا البناء « قبة آلتى » أى تحت القبة . وكان فى العصور الغابرة مجلس الوزراء . وكان الوزراء من أجل



قبة آلتى (تحت القبة)

هذا يسمون وزراء القبة أو جلاّس القبة (قبة نشين) . فالحجرة التى إلى اليسار فيها أرائك للوزراء تتوسطها أريكة الصدر الأعظم



خزانة السلاح

ويرى فوق مجلس الصدر نافذة عليها شباك من الحديد ناتئ كان السلاطين يشرفون من هذه النافذة ليسمعوا مفاوضة الوزراء أو يروا استقبال الصدور السفراء . وكتبت إلى جانب النافذة كلمة الشهادة وطرتان ، بخط السلطان أحمد الثالث ، والحجرة التى إلى اليمين كانت للكتّاب وفيها طرة للسلطان مصطفى الرابع ، وسجادة يقال إنها نسجت قبل خمسة قرون . وكانت الحجرة المغلقة لاستراحة الكتاب

وبنى هذا البناء فى عهد سليمان القانونى سنة ٩٣٣

ووراء هذه البَنيّة برج يعلو فى الهواء ٤٢ متراً عليه منظرة تطّلع على المدينة كلها وكان حوله بناء

وعلى مقربة من « قبة آلتى » حجرة كبيرة هى اليوم خزانة الأسلحة القديمة أسلحة الملوك والأمراء . يرى الداخل أمامه بلطات كثيرة من سلاح مماليك مصر ، وإلى يمينه خزائن زجاجية يطّلع فيها على سيوف لبايزيد وسليمان . وهذا سيف السلطان الغورى وهذا سيف طومان باى . وأما سيف قايتباى هذا فقد طبعه من حديد وجده عند الحجرة النبوية سنة ٨٨١ . وهذان سيفان لمحمد الفاتح ؛ هذا الطويل المحلّى للمحافل ، وهذا القصير العاطل للمعارك

وبينا نتأمل هذه السيوف ونعجب من قدمها ، أرانا المعرض ما هو أبعد فى التاريخ وأجل شأناً ؛ هذا سيف عليه اسم معاوية

وهذه سيوف أموية طويلة مستقيمة ، وهذا سيف لعبد الله بن عمر ، وآخر لكعب الأحبار . وهذا السيف الطويل العريض المذهب قائمه قد كتب عليه : « معاذ بن جبل كاتب رسول الله » بل هذا سيف عثمان بن عفان . سمعت حسبنا بالذِكر ولم أكدرها بتحقيق الأسانيد

وتقدمت قليلا لأرى دروعاً لمماليك مصر : فهذه درع كاملة : قميص وسراويل وعلى الصدر أضلاع من الحديد

ومشيت إلى جانب آخر من الحجرة فرأيت الأقواس والسهام ريشها ونصالها ، والجُعَب ، وهي قِسيّ تركية من نبات القرنين العاشر والثالث عشر هـ . وهذه جعاب (تراكش) محلاة مزركشة ، وهذه درع هنجارية محلاة الصدر بالذهب والفصوص الكريمة ، وهذه درع كتب عليها اسم الشاه عباس الصفوى ، ولا أدرى أى العباسين الأول أم الثانى ؟

وليت شعرى لمن هذه الدرع التى اتخذت جُنة من الآيات والدعوات تقرأ عليها : يا خفيّ الألطاف نجنا مما نخاف . فالله خير حافظاً ، يا مالك الملك ، يا منجى من المهالك ، أنت الباقى وكل شىء هالك . وبيِّن أن السجع يقتضى أن يكون : يا مالك الممالك الخ ولعله تحريف الكاتب أو الطابع

سنتقدم ونمر إلى خفتانات من الجلد أو النسيج الصفيق ومغافر من الجلد والحديد . بل هذه مغافر للخيل ؛ والفرس صديق الفارس فى المآزق يحتاط له كما يحتاط لنفسه . وكانت الخيل تلبس المغافر على رؤوسها والتجافيف على أبدانها . وفى شعر أبى الطيب :

حواليه بحر للتجافيف مائج   يسير به طود من الخيل أيهم

ثم ترى قوائم أعلام يعلم الله ماشهدت من ظفر وهزيمة ، ثم بنادق من عصور مختلفة فيها المحلى بالصدف الذي يضرب بالزند والصوان ، وفيها بنادق القلاع الثقيلة ، وضروب أخرى كثيرة

— ٢ —

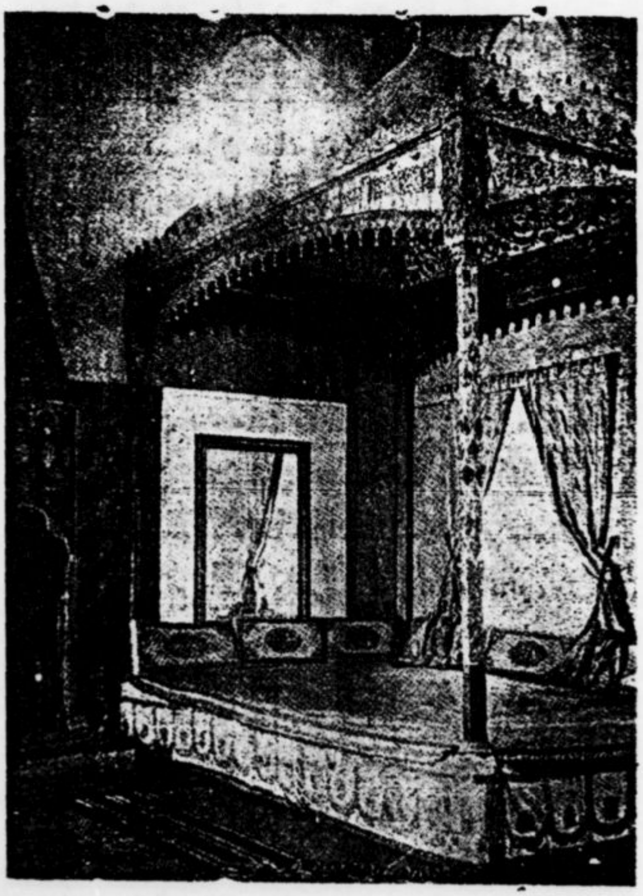
تركنا خزانة السلاح وسرنا حتى اجتزنا الباب الثالث إلى رحبة واسعة ، ويفضى الباب إلى رواق مستطيل مع الجدار ، وعلى الباب من الداخل كتابة وثلاثة ألواح مستديرة فيها أسماء السلاطين وتواريخ ولايتهم ووفاتهم من عهد عثمان إلى محمد السادس وهى تشغل لوحين ونصف الثالث ، وبقى الفراغ فيه ناطقاً بانتهاء الدولة

وأمام الباب حجرة يتقدمها رواق . وهى حجرة العرض (عرض أوده سى) وكانت مجلس السلطان لمقابلة السفراء ، ورجال الدولة أيام الأعياد وفيها سرير منجد تعلوه قبة من الخشب المصنَع المزين وكان أثاث الحجرة وزينتها من آيات الإتقان والبذخ ولكنها احترقت سنة ١٢٧٣ وبقى بعض آثارها

وفى جانب الحجرة نافورة يقال إنها كانت تفتح حين يُسِر السلطان حديثه حتى لا يسمع الذى فى الخارج

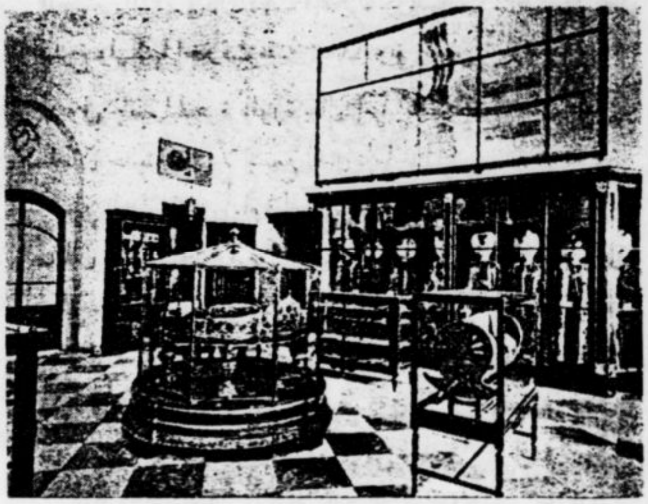
وفي الرواق الذى أمام الحجرة حجر من الرمر يقال إن قتلة السلطان سليم الثالث وضعوا جثته عليه وأروها للصدر علمدار مصطفى باشا

وتقدمنا فملنا ذات اليمين إلى (الخزينة) وفيها من نفائس التاريخ وأعلاق الملوك ما يكل الطرف دون تأمله ؛ الحجرة الأولى والثانية بهما أدوات الطعام والقهوة من الصينى الجيل فى ندرة من الألوان ، وفتنة من بدائع النقش ، صحون وطسوت وأباريق وفناجين ، وأدوات من البللور والنحاس المذهب ، وخوانات من الفضة ومواقد الخ الخ



حجرة العرض

هذه المرائى اللألاءة تبهر العين حيثما توجهت فتشغل الناظر عن التفكير فيما وراءها من التاريخ . قلت ماذا أرى وماذا أدع ؟ هذه للعابر متعة دقائق ، وللباحث درس أشهر ، وللمفكر عبرة الدهر



حجرة الملابس

ثم حجرة الملابس ، ياله منظراً مهيباً ومقاماً هائلا ! صف ينتظم السلاطين من الفاتح إلى عبد المجيد . ها أنت ذا فى حضرة السلاطين الذين رجفت بهم الأرض قروناً وامتلأت صفحات التاريخ أجيالاً . هوّن عليك لا تُرَع . ما هى إلا ألبسة تحملها أعواد . أجل ! هذه الجبة ، وهذه العمامة الكبيرة ، وهذه الشارة (سرغوج) التى تعلو العمامة محلاة بالماس ، وهذا الخنجر المذهب الذى تثقله هذه الزمردة الكبيرة — أجل هذا لباس الفاتح وزينته وسلاحه ، ولكن لا تُرَع إن هو إلا لباس على أعواد . إضحك إن شئت ، وتحدث كما تشاء ، ولا تأخذك هيبة الفاتح وصولته ، وإن شئت فقف خاشعاً مطرقاً مفكراً فانها ذكرى واقعة وتاريخ ماثل ، فاذا أخذتك سورة الذكرى واستشعرت رهبة الملك فارفع رأسك وانظر فليس أمامك الفاتح ، ولكن جبته وقفطانه وعمامته وخنجره

وانظر بجانبه ملابس بايزيد الصوفى : عقد من الزمرد حول حلقة من الجواهر يزين هذه العمامة ، وعلى مقبض الخنجر ثلاث قطع من الفيروزج زرقاء صافية . وتقدمت فوقفت أمام سليم وسليمان ! ولست أبالى حضرة سليم وسليمان ، فقد ذهب الدهر بسليم وسطواته ، وذهبت الريح بملك سليمان

وانظر إلى من بعد سليم وسليمان : هذان سليمان الثانى ومحمد الرابع على رأسيهما عمارتان تخالفان ما رأيت قبلا ، عمارة حمراء عليها لفافة صغيرة ، وشارة عظيمة جداً ؛ ثم انظر العمائم الطويلة المضلعة على رأس مصطفى الثانى ومن بعده

وهذا محمود الثانى الذى بذل فى الإصلاح جهده وبطش بالإنكشارية بطشته فى زى أوربى على رأسه طربوش عليه قطيفة سوداء وشارة . ثم عبد المجيد على رأسه الطربوش والشارة فقط . وهكذا يسير التاريخ متمهلاً من أبهة الماضى واستقلاله وجلاله إلى يسر الحاضر وتقليده وجماله

وفى وسط الحجرة صوالج لعبت بالأمور حتى لعبت بها الأقدار . وليت شعرى ما خطبُ هذا المهد السلطانى الصغير ؟ بل أى طفل من بنى السلاطين ترجّح فيه ، وأى يد من أيدى الأميرات أو الخادمات هزته ؟ وماذا كان حظ صاحبه من هذا المهد إلى ذاك اللحد ؟

وأما هذا العرش العظيم المسبغ الجوانب ذو القوائم الأربع فيقال إنه عرش الشاه اسماعيل ...

وبعد فياصديقى الزيات ! أخشى أن يطول الحديث فليقف الكلام عند عرش اسماعيل وموعدنا الرسالة المقبلة إن شاء الله

والسلام عليكم ورحمة الله — عبد الوهاب عزام

أثاشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٥٧ —

انتظم في نشيدى الأخير كل فنون الطرب : الطرب الذي يكسو وجهه بخضرة النبات المتراكم ؛ الطرب الذي يبعث التوأمين — الموت والحياة — فى أنحاء الأرض يطوّفان معاً ؛ الطرب الذى يهبط جارفاً فى ثنايا عاصفة فينفث فى الحياة روح اللذة والمرح ، الطرب الذى يستقر فى هدوء وعبراته على زهرة اللوتس الحمراء وهى تتفتح ؛ الطرب الذى ينثر كل ما يملك على الثرى ثم هو لا يستطيع حديثاً

— ٥٨ —

نعم ، أنا أوقن بأن هذا ليس شيئاً سوى حبك ، يا حبيب القلب ! هذا الشعاع الذهبي المتألق على أوراق الشجر ، هذه السحب المتكاثفة وهى تسبح في الفضاء ، هذا النسيم العليل وهو يهب نديًّا يداعب وجهى

لقد ملأ نور الصباح عينىّ ، وهو رسالتك إلى قلبى ، إن وجهك يطل علىّ من علٍ ، وعينيك تحدقان في ، وقلبى يلمس قدميك

— ٥٩ —

على شاطىء بحر الكون اللانهائى يتلاقى الأطفال ، ومن فوقهم السماء تمتد في سكون إلى اللانهاية ، وبإزائهم الأمواج المضطربة تزمجر ، وعلى شاطىء بحر الكون اللانهائى يتلاقى الأطفال فى هياج ومرح

وهم يتخذون من الرمال قصوراً ، ومن الأصداف الفارغة لُعباً ؛ ويشيدون من الأوراق الذابلة قوارب يدفعون بها على صفحة الماء الغَمْر فى لذة . إن الأطفال يجدون السلوة على شاطىء بحر الكون

إنهم لا يستطيعون السباحة ولا يعرفون كيف تلقى الشباك . إن الغواص يندفع يفتش عن اللآلىء ، والتاجر ينطلق على الفلك بمجمها ، ولكن الأطفال يجمعون الحصى وينثرونه لأنهم لا ينقبون عن الكنوز الخفية ، فهم لا يعرفون كيف تلقى الشباك

البحر يموج كأنه يقهقه ، ورمال الشاطىء الصفراء تشف عن بسمة رقيقة ، والأمواج إلى جانب الأطفال تردد أغانى لا معنى لها كأنها صوت أم تهدهد طفلها وهو فى مهده . إن البحر يداعب الأطفال ، ورمال الشاطىء الصفراء تشف عن بسمة رقيقة

على شاطىء بحر الكون اللانهائى ، يتلاقى الأطفال والعاصفة تزمجر فى الفضاء ، والسفن تتحطم فى مجاهل الأمواه . الموت هناك ، وهنا الأطفال يلعبون . على شاطىء بحر الكون اللانهائى يتلاقى الأطفال لقاءهم العظيم

— ٦٠ —

أفيستطيع إنسان أن يعرف من أين يهبط النوم الذى يداعب جفنى الطفل ؟ نعم ، إن الاشاعة تدوى أنه يتخذ له مسكناً فى القرية الجميلة التى بين تفاريق الغابة الظلماء لا ينيرها سوى الشعاع الضئيل المنبعث من الفراش المضيء ، هناك تتدلى زهرتان فيهما الحياء والفتنة تنفثان ريح النوم فينطلق ليقبل عينى الطفل

أفيستطيع إنسان أن يعرف من أين تهب البسمة الساحرة التى ترتسم على شفتى الطفل وقد غمره النوم ؟ نعم ، إن الاشاعة تدوي أن شعاعاً رفيقاً نديًّا انبعث من القمر وهو هلال فلمس حافة سحابة من سحب الخريف وهى تكاد تتلاشى ، فولدت — أول ما ولدت — الابتسامة فى أحلام الصباح الندي ... هذه هى الابتسامة الساحرة التى ترتسم على شفتي الطفل حين يغمره النوم

أفيستطيع إنسان أن يعرف أين كان يتوارى النشاط الحلو الرقيق الذى يضطرم فى أطراف الطفل ؟ نعم ، حين كانت الأم فتاة ألفت بقلبها فى هدوء بين خفايا الحب ... الحب ، إنه هو النشاط الحلو الرقيق الذى يضطرم فى أطراف الطفل

— ٦١ —

حين أحمل إليك — يا بنيّ — اللُعب الجميلة الملونة أستطيع أن أعرف لماذا ارتسمت هذه الألوان على السحب ، على الماء ، ولماذا صبغت الأزهار اليانعة بألوان جذّابة .. حين أحمل إليك — يابنى — اللُعب الجميلة الملونة ، حين أغنى أمامك لترقص على نغم أغانىّ ؛ أعرف حقاً لماذا تنبعث الموسيقى من حفيف أوراق الشجر ، ولماذا ترسل الموج ألحانه فى قلب الأرض الصامتة .. حين أغني أمامك لترقص على نغم أغانىّ

حين أقدم لك الحلوى فتتقبلها فى شغف ؛ أعرف أنا لماذا امتلأ كأس الزهرة رحيقاً ، ولماذا انضمت الفاكهة على عصير حلو ... حين أقدم لك الحلوى فتتقبلها فى شغف

في العدد الماضى سقط سهواً نشيد (٥٣) وأوله : ما أجمل سوارك

حين أقبل جبينك — يا عزيزى لتبسم ؛ أستطيع أن ألمس اللذة فى شعاع الصباح المنير ، وأن أحس النشوة التى تنفثها فى نسمات الصيف ... حين أقبل جبينك لتبسم

— ٦٢ —

أنت عرّفت عليّ أصدقاء لا أعرفهم ، وحبوتنى بمكان فى كل دار وليس لى واحدة منها ، وأنت كشفت لى عن كل مبهم ، ومننت عليّ برفيق فى الغربة

إن قلبى ليضطرب حين أهجر مأواى الذي سكنت إليه . لقد نسيت أن القديم يتحدّر إلى الحديث فيعيش معه ، وأنك أنت أيضاً بين صراع الحياة والموت ، على هذه الأرض أو على سواها ، تقودني أنت أنىّ شئت ... وأنت رفيق الأوحد فى هذه الحياة الأبدية ، رفيق الذي يجذب إليك قلبى بنفثات من الطرب المجهول

إن الذى يعرفك لا يستشعر الغربة فى هذا العالم ولا تسد فى وجهه الأبواب . أوه ، تقبل صلواتى كى لا أفقد لذة لمساتك — أيها الفرد — فى سبيل المجموع

— ٦٣ —

عند منحدر النهر الموحش ، وبين الحشائش النامية سألتها « يا سيدتى ، إلى أين تذهبين وأنت تسترين سراجك بين طيات ملاءتك ؟ إن داري مظلمة خاوية فأعيرني ضوءك ! » فأرسلت من عينيها السوداوين نظرات نفاذة اخترقت أستار الظلام ، واستقرت على حيناً ثم قالت « لقد جئت إلى النهر لأضع مصباحى على صفحة الماء حين ينطفئ مصباح النهار » فوقفت وحيداً بين الحشائش أرقب نور مصباحها الخافت وهو يتناثر بدداً على صفحة الماء

وفى صمت الظلام سألتها : « يا سيدتى ، لقد همد مصباحك فإلى أين تنطلقين ومعك سراجك ؟ إن دارى مظلمة خاوية فأعيرنى ضوءك ! » فأرسلت من عينيها السوداوين نظرات نفاذة استقرت عليّ حيناً ، ثم قالت : « لقد جئت لأقدم مصباحى إلى السموات » فوقفت أرقب الضوء الخافت وهو يضطرب — دون جدوى — فى الفضاء

وفى أعماق الليلة الظلماء سألتها : « يا سيدتى ، لماذا تضمين مصباحك إليك ؟ إن دارى مظلمة خاوية فأعيرنى ضوءك ! » فتلبثت قليلاً تفكر ثم نظرت إلي وقالت : « لقد جئت بمصباحى لأنضم إلى الحفل » فوقفت أرقب الضوء الخافت وهو ينوص وسط المصابيح

كامل محمود حبيب

من الشعر الانجليزى

القـــــبرة

للشاعر العبقرى الانجليزى « شيلى »

للأستاذ خليل هنداوى

« تعد هذه القطعة أكمل ما جاء فى الشعر الانجليزى وقد نظمها صاحبها فى إيطاليا ، وهو فى الثامنة والعشرين من عمره . وقد قالت امرأته : إنه كان فى أحد أيام الصيف يتجول فى الغابات وقد سمع صوت قبرة ، فأوحت إليه قصيدة من أسمى قصائده » (خ . ه)

سلاماً عليك أيتها الروح المرحة !
أنت لستِ بطائر
يا من تسكبين من السماء ومن الطباق المجاورة
ألحاناً مبتكرة — علينا — يطفح قلبك بها
تطيرين إلى الأعلى ، دائماً إلى الأعلى
وتنقذفين من الأرض كسحابة من نار ،
وتطيرين فوق الأعماق الزرقاء
شادية وأنت محلقة
محلقة وأنت شادية لا تنتهين .
وفى لمعات الشمس الغاربة التى يسطع لها السحاب
تسبحين وتركضين كفرح طليق متوثب بدأ سباقه ؛
صفرة المساء الأرجوانى تنتشر حولك
وكنجمة غمرها نور النهار الواضح تصيحين متوارية ،
ولكنى لا أزال أسمع هتافك الطروب .
الفضاء والأرض مفعمان بصوتك
كمهدها عند ما يرسل القمر أشعته من وراء سحابة منعزلة
فى الليلة الصافية
والسماء يفيض على حواشيها شعاعه

***

خرير الينابيع بين الأعشاب اللامعة

والأزهار الناعمة التي ينبهها المطر
وكل ما أطرب وأفرح وسر ألا يفوق لحنك منه شيء
علمنا أيها الطائر !
أي جال في أفكارك !
فإني لم أسمع مقطوعة في حب أو خمر تفجر في النفس كمثل
ما يفجره لحنك من الغبطة الإلهية
إن ألحان العرس وأغاني النصر إذا قيست إلى الحانك لا
تبدو إلا ضجة فارغة أو فراغاً لا معنى له .
لأية غايات تترامى ينابيع صيحاتك الفرحة ؟
أية حقول وأية أمواج أو جبال ؟
وأية مشاهد في الأرض أو في السماء ؟
وأي حب للقريب ؟ وأي جهل للشقاء ؟
إن العناء لا يسكن مع فرحك الظاهر القوي ؟
وخيال الضجر لا يمسك أبداً
إنك تحبين ولكنك لم تعرفي أبداً شبح الحب الكئيب
سواء كنت نائمة أو يقظى ، فإن لك أفكاراً على الموت أثبت
حقيقة مما نحلم نحن به
وإلا فكيف تسبح أنغامك كالأمواج البراقة ؟
إننا ننظر أمامنا ووراءنا ، وإنا لنشحب بعد الفناء ؛
وضحكتنا الأكثر صفاء هي مشوبة ببعض الألم ؛
وأجمل أغانينا الأغاني التي ترجع لنا أفكارنا الكئيبة ،
على أننا لو قدرنا أن نجتنب الخوف والبغض والكبرياء
ولو ولدنا لكي لا نبكي أبداً ،
فاني لأدري كيف لايستطيع فرحك أن يستعطف أنفسنا !
إن فنك الذي يزدري الأرض
يكون — عند الشاعر — أفضل من أوتار الألحان الرائعة
ومن كل الكنوز التي تصونها الكتب .
آه لو علمتني — أيتها القبرة — نصف فرحك الذي يعرفه
قلبك
أو صوتاً مطرباً يفيض من شفتي يسمعه مني الناس كما
أسمع الآن

قبرة شيلي

للشاعر الانجليزي توماس هاردي

كتبت في إيطاليا حيث كتب شيلي مقطوعته الشهيرة «القبرة»

هنا بعض شيء — حول هذا المكان — يستريح ملاصقاً
أميناً للأرض الناسية العمياء
بعض شيء ترك قلب الشاعر فياضاً
قبضة مجهولة من تراب لا يُرى
تراب القبرة التي سمعها شيلي وخلدها لكل الأزمان
على أنها لم تعش إلا كمثل عصفور من العصافير
ولم تعلم أنها أصبحت مخلدة
قضت حياتها العذبة ثم سقطت يوماً كتلة من ريش وعظام .
أما سؤالك كيف هلكت وهي ترجع أنشودة الوداع
وأين استقر رمادها
فهذا أمر مجهول .
ربما تستريح تحت عيني في التراب
وربما تخفق بين أوراق الرياحين
وربما تنام في ظاهر لون عنقود يتلون في منحدر التلال
بعيداً عن البحر
ألا فتشن عنها أيتها الجنيات !
ألا فتشن عن هذه القبضة الصغيرة من الرماد من غير ثمن
وخذن آنية موشاة بالفضة مغشاة بالذهب ، مرصعة باللؤلؤ
إننا سنضعها فيها بأمان ، ونسلمها إلى أبد الزمان
لأنها بلغت ذروة الذهول السامي في التفكير والألحان

خليل هنداوي

العدد ١٨٣

أعدنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة ، فمن لم يكن عنده من حضرات المشتركين فليتفضل بطلبه من الادارة

فلسفة التربيـــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٥ —

الديمقراطية والحياة المثلى

« أية قطعة من الخليقة هو الانسان ؟ كم هو عظيم فى عقله وليس بمحدود فى ملكاته ؟ وكم هو رائع وسريع فى صورته وحركته ؟ وكم هو كالملاك فى عمله وكالاله فى فهمه ؟ إنه جمال العالم وتاج الحيوان !! »
شكسبير — هملت

« على التربية اليوم أن تصلح الاخطاء التى فشلت السياسة فى إصلاحها ، وأن تخدم قضية الديموقراطية أفضل خدمة »
Bode, « Modern Ed. Theories »

عرضت عليك فى المقال السابق ألواناً من أغراض التربية وصوراً ، وأشرت إلى دقة الموضوع وصعوبته ، ثم تركته مفتوحاً لرجال التربية فى الشرق كيما يدلى كل منهم فيه برأيه الخاص ؛ وأعود اليوم فأجول بك فى « الحيـاة المثلى » ما دمنا نريد من التربية أن تعدّنا لمثل تلك الحياة ...

ولكن ترى ماذا عسى أن تكون هـذه « الحياة المثلى » لذلك « الإنسان العظيم » الذى تصوره شكسبير ؟؟ وأى علم من العلوم ، أو فن من الفنون ، يصلح للخوض فى ذلك الموضوع غير الفلسفة والشعر ؟؟ ومن أين تستمد التربية هـذه الحياة إذا هى لم تستمدها من الفلسفة والشعر ؟؟

الحق أن الناس قد اختلفوا وما زالوا يختلفون فى تصورهم للحياة ، وأن الفلاسفة والشعراء قد تباينوا تبايناً عظيما فيما قد رسموه لها من « مثل عليا » دافعوا عنها ودعوا الناس إليها ! وأنت ترى بعد ذلك أن الموضوع خطير كل الخطورة ما دامت حياتنا هنا واحدة لا عودة لها ولا تكرار :

إذن فيم تقوم « الحياة المثلى » ؟ أفى الزراعة وحكمة الأقدمين كما يقول « غاندى » ؟ أم فى السرور كما يزعم « ماتيو أرنولد » ؟ أم فى العمل بالتئام مع إرادة حاكم الكون كما يردد « زينو » ؟ أم فى النشاط الفكرى الدائر حول أسمى موضوعات الفكر — وهو الله — كما يؤكد « أرسطو » ؟ أم فى إشباع الحاجات الطبيعية دون إفراط أو تفريط كما يطالب « سبنسر » ؟ أم فى التأمل فى الجمال المطلق كما يسمو « أفلاطون » ؟ أم فى حياة الفضيلة كما نصح الرواقيون ؟ ، أم فى الحياة الطبيعية البعيدة عن العلم والفن كما صرح « روسو » ؟ أم فى آداء الواجب فحسب كما ألح « كانت » ؟

تلك جميعاً تصورات « للحياة السعيدة » فيها من التشابه والاختلاف الشئ الكثير . ولقد حاول « ديوى » فى نزعتـه الاجتماعية الجارفة أن يدلى برأيه فى الموضوع فقال : « إن السعيد من الناس هو من ينظر إلى قوى نفسه من ناحيتها الاجتماعية فلا يدبر أمراً أو يرغب فيه إلا بالإشارة إلى أثره فى الجماعة التى هو جزء منها . ذلك أن سعادته إنما تقوم فى تنمية « النشاط الاجتماعى » دون النظر إلى ماعسى أن يكون فى ذلك من لذة أو ألم (١) » ومعنى ذلك أن الإنسان — مهما سما فى الفكر أو اعتنى بالمادة — لايستطيع أن يتذوق السعادة الحقة إلا فى ظل الجماعة التى هو جزء منها ، والتى لها عليه واسع الفضل وعظيم النعمة ؛ وليست هـذه النزعة فى الواقع إلا صـدى لتيار « الديمقراطية » الذى أغرق بأمواجه المدوية الجارفة خرافة « التفريق بين الناس » ، وحمل « الشعب » على ظهره إلى فردوس الكرامة والرقى !

وماذا عسى أن تكون هذه الديمقراطية ؟ وماذا عسى أن تكون تطبيقاتها فى التربية ؟

أما هى فيعرفها « ديوى » بأنها « حكم الشعب لأجل الشعب وبالشعب (٢) » ! ويفسرها بأنها اشتراك الأفراد فى المصالح العامة بحرية تامة وفى دائرة الخير العام (٣) ؛ هذا بينا يعرّفها « باستور » « بأنها النظام الذى يمكن الجميع من تحقيق أقصى مجهوداتهم »

وأما تطبيقاتها فى التربية وفى غير التربية فخطيرة وعظيمة بحيث لايكاد يتسع لها مثل هذا البحث ... وحسبك أن تعلم

(١) أنظر A Source Book of The Philos. of Ed. by Kilpatrick فصل « غاية التربية »
(٢) أنظر كتابه The Schools of To morrow
(٣) وكتاب Demochacy and Education

آثارها فى نظام الحكومة [١] ، ونظام العمل والعمال ، ونظام التعليم الشعبى ، بل نظام العالم كله كما يتصوره السلميون العالميون لتعلم حقيقة ما أقول :

وهاهوذا « وولف يشترط فى أعمال الفرد الديمقراطى أن « تكون شائقة جذابة وإلا دفعت به إلى الفساد الخلقى » !

وهاهوذا « هوبهوس » يحرم الحرب فى الديمقراطية لأنه يراها تقتل « الحرية » ، وهذه — كما تعلم — أساس الديمقراطية

بل ها هوذا الأستاذ Bode يرى مع « ديوى » وغيره أن الديمقراطية يجب أن تسود التربية فى جميع مراحلها وتطبيقاتها ويرجو من التربية ذاتها أن تكون خير مساعد فى نشرها كيما تستطيع غداً أن تصلح تلك « الأخطاء الهائلة » التى رزح العالم تحت أثقالها سنين طوالاً ، وكان الجاني عليه فيها سياسة عمياء ، ونزعة حمقاء ، وجهل مطبق !

تطبيقات الديمقراطية على التربية

وما دمنا هنا إزاء التربية فلا بد من أن نجعلها صالحة لخلق ذلك المجتمع الديمقراطي المنشود — لابد من أن نجعلها تعد الفرد لا لملء مركز خاص كما كان الحال فى « خرافة الطبقات » ، بل لخلق مركز مناسب يعمل فيه كوحدة مرنة متسقة محترمة قادرة على مواجهة التغير المنتظر فى كل وقت ، وغير خاضعة لسياسة تعسفية مفروضة !

ولم ذلك ؟ ألم تفشل مدارسنا الراهنة فى تعليمنا أن الحياة مغامرة فيها من المفاجآت القاسية بقدر ما فيها من المداعبات الهينة ؟ ألم تخرج لنا أولئك المتكبرين المتعجرفين الذين لا يصلحون لشيء غير ملء المقاعد وتسويد الأوراق ، والذين تقوم بينهم وبين الشعب هوة من الانسانية الكسيرة ، والكرامة المهيضة ، والشرف المذبوح ؟

نريد إذن عالماً أحسن ؟ ! عالماً لا تثور فيه الحرب ، ولا تطغى الآلة ، ولا يذبح فيه « العلم المادى » الايمان فيؤخر السمو الخلقي ويعوقه عن اللحاق بالتقدم العلمي ! ! عالماً لا يدخل عليه التغير الحتمى فيغرق أبناءه فى جحيم من الفوضى كما نرى فى كل مرحلة انتقال تجتازها أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات ! !

وسبيل ذلك كله هو تحويل « المدرسة والتدريس » إلى « شيء آخر » تنمو فيه شخصية الطفل ، وتقوى على مواجهة الظروف ، وتكون مرنة لا تأسرها العادات ، وذات فراغ كاف يرى يكسبها حكمة العلم ورقة الفن ويسمو بها فوق الآلات ! ! ذلك إلى عمل « مفهوم » وشائق وجذاب ، وإلى ثقافة راقية تفهم صاحبها مركزه فى الكون ووظيفته فى الجماعة التى يجب أيضاً أن تكون مفهومة لديه ! ! ثقافة خالية من « لصوص التاريخ وسفاكيه » كما يقول هازئاً « برناردشو » وبذلك يكون لدينا عضواً فعالاً ، متعاوناً مستقلاً ، عادلاً ، يحترم المعارضين ، ويشك ، وينقد ، ويجازف ، ويسمو في إنسانيته فوق العجماوات ، عضواً يرى السلاح حقارة كما يقول « برتراند رسل » ، ويمقت البدع الدينية ومروجيها من ذوى الطيالس واللحى ، عضواً كله إقدام وتفاؤل وأمل ، لاخوف وتردد ويأس ...

وستسأل بعد ذلك عن الأساس الفلسفى الديمقراطى ؟ ! وسأجيبك أن الله الذى خلق الإنسان « على مثله وصورته » ما كان ليرضى له ذلاً أو استعباداً ، أو أى مظهر آخر من مظاهر الاستبداد الذى يخمد إنسانيته ويعوقها عن كمالها المنشود

أوَ ليس « الإنسان » عظيماً فى عقله ، وغير محدود فى ملكاته ، ورائعاً فى صورته ، وسريعاً فى حركته ؛ وكالملاك فى عمله ، وكالإله فى فهمه ؟ لأنه جمال العالم وتاج الحيوان ؟

إذن فما لنا نأبى عليه إنسانيته الرفيعة هذه ، ونلقى به فى هوة فيها ما شئت وما لم تشأ من حيوان وشيطان ؟

« يتبع » محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

(١) ومهما يكن لها فى ذلك النظام من عيوب فانا نرى مع الأستاذ جوستاف لوبون أنها خير نظام وجد حتى الآن .. أنظر كتابه روح الاجتماع

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

– ٢٠ –

تحت راية القرآن

الجديد والقديم ...! هنا ميدان الخصومة بين الرافعي وأدباء عصره ؛ فمنذ نَحَله أديبٌ منهم زعامة المذهب القديم في مقال كتبه لمجلة الهلال سنة ١٩٢٣ ، نشط الرافعي ليجاهد هذه الدعوة التي يدعون إليها بتقسيم الأدب إلى قديم وجديد ؛ إذ لم تكن هذه الدعوة عنده إلا وسيلة إلى النَّيل من العربية في أرفع أساليبها ، وسبيلاً إلى الطعن في القرآن وإعجاز القرآن ، وباباً إلى الزراية بتراث الأدباء العرب منذ كان للعرب شعر وبيان . ومن ذلك اليوم نصب الرافعي نفسه ووقف قلمه على تفنيد دعوى التجديد ؛ فجعل همَّه من بعدُ أن يتتبع آثار الأدباء الذين ينتسبون إلى الجديد ليردَّ عليهم ويكشف عن باطلهم . وما كان يرى في عمله ذلك إلا أنه جهاد لله تحت راية القرآن ؛ فمن ذلك كان اسم كتابه الذي جمع به كل ما كتب في المعركة بين الجديد والقديم ، من سنة ١٩٠٨ – ١٩٢٦

هو كتاب لم ينشئه ليكون كتاباً ، ولكنها مقالات تفرقت أسبابها واجتمعت إلى هدف واحد ، وكانت مزقاً مبعثرة في عديد من الصحف والمجلات فجمعها بين دفتي كتاب ، فاجتمع بها رأي الرافعي في القديم والجديد على اختلاف أسبابه ودواعيه وما كُتب له ؛ على أنك لا تكاد تبلغ من صفحات هذا الكتاب إلى الصفحة المائة من أربعمائة حتى يخلو الميدان من كل أنصار الجديد إلا رجلاً واحداً هو الدكتور طه حسين بك ، ويتوجه إليه الخطاب والرد في كل ما بقي من صفحات الكتاب ؛ فكأنما أنشأ الرافعي وجمعه كتاباً للرد عليه هو وحده ، وكأنه هو وحده الذي يدعو إلى الجديد وينتصر له ويحمل رايته ؛ فإذا أوشكت أن تفرغ من الكتاب فرغت من الرافعي ومن رأيه ومن حديثه ، لتقرأ جلسة من جلسات البرلمان يرأسها سعد ويتداول الحديث فيها طائفة من النواب عن طه حسين ورأي طه حسين في الأدب وفي الدين وفي القرآن ، ويحتدم فيها الجدل بين حكومة عدلي وبرلمان سعد في شأن هو إلى الأدب أدنى منه إلى السياسة ؛ وإنها لجلسة ممتعة خليقة بأن تكون في موضعها من كتب الأدب وتاريخ النقد الأدبي

وليس الكتاب على استواء واحد في أسلوبه ؛ ففي المقالات الأولى منه تقرأ رأي الرافعي هادئاً متزناً فيه وقار العلماء وحكمة أهل الرأي ورحابة صدر الناقد البريء ؛ فإذا وصلت من الكتاب إلى قدْر ما ، رأيت أسلوباً وبياناً غير الذي كنت ترى ، وطالعتك من صفحات الكتاب صورة جَهْمة للرافعي الثائر المغيظ المحنق ، جاحظ العينين كأنما يطالب بدم مطلول ، مُزْبد الشدقين كالجمل الهائج ، منتفخ الأنف كأنما يشم ريح الدم ، سريع الوثاب كأن خصماً تراءى له بعد ما دار عليه طويلاً فهو يخشى أن يفر ، وهو هنا يعني طه حسين وحده !

وليس عجيباً أن ترى هذين اللونين من النقد لأديب واحد بين دفتي كتاب ؛ فإن هذه المقالات وإن صوَّبتْ إلى هدف واحد قد اختلفت دواعيها وأسبابها ومن كُتبت له ؛ وقد كان بينها في التاريخ الزمني سنوات وسنوات ، والكاتب المتجدد لا يثبت على لون واحد من عام إلى عام

على أنك تقرأ للرافعي من هذا الكتاب رأيه في طريقة تدريس الأدب بالجامعة غداة تأليفها سنة ١٩٠٨ ، فتراه يدعو إلى مذهب جديد في تدريس الأدب ، وتقرأ له – من الكتاب نفسه – ردَّه في سنة ١٩٢٦ على طه في طريقته الجديدة لتدريس الأدب ، فتراه ينكر عليه هذا الجديد ؛ فتعلم من هذا وذاك أن الرافعي لم يكن يعني بحملته أن يناهض كل جديد ، بل كانت غايته أن يردَّ إلى الأفواه كل لسان يحاول بدعوى الجديد أن يتنقص من القديم ليخلص من ذلك إلى النيل من لغة القرآن ولغة الحديث ومن تراث أدباء العربية الأولين

ليس يعنيني هنا أن ألخص رأي الرافعي في الجديد والقديم ، فمراجع البحث عن رأيه في ذلك واسعة مستفيضة ، إنما قصدت إلى تعريف هذا الكتاب إلى قراء العربية في عرض موجز ووصف كاشف ؛ أما ما دون ذلك فله من شاء من أهل الرأي والنظر ، وله مني غير هذا المجال من الحديث

* * *

والآن سأتجاوز الفصول الأولى من الكتاب لأتحدث عن أسلوبه في سائره ؛ ويبدأ هذا الجزء من صفحة ١٠٤ – ٤٠٥ وفيه تفصيل ما كان بين الرافعي وطه حسين منذ بدأت الخصومة بينهما حول « رسائل الأحزان » إلى أن انتهت عند مجلس النواب حول كتاب « في الشعر الجاهلي » ، وهو فصول عدة ، فيها ألوان من النقد مختلفة ، وأساليب في البيان متباينة ؛ ففيها

التهكم المر ، وفيها الهجوم العنيف ، وفيها المصانعة والحيلة ، وفيها ردُّ الرأى بالرأى ، وفيها تقرير الحقيقة على أساليب من فنون النقد ، وفيها المراوغة ونصب الفخاخ للإيقاع ، وفيها الوقيعة بين فلان وفلان ، وفيها الزلفى إلى فلان وفلان ، وفيها العلم والأدب والاطلاع الواسع العميق ، وفيها شطط اللسان ومر الهجاء ؛ وفيهـا فن بديع طريف ، فيما حكى الرافعى عن كليلة ودمنة ...

ولكن أكثر هذه الفصول يطرد على مثال واحد إذا أنتَ نظرتَ إليه فى جملته ، فيبدأ كل فصل منها بأسلوب أليم من التهكم يفتنّ الرافعى فيه فنوناً عجيبة حتى يبلغ نصف المقال ؛ ثم يميل إلى طرف من موضوع الكتاب المنقود ، فيتناوله على أسلوب آخر هو أقرب الأمثلة إلى ما ينبغي أن يكون عليه النقد الأدبى ، لولا عبارات وأساليب هي لازمة من لوازم الرافعى فى النقد إذا كان بينه وبين من ينقده ثأر ... بَلَى إنها نموذج عال فى النقد العلمىّ الصحيح لولا تلك العبارات وهذه الأساليب !

كليلة ودمنة

على أن مبالغة الرافعى فى التهكم قد شققتْ له فنوناً من المعانى والأساليب ، لولا الناحية الشخصية منها لكانت نماذج لها اعتبار وقيمة فى أدب الإنشاء ؛ وأبدعُ هذه الأساليب حديثـه عن كليلة ودمنة وما نَحَـاهما من الرأى فى طه حسين . وكليلةُ ودمنة كتاب فى العربية نسيج وحده ، لم يستطع كاتب من كتاب العربية أن يحاكيه منذ كان ابن المقفع ، إلا مصطفى صادق الرافعى . وكانت أول هذه المحاكاة اتفاقاً ومصادفة ، فى مقالة من مقالات الرافعى فى طه حسين ؛ إذ أراد أن يتهكم بصاحبه على أسلوب جديد ، فبعث كليلةَ ودمنة ليقول على لسانهما كلاماً من كلامه ورأياً من رأيه ؛ فلما أتم تأليف هذا الفصل عاد يقرؤه ، فإذا هو عنده يكاد من دقة المحاكاة وقرب الشبه أن ينسبه — على المزاح — إلى ابن المقفع فلا يشك أحد فى صدق روايته ، فنشره بعد ماقدّم له بالكلمة الآتية : « عندى نسخة من كتاب كليلة ودمنة ليس مثلها عند أحد ... ما شئتُ من مثل إلا وجدته فيها ؛ وقد رجعتُ إليها اليوم فأصبتُ فيها هذه الحكاية ...

« قال كليلة : أمّا تضرب لى المثل الذى قلتَ يا دمنة ؟ قال دمنة : زعموا أن سمكة فى قدر ذراع ... ... » ومضى فى اختراعه وتهكمه حتى انتهى إلى رأى دمنة فى الدكتور طه حسين...[1]

ثم استمر ينقل عن (نسخته الخاصة) من كليلة ودمنه ما يجعله مقدمة القول للتهكم فيما يلى من مقالات فى الرد على الدكتور طه حسين ، فنشر منها ثمانية فصول طريفة ممتعة فى كتاب المعركة . وإن قارئ هذه الفصول الثمانية ليرى فيها لوناً طريفاً من أدب الرافعى ، لو أن الظروف واتته لأتمه فأنشأ به فى العربية إنشاء جديداً له خطر ومقدار . على أن الرافعي لم يكن يقصد أول ما قصد أن يتمه كتاباً ، إنما دفعه إلى إنشاء هذه الفصول السبعة بعد الفصل الأول ، ما لقى من استحسان القراء لهذا اللون الجديد من أساليب التهكم فى النقد ؛ وأحسب أن الدكتور طه حسين نفسه كان معجباً بهذه الفصول الثمانية من كليلة ودمنه مع ما يناله فيها مما يؤلم ويسيء ، كما كان يعجب فلان بما ينشر له من الصور الرمزية الساخرة لأن فيها فناً ومقدرة ...!

وانتهى الرافعى من حديث كليلة ودمنة بعد انتهاء هذه المعركة وظلّ مهملاً (نسخته الخاصة) ست سنين بعد ذلك ، حتى تذكرها فى سنة ١٩٣٢ أو ١٩٣٣ فى إبان المعركة بينه وبين العقاد حول « وحى الأربعين » فنشر الفصل التاسع منها فى البلاغ بعنوان « الثور والجزار والسكين » ثم نشر فى الرسالة سنة ٩٣٥ الفصل العاشر بعنوان « كفر الذبابة ! » يعنى بها مصطفى كمال وحركته الدينية ، وفصلا آخر لا أذكره

وقد كان فى منية الرافعى أن يتم هذه النسخة من كليلة ودمنة يعارض بها كتاب ابن المقفع أو يتمه ، ولكنه لم يوفق ، وكان فى ذلك خير ؛ فهذه الفصول في موضعها من الكتب التى نشرت بها أجمل وأخفّ ، وإفرادها بالنشر يحملها على تكلف الصنعة ويباعد بينها وبين أذواق القراء . على أن هذه الفصول لا اتصال بينها فى موضوعها بحيث تصلح للنشر متساوقة متتابعة كما تتساوق الفصول والأمثال فى كتاب ابن المقفع

***

هذا مجمل الرأى وملخص الموضوع فى كتاب المعركة تحت راية القرآن وما احتواه . وهو وكتاب آخر اسمه « على السفود » خلاصة مذهب الرافعى فى النقد وأسلوبه فى الجدال ؛ وفيهما أشلاء المعركتين الطاحنتين بينه وبين طه وبينه وبين العقاد ، بدمائهما ، ورِمامهما ، ولهيبهما المستعر ، ودخانهما الخانق ، وغبارهما الكثيف ..

لو تجرد هذان الكتابان من بعض مافيهما لكانا خيرما أنتجت العربية فى النقد ، وأحسن مثال فى مكافحة الرأى بالرأى مع الاطلاع الواسع والفكر الدقيق . ولكن وا أسفا ، إن الإطار يحجب ما فى الصورة من جمال ، فمنذا — غير مالك الصورة — يستطيع أن يحطم هذا الإطار ليجملوا الصورة فى جمالها على أعين الناس !

« شبرا » **محمد سعيد العريان**

(١) المعركة : ص ١٧٩ — ١٨٠

نهضة القصة فى لبنان

للسيدة وداد سكاكيني

كان من حظ لبنان أن هبت عليه ريح الثقافة اللاتينية بعد الحرب الكبرى ، فدبت فى أرجائه حياة أدبية جديدة نفخت فى أبنائه روحاً طموحا ، فذاق المتعلمون منهم أطيب ثمار الآداب الفرنسية ؛ ومنها فن القصة الذى كان له فى نهضة فرنسا الحديثة تأثير كبير سارها فى شتى مناحى الحياة . وليس بغريب أن يسمو فن القصة فى أمة ناهضة استيقظت على صرير الأقلام الحرة ، فقد عرف قادتها فى الرأى والتفكير كيف يشقون الدروب للموهوبين فى القصة والأقصوصة فكرموهم أجل تكريم وضمنوا لهم حياة راضية حفزتهم للإجادة بالتنافس، فتسابق البارعون منهم إلى المجامع العلمية والندوات الأدبية يرفعون إليها قصصهم لينالوا جوائزها المعدة للفائزين

وأولى هـذه الجوائز التى ظهرت فى فرنسا اعترافاً بالسمو الأدبى جائزة غونكور ، وما تزال موضع رجاء يتطلع إليه الأدباء بلهفة وإكبار . وقد تمد لديهم أعلى مكانة وأرفع قدراً من مقعد خالد فى الأكاديمية . وهناك جائزة فمينا وميركوردو فرانس والشاعر مالارميه ، كما أن المجمع الفرنسى يهب كل عام آلاف الفرنكات للمجيد فى كتابة القصة

ليس بعجيب كما أسلفت إذا كانت الأمة الفرنسية تعنى وهى فى أوج مجدها بالفن القصصى وتحذو حذو الروس لتمهيد السبيل لعباقرة الرواية الذين استطاعوا أن يخلقوا بفنهم الرفيع آفاقاً جميلة تعيش فيها جماعات وأفراد تترفع عن الإسفاف وتدنو من الكمال ، إذ ليس مثل القصة وسيلة لسرور الأسرة ورفعة الوطن ورقى المجتمع . ويحق للقصة أن يسطع نجمها فى الآداب العالمية لأنها أصدق مصور للحياة بأفراحها وأتراحها ، تؤدى أغراض الانسانية المنوعة على الوجه القريب الكامل ، وتبث فى النفوس ما ترمى إليه من أهداف وآراء بسهولة وإغراء

ولقد تأثرت ناشئة لبنان فى عهده الجديد بآداب الفرنسيس الطريفة فذاقوا حلاوتها ، ونشقوا عبيرها ، وكان من إقبالهم عليها وفهمهم إياها ما نراه اليوم من شغف ظاهر بفن القصة ومحاولات موفقة فى إنشائها وترجمتها ، وتوجيهها إلى الصدق والإبداع .

إذن لم يشهد لبنان نهضة فى الفن القصصى إلا منذ عهد غير بعيد لأنها فى أدبه العربى الحديث وليدة الأمس القريب ، وكما يكون كل عمل فى أوله غثاً وكل غيث قطراً ، فكذلك ابتدأت القصة حياتها فى لبنان ، وكان أول من أطلع من أفقه شمسها فى نهضتها الحديثة كرم ملحم كرم ، فقد أنشأ مجلته « ألف ليلة وليلة » لتكون عاملاً قوياً فى بناء القصة العربية ، فكان يزجى لقرائه كل أسبوع هدية أدبية إما من وضعه أو تعريبه ، وما يزال هذا دأبه منذ عشرة أعوام ونيف ، ولكنه برغم ما أوتى من موهبة فنية مرهفة ولسان عربي مبين لم يطبع قصصه الأسبوعية إلا قليلاً بطابع الآداب الرفيعة ، فقـد دعته مساوقة أكثر القراء إلى أن ينزل بقصصه إلى مراتبهم ووفق متناولهم من ثقافة أو معرفة ؛ وعذره فى ذلك أنه يقدم للمجموع ما يفهم ويرغب ويعود عليه بما يثبت قدمه فى عمله الصحافى . فلو أن الحكومة اللبنانية تسير على غرار الحكومات فى الغرب فتخصص الاعانات المالية والجوائز للكتاب الذين لهم فى يقظة الشعب وتغذيته وإصلاحه أكبر الأثر كى يتوفروا على أعمالهم الأدبية ويخلوا إلى تجويدها والتفوق بها بسكينة واطمئنان المماش — لكان هذا الأديب زعيم القصة بلا منازع فى نهضتها الحديثة بلبنان . بيد أن الأستاذ كرماً مع انهماكه بجهده المرهق الموزع بين الصحافة والأدب استطاع أن يخلد فنه القصصى فى روايتيه « صرخة الألم » و « المصدور » وبعض أقاصيصه البارعة التى كفلت له منزلة القصصى العربى فى عصرنا الحديث . على أن مجهوده فى سبيل القصة بلبنان سيسجله تاريخ هذا الفن العريق بأحرف من نور . ولن ينسى فضله المنشئون المخلصون الذين عرفوا من تأليفه وتعريبه معنى القصة فسلكوا سبيله ، بالاقتداء والاحتذاء ، فكان له فضل البادئين السابقين إلى توجيه الفن القصصى اتجاهه الراهن

وحين ملأ الأستاذ كرم أجواء لبنان وبيئاته بشذا رواياته قام نفر من نوابغ الكتاب ينشرون القصة والأقصوصة فى مغناها الحديث . وهذه الطائفة من الأدباء وُفقت فى محاولتها ففتحت فى الأدب القصصى فتحاً مبيناً ، إذ اتسع أفقه وتوفرت موضوعاته ورأينا من أجله حدباً عليه وتشجيعاً لكتابه ، فقد أقامت مجلة « الدهور »[1] البيروتية مباراة للأقصوصة عام ٩٣٤ فاز بجائزتها الكاتب فؤاد الشايب وهو من أدباء الشام الذين يملأون ما يكتبون بأدب الصراحة والحياة

---

(١) خلفت هذه المجلة فى بيروت أول صدورها بمجلة « المصور » التى كان ينشرها فى مصر الكاتب المفكر اسماعيل مظهر ولكنها احتجبت بعد ظهورها ببضعة أعوام وكان لها نزعة خاصة فى تحرير المجتمع وإصلاحه

وفى العام الماضى تبرع الشاعر يوسف غصوب بجائزة للأقصوصة العربية في جريدة « المكشوف » اللبنانية تعزيزاً لهذا الفن الذى يقدره الشاعر وله فيه صور خالدة . وقد نالت جائزة غصوب كاتبة هذه السطور . وما انفك الأدب العربى فى لبنان مولياً وجهه شطر القصة موالياً السير إلى الأمام بهمة المضطلعين بتسديد خطواته من الأعلام الغُيُر

على أن من البر بالحقيقة ومن الواجب عليَّ — خدمة للتاريخ — أن أذكر أديبين كان لهما أثر واضح فى النهضة القصصية الجديدة ، فقد كتبا الأقصوصة ببراعة وشجاعة فوُفِّقا فيها وتهافت قراؤهم عليها ، فاستحقا الشكر لدفعهما النشء العربى عن تلك الأقاصيص المبتذلة التى تنشرها الصحف التجارية لتسلية القراء ولهوهم

لقد نوهت الأقلام فى العامين الماضيين بقصص الأديب الموهوب توفيق يوسف عواد الذى أكب على كتابة الأقصوصة التى تمثل الطبقة الدنيا فى المجتمع اللبنانى ، وكان الفن معواناً له على وصف البؤس العنيف الذى يفتك بأبناء الشوارع والصعاليك وذوي العاهات . غير أنه يغلب على نسج قصصه الأسلوب الصحفى بحكم عمله اليومى . وقد نشر مجموعتين : « الصبي الأعرج » و « قميص الصوف » والأمل معقود بهذا الشاب ، فان له شأناً فى القصة اللبنانية . وأقول اللبنانية لأن قصصه موسومة بكل ماهو لبنانى إقليمى . وليس هذا بضائره فان أكابر القصصيين فى عصرنا يمتاز كل منهم بوصف ناحية من نواحى الحياة أو بدرس أطوار جماعة من الناس أو بتصوير الألوان المحلية فى البيئة التى يعيش فى جوها ، ويتنفس هواءها ويرى نورها

وبينما الناس معجبون بباكورة عواد القصصية أقبل عليهم أديب رفيع العماد هو خليل تقى الدين . لقد نشر قصصه العشر أو التسع على الأصح لأن إحداها مترجمة لا موضوعة فرفع بأسلوبه المشرق وديباجته الأنيقة قدر الأقصوصة العربية ، ورأينا فى قصصه التى سلخها من صميم الحياة ما هو حرى بأن يتخذ مثالاً للرواية الفنية الحديثة

لا أعدو الحقيقة ولا أغلو إذا قلت إن هذه البوادر الطيبة كانت تباشير النهضة القصصية فى لبنان ففيها الأمل كل الأمل بتقدمها وازدهارها . وكيف كان الأمر ليقظة القصة ونهضتها فى لبنان ، فان مصر اليوم زعيمة القصة العربية ، وهى السباقة فى حلبتها والقدوة لغيرها ، ولن ينزع منها زعامتها الأدبية هراء حاسد ولا حملة حاقد

هذا قول عاجل . وسأعود قريباً إلى دراسة المؤلفات اللبنانية فى القصص وتحليل مضامينها وألوانها

وداد سكاكينى

الحضارة المصرية
في عهد الدولة القديمة

بحث للعلامة الأثري اريك بيت
للأستاذ احمد نجيب هاشم
(تابع)

دل قيام الملكية الواحدة فى مصر على تقدم عظيم ، تقدم جعل كثيرين يعتقدون أنه راجع إلى إغارة شعب أجنبي أكثر حضارة ، ولكن المستكشفات الحديثة لا تؤيد هذا الرأي . أجل إن مقابر الأسرة الأولى تفوق بمراحل مقابر ما قبل الأسرات مباشرة ، ولكن يجب أن نتذكر أن هذه المقابر الأخيرة إنما هي مقابر عامة الناس، ولم يعثر على مقابر ملوك ماقبل الأسرات ، فلا يصح أن نقرن مقابر عامة الناس فى عصر ما بمقابر ملوك فى عصر آخر

والحقيقة نفسها توضح لنا كيف أن الكتابة تظهر فجأة في الأسرة الأولى بشكل بعيد عن حالتها الأولية ، إذ كان الخط المستعمل هو الخط الهيراطيقي ، وهو كما لا يخفى اختزال للهيروغليفي فلابد إذن أن يكون هذا الأخير مستعملاً قبل حكم الأسر بزمن طويل . وإذا قصرنا أنفسنا على نوع واحد من المقابر رأينا أن الانتقال من قبل الأسرات إلى عهد الأسرات حدث تدريجياً .

ثم إن الأعمال الفنية فى الفترة الأخيرة السابقة للأسرات ومن أهمها لوح « نارمر » الأردوازي ومقبض سكين جبل العرك تدل على أن فن الأسرة الأولى هو ثمرة نمو تدريجي لأهل البلاد

أما وقد قامت الملكية فكان لابد للأنظمة الاجتماعية والسياسية أن تتطور إلى حد بعيد ، ولم يكن الملك المصري فى أول الأمر إلا رئيساً محلياً ممتازاً

وكان رئيس القبيلة حاكما وكاهناً أكبر ومشرعا لقبيلته فأصبحت هذه الوظائف كثيرة على الملك بعد أن اندمجت القبائل قهراً وطوعا وأصبحت مصر مملكة واحدة ، لذلك اضطر أن يتنازل عن بعض هذه الوظائف ، ولكنه ظل نظريا الكاهن الأكبر لكل إله ، فنراه في نقوش المعابد يرأس كل الحفلات الدينية الهامة ، وإذ كان من المستحيل أن يوجد في مكانين فى آن واحد كان لابد أن ينوب عنه كهنة ، وبذلك نرى فى أيام المملكة القديمة نواة طائفة الكهنة المحترمين آخذة فى التكون

ولا نعرف شيئاً كثيراً عن تاريخ الملكية فى عهد الأسرات الثلاث الأولى ؛ فاذا وصلنا إلى الأسرة الرابعة وجدنا مادة كثيرة نستطيع أن نكون منها صورة هامة عنها ، ومع ذلك يجب أن نذكر أن مادتنا هذه تتكون إلى درجة كبيرة من ألقاب ، وهذه قد تكون مضللة لاسيما وأن فرعون كان يغدقها عن سعة على المقربين اليه حتى اضطر أصحاب الوظائف الحقيقية أن يلجأوا في كثير من الظروف إلى إضافة كلمة الحقيقي بعد لقبهم تمييزاً لهم عن غيرهم (١)

الحكومة المحلية

كانت حكومة البلاد فى يد إدارات محلية تشرف عليها الحكومة العليا وعلى رأسها الملك . وكانت الولاية هي الوحدة الادارية ويرأسها الأمير أو حاكم الاقليم ، وكان حاكماً وقاضياً ومديراً فى ولايته وهو فوق ذلك الكاهن الأكبر لإلهها المحلى ويتمتع بحرية كبيرة داخل حدود ولايته

على أن هذا الحاكم كان مسئولا أمام الحكومة العليا عن ضرائب ولايته ، وعن إدارتها لها إلى حد ما . والظاهر أن انقسام البلاد إلى إمارات على هذا الشكل هو أثر لانقسامها إلى قبائل قبل هذا التاريخ . وكان الأمراء يتوارثون الحكم فى الولايات بعد موافقة الملك لأن الأرض نظرياً كانت كلها ملكه

الحكومة العليا

وليست معلوماتنا عن الحكومة العليا أكثر منها عن الحكومة المحلية إن لم تكن أقل ؛ فالملك هو الرئيس الأعلى ، وفى عهد الأسرة الثالثة بدأ فرعون يختار وزيراً لمساعدته فى المسائل القضائية والادارية ، ونجد أن ملوك الأسرة الرابعة يختارون وزراءهم من أبنائهم ، ثم أصبح فرعون يختار وزيره بعد ذلك من أسرة أخرى إذا شاء . وكان أكثر رجال المملكة مسؤلية لأنه كان الرئيس المباشر لأعمال الموظفين فى الحكومة الفرعونية كافة من إداريين وكتبة من أكبرهم إلى أصغرهم ، وكان يشترط فيه أن يكون بارعاً فى فن العمارة ، ومن أهم وزراء الأسرة الثالثة الوزير الحكيم « امحتب » الذى برع فى الطب والعمارة وشيد لمليكه زوسر هرم سقارة المدرج

(١) برستد تاريخ مصر ترجمة الدكتور حسن كمال

ويساعد الملك غير الوزير عدد من الموظفين ، وكانت أعمال خزانة الدولة فى يد بيت الفضة والشونة المزدوجة إشارة إلى الشونة الملكية ، كذلك نسمع عن كنوز الاله أى الملك وكنوز ملك الوجه البحرى (وهذا من غير شك لقب قديم ظل بعد اتحاد القطرين) ونقرأ أيضاً عن مراقبى بيت الفضة ومخازن الغلال . ويرجح أن تجزئة إدارة القطر المصرى بين وجهيه لم تذهب إلى أبعد من التجزئة الاسمية ، وقد حافظ المصريون على هذا الازدواج الاسمى فى مصالح الحكومة ، مع أن وجهى مصر انضما معاً تحت إدارة واحدة ، وإنما فعلوا ذلك احتراماً للقديم الراسخ فى الأذهان (١) ولكن بالرغم من أن الملك اضطر أن يتنازل عن بعض وظائفه إلا أنه ظل ملكا مطلقاً

من السهل أن نتبين مزايا هذا النظام وعيوبه ، فمتى كان فرعون قوياً يمكنه أن يضع حداً لمطامع الأمراء فالنظام سليم لأن الحكومة فى كل اقليم كانت فى يد أشخاص خبيرين بالشئون المحلية . أما إذا كان الملك ضعيفاً فان تلك السلطة الهائلة التى يتمتع بها الحكام المحليون تصبح خطراً على الدولة يهدد كيانها ، ولهذا السبب عينه يرجع سقوط الدولة القديمة فى نهاية الأسرة السادسة ثم إغارة الأسيويين أثر ذلك على الدلتا فقد أخذت قوة الأمراء تزداد تدريجياً على حساب الملكية

والآن علينا أن نسأل كيف كان نظام المجتمع فى ذلك العصر ؟

الملك وبلاطه

كان على رأس الدولة الملك وبلاطه ، وقد كونوا بيروقراطية كبيرة تهتم بالألقاب اهتماماً عظيماً فنرى ألقاب البعض يقرب عددها من الثلاثين أو الأربعين أغلبها لا معنى له ، وبجانب هذه البيروقراطية المركزية نجد بيروقراطية أخرى مشابهة لها فى قصبة كل إمارة ، وكان لكثير من هؤلاء الموظفين أملاك واسعة فى ولاياتهم

الفلاحون

يفصل الموظفين عن الفلاحين بون شاسع ، لأن هؤلاء كانوا يشتغلون كعبيد فى مزارع الملاك ، يحرثون الأرض ويروونها ، ويتعهدون الماشية والأغنام ، ولا نسمع عن وجود طائفة وسطى بين الطبقتين الآنفتى الذكر ؛ فإن كان هناك طبقة من هذا النوع — ولا بد أن التجار وأصحاب المهن والحرف كونوا طبقة — فإنها لم تكن غنية بدرجة تكفيها لأن تفاخر بفضائلها فى مقابر منقوشة نقشاً جميلاً ، ولا بد أنها كانت معتمدة على نفسها ولم تعد من طبقة الخدم ، لأننا نجد الأمراء يولمون برسم خدمهم على جدران مقابرهم . كذلك لا نعرف شيئاً عن مركز الكهنة الاجتماعى ، وإنما نعرف أن عددهم كان وافراً ، وأنهم كانوا يعيشون على الهبات التى تقدم إلى المعابد ؛ وإن صح لنا أن نذكر تعميماً عن الحياة فى المملكة القديمة فإننا نميل إلى القول بأن الأمراء وكبار الموظفين كانوا سعداء الحظ بينما كان الفلاحون تعسين فهم عبيد يلحقون بالضياع الواسعة ، وينتقلون من مالك إلى آخر كأنهم جزء لا يتجزأ عن الأرض ليس لهم حقوق على أسيادهم ، إذا ارتكب واحد منهم أقل هفوة فالجلد المضنى عقابه ، وأشد من هذا وأنكى أنه لم يكن لهم سيد واحد بل اثنان ، فإذا جاء الفيضان وغطى ماؤه الأرض وأصبح العمل فى الحقل مستحيلا لمدة طويلة كان على الفلاح أن يقوم بعمل آخر فى خدمة الملك ، إذ عليه أن يذهب لينقل الأحجار التى قطعها العمال من المحاجر الواقعة تجاه منف فيشتغل هو وزملاؤه تحت إشراف موظفى الحكومة ، وينقلون الأحجار فوق الحقول المغطاة بالمياه إلى حيث يريد الملك أن يبنى هرمه ، ولم يكن لهذه العملية نهاية فان أول ما يفكر فيه الملك عند إخلائه العرش هو بناء مقبرة له ، فإذا أتمها قبل أن يموت أخذ يحسن ويوسع فيها ، وإذا انتهت أيامه فهناك هرم خلفه لابد من بنائه

وقد اهتم المصريون القدماء كما نفعل اليوم بفيضان النيل . وهذا أمر طبيعى فان سقطت الأمطار بغزارة على الجبال القائمة فى الجنوب الشرقى من مصر خافوا فيضاناً عالياً يهدد حياتهم ، ويغرق جزءاً كبيراً من أراضيهم ، وإن قلت الأمطار توقعوا فيضاناً منخفضاً يتلوه قحط ومجاعة فى البلاد ، فكانوا إذا اقترب وقت الفيضان يتحدثون عن النعم التى يغدقها عليهم « نيل طيب » ويبدؤون فى البحث عن الوسائل التى يجب عليهم اتخاذها وقت الخطر ، إذ كان كل واحد منهم يتأثر بهذا الحادث السنوى - كل حريص على محصوله - أما موظف الحكومة فعليه أن يحسب مقدماً مقدار ما ستأخذه الحكومة من محصول كل شخص ، وهذا هو الضريبة الرئيسية . كذلك كان يعد الحازمون من الحكام العدة لإطعام فقراء إقليمهم إذا ما انخفض الفيضان ، ويخزنون الحبوب للمستقبل إن كان المحصول أكثر من المتوسط

(البقية فى العدد القادم) احمد نجيب هاشم

(١) برستد : تاريخ مصر ترجمة الدكتور حسن كمال ص ٥٤



تحية الرسالة

فى مستهل عامها السادس

للأستاذ محمود الخفيف

البسي الحسن رداء   واملأى الدنيا رُواء
ابزغي كالشمس نوراً   وحياة وعلاء
أقرضى الشرقَ سَناهُ   وخُذِي الحمدَ جزاء
واسحبي فى المجدِ ذيلاً   لم يُعوِّدْ خُيلاء
وارفعي للنجم طرْفاً   أبداً يهْوَى السماء
وانشرى ماسِرْت فى الأر   ض طموحاً وإباء
واجعلى عهدكِ فى الشَّرْ   قِ سلاماً وإخاء
أيقظِي العِزّةَ فيه   والعلا والكبْرياء
جدِّدِي رُوحاً بها أمـ   ـس على الدُّنيا أضاء
لمَعَتْ فى طور سينا   ومشَتْ تبغى حِراء

***

ايهِ ياشمسُ ، بها الشر   ق مع النيل استضاء
جمعَتْ فضْلاً وعلماً   وجلالاً وذكاء
الشبابُ الطامحُ الحرُّ   اجْتلى فيكِ اللواء
سار فى ضوئك للعليـ   ـاء ما شِئتِ وشاء
رقرقى الأضواء فى الآ   فاق واجتازى العماء
وابعثي فيها من الرأ   ي وميضاً وسناء
احْفِزي للفوز أبنا   ء كراماً بُسلاء
ذكِّريهم عهدَ قومٍ   رفعوا أمس البناء
عصبة شقوا إلى العزَّ   ة والنصرِ الجِواء

***

يا ابنة الضادِ لكم أحْـ   ـسنتِ فى الضادِ البلاء
قد سما فضلُكِ حتى   فاتَ فى القدْرِ الثناء
دان بالفضل لك اليا   نعُ والغضُّ سواء
وجدَا عندكِ خِصْباً   وحياةً ونماء
وجنًى حُلواً وسلْسا   لاً وظلاً وشِفاء
وجمالاً عبقريّاً   وصفاءً وبهاء
أنتِ أوحيتِ إلى الأفـ   ـراخِ فى الرَّوض الغناء
وبعثتِهم عن الماضـ   ـين سلوى وعزاء
أنتِ قرَّبتِ على البُعْـ   ـد بنيكِ الفصحاء
وحشدْتِهم على الحـ   ـق جنوداً أوفياء
فتيةٌ صاروا بمَسْعا   كِ لمصرٍ أولياء

***

طُفتِ بالكأس دهاقاً   وسقيتِ الندماء
أدباً كالكوثر العذْ   بِ نقاءً وصفاء
فيه آمالُ بلادٍ   بِتْنَ للمجدِ ظِماء
وسُلافاً من حديثٍ   يملأُ القلبَ انتشاء
كنسيم الصُّبح يجرى   عاطرَ الذيلِ رُخاء
باعثاً ذكرى عهودٍ   قد توالَيْن انقضاء

نجوى الحرية (١)

للأستاذ محمد بهجة الأثرى

الحسنُ أنتِ مثالُهْ والكونُ أنتِ جمالُهْ
وأنتِ فى دَيْرِ قلبي تسبيحُهُ وابتهالُهْ

***

عَبَدْتُ فيكِ الكمالا كما عَبَدْتُ الجمالا
ما أنتِ إلا مَلاكٌ عن العيوبِ تعالى
أشْبهتِهِ رِقَّةً والسَّماحَةَ وخَيالا
فما أرى لكِ بين الْـملا - لعَمْري - مثالا
وإنما أنتِ معنى فى الكونِ أعيا مِثالُهْ

***

رُوحٌ ولكنْ مُجَرَّدْ نعَمْ ، ونورٌ مُجَسَّدْ
غشَّاه ، وهو لمُوعٌ ، إفْرِنْدُهُ فتوقَّدْ
تألُّقَ البَرْقِ فى الأفْـقِ وَهْوَ يُنْضَى ويغمد
والبَدْرِ فى صفحةِ المـاءِ ، والنسيمُ تَنَهَّدْ
يابَسْمَةَ الكونِ أنتِ الْـهوَى وأنتِ وصالُهْ

***

البَدْرُ لاحَ تماماً يَفيضُ منك سَناهُ
والزَّهْرُ فاح ذكيًّا يَنِمُّ عنكِ شَذاهُ
والقَطْرُ ساح نقيًّا يَرْوِى صفاكِ صَفاهُ
والفجْرُ لاح بَهِيًّا من وجنتَيكِ ضِياهُ
والطيْرُ ناحَ شجيًّا عليكِ منكِ انْفِعالُهْ

***

رقَّتْ حواشيكِ حتى رقَّ الهوا لِخِلالِكْ
لكن قلبكِ قاسٍ على مُريدِ وِصالِكْ
بَخِلْتِ حتى خيَالاً فَمَنْ له بخيالِكْ ؟
أينَ الوُعودُ اللواتي مَنَّيتِنى باقْتبالِكْ ؟
شهرُ الصيام توَلى فالعيدُ أين هِلالُهْ ؟

***

غُمَّتْ عليهِ السماءُ أم طاوَلَتْ (أسماءُ) ؟
بلى ، وما كانَ ظنى ألاَّ يكونَ انجلاءُ
مارَسْتُها فتأَبَّى علىَّ منها الوَلاءُ
أهكذا كلُّ حسناءَ ما لديها وفاءُ ؟
ياوَيْحَ صَبٍّ تعايا فى الوَصْلِ عنه غزالُهْ

***

يارَوْحَ قلبى المُعَنَّى كلُّ الوعودِ رياحُ
مافى الأمانى أمانٌ إنْ لم يُعنك السلاحُ
تلك العروسُ ولكن أين الصِداقُ المتاحُ ؟
قد زاحمَتْكَ عليها مناكبٌ وصِفاحُ
فاحتلْ عليها عسى أن يُجْدِى الكريمَ احتيالُهْ

« بغداد » محمد بهجة الأثرى

(١) من ديوان « ظلال الأيام » الماثل للطبع

وبياناً مثل وَشْيِ الرَّوض قد راقَ ابتداءَ
يُعْجِبُ الرَّاسِخَ صوغاً واتِّساقاً وجَلاءَ
وَيُرِى النَّاشِئَ فنًّا يتوخَّاهُ اقتداءْ
هضمَ للقلب معاً والعقلِ رِيًّا وغِذاءْ

***

ياعَرُوساً عيدُها يُو حِى إلى النَّفْسِ الوفاءْ
لَسْتُ أنسى لكِ عندى مِنناً غُرًّا وِضاءْ
كشفَتْ يُمْناكِ عن عَيْـنى وعن قلبي الغطاءْ
حُزْتُ فى حِجْرِكِ فَضْلاً وَصَحِبْتُ الفُضَلاءْ
ياعَرُوسَ السِّحْرِ والحِكْمةِ مُلِّيتِ البقاءْ
وتزيدتِ عَلَى الدَّهْرِ عُلُوًّا وارْتقاءْ
عِشْتِ للفُصْحَى لواءً وَمَنـاراً وَرَجاءْ

(القاهرة) الخفيف

أحب وأحتقر!

للأستاذ أمجد الطرابلسي

أحبُّ الجبالَ الشامخاتِ كأنّها   على جبهةِ الدّنيا تصولُ عواتيا
تضاحكُ من عصفِ الرياحِ وزأرها
وتحتضنُ السيلَ الحرونَ المعاديا
وتلهو عنِ الزلزالِ وهوَ مزمجرٌ
يضجُّ ببطنِ الأرضِ غضبانَ واريا
وأحتقرُ الكثبانَ ترعشها الصبا   ويفزعها الإعصارُ إن مرّ لاهيا
وتحملها الأرياحُ أنّى توجّهت   ألاعيبَ في أسفارها وألاهيا

* * *

وإنّي لأهوى السّيلَ ينحطّ مزبداً
ويدفقُ جيّاشاً ويهدرُ صاخبا
عتيّا على السدِّ المنيعِ يدكُّهُ   ويحملهُ نحوَ السهولِ خرائبا
يمرّ على العشبِ الضعيفِ مسامحاً   ويلتقفُ الدوحَ العنيدَ المغالبا
وتحقرُ عيني جدولاً في خميلةٍ   يحوّلُ طفلُ الحيِّ مجراهُ لاعبا
يكدّرُهُ حتى النسيمُ ملاطفاً   ويُفزعُهُ حتى فمُ الطفلِ شاربا

* * *

أحبُّ العقابَ الجونَ يختالُ في الذرا
ويركبُ متنَ الجوِّ جذلانَ باسما
ويخترقُ الريحَ العصوفَ لقصدِه   ولو حطّمت من جانحيه القوادما
يموتُ ولا يشكو الجراحَ ولا ترى   له آكلاً بينَ الأنامِ وهاضما
وأحتقرُ الورقاءَ تألفُ سجنَها   وتبكي وما تلقى من الناسِ راحما
وهل غيرُ ضعفِ الورْقِ سوّغَ حبسَها
وصيّرَ شدواً نوحَها والمآتما

* * *

وإني لأهوى نحلةً تدهمُ الرُّبا   فتنهلُ من ثغرِ الزهورِ رحيقَها
ترشّفُ من كأسِ الأقاحي صبوحَها   ومن خمرةِ الوردِ النديِّ غبوقَها
حصانٌ تروعُ العاشقينَ بوخزِها   إذا ما تمنّوا لو يذوقونَ ريقَها
وتحقرُ عيني نملةً تألفُ الولى   وتملأُ من بخسِ الفتاتِ خروقَها
تدبُّ على الأقدامِ هوناً وذلّةً   وتسلكُ من تحتِ النعالِ طريقَها

* * *

أحبُّ شموخَ الدّوحِ في ربواتِه   يجابهُ هولَ العاصفاتِ ويثبتُ
أبيّاً على حربِ الأعاصيرِ ظافراً   تكرُّ جموعاً حولَهُ فتشتّتُ
وإنْ خرَّ في الميدانِ بعد نضالِها   تراها عليه نائحاتٍ تصوّتُ
وأحتقرُ الأعشابَ تحني رءوسَها   فتسلمُ من ريبِ المنونِ وتفلتُ
تدورُ مع الإعصارِ حيثُ يديرُها   ويلطمُها هوناً فترضى وتسكتُ

* * *

وإني لأهوى الليثَ يستعذبُ الطوى
ويأنفُ أن يُدنى إلى جيفةٍ يدا
يسيرُ أشمَّ الأنفِ مستكبرَ الخطا   فترتجفُ البيداءُ إن راحَ أو غدا
ويجبُهُ وحشَ البيدِ في حرِّ وجهِها   ولا يدّري أعداءَه متصيّدا
وتحقرُ عيني ثعلباناً مخادعاً   جباناً خليعَ القلبِ يغدرُ بالعدا
يصيبُ فضالاتِ السّباعِ وينثني   ليشكرَ رزّاقَ العبيدِ ويحمدا

* * *

أحبُّ الفتى يفري الفلاةَ مهجّراً   فلا يشتكي أيناً ولا يتظلّمُ
إذا لذعتهُ الشمسُ سدّدَ وجهَهُ   إليها حديدَ الطّرفِ لا يتبرّمُ
ويمشي على الرّمضاءِ متّئداً الخطا   جليداً، ونيرانُ الرمالِ تضرّمُ
وأحقرُ نكساً يستظلُّ بغيرِه   ويخفضُ رأساً وهو شاكٍ يدمدمُ
تساورُهُ الأشباحُ في القفرِ رهبةً   فيرعشُ منهُ القلبُ والطّرفُ والفمُ

* * *

أحبُّ الفتى والغلُّ يثقلُ عنقَهُ   وسيفُ الأعادي بينَ عينيهِ مشهَرُ
يصيحُ بأعلى صوتِهِ ينكرُ الأذى
ويضحكُ من بطشِ الطغاةِ ويسخرُ
ويشمخُ بالأغلالِ رأساً وإن غدتْ
تحزُّ ومن أنيابِها الدمُ يقطرُ
وأحتقرُ الأحرارَ يحنونَ رأسَهم   وليس عليهم سيّدٌ أو مسيطرُ
إذا كانَ قلبُ المرءِ عبداً ورأيُهُ
فقلْ لي — هُديتَ الخيرَ — ماذا تحرّرُ

(دمشق)   **أمجد الطرابلسي**



أقصوصة من لويزا ألكوت

في عيـــد الميلاد

للأستاذ دريني خشبه

قبل أن يتنفس صباح عيد الميلاد استيقظت الفتاة (جو) والفجر لم يكد ينبلج في الأفق الشرقي ، ولا الخيط الأبيض قد انسرق من زجاج النافذة لينير ظلام الحجرة الدافئـة ... ولـكن جو استيقظت مشوقة إلى هدايا العيد ، ومدت يدها الصغيرة المرحة إلى جوربها المعلق في (شباك) السرير ليملأه الملاك بأحب اللعب... ولشد ما شعرت بالخيبة حين وجدت الجورب فارغاً مما أملت أن يمتلئ به ، فكتمت أنفاسها ، وأخفت حسراتها في أغوار قلبها ، ودست يدها تحت الوسادة التي تحدرت فوقها دموعها ... بيد أن أصابعها اصطدمت بشيء يشبه الكتاب تحت الوسادة ، فأمسكت به ، فإذا هو كتاب حقاً ذو جلد سميك مقوى ، لم تدر من وضعه هنا ... وقفزت من فراشها ، وأشعلت المصباح ، ونظرت في الكتاب ، فراعتها جلدته الجميلة الزرقاء ، وصوره الخلابة الملونة ، وطبعه الأنيق المتقن ... وقرأت فيه قليلاً فعرفت أنه قصة حاج يطوف بأقصى الأرض ليبلو أعاجيب الدنيا ... فتبسمت جذلاً ، وبادرت إلى أخواتها توقظهن :

— « ماجي ! إنهضي يا أختاه ... لقد أهدى إلى الملاك كتاباً فيه صور جميلة ... بت ! قومي ! إستيقظي ! أنظري إلى الكتاب الذي أهداه الملاك إلى ! إيمي ! هلمي فتفرجي ... ! »

واستيقظت ماجي فسألت أختها وهي تفرك عينيها أين وجدت الكتاب ؟ فلما أخبرتها أنها وجدته تحت الوسادة ، دست ماجي يدها تحت وسادتها فوجدت كتاباً مثل كتاب أختها ، ولـكن جلدته خضراء ، ورأت فيه صوراً رائعة ملونة أجمل من الصور التي في كتاب أختها ... ففرحت فرحاً شديداً ... ولما استيقظت بت ، وجدت هي الأخرى كتابها ذا الجلدة الحمراء ، وكذلك وجدت إيمي كتابها ، ولـكن إيمي وجدت جوربها ممتلئاً بالحلوى والمُلبس والفستق ، فصاحت بملء فيها صيحة الفرح ، وراحت تنافس أخواتها وتفخر عليهم ... وقد أحس أخواتها بانتصارها حقاً ، واتهمن الملاك الكريم بأنه لم يعدل في القسمة ، وإلا فإنه كان ينبغي أن يملأ جواربهن كما ملأ جورب إيمي ... وطال حوارهن ، واشـتد صخبهن ، وكان حواراً وصخباً مملوءين بالضحك ، مفعمين بالاستبشار بعيد الميلاد السعيد ... وكانت بهجة تلقين بها العيد قبل مطلع الشمس كالبهجة التي يتلقى بها الطفل قبل أن يولد

وذهبت جو إلى غرفة أمها — وكان أبوها على سفر — لتوقظها فلم تجدها ، وظنت لساعتها أنها ذهبت إلى الـكنيسة لتشكر للملاك الكريم ما أتحف بها بناتها من الـكتب الجميلة ذوات الصور الملونة ، وما .. أتحف به إيمي من الحلوى .. فعادت جذلانة إلى الغرفة ، وما كادت تتحسس جوربها المعلق في (شباك) السرير حتى وجدته مثقلاً ! فاستبشرت وطفر قلبها ، وأفرغت ما في الجورب فوجدت قدراً هائلاً من الفستق المعالج بالسكر والكستناء المثلوجة ... شيء عجيب حقاً ، لقد تحسست الجورب منذ ساعة فلم يك فيه شيء من هذا ... لله ذاك الملاك الكريم البار ... وعجب البنات عجباً شديداً ، فذهبت كل تتحسس جوربها فوجدته مفعما ... فطرن من الفرح ، واشتد الصخب من جديد وعلا الضحك ... وأشرقت الشمس ... ووقفت جو وسط

أخواتها تهتف كأنها امبراطور : « أخواتى ! إسمى يا بِث ، أصغى يا ماجى ... انتبهى يا إيمى ... لنبق على الحلوى حتى تعود أمنا فتشركنا فيها ... ولنشرع من الآن في قراءة الصفحة الأولى من الكتاب الجديد ، حتى إذا عادت الوالدة سرت بذ كائنا سروراً لا مزيد عليه ... وبذلك نرضى الملاك الكريم الذى أتحفنا بالكتب وبالحلوى ، ولم يعدنا صغاراً فلم يتحفنا بما كان أحجى أن يتحفنا به من اللعب ... هو ملاك كريم على كل حال فلنشكره قبل أن نبدأ ...

ورفع الصغار أيديهم إلى السقف ... وركعن على ركبهن ورحن يشكرن الملاك الكريم ، ثم اعتدلن ، وأخذن فى قراءة الصفحات الأوليات ... وكان منظرهن كمنظر الملائكة الأطهار الأبرار الأخيار . وإن تكن إيمى الصغرى لم تكن تفكر فى هذا الملاك الذى ضايقها بهذا الكتاب ، ولم يتحفها بلعبة تفخر بها على أترابها إذا كان الصباح ، وبرز الأطفال فى الشارع يتنافسون ويفخرون ... ولم تكد تفهم من أجل هذا سطراً واحداً من الصفحة الأولى من كتابها ، بل سمرت وجهها فى الصورة الملونة ، وراحت تفكر وتدمن التفكير ، فى شح هذا الملاك الكريم باللعبة التى لا محيص منها فى عيد الميلاد !

ولم يكد الصغار ينتهين من قراءتهن حتى دخلت أمهن وفى إثرها حَنّة الخادمة العجوز ، مثقلتين بكثير من اللعب وشىء غير قليل من الرقائق والشطير والفطير وحلوى الكاكاو للإفطار ولقينها بالبشر ، ولقيتهن بقبلة سعيدة طبعتها على جبين كل منهن إلا إيمى الصغيرة فقد طبعت لها قبلة طويلة على خدها .. وسرعان ما غفرت إيمى للملاك الكريم ما كان منه من شح بلعبة عيد الميلاد حين أخذت حصانها الخشبى الكبير فَعلَتْ صهوته ، وأنشأت تمرح وتصخب ، وتقول : « كتاب ! أنا لم أقرأ حرفاً واحداً من الصفحة الأولى يا جو ... » ولكن جو نظرت إليها فى ظرف ، ثم قالت لأمها : « ولكنا قرأنا الصفحة الأولى كلها يا أماه ، وسنقرأ كل يوم صفحة أو صفحتين حتى نفرغ من كتبنا ... حقاً إن بابا نويل لملاك كريم » فردت بِث تقول : « ويظهر أنه يجيد الرسم ويحذق التلوين . يا أماه ! أنظري صوره

الجميلة التى رسمها فى كتابى » ... فتضاحكت أخواتها ، ولكن الأم الرزينة لم تضحك ، فتساءلت جو : « لم لا تضحكين يا أماه ؟ فيم تفكرين ؟ فى أبى ..؟ سيأتى حالاً ... هو لا شك يقضى عيد الميلاد بيننا ! » فقبلتها أمها قبلة تفيض حناناً وحباً ، ثم قالت : « اسمعن يا صغيراتي ... لقد ذهبت فأحضرت لكنّ اللعب من بابا نويل ، وحينما كنت عائدة سمعت أنيناً فى منزل جارتنا الفقيرة ، فطرقت بابها ففتحت الباب ابنتها الكبرى ، فلما سألتها ما هذا الأنين ذكرت لى أن أمها كانت تلد ، وأنها وضعت غلاماً لا تدرى فيم تلفه لتقيه البرد ، وقالت لى إنهم لا يملكون حطباً يستدفئون به ولا طعاماً يأكلونه فى هذا العيد السعيد ، فدخلت فسلمت على الأم ، ورأيت وليدها ، ورأيت الصغار محتشدين فى الفراش الفقير وهم ينتفضون من البرد ، ويلتصق بعضهم ببعض ليستدفئوا ... وراعنى أن يطلب أخوهم الوحيد الأصغر طعاماً فتنظر إلىّ أمه ، وتمتلئ عيناها بالدمع ولا تقول شيئاً ... منظر مؤلم حقاً يا جو ... أليس كذلك يا بِث ؟ »

وتنظر جو إلى أخواتها ، وتتبلل عيناها بالدمع ، وتقول : « مؤلم جداً يا أماه ! » وتقول إيمى : « وأين بابا نويل ؟ لِمَ لم يرسل إليهم حلوى وفطيراً كما أرسل إلينا ؟ » فتقول الأم : « يظهر أنه نسى يا إيمى ... جو ... أليس يحبنا الله ويدخلنا جنته إذا نحن حملنا حلوانا وفطيرنا ، وذهبنا لنفطر مع هؤلاء المساكين ! »

فتسكت جو لحظة ، وتنظر إلى أخواتها ، ثم تقول : « والله إنها فكرة جميلة يا أماه ... هيا ... سأحمل جوربى كله بما فيه من كستناء وفستق » وقالت بِث : « وأنا أيضاً ... ولكن الحلوى لا تشبع الجوعانين ... هاتى الفطير يا حنة » وتقول ماجى : « لا ... سأحمل أنا الفطير ... لتحمل حنا الحطب ... » أما إيمى ، فقد نظرت إلى أمها مرة ، وإلى الكتاب أخرى ، ثم قالت : « وأنا ... سآخذ هذا الكتاب لأفرحهم بصوره ... أنا لا أستغنى بحال عن حلواى ! » فضحكت الأم ، وضحكت حنة ، ولكن جو قالت لأختها جادة : « سندخل نحن الجنة ونتركك يابها يا إيمى ؟ » فقالت الفتاة وقد صدقت قول أختها : « بل أدخل قبلكن ... سآخذ لعبتى أيضاً ... »

وحملت كل منهن حلواها ... وتذكرت جو اللعب ، وما عساها تبعث فى المساكين من مرح فى هذا اليوم المبارك ، فأسرعت إلى الدولاب فأخرجت كل اللعب القديمة ، وكان فيها (طراطير !) من العام الماضى ، فأحضرتها ، وألبست كلا من أخواتها طرطوراً ، ثم انطلق الجميع بأحمالهن إلى بيت جارتهن .. ولم يكن الشارع قد ازدحم بكثير من المارة ، فكن يتضاحكن مرة ، وينتفضن من البرد الشديد أخرى ...

وطرقن الباب فانفتح ... وتقاطرن داخل البيت ، وأخذن ينشدن نشيد عيد الميلاد ، وعلأن البيت سعادة وبهجة . وقصدن إلى السرير فأيقظن الصغار ... وأسرع هؤلاء وعيونهم تفيض دمعاً ودهشاً .. وجعلوا يحملقون فى الملائكة الأطهار اللائى جئن يسعفنهم بالحلوى والغذاء والسعادة ... أما حنة فقد أوقدت الحطب ... وأما الأم البارة فقد أخذت الوليد من أمه البائسة ولفته فى مزق أحضرتها لهذا الغرض ، ثم جلست تواسى الوالدة السكينة بكلمات طيبات

وأقبل المساكين والمسكينات على الفطير يلتهمونه التهاماً ، كأنهم قد لبثوا أياماً دون أن يذوقوا طعاماً ... وكان البنات يشهدن ويعجبن ، لأنهن لم يرين ناساً يأكلون بهذه السرعة ، ولا طعاماً يزدرد بهذا الشره ... ولكن جو كانت تنظر وتتألم ثم تصطنع العبث وتجهد أن تضاحك الصغار ما استطاعت ... ثم إنها أخذت الطراطير من أخواتها ، فجعلتها على رؤوس البائسين ... وهنا أخذ هؤلاء يضحكون ويقهقهون ... ونسوا ما كان بهم من فاقة وعوز وجوع ، حين دبت الدماء حارة في أبدانهم من الشبع ، فلما أخذت جو تفرق اللعب القديمة بينهم ثارت بينهم وبينهن عاصفة من المرح ، وسرت فيهم موجة جارفة من السرور ... وقالت فتاة منهن صغيرة : « شكراً لك يا بابا نويل ، لقد حسبنا أنك نسيتنا ، ولكنك أرسلت إلينا اللعب والطعام والحلوى ... والنار ... النار اللذيذة التى تؤججها أمنا حنة ... فشكراً لله وشكراً لك ... وشكراً لأخواتنا هؤلاء .. »

وكانت الأم تصغى إلى ما تقول ابنتها ، وعيناها تفيضان بالدمع .. فتواسيها الأم الأخرى ، وتمسح عبراتها بأطيب الكلم الصالح ..

وعادت العائلة المقدسة أدراجها إلى المنزل

وجلسن حول المائدة كعادتهن كل يوم ، فقدم لهن الفَطُور العادى من لبن وجبن وخبز ، فأقبلن عليه ، واحتسين الشاى ، وأحسسن إحساساً عميقاً بسعادة فذة فى نوعها ... سعادة لا تقدر الحلوى ولا يستطيع الكستناء ولا الفستق أن يصنع شيئاً منها .. سعادة الخبز والبر ... وسعادة التقوى ... وسعادة الله !

وجلست الأم مع ذلك تشكر بناتها ، وتذكر لهن ما كان يصنع القديسون والشهداء فى هذا اليوم من ضروب الايثار وفنون التضحية ... وكان البنات يصغين فى لهفة واشتياق ويكاد الدمع ينهل من عيونهن

ونهضت كل إلى لعبتها لتفرح بها

ونظرت إيمى إليهن ... وكانت قد حملت حصانها فأهدته لجماعة المساكين ... ولم يهمها قط أن تكون عاطلا وأخواتها حاليات .. فتأثرت الأم ، وانطلقت معها إلى بائع اللعب ، فاشترت لها حصاناً أكبر من الذى تصدقت به على الفقراء ، فعادت إيمى وقلبها يفيض بالبشر ، وراحت تفاخر أخواتها ، وأخواتها مع ذلك قانعات راضيات

وبينا هن ضاحكات مستبشرات ، إذا بطارق بالباب ، فتمضى حنة لترى ، وتعود لتذكر أن الجار الغنى ، صاحب القصر المنيف القريب ، يريد لقاء سيدتها ...

وتلقاه السيدة فى غرفة زائريها المتواضعة ... ويشدهها منه أن ترى معه سلة كبيرة بها أشياء فهمت أنها هدية ...

— مرحباً يا سيد ! عيد سعيد إن شاء الله !

— عيد سعيد يا سيدتى

ترى ما الذى جاء بهذا الرجل الغني فى هــذا الصباح ؟ لقد عرف عنه أنه رجل عزوف عن الناس ، عزوف لأنه غني ... هو يرى نفسه من طبقة غير طبقة هؤلاء المساكين الذين إذا تصدقوا بحلوى عيد الميلاد لم يجدوا حلوى غيرها ! فماذا جاء به ، وهو هو الذى كان يمر بصاحب هذا المنزل فلا يقرئه السلام من عظمة وكبرياء ... ! لقد كان فيه انقباض دائماً ... وكان يشيح بوجهه عن إخوته من بنى آدم ... فماذا جاء به اليوم ؟ ثم ما هذه

السلة التي غطاها بورق كثيف ؟ هذا تطور عظيم في حياة هـذا الجار الجافي الغليظ المتكبر ، فما باله يا ترى ؟

— لقد شهدت ياسيدتي ماصنعت صباح اليوم ، فتأثرت من عاطفتك الكريمة وإيثارك العجيب !

— عفواً يا سيدي ... أشكرك

— ولست أدري إذا كنت مخطئاً ...

— مخطئاً في أي شيء ..؟

— لقد رأيت أن أقدم لصغارك شيئاً من الحلوى تعوض عليهم ما تصدقوا به ... فلقد علمت منذ أيام أن زوجك الفاضل قد فصل من عمله لخطأ ارتكبه ... وأنتم لا بد في ضيق مالي ... فإذا تفضلت فأخذت هذا القدر القليل من المال أكون شاكراً

وهنا ... إحلولكت الدنيا بأسرها في عيني الأم ، وضاع ما شعرت به منذ الصباح من الغبطة والبشر ، وانقلب الهناء الذي غمر قلبها في عيد الميلاد هماً وغماً وابتئاساً !

— ما ذا تقول ياسيدي ؟

— أقول إنني شهدت ما صنعت للعائلة البائسة ، وتأثرت جد التأثر من صنيعك الجميل ، مع ما أنت فيه من الضيق

— وأنت ما شأنك وما أنا فيه ؟

وارتبك الرجل وتلعثم لسانه ، وأنشأ يقول :

— لا ... لا ... شيء ... فقط ... أدرت أن أساعدك !

— على كل حال أنا أشكرك ، ولكني أسائلك : هل بهذا الأسلوب تفهمون الخير أيها الأغنياء ؟

— لا أفهم ما تقولين !

— لا تفهم ما أقول ، فكيف إذن فهمت أننا محتاجون ، ولم تفهم أن جارتنا البائسة كانت في أشد العوز والحاجة إلى مساعدة أمثالك !

— هذا حق ... هذا لا ريب فيه

— وما دام هذا حقاً ، فلم لا تفعل ؟!

— لقد أخطأت

— إذن لقد أحضرت لنا حلوى في هذه السلة ؟

— أجل ... لقد فعلت ؟

— وماذا دفعك إلى هذا ؟

— محبة الخير ، وتأثري بما شهدت

— وكيف لم تتأثر بماعلمت من بؤس جارتنا ؟

— لا أدري والله !

— إذن تذهب إليها بهذه السلة فهي في أشد الحاجة إليها ، ولا تنس أيضاً أن تنفحها بالمال الذي أعددته لنا ...

— سأفعل ! اسمحي لي بالانصراف إذن !

— لا ... انتظر قليلا ! أتحب يسوع أيها العزيز ؟

— وكيف لا أحبه !

— إذن فاخرج من مالك عن شيء يكفل الستر لجارتنا .. فانك غني جداً ... أتعرف أن زوجها قد مات ؟

— لا والله ... لم أكن أعرف !

— إذن لقد عرفت مبلغ فاقتها !

— ... ؟ ...

— إذن فانك خارج عن بعض مالك لها ولأبنائها ... هل علمت أنها وضعت غلاماً سادساً اليوم ؟

— لا والله ... لم أدر إلا منك !

— إذن فقد لمست بيديك مبلغ حاجتها إلى بر أمثالك !

— ... ؟ ....

— انطلق إذن ! سأزورها اليوم وسأرى ما ذا تصنع !

* * *

وانطلق الغني ذو الجاه والثراء الضخم ... ولكن ... إلى داره

وبعد ساعة أو نحوها طرق البيت صاحب الدار ، ووجهه طافح بالبشر ، ضاحكاً متهللاً ... وزف البشرى إلى زوجته ، وأخبرها أنه بُرِّيء وعاد إلى عمله ، ومنح مكافأة مالية ... وقد أحضر حلوى كثيرة لأطفاله ، ولعباً شتى لعيد الميلاد ... فلما قصت عليه قصة الصباح ، وما كان من أمر جارهم الغني ، تمتم وعيناه تغرورقان بالدمع : « إذن .. تعيش المرأة وأولادها معنا..»

دربني خشبة



الآداب والشعر عند المصريين القدماء

ألقى العلامة الأستاذ الدكتور شايدل أستاذ الأثريات المصرية بجامعة لا يبزج محاضرة شائقة في متحف الجامعة على الآداب والشعر عند الفراعنة ، فذكر أن الفراعنة فضلا عما تركوا لنا من النقوش وأوراق البردى الأثرية الفياضة بالمعلومات التاريخية والقضائية والطبية ، قد تركوا لنا تراثاً أدبياً بمعني الكلمة ؛ فن ذلك باب القصص الخرافى ، وقد ترك الفراعنة لنا منه نوعاً معروفاً هو القصص المتعلق بدخول اللصوص إلى غرف الكنوز الملكية ومن إحدي هذه القصص اقتبس الشاعر الألمانى بلاتن مسرحيته المشهورة : « كنز رامسنيت » ، وهناك نوع آخر من القصص النثرى يتعلق بتواريخ الملوك وسير الآلهة ، وتمجيد الحوادث التاريخية الهامة . أما الشعر الغنائى فانه يتمثل في الأناشيد الدينية الحماسية والتوسل إلى القوة العليا . ومن أناشيد الحب التى تمثلها أنشودة سالومنيس . وقد وجدت على جدران القبور أغنية عمال ، ومنها أنشودة شهيرة تجرى على لسان الذين يحملون الهودج ويختتمونها بطلب العطية . على أننا نجد أعظم ثروة أدبية للفراعنة فى كتب الموتى التى توضع فى التابوت إلى جانب الموتى ، ففيها أقوال ومواعظ أخلاقية ، وفيها أحاديث الحكمة التى تشرح للناس كل شئون الحياة ، وتصرف الانسان إزاء الضيف ، وإزاء المستجير ، وعلاقة الزوجين وواجباتهما . وفى هذه الأحاديث نجد الأدلة على سمو تفكير المصريين القدماء . ومما هو جدير بالذكر أن الشعر عند الفراعنة لم يصدر عن لسان شاعر بعينه ، ولكنه صادر عن مجموعة الشعب وباسم الشعب

العلم والدين

كانت العلاقة بين العلم والدين وما تزال من أهم المسائل التى تشغل الذهن البشرى فى كل عصر وقطر ؛ وقد كان لها فى تفكيرنا العربى نصيب وافر ، ولابن رشد الفيلسوف فى ذلك رسالة شهيرة . على أنها اتخذت فى العصر الحديث صورة نضال عنيف بين الدين والعلم على أثر الاكتشافات البيولوجية والطبية الحديثة التى قام بها علماء مثل داروين ولامارك فى أصول الأنواع وغيرها . وأنكر بعض العلماء الأقطاب مثل باستور أن يكون بين العلم والدين اتصال أو اتفاق . ورأى مفكرون من الغلاة مثل الفيلسوف مكس نرداو أن العلم يهدم الدين ؛ ولكن رأى كثير من العلماء أيضاً أن لا تناقض بين العلم والدين ، وأن الوفاق بينهما ممكن غير مستحيل

وقد صدر أخيراً فى هذا الموضوع كتاب خطير بقلم العلامة الدكتور جورج ريجار الأستاذ بجامعة لوزان عنوانه « دراسة بيولوجية وعلمية لمسائل الدين المظمى » Etude biologicpe et Scientifique des grands problémes réligieux والدكتور ريجار طبيب وعالم بارع ، وهذا ما يسبغ على بحثه قيمة خاصة . وقد تناول فى كتابه جميع المسائل الهامة التى تتعلق بهذا الموضوع الدقيق ، مثل الجبر ، والتحكيم الحر ، والأخلاق البيولوجية ، والمعاناة والألم والله والدين . ويلجأ المؤلف فى عرضه لهذه الموضوعات الدقيقة إلى الوقائع المادية ، ثم يستخلص منها النتائج الفلسفية والأخلاقية . ومما يلفت النظر أنه على رغم مادته العلمية الخالصة يبدو مؤمناً ، وهو يحاول أن يدعم إيمانه بالأدلة العلمية والعقلية ، ويقدم أدلته بصورة متزنة معقولة ؛ وهو يعارض بشدة أولئك الذين يرون فى العلم عدواً لدوداً للدين . على أنه يرى من جهة أخرى أن التعاليم الدينية يجب أن تتطور وأن تساير العقل الوضعى حتى يمكن أن يفتح الطريق لقيام العقائد الروحية فى صورة تلائم اتجاهات التفكير الحديث

وعلى مثل الدكتور ريجار نشر العلامة الأثرى الدكتور فيجال أخيراً رسالة يدلل فيها على أن المباحث الأثرية والتاريخية فى تراث مصر القديمة تقدم إلينا كثيراً من الأدلة والحوادث المادية التى تتفق تمام الاتفاق مع منطوق كثير من السير والتعاليم الدينية

الرافعي وخصومه

أخي الأستاذ الزيات

تحيتي إليك، وإلى الوجوه التي أحبها بنادي الرسالة، وجوه الأدباء الأمجاد الذي يرون في مسامرتك معاني لا يجدونها في الطواف بشارع فؤاد وشارع إبراهيم وشارع ...

وبعد فهل تعلم أني صبرت طويلاً على الأستاذ محمد سعيد العريان؟ لقد صبرت عليه لغرض نبيل يعرفه، ويعرفه أصدقاء تحملهم أقدامهم إلى الزمالك ومصر الجديدة. ولكنْ للصبر حدود، فقد شاء أن يسم أدباء مصر بميسم العقوق حين زعم أن خصوم الرافعي لم يرثوه. وهو قد شاء أن يضيفني إلى خصوم الرافعي مع أن الخصومة لم تشبّ بيننا غير خمس مرات. وإن الجزع ليبلغ مني كل مبلغ حينما أتذكر أني كنت آخر من خاصمه الرافعي في دنياه، ولكن الأديب العريان نسي أو تناسى أني كنت أول من رثى الرافعي في خطاب نشرته جريدة المصري، وأثنى عليه كل الذين قرؤوه وعدوه دليلاً على وفاء الخصوم الشرفاء

ولم أتفرد برثاء الرافعي يوم مات، فقد رثاه الأستاذ المازني بمقال بليغ نشرته جريدة البلاغ، ونشرت الرسالة وغيرها مقالات كثيرة تشهد بأن المصريين لم ينسوا ذلك الفقيد

فكيف صح للأستاذ العريان أن يزعم التفرد بأحياء ذكرى الرافعي؟

إنني أرجوه أن يتثبت مما يقول، فإن له في هذه المقالات أخطاء كثيرة. وقد آذاني ما كتبه عن (فلانة) التي جلست مني جنباً إلى جنب أربع سنين في الجامعة المصرية، وعرفت من شؤونها مالا يعرف. وآذاني وآذى الحقيقة بما كتب عن الدكتور طه حسين، لأنه يوهم قراءه بأن الرافعي كسب المعركة، مع أن التاريخ الذي نسيه يشهد بأن الدكتور طه حسين كان معقول القلم واللسان بفضل الإشارات التي صدرت إليه بأن يترك العاصفة تمر حتى لا يُهزم أنصاره أمام الحكومة وأمام البرلمان

وجملة القول أن ما كتبه ذلك الأديب عن خصوم الرافعي يحتاج إلى تصحيح. فإن لم يرجع إلى الأسانيد فسنعاونه على تحرير هذه المسائل بعد حين. والسلام

زكي مبارك
ضيف العراق

الاحتفال بتوزيع جوائز نوبل

قرأنا في البريد الأخير تفاصيل الاحتفال الفخم الذي أقيم في ستوكهلم في العاشر من ديسمبر احتفاء بتوزيع جوائز نوبل على مستحقيها من مختلف الأمم. والعاشر من ديسمبر هو تاريخ وفاة الفرد نوبل المخترع السويدي الكبير وواقف هذه الجوائز الشهيرة

وعقد الاحتفال في بهو الموسيقى الكبير بحضور ملك السويد وأعضاء الأسرة الملكية، ورجال الحكومة، وممثلي الدول الأجنبية؛ وبعد أن ألقى رئيس لجنة الهبة خطابه قدم الفائزين بالجوائز تباعاً، وكان كل يتسلم من يدى ملك السويد التحويل المالي والشهادة الفخرية والشارات الذهبية التي يستحقها. وكان أول المتقدمين الأستاذان: دافيد سون الأمريكي، وتومسون الانكليزي، وقد نالا معاً جائزة العلوم الطبيعية، وكلاهما قام بأبحاث هامة في مسألة تعرض البلور للتيارات الكهربائية. ثم تقدم الأستاذان هوارث الانكليزي وكارير السويسري، وقد نالا معاً جائزة الكيمياء، وذلك لمباحثهما عن أنواع الفيتامينات. وتلاهما الأستاذ زنت جيرجي المجرى وقد نال جائزة الفسيولوجيا والطب من أجل مباحثه في عمل الأكسوجين والهيدروجين في حرق أغذية الجسم البشرى. ثم تلاه الكاتب الفرنسي روجيه مارتان دوجار الذي فاز بجائزة الأدب من أجل قصته الشهيرة «آل تيبول»

وأقيمت في مساء نفس اليوم في «البهو الذهبي» مأدبة فخمة جريا على الرسوم المعتادة وخطب فيها مسيو دوجار، فنوه بالدور العظيم الذي تؤديه الآداب لخدمة السلام، وقال إنه يعتبر أن فوزه بجائزة نوبل لم يكن من أجل كتابه فحسب، ولكن بالأخص من أجل المعنى السلمي الذي يمثله هذا الكتاب، وما ورد فيه عن صيف سنة ١٩١٤ من الصور المؤثرة، وأن في عبر الماضي ومآسيه ما يكفي لأن يحمل الأمم على التبصر والاعتبار

اليك

قرأت في كلام أديب مشهور هذه العبارة: «إليك الدينار في سبيل فلانة» يقصد بإليك هاك، خذ. فتذكرت نقد الأستاذ عبد العزيز الميمني في (سمط اللآلى) وهو «الذي يستعمله المصريون كلهم ولا أستثنى منهم أحداً، إليك بدل هاك هو غلط فاحش» والنقد حق، وقوله «لا أستثني منهم أحداً»

باطل وخطأ متفاحش . وهذا الإطلاق شيء عجيب ، ففي العصر كثيرون لم يغلطوا فيما نقده ، منهم حضرته (أعنى الأستاذ الميمنى) وإن غلط فى غيره ...

وإليك من أسماء الفعل . قال سيبويه فى (الكتاب) : « وإليك إذا قلت : تنحَّ . وحدثنا أبو الخطاب أنه سمع من العرب من يقال له : إليك ، فيقول : إلىَّ ، كأنه قيل له : تنحَّ ، فقال : أتنحَّى »

وفى (النهاية) : « وفى حديث الحج : وليس ثمَّ طرْد ، ولا إليك ، إليك ، هو كما يقال : الطريق الطريق ، ويُفعل بين يدى الأمراء ، ومعناه تنحَّ وابعدْ ، وتكريره للتأكيد »

وممن غلط فى (إليك) هذه من المتقدمين مهذب الدين احمد ابن منير الطرابلسى فى قصيدته المشهورة التى مطلعها :

عـذبتَ قلبي يا تَـتَرْ وأطرت نومى بالفِكَرْ

فقال فى أحد أبياتها :

وإليكها بدويـــةً رقت لرقتها الحضرْ

(***)

(الاسكندرية)

فردنند دلسبس ومحمد سعيد باشا

لفردنند دلسپس صفحة من تاريخ مصر الحديث تجمع بين مجده الباهر وشقاء المصريين بهذا المجد ... وقد قرأنا كتاباً ألفه عن هذا الفرنسى الكاتب المؤرخ الكبير هـ . ج . سكونفيلد وأصدره منذ أسابيع ، وتناول فيه بطبيعة الحال نشأة دلسپس والصداقة المتينة التى كانت بين والده وبين عزيز مصر الكبير محمد على . وأول مجيء دلسپس ليعمل قنصلا لفرنسا (الذي نعرفه أنه عين مساعداً للقنصل الفرنسى فى مصر) فى الديار المصرية ، وكيف قرأ كتاب المسيو لوبير مهندس الحملة الفرنسية عن مشروع شق قناة تربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض إذ هو فى المحجر الصحى قبل دخوله مصر ... ثم الصداقة التى توثقت بين الأمير محمد سعيد وبين دلسپس والتى عقدت أواصرها (أطباق المكرونة !) تلك الأطباق التى كان لها الفضل الأكبر فى شق قناة السويس ... وقد أغرقنا فى الضحك المزوج بأشد الآلام عند ما قرأنا ماذكره المؤلف من حديث هذه المكرونة العجيبة وهو تخريج سيكلوجى عجيب يقفنا على الطرائق الحديثة في كتابة التاريخ ، ومـدى ما يلقف به المؤرخون براهينهم فى تعليل الحوادث ... فلقد ذكر المؤلف أن محمداً علياً لم يعجبه أن يري ولده سعيداً ذا جسم ضخم كثير اللحم والشحم فحرم عليه ألواناً من الطعام وأمر ألا يقدم إليه شيء منها ، ثم عهد به إلى فردنند ابن ماتيو دلسبس صديقه الحميم فعلمه ركوب الخيل وحبب إليه فنوناً من الألعاب والرياضة البدنية ... ولـكن هذه الرياضة كانت تجهد الأمير الصغير وتورثه جوعاً شديداً ، ولم تـكن مقادير الطعام التى تقدم إليـه لترد مسغبته ، فكان ينسرق من القصر ويهرول إلى منزل فردنند فتقدم له هناك أطباق المكرونة ، فيقبل عليها إقبالاً شديداً ... ومن هنا ، تضاعف هيام سعيد بفردنند ، فلما ولى أمر مصر بعد عباس ، كان فردنند قد ترك القطر وتقلب في مناصب سياسية هامة أشهرها هذا المنصب الذى مهد له القيام بالدور الخطير الذى لعبه فى سبيل تقريب وجهة النظر بين دولته والجيوش الفرنسية وبين زعيم إيطاليا مازينى ... وما إن علم فردنند بتربع صديقه سعيد على أريكة مصر حتى أرسل إليه يهنئه فأرسل إليه سعيد يستدعيه ... وكانت ذكريات أطباق المكرونة أول حديث دار بينهما بعد هـذا الفراق الطويل ... وفى نفس اللحظة تكلم دلسبس عن مشروع قناة السويس فوافقه سعيد باشا ونسى وصايا أبيه بوجوب الإعراض عن هذا المشروع ... ومن المؤرخين من يعزو نجاح المشروع إلى شغف سعيد باشا بركوب الخيل ، وإعجابه بدلسبس كراكب ماهر ... وسيان ...

تجديد قصر هشام بن عبد الملك

من أخبار دمشق أن مدير الآثار كتب إلى وزارة المعارف السورية يطلب إليها رصد ٢٥ ألف ليرة سورية فى ميزانية دار الآثار لتجديد قصر هشام بن عبد الملك المكتشف فى قرية الحير وإلحاق هذا القصر ببناء متحف دمشق الجديد

وقد كتبت الوزارة إلى رياسة مجلس الوزراء للموافقة على هذا المبلغ فعاد الجواب بالموافقة بعد أن اتخذ المجلس قراراً رقم ١٩٥ بهذا الشأن

لذلك أرسلت وزارة المعارف إلى رياسـة المجلس النيابى استناداً على كتاب مدير الآثار بلزوم اعتماد المبلغ المذكور فى ميزانية الآثار لتتمكن من إعادة قصر هشام الذى يعد من أكبر الآثار فى البلاد السورية ونظراً لقيمته من الوجهة التاريخية والأثرية

مدارس الفوهرر العجيبة

لاتنى النازية الهتلرية تبتكر الغرائب لخلق ألمانيا الجديدة. ومن آخر أنبائها أنها اعتزمت إنشاء أربع مدارس حديثه ليتعلم الشبان فيها مايسمونه هناك Nazi Weltanschauung أومراقبة التطور العالمى، أومايعني بالانجليزية World outlook ، إن خاننا التعبير العربي . وستضم كل من هذه المدارس ألف تلميذ من خيرة شباب ألمانيا ؛ ويختار طلبتها بشروط خاصة من حيث الذهن والجسم . ويمكث تلاميذ كل مدرسة عاماً واحداً فى مدرستهم ينقلون بعده إلى مدرسة أخرى — فيبدأ التلاميذ تعلمهم فى مدرسة بوميرانيا التى تبعد عن شمال برلين أربع ساعات بالقطار ، ثم ينقلون إلى المدرسة الثانية عند الحدود البلجيكية ليلبثوا بها عاماً ينقلون بعده إلى المدرسة الثالثة عند شاطئ بحيرة كونستانس فى أقصى الجنوب، ثم ينقلون إلى مدرسة ماريتبرج عند الحدود الشرقية . وسيتعلم التلاميذ فى هذه السنين الأربع أرق الأساليب السياسية وفن الحياة على أن تناط بهم بعد تخرجهم كل الوظائف التى يراد بها تنوير الشعب وقيادته وبث روح الوطنية بين أفراده . ومعنى هذا أن يأتى يوم لا يتولى وظيفة من وظائف الدولة رجل جاهل بما تتطلبه الدولة ويقتضيه مستقبل ألمانيا ... أما كيف يعد الأطفال للالتحاق بهذه المدارس فتتولى الدولة انتخاب الصبية فى سن العاشرة على أن تلحقهم بمدارس خاصة حتى يبلغوا الثمانى عشرة ، ثم ينخرطون بعد ذلك فيما يسمي (معسكر العمل) حيث يقضون ستة أشهر يباشرون خلالها أعمالاً عامة تعودهم شظف العيش والحياة الخشنة ، حتي إذا انتهت الأشهر الستة انخرطوا فى صفوف الجيش حيث يعملون فى فصائله المختلفة لمدة عامين يلتحقون بعدهما فى وظائف الدولة لمدة سنة يستطيع كل منهم خلالها أن يتزوج ويكون أسرة ؛ فاذا تصرم العام اختير من بين الجميع ألف طالب كدفعة أولى لمدارس الفوهرر ، ويطلق عليهم حينئذ لقب Junkers أو الشباب (الجنتلمان) — وسيتحرى فى اختيار هؤلاء أن يكونوا جميعاً من طول واحد ، وأن تكون صدورهم من مقاس متفق عليه ، وأن يكونوا ألمانيين خلصاً ومن جنس نوردى آرى لم يمتزج بدم جنس آخر إلى ما قبل سنة ١٨٠٠ ... وسينشئون فى هذه المدارس تنشئة أسبرطية بكل معانى الكلمة فيزاولون الرياضة ويشبون على الشجاعة والإقدام والتضحية

أما المنهاج الدراسى ، فسيتعلم التلاميذ فى مدرسة بوميرانيا ثقافة العصرين الحجرى والحديدى ... وبالطبع سيقحم مجد ألمانيا فى هذين العصرين إقحاماً قومياً ... وفى مدرسة الحدود البلجيكية سيلقنون دروساً فى الديانة المسيحية باعتبارها إحدى السياسات التاريخية فينقد المذهب البروتستانتى كما ينقد المذهب الكاثوليكى بحرية مطلقة ... أما فى مدرسة الجنوب الباڤارية فسيتعلمون النازية الحديثة وعلم الأجناس الجديد من وجهة النظر الهتلرية ... فاذا ذهبوا إلى مدرسة الحدود البولندية تعلموا ثمت فنون الدعاية الجديدة والمشروعات المتعلقة بسياسة ألمانيا الشرقية كما تناولها هتلر فى ال Mein Kampf

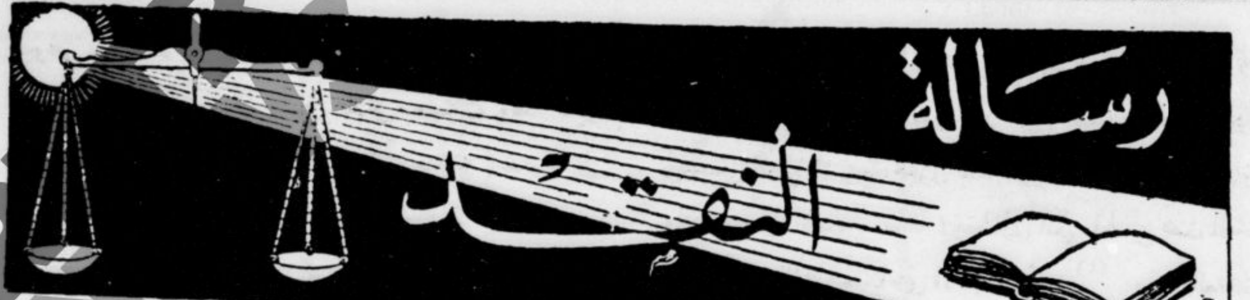
وليتساءل القارىء بعد هذا : إلى أين تسير ألمانيا ؟ !

جوائز جونكور وفمينا

منحت أكاديمية جونكور أخيراً جائزتها السنوية للكاتب البلجيكي شارل بلسنييه Ch. Plisnier من أجل كتابه «الزواج» Mariages الذى صدر منذ عام ؛ وهذه أول مرة تمنح فيها هذه الجائزة الفرنسية كاتباً غير فرنسى ، وليس فى قانون أكاديمية جونكور ما يحرم نيل جائزتها على غير الفرنسيين ؛ ولكنها تجرى في ذلك منذ نشأتها على تقاليد الأكاديمية الفرنسية التى تقضى بألا يتشرف بعضويتها غير الفرنسيين . ولكن حدث فى صيف هذا العام أن زار وفد كبير من أعضاء الأكاديمية البلجيكية زملاءهم أعضاء الأكاديمية الفرنسية ، وكانت الكاتبة الشهيرة كوليت قد منحت عضوية الأكاديمية البلجيكية ، لأن النساء لا يقبلن فى الأكاديمية الفرنسية ، فرأت أكاديمية جونكور من جانبها أن تخرج على تقليدها القديم ، وأن تمنح جائزتها للكاتب المتفوق فى الكتابة بالفرنسية ، واختارت لذلك شارل بلسنييه

ونالت مدام رايعون فنسان جائزة « فمينا » عن روايتها « الريف » Campagne ، وهي كما يدل عنوانها قصة تصف الحياة الريفية . وقد نشأت مدام فنسان نشأة ريفية ولم تتلق دراستها المدرسية إلا فى سن متأخرة ، ولكنها تتمتع بمواهب أدبية بديعة

ونال الكاتب الناقد رومان روسل جائزة الحلفاء الأدبية عن روايته « واد بلا ربيع » La Vallée Sans Printemps



أبو تمام والمقتطف

لأستاذ جليل

قالت مجلة (المقتطف)[1] الغراء في حديثها عن كتاب (أخبار أبي تمام) للصولي : « أبو تمام أمير من أمراء العصر العباسي ، خرج لأهل عصره بجديد لم يألفوه فخرجوا عليه ، وساعد في ذلك وجود البحتري فناصره الناس ، وفضلوا رقته ورشاقة ديباجته على تعاظل أبي تمام وتعمقه ، وطالت الخصومة ، وكسب الأدب منها ما كسب من كتب النقد ، وكان مما كسبه كتاب الصولي الذي أراد به الانتصار لأبي تمام على كتاب الآمدي (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) الذي ناصر فيه مؤلفُه البحتري

* * *

قول المقتطف : (أبو تمام أمير من أمراء العصر العباسي) فيه بعض التسامح ، فما كان حبيب أميراً من الأمراء ، وما ترفعه عندنا إمارة ، ولن تخفضه قروية ؛ وفلاح عامل أو عالم خير من آلاف من أمراء أغبياء كسالى ، وقد كان ابن أوس فلاحاً ابن فلاح من قرية جاسم

* * *

قول المقتطف : (خرج لأهل عصره بجديد لم يألفوه فخرجوا عليه) فيه لبْس كثير ، فقد جاء أبو تمام بما جاء به ورأى الناس إبداعاً ونبوغاً وعبقرية فبهرهم ذلك واستجادوه واستجزلوه وتقبلوه (ولم يخرجوا على صاحبه) ولم ينكر ذاك الشعر العُلْوي[2] العبقري ولم يعبه إلا جاهل أو حاسد أو عدو . ومتى تخلص النابغون أو العبقريون من مناكرين ومعادين ؟ وإن عاب الطائي مثل ابن الأعرابي ودعبل فقد أجله أيما إجلال مثل المبرّد وابن الزيات . وقصة أرجوزة حبيب وابن الأعرابي (وهي مشهورة) تبين مقدار المداوة إذا اشتدت وجارت . ودعبل، أقواله وأهاجيه مساخر دعبلية ... وقد أعلن أبو الفرج في كتابه (الأغاني) والصولي في (أخبار أبي تمام) مقاصد ناقدين في نقدهم حبيباً .

قال أبو الفرج : « هم أقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ، ويستعملون القحة والمكابرة في ذلك ليقول الجاهل إنهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه إلا بأدب فاضل وعلم ثاقب »

وقال الصولي : « صنف أَلَفَ في الطعن عليه كتبا ليجري له ذكر في النقص إذ لم يقع له حظ في الزيادة ، ومكسب بالخطأ إذ حُرِمَه من جهة الصواب » وإن شاعراً أخمل في زمانه خمسمائة شاعر — إلا واحداً — كلهم مجيد لا يستبدع أن يعاديه معادون ، وينبحه شويعرون ، وينغر عليه ويغلي شعراء مبرزون . ومن يقرأ شعر ابن الرومي في البحتري يستعجب ويستغرب في الضحك ، يقول في مقطوعة خلاصتها : « أن الشاة لا تجزع من ألم الذبح ولا السلخ لكنها تشفق أن يكتب في جلدها شعر البحتري »

* * *

قول المقتطف : « فناصر الناس البحتري وفضلوا رقته ورشاقة ديباجته على تعاظل أبي تمام وتعمقه » هذا القول هو الظلم العبقري[1] ، وللمعاظلة معانٍ كلُّها شر ؛ والتعمق هنا هو التنطع . وهذا تصوير لشعر ابن أوس مستشنَع ، ووصف منكر . ولو قالت (المقتطف) وفضلوا رقة البحتري على جزالة أبي تمام لاقتربت من الحق ، فقد قال صاحب (المثل السائر) : « اعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج ؛ ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا

(١) جزء ديسمبر ٣٧ (٢) شعر علوي : عالي الطبقة

(١) الظلم العبقري : الشديد قال : ظلم لعمر الله عبقري

خيولهم ، واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد . وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى [١] » وهى طبيعة المرء (أو مزاجه) تدعوه إلى طريقة فى القول بل عقيدة فى الدين فيستفيد لها ويستجيب . ولن تضير ذا الرقة رقته ، ولن تعيب ذا الجزالة جزالته ؛ وقوة حبيب ماحرمته لطفاً ، وسهولة البحترى ما منعته فحولة . فوصف صاحب المثل هو قول عدل فى شعر الطائيين من جهة الألفاظ ؛ وأما من جهة « الاستخراجات اللطيفة والمعانى الطريفة » كما يقول المبرد أو لطف المعاني وسموها أوالعبقرية الشعرية ، فالبحترى دون أبي تمام ، والوليد في ذلك تلميذ حبيب . وما أصدق البحترى إذ يقول : « أنا والله تابع لأبى تمام ، لائذ به ، آخذ منه ، نسيمى يركد عند هوائه ، وأرضى تنخفض عند سمائه [٢] » وفى (الموشح) : « سرقات البحترى من أبى تمام نحو خمسمائة بيت » وعندى أنها أكثر مما قال . وهنا نكتة تروى فى هذا المقام : رآنى ذات يوم أديب شاعر أقرأ فى كتاب فقال : ماهذا ؟ قلت : شرح ديوان أبى تمام . فلما أبصر الكتاب وعرفه قال : هذا ديوان البحتري. قلت : نعم . ففهم النكتة . وليس القصد من هذا الكلام تنقص البحترى وتهجينه ، بل تقرير الحق وتبيينه . والبحترى هو صاحب القول الطل الجميل ، وهو فى الشعر العربى ثالث ثلاثة ما جاء قبلهم ولا بعدهم مثلهم . وأستاذ الاثنين — على إبداعهما وعلوهما — هو حبيب . وإن شئت فقل كما قال المتنبى : « حبيب أستاذ كل من قال الشعر بعده [٣] » وأبو الطيب يدرى بما يقول ، ويعرف ما يعنى ، وهو خرّيجه وإن لم يجثُ بين يديه ، ومعانى أبى تمام فى أبيات المتنبي سوافر غير متلثمات ، ينطقن بالحق فصيحات

وعناية حبيب بألفاظه مثل عنايته بمعانيه لا كما جاء فى (موازنة الآمدى) : « إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقويم ألفاظه ، وأنه إذا لاح له المعنى أخرجه بأى لفظ استوى من ضعيف أو قوى » فإن هذا قول باطل ، الحق يعانده ، والأدلة تُدحضه ، وسبك حبيب المعجيب يكذبه ؛ فليس فى العربية شاعر احتفل فى المعنى واللفظ معاً احتفال أبى تمام ، فهو إذا غزا المعنى العالى أنزله من اللفظ فى خير مكان ؛ فهو محكم المعنى مرصّن اللفظ « وإذا لم ينهض بالمعنى الشريف الجزل لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة ، ولا النظام متسقاً ؛ وتضاؤل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح كتضاؤل الحسناء فى الأطمار الرثة » [١] . وفى (العمدة) لابن رشيق قال : « قال بعض من نظر بين أبى تمام وأبى الطيب : إنما حبيب كالقاضى العدل يضع اللفظة موضعها ، ويعطى المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة ، أو كالفقيه الورع يتحرى فى كلامه ويتحرج خوفاً على دينه ؛ وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ماحوله قهراً وعنوة ، أو كالشجاع الجرىء يهجم على ما يريده لا يبالى ما لقى ، ولا حيث وقع »

وقد حقق حبيب جل شعره ، وأحكم نظم أكثره ، وله المتوسط ، وله الردىء ، والجيد جيد ، والغث غث ، فصف كلا بصفته ، ولا تلبس الحسن بالقبيح ، وخذ الطيب وذر الخبيث ، « وليست إساءة من أساء فى القليل وأحسن فى الكثير مسقطة إحسانه » كما قال أبو الفرج

***

قول المقتطف : (وكان مما كسبه كتاب الصولى الذى أراد به الانتصار لأبى تمام على كتاب الآمدى : الموازنة بين أبى تمام والبحترى) فيه تسامح كثير ، فقد ألف الصولى كتابه والحسن ابن بشر الآمدى شادٍ لم يجادل ولم يوازن ولم يؤلف شيئاً . وليس فى الكتابين دليل على أن أحدهما قصد مناقضة الآخر . فالصولى ينعى على جماعات مقالات لهم زائفة ، والآمدى يوازن بين الطائيين وضلعه مع الوليد على حبيب . وممن يعنيهم الصولى أدعياء فى الأدب أو علماء من دعاة القديم ، والآمدى أديب يكبر الشعراء المحدثين .

***

المقتطف مجلة أجلها ، وكيف لا أعظم صحيفة كريمة منشئها علامة العرب ومعلمهم (الدكتور يعقوب صروف) لكنها قالت فقلت

قارىء

---

(١) راجع (زهر الأداب) الثالث ، (الصفحة ٢٠) : (أبو تمام والبحترى) فهناك حديث طريف يبين شيئاً من قدر حبيب
(٢) الموشح للمرزبانى (٣) الصبح المنبى

(١) العقد ، والعبارة الأخيرة من قول أبى تمام :
كسيت سبائب لؤمه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء فى الأطمار

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

6 me Année, No . 236

Lundi - 10 - 1 - 1938

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٣٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٨ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ — ١٠ يناير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

صفحة

التأليف والنشر فى مصر

للدكتور عبد الوهاب عزام

حدثنى بعض الأصدقاء أن أحد أصحاب المعالى وزراء الدولة فى الحكومة القائمة دعا إليه جماعة من الكتاب وحدثهم فى تنشيط التأليف فى مصر ومكافأة المؤلفين ووعد فى هذا وعوداً حسنة الخ

وهذا رأى محمود نرجو أن يتلوه العمل فيؤتى ثمراته بعد حين ؛ وهذه فرصة أنتهزها للتنبيه إلى أمر طالما أهمّ المفكرين من قراء العربية فى الشرق والغرب ، وطالما ترددت منه الشكوى وأخذت به مصر قبل الأقطار الأخرى ؛ ذلكم أمر النشر نشر الكتب القديمة والحديثة التى مات مؤلفوها . فهو أمر تتحكم فيه الفوضى . يستطيع الواحد من تجار الكتب أن يعمد إلى كتاب من الأمهات فى الأدب أو التاريخ أو غيرها ، ويعهد به إلى من يصححه ويقدمه للطبع . وحسب هذا المصحح أن يستطيع قراءة الكتاب قراءة يتصرف فيها خياله وحظه القليل من العلم ، ونشاطه التى تحده المكافأة القليلة التى ينالها من الناشر، ووجدانه الذى لا يحفل بالأمانة العلمية كثيراً . وأحياناً يتصدى لنشر الكتب بعض العارفين بأساليب النشر الحديثة ، فيعهد بتصحيحه إلى بعض الأسماء النابهة ، ويتخذ من وسائل الترويج

مايشاء له طمعه فى الربح والصيت ؛ فيستبشر الأدباء ويرجون خيراً ويتربصون على قلق حتى يظهر الكتاب فيكبوا على قراءته ، فإذا الأمر لا يعدو ما ألفوه من طرق النشر التى لا تصوّب غلطاً ، ولا تزيل شكاً ، ولا تنال طمأنينة القارئ

لا يجوز الباحث أن يتابع الأدلة من الكتب المشوّهة ، أو الكتب التى بذل فى تصحيحها جهد قليل قصّر بها دون الغاية :

نشر بعض الناشرين كتاباً قديماً فى الفرق الإسلامية فرّ على أغلاطه لم يعرض لها وحرّف بعض عبارات ظنها غلطاً وهي صواب . وحسبي أن أذكر من فعلاته هذه الواحدة : ذكر المؤلف رجلاً فنسبه إلى قبيلة وقال إنه « من ثَوْر هَمْدان » أى قبيلة ثور إحدى قبائل همدان لا من قبيلة ثور الأخرى إحدى قبائل مضر . فحرّف الناشر الكلمة إلى « ثغور همذان » وامتنّ على القراء فى الحاشية بأنه أدرك الحق فى هذه الجملة المحرفة . وأذكر أن ناشراً عمد إلى ترجمة كتاب كلستان للشيخ سعدى الشيرازى الشاعر الفارسى العظيم فطبعه وكتب على صفحة العنوان : « كتاب جلستان : بقلم العلامة جلستان الفارسى »

وليس العهد بعيداً بكتاب معجم الأدباء ، وما أُهمل من غلطاته ، وحرّف من عباراته ، وزيد عليه من شرح يتجلى فيه الخطأ والفضول . وقد أُخرج للناس فى موكب من التشهير والترويج ، وهو فى الحق حرىّ أن يكون عيباً لمن أخرجه وعاراً على وزارة المعارف التى احتملت التبعة فيه فكتبت على صفحة العنوان : « راجعته وزارة المعارف » . وكنت كتبت خمس مقالات فى نقد الجزءين الأول والثانى ثم وعدت القارئ أن أعود إلى النقد بعد أن تطبع الأجزاء الأخرى لأبين أهى خير من هذين الجزءين أم مثلهما . ولْملى أفى للقراء بهذا الوعد بعد هذا المطال الطويل . بل كتب الأدب التى بأيدى الطلاب في مدارس الوزارة فيها كثير من الغلط . وإذا وقع الغلط والتحريف فى مثل هذه الكتب فماذا يرجى من الكتب السوقية التى يتولى نشرها تجار أكبر همهم النفقة القليلة والربح الكثير ؟

كان أسلافنا يكتبون الكتب بأيديهم إذ لم تكن عندهم من وسائل الطبع والتصوير ما عندنا . فكان عليهم أن يصححوا كل نسخة من كل كتاب . وقد اضطلعوا بهذا العمل الفادح جهد طاقتهم وبذلوا فيه من فكرهم وعافيتهم ونومهم وراحتهم ما تشهد به آثارهم وأخبارهم . كان المتأدب منهم يقرأ الكتاب على أديب ثقة ، ويكتب عليه أنه قرأه على فلان ، ويغلب أن يكون الشيخ الذى قرىء عليه الكتاب قد قرأه على آخر ، وهكذا حتى تنتهى القراءة إلى المؤلف أو الشاعر أو الكاتب . ويكتب هذا السند المتصل على الكتاب فيعلم قارئه أن بيده كتاباً عُمدة يطمئن إليه ، بل فعلوا هذا فى الدواوين المتواترة التى يتداولها الحفظ والنسخ كل حين كديوان المتنبى . وعندنا اليوم نسخ من الديوان تحمل سندها من أبى الطيب إلى سبعة قرون أو أكثر من بعده . وهذا العكبرى شارح الديوان في القرن السابع لم يجز لنفسه أن يشرحه حتى قرأه على شيخين من شيوخ الأدب : مكى بن ريان بالموصل ، وعبد المنعم بن صباح التيمى بمصر . وقد وضع أسلافنا أصولاً اصطلحوا عليها وسموها « أصول السماع » بينوا فيها كيف يتثبت راوى الخبر أو راوى الكتاب حتى يتحرّز عن الغلط جهده .

ومن عجيب ما يروى فى هذا ما حدثني به بعض الثقات أن القاضى عياضا ذكر فى كتابه « الإلماع فى أصول السماع » أن أبا علىّ القالى صاحب الأمالى أعار الحكم المستنصر الأموى خليفة الأندلس كتاباً من كتبه وطالت غيبة الكتاب عنه . فلما رُدّ إليه أبطل الرواية به وقال لا آمن أن يكون قد أصابه تحريف وهو فى يد غيرى

ذلكم جهد السلف ودأبهم فى التثبت ، على ما حمّلهم هذا من عناء ونصَب . فكيف وقد تيسر طبع الكتب بما خلقت المدنية الحاضرة من وسائل — كيف نتهاون فى التصحيح والتحقيق فنخرج كتباً تنوء بأغلاطها ؟ إن ناشر الكتاب اليوم يكفيه أن يصحح نسخة واحدة لتصحّ له آلاف النسخ فيتواتر الكتاب ، ويؤمن عليه الغلط والتحريف ، والزيادة والنقص من بَعد . ليت شعرى بأى عذر نعتذر ، وبأى تعلة نتعلل ؟ لا عذر ولكنه التهاون والكسل أو القصور والجهل وليس فيها خيار لمتخير

فالذي نرجوه أن تؤلف الحكومة أو تكل إلى الجامعة ، تأليف هيئة لمراقبة النشر وبخاصة نشر الكتب القديمة فلا يؤذن لناشر أن ينشر كتاباً حتى تتوثق هذه الهيئة أن القائمين على تصحيح الكتاب أهل لتصحيحه وإخراجه على حال يسكن إليها أولو العلم والأدب . ولهم فى لجنة التأليف والترجمة والنشر أسوة حسنة ومثال صالح

ذلكم أقرب إلى التحقيق ، وأبعد من الفوضى ، وذلكم

فى عليين

للأستاذ عباس محمود العقاد

سلفادور مدرياجا أديب اسبانى كان أستاذاً للدراسات الاسبانية بجامعة أكسفورد . ثم ظهر فى عالم السياسة الأوربية على أعقاب الثورة التى قام بها في بلاد الاسبان جمهرة الأدباء والمثقفين ، فثل حكومته فى عصبة الأمم والولايات المتحدة وفرنسا ، وراجت تواليفه التى تتمثل فيها عبقرية بلاده ، فترجمت إلى معظم اللغات الغربية

وقد لازمته روح الأدب حتى فى أعماله السياسية فرويت له طرائف شتى أثناء المناقشات المحتدمة في مشاكل الدول وأزمات الحكومات ، ومنها أنه حضر « مؤتمر السلاح » وسمع ما يقترحه كل فريق من الدول القوية من تقييد هذا السلاح أو السماح بذاك على حسب اختلاف العدة عند كل فريق ، فأصغى إلى الأعضاء الجادين في مناقشاتهم ومساجلاتهم ثم قال :

« أيذكر مسيو لتفينوف خرافة الحيوانات التى اجتمعت للبحث فى التقليم والتجريد ؟ لقد نظر الأسد فى ذلك المؤتمر إلى النسر ثم قال : علينا أن نلقى المخالب ؛ ونظر النمر إلى الثور ثم قال : علينا أن نلقى القرون ؛ ونظر الثور إلى النمر ثم قال : علينا أن نلقى الأظافر ؛ ونظر الدب إليهم أجمعين ثم قال : بل نلقى كل شئ إلا حق الصراع والعناق ! »

وعجب الناس من هـذه المؤتمرات التى تجتمع ثم تفترق ، وتفترق ثم تجتمع ، وهى لا تأتى بنتيجة وتعلم أنها غير آتيـة بنتيجة . فذهب إليه مراسل بعض الصحف وسأله : ما جدوى كل هذا الاجتماع والافتراق وكل هذا الافتراق والاجتماع ؟ وما يعنى الساسة المحنكون بهذا العناء فى غير طائل ؟ فكان جواب مدرياجا للمراسل :

« أسمعت قصة الصبي اليهودى ؟ إن كنت لم تسمعها فاعلم أن صبياً يهودياً تعود أن يصرف ريالاً أرباعاً ثم يصرف الأرباع سنتيمات ثم يعود فيرد السنتيمات في دكان آخر إلى أرباع فريال صحيح ؛ وهكذا كل يوم بغير تحول ولا انقطاع . فتعقبه بعضهم يوماً بعد يوم ولحق به فى طريقه بين الدكاكين فسأله كما تسألنى الآن : فيم هذا العناء على غير جدوى؟ قال الصبى : لابد من يوم يقع فيه بعض الناس في خطأ حساب ، ولن أكون أنا بعض الناس هؤلاء ! »

وقس على ذلك طرائفه التى يتناول بها معضلات السياسة بين الجد والمزح والنوادر والأمثال

آخر كتاب لهذا الأديب اللبق الأريب ظهر فى اللغة الانجليزية هو كتابه « فى عليين » وهو على هذه الوتيرة محاورات وأمثال ومحادثات وقعت كما تخيلها في عليين بين أرواح العظماء المرفوعين إلى السماء :

منها روح ڤولتير الفرنسى وجيتى الألمـانى وكارل ماركس زعيم الاشتراكية وواشنطون ونابليون ومارى ستيوارت ونخبة من طراز هؤلاء

وهى غير مقصورة على أرواح الأموات دون الأحياء ، بل يشترك فيها بعض الاحياء الذين يستدعيهم أولئك العظماء من الأرض فى حالة النعاس أو حالة الغيبوبة

ويدور البحث بين هذه الأرواح فى كل ما يخطر لتلك العقول من مسائل الفن والسياسة والاجتماع ، ويتخلل ذلك كلمات بعضها مخترع وبعضها مما روى عن قائليه أثناء الحياة ؛ وقراءتها من أمتع ما يطلع عليه القارئ فى الأدب الحديث

من أمثلة ذلك أنهم اختلفوا على مشاركة الولايات المتحدة للأوربيين فى حل المعضلات العالمية . فأمر واشنطون باستدعاء روح من رجال مجلس الشيوخ المعارضين فى ذلك . فجاء الروح وكان أول ما استشهد به قول الرئيس واشنطون فى خطاب الوداع ، وجرى الحوار على هذا المنوال

الشيخ ــ ولم ياسيدي ؟ إن الجواب لظاهر . وتوقيراً لذكرى

أجدر بنا وأولى بسمعتنا ، وأحفظ لتاريخنا وآدابنا . فإن توهم متوهم أن الخطب فى هذا أمر يوكل إلى الزمن إصلاحه ولا يحتاج إلى عناية الأمة والحكومة فليسأل الباحثين من علمائنا وأدبائنا ليشكوا إليه ما قاسوا من الكتب المحرفة ، والنصوص المضللة . وإنا لراجون أن تبادر الحكومة إلى تبشير الأدباء بمـا تعتزم فى هذا الأمر العظيم ثم تتبع البشرى العملَ والوعدَ الإنجاز

عبد الوهاب عزام

الرئيس واشنطون أعيد كلماته التي يعيها جميع الامريكيين في أطواء القلوب ... لقد قال : « إن لأوربا طائفة من المصالح الأولية التي لامصلحة لنا فيها أو تكون علاقتنا ، بها جد بعيدة ، ومن ثم تتورط في أسباب الخلاف والشقاق التي لاتنى تتعاقب وتتلاحق ، وهي أسباب غريبة عن شواغلنا ، فليس من الحكمة أن نزج بأنفسنا في غمارها ، ونعقد الروابط المصطنعة بيننا وبينها ، في أحوال سياستها المألوفة أو علاقات الصداقة والعداوة بين أحزابها »

ثم قال : « إن سياستنا هي أن ندير شراعنا بعيداً عن رياح الدول الأجنبية »

فالتفتوا جميعاً إلى القائد واشنطون فإذا به يقول :

واشنطون ـ عجيب ! إنني لم ... متى قلت ذلك ياحضرة الشيخ الموقر ؟

الشيخ ـ إخالك أنت الرئيس واشنطون . إنك لشبيه بتمثالك ولكن ليس بالشبه كله ، أفأنت الرئيس واشنطون بعينه ؟

واشنطون ـ نعم ياسيدي : ما يخلد منه

الشيخ ـ إني سعيد بلقائك أيها الرئيس . إن الكلمات التي سمعتها هذه اللحظة مقتبسة من خطاب وداعك

واشنطون (متذكراً) ـ وما ذاك ؟

الشيخ ـ حسن أيها الرئيس . إنه الخطاب الذي ألقيته لدواع لست أذكرها الساعة ، ولكني أذكر منها أنك ألقيته يوم اعتزمت ألا تغزو ميدان الانتخاب للرآسة

واشنطون ـ أغزو ؟ أنا ما غزوت قط ميدان الانتخاب ، ولكني أفهم ماتعنيه وإن كانت عباراتك غريبة عني بعض الغرابة

الشيخ ـ لم تكن من عباراتك . إلا أننا نحفظ دروسك عن ظهر قلب . لا اشتباك في المسائل الأجنبية !

واشنطون ـ ومع هذا ياحضرة الشيخ أقول لك إن الابتعاد عن حوافر الخيل سياسة حسنة لصغار الجراء ، ولكنها ليست بالسياسة الحسنة لكبار الأفيال

* * *

ومن أحاديث الرسالة كلمة توجهها ماري ستيوارت إلى الشاعر جيتى — وهو أستاذها ودليلها في السماء — فتقول له :

« إنك أيها الأستاذ العزيز تطلب « الحرية في النظام » ولكني أرى أن الحرية راجحة على النظام ، لأن الحرية خلاقة موجدة . أما النظام فقصاراه أن يحفظ ما هو موجود ، وهو يحفظ كل شيء ؛ ويا له من شيطان مسكين : يحفظ ما يستحق الحفظ وما هو حقيق بالتلف والزوال ، وكأنه ربة البيت المجنونة بالشح والتدبير ، فهو يحيط الحياة بنطاق من حديد ؛ ثم تأتي الحرية — حرية الأرواح القوية — فتحطم النطاق ولا تزال تفتحه فتحاً يوسع أطراف الحياة »

ومن أقوال ماري ستيوارت في هذا الحديث : « ليست الحياة متاجرة ، ولكنها مقامرة . وليست هي مقامرة الرجل مع رجال آخرين ، وإنما هي مقامرة الرجل مع الحياة نفسها »

ويقول فولتير في بعض أحاديثه : « لست أزعم أنني موضع ثقة الإله وأنني مؤتمن على سره كالدكتور جيتى الذي يطلع على الأسرار الإلهية ! بل إنني معترف بقلة الفهم لأساليبه ، ومن ثم لست على يقين من أسباب لجميع هذه الأشياء »

فيقاطعه واشنطون قائلاً : لا بد من أسباب على كل حال .

فتصيح بهم ماري ستيوارت : أفكل شيء يجرى على حكم العقل وحكم أسبابه ؟ ما أحسب ذاك !

فيجيبها كارل ماركس : « ليست الدنيا مستشفى مجاذيب »

فيعود فولتير قائلاً : «أحقاً؟لست أدري، ولكن إذا جرت الأمور على هوى أتباعك الاشتراكيين وأتباع الامبراطور — يعني نابليون — العسكريين . فمن يدري ؟ »

* * *

ومن فكاهات فولتير في الرسالة قوله : « إن مذهب الشيوعيين الذين يدعون إلى استيلاء الحكومة على كل شيء لا يختلف عن مذهب الرهبان الذين يقولون باستيلاء الكنيسة على كل شيء » ثم يقول: «إن الشيوعيين هم الطبقة العصرية لطائفة اليسوعيين ! الغاية تبرر الواسطة ، وإلا فالأقوال الحتمية والتعميم والطاعة ، كأنما الإنسان جثة ميتة باختياره ، وإلا فهو جثة ميتة على الفور بغير اختيار ، ولا احتمال لمذهب غير المذهب ، ثم لا بد من تسليم البضاعة ... »

* * *

ويدور بعض الأحاديث في الرسالة عن الحرب كما يلي :

كارل ماركس ـ حرب . حرب . في أوربا كثير من أسباب الحرب غيري أنا...

جيتى ـ على التحقيق ، ولكن أوربا كانت تعالج إصلاحها ومحوها ، وإليك مثلاً عصبة الأمم

كارل ماركس ـ فشل كامل !

جيتى – أتراك تنفض يديك من الشيوعية عند أول تجربة فاشلة ؟

كارل ماركس – كلا ! لأننى موقن بنجاحها الأخير

جيتى – وكذلك نجاح العصبة الأخير لا شك فيه

نابليون – لا . لا يا دكتور جيتى . هذا يدهشنى أن أسمعه من رجل حكيم كما عهدتك

جيتى – إنما دهشتى من دهشتك

نابليون – نهاية كل قول أن الحضارة قائمة على القوة

واشنطون – كلا . بل الحضارة قائمة على العقيدة

كارل ماركس – العزة الإلٰهية مرة أخرى !

واشنطون – ليس هذا ما عنيت الساعة يا سيدى . وإن كنت أرى أننا لو تعمقنا فى الرأى الذى أبديته فنحن منتهون لا محالة إلى العزة الإلٰهية

نابليون – ولكنك حين تقول إن الحضارة قائمة على العقيدة أيها الجنرال ماذا تريد ؟

واشنطون – أعنى الصلة الروحية التى تبعث الناس إلى عمل يعلو على مآربهم الحيوانية القريبة . أفتحسب أن جنودك ماتوا من أجلك لأنك أكرهتهم على ذلك ؟

نابليون : إنما أحسب جيشى دعامة حضارتى ، وإن جيشى على كل حال قوة !

واشنطون – ما كان جيشك إلا شجاعة ، وإيمان بك ، وحب لفرنسا

نابليون – ومدافع وذخائر وطمام

واشنطون – كل أولئك « مادة ميتة » بغير العقيدة

نابليون – أتريد عقيدة بغير مدفع ؟

واشنطون – خير من مدفع بغير عقيدة

جيتى مخاطباً نابليون – فالمى يا سيدى ! تذكر معركة فالمى ؟ لقد غلبت العقيدة بغير المدفع على المدفع بغير العقيدة فى تلك المعركة . إننى معك أيها الرئيس ، وإنى لشاكر لك إجابة الامبراطور وإن كان توجيه سؤاله إلى لعجبه من إيمانى بعصبة الأمم . ولقد أردت أن أقول له إننى لم أؤمن بالعصبة إلا لإيمانى بأن الجماعة من الناس ينبغى أن تبادر إلى حكم نفسها ساعة وجودها أو ساعة شعورها بوجودها ، فأما وجد الشعور بالجماعة الدنيوية فالحكومة الدنيوية لابد لها من وجود »

***

ومناقشة أخرى تدور بين فولتير وكارل ماركس عن سخافة الروايات الروسية الحديثة ، فيشير ماركس إلى أسباب اقتصادية لسخافتها ، ويعود فولتير فيقول :

فولتير – حتى تثبت أن غباوة جماهير المدينة نجمت من أسباب اقتصادية

كارلس ماركس – حقيقة ذلك ظاهرة

فولتير – بل هى على نقيض ذلك ، فما الأسباب الاقتصادية إلا وقائع ثانوية ؛ أما الوقائع الأولى فهى دوافع النفوس

كارل ماركس – كلمات وليس إلا كلمات

فولتير – أأنت فأر مدينة أم فأر خلاء ؟ تلك حقيقة ثانوية أما الحقيقة الأولى فهى أنك فأر على كل حال »

***

وجىء إلى السماء بوليام جننجز بريان الذى حارب أستاذاً لأنه علم مذهب داروين فى بعض المدارس الأمريكية

قال فولتير – فما هو إلا أن ارتفع إلى هنا حتى مثل بين يدى العزة الإلهية . فتهلل وليام جننجز بريان بشراً ، ولكنه لم يلق ترحاباً من جانب العزة الإلهية . فقال وهو فى حماسة تشغله أن يلمح ما حوله من قلة الترحاب فى هذا الجو لأنه قد صعد فى الأرض بحماسة كافية لاجواء عديدة : رب . هأنذا . لا يزال يغشانى غبار المعركة . لقد كانت حرباً زبوناً ، ولكن الظفر كان لنا

فأجابه الله بصبره السماوى – إن لغة المعركة والحرب والظفر لا تعجبنى

قال بريان – لكنك يا ألله رب الجنود . أو ليس هذا اسمك فى كتاب العهد القديم ؟

قال الرب فى حلمه السرمدى بلطف ما به : لقد كنت يومئذ ناشئاً ألهم أنبياء اسرائيل الهام الناشئين ! ولعلك نسيت أننى أرسلت إليكم منذ عشرين قرناً رسول حب وسلام

فحار بريان ثم توسل قائلا وهو فى ريب مما يسمع : ولكنى يا رباه قد حاربت أعداءك

فوسعه حلم الرب وسدده إلى الصواب وهو يوحى إليه أن

ليس لى يا بنى أعداء . كل مالى يابنى خلائق

فاضطرب الكتابى المسكين والشك يأكل قلبه، وصاح:

لكن آراء دارون رباه تخالف أقوال كتابك

فأكد له الله قوله فى حلم وحزم: «كل ما أخلص كاتبوه فى كتابته فهو وحى من عندى، وكل ما استقام على الصراط فهو من مصدر الاستقامة»

* * *

وفى بعض المحادثات يقول ماركس لجيتى: إن من يعمل يعيش. فيقول جيتى: إنك إن أقمت حق العامل على عمله لا على صنعته الإنسانية قتلته، ولا سيما حين تكثر الآلات وتقل الحاجة إلى الأعمال والعاملين

وهكذا تفيض الرسالة بالطرائف التى لها مثل هذه الطلاوة أو هذه الدقة أو هذه الفكاهة. وقد رأيت أن أشرك قراء العربية فى نصيب منها حتى ينقلها ناقل برمتها وهى قلما تربى على مائة صفحة صغيرة

عباس محمود العقاد

حاشية: للأستاذ أديب عباسى جواب منى على مناقشته التى عقب بها على بعض مقالاتى السابقة. وربما أضفت إلى هـذا الجواب بيان ما سأل عنه الأستاذ عبد الحميد العبد وطلب المزيد من شرحه، وأقول لحضرته إن اسم الكتاب الذى سأل عنه بالانجليزية هو Nations can live at Hone واسم مؤلفه Dr Willcox

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ٥ —

أخبار قصيرة

١ — إعترضت مجلة الحاصد على عبارة «ليلى المريضة بالعراق» وقالت: إن البيت المشهور يجعلها مريضة فى العراق لا بالعراق، وتسألنا عن معانى الباء، ولكنا نعرف أن الجدل فى النحو أخرج سيبويه من بغداد وهو محموم، فلنصرح بأن الباء فى العنوان القديم لم يكن لها فى ذهننا معنى غير الظرفية، على حدّ ما قيل

ومن يك أمسى بالمدينة رحله ... فانى وقيار بهـا لغريبُ

فاتركنا ياسيد أنور ما تركناك !

٢ — نشرت جريدة البلاد كلمة لحضرة سكرتير الاذاعة اللاسلكية ينفى بها ما نشر فى مجلة الرسالة عن إغفال أسطوانة السيدة نادرة :

يقولون ليلى فى العراق مريضة ... فياليتنى كنت الطبيب المداويا

ويؤكد أنه لم تصدر أية إشارة من أية جهة بمنع هـذه الأسطوانة من الاذاعة، ونجيب بأننا سمعنا ذلك الكلام من ليلى وهى عندنا أصدق

٣ — كثر الاستفهام عن السيد الذى يقيم بالكاظمية والذى تفضل فهدانى إلى منزل ليلى، ولكن لذلك السيد مكانة اجتماعية تجعل من العسير أن نصرح باسمه فى هذه الأحاديث الوجدانية

٤ — طلب جماعة من أدباء بغداد أن أعلن أن ليلاى غير ليلى الزهاوى، فان الزهاوي كانت ليلاه هى العراق، وأنا أصرح بأن ليلاي فى بغداد هى ليلى المريضة فى العراق، وهى معروفة لجميع الناطقين بالضاد

* * *

وبدت لى ظمياء فتاة شاعرة العواطف حين وصفت آذار بأنه شهر الأزهار والرياحين . وغلب الأدب على الطب فأحببت أن أعرف كيف رأت مصر وكيف رأت النيل . والحق أن ظمياء فى جوهرها فتاة مليحة، ولكنى أغالب نفسى فأقول إنها شوهاء مداراة للمرأة جميلة التى تفحص أسارير وجهى بعينين كأنهما عينا العُقاب، وما أدرى والله كيف نجحت فى اصطناع التجمل والتوقر وكنت طول حياتى مفضوح النظرات

— ظمياء

— نعم يا مولاى

— كيف كان طريقكما إلى مصر يا بنيّتى ؟ بالسيارةِ أم بالطيارة ؟

— لم يكن السفر بالطيارة مألوفاً فى سنة ١٩٢٦ وإنما ذهبنا بالسيارة إلى الشام، ثم اخترقنا فلسطين حتى وصلنا إلى قناة السويس، وقد قضينا على شاطىء القناة ثلاث ساعات مرت كلمحة الطرف بفضل ما غرقنا فيه من التأملات

— وهل التأمل يقصر الوقت يا ظمياء ؟

— لا أعرف يا سيدى الطبيب ، وإنما أذكر أن ليلى كانت تحفظ قصيدة شوقى في قناة السويس فظلت تنشد طول الوقت وهى في حلاوة الرشأ النشوان

— لا أعرف أن لشوقى قصيدة فى قناة السويس ، وإنما أعرف أن له فيها آية من آيات النثر الفنى

— لا . يا سيدى ، هي قصيدة

— هل تحفظين منها شيئاً ؟

— أحفظ المطلع :

تلك يا ابـنَيَّ القناه لقومكما فيها حياه

— هذه ليست قصيدة يا ظمياء

— ليلى تقول إنها قصيدة

— القول ما قالت ليلى ! ثم ما ذا يا ظمياء ؟

— كانت ليلى تنشد ما تنشد ثم تحاورنى فى أمر المصريين الذين حفروا القناة ، ومن رأى ليلى أن حفر القناة أعظم عمل قام به المصريون فى التاريخ

— ولـكنها أضرت مصر يا ظمياء

— هذا يا سيدى كلام الساسة لا كلام الأطباء . وهل يضر مصر أن تكون صاحبة الفضل على العالمين فتنشىء من المرافق ما بخلت به الطبيعة القاسية على الانسانية ؟ إن الحياة يا سيدى الطبيب لا تنهض إلا بفضل التضحية ، وقد ضحت مصر بمالها وسلامتها فى سبيل الانسانية ، وسيجزيها الله على ذلك خير الجزاء

— هذه فلسفة يا ظمياء ، وما تهمنى الآن ، ثم ماذا ؟

— ثم دخل الليل ونحن على الشاطىء ، وطلع القمر فتحول الوجود إلى موجة فضية تفتن القلوب ، ونظرت إلى ليلى فرأيت انعكاسات القمر على وجهها آية من آيات السحر والفُتون

— دخلنا فى الغزل يا ظمياء

— أنت الذى شجعتنى على الوصف يا مولاى

— اسمى ، هنا سؤال مهم : هل رأيت ليلى على القناة فى حال تختلف عما كنت تعهدين وهى في بغداد ؟

— أنا أصغر من ليلى سنًّا كما تعرف

— مفهوم ، مفهوم ، وهل تخفى على مثلى هذه الفروق !

— لم أكن أعرف يومئذ ما هو الحب ، لولا علاقة سطحية بابن عمي عبد المجيد

— يظهر أنك فتاة متعبة وحمقاء . ماشأنى بعلاقاتك السطحية أو العميقة مع ابن عمك عبد المجيد ؟

— أنا أريد يا سيدى أن أقول إنى لم أكن يومئذ أدرك كيف تتغير أسارير الفتاة حين يطلع القمر ، أو حين يهب النسيم ، وإنما فطنت إلى ذلك بعد ما ثارت العواصف حول ليلى . وأقول لك إنى فهمت الآن أن ليلى كانت تتأهب لحب مجهول ، فقد كان للقمر على وجهها أضواء وظلال يطير لهـا لب الحكيم ، وقد مددت ذراعىّ فطوقتها فانعطفتْ علىّ وقبلتنى قُبلة عطف لن أنساها ما حييت !

« وهنا تذكرت الوجه الذى كان القمر يسبغ عليه ألوان الأضواء والظلال ، وجه الانسانة النبيلة التى أتحفتنى بصورتها الغالية لأدفع بها ظلام الليل فى بغداد . وكدت أتنهد ثم تماسكت ولى قدرة على ضبط النفس فى بعض الأحوال »

— كفى ، كفى

— تحب يا سيدى أن أصف كيف رأينا القاهرة أول مرة ؟

— إن كنت تحبين ذلك ...

— أحب أن أقول لتسمع الست جميلة ، فهى تحب ذلك

— وأنا أيضاً أحب أن أسمع وصف القاهرة ، فقد طال شوقى إلى القاهرة

— تعرف يا سيدى محطة باب الحديد ؟

— أراها يا بنيتى فى طيف الخيال !

— لقد أرهقنا الحمالون ...

— أنت يا ظمياء تتكلمين بلغة السائحين . إن لمحطة باب الحديد سحراً لا تعرفينه يا حمقاء

« ثم سكتّ لحظة ، فقد تذكرت أنى زرت تلك المحطة أكثر من مئة مرة على غير ميعاد ، لأشهد أسراب المودعين والمودعات فى القطار الذى يقوم إلى بور سعيد كل مساء . وتذكرت أنى كنت أضحى بمكانى فى قطار البحر فلا أصعد إليه إلا بعد أن يدق الناقوس لأمتع عينى وقلبى بالحسن الذى يموج

فوق الرصيف . وتذكرت الفتاة التى استقبلتها فى تلك المحطة عند منتصف الليل فى الشتاء الماضى ، تلك الفتاة التى جاءت من نورمنديا خاصة لتزور معى الأهرام فى ليلة قمراء . تذكرت وتذكرت حتى كاد يفضحنى الدمع ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وهو وحده يعلم ما يقاسى قلبى من الغربة بين القلوب »

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم اخترقنا شارع كامل

— هو اليوم شارع إبراهيم

— أفادك الله !

— يا لئيمة ، فيك أشياء من دعابة بغداد !

— ثم نزلنا عند أسرة عراقية تقيم في شارع قصر النيل ، وكانت ليلى قد تعبت فظلت فى البيت يومين كاملين

— وهل فى الدنيا إنسان يرى القاهرة أول مرة ثم يحبس نفسه فى البيت يومين ؟

— قلت إن ليلى كانت تعبت ، والحق أن ربة البيت التى نزلنا فيه نهتنا عن الخروج ، لأننا نزلنا القاهرة ملفوفتين بالثياب على نحو ما ترى عقائل بغداد ، وكانت تلك السيدة تخشى إن خرجنا بتلك الصورة أن يرانا الجمهور من الغرباء ، والغريب لا يسلم من فضول الناس . وفى يومين اثنين أحضرت تلك السيدة الكريمة ما ترى أن نلبس من الثياب . أما أنا ففرحت بثيابى ورأيت أنى تجددت ؛ وأما ليلى فقد غضبت أشد الغضب وأعلنت أن الخروج بهذه الثياب ينافى الحياء . وفى الحق أن ليلى بدت فى تلك الثياب كالحورية الهاربة من الفردوس ، فقد كان يجب أن تمشى فى الجادّة [1] وهى سافرة الوجه ، وكان الثوب المصرى يكشف بعض الطلائع من صدرها الجميل . ولو رأيت ليلى فى تلك الساعة وهى غاضبة لرأيت العجب العجاب ، فقد توهمت المجنونة أن الشبان المصريين سيخطفونها حين تقع أبصارهم على حسنها المرموق ، وبلغ بها الوهم أن تزعم أن خطفها سيكون فضيحة للعراق

وعندئذ قهقهت ربة البيت وقالت : « اسمعى يا ليلى ، إن المصريات لا يخرجن إلى الشارع بهذا الثوب وإنما يلبسن فوقه المعطف . فسكنت ليلى قليلاً ، ثم لبست المعطف فوق الفستان ، ونظرت فى المرآة فرأت أن حالها مقبول ، ولم تر بأساً من الخروج بهذه الصورة لرؤية المعرض »

— ثم ماذا ؟

— وخرجنا فعبرنا جسر قصر النيل

— هو اليوم جسر اسماعيل

— أفادك الله !

— يا مضروبة ، هل تخرجتِ في الأزهر الشريف !

— دخلنا المعرض ، أو دخلت أنا ثم تبعتنى ليلى ، فقد كانت على غاية من التهيب والاستحياء ، ثم رأينا أفواجاً من الشبان قيل إنهم طلبة الجامعة المصرية وعلى رأسهم أستاذ يشبه سيدى الطبيب

« وهنا ابتسمت ابتسامة خفيفة لأنه لا يبعد أن أكون ذلك الأستاذ ، فقد كنت صحبت جماعة من تلاميذى لزيارة المعرض ، فيهم ابراهيم رشيد وابراهيم نصحى ومحمود سعد الدين الشريف ومحمود محمد محمود ومحمد عبد الهادي شعيره ومصطفى زيور وعزيز عبد السلام فهمى ومحمد حمدى البكرى وعبد الحميد مندور ومحمود الخضيرى ، ويسرنى أن أقول إنهم أصبحوا اليوم رجالاً يتشرفون بخدمة الوطن الغالى . ثم شعرت بحسرة لاذعة حين تذكرت أنه كان يمكن الفرار من أولئك الطلبة الشياطين لرؤية من فى المعرض ، ولعلنى كنت أعثر بليلي فأصبح من أقطاب الشعراء ، ولكن ما فات فات فاقتل نفسك إن شئت يا صريع الملاح »

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم طوفنا بالمعروضات فلم يرقنا غير معروضات سليم عبده

— مات ، رحمه الله

— يا عينى ، لقد كان رجلاً لطيفاً ، ومن عنده اشترينا أشياء كثيرة ، وقدم إلينا هدايا لا نزال نحتفظ بها إلى اليوم

— ثم ماذا ؟

— ثم ركبنا القطار ، قطار المعرض ، وكان أمامنا شاب يسارقنا النظر بعينين خضراوين ، فتكلفت الشجاعة وهممت بزجره ، ولكن ليلى ضغطت على يدى فاعتصمت بالصفح الجميل

« للحديث بقية » زكى مبارك

(١) الجادة فى بغداد هى الشارع

فلسفة التربيـــــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٦ —

تطبيقات الديمقراطية على التربية والثقافة المثلى فى جماعة ديمقراطية

« إن الانسانية التي تخلصت من الرق تستطيع التخلص من الحرب »
« سير فردريك بلوك »
« يستطيع التاريخ أن يغير عقل الأمة أو يصلحه تبعاً لطريقة تدريسه »
« موسار »

عرفت فى المقال السابق كيف يؤمن « جون ديوى » وغيره بالديمقراطية كمحور « للحياة المثلى » ، وكيف يريد أن يتخذ من التربية وسيله فعّالة لتحقيق تلك « الحياة » ؛ وسترى فى هـذا المقال ما تتطلبه الديمقراطية فى المعلمين والمتعلمين والمدارس والمواد وطرق التدريس جميعا

١ — فى المعلم

وأنت تعرف من هو المعلم . هو الذي قال فيه شوقى إنه كاد أن يكون رسولا ، وإنه ذلك الذى يبنى أنفساً وعقولا ! ! ؛ ولقـد حاول « فروبل » أن يبرر عمله « العظيم » فقال : « إنه جزء من الكون ، فعمله إذن جزء محدود فى الكون ، ومركزه يلتئم تماماً ومركز الكون ، ولذلك عند ما يفرض قوانينه على الطفل لا يفعل أكثر من إخضاعه لقوانين الوجود الخالدة » ، وقال : « تتعارض القوى فى الطبيعة لتتلاشى وينشأ منها قوة جديدة . وكذلك الأمر بين المعلم والمتعلم » ...[1] هـذا المعلم يجب أن يكون « ديمقراطيا » أولا وقبل كل شئ ، ديمقراطياً فى خلقه الخاص ، وديمقراطياً فى طريقة احتكاكه بالتلاميذ حتى لا يحجر على شخصياتهم . زد على ذلك أن « الدولة » يجب أن نكون « ديمقراطيـة » معه هى أيضاً ! يجب أن تشركه فى وضع « المقرر » ، ويجب أن تطلعه على الكتب المدرسية ، ويجب أن تأخذ رأيه فى أنسب طرق التـدريس لأنه المنفِـذ الروحى والمادى للخطط الموضوعة ، فما يجوز أن تفرض عليه هذه الخطط فرضا ، ولأنه المتصل بالعقول الناشئة فهو أقدر من غيره على فهم استعدادها ، ولأنه المجرب لهذا المنهج أو ذاك فيجب أن يكون لرأيه التقـدير الواجب ؛ أما أن تبعث إليـه البرامج ويساق سوقاً إلى تدريسها ، وأن يُحمل النشء على الرجوع إلى كتب يراها هو غير متمشية وما انتهى إليه من رأى ، وأن يقترح ويكتب ، ويصرخ ويستغيث دون ما جدوى ، كأنما هو فى وادٍ والدولة فى واد آخر — فذلك كما ترى هدم لركن من أركان التربية جدير وخطير ، وإغفال لتجارب ناطقة لا سبيل إلى التقدم السريع إلا بالاستفادة منها[1]

٢ — فى المتعلم

وأما هذا فما يجوز أن يكون شخصيـة سلبية تستمع إلى الدرس دون ما فكر ، وتحفظه وتعيه على أساس « الطريقة الصماء » وتذهب إلى المدرسـة كارهة وتخرج منها مسرورة ، فإذا كانت الحياة المستقلة طار العلم وانمحى ، وحل الكسل والفراغ الآثم والاستمتاع الحقير ، هـذا إلى الفشل فى معالجة أهون مسائل الحياة ، وإلى الكبرياء والترفع عن « السوقة » والأعمال الحرة ! أجل ! ... ما يجوز شىء من هـذا ... ! وإنما يجب أن نسير معه على أساس البحوث النفسية الصحيحة التي تقول مثلاً إن « العقل » إذا مر فى الحياة بمشكل راح يحدده ويفكر فى وسائل حله ، فيفترض الفروض ويحققها ويمتحنها ؛ أو أن الشىء لا يثير الاهتمام ولا يعلق بالذاكرة إلا إذا كان شائقاً ومتصـلاً بالحياة اتصالاً وثيقاً ... إلى آخر هذه النظريات التى نعرفها ولا نعرف السبيل إلى تحقيقها ... ! وإذن فلتكن موضوعات الدراسة على هيئة مشاكل يقف الطفـل حيالها « موجباً » أى محدداً ومفترضاً ومحققاً ومجرباً ، ولتكن بقدر الإمكان متصلة بالحياة حوله حتى يستسيغها فى مراحله الأولى ، ويقبل عليهـا بلذة

(١) أنظر فصل الأساس التصورى للتربية من كتاب : J. Adans, Evolution of The Eod. Theory ١٠٤

(١) ونرى من حسن الحظ أن الوزارة عندنا قد بدأت تطبق هذه القواعد تطبيقاً محموداً بما تطلبه من تقارير واقتراحات

وشغف ، وبذلك وبغيره ننتهى إلى جعل « التعليم » عملية لذيذة لا أهوال بها ولا مكاره ، وجعل « المعرفة » متعة سامية ريثة يقبل « المتخرجون » على التزود منها أثناء فراغهم بدلا من الجلوس فى المقاهي وغير المقاهى مما تعرف ومالا تعرف ياقارئي العزيز ! ، هذا إلى خلق الشخصية الديمقراطية التى تتعاون مع غيرها فى المسائل العسيرة كما تعاونت بالأمس فى موضوعات الدراسة ، والتى تستطيع أن تكافح حقاً فى الحياة وتحتقر « الديوان » وتمضى إلى الكفاح بجرأة وبأس وإقدام …

٣ — فى المدرسة

وأما المدرسة فهى كما تعلم البيئة التى تمدنا للحياة الخارجية ، ولذلك يجب أن يشملها التغيير ، وأن تنقلب انقلاباً خطيراً ؛ ومعنى هذا أن تصبح دار عمل وتجريب شائق لذيذ مجهد كله حرية وتعاون واحترام ؛ ففيها يزرع التلاميذ الشجرة ويشاهدون نموها ويسجلونه قبل أن يقرؤا عنه ، وفيها أدوات البناء والطهى ، والغزل والنسج ، وأشغال الخشب والإبرة وما أشبه ؛ ويقف المدرس هنا ليضع الطفل أمام التجاريب ويشعره بحاجته الماسة إليها[١] . وبذلك تكون المدرسة كما يقول الأستاذ « يعقوب فام » : « صورة مصغرة للمجتمع البشرى ، فهى إذن ليست وسيلة للجمعية البشرية . والفرق بينها وبين المجتمع هو أولاً أنها صورة مصغرة له ، وثانياً أنها يسهل التحكم فى عواملها بخلاف المجتمع ، وثالثاً أنها غير معقدة ؛ فهى ليست إذن مكاناً للتعليم فقط ، وإنما هى للأطفال دنيا يعيشون فيها ويصرفون جهودهم ونشاطهم ثم يتعلمون » … « ومثل هذه المدرسة لا تشوق دون جهد ، ولا تجهد دون تشويق ، وإنما يتأتى ذلك عن ربط المادة نفسها بحياة التعلم[٢] »

وعلى ذلك لا يكون الطفل فيها دائرة معارف متحركة فحسب وإنما يكون آخذاً بناصية الوسائل والأدوات والمصادر التى تساعده فى البحث الذى يجريه بنفسه متعاوناً ومسترشداً . وهكذا يستطيع أن يعيش وينمو على أساس الديمقراطية والعلم …

فهنا إذن تعاون بحت ، وتنافس فى الكيف لا فى الكم ، وتعليم للحياة بالحياة ، وعمل منتج ذو غاية ، ودرس لمواد متصلة لا منفصلة انفصالاً لا مبرر له ، واحترام للعمل والعاملين ، واكتساب للنظرة العلمية التجريبية الصحيحة ، علم مقرون بعمل ، وغنى إلى جانب فقير ، وعمل طامح مستبشر يرنو إلى شيء أكثر من ورقة ممهورة بخاتم الوزير !

٤ — فى الثقافة

ويتبقى بعد ذلك أن نقرر روح الثقافة المثلى فى الجماعة الديمقراطية . وحسبك أن تعلم أن هذه الثقافة لا تفرق بين النظر والعمل تفريقاً كبيراً ، وتنظر « للتغير » كقانون عام يتطلب المرونة المطلقة والتجديد السريع ، ولا تأخذ بغير الطريقة العلمية التى لا طلاسم فيها ولا خزعبلات ؛ ولا تفرق بين مسلم ومسيحى ويهودى خشية أن تلوث تاريخ العالم بالدماء كما قد تلوث طوال الماضى الأثيم . الدين عندها لله والجميع لديها إخوان . ثم هى لا تستعبد الفكر قط ، ولا تغرس فيه الأفكار الاجتماعية أو السياسية الخاطئة بالإيحاء الآثم . العقل عندها مقدس فما يجوز أن تشوهه ، ومثلها الأعلى فى قيمة الدراسات هو ما تقدمه من خير يكمل الفرد والجنس[١] ، ومذهبها التوازن بين الجسد والقلب والعقل حتى لا يؤدى الأمر إلى وحشية رائعة من جانب أحد أركان هذا الثالوث ضد الركنين الآخرين[٢] وغايتها خلق ذلك الرجل المثقف الثابت فى تتبع ما يريد ، المستعد لتعديل خطته إذا لزم الأمر ، المتفتح العقل لكل ما تقدمه العلوم والفنون ، النابذ للأحكام التقليدية متى ما اقتنع بخطئها ، المرحب بالأفكار الجديدة ، ولكن بعد نقدها وتمحيصها ، المتقدم للمساعدة كلما استطاع ، والمقنع المجتمع بأهليته للثقة والاحترام . ذلك الرجل الذى لا يسيء إنساناً بقصد أو بغير قصد ، والذى يترك مالا يعرف لأنه لا يقوى على معرفته ، والذى هو أبدا مطمئن البال ومصدر راحة لنفسه ولغيره . ذلك الذى هو حكيم لسعة اطلاعه ، والذى لا يحكم إلا بعد تمحيص وروية[٣] والذى يحسن مخاطبة الناس جميعاً برقة ولباقة وظرف ؛ والذى يعرف معنى ما يقول ويتكلم بصراحة ووضوح وجلاء ، ذلك الذى يعبر بفكره

(١) أنظر كتاب Ch. Ridery. Classification des Caracters P 194

(٢) أنظر له كتاب التربية والأخلاق

(1) Bode Amode Phelos. Of Ed .

(2) Ch. Mâson An essay Towaras a Thilos. of Ed.

(3) Ruediger Principle of Ed ucetion

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢١ —

شاعر الملك فؤاد

وهذا فصل آخر مما يتصل بموضوع الحديث عن الرافعي في النقد ؛ إذ كان هو أولَ ما بين الرافعي والأستاذ عبد الله عفيفي ؛ فإني لأقدّم به للقول عن خبر ما كان بينهما من الخصومة التي مهّدت للرافعي من بعدُ أن ينشئ كتابه (على السَّفود) في نقد ديوان الأستاذ العقاد

***

في سنة ١٩٢٦ كان ناظر الخاصة الملكية هو المرحوم محمد نجيب باشا ، وكانت السياسة المصرية تسير في طريق ذي عِوَج ، مهّد لطائفة من رجال الحكم والسياسة أن ينشئوا حزباً ينسبون إليه الولاء للقصر ؛ فهيّئوا لطائفة غيرهم من السياسيين أن يزعموا أنهم أولياء على حقوق الشعب ، حراسٌ على سلطة الأمة ، فنشأت بذلك قوة بإزاء قوة ، وتناظر سلطان وسلطان ، وكان لكل طائفة لسان وبيان ...

في تلك الآونة ، تقدم المرحوم محمد نجيب باشا إلى الرافعي أن يكون شاعر الملك ؛ فلقي ذلك المطفَ الكريم بحقه من الشكر والرضى وعرفان الجميل

وشاعرُ الملك أو شاعرُ الأمير لقب قديم في دولة الأدب ، وله في تاريخ العربية تاريخ ، منذ كان النابغة والنعمان ، وزهير وهرم بن سنان ، والأخطل وبنو أمية ، والنواسيّ وأبو العتاهية في بني العباس ، والبحتري في إمارة المتوكل ، والمتنبي في بلاط سيف الدولة ؛ إلى شعراء وملوك لا يحصيهم العدّ . ولا ننس في تاريخ مصر الحديث أن نذكر الشاعرين : أبا النصر ، والليثي ؛ وليس بعيداً عنا أمير الشعراء المرحوم شوقي بك « شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية » ، وقد كان من الولاء والحب لمولاه بحيث لم تطمئن السلطة الحاكمة إلى بقائه في مصر بعد خلع الخديو عباس ، فنفتْه إلى الأندلس

ولقد كان شاعر الملك قبل الرافعي هو الشاعر المرحوم عبد الحليم المصري ؛ فلما مات تطلعت إلى موضعه نفوس الشعراء ؛ وكان أكثرهم زلفى إلى هذا المنصب هو المرحوم حافظ ابراهيم ، إذ كان ما يزال في نفسه شيٌ يهفو به إليه ، مما كان بينه وبين شوقي من المنافسة الأدبية في صدر أيامه على رتبة شاعر الأمير

***

وعاد الرافعي إلى الشعر بعد هجر طويل ؛ إذ كان آخر ما نشر من الشعر هو ديوان النظرات في سنة ١٩٠٨ ، ثم لم يقل بعده إلا قصائد متفرقة في آماد متباعدة ، لحادثة تنبعث لها نفسه ، أو خبر ينفعل به جنانه . وكان أكثر ما قال الشعر فيما بين ذلك في سنة ١٩٢٤ ، في إبان العاصفة الهوجاء من حبٍّ فلانة ، وأكثر شعره عنها منشور في كتبه الثلاثة التي أنشأها للحديث عن هذا الحب ؛ ثم انبعث البلبل ينشد أهازيجه من جديد ، على الشجرة

الزمان والمكان ويفهم نفوس الغير سريعاً . ذلك الذي يعلم شيئاً عن كل شيء ، وكل شيء عن شيء ما ، فلا تكون « الانسانيات » وغيرها عنده مجهولة كل الجهل ؛ ذلك الذي ليس باللاذع في نكاته ، وليس بالمسرف المتبذل في شهواته ، لأن الجسد عنده هيكل الروح المقدس ؛ ذلك الذي إذا شهد التمثيل المحزن أو المضحك استمع له في صمت وجلال وانفعل في صمت وجلال ؛ ذلك الذي لا يذهب إلى الحرب إلا مقتنعاً بجدارة السبب والذي يعيش مسروراً دائماً مهما أخطأ ، فاذا مات لم يطمع في أن يسجل له ذووه على قبره مفخرة واحدة !! (١)

وهذه الثقافة كما ترى تدعو للعالمية بكافة الطرق ، وتستبدل بأبطال الحرب أبطال الانسانية والعلم ، وتدرس التاريخ تدريساً بعيداً عن العصبيات الوطنية كما نصح المسيو موسار في مؤتمر التربية الخلقية الذي عقد بباريس منذ أعوام ، أعني أنها لا تعتبر نابليون بطلاً منواراً وقائداً عظيماً بقدر ما تصوره مصلحاً لم تبق من آثاره إلا تلك الأعمال السلمية النافعة .

« يتبع »

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

(1) Sturt & Oakden : Metter & Melhod.

الفينانة فى حديقة قصر الملك ، فصغت إليه القلوب وأرهفت له الآذان ...

واستمر يرسل قصائده فى مديح الملك لمناسباتها ، من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٠ ، حتى وقع بينه وبين الأبراشى باشا أمر — بعد موت المرحوم نجيب باشا — فسكت ، وعاد ما بينه وبين الشعر إلى قطيعة وهجران ، بعد ما أنشأ الخصومةَ بينه وبين عبدالله عفيفي ... وعند الأستاذ إسماعيل مظهر تفصيل ما سأرويه من خبر هذه الحادثة بعد

* * *

وقصائد الرافعى فى مديح الملك فؤاد نظام وحدها فى شعر المديح : تقرأ القصيدة من أولها إلى آخر بيت فيها ، فتقرأ قصيدة فى موضوع عام من موضوعات الشعر ، ليس من شعر المديح ولا يمتّ إليه ؛ فلولا بيتان أو أبيات فى القصيدة الحسينية أو السبعينية يخص بهما الملك ويمدحه ، لما رأيتها إلا قصيدة من باب آخر ، تسلكها فيما تشاء من أبواب الشعر إلا باب المديح . إقرأ قصيدة الخضراء — يعنى الراية — وقصيدة الصحراء فى رحلة الملك إلى الحدود الغربية ، واقرأ غيرهما ؛ فإنك واجدٌ فيه هذا الذى ذكرت ، وواجدٌ فناً فى الشعر تعرف به الرافعى فى المديح فوق ما عرفتَ من فنونه ؛ فإذا حقّقْتَ هذه الملاحظة فى مدائح الرافعى وثبتتْ عندك ، فارجع إلى تاريخ هذه الفترة من السياسة المصرية ثم التمسْ لها تفسيراً من التفسير ، أو فارجع إلى تاريخ الرافعى نفسه واذكر ما تعرف من أخلاقه تعرف تفسيرها ومعناها

لقد كان الرافعى يجهل السياسة جهلاً تاماً ، ولكن كانت فيه أخلاق السياسىّ ناضجة تامة : من الاحتيال ، والرّوَغان ، وحسن الإعداد للتخلص عند الأزمة . بَلى كانت له أخلاق السياسيين فى إبداع الحيلة والاستعداد للمخرج ، ولكن لم يكن له فى يوم من الأيام هوى مع أحد من أقطاب السياسة ، أو يعرف له رأياً فيها ، أو يدرى من خبرها أكثر مما يدري رجل من سواد الناس يقرأ جرائد التطرفين والمعتدلين على السواء

* * *

ولم يكن للرافعى أجر على هذا المنصب فى حاشية الملك ، إلا الجاه وشرف النسب ، وجواز مجانى فى الدرجة الأولى على خطوط سكة الحديد ، ودلال وازدهاء على الموظفين فى محكمة طنطا الكلية الأهلية ، حيث كان يعمل جنباً إلى جنب مع مئات من الكتبة والمحضرين وصغار المستخدمين ... ... !

ولكنه إلى ذلك قد أفاد من هذا النسب الملكى فوائد كبيرة ؛ فقد تعطف الملك الكريم فأمر بطبع كتاب (إعجاز القرآن) على نفقة جلالته ؛ كما أذن بإرسال ولده محمد فى بعثة علمية لدراسة الطب فى فرنسا ؛ فظل يدرس فى جامعة ليون إلى سنة ١٩٣٤ على نفقة الملك ، حتى شاء الإبراشى باشا لسبب ما أن يقطع عنه المونة الملكية ولم يبق بينه وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر ، فقام أبوه بالإنفاق عليه ما بقى . ومن أجل ما كان يرسل إلى ولده كل شهر فى فرنسا من نفقات العيش والجامعة كان هو يعمل فى (الرسالة) بأجر ، وإن عليه من أعماله الخاصة ما ينوء به جسدُه وتُنتَهك أعصابه ... !

* * *

قلت إن الرافعى ظل فى حاشية الملك فؤاد إلى سنة ١٩٣٠ ثم كان بينه وبين الأبراشى باشا أمر — بعد موت المرحوم نجيب باشا — فسكت ؛ إذ خشى أن تعصف به السياسة أو تعبث به الدسائس فترمى به إلى تهلكته ...

حدثنى الرافعى قال : « كنت في عهد نجيب باشا أذهب إلى القصر فيلقانى بوجه طلق ، ويحتفى بى ، ويبسط لى وجهه ومجلسه ، ويثلج صدرى بما يروى لى من عطف المليك ورضاه ؛ فما أغادر القصر إلا وأنا أشعر كأن نفسى تزداد عمقاً وتمتد طولا وتنبسط سعة ؛ ثم جاء الابراشى باشا ، فلم تدعنى داعية إلى لقائه حتى كان يومٌ وجدتُنى فيه منطلقاً إلى هناك ، لأسأله فى أمر من الأمر ...

قال : « وذهب الساعى إليه بالبطاقة ودعانى إلى الانتظار ، فجلست ، وما أظن إلا أنها دقائق ثم أُدْعى إليه ... وطال بى الانتظار ، ومضت ساعة ، وساعة ، وساعة ، وأنا فى هذا الانتظار بين الصبر والرجاء ؛ وحولى من ذوى الحاجات وجوه عليها طوابع ليس على وجهى منها ، ونظرت إليهم وإلى نفسى فضجرت ، فعدت أستأذن عليه وقد جال بنفسى أنه قد نسى مكانى ، فعاد إلىّ حاجبه يقول : الباشا يعتذر إليك اليوم ، ويسألك أن تمر به غداً فى الساعة كذا ...

قال الرافعي : « وآذاني ذلك ونال مني ، ولكني اعتذرت عنه . فلما كان الغد ، جاءني النبأ ينعي إلي زَيْنَ الشباب المرحوم أمين الرافعي بك ؛ فآدني الهمُّ وثقل عليّ ، وضاقت نفسي بما فيها وتوزعتني الوساوس والآلام ؛ وما نسيت وأنا أمشي في جنازة الفقيد العظيم أن عليّ موعداً بعد ساعات ، فما هيل عليه التراب حتى كنت في طريقي عدواً إلى القصر وفاء بالوعد الذي اتعدْت ، وجعلت من وراء ظهري ما عليّ من واجب المجاملة لمن جاءوا يعزُّونني في أخي وابن عمي وصاحب الحقوق عليّ . لقد كان الذي مات زعيماً من زعماء الوطنية له مقداره ، ولكني جعلت الوفاء بالوعد فوق ما عليّ من الواجب للزعيم الذي مات ؛ وإنه لأخي ، وإن في أعراقه من دمي وفي أعراقي ... !

قال : « ووقفت بالباب أنتظر أن يؤذن لي فأدخل ، وطال بي الانتظار كذلك وإن في دمي جمرات تتلهب . ومضت ثلاث ساعات وأنا في مجلسي ذاك أطالع وجوه الداخلين والخارجين من غرفة الباشا ولا يؤذن لي ... !

قال الرافعي : «وهاجت كبريائي وثارت حماقتي... لا أكذبك يا بنيّ ، إن فيّ لحماقة . ولكن ... إن صرامة عمر بن الخطاب قد انحدرت إليّ في أصلاب أجدادي من النسب البعيد ؛ ولكن صرامة عمر حين انحدرتْ إليّ صارت حماقة . إن هذه الحماقة عندي يابني هي تلك البقية من صرامة عمر ، بعد ما تخطّتْ إليّ هذا الزمن البعيد في تاريخ الأجيال ... !(١)

قال : « ولما بلغ الحنق بي مبلغه نهضت وفي يدي عصاي ، فتقدمت إلى الباب خطوة فدفعته بالعصا وأنا مغيظ محنق ، فإذا أنا أمام الإبراشي باشا وجهاً لوجه ، وإلى جانبه رجل أوربي يحدثه ...، فلم أعبأ ، ولم أكترث ، ولم أذكر وقتئذ أين موضعي وموضعه ، فقلت ما كنت أريد أن أقول ، وانتصفت لنفسي ، وثأرت لكبريائي . وأحسبني قد خرجت يومئذ عن حدود اللائق في الحديث معه ، ولكني لم أُلْقِ بالا إلى شيء من ذلك . وما كان في نفسي إلا أنني قد قلت ما ينبغي أن أقول لأحفظ كرامتي وأصون نفسي ، ولا عليّ بعد ذلك من غضبه أو رضاه ...

(١) تشبه هذه الكلمة أن تكون هي كلمة الرافعي بنصها كما حكاها لي ، وقد كتبتها في مذكرتي بعد حديثه بساعات ، فنقلتها اليوم من هذه المذكرة

« ولكن ... ولكنه مع ذلك لم يغضب ، ولم يعتب ، بل اعتذر إليّ وألحّ في الاعتذار ... وصدَّقته حين ابتسم ... ! »

* * *

وأسرها الإبراشي باشا في نفسه ؛ فلما كان الموسم التالي نظم الرافعي قصيدته وأرسل بها إلى القصر ، ورُصِفت حروفها مشكولة في مطبعة دار الكتب — كما جرت العادة — ثم أُرسلت بحروفها مجموعة إلى الجريدة المختارة ، ومعها قصيدة أخرى مرصوفة مشكولة مزيَّنة ، من نظم الأستاذ عبد الله عفيفي المحرر العربي بديوان جلالة الملك . ونُشرت القصيدتان جنباً لجنب في جريدة واحدة ، وعلى نظام واحد ، وكلاهما في مدح الملك ، فما يفرق بينهما في الشكل إلا توقيع الشاعرين في ذيل الكلام

وقرأ الرافعي قصيدة منافسه الجديد ، فثار وزمجر ، وقال لمن حوله : « أترون كيف يصنع بي ؟ إنه يريد أن ينال مني . (يريد الإبراشي) أهذا شعر يقرن إلى شعري ؟ أيراني وإياه على سواء ؟ أيحسب أن الأدباء سيخدعهم هذا الزخرف في الطباعة فيجعلون صاحبه شاعراً من طبقتي أو يجعلونني شاعراً من طبقته ؟ أيراني من الهوان بمنزلة الذي يرضى عن هذا العبث ؟ أفيريد أن يمهِّد لصاحبه حتى يخلعني عن مرتبة « شاعر الملك » ليجعله مكاني ؟ أم يراه أهلاً ليقاسمني المنزلة والمقدار عند صاحب التاج ... »

ومضى الرافعي يومه يفكر ويقدر ، وما كان إلا في مثل حال الرجل الذي يعود إلى داره التي يملك فإذا له فيها شريك يحتلها بقوة ساعده لا بحقه ؛ فما يجد له حيلة في إجلائه عن الدار إلا أن يرفع أمره إلى القاضي ... وكان القاضي عند الرافعي في هذه القضية هو الرأي الأدبي العام ، فرفع أمره إليه ..

وتحدث بنيته إلى صديقه الأستاذ اسماعيل مظهر صاحب مجلة المصور ، فأوسع له صفحات من مجلته ليبدأ الحملة على الأستاذ عبد الله عفيفي في مقالات عنيفة صارخة بعنوان : على السَّفُّود !

وما كان الرافعي يجهل أنه يتناول موضوعاً دقيقاً حين يعرض لنقد هذا الشاعر ؛ فإنه ليعلم علم اليقين أن هذه المقالات سيكون لها صدى بعيد ، تصل به إلى آذان لا يسره أن تعلم من كاتب هذه المقالات ، فتنكر وأخفى نفسه ...

« لها بقية » **محمد سعيد العريان**

فى سبيل الإصلاح

أخلاقنـــا ...

للأستاذ على الطنطاوى

نحن اليوم (فى أكثر بلدان الشرق الإسلامى) فى دور يقظة ، ومطلع نهضة ، ولكل نهضة جسم وروح ؛ أما الجسم فهذه السياسة وما يتصل بها ، وهذه الدواوين الحكومية وما يكون فيها ، وهذه القوانين والأنظمة وما ينشأ عنها ؛ وأما الروح فهو الأخلاق والعقائد والمثل العليا . فروح الحكم الإخلاص والقناعة والعدل بين الناس ، وروح الوظيفة الاستقامة ومعرفة الواجب ، وروح الديمقراطيـة الإرادة المشتركة وضمان المصلحة العامة ، وروح المدرسة تنشئة جيل المستقبل على المثل العليا ، وروح الصحافة نشر الحق والفضيلة والخير ... فهـل امتدت نهضتنا إلى الروح ، أم هى قد اقتصرت على الجسم وحده ، لم نعن إلا به ، شأننا فى كل أمر من أمورنا حين نهتم بالقشور ونقف عند الظواهر ؟

الجواب عند القراء ، لا حاجة إلى إثباته فى هذا المقال . ولكنّ الحاجة ماسة إلى كتّاب ومربين وعلماء ، يَسْتَقْرون أخلاقنا التى نحن عليها ، ويصنّفونها ويقوّمونها ، ويرون ما يجب أن يبق فيعملون على تثبيته ونشره ، وينظرون ما ينبغى أن يبدّل أو يعدّل ، فيسخّرون المدرسة والصحافة والقوانين لتبديله وتعديله ، لتنشأ أمة المستقبل على الأخلاق الصالحة التى تستطيع أن تبلغ بها ما تريد من مجد وعلاء ، وتتبوأ المكان اللائق بها بين الأمم ، وتلقى هذه الأخلاق التى ورثناها من الحكم التركى الطويل ، وبلغت بنا قعر الهاوية التى نحاول اليوم النجاة منها ، ونعود إلى أخلاقنا الإسلامية التى قبسها منا الغربيون فأفلحوا بها ونجحوا ...

***

من هذه الأخلاق التى يجب أن نتخلص منها أننا لا نعرف التعاون ولا نقدر أن نعمل مجتمعين . فالفرد منا عامل منتج ، ولكن الجماعة عاجزة عقيمة ، ومن نظر إلى انتشار الشركات فى الغرب على اختلاف أنواعها ، والجمعيات على تنوع غاياتها ، والأحزاب والنوادى ، ورأى ما عندنا من ذلك رأى أنه ليس إلى المفاضلة من سبيل ... وعـلّة ذلك الأنانية المفرطة ، والأثرة الجامحة ، وحب الذات الطاغى ، فالرجل منا يريد أن يكون هو كل شىء فى الجمعية أو الشركة ، رئيسها إن كان لها رئيس ، أو ناموسها (سكرتيرها) إن لم يكن رئيس ، وعضو الإدارة إن كان مجلس إدارة ، وأن يكون له الرأى إن أخذت الآراء ... بل إنا نرى كلا منا يعطل أعمال الآخرين ويبطلها ، ويعمل على هدمها ، بينما نراه مؤمناً بلزومها ، معتقداً بالحاجة إليها ، ساعياً إلى القيام بمثلها ، فهو يعرف الحاجة إلى ناد أدبي ولـكنه يحارب النادى لأنك أنشأته أنت ؛ وهو يعلم الحاجة إلى مدرسة دينية ويدعو إليهـا ، ولـكنه إذا رآها قد فتحت ونالت قسطاً من النجاح أصلاها حرباً حامية ، وجعل أكبر همه هدمها وتخريبها . ذلك أن دعوته الأولى لم تكن عن إخلاص ولم يكن يريد بها وجه الله والمصلحة ، ولـكنه يريد الفخر والشهرة والنفع واللذة ، فلما رآك أنت السابق إليها والذاهب بفخرها ، خان المصلحة وعصى الله ليرضى أثرته ويستجيب لأنانيتـه ... وهو شاعر بالحاجة إلى جمعية خيرية يسعى إلى تأليفها بحماسة وجد ودأب قد ملأت فكرتها نفسه وحياته فهو لا يتحدث إلا بحديثها ، ولا يشتغل إلا لتأسيسها ، فإذا تم له الفلاح بعد التعب والـكفاح وقامت الجمعية ولم يكن هو الرئيس أو هو الناموس انفصل عنها وحاربها حرباً لا هوادة فيها وسعى إلى هدم ما بناه بيده ...

هذا داء من أشد أدوائنا الخلقية ، إن لم نعالجه فشت جرثومته فى جسم الأمة ، فشلّت أعضاءها وعطلت أعمالها :

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه   إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟

وأين هو الاخلاص ، وأين هو الصدق ، فيمن يدعو إلى الخير أو الدين أو الفضيلة ، وغايته استغلال الدين والخير والفضيلة لمصلحة نفسه وإطاعة هواه ؟

***

ومن هذه الأخلاق أننا لا نعرف قيمة الوقت ، وأنا نضيع أوقاتنا سدى ، ونذهب أعمارنا عبثاً لا نعرف لها قيمة وهى أثمن ما نملك . وإذا كان فينا من يحسن الاستفادة من وقته ، وينفقه

فى علم أو أدب أو شىء مما ينفع الناس ، لم يعدم من الثقلاء من يضيع عليه وقته ، ويسرق عمره ولا يتوهم أنه أساء أو أخر ... وما أظن أن فى القراء من لا يذكر حادثة في هذا الباب ... كنت ذاهباً إلى المدرسة ذات مرة ، وكان عليّ محاضرة لم يبق دون موعدها إلا مسافة الطريق ، وكنت مسرعاً لا أكاد أبصر طريقى فاعترضنى رجل كبير كان ناظراً للمدرسة الثانوية التى كنت فيها وله فى البلد حرمة ومقام ، فأقبلت عليه أحييه وأفهمته برفق أن عليّ محاضرة قد حان موعدها فقال : طيب ... لحظة . وانطلق يتكلم ، فلا والله ما سكت إلا بعد ساعة ونصف ساعة ألقى هو فيها المحاضرة عليّ ، وأنا أتململ وأتحرك وبربد وجهي وأحس النار تشتعل فى عروق ... فلما انتهى قال :

— أظن أننا وقفناك ... عدم المؤاخذة !

قلت : أستغفر الله ، ومضيت عنه ...

***

هذه علة أخرى من عللنا الأخلاقية ... لاشك فى أنها من أشدها وأدواها لأن حفظ الوقت آكد وسيلة إلى النجاح ، وخير طريقة لرفعة الفرد والمجموع . أذكر أن الدكتور نمر تحدث إلى قراء المقتطف فى العدد الخاص بعيد المقتطف بين لهم أن أثمن ما استفاده من الأمريكان في كليتهم هو تقدير الوقت ، وأن ذلك هو الذى أعانه وزميله الكبير الدكتور صروف على النجاح وأتاح لهما تحقيق هذا المشروع العظيم ، والأمريكان خاصة والغربيون على التعميم يعرفون كيف يستفيدون من أوقاتهم ، فيقوم أحدهم فى اليوم بأعمال لاتقوم بمثلها الجماعة منا فى أسبوع . وكذلك كان أجدادنا الذين تركوا هذه الآثار العلمية الضخمة ، وكان فيهم من بلغت تصانيفه الثلاثمائة فما فوقها .. كانوا يحسنون الاستفادة من أوقاتهم ، ولا يدعون دقيقة واحدة تمر إلا فى عمل مفيد ، أو راحة مقدرة ، أو قضاء حق لله أو للجسم أو للعيال .. والوقت لا يضيق بعمل إذا عرفنا طريق استغلاله والانتفاع به .

ولو أحصى الواحد منا ما يذهب من عمره هدراً فى المقاهي أو دور اللهو ، وفى الأحاديث الفارغة ، ومطالعة الصحف الجوفاء ، والمجلات المؤذية ، وقدر ما يمكن أن يعمل فى مثل هذا الوقت من جليل الأعمال ونافعها لهاله الأمر ورأى شيئاً عظيما

وانظر إلى التلميذ إذا دهمه الامتحان كيف يقرأ الكتاب فى ليال ويحفظه كله ، والموظف إذا اضطر إلى العمل ، أو الصحفى إذا كان موسم من مواسم الصحافة ، والمؤلف إذا طمع فى الجائزة الكبرى ؛ أنظر إلى هؤلاء كلهم ، وانظر إلى هؤلاء الأفراد الممتازين الذين يشتغلون بالسياسة ويبرزون فيها ، ويؤلفون فى الأدب ويبنون فيه ، ويطالعون كثيراً من الكتب ، ولا يقصرون فى حقوق أنفسهم وأهليهم ، وحقوق الناس ، تعلم أن الوقت واسع جداً ، ولكن الجاهل المهمل يضيقه على نفسه

***

ومن الأخلاق التى يجب أن نتعلمها تقدير المصلحة العامة . وإهمالنا هذه المصلحة باب آخر من أبواب الأثرة (الأنانية) منشؤه أن أكثر الحكومات التى تتالت على بلدان الشرق الإسلامى فى هذه القرون الأخيرة لم تكن من الشعب ولا إلى الشعب ، ولم تكن تحرص على مصلحته ، فزالت ثقته بها ، ونظر إليها نظره إلى عدو مقاتل ، وغدا يرى كل أذى يلحقه بها ، أو مال يستلبها إياه ، أو حق لها يضيعه ، يرى كل ذلك بطولة ونخراً ، وغدا كل واحد منا يسعى جهده ليفرّ من الخدمة العسكرية أو يحتال بحيلة تنجيه من دفع الضرائب ، أو يتوسل بوسيلة إلى اختلاس مال الخزينة . ولعل له في ذلك عذراً ، هو أن الخدمة العسكرية كانت لحماية الحكومة دون الشعب ، والضرائب لحياتها هي ؛ وكان مال الخزينة مالها ينفق على أفرادها . ولا تزال الموازنة عندنا إلى الآن مصروفاً ثلثاها على الموظفين رواتب لهم وأجوراً ، والثلث أو مادونه على المصلحة التى أنشئت من أجلها الحكومة

ونحن فى حاجة إلى التخلص من هذا المرض . نحن فى حاجة إلى الايمان بأن مصلحة الفرد فى مصلحة المجموع وأن رفعته فى رفعة الأمة ... يجب أن تسأل الأم ابنها كل ليلة : ماذا عملت لأجل الأمة ؟ بماذا خدمت اليوم الوطن ؟ هل أحسنت إلى سائل ؟ هل تبرعت بقرش لجمعية خيرية ؟ هل تعلمت مسألة نافعة ؟ هل كنت مهذباً مع رفاقك ؟ ويجب أن يسأل كل منا نفسه هذا السؤال عند ما يضع رأسه على الوسادة قبل أن يستسلم إلى النوم

***

ومن هذا الباب إطاعة القوانين واحترام النظام ، ذلك الذى لم نتعلمه بعد ولا نعرفه أبداً لأن زماناً غبر (ولم يتبدل بعد) كانت القوانين والأنظمة توضع فيه لغير مصلحتنا وتفرض علينا فرضاً فتعودنا ألا نطيعها وألا نحترمها ، ولكنا دخلنا اليوم فى طريق الاستقلال (أو كأنْ قد) وصرنا نضع قوانيننا (إلى حد ما) بأنفسنا فيجب أن يتبدل ذلك كله وأن يرسخ فى نفوسنا احترام القوانين وإطاعتها ، لا خوفاً من العقاب بل لأن إطاعتها واجبة

ومن هذا الباب أو ما هو شبيه به احترام الراحة العامة . نمتُ ليلة فى فندق كبير فى بيروت ، فنزل فى الغرفة اللاصقة بغرفتى جماعة من أكابر حلب حلّوا بعد نصف الليل فبعثوا أحدهم بحاجة لهم إلى السوق ، فلما بلغ الشارع ذكروا حاجة أخرى يأمرونه بقضائها فأطل أحدهم من شرفة الطبقة الخامسة وناداه وكله بصوت يوقظ الموتى ، فلم يبق حىّ فى الفندق إلا قام . ولما عاتبوه ولاموه لم يستطع أبداً أن يفهم أو يتصوّر أنه أتى أمراً نكراً

وانحدرت مرة من الأعظمية إلى بغداد فى سيارة عامة من هذه السيارات التى يسمونها هناك (الباص) فركب معنا جزار معه خروف مسلوخ وضعه على ركبته وألقى برقبته على ثيابى ، ورأيت الناس ينظرون إليه نظر المقرّ الموافق فاضطررت إلى النزول من غير أن أشتبك معه بقتال

وكثيراً ما نسمع رجلاً أو جماعة يمرون فى الشارع قبيل الصبح فيأخذهم الطرب فيغنون بمثل الصوت الذى ذكره ربنا فى الكتاب ، ولا يقدّرون أو يتصورون أنهم يسيئون إلى أحد

ولا يمضى على الواحد منا يوم لا يرى فيه ما يسوءه ويزعج من بصاق فى الترام أو القهى ، أو حديث فى المكتبة العامة ، أو خصومة حامية فى المسجد ، أو غير ذلك من المزعجات المنغصات التى لا يزيلها إلا عناية المدرسة بتعليم الطلاب احترام الراحة العامة ، وحث الصحف الشعب على ذلك ...

* * *

ومن الأخلاق التى يجب أن نسرع إلى تعلمها احترام الواجب والاستقامة والاصغاء إلى صوت الضمير . إن المعلم لا يتورع إذا أمره رئيس أو رجاه صديق أو ناله منفعة ، أن ينجح التلميذ الذى يستحق السقوط فى الامتحان ، وأن يزيد فى الدرجات وأن يفعل كل شىء ؛ والقاضى لا يمتنع عن تبرئة الظالم وعقاب المظلوم ؛ والوزير لا يتقاعس عن إيثار الشفاعات والوساطات على الكفايات والشهادات ؛ والطبيب لا يبالى بأن يجهض أو يأتى كل أمر يستطيعه مادام فى ذلك لذة له أو فائدة ؛ والموظفون يقبلون الرشوة والناس يعطونها ؛ ولا تكاد تجد من عرف الواجب عليه وأكبره إكباراً ، وضحى فى سبيل القيام به بكل شىء . ولا أعنى أن كل المعلمين أو القضاة أو الوزراء أو الأطباء متنكبون سبيل الشرف مضيعون للواجب ، ولكن الذى أعنيه أن بهم من هذا شأنه ، وأن احترام الواجب لم يذع فينا ولم يصبح شعاراً دائماً لنا ، وأن المدرسة والصحافة والقانون وواضعه ، كل أولئك مقصرّون لا يولون هذا الأمر ما يستحق من العناية والاهتمام فى حين أنه من الأسس الثابتة والدعائم الكبرى فى بناء الأمم

ونحن فى حاجة إلى تعلم الصدق ، لأن الكذب قد فشا فينا وعم وأصبح أسهل شىء علينا ، فنحن نكذب فى الأمور الهينة ونكذب فى الجليلة ، ونعلم أولادنا الكذب . من منا لا يقرع بابه فيقول لابنه : قل له إن أبى ليس هنا ! ومن منا يلقى رفيقاً له أو رجلاً يعرفه فيقول له : كيف حالك أو زيُّك ؟ فلا يقول له : بناية الشوق ، وهو لا يشتاقه ولا يفكر فيه ، وقد يكون مبغضاً له يرى البعد عنه غنيمة ... فمجاملاتنا وحياتنا الاجتماعية كلها قائمة على الكذب . ومن جرب أن يصدق يوماً كاملاً رأى العجائب ، وقد أدرك ذلك العامة فجاء فى أمثالهم (الصادقة) : الكذب ملح الرجال ، والعيب على الذى يصدق ...

* * *

هذا وشبهه (وما أكثر أشباهه) روح النهضة وقوامها ، فاذا لم تعتن به الحكومات والأحزاب والجمعيات والمدارس ، ومن يشتغل بالوطنية ، ويبث فى نفوس الأطفال ، ويوضع فى نظم التربية والتعليم ، كانت نهضتنا جسماً لا روح فيه !

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

على الطنطاوى
المدرس فى الكلية الشرعية بيروت

الكميت بن زيد

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

— ٥ —

وقد روى لنا أبو الفرج الأصبهاني هذه الروايات الثلاث في سبب المنافرة بين الكميت وخالد بن عبد الله ، وكان عليه أن يبين لنا وجه الصواب فيما تتعارض فيه من وجوه كثيرة ، ولكن أبا الفرج رحمه الله لم يكن يعنى في الأكثر بنقد رواياته ، وإنما كان يهمه جمعها وسردها ، وعلى القارئ بعد هذا أن يحكم رأيه فيها

فالرواية الأولى تذكر أن سبب المنافرة بينهما قصيدته التي هجا فيها اليمن :

« ألا حُيِّيتِ عنَّا يا مَدِينَا »

وقد اتفقت الرواية الثانية في هذا معها على خلاف قليل بينهما ؛ أما الرواية الثالثة فتذكر أن سبب المنافرة بينهما شعر الكميت الذي حرض فيه هشاماً على خالد ، واتهمه فيه بأنه يريد خلعه . وتفيد هذه الرواية أن قصيدة الكميت التي هجا فيها اليمن كانت بعد سجنه لا قبله ، وأنه قالها رداً على الأعور الكلبي في قصيدته التي رمى فيها امرأة الكميت بأهل الحبس ، ويقول فيها :

« أَسْوِ دِينَا واحْمِرِينَا »

والرواية الأولى تذكر أن خالداً روى الهاشميات جارية واحدة والرواية الثانية تذكر أنه رواها ثلاثين جارية

والرواية الأولى تذكر أن أبان بن الوليد البجلي عامل واسط هو الذي سعى في تهريب الكميت من السجن . وقد اتفقت الرواية الثانية في هذا معها على خلاف قليل بينهما ، أما الرواية الثالثة فتذكر أن الذي سعى في تهريبه عبد الرحمن بن عنبسة ابن سعيد

والرواية الأولى تفيد أن خالد بن عبد الله كان بالكوفة حينما أمر بسجن الكميت . وهكذا تفيد الرواية الثانية ، وإن كانت تفيد مع هذا أن خالداً قرأ على أبان بن الوليد كتاب هشام بقتل الكميت ، مع أن أبان بن الوليد كان في ذلك الوقت بواسط . أما الرواية الثالثة فتذكر أن خالداً كان بواسط حينما أمر بسجن الكميت ، وأنه كتب بسجنه إلى واليه بالكوفة

والرواية الأولى تذكر أن الكميت حينما أتى الشام مشت رجالات قريش في أمره إلى عنبسة بن سعيد بن العاص ، فمشى فيه إلى مسلمة بن هشام فأمنه وأجاز أبوه هشام أمانه ؛ أما الرواية الثانية فتذكر أنه حينما أتى الشام قصد مسلمة بن عبد الملك ، وتذكر أن مسلمة لا عنبسة هو الذي مشى فيه إلى مسلمة بن هشام ، وأن مسلمة بن هشام أجاره فلم يجز أبوه جواره ، فاحتال له بقبر أخيه معاوية وأولاده ، وقد اتفقت الرواية الثالثة معها في هذا على خلاف قليل بينهما

والرواية الأولى تذكر أن الكميت حينما عرض عليه الالتجاء إلى مسلمة بن هشام رضي به ، وقد اتفقت الرواية الثانية في ذلك معها على خلاف قليل بينهما ، أما الرواية الثالثة فتذكر أنه لم يرض بالالتجاء إليه ، وأنه قال لمسلمة بن عبد الملك حينما عرض ذلك عليه : بئس الرأي ! أضيع دمي بين صبي وامرأة ، فهل غير هذا ؟

وهذه هي أهم وجوه الخلاف بين هذه الروايات المضطربة ، وقد يكفي هذا عند بعض الناس لدفعها كلها ، وعدم الوثوق بشيء منها ، ولكن ما قيمة البحث في هذا العصر إذا كانت تقنعه هذه الغاية السهلة ، ويكفيه في مثل هذا أن يقول إني أشك في هذه الرواية ، أو نحو هذا مما لا يكلف الباحث عناء ولا تعباً ؟ وإنما قيمة البحث الحديث في تمحيصه أمثال هذه الروايات ، والاجتهاد في ترجيح بعضها على بعض ، والوصول إلى الحقيقة بالتعمق في البحث

ونحن نرجع أن الهاشميات نفسها هي التي كانت سبباً في المنافرة بين الكميت وخالد بن عبد الله ، لأنه لا يعقل أن يسكت خالد عن تبليغ أمرها إلى هشام بن عبد الملك ، وهي من الخطورة بهذا الشأن الذي أقام هشاماً وأقعده حينما بلغته . وقد كانت هذه العهود مملوءة بالوشايات والدسائس ، وكان ولاة بني مروان معرضين بهذا للنكبات الشديدة التي كانت تصيبهم منهم ، ولا يخفى أمرها على من يعرف تاريخهم . ولا شك أن هذا كان يوجب على هؤلاء الولاة أن يحتاطوا لأنفسهم في مثل هذه الأمور ، وألا

يسكتوا عن تبليغ مثـل الهاشميات إلى ملوكهم إلى أن تبلغ من غيرهم ، ويتخذ بها أعداؤهم حجة عليهم عند ملوكهم

وقد يكون حـديث الجاريات الحسان اللاتى رواهن خالد الهاشميات صحيحاً ، ويكون هذا منه تلطفاً فى الحيلة إلى تبليغها إلى هشام بن عبد الملك ، أو تخلصاً من تبعة تبليغها عند قوم الـكميت وأشياعه ، لأن حال الولاة فى مثل هذه العهود المضطربة يكون مضطرباً بين إرضاء ملوكهم وإرضاء الرعيـة الناقمة عليهم . والظاهر كما يؤخذ من بعض هـذه الروايات أن خالداً هو الذى سهل للـكميت سبيل الهرب من سجنه ، وأنه كان يسلك بذلك كله موقفاً يخرجه من هذه المشكلة . وقد أرضى هشام بن عبد الملك وجعل لنفسه بعض العذر عند أنصار الـكميت ، إذ كان يؤثر فى سياسته ملاينة الشيعة

أما المعارضة بين الـكميت والأعور الكلبى فالظاهر أنها كانت بعد سجن الـكميت ورضا هشام عنه ، كما يؤخذ من الرواية الثالثة لأنه كان يمدح فى قصيدته التى يعارضه فيها بني مروان ويفخر بهم عليه ، وقد كان قبل سجنه يطعن فيهم أشد طعن ، ويهجوهم فى هاشمياته أشد هجاء ، فلا يعقل أن يجمع فى هـذا العهد بين هجائهم ومدحهم والافتخار بهم ، وهو لم يلجأ إلى مدحهم إلا مضطراً بعد ما لقى من السجن والحكم عليه بالقتل

ومما يؤيد هذا ما رواه أبو الفرج الأصبهانى قال : أخبرنى عمى وابن عمار ، قالا حدثنا يعقوب بن اسرائيل ، قال حدثنا إبراهيم بن عبد الله الطلحى عن محمد بن سلمة بن أرتبيل : أن سبب هجاء الـكميت أهل اليمن أن شاعراً من أهل الشام يقال له حكيم بن عياش الـكلبى كان يهجو على بن أبى طالب عليه السلام وبنى هاشم جميعاً ، وكان منقطعاً إلى بنى أمية ، فانتدب له الـكميت فهجاه وسبه فأجابه ولج الهجاء بينهما ، وكان الـكميت يخاف أن يفتضح فى شعره عن على عليه السلام لما وقع بينه وبين هشام ، وكان يظهر أن هجاءه إياه فى العصبية التى بين عدنان وقحطان ، فكان ولد إسماعيل بن الصباح بن الأشعث بن قيس وولد علقمة بن وائل الحضرمى يروون شعر الـكلبى ، فهجا أهل اليمن جميعاً إلا هذين ، فإنه قال فى آل علقمة :

ولولا آلُ علقمةَ اجتدعْـنَا بقايا من أنوفٍ مُصَـلَّمينَـا

وقال فى إسماعيل :

فإن لإسماعيل حقًا وإِنَّنَـا له شاعبو الصدعِ المقاربِ للشَّـعْبِ

وكان لآل علقمة عنده يد ، لأن علقمة آواه ليلة خرج إلى الشام ، وأم إسماعيل من بنى أسد ، فكف عنهما لذلك

فهذه الرواية صريحة فى أن هذه المناقضة كانت بعد الذى وقع بين الـكميت وهشام من عفوه عنه ، فلا يصح أن تكون هى السبب فى المنافرة بين الـكميت وخالد بن عبد الله ، وما جرته هذه المنافرة من السجن ثم العفو ، بل الظاهر أن بنى مروان بعد أن وصلوا إلى إسكات الـكميت ، عن المضى فى هاشمياته أخذوا يعملون على إبطال أثرها فى النفوس ، فسلطوا الأعور الـكلبى على مناقضتها ، وهجاء على عليه السلام وبنى هاشم جميعاً

وأما ماذكر فى الرواية الثالثة من أن سبب المنافرة بين الـكميت وخالد شعر الـكميت فى تحريض هشام على خالد ، واتهامه إياه بأنه يريد خلعه — فهو أقرب إلى الصحة مما ذكر فى الرواية الأولى والثانية ، ولعل الـكميت فعل هذا سعياً فى إفساد الأمر بين بنى مروان وولاتهم ، لاحباً فى هشام وإرادة النصح له . وما نريد بعد هذا أن نمضى فى تمحيص ما تعارضت فيه تلك الروايات ، لأن ثمرة هذا التمحيص لاتوازى عناءنا فيه ، ولا تذكر بجانب الملل الذى يصير بنا إليه

وقد أخذ الـكميت بعد عفو هشام عنه يمدحه ويمدح ولاته ووجوه دولته ، ويقبل فى ذلك صلاتهم وجوائزهم ، ولـكن مدحه لهم فى نظير ذلك كان مدحاً تجارياً كسائر ما مدحوا به من شعراء عصره ، ولم يكن لغاية نبيلة كتلك الغاية التى مدح بها بنى هاشم فى هاشمياته

والحقيقة أنه لم يكن مخلصاً فى مدح بنى مروان مع ما كان يناله من دنياهم ، وإنما كان يأخذ فى ذلك بالتقية التى يأخذ بها الشيعة في مذهبهم جميعاً ، ولم يكن ذهابه إلى هشام بالشام إلا برضا أهل البيت وشيعتهم ليحقنوا بذلك دمه ، ويخلصوه ممـا كان يراد به

وإذا كان الـكميت قد أجاد في مدح بنى مروان فإنما كان ذلك منه لأنه كان شاعراً فحلاً لا يرضى أن يكون شعره فى ذلك

دون غيره ، فكان بذلك يقضي حق شعره عليه ، ولا يقضى حق بنى مروان في عطائهم وبذلهم له ، لأنه لم يكن من أولئك الشعراء الذين يمدحون للعطاء ، كما سبق ذلك فى رفضه عطاء بنى هاشم على مدحه لهم . وقد قال أبو الفرج الأصبهانى : أخبرنى محمد بن خلف بن وكيع ، قال حدثنى أبو بكر الأموى ، قال حدثنى إسماعيل بن حفص ، قال حدثنا ابن فضيل ، قال سمعت ابن شبرمة قال : قلت للكميت إنك قلت في بنى هاشم فأحسنت ، وقلت في بنى أمية أفضل ، قال : إنى إذا قلت أحببت أن أحسن . فلم يكن الكميت إذن يمدح بنى مروان عن عقيدة كما كان يمدح بنى هاشم ، ولم يكن إحسانه في مدحهم إلا لأنه إذا قال أحب أن يحسن قوله لئلا يؤخذ عليه من الناحية الشعرية ؛ ولكننا نخالف ابن شبرمة فيما ذكره من أن ما قاله فى مدح بنى مروان أفضل مما قاله في مدح بنى هاشم ، لأن أشعاره فى مدح المروانيين لا تمتاز عن سائر المدائح الجوفاء فى الشعر العربى ، ولا يصح أن تذكر بجانب الهاشميات التى سلك فيها الكميت ذلك المسلك الجديد فى المدح ، وقام بما يجب عليه لأمته من مقاومة ذلك الحكم الظالم

وهناك بعد هذا أخبار متوافرة تدل على ما ذكرناه من رضا بنى هاشم بما سلكه الكميت مع بنى مروان ، وعلى أن هذا لم يقطع صلته بهم فى السر والعلن ، وقد كانوا مع رضاهم بمسلكه معهم يحاسبونه إذا أسرف فى مدحهم ، فلا يتركهم حتى يرضيهم بصرف هذا المدح عن ظاهره ، فكان يؤوله على نحو ما يفعل بعض الباطنية من الشيعة فى تأويلاتهم

قال أبو الفرج الأصبهانى : أخبرني جعفر بن محمد بن مروان الغزالى الكوفى ، قال حدثنى أبى ، قال حدثنا أرطاة بن حبيب عن فضيل الرسان عن ورد بن زيد أخى الكميت ، قال : أرسلنى الكميت إلى أبى جعفر فقلت له : إن الكميت قد أرسلنى إليك وقد صنع بنفسه ما صنع ، فتأذن له فى مدح بنى أمية ؟ قال : نعم ، هو فى حل ، فليقل ما يشاء

وقال أيضاً : أخبرنى محمد بن خلف بن وكيع ، قال حدثنى إسحاق بن محمد بن أبان ، قال حدثنى محمد بن عبد الله بن مهران ، قال حدثنى ربعى بن عبد الله بن الجارود بن أبى سبرة عن أبيه قال : دخل الكميت بن زيد الأسدى على أبى جعفر محمد بن على عليهما السلام فقال له : يا كميت أنت القائل :

والآن صرتُ إلى أمَيَّـــةَ والأمورُ إلى المصايرْ

قال : نعم قد قلت ، ولا والله ما أردت به إلا الدنيا ، ولقد عرفت فضلكم ، قال : أما إن قلت ذلك إن التقية لتحل

وقال أيضاً : قال محمد بن أنس حدثنى المستهل بن الكميت ، قال : قلت لأبى : يا أبت إنك هجوت الكلبى فقلت :

ألا يا سلم مِنْ تِرْبِ ‌ ‌ أفى أسماء من تِرْبِ

وغمزت عليه فيها ففخرت ببنى أمية وأنت تشهد عليها بالكفر ، فألا فخرت بعلي وبنى هاشم الذين تتولاهم ، فقال : يا بنى أنت تعلم انقطاع الكلبى إلى بنى أمية وهم أعداء على عليه السلام ، فلو ذكرت علياً لترك ذكرى وأقبل على هجائه ، فأكون قد عرضت علياً له ، ولا أجد له ناصراً من بنى أمية ، ففخرت عليه ببنى أمية وقلت : إن نقضها على قتلوه ، وإن أمسك عن ذكرهم قتلته غماً وغلبة ، فكان كما قال ، أمسك الكلبى عن جوابه ، فغلب عليه وأفحم الكلبي

وإذا كان ذلك كله قد تم برضا بنى هاشم وتدبيرهم لشاعرهم فلا يمكن أن يؤخذ عليه شىء فيه ، أو يقدح به فى عقيدته وإخلاصه ، بل إن فى ضن بنى هاشم عليه بالقتل ، وإيثارهم له مواراة بنى مروان على بذل دمه فى سبيلهم — لدلالة كبيرة على عظم تقديرهم له ، وأنهم كانوا يثقون به إلى آخر حدود الثقة

عبد المتعال الصعيدى

مقدمة حضارة العرب

لغوستاف لوبون

« تتمة »

للأستاذ خليل هنداوى

والآن عرضنا من مناهج البحث ما نخاله كافياً فيما يتعلق بدرس الحوادث التاريخية ، بل سيكفي منه ذكر الأكثر ضرورة إن تصور العلة التى تهيمن اليوم على درس الأشياء العلميـة تهيمن كذلك على درس المسائل التاريخية ، والمناهج التى تتعلق بهذا تتعلق أيضاً بذلك . فإن حادثاً اجتماعياً إنمـا يجب درسه كحادث طبيعى أو كيميائى مهما ذهب أمره ، فهو خاضع لبعض مذاهب ، أو قل إنه خاضع لسلسلة مرتبة من الضرورات المحتمة . فالإنسان يعمل والقوة السامية تقوده سواء دعوت هـذه القوة الطبيعية أو العناية أو القـدر أو الحظ . ونحن منذ الولادة حتى الموت تفيض علينا قوات من الخير والشر لا نستطيع لهـا قهراً ولا غلبة . وغايتنا الكبرى هى الوصول إلى معرفة بعض أحوال وأسباب من مظاهرها

وتاريخ الإنسانية نستطيع أن نعتبره سلسلة واسعة كل أجزائها متماسكة . قد تمود أجزاؤها الأولى إلى أبعد جذور فى أرضنا . والحادث التاريخى مهما ذهب أمره هو دائماً نتيجة حلقة طويلة من الأحداث الداخلية . فما الحاضر إلا لِدة الماضى . والمـاضى يحمل الغد فى أطوائه كجنين ، وفى الحوادث الحاضرة يستطيع العقل الموهوب أن يتلو التعاقب اللانهائى للأشياء . ولـكن مثل هذا العقل يبدو أنه لن يظهر أبداً . فبينا نعمل على معرفة مجموعة العاملين الذين ولدوا الحاضر ومعرفة قوة كل واحد منهم نرى من المحال إخضاع هؤلاء العاملين للتحليل . فعلم النجوم يعجز عن أن يعين بواسطة الحساب الهدف الذي يرمى إليه جسم يخضع لثلاثة أجسام فقط ، فكيف والحالة هـذه فى مسألة تضم ملايين الأجسام ؟

إن كل الشرائع الوهمية التى يخال أنها تؤخذ من دراسة التاريخ ماهي فى الحقيقة إلا تثبيت امتحانى لبعض الأعمال . وبها يمكننا أن نقارنها مع الملحوظات الامتحانية التى يقوم بهـا أصحاب علم تقويم البلدان

هنالك مليون من الناس يستطيعون أن يتنبأوا بكل يقين عمن يموت منهم فى عهد ما وفى عهد آخر ، وعما ينشأ فيهم من جنايات لأن تجاريب الماضى تسهل لهم هذه التنبآت . إن الصعود إلى أسباب الأعمال الملحوظة مستحيل أبداً ، والعاملون الجازمون هم عدد كثير ، واستمالة الصعود بعيداً فى سلسلة الأسباب التى تعين أو تحدد حادثاً اجتماعياً قد ألقت شيئاً من الـكره لعلم التاريخ فى نفوس العلماء الذين حاولوا التعمق فيه . وهنالك عالم نبيه هو « رينان » نعت علم التاريخ بأنه علم حقير وهمى ، لا يكاد يُرفع حتى يتقوض بدون نهاية ، ولا يُشيَّـد حتى يتهـدم ؛ وهو أحد الأشياء المهملة بعد مئة عام . على أنه سيأتى دور فى حياة الإنسان نراه لا يتعلق بماضيه لمصلحة ما . وإنى لأخشى جداً أن كتابة كتابنا فى المجتمع الأدبى والفنى الذين صحوا ووضحوا بعض الآثار التاريخية أن يبلوا قبل أن يُبـلَوا »

والـكاتب نفسه يفكر فى أن المستقبل سيكون للعلوم الطبيعية لأنها هى العلوم التى ستعطينا سر الوجود والعالم والإله كما ينبغى أن يُعطى هذا السر . لـكل إنسان حق التأمل فى هذا ، ولـكن شيئاً واحداً حتى الآن لم يحقق أملاً من آمالهم ، ولا فكرة من أفكارهم . وهاهى ذى العلوم الوضعية لم تعطنا شيئاً عن العلة الأولى لحادث واحد ، وهى لا تـكتشف إلا بساطة العلاقات التي تؤلف قواها الظاهرة ، حتى إذا اصطدمت بحوادث مركبة رأيتها تتلاشى وتضل فى الظنون والأحداس . إن العلوم الحديثـة قد بدأت بصورة ضعيفة أن تتمّم (من التمتمة) فى الجواب عن أسئلة يضعها الإنسان كل يوم . فمن المهـد إلى اللحد تفرس الطبيعة طريقنا بمسائل لا تقبل الحل . ورغبتنا فى المعرفة ، هـذه الرغبة المتأججة لا ينطفئ أوارها أبداً . العلم يستدعى أفكاراً ولـكنه لا يحل مسائل . وكرتنا الأرضية ستعانق فى الفضاء العوالم القديمة الباردة قبل أن يجيب أبو الهول الخالد على سؤال واحد

يجب علينا ألا نقف على باب العلوم مغررين بأنفسنا ، طالبين إليها أن تعطينا مالا تقدر عليه . إنها تقدر أن تعطينا ما نتبين به حالة إنسان أو حيوان أو مجتمع أو نبات ، وما نضم به صورة أمينة لدراسة عصر ما . ومانبين به سلسلة من أمهات الحوادث

التاريخية . وحذار أن نطلب أكثر من هذا إلى المؤرخ

على أن العمل مع هذا هو من العسر بمكان لما يقتضيه من الاعتناء . فالمواد التي تسمح لمؤرخ أن يضم منها صورة لحضارة ما يعسر عليه جمع أطرافها . والأعسر من ذلك أن يخرج بها إلى حيز العمل . إذ ليس فى تسلسل ذرارى الملوك ، ولا فى قصص المعارك والحروب التى تشكل لب التاريخ الدرسى نستطيع أن نبحث عن تلك المواد . وإنما نجدها فى درس اللغات والفنون والآداب والمعتقدات والتعاليم السياسية والاجتماعية لكل عصر من العصور . وأما المواد الغريبة لحضارة ما فلا يمكننا أن نعتبرها نتيجة هوى الناس أو القدر أو إرادة الآلهة ، ولكنها وليدة الحاجة والفكر والعاطفة فى الذرارى التى تجلت فيها ، فإن ديناً ما وفلسفة ما وأدباً ما وفناً ما قد يحتوى على أشكال ثابتة من الشعور والتفكير ولا يحتوى على غيرها . ومما لا جدال فيه أن الأعمال والآثار تتلو علينا أفكار أصحابها . إنها تقرأ علينا أفكارهم وتسمح لنا بأن نؤلف صورة ذلك العصر . ولكن هذه الصورة تبقى ناقصة فيجب علينا أن نوضح تركيبها ، لأن الشعب الذى يُدرس فى لحظة معينة لم يتكون فى وثبة واحدة . وإنما هو وليد ماض طويل بعيد ، ووليد مؤثرات مختلفة للبيئة التى نشأ فيها وخضع لها ، ولذلك وجب علينا أن نرجع إلى ماضى ذلك الشعب حتى يمكننا تحليل وضعه الحاضر . وبالإمكان أن ندعو دراسة هذا التكوين القائم من مواد مختلفة متنوعة يتألف منها المجتمع بعلم الجنين . وهذه الدراسة تغدو قاعدة راسخة للمؤرخ فى عمله ، كما هو الحال فى أن علم تشكل الكائنات الحية أصبح اليوم أمتن قاعدة وأصدق مرجع لعلماء طبقات الأرض

كائنات حية ومجتمعات يجب أن تمر بتطور بطىء يبدل مظاهرها الخارجية قبل أن تصل إلى حالات الكمال ، وهذه المظاهر المختفية لا يوحيها علينا التاريخ دائماً . فكم من حدود لهذه المظاهر قد توارت حالياً ! وإنما الملاحظة وحدها تسمح لنا بأن نستدعى الحدود الضرورية ؛ وكالكائنات الحية نرى أن كل المجتمعات لم تبلغ بذات الأجيال انقلابها ، وأنت ترى أن كثيراً منها لم يجتز بعد هذه المراحل التى انتهى العرب من اجتيازها ، هذه المراحل التى تمثل صورة الماضى الثابتة . وقد يستطيع السائح فى أرجاء الأرض أن يرى المجارى الرئيسية أو المراحل الأساسية لتاريخ الانسانية منذ العهد الحجرى حتى العهد الحاضر

وبهذا يمكننا أن نتوصل إلى تمثيل ماضى شعب ما ، وتمثيل تطور المواد التى تألفت منها حضارتها

هنالك مواد مختلفة : منها العمارة والأدب واللغة والتعليم والاعتقاد نستطيع أن نستفيد منها فى بناء تاريخ الحضارة وتكوينها ، ولكن من النادر أن نملك عليها جميعها . وفى مثل هذه الحالة نجتزىء بما نقدر أن نجمعه منها لنجد المفقود ! وذات النظرية التى تسمح لنا بأن نعرف حيواناً ما بمجرد اطلاعنا على قطع من هيكله العظمى هى النظرية التى يجب أن نفرضها فى التاريخ ، إذ أن مظهر بعض الصفات يستلزم دائماً وجود صفات أخرى

على أن كل هذه المواد التى نحددها قد تكون ناقصة فى بعض الحالات بالنظر إلى الوضوح ، فالعلم الحديث سيترك مواد أكثر صحة ودقة للجيل القادم . وقد يسهل التنبؤ بأن مؤرخى المستقبل سيكتبون كتباً فى التاريخ تختلف عن كتبنا فيه ، ففى تاريخ حضارة القرن العشرين سيكون الموضوع خاضعاً بدون ريب لعنوان الأثر مرفقاً برسوم وخرائط وخطوط نافرة تمثل كل أطوار الحوادث الاجتماعية ، وأن عظمة ما ، وقوة ما ، وبقاء ما ووزناً ما نستطيع أن نستشفه خلال خط مرسوم أو سطر مرقوم

وليس هنالك حادث نفسى أو اجتماعى مهما كان مركباً يفترض بأنه لا يمكن اعتباره كقيمة رياضية يمكن حلها عددياً ، وإنما يكفى أن نجد له فى مواده الضرورية مقياساً ، فان علم تقويم البلدان هو أقل العلوم الحديثة تقدماً فى طريق التكوين . والذى علمنا إياه هذا العلم يسمح لنا بأن نستكشف ما سوف يعلمنا إياه فى المستقبل . فانتاج بلد وانفاقه وغناه وحوائجه والقابلية الخَلقية والخُلقية للذرية التى تقطنه ، واختلاف عواطفها ومعتقداتها وتأثير القائمين عليها ، كلها أشياء قد جلاها لنا المقومون بأعداد يجمعونها اليوم

ونحن نرقب هذا الجيل القادم الذى تتبدل فيه الشاحنات التاريخية بصور وخرائط ومعارج هندسية تمثل حالة كل الحوادث الاجتماعية وأطوارها المتبدلة ، وإنما يجب الجهد الكثير فى انتقاء الصور الأكثر وضوحاً من الصور التى تركها لنا الماضى ، ومن هذه المواد التى أحصيناها نمسك المواد الضرورية التى تقدم لنا صورة واضحة شاملة للحضارات الغابرة وتاريخ تكونها ، ولكى نستطيع أن نخرج هذه المواد إلى حيز العمل وجب علينا أن ندرس هذه البقيات التى تركتها هذه الحضارات في مواطنها

فإن مشهد الأشياء وحده يمكن أن يعطينا من ماضى ذلك النبيء مالا يمكن أثر آغيره أن يعطيه . والعلوم الطبيعية والاجتماعية لا يمكن أن يتعلمها الإنسان مجردة فى الكتب ، ولا سيما إذا كانت المسألة الشعبية كمسألة العرب الذين تعددت آثارهم فى البلدان التى ازدهرت فيها حضارتهم وشعت مدنيتهم . فعند ذلك يجب أن تدرس بيئتهم درساً لازماً لامندوحة عنه . وليس هناك إلا الرحلات والأسفار تنقذنا من نير الآراء المصنوعة والأوهام الثقيلة الموروثة . وسيجد القارئ الأصول التى طبقناها هنا بصورة موجزة . وهذه الأصول ستقود القارئ إلى أن يتجرد من الآراء المدرسية فى أكثر المسائل التى تمس الشرقيين من ديانة محمد صلى الله عليه وسلم والرق والحروب الصليبية والعلوم والمعارف والفنون وأثر العرب فى أوربا وغير ذلك ...

— ٣ —

على أن البقايا التى تخلفت من حضارة العرب هى بقايا كثيرة العدد ، كافية لأن ندرسها بأجزائها الضرورية . إننا سنأخذ أكثرها من الآثار الفنية والأدبية والعلمية والصناعية والاعتقادية ؛ ومن بين هذه الآثار كلها ستكون أكثر استيحاء من الآثار التصويرية ، فهى بشكلها الملوس تكلم عقولنا بوضوح . فيها نجد التعبير الصادق عن الحاجات والعواطف والأجيال التى ولدت فيها ، وفيها نحس أثر الذرية والبيئة إحساساً جلياً . ففى آثار عصر ما مهما كان نوع منتجاته يستطاع استقراء ذلك العصر استقراء تاماً . فقافلة فى العصر الحجرى ، وهيكل مصرى ، ومسجد أو كنيسة ، وملجأ قطر ، ومخدع غانيـة ، وحسام ذو قبضتين ، ومدفع ثقيل الوزن ، فى كل هذا ماهو أفصح بياناً من المناقشات . ولوصف الآثار الفنية للشعب يوجد طريقة واحدة هى تقديمها ؛ فإن صور (البارتنون) والحمراء وڤينوس فى نظرنا أفضل من مجموعة كتب يكتبها كل مؤلفى العالم عليها . ولاعتقادنا بأهمية هذه الصور التى تنقل إلى العقل الصورة الكاملة للعصر الذى قامت فيه عمدنا إلى أن نلتقط هذه المنتجات ؛ والقارئ الذى يلتفت فقط إلى الصور المرسومة فى هذا الكتاب قد يكون أكثر علماً بحضارة العرب وأطوارها التى تحملتها فى أقطار مختلفة من قارئ قصر اطلاعه على مطالعة الكتب التى تبحث عنها ، وإن وضع الآثار تحت العيون يغنى فى الوقت ذاته عن الأوصاف المسهبة التى لا تعطى أية فكرة عن الأشياء التى تزعم أنها تصفها

وقد يقال بحق : إن مائة صفحة مكتوبة لا تساوى صورة تامة بل قل — ولا غلو — ولا مائة كتاب

عند ما نعمل على تحديد الأشكال نجد أن الكلمات فى أية لغة غير كافية . ولا سيما إذا كان الموضوع يمس الشرق حيث تكون الصور ضرورية . هنالك بالعيون وحدها تمكن معرفة مناظره ومعابده وآثاره الفنية والذرارى المختلفة التى تولت أمره ؛ والأسلوب الغنى بتصويره لن يعطى أبداً ذلك التأثير الذى يعطيه مشهد الأشياء من حيث صورتها الأمينة

ولكن هذه الآثار وهذه المشاهد والأعمال الفنية وأشكال الذريات وفصول الحياة إنما ينبغى أن يذهب الإنسان بعيداً فى درسها ، وإذا أراد درسها بأمانة فان الصورة وحدها تستطيع أن تعطيها ، ومن الصورة تأخذ الصورة الأمينة . وإن أياماً تمدها أيام لا تسمح للفنان الماهر مهما ذهب بأن يبلغ الاتقان الذى تحققه الصورة فى ثوان معدودة

إذا أريد الاختصاص فقط بتمثيل العمارات فإن فناناً ماهراً يكون له الزمن مادة لا قيمة لها قد يصل إلى أن يتنازع مع الصورة ولكن إزاء ألوف الفصول من الحياة الشاملة التى تؤلف جزءاً كبيراً من وجود الشعب لا يمكن أن يثار نزاع حولها . فالصورة الحقيقية هى وحدها القادرة على تصوير الأشياء فى حركاتها بأمانة من شارع حى ومن جواد يعدو خبباً ، ومن موكب عرس وغير ذلك . ومن عهد قريب شاعت مذاهب جديدة تدعوا إلى السياحة والرحلات وقد نفذت هذه المذاهب للمرة الأولى فى هذا الأثر .

وقد لعب الرسم دوره فى كل شىء وعمل على أن يظهر بأمانة من عمارة ، ومن أكوان ، فالصورة الشمسية يجب أن تحل محله الآن ، والصورة فى كتب العلم والتاريخ والأسفار تكون الوسيلة الوحيدة ، ولقد تكون شاقة فى الأسفار النائية ، ولكنها ضرورية لكل مسافر ولكل عالم

فإذا كانت الصورة العامة بما تضمنت من عوامل تعطى القارئ صورة واضحة عن الزمان الذى قامت فيه فالغاية إذن أصبحت محققة والهدف المنشود موجوداً

« إنتهت المقدمة »

خليل هنداوى

***

سننشر بعض فصول من الكتاب تدل على إيمان الرجل بحضارة العرب والعمل على إبرازها بإيمانه القوى وبيانه الساطع

قبرة شيلي

للأديب نظمى خليل

نقل الأستاذ خليل هنداوى إلى قراء الرسالة في العدد ٢٣٥ قصيدة القبرة للشاعر شيلى نقلا مختصراً فآثرت أن أنقلها على نصها الكامل

سلام عليك أيها الروح الخفيف !

سلام عليك أيها الطائر الذى لم تلامس الأرض ، ولكنك تحلق فى أطباق السماء العامرة بينابيع الفن الأصيل حيث تنسكب فى قلبك !

تشيل من الأرض وتسمو عالياً وعالياً كسحابة من نار وترفرف بجناحيك فى طبقات الجو الصافى . ثم تشدو وأنت تحلق وتحلق وأنت تشدو !

فى الأنوار الذهبية للشمس الغارقة فى بحار السحب تطير وتسبح ... !

أيها الطائر . إنك وإن كنت بعيداً عن أنظارنا ، ولكني أسمع أنشودة سرورك ...!

تملأ الأرض والجو بصوتك إذا ما خلع الليل رداء السحب وسقطت أشعة القمر الباردة فغمرت الكون ...!

أما أنت ، فلن ندركك . فما الذى يشبهك ...؟

إن قطرات المياه التى تسحها السحب لا تبهجنا كتلك القطرات الموسيقية التى تهبط من لدنك !

إنك شاعر مختبيء فى ضوء الفكر يترنم بأناشيد الخلود حتى يتنبه له العالم فيحنو على الآمال ولا يعبأ بالمخاوف

أو كعذراء كريمة الأصل فى قصرها الحصين قد اختلست ساعة تسرى عن نفسها جوى الحب بموسيقاها العذبة التى تغمر خميلتها ...!

أو كحشرة ذهبية وهاجة في أرض ندية ترسل لونها الشفاف فى صمت وخفاء بين الأزهار والحشائش التي تحجبها عن الأنظار !

أو كوردة مستترة فى أوراقها الخضراء تفتحت أكمامها بريح ساخنة ففاح شذا عرفها القوى الجذاب ... !

إن صوت قطرات الربيع على الحشائش النضرة كان مبهجاً عذباً ، ولكنها دون موسيقاك ... !

خبرنى أيها الخيال أو العصفور أي أفكار سامية أفكارك ؟

إن لغتك أسمى من لغة الحب وحميا الكأس !

أهو نشيد مرتعين ، أم أغنية نصر قد باركتك . فلم تكن إلا ادعاء كاذباً ... !

من أى الينابيع تستقى سعادتك ... أمن الحقول ، أم من الأمواج ، أم من الجبال ، أم من الأجواء ، أم من السهول .. ؟

إن سرورك العميق الصافى لن يفتر أو يقل .. !

شبح الكدر لن يحوم حولك .. !

إنك تحب . ولكنك لم تعرف ثمالة الحب المحزنة

تفكر فى الموت يقظان ونائماً . وفى أشياء أسمى وأصدق مما نحلم به نحن الفانين وإلا فكيف استطعت التحليق فى هذا الجو البللورى

أما نحن ، فإننا ننظر أمامنا وخلفنا . ونذوب أسى للشيء الغامض الخفى ويشوب سرورنا بعض الألم .. !

إن أعذب أناشيدنا ما كانت تفصح عن أحزن الأفكار لو استطعنا أن نزدرى البغضاء بالكبرياء والخوف . بل لو خلقنا لا نذرف دمعة واحدة لما عرفنا سر اقترابنا من فرحك دائماً !

أيها المزدري الأرض ، إن مهارتك كانت أجدى على الشاعر من ضروب الأصوات السارة ، ومن جمع الكنوز التي تحتويها بطون الكتب !

هبنى نصف الفرح الذى حواه فؤادك .. !

لقد خرج هذا الحنق الموسيقى من شفتى .. !

وعلى العالم أن يصغى كما أصغى أنا الآن .. !

نظمى خليل

أناشيد صوفية

جيتـــانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٦٤ —

أى شراب مقدس تريد أن ترشف — يا إلهى — من كأس حياتى المترعة ؟

يا شاعرى ، أفيلذّك أن ترقب خلقك من خلال عينىّ ، وأن تقف عند أذنىّ صامتاً تتسمع لحنك الخالد ؟

إن دنياك عبارات تضطرب فى خيالى ، وإن مرحك يبعث فيها النغم الوسيق . لقد نزلت لى عن نفسك فى رضا لتستشعر حلاوة كمالك فىّ

— ٦٥ —

تلك التى تستقر دائماً فى أعماق حياتى ، فى تباشير الصباح اللامعة المضيئة ، تلك التى ماترفع النقاب عن وجهها أبداً فى ضوء النهار ، تلك — يا إلهى — هى هديتى أزفها إليك ملففة فى لحنى الأخير

لقد تساقطت حولها عبارات الاستعطاف كليلة ؛ ورحت أستميلها عبثاً بكلمات فيها الشوق والحنين

إننى أضطرب فى أنحاء الأرض وهى ماتنفك فى زاوية من قلبى ، ومن حولها يشب ويخبو غالى حياتى وغثها

وهى قد سيطرت على خواطرى وأفعالى ، على غفوتى وأحلامى ؛ غير أنها سكنت وحيدة وفى منأى عنى

كم من إنسان طرق بابى يسأل عنها ثم ارتد فى يأس

ليس فى العالم من توضحها وهى ماتبرح فى خلوتها تنتظرك

— ٦٦ —

إنك أنت السماء وأنت العش فى وقت معاً

ياذا الجمال ، إن الذى فى العش هو حبك الذى يغمر الروح باللون والصوت والأريج

إن الصبح يسفر وفى يمناه سلته الذهبية وقد امتلأت بالزهور الجميلة يكلل بها وجه الأرض

والليل يسدل أستاره على المروج المحلة وما فيها سوى أعشاب تعافها الأنعام ، وعلى الطرقات الموحشة ، وبين يديه جرته الذهبية وفيها رشفات باردة من الأمان ، أتى بها من المحيط الغربى السّاجى

ولكن هناك ... هناك حيث تمتد السماء إلى اللانّهاية فتجد الروح مكاناً فسيحاً ترفرف فيه ، يتألق دائماً النور الأبيض فلا نهار ولا ليل ، ولا شبح ولا لون ، ولا ... ولا حديث

— ٦٧ —

إن شعاع شمسك ينطلق إلى أرضى ممتد الزراعين ، فيقف بإزاء بابى طيلة اليوم ليرتد إليك وبين يديه معانى عبراتى وأنّاتى وأغاريدى

فى لذة النشوة لففت صدرك المرصع بالنجوم فى ملاءة من السحب الندية استحالت إلى أشكال وطيّات ثم بهرجتها بأصباغ ماتزال تتغير

إنها براقة متقلبة ، رقيقة دامعة ومظلمة ، لذلك أنت تتعشقها أيها الطاهر النقى ، وهذا هو السبب فى أنك تخيّرتها لتغطى على ضوئك الساطع المهيب بظلها الرفيق

— ٦٨ —

إن تيار الحياة الذى يتدفق فى عروقى صباح مساء هو الذى يتحدر فى أنحاء العالم فيهتز على نغم لحن جميل

وهو الحياة التى تخترق الأرض مرحة فى نبات لا عداد له ثم تتفجر عن موج مضطرب من الأوراق والأزهار

وهو الحياة التى تُهدهد فى مهد محيط الحياة والموت ، بين المد والجزر

إننى أستشعر الجلال فى أطرافى من أثر لمسات دنيا الحياة ؛ وكأن كبريائى وهي أثر خلجات الحياة فى العصور الماضية ، كأنها تضطرب فى عروقى هذه الساعة

— ٦٩ —

أفلا يلذّك أن تطرب لهذا اللحن الحلو ، وأن تتقاذفك نشوته المروعة فتغمرك وتحطمك ؟

إن كل الأشياء تندفع فى طريقها فلا تستأنى ولا تعقب ، وما من قوة تستطيع أن توقف تيارها وهى تندفع فى طريقها إلى الأمام

كن بازاء هذه الأشياء فى مَيمة حُضرها : الموسيقا السريعة والأيام وهى تقبل لترقص حيناً ثم تدبر ... إن الألوان والألحان والأريج تتدفق جيماً فى المجرى اللانهائى فى نشوة الطرب ... الطرب الذى يتناثر ويتضعضع ويفنى فى كل حين

— ٧٠ —

لأن أعزز نفسى وأبعثها فى جميع النواحى ، فاني أنشر على ضيائك أستاراً من الظل ذات ألوان ، لأن نفسى كأنها هي فتاتك (مايا)[١]

لقد أسدلت دونك حجاباً ثم أعلنت عن ذاتك في فنون كثيرة ، ولكن هذا الانفصال الذاتي حل فى جسمى أنا

وتردد صدى اللحن العنيف فى أضعاف السماء فى أشكال مختلفة من الدمع والابتسام من اليأس والأمل ؛ والموج يعلو ويهبط ، والأحلام تتبدد وتتجمع ، ولكن فىّ بعض نفسك

وعلى الستر الذى أقمتَ رسوم كثيرة صوّرتها ريشة الليـل والنهار ؛ ومن ورائها عرشك وقد نسج فى منحنيات غامضـة أخـاذة ليس فيها الخطوط المستقيمة القفرة

إن المهرجان العظيم ... مهرجانك وإياى قد هزّ آفاق السماء واضطربت نغماتك وإياى فى أرجاء الهواء ، وانطلقت تفتش عنك وعنى كل الأجيال الماضية

— ٧١ —

إنه هو ... هو الباطن ، الذى أيقظ الحياة فى نفسى بلمساته الخفية العميقة

إنه هو الذي نفث من سحره فى هاتين العينين ، ووقّع فى سرور على أوتار قلبي لحن الطرب والألم فى وقت معاً

إنه هو الذى نسج خيوط (مايا) فى أصباغ حائلة من الذهب والفضـة ... أصباغ زرقاء وخضراء ؛ ومن بين ثناياها أطلّت قدمه ، وبلمسة من لمسلتها ذهلت عن نفسى

إن الأيام تطلع علينا ثم تنطوى ، وهو هو الذى يحرك قلبى فى فنون كثيرة ، وأساليب مختلفة ، وخفقات من الفرح والألم

كامل محمود حبيب

(١) مايا : هى فى الدين الهندي فتاة وهمية سماوية تمثل إرادة الخالق النشطة

الحضـــارة المصرية
في عهد الدولة القديمة

بحث للعلامة الأثرى اريك بيت

للأستاذ أحمد نجيب هاشم

« تتمـــة »

ولما كان الكهنة هم أكثر الناس علماً كان منهم الموظفون المسئولون عن الفيضان وعمل الترتيبات اللازمة له فكان بمعابدهم مقاييس لمعرفة زيادة النيل، وكانت بسيطة التكوين، كل منها بئر حلزونية أو مربعة الشكل توجد على مقربة من النهر ومتصلة به فكل ارتفاع أو انخفاض فى النهر يصحبه بطبيعة الحال المثل في البئر، وبالبئر أرقام تقيد هذا الارتفاع أو الانخفاض، وبها درجات يستطيع المرء أن ينزل عليها كي يقرأ مستوى المياه الذى وصلت إليه يوماً بعد يوم فيعرف مقدار الزيادة، ولما كان الفيضان يبدأ غالباً حوالى الوقت نفسه كل عام سهل على الكهنة ملاحظة هذه العملية وتدوين أرقامها، وبموازنتها بالأرقام التى قيدوها في السنوات السابقة أمكنهم أن يعرفوا حالة الفيضان المقبل إن كان مرتفعاً أو منخفضاً بالنسبة لسابقه، وبذا كان فى استطاعتهم أن يحددوا الوقت الذي تفتح فيه الجسور كى تغمر المياه الأرض كلها فإن كان الفيضان مرتفعاً جداً أرسلوا تحذيراً إلى الناس كى يقيموا السدود، وكانت الحكومة فى هذه الساعة تسخر كل الناس فى هذه العملية، وكان للفيضان أثر آخر، ذلك أن مياهه بعد أن تغمر الأرض مدة ستة أو سبعة أسابيع كانت تمحو الحدود التى بين أرض الفلاح وزميله أو تغطيها بالطمى، فعمد المصريون إلى مسح الأرض كى يعرف كل فرد مساحة أرضه بالضبط، وبذلك بدأوا علم الهندسة إذ وجدوا في مسح الأرض أضبط مقياس وأنه أفضل من وضع أحجار على الحدود، ولا تزال مشكلة ضبط الحدود موجودة فى مصر، فالنيل فى أثناء الفيضان يزيد مساحة الأرض الواقعة على حدود الصحراء، ولذا يحاول الفلاحون هناك الانتفاع بهذه الزيادة التى تسمى بطرح البحر بضم جزء منها إلى أملاكهم القليلة، وقد لا تبلغ هــذه الزيادة ثلاثين أو ستين سنتيمتراً كل عام ولكنها تزداد على مر السنين، ولذلك يهتم مفتشو الحكومة بحراستها كما كان يفعل زملاؤهم منذ آلاف السنين

الفنون

الحفر والرسم : رأينا نواة التقـدم الفنى فى العهد السابق للأسرات إذ وصل الحفر البارز درجة عالية كما تدل على ذلك مقابض السكاكين العادية والألواح الأردوازية والتماثيل التى وجدت فى « قفط » كذلك يرينا لوح « نارمر » الذى يرجع إلى أول الأسرة الأولى كثيراً من قواعد الرسم التى استعملت فيما بعد في الفن المصرى، فالرسوم الدقيقة القليلة البروز كانت مناسبة لمملكة تسطع فيها الشمس ويشتد الظل، وقدر للحفر نجاح عظيم فى تاريخ مصر، وليس فى وسعنا أن نتتبع هذا التطور فى الأسرات الثلاث الأولى لقلة الأمثلة وبعد بعضها عن بعض، ولو أن لوح قبر الملك «زت» وقطعاً صغيرة كثيرة من مقابر الملوك فى « أبيدوس » تدل على تقـدم مضطرد فى الأسرتين الأوليين لا سيما من حيث القدرة الفنية وحسن استعمال المواد، ثم تصل هذه الأمثلة فجأة إلى أجمل مقابر الأسرتين الخامسة والسادسة كمقبرة « تى » فى سقارة فهناك نرى الفن المصرى فى أوج عظمته وتنتقل العين بين الرسوم انتقالا سهلا، وهذه هى ميزة الفن في هذه الفترة، ولكن نلاحظ أن قواعد المنظور تكاد تكون معدومة فى رسوم هذا العصر ونقوشه، فاذا أريد رسم شيء فوق آخر فما على الفنان سوى أن يضعه فوقه، كذلك كان يرسم الانسان عادة جانبياً، ولكن مع ذلك نشاهد كتفيه كأنما ينظر إليها من الأمام، وعلى هـذه الطريقة استمر المصريون يرسمون نقوشهم طول عهد المملكة القديمة وبالرغم من هذه الغلطات فان النقوش البارزة على الألواح الخشبية التى عثر عليها فى مقبرة حى من الأسرة الثالثة تعد من أجمل القطع الفنية فى العالم، فهي تمتاز بما تبعثه فى النفس من أفكار لا نهاية لها

النحت : وقد سار النحت جنباً إلى جنب مع الرسوم البارزة، فأخرجت مصر من الأسرة الرابعة إلى السادسة أكبر مقـدار أخرجته من التماثيل فى تاريخها بعد ذلك . وكان الدافع إلى عمل التماثيل دينياً أكثر منه فنياً إذ اعتقد المصريون أن الشخص بعد

موته يعيش فى مقبرته عيشة لا تختلف كثيراً عن حياته فى الدنيا فاهتموا بتحنيط جثته مخافة أن يلحق هذه الومياء العطب ورأوا ضرورة وجود التمثال حتى تحل فيه الروح ، وإلى هذا الاعتقاد الغريب يرجع الفضل فى وجود كثير من أجمل التماثيل فى العالم وقد وضع المصريون بعض التماثيل من الخشب ومن الحجر ، والقليل منها من الجرانيت والصوان ، وصنعوا كثيراً من التماثيل من حجر الجير الملون ، ومن أهم تماثيلهم تمثال « خفرع » المصنوع من الصوان وتمثال « شيخ البلد » « والكاتب الجالس القرفصاء » المحفوظ باللاوفر « وتمثال نفرت مع الأمير راع حوتب الذى وجد بميدوم وهو محفوظ الآن بالمتحف المصرى »

العمارة

بدأ ظهور فن العمارة فى مصر منذ أخذ إنسان ماقبل الأسرات يبطن جدران مقبرته بقوالب من طمى النيل المجفف فى الشمس ، ولعله استعمل هذه القوالب فى بناء بيته الساذج الأول ولا يبدأ أهم دور فى تطور العمارة فى مصر إلا ببدء العصر التاريخى إذ استعمل الحجر لأول مرة فى البناء فى عصر الأسرة الأولى فبنيت أرضية مقبرة الملك « دن » بأبيدوس من حجر الجرانيت وهذا أقدم مثل معروف لنا ، وبعد أن تنقضى أسرة كاملة نجد فى مقبرة « خاسخموى » أول ملوك الأسرة الثالثة حجرة بأكملها مبطنة بالحجر الجيرى

ولا بد أن فن البناء تقدم بخطى حثيثة فى الأسرتين الأولى والثانية ، وتدل الحفريات الحديثة فى سقارة على أنه وصل إلى درجة عالية أيام الأسرة الثالثة ، ولذا يعتبر العلماء أن هذا التقدم هو نهاية لا بداية عصر معمارى عظيم فقد عثر هناك على أعمدة من الطراز الدورى Doric وكانت النماذج الوحيدة المعروفة لهذا الطراز هى تلك التى عثر عليها فى مقابر الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة فى بنى حسن ، أى بعد النماذج السابقة بحوالى ٩٠٠ سنة

ويلى آثار سقارة من حيث الترتيب الزمنى معابد أهرام الدولة القديمة ومعابد الشمس فى أبى صير ، وإذ كانت عمارة هذا العصر معروفة لنا من المبانى الجنائزية فعلينا أن نبحث أولا تطور بناء المقبرة عند أولئك المصريين الأول

أخذت المقبرة فى أواخر عهد ما قبل الأسرات تتطور فى إحدى طريقين منفصلين وهما المقبرة ذات الدرجات والمقبرة التى فى شكل حفرة ولكل منهما تطور طويل فى عهد الدولة القديمة

تكوّن كل قبر مصرى من جزئين رئيسيين : اللحد وهو تحت الأرض وتدفن الجثة فيه ثم مكان المطايا وهو فوق الأرض ويضع فيه أقارب الميت الهبات اليومية من طعام وشراب وغير ذلك مما يحتاجه كي يواصل حياته فى القبر ، ويحتمل أن بعض المقابر الأولى كانت خلواً من هذا الجزء أو لعله اقتصر على كوم من الرمل أو الحصى ، وسواء هذا أو ذاك فقد تطور هذا الجزء منذ عهد الأسرة الأولى إلى شكل مصطبة ذات جوانب مائلة فى أحدها كوة صماء لوضع العطايا تجاهها

وبتولى الأسرة الرابعة الحكم كانت هذه المبانى البسيطة قد تطورت إلى تلك المصاطب الحجرية الهائلة التي بناها الأشراف لأنفسهم حول أهرام ملوكهم ، ويقع اللحد تحت المصطبة الأولى نفسها وبداخل المصطبة حجرات لوضع العطايا من أكل وشراب

اختلف هذا النظام اختلافاً بسيطاً فى الهرم ، أجل كان الملك يدفن فى حجرة تحت الأرض منحوتة في الصخر ويعلوها هرم كان كالمصطبة تذكاراً ظاهراً فوق القبر إلا أن الهرم لم يكن بداخله حجرات العطايا بل بنيت هذه فى الجهة الشرقية منه ونظراً لكثرتها فقد أطلق عليها اسم معبد الأهرام ؛ فان كان الهرم هو تطور المصطبة كما يقول البعض فما المعبد إلا تطور الكوة الصماء التى كانت توضع العطايا تجاهها

ولما كان الهرم ومعبده قائمين على هضبة مرتفعة عن مستوى الحقول المحيطة بهما بنحو ١٠٠ قدم فقد بنى صاحبه طريقاً منحدراً مرصوفاً كي يسهل الوصول من الوادى إلى المعبد وبنى في أسفل هذا الطريق معبداً صغيراً سمى بمعبد الوادى ، ويقول البعض إن زيارة المعبد الرئيسى كانت قاصرة على أقارب فرعون ورجال بلاطه وإن معبد الوادى كان لزيارة عامة الشعب

ويرى فريق آخر أن معبد الوادى لم يكن سوى مكان يتطهر فيه الزائر قبل أن يصل إلى المعبد الرئيسى ، وما المعبد المعروف بمعبد أبى الهول إلا معبد الوادى لهرم « خفرع » وقد

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٣٢٦ — لا تجعل قلبك مثل السفنجة

في (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة) لابن قيم الجوزية : قال لي شيخ الإسلام [(١)] (رضي الله عنه) — وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد — : (لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها ، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة [(٢)] تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها ، فيراها بصفائه ، ويدفعها بصلابته . وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليك صار مقراً للشبهات)

فما أعلم أني انتفعت بوصية كانتفاعي بذلك

(١) ابن تيمية (٢) مسدودة ، مغلقة

٣٢٧ — يزيدهم حرصاً على الاسلام

في (الأحكام في أصول الأحكام) لابن حزم : أن رسول الله لما خرج إلى بني قُرَيظة والنَّضِير قال له أبو بكر وعمر : يارسول الله ، إنّ الناس يزيدهم حرصاً على الإسلام أن يروا عليك زِيّاً حسناً من الدنيا ، فانظر إلى الحُلَّة التي أهداها لك سعد بن عبادة فالبسْها ، فليَرك اليوم المشركون أنّ عليك زياً حسناً

قال : أفعلُ

٣٢٨ — ان الاحتمال قبر المعايب

قال الأنباري في (طبقات الأدباء) : كان شيخنا ابن الشجري (هبة الله بن علي) وقوراً في مجلسه ، ذا سمت [(١)] حسن لا يكاد يتكلم في مجلسه بكلمة إلا تتضمن أدب نفس أو أدب درس . إختصم إليه يوماً رجلان من العلويين فجعل أحدهما يشكو ويقول عن الآخر : إنه قال فيّ كذا وكذا . فقال له الشريف (ابن الشجري) : يا بُنيّ ، احتمل فان الاحتمال قبر المعايب [(٢)]

وهذه كلمة حسنة نافعة فإن كثيراً من الناس تكون لهم عيون فيغضون عن عيوب الناس ويسكتون عنها فتذهب عيوب لهم كانت فيهم ، وكثير من الناس يتعرضون لعيوب الناس فتصير لهم عيوب لم تكن فيهم

٣٢٩ — يريد أن يموت

أبو القاسم اليزيدي : كان أبو عمرو بن العلاء في مجلس إبراهيم [(٣)] بن عبد الله ، فسأل عن رجل من أصحابه فقدَه ، فقال لبعض من حضره : اذهب فاسأل عنه . فرجع فقال : تركته يريد أن يموت . فضحك منه بعض القوم وقال : في الدنيا إنسان يريد أن يموت !

فقال إبراهيم : لقد ضحكتم منها عربية ؛ إن (يريد) في معنى

(١) سمت سمتاً : كان ذا وقار وهو حسن السمت : الهيئة

(٢) المعايب ، المكايد ، المعايش ، المخايل ، لا تهمز والقاعدة مشهورة

(٣) أخو محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية

كشف الأستاذ سليم بك حسن تحت الطريق الواصل بينه وبين المعبد الرئيسي للهرم نفسه عن أقدم نفق في العالم نحته مهندس ذلك الملك العظيم في الصخر الصلب كي يختصر المسافة لمن يريد الوصول من الجهة الشمالية للهرم إلى جهته الجنوبية ويوفر عليه السير الطويل حول الطريق المذكور

وتبين لنا هذه المعابد الأولى أغلب مظاهر المباني الدينية المصرية كما نراها فيما بعد هذا العصر ، فكلها متينة البناء والمسقف منها مسقف بكتل حجرية أفقية قائمة على أعمدة لا أقبية فيها ، على أن المصريين لم يجهلوا طراز القبو كما يتضح ذلك من مقابر الأسرة الثالثة . وهكذا نجد في الدولة القديمة الظاهرتين الأساسيتين في بناء المعابد المصرية ، فهناك البهو ذو السقف الكامل القائم على أعمدة موزعة في كل أنحاء أرضية المعبد ، وهناك أيضاً البهو ذو الأعمدة ويتكون من فناء مفتوح يمتد على جانب أو أكثر فيه جزء مسقف يقوم سقفه على صف أو صفين من الأعمدة

ومن المباني الدينية التي تنتسب إلى عصر الدولة القديمة معابد الشمس التي بناها ملوك الأسرة الخامسة في أبي صير وكانت تشبه معابد الأهرام السالفة الذكر من حيث وجود معبد الوادي والمعبد الرئيسي والطريق المنحدر الواصل بين الاثنين ، ولكن بدلا من الهرم الذي كان يقام فوق المقبرة بنا ملوك الأسرة الخامسة هرماً ناقصاً صغيراً تعلوه مسلة هي رمز إله الشمس « رع »

احمد نجيب هاشم

يكاد ، قال الله تعالى : (جداراً يريد أن ينقض [١]) أي يكاد

فقال أبو عمرو : لا نزال بخير ما كان فينا مثلك

٣٣٠ — وأرى الغيب فيه مثل العياد

أبو القاسم الحسن بن عمرو بن المعلى :

لست أدرى ولا المنجم يدرى ما يريد القضاء بالإنسان
غـــير أنى أقول قول محقّ وأرى الغيب فيه مثل العيان :
إن من كان محسناً قابلته بجميـل عواقبُ الاحسان

٣٣١ — اتفاق عجيب

قال ابن بسام : من عجائب ما جرى لأبى العلاء صاعد بن الحسين البغدادى — الوافد على الأندلس — أنه أهدى أيّلا إلى المنصور بن أبى عامر — ملك الأندلس — وكتب على يد موصله قصيدة منها :

عبدٌ جذبتَ بِضَبْعِه ورفعت من مقداره أهـدى إليك بأيل [٢]
سميتُـه (غرسيّـة) وبعثته فى حبله ليصحّ فيه تفـؤّلى [٣]

فقضى فى سابق علم الله أن ملك الروم (غرسية) أسر فى ذلك اليوم الذي بعث فيه بالايل بعينه ، وسماه باسمه على التفاؤل ، وكان غرسية أمنع من النجم . وسببُ أخذه أنه خرج يتصيد فلقيته خيل للمنصور من غير قصد فأسرته وجاءت به ، فكان هذا الاتفاق مما عظم به العجب

٣٣٢ — لكن عندى عتيق سنتين

قال ياقوت : قال المرزباني : قال عبد الله بن عياش : كنت أنا وسفيان الثورى [٤] وشريك بن عبد الله (القاضى ، الفقيه) نتماشى [٥] بين الحيرة والكوفة فرأينا شيخاً أبيض الرأس واللحية

(١) يريد أن ينقض : استعيرت الارادة للمداناة والمشارفة كما استعير الهم والعزم لذلك ، قال حسان :

إن دهراً يلف شملى بجمل لزمان يهم بالاحسان

وسمعت من يقول عزم السراج أن يطفأ ، وطلب أن يطفأ (الكشاف)

(٢) جذب بضبعه (بعضده) وأخذت بضبعيه ، ومددت بضبعيه إذا نعشته ونوهت باسمه (الأساس) أهدى إليه بايل : زاد الباء ، يقال : أهدى له واليه هدية ، وفى شعر بشار : (لم تهدنا نعلا ولا خاتماً) وأصله عندي : لم تهدلى أو هو من عبث بشار

(٣) تفأل به وتفاءل

(٤) أحد الأئمة المجتهدين ، والنسبة إلى ثور بن عبد مناة

(٥) نتماشى : نمشى معاً . وفى التاج : تماشوا مشى بعضهم إلى بعض

حسن السمت والهيئة ، فظننا أن عنده شيئاً من الحديث ، وأنه قد أدرك الناس [١] . وكان سفيان أطلبنا للحديث ، وأشدنا بحثاً عنه ، فتقدم إليه وقال : يا هذا ، هل عندك شيء من الحديث ؟

فقال : أمّا حديث فلا ، ولكن عندى عتيق سنتين

فنظرنا فإذا هو خمار ... !

٣٣٣ — ... قبل مضى أسبوع

فى (حلبة الكميت) : لشمس الدين النواجي : يقال : إن من نظر إلى البدر فى ليال متعددة ، وخاطبه بهذين البيتين وهو مشغوف القلب اجتمع بمن يحب قبل مضىّ أسبوع وهما :

يا أيها القمر المنير الزاهر الأبلج البـدر البهىّ الباهر
بلغ شبيهتك السلام وصف لها شوقى وأنى فى هواها ساهر [٢]

٣٣٤ — كتبه على بن الحسن الجوينى

ياقوت الحموى : كان من شيمة الجوينى الكاتب أنه ما كتب شيئاً بخطه كثر أو قلّ ، دق أو جلّ إلا يكتب فى آخره [٣] :

كتبه على بن الحسن الجويني

(١) يعنى بالناس الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين

(٢) فى (مسالك الأبصار) قيل انه قيل فى راهبة فى دير العذارى ، وفى (اليتيمة) : أنشدنى السرى الرامي هذين البيتين لأبي علي الدامغانى ثم وجدتهما لغيره ، ويروي الثانى

بلغ شبيهتك السلام وهنها بالنوم واشهد لى بأنى ساهر

وأنا أروي خبر النواجى غير مسؤول عنه ...

(٣) فهذه العادة وهذا الولع قديمان فى أصحابنا الخطاطين شركاء الناس فى أسمائهم وكتبهم ... والجوينى زعيمهم



رسالة الشعر



في عيـــد الاحسان

فاروق حبك في القلوب عقيدة

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

نوران : نور هدى ونور تبسم | سطعا، فراح الشعر يسطع من فمي
فهتفت : يا دنيا الملائك طهري | وترى، ومن آيات وحيك ألهمي
هاتي لي النغم الجديد ، بغيره | ما اهتز للشعراء سمع الأنجم
هاتي فإن بعرش مصر مملكا | تاج العصور بمثــله لم ينعم
أوفى فرحت إلى الخمائل هاتفاً: | هاتي الشذا من زهرك المتبسم
فضي لحون الطير من لهواتها | وسري أغانيها ترن بمرقمي
ودعي الصباح ونوره ، ودعي الضحى | وعبيره ينساب طهراً في دمي
إني سأهتف للمليك بآية | بيضاء مثل جبينه المتوسم
مولاي ! فاهتز الوجود مهللا | طرباً ، وإن لم يشد أو يتكلم
من رام تغريداً بظلك فليكن | لبلابل الخلد السواجع ينتمي
الله أكبر ! ما لسمعك هزة | بسوى حمام الجنــة المترنم !

***

«فاروق» حبك في القلوب عقيدة | أخذت سراها في القلوب مع الدم
قسنت مع الإيمان قدس مكانه | في الروح ، وهو لغيرها لم يقسم
الشرق يقرأ في جبينك آية | فجر الربيع بنورها لم يوسم
النيل فسرها له متخايلاً : | هذي منارة كل قلب مظلم
فيها عزاء الشرق عن آلامه | ومناه بعـد أسى وطول تجهم
الله سطرها لتاريخ الحمى | بشرى ونوب للعلا وتقـدم !

***

يا عاهل الإسلام كرم عصره | وأثر به حلك الوجود المعتم
ألقت إليك يد الحنيف زمامها | فأقلت عثرتها، وقلت لها اسلمي!
وبعثت عهد الراشدين بصولة | شرع السماء بها حديد المعصم
فرعيت عن الصولجان ومجده | وخطرت في ورع النبي الملهم
وحملت مسبحة كأن مدارها | فلق الهـدى للحائر المتبرم
حبـاتها فلذ القلوب خواشعا | عطلن باللثمات آمال الفم
نسق من الملك انفردت بعزه | لسواك في التاريخ لم يتقـدم

***

في دولة الإحسان قامت عصبة | للخير في جنبات عرشك تحتمي
تأسو إذا جرح الزمان، وتنبري | قدراً يكفـكف دمعة المتيتم
كم ثاكل ردت فواجع قلبها | نعماً ، وأسبغت النعيم لأيم
ستارة الأعراض يغمر جودها | ليـل الحرائر في بياض الأنعم
وترابهـا للمعوزين غرائس | للقوت ، تثمر في خريف المعدم
تعطي ولا منٌّ يشوب عطاءها | وتجود جود العـدل للمتظلم
منن تدب إلى النفوس خفية | يجري بهـا قدر الإله المنعم
فكأنها الأحلام تهبط في الدجى | للبائســين بخشعة وتحرم
شرف العطايا أن تزف وحيدة | كالسر بين تخفر وتحشم !
هي كعبة ـ للبؤس من إحسانها | بشر النبات بغيثه المترحم
للعلم في أكنافها ري النهى | ولشكوة العلات برء المسقم
مولاي أسعدها بنورك إنها | بهداك تفرع سابحات الأنجم
هم سبقن خطى الزمان بعزمة | أوقدتها سبق القضاء المبرم
هتفت بك الدنيا فرد هتافها | شعب يفدى بالقلوب وبالدم !

محمود حسن اسماعيل

حــــواء

للاستاذ ابراهيم العريض

تمثّل الحبُّ للفنان بين يديْ   ذكراه كالنار تغشى طورَ سيناء
وقال حين رآه فى تململه   يقلّب الطرفَ بين الزهر والماء :
« يا من عكفتَ على الدنيا وزينتِها
حتى صممت عن الأنغامِ من نائى (١)
تحيا الحياةَ بلا إلفٍ تلوذ به   إلا ارتيادَكَ فى أفياء فيحاء
حتى كأن ضلوعاً أنت حاملُها   تُطْوَى على كبدٍ ليست بحرّاء
هذا الوجودُ إطارٌ لا كِفاء له   وغاية الفنّ فيه رسمُ حوّاء
لها الشبابُ الذى تَشْفى برُقْيته
ما كابد القلبُ من صدّ وإغراء
لها الجمالُ الذى تعنو لعزته   فيما تشاهدُ من ظلّ ومن ماء
لها الوداد الذى تَبقى أشعّتُه   تنير خطوَكَ فى طوفانِ أهواء
كأنها الشمس إشراقاً .. تبادلها   مرآةُ قلبك لألاءً بلألاء
لا تكذِبِ النفس فى مجد حلُمت به
فلست تحسن إلا قولَ : أهواها

* * *

شغفتَ بالحسن لا تنفكّ تطلبُهُ   عيناك . حتى ولو فى كأسِ صهباء
وليس أجملَ مافى الكون من أثرٍ
إلا اقتباساً بدا من شكل حسناء
أنظر إلى شفتيها . هل ترى زَهراً   يفترّ عن نُقَط كالطلّ وطفاء
أنظر إلى وجنتيها . هل ترى شفقاً
يلوح من شَعْرِهَا فى وسْطِ ظلْماء
أنظر إلى ناظريها . هل ترى ألَقاً   كأنه صادرٌ عن كوكب ناءِ
مافى الطبيعة من حسن فمنعكسٌ
عن صدرها البضّ فى عينيك يا رائى
وأطيب الطيب مافى الخلد من زَهَر
وإنما غرسَتْهَا كفُّ حوّاء

فكيفَ تُكبِرُ من شأنِ الجميل ولا
تُثيبُهَا عن يدٍ قَبّلْتَ بيضاء
وما تؤمّل فى الفردوس منفرداً   لولا رجاؤك أن تحظى بلقياها »

ابراهيم العريض

(١) نائى : قيثارتى

هي عينــــاك

للأديب حلمى عطا الله

حرقةٌ فى القلب يذكيها الألم
صدمة للنفس يتلوها الندم
وأنا وحدى أسـير الليل أطوى الظلماتِ
لا أبالي ما أرى فى وحدتى من عقبات
أسـدل الليل جناح الحلم فوق الفلوات
ألم الليـل شديد الوطء مرّ العبرات
هى أشجانى التى توقظ فىّ الحسرات
يا لعينيك التى تحرمنى طعم السبات :
هي عيناك التى تحرقني   فأهـيم
هي عيناك التى تشعلنى   كالجحيم

* * *

قسوة الهجر على القلب العليل   تقتله
كثرة التبريح بالجسم الهزيل   تثقله
هذه شكواى من عينيك يا ذات الدلال
من يراعيها ويرعانى إذا طال النضال ؟
هل أذوق الشهد أم أقضى حياتى فى الخيال ؟
أم أقاسى الصدَّ ؟ كلا ، إن هذا لمحال
أنا لا أطمع فى النوح ففى النوح الزوال
أنا لا أبغى سوى الوصل ، فذا الوصل الحلال
هى عيناك التى تأمرنى   فأطيع
هي عيناك التى تذهلنى   فأضيع

حيفا   حلمى عطا الله



أقصوصة لاذعة من أناطول فرانس

مشعوذ المــــادونا[1]

للأستاذ دريني خشبة

كان يعيش في أيام الملك لويس مُشَعْبِذٌ فقير من كومبين يقال له بَرْنَابَا ، وكان لا ينى يذرع أقطار الأرض ليعرض على الناس ألعابه الخارقة التى كان يبهرهم بها فى خفة وحذق وبيدٍ صناع . وكان ينتهز أيام الصحو فينتحي ناحية فى الميادين العامة ، ثم يفرش على الأرض قطعة من بساط خَلَقٍ لم يكن يفارقه أينما سار ... وبكلمات يقولها ، وإشارات وحركات علمه إياها مشعبذ أكبر منه سناً يجتمع حوله أطفال وغلمان ومتسكعون ، ثم يسوق الفضول غيرهم فيكون فى حلقة من النـاس من كل صنف يستهويهم بشعبذاته ، ويثير عجبهم بالبراعة الفائقة التى يقف بها سُكُرُّجَةً[2] من صفيح مطلى على أرنبة أنفه ، وهو مع ذلك يميل ويميد ويتخلج ... فاذا فرغ من هـذا انقلب فى الهواء فوقف على رأسه ويديه ، ثم راح يرسل فى الهواء كرات ستـًّا صغيرة من نحاس أحمر لامع ، فيتلقاها بقدميه العاريتين فى مهارة خارقة ، بحيث لا تسقط منها واحدة حتى يستوى ؛ وكان الناس يختلفون فى أمر هذا الشعبذ ، ولكنهم سرعان مايتفقون على أنه أُلْعُبَان داهية حين يتقوّس ويتقوس ، حتى يعمل بجسمه المنقلب عجلة من لحم ، ثم يرسل فى الهواء اثنتى عشرة سكيناً[1] مرهفة فيظل يتلقفها بيديه فى سرعة تخطف البصر وتُطلق أيدى النظارة بالتصفيق ، وحناجرهم بالهتاف الطويل ، ثم يعطرون بساطه الخلق بالدّوانق[2] والدريهمات

ولم يكن برنابا مع ذاك بدعاً من الناس ، فلقد كان واحداً من هذه الآلاف المؤلفة التى تكتسب الكفاف من العيش بعرق جبينها ، وكان يشقى كما يشقى إخوانه البائسون فى كل زمان وفى كل مكان ، بل لقد كان نصيبه من شِقوةِ الحياة ، ومضض العيش ، والأوزار التي كتب فى الأزل أن تنقض ظهور الناس جيلاً عن جيل عن أبيهم آدم ، كبيراً مضاعفاً ...

ولم يكن يستطيع أن يصل عمله الشاق المضنى فى كل وقت ، فهو واحد من مئين من الأحياء التى يعج بها العالم ، ويزخر بها وجه الأرض ، والتى تحتاج إلى حرارة الشمس ، ودفء الهواء ، لتدب الحياة فيها وتنتعش ... لذلك كان الشتاء أكبر أعدائه ، إذ كان يقاسيه كما تقاسيه الشجرة التى نفضت أوراقها ، وبدت خلاله نِصفَ ميتة ... وكان الصقيع الذى يغطى وجه الأرض يقضه ويزعجه ، ويثلج يديه وقدميه ، فتسقط الكرات وتجرحه السكاكين ، ولكنه مع ذاك يبسم ويهش ، متشبها بالصُّرْصُر المذكور فى قصة مريم الأفرنسية ، والذى يشدو ويرقص جَوْعَانَ من ... البرد ! ! أو من الجوع ... أو منهما معاً ! !

وكان لسذاجة قلبه ، وقناعته ، يقاسى فى سكون وصمت . فلم يفكر مرةً فى كيفية توزيع الثروة بين الناس ، ولا فى علة هـذا التفاوت الكبير بين أقدار البشر ، وكلهم من آدم ، وآدم من تراب ... لا ... لم يفكر برنابا الطيب فى شئ من هذا ولا ذاك ، بل كان مؤمناً ساذج الإيمان ، وكان يعتقد أن الخير الذي فاته فى هـذه الدنيا لابد مواتيه فى الآخرة ، وأن سيئات

(١) المادونا لقب يطلقه مسيحيو أوروبا على مريم البتول . ولأناطول فرانس قصص طويلة وقصيرة كثيرة العدد ، ولكن هذه الأقصوصة تفردت من بين قصصه بأنها أصدق صورة لفن الكاتب العظيم الذى مات وهو يسخر من العالم ومن فيه

(٢) السكرجة (بضم وضم وضم مشدد) : آنية بين القصعة والطبق

(١) سكين مذكر ومؤنث ويغلب عليها التأنيث فى مصر

(٢) الدانق بفتح النون وكسرها سدس الدرهم

هذه الحياة ستحتسب فى صحيفته حسنات يوم يوفى للناس حسابهم.

ولم يكن برنابا من هؤلاء اللبِّقين الأَلِبَّة الذين باعوا أنفسهم لسيد الأبالسة ، بل كان يؤمن بالله ولا يكفُرُه ، ويلهج لسانه دائماً باسمه ، وكان يحيا حياةً أمينةً طاهرة كلها تقوى وعفة ، ولم تحدثه نفسه مرة أن يمد عينيه إلى ما متع الله به جاره من زوجة جميلةٍ حلوةٍ مفتان ، مع أنه لم تكن له زوجة حلال ... وكان يؤمن بخطر المرأة على شباب الرجل وعنفوانه ، وكانت له أسوة بمـا حدث من ذلك لشمشون كما هو مشهور مأثور

وهكذا لم يك برنابا بهيميًّا ولا شهوانيا ، بل هو لم يفكر مرة فى هذه اللذة الدنسة التى تستعبد أمثاله من المشعبذين ، بيد أنه إن سلم من ذاك ، فلقد كانت تأسر لبَّـه الخمر ، وكان يرى فيها منجاة من فتنة النساء والوقوع فى كيدهن ؛ ولم يكن برنابا مدمناً مع ذاك ، وإن أحب الخمر وصبا إليها من كل قلبه ، لا سيما إذا كان الفصل شتاء والطقس بارداً زمهريرا ... فإذا استثنينا شغفه بالخمر وجدناه رجلاً صالحاً يخاف الله ويبتهل إليه ، وتملأ قلبه محبة العذراء ، مريم الطاهرة البتول ، التى كان يخبت لهـا ويصفيها عبادته ، ويركع بين يَدَيْ صورتها كلما دخل كنيسة فيصلى هذه الصـلاة : « مولاتى ! أبتهل إليك أن تباركي حياتى فى هذه الدار حتى يتأذن الله فيقبضنى إليه ، فإذا فعل ، فاشفعى لى عنده أن يفيء عليّ من نعيم الخلد . آمين ! »

* * *

وانطلق في أمسية يذرع الطرقات غِبَّ مطرٍ وابلٍ حزيناً واجماً كاسف البال ، وتحت إبطه كُراه[1] ومِزْقة البساط وفيها سكاكينه ، وكل همه أن يجـد خاناً يؤويه فيقضى فيـه ليله على الطوى ، لم يذق عشاء ولم يتبلّغ بلقمة ... فبينما هو هائم على وجهه هكذا ، إذا به يرى راهباً يذرع الطريق مثله ، وفى مثل الجهة التى يسير فيها ، فحياه فى أدب وظرف ، ورد الراهب تحيته بأحسن منها ، ثم قال يحدثه :

— مرحى أيها الرفيق ! مالك مُسرْبلاً بهذه الثياب الخضر من ناصيتك إلى إخمصيك ... أذاهب أنت لتمثل البلياتشو[2] فى ملهاة خرافية ؟

— كلا والله أيها الأب ! إن اسمى برنابا ، وحرفتى الشعبذة وحبذا لو كان عملى أن آكل متبطلاً ، وأسمن وأستريح من عناء الحياة !!

— أتعنى ما تقول أيها الأخ برنابا ؟ حذار من أن يكون فى ستور كلامك لَـمْز أو كناية ؛ فإن أشرف عمل فى هـذه الحياة الدنيا هو أن تبيع نفسك لله ... الرهبانية يا برنابا ... إن الراهب ما ينى يسبح بحمد الله ، وباسم العـذراء ، وبأسماء القديسين ! ألاَ وإن حياة الراهب أنشودة سرمدية ليسوع المسيح !

وقال برنابا يجيبه : « إنى أقر أننى تكلمت كما يتكلم الجهلاء أيها الأب ، فعفواً ومعذرةً ... إن بيننا أَبَـوْنًا شاسعاً وفارقاً عظيما ، وإنه إن يكن لشعبذاتى قيمتها عند الناس ، فـكذلك نُسْكُـك وتَرَهُّـبك مع فارق ما بين الصناعتين ، لأنك مهما عجزت عن رقصة أقوم أنا بها فى منتهى ما تتصور من سهولة ويسر ، ومهما عجزت عن أن تقف سُكُرُّجَتى هذه على أرنبة أنفك وتميل كما أميل ، وتميد وتتخلج ، فإن لرهبانيتك مع ذاك قيمتها التى لا تساميها قيمة عملى الحقير وصنعتى التافهة ... أيها الأب الـكريم : تالله إنه ليس أحب إليّ من أن أنقطع مثلك للعبادة فألهج بذكر الله ، وأستقل عن العالمين ليتحد قلبى بالبتول المقدسة ... العذراء الطاهرة التي كرست نفسى وحياتى لعبادتها ومحبتها ! وإنه ليس آثر عندى من أن أهجر حرفتى التى عرفت بها فى سمائة قرية وقرية ، من سواسون إلى بوفيه ، لـكى أذهب إلى الدير ، وأخلص للتأمل والعبادة والتَّرَهّب ! »

ووقرت سذاجة المشعبذ فى فؤاد الراهب ، واستشف فيه نفساً تقية وقلباً صالحاً ، من تلك القلوب النقية التى قال المسيح فى أصحابها : « عليهم السلام فى الأرض » فقال يجيبه : « إذن هلم معى أيها الصديق برنابا وسأدخلك الدير الذى أنا رئيسه ، وإنى أسأل الله الذى هدى مريم المصرية فى مهامه الصحراء أن يوفقنى في هدايتك إلى ما فيه خلاصك »

وهكذا أصبح برنابا « البلياتشو ! » راهباً !

* * *

وبهره أن يرى إخوانه الرهبان يخلصون فى محبتهم للعذراء إخلاصاً عجيباً ، ويكرسون حياتهم ونبوغهم وجميع ملكاتهم

---

(١) كرى وزان ضحى وكرين بالضم والـكسر وكراب جموع كرة

(٢) البلياتشو كلمة أعجمية يرادفها البهلول بالعربية أى الضحاك

لخدمة مجدها وتخليد ذكراها ... فهذا رئيس الدير يؤلف فى فضائلها المؤلفات، ويشيد فيهن حسب السُّنَّة بأياديها على العالمين وهذا الأخ موريس يتناول مسودات تلك المؤلفات فيسطرهن بيده النابغة الصناع، وبخطه الرائق الشائق على رقوق[1] وكواغد ثم هذا الأخ الاسكندر ينقش فيهن نقوشه، ويرسم تصاويره، فيجعل مليكة السموات جالسة على عرش سليمان، وقد ربضت عند قدميها أربعة أسود ضياغم تحرسها وتسهر عليها، ومن فوق الهالة التى تنعقد بالنور حول رأسها ترف سبع حمامات وُرْق هن هدايا روح القدس السبع: الخوف، والتقوى، والمعرفة، والقوة والعدالة، والذكاء، والحكمة، وجلس معها ست عذارى حسان ذوات شعر مُعَسْجَدٍ ذهبي: الدعة، والكبرياء، والاعتزال والاحترام، والعذرية[2]، والطاعة ... هذا وقد سجد عند قدميها شبحان عاريان يشعان نوراً ولألاء، وكانا يمثلان الأرواح الخاطئة، وكانا يتوسلان إلى العذراء أن تدرك أصحابهما برحمتها التى وسعت كل شيء فتمنحهم الخلاص

وقد صور الأخ الاسكندر فى صحيفة أخرى أمنا حواء فى حضرة العذراء البتول حتى يرى القارىء كيف تتمثل الخطيئة والفداء فى حواء الذليلة ومريم الشماء!

ومن أحسن صوره أيضاً صورة بئر المياه الحية، وصورة النبع، والزنبقة، والقمر، والشمس، والجنة المغلقة، وما إلى ذلك مما ورد ذكره فى نشيد الإنشاد ... فهذه، وصورتا بوابة السموات، ومدينة الإله؛ كلها صورت فى محبة العـذراء ورسمت باسمها

وكان الأخ ماربود كذلك من أطفال مريم المخلَصين ... وكان ما يفتأ ينحت التماثيل من الحجارة فتتشعث لحيته وشعره وأهدابه بغبار الرخام الأبيض، وتنتفخ عيناه وتنهمر مدامعه؛ وبالرغم من سنه المتقدمة، وشيخوخته الضعيفة، فلقد كان ماربود يصل ليله بنهاره فى عمل التماثيل فى حب مريم لتباركه، وتثبت خطاه نحو الأبدية ... وكان يمثلها محمولة فى محفة، وتتألق على جبينها هالة من أغلى اللآلئ ... وكان ينصب أكبر النصب فى تمجيد ثنايا ثوبها من فوق قدميها ليسترهما ... القدمين الحبيبتين قدمى العذراء، اللتين قال فى صاحبتهما النبى: «حبيبتى أشبه بجنة مغلقة!»

وكان يمثلها أحياناً طفلة رائعة فينانة، تكاد تنطق فتقول: «يا يسوع! أنت إلهى!»

وكان فى الدير رهبان شعراء ما ينون ينظمون فى العذراء المقدسة أغانيهم باللسان اللاتينى ... وكان فيهم زجّال بيكاردى ينقل أغاريدهم إلى اللسان العامى الرشيق

* * *

شهد برنابا هذه الحماسة التى جعلت إخوانه الرهبان يتنافسون في خدمة العذراء وتقديسها، وتكريس كل ملكاتهم لعبادتها بالقلب وبالذهن وباليد وباللسان؛ فحزن حزناً شديداً، وراح يندب حظه، ويبث جهله المطبق وسذاجته وقلة معرفته، وكان يمشى مرة فى ظلال الحديقة الصغيرة التى يحضنها سور الدير، فجعل يتفجع ويقول: «وا أسفا لشد ما يحزننى ألا أستطيع أن أعبد عذرائى تلك العبادة القيمة التى يؤديها رفاق الرهبان مع ما بذلت من حبى لها، وبرغم ما وقفت كل تقديسى عليها! ما أتعسنى إذن يا أم الإله! أنا هذا الجاهل الغبى الذى يعبدك بلسان لا يعى إلا أتفه الأدعية وأحقر التسبيحات، وهو مع ذاك يرددها لا كما ينبغى ... ويلى من غبي جاهل لا قدرة له على فن جميل، ولا عمل من ورائه طائل! أين أنا مما ينحت الناحتون للعذراء البتول، وما يصور المصورون، وما ينظم أولئك الشعراء من أغراد وأوراد: وا أسفاه! إنى لا أملك من كل ذلك قليلاً ولا كثيراً!»

وهكذا ظل برنابا يتفجع ويتألم

وجلس مرة يصغى إلى رفاقه بينما كانوا يتلهون بالحديث فيما بينهم، فسمع أحدهم يقص حكاية الراهب الذى عاش عمره جميعاً لا يستطيع أن يعبد العذراء إلا بهذه العبارة القصيرة المقتضبة: سلام على مريم ... سلام على مريم ... يرددها فى صباحه وفى مسائه، ولا يفتر عن ترديدها لسانه ... وكان إخوانه يزدرونه لجهله وقلة عرفانه، فلما مات، وأقبلوا عليه، رأوا، وياما أغرب

---

(١) جمع رق بكسر أو فتح: جلد كان يكتب عليه قديماً ومثله كاغد

(٢) لم نجد فى العربية مصدرا من (عذراء) وهى الحالة التى تكون فيها الفتاة هكذا، فاستعملنا هذا المصدر وهو مرادف Virginity أو Virginité

ما رأوا ، أربع[1] وردات نواضر قد خرجت من فمه ، فعرفوا أنهن برزن ثمة تقديساً للأحرف الأربعة التي يتركب منهن اسم العذراء ... وهكذا تَقَدَّس الراهب بعد موته ، وبعد ما لقى من ازدراء رفاقه فى الحياة الدنيا ...

ولما سمع برنابا هذه الحكاية ابتهجت نفسه وغمر السرور قلبه وعظمت ثقته فى مريم البتول الخيرة ... بيد أنه لم يتسل بهذا المثل الجميل ، لأنه كان يود لو استطاع أن يصنع مثل ما يصنع إخوانه من تقديس العذراء بالقلب وباللسان وباليد ... فراح يفكر ويفكر ، ويُعمل ذهنه فى الوسيلة التى تُنيله ما يريد ... ولكن ... عبثاً حاول أن يجد برنابا تلك الوسيلة ، فكان كل يوم يمضى يزيد فى أحزانه ، ويضاعف أشجانه

ثم استيقظ صبيحة يوم مشرق وقد بدا فى وجهه البشر ، وشاع فى أعطافه السرور ، فانطلق من صومعته إلى الكنيسة فدخلها ، وأقفل عليه بابها ، ثم لبث فيها أكثر من ساعة من الزمان ، وخرج وقت الغداء فلم يغب طويلا ، ثم عاد إليها ، وأقفل عليه الباب كما فعل فى الصباح ...

وظل منذ ذلك اليوم يذهب إلى الكنيسة فى مثل هذه الساعة التي لايفكر أحد من الرهبان فى الذهاب إليها ، لاشتغالهم بما أخذوا به أنفسهم من كتابة ونسخ وتصوير ونحت ونظم ... وتبدل حال برنابا ، فلم يعد يعاوده وجومه ، وذهب عنه هذا الحزن الذى كان يلازمه دواماً ... غير أن سلوكه المفاجيء قد أثار الغرابة والدَّهَش في نفس رئيس الدير ، الذى كان واجبه يقضى عليه بمعرفة كل ما يعمل رهبان الدير حتى فى سرهم ونجواهم ، فصمم أن يعلم من أمر برنابا ما أراد برنابا أن يجعله سرًّا مكتوماً ...

ففى إحدى خلوات برنابا ، ذهب الرئيس فى صحبة زميلين من أكبر رهبانه سناً ، ليروا ماذا يصنع أخوهم داخلَ الكنيسة ، ووقفوا يلاحظونه من ثقوب فى الباب

ما شاء الله !!

لقد شهدوا الراهب المشعبذ وقد (تَشَقْلب !!) أمام صورة العذراء المقدسة ، بحيث وضع رأسه ويديه على الأرض ، ثم راح يرسل كراته فى الهواء ويتلقفها برجليه ، ثم يتحوى ويتكور ، ويرسل سكاكينه المرهفة ويتناولها فى خفة ورشاقة بكلتا يديه ، كما كان يصنع فى أيامه الخوالى التى أكسبته الصيت والأحدوثة وأطيب الذكر .. ولم لا يصنع ؟ أليس بهذا يضع ملكاته وخبرته الفنية وطول دربته فى خدمة العذراء كما يصنع رفاقه ؟ وما يصنع رفاقه غير هذا ؟

لكن رئيس الدير لم يفهم شيئاً من ذلك ، ولم يفطن إلى غرض المشعبذ النبيل ، بل صاح وصاح معه زميلاه ، ولعنوه أشد اللعن بما دنس هذا المكان المقدس واستباح حرمته ! لقد كان الرئيس يعرف أن برنابا رجل ساذج مغفل ، ولكنه ظن هذه المرة أنه قد فقد صوابه ، فاندفع داخل الكنيسة واندفع فى إثره زميلاه ليقذفوا به خارجها ... ولكن ! ياللمعجزة ! لقد رأوا الصورة المقدسة تتحرك .. تتحرك ، وتتقدم نحو برنابا .. وقد مدت ذراعها الجميلة النقية ، وراحت تمسح قطرات العرق التى كانت تتصبب فوق جبينه ، بمنديلها الأزرق الحريرى

وسجد رئيس الدير حتى مست جبهته رخام الأرض وسجد وراءه زميلاه ، وجعلوا يصلون هذه الصلاة

« مباركون الذين تطهرت قلوبهم وخلت من الخبث ، لأنهم سيرون الله ! »

دريني خشبة

(١) فى الأصل خمسة وقد استبدلناها بأربعة لأن أحرف مريم أربعة ، وهن خمسة فى الفرنسية وغيرها Maria



متى تستقر نظم الدراسة في مصر ؟

أشرنا في هذا المكان من قبل إلى المشروعات الجامعية الجديدة التي وضعتها وزارة المعارف لتعديل نظم الدراسة في الجامعة المصرية ، ومنها مشروع يقضي بتخفيض مدة الدراسة في كلية الحقوق وإنشاء قسم جديد للتخصص (الدكتوراه) ؛ وكان هذا التعديل مقدمة لمشروع شامل يتناول نظم الدراسة في جميع كليات الجامعة المصرية . فالآن نقول إن النية قد اتجهت إلى إلغاء هذه التعديلات كلها ؛ وقد قيل في ذلك إن القوانين الجديدة قد وضعت بسرعة ودون تمحيص، ولم يؤخذ في شأنها رأى مجالس الكليات المختصة ، وإن تعديل دستور الجامعة هو قبل كل شيء من شئون الجامعة ذاتها . وهذا كلام منطق ومعقول ؛ ولكن وراء ذلك كله حقيقة يجب أن تقدر قدرها ، وهو أن هذا التعديل والإلغاء طوراً بعد طور سياسة خطرة على التعليم الجامعي فضلاً عن التعليم العام ، وأنه يجب أن يوضع حد نهائي لهذه الثورات الفجائية في نظم التعليم الأساسية . ذلك أن هذه النظم مسألة قومية عامة يجب ألا تتغير بتغير الوزارات . وقد عاني التعليم وعانت الجامعة المصرية في عشرة الأعوام الأخيرة كثيراً من جراء هذه السياسة التعليمية المضطربة . وإذا كانت نظم التعليم لم تستقر بعد فإنه يحسن أن تبحث في روية وتمحيص ، ثم توضع على أسس قومية ثابتة بعيدة عن العواصف والنزعات المختلفة . أما تلك التعديلات الفجائية السريعة التي أكثر ما يقصد بها تخفيف أعباء الدراسة عن جيل متبرم من الطلبة فهي خطر كبير على مستوى التعليم ومستقبل الجيل

الإسلام وكيف يعرضه كاتب تركي

كان الجنرال محمود مختار كترجيوغلو ، أحد ساسة تركيا قبل الحرب قد وضع كتاباً عن القرآن وتعاليم الإسلام يعرض فيه ما يتفق مع المبادىء الحديثة من أصول الإسلام ؛ وظهر هذا المؤلف بالألمانية ضمن مجموعة الكتب الشرقية بعنوان : « العالم الاسلامي على ضوء القرآن والحديث » Die Welt des Islam im Liehte des Koran und Hadith وفي سنة ١٩٣٥ ظهرت ترجمة فرنسية لهذا المؤلف بعنوان « حكمة القرآن » La Sagesse Coranique ، وبها تصدير بقلم المستشرق المعروف الأستاذ ماسنيون الأستاذ في الكوليج ده فرانس ؛ وظهرت أخيراً ترجمة انكليزية لهذه الترجمة الفرنسية بعنوان : « حكمة القرآن » The Wisdom of the Quran بقلم المستر جون نايش J. Naish

وفي هذا الكتاب عرض لأصول الإسلام مستقاة من القرآن والحديث ؛ ولكن على نمط جديد . ذلك أن المؤلف كما يبدو في مقدمته متأثر جداً بوجهة النظر الغربية ومطاعن الغرب في القرآن وأصول الإسلام . وهو يزعم أولاً أن القرآن لم يكن كتاباً منزلاً ، وإنما هو من صنع النبي وصحبه ؛ ثم يعرض مبادىء الإسلام وتعاليمه بصورة يحاول بها إخراج هذه المبادىء والتعاليم عن حقيقتها الإسلامية المعروفة ؛ ويحاول أن يقرب بينها وبين بعض المبادىء والنظريات الغربية . وهو بهذه الصورة يعتبر في الواقع من الكتب الطاعنة في الإسلام . ومن بواعث الأسف أن يكون مؤلف هذا الكتاب تركيا مسلما من رجال تركيا القديمة التي اشتهرت بالتمسك بأصول الإسلام . ولو صدر من أحد الدعاة الكماليين لما كان في صدوره ما يلفت النظر ، لأن تركيا الكمالية دولة لا دينية . وعلى أي حال فلعل الجهات ذات الشأن تعنى ببحث هذا الكتاب الإلحادي لترى ما إذا كان يسمح بتداوله في بلد إسلامي كمصر (م)

الى الدكتور زكى مبارك

يا أخي العزيز

قرأت رسالتك إلى الأستاذ الزيات ؛ ولقد سرني والله أن تُعنىَ وأنت في العراق بدفع تهمة العقوق عن أدباء مصر ، وإنها لعاطفة وطنية نبيلة أعرف كلَّ العرفان ما يدفعك إليهـا وأنت بعيد . ولقد كنت أتمنى لو كان دفاعك إلى جانب الحق لأدعَ لك أن تَزهىَ وتستطيل بين أدباء بغـداد ما شئت أن تَزهى وتستطيل . ولـكني لا أريد أن أظلم الحقيقة يا صديقي في سبيل رضاك . وبرغمي أن أصرَّ على اتهام الأدباء المصريين بهذه التهمة السوداء ! ... وإلا فهل ترى العربية قد وَفَتْ دَيْنها للرافعي لأنك والأستاذ المازني قد كتبتما مقالين في رثاء الرافعي غداةَ مَنْـعَـاه ؛ ولأن طائفة كريمة من الأدباء لم تكن بينهم وبين الرافعي خصومة ، قد نشروا في الرسالة مقالات في رثاء الرافعي؟

ما أهون شأن الرافعي وأهْوِنْ بأدباء مصر جميعاً إن كان إلى هذا ينتهي عندهم واجب الوفاء للراحل الذي عاش في خدمة العربية وآدابها خمساً وثلاثين سنة من عمر التاريخ ، كلها جهاد ونشاط ودأب ، ومات ولم يجاوز السابعة والخمسين ... !

وتغضب يا صديقي لأني أضفتك إلى خصوم الرافعي في التعداد والإحصاء مع أن الخصومة لم تنشب بينكما غير خمس مرات ؛ فمعذرة إليك أيها الصديق من هذه التهمة الباطلة لأن الخصومة لم تنشب بينكما غير خمس مرات ... على أن لي رجاء إلى الله — أيها الصديق — أن يكون هذا الحرص الشديد على نـفي ما كان بينك وبين الرافعي من خصومة ، عاطفة صادقةً ورأياً صريحاً ؛ فإن شيطاناً تعرفه يهمس في أذني بأنك لم تكن لتحرص كل هذا الحرص إلا زلفى إلى أدباء العراق لأن هواهم مع الرافعي

وبعد فوالله ما كان لي أن أزعم التفرد بذكرى الرافعي ولا قلتُها ، ولو قلتها لما كذَبْت ؛ ولوددتُ والله أن أكون آخرَ مَن يُذكَر في الـكاتبين عن ذكرى الرافعي ولا أشهد في أدباء مصر هذا العقوق !

أما (فلانة) فخلِّ عنك حديثها يا صاحبي ، فما أظنك كنت تنتظر أن تقول لك وأنت تجلس معها جنباً إلى جنب في الجامعة : « إن بيني وبين الرافعي لشأناً مما يكون بين الرجال والنساء ! » على أني قد حدَّدت ما كان بينها وبين الرافعي بزمانه ، بين سنتى ١٩٢٣ ، ١٩٢٤ ؛ وما كان بينك وبينها يومئذ شيء ولا كانت تجلس إليك ؛ لأنها كانت قد زهدت في دروس الجامعة قبـل ذلك بسنوات وانقطع الود الذى كان وتجافى جنبٌ عن جنب ... !

فإن كنتَ ما تزال تنكر ما رويتُ من خبرها وخبر الرافعي بعد هذا فالتمس العلم عند غيرى ، فستجد كثيراً من أصدقائك الذين تثق بهم يعرف من خبرها ومن خبره ما أعلم وما رويت ؛ وما كنت شاهد مجلسهما فأروي عن عيان ، ولـكنه من حديث الرافعي تحدّث به إليّ وتحدّث إلى كثير ؛ وعند الدكتور محمد الرافعي من رسائلها إلى أبيه بخطها ما يشهد لى ويحسم كلّ خلاف

وتزعم أنني حاولت إيهام قرائى بأن الرافعي قد كسب المعركة بينه وبين الدكتور طه حسين . فليكن هذا الزعم صحيحاً ياصديقي فلا عليّ منه ؛ وإن وقائع الدعوى لمبسوطة أمام الأدباء يحكم فيها من يشاء بما يشاء ؛ وليس يهمني أن يكون الحكم للرافعي أوعليه ما دمت أكتب للتاريخ

أما بعد فأين هي الأخطاء التي تراها في هذه المقالات ؟ وما أصبرك عليها يا سيدي وللتاريخ حق عليك وللعربية حق ؟

إنه واجب أؤديه غير مأجور عليه من أحد إلا وفاء لصديق أحللته من نفسى وأحلـني من نفسه ، ووفاء للتاريخ ؛ فإن كان فيما أكتب عنه شيء تراه إلى الخطأ فإن للعلم أمانة عندك لا يقيلك منها شفيع الزمالك ومصر الجديدة ... وإنه ليسرنى أن يكون الدكتور زكى مبارك هو الذي يحاول تصحيح أخطائى وبيني وبينه مابين القاهرة وبغداد ؛ ولـكن احرص يا صديقي على أمانة العلم . ولا تكن أخطائى عندك من مثل ما قدمت : دعوى بلا بينة ، وإلا فَراحةٌ لك أولى وأنا عذيرك

والسلام عليك ورحمة الله ؟

« شبرا » **محمد سعيد العريان**

من أوراق البردى المصرية

كتب العلامة الأثرى الدكتور فريد مان ، لمناسبة ما قرره مؤتمر الأوراق البردية من الانعقاد في مدينة فينا لسنة ١٩٣٩ ، يصف مجموعة أوراق البردى المصرية والعربية القديمة التي تحتفظ

بها المكتبة الوطنية النمسوية ويقول إن هذه المجموعة هي الثانية في العالم من حيث كيتها وقيمتها الأثرية ، وإنها حملت من مصر إلى النمسا في أواخر القرن الماضي ، واشتراها الأرشيدوق رينر ثم وهبها بعد ذلك للمكتبة الوطنية . ومن أنفس أوراق هذه المجموعة وثيقة ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف عام ، وهي وثيقة زواج تعس تبسط فيها الزوجة ، واسمها أرتميزا ، قصة شقائها وبؤسها ، وهي يونانية تزوجت في مصر ، ثم أساء زوجها معاملتها فكتبت قصتها وشفعتها بالدعاء بلعنه . وكان المعتقد في ذلك العصر أن مثل هذه اللعنة تلحق المذنب ما دامت محفوظة في أحد المعابد المقدسة ، وهو نوع من السحر الأسود كان ذائعاً في العصور القديمة . ثم وثيقة عربية كتبت على البردي وترجع إلى القرن الأول الميلادي وموضوعها كتاب غرام بعث به عاشق إلى حبيبته ، وحملته حمامة من الحمام الزاجل إلى حيث توجد المحبوبة ، وعدة كتب فرعونية من كتب الموتى وغيرها . وستعرض هذه المجموعة لأنظار العلماء حينما ينعقد مؤتمر أوراق البردي الثاني . ومن المعروف أن هذا المؤتمر قد اعترف بوجود علم جديد يسمى « علم الوثائق البردية » أو البابير ولوجيا

مغامرة علماء في القطب الشمالي

نذكر أن بعثة جوية من العلماء الروس كانت قد طارت منذ أشهر إلى القطب الشمالي ، ونزلت هنالك على بسيط من الجليد وأقامت منازل من المطاط لإقامتها ، وكانت الطائرات السوفيتية تمونها بما تحتاج إليه من الأغذية والشحم ؛ ولكن حدث بعد أسابيع من إقامتها في هذا الجليد النائي أن انفصلت الكتلة الثلجية التي تعيش فوقها وذلك في شهر مايو الماضي وأخذت تسبح ببطء نحو الجنوب ؛ وعليها من علماء البعثة الأساتذة بابانين وكرنكيل وشرشوف وفيدروف ومنازلهم وأدواتهم العلمية ، وبذلت من ذلك الحين عدة محاولات لإنقاذهم من هذا المأزق دون جدوى ، فاكتفت السلطات بتموينهم من الجو . وأخيراً صرح الأستاذ أوتوشميدت رئيس البعثة ، وكان قد عاد إلى موسكو قبل انفصال الجليد ، أنه لم يبق خطر على البعثة ، لأن الكتلة الثلجية التي تعيش عليها تسير في طريقها جنوباً ، وقد تصل إلى جزيرة الأرض الخضراء في شهر ابريل أو مايو ، ويفصل بين القطب الشمالي وساحل الجزيرة الخضراء الشمالي الشرقي مسافة شاسعة قطعت بها إلى الآن كتلة الجليد نحو ألف وخمسمائة كيلو متر منذ ٢١ مايو الماضي ، وهي تسير بسرعة ستة كيلو مترات في اليوم . والكتلة الثلجية صلبة جداً وعمقها ثلاثة مترات ومساحتها كيلو مترين . وتستعد الحكومة السوفيتية لأن ترسل إلى الأرض الخضراء سفينة الجليد « مورمانتز » لتختبر حالة الثلوج وتتصل بالعلماء المحصورين بالراديو ، وتهيء مطاراً في جزيرة رودلف القريبة من مكان الحادث

اقتراح

سيتحدث كثير من العلماء والأدباء عن الأزهر وتاريخه وشئونه بمناسبة عيده الألفي ؛ وسنعلم عنه كثيراً فوق ما نعلم اليوم ، على حين أن هناك معاهد عظيمة لا تقل عن الأزهر في أمجادها وعظمتها وخدمتها للعلم والاسلام لا نعلم عنها شيئاً ، كجامع القرويين في فاس ، وجامع الزيتونة في تونس ، وجامع النجف في العراق ، على حاجتنا الماسة إلى معرفة طرق التدريس فيها وأوضاعها وأحوال طلابها ومدرسيها ، لأننا في مطلع نهضة عامة وتعارف بين الأقطار الإسلامية ، ولا يتم التعارف إلا إذا بدأ من المدارس والجوامع مصانع الرجال ومعامل المستقبل . فهل يتطوع بعض الأدباء من إخواننا الفاسيين ، أو التونسيين ، أو النجفيين ، ممن له وقوف على سير هذه المعاهد وأوضاعها فينشر فصولاً مختصرة في الرسالة يبين فيها تاريخ هذه المعاهد ، والأدوار التي مرت عليها ، وطبقات الطلاب والمدرسين فيها ، والكتب المقررة ، وأصول الدرس فيها ، فيخدم بذلك التاريخ والعلم والنهضة الجديدة ؟

« بيروت » علي الطنطاوي

من برجنا العاجي

ابتداء من العدد القادم ستنشر الرسالة للأستاذ توفيق الحكيم تحت هذا العنوان الدائم خطرات في الأدب والاجتماع والفن فنلفت إليها أنظار القراء



كتاب قصص القرآن

للأساتذة

جاد المولى بك ، محمد أبو الفضل ، على البجاوى ، السيد شحاته

للأستاذ أحمد أحمد التاجى

عرضه للكتاب ومنحاه

عرف الناس من سنين أن فى الأدب العربى كنوزاً مخبوءة تحت الرجام ، ودرراً منثورة فى قاع اليم ، تحتاج فى استخراجها إلى الغواص الماهر . ولكن أحداً لم ينبر لتلك الكنوز يرفع عنها الأنقاض ، ولتلك اللآلىء يستخرجها من الظلمات ويعرضها للأنظار

ومن بضع سنوات فقط قام نفر من الكرام — والكرام قليل — ينبشون الأطلال ويستخرجون اللآلى ، فحظى أدبنا فى السنوات الأخر بما لم يحظ بمثله فى السنين الخوالى

رأينا الأستاذ « الزيات » يكتب فى جريدة « النديم » أولا « والرسالة » ثانياً قصصاً رائعة اقتبسها من أنوار العربية وحلاّها وجلاّها ، وزاوج بين الحقيقة والخيال فيها . فزفها للقراء عرائس مياسة . وكانت قصة وضاح أول ما طرق سمعى على ما أذكر فى هذا المنهاج

وكتب الدكتور « طه » فى هامش السيرة فكان أجمل آثاره عند كثير من الناس . وتقدم « الرافعى » إلى الميدان فجال وصال وأتى بما لم يأت به إنسان . ولكنه فى بعض أقاصيصه أمعن فى السير وراء الأفكار يطاردها ويولدها فاختفى وراءها فكتب فأغرب فعمز أدبه على كثير من الناشئين

ومع ذلك فإننا نعتبر «وحى القلم» أعظم مجهود فى إحياء روائع الأدب القديم . وكتب الأستاذ الحكيم «محمد» وحباه الله التوفيق

وتنبه الأدباء لهذه الناحية ، فاقتحموا المناجم ، وغاصوا وراء كريم المعادن ، وخرجوا بملء أيديهم جواهر ونضاراً ونشروا ماعثروا عليه في المجلات والصحف فأعجبوا وأطربوا ، من هؤلاء الأساتذة « الطنطاوى » و « خشبة » و « العريان » و « عين شوكة » وغير هؤلاء

وأعود الآن إلى الكتاب الذى دعانى إلى التمهيد بهذه الكلمات ألا وهو « قصص القرآن » فأقول إنه يسلك فى نهج « وحى القلم » إنْ لم يكنْها أو تكنْهُ فإنه

أخوها غَـذَتْـهُ أُمّـهُ بِلِبانها

رأيت فيه مجهوداً عظيما لذلك النفر الكرام جمع حلاوة اللفظ ، وإشراق الفكرة ، ولطف الانسجام بين المبنى والمعنى والحقيقة والخيال . فجاء كخيال الحسناء فى المرآة . ولا بدع فهو ظل لقصص الله ، ولو جاز لى أن أقتبس كلمة سعد العالية لقلت : « إنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم »

جرى الأفاضل وراء ما قصه الله الذى يقول : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » فأفاضوا القول فى كل قصة ، وبسطوا ما ذكر رمزاً فى كتاب الله ، وحشدوا الأسباب وعللوا ، واستخرجوا الموعظة وذيلوا ، وحققوا الزمان والمكان والإنسان ، وصوّروا البيئة بجميل الألوان ، ونطقوا عن الألسنة بما يجارى الحق والتاريخ وإن كان لقاحاً بين الحقيقة والخيال ، فأتوا بالعجب العجاب . والكتاب جليل الموضوع لم يطرقه أحد من قبل — على ما نعرف — بهذا البيان والاستمداد ، وهو من الكتب التى تألفها الروح وتجد فيه غذاءها . غير أن بعض قصصه — وهو قليل — نزل أسلوبه عن معظمه ، وأظن ذلك من ضرورة الشركة ، وهو على كل حال كتاب قيم جليل

أحمد أحمد التاجى

حركة الكشف

للكشاف أحمد الشربيني جمعة الشرباصي

بين يدىّ الآن هذا الكتيّب الصغير ، دفعه إلىّ رسول من مؤلفه يرجونى أن أنظر فيه وأكتب عنه ، وأنا رجل عِفتُ الكتابة عن المؤلفين والكتب من زمان ؛ فما بى طاقة على أن أظلم نفسى فأقول للمسىء أسأت فأتعرض لغضبه أو عتبه ، وما لى طاقة على أن أغش قرائى فأقول عن الردىء إنه حسن وما فيه إلا حسن العاقبة لنفسى ...

ولكن ما بال هذا الكتاب يدعونى إليه فأفرغ له ، فلا أدعه حتى أتمه ، ولا أتمه حتى أهم بالكتابة عنه ، ولا أهم بالكتابة حتى تنثال علىّ المعانى انثيالا وعضى بي الفكر إلى غايته ؟

لا ، لم يكن هو الكتاب ما دعانى إلى ذلك بما فيه ولكن بما حوله ، وليست هى مادته ولكن مؤلفه وظروفه : هذا فتى أزهرى يطل عليك وجهه فى الصفحة الأولى من الكتاب ، بعمامته الصغيرة ، وجبته المزرورة ، وبنيقته المراغية البيضاء ... وما كنتَ تتوقع هذا ولا شك ، وأحسبك ستدهش دهشتى حين تقرأ هذا فتسأل نفسك : ما لهذا الفتى الشيخ ؟ وما جاء به إلى هنا ؟ وستفكر في كل جواب لسؤالك إلا أن يكون هذا الشيخ الصغير هو مؤلف الكتاب ...

إي وربى إنه هو مؤلفه ، وإنه هو هو أحمد الشربينى جمعة الشرباصى الكشاف ، بعمامته الصغيرة ، وجبته المزرورة ، وبنيقته البيضاء ... كشاف أزهرى بعمامة ! لوددت والله بما تشاء من ثمن أن أرى هذا الكشاف الشيخ فى ملابس الميدان ، لأرى كيف يستر ركبتيه العاريتين فى سراويله القصير وعلى رأسه عمامته وعلى ظهره راويته وسفرته ...

ها هو ذا أزهرى فتى يضرب المثل لإخوانه الأزهريين فى الفتوة الرحيمة التى تعمل للإنسانية . يا له من فتى متمرّد ! لا ، لا تسموه متمرداً ، إنه فتى يعرف ما عليه من تبعات الرجولة فى غد فأعدّ للغد عدته ، فلا عليه إن كان هو وحده الفتى الكشاف في الأزهر الكبير وروافده . إننى لفخور به

ليت شعرى ، هذه فرق الكشافة تنتظم تلاميذ المدارس عامة فلماذا لا نرى فى الأزهريين فرقة كشافة ؟ أترى تلاميذ المدارس اللدن الصغار أقدر على خشونة الكشافة من شباب الأزهر ، أم يرون الفتوة عاراً لا تليق برجال الدين ... ؟ إنهم لأصح جسما وأوفر نشاطاً وأقدر على مشقات الكشف والرحلة من هؤلاء الصغار ، وإنهم ليعلمون علم اليقين أن دينهم هو دين البساطة التى يؤثرها الكشاف ، ودين القوة التى يدعو لها الكشاف ، ودين النجدة التى يعدّ لها نفسه الكشاف ، فأين هى فرق الكشافة في الأزهر وروافده ؟

إن لدى لكلاماً كثيراً أخشى أن أقوله فيغضب من لا أريد أن يغضب ، فحسبي ما قدّمت من قول وحسب الأزهريين ، وليس حسبهم أن يكون فيهم كشاف واحد يشعر بوجود نفسه هو هذا الكشاف !

وبعد فهذه خواطر من وحى هذا الكتاب فى نفسى ، وما أريد أن أعرّف عنه بأكثر من ذاك ؛ ولكنه كتاب نافع على كل حال : نافع للأزهريين عامة ليعرفوا به عن الكشافة ما قد يحببهم فيها فيكونون جنودها ، ونافع للكشافين عامة ليبصرهم بكثير مما قد يغيب عنهم من واجبات الكشاف ، ونافع لمعلّمى فرق الكشافة فى مختلف المدارس لعلهم يجدون فيه مادة يدرّسونها ، ونافع لكل قارىء لأن فيه أبواباً من العلم والتاريخ والتسلية تلذ كل قارئ ؛ وقد نفعني أنا أيضاً لأنه نبهنى إلى ما قدمت من قول عن الرياضة والكشف والرحلات فى برنامج دراسة الأزهريين . أترى مؤلفه قد انتفع به كما انتفع كل هؤلاء ؟

بارك الله فى هذا الكشاف البطل ونفع به

(س)

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

6 me Année, No. 237

Lundi - 17 - 1 - 1938

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العــدد ٢٣٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٥ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ — ١٧ يناير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـرس

النشر فى مصر

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

قرأت ما كتبه الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام عن « التأليف والنشر فى مصر » . وقد روى فيه أن أحد أصحاب المعالى وزراء الدولة فى الحكومة القائمة دعا إليه جماعة من الكتاب وحدثهم فى تنشيط التأليف فى مصر ومكافأة المؤلفين ووعد فى هذا وعوداً حسنة

وهذا صحيح ، فقد روى لى مثله صديق من الكتاب ، ولا علم لى بمـا ينوى وزير الدولة أن يصنع ، وأحسبه لا يزال يستطلع الآراء ويستشير أهل الذكر فى هذا ، فلندع له بالتوفيق ، ولنسأله تعالى ألا يشغله بما هو أهم وأولى بعناية وزراء الدولة ، من شئون الدولة ؛ ولو كنت مكانه لكان حسبي أن أستطيع تنظيم أمور النشر على وجه صالح ونحو عادل ، ولتركت غيرى من الوزراء يحملون الأعباء الأخر

وخلاصة التجارب فى هـذا الباب أن الأدب فى مصر لا يُعوَّل عليه فى أمور المعاش ، وأن الأديب الذى ليست له صناعة أخرى يرتزق منها ويحيا بها خليق أن يموت جوعا . وقد كان المرحوم السباعى يقول على سبيـل المزاح : إن الأديب ينبغى أن

يكون أديباً وشيئاً آخر ... طبالاً ، أو زماراً ، أو عواداً ، أو غير ذلك مما يجرى مجراه . والذى كان يقوله هازلاً . هو الجد الصميم . ودع الطبل والزمر وما إلى هذا فما كان يريد إلا السخرية والنكتة ، وكانت المرارة التى يحسها فى نفسه تفيض على لسانه على هذا النحو . على أن الواقع مع ذلك أنه لا غنى للأديب فى مصر عن مرتزق غير الأدب ، يجعل معتمده بعد الله عليه . وما أعرف فى هذا البلد أديباً وسعه أن يجتزئ بالأدب ؛ ولو كان هذا مما يدخل فى الطاقة عندنا لكنتُ من أحق الناس بالقدرة عليه

وكلام فارغ كل ما يقال عن الحرفة وإدرا كها للأديب ، فما تفعل ذلك إلا فى مثل بلادنا ، وحتى أدباء العرب وشعراؤهم لم يدركهم شئ من الحرفة ، وإنما كانوا هم الجانين ، إلا إذا كان المقصود أن بلاء الحرفة من النفس ؛ على أن هذا مبحث آخر ، قد نعود إليه فى فصل آخر

وقد جربت كل وسائل النشر فى مصر ، وانتهيت إلى أن الأمر لا ينقصه سوى التنظيم . ففى مصر والبلاد العربية الأخرى عدد كاف من القراء يستطيع الكاتب أو الشاعر أن يعول عليه وهو مطمئن إليه ، ولكن من العبث والعنت أيضاً أن تجشم الأديب فوق عمله أن يقوم بأعباء الطبع والنشر ، وأن تتوقع أن يجنى من كل هذا العناء ربحاً عادلاً . وليس لهذا الخلط من نتيجة سوى الاضطراب وفقدان الحقوق . وقد جرب كل أديب فى مصر أن يتولى هو هذه الأعباء جميعاً وأن ينهض وحده بها جملة ، فأخفق . وليس الإخفاق ألا تجني شيئا ، بل أن تجنى كل شئ ولا تشعر أنك جنيت شيئا . ولا أذكر هنا ما جرب غيرى ، فبحسبي ما جربت ، وقد نشرت كتباً توليت أنا أمر طبعها ونشرها ، ونفدت فى زمن معقول ، ولكن أصحاب المكاتب يختلفون ، ولا سبيل إلى الاستغناء عنهم ، وفيهم الأمين ذو الذمة ، وفيهم الطامع المنهوم الذى لا يشبع ولا يرضيه إلا أن يخطف كتبك بغير ثمن . ومع ذلك لا يسعنى إلا أن أعترف بأنى ربحت ، وإن كنت لم أشعر بذلك ولم أر له أدنى أثر فى حياتي . وإذا حسبت الحساب على الورق وأحصيت ما أنفقت وما حصلت كانت النتيجة أنى جمعت مبلغاً من المال لا يستهان به ، ولكنه مال على الورق ، لأنى أنفقت جنيهات رجعت إليّ قروشاً مبعثرة ذهبت إلى الشيطان

وجربت أن ينفق غيرى على طبع كتبي ويتولى عنى نشرها ثم نتحاسب ، فوقع لى ما يضحك وما يبكى . وأحب أن أستثنى طائفة من الجادين المخلصين ، وأقول بعد ذلك إن بعضهم نشر لى كتاباً طبع منه أربعة آلاف نسخة نفدت كلها فى عام ، وشرع يطبع لى كتاباً ثانياً ، فقلت أحاسبه ، وطلبت منه نصيبى ، فكان جوابه الظريف أن دع الكتاب الأول فما أعرف أين ذهب ، ولعله سُرق أو حرق ، ولنقصر الحساب — فى أوانه — على الكتاب الثانى إن شاء الله !

فقلت له : ياأخى غفر الله لك ! هل حسبتنى هاوياً ؟ أمظننت أنى بائع كوارع ؟ إن هذه صناعتى وهى مرتزق ، فاذا لم آخذ حق فكيف بالله أعيش ؟

فابتسم وربت لى على كتفى ملاطفاً ، وقال : « العفو ! العفو يا أستاذ ، لا تقل هذا الكلام ! سبحان الله العظيم ! »

يعنى أنه لا ينبغى لى أن أقول إن هذه صناعتى ومرتزق ! ويظهر أنه كان صادقاً وكنت أنا المخدوع ، فقد عشت من غير أن آخذ منه حق — ولا نصف مليم واحد منه !

وينفد الكتاب — عدة آلاف من نسخه — ثم يتبين لك أن الاسكندرية أو طنطا أو المنيا تسمع به وأن ما بيع بيع معظمه فى مدينة واحدة هى العاصمة ، والباقى رص فى الصناديق وشحن على البواخر إلى الهند والعراق ومدغشقر الخ وتجيئك الكتب تترى بذلك ، فتعلم أن النشر غير منظم ، وأنه كان فى وسعك أن تخرج للناس من كتابك أضعاف ما أخرجت لو أن هناك نظاماً

والعلاج عندى ليس أن تمين الحكومة الأدباء ، فإن هذا يفضى إلى الظلم والغبن ، ولكل حكومة من تؤثرهم بعطفها وبرها ؛ والأدب ينبغي أن يبقى حراً ، وإلا فسد ، وتعفن . ولو أن الحكومة أرادت الإنصاف وصدقت نيتها فيه ، لوجدت أن الأمر يوشك أن يفشو عليها ، والنتيجة المحققة على كل حال هى التمييز والغمط

إنما العلاج الصحيح العملى أن تقوم شركة ذات رأس مال كاف تتولى النشر ، وتنظم أسواقه فى البلدان العربية كلها ، وترتب الأمر فيما بينها وبين الصحافة على نحو يكفل التنويه الوافى

فى أوانه ، وقد استطاعت دور السينما أن تنظم علاقتها بالصحافة على وجه مرضى ، فلن تعجز عنه دار للنشر . وبذلك يستريح الكتاب ويطمئنون على حقوقهم ، ويثقون بسمة النشر ويوقنون من إمكان التعديل على ما يخرجون كما يفعل زملاؤهم فى الغرب

وفى هذه الحالة يتسنى ما لا يتسنى الآن : الطبع الجيد ، والحجم الموافق ، والربح المضمون ، ومع ذلك انتظام عمل الأديب وإتاحة الفسحة الكافية من الوقت للتفكير والكتابة والإتقان

هذه — فيما أعتقد — هى الوسيلة العملية ؛ فإن الأسواق موجودة ، والقراء يعدون بالآلاف فى كل قطر ، والصحافة أداة وافية : فالأمر لا ينقصه إلا التنظيم ؛ وهذا لا يكون إلا بالمال الكافى ، فهاتوا لى المال ، ثم انظروا ماذا أصنع لكم يا إخوان ! ولا تخافوا أن أبدده . نعم . ستحدثنى نفسي بذلك وتحاول أن تحملنى عليه ، ولكنى سأقاومها ، وسأروض نفسى على هذه المقاومة من اليوم ، فلا تخشوا شيئاً ، ولا تقلقوا على مالكم ، ومع ذلك فلأن أبدده أنا خير من أن تضيعوه أنتم . ومتى كنتم تحسنون الإنفاق ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ٦ —

وما كادت ظمياء تفوه بالعبارة الأخيرة حتى ابتدأت أوقن بأنى سأهتدى إلى سرّ ليلى . وقد عرفت أيضاً أنه لابدّ لى من التجمل والتوقر حتى يصل الحديث إلى مداه ، فقد قضيت دهرى وأنا أرعن أهوج لا أكاد أسمع الحديث عن الحب حتى يفتضح وقارى أشنع افتضاح . ولن أنسى ما حييت تلك الخسارة الفادحة التى قضت بأن يطوى عنى إلى الأبد سر السيدة (ن) فقد كانت عرفت من صواحبها أن شفاءها عندى ، وجاءت الشقية إلى عيادتى بشارع المدابغ ، فلما فحصتها تبين أن العلة لها سبب مدفون ، وكنت بحمد الله ولا أزال من أقدر الأطباء على تفرس المحجب من سرائر النفوس ... أنهدّتْ تلك السيدة على المقعد ، وبدأت أحاورها فى ماضيها لأعرف سرّ العلة ، فما كادت تقرأ السطر الأول من صحيفة ذلك الماضى حتى طار صوابى ، فوضعت يمناها على صدرى ، ولكن الشقية لم تمهلنى وأفلتت كالظبي المذعور . وبذلك طُوِى عنى سرها إلى الأبد . وكانت تلك الحادثة سبباً فى انتقالى من شارع المدابغ إلى شارع فؤاد

وما أحسب ظمياء إلا صورة من السيدة (ن) وربما كانت أفظع وأعنف فهى عراقية ، والعراقيون تغلب عليهم سرعة الانفعال ؛ والمرأة العراقية فيما سمعت ورأيت لا تسكن إليك إلا إن ضمنت حسن الأدب وكرم العفاف ، وهى عندئذ لا تحتاج إلى من يستدرجها لمسول الأحاديث ، وإنما تنطلق كالبحر الثجاج ؛ فاذا ارتابت فى أدبك ... لا أدرى ما تصنع فإن الله رحمنى من أمثال هذه المواقف منذ قدمت العراق ، وهو عز شأنه قادر على أن يردّنى إلى وطنى مُشرق الجبين

وجملة القول أنى تجلدت وتماسكت ، فمضت ظمياء تتحدث ، ومضى المطر يقرع النوافذ كأنه عذول ، وبين القلب الخافق والسحاب الدافق صلات يعرفها من يؤمنون بوحدة الوجود

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم وقف قطار المرض ، فلم تنزل ليلى ولم ينزل الفتى ذو العينين الخضراوين . ودار القطار دورة ثانية قطعتها فى ذهول

— وأنت أيضاً تحبين يا ظمياء ؟

— ألست إنسانة ، يا سيدى الطبيب ؟

(وهنا رأيت من الحزم أن أعلن نزاهتى ، فأفهمتها أنى أنكر عليها هذه البدوات ، لأن الذى يهمنى هو الوقوف على سر ليلى ؛ وأشهد أنى لم أجد صعوبة فى اصطناع هذا النفاق ، فقد مرنت عليه بفضل ما ابتليت بالمنافقين الذين تقدموا وتأخرت . ويكفى ما مر بي من التجارب ، وأخشى أن تقنعنى الأيام بأن النفاق سيد الأخلاق)

— أنت يا مولاى طلبت أن أقص الحديث كما وقع

— كما وقع لليلى ، لا كما وقع لك يا ظمياء ، فأنت فى عافية وليلى هى المريضة ، والحكومة المصرية لم تكلفنى استقصاء أخبار المتيمين فى العراق ، وإنما كلفتنى مداواة ليلى المريضة فى العراق

— فهمت يا سيدى فهمت

— زين ، زين ، ثم ما ذا ؟

— ثم وقف القطار فتلاحظ العاشقان

— عاشقان ؟ وهل يتم العشق فى لحظة ؟ هل نحن فى السينما يا ظمياء ؟

— وقع التلاحظ بين ليلى وبين ذلك الفتى ، والتعبير بالعشق من عندى

— شيء جميل : فى أية مدرسة تعلمت يا ظمياء ؟

— فى المدرسة التى تعلمت فيها ليلى ، وهى المدرسة التى أنشأها حكمت سليمان فى سنة ١٩١١ بعد إعلان الدستور العثماني ؛ وكان حكمت سليمان مدير المعارف فى بغداد ، وكان تعليم الفتاة فى تلك الأيام من المسائل التي يختلف حولها المسلمون ، فكانت ليلى أولى فتاة قيد اسمها فى تلك المدرسة

(وهنا دونت فى مذكرتى أن ليلى قديمة العهد بالثورة على مأثور التقاليد ، وهذه نقطة مهمة سأعرضها على المؤتمر الطبى ، ولعلها تكون السبب فى كشف كثير من الأسرار ، فالثورة على التقاليد تحدث رجة فى المخ والأعصاب ، كما حدثنا المسيو ديبويه وهو يحاضرنا بكلية الطب فى باريس ، وهو أستاذ فاضل كنت السبب فيما وقع بينه وبين زوجته من شقاق)

— وهل درتم بالقطار دورة ثالثة ؟

— لا ، يا سيدى ، فقد خشيت ليلى أن تفطن إليها العيون فنزلت ونزل الفتى ، ولكنه أقبل عليها يقول : هل أستطيع أن أرشد السيدة إلى محتويات المعرض ؛ فانى أراها غريبة بهذه البلاد ؟ ولكن ليلى لم تلتفت إليه ، وانصرفنا ساكتين . وعرف الفتى أن سهمه أخطأ فمضى كاسف البال

— وبعد ذلك ؟

— مضينا بعد ذلك إلى البيت الذى نزلنا فيه بشارع قصر النيل ، وكان الحديث على المائدة من أشهى ما يكون ، فقد كانت الجرائد نشرت حديثاً لرجل مشهور اسمه سعد زغلول ، وكانت ربة البيت تحب إمتاعنا بصور الجدل السياسى فى مصر ، فأحضرت نحو عشرين جريدة فيها الرفض والقبول لذلك الحديث ، ثم أحضرت صورة كاريكاتورية نشرت فى الكشكول لكاتب معمم اسمه عبد العزيز البشرى فيما أتذكر ، وصورة أخرى للشيخ بخيت وهو يعترض على دخول السيدات أروقة البرلمان ، وكان الجو كله جو ضحك ، ولكن ليلى لم تبتسم . واملها لم تعرف كيف كان الطعام في ذلك اليوم

— مسكينة ليلى !

— نعم ، ياسيدى ، مسكينة ، فقد قضت ليلة مؤرقة ، ثم أزعجتنى من نومى قبيل الفجر لأستعد للعودة إلى المعرض

— ورجعتما إلى المعرض ؟

— رجعنا ، رجعنا ، وركبنا القطار عشرين مرة

— عشرين مرة ؟ ولماذا ياحمقاء ؟

— لنرى الفتى ذا العينين الخضراوين !

— ورأيتماه ؟

— مارأيناه ، وإنما رأينا أنضر منه وأصبح ، رأينا فتياناً كاللؤلؤ المنثور هم الشاهد على أن مصر من الحقول التى تنبت الجمال . وقد أمتعت عينى بمن رأيت ، ولكن ليلى ظلت صريعة الهم والبلبال

— مسكينة ليلى !

— هل تسمح لى أن ألطم ياسيدى ؟

— تلطمين ؟ إنك لبغدادية ظريفة ياظمياء . ما يهمنى أن تلطمى ، وإنما يهمنى أن أسمع بقية الحديث

— لم تكن ليلى تقول إنها ترجع إلى المعرض لتبحث عن ذلك الفتى ، وإنما كانت تدعى أنها تحب الوقوف على سر تقدم الزراعة والصناعة فى الديار المصرية . وحملها هذه الدعوى المزيفة على شراء عدة نماذج مما أنتجته حقول سملاى ، وهى النماذج التى عرضها السيد محمد محمود

— سمعت بمعروضات هذا السيد يا ظمياء

— وكتبت ليلى مقالة فى وصف المعرض نشرتها فى جريدة « البلاغ »

— سبحان الله ! لقد قرأت تلك المقالة في ذلك الحين وكنت أحسبها من إنشاء ليلى الصحيحة فى حلوان

— لا ، ياسيدى ، هى من إنشاء مولاتى ، شفاها الله !

— آمين ، ثم ماذا يا بلهاء ؟

— قلت إن ليلى كانت تتردد على المعرض بدعوى الاطلاع على أسباب تقـدم مصر فى الزراعة والصناعة ، أما أنا فكنت أعرف ماذا تريد ، وقد استمرت هذه الدعوى أسبوعين ، ثم يئست ليلى مما تريد ، فلم تذهب إلى المعرض بعد ذلك

— وبهذا انتهت القصة ؟

— لا ياسيدى ، فقد زعمت ليلى أنها شبعت من المعرض ، وشبعت من الأخبار الحديثة فى القاهرة ، وصرحت بأنها تحب أن ترى القاهرة المعزّية ، علها ترى ما يذكرها بأحياء بغداد ؛ فصحبتنا ربة البيت إلى حى يسمى الغورية ، فدخلنا الحمزاوى والفحامين ، وشهدنا حارة اسمها وكالة (أبو زيد) وفيها تجارة السيد (... ...) الذي يبيع أدوات السمنة للسيدات ، فوقفت ليلى عنده لحظة ، ثم انصرفت . وفى خان الخليلى رأينا سيدة ملفوفة كأنها من عقائل بغداد ، فحيتنا على غير معرفة ، فردت ليلى التحية بلهفة واشتياق . وأحببت أن أعرف سر هذه الحماسة من ليلى ، فنظرت إلى تلك السيدة فرأيت عينها خضراوين !

— أعوذ بالله !

— تستعيذ بالله ياسيدى من ذلك ؟

— نعم ، أستعيذ بالله من شر العيون الخضر ، فهى سبب بلائى فى هذا الوجود . ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم عرضت تلك السيدة أن تصحبنا لزيارة معالم القاهرة وقالت إن زوجها أستاذ فى الأزهر وأنه ينتظرها عند المعلم حسين الجريسى . ونظرت فرأيت ليلى تمشى وهى نشوى من الانشراح كأنها تلمح من وراء الغيب أعلام الأمل المرموق

وما هى إلا لحظات حتى كنا فى حضرة شيخ جليل اسمه الشيخ دعّاس

— الشيخ دعّاس ؟

— نعم ياسيدى ، الشيخ دعاس ، وهو الذى أنجب أحمد وابراهيم وجلبي وسيد ومحمود ، وهم زينة الرجال فى بلاد النيل

— رضى الله عنهم أجمعين ، ثم ماذا ؟

— ثم تعلل ذلك الشيخ بضيق الوقت ، ودعانا إلى تناول القهوة فى منزله ، فركبنا سيارته ومضينا إلى داره فى حىّ الزمالك . ولما دخلنا أبصرنا فتاة هى قيد العيون ، بل قيد القلوب ، اسمها درية ، فسألنا عنها فعرفنا أنها ابنة الشيخ دعاس ، وابنة السيدة نجلاء ، ونظرت ليلى إلى تلك الفتاة فلم تر عينيها خضراوين ، وإنما رأت عيونها عسلية ، وهو اللون الغالب على عيون المصريات ، وهو لون ينطق عن السحر الحرام والحلال

— اتق الأدب ياظمياء ، فأنت فى حضرة طبيب !

— الطبيب يسمع كل شئ !

— أمنت وصدقت !

— ومضت درية تباغم أمها باللغــة الفرنسية . فسألت عنها فقيل إنها تلميذة بمعهد الليسيه

(وهنا أجهدت ذاكرتى لأعرف من هى تلك التلميذة ، ثم تذكرت أننى لم أتصل بمعهد الليسيه إلا فى سنة ١٩٢٨ والحمد لله على ذلك ، فــا يسرنى أن تكون تلميذاتى محوراً لأمثال هذه الأحاديث)

— نعم ياظمياء

— وبدا لليلى أن تسأل عن السر فى اختلاف ألوان العيون ، فأجابت السيدة نجلاء بأن درية صورة لأبيها الشيخ دعاس ؛ أما ابنها فهو صورة أمه اللبنانية . فقالت ليلى : وهل اللبنانيون خضر العيون ؟ فأجابت السيدة : أنا لبنانية الوطن ، تركية الأصل . فقالت ليلى : ومعنى هـذا أن لك ابناً أخضر العينين ؟ فقالت السيدة : نعم ، وهو المحروس عبد الحسيب ، وهو طالب بمدرسة البوليس ، وسيحضر بعد قليل

« للحديث بقايا » زكى مبارك

سفارة ألمانية

إلى بلاط قرطبة

فى عهد عبد الرحمن الناصر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كانت أسبانيا المسلمة (الأندلس) قد بلغت ذروة قوتها؛ وكانت إلى جانب الدول النصرانية الثلاث: الدولة البيزنطية، ومملكة الفرنج، والامبراطورية الألمانية، رابعة الدول الأوربية العظمى؛ بل ربما كانت يومئذ أعظم الدول بما اجتمع لها من عناصر الفتوة، ومنعة الجانب، وروعة الملك، ورفيع الحضارة. كانت حقبة زاهرة، تعاقب فيها فى قيادة الغرب الإسلامى ثلاثة من أعظم قادة الإسلام وساسته، هم عبد الرحمن الناصر، فولده الحكم المستنصر، ثم الحاجب المنصور. وكان عهد الناصر بلا ريب أسطع هذه العهود وأعظمها، وفيه بلغت الأندلس ذروة القوة والازدهار، وفيه قامت الخلافة الأموية فى الغرب قوية موطدة، بعد أن اختفت من الشرق قبل ذلك بمائة وثمانين عاماً. وكانت قرطبة فى عهد الخلافة الأموية عاصمة الغرب الفكرية والاجتماعية؛ وكانت فى الطرف الآخر من أوربا تبث أضواء حضارة جديدة لم تلبث أن لعبت دورها العظيم فى تكوين الحضارة الأوربية

وقد تبوأت أسبانيا المسلمة مركزها الدولى فى الغرب. كان بلاط قرطبة يرتبط مع معظم الدول الأوربية بعلائق دبلوماسية منظمة؛ وكان أخص هذه العلائق مع الدولة البيزنطية فى الشرق، ومملكة الفرنج فى الغرب. ومنذ عهد عبد الرحمن بن الحكم (عبد الرحمن الثانى أو الأوسط) نرى سفارات الدول النصرانية تتوالى على بلاط قرطبة؛ وكان أهم هذه السفارات يومئذ سفارة تيوفيلوس امبراطور قسطنطينية فى سنة ٢٢٥ هـ (٨٣٦ م) ومقصدها أن تعقد الدولة البيزنطية مع الدولة الأموية تحالفاً على الدولة العباسية؛ ورد عبد الرحمن على هذه السفارة بأن أرسل وزيره يحيي الغزال سفيراً إلى الامبراطور لينظم بينهما علائق الصداقة والتحالف. وتبادل عبد الرحمن بن الحكم أيضاً السفارة مع ملك النورمانيين عقب الغزوات التى قام بها النورمانيون فى الأندلس، وانتهت بردهم وهزيمتهم

وفى عهد عبد الرحمن الناصر توالت سفارات الدول النصرانية على بلاط قرطبة، وكان أشهرها وأهمها سفارة قسطنطين السابع امبراطور قسطنطينية فى شهر صفر سنة ٣٣٨ هـ (٩٥٠ م). وتقدم إلينا الرواية الإسلامية وصفاً شائقاً لتلك السفارة الشهيرة، وتصف لنا احتفال الناصر باستقبالهم فى أروع المظاهر والرسوم، وتنقل إلينا أقوال الخطباء المسلمين فى ذلك الحفل الباهر

* * *

وفي سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٦ م) وفدت على الناصر سفارة من أوتو الكبير امبراطور ألمانيا؛ وكان يومئذ أعظم أمراء النصرانية كما كان الناصر أعظم أمراء الإسلام. وكان بين الملكين العظيمين علائق ومراسلات منتظمة، بيد أنها لم تكن ودية دائماً. ولا تحدثنا الرواية الإسلامية عن سفارة أوتو (أو أوتون) إلى الناصر بأكثر من الإشارة إليها؛ بيد أنها كانت سفارة هامة، وكانت ذات غاية خاصة وذات مغزى خاص. وكان سفير الامبراطور إلى الخليفة حبرا من أكابر الأحبار هو يوحنا أسقف جورتسي. وترك لنا يوحنا تفاصيل سفارته فى ترجمة حياته (Vita) وخلاصتها أنه سار إلى قرطبة ليسعى لدى الناصر فى أمر المستعمرات والعصابات المسلمة التى انتشرت فى أنحاء سافوا، وفى كثير من آكام الألب. وكانت غزواتها الناهبة تمتد حتى شمال سويسرة، وكان أمراء النصرانية التى تهدد هذه المستعمرات أملاكهم ورعاياهم قد فزعوا إلى الامبراطور أوتو باعتباره زعيم النصرانية وأقوى أمرائها، وطلبوا منه أن يتوسط لدى خليفة المسلمين عبد الرحمن الناصر فيستعمل نفوذه السياسى والروحى لإجلاء هذه المستعمرات عن معاقلها أو على الأقل لوقف اعتدائها وعبثها. فنزل الامبراطور عند تضرعهم وبعث سفيره إلى الناصر، فقصد يوحنا إلى قرطبة عن طريق فرنسا، ومعه طائفة من التحف والهدايا طبقاً لرسوم العصر. ولما وصل إلى دار الخلافة استقبل بحفاوة كبيرة، وأنزل فى منزل خاص؛ ولكنه لم يقدم إلى الناصر فى الحال، بل استبقى مدي حين فى شبه اعتقال محوطا بالاكرام والرعاية؛

ويوضح لنا يوحنا بواعث هذا الاعتقال فيقول لنا : ان الخليفة كان يحقد على الامبراطور لأنه كان قد تعرض للاسلام في بعض كتبه إلى الناصر[1]، واعتقل مدى حين سفيراً نصرانياً كان الناصر قد أوفده إلى بلاطه ، فرأى أن يقابل تصرف الامبراطور بمثله ، ويعتقل سفيره أعني يوحنا حتى يتحقق من عواطفه ونياته .

وبعث الناصر إلى الامبراطور سفيراً ، واختار لهذه السفارة قساً من رعاياه النصارى اتباعاً لتقليد جرى عليه الخلفاء فى معظم سفاراتهم إلى القصور النصرانية . وكان اوتو يومئذ مشتغلا ببعض الحروب الداخلية ، فأبدى تساهلا فى قبول وجهات نظر الخليفة ، ولم يثر من المجادلات ماعتاد أن يثيره ، وأكد صداقته لخليفة المسلمين . وعاد السفير إلى قرطبة يحمل إلى الناصر تحيات اوتو وتأكيداته الودية ، فارتاح الناصر لهذه النتيجة ، وأذن باستقبال يوحنا سفير الامبراطور . واستقبل يوحنا استقبالا فخماً ظهرت فيه عظمة البلاط الأموى ، وتحدث إلى الناصر عن مهمته وغاية سفارته . ولسنا نعرف ماذا كانت نتائج هذه السفارة ، لأن يوحنا لم يحدثنا عن ذلك فى روايته ؛ ولكن المرجح أن وجهة النظر التى أبدتها حكومة قرطبة هى أنها ليست لها أية علاقة بالمستعمرات العربية فى غاليس وسويسرة ، وانها لا تتحمل تبعة أعمالها ، ولا تستطيع أن تتدخل لديها . وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات ، مما يدل على أن حكومة قرطبة لم تكن تعنى كثيراً بشأنها ، وإن كانت بلا ريب تنظر إلى غزواتها فى الأراضى النصرانية بعين العطف والتأييد

على أن الرواية الكنسية من جهة أخرى تحدثنا عما أفضى به الناصر إلى يوحنا من الملاحظات السياسية والادارية ؛ فقد بسط ليوحنا خططه فى السياسة العامة ، وأنحى باللائمة على الامبراطور أوتو لأنه يضع ثقته فى أشرافه ؛ ومثل هذه السياسة لا تزيد الاشراف إلا غروراً ، ثم تنتهى بهم فى أواخر الأمر إلى العصيان والثورة . ولهذه الملاحظة السياسية التى توردها الرواية الكنسية عن الناصر أهمية خاصة ، وهي ليست إلا صدى لسياسة الخلافة الأموية وسياسة الناصر ذاته ؛ ذلك أن الناصر كان يعتمد فى تنفيذ سياسته على طبقة الموالى والصقالبة ، ولا يثق بالاشراف وزعماء القبائل من العرب . وكان من آثار هذه السياسة أن جعل الناصر بطانته من الصقالبة المستعربين ، ورفع كثيراً منهم إلى مناصب النفوذ والثقة فى الحكومة وفى الجيش . وكان الناصر يخشى منافسة الرؤساء ذوى العصبية ويقصيهم عن كل نفوذ ، ويخضعهم لهؤلاء الصقالبة الذين اتخذهم فى يده آلات طائعة تعبر عن خططه ورغباته . وكان لهذه السياسة أثرها فى توطيد سلطان العرش ، والقضاء على سلطة الزعماء المحليين ، وعلى مطامع الرؤساء المتطلعين ، ولكنها كانت من جهة أخرى خطراً على العرش إذ عرضته لسخط الأشراف والزعماء العرب ، وخطراً على الجيش إذ كان سواد ضباطه من العرب الذين يعتزون بعصبيتهم ويسوءهم أن تضار هذه العصبية ويعتدى عليها . وظهر أثر هذه السياسة فى أواخر حكم الناصر إذ ظهرت أعراض الوهن والانحلال فى الجيش ؛ ثم ظهر خطرها على العرش فيما بعد إذ غدا عرضة لمطامع المتغلبين والمتنافسين

* * *

تلك هى قصة هذه السفارة الشهيرة التى وجهها الإمبراطور أوتو الكبير إلى عبد الرحمن الناصر ، وتشير الرواية الاسلامية إليها فى عبارات موجزة[1] مما يدل على أنها لم تفطن إلى أهميتها السياسية والاجتماعية ، ذلك لأنها كانت سفارة من نوع خاص ، ولم تكن متعلقة بالشئون والعلائق الدبلوماسية العامة ، ولم تكن الإمبراطورية الألمانية الناشئة مشهورة فى بلاط قرطبة شهرة الدولة البيزنطية أو مملكة الفرنج ، ولكن التفاصيل الشائقة التى تقدمها إلينا الرواية الكنسية تدلى بأهميتها وطرافتها ، وأول ما تدل عليه ما كان لبلاط قرطبة فى عهد الناصر من الهيبة والنفوذ حتى فى دول كألمانيا لم تكن تربطها بالأندلس مصالح أو علائق دبلوماسية مباشرة ؛ بيد أن أهم ما تدلى به هذه السفارة هو صفة الزعامة والارشاد التى كان يبدو بها بلاط قرطبة ، فقد رأينا الناصر يلقى درساً فى السياسة والادارة على الامبراطور أوتو ، وهي صفة كان فى ظروف الأندلس يومئذ ما يبرر اتخاذها ، فقد كانت الأندلس عندئذ فى أوج قوتها وعظمتها ، وكانت حكومة قرطبة فى نظمها السياسية والادارية والاجتماعية نموذجاً لأعظم

(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٧١ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤

وأرقى حكومات العصور الوسطى ؛ وكانت الحضارة الأندلسية فى سائر نواحى الحياة العامة والخاصة مضرب الأمثال فى الروعة والبهاء ؛ وكانت نبراسا تمتد أضواؤه إلى أقاصى أوربا ؛ وكان للزهراء عاصمة الناصر وبلاطه فى الأمم الشمالية شهرة سحرية ، حتى أن الراهبة السكسونية هرو-ويتا تغنت بجمالها وروعتها فى قصائدها اللاتينية وأسمتها « زينة الدنيا » (١)

والخلاصة أن عظمة الأندلس يمكن أن تقرأ فى هذه الصفحات المطوية من تاريخ العلائق الدبلوماسية بينها وبين الأمم الأوربية أكثر مما تقرأ فى تاريخها الخاص : ففى هذه الصفحات نجد صوراً كثيرة مؤثرة من ذلك الاجلال الذي كانت تفرضه الأندلس إبان عظمتها على أمم الغرب والشمال

محمد عبد الله عنان

(١) دوزى — (الطبعة الأولى) ج ٣ ص ٩٠ — ٩١

الفهم الفلسفي للثورة على الأخلاق

للأستاذ عبد العزيز عزت

سيدى الأستاذ الزيات

قرأنا بإعجاب فى الرسالة الغراء ما كتبتموه ، وما سطره أساتذة الأدب العربى فى الثورة على الأخلاق ، فأكبرنا فيكم نزعتكم إلى تأييد الفضيلة بهذا الأسلوب . وقد لاحظت بجوار ذلك غياباً نسبياً للفهم الفلسفى فى ذلك الحوار الأدبى ، مع أن الموضوع يمت إلى صميم الفلسفة بصلة وصلات . لهذا دعانى الواجب الفلسفى أن أحرر هذه الكلمة لعلها تلقى بعض الضوء من هذه الناحية على هذا الموضوع :

فهم بعض الناس فى مصر الثورة أنها النزاع بين وجهتى نظر متناقضتين ؛ فهناك أنصار القديم ، وهناك المجددون ؛ وهناك رجال الدين ، وهناك « المستغربون » ؛ وهناك أصحاب الفضيلة ، وهناك « المسترذلون » . نزعة « التثنية » هذه Dualisme فى تصور الشىء وضده ، هى نزعة « حزبية » لا تليق بطبيعة التفكير جرتها علينا من بعيد الحضارة الفارسية التى يسودها مذهب زرادشت Zeroastre فى كتابه الأفستا Avesta الذى يقول بتنازع قوة الشر « أهرمن » وقوه الخير « أهورا » . وكذلك جرتهـا علينا — فيما أرجح — من قريب مبادىء الثورة الفرنسية فى تصور معنى الحرية والاستقلال ؛ فهناك ابن الوطن Le citoyen من ناحية ، وهناك الملك من ناحية أخرى ؛ ذلك لأن التفكير فى ذاته وسيلة سلمية هادئة لخلق « التماسك » فى عقلية الفرد ، وخلق التماسك فى عقليـة المجتمع ؛ وهذا التماسك هو الانتقال من حالة نوعية إلى حالة من نفس النوع يجوز لها التخصيص . فكل ثورة هى نهاية ظاهرة لحالة تطور هادئ سبقته ، وتضمنت هذه الثورة ؛ فهى إذاً حاضر لماضٍ سبق قد مهد لها ، وهى حاضر كذلك لمستقبل يأتى ، تمهد هى له التورة فى نظر الفيلسوف الألمـانى شيلنج Schelling لا يمكن أن تنفصل عن التطور وعناصره الثلاثة : الماضى ، والحاضر ، والمستقبل . (التطور هنا لا يقصد به نظرية داروين وسبنسر التى أثبت خطأها أستاذنا الفيلسوف لالاند Lalande فى كتابه : « خداع التطور » Les illusions évolutionistes ؛ وإنما التطور الذى نزل من فلسفة أفلاطون وقالت به المدرسة الألمانية الحديثة وخاصة هيجل Hegel وشيلنج Schlling وهو التطور المنطق لظاهر التاريخ عامة) . فالثورة بهذا الفهم هى عنصر أكيد للسلام والتقدم

ولنأخذ مثلاً ثورة أفلاطون فى العهد القديم . هـذه الثورة كما يحدثنا الفيلسوف الألمانى زللر Zeller في كتابه « فلسفة أهل اليونان » الجزء الأول — جمعت بين الفلسفة الطبيعية التى سادت التفكير اليونانى إلى ماقبل سقراط ، وجمعت الفلسفة المنطقية التى وجدت فى عصره عند السوفسطائيين ، وكذلك الفلسفة الأخلاقية التى قال بها سقراط ، ففيها يلتئم عنصر الماضى وعنصر الحاضر وكذلك عنصر المستقبل ، لأن فلسفة أفلاطون ضمنت الحياة للفلسفات المنطقية والأخلاقية من بعده ، الأولى فى تلميذه أرسطو والثانية فى زعيم الرواقيين كريزيب Chrysippe ومن أخذ عن هذين الفيلسوفين إبان القرون الوسطي من عرب ، ورومان ،

ومسيحيين . وهكذا بعد أن كانت الفلسفة المنطقية من قبل أفلاطون سبيلاً للشعوذة والسفسطة والثرثرة ، أصبحت فلسفة محترمة تبغى إقامة العلم والبحث عن الحقيقة المجردة . كذلك بعد أن كانت الفلسفة الأخلاقية من قبله وسيلة لإخضاع الفرد فى المجتمع اليونانى أو الدولة الحاكمة ، أضحت سبيلاً لتحريره وتقوية إرادته

ومثل آخر فى العهد الحديث : ثورة كانْت Kant الألمانى فهى قد جمعت بين تيار المـاضى — بالنسبة إليه — وهو تيار فلسفة ديكارت Descartes حينما يتكلم عن ملـكات العقل ، وتيـار الحاضر — بالنسبة إليه — وهو تيار الفلسفة الإنجليزية الممثل فى فلسفة دافيد هيوم David Hume ، لأن(كانت) نفسه يقول إن هيوم «أيقظه من سباته الفـكرى » . ونجد أثر هذا ظاهراً عند ما يتـكلم كانت فى أثر الحواس فى نظرية المعرفة ؛ أما عنصر المستقبل فهو أن كانْت Kant كفل الحياة من بعده لفلسفات تنطق تارة باسم العلم مثل فلسفات أوجست كنت ، وكورنوه Cournot ، وفلسفات تنطق باسم المنطق والإلهيات مثل فلسفة لاشليه Lachelier ، وفلسفة بوتروه Boutraux (اقرأ كتاب أستاذنا العلامة الـكبير لاسباكس Lasbax أسـتاذ الفلسفة بجامعة كليرمون ، ورئيس المجلة الدولية للعلوم الاجتماعيـة ، والسكرتير السابق للوزير بريان Brian ، وعنوانه : « المنطق وتطور العالم »

وعليه فالثورة فى التفكير هى عنصر للسلام أى التوفيق بين المـاضى والحاضر الفكرى ، ومظهر للتقدم ، أى يجب أن تكفل خلق تيارات جديدة للفـكر فى المستقبل .

أما الآن فلنتحدث عن الثورة « الأخلاقية » . الثورة فى مجال الأخلاق تتضمن الإقرار بوجود هـذا المجال ، وتميزه فى نفس الوقت عن المجالات الأخرى كمجال النفس والاجتماع والمنطق ، والاقرار كذلك بأن له طبيعة خاصة وأصولا للتفـكير فيه ، وإلا أصبح البحث عبثاً ، والجدال رغاء ، وقلبت الأوضاع ، وأنـكر التاريخ ، وجحدت المجهودات القائمة للفلاسفة . فنحن إذاً لا نوجه كلامنا إلى أصحاب الرذيلة الذين بخسوا الفضائل حقها .

ولـكنا نوجهه إلى الأساتذة أصحاب الفضيلة فنقول :

الثورة فى مجال الأخلاق لا تبنى على إنكار الفضائل ، وتجاهل أمر الثورات الأخلاقية فى تطور التفـكير البشرى ، ولـكن على علاقة الفضيلة بالرذيلة أولا ، وعلى استعراض التصور النوعي للفضيلة فى الثورات الأخلاقية

(١) أما عن تحديد علاقة الفضيلة بالرذيلة فلا يمكن البحث عنها خارج فلسفة الرواقيين ، لأنه أعظم مبدأ أخلاق وجد إلى الآن فى تطور التفـكير الإنسانى ، وذلك لأنه قضى على مبادئ الأخلاق التى تقدمته بتعاليمه السامية . فبينما سقراط يجتهد أن يتخذ من الأخلاق سبيلا لتقييد حرية الفرد وإخضاعه للدولة الحاكمة فى المجتمع اليونانى ، نرى أفلاطون يفترض السوء فى طبيعة الإنسان ويجتهد بعد ذلك أن يرفعه إلى قداسة عالم المثل . كذلك أرسطو فهو يميز وينوع بين خلق الله فيقر الرق والاستعباد ، ويضع أخلاقه للسادة من الناس ، والأرستقراطية التى قضت مباشرة على مبادئه وأضحى فـكره ميتاً بعد حروب الاسكندر الأكبر ، لأن المجتمع اليونانى فى ذلك الزمان أصبح فى حاجة ماسة لمن يخاطبه بلغة قليلة التجريد — أقرب إلى الواقع منها إلى الخيال ، يتحقق خلالها ذلك الفهم الواسع الذى أدركه اليونانيون باحتكاكهم بعد تلك الحروب بسائر الأمم الأخرى ، لهذا لاقت تعاليم الرواقيين نجاحاً عظيما وخاصة تعاليم كريزيب Chrysippe (اقرأ كتاب أستاذنا أميل برهييه Emile Bréhier وعنوانه كريزيب فى مجموعة ألـكان Alcan لـكبار الفلاسفة) لأنهـا ألغت الرق ، وجعلت الناس سواسية كأسنان المشط أمام القانون الأخلاقى ، وافترضت الخير فى طبيعة الإنسان . وأهمية هـذا المذهب لا تقف عند هذا الحد لأنه ساد بعد ذلك كل العالم الرومانى ، وعالم القرون الوسطى فى أوروبا خلال آباء الـكنيسة . والأهم من ذلك أخيراً أن زعماء الفـكر الحديث عندما كتبوا فى الأخلاق تأثروا بالرواقيين ، فمثلا ديكارت فى خطاباته مع البرنسيس اليزابث ، وسبينوزا Spinoza فى كتاب « الأخلاق » ، وكانت Kant فى كتابه عن الأخلاق

فالرواقيون آباء الأخلاق لم ينـكروا فى ثورتهم الفضائل ولم يبخسوا كذلك الرذائل حقها وما لها من أهمية فى الحياة ؛ غير

أنه يستحيل فى نظرهم فصل الاثنين عن بعضهما ، لأن الإنسان مركب من روح وجسم — وهى البداهة كلها — فله شهوات تدعو إلى الرذيلة ، وله غايات روحية سامية يريد تحقيقها ؛ غير أن الشهوات والميل إلى الرذيلة ليست بطبيعية فى الإنسان ، فالإنسان كأساس خَيِّر بطبعه ، ولكن الحياة الخارجية المادية ومغرياتها هى التى تفسد عليه داخليته ونفسه الطاهرة . ولما كان أغلب الناس لا يمكنهم التضحية بمغريات الحياة الخارجية ، اضطر الرواقيون ألا يتجاهلوا أمر الرذيلة وأثرها فى التخلق فحسبوا لها حساباً بل جعلوا منها ضرورة لازمة للفضيلة ؛ ويقدمون لذلك ثلاث حجج ، (يجدها القارئ فى كتاب أستاذنا برهييه Bréhier والأستاذ بيفان Bevan)

أولا — حجة بالمقارنة ؛ فالرذيلة تابعة للفضيلة وشرط أساسى لها ؛ ويضربون لذلك مثلا جمال رأس الانسان الذى يتضمن فى نفس الوقت نوعاً من الضعف هو رقة عظامه وتعرضه فى أي لحظة للأخطار الطارئة ، فاذن ليس هناك جمال خالص من ضعف أو قبح يشوبه ، كذلك (ut...sic) ليس هناك فضيلة خالصة ولا بد للرذيلة أن تلازمها فهى ضرورية لها

ثانياً — حجة منطقية : تتلخص فى أن النقيضين متضامنان ؛ فالخير يتضمن الشر فى تصوره ، والحسن يتضمن القبيح فى إدراكه ، والفضيلة تتضمن الرذيلة وهلم جراً ...

ثالثاً — حجة أخلاقية : يقول الرواقيون : الرذيلة ليست من طبيعة مغايرة للفضيلة ، فكلاهما من نوع واحد . وليست الرذيلة هى حرباً على الفضيلة ، وإنما هى فضيلة ضالة ، والعقل فى تصورها وفعلها خاطئ ، ومهمة الأخلاق هى العودة بما ضل إلى الطبيعة الخيرة الأولى

هذا الفهم للملاقة بين الفضيلة والرذيلة اضطر الرواقيين إلى تصور نوعين من الأخلاق : أخلاق لا يصح أن نسميها « خارجية » نجدها فى كتاب « الواجبات » لشيشرون ، وهى تختص بمغريات الحياة الجارية وتبنى على ما يجب فعله وما لا يجب أن يفعله الانسان فى يومه ، والتحقير من أهمية الماديات لتغير قيمتها بتغير الأشخاص والأزمان والأصقاع ، فهى أشياء عارضة ، وينبغى الزهد فيها ، والاعراض عنها ، فهى أخلاق تهتم بتخفيف وطأة الرذيلة

وأخلاق تسميها « داخلية » تبنى على رياضة الارادة ، أساسها ضبط النفس وغرضها الوصول إلى الخير المطلق ، ونجدها فى كتاب شيشرون المسمى De finibus ، وهي مايصح تسميتها كذلك بلغة العلم الحديث « أخلاق نظرية » ترمى إلى خلق الانسجام بين إرادة الوجود فى الفرد ، وإرادة الوجود فى العالم ، وإرادة الوجود فى المجتمع

كذلك الاستعراض النوعى للفضائل فى ثورات الأخلاق ، يدل دلالة واضحة على أن هذه الثورات لم تكن حرباً على الفضيلة ولم تكن للحط من قيمة الانسان إلى قدر هو أرفع منه ؛ وإنما كانت برداً وسلاماً عليها ، ترسم سبل الوصول إليها وامكان تحقيقها : فالثورة اليونانية الأخلاقية كما يذكر الفيلسوف بوتروه فى كتابه (مسائل فى الأخلاق والتربية) كانت ترمى إلى رفع الانسان إلى القداسة العقلية بحيث يصبح العالم بيتاً للانسان والآلهة (أنظر كذلك شيشرون «طبيعة الآلهة») . ويتحقق حلم الرواقيين فى خلق مدينة العقلاء فيسود السلام على الانسانية ، باحسان كل إنسان إلى أخيه فلا يبقى هناك فضل « ليونانى » على أجنبى

والثورة الدينية فى الأخلاق : إبان القرون الوسطى ويمثلها فيلون الاسكندرى فى اليهودية ، والغزالى فى الإسلام ، والقديس أوغسطين فى المسيحية ، تتلخص كلها فى تلك النزعة القديمة الشرقية التى اختص بها الجنس السامى وهى فكرة الخطيئة الأولى وما تتطلبه من التحلى بالفضائل كوسيلة لإنقاذ خلق الله من وصمتهم والعود بهم إلى جنات الخلد والنعيم (أنظر كتاب مُنك Munk « فى الفلسفة العربية واليهودية » ، وكذلك كتاب أستاذنا العلامة جلسن Gilson بالكليج دي فرانس وعنوانه : «المسيحية والفلسفة »

ثم جاءت بعد ذلك الثورة الحديثة فى الأخلاق تقيم الفضائل وتناصرها ولكنها تفهمها بشكل آخر جديد ، فبينما نجد القداسة العقلية عند اليونان ، والقداسة الربانية عند اليهود والمسلمين والنصارى ، نجد القداسة العملية النفعية عند الانجليز فى شخص هبز Hobbs ومدرسة بنتام Bentham ، وميل mill ، وسبنسر Spencer (أنظر جيو Guyau الاخلاق عند الانجليز وأيضاً سبنسر التطور والأخلاق

أصبحت الأخلاق عندهم تهتم بالحياة الجارية وتتأثر بالفهم الرياضى فأضحت « حساباً للذات » من وجهات الكم والكيف ، والبقاء ، والزوال ؛ وأصبح الفرد وأنانيته محوراً للأخلاق .

ظهرت ثورة أخلاقية جديدة فى ألمانيا هى ثورة كانت Kant تذكرنا بآراء الرواقيين فى العهد القديم لأنها ترتكز على فكرة الواجب L' idée du devoir المجرد عن الغايات النفعيــة والأغراض العارضة ، وأن الإنسان فى تخلقه يجب أن ينظر إلى ثلاثة أفكار : أولاً : أن يكون التخلق واحداً لكل الناس . ثانياً : أن يحترم الإنسانية فى شخصه . ثالثاً : أن يتخلق وأن يملى على نفسه تخلقه دون أن يخضع فى ذلك إلى مؤثر ما . لهذا كانت نهاية مبدئه الإرادة الحرة (أنظر دلبوس Delbos فلسفة كانت Kant

ونحن بعد هذا لا نريد أن نعدد الأمثلة أكثر من ذلك لنثبت أن للأخلاق والثورة عليها أو فيها طبائع وأصولا ومبادئ لا تبرر مطلقاً ما ذهب إليه الثائرون . لهذا غضبت النفوس الكريمة وناصرت الفضائل التى هى السبيل الوحيد لوجود الضرر كمنكر ، لأن ديكارت لا يفصل التخلق عن المعرفة والسبيل الوحيد كذلك لوجود الفرد اجتماعياً ، لأن دوركيم لا يؤمن بقيمة الفرد إلا إذا آمنت الناس من حوله بما ينطق ويفكر . فما كتبه الأستاذ الزيات ، وعزام ، والخولى هو لسان المجتمع فى هذا الموضوع المعبر الصادق عن المشاعر الخفية التى تكنها نفوس المصريين أجمعين من حولهم ، فليكفر إذاً هؤلاء الثائرون — اعتباطاً — عن آرائهم ، فالرجوع إلى الحق فضيلة

عبد العزيز عزت
خريج جامعات القاهرة وباريس ، وكليرمون
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

فلسفة التربيـــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٧ —

« إذا أمسك الله تعالى بالحق فى يمينه ، وبالدافع الدائم إليه فى يساره ، ثم أمرنى بالاختيار : لسقطت على يده اليسرى وقلت اعطنى هذا أيها الأب الأقدس ، لأن الحق الخالص ليس إلا لك »

ليسنغ Lessing

« ... وثقافة الانسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب ، ولكن بمقدار ما أفاده العلم ، وبمقدار علو المستوى الذى يشرف منه على العالم ، وبمقدار ما أوحت إليه الفنون من سمو فى الشعور وتذوق للجمال »

أحمد أمين

المنهج والطريقة

رأيت فى المقال السابق كيف تمتد يد « الديمقراطية » إلى « المعلم » و « المدرسة » و « الطالب » لتصلح من شأن التربية ما قد أفسدته النظم البالية والتقاليد الرثة ، وسترى اليوم ماينبغي أن يكون عليه المنهج وطريقة تدريسه حتى لايكون الأمر مجرد « إنهاك عصبي » لا أكثر ولا أقل ..!

يقسم الأستاذ « هورن »[1] العلوم إلى خمس طوائف : فنية ، وتشمل : العمارة والحفر والتصوير والموسيقى والأدب والدين ؛ وإرادية وتشمل : النظم والأخلاق والقوانين ؛ وعلمية عقلية وتشمل : المنطق والميتافزيقا والجمال واللغة والأخلاق النظرية ؛ وعلمية مادية غير عضوية وتشمل : الطبيعة والجيلوجيا والجغرافيا والفسيوجرافيا والفلك والمعادن والكيمياء ؛ وعلمية مادية عضوية وتشمل : الحياة والنبات والحيوان والفسيولوجيا والتشريح وتاريخ الإنسان والاجتماع والاقتصاد

وأنت ترى أن كلا من هذه العلوم يعالج إحدى نواحي الكون معالجة خاصة ، وأنها جميعاً ذات قيمة «ذاتية» كما يقول«هربارت» ولكنا فى ناحية « الثقافة العامة » على الخصوص مضطرون إلى التفريق بينها فى الدرجة والضرورة فلا نفضل منها إلا مايتفق وغايتنا . ومن هنا كان ذلك الخلاف الهائل فى آراء علماء التربية وأساليبهم ؛ « فهربارت » يطالب بقيمة المادة « الذاتية » بصرف النظر عن نتائجها وآثارها ، و « ديوى » يصر على اختيار المواد « النفعية » وفقاً لمذهبه العملى ، و« ريدجر Ruediger » القائل بفكرة الملاءمة مع البيئة[1] يعطينا قِيَماً آلية وأخرى ثقافية . فالأولى منها التحضيرى كمواد القراءة والكتابة ، ومنها العملى كمواد اللعب ، ومنها « الاجتماعى » كمواد الأجناس والأديان[2] والأخلاق والتاريخ والأدب ، ومنها « التقليـدى » كالخطابة والجدل ؛ أماالثانية — الثقافية — وهىأرقى القيم جميعاً ، فتدخل فيها المواد التى تحرر العقل وتهذب العواطف وترقى بالشعور ، كالفلسفة الخالصة والأدب المجرد

هـذا وقد رتب الفيلسوف « سبنسر » المواد تبعاً لأهميتها وضرورتها فجعل علوم « الصحة » على رأسها ، وتليها علوم « التربية » ثم علوم « السياسة والاجتماع » ثم علوم « الفراغ » أى « الفنون » ... !

أما « رسل » فقد فضـل المواد التى « تُبقى وتحفظ قوة الخـلَق والتضلع والحيوية فى الفرد ، وتعينه على التمتع بالحياة ذاتها

وأما الأستاذ « أمير بقطر » فيقول بانتخاب المواد التى تفتح على الطالب أكثر من باب واحد[3]

ولقد أدلى الأستاذ « أحمد أمين » برأيه فى الموضوع فقال[4] « إذا كانت قيمة الثقافة الذاتيـة هي أبداً فى مقدار ماترفعه فى المثقف من وجهة النظر إلي الأشياء وتقويمها قيما جديدة أقرب إلى الصحة ، أسلمنا ذلك إلىنتائج خطيرة ، فدين خير من دين بمقدار ما تحاول تعاليمه من رفع مستوى النظر إلى الله وإلي الحياة ، وعلم خير من علم باعتبار ما يؤدى إليه من نظر راق صحيح . وثقافة الانسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب ، ولـكن بمقدار ما أفاده العلم وبمقدار علو المستوى الذى يشرف منه على العالم ، وبمقدار ما أوحت إليه الفنون من سمو فى الشعور وتذوق للجمال

(١) انظر كتابه Horn Aphilos, of Eaucation

(١) ويكون ذلك بالتقدير المتزايد للبيئة مع الانسجام والسيادة والقدرة على الانتفاع بقوى الفرد وجعلها نامية فعالة منتجة

(٢) ولسنا نوافق الأستاذ « ريدجر » فى جعله قيمة الدين آلية فحسب

(٣) لا أذكر مع الأسف عدد « مجلة التربيـة الحديثة » الذى جاء به هذا الرأى

(٤) أنظر مجلة الرسالة السنة الثانية عدد ٢٣ مقال « قيمة الثقافة »

وأنت ترى معى أن تلك النظرة من الأستاذ حصيفة كل الحصافة وبعيدة الغور وسامية المنطق ، وأن نظرة « ديوى » مشوبة بالنفع العملى الذى يشوه فلسفته الخاصة ، وأن ترتيب « سبنسر » يقلل من شأن تلك المتعة « العقلية والفنية » التى جعلها « هورن » جوهر الثقافة الحقيقية

ومهما يكن من شىء فما دامت غاية التربية هى خلق الحياة الاجتماعية المثلى . وأعنى بها تلك الحياة « التى يستطيع الفرد أن يجد فيها مجالاً لتحقيق مستلزمات حياته الأدبية والعقلية والروحية والمادية على أتم وجه بحيث يتسنى له أن ينمو ويتقدم أخلاقيا وروحياً ومادياً وعقلياً نمواً تتطلبه طبيعته وتستطيع أن تحققه الظروف مع البيئة [١] » أقول ما دامت تلك هى غاية التربية فيجب أن نحاول تطبيق ذلك على مواد المنهج وطريقة تدريسها

« فالمادة » يجب أن تكون تامة الوفاء بما تتطلبه « المرحلة » البدنية والنفسية من نمو ، ويجب أن تكون محبوبة للطفل شائقة لديه لا هى بالسهلة ولا هى بالصعبة ، ويجب أن تكون مستمدة من الحياة ومرنة تلائم الاختلاف بين عقول الأفراد ، ويجب أن تظهر للطفل كأنها مادته الضرورية الخاصة ، ويجب أخيراً أن تكون « بحيث ترتفع به إلى مستوى أرقى فى العمل والشعور لا مجرد إنهاك عصبي [٢] »

وإذا كان الناقد الألمانى « ليسنغ » يقول إنه يفضل « الدافع الدائم للحق » ما دام الحق الخالص ليس لغيره سبحانه وتعالى ، فإننا يجب أن نتجنب حشو المنهج بالمواد ونكتفى بإثارة حب البحث فى الطالب ناظرين دائماً إلى الكيف لا إلى الكم حتى يكون المتعلم دائماً ذا عقل خصب لا يهرم بكبر السن ، ولا ينوء تحت أثقال معلومات مهوشة ، ولا ينى يبحث ويطلع بعد الدراسة محتفظاً بربيع الحياة

وما دامت دراسة « الطبيعة » ذاتها وسيلة للاحتفاظ بالحياة وللمتعة فيها والرفاهية ، فلا تعارض إذاً بين الدراسات الطبيعية العلمية والدراسات النفسية الفنية ، وإذاً فليكن فى المنهج ثقافة عامة توسع الإدراك وتدقق الفهم ، وتاريخ وجغرافيا يزيدان فى معنى التجارب الإنسانية وثروتها ، وعلوم طبيعية تفتح مجالاً للعقل وتؤدى به إلى الصيغ والقوانين الكلية ، ولعب يجعل الدراسة شائقة وينفس عن الغرائز ، وفلسفة خلقية وميتافيزيكية واجتماعية توطد من مركز الناشىء فى المجتمع والكون وتفهمه علاقة الأرض بالسماء .. !

أما الطريقة فلا تكاد تقل خطورة عن المادة ، بل إن المستحدثات في التربية لتنصب عليها بوجه خاص ، ذلك أن دراسة علم النفس للطفل وقواه قد كشفت عن أصول أساسية ينبغى أن يتبعها « المعلم » فى تدريسه ، ومن هذه الأصول ألا تكون الطريقة « قياسية » إلا فى آخر مراحل التدريب ؛ أعنى أنها يجب أن تكون استقرائية قائمة على المشاهدة بحيث تجعل الطفل فى حالة « اختبار » حقيقية يرغب فيها لذاتها ، وتنبه فكره إلى المسائل التى يعالجها ، وتتيح له القدرة على تدبير هذه المسائل بمعرفته وملاحظته ، وتجعله مسئولاً عن حل الحلول التى تعرض له بطريقة منظمة ، وتعطيه أخيراً الفرصة التى يختبر بها صحة فروضه ويتأكد من صحتها

هذا إلى وجوب تفهيم الطفل قيمة ما يدرس ومدى نفعه فى الحياة العملية والمنوية ليزداد جهده فيه وإقباله عليه ، وليكون قلبه معه دائماً فى عمله ، وإلى وجوب وقوف المدرس بين بين [١] فلا يترك الطفل يمضى إلى إشباع ميوله دون رقابة ، ولا يملى عليه ما يريد إملاء قسريا ، بل يتبين ما يتحفز فيه من غرائز وميول ويقدم له ما يساعده على ما يريد

ولما كانت الطريقة هى ترتيب المادة بحيث تكون أكثر فاعلية فى الاستعمال فإنها لا تكاد تخالف المادة قط . أليس من « يأكل » يتناول طعاماً هو « الأكل » نفسه ؟ [٢]

وقد نجم من فصل الطريقة عن المادة قلة فرص التجاريب أمام الطفل ، وسوء فهم النظام والشوق ، والعناية المقيتة بالحفظ وحده ، وجعل عملية التعليم ميكانيكية عديمة الروح ، فأدى الأمر إلى تخشب آلى « بسبب الفصل بين العقل وبين النشاط الذى له من خلفه غرض يدفعه [٣] »

أفرأيت هذا كله ؟ أفلا حظت ما فيه من قوة ونفع وسمو ؟ إنهم هكذا يفكرون فى أمريكا وكذلك يطبقون [٤] ...

(يتبع)

محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

(١) انظر مجلة الرسالة السنة الثانية عدد ٢٣ مقال قيمة الثقافة

(٢) انظر كتاب الأستاذ « ديوى » Democracy and Educ وقد لخصته الآنسة المربية إحسان القوصى فى رسالة صغيرة

(١) انظر ... A Source Book

(٢) انظر التربية والأخلاق للاستاذ فام (٣) من كلام للاستاذ ديوى

(٤) ومن حسن الحظ أن مصر قد بدأت تأخذ بذلك الاتجاه كما لوحظ فى الفصول التجريبية ومعهد فاروق الأول

بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

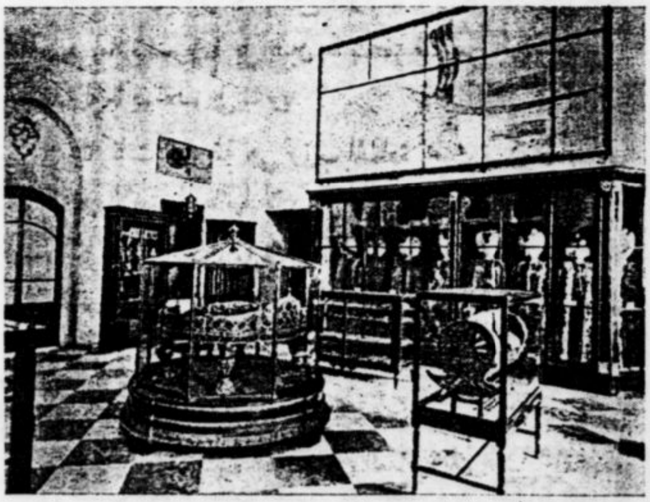
— ٥ —

متاحف طوب قبوسراى

يا أخى صاحب الرسالة

سلام عليك

وقفت بك فى الرسالة السابقة على عرش الشاه إسماعيل الصفدى. وجدير أن نطيل الوقوف عند هذا العرش الذى بذلت الصناعة وسعها فى هندسته وتذهيبه وترصيعه وتلوينه، ولاءمت فيه يد الإتقان بين الذهب والمينا والزمرد والياقوت، وألفت بين ألوانها تأليفاً متآلفاً مرضياً، وقد أرى فيه الذكَر تتلألأ تلألؤ الجوهر



عرش إسماعيل فى وقاية من زجاج ويرى فى وسطها

وقفت عند هذا العرش أذكر الشاه إسماعيل هذا الملك الجبار الذى نشأ فى زلازل الحادثات حتى ملك أزمة دولة مبتدأة وهو لم يبلغ الحلم؛ وما لبث أن مد سلطانه ما بين العراق إلى الهند، ثم أورث أبناءه دولة لا تزال آثارها شاهدة بمآثرهم، ناطقة بعظمة ملكهم، مذكرة بما طوى الدهر من سلطانهم

هذا العرش ما خطبه، ما باله وخزائن سلاطين آل عثمان؟

هنالك ذكرت جلاد سليم وإسماعيل، وذكرت موقعة جالدران الموقعة التى كادت تذهب بدولة إسماعيل الناشئة؛ لولا أن عاقت سليماً العوائق. وجالدران وأرمديد وشمالى أزربيجان اصطفت فيه جنود سليم وجنود إسماعيل سنة ٩٢٥ من الهجرة. قسم سليم جنوده، وجعل الانكشارية فى القلب واتخذ مكانه خلفهم، وجعل المدافع وراء الجناحين وشد بعضها إلى بعض بالسلاسل.

وصف إسماعيل جنوده، وتولى قيادة الجناح الأيمن مائة وخمسون ألف جندى صمدت لمثلها؛ فانظر هذه الحرب المتأججة يضرمها ثلاثمائة ألف!

ويحمل إسماعيل الفتى الشجاع، معتزاً بجنده، مفتخراً بنسبه العلوىّ، مصمماً أن ينتصر أو يقتل، ويشق جناح العثمانيين الأيسر ويحسب أن النصر مقبل عليه

وتظاهر جناح العثمانيين الأيمن بالهزيمة وانقسم، فتحمل ميسرة اسماعيل وترمى بنفسها فى الفرجة بين القسمين فإذا هى أمام المدافع، وإذا النيران تأخذها من كل جانب. لاتتبدل الحال ويواتى العثمانيين الظفر

ويسقط اسماعيل عن جواده جريحاً وينجيه من الأسر القريب الفرار إلى تبريز

وبادر سليم يجمع الغنائم، ويزهى بما نال من ظفر على عدوه الجبار

وسليم يدخل تبريز بعد ثلاثة عشر يوماً دون حرب، وكانت تبريز يومئذ دار الملك وبها خزانة اسماعيل قد جمع فيها ما أخذ من التيموريين وغيرهم من الأمراء الذين غلبوا على ممالكهم. وبينما يدبر للاستيلاء على ملك اسماعيل كله يرى بين جنوده أمارات العصيان فيرجع أدراجه قانعاً بما أحرز من نصر وما ملك من بلاده. ثم لم يبق فى تبريز إلا ثمانية عشر يوماً

هذا العرش مما غنم سليم فى هذه الحرب الضروس

وذكرت حينئذ الرجل الكبير قانصوه الغورى الذى خشى صولة سليم فمالأ الشاه اسماعيل فأفسد ما بينه وبين العثمانيين

وتتابعت الأحداث حتى كانت وقعة مرج دابق فى رجب سنة ٩٢٢ قبل وقعة جالدران بسنين ثلاث . وتصورت سليما يحرز نصراً بعد آخر ويطوي مملكة بعد مملكة بجنده وعدده ، ولا سيما هذه المدافع التي لم يتسلح بها محاربوه

وعدت أتذكر ما أعقبتْ عداوة سليم وإسماعيل من عداوة بين المسلمين ، وما أثارا من ضغينة بين أهل السنة والشيعة ، وما كان القتال إلا على السلطان والجاه وإنما كانت المذاهب تعلة

ثم تمادت الفكر وتوالت الذكر فأخذت أقيس الرجال الثلاثة واحداً بآخر ، وأتذكر ما كان منهم فى السياسة والعلم والأدب . وقلت : هؤلاء الثلاثة الذين سيطروا على وسط البلاد الاسلامية كانوا يمثلون ثقافة الأمراء المسلمين . وفيما أثر عن ثلاثتهم من شعر نماذج من أدب أمرائنا فى القرن العاشر الهجرى . وهممت أن أكتب إليك فى هذا ياصاحب الرسالة ثم تذكرت أنى أصف آثاراً فى متحف ، وأن الكلام على قانصوه وإسماعيل وسليم جدير أن يستأثر بمقال أو أكثر

ولعلى أجد لذلك فرصة بعد

عبد الوهاب عزام

من برجنا العاجي

للأستاذ توفيق الحكيم

ما أطول حديثنا الصامت فى برجنا العاجى ! هذا البرج الذى يحرسه « تنين » الوحدة ! وما أكثر تلك الخواطر التى تمر برؤوسنا أحياناً كالطيور العابرة دون أن نقتنص منها شيئاً ! هنا داخل هذا الإطار وبين هذا السياج سأحبس ما يقع منها تحت ذاكرتى . وإن خواطرى لكثيرة ، لأن أوقات عزلتى طويلة ؛ وليس لى علم بلعب النرد ولا غيره من وسائل قتل الوقت ، فالوقت عندى هو الذى يقتلنى لأنى لا أعرف كيف أقتله . ولقد حاولوا كثيراً فى صباى أن يعلمونى تلك الألعاب التى تلهى الناس عن أنفسهم فى أوقات الفراغ ، ولكنى كنت أنسى دائماً فى المساء ما علمونى إياه فى الصباح ؛ ولم ينفع فى أمرى تعليم ولا تفهيم . وخرجت من عهود الصبا دون أن أحذق لعبة أو أحجية . شىء واحد كان يلهينى ويسرنى ، وقد كان عندى بمثابة النرد والأحاجى : ذلك هو الجدل حول فكرة من الأفكار . ولكم أتعبت كثيراً من أولئك الذين كانوا يلعبون معى هذا الضرب من الشطرنج فى وقت من الأوقات! لقد كنت أضيع عليهم نهاراً بأكمله دون أن أملّ ؛ وإن رؤوسهم لتكل فما أرحمهم ولا أرحم نفسى . إن حُب التفكير لنقمة . آه لو علم الناس كيف يعيش الأدباء ورجال الفكر ؟ ! إذن فليعلموا أن القدر يوم دفع الأدباء إلى الوجود صاح فيهم ساخراً : «اذهبوا فإن لكم الفكر ، ولكن ...» ولم يتم كلامه وابتسم ابتسامة هى أبلغ من التعبير

نعم . مامن أديب أو مفكر إلا أدرك أخيراً بعد أن قطع شوطاً من الحياة أن شيئاً آخر ربما كان أجدى عليه من الفكر قد سُلب منه إلى الأبد ! إنَّا نحسد أحياناً بقية الناس . وإنى لأتصور القدر وهو يشيع الآخرين إلى باب الوجود فيقول لهم : « اذهبوا فإن لكم الحياة ... ولكن ... »

أجل إنه يبتسم لهم كذلك عين ابتسامته الساخرة ، ولكن هؤلاء الناس لا يفهمون مطلقاً أن القدر قد سلبهم شيئاً . وهنا الفرق بيننا وبين بقية الناس : إننا نحن رجال الفكر ندرك تمام الإدراك ما سُرق منا وما فقدناه ؛ أما الآخرون فلا يعلمون . وهذا سر عذابنا نحن

والآن وقد تكشفت لنا حياتنا الفكرية عن برج مرتفع لاخروج لنا منه ؛ برج يملؤه السكون ولا نسمع فيه غير صدى أصواتنا الضائعة ؛ فلنتكلم إذن بين تلك الجدران . فإن رجع الصدى يؤنس على الأقل وحشتنا

توفيق الحكيم

أناشيد صوفية

جيتـــانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٧٢ —

إننى أبرأ من الاستسلام ، وأنا أستشعر الحرية تحوطنى فى لذة وطرب

وأنت — دائماً — تفرغ فى كأسى من رحيقك العطر ذى الألوان رشفةً سائغة ، فتفعم هذا الإناء الأرضى

إن دنياى ستشعل من نورك مصابيحها العديدة ، وتضعها أمام محراب معبدك

لا ، لن أغلق أبواب حواسى ، فإن لذاذات البصر والسمع واللمس تحمل فى ثناياها نشوة منك

نعم ، إن أوهامى ستتحرّق فى شعلة من مرح ، وإن رغباتى ستتفتح عن ثمرة من حب

— ٧٣ —

لقد خبا ضوء النهار وانتشرت عتمة الغسق على الأرض ، وآن لى أن أنطلق إلى الغدير لأملأ جرّتى

ونسمات الليل تشجيها موسيقا الموج الحزينة . آه ، إنها تنادينى لأندفع فى أضعاف الظلماء ، وما فى الطريق الموحش من عابر سبيل ، والريح تزف زفيفاً ، وصوت خرير الموج يتصاعد هائجاً من جوف النهر

لست أدرى إذا كنت سأعود إلى الدار ؛ ولست أدرى من عساى أن ألقى على الطريق . إن هناك فى القارب الذى يرسو فى الناحية الضحلة من النهر ، رجلاً مجهولاً يعزف على قيثاره

— ٧٤ —

إن آلاءك تفيض علينا فتسد مآربنا ، ثم ترتد إليك وما نقصت شيئاً

فالنهر يجد كل يوم عملاً ، وهو يندفع إلى الغاية بين الحقول والقرى ، ولكن مجراه المستمر يهفو نحو قدميك ليغسلهما

والزهر يتأرّج فيملأ الهواء عطراً شذيًّا ، غير أن غايته أن يقدم نفسه إليك

إن الاندفاع فى عبادتك لن يجدب العالم

ومن نفثات الشعراء خذ ما يحلو لهم ، ولكنك ما تزال غرضهم الأسمى الذى إليه يشيرون

— ٧٥ —

وعلى مر الأيام ، أفتسمح لى — يا إله الحياة — أن أقف بإزائك وجهاً لوجه ؟ وفى خضوعى وذلتى ، أأقف بإزائك — يا إله الكون — وجهاً لوجه ؟

وتحت سمائك العظيمة ، فى وحدتى وسكونى وذِلة قلبى ، أأقف بإزائك وجهاً لوجه ؟

وفى دنياك الصاخبة وهى تضطرب بالكد والتناحر ، وبين الزمر المتدافعة ، أأقف بإزائك وجهاً لوجه ؟

وحين ينتهى عملى فى هذه الدنيا أأقف — يا ملك الملوك — وحيداً صامتاً بإزائك وجهاً لوجه ؟

— ٧٦ —

لقد عرفتك إلهاً لى ثم تنحيت جانباً ... فأنا لم أعرفك أخاً فأندفع إليك ، ولا أباً فأنحنى أمام قدميك ، ولا صديقاً فأشد على يديك .

ولم أقف حيث أراك تهبط فتهدى نفسك إلىّ ، فأضمك إلى صدرى وأتخذك رفيقاً

إنك أخ بين إخوتى غير أنى لا أعيرهم انتباها ، فأنا لا أقسم بينكم حبى ، ولكنى أخصك بجميع قلبى

فى حالَىْ نعيمى وبؤسى لا أسكن إلى رجل بل أعتمد عليك أنت . إننى لأنزوى وفى نفسى أن أنزع عنى ثوب الحياة لأننى لا أريد أن أغتمر فى خضمها

— ٧٧ —

فى بدء الكون ، والكواكب تسطع — أول ما سطعت —

فى تألق ، إجتمع الآلهة فى السماء ، وانطلقوا يغنّون « أوه ، ما أجمل صورة الكمال ! ما ألذ الطرب المحض ! »

وعلى حين فجأة دوّى صوت من بينهم « إنه ليخيل إلىّ أن هناك نقصاً . إن إحدى حلقات الضوء مفقودة ؛ إن كوكباً قد ضاع ! »

فانقطع وتر القيثارة الذهبى ، وأمسكوا جميعاً عن الغناء ؛ ثم صاحوا فى فزع « نعم ، إن الكوكب المفقود أشد الكواكب لمعاناً ، لقد كان زينة السماء ! »

وراحوا — منذ ذلك الحين — يفتشون عنه فى دأب ونشاط ، وغمرتهم الصيحة ، ففقدت الدنيا — فى ثناياها — بهجتها الوحيدة !

وفى هدأة الليل وسكونه تبادلت الكواكب الابتسامات والهمسات « عبثاً تفتشون ! إن الكمال التام فوق كل شىء ! »

— ٧٨ —

ليست غاية جهدى أن ألقاك على الأرض ، فإذا أريد أن أستشعر — دائماً — فقد النظر إليك ... ولكن لا تمح ذكراك من قلبى لحظة واحدة ، ثم ذرنى أحمل آلام الحزن لفقدك فى غفلتى وفى يقظتى

وحين أقضى أيامى بين الحشد فى سوق الحياة فتمتلىء يداى بالكسب ، استلبنى من نشوة الربح ؛ ولا تمح ذكراك من قلبى لحظة واحدة ، ثم ذرنى أحمل آلام الحزن لفقدك فى غفلتى وفى يقظتى

وحين أجلس على جانب الطريق أستجم من أثر الأين والبُهر ، فأنشر فراشى على الثرى ؛ ألقِ فى روعى أن رحلتى ما تزال طويلة ؛ ولا تمح من قلبى ذكراك لحظة واحدة ، ثم ذرنى أحمل آلام الحزن لفقدك فى غفلتى وفى يقظتى

وحين تتزين حجراتى وتتصاعد أنغام القيثار وترتفع رنات الضحك ، دعنى أشعر كأننى لم أدعك إلى دارى ... ولا تمح ذكراك من قلبى لحظة واحدة ، ثم ذرنى أحمل آلام الحزن لفقدك فى غفلتى وفى يقظتى

— ٧٩ —

أنا كأننى نُثار سحابة خريف تضطرب عبثاً فى أرجاء السماء ؛ آه ، إن شمسى دائماً تتألق ! إن لمساتك لم تحولنى إلى بخار فأكون شعاعاً منك يحصى عدد الشهور والسنين التى تنفصل عنك

وإذا كانت تلك إرادتك ، وهذه هى غايتك ، فاجذب إليك حطامى المنقض ، واصبغه بالألوان وزينه بالذهب ؛ ثم ارسله بين هوج الرياح ليبدو فى فنون أخّاذة

وإذا كانت مشيئتك أن تنتهى من عملك والليل ساج ؛ فسأذوب وأتلاشى بين أضعاف الظلام ، أو فى بسمة الصباح اللامع ... فى الصفاء والنقاوة

— ٨٠ —

فى أوقات الفراغ آسى أنا على أيامى الضائعة ؛ ولكنها — يا إلٰهى — لم تضع ، فأنت قد بسطت يديك على كل ساعة منها

إنك تستقر فى أعماق كل شىء ، فأنت تنفث فى الحبة فتصبح نبتة ، وتنفخ فى الكِم فيتفتح عن زهرة ، وتنضج الزهرة فتحور ثمرة

لقد كنت أستشعر الجهد والضنى فاستلقيت على فراشى وفى خيالى أن كل عمل فى العالم قد وقف ؛ وعند الصباح انطلقت إلى حديقتى فألفيتها تموج بالزهر النضر

— ٨١ —

إن الزمان لا نهائى بين يديك ياسيدى ، وليس هنا من يستطيع أن يحصى عدد اللحظات

الليل والنهار يتعاقبان ، والدهر يتفتح ويذوى كأنه زهرة ؛ وأنت وحدك تعرف كيف تبقى ، والقرون يتلو بعضها بعضاً ، تدفع زهرة بريّة صغيرة إلى الكمال

لم يبق من وقت نضيعه فلنتدافع نحو الفرصة السانحة ، فنحن فقراء يؤذينا الكسل

وهكذا تصرم الزمن وأنا أحبو منه كل شاكٍ يعتنى ، فأقفر محرابك من القرابين

وعند الغروب انطلقت أشتد نحو بابك خيفة أن يغلق على ، غير أنى وجدت أنه ما يزال فى الوقت بقية

كامل محمود حبيب

أبو إسحاق الصابى

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

— ٣ —

لابد للكاتب الحريص أن يتحرى النواحى التاريخية التى تتصل بالحياة الأدبية عند ما يعرض حيـاة رجل كأبى إسحاق الصابى خبّ في السياسة ووضع ، وارتفع بأسبابها ووقع ؛ ليتبين هل كان بؤس ذلك الرجل طوال عمره أثر سرف فى خطته ، ونتيجة سفه فى مسلكه ؟ أم أن جيله الذى نشأ فيه هو رأس نكباته ، وأس ويلاته ؛ حتى صار البؤس على وجهه كتاباً مسطورا ، والشقاء فى حياته طريقاً مرسوما ؛ لذلك أرى وصف الحالة السياسية فى العصر الذى عاش فيه موجزا

ولد أبو إسحاق فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، والخلافة مزعزعة الأركان ، واهية البنيان ، يتبارى فى تقويض دعائمها وتهوين رواسخها أمراء متعددون ، وقواد متحفزون ، شغلتهم نفوسهم عن دولتهم ، فهم يبغون لشخوصهم ملْكا عضودا ، ولذواتهم نهوضاً وسمودا ؛ لا يبالون أن يبنوا ذلك على أنقاض منعة الإسـلام ، أو على انتهاك حرمة السلام ؛ وكان المتألبون أجناساً شتى ؛ فللترك طوراً القدح المعلى والنصيب الأعلى ، وللديلم حيناً القوة والبطش ، والمنعة والبأس ، والأمة حيال أولئك وهؤلاء كأسراب القطا تتخاطفها البزاة الجارحة ، أو كقطعان الحملان تتناهبها الذئاب الضارية

وفى الثلث الثانى من هذا القرن استتب الأمر قليلا لآل بويه واطمأن إليهم الملك ، فاستولى معز الدولة بن بويه على بغداد بعد أن انتشر فيها الفساد ، وطغت عليها الفاقة ، واجتاحتها المخمصة ؛ حتى هجرها أهلها إلى المدائن والقرى يستمطرون الرحمة ، ويبحثون عن الطمأنينة والدعة ، وبعد مدة خلع معز الدولة الخليفةَ المستكفى بالله ؛ لاتهامه إياه بدسائس يحوكها ضده ، وتدبيرات ينسجها فى الخفاء له ، وولى بعده ابن عمه المطيع لله ، وكان هذا كرة صولجانها معز الدولة ، ورخلة سيفها آل بويه ؛ يأمرون فيأتمر ، ويشيرون فيصنع ، ويشاءون فينفذ ؛ أما أن يكون له من الأمر شىء ، فذلك مالا سبيل إليـه . وظل ذاك شأن معز الدولة يدير شئون الأمة متفرداً ، ويقضى فى سياستها متوحداً ؛ حتى أدركه المنون منتصف القرن الرابع . فتولى الملك بعده ابنه بختيار ، وتلقب بعز الدولة ، وقد أشرف على الخلافة أحد عشر عاماً ، وهو لاهٍ عن أمرِ وَليـه ، وملك سَـلَبه حتى سُلبه ؛ لها بالغوانى الكواعب والمغنيات الكواكب ، فبرز له منافس قوى أوتى نبلاً وبعد همة ونباهة ذكر وحسن أحدوثة هو عضد الدولة ، فدخل بغـداد فاتحاً ، وقبض على محمد بن بَقية وزير عز الدولة وصلبه على رأس الجسر ، وهو المرثى بالقصيدة الخالدة لأبى الحسين الأنبارى وأولها:

علو فى الحيـاة وفى الممات ... لحق تلك إحدي المعجزات

فى هذا العصر أهلّ أبو إسحاق ودرج ، وشب واكتهل ، وشاب وهرم ، فلا بدع أن يناله ما ناله ، ولكن البدع أن يخرج من هذا المعترك لا عليه ولا له ؛ إذ معنى هـذا أنه كان فى الأدباء من النكرات ، وفى رجال الدولة من الإمعات ، وإن حياته لتنبئ عن غير هـذا ، فقد اعتقل فى عصر معز الدولة عند ما ناب عن الوزير المهلبى على ديوان الوزارة والرسائل لخروج الوزير إلى الشام مقاتلاً ، فقتل بعمان ، وقبض على عماله جميعاً وعلى رأسهم أبو إسحاق ومن قوله وهو معتقل :

يا أيهـا الرؤساء دعوة خادم ... أوفت رسائله على التعديد

أيجوز فى حكم المروءة عندكم ... حبسى وطول تهددى ووعيدى؟

قلدت ديوان الرسائل فانظروا ... أعدوت فى لفظى عن التسديد؟

أعلىَّ رفع حسـام ما أنشأته ... فأقيم فيـه أدلتى وشهودى

ولمـا فك اعتقاله خدم عضـد الدولة وهو بفارس ، بالشعر والكتابة يفيض عليه المدح ويضفى الثناء حتى صـار الصابى من جملة خاصته ، وموضع ثقته ومحبته ، ومحل رفده ورضيخته ؛ وحتى همَّ بالنزوح معه إلى فارس بعـد حلف عقد بينه وبين عز الدولة الدولة بختيار خوف سطوته ، وخشية بطشه وفتكه ؛ لتوثق علاقته بعضد الدولة ، ولكنه — وهو من عرفنا رعاية لأهله ، وحدباً على ولده — خاف أن يأخذ عز الدولة البرىء بالمذنب ، والمحسن بالمسيء ، فينال أهله منه سوء لا يجد لرده دفعاً ، ويصيبهم منه شر لا يعرف له درءا ، فيكون كمن يفدى نفسه بولده ، ويستخلص

دمه بدماء ذوى قرابته ، وما عرفنا فيه خيانة للجار الجنب ، فكيف به يسلم بنيه وذويه ، ويخرج مع البازى عليه سواد ؟ عرف عضد الدولة ما يعتلج فى نفسه ، وما يضطرب به فكره ، فجعل أمنه فى سربه جزءاً من الحلف ، وسلامته فى ولده شرطاً من شروط العقد ، فنص فيه على حراسته فى نفسه وماله ، وترك تتبعه فى شىء من أحواله . وبعد مزايلة عضد الدولة بغداد استخفى خائفاً ، واستتر متوجساً شرا ؛ حتى توسل أحد أصدقائه إلى عز الدولة وإلى وزيره ابن بقية أن يهبا له أمناً ، ويبذلا له عونا ، فقبلا التوسل وتركاه طليقا ، وما لبثا أن قيداه سجيناً باغراء ابن السراج[1] لهما به ، وفى هذا يقول ياقوت فى معجمه « وجرت له فى هذه النكبة خطوب أشفى فيها على ذهاب النفس ، ثم كفاه الله بأن فسد أمر ابن السراج مع ابن بقية بما عامله بالعلة التى عرضت له ، فقبض عليه ، ونقل القيد من رجل أبى إسحاق إلى رجله[2] » وفى محبسه هذا كتب إلى ابن بقية يستعطفه ويستميحه :

ألا يا نصير الدين والدولة الذى ردت إليها العز إذ فات رده
أيعجزك استخلاص عبدك بعدما
تخلصت مولاك الذى أنت عبده ؟

وصفا له الجو ، وهدأت عواصف الشر ، فاستخدمه عز الدولة فأخلص ، واصطفاه فكان نعم المصطفى ، وكتب له كتباً كانت مثار حنق عضد الدولة ، ومدار إحنه ، ولشد ما غضب عندما أنشأ كتاباً عن الخليفة الطائع لله يشيد فيه بعز الدولة ، ومنه « وقد جدد أمير المؤمنين له (أى لعز الدولة) مع هذه المساعى السوابق ، والمعالى السوامق ، التى يلزم كل دان وقاص ، وعام وخاص ، أن يعرف له حق ما كرّم به منها ، ويتزحزح له عن رتبة المماثلة فيها » فقد أحفظه هذا التعريض أعظم حفيظة ، واضطغن عليه أشد ضغينة ، فلما ملك بغداد سنة سبع وستين وثلثمائة هجرية أمره أن يؤلف كتاباً فى مناقبه ، وفى آثار الدولة الديلمية ، وذكر فتوحها ، فأطاع . وبينا هو فى تأليفه وتصنيفه ، وتسويده وتطريسه

(١) هو محمد بن المظفر بن السراج ، ترجم له البغدادى فى كتابه فى الجزء الثالث فما قال : إنه مات لتسع بقين من جمادى الأولى سنة عشر وأربعمائة ، عن أربع وسبعين سنه
(٢) الجزء الثانى ص ٣٦ « الطبعة الأخيرة »

زاره فى داره عدو فى ثياب صديق ، وسأله عما يعمل ، فزعم عنه أنه قال : أباطيل أنمقها ، وأكاذيب ألفقها ، فحركت القالة المزعومة فى عضد الدولة كوامن غيظه ، وأثارت منه عوامل ضغنه ، فأمر بإلقائه تحت أرجل الفيلة ، ولولا أن استشفع فيه من أصدقائه نصر بن هرون ، ومطهر بن عبد الله ، وعبد العزيز بن يوسف ، لكان فى ذلك اليوم من الهالكين ؛ فقد أقبلوا على الأرض يقبلونها بين يدى ملكهم ضارعين مستشفعين راجين متوسلين ؛ حتى صدر أمره باستحيائه مع اعتقاله ، واستصفاء أمواله ، فبقى فى معتقله هذا ثلاث سنوات وسبعة أشهر وأياماً ، وإن جاء ذكرها فى شعره أربعاً على سبيل التجوز فى قصيدة يسترحم بها عضد الدولة ، وقد خرج لزيارة مشهد أمير المؤمنين سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأولها :

توجهت نحو المشهد العلم الفرد على اليمن والتوفيق والطائر السعد
تزور أمير المؤمنين فيا له ويالك من مجد منيخ على مجد
فلم ير فوق الأرض مثلك زائراً ولا تحتها مثل المزور إلى اللحد

وفيها يقول :

أمولاى : مولاك الذى أنت ربه إليك على جور النوائب يستعدى
وهذى يدى مدت إليك بقصة أعيذك فيها من إباء ومن رد
أتانى شتاء ليس عندى دثاره
سوى لوعة فى الصدر مشبوبة الوقد
فلو أن برد الجلد عاد إلى الحشا وفار الحشا الحران منى على الجلد
أزيحت لنفسى علتاها فأعرضت
عن البث والشكوى إلى الشكر والحمد
وداويت داءى النقيضين ذا بذا أعدل إفراطاً من الضد للضد

ومنها :

فلا تبعدنى عنك من أجل عثرة فإن جياد الخيل تعثر إذ تخدى
ولو كنت تنفى كل من جاء مخطئاً إذن لعممت الناس بالنفى والطرد
ومن زلّ يوماً زلة فاستقالها فذاك حقيق بالهداية والرشد
توالت سنى[1] أربع ومدامى لها أربع كالسلك سل من العقد

(١) كذا باليتيمه وهو تحريف ولعلها سنون ، ودخل التفعيلة الثانية القبض ، وفى البيت الأخير جاءت رؤيا مقصوداً بها البصرية ، فجيئها حجة معاضدة لمن يقول إن الرؤيا تصدق على الحلمية والبصرية

أحوم إلى رؤياك كيما أنالها
حيام العطاش الناظرات إلى الورد

ويبدو لى أنه أفرج عنه عقب هذه القصيدة ، ولكنه ماسلم حتى ودَّع ، وما هنئ حتى ووسى ؛ إذ قبض عليه مرة أخرى عند ما فتح بغداد للمرة الثانية بعد أن استشفع لديه قبل وصوله إليها بأبى سعد بهرام بن أردشير ، وسأله أن يذكره لدى عضد الدولة ، ويقيم له عذره ، ويوضح له أمره ؛ فكان جواب عضد الدولة العفو والمغفرة فى كتاب طويل منه : « ومن كانت به حاجة إلى إقامة معذرة ، واستقالة من عثرة ، أو الاستظهار في مثل هذه الأحوال بوثيقة ، فأنت مستغن عن ذلك بسابقتك فى الخدمة ومنزلتك من الثقة ، وموقعك لدينا من الخصوص والزلفة » . ومنه : « فاسكن إلى ذلك واعتمده ، ولك علينا — الوفاء به — عهد الله وميثاقه ، وقد حملنا أبا سعد — أعزه الله — فى هذا الباب ما يذكره لك . والله نستعين على النية فيه وهو حسبنا »

ودخل عضد الدولة بغداد وهو عنه راض ، وبرحها إلى إلى الموصل وهو إلى ولاء الصابى مطمئن ، ولكن الوشاة — وما أكثرهم — نبشوا الدفائن ، وأخرجوا كتباً من عز الدولة إلى أحد عماله بخط الصابى ؛ وفى بعضها قدح فى عضد الدولة ، ورفعوها إليه ، فكتب من الموصل بالقبض عليه ، ولعل حديثه هو عن نفسه أدق من حديثنا عنه ، فهو يقول :

« كنت[1] جالساً بحضرة أبى القاسم المطهر بن عبد الله وزير عضدالدولة فى يوم القبض علىَّ إذ وردت النوبة ، ففضت بين يديه وبدأ منها بقراءة كتاب عضد الدولة ، فلما انتهى إلى فصل منه وجم وجوماً بان فى وجهه ، فقال لى أبو العلاء صاعد بن ثابت : أظن فى هـذا الكتاب ما ضاق صدراً به ، وقمت من مجلسه لأنصرف ، فتبعنى بعض حجابه ، وعدل بى إلى بيت من داره ؛ ووكل بى ، وأرسل يقول لى : لعلك قد عرفت منى الانزعاج عند الوقوف على الكتاب الوارد من الحضرة اليوم ، وكان ذلك لما تضمن من القبض عليك ، وأخذ مائة ألف درهم منك ، وينبغى أن تكتب خطك بهذا المال ، ولا تراجع فيه ؛ فو الله لا تركت ممكناً فى معونتك وتخليصك إلا بذلته . وقد جعلت اعتقالك فى دار ضيافتى ، فطب نفساً بقولى ، وثق بما يتبعه من فعلى » كما قبض على ولديه أبى على المحسن ، وأبى سعيد سنان ؛ وقد وفى الوزير أبو القاسم بما وعد ، فسأل عضد الدولة إطلاقه واستخلافه لقيام أبى القاسم على رأس جند لقتال صاحب البطيحة ، فقال له :

أما العفو فقد شفعناك فيه ، وينبغى أن تعرفه ذلك وتقول له إننا قد غفرنا لك عن ذنب ، لم نعف عما دونه لأهلنا يعنى : عز الدولة والديلم ، ولأولاد بيتنا — يعنى : أبا الحسن محمد بن عمر وأبا أحمد الموسوى ، ولكنا وهبنا إساءتك لخدمتك وعلينا[1] المحافظةَ فيك على الحفيظة منك ، وأما استخلافك إياه بحضرتنا فكيف يجوز أن ننقله من السخط والنكبة إلى النظر فى الوزارة ولنا فى أمره تدبير ، وبالعاجل ، فتحمل إليه من عندك ثياباً ونفقة وتطلق ولديه ، وتقدم إليه عنا بعمل كتاب فى مفاخرنا . فحمل إليه المطهر ما أمر به الملك وأطلق ولديه ، ورسم له تأليف الكتاب وبقى الصابى فى محبسه يؤلف حتى أتم المؤلف ، فلم يفرج عنه لوقته بل قيل : إنه أخر الافراج عنه سنة ، فلما رفع إليه إحدى قصائده يطلب فيها الصفح عنه والافراج ، قرئت عليه ولديه بعض أصدقاء أبى اسحاق ومنهم أبو الريان حامد بن محمد وعبد الله بن سعدان فقبلا الأرض وقال أحدهما : إن من أعظم حقوقه علينا وذرائعه عندنا أن عرفناه فى خدمتك ، وخالطناه فى أيامك . قال : فإذا كان رأيكما فيه ، فأنفذا وأفرجا عنه ، وتقدما إليه بملازمة داره إلى أن يرسم له ما يليق بمثله ، فأفرج عنه قبل وفاة عضد الدولة بأيام ، وقيل بل بقى فى السجن حتى أفرج عنه ابن عضد الدولة أبو الحسين تاج الدولة

وإنى أرجو غير فاخر أن أكون قد وفقت فى سرد وقائع هذا الجزء من حياته ، وقربت بين الروايات المتضاربة عن اعتقالاته ، مستنداً فى ذلك الترتيب على التاريخ السياسى للدولة البويهية ، وفى المقال التالى نتحدث عن كتابته

عبد العظيم على قنارى

---

(١) كتاب معجم الأدباء . الجزء الثانى ص ٤٠ الطبعة الاخيرة

(١) ضبط شارح المعجم المحافظة بالضمة وأرى أنها مفتوحة لأنها مفعول « نعى » وهو فعل متعد يأتى المضارع لا أنها مبتدأ مؤخر . وسياق العبارة يؤيد هذا الرأي

علاقة الدين بين العرب والصين

بقلم بدر الدين الصيني

معتقدات الصين القديمة

كان للصينيين دين قبل وصول الديانات الأجنبية إليهم مبنى على الأوهام والخرافات ، كما كان الشأن فى كل أمة من الأمم فى الأزمان الغابرة ؛ واتخذوا الأجرام السماوية والظواهر الطبيعية معبودات لهم غير معتقدين بخالق جبار يخضع لتصرفه كل شيء من الموجودات والكائنات ، فكثرت فيهم الآلهة وتنوعت طرق عباداتهم (١)

فالحكماء الذين ظهروا فى أرض الصين بعد زمن الخرافات وطلوع فجر التاريخ الصحيح ، فى شخصيات « لوتس Laotze » و « كانفوشيوس Confucius » و « مونشيوس Moncius » و « مائى تس Maitze » ، لم يأت واحد منهم بنظام دينى يسير عليه الصينيون كافة . إلا أنهم جميعاً يعتقدون بما وراء الطبيعة ، فمثلاً « الطريقة » عند «لوتس» هى شيء ليس بصورة ولا صوت يبقى دائماً ، لا يفنى أبداً ، ووجوده قبل كل كائن مصدر لجميع الموجودات وروح يحيا بها . فهذا التعريف لطريقة « لوتس » يوافق ما نعتقد بصفات الله . وأما «السماء» فى عقائد كانفوشيوس فهو صاحب السلطة الاخير الذى إذا أغاظه الإنسان بارتكاب الكبائر فلا سبيل له إلى النجاة ، فلذلك يقول : « أين الدعاء من إغاظة السماء ؟ »

لا فرق بين « سماء » كانفوشيوس و « سماء » مونشيوس لأن الثانى تلميذ الاول ، فهو يحذو حذوه فى التفكير والبحث الفلسفى ؛ وأما « مائى تس » فدينه دين المحبة والمؤاخاة ، يحب الصلاح والسلام ويكره الفساد والقتال ؛ ومبادئ حبه تشابه مبادئ حب الدين المسيحى ، وأصول أخوته تماثل أصول أخوة الاسلام ؛ لكنه لم يضع نظاماً لإظهار هذا الحب وهذه الاخوة فالكف عن القتال والنهب والامتناع عن السرقة والحسد في اعتقاده من دواعى التحاب ومقويات التآخى ، وغير ذلك

هذه الديانات كلها تخالف الإسلام فى مسئلة الحشر والنشر والحياة بعد الموت من جهة الاعتقاد ، وفى مظاهر العبادات من حيث العمل — لأن أهلها لا يعتقدون بالحشر والنشر ، ولم يأتوا بنظام خاص للعبادات — لعلّ هذا هو السر الذى يُبقى أهل الصين فى معتقداتهم القديمة مع أن أغلبهم دانوا بالديانة البوذية التى أصلها من الهند ، وهذا التدين لم يحدث فى اعتقاداتهم شيئاً من التغيير ، مع أن الديانة البوذية قد أثرت فى أدبيات الصين وفلسفتها تأثيراً بيناً . فرجل الدين من أهل الصين يدين بمجموع عقائد ومبادئ هذه الديانات المذكورة ، فلذلك تروهم يتعبدون على مبادئ كانفوشيوس حيناً وعلى « طريقة لوتس » حيناً آخر ، مع أنهم يتعصبون للبوذية إن دانوا بها ، أو للمسيحين إن كانوا مسيحيين . هكذا شأنهم في أمر الدين حتى الآن

دخول الديانات الأجنبية الى الصين

معتقدات الصين القديمة التى ذكرتها آنفاً ، بطبيعتها ومبادئها لا تنافى الديانات الأجنبية التى كانت سائدة فى آسيا أوسطها وأدناها ، فسهل على البوذية أن تتسرب إلى الصين عن طريق تركستان فى القرن الثانى للميلاد ، وامتزجت بمعتقدات الصين ، فصارت الآن ديناً شبه دين الدولة فى الشرق الأقصى ؛ مع أن مذهب كانفوشيوس أو « طريقة لوتس » أجدر بهذا الاحترام ولها نفوذ فى كل ناحية من نواحى حياة الشعب الصينى بظل باقياً حتى يغلبه أثر الإسلام إن قدر الله للإسلام نهضة جديدة فى تلك الديار فى المستقبل

من الديانات الأجنبية التى تسربت إلى الصين قبل الإسلام المانوية والمجوسية والنسطورية ؛ فدخول المانوية الصين كان فى القرن السابع للميلاد جاء إليها من تركستان لأن أغلب أهلها قد اعتنقوا هذا الدين قبل ظهور الإسلام ، فانتشر رويداً رويداً إلى شمال الصين وغربها حتى أسس المعابد لمعتنقيه فى الشطر الأول من القرن الثامن للميلاد فى بعض المدن الشهيرة ، ولهم هيا كل كثيرة في ولايات « هانان Hanan » و « شانسى Shansi » وكثرة أصحاب هذا الدين يمكن أن نعرفها من الواقعة التى وقعت

(١) إلهيات الصين ص ١٢

فى عهد « ووشونك » (٨٤١ — ٨٤٦م) . وكان هذا الامبراطور متشبثاً « بطريقة لوتس » ومتعصباً لها ، فاضطهد أهل الديانات الأخرى وهدم كثيراً من معابد المانوية والمجوسية والنسطورية . فقتل فى عاصمة الصين وحدها ٧٢ نسمة من راهبات المانوية ، ففنيت هذه الديانة من الصين بعدئذ (١)

أما المجوسية ، كما أشار إليها سليمان السيرافى والمسعودى وغيرهم من كتاب العرب ، فدخلت الصين قبل الإسلام على الأقل بقرن ، ولكنها لم تنتشر إلا فى دائرة محدودة . فلما فتح العرب إيران وقضوا على دولة كسرى فرّ يزدجرد إلى الشرق ولجأ إلى عاصمة الصين ، فأنشأ فيها معبداً للمجوسيين ، وكان معه جماعة من علماء المجوسية فبثوا دعايتهم فى شمال الصين ، لكن هذه الديانة غير مقبولة عند الصينيين . فالذين دخلوا فيها قليلون جداً . وقد محيت آثارها فى سنة ٨٤٦م كما أسلفنا

وأما الديانة النسطورية فوصلت إلى الصين فى سنة ٦٣٥ م ، وذلك بناء على ماثبت فى كتابة تاريخية (٢) وجدت بمدينة تشانغ آن Chang-An وأول من جاء إلى الصين للدعاية إلى النسطورية كان رجلاً يدعى أولوبن Olopen (٣) ويظهر من تاريخ الصين أنه استوطن تشانغ ، وأنه بنى معبداً للنسطوريين يسكن فيه واحد وعشرون راهباً ؛ وكان أولوبن رئيسهم ؛ ثم انتشرت هذه الديانة فى بعض العواصم وأنشأوا معابد فيها ، فنقشوا أعمالهم فى الألواح الحجرية ونصبوها فى المعابد تذكيراً وتخليداً ، فالعبارات التى نقشت فى هذه الألواح مدونة الآن فى تاريخ الصين العام (٤)

وبعض الكتب العربية يذكر أيضاً ذهاب النسطوريين إلى الصين . مثل ابن النديم ، فانه روى فى الفهرست أن الجاثليق قد بعث ستة من علماء النساطرة إلى الصين للارشاد والدعاية فمات منهم خمسة ورجع سادس وهو من أهل نجران إلى الروم بعد الاقامة بالصين نحو ست سنين فى سنة ٣٧٧ هـ (٥)

(١) Yung Tung Chiang ; out line of Av Chine Civilization; P. 269.

(٢) أريد بكتابة تاريخية ما تسمى Inscription بالانكليزية

(٣) Hirth : China and the Roman orient ; P. 286.

(٤) Out line of the Chinese Civilization; P. 267

(٥) ابن النديم ص ٤٩١

وكان لهذه الديانة قدم ثابتة فى نفوس الصينيين ، ولعلها تؤثر فى حياتهم إلى حد ما إذا طال أمدها فى الصين ، لكن مشيئة الله لم ترد انتشار هذه الديانة فى الشرق الأقصى فطرد مبشروها ، وهدمت معابدها فى أواخر القرن التاسع للميلاد، وحكاية الراهب النجرانى أيضاً تشير إلى ذلك

الأغلاط التاريخية فيما يتعلق بدخول الاسلام الى الصين

لقد أطلت فى ذكر هذه الديانات الأجنبية مع أن محور بحثي فى هذا الموضوع هو دخول الاسلام ، وإنى مضطر إلى أن أفعل هذا لأن الأغلاط التاريخية التى تتعلق بدخول الاسلام لا يمكن أن تستدرك إلا بمعرفة تواريخ هذه الديانات ودخولها إلى الصين . لقد قيل ان الاسلام قد وصل إلى الصين في عهد « كائى وانغ — Kai - Wang » من « أسرة هوى — Hui Dynasty » ومعنى ذلك أن دخول الاسلام الصين قد وقع بين سنتى ٥٨٩ و ٦٠٥ م ، وهذا مستحيل لأن محمداً رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يبعث بالرسالة إلى العالم كافة إلا سنة ٦١٠ م

ومن رأيى أن القائل بهذا القول قد أخطأ في هذه النقطة لحسب المجوسية التى دخلت الصين فى أواخر القرن السادس للميلاد دين الاسلام الذى دعا إليه صاحب الرسالة بعد نبوته ، مغالطاً فى دليله إذ قال إنها ديانة جاءت من « الغرب » بالغين (١) ففهم من « الغرب » « العرب » ووقع فى خطأ فاضح دون أن يشعر أن الاسلام لم يكن له وجود فى جزيرة العرب قبل سنة ٦١٠ من تاريخ الميلاد . فظهر من هذا الاستقراء أن الدين الذى وصل إلى الصين فى عهد « كائى وانغ » كان فى الحقيقة المجوسية لا الاسلام . وعندنا شهادة نقلية فى الكتب الصينية غير تلك الدلائل العقلية التى أشرت إليها آنفاً ، ونعرف أن بعض المجوسيين قد وصلوا إلى « تشانغ آن » فى أول عهد « كائى وانغ » وأنشأوا المعابد وكانوا يغنون فى صلواتهم فيها . ومن أناشيدهم الدينية نوع يقال له « موفوش » (٢) يوجد ذكره فى « ديوان أغانى الصين » وفسر صاحب الديوان هذه الكلمة بأنها نوع من الأغانى الدينية

(١) والمراد من « الغرب » فى الكتب الصينية القديمة ما يقع فى غرب الصين إلى البحر الأبيض واستنبول

(٢) The Chinese (Dictionany) P. 223. (G. Section)

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الالمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الغبطة القاسرة

وسار زارا يقطع أبعاد البحر تساوره مثل هذه الهموم ، وتدور به مثل هذه الأسرار ، حتى إذا تخطى مجال أربعة أيام عن الجزر السعيدة وما ترك عليها من صحبه ، اشتدت عزيمته فتغلب على آلامه ، وثبّت قدميه فى موقفه متجهاً إلى مقدراته مناجياً سريرته وقد عاد إليها مرحها وسرورها قائلاً :

لقد فزعت إلى عزلتى لأننى تقت إليها ، فأنا الآن منفرد أمام صفاء السماء ومدى البحار ، وقد خطا النهار إلى عصره وما التقيت بأصحابى للمرة الأولى إلا فى وقت العصر ، وفى مثل هذا اليوم اجتمعت بهم للمرة الثانية . والعصر هو الساعة التى يهدأ فيها اضطراب الأنوار جميعها لأن السعادة الذاهبة بدداً منشورة على مسالكها بين السماء والأرض تتجه إلى الاستقرار فى روح الضياء . وها إن السعادة تحوّل اضطراب النور إلى سكون

فيالعصر حياتى ! إن سعادتى هى أيضاً قد انحدرت يوماً إلى الى الوادى تطلب مستقراً فلقيت هذه الأرواح النيّرة تفتح لها الملجأ الأمين

يا لعصر حياتى ! لكم تخليت عن أشياء فى الحياة توصلاً إلى مغارس أفكارى الحيـة وإلى أنوار الصباح تدور فى ذراتها أسمى أمانىّ وآمالى

لقد طلب المبدع يوماً رفاقاً له وفتش عن أبناء آماله فأدرك أنه لن يجدهم إذا هو لم يخلقهم خلقاً

لقد أتممت نصف مهمتى باتجاهى نحو أبنائى وبعودتى إليهم ، وقد وجب على زارا أن يبلغ نفسه الكمال من أجل هؤلاء الأبناء . وما يحب الإنسان من صميم قلبه إلا ابنه ونتيجة جهوده ، وحيث يتجلى الحب الأشد فهنالك تكمن القوة المولّدة ؛ ذلك ما أدركته بتفكيرى

إن أزهار أبنائى لا تزال تتفتق فى الربيع والريح تهب على صفوفهم فتهزها ؛ فأبنائى أشجار حديقتى ونبت خير أراضى

إن هذه الأشجار متراصـة فى منابتها على الجزر السعيدة ، ولسوف أقتلعها واحدة فواحدة لأغرسها متفرقة فتتعلم احتمال العزلة وتنشأ فيها الأنفة والحزم لينتصب كل منها تجاه البحر وقد تعدّب جزعها وتعقدت أغصانها كمنائر حية للبقاء القاهر

على كل شجرة أن تشخص فى مهب العواصف المترامية إلى البحر حيث يتدافع الغمر إلى قاعدة الجبل فلا تغفل ليلاً ونهاراً عن تفحص سرائرها . عليها أن تتحمل التجارب ليعلم أنها من سلالتى وأنها تحدرت من أصلى تعززها الإرادة المجالدة فتبدو صامتة حتى عند ما تتكلم ، وإذا ما استسلمت تبدو معطية وهى آخذة . وهكذا يتحول من يمشى على أثر زارا بأضرابه وبإبداعه إلى شخصية تحفر شريعتى على ألواحى فيكتمل بذلك كل شىء

وهأنذا من أجل هذه الشخصية وأمثالها أسعى إلى تكوين شخصيتى فأمتنع عن ورود السعادة مقتحماً كل شقاء فى آخر تجربة أتحملها لأدرك سريرتى

لقد آن الأوان لرحيلى وقـد نبهنى إلى وجوب الرحيل خيال المسافر وأطول الأزمان وأعمق الساعات صمتاً إذ نفخ

للمجوسيين الذين وردوا إلى الصين فى عهد « كانى وانغ » وهذا دليل قاطع يرد على من يدعى دخول الاسلام فى هذا العهد

أما اتصال الاسلام بالصين فكان عن طريقين : طريق البر وطريق البحر . كان قتيبة ابن مسلم الباهلى الذى فتح كاشغر فى سنة ٩٦ هـ ، هو الأول الذى بعث وفداً من العرب بطريق البر إلى امبراطور الصين فى أواخر تلك السنة فعرضوا عليه أحد الأمور الثلاثة : الاسلام والجزية والمحاربة . ولابن الأثير فى هذا الوفد أقوال طريفة توجد فى تاريخ الكامل ، وللقارئ أن يرجع إليه فى هذا الصدد ، وأما وصول الاسلام إلى الصين بحراً ففيه اختلاف بين المؤرخين فى سنة الوصول وفيمن هو أول من جاء بالاسلام إلى أقرب مرافىء الصين « كانتون »

(لها بقية)

بدر الدين الصينى
عضو من البعثات الصينية
بالأزهر الشريف

الريح في فتحة القفل فتراجعت درفة الباب قائلة : هيا

ولكنني كنت مقيداً بحبي لأبنائي يأسرني تشوقي إلى هذا الحب لأصبح فريسة لهؤلاء الأبناء فأضحى من أجلهم نفسي ؛ وما الشوق عندي إلا صورة ظاهرة لحقيقة فنائي . إن أبنائي لي وفي هذا التملك يجب أن يضمحل كل شوق مستحيلاً إلى عقيدة مكينة

وكان رأسي يلتهب بشمس محبتي فاحترق بحرارة دمي فرأيت أشباح الشكوك تدور بي من كل جهة فتمنيت أن يلفحني قرّ الشتاء حتى تصطك أسناني من رعشة الصقيع ، وما عتم أن اكتسح نفسي ضباب الجليد ، فشق الماضي لحوده وبعث منه الآلام التي دفنت وهي حية فيها ، وما تناولها الفناء لأنها كانت نائمة طي أكفانها

وكان كل شيء يشير إليّ بأن قد حان زمن الرحيل ولكنني كنت لا أنتبه إلى هذه الدعوة حتى تحركت أعماق ولسعتني ثائرات أفكاري . وباليت لي القوة للتغلب على ارتعاشي عندما أشعر بقوة التفكير في أغواري تحاول أن تخترق لها منفذاً ، فإنني لا أزال أحس باختلاج قلبي عندما أتنصت لدبيب أفكاري وهي تحاول الانجلاء لي . إن في صمتك نفسه أيتها الفكرة ما يشد على عنق وأنت أشد صمتاً من أغواري . ولكم حاولت أن أستخرجك من الأعماق أيتها الفكرة فخانني العزم واكتفيت بإضماري إياك في ذاتي . إنني لم أتصل بعد إلى جرأة الأسد وإلى منتهي إقدامه

إنك لجدّ ثقيلة في أغواري أيتها الفكرة ولسوف أجد يوماً قوة الأسد وأتخذ لصوتي زئيره فأرفعك من الغور إلى المنبسط ، حتى إذا ما تغلبت بذلك على نفسي تدرجت إلى انتصار أعظم أختتم به أعمالي . وإلى أن أبلغ هذا الظفر سأبقى تائهاً على بحار لا أعرف لها ساحلاً تداعبني خطرات الأحداث فألتفت إلى ما ورائي وإلى ما أمامي ولا أعلم أين المنتهى

ألم تحن بعد ساعة جهادي الأخير أم هي ماثلة أمامي الآن ؟ والحق أن البحر والحياة يحيطان بي بجمالها الفتان ويملقان أبصارهما عليّ

فيالعصر حياتي ، يا للسعادة تتقدم ساعة المساء ، يا للمرسى في وسط العباب ، يا للسكون في قلب الارتياب ، إنني أحاذركنّ ولا أثق بكنّ جميعاً

أما والحق إنني أخشى جمالكن الغدّار كما يخشى العاشق ابتسامة تجاوزت حد التلطف في افترارها . إنني أرفع عني ساعة السعادة كالغيور يصد عن محبوبته ولما يزل العطف يتجلى في قسوته وجفائه

بُعداً لك أيتها الساعة السعيدة ! فقد اجتاحتني بحلولك غبطة قاسرة وأنا أتوقع أعمق الأحزان . لقد جئتني في غير الأوان

بُعداً لك أيتها الساعة السعيدة ! اذهبي واطلبي لك ملجأ هنالك في مقر أبنائي ، سارعي إليهم وباركيهم قبل حلول المساء وأنيليهم سعادتي

لقد اقترب الغسق وجنحت الشمس إلى الغروب فتوارت عني سعادتي

هكذا تكلم زارا ...

وبات يتوقع نزول شقائه به طوال ليله ، غير أنه انتظر عبثاً إذ بقي الليل منيراً ساكناً واستمرت السعادة تخطو مع الساعات مقتربة إليه . وما لاح الفجر حتى بدا زارا يتضاحك قائلاً :

إن السعادة تتأثرني لأنني لا أتأثر النساء ، وهل السعادة إلا امرأة ؟

قبل بزوغ الشمس

أيتها السماء الرافعة قبابها فوق رأسي نقية صافية ، أيتها السماء السحيقة وقد غادرت في أبعادك الأنوار ، إنني أشخص إليك فتمتلكني رعشة الأشواق الإلهية

أنا لا أسبر أغواري إلا إذا سموت إلى عليائك ، ولا أشعر بطهارتي إلا حين يجللني صفاؤك

إنك تحجبين نجومك كما يتلفع الإله بسنائه . أنت صامتة وبصمتك تذيعين لي حكمتك

لقد تجليت لي اليوم في سكونك على زبد الآفاق فأعلنت لروحي المزبدة ما فيك من حب وعفاف . جئت إلي جميلة مقنعة بجمالك تخاطبينني بلا كلام وتعلنين حكمتك وما كنت أعلم ما في روحك من عفاف . أتيت إلى قبل بزوغ الشمس أنا المنفرد في عزلتي

أنا وأنت صديقان منذ الأزل فأحزاننا واحدة كارتياعنا ، وعمق أغوارنا وشمسنا واحدة أيضاً . وما نتناجى إلا لوفرة ما نعلم ثم يسودنا الصمت فنتبادل ما أعرف وما تعرفين بلغة البسمات . أفما بعثت أنوارك من مكمن أنواري أفليست فكرتك أختاً لفكرتي ؟

لقد تعلمنا كل شيء سوية وتدربنا سوية على الاعتلاء فوق ذاتنا متجهين إلى صميمها مبتسمين بافترار لاتعكره الغيوم . وبلفتات صافية نترقها في سحيق الابعاد في حين تتدافع كالأمطار تحتنا النزعات المكبوتة وأهداف الأخطاء

إلى مَ كانت تتوق نفسى عند ما كنت أذهب فى الليل شارداً على مسالك الضلال ؟ وماذا كنت أطلب فى تلاقي الجبال نحو قممها ؟ أفما كنت أنت مقصدي أيتها السماء . وهل كانت أسفارى جميعها إلا ذهاباً مع حافز التدرب ؟ وهل كان لإرادتى من هدف غير التحليق فى الأجواء ؟ وهل أبغضت شيئاً بغضى الغمام وكل نقاب يلفع الضياء ؟ لقد كرهت بغضى نفسه لأنه يعكر صفاءك أيتها السماء

إنني أنفر من هذه الغيوم تمر كأنها قطط برية تزحف زحفاً لأنها تختلس مني ومنك أيتها السماء الحقيقة الإيجابية الثابتة في كل شيء ؛ فأنا وأنت ننفر من هذه الدخيلات المكرات من هذه الغيوم الكاسحات ، فما هى إلا كائنات مختلطة فى نوعها يسودها التردد فلا تعرف أن تلعن باخلاص ولا أن تبارك باخلاص . وخير لى أن ألجأ إلى مغارة أو أسقط فى هاوية من أن أقف أمامك ياسماء الضياء وقد عكرت صفاءك الغيوم الكاسحات . ولكم وددت لو أننى أسمر أردانها على آفاقك بسهام البروق الذهبية ثم أنزل عليها الرعود تهوى قاصفة على مراجل أحشائها . إننى أود قرعها بعصا الغيظ لأنها تحجب عنى حقائقك أيتها السماء المتدة بأغوار أنوارها فوق رأسى كما تحجب حقيقتى عنك

لخير لى أن أسمع هزيم الرعود وولولة العواصف من أن أتنصت إلى مواء هذه الهررة الزحافة المترددة . في المجتمع أمثال لهذه الغيوم يسيرون مترددين بخطوات الذئاب وقد وقفت أشد بغضى عليهم

« على من لايعرف أن يمنح البركة أن يتعلم إنزال اللعنات »

ذلك ما ألهمتنيه السماء الصافية مبدأ ينير سمائى كالكواكب فى أشد الليالى قتاماً

ما دمت فوق أيتها السماء الصافية المتألقة بالأنوار فإننى لا أنقطع عن منح البركة وإيراد بيانى إيجاباً وتأكيداً لأنير بعقيدتى جميع الأغوار المظلمة

لقد جاهدت طويلاً حتى أصبحت مباركاً ومؤكداً . وما تاملت إلاّ لأحرر ذراعىّ فأبسطهما للبركة ؛ وتقوم بركتى على الاعتلاء فوق كل شيء كما تعتلى السماء والسقوف المكورة وقباب الأجراس والغبطة الدائمة . فطوبى لمن يبارك هكذا . لأن كل الأشياء قد تعمدت من ينبوع الأبدية وماوراء الخير والشر ؛ وما الخير والشر إلا خيالات عابرة وأحزان بليلة وغيوم متراكضة إلى الفناء

والحق أن من البركة لا من اللعنة أن نعلّم بأن فوق كل شيء تمتدّ سماء الصدفة وسماء البراءة وسماء الحيرة وسماء الاضطراب

إن كلمة الصدفة لأقدم ما في العالم من نسب للأشياء ؛ وقد أرجعتُ كل الأشياء إلى هذا النسب النبيل فأنقذتها من عبودية المقصد والهدف . وهكذا رفعت الحرية والغبطة السماوية عالياً ونصبتها كالقباب فوق جميع الأشياء إذ علّمتُ أن ليس من إرادة أبدية تعلو بها لتبسط مقاصدها فوقها

لقد وضعت حداً لهذه الإرادة بل لهذا الجنون وهذا الاضطراب عندما علّمت أن الوقوف عند الحقيقة كان مستحيلاً وسيبقى مستحيلاً . فما هناك إلا قليل من التعقل وذرات من الحكمة تتلقفها الكواكب لخميرة امتزجت بالأشياء جميعها ولولا الجنون لما امتزجت بها

ليس للإنسان أن يعطي من الحكمة إلا قليلاً . غير أننى وجدت في كل مكان عقيدة لها سعادتها وهى تفضيل الرقص على أرجل الصدفة العمياء

فيا أيتها السماء الممتدة فوق رأسى ، أيتها السماء الصافية المتعالية ، لقد أصبح كل صفاء فيك قائماً على اعتقادى بأن ليس فى الكون عنكبة خالدة ، وليس فيه من الحكمة ما تنسجه العناكب . فلتكن مجالاتك أيتها السماء مسرحاً لخطرات الصدف الإلهية ، أو فلتكن خواناً يدحرج عليه الآلهة نردهم ، فعلام يعلو أديم وجهك الاحمرار ؟ أترى جاء بيانى مبهماً أم وردت بركتى لك لعنة عليك ؟ أم أخجلك أن أنفرد بك فأردت أن أتوارى وأكف عن الكلام لأن الفجر قد لاح على الآفاق ؟

إن فى العالم من الأغوار ما لا يدركه النهار ، ومن الأشياء ما يجب كتمانها أمامه ، وقد باغتنا النهار ، فلنفترق

أيتها السماء الممتدة فوق رأسى بطهرها واضطرامها . أيتها الغبطة المتجلية قبل بزوغ الشمس ، لقد باغتنا النهار فلنفترق

هكذا تكلم زارا ....   (يتبع)

عروس المـــاء

للأستاذ ابراهيم العريض

لذتُ خلف الغصون في عزلةٍ لا أملهـــا
وحـــوالىَّ خضرة بلّهـا ما يبلهـــا
من نُهير زها على جانبيـــه محلها
فإذا راقت السما ء بدا فيها ظلها
وزهور يلوح كالـــقُرط فى الأذن طَلُّها
جادها الماء قبلةً ومضى يســـتقلها
وانبرى البلبل الوديـــع لها يـــستغلها
فكأن الحياة تمّـــت للحب ... كلها

***

أنا فى نشـــوة أحدّ ث نفسى بما أراه
وأرى ملء ناظر ىّ حياة — هى الحياه
تحت ظل يكاد يشـــتعلُ الزهر فى مداه
وسكونٍ يمـــدُّه بلبلٌ بالندى شداه
وكأنّ الوجودَ يبـــسم حولى بما حواه
وإذا بى أحسُّ خلـــفى حراكاً على المياه
فتلفتُّ مســـتريـــباً إلى النهر ... من أتاه
آه ... ماذاشعرتُ فى الـ بأثرتحت الضلوع ... آه

***

وتواريتُ فى الصخو ر وجانبتُ حـــدَّها
وسددتُ الصدوع حو لى ما اسطعتُ سدها
حذراً أن تنمّ بى قبلَ أن أستجِدها
نظرةٌ كالوميضِ تبـــتدرُ العينُ ردها
لاتسلنى بمن رأيـــتُ فأضمرتُ ودها
إذ تمثّلتْ كالشعا عِ على الموج قـــدها
يتهـــادى منعّماً فترى الماء ضدها
كلّما دافعتـــهُ جلّـــلَ بالشعرِ خـــدها

***

فتمنَّيتُ لو دنت لى قريباً كما هيه
فأرى شعرَها يبلّـــلها وهى عاريه
وأرى طرفَها تصـــدُّ به صدَّ عافيه
وأرى فى تورّدِ الـــخدِّ أشياء ثانيه
وأرى حُقّتين وسَطـــهما بعضُ غاليـــه
تستمرّانِ فى النهو ضِ وإن تحْنُ جاثيه
وأرى الماء قد كسا ها على المتن حاشيه
فغدت من مهابةِ الـــحسنِ تبدو ككاسيه

***

وانثنت نحو ناتئ فانثنى الموجُ صفَّها
ترتمى فوقَ صدرِه بيـــدٍ ... ما أخفها
فاستوت عنده بحيـــثُ ترى العينُ نصفَها
فأمرّت على السوا لفِ بالرفقِ كفها
تنفضُ القطرَ عن غزيـــرٍ من الشعرِ لفها
ثم قامت فطوّقَ الـــماء كالرَّيْطِ خلفها
غـــير أنّى غضضتُ طر فىَ عن أن يشفها
هى حوريّةٌ من الـ إنسِ ... والماء زفها

***

وتخيّـــلتُ أننى قائمٌ فى جِـــوارها
حينَ تنسابُ بالحريـــرِ — وإن لم يُوارها
حولَ ساقين عاطِليـــن — يد[1] فى سوارها
ثم تحنـــو لترتدى مانضت من وقارها
فإذا عادلت بـــه سرّةً فى مـــدارها
أرسلت ظُلمةَ القميـــصِ على ضوءِ نارها
وإذا ما مشت تموّ جَ ما فى صدارها
فتثنّى عليهمـــا فضلةٌ من خمارها

***

واكتست... ثم أبصرتْ بى عندَ انحدارها
فاستفزّت ... كأنها صُورةٌ فى إطارها

« البحرين » ابراهيم العريض

(١) فاعل « تنساب » فى البيت المتقدم

نقيل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٣٣٥ — سبحان الله !

فى (بغية الوعاة) : الشيخ ضياء الدين القرمى العفيفى العلامة المتفنن[1] كان إماماً عالماً بالتفسير والرواية والمعانى والبيان والفقه ، وكانت لحيته طويلة بحيث تصل إلى قدميه ، ولا ينام إلا وهى فى كيس ، وإذا ركب تتفرق فرقتين . وكان عوام مصر إذا رأوه يقولون : سبخان الله ! فكان يقول : عوام مصر مؤمنون حقاً لأنهم يستدلون بالصنعة على الصانع[2] ...

٣٣٦ — ألم تسمع بفتكة جساس ؟

أبو بكر بن جزى فى طبيب يهودى :

وربّ يهوديّ أتى متطبباً ليأخذ ثارات اليهود من الناس
إذا جسّ نبضَ المرء أودى بنفسه سريعاً ، ألم تسمعْ بفتكة جسّاس؟!

٣٣٧ — كنت أكون إذن أحمقين

فى (ألف با) لأبى الحجاج البلوي : دخل جحا[3] ذات يوم دار الرحا فجعل يأخذ من قمح الناس ويجعله فى قفته فقيل له : لأى شىء تضع هذا ؟ فقال : لأنى أحمق . فقيل له : فلمَ لا تجعل شيئاً من قمحك فى قفاف الناس ؟ فقال : كنت أكون إذن أحمقين ...

٣٣٨ — أقمته مقام هزؤ

فى (سرح العيون) لابن نباتة المصرى : روى أن المأمون كان قد انحرف عن سهل[1] بن هرون إلى أن دخل عليه يوماً فقال: يا أمير المؤمنين ، إنك ظلمتنى وظلمت فلاناً الكاتب . فقال : ويلك وكيف ؟! قال : رفعته فوق قدره ، ووضعتنى دون قدرى ، إلا أنك فى ذلك أشد ظلما . قال : كيف ؟ قال : لأنك أقمته مقام هزؤ ، وأقمتنى مقام رحمة . فضحك المأمون ، وقال : قاتلك الله ما أهجاك ! ورضى عنه

٣٣٩ — ولكن سليقى أقول فاعرب

فى (تاريخ اليمن) لنجم الدين عُمارة اليمنى : جبلا عكاد[2] فوق مدينة الزرايب وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم ، لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا قط بأحد من أهل الحاضرة فى مناكحهم ولا مساكنهم . وهم أهل قرار لا يظعنون عنه . ولقد أذكر أنى دخلت زبيد فى سنة (٥٢٠) أطلب الفقه دون العشرين ، فكان الفقهاء فى جميع المدارس يتعجبون من كونى لا ألحن فى شىء من الكلام ، فأقسم الفقيه نصر الله بن سالم الحضرمي بالله لقد قرأ هذا الصبى فى النحو قراءة كثيرة . فلما طالت المدة والخلطة بينى وبينه صرت إذا لقيته يقول : مرحباً بمن حنثت فى يمينى لأجله . ولما زارنى والدي وسبعة من إخوانى

---

(١) أنكر أستاذ كون (المتفنن) في العربية إذ لم يجدها فى (القاموس) واللفظة فى اللغة وفى كلامهم . وأورد (الأساس) الفعل و (التاج) المصدر و (اللسان) الاسم والمصدر

(٢) السيوطى : وقع فى كلام الشيخ ضياء الدين اطلاق (الصانع) على الله وهو جار فى ألسنة المتكلمين ، وانتقد عليهم بأنه لم يرد اطلاقه على الله وأسماؤه توقيفية . وأجاب التقى السبكى بأنه قرىء شاذاً : (صنعه الله) بصيغة الماضى فمن اكتفى فى اطلاق الأسماء بورود الفعل اكتفى بمثل ذلك ، وأجاب غيره بأنه مأخوذ من قوله (صنع الله) ويتوقف أيضاً على القول بالاكتفاء بورود المصدر . وإنى لأعجب من قول القائل إنه لم يرد ، وهو في حديث صحيح : (إن الله صانع كل شىء وصنعته) أخرجه الحاكم

(٣) جحا معدول عن جاح لا ينصرف ، وحجا خطأ ، وثاقف (لاعب بالسيف) ورمي كما قال الميدانى ، وهناك جحا التابعى ، وجحا صاحب التفسير واسمه الخواجة ناصر الدين (توفى سنة ٣٨٠) كما فى (نزهة الجليس) وجحا التركي هو العربي ، ولأبى اليمن الغفارى مؤلف فى نوادر جحا يشتمل على ألف ورقة

وفى (أساس البلاغة) : قيل لجحا : على من خالتك ؟ قال: على أمى وأخياتي. يضرب فيمن قوته على الضعيف

(١) البيان والتبيين : من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الكبار المجودة (لا المجلدة كما فى طبعة هذا الكتاب) والسير الحسان المولدة والأخبار المدونة — سهل بن هرون الكاتب صاحب كتاب (ثعلة وعفرة) فى معارضة كتاب (كليلة ودمنة) وكتاب (الاخوان) وكتاب (المسائل) وغير ذلك

(قلت) : أخبرنى الفقيه (القانونى) الأستاذ جريس صفا أن عنده نسخة مخطوطة من كتاب (ثعلة وعفرة) وقد توفى هذا الفاضل منذ سنين فهل لحقته تلك النسخة اليتيمة ؟

(٢) فى (القاموس المحيط) : عكاد كسحاب جبل قرب زبيد أهلها باقية على اللغة الفصيحة ، وفي (التاج) : عكاد كسحاب جبل باليمن قرب مدينة زبيد حرسها الله وسائر بلاد الاسلام ، أهلها باقية على اللغة الفصيحة إلى الآن ، ولا يقيم الغريب عندهم أكثر من ثلاث ليال خوفاً على لسانهم

فى زيد أحضرت الفقهاء فتحدثوا معهم فلا والله ما لحن أحد منهم إلا لحنة واحدة نقموها عليه

٣٤٠ — ما يقول هذا ؟

فى (خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر) للمحبي : مر بعض الظرفاء بغلام جميل فعثرت فرس فى طين أصاب وجه الغلام منه نزر ، فقال الظريف : « يا ليتنى كنتُ ترابا ! »

فقال بعض المارّين للغلام : ما يقول هذا ؟

فقال : « ويقول الكافر : يا ليتنى كنت ترابا » ...

٣٤١ — يعشق مطلق الجمال

فى (شذرات الذهب ، ونفح الطيب) : كان ابن الفارض[١] عشاقاً يعشق مطلق الجمال حتى إنه عشق بعض الجِمال ، وولع به فكان يستأجره من صاحبه ليتأنس به[٢] ، فقيل له : لو اشتريته فقال : المحبوب لا يُملك . وزعم بعض الكبار أنه عشق بَرنية[٣] بدكان عطّار

وذكر القوصى فى (الوحيد) أنه كان للشيخ جوار بالبهنسا يذهب إليهن فيغنين له بالدف والشبابة[٤] وهو يرقص ويتواجد . وكان أيام النيل يتردد إلى المسجد المعروف بالمشتهى فى الروضة ويحب مشاهدة البحر[٥] مساء ، فتوجه إليه يوماً فسمع قصاراً يقصر ويقول :

قطع قلبى هـــذا المقطّع   لا هو يصفو أو يتقطع

فصرخ وسقط مغمى عليه فصار يفيق ويردد ذلك ويضطرب ثم يغمى عليه وهكذا

٣٤٢ — الأمن ، الصحة ، الغنى ، الشباب

فى (العقد) : قال الحجاج بن يوسف لخريم الناعم : ما النعمة ؟

(١) الفارض : الذى يكتب الفروض للنساء على الرجال بين يدى الحكام (ابن خلكان ، الشذرات)

(٢) تأنس به : أنس به

(٣) البرنية : إناء من خزف ، شبه فخارة ضخمة خضراء وربما كانت من القوارير الثخان الواسعة الأفواه ج برانى (التاج)

(٤) فى (شفاء الغليل) : شبابة بالتشديد قصبة الزمر المعروفة ، مولد ، قال :

ومطرب قــد رأينا فى أنامله   شبابة لسرور النفس أهلهـا
كأنه عاشق وافت حبيبتــه   فضمها بيــديه ثم قبلهـا

(٥) كل ماء كثير عند العرب بحر

قال : الأمن . فإنى رأيت الخائف لا ينتفع بعيش

قال له : زدنى

قال : فالصحة ، فإنى رأيت المريض لا ينتفع بعيش

قال له : زدنى

قال : الغنى ، فإنى رأيت الفقير لا ينتفع بعيش

قال له : زدنى

قال : فالشباب ، فإنى رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش

قال له : زدنى . قال : ما أجد مزيداً[١]

٣٤٣ — ... ما سمعناه فى كتاب الأغانى

مسعود الدولة النحوى مقــدم الشعراء فى أيام الأفضل أحمد بن بدر الجمالى أمير الجيوش المصرية :

ما أطاقوا تأمّل الجيش حتى   كلت كل مقلة بسنــان
غنّت البيض فى طُلاهم غناء   ما سمعناه فى (كتاب الأغانى) !

٣٤٤ — خلعت مالا تملك على من لا يقبل

حكي عن الشريف المرتضى أنه كان جالساً فى عِلِيّة[٢] له تشرف على الطريق ، فمر تحته ابن المطرزي الشاعر يجر نعلا له بالية وهى تثير الغبار ، فأمر بإحضاره ، فلما حضر قال له : أنشدنى أبياتك التى تقول فيها :

إذا لم تبلغنى اليكم ركائبى   فلا وردت ماء ولا رعت العشبا

فأنشده إياها ، فلما انتهى إلى هذا البيت أشار الشريف إلى نعله البالية وقال : أهذه كانت من ركائبك ... ؟

فأطرق المطرزى ساعة ، ثم قال له : لما عادت هبات سيدنا الشريف (أيده الله) إلى مثل قوله :

وخذا النوم من جفونى فإنى   قد خلعت الكرى على العشاق[٣]

عادت ركائبي إلى مثل ما ترى لأنك خلعت ما لا تملك على من لا يقبل ...

(١) فى (تاريخ بغداد) : القاضى أبو يوسف (يعقوب صاحب أبى حنيفة) رؤوس النعم ثلاثة : فأولها نعمة الاسلام التى لا تتم نعمة إلا بها ، والثانية نعمة العافية التى لا تتم الحياة إلا بها ، والثالثة نعمة الغنى التى لا يتم العيش إلا بها

(١) العلية (بضم العين وكسرها وكسر اللام وتشديدها وتشديد الياء) الغرفة والجمع العلالى ، قال الأزهرى : علية (بالكسر) أكثر من علية (بالضم) وعلي (بكسر العين واللام وتشديد الياء) جمع علية

(٢) وقبله :

يا خليلى من ذؤابة بكر   فى التصابى رياضة الأخلاق
غنيانى بذكرهم تطربانى   واسقيانى دمعى بكأس دهاق



ما بعد الطبيعة

MÉTAPHYSIQUE

للأستاذ محمد حسن البقاعي

كان علم مابعد الطبيعة يعرف في القرون الأولى باسم (الفلسفة الأولى) وأول من أطلق عليه هذا الاسم هو أرسطو . أما مخترع كلمة (ميتافيزيك) فهو (آندرونيكوس Andronicus) من جزيرة رودوس . والسبب الذي دعاه إلى تسمية هذا العلم بما بعد الطبيعة هو أن الفلسفة الأولى جاءت في كتب أرسطو بعد الطبيعيات ، فأطلق عليها اسم ما بعد الطبيعة

أما موضوع ما بعد الطبيعة فهو درس الموجود من حيث هو موجود ؛ فهي تتعمق في الأسباب وتبحث فيها أكثر من كل العلوم ، أي هي تبحث في العلل الكافية لنفسها بنفسها والتي تنشأ عن كل المعلولات . ولقد حدد الفلاسفة موضوع ما بعد الطبيعة فقالوا : علم ما بعد الطبيعة يدرس الوجود المطلق وهذا الوجود يظهر لنا بصورتين :

١ — الصورة الطبيعية المادية ٢ — الصورة المعنوية

فعلم ما بعد الطبيعة يدرس الطبيعة والنفس ومباحث الفكر والعالم الخارجي والداخلي ، وهو على نوعين :

١ — الكونيات العقلية Cosmologie rationnelle وهو علم ما بعد الطبيعة الذي يدرس الطبيعة والمادة والحياة ، فهو يبحث إذن في الطبيعة المادية

٢ — النفسيات العقلية Psychologi rationnelle وهو علم ما بعد الطبيعة الذي يدرس مسألة الفكر وطبيعته ، والروح وماهيتها . فهناك إذن مسألتان : مسألة المادة ومسألة النفس ؛ وهذان المبدءان يحتاجان إلى مبدأ يكون علة لهما وهو الإله جل شأنه . فعلم ما بعد الطبيعة يبحث في غاية الغايات وهو الله تعالى . ولنبدأ الآن بالبحث في المادة التي هي من الكونيات العقلية فنقول :

١ — المادة La Matière

كثيراً ما بحث الفلاسفة في المادة من القرون الأولى إلى العصر الحاضر ، ويتلخص بحثها في نقطتين أساسيتين :

١ — الوصول إلى معرفة الأسباب التي تجعلنا نعتقد بوجود المادة

٢ — الوصول إلى معرفة حقيقة المادة بعد أن نقبل وجودها

أما وجود المادة ففيه مذهبان : مذهب الرأي العام والحس السليم ، ومذهب الفلاسفة . فالرأي العام يقبل وجودها لأنه كوجودنا، ولأن الحياة العملية تسمح لنا بالاتجاه في العالم الخارجي دون أن تخولنا حق الشك في وجوده . ففكرة المادة وطبيعتها لا يصعب على الرأي العام والحس السليم بيانهما بياناً واضحاً ؛ فإننا نجدها مركبة من معان مألوفة . وكنا نعتقد أن المادة هي جوهر دائم وراء الأعراض يتغير من صورة إلى أخرى دون أن ينعدم أو يزول . وإذا رجعنا إلى دستور العالم الكيميائي الفرنسي (لافوازيه Lavoisier) المسمى بمبدأ بقاء المادة القائل : « لا خلق ولا فناء في هذا العالم بل الكل في تحول » علمنا أن المادة تتحول من شكل إلى آخر ؛ فالخشب مثلاً يتحول إلى رماد وغاز ، ثم تتكاثف الغازات ... وهكذا . فالمادة على كل حال موجودة لا تتلاشى . ونحن نعتقد أيضاً أن المادة غير متجانسة ، فهي تتصف بصفات مختلفة باختلاف الأجسام التي تتركب منها؛ فلكل جسم له مادة لا تشابه مادة الجسم الآخر ؛ فمادة الكبريت غير مادة الصوديوم ، ومادة الصوديوم غير مادة النحاس ،وهكذا . وهذه المادة عاطلة فهي لا تتحرك من نفسها لأنها غير قادرة على تبديل حالة سكونها بحركة ، أو تغيير شكل حركتها التي هي خاضعة لها

وأما الفلاسفة فقد ذهبوا في وجود المادة مذاهب شتى ، حتى أن (زينون ده ليه . Zènon d' Eié) أحد الفلاسفة الخياليين في القرون الأولى بحث في إثبات وجودها (وكأن ذلك يحتاج إلى إثبات) فقال : إن فكرة المادة لو حللناها لوجدناها مجموعة متناقضات لأن العناصر التي يتركب منها جوهر المادة

كالزمان والمكان والحركة كلها متناقضة . فالحركة كلها تناقض وعلى ذلك فلا وجود للمادة أصلاً . وهو ينكر وجود الحركة كما ينكر معنى الزمان بالمعنى المعروف ومعنى المكان بالمعنى المألوف . وأدلته على إنكار الحركة كثيرة ، منها أن الأرنب إذا لحق أرنباً آخر وكان بينهما مسافة وكانت سرعة الخلفي نصف سرعة الأمامي فإنه لايلحقه أبداً ، لأنه بحسب الحساب الرياضي يلحقه فى اللانهاية ؛ وهما لايستطيعان أن يذهبا إلى اللانهاية . فنرى أن بحثه أوصله فى النهاية إلى إنكار وجود المادة . وكان (ديوجين) يعترض على زينون فيمشي ويقول : ياأستاذ ، هأنذا أمشى فلم تنكر الحركة؟

وقد بقيت هذه الأدلة إلى زمان (ليبنيز Leibniz) و (ديكارت Descartes) على بساط البحث ، ولكن (هنرى برغسون H. Bergson) رد عليه ردوداً كثيرة ؛ كما أن حساب ليبنيز (النهاية الصغرى) ليس هو إلا رداً على زينون وأدلته الفاشلة . هذا وإن فيثاغورس وأفلاطون وتلاميذه يقررون أيضاً أن الوجود الحقيق ليس وجود الأشياء المحسوسة بل هو وجود المعقولات فقط ؛ لذلك فإن رجال الكهف (كهف أفلاطون [1]) أى الناس كافة لايرون إلا خيالات حقيقية . فقيمة العالم الخارجي فى نظر أفلاطون الذى يعد فى طليعة الخياليين هو هذه الخيالات . وقد أعطى أفلاطون للمعقولات وجوداً بالنسبة للعالم الخارجي المحسوس . لذلك فإنه يسمى خيالياً وجودياً

أما فى العصر الحاضر فقد ظهر أناس دافعوا عن الخيالية أمثال فيخته وهيكل . ولكن (بركليس) أخذ مذهب الخياليين وقال بعدم وجود العالم مستنداً فى تحليله إلى المعرفة التى توجد عندنا عن العالم الخارجي ، ولكننا نعلم أن هذه المعرفة الموجودة فينا ناشئة عن الاحساس ؛ وقديماً قال أرسطو : الاحساس أول العلم . فهذه الاحساسات التى هي أول العلم وأساسه هى شخصية وكيفية ؛ ومجموع صفات الأجسام يمكن أن يرجع بالنسبة إلينا إلى هذه الاحساسات التى لولا وجودها عندنا لما استطعنا أن نطلع على الأجسام . فالجسم إذن هو مجموع إحساسات إذا حذفت لايبقى من الجسم شيء . يقول (بركليس) إننى لا أعرف الجوهر ولكنى أعرف العرض . وهل ندرك الأعراض إلا بالاحساسات . فالاحساسات هى تغيرات نفسية تتأثر من الجواهر وتجعلنا ندرك الأعراض الناشئة عنها

وقد قسم (بركليس) الأحوال الناشئة فى الذهن والصفات الموجودة فى الأجسام إلى قسمين : (١) الصفات الثابتة كالحرارة والطعم والنور (٢) الصفات الأولى كالامتداد والمقاومة اللذين لاندركهما إلا مصحوبين بصفات ثابتة مثل الحرارة والنور والطعم . فالأجسام كلها تستحيل إلى هذه الصفات الأولى والثابتة . ونحن لاندركهما إلا بالاحساسات — كما تقدم — فكثير من معلولات النفس يبين لنا أن الادراك والوهم متعاونان فى الطبيعة وأنه لا يمكننا تمييز أحدهما عن الآخر . أضف إلى ذلك أننا عند ما ندرك العالم الخارجي لا نستطيع فى محاكمتنا أن يحصل عندنا منه إلا فكرة ، والفكرة هنا كل الحقيقة . لذلك فاننا لا نخرج فى نفوسنا فى كل إدراكاتنا . وهذا هو نفس دستور بركليس القائل Etre, c' est être plus — أى الوجود هو الادراك . فهل العالم الخارجي موجود لأننا ندركه أم ندركه لأنه موجود ؟ فبحسب دستور بركليس موجود لأننا ندركه

ويمكننا فى مناقشة أدلة بركليس أن نقتصر على ذكر الاعتراضات التى وجهها الوجوديون على هذه الأدلة ؛ فقالوا إن إحساساتنا ناشئة عن الأشياء الخارجية وهى منتظمة ، ومتفقة لأننا نرى ماراه غيرنا ، فنحن إذن متفقون بالأشياء التى نراها . فالقوانين التى تخضع لها إحساساتنا تجعلها معقولة فى نظرنا . وهذا ما كان يدعو (ليبنيز) إلى القول : « إن إدراكاتنا ليست إلا عبارة عن أحلام مرتبط بعضها ببعض ، بل هى أحلام ذات إحساس . أى أنها منبعثة من وجود خارجي » فالوجوديون رفضوا بذلك نظرية الخياليين وقالوا إن العالم الخارجي موجود ...

أما البحث فى طبيعة المادة فتناول الفرضيات التى دافع عنها العلماء فيما يتعلق بماهيتها وذلك يتخلص فى نظريتين عامتين :

١ — نظرية الميكانيكية . Le mècanisme

٢ — نظرية الحركة . Le dynamisme

فالميكانيكية تستدل فى دراسة الجسم الاعتبارى الكيفى بالاعتبار الكمى . فكل التبدلات فى الأجسام يمكن أن نرجعها إلى الميكانيكية وهي تتبدل بحسب تقدم العلم ؛ وأول شكل للميكانيكية هو ما نجده عند ديموقريطس الذى يقول : إن العناصر الأولى فى الجسم هى الجوهر الفرد (أتوم) وهو لا يُرى ولا يتناهى الجواهر الفردة من طبيعة واحدة ولكن لها أشكالاً مختلفة ؛ ويتمدد هذا الجوهر الذى هو متين صلب لا يتبدل حاله ولا وزن له . فتتكون الأجسام ، ولا يوجد فى هذه الجواهر

(١) يفرض أفلاطون أن الناس عامة أشبه شيء برجال يسكنون كهفاً لا يخرجون منه أبداً ولا يعلمون ماذا يوجد خارجه . ولكن جدرانه شفافة تعكس خيالات الاشياء الخارجية ، فهم يرون خيالات حقيقية للاجسام . ولا يستطيع أحد أن يرى حقيقة الاشياء إلا الفيلسوف

حرارة ولا لون ولا صوت . فهو يؤكد أنه لا يوجد شيء محسوس في هذه الحقيقة الوجودية التي سماها جوهر أفرد . لذلك قال : إن الجواهر لا كيفية فيها بل هي كمية ؛ فهو يقربها من صفة حسية . ويمكن اعتبار نظريته هذه كتجربة أولى علمية لتوضيح الأشكال بصورة أولى ميكانيكية . ومن أشهر الفلاسفة الذين طبعوا على غرار ديموقريطس هو (أبيقور) فقد نسج في ذلك على منواله وزاد عليه بإعطائه الجوهر الفرد قوة الانحناء أي جعله يستطيع أن يغير الجهة التي يتحرك فيها إذ جعل فيه قوة خاصة

والشكل الآخر الميكانيكية هو نظرية (ديكارت ، وسپينوزا) اللذين يعتقدان أن جميع خواص الأجسام يمكن إرجاعها إلى الحركة . ومن هنا نشأت جملة ديكارت المشهورة (أعطني حركةً وامتداداً وأنا أ كوّنُ العالم) . ولكن هذا القول يحتاج إلى برهان بل إلى براهين ؛ فديكارت يعتقد أن الحركة والامتداد هما العنصران الفعالان في تكوين هذا العالم ؛ وقد أنكر بذلك قدرة الإله وأثبت الفاعلية لأحد مخلوقاته الذي لا يستطيع أن يغير حالة سكونه بدون قوة إلهية تسيطر على الامتداد وتهيمن على الحركة فتبعث فيهما الحياة . ويظهر لنا أن رأى ديكارت فاسد ، وإن كان قصده بالامتداد العاري عن كل صفة حسية كالحرارة واللون أي هو الحيز الهندسي الذي لا يوجد فيه آتوم حسي بل هو الفراغ اللانهائي

ولقد تطورت الميكانيكية بعد ديكارت تطوراً هاماً ؛ ففي العصر الحاضر، ليس الجوهر الفرد كما كان عند ديموقريطس وأبيقور بسيطاً لا يتجزأ بل هو مختلف عن رأيهما كل الاختلاف . فمبدأ الاحتفاظ بالقوة وتناقض القدرة وخاصة تشعع الراديوم هو الذي جعلهم يعتبرون الآتوم مركباً من الألكترونات السالبة التي تدور حول عقدة مركزية Noyau موجبة ومسافاتها كنسبة بُعد الأرض عن الشمس ... فإنهم يكادون يرجعون كل الأجسام إلى عنصر واحد ، حتى أن (غوستاف لوبون) قال : إن هذه الآتومات تسبح في أثير سيّال غير مادي تتكون منه جواهر الأشياء

يستند أصحاب هذه النظرية إلى الاحساس ، فقد قال أحدهم (هلمولتز) إن الاحساس نسبي ؛ فكثيراً ما يكون المؤثر واحداً وتختلف الحساسية ويختلف الاحساس وبالعكس . فالاختلافات الظاهرة في العالم الحسي ناتجة إذن عن اختلافات الحس الموجود . لذلك قيل : إن عنصر الأشياء هو واحد ؛ ولهم أدلة أخرى يصلون بها إلى إثبات وصف الحادث وهي التجارب التي قام بها (هو يكنس) و (دوفريل) و (آراغو) وهي مسألة الاهتزاز والانتشار للنور . ولكنه ظهر أخيراً أن النور يكون بالتموج

وعند ما ظهرت هذه الأدلة قبلها العلماء في بادئ الأمر ظناً منهم أنها منتجة . ثم انتقدها كثيرون منهم وأثبتوا بُعْدَها عن كنه الحقيقة . فدليلهم الذي يعلنون به أن القدرة في العالم لها كمية ثابتة لا يسمح لنا بإرجاع كل القدرة إلى قدرة واحدة . وأول شيء يجعلنا نحجم عن قبول رأى الميكانيكية هو وجود بعض الحوادث التي لا يمكن أن تنعكس، فلو كانت ميكانيكية لانعكست. فالشمس مثلاً تشرق من الشرق وتغرب في الغرب فهذه لا يمكن أن تنعكس ؛ وهذا دليل واضح على وجود قوة تحركها في هذا الاتجاه . وقد انتقد (ليبنز) رأى ديكارت فقال : إذا قبلنا أن الامتداد يجوز أن يكون فيه حركة أو سكون ، فلو فرضنا جسما مثل (ح) تحرك في هذا الامتداد وصادف جسما آخر (ب) في حالة السكون ، فهذا الأخير لا يبقى ثابتاً بل يتحرك ، ولكن حركته ليست نفس حركة (ح) بل يقاومه بكتلة ، وهذه الكتلة تنقص من سرعة الجسم (ح) . نستنتج من ذلك أن الامتداد والحركة ليسا كافيين ، ولو كانا كافيين لما كان يجب أن ينقص من سرعة (ح) وحركته إذن يوجد في المادة شيء غير الحركة والامتداد وهو القدرة المدخرة التي هي عبارة عن قوة تتصف بها الأجسام ولا يمكن الاستغناء عنها فهي قوة كامنة تسمى (الموناد Monade) فهي جوهر روحي تتكون من الأجسام وبواسطته يمكن تعليل المقاومة

أما كل من دافع عن نظرية القدرة فإنه يستبدل أجزاء الآتوم بالقدرة وهي الحقيقة الجوهرية الكامنة في قلب كل الأشياء . فقد قال (أوسفالد) : عند ما نصاب بعصا فبماذا نشعر ، أبالعصا أم بالقدرة ؟ بالطبع نشعر بالقدرة التي هي الشيء الايجابي الثابت الموجود في كل الأشياء . وهي ليست واحدة في جميع الأجسام ؛ بل تتصف بأشياء مختلفة متناسبة مع شخصيتها وخواصها النوعية . والصعوبة في ذلك هي أن قوة تصدر هذه القدرة هل هي مركبة من عناصر بسيطة بقوة الارادة كما يظن (هوكسلى Huxley) ؟ على أن القدرة الفعالة لا يمكن أن تعتبر إلا كحالة شعورية فقط ؛ وهذا يمكن أن يظهر غريباً . ولكن إذا حاول الانسان أن يهتم بما يفهمه عن القوى المتجهة الواحدة منها نحو الأخرى يرى أنه يدركهما كأنهما يتحركان الواحد نحو الآخر بسرعة ما . وعند ذلك لا يتصور إلا الحركة تاركاً القوة جانباً . واما أن يتصور كل جزء كأنه مصحوب بشيء يشابه حالته كحالة الارادة وهو يعلم هذه الجهة . ونحن نشك أن صعوبة التفكير بالقوة شيء غير مقابل بالارادة . فليبنز إذن يقترب من الحلول الأخيرة عن طبيعة المادة

(انتهى بحث المادة) دمشق **محمد حسن القاعي**



أقصوصة من ٥ . ستاكبول

أحلام فضية

للأستاذ دريني خشبة

من نجوة[1] (بون بك) يشرف الناظر على مرأى عجيب من رؤوس الأيك النائم في الغابة ، والحياة الدائبة الصاخبة في الوادي، وأبراج (تور) المنطبعة في أديم الأفق ، والشعاب الملتوية بين الدوح الجبار ... ثم ... هذه الرقائق من الفضة تنساح في مجرى اللوار ، راقصة على رنين النواقيس من ڤيروفلاي ، مضطربة تحت أقدام أرليان ، متلاشية في لا نهائية البعد مما يلي المنبع ... في شعاف السُّفُن

ومع ذاك ، فلم يكن فوق بون بك غير سنديانات أربع ، منهن دوحة جدة ، عظيمة الجذع ذاهبة الأفنان ، وإن يكن قد نخرها الزمان ، ونامت قرونه في الكهف الكبير الذي احتفرته في أصلها ... ثم شجيرات حفيدات تينع في الربيع ، وتنضر في الصيف ، وتتجرد فيما سوى ذلك من فصول السنة . ولم تغير الثورة شيئاً من معالم هذا الغاب ، على كثرة ما غيرت من معالم فرنسا ، فهذا هو العم العجوز المتداعي « چين كابوش » ما يزال يقطع الخشب من الغابة ويحمّله إلى شاتود نيڤر ، وما يزال يعالج الشجر ويصيد الأرانب ، ويؤدي الأعمال التي كان يؤديها أبوه وجده من قبل ، والتي كان يؤديها آباؤه الأولون ... وإن له لآباء أولين يتلاشون في لا نهائية الأزل ، كما يتلاشى اللوار في ظلام السُّفُن ... فاذا قدر لك مرة أن تلقاه في أحد شعاب الغابة ، لقيت رجلاً من القرون الغابرة لا يعرف عن زماننا شيئاً ، ولا تربطه بالعصر الحديث رابطة ؛ وكذلك تلقى بنته الجميلة الساذجة العذراء ماري ، التي إن حدثتها حدثت قطعة من الغابة لا تدري ما وراءها ... على أنها مع ذاك تصبيك وتفتنك ، وتسحرك بجمالها العميق الملفوز ، وتتأرّج في نفسك وقلبك كما تتأرج البنفسجة الفيحاء ، لا تدري من أين يسبيك جمالها

أما أبوها — العم چان — فقروي — لا ، بل ريفي قح ، يحسبه من يلقاه نابي الذوق ، جافي الطبع ، لأنه لا يعرف قوانين التقاليد التي تفرضها حياة المدن على سكانها ، ومن هنا عدم تمييزه بين طبقات الناس ، فهم جميعاً سواء عنده ، حتى رئيس الجمهورية الذي كان يجوب غاب ڤيروفلاي مرة ، فلقيه فحياه ؛ وكان چان يحتسي كأساً من الخمر ، فلم يلتفت للحاكم الأعلى حتى أتى على النُّطف الأخر في الكأس ، وبعد أن مسح فمه بكمه ، وتجشأ وتمتّق ، قال للرئيس : « أجل ، أعرف أنك الرجل الذي يختاره الفرنسيون ليمثل دور الملك في باريس ! » . وماذا تنتظر من جَمّاع أحطاب وإنسان غابٍ أن يقول غير هذا ؟

وربما كان للأسطورة التي تناقلها آل كابوش أباً عن أب ، وجداً عن جد ، في طويل الأزمان والآباد ، أثر في هذه العنجهية التي تبدو أحياناً في أخلاقهم . ذلك أنهم كانوا دائماً يفخرون أن ملك الغابات في الزمن القديم كان رئيس قبيلتهم ... فإذا كلم چان رئيس الجمهورية بهذه اللهجة ، فأحجى بالرئيس أن يشكر الله ، لأنه فرد عادي جداً إذا قيس بجان سليل ملوك الغاب ! !

***

ما كان أجملَ الأصيلَ فوق البون بك وقد جلست ماري الساذجة فوق العشب الحلو ، تحت السنديانة الكبيرة ، تعمل بأبرتها في جورب الصوف الخشن الذي كانت تبيع ما تصنع منه في نهاية كل شهر لبازين العجوز تاجر الملابس في بورجه ! لقد كانت تتحدث إلى عنـزها المربوطة في جذع السنديانة كلما ضجرت من العمل ، كما كانت تغني بصوتها الرنان الجميل فتغمر

(1) النجوة والنجا والمنجى والنجو ما كان أكبر من الربوة وأصغر من الجبل

الغابة المنتشية بألحانها ، وتمتلىء أجواء الوادى الساكن بأغانيها الطورينية الحبيبة ، التى لم تعرف النوتة ، ولم تأخذ طريقها إلى البيان ، بل احتفظت بريفيتها المقدسة لتخرج من فم مارى ، كما تخرج موسيقى الملائكة من قدس السماء !

ما كان أجمل الأصيل فوق البون بك حين جلست مارى فوق عشبه ، وقد أخذ الخريف يواسى الناس بأنفاسه الربيعية ، وقد راحت مارجوت — العنز السعيدة — تقضم الحشيش الحلو مرة ، وتصغي إلى غناء مارى أخرى ... ومارى ، فيما بين هـذا وذاك تعمل أناملها فى الجورب الذى أوشك أن يتم ، لتتم به الاثناعشر جورباً ، ولتنطلق بها فتاة البون بك إلى التاجر بازين فتتسلم منه ثمنها ، وتعود بالحلوى والفطير فتملأ فم مارجوت !

لقد جلست مارى تعمل وتغنى ، بينما كان السادة الباريسيون أصحاب الفيروفلاي ، وأصحاب قصرها المنيف المنيع الذى تأخذه العين فى أفق الغابة فترى منه أبراجه الشواهق ، يصيدون الأرانب فى المتائه والمسارب ، ويطلقون بنادقهم على القنافذ والثعالب ، فتتردد طلقاتها فى أذنى مارى ، وتثير فى قلبها الصغير شتى الهواجس والأفكار ...

« الإرتان الشقيتان !! » هكذا كانت الفتاة تفكر ... « لا بأس ، صبراً يابازين صبراً ، ها قد أوشكت أفرغ من هذا العناء الذى تشتريه منى بفرنكات معدودة لاتكاد تكفي ثمناً لمسح حذاء واحد من سادتنا ... أوه ! يالك من عقدة خبيثة ! إذهبي إلى الشيطان ! ألا ما أصعب إصلاح العقدة المختلطة ! إنها كاللغز الذى لايمكن حله ! ما هذه الطلقات النارية ياسادة ! ! إرحموا الثعالب والأرانب ، وارحموا أبى جان المسكين ! ماذا يصيد هو إن لم تبقوا على أرنب واحد ! هذا بلاء والله ! أوه ! وارحمتاه لك يا أبى ! إن صيد أرنب أو أرنبين أيسر عليك من قطع عسلوج واحد مع فرق ما بين الأجرين ! الأغنياء ! الثروة التى لايحصيها عد ! ... ... الخ ... »

وسمعت الفتاة صوت بوق يُدَوّى فى آفاق الغابة شغلها عن إرتيها ، وعن غنائها ، وعن مارجوت ... وعن كل شىء ... حتى عن هذه السلسلة غير المنتظمة من الأفكار الفضولية التى كثيراً ما تزدحم بها رؤوس الناس ، لأتفه مايثيرها من الأسباب

وأرسلت عينيها فى شعاب الغابة مرة ، وفى مسايل اللوار أخرى ، فرأت السادة الأغنياء قد فرغوا من صيدهم ، وقد حمل خدمهم أحمال القنص علي خيول ضخمة ، وانطلق الجميع يعدون نحو القصر المنيف ، كما تعدو السمادير أمام العين المشواء ، وكما تنطلق أحلام النائم فى كل صوب ... حتى غابوا عن بصرها

وعادت ماري إلى إرتيها بعد إذ ثابت إلى نفسها ... وبدأت تعمل وتغني من جديد ! ولم تكد تفعل حتى سمعت صوتاً حنوناً يهتف بها ، فأرسلت عينيها فى كل حدب ، ولكنها لم تر أحداً ... وارتبكت هذه المرة ، وحاولت أن تعمل ، ولكن العقد اختلطت أكثر من ذى قبل ، وعاد الصوت الحنون يهتف وينادى ... ونظرت مارى ، وبحثت بعينيها فى كل مكان ، فإذا بنبيل من السادة الصيادين يناديها فى السفح البعيد ، ويشير إليها بيده الآمرة أن تذهب إليه

لم تتحرك مارى ، بل ظلت ساكنة صامتة ... وكأنما غيظ النبيل من سكونها ، فغمز حصانه الكبير غمزة فانطلق يطوى النجوة صعداً فى غير مبالاة ، كأن الدنيا بأسرها ملك له ولأجداده الخيول من عهد عاد ! حتى الخيل تعرف الصفاقة أضعاف مايعرف النبلاء !

لقد كان رجلاً عملاقاً له مهابة وفى عينيه نُبْل ، وله لحية خفيفة فوق صدغيه قد وخطها الشيب فجعلها سنجابية حائلة كلون السحب فى أوائل الخريف ... وكان عريض المنكبين بارز الصدر واسعه ، عظيم القامة ، يشغل الناظر إليه عما يلبس من غريب الثياب التى تتخذ للصيد فى غاب فرنسا ... فلا خافية النسر التى راح النسيم يداعبها فوق مفرقه ، ولا الجوارب الجلدية وما فوقها من أخفاف ، ولا هذه السراويل الفضفاضة التى تغطى ظهر الجواد ، ولا تلك القفازات اللامعة التى تحجب يديه ، ولا هذه النياشين التى تتوهج فوق صدره ، والقلائد الذهبية التى تتحوى حول عنقه ... لا شىء من هذا أو ذاك قد بهر عينى مارى كما بهرها هذا الجسم الهرقلى ، وذاك الوجه الصارم ، والرجل العملاق !

واقترب الجواد بمن عليه ...

وتبسم النبيل وكأنما كانت الدنيا كلها تبتسم معه ، وحيـّا مارى ، ثم قال :

— « قصر فيروفلاى ياجيلتى ! قصر فيروفلاى ! أتستطيعين أن تدليني عليه ، أو تعلمينى الطريق التى أسلكها لأبلغه ؟ لقد ضاع

سبيلى فى شعاب غابتكم المضلة ، فهل لك فى أن تصحبينى، ياغادة ؟ »

لقد نظر النبيل إلى مارى فحمد الله والصدف أن ضلت سبيله ، ليلقى هذه الجنّية الريفية الحسناء فى هذا الأصيل الجميل من أصائل الخريف ، وفوق هـذه النجوة الناضرة المطلة على الغابة الشاسمة جميعاً ... ولقد كان يبلع ريقه مرة بعد أخرى وهو يكلمها ، وكان يكلمها بعينيه الجائعتين ، أكثر مما كان يكلمها بلسانه اللاهث الظامىء ، وكان يحس قلبه وهو يخفق ويخفق ، كأنما يتمنى أن يثب إلى عينيه ليشبع من مرءى ماري هو الآخر : ! يا لسحر الجمال ! لقد عجب النبيل كيف عاش عمره الطويل المفعم بلا حب ، وفى الدنيا العريضة مثل هـذه الفتاة التى تسجد تحت قدميها القلوب !! لقد جمل جسمه يرتجف فوق الجواد ، وجعل يقلب عينيه فى الفتاة التى انعكست على وجهها آراد الشمس الغاربة فصبغته بالذهب ، وتركت في جبينها وخديها سَـفْماً من الهب يشبه الشفق ، يزيده فمها الصغير الخبيث اشتعالا !

— « أوه يا سيدى ! إنه هناك وراء هذا الدوح ، وهو قريب جداً من هنا ... أنظر ... ها هى ذى أبراجه تلوح وراء الغصون العارية ... ثم هاهي ذى الطريق واضحة بينة ! »

وكانت مارى قد نهضت من مكانها وهى تقول ماتقول ، وتشير بيديها ، فينحسر الكُـمَّان عن مرمر الذراعين اللدنتين ، وطرف الثوب عن جزء من الساقين الجميلتين ، فيجن جنون النبيل الجليل !

وفى الحق ... لقد خفق قلب مارى هو الآخر ، لأنه أحس بمـا ينبعث من عينى الرجل من الصبوة والشغف ... وما كان يسيل فى ألفاظه من الرقة والضراعة ، وإن لم يعبر عنهما إلا بهذا الروح الذى يُفهم من غير أن يُرسم ! !

ووثب الرجل من فوق جواده ، ووقف قريباً من مارى ، ثم راح ينظر فى الأفق ويتغاشى ويقول :

— « أجل ... ها هي ذى أبراجه ! ولـكن أَنَى لى أن أهتدى إليه فى غابتكم المضلة ... تعالي يا صغيرتى فدليني عليه ... إنى أخشى أن أبيت ليلى فى الغابة مع أرانبكم وثعالبكم !

— « بكل سرور يا سيدى ... لا أحب إلى من أن أفعل ... هلم !

— وهذه العنز ؟ أتتركينها هنا ؟

— « أوه ! ان ما رجوت ستنتظرنى هنا ياسيدى ! وأين تذهب ما لم أعد اليها ... ثم هي مربوطة مع ذاك !

— « اذن ، هلمى !

وانطلقا نحو السفح ، ثم مضيا فى طريقهما ... هى الى جانبه ، أو فى ظله ! وهو ، وحصانه من ورائه ، ينظر صامتاً ... سا كناً

* * *

وفكرت مارى فى اللهجة التى كان يكلمها بها فشاع فيها نوع من الزهو ، ثم اتسع خيالها فوثقت أنه أحبها ، بل هو يكاد يعبدها ، وكان هذا الاحساس يملأُ الدنيا فى عينيها سعادة ، وفى قلبها بهجة ... وعرفت من ثيابه ومن منطقه أنه ليس من هـذه الجهة من جهات فرنسا ... قد يكون ضيفاً على آل فيروفلاى... على كل حال هو ليس من هذا الأقليم ...

وأخذ الرجل يخلق الأحاديث ليسمع صوت ماري ... هذا الصوت الموسيقى العذب الذي كان يملأُ سمعيه وينفذ إلى أعماق قلبه كأنه رنين القُـبل ! وكانت هى تجيب فى ظرف وتيه وأدب ، فتخلب لب الرجل ، وتذيب نفسه الوامقة بمـا تكسر من مخارج الـكلمات ، وما توشي فى أواخر الجمل ، كأنها الربيع الفينان ينثر وروده ورياحينه فى أكناف الحديقة ! !

ولقد كان القصر على بعد فرسخ أو نحوه من النجوة ، ولقد كان قصراً عتيقاً من عهد شارل التاسع ، ولـكن الغابة كانت مع ذاك أقدم منه عهداً ... بل كانت هى هى الغابة منذ كانت هناك غابات فى جنبات فرنسا ، ومنذ كان جد مارى ملـكا عليها فى بطن الأزل !!

وذكرت مارى هذا الجد الملك ، فسرى فى أعطافها الـكبر القديم الذي ما يفتأ يسرى فى أعطاف آبائها وأهلها ... وللحال آمنت أنها جديرة بقلب هذا النبيل ، وأنه سيكون فخوراً بها !!

ونظر النبيل إلى جنبات الغابة فتغيرت فى عينيه صورتها الجافة الخريفية التى انطبعت فيهما منذ الصباح ، وصارت جنةً فيحاء آهلة بالحور العين أمثال اللؤلؤ المكنون ، منضورة بالورد عبقة بأريج الرياحين كهذه الجنة التى وعد المتقون ! لماذا ؟ لم يدر الرجل ... لـكنه كان يؤول كل ذلك بوجود مارى الجميلة إلى جانبه ... ماري ، التى غيرت نظرته إلى الحياة ، فجعلتها مشرقة باسمة ، بعد أن كانت قمطريراً كالحة ، لا تصلح لهذا العبث الذى كان يقرأ عنه فى الـكتب ، والذى سماه الشعراء بالحب ...

ولم تزل مارى تسلك بالرجل فى هذا المنعرج وذاك المنعرج ، ولم تزل تسير به فى متاته كثيرة ، وتخطو به فى فجاج كأنهن مصائد

ونخاخ نصبها أبوها للأرانب ، حتى وقفا آخر الأمر لدى بوابة عتيقة ... هي من غير شك أعتق من القصر الذى تؤدى إليه وأذهب منه فى البلى

وكانت البوابة صغيرة واطئة ، فصاحت مارى فجأة وهى تقول : « أوه يا سيدى ! لن يستطيع حصانك أن يدخل من هنا ... أوه ! لقد نسيت ، ليتنى ذهبت بك إلى باب القصر ! »

فتضاحك النبيل ثم قال : « ليس هذا شيئاً ... إنى سأربطه هنا ، وهو ينتظرنى كما تنتظرك ... ما ... ما ... ما اسم عنزك ؟ »

— مارجوت ياسيدى

— مارجوت ! إى والله مارجوت ... ولكن ما سنك يا ... عزيزتى ؟

قال ذلك وقد أرسل أصابعه المرتعشة تربت تحت ذقنها الجميل وعينيه المشوقتين تسبحان فى جمالها الريان !

— أنا ؟ سنى ست عشرة سنة !

— ما شاء الله ! سن فينانة ! واسمك إذن ! ؟

وقال ذلك أيضاً بعد أن صعد آهة عميقة كادت تحرق بحرها صدره

— مارى ... مارى يا سيدى !

— ماري ! مارى ! وحسب ! ؟

— مارى كابوش يا سيدى !

— مارى كابوش ... حسن جداً ! مارى كابوش اسم جميل ظريف ، بيد أننى سأطلق عليك من الآن اسم (زهرة الغابة !)

ثم تقدم فأخذ رأسها الصغير فى يديه المتخاذلتين ، وطبع على جبينها قبلة عميقة حارة ، استودعها كل أمانى حبه ، ثم دس يده فى جيبه وقال :

— «والآن ... تقبلى منى هذا القليل ... من ... الذهب ... للذكرى ... لا للفائدة ! » ولما نظر فى حافظته لم يجد بها إلا قطعة فضية واحدة ... وحدجته مارى بعينين جريئتين ثم صاحت به فى رقة وحب : « أوه ياسيدى ! ليست بى حاجة إلى نقود فأذكرك بها ... إنى سأذكرك إلى الأبد ... لن أنساك ! »

وامتلأت عيناها بالدموع فجأة ... وأحست بقلبها يرتعد ويخفق ... وودت لو استطاعت فهربت فى شعاب الغابة ، لولا أنها نظرت إلى الرجل فوجدته مثلها ممتلىء العينين بالدموع ... وصدره يعلو ويهبط ، آية على مافيه من مثل مافى قلبها !

— ليس فى حافظتى إلا هذه ... لتكن تذكاراً منى على كل حال !

— تذكار أحتفظ به إلى آخر رمق فى حياتى ياسيدى !

— « أوه ! دائماً ياسيدى ياسيدي ! نادبنى باسمى المجرد يامارى ! أنا أدعى هنرى ... ! ليت لى مثل سنك يامارى ! ليت لى مثل سنك ! »

— حسبك قلب مثل قلبى يا ...هـ ... هـ ...

— هنرى ... ! ماري ... ماذا بك ...

وجعلت الفتاة تبحث الأرض بعينيها مرة ... وتحدق بهما فى وجه هنرى مرة أخرى ... ثم تناول الرأس الصغير مرة ثانية فطبع عليه قبلتين حملتا سر قلبه ، وودعها وهو يقول لها :

— هنا يامارى يجب أن نلتقى الليلة بعد أن يشرق القمر !

وأومأت مارى برأسها الصغير ... وانطلقت تعدو كالمجنونة فى ظلام الغابة ...

***

ولم تفتأ مارى تستعيد الذكريات الحبيبة التى لم تمض عليها هنيهات ... ولم تفتأ تردد هذه النداءات الجميلة « يا جميلتى ... يا صغيرتى ... أوه شيرى ! ! يا عزيزتى ... إلى هذه المترادفات التى يمتلىء بها قاموس الحب ، وألواح الغزل الإلهية المقدسة ... هل هو حلم ؟ !

نبيل من أماثل نبلاء فرنسا يحب هذه الريفية الساذجة التى لا قيمة لها إلا مسحة من جمال ؟ هذا النبيل العظيم الذى يملك أن تكون له جنة من حسان باريس ، تشغفه هذه القروية من بنات الغاب ؟ بل هو حلم ... بل هو حلم !

وعادت إلى البون بك ففكت رباط مارجوت ، وحملت سلة أشغالها ، وعادت أدراجها إلى كوخ أبيها مصدعة القلب ، واجمة الروح ، كاسفة البال ، لا تفكر إلا فى هذه اللحظة التاعسة التى لقيت فيها هذا النبيل .. أو لم تلقه .. لأنها ظنت أنها كانت تحلم !

وأقبل أبوها فأعدت له عشاءه فالتهمه ، ثم انبطح على فراشه الخشن فلم يلبث أن نام ، وراح يغط فى سبات عميق

وجلست هى فى غرفتها تجتر أحلامها ، وتصور الحادث الأكبر الذى زعمته حدث لها ... ولكن رنين القبل على ... جبينها .. ! كان ما يزال يرن ويطن .. والنداءات الغزلية كانت ما تزال تتردد فى مسمعيها ...



العربية والانكليزية

كتب كاتب فى جريدة « الأجبشيان جازيت » عن تعلم المصريين اللغة الانكليزية يقول إن المصريين فى مقدمة الشعوب التى تتقن التكلم والنطق بالانكليزية ، ولكنهم لا يصلون فى ذلك إلى براعة السويديين والهولنديين وإن كانوا يفوقون الألمان والفرنسيين في ذلك بمراحل ؛ ويرجع ذلك إلى أن الطلبة المصريين يتلقون اللغة الانكليزية فى مراحل الدراسة الأولى من الأساتذة الانكليز أنفسهم ، ويخصصون لدراستها فى الأسبوع عدة ساعات ، وبذلك تتاح لهم فرصة ملائمة لتلقى نطقها ولهجتها من أبنائها الأصليين ، وبذلك ينجون من اللهجات الغريبة التى تخالطها أحياناً فى البلاد الأخرى

وفى قول الكاتب كثير من الصحة ، ولكنا نستطيع أن نزيد على قوله أن الطلبة المصريين لم يبلغوا فى تحصيل اللغة الانكليزية ما كان حقيقاً بهم أن يبلغوه فى مثل هذه الظروف والفرص الملائمة ، فالحصص التى تخصص لتدريس الانكليزية فى مدارسنا الثانوية تكاد تعادل الحصص التى تخصص للعربية ، ومع ذلك فقد لوحظ أن الطلبة يلاقون فى تعلمها صعاباً شديدة ، وأنهم ما زالوا فى تعلمها فى مستوى لا يبعث على الرضى . وقد كان لهذه المسألة ضجة فى العام الماضى اهتم لها رجال التعليم والمسئولون من رجال وزارة المعارف

على أن الذى نريد أن ننوه به هنا هو أنه إذا كان للمصريين حظ من إتقان اللغة الانكليزية سواء فى التحدث أو الكتابة بها فانه من بواعث الأسف أن يجىء هذا الاتقان فى أحوال كثيرة على حساب اللغة العربيــة . وإذا كان ضعف الطلبة فى اللغة الانكليزية قد لفت نظر المسئولين من رجال التربية ، فان ضعفهم فى اللغة العربية كان أيضاً باعثاً إلى الاهتمام والنظر

وفى رأينا أن اللغة العربية ما زالت مغبونة الحق فى مدارسنا الثانوية ، وقد كان طغيان الانجليزية والفرنسية على مناهج التعليم

وانهزم الظلام فجأة فهبت إلى النافذة فرأت القمر ينبثق من الأفق الشرق ، ويكسو بنوره الأحمر البركانى جوانب السماء رهبة . ثم ارتفع مليك الليل رويداً فابيض نوره ، وجعل كلما ارتفع ينشر فى الوجود أضواءه ولألاءه ... فاعتزمت مارى أن تخرج إلى موعدها ... ولو كان حلماً حقاً ...

وانسرقت الفتاة فى ظلام الكوخ الذى كان يملأه شخير أبيها النائم رهبة ثم انفتلت إلى الغابة ... الغابة الفضية الصامتة التى كانت حينذاك أشبه بمعابد الهنود ، فجعلت تتسرب فى شعابها وكلما تحرك غصن أو برز أرنب وجلت المسكينة وجلا شديداً ، وهى التى كانت تحرس الغابة في الليالى المظلمة من الذؤبان والسباع . ثم لم تزل تسير فى هرولة ... ولم يزل قلبها يخفق ويدق ... ولم يزل خيالها يمتلىء بالمخاوف ... حتى كانت عند البوابة القديمة ! وا أسفاه ! تبدد الحلم الفضى ... إن هنرى ليس عندها !

وتلبثت مارى تتنسم أثر هنرى ... لكنها لم تجد شيئاً ... فعادت محطمة ذاهلة موهونة ... واخترقت الغابة وهى لا تخشى من أشباحها شيئاً ... إذ ما يهمها أن يفترسها الذئب أو يحرقها العفريت ؟! لا يهم ...

***

ورأت أنواراً ساطعة تنبعث من الكوخ ... وسمعت فيه ضجة ... فخشيت أن تدخل ... وظنت أن أباها افتقدها فلم يجدها فولت هاربة

ولكن هنرى كان قد لمحها من نافذة كوخ أبيها ، فانطلق فى إثرها .. ثم عاد معها إلى الكوخ لتعانق أباها الذى يقول لها :

— « هنيئاً لك يا ماري ... هنيئاً لك يا هنرى ... لك أكبر الشرف يا بنى أن تكون سليلة ملوك الغاب زوجتك ! »

وهكذا تحقق الحلم الفضى !

دريني خشبة

فى الماضى مفهوماً ، وكانت لذلك ظروفه وبواعثه . ومن الحق أن نقول إن هذا الافتئات على حقوق العربية فى الماضى كانت له آثار سيئة فى تكوين الأسس التى قام عليها التعليم القومى فى العهد المنقضى ؛ ولكنا لا نفهم لماذا يبقى هذا الافتئات باقياً إلى اليوم بعد أن تحررت برامج التعليم من القيود التى كانت تحول فى الماضى دون تقديم العربية على سواها

إن تعليم اللغات الأجنبية الحية من العناصر الجوهرية فى تكوين الثقافات الحديثة ؛ ولا شك أن الانكليزية والفرنسية من أهم اللغات الثقافية ، ولكن الذى نرجوه هو ألا يبقى هذا العنصر الأجنبى كما كان فى الماضى أداة للغزو الثقافى والمعنوى على حساب اللغة القومية ، وأن يقتصر الأمر فيه على الاغتراف من مناهل الثقافة والعرفان

هل كانت الفيوم منزل شعب فى العصر الحجرى

عثر المنقبون أخيراً فى بقعة أثرية على مقربة من بحيرة قارون بمديرية الفيوم على جمجمة بشرية قديمة جداً . وقد عرضت هذه الجمجمة على العلامة الدكتور درى أستاذ التشريح بكلية الطب المصرية ، فقرر بعد الفحص أنها لرجل بالغ ، ويغلب على الظن أنه كان ضعيف العقل نظراً لصغر حجمها عن الطبيعى . على أن هذا الفحص التشريحى ليس أهم ما فى الموضوع ، وإنما المهم هو القيمة الأثرية ؛ فقد عرفت هذه البقعة المجاورة لبحيرة قارون بأنها كانت وطن شعب مصرى قديم يرجع إلى آلاف السنين قبل الميلاد . ووجد فيها العلماء المنقبون ولاسيما العلامة الألمانى بونكر كثيراً من الآثار التى تدل على أن هذه البقعة قد عرفت العصر الحجرى . ودل فحص الجمجمة المشار إليها من الوجهة الأثرية على أنها لإنسان عاش منذ نحو ثمانية آلاف عام . فاذا صح ذلك فان علم الآثار المصرية يخطو خطوة جديدة نحو معرفة التاريخ المصري القديم . ذلك لأن قدم الوثائق الفرعونية التى عثر عليها ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف عام قبل المسيح أى إلى خمسة آلاف عام ؛ ولكن هذه اللقطة الجديدة إذا عززت ببعض آثار أخرى توجد فى نفس المنطقة وتماثلها فى القدم ، قد توجه أنظار الباحثين إلى مرحلة أقدم جداً من تاريخ مصر الفرعونية

هذا وقد أحال الدكتور درى هـذه المسألة إلى العلامة فى الأجناس الدكتور تيودور منود مدير متحف التاريخ الطبيعى بباريس ، فأجاب بأن خواص الفلين فى الجمجمة المشار إليها توجد الآن عند كثير من قبائل الزنوج فى أفريقية الشمالية ، وفى الصحراء الكبرى . وتاريخ هذا الانسان مجهول ، ويوجد بين القبائل المغربية قبائل تحمل جماجمها بعض هذه الخواص

وإذن فالمسألة ما تزال موضع البحث والتحقيق

جائزة فاروق الأول

استقر الرأى على أن يطلق على الجوائز التى اقترحها الدكتور حافظ عفيفى باشا لتشجيع الحركة الادبية والعلمية : جوائز فاروق الأول في الادب وفى غيره من الفروع والفنون التى يستحق صاحبها من أجلها تلك الجائزة . ورأت اللجنة جعل الموضوعات التى تدخل فى نطاق الجائزة ستة تتصل بالحياة المصرية فى الأدب والقصص والاجتماع والتشريع والتعليم والزراعة

وتقرر أن تكون قيمة كل جائزة خمسمائة جنيه وأن يكون التقدم إليها مرة فى كل عامين . ورأت اللجنة توثيقاً لأواصر اللغة وتوحيداً للثقافة بين أبناء الأمم الشرقية إباحة دخول المسابقة فى جوائز الأدب والقصص والاجتماع للشرقيين من أبناء العربية

ودرست اللجنة طريقة اختيار المؤلفات ، وهل ينحى فيها نحو « جائزة نوبل » أو يكتفى بأن يتقدم الكتاب والمؤلفون بكتبهم وتآليفهم مطبوعة طبعاً جيداً . وقد استقر الرأى على الأخذ بالطريقة الأخيرة

وعند إقرار المبدأ تؤلف اللجان الفنية المختصة كل عامين لبحث ما يتجمع لديها فى هذا الصدد . وقد لوحظ فى جعل المدة سنتين أن تتاح الفرصة الكافية لكبار المؤلفين لإجادة ما يكتبون وما يؤلفون

لجنة تنظيم الصحافة

يشتغل صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل بك وزير الدولة ، ببحث المسائل التى درستها اللجنة الحكومية « لتنظيم جمعية الصحافة وترقية شؤونها »

وقد استقر الرأى على أن ينضم إلى اللجنة أعضاء جدد من كبار الموظفين وأصحاب الصحف

وسيرأس اجتماعها القادم صاحب الدولة رئيس الوزراء

مهرجان الأدب فى الزفاف الملكى

فكر جماعة من قادة الفكر وزعماء الدولتين الشعر والنثر فى اشتراك الأدب فى ابتهاج البلاد بالزفاف الملكى ، وقد اجتمع فريق منهم فى مكتب حضرة صاحب العزة محمد العشماوى بك وكيل وزارة المعارف وتدارسوا هذه الفكرة ثم أقروها واتفقوا على تأليف لجنة فرعية من بينهم لوضع برنامج المهرجان والاتصال باللجنة الرئيسية المعهود إليها تنظيم حفلات الزواج الملكى . وستجتمع اللجنة الرئيسية على أثر فراغ اللجنة الفرعية من مهمتها لتضع البرنامج النهائى للمهرجان

المؤتمر الدولى السابع لتوحيد قانون العقوبات

فى يوم الأربعاء الماضى تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فأناب عنه من افتتح المؤتمر الدولى السابع لتوحيد قانون العقوبات رسمياً فى دار الأوبرا الملكية ، وفيما يلى بيان موجز عن تاريخه

تألفت بعد الحرب العظمى أول هيئة اهتمت بتوحيد قانون العقوبات وهى الجمعية الدولية لتوحيد قانون العقوبات . ولما كثر عدد المشتركين فيها فكر مسيو بيلا سكرتير الجمعية العام ومندوب رومانيا الدائم لدى عصبة الأمم فى عقد مؤتمرات لبحث الموضوعات التى تهتم بها الجمعية ، وكان أن أنشأ المكتب الدولى لتوحيد قانون العقوبات . وقد جاء فى المادة الأولى من قانونه الأساسى أن غايته دراسة اقتراحات الدول والهيئات التابعة لمجلس عصبة الأمم والهيئات الخاصة الأخرى المؤدية إلى توحيد قانون العقوبات والقيام بالأعمال التمهيدية لتحديد المسائل التي يمكن الاتفاق على توحيد القانون فيها ، والسعى لعقد مؤتمرات دولية والعمل على دوام الصلة بين أعمال المؤتمرات التى تعقد . وأخذ الاهتمام بأعمال المكتب يزداد ونفوذه ينمو حتى أصبح لأكثر الدول مندوبون فيه

وقد عقدت ستة مؤتمرات فى بروكسل وباريس وفارسوفيا وروما ومدريد وفى كوبنهاجن على التوالى . وأولها مؤتمر بروكسل وقد عقد فى سنة ١٩٣٧

معهد التعاون الفكرى وشعبته فى مصر

كانت وزارة المعارف قد عهدت إلى عميد كلية الآداب زيارة المعهد الدولى للتعاون الفكرى فى خلال الصيف الماضي ووضع تقرير عنه ، وقد رأى أن يبحث الأمر مع صاحب السعادة على الشمسى باشا ممثل مصر فى جامعة الأمم قبل وضع تقريره

ومتى تم وضع هذا التقرير بدأت الشعبة المصرية عملها . وقد صدر قرار وزارى بتأليفها من حضرات أصحاب السعادة والعزة وكيل وزارة المعارف ، ووكيل الخارجية ، ووكيل الحقانية ، ومدير الجامعة المصرية ، وعمداء كليات الجامعة ، ورئيس المجمع اللغوى ، وناظر معهد التربية للبنين ، وناظر دار العلوم ، ومدير مصلحة الآثار المصرية ، ومدير دار الآثار العربية ، وأمين المتحف القبطى ، ومدير دار الكتب المصرية ، ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ورئيس الجمعية الجغرافية الملكية ، ورئيس الجمعية الملكية للاقتصاد والتشريع ، ورئيس الجمعية الطبية المصرية ، ورئيس الجمعية الرمدية ، ورئيس المجمع العلمى المصرى ، ورئيس المجمع المصرى للثقافة العلمية ، ورئيس جمعية محبى الفنون الجميلة ، ورئيس جمعية علم أوراق البردى ، ورئيس الجمعية الصحية المصرية

وقد ترك للأساتذة أعضاء الهيئة اختيار الرئيس والسكرتير الفنى لها من بينهم . وسيكون أول عمل تقوم به وضع اللائحة الداخلية لتنظيم الأعمال حتى يصدر بها قرار وزارى من معالى وزير المعارف

حول جائزة جونكور

لاحظ بعض الأدباء كما لاحظت المكشوف أننا ذكرنا فى باب البريد الأدبى في عدد سابق أن الكاتب البلجيكى ش . بليسينيه نال جائزة جونكور فى العام الماضى عن كتابه (أزوجة) مع أنه نالها عن كتابه (جوازات مزورة) . وهذا الخبر نقلناه عن ملحق الأحد الأدبى لجريدة Neues Wiener Tagblatt النمسوية لمراسلها الباريسى . وهو صحيح ولكنه ناقص . وبيان ذلك أن بليسينيه رشح منذ العام الماضى لنيل الجائزة بروايته الأزوجة Mariages ، ولكن ترشيحه أرجىء يومئذ لاعتبارات تتعلق بجنسيته لأنه غير فرنسى . وفى هذا العام قدم روايته الجديدة Faux Passports وانتهت أكاديمية جونكور إلى مبدأ جديد فى مسألة الجنسية ، وقررت أن تمنح بليسنيه الجائزة عن روايتيه الذكورتين . وهـذا هو ما صرح به رئيس الأكاديمية مسيو روزنى Rosny نفسه فى خطابه يومئذ



السينما والأدب

بقلم محمد على ناصف

فى عامى ١٩٣٢ ، ٣٣ كان الفلم البوليسى أكثر أنواع الأفلام شيوعاً وأوفرها غلة على أصحاب الشركات

وفى عام ١٩٣٤ اختص بمرتبة النجاح الأولى الفلم الموسيقى ، وجاء دور الفلم التاريخى فى الموسم التالى

ثم كان الطابع المميز لإنتاج الموسم الماضى أقدام الشركات على إخراج الأعمال الأدبية الكبرى ؛ فشهدنا « حلم منتصف ليلة صيف » و « روميو وجوليت » لشكسبير و « البعث » و « أنا كارنينا » لتولستوى و « دافيد كوبرفيلد » و « قصة مدينتين » لديكنز و « مونت كريستو » و « الفرسان الثلاثة » لاسكندر دوماس الأب ، و « غادة الكاميليا » لدوماس الابن . و « جحيم دانتى » وغير ذلك من الأفلام التى لم تعرض للآن فى بلادنا مثل « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى ، و « كما تشتهى » لشكسبير .

إذا تتبع القارئ هذا البيان المجمل تبين حقيقة ناصعة : تلك أن السينما تتطور من حين لآخر ، وأنها تأخذ فى تطورها اتجاهاً ثقافياً يقرب إلينا معنى السينما وما تستطيع أن تحققه من آمال كبار

لقد كان كثير من الأدباء والفنانين في أول عهود السينما يترفعون عن العمل من أجلها ويحسبونها سلعة ذات بهرج لاصلة لها بالفن ، حتى صرح بعض كبار الكتاب ومن بينهم الكاتب الإنجليزى جورج برنارد شو بأنهم لم يسمحوا بإخراج كتبهم على الشاشة . وقد كتب لويجى بيرانديللو مقالاً فى إحدى المجلات الأدبية عام ١٩٢٧ يحاول فيه الإقناع بفشل الفلم الناطق

واليوم يتهافت كل كاتب وفنان على السينما ، ولا نستثنى أشدهم غلواً فى المحافظة والاتزان . فبرنارد شو نفسه لايشغله الآن شاغل أكثر من إعداد مسرحيتيه « جان دارك » و « بيجماليون » للسينما . فإذا علمت أنه قد أخرج له قبل ذلك مؤلفان ولم يلقيا نجاحاً يذكر ، إذا علمت ذلك ، أدركت قوة إيمان الكاتب الساخر بما كان يسخر منه

ولقد يعجب القارئ كذلك لو علم أن برنارد شو قد ظهر فى فلم طويل مع زميله جون درنكوتر وسيرأوستن تشمبرلن لمناسبة حفلات تتويج ملك الانجليز

ولقد أذيع أخيراً أن مستر ونستن تشرشل قد كلفه ألكسندر كوردا بعمل سيناريو عن حياة لورنس المعروف باتصاله بقضية العرب

ويعد هـ . ج . ولز الكاتب الانجليزى المبتدع فى طليعة الكتاب اهتماماً بالسينما ؛ فقد أخرج له ثلاثة كتب فى العامين الأخيرين كتب هو بقلمه سيناريو أحدها Hngs to Come



برنارد شو يتحدث إلى وندى هيلر التى تمثل دور البطولة فى فيلم « بيجماليون »

ومثله نويل كوارد وإن كان هـذا الأخير قد انفرد بتمثيل دور البطولة فى فلم أمريكى لم يعرض إلى الآن بمصر The Scoudrel ونال كلٌّ من الفيلم وممثله نجاحاً كبيراً

ولقد شاهدنا أخيراً الموسيقار ليوبولدستكوفسكي وأوركستراه الشهير فى أحد الأفلام ، كما أن شركات السينما لا تدع جهداً فى سبيل التعاقد مع كل فنان يصلح مادة للسينما . وقلما يظهر فى عالم الفن كتاب أو مسرحية ناجحة دون أن تلقى اهتماماً من أحد الرواد . حتى لقد قيل إن إحدى الشركات راقها عنوان مسرحية فدفعت من أجل العنوان أربعة آلاف جنيه ولم تحفل بالموضوع

ولا أنسى فى هذا المجال الكاتب الفرنسى مارسيل بانيول صاحب « توباز » الذى ألف شركة سينمائية لإخراج كتبه





مستر ونستن تشرشل الذى يضع الآن سيناريو عن حياة الكبتن لورنس من شخصياته المغفور له الملك فيصل

كل هذه أمثلة أسوقها للتدليل على أن السينما قد أخذت تمتزج بالأدب وتتصل به اتصالاً وثيقاً وإنها وإن كانت متعة الجماهير ، فهى كذلك متعة للخاصة لا يعدلها شيء



هـ . ج . ولز فى ضيافة الطفلة الممثلة شيرلى تمبل بهوليوود

والسؤال الذى قد يتردد هنا : « ما مصير المسرح الآن ؟ »

محمد على ناصف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

6 me Année, No . 238

Lundi - 24 - 1 - 1938

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

الرسالة

مجلة أسبوعية للأدب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العــدد ٢٣٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٢ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ — ٢٤ يناير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة



الزواج الملكى السعيد

فى صباح الخميس العشرين من يناير كانت مصر كلها نطاقاً من الولاء والدعاء والبشر حول قصر القبة العامر!

فى هذا اليوم الموموق، وفى هذا القصر المرموق، وضعت مصر المجيدةُ الخالدة تاجها الثانى على جبين ملكتها الطاهر!

فى الساعة الحادية عشرة من ضحى هذا النهار الضاحك كان مولانا الفاروق يتم نعمة الله عليه بالزواج الموفق الباكر!



هل رأيت قبل اليوم أمة بأسرها تحتشد هازجة فى مهرجان؟
هل سمعت فى غير مصر ستة عشر مليوناً يهتفون بالحب لإنسان؟
هل علمت قبل فاروق أن اتفق مثل هذا الحب لسلطان؟

***

المدافع المبشرة تقصف فى كل ثكنة، والموسيقى المطرِّبة تعزف فى كل ساحة، والنواقيس المجاملة تجلجل فى كل كنيسة، والمذياع الجهير يرسل الأناشيد فى كل جو، وهتاف الشعب المبتهج يهزج فى كل نسيم، وتصفيق الجماهير المحتشدة يُدوِّى

فى كل شارع ، وزغاريد العقائل والأوانس تنطلق من كل شرفة ، وأدعية الترفئة والتهنئة ترتفع من كل قلب ، وصوت الإمام المراغي ينبعث بالصيغة الشرعية من الحجرة الملكية رهيباً كأمر الله ، جليلاً كصوت الرسول ، فيربط بالدين قلباً بقلب ، ويصل بالدعاء ملكاً برب ، ويقرن فى الدنيا تاجاً بتاج

فهل رأيت بعين الحلم ما رأت عيناك فى هذا القران ؟

وهل سمعت بتاجين صاغهما الله من حب وإيمان ؟

وهل اجتمع الدين والدنيا لغير فاروق فى هذا الزمان ؟

* * *

عهدنا بنشوة العرس تبسط قلبي العروسين ؛ فإن زادت أبهجت قلوب أسرتين ؛ فإن زادت أنعشت نفوس قرية

ولكن عرس الفاروق بِدْعٌ من الأعراس لم يسجل مثله التاريخ . وإلا فمتى وأين كان العرس الذى يشعر كل مواطن أنه عرسه ، فى بيته فرحه وفى نفسه مرحه وفى قلبه أنسه ؟ لقد تبدلت الحياة غير الحياة فى ثلاثة أيام على ضفاف النيل المقدس . فالجهود المسخرة لأكلاف العيش تقف ، والعداوات المسعَّرة لمطامع النفس تبوخ ، والأقلام المتسافهة على وجوه الصحف تكف ، والقلوب المختلفة تأتلف على شعور واحد : هو أن وطنها مصر وملكها فاروق ! فلا وساطة بين الملك وشعبه ، ولا علاقة بين المرء وحزبه ؛ كأنما أصبح الناس من وحدة الهوى أسرة فى رُقعة أمة ، وغدا الفاروق من شدة العطف أباً فى عرش ملك !

* * *

قد يكون لعرس الفاروق أمثال تطاوله فى الفخامة وتفاضله فى السعة ؛ ولكن مزيته الظاهرة أنه عرس قومى ساهم فيه كل امرئ بنبض من قلبه وفيض من جيبه . فلم يبق بلد فى القطر ، ولا أحد فى الناس ، لم يقدم إلى العريس الأعظم هدية فاخرة ، أو تهنئة خالصة ، أو دعوة مستجابة ! وتسأل الملايين الوافدة من كل قرية ، والأمواج الدافقة فى كل طريق : أمصدر هذا البشر الذى يترقرق فى جباهكم ، ويتألق على شفاهكم ، هو هذه الأضواء الساطعة والزينات الرائعة والمباهج الخلابة ؟ فيجيبونك إنما هو حب المليك الصالح وجد متنفسه فى هذا الظرف السعيد فانقلب نشوة من نشوات السعادة يضيع فى حمياها التدافع بالظهور ، والتصادم بالصدور ، والنوم على الأفاريز ، والضلال فى الشوارع . وهم فى هذا المزدَحم الضاغط يتجهون إلى القصر ولا يذكرون غير الملك ، كما يتجه الحجيج الحاشد إلى البيت ولا يذكر غير الله !

* * *

مولاى يا زين الشباب ! لنِعْمَ المثل العالى لناشئة الجيل أنت ! إن فى برك بشعبك ، وفى إيمانك بربك ، وفى إحصانك فى بكور السن ، وفى إقدامك على عزم الأمور ، وفى ثباتك على تقلب الحوادث ، لدستوراً من الخلق العظيم تصح عليه القلوب المريضة ، وتنتعش به الآمال المهيضة ، وتشتد به العزائم الرخوة ، ويزكو عليه ثرى الوادى الحبيب الخصيب فيعود فينبت تلك الأدواح الشم التى فاء إلى ظلها وأُكْلها العالمَ القديم فاغتذى واسترْفه

* * *

مولاى يا أمير المؤمنين ! لنعم الامام العادل لدولة الإسلام أنت ! إن فى رفعك منار العدل ، وفى إيثارك جانب الحق . وفى إعزازك كلمة الدين ، وفى تجديدك ما رثَّ من أسباب الخلق ، وفى إحيائك ما عفا من سنن السلف ، وفى أخذك نفسك الملكية الشابة بسْمت الرسالة وسيرة الامامة ، لومضةً من ومضات الروح الإلهى تبعث الحياة فى هذا الهيكل العظيم الرميم فتعيده قوياً كما نشأ ، عظيماً كما شب ، حرياً بأن يبسط على الخافقين جناحه ، ويستأنف في المشرقين دعوته وإصلاحه

* * *

مولاى يا وريث الفراعين ! لنعم الملك الصالح لمصر العريقة أنت ! إن فى جمعك إلى مزاياك الخاصة رأىَ العبقرى محمد علي فى العُدَّة والقوة ، وحبَّ العزيز إسماعيل للحضارة والفن ، وميلَ العظيم فؤاد إلى الثقافة والعلم ، لضماناً لمصر الناهضة أن تساهم فى بناء المدنية من جديد ، وأن تصل حاضرها الطريف بماضيها التليد !

نصَّر اللهُ بالملكة السعيدة عهدك ، وثبَّتَ الله على المملكة الرشيدة مجدك ، وأدام الله على الأمة المجيدة سعدك ، فإنك يا مولاى لدولتك ورعيتك ومِلّتك نعم المولى ونعم النصير

احمد حسن الزيات

زواج ملكي

للأستاذ عباس محمود العقاد

لورنس هوسمان أديب شاعر رسام إنجليزي اشتهر بسمر حياته الصغيرة التي كتبها عن حياة الملكة فكتوريا ونشرها أخيراً « نادي اليمين » الذي يعارض جماعة الشمال من أصحاب المبادئ الاشتراكية والدعوات الانقلابية . وإحدى هذه المسرحيات مقصورة على المناقشة بين اللورد ملبورن والملكة فكتوريا عن مسألة الزواج الملكي وقد دار فيها بينهما هذا الحوار :

فكتوريا — إنني لم أفكر في أحد ما على التخصيص ... أعني أنني لم أتخذ بعد قراراً حاسماً

ملبورن — يفرج عني أن أسمع هذا يا مولاتي ، وأفهم منه إذن أن صاحبة الجلالة لا تزال طليقة الرأي ...

فكتوريا — طليقة الرأي ؟ نعم . نعم ، لا شك أنني صاحبة الخيار في الأمر يا لورد ملبورن

ملبورن — وكيف لا ؟ هذا ما أعنيه طبعاً ولا أشير بغيره لحظة

فكتوريا — لكن هناك أموراً قد عقدت النية عليها وبتتُّ فيها

ملبورن — مثل ماذا ؟

فكتوريا — أن يكون زواجي يا لورد ملبورن زواج عاطفة

ملبورن — ذلك ما يستطاع تدبيره فيما أعتقد يا مولاتي بغير مشقة

فكتوريا — أعني أنني أريد إنساناً أجل خلائقه ، وأستطيع أن أحبه وأن أرتفع إليه

ملبورن — ترتفعين إليه ؟ !

فكتوريا — نعم يا لورد ملبورن . وربما استغربت ما تسمع ؛ إلا أنني أريد زوجاً أتطلع إليه حقاً بعد أن تكمل له الدربة على المرتبة التي سيشغلها

ملبورن — آه . هو كذلك ، هو كذلك . إنني واثق من إمكان وجوده . وإذ كانت صاحبة الجلالة قد أعربت عن طلاقة رأيها في هذا الصدد فعندي الساعة بيان بالأسماء المحتملة

فكتوريا — آه . لورد ملبورن ، ما أعجب هذا ! كم عددهم ؟

ملبورن — حسناً مولاتي . هم في الوقت الحاضر خمسة وحسب ، ولكننا ننتظر آخرين ...

فكتوريا — تنتظرون ؟ !

ملبورن — أريد أن أقول إننا نستخبر خبرهم

فكتوريا — وكيف تستخبرون ؟

ملبورن — عن كل شيء يا مولاتي ، وهو واجبنا المفروض علينا ، فليس من شأني أن أعرض على صاحبة الجلالة أحداً يتجه إليه اعتراض على وجه من الوجوه

فكتوريا — وقد وجدت منهم خمسة حتى الساعة ... ما أبرعك يا لورد ملبورن !

ملبورن — تحدثت يا مولاتي عن « المحتملين » ... ولا يزال الاستخبار جارياً عن الآخرين ، وأنا قائم بالبحث الآن ، ولعله لا يبقى منهم بعد مراجعة صاحبة الجلالة غير واحد

فكتوريا — أود أن ألقى نظرة على بيانك يا لورد ملبورن

ملبورن — إن أذنت مولاتي فبعد تمهيد وجيز عن الملاحظات التي تهديني في بحثي أعرض بياني لنظر مولاتي ، ولموافقتها فيما أرجو

فكتوريا — لا يسعني أن أوافق على خمسة !

ملبورن — على سبيل المراجعة الأولى لم لا يا مولاتي ؟ من خمسة يجرون تختارين السابق

فكتوريا — يجوز ألا أختار أحداً إلى زمن طويل ، ولكن على كل حال هات ما عندك . إنني مصغية ومهتمة

ملبورن — إن المزايا التي يمتاز بها قرين يليق بصاحبة الجلالة هي ولا ريب مزايا فريدة أو مزايا خاصة . ولعلي لا أعدو وصفها الصحيح إن قلت غريبة . فمن الواجب أولا أن يكون من سلالة ملكية ، ومع هذا يجب ألا يكون وارثاً مباشراً أو مرجحاً لعرش من عروش الملك أو الإمارة

فكتوريا — ولم لا يا لورد ملبورن ؟

ملبورن — لأن وراثته ربما جرت يا مولاتي إلى بعض

المشكلات السياسية . إن تاج هانوفر قد تجاوزك إلى غيرك لأن قانون الوراثة يقصر ولاية الملك على الذكور ، وتلك مناسبة سعيدة فيما أحسب ، فنحن لا نحب مزيداً من تيجان هانوفر ، وإن البلاد لأحسن حالا بغير تلك التيجان

ولنعد إلى المزايا المطلوبة يا مولاتى . فالقرين اللائق بصاحبة الجلالة ينبغى فوق عراقته الملكية وبعده عن وراثة العرش أن يكون أميراً من بيت لا هو بالصغير المفرط فى الصغر ولا هو بالخطير المفرط فى العظم . إذ لا مناص لنا من اجتناب المحالفات المعقدة . وينبغى بعد هذا أن يدين بالعقيدة البروتستانتية

فكتوريا — أجل . أجل . فليس فى مقدورى أن أتزوج برجل « بابوى »

ملبورن — نعم يا مولاتى ليس فى مقدورك . إن قانون الولاية يمنع ذلك . ثم ينبغى أيضاً أن يكون شاباً كى يصبح قرين حياة لصاحبة الجلالة ؛ وينبغى أن يعرف أو يتعلم اللغة الانجليزية ، وأن يكون صالحاً لاقتباس العادات والتقاليد القومية . وإن هـذه المزية الأخيرة لأصعبها جميعاً لما هو معروف من تحرج الانجليز مع الأجانب

فكتوريا — لـكنى يالورد ملبورن أحسب ما تقول سيجعل الأمر مستحيلا

ملبورن — حاشا يا مولاتى . غاية ما هنالك أنه سيضيق نطاق الاختيار . ولا بد من العثور على أحد قادر بعد الاصطباغ بالصبغة الانجليزية أن يقتبس عاداتها ومشاربها . وقد حدث هذا فإن ابن عمك الأمير جورج أوف كامبردج مثلا يتخذ على عجل صورة الانجليزى المطبوع ، ولا تمضى سنوات خمس أو نحو ذلك حتى يتعود أن يجفو الأجانب كما يجفوهم

فكتوريا — لـكن أتراك تجفو الأجانب يا لورد ملبورن ؟

ملبورن — كلا يامولاتى ! كلا ! وإنما أصطنع جفاءهم بعض الأحايين لأسباب سياسية

فكتوريا — حسن . وماذا بعد ما تقدم ؟

ملبورن — يجمل به فوق ما تقدم يا مولاتى أن يملك بعض الثروة وإن لم تكن عظيمة ؛ فإن البرلمان سوف يتكفل بما هو لازم ؛ ويجمل به أن يكون صاحب سمت لائق بمقامه ، وأن يكون على جانب من العقل لـكن على غير جانب عظيم منه !!! إذ لا يحق له أن يتعرض لشؤون السياسة

فكتوريا — هذا حق ، ولن أسمح له بالتعرض لتلك الشؤون

ملبورن — ثم ينبغى أن يكون صحيح الجسم سليم التكوين ، منحدراً من « أصل أصيل » ... وهذا أصعب ماعانيناه فى المسألة إذ كان « الأصل الأصيل » فى الأسر الأوربية المالكة من أندر الصفات

فكتوريا — وضح من فضلك ، فإنى لا أكاد أفهم . ويخيل إلى أن كلمة « الأصل الأصيل » تنصرف إلى الماشية

ملبورن — هى كذلك يا مولاتى فى بعض معانيها ؛ بيد أنها تعنى أيضاً ما ينحدر من الوالد إلى الولد . ونحن نجدها فى الوصية الثانية حيث تنبئنا أن خطايا الآباء تنصب على الأبناء ؛ وكذلك الفضائل . ففى بعض السلالات الملكية قد امتزجت الخطايا والفضائل حتى لنخشى المزيد من امتزاجها والخلط بينها . ولهذا كان القران بين الأمراء الأقارب غير محمود المشورة

فكتوريا — أوه !

ملبورن — أعنى على الجملة لا على التقصى . وفيما يرجع إلى بعض الفروع من شجرة أسرتكم يا مولاتى ينطبق هذا لسوء الحظ أشد انطباق . ومن ثم لم أضمن بيانى اسمى اثنين من أبناء عمومتك على الرغم من ذكرهما لى ، وإنهما لولا ذلك لـكانا من أصلح المرشحين لتلك المكانة ، وهما صاحبا السمو الأمير إرنست والأمير ألبرت من ساكس كوبرج جوثا

فكتوريا — ومع هذا كانا يلوحان لى على أتم صحة وقوة عند ما رأيتهما منذ سنتين

ملبورن — في الظاهر يا مولاتى ، والظواهر طالما تخدع . والمسألة بعدُ دقيقة ، بل مؤلمة ، غير أنى لم أضمن اسميهما — اتباعاً لما عندي من الأنباء الطبية — فى البيان الذى أتشرف الآن بعرضه على صاحبة الجلالة (وينهض ويقدم إليها البيان فتعبره بلمحة واحدة)

فكتوريا — أوه . ولـكن هل ترانى أعرف أحداً منهم ؟

ملبورن — جلالتك تعرفين أحدهم حق المعرفة

فكتوريا — أوه . لا أحسب . أتعنى الأمير جورج ؟ إنه ابن عمى أيضاً

ملبورن — فى فرع آخر يا مولاتى ، وليس على هذا الفرع اعتراض من ذاك القبيل

فكتوريا — أوه ، لكننى لا أستطيع أن أقبل ابن عمي جورج ... إنه ... إنه

ملبورن — ليس من يريد أن يمس حق جلالتك فى اختيارك ... هناك غيره

فكتوريا — إلا أننى كما قلت لا أعرف أحداً منهم

ملبورن — يسهل إصلاح ذلك يا مولاتى . تدعينهم إلى البلاط واحداً واحداً ولا تقولين شيئاً ، ثم تصرفينهم ولا تقولين شيئاً . أو تقولين ما بدا لك ، ويبقى من يبقى ، أو يعود كرة أخرى

فكتوريا — لكننى أنا التى أختار . أليس كذلك ؟

ملبورن — نعم أنت التى تختارين يا صاحبة الجلالة ، ولا ضرورة تلجئك إلى الزواج إن أبيت

فكتوريا — أوه ، لكن لا بد من الزواج . هكذا كانت أمى تقول فى كل حين

ملبورن — وهكذا سمعت . على أن مسألة لها مثل هذه الخطورة قلما يسمح فيها لولاء البنوة أن يؤثر فى اختيار صاحب الجلالة . وإنما أقول يا مولاتى إنه على فرض أن هناك محاولة من محاولات التأثير على اختيارك فى وجهة من الوجهات فالواجب يقضى علىّ لما قدمت من أسباب أن أعارض

فكتوريا — لورد ملبورن ، إننى لن أقبل معارضة ما فى أمر من الأمور التى على هذا النحو . إنها لن تؤثر فى رأيي لحظة

ملبورن — لا ؟

فكتوريا — على التحقيق ، وربما أثرت على النقيض في وجهة أخرى

ملبورن — فهمت يا مولاتى ، وأنا أشاطرك شعورك ، ولا أقول كلمة أخرى ، وإنما أكل المسألة إلى حسن رأيك ، وإلى ضميرك

فكتوريا — أوه ، ما أكرمك معى يالورد ملبورن ! وكم ذا أتعلم منك !

ملبورن — بل كم ذا أتعلم أنا من مولاتى . لقد خدمت ملكين أسن من صاحبة الجلالة ، إلا أننى لم أخدم أحداً يصغى إلى المشورة بما تبدين من حكمة وحسن إصغاء

فكتوريا — (ناهضة) أستودعك إذن يالورد ملبورن . أتبقى معك البيان أم تتركه هنا ؟

ملبورن — باذنك يا مولاتى . اذكرى ما قلته أو تفضلى بنسيانه ... فالاختيار لك وحدك وليس لأحد غيرك

فكتوريا — نعم ، ولكنك لم تُرِنى بعدُ صورة من الصور

ملبورن — صوراً يا مولاتى ، ولماذا الصور ؟

فكتوريا — لا يسعنى أن أختار أحداً حتى أرى ملامح وجهه ، فليس هذا بالانصاف لهم ولا هو بالانصاف لى

ملبورن — تستطيعين أن تأمرى بدعوتهم .

فكتوريا — كلا ! لا أنوى أن أدعو أحداً إن لم يعجبنى مرآه

ملبورن — إن الصور لخادعة فى بعض الأحيان يا مولاتى

فكتوريا — هذا صحيح . وقد رأيت منذ أيام صورة لابن عمى الأمير جورج أوف كمبردج ؛ فاذا به يلوح فيها وهو جميل

ملبورن — أستطيع أن أحصل على صورهم جميعاً يا مولاتى حسب مشيئتك ، ولكن المصورين فى البلاط — مثلهم كمثل رؤساء الوزارات — يعرفون واجباتهم ، ولا يعملون إلا ما هو منظور منهم أن يعملوه ، فإن لم يقدروا على عمله فعليهم أن يذهبوا

فكتوريا — (وهى ذاهبة إلى المائدة) ... هذه صورة أرسلت إلى والدتى منذ أيام : صورة ابن عمى الأمير البرت

ملبورن — (وقد تبعها إلى المائدة) ... أوه .. آه . نعم

فكتوريا — لا شك أنه نشأ جميلاً . ليس فى استطاعة مصور بلاط أن يتخيل صورة على هذا المثال

ملبورن — من يدرى يا مولاتى ؟ من يدرى ؟ إن الخيال ليجمح . . . فأما وقد استغنينا عن بيان الأسماء فهل أمضى الآن في جمع الصور لصاحبة الجلالة ؟

فكتوريا — أوه . كلا ! يا لورد ملبورن . لم أكن جادة حين ذكرت هذا

ملبورن — ولا أنا يا مولاتى . إلا أننى أتوسل إلى صاحبة الجلالة أن تفكر فى هذا الأمر جادة . . . إن مصير هذه البلاد لفى هذه اليد الصغيرة « وينحنى على يد الملكة مقبلاً »

* * *

هذا الحوار طريف شائق مفيد من جوانب كثيرة ، لأنه

يرينا نمطاً من أدب الحديث بين الملوك والوزراء فى بلاط الإنجليز ، ويرينا نمطاً من الشروط السياسية التى تلاحظ فى زواج الملوك الأوربيين والملكات الأوربيات ، ويرينا نمطاً من اللياقة التى يتذرع بها الساسة هناك إلى تصريف المسائل الدقيقة . ويحسن الاطلاع عليه ، والأمة المصرية تبتهج بزفاف المليك الفاروق حفظه الله وأدام أيامه ، ليتم الاطلاع على الفارق بين تقاليدنا وتقاليد الغربيين فى هذه الشؤون ؛ فقد فرض العرف القديم وفرضت المواقف السياسية قيوداً على ملوك الغرب لا محل لها من العادات الإسلامية والشرقية . ومن ثم كان زواج الملوك المصريين أقرب إلى الديمقراطية وإلى الحرية وإلى المعانى الإنسانية مما يكون بين الأمم الغربية ، وهي فيما توحيه الظواهر مهد الحرية فى مسائل الزواج .

عباس محمود العقاد

الملك الشاب

رمز الأماني الجديدة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

من أعجب الحقائق التى تقوم عليها الحياة فى الجماعات الإنسانية أن جملة آرائها وعقائدها وغاياتها ، هى آراء موتاها وعقائدهم وغاياتهم ، وكل أمة تعرف ضرباً من تحكم الموتى فى حياة الأحياء .

ومن أمثلة ذلك : الوصية التى يتركها الذين يرحلون عن هذا العالم الفانى ، ويخلّفون بها مالهم لهذا أو ذاك ، بلا شرط أو بشرط يحتمون على الوارث التزامه . ومن أمثلته عندنا الوقف الذى تبقى شروطه نافذة جيلا بعد جيل ، ولا يكاد أحد يملك تغييراً لها ، أو يعرف له حيلة فيها إلا النزول على حكمها . وكل من يعرف شيئاً من التاريخ لا يسعه إلا أن يفطن إلى سيطرة الماضى على الحاضر ، وإلى أن عقول الذاهبين هي التى تسير الأحياء ، أو تقيدهم كما يقيد الواقف ورثته ويحدّ من تصرفهم فيما يخلّف لهم .

وأضرب مثلا قريباً لهذا ما نزال نقرؤه فى الصحف ونسمعه من أفواه الناس ، من قولهم : «مبادىء سعد» . وقد انتقل «سعد» إلى رحمة ربه ونفض يده من شئونها ، وخلا قلبه من همومها وآمالها ، ولكن يده لاتنفك تمتد من ظلمة القبر ، وتدير الرؤوس إلى هنا وههنا . وليس من همى فى هذه الكلمة أن أستقصى كل مظاهر هذه الحقيقة الثابتة ، فان حسبى أيسر الاشارة إليها ، وفى مقدور كل قارىء أن يتوسع كما يشاء فى رد حاضر الجماعة إلى ماضيها القريب والبعيد . وكل ما أريد أن أقوله هو أن كل ما تنطوى عليه الجماعة من آراء سياسية أو اجتماعية ، وما لها من عادات وخصائص ، له تاريخ طويل ، وأن كل جيل يجىء يتلقى هذا الميراث عن سلفه ، وأن التغيير الذى يقع لا يكون فى العادة إلا بطيئاً . وكثيراً ما يخفى أمره حتى على الذين يكونون أداة له ، ولكنه يتفق أحياناً أن يقع للجماعة حادث أو حوادث ترجّ كيانها وتزلزل قواعد حياتها وتفكك الإطار الذى يحيط بصورتها الثابتة ، وتبت صلتها — إلى حد ما — بماضيها الطويل ، وتغريها بالتماس طابع آخر غير الذى درجت عليه ، وتدفعها فى اتجاه جديد ، بروح جديدة ، وخصائص لا تطابق كل المطابقة ما كان مألوفا ومعهوداً فيها .

وقد حدث هذا في مصر مرتين فيما أعلم ، فأما فى المرة الأولى فكانت الرجة التى أحدثت الانقلاب السياسى والاجتماعى سببها الثورة التى قامت فى سبيل الاستقلال ، وهو انقلاب بعيد المدى ما على من يشك فيه إلا أن يرجع البصر إلى ما كانت عليه حياتنا معشر المصريين قبل هذه الثورة ، وما صارت إليه بعدها ؛ وقد تناول كل وجه من وجوه حياتنا السياسية والاجتماعية ، ولم يسلم منه شىء . وقد كان من الممكن أن يقع هذا التحول بغير حاجة إلى زلزلة الثورة ورجاتها العنيفة ، ولكنه كان خليقاً أن يكون بطيئاً جداً ، وغير محسوس ، وعلى أجيال طويلة ؛ غير أن الثورة القومية عجلت به ، من حيث نشعر ولا نشعر ، فأصبحنا فإذا نحن أمة أخرى ، لها فى الحياة آراء جديدة ، وعزمات لم تكن معهودة ، وآمال وهموم ومساع لا نكران أنها كانت تدور فى نفوس البعض ، ولكن السواد الأعظم كان ذاهلاً عنها ، وقد لا تكون هذه الثورة التى انطلقت من عقالها فى سنة ١٩١٩ سوى موجة صغيرة من ذلك البحر الأعظم الذى أزخرت الحرب

تياراته التي ما فتئنا نرى فعلها وأثرها في أمم أخرى كثيرة غيرنا، ولكن هذه الموجة الصغيرة كانت حسبنا، وقد جاءت بالاستقلال آخر الأمر، ولكنها جاءت بشيء آخر، فكانت ختام عهد في حياة الأمة، وبداية عهد غيره له طابع مختلف جداً.

وهنا موضع الكلام في المرة الثانية، وبها يتم التحول الذي بدأته الثورة.

كانت قيادة الأمة في الثورة التي استعرت في سنة ١٩١٩ للشيوخ، وكان الزمام في أيديهم، وكان العبء السياسي على كواهلهم، وكانوا ولا شك يمثلون آراء البلاد واتجاه النفوس فيها، وقد فازوا لأمتهم بما كانوا ينشدون لها، والذي جادوا به هو الذي قدروا عليه، ولو كان في الوسع مزيد لزادوا، ولكنهم تولوا أمراً لا يسعهم فيه أكثر مما وفقوا إليه. وقد أصبحنا بذلك أمة مستقلة، ولكنا أصبحنا بهذا أيضاً أمة محتاجة إلى مثل عليا جديدة، ومساع غير تلك التي بلغتنا هذه القاصية — قاصية الاستقلال — وقد كنا خلقاء أن نشعر بالحيرة والارتباك لو لم يقع ذلك الحادث الجديد الضخم في حياتنا، وهو ارتقاء الملك الشاب فاروق الأول عرش البلاد. ذلك أن شيوخ الأمة لا يستطيعون أن يمثلوا أكثر مما مثلوا، ولا يسعهم في العهد الجديد أن يكونوا رمز الآمال الجديدة التي أنشأها تغير كياننا السياسي

لقد صرنا أمة حديثة، كأنما أفاض عليها الاستقلال ثوباً من الشباب النضير، فهي أحس بفيض الحياة وقوتها منها بما خلعت ونضت من الهلاهيل التي كان الاستعباد يكسوها، وما صدعت من القيود العارقة التي كانت تقعد بها عن السعي وتلزمها سكون الوهن وعجز الشيخوخة. والأمم في مثل هذه الحالة يقل صبرها على حكم الأيدي التي تمتد من وراء القيود، ويكون همها ما أمامها من حياة لا ما خلعته عنها من أكفان الذلة والهوان، ويكون مطلبها رمزاً تتعلق به آمالها وترحب به آفاقها

وقد قيض الله لها ذلك الرمز، فولى أمورها ملكاً غض الشباب، شامت الخير كله من لمحاته، وآنست الرشد أجمعه من حركاته وسكناته، فافتتنت به، ولها العذر واضحاً، والحق صريحاً فما يمثل آمال الشباب إلا الشباب، وهذا هو بعض السر في السحر الذي لملكنا: إنه شاب فياض الحيوية زاخر الآمال عظيم الثقة بأمته ومستقبلها، شديد الإيمان بالله وبالمجد الذي كتبه تعالى لها، وإنه قام على العرش قبل أن تدرك الحيرة شعور الشباب في الأمة؛ وقد كان المغفور له الملك فؤاد يدرك ذلك، ولهذا أعده للعهد الجديد خير إعداد

ومن فضل الله على الأمة أنه ملك سمح عظيم مروءة النفس، ومتواضع كريم، ورقيق حليم، ووثاب بعيد مرامي الهمة، وصادق العزم صارم الإرادة، وعالي المنزع شديد الطموح، يحب الأمة ويثق بها فإذا كان قد سحر الأمة فلا عجب. بل العجب العاجب ألا يسحرها.

ومن هنا فرحة الأمة به، وبكل ما يفرحه

وأمر آخر يجعل الأمة أعمق حباً له، وأشد تعلقاً به، ذلك أنه ليس مديناً بعرشه إلا لله جل جلاله، فقد ورث عرشه بحقه الصريح فيه، فهو لا يمكن أن يشعر بغير فضل الله عليه، وهو لهذا أول ملك حر في مطلع عهد الحرية، والأمة تدرك هذا حق الإدراك، ولهذا يفيض قلبها بالحنو والحب كلما رأت مظاهر توجهه الصادق إلى الله تعالى

ويشاء الله أن يجعله موفقاً في كل عمل، فقد أسر قلوب الشعب يوم خطب لنفسه من بنات رعاياه، وقد صارت اليوم ملكتنا بسنة الله الرضية. ولو أنها كانت بنت أعرق الملوك لما كانت أحب إلى هذه الأمة، ولا أندى على قلوبها، ولا أجل في عيونها، ولا أسمى فيما تحس نفوسها

لقد خلط الملك نفسه بنفوس أمته، فهي تشعر أنها منه وإليه. وتحس أنه ملكها بأدق ما تفيده هذه الاضافة من معنى

بارك الله في الملكين، وهنيئاً لها وللأمة

ابراهيم عبد القادر المازني

مهرجان المليك

للأستاذ محمود الخفيف

بكرت تفصح عن وجدانها ... أمة حبك من إيمانها
طرب الليل على أوضاحها ... وانجلى الصبح على ألحانها
وصحا الشرق على موكبها ... وسمات العيد فى أوطانها
شاعت الروعة فى أفراحها ... وتجلى الصدق فى برهانها
أعلنت بعض الذى تضمره ... من معان هن فى إمكانها
أبداً لم تطلع الشمس على ... مثل ما تبديه فى إعلانها
مرح فى كل ناد ومنى ... تعجز الألسن عن تبيانها
وأحاديث كأنفاس الربى ... تنهل الأنفس من ريحانها
وأغاريد كما شاء الهوى ... رنة الإخلاص فى تحنانها
وقعها فى القلب أحلى نغمة ... من هتاف الورق في أفنانها
اسمك الميمون فى مطلعها ... والولاء الحق من أوزانها

***

مهرجان العرس لم يسلف به ... زمن فى الغر من أزمانها
لا ولا الشرق رأت آفاقه ... مثل هذا السحر فى أركانها
عز فى الهند على أقيالها ... وعزيز الدر فى تيجانها
وعلى هرون فى أفراحه ... وليالى الأنس من بغدانها
وأنو شروان فى دولته ... والملوك الصيد من ساسانها
مهرجان تشخص الدنيا له ... ومعانى البهر فى أجفانها
طاول الشمس سناء وسنى ... وارتدى ما جل عن عقيانها
لبس الود على زينته ... ومعانى الحب فى ريعانها
زهرات لم تقلبها يد ... أين غالي الدر من أثمانها
لم تشبه خدع الدنيا ولا ... سطوة الزائف من سلطانها

***

صفحة الوادى عليها رونق ... يملك الحسن على شطئانها
أخذت زخرفها وازينت ... ببديع الوشى من ألوانها
وانحنى النهر عليها معجباً ... يغبط الفلك على ربانها
هزت الوادى من أركانه ... فرحة واتته في إبانها
هاهنا ورد، وريحان هنا ... ورموز زيد فى إتقانها
وطيوف حوم خافقة ... أرسلتها الخلد عن ولدانها
وجموع تلتقى مزهوة ... بضروب اللهو فى ميدانها
فرحة فى الكوخ والقصر معاً ... فى قرى مصر وفى بلدانها
فى صعيد الأرض، فى أبطحها ... فى ربوع النيل من سودانها
يلتقى الناس عليها عصبة ... شيبها والغر من شبانها
زمرة المحراب من أشياخها ... ورعاة الدير من رهبانها
صاحب الجاه على تربتها ... ومجيل الفأس فى غيطانها
ردها فى العين أبهى منظراً ... قرة الأعين من غلمانها
أقبلت والحسن فى غرتها ... تبهج النظار من ضيفانها
دلهت مصر وفاضت فسرت ... هزة منها إلى جيرانها

***

ملك النيل تلاقت أمة ... أفصحت بالبشر عن شكرانها
شكرت بعض الذى أسديته ... فتهانيها صدى عرفانها
لك فى الخير يد هطالة ... لا تنى تغدق من إحسانها
وسجايا قد تفردت بها ... أجمع الشعب على استحسانها
قد حملت العبء فيها يافعاً ... فشأوت الشمس في ميزانها
إن دجا الرأى عليها والتوى ... فسنا رأيك من فرقانها
عشقت فيك شباباً ناضراً ... دب مثل الروح فى جثمانها
تقبل الدنيا فلا تزهى بها ... وتطيع الله فى عصيانها
زدت بالتقوى جلالاً وهدى ... وأوت منك إلى عنوانها
أنبت المجد بمصر دوحة ... أنت أزكى الشم من عيدانها
يا مليكاً باهت الدنيا به ... أمة تغليك عن رعيانها
أنت يافاروق فى مقلتها ... وهى كالمقلة من إنسانها

الخفيف

من الأعراس الإسلامية الشهيرة

زواج قطر الندى الطولونية

بالخليفة المعتضد بالله

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت الدولة الطولونية أولى الدول الاسلامية المستقلة بمصر ، وكانت أقصرها حياة ، ولكنها لم تكن أقلها قوة وبهاء ، فهي لم تعمر سوى سبعة وثلاثين عاماً (٢٥٤ — ٢٩٢) ، ولكنها سطعت خلال حياتها القصيرة كما تسطع الدول العظيمة . ثم انهارت فجأة كأنها صرح أسس على الرمال ، ذلك لأنها كانت تدين بوجودها وقوتها لمؤسسها العظيم أحمد بن طولون ؛ فلما توفى أحمد فى سنة ٢٧٠ هـ ، وخلفه ولده خمارويه ، لبثت الدولة مدى حين تحتفظ بلونها الزاهر ؛ ولكن عوامل الانحلال السريع كانت تعمل لتقويض دعائمها التى لم تكن قد رسخت بعد . وكان خمارويه أميراً مترفاً ينثر حوله ما استطاع من ألوان الفخامة والبهاء ، فعنى بتوسيع القطائع (١) وتجميلها عناية فائقة ، وزاد فى قصر أبيه زيادات كبيرة ، وأنشأ له قصراً خاصاً بذل فيه من صنوف البهاء والبذخ آيات عجيبة ، وجعل فيه بركة من الزئبق الخالص ، وديواناً ملوكياً فخماً عليه قبة عظيمة ، وداراً للسباع ، ومسارح للطيور وغيرها . وكانت هذه الألوان الزاهرة تسبغ على الدولة الطولونية مظهراً بارزاً من القوة والعظمة ، ولكن النضال المستمر الذى اضطرت إلى خوضه كان يستغرق قواها ومواردها ، ويعرضها لتلك الزعازع والمفاجآت التى تنذر الدول الناشئة بالفناء الكامل

وكانت الدولة الطولونية تستظل منذ قيامها بلواء الخلافة الإسمى ؛ ولم يشأ مؤسسها النابه أن يخرج على هذه السلطة الروحية التى يستمد منها شرعية حكمه واستقلاله . وحذا ولده خمارويه حذوه ، فدعا للمعتمد العباسى ، ثم دعا من بعده للمعتضد . على أن هذا الاستظلال الإسمى بلواء الخلافة لم يحل دون تعرض الدولة الطولونية لهجمات عمال الخلافة وأوليائها الآخرين . واضطر خمارويه ، كما اضطر أبوه من قبل أن يخوض غمار معارك دفاعية متصلة ؛ ولما ولى المعتضد الخلافة فى أواخر سنة ٢٧٩ هـ ، بعث إليه خمارويه بالهدايا الملوكية المعتادة ، فبعث إليه المعتضد بكتاب الولاية والخلع التقليدية ، وانتظمت العلائق الودية بين الخلافة والدولة المصرية ، بشروط وعهود معينة . ورأى خمارويه من جهة أخرى أن يوثق هذه العلائق بمشروع معاهدة اقترحه على الخليفة ، وهو أن يزوج ابنته أسماء الملقبة بقطر الندى لولده وولى عهده المكتفى بالله ؛ فوافقه المعتضد على هذا المشروع على أن يتزوج هو قطر الندى . واغتبط خمارويه بعقد هذه الصلة الوثيقة بينه وبين الخلافة ، وبعث الخليفة مندوبه وصديقه الحسن بن عبد الله الجوهرى المعروف بابن الجصاص إلى مصر ليتولى إحضار العروس إلى بغداد ، وليشرف من قبله على أهبات القران الخلاق .

***

وكان زواج المعتضد بقطر الندى من أعظم الحوادث الاجتماعية فى التاريخ الإسلامى ، وكانت هذه الأميرة المصرية النابهة من أجمل نساء عصرها وأكملهن فى العقل والخلال ؛ وكانت وقت خطبتها صبية فى نحو الخامسة عشرة ؛ وكان أبوها خمارويه يعبدها حباً ؛ فلما وقع الاتفاق على زواجها من المعتضد أحيط عقدها وزفافها بأروع ما يتصور الانسان من مظاهر الفخامة والبهاء . وكان صداقها ألف ألف درهم ، ولكن خمارويه أنفق فى تجهيزها أضعاف أضعاف هذا القدر . وكان جهازها مضرب الأمثال فى البذخ الطائل الذى تكاد تحسبه من مناظر ألف ليلة وليلة . وقد نقلت إلينا الرواية بعض تفاصيل مدهشة عن جهاز قطر الندى وزفافها ؛ فذكرت لنا أن خمارويه قدم لابنته فيما قدم دكة أربع قطع من ذهب وعليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا تقدر ، ومائة هون من ذهب ؛ ومن الحلى والثياب روائع يعجز عنها الوصف ، حتى قيل إن من بينها ألف تكة من الحرير قيمة الواحدة منها عشرة دنانير ؛ وهى واقعة ينوه بها المقريزى ويتخذها دليلا على بذخ هذا العصر الطائل ، ويقول لنا إن أسواق القاهرة فى عصره أعنى فى أوائل القرن التاسع كانت تعجز عن أن تقدم تكة واحدة بهذه القيمة ؛ ويقول لنا القضاعى إن ابن الجصاص ، وقد تولى

(١) القطائع عاصمة الدولة الطولونية ، وكانت تقع فى شمال شرق الفسطاط فيما بين جامع ابن طولون وجبل المقطم

إعداد الجهاز والاشراف على النفقة تحقيقاً لرغبة خمارويه ، حينما قدم إليه ثبت النفقة ذكر له أنه لم يبق منها للتسوية سوى « كسر » قدره أربعمائة ألف دينار ، وإذن فما بالك بالنفقة كلها إذا كان هذا كسرا منها فقط ! (١)

وفى أواخر سنة ٢٨١ هـ ، تم تجهيز قطر الندى ، واتخذت الأهبة لارسالها إلى الخليفة . وهنا أيضاً يجب أن نرجع الذهن إلى قصص ألف ليلة وليلة ، لكى نتصور ما أحيطت به رحلتها من مصر إلى بغداد من مظاهر النعماء والفخامة والترف . فقد شاء خمارويه أن يجعل لابنته من تلك الرحلة الشاقة نزهة بديعة ، فأمر أن يقام على طول الطريق من مصر إلى الشام ثم إلى بغداد فى نهاية كل مرحلة منزل وثير تنزل فيه قطر الندى وحاشيتها ، وتتمتع فيه بجميع وسائل الراحة . وأنفقت فى هذه الرحلة مبالغ طائلة ؛ وخرجت قطر الندى من القطائع فى ركب ملكى عظيم يشرف عليه ابن الجصاص مندوب الخليفة وجماعة من الأعيان ، ومعها عمها شيبان بن أحمد بن طولون ؛ وصحبتها عمتها العباسة إلى آخر حدود مصر من جهة الشام ؛ « وكانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد ، فاذا وافت المنزل وجدت قصراً قد فرش ، فيه جميع ما يحتاج إليه ، وعلقت فيه الستور ، وأعد فيه كل مايصلح لمثلها فى حال الاقامة ، فكانت فى مسيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها فى قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس »(٢)

ووصل ركب قطر الندى إلى بغداد فى فاتحة المحرم سنة ٢٨٢هـ فأنزلت فى دار صاعد . وكان المعتضد غائباً بالموصل ، فلما علم بمقدمها عاد إلى بغداد ، وزفت إليه فى الخامس من شهر ربيع الأول في حفلات عظيمة باذخة أسبغت على بغداد مدى أيام حللا ساطعة من البهاء والبهجة . وسحرت قطر الندى الخليفة بجمالها وخلالها البارعة ، وتفوقت فى حظوتها لديه على سائر حظاياه . ومما يروى أن المعتضد خلا بها ذات يوم فى مجلس أنس ، فلما ثقل رأسه من الشراب وضع رأسه على حجرها ، فلما استغرق فى النوم ، وضعت رأسه على وسادة وغادرت المجلس ؛ فلما استيقظ ولم يجدها استشاط غضباً وناداها وعنفها على تصرفها ، فأجابته : « يا أمير المؤمنين ماجهلت قدر ماأنعمت به على ، ولكن فيما أدبنى به أبى أن قال : لاتنامى مع الجلوس ، ولا تجلسى مع النيام(٣) »

محمد عبد الله عنان

(١) المقريزى فى الخطط (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ١١٢
(٢) المقريزى فى الخطط ج ٢ ص ١١٣ (٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢١٨

من برجنا العاجى

« كل شيء يزدهر فى مملكة تمتزج فيها مصلحة الشعب بمصلحة الملك » تلك كلمة قالها « لابروبير » فى كتابه « الأخلاق » تقابلها كلمة أخرى في كتاب للهند عن رجل دخل على مليكه فقال له : « أيها الملك إن بقاءنا موصول ببقائك ، وأنفسنا متعلقة بنفسك .. »

وضعتنى هذه الأقوال لحظة موضع التأمل وقلت فى نفسى إن هذه النظرة إلى « الملك » لا يمكن أن تكون وليدة الأوضاع الاجتماعية وحدها أو المبادىء السياسية أو العقائد الدينية . فالشرق والغرب لا يتفقان هكذا إلا على شيء يخرج من نبع طبيعتنا الانسانية . إن الشعوب منذ فجر حياتها كانت دائماً ترى الأمة هى الجسم والملك هو « الرأس » بمعناها الطبيعى « الفسيولوجى » . هذا صحيح لاريب فيه ، والملك هو الحاكم المطلق فى نظام الملوكية المطلقة . أما والأمة فى النظم الديمقراطية هى التى تتولى الحكم فمن الحق أن نتساءل عن صحة تلك النظرة القديمة . قليل من التأمل يهدينا إلى هذه النتيجة : إن الأمم فى شبابها كالفتى ، تستهوى عقله كل مظاهر القوة ، وتسيطر على رأسه كل أحلام الفتوة ؛ فهى تجمع كل السلطة لتمطيها ذلك الحاكم المطلق الذى يدير كيانها ويحرك جسمها ويهز عضلاتها ، إلى أن تمضى أيام الصبا وفورة الشباب وتدخل الأمة فى طور الرجولة والاستقرار ، فتحزم أمورها المادية بنفسها ، وتترك مليكها يشغل بما يشغل به الرأس الحقيقى من شئون الفكر ومسائل الثقافة . وهنا نرى الملك فى الشعوب الديمقراطية قد انصرف عن وظيفة الحكم المادى إلى وظيفة أخرى تشبه وظيفة الرأس فى جسم الانسان المفكر ، فينقطع هو إلى التوجيه الفكرى لأمته وتشجيع العلوم والآداب والفنون ، وختم كل مظاهر النشاط الأدبى والمادى فى الدولة بطابع الحضارة . فالملك فى كل زمان ومكان هو الرأس دائماً ؛ على أنه فى الأمة الفتية رأس فتى ، وفى الأمة العريقة رأس رجل .

توفيق الحكيم

زفاف مليكة القلوب ويلهلمينا الهولندية

للأستاذ محمد لطفي جمعة

أخي الأستاذ صاحب الرسالة :

تفضلت فطلبت إليّ أن أكتب فصلاً يتصل بزفاف أحد ملوك الغرب بمناسبة الأفراح الفذة النادرة التي تقام في القاهرة لقران الملك الصالح السعيد فاروق الأول ، فصادف تفضلك هوى في نفسي لأنني أشعر نحو شخص جلالته بحب وتقدير لا يعدلها إلا ولائي لعرشه واستبشاري وتفاؤلي بعهده . وأعتقد أن عاطفتك نحو جلالته إن لم تزد على عاطفتي في هذا المضمار فهي تساويها لأن هذا الملك الشاب أثَّر أول ما أثَّر في قلوب المثقفين المهذبين أمثالك ، ولذا رأيتَ أن تقف عدداً من رسالتك أو معظمه على مشاركة الأسرة والأمة أفراحهما ، ونعمت الفكرة الملهمة التي ستلقى قبولاً ورضى من قرائك كافة في سائر أنحاء العالم العربي .

***

وأول ما خطر ببالي زفاف مليكة هولاندا ويلهلمينا وزوجها الأمير ألبرت وقد شهدته بنفسي إذ كنت في سياحة في تلك البلاد العجيبة[1] التي هي أقرب إلى القطر المصري بوديانها وخضرتها ومزارعها الناضرة وأخلاق أهلها الوادعين ، وكانت الأميرة ويلهلمينا نفسها تدعى « مليكة القلوب » لما حباها الله من الجمال والجلال ورقة الحاشية ، فكانت محبوبة من شعبها وإن نسب الحاسدون إليها شيئاً من الكبر والخيلاء وزعموا أنهما زالا مع الزمن بعد أن أحسنت القيام على حكومتها في رفق ولطف سياسة ، وأصبحت بصيرة بوجوه التدبير والإدارة ، خبيرة بتصريف الأمور ، حتى كتب « ڤان كيكم » أحد وزرائها عقيب زفافها يقول : « إن مليكتنا أعقل أهل المملكة » ووافقه على ذلك من رفاقه الوزراء من كان لا يزال يرقب المليكة عن كثب ويدرس أحوالها وينظر إلى مستقبلها في اسطرلاب الحوادث المغيبة .

(١) تسمى هولاندا مصر أوروبا لأنها تضارعها في الخصب والزراعة وتزيد عليها أن لها مستعمرات كبيرة في الشرق من بقايا أيام قوتها وهي تنتج الكاكاو والأرز والشاي وأنواع العطارة والبخور .

كان البرنس ألبرت خطيب المليكة من صفوة أشراف الطراز الأقدم ، وكان قد ورث ثروة طائلة عن آبائه واتخذ لنفسه معلمين من الانجليز بعد أن نال إجازات من جامعتي برلين واكسفورد ، وآوى إلى ضياعه التي يملكها في هولاندا فغرس بستاناً على نمط جديد ، وابتنى لنفسه قصراً على خطة من بنات فكره ، وجعل ينفق في سبيل العناية بالمثوى وتمهيد البستان وتنظيمه ما شاء الجمال وحسن الذوق ، حتى استنبت أزهاراً نابتة من الخزامى والورد الأزرق

وكان يعلم أن المليكة الشابة تحبهما وتختارهما وتفضلهما على غيرهما من الأزهار فأهدى إلى جلالتها كل ما أخرجه البستان من الورد الأزرق الغض والخُزَامَى ، فأصبح من أقرب الأمراء إلى البلاط ، وقبلت المليكة ووالدتها دعوته إلى حفلة شاي أنيقة أقامها في عيد ميلادها في قصره ، وكانت الملكة الوالدة قد آمت[1] من زوجها وكسرت شبابها على تربية ابنتها «ويلهلمينا» وتثقيفها وإعدادها للعرش إذ كانت ولية العهد والوارثة الوحيدة بعد أبيها وفي تلك الحفلة ظهر البرنس ألبرت أجمل مظهر وأبدعه وأروعه وكان فتى رشيق القد ممشوق القامة يختال في حُلة عسكرية فائقة . ولما علم بدنو موكب المليكتين (الوالدة والجالسة على العرش وهي التي زفت إليه بعد قليل) امتطى صهوة جواد سابح ينهب الأرض وراح يستقبل موكب المركبة الملكية ، ولم تكن السيارات قد ملأت العالم كما هي الآن ، فوقع من قلب المليكة الشابة خير موقع ، ورنت إليه بعين الرضى والسرور حتى أنه أثناء الحفلة أوعز لأمه الأميرة بياتريس أن تلمح إلى الملكة الوالدة لتجس نبضها في الخطبة فانتهزت الأميرة فرصة الرضى وفاتحتها ، فابتسمت وقالت : « إن في أمور الدولة ما يشغلنا عن استعجال المتوقع ، وفي انتظار الفرص ما يصرفنا عن استدراج البعيد » ثم أسرت لابنتها ما أسرت ،

(١) آمت : تأيمت من زوجها ومكثت زمناً لا تتزوج

فتهلل وجه الملكة الشابة التى ما زالت ترنو إلى الأمير وتخالسه النظر فى إعجاب وحياء . وفى الواقع أن الأمير كان خير من يصلح للملكة على الرغم من إقبال الأميرات الأجنبيات عليه ومبالغتهن فى إظهار ميولهن وأمانيهن بأن تكون واحدة منهن عروساً له . ولكنه كان عنهن منصرفاً لا يكاد يكترث لهن ، فأوّلن ذلك بأنه لا بد أن تكون لقلبه سيدة استأثرت باحتلاله وامتلاكه والتربع على عرشه . وكن فى حديثهن صادقات

وكذلك كانت فئة كبيرة من الأمراء يمللون أنفسهم بحظوة القرب من الملكة الشابة والارتباط ببيتها المالك برابطة المصاهرة والنسب ، ولكن والدتها ووزراءها والقيمين عليها كانوا يفضلون أميراً من خلاصة الشعب وسلالته كما فعل جلالة مليكنا المحبوب أعزه الله

وكانت ويلهلمينا الملكة الشابة فى السابعة عشرة من عمرها . كان يضيء محياها الجميل عينان زرقاوان براقتان كأنهما نبعان من ينابيع ماء الحياة ، ومن العجب أن ترى جذوة النار فى زرقة البحر ! ولها من شعرها الأصفر البراق ضفائر يضل النظر فى استحسان دقتها وغزارتها ، وقد صدق من وصفها بأنها تمثال فاتن من صنع الاغريق بقى مكنوناً في صميم صدر الدهر حتى كشفت عنه الطبيعة المنعمة ، وأظهرته العناية الملهمة ، فبدا ملكة على الأفئدة قبل أن تكون صاحبته ملكة على العرش ! !

وكانت وحيدة أمها ، وولية العهد ، وصاحبة التاج المرموق ، الذي يهيمن على ستين مليوناً من البشر فى شرق آسيا الجنوبى ، غير خمسة ملايين من أهل بلادها الأصلاء (١) وهي على جانب عظيم من الثقافة والغنى ومكارم الأخلاق وكرم النفس والوداعة والرحمة ، على عكس ما قال الحاسدون ، فكانت أمها وأقاربها ورجال حكومتها وأهل البلاط يبالغون فى ترفيهها وتدليلها . وكان ينتظر من وراء ذلك وبسببه أن يكون لها على أهلها وحاشيتها وخدمها ، وكل من لابسها وجالسها ، فرط جرأة وتسحب ؛ ولكن الأمر كان على العكس فقد كانت وادعة متواضعة ، شديدة الحياء والإيمان والتوقير لكل كبير ، جمة الحنين لذكرى أبيها الذى مات وتركها فى المهد صبية ، وكان يتمنى أن يسهر على تنشئتها فيشهد زفافها ، ولكن توفاه الموت قبل أن يدرك غايته . وقد اختلفوا فى البائنة التى قبضها (البرنس كونسورت) أي الصهر الملكي الذى أسعده الحظ بزواجها ، فقيل مليون كورون ذهباً ، وقيل مليونان . ولكن الصحيح أنه قبض ثلاثة ملايين وتسلم زمام إحدى الجزائر المملوكة للتاج بغير شريك وهى تدر خيرات كبرى من الزرع والضرع والكنوز

وبعد قليل من تلك المقابلة صار الأمير بمكانة الزوج المنتظر ولم تمض بضعة أشهر حتى تم الزفاف فى مدينة لاهاى (ذي هاج) عاصمة هولاندا . وكان ذلك فى صيف عام ١٩٠٦ . وقد قضى العروسان شهر العسل على شاطئ سكفينينجن (١) وهي ضاحية الاستحمام والاستجمام تبعد عن العاصمة بضعة أميال . وكان عقد الزواج فى هيكل القصر . ومن أبدع مظاهر زينته أولئك الفتيات القرويات ذوات الفتنة الضاحكة والسذاجة المستملحة وسحر البساطة المستعذبة اللواتى اشتهرن فى أنحاء أوربا بجمالهن وعفافهن وميلهن للمداعبة البريئة . وقد رغبت الملكة الشابة أن يشتركن فى زفافها ، لشدة حبها لشعبها وعطفها على رعاياها ولا سيما من كان منهن فى سنها ومن جنسها اللطيف .

فكنت ترى بجانب جورج الخامس (وكان ولى عهد بريطانيا لأن الملك إدوارد السابع ورث العرش عن والدته الملكة فكتوريا) بثيابه الرسمية المرصعة بالجواهر والأوسمة الرفيعة ، والسيف المحلى بالذهب والحجارة الكريمة ، والحمائل المسجدية من المخمل الثمين وقد وضع على رأسه خوذة من الذهب الخالص وزانت وجهه لحية شقراء ، وليوبولد الثانى وهو الآخر شيخ هم أبيض الشعر وردى الوجنتين أزرق العينين ، وقد أبى إلا أن يلبس ثياباً هولاندية

(١) ومعنى هذا بلغة الاستعمار أن لكل هولاندى من رعاياها اثنى عشر رجلا من الاندوسيين الذين نرى أشباهم فى معاهد العلم بالقاهرة وأندونسيا مجموعة جزائر وحواضر من أغنى بلاد الشرق وأخصبها وقد اخترع الهولنديون طائرات سريعة للوصل بين العاصمة والمستعمرات النائية .

(١) من أجمل وأروع شواطىء الدنيا وأجمل من أوستند وأطهر وبها فندق مشيد من الحديد المموه بلون براق ورماله ذهبية هينة المنحدر لينة الملمس وهو على مقربة من لاهاي كرمل الاسكندرية

مبالغة منـه فى التقرب الذى يقتضيه حسن الجوار وانفرد بين الملاك بهدية من تحف الـكونجو ، وهى تماثيل من الأبنوس والعاج مُنزّلة بالذهب تمثل آلهة وفرساناً وغزلاناً وأيائل وفيلة وطيوراً من أجمل وأروع ماوقعت عليه العين . وكان ليوبولد الثانى يملك ولاية الـكونجو الحرة ملك السيد المطلق لا تشاركه فيها حكومة

وكان ليوبولد الثـانى بقدر قسوته على رعاياه الإفريقيين ذا حنان وشفقة على رعاياه الأوربيين ، وكان يعطف على جارته ملـكة هولاندا لشبابها ، ويرى أن يفرط فى مجاملتها والحلول فى نظرها محل والدها الذى كان من أصدقائه الحميمين

وكانت من المدعوات الإمبراطورة أوجينى بجلالة قدرها وعبرة شيخوختها ، أتت من لندن مستندة إلى ذراع دوق كونت وقد اتشحت ثياباً بيضاء موشاة « بدنتلة » بروكسيل ، قدرت بيضعة ملايين من الفرنكات ، ووضعت على رأسها توبجاً من الزمرد الأخضر المتلألئ على شعر جبينها الأبيض ، وزينت صدرها « بمنياتير » صورة مصغرة لولدها الأوحد (نابليون الرابع) الذى اغتاله القاتلون فى زولولاند وهو يحارب متطوعاً تحت راية الإنجليز بعد أن فقد ووالداه عرش فرنسا عقيب حرب السبعين

وقد أهدت الإمبراطورة إلى العروس حليًا وعقوداً من خزانة كنوزها ، وإلى العُرْس (برنس البرت) سيفاً من سيوف نابوليون بونابرت . وأرسلت جمهورية فرنسا هيئة شرف حربية ومدنية من الوزراء والسفراء والنواب وقد لبسوا الثياب الملـكية وشارة الجمهورية (شريط مثلث الألوان) وحملوا على صدورهم نياشين الجمهورية ووسام (زايدرزى) وهو أرفع وسام هولاندى ، وأرسلت مستعمرات هولاندا فى الشرق الأقصى (جزيرة جاوى وأندونسيا) وفوداً من سلاطينها وأمرائها ، وقد زانوا الاحتفال بثيابهم الشرقية الفضفاضة وعمائمهم المرصعة بالجواهر ، وكان أجلهم وأظهرهم غنى ووقاراً السلطان محمود بن تبنى حايف هولاندا وصاحب عرش جزيرة بيهالو – هوى ، وكان حاكما شرقياً مسلماً شديد الشكيمة واسع الحيلة ، لم تستطع واحدة من دول الاستعمار إخضاعه ، فخالفته مخالفة الند للند ؛ وكان يزين نحره وصدره بجواهر لا تقدر بمال ، وأهدى إلى العروسين تحفاً قيمة منها سيوف هندية ولوحات منقوشة ومرصعة ، وأقداح من الذهب للشاى وصناديق من العاج لصيانة الحلى

وكان هذا السلطان الشرقي يسير فى مكان ظاهر من الموكب وحوله بقية الأمراء من وطنه . وكفاهم فضلاً أنهم سافروا فى البر والبحر أربعين يوماً ليشتركوا فى المهرجان قبل اختراع الطائرات.

وكانت تحمل أذيال الملـكة العروس ، وهى من الفراء الموشاة بالذهب والدر المنضد ، فتيات وأطفال كاللؤلؤ المنثور ، نشأوا فى الهواء الطلق تحت ظلال أشجار البلوط ورضعن ألبان أمهات صحيحات الأبدان قويات البنية فكانوا وكن زينة الموكب . ولا مراء فى أن لـكل أميرة أو قرينة وزير أو عقيلة سياسىٍّ مشاركة فى الاحتفال أن تبتسم من سلامة الفطرة التى كانت متجلية فى وجوه الهولانديات ، لأن العزلة والحـرية والصحـة الشاملة استنبتت و نَمّت قبل الأوان فى قلوبهن عواطف ونزعات وأهواء وشهوات لا تحسها ولا تدركها فتيات أوروبا الغربية . فكنت ترى بعض الأميرات والوصيفات وسيدات الشرف يضحكن فى خفر ضحكاً بريئاً لا يؤثر فى بساطة الجمال الهولاندى وجليل محامده التي لولاها ما ظهر في تاريخ تلك البلاد (منذ الاحتلال فى عهـد فيليب الثانى) مثقال ذرة من العظمة الانسانية[1]

ولـما كانت الملـكة احتجاجية المذهب (بروتستنت) وكان الأمير كاثوليكياً ، فقد عقد المعقد مرتين . والقى خطبة الزواج بالهولاندية والانجليزية والألمانية والفرنسية فان كروب مترنجر كبير أساقفة لاهاي أمام الهيكل الذى شهد زواج والدة الملـكة وجدتها وحفلة إعلان استقلال (نيذرلاندز أو بيباس Bays - Bas (الأرض الواطئة) من حكم اسبانيا الذميم

وقد ذرفت الملـكة الوالدة دمعتين من دموع الفرح والذكرى لفراق زوجها وهو والد العروس ، وكانت تتمنى أن يكون على قيد الحياة ليقدمها لعرسها ، وقد حل محله الملك الشيخ ليوبولد الثانى لأن له من الحظوة والزلفى والدالة والوجاهة عنـد ملوك

---

(١) ألف أحد مؤرخى الانجليز كتاباً في خمسة مجلدات عن تاريخ هولاندا وعظمتها وانحدارها وما وقع لها من الحروب مع فرنسا وانجلترا واسبانيا ومن أروع صحفه خطبة البرجو مستى وهو يسلم عاصمة الملك للاسبان

أوروبا منزلة رفيعة وشأناً عظيماً . وكان الأمراء الشرقيون على غاية السرور، ولم يحسوا شيئاً من التجانف والتجافي اللذين يلقونهما في بلاد الشرق من الحكام الهولنديين والانجليز، ما عدا السلطان محمود فقد كان آية في الجد والوقار كأنه لا يخلو من التفكير والشجون على فرط اكتراث الملوك واحتفالهم بشأنه، ولكنه ممن لا تفتنهم مظاهر الأبهة ولا تأخذ بألبابهم نفخة الحياة الدنيا

وكان الشعب مشاركا في الأفراح ليلاً ونهاراً، ولم تبق شيخة أو كهلة أو فتاة في بيتها، وكن يلهجن بذكر العروسين ويفضن في شرح حالهما وأمرهما حتى أصبحا مجال البحث وموضع الحديث في كل شارع وطريق وزقاق ومحفل

ومن أساطير ذلك الزفاف الملكي أن الملكة العروس دست على خطيبها فتاة ذات حسن رائع من وصيفاتها وقالت لها : « اذهبي وانظري ألبرت خطيبي والحصيه لحصاً ثم عودي لخبريني أي امرئ هو، وصفيه لي وانعتي خلاله ومزاياه وشمائله وسجاياه »

ونسي واضع الأسطورة أو واضعها أن الملكة إنما خطبت عرسها على عينها وتخيرته بنفسها وأحبته للوهلة الأولى، ولكن ما الحيلة في أخلاق الشعوب وخصوبة أخيلة النساء وثرثرتهن حتى فيما ليس لهن به من علم ؟ وحتى لو كن من أهل الشمال الأوربي البعيدات القاصيات النائيات عن الشرق وأساطيره . ولكن المرأة هي المرأة في كل زمان ومكان من شمال القطب حيث يقطن الإسكيمو إلى جنوب أرض النار (تيراد يلفويجو) !

وما أنس لا أنس الزينات التي قامت على قدم وساق في البر والبحر، فقد أمرت الملكة ألا يخرج صائد ولا باحث عن رزقه بين الأمواج خلال أسبوع الزفاف، وأجرت على الفقراء والعائلين أرزاقاً أغنتهم عن خوض غمار البحار في سبيل القوت والصيد فحشدوا سفائنهم ومراكبهم وزوارقهم وزينوها بالأعلام والمصابيح، وأقاموا مراقص شعبية تسمى بالهولاندية كيرمس أو (دعكة) يشربون فيها الجعة والجين اللاذع، ويختالون في سراويلات ملونة ويحتذون أحذية من الخشب المنحوت، وهم بين كهل وفتى يراقصون الفتيات على أنغام الموسيقى الهادئة ذات الحنين الشجي ؛ ولا يدري مقدار ما يحمل أولئك الفتيات البحريات من أهل ساحل هولاندا من فتنة السذاجة المستملحة وسحر البساطة المستعذبة إلا من رآهن رأى العين . وقد كان هذا الزفاف في عرفهن طارئاً عظيماً وحادثاً جليلاً، وقد اتخذن من التحلي والتزين له واقعة وتاريخاً وذكرى خالدة . وقد صورت الصحف مناظر الموكب والأفراح والمراقص، وما أزال أذكر صورة بالألوان البهيجة تمثل امرأة عانساً في الأربعين من العمر دهنت وجهها وزججت حاجبيها لترقص مع شيخ بحار من صائدي الحيتان وقد اصطنع لنفسه لحية تحيط بذقنه وعارضيه دون أن تدنو شعرة واحدة من شفتيه ووجنتيه، واتخذ على رأسه قلنسوة خضراء ذات صنع عجيب ووضع أعجب، وفي فمه غليون ضخم قصبته من خشب القرو، وخزانة الطباق فيه ويسمونها (الفرن) من القيشاني

أما الشوارع في يوم الزفاف وليلته فكانت تمج بمئات الألوف من أهل البلاد والسائحين والمصورين والصحفيين وأقاموا متاحف ومعارض لمتاجر البلاد ومنتجاتها من خيرات البر والبحر . ومن متاحف تلك الفترة مجموعة فريدة من تصاوير رمبرانت الهولندي ومؤسس تلك المدرسة العريقة في إتقان الألوان ومحاكاة الطبيعة في درس علم التشريح، وقد يبلغ ثمن بمضاهاتها الألوف من الجنيهات

(من ذكريات قديمة) **محمد لطفي جمعة**

زفاف فاروق

للأستاذ محمود غنيم

طربت لعرسك مصرُ يا ابن فؤادِ ... فكأنّ عرسك ملتقى الأعيادِ
بالفطر والأضحى الكنانة تحتفى ... فيه، وبالنيروز والميلادِ
فى كل قلبٍ مهرجانٌ قائم ... وبكل أذنٍ قام يهتفُ شادِ
ملكٌ قد اقترن السرورُ بعهده ... فكأنما كانا على ميعادِ
أو ما ترى قلبَ الدجى متوهجاً ... يبدو كقلب الصبِّ يومَ بعادِ
نُقِشَتْ حواشي الليلِ نقش صحيفةٍ ... بالنور لا بيراعةٍ ومدادِ
لم تبدُ أنجمُهُ لترسل ضوءها ... لكن لتشهده مع الشهّادِ
غنّوا لفاروقٍ فألفيتُ اسمه ... أشجى صدًى من رنّة الأعوادِ
وزهت ثُرَيّاتٌ حلفتُ بأنها ... ليست كنور جبينه فى النادي
قذفوا «النيازك» فى الفضاء تخالها ... مشبوبةً من عزمه الوقّادِ
أغنته عن باقِ الزهور خلائقٌ ... نفاحةٌ مثلُ الزهور نوادِ
ماذا أقول عن البدور وعرسِها؟ ... عرسُ البدور يجلُّ عن إنشادى
خلِّ الشبابَ الغضَّ فى ريعانه ... وعراقةَ الآباء والأجدادِ
ودع العلا والمجدَ ويحك جانباً ... فى الصمت مايغنى عن التعدادِ
نثروا الزهور وقمت أنثر بينهم ... شعرى، وشعرى طارفى وتلادى
إن الزهور قصيرةٌ أعمارُها ... وقصائدى تبقى على الآبادِ
شعرٌ تودُّ الحورُ عند سماعه ... لو صغنَ منه قلائد الأجيادِ

***

قل للشباب أصبتَ أيةَ قدوةٍ ... فى شخص فاروقٍ وأكبرَ هادِ
لما رأى ولَعَ الشباب بكل ما ... فى الغرب صاح بهم وقال: بلادي
وبنى بها ريحانةً مصريةً ... معصومةً من هُجنة الأولادِ
عذراء نضرت الكنانةُ عودها ... من أهل بيتٍ ناطقٍ بالضادِ
رَشَفَتْ من النيل العتيد رحيقهُ ... وتفيأت منه ظلالَ الوادى
ولو ابتغى شمس الضحى عِرْساً له ... لرأيتها هَبطَت من الآراد
قل للغريب بقلبه وغرامه ... ما أقفرت مصرٌ من الأغيادِ
لا تَبنِ بامرأةٍ وتهدمَ منزلاً ... خيرُ الزواج تزاوجُ الأندادِ
لستم بمصريين حتى تؤثروا ... مصراً بكل محبةٍ ووِدادِ
كم فوق شطِّ النيل أهيفَ شادنٌ ... فتن الغصونَ بقدّه الميّادِ
يرنو بلحظٍ فاتنٍ بل فاتك ... فتكَ السيوف وهنّ فى الأغمادِ
من عهد «فاتنة القياصر» لم تزل ... مصرُ مَراحَ نواعمِ الأجسادِ

***

فاروقُ كم لك آيةٌ شعبيةٌ ... كبرى تمسُّ شِغاف كلِّ فؤادِ
أحصنتَ فى شرخ الشباب وطالما ... ألقى الشبابُ إلى الهوى بقيادِ
قالوا: كبحتَ النفس. قلنا فارسٌ ... يعتاد منذ صباه كبحَ جيادِ
ومن الشبيبة حكمةٌ ورجولةٌ ... لا تُحْسَبُ الأعمارُ بالأعدادِ
هات المسرةَ واسقِ شعبك إنه ... شعبٌ إلى كأس المسرة صادِ
لم يستظلَّ بمثل عهدك مذ هوى ... عن عرشه فرعونُ ذو الأوتادِ
درَجَت قرونٌ وهو عانٍ مرهَقٌ ... يكفيه ماعاناه من إجهادِ
بعد السهاد يطيب للعين الكرى ... والنصرُ يُدرك بعد طول جهادِ
وطنٌ عتيدٌ من شبيبتك اكتسى ... حُلَلَ الشباب قشيبةَ الأبرادِ
حتى سألت: أمصرُ فى شرخ الصبا ... أم مصرُ أقدمُ من ثمودَ وعادِ؟
طوقتَ أعناق البلاد بطول ما ... أسديت من مِنَنٍ وبيضِ أيادِ
فعجبتُ كيف أسرتَ مصراً بعدما ... حرّرتها من رقّ الاستعبادِ

***

يا ثالثَ العُمَرَيْنِ أنت أريتنا ... بالعين ما يُروى عن الزهّادِ
قد جئتَ فى جيلٍ يصلّي جاهداً ... ويصوم لا لله بل للزادِ
حرَصوا على الدنيا. وكل جديدةٍ ... تبلى وكلُّ ذخيرةٍ لنفادِ
فلعلّ أنفسهم بهديك تهتدي ... فتروجَ سوقُ الروح بعد كسادِ
وهي الحنيفةُ دينُ كلّ حضارةٍ ... وعدالةٍ وهدايةٍ ورشادِ
شاء المهيمنُ أن تكون عمادها ... هيهات يتركها بغير عمادِ
اختلتَ فى بُرد الزفاف وفى غد ... تختال فى بُرد النبيّ الهادى

إن الخلافةَ كلما ذكر اسمُها   شخصت إليك حواضرٌ وبوادِ
يا رُبَّ يوم فيه قد وفدت على   مصرٍ ، ومصرُ كثيرةُ الوفَّادِ
إنَّا أوينا ها غداة تشرَّدتْ   وَعدت على دار السلام عوَادِ
أوَمَا استعارَ الترك منا تاجها   لجبين «محمود» ورأس «مراد»
منذا سواكَ يعيدُ عهدَ أُميَّةٍ   بدمَشْقَ والعباس فى بغدادِ
أضميتَ بالتقوى صُدورَ معاشرٍ   مسخوا محيَّا الدين بالإلحادِ
لله إذ تردُ المصلى خاشعاً   تسعى إليه بخطوك المتهادى
وكأنَّ ركبَكَ لا يسيرُ على الثرى   وكأن جبريلاً لركبك حادِ
ملك يتوِّجُ مَفرِقيْه بالتقى   نورُ الصلاح عليه أبلجُ بادِ
عجباً له يخشى الزمانُ نزالَهُ   وعليه تبدو خشيةُ العبَّادِ
إنَّا عجمنا عودَه فإذا له   وجهُ البدور وصولةُ الآسادِ
حلوٌ مريرٌ صارمٌ متسامحٌ   أرأيت كيف تقابلُ الأضدادِ؟
ماعيدُه إلا غداةَ تعدُّه   فى شعبه فرداً من الأفرادِ
عرشٌ على الدستور قام أساسُه   فإذا به أرسى من الأطوادِ

***

بُوِّئْتَ يافاروقُ عرشاً كان فى   أيدى فراعنة بمصرَ شِدادِ
هم شاركوا الأرباب في مَلَكُوتها   كم صاح صائحهم وقال : عبادى
ضمِنوا بقاء رسومِهم وجسومِهم   والحادثات روائحٌ وغوادِ
قم سائل الأهرامَ عن تاريخهم   ما فصَّل التاريخَ مثلُ جمادِ
هُنَّ الثقاتُ من الرواة برئْنَ من   عصبيةٍ وسَلِمْنَ من أحقادِ
فأعِدْ لنا عهدَ الجدود وهات ما   تركوا لمن تركوا من الأحفادِ
هَات الذخائرَ والسلاحَ لأمةٍ   عزلاء واستكثرْ من الأجنادِ
هـذا الزمانُ مسلحٌ لا يحتفى   بعهود سِلْمٍ أو صكوكِ حيادِ
أو ما رأيت الطامعين بخيلهم   حول الحمى يقفون بالمرصادِ
فاجعلْه إن ذاقوه سمًّا ناقعاً   واجعله إن مَسُّوه شوك قتادِ
فاروقُ دم واسلم لشعب مخلصٍ   بنفيسه وبنفسه لك فادِ
سل كل قلب فى الكنانة نابضٍ   عما يريد يجبك أنتَ مرادى

كوم حمادة   محمود غنيم

الرســـــالة
فى سنتها السادسة

على الرغم من ارتفاع أثمان الورق هذا الارتفاع الفاحش ، وبالرغم من تقدم الرسالة هذا التقدم المطرد ، وبالرغم مما سنبذله فى تحسينها من الجهد فى عامها الجديد ، سيبقى اشتراكها كما هو : ستون قرشاً فى الداخل ، وجنيه مصرى فى الخارج ، وتقدم إلى من يدفعه فى أثناء شهر يناير المقبل مجلة الرواية مجاناً

الروايــــة

وليست الرواية هدية ضئيلة القدر ، فإنها تصدر جيلة الطبع والوضع فى سبعين صفحة ، وهى المجلة الوحيدة التى تقرأ فيها القصة العربية الفنية مكتوبة بأسلوب بليغ مشرق ، أو القصة الأوربية الرائعة مترجمة بلسان أمين صادق . وحسبك دليلاً على قوتها وقيمتها أن مجموعة سنتها المنصرمة تشتمل على ٣٤ أقصوصة موضوعة ، و ١١٦ أقصوصة منقولة ، وثلاث مسرحيات ، وعلى النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لألفريد دى موسيه ، وملحمة الأوذيسة لهوميروس ، وكتاب يوميات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم . أما مجموعة السنة القادمة فستكون أروع وأجمع وألذ . واشتراكها وحدها ثلاثون قرشاً فى مصر ، وخمسون فى الخارج

اشتراكات الطلبة والمعلمين الالزاميين

يشترك الطلبة والمعلمون الالزاميون فى الرسالة وحدها بأربعين قرشاً ، وفي الرواية وحدها بعشرين قرشاً ، وفيهما معاً بخمسة وخمسين قرشاً . ويضاف إلى ذلك خمسة وثلاثون قرشاً فرق البريد لاشتراكات الخارج . ويجوز أن يقسط هذا المبلغ أقساطاً تبتدىء فى يناير وتنتهى فى شهر مايو من سنة ١٩٣٨

الاشتراك فى الرسالة : يقوى عقلك ، وينمى ثقافتك ، ويطلعك على تطور الفكر العالمى الجديد

والاشتراك فى الرواية : يربى ذوقك ، ويرهف شعورك ، ويمتعك بروائع الفن القصصى الحديث

زواج أمير عربي بأميرة هندية

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

ماذا يخطّ القلم فى هذا الفرح المتلألئ، والسرور المزدهر، والقلوب الخافقة، والأيدى الصافقة، والزينات الساحرة، والأضواء الباهرة ؟ ماذا يخط القلم فى أمة بل أمم خفقت قلوبها حباً، وانطلقت ألسنها دعاء، وتوجهت إلى هذا الوجه الأغر، والطلعة المباركة، إلى الملك الشاب الصالح جلالة الملك فاروق ؟ ماذا يخط القلم إلا أن يشارك العيون متعتها والنفوس بهجتها، والقلوب أدعيتها، فيجول فى مجال واسع من الفرح الحاضر، أو يقلب صفحات التاريخ عن صفحة من الجمال والسرور لألاءة، أو يطمح فى المستقبل إلى حقب من المجد وضّاءة تظللها السعادة واليسر، والصفاء والبشر.

قلبت صفحات التاريخ فعبرت من عرس إلى عرس حتى وقفت على عرس كان في الهند فى القرن الثامن الهجرى، ورأيت من غرابته وطرافته ما يؤهله لأن يعرض على قراء الرسالة فى هذا الأسبوع المبارك.

— ٢ —

كان السلطان محمد بن غياث الدين تُغلُق شاه يملك دهلى وما يتصل بها وبلاد الدكن[1]، فى الربع الثانى من القرن الثامن الهجرى (٧٢٥ — ٧٥٢ هـ)؛ وكان ملكاً ذكيًّا سخيًّا عظيم البطش، جبّار السطوة.

وكان يحتفى بالغرباء الوافدين عليه ولا سيما العرب وخاصة من انتمى منهم إلى بيت النبوة؛ كان يبذل لهم من ماله، ويوطئ لهم من كنفه، ويبلغ من إكرامهم وإجلالهم ما يملأ النفس عجبا.

— ٣ —

وكان آل ربيعة من طيّ أمراء على قبيل عظيم من العرب فى أطراف الشام؛ فى عهد الدولة الأيوبية ودولة المماليك؛ كان ملوك مصر يستنجدونهم فى المُزَبات، ويفوضون إليهم الرياسة على القبائل، ويبالغون في إكرامهم إذا وفدوا عليهم؛ وقد قدم منهم فرج ابن حيّة على المعز ايبك فأنزله بدار الضيافة أياماً وأنفق على ضيافته وهداياه ستة وثلاثين ألف دينار.

وكان من أمرائهم فى القرن السابع والثامن إلى آل مُهَنّى ابن عيسى. «وكلهم رؤساء أكابر، وسادات العرب ووجوهها؛ ولهم عند السلاطين حرمة كبيرة، وصيت عظيم، إلى رونق فى بيوتهم ومنازلهم

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم
مثل النجوم التي يسرى بها السارى[1]»

— ٤ —

قدم الأمير سيف الدين غدا بن هبة الله بن مُهَنّى على السلطان محمد فأكرم وفدته وأنزله بقصر فى دهلى يسمى: «كُشكِ لعل» أى القصر الأحمر، وأغدق عليه العطايا وأكثر الهدايا، ثم زوجه أخته الأميرة فيروز

وكان الرحالة ابن بطوطة إذ ذاك مقيما بدهلى فى كنف هذا السلطان، فشهد العرس العظيم، وتولى بعض شؤونه، ووصف زفاف الأمير سيف الله والأميرة فيروز. فانظر كيف وصف:

«ولما أمر السلطان بتزويج أخته للأمير غدا عيّن للقيام بشأن الوليمة ونفقاتها الملك فتح الله، وعينني لملازمة الأمير غدا، والكون معه فى تلك الأيام. فأتى الملك فتح الله بالصيوانات فظلل بها المشورتين[2] بالقصر الأحمر المذكور وضرب فى كل واحد منهما قبة ضخمة جداً وفرش ذلك بالفُرُش الحسان

وأتى شمس الدين التبريزى أمير المطربين ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والرواقص، وكلهن مماليك السلطان

---

(١) دكهن ومعناه الجنوب القسم الجنوبى من بلاد الهند.

(١) صبح الأعشى ج ٢

(٢) المشور كلمة يستعملها ابن بطوطة فى معنى فناء الدار

وأحضر الطباخين والخبــازين والشوائين والحلوانيين ، والشربدارية والتنبول داران (١) وذبحت الأنعام والطيور وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوماً ، ويحضر الأمراء الكبار والأعزة ليلا ونهاراً

فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين جاء الخواتين (٢) من دار السلطان ليلاً إلى هذا القصر فزيّنّه وفرشنَه بأحسن الفُرُش واستُحضر الأمير سيف الدين ، وكان غريباً غريباً لا قرابة له ، فحففن به ، وأجلسنه على مرتبة معينة له — وكان السلطان قد أمر أن تكون أم أخيه مبارك خان مقام أم الأمير غدا ، وأن تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته ، وأخرى مقام عمته وأخرى مقام خالته ، حتى يكون كأنه بين أهله — ولما أجلسنه على المرتبة جعلن له الحناء فى يديه ورجليه ، وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن وانصرفن إلى قصر الزفاف . وأقام هو مع خواص أصحابه

وعين السلطان جماعة من الأمراء تكون من جهته (الأمير) وجماعة يكونون من جهة الزوجة ، وعادتهم أن تقف الجماعة التى من جهة الزوجة على باب الموضع الذى تكون به جَلْوتها على زوجها ، ويأتى الزوج بجماعة فلا يدخلون إلا أن يغلبوا أصحاب الزوجة ، أو يعطونهم آلاف الدنانير إن لم يقدروا عليهم

ولما كان بعد المغرب أتى إليه بخلعة حرير زرقاء مُزَركشة مرصّعة ، قد غلبت الجواهر عليها فلا يظهر لونها مما عليها من الجواهر وبشاشيّة مثل ذلك . ولم أر قط خلعة أجمل من هذه الخلعة ؛ وقد رأيت ما خلعه السلطان على سائر أصهاره مثل ابن ملك الملوك عماد الدين السمنانى ، وابن ملك العلماء ، وابن شيخ الإسلام ، وابن صدرجهان البخارى ، فلم يكن فيها مثل هذه

ثم ركب الأمير سيف الدين فى أصحابه وعبيده ، وفى يد كل منهم عصا قد أعدّها ، وصفوا شبه إكليل من الياسمين والنسرين وله رفرف يغطى وجه المتكلل به وصدره ؛ وأتوا به الأمير ليجعله على رأسه . فأبى من ذلك ، وكان من عرب البادية لا عهد له بأمور الملك والحضر ، فحاولته وحلفتُ عليه حتى جعله على رأسه

وأتى باب الصرف ويسمونه باب الحرم ، وعليه جماعة الزوجة فحمل عليهم بأصحابه حملة عربية وصرعوا كل من عارضهم فغلبوا عليهم ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات . وبلغ ذلك السلطان فأعجبه فعله

ودخل إلى المشور وقد جعلت العروس فوق منبر عال مزين بالديباج ، مرصع بالجوهر ، والمشور ملآن بالنساء والمطربات قد أحضرن أنواع الآلات المطربة ، وكلهن وقوف على قدم إجلالاً له وتعظيماً . فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر ، فنزل وخدم (١) عند أول درجة منه . وقامت العروس حتى صعد فأعطته التنبول بيدها . فأخذه وجلس تحت الدرجة التى وقفت بها . ونُثرت دنانير الذهب على رؤوس الحاضرين من أصحابه ، ولقطها النساء ، والمغنيات يغنين حينئذ ، والأطبال والأبواق والأنقار تضرب خارج الباب ثم قام الأمير وأخذ بيد زوجته ، ونزل وهى تتبعه . فركب فرسه يطأ به الفُرُش والبُسُط . ونُثرت الدنانير عليه وعلى أصحابه وجُعلت العروس فى محفّة ، وحملها العبيد على أعناقهم إلى قصره والخواتين بين يديها راكبات ، وغيرهن من النساء ماشيات . وإذا مروا بدار أمير أو كبير خرج إليهم ، ونثر عليهم الدنانير والدراهم على قدر همته حتى أوصلوها إلى قصره

ولما كان الغد بعثت العروس إلى جميع أصحاب زوجها الثياب والدنانير والدراهم . وأعطى السلطان لكل واحد منهم فرساً مسرجاً ملجماً ، وبدرة دراهم من ألف دينار إلى مائتى دينار وأعطى الملك فتح الله للخواتين ثياب الحرير المنوّعة والبدر ؛ وكذلك لأهل الطرب — وعادتهم ببلاد الهند ألا يعطى أحد شيئاً لأهل الطرب . إنما يعطيهم صاحب العرس . وأطعم الناس جميعاً ذلك اليوم . وانفض العرس

وأمر السلطان أن يعطى للأمير غدا بلاد المالوة والجزات وكنباية ونهر والة وخيل فتح الله المذكور نائباً عنه عليها ، وعظّمه تعظيماً شديدا . اه

عبد الوهاب عزام

---

(١) الشربدارية القيمون على الشراب والتنبول نبات هندى أحمر يؤكل كثيراً ويقدم للضيوف والتنبول دار من يتولى تقديم التنبول

(٢) الخواتين جمع خاتون وهى السيدة باللغة التركية

(١) خدم : حيا بالانحناء

بالرفاء يا فاروق

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

في الروضة الشريفة المطهرة ، وإلى جانب المنبر النبوي الكريم ، أخذ القوم مجلسهم كما تعودوا أن يجلسوا كل يوم ؛ يجلس عليّ وعثمان وطلحة والزبير ، وسعد وابن عوف وإخوانهم من المهاجرين في سبيل الله ، يتباحثون فيما يتصل بشؤونهم ، ويتحدثون بما يهم المسلمين وينفعهم ؛ وكان لابد أن يوافيهم عمر في مجلسهم ، وينقل إليهم ما انتهى إليه من أخبار الأمصار وسير الولاة في الناس ، ويستشيرهم فيما حمل إليه من الآفاق ، فيشيرون عليه [1] ، ولكن عمر لم يحضر اليوم كعادته ، ولقد انتظره القوم أكثر مما يجب فما وافى إليهم ، قال قائل منهم : ترى ما الذي تأخر بابن الخطاب عن مجلسنا ، وأنا أعلم عنه صحة البدن وتمام العافية ، وما أعرف أن عنده من رجال العرب أو أن هناك ما يشغله عنا ، ويحمله على الخلف والتخلف ؛ فلعله قد نسي مجلسنا اليوم ، وما أحسبه قد نسيه من قبل !

قال عثمان : رفقاً يا قوم بابن الخطاب ، فقد ألقيتم عليه أعباءكم كلها فنهض بها صبوراً أميناً لا يألو جهداً في تدبير أموركم ، ولا يدخر وسعاً في سبيل راحتكم وراحة المسلمين كلهم . ولقد وسوس الناس منذ أيام فيما بينهم بأن عمر يريد أن يعرس لنفسه ، وهو جاد في اختيار الزوجة الصالحة ليفرغ لأمور الحكم بكل جوارحه ، وأحسب أن الله قد وفقه لما يحبه هو لنفسه ، وما يحبه له المخلصون من صلاح الحال ، وسعادة البيت ، فقد انتهى إلى سمعي أنه اختار لنفسه أم كلثوم بنت أبي بكر ، ومن كبنت الصديق حسباً ونسباً ، وصلاحاً وجمالاً ؟ فإن كان عمر قد تأخر عنا اليوم ، فلعله قد تأخر لهذا الأمر ليتمه على نفسه ، وليفرغ منه إلى غيره ، فما بالكم تلومون الرجل على فترة انتهزها لنفسه ، واغتنمها لتدبير بيته ؟ على أنه قد وقف عليكم كل وقته ، ومنحكم جميع تدبيره ...

قال طلحة : ولكني أعرف يا ابن عفان أن عمر قد رُدَّ في خطبة بنت أبي بكر ، وقد كان من خبر ذلك أنه لما كشف عن رغبته لعائشة أجابته إلى طلبه ووعدته بتحقيق رغبته ، وقالت له : إن الأمر كله لك ونحن طوع أمرك ، فأنت أمير المؤمنين وصاحب الرسول ، وخليفة أبي بكر ، ولكنها إذ ذكرت الخبر لأم كلثوم رغبت عنه ، وقالت : إن عمر رجلٌ خشن العيش ولا طاقة لي باحتماله ، فتحيرت عائشة وأرسلت إلى المغيرة بن شعبة لعله يحتال في رد عمر بالخير ، فالتقى به المغيرة وقال له : بلغني يا أمير المؤمنين أنك خطبت لنفسك أم كلثوم بنت أبي بكر ، وهذا أمر أعيذك بالله منه ، وأرى من الخير لك ولها ألا يتم ، وما أقول هذا رغبة بك عنها أو رغبة بها عنك ، ولكني أقوله يا عمر لأني أحبك وأبغي لك سعادة البيت ، فأنت تعلم ويعلم الناس جميعاً أن بنت الصديق قد نشأت في كنف أبيها ، وقد كان رحمه الله لين الجانب ، طويل الأناة ، رحب الصدر ، كبير الرفق ، فتعودت ابنته ألا تعامل إلا بلين الجانب وطول الأناة ورحابة الصدر وحسن الرفق . فلما انتقل أبو بكر إلى جوار ربه انتقلت ابنته إلى جناب عائشة ، وعائشة كما تعلم امرأة ، عندها من العطف واللين والرفق أكثر مما كان في نفس أبي بكر . وأنت يا عمر رجل شديد المراس ، قوي الشكيمة ، تأخذ الناس بالشدة والعنف ، وأنت على النساء أشد ، وفي معاملتهن أعنف ، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوت بها ؟ لا جرم كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك ، وأبو بكر مكانته في المسلمين كبيرة ، وحرمته عندنا واجبة ، فليس من صواب الرأي وسداده أن تكون لك ابنته على ما تعودت في حياتها ونشأت في تربيتها ، وعلى ما أنت عليه من ميول وأخلاق شديدة . وإذا كنت قد كلمت عائشة ، فأنا أكفيك أمر عائشة ؛ وإذا كنت ترغب في الزوجة الصالحة ، فأنا لك بأم كلثوم بنت عليّ من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد انتهى الأمر على هذا التدبير

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٣٨

يا ابن عفان ، وقد علمت أن مسمى المغيرة قد ارتاحت له عائشة ، واطمأن إليه عمر ، وطابت به نفس ابنة الصديق

قال ابن عوف : ألا تقصرون من حديث عمر ؛ فها هو ذا مقبل علينا يقتصد فى مشيته ، وإنى لألمحه منبسط الأسارير مفتر الثغر ، فلا بد أن يكون وراءه بشرى حميدة ، تطيب لها القلوب وتطمئن بها النفوس ، وما أتوقع من ذلك إلا الخبر فيما تتحدثون به ، فانتظروا ... وأقبل عمر على القوم بالسلام وأخذ مجلسه بينهم وهو يقول : رفئونى يا أصحاب الرسول ، رفئونى يا أبناء العشيرة . قالوا جميعاً : قد رفئناك ولكن بمن يا أمير المؤمنين ؟ فما انتهى إلينا فى أمرك خبر قاطع ، ولا صح عندنا نبأ صادع

قال عمر : إنه لخير وبركة إن شاء الله ، فقد سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى ، وأنا والحمد لله قد وصلت به السبب ما استطعت ، فصحبته على الجهاد فى سبيل الله ، باذلا فى ذلك وسع الجهد وطاقة النفس . وقد أحببت أيضاً أن أتصل بنسبه فأتصل به من الجهتين وأجمع إلى نفسى الفضيلتين ، وأوثق رباطى بعروته التى لا انفصام لها ، وقد رأيت أن تكون وصلتى فى ذلك ورباطى أم كلثوم بنت على ابن أبى طالب ، فأبوها ابن عم النبى وصاحبه ، وأمها فاطمة ابنته الحبيبة ، فلعلى أكون قد وفقت إلى ما أردت ، ولعل الله بفضله وكرمه يجعلها لنا خيراً وعلينا بركة

قال قائل : نعم ما اخترت يا أمير المؤمنين ، وحبذا ما رأيت فانه الرأى الجميل ، وأم كلثوم من الحسب والنسب فى المقام الكريم ، والمكان الرفيع ، ولكنا نعلم أن علياً قد حبس بناته على بنى جعفر ، وإنه ليشتد فى ذلك ما وسعته الشدة ، فهل أجابك إلى خطبتك ، وحقق لك رغبتك ، ووصلك بنسب النبى كما تحب ؟

قال عمر : إن لذلك قصة يا أخى ، لو تعلمونها جميعاً لقلتم معى حيا الله ابن أبى طالب وجزاه خير ما يجزى به الرجل الكريم ، والعبد الصالح ، فانى إذ مددت له اليد فى ذلك قال : يا أمير المؤمنين نعم إنى حبست بناتى على بنى جعفر ، ولكنى لا أعدل بك آل جعفر جميعاً ، وأنت ما أنت فى صحبة النبى ونصرة الاسلام والجهاد للحق ؛ غير أن أم كلثوم صبية حدثة ، أحسبها لا تقوم لك بحق الزوج ، ولا تستطيع أن تصبر على شدتك ، وربما تحملت من ذلك فوق طاقتها . قلت : هون عليك يا ابن أبى طالب ، فو الله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحابتها ما أرصد ، وأنا إن نقلتها من كنف أبيها فسأنقلها إلى كنف ألين وأرحب . ألا تعلم أنى سأرعى فيها حق الله ، وحق جدها الرسول ، وحق أمها فاطمة ، وحقك أنت يا على ؟ وإذا صح لى أن أستهين بحقك أو حق فاطمة ، فما يصح لى أن أسخط الله وأغضب الرسول

ومع هذا كله فقد انطلق عنى على وما أجابنى إلى شىء ، ولا وقفنى على نهاية يصح أن أنتهى إليها . وانقضت فترات قضيتها فى تقليب الرأى وتدبير الأمر ، والحدس بما سيكون من أمر ابن أبى طالب معى ، وإذا بأم كلثوم تحضر عندي ، وإذا هى واقفة بين يدىّ على يدها بُرد مطوىّ ، تقول : إن أبى يقرئك السلام ، ويقول لك : إن رضيت البرد فأمسكه ، وإن سخطته فرده عليه . قلت لها : بارك الله فيك وفى أبيك ياسليلة الرسول ، أبلغيه أنا قد رضينا بالبرد غاية الرضا[1] ، فان رأى أن يسبغه علينا فله الفضل . ثم انطلقت عنى وقد علمتُ أن أباها قد قبل خطبتى ، وحقق رغبتى ، ثم مال على عليّ — وكان إلى جانبه — وقال : أليس كذلك يا ابن أبى طالب ؟

قال على : هو كذلك يا أمير المؤمنين ، فبارك الله لك فيها ، وبارك لها فيك . واعلم يا ابن الخطاب أنه إذا كانت الرغبة منك دعتك إلينا ، فإن الرغبة فيك أجابتك منا ، وقد أحسن بك ظناً من أودعك كريمته ، واختارك ولم يختر عليك ، وقد زوجتك ابنتي على كتاب الله ، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل الأصهار صلة للأرحام المتقطعة والأنساب المتفرقة ، فابتهل إليه أن يزيدنا بهذا الإصهار تمكينا وصلة على ما يحبه ويرضاه .

قال عمر : وأنا قد أمهرتها أربعين ألفاً ... وإنى لأقول ما قال النبى فى ذلك : اللهم بارك لى فى أهلى وبارك لأهلى فى ، وارزقنى منها وارزقها منى ، واجمع بيننا ما جمعت فى خير ، وإذا فرقت بيننا ففرق فى خير ، اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنى

قال الجالسون جميعاً : وإذن فبالرفاء والسعد يا أمير المؤمنين ، وبالرفاء والسعد يا فاروق

محمد فهمى عبد اللطيف

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٣٣٩

زفاف بوران إلى المأمون

للأستاذ محمد طه الحاجري

سرى الخبر فى بغداد أن أمير المؤمنين المأمون قد أزمع البناء على بوران بنت الحسن بن سهل . ولقد طالما كان البغداديون ينتظرون هذا الخبر ، ويستشرفون له ، ويمنون أنفسهم بمظاهر الفرح الشامل ، والطرب الكامل ، تغمر الجو من حولهم ، ويتجردون فيها من همومهم ، ويمسحون بها على ما بقى من آثار الفتن الماضية فى ذكرياتهم . فما إن انبعث ذلك الخبر حتى سرى فى بغداد كلها ، وأصبح حديث القوم الشهى إلى أنفسهم ، الحظىّ عند أخيلتهم ، وانتشر فى المدينة جو من السعادة والغبطة جدير ببغداد الطروب

ثم علم القوم أن أمير المؤمنين قد أجمع على أن يتم على الحسن تكرمته ، ويبالغ فى ملاطفته ، فيجعل الزفاف فى بيته ؛ وأنه منحدر فى دجلة إلى ضيعتــه فى « فم الصِّلح » حيث يقيم ؛ فتهيأت بذلك الفرصة السعيدة لنفوسهم المرحة ، فأخذ كثير من فتيان بغــداد وسرواتها يعدون العدة للخروج فى موكب الخليفة . فما جاء موعد الخروج حتى كانت دجلة تموج بالسفائن والزوارق من شتى الأشكال ، وقد ركبها ألفاف من الناس من مختلف الطبقات : فهؤلاء من أهل اليسار والنعمة ، قد نضدت لهم الفرُش ، ووفرت لهم أسباب الترف ، ووسائل الطرب ، من قيان مثقفات ، ودفوف وعيدان ، وما إلى ذلك . وأولئك من أهل الحرفة ، فهم يلتمسون النجعة ، ويرجون التوسعة ، ويأملون أن ينالهم من ذلك الفيض الفياض ما تثلج له صدورهم

ثم نزل المأمون من قصر الخلافة ، وحوله أصفياؤه وأصحابه إلى السفينة المعدة له ، واتخذ مكانه فيها . وسارت السفينة جنوباً تتهادى فى سيرها ، ومن ورائها تلك السفن والزوارق ، تنطلق منها نغمات العيدان ، وأصوات القيان ، حتى امتلأ جو دجلة مرحاً ونشوة

وكان يسير بإزاء ذلك الموكب النهرى الجميل الذى يمثل النزعة الفنية البغدادية ، موكب رائع رهيب يمثل القوة العسكرية العباسية ، يتألف من قواد الدولة وأجنادها ، وقد ركبوا خيلهم وأخذوا سلاحهم وارتدوا أروع ثيابهم ؛ وسار على رأسهم العباس ابن المأمون ؛ وهكذا أخذ الخليفة طريقه إلى دار صهره .

وكان الحسن بن سهل قد ترك بغداد فراراً بأعصابه الرقيقة من زحمتها العنيفة ، وأبعد فى جنوبها حيث يطيب الهواء ويسود الهدوء ؛ فاتخذ له قصراً ومعسكراً فى بقعة هادئة جميلة ، عند « فم الصِّلح » إلى شرقى دجلة : يشرف عليه الجبل من شرقيه ، وتجرى دجلة إلى غربيه ، وينساب نهر الصِّلح فى شماله ، وتضطرد من حوله الكروم والبساتين ، وتنفح عليه الأزهار والرياحين .

ولما علم الرجل أن أمير المؤمنين قد أزمع تشريفه فى داره للبناء على ابنته استطار فرحا ؛ ثم مالبث ذلك الفرح أن أخذ يعبر عن نفسه تعبيرات فنية رائعة تجلت فى قصره الذى أخذ يتأنق فى تزيينه ، حتى صار فتنة للناظرين ، ويبالغ في تأثيثه ، ليكون جديراً باستقبال الخليفة فيه . وكان مزاجه الشعرى يملى عليــه بعض الصور الشعرية الرائعة التى كان يخترعها الخيال الفارسى المترف ، والتى كانت موضع الإعجاب فى ذلك العصر ، فيسرف فى تمثيلها ، ويتأنق فى تصورها ، كتلك الصورة التى اخترعها الحسن بن هانىء ، وافتتن بها أهل عصره :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

فلم يأل فى ذلك جهداً ؛ ففرش القاعة الكبرى التى أعدها لاستقبال المأمون ببساط نسيجه من خيوط الذهب ، وقد تناثرت فوقه حبات اللؤلؤ ؛ وهو يتألق ويعج الأشعة فى أضواء الشموع ، وأي شموع ! إنها شموع مصنوعة من العنبر ، تسطع بالنور وتنفح بالعطر ؛ فجعل كل ذلك يبعث فى القاعة جواً سحرياً أخاذاً ، تسبح به الروح فى أحلامها ، وكأنما ترى فيه صورة من الجنة وأخيلتها .

وأما الطريق ما بين القصر ودجلة فقد مهّد وحف بما شاء الخيال المترف أن يحف به من زينة أخاذة . وقد أقام الحسن فى طرفه على شاطئ النهر جوسقاً جميلا ، نضدت فيه الفرش ، وأعد لاستقبال العباس بن أمير المؤمنين . وكان الحسن فى ذلك اليوم

الموعود جالساً فى ذلك الجوسق ينتظر ، حتى وصـل الموكب العسكرى يقدم موكب الخليفة ، فاستقبله الحسن وإن وجهه ليطفح بشرا ، ثم مضى به إلى القصر ، ولم يمض قليل حتى وقفت سفينة الخليفة على باب الحسن فى نهر الصلح ، فقام إليـه الرجل وهو لا يكاد يكاتم سروره بما أفاء عليـه الخليفة من شرف يقصر عنه كل شرف ، بزواجه ابنته ، وتشريفه بيته

وأمضى المأمون ليلته فى سمر وطرب ، وكانت «فم الصِّلح» تموج بالوافدين عليها من أهل الدساكر والقرى ممن جاءوا يشهدون المهرجان المظيم ، فضلا عمن كانوا فى موكب الخليفة من البغداديين بين أصوات المزاهر والقيان تشق أجواز الجو ، وتملؤه بأسمى مظاهر البهجة والهناءة . وقد شاء المأمون أن يمد فى أسباب الفرح لهـذه الأسرة ، وأن يربط بين القلوب فيها ، فأمضى في الليلة التاليـة زواج محمـد بن الحسن بن سهل بابنة عمه العباسة بنت الفضل

فلما كانت الليلة الثالثة كان زفاف بوران إلى المأمون . وكان زفافاً اقترن بمظاهر النبل العربى والترف الفارسى ؛ واجتمعت لديه عظمة المأمون وكرم الحسن ، وكان مبعث بركة على الأسرة العباسية وعلى رجالات الدولة ، وعلى أهل الحرفة ، وذوى البؤس والمسكنة

فقد ذكروا أن المامون أذن في هذه الليلة للسيدة زبيدة أن تؤدى حجها ، وكانت ممنوعة منه ، وكان هذا المنع أثراً من آثار الفتنة التى كانت قائمة بين المأمون وابنها الأمين

كما عفا عن ابراهيم بن المهدى ، وكان أسيراً لديه ، بعـد الثورة التى ثارها عليه ، محاولاً انتزاع الخلافة لنفسه ؛ ثم خلع عليه ، وقلده سيفه ، ورد إليـه ماله ورفع مكانه ، وأتاح للأدب العربى أن يظفر بأمتع ما قاله شاعر فى الشكر العميق والاعتراف بالجميل

وهكذا مسح على قلوب أسرته فشفى جراحها ، واستل ما كان قد بقى عليه من حفائظ فيها . وما أمجده عملا إنسانياً كان ذلك الزواج الانسانى النبيل مثاره ومبعث خيره

وأما الحسن فقد كان مضرب المثل فى الحفاوة والترف فقد بالغ فى ذلك مبالغة الرجل يرى كل شىء من ذلك قليلا فى جانب ما يشعر به ، وما يحسب أنه قد ناله ؛ فاستوقف أنظار الناس باسرافه ، حتى أصبح موضع أحاديثهم ، ومثار عجبهم وتعجبهم ،

ومن صور ذلك الاسراف شمعة عنبر أوقدها ليلة الزفاف ، تزن أربعين منا ، أى ثمانين رطلا أو تزيد ، وقد أقامها فى « تَوْر » من الذهب ، مبالغة فى السرف ، حتى لم يفت المأمون فيما قالوا أن يلاحظ هذا ويأخذه عليهم . وحسبك هـذا المثل وما تقدم لتتصور مقدار ما بلغ إليه الترف فى هذا الزفاف البديع

كما أقام الولائم الفخمة لـكل من كان هنالك من قواده وعساكره ، ورجال المأمون وحاشيته ، ثم تلك الجموع الحاشدة التى اجتمعت للمشاركة فى الفرح ، والتى يكفى للدلالة عليها أن نذكر أن طائفة الملاحين فيها كانت تبلغ نيفاً وثلاثين ألفاً ، وقد ظل كل يوم يجددها ويفتن فيها ، وقد أحاطها بكل مظاهر الجمال والفرح ، كما كان لا يفتأ يخلع على القوم شتى الخلع ، حتى عاد المأمون إلى بغداد بعد أن قضى هنالك سبعة عشر يوماً ، كان مبلغ ما أنفق فيها على ما يقول الطبرى وابن الطقطقى وغيرهما خمسين مليوناً من الدراهم

أما هباته فى تلك المناسبة السعيدة ، على القواد ومن إليهم من أمراء الهاشميين ، فقد كانت بدعاً فى أسلوبها ومقاديرها ، غاية فى الكرم والأريحية ، تضمن لأصحابها الثراء الدائم ، فقد كتب رقاعاً بأسماء طائفة من ضياعه ، ثم وضعها فى بطاطيخ من العنبر ، ونثرها عليهم ، فـكل من وقعت فى يده رقعة باسم ضيعة بعث فتسلمها ، ملـكا خالصاً له ، وتذكاراً بليغ الأثر فى حياته لذلك الزواج الميمون

وحين أزمع المأمون السير بزوجه إلى بغداد بعث إليه بعشرة ملايين درهم ، فما حملت إليه حتى ثارت به أريحيته فأخذ يغدقها فى قواده وأصحابه ، وخدمه وحشمه ، ثم مضى مع الخليفة يشيعه وعاد بعدها إلى داره قرير العين مطمئن الضمير

وأما بوران فقد مضت مع زوجها العظيم ونزلت دار الملك والخلافة ، فكانت درته اللامعة ، بجمالها الفتان ، وذوقها المرهف وذكائها الوقاد ، ومعرفتها الواسعة ، وأدبها العظيم

ولقد ظل زواج المأمون ببوران غرة فى التاريخ الاسلامى ، بما قام عليه من أشرف معانى الوفاء والرعاية ، وما اقترن به من أعظم مظاهر النبل ، وأبهر دلائل الكرم والأريحية

محمد طه الحاجرى

آيات القرآن الملكي

للأستاذ عبد العظيم علي قناوي

تيهي وانثني أعطافك يا مصر ، وميسي وجرى أطراف الفخر ، وازهي واهنئي بأطياف البشر ترفرف فوق قصور ربك ، وتخفق على دور أهلك أبد الدهر ؛ فهذا فاروق المحبوب المفدى ، وفرقدك الشرق سؤدداً ومجداً ، وسناك المعرق نبلاً وخلداً ، يضم إلى آيات جلاله آية فريدة تتطامن لها العظمة ، ويلبس من الطهر حلة وحيدة يختال بها فتهتف له الجلالة ويحصن دينه القويم ؛ ومن غير المليك للدين حصناً ، بالشمس طلعة والشرف ملكة ، ويزين التاج بأنصع جوهرة في جيد المملكة ، فتهفو لاسميهما المحبوبين أفئدة الأمة ، وتقر بقرانهما السعيد السيادة والمعزة

وما تلك الزينات الموضونة ، والأقواس المنضودة ، والأعلام المرفوعة ، والتريبات المؤتلفة المتلألئة ، والكواكب المؤتلفة المتعانقة ، إلا غيض من فيض شعور هذا الشعب المجيد بولائه السعيد بوفائه ، وذرة من طود استبشاره الأشم ، وغبطته بهذا القران الموسوم باليمن ، المعقود بناصيته السعد . وإن دلت الاحتفالات على شيء فإنما تدل على أن الأمة لا يرضيها أن تعلن عن تعلقها بشخص فاروق العظيم ، وولائها لعرشه المجيد ، بالكلم الطيب ترتله ، والدعاء الصالح ترفعه ، والأهازيج تنشدها ، والأغاني تنظمها ، فحسب — بل بالبشر يفيض على كل محيا ، والانشراح يفعم كل فؤاد ، والسرور يملأ كل نفس ، والزينات والتريبات يباهي بها كل بيت كواكب السماء ونجومها . ولو أتيح للشعب أن يعلن عن زهوه بمعقد مجده ، وعن فخره بمناط سعده ، وعن حدبه على موئل عزه بكل ما يشاء ، لاستبدل بتلك التريبات أفئدة وضاءة متألقة ، يقرأ فيها رب التاج سطوراً من الحب المبين ، ولجعل من أكباده مواطئ لقدميه ؛ فالطنافس والبسط والخز والديباج ، أدنى من أن تكون للمليك في ذلك اليوم الأغر موطئاً ، ولصاغ للملكة الفريدة من أحداق العيون قلائد تزهو بها على خرائد الماس والجوهر ؛ ولكن حسب الشعب نعماء أن مليكه يشعر بما يضفيه عليه من الولاء

ولا يقف بنا الفرح الزاخر والسرور الساحر عن استخلاص بعض آيات القران الباهرة ، وبيناته الواضحة الرائعة ، التي ستخلعها على الأخلاق فترى فيها مجداً ، وتضفيها على الدين فيستعيد عزة وسعداً

مثل عليّ جليل ، يضربه زين الشباب لشباب الجيل ، حفاظاً على سنن الدين القويم ، وإحياء لسنن الرسول الكريم ، ومن أولى من جلالة المليك التقي بآثار النبي تخليداً ، ومن سوى جلالته يتخذ الشبان سنته تقليداً ؟ فدونكم فتيان النيل وشبابه زهرات مصر اقطفوها في تقوى وإيمان ، لا في طيش وعدوان ، فذلكم هو المثل الأعلى للطهر فاسلكوه ، والمهيع الواضح للنبل فانهجوه ، والخطة المثلى للأخلاق فاحتذوها ، فأنكم محتذون بأسمى جناب ، وأحب الأحباب ، وحينئذ ترفعون ركن الخلق والدين ، وهما لسيادة الأمم الحصن الحصين .

وفي تبكير مولانا الفاروق بالقران — في عصر طغت فيه الإباحية باسم المدنية ، وجرفت فيه المادة كل معنى سام شريف ، واضمحل وازع العقل واستشرى داء العاطفة — معنى عال جليل ، فقد رمى — حفظه الله — إلى أن يبقى ثوبه عفاً لا تعلق به ريبة ، ومحيطه طاهراً لا تحوم حوله ظنة ، ودينه قوياً لا ترقى إليه شبهة ، فأملك في تلك السن ، لأن في ذلك كمال الإيمان ، فلقد أملك رسول الله صلى الله عليه وسلم بأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ، وسنه إحدى وعشرون سنة « على ما أرجحه من الآراء » ، وفي حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يدل على توفيق رب التاج في دينه ودنياه ، فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » فليكنا المحبوب الصالح ينفذ دعوة الرسول الأمين ، ويدعو من يرى في جلالته نبراسه ، وكل مصري يراه كذلك ، إلى ذلك النهج القويم

وتخير الفاروق — أعزه الله — بصادق فطرته ، وصائب إرادته ، وسامي حكمته ، نجيبة نبيلة ، هي سليلة الطهر والشرف

الجلوة الملكية

للأستاذ ابراهيم مأمون

أي مجد حيال مجدك يُذكَر؟ هذه الشمسُ في رحابك تُنثَر
وابنُها البدرُ مذ رآك على العر ش تجلّيت، للوراء تأخّر
ونجومُ السماء تنتظم الأفـــق توشّيه من سناك المنضّر
والنهار الضحوك يبتدر الشمـــس بوجه على الأريكة أنور
والنسيم الخفيّ يستاف ريا ك، ومن فوحه أريج وعبهر
والرياحين في الرياض تواثبــن يُضمّخن من شَذاك المعطّر
والصَّبا الغضُّ في المواكب ينسا ب انسياب الجمال في الروض أزهر
والكهولات زايلت كل كهل في مدًى يزحم النفوس ويبهر
والأغانيّ رنّحت أذنَ الدهـــر فوافى لدى زفافك يسمُر

***

هذه هذه أغاريد مصر؟ أم هو الكون بين نايٍ ومزهر؟
ضجَّ في سمعه الهتاف ودوّى منطق النيل في البلاد وزمجر
لهوات الطيور تبتدع الشد و وتوليه صوت مصر المطهر
سال لحناً على شفاهِ مجاليـــها، ومن نَفحة السماء تحدّر
في أغانٍ عُهِدن في شدْو «داو د»، ومن لحن بُوقه تتفجّر
وهتاف جرى على قصب الخلـــد، ففنت به ضفاف الكوثر

***

سرتُ والشعرَ في زفافك يا فا روق أحدو البيان غير مؤخر
وأناديه: إيه شعري، فهذا هو مجلاك، والكنانة منبر!
هات ياشعرُ من رصين القوافي هات بكرَ الخيال غير مُزَوَّر

وربيبة العز والمجد، وتليدة الحسب والنسب، فحباها قلبه، وأولاها له، ووقف عليها حبه، فأعز باختياره شعبه، إذ اصطفاها من صميمه، ليمتزج دماء الملك في جلاله وصفائه، بدم الشعب في وداعته وإبائه. سنة كريمة سنها من قبله والده العظيم، فوهب الله لمصر فاروقها المجيد؛ له من خلق الملوك سناؤه وسموه، ونبله وعلوه، ومن خلال الشعب تواضعه وسجاحته، وديمقراطيته وسماحته، فملك بشيمه قلوب أمته، وتطلعت إلى جلالتــه الشعوب الإسلامية ترى فيه مجدد شباب الإسلام بفتوته، ومعيد مجد الفراعنة بحكمته، وعرف له سامى عراقته ملوك الغرب، فأحبوه مليكاً نبيلا، وعظموه صديقاً خليلا. ثم إن المليكة الفريدة فى المرحلة الأولى من حياتها مُهجرة مثقفة، متعلمة مهذبة، متصلة اتصالاً روحياً وثيقاً بالمُلكِ وتقاليده، فهى قد جمعت كل مؤهلات الملكة العظيمة؛ فكأن القدر والله مدبره، والدهر ورب الخلق يسيره، كان يعدها فى نشأتها الأولى لهذا المستقبل العظيم ينتظرها ببشر غامر، وعن وافر، فتتبوأ عرش الفراعنة تكلؤها عين رحيمة، ويرعاها حدب جليل. فجلالته البر الرحيم، والندب الكريم، فنشأت محبة للعلم مقبلة على دروسه لم تشغلها بحبوحة الثراء، ولا رفاهية السراة العظماء، عن أن تبذ قريناتها فى رشف العلوم، وتبهر أترابها بفطنة تستشف بهـا المعارف، وتبعث الخشية فى نفوس صويحباتها بما ترتل من آى القرآن الكريم، فكأنها كانت تعلم أن ستزف لناصر الدين والعلم والمعارف فهى تعمل لتقر عينه بما تتحلى به من أفانين العلم.

أليس كل هذا من علائم التوفيق واليمن، ومن بشائر الخير والسعد؟ وإنه لقران مبارك نتوسم أن يؤتى — إن شاء الله — أحسن الأثمار وأنضر الأزهار، وأن تعقبه أيام خالدات فى جبين مصر تملأ عطف المصرى تيهاً، وآلاء سنيات للإسلام ترفع له مناراً، وأياد على الوطن سخيات تعلى له شماراً، فتنال الأمة فى عهد الفاروق المفدى الحسنيين، ويبلغ مجد مصر الخافقين، وترفل فريدة فى ظل رب العرش قريرة العين بخير من تظل السماء، منشرحة الصدر بالتجب من الأمراء، بسّامة الثغر بما تراه من الحب والولاء، حينما تسمع القلوب والأفواه ترفع إلى الله خير الدعاء:

يحيا الملك! تحيا الملكة!

عبد العظيم على قنارى

لا تطف بى على عوانس ماضيـــك . ومِل بى إلى البيان تمصّر
فاستوى يرسلُ المعانىَ أبكا   راً ، ويُضفى الخيال لا يتعثر
ومضى بى كما أردت إلى العر   ش ، ومن دوننا جلالةُ عبقر
فإذا الساح والمواكب فيها   حاشدات تسبى النفوس وتسحر
وإذا الشعر لا يشاء مضيًّا   وإذا بى عن المدى أتأخر !!
وإذا الحشد لا يطيق سكوتا   شهد العرشَ والمليكَ فكبَّر
وإذا مصر بالهتاف تدوّى   ذاك ركب الفاروق ، الله أكبر!

***

عجزت ريشة المصور وارتـــدّ   يراع الأديب غير مؤزَّر
واتبذتُ القرطاس والقلم الفخـــمَ ،   وأنكرت كل ما كان يُسْطر
وتسللت فى الرياض لعلّى   بجلال الرياض أحظى وأظفر
فإذا الصمت يحتوينىَ حيرا   نَ ، وشعرى هناك غير مُيسَّر
ورأتنى بلابل النيـل أسْعى   فتساءلن : ما لذاك تحيّرْ ؟
قلت: أرجو الإلهام من نفحة الر   وض أحيّى بِهِ الزفاف الموقر
فتهامسنَ : ما لذاك ؟ وعن أيّـــة   حالٍ يرى المحاكِيَ عبَّر؟
أم عن العرش فى الجلالة يبدو   ضاحىَ الوجه ،باسم الثغر ،أحور؟
أم عن المُلك بات ينتظم الشعـــب ،   كأن العباد للبعث تحشر؟
أم عن الليل بات يستبق الصبـــح   بوجهٍ من المواكب أقمر ؟
أم عن الضوء في ائتلاق من البيـــت   يريك النهار أو هو أبهر ؟
أم عن الغِيد يحتشدن جماعا   ت وفى ركبها العفاف ينضَّر ؟
أم عن الزهر فى فروع العذارى   يتهادين كالغصون تؤطَّر ؟
أم عن الجلوة المهيبة تسعى   فى احتشادٍ به الكمال تخفَّر ؟
أم عن الدين فى المحاريب يجثو   بالدعاء المجاب للعرش يجْأر ؟
أم عن الجحفل العرمرم فى السا   حة يهتزّ للّواء المظفَّر
أم عن الخيل فى رحابك يرقصـــن   وفى موطن المنى تتبختر ؟
أم عن الحائمات هَزَّمْن فى الجـــوّ   ومن نشوة العلا تهدّر ؟
أفحمتنى ، فقلت : ويحك ماذا   صُغته أنت؟ فانتحتْ تتفكر!

قلت : إيه بلابل النيل شدوا   إن وصف البيان فى الحق قصَّر!
فتناجين — والحقيقة تهفو —   هكذا الوصف، نحن فى الأمر نُعذر
قلت : إيه بلابل النيل إيهٍ   إن جُهد المُقلّ فى الحفل يشكرْ

***

هل أتاك الحديث من شفةِ الوا   دي بيوم على الزمان مُشهّرْ
أو رأيت الرحاب عادت سماء   بسوى وجهك المضيء المدثّرْ
مهرجانٌ على المشارق ضافٍ   يحشد الدهر رائعاً يتجمهرْ
هـــذه مصر تحتفى بيفاع   ساس بالحكمة الشئون ودبّر
يافعٌ ، أروعُ الفؤاد ، مُزكّى   طيبُ النفس بالحنيف تدثّر
بلغ الرشدَ يوم نُزّىَ في المهـــد ،   وما كان فى الأمور بِإمّر
من وفاء البلاد إكليله السمْـــحُ   ومن حبها المؤكد يُضفَر
وله الشمس وهى تاج المعالى   تاج عزٍّ ، على سواه تكبّر !
لم يُتح قبلُ للعياهِل فى الأر   ض ولم يُتخذْ لهامةِ قيصرْ
رامه الشعب للمُمَلَّك رمسيـــس ،   وللفاطميِّ رجّاه جوهرْ

***

يا مليك البلاد : ذلك يومٌ   فى حَشيد الأيام لَن يتنكرْ
خفّ فى قدسه فراعنة الوا   دى نشاوى الخطا تدِل وتفخرْ
وكأن الوفود من «عين شمس»   ومن «الكرنك» الخلّد تخطرْ
وكأنّ الزفاف فى «طيْبة» المجـــد   وحشد الجموع حول «الأقصُر»
ههنا الصِّيد من فراعنة الوا   دي يرون البلاد فى العُرس تزخر
ذاك «وادى الملوك» ينتظم النيـــل   جلالاً على السفائن تمخرْ
فانظر النيل والمواخر فيه   تلق دنيا من الزمان تُنشَّرْ
تلق عرش البلاد من «آل خوفو»   ضاحيَ الحشد بين جند وعسكر
وترى «أحمسَ» الجرىء يزجّي   سفن المجد تستزيد وتكثرْ
وانظر السُّفنَ فى الوشائع نشوى   إن فيها «تحتمسَ» النيل يزْأرْ
أمِنتْ مصرُ مِنْ عَوادي الليالى   وزمان الفاروق بالعدل أسفر

ابراهيم مأمونه
المدرس بمدرسة فؤاد الثانوية بالزقازيق

عروس صاحب الجلالة فرعون الصغير

للأستاذ دريني خشبة

استيقظ أهل طيبة فى هدأة الفجر الأول من أيام الربيع على أصوات طبول فرعون التى أخذت تدوى فى الأفق ، وترن فى ظلال المعابد ، وتنسكب مع الشفق الوردى فى أذنى أمون رع[(١)] وترف فوق مسلات الكرنك مع هُورس[(٢)] الكريم

واستيقظت الآلهة كلها تبارك الجيش ، وتحرس صاحب الجلالة وتغسل الأعلام المصرية المنَشَّرة بدموع الندى ... تلك الدموع العطرية التى كانت تترقرق من أعين الربيع مما هزّه من فرح ، وما سوى فيه من شباب فرعون

واهتز حابى[(٣)] العظيم تحت الأسطول اللّجب الذي صدحت موسيقاه لتمتزج بموسيقى الجيش ، فتتدفق فى قلوب الشعب المزدحم فوق العُدْوَتين[(٤)] ألحاناً من الحماسة ، ونورانية من الحب ، وقُدسيةً من الولاء ، تنعقد فوق هامة المليك هالةً من إعزاز رعاياه ، وإكليلاً من وفاء الأمة النبيلة صاحبة المجد ... وَيْلٌ للحثيين ! ![(٥)]

لقد أغراهم بمصر أن رأوا على عرشها الملك الشاب تحتمس فغرتهم الأمانى ، وهاجت فى قلوبهم الأحقاد القديمة ، ووسوست لهم شياطينهم أنها الفرصة النادرة التى يدركون بها ما لم يدركوه فى عهد آبائه ، فتألبوا ، وثاروا ، وجمعوا الجموع لغزو مصر

ولكن ... طاشت أحلامهم ... ففوق عرش النيل ملك ، وفى مصر أمة ، وملء الوجهين قلوب فياضة بحب فرعون يوجهها أنى يشاء ... وها هو ذا الجيش تنتظم صفوفه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، وها هو ذا الأسطول يتهادى على أعراف الموج فى النيل نحو الشمال ... وها هى مصر كلها تحملق مُغضَبة نحو المشرق ، ساخرة مستهزئة بأعدائها الكلاب الذين طالما حطمتهم فى ديارهم ، وألبستهم لباس الذل والخوف ، فلما صفحت عنهم إذا هم ينفِرُون !

* * *

واستيقظت حَتَاسُو ، عروس فرعون ، وفتحت نافذتها لتشهد المنظر الرائع ، ولترى إلى زوجها الشاب يستعرض الجيش وقد استوى فوق جواده الأبيض المختال ، وراح يتهادى بين صفوف الجند ، كأنما يرسل من عينيه المصريتين سحراً فى قلوب المحاربين ، ومن فوق رأسه تاج المملكة المتحدة يشع سناه فى غبشة الصبح ، فكأنما يملأ الآفاق ذَهَباً

لقد كانت ليلة طويلة دجوجية ، تلك الليلة التى قضتها حتاسُو بين وصيفتيها النائمتين الحالمتين ، تفكر فى مليكها الذى أقبل فى المساء يودعها ويتزود منها لرحلة الغد إلى بلاد الحثيين ... لقد كانت تراه ما يزال جالساً إليها يحدثها ويسامرها ، ويرسل عينيه الحبيبتين فى عينيها المذعورتين ، ويرسل معهما روحه فتعانق روحها ، وقلبه فيتحسس قلبها ، وشعوره الفائر ، فيتحد بشعورها . . . ثم تذكر رنين صوته العذب الموسيقى يترقرق فى أذنيها فيملؤها بالأحلام ، ورنين قبلاته الحارة الطاهرة تهمهم على فمها الشتيت الحلو فتحمل إليه سِرّ الخمر الإلهية التى لا غَوْلٌ فيها ولا تأثيم ... فتبكى ... ! ولم لا ... ؟ أليس من البكاء بكاء تحمل دموعه رسالة الروح فتذهب بها إلى الله اللطيف العلى ، فتكون عنده صلاةً ليس مثلها صلاة ! ! ذلك بكاء المحبين ...

* * *

ورحل فرعون الشاب بأساطيله وجنده

ولكن طيبة العظيمة لم يدم لها هذا الصفو الجميل الذى ودعت

---

(١) أمون إله طيبة ورع إله منف واتحدا فكونا إلهاً واحداً بهذا الاسم

(٢) هورس هو ابن آزوديس وكان يرمز له بالصقر

(٣) حابى هو اسم النيل وربه فى الميثولوجيا المصرية

(٤) عدوة النيل شاطئه

(٥) ألد أعداء مصر فى الزمن القديم

تحت بنوده ملكها . . . ذلك أن أم العروس المصون شوهدت في فجر اليوم الثانى راكعة فى المعبد الكبير أمام المذبح ، بين يدى أمون رع ، تبكى وتصلى ، وتتوجع وتتصدع وتشكو إلى الله بثها الذى لم يعرف أحد سببه

وقد وقف الكهنة حولها فى ذهول وخشوع ، ولم يجسر أحد منهم أن يسألها عما ألم بها ؛ بيد أن رئيس المعبد تقدم إليها آخر الأمر فى أدب وضراعة ، وربت قليلاً على كتفها ، ثم مد يده الواهية المعروقة إلى يدها المرتجفة المحزونة ، فنهضت وهى لا تكاد تنى مما يعصف بها من هم وشجو ...

وسار الكاهن الأكبر بين يديها إلى صومعته ؛ وكان الكهنة يتلون أوْراد الفجر وأناشيد الصباح فتهتز جوانب المعبد بحسن إنشادهم وروعة ترتيلاتهم ، فتنهمر دموع الأم ، وتقف أمام هذه الصورة ، وبين ذلك التمثال باسطةً ذراعيها ، وداعية الآلهة ، متمتمة بكلام خفى غير مفهوم ...

— ماذا يا ابنتى ! فيم مجيئك فى هذه الساعة من الفجر ؟ وفيم هذا البكاء وتلك الصلوات ... ؟ تكلمي ... ! ألست أباك ؟

— تباركت أيها الأب . . . ولكن ليحضر نائب صاحب الجلالة ، فالخطب جلل ... وتكاد نفسى تتصدع ...

— نائب صاحب الجلالة ؟ أى خطب جلل يا أربابى ؟ ! أمون رع ! ! لطفك يا ربى المقدس !

وأرسل الكاهن الأكبر رسوله إلى نائب الملك فجاء مهرولاً فى ثياب النوم ، وجعل يلهث من الفزع والتعب ، ويسأل الكاهن فيم أرسل إليه ، وماذا أصاب والدة الملكة ... فأشار الكاهن إلى الأم الباكية ، فالتفتت إليه مذهولةً وقالت :

— ابنتى ! ابنتى يا نائب صاحب الجلالة !

— الملكة !

— بل العروس !

— ماذا ؟ ماذا أصابها ؟

— لا أدرى ... ! إنها ليست فى القصر ! لا هى ، ولا وصيفتاها !

— هل فتَّشتِ الغرف ؟

— كلها !

— والحديقة ؟

— وطيبة جميعاً ...

— جريمة ! إن فى الأمر جريمة ... لا بد من تبليغ مولاى !

وكاد النائب المسبوه يرسل صيحة ذعره فى المعبد ، لولا أن أشار إليه رئيس الكهنة ، فصمت ... وقال فتاح الكاهن الأكبر :

— أتحسب أن من الخير أن تحمل هذا النبأ المروّع إلى ملكٍ ذهب أمس ، وأمس فقط ، على رأس جنوده ليؤدّب أعداءه ؟ لا ، لا ، ليس هذا عندى برأى ... إنها أولُ حربٍ يشنها الملك ، فكيف نُثنيه بمثل هذا عن عزمه ؟ !

— فما الرأى إذن ؟

— اهدأ يا نائب صاحب الجلالة ، فنحن بين يَدىْ أمون ، ويوشك رَعْ أن يهدينا بِسَنانوره ولألاء حكمته

ويرى الكاهن الأكبر أول شعاعة من شعاع الشمس تدخل من كوة الشرق فى الصومعة ، فيأمر المؤذن فيؤذن بصلاة جامعة ، لرع ... رب المشرقين !

وينتظم الكهنة صفوفاً أمام المذبح الكبير ، ويبدأ رئيسهم إنشاده ، فيأخذون فى ترتيل جميل ، وتركع (تى) ، ويركع آنبو ، ويصليان مع الكهنة ... حتى إذا فرغ الجميع من صلاتهم خلا رئيس المعبد إلى آلهته ، ثم أقبل على نائب الملك وأقبل على تى بوجه مشرق متهلل وهو يُسبِّح ويقول : « بخير .. »

* * *

« بخير ؟ ! وأى خير فى أن تختفى عروس فرعون ، فإذا آب من حرْبه لم يجدها ؟ ومنذ الذى يستطيع أن يلقاه حين يصل إلى طيبة فلا تكون عروسه أول من تلقاه بها حاملةً له باقةً ناضرةً من أزهار اللوتس المقدسة ؟ واأسفاه عليك يا ابنتى ؟ وواأسفاه على الأحلام الضائعة ! »

وهكذا راحت تى تندب حظها ، وتذرف الدمع من أجل ابنتها ، وكلما زارها كبير الكهنة فواساها لم تلق بالها إليه ،

حتى اسْاقطت نفسُها أنفساً، وحتى براها الحزن، وشفها الوجد، وأوهاها طول البكاء

وكتموا الخبر حتى لا يصل إلى فرعون فيفت فى عضده، ويوهى من جَلَده، ويكون سبباً فيما لا يوده له إلا عدوه

ثم أرسل تحتمس رسالة إلى عروسه أخذتها أمها، فلما فضتها، انهمرت عيناها بالدموع الحرار من أجل حتاسو، التى أرسل الملك يخبرها أنه اجتاز حدود مصر إلى بلاد الأعداء، وأنه يقبلها على هذا البعد الشاسع بينهما، ويسألها أن تصلى له وتركع بين يدى آمون رع من أجله ... ومن أجل مصر ... التى يفتديها الجميع، ويعيش من أجلها الجميع، ويموت فى سبيلها الجميع

واضطرت الأم المحزونة أن تزور رسالة تبعث بها إلى صاحب الجلالة على لسان عروسه تشكره فيها وتتمنى له الخير والنصر؟

وكانت الرسالة جافة خالية من روح الحب الذى يملى على صاحبه ويوحى إليه، ويُنضر طِرْسه بألوان الورد، ويعطره بأنفاسه ... فلما قرأها تحتمس هاجت الوساوس فى قلبه، وإن يكن قد تجلد وصبر ولقى فرعون أعداءه ...

وكانت جيوشهم تغمر السهل والجبل، وقنابلهم (١) تزحم البر والبحر، وهم على كثرتهم سابغون فى دروعهم مُقَنَّعون فى حديدهم، تصهل خيلهم فتتجاوب أصداؤها فى جنبات الوادى وترغى فتنشق عنان السماء ... وقد آنس الملك ضعفاً وقلة فى ميسرتهم فانقض عليها بميمنته، واستطاع بعد عناء أن يزحزحها، لكن المدد الذى وصل من وراء الحثّيتين أفسد على فرعون خطته، فتقهقر قليلا ليأمن التفاف الأعداء، الذين غرهم نكوص ميمنة مصر، فهجموا بجموعهم كلها؛ وحمى وطيس القتال فى القلب والميسرة والميمنة ... وثار النقع ... وارتفع أنين القتلى فى كل مكان ... وانطلق عزيز النيل يصيح فى جنوده ويحرضهم ويُثبت أقدامهم، ويذكرهم بمجد بلادهم ... وكانت كلماته تثير فيهم الحمية، وتلهب صدورهم بنار الوطنية، فيهجمون غير مبالين، وينقضون على أعدائهم غير هيابين، حتى زلزلوهم عن مراكزهم. وزادهم حماسة أن رأوا قلب الحثيين ينتقض على قادته، وبولى بعض عساكره الأدبار، فاقتحموا وراءهم الحلبة وأوقعوا فيهم حتى أثخنوهم ... وأبصرت ميمنة الحثيين وميسرتهم ما حل بالقلب فبهتوا، وخارت عزائمهم، وساعد ذلك المصريين فانقضوا عليهم كالصواعق من كل مكان ...

وظن المصريون أنهم ظهروا على أعدائهم فجعلوا يتصايحون ويهتفون، ويهنىء بعضهم بعضاً، والعدو مازال صامداً فى مكانه. وفطن قائد الحثيين إلى ذلك فبدا له أن يذهب فى كوكبة من أشجع فرسانه فيلتف بمركز القيادة فى صفوف المصريين الخلفية وسرعان ما أنفذ الفكرة

وكادت حيلة القائد تنجح، لولا أن فطن إلى ذلك أحد فرسان المصريين فصاح ببعض ضباط الجيش قائلا: «أيها الجنود دافعوا عن ملككم ... الحثيون يوشكون أن يحدقوا به». وتلفت الضباط فرأوا كوكبة الحيثيين مسرعة إلى مركز القيادة

فصاحوا بجنودهم، وانطلقوا فى إثر الفارس الذى نبههم فاشتبكوا مع الأعداء فى ملحمة هائلة، أبلى فيها بلاء حسناً ... وهرب الحثيون ... ولكن الفارس المسكين سقط جريحاً، وانبطح من فوق جواده بين القتلى العديدين ... وتقدم إليه فارسان شجاعان فحملاه إلى المعسكر حيث ضمدا جراحه وجلسا عند سريره يواسيانه

وانتصر فرعون مصر، وطهر الأرض من رجس الحثيين!

وعاد إلى معسكره فمنح الفارس الجريح أسمى ألقاب الجيش ورفعه إلى مرتبة قائد، ثم ذهب إليه بنفسه فأبدى له إعجابه بشجاعته وحسن بلائه

***

وذاعت أنباء النصر فى مصر فغمر الفرح رعايا فرعون، وراح الجميع يقيمون معالم الزينة على مساكنهم ومتاجرهم، وانطلقت زرافات الكهنة ترتل أورادها فى شوارع المدن، وبدت طيبة فى أبهى حللها، ورفرفت الأعلام على الهياكل ودور الحكومة، وتدفق حابى بالبركات فى أرجاء البلاد

وذهب نائب الملك وفى معيته كبير الكهنة للقاء صاحب الجلالة على حدود البلاد، وليجنباه الخبر المفزع الهائل ... خبر

(١) القنابل فرق الجيش

اختفاء عروسه ... أو ليكونا على الأقل معينين له على تحمل الصدمة ...

وقد سألها جلالته عنها حين لقيهما فكتما عنه الأمر، لتتم للبلاد أفراحها؛ واعتزما ألا يقولا له شيئاً حتى يستقر فى عاصمة ملكه

وكم حدّث عزيز مصر نفسه أنه كان أحجى بحتاسُو لو خرجت إلى الحدود للقائه، كما خرج نائبه وكبير الكهنة وكبراء الدولة ....

لكنه مع ذلك تجلد واصطبر ...

ووصل إلى طيبة ... ولكن حتاسو لم تسرع للقائه، فماذا جرى؟! وبدلاً من أن تذهب حتاسو إلى قصر الملك لتهنئه، فقد ذهبت أمها الواهية المتداعية. فما إن وقعت عيناه عليها حتى سألها:

— ماذا؟ أين حتاسو؟؟

فتبسمت الأم المذهولة وقالت:

— فى سريرها يا مولاى!

— فى سريرها؟ أهي مريضة؟

— أجل يا مولاى

ونظر نائب الملك إلى كبير الكهنة ثم راح يسر إليه: «يا للآلهة! إن تى وفية للملك مخلصة... إنها تأبى أن تكون أول من يبلغ الملك نبأ اختفاء عروسه!!»

قال الملك:

— إذن نمضى نحن فنراها

***

ودخل صاحب الجلالة غرفة حتاسو، فوجدها طريحة الفراش، وقد ربطت فخذها وذراعها بأربطة وضمادات... وكانت تغط فى سبات عميق، وكان وجهها مع ذلك مشرقاً جميلاً ساحراً كعادته... ولم يملك تحتمس إلا أن ينحنى فيطبع قبلة اللقاء على فم عروسه ...

وانتفضت حتاسو من سحر القبلة العزيزة، ولما فتحت عينيها، رأت صاحب الجلالة منحنياً فوق وجهها، ودمعة غالية تترقرق فى مقلتيه ... فهبت من سريرها باسمة سعيدة، وأنشأت تقول:

— أهنئ مولاى بالنصر الحاسم

وتحدرت الدموع من عينى الملك، ثم قال لعروسه:

— ماذا بك يا حتاسو!؟

فقالت له:

— لا شيء! جروح هينة من معركة مجدُّو!!

— معركة مجدُّو؟

— إى يا مولاى ... مجدُّو ... مجدُّو! ألا تعرف الفارس أحيس الذى رفعته إلى رتبة قائد؟ هو أنا! وهاتان صاحباي:

***

وبعد شهر واحد لبست البلاد زخرفها وازينت واحتفلت بزفاف صاحبي الجلالة.

دريني خشبة

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ٧ —

وعند هذا الحد من الحديث تذكرت ليلى

تذكرت العبارة البغدادية الطريفة التى طلَّت بها قلبى منذ أول زيارة ، فقد قالت حين رأتنى أهمّ بالرواح :

« فراقك صعب ، سيِّدى »

ورأيت من الخير أن أصرف ظمياء . وكانت لى سياسة أوحاها الشيطان ، فقد رأيت الفتاة تقص أحاديث الشيخ دعاس وزوجته بجلاء بحماسة سحرية ، ورأيتها تطنب فى وصف ابنتهما الجميلة ، تلك الفتاة التى اسمها درية ، وهو اسم لا أدرى كيف يلذع قلبي ، ولكن لا موجب للمضىّ فى سماع ما تقول ظمياء فى وصف درية ، فليس من الحزم أن تقول ظمياء كل ما عندها فى ليلة واحدة . وهل أضمن رؤيتها بعد ذلك إن تمّ هذا الحديث ؟ من الخير أن أصرف هذه الفتاة وهى فى نشوة الحديث فلا أتعب فى رَجْعها إلى منزلى حين أشاء

ولكن كيف أصرفها وقد استأنست كل الاستئناس ؟

يجب أن أصرفها بعلة طبية لتتهيّأ للمرض ، فقد أمسيت أشعر بوجوب أن تصبح هذه الفتاة من مرضاى ؛ ولا بدّ للطبيب من مريض ؛ وستعافى ليلى باذن الله ، فلتكن لى ذخيرة ألتمس بها البقاء في بغداد . وكذلك صوّبت بصرى إلى الفتاة وقلت :

ما هذا الذى أرى بوجهك يا ظمياء ؟

فانزعجت الفتاة وقالت بصوت مقتول : إيش بى يا عمّى ؟

فقلت وأنا أتكلف الحزن : سأخبرك يا بنيتى حين أجىء لعيادة ليلى . فاذهبي الآن واستريحى ، وتجنبى التعرض للتيارات الوجدانية

فخرجت الفتاة مذعورة لا تُلوى على شىء . والجمال الساذج يفتن القلوب حين يكربه الانزعاج

***

فراقك صعب ، سيِّدى

كذلك قالت ليلى

فراقك صعب ...

أى والله ، فراقى صعب ، يا ليلى ، وفراقك أصعب . فمتى يكون اللقاء ؟

وأويت إلى فراشى فى ليلة باردة لم يدفئها غير الذكريات . ثم خرجت مبكراً فى الصباح فرأيت بغداد تموج بالحديث عن ليلى والدكتور زكى مبارك وانتخاب مجلس النواب

أعوذ بالله !

ثم سألت فعلمت أن مجلة الرسالة نشرت كلمة عن ليلى المريضة فى العراق ، فتذكرت الخطاب الخاص الذى أرسلته إلى الأستاذ الزيات منذ أسابيع . وما أتهم هذا الصديق بسوء النية فى نشر ذلك الخطاب ، فهو رجل عاش سنين فى بغداد ولم ير ليلى بعينيه ، فهو يحب أن يراها مع قرائه بأذنيه ، تأسياً بقول الشريف الرضى :

فاتنى أن أرى الديار بطرفى   فلعلى أرى الديار بسمعى

ومضى يوم ، ويوم ، وأيام ، وأنا طعمة الألسنة والعيون فى كل مكان

وكانت فرصة تذكرت فيها ما جنيت على نفسى فى السنين الخوالى ، فقد كنت عدوّ نفسى من حيث لا أريد . أنا الطبيب الذى أضاعه الأدب فلم يبق أمامه غير احتراف الصحافة والتعليم . ولو لا جناية الأدب لكنت اليوم عميد كلية الطب بالجامعة المصرية ، وأنا عند المنصفين أعرف بالطب من العميد المعروف

تذكرت وتذكرت ...

تذكرت العيادة التى أقمتها فى الزمالك مع زميلى الدكتور أديب نشوان ، وهى عيادة كان يُرَجى أن تكون مضرب المثل فى عالم الطب ، ولكن مقالاتى فى جريدة البلاغ جنت على فلم يعد أحد يصدق أننى طبيب

وتذكرت مجلة (طبيب القلوب) وكانت والله مجلة لطيفة ، ولكنى تفلسفت فى الدراسات النفسية ، ثم ما زلت أوغل فى التفلسف حتى حسبنى القراء من العابثين ؛ وعطِّلت المجلة ، ولا تزال إلى اليوم فى نزاع حول ما تراكم عليها من ديون

وقد نجا زميلى بجلده ، وكيف لا ينجو وهو جبان ! وبقيت أنا أضع الدينار بجانب الدينار لأتخلص مما جناه قلمى البليغ !

يرحمك الله يا أبى ! فكم نصحتنى ولم أنتصح ! كم قلت إن الطبيب لا يليق به أن يتحدث فى أشعاره عن الخدود والعيون والنحور والثغور ، ولا ينبغى له أن يتفجع على مواسم الروح فى

مصر الجديدة والزمالك . ولكنى أحسنت الظن بالناس فانطلقت أشدو وأترنم ، فكان جزائى أن أعيش عيش المشرَّدين بين القاهرة وباريس وبغداد

تذكرت وتذكرت لو تنفع الذكرى !

تذكرت العيادة الجميلة التى أقمتها فى شارع فؤاد بعد أن خُرِّبت عيادتى بشارع المدابغ بسبب السيدة (ن) ، وكانت عيادتى بشارع فؤاد تبشر بمستقبل رائع ، فقد كانت مجهزة على أحدث طراز ، وكان فيها ممرضة جميلة تخلب عقول النساء قبل أن تخلب عقول الرجال ؛ ولكن الله ابتلانى بطائفتين من الناس كانوا السبب فى خراب تلك العيادة الفيحاء : الطائفة الأولى جماعة الأصدقاء الذين يرون من حقوق الصداقة أن أداويهم بالمجان . أما الطائفة الثانية فهم الأدباء الذين جعلوا عيادتى سامراً يلتقون فيه كل مساء . وفى تلك العيادة تألفت رابطة الأدب القديم وجمعية عطارد وأصدقاء أفروديت . وفى تلك العيادة قامت المعارك بين القديم والجديد ، وفيها نظِّم أول مؤتمر لكليات الجامعة المصرية ، وفيها أسست نقابة المحبين

ومالى أكتم حقائق التاريخ ؟ إن هذه المذكرات لن تنشر فى حياتى ، ولن يراها الزيات ولا غير الزيات . فلأدوِّن فيها كل شىء وليقل الناس بعدى ماشاءوا ، فسأكون فى شغل عنهم بما أعد الله للأشقياء من نعيم الفراديس . وهل يُرضى الله فى كرمه أن نشقى فى الدارين ؟

كانت عيادتى بشارع فؤاد هى الملاذ لكل أديب لا يجد فى جيبه خمسة قروش يجلس بها جلسة لطيفة في مشرب ... أو مشرب ... أو مشرب ... ولا موجب لذكر أسماء هذه المشارب فأصحابها لئام لا يستحقون الاعلان ، وأخشى أن يعيشوا بعد أن أموت . أليس فيهم الرجل اللئيم الذى استقبل فى حانته صديق .. فلما انصرف سألنى عن اسمه فطويته عنه . وكان اللئيم يريد أن يعرف ما هو اسم ذلك الشاب الذى يخاصر تلك الشقراء ؟ وكان ذلك الصديق من كبار الموظفين بوزارة . . .

إن القاهرة ليس فيها مشرب أمين يأتى فيه الرجل حبيبته وهو فى أمان من عيون الرقباء

وهذا الكلام الذى أدونه فى مذكراتى هو السبب فى خرابى ، فأنا طبيب دقيق الإحساس ، ودقة الإحساس فى زماننا من أشنع العيوب . ومن حسن الحظ أن هذا الكلام سيُطوى إلى حين ، لأنى سأدفن مذكراتى بالمكتبة العامة فى بغداد ، ولن يطلبها مجلس كلية الآداب بالجامعة المصرية إلا بعد مئات من السنين . وستكون لكلية الآداب جهود مشكورة فى درس النثر الفنى في الأدب الطبى !

ألا فليعلم الجمهور الذى يخلفنا بعد مئات السنين أن الأدب أضاع ثلاثة من الأطباء كانوا يعيشون في مصر ، وهم محجوب ثابت ، وأحمد أبو شادى ، وزكى مبارك

ولكن هل ضاع محجوب ثابت ؟ وكيف ؟ لقد اشتغل بالتمثيل السينمائى فنجح أعظم نجاح . وقد تفضل سعادة الأستاذ طه الراوى وكيل وزارة المعارف العراقية فدعانا منذ ليال لتناول طعام العشاء . وعلى المائدة تحدث الأستاذ منير القاضى فأشاد بنبوغ محجوب ثابت فى التمثيل وجزم بأنه أبرع من الممثل زكي طليمات . وعندئذ أحسست الغيرة تلهب أحشائى ، فهذا زميل أضاعه الأدب وحفظه التمثيل

وأبو شادي أحيته المعامل البكتريولوجية ، فهو يفحص (عيِّنات) الجراثيم ثم يخلد أصنافها بالشعر البليغ . أما زكى مبارك فقد أضاعه الأدب جملة واحدة . وإنى لأخشى ألا يستمع إليه أحد إن وصف لمريض شربة زيت ؛ ومع أنه ظفر بألقاب كلية الطب وكلية الآداب فقد ضاع فى الكليتين ، فهو عند كلية الآداب رجل طبيب ، وعند كلية الطب رجل أديب ، وعند الله جزائى !

* * *

ومما زاد البلاء أننى صرحت بأن ليلى تقيم فى شارع العباس ابن الأحنف ، وهو شارع معروف فى بغداد ، فما الذى كان يمنع من اختراع اسم موهوم أضلل به أهل الفضول ؟ كذلك أمسيت فى حيرة وارتباك ، فما توجهت إلى ليلى إلا رأيت الشارع يعجّ بالمتطلعين . ويحسن النص على أن المدنية الحديثة جنت على بغداد أعظم جناية ، فليس فيها شارع ولا حارة ولا درب ولا عطفة إلا وهو مضاء بالكهرباء ، وبذلك ضاع علينا الحظ الذي كان يتمتع به المتنبى إذ يقول :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وفى بغداد شرطة لا تعرف التغافل الظريف الذى تصطنعه شرطة باريس . وليلى نفسها لا تخلو من عنجهية البدويات ،

وأنا نفسى لا أحسن الصبر وهو أقل ما يتخلق به الأطباء

وفي معمعة هذا الكرب وقع حادث ظريف، فقد تلقيت صكا من مجلة الهلال على بنك إيسترن في بغداد، تلقيته في ساعة ضيق، فمضيت إلى البنك لأتقاضاه وأنفق محصوله على نفسى وعلى بعض مرضاى من الملاح.

ولكن إدارة البنك رفضت تسليم المبلغ الميمون وقالت: هات جواز السفر، أو أحضر رجلاً يعرفك. فقلت: أما جواز السفر فلا سبيل إليه لأن المطر ينهمز والطريق كله أوحال. وأما البحث عن رجل يعرفنى فهو سهل، ولكنه لا يتم بدون فضيحة البنك. فقال فريق من الموظفين: وكيف؟ فقلت: لأن مما يفضح بنك إيسترن أن يجهل زكى مبارك وهو رجل يشار إليه بالبنان في كل أرض، وفى صدره ودائع أغلى وأنفس مما تحفظ أقوى الخزائن فى أعظم البنوك. وعندئذ ضجّ موظفو البنك بالضحك والقهقهة الساخرة؛ ولكن أحدهم ترفق وقال: أنت الطبيب الذى جاء يفتش عن ليلى والذى ينشر نتائج بحثه بمجلة الرسالة المصرية؟

فقلت: نعم!

فالتفت ذلك الموظف إلى زملائه وقال: يا جماعة. هذا هو الطبيب الذى جاء يفتش عن ليلى!

وما كاد يفوه بهذه الكلمات حتى أقبل الموظفون لمصافحتى. وفى لحظة واحدة تسامع مَن فى البنك بقصتى، وقد استظرفونى جداً، بالرغم من أنى أحمل أنفاً أعظم من أنف ابن حرب، كما قال الأستاذ حسن فهمي الدجانى، زميلى فى أيام البؤس، يوم كنت تلميذ الشيخ سيد المرصفى بالأزهر الشريف. وصحبنى ذلك الموظف إلي مكتب المدير فشربت عنده كأساً من قهوة أبي الفضل لا قهوة أبي نواس. ولم يفتنى أن أسأل عن اسم ذلك الموظف الأديب الذى يقرأ مجلة الرسالة وهو فى البنك — وتلك إحدى الأعاجيب — فعرفت أنه يسمى ألبرت داود يعقوب، فمضيت وأنا أرتل الآية الكريمة: «يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التي أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين»

* * *

فقد نفعنى الأدب فى بنك إيسترن، فهل ينفعنى عند ليلى؟

وهل نفعنى الأدب عند عروس دمياط حتى ينفعني عند عروس بغداد؟

أمرى إلى الهوى!

* * *

ظهر المقال الثانى فى مجلة الرسالة وفيه كلام عن وزير المعارف ورئيس الوزراء، وقد صارحني الأستاذ عبد الجليل الراوى بأن لذلك عواقب ...

فليكن هذان المقالان كل ما أرسل إلى الزيات، ولتكن هذه الحوادث بداية لرجوعى إلى العقل، فأنا لا أزال شابا، ومن السهل أن أحسّن سمعتى وأن أعيد تنظيم عيادتى فى شارع فؤاد، فلولا جناية الأدب لكنت اليوم أغنى الأطباء

على أنه لا موجب للندم على المقالين اللذين نشرتهما الرسالة، فقد أصبح العراق جذوة وجدانية، وصار اسم ليلى بداية كل حديث ونهاية كل حديث فى الأندية والمعاهد، بغض النظر عن الفتنة التى ثارت بسبب ليلى فى الرستمية، وبغض النظر عن المشاجرة التى وقعت من أجلها فى كلية الحقوق ... وينبغى أن أسجل أن هذين المقالين جذبا الأنظار إلى المؤتمر الطبي، فقد حدثنى الدكتور حسين كامل أن طلبات الاشتراك بلغت المئات فى أسبوع واحد. والسبب لا يخفى على من سيقرأون مذكراتي فى السنين المقبلات، فقد صار مفهوماً أن ليلى ستحضر جلسة الافتتاح، وإلى ذلك أشارت جريدة البلاد وجريدة العقاب وجريدة الرأى العام وجريدة الهدف، وأنكرت ذلك مجلة الكفاح وقالت: إنه لا يليق بأمة اسلامية أن تعرض امرأة لعيون الناظرين؛ وفات مجلة الكفاح أن المؤتمر لا يعقد هذه السنة فى بغداد إلا بسبب النظر فى أمر ليلى المريضة فى العراق

ولكن هل أسمح بخروج ليلى؟ هل ضاقت الحيل حتى أمكن الناس من رؤية ليلى؟

رباه! لقد بدأت أشعر بالغيرة على ليلى، فهل تكون الغيرة نذيراً بهبوب عاصفة الحب؟

أمرى إلى الهوى!

* * *

نشرت جريدة البلاد فى أبرز مكان كلمة تحت عنوان: «أنشودة اللقاء»

ثم قالت إنها تلقت قصيدة موجهة إلىّ بتوقيع (ليلى المريضة) وأنها حوّلت القصيدة إلى الدكتور زكى مبارك راجية أن يكون

أناشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٨٢ —

يا أماه ، سأنظم من عبراتى ... عبرات الأسى ... عقداً جميلاً أزيّن به جيدك

لقد أحسنت الكواكب صنعة الخلاخيل الضوئية لتزين بها قدميك ، ولكن عقدي سيكون على صدرك

إن الثراء والشهرة هما بعض نفحاتكِ ، وهما لكِ حين أمنح وحين أمنع ؛ ولكن أشجانى هى لى وحدى ، وحين أقدمها إليك تبدّلينني بها عطفاً وحناناً

— ٨٣ —

إنها غصة الانفصال هى التى تنتشر فى أرجاء العالم فتحور فى الفضاء اللانهائى أشكالاً وفنوناً عديدة

إنه أسى الانفصال هو الذى ينبعث — فى صمت الليل — من نجم إلى نجم ثم يرتد إلى لحن بين حفيف الأوراق فى حلوكة الليالى المطيرة من شهر يوليه

إنه الألم العميق الذي يهبط إلى قرار الحب والرغبة ، إلى الآلام والأفراح فى دور الناس . وإنه هو الذى يذوب دائماً فيفيض فى قلبى الشاعر ألحاناً

— ٨٤ —

حين يخرج الجند — لأول مرة — من فناء سيدهم ، أين كانوا يخفون قوتهم ؟ أين كانت دروعهم والسلاح ؟

لقد كانوا يبدون مساكين لاحول لهم ولا جاه ، وهم يحملون القِسيّ والسهام أول ما خرجوا من فناء سيدهم

وحين يرتدون إلى فناء سيدهم ، أين يوارون قواتهم ؟

لقد طرحوا السيف جانباً ، وألقوا القوس والسهم ، وعلى جباههم ترف نسمات السلام ؛ غير أنهم خلفوا من ورائهم ثمار حياتهم حين ارتدوا إلى فناء سيدهم

— ٨٥ —

إن الموت ، وهو خادمك ، يقف ببابى . لقد اجتاز البحر المجهول ليبلغنى رسالتك

الليل داج ، وقلبى ينتفض من أثر الرعب ... ولكنى سأحمل مصباحى ، وأفتح بابى ، وأرحب به ، لأنه هو رسولك الذى يقف ببابى

سأتوسل إليه فى ذلة وأسكب الدمع أمامه . سأتوسل إليه ، وأضع كنز قلبى عند قدميه

سيرتد وقد أتم عمله ونشر ستاراً حالكا على صباحى ، ونفسى الضعيفة ما تنفعك في دارى الموحشة لتكون قربانى الأخير إليك

— ٨٦ —

وفي أمل اليائس انطلقت أفتش عنها فى زوايا حجرتى ؛ فما وجدتها

إن دارى صغيرة ، وما فقد منها قل أن يعود ثانية

ولكن اللانهاية — يا سيدى — هى قصرك المشيد ، وحين رحت أفتش عنها وقفت ببابك

وفى الليلة الظلماء وقفت تحت عرشك الذهبي ... تحت سمائك ورفعت بصرى إلى وجهك

له فيها شيء من العزاء

وقد تلقيت القصيدة وتأملت الخط ، فعرفت أنها من ليلى غير ليلاى

ونشرت جريدة العقاب كلمة قالت فيها إننى شرعت فى تعلّم الطب ، وذلك دليل جديد على أن شهرتى الأدبية أضاعت منزلتى فى عالم الطب ، فمتى يشفينى الله من الغرام بالأدب وصحبة الأدباء ! آه ! آه !

هذا خبر جديد، فقد أخبرنى الدكتور حسين كامل أن الزيات سيحضر إلى بغداد لشهود المؤتمر الطبى ، وأنا أفهم جيداً ماذا يريد . وهل تجوز علىّ الحِيَل وأنا خِرّيج مونمارتر ومونبارناس؟ هيهات هيهات !

أترك هذا العبث فى تدوين مذكراتى ، وأمضى لعيادة ليلى ، فقد طال الشوق إلى صوتها الرخيم و ... عينيها الناعستين. أليست هى التى قالت : فراقك صعب ، سيّدى !

فراق صعب ؟ نعم ، إن ليلى تقول ذلك ، والقول ما قالت ليلى ، ولو كره السفهاء من العذال

زكى مبارك

(للحديث بقية)

جئت إلى حافة الأبدية حيث لا شيء يفنى ... لا الأمل ولا السعادة ولا وجهك وهو يتراءى من خلال العبرات

أوه ، أغمس حياتى الخاوية فى هذا الخضم ، وأغمرها فى أعماق الكمال ثم دعنى استشعر — مرة واحدة — اللذة المفقودة فى لمسة من لمسات خلود العالم

— ٨٧ —

يا إله المعبد الخرب ! قد انقطعت أوتار القيثارة التى أوقع عليها لحن الثناء عليك ، والنواقيس — فى سكون الليل — لا تعلن عن ميعاد الصلاة لك ؛ والهواء حواليك ساكن هادىء.

لقد هبت نسمات الربيع فى مسكنك الخالى وفى عطفيها سيل من الزهور ... الزهور التى لا تقدم إلا فى أوقات عبادتك

وعبدك ، عابر السبيل ؛ ما يزال يلحف ، يطلب بعض رحمتك فما ينال شيئاً ، وفى الغسق ، حين تختلط النار والظلماء بما على الأرض من كآبة وعبوس ، يرتد هو إلى معبدك الخرب وفى قلبه الظمأ

يا إله المعبد الخرب ! كم من عيد يقبل إليك فى صمت ؛ وكم من ليلة من ليالى التهجد تدبر وفى أضعافها سراج منطفىء !

وكم من صورة جميلة زوقتها يد الفن الخادع ثم هى تندفع فى مجرى النسيان المقدس حين يأتى عليها الزمن

ولكن إله المعبد الخرب ما يبرح فى منأى عن العبادة فى إهمال مروع

— ٨٨ —

لا صخب ولا صياح ... تلك مشيئة سيدي ؛ لذلك سأتحدث فى همس ، وسيكون صوت قلبي دندنة فيها نغم لحن

إن الناس يشتدون إلى سوق الملك ، وهناك البيّاع ؛ غير أنى رجعت قبل أن يحين وقت الانصراف ... غادرت السوق عند الظهر وهو ما يزال يموج بالناس

إذن دع الأزهار تتفتح فى حديقتى وإن لم يكن قد آن أوانها ، وأرسل النحل في الهاجرة يطن طنينه الضعيف

لقد قضيت ساعات طوالاً فى صراع حادّ بين الفضيلة والرذيلة ؛ والآن ها هو رفيق يريدنى على أن ألق بقلبي بين يديه ؛ وأنا لا أدرى ، لعله أراد أن يدفعنى إلى ما لا خير فيه

كامل محمود حبيب

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٣٤٥ — لعبة الدبوق

فى (نثار الأزهار) لابن منظور : الدَّبوق [١] كرة شعر ترمى في الهواء ، ثم يتلقاها الغلام ضارباً لها تارة بصدر قدمه ، وتارة بالصفح الأيمن من ساقه اليمنى ، راداً إياها إلى العلو على الدوام . ومن بديع التشبيه قول الأرّجانى فى غلام يلعب بالدبوق :

يهتز مثل الصعدة السمراء
فقدُّه من شدة التواء
كالغصن تحت العاصف الهوجاء
تراه من تمدد الأعضاء
كأنه كواكب الجوزاء

٣٤٦ — انما رغبتنا فى العفاف

فى (كنايات الأدباء) لأحمد بن الجرجانى الثقفى : من كناية العامة : إذا قال أحدهم : سلامتها خير من كل شى . فقد ولدت امرأته اثنين فى بطن ...

وإذا قال : انما رغبتنا فى العفاف . فقد تزوج قبيحة فقيرة...

وإذا قال : لقمة البيت أطيب من كل شىء . فقد فاتته دعوة

وإذا قال : وما شهدنا إلا بما علمنا . فقد ردت شهادته فى حق من شهد له ...

وإذا قال : مابجلال الله من باس فقد تزوجت أمه ...

٣٤٧ — الاقتصاد ، البخل

فى شرح النهج لابن أبى الحديد : الفرق بين الاقتصاد [٢] والبخل أن الاقتصاد تمسك الانسان بما فى يده خوفاً على حريته وجاهه من المسئلة ، فهو يضع الشىء موضعه ، ويصبر عما لا تدعو ضرورة إليه ، ويصل صغير بره بعظيم بشره ، ولا يستكثر من

(١) الدبوق كتنور لعبة يلعب بها الصبيان معروفة (التاج)

(٢) ما عال من اقتصد ولا يعيل أى ما افتقر من لا يسرف فى الانفاق ولا يقتر (النهاية) واقتصد فعل لازم

الودات خوفاً من فرط الاجحاف به[١] ، والبخيل لا يكافىء على ما يسدى إليه[٢] ، ويمنع أيضاً اليسير من استحق الكثير ، ويصبر لصغير ما يجرى عليه على كثير من الذلة[٣]

٣٤٨ — دع أيهما شئت وخذ الآخر

فى (الأغانى) : قال على بن عبد الله الجعفرى[٤] مرت بى امرأة فى الطواف وأنا جالس أنشد صديقاً لى هذا البيت :

أهوى هوى الدين واللذات تعجبنى
فكيف لى بهوى اللذات والدين ؟

فالتفتت المرأة إلىّ وقالت : دع أيهما شئت ، وخذ الآخر ..

٣٤٩ — ١٤ يوماً ... !

فى (شـذرات الذهب) : حكى غير واحد أنه وجد بخط الناصر[٥] (الأموى) أيام السرور التى صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا ، من سنة كذا ، ويوم كذا من كذا ، وعدت تلك الأيام فكان فيها أربعة عشر يوماً ... !

٣٥٠ — نسب بين حيطان

قال رجل لعبد الملك بن الزيات : أَمتُّ إليكم بجوارى

فقال : نسب بين حيطان ...

نظم ذلك بعضهم فقال :

أرى الجوار نسباً بين الجدر

(١) تكليفه مالا يطاق ، افقاره وذهاب ماله

(٢) أسدى إليه : أحسن (التاج) أسدى إليه معروفاً اتخذه عنده (المصباح) وفى هذا العصر يقول بعضهم : أسدى إليه شكراً ...!

(٣) فى (الكلم الروحانية) : أفلاطون : البخل يحسن لرفيع التواضع وللنبيه الخمول ، وللموصول الوحشة والتفرد ، ويحبب إليه أن يكون رغبة بعد أن كان راعياً خوفاً من غلظ المؤن عليه ، والسخاء فى ضد هذه الحال والاعتدال أخذ بأحسن ما فيهما

(٤) هو صاحب الأبيات المشهورة . (وقف الهوى بى حيث أنت الخ وقد عزاها أبو تمام فى (حماسته) إلى أبى الشيص الخزاعى (محمد بن عبد الله) وعزاها الأصبهانى إلى على بن عبد الله هذا

(٥) عبد الرحمن بن محمد كانت ولايته من الغريب لأنه كان شاباً وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون فتصدى إليها واحتازها دونهم ، ووجـد الأندلس مضطربة بالمخالفين مضطرمة بنيران المتغلبين ، فأطفأ تلك النيران ، واستنزل أهل العصيان ، واستقامت له الأندلس فى سائر جهاتها بعـد عشرين سنة من أيامه ، ودامت أيامه نحو خمسين سنة استفحل فيها ملك بنى أمية بتلك الناحية ، وهو أول من تسمى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين (النفح)

والعطف والرقة حيناً والخور
طباع نسوان وصبيان غرر[١]

٣٥١ — ما الذى نستعمله مما تبيحه الشريعة

فى (وفيات الأعيان) : كان الأمير قرواش[٢] بن المقلد (صاحب الموصل والكوفة والانبار) كريماً وهّاباً ذهاباً ، جارياً على سنن العرب[٣] ، نقل عنـه انه جمع بين أختين فى النكاح فلامته العرب على ذلك

فقال : خبّرونى ما الذى نستعمله مما تبيحه الشريعة[٤] ؟ ..

٣٥٢ — النرجس

لما قدم على بن سعيد المغربى المؤرخ مصر المحروسة صنع له أدباؤها وليمة فى بعض منتزهاتها[٥] ، وانتهوا إلى روض نرجس[٦] فجعل أبو الحسين الجزار يطأ عيون النرجس برجليه ، فأنشده ناصر الدين حسن بن النقيب :

ياواطىء النرجس ، ما تستحى أن تطأ الأعين بالأرجل[٧]

فتهافتوا على هذا البيت وراموا إجازته فقال ابن أبى الأصبع :

فقال : دعنى لم أزل محنَقا على لحاظ الرشأ الأكحل

وكان أمثلَ ماحضرهم ، ثم أبوا أن يجيزه غير ابن سعيد فقال :

قابل جفونا بجفون ولا تبتذل الأرفع بالأسفل

(١) الغرة : الغفلة وقلة الفطنة والتجربة ، وهو غار وغر (وجمع هذا أغرار وغرار ككتاب) وغرير (وجمعه أغراء وأغرة) والأنثى غر وغرة فذلك الجمع (غرر) فى بيت الراجز لم تقيده كتب اللغة — التى بين يدى — وكم فات ، كم فات هذه المعجمات ...

(٢) ابن خلكان : قرواش بكسر القاف وسكون الراء : فعوال من القرش : الكسب وفى النجوم الزاهرة : قرواش بفتح القاف ومعناه باللغة التركية عبد أسود . وفى (الدمية) من شعره :

لله در النائبات فانها صدأ اللئام وصيقل الأحرار

(٣) يريد البدو ، وقد تورط ابن خلكان فى هذا المعنى تورط ابن خلدون . العرب هذا الجيل الخاص سكان المدن والقرى (الكليات) وفى (تهذيب الأزهرى) رجل عربى وجمعه العرب ، والأعرابى البدوى والاعرابى إذا قيل له يا عربى فرح بذلك وهش له ، والعربى إذا قيل له يا أعرابى غضب له (رواه اللسان)

(٤) فى (النجوم الزاهرة) بعده . فهذا من ذلك . فى (الوفيات) : كان قرواش يقول ما فى رقبتى غير خمسة أو ستة من أهل البادية قتلتهم وأما الحاضرة فما يعبأ الله بهم

(٥) المنتزه — مثل المتنزه — فى نثرهم وشعرهم منذ القرن الثالث كثير ، وفى (النفح) لحميد بن مالك فى دمشق :

فكلها بمجال الطرف منتزه وكلهم لصروف الدهر أقران

(٦) بالفتح والكسر وهو دخيل والكسر أحسن إذا أعرب (اللسان)

(٧) حذفت همزة الاستفهام ، فى المغنى : الأخفش يقيس ذلك عند أمن اللبس



جوائز فاروق الأول

من الطوالع السعيدة لعهد فاروق الأول — حفظه الله — أن تحظى دولة الأدب والتفكير بأول قسط مشكور من حقها في التشجيع والرعاية ؛ فقد انتهت وزارة المعارف بعد طول البحث إلى إقرار مشروع خطير لتشجيع العلوم والآداب يتلخص في ترتيب ستة جوائز ثمينة للمتفوقين في مختلف نواحي التفكير ؛ وقد أشارت الرسالة في عددها الماضي إلى قيم هذه الجوائز وأنواعها .

وصاحب الفضل الأول في تقديم هذا المشروع هو سعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا وزير الخارجية المصرية سابقاً وسفير مصر الحالي في لندن ؛ وهو فوق كونه من رجالات مصر المعدودين مفكر وأديب بارع ، وله مواقف مشهودة في تعضيد الحركة الفكرية ، وهو الذي أنشأ « السياسة الأسبوعية » التي كانت قبل أعوام أعظم الصحف العربية الأدبية

ومما يذكر بالحمد لوزارة المعارف أنها لم تنس الأقطار العربية الشقيقة في ترتيب هذه الجوائز الأدبية الثمينة ، فقد تقرر أن يسمح لأبناء العربية من الأقطار الأخرى بالتقدم إلى هذه المباريات في جوائز الأدب والقصص والاجتماع نظراً لما هنالك من وجوه التعميم في هذه الميادين ، ورغبة في تشجيع الآداب العربية بصفة عامة ، وتقوية للروابط الفكرية والثقافيـة بين مصر والأقطار العربية الشقيقة

ونحن نغتبط بهذه الخطوة الموفقة التي تتخذها وزارة المعارف لتشجيع الحركة الفكرية في مصر والأقطار العربية؛ ونزيدها توفيقاً ويمناً أن الجوائز الجديدة تحمل اسم صاحب الجلالة الملك « فاروق الأول » ؛ بيد أننا نحب أن نرى فيها باكورة فقط ، ونرجو أن توفق مصر إلى المزيد منها على يد هيئاتها ومعاهدها العلمية الكبيرة. فعلى الجامعة المصرية والجامع الأزهر أن يساهما في ذلك العمل الجليل ، وأن يرتب كل منهما جوائزه الخاصة لتشجيع الحركة الأدبية والعلمية ؛ وعلى جميع هيئاتنا العلمية الأخرى أن تقوم بواجبها في ذلك السبيل

المتحف الزراعي المصري

في يوم الاثنين ١٧ يناير الجاري افتتح صاحب الجلالة الملك فاروق الأول متحف فؤاد الزراعي بالدقي بالجيزة ؛ وهذا المتحف على حداثته يعتبر في رأى الخبيرين أعظم متحف في العالم من نوعه . والفضل في إنشائه يرجع إلى جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول . وقد بدىء بانشائه في سنة ١٩٣٠ ، وأراد الملك الراحل أن يكون معهد ثقافة زراعية علمية ، فحملت إليه النماذج الزراعية من كل ضرب ، وعرضت فيه مجموعات بديعة من الأزهار والحبوب والأدوات المنزلية ، وهيا كل الحيوانات المصرية الأليفة ومومياتها وأنواع الأسماك المتوطنة في النيل منذ القـدم وأدوات صيدها ؛ وعرضت النباتات المصرية منذ عصر الفراعنة والعصور الإسلامية. وبالجملة فقد غدا المعرض على حداثته معهداً عظيما للثقافة الزراعية والنباتية والحيوانية خلال العصور التي توالت على وادي النيل . وسيعمل المتحف في القريب العاجل على ضم جميع التحف والعاديات التي لهـا علاقة بالزراعة القديمة ، ونماذج من أدوات الزراعة والفلاحة والصيد التي كانت تستعمل خلال العصور المختلفة

ويقدر ما أنفق على هـذا المتحف المصري العظيم منذ إنشائه إلى اليوم بنحو ثلاثمائة ألف جنيه مصري ، وهي قيمة يدل إنفاقها على ما وصل إليـه المتحف من الضخامة وحسن الاستعداد لأداء مهمته

وقد تفضل جلالة الملك فتفقد أقسام المتحف المختلفة ، وشاهد عرض فلم علمي زراعي يبين تربية النحل وحلج القطن

ومما يبعث على الغبطة أن مدير المتحف الحالي هو مصري من

الاخصائيين فى الشئون الزراعية ، وقد كان إلى عهـد قريب من الأجانب

فصل المؤتمرات الدولية بالقاهرة

أصبحت القاهرة من العواصم العالمية التى تتجه إليها أنظار المؤتمرات الدولية ، وفيها يعقد كل عام فى فصل الشتاء على الأخص عدة مؤتمرات دولية هامة ، بدعوة سابقة من الحكومة المصرية وقد عقد بها فى هذا الفصل إلى الآن مؤتمران دوليان كبيران هما مؤتمر الرمد الدولى ، ومؤتمر توحيد قانون العقوبات الذى اختتمت اجتماعاته منذ أيام قلائل . وسيعقد فى القريب العاجل مؤتمران دوليان آخران هما مؤتمر القطن الدولى ، ويفتتح فى ٢٦ يناير الجارى ، ومؤتمر اللاسلكى ويفتتح فى أول فبراير ؛ والأول من المؤتمرات الدولية التى تعلق عليها مصر أهمية خاصة باعتبارها فى مقدمة دول العالم التى تنتج القطن وتعتمد فى مواردها على تصريف محصوله . وقد كانت مصر دائماً عضواً بارزاً في مؤتمرات القطن الدولية وكانت لهـا فى هذه المؤتمرات جهود مشكورة فى التنويه بأحوال الزراعـة القطنية وتجاربها العلمية وآفاتها وتصنيف محاصيلها . ولا يقل مؤتمر اللاسلكى عن سابقه أهمية لأن مصر أصبحت بعد تقدم اللاسلكي من أهم المراكز العالمية للمواصلات الأثيرية ، وتشترك معظم الدول الكبرى فى كلا المؤتمرين

محاضرة عن فلوبير بالقاهرة

ألقى العلامة الفرنسى الأستاذ هنرى جيلمان نزيل مصر الآن ، بدعوة من كليـة الآداب ، فى قاعة الجمعية الجغرافية الملكية ، محاضرة شائقة عن الكاتب القصصى الفرنسى الكبير جوستاف فلوبير ، قدم فيها عنه لسامعيه صورة مؤثرة ؛ وذكر أن فلوبير إنما يدرس فى كتابات شبابه وما خلفه منهـا بعد موته ، وأنك تجد فلوبير فى أطوار حياته شخصاً يبدو فى ألوان مختلفة . وقد مرض فلوبير فى حداثته مرضاً عصبياً خطيراً حول مجري حياته إلى ناحية لم يكن يتوقعها ، فلم يفكر فى أن ينشئ له حياة أو مدرسة ، ولكنه جنح إلى التفكير العميق ، وانتهى إلى اعتناق المبادئ التى جعلت منه شخصية مدهشة . وخلاصتها احتقار الوصول إلى الغايات الشخصية ورفض استخدام المواهب لتحصيل الربح المـادى ، وتخصيص الحياة للفن « المقيم » ومجانبة هذا المجتمع وهذا العالم . ومن ثم كان فلوبير يصور فى كتبه هذا العالم بطريقة يترك الحكم عليها لقارئه ، ولا يتدخل هو للتأثير فيه

على أن فلوبير لم يستطع أن يحرص على هذا المثل دائمـا ، فقد خرقه في حياته مرتين : الأولى بسبب امرأة هى لوبز كوليه ، والثانية بسبب محاولة الحصول على النجاح . بيد أنه لم يكن محباً مستسلماً ، ولم تملكه المرأة إلا ردحاً ضئيلا وانتهى بينهما كل شيء فى سـنة ١٧٥٥ ؛ ولم يمض طويل على ذلك حتى اضطر فلوبير أن يسعى إلى المال والشهرة لكى يتدارك النكبة المالية التى أصابت ابن أخته ، فتقـدم إلى المسرح بقطعته « المرشح » Le Candidat ولكنه لقى خيبة أمل ؛ فرتد إلى عمله وكتاباته التى كانت تلخص كلها فى وصف الحيـاة البشرية ، وكانت « مدام بوفارى » و « التربية العاطفية » و « القلب الساذج » من أروع ما كتب فى هذا الميدان

ونالت محاضرة الأستاذ جيلمان نجاحاً عظيماً ؛ وكان الأستاذ يلقى محاضرته بذلاقة خلبت ألباب السامعين .

أسواق الأدب بين الركود والازدهار

خطب الروائى الانكليزى الكبير السير هوج والبول فى معرض للكتب أقيم أخيراً فى جلاسجو ، فقال انه توجد أزمة كتب فى العالم البريطانى ، وأهم أسبابها تخفيض أثمان الكتب إلى حد غير معقول . وقد ترتب على ذلك أن فقـد كثير من الكتاب مورد أرزاقهم ؛ ووقعت الأزمة بنوع خاص على الكتب القيمة لأنها اليوم ضحية منافسة شديدة من كتب تنشر بالملايين ولا يجـد القارئ وقتاً للتحقق من قيمتها . ومن رأى الكاتب الكبير أن البؤس الذي تعانيه الحركة الأدبية من جراء هـذه الحالة لا يقل عما كانت تعانيه منذ ثلاثين عاماً

وقد أنشئ فى انجلترا « مجلس قومى للكتب » مهمته أن يعمل على ترقية القراءة وترويج الكتب ، وهو يسعى إلى هذه الغاية

بمختلف الوسائل ، ومن ذلك إقامة المعارض السنوية ، وإقامة أسابيع خاصة لأصناف من الكتب المختلفة ؛ وقد ساعدت هذه الوسائل على تخفيف الركود الذى أصاب حركة النشر فى الأعوام الأخيرة

على أنه بينما يشكو العالم البريطانى من ركود الكتب وبؤس الحركة الأدبية إذا بسوق الأدب والكتب تزدهر فى روسيا السوفيتية ازدهاراً شديداً . وقد نشر أخيراً إحصاء مدهش عما أخرجته دور الكتب الروسية التى تعمل تحت رقابة الحكومة من الكتب فى عهد السوفييت ، خلاصته أن هذه الدور كانت تخرج فى سنة ١٩١٨ فى اليوم ٣٠٠ ألف مجلد ؛ ولكنها أصبحت فى سنتى ١٩٣٦و١٩٣٧ تخرج فى اليوم مليوناً وربع مليون مجلد . ومن هذه طبعات رخيصة من الآداب الروسية والعالمية . ومنذ سنة ١٩١٧ إلى اليوم أخرج من كتب مكسيم حوالى ٣٢ مليون نسخة ،و ١٩مليوناً من كتب الشاعر بوشكين، و ١٤ مليوناً من كتب تولستوى ، وأخرجت ملايين أخرى من كتب الكتاب الروس الآخرين . هـذا عدا ما تخرجه دور النشر الروسية من الترجمات للكتاب الأجانب ، وأشهرهم اليوم فى روسيا سنكلير ، وموباسان ، وهوجو ، وزولا ، وبلزاك ، وأناتول فرانس ودكنز ؛ وفى ذلك ما يدل على التقدم الهائل الذى حققته روسيا السوفيتية فى مكافحة الأمية وترقية التعليم

وفاة الأستاذ محمد صادق عنبر

يعز علينا أن ننعى لقراء الرسالة فى بهجة الفرح وبهرة السرور بزفاف المليك أديباً من أعلام البيان العربى ، هو الأستاذ صادق عنبر

كان الأستاذ طيَّب الله ثراه بقية خير من تلك الطائفة الرشيدة الصالحة التى غذت الناشئين وبصرتهم بالأساليب المشرقة منذ ثلث قرن ، فكان من أنصار الديباجة القوية ، والأسلوب البيانى المستمد من بيان القرآن ونبعته . وكان أسلوبه يشبه أسلوب المرحوم الأستاذ الرافعى ، فقد كان يعجب بفنه وطريقته ، ويأخذ نفسه على الجرى فى حلبته . ولقد عمل فى الصحافة مدة من الزمن ، فاشتغل فى اللواء ثم فى الأخبار ثم فى الأهرام ، ولكنه ظل على سليقته الأدبية ، وظل أسلوبه أسلوب الأديب له روعته ورونقه . وآخر ما أخرجه من الآثار جملة من الرسائل الغرامية وضعها على لسان ليلى وقيس ، ونحا فيها منحى الرافعى فى أوراق الورد ، ثم « كلمات فى كلمة» كان ينشرها منذ أيام وكان ينوى جمعها فى كتاب .فلعل أصدقاءه يقومون له بحق الصداقة فيجمعوا من آثاره ما تناثر كما قام هو بحق الوفاء لصديقه المرحوم أمين الرافعى

تماثل النابغة مى

شق على نفس الأدباء كثيراً ما ألم بنابغة الأدب الآنسة مى من مرض لازمها نحو عامين ،فحال بينها وبين القلم ، وحجبها عن ميدان لها فيه جولات صادقة ، وجهود موفقة ، حتى برز اسمها بين الأعلام البارزين فى الشرق العربى .

ولقد تناقلت الصحف العربية فى مصر وسوريا ولبنان هذا الأسبوع الخبر بأن الآنسة النابغة قد تماثلت من مرضها ، وقد أذن لها أطباؤها فى الخروج من المستشفى الذى كانت تعالج فيه إلى منزل استأجرته فى بيروت فى مكان هادىء لائق ، وستكون معها ممرضتها التى لازمتها مدة المرض

ونحن نرجو للآنسة الفاضلة تمام التماثل ، ونسأل الله أن يسبغ عليها ثوب العافية ، وأن يمد فى حياتها العزيزة ، فإنها ولا شك ثمرة ناضجة قلما يجود بها الزمن على الشرق الحديث

مجمع اللغة الملكى فى مؤتمر بغداد الطبى

قرر مجمع اللغـة العربية الملكى الاشتراك فى المؤتمر الطبى العاشر المزمع عقده ببغداد فى الفترة القائمة بين التاسع والثالث عشر من فبراير . وقد ذكر المجمع فى مذكرته إلى وزارة المالية أن الغاية من هذا الاشتراك هوتبادل الرأى فى توحيد المصطلحات الطبية فى اللغة العربية ، واقترح ندب الأستاذين الشيخ احمد على الاسكندرى وعلى الجارم بك لتمثيل المجمع فى تلك الدورة وقد وافقت وزارة المالية على هذه المذكرة

كتاب شائق عن شعب غريب

صدرت أخيراً ترجمة فرنسية لمؤلف يمتاز بطرافته العلمية والتاريخية هو كتاب العلامة الدانماركي بركت سميث عن قبائل الإسكيمو، وعنوانه Moeurs et Coutumes des Esquimaux والعلامة بركت سميث هو مدير المتحف الوطني في كوبنهاجن ، وهو أشهر حجة معاصر في أحوال هذا الشعب القطبي الغريب .

وتسكن قبائل الإسكيمو كما هو معروف في أطراف الجزيرة الخضراء (جرينلند) وشمال الأسكا وعلى أطراف بوغاز بيرنغ وأطراف الأرض الجديدة الشمالية ؛ وكان أول من عرفه بعض الملاحين من جزيرة « ايسلنده » في القرن التاسع الميلادى ، ثم عرفه النورمانيون واحتلوا شواطىء الجزيرة الخضراء حيناً حتى أواخر القرن الخامس عشر ؛ وجاء من بعدهم الرحالة الانكليزى مارتن فروبشر فازدادت معرفة العالم المتمدن بقبائل الاسكيمو . وقام المكتشفون الروس والدنماركيون برحلات عديدة في هذه الأنحاء الثلجية النائية . ولما احتلت الدانمارك أطراف الجزيرة الخضراء قام علماؤها بمباحث كثيرة عن أصل الاسكيمو وأحوالهم ؛ وأنشىء في كوبنهاجن متحف طبيعى للاسكيمو هو أعظم متحف من نوعه

وقد اختلفت آراء العلماء في أصل هذا الشعب الغريب الذى لا تزيد تعداده اليوم على أربعين ألف نسمة موزعة بين هذه الأنحاء الشاسعة ، فذكر بعضهم أنه من سلالة « الفليولوتين » الذين يرجعون إلى العصر « الجدايني » ولكن الظاهر أن هذا الرأى لا يعتبر نهائياً من الوجهة العلمية . وما زال علماء الأجناس والبيولوجيا والأنتروبولوجيا يحاولون الوقوف على أصول هذا الشعب . ويمتاز الاسكيمو بقصر القامة وبسطة العظام ؛ وهم ضعاف على الأغلب ويعيشون في ثلج دائم وينقرضون بسرعة . وقد رأت الأمم التى تهتم بمصير هذا الشعب والمحافظة على بقيته الباقية من الانقراض أن تعقد في شهر أغسطس الآتى مؤتمراً علمياً لمباحث الأجناس والأنتروبولوجيا ، وسيكون للاسكيمو من مباحثه أكبر شأن

ويستعرض الأستاذ بركت سميث في كتابه المشار إليه تاريخ الاسكيمو وأحوالهم الجنسية والاجتماعية ، ويستند في معلوماته إلى الدرس والمشاهدة الشخصية لأنه عرف الأرض الخضراء منذ حداثته ، وعاش بين الاسكيمو ردحاً من الزمن ، ودرس لغتهم وعاش عيشتهم ، ويصف لنا عقليتهم وأحوالهم النفسية والاجتماعية ببراعة ، وكتابه كالقصة الشائقة ينتقل الانسان فيه بين عجائب وغرائب مدهشة

ويهيب الأستاذ بركت في كتابه بالأمم الأوربية أن تعمل لصون هذا الشعب المسكين من الانقراض ، وأن تبذل وسعها للمحافظة على هذه التحفة الانسانية »

هل يشفى غبار الصحراء مرض السل

من أنباء ألمانيا الأخيرة أن حواراً علمياً هاماً يدور فيها حول اختراع طبي قام به العلامة الطبيبى الدكتور أرنست جيركى لشفاء مرض السل . وللدكتور جيرتى رأى غريب في ذلك وهو أن السل يمكن شفاؤه باستنشاق غبار الصحراء ، وقد انتهى إلى ذلك بعد تجارب طويلة ، وأنشأ بالفعل لذلك جهازاً طبياً يعرف بجهاز جيركى يمكن للمريض أن يستنشق بواسطته غبار الصحراء المودع فيه بطريقة فنية ، وتفيده المثابرة على ذلك فائدة كبيرة وتنتهي بتقوية الرئتين والسير نحو الشفاء . ويقول الدكتور جيركي أن ما يلاحظ من شفاء المرضى الذين يقيمون في أعالى الجبال إنما يرجع إلى استنشاق هذا الغبار بالذات وهو يهب من الصحراء في مواسم معينة حتى يصل إلى هذه الأنحاء ، وأنه يمكن بواسطة جهازه أن يستغنى المرضى عن الاقامة في المناطق الجبلية والسفر إلى مصر وغيرها من الأقاليم الصحرية

وقد أنكر بعض العلماء نظرية جيركي وحمل عليه بالأخص عالم طبيبى سويسرى هو الدكتور مير كوفر ، وقال ان نظريته لا ترجع إلى أصول علمية ، وأنها مضاربة لا تزيد عن زعم أولئك الذين قالوا من قبل بأن السرطان يمكن أن يشفى بالأشعة وأمثالها ؛ وأن غبار الصحراء لا يهب إلا على شواطىء البحر الأبيض المتوسط والجهات القريبة ولا أثر له في أعالى الجبال

وما زالت النظرية موضع الجدل الشديد في مختلف الأوساط العلمية .

مناهج التاريخ العام ورأى الحكومة المصرية

تلقت وزارة المعارف من القومسيون الدولي لعصبة الأمم كتاباً انتظم مشروع تصريح خاص بإعادة النظر في الكتب الدرسية . وقد جاء فيه أن العصبة ترغب في توطيد العلاقات وتوثيقها بين الأمم والممالك المختلفة ، ومن أجل هذا ترغب ألا يقف الأمر في دراسة التاريخ في المدارس عند التاريخ القومي ، بل يجب أن يتضمن المعلومات الوافية عن الأمم الأخرى

ورغبة في توكيد ارتباط المصالح بين الدول ، فإن الرأى يتجه في تدريس التاريخ العام إلى استنباط العناصر التي تهيء أسباب هذا التوكيد والارتباط

وترى العصبة أن يستبعد من الدراسات التاريخية في الكتب تقرير كل إيعاز أو إيحاء ، وكل تفسير للأحداث التي تثير في الناشئين روح الحقد والكراهية ، والتي يكون من نتائجها تكوين رأى في أمة ضد أخرى

ونوه سكرتير العصبة العام في كتابه باقتراح يرمى إلى إنشاء هيئات محلية في كل دولة تتصل بالشعبة الدولية في جنيف ، وأن يترك لها أمر الحلول التي تؤدى إلى الأغراض المتقدمة . ولهذا حرصت جامعة الأمم على توجيه هذه الآراء والأفكار إلى الممالك والدول المشتركة وغير المشتركة فيها

وقد أحالت وزارة المعارف هذا الموضوع إلى الأستاذ محمد قاسم بك ناظر دار العلوم ، فدرس المشروع دراسة دقيقة ووضع تقريراً عنه ، وقد أقرته الحكومة المصرية وتقرر رفعه إلى العصبة

وقد جاء في هذا التقرير أن المناهج المصرية الدراسية تتفق والأغراض المشار إليها ، وذلك لعدة أسباب ، منها ما يرجع إلى موقع البلاد الجغرافي وحكم مركزها القديم واتصالها بالشرق والغرب ، فضلاً عن أن مناهج التاريخ ولا سيما في الدرجات الثانوية من التعليم بل والابتدائية لا تقتصر على الجانب القومي

وأما عن توكيد ارتباط المصالح بين الدول ، وخاصة في العصور الحديثة ، فان مفردات مواد التاريخ وضعت من الوجهة الفنية في مصر على قاعدة اشتراك المصالح بين الدول الأوربية المختلفة

وأشار التقرير إلى مسألة الايعاز والايحاء وتفسير الوقائع فقال إن الروح القومية المصرية السائدة في الكتب المصرية عامة هي روح الصداقة والود والتعاون بين أمم العالم قاطبة بغير استثناء ، على أن هذا لا يمنع من تسرب بعض التعليقات التي تسيء إلى بعض الأمم في الكتب الدراسية من غير قصد ، ومرجع هذا تأثر بعض المؤلفين بالمراجع الأجنبية التي يأخذون عنها فينقلون وهم حسنو النية بعض الآراء والتعليقات التي تسيء إلى بعض الدول وقد لا تتفق والواقع . وكثيراً ما يتأثر بعض المؤلفين بالبيئة التي يدرسون فيها والمراجع التي يرجعون إليها

ماني والمانوية

ما يزال العلماء الأجانب يعنون بفلاسفة الشرق عناية عجيبة ، على حين لا نعنى بهم نحن إلا عناية طفيفة تجيء مع تفاهتها ذيلاً لما يكتب غيرنا عنهم . . . وقد تصفحنا كتابا بالانجليزية عن ماني والمانوية وضعته الأديبة الفاضلة ا . س . دروور E. S. Drower وطبعته جامعة أكسفورد على نفقتها الخاصة ، وحسبك هذا دليلاً على قيمة الكتاب . وقد حدث أن عين زوج المؤلفة الفاضلة مستشاراً قضائياً في العراق سنة ١٩٢٢ ، فانتهزت هي هذه الفرصة وكانت تسكن في بغداد ، فاختلطت بأحفاد المانوية الذين لا يتجاوز عددهم خمسة آلاف في كل العراق ، وعرفت الكثير عن عقائدهم وعاداتهم وطقوسهم الذهبية وحفلاتهم الدينية ، ثم عقدت أواصر الصداقة بينها وبين زعمائهم فاستطاعت أن تطلع على كتبهم القديمة النادرة التي لم يتيسر لأحد العلماء الاطلاع عليها من قبل لشدة حرص أصحابها عليها واحتفاظهم بها جيلا بعد جيل . والفصول التي كتبتها المسز دروور عن المانوية قيمة حقاً ، ولا نغالى إذا قلنا إنها نور جديد ألقته المؤلفة الفاضلة على هذا الدين القديم لا نكاد نجد مثله فيما كتبه ابن حزم أو الشهرستاني أو البيروني أو ابن نباتة أو اليعقوبي أو غيرهم من مؤرخي المسلمين — بل لا نغالى أيضاً إذا فضلناه على ما كتبه العلامة بيرون في كتابه A Literary History of Persia عن المانوية — والكتاب خليق بأكثر من هذه الشذرة وسنعود إليه

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾

6 me Année, No . 239

Lundi - 31 - 1 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للأداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العــدد ٢٣٩ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٩ ذي القعدة سنة ١٣٥٦ — ٣١ يناير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

من مشاهد المهرجان

كنت أمشي في شارع إبراهيم عصر يوم الأحد الرابع من أيام الزفاف الملكي السعيد ، ونظري وفكري يتبعان فلول الزوار وهم يسيرون زُمراً في باحة الطريق يلقون أنظارهم الطائرة على بقايا الزينة من أقواس وأعلام ، وينفقون قروشهم الأخيرة في مغريات النفس من شراب وطعام ؛ وكان الملايين الثلاثة الذين ساهموا بآمالهم وأموالهم في زفاف الفاروق قد انتشروا في ميادين القاهرة وفنادقها وحدائقها ثم تركوها أشبه بمروج الربيع نفشت فيها قطعان الشاء فجعلتها كالصريم ؛ ولكن هذه الأفواه الفرحة التي لم تفتر عن الضحك والهتاف ، أو عن المضغ والارتشاف ، قد أفعمت جيوب القاهرة مالاً وغمرت جنوبها بهجة . فكان منظر هذه الشراذم المتخلفة وهم يودعون مجالي العُرس والأنس يبعث في النفوس شعور الأسف على انقضاء فترة من فترات الجنة اجتمعت فيها القلوب على السرور المصفى والوداد المحض

كنت أقول لنفسي وأنا أسير الهوينى في غمر من الصفاء استفاض على أوجه الناس حتى شاع حولهم في النسيم وشعَّ فوقهم في الأفق : متى يتاح لسلائل الطين أن ينزعوا من صدورهم الجشع والأثرة فيعيشوا كما عاشوا في هذه الأيام حُشْداً على الخير عكفاً على الجمال خلَّصاً على المودة ، ولهم على الله هواء يفعم كل رئة ،

وغذاء يتخم كل معدة ، ورخاء يعمر كل قلب ؟

ليت شعرى أعجز ابن آدمَ ومعينه نور قلبه ووحى ربه وهدى عقله أن يجعل دنياه الفانيــة كرياض الطير مسارح للشدو ومجالىَ للبهجة ومشارع للحب ، فيعيش على فضل الله كما تعيش الطير تغدو خِماصاً وتروح بطاناً وتغفو أوامن ؟ إن بقاء النفس أو القوت ، و بقاء الجنس أو الأنثى ، هما الأصلان لكل غاية ، والمصدران لـكل عمل ، فهل أعيا على شريعة الخالق وفلسفة المخلوق أن تهذبا هاتين الغريزتين فتقطعا أسباب الشر وتقلعا أصول الجريمة ؟

ألا ... ولـكننى شعرت فجأة بجسمى الطليق الهائم ينحصر فى زحمة ضاغطة من السواعد والأكتاف ، فاطَّلعت فرأيتنى أضطرب فى سـيل دافق من الأخلاط والطوائف يموج بعضهم فى بعض، ويهدرون بذكر الله هديراً طغى على كل صوت وغطى على كل حركة . كان ذلك موكب الطرق الصوفية تجمَّعت ألوفه من جوانب القطر ليرفعوا إلى ملـكهم الصالح فاروق تهنئات الطريقة . لم أستطع الخلوص إلى طوار الشارع من شدة الزحام ، ولم أطق السير لا إلى الخلف ولا إلى الأمام ، فتركت نفسى إلى تدافع الموكب أرسب فى لججه وأطفو على أمواجه حتى انصبَّ فى ساحة عابدين . وهناك رأيت على حواشى الميدان صفوفاً متراصة من الناس يحجزها عن الموكب الذاكر سلسلة من الجنود والشُرُط ؛ و وجدت نفسى تحت البنود الخفاقة و بين الفرق الدفاقة أمام الشرفة الغربية من قصر المليك ، وقد شرِقَت من حولى الساحة على رحبها بالطوائف المختلفة الإشارات والشارات والأناشيد ، تملأ السماء بالأنغام ، وتجلل الأرض بالأعلام ، وتجعل من الميدان غابة من شجر الزان تسقسق تحت أفيائها الوريفة أسراب من الطيور الغريبة

أدركتِ القوم حال من حميا الوجد فترنحوا مهللين ومنشدين ، واختلطت على غير نظام ولا انسجام هتفات الناس ونقرات الدفوف وصدحات الناى ، فما كنت تسمع إلا لجباً لا يتبين فيه نشيد ولا يتميز به نغم . ثم قرَّت فورة القوم حين تنقَّل على أفواه المريدين أن جلالة الفاروق سيشرق عليهم ، فخشعت الأصوات وسكنت الحركات واتجهت النظرات إلى الشرفة الملـكية يرقبون منها طلعة المحيا الأبلج الموموق ؛ ولـكن الشرفة ظلت فى سدْلها القرمزى المتوّج كأنها شفق الفجر يبشر بالحياة والنور والبهجة قبل أن تهصر الطبيعة ستائرها الوردية عن خِدْر الشمس . فلما طال الانتظار عاد النقباء والخلفـاء يرتبون ما يقول الأتباع عند تجلى المليك :

—لا ينبغى أن نصفق كما يصفق الأفندية — لا يجوز أن نهتف كما يهتف العامة — قولوا فى صوت واحد : الله ! الله ! — بل قولوا : الله أكبر ! — ولم لا نقول: عاش الملك الصالح ! عاش أمير المؤمنين ؟

— هذه الجهة تهتف بهذا ثلاثاً ، ثم تسكت فتهتف الجهة الأخرى : ليحى حامى الإسلام

— أرى أن يهتف المرغنية : عاش ملك مصر والسودان ، ويهتف النقشبندية : عاش خليفة الرحمن ، ويقول الرفاعية ...

— لا لا . هذه كلها هتفات لا تزكو بأهل التصوف . اتفقوا على دعاء واحد تجأرون به إلى الله أن يحفظ عبده الفاروق لإعلاء كلمته وإعزاز دينه

وأخذت كل طائفة تروض ألسنتها على النـداء والدعاء وأعينها شواخص إلى شرفات القصر ونوافذه

لعل الملك يخرج من هذا الباب يا فرحات ! أظنه يطل من هذا الشباك يا مسعود ! ربمـا يخرج إلى الميدان مع المشايخ فيعرض (الأشاير)

ثم انعقدت الألسنة وعُلقت الأنفاس واتجهتِ الأنظار بجاذب خفى إلى الشرفة . وهنالك تجلى ملك الناس للناس !! فهل رأيت البحر إذا مار به الإعصار ، أو الغابة إذا رجفت بهـا العاصفة ؟ لقد أصيب القوم بمـا أصيب به الـكليم يوم الجبل ، فوقعوا فى بُحْران من الحماسة السَّكرى لا يملـكون غير حناجر تصيح ، وشفاه تدمدم ، وأذرع تلوِّح ، وأكفٍ تصفق

تلك حال القروى الذى زعموا أنه بات ليلة القدر سهران يقلب طرفه فى النجوم يرصد (الطاقة) أن تنفتح فيطلب الى الله الغنَى والعمر ؛ فلما جاءت الساعة المرقوبة وانشقت السماء عن كوة من النور تلتهب التهاب البوتقة ، التمس لسانه فلم يجده ، فانطلق يعوى عواء الذئب حتى ثاب الى نفسه فارتد من العواء إلى البكاء .

وجلال الفاروق قبس من جلالة السماء ، وفيض من قداسة الأنبياء ، فهل تقوى على بَهَره عين ، وهل يثبت على سحره فؤاد ؟

احمد حسن الزيات

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ٨ —

... ومضيت أعود ليلى مرة ثانية ، بعد أن قبّلت الصورة التى أدفع بهـا وحشة الليل فى بغداد ، وبعد أن قرأت الرسائل المعطرة التى وردت من مدينة ... وكذلك أعددت قلبي للرفق واللطف ، وأنا في عالم الطب كالبلبل فى عالم الأغاريد ، لا أطرب إلا بعد مناجاة الأحلام ، ولا يطرب إلا بعد أن تضوع من حوله أرواح الأزهار . فهل تعرف معنى ذلك تلك الانسانة التى بلغ بها العناد أن تصرح بأنها لن تفتضح في حبي إلا يوم يظهر أنهـا دفعتنى إلى الخلود ؟ رباه ! ماأصعب تكاليف الخلود ! ولـكن كيف ألقى ليلاى ؟

إننى أخافها أشد الخوف ؛ فقـد بدت لى فى المرة الماضية على جانب من الوعورة ، ولا يبعد عندى أن تكون حمقاء ، فان الجمال يورث أهله بعض خصال النزق والطيش ؛ وأنا والله على استعداد لمقابلة الشر بالشر ، فان رمتنى بالحمق رميتها بالجنون ، ولـكنّ ذلك لا يقع بدون جزاء ، فقد تفسد العلائق بين مصر والعراق

فراقك صعب ، سيدى ! كذلك قالت ليلى منذ ليال

فما الذى يمنع من الأدب ؟ وهل كُتب علىّ أن أظل دهرى شقيًّا لا أعرف غير الرجس ؟ مالى لا أجرب الحب العذرى مرة واحدة في حياتى ؟ مالى أحرم قلبي أطايب العفاف ؟ آمنت بالله ! وهل كنت فاسقاً حتى أفوه بمثل هذا القول ؟

إنك يا ربي تعلم كيف ابتدأت وكيف انتهيت . انك يا ربى تعلم أنى أشرف مخلوق سوّته يمناك ، مع استثناء الأنبياء ؛ ولـكنى طبيب جنى عليه الأدب فسار فى بقاع الأرض أنه من الفاسقين

* * *

كيف ألقى ليلى ؟ تلك هى النقطة ، كما يقول لافونتين !

ألقاها بالتجارب التى أفدتها فى باريس ، فقد وردت مدينة النور أول مرة فى سنة ١٩٢٧ وكنت سمعت أنها مدينة تموج بالهوى والفُتون ، فكان أكبر همى أن أعيش فيها عيش المجانين بعد أن عانيت الأمرّين من عيش الجفاف فى شارع الحزاوى وعطفة الجمالية !

ودخلت السربون ، سقاها الغيث وجمل الله لها لسان صدق فى الآخرين ، فكانت عيني لا تقع على الأساتذة ، وإنما كانت تقع على الطالبات ، وهنّ فى دروس الأدب أكثر من الطلاب . والفتيات هناك يفهمن وحى العيون ، وكان يتفق أن تلقانى فتاة بعد المحاضرة فتقول : من فضلك ياسيد ، هل عندك مذكرات عن دروس المسيو شامار ؟ فأجيب : نعم ، ياآنستى ! فتقول : هل تتفضل فتعيرنى إياها لأنسخها ثم أردها إليك ؟ فأقول : وهل لمثلى أن يرفض ما تطلب هاتان العينان ! فتنظر الفتاة إلىّ نظرة سخرية وتنصرف !

وحدث مرة أن قالت لى فتاة ريّا الجسم كأنها من دمياط : هل لك يا سيد أن تتفضل فتعيرنى مذكراتك عن دروس المسيو مورنيه ؟ فقلت : لك ذلك ياآنستى ، ولـكنى لن أعود إلى السوربون إلا بعـد يومين . فهل أستطيع أن أراكِ غداً عندى فى الساعة الخامسة لأقدم إليك المذكرات ؟ فأجابت بالقبول بعد أن استفهمتْ عن اسم الشارع ورقم البيت

وما كاد يجيء الموعد حتى كانت المائدة مجهزة بأطيب ما تعرف فرنسا من ألوان الشراب . ثم مضت ثوان ودقائق وساعات ، ولم تحضر الفتاة ، عليها وعلى أمها اللعنات !

وفى ذات يوم قالت إحدى زميلاتى فى الدرس إنها تجيـد الرقص ، فقلت إنى لاأحسن منه غير « الحنجلة » ، ورجوتها أن تعيننى على إتقان ذلك الفن الجميل ، فأجابت جواباً كله إغراء . ولـكننى اشترطت أن يكون ذلك فى غرفتى حتى لا يعرف أهل باريس أننى رجل « غشيم »

وانتظرت ، ثم انتظرت ، ثم انتظرت ، ولم تحضر الراقصة الحسناء !

ولم تمض أسابيع حتى شاع فى جميع أروقة السوربون أنى فتى ماجن خليع ، فكنت ألقى أطيب التحيات ولا يجيبنى مجيب . والشيطان يشهد أنى كنت فى ذلك العهد أعظم مغفل عرفته باريس

ونظرت فرأيت فتياناً أقل منى فتوّة وجاذبية يعيشون فى

ظلال الحب عيش الملوك ، فعرفت أنهم يحسنون ما لا أحسن من فن الغرام ، وللغرام فنون

ولكن أين أذهب ؟ لقد ضاع حظي في كلية الآداب ، فهل أذهب إلى كلية العلوم؟ وكيف وهي أيضا من السوربون ؟ فلم يبق إلا أن أذهب إلى كلية الطب لأقيم فيها تجارب الحب من جديد ، بعيداً عن جوّ الأراجيف الذى خلقتــه خلقاً بفضل الغفلة والجهل

وكانت فرصة عرفت فيها قيمة الشر في خَلْق الرجال . فلولا الحب ما عرفت كلية الطب ؛ ولولا الطب ما شرفتني الحكومة المصرية بمداواة ليلى المريضة في العراق

أقول إني ذهبت إلى كلية الطب بعد أن صقلتني التجارب ، وبعد أن عرفت أن من العيب أن أخيب في باريس وأنا شاعر سنتريس ؛ فلم تمض أيام حتى كنت في تلك الكلية فتى الفتيان . وبيان ذلك أني كنت أخفي عواطفي كل الإخفاء ، فكنت ألقى الفتاة فلا أحدثها عن عينيها وخديها وشفتيها ونهديها — وما أجمل نهود الفتيات في باريس ! — وإنما كنت أسارع فأتحدث عن حدائق الحيوانات في القاهرة وأقول إنها أجمل ما يعرف العالم من حدائق الحيوان . فإن اعترضت إحدى الفتيات وفضلت حدائق الحيوان في لندن تحمست وقلت إن هذا مستحيل ، لأن مصر هي البلد الوحيد الذى يطيب فيه العيش لأنواع الحيوان !

وما كنت أكتفي بهذا ، بل كنت أخترع أسماء وهمية للباحثين والمفكرين ، فكنت أقول إن بلدنا هو الذى نبغ فيه فلان وهي أسماء تحلّى بها بعد ذلك بعض الناس !

وفي أثناء تلك الأحاديث الوهمية تجول عيناي في أعطاف الفريسة الحسناء ، فإن بدا لها أن تعترض على ما تقول عيناي ، أنكرت ما تقول عيناي : وهل كنت مسئولا عما تقوله عيناي ؟ وما هي لغة العيون ؟ وهل للعيون لغة ؟ إنْ هذا إلا اختلاق !

وما زلت أوغل في المداهنة والنفاق حتى تقدمت إحدى الفتيات وقالت : ما أجمل عينيك يا مسيو مبارك ! فتكلفت الغضب وقلت : أنا أكره المزاح ! فطوقتني بذراعيها وقالت : أنا أحب الشبان العقلاء ! فقلت : وأنا أحب المجانين من الفتيات ! وكانت لحظة ستنصب لها الموازين يوم يقوم الحساب !

***

وفي ظلال هذا الروح الطيب مضيت لعيادة ليلى ، وقد صممت على الخوض في أحاديث لا تتصل بالحب . وما قيمة التجارب إن لم تنفع وأنا في ديار الاغتراب ؟

دخلت على ليلى في ليلة مطيرة غاب فيها القمر وغابت النجوم ، فتفضلت حرسها الله ومدت يديها الناعمتين لماونتي على دَرَج السلالم ، فشعرت كأن خيوطاً من نور تجذبني إلى العِلّية ، وقد تكلفت التعب والضعف لأرى كيف تجذبني تلك الأنامل الرقاق . وكانت لحظة سحرية لا يعرفها إلا من أسدلت عليه الستائر في ليلة قمراء بالقصر الذى يعرفه القلب في الشارع رقم .. بالضاحية ... إحدى ضواحي القاهرة الفيحاء

رباه ! إن القاهرة نعمة من نعمك على عبادك ، فاجعلها عامرة أبد الآبدين ، واجعلها إلى يوم القيامة عروس الشعر والخيال ، بل احفظها واجعلها شقيقة الفردوس يوم يلقى المخلصون جزاء ما يعملون ! رباه ! إن القاهرة هي الشاهد على أن اللغة العربية خليقة بالسيطرة في عالم العلم والمدنية . رباه ! إن القاهرة من أجمل ما خلقت من المدائن فاجعلها كنانتك واحفظها من السوء حتى أعيش فيها عيش السعداء ، وحتى يعيش فيها أبنائي وأحفادي وأحفاد أحفادي عيش النّضرة والنعيم ، على وفاق وسلام مع جميع الأقطار العربية

***

كانت ليلى في زينتها ، وكنت في عقلي !

وكان في نيتي أن أثير الجدل حول « قضية الأخلاق » التي اشتجرت فيها أقلام الحولي وعزام والزيات ؛ وكنت أنوى أن أقرر أن المنافقين ينجحون باسم الأخلاق ، فكيف لا ينجح بها الصادقون ؟ وكنت أحب أن أقول أيضاً إن الثورة على الأخلاق كالثورة على الدين ، فالذين يثورون على الدين لا يبغضونه من حيث جوهره ، وإنما يحاربون الأبالسة الذين يسترون سوآتهم بتكلف الغيرة على الدين . وكذلك يثور على الأخلاق من يؤذيهم أن يغار المنافقون على الأخلاق . وكان من شهوة النفس أن أعلن في حضرة ليلى أن أهل البلادة يسترون تخلفهم بالأخلاق ، فاذا رأوا رجلا قويّ القلب مُشرق العبقرية ، أسرعوا فاتهموه بضعف الأخلاق لينفض الناس من حوله ويخلو لهم الميدان . ومن أجل

هذا كان من النادر أن يمر بهذه الدنيا رجل عظيم بدون أن تطول في تجريحه ألسنة المتخلفين والمنافقين . وهل سلم الأنبياء من ألسنة الناس ؟

كان في نيتي أن أصول وأجول في حضرة ليلى ، فأعظم لذة في الدنيا أن يعذب لسانك ، وتقوى حجتك ، في حضرة امرأة حسناء . والكلام في هذا الموضوع يسهل عليّ بفضل ما أضمت من العمر في دراسة علم النفس وعلم الأخلاق ، وبفضل ما ابتلاني الدهر من معاشرة أهل الرياء

ولكن ليلى ابتدرتني وقالت :

هل قرأت العدد الأخير من مجلة الرسالة ؟

وما كادت شفتاها تفصحان عن هذا السؤال حتى كاد قلبي ينخلع ، فقد تذكرت أنني رجعت عن عزيمتي في طيّ هذه المذكرات وأرسلتها جميعاً إلى الزيات . وهل أخاف ليلى أكثر مما أخاف سعادة الأستاذ محمد العشماوي بك الذي أوصاني بالاعتصام بالعقل يوم سفري إلى العراق ؟ وما وجه الخوف ؟ إن مذكراتي بريئة من العبث ، وأنا أعيش في بغداد عيش النساك ، وإن لم يكن لي فضل في هذا التنسك ، فإن الحفلة التي كرمني بها أدباء بغداد جملتني ممن يشار إليهم بالبنان ، ولم يبق من ميادين الهزل غير تذكر الأحلام القديمة ، أحلام القاهرة وباريس

ثم تشجعت فقلت : ماذا في مجلة الرسالة ؟

فقالت : إن الأستاذ سعيد العريان يتحداك

فبلعت ريقي ، وحمدت الله . وهل يؤذيني أن يتحداني كاتب من الكتاب ؟ يرحم الله الأيام الماضية حين كان الأدباء يتهيبون المرور في طريقي ، وحين كانت مقالاتي في جريدة البلاغ كالسيف المصلت على رقاب الكتاب والشعراء والمؤلفين . يرحم الله الأيام الماضية حين كان أعاظم الرجال يسرهم ويشرفهم أن أهجم عليهم في جريدة البلاغ . ولكن وا أسفاه ! أنا اليوم أعيش في قفصين من الفولاذ . وهل كان الدكتور طه حسين يمزح حين قال : تذكر يا صديقي أنك أصبحت موظفاً في حكومتين ، وأن مركزك دقيق ؟

***

لقد قرأت كلمة الأديب العريان ، ولكن لا بد من التجاهل لتعيدها ليلى على مسمعي ، فإن الهجوم عليّ يعذُب ويطيب حين أسمعه من ليلى . وهل كانت رخامة الصوت إلا عند ليلى ، ليلى التي زعموا أنها مريضة في العراق ، مع أن في صوتها من الحلاوة ما يهد رواسي الجبال ؟

وقرأت ليلى :

« ولقد سرني والله أن تُعنَى وأنت في العراق بدفع تهمة العقوق عن أدباء مصر ؛ وإنها لعاطفة وطنية نبيلة أعرف كل العرفان ما يدفعك إليها وأنت بعيد »

— أعيدي يا ليلى

— ولماذا ؟

— أعيدي يا ليلى ، ففي مصر إنسان يشهد بأني أعرف معنى الوطنية ! وهل كنت في حاجة إلى من يشهد لي بصدق الوطنية ؟ عشنا وشُفْنا !

— ولكنه يتهمك بعد ذلك بمصانعة أهل العراق !

— أنا أصانع أهل العراق ؟ وهل صانعت أهل مصر حتى أصانع أهل العراق ؟ لقد جنت عليّ الشجاعة ما جنت فلم أتهيب ولم أتوجع ، وتركت الجبناء يتمتعون بمناصب كنت بها أحق ، فكيف جاز لأديب مصري أن يتهمني بالمصانعة في معاملة أهل العراق ؟

إسمعي يا ليلى . إن هذا الأديب نسي أن مجلة « الرسالة » لها في العراق قراء يعدون بالألوف ، ونسي أن كلمته قد تؤذيني ، وهذا الأديب الطيب القلب نسي أيضاً أن أهل العراق لن ينتظروا شهادته في عبقرية زكي مبارك ، ونسي كذلك أنني لا أحتاج إلى أسناد يتفضل بها كاتب يجهل الرافعي إمام الأدباء . فأنا أعيش في مصر والعراق بفضل الله وبفضل عزيمتي ، وإن كنت لا أنكر أن في مصر إخواناً كراماً يحملون سيرتي مسك الختام في كل حديث

إسمعي يا ليلى . إن أدباء مصر لا يعرفون عواقب ما يكتبون . أليس من البلاء أن أنفق أوقات الفراغ في الدفاع عن مصر والمصريين ؟ أليس من البلاء أن يكون من واجبي أن أتنقل في الأندية والمجتمعات لأصحح الأغلاط التي ارتكبها الكتاب المصريون ؟ إن مصر ليس لها مطامع في العراق ، ولكن ما الموجب لحرمان مصر من مودة أهل العراق ؟ إن العراقيين يروننا إخوانهم

أهلاً وسهلاً ! فبأى حق يستبيح ناس فى مصر أن يفوهوا بكلمات ينفر منها أدباء العراق ؟

إن مصر تنفق ألوف الدنانير لتؤسس صداقات ومودات فى الأقطار الأوربية والأمريكية ، فكيف يغيب عنها أن تنفق الكلمات الطيبات لتؤيد ما يربطها من العلائق بالأقطار العربية ؟

هل يعلم أدباء مصر — ولا سيما أعدائى — أنى أدفع عنهم السوء فى العراق ؟

إسمى يا ليلى . إن أهل بلدكم يقولون إن زكى مبارك لا يزال يحافظ على مصريته . وهذا حق ، ولكننى أتشبث بمصر فى سبيل اللغة العربية ، فاللغة العربية هى الرباط الوثيق الذى سيكون فى المستقبل أساس ما سيعرف الشرق العربى من قوة البنيان

***

وكنت وصلت إلى حد من التأثر انزعجت له ليلى . فقالت : هوّن عليك يا صديق !

فنظرت إليها نظرة الطفل المكروب إلى أمه الرءوم ثم قلت : ليلى ، إنها سنة واحدة أقضيها فى العراق !

فقالت وهى تتنهد : ستبقى عندنا طول حياتك .

فأجبت : على شرط أن تعفونى من هفوات الكتاب المصريين الذين أحمل جرائرهم صباح مساء

فقالت ليلى : وعلى شرط أن تنسى مصر الجديدة والزمالك !

فقلت : ذلك إليك يا ليلى !

فصوبت إلى عينين عاتبتين ، فعرفت أنها تبغض التشبيب

ما أجمل ليلى حين تعتب بعينيها ! إن ليلى جميلة يا بنى آدم ، وإنها لخليقة بأن تنسينى من فى مصر الجديدة ومن فى الزمالك ، إن جاز لقلب مثل قلبى أن يعرف العقوق

— ليلى !

— نعم يا مولاى !

— ليلاى !

— لست ليلاك !

— معذرة يا ليلى ، فأنا طبيب جنى عليه الأدب . وهذه عبارة شعرية سبقت إلى اللسان

— ماذا تريد أن تقول ؟

— أريد أن أقول ... أريد أن أقول إنى سأعيش فى بلدكم سنة واحدة ، أعنى أننى سأفارقك بعد أشهر معدودات

— هذا وعيد ؟

— لن أعيش فى بلدكم إلا إذا عينتنى الحكومة المصرية واعظاً فى بغداد

— واعظ ؟ ما هذا الكلام ؟ هل جننت ؟

(وقد انتشيت من هذه العبارة لأن المرأة الجميلة لا تصف الرجل بالجنون إلا إذا ارتفع بينه وبينها التكليف)

— ما جننت ، وإنما أقول إن المصريين والعراقيين يحتاجون إلى من يرعى العلائق بين البلدين فلا ينشر خبر فى جرائد العراق عن مصر ، ولا ينشر خبر فى جرائد مصر عن العراق ، إلا بعد أن يمر على رجل حكيم يفهم عواقب ما تنشر الجرائد والمجلات

— وأنت ذلك الرجل الحكيم ؟ آمنت بالله !

— إسمى يا ليلى . إن المحررين فى الصحف يحتاجون إلى لجام من العقل والذوق

— دع هذا ، وحدثنى عما تعرف من أسرار ليلى المريضة فى لبنان

— تريدين (فلانة) التى قيل إنها كانت تحب الرافعى ؟

— نعم ! وهذه أهم نقطة تعنينى فى كلمة الأديب العريان

— وأنا أريد أن أمن على مصر وأدباء مصر فأقول إنى قضيت فى بغداد سنة كسبت لوطنى فيها ألوفا من الأصدقاء

— أنت تمن على وطنك ، والمن على الوطن لا يليق بكرام الرجال

— وماذا أصنع إذا كان وطنى لا يعرف غير من يمنون عليه ؟ ! وهل يعرف وطنى أنى أكتب فى كل أسبوع أكثر من تسعين صفحة وأشتغل أكثر من سبع عشرة ساعة فى كل يوم ؟ هل يعرف وطنى أنى أهتم بالمصريين المقيمين فى العراق أكثر مما أهتم بنفسى ؟ هل يعرف وطنى أنى أزور كلية الحقوق مرتين فى كل يوم لأطمئن على صحة الدكاترة عزمى وفهمى وسيف ؟

— ومن هؤلاء ؟

— هم أساتذة فى القانون لا فى الطب ، وهم من أبناء القرن التاسع عشر

« وكانت غلطة فظيعة ، فإنه لا ينبغى أن تعرف ليلى من

المصريين أحداً سواى »

— حدثنى عن ليلى المريضة فى لبنان

— كانت ليلى المريضة في لبنان زميلتى فى الدرس يوم كنا طالبين فى الجامعة المصرية ؛ وكنت أتقرب إلى قلبها باغتياب الأساتذة ، فأزعم أن الكونت دى جلارزا لا يفهم الفلسفة ، وأن الشيخ المهدى لا يعرف أسرار الأدب ، وأن الشيخ الخضرى لا يدرك حقائق التاريخ ، وأن اسماعيل بك رأفت يجهل الجغرافيا ووصف الشعوب !

— يظهر أنها طالبة شقية !

— كانت أشقى من ليلى المريضة في دمياط

— أنا لا يهمنى إلا الوقوف على أسرار ليلى المريضة فى لبنان

— إنتظرى ، إنتظرى ، إن الله مع الصابرين

« للحديث بقية وبقية » زكى مبارك

ظفر المكيافيلية

و إلام يدفع العالم هذا الظفر ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لما وضع المؤرخ والفيلسوف السياسي نيكولو ما كيافلى ، كتابه « الأمير » فى سنة ١٥١٣ متضمناً لمذهبه المشهور فى الحكم والسياسة ، لم يكن يتوقع أن يغدو كتابه بعد أربعة قرون إنجيلاً لنوع جديد من الحكم يحاول اليوم أن يفرض مبادئه على العالم ، ولم يكن يتوقع بالأخص أن تغدو آراؤه السياسية نبراساً لإيطاليا الجديدة يدفعها إلى طريق السلطان والقوة ، أو يتصور أن هذه الآراء قد تغدو يوماً مثار حرب عالية طاحنة بين المبادئ السياسية والاجتماعية الخصيمة . ذلك أن مكيافيلى كتب كتابه فى عصر كانت إيطاليا تنقسم فيه إلى عدة جمهوريات وإمارات صغيرة ، يتنافس ويقاتل بعضها بعضاً ، وتتقلب إماراتها ورياساتها بين عصبة من الزعماء والمتغلبين ؛ واستوحى معظم آرائه من دراسته لأحوال هذه الدويلات الصغيرة ، وهذا الرهط من الأمراء المتنازعين ، واتخذ أميره الأمثل من رجال من طراز هذا العصر شقوا طريقهم إلى السلطان والملك بوسائل مثيرة من العنف والخيانة والغدر ؛ وكان أقصى أمانيه حينما وضع « الأمير » ، وأهداه إلى أميره وحاميه لورنزو دى مديتشى أمير فلورنس ، أن يكون كتابه مرشداً لأمراء عصره فى تفهم أساليب الحكم التى تلائم روح العصر ، وتلائم مطامع الزعامات المحلية التى كانت تضطرم يومئذ فى دائرة محدودة ، قوامها عدة من الولايات والمدن الإيطالية .

كانت المكيافيلية إذن شعار عصر خاص ومجتمع خاص ؛ وكان طابعها القاتم ، وما انطوت عليه من المبادئ المنيفة التى لا ضمير لها ولا وازع ، والتى تغاضت عن كل المثل الإنسانية والأخلاقية ، يسبغ عليها دائماً فى نظر المجتمعات الرفيعة لوناً من الشذوذ البغيض الذى تأباه السياسة المستنيرة . ومن ثم كانت الفلسفة المكيافيلية على كر العصور مضرب الأمثال للسياسة البغيضة .

وليس من موضوعنا أن نتبسط فى شرح المكيافيلية وأصولها ، ولكنا نورد من أقوال واضعها هاتين الفقرتين اللتين تتضمنان لب النظرية المكيافيلية فى الحكم والسياسة :

١ — « لا يستطيع الأمير العاقل وليس عليه أن يحفظ العهد ؛ إذا كان مثل هذا الوفاء قد ينقلب ضده ، وإذا زالت الأسباب التى حملته على قطعه

٢ — « ليس من الضرورى أن يتصف الأمير بالخلال الحسنة التى ذكرتها ، ولكن من الضرورى أن يبدو كأنه متصف بها .. ولا يستطيع الأمير ، ولا سيما الأمير الجديد ، أن يراعى كل الأمور التى يقدر الناس من أجلها لأنه كثيراً ما يرغم لكى يحفظ الدولة على أن يتصرف بغير ما يقضى به الإخلاص والصداقة والإنسانية والدين ، وإذاً فمن الضرورى أن يكون ذهنه متأهباً للعمل وفقاً لتقلب الريح والجدود »

هذا هو لب النظرية المكيافيلية فى الحكم . ويكفى أن نقرأ كلمة « الدولة » مكان كلمة « الأمير » لنسبغ على هذه النظرية طابعها الحديث ؛ وفى التاريخ كثير من الأمراء والطغاة الذين حكموا قبل مكيافيلى بنفس الروح والوسائل التى نادى بها مكيافيلى ، وفيه كثير من الأمراء والساسة المحدثين الذين

أعجبوا بمبادئ مكيافيلي وطبقوها في عصور تعتبر فيها هذه المبادئ من ألوان الغدر السياسي والاجتماعي الذي يصم الدولة المتمدنة ؛ وما زالت المكيافيلية إلى يومنا محكوماً عليها ، وما زالت تعبر دائماً منافية لجميع المبادئ الحرة والإنسانية التي تقوم عليها المدنية الحديثة

على أن هذه الحقيقة التاريخية القديمة تختفي اليوم شيئاً فشيئاً ؛ فلم تعد المكيافيللية في عصرنا فلسفة سياسية منبوذة ، ولكنها تغدو بالعكس حقيقة واقعة تطبقها وتؤمن بها دول عظيمة . ذلك أن الفاشستية الإيطالية والأنظمة الطاغية المماثلة الأخرى تقوم في جوهرها على الفلسفة المكيافيلية ؛ وقد أسبغت وسائلها وأساليبها على نظريات فليافيلي شرعية جديدة ، وغدت هذه النظريات اليوم أساساً لنوع جديد من الحكم والسياسة تقوم عليه عدة دول قوية جديدة ؛ ففي إيطاليا وألمانيا وروسيا نجد نظريات مكيافلي اليوم ميداناً شاسعاً لتطبيقها

* * *

وقد تناول هذا الموضوع الخطير أخيراً كاتب ومؤرخ فرنسي كبير هو مسيو لوي دي فيلفوس L. de Villefosse ، في كتاب قيم عنوانه « نحن ومكيافيلي Machiavei et Nous » درس فيه حياة الفيلسوف دراسة وافية ، وانتقل منها إلى عصر التطبيق ، فذكر أن الفاشستية هي أعظم تجربة مكيافيلية عرفها التاريخ ، وأن فكرة السنيور موسوليني في توحيد الشعب هي فكرة مكيافيلية محضة . « أن تكون الدولة (وفي لغة مكيافيلي الأمير) كل شيء والفرد لا شيء ، وأن تكون الدولة مصدر كل السلطات والقوانين ، وأن تطرح كل اعتبار أخلاق في تحري غاياتها » هذا هو شعار الفاشستية ، كما يعرفها الأستاذ دي فيلفوس ، وهذا هو شعار الدول الطاغية الأخرى التي تقوم على أصولها ؛ وهذه هي نفس الرسالة التي بشر بها الفيلسوف الإيطالي في كتابه « الأمير »

وكما أن الفاشستية تقوم من الوجهة العلمية على أسس المكيافيلية فهي أيضاً تؤثر لغتها وأساليبها الدبلوماسية ؛ فزعيم الدولة الإيطالية يستعمل اليوم نفس الوضوح الجاف ، والصراحة المثيرة ، في تمجيد وسائل العنف وأساليب القوة الهمجية ، ويبدي نفس الاغتباط في تمزيق جميع المثل العاطفية ، ويتقدم إلى العالم باسم الدولة وضرورة قيامها على أنقاض جميع العناصر والاعتبارات الانسانية ، وبأنها مصدر الحق ومجمع القوى ؛ ثم هو يرجع مثله الأعلى إلى نفس الكعبة المقدسة التي مجدها مكيافيلي ، وهي « رومة » وعظمتها الخالدة

فالفاشستية هي إذن ذروة النجاح العملي في تطبيق الفلسفة المكيافيلية ؛ وإذا كانت المكيافيلية قد استطاعت من عصر إلى آخر ، وفي بعض الظروف والمناسبات أن تحقق لمحات من الظفر ، فإنها اليوم على يد الفاشستية تحقق ظفرها كاملا . وخلاصة شعارها الظافر الذي نادت به منذ أربعة قرون هو شعار الدول الفاشستية المعاصرة ، وهو أن النصر الحقيقي إنما هو للقوى المسلحة والوسائل المدمرة ، وإن كل سياسة لا تقوم على الحقائق العملية مصيرها إلى الفشل المحقق ، وإنه لاحق للضعيف والأعزل في البقاء ، ولا وجود لمثل أو مبادئ مثلى لا تدعمها القوة المادية

بل ويرى الأستاذ فيلفوس أن ظفر المكيافيلية لم يقف عند هذا الحد ؛ ذلك أن هذا الظفر يشمل ميادين لم تكن تصلح بطبيعتها ولا بمبادئها لاعتناق المكيافيلية وتطبيقها وهي الدول الديموقراطية ؛ ولكن الدول الديموقراطية ترى نفسها اليوم مضطرة إلى أن تتحوط لخطر الدول الفاشستية المدججة بالسلاح ، وأن تقابل القوة بالقوة محافظة على سلامتها وكيانها ، فهي بذلك مضطرة إلى أن تقتبس نوعاً من المكيافيلية التي لا ترغبها ولا تؤمن بها ، وهذه هي حقيقة محزنة ، ولكنها حقيقة لا ريب فيها

* * *

هذه هي خلاصة الحقائق التاريخية الجديدة التي يبسطها الكاتب الفرنسي في مؤلفه بسطاً قوياً شائقاً ؛ ونقول إنها حقائق تاريخية لا تعوزها الأدلة الواقعية . وماذا تكون المكيافيلية إذا لم تكن هي نفس النظم التي تطبق اليوم بمنتهى العنف والصرامة في إيطاليا الفاشستية ، وألمانيا النازية ، وروسيا البلشفية ؟ إن هذه النظم جميعاً تقوم على نوع من الزعامة الممعنة في الطغيان والاستئثار بكل السلطات ، وهذه الزعامة ذاتها تستتر وراء فكرة الدولة ؛ ولم يبق للفرد اليوم وجود في ظل هذه النظم المطلقة ، ولم

يبق له شيء من الحقوق أو الحريات العامة ، فهـذه كلها تفيض وتنمحي في شخص الدولة ؛ والدولة أو أولئك الذين يعملون باسمها يضمون أيديهم على مصاير الأمة أرواحها وعقولها وجسومها وكل ماملكته أيديهم ، ويتخذون من التشريع المدعم بالقوة القاهرة سلاحاً لفرض كل تجاريبهم الإصلاحية على الشعب ، ويزعمون أن مناهجهم الإصلاحية هي السبيل القويم لتحقيق عظمة الأمة وخير الشعب ؛ وقد يعتمدون في هذا السلطان فضلاً عن قوة الجيش العامة على صفوف حزبية كثيفة من الشباب المسلح المدرب على أساليب العنف ؛ وتسيطر هـذه التجارب والمحاولات الإصلاحية على حياة الفرد الخاصة فضلاً عن الحياة العامة ، فترسم له خطط أعماله وتفكيره واعتقاده واتجاهاته وتصرفاته كلها دون أن تكون له إرادة الاختيار أو المعارضة ، وتجرى هذه المحاولات جميعاً باسم الدولة التي تقبض عليها الزعامة المتربعة في دست الحـكم

وهذه الزعامة المطلقة العاملة باسم الدولة هي بعينها « أمير » مكيافيلي ، واستتارها وراء فكرة الدولة إنما هو نوع من النفاق السياسي الذي أوصى به مكيافيلي

وكما أن المـكيافيلية تبدو واضحة في خطط السياسة الداخلية لهذه الدول المطلقة ، فهي تبدو واضحة أيضاً في السياسة الدولية الخطرة التي تجرى عليها هذه الدول في تنظيم علائقها مع الدول الأخرى ؛ فالقوة في نظرها هي أساس الحق والعهود ، والمواثيق الدولية لاقيمة لها في نظرها مادامت لاتتفق مع مصالحها ومراميها . وهذه هي الصورة الحديثة لمبدأ مكيافيلي في قوله : « إن الأمير كثيراً ما يرغم لحفظ الدولة على أن يتصرف بغير ما يقضى به الإخلاص والصداقة والانسانية والدين » ولقـد رأينا إحدى الدول العظمى تلغى ما بقى من تعهداتها في معاهدة الصلح ، وتنكر ما وقعته من مواثيق دولية لصون السلام بحجة أن هذه النصوص والعهود تصطدم مع مصالحها الوطنية ولم يبق اليوم مبرر لبقائها بعد أن تغيرت الظروف التي أبرمت فيها ، ولم تفعل ذلك إلا بعد أن آنست من نفسها قوة تدعم بهـا خطوتها . بيد أن الروح المـكيافيلية تبدو بنوع خاص في اعتداءات بعض الدول القوية على الدول الضعيفة وغزوها أو استعمارها ، وقد كان غزو الفاشستية للحبشة والاستيلاء عليها بلا ريب أسطع المغامرات المـكيافيلية في عصرنا ، فقـد انهكت فيه جميع المعاهدات التي عقدت والمواثيق التي قطعت باحترام سلامة الحبشة واستقلالها، ولم تخف الفاشستية أنها أقدمت على هذه الخطوة الجريئة تحقيقاً لمطامعها الامبراطورية

وها نحن أولاء اليوم نشهد نفس التجربة المحزنة في أسبانيا وفي الصين

فإلى أي مصير يسير العالم في ظل هذه المبادئ العنيفة الخطرة ؟ يقول لنا مؤلف كتاب « نحن ومكيافيلي » إن مدى الشر الانساني لم ينقص وإن العناصر السيئة في الأفراد تجمع من جديد لتطلق بعد ذلك من عقالها في أعمال العنف والشر ، وأنها قد تدفع العالم إلى كارثة أفظع وأروع من كارثة الحرب الـكبرى

ونخشى أن يكون في ظواهر العصر وتطورات السياسة كثير مما يدعم هذا التكهن المروع

محمد عبد الله عنان

التنويم المغناطيسى

وقراءة الأفكار فى القديم

لأستاذ جليل

هذ التنويم المغناطيسى قديم ، وقد عرفته الحضارة العربية يوم كانت ، وقيدته بالكتاب ، وأثبته بعضهم فى مجلة العجائب وجريدة ماوراء الطبيعة ، وحاول العلماء تعليله وتفسيره فعجزت ذرائع علمهم فى ذلك الوقت عما حاولوا . وهل اهتدى اليه علم الغربيين إلا منذ حين ؟

وأول من ذكر التنويم المغناطيسى فى العربية — وان لم يسمه باسمه — هو (أوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن على بن ملكا البلدي[1]) فى كتابه (المعتبر) منذ أكثر من (٨٠٠) سنة

قال الوزير جمال الدين يوسف القفطى فى كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) : « هبة الله بن ملكا[2] أوحد الزمان طبيب فاضل عالم بعلوم الأوائل ، وقريب العهد بمن زماننا . كان فى وسط المئة السادسة ، وكان موفق المعالجة لطيف الإشارة . وقف على كتب المتقدمين والمتأخرين فى هذا الشان واعتبرها واختبرها ، فلما صفت لديه وانتهى أمرها إليه صنف فيها كتاباً سماه (المعتبر) أخلاه من النوع الرياضى وأتى فيه بالمنطق والطبيعى والإلهي فجاءت عبارته فصيحة ، ومقاصده فى تلك الطريق صحيحة . وهو أحسن كتاب صنف فى هذا الشان »

وقال ابن اصيبعة فى (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) : « أبو البركات هبة الله بن على بن ملكا كان فى خدمة المستنجد بالله (العباسى) وكان له اهتمام بالغ بالعلوم وفطرة فائقة فيها ، وله من الكتب كتاب (المعتبر) وهو من أجلّ كتبه وأشهرها فى الحكمة »

وهذه قصة ذاك التنويم كما حدّث أبو البركات :

(١) نسبة إلى (بلد) وهى من مدن العراق

(٢) هنا وفى شرح النهج ابن ملكا وفى عيون الأنباء والوفيات ابن على ابن ملكا . وفى الوفيات ملكان

« والمرأة العمياء التى رأيناها ببغداد ، وتكررت مشاهدتنا لها منذ مدة مديدة قدرُها ما يقارب ثلاثين سنة ، وهى على ذلك إلى الآن تُعرض عليها الخبايا فتدل عليها بأنواعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها دقيقها وجليلها ؛ تجيب على أثر السؤال من غير توقف ولا استعانة بشىء من الأشياء ، إلا انها كانت تلتمس أن يرى أبوها (المرء) الذى يسأل أو يسمعه ، فيتصور الدهاء أن الذى تقوله باشارة من أبيها ، وكان الذى تقوله يبلغ من الكثرة إلى ما يزيد على عشرين كلمة ، وإنما كان أبوها يقول إذا رأى ما يراه من أشياء كثيرة مختلفة الأشكال والأنواع في مرة واحدة كلمة واحدة ، وأقصاه كلمتان ، وهى التى يكررها في كل قول ، ومع كل من يسمع ويرى : (سلْها ، وسلها تخبرك ، أو قولى له ، أو قولى يا صغيرة) وقد عاندته يوماً وحاققته فى ألاّ يتكلم ألبتة ، وأريته عدة أشياء ، فقال لفظة واحدة ، فقلت له : الشرط أملك . فاغتاظ ، قال : ومثلك يظن أنى أشرت إلى هذا كله بهذه اللفظة . واسمع الآن ، ثم التفت إليها وأخذ يشير بأصبعه إلى شىء وهو يقول تلك الكلمة ، وهى تقول : هذا كذا ، وهذا كذا ، على الاتصال من غير توقف ، وهو يقول تلك الكلمة لازيادة عليها ، وهى لفظة واحدة بلحن واحد ، وهيئة واحدة حتى ضجرنا ، واشتد تعجبنا ورأينا أن هذه الإشارة لو كانت تتضمن هذه الأشياء لكانت أعجب من كل ما تقوله العمياء . ومن عجيب ما شاهدنا من أمرها أن أباها كان يغلط فى شىء يعتقده على خلاف ما هو به ، فتخبر هى عنه على معتقداتها كأن نفسها هى نفسه . ورأيناها تقول ما لا يعلمه أبوها من خبيئة فى الخبيئة التى اطلع عليها أبوها . وهذا أعجب وأعجب ، وحكاياتها أكثر من أن تعد . وما زلت أقول إن من يأتى بعدنا لا يصدق ما رأيناه منها »

وقد أورد ابن أبي الحديد خبر (العمياء) هذه فى بحثه عن المغيبات فى شرح (النهج) وقال قبل روايته : « وقد يقع الاخبار عن الغيوب بواسطة اعلام إنسان آخر ذلك الغيب ، لنفسه بنفس المخبر اتحادا وكالاتحاد ، وذلك كما يحكى أبو البركات بن ملكا الطبيب فى كتاب المعتبر » :

وعدّ الرازى تلك العمياء (كاهنة) فقال فى تفسيره (مفاتيح

الغيب) : « الكاهنة البغدادية التى نقلها السلطان سنجر بن ملك شاه من بغداد إلى خراسان وسألها عن الأحوال الآتية فى المستقبل ذكرت أشياء ثم انها وقعت على وَفق كلامها .

وأنا قد رأيت أناساً محققين فى علوم الكلام والحكمة حكوا عنها أنها أخبرت عن الأشياء الغائبة أخباراً على سبيل التفصيل وجاءت تلك الوقائع على وفق خبرها . وبالغ أبو البركات فى كتاب (المعتبر) فى شرح حالها ، وقال لقد تفحصت عن حالها مدة ثلاثين سنة حتى تيقنت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخباراً مطابقاً »

وليست (العمياء) بكاهنة [1] ، وليس الذى تقوله من أنباء الغيب ، وما ذلك إلا (التنويم المغناطيسى) الذى عرفناه فى هذا الزمان ، وهو اليوم حرفة محترفين ، ومصيدة متصيدين . .

***

روى المقريزي فى (عقوده) هذا الخبر ونقله السخاوى فى (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) :

« كان أحمد بن عبد الخالق البدر القاهرى إذا كتب له البيت من الشعر أو نحوه فى ورقة لم يرها ودفعت إليه ، ويده من تحت ذيله قرأها ، ويده وثوبه يحولان بين بصره وبين رؤيتها ، إلا أنه كان يمر بيده على المكتوب خاصة فيقرأ ما كتب فى الورقة ، امتحناه بذلك غير مرة ، وشاهدت غيره يفعل مثله أيضاً »

والذى رواه المقريزى إنما هو من (قراءة الأفكار) وهو من ضروب المسمى عند الفرنج (Télépathie) وقد رأينا المنومين يفعلونه كثيراً

وذكر القفطى فى كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) رجلا اسمه (مخرج الضمير) فقال : « هذا رجل اشتهر بهذا الاسم ، وكان يدعى المعجز فى إخراج الضمير ، فانطلق عليه ذلك » ثم روى قصة من قصصه ، و (إخراج الضمير) مثل : (قراءة الفكر) أو هو هى ، والحكايات الصحيحة لبعض المتصوفة في

(١) الكاهن هو الذى يخبر عن الكوائن فى مستقبل الزمان ، ويدعي معرفة الأسرار ، ومطالعة علم الغيب (التعريفات) والكهانة مخرقة والكاهن مشعبذ ، ولابن خلدون بحث عن الكهانة خذله فيه التحقيق

المخاطبة أو المراسلة النفسية (الكهربية) هى من هذا الباب

***

كنت قد أقرأت حديث ذلك التنويم القديم المنومين : الدكتور سلمون والدكتور داهشا) فقالا : هذا هو التنويم المغناطيسى بنفسه ، وسلّم سلمون ودُهش داهش [1] ! وسلمون هذا شاب من دمشق ، وداهش فتى من بيت المقدس ، وهذه الدكتورية وهذه التسمية أو التعمية هى أفنون من أفانين هذا التنويم ... وما أقول ذلك لائماً أو عائباً ، إنى أعلم أن عماهما يقول لهما يا منومان ، يالا عبان ، العبا كما تهويان ، وتسميا وتلقبا بما تريان ...

وكلٌّ فى هذه الدنيا إما منوِّمٌ مستهوٍ وإما منوَّمٌ مستهوًى . وما الأول — يا أخا العرب — إلا مثل الثانى ؛ فالمستهوِى مستهوًى ، والقاهر مقهور ، والمستعبِد عبد ، والحر غير طليق ، وذو الارادة فاقدها ، والكون فى موج القدر

وبصير الأقوام مثلى ، أعمى فهلمو فى حندس نتصادم [2]

بل ليس الناس كلهم أجمعون غادين ورائحين وعاملين ومتناحرين على الرغيف — إلا نائمين منوَّمين ، إلا فى شبه الحالة المسماة عند الفرنج (Somnambolisme وما الانسان إلا النائم السائر [3] Somnambule) « وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود »

مفتحةٌ عيونُهُمُ نيام [4]

وما يشعرون وما يستيقظون إلا وقت الموت . و« الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا [5] » (ن)

(١) داهش فى اللغة خطأ ، دهش الرجل فهو دهش (بفتح الأول وكسر الثانى) ودهش كعنى فهو مدهوش ، وأدهشه فهو مدهش والمفعول مدهش (بضم الأول وفتح ما قبل الآخر) واندهش ومندهش من جماعة داهش

(٢) صاحب اللزوميات (الحندس) الليل الشديد الظلمة ، والحنادس : ثلاث ليال في الشهر لظلمتهن

(٣) النائم السائر هو الذى يمشى ويعمل ويتكلم وهو نائم ، قال معجم لاروس: Somnambule qui marche, agit. parle tout en demeurant dans l'état de sommeil

(٤) المتنبي ، وصدره (أرانب غير أنهم ملوك) وهو من قصيدة فيها هذا البيت وهو تاريخ موجز للحياة :

إذا كان الشباب السكر والشيب (م) هما فالحياة هي الحمام

(٥) حديث ، وفى (المحاسن والمساوى) ابن المعتز : أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام

النار المقدســـة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أنضجت قلبــه النار المقدسة التي أنضجت قبله قلوب رعاة القطيع ... ورواد الطريق، وآباء الإنسانية البلهاء ... فغدا يسير على الدنيا وله فيها زفير وشهيق مكتومان لا يحسهما إلا من يتصل به عن قرب فيفتح له قلبه الكبير الذي فيــه كل آلام الناس، وكل فجائع الناس، وكل مسئوليات الناس ... كأنه أب ذو عيال! وكأنه مسئول عن ذنوب البشر فهو يبخع نفسه أسفاً ويسيل نفسه حسرات.!

سألته مرة: لم تحمل على قلبك الدنيا؟ ولم تجتر آلامها وتمضغ أسقامها، ولست فيها حاكماً ولا شرطياً!؟ فقال: بليت بالنظارة الناقدة إلى العيوب، وبالعجز عن وسائل الإصلاح، فكان لي ما تراه من إدمان المضغ لأحاديث الشقاء وأماني الشفاء!

* * *

مات أبوه فبكت عينه وقلبه ذلك البكاء الرحيم لألم الحب والرحمة والفقد ساعات ... ثم نامت عينــه ونام جسده بجوار جثة أبيه حتى صباح الدفن والضريح كأن شيئاً لم يحدث ... ولكنه لا ينام إذا مات من دينه أو وطنه شيء ... حتى يكاد يجن من الأرق، لولا أن يتداركه الله بالنسيان والسلوى

* * *

ينخل الرجال والأعمال، ويرى ما وراء الوجوه ويقرأ ما بين السطور ... فتروعه عورات الحقيقة العارية في الناس... إذ يرى الجهل والإثم والدجل والخيانة والأنانية والبلاهة ... فيسأل السماء: أهــذه هي الانسانية أثمن وديعة في الأرض حاكمة ومحكومة؟!

مرهفٌ حسُّــه: فيرى كل شيء ويشم كل شيء ويسمع كل شيء حتى امتلأ وأتخمته الدنيا بما فيها؛ فضوى جســده، وتوسعت نفسه على حسابه

استقى لنفسه من الأنهار الكبيرة الجارية، ومن الجداول الصغيرة، ومن البرك الآسنة، وحط على الزهرة والشوكة، والجبل والحصاة والنار والماء ... فاصطرعت فيــه الأضداد.

يعيش في سجن من وصايا الدين والعلم والخلق كأنه (ديدبان) فهو مسجون وسجان ...

متيقظ للزمان ... يعيش كل دقيقة ... ويحسب كل نفس، ويصحب نفسه دائماً حتى أصيب بالذهول عن الناس.

يتكلم مع كل شيء؛ فيقول لكل حق أنت صديق، ولكل باطل أنت عدوى ... لا يؤمن بالذكاء؛ لأنه يدلس ... ولكن يؤمن بالطبع لأنه صريح ...

* * *

يريد أن يعلم الناس كيف يحبون؛ وهم يرونه ميتاً ... فأين الملتقى؟!

يقول لهم: لا تأكلوا الثُّـفل ... والحروف ... والحجارة.. واكتفوا بالعصارة والمعنى والروح؛ فيقولون له: أنت تمضغ ماء وهواء ...!

* * *

يا رحمتاه لمثل هذا ما دام حيًّـا ... فإذا مات فوارحمتاه للناس!

إن هذا وأمثاله هم أعضاء الإنسانية وأوتادها. من أجلهم وجدت على الأرض، وإن نارهم مُوقَدة من القبس الخالد الذي أضيئت به السموات وقام عليه صلاح العالم

يكفي أن أنظر إلى واحد من هؤلاء حتى أهتدي إلى نفسي الضائعة، فأجدها تحت ركام من ضجة الدنيا ... فأقول لها: تعالي وارمضي لفائف صدرك في هذه النار المشبوبة في هــذا الرجل المحترق المضيء وتطهري بها وارجعي إليّ ...

ولقد وجدت واحداً منهم وعشت معه سنتين، رأيت على ضوئه كل شيء في موضعه الحقيقي من الدنيا، فحملني على احترام الإنسان والثقة بما فيه من عالم طاهر مؤنس إذا صُفِّي جوهره من الخبث والشوائب بهذه النار

بل لقد حملني على احتقار أكثر القوالب الإنسانية التي تملأ الأسواق والشوارع ... وجعلني أدور دورة «ديوجين» بمصباحه وأنشد مع القائل:

ما أكثر الناس! لا بل ما أقلهم! الله يعلم أني لم أقل فنــــدا
إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

أو مع المتنبي : « أرى أناساً ومحصولى على غنم ! »

أو مع الآخر :

لا تعجبنكَ الثياب والصور تسعة أعشار من ترى بقر !
فى خشب السرو منهمُ مَثَل له رُواء وما له ثمــر

***

وياويلى من الإنسان ! إنه يشغلنى دائماً بصوره التى لاعداد لها كلما رأيت وجهاً له ... وأقسم غير حانث أنى لا أعرفه ولا أدركه ، رغم خبرى به فى هويتى ودمى وصورتى ! وإن نفسى التى بين جنبي هى القفل والغَـلَق الذى حال بينى وبينـه حتى عييت ويئست ...

بل يا ويلى من نفسى واحتكاكها بما وراء الحياة الظاهرة والصور والأشخاص والمواد ... ومن طلبها المزيد من هذا الاحتكاك الذى يمغطسها ويتركها ذاهلة ماضية إلى غير وجه الحياة الذى يغضى عليه الناس ...

ولـكن لا ... ! بل يا لذتى من غريزة التكوين والتخريب هذه التى تريني كل شيء كامل كومة من الأنقاض ... وكل شيء مخرب خلقاً سويًّا ... !

أليس الرجل طفلاً كبيراً ؟

***

يلذ لى أن أراقب الناس وقتاً طويلاً فى الشارع ، وأشبع عينى وما وراءها من أنواعه واختلافه ... لأزداد به جهلاً ...

بل إنى أذهب إلى « السينما » لأراه فى جميع بقاعه وألوان معاشه واختلاف سحنه وألوانه ولغاته ، لأخرج بعد ذلك مبلبل الفكر فيه فى سوء ظن تارة ، وفى إحسان تارة أخرى

بل إنى أطوف كل يوم قبيل نومى بخيالى عليه فى جزره النائية فى المحيطات ، وفى القطبين ، وفى خط الاستواء ، وفى هضبة التبت ، وفى سفوح الهند ، وفى رمال العرب ، وفى ... وفى ... لأعيش فى غيبوبة الصحو قبل غيبوبة النوم !

***

لقد رأيته قاتلا ومقتولا ... جنينا محمولا وميتاً ملحوداً ... عاهراً وناسكا ... جميلاً وقبيحاً ... رجلاً بشَمَم وجهومة ، وامرأةً بزينة ونعومة ... عالماً يضيء استراليا وهو فى أوربا ، وجاهلا قَدْماً عارياً آبداً عاجزاً أن يمد أصابع يده ... فذهبت من نفسى قداسته وانحطت هيبته ...

والذي حارت البرية فيـه حيوان مستحدث من جماد !

***

أجل ! إنى رأيت مخه ... ورأيت قلبه ... فلم أر شيئاً غريباً عما آكله من الغنم والثيران ... ولذلك كفرت بالجسد كفراً لا إيمان بعـده أبداً ... ورحت أبحث عن الإنسان — ذلك المجهول ... فلم أعثر إلا على لمحات عنه خلال كلمات ليست منه وإن كانت بألفاظه . وهى كما رواها محمد :

« إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد »

« وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ... »

« ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ... »

« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ... »

« لقـد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين »

***

يا يد الله ! يخيل للانسان العاجز أنك تخرجين الصنعة من مخابير ومسابير وعجلات ودواليب في مصانع وحظائر . وأنك تستخدمين طلاسم ولوغاريتمات ومعادلات ... كما يفعل هو إذا أراد أن يحاكى أو يوحد بين ذرتين أو يفصل بينهما . ولذلك سألكِ ابراهيم أحد المقربين إليك : رب أرنى كيف تحيي الموتى فاريته ذلك الـكَـيْف . ولـكنه لم يرَ شيئاً أكثر من أنه دعا مَوَاتاً فاستجاب له حياً ! إنه لم يرَ شيئاً ...

إن كل آلاتك كلمة واحدة من حرفين اثنين بِكَـيْلِـنَا نحن ولـكنها عندكِ خارجة عن حدود التعداد والقياس

إنكِ يد تتكلم كلمات وراءها حقائقها المُـنجزة التى لا تنفد ولو كُـتبت بما فى الأرض من شجرة أقلاماً ممدودة بماء البحر من بعده سبعة أبحر ...

***

قال « اسحاق نيوتن » ما معناه : إن خالق هذا الـكون على

علم تام بعلم الميكانيكا.. تماماً كما يقول الطفل : إن الملك عنده مائة دينار

ومن هنا آفة الفكرة فى « الألوهية » عند أكثر الناس إذ جعلوا « الله » على صورتهم وبمنطقهم ... !

***

قالت القدرة المطلقة للعجز الانسانى : تَهَجَّ هذه الأبجدية التى شئت أن تراها وحدها منى وهى حسبك من معرفة . ولكنه تخطى البُدائيات وخاض فى المجاهل فضل فى فلسفاته وفرضياته حتى عاد لا يرى تلك المشيئة الغالية

« حددوا المادة وأنا أتكفل بتحديد الروح » . هذا قول « مِلِكَن » العالم الطبيعى الذى قاس مقدار الشحنة الكهربائية على الألكترون ، والذى اكتشف أشعة تفوق أشعة إكس مئات الأضعاف في قوة اختراقها للمواد ... لم يتخط عقله إلى البحث فى الروح قبل أن يدرى ما هي المادة ... ولعمر الحق إن مثل هذا لن يضل ...

***

سأراك أيتها الشمس فى عينى جديدة كل صباح ... وأنت يا عالم الظلام ...

وأنت أيتها الأشجار سأصحبك بلفتاتى الذهنية كلما رأيتك قائمة بالفرع ساجدة بالجزع فى محراب الطبيعة ...

ويا أيها الماء والحيوان والإنسان والجبل والحصى ...

ياسائر ماخُلق من الآيات التى نمر عليها ونحن عنها معرضون أقسمتُ لا أبرح أراكِ جديدةً عجيبةً مثيرة للفكر فى الرأس والدم فى القلبِ ... حتى لا أنسى ... حتى لا أنسى !

عبد المنعم خلاف

من برجنا العاجى

يتساءل بعض الناس كيف لايستطيع أدباؤنا أن ينتجوا إنتاج أدباء الغرب ؟ أما أنا فأتساءل كيف استطاع أدباؤنا أن ينتجوا إطلاقاً ، ولماذا هم ينتجون ؟ إن موقف أدبائنا اليوم ليدعو إلى العجب . إنهم فى موقف لم يقفه أدب ولا أدباء فى عصر من العصور . إن المعروف فى كل عصر أن الأدب يرعاه دائماً تشجيع طبقة من الطبقات . ففى عهد الارستقراطية كان فى كنف الملوك والخلفاء والأمراء والنبلاء ، يتبارون فى حمايته ، ويتسابقون فى إعلاء كلمته . وفى عهد الديمقراطية الحديثة وانعدام الأمية انتقل أمره إلى يد الشعب المتعلم فهو الذى يثيب الأديب بالتهافت على اقتناء كتبه ، وهو الذى يحوطه بمظاهر الاحتفال والتقدير . أما أدبنا اليوم ، فهو حائر كاليتيم بين أرستقراطية لا وجود لها ، وإن وجدت فلا شأن لها بأدب ولا أدباء ، وبين ديمقراطية إسمية فى شعوب لم يتم تعليمها، فهى بعد لا تعنى بأدب ولا أدباء . فأنَّا ننتج ونحن نعرف أن إنتاجنا لا يهم الحكام ولا المحكومين ، وأن ثمرات هذا الفكر الذى أضنا من أجله كل حياتنا الجميلة لن يجنيها غير نفر قليل ممن ينظرون إلى استشهادنا بعين الرثاء . نعم إن هو إلا استشهاد ، هذا الأدب فى هذه البلاد ... لا شىء غير ذلك . وإنى قد سألت نفسى مراراً لمن أنشر كتبى ؟ فكان الجواب : إنى انما أفعل من أجل أولئك التسعة أو العشرة من الأدباء الكرام الذين يفهموننى لأنهم يمانون عين الألم ، وينتظمون معى فى سلك العذاب ، ويدبون مثلى على أقلامهم فى تلك الحياة الطويلة الجرداء ، كأنها صحراء من الجليد لايهب علينا فيها غير صقيع الإهمال من الشعب وأصحاب السلطان ، ولكننا مع ذلك نسير ونسير متجلدين ، أيدى بعضنا فى أيدى البعض كأننا منفيون فى مجاهل سيبيريا ... ومانحن فى الحقيقة أكثر من ذلك ... مانحن إلا منفيون فى مجاهل « فكرنا » الذى يجهله الناس .

توفيق الحكيم

كلمة لبنان (*)

في مهرجان القرآن الملكي السعيد

للأستاذ أمين بك نخله

باسم القلم في لبنان ، بل باسم القلم اللبناني في كل أرض ، بل باسم اللبنانيين في دارهم وفي كل دار لهم على جنبات المعمور ، أرفعُ هذا الصوت على النيل ، في فرحة البيت المصري بصاحب التاج ، فينجلي الحجاب ، ويبش وقار الملك ويأنس عرش (محمد علي) لرسول الأحبة من أرض (بشير) :

فيا فاروق ، يا لابس المطرف (العلويّ) ووارث الميثاق : هذه رسالات الوفاء في يدي ، أحملها إليك من وراء قنال (السويس) ، من نهايات شطه الآخر ، حيث لا ينبسط القنال في ظن القلوب بين بيروت والقاهرة ، ولا يشطر دار الهوى في خطرات (محمد علي) وسرائر (بشير) ، فكأن معاول (دي ليسبس) عند عقدة (الأبيض المتوسط) و (الأحمر) ، ووشك التلاقي بين لوني آسيا ، وأفريقيا ، في مخطط الدنيا ، لم يُسمع لها رنّة على الساحل الشرقي من (المتوسط) !

وهكذا تسلم علاقة الماضي بين جبل المقطم وجبل الأرز ، لا يحول دونها خط (السويس) في الخارطة ، وهي من إرث الوجدان قبل عهد الخلائق بالورق ...

كان التراب أمس — كما تدري — أوفر أثراً من الماء في علائق البشر ، وتعمير الممالك ، ونقل المدنيات ؛ بل كان مدار العقل القديم في تأليف الأمم ، ومزج الأجناس ، قبل أن يصبح المدار على دم العرق ، وهوى الضمير ، ولغة الفم ، ففي ذلك الأبد السحيق كان من المتحتم أن يغدو هذا الشاطئ الشرقي المنطرح من مباسط (طوروس) إلى مشارف (أسوان) ملعباً لدورين ينقص تاريخ البشر يوم يسقط لها ذكر ! لنا دور منهما ولمصر الآخر . فرجّت كرة الأرض يومئذ من الحركة الشرقية . فالملعب عريض ، قبالة الأمم على (المتوسط) ، والرواية رواية المدنية ، وأصحابها أساتذة الأزمنة في رفع الحجر إلى الجو ، وإخراج النبتة من الأرض ، وإبراز خاطرة البال في حلّة الحرف ، وربط هذه المخيلة البشرية بالغيب العالي ، فشهدت الدنيا القديمة ، للمرة الأولى ، كيف العهد بآفاق يراد لها وحدة ، وشعوب يراد لها تأليف ، وإذا الشمس لا جديد تحتها ؛ فكرّة من صوب مصر علينا ، وكرّة من صوبنا على مصر ، حتى تتعب الأزمنة بين أخذ ورد . فكان عبثاً مجيء (كنعان) من جوار الجبل اللبناني ، ووادي مصر أغبر ، وماء النيل هدره ، فيمسح بالخضرة ، ها هنا ، على كل فج عميق . وكان عبثاً أن يقطع (تحتمس) إلينا ، حتى يبلغ ضفاف (الفرات) ويكاد يشرف على صفرة آسيا ، كما كان من العبث أن يقطع (سلاتيس) إليكم حتى يبلغ ضفاف النيل ويكاد يشرف على سواد افريقيا . بل كان من العبث فوق ذلك أن نتلاقى على الملعب : فرعونية من جانب ، وفينيقية من آخر . نمدكم بالحرف واليد والشراع ، وتمدوننا بالخاطرة والصنع والوسق ، فتدق البشائر في الدنيا بأول العهد بالعلم والصناعة والتجارة

ولا تقف المحاولة عند ربط صعيد بصعيد ، وعلم بعلم ، ومصلحة بمصلحة ، بل جاوز الأمر إلى الديانة . فاذا الإله اللبناني (أدونيس) تحت القناطر في (أسوان) ، وإذا الإله المصري (أوزيريس) فوق المذابح في لبنان . فألف الأول في العصبية الدينية زرقة السماء المصرية على خضرة الجبل اللبناني ، كما جمع الآخر أمواج (أفقا) إلى أزباد النيل . ولكن الوحدة في التيجان والرايات وأجناس القبائل لبثت على ذلك كله غير مستطاعة ، حتى إذا دار بنا الفلك بعد مليّ من الدهر ، وطلعت علينا أمم الفتوح واحدة واحدة من الأشوريين إلى الرومان ، خفتت على هذا الشاطئ الشرقي صيحة الوحدة

ثم انقلب أمر الدنيا ، ثم جاء (الإنجيل) ، فنوّرت هاتيك الجهات على مقربة من لبنان . ثم نوّر لبنان بالسبب الجديد ؛ وما هي حتى جاءكم مرقس يكرز ، فكأنما عدنا إلى المحاولة . ويلمع في الأيام بعد ذلك ضياء من صوب (البحر الأحمر) ، فتلألأ (مكة) وتغرق بلاد العرب في اللألاء (القرشي) . فإذا القضية لقومية ، فوق كونها لديانة . فتنقل شماع (القرآن) في مشرق (المتوسط) على الدروب الباقية من ذلك الغرض القديم . وشرعت الرايات (المحمدية) تخفق في دمشق على خطوتين من جبل اللبنانيين ،

(*) نص الخطاب الذى ألقاه الأستاذ أمين بك نخلة مندوب الصحافة اللبنانية في الاذاعة المصرية مساء الجمعة ٢٨ يناير الحالي

فأقبلنا فى الزمن (الأموى) نسب من (كتاب) العرب، وندير ألسنا فى الفصاحة؛ كما أقبلتم على يد (ابن مروان) تتلقون عقيدة الكتاب الجديد، وتتلقنون لسانها؛ فكان أن جمعت رابطة الفم بين هذا (الوادى) وذلك (الجبل)، بعد أن جمعا تارات فى المحاولة على المصلحة والعلم والديانة، وعلى دفع الفتح، وتحمل الأمم الغربيــة. ولكن تلك الرابطة التى تضم الفم إلى الفم، كانت أشد الروابط، فتلاقينا معاً على ملعب (المتوسط) كرة أخرى. أما الغرض القديم فكان فى نقلة الزمن قد تحول من نحو إلى نحو، بل انتقل من جنس فى الجمة الشرقيــة إلى جنس؛ فضج الكون بالعرب، ورقصت فصاحتهم على (شنيل) الأندلس، كما رقصت على (نيل) الكنانة، وغدوا وراحوا على الممالك، حتى لقد تصايحوا بالضاد على أبواب فرنسا

وتسكن العروبة بعــد الدور العظيم، وتجىء العثمانية تملأ اللعب، فتمتليه ومصر؛ وتتعاقب فصول فى الرواية التركية الطويلة، وتختلف وجوه؛ وكانت مغارب الشمس قد أضاءت وطفقت مشارقها تتم. فيرج المدفع فى (عكا)، ويقطع على (بونابرت) طريق (الهند) ويرد يد الإسكندر الثانى عن تغيير خارطة العالم:

فيا صاحب الجلالة

فى تلك اللــفتة من التاريخ جاء جدك... وقد كان من الاتفاق أن يولد بونابرت فى (أجاكسيو) خارج فرنسا فى العام الذي ولد فيه محمد على في (قوله) خارج مصر. فلما غلغلت الشمس الفرنسية فى جوف (البركان المنطفئ) وراء (الأوقيانس)، وأخــذت الشمس المصرية تتعالى فى سموات التاريخ — وكأنما أنوارها تتفلت من وحشات ذلك الغروب البعيد — كان من الاتفاق أيضاً أن ينهض عرش عصامى فى الشرق، حيث يهوى فى الغرب عرش عصامى؛ فيتربع (محمد على) فى مصر، ويعود الشاطئ الشرق على يديه إلى المحاولة. وأنت تدرى أن كرة الأرض قد صغر حجمها فى عيون أساتذة الطمع، منذ ما قامت أوربا على قدميها، وأصبح قيد الشبر من أرض على خليج يحله قائح فى الأعصر الحديثة، بمثابة نصف قارة يخوضه فى الأعصر القديمة فاتح مثله؛ فلم يخرج (محمد على) على قاعدة الأساتذة، ولكن قيد شبره كان كبيراً... فصهلت خيل (طوسون) و(إبراهيم) على سيف (البحر الأحمر) المشرق، وفى صحراوات (الحجاز)، ومشارف (نجد)، ولوحت أعرافها تحت (إسماعيل) على (البحر الأزرق)، وخطرت عمارة (إبراهيم) بين عينى الجزائر (اليونانية)، ثم طلعت أعلامه علينا من (العريش)، فقطعت من يافا العربية إلى (قونية) التركية خلف (طوروس)، وكادت تطل على خليج (البوسفور)!

أما لبنان فأقبل على المحاول المصرى الكبير في إجابة من النفس. إذ اللعب المشرق لنا فيه سابقة الخطرات. فلا عجب أن تصبح يد (بشير) فى يد (محمد على) — وكان سيد (الجبل) قد نفضها قبــل من نابليون نفسه — عند أسوار (عكا)...! ثم تنسخ فى المحاولة الجديدة صورة أختها تلك، فيرتبط الجبل اللبنانى بالوادى المصرى فى العلم، بعــد أن ارتبط به فى الحد والمصلحة واللسان؛ وفى دين (ابن مروان) ودين (مرقس)؛ فأظلنا (القصر العينى) معاً، وجمعتنا مطبعة (بولاق) على المتمات فى الفلك والزراعة والهندسة والجغرافية

وكما كانت المحاولة فى الأمس العتيق تساجلاً بين نضرة من هنا ونضرة من هناك، كذلك كان الأمر فى أعقاب القرن الماضى؛ يوم أصبح العلم العربى لا يطلع له قمر إلا من أرضنا، فبعثنا بالمتمات فى الأدب والفن والتاريخ واللغة، وجاء الرد بعد الأخذ، وصحت المقابلة فى التاريخ؛ وإذا كانت رياح العربية تهب اليوم من مصر ومن عندنا فى آن معاً، حتى ليكاد يختلط الطيب فنتقاتل على نخر الشيوع، فما هى إلا من أهبة يأخذها التاريخ لتدوين هذا النسق الجديد من المحاولة التى لم ينقطع خيطها، والحمد لله...!

فيا صاحب الجلالة

شرفاً لعرشك فهو كرسى النيل، وقد ظلل نصف الحضارة البشرية؛ وتيهاً لمطرفك فهو ثوب (محمد على) وقد فيأ نصف الحضارة العربية. فشاطر عرشك فى محاولة الشرق القديمة، وساهم مطرفك فى المحاولة الحديثة؛ فإذا تسلمت بكفيك الغضتين وديعة الماضى الباهظة، فلا خوف عليها، وأبيك (يا ابن فؤاد)! وإن لبنان الذى شرفني بالوقوف بين يديك، فوق تشرفى بالكلام

بحث سيكولوجي

إعمـــل ما تخشاه

للأستاذ أحمد المغربي

من أشهر المجلات الشهرية العالمية وأوسعها انتشاراً وأغزرها فائدة ، هى مجلة « زبدة القراء » Readers Digest التي يشرف على تحريرها نفر كبير من مشاهير الأدباء والعلماء ، وقادة الفكر المحدثين . ولعل خير وصف لها تسميتها « بعجلة المجلات » . ذلك لأن القائمين على إدارتها يختارون لها من عشرات المجلات أطيب الآثار الأدبية وأوثق الآراء العالمية وأحدث الأنظمة الاجتماعية وما إليها ، ثم يجملونها ويوجزونها فى صفحات قليلة يعرضونها على قرائهم بصورة جذابة وطريقـة خلابة تستلفت أنظارهم ، وتستهوى أفئدتهم ، وتسحر عقولهم ، فيقبلون على انتهال مواردها اقبالاً يفوق إقبال الصادى فى الصحراء على موارد الماء

وميزة أخرى يتحتم على ألا أغفل ذكرها ، هى أن القارئ يجد فى القسم الأخير منها موجزاً لكتاب في مختلف ألوان الأدب والقصص والعلوم ، تقره فى كثير من الأحيان ، جمعية « كتاب الشهر » وتوصى بمطالعته بعد أن تكون قد اختارته من مئات الكتب التى صدرت فى تاريخ صدوره

ولا شك فى أن مثل هذا العمل المثمر والانتاج النافع يسدى إلى القراء خدمات جليلة . ذلك لأن الانسان ، بلغ ما بلغ من حب المطالعة لا يستطيع ، بل إنه ليعجز عن أن يطالع جميع ما يصدر من كتب ومجلات ، مهما اتسع وقته وتوفر فراغه .

ولا ريب أيضاً فى أن الأستاذ الزيات يشاركنى فى اعتقادى ، ونحن فى مستهل نهضتنا الفتية المباركة ، بأن حاجتنا مُلِحةٌ جداً إلى مثل هذه المجلة الفريدة ، مع نبل الرسالة التى تحملها رسالته ، فعسى أن تكون كلمتى هذه حافزاً له فى تحقيق هذه الفكرة وسد هذه الثغرة

كاتب هذا المقال الذى نقتبسه من هـذه المجلة هو الدكتور هنرى لنك Henry C. Link ، رئيس دائرة الخدمة السيكولوجية في مدينة نيويورك . وتضم هذه الدائرة جماعة من علماء النفس الذين يقومون بإرشاد من يستشيرهم فى المشاكل التربيويه والمهنية والشخصية . ولا يزال كتاب الدكتور لنك الأخير : « العودة إلى الدين » يتمتع بشهرة واسعة وإقبال عظيم ، بالرغم من مضى أكثر من سنة ونصف سنة على نشره

يستهل الكاتب حديثه قائلاً :

لقد نازعتنى عوامل التردد والإحجام قبل أن قررت الكتابة فى موضوع « الأوهام والمخاوف » ، ذلك لأن طائفة كبيرة من المخاوف التى تعتور نفوس الناس ، إنما هى بلا جدال تعزى إلى كثرة ما كتب فى هـذا الصدد . وكم كنت أتمنى لو أن لفظة « مركب الضعة أو الشعور بالحطة » inferiority complex لم تخرجها المطابع إلى الوجود ، إذن لما خطر للملايين البشر بأنهم مصابون بذلك ، ولنقص خوف من مخاوفهم ووهم من أوهامهم

والواقع أن معظم المخاوف لا تنشأ عبثاً ، بل تتولد عموماً من الإغراق فى المطالعة والإكثار من التفكير والكلام . فنحن نتعهدها ونرعاها ونغذيها حتى تستحيل من أمر بسيط فى غاية البساطة ، وشيء تافه بعيد عن الخطورة ، إلى هم مقيم وعذاب أليم

إن الأم التى تكثر من مطالعة الكتب المختصة بتربية الأطفال وتحرص كل الحرص على الإحاطة بدقائقها وأسرارها تصبح شديدة المخاوف . والفتاة التى تهتم بمظهرها الخارجى وتتكلف كل الكلف بأناقتها سرعان ما يزداد قلقها ويتعاظم هلعها مما يراه الناس فيها ، والجماعات التي تدقق البحث فى أحاديثها ومناقشاتها عن وضع البلاد يؤول تشاؤمها فى الغالب إلى الخوف

وصلتنى رسالة من فتاة تبتدئ كما يلى :

باسمه ، لا يبرح على المهد . فدارنا الشرق ، وأهلنا العرب ، ولساننا الضاد ، نشمخ به فى الأفلاك ...

ويا صاحب الجلالة

مقبلٌ أنت — يا ربيع الوادى — على سنَّة الثمر ، غِبَّ الزهر ، فتصبح المثال العالى لجيل الشرق الطالع ، فى مباكرة ذلك النعيم الاجتماعى ، الذى يأنس له العقل والدين ، ويحمد (واديك) طيب الموسم ، وينظر لبنان إلى البركة بعين الصديق .

إذا شاء الله
١٢ • ١٠

أمين نخلة

« منذ أن بلغت السادسة عشرة من عمرى كنت أخاف من التحدث إلى الغرباء . ثم تستمر الرسالة فى تعداد مخاوف أخرى ، كالخوف من رئيسها ، والخوف من الرجال ، والخوف من سوق السيارة ، والخوف من تقديم تقرير في ناد للبنات ، وغيرها من المخاوف التى بلغ عددها» . وجميعها مخاوف من صعيد مشترك واحد ، يقاسى منها ملايين البشر . والنتيجة لهذه المخاوف ، فى كل حالة تقريباً هى واحدة : نوع من الشلل الزاحف ، شعور بالبؤس والاختناق والروع والرعب والهزيمة

* * *

شكا إلىّ شاب بأن النوم يجفوه ، وبعد أن شرح لى شرحاً بسيكولوجياً مسهباً علة ما أصابه سألنى : « هل تستطيع أن تساعدنى على التخلص من هذه الهواجس والوساوس ؟ فأجبته : لا . فتوسل إلىّ قائلاً : إذن ، ماذا أستطيع أن أعمل ؟ فاقترحت عليه أن يركض فى الليل حول الحي الذى يعيش فيه حتى يكل وينصب ويبلغ به الجهد حداً يشعر معه بأنه سوف يسقط على الأرض إعياء . وقلت له : إن ما تحتاج إليه ، هو الإجهاد ؛ لقد أنهكت قواك البدنية فى التفكير والتخيل والأحلام ؛ فاذا ركضت ركضاً مكداً مجهداً فلا تلبث أن تشعر بالارتخاء والفتور فتنام ؛ إنك لشدة ما فكرت ، جررت نفسك إلى الخوف ، بفكرك ، وإنك لقادر على أن تفر منه بساقيك »

ولقد فعل !

* * *

قدمت إلىّ والدة منذ أمد غير بعيد ، هذا الملخص المهم لتاريخ حياتها : « كنت وأنا فتاة ، تعرونى مخاوف كثيرة تسبب لى قلقاً واضطراباً ، منها الخوف من الجنون ، ولقد استمرت هذه المخاوف حتى بعد زواجى . إلا أنه بعد مدة قصيرة ، رزقنا طفلاً ثم انتهى بنا الأمر إلى أن أصبح لدينا ستة أولاد . ولما كنت أقوم بنفسى بجميع أعمالى البيتية كنت كلما بدأت أشعر بالقلق ، أسمع بكاء الطفل أو نزاع الأطفال ، فأبادر إلى تهدئة أحوالهم . أو كنت أتذكر فجأة بأن وقت الغداء قد حان ، أو بأنه يتحتم علىّ أن أتم كى الملابس ، فكانت المخاوف التى تنتابنى تقطع على الدوام بواجبات عائلية ، وعلى مر الأيام تلاشت تدريجياً . وأنا الآن ألقى عليها نظرة لمجرد اللهو والسلوة »

وقد يكون مغزى هذه الحادثة ألا يكون للوالدين ستة أطفال ، ولكن الميل إلى تقليل عدد أفراد العائلة وزيادة أوقات الفراغ ، يؤدى ، في الحقيقة ، إلى توليد المخاوف . ومن الحقيقة أيضاً ، أن الكثيرين ممن تلازمهم هواجس مقلقة ، قد يجدون لذة جديدة فى الحياة لو أنهم يهتمون بشئون أناس آخرين بواسطة الاشتراك فى الأعمال الاجتماعية المحلية .

أنت لا تحب مثل هذه الأعمال ؟

إذن ، يجب أن تتذكر بأن كل خطوة فى التغلب على الخوف تتطلب ، فى البداية ، قوة إرادة

إن الذين تعلموا الغطس ، مثلاً ، يذكرون المصاعب التى أصابتهم . فأنت أول فى الأمر ، توازن نفسك ثم تميل إلى الأمام ، فتتردد فترتد إلى الوراء خوفاً وهلعاً ، ثم تحاول مرة ثانية فتنسحب . وأنت فى كل تردد تزداد مخاوفك . وأخيراً تثور ثائرتك ويشتد غضبك من هذا الخور والجبن ، فتقذف بنفسك دون أن تبالى بانحراف ذراعيك ، أو تكترث لاعوجاج ساقيك . تصعد ، بعد ذلك ، كسيفاً مضطرباً ، وتزداد حالتك سوءاً حين تسمع قهقهة أصدقائك وتشاهد سخريتهم . فلو أن مخاوفك ، فى هذه النقطة ، حالت دون أن تقوم بمحاولات أخرى لما تعلمت الغطس ؛ ذلك لأن مخاوفك تصبح غير قابلة للقهر . ولكن لو أنك تشبثت وداومت على القيام بغطسات مؤلمة خرقاء غير لبقة ، لأمكنك الغطس بهدوء ونعومة ، والصعود مرتاح الفكر ناعم البال . ولقد كنت فى طريقك إلى أن تصبح غطاساً ماهراً

تلك هى السيكولوجيا الأساسية للتغلب على الخوف ، واكتساب الثقة والإيمان بكل ناحية من نواحى الحياة ؛ وليس ثمة مفر من هذه الطريقة . يتحتم علينا ، بين آونة وأخرى ، أن نخوض جدول الحياة ونغوص فيه ، فنضيف نصراً إلى نصر ، وننتقل من فتح إلى فتح ، متغلبين على ما يعترض سبيلنا من مخاوف وأوهام ، الواحد بعد الآخر . وكما قال امرسن : افعل الشىء الذى تخاف منه فان موت الخوف محقق . والواقع أن مخاوفنا هى القوى التى تكوننا حين نعالجها بشدة وحزم ، وهى التى تحطمنا إذا ما عولجت بالتردد والحيرة والتوانى والتعقل

سألنى شاب منذ مدة غير طويلة أن أقترح له بعض أعمال صعبة يقوم بها ، وقال لى « إن كتابك يوصي بالتمرن على الرقص

وكرة السلة أو بعض المباريات الرياضية والبردج وحفلات السمر والألعاب ، ويقول بأن على الانسان أن يعمل حتى الأشياء التي ينفر منها ويبغضها ؛ على أنني لم أكن أكرهها وأنفر منها فحسب ، بل كنت أخاف من القيام بها . بيد أنني عزمت على تجربتها . فمر على ردح من الزمن الرهيب كنت أشعر فيه بالبؤس والتعاسة وأعاني فيه عناء كبيراً وعذاباً مريعاً ؛ ولكن سرعان ما زالت مخاوفي واستمدت نشاطي وانكببت على هذه المشروعات الجديدة . والواقع أنني أتمتع بحياة جديدة تضفي على نفسي ألواناً من الهناء والصفاء حتى بت أخشى أن أميل إلى حياة الراحة والترف . وأود منك أن تخبرني ببعض الأعمال التي أجد في القيام بها مشقة حقيقية .

إن هذا الشاب تعلم درس استخدام مخاوفه كواسطة للفوز والانتصار والهناء والمرح البهيج . واتجه إلى حياة أوسع نشاطاً وأغزر حيوية من الناحيتين الحيوية والفكرية

والخطوة الأولى في التغلب على الخوف هي أحياناً عملية بسيطة أولية جداً . أتذكر شاباً غمرته المخاوف إلى حد كلما كان يتمكن من الكلام بصوت مسموع . كان يعمل في مصرف كبير ويعرف اثني عشر رجلا في دائرته ، إلا أنه عند ما كان يذهب إلى مكتبه لا يحيي أحداً . فاقترحنا عليه أن يبدأ بتحية رفاقه من صميم قلبه قائلاً : صباح الخير ، إبراهيم ، يا أهلا ، زهير ، .. صباح الخير ، يا سيدي ، أثناء مروره بهم . فجرب ذلك وكانت تجربته مرضية مدهشة حتى أنه تشجع لتجربة أعمال أشد صعوبة كان الفوز في أحدها يقوده إلى فوز آخر

إن أكثر المخاوف شيوعاً وانتشاراً ، كالخوف من الجنون أو الاضطهاد والظلم ، أو الخوف من الأغراب والأجانب ، أو الضعة هي عادة ، نتيجة فشل الانسان في التغلب على مخاوف صغيرة كافية وقهرها بمثل هذه الطريقة التي أشرنا إليها . إلا أنها تعزى أحياناً ، إلى أن الانسان ، لسبب ما ، كالفشل في الحب ، أو موت قريب عزيز ، أو لكوارث مالية ، أو لخسارة عمل أو وظيفة — ينزوي عن الناس وينسحب من أعماله المألوفة . ويتحتم على الانسان ، إذا ما مني بكارثة ، خصوصاً ألا يتابع أعماله القديمة فحسب بل يوجه إرادته ويعزم عزماً أكيداً على أن يبدأ بمساع جديدة يستحسن أن تكون مكدة عنيفة .

ومع أن التعاميم خطرة جداً فإني أجرأ على القول بأن في قرار معظم المخاوف فكراً مجهداً ، وجسماً خاملا ، ولهذا فإنني نصحت كثيراً من الناس في سعيهم وراء السعادة أن يقللوا من استعمال رؤوسهم ويكثروا من إستعمال أذرعهم وسيقانهم في عمل أو لعب مثمر نافع . فنحن نولد المخاوف بركوننا إلى الراحة ، ونتغلب عليها باللجوء إلى العمل ؛ وما الخوف إلا نذير الطبيعة بدعوتها إلى العمل

إن ملايين البشر الذين يعتمدون في معاشهم على المساعدات الحكومية إنما هم يربون في أنفسهم المخاوف والأوهام من حيث لا يشعرون . وقد يكون من الواجب المحتم علينا أن نضع نصف سكاننا في مخيمات الخدمة الاجتماعية (C. C. C. — هي مخيمات تضم عدداً من الشبان في سن الدراسة الثانوية والجامعية العاطلة عن العمل ، تستخدمهم الحكومة الأميركية في القيام ببعض الأعمال الاجتماعية كتعبيد الطرق وبناء الجسور والمحافظة على الغابات من الحريق الخ ... لقاء أجور زهيدة تدفع قسما منها إلى أهليهم كما أنها تهذبهم في المخيمات تهذيباً منظما وتدربهم على الأعمال الفنية التي تفيدهم بعد تخرجهم فيها) حتى نستأصل شأفة المخاوف التي تقلق الأمة

والخوف في أدواره الخفيفة الأولية يتخذ شكل النفور من بعض المشاريع والاشمئزاز من بعض الناس وانتقادهم ، فيقيم بذلك شاهداً ودليلا على أن الانسان يبرر خموله المستمر .

إن العالم مليء بالمستائين والساخطين ، غني بالشيوعيين والنظريين الاجتماعيين ، لأنهم لا يريدون أن يغيروا أنفسهم ، يتحدثون عن تغيير نظام العالم بأسره . ويظهر أن الكثيرين منهم لا يدركون انه ، في أي نظام اجتماعي ، مهما كان نوعه ولونه ، لابد من وجود مفاسد ومساوىء ، وهم بأحاديثهم يصوبون غضبهم من العالم ويسبغون على سخطهم وتذمرهم ردحاً من الحكمة والتعقل بدلاً من أن يسخطوا على أنفسهم ويهبوا إلى القيام بعمل صالح نافع

(بغداد) احمد المغربي
مدرس العلوم الاجتماعية بدار المعلمين الابتدائية

الخلـــــود

L'IMMORTALITÉ

للشاعر الفرنسي الكبير لامارتين

ترجمة السيد أحمد عيتانى

أحب لامارتين « ألفير » حباً ملك عليه حواسه ومشاعره وكاد يقرب من العبادة إلا أن القدر أبى أن يمتعه بهذا الحب طويلا ، فبينما هو يقضى إلى جانب محبوبته ألذ ساعات العمر وأعذب أوقات الحياة ، إذا بالنبأ يفاجئه بأنها مريضة ومشرفة على الموت ، فينال هـذا النبأ منه وينظم آلامه وشجونه فى تلك القصيدة التى ينظر فيها إلى الموت نظرة المنقذ الذى ينقل الانسان من آلام الحياة الفانية إلى سعادة الحياة الأبدية

لقد آلت شمس أيامنا منذ فجرها إلى الإصفرار !
فهى لا تكاد ترسل نحو جباهنا الكليلة
سوى بضعة أشعة مرتجفة تقاوم الظلمة !
ولكن الظلمة تنمو ، والضياء يتلاشى ، وينمحى كل شىء ويزول !

***

ألا فليرتعد سواي أمام هذا المشهد ! ولتخنه قواه !
وليبتعد مرتجفاً عن شفا الهوة !
وليعجز عن الاستماع بعيداً دون أن يجزع
إلى أنشودة الموت البائسة التى يتهيأ لالتقاطها ، أو إلى الزفرات المختنقة تصعدها حبيبة أو شقيق
فتعلق حول أطراف سريرها الكئيب !
أو إلى الناقوس المدوى ،
تنشر دقاته المضطربة بين الملأ أن فلاناً قد قضى !

***

سلاماً أيها الموت ! أيها المنقذ السماوى !
إنك لا تظهر لى فى هذا الشكل الرهيب
الذى ألبسك إياه الوهم والرعب زمناً طويلا !
إن ذراعك لا تحمل ذلك الخنجر الهدام !
إن جبينك ليس مرعباً ! وإن عينك ليست غادرة !
إن رباً لطيفاً يسوقك لتخفيف الآلام !
إنك لا تهلك ! إنك تنقذ !
وإن يدك لرسول سماوى يحمل شعلة إلهية !

***

عند ما تنطبق عينى المتعبة على ضوء النهار
ستأتى ، وتغرق جفونها بنور أشد نقاوة منه !
ويفتح أمامى الأمل ، وأنا أحلم فى القبر على مقربة منك
أبوابَ عالم أبهى من هذا العالم !

***

تعال إذاً وأنقذنى من قيودى الجسدية !
تعال وافتح لى سجنى ! تعال وأعرنى جناحيك !
ما يلهيك ؟ ! إظهر ! ولأقذف بنفسي أخيراً
نحو هذا الكائن المجهول : مبدأى وغايتى !

***

من فصلنى عنه ؟ ! من أنا ؟ ! وما يجب أن أكون ؟ !
إنى أقضى ولا أفهم معنى الحياة !
أيتها الروح ! أيها الضيف المجهول ! يا من أسائلك عبثاً !
فى أية سماء كنت تقطنين قبل أن تكونى فىّ ؟ !
أية قوة قذفت بك إلى هذه الكرة الأرضية ؟ !
وأية يد ألقت بك فى سجنك الصلصالى ؟ !
أى روابط خفية ، وأى عقد مدهشة
جعلتك تقيمين فى الجسد ، وجعلت الجسد مالكا لك !
أى يوم تنفصلين فيه عن المادة ؟
وإلى أى صرح جديد تغادرين الأرض ؟
أتنسين عندها كل شىء ؟ !
أتعودين بعد القبر إلى الحياة ؟ !
أتبدأين حياة ثانية ؟
أم ستعملين ، وقد تجردت إلى الأبد من قيودك الفانية
على التلذذ بحقوقك الخالدة
فى جوار الله مبدأك ومعادك !

***

أى نعم . ذاك ما أتمناه يانصيفة حياتى !
ذاك ما جمل نفسى مطمئنة
وقادرة على النظر ، دون ماذعر إلى قسمات وجهك الوسيمة
تذوى عليها ألوان ربيعك الساطعة !
ذاك ما جعلك ترينني أبتسم
وأنا أموت شاباً فريسة تلك الطعنة التى أصبت بها !
ذاك ما جعل دموع الفرح تلمع فى عينى
عند رؤيتك الأخيرة ، فى وداعنا الأخير !

* * *

« أمل باطل ! » هكذا سيقول أتباع أبيقور !
إنهم سيقولون : « يا فاقد الشعور ، يا من يخدعك غرورك الكثير !
أنظر حواليك : فكل شىء يبدأ ويتلاشى !
كل شىء يسير إلى نهاية ! وكل شىء يولد ليموت !
إنك ترى الزهرة تذوى فى تلك الحقول الصفراء !
والأرزة الشامخة تسقط فى الغابة تحت أعباء السنين لتفنى خلال الأعشاب !
إنك ترى البحار تجف في أحواضها الناضبة !
والسموات نفسها قد أخذت بالاضمحلال !
حتى الشمس ، ذلك الكوكب الذي كتم الزمن مولده
تسير مثلنا نحو الفناء !
ولسوف يبحث البشر عنها يوماً فلا يجدونها ، فيتيهون فى الفضاء الفارغ !
إنك ترى الدهور حواليك ، فى الطبيعة كلها ! تترا كم غباراً على غبار !
وإنك لترى الزمن يخطو خطوة واحدة فيطويك مع كبريائك !
وينقلب كفناً لجميع ما أنتج !
والانسان ! والانسان وحده ! يا للجنون العظيم !
يظن أن سيعود ثانية إلى الحياة فى أعماق لحده !
ويحلم بالخلود ، بعد أن حطمه الزمن
وحملته العاصفة إلى العدم !

* * *

ألا فليحجبكم سواى يا فلاسفة الدنيا !
ودعوني ووهمى ! فالأمل يجب علىّ وهو حبيب إلىّ !
إن عقلنا ليتبثر ويختلط عليه الأمر
نعم إن العقل ليسكت ، ولكن القلب ليجيب !

* * *

أما أنا ، فحينما أرى الكواكب
وقد تاهت عن طريقها السوي فى السهول السماوية
يصطدم بعضها ببعض فى حقول الأثير
وتنقلب دون ما غاية في السموات المذعورة ؛
حينما أسمع الأرض تئز وتتحطم ؛
حينما أرى كرتها الشاردة المنعزلة
تسبح بعيدة عن الشموس ، باكية إنسانها الهالك !
لتضل فى حقول الليل الأبدى !
حينما أكون آخر شاهد لتلك المناظر الرهيبة ؛
حينما أظل محاطاً بالموت والظلمة
وبالرغم من وحدتى وجزعى
سآمل فيك أيها الكائن الحق اللطيف
وسأنتظرك أيضاً ، وأنا فى العوالم البالية
مؤمناً بعودة الفجر الأبدى !

* * *

ما أكثر ما غمرتنى وإياك تلك الظلمة ونحن بعيدان عن العالم ، يحدونا الأمل
تارة على قمم الصخور الهرمة ! وأخرى على ضفاف البحيرة الكئيبة القاحلة !
أثناء مقامنا السعيد ... حيث بدأ حبنا الخالد
لدي النظرة الأولى كما تذكرين !

* * *

لقد كانت الظلال ، وهى تنحدر من وراء الجبال
بقطعها الطويلة ، تحجبها عن أبصارنا !
فلا تلبث كواكب الليل الغريبة

بعد برهة من الزمن
إن تزحف دون ما جلبة أو أبهة
وترد على أبصارنا ما حجب عنها
وتسبغ على الأرض ثوباً من الأنوار الضئيلة
كما يسبغ المصباح نوره القدس على المعابد المقدسة التى أضاءها النهار بنوره
فينير منها الهياكل بعد ما تأخذ أشعة السماء تدريجاً بالاصفرار !

***

هنا كنت تفتشين ، وكنت تنقلين بصرى
من السماء إلى الأرض ، ومن الأرض نحو السماء
وكنت تقولين : « إيه يا إلهى الخفي »
إن الطبيعة هيكل لك
إن العقل ليراك فى كل بقعة تتأملها العين منها
إن هذا العالم مرآة لكمالك الذي يحاول العقل إدراكه !
وصورة له وانعكاس عنه !
إن النهار نظرتك ، والجمال بسمتك !
إن القلب ليعبدك في كل ناحية !
وإن النفس لتحيا بك ؛
أيها الخالد الأبدى ! أيها القدير اللطيف !
إن جميع تلك النعوت ليست كافية لتصور عظمتك !
إن العقل ليعنو أمام جوهرك العظيم !
فيمجد عظمتك حتى لدى سكوته !

***

إلا أنه وهو ذاك العقل المنهزم يا إلهى
حينما يشعر أن الحب سر وجوده
يندفع بذاك القانون الجليل نحوك
متشوقاً إلى حبك ومتحرقاً إلى معرفتك

***

لقد كنت تقولين ، وقد وحد قلبانا زفراتهما المتصاعدة
نحو هذا الكائن المجهول الذى نمت عليه آمالنا !
كنت تقولين ونحن جاثون أمامه وقد أحنينا فى خلقه
وحمل إليه الفجر والمساء تمجيدنا إياه !
كنت تقولين وقد أخذت عينانا المتشيتان
تارة تتأملان الأرض : منفانا نحن !
وأخرى تتأملان السماء مقامه هو ! :
« آه لو أن الله يستجيب دعواتنا فى هذه الساعة التى تحاول بها نفسنا الفرارة خلاصها وتحطيم قيدها وإسارها !
فيرسل علينا من علياء سمائه طعنة تحررنا كلينا !
إذا لرجعت روحانا نحو مبنعهما دفعة واحدة !
ولصعدتا على جناح الحب فى ثنايا اللانهاية كأنهما خيط من نور ! حتى تصلا ، وقد اجتازتا فى سيرها العوالم معاً
أمام الله ، وقد ذهلتا عن ذاتيهما
فتعيشان إلى الأبد ممتزجتين فيه !

***

أترينني مخدوعين بهذه الآمال ؟ !
أصائران نحن إلى العدم ؟ !
أمقدر على أرواحنا الفناء ؟ !
أتقاسم الروح والجسد مصيره بعد خلاصها منه ! فتفنى معه فى ظلمات القبر
وتتحول إلى غبار ؟ ! أو تتلاشى كما يتلاشى الصوت فى الفضاء ؟ !
أو لا يبقى ، بعد الفراق الفادح واللوعة الضائعة
جزؤ يحبك من ذاك الذى كان يحبك ؟ !
آه يا القبر ! لا تسائلى سوى نفسك عن ذلك السر العظيم !
وانظرى إلى من أحبك وهو يموت
ثم أجيبي :

احمد عيتانى
عضو بعثة أساتذة جمعية المقاصد فى مصر

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

– ٢٢ –

الرافعي وعبد الله عفيفي :

لم يكن الأستاذ عبد الله عفيفي خصماً للرافعي على الحقيقة ، ولا أحسب أن أحدهما كان يرضيه أن يكون بينهما ما كان ولا سعى إليه ؛ ولكن الأستاذ عفيفي في مكانه من ديوان جلالة الملك ، وفي موضعه عند الابراشي باشا ، قد دارت به المقادير دورتها حتى وقفته مع الرافعي وجهاً لوجه ، وجعلته بالموضع الذي لا يستطيع واحد منهما فيه أن يتجاهل أنه أمام خصم يحاول أن يظفر به . ومن هنا نشأت الخصومة بين الرافعي وعبد الله عفيفي

على أن هذه الخصومة بينهما تختلف عن سائر الخصومات التي نشبت بين الرافعي وأدباء عصره ، فهنا لم تنشأ الخصومة إلا للتزاحم على رتبة « شاعر الأمير » ؛ على حين كانت أكثر خصومات الرافعي ذياداً عن الدين وحفاظاً عن لغة القرآن ، فما كنت ترى فيها إلا التراشق بألفاظ الكفر والزيغ والمروق والإلحاد ؛ أما هنا فكانت المعركة تدور وما فيها إلا التهمة بالغفلة وفساد الذوق وضعف الرأي وقلة المعرفة ... ومابدٌّ من أن يكون في نقد الرافعي أحد هذين اللونين : الاتهام بالزيغ ، أو الاتهام بالغفلة ، ولا ثالث لهما . ومن هنا فقط نستطيع أن نزعم أن الرافعي لم يكن موفقاً في النقد ، مع أهليته واستعداده وإحاطته الواسعة وإحساسه الدقيق ؛ إذ كان أول ما ينبغي أن يتصف به الناقد هو عفة اللسان والاقتصاد في التهمة وضبط النفس ...

وثمت شيء آخر يفرق بين هذه الخصومة وبين سائر الخصومات : هو أن هذه المعركة كانت إيجابية من طرف واحد ، على حين ظل الطرف الثاني صامتاً قارًّا في موضعه ، لم ينبس بكلمة ولم تبدر منه بادرة مشهودة للدفاع ... !

***

كتب الرافعي مقالات ثلاثاً بعنوان « على السَّفُّود » في نقد ثلاث قصائد أنشأها الأستاذ عبد الله عفيفي في مديح الملك — والسفُّود هو الحديدة التي يُشوَى عليها اللحم — وهو عنوان له دلالته ، وفيه الإشارة والرمز إلى ماحوت هذه المقالات من الأساليب اللاذعة والنقد الحامي . وإذ لم يكن توقيع الرافعي في ذيل هذه المقالات ولا كان يريد أن يُعرف أنه كاتبها — فإنه خرج عن مألوفه في الكتابة وفي نمط الكلام ، فاسترسل ماشاء كأنه يتحدث في مجلسه إلى جماعة من خاصته : لا يعنيه الأسلوب ولا جودة العبارة ولا عربية اللفظ ، بقدر مايعنيه أن يتأدَّى معناه إلى قارئه في أي أسلوب وبأية عبارة ؛ فكثر الحشو في هذه المقالات من الكلمات العامية والنكات الدائمة والأمثال الشعبية ، ولكنه إلى ذلك لم يستطع أن يتخلص من كلٍّ لوازمه في النقد والكتابة ، فبقيت له خفة الظل وحلاوة اللفظ وقسوة النقد ، إلى بعض عبارات في أسلوبه تنم عليه وتكشف عن سره .

ولم يذكر الرافعي حين أنشأ هذه المقالات أنه يتناول بهذا النقد شاعراً من شعراء القصر له حظوة عند رئيس الديوان الملكي ، وأن هذا الشعر الذي يفريه ويكشف عن عيبه إنما أنشأه ناظمه في مديح الملك . أو لعل الرافعي كان يذكر ذلك ولكنه يحسب نفسه بنجوة من التهمة لأنه لم يوقع بإمضائه على هذه المقالات ؛ فلم يتحرج مما كتب ، وألقى القول على سجيته في صراحة وعنف وقسوة ، ولم يصطنع الأدب اللائق وهو يتحدث عما ينبغي أن يكون عليه الشعر الذي يقال في مدح الملك وما لا ينبغي أن يقال ؛ فجاء في بعض كلامه عبارات لا يسيغها الذوق الأدبي العام عند ما يتصل موضوع القول بالملك الحي الذي يحكم ويدين له الجميع بالولاء . وكأنما ركبته طبيعةٌ غير طبيعته خيَّلت إليه أنه يكتب في نقد شاعر من الماضين يمدح ملكاً من ملوك التاريخ ، فلم ينظر إلى غير الاعتبار الأدبي الخالص من دون ماينبغي أن يُراعى من التقاليد واللباقة السياسية عند الحديث عن الملوك

وانتهت أُولى هذه المقالات إلى القصر ، فمالت الأفواه إلى الآذان ، وتهامس القراء همساً غير خفي ، ثم جهروا يتساءلون : من يكون هذا الكاتب ؟ ولكن أحداً منهم لم يفطن إليه ولم يعرف الجواب ، وأنفذوا دسيساً إلى الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب المصور يسأله فلم يظفر منه بجواب

ونُشر المقال الثاني والثالث ، فلم يلبث أن انكشف السر ؛

ونم الرافعي على نفسه بلسانه في مجالسه الخاصة ... أو نم عليه أسلوبه وطريقته في النقد

وجاءه سائل من القصر يسأله ويستوثق من صحة الخبر في أسلوب السياسي البارع: « ... وكيف تأذن لنفسك أن تقول ماقلت في شاعر من شعراء الملك،وأن تكتب عنه بهذا الأسلوب؟ أفيتفق مع الولاء لصاحب العرش أن تكتب ما كتبت لتصرف الشعراء المخلصين عن ساحة الملك ... ؟ أم تريد ألا ينطق أحد بالثناء على صاحب التاج وألا يكون اسمه على لسان شاعر؟ أم هي دسيسة تصطنع الأدب لتفض المخلصين من رعيته عن بابه ...؟»

وغص الرافعي بريقه، وتبين الهاوية تحت قدميه يوشك أن يتردى فيها بحيلة بارعة، وأحس الابراشي باشا من ورائه يحاول أن يدفعه بعنف لينتقم لكبريائه التي مسها الرافعي بمجانته منذ بضعة أشهر ...

وحاول النجاة بنفسه من هذه المكيدة البيتة، فلم يجد له وسيلة إلا الصمت فأوى إليه. وانقطع ما بينه وبين القصر من صلات، إلا الصلة العامة التي بين الملك وبين كل فرد من رعيته. وكان أخوف ما يخاف الرافعي أن تكون خاتمة ذلك هي انقطاع المعونة الملكية عن ولده الذي يدرس الطب في جامعة ليون على نفقة الملك؛ ولكن ذلك لم يكن إلا بعد هذه الحادثة بأربع سنين (في سنة ١٩٣٤) لسبب آخر، ولم يكن باقياً بين الدكتور الرافعي وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر كما تقدم القول

* * *

لقد كثر ما استغل خصوم الرافعي السياسة لينالوا منه. ولقد كثر ما اتهموه من أنه من أدوات الإبراشي باشا في محاربة سلطة الأمة، وأنه صنيعته ومولاه؛ على حين كان هذا الموقف هو كل ما بين الرافعي والإبراشي باشا من صلات الود والموالاة! فما انقطعت صله الرافعي بالقصر إلا في عهد الإبراشي، وما كان معه يوماً على صفاء. على أنه كان تلميذاً معه في مدرسة المنصورة الابتدائية فيما أذكر ...

ولقد كتب كاتب من خصوم الرافعي غداة دالت دولة الإبراشي، فصلاً مؤثراً ... بعبارات بليغة... في صحيفة من صحف الشعب، يصف جناية الإبراشي باشا على الأدب؛ وكان من براهينه على ذلك أنه اصطنع الرافعي ليحارب بقلمه ولسانه سلطة الأمة ... وقرأت هذه المقالة مع الرافعي، ونظرت إليه فإذا هو يبتسم ابتسامة مرّة، ثم قال: « هذا أديب يتحدث عن جناية السياسة على الأدب ... أرأيت ... اصَدَق! لقد جنت السياسة على الأدب[1] »

* * *

لم يكن لهذه المقالات الثلاث التي كتبها الرافعي عن الأستاذ عبد الله عفيفي صدى في غير هذه الدائرة المحدودة؛ على أنها أنشأت بينهما خصومة صامتة ظلت مع الرافعي إلى آخر أيامه، وظلت مع الأستاذ عفيفي في أحاديثه الخاصة إلى أصدقائه، وإلى طلابه في كلية اللغة العربية بالأزهر ...

فلما مات المرحوم شوقي بك في خريف سنة ١٩٣٢، كتب الرافعي عنه مقاله المشهور في مجلة المقتطف، وذكر فيما ذكر فيه أن شوقي بك لو كان مصرياً خالصَ المصرية لما تهيأت له الأسباب النفسية التي بلغت به مبلغه في الشعر؛ لأن الطبيعة المصرية لا تساعد على إنضاج المواهب الشعرية، ولا تعين على إبراز الشاعرية الكامنة في كل نفس.

هو رأى أبداه فيما أبدى من الرأي، لم يقصد به التعريض بأحد أو الحط من مقداره. وقد يكون رأياً إلى الخطأ أو إلى الصواب، وقد يتكافأ فيه كفتا الخطأ والصواب، ولكنه رأى أبداه الرافعي مجرداً من الهوى، لا يعنى به إلا أن يستوفى عناصر بحثه. ولكن خصومه تناولوه على ألوان وفنون

أما طائفة فالت به إلى السياسة، وقال قائلهم: هذا رجل ليس منا، يريد أن ينكر فضل مصر عليه وعلى آله، فيتهمها بالعقم وركود الذهن وجمود العاطفة فيجردها من الشعراء ... ومضى في دعواه. ذلك سلامه موسى ... !

وأما ثانيةٌ فقالت: وهذا قول يعنينا به نحن الشعراء المصريين ليجردنا من الشاعرية في قاعدة عامة لا تستثنى أحداً إلا من انحدر إلى مصر وفي أعراقه دم غريب ... ومضت هذه الطائفة تنقض دعواه وتسفه رأيه بما تسوق من الأمثال وتذكر من أسامى الشعراء المصريين

وانتفى الأستاذ عبد الله عفيفي قلمه ليكتب في (البلاغ)

(١) سنتحدث عن هذا الموضوع حديثاً أكثر صراحة في كتابنا: « المؤثرات السياسية في جيل من الأدباء » الذي نعده للنشر بعد الفراغ من هذه المقالات إن شاء الله

مقالاته الأسبوعية بعنوان (مصر الشاعرة) يذكر فيها من شعراء مصر فى مختلف الأجيال منذ كانت مصر العربية، ما يراه ردًا على دعوى الرافعى. ومضى فى هذه المقالات بضعة أسابيع يضرب على وتر واحد، ثم ملّ هذه النغمة فراح يتصيد موضوعات أخرى من مشاهداته وآرائه في الناس والحياة؛ ولكن عنوان (مصر الشاعرة) ظلّ على رأس هذه المقالات يبحث عن موضوعه ... فكان حسْب الأستاذ عفيفي فى هذه المقالات أن أنشأ هذا العنوان فى الرد على الرافعى ...!

* * *

وقد ظل الرافعى إلى آخر عمره يذكر أيامه وهو شاعر الملك، ثم ما كان بينه وبين الابراشي، وبينه وبين عبد الله عفيفى. وما كانت تظهر للأستاذ عفيفى فى الصحف مدحة ملكية، فى موسم من المواسم أو عيد من الأعياد، حتى يتناولها الرافعى فيقرأها إلى آخرها، ثم يلتفت إلى جليسه فيقول: « ماذا رأيت فيها من شعر ومن معنى جديد؟ » ثم يسترسل فيما تعود من المزاح والتندر

وقد ذكرت فيما قدمت من هـذه المقالات أن الرافعى كان يسمى كل جميلة من النساء « شاعرة »، فمنهن كالمتنبى، ومنهن كالبحترى، ومنهن بشار بن برد، ومنهن عبد الله عفيفى

فهذه الأخيرة عنده هى ذلك النوع (البلدى) من نساء الطبقة الثالثة، التى تبدو ملفوفة (محبوكة الأطراف) فى ملاءتها السوداء، غضةً بضّة، تستهويك بجمال الجسم دون جمال المعنى، وفيها أنوثة الدم واللحم ولكنها جامدة العاطفة عقيم الخيال ...

معذرة إلى الأستاذ عبد الله عفيفى! فإنما أنا راوية أكتب للتاريخ، وما شهدت إلا بما علمت، وعلىّ تبعة الرواية وعلى غيرى تبعة الرأى. وللأستاذ عفيفى في نفسى رغم أولئك كل إجلال واحترام

« شبرا » محمد سعيد العريان

* * *

إلى الأصدقاء: الأستاذ عبد الرحيم محمد تمرسى مطروح، والأديب أحمد الصاوى فضل الله بأم درمان، والسيدة أمينة العيدروس بواد مدنى، والآنسة فدوى طوقان بنابلس، والأديب السيد الصباحى ببورسعيد، لأشكر لهم، وستجمع هذه المقالات بعد تمامها إن شاء الله فى كتاب، وفلانة هى هى التى عرفها كل من كتب إلى؛ ولا أظن أن حفلة تأبين الرافعى ستقوم هذا العام لأننا لم نعرف بعد كيف يكون الوفاء لأدبائنا الراحلين. وعند الدكتور زكى مبارك أن مقالة يكتبها، هى حسب العربية فى الوفاء لمن يموت من أدباء العربية، ولو كان هذا الراحل هو مصطفى صادق الرافعى! يرحمه الله!

أناشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٨٩ —

فى اليوم الذى يطرق الموت بابك، ماذا تقدم إليه؟

آه، سأضع أمامه كأس حياتى المترعة لكيلا يرتد صفر اليدين

سأقدم له كل ما يحلو من ثمار أيام الخريف وليالى الصيف، وكل ما كسبت والتقطت فى حياتى المليئة بالجد ... سأقدمها كلها إليه عند آخر لحظة من لحظات حياتي ... حين يطرق الموت بابى

— ٩١ —

أيها الموت، يا من هو آخر أمل فى الحياة، تعال واهمس فى أذنى!

الأيام تمر وأنا أرقب لقياك؛ فمن أجلك أنشأت فى حياتى والسرور والألم معاً

أنا، وكل ما أملك، وكل ما آمل، وكل حين ... كل أولئك يندفع إليك فى أعماق الخفاء. إننى أبتغى النظرة الأخيرة من عينيك ثم لتكن حياتى شيئاً تملكه أنت إلى الأبد

لقد صففت الزهور، والأكاليل تنتظر العروس. وبعد العرس ستنقلب العروس من دارها لتلتقى سيدها — فى خلوة — فى هدأة الليل وسكونه

— ٩١ —

أنا أوقن بأن اليوم الذى أحرم فيه النظر إلى الأرض آت لا ريب فيه! وأن روحى ستفزع عنى فى صمت. فيسدل على عينى آخر ستار من أستارها

ولكن النجوم ما تزال تتألق فى غسق الليل، والصبح ما يبرح يتنفس فى حينه، والساعات تمر جياشة كأنها الموج المضطرب وفيها اللذة والألم فى وقت معاً

وحين تتراءى لى ساعتى الأخيرة يتصدع أمام عينى حجاب الزمن. فأرى من خلال لمات الموت ... أرى دنياك وفيها

كنوزها المهملة ؛ وما فيها سوى منزلٍ وضيع وحياة حقيرة

دع كل ما أندفع عبثاً فى إثره وكل ما أصيبه ... دعه يمر ولكن مُنّ علىّ بكل ما كنت أزدريه وأعرض عنه

— ٩٢ —

لقد اعتزمت الرحيل فودعونى يا إخوتى ! سأنحنى لكم جميعاً فى رفق ثم أنطلق

ها كم مفاتيح دارى فخذوها ... سأنزل لكم عن حق فيها ... ولن أطلب إليكم شيئاً سوى كلمة عطف

لقد تجاورنا طويلا ؛ ولقد نلت أكثر مما أستطيع أن أعطي

والآن ابتسم الفجر وفزع عني السراج الذى أضاء ركنى المظلم زماناً ؛ ونادانى الداعى ، وهأنذا على استعداد للرحيل

— ٩٣ —

فى ساعة الرحيل ، تمنوا لى السعادة ، يا رفاقى ! فالفجر يلمع فى السماء والطريق أمامى لاحب جميل

ولا تسألوا عما أتزود به فأنا أندفع فى طريقى قفر اليدين ممتلئ القلب بالإيمان

سألبس إكليل العرس ، ولن ألبس ثياب الرحيل الحمراء القاتمة ؛ ورغم أن فى الطريق مخاوف فقلبى مطمئن ساكن

ستبزغ نجوم الليل حين تنتهى رحلتى ، سترن فى مسمعىّ ألحان الدجى الشجية تتصاعد عند باب ملك الملوك

— ٩٤ —

لم يكن لى أن أعرف اللحظة التى أخطو فيها خطواتي الأولى نحو الحياة

أى قوة جعلتنى أتفتح فى هذه المتاهة الواسعة كما يتفتح كمٌ غضّ فى مضلاّت الصحراء تحت ستر الظلام

وعلى ضوء الصباح فتحت عينى فما استشعرت فى نفسي الغربة عن هذه الدنيا ؛ لأن قوة خفية لا اسم لها ولا شكل ، ضمتنى إليها تهدهدنى كأنها أمى

بمثل هذا ستبدو أمامى هذه القوة الخفية نفسها ... ستبدو عند موتى كما عهدتها ، وكما أحببت الحياة سأحب الموت

إن الطفل ليصيح حين تنتزعه أمه عن ثديها الأيمن . ولكنه سرعان ما يجد فى الثدى الأيسر سلوة وعزاء

— ٩٥ —

فلتكن كلمة وداعى حين أبرح هى: إن ما رأيته هنا هو المثل الأعلى

لقد رشفت بعض الرحيق الخفى من زهرة اللوتس المنشورة على محيط النور . لهذا فأنا سعيد ... فلتكن هذه هى كلمة وداعى

وفى هذا الملعب اللانهائى وجدت نفسى لهوها ؛ وفيه استطعت أن أنظر إليه نظرة خاطفة ... إليه هو الذى لا شكل له

وارتعد جسمى كله واضطربت أطرافى بلمسة من لمساته هو... هو الذى لا يلمس ؛ وإذا حان حَيْنى فليأت ... فلتكن هذه هى كلمة وداعى

— ٩٦ —

حين أجد لذتى معك لن أسأل : من عسى أن تكون ؛ فأنا لا أعرف الخداع ولا الخوف ، لأن حياتى كانت صاحبة

وفى بكرة الصباح ستوقظنى من غفوتى فى رفق كأنك صديقى ، ثم تقودنى في سرعة من طريق إلى طريق

أنا — فى هذه الأيام — لا يعنينى أن أدرك معنى الأغانى التى تترنم لى بها ؛ غير أن صوتى يوقع اللحن ، وقلبى يرقص على النغم

والآن ، وقد تصرم زمان اللعب ، ماذا عسى أن تكون هذه النظرات الفجائية التى تتساقط على ؟ إن الدنيا مطرقة فى خشوع ونظراتها معلقة بقدميك وكواكبها صامتة

كامل محمود حبيب

في المهرجان الملكي

هنيئاً لك اليوم السعيد !!

للأستاذ على الجارم بك

صفا ورده عذبا ، وطابت مناهله   وجلَّت يد الدهر الذي عز نائله

وأقبل منقاد العنان مذللا   تطامن متناه ، ودانت صوائله

يطأطئ للفاروق رأساً وتنحنى   أمام سنا المُلْك المهيب كواهله

تلفت فى الآفاق شرقاً ومغربا   فلم ير فى أنحائها من يماثله

رأى ما رأى! لم يلق عزماً كعزمه   تقد مواضيه ، وتفرى مناصله

يذوب مضاء السيف عند مضائه   فما هو إلا غمده وحمائله

إذا ما انتضاه فالسعود أعنة   إلى ما يرجى ، والليالى رواحله

رأى طلعة لو أن للبدر مثلها   لما انحدرت دون النجوم منازله

عليها شعاع لو رمى حائل الدجى   لفاخر وجه الصبح فى الحسن حائله

تراها فتغضى للجلال ، وربما   تشوف لحظ العين لو جال جائله

هو الشمس يدنو فى الظهيرة ضوءها   ويصعب مرآها على من يحاوله

هو الروض ، أو أزهى من الروض نضرة   إذا داعبت وجه الربيع خمائله

هو الأمل البسام ، رف جناحه   فطارت به من كل قلب بلابله

هو الكوكب اللماح ، يسطع بالمنى   وتنطق بالغيث العميم مخايله

ترى بسمة الآمال في بسماته   وتلمح سر النبل حين تقابله

شباب كما يصفو اللجين ، كأنما   تملأ من ماء الفراديس ناهله

يفديه غصن الدوح ريان ناضراً   إذا اهتز فى كف النسائم مائله

تطلع رمح الخط يبغى اعتداله   فعاد حسيراً ينكت الأرض ذابله

ومن أين للرمح المثقف عزمه   ومن أين للرمح الطويل طوائله ؟

إذا حفزته الحادثات رأيته   وقد شك أحشاء الحوادث عامله

علاء تحدّى الدهر فى بُعد شأوه   فمن ذا يدانيه ؟ ومن ذا يفاضله ؟

ورأى كأنفاس الصباح وقد بدا   تشف مجاليه ، وتهفو غلائله

وخلق كمخضل النسيم بروضة   ذوائبه نفّاحة وجدائله

يمس جبين النيل فى رفق عاشق   وتفتح أكمام الزهور مساحله

* * *

دعوت إليك الشعر فانقاد صعبه   وقد كان قبل اليوم شُمساً جوافله

وما كدت أدعو الوحى حتى سمعته   تبادهنى آياته ورسائله

خيال إذا أرسلتُهُ إثرَ نافر   أتت بأعز الآبدات حبائله

ولفظ كوجه الروض فى ميعة الضحى   وقد صدحت فوق الغصون عنادله

إذا قلته ألقى عطارد سمعه   وساءل شمس الأفق من هو قائله

وإن سارت الريح الهبوب بجرسه   فآخر أكناف الوجود مراحله

إذا ذكر الفاروق فاض معينه   ونمْت قوافيه ، وعبَّت حوافله

يقول وما لى حين أكتب قوله   من الفضل شىء غير أنى ناقله

رأى ملكاً يحيا القريض بوصفه   فضائله جلت ، وعمت فواضله

رأى ملكاً يزهى به الدين والتقى   شمائل أملاك السماء شمائله

رأى ملكاً كالنيل ، أما عطاؤه   فغمر ، وأما المكرمات فساحله

فغرد بالأجواء باسمك طيره   وردد فى الآفاق ذكرك هادله

وصاغت لك التبر المصفى فنونه   وحاكت لك البرد الموشى أنامله

ولم يبق من نسج السحائب زهرة   ترف ندى إلا حوتها فواصله

وصب شعاع الشمس تاج مهابة   لمن توَّجته بالفخار فضائله

وفك رموز السحر من أرض بابل   لأجلك حتى استنجدت بك بابله

أعدت له عهد الرشيد فأمرعت   إلى سدة الفاروق تشدو بلابله

وما أنت فى الأملاك إلا قصيده   تفاعيلها البر الذى أنت فاعله

يهب طريح الشعر فى دولة النهى   وتلهم أسرار البيان مقاوله

* * *

حملت له الريحان يوم زفافه   نضير الحواشى بنشر المسك خاضله

أزاحم للفاروق حشداً كأنه   خضم من الأمواج ، ضاقت سبائله

يغطى أديم الأرض عن اختراقه   وسدت على أقوى الرجال مداخله

إذا أنت لم تعرف مدى أخرياته   فسل طرفك المحدود أين أوائله

حملت له الريحان ، أرفع معصمى   إلى الملك الفرد الذى فاز آمله

وقد ملأ الأنس الوجوه فأشرقت   من البشر حتى كاد يقطر سائله

طلعت على الجمع الحفيل بموكب   يبادلك الشعب المنى ، وتبادله

مواكب لم يعرف لرمسيس مثلها   ولا خطرت فى مثلهن قنابله

يحيط بها عز المليك ومجده   وتزحمها فرسانه وصواهله

إذا امتلك الحب النفوس هفت له   سراعا ، وأعطت فوق ما هو سائله

رأوك فعالوا بالهتاف كأنما   ينافس ند نده ويساجله

كأنهم جيش الغمائم أرقت … رواعده جفن الدجى وزواجله
فلا عين إلا وهى ترتقب المنى … ولا صدر إلا فارح القلب جاذله
وقد رفعت أعلام مصر خوافقاً … ينازلها مس الصبا وتنازله
فإن كان من عين ، فإنك نورها … وإن كان من قلب ، فانك آهله
وإن كان من دهر فأنت نعيمه … وإن كان من فضل ، فانك باذله
رأى فيك هذا الشعب آماله التى … تمنى على الأيام وهى تماطله
أحبك حتى صار حبك روحه … ونور أمانيــــه الذى لا يزايله
فمن شاء برهاناً على صادق الهوى … فتلك الجموع الزاخرات دلائله
نثرت بذور الحب فى كل مهجة … وتلك التى تهفو إليك سنابله
حبابك يا فاروق للدين عصمة … وأعمالك الغر الجسام معاقله
منابره تهتز باسمـــــك فوقها … وتلتف من شوق عليك محافله
تعفر بالترب الجبين الذي عنا … له الشرق وانقادت إليه جحافله
له لمعات الشرفي ازدهت به … على كل أبنـاء الغمود صياقله
ليانيك أقمار الزمان وسعده … وأيامك البيض الحسان أصائله
قد اختارك الرحمن موضع فضله … إذا عز موصول فقد جل واصله

* * *

هنيئاً لك اليوم السعيد الذى زها … على الدهر لما لم يجد ما يشاكله
يذكرنا المأمون يوم زفافه … وقد مشت الدنيا إليــه تجامله
وسال به سيل النضار كأنما … تفجر من بين السحائب وابله
وأين من المأمون أو من زفافه … جلالة ملك أعجزت من يطاوله؟
أبى الدهر أن يلق ليومك ثانياً … يقاربه فى نبـــله أو يعادله
تخيرت من وادى الكنانة زهرة … تتيه بهـا جناته وظلائله
فريدة مجد ، يعرف المجد قدرها … وتزهى بهـا يوم الفخار عقائله
ودرة خدر أقسم الخــدر أنه … على مثلها لم تُلق يوماً سدائله
يتيه بها ضافى الشباب ونضره … وتسمو حواليه بها ، وعواطله
تخيرتها فوق السحاب مكانة … وأصفى من الماء الذى هو حامله
حباها إلــه العرش أكبر نعمة … تجلت أياديه ، وعمت جـلائله
فعش فى رفاء بالبنين ممتعاً … يضىء بك الوادي ، ويخضر ماحله
ودم لبني مصر أماناً ورحمة … فأنت حمى النيل الوفى ، وعاهله

على الجارم



أقصوصة سيكلوجية من ڤاى بوبل

كيف تنفس فى قلبها الحب

للأستاذ دريني خشبة

كانت تجلس هى وجدتها العجوز الحَيْزَبون فوق حَيْد الجبل على مقعد خشبي صنع لها خصيصاً فى هـذه الجهة لـكثرة ما بَسَق فيها من الأيْك ... وكانت السماء ترسل عليها مدراراً من الغيث ، وكان الهواء بالرغم من ذلك دافئاً جميلا منعشاً

وكانت الفتاة تتلو فى كتاب عن الأدب الانجليزى ، والجدة مُصغية ساكنة ، فلما انهمرت شآبيب المطر أقفلت الفتاة كتابها ، وراحت تصغى بدورها لهذه المحاضرة الطويلة الممتعة التى أنشأت جدتها تلقيها فى حماسة عن اللغة والأدب ، وعن دكنز وإليوت وثاكراى وغيرهم من فحول رجال الأدب فى العصر الفكتوري وتنعى على الأدباء فى هذا العصر هراءهم الذى يؤلفون فيه الـكتب من غير أن تكون لهم مُثل عليا يؤلفون من أجلها ، ويبشرون بها بين الناس ...

وكانت الجدة لا تبالى أن تضرب لحفيدتها الأمثال بما ورد فى قصص أولئك الفحول عن الحياة والعمل والأخلاق ... والحب ...

فهذه بكِى شارپ بطلة قصة ثاكراى الخالدة [(١)] لا ترى شيئاً فى أن تنفع زوجها بمجازفة غرامية يكون فيهـا حبيبها رجلاً شيخاً ضعيفاً ... وهذا لورد لِسْتَر فى قصة سكوت [(٢)] لا يرى بأساً فى أن تُقتل حبيبته إيمى حتى لا تقف عقبةً فى سبيله إلى عرش انجلترا ... وهذا فلان ، ثم ذاك فلان ... أما فى هذا العصر ... فماذا يصنع الأدباء ؟ !

(١) يقصد المؤلف قصة سوق الأباطيل Vanity Fair

(٢) يقصد المؤلف قصة كنلورث وكانت اليصابات تهوى اللورد

وكانت الأمثال التى تضربها الجدة المتحمسة تطن فى أذن الفتاة الصغيرة كما يطن النحل فى الخلية الفارغة ... ذلك أن فؤادها كان خالياً من هذا الوحى الجديد الذي نبه فيه غرائز حواء ، من غير أن تعرف الفتاة علة هذا القبس المقدس الذى بدأ يذكو فى أعماقها ، والذي نعرف سلفاً أنه فجر الحب وخيطه الأبيض الجميل

ثم حدث أن أقبل فتى وفتاة فى هـذه اللحظة ، وطفقا يَتَوَقَّلان [(١)] فى الجبل ، فلما جاوزا ، نظرت الجدة إلى الشاب نظرة المشغوف الظمئ ... ثم رددت طرفها فى الفتاة كأنما استيقظ فى فؤادها العجوز ماضيه الجميـل الوارف المُندَّى ... المفعم بالمغامرات ! !

وصَعَّد الفتى والفتاة ... وظلت العجوز تتبعهما بعينيها المشوقتين ... وكانت الفتاة قـد حَسَرت عن ساقيها خشية أن يصيب الوحل حاشية ثوبها الوردى الهفهاف ، فبدا جزء عظيم من الساقين الجميلتين ... وكانت تدلف أمام الفتى ، فحسبت العجوز وغالت فى الحسبة ؛ ثم التفتت إلى حفيدتها تقول : « عجيب جداً أمر هذا الفتى وهذه الفتاة ! كل يوم في هذه الساعة يقبلان إلى الجبل ويصعدان فيه ، ويغيبان فى الدوح ... إن هـذا أمر يثير الشك ، ويبعث على الريب ! تُرى ماذا يصنعان ثمت ؟ شاب ريّان يتدفق الدم حارًّا فى عروقه ، وله قلب ينبض بموسيقى الحياة ، وفم تخرج منه الـكلمات عذبة سحرية ، وعينان زرقاوان ترتسم فيهما صوَرُ هذه الدنيا لا كما ترتسم فى عينين سواهما ... ووجه مشرق وثغر باسم . يخلو بهذه الفتاة فى تلك الغابة لغير ما سبب ! ومع ذلك فالفتاة غضة يانعة . تتأرج كما تتأرج الزهرة إبان الربيع ويتورد خداها كما تتورد تيجانه ... يا للساقين ! ! أبداً لا يخلب ألباب الشباب مثلهما أبداً ! ! ... »

ثم أفاقت الجدة من سكرتها فوجدت حفيدتها ذاهلة عن

(١) وقل فى الجبل وتوقل صعد

نفسها وقد أخذت القناديل الرائمة التى تحترق فى سُويدائها تشع السناء من عينيها ، وأرهفت أذنيها تتلقفان الكلام العجيب الحلو الذى كان يخرج من فم الجدة ، والذى لم تكن الفتاة تحسن أن تقول مثله

— « تُرى ؟ فيم تساؤل جدتى عن الفتى والفتاة ؟ ! وفيم خلوتهما بين الأيك فى مثل هذا الوقت من كل يوم ؟ وأى شك يثيره أمرهما تمت ؟ شاب ريان ! ألا ما أجمل هذا الوصف البديع وأنا أفهم أن يكون الانسان ريانا ، ولكن ما هذه الدماء الحارة التى تتصبب فى عروق هذا الشاب ؟! ذاك شىء غريب لا أفهمه ! وهذه الموسيقى التى ينبض بها قلبه ما ذا تكون ؟ ولماذا تكون فى قلبه موسيقى ؟ ولم لا تكون الموسيقى في أذنيه كما هى فى آذان جميع الناس ؟ أية موسيقى هذه التى تكون فى القلب ياترى ..؟ وكلماته العذبة السحرية ما هى ؟ قد تكون من صنف هذه الكلمات التى تقولها جدتى ... إنها تكون جميلة جداً إذا استطاع الشاب أن يقول مثلها ؛ وأحسبه لا يستطيع ، لأن جدتى كبيرة ، وقد قرأت كثيراً فى الأدب ، ووعت كل ما جاء فى القصص ... وأنا نفسى لا أشعر بأية طلاوة فيما ترغمنى على قراءته لها فى هذا الكتاب العتيق الجاف ، مع أنها تكاد ترقص طرباً عند بعض فقراته ؛ ولا أدرى لماذا تفرح بهذا الهراء السخيف الذي لا أفهمه . لقد قصت علىّ من أمر بكّا شارب والفتاة المسكينة إيمى ، وكان قصارى حكمى على شارب أنها سافلة قليلة الأدب لأنها لم تحب زوجها كما أحب أنا أمى . وبمثل ذلك حكمت على هذا اللورد التاعس ليستر الذى ضحى إيمى ليتزوج الملكة ... ولكن ... لماذا حزنت إيمى ؟ ولماذا أحبَّته ؟ هل كانت يتيمة ليس لها أم تحبها ولا أب تحبه ؟ ولكن هذا كله ما قيمته إذا قيس بالموسيقى التي ينبض بها قلب الشاب ... »

ومرت هذه الخواطر كلها فى قلب الفتاة فى اللحظة القصيرة التى تلت صمت الجدة ، ثم سألتها حفيدة فى سذاجة الصبي وطهارته

— « بالله ياجدة ! ما هذه الموسيقى التى ينبض بها قلب أحد من الناس ؟ »

وانفرج فم العجوز عن ابتسامة كبيرة ، ثم ربتت بأناملها المرتجفة على خد الصغيرة ، وقالت لها : « اقرئى » ، وأطاعت الفتاة ، وراحت تقرأ كالببغاء ، ولا تكاد تفقه شيئاً مما تقرأ

***

واعتدل الجو ، وسكنت الريح ، واهتز النبات ينفض قطرات المطر كالطيور الصغيرة ... وانتشرت عصافير السنونو فى السهل الفياح توقع على شجيراته ألحانها ، وأشرقت الشمس لتشترك فى مهرجان الطبيعة بآرادها الذهبية الناصعة ... ولبثت العجوز تنتظر عودة الفتى والفتاة بنفس مشوقة وقلب خفِق ، حتى أقبلا آخر الأمر ، وفى وجه الفتى صُفرة وفى ساقيه رجفة ، وقد مشت الفتاة هذه المرة فى إثره ، لا تعرف العجوز لماذا ...

ولما جاوزا أرسل الفتى نظرة وسنانة من عينيه النافذتين ناحية فتاتنا حفيدة العجوز ... ثم مضى فى سبيله حتى كان فى سفح الجبل .. وهنا نهضت عجوزنا مهرولة إلى السفح كذلك ، وحفيدتها تتعثر فى خطاها خلفها ، وفى قلبها سرب من الهواجس عن هذه الموسيقى التى تستطيع القلوب أن تنبض بها ... ثم عن هذه النظرة التى رمقها بها الشاب العابر ، والتى لم تعرف بم تفسرها ..

« إنه شاب ريان كما ذكرت جدتى ، وإن له لعينين نفاذتين كما قالت ... ولكنى لم ألمسه حتى أحس دمه الذى يتدفق فى عروقه فأعرف إذا كان حاراً حقاً ... وكذلك قلبه الذى ينبض بالموسيقى ... لابد لكى يسمعها الإنسان من أن تكون له (سماعة) طبيب أو على الأقل ، لابد من أن يضع الانسان أذنه فوق صدره ، ليعرف ما هنالك .. على أن وجهه أصفر كاللوتس.. فما السبب ياترى ؟ هل هو مريض ... ؟ »

وظلت هذه الهواجس تضطرب فى صدرها ، وجدتها تنهب الطريق فى إثر الفتى والفتاة ، حتى إذا كانت حذاءهما ، أقرأتهما سلاماً جميلا ، فردّاه أحسن رد وأطيبه ، وافتر فم الشاب عن ابتسامة حلوة حيا بها الفتاة ... فلم تدر كيف ترد عليه ابتسامته...

وجلست الفتاة تقرأ لجدتها فى ضوء مصباح عليل . وجدتها ما تلبث أن تتثاءب وتتثاءب ... حتى تضايقت حفيدتها من ذلك ولم تبال أن تقول :

— إذن نبق القراءة إلى الصباح ياجدة ، ولا بد أن تذكرى لي شيئاً عن هذه الموسيقى العجيبة التى تنبض بها القلوب

فقهقهت الجدة حتى بدت نواجذها وقالت : هل تذكرين حينما كنت أزوركم وذهبنا فى المساء إلى (السرك) ؟ فلما انتهت الموسيقى قلت لكم إنها لِبَاخ ؟ » فعبست الفتاة ، وقالت : « ومن

باخ يا جدة ؟ » فأجابتها : « موسيقى عظيم يا تلدا » فقالت تلدا : « وما شأنه فيما سألتك عنه ؟ » فقالت الجدة : لقد كان باخ يوقع على بيانه بأنامله ، وفى الحقيقة لقد كان يوقع عليه بقلبه؟ » فتجهمت تلدا وقالت : « تعنين أنه كان يتكىء على البيان بصدره؟ فتضاحكت العجوز وزجرت تلدا ، ثم قالت لها : « هذه يا تلدا أشياء كالعلوم التى تتلقينها فى المدرسة ، هل تستطيع فتاة فى السنة الأولى أن تفهم درساً من دروس السنة الخامسة ؟ » فهزت الفتاة رأسها الجميل وقالت : « طبعاً هذا غير ممكن ! » فقالت الجدة : « فهذا مثل ذاك يا بنية ! » ثم أمرتها أن تقرأ ، ففتحت الكتاب وما كادت تقلب صفحاته باحثة عن الباب الذى كانت تتلوه ، حتى تثاءبت جدتها بشدة ، فجعلت تلدا تقلب وتقلب إلى أن أغمضت العجوز عينيها ، وألقت على سنادة الكرسى رأسها ، وغطت فى سبات عميق

* * *

وقذفت تلدا الكتاب على سريرها ، ثم انطلقت إلى مكتبة جدتها فجعلت تقلب فى الكتب ، وتنظر إلى الرسوم والصور ، حتى عثرت آخر الأمر على قصة دانتى الرائعة المسماة (الكوميديا الإلهية) ، وكانت نسخة هذه القصة مصورة حافلة بالرسوم الزاهية بالألوان الطبيعية ... فجلست تتفرج بها ، وتنعم النظر فيها ، حتى اهتدت إلى الصورة الخالدة الباهرة ، صورة پولو وفرنشسكا ، وهما متعانقان فى الجحيم ، وقد انطبق فم پولو على ثغر حبيبته ، وراح يقبلها تقبيلا حاراً ، يخفف عنهما ما هما فيه من عذاب السعير

ولبثت تلدا تنظر فى الصورة وتتعجب ... « ترى ماذا يصنع هذا الشاب الريان فى هذه النار المتقدة ؟ إنه يضع وجهه فى وجه امرأة ويقبلها كما تقبلنى أمى حينما أكون مغضبة ! ألا يحس هذه النار المتأججة حوله ؟ هل هذه المرأة ابنته ؟ لا شك أنها ابنته ، وإلا فلماذا يقبلها ! »

ثم قرأت فى أسفل الصورة هذه السطور :

« پولو يقبل حبيبته فرنشسكا فى سواء الجحيم ، غير عابئ بالنيران التى تشتعل فى ساقيه وتلتهب من حوله ... وهكذا قضى الله أن يكون الحب عزاء للمحبين حتى فى وهاد سقر ... فهو الماء العلوى الذى يطفئ النار المندلعة بين جوانحهم والقبلة ثمرته المشتهاة ، وخمره وجناه ! »

وبرقت عينا تلدا ، وحملت الكتاب ذا الصور إلى حيث راحت جدتها تغط وتزعج البوم بشخيرها :

— جدة ، جدة ، استيقظى !

— ماذا ... ما ... ذا ...

— استيقظى وحياة أبيك !

— ماذا يا تلدا ؟ لماذا لا تقرئين ؟

— ها أنا ذى أقرأ والله ! اسمعى :

ثم شرعت الفتاة تقرأ السطور التى تحت صورة پولو وفرنشسكا!

— ما هذا يا تلدا ؟ ! الكتاب تأريخ للأدب الإنجليزى ، وپولو وفرنشسكا شخصان خرافيان اخترعهما دانتى الإيطالى ! هاتى الكتاب !

وتناولت العجوز الكتاب ، ونظرت فى الصورة ، ثم عبست وبسرت وأقفلته لترى ما هو ...

— هذه كوميدية دانتى من أين جئت بها ؟

— من المكتبة ...

— آه ياخبيثة ... كان يجب أن أبقى المفتاح معى ... الصور التى من صنف هذه الصورة ، والموسيقى التى تنبض بها القلوب ، من دروس السنة الخامسة ، ولا تستطيع تلميذة السنة الأولى أن تفهم دروس السنة الخامسة !

* * *

وفى صبيحة اليوم التالى قرع الباب قادم فأهرعت تلدا لتلقاه

— أهو أنت ؟

— أجل ، هو أنا !

— وأين الفتاة التى كانت معك أمس فوق الجبل ؟

— فى المنزل

— وما هذا الورد الجميل ! أتعطينى وردة ؟ !

— إنه كله لك !

— كله ؟ !

— أجل ...

— والفتاة التى كانت معك ، ألا تأخذ منه شيئاً ؟

— إنها أختى !

— أختك ؟ وهل أختك لا تحب الورد ؟

— ومن ذا الذى لا يحب الورد ؟ إنها تحبه جدًّا

— إذن لا آخذه كله يجب أن تبق بعضه لأختك

ثم صاحت جدتها تسألها مع من تتكلم ، فقالت للشاب :

— ما اسمك أيها الشاب ... الر ... يان ؟

— ڤكتور !

فصاحت تجيب جدتها :

إنه ڤكتور يا جدة !

— ڤكتور ؟ ! ومن ڤكتور ؟

— أجل ڤكتور ... الشاب الذي رأيناه على الجبل أمس

وأقبلت العجوز الحيزبون مُهرْولة فسلمت على الشاب ودعته إلى حجرة الجلوس ، فدخل ومعه باقة الأزهار الكبيرة

— مرحباً بك يا ڤكتور ، كم أنا سعيدة بك

وكانت تتكلم وذكرياتها القديمة ثائرة كلها فى صدرها العجوز والدم العجوز يتدفق فى عروقها الضعيفة ... والمفاجأة الحلوة تعقد لسانها فتأخذها ربكة مضحكة

— هذا الورد جميل ... أوه ... ذاك سَوْسَن ما أبهاه ! وبنفسج ، لمن حملت كل هذا يامسيو ڤكتور ؟

— لـ ... لهذه الأخت الصغيرة ... و ... لك يا أماه

وبلعت العجوز ريقها ، ونظرت إلى حفيدتها فى حنق ، وقالت للشاب :

— والفتاة الجميلة التى كانت معك أمس ؟

فقالت تلدا :

— إنها أخته يا جَدّة

— أخته ؟ أحقاً هي أختك ؟

فقال الفتى : « إى وربى ، إنها أختى »

فقالت العجوز : « إذن ... احمل هذه الباقة إليها ... فهى بها أحق ... »

فقال الشاب : « ولكنى قطفتها بِيدَىّ من حديقتى هدية لحفيدتك ! »

وتدخلت تلدا فقالت له : « من حديقتك ؟ إذن أنت تملك حديقة ؟ »

فقال لها : « أجل ، وهى حديقة غناء ، تليق بك »

فقالت له : « وهل تأذن لى فى زيارتها ؟ »

فقال : « ولم لا ... إنك تكونين أبهى زهرة فيها ... »

ولم تطق العجوز أن تسمع إلى كل ذلك ، فصرخت صائحة « كفى ! حَسْبُك ، أرجوك »

بيد أن الفتى ما زال بها حتى وعدت أن تزوره فى صحبة حفيدتها بعد يوم أو يومين

* * *

وكثرت زيارات العائلة المقدسة لحديقة الفتى ، وتوثقت بينهما عرى الصداقة والتحاب ، وكانت أخته الجميلة التى حسبتها العجوز حبيبته من قبل تلقاهما فيأنسان إليها

وذهبت تلدا مرة وحدها تزور حديقة ڤكتور ففرح بها أيما فرح ، وقطف لها أحسن وردة وأبهاها ، وجاءها بتفاحة كبيرة حمراء ؛ ثم جلس بجانبها برهة ، وجعل يحدق فيها بصره

ثم اقترب منها فلم تبتعد ...

ولمس جسمه جسمها فأحست بدفء ولكن ليس كالدفء الذى ينبعث من النار ... ثم لمحت فى عينيه شيئاً غريباً فلم تجسر أن تسأله عنه ... ثم مد إليها يده فمدت إليه يدها ... فأخذها فى كلتا راحتيه

وتركت الأزهار تسقط على العشب أمامهما

وأبصرت عبرة تترقرق فى عينيه فسألته لماذا يبكى ؟ فلم يجب ثم ارتبك قليلاً وقال لها بلسان متلعثم : « تلدا ! » فقالت له : « نعم يا ڤكتور ؟ » فقال لها والخجل يبعثر الحروف من شفتيه : « أتأذنين لى فى ... قُبْلة ... ؟ »

* * *

وسمعا وراءهما هاتفاً يقول :

« فرنشسكا ... بَوْلو ... »

فنظرا ... فإذا هى الجدة العجوز الحيزبون

وكان هذا فى سن تلدا التى لم تبلغ الثالثة عشرة ... وبعد ثلاث سنين أُخر ... كانت موسيقى جميلة تصدح فى حديقة ڤكتور ، انتظاراً لقدوم عروسه تلدا

دريني خشبة



المهرجانات الأدبية في موكب الزفاف الملكي

كان زفاف الفاروق الميمون موسماً من مواسم الأدب والشعر، اهتمت له جميع الهيئات الرسمية وغير الرسمية، فأعدت الحفلات الحافلة، وأقامت المهرجانات الفخمة، وتبارى الشعراء والخطباء في وصف اليوم الرائع وكلهم مجيد محسن. فأقامت جمعية الشبان المسلمين حفلة شائقة افتتحها الأمير عمر طوسون بكلمة طيبة، وأقامت اللجنة الأهلية مهرجاناً رائعاً في دار الأوبرا تكلم فيه نخبة طيبة من رجال المواهب في الشعر والخطابة، وأقامت الجامعة الأزهرية حفلا مهيباً حضره رئيس الوزراء وخطب فيه شيخ الأزهر وكثير من الأعلام، وإنما كان أروع وأفخم جميع الحفلات والمهرجانات ذلك المهرجان الكبير الذي أقامته وزارة المعارف في دار الأوبرا الملكية في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الاثنين الموافق ٢٤ يناير سنة ١٩٣٨ م، فقد حضره مندوب جلالة الملك، وألقى وزير المعارف كلمة الافتتاح، ثم تعاقب على منصة القول حضرات الأساتذة الشعراء على الجارم وخليل مطران ومحمد الهراوي وعلى محمود طه، والأساتذة الخطباء عباس محمود العقاد وأحمد أمين وابراهيم المازني وعبد العزيز البشري. وقد زاد في روعة المهرجان وأفاض عليه روح الفكاهة والبهجة أن الخطباء والشعراء عُرضوا على الجمهور عرضاً مسرحياً فكاهياً ضمن صورة تاريخية مسرحية لمجالس الشعر والأدب في عصر الرشيد وضعها الأستاذ توفيق الحكيم وهي فكرة طريفة لم يسبق إبداعها في مثل هذه المناسبات، وقد صدحت فرقة الهواة الموسيقية تحت رياسة الدكتور الحفني بالأنغام العذبة الشجية في البدء والختام

متحف فلسطين

افتتح أخيراً في بيت المقدس متحف عظيم، قد يغدو في المستقبل القريب المتحف الثاني في الشرق الأدنى من حيث أهميته الأثرية بعد متحف القاهرة، ولهذا المتحف قصة ترتبط أيضاً بذكر متحف القاهرة؛ ففي سنة ١٩٢٣ عرض المثرى الأمريكي الشهير روكفلر كما نذكر، على الحكومة المصرية هبة مالية عظيمة لبناء متحف مصري عظيم، ولكن الحكومة المصرية اعتذرت من قبول هذه الهبة نظراً لما اقترن بها من شروط غير مقبولة؛ فمنذئذ تدخل بعض علماء الآثار في الأمر وفي مقدمتهم العلامة الأستاذ برستيد، وتوسطوا لدى المثرى روكفلر في أن يحول مشروع الهبة إلى حكومة فلسطين، فنزل عند هذه الرغبة وقدم إلى الحكومة الفلسطينية هبة قدرها مليونان من الدولارات (أربعمائة ألف جنيه) لبناء متحف عظيم في فلسطين يضم آثار الأرض المقدسة؛ وتبرعت الحكومة بالأرض التي يقام عليها المتحف وهي تبلغ نحو عشرة فدادين تقع في الجانب الشمالي الشرقي من المدينة وتشرف على جبل الزيتون، وقبة الصخرة، وربى شرق الأردن

وأقيم المتحف في هذا الموقع التاريخي على أحدث الأصول الفنية، وقسم إلى أروقة تظللها حنيات معقودة، وأقيمت في شماله حظيرة بها فسقية عربية جميلة؛ ونظمت أروقته تنظيما تاريخياً لتكون معرضاً لتاريخ فلسطين في جميع أطواره، وجمعت فيه كل الآثار التي وجدت في فلسطين حتى اليوم، ومنها آثار العصر البرنزي حتى عصر الكنعانيين. وسيخصص فيه قسم لعرض الزخارف العربية التي استخرج معظمها من أطلال قصر هشام ابن عبد الملك التي اكتشفت أخيراً بالقرب من أريحا، وقسم آخر للتحف المصرية الآشورية، وهكذا. وقد فتح للجمهور رواق واحد هو الذي يضم آثار العصر البرنزي؛ وذلك حتى يتم تنظيم الأقسام الأخرى

وقد أثار افتتاح هذا المتحف الجديد اهتماماً في الدوائر الأثرية والمعتقد أنه سيكون الى جانب آثار بيت المقدس التاريخية عاملاً جديداً في إغراء السياح من أنحاء العالم على زيارة الأراضي المقدسة

حرب الأثير

يشهد العالم اليوم أغرب حرب عرفت فى التاريخ فهى ليست صراعاً بين الجيوش والقوى المادية ، بل هى صراع بين وسائل الدعاية لغزو أعظم حشد ممكن من العقول والقلوب . ولم يبق الراديو أداة للدعاية القومية أو المحلية فقط بل غدا أداة للدعاية العالمية يرسل أمواجه فيما وراء البحار إلى مختلف الأمم ؛ فمن محطة بارى الإيطالية تسمع الأمم العربية منذ أعوام خطباً عربية فى مختلف الشئون وتسمع أنباء العالم بالعربية وتسمع الموسيقى العربية ؛ ولم يكن القصد من ترتيب هذه البرامج العربية فى محطة إذاعة أوروبية إمتاع الأمم العربية فقط أو تحرى غايات ثقافية ، بل رتبت بقصد التأثير فى عقول السامعين وتوجيههم إلى ناحية معينة من التفكير السياسى . ومنذ أسابيع قلائل أنشئت في لندن محطة للاذاعة العربية تنحو نحو المحطة الايطاليـة فى إذاعة الخطب والمحاضرات والموسيقى العربية من العاصمة الانكليزية ؛ ومع أنها أنشئت فى الحقيقة لمقاومة الأثر الذى تحدثه محطة بارى فى نفوس الأمم العربية ، فإنها لم تسلك سبيل الدعاية المفرقة ، على أنها تؤمل على أى حال أن تلطف من هذا الأثر الذى اعتبر فى لندن ضاراً بهيئة انكلترا وسمعتها فى الأمم العربية . والذى يلفت النظر فى أمر هذه الحرب الأثيرية الغريبة هو العبرة التى يمكن للأمم العربية أن تستخلصها منها ؛ فهى فى كلتا الحالتين الميدان المختار لاحداث الأثر والآثار المنشودة ، وهى المقصودة بالتوجيه والتحريك ، ولا ريب أن الأمم العربية ليست من الغفلة بحيث يفوتها هذا الاعتبار

فى مجاهل التركستان

عاد أخيراً إلى ألمانيا العلامة الرحالة الألمانى الدكتور فلشر بعد رحلة خطرة فى مجاهل التركستان دامت أربعة أعوام ، واستقبل فى برلين بحفاوة عظيمة ؛ وكان قد بدأ رحلته فى سنة ١٩٣٤ ، وذلك بقصـد استكشاف الخواص المغنطيسية والمعدنية للمنطقة الشاسعة التى تقع بين الصين والهند ، فقصد إلى نانكين ومنها إلى التركستان فى قافلة مؤلفة من زميل له وستة من الصينيين وأربعين جملاً ، ولقى من الصعاب والمتاعب مالا يوصف من اعتداء قطاع الطريق وتمرض رفاقه ، والمرض المتكرر والحر المرهق . ولما وصل إلى خوتان قبض عليه الحاكم وألقاه مع رفيقه فى السجن وصادر ما يحملانه من الآلات الفلكية والعلمية ؛ ولبثا فى السجن ستة أشهر ، ثم أفرج عنهما أخيراً بتدخل ممثل انكلترا ؛ فاستأنفا رحلتهما إلى « لى » بعد أن عبرا جبال الهملايا الشامخة

وأنفق الدكتور فلشر أربعة أعوام فى الدرس والاستكشاف وفى رأيه أن هذه المناطق غنية بالبترول ولا سيما فى شرق التركستان حيث تبدو آثار الزيت ماثلة فى مياه الأنهر ، كذلك هناك ما يحمل على الاعتقاد بوجود الذهب في سهل كشغر نظراً لأن الأهالى يحرزون كثيراً من تراب هذا المعدن النفيس

وقد زار الدكتور فلشر هذه المناطق من قبل فى سنة ١٩٠٣ حيث سافر من طشقند فى التركستان الروسية إلى منغوليا وكنسو ، وفى سنة ١٩٢٦ عاد إلى طشقند وسار منها إلى تنجار ، ثم عاد الى الهند بطريق كشمير ، فهو بذلك من العلماء الخبيرين بهذه المنطقة وخواصها

نسائم الأستاذ الجارم

الأستاذ على الجارم الأديب الكبير وخليفة (شوق) فى مصر عند طائفة يقول فى لاميته فى المهرجان الملكى :

يفديه غصن الدوح ريان ناضراً إذا اهتز فى كف النسائم مائله

فجاء بالنسائم جمعاً للنسيم أو للنسمة ، والمعروف أن جمع نسيم أنسام وجمع نسمة نَسم وسالما نسمات ، ولم ترد هذه (النسائم) فى كلام إسلامى أو مولد . دع عنك المخضرم والجاهلى ، والمتأخر والعصرى ما ها حجة

(الاسكندرية) (***)

مخطوط للموسيقى موتسارت

ظهرت أخيراً تحفة أثرية جديدة للموسيقى الأشهر موتسارت هى عبارة عن مذكراته التى كانت يكتبها (بالألمانية) عن حياته وتآليفه الموسيقية فى مذكرة جيب صغيرة ، وقد كانت هـذه التحفة فى حوزة أحد الهواة الانكليز ، فعمل أخيراً على تصويرها ، وطبعها أحد الناشرين الانكليز ، ولم يغير شيئاً فيها بل نقلها كما هى فى لوحات (أكليشهات) مصورة ، وبذلك يستطيع القارىء أن يقرأ فيها محتوياتها بخط الموسيقى نفسه

وفاة مستر كيلوج

ليس فى الدنيا رجل محب لسلام العالم لا يعرف مستر كيلوج صاحب الميثاق المعروف باسمه لعـدم اتخاذ الحرب وسيلة لحسم النازعات التى تحدث بين الدول ... هذا الميثاق الذى حمل غصن الزيتون طويلا والذى أقرته الدول قاطبة ، وكانت اليابان ثم إيطاليا أول من جعله قصاصة ورق لاقيمة لها من حيث القيمة الفعلية ...

مات مستر كيلوج فى ٢٢ ديسمبر الماضى فى سن الحادية والثمانين بعد حياة موفورة مليئة بجلائل الأعمال ... حياة غالية غزيرة الحب للإنسانية ، هى المثل الأعلى لمـا يجب أن تكون عليه حياة العظماء العصاميين فى كل زمان ومكان

ولد كيلوج فى ديسمبر سنة ١٨٥٦ من أبوين فلاحين وعمل فى المزرعة مع أبيه ثم تردد على مدرسة أولية تعلم فيها القراءة والـكتابة ورشف قـدراً نافعاً من المعلومات البسيطة أغراه بالدراسة العالية بطريق المراسلة والانتساب من الخارج حتى نال إجازته التى فتحت له باب المجد على مصراعيه فما زال يرقى من منصب إلى منصب حتى عين سنة ١٩٢٤ سفيراً لبلاده (الولايات المتحدة) فى لندن وفيها سعى حتى عقد ميثاقه ضد الحرب بين الدول ثم نقل إلى واشنطون ليظل سكرتيراً للجمهورية طوال رئاسة مستر كوليدج (١٩٢٥ — ١٩٢٩) ثم عين قاضياً لمحكمة (الهاج كورت) ...... وهكذا كانت حياته سلسلة من المفاخر سيزهى بها اسمه على اسكندر قيصر روسيا وولسن رئيس أمريكا وغيرهما من خدام السلام

صومبارت والوطنية الاشتراكية

أفلحت النازية ــ أو أفلحت الاشتراكية الوطنية الألمانية ــ فى خلق فلسفة جديدة ثابتة الدعائم هي الآن ألد أعداء الماركسية أو بالأخرى الشيوعية ، وقد كتب العلامة فرنر صومبارت Werner Sombart كتابه العظيم (فلسفة جديدة اشتراكية Deutsche Sozialismus فلفت إليه الأنظار بما تناول به كتاب كارل ماركس (الرأسمالية الحديثـة) من النقد المر والتجريح البارع ، وقد ارتفع العلامة صومبارت بكتابه هـذا إلى مرتبة هيجل فى الوطنية الألمانية ، والألمانيون يتخذون من كتابه إنجيلاً جديداً يذكى فيهم روح المطامع العالية التى نفختها فيهم النازية والتى نفخها فى أسلافهم هجل من قبل . وصومبارت يدعو إلى فلسفة إيجابية تأتى من الله مباشرة ، فلا تعرف هـذه الطريق الملتوية المكتظة بالوسطاء من قسس وأحبار ودهاقين ؛ وهذا هو الذى أثار عليـه الـكنيسة وخلق منها عدوًّا داخليًّا لألمانيا النازية ، بل هو أيضاً ما ألب الألمان على اليهود وحفزهم إلى طردهم خارج الوطن الألمانى المقدس لأن النازية لا تعنى بشىء أكثر مما تعنى بالوحدة فى كل شىء

تاريخ ابن حيان

صدر أخيراً القسم الثالث من الجزء الذى انتهى إلينا من تاريخ ابن حيان مؤرخ الأندلس مطبوعاً بعناية بعض المستشرقين وقد نشر هذا الجزء بأقسامه الثلاثة عن مخطوط وحيد تحتفظ به مكتبة « بودليان » الإنكليزية ؛ وتبدو نفاسته وأهميته متى علمنا أن مؤلفه أبو مروان ابن حيان هو أعظم مؤرخى الأندلس المسلمة ؛ وهو جزء من تاريخه الشهير المسمى « المقتبس فى تاريخ الأندلس » وفيه يستعرض تاريخ الأندلس منذ الفتح إلى أوائل الطوائف ، ويعنى عناية خاصة بترجمة العلماء ، ويتعلق الجزء المنشور بعهد الأمير عبـد الله الأموى (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) وهو عصر من أخطر عصور الدولة الأموية ، وفيه كانت ثورات الأندلس الشهيرة ومنها ثورة ابن حفصون أعظم ثوار الأندلس ؛ هذا ويظن بعض العلماء المطلعين أن كتاب « المقتبس » بأكمله لم يفقد نهائياً ، وأنه ربما وجدت منه نسخة فى بعض مجموعات المغرب ؛ خصوصاً وأنه كان حتى القرن الحادى عشر الهجرى مرجعاً للـكتاب المتأخرين ومنهم المقرى

مقدمة ابن خلدون بالفرنسية

منذ نحو قرن وضع المستشرق الفرنسى البارون دى سلان ترجمة فرنسية لمقدمة ابن خلدون ، صدرها بترجمة لحياته مشتقة مما كتبه ابن خلدون نفسه عن حياته فى « التعريف » وقد لبثت هذه الترجمة عمدة المستشرقين حتى يومنا ؛ وقد فكر لفيفهم فى إعادة طبع هـذه الترجمة وتنقيحها وإخراجها فى ثوب جديد ؛ وبالفعل صدرت أخيراً طبعة جديدة لترجمة دى سلان تفضـل الترجمة القديمة بكثير ، وهى كالقديمة فى ثلاث مجلدات كبيرة ، منقحة مهمشة ذات فهارس جديدة



فى منزل الوحى

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك

للأديب محمد فهمى عبد اللطيف

لعل فريضة من فرائض الإسلام وشعائره لم تخدم الثقافة الإسلامية ، وتنفع الأدب العربى كما خدمت فى ذلك فريضة الحج وأفادت ، فإن جل الذين كتبوا الرحلات ، وألفوا فى التاريخ الإسلامى خصوصاً تاريخ بلاد العرب ، ووصف طبيعتها وجغرافيتها وتقويمها ، هم من الذين كانوا يقصدون إلى أداء الفريضة المقدسة ، وزيارة الروضة المطهرة . وكتاب « فى منزل الوحى» إنما هو أثر من تلك الآثار التى فاض بها الشعور الإسلامى ، والاتجاه الروحى نحو تلك البلاد الطيبة التى تنزع إليها النفوس ، وتهفو نحوها الأرواح ، وتطمئن بذكرها القلوب . وقد وصف المؤلف الفاضل كتابه وتحدث عن القصد الذى قصده من تأليفه فقال : « وليس هـذا الكتاب مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامى ، ولا شىء فيه من تقويم بلاد العرب ، إنما هى وقفات وقفتها فى بلاد الوحى ومنزله ، أستوحى فيها مواقف محمد عبد الله ونبيه ورسوله ، وهناك فى هذه المواقف تجردت نفسى وسمت روحى وكرت بالعصور والقرون أطويها ، ورحت أتمثل هذا الهادى الكريم ، وأتمثل المسلمين من حوله ، ألتمس فى ذلك الأسوة والعبرة ، آملاً أن أشرك فيهما إخوانى المؤمنين بالله ، وبما جاء من عند الله . لم أتقيد فى هذه المواقف بما جاء فى كتاب غير كتاب الله الكريم ، ولم أخضع تفكيرى لحكم غيرى ، وما كان لى أن أخضعه ، فقد كنت أحس فى كثير من هذه المواقف أننى بين القوم أسمع وأرى ، وأننى لو كنت أجاهد معهم ، فأفوز فوزاً عظيما ، وما كان لى أن أفعل ثم أخدع نفسى فأزعم أننى إذ أحدث الناس إنما أقص عليهم ما رأيته وما أحسست به فى حين لا أقص إلا ما رآه غيرى ، وما سبقنى إلى تسطيره . لقد تركت نفسى على سجيتها تتوجه بوحى روحى ، وتستلهم الحق مما حولى ، وتستعرض ما تستلهمه على حكم عقلى وتقدير ضميرى ، ثم سطرت ما اجتمع من ذلك لا أبغى به إلا رضا الله »(١)

هذا كلام المؤلف الفاضل فى وصف كتابه ، وهو كلام ، على ما أرى ، فيه شىء من التواضع يغطى جانباً من الحق ؛ وقد تكون هذه نية الدكتور هيكل فى تأليف كتابه ، أراده على أنه « ليس مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامى ولا شىء فيـه من تقويم بلاد العرب وإنمـا هى وقفات فى بلاد الوحى ومنزله » ولكنه على ما يظهر غلب على أمره فجاء كتـابه مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامى ، وجاء خير دليل يجب أن يصحبه كل راحل إلى تلك البلاد ، وجاء أيضاً من أهم التقاويم لكثير من الأماكن فى بلاد العرب ، ثم جاء مشروع إصلاح قويم يهم من يهمهم « العناية بهذه البلاد المقدسة ودراسة حاضرها وماضيها دراسة علمية دقيقة ، وما يدعو المفكرين والساسة أولى العزم ليعملوا على إصلاح هـذه البلاد »(٢) ، ثم هو نفحة روحية من أثر الرسول الكريم فاض بهـا قلب خافق وشعور دافق . فإذا كانت نية الدكتور هيكل على ما ذكرنا من قبل ، فلا شك أنه قد غلب على أمره ، وتجاوز رغبته فى إخراج كتابه ، وتحديد الموضوع

(١) ص ٢٠ من الكتاب
(٢) ص ٢٩ من الكتاب

الذى أراد أن يجرى فى حلبته ؛ وهو تجاوز قد اقتضته طبيعته ، ودفعته إليه صناعته ، فكان ذلك من حظ العربية وحظ قرائها وحظ رواد تلك البلاد المقدسة

نعم ! هو تجاوز اقتضته طبيعة هيكل ، لأن هيكلا كما نعرف صحافى ، والصحافى من طبيعته لا يقف عند شئ ولكنه يحب أن يقف على كل شئ ؛ ثم هو أديب دقيق الشعور وافر الإحساس يتأثر ويهتاج لكل ما يراه ويقع عليه حسه ، فإذا وصف أضفى على وصفه الإحساس والشعور وخلقه خلقاً حياً كله الروعة والجلال ؛ ثم هو عالم ناقد ينظر إلى كل شئ بعين فاحصة ، وفكر صائب وتقدير سديد ، وهذه الغريزة فى نفسه هي التى جعلته يقول ما يقول عن حق « إن الحكمى المكان الأول من الاحترام عندى ، وإذا لم يكن من حسن القصد أن نعجل بالحكم قبل أن نطمئن إليه وقبل أن تتم بين أيدينا أسبابه ، وكانت العجلة طيشاً غير جدير بمفكر يحترم عقله فليس من حسن القصد ولا من احترام المفكر عقله أن ينحل نفسه حكم غيره قبل أن يمحصه حتى يطمئن ضميره إليه ، ومن الجمود الذى لا يقاس إليه طيش أن نأبى تقليب الأمور على وجوهها جميعاً حتى نطمئن إلى بلوغ غاية ما نستطيع من الحق فيها [1] »

وأحب لك أن تتأمل الكتاب بنفسك ، وأن تصحب مؤلفه الفاضل من « عزم السفر » حتى « أوبة الرضا » فستقضى فى ذلك سفرة سعيدة ، ورحلة طيبة ، يسعد فيها عقلك بكثير من العلم والمعرفة ، ويفوز منها قلبك بكثير من البهجة والانشراح ، وتطيب بها روحك على خير ما تطيب به الأرواح من ذكر الماضى وأثر الدين ؛ غير أنى أحب لك أيضاً أن تكون صبوراً مع هيكل ما وسعك الصبر ، إذ تراه يسير سيراً بطيئاً فيقف بك عند كل أثر من آثار الرسول ، ينبش الماضى ، ويسأل التاريخ ، ويفحص المعالم ، ويستوحى الروح ، ويحكم العقل ، ويقارن بين ما يرى وما يسمع ، فإذا طفت معه مثلاً فى أنحاء مكة الحديثة ، فكن شديد الاحتمال إذ تراه يدخل بك فى كل زاوية ، وينعطف بك على كل ثنية ، وينحدر بك إلى كل مغار ، ويرتفع بك إلى كل نجد ، ويدفعك دفعاً حتى بين النؤى والأثافى ، والأحجار والصخور ، ويقف بك عند كل أثر ظاهر ، وكل مظهر قائم .

وإذا ما صحبت هيكلا مثلاً إلى أسواق العرب فاصبر إذ تجده يطيل عليك فيحدثك عن الأسواق الثلاث فى العهود القديمة ، ويتلمس لك موقع المجنة وموقع ذى المجاز ، ويكشف لك عن أسباب الخصومة فى الأسواق العامة ؛ ثم يحدثك عما كان يجرى فى عكاظ وعن موقف النبي صلى الله عليه وسلم فى تلك السوق ، ثم يسرد الأقوال التي قيلت فى ذلك من قبل محاولاً أن يطبقها على ما يرى وأن يقيسها بمقياس العقل . نعم أحب لك أن تكون صبوراً مع هيكل إذا رأيته فى جميع المواقف يبحث ويتقصى ويطيل النظر والتأمل فإنه إنما يقف بك على آثار ومعالم لحياة قوم ملأوا الدنيا بمجدهم ، وأسعدوا العالم بهديهم ، وأفعموا التاريخ بذكرهم .

أما نفس هيكل فى هذه المواقف فهى نفس مطمئنة يقول هو عنها بأنها « قد سمت إلى حيث لم تسم من قبل قط [1] » وهو يحدثك عن شعوره فى ذلك فيقول : « رأيت نور الله ماثلاً فى كل دقيق وجليل من خلقه ، ورأيت آية الهدى متجلية يشهدها كل من أراد أن يفتح لها قلبه وبصيرته ، ورأيت سنته فى الكون تبتدى لكل من أخلص إلى الحق وجهة ثابتة لا تبديل لها ، رأيت هذا كله رأى العين ، وآمنت به إيمانى بما يقع عليه حسى ، وما تلمسه يدى ، وأيقنت أن العلم بهذا كله هو الحياة الراضية المرضية [2] »

وما نفس هيكل فى ذلك وشعوره إلا طراز من النفس السامية على حقيقتها ، ونمط من الروح الشرقية التى تمجد الدين أبداً ، وتقدس المعنويات أبداً ، إذ ترى سعادتها فى الروحيات أكثر منها فى الماديات

والظاهر أن هيكلا فى حياته الروحية الجديدة قد اتصل بالقرآن اتصالاً وثيقاً ، وتغذى بألفاظه وأسلوبه كما تغذى بمعناه وروحه ، وإنك لتلمح أثر ذلك واضحاً جلياً فى تعابيره خصوصاً إذا ما تحدث عن معانى الإسلام تعمر القلوب ، وسمو الإيمان يغمر الأرواح والنفوس . انظر إليه وهو يصف الحجاج محرمين فى طريقهم إلى مكة فيقول : طبع هذا المنظر أعمق الأثر فى نفسى

(١) ص ٢١ من الكتاب

(١) و (٢) ص ٦٢٧ من الكتاب

فهذه القوافل من الشاة والركبان تقصد إلى غاية واحدة وترجو فى ربها الرجاء الأسمى ... ليس يذكر أحدهم ماله من ثروة أو جاه أو ولد، وإنما يذكر أنه هو وهؤلاء المسافرين معه إخوة فى الله وأنهم جميعاً قد أتوا قاصدين بيته، ملبين داعيه، ليشهدوه على أنفسهم وليطهروا بين يديه مما قدمت أيديهم، وليبدؤوا بذلك حياة جديدة يبتغون فيما آتاهم الله الدار الآخرة، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا ويحسنون كما أحسن الله إليهم، ولا يبغون الفساد فى الأرض. لهذا جاءوا من كل فج عميق، ولهذا ركبوا البر والبحر واستهانوا بالمشقة ونسوا كل شىء إلا الله، ولهذا أحرموا آية إخائهم ومساواتهم إيذاناً بأن أقربهم إلى الله أتقاهم، ومظهراً لميلادهم الروحى الجديد، ليتخذوا من هذا الميلاد عدتهم لحياة جديدة، ولهذا تتصل قلوبهم وإن اختلفت أجناسهم وألوانهم ولهجاتهم، وهم يعبرون عن هذا الشعور بالتلبية تنفرج عنها شفاههم فى حبور وغبطة مطمئنين إلى رحمة الله ومغفرته، إنه يغفر الذنوب جميعاً، لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء(١)

فهيكل كما ترى مولع بآيات القرآن يقتبسها لأسلوبه؛ ويقحمها فى عباراته، ويستخدمها استخداماً طلياً منسجماً يدل على مهارة وتمكن. ولقد بلغ من ولعه بألفاظ القرآن أن آثر كلمة « طوّع » على مرادفتها فى الاستعمال، فعبر بها مراراً إلى حدّ يلفت النظر، حتى أنه ليستخدمها فى مواضع قد تكون مرادفاتها أولى بها، وقد لا تؤدى المعنى إلا على شىء من التسامح، ولكن هيكلاً يؤثرها لأنها لفظة قرآنية فهى حلوة سائغة. وإن من العجيب حقاً أن يؤثر هيكل ألفاظ القرآن كل هذا الإيثار، وأن ينتفع بأسلوبه إلى هذا الحد الذى يفوق فيه أولئك الذين شبوا على مدارسة القرآن، وقضوا أعمارهم فى مزاولة عباراته والبحث فى نصوصه على حين أنه قد نشأ نشأة مدنية كما يقولون، وتثقف ثقافة تتصل بالغرب أكثر مما تتصل بالشرق، وما آثاره الأولى إلا لون من ألوان تلك الثقافة الأجنبية. وإنما يسر لهيكل أن يندمج فى حياته الروحية كل هذا الاندماج، وأن يتصل بثقافة القرآن وأسلوبه كل هذا الاتصال، أنه ذو موهبة فنية، وطبيعة أدبية صافية، والأديب إذا ما صفت طبيعته، وخلصت نفسه، ينطبع على الحياة التى يريدها وكأنها حياته التى تعودها حياته، ويفنى فى البيئة التى يلابسها فإذا هو صورة قوية رائعة لما فيها من الألوان والمظاهر، ويخضع حواسه فى الانفعال للفكرة يريد تنفيذها فينجلى لك صادق الأحساس صحيح الغرض، وهذا هو السر فى أنك ترى الكاتب أو الشاعر يدرج بين صخور البادية وعلى أشواكها فتلمح فى أسلوبه وتفكيره الشدة والجفوة، ثم ينتقل إلى مطارف الحضارة فإذا به هين لين مذلل الفكر يجرى أسلوبه فى مثل رقة الماء والهواء. وهذا هو السر أيضاً فى أنك ترى الكاتب أو الشاعر يحدثك مثلاً عن البؤس فيجيد الحديث على أنه ليس بيائس، ويقول فى النسيب والغزل فيملك عليك نفسك مع أنه ليس بغزل ولا محب، فكيف بذلك الأديب أو الشاعر إذا كان صادق العاطفة، خالص الرغبة، صافى النفس والروح كهيكل فى حياته الجديدة؛ لا شك أنه يكون شيئاً كبيراً، ويكون أثره أثراً قوياً رائعاً كهيكل « فى منزل الوحى »

وأما بعد فقد أطلت على القارئ، ولنا وقفة أخرى مع « هيكل » فى منزل الوحى سيرى القراء فيها لوناً طلياً من ألوان الفكر الروحى الذى يحترم العقل ويمجد الحق

محمد فهمى عبد اللطيف

(١) ص ٦١ من الكتاب



محنـــة المسرح

بقلم محمد على ناصف

تساءلنا فى العدد الماضى عن مصير المسرح بعد طغيان السينما واجتذابها أنظار الأدباء والفنانين فضلاً عن توطد مكانتها بين الجماهير

وقبل أن نجيب على هذا السؤال دعنا نستمع إلى حديث لأدولف زوكور كبير مؤسسى شركة براموت السينمائية لعله يغنى أو يمهد للجواب

يقول زوكور لأحد الصحفيين الأمريكيين : « إن شركته متعاقدة مع ٨٣ ممثلا وممثلة ، منهم ٦٤ أتوا عن طريق المسرح والباقون خمسة أطفال ، وأربعة من محطات الاذاعة ، واثنان من الأوبرا ، واثنان من الأندية الليلية ، واثنان من الفرق الموسيقية وآخران عن طريق المسابقات الصحفية ، وواحد من الألعاب الأولمبية ، وآخر من أحد معاهد التمثيل ! ! »

فالغالبية الكبرى إذن قد تخرجت على المسرح ، وأكثر الباقين قد كسبوا كذلك خبرة تمت إلى المسرح بصلة

وليست هذه الحال فريدة بأمريكا ؛ فان المسرح فى كل بلد يمد السينما بحاجتها من الممثلين ... كما أن له نصيباً كذلك من تقديم طائفة من كبار المخرجين السينمائيين أمثال رينهاردت ولوبتسن وماموليان وديتربل وغيرهم

نستخلص من ذلك أن تغذية السينما بحاجتها من الفنانين إنما هى خطوة تالية لنهوض كفايات مسرحية

ولكننا إذا نظرنا إلى حديث أدولف زوكور من ناحية أخرى فماذا نستخلص من وراء قوله إنه متعاقد مع ٨٣ منهم ٦٤ من المسرح ؟

أوليس معنى ذلك أن السينما تجرد المسرح من قواه وكفاياته ، وأن المسرح أصبح وسيلة أو قنطرة عبور إلى السينما ؟

أجل ، هنا يتكشف الستر قليلا عن محنة المسرح ، فاذا سفرت حقيقة تلك المحنة ، فانما هى كلمة تضئ بنور يخطف الأبصار : « المال »

المال هو الذى يسلب المسرح جاهه ويقلم أظافره

المال هو الذى يخلب بريقه ألباب الكتاب والممثلين والفنانين فيجذبهم من أنوار المسرح الباهتة إلى أنوار الأستديو الساطعة

والواقع أن هؤلاء الأمريكيين لا يحسبون حساباً للمال ، أو أنهم يحسبون حساباً عجيباً ؛ فى العام الماضى ابتاع هارى



أدولف زوكور — رأس شركة براموت

كوهين صاحب شركة كولومبيا حقوق إحدى المسرحيات الناجحة بيرودواى You Canit Take Et With You بمبلغ ٤٠٫٠٠٠ جنيه ، نعم أربعين ألفاً ، وكان هذا رقماً قياسياً شاءت شركة راديو أن تكسبه لنفسها فدفعت خمسين ألفاً من الجنيهات فى مسرحية آبوت Room Service

وقبل ذلك بعام دفع سام جولدوين ١٦٠٫٠٠٠ دولار إلى سنكليرلويس فى روايته Dodsworth التى شهدناها فى الموسم الماضى .

إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التى قد يعتبرها المرء أمثلة لشغف هؤلاء القوم بالبذخ والاسراف

فأى كاتب يستطيع أن يحمل نفسه على الاقتناع بعد ذلك بما يقدمه له الناشر أو القارئ ؟ أى كاتب لا يحلم الآن بمجد هوليوود ومال هوليوود ؟ إن عمل الكاتب فى الفيلم يذاع أكثر من عمله فى المطبعة بمئات المرات ، فضلاً عن هذه الآلاف من الجنيهات

لقد طالب محصلوا ضريبة الدخل فى أمريكا ب . ج . وودهاوس أحد كتاب السيناريو بمبلغ ٥٠٫٠٠٠ جنيه ... فإذا كانت هذه ضريبة دخل ، فكم بلغ إذن دخل الرجل ؟ !



ماكس رينهاردت
يدرب جان موير على مشهد بفيلم « حلم منتصف ليلة صيف »

ويستوى فى التمثيل هنا المخرجون والممثلون ؛ فإن ماكس



هيلين هايز
التي اعتزلت السينما وهى فى أوج مجدها

رينهاردت عاهل المسرح الكبير رأى تلامذته فى هوليوود يثرون ويشتهرون من الأفلام ، وهو باق فى ڤينا يشهد ركود المسرح ، رأى إيرڤنج تالبرج يتقاضى أسبوعيًّا من شركة مترو ٢٫٤٠٠ جنيهاً مع ١٠ ٪ من أرباح الشركة ، ورأى المخرج العادي يأخذ في الفيلم الواحد عشرين أو ثلاثين ألفاً من الجنيهات فلم يطل انتظاره وحزم أمتعته ورحل إلى هوليوود فأخرج « حلم منتصف ليلة صيف » وهو يأخذ عدته الآن لإخراج فيلمه الثانى « وانتون »

وأبهظ الأجور فى أمريكا من نصيب ممثلى السينما ، فقد أصبح من الأمور العادية أن يأخذ الكوكب من الفيلم الواحد خمسين ألف جنيه ، ومثل هذا الأجر كفيل باقتلاع أى ممثل من فوق خشبة المسرح

فاذا استثنينا القليل من الممثلين الذين لا تستعبدهم تماماً شهوة المال فيقسمون أوقاتهم بين العمل فى المسرح والعمل فى الاستديو مثل والترهاستون وهنرى فوندا ومثل هيلين هايز التى تركت الشاشة وهى فى أوجها ، وبعد أن اكتسبت التمثال الذهبى من أكاديمية الصور والفنون لأحسن ممثلة سينمائية فى أول فيلم مثلته — إذا استثنينا مثل هؤلاء فانا لا نغالى إذا قلنا إن الدولار هو الذى هزم المسرح

محمد على ناصف

« طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ »

6 me Année, No . 240

Lunditalic - 7 - 2 - 1938

بدل الاشتراك عن سنة

ﺻ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات

يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العــــدد ٢٤٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٦ ذى الحجة سنة ١٣٥٦ — ٧ فبراير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

المـــــرأة والأدب

قال لى صديق أديب :

إن من يقرأ الرسالة فى مصر من الأمصار النائية ، أو فى عصر من الاعصار الآتية ، يحسبها تصدر أو كانت تصدر فى بلد ليس فيه نساء . والرسالة كما نعتقد تسجل ظواهر النهضة المصرية ، وتصور مظاهر العبقرية العربية ؛ فهل خلوها من أثر المرأة معناه أن المرأة لا تزال بمعزل عن نهضة الفكر فى مصر ، وحركة الأدب في الشرق ؟

وهـذا السؤال نفسه ألقاه عليّ أكثر من تحدثوا إليّ فى الرسالة أو فى المرأة أو فى الأدب . والجواب عنه ميسور على من عرف كيف نربى البنت ونثقف الأم ونؤلف الأسرة . فنصفنا الجميل الشاعر كما يعبرون اليوم لاتزال كثرته الفاحشة على جهالة الأمية وسذاجة الفطرة . أما قلّته الضئيلة فبين طبقة علمتها المدارس المصرية تعليماً فجًّا لا يمهد للعقل طرائق المعرفة ، ولا يكشف للنفس آفاق الحياة ، فعلمها محدود بالتعليم الأولى أو التمريض العملى ، وأدبها واقف عنـد قراءة المجلة الخفيفة وكتابة الرسالة العادية ؛ وبين طبقة ثقفتها المدارس الأجنبية فهى غزيرة الأدب صحيحة الفكر سليمة الذوق لطيفة الحديث ، ولكنها لا تعلم من

لغتها وأدبها غير القشور ، ولا تعرف عن دينها وتاريخها غير الشُّبَه ، ولا تجد في مكتبتها مؤلفاً شرقياً ، ولا ترى على مكتبها ريشة عربية . وقد كتبت إليّ آنسة من هذه الطبقة كتاباً بالفرنسية ، فلمتها على أن تُقحم هذا اللسان الغريب بين لسانين عربيين ، فردت عليّ بذلك اللسان نفسه تقول ما ترجمته :

« لو كنت كتبت إليك بعربيتي لحسبتني طفلة تجمجم بالكلام ولا تبين ؛ ويكون من وراء ذلك أنك لا تفهمني ولا تفهم عني . فكتبت إليك بالفرنسية لأن الإنسان يميل بطبعه إلى جهة القدرة لا إلى جهة العجز ، ويؤثر بغريزته جانب الكمال على جانب النقص . ولئن تعرضت بذلك إلى غضبك ، لقد نجوت ولله الحمد من سخرك ؛ وسخطك عليّ أحب إلى كرامتي من استخفافك بي »

فالطبقة الواقفة على الأعراف بين الجهل والعلم لا تستطيع بنصيبها الأخس من الثقافة أن تسبُر عقل الرجل ولا أن تصور قلب المرأة ؛ فمثلها مثل الجمهور الأوسط من سواد الشعب يعلو على العامة بمتاع جسمه ، ويسفل عن الخاصة بغباء ذهنه . والطبقة القائمة على البرزخ بين الشرق والغرب لا تستطيع كتلك أن تساهم في الأدب العربي بشعاع من الروح ولا بنتاج من العقل ، لأنها مصرية القلب أجنبية اللسان ، تغرِّبُ بهذا وتُشرِّق بذاك ، وتنام هنا وتحلم هناك ، وتأكل وتشرب فيظهر أثرها في مصر ، ثم تقرأ وتكتب فيظهر أثرها في الخارج . فسيداتنا العبقريات الحسان : سيزا نبراوي ، ونعمت راشد ، وقوت القلوب ، وإيمي خير ، لا يمكن أن يتصل تفكيرهن بالأدب العربي مادمن يجهلن لغة القرآن ، ويحتجن في إفهام قومهن إلى ترجمان

على أن في هاتين الطبقتين شواذ لا يستطعن لقلتهن أن يكنّ طبقة ثالثة . وهل تستطيع أن تعد في أقطار العربية كلها أكثر من الدكتورة أسماء فهمي ، والماجستيرة سهير القلماوي ، والفضليات الكواتب ابنة الشاطئ وجميلة العلايلي وفلك طرزي ووداد سكاكيني ؟

هؤلاء على تفاوت بينهن يُجدن التفكير والتعبير ، ويعطرن من حين إلى حين وجوه الصحف وصدور المجالس بأنفاسهن العبقة وأحلامهن الجميلة ؛ ولكن فحولة الأدب في أنوثة العاطفة لم نجدها في امرأة بعد « باحثة البادية » و « مي » ؛ وباحثة البادية في ظلال الخلد ، ومي وا أسفاه على سرير المرض !

***

تلك حال المرأة مع الأدب . وهي حال اقتضتها طريقة التعليم وطبيعة المجتمع وحداثة النهضة . فمن الطبيعي ألا يجد فيها الأدب رفداً من إنتاج ، ولا الأديب مدداً من وحي . ومن البديهي ألا تحس أنت في الرسالة وفي سائر المجلات سحر المرأة فتشكو الاعتلال والنقص ، وألا يجد صديقنا الحكيم في المجالس والأندية عطر المرأة فيشكو الجفاء والجدب . وما دامت المرأة غائبة عن الأدب وعن المجتمع فهيهات أن يبرءا من علل الجفاف والإسفاف والسآمة والفوضى

يريد صديقنا توفيق الحكيم أن يجرب في برجه العاجي أثر المرأة الفاتنة في مجلس جماعة من الأدباء سماهم . ولقد كتبت في العدد التاسع من (الرسالة) ما يصح أن يكون نتيجة لهذه التجربة قلت : « لاحظْ مجلساً من مجالسنا اجتمعت فيه الرجال شباباً وشيباً فماذا تجد ؟ تجد الحركات العنيفة والأصوات الناشزة والمناقشات الفجّة والأحاديث الجريئة والكلمات المندية والذوق العامي والإحساس البطيء ؛ ثم لاحظْ هذا المجلس نفسه وقد حضرته امرأة ، تجد الحركات تتزن والأصوات ترق والمناقشات تُنتج والأحاديث تحتشم والكلمات تُنتقى والذوق يسمو والإحساس يدق ؛ ذلك لأن الرجل حريص بطبعه على أن يجمّل سَمْته في عين المرأة ، ويحسن صوته في أذن المرأة ، ويسوغ رأيه في عقل المرأة ؛ والأخلاق المكتسبة تبتدئ بالتطبع وتنتهي إلى الطبع » فمتى يُتاح للمرأة ياترى أن تُدرك خطرها في غير الحب ، وأثرها في خارج البيت ، فتؤدي أمانتها على الوجه الأكمل ، وتُبلِّغ رسالتها على الطريق الأسدّ ؟

احمد حسن الزيات

فى معرض الآراء

للأستاذ عباس محمود العقاد

كتب الأستاذ أديب عباسى فى بعض الأعداد القريبة من الرسالة مقالاً سأل فى عنوانه : « هل انتهت السياحات والكشوف الظاهرة فى القرن السابع عشر أو بعده ؟ » ثم عاد سائلاً فيه : « أصحيح أن الكشوف الظاهرة أو الكشوف الجغرافية انتهت فى القرن السابع عشر أو حواليه ، ومن ثم بدأت الكشوف الباطنة للنفس كنتيجة لانصراف الذهن البشرى عن الدراسات والسياحات الظاهرة إلى الدراسات والسياحات الباطنة ؟ ! إننى أشك فى صحة هذا الزعم ، بل أكاد أنفيه قاطعاً »

ثم استطرد فى جوابه قائلاً : « ليست السياحات الظاهرة وقفاً على الضرب فى مجاهل الأرض واكتشاف كل رجاً من أرجائها ؛ وليس الاستشراف للمجهول فى خارج حدود النفس الإنسانية قاصراً على الحدود الجغرافية لقارات الكرة الأرضية ؛ فهناك السماء بعوالمها الشاسعة، وأكوانها المبثوثة في رحاب الكون، وأسرارها المحيرة ؛ وثمت الذرة بصفاتها العجيبة وسلوكها الغريب وأسرارها الدقيقة ؛ وهناك أمواج الأثير من ضوء وحرارة وكهرباء وأشعة كونية . . . » إلى أن قال :

« من يستطيع أن يقول : إن الكشوف الظاهرة التى تمت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبداءة هذا القرن فى عوالم الطبيعة والحياة تقل روعة وأسراً للخيال وشدّها للإنسان عن أروع المغامرات الجغرافية التى تمت فى القرن السابع عشر أو بعده؟ ثم هذه الكشوف الجغرافية ذاتها هل انتهت حقاً فى القرن السابع عشر ؟ أين مغامرات سكوت وشا كلتون وبيرو وغيرهم . . . . »

***

ومن طرائف المناقشات أن تأتى هذه المناقشة من الأستاذ أديب عباسى تعقيباً لما أسلفناه فى مقال « الحدود الحاسمة » الذى قلنا فيه إننا قد نستغنى فى الحدود والتعريفات عن الإحصاء والإستقصاء لما هو معلوم غنى عن البيانات من ضرورات الاستثناء فى كل قاعدة . فاذا قال الإنسان إن النهار مضى وإن الليل مظلم فليس من الواجب بعد ذلك أن يحصى أيام الغيم ولا الأغوار المحجوبة التى تظلم بالليل والنهار

فقد حدثت كشوف جغرافية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ولكنها كلها لا تخرج عن « المتممات » التى تأتي بعد الفراغ من الأسس والأركان واستقرار البناء على نظامه الأخير . وكذلك نقول مثلاً إن القرن التاسع عشر كان قرن الانقلاب الصناعى ولا نمنع بذلك استمرار الاختراع فى عالم الصناعة إلى القرن العشرين بل إلى هذه الساعة

فالأرض نفسها كانت مجهولة قبل الكشوف التى بلغت أوجها فى القرن السابع عشر وما حواليه

والبنية الإنسانية نفسها كانت مجهولة قبل تلك الكشوف ، فكان من الناس من ينازع فى شكل الأرض وفى القرار الذى هى قائمة عليه ؛ وكان منهم من يزعم أن الإنسان في بعض الأصقاع يشبه الكلاب أو يشبه الغيلان ، ويجري التناسل بينه وبين فصائل شتى من الحيوان

فلما انتهت كشوف القرن السابع عشر انتهى الخلاف فى أمر الأشكال والظواهر ، وانفتح المجال للبحث فى الحقائق والبواطن ، أو لمعرفة الإنسان نفساً بعد أن عرفناه تركيباً ووضعناه فى موضعه من عالم الأحياء الظاهرين

ولقد ذكر الأستاذ « أديب » كشوف الكواكب وكشوف الذرة وأمواج الأثير والأشعة الكونية ، إلى أمثال هذه الكشوف العلمية التى حدثت بعد القرن السابع عشر ولا تزال تحدث فى هذه الأيام

ولكن ماشأن هذه الكشوف وما نحن فيه ؟ وأين هى من « الحاسة الاجتماعية » التى تتعلق بها القصص وأبطال الرواية وأبطال السياحات ؟ أوالتى تتعلق بها الديمقراطية وما لها من الأثر فى وصف المجتمع وتحليل أفراده وطبقاته ؟

فالسائح الذى يعود من الأقطار الأسيوية وقد روى لأبناء وطنه أنباء البذخ والفخامة ونوادر الذهب والفضة والجواهر والنفائس فى أيدى الناس ؛ يلهب أشواقهم ويعلق آمالهم وأحلامهم وأوهامهم أضعاف أضعاف ما يفعله كشف الذرة وما إليه من كشوف لا تتصل « بالحاسة الاجتماعية » إلا من بعيد

وألف كشف من كشوف « الذرة » لايغير وصف الأبطال

فى القصص والروايات إلا أن يصل إلى اختراع طيارات أوسفن أو أسلحة أو ما شابه هذا من أمور تتصل « بالحاسة الاجتماعية » على نحو من الأنحاء

فالمعول فيما كنا نبحثه من اختلاف وصف الأبطال في القصص بين العصور القديمة والعصور الحديثة إنما هو على شعور الناس بها ، أو تعلق « الحاسة الاجتماعية » بموضوعها ، وليس المعول على حدوثها فى عالم الواقع أو تسجيلها في دواوين العلماء

و « الذرة » بعد لا يكشفها إلا عالم أومشتغل بعلم وصناعة ؛ أما البقاع فيكشفها كل من شاء الرحلة من المغامرين ، ويعنى بها كل من قعد وراءهم من المتخلفين ، ويشتغل بها من يراقب الجماهير ويدرس النفوس ويسجل أطوار الشعوب والأفراد . فهى لاتنعزل عن الحياة الاجتماعية ثم الحياة النفسية التى هى موضوع الروايات ومحور وصف الأبطال ، وليست كذلك كشوف الكواكب أو كشوف الذرات

ولعل فيما تقدم توضيح ما التبس على الأستاذ « أديب » فهو غنى عن المزيد من التوضيح

***

وقد كتب إلينا الأستاذ عبد الحميد العبادى يسأل عن كتاب الدكتور ويلكوكس واسمه باللغة الإنجليزية ، فذكرنا هذا الإسم فى العدد ال (٢٣٦) من الرسالة ، ووعدنا بالإجابة عما استوضحه الأستاذ من أثر الطريقة الزراعية الحديثة فى أحوال العالم بأسره ، وأنه ربما فاق فى اتساعه وبعد مداه أثر الانقلاب الصناعى منذ قرن من الزمان

أما شرح الطريقة الزراعية العلمية التى تكفل لكل قطر من الأقطار أن يعيش على موارده الداخلية فليست الرسالة محله ، ولسنا نحن أصحاب الاختصاص فيه

وأما الأثر الاجتماعى فيستطاع العلم به إذا عرفنا ما كان من أثر الانقلاب الصناعى فى القرن الماضى ، وعرفنا البواعث التى أفضت إلى ذلك الأثر ولا تزال تفضى إليه

إن الانقلاب الصناعى قد أحوج الدول إلى مستعمرات لجلب « الخامات » وبيع المصنوعات وتسخير الأيدى العاملة بأبخس الأجور

وإن الانقلاب الصناعى قد أخرج للأمم طبقات العمال وأثار بينهم وبين أصحاب الأموال ذلك الصراع الذى قوض ما قوض من دول ، وأقام ما أقام من مذاهب فى السياسة والدين والأخلاق

وإن الانقلاب الصناعى قد أذكى ضرام التنافس بين الحكومات ، وأنشب ما أنشب من حروب وثورات

فكل هذا يتغير لا محالة إذا استغنت كل أمة عن الخامات واستغنت عن الأسواق

كل هذا يتغير إذا نجحت طريقة المجددين فى الزراعة العلمية واستطاعت الأمم أن تعيش على مواردها الداخلية كما يقول الدكتور ويلكوكس فى كتابه الذى أشرنا إليه

كل هذا يتغير ، ويتغير معه تقسيم المجتمع وتقسيم الثروة وتقسيم عناصر الحكومة وتقسيم عوامل السياسة وما يتبعها من أهبة الحرب وأهبة الفتح وأهبة « التحالف » من جهة ، والتعادى والتباغض من جهة أخرى

لاخامات فى الخارج فلا مستعمرات ، ولا أسواق فى الخارج فلا منافسات ، ولا احتكار فلا تكديس للثروة ولا نزاع بين العاملين وأصحاب رؤوس الأموال ، ولا تسليح من ثم ولا توجيه للمصانع إلى غير المفيد من صناعات العمار والإنشاء دون التدمير والتقويض . وإذا احتاجت الأمم إلى بعض الخامات أو بعض الأسواق ، فإنما يكون ذلك فى أمان واستقرار وتعاون واشتراك على النحو الذى يجري به البيع والشراء بين الأفراد ، أو على النحو الذى يجرى به التبادل بين جماعات التعاون ولا سيما فى بلاد الشمال ونعنى بها بلاد الدنمرك والسويد والنرويج

ذلك مجمل الدعوة التى يبشر بها المجددون فى علم الزراعة والمشفقون على بنى الإنسان من أهوال الحروب

والمذهب معقول فى أصوله وفروعه . ولو أنه مشكوك فى مقدماته أو فى نتائجه لكان مع ذلك جديراً بالبحث والمتابعة والجد فى تحقيق ما يستطاع من خيراته وحسناته ، لأن متابعة الأحلام قد تجوز إذا عظمت الغاية وعظم الخطر المرهوب . وأى غاية أعظم من اتقاء الحروب ؟ وأى خطر أعظم من خطر الفجائع التى تطبق على الشعوب المسوقة إلى تلك الحروب ؟

إن متابعة الأحلام قد تجوز فى هذا المقام ، فكيف بالبحوث العلمية وكيف بالوقائع والأرقام ؟

عباس محمود العقاد

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ٩ —

خرجت من عند ليلى وقد انتصف الليل ، فما كدت أبلغ الجادّة حتى لمحت إنسانة تعدو خلفى فى الدربونة [(١)] فالتفت فاذا هى ظمياء

— دكتور ، متى أرجع إليك ؟

— حين تشائين ياظمياء ، ولكن ما الموجب لهذا الاستعجال؟

— هل نسيت البقية من قصة ليلى مع عبد الحسيب ؟

— ما نسيت . ارجعى إلىّ مساء الغد يا ظمياء ، ومعك ماعون من الكُبّة الموصلية [(٢)]

***

لا موجب للنفاق فى هذه المذكرات . إن ظمياء فيما يظهر تشتهى أن تتكلم فى عبد الحسيب ؛ وأنا فيما يبدو أشتهى الكلام عن دربة ؛ وأكرر ما كتبته من قبل : (إنى لا أعرف كيف يلذعنى هذا الاسم) وربما كان هذا من جنون الشعراء ، فأنا شاعر مقل ، ولكن الإقلال لايمنع من التشرف بجنون الشعراء . ولعل الإقلال أدل على الجنون ؛ وإلا فما كان الذى يمنع من أن أفجع العالم بعدة دواوين ليصبح شعرى حديث الأدباء فى سائر البلاد ؟

دربة ! دربة ! ما أعذب هـذا الاسم ! وما أشقانى فى (استلطاف) الأسماء !

***

رجعت إلى المنزل وأنا أتشوق إلى اقتيات النعاس ، فقد كنت انتشيت فى حديث ليلى ، والمنتشون يتشوقون إلى الهجود ؛ كذلك سمعت . ولكنى صادفت ما أطار النوم من رأسى ، فقد وجدت جريدة الشباب بين البريد وفيها هذه الكلمات :

« فجع الأدب والعلم ونكبت الأخلاق الكريمة بوفاة الأديب الكبير المحقق والكاتب العبقرى المنقطع النظير المرحوم الأستاذ محمد صادق عنبر المنشىء الشهير واللغوى المعروف ، فقوبل الخبر بحزن شديد ، وألم عميق ، لما اشتهر عن المرحوم من واسع العلم والاطلاع وصدق الوداد ومكارم الأخلاق »

وقد هدّنى هذا الخبر المزعج ، ونشر أمام عينىّ كثيراً من الصور والأطياف ، فتذكرت أنى رأيت صادق عنبر أول مرة سنة ١٩٢٣ في جريدة الأخبار ، فسألنى عمن أفضل من الشعراء فقلت : شوقى . فقال : أسألك عن الشعراء الثلاثة . فقلت : من هم ؟ فقال : أبو تمام والبحترى والمتنبى . فقلت : أنا أفضل الشريف الرضى على هؤلاء الثلاثة . فاستغرب وقال : هذا كلام لم يقل به أحد سواك !

وتذكرت أنى كنت أتلقى مجلة النهضة النسائية وأنا فى باريس سنة ١٩٢٧ وفيها رسائل وجدانية عنوانها : (الرسائل الضائعة) وهى رسائل نفيسة بقلم صادق عنبر ، فلما لقيته بعد حين أثنيت عليها ، فقال وهو يتوجع : ليتها كانت صحيحة ، فهى خيالية ! فقلت : ليتك تمضى فى هذا النظام البديع !

وبعد رجوعى من باريس فى سنة ١٩٣١ كان أول من سأل عنى ، فمررت عليه فى قلم المطبوعات فحبسنى ساعتين ليمتع أذنىّ برسائله : (رسائل الحب بين قيس وليلى) فقلت : أهى أيضاً رسائل خيالية ؟ فتنهد وقال : لو كانت تنبىء عن وجد دفين لما كان جسمى أضخم جسم فى هذه البلاد ؟ فنصحته بتكلف العشق ليخف وزنه فيمسى وهو فتى رشيق ؟

وتذكرت أنى أردت مداعبته في جريدة البلاغ سنة ١٩٣٥ فذهب إلى صديقى الأستاذ كامل كيلانى وقال له : قل للدكتور زكى مبارك : إن صادق عنبر لن يقرأ البلاغ ولن يعرف ماذا يقول ؛ فليثق حضرته بأن الأرض لن تُزلزل تحت قدمىّ ، ولن يتقوض ماضى صادق عنبر لأن زكى مبارك يهجم عليه فى جريدة البلاغ !

وتذكرت والدمع يملأ عينى أن الأستاذ محمد على الطاهر أراد أن يحتفل بسفرى إلى العراق فدعانى إلى الغداء عند العجاتى مع جماعة من أهل الأدب والعلم والبيان ، كان فيهم الأستاذ صادق عنبر ، ولكنه يومئذ لم يشترك فى أطايب الحديث ، فهل كان انتهى من دنياه ؟

يرحمك الله ياصديق ، ويرحم عهدك فى جريدة اللواء ، يوم كان أكثر كتّاب اليوم أطفالاً يلعبون !

***

(١) الدرب فى مصر هو الدربونة فى العراق

(٢) الكبة عند العراقيين هى الكبيبة عند السوريين ، ويقال إن الكبة الموصلية كانت السر فى براعة أبى اسحاق فى الغناء

الشجى يبعث الشجى !

هل أستطيع أن انتهز هذه الفرصة فأدون فى هذه المذكرات حادثة عجزت عن تدوينها منذ أشهر طوال ؟ هل أستطيع أن أقول بصراحة إننى كنت من أشد الناس ارتياحاً إلى اصطخاب الجدل السياسى فى مصر ؟ لقد آن لقلبي أن يفصح عن بلائه المكنون . إن الجدل السياسى فى مصر كان نعمة وارفة الظلال لأنه استطاع أن يشغل صديقى الأستاذ عباس الجمل عن أفدح نكبة أصيب بها فى دنياه ، وهى اختضار[1] الغصن المطلول الذى اسمه طاهر عباس الجمل الطالب بكلية الحقوق

آن أن أصرح بأن هذا الأديب المفقود كان يحفظ دواوينى ، وأنه تفضل فأسمعنيه قبل أن يذهب إلى دمياط بيوم واحد . آن أن أصرح بأن هذا الشاب كان يرانى أكرم أصدقاء أبيه ، وكان يرى من البر أن يحفظ أشعارى ويقتنى مؤلفاتى . آن أن أبكى هذا الشاب النبيل الذي كان أطهر ضحية ظفرت بها الأمواج

لقد حضرت الذكرى الأخيرة من ذكريات سعد زغلول وكان مجلسى فى السرادق يواجه مجلس النقراشى باشا فلم أسلم عليه ؛ وظن بعض الحاضرين أننى خشيت أن يكون فى السلام عليه ما ينقض مودتى للنحاس باشا . فهل أستطيع أن أنص فى هذه المذكرات على أننى لم أخف يومئذ إلا أن يقع بصرى على الأستاذ عباس الجمل فأذكره بتلك المصيبة التى تذيب لفائف القلوب ؟

كان طاهر الجمل لا يلقانى فى الطريق إلا دعانى إلى رؤية منزلهم الجديد فى مصر الجديدة ، وكان يغرينى فيقول : إن لونه كالشليك !

ولكنى لم أطعه ولم أر المنزل . وما أظننى سأراه فى بقية حياتى ، لأن جزعى على طاهر خليق بأن يقتلنى إذا رأيت ما كان يهواه فى دنياه

أخى الأستاذ صادق عنبر

أرأيت كيف كانت مصيبتى فيك باباً من البلاء !

إن طاهراً فى نضارته كان مثلك فى ذكائك ؛ وعبقرية النضارة لا تقل روعة عن عبقرية الذكاء . وأنت قد تجد من يحبر الرسائل الطوال فى الثناء عليك ، ويقيم لك حفلات التأبين ؛ أما طاهر الجمل فيستصغر ناس قدره ، لأنه كان طالباً بالسنة الثالثة بكلية الحقوق ، فلم يبق إلا أن أقف وحدى لبكاء تلك الزهرة النضيرة التى اقتطفها الموت فى شاطىء دمياط

وما يؤذينى وأنا أكتب هذه الكلمات إلا أن تحمل نسائم الهواء إلى الأستاذ عباس الجمل أننى فكرت فى طاهر ، فيتذكر أننى ما عزيته فيه ، فيتجدد عتبه على صديقه القديم ، أو يؤذيه أن يتذكر ابنه بعد تناس ؟ ولكن كيف يتناساه بعد أن نعم بوجهه وروحه سنين وسنين ، وأنا ما نسيته مع أن بصري لم يقع على وجهه الجميل غير مرات ؟

يا طاهر !

أذكرنى عند ربك ، وقل إن فى سكان الأرض ناساً يحفظون الجميل !

* * *

وقضيت تلك الليلة وأنا مؤرق الجفون ؛ وزاد فى الغم والحزن أن الوهم خيل إلىّ أن صادق عنبر قد يكون مات بسبب ليلى ، مع أن ليلاه خيالية ، فكيف يكون مصيرى وليلاى امرأة رخيمة الصوت ساحرة العينين تقيم بشارع العباس بن الأحنف فى بغداد ؟ !

وفكرت ثم فكرت ، والشجون من جملة الأرزاق !

ولكن وقع حادث طريف خفف ذلك البلاء :

فقد صمم سعادة وكيل وزارة المعارف العراقية أن يزورنى فى منزلى ليؤدى واجب التحية لرجل هجر وطنه وأهله ليتشرف بخدمة الأدب العربى فى العراق ؛ وكانت زيارته فى الليل ، فراعه أن يرى الظلام يغمر السلالم والدهاليز ، فاستشاط غضباً وقال : كيف يجوز لصاحب هذا المنزل وهو عضو بمجلس النواب أن يهمل الإضاءة الواجبة ، وهو يعلم أن من سكان منزله صاحب النثر الفنى ؟ سأعرف كيف أحاسب ذلك النائب وكيف أقهره على تعميم النور في دهاليز ذلك البيت ؟

فقلت وأنا أتخوف العواقب : أنا مطمئن إلى هذا الظلام يا سعادة الأستاذ !

فقال: وأنا أخشى أن تشكونا إلى مجلة الرسالة أو جريدة البلاغ

---

(١) الاختضار بالخاء المعجمة هو الموت فى عهد الحداثة والشباب

ولم يمض يومان حتى نفذ النائب المحترم ماأراد سعادة الوكيل ؛ ولكن ظمياء استرابت بهذه الأنوار ورفضت دخول البيت !

— ماذا تخافين يا ظمياء ؟

— أخاف الأقاويل والأراجيف

— من المفهوم أنك وصيفة ليلى ، وأنى طبيب ليلى

— هذا كلام لا يصدقه غير المطلعين على ما جرى فى هذا الشأن من المخابرات بين الحكومة العراقية والحكومة المصرية

— والجمهور ؟

— أترى الجمهور يصدق حقيقة أنك جئت لمداواة ليلى المريضة فى العراق ؟

— خبر أسود !

— خبر أسود ، خبر أبيض ، خبر بنفسجى ، خبر عنابى ، خبر برتقالى ، خبر بنى ، خبر خمرى ، أنا لا أدخل هذا البيت فى هذه الأنوار وكل سكانه يعرفون أنك رجل وحيد

— نعم ، أنا رجل وحيد

— وحيد ، أعنى تعيش وحدك

— مفهوم ، يا ألأم النساء فى بغداد

— إيش لون ؟

— لاشىء ، أقول إنه لا موجب لهذا التخوف ، فأنا طبيب ليلى وأنت وصيفة ليلى

— اسمع يا دكتور ، أنا أثق بأمانتك ، وليلى لم تنهنى عن التودد إليك ، ولكنى لا أقبل أن أكون مضغة الألسنة في هذا الخان

— ومن الذى سيعرف مثلا أنك ظمياء ؟

— يجب أن تفهم أنك فى بغداد !

— باسم الله الحفيظ !

— اسمع يادكتور ! يظهر أنك رجل طيب أكثر مما يجب . إن التعرض لأقوال الناس كالتعرض لأقوال الجرائد ؛ وربما كان كلام الجرائد أسلم عاقبة من كلام الناس ، لأنك تستطيع أن تكذب ماتنشر الجرائد من الباطل فتدفع ماتؤذيك به من بهتان ؛ أما كلام الناس فلا سبيل إلى دفعه لأنه ينتقل من أذن إلى أذن ومن لسان إلى لسان ، ثم لا تمضى غير أيام حتى يأكل لحمك المفترون ، ويأتم بسيبك الأبرياء

— وماذا أصنع يا ظمياء ؟

— ارحل عن هذا البيت

— وكيف بعد أن تكلف صاحبه ماتكلف فى تبديد الظلمات ؟

— اختلق سبباً من الأسباب

— أختلق ؟ !

— الاختلاق مما يجوز فى بعض الأحيان

وعندئذ تذكرت أن الأستاذ بهجة الأثرى كان اقترح على صاحب البيت أن ينظم الحمّام ولم يفعل ؛ فطمأنتُ ظمياء . ومضيت فقضيت معها السهرة فى بيت أمها ، وهو منزل صغير فى درب ضيق لم أسأل عن اسمه ، وهو درب يشبه ما يسمونه فى مصر : شق الثعبان

وفى صباح اليوم التالى قابلت حضرة النائب المحترم وذكرته باقتراح حضرة الأستاذ بهجة الأثرى ، فأراد أن يتحلل من الوعد فتكلفت الغضب وقلت فى سخرية مصطنعة : كذلك تكون وعود النواب ! !

ولم تمض غير ساعات حتى انتقلت إلى منزل آخر فى شارع السموءل

ولكن كيف انتقلت بهذه السرعة فى يوم واحد ؟

ذلك أمر كان يعجز عنه السنهورى والزيات وعزام

والواقع أني رجل خطر جداً ، فقد أمسيت أعرف بغداد كما أعرف باريس ؛ ومعرفتى بهاتين المدينتين تساوى جهلى بمدينة القاهرة التى لا أعرف منها غير ثلاثة أحياء . أما الاسكندرية فلا أعرف منها غير الشاطئ الذى تعطره أنفاس الملاح فى الصيف

* * *

ولكن لماذا اخترت شارع السموءل ؟

لأنه شارع البنك وجميع سكانه من أهل المال ، وأهل المال فى الأغلب لايعتدون على الأعراض ، وإنما يعتدون على الجيوب . فالشرطة في مثل هذا الشارع لا تفكر في الفجرة وإنما تفكر فى اللصوص ، وكذلك تعودني ظمياء بلا تهيب ، لأن المآثم فى

هذه الجادّة قليلة الخطور بالبال ، وذلك كل ما أتمناه للسلامة من أهل الفضول

وقد عزّ علىّ أن يتطاول بنو إسرائيل على اسم السموءل فيسموا به شارع البنك ؛ وكان السموءل على يهوديته عربياً سخى اليدين ، فما كان ضرهم لو نطقوا اسمه على طريقتهم فقالوا (صمويل). ثم تذكرت أن السموءل كان أقدم من عبّر عن ضمائر البنوك حين قال :

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

فالبنك هو الذى ينكر ما تقول ، ولا تستطيع أن تنكر ما يقول ، فهو الفيصل في التصحيح والتزييف

ولعل انتقالى إلى شارع السموءل يدخل على طباعى بعض التعديل . ولعلني أكتسب شيئاً من أخلاق بنى إسرائيل ، فان الحب يبدد ما أجمع من المال . أليس من السفه أن أراني مسئولاً عن طوائف من البيوت تُسدَل ستائرها على طوائف من الوجوه الصِّباح ؟ وهل رأى الناس حالاً أغرب من حالى وأنا أنفق على بيت فى النمسا منذ سبع سنين لأن فيه فتاة جميلة كانت ترافقنى فى السوربون ؟

أمرى إلى الهوى !

* * *

تركت أول منزل سكنته فى بغداد . ويا حسرة القلب على فراق ذلك المنزل الجميل ! فقد كان صورة صحيحة للمنزل الذى كنت أسكن فيه حين كنت طالباً بالازهر الشريف . كان صورة لربع يعقوب بالنورية ، على أيامها السلام ! وكانت جاراتى فى ذلك الربع من الغيد الحسان ، وكان فيهن اسرائيلية تأتمننى على كل شىء وتقول : الشيخ زكى مسلم ولكنه ابن حلال

وكنت حقاً ابن حلال . كنت مستقيماً أؤدى الفرائض وأقرأ الأوراد ، وما تغير حالى إلا منذ استطعت أن أقول : بونجور مدموازيل ! بونسوار مدام !

لم أفارق منزلى فى شارع الرشيد بدون حسرة لاذعة ، فقد أقمت فيه ثلاثة أشهر أنشأت فيها تسعمائة صفحة ، واستقبلت فيه ظمياء تسع مرات ، وهو يذكرني بمأواى القديم فى ربع يعقوب الذى ألفت فيه كتاب الأخلاق عند الغزالى ، واستقبلت فيه الشيخ الزنكلونى والشيخ عبد المطلب ؛ ويذكرنى بأول منزل سكنته فى مصر الجديدة وهو الذى ألفت فيه كتاب التصوف الإسلامى ، واستقبلت فيه الدكتور طه حسين والمسيو لالاند والمسيو ماسينيون ؛ ويذكرنى بغرفتى بشارع أراس فى باريس ، وهى الغرفة التى ألفت فيها كتاب النثر الفنى ، وسمعت فيها أنغام اللغة الفرنسية كما ينطقها بناتها ، وكما يلحن بها الانجليزيات والأسبانيات والنمسويات والألمانيات ، ولا سيما الشقراء التى ما كانت تتكلم بغير الغناء :

هل الله عافٍ عن ذنوب تسلّفتْ أم الله إن لم يَعْفُ عنها يعيدها ؟

أمرى إلى الهوى ! !

* * *

لقد انزعج صاحب المنزل حين رأى الحمالين من الأكراد ينقلون أثقالى ، وبالغ فى التلطف ليردنى إلى المنزل . ولكن هيهات ، فأنا طبيب أفسده الأدب والطبيب الفاسد لا يطاق

أنا أعرف أنى خاصمت نائباً ، ولكن يعزينى أن نواب العراق لا يلتفتون إلى المسائل الشخصية ، فلن ينالنى شر من هذا النائب على الاطلاق . وسأرجو الأستاذ معروف الرصافى أن يصلح ما بينى وبينه إن رأيت ما يوجب ذلك ... وهل من الكثير أن أخرج على أصول الأدب والذوق فى سبيل ظمياء ؟ إن هذه الوصيفة تعرف جميع أسرار ليلى ، وهى أيضاً ستحدثنى عن درية . ويالوعة القلب من طيف درية ! فهل يتلطف الحظ فيمتعنى بهوى امرأة تحمل هذا الاسم الجميل ؟ !

* * *

إن أحزانى لا تحملها الجبال ، ولكن الله بعباده رؤوف رحيم ؛ فهو يسوق إلىّ موجبات الابتسام ، أنا الرجل الحزين الذى لم يعرف قلبه الفرح منذ سنين ، وكيف أفرح وقد طلبنى أبى يوم موته أكثر من خمسين مرة فلم أكد أصل إليه حتى بكته النائحات ؟

انتظرت ظمياء في المنزل الجديد وأنا محزون ، وأشهد أنى مُكره على تأدية هذه الخدمة الوجدانية ، فما أعرف كيف يصير حالى مع ليلى ، ولعلها تُعافَى ويعرض الطبيب !

ودخلت ظمياء وهى ترغى وتُزبد

— هل عرفت ما صنعت المرأة جميلة ؟

— ماذا صنعت ؟

— لقد مزقت قمصانك بعد أن غسلتها وكوتها

— عجيب ! ولماذا ؟

— لأنها قرأت فى مجلة الرسالة أن اسمها جميلة ، واسمها الحقيق هو ...

وعندئذ ضحكت ضحكة قوية كادت تمحو سطور الأحزان من القلب العميد

إن تلك المرأة لم تعرف إحسانى إليها بتلك التسمية ، فقد خلعت عليها اسماً أحبه أصدق الحب ، ورحمتها من الاسم الذى كانت تحمله ، لأنه يقربها من شيخ أبغضه أشد البغض ، ويكفى أن يكون اسمها واسمه مبدوءين بحرف الحاء

تلك امرأة حمقاء ! ولكنى لن أنسى معروفها عندى ، فقد كانت أول امرأة خدمتنى فى بغداد . ولو رآها الجاحظ لصاغ لها عقود الثناء

— ظمياء

— نعم يامولاى

— لا أريد أن أسمع اسم هذه المرأة مرة ثانية ، ولا أحب أن أراها بعد أن مزقت قمصانى

— وأنا أكره لسيدى الطبيب أن يتصل بهذه المرأة فقد بدأت تغتابه منذ يومين

— تغتابنى ؟ وما عساها أن تقول ؟

— تقول إنك تحب ليلى

— أنا أحب ليلى ؟ وهل جننت حتى أحب امرأة عليلة لا تملك من شواهد الحياة غير صوت نغوم وطرف يشيع فيه التكسر والنعاس ؟

— إيش لون ؟

— ما أدرى يا ظمياء

— الأفضل أن نعود إلى قصة عبد الحسيب

— أو قصة درية

— قصة عبد الحسيب

— قصة درية ، قصة درية

— وهل تكره قصة عبد الحسيب ؟

— قصى على حديث الأخوين : درية وعبد الحسيب

— وأخذت ليلى تقلب الجرائد بحضور السيدة نجلاء فرأت فى السياسة الأسبوعية مقالة فى رثاء أستاذ مستشرق اسمه بول كازانوفا كتبها أستاذ مستغرب اسمه طه حسين . وتدخل الشيخ دعّاس ليشرح المراد من الاستغراب والاستشراق

« للحديث بقايا » زكى مبارك

الأدب في العراق

كلمة تشخيصية أولى

للأديب السيد عبد الوهاب الأمين

— ١ —

الأدب بعد الحرب

دعى القرن العشرون قرن المدنية والنور ؛ ولقد كانت مفاخر العصور السابقة من طراز آخر غير المدنية وغير النور ، فمفهوم « المدنيـة » لا زال مقروناً بالحرب والدمار ، ولا يزال النور مقصوراً على المـاديات دون المعنويات . وقد قامت بعد الحرب العظمى هيجة صاخبة أيقظت جميع الشعوب ، كان قوامها نهضة أدبية شاملة ، لا تزال بقايا منها محتفظة بفعالية ظاهرة . وها نحن أولاء نرى في كل يوم دليلاً جديداً على هذه النهضة الأدبيـة الكبرى ، فيما تستبق إليه المطابع العربية من نشر مؤلفات جديدة لشخصيات أدبية عالية من طراز لم تمهده البشرية قبل الحرب العظمى ؛ فكان من الطبيعي أن يثار التسآل عن هذا الأدب وهذه النهضة الأدبية ، وما محصولها وقوامها وجدواها ؟ وهل الأدب لهو يزجي الإنسان به ساعات فراغه ليعتصم به من مفاسد الفراغ كما يقول الشاعر ؟ أو هو ضرورة من ضرورات الحياة المدنية ودلالة على الحياة المعنوية المكتملة ؟

إن كانت الحياة لهواً فالأدب كالحياة لهو لا مفر منه ، وإن كان يفوقها بأنه لهو له جدواه ودلالته ، وهى مقصورة الدلالة على أنها لا جدوى لها ؛ وهو إحدى ضرورات الحياة الشاعرة المدركة ودلالاتها ؛ وبغير فضيلتي الشعور والإدراك لا تبقى من معاني الحياة غير الناحيـة البهيمية التي يترفع البشر المدرك أن يقتصر عليها . والأدب — وهو وصف الحياة الصادق — مقرون بالحياة ومحمول عليها ؛ فإن كانت حياة رفيعة فهناك أدب رفيع ، وإن كانت منحطة فأدب منحط ؛ وفي هذه الناحية يؤيدنا التاريخ تأييداً لا يستدعينا البرهان

ونعتصم بالتاريخ مرة أخرى فنراه يقول : « إن نهضة من النهضات في الشعوب العالمية لم تتم إلا بعد أن تقدمتها حركة أدبية » . وقد سجل هذا التاريخ في صفحاته مجداً لفولتير ورسو كمجد نابليون وروبسبير ؛ ولسنا نعني أن الأدب بصورة مجردة يتقدم ظهوره في نهضات الشعوب ، بل المقصود أن تقدم ظهوره في مثل هذه الحالات إنما هو دليل قاطع على نهضة تلك الشعوب وإنذار وبلاغ بنهضة مقبلة على الفور ، وما نريد أن نعني بالأدب غير البلاغ والإنذار

هل الأدب ضرورة ؟

ليس من شك في أن الأدب ضرورة

وهو ضرورة لا تشبه غيرها من ضرورات الحياة الكبرى ، لأنها ضرورة شديدة الشبه بالحياة نفسها كما تقدم ، وذلك لأنها حياة أخرى من دون لحم ودم . أو هي الحياة نفسها مخلدة على الورق ، وفي بطون الكتب . وليس المقام مقام تمجيد للأدب ومغالبته في الحياة ، وإنما هو مقام تعريف بقدره ومكانته بوجه عام ، وما دمنا نريد لحياتنا العامة تقدماً واضطراداً . فأحرى بنا أن نوجه أنظارنا لتعرف آثار هذه النهضة المقبلة وما يجب أن يسبقها من البعث الأدبي

نظرتنا الى الأدب ونتائجها

لذلك ينبغي أن نغير نظرتنا إلى الأدب ، تلك النظرة السطحية التي تعودنا منذ عشرات السنين أن ننظرها إلى المحصول الأدبي وإلى أشخاص الأدباء ، سواء الأحياء منهم والأموات . يجب أن نفهم أن الأدب ليس تزجية الفراغ ، أو سمر العاطل ، أو منادمة الميسور ، أو ما يدخل في أمثال هذه المعاني مما درجنا على اعتقاده ، فالأدب كما يفهم غيرنا قوة فعالة في الحياة اليومية والحياة العامة بصرف النظر عن مفهومه ودلالته

إن هناك خطراً خلقياً عظيم الأثر سنتعرض له ، إذا استمرت نظرتنا إلى الأدب على ما هي عليه الآن من السطحية وقلة الشأن من جهة ، ومن الخطأ الشائع في مفهومه وإدراكه من جهة أخرى . فالأديب في نظر الأكثرين منا هو الشخص الذي يعيش على هامش الحياة ولا يقيم وزناً لخارجياتها وماديّاتها ، ولا يسأل عما يقول أو يفعل ، ويكفي أن يوصف الانسان « بالأديب »

لكي يفهم السامع أنه أمام شخص غريب الأطوار يعيش في عالم لا علاقة له بالحاضر ولا يطلب منه الاستعداد للمستقبل . وكذلك يتلقى أكثرنا كتابات الأدباء وقصائد الشعراء على أنها أقرب ما تكون إلى الآثار والعاديات

وقد كان لهاتين الحالتين نتيجتان أولاها مادية والأخرى روحية ، فالأولى أننا أصبحنا فقراء في أدبنا عالة على آداب غيرنا . فنا من ينصرف إلى قراءة الأدب باحدى اللغات الأجنبية إن كان يحسنها ، والذين يجهلون تلك اللغات قد تعودوا القناعة بما تصدره مصر وسورية وبقية البلاد العربية من مطبوعات وكتب . والنتيجة الروحية هي هذه الحالة التي نوشك أن نحس بها جميعاً من القنوط من بعث أدبي لا نحس الحاجة إليه ، ويقنعنا أن نكتفي بالتعيش على فيض مما تصدره جاراتنا العربيات من أدب يختص بهن ، ولا يطمئن حاجاتنا الروحية أو يعبر تمام التعبير عن إحساسنا الفني

أدبنا كما ينبغي أن نفهمه

الأدب كما يفهمه هذا العصر لا ينحصر — كما يعتقد الكثيرون منا ممن اقتصرت ثقافتهم على نوع واحد من أنواعه — في القدرة على الأداء والتعبير الجميل ، بل أصبح — بفضل الطباعة والصحافة — يضم إليه أشتاتاً أخرى من فنون لم تكن في العهد القديم تقرن به ؛ وتطورت تسمياته فأصبحنا نسمع الآن « بأدب البحر » و « أدب الموسيقى » و « أدب الموقد » وما إلى ذلك من التسميات . وعهدنا نحن بالأدب أنه محصور في اللغة والبديع ، والأمالي ، والمقامات ، وما إليها . ولكل من هذه الفنون — طبعاً — أصول ليس في مكنة الأديب أن يتعداها أو يغفل عنها ؛ ومن هنا نتج الضيق فيما نسميه نحن أدباً ويسميه الغربيون عنا Folklore بينما هم يسمون الأدب باسم آخر

ولو أردنا أن نحصر مفهوم الأدب كما يدركه أبناء العصر الحاضر لما عجزنا عن ذلك فحسب ، بل لكان عملنا — لو تم — ناقصاً في ذاته ، بالغاً ما بلغ من كمال ؛ ذلك لأن المفهوم عنه لن يقف عند ما سوف نصل إلى تحديده وتعريفه ، بل سيخلق وشيكاً غيره وغيره من فنون لا نستطيع منذ الآن أن نعطي فكرة عنها

فنحن الآن مثلاً لا زلنا نعيش في أدب الترسل واجترار الكلام على الأصول القديمة ؛ أما في العالم فقد حدثت بعد دورنا هذا آداب جديدة : كأدب المقالة ، وأدب القصة ، وأدب الرواية ، وأدب الترجمة Biography ولن يستطيع أي مفكر وأديب كبير أن يتنبأ عن أدب العصر المقبل : ما هو ؟ وكيف سيكون ؟ وماذا يفيد ؟ وما أسلوبه؟

علم الأدب

إننا نفهم الأدب الآن فهماً غريباً لا هو بسبيل فهم الأقدمين له ، ولا هو على شاكلة ما يعنيه الغربيون ويصطلحون عليه ؛ فقد كان شأنه في القديم عظيماً ، وكان شخص الأديب عنصراً فعالاً في الحياة العامة . وحسبنا دلالة على مفهوم الأدب وفعاليته في تلك العصور ومقام الأديب في الحياة الاجتماعية أن الأقدمين كانوا يعزون الأدب فيسمونه « علماً » وهم يقصدون بالعلم ما نقصد العلم به الآن بهذه التسمية فيقولون « علم الأدب »! ويصفون الأديب بأنه عالم في علم الأدب

تطور مفهوم الأدب والصحافة

والأدب في العصر الحاضر له مفهوم تطور وترقى حتى زاد في علوه على ما كان له من المكانة في العصور القديمة ، وأصبح شأنه في الحياة العامة أعمق وأخطر مما كان عليه في العصور التي سبقت المدنية الحديثة ، وأصبح الانسان لا يستطيع أن يتصور بلداً متمدناً من دون صحف وطباعة . وقد حاول أحد الكتاب أن يستمر في خياله عن مدنية كهذه ، فانتهى به الأمر أن وكل نتائجها إلى الجنون . فقد أصبحت الصحافة سلاحاً وكانت في بداية أمرها لا تزيد على وسيلة بسيطة لزيادة المعلومات العامة ونشر الأخبار ؛ وصارت « القصة » الفنية الأدبية وسيلة العالم في الدعوة إلى نظرية من نظرياته ، والفيلسوف إلى نشر فلسفته ، والسياسي إلى الدفاع والدعاوة عن سياسته ، وغدا شخص الأديب متمتعاً بأكثر مما كان يتمتع به شخص الأمير من التجلة والاحترام والتقدير والمهابة في العصور السابقة

الأدب كما نفهمه نحن

أما ما نفهمه نحن عن الأدب فانه ينحط إلى أقل من اللهو والمجانة ، وبعض أساليب اللهو عندنا تستدعينا شيئاً من الجد والهمة فى إحضارها والاستعداد لها ، أما الأدب فلا نكاد نعتبره من الملاهى التى نجد فى الحصول عليها ، فان حصل من تلقاء نفسه فانه لا يكاد يعنينا إلا أن نكون نحن في حالة لهو ، أو نتلقاه على أنه صنيمة لاه غير مسؤول عما يقول ، فى ساعة لهو خالية من خير أو من جد أو من منفعة . وهذا نهاية ما يصل إليه سوء فهم الأدب ، وسوء تأويله ، وخطر حالة مثل هذه لا يقتصر على تشويه جمال الأدب نفسه ، بل يتعدي ذلك إلى خلق شعور العجز والمحاكاة والتقليد الأعمى كما نرى جماع ذلك فى حياتنا الأدبية الحاضرة

لقد آن لنا أن ندرك حظ الأدب ومغالبته فى الحياة العامة وتأثيره فى إعداد الأجيال المقبلة الاعداد الذى يتفق مع ماسيحتاجون إليه من كفاءة وقدرة . ونحن مسؤولون أمام التاريخ عن إهمال الناحية الأدبية والفنيه فى حياتنا ، كأفراد، وكأمة ، وكحكومة .

وما دمنا نسعى إلى النهوض فى جميع مناحى حياتنا العامة فأحرى بنا أن نضع نصب أعيننا ضرورة اعتبار الأدب بوجه عام من أهم ما ينبغى السعى على إحيائه والعمل على النهوض به . ولن يستدعينا العمل لهذه الغاية ما يستدعى الحياة المادية من تضحية فى النفوس والأموال والكفاءات والجهود ، بل كل ما نحتاجه فى هذا المضمار هو تحسين نظرتنا إلى الأدب ومعناه وأثره واعتباره من الضرورات التى ينبغى أن توحد الجهود فى سبيل العناية بها فى غمار ما نحن آخذون بسبيل السعي إليه من نواحى الحياة الأخرى ، والكف عن اعتباره ألهية لا تستحق عنايتنا إلا بعد الاجهاد والنصب كما نتناول ألهيات الحياة وتفاهاتها . ولا نطمع فى أن يصل تقديرنا هذا للأدب إلى أكثر مما وصل إليه فعلا فى أيام المتنبى وأبى نواس ومن عداهما وإن كان يحق لنا أن نحذو حذو أوربا والغرب فى هذا المضمار وأن يكون تقديرنا له كتقديرهم له سواء بسواء

« للحديث بقية — بغداد » **عبد الوهاب الأمين**

من برجنا العاجي

التجارب هى إحدى وسائل « العلم » ، ولعل ساعة « التجربة » هي أمتع لحظات « العالِم » . خطر لى مرة أن أقوم بتجربة غريبة ممتعة : أن أضع امرأة فاتنة بين إخوانى الأدباء الأفاضل : العقاد وطه والمازنى وأحمد أمين والزيات والبشرى ؛ ثم أنظر بعد ذلك ما يكون . إنى على ثقة أنهم لن يناموا ليلتهم قبل أن يسطر كل منهم على الورق أشياء قد تكون من أجمل ما كتبوا . إن المرأة الجميلة فى مجلس الأديب لها فعل السحر . تستطيع بغير عصا أن تخرج جواهر البيان من أفواه الأدباء ؛ إنا لا نكاد نجد أدباً من الآداب العظيمة لم يرو لنا خبر المرأة فى مجلس الأدب ؛ فاذا راجعنا الأدب العربى القديم وجدنا ذكر الجوارى اللواتى كالشموس ، الضاربات بالعود ، اللاعبات بالنرد ، الراويات للشعر ؛ وإذا نظرنا فى آداب الغرب فى كل عصر وجدنا أخبار « الصالونات » وما فيها من أقمار كلهن ذكاء وثقافة ودلال . نعم ؛ وهل يمر يوم على أديب من أدباء الغرب لا يجلس فيه إلى مائدة تزينها باقات النساء الجميلات ؟ ! فيلبث ساعة يتحدث إلى ملكين رقيقين عن يمينه ويساره يقطر الوحى من شفتيهما ، ثم يعود إلى عزلته وكتبه وورقه ليمضى فى إنتاجه الأدبى ، هذا الإنتاج الذى نراه بعد ذلك آية من آيات الإعجاز ! أما نحن فلا عرب بلغنا ولا غرب ، ولا شموس حولنا ولا أقمار ؛ ولكننا أدباء كأمنا كب نسبح فى الظلام ، ونعيش فى الجدب والحرمان ؛ ومع ذلك ننتج أحياناً ، وهنا حقاً آية الإعجاز ! إن أولئك الذين يتهمون أدبنا الحديث بالتقصير هم قوم ظالمون أو أغرار لا يبصرون . إن أدباءنا المعاصرين لجبابرة مستبسلون ، ومجاهدون مستشهدون ، لم يعرف مثلهم أدب من الآداب . فما من أدب فى التاريخ استطاع أن يظهر فى ظروف اجتمعت على خنقه كهذه الظروف . اللهم إنا شهداء ! اللهم إنا شهداء !

توفيق الحكيم

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢٣ —

الرافعي والعقاد

لقد مات الرافعي — رحمه الله — فانقطع بموته ما كان بينه وبين خصومه من عداوات . وما أريد أن أوقظ فتنة نائمة يتناولني لهيبها أولَ ما يتناول ، فما لى طاقة على حمل العداوة ، ولا اصطبار على عنت الخصومة ، ولا احتمال على مشقة الجدال ؛ وإنما هو تاريخ إنسان له على العربية حق جحده الجاحدون فنهضت للوفاء به ؛ فإن كنت أكتب عن أحد من خصومه أو أصحابه بما يؤلم أو يسيء فما ذلك أردت ، ولا إليه قصدت ، ولا به رضيت ؛ ولكنها أمانة أحملها كارهاً ، وأضطلع بعبئها مضطراً ، لأؤديها إلى أهلها كما تأدّت إلىّ . وإنى لأعلم أنى بما أكتب من هذا التاريخ أضع نفسى بالموضع الذى أكره ، وأتعرض بها لما لا أتوقع ؛ ولكن حسبي خلوص النية ، وبراءة الصدر ، وشرف القصد ؛ ولا علىّ بعد ذلك مما يكتب فلان ، ولا مما يتوعّد به فلان ؛ فإن كان أحد يريد أن يصل بى ما كان بينه وبين الرافعي من عداوة فانقطعت ، أو يربط بى رابطةً كانت بينه وبين فلان فانفصمت ، أو يتخذ من الاعتراض علىّ زلفى إلى صديق يلتمس ودَّه ، أو يجعل مما يكون بينى وبينه سبيلاً إلى غرض يرجو النفاذ إليه ، أو وسيلة إلى هوى يسمي إليه — إن كان أحد يريد ذلك فليمضِ على إرادته ، وإن لى نهجى الذى رسمْت ، فلتفترق بنا الطريق أو تلتق على سواء ، فليس هذا أو ذاك بمانعى من المضيّ فى سبيلى . ومن الله التوفيق !

* * *

وهذه خصومة أخرى من خصومات الرافعي ، ومعركة جديدة من معاركه . وإنى لأشعر حين أعرض لنبش الماضي فأذكر ما كان بين الرافعي والعقاد ، أنى كمن يدخل بين صديقين كان بينهما فى سالف العمر شحناء ثم مسحت على قلبيهما الأيامُ فتصافيا ، فإنه ليُذكِّر بما لا ينبغى أن يُذكر . والموت يحسم أسباب الخلاف بين كرام الناس ؛ فإذا كان بين الرافعي والعقاد عداوةٌ فى سالف الأيام فقد انقطعت أسبابها ودواعيها ، فإن بينهما اليوم لبرزخاً لا تجتازه الأرواح إلى أُخراها إلا بعد أن تترك شهواتها وأحقادها وعواطفها البشرية . فهنا ناموس وهناك ناموس ، ولكل عالم قوانينه وشريعته ؛ فما تخلص ضوضاء الحياة إلى آذان من فى القبر ، ولا ينتهى إلى الأحياء من عواطف الموتى إلا ما خلفوا من الآثار فى دنياهم

هنا رجل من الأحياء ، وهناك رجل فى التاريخ ، وشتان بين هنا وهناك ؛ فما أتحدث اليوم عن خصومة قائمة ، ولكنى أتحدث عن ماض بعيد . والرافعي الذى يحيا بذكراه اليوم بيننا غير الرافعي الذى كان ، فما ينبغي أن تجدد ذكراه ماضيَ البغضاء ، وهذا عذيرى فيما أذكر من الحديث ...

لم يكن بين الرافعي والعقاد قبل إصدار الطبعة الملكية من إعجاز القرآن غير الصفاء والود ؛ فلما صدر هذا الكتاب فى طبعته الجديدة أحدث بينهما شيئاً كان هو أول الخصام ...

حدثنى الرافعي قال : « سعيت لدار المقتطف لأمر ، فوافقت العقاد هناك ، ولكنه لقينى بوجه غير الذى كان يلقانى به ، فاعتذرت من ذلك إلى نفسى بما ألهمتنى نفسى ، وجلسنا نتحدث . وسألته الرأى فى إعجاز القرآن ، فكأنما ألقيت حجراً فى ماء آسن ... ومضى يتحدث فى حماسة وغضب وانفعال ، كأن ثأراً بينه وبين إعجاز القرآن . ولو كان طعنه وتجريحه فى الكتاب نفسه لهان علىّ ، ولكن حديثه عن الكتاب جره إلى حديث آخر عن القرآن نفسه وعن إعجازه وإيمانه بهذا الإعجاز ... ... أصدقك القولَ يا بنى : لقد ثارتْ نفسى ساعتئذٍ ثورة عنيفة ، فكدت أفعل شيئاً . إن القرآن لأكرم وأعز ... ولكنى آثرت الأناة ... »

قال الرافعي : « وأخذت أناقشه الرأى وأبادله الحوار فى هدوء وإن فى صدرى لَمِرجلاً يتلهب ؛ إذ كنت أخادع نفسى فأزعم لها أنه لم يتخذ لنفسه هذا الأسلوب فى الهجوم على فكرة إعجاز القرآن

إلا لأنه حريص على أن يعرف ما لا يعرف ، وعلى أن يقتنع بما لم يكن مقتنعاً به ؛ فأخذت معه فى الحديث على هدوئى وثورة أعصابه .. ولم أفهم إلا من بعدُ ما كان يدعوه إلى ماذهب إليه.. »

قال : « لقد كان العقاد كاتباً من أكبر كتاب الوفد ، ينافح عنه ويدعو إليه بقلمه ولسانه عشر سنين ، وإنه ليرى له عند « سعد » منزلة لا يراها لكاتب من الكتاب ، أو أديب من الأدباء ، وإن له على سعد حقًّا ؛ ولكن سعداً مع كل ذلك لم يكتب له عن كتاب من كتبه : « كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم » وكتبها للرافعي وليس له عليه حق مما عليه للعقاد ... »

قال الرافعي : « ... من هنا يا بنى كانت ثورته . كانت ثورة الغيرة ... لا ثورة الأديب الناقد الذى لم يقنع بما كتب الكتّاب عن إعجاز القرآن فهو يلتمس المعرفة والاقتناع . وعرفتُ ذلك من بعدُ ، فما بدا علىّ ما فى نفسى من الانفعال ، ومضيت معه فى الحديث فى وجه جديد . قلت : أنت تجحد فضل كتابى فهل تراك أحسن رأياً من سعد ؟ »

قال الرافعي : « وفهم ما أعنيه فقال : وما سعد ؟ وما رأى سعد ؟ »

قال الرافعي : « وطويت الورقة التى كان يكتب فيها حديثه[1] فقبضت عليها يدى ثم قلت : أفتراك تصرّح برأيك هذا فى سعد لقرائك وإنك لتأكل الخبز فى مدح سعد والتعلق بذكراه ... ؟ قال : فاكتب إلىّ هذا السؤال فى صحيفة من الصحف تقرأ جوابى كما عرفته الآن ... ! »

قال الرافعي : « وابتسمت لقوله ذاك وأجبته : يا سيدى ، إن الرافعي ليس من الحماقة بحيث يسألك هذا السؤال فى صحيفة من الصحف ، فتنشر السؤال ولا ترد عليه ، فيكون فى سؤالى وفي صمتك تهمة لى ، وتظل أنت عند قرائك حازماً أريباً بريئاً من التهمة مخلصاً لذكرى سعد ! »

قال الرافعي : « وما قلتُ ذلك — وإن ورقته في يدى أشد عليها بأناملي — حتى تقبض وجهه ، وتقلصت عضلاته ، ثم قال فى غيظ وحنق : ومع ذلك فما لك أنت ولسعد ؟ إن سعداً لم يكتب هذا الخطاب ، ولكنك أنت كاتبه ومزوِّره ، ثم نحلته إياه لتصدر به كتابك فيروج عند الشعب ! »

قال الرافعي : « وما أطقت الصبر بعد هذه التهمة الشنيعة ، ولا ملكت سلطانى على نفسى ، فهممت به .. فدخل بيننا الأستاذ صروف ، فدعا العقاد أن يغادر المكان ليحسم العراك ويفض الثورة ! »

* * *

هذه رواية الرافعي ، حدثنى بها غير مرة فى غير مجلس ، كما تحدّث بها إلى غيرى من أصدقائه وخاصته ؛ فما لى فيها إلا الرواية والتصرف فى بعض الكلام تأدباً مع الأستاذ العقاد وكرامة لذكرى الرافعي

على السفود

وفرغ الرافعي من مقالات عبد الله عفيفى التى كان ينشرها بعنوان (على السَّفُّود) ؛ ثم ذهب مرة لزيارة صديقه الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب المصور ، فسأله تتمّة هذه السلسلة فى نقد الأستاذ عفيفى ، فاعتذر الرافعي وقال : حسبي ما كتبت عنه وحسْبه . قال الأستاذ مظهر : فاكتب عن غيره من الشعراء . إن فى هذه المقالات لمثالا يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة !

فتنبه الرافعي إلى شىء فى نفسه ، وجلس إلى مكتب فى دار المصور فكتب مقاله الأول من كتاب على السفود ؛ وتوالت مقالاته من بعد فى أعداد المجلة متتابعة فى كل شهر . فلما تمت هذه المقالات نشرها الأستاذ اسماعيل مظهر فى كتاب قدّم له بمقدمة بامضائه يبين فيها ما دفعه إلى نشر هذا الكتاب الذى لم يكتب على غلافه اسم مؤلفه ، ورمز إليه بكلمة « بقلم إمام من أئمة الأدب العربى »

وفى الأسبوع المقبل إن شاء الله حديثنا عن الكتاب ونهجه

« شبرا » **محمد سعيد العريان**

* * *

إلى الأديب أحمد سعد الهوارى بعلوى لأشكر له ، وأعتذر من عدم نشر مقاله ؛ لأنى لا أريد أن يصرفنى عن هذا الحديث شيء من جدال الرأى فيما لا يغير شيئاً من حوادث التاريخ

---

(١) كان الرافعي أصم كما يعرف القراء ؛ فمن ذلك كان أكثر ما يدور بينه وبين الناس من الحديث كتابة فى ورق !

مصر وفلسطين

لأستاذ جليل

سمع الناس فى الخافقين منذ أشهر كلمة مصر الإسلامية العربية فى (دار العصبة) فى شأن فلسطين وذلك التقسيم المقطِّع المزِّق ، وتلوا فى هـذا اليوم كتاب رجال من (دار الندوة) ومجلس الشيوخ فيها إلى سفير الانكليز ، وفى الكتاب ما فيه . وهذه كلمة ذات زئير ونهيم قالتها مصر منذ قرون حين سأل الغرب مثل الذى يبغيه اليوم . وقد رواها (صبح الأعشى) عن (التعريف بالمصطلح الشريف) ، وإنها لتنادى مفصحة مبينة على أن مصر هى مصر فى كل وقت ، وأنها لن تنام عن مظاهرة أخ فى الدين أو العربية مستطاعة . وفى رواية (التعريف) ألفاظ عامية لا تنحط بها قيمتها بل تغليها ؛ وإن كثيراً من الباحثين اليوم ليهتمون بالوقوف على مثلها . وهذه هى الطرفة التاريخية :

«قال فى « التعريف » : أما الرِّيد فرَنسى فلم يرد له إلا رسول واحد أبرق وأرعد ، وجاء يطلب بيت القدس على أنه يفتح له ساحل قيسارية أو عسقلان ، ويكون للإسلام بهما ولاة مع ولاته ، والبلاد مناصفة ومساجد المسلمين قائمة ، وإدارات قومها دارّة ، على أنه يبذل مائتى ألف دينار تعجل وتحمل فى [كل] سنة ، نظير دخل [نصف] البلاد التى يتسلمها على معدل ثلاث سنين ، ويطرف فى كل سنة بغرائب التحف والهدايا . وحسّن هذا كُتّاب . . . . . كانوا صاروا رءوساً فى الدولة بعمائم بيض وسرائر سود ، وهم أعداء زرق ، يجرعون الموت الأحمر ، وعملوا على تمشية هذا القصد و إن سرى فى البدن هذا السم وتطلب له الدرياق فعز

وقالوا : هذا مال جليل معجل ؛ ثم ماذا عسى أن يكون منهم وهم نقطة فى بحر ، وحصاة فى دهناء ؟

قال : وبلغ هذا أبى رحمه الله فآلى أن يجاهر فى هـذا ، ويجاهد بما أمكنه ، ويدافع بمهما قدر عليه ، ولو لاوىٔ السلطان على رأيه أن أصنى إلى أولئك الافكة ، وقال لى : تقوم مى وتتكلم ، ولو خضبت ثيابنا بالدم ، وأرسلنا قاضى القضاة القزويني الخطيب ، فأجاب وأجاد الاستعداد ، فلما بكرنا إلى الخدمة وحضرنا بين يدى السلطان بدار العدل ، حضرت الرسل وكان بعض أولئك الكتبة حاضراً ، فاستعد لأن يتكلم ، وكذلك استعدينا نحن : فما استتم كلامهم حتى غضب السلطان وحمى غضبه ، وكاد يتضرم عليهم حطبه ، ويتعجل لهم عطبه ، وأسكت ذلك المنافق بخزيته ، وسكتنا نحن اكتفاء بما بلغه السلطان مما رده بخيبته ، فصد ذلك الشيطان وكفى الله المؤمنين القتال ، وردت على راميها النصال ؛ وكان الذى قاله السلطان : وَالْكم أنتم عرفتم ما لقيتم نوبة دمياط من عسكر الملك الصالح ، وكانوا جماعة أكراد ملفقة مجمعة ، وما كان بعد هؤلاء الترك ، وما كان يشغلنا عنكم إلا قتال التتر ، ونحن اليوم بحمد الله تعالى صلح (نحن وإياهم) من جنس واحد ما يتخلى بعضه عن بعض ، وما كنا نريد إلا الابتداء ؛ فأما الآن فتحصلوا وتعالوا وإن لم تجوا فنحن نجيكم ولو أننا نخوض البحر بالخيل ؛ وَالْكم صارت لكم ألسنة تذكرون بها القدس ؛ والله ما ينال أحد منكم منه ترابة إلا ما تسفيه الرياح عليه وهو مصلوب ! وصرخ فيهم صرخة زعزعت قواهم ، وردهم أقبح رد ، ولم يقرأ لهم كتاباً ولا رد عليهم سوى هذا جواباً »

(الأسكندرية) (***)

فلسفة التربيــــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

« ليست الجماعة مجرد علاقات ، ولكنها فى كل منا . ثم هى ترتفع فى أعظمنا إلى الدرجة القصوى »

« ماك إيفر »

« لو قد نشأ الفرد على المرونة والتجديد : لما استطاعت يد الرجعية الآثمة أن تعوق سير الحضارة ، وأن تعبث بجلال الانسانية » (***)

« ليس فى الطبيعة فرد مطلق غير الله تعالى ، وما الفرد من بنى الانسان إلا جزء من والديه ومن خلية الحياة الأولى بل ومن الانسانية ماضيها وحاضرها »

« برجسن » (وغيره)

الجماعة والفرد

رأيت فيما سبق بعض تطبيقات الديموقراطية ، على الثقافة والمنهج ، والمعلم والطالب ، والمدرسة وطريقة التدريس ، وأحب اليوم أن أكمل الناقص فى ذلك ، وأوضح الغامض ، ولا سيما من ناحية الجماعة والفرد وما ينبغى أن يكون بينهما من علاقة ديموقراطية صحيحة تغرسها التربية الحديثة وتنميها

ما الجماعة وكيف نشأت ؟ اختلف العلماء فى ذلك وتباينوا ؛ ومن أشهر نظرياتهم فى ذلك دعوى « العقد الاجتماعى » التى قال بها « روسو » ومهما يكن من شىء فالجماعة الحق يسود فيها التبادل كما يقول « توفيكو » ، كما أنها ليست مجرد علاقات أفراد بعضهم ببعض ، ولكنها روح دافع غلاب فى كل فرد كما يقول « ماك إيفر » ، وها هو « هوبهوس » يقول إن الجماعة توجد فى أفرادها ، وإن كل فرد فيها مركز اتصال ، وإن هذا الاتصال يتوقف قوة وضعفاً على الفرد نفسه ويؤثر فيه ، وإن الأفراد إنما يتحسن شأنهم ويرتقى باتصالهم بغيرهم [1]

وقد يبدو للبعض أن الرجعية والبطء فى التطور والتجديد طبيعة فى الجماعة ثابتة ، ولكن الراجح أن التربية المقيمة هى المسئولة عن ذلك كله . ولذلك نرى التربية الديموقراطية تدعو إلى سعة الصدر وحرية الفكر ومرونة العادات ، وتصرح قائلة على لسان (جون ستيوارت مل): « ويل للزمن الذي لا يجرؤ على الشذوذ فيه إلا الأقلون [1] » !

أما الفرد فهو أنت وأنا أيها القارىء العزيز ! وكم احتُقر وازدرى فى الدهور الغابرة ، وحُرم حرية الفكر والحركة والحياة ، وكم اعتز بشخصيته ، وعلا وتكبر ، واعتبر نفسه مقياساً للأشياء جميعاً من حق وباطل ، وخير وشر ، وجمال وقبح — فى عهد السفسطائيين ؛ ولو شئت الحقيقة فى أمر هذا الفرد لعرفت أنه لا يستطيع أن يكون « مطلقاً » بحال من الأحوال ! وهل من مطلق فى الطبيعة غير الله ؟ سر إلى الصحراء إذا شئت وعش هناك وحيداً إذا استطعت ، فلن تجد « الجماعة » إلا محيطة بك عن يمينك وعن شمالك ومن خلفك ومن قدامك ، ألم ترث عنها ما قد ورثت عن آبائك وأجدادك ؟ ألا تفكر بمنطقها ؟ أولا تهجس بلهجتها ؟ ثم ألا تستفيد من تجاربها العملية فى كل ما تتخذ من سلاح وغطاء ودثار ؟

نحن إذاً مدينون للجماعة حاضرها وماضيها بكل شيء تقريباً وإذاً فلا أقل من أن نعطيها من أنفسنا بعض هـذا الدين الذى لو عشنا دهوراً لما وفيناه ؛ ولكن الجماعة مع ذلك مدينة لبعض الأفراد هي أيضاً ؛ ألا يقول « كارليل » ما تاريخ الإنسانية إلا تاريخ عظمائها ؟ وإذا فلا أقل أيضاً من أن تحترم الجماعة الفرد وتشجعه على خدمتها ، وتسمح له بإصلاح ما فيها من عيوب والسمو بها إلى مثله العليا . وإذ كان الجمال فى الفن هو « كثرة » تسيطر عليها « وحدة » كما يرى الأستاذ « كوزن » فى كتابه الفريد : « الخير والحق والجمال » ، فإن (السير برسى نن) يرى أن تاريخ الإنسانية يتطور ويتقدم نحو « الفردية » المتزنة ، وكلما قطع فى تطوره شوطا كلما كانت الحياة أسمى وأهنأ وأرفع وأخصب

وإذا كان الأمر كذلك فماذا عسى أن تكون العلاقة الصالحة بين كل من الجماعة والفرد ؟

يقول هوبهوس « يجب أن تنمو الجماعة وحدة متناسقة فلا يتضخم فيها « فرد » ويصير مارداً على حساب الجميع »

ويقول الأستاذان « ديوى ونفت » إن مقياس كل نظام

(١) أنظر .، A source Book فصل الجماعة والفرد

(١) أنظر كتاب الحرية للفيلسوف المذكور ترجمة الأستاذ طه السباعى

اجتماعي هو: « هل يجعل قدرة الفرد حرة في زيادة الخير العام؟ وهل يسمح بمساواة الجميع في فرصة إظهار الكفايات؟ » بل إن (ديوي) ليقف عند كل نظام سياسي أو غير سياسي ليرى أي دوافع يثيرها؟ وأي أثر له على من ينفذونه؟ أهو يحرر القوى؟ وإلى أي حد؟ وللجميع أو للأقلية؟ وهل تسير القوى التي يحررها في طريق معقول؟ وإذا كان النظام نظام تعليم نراه يسأل « هل يرهف الحواس ويدرب العقول؟ وهل يثير حب المعرفة في النفوس؟ وما هو نوع « حب المعرفة » هذا؟ أهو عرضي يطفو أم جوهري يغوص؟[1] » ، وهكذا دواليك..

بقي أن نتساءل وما « المصير »؟ أإلى ماهو أحسن كما يقول التفائلون؟ الواقع أن الجماعة في تطور دائب مستمر وإن كنا لا نستطيع أن نعتبر كل تطور نجاحاً. وبعد الوقوف على آراء — هوبهوس — وديوى — وفاجيه — وشو — ويود — ومل — وبيرى[2] — في ذلك الموضوع نستطيع أن نقول: إن « النجاح في الجماعة ليس أوتوماتيكياً بل يعتمد على الإرادة والقصد، وإن الهرم في الأمة يمكن أن يجتنب تماماً بمرونة العادات، وإن مذهب « إمكان التحسين » خير من التفاؤل البحت أو التشاؤم البحت، لأنه وحده يبعث على الأمل والرجاء، ويمنع الغرور واليأس، وإن « حرية الفكر » هي أهم عامل في التطور نحو « الأحسن » وخصوصاً إذا اقترنت بنية بريئة فاضلة ونفوس حازمة عاقلة، وإن « انحطاط » العهود التاريخية المظلمة ليس غير حقارات أفراد، وطوائف، وأحزاب، وجماعات، أكثر مما هو حقارات أمم وشعوب. وإذاً فتقدم الإنسان بيده لا بيد الطبيعة الصماء، وذلك طبعاً أفضل له وأشرف. وهاهو ذا تقدم العلم يقول لنا أن ليست هناك غاية موضوعة، ولكن هناك ما يمكن أو ما يجب أن يكون

ولكن ترى من يدفع الجماعة إلى هذا « المصير »؟ وكيف السبيل إلى ذلك الدفع؟ يرى « أرسطو » أن ذلك هو واجب الحكومة وسبيله التربية، ولكن « ديوى » يخشى إشراف الحكومة لأنه يعتبرها أكثر جموداً وتلكؤاً من المجتمع، ولذلك نراه يعتمد على «الهيئات الحرة» أكثر مما يعتمد عليها؛ وهاهي ذي الحكومات كثيراً ما تخطئ في الخطط وتجني على الديموقراطية جناية نكراء، ألم تحول إيطاليا المدارس إلى ثكنات عسكرية يحرم فيها النشء من أشياء في الحياة كثيرة، ويساق سوقاً إلى نظام تعسفي مرذول فرضته سياسة خاصة قوامها الوطنية المتعصبة التي لا يضيرها احتراق بعض العالم ما دام في ذلك خير لها؟

* * *

وبعد فتلك هي الجماعة، وهذا هو الفرد كما تتصورهما الديمقراطية الحديثة، جماعة مرنة متجددة، وفرد حر خادم مطيع ثم تقدم يدفع بهما معاً نحو « الأحسن » قوامه الحرية والنية الفاضلة ... ولما كانت التربية هي الوسيلة الوحيدة الفعالة الجديرة « بخلق » هذه الجماعة وذاك الفرد، فإنها يجب أن تكون بحيث تستطيع خلقهما خلقاً صحيحاً بقي الإنسانية آفات الرجعية والجمود، ويوفر عليها حقارات أولئك الذين يسودون صفحات التاريخ! . ومعنى هذا أن تكون المدرسة مجتمعاً صغيراً تتوافر فيه جميع الأسباب التي تحرر العقول، وتطهر النفوس، وتغرس التعاون والإيثار، وتمهد للمجتمع الفاضل المنشود ... ويتطلب ذلك بالطبع اتباع طريقة في التدريس خاصة، والعناية بدراسة معينة، أو معاملة الطلبة على أساس ديموقراطي مرسوم؛ ولست تطمع من غير شك في أن أمر معك بكل التفاصيل. وحسبك أن تعلم أن رياضة الغلبة والتعصب والأنانية والتنافس، لا تؤدي بنا إلى شيء من هذا كله، وأن حشو العقول لا يحررها ولكنه يشلها ويبلدها، وأن الاهتمام بالحروب والاطناب في سير أبطالها يبرر ما فيها من نهب وسفك وهدم وتدمير لدى الناشئ الساذج البريء، وأن الدروس الإلقائية التي لا تطبيق فيها ولا تعاون لا تعمل أكثر من تكوين أفراد « لأنفسهم » قبل أن يكونوا لغيرهم، وأن إعطاء كل شيء للطالب وتوفير مجهود البحث والاطلاع عليه يجعله اتكاليًّا عديم الثقة بنفسه والاعتماد عليها. وأن ... وأن ... وأن ... مما قلت وما سأقول، وما تستطيع أن تدركه أنت دون ذكره أو الإشارة إليه! كل ذلك لا يخلق الجماعة الديموقراطية المرنة المتجددة، ولا يتمخض إلا عن عقول العصافير، وإلا عن نفوس يملكها الركود والخمول، وعن طوائف العصبية والانخذال، ونزعات الرجعية والأنانية والشهوة والجمود... وها أنت ذا ترى العالم يمجد سياسة الحروب ويدعو إليها ويجد وا أسفاه من الشعوب جنوداً مثلهم الأعلى الإسكندر وهانيبال

(١) أنظر A source Book (٢) أنظر A source Book

المثل الأعلى للشاب المسلم (*)

للأستاذ على الطنطاوى

كما أراد الشاعر الفرنسى الأشهر بول فاليرى أن يحاضر بدأ بتعريف مدلول الكلمات التى يتألف منها عنوان المحاضرة. وهذه هى عادة أجدادنا، إذا أخذوا فى الكلام على علم من العلوم أو بحث من المباحث، فليس علىّ إذن من بأس إذا اتبعتها هذه الليلة، فبدأت محاضرتى بتعريف المثل الأعلى، والكلام على صفات الشباب الأساسية، وتلخيص القول فى الأسلام ...

إنه ليس فيكم أيها السادة من هو راض عن حالته، مطمئن إليها، وليس فيكم من لا يتصوّر حالة خيراً منها، فإن كان عالماً فكر فيمن هو أعلم منه، وإن كان غنياً تصوّر من هو أغنى. فاذا صار مثل من يتصوّره من الأغنياء، أو يفكر فيه من العلماء، طمح إلى درجة أعلى، ومنزلة أسمى، لا يكاد يبلغها حتى يزهد فيها، ويطمع فيما وراءها. وإذا أنتم استعرضتم أعلم العلماء، وأجمل الفتيات، وأبهى الرياض، وأبرع الصور، وأفخم البنى، لرأيتم الذهن البشرى، يتخيل على أهون سبيل، عالماً أكبر، وفتاة أجمل، وروضة أبهى، وبنية أفخم، وصورة أبرع ... ثم يبالغ فى التخيل حتى يستقر على مرتبة، ويثبت فى منزلة لا يرى فوقها منزلة، فتكون هى المثل الأعلى

فالمثل الأعلى إذن هو أسمى ما يتصوره العقل البشرى ... والمُثُل تتعدد بتعدد الناس، فلكل مثله الأعلى فى الحياة، وعدد

(*) « خلاصة المحاضرة التي ألقيت فى نادى (اتحاد الشبيبة الاسلامية) فى بيروت مساء الخميس ٢٦ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ الموافق ٢٧ يناير ١٩٣٨ »

وقيصر ونابليون (١) ... أفكان ذلك يتأتى لو درس الطفل تاريخ الإنسانية لا تاريخ الوحوش؟

وحسبي اليوم ذلك وإلى اللقاء حيث نرى لوناً آخر من الكلام

(يتبع) محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بمدرسة شبرا الثانوية الأميرية

(١) خطب موسولينى يوم أن انسحب من عصبة الأمم، فندد بسياسة جنيف — سياسة الضعف — وطلب من قومه أن يوافقوه على أن إيطاليا أصبحت حرية تمجد القوة، فوافقوه فى سيل جارف من الهتاف والتصفيق!!

الأشياء فلكل شيء صورته الكاملة، ولكنها تجتمع كلها على افتراقها، وتتحد على تعددها، فى أشياء ثلاثة نبه إليها أفلاطون وأخذ بها الناس فى كل عصر ومصر، وأجمعوا على إجلالها، واتخاذها مثلهم العليا، وغاياتهم السامية؛ وهنّ: الحق والخير والجمال هذا هو المثل الأعلى. أما الشباب، وهل أحتاج إلى تعريف الشباب؟

الشباب الحياة، والحياة الشباب، (روائح الجنة فى الشباب)(١)

خَلَقُ العيش فى المشيب ولو كا ن نضيراً وفى الشباب جديده(٢)

الشباب يا سادتى الواحة الفريدة فى صحراء الحياة، هو الربيع فى سنة العمر، هو البسمة الوامضة على ثغر الزمان القاطب. الشباب فى الأمة قلبها الخافق، وعيونها الناظرة، وأيديها العاملة

لست أعنى هذا الشباب الغض الغريض، الحلو الناعم، الذى يجرح خديه لمس النسيم، ويدمى بنانه مسّ الحرير، والذى يرق حتى يسيل من العيون نظرات ساحرة مغرية، ويدق حتى يستحيل إلى فكرة تطير كالفراشة بين أزهار الجمال فى روضة الحب، أو نسمة معطرة تهب من حراش فتاة فتانة، أو قبلة فيها خمر وعسل تجمع لذائذ الدنيا فى رشفة مسكرة ... لست أعنى هذا الشباب الفاتن المتأنث الذى يسبي القلوب، ويسلب النفوس، ويعيش للهوى والأحلام، ويبدأ تاريخ حياته بالحاء (ح) فلا يتلبث أن ينتهى بالباء (ب) ...

إنما أعنى الشباب الحىّ العامل القوى المتين، الذى وضع له غاية فى العيش أبعد من العيش، ونظم نفسه حلقة فى سلسلة شعبه، واتخذ له مطمحاً، ومثلاً عالياً، ثم عمل على بلوغه، وسعى إليه باندفاع الصواعق المنقضة، وقوة العواصف العاتية وثبات الطبيعة، وألقى فى سفر حياته الراء بين الحاء والباء؛ وهل الحياة إلا حرب دائمة ونضال مستمر، فتنازع على البقاء، وتسابق إلى العلاء.

لا يبقى غير الصالح، ولا يصلح غير القوى ... هذه هى الحقيقة الباهرة، هذا هو القانون المقدس الذى لا يلغيه برلمان، ولا يعبث به إنسان، ولا يخرج عليه إنس ولا جان ولا حيوان، لأنه من قوانين الله التى كتبها على صفحة الوجود يوم أخرجه من العدم، وقال له كن فكان

(١) أبو العتاهية (٢) البحتري

الجراد يأكل البعوض ، والعصفور يفترس الجراد ، والحية تصطاد العصافير ، والقنفذ يقتل الحية ، والثعلب يأكل القنفذ ، والذئب يفترس الثعلب ، والأسد يقتل الذئب ، والانسان يصطاد الأسد ، والبعوض يميت الانسان ... هذه هي السلسلة الالٰهية الخالدة لا تبديل لها ولا تغيير . إما أن تقتل الأسد ، وإما أن يقتلك البعوض

فيا شباب ! لا يغلبكم البعوض ، ولكن اغلبوا الأسود !

***

الحق ثقيل ، ولكن الحق أحق أن يقال . فأرجو ألا يغضب مَن ههنا ممن يحسبون أنفسهم شيوخاً إن خاطبت الشباب ، وقلت إن المستقبل للشباب . ولكن من هم الشباب ؟ يصف أندريه موروا الشباب بالرغبة الأكيدة فى حياة العاطفة والحب ، وحياة الحماسة والبطولة ، أى بالمجون والاستهتار ، والميل إلى الإصلاح ، والإخلاص للمبدأ والزعيم ، والاندماج والفناء فى المجموع (في الجمعية أو الحزب أو الأمة) وبأنهم أدنى إلى المثل العليا ، وبأن شعارهم الإقدام والتعجل والسرعة وبعض الأناة والانتظار [(١)] . الشباب بهذه الصفات ، ليس الشباب بورقة النفوس وسجل الميلاد ؛ فكل من مات قلبه ، وانطفأت شعلة حماسته ، وضاعت مثله العليا ، وأحس بأنه قد بلغ مأمله فلم يعُدْ له أمل ، فهو شيخ ولو كان في العشرين من سنه . وكل من كان له قلب ، وكانت له آمال ومطامح ، وكل متحمس مندفع شاب ولو شاب !

فلا تغضبوا ياسادتي الكهول إذا قلت إن المستقبل للشباب ، ورفعت من شأن الشباب ، فإن فيكم شباباً ولو ابيضت لحاهم ورءوسهم ، وانحنت ظهورهم ، وتجعدت جباههم . هم شباب العزائم والقلوب ! وهؤلاء الخاملون من الشباب هم الشيوخ . لا تعجبوا ياسادتى ، فلقد كان شوقي شيخاً فى مطلع شبابه يوم كان شاعر الأمير ، ثم عاد شوقى شاباً فى كهولته يوم صار شاعر الآمال والآلام ، شاعر العروبة والإسلام ...

***

بقى علىّ تعريف الإسلام ، ولكن من العبث يا سادتى أن أعرّف الأسلام ، وأنا أحاضر قوماً هم بحمد الله مسلمون ، ولا يكون مسلماً من لا يعرف ماهو الأسلام ، ولا صلة له بعلومه ، ولا اطلاع له على أحكامه ، ولا وقوف له على أمره ونهيه ، وعند أمره ونهيه . إن من العبث أن أقول لكم إن ديننا إيمان وعقائد ، وإسلام وعبادات ، وإحسان وأخلاق ، وسياسة وشريعة ، وإن له فى كل جانب من جوانب الحياة مصباحاً يضيء ، ومناراً يهدى ، وإنه لا يفارق المسلم أبداً ، ولا يدعه لحظة . إن كان وحده ، منفرداً بنفسه كان معه الاسلام يأمره بأن يحاسب نفسه ، ويتوب من ذنبه ، ويتأمل في بديع صنع الله فى نفسه وفى العالم ، ويستدل بالصنعة على الصانع ، وبالأثر على المؤثر . (وفى أنفسكم) أكبر الدلائل ، وأقوى الحجج ، (أفلا تبصرون ... ؟) أو لا يتفكر هؤلاء الجاحدون (أخلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟) . (أو لم يتفكروا في أنفسهم ؟ ما خلق الله السموات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى) ، (أفلا تتفكرون) . وإن كان المسلم فى المجتمع كان معه الاسلام ، يبيّن له سبيل الحكمة ، ويدله على صراط الأخلاق المستقيم ، ويأمره بأن يحسن استعمال هذه القوى التي وهبها له الله ، فلا يتبع بها ما ليس له به علم ، (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) ولكن يستعملها فى سبيل العلم ، العلم كله حتى الفلك والجيولوجيا وعلم الأجناس ، هذه العلوم من آيات الله . ألم يأمر الله بهذه العلوم التي يمنعها بعض مشايخ العصر ؟ قال تعالى : (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين) ، (إنما يخشى الله من عباده العلماء)

ينظم الإسلام العلاقة الاجتماعية خير تنظيم ، ويبنى الأمة أمتن بناء ، يبدأ بإنشاء الأسرة فيجعل لها رأساً مسئولا ، له حق الطاعة لينتظم الأمر ، وتتم المصلحة ، وعليه واجب العدل والعمل ، وجعل الرجل هو الرأس [(١)] لطبيعة تكوينه وخلقته ونوع عمله وغايته (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) وجعل على النساء

---

(١) أندره موروا : عن كتاب (طريق السعادة) تعريب سعيد القضماني — وهو مجموعة محاضرات فى السعادة والزواج والأسرة — خليق بكل شاب أن يقرأها

(١) ومن آيات الله فى ملكوته أن الرأس لا يكون إلا مذكراً فى اللغة وفى الحياة ، ولكن أكثر الناس غفلوا عن الآيات فأنثوه فقالوا فى صحفهم : هذه الرأس ، وقالوا فى بيوتهم : هى الرأس !

واجباً ، ولكنه أعطاهنّ حقاً مثله (ولهنّ مثل الذى عليهنّ بالمعروف) ، ورفع من شأن التربية ، وجعل للمربين الأولين ، للوالدين أرفع مقام ، وجعل طاعتهما مقرونة بالتوحيد الذي هو رأس الدين وبيت قصيده ودعامة بيته . قال عزّ من قائل : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) ووضع خير القواعد وأحكمها للزواج والطلاق [1] والإرث ، وينظم الاسلام أمور الأمة ، ويقيمها على أساس من الفضيلة والعدل . (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق) ويشرع لها القوانين الثابتة المحكمة في معاملاتها ، والقواعد الأخلاقية السامية فى علاقاتها الخاصة ، ويدعو إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة والدليل الواضح والبرهان القاطع ، لا بالارهاب ولا بالترغيب . (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً) ودعا المخالفين إلى المحاجّة والمناظرة ، وإقامة الأدلة (أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم) (أإله مع الله قل هاتوا برهانكم) . وعاب الاسلام التقليد والجمود واتباع الآباء والأجداد ، وإهمال العقل ، ودفع الناس إلى التفكير ، وإقامة البراهين العقلية والأدلة اليقينية ، أى أنه دعا منذ (١٤٠٠) سنة إلى الطريقة العلمية التى يفخر بها علماء اليوم ويظنونها من ابتكارهم وأثراً من آثار حضارتهم . قال تعالى يذم أهل الجمود وينعي عليهم (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟)

إنكم تعرفون هذا كله أيها السادة لأنكم مسلمون ، وإن من العيب أن ألقيه عليكم فما جئت لأعرّف الاسلام ولا أرد تعريفه . ولكن أحببت أن أوجه أبصاركم إلى مسألتين مهمتين :

أما المسألة الأولى فهى أن ديناً يضع للعقل قواعد فى التفكير ، ويشرع للعلم طريق البحث ، وينظم حياة الفرد وحياة الأسرة ، ويكون هو القانون المدنى والجزائى ، والقانون الدولى ، والأخلاق والفلسفة — إن ديناً هذا شأنه لا يصح أن يعدّ مع الأديان التى لا تتجاوز أحكامها عتبات معابدها ، ولا يجوز أن نطلق عليه ما يطلقونه عليها من أحكام . فاذا قبلنا بمبدأ فصل الدين عن السياسة مثلا وهو مبدأ محترم ، فلا يصح أن نستنتج منه وجوب فصل الاسلام عن السياسة ، لأن الاسلام ليس ديناً ، ولكنه دين وسياسة . هل تستطيعون يا سادتي أن تحذفوا سورة براءة مثلا من القرآن لأنها سياسة .. ؟ وإن قبلنا مبدأ استقلال العلم عن الدين لأن الدين لا يستند إلى البحث العلمى ولا إلى العقل فلا يصح أن نسحب هذا الحكم على الاسلام لأن الاسلام ليس ديناً وسياسة فقط . ولكنه دين وسياسة ومنطق وعلم ...

هذه يا سادتى حقيقة ظاهرة ظهور الشمس، ولكن أكثر شباننا لا يرونها ، خفيت عنهم ، وغربت هذه الشمس من أفق تفكيرهم ، فتخبطوا فى ظلام ليل أليل ، فلذلك ترونهم يأخذون كل ما يقوله الافرنج عن دينهم فيطبقونه على الاسلام ، على الاختلاف بينهما ، والتباين بين طبيعتيهما ...

ولعل من هذا الباب تسمية العلماء برجال الدين وإنها لتسمية باطلة فشت على الألسنة وعم بلاؤها ونسى المسلمون أنهم كلهم رجال الدين . دين الاسلام ، دين المساواة والسمو والعمل ، ليس فيه طبقات مميزات من طبقات ، وليس أحد أحق به من أحد ، وليس فيه جماعة هم وكلاء الله ، يحلون ويحرمون ، وهم أصحابه الأدنون وأهلوه الأقربون ، وغيرهم الأبعدون ، ولكن المسلمين كلهم (أبناء النبي وعترته والفارسيين والصينيين) وكل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ... لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى والعلم والقيمة الشخصية : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى) ... (يا فاطمة بنت محمد ، لا أغنى عنك من الله شيئاً) ...

فلا تقولوا للعلماء رجال الدين، ولا تحملوهم وحدهم واجبات الدين ، فان رجال الدين هم كافة المسلمين . ليس عندنا إلا العلم والتقوى ، فمن كان عالماً عظمناه وسألناه ، ومن كان تقياً أحببناه وأجللناه ، ومن أخطأ وحرف رددناه أو ردعناه كائنا من كان ذلك المخطىء وذلك الناقد . ليس الناقد بأقل من تلك العجوز ، وليس المنقود بأجل من عمر !

هذه المسألة الأولى . أما المسألة الثانية التى أحب أن أوجه إليها أنظاركم ، فهى أن الدين على ما يفهمه العلماء من أهل أوربا هو الذى ينظم علاقة الانسان بالله ، وبما خلق الله من المخلوقات المغيبات وراء المادة وبالعالم الآخر ، فلا علاقة له بالحياة السياسية ولا الأوضاع الاجتماعية ، ولا بالقوانين والنظم ، ولا يصح أن تبنى

(١) لا تفتش عن قواعد الطلاق المحكمة إلا فى كتاب العلامة الشيخ احمد شاكر.

عليه الجامعة الوطنية . هذا ما يقرره العلماء الذين بحثوا فى هذه الجامعة وطبيعتها وقيمتها ، وفى مقدمتهم (رينان) فى محاضرته المشهورة التى ألقاها فى السربون سنة ١٨٨٢ . وهذا صحيح فى الأديان ولكنه ليس بصحيح فى الاسلام ، لأن الاسلام ذاته وطنية ، ورابطة اجتماعية معنوية ، ليست قائمة على لغة ولا على أرض . ولكن على ما يسميه (أرنست رينان) بالارادة المشتركة ويجعله أساس الرابطة الوطنيـة . فليس وطن المسلم مكة ولا المدينة ولا البلد الذى ولد فيه ، ولكن وطن المسلم المبادئ الاسلامية ، فحيثما وجدت هذه المبادىء وحيثما كان أهل (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فثمّ وطن المسلم . وعندى أن هذه الرابطة الاسلامية رابطة (إنما المؤمنون إخوة) معجزة من أعظم معجزات الاسلام لأنه أقر منذ أربعة عشر قرناً المبدأ الذى اهتدى إليه العقل البشرى سنة ١٨٨٢ م وسار منذ أربعة عشر قرناً فى الاتجاه الذى يسير فيه العالم اليوم . لقد سقط اليوم مبدأ القوميات الذى دعا إليه الرئيس ولسن بعـد الحرب ونهضت المبادىء الفكرية الاقتصادية ، فانقسم العالم كما ترون إلى جهات ثلاث : الديموقراطية والشيوعية والفاشية . وكما أن الشيوعى الفرنسى أخو الشيوعى الروسى ولو تناءت الديار وتباينت اللغـات واختلفت الأجناس فكذلك المسلم أخو المسلم ، أينما كان وكيفما كان . وكما أن الفاشىّ الايطالى أقرب إلى الاسبانى الفاشى من أخيه الاسبانى الشيوعى فكذلك المسلم الهندى أقرب إلىّ من غير المسلم ولو كان عربياً هاشمياً قرشياً !

وليس هـذا مجال البحث فى الجامعة الاسلامية ، وطريق تحقيقها ، فان لهـذا البحث موطناً آخر (١) وما أردت إلا لفت أنظاركم إلى هذه الناحية من الاسلام ، لأقول بأن الشاب المسلم لا يستطيع أن يندمج فى أى رابطة دولية تقوم على أخوّة غير الأخوّة الاسلامية ، ولا يقدر أن يدعو إلى أى رابطة قومية أو جنسية لأنه ليس من المسلمين من دعا بدعوة الجاهلية ..

« البقية فى العدد القادم »

على الطنطاوى

(١) وإن هذه الجامعة التى تستقر اليوم فى قلوب المسلمين عقيدة من عقائد الدين الأول ، وأملا من آمال الحياة السامية ، ستغدو فى الغد القريب حقيقة واقعة مشاهدة ، وقد بدت بوادرها فى اتجاه مصر العظيمة إلى الاسلام ، ورجوعها إلى الدين ، يقدمها أمير المؤمنين الملك الصالح (فاروق) أعز الله به الدين وحقق فيه آمال المسلمين

نظر ونقد

شعراؤنا فى موكب الزفاف

كان زفاف الفاروق حرسه الله بهجة غمرت جنبات مصر ، وهزت شعور أبنائها على اختلاف طبقاتهم بالجـذل والسرور ، فنهضوا يتسابقون فى إعلان جذلهم وسرورهم بشتى المظاهر والظواهر ، فإذا مصر من ذلك فى صورة رائعة من الواقع رجحت الخيال ، وأصغرت مالها من الأشباه والنظائر فى التاريخ ، وأزرت بمـا يمثله القصص الموضوع عن « الليالى الملاح » فى ألوان الترف والنعيم ، واشتمال الأنس والصفاء ، ومهـارة العقل فيما أبدع ، وجمال الفن فيما نوّق ؛ على أنها تنفرد فى هذا كله بجلال الاخلاص ، وصفاء الحب ، وروعة التمجيد . وسيكون للتاريخ من ذلك صفحة وضاءة مشرقة ، لم تكن له فى الأيام الخالية ، أخشى أن يطالعها الناس فيما بعد فيقولوا : إنها تلفيق الخيال ، وصنيع الـكذب ، كما نقول نحن فى ليالى ومحافل ألف ليلة وليلة وأشباهها من القصص المختلق

لقـد شهد المصريون جميعاً ذلك اليوم ، وامتلأت نفوسهم وقلوبهم بروعته وجماله ، واستطاع كل فرد وكل جماعة أن تعبر عن شعورها بذلك أوضح تعبير وأجمله ، فكان اليوم فى كل مناحيه ومظاهره يوم الشعراء ؛ الشعر يبدو فى مجاليه ، والحسن يزهو فى حواشيه . هو دنيا تفيض بالجمال والجلال ، وشمس تشع على الـكون نور البهاء والرواء ، فأينما سرحت النظر وجدت حفزاً للشعور ، وإرهافاً للإحساس ، وتزكية للعواطف ؛ والشعراء كما نعلم أوفر الناس شعوراً ، وأرهفهم إحساساً ، وأزكاهم عاطفة ، تلك هى مواهبهم التى تميزهم عن سائر الناس ، وتطوّع لهم الصناعة الشعرية دون غيرهم ، فكان لا بد أن تفيض نفوسهم بمـا رأوا قوافىَ كلها الإحساس بالجمال والجلال ، وأن يجرى شعرهم بما فى نفوسهم أوزاناً صادقه منسجمة هى لحن الزمن الباقى على الزمن ، ونغمات الأجيال المتعاقبة على كر الدهور

على هذا الاعتبار كان الشعر سجلاً خالداً لحوادث التاريخ ،

وعظائم الدهر، وروائع الأيام ؛ وعلى هذا الاعتبار اندفع الشعراء قديماً يتحدثون عن زفاف المأمون إلى بوران ، وهو زفاف له فى التاريخ خبر مشهور ، وهو يشبه زفاف الفاروق فى كثير من الأفراح والمعالم ؛ وعلى هذا الاعتبار أيضاً انتظرنا وانتظر الناس ما وراء شعرائنا فى اليوم الحافل ، والزفاف الذى لم يعهد مثله فى عصر من العصور ، وقلنا : لعلهم يتركون فى ذلك للأجيال المقبلة صفحة قوية بروعة التصوير وإبداع المعانى ، وجمال الأسلوب ، وانسجام الخيال ، وسلامة الذوق

ولقد قال شعراؤنا فى يوم الزفاف ما وسعهم القول ، ففاضت أنهار الصحف بكثير من الكلام المقفى المجنح الأشطار مقدماً بالتقاريظ والتزكية ، وأقيمت حفلات متعددة « أراق » فيها الشعراء على « مناضد » الشعر ما أعدوا لذلك من كل « خريدة عصماء » رسم حدودها الخيال وياله من خيال ... ونسق وشيها الذوق وإنه لذوق ... وأبدع معانيها العقل وأى عقل ... وقد سمعنا الجمهور يهتز لكل ذلك طرباً ، ويصفق من العجب تصفيقاً عالياً مدويا أدمى الأكف ، وصك المسامع ، وأضجر الأعصاب . ولو كان الحكم الأدبى ومقاييس الشعر هى على ما يرى الجمهور وتقدّر الصحافة لكان شعراؤنا على ذلك قد بلغوا الذروة التى لاتطاول ، ولكان شعرهم آية الابداع والاختراع ، فمن حقه البقاء والخلود والإجلال والتقديس ، ومن الواجب علينا أن نعتز به ونفاخر ، وأن نكتبه فى « القباطى » ونعلقه بأستار ... بأستار ما لا أعرف ! !

ولكن الحكم الأدبى فى تقدير الفن والأدب إنما هو للذى يستطيع تعليل حكمه كما يقول العقاد . فاذا عجز عن الحكم استطاع أن يعلل عجزه بكلام سائغ فى الأفهام ، ولا يكون ذلك إلا ناقد ذو ثقافة أدبية واسعة ، وطبيعة فنية موهوبة ، ونظر مميز فاحص . فهو الذى يمكنه أن يميز الجوهر من الخزف ، والدر من الصدف ؛ وهذا التمييز هو المعول عليه فى التقدير الحق ، وهو الحكم الأدبى الصحيح الذى يرمقه المعنيون بدراسة التواريخ الأدبية للأمم والأفراد ، ثم هو الذى سيبقى على الزمن على حين تطير الفواقع والقواقع ، وتموت التقاريظ الأدبية الرخيصة ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . وأنت أبقاك الله تعلم حق العلم أن حكم الناقد إنما يكون له هذا المقام من الاجلال والاكبار والتقديس والتقدير إذا ما تجرد من الهوى والميل ، وتنكب التدليس والتمويه ، وارتفع عن الارتباطات الشخصية وعلاقات الصداقة ، وكان القصد فيه الحق للحق ، والفن للفن والانصاف مجرداً عن كل غاية ومأرب ، فان الأمور الشخصية والميل مع الهوى شر مامنيت به أعمال الخير فى كل عصر ومصر ، وشر ما منى به النقد الأدبى فى مصر على الخصوص ، وشر ما منى به الأدب فى جميع نواحيه على تقدير صحافتنا سددها الله إلى الرشد ، فكان من وراء هذا أن ساء ظن الناس فى أهل الأدب والنقد ، وأصبح وجود الناقد الحر فى اعتقادهم كوجود الغول والعنقاء والخل الوفى !

ولقد انتوينا أن نتناول شعر الزفاف بالنظر والنقد على ما يتفق وحرمة النقد البرىء ، وكرامة الفن المهذب ، ومهمة « الرسالة » الشريفة . سنقول للمحسن أحسنت ، وللمسىء أسأت . سننظر إلى ما قيل لا إلى من قال ، لا نخضع فى ذلك إلا لوازع الضمير وسلطان الحق ، ومعايير الفن . ويعلم الله لقد حفلنا لذلك ما وسع الجهد ، فسبقنا إلى كل حفل ، ونهضنا إلى كل جمع ، واستمعنا وقرأنا كل ما قيل وما نشر حتى ما لا يستحق أن يسمع ولا أن يقرأ . ولعلنا بهذا العمل نكون قد سجلنا على صفحات الرسالة ، وهى سجل الأدب الخالد ، لوناً طريفاً من ألوان الأدب لا يخلقه إلا المناسبات الطيبة ، والفرص السعيدة ، وما أقلها فى تاريخ الأمم ، وما أندرها فى حياة الأفراد

ولا أكتمك الحق إذا قلت لك إن شعراء الزفاف قد قصروا عن الشأو ، وقعدوا دون الغاية ، وخيبوا الأمل ، وكان الأمل فيهم كبيراً ، وخذلوا الشعر وكنا نرجو للشعر على أيديهم نصراً مبيناً !! الأمر الذى جعلنا نعتقد اعتقاداً صحيحاً أن الميدان قد خلا من بعد صاحب الشوقيات ، وأن الشعر عند شعرائنا تلفيق وشعوذة وصناعة احتطاب على حد تعبير الرافعى يرحمه الله ، فليس هناك إلا إحساس ضئيل إن دل على شىء فانما يدل على أن فى نفس صاحبه شاعرية كنبوة مسيلمة ...

لقد كان يوم الزفاف حافلاً بمعالم الزينة والبهجة ، يفيض كما قلنا بالجمال والجلال ، والبهاء والرواء ، فكان فى كل منظر

شعر ، وفى كل مظهر سحر ، وفى كل وضع فن ، فلو فاز ذلك اليوم بشاعر كابن الرومي أو شوقي لربح الشعر والفن ؛ ولكن كل هذا لم يكن له مع الأسف أدنى أثر فى إحساس شعرائنا ، فطاروا بخيالهم إلى عنان السماء ، يصفون النجوم وجمالها ، والأفلاك ومداراتها ، وراحوا يُنْطقون الطيور بالسجع ، والعنادل بالتغريد ، وقفزوا إلى الرُبى قد غطاها الزهر والنور وما فى مصر شبه رابية من ذلك ! واهتموا كثيراً بداوود ومزماره ، وعنوا جميعاً أن يُذكرونا بيوم الحشر والنشر ، وكأنهم لم يعرفوا من سجايا المليك إلا الذهاب إلى المساجد وصباحة الوجه فوقفوا عند هـذا الحد ومازادوا ! ! ثم هم قد جروا على طريقة لا تُرضى فى الأسلوب الشعرى . يريد بعضهم أن يقوى فيتعجرف ، ويروق لبعضهم أن يلين فيسخف ؛ أما الإحساس بما كان من بهجة الزفاف ، وروعة الزينة ، واشتمال الصفو ، وفرح الشعب ، وتزاحم المواكب ، وعرض الجيش ؛ وأما الملك يبادل شعبه على هذا كله حباً بحب ، وعطفاً بعطف ، كل هـذا لا نجد له ذكراً فى شعر الزفاف . فكأن غاية القول عندنا أن نترسم السابقين فى إحساسهم وخيالهم وأسلوبهم ، لا أن نقول كما نحس وعلى ما نرى وبما نسمع ! !

إن شعر الزفاف فى الواقع قد جاء فاقداً للخصائص المميزة ، وهي لا شك كل شيء فى الشعر خصوصاً شعر الوصف والمديح . فمن السهل جداً أن يحول ذلك الشعر إلى حفل آخر ، ومن السهل جداً على شعرائنا أن يقصدوا به إلى أى موقف . فلو وقفوا مثلاً فى يوم عيد الميلاد الملكي المقبل ينشدون شعرهم هـذا للجمهور لصفق لهم الجمهور وقرظتهم الصحافة . أليس من الزول كما يقول المعرى أن يقف أحد أولئك الشعراء فيلقى مطولة فى حفل حافل وكلها تمجيد لجلالة الملك وإشادة بأخلاقه وليس فيها ذكر للزفاف ولا أى خبر عنه ؟ ! ومن يدرى لعل ذلك الشاعر كان قد قال قصيدته هذه فى عظيم من قبل ، ولعله ينوى أن يقولها في عظيم من بعد ! وقديماً دخل أحدهم على سلم الخاسر فوجده يعمل قصائد بعضها فى رثاء أم جعفر وأم جعفر باقية ، وبعضها فى مدح رجال لم تعين أسماؤهم بعد ! فقال: ماهذا ياسلم ؟ قال: وما أصنع يا أخى وقد تحدث الحوادث فجأة فيطلب إلينا القول ولا يرضى منا إلا بالجيد !!

ولكن ما عذر شاعرنا وزفاف الفاروق لم يكن فجأة وإنما كان حديث الناس منذ زمن طويل يتسع لكل شيء

نحن لا نتجني على الحق ، ولا نحب أن نلقى الكلام على عواهنه ، ولكن نحب أن نشرح ونعلل ، وأن نقدم الأمثال والشواهد ، ولذلك آثرنا أن نقف مع كل شاعر على حدة فنقرر ماله وما عليه ، وموعدنا بذلك المقالات الآتية إن شاء الله

« م . ف . ع »

أناشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٩٧ —

سأزينك بالرايات والأكاليل علامة غلبتك على ؛ فما كان فى قوتى أن أدفع عن نفسى الهزيمة

لا ريب ، فكبريائى قد عُصف بها ، وحياتى تصدعت عن آلام مبرحة ، وقلبي الخاوي تفجر عن لحن موسيقى كأنه اليراع المثقب ، وهذه الأحجار الصماء ستحور عبرات

لا ريبَ فى أن أوراق زهرة اللوتس لن تظل متماسكة أبد الدهر ؛ وأن رحيقها المكنون سيبدو فى وقت مّا

ومن خلال السماء الزرقاء ستحدق عين فىّ ثم تناديني فى صمت ، فأنفض عنى كل شيء ... كل ما أملك ... ثم أتقبل القضاء المحتوم عند قدميك

— ٩٨ —

حين ألقى بالدفة من يمينى ألقى بها لأنه يكون قد آن لك أن تديرها أنت ، وسيتم كل ما تريد فى لحظات ، وعبثاً هذا الجهاد

إذن ألق السّلم — يا قلبي — واصبر فى صمت على ما مُنيت به من إخفاق ، وثق بأنه من حسن حظك أن تستقر هادئاً فى مكانك ... مكانك الذى حللت

إن مصابيحى تنطفىء عنـد كل هبة نسيم ، وإنى لأنسى ذلك حين أنطلق أمنيتها

غير أنى سأكون — فى هذه المرة — حازماً ، فأظل فى غسق الظلماء ، أنشر فراشى على الأرض ؛ وإذا طاب لك هذا — يا سيدى — فتعال إلىّ فى صمت ، واتخذ لك مجلساً بإزائى

— ٩٩ —

لقد اندفعت إلى أعماق بحر الأشباح علّى أجد الدرة الكاملة التى لا شكل لها

لن أبحر — بعد — على قاربى المحطم من مرفأ إلى مرفأ ؛ فما أطول الأيام حين أقضيها بين أمواج تتقاذفنى !

والآن ، فأنا أستشعر فى نفسى الشوق إلى أن أغتمر فى الخلود .

سأندفع إلى مجلس السمر ، حيث اللجة ما لها من قرار ، وحيث الموسيقى تتصاعد مختلطة فى غير نغم ... سأندفع إلى هناك وبين يدىّ قيثار حياتى

سأوقع عليها ألحان الأبدية ، وحين آتى على آخر لحن ألقى بها عند قدمى السكون

— ١٠٠ —

لقد أفنيت عمرى أفتش عنك بأغانىّ . إنها هى التى قذفت بى من باب إلى باب ، ومن خلال نبراتها لمست كل ما حولى ، فانكشف أمام عينىّ العالم ، فأحسست به

إنها أغانيّ هى التى علّمتنى كل دروس الحياة ، وهى التى كشفت لى عن مسالك غامضة ، وحسرت لى عن كواكب تتألق فى أفق قلبي

وهى قادتنى إلى مفاوز فى عالم من السرور والألم معاً ؛ وأخيراً ، ماذا عسى أن يكون باب هذا القصر الذى دفعتنى هى إليه والليل ناشر أستاره ، فوقفت بإزائه وقد تمت رحلتى ؟

— ١٠١ —

إننى أباهى صحابتى بمعرفتك ، وهم يلمسون شعاعك فى كل ما أعمل فيندفعون إلىّ يسألون : « من عسى أن يكون ؟ » فما أدرى بماذا أجيب ... ثم أقول : « حقاً ، إننى لا أستطيع قولاً » فيتهكمون علىّ بكلمات لذّاعة ثم ينصرفون عنى فى ازدراء ، وأنت جالس هناك تبسم

وصفتُ أحاديثى عنك فى أناشيد يتدفق فى ثناياها السر الدقيق من قلبى ، فاندفعوا إلىّ يسألون : « خبّرنا عن معانى حديثك » فما استطعت حديثاً ... ثم قلت : « من عساه أن يعرف ؟ » فابتسموا فى تهكم ثم انصرفوا عنى فى ازدراء جامح ، وأنت جالس هناك تبسم

— ١٠٢ —

فى تحية واحـدة إليك — يا إلهى — دع كل حواسى تنطلق فتلمس هذا الكون عند قدميك

وكما تتعلق سحائب يوليه وقد أثقلتها القطرات المكفوفة ، دع قلبى ينحن عند بابك في تحية واحدة إليك

واجعل أغانىّ تنتظم كل الألحان التضاربة في تيار واحد ثم تدفق إلى خضم السكون لتكون تحية واحدة إليك

وكما ينطلق سرب من الكراكى وقد أمضته الغربة... كما ينطلق فى دأب ونشاط — صباح مساء — ليبلغ أعشاشه على قنن الجبال ، دع حياتي تتخذ طريقها إلى مستقرها الأبدى لتكون تحية واحدة إليك (تمت) كامل محمود حبيب

من أدب العصر

بين ديكي وكلبي

للشيخ حسن عبد العزيز الدالي

ديكي العزيز !

بقروش فوق الستين اشتريتك يا ديكي العزيز ، بعد بحث طويل عنك في الأسواق . وما أكثر الديكة من إخوانك أيها الديك ، ولكن قليلاً منهم ما يشبهك . وأين من الديكة جمال ريشك ، وطول عُرفك ، وثقل وزنك ، وخفة روحك ؟ صفات ما اجتمعت قبلك في ديك . فأنت الذي كنت أبحث عنه في الأسواق بذاته وعينه وخصوصيته ، حتى عثرت بك !

وعنيت بأمرك يا ديكي كل العناية ؛ فأفردت لك جناحاً خاصًا تسرح فيه وتمرح ، فتنفش ريشك الأخضر الجميل ، وتخفق بجناحك الزاهي الممدود ، وتدلي عرفك الأحمر الطويل ، وتكركر بصوتك الموسيقي الصادح : كُر كُر كُرْ ... ...

بيدي كنت أقدم إليك الطعام في الأطباق الصيني في وجبات منتظمة الميعاد ، شهية المذاق ، مغذية سائغة ، استعداداً ليومك المعهود بعد ثلاثة أسابيع ، يومَ تُزَفُّ في الصحفة الكبيرة ، لتكون عشاء العروسين في ليلة الزفاف . أيّ شرف كنت أُعدّ لك أيها الديك ؟ ولكن ...

ليت شعري ماذا أصابك أيها الديك ... ؟ لقد كنت في زيارتك أمس بعد الغروب ورأيتك وأنت تقفز بخفتك ونشاطك إلى العريش الذي اتخذته لك بيتاً عند ما يجن الظلام ... ويلي منكم يا معشر الديكة ! لا يفارقكم الزهو والخيلاء : في النهار كرٌّ وفرٌّ وعُجْبٌ وكبرياء ، وفي الليل لا يرضيك أن يمس جنبيك التراب فتأبى إلا العلاء ... ؟ بَلَى ، رأيتك أمس يا ديكي في خفتك ونشاطك ، وعافيتك وصحتك ، وحوصلتك مملوءة ، وعرفك ريّان ؛ فماذا دهاك في الصباح يا ديك ؟

يا أسفا وقد غدوت عليك لأقدم إليك الفطور بيميني فإذا أنت جثة هامدة ، ملقى على الأرض ، معفر بالتراب ، تحت السرير الذي ارتقيته أمس مزهوًّا أمام عيني !

لقد أحزنني مرآك يا ديك على هذه الحال ، وبجوارك ذلك الكلب الصغير « بيتر » الذي أصفاك الود منذ حللت الدار !

ما بك من جرح أيها الديك يُظن أن صديقك الأمين قد أحدثه بك في ثورة طيش ، وما بك رضٌّ يحتمل أن يكون من جراء سقوطك من مرقدك في غفوة حلم ؛ وهذا مكانك دافئٌ لا إمكان لأن ينالك فيه برد ... إذن فماذا ... ؟

لا بد من تشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة . ليس في الأمر جريمة على ما أعتقد وأرى ! أهي سكتة قلبية ؟ أهي ذبحة صدرية ؟ أهو تصلب في الشرايين ... ؟ ليتني أعرف يا ديكي العزيز ... !

يا للقدر ! لقد كنا نأمل أن يكون تشريحك بين العروسين في ليلة الزفاف ، فكيف يطاوعني قلبي أن أبدلك منهما مبضع الطبيب البيطري ... !

***

هذا صديقك « بيتر » يهز ذيله في حيرة ، وينكت الأرض برجليه في ألم ، ويعوي من قلبه في صوت مبحوح . ماذا يريد يا ترى ؟ أيطمع أن يرشدنا إلى القاتل وليس هناك جريمة ؟ أم يريد أن يقوم هو بعملية التشريح وتمزيق اللحم بعد ما أصبح الديك لا يصلح للعروسين ، أم ... أم هو يبدي الحزن على صديقه الفقيد ويريد أن يحفر له قبره بيده ...؟

من يدري أي سر يعتمل في صدر هذا الحيوان ! لقد تركناه لحاله وما فهمنا قصده ، واتجهنا إلى هذا الفقيد نفكر فيما نصنع به ، وأخيراً شيعناه بنظرة وداع ، وعقدنا العزم على أن نجعله طعاماً لبيتر . ما أشد ظلم الإنسان للحيوان ، حتى على الموت ! لقد قطعنا فخذ الديك فنزعنا ما بها من ريش ، ثم جعلناها وجبة الطعام لبيتر ... ولكن ... يا عجبا ! إن بيتر يأبى أن يأكل من لحم صديقه الذي مات ، على شهوته وجوعه . ها هو ذا يعمد إلى الريش المنزوع فيجمعه بفيه ثم يغطي به هذه الفخذ العارية . لقد قام الكلب بواجبه ، فكفن صديقه في أثوابه وواراه التراب !

يا للوفاء ! الكلب يأبى أن يأكل لحم صديقه ميتاً وإنه لا يعف عن طعام ، والإنسان — ويلي على الإنسان ! — والإنسان لا يتعفف أن يأكل لحم أخيه .. إن في الكلاب لنُبلاً وشهامة .. !

لله أنت يا بيتر ، وفي ذمة الله يا ديكي !!

حسن عبد العزيز الدالي
عمدة كفر دميرة القديم

معاودة الذكرى

تحفة من الشعر الغنائي الرائع

للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

عاوَدَ القلبَ حنينُهْ … مَن على الشوق يعينُهْ
ويح قلبي من غرامٍ … هاج بالذكرى كمينُهْ
يا لخفـــاقٍ إذا ما … قرَّ هزّته شجونُهْ
واصلُ مَن صدّ عنه … صائنٌ من لا يصونه
خانه الصبر ولولا الصـــدُّ ما كان يخونه
يا زمانا لم تكن إلا … هُنَيهاتٍ سنينه (١)
كنتَ رَوضاً حالياً بالـــوصل قد رَفّت غصونه
حُلمٌ إن يَمْحُه الدهـــرُ ففي الذكرى تصونه
كلّمـا منّاه ظنٌّ … عاد باليأس يقينـه
آه لو تدرين مابي … ضاق بالقيْد سجينه
إنّها تدري ولـكن … لصبا الغِيدِ فتونه
أنتِ لى كلُّ شئونى … ويلَ من أنتِ شئونه
كان لى دمعٌ فمالى … جفّ من دمعي مَعينه
مَن لصَبٍّ غدَر الوا … فِي به حتى جفونه
سكن الليلُ فما لِلـــقلب يجفوه سُكونه
كلّما ظنّ سُـــلوًّا … كَذبتْ فيـه ظنونه
لا أذودُ الحبَّ عن قا … بي ولو شُقّ وَتينُه
كم فنونٍ ذاق في الحـــبّ وللحبّ فنونه
فليذُق ماشاء منه … مارَعَى العهدَ أمينه
أيها اللائم دَعْهُ … فلهُ في الحبّ دِينُه

أحمد الزين

(١) كذا ، ولعلها على رأى من يعرب (سنين) بالحركات

الضيــــاء

للأستاذ أمين نخله بك

هذه القصيدة أهديت يوم نظمت إلى « مدموازيل كلير » ومن المحزن كثيراً أن تكون «مدموازيل كلير» قد غرقت فى — ضمير الفناء — فى أرض فرنسا ، على حين أن الأدب العربى يستقبل اليوم «الضياء» فيطرب لها ويتلألأ بها ، وصاحبتها التي من أجلها ألفت قوافيها وجمت لفظاتها غائبة عن الدنيا فى عتمة عميقة .

فلتكن هذه القصيدة ، إذن ، ألطف زهرة على ألطف تراب فى أرياف « إيل ده فرانس » البعيدة ... قال الأستاذ نخله :

عاش لنا الصبحُ ، ومات المساء … فى الصبح ألقاكِ، وألقى الضياء!
كأنّ لطف الله ، سبحانه … زحزح عند الصبح ذاك الغطاء
فالحمـــد لله على نعمةٍ … تشمل حتى لون خيط الهواء!

***

إن الظلام المرتمي لجة … أعمق غوراً من ضمير الفناء..
يبتلع الدنيا على رحبها … ويمسح الحسن، ويطوى الرواء
لولا الضياء السمح ما اخضوضرت … منابت العشب ، ولا ازرقّ ماء!
فى دورة الجدول حمدٌ له … وفى الأفانين عليـه الثناء
ما العيشُ، لولا الضوء، ما لونه!؟ … ما نضرة الرغد، وصفوُ الهناء؟!

***

يا ضوءُ شعشعْ، أنت عيدُ الضحى … عيدُ الشعاع الطلق، عيدُ الفضاء
يا ناسجَ السحبِ على نوله … أحسنتَ، فاسحبْ ذيلها ما تشاء
يا كاسيَ السنبلِ من عسجدٍ … اخلعْ على الكرمة هذا الكساء!
إن الدوالى ، وعناقيدها … سخيّةٌ، فاسكبْ لها عن سخاء
يا ضوء ، يا أنس المغانى ، ويا … بشائر الخير ولمع الرجاء
لك الحبورُ الذهبيّ ، الذى … راح على الوادى صباحاً وجاء!
رُبَّ شعاعٍ منك شكَّ الدجى … فقام بالجرح ، وفى الفجر ناء
خلِّ الدجى يبكي على ملكه … مقطّب الوجه، حوالى السماء!

***

من مبلغي من معمعان الهوى … دفقة ضوء ، لا يليه انطفاء
أُغرقُ فى النور حبيبى ، وفى … زواخر الوهج وسكب البهاء..

أمين نخله



ما بعـــد الطبيعة

الحيــاة

للسيد محمد حسن البقاعى

— ٢ —

إن الإنسان ليتساءل فيقول : ما هو أساس الحياة ؟ ترى هل هو نموّ الحس وحركاته وألمه وعضويته ؟ فهذه المسألة لا يمكن الجواب عليها إلا بالاستعانة بالعلم والفلسفة . على أن البحث فى الحياة ليس إلا التفتيش عن الحى هل هو ناشىء عن مادة أو هل الحياة الموجودة فى الجسد مُحَصِّلةٌ لأمور مادية أم خاضعة لمبدأ روحى عقلى ؟

ولعمرى إن الغوص فى بحث الحياة وسبر غورها ليتطلب البحث فى النظريات التى وضعها الفلاسفة من القرون الأولى حتى عصرنا الحاضر . وهذه النظريات على نوعين :

(١) النظريات الآلية Mècanisme

(٢) النظريات الحركية Dynamisme

أما خلاصة ما يقوله واضعو النظريات الآلية فهي : إنه من الممكن تعليل الحياة بالخواص الموجودة فى كل نوع من أنواع المادة ، أى يمكن تعليل الحياة بالحركة التى تصحب المادة . فقد قال (فاندال) : « ليس تشكل نبات أو حيوان أو تبلور إلا حادثة ميكانيكية لا تختلف عن قضايا الميكانيك الاعتيادية إلا أن العناصر فيها بسيطة جزئية » على أن كيفية الحركة مركبة ، فهي تعلل كل شىء بالمادة ، مثال ذلك : تركيب الماء من (H^2o) ليس هو إلا تركيباً مادياً ويدعمون نظريتهم هذه بسلسلة من الأدلة الطبيعية

الدليل الأول : إننا نستطيع إرجاع كل شىء من مظاهر المادة إلى حركة ، فالحرارة والنور يرجعان إلى اهتزاز وحركات فَلِمَ لا نعتبر الحياة مثلها ونرجعها إلى الحركات ؟

الدليل الثانى : إن مبدأ (لا فوازيه Lavoisier) المشهور ، والمعروف بمبدأ حصانة المادة وبقاؤها لخير دليل على أن الأجساد الحية لا يوجد فيها شىء غير المواد الكيميائية التى تنتج بتحليلها تحليلاً كيميائياً ، إذ أننا لو وزّنا المواد الحاصلة بعد التحليل الكيميائى ووزنا الجسم المحلل قبل ذلك لوجدنا هناك تعادلاً

الدليل الثالث : كلنا يعلم أن التركيب الكيميائى يعطى مُركباتٍ ذات خواص لا توجد فى العناصر المركبة ، فتركيب كلور الصوديوم (cl Na) من الكلور والصوديوم يكسب المركب خواص مغايرة لخواص كل من عنصريه (cl) ؛ (Na) فَلِمَ لا تكون الحياة مركباً ناشئاً من مركبات مختلفة ؟

الدليل الرابع : لقد سمحت لنا التجارب الحديثة بمشاهدة بعض المماثلات والمناسبات الغريبة بين بعض صور الموجودات الحية وبين صور بعض الأجسام البللورية ؛ فمن هنا نرى أنه يمكن إيضاح الحياة ميكانيكياً مثلها

ولكن هذه الأدلة لم تسلم من الاعتراض ؛ فقد اعترض عليهم بعض الفلاسفة فقالوا : (إن العلماء حتى اليوم لم يستطيعوا أن يركبوا الحياة) غير أن هذا الاعتراض يستند إلى أساس أو هى من بيت العنكبوت . وهذا الأساس ليس إلا تلك التجربة التى قام بها (باستور) وأثبت عدم إمكان التوالد العضوى . فإذا لم يوصلنا العلم حتى الآن إلى تركيب جسم حى فلا بد أننا في المستقبل نستطيع ذلك . على أن كلام باستور : (إن الحى لا يتولد إلا من الحى) لا يمكن أخذه كمبدأ أساسى ما دام العلم فى ارتقاء وتقدم مستمرين ، وها هو (ليبنتز Léibniz) يقول : إن كل شىء فى العالم يحدث ميكانيكياً . ولكن يجب أن نرتقى إلى مبدأ أعلى ، وهو المبدأ الميتافيزيكى ليتجلى لنا إيضاح الميكانيكية نفسها : على أن فى الحياة نظاما واتساقا خاصا لا يمكن

تعليله فى الحياة الميكانيكية فقط ؛ مع أننا لا ننكر أن كثيراً من الحوادث الحيوية يمكن تعليلها بالحوادث الميكانيكية . فقد قال (كلود برنارد Claude Bernard) : ليس تكوُّن الجسم الحيوى من مجموعات عناصر كيميائية هو كل ما تمتاز به ، بل هو الحياة أى القوة الحيوية التى لا توجد فى الكيمياء ، كاتجاه أعضائنا كل منها إلى غاية كغاية القلب وغاية المعدة ... فنحن فى هذه النظرية فى عالم الافتراض ؛ لذلك نقول : إن كلاً من هاتين النظريتين : الميكانيكية والديناميكية تستطيع دحض الأخرى وتقويضها

ولقد اعترض (هنرى برغسون H. Bergson) على نظرية الميكانيكية فقال : الحياة كلها إبداعٌ فهى مبدعة : أى أن تيار الحياة يأتى دائماً بالجديد . فالحوادث الحيوية فيها عدم تنبؤ (Imprèvisibilité) ولا يمكننا أن نتنبأ بأن الأحفاد فيهم صفات الأجداد ، وهذا ما يدعونا إلى عدم إيضاح الحياة

وزيادة على ذلك فإن الحوادث الحيوية الموجودة فى الجنين لا يمكن إيضاحها بصورة ميكانيكية : فترى أن الشبكة المينية عند ذوات الفقرات ناشئة عن اتساع القسم الدماغى فى الرشيم الحديث بينما هى عند النواعم مشتقة من الأدَمة أى من الخارج بصورة مباشرة لا بواسطة الدماغ . ومن هنا نرى أن العضو الواحد فى حيوانات مختلفة لا يتشكل من نفس العنصر . والسبب فى ذلك لا يمكن تعليله بالعناصر الميكانيكية فى الرشيم ولا بشروط الإقليم والبيئة الموجود فيها الرشيم . فتجدنا مضطرين إلى افتراض مبدأ مسيطر أى غاية واتجاه . وإذا اعترضنا على الميكانيكية والحركية هل نصل إلى شاطىء الصواب ؟ كلا ! فلا يسعنا لحل هذه المسألة إلا الرجوع إلى نظريات غير الحركية والآلية علنا نقرع باب الحقيقة ونلمسها بأناملنا العشر . فلنبدأ بذكر النظرية الحيوية (Vitalisme) فنقول: إن أصحاب هذه النظرية هم لرو، (P. Leroux) وبارتس) وكافة أطباء مدرسة (مونبيليه) وهم يعتقدون أن الحياة لم تنشأ إلا عن مبدأ خاص لا روح ولا شىء آخر ، بل هو مبدأ حيوى وسط بين الروح والجسد ... وقد تتجلى للقارىء قيمة هذا التعليل بمجرد ذكره فهو بدلاً من أن يوصلنا إلى حل هذه المسألة ؛ أوجد لنا معضلة أخرى لذلك فان الحيويين مثل (بروسن) و (كابانيس Cabanis) وغيرها من مدرسة باريس غيروا رأيهم فقالوا : ليست الحيــاة ناشئة عن مبدأ مفارق للجسد والروح ؛ ولا عن خواص المادة . بل هى ناشئة عن خواص معينة حيوية من نوع ثابت معين موجود فى الجسد ، أى أن المادة فيها خاصة الحياة عدا خواصها المعروفــة . وإذا عَرَّجنا الآن على نظرية المضوية القائلة : (إن الحياة هى وجود الأعضاء فى الجسم على هذه الصورة فهذا الوضع هو الذى أكسبها خاصة الحياة) نجد أننا لم نزل فى غياهب جهل بحقيقة الحياة ؛ بل كدنا أن نرتبك أكثر مما كنا فيــه . إذن فلنبحث الآن فى النظرية النفسية (Psychologisme) وهى النظرية التى تقول : (النفس مبدأ الحياة الاساسى) . فان الحياة تفارق الجسد عند ما تفارقه النفس ، وهى مبدأ العقل أيضاً فإننا نجد علاقة صحيحة بين الحياة العاقلة والحياة المادية أى أن مبدأ العقل هو مبدأ الجسد . ويثبت أصحاب النظرية النفسية رأيهم هذا بوجود الوحدة فى الجسد بالرغم من هذه الكثرة ، فبما أن فى النفس غاية واحدة فهى إذن المبدأ الأول للحياة ولا يمكننا إيضاح هذه الوحدة وهذا التناسق إلا بهذه الغاية الموجهة ، ألا وهى النفس . على أننا لا نعرف بأية صورة تؤثر الروح في الجسد ؛ وهذا الأمر شغل كثيراً من علماء النفس وعلماء الاجتماع والفيسيولوجين ، ولم يستطيعوا التوصل إلى حل معقول . فنحن إذن لا نزال فى عالم الفرضيات ؛ أضف إلى ذلك ما يعرضه بعض الفلاسفة على أصحاب هذه النظرية من الأسئلة ، فقد قالوا : إذا كانت النفس لها تلك القدرة التى يسندونها إليها — أى هى التى تحمى الجسد — فلماذا تتركه يفســد فيزول أو يمرض ؟ وكيف توضح الحوادث التى تحدث فى الجسد بعد مفارقة الروح له كأن يطول الظفر بعد الموت وينمو الشعر ؟ وماذا نقول إذا علمنا أن بعض البوليب التى تعيش فى المياه الحلوة إذا قطعت بصورة عرضية ، أى إذا شطرت شطرين ، يكون كل شطر منهما ذا حياة جديدة ويعيش ؟ ألم يقرروا أن النفس لا تنقسم ؟ إننا نجد هذه النظرية لا تخلو من الصعوبات أيضاً . ولقد وضع (داروين وكرومى) نظرية دعيت بالنظرية الروحية الكثيرة العناصر الحيوية فتقول : (الحياة ناشئة عن الروح والجسد معاً أى عن عنصرين . فلا يعتبر الجسم مادة عاطلة لا حياة فيها ، بل هو مستعمرة لحجيرات كثيرة كل منها لها حياتها الخاصة ؛ والنفس توجد هذه الحياة الكثيرة العناصر وتوجهها



أقصوصة حكيمة من جولد سمث (١)

الجنـدى الاجذم (٢)

للأستاذ دريني خشبة

يجهل نصف الناس كيف يعيش نصفهم الآخر ! !

تلك ملاحظة عامة شائعة ؛ بل ليس فيما يلاحظ الناس أكثر منها شيوعاً . . . وهى مع ذلك ملاحظة صادقة ؛ فهموم العظماء ما تلبث أن تفشو وتفشو ، وتذيع أنباؤها حتى تصبح مِلء الأسماع ، وملء الأفواه ، وحتى تصبح حَبّتها قبة ، وحصرِمَتها عِنَبة ؛ وذلك بما يمطها به الرواة ، وما يُضْفون عليها من الزخرف الزائف ، والبهرج المقيم ... ويبتعث هذا فى نفوس المهمومين طائفاً من الزهو فيلتذون همومهم ، ما دامت تجعلهم أبطالاً فى تقدير الأغرار

هذا ، وليس فخراً أن نحتمل الرُّزْء فى ثباتٍ وفى جلدٍ ليسا طبيعةً فينا ، ولا أصلاً فى جِبلتنا ، بل هما صدًى للخُيَلاء التى يثيرها فينا إعجاب الناس بنا ، واستعظامهم لنا

أما العظيم حقاً ، فهو الذى ينزل بساحته الخطب فيصمد له ، ولا يحفل به ، فى حين لا خِلَّ فيواسيه ، ولا صديق فيشجعه ... بل .. ولا بارقة من أمل فتُسرى عنه ... ذلك رجل ينبغى علينا احترامه ، ويجب أن نتخذه لنا قدوة ، مهما يكن ... من السوقة هو ... أو من عِلية الناس

ياما أتعس حظ الفقير ! !

إن الرجل الغنى إذا أصابته ضرّاء ، وقد لا تكون من الضرّاء فى شىء ، تناقل الناس ضرّاءه ، فهولوا بهـا ، وأفاضوا فيها ، بَيْنَا رُزْءُ الفقير بأضعاف ذلك فلا يلتفت إليـه أحد ، ولا يعتدّ به مخلوق ... وإن مصيبةً واحدةً من مصائبه فى سحابة يوم لترجح مصائب العصبة أولى الحول من السادة العظماء فى حياتهم جميعاً ...

إن من أصغر جنودنا وبحارتنا العاديين مَنْ إن ينزل به الخطب لا تتصـور فدحه عقولنا ، فيصبر له فى عظمةٍ وتسليم وإيمان ، دون أن يشكو أو يتململ ، أو يتسخط على قضاء الله ، ودون أن يُشهد الناس !... هذا ... وقد تكون أيامه كلهن نوازل يأخذ بعضها برقاب بعض

لشد ما كنت أضيق ذَرْعاً بأوفيد وشيشرون ورابوتين

(١) من أحسن الكتاب والشعراء الانجليز ، وأمتعهم وأغزرهم فكرة وأعمقهم فلسفة ، هو أوليفر جولد سمث ، وقد حال دون انتشار أدبه فى اللغات الأخرى قوة أسلوبه ، وصعوبة ترجمته إلى لسان آخر ... وقد حرصنا على أن تكون أقصوصته هذه صورة صادقة منه ، فلا يهولن القارئ هذه المقدمة الطويلة التى قدم بها لقصته ، فمقدماته كمقدمات شو ، أحسن من قصصه .

(٢) الأجذم : الذى بترت يده أو أصابعه

إلى جهة واحدة)

فهذه النظرية لم تكن أسعد حظاً من رفيقاتها السابقة ، بل هى لا تختلف عن نظرية مدرسة مونبيليه من حيث توضيحها للحياة بالحياة نفسها

وفى ختام هذا البحث لا يمكننا إلا القول : الحياة هى قوة إلـهية كامنة يبثها الله تعالى فى الموضع الذى خصصه لها وهى كل جسم صالح للحياة . وقد تبين لنا أن العقل البشرى منذ القرون الأولى إلى العصر الحاضر لم يكتشف كنهها ، فهو إذن عاجز عن إدراك الحقيقة النهائية للحياة ، ولعل الله يكشف لبعض الأدمغة الواسعة عنها فيخلص طائفة كبيرة من عناء التفكير فيها ويردعهم عن الوقوع فى الزلات الجسيمة وارتكاب الأخطاء العظيمة

(انتهى بحث الحياة ويليه بحث الروح)

« دمشق » محمد حسن البقاعى

حينما كنت أقرأهم فأراهم يشكون ويبرمون ويتسخطون ، ويندبون حظهم العاثر ، وطالعهم النحس . . . ولماذا ؟ ؟ لأن أحدهم لم تسعده المقادير بزيارة هذا المكان أو ذاك ، مما وقر فى باله أنه كان حرياً لو قطف ثمار السعادة فيه .. وليس هذا الهم من الهموم الإسعادة صرفة إذا قيست بما يجرعه البائسون من غصص الحياة كل يوم ...

لقد كان أولئك يحيون فى بُلهنية وسعة ، يحف بهم حشمهم ، ويسجد تحت أقدامهم خدمهم ، لا يحملون هماً من هموم المادة ، ولا يبالون كلفة من كلف الحياة ... كل هذا بينما كان كثيرون من بنى جلدتهم يجوبون الآفاق فى ظمأ ومسغبة ، لا يكادون يجدون السِكنّ الذى يدرأ عنهم عاديات الجو وتقلباته ...

كل هذه الخواطر دارت بخلدى حينما لقيت فجأةً ، ومنذ أيام خلت ، رفيقاً بائساً كنت أعرفه إذ أنا صبى ؛ يطوف فى أزقة المدينة وهو يتكفف الناس ، وقد جعل يقزل (1) برجليْن إحداهما من لحم وعظم ... والأخري من خشب ... ومن فوق كاهله سترة بحّار بالية ، يتوكأ بها على عُكازةٍ نابية

وهالني أن أراه قد آل إلى هذا المآل ... فلقد كنت أعرفه أميناً دائباً شديد الدؤوب إذ كان يعمل فى الريف ... فبعد أن دسست فى يده ما هو حسْبُه ، رغبت إليه فى أن يقص عليّ قصة حياته ، وطرفاً من أنباء مأساته ... وأرسل صديق الجندى الأجذم ، وقد كان جندياً حقاً وإن بدا فى ثياب بحار ، أظافره تعيث فى جلدة رأسه ، ثم اتكأ على عكازته ، فعرفت أنه يجمع أشتات الذكريات التى تتألف من أسرابها قصته ، والتى ساقها فى حديث طويل طلى هكذا :

« لا أستطيع أيها السيد أن أدّعى أن مصائبى قد فاقت مصائب سواى ، أو أننى لقيت من العنت ما لم يلق غيرى ، إذ أننى ، فيما عدا هذه الساق المبتورة ، وتلك الأصابع المجذومة ، وما اضطررت إليه من المسألة والتكفف ، لا أجد والحمد لله ما أشتكى منه ! ! وإن هذا زميلى تِبْز الذى فقد ساقيه جميعاً ، وإحدى عينيه ، والذى أقعده كل ذلك عن السعى وراء رزقه ... فأين أنا مما آل إليه ؟ شكراً لله !

ولقد وُلدت في شُبْشَير ، ومات أبي — وكان من

(1) قزل من باب فرح وضرب مشى وتستعمل للأعرج فقط

العمال — ولما أبلغ الخامسةَ بعد ، فأرسلت إلى ملجأ إحدى الكنائس ذوات الضياع ... ورفض القساوسة أن يبقوا علىّ لأننى لم أستطع أن أنتسب لديهم ، ولأننى لم أستطع أن أخبرهم أين وُلدت ؛ ومن لى بهذا وأبى — وقاك الله ! — كان رجلاً آفاقياً ، لا ينتهى من تطواف إلا إلى تطواف ! وقذفوا بي من أجل هذا إلى ضيعة كنيسة أخرى ، فأرسلتنى بدورها ، ولنفس الأسباب ، إلى ضيعة ثالثة ، فرابعة ، فخامسة ، وهكذا دواليك ، حتى حسبتنى أقضى الحياة فى هذا التشرد الطويل دون أن أستقر ، لولا أن تغلبت مروءة الانسانية آخر الأمر ، فخجلت إحدى الكنائس أن تطردنى من ضيعتها ، فبقيت ثمت ، وألحقت بكُتّابها لأتعلم الهجاء ، بيد أننى وا أسفاه لم ألبث به طويلا ، إذ آنس فىّ مُعلم المصنع الملحق بالكنيسة جسماً يافعاً وذراعاً مفتولة لا أيسر عليها من حمل الدق والمطرقة فاختارنى لمعاونته فى عمله ... وبقيت هناك خمس سنوات كانت أسعد فترة فى حياتى لسهولة العمل ، وطراوة العيش ، وإقبال الزمان ... ذلك أننى لم أكن أعمل كل يوم أكثر من عشر ساعات (!) ، ومع ذلك فقد كنت أعطى نصيباً وافراً من اللحم والشراب يتناسب مع مجهودى الضئيل ، ومع أننى كنت أشتهى لو قضيت حياتى كلها ثمة فانهم كانوا يحبسوننى داخل الكنيسة ، بحيث لم يسمحوا لى قط أن أعدو وصيد بابها ، خشية أن أفر إلى ملجأ آخر ... ولا أدري لماذا كانوا يظنون مثل هذا الظن ، والكنيسة كلها كانت رِحلاً لى ، وحوشها (1) الكبير أمرح فيه حيث أشاء ...

« ثم نقلت بعد أن شببت إلى مزرعة مجاورة لأعمل فيها من مطالع الفجر إلى غسق الليل ، ثم أعود إلى الكنيسة لأنام ، وكنت أحمد الله على أن يسر لى أمر طعامي وشرابى ، وعلى أن حبب إلىّ عملى الذى كنت أقبل عليه فى رضى وقناعة ... ولما مات المعلم الذى لزمته طوال هذه المدة ، كان طبيعياً أن أهجر الضيعة لأشق طريقي فى الحياة بنفسى ، ولأكدح فى سبيل رزق فرحت أزرع الأرض ، وأنتقل من قرية إلى أخرى ، وأشبع إذا لقيت ما أعمله فأوجر عليه ، وأجوع إذا لم ألق عملا حتى أوشك أن أقضى من الطَّوى (2)

(1) الحوش كلمة عراقية وهو شبه الحظيرة والمصريون يستعملونها بكثرة
(2) الطوى بالفتح الجوع

« ثم حدث أن كنت ماراً ذات يوم في طريق وسط مزرعة لحاكم الاقليم فلمحت أرنباً برياً يرتع ويلعب ويقضم العشب ، فوسوس الشيطان فى صدرى أن أحذفه بعصاى ... ففعلت ... وقصمت ظهره ، ثم هرولت إليه فحملته وأنا فرح بهذا الصيد ، وما كدت أمضى حتى لقينى الحاكم صاحب المزرعة نفسه وانطلق يسُبنى ويلعننى ، ويرمينى بكل موبقة ، ويشتمنى فيقول ويقول ... ثم أمر بالقبض على ، وإحضارى أمامه لأثبت شخصيتى وليرى إن كنت متشرداً أو جوّاب آفاق ... وقد وقفت أقبل الأرض بين قدميه وأترضاه وأستعطفه ، ثم جعلت أسرد له ما أعرف من أرومتى ونشأتى وآبائى ، حتى لم أُبق شاردة ولا واردة إلا قصصتها . ولكنه وا أسفاه تجهم وقال : إنى لم أستطع أن أثبت له شخصيتى .. ثم حوكمت بعد هذا - أعاذك الله - بتهمتين عجيبتين ، أما إحداهما فخرق قوانين الدولة بما قصمت ظهر الأرنب ، وأما الأخرى ... فلأنى فقير معدم ... لا أمامي ... ولا ورائى ! وأرسلونى إلى نيوجيت بلندن لأننى من أرض الوطن فى زمرة المجرمين والمتبطلين

« وبالرغم مما يزعمه الناس عن الحياة في السجن ، فلقد وجدته لطيفاً ظريفاً كما وجدت أى مكان غيره فى العالم .. وماذا غير أن يأكل الإنسان ويشرب ملء بطنه ، وينام ملء عينيه ، دون أن يعمل عملاً ما ... ! لعمرى لقد كنت أوثر أن أبقى هناك إلى الأبد ، لو لم يأخذونى بعد خمسة أشهر إلى الميناء ، حيث شُحنتُ أنا ومئتان غيرى من ذوى البطالة فى فُلك كبيرة ، ما لبثت أن همت بنا فى موج كالجبال إلى مزارع المستعمرات وراء البحار وقد تركونا لكثرتنا الهائلة ننام فى ممر ضيق بين القمرات [1] ، فاختنق من اختنق ، وعاش من عاش ، وكانوا يقذفون بمن مات فى اليم ليدفن فى بطون السمك ، وتالله لقد دفن فيها نصفنا أو يزيد ... أما من نجا ، فقد اعتل جسمه وخارت قواه ، وهُزل هزالاً شديداً

« وبلغنا الشاطىء ، وباعونا كالرقيق للمزارعين ، وظللت أفلح الأرض مع العبيد ، ولو قد تعلمت الهجاء لنجوت من حمارة الشمس الاستوائية ، ولقمت بعمل أسهل ... ولا أطيل عليك ، فلقد لبثت في عملى المتصل سبع سنين سرّحنا بعدها وهفا القلب إلى الوطن ... واشتاقت النفس إلى انجلترا الأم التى أهواها من كل قلبي ، وأخلص لها الحب من أعماق ، فلبثت أياماً أفكر فى الأوبة وأعدّ لها عُدَّتها ، وحرصت على ألا أقع فيما وقعت فيه من قبل من تهمة البطالة والتشرد ، فلم أذهب قط بعيداً عن حدود المدينة ، بل رحت أذرعها مشرقاً ومغرباً وأنتظر يوم الرحيل ... واستمنت بأداء بعض الأعمال التافهة على التوقى من أعين الشرطة

وكنت أشعر بسعادة عميقة أثناء هذه الفترة التى تسبق عودة النازح إلى أرض الوطن ... ولكن ... حدث ما لم يكن قط فى حسبانى ، فبينما كنت عائداً أدراجى من بعض عملى إلى منزلى ، إذا رجلان قويان يلكماننى لكماً كاد يحطم رأسى ، وإذا بى أهوى إلى الأرض فى غير وعي ... حتى إذا أفقت إذا هما يأمراننى أن أنهض ثم إذا هما ينطلقان بى إلى الحاكم الذى يطلب إلى ما يثبت شخصيتى ! حتى إذا عجزت هذه المرة كما عجزت فى الأولى ، تُرك لى أن أختار إحدى اثنتين لا ثالثة لهما ، فإما أن أنطلق من فورى فأعمل بحاراً على ظهر مركب يوشك أن يبحر أو أن أنضوى إلى صفوف الجند فأحارب أعداء المملكة ... ولم يكن بد من أن أختار الجندية التى شعرت فيها بكرامتى خصوصاً بعد أن حاربت فى وقعتين كبيرتين هما معركة الفال الخالدة ، ومعركة فونتنوى التى لن أنساها ما حييت ... ولم يمسسنى ضر فى أى منهما ، اللهم إلا جُرْح هنا ... فى هذا المكان الرحب من صدرى ، استطاع طبيب فرقتنا الحاذق النطاسى أن يشفيه سريعاً

« وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، ودخلنا فى السلم كافة ، سُرّح كثير من الجنود فكنت منهم ... ولم أستطع أن أضطلع بالأعمال الشاقة التى كنت أحتملها من قبل ، لأن جرحى كان يَنْغَل [1] أحياناً فيؤلمنى ويقعدنى عن أى عمل ... ثم انضممت إلى جيش شركة الهند الشرقية فحاربت الفرنسيين في ست معارك دامية ، أبليت فيهن جميعاً بلاء حسناً ، ولو كنت قد أسعدنى الحظ فثقفت بالكتابة والقراءة لارتقيت إلى مرتبة (أونباشى) ... وشاء الجد العاثر أن يلم بى مرض يقعدنى عن الحياة العسكرية المقاحمة ، فيهيج فى قلبي حنينه القديم ، وفى نفسى توقها إلى الوطن ؛ فأنتوى الأوبة من جديد ، وإن فى جيبي لأربعين جنيهاً

(١) القمرة حجرة فى السفينة لم نقف عليها فى المصادر العربية ولعلها رومية

(١) نغل : الجرح من باب فرح فسد

حرا رنانة ... وكان ذلك فى إبان الحرب الحاضرة ؛ وكم كنت أحلم أحلاماً لذيذة سعيدة إذ أنا على ظهر الفلك ، وأفكر فى كيف أنفق هـذا القدر غير القليل من الذهب الوهاج ... وكانت الحكومة فى حاجة ماسة إلى الرجال ، فلما أهابت بأبناء الوطن انضويت إلى الصفوف وأنا فى عرض البحر ، فعملت بحاراً فى إحدى وحدات الأسطول ، من غير أن تكون لى أية دراية بأعمال السفانة الحربية ولا غير الحربية ... وطالما اتهمنى الربان بأنى أعرف من الأعمال البحرية ما أنا نخفيه ، إيثاراً للعمل الحربى فى البر ، فكان يضربنى ضرباً مبرحاً لم يكن يخفف من أوجاعه فى نفسى إلا الأربعون جنيهاً التى ادخرتها واكتنزتها فى جيبى ، والتى كثرتها بما ضممت إليها مما كنت أقتصد بعد

وقد ضلت سفينتنا مرة ، فأسرتنا وحدة بحرية فرنسية ... وبهذا — وا أسفاه — خسرت نقودى كلها ... ... ونزلنا إلى البر فى ميناء برست ، ولم يحتمل رفاق الملاحون زهمة السجن وهواءه الخانق ، فمات أكثرهم ... أما أنا فقد بقيت فيمن بقى ؛ ويبدو أن ما تعودته من الحياة فى أشباه هذا السجن ، قد جعلنى أحتمل ما لم يحتمل زملائى

وبينما كنت نائماً على أرض السجن ، وأنا ملتفع بنطاقى الدافئ ، إذا بى أستيقظ على صوت الربان الذى جعل يلكزنى لأصحو ... وقال لى فى صوت خافت ، وهو يحمل مصباحاً أخفت من ضوئه : « جاك ! جاك ! هل لك فى أن تحطم رأس (الديدبان) لنلوذ بالفرار يا صاحبى ؟ ! » ولم يكن أحب إلىّ من أن أفعل . فوافقت على هذه المجازفة التى رغبها إلى كراهيتى للفرنسيين ، الذين أعدهم أمة من العبيـد ... والذين لا يلبسون فى أرجلهم إلا (القباقيب !)

ولم يكن معنا سلاح ما ... بيد أننا كنا على ثقة دائماً من أن إنجليزيا واحداً يسعه أن ينتصر على عشرة من الفرنسـيين . . . وهكذا انطلقنا إلى حيث انكمش الحارسان فى ركن بعينه من البرد ، فانقضضنا عليهما ، وانتزعنا منهما سلاحيهما ، ثم حطمنا رأسيهما ، ولذنا بالفرار إلى الشاطئ ... ولحق بنا تسعة ممن بقى من أسرانا ، فركبنا زورقاً كبيراً ، وأبحرنا من فورنا

« ولبثنا نصارع الموج ثلاثة أيام سوياً ، حتى أضرّ بنا الجوع ، وأوشك أن يهلكنا الظمأ . . . ثم اقتربنا من مركب كبير فحسبنا أن يد العناية قد أرسلته إلينا لتنشلنا مما نحن فيه .. فإذا هو مركب من مراكب (قراصين) البحر ، استطاع رجاله أسرنا . . . وكم كان فرحهم بنا عظيما ، لأننا أيد عاملة تنفعهم فيما هم بسبيله من أعمال القرصنة .. وقد رضينا نحن بالعمل معهم ، إذ كان لا بد مما ليس منه بد .. ولم يكن حظنا بساماً هذه المرة ، فلقد شاء سوء الطالع أن نشتبك فى قتال بيننا وبين ال (بومبادور) القوية التى يملك قراصينها أربعين مدفعاً صالحة كلها للعمل ، بينا لم نكن نملك أكثر من عشرين وثلاثة مدافع . . . ومع ذلك فقـد قاومنا ما وسعنا أن نفعل ، بل بدا لنا أننا نرى النصر قاب قوسين أو أدنى ، فى نفس اللحظة التى تمت هزيمتنا فيها ... وعلة ذلك كثرة من قتل من رجالنا ، وقلة الأيدى التى لم يكن يسعها أن تُعمل المدافع كلها لتحوز النصر ...

« وهكذا شاءت المقادير أن أكون مرة أخرى فى قبضة الفرنسيين ... ولشد ما فزعنا أن يرمى بنا ثانية فى برست ، إذن ما كان جزاؤنا إلا القتل هناك... لكننا رسونا في ميناء أخرى ، فنجونا ... وقد نسيت أن أذكر لك أننى فقدت إحدى ساقىّ ، وأربعاً من أصابعى ، وأصبت بأربعة جروح كبيرة فى هذا القتال الهائل ... أواه يا سيدى ؟ ! أواه لو أسعدنى الحظ فكنت قد فقدت هذه الساق وتلك الأصابع فوق بارجة من بوارج الوطن ... ؟ ! إذن لكفلتنى الحكومة ، وحبست على معاشاً كاملاً طوال الحياة ... ولكن ... ! ما حيلتى ؟ إن من الناس من يولد وفى فمه ملعقة من فضة ، وإن منهم من يولد وفى فمه مغرفة من خشب ... ! ! على أنه مهما يكن من أمرى ، فإنى أحمد الله القدير الذى حبانى عافية وصحة ، ووهبنى النعيم والحرية ورزقنى محبة بلادى ... بلادى ذات المجد ... إنجلترا ... إنجلترا الأم ... عاشت انجلترا ! »

***

ثم مضى عنى ، وغادرنى فى حيرة من رضاه بما هو فيه ، وتسليمه الجميل لما صنع الله ! ! حقاً ... إن التمرس بالبؤس يعلمنا كيف نستهين به ، أضعاف ما تعلمنا ذلك الفلسفة ! !

دريني خشبة



مؤتمر المواصلات السلكية واللاسلكية

وهذا مؤتمر دولى آخر يعقد فى القاهرة ويفتحه جلالة الملك « فاروق الأول » ، هو المؤتمر الدولى للمواصلات السلكية واللاسلكية ؛ وهو رابع مؤتمر دولى يعقد فى القاهرة فى هذا الفصل بعد مؤتمر الرمد الدولى ، ومؤتمر توحيد قانون العقوبات ، ومؤتمر القطن الدولى ؛ وقد أشرنا إليها جميعاً فى حينها . ويعتبر مؤتمر المواصلات السلكية واللاسلكية الذى عقد فى أول فبراير الجارى من أعظم المؤتمرات التى عقدت فى مصر فى الأعوام الأخيرة إن لم يكن أعظمها جميعاً ، فقد مثلت فيه ثلاث وستون دولة وهو أكبر عدد من الدول اجتمع فى مصر فى مؤتمر واحد . ويرجع ذلك إلى أهمية المسائل التى يعالجها المؤتمر ، وإلى أهمية الدور الذى لمصر بفضل موقعها الجغرافى الفريد فى المواصلات اللاسلكية . وقد كانت مصر فى مقدمة الدول التى أدخلت فيها المواصلات الحديدية والتلغرافية ، وهى اليوم فى مقدمة الدول التى يحتم عليها موقعها الجغرافى بين قارات العالم القديم ، وظروفها الدولية الخاصة ، أن تكون من أعظم مراكز المواصلات اللاسلكية فى العالم

وقد جرى جلالة الملك فى افتتاح هذا المؤتمر على سنته المشكورة التى استنها ، وهى افتتاح المؤتمرات الدولية التى تعقد فى مصر باللغة العربية ؛ وألقيت أيضاً خطبة الافتتاح الرسمية من وزير المواصلات بالعربية ؛ وهذا تقدير كريم للغة البلاد وتشريف يبعثان إلى الغبطة والحمد

مؤتمر طبى عربى

يعقد فى التاسع من فبراير الجارى بمدينة بغداد - كما ذكرنا من قبل - مؤتمر طبى عربى دعت إلى عقده فى العاصمة العراقية الجمعية الطبية المصرية ؛ وسيتفضل صاحب الجلالة ملك العراق بافتتاح هذا المؤتمر الذى سيعقد فى قاعة الحفلات الكبرى بسراى أمانة العاصمة ، ويستمر عقده أيام عيد الأضحى ؛ وقد هرع إلى شهود هذا المؤتمر عدة من أكابر الأطباء المصريين وأساتذة كلية الطب ، وفى مقدمتهم على ابراهيم باشا وسليمان عزمى باشا ؛ وكذلك بادر إلى شهوده جماعة كبيرة من أطباء الأقطار العربية الشقيقة ، من فلسطين وسورية والحجاز

وسيكون عقد هذا المؤتمر العربى فرصة جديدة لتقوية أواصر الثقافة الطبية والاجتماعية بين مصر وشقيقاتها

فى مملكة سبأ

أذاعت بعض الصحف الخارجية أخيراً بعض بيانات أفضى بها الرحالة المستشرق الانكليزى المعروف المستر سنت جون فيلبى المعروف بالحاج عبد الله ، والذى يقيم فى جدة منذ أعوام طويلة ، وتربطه بالملك ابن السعود صداقة متينة — عن اكتشافاته لآثار مملكة سبأ فى « الربع الخالى » . وكان قد حاول اختراق هذه المنطقة قبله رحالة فتى ألمانى يدعى هانز هلفريس ، ولكنه وقع فى أيدى البدو ، ثم بعث به إلى الشاطئ ؛ ومع ذلك فقد استطاع أن يلتقط بعض صور فوتوغرافية مدهشة ، منها صورة أطلال مدينة حصينة على رؤوس الجبال ، وبها أبنية متهدمة عالية ترتفع عدة طبقات ، وآثار أطلال ضخمة تضارع الأطلال الفرعونية فى روعتها ؛ لحفزت هذه الصور بعض العلماء المغامرين إلى محاولة اختراق « الربع الخالى » ؛ وكان الحاج عبد الله فيلبى بمركزه فى المملكة السعودية ، واعتناقه الإسلام ، ومعرفته الواسعة للغة العربية ولهجات القبائل ، أسبقهم وأقدرهم على أداء هذه المهمة ؛ فجهز فى العام الماضى قافلتين إحداهما من السيارات والأخرى من الجمال ، واخترق الصحراء الغربية من مكة إلى المكلا عاصمة حضرموت ، ثم عاد غرباً نحو اليمن ، واخترق اليمن من الجنوب

إلى الشمال ؛ واستطاع أثناء رحلته الشاقة أن يقوم باكتشافات أثرية هامة ، وأن يحقق الأسباب التاريخية والجغرافية التي أدت إلى خراب مملكة سبأ ، وفي رأيه أن هذا الخراب يرجع إلى عاصمة مملكة سبأ التي كانت تحيط بها سلسلة من البراكين الثائرة ، وأن الزلازل هي التي قضت عليها منذ نحو ألفي عام ، كما قضت على مدينة بومبياي الرومانية الزاهرة ، وبذلك امحت مملكة سبأ من صفحة التاريخ

وقد أثارت رحلة الحاج فيلبي واكتشافاته اهتماماً في جميع الأوساط العلمية والأثرية

رابطة دولية للكتاب

تألفت في لوزان جمعية أدبية كبيرة لحماية الكتاب وترويجه باسم « رابطة الكتاب » ، وانتظم فيها عدد كبير من أكابر الكتاب والمفكرين مثل رومان رولان وجورج دوهامل واندري جيد وغيرهم ، وقد وصف دوهامل أغراض هذه الجمعية في مقال ذكر فيه « أنها تقوم بمهمة بديعة ، لا في سبيل ترقية ذوق القراء لدى جمهور عظيم من الناس فحسب ، ولكن أيضاً في سبيل إذكاء ثقافة إنسانية عالية ، ومن ثم فانها غدت تضم صفوة المفكرين في أوربا »

وتعنى رابطة الكتاب الدولية عناية خاصة بحماية الذوق الثقافي بعد أن جنت عليه جهود الراديو والسينما ، والصحافة الاخبارية السطحية ، وبعض الناشرين الذين يتجرون في الأدب الرخيص ، وإعادة الكتاب القيم إلى مركزه الرفيع . وقد انضم إلى الرابطة جماعة من الناشرين المحترمين الذين يعنون بنشر الكتب القيمة ، ووضع نظام لإخراج سلسلة من الكتب والمؤلفات الرفيعة في مختلف المواد ، وروعي أن تكون في الغالب كتباً جديدة ؛ وستقدمها الرابطة إلى القراء بأثمان تكاليفها دون أن تسعى إلى ربح ، وقد أصدرت فعلاً عدة مؤلفات نفيسة من كتب راموز ومسترال ومكسيم جوركي وتولستوي وغيرهم

جيته بطل قصة مسرحية

مثلت أخيراً في المسارح الألمانية « كوميديا » جديدة عنوانها « مقابلة مع أولريخا » بقلم الكاتب المسرحي زجوندجراف وفيها وصف لفصل غرامي من حياة جيته شاعر ألمانيا الأكبر فيبدو الشاعر على المسرح وهو في شيخوخته عاشقاً لفتاة تدعى أولريخا ليفتوف كان قد قابلها أثناء استشفائه في مدينة ماريباد ورغب في زواجها ، ولكن حالت دون رغبته ظروف خاصة ، وهي واقعة حقيقية في حياة الشاعر الكبير ، وقد لقيت القطعة من جراء ذلك نجاحاً عظيما

جوائز قومية ألمانية لتشجيع العلوم والآداب

في العام الماضي قررت الحكومة الألمانية أن تحرم على العلماء والكتاب والفنانين الألمان قبول أية جائزة دولية أو أجنبية للعلوم أو الآداب أو الفنون ؛ وقررت من جانبها أن ترتب جوائز ألمانية قومية تمنح لأقطاب العلم والأدب الألمانيين ، وتكون في أهمية جوائز نوبل من حيث قيمتها المادية والأدبية ؛ ولذلك سبب قد يذكره القراء ، وهو أن لجنة جامعة استوكهلم منحت في العام الماضي جائزة نوبل للسلم للكاتب الألماني كارل فون وسيتسكي ، وكان لذلك صدى سيء لدى الحكومة الألمانية لأنها تعتبر الكاتب المذكور من خصومها لأنه ديموقراطي ، وكان قبل قيام الحكومة النازية يدعو إلى السلام ونزع السلاح . فلما قام الهتلريون في الحكم قبض عليه ولبث في معتقله حتى منح جائزة نوبل للسلام ؛ واعتبر الهر هتلر أن في منحه الجائزة على هذا النحو إساءة لألمانيا وتعريضاً بنظمها وسياستها ، فأصدر قراره بتحريم الجوائز الدولية على جميع الألمان

وقد احتفل في ٣٠ يناير الماضي ، وهو يوم ذكرى قيام الحكومة النازية في الحكم بتوزيع الجوائز القومية الألمانية لأول مرة على مستحقيها ؛ فمنحت جوائز في العلوم والآداب والفنون إلى كل من العلامة الرحالة الدكتور ولهلم فلشنر الذي عاد أخيراً من رحلته الطويلة في مجاهل آسيا الوسطى ، والدكتور روزنبرج الكاتب النازي الشهير ، والأستاذ الدكتور زاوربروخ الجراح الشهير ، والأستاذ تروست الذي توفي أخيراً ، والدكتور أوجست بير . وقد استقبل الزعيم هتلر المنعم عليهم بالجوائز في يوم ٣٠ يناير وأثنى على علمهم وعبقريتهم ، وقدم إليهم بنفسه براءات الجوائز المذكورة ، وهي عبارة عن نجمة من الماس في وسطها رمز الإلهة منيرفا ؛ هذا عدا الهبات المالية التي سيحصل عليها الفائزون وهي كبيرة

ديوان اسماعيل صبري باشا

يسرنا أن نزف إلى قراء العربية أمنية من أعز أمانيهم طالما تاقت نفوسهم إلى تحقيقها ، وهي إعداد ديوان أستاذ الشعراء وحامل لواء الشعر الحديث المرحوم اسماعيل صبري باشا . وهذا الديوان الحافل بطرائف شعره يطبع الآن في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بعد أن أتم حضرة الشاعر الرواية الأستاذ أحمد الزين ضبطه وشرحه وتصحيحه على أتم وجه وأحسنه . ولا شك في أن ظهور هـذا الديوان الخالد يعد حادثاً أدبياً ذا بال في عالم الشعر ، فهو بحق حلقة اتصال بين الجيل الماضي والجيل الحاضر

ويحسن بنا أن نشير إلى ما كان بين الأستاذ احمد الزين وبين المرحوم صبري باشا من مودة وثيقة دامت سنين طويلة فلا عجب إذا تولى هو إخراج هذا الديوان وفاء لصديقه وقياماً بالواجب الأدبي نحو فنـه . وقد وصل إلى علمنا أنه ستقام حفلة ذكرى للفقيد بعد إتمام طبع هذا الديوان ، رحم الله صبري باشا وجعل في أثره الخالد عزاء عن فقده

مذكرات لورد بيرون

تحتفل الأندية الأدبية في انجلترا وفي العالم بمضي ١٥٠ سنة على ميلاد الشاعر العظيم جورج جوردون بَيْرون المولود في سنة ١٧٨٨ والمتوفى سنة ١٨٢٤ ... وسيستفيد العالم من إحياء هذه الذكرى فائدة جليلة وذلك بما اعتزمه بعضهم من نشر مذكرات الشاعر النثرية التي كتبها بين سنتي ١٨١٩ و ١٨٢١ وهو مقيم إذ ذاك في إيطاليا والتي حال دون نشرها ما جاء فيها من تصريحات بيرون الشائنة فيما يتعلق بصلاته الغرامية والتي لا يسمح القانون الانجليزي بتداولها في أيدي الناس لكونها من المحظورات التي يتنافى ذيوعها مع الأخلاق الانجليزية المحافظة ... والمفهوم أن إذاعة هذه المذكرات سيكون بموافقة الحكومة وبعد حذف الفقرات الصريحة الصارخة التي لم يبال اللورد أن يثبتها بقلمه فيها

والمعروف من تاريخ حياة بيرون أنه نشأ نشأة مستهترة لا تعرف للعرف حرمة ولا للشرائع سلطاناً . فمن هذا أنه صبا إلى أخته وافتتن بها ، ثم اتصل بها اتصالاً يخجل القلم من تسجيله هنا ... ومن ذاك أيضاً أنه ألف جماعة خمرية كان يحتسي أفرادها الخمر من جماجم الموتى التي كانوا يسرقونها من المقابر ... ويحسب القارىء هذان المثالان عن شذوذ الشاعر العظيم الذي كان أديب الألمـان جيته يعجب به ويقول فيه إنه يصدر في شعره عن أمواج البحر الدفاقة ، وينفث فيها رقة الأثير

وكان بيرون وثنياً شـديد الولوع بالإغريق ... ومن هنا عبادته للجمال وترديده أسماء آلهتهم في شعره ... ومن هنا أيضاً دفاعه الحار عنهم في الحرب الاستقلالية التي لاقوا فيها الرعب من البطل المصري إبراهيم باشا ... وقد حضر بيرون حصار مسولونجي ونظم فيه إحدى غرره ، ولا ندري إن كان القائد المصري قد قابله أم لا . هذا وسنفرد له فصلاً خاصاً في عدد آخر

الأدب الكاريكاتوري

كان ظريفاً جداً هذا العمل الجليل الذي ساهم به الأستاذ توفيق الحـكيم في مهرجان الأوبرا للزفاف الملكي والذي أظهر فيه أدباء العصر على خشبة المسرح في رواية تمثيلية ... ونحن نضع لهذا اللون من الأدب اسماً فندعوه الأدب الـكاريكاتوري ، وهو غير الأدب الهزلي أو (الـكوميدي) . وقد وضع أساس الأدب الـكاريكاتوري الشاعر اليوناني أرسطوفان منـذ أربعة وعشرين قرناً ، وكان يتناول في (كاريكاتورياته) شخصيات عصره والعصر الذي سبق بالنقد والتسفيه و (التضحيك) . وخص الشاعر يوربيدز بكثير من هـذه (الـكاريكاتوريات) ؛ ولم يستطع مع ذلك أن يقلل من قيمة مواطنـه العظيم أو أن يخفض من قدره . وقد ألف شاعرنا الخالد أبو العلاء كتابه (رسالة الغفران) على هذا النحو ، فطاف بصاحبه ابن القارح في المحشر وفي دركات جهنم ... وفي جنات عدن ... وفعل مثل ذلك دانتي الليجيري في الـكوميديا الإلٰهية

وقد كتب الأديب الـكبير ولز آخر قصصـه على النمط الـكاريكاتوري . وقد صدرت هذه القصة في يناير الماضي واسمها (الأخوة) وهي نقد لاذع لطغاة العصر الحاضر وفي مقدمتهم هتلر وموسوليني وستالين ، وبالطبع قد أطلق أسماء غير هذه على أبطاله

الإذاعة المدرسية في مصر وفي انجلترا

في الوقت الذي تنطق فيه حماستنا في مصر للإذاعة المدرسية لنشتغل بالسفاسف السياسية التي استغرقت كل جهودنا ترتفع النسبة المئوية لهذه الإذاعة في إنجلترا وبلاد الغال (ويلز) فتزيد ٢٧ ٪ في خريف ١٩٣٧ على ما كانت عليه في خريف ١٩٣٦، ويرتفع عدد المدارس التي تنتفع بهذه الإذاعة هنالك فتصبح (٧٢٨٠) مدرسة بين ابتدائية وثانوية. ويشجع هذا النجاح المطرد ولاة الأمور هنا فيفكرون في الوسيلة التي ينشرون بها الاذاعة في المدارس التحضيرية ورياض الأطفال؛ وقد انتفعت بطبيعة الحال مدارس اسكتلنده بهذه الاذاعة وإن لم يكلفها ذلك شيئاً. ويقدرون هذه المدارس الاسكتلندية بألف مدرسة أو زهائه. وكانت الموضوعات الطريفة التي أُلقيت كثيرة متنوعة، ولكن التلاميذ كانوا يصغون في الأكثر لموضوعات الأسفار والرحلة في البلدان الأجنبية، ثم تلي هذه الموضوعات المتعلقة بدراسة غرائب الطبيعة؛ وقد اجتمع للتلاميذ الانجليز عاملان هامان في تثقيفهم الحديث، وذان هما التعليم بالسينما والتهذيب بالاذاعة المدرسية، وليس من هذا شيء عندنا

الطيران والخرائط الجغرافية

معظم الخرائط الجغرافية التي بأيدينا قديم غير مضبوط، ويرجع وضعه على هذا النحو الذي نراه إلى مائة سنة على الأقل وقد أخذت صور لنهر النيل مثلاً من الجو أظهرت مافي خرائطنا القديمة البالية من الأخطاء الفاحشة التي لم يعد يخلق بنا أن نغضي عنها. وقد تنبهت لهذا أكثر الدول الأوروبية ولا سيما ألمانيا، فعملت على تلافيه، وساعدها تقدم الطيران وانتشاره عندها على وضع خرائط متقنة تداركت بها ما فشا في خرائطها القديمة من أخطاء. ويقال إن في النية عقد مؤتمر عالمي لدراسة هذا الموضوع ولوضع خرائط جديدة للعالم بأسره من الجو. وحبذا لو تم هذا المشروع

مسرح روسي عجيب

من أنباء روسيا أن المخرج العظيم ماير هولد قد عصفت به ريح السياسة العاتية .. وأن مسرحه الكبير قد أغلق .. ويذيع الشيوعيون أن ماير هولد قد وقع في فضيحة لم يذكروا لنا ماهي وهكذا تلطخ الشيوعية مجد الأبطال الروسيين الذين أدوا لأوطانهم وللعالم أجل الخدمات ... ومن هذه الأنباء أيضاً أن مخرجاً جديداً يدعى أوخلوبكوف قد أسس على أنقاض مسرح ماير هولد مسرحاً غريباً لم يؤسسه على ما عرفه العالم من النظام الشائع لدور التمثيل، إذ يدخل المُشاهد صالة المسرح فلا يرى ستاراً وينظر هنا وهناك فلا يجد خشبة المسرح التي تمثل فوقها الرواية ... وأغرب من هذا أنه يجد الكراسي غير مصفوفة في اتجاه خاص يدل على مكان المسرح ... فاذا آن أوان التمثيل وجد الممثلين معه في الصالة، ووجدهم في الشرفات (البناوير) ووجدهم في كل مكان ... حتى في السقف ... ويقولون إن الروايات التي تمثل ثمت موضوعة خصيصاً لهذا المسرح، لتتفق وهذه الطريقة العجيبة من طرق الاخراج ... ويبدو أن الروايات الأجنبية، بل الروسية نفسها، التي لم تؤلف لتؤدى على هذا النمط الحديث من فن الاخراج، تسقط سقوطاً فاحشاً حين تؤدى فيه. وقد كتب أحد النقاد الألمان فصلاً مضحكاً عما شاهده في هذا المسرح، وكان قد حضر تمثيل روايات حنة كرنينا لتولوستوى وحديقة الكراز لأنطون تشيخوف ودرامة عطيل ... فسمى ما شاهده من تمثيلها (تهريجاً شيوعياً!!)



الى حياة روحية

٢ – فى منزل الوحى

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك

للأديب محمد فهمى عبد اللطيف

إلى حياة روحية تسمو بالنفس، وتفيء القلب، وتهذب العواطف، وتحد من النزعات والأهواء، وتصل أسبابنا بالسماء .. هذا هو ما يدعو إليه هيكل ويحبذه، بعد أن شهد ما شهد من مظاهر الحياة الروحية فى آثار النبي العربى، ورأى كيف يفعل الإيمان الأعاجيب فى مواطن لولاه ما كان للإنسان بها طاقة؛ ويعجب هيكل من الذين ينكرون الحياة الروحية ويتنكبون طريقها، ويسأل فى تعجب واستنكار فيقول: « فما بال قوم في عصور وبلاد مختلفة جحدوا الحياة الروحية وكفروا بفضل الإيمان ؟! » ثم يمضى هيكل ينى على الماديين هذا الجحود لتلك الحياة، ويرده إلى خطأهم فى فهم الحياة الروحية على حقيقتها، وتصورهم لها تصوراً بعيداً عن الفهم والواقع، فهم يحسبونها خارجة على نطاق العقل، لا تخضع لقوانين العلم فى تعليل الظواهر والمظاهر، مع أن سبيل الحياة الروحية الصميمة إنما هو الاحاطة بالعلم فى أحدث ما وصل إليه، واتخاذه وسيلة للنظر فى آيات الله وهى لا تنكر العقل إلا إذا قيد النظر وقيد العقل معه، ومن ثم كان الجحود عدواً للحياة الروحية، ثم يلمع هيكل إلى الغاية من الحياة الروحية وصلتها بالنفوس فيقول: « والناس يستجيبون بطبيعتهم إلى الدعوة الروحية لأنهم يبتغون الحق بفطرتهم، ولولا ما يعد لهم فيه دعاة المادة من أسباب الضلال إذ يغزونهم بمتع الحياة ولذاتها لانهارت فوارق كثيرة ليس يبقيها إلا هذا الضلال ولتقاربت الأمم بدل أن تتباعد، ولأخلصت القصد في سعيها إلى السلام بدل أن يجعل من نذر الحرب هيا كل عبادتها، ولكانت خطا الإنسانية فى سبيل التقدم ناحية الكمال أسرع وأهدى سبيلاً، ولو أن الناس لم يتنكبوا طريق الهدى لنعموا اليوم بما يلتمسونه من سعادة، ولعلهم تنكبوا هذا الطريق لأنهم بعد فى جهالتهم، ولأن ما بلغوا من العلم لا يزال قاصراً دون هداهم والعلم الناقص داعية الضلال ! »(١)

وهيكل إذ يقول: «إن الناس يستجيبون بطبيعتهم إلى الحياة الروحية لأنهم يبتغون الحق بفطرتهم» يقرر حقيقة قد قررها الدين، وجاء بها الاسلام، ففى القرآن الكريم « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها » وفى الحديث الشريف « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه »، وهيكل إذ يرى أنه لولا ما يعده دعاة المادة من أسباب الضلال، لانهارت فوارق كثيرة ولتقاربت الأمم بدل أن تتباعد. إنما يرى حقيقة لا تنكر، بل إنها حقيقة يقررها كثير من أهل الفكر والثقافة، ويرونها الملجأ الذى سيلجأ إليه العالم بعد أن يضنيه وينهكه ذلك النضال المادي العنيف، ولقد كان من حسن التوافق أن أقرأ هذا الكلام لهيكل وقد وافتنى جريدة الأهرام وفيها نبأ من لندن يقول: إن اجتماعاً عقد فى « هيكل » العاصمة تحت رعاية جمعية الأديان المتعددة، وقد أوضحت السيدة الناطقة باسم هذه الجمعية أن غرضها إيجاد وحدة عالمية بواسطة التفاهم الروحى

وقد تكلم إمام جامع ووكنج فقال: « إن الوقت قد حان لجميع الأديان كى تدفن أحقادها، وتتحد على مقاومة موجة الكفر المتعالية، والتمسك بالأمور المادية فى العالم وإهمال الأمور الروحية، وقال: إن جميع الأديان تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، فهى تشترك فى وحدة أساسية، وهى تتفق على الايمان بوجود الله وعلى تجلى الله للانسانية، فيجب علينا إذن أن نتفاهم

وليطمئن هيكل وليطمئن إمام جامع ووكنج. فان ذلك الحلم

(١) ص ٦٣٦ من الكتاب

اللذيذ لا بد أن يتحقق ، لا أقول سيحققه فرد من الأفراد أو جماعة من الجماعة ، وإنما أقول سيحققه الزمن بسننه وطبيعته وأفاعيله ، وغداً سنرى وإن كنت لا أعلم متى يكون ذلك الغد أفي القريب أم في البعيد ، ولكني لست مع الدكتور هيكل إذ يعلل جحود الماديين للحياة الروحية بالجهل ونقص العلم ، فان في الماديين الجاحدين أساطين العلم ، ومن هم في الذروة التي لا تطاول عقلاً وثقافة ، وإنما يرجع هذا الجحود على ما نرى إلى اعتقاد يقوم في أذهان أولئك الناس ، وهو أن العقل كل شيء في الحياة ، لا قول إلا قوله ، ولا منطق إلا منطقه ، فمن الواجب أن نخضع لمنطقه كل ما نرى من المظاهر والظواهر ، حتى ما يتصل بميولنا وعواطفنا ، وفاتهم أن هناك القلب ، يجب أن نجعل له اعتباراً كبيراً في شئون الحياة ، إلى جانب العقل ، ويجب أن نعتقد بأن له منطقاً كمنطق العقل إن لم يكن أجل وأدق ، وهو وحده الذي يشعرنا في رحلة الحياة الشاقة ببرد الراحة ، ويقع من نفوسنا اللاغبة موقع الماء العذب من نفس الصادى في اليهماء القاحلة ، ولا شك أننا لو طاوعنا هؤلاء الناس وجعلنا العقل كل شيء لصارت الحياة جحيما لا تطاق ، ولفررنا من شقائها كما يفر الناس في هذه الأيام بالموت والانتحار ، بل ولتمردنا على كثير من النظم والأوضاع والشرائع الطيبة الصالحة التي تكفل السعادة للمجتمع ، والتي لا يمكن أن يجحدها الماديون أنفسهم ، وأنت أبقاك الله تأمل في نفسك ساعة وانظر فيما يحف بك من النظم الاجتماعية والقيود الثقيلة التي تربطك بالمجتمع الذي تعيش فيه ، والسلاسل والأغلال التي تثقل جيدك وتنقض ظهرك من واجبات نحو الأسرة والأب والأم والزوجة والوطن والدين والتقاليد وفكرات الشرف والعرض وما إلى ذلك ، واستسلم إلى العقل وحده وانزل على حكمه في تلك الأمور عامتها تجده يجيبك عليها جوابا لا يرضاه العقل نفسه ، لأن الطبيعة قد خصت الإنسان بشيء يمتلك ناصية عقله ويتحكم فيه التحكم كله ، شيء آت من الناحية الروحية القلبية التي هي مصدر العواطف والمشاعر والتي هي مسيطرة عليها ، وإذن فالعقل ليس كل شيء في الحياة كما يزعم الماديون ، وعبثاً حاول بعض الفلاسفة أن يجعلوا العقل حد الدين ، وأن يشرعوا للناس المذاهب الفلسفية النفعية ، فنشروا كتباً « في دين الطبيعة » لتأييد مذهبهم ، وموهوا على الناس إذ زعموا أن العلم ينافي الدين ، فوقع الإنسان في مأزق من مآزق البعد عن الشريعة الأدبية كاد يتداعى معه أساس المدنية ، حاول هؤلاء أن يجدوا في عقل الإنسان وحده هادياً ومرشداً أميناً بصفته فرداً صالحاً من مجموع إنساني ، يختط له خطة من السلوك والأخلاق جديرة بأن تحفظ نظام الهيئة البشرية التي يجب أن تقوم على أساس من الإحساس الأدبي ، أخفقوا سعياً وضلوا سبيلا ، لأن الطبيعة لم تحب الإنسان بشيء من هذا . رجع الناس بعد ذلك مؤمنين بأن وازع ما بعد العقلية ، أول عنصر من عناصر المعتقد الديني بل نواته ، وأنه الضابط الذي يضبط علاقة الفرد بالجماعة في كل حالة من الحالات[1]

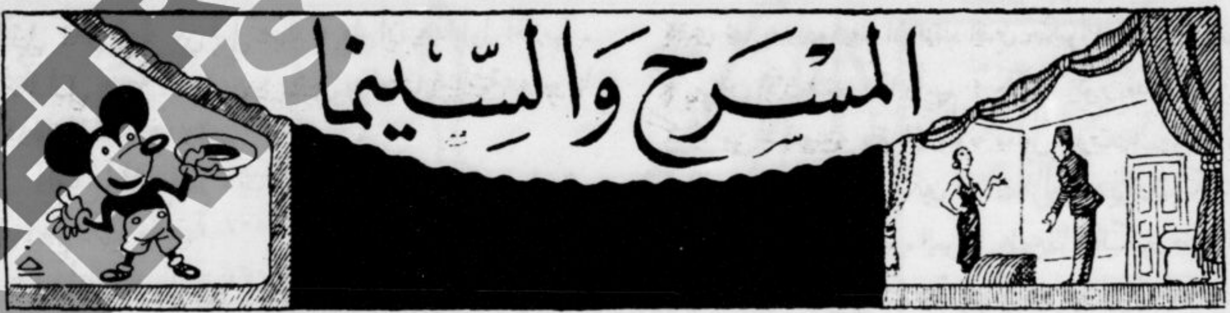
ولكن أي لون من ألوان هذه الحياة الروحية يجب أن يختار الشرق حتى يفوز بالغاية ؟ !

يرى بعض المفكرين في مصر أن لون الحياة الغربية هو اللون الصالح ، فراحوا ينقلون للشرق آثار الغرب في ذلك ما وسعهم النقل ؛ وقد كان هيكل على هذا الرأي من قبل ، ولكنه خرج عليه إذ لمس فيه الخطأ الواضح ، وهو يتحدث عن ذلك فيقول : « لقد خيل إلى زمناً — كما لا يزال يخيل إلى أصحابي — أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى النهوض ، وما أزال أشارك أصحابي في أنا ما نزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله ، لكني أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية ، وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن ننقله ، لأن تاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافته » وبعد أن يكشف عن وجه الفرق في ذلك يدل على اللون الصالح للشرق من الحياة الروحية ، وهو في كلامه يتحدث عن خبرة وتجربة فيقول : وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية والروحية لنتخذها هدى ونبراساً ، لكنني أدركت بعد لأي أنني أضع البذر في غير منبته ، ورأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو ، ولأبناء الشرق في هذا الجيل نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين

وهذا كلام أصاب فيه هيكل شاكلة الصواب ، وشرحه شرحاً وافياً كافياً في منزل الوحي ، فجاء كتابه صفحة روحية مشرقة ، وفكرة صالحة يجب أن يطالعها أبناء الشرق لتنمو في نفوسهم ، فتؤتي ثمرها الطيب

محمد فهمي عبد اللطيف

(١) بين الدين والعلم ص ١٢ ترجمة اسماعيل مظهر



في النقد

١ — يحيا الحب
٢ — جارى كوبر فى نيويورك
٣ — مدخل الممثلين STAGE DOOR

بقلم محمد على ناصف

يحيا الحب

قصة هـذا الفلم من النوع الكوميدى الشائع الآن فى الأفلام الأمريكية Light Comedy . وكثيراً ما تكون موضوعات هـذه الأفلام تافهة ، غير أنها تعوض هذا النقص بجمال الحوار وتعدد المفاجآت المبتكرة وبراعـة التمثيل وحسن الاخراج. وقد جاء كذلك « يحيا الحب » من حيث فراغ الموضوع ... فلننظر إلى نواحى الفلم الأخرى

كان الحوار ركيك الأسلوب خالياً من النكتة والمفاجأة القوية . وقد أثر هذا الضعف فى عمل المؤلف ، وفى عمل الممثل ، وفى عمل المخرج

فمن ناحية التأليف رأينا البرتقال يجنى فى الصيف ، وموظفاً لا يعرف رئيسُه أصلَه حتى ولا من شهادة الميلاد

ومن ناحية التمثيل رأينا إحدى الشخصيات خليطاً بين أستاذ فى العلوم ومهرج

وليس أدعى إلى إفساد عمل المخرج من أن يتعهد موضوعاً عادى التأليف ضعيف السيناريو مضطرب الشخصيات

ومآخذ الاخراج كثيرة فى « يحيا الحب » أهمها فى رأيى خلو الفيلم من الحركة

ولقد ذكرت أن قصة الفيلم من النوع الكوميدى ولكنها لم تعالج على هذا الأساس فى كثير من الأحايين ، لم يعالجها كريم فى مشهد ذلك الحلم المبدد ، ولم يعالجها رامى فى أغانيه ، ولم يعالجها عبد الوهاب فى ألحانه وتمثيله ، وأحسب أن مشهد تكسير العود مثلا كان من المستطاع أن يكون من أجمل المشاهد الكوميدية لولا أنهم أخرجوه كأنه مشهد بطل مصروع أو مدينة مخربة

والفلم على وجه عام فقير من ناحية التمثيل إذا استثنينا شخصية رضوان باشا التى مثلها عبـد الوارث عسر ، ولولا اضطراب شخصية مجاهد بك (أستاذ العلوم) لاعتبر أمين وهبه من المجيدين ، ولم يكن عبد القدوس فى أحسن حالاته

ولقد حاول عبد الوهاب كثيراً ولكنه لا يزال فى حاجة إلى محاولات أخرى ليبدو ممثلاً ، ولم يكن مستحسناً ظهوره تارة بالنظارة وأخرى بدونها . وما يقال عن عبد الوهاب من



عبد الوارث عسر ممثلا « رضوان باشا » فى « يحيا الحب »

التمثيل يمكن قوله عن ليلى مراد ، ولو أن هذا أول أفلامها . وتمتاز ليلى بوجه حسن وعود رشيق يصاحبان للشاشة ، وصوتها كذلك لا شك فى جماله .

وأصلح ألحان الفلم كانت فى الموسيقى المصاحبة للشريط وهى من وضع عزيز صادق

أما أغانى الفلم فإذا استثنينا أغنية « يا وابور قولى رايح على فين » وأغنية أخرى على الأكثر ، فإن الأغانى الباقية غير مناسبة لطبيعة الفيلم ، وقد ماثلتها الألحان كذلك فكانت مليئة باللوعة والتأسى والتفجع

والتصوير فى « يحيا الحب » جميل أحياناً ، وأحياناً أخرى على النقيض

وما نرجوه لأفلام عبد الوهاب هو أن نحس بتطورها من حسن إلى أحسن وقد أصبحت شركة قديمة غنية جديرة بالاهتمام والمحاسبة

جارى كوبر فى نيويورك

Mr Deeds Goes So Sown لشركة كولومبيا من أحسن أفلام الموسم الماضى ، وقد نال عنه مخرجه فرانك كابرا الجائزة الذهبية من أكاديمية الصور والفنون ؛ وكانت جمهرة النقاد لا تشك فى أن جائزة التمثيل من حق جارى كوبر لدوره فى هذا الفيلم لولم تذهب إلى بول ميونى فى « حياة لويس باستير » ، ولا يفضل عمل المخرج أو الممثل فى هذا الفيلم عمل كاتبه الفذ روبرت ريسكين فالفيلم متعدد نواحى العظمة ؛ ولذلك كان استديو مصر موفقاً فى اختياره لعمل « دوبلاج » ينطقه بالعربية



فرانك كابرا
مخرج « جارى كوبر فى نيويورك »

وهذه فكرة طريفة قد تلاقى نجاحاً من الناحية المادية وخاصة وهى فى بداءتها ، ولكنى أحسب أن التقدير يختلف من الناحية الفنية ، وخاصة إذا كان الفيلم قريباً من درجة الكمال كالذى نحن بصدده ؛ فلو أن النقاد الذين حكموا له بالتفوق شهدوه كما يعرض الآن لتغير حتما رأيهم ؛ فجارى كوبر قد فقد جزءاً كبيراً من شخصيته بفقدان صوته مقابل صوت خال من التأثير وقوة التعبير ؛ وروبرت ريسكين قد انحط أسلوبه وفترت نكتته ؛ وفرانك كابرا قد أثرت هذه العوامل على مجهوده الكبير فقل شأنه

وقد يكون عمل الأستديو أقرب إلى الإجادة لو أنه بذل عناية أكبر بلغة الحوار وبتخير أصوات تلائم شخصيات الفيلم وتمايز بعض أصواتها عن بعض ، إذ أنه رغم تشابه الأصوات فى الفيلم فإن أكثر من شخصية واحدة قد أنطقت بصوت واحد ، وهذا اضطراب كان تلافيه من البدهيات



كاترين هيبورن
الممثلة الأولى فى « مدخل الممثلين »

مدخل الممثلين

شهدنا منذ أسابيع قليلة فيلم Astar Es Barn وهو أول فيلم يمثل مدينة السينما على حقيقتها . وقد لقى بهذه الصفة — فضلاً عن استكمال صفات الفيلم الأخرى — نجاحاً مدوياً بأمريكا وأوروبا وقد أعقبه فيلم Stage Door عن حياة المسرح فصادف نفس النجاح إن لم يفقه فى قوة الإخراج وجمال السيناريو

وهو منقول عن مسرحية ناجحة لأدنا فيربر وجورج كوفمان مثلت طويلاً على مسارح برودواى . وأعدها للسينما مورى ريسكيند وأنتونى فيلر وأخرجها لشركة راديو جريجورى لا كافا الذي لا تزال تذكر له « رجلى جودفرى » My Man Godfrey

وقد بلغ كل من لغة الحوار والتمثيل والاخراج فى هذا الفيلم مستوى رفيعاً سيظل أثره ماثلا فى أذهاننا طويلا

محمد على ناصف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

6 me Année, No . 241

Lundi - 14 - 2 - 1938

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات

يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

السنة السادسة « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ ذى الحجة سنة ١٣٥٦ — ١٤ فبراير سنة ١٩٣٨ » العــــدد ٢٤١

الفهــرس

فى القرية

من أحاديث العيــــد

أصبحت القرية الصغيرة غارقة فى ضباب أَمشير البارد الأهوج كأنها قِطَع السحاب المركوم جثمت من ثقلها على الأرض . فالجو على قول «هوجو» كستار الغيب المسدول ، والنسيم على قول « ابن المعتز » كذيل الغلالة المبلول ، ووجه السماء كوجه الصحراء فى يوم الدجن لا ترى فيـه إلا تلولاً من الغمام الجون وسهولاً من السحاب الهِف[1] . وكانت جدران المسجد تعج بالتكبير والتهليل ، وأفنية الدور تنع بالعناق والتقبيل ، والطرقات من البيوت إلى الزاوية ، ومن الزاوية إلى المقبرة ، تزدان بالشباب القروى القوى العامل ، وهو يطفر من مرح الصبى ، ويخطر فى زينة العيد ، فيكسب الطبيعة العابسة المقرورة بشراً من طلاقة وجهه ، وقبساً من حرارة قلبه

أخذت « المناظر » والمصاطب زخرفها بالقوم بعد أن أقاموا الصلاة لله ، وأدّوا الزيارة للموتى ، وقدموا التهنئة للأهل ، وانفضوا ثقالاً عن سماط العيد ، ودارت عليهم أكواب القرفة وسكائر

(١) الغمام الجون : الأسود ، والسحاب الهف : الرقيق الأبيض

الطِّباق ، وتشققت بينهم مقطَّعات الحديث ، فترامت إلى عيد الملة بحج البيت ، وعيد الأمة بمولد الفاروق ، وعيد الأسرة بيوم الأضحى . وكان اجتماع هذه الأعياد السنوية الثلاثة في يوم العيد الأسبوعي من مصادفات الدهر النادرة ، وموافقات القدَر البعيدة ، فتألقت في وجوههم أضواء مختلفة من السرور ، وتدفقت فى قلوبهم أحاسيس شتى من اللذة ؛ منها المنبثق عن مشرق الإيمان بالله ، ومنها الصادر عن منبع الإخلاص للمليك ، ومنها المنبعث عن فيض النفس الراضية تفتحت فى حرارة الحب كما تتفتح الأكمام فى دفء الربيع

* * *

من الصعب أن تقيد الأحاديث المرسلة إذا جرت بين قوم لا يؤمنون بقواعد الجدل ، ولا يحفلون بأمانة التاريخ ، ولا يرون الحق للمتكلم أن يتم كلامه أو يشرح رأيه . وحديث الناس فى القرية كشقشقة العصافير فى الشجرة ، تسمع كل عصفور يغرد ، ولا ترى عصفوراً واحداً يسمع !

— كل عام وأنتم بخير . واللقاء فى العام المقبل إن شاء الله على عرفات !

بهذه التحية وهذه الأمنية أبتدأ الحديث ؛ وكأنما كان لفظ عرفات سبباً من الجذب الروحى حوَّل عواطف القوم وأمانيهم إلى مكة ! فالذين حجوا أخذوا يذكرون وهم فى غمرة الشوق ونشوة الذكرى ، تجلى الألوهية فى مهابط الوحى ، وإشراق النبوة فى مطالع الرسالة ، ويروون عن كل منسك حديثاً ، ويقصون عن كل موقف حادثة . والذين لم يحجوا يصغون إلى صرف الحديث وهم من فعله الساحر فى هيام غالب وطرب نزوع . ثم رجع الحديث مشرقَ الحواشى معطر الأطراف من الكعبة إلى عابدين ، فأفاضوا فى صلاح الملك الشاب وبره ، إفاضة الخيال الشاعر فى عدل عمر وفضل الرشيد . فهذا يقول إن جلالته يزور القرى متنكراً ليرى بنفسه منابت الشر ومواطن الفقر ، فإذا كتب الله النعمة لبيت من البيوت عطفه إليه فدخله دخول الرحمة ، وحل به حلول السعادة . ثم يروي الأعاجيب فى هذا الباب مما تناقلته الأفواه فى الأسواق ورددته الألسنة فى المجالس . وهذا يذكر أن الشيخ فلاناً رأى جلالته فى المنام والنبى يقبله قبلة الرضى ، ويقلده سيف الخلافة ، ويَعِده نصر الله مادام على النهج الواضح والعمل الصالح والوحدة الجامعة . وذلك يقرر أن غضب الملك الصالح من غضب الله ، إذا صُب على الباغي لاتعصمه منه قوة ، ولا تدفعه عنه كثرة . لأن غضبه فوق الهوى والطمع ، فلا يكون إلا للعدل فى جوهره ، وللشعب فى صميم حقه

ثم انتقل الحديث من غضب الملك إلى حل مجلس النواب ، فغاضت البشاشة من الوجوه وقالوا بلهجة الآسف الحزين :

عدنا إلى الحرب الضروس ، تفتك أسلحتها الأثيمة بالأموال والأنفس والأخلاق والقرابة . فالانتخاب بما تمه ومغارمه هو المظهر الذى نحسه ونعرفه من مظاهر الدستور . وفترة الانتخاب هى الفرصة التى نرى فيها النائب طول الدورة البرلمانية . ومعركة الانتخاب بين الحكومة والأحزاب ، وبين المرشحين والطلاب ، هى التى تحمل أولياء الحكومة وأغنياء الأمة على أن يذكروا القرية ، ويزوروا الفلاح ، ويعطفوا على بؤس الأجير ، ويمسحوا على رأس العامل ، ويعدونا المواعيد ، ويمنونا المنى ، ويصوروا لنا البرلمان فى صورة المسيح المنتظر ؛ فلا ظلم وهو منعقد ، ولا بؤس وهو قائم ! فنقطع فى رضاهم القرابة ، وننقض فى سبيلهم الجوار ، ونتحمل فى نجاحهم العنت ؛ حتى إذا فاز النائب ، والتأم المجلس ، وحكم الدستور ، انصرف البرلمان إلى الأحزاب ، واشتغلت الحكومة بالموظفين ، واهتم النائب بنفسه ! أما القرية والفلاح ، وأما الدائرة والناخب ، فمرآهم مقتحمَ العين ، وشكواهم دبرَ الأذن

* * *

ذلك بعض حديث القوم . وهو على سذاجته أو قل على تفاهته أخف على القلب وأندى على الكبد من حديث يزوره كاتب يتعاطى الأدب ، أو خطيب يحترف السياسة .

احمد حسن الزيات

من مآسى التاريخ الاسلامى

فرار عبد الرحمن الداخل

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ليس بين أمراء الدولة الأموية ، سواء فى الشام أو الأندلس ، من تقدم إلينا حياته وسيرته تلك الصفحة المدهشة التى يقدمها إلينا عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ؛ فقد كان هـذا الأمير بطل مأساة خارقة مؤثرة ؛ ولم تكن روعة هذه الصفحة فى أنه أقام من العدم ملكاً عظيماً فقط ، وأقام لمجد أسرته الذاهب صرحاً شامخاً فحسب، ولكن روعتها تبدو بنوع خاص فى معترك المحن الأليمة التى نشأ فى غمارها هذا الأمير القوى النابه . وإذا كانت حياته السياسية لا تحمل على كثير من الحب ، وتبدو لنا حياة مغامر يشق طريقه إلى السلطان بوسائل ليست دائماً مشروعة ، فان المحنة التى طبعت بها حياته الخاصة ، وما صقلت هـذه المحنة من خلاله الباهرة ، لما يستثير منا أيما عطف وإعجاب

وقد لا نجد لحياة الداخل صورة أبلغ وأقوى من تلك التى رسمها لنـا خصمه وعدو أسرته أبو جعفر المنصور العباسى إذ نعته بصقر قريش ، ولخص لنا حياته المدهشـة فى قوله : « عبر القفر ، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره ، وشـدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان ، وذلّلا له صعبه ؛ وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ؛ وأمير المؤمنين بطيب عترته واجتماع شيعته ؛ وعبدالرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين »

تلك هى حياة عبدالرحمن بن معاوية ، حياة نشأت من العدم ، وسلسلة حافلة بالمحن والصعاب الفادحة ، تبـدأ فى المشرق بفرار عبد الرحمن أمام مطارديه وقتلة أسرته ومقتصى عرش آبائه وأجداده ، وتنتهى فى المغرب وبسائط الأندلس بالظفر والملك الموطد . ولقد كان هذا الفرار أول وأعجب فصل فى هذه المأساة ، وكان عنوان القدر المدهش يدبر من الحوادث الواقعة ما لا يخطر تصوره على الذهن المغرق فى الخيال

كانت سنة ١٣٢ هـ سنة حاسمة فى تاريخ الاسلام والخلافة ، ففيها انهـار صرح الدولة الأموية تحت ضربات بنى العباس ، وقامت فى المشرق خلافة جديدة هى الخلافة العباسية ؛ ورأت العصبة العباسية الظافرة أن تتوج ظفرها بسحق الأسرة التى استولت على تراثها واجتثاث أصولها وفروعها ، فنظمت مطاردتها الشهيرة لبنى أمية ، وتتبعتهم بالقتل الذريع فى كل مكان ، وقتلت منهم جماعة كبيرة من الأمراء والسادة ، ولم تبق حتى على النساء والأطفال ؛ ولـكن هذه المطاردة الدموية الشاملة لم تجتث الشجرة من أصلها ، وشاء القـدر أن يفلت بعض فروعها ، وأن يزكو ليستعيد أصله الراسخ فى أرض أخرى ؛ فكان ممن نجا من الذبحة الهائلة فتى من ولد هشام بن عبد الملك ، اختاره القـدر ليحمل مصاير الدولة الأموية إلى وجهة أخرى

هذا الفتى هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام . وكان وقت أن حلت النكبة بأسرته يقيم مع أهله وإخوته فى قرية تعرف بدير يوحنا من أعمال قنسرين ، وفيها كان مولده قبل ذلك بعشرين عاماً ؛ وكان أبوه معاوية قد توفى شاباً فى أيام أبيه هشام ، فكفله وإخوته جدهم هشام ؛ ولمـا وقعت النكبة وأمعن الظافرون فى مطاردة بنى أمية فر عبد الرحمن بأهله وولده إلى ناحيـة الفرات وحل هنالك ببعض القرى ، واختفى بها حيناً يدبر أمره ؛ وكان يرقب الموت فى كل لحظة ، ولـكنه كان فى الوقت نفسه يتجه بذهنه إلى مستقبل بعيد غامض . وبينا هو فى هذا الجزع القاتل يدبر أمره ، إذا بجنـد المسودة تطوق القرية ، وتستقصى آثار بنى أمية ؛ وإذا بعبد الرحمن يرى شبح الموت أمامه فجأة ، فيحاول اجتنابه بالفرار من مطارديه

وقد انتهت إلينا عن هـذا الفرار قصة مؤثرة نقلها إلينا مؤرخ أندلسى مجهول عن لسان عبد الرحمن ذاته [(١)] ، ونقلها

(١) وردت هذه الرواية فى كتاب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » لمؤلف مجهول ص ٥١ — ٥٣

عنه بعد ذلك أبو حيان مؤرخ الأندلس [١] وخلاصتها أن عبد الرحمن حينما علم أن القرية قد غصت بجند المسودة ، بادر إلى شيء من المال فحمله ، وفر مع أخيه الأصغر ، وهو صبي في الثالثة عشرة من عمره ، وقصدا إلى شاطىء النهر (الفرات) فدل عليه بعض الخونة فما شعر إلا والخيل في أثره ، فألقى بنفسه في النهر مع أخيه وأخذا يقطعانه سباحة ، واستطاع عبد الرحمن أن يصل إلى الضفة الأخرى ؛ ولكن الغلام عجز عن قطعه ، وآثر أن يعود إلى الضفة الأولى بعد أن وعده الجند المطاردون بالأمان ؛ ولكنه ما كاد يقع في أيديهم حتى انقضوا عليه وقطعوا رأسه أمام عيني أخيه وقلبه يتفطر روعة وأسى

ولما أمن عبد الرحمن خطر مطارديه سار مختفياً إلى الجنوب وقطع فلسطين ثم مصر ، وهو يحمل حياته في كفه متأهباً للقاء الموت في كل لحظة . وكانت عيون العباسيين ترقبه وتشيعه خلال هذه الهضبات والفيافي الشاسعة ، وتكاد تكشفه من آونة إلى أخرى ؛ ولكن طالعه كان يهديه ، فجاز مصر إلى برقة ناجياً بنفسه ، والتجأ إلى أخواله بني نفزة ، وهم بطن من بربر طرابلس وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح ، وأقام لديهم يرقب الفرص ، وأنفذت إليه أخته أم الاصبغ موليبه بدراً وسالماً ومعهما شيء من المال والجوهر . والظاهر أن عبد الرحمن كان يتجه منذ الساعة الأولى ببصره إلى افريقية ، وأن نفسه كانت تحدثه بما قد يكون له في الأندلس من شأن . فلما هدأ روعه استأنف سيره ، ونفذ إلى افريقية يحاول اختراقها ؛ وكان المتغلب عليها يومئذ عبد الرحمن ابن حبيب الفهري ، وكان وقت أن دالت دولة بني أمية في المشرق قد دعا لبني العباس ، وكان يخشى على سلطانه من ظهور بني أمية في إفريقية ، فطارد اللاجئين إليها منهم ، وقتل بعضهم واعتقل البعض الآخر وصادر أموالهم . ولما شعر بظهور عبد الرحمن بن معاوية حاول القبض عليه ، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة ، وأن ينجو مع صحبه إلى المغرب الأقصى

وهنا تتفتح آمال عبد الرحمن وأطماعه ؛ فعلى مقربة منه في الضفة الأخرى من البحر بلد غني زاهر من تراث الدولة الأموية الذاهبة لم تمتد إليه يد المسودة ، ولم تقتحمه دعوتهم ، وفيه عصبة قوية من بني أمية وأنصارهم ومواليهم ، وفيه يستطيع — إذا حالفه حسن الطالع — أن يعيد بناء الصرح الذي انهار في المشرق ، ويستأنف لأسرته حياة جديدة في السلطان والملك . وكانت الأندلس في الواقع ، منذ انحلت عنها يد السلطة المركزية ، مهبط الطامعين والمتغلبين ، وكان يحكمها ويقودها يومئذ يوسف ابن عبد الرحمن الفهري ؛ وكان قد وليها قبل ذلك بنحو عشرة أعوام باتفاق الجماعة عقب معارك داخلية طاحنة ، ولكن حكمه لم يتوج قط بالصبغة الشرعية ؛ ولم تستكن الأندلس نهائياً إلى حكمه بل كانت تتطلع دائماً إلى مصيرها وترجو أن تظفر بالاستقرار السياسي في ظل أميرها الشرعي . وهكذا فإن عبد الرحمن الأموي حينما سبر غور أحوال الجزيرة على يد بعض رسله وموالي أسرته ، آنس أملاً في العمل وفي النجاح ؛ ثم عبر إلى الجزيرة ، والتقى في أنصاره وعصبته بيوسف وقواته في « المسارة » على مقربة من قرطبة في أوائل ذي الحجة ١٣٧ هـ (٧٥٦ م) ؛ وكان النصر حليفه ، إذ هزم يوسف وحلفاؤه هزيمة شديدة ، ودخل عبد الرحمن قرطبة في يوم الأضحى ، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً

* * *

على أن يوم المسارة كان بالنسبة لعبد الرحمن فاتحة الظفر لا غايته ؛ فقد استطاع بعد أحداث وخطوب جمة أن يجوز إلى الأندلس ، وأن يفتتح عاصمتها وينتزع إمارتها لنفسه ؛ ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه ؛ وكان ثمة بينه وبين ملك الأندلس الحقيقي مراحل شاقة ؛ بيد أن هذا الفتى الذي شحذت المحنة والخطوب همه ، استقبل مهمته الفادحة بعزم مدهش ، وقضى بقية حكمه وحياته ثلاثة وثلاثين عاماً يغالب صعاباً لا نهاية لها . وكانت الأندلس خلال هذه الفترة كالبركان الثائر ، يضطرم كل يوم في ناحية ، فلا تكاد الثورة تخمد في ناحية منها حتى تضطرم في ناحية أخرى . وكان عبد الرحمن في خططه وأساليبه طوال هذه المعركة مثال الجرأة والصرامة والقسوة ، بيد أنها لم تكن شهوات طاغية ظامئ إلى الدم ، بل كانت أساليب عنف يمليها العنف والخطر الدائم . كان عبد الرحمن يعيش من يوم إلى يوم في غمر الخلاف والثورة والخيانة ، ولم يترك له الكفاح المضطرم المستمر فرصاً كثيرة لأعمال السلم ، بيد أنه خرج ظافراً من المعركة ، ظافراً

(١) أوردها المقري عن ابن حيان في نفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ و ٦٣

باعادة الصرح الأموى الذى تهدم فى المشرق ؛ وتوطيد دعائم الملك الذى غلب ، وإنشاء أسرة أموية جديدة فى الغرب ، قدر لها أن تسير بالأندلس فى سبيل العظمة والفخار أحقابا

بيد أن هذا الظفر الباهر كانت تغشاه دائماً آلام نفس معذبة ذلك أن المحنة طبعت نفس عبد الرحمن وروحه إلى الأبد بطابع الكآبة والشجن ؛ وهو لم ينس قط أنه سليل دوحة تقصفت واجتثت أصولها الراسخة حيث كانت يانعة زاهرة ، وأنها اجتثت فى مناظر دموية مروعة كان من شهودها وكاد يغدو فى ضحاياها ؛ ومن ثم نراه حتى آخر حياته محزون النفس يتلهف على ماضيه ، ويبكى مجد أسرته ، ويتحسر على فراق وطنه ، وعلى نفيه وغربته وقد انتهت إلينا من شعره أبيات مؤثرة تفصح عن آلامه المعنوية مثل قوله فى التشوق إلى ربوع الشام :

أيهذا الركب الميم أرضى أقـرِ من بعضى السلام لبعضى

إن جسمى كما علمت بأرض وفؤادى ومالـكيه بأرض

قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفونى غمضي

وقوله وقد رأى فى الرصافة (١) نخلة منفردة :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي في التغرب والنوى

وطول التنائى عن بنىّ وعن أهلى

نشأت بأرض أنت فيها غريبة

فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى (٢)

تلك هى مأساة عبد الرحمن الداخل ؛ ونقول مأساة لأن الظفر الذى اختتمت به لم ينزع عن هذه الحياة الشاقة لونها المؤسى . وقد كان الداخل بلا ريب من أعظم شخصيات التاريخ الأندلسى ؛ بيد أنه فى حياته الخاصة يبدو لنا دائماً ذلك الطريد الذى تثير محنته وآلامه فى النفس شجنا ، قبل أن تثير أعماله الحافلة فى النفس إعجابا

محمد عبد الله عنان

(١) رصافة قرطبة ، وقد أنشأها الداخل تشبها بجده هشام حيث أنشأ الرصافة بالشام

(٢) وفى نسبة هذه الأبيات إلى الداخل خلاف

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٠ —

أقف قليلاً حتى أستعد لتدوين ما سمعت من ظمياء . وأشهد أنى سمعت بقية حديثها وأنا كاره ، لأن اسم عبد الحسيب أصبح يزعجنى ، فهو الحبيب الأول ، وأنا إن شاء الهوى سأكون الحبيب الثانى . وحماسة ظمياء فى سرد القصة قد تنتهي بتذكير ليلى بماضيها فتنتكس وتضيع من يدى ، لا قدّر الله ولا سمح . وهل أملك زمامها إلا إن وصلتُ بها إلى ساحل العافية ؟ كتب الله لها السلامة ، وشفى من أجلها جميع المرضى من الملاح !

ومن واجبى نحو نفسى أن أنص بصراحة على أنى لست لئيما كل اللؤم فى هذه القضية — وما أبرّئ نفسى ، إن النفس لأمّارة بالسوء ، إلا ما رحم ربى — فأنا أحب أن تُعافَى ليلى لأنفرد بهواها ، ولكنى مع ذلك أشعر فى بعض الأحيان أنى أخدمها باخلاص ، فانه يعزّ علىّ والله أن تُعطب سيدة لها مثل طرفها الساحر ، وصوتها الرخيم . يعزّ علىّ أن تعطب مثل تلك الانسانة وإن خلت منها يدى ، وهذه فيما أظن أول مرة أشعر فيها بحلاوة الصدق ، فقد مضت أعوام وأنا لا أداوى امرأة جميلة إلا هممت بخطفها من زوجها . وقد وقعت لى من ذلك حوادث سيطول عليها ندمى ، حين أثوب إلى رُشدى ، أنا الطبيب الآثم الذى زعزع عروش السعادة فى كثير من البيوت

أنا أشعر حقاً وصدقاً أن ليلى تهمنى ؛ وأشعر حقاً وصدقاً أنى مستعد للتضحية بنصيبى من هواها ؛ ولكن ما الذى يمنع من الجمع بين المزيتين : عافيتها وسعادتى ؟ يمكن بسهولة أن تصير محبوبتى بلا بنى ولا عُدوان ، والخلاصة أنى أريد أن يُنسى اسم عبد الحسيب ، ولكن كيف ؟ إن قصته تهمنى جداً ، لأنها ستعلمنى كيف أسوس ليلى ، وهذا بيت القصيد ، فقد أصبح مفهوماً عندى أنه كان (عبيطا) لا يعرف ما يأتى وما يدع . وكان مصيره أن يُحرم عطف ليلى ، فيمرض هو فى مصر ، وتمرض هى فى العراق ، وما أحب أن أكون ثالث المرضى !

يضاف إلى هـذا أن ظمياء ستتكلم أيضاً عن درية أخت عبد الحسيب ؛ وهذا الاسم يهمني جداً ، ولا أعرف السبب فى ذلك ، ولعلى أعرف بعد حين ، فقد تتذكر الإنسانة التى تحمل هذا الاسم الجيل أن الفتى الذى كان يصارحها وتكاتمه لم ينس أن جسمها كان أخصب جسم تبختر واختال فى شارع فؤاد . ولعلها تمرض هى أيضاً فيُدعى لهـا الطبيب الذى يداوى ليلى المريضة فى العراق

درية ، متى تمرضين ؟ إخص عليك ! بل متى تتصنعين المرض لأراك — فى غير ريبة — ممدّدة على السرير ؟ متى ؟ متى ؟ إن بلائى سيطول !

* * *

أنا أغار من اسم عبد الحسيب ، فليؤجَّل حديثه لحظات ، ولأدوِّن بعض الوقائع المتصلة بهذه الأحاديث

١ — بجوار دار المعلمين العالية رجل يجلس على الأرض و (يضرب الرمل) وهو معروف لسائر أهل بغداد ، وهو يذكرنى بأمثاله من الذين كنت أستخبرهم مصيرى فى الحب حين كنت أمشى بشارع الخليج . وما كنت أول محب استخبر الرمل ، فزميلى البهاء زهير تنطق أشعاره بأنه كان يعرف جميع من (يضربون الرمل) بالقاهرة

أقول إنى أقف دقائق كل صباح حول بساط هذا الرجل وأنا فى طريقى إلى الدرس ، والطلبة يمرون فلا ينتقدون أستاذهم ، لأنهم سمعوا أنه أديب فيلسوف لا يهمه غير الوقوف على أحوال المجتمع . ولـكن الواقع غير ذلك ، الواقع أنى بدأت أتخوف مصيرى فى هوى ليلى ، وأصبحت كالطفل أصدّق كل شىء . ولـكن كيف أستخبر الرمل والطلبة يغدون ويروحون وأكثرهم يحمل المصورات الشمسية ، وفى مقدورهم أن يأخذوا صورتى على تلك الحال ويقدموها إلى الجرائد فأصبح محور السمر الساخر فى الأندية والمعاهد ؟

الحل سهل : أنتظر ذهاب الطلبة للغداء ثم أعرج على ضارب الرمل لأشوف بختى

كذلك فعلت

وبلاء ! ماذا تصنع المقادير ؟

أنا أجلس أمام أحد الدراويش فى بغداد لأشوف بختى ، وأنا الذى غلبت الساحر الهندي على شاطىء الاسكندرية فى صيف سنة ١٩٣٤ ؟

ليت أيامي تعود !

فما زلت أذكر كيف أعطانى ذلك الساحر الهندى عشرين ديناراً فى سبيل أن أترك له التفرد بقراءة الـكف لمن يحج ذلك الشاطىء من الظبيات

وخلاصة القصة أني ذهبت فى ضحى يوم صائف إلى خليج ستانلى ، ونزلت بثوب البحر إلى ملعب الغزلان ، فرأيت فقيراً هندياً يقرأ الـكف لفتاة ناهـد تشبه أفروديت ، أو تشبهها أفروديت ، فجلست بجانبهما جلسة الباحث المتعقب ، لا جلسة اللاهى اللاعب ، وما هى إلا لحظات حتى قلت بصوت الواثق بصحة ما يقول : على رِسلك أيها الساحر ، فأنت فيما يظهر قليل العلم بأسرار الـكف ، وما يجوز لك أن تشغل فتاة بمصيرها على غير هدى . أين تعلمت هذا العلم أيها الدرويش المجهول !

فانزعج الرجل انزعاجاً شديداً ، وفقراء الهنود ضعاف العزائم والقلوب فى أكثر الأحيان

ونظرت الفتاة فى استغراب وقالت : وحضرتك تعرف علم الـكف ؟

فقلت ، وأقسم ما قلت غير الصدق : نعم أعرف علم الـكف وهو خير ما تعلمت فى باريس !

فانعطفت الفتاة فى تخاذل وقالت : تسمح تقرأ لى كفى !

فأخذت يدها ونظرت إلى صدرها مرة وعينيها مرتين ، ثم شرعت أقص عليها أخبار المستقبل وما فيه من ابتسام وأنين

وما هى إلا دقائق حتى كنت ساحر الشاطىء

فهل تعود أيامى ؟ هل تعود ؟ أمرى إلى الهوى !

وتخاذل الساحر الهندى وتضعضع وأقبـل يسر فى أذنى : تتفضل بكلمة ؟ فقلت : نعم . وانتحينا بعيداً عن أسماع الظباء فقال : أعرف أنه لا يفل الحديد إلا الحديد ، وأعرف ثانياً أنى أعلم منـك بقراءة الـكف ، ولـكنى واثق بالهزيمة إذا ناضلتك ، لأنك تحدث الفتيات بأحاديث أجهلها كل الجهل ، ويغلب على ظنى أنك لا تقرأ الـكف ، وإنما تقرأ العيون ، ولا علم لى وحياة غاندى بلغة العيون

فقلت : وماذا تريد ، أيها الشيخ ؟

فقال : أرجو أن تبيعني هذا الميدان

« وعندئذ تذكرت أني موظف في الحكومة المصرية وأن من الممكن أن يتعقبني مندوب (آخر ساعة) أو مندوب (روزاليوسف) أو مندوب (الصباح) ، وأن من العقل أن أقبض ما يمكن قبضه وأترك الميدان »

— وماذا تقدم يا شيخ ؟

— أقدم عشرة دنانير

— أنا أترك لك هذا الميدان من أجل عشرة دنانير؟ هيهات!

— ياسيد ، أنت في وطنك وأنا غريب

— ونحن لا نترك خيرات بلادنا للأجانب

— أنا لست أجنبياً بالمعنى البغيض لهذه الكلمة ، فأنا مسلم مثلك وأتكلم اللغة العربية

— إنك رجل لبق يا شيخ ، ولكني لا أترك هذا الميدان بعشرة دنانير

— أنا لم أغنم من هذا الموسم غير أربعين ديناراً

— أنت إذاً جهول ! ولو كنت مكانك لجمعت ألف دينار في شهرين

— هذا ما وقع وأنت تعرف يا سيدي أن عمل السحر صار قليل المكاسب بفضل المقالات التي تكتب ضده كل يوم . وأنت يا زميلي تعرف ما جنت علينا حذلقة أصحاب الجرائد والمجلات

— إذن تدفع عشرين وتحفظ لنفسك عشرين

فقبل الرجل وقدم المبلغ ، فأخذته وانصرفت

وقد علمت بعد ذلك أن عرائس الشاطيء شككن في قدرته على فهم أسرار الكف فبار سوقه وضاع

أما أنا فقضيت في دراسة هذا العلم النفيس حتى تفوقت فيه ، ولكل مجتهد نصيب

***

أليس من الغريب أن يكون هذا حالي في العلم بعصاير القلوب ثم أجهل مصير قلبي ؟

إن هذا لدليل على ضعف القدرة البشرية ، إن كان ذلك ما يرتاب فيه الزنادقة والملحدون

جلست إلى الرمل أستلهمه وأستوحيه ، والأمر للهوى

— بابا ، بابا

— نعم يا عمي

— لك أعداء في الشام ، وسينصرك الله عليهم

— طيب ، طيب ! (وماذا جنيت حتى يكون لي أعداء في الشام أو لبنان ؟)

— ولك أعداء في مصر ، وسينصرك الله عليهم ، قل آمين

— آمين ، آمين !

— ولك في العراق فرد عدو (يعني عدواً واحداً)

— طيب

— ويجيء إليك فرد مكتوب

— من وين يا عمي ؟

— من بغداد

— خير ، خير

— وأنت تحب فرد امرأة ، وأكو [1] ناس يحسدونك

— أكو خوف يا عمي ؟

— ما كو خوف ، ولكن احترس

فنفحت الرجل درهماً[2] ومضيت

وبالقرب من جامع مرجان سمعت صوتاً يناديني فالتفت فإذا أحد سعاة البريد يقدم إليّ خطاباً فعجبت من أن تفضحني ليلى إلى هذا الحد ، ونظرت فرأيت العنوان مكتوباً بهذه الصورة الطريفة :

« لحضرة الأستاذ الخفيف الروح الدكتور زكي مبارك يسلم إليه أثناء تجواله في شوارع بغداد ! ! »

شيء ظريف حقاً ! وأي ظرف أروع وأمتع من أن تصبح دار إقامتي موزعة بين شوارع بغداد ، وأن ترى مصلحة البريد أنها مسئولة عن البحث عني في شوارع بغداد ؟

إن مرسل هذا الخطاب لا بدّ أن يكون أظرف الناس .

وإذا كان العنوان بهذه الصورة من اللطف فسيكون الخطاب ولا ريب آية الآيات في خفة الظل ولطف النسيم

---

(١) أكو : يوجد ، ويقابلها (ماكو) أي لا يوجد . في اللهجة العراقية

(٢) كلمة (درهم) لا تزال حية في العراق وهي قطعة تساوي (الربع ريال) في العملة المصرية

ولـكنى ما كدت أفض الظرف وأنظر الخطاب حتى انزعجت . فهو بغير إمضاء وكاتبه ينهانى عن عيادة ليلى ، ويهددني بالقتل ... أمري إلى الله لا إلى الهوى !

ورأيت أن أحتاط لنفسى فذهبت أستشير صديقاً بالمفوضية المصرية سبقنى إلى العراق بسنتين ؛ فـكان من رأيه أن أبلغ الخطاب إلى الشرطة . وأكد لى أن العراقيين لا يعرفون المزاح فى هذه الشؤون . وبعد ساعة من تسلم الخطاب كنت عند سعادة رئيس الشرطة ، فـكان أول كلامه بعد رد التحية أن قال :

— إيش لون ليلى ؟

— أهدد من أجلها بالقتل !

وقدمت إليه الخطاب فـكان يقرأ والغضب ينقله من لون إلى لون ، ثم ابتسم فجأة وقال :

— ولـكنه صفح عنك !

— صفح عنى ؟ وكيف ؟

— ألم تقرأ هذه الجملة ؟

ونظرت فإذا فى نهاية الخطاب « ولـكنى عدلت عن هـذا الخاطر لأني إذا قتلتك قتلت معك علماً غزيراً فى الطب ، وذوقا دقيقاً فى الأدب » فعجبت أن تفوتنى هذه الجملة ، ولـكن يظهر أن انزعاجي صرفني عن استيعاب الخطاب ؛ والتهديد بالقتل يصنع أشنع من ذلك . عافى الله قراء هذه الذكرات من الأسواء

ولما اطمأننت إلى صفح غريمى فى هوى ليلى تشجعت وقلت :
ومع هذا فأنا لا أبالى أحداً ، وقديماً قال جميل :

فليت رجالا فيكِ قد نذروا دمى ... وهمّوا بقتلى يابثين لقونى
إذا ما رأونى طالعاً من ثنيّة ... يقولون من هذا وقد عرفونى

فقال رئيس الشرطة وهو يبتسم : يجب أن تثق يا دكتور أن العراقيين يفدون ضيوفهم بالأرواح ، وهم لا يخافون عليك إلا عاديةَ هواك

***

٢ – تفضل سكرتير محطة الاذاعة العراقية فدعانى لإلقاء محاضرة عن الحِكم العطائية ؛ وأنا فيما يظهر رجل خدّاع ، فقد ظن الأستاذ فؤاد جميل أنى أصلح الناس للكلام عن حِكم ابن عطاء الله ؛ ولعل حياتي في بغداد هي التي هدته إلى ذلك ، فقد رآنى أحفظ آداب الصيام ، وأؤدى الفرائض والنوافل ، فظننى رجلاً تقياً ، ونسى هذا الأديب أن الغريب لا فضل له فى التخلق بمكارم الأخلاق . وهل يستطيع رجل مثلى أن ينحرف عن الصراط المستقيم فى بغداد ؟ إن استقامتى فى هـذه المدينة ليست إلا ضرباً من الآداب الصناعية ، ولن تكون لهـا قيمة إلا إذا عاملنى الله عز شأنه بالمثل المأثور :

« يؤجر المؤمن رغم أنفه »

وهنا أشعر بأن الله تباركت أسماؤه خصنى بمزية قليلة الأمثال ، فأنا أحاسب نفسى قبل أن يحاسبنى الناس ، وأدوّن عيوبى قبل أن يدونها الكرام الكاتبون ، وربما كنت الرجل الوحيد الذى يخفى حسناته — إن كانت له حسنات — حتى لا تزل قدمه فى منزالق الرياء

أقول إنى ألقيت محاضرة في محطة الاذاعة عن حِكم ابن عطاء الله ، ولـكنى ما كدت أودع جمهور المستمعين حتى كان المذياع يجلجل :

يقولون ليلى فى العراق مريضة ... فياليتنى كنت الطبيب المداويا

وكانت لحظة طرب لن أنساها ماحييت ، فاسم ليلى يشوقني ، وبفضل ليلى رأيت العراق . وبدا لى أن أسأل عن صاحب الفضل في إمتاعى بهذا الصوت ، فعرفت أنه الأستاذ يونس بحرى صاحب جريدة العُقاب . ويونس بحرى أديب شرب ماء النيل ، وذاق لذة الأسمار فى القاهرة ، وعرف كيف تطيب الأصائل والعشيات فى مصر الجديدة والزمالك والمعادى وحلوان ، وتمرغ على الرمل المقدس : رمل الأسكندرية وبورسعيد ودمياط ، وقد شاء له وفاؤه لمصر أن يؤنسنى بهذا الصوت ، لأنه يعرف أنى طبيب ليلى ، ولأنه يعرف أن السيدة نادرة حضرت نادى الصحافة منذ سنين فلم تر إلا أن تجلس بجانبي عند أخذ الصورة التاريخية ليصح لها أن تقول إنها رسمت وبجانبها قلب خفّاق

وليس من التزيد أن أقول إنْ محاضراتي فى الاذاعة ينتظرها الناس فى جميع أرجاء العراق ؛ وكذلك كان إلقاء ذلك الصوت بعد محاضرتي شاهداً على حلاوة الدعابة العراقية التى خلدها أبو الفرج الأصفهانى على وجه الزمان

***

جلست بعد المحاضرة أستمع هذا الصوت ، والرفاق يضجون من حولى بالضحك ، وفاتهم أنى صرت كالذي قال :

بكت عينى َاليسرى فلما زجرتها ... عن الحلم بعد الجهل أسبلتا معا

فقد كنت أعرف أن ليلى تسمع ، وكنت أعرف أنها ستطرب لهذا الصوت الذى حبسه البغداديون عن أذنيها خمس سنين ، وكنت أعرف أنها لو رأتني لقبّلتنى . ولكن هل تقبّلنى ليلى ؟ ليت ثم ليت !

وخرجت من دار الإذاعة فعبرت دجلة من الكرخ إلى بغداد وأنا في ذهول ، فحدثتنى النفس بحلاوة الغرق فى ذلك النهر الذى وعى ما وعى ، وضيّع ما ضيّع ، من أسرار القلوب . ثم تذكرت ديونى فى القاهرة ، ديونى للوجوه الصِّباح التى تعطّر بأنفاسها نسائم مصر الجديدة والزمالك ، وديوني لعرائس دمياط اللائى تفردن بنعومة الأجسام وعذوبة الأحاديث :

رباه صُنْتَ فؤادى ... من الأسى والحنين
ولم تشأ لضلوعى ... غير الجوى والشجون
فكيف تصفو حياتى ... من الهوى والفُتُون
أم كيف تُرجى نجاتى ... من ساجيات الجفون

وهل من الأثم فى هوى ليلى أن أحنّ إلى هوايَ فى القاهرة عروس الشرق ؟

هل من الأثم فى هوى ليلى أن أتذكر غَبُوق بمصر الجديدة وصَبُوحى بالزمالك ؟

هل من الأثم فى هوى ليلى أن أقول إني أبذل دمى إن استطعت لأقضى ليلة واحدة فى ضيافة ليلى الصحيحة فى حلوان ؟

متى تعود أيامى وأستأنف اختطاف القبلات فى القطار بين المعادي وحلوان ؟ !

وما كنت أنتظر أن يخط قلمى أمثال هذه الاعترافات ، ولكنى أحب أن تغار الإنسانة التى سيخلّد اسمها شارع العباس ابن الأحنف فى بغداد ، فإن غارت فهى ليلى بنت ليل وإلا فهى صخرة تغمرها الثلوج فى أقاصى الشمال

وأقسم لئن لم تنته عن تغافلها البغيض لأحدثنّها عن ليالىّ وأيامى في فندق مينا هاوس بسفح الأهرام ؛ ولئن فعلت لأصوّبنّ إلى صدرها سهماً مسموماً لا يُرجى منه شفاء

ليلى ، يا بنت الفرات !

أمرى وأمرك إلى الهوى ، فإليه ترجع القلوب !

***

ألم يأن لى أن أعود إلى حديث الضابط عبد الحسيب ؟

إن حديثه لن يصل إلى ليلى حتى أكون أنسيتُها كل من فى الوجود . وهل أمكنَ يوماً أن يكون لي فيمن أحب شريك ؟

فلنقص حديث ذلك الغريم بلا تهيب ولا إشفاق

قالت ظمياء (وما أعذب كلام ظمياء)

— وأفاض الشيخ دعاس فى شرح الاستشراق والاستغراب ففهمنا أن المستشرق هو الذي يدّعى علم الشرق ، والمستغرب هو الذى يدّعى علم الغرب . ثم تشعب الحديث من فن إلى فن ، فانتقلنا من الأدب إلى السياسة ؛ وليلى لم تشاطرنا الحديث ، فقد كانت مشغولة البال بانتظار عبد الحسيب . وكانت ترجو أن يكون هو الفتى الذى رافقناه فى قطار المرض . وبعد ساعات مرت على ليلى كأنها أعوام دخل شاب أخضر العينين ، وكان هو يا مولاى ، هو نفس الفتى الذى دارت معه ليلى فى قطار المرض دورتين

— وكيف كان التلاقى ؟

— فرّت ليلى من وجهه فرار الظبية الضعيفة من القانص الظلوم ، فانزوت فى أحد أركان البيت . وألحت السيدة نجلاء فى أن تتفضل ليلى بالسلام عليه ، فاعتذرتْ بأن سلام الفتاة على الفتى وهى ليست من محارمه أدب تنكره حرائر العراق

« للحديث شجون » زكى مبارك

فلسفة التربيـــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٩ —

« يتفتح الطفل باللعب كما تتفتح الزهرة »
« فروبل »

« الفرق بين مخ أرقى قرد وأحط إنسان أكبر بكثير من الفرق بين مخ أرقى إنسان وأحط إنسان »
« البيولوجيا »

الناحيتان البيولوجية والفسيولوجية

شرحنا في المقالات السالفة عملية التربية على ضوء الفلسفة وأشرنا إلى بعض « ما يجب أن يكون » وعلينا اليوم أن نرجع إلى « مجموعة العلوم » التي تتناول « الانسان » بالدراسة والتحليل لنسمع كلمتها فيه ، ولنتخذ من نتائجها المحتومة كل ما يفيدنا في تكوين « بطلنا المنشود » ! وفي ذلك بالطبع من زيادة الشرح وتكميل النقص ما فيه

ستسأل : وما هذه « العلوم » ؟ وسأجيبك بأن مايهمنا منها هو علوم الحياة ووظائف الأعضاء والنفس والاجتماع ؛ ثم ستسأل : وما علاقة ذلك بالفلسفة ؟ وسأقول إن من خصائص الفلسفة الحديثة النظر في مبادىء العلوم ونتائجها ، والخروج منها بوحدة متسقة منسجمة فيها من المعنى الجامع ، والتفسير الشامل ، والاتجاه العام ، الشيء الكثير . وما دمنا في التربية حيال تلك القطعة الفذة من الخليقة « وأعني بها الانسان » فلا بد لنا أولا من أن نحاول فهمها وكشف خفاياها ، حتى لا تكون أقوالنا عنها خيالية غير مجدية ، وحتى نستطيع بعد حل لغزها بالعلوم المختلفة أن نسير بها إلى كل ما تتطلبه طبيعتها ، وتحتمله قواها ويسمح به استعدادها . فترى ما هي كلمة البيولوجيا والفسيولوجيا في الانسان ؟ الجواب كما يلي :

الناحية البيولوجية

وقد أصبحت هذه الناحية هامة وجديرة بالاعتبار في التربية ولا سيما بعد أن ظهرت « نظرية التطور » ووضعت الانسان في مكانه بين سائر المخلوقات . ولعلك تعرف أن محور البحث هنا يدور حول الكائن الحي من حيث ملاءمته بين نفسه وبين بيئته . ومع كل فلا يهمنا من ذلك في التربية إلا المخ ، والطفولة ، والعقل

(١) فأما المخ فقد ثبت نهائياً أنه في « الانسان » أكبر الأمخاخ بالنسبة للجسم ، وأن الفرق بين مخ أرقى قرد وأحط إنسان أكبر بكثير من الفرق بين مخ أرقى إنسان . وقد لوحظ أن القابلية للتعلم والتهذيب تتمشى مع كبر المخ تمشياً مطرداً [(١)] ، وإذن فمعنى كبر المخ في الانسان هو القابلية العظمى للتربية ، وقيام المخ ذاته مقام الانتخاب الطبيعي وجوهرية عملية التعليم ذاتها بالنسبة للانسان والقدرة الكبيرة على التخلص من الغرائز أو تهذيبها مادام المخ يستطيع أن يقوم مقامها .

(٢) وأما طفولة الانسان فهي أطول طفولة معروفة ، إذ بينما يصير فرخ الطير قادراً على الاستقلال بنفسه بعد أيام قليلة ، لا يصير ابن الانسان كذلك إلا في سن لا تقل عن العشرين في الشعوب الراقية على الخصوص . وإذن فالتربية السليمة هنا أداة لا مندوحة عنها لاحكام عملية النمو وتحقيق آمال الجماعة في أفرادها

(٣) بقي « العقل » وقد أثبتت جميع تجارب الباثولوجيا والتشريح والفصل الجزئي علاقته التامة بالمخ المشتمل على المراكز العليا التي تقوم بالعمل المُروّى تاركة الأفعال المكسية واستجابات الغرائز للمراكز السفلى في العمود الفقري . وهذا « المخ » قابل للتربية كما يقول الأستاذ Halleck ولا سيما في سن الطفولة والشباب لأنه يكون حينذاك « مرناً » سريع التأثر ، وإذاً فيسور تقوية نسيجه وقواه بتكوين عادات عصبية توفر الوقت وتترك للعقل فرصة للتفكير فيما هو أرقى من « الدفاع » [(٢)] الذي يبدو أنه الوظيفة الأساسية للجهاز العصبي عند الحيوانات جميعاً . والتربية هنا توقظ القوى النائمة ، وتحفز المتيقظة ، وتربط الرذيلة بالألم ، والفضيلة باللذة ؛ وتغرس العادات الحسنة التي قد تعادل الغرائز في قوتها . ويؤكد الأستاذ Lankester بعد هذا

---

(١) ويسرنا هنا أن نقول : إن « ابن مسكويه » الفيلسوف الاسلامي قد سبق البيولوجيا الحديثة في تلك الملاحظة السديدة وقد توفي في سنة ٤٢٠ هـ

(٢) ويدخل في الدفاع المأكل والمشرب والنسل والمقاتلة وكل ما يضمن البقاء للكائن الحي

أن الجهاز العصبي في الأمم المتعلمة أقدر على قبول التربية منه في الأمم الأخرى . وإذاً فالفرق بين الوحشية والتمدن هو في الحقيقة فرق بين مخ يستجيب صاحبه للغرائز الطبيعية استجابة الحيوان ، ومخ يستجيب صاحبه لها استجابات حرة مهذبة معدلة فيها التسامي والتعويض ، والكبت والتحوير !

ولكن هل ترى التربية إلى جعل جميع أعمالنا آلية عديمة الشعور ؟ الجواب كلا ! ذلك أن العقل الآلي لا يصلح قط للظروف الاجتماعية الدائمة التغير والتشكل . وإذاً فهي ترمي إلى إدخال عنصر « الشعور » في الأعمال حتى يمكنها إحكام التصرف على ضوئه المنير ، وحتى تستطيع أن تشرق به على « اللاشعور » فتضيء ظلمته ، وعلى الزمن فتنبهنا إليه ، وعلى « المثل الأعلى » فتطمح بنا نحوه . وهناك لا نكون مجرد « آلات » تذهب إلى العمل وتعود منه إلى البيت ، ثم تخرج إلى المقهى ، وهكذا دواليك على نحو أوتوماتيكي خاص ؛ وإنما نكون في أعمالنا كائنات حساسة شاعرة تحيا حياة اجتماعية خصبة فيها التقليد النافع ، والتضحية السامية ، والمحبة النابضة ، والمنافسة السليمة ، والقابلية لإصلاح أنفسنا وعاداتنا كلما شعرنا بالنقص ورأينا الكمال (1)

أما النظرة العامة التي نخرج بها من هذه الناحية البيولوجية فهي العيش أولاً ثم الكماليات ، العيش ثم الفلسفة والفن ؛ هذا إلى جعل « الطفل » موجباً يؤثر لا سالباً « يتأثر » ، لأن المخلوقات الحية قد تشكلت ردود أفعالها أكثر مما تشكلت بالبيئة . ويقتضي بالطبع جعل المدارس دور « نشاط » نظري وعملي لا دور حشو واستماع ، والنظر إلى التربية ذاتها كعوض أساسي يسد للإنسان ذلك النقص الهائل الذي لا نجده في الحيوان ، وكأسلوب من « المواءمة المثلى بين المرء وبيئته » كما يقول الأستاذ هورن Horn (2)

الناحية الفسيولوجية

أما هذه الناحية فنقول مع بعض مذاهب الفلسفة إن الحياة قد بدأت بالمادة ثم بالروح ، وإن الجسم والعقل لم يتلاش بعضهما في بعض بالرغم من شدة امتزاجهما ، فهما يكونان وحدة متسقة ويؤثر بعضهما في بعض تأثيراً كبيراً . ألا تنمو قوى العقل بالحس والحركة ؟ أو ليست الإرادة حركة مُروًّى فيها ؟ أو ليس « الشعور » — بعد هذا — صدى للإرادة والمعرفة ؟

ولذلك تنحصر مهمة التربيـة هنا في تسليح الجهاز العصبي بردود أفعال حرة منها الاعتيادي — عن طريق العمود الفقري — ومنها المروّى فيه — عن طريق المخ — وفي الاستفادة من نتائج التجارب القائلة بأن العمل ينهك المخ فلا يكون لعمله بعد أربع ساعات قيمة ما ، وبأن المخ يحتاج إلى غذاء خاص من الهواء النقي وغيره ، وبأن القوى العقلية تمر في مراحل تمتاز أولاها بسيادة « الذاكرة » ، وثانيتها بسيطرة « الخيال » ، وثالثتها بحكم « الفكر » ، وبأن التعب العقلي يمكن أن يجتنب إلى حد كبير بتنويع العمل على المراكز المخية المختلفة ، وبأن صحة الجسم واجبة والعدل بين مجهود الجسم والعقل أوجب ، وبأن وبأن مما لا يتسع المقام لذكره ...

هذا إلى أنها — تمشياً مع الحقائق أيضاً — تنصح بإدخال « العمل اليدوي » و « اللعب » في عملية التدريس . ذلك أنها تعتبر الأول خير أداة للتعبير عن النفس ، ولتنمية العقل وتدريب الحواس ، وربط المواد ، وتقوية الإرادة ، واكتساب الذوق الجميل ، وغرس القدرة على الإنتاج ، وتعويد الدقة ، وحب العمل واحترام العمال ، وتقدير العاملين (1) ! . وأما الثاني — وهو اللعب — فيقول عنه « فروبل » إنه يجعل الطفل يتفتح كالزهرة ويقول عنه شلر Schiller : « إن الإنسان لا يكون إنساناً إلا به » ذلك أنه بعيد الغور في طبيعة الإنسان ، حتى أن الشعوب نفسها لتلعب أحياناً وتلهو كالأطفال ، وأنه ذو وظيفة أساسية في الحياة وإن اختلف العلماء في كنهها (2) ، وأنه إذا ما دخل في العمل الجدي جعله سهلاً مستساغاً وهيناً محبوباً . أليس الفن نفسه صدى للعب الخيال المنتج ؟ وإذاً فلا مندوحة لنا من العناية به في المدرسة والتدريس ، ولا مندوحة لنا من أخذ الجميع بالألعاب

(1) طبق هذا على رجال المقاهي والحانات وما أشبههم ، فإنهم جميعاً يصدرون في سلوكهم عن عادات غير مرنة ، ويحتاجون إلى « شعور كامل » بنقصهم وبكمال غيرهم أولا ، ثم إلى إرادة قوية ثانياً ليقلعوا عن هذه العادات

(2) أنظر كتابه A Philos. of Ed.

(1) وبذلك لا يكون العمل وصمة لدى شبابنا الناهضين ، ولا يكون العمال حثالة الشعب في نظر المتعلمين !

(2) أنظر نظريات شبر وسبنسر ولازاروس وجروس وبلدوين بكتب علم النفس المختلفة

المثل الأعلى للشاب المسلم

للأستاذ على الطنطاوى

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

لقد انتهينا من تعريف المثل الأعلى والشباب والاسلام، فلنشرع فى الموضوع:

قلت إن أندريه موروا وصف الشباب بصفتين أساسيتين: هما الحب والبطولة. أما الحب فهو عماد الحياة وركنها وأساسها، لا معدى عنه، ولا منجى منه. وأحسب أن الشباب الحاضرين، بل وكثيراً من الشيوخ يصفرون لى وينزلوننى عن المنبر، إذا أنا قلت لهم: «لا تحبوا»، وكيف أقولها؟ أجننت حتى أقول: «حطموا القلوب»، ودوسوا العاطفة. وماذا يبقى لنا إذا خسرنا العاطفة؟ لقد خسر ادوار عرش بريطانيا العظمى، ولكنه ربح العاطفة فلم يخسر شيئاً. لقد أنسته عينا مدام سمبسون ملك انكلترا، فهل كان ينسيه هذا الملك الضخم، وهذا التاج المرصع، عينى سمبسون لو أنه هجرها ...؟

العاطفة هي التي تدير دولاب حياتنا، وتسير أمورنا كلها، أما العقل فلا يصنع وحده شيئاً. من يذكر منكم أنه مشى خطوة واحدة برأى العقل وحده؟ العقل يا سادتى فيلسوف أعمى، حكيم مقعد، ينادى بصوت خافت ضعيف ... أما العاطفة فهى القوة، هي النشاط، هى الحياة ...

أنا لا أقول اقتلوا العاطفة، لأن فى موتها موتنا، ولكن أقول إن العاطفة تضيق حتى لا تشمل إلا شخصاً واحداً، وتنحط حتى تنزل من قلب هذا الشخص إلى ما تحت القلب، إلى ما تحت ... السرّة! وتسمو حتى تحيط بالمثل الانسانية العالية، وتعمّ حتى تشمل الأمة كلها، بل الانسانية جماء. فاسموا بعواطفكم عن مواطن شهواتكم، واخرجوا بها من ذواتكم، وقفوها على أمتكم وبلادكم

أحبوا، فإن الذى لا يحب لا يكون إنساناً، واذكروا واحلموا وتألموا ... ولكن افهموا الحب بمعناه الواسع الذى يشمل كل ما هو حق وخيّر وجميل ... لا المعنى الضيق العقيم، الذى لا يتجاوز حدود جسم امرأة ... أحبوا، أحبوا، ولكن ابقوا مسلمين.

إن للمسلم قلباً، قال الله عز وجل: «إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب[1] أو ألقى السمع وهو شهيد»، ولكن المسلمين يغضون عيونهم وقلوبهم وفروجهم (إلا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون).

أحبوا ولكن ابقوا رجالاً. إن الرجل إذا أحب لم يبكِ ويتذلل ويأرق الليل، ولم يلق شفتيه على قدمى المرأة، كما كان يفعل لامارتين، ولكنه يقوم قائماً على مشط رجله، ثم يقول لها، بعينيه النافذتين، وعضلاته الحجرية، وإرادته الماضية، ورجولته البادية: «تعالى!»

أحبوا ولكن ابقوا أفراداً من هذه المجموعة البشرية التى هى الأمة، لا يقطعكم الحب منها، ويُبعِدْكم إلى الحياة الفردية الوحشية، فتنكروا كل شىء، وتنسوا الدنيا، وتتجاهلوا الحياة إلا إذا أشرقت عليها نظرة من المرأة وأضاءت فى أرجائها كلمة منها. ولا تقيموا الدنيا وتقعدوها، وتغرقوا الأرض بالدموع لأن الحبيبة المحترمة لم تمنح قبلة وعدت بها، ولم تصل وقد لوحت

(١) مهما كان معنى القلب هنا ...

التى تقوى شخصيتهم، وتجمل أجسامهم، وتبث فيهم الروح الاجتماعية والجرأة والحرية والديمقراطية والإقدام وضبط النفس والإيثار. ولكن ليكن مبدؤنا دائماً في الباريات العامة والخاصة هو أن «الخسارة بحق خير من الفوز بباطل!»، ولنتجنب ما استطعنا ألعاب المنافسات الحقيرة والعصبيات التافهة والانهاك الشديد؛ وبذلك تكون المدرسة فردوساً يحفه المرح ويسرى فيه العمل الصحى بجميع نواحيه، وتكون التربية «مواءمة عليا بين المرء النامى الجسم وبين بيئته[1]»

وإلى اللقاء حيث أحدثك عن الناحية النفسية فالناحية الاجتماعية

«يتبع»

محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية الأميرية

(١) أنظر الكتاب الآنف للأستاذ هورن

بالوصل ، تنظمون الأشعار في هذه الكارثة ، وتنشئون فيها الفصول ، تبكون وتستبكون ، ثم تنامون آمنين مطمئنين ، والنار من حولكم تأكل البلاد والعباد …

الشعر شعور ، فأى شعور وأى حس فيمن يرى أمة كريمة مجيدة بقضها وقضيضها ، ومفاخرها وتاريخها وحياتها وأمجادها تطرد من ديارها ، وتخرج من بيتها — وهى أمته ، وأفرادها إخوته — لتعطى مساكنها إلى أمة من أسقط الأمم : أمة ضربت عليها الذلة والمسكنة وباءت بغضب من الله ، وغضب من الناس والحق والفضيلة والتاريخ ، ويرى صدورها مفتحة للرصاص ، وشيوخها مسوقين إلى حبال المشانق ، وشبابها في شعاف الجبال وبطون الأودية يدفعون الظلم بالدم ، وأطفالها ونساءها بين لصين: لص ديار ، ولص أعراض ، لص يحارب بالذهب ، ولص يقاتل بالبارود — ثم لا يحس بهذا كله ، ولا يدرى به ، ولا يفكر فيه ، لماذا ؟ لأن الشاعر المسكين مصاب متألم … ماله ؟ ما مصابه ؟ إن حبيبته لم تعطه خدها ليقبله …

إن العاطفة إذا بلغت هذا المبلغ كانت جريمة .

***

وما دمنا في حديث الحب فلنوف الحديث حقه . إن لى تعريفاً قديماً للحب ، هو أنه المرقد (البنج) الذى وضعه الله لتمام عملية التناسل التى لا بد منها لبقاء النوع البشرى ، والتى لا يصبر الانسان على احتمال قذاراتها وآلامها لولا هذا المخدر ، فأول الحب إذن ووسطه وآخره الاجتماع الجنسى والسلام ، أما الحب العذرى الافلاطونى المفيف فليس إلا إحدى الأكاذيب الجميلة ، التى لا يصدق بها عاقل . من أجل ذلك يشك العقلاء فى عفاف المرأة المحبوبة ، وينظر المسلمون إلى الحب نظر الريبة … إنى لألحظ فى وجوهكم معنى الاستنكار والاعتراض ، وأرى فيها بوادر الثورة … لا يا سادتى … أنا لا أنتقد الحب ، ولا أشك فى جماله ، ولكن أسألكم وأرجو أن تجيبونى بإنصاف : من هو الذى يسمح لى فيكم أن أحب زوجته أو أخته ؟ لا تغضبوا يا سادتى … فما أردت إلا التمثيل فجاء المثل غليظاً نابياً ، وإنى ليسرنى أن تستهجنوه ، لأن هذا دليل على أنكم للحقيقة أشد استهجاناً …

فلنعلن إذن أن هذا الحب المعروف اليوم ، مما يأباه الاسلام ويتنافى مع المثل الأعلى للشاب المسلم ، ولكن ما ذا يصنع الشباب ؟

الجواب : يتزوجون …

نعم يتزوجون . إن حياة العزب حياة خطرة على نفسه وعلى المجتمع . إنه صندوق ديناميت يوشك أن ينفجر فى كل لحظة فيدمر سعادة أسرة من الأسر ، وينقض دعامة من دعائم الوطن . إن حياة العزب حياة فارغة من كل شىء لأنها فارغة من الزوجة ولو امتلأت بكثير من النساء (غير الزوجات) . إن أفكار العزب مهما اختلفت مناحيها وتعددت متوجهة إلى وجهة واحدة ، تسعى إليها بشدة وعنف كما تسعى السيول من كل جهة إلى قعر الوادى ، إنه لا يجتمع عزبان إلا نظما مؤامرة على الأخلاق والعفاف لست أبالغ … أنا أيضاً شاب عزب ! ولكنى كسائر العزاب لا أحمل ذرة من اللوم ، وليس علىّ شىء من الذنب . الذنب عليكم أيها الآباء . إنكم تبيعون بناتكم . إنكم تصاهرون المال والجاه والأرستقراطية الزائفة ، إن حفلات العرس وحدها تخرب بيتى العروسين … فما قولكم فى المهر والأثاث ؟ وما قولكم فى شاب مثلى فى رأسه شىء ، وليس فى جيبه شىء من مال ؟ كيف يتزوج ؟

لا أحب يا سادتى أن أكون منحطاً إلى هذه الدركة من الاستئثار و (الأنانية) فأستغل اجتماعكم لسماع محاضرتى لأعلن عن نفسى ، وأعرضها خاطباً مستجدياً … ولكنى أحبّ أن تفكروا فى هذا الأمر تفكيراً جدياً . إننا قد شبعنا من الخطب ومللنا من المقالات ، فهل فيكم أب مسلم له بنات يكون قدوة طيبة للآباء المسلمين الطيبين ، فيفتش عن شاب صالح جاد فيزوجه بما يستطيع من المهر والنفقات : بخمسين ليرة سورية (١) بثلاثين لم لا ؟ أهى تجارة ؟ أتريد زوجاً لبنتك صالحاً تسعد به ويسعد بها ، وينشئان أسرة شريفة مستورة سعيدة أم تريد ذهباً تبيع به ابنتك ؟

هذا دواء هذا المرض العضال . هذا حل المشكلة . فاذا لم تحلوها اليوم لا تنحل أبداً ، إذا لم تداووا المرض اليوم يموت المريض …

فيا وجهاء هذا البلد ، الوجاهة بالعمل النافع ، وبالتقوى والاصلاح ، لا بالمال ولا بالفخفخة الفارغة ، ولا بالعظمة الجوفاء ولا بالمراتب العالية ، فاعملوا أو فتنحوا عن أماكنكم لمن يعمل !

***

(١) الليرة السورية ٢٠ فرنكا فرنسياً — أى نحو ١٣ قرشاً مصرياً

وإن من الحماقة التى ليس وراءها حماقة أن تبنى الأسرة الثابتة على عاطفة متبدلة متحولة . من الحماقة أن يبنى الزواج على الحب . منذَ الذى يبنى داره على كِثب من الملح فى طريق السيل ؟ الحب فراشة حلوة ، فيها أجمل الألوان ولكنها لا تعيش إلا يوماً واحداً . الحب زهرة فوّاحة ليس لها في الروض مثيل ، ولكنها تذبل عند أول لمسة . من رأيي فى الحب أنه لا يكون إلا إذا كان أمل ، وكان مع الأمل حرمان ، كالكهرباء لا تضيء المصباح إذا التقى فيها القطبان المختلفان . أنت تحب المرأة لأنك لا تقدر عليها ، فتسبغ عليها من خيالك ثوباً تراها فيه أجمل الناس ، فإذا قدرت عليها ، وخلعت هذا الثوب عنها ، عادت امرأة كسائر النساء . أنظروا إلى الزوجين الحبيبين فى شهر العسل ، وقد ذهبا يسيحان ينعمان بالخلوة الحلوة ، فى أجمل البقاع ، أو أكبر المدن ، تحسبوا أن السعادة قد جمعت لهما من أطرافها ، ولكن اقتربوا منهما تروا أنها لا تمر إلا أيام حتى لا يجدا ما يتحدثان به ، إلا حديث الأيام الأولى ، يوم كان أمل وكان حرمان ، ثم تمضى الليالى ، وتبلى جدّة هذا الحديث ، فلا يبقى بينهما كلام ...

وماذا فى لغة الحب ، غير (أحبّكِ) و (أحبّكَ) رددها مائة مرة فإنكم تنامون ...

فلنعلن إذاً أن بناء الزواج على الحب وحده لا يرضاه الإسلام ، لأنه لا يرضاه العقل ... فهل نعود إذن إلى طريقتنا الأولى : تخطب لى عمتى أو خالتى ، وتنتقى لى الزوجة على رأيها ، وأنزل أنا على حكمها ، وأعلق مستقبلى بها ، وأمضى العقد وأمشى إلى حفلة العرس ، وأنا لا أعرف ما لون عين العروس وما شكل أنفها ؟

هذه طريقة سقيمة عقيمة ... فماذا نصنع إذن ؟ ما هى الطريقة المثلى ؟ هى يا سادتى طريقة الإسلام . إن الإسلام منح الخاطب (بعد أن يتم الرضا عنه ، ويرجح جانب قبوله صهراً) أن يرى وجه المرأة وكفيها ، أن يجلس معها (بحضور وليها) ... هذه هى سنة الدين ، ولكن الآباء جاهلون ، يأبون أن يرى الخاطب الصالح وجه الفتاة ، ثم يخرجونها إلى الأسواق ، متبرجة متهتكة ، يرى أكثر من وجهها وكفيها الفاسق والخبيث ، وكل من كان فى الطريق ، حتى الحمار !

إننا تركنا قواعد الإسلام ، فتركنا الفلاح والنجاح

« البقية فى العدد القادم »

على الطنطاوى
المدرس فى كلية بيروت الشرعية



فكرة الضحية وإهراق الدم للمعبود لم تزل باقية إلى اليوم . فالوثنية قد خلفت تقاليد لم يكن محوها من اليسير . إن ذبح الخروف فى العيد الكبير إن هو إلا ظل باهت لتلك العهود التى كان يُدفع فيها الآدمى للذبح عند أقدام الهيا كل . ولكن الزمن غير الشكل ولم يغير المبدأ . إن الانسانية فى تطورها لا تمحو شيئاً غرس فى طبيعة الانسان من قديم ... ولكنها تبدل فى لونه وطلائه ، وتعدل فى ملامحه وتكسوه ثياباً أخرى ، وتسميه اسماً جديداً يتفق مع روح العصر الجديد . فالانسان لا يتغير . إنما يتطور . ولم يغب ذلك عن حكمة الأديان . فهى فى تعاقبها لم تنسخ كل ما رسخ من عقائد الانسان . ولكنها أخذت أكثر هذه العقائد بالرفق ، فهذبت من وسائلها وغاياتها . فالضحية الآدمية جعلتها ضحية من الحيوان ؛ والغاية منها ، وقد كانت إرضاء المعبود وحده ، حولتها إلى إرضاء الله بإرضاء الفقير فى يوم العيد

هنالك شيء ينبغى أن نتدبره إذا أردنا إحداث انقلاب فى حياة البشر . الحذر كل الحذر من أن نقتلع شيئاً من جذوره ، فإن ما نبت فى قلب البشرية لا يقتلع . إنما نحن نستطيع دائماً أن نهذب ذلك الغرس وأن نميل به إلى حيث تريد ريحنا . وأن نبدل بما نشتهى ألوان أزهاره وثماره ، وأن نولد منه أقوى الأشجار ... وهكذا نخرج للحياة مما كان وعلى أساس ما كان ، ذلك الذى يقول فيه الناس إن عين الشمس لم تره . آه ! ما أصدق تلك الكلمة : لا جديد تحت الشمس . نعم . إن يد « الطبيعة » لا تبرز جديداً ولا تميت قديماً ، ولا تمحو من الوجود ، ولكنها تعدل وتبدل فى الموجود . فلنتذكر دائماً أن لا شىء ينعدم فى الطبيعة . وليست «المادة» وحدها هى التى لا تنعدم ، كما يقول الكيمائيون . كل شىء لا ينعدم في هذا الوجود . إن الطبيعة لا تعرف كلمة «العدم» ولكنها تعرف كلمة « التحول »

ذلك أسلوب الخالق الأزلى

توفيق الحكيم

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢٤ —

« ... إنه ليتفق لهذا الكاتب من أساليب البيان ما لا يتفق مثله لكاتب من كتاب العربية فى صدر أيامها ! »

عباس محمود العقاد

الرافعى والعقاد

ذلك كان رأى العقاد فى الرافعى قبل بضع عشرة سنة من هذه الخصومة التي أروى خبرها . وشتان بين هذا الرأى يبديه العقاد سنة ١٩١٧ فى مقال ينشره ليعرِّف بكتاب من كتب الرافعى أنشأه في ذلك العهد ، وبين رأيه الأخير فى الهذار الأصم مصطفى صادق الرافعى كما يسمه فى سنة ١٩٣٣ !

إن هذه الخصومة العنيفة بين الرافعى والعقاد قد تجاوزت ميدانها الذى بدأت فيه ، ومحورها الذى كانت تدور عليه ، إلى ميادين أخرى جعلتْ كلاًّ من الأديبين الكبيرين ينسى مكانه ويغفل أدبه ليلغ فى عرض صاحبه ويأكل لحمه من غير أن يتذمم أو يرى فى ذلك معابة عليه . وكان البادئْ بإعلان هذه الحرب هو الرافعى فى مقالاته على السفود ...

هم ثلاثة أو أربعة من كتاب العربية فى الجيل الحديث كانت لهم هذه الحلة المرذولة فى النقد وفى أساليب الجدل . هذان اثنان منهم وكان للرافعى مع كل واحد من الاثنين الآخرين معركة . على أن أشد هذه المعارك عنفاً وأبعدها عن حدود الأدب اللائق هى المعركة بينه وبين العقاد ! .

وكان بدء هذه المعركة كما قدمت حديثاً خاصاً بين الرافعى والعقاد فى دار المقتطف ، حول حقيقة إعجاز القرآن ، وكتاب إعجاز القرآن . وكان للعقاد فيهما رأي غير رأى الرافعى ، فكانت غضبة الرافعى الأولى لكرامة القرآن والعقادُ ينكر إعجازه ؛ ولكتابه والعقادُ يجحد فضله ؛ ثم كانت الغضبة الثانية للتهمة التى رماه بها العقاد حين جبهه بأنه افترى كتاب سعد ونحَلَه إياه فى تقريظ إعجاز القرآن ليروج عند الشعب ...

فثمة سبب عام أنشأ هذه الخصومة ، هو إيمان الرافعى بإعجاز القرآن إيماناً لا يتناوله الشك ؛ وسببان خاصان : هما رأى العقاد فى كتاب الرافعي ، ثم تهمته له بأنه مفتر كذاب ... !

تُرى أى هذه الأسباب الثلاثة هو الذى أثار الرافعي فدفعه إلى الخروج عن الوقار والأدب الواجب فيما أنشأ من مقالات «على السفود» ...؟ الرافعى يقول : إنها غضبة لله وللقرآن ، وللتاريخ رأى آخر سيقوله فيما بعد ، لست أدرى أيفارق الرأى الأول أو يلتقى وإياه على سواء ... !

ولكن كتاب على السفود مع ذلك لا يتناول مسألة المسائل فى هذا الخلاف ؛ فلا يتحدث إلا عن شعر العقاد وديوان العقاد ؛ ثم عن أشياء خاصة تعترض فى فضول القول وحشو الكلام ؛ فأين هذا مما دارت عليه المعركة من أسباب الخصام ... ؟ الرافعى يقول : هذا أسلوب من الردّ قصدتُ به الكشف عن زيف هذا الأديب والزراية بأدبه ؛ حتى إذا تقررت منزلته الحقيقية فى الأدب عند قراء العربية ، لا تَراهم يستمعون لرأيه عند ما يهم بالحديث عن إعجاز القرآن . وهل يحسن الحديث عن إعجاز القرآن من لا يستقيم منطق العربية فى فكره ، ولا يستقيم بيانها على لسانه؟... هكذا يقول الرافعي ! ...

ومن ثم بدأت المعركة على أعين القراء ...

* * *

يقول الأستاذ إسماعيل مظهر فى مقدمته لكتاب « على السفود » :

« ... أردنا بنشر السفود أن نرضى من أنفسنا نزعتها إلى تحرير النقد من عبادة الأشخاص ، ذلك الداء المستعصى الذى كان سبباً فى تأخر الشرق عن لحاق الأمم الأخرى ...

« ... ونقدم بهذه المقدمة تعريفاً لما قصدنا من إذاعة هذه المقالات الانتقادية التى أعتقد بأنه لم يُنسج على منوالها فى الأدب حتى الآن !

« وعسى أن يكون السفود (مدرسةَ) تهذيب لمن أخذتهم

كبرياء الوهم ، ومثالاً يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاصَ ووثنية الصحافة ! »

أما أن تكون هذه المقالات الانتقادية لم يُنسج على منوالها فى الأدب الحديث فَنَـعَم ، وأما أن تكون مدرسةً للتهذيب ومثالاً يحتذيه النَّـقَدةُ فلا ... فليس بنا من حاجة إلى أن يحتذى النقدةُ هـذا المثال فى أسلوب النقد والجدل فيزيدوا عيباً فاحشاً إلى عيوب النقد فى العربية

والحق الذى أعتقده أن فى هذا الكتاب — على ما فيه — نموذجاً فى النقد يدل على نفاذ الفكر ودقة النظر وسعة الإحاطة وقوة البصر بالعربية وأساليبها . ولكن فيه مع ذلك شيئاً خليقاً بأن يطمس كل ما فيه من معالم الجمال فلا يبدو منه إلا أَدَمُّ الصور وأقبح الألوان ، بما فيه من هُجْر القول ومر الهجاء ؛ ولئن كان هذا مذهباً معروفاً فى النقد للرافعى وخصمه واثنين آخرين من كتاب العربية فى هذا الجيل — إننا لنريد للناقدين فى العربية أن يكونوا أصحَّ أدباً وأعفَّ لساناً من ذاك ... !

ذلك رأى قلته للرافعي — يرحمه الله — فما أنكره علىّ ولا اعتذر منه ؛ فما يمنعنى اليوم شيء أن أعلنه صريحاً إلى الأدباء . ولقـد همّ الرافعى منذ سنوات ثلاث أن يجمع كل ما كتب فى النقد بعد كتاب (المعركة) فى كتاب واحد ؛ فأبديت له الرأى أن يضم إلى هذا المجموع مقالات (على السفود) بعد أن يجردها مما يعيبها حرصاً على ما فيها من الفن ؛ فارتاح لهذا الرأى واطمأن إليه ، ولـكنه لم يفعل ، إذ حالت الحوائل دون تنفيذ فـكرته

وإنها لخسارة أن ترى التمثال الفنى البديع مغموراً فى الوحل فلا تصل إليه إلا أن تخوض له الحمأة المنتنة وهيهات أن تُقبل عليها النفس ؛ وإنها لخسارة على العربية أن ترى هذا الفن البديع فى النقد يتكنفه هذا الـكلام النازل من هجر القول ومر الهجاء

ولقد كان الرافعي نفسه يعترف بأن فى الـكتاب ما لم يكن ينبغي أن يقول ، وبأن خصمه بما قال فيه كان يملك أن يسوقه إلى المحاكمة ؛ ولـكن الرافعي مع ذلك كان مطمئناً إلى شيء آخر ...

قال الرافعي : « ... قال لى قائل : لقد قلت فى العقاد ما كان حرياً أن يقفه وإياك أمام القضاء ! ... ولـكنى يا بنى كنت على يقين بأن العقاد لن يفعلها ؛ إننى كنت أهاجم العقاد بمثل أسلوبه فى النقد ، وإن مى لورقات بخطه لا يسره أن أجعلها دفاعى أمام المحكمة فيخسر أكثر مما يربح . ولقد قرأت من هذه الورقات على مستشار كبير فأيقن بما أنا موقن وحكمَ لى بحكمه ... ! »

ذلك حديث الرافعى ... فهل كان هذا حَسْبَه من العذر فيما كتب ؟

على أن كثيراً من قراء على السفود لم يعرفوا كاتبه إلا بعد سنين ؛ وكان فى هذا خير للرافعى ولسمعته الأدبية ولمكانه من نفوس القراء ؛ إذ كان العقاد يومئذ هو كاتب الوفد الأول ، والوفدُ هو الأمة كلها ، قراءها وعامتها وشيوخها وشبابها ؛ فكان العقاد بذلك هو عند الشعب إمام الـكتاب وأمير الشعراء ، لا يعاديه إلا خارج على الأمة أو مارقٌ من الوطنية ، ولو كانت عداوته فى مسألة أدبية لا تتصل بالسياسة ، ولو كانت مناقشته حول إعجاز القرآن ... !

***

ثم كانت هُدْنةٌ بين الرافعى والعقاد ، صمت فيها الخصمان طويلا وكل منهما يتربص بخصمه ليضربه الضربة القاضية ، فلما مات المرحوم شوقي بك فى خريف سنة ١٩٣٢ ، انتهز العقاد نُهزة ليبدأ مع خصمه معركة جديدة لم تكن هى آخر العراك بينهما

« شبرا » محمد سعيد العريان

أبو إسحاق الصابي

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

— ٤ —

كان العصر الذي نشأ فيه أبو إسحاق الصابى عصراً زاخراً بالكتاب النابغين والشعراء المجيدين ممن خلفوا للغة ثروة ثمينة خالدة ، وتركوا فى الأدب روحاً فريدة صافية ؛ إذ لم يعدُ الخيال وقفاً على الشعر ، بل تعداه إلى الكتابة والنثر ، فضرب الكتاب به فى ضروب متنوعة لم تعهدها العربية ، وساروا به فى دروب متشعبة لم يألفها من قبلهم ، وإن أغرم بها وسار على نمطها من جاء بعدهم . ولعلّ من أعظم البواعث على رقى النثر والشعر فى هذا العصر ذلك الاضطراب الذى انتظم جميع شئون الدولة ؛ فهناك اضطراب دينى يدفع إلى الجدل والمناقحة ، والنقد والمدافعة ؛ واضطراب سياسى ، يسوق إلى المؤازرة والمعاضدة ، والمنافسة والمعارضة ، فكان ذلك الجو المضطرب جو صفاء للغة وآدابها ، وهذا العصر المكهرب عصر ازدهار للنثر والشعر على السواء ، فاتسع أمام هؤلاء وهؤلاء أفق الابتكار ، ولمع مجال الابتداع ، وأوحى إليهم ذلك المعترك المنطق الخلاب ، والخيال الصافى والبيان الرائع والنسج الساحر ، فجاء نتاجهم عصارة أذهانهم ، وذوب أفكارهم ، وصفوة قرائحهم ؛ تعمقاً فى إبراز فكرهم واضحة جلية ، وتعملاً فى تنسيق آرائهم ناصعة صفية ؛ لتبدو للقارئ مصقولة مستساغة يرضاها عقله البرىء ؛ إذ لا يعتورها وهن ولا التواء ، ولا يكتنفها غموض أو إبهام ، وكثيراً ما كانت تدفعهم أحداث السياسة ودفع ما قد ينتظرهم من كوارث ، وخوف ما ربما استقبلهم من حوادث ، فيما لو تغير مجرى الأمور إلى الكتابة اللولبية ، لا تكاد تتبين مرماها ، ولا تعرف مأتاها أو مؤداها ، إمعاناً فى الإيهام ، وإيغالاً فى الإبهام . وناهيك بعصر نامت فيه السكينة وصحت الفتنة ، وأشرقت الأسارير ، وأظلمت السرائر ؛ فملوكه متنافسون ، وأمراؤه متنازون ، وقواده متحفزون ، لا يخشى أحد هؤلاء قربى ، ولا يأبه لزلفى ، كلما جمعتهم جامعة فرقتهم شيعاً مآربُ ، وإذا ألف بينهم حلف نقضته دوافع ، وأولئك جميعاً يريدون الأدب للسياسة فرساً ذلولا يركضون متنه وسيفاً مسلولاً يشهرونه على ضنهم ، والويل أى ويل لمن تخلف عن الطاعة أو نكص دون تنفيذ الإرادة ، إنه إذن لمن المنبوذين المبغضين ، ينتظره الحيف ويترصد له الظلم كل مرصد . ومن هنا كان البطش يعض الكتاب والشعراء سنة مسنونة ، فمن أمن اليوم فهو قليل الأمن والدعة غداً ، ومن سعد فترات ترقبه النحس سنوات

ومن كتاب ذلك العصر الذى أسلفت وصفه الرئيس ابن العميد ، والوزير ابن عباد ، والكاتب أبوبكر الخوارزمي ؛ ومن شعرائه أبو فراس الحمدانى ، وأبو الطيب المتنبى ، والشريف الرضى . ولقد كان الصابئُ مع معاصرته لأولئك الأفذاذ الذين قلما يجود الدهر بأمثالهم ، أو يسمح بمن يجرى على غرارهم جلة — مرموق الأثر ، موموق الخبر ؛ يجرى اسمه على الألسنة فى مراتع اللهو والأنس ، أو مهامه اليأس والبؤس ، وتتناقل أنباءه الأندية إن أصابته غبطة ونماء ، أو مسته مخمصة وضراء ، وتعمر به المحافل والمجالس متى صفرت منه المعاقل والمحابس ، وهكذا دواليك يظهره تاريخه حركة دائبة ، لا تقفها نعمى تركن بها الدعة ، ولا تفدحها بؤسى ، فتستسلم للشدة ، فهو كادح فى الحالين ، وأداة عاملة لا يعطل محركاتها ميسرة أو معسرة . ولكأنى به يشحذه طول الضراب ، ويستثير شعوره أمل الثواب ، ويستحيي وجدانه توقع العقاب ، فيأتى بما يلذ السامع سمعه ، ويعجب القارئُ وقعه ، وسيبرز هذا الوصف واضحاً جلياً ما سأقدمه بين يدى الكتاب من كتاباته ، وما أعرضه على الشعراء من فرائد أبياته ، فسترى أن أروع نثره وأقواه ما جاء فى الشكوى ؛ وأرق شعره وأرقاه ما جرى فى العتبى ، ولقد عرف له فضله حامدوه وحاسدوه ، ونفس عليه أدبه شاكروه وكافروه ، وحسبه ذلك فخراً

نعم إن الصابى كان في الشكوى والاستماح ، والنصح والاستنصاح قوى الصوغ والنسج رائع التصوير والخيال بارع المنطق والبرهان ، لا تعوزه الحجة ، ولا تنأى دون غرضه المحجة . وإذا كان « خير الأدب ما انبعث عن عاطفة صحيحة لا مريضة » فشكوى الاعتقال وذم الحبس يصدران عن عاطفة صحيحة قوية لا سقيمة ضعيفة ؛ ودعك من حبس الجسم والحد من حريته ،

فذلك أهون خطبه وأيسر أمره ، وإنما مس الشكاة تصدر عن سجين العقل معتقل الفكر مرهف الحس ، فذلك إذ ينثر أو يشعر يعبر تعبيراً قوياً جياشاً يستثير به العواطف الكامنة ، ويستجيش المشاعر الهامدة ، ليبعث فيها عواطف ثائرة للعطف عليه ولتستحيل المشاعر الخامدة مشاعر مشتعلة للبر به ، ومن يطالب مثل ذلك بالصبر والسلوى والسكون إلى البلوى وعدم الشكوى ، أو يعتبر إعلان ألمه خوراً في أدبه ، أو استظهار الناس إلى معونته ضعفاً في خلقه ، متطلب في النار جذوة نار ، أو هو كما قيل :

ومن البلية أن يسام أخو الأسى رعىَ التجلد ، وهو غير جماد

ولو أن أبا اسحاق كان في سياسته كما كان في ديانته ، يكتب عن إيمان ، ويصدر عن عقيدة (مهما كانت حقيقتهما) لنجا بعض النجو من كثير مما أمضه ، ولكنه كما روى الثعالبي كان يكتب كما يؤمر ، وكان كالمركب السهل يوجهه راكبه حيثما شاء ، فهو يتحدث بما يمليه عليه ربه ، ويعبر عن أفكار مولاه ، ومع هذا فانه يأتي بالمعجب ، فكيف به إذ يكتب عن عاطفة أو يشعر عن حافزة ؟ إنه ليجمع بين اللفظ الرشيق والمعنى العميق ، ومن ذلك الذي يبلغ به فنه الجمع بين لغة الألفاظ ولغة العواطف إلا الكاتب المالك عنان قلمه ؟ (لأن[1] الألفاظ « كما يقول الأستاذ أحمد أمين » لم توضع لنقل العواطف ، وإنما وضعت لنقل المعاني ، والألفاظ أعجز ما تكون عن نقل عاطفة الأديب إلى القارىء ، فكيف أنقل إعجابي بالطبيعة ، أو أنقل حباً ملأ جوانحي أو غضباً استفزني ، أو رحمة ملكت مشاعري ! لم توضع الألفاظ لشيء من ذلك ، وإنما وضعت لنقل مقدمات ونتائج منطقية ، ولكن ما حيلتنا وقد خلقنا عاجزين لم نمنح لغة العواطف ، ولا بد لنا من التعبير عنها ونقلها إلى قارئنا وسامعنا ، لذلك استخدمنا لغة العقل مرغمين ، وأردنا أن نكمل هذا العجز بضروب من الفن كموسيقى الشعر من وزن وقافية ، وكالسجع وكل ضروب البديع ، وليس القصد منها إلا أن نكمل نقص الألفاظ في أداء العواطف) إذا كان ذلك الرأي صحيحاً ولا إخاله غير ذلك ، فقد بلغ الصابي أفقاً لم يبلغه كاتب سواه

ويجدر بنا إذ نتحدث عن نثر الصابي أن نقسمه أقساماً ثلاثة : النثر الديواني ، والاخواني ، والنثر العام غير المقيد بأحد هذين الوصفين

فأما كتابته الديوانيــة فكان يصورها باللون الذي يريده عليه سيده ويرسمها بالريشة التي يهبها له ، فتارة تبرز سافرة واضحة هينة لينة ، ناصعة الكلمات رقيقة الفقرات رفيقــة اللمزات والغمزات ، تبعث في نفس قارئها الرضا إن كان غاضباً ، وتوليه العتبي إن كان عاتباً ، والسكون إن كان عاصفاً ، وربما لمحت في ثناياها الحكمة العابرة ، والأمثال السائرة . فمن ذلك قوله يؤلف بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة على لسان أولهما :

« والله العالم أني مع ما عودنيه الله من الاظهار ، وأوجدنيه من الاستظهار ، ومنحنيه من شرف المكان ، وظل السلطان ، وكثرة الأعوان — لأجزع في مناضلة عضد الدولة من أن أصيب الغرض منه ، كما أجزع من أن يصيب الغرض مني ، وأكره أن أظفر به ، كما أكره أن يظفر بي ، وأشفق من أن أطرف عيني بيدي ، وأعض لحمي بناني »

وأحسبه خشي أن يدور بخلد أحد أن عز الدولة يتهافت على مرضاة قرنه أو أنه يرهب مصاولته وضغنه ، فبدأ الكتاب بأسلوب القوي الصارم ، واستهله بلهجة الغالب الظافر ، فذكر العز والمنعة ، والقوى والمنة ، والملك والسلطان ، والجند والأعوان وتأييد الله له ، والتفاف الأمة حوله ، ثم ثنى بالغرض الذي اليه أراد ، وهي فطنة وذكانة في جزالة ورصانة . ومن ذلك قوله أيضاً وفيه حكمة ومواعظ ، وتبصرة وذكرى ، وإن أنكر عليه الحكمة إلا قليلاً الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني حيث يقول : « وقد تصفحنا رسائله غير مرة لنرى أثر الحكمة فيها فوجدناه ضئيلاً » :

« إن انتثار النظام إذا بدا — والمعاذ بالله تعالى — لم يقف عند الحد الذي يقدر فلان أن يقف عنده ، ولم يخصص الجانب الذي يظن أنه يلحقه وحده ، بل يدب دبيب النار في الهشيم ، ويسري كما يسري النغل في الأديم ؛ وكثيراً ما تعدى الصحاح مبارك الجرب ، ويتخطى الأذى إلى المرتقى الصعب »

وتارة يشاء الموحي إليه صرامة وحزماً ، فتقرأ له كتباً أقوى من كاتبها منة ، وأرصن من منشئها قوة ، تخالها إذ تقرؤها لرجل مارس الحروب ، وخفقت فوق رأسه الألوية والبنود ، وسبح

(١) الرسالة . السنة الأولى العدد الحادي عشر

فوق متون الجياد ، وأوتى قوة وعزمة فى القياد والجلاد ؛ فهو يتقمص روح مليكه ، أو يستعيره قلبه الفتى عند ما يهم بكتابة رسالة من هذا النوع . وكأنى به يعصر فكره ، ويقدح ذهنه ، ويكد عقله ، ليأتى بالمعانى الشاردة تتصدع لها القلوب ، والألفاظ الصادعة تصك الآذان ؛ فكل كلة من كلماته وعيد ونذر ، وكل فقراته نار يتطاير منها الشرر ؛ وقد يخلطها أحياناً بالسخرية اللاذعة ، والتهكم الساخر والهزء الممض ، دون إفحاش فى ذلك أو بذاءة . فمن ذلك ما كتبه على لسان عز الدولة إلى سبكتكين الغزنى :

« ليت شعرى بأى قدم تواقفنا ، ورايانا خافقة فوق رأسك ، ومماليكنا عن يمينك وشمالك ، وخيولنا موسومة بأسمائنا تحتك ، وثيابنا المنسوجة فى طرزنا على جسدك ، وسلاحنا المشحوذ على أعدائنا فى يدك » . ويقول له أيضاً :

« تناولتك الألسنة العاذلة ، وتناقلت حديثك الأندية الحافلة ، وقلدت نفسك عاراً لا يرحضه الاعتذار ، ولا يعفيه الليل والنهار » . وتحدث عنه فقال :

« هو أرق ديناً وأمانة ، وأخفض قدراً ومكانة ، وأتم ذلاً ومهانة ، وأظهر عجزاً وزمانة من أن تستقل به قدم مطاولتنا ، أو تطمئن له ضلوع على منابذتنا ، وهو فى نشوزه عنا وطلبنا إياه كالضالة المنشودة ، وفيما نرجوه من الظفر به كالظلامة المردودة »

ومن هذا الطرز قوله أيضاً :

« ولما بَعُد صيته بعد الخمول ، وطلع سعده بعد الأفول ، وجمت عنده الأموال ، ووطئت عقبه الرجال ، وتضرمت بحسده جوانب الأكفاء ، وتقطعت لمنافسته أنفاس النظراء ، نزت به بطنته فأدركته شقوته ، ونزع به شيطانه ، وامتدت فى الغى أشطانه »

وإنا لنجد فى كتبه ورسائله محاولة قد تكون ناجحة فى هدم الرجال وتخضيد شوكتهم وتعضيد قوتهم ، تلك هى التهوين من شأنهم والحط من قيمهم ، فيصمهم بوصمة الذل ، ويسمهم بسمة الرق ؛ وذلك أحز في النفس ، وأعلق بالذهن ، وأجرى على الألسن ؛ وربما كان حديث تنادر ، وطرف فكاهة . وهو يلم بالموضوع الذى يتناوله ، فلا يترك فيه فرجة إلا سدها ، ولا كوة إلا رقعها ، وربما استخدم فى سبيل ذلك الطب الذى تعلمه فى يفعه استخداماً نافعاً ؛ فقد عهد الخليفة إلى عالم بالقضاء فكتب إليه يوصيه ، فكانت وصاته خليطاً من حكمة الأطباء ، وطب الحكماء ، فذكره بأن البطنة شر الأدواء ، ونبهه على أنها تذهب الفطنة ، ثم بصره عواقب البطر ، وخوفه آثار الشره ، وأنهما يفسدان عليه أمره ، ويحطان من قدره ، وإليك كتابه :

« وأمره أن يجلس للخصوم وقد نال من المطعم والمشرب طرفاً يقف به عند أول حده من الكفاية ، ولا يبلغ منه إلى آخر النهاية ، وأن يعرض نفسه على أسباب الحاجة كلها ، وعوارض البشرية بأسرها ، لئلا يلم به من ذلك ملم ، ويطيف به طائف ، فيحيلانه عن رشده ، ويحولان بينه وبين سداده »

وهذه فقرات من رسالة يصف فيها حرباً نشبت بين المسلمين والروم ، وكانت الغلبة للمسلمين ، يصور فيها الحرب وقد حمى وطيسها ، واشتعل أوارها ، فتتخيل إذ تقرؤها أنه أحد قوادها وبطل من أبطالها ؛ فإنه ليبعث النخوة فى النفوس ، ويثير الحمية فى الرؤوس ، فكأنه يشرع الأسنة لا اليراع ، ويشهر الرماح لا الأقلام ؛ وإن القارئ ليحسب أن كاتب الرسالة رجل من صفوة المسلمين ، وتقى من خلاصة المتقين ، لا صابئ من الكفار الجاحدين ، فهو يقول :

« فلما استعرت الملحمة ، وعلت الغمغمة ، ودارت رحى الحرب ، واستحر الطعن والضرب ، واشتجرت سمر الرماح ، وتصافحت بيض الصفاح ، تداعى الأولياء بشعار أمير المؤمنين المنصور ، وتنادى الكفار بالويل والثبور ، فنكصوا على أقدامهم مجدين فى الهزيمة ، واعتدوا الحشاشات لو سلمت لهم من أعظم الغنيمة ، واستلحمتهم السيوف ، واحتكمت فيهم الحتوف ، وأخذ المسلمون منهم الثار ، وعجل الله بأرواحهم إلى النار »

ورسائله الديوانية كثيرة ، فلقد خدم عدة ملوك ، وطال به العمر فاتصل بكثير من الولاة والأمراء . ولعل ما بين أيدينا من كتاباته فى هذا الباب قل من كثر ، فقلما يعني المؤرخون بمثل هذه الرسائل ، وإلا لكان له ولغيره ممن اتصلوا بالسلطان عن قرب أو بعد مجلدات يعيا بها العبء ، فلنجاوز هذا الضرب من النثر ، فقد عرضنا منه ما فيه الغناء ؛ وسنتحدث مستقبلاً عن الضربين الآخرين إن شاء الله ، ولم تقف بنا دورة الفلك

عبد العظيم على قناوى

الترجمة

خطرها وأثرها فى الأمم المختلفة

للدكتور عبد العزيز عزت

١ – عند الرومان

تمر على الأمم فى تاريخها فترات تشعر خلالها بحاجة إلى رفع نفسها إلى مستوى من سبقها من الشعوب فى مضمار التقدم الفكرى ، فيحدث إبان ذلك نوع من الهجرة الثقافية فى أنواع المعارف المختلفة وخاصة فى مجال الفلسفة ، لأنها حتى منتصف القرن الثامن عشر ، أى قبل أن تأخذ فلسفة كانت شكلها الحاسم ، كانت تفهم بأنها مجموع العلوم الإنسانية . ومن الطرق التى تمهد لهذه الهجرة الثقافية : الحروب تارة كما حدث إبان الحروب الصليبية من اشتباك التفكير المسيحى والتفكير الإسلامى ، وتارة التجارة فهى بجوار ما تحمله من السلع تحمل على وجه خاص تفسيراً لها وشرحاً عقلياً . وأمر الفينيقيين Phéniciens معروف فى هذا الباب ؛ ومنها الرحلات وأهميتها ظاهرة عند أفلاطون وتأثره بالتفكير المصرى القديم كما يلاحظ ذلك عنده فى مقدمة كتابه « طيماوس » Timée ، وكذلك عند ابن خلدون فى « مقدمته » ؛ ومنها البعثات العلمية فى خارج البلاد كبعثات فرنسا فى ألمانيا ، فرافيسون Ravaisson يشيد بذكر أستاذه شلنج Schelling ، وأستاذنا بوجليه Bouglé يشيد بذكر اهرنج Ihring ؛ وكبعثات مصر فى فرنسا ، فهناك من ينطق باسم جوستاف لوبون G. Lebon ، وهناك من يبشر باسم ديكارت وغير ذلك . ولكن مهما يكن لهذه الطرق من الأهمية فى هجرة الثقافة ، فهى فى نظرى ناقصة لأنها لا تخلق إلا عرفاً ثقافياً . ومن أصول العرف عامة ألا يستقر على قرار متين ، لأنه يخضع لظاهرة التقليد فى المجتمعات البشرية كما يؤكد ذلك العلامة تارد Tarde فى كتابه « القوانين الاجتماعية » . لهذا لزم خلق قانون وضعى للثقافة يحدد شرعتها واتجاهها ويضمن لها الاستقرار والإنتاج خلال نزعة معينة ، وهذا لا يمكن تحقيقه إلا بالترجمة La traduction ، فهى الأساس الأول الذى عليه يبنى « التماسك » الفكرى فى عقلية الفرد ، والتماسك الفكرى فى عقلية المجتمع

وأهمية الترجمة تتلخص فى أربعة أفكار نجدها عند زعيم الأدب الفرنسى وأستاذه السابق بمدرسة المعلمين العليا بباريس العلامة لانسون Lanson فى « مجلة التاريخ الأدبى لفرنسا » عام ١٨٩٦

أولاً — تمهد الترجمة لخلق « فكرة عامة » عن الشعب المترجم عنه ، لأن الشعب المترجم إليه سيهتم فى ذلك الحين بتعرف تاريخه فى كل نواحيه ، وحالته السياسية والاجتماعية الراهنة ، وآدابه وفنونه ، وسائر أنواع نشاطه التى تكوّن حضارته فى مجموعها

ثانياً — الترجمة تحقق « الاستفادة المؤكدة » فى موضوعات معينة ، خلال تيارات محدودة للفكر ، إبان زمن معين للشعب المترجم عنه ، فهى استفادة مباشرة تفصيلية تشتق من مطالعة الكتب المترجمة ذاتها

ثالثاً — الترجمة تخلق موجة فكرية فتوجه الرأى فى الشعب المترجم إلى غايات معينة ، هذه الموجة هى موجة « تقليدية » فهى استفادة غير مباشرة ، وذلك بأن يأخذ كتاب الشعب المترجم إليه نفس موضوعات التراجم ولكنهم يعالجونها من وجهة نظرهم الخاص بهم فى بلادهم ، أى الاستمرار بالاستفادة المباشرة من قراءة التراجم لمعالجة موضوعات تحل بروح وطنية على ضوء ما تحتويه التراجم من علم جديد ، فهى تمهد الاستمرار الوطنى الأهلى « بالاستفادة المؤكدة »

رابعاً — بعد هذا ينتج عن الترجمة نوع من الانسجام بين عقلية المترجم عنه والمترجم إليه ، وهذا الانسجام هو تداخل عقليتهما ، وظهور نوع من التشابه فى ألوان تفكيرهما ، فيحصل ضرب من الاتحاد فى الذوق والتفكير والميول ، ويكتسب نشاط الاثنين نفس الشكل ، ويتجهان إلى نفس الغاية

لهذا عند ما أحس الرومان أنهم أهل حروب وسفك دماء يفرضون استعباد السيف باسم القانون والتشريع على الهادئين المطمئنين من خلق الله — ذهبوا إلى اليونان القدماء ينشدون أصول العقل ، واتزان الحس ، ومنطق الجمال ، ليقللوا من حدة طباعهم ، وتنافر غرائزهم ، ولينموا — قليلاً — بما للانسانية

من معان سامية ، وآيات قدسية ، وأهم من يمثل حركة الترجمة عندهم هو بلا شك ، شيشرون Ciceron ، ولقد حاول دراسة هذا الرجل كل من العلامة فان هوسدو Van Heusde ، والعلامة بومهور Baumhauer ، الأول يبحث عن أثر أفلاطون فى مؤلفاته والثانى عن أثر أرسطو فيها ، وذهبا إلى طريقة عقيمة فى ذلك تتلخص فى مقارنة النصوص وتشابه معانيها ، مع أن شيشرون أخذ العلم والفلسفة فى بلاد مختلفة وليس فى أثينا Athènes فقط مهبط المشائين من الفلاسفة ، فهو قد ساهم فى تأثره العقلى لمدارس فلسفية مختلفة ، فدرس بجوار ذلك على فدروس Phaedrus الأبيقورى ، وفيلون دى لاريس Philon de Larisse ومن ينتمى إلى تعاليم الأكاديمية الجديدة كأنطيوخس Antiochus ؛ ودرس على الخصوص على ديودوتس الرواقى Diodotus ومن ينتمى إلى هذه المدرسة كبسدونيس Posidonius ، ثم إنهما لم يرجعا إلى الصفات الأساسية التى تميز العقلية الرومانية وأخصها كما يذكر العلامة Thiancourx — الجمع — L'éclectisme ، فحقيقة نجد عنده أثراً لأفلاطون وأثراً لأرسطو وإنما كذلك « وقبل ذلك » هناك أثر الرواقيين والأكاديمية الجديدة ، فهى التى سادت تربيته عند ما رحل إلى بلاد اليونان ، وهى التى سادت كذلك فى كل مكان فى زمانه وقبل زمانه ، لأن حروب الاسكندر الأكبر عاقت انتشار مذاهب أفلاطون وأرسطو سواء فى المجتمع اليونانى أم المجتمع الرومانى — كما يؤكد العلامة جانيه Janet : فبعد هذه الحروب حدث كما يحدث عادة بعد انتهاء كل حرب من ضعف أخلاق لهبوط قيمة الحياة فى إفهام المحاربين والانغماس فى اللذات كنتيجة للانتصارات ، وكذلك ضياع الفهم السياسى وأهمية الفرد فى المجتمع ، وكذلك انعدام الروح الدينية والاهتمام بالنتائج المادية للغزو ، وهذا بطبيعة الحال يجني على التصور السامى لغايات النفس فى أمور الحياة . ولما كانت فلسفة أفلاطون كأساس فلسفة « طبيعية » تهتم بفهم عالمنا الخارجى على قياس عالم داخلى هو عالم الأفكار الخالدة ، ولما كانت فلسفة أرسطو Aristote كأساس فلسفة منطقية تبنى إقامة العلم والوصول إلى الحقيقة المجردة ، شعر اليونان بعد تلك الحروب بحاجة إلى فلسفة جديدة تسمو بنفوسهم إلى مستوى أرفع مما وصلوا إليه ، أى كانوا بحاجة ماسة إلى فلسفة أخلاقية ، لهذا سادت مباشرة تعاليم الرواقيين وظل أرسطو نسياً منسياً حتى القرن التاسع الميلادى حيث ولد من جديد عند العرب ، ومن جديد كذلك إبان القرن الثالث عشر الميلادى عند آباء الكنيسة فى أوروبا خاصة القديس البير الكبير Albertus huagnus ، والقديس توماس St Thomas فهذه هي الحوادث التاريخية الصريحة التي بدونها لا يمكن أن يفهم المنطق التاريخى للفلسفات فى جولاتها المتعاقبة

على أية حال لقد كان شيشرون « زنجياً أبيض » Un nègre blanc لأسياده اليونان القدماء فى تفكيره وهو يعترف بذلك فى نص صريح تمبنا فى استخلاصه من مؤلفاته حيث يقول فى الأتيكوس ad atticum, XII, S2 ما ترجمته : « إن مؤلفاتى لم أجد فى كتابتها عناء كبيراً ، لأنني بحثت فقط عن الاصطلاحات التى وفقت فى وضعها »

وفي واقع الأمر أن أغلب مؤلفات شيشرون إن لم تكن كلها عبارة عن « ترجمة حرفية » للكتب اليونانية القديمة ، بل أحياناً يعجز عن وضع الاصطلاحات لبعض التعابير اليونانية فيتركها على حالها دون نقل ، كما فعل بعد ذلك العرب في كلمة « ميتافيزيقا » و « إيساغوجى » ، فهو يترك مثلاً اللفظين اليونانيين لكلمتى الأفكار والمفريات عند ما يعرض للأخلاق العملية ، ونجد فى وضوح أثر أفلاطون ظاهراً فى نواميس شيشرون the lahibus ، وجمهوريته the Republica وفيهما يعرض فهمه للسياسة ، فهو يبني تحقيق دولة فيها تمتزج مبادئ الملكية والارستقراطية والديمقراطية فى آن واحد ، حتى يستقيم ظل الحكم وتسود الطمأنينة بين عباد الله ، لأن الحكومات القائمة فى عهده يعتبرها صورية تتخذ من الحكم سبيلاً لفرض السيف على رقاب الناس ووضع الحبل فى أعناقهم باسم الحرية تارة وباسم الصالح العام تارة أخرى . وأثر أرسطو على الخصوص فى التوسكيلان Tusculanes وفي هورتنيوس Horten Sius حيث يعرض فى الأول للنفس الإنسانية فى أصلها وطبيعتها وقدرتها فى التصور وأنواع ملكاتها المختلفة ، وخاصة الشهوات والانفعالات النفسية فى كل نواحيها بدقة تفوق الوصف ؛ وفى الثاني يعرض للأسباب التى دعته لدراسة الفلسفة وأهمية أرسطو فى هذا الباب

« البقية فى العدد القادم »

عبد العزيز عزت
خريج جامعات القاهرة ، وباريس ، وكليرمون
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ١ —

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم



ما أحوج بنى الانسان كلما قطعوا شوطاً فى طريق هذه الحياة ، أن يديروا وجوههم لحظة عن الأفق الذى يستقبلون ، وأن يرجعوا إلى ما استدبروا من آفاق متطلعين إلى تلك النجوم الزواهر التى تلتمع على جوانبها ، والتى ستبقى هناك ساطعة باهرة ما دار الفلك وما تصرمت السنون

أجل ، ما أحوج الانسانية أن تهتدى فى سبيلها بهدى الذين رسموا لها ذلك السبيل ؛ وما أحرى قافلتها كلما آدها العبء ، أو أعياها السير ، أو اعترضتها العقبات ، أن تستأنس بقبس من تاريخ أولئك البواسل الأبرار الذين تتألف من سيرهم مجتمعة سيرة البشرية فى هذا الوجود

وها نحن أولاء نتجه بعقولنا وقلوبنا إلى سيرة الزعيم « لنكولن » رئيس الولايات المتحدة ، أحد أبناء الانسانية الغر الميامين وأحد أفذاذها البواسل . ولا لوم علينا معشر الشرقيين إذا تخطينا مشرق الأرض إلى مغربها ، بل إذا تخطينا الدنيا القديمة إلى الدنيا الجديدة ، متخذين قبسنا فى هذا الحديث من وراء المحيط . لا لوم علينا فى ذلك ، فأبناء الانسانية العظماء متى اجتازوا باب الخلود صاروا للعالم كله ، ولا اعتبار في ذلك لشرق ولا لغرب

وما هذه الدنيا الجديدة التى أخرجت بطل حديثنا وما فصلها فى تاريخ الوجود ؟ برزت الولايات المتحدة كدولة من دول العالم على حين غرة ، فكان بروزها السياسى شبيهاً بما يزعمه الجغرافيون عن وجودها المادى ، إذ يقولون إن أمريكا ، أو الدنيا الجديدة قد برزت من تحت الماء فى حركة من حركات هذا الكوكب ! وما كان بروزها السياسى في الحق إلا حركة من حركات الشعوب فى هذا المضطرب الواسع الذي نسميه العالم ؛ حركة لم تكن متوقعة من قبل ، ولم يكن يظن أحد يوم بدأت أنها واصلة إلى ما وصلت إليه !

سمع الناس فى أوربا قبل أن تنبعث الرجفة الكبرى من فرنسا بسنوات قليلة عن أنباء عجيبة تأتيهم من وراء المحيط . سمعوا عن الحرية يرف جناحاها الجميلان ويتهلل وجهها الأبلج فى تلك الربوع الفسيحة التى وجه كولمبس أنظار العالم القديم إليها قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون ؛ وسمعوا عن أختها الديمقراطية ترفع علمها وتشهر سلاح الايمان واليقين ، سلاح « جان دارك » الخالد فى وجه الطغيان المربد العبوس ؛ سمعوا عن مراكب من الشاى تقذف حمولتها فى البحر وتأكلها النيران ، وسمعوا عن جموع ثائرة تلتقي هاتفة صاخبة ، وعن جنود تحشد خفافا وثقالا ، ثم ما لبثوا أن علموا أن الناس روعوا هنالك وزلزلوا زلزالا شديدا

وجاءت الأنباء تترى بعد ذلك عن حرب طاحنة ، تسمع فى ضجيجها صيحات الاستقلال وحقوق الانسان حتى ترامت إليهم الأخبار عن انتصار يتلو انتصاراً تحت راية « واشنجطون » . وأخيراً علموا أن انجلترا سلمت مغلوبة على أمرها واعترفت فى عام ١٧٨٣ م بمولد دولة جديدة انتزعت منها انتزاعاً ؛ ورأى العالم فى ذلك دليلاً جديداً على أن الايمان يفعل أكثر مما يفعل الحديد والنار ! ولدت دولة جديدة كانت قبل ذلك ولايات متنافرة متباغضة

ولكنها وجدت نفسها بعد مولدها مملقة فراضت أحرارها على خشونة العيش، وما كان هؤلاء الأحرار بعد استقلالهم ليشتروا به ثمناً قليلاً وهم سلائل أولئك الذين هاجروا من قبل فى سبيل الحرية إلى هاتيك الأصقاع من موطنهم الأصلى فى انجلترا. لذلك تحملوا الفاقة وأخذوا يكدحون كدحاً شديداً، وتولت قبائل منهم حين ضاقت بهم المدن أصقاعا من الأرض البكر تنمو فيها الألفاف والأحراج من وحشى النبات، يشقونها ويفلحونها، ويعيشون فيها عيشة أولية كأنما عادت الانسانية فى أشخاصهم تبدأ حياتها من جديد!

وكان هؤلاء فى أصقاعهم هذه منعزلين عن عالم المدنية الانعزال كله، يقيمون الأكواخ من كتل الخشب فى جوانب الغابات، ويعيشون على الصيد وعلى قليل من الزرع، ويفعلون ما كان يفعل آباء الانسانية الأولون، يتعرضون لعشرة الطبيعة ولا يأمنون شرة الوحوش ولا هجوم القبائل الأصلية من «الهنود الحمر» ويتناثرون هنا وهناك فى مساحات هائلة يمشون فى مناكبها جماعات ضئيلة العدد حتى ليخيفهم الفضاء وحده ولو لم يكن فيه شىء من عوامل الخوف

فى هذه البيئة الساذجة وفى كوخ حقير من الخشب يقوم وسط فضاء الطبيعة الرهيب الرحيب، فتح إبراهام لنكولن عينيه على هـذا الوجود فى اليوم الثانى عشر من شهر فبراير عام سنة ١٨٠٩ م!

خرج الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة، بل خرج إبراهام لنكولن أحد القلائل الأفذاذ الذين تفخر البشرية بانتمائهم إليها من هذه البيئة ودرج من ذلك الكوخ. وما كان ذلك ليعيبه، بل إنه لمن دواعى الفخار إن قدر لمثل هذا العظيم أن يزهى أو يفتخر. وهو لعمرى مدين بجانب كبير من عظمة نفسه وسمو روحه إلى تلك البيئة التى خرج منها؛ ذلك أنه نجا على نقاء عنصره وصفاء روحه من زخرف الحياة وغرورها، ومن مفاسد المدنية وأوضارها، ومن أوهام المجتمعات وكواذب أحلامها، فخلص له معدنه الحر وبقى نقياً لم تعلق به الأوشاب؛ وصار فى جميع أفعاله تتكشف جوانب نفسه عن طبيعة صادقة كأنما تتحرك عن إلهام أو تعمل بوحى! وتمثلت فيه البشرية فى سذاجتها وكمالها وفى ضعفها وقوتها وفي إسفافها وعلوها؛ وصار الناس يلمحون فى سجاياه براءة الطفل وتوقد عاطفته إلى جانب نزعات الفيلسوف ورجاحة عقله! وكم للفقر من يد على العظماء! وكم أخرجت مثل تلك البيئة الطليقة الخالصة من رجال أماثل ومصابيح أعلام قادوا القافلة واستقاموا على الطريقة، أو على الأصح استقامت بهم الطريقة ووضحت المحجة!

ذلك هو لنكولن الناشىء فى الشوك من أيامه، وتلك هى صفاته فى جملتها كما ستتضح لك فيما سيأتى من حديثه. وكأنك تقرأ سجاياه فى أسارير وجهه؛ وتحس فيها ما تموده فى حياته من البأساء والضراء. فإذا نظرت إلى صورته رأيت شبح حياته الأولى فى رأسه الأشعث، ولمحت زكانة نفسه فى جبهته العريضة العالية المجعدة، وأحسست طيب قلبه وصفاء طويته ورقة عاطفته ونفاذ بصيرته فى عينيه الوديعتين المتسائلتين، وتبينت صرامته ومضاء عزيمته فى أنفه الغليظ الأشم. ثم أبصرت قوة صبره وشدة تحمله وروعة استسلامه تختلج كلها على شفتيه المضمومتين المعبرتين عن مض الحوادث، وطالعتك من هاتيك الملامح فى جملتها سذاجة الأطفال وهيبة الرجال؛ ثم تهلل من وراء ذلك كله سر العبقرية الذى يدق عن كل وصف ويسمو على كل تحليل!

فتح الوليد عينيه على الوجود فى لوح أقيم من الكتل الخشبية فى مقاطعة كنتوكي بعد استقلال الولايات بنحو ستة وعشرين عاماً، فنما كما ينمو وحشى النبات فى ذلك الإقليم! نما على ما تجود به الحيوانات من ألبانها، وتدثر بجلودها، ثم تغذى ثمار الشجر واضطجع فى مهد من أوراقها الجافة كأنه فرخ من أفراخ الطير.

ولما بدأ يدرك الأشياء وجد عالمه فى ذلك الكوخ الذى لم يكن يزيد اتساعه على أربعة أمتار فى مثلها والذى لم يكن فيه من الأثاث إلا وحشيه وغليظه، من جلود مجففة إلى آنية جافة شوهاء إلى قطع غليظة من الخشب سوتها فأس أبيه التى كان يراها بين آونة وأخرى معلقة على الحائط بجانب أداة أخرى كانت تبدو غريبة فى عينه الغريرة، تلك هي بندقية أبيه التى كان يحملها على كتفه كلما سار نحو الغابة، فهى لذلك تختفى فى النهار وترى بالليل على حائط الكوخ

وكانت الغابة أو كان الجزء المحيط منها بالكوخ هو نهاية

ما يصل إليه خيال الطفل من هذا الوجود . وحسبه الآن من الوجود أن يلعب ويمرح فى هذا المضطرب وإن لم يكن له فيه من رفقة سوى أخته التى تكبره بمام ؛ وأن يستمع إلى ما ترويه له أمه من أقاصيص وأنباء يلتهما التهاماً وأن يصغى إلى ما تجيب به عن أسئلته الكثيرة

على أنه كان ينظر إلى الغابة نظرة الرهبة والدهشة معاً ؛ وكان يعجب كلما رأى أباه مقبلا من بين الأشجار ، بندقيته على كتفه ومعوله فى منطقته ، وفى يده طائر أو حيوان يدفعه إلى أمه إذا وصل إلى الكوخ فتأخذه فى فرحة ظاهرة وتهيئ الطعام للأب وللأسرة جميعاً

فى هذه السن الباكرة يرى الغلام الحياة من قرب رؤية مباشرة ، فهو يعيش كما كان يطلب « روسو » فى أحضان الطبيعة حيث يرهف حسه ويقوى وجدانه ويعمق خياله وتنبسط نواحى نفسه الصغيرة وتستشف ما فى هذا الكون العجيب من سحر وجمال وتستشعر ما فيه من سر ورهبة

أليس يرى من كثب كيف تطعم الأسرة وكيف تكتسى ؟ أليس يرى التعاون بين الوالدين وما ينتج من راحة واطمئنان ؟ أليس يرى الكدح فى سبيل العيش ؟ وحسبه فى سنه أن يرى ذلك وأن يلمسه

على أن مجال الحياة يتسع أمامه بعد أن تخطى سنته الخامسة إذ انتقلت الأسرة فأقامت كوخاً جديداً على طريق مطروقة كانت تؤدى إلى إحدى المدن القريبة . وهناك يرى الغلام أنماطاً من الناس غادين رائحين ويرى دواب وعربات وأشكالاً من الملابس تختلف اختلافاً كبيراً عما اعتاد رؤيته على جسد أبيه ، فيتأمل ويعجب بينه وبين نفسه

وفى السابعة من عمره يصحب الغلام أباه إلى الغابة ، هنالك حيث بدأ يقوم بنصيبه من العمل ، فيساعد ذلك الأب الذى يقطع الأخشاب ويصنع الأثاث ويبيعه ، ويكسب من وراء ذلك نقوداً تحتاج إليها الأسرة ، وإنه لفخور الآن بمساعدة أبيه ، لا يحفل بتعب فى تلك المساعدة التى يباهى بها أخته ، وإن كانت هى أيضاً تقوم بنصيبها فى مساعدة أمها ؛ ولكن هل كانت « سارا » تستطيع أن تسوى الخشب وتجره وترتبه ؟ هل كانت تستطيع أن تحمل الصيد إلى الكوخ كما كان يفعل « أيب[1] » الصغير ؟

كان لا ينقطع عن العمل إلا فى أيام الآحاد ، إذ يجلس وأمه وأخته وأباه أمام الكوخ فيستمع فى شغف ولذة لما تلقى أمه من أقاصيص وما تتلو من حكايات مشتقة من الإنجيل . ولقد أحدثت تلك الحكايات فى نفس الغلام أثراً عميقاً وظلت مسحتها الدينية تلازمه بعد ذلك فى جميع أطوار حياته

وجاء بعض ذوى قرباه فأقاموا إلى جوارهم وأقبل الغلام على خاله وخالته يستزيدهما الأنباء والأقاصيص ، وكم كان معجباً بتلك الخالة التى تكتب وتقرأ وتحبذ أن يتعلم الغلام القراءة والكتابة على الرغم من إعراض أبيه عن ذلك وعدم اهتمامه به

وبدا للغلام يوماً فسأل عن أسرته ، وأين نشأت ، وممن انحدرت ؟ فسمع ردوداً مبهمة لم ترو ظمأ نفسه ، وماذا كان يتوقع الغلام ؟ أكان يحسب نفسه سليل سادة أكابر ؟ ولكن ما كان أبعد فكره عن هذا ؟ وهل رأى غير بيئته وأسرته ؟

ولئن سمع غيره من الأطفال من آبائهم عما كان عليه جدودهم من عظمة وماتقلبوا فيه من نعيم الحياة ورفيع المناصب ، لما كان لمثله أن يسمع شيئاً من هذا . وأنى له ذلك وهو ابن الأحراج والأدغال ! ؟ . وغاية ما سمعه عن جده ما حدثه به أبوه ذات مرة ، أنه بينما كان يساعد أباه — جد « أيب » — فى الغاب ومعه أخواه إذ انطلقت رصاصة من بين الأدغال فأصابت ذلك الأب فخرصريعاً ، وجرى الأخوان نحوالكوخ ، وبرز من بين الأشجار أحد الهنود الحمر وحمله يريد أن يأخذه إلى داخل الغابة بعد موت أبيه ، لولا أن صوب أكبر الأخوين بندقيته التى أحضرها من الكوخ مسرعاً ، إلى رأس ذلك الهندى فأرداه قتيلاً

فسمع الطفل ذلك الحديث وقد علقت أنفاسه ودق قلبه إذ رأى مبلغ ما أحدق بأبيه من الخطر ، ورأى أنه أشرف على الموت لولا بسالة عمه لذهب كما ذهب جده ، وهاله موت جده على تلك الصورة ، وكان ذلك كل ما عرفه عن ذلك الجد ، أو قل كان

---

(١) Abe اسم أطلق على الغلام على سبيل التدليل وصار يعرف به بين الناس حتى انتخب رئيساً للولايات المتحدة

جوامع النجف الاشرف

للشيخ ضياء الدين الدخيلي

من ذكرياتي التي أنتعش كلما حلقت في سمائها سويعات ممتعة ألقيت فيها محاضرة على زمرة من أساتذة العالم العربي في مدرسة ، طالما حنت أضلاعها على جهابذة قادوا الرأى العام الإسلامي وبقوا مصابيح هداه في عصر كانوا هم المهيمنين على جميع مقدرات أمة القرآن . منذ بضع سنوات طرق النجف الأشرف وفد الجامعة المصرية وفى طليعته الأستاذ أحمد أمين والأستاذ الزيات حين كان رسول الأدب إلى عاصمة المأمون . إذ ذاك تحفزت لمقابلة تلك العبقريات اللامعة التى أنفقت ليالي في الاستمتاع بثمراتها الفنية بالغذاء الروحى ؛ ما هى إلا خطوات أثقلتها الخواطر والعزمات حملتني أن أغادر مدرسة السيد كاظم اليزدى (إحدى المدارس الإسلامية الكبيرة فى النجف الأشرف) لاستقبال موكب الثقافة ، وإذا بجلبته تملأ مدخل المدرسة الشمالي ، فوقفت تحت مصباح زيتي يلفظ أشعته الباهتة كأنه رمز عصر ينقرض ؛ فى سكون المدرسة الذي زاده اعتكار الليل وروعة المفاجأة — هيبة وجلالاً — وقفت أحدث أفلاذ القاهرة عن قطعة من جسم مزقته الحوادث القاسية عن الحركة العلمية والأدبية في هذا البلد الطيب ، أحاطوا بى يصغون إلىّ وقد تآلفت القلوب الخفاقة وألهبت العواطف دم العروبة الإسلامية فكللنا بهالة من روابط روحية قدسية . وتمضى الأيام وإذا بسماحة السيد أمين الحسيني ورفيقه دولة محمد على علوبة يزوراننا فأجتمع بهما فى نفس البنية لأحدثهما عن حياتنا الدراسية ، فأجد فى إقبالهما وابتهاجهما طلائع الوحدة العربية الإسلامية تتجلى متجلببة هذه النزعة للتعارف فالتآلف فالتضام ؛ وحقاً إن الحركة العلمية فى هذه البقعة وأساليب الدراسة — ذات أطراف وأفانين شائقة تتطلع لتفرسها النفوس تواقة لما فيها من مزايا وصبغة خاصة وليدة عوامل عديدة لم تجتمع لغير هذه المعاهد ، فقد لاحظت ذلك حتى فى الغربيين إذ جاءنا سرب من الأمريكان والانكليز منذ أيام فزاروا المدرسة وبينت لهم طرفاً من سير الدراسة وترجمت لهم إلى الانجليزية حديث بعض إخواني من أساتذة ذلك المعهد ، فأثار الوضع إعجابهم ولم نشعر إلا وآلات التصوير صوبت شطرنا تلتقط المشاهد المختلفة كأنها تحاول أن تلقى علينا درساً عن تقديس السياح الغربيين للمادة المحسوسة فى موضع لم يكترث فيه أبناء مصر وسورية لغير روحياته ، وكم بين الشرق والغرب من شذوذ وفوارق !

الحياة المدرسية فى حاضرتنا متشعبة الأطراف ، حسبى أن أزودك منها بقطفة العجلان ولمحة الطائر ، مخططاً لك فكرة عامة سوف أشفعها بتفصيل واف قد يرضى الأستاذ علياً الطنطاوى ومن شاطره رغبته

يزدحم فى جوامع النجف الأشرف ألوف المهاجرين لانتجاع الثقافة الاسلامية قد امتطوا ظهور الأسفار من كل حدب وصوب من شتى الأقطار الشيعية . ففيها العشرات من سورية من جبل عامل وغيره ، والألوف من مختلف أنحاء إيران وفيها من سمرقند وبخارى وغيرهما من تركستان ، وفيها من أذربيجان وفيها الكثير من الهند والأفغان وهضبة التبت ، هذا عدا من يرتادها من أطراف العراق ومن شيعة الحجاز . لذلك قد شيدت فى النجف الأشرف

هذا هو نصيب جده من العظمة ومن جاه الحياة ! ولكن متى كان الإنسان بجدوده وآبائه ؟ وأى فضل لامرئ يرث الجاه ولا يكسبه ويُعطى العظمة ولا يبنيها ؟

تلك هى حياة « أيب » وذلك هو محيطه وهو فى السابعة . أجل هى تلك حياة رئيس الولايات المتحدة فى أولى مراحلها فى أحراج مقاطعة كنتوكى حيث لا مدنية ولا تعليم ولا رفاهة ! كلا ، بل لقد ذهب الغلام إلى المدرسة فى خاتمة تلك المرحلة ؛ ولكن أية مدرسة هى ؟ كانت كوخاً من كتل الخشب أقيم كما أقيم كوخه الذى يعيش فيه ، وكانت تبعد عنه نحو أربعة أميال ، وكان يذهب إليها كلما استطاع أن يطلقه أبوه من أعمال النجارة فى الغابة فيجلس ساعات مع الصبية على الأرض إلى معلم يعلمهم الهجاء بأن يناولهم كتاباً واحداً يمر عليهم جميعاً الواحد بعد الآخر فيتعلمون الحروف ورسمها ونطقها ! ويسأل الصبى نفسه فى لهفة شديدة متى يستطيع أن يكتب ويقرأ كما تفعل خالته وأمه ؟ إن ذلك غاية مبتغاه ومنتهى هواه .

(يتبع) **الخفيف**

المدارس العديدة ذات الغرف المعدة لإيواء الغرباء حيث يكفل المجتهدون (وهم أئمة الشيعة الذين يرجعون إليهم فى بيان أحكام دينهم مستنبطيها من القرآن والحديث وأسس التشريع الإسلامى) ضمان معاشهم وتجهيزهم بأهبة الدراسة، ينفقون عليهم من بيوت المال التى تصب فيها الشيعة الذهب والفضة من كل ناحية وجانب باسم الزكاة والخمس وحق الإمام وأثلاث الموتى وغير ذلك من الوجوه الشرعية



نموذج من مدارس النجف وهي صورة القسم الشمالي من الصحن العلوى المقدس

يبدأ الطالب بدراسة النحو والصرف فينكب على الأجرومية ثم شرح القطر لابن هشام، ثم شرح ألفيـة ابن مالك لابن بدر الدين (هذا منهاج الطلاب العرب، أما الفرس فيدرسون كتباً بعضها بالفارسية يلمها مجلد باسم جامع المقدمات، ويدرسون شرح السيوطى لألفية ابن مالك) ثم يتناول الطالب مغنى اللبيب لابن هشام، ثم يشرع فى المنطق فيدرس حاشية الملا عبد الله على منطق التهذيب، ثم شرح الشمسية، ويتوسع بشرح المطالع ومنطق إشارات ابن سينا وشرحه وكتب كثيرة كحاشية الخبيصى ومختلف كتب المنطق مجهداً نفسه بمراجعة الشروح والحواشى عليها بأسلوب ودراسة لا تعرف النظرة السطحية؛ ومن ثم ينكص قافلاً إلى الأدب فيدرس شرح التفتازانى المطول لتلخيص المفتاح فى المعانى والبيان والبـديع ويتوسع بمراجعة الإيضاح ومفتاح العلوم للسكاكى، وشرح السيد الشريف للقسم الثالث منه، ولا يذر مؤلفاً فى البيان إلا ويوسعه تمحيصاً

وبعد علوم البيان يخوض الطالب غمار التشريع الاسلامى وقد سبب انفتاح باب الاجتهاد عنـد الشيعة أن تشعبت أطراف علم الفقه وكثرت المؤلفات فيه وفى أصوله

نبدأ بدراسـة (المعالم) فى أصول الفقه للشيخ حسن ابن الشهيد الثانى نضم إليها كتاب (الشرائع) فى الفقه للمحقق الحلى ثم ندرس (القوانين) فى الأصول للمحقق القمى مع (شرح اللمعة الدمشقية) فى الفقه والأصل للشهيد الأول والشرح للشهيد الثانى ثم ندرس (الـكفاية) فى الأصول للشيخ ملاً كاظم الخراسانى ثم فى الأصول العملية (رسائل) الشيخ مرتضى الأنصارى مع كتابه فى الفقه (المـكاسب) ولا يقنع الطالب بهذه الـكتب بل يكثر الترداد على المصادر الأخرى للتوسع فيطالع فى الأصول (بحر الفوائد فى شرح الفرائد) وحاشيتي سلطان والشيخ محمد تقى على المعالم و (حقائق الأصول) و (عدة الشيخ الطوسى) و (أنيس المجتهدين) و (تشريح الأصول) للشيخ ملا على النهاوندى و (خزائن) الدربندى و (منهاج الأصول) و (غاية المسئول) و (شرح العضدى) و (تهذيب الأصول) إلى غير ذلك من الـكتب العـديدة فى الأصول التى قضيت فى دراستها زمناً ذهبياً (بأوراقها الصفراء) ونطالع فى الفقه (جواهر الـكلام) وهو فى عدة مجلدات من أهم الـكتب يتوسع مؤلفـه كثيراً فى أبحاثه ولا يترك مذهباً فى المسألة لا ينقد أدلته، و (الحدائق) و (المسالك) و (المدارك) و (البرهان القاطع) و (تذكرة العلامة) و (قواعده) و (سرائر) ابن ادريس و (الرياض) و (مستند الشيعة) و (مختلف) العلامة و (تحريره) و (جامع المقاصـد) و (جامع الأعرجى) وشرح منظومة بحر العلوم و (كشف الغطاء) و (المبسوط) و (طهارة) الشيخ وهو مجلد واحد، وقد وجدت للعلامة الشيخ دخيل كتاباً فى عشرة مجلدات أسمـاه (بأنوار الفقاهة) وإن هـذه المجلدات العشرة كلها تبحث فى فصل واحد فى الفقه وهو فصل الطهارة فياله من توسع فى البحث.!

وبعد دراسة كتاب (الرسائل) فى الأصول يحضر دروس العلماء الـكبار الذين يحاضرون في التشريع الاسلامي وأصول الفقه متخللة أبحاثهم جولات فى علم الرجال وفي التفسير والفلسفة (التى يدعونها هنا الحـكمة) إذ يرتفع المجتهد على منبر عالٍ حيث يزدحم تحته المئات من الرؤوس (البيضاء والسوداء بعمائمها) تلك الرؤس التي هذبتها الدراسات الفردية فعادت لا تستند إلى كتاب

تفتحه بينها وبين أساتذتها كما كانت فى الأول ، إنما يتناول المجتهد أطراف العلم فيناقشه طلبتـه بكل حرية ويتنقلون في الفصول المختلفة من دون التزام بكتاب واحد وإنما يستعرضون المذاهب فى المسألة وينقدونها من جميع وجوهها على ضوء حرية الفكر ثم يرجعون مايختارونه من الآراء ، وهنا يقضى الطالب عدة سنوات حتى يدرك درجة الاجتهاد وهى ملكة يقتدر بها على استنباط أحكام الشرع الشريف من مصادرها ، حينئذ يمتحنه مجتهدو عصره ليعطوه إجازة الاجتهاد وهى الشهادة العليا . وفى السنين الدراسية الأخيرة يتجه البعض إلى دراسة الكلام والفلسفة الاسلامية فيدرس فيهما (شرح المنظومة) للسبزوارى و (شرح التجريد) للعلامة الحلى و (شرح إشارات ابن سينا للخواجه نصير الدين الطوسى و (أسفار) ملاصدرا و (الشوارق) لعبد الرزاق اللاهجى و (الشفاء) لابن سينا . والحق أن جوامع النجف الأشرف تدرس الفلسفة الاسلامية بتوسع لا مزيد وراءه . كنت أدرس شرح إشارات ابن سينا لدى شيخ فارسي يدعى (الدامغانى) فكان يتمعن فى تدقيقه فلا يدرس فى اليوم أكثر من نصف صفحة أو ربعها بالرغم من أن الدرس يستغرق ساعة أو أكثر وكنا نذهب إلى داره بعد الظهر بقليل وذلك فى صيف النجف الأشرف تكليف شاق لا يطاق لشدة الحرارة فى هـذه البقعة الجافة . فى هذه البلدة الجاثمة على حدود الصحراء العربية الملتهبة بضرام حصاها ولا سيما أنى كنت أخرج من سراديب مدرسة السيد كاظم اليزدى التى تتوغل عميقة فى الأرض حيث تغوص بك فى مناخ بارد شتوى يضطرك إلى الالتحاف بما يقيك أذى البرد القارس . ولربما يتذكر تلك السراديب الأستاذان الزيات وأحمد أمين وصحبهما فقد أنزلت الوفد إلى سراديب المدرسة وحملت له المصباح وجلنا فى أحشاء هذا المعهد العلمى . ولكم أعجبت تلك السراديب السياح فكتبوا عنها الكثير وهى ابتكار لطيف فى التغلب على الطبيعة القاسية والتمرد على عذابها ـ ولكن أستاذى الدامغانى كان أقسى . فكم أجهدنا فى خوض معارك الفلاسفة الدامية يقذف بنا فى جحيم الخصومة المنيفة بين الخواجه نصير الدين الطوسى وبين محمد بن عمر الخطيب الرازى وكل منهما شارح للأشارات ، ولكنى ابتليت قبله باستاذين درست عليهما الفلسفة فى حلقتين كبيرتين تضم العراقى والفارسى والتركى والسورى الخ كأنها سفينة نوح فى الأساطير ، كان كل من هذين الأستاذين مفتوناً بسعة اطلاعه فى المذاهب الفلسفية وما نسجه العقل البشري من أحابيل وأضاليل وما كشف النقاب عنه من حقائق ناصعة فكانا غفر الله لهما يركضان بنا فى ميادين واسعة من أفكار فلاسفة اليونان من مشائين وإشراقيين ومن محاجّات فرق المسلمة وطوائفها من أشاعرة ومعتزلة وشيعة وصوفية وباطنية حلولية إلى غير ذلك ؛ فاذا حمى الوطيس بين هذه المذاهب فليس عليك إلا أن ترهف سمعك ليفيض عليك هذان الأستاذان بخلاصة جهودهما الفكرية ، ألا أزيدك أن النجف الأشرف فى هـذا العصر تدرس الطب اليونانى القديم وفيها أطباء من خريجى جوامعها يعالجون الأمراض المختلفة حسب تعاليم شرح النفس فى الطب وغيره ؛ وفى جوامع النجف الأشرف يدرس علم الهيئة والفلك عدا العلوم الرياضيـة الأخرى ؛ أما علوم الأدب من لغة وعروض وقافية وتاريخ أدب وشرح النصوص الأدبية ، أما التاريخ الإسلامي والعلوم الاجتماعية ، فان طلبة جوامع النجف الأشرف لا يتركون كتاباً جديداً إلا ويقتنونه موسعيه بحثاً وإنعام نظر ، وقد خرجت هـذه المدرسة كثيراً من الشعراء النابغين

والمكتبات فى النجف كثيرة منها الخصوصية وبعضها يفتح لعامة الناس كمكتبة آل كاشف الغطاء ومكتبة المعارف . وعندى مكتبة تضم حوالى ألف كتاب كثير منها مخطوط عزيز ، وقد زارها البحاثة عبد العزيز الميمنى الهنـدى المعلق على أمالى القالى فرأى كتاباً مخطوطاً قديماً أعجبه فقال : « لو ضربت آباط الإبل إلى الصين ولم أحظ بغير رؤية هذا الكتاب لكفانى ذلك غنماً »

وإن الطلبة هنا مشغوفون باستشراف الحركات الأدبية فى العالم العربى من مصر وسورية والمهجر ، ولمؤلفات (لجنة التأليف والترجمة والنشر) سوق رائجة لدينا

ولكننا لا يسعنا أن نفيض فى الحديث أكثر من هذا فيمل القارئ الكريم وإنما هذه نبذة تحدثت بها بصفتى أحد خريجى هذه الجوامع المقدسة

(النجف الأشرف — العراق) ضياء الدين الدخيلى



رسالة الشعر



ذكرى ياسين باشا الهاشمي في الموصل

ياسين البطل (١)

للأستاذ أنور العطار

ياصورةً مِلؤُها الإحسانُ سامية ... قبستُ من وحيها الشعرَ الذى أجدُ

غنى بها الدهرُ مزهوًّا بروعتها ... وعاشَ يمرحُ فى أعطافها الأبدُ

يُمدُّها النورُ بالأفلاكِ ساطعةً ... حتى تكادَ من الأضواء تتقدُ

قالوا لمن صُغْتَ حُرَّ الشعر تكرمةً ... ومَنْ ترى بثناء الدهرِ ينفردُ

فقلتُ « للهاشمى » الفذِّ أحكمُهُ ... وأنتقي الكلِمَ الباقى وأحتشدُ

« ياسينُ » نورٌ منَ الإخلاصِ مؤتلقٌ ... مِنْ نفحةِ اللهِ لم يُخْصَصْ بهِ أحدُ

مِنْ معدِنِ الحزْمِ والتصميمِ جوهرُهُ ... يكونُ حيثُ يكونُ الرأيُ والسددُ

إذا العروبةُ لم تسلُكْ محجّتَهُ ... يومَ الهزاهزِ لم يبرحْ بها أوَدُ

* * *

ضمنْتَ للوطنِ المجروحِ عِزّتَه ... فأنتَ آمالُهُ الكبرى وأنتَ غدُ

أمَا تذكرُ أياماً لهُ غبرتْ ... ومِلْءُ أحشائها الترويعُ والسهدُ

تفتّحتْ حُفَرُ الأجدادِ صارخةً ... وهبَّ مِنْ رقدةِ الآبادِ ملتحدُ

شبّتها ثورةً حمراء لاهبةً ... تكادُ مِنْ هوْلها الأطوادُ ترتعدُ

لسانُها فى الفضاءِ الرحبِ مندلعٌ ... ووهجُها فى فمِ الجوزاء منعقدُ

يسيلُ « دجلةُ » صخّاباً بها حنقاً ... يرغو على ضفتيه الثأرُ والضمَدُ

وأنتَ فى غمراتِ الموتِ تقحَمُها ... تظلُّ نفسكَ روحٌ للعلى ويدُ

فى فتيةٍ حلبُوا الأيامَ أشطرَها ... وصافحُوا الموتَ لم يفترْ لهم جَلَدُ

عاشوا جمالَ الدُّنا حتى إذا نزلتْ ... بهم مناياهُمُ بين الورى خلدُوا

كأنما يبدءونَ العمرَ ثانيةً ... فإنْ همُ لفظُوا أنفاسَهُمْ وُلدوا

كأنهُمْ فى فضاءِ اللهِ ألويةٌ ... دَمُ الجهادِ عَلَى أطرافها يقِدُ

والخالصونَ جلالُ الكونِ ماطلعُوا ... والمخلصونَ سنا الأيامِ ما همدُوا

فى العبقريةِ أحقابٌ لهمْ قُشُبٌ ... وفى البطولةِ آبادٌ لهمْ جُدُدُ

* * *

حلقتَ كالنسرِ فى الجوزاءِ مرتقياً ... وخلفكَ الناسُ فى أثوابهمْ جمَدُوا

يرونَ فيكَ مَضاءً لا كِفاءَ لهُ ... وعزمةً تخلقُ الأبطالَ أوْ تلدُ

نخفضُوا الهامَ إعجاباً وتكرمةً ... والناسُ إن بهرتْهمْ خلّةٌ حمِدُوا

* * *

أُقصيت عن وطنٍ مارُمْتَهُ بأذًى ... وعِشتَ تبنى له العلياءَ أو تعدُ

تنكّرت لك دنيا لا ذمامَ لها ... وخانكَ الصَّحْبُ والأدنَوْنَ والبعدُ

أيرتعُ الغِرُّ فى أمْنٍ وفى دعةٍ ... وأنت ناءٍ عن الأوطانِ مُبتعدُ

من همَّ يسألُ عن « ياسينِه » لهَفاً ... مشى به القيْدُ أو ألوى به الصَّفَدُ

لما نُعيتَ إلى أرضِ العراقِ ضُحًى ... ضجّ الفضاءُ وضجّ السهْلُ والجلَدُ

وزوّعتْ فئةٌ للبغْيِ جاحدةٌ ... حاقَ الشقاءُ بها والنحْسُ والنكدُ

خافوكَ ميْتاً وما بالميتِ من فرَقٍ ... لما نُعيتَ تهاوَوْا ثمّتَ افتقدُوا

كأنهم فى سوادِ الليلِ أخيلةٌ ... لولا الخيالاتُ فى دُنياكَ ما وُجِدُوا

لم يلبثُوا أنْ تواروْا فى معايبهمْ ... وجُرِّعُوا الموتَ لم يفطن لهم خلَدُ

* * *

(١) « ألقيت هذه القصيدة باسم « نادى الجزيرة » فى الحفلة التأبينية الكبرى التى أقامتها « الموصل » تذكاراً لمرور عام على وفاة الزعيم العربى الخالد المغفور له « ياسين باشا الهاشمى »

مشت « دِمشقُ » وراء النَّعشِ جازعةً
يكادُ يُضعِفُها الأحزانُ والكمدُ

تبكي ابنها البرَّ قد أودى الحِمَامُ به ... فضاع في موته التِّبيانُ والرَّشَدُ
عَمَّ الذُّهولُ رِباعَ الشام من أسَفٍ ... كأنها مُقلةٌ دَمعاءُ أو كَبِدُ
قد فجّرَ الألمُ الجبارُ أدمُعَها ... كما تفجّرَ يومَ العارضِ البَرَدُ
لا الأُنسُ يضحكُ في أرجائها ألِفاً ... ولا النعيمُ على جناتها يَفِدُ
إلا الكآباتِ تعلو الأُفقَ غامرةً ... وللكآباتِ صوتٌ صارخٌ فَرِدُ
لَهفي عليها ولهفَ العُرْبِ قاطبةً ... مات الحبيبُ ومات القائدُ النَّجِدُ

***

ياسينُ لا تحتفِل كيداً رمَوْكَ بهِ ... ولا يَهولَنْكَ ماحاكوا وماسَرَدُوا
فأنت كالشمسِ إن تَسْمُ العيونُ لها ... ترتدُّ عنها وفي أجفانها رَمَدُ
لم يلبثِ الحقُّ أن لاحت مَخايلُهُ ... وغاب في طيِّه البُهتانُ والفَنَدُ
إن أرجفوا فضلالٌ ما نعوجُ بهِ ... كم يضحكُ اليمُّ إن أرغى به الزَّبَدُ

***

دَعِ المُفنَّدَ يَمعِنْ في غَوايتِهِ ... فليس يَرْفَعُ إلا الواحدُ الصَّمَدُ
إنْ يكتبِ اللهُ للإنسانِ مَكرُمَةً ... لا يمحُها الخلقُ بل لا يطوِها الأمَدُ
خُذِ الخلودَ نقيّاً ما به دَخَلٌ ... وَخَلِّ هذا الورى يذهب به الحَسَدُ

***

يا بانِيَ المجدِ لم تَضْعُفْ دعائمُهُ ... كلٌّ على ما بنيتَ اليومَ مُعتمِدُ
سِرْ في لواءِ الهدى جَذلانَ مُغتبطاً ... فالقومُ قومُكَ ماحادوا ولا رَقَدُوا
قد صفّقت لِبُوَاتُ العُرْبِ شِكتَها ... وحدّدَ النابَ في عِرنينِهِ الأسَدُ

« الموصل » أنور العطار

صلاة شاعر !

وقال: أُصلّي، قلتُ: صلِّ جماعةً ... لنعرضَ قبل الحشر بين يدَيْ ربّي
ورتِّلْ من القرآن سورة يوسف!! ... أُرتِّلُ ـ كما شاء الهوى ـ آيةَ الحُبِّ

وحي صورة

بقيّةٌ من صِبا (حمدي) أُشاهدها ... فأسألُ الدهرَ عنها كيف أبقاها
كأنها نفحةٌ للحسن خالدةٌ ... عزّت على الدهر أن يمحو محيّاها

(المطرية) عبد الله حبيب

أقوام بادوا

للأستاذ عبد الرحمن شكري

مفتاح القصيدة

جعلوا لطبع اللؤم كل قداسة ... وتحرزوا من سنة المختار

المختار هو النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل من نبذ سنة الله ورسوله لابد أن يصير إلى ما هو موصوف في هذه القصيدة من الصفات ؛ ونعني بالنبذ نبذ القلب وإن لم ينبذ اللسان ، ولا نعني أحداً بالذات وإنما هي صفات يعرف كل منصف منها أنها شائعة حيث الاضمحلال والبوار

القصيدة

تركوا اللباب وشاقهم ماشانهم ... من بهرج في مطلب غرار
عاشوا عبيد كلامهم لم يدلفوا ... من خلفه لحقائق الأفكار
جعلوا حطام اللؤم أعلى مكسباً ... وأعز محمدة ليوم فخار
يخفون أوزار النفوس بمنطق ... فيهم فاضح خافيَ الأوزار
حسبوا اغتياب الغائبين مطهّراً ... لنفوسهم من خزية أو عار
كل يغار من الإجادة جهده ... مثل النساء تغار كل مغار (1)
يحكي عظيمهم الحقير سفالة ... متكثراً بدناءة الأنصار
يخشى البريءُ قضاءهم من خطة ... لم تعفِ ناساً من هوى الأصهار
العدل فيهم أجر كل مملّق ... جعل النفاق عصابة الأبصار
كل يعاقب من يريد أليفه ... ضراً له لا الكره للاشرار
الكِذْبُ عجزٌ فيهمُ وخساسة ... والصدق عبد مزدرًى متوارى
ندم المجيد على إجادة قوله ... أو فعله من ضيعة وضرار
الضيم ما يجزى اللئامُ مُجَوِّداً ... فيصون كلٌّ عجزه لفخار
سبقٌ بمضمار الحياة يحوزه ... مُتَخَلِّفٌ بالغش في المضمار
وتفرقوا إلا لدى التهويش والـ ... ـتضليل فهو مؤلف الدُّعّار
وتخالهم حشرات روث مالهم ... إلا به حظ من الإكثار
وكأن كل إجادة قد دهورت ... من عقلهم في بؤرة الأوضار
فكأنما أذهانهم بالوعة ... أخفت نفيس الدر في الأغوار
كل يلوذ بإثرة ويخالها الـ ... إيثار بئس مزيف الإيثار

(1) تغار النساء في أمور الجمال واللباس ، أما ضعاف العقول من ذوى النفوس المسفة فتغار من كل إجادة في القول والعمل ، وهذا أعظم أسباب تأخر الأمم لأنهم يحاربون كل مسببات التقدم ، ويهذر من يقول إنها لا تهزم في أماكن الانحطاط

فعاله ومقاله وسكوته ... للؤم لا فضلاً وحسن جوار
دأبوا على إخفاء حق مالهم ... فى حجبه من مكسب ونضار
لؤم لعمرك لامدى لصياله ... وضؤولة تحدو لسفل قرار
الطيش أغلب للتأمل فيهم ... حتى لدى العظماء والأخيار
سبق اللسان حصاتهم فكأنما ... سكر العقار لهم بغير عقار (١)
رانت على مهجاتهم وقلوبهم ... وعلى الحجا والسمع والابصار
شيم تُورِّثُ حقبة عن حقبة ... كتخلف الأرجاس فى الأنهار
أو مادهى أوصال جسم من ضنى ... يمضي ويترك باقى الآثار
جعلوا لطبع اللؤم كل قداسة ... وتحرزوا من سنة المختار (٢)
هاتِ المُرَبِّى للكبار ولا تقل ... يا أين مُعْوِزَ رشده لصغار
هيهات يصلح نشء قوم لم يجد ... خُلق الكِبَار يضيء مثل منار
عدوى الضؤولة والخساسة فيهمُ ... عدوى الوباء تسير كل مسار
قوم إذا ابتدروا السباب رأيتهم ... يطلون موضع عُرِّهم بالقار (٣)
متعاظمين على نجاسة أنفس ... نتجت نتاج الدود فى الأقذار
ستر الخسيس خساسة بخساسة ... فى أنفس الأعوان والأنصار
متعظما يبدو كريماً سامياً ... متحلياً بفضائل الأطهار
وترى الوقار ولا وقار وإنما ... أخفوا دعارة أنفس بوقار
ودعوا إلى الإصلاح دعوة مائق ... يسعى إلى الأرباح سعى تجار
هم يبتغون الجاه إنْ لم يبتغوا ... مالا بدعوة مصلح ثرثار
لم تَدْرِ وَحْىَ المصلحين حصاتهم ... فتشبثوا بزوائف الأفكار
صارت وسائل عيشهم ما غاله ... من طبع لؤم سائق لبوار
فقد الحياء صغارُهم من ضيعة ... فغدوا كبار الفخر غير كبار
صنعوا الأذى من غير ما سبب ولا ... يؤذي لغير القوت وحش ضاري
ضلت غرائز شرهم عن أصلها ... فى صون عيش أو لدفع ضرار
ففدت دناءة أنفس وخساسة ... كيداً بلا كسب ولا أوطار
وحديثهم كالحك يهتك عرهم ... فأخو السفاهة منه كاسٍ عارى
العدل ما وهب السمير سميره ... والرأى للأوشاب والأغمار

جرأت صعاليك على ما لم يكن ... فى فهمهم فقضوا بغير تمارى
فوضى لعمرك لا صلاح لشأنها ... كيف الصلاح لأمرها وهارى
عادوا الذكاء خساسة فكأنما ... نبذ الذبالة فى الظلام السارى
إلا الدعاوى الباطلات فإنها ... عادت كعود مزيف الدينار (١)
سل صفحة التاريخ كم قوم به ... أجراه مجرى الدهر فى مضمار
أقوام أدهار مضت بعض لها ... ذكرى وبعض مالها من دارى
قد أبدلوا طبع السفال بأنفس ... من طبعها المتصاعد السوّار
صاروا إذا غضبوا وإنْ سُرُّوا وإن ... درجوا لأمر ثالث بمدار
يتمرغون مجانة فنفوسهم ... وجسومهم كمزابل الأوزار (٢)
كتمرغ الفلوك دغدغ جلده ... عض من البرغوث فى الأقذار (٣)
وصموا الشباب ولم يكن من طبعه ... خلق اللئيم العاجز الغدار
إن الشباب مروءة وسذاجة ... وترفع ينبو عن الأوضار
تخذوا السفال مجنَّهُم ليصونهم ... من صولة الغلاب والمغوار
فغدا السفال سعادة ومسرّة ... عبث الخنا ومجانة الفجار
نبذوا الحياء وكيف ترجو أمة ... للنائبات مجانة العيار
قد قيل فى فقد الحياء رجولة ... فقد الحياء أنوثة الدعار
طبع المجانة عم حتى خلته ... كيداً يحاك عليهم بسرار
أم وُرِّثوه عن الجدود غنيمة ... يطفو الذليل بها على الأقدار
ويُذِلُّ من عنت الحياة وضيمها ... بسعادة المجان والفجار
وتكايدوا كيد العبيد ولم يكن ... كتنابذ بطبائع الأحرار
واستمرأوا مرعى الغباوة والخنا ... إلفَ السجون لطول عهد إسار
هزموا الدهور الغازيات بهزلهم ... فمضت وظلوا رهن عقر الدار
فإذا الدهور جديدة غلابة ... وإذا اللئام فريسة الأدهار
درجوا على درج الحياة إلى الردى ... من بعد جهل راقهم وصغار

عبد الرحمن شكرى

(١) الحصاة العقل والرأى
(٢) أخلاق اللؤم لم تعدم نصيراً يبررها من مذاهب الفلسفة الحديثة فضلا وإنما هو اللؤم الذى يبرر اللؤم بالفلسفة
(٣) العر هو الجرب والقار هو الزفت

(١) العملة المزيفة تطرد العملة الصحيحة من السوق كما يعرف الاقتصاديون وكذلك الذكاء المزيف كثيراً ما يطرد الذكاء الصحيح من سوق الحياة
(٢) مزابل جمع مزبلة
(٣) الفلوك هو الفقير المعدم



ما بعد الطبيعة
NETAPHYSIQUE

الروح L, âme

للسيد محمد حسن البقاعي

— ٣ —

لقد بحثنا فى الفصلين السابقين عن المادة والحياة ، وأتينا على ذكر النظريات والنتائج التى وصل إليها الفلاسفة على اختلاف آرائهم ، وتعدد مذاهبهم . ولا يسعنا الآن إلا أن نقول : إن نتائج تلك الأبحاث والبراهين والاعتراضات التى أثارها الفلاسفة للوصول إلى كنه المادة وحقيقة الحياة ، لم توصل العقل البشرى إلى نتيجة حاسمة ، بل لا تزال الصعوبات قائمة . ولكننا نظن ، أن الله سبحانه وتعالى سوف لا يعدم البشرية من نور مفاجىء يرسله إلى عقل بعض الفلاسفة الجادّين فى الوصول إلى الحقيقة النيرة فى هذه الأبحاث ؛ فيكشف اللثام عن تلك المسائل التى لم تتعدّ حيز الفرض والاعتراض ، ويأخذ بيد العقل البشرى إلى شاطىء السلامة ، فيخرجه من الظلمات إلى النور . وها نحن مقدمون على البحث فى الروح فنقول :

إن البحث فى الروح لم يكن نصيبه أكثر من نصيب البحث فى الحياة ؛ فخلاصته ما شغل عقول الفلاسفة من معرفة حقيقة الروح وماهيتها هو إقرارهم — إقراراً ضمنياً — بعجز العقل البشرى عن سبر غورها ، وقرع باب حقيقتها . فإن الروح هي من أمر الله ، فكيف يتأتى لعقل قاصر إدراك ماهية أمر الله تعالى — وهو لم يستطع إدراك الأشياء البسيطة بالنسبة إلى الروح مثل المادة والحياة

وسنأتى الآن على ذكر النظريات التى وضعها العلماء والفلاسفة الذين عالجوا البحث فى الروح وطمحوا فى الوصول إلى حل نهائى معقول ؛ ولكنهم — ويا للأسف — لم يصيبوا غرضهم المقصود . فالبحث فى الروح إما أن يكون عن طريق الرأي العام والحس السليم الذى يقرر أن الروح والجسد مختلفان فى طبيعتهما : ويضع الروح فوق الجسد أى إنه يقرر : أن الحياة النفسية فوق الحياة الجسدية ، ويعتبر الروح مبدءاً معنوياً يدير الجسد .

وإما عن طريق آراء الفلاسفة والبحاثين التى يمكن تقسيمها مبدئياً إلى قسمين :

١ — نظرية الماديين Le matèrialisme

٢ — نظرية الروحيين Le spiritualisme

أما الماديون فيقولون : (لا يجوز أن نقبل أن الروح والجسد مختلفان بطبيعتهما ، أى لا يمكننا القول بأنهما عنصران بل عنصر واحد) فهى إذن نظرية توحيد لا نظرية تثنية[1] وهى تجعل النفس خاضعة للعناصر المادية التى فى الجسد . وهم يستندون على طائفة من الأدلة التى يمكن أن تعتبر فيزيولوجية وهى :

١ — إن ما توصل إليه الفلاسفة من تعيين مناطق الكلمات والرؤية والنطق فى الدماغ يثبت لنا أن كثيراً من الأمراض العصبية تولد بذاتها اختلافات نفسية واختلافات فكرية .

٢ — إن الدورة الدموية فى الدماغ تزداد أثناء التفكير . وقد ذكر الدكتور جميل صليبا[2] أن العالم الايطالى (موسو) شاهد أدمغة أشخاص أصيبوا بمرض فى الجمجمة فرأى من وراء القحف أن العمل الذهنى والاضطراب النفسى والأحلام كل ذلك يبعث على إزدياد ضغط الدم فى الدماغ ؛ حتى لقد فكر في إثبات ذلك بتجربة محسوسة فصنع ميزاناً كبيراً على صورة منضدة يمكن أن ينام عليها الشخص ؛ فكلما أجهد الشخص النائم فكره رجحت جهة الرأس من الميزان لانصباب

(١) نظرية التثنية : هى القائلة بأن الروح من طبيعة تختلف عن طبيعة الجسد وأهم واضعيها هو (ليبنيز)

(٢) كتاب علم النفس للدكتور جميل صليبا صفحة (٧١)

الدم عليها . فيستنتج من ذلك أن الحياة الجسدية هي المؤثر الأول على الحياة النفسية

٣ – نرى في علم التشريح أن ارتقاء الجملة العصبية متناسب مع ارتقاء الحوادث النفسية . فكلما تكاملت الجملة العصبية تكاملت الحوادث النفسية ؛ فالأفاعيل الفيزيولوجية إذن ترافق الأفاعيل النفسية

٤ – إن التأثير الحاصل من الجسد في النفس كتأثير الصحة والمرض والكبر في النفس نبرهن على اتحاد الجسد والنفس في الماهية

٥ – لقد بيَّنتْ مباحث علماء (البسيكوفيزيولوجيا) – بالرغم من كونها ابتدائية أولية – أن هناك قوانين تربط الحوادث النفسية بالحوادث المادية ، فيقول (فيختر) : إن النفس من محصول الجسد ، ولكن الشعور في هذه النظرية ليس إلا عرضاً زائلاً كالنور وتأثيره في حركة القطار ... فلو عرفنا أحوال (لوتر Luther) الفيزيولوجية فهل نستطيع أن نكتشف الأسباب التي دفعته للقيام على البابا ؟ الجواب على هذا السؤال بحسب هذه النظرية التي ليست إلا نظرية الشعور الملحق (Epiphènonèmisme) هو بلا شك (كلمة نعم !) . أما القول في مناقشة هذه النظرية فيتلخص في أربع فقرات :

١ – نستطيع أن نقول عن هذه النظرية إنها لا تزال في عالم الخيال ؛ فقد أخطأت باعتبارها أن الشروط الضرورية في الفكر هي المادة

٢ – إذا أنعمنا النظر في هذه النظرية وجدناها لا توضح الشعور بل تعتبره حادثة زائدة لا أثر لها في الحوادث النفسية ؛ على أننا لا ننكر اتصال الجسد بالروح ؛ ولكن هؤلاء الماديين تجاوزوا هذه الحدود ، فهم يعتبرون الأموز النفسية ناشئة عن الجسد بينما نجد بينهما موازاة فقط ؛ ويقررون أن الشعور ناشيء عن الحركة ، مع أن بينهما فرجة في الحقيقة . ولو سلّمنا أن الشعور حادثة عرضية فكيف يمكن إيضاح ارتقائه على مرّ العصور وتكامله تكاملاً تدريجياً ؟ ألم يقرر الفيزيولوجيون أن العضو الذي لا فائدة منه يزول في التطور ؟ فكيف بنا ونحن نراه يرتقي ويتكامل عوضاً عن أن يضمحل ويتلاشى ! إذن لا بد أن يكون حادثة من حوادث النفس لا ... بل هو ذلك الحدْس النفسي الذي نطلع به على حوادثنا النفسية

٣ – إنهم ينكرون تأثير الحوادث الروحية (النفسية) ولا ينكرون العكس مع أننا نعلم أن للفكر والعاطفة وغيرهما من الحياة الانفعالية تأثيراً بيناً في الجسد . وقد وضع الفيلسوف (وليليام جمس W: James) نظرية يدعم بها رأي القائلين بتأثير النفس في الجسد فقال : (لا يمكن أن نقبل أن الجسد يؤثر في النفس ونترك تأثير النفس في الأخير) لأننا نرى أن الشخص عند ما يبكي لا يكون بكاؤه فجأة بل لا بد من أن يحزن أولاً ثم يبكي ؛ إذن لا يمكن للمرء إهمال الفكرة . وكثيراً ما استغرق الانسان في فكر من الأفكار ، فأنساه استغراقه هذا ألماً من آلامه المادية . فالرغائب والأهواء تلعب دوراً هاماً في الجسد وتسبب حركته ، وهذا كله كاف لدحض حجة الماديين التي يمكن أن تعتبر حجة بتراء

٤ – إننا نرى أن الحاضر مثقل بالماضي ، وهو يهيء للمستقبل فتتجمع آثار الماضي في الحاضر . إذن فالحاضر والماضي متصلان ؛ واتصالهما هذا يؤول إلى القول بأن كل حالة من أحوال النفس تحوي كل حالات النفس ؛ فالكل موجود في الجزء ، والجزء موجود في الكل ؛ ولكن الحقيقة أن الكل موجود في الكل . وكل هذا مخالف لاعتقاد الماديين بل يستحيل عليهم قبوله ؛ فلا يستطيع الماديون إذن أن يوضحوا أمراً هاماً جداً وهو الحكم والمحاكمة ؛ ولا اتفاق الناس وتبادلهم بالأفكار ؛ بل يقولون إن تبادلهم في الأفكار إنما يكون باتفاقهم في الحوادث الفيزيولوجية ؛ فليست هذه النظرية إلا ضرباً من الخيال فهي نظرية ميتافيزيكية أكثر مما هي عقلية

أما اللاماديون أي الروحيون الذين عارضوا نظريات الماديين فقد قالوا : يجب أن نقبل وجود شيئين مستقلَّيْن عن بعضهما بطبيعتهما ، أي هما مختلفان بمادتهما . وأول مدافع بل أول واضع لهذه النظرية هو أفلاطون الذي يقول : « إن النفس هي أخت المثل العليا الخالدة ، وهي خالدة مثلها ؛ فالنفس إذن محبوسة في الجسد كأنها في حجرة من حجرات هذا الجسد ؛ أي إن النفس كالرُّبان في السفينة يُسيِّرها ولا يتأثر بما تتأثر به هذه السفينة . وعلى ذلك فالموت هو رجوع النفس إلى أخواتها حيث تسترجع علمها الأبدي الذي نسيته في الجســد » . أما (ديكارت) فهو يعتبر أيضاً أن النفس والجسد من طبيعتين مختلفتين ؛ فماهية النفس هي الفكر ، وماهية الجسد هي الامتداد ؛ فهما إذن غير متجانسين ولا مُنشا كلين ، بل لكل منهما طبيعة خاصة به . إلا أنه ينكر على أفلاطون قوله بعدم اتصالهما ببعضهما

وتشبيه النفس بربان السفينة الذى لا يتأثر بما تتأثر به السفينة فيقول : « إننى لا أنكر أن لى جسداً يتألم عند ما أشعر بألم ؛ وأحس بالجوع والعطش عنـد ما يكون بحاجة إلى الأكل والشرب ؛ وإننى لست ساكناً بجسدى كما يسكن الرُّبان فى السفينة بل أنا أكثر من ذلك ؛ أنا متصل بجسدى أكثر من اتحاد الربان فى السفينة ، ولو كنتُ مثله لكنت إذا جُرحت لم أتألم ، بل على الأقل كنت أرى جرحاً فقط دون أن أشعر بألم ، فأنا إذن عبارة عن شخص مفكر »

فديكارت إذن يقول بتأثير الجسد فى النفس ويقول : « إن الحركة لا تتغير » أى لا تزيد كمية الحركة فى العالم . وهو يصرح بقبوله لفكرة العلاقة بين الجسد والنفس ، ولكنه يوضح هذه العلاقة بقوله : « إن كلا من — الروح والجسد يؤثر فى الآخر بمعونة الإله » . ولقد اعتبر بعض الفلاسفة أن هذا الإيضاح مبهم وقالوا : إن إيضاح تلاميذ (ديكارت) أتم وأوسع من إيضاح (ديكارت) نفسه . فتلميذه (ماليبرانش) الذى وضع نظرية الأسباب المصادفة — أى العلل الاتفاقية — يقبل كل أقوال أستاذه ويشعر بالصعوبة فى اتحاد الجسد فى النفس وكيفيته وأسبابه ؛ ولكنه يحل ذلك بشرح مبتكر ، فيقول : « إننى أرى أن الروح لا تؤثر فى الجسد والجسد لا يؤثر فيها ، فمن الذى يؤثر إذن ... ؟ لا شك أن الإله وحده هو الذى يؤثر . مثال ذلك : عند ما تحترق يدى فلا تستطيع نفسى أن تحدث فىَّ الألم بل الإله هو وحده الذى يحدث فىَّ الألم » . فمن ذلك ترى أن (ديكارت) و (ماليبرانش) قد فتحا فى حل مسألة الروح فتحاً جديداً ؛ فهما بتعليلهما هذا يقرَّان بالعجز عن إدراك حقيقة اتحاد الروح بالجسد . وليس هـذا إلا رضوخاً للحق واعترافاً بالواقع ؛ فيجب عدم الاكتراث باعتراضات بعض الفلاسفة المتعنتين أو الملحدين على الأصح ، فهـم يقولون : « يؤخذ على ديكارت إسناده كل فعل إلى الإله ، وتوقفـه على إرادته ومعونته ؛ فبذلك يحذف كل فاعلية للجوهر اللامتناهى ، ويجعل الإله كعامل من العمال غير كامل لأنه صنع آلة لا تمشى إلا إذا كان هو موجوداً فيها »

فمناقشة هذا الاعتراض تتلخص بقولنا : ليس هذا الاعتراض إلا كلمة حق أُريدَ بها باطل . ولنفرض أن للجوهر فاعلية ، فمن أوجد هذه الفاعلية ؟ ومن أوجد الجوهر ؟ ومن هو مرتِّب ومنسق هذا النظام في عالم الكون والفساد ... ؟ هل يستطيع هؤلاء المعارضون المنكرون للقوة الإلٰهية أن يجيبوا على هذه الأسئلة بأن المؤثر والفاعل الأول لذلك هو غير الله عز وجل ؟ هبهم أجابوا بذلك وقالوا : إن الطبيعة هى الفاعلة ، فما هى هذه الطبيعة ومِمَّ تتركب ؟ وما هو مبلغ قوتها واقتدارها ؟ . لا شك أنهم يقفون حيارى تجاه هذا الأمر ولا يسعهم إلا الرجوع إلى القدرة الإلٰهية ...

ولقد وضع (سپينوزا Spinoza) نظرية جعل فيها الإمتداد والفكر جوهراً واحداً وقال إنه جوهر الإلٰه ؛ بل قال إن كل الجواهر كالروح والجسد هى أعراضٌ لجوهر الإلٰه . فهذه النظرية تسمى بالنظرية الحلولية Le panthèisme ؛ فهو ينتقل من مذهب التثنية إلى مذهبٍ حلولىٍ واحدٍ مُوَحدٍ لجميع الجواهر . وخلاصة هذا المذهب هى : لا يوجد غير الإلٰه ؛ وكل ما نراه هو أعراضٌ وصفاتٌ له ؛ فالجواهر إذن هى لا نهاية في لا نهاية ؛ ولكننا لا نعرف منها إلا صفتين فقط وهما : الإمتداد والفكر لننظر إلى العالم المحسوس فترى لوناً وصوتاً وحركة ، وكل هذه هى عبارة عن أحوالٍ وهى متناهية ، إلا أن عددها غير متناهٍ ، فالفكر صفة الإلٰه وأحواله غير المتناهية كالرغائب والذكريات ... فأحوال الامتداد الإلٰهى هى الأجسام ؛ وأحوال الفكر الإلٰهى هي النفوس وعلى ذلك فالعالم والإلٰه شىء واحد . ويقسم هذا المذهب الطبيعة إلى قسمين :

١ — الطبيعة الطابعة La nature naturante

٢ — الطبيعة المطبوعة La nature naturée

فالطبيعة الطابعة هى مجموع العلل الثابتة الدائمة الموجودة فى جوهر الإلٰه ؛ والمطبوعة هى مجموع الأعراض المتغيـرة المتبدلة التى لا تستقر على حال . فبحسب هـذه النظرية يكون الانسان مركباً من مجموع نوعين من الأحوال الإلٰهية ؛ وهما الفكر والجسد ولا يمكن أن يعتبر جوهراً ؛ وعلى ذلك فلا يوجد عقل ولا إرادة بل إرادات ، فمجموع الأحوال النفسية يوازيها مجموع الأحوال الجسدية، فهى تشبه نظرية الموازاة Le parallèlisme فهذه النظرية لا تقبل تأثير النفس فى الجسد ولا العكس بل تقول إن بينهما موازاة فقط ؛ وهى تنكر الحرية ؛ واعتراضنا عليها



الوحدة والجريمة

للكاتب الانكليزي القدير لورد ليتون

للأستاذ أبو جاويد أكمل

ولدت انجلترا ولكنى قضيت الأيام الأولى من عمرى فى بلدة نائية أجنبية ، وليس لى إخوة ولا أخوات ، وقد توفيت والدتى وأنا فى المهد فوجدت فى والدى الرفيق والمعلم والصديق ، وقد كان هذا الوالد الأخ الأصغر لأسرة شريفة وبيت عريق . أما ما حدا به إلى ترك بلدته وأصدقائه وتجنب المجتمعات والإقامة ببلدة كالصخرة فقصة قائمة بذاتها لا دخل لها بقصتى هذه

قلت إن والدى أقام ببلدة كالصخرة لأن بلدتنا لم تكن فى الواقع إلا كذلك : قفار حالكة عرضة للسافيات ، وأشجار عجزت عن النمو ، وعشب جاف ، وتجاويف لم تهتد إليها النجوم ولم يعرف ضوء الشمس مكانها إلا من بعض فجوات بالصخور التى تعلوها ، تجتازها مياه قاتمة مغبرة ترغى وتزبد أثناء سيرها فى طريقها الصخرى . هضاب غطتها الثلوج المتراكمة تأوى إليها الطيور الجارحة وينبعث منها صوتها المرعب المخيف إلى عنان السماء التى أبت أن تتدثر بالسحب على ما بها من شحوب وخوف وهرم . كل هذا ينم على حال تلك البلدة التى سلخت بها الأيام الأولى من حياتى . أما مناخها فلم يغير من المناظر التى تحيط بمنزلى إلا قليلاً وإن كان فى بعض الأحياء الأخرى يحل صيفها الفاجيء الذى لا يعقبه خريف بشهوره الثلاثة لطول شتائها ؛ وربما فى فترات قصيرة الأمد يذوب الثلج فى الأودية وتفيض المياه ويظهر نبات أصفر غريب يفتر ثغره عن بسمات خبيثة موجهة لبعض أجزاء من هـذه الصخرة العالية لأمثال هذه المناظر التافهة من تقلبات الفصول . قضيت أيام حياتى عاماً

هو نفس الاعتراض على النظرية المادية السابق

أما (ليبنيز Lèibniz) ؛ فيقول إن مذهب الحلول هو مذهب فاسد لا يستند إلى مبدأ ديكارت . ويجب أن تكون هذه المبادئ نفسها فاسدة لأنه لا يمكن أن ينتج الفاسد من الصحيح ، فهو إذن ينتقد مبدأ ديكارت . وقد وضع نظرية تدعى (نظرية الموناد Monàde) التى لا تقبل أن الجوهر هو إمتداد بل هو فى القوة . فالروح والجسد من طبيعة واحدة ؛ وبما أن النفس مركبة من موناد واحد فالانعكاسات التى تنعكس فيها تظهر جلية ، بعكس الجسد المركب من مجموع الموناد . فالانعكاسات فيه مختلطة وكل موناد ينعكس على الآخر ، فموناد النفس ينعكس على الجسد ؛ وموناد الجسد ينعكس فى موناد النفس ؛ على أن ليبنيز لا يستطيع أن يقبل كيف يؤثر جسم فى جسم فيقول : « أخذت أتأمل فى مسألة إتحاد الروح بالجسد ، فلم أجد واسطة تدخل بعض أشياء فى النفس ، وبالعكس لم أدرك أن جوهراً يؤثر فى جوهر ؛ فلا أستطيع قبول تأثير الجواهر بل أقول : لا يؤثر إلا الاله » ومن هنا نشأت نظريته المسماة (نظرية التناسق Harmonie pèctablie) التى يقول فيها : إن كل موناد هو عبارة عن عالم صغير يعكس كل العوالم الأخرى ولكن بارادة الاله وحده . ويقول أيضاً : إن الاله خلق النفس أو أى وحدة أخرى حقيقية ؛ بصورة أن كل شكل يتولد داخلها بعضويته بالنسبة إليها : وبصورة متوافقة تماماً مع الأشياء الخارجية ؛ وهذا التوافق مراد منه — أى من قبل الاله — ولعمرى إن نظريات ليبنيز لهى خلاصة ما توصل إليه جمهور الفلاسفة فى أمر الروح ؛ ولقد انكشفت له الحجب عن الحقيقة ، وهو الفيلسوف الأوحد الذى يكاد يقترب من الحقيقة الناصعة

محمد حسن البقاعى

فماماً . وكان والدى مغرماً بالعلوم الطبيعية ومشاركاً فى باقى العلوم فدرس لى كل ما عنده . وكان للطبيعة الفضل فى سد النقص بما أوحت إلى قلبي من دروس عميقة صامتة وهى تكشر عن نابها وتعبس . علمت قدمى الركل وذراعى اللكم ونفثت فى رغباتى روح الحياة وألهمت طباعي الجد لا الهزل . علمتنى كيف أعانقها وإن كان قوامها معوجاً وشكلها غير مغر . أفر من سواها وأهرب من مصادقة رجل وأشنى من ابتسامة أنثى . أهرب من بكاء الطفولة وأخشى من التقيد والآمال وملذات الوجود كما أخشى من اللعنة والعذاب؛ ومع ذلك كانت لى فى هــذه الصخرة العابسة وتحت هذه السماء الشاحبة متعات لا يهتدى إلى كنهها أهل الحضر الذين يجدون لذتهم في أريج المطر وعبيق الورد، فما هذه المتعات؟ إن لها من المتنوعات والأشكال المختلفة عشرات الألوف كما لها من أفياء السرور، ولكن ليس لها من الأسماء المتداولة إلا اسم واحد، فما هي هذه المتعات؟ هي «الوحدة»

مات والدى وأنا فى الثامنة عشرة فانتقلت إلى كنف عمى وأزمعت الرحيل إلى لندن فوصلتها نحيفاً عبوساً مفتول الساعد قوى البنية؛ بيد أنى فى نظر من حولى كنت وحشاً فى هيئتى وطباعى . كان لهم أن يضحكوا منى، ولكنى أرهبتهم بصورتى؛ وكان لهم أن يغيروا من طبعى، ولكنى أثرت فيهم وألقيت على بهجتهم رهبة فكانوا وجلين منى وإن لم أتكلم إلا نادراً ولم أجالسهم إلا مجالس الغريب الصامت النقاد . ما من أحد منهم يستطيع معاشرتى ويكون مسروراً أو مرتاحاً . هذا ما شعرت به وقد أبغضهم إذ لم يمنحونى حبهم

مضت ثلاث سنين بلغت فيها سن الرشد، فطالبت بثروتى واحتقرت الحياة الاجتماعية، وذبت شوقاً مرة أخرى إلى الوحدة، فصممت على الرحيل إلى الأراضى النائية الخاليــة من السكان، تلك الأراضى التى لم يرجع منها زائر يتحدث عنها ممن طوحت بهم الأقدار فى أحضانها

استأذنت عمى وزوجه وأولاده وبدأت الحج فاجتزت الرمال المحرقة، وقطعت الفيافى الشاسعة، حتى وصلت إلى غابات أفريقيا الكثيفة التى لم تطأها قدم، ولم يشوش صوت إنسان هــذا الجلال المهيب الذى يخيم على وحدتها كما كان يخيم قبل الوجود على العوالم المضطربة . هناك حيث تنمو الفطرة الأزلية وتذبل بغير إزعاج أو تغيير يطرأ عليها من اضطراب ما يحيط بها من العوالم . هناك حيث تنبت البذور أشجاراً تعيش أعماراً لا تحصى ولا تعد، ثم تتساقط أوراقها ويسطو عليها البلى ويعتريها الفساد ويدركها الفناء . هناك حيث يخطو الزمن المتثاقل لم يشهد تقلباته الهائلة الصامتة إلا أسد شارد، أو أفعوان جسيم، يكبر مائة مرة تلك البوا التى يباهى السائحون برؤيتها . هناك تحت الظلال الوارفة التي آوى إليها وقت القيلولة كنت أسمع وقع أقدام كالجند وأصغى إلى وسوسة الأشجار الباسقة وهى تدك وتنهدم، وأرى من خلال فروع الأشجار الملتفة البهموث عابراً سبيله الوعر وعيناه تتقدان كالجمر وأنيابه البيضاء فى فكه الشرس جاثمة براقة كأعمدة من الصوان تشع فى غار . ذلك هو الوحش الذى جعلت له دون غيره هذه الفدافد موطناً؛ ذلك هو الوحش الذى لم يتبدل من يوم أن عرفت المياه سبيلها فى الكون؛ ذلك هو الوحش الذي لم تبصره عين آدمى غيرى

تسللت فصول الأعوام لم أحصها عداً، إذ لا أنيس يحببها إلىّ، ولا أثر يترسم من أعمال ابن آدم القذرة ينغضنى فيها . أقول كرت الفصول ونضج شبابى حتى بلغت الرجولة وجلل الشيب مفرق بالثغام، ولم ألبث أن استولى علىّ ميل دفين لا يقر على حال وناجيت قلبي المذنب أن لا بد من نظرة أو عودة إلى عشيرتى

فقلت أطوى الفدافد إلى أن بلغت المدائن فتدثرت بلباس أهلها إذ لم أكن فى البيداء إلا عارى الجسد، ولما بلغت الثغر أقلتنى سفينة إلى انجلترا كان فيها رجل هو وحده الذى لم يتجنب صداقتي ولم يخش غضبي، يستولى عليه النزق، ويملأه الغرور، ويتيه عجباً كما يختال عادة هؤلاء الذين استوطنوا المدائن، واتخذوا الكلام غذاء عقولهم . كان طفيليًا سخيفاً ونسيجاً قذراً من آراء سافلة، وكان الرعب الشائن هو الخصلة الفريدة التى لم تفارقها نفسه، فحال أن ترهبه أو تسكته أو تهزمه؛ يتعقبنى دائماً ويلازمنى كظلى ليس لقوة أن تنزعه منى، وكلما بصرت به شعرت بدوار، وكان من هؤلاء الطغام المحتقرين الذين ترتعد الفرائص لرؤيتهم

كنت أقاطعه مراراً كلما خاطبنى . ولكم هممت أن أقبض عليه وأقذف به إلى البحر للحيتان التى كانت تسبح ليل نهار حول السفينة بعيون براقة وأنياب تواقة، إلا أن نظرات الجميع كانت

متجهة إلينا فكبحت جماح نفسي وعدلت عن ذلك مغمضاً عيني على مضض؛ وكلما فتحتهما ثانية وجدته بجانبي وصوته الأجش يرن في أذني الكارهة سماعه

في ذات ليلة تنبهت من نومي على صياح الرجال وهم يقسمون فأسرعت إلى سطح السفين وكنا قد ارتطمنا بصخرة فما أروعه منظرا! إنه كان هائلا. فضوء القمر هادىء والبحر على فيروزته نائم. في وسط هذا السكون الصامت الناعم الذي شمل كل شيء امحى أثر ثلثمائة وخمسين نسمة من الوجود. لزمت عزلتي لم أساعد أحداً من المغرقين بل ظللت أنظر، وإذا بصوت كصوت أفعى ينساب إلى أذني فالتفت ورأيت مزعجي وقد انعكس ضوء القمر على وجهه وهو يتمتم كالسكارى وعينه الذابلة الزرقاء تحملق وهو يقول: لا نفترق حتى في هذا المكان

جرى الدم حاراً في عروق وعزمت على أن أرميه في البحر الذي كان يغمرنا سريعاً، ولكن خيل إلى أن القمر يرمقني كما ترمقني عين السماء ولم أتجاسر على أن أقتله. ولما كنت لا أستطيع البقاء كي أموت مع المغرقين قذفت بنفسي نحو صخرة وقد طاردني حوت فأرهبته، وبعد برهة وجيزة كان لديه القدر الكافي لإشباع نهمه سمعت دوياً فصيحات يأس ممتزجة مزعجة، يأس ثلثمائة وخمسين قلباً سكنت في لحظة. قلت في نفسي وقد داخلني سرور عميق إن صوته لا محالة بين أصواتهم وقد افترقنا. وما وصلت الشاطىء حتى اضطجعت للنوم

وفي صباح اليوم الثاني انفتحت عيناي على أرض أجمل من أحلام الشباب وقد ابتسمت الشمس وأشرقت على أنهار فضية، ومالت الأشجار بثمار أرجوانية عسجدية، وتلألأ كالماس الندى في أرض تحلت بأزهار ذات أريج عبق ممتع، وقد حلقت عشرات الألوف من الطير بأجنحة براقة امتزجت ألوان قزح بها وطارت من على النبات والأشجار وملأت الجو تغريداً من سرورها. البحر يزأر تحت قدمي لا أثر في جبينه اللامع لتأكل سالف؛ أما السماء فكانت تدفىء عروق بأشعتها الذهبية التي لم تعترضها سحب. استيقظت نشيطاً مرحاً وجست خلال هذا المكان الجديد الذي اهتديت إليه فتسلقت تلا ووجدت أنني في جزيرة صغيرة لا أثر لرجل فيها، فارتاح قلبي وصحت طرباً لما رأيت أني سأكون وحيداً مرة أخرى، ولكني لم أكد أنحدر من التل وأصل إلى نهايته حتى لمحت رجلاً يقترب مني. نظرت إليه فارتاب، قلبي ثم دنا مني فاذا بالبغيض المضطهد يقف أمامي بعد أن نجا من الغرق! لقد عاد بتمتمته وعينه البراقة، وما لبث أن طوقني بذراعيه فشعرت بأن أفعى تحتضنني وقال بصوت أجش خشن: مرحى مرحى! سنبقى معاً أيها الصديق

فنظرت إليه وأنا مقطب الجبين لم أتلفظ بكلمة، وكان بجانب الشاطىء غار كبير فقصدته ودخلت فيه وهو يتبعني قائلا: سنعيش في هناء هنا لا نفترق إلى الأبد. فارتعشت شفتي وانقبضت يدي.

قد انتصف اليوم وغلبني الجوع فخرجت واصطدت غزالاً وشويت جزءاً منه على نار من أخشاب عطرية فأخذ الرجل يأكل ويزدرد ويقهقه، وتمنيت لو غص بالعظام. ولما انتهى قال ليس لدينا هنا إلا النذر اليسير من الانشراح، بيد أني لم أزل محافظاً على صمتي، وأخيراً تمدد في ركن من الغار ونام، فنظرت إليه ورأيت نومه عميقاً ثم خرجت ودحرجت حجراً كبيراً عند باب الغار واتخذت سبيلي إلى الجزء المقابل من الجزيرة. وجاء دوري في الضحك ووجدت غاراً آخر وهيأت فراشاً من العشب والأوراق، ومن الأخشاب صنعت منضدة، وتطلعت من فوهة الغار فرأيت البحار العريضة أمامي وقلت الآن سأكون منفرداً. ولما أقبل اليوم الثاني خرجت مرة أخرى واصطدت جدياً وعدت به وجهزته كما سبق. ولما كنت غير جائع لم أستطع تناول الطعام وهمت على وجهي في أنحاء الجزيرة، وعند عودتي كانت الشمس قد غربت فدخلت الغار، فجلست على فراشي؛ ولكن بجوار منضدتي كان الرجل الذي ظننت أني دفنته حياً بالغار الأول. وما إن وقع نظره عليّ حتى ضحك وألقى بالعظمة التي كان ينهشها وقال: آه لقد عولت على أن تعلمني خدعة نادرة، ولكن بالغار نفقاً لم تفطن إليه وقد خرجت منه للبحث عنك، وهذه مسألة هينة، لأن الجزيرة صغيرة، أما وقد تقابلنا فلا فراق بعد

فقلت: قم واتبعني. ففعل، وما ترك من الطعام كان قذى في عيني لأنه مد إليه يده، وأخيراً فكرت أأزرع ليحصد هـذا المخلوق؛ وشعرت بقلبي وقد تحجر

صعدت إلى صخرة عالية وقلت: انظر حولك وتطلع إلى هذا الجدول الذي يشطر الجزيرة فستقيم في شطر وأقيم في الآخر. ومن

المحال أن يجمعنا بقمة واحدة أو يضمنا خوان ، فقال : لا يتأتى ذلك إذ ليس فى مقدورى أن أصطاد الغزلان أو أقتنص الجديان . وإذا لم تتعهدنى بالغذاء فسأموت جوعاً . قلت : ألا توجد فاكهة وطيور تستطيع اقتناصها ، وسمك يقذف به البحر ؟ فقهقه وقال : لا أهواها كما أحب لحم الجديان والغزلان . فقلت : افهم الآن وانظر إلى هذا الحجر الداكن من الشاطئ الثانى لهذا الجدول . سأترك لك كل يوم عنده جدياً أو غزالاً حتى تنال من الطعام ما تشتهى ، ولكن إذا اجتزت هذا الجدول ودخلت فى ملكى فمن المؤكد أنى سأذبحك . نزلت من الصخرة وأرشدت الرجل إلى شاطئ الجدول ، فقال : لا أعرف السباحة ، فحملته على كتفى واجتزت الجدول ووجدت له غاراً وهيأت له فراشاً ومنضدة كما صنعت لنفسى ، ثم تركته ، ولما حاذيت شاطئ الجدول ثانية كدت أطير من الفرح ورفعت صوتي قائلاً : سأكون الآن وحيداً

مر يومان وأنا منفرد ، وفى الثالث خرجت للقنص وكان وقت القيلولة وأعيانى التعب حينما عدت ؛ وإذ دخلت مغارتى وجدت الرجل منطرحاً على فراشي وقال : ها ، ها . أنا هنا لقد سئمت الوحدة فى منزلى وجئت لأعيش معك ثانية . فعبست وقطبت ما بين حاجبي وقلت : من المؤكد أنى ذابحك . وجذبته من فراشي بذراعى وأخذته فى الهواء الطلق ووقفنا سويا على الرمال قريباً من البحر العظيم . استولى علىّ الخوف وداخلنى ذعر من السكون الشامل الذى يخيم على الوحدة مع أني لا أبالى بالناس لو أحاطوا بنا آلافاً لذبحته أمام أعينهم . وما راعنى إلا أننا وحيدان فى الصحراء لا ثالث معنا إلا الله . أرخيت عنان قبضتى ، وقلت له : أقسم لى بأنك لا تضايقنى بعد ، وأنك تحافظ على حدود منازلنا ولا تجتازها وأنا أعفو عنك . فقال : لا أستطيع القسم ، وخير لى أن أموت فى الحال من أن أفارق وجه آدمى صبوح ولو كان عدواً لى . ولهذه الكلمات عاودنى حنقى فطرحته أرضاً ووضعت قدمي على صدره ويدى فى عنقه ، فحاول الخلاص برهة ، ثم كان جثة هامدة . تولانى الخوف على أثر ذلك ؛ ولما نظرت إلى وجهه ظننت أنه عاد إلى الحياة وخيل إلى أن عينيه الذابلة الزرقاء ترنو إلى ، وأن ابتسامته الخبيثة لم تفارق شفتيه ، كما أن يديه اللتين كانتا قابضتين على الرمال فى حشرجة الموت امتدتا نحوى فضغطت على صدره مرة أخرى وحفرت حفيراً بجانب الشاطئ وواريته للتراب وقلت : صرت الآن وحيداً

هنا تجلت لى المعانى الحقيقيــة للوحدة والكآبة ولعدم الاستقرار وللعزلة ، فارتعشت وترنح كل عضو من هيكلى الجبار كأنى طفل ترتعد من الظلام فرائصه ، وقفّ شعر رأسى وتقلصت عضلاتى ، ولم أستطع البقاء فى هذه البقعة دقيقة واحدة ، ولو عاد إلى فيها شبابى . غادرتها هرباً وجبت هذه الجزيرة ، وكلما يممت شطر البحر اصطكت أسنانى واشتقت إلى صحراء شاسعة لا نهاية لها أتوارى فيها إلى الأبد

عند الغروب عدت إلى مغارتى وجلست فى زاوية من الفراش وأخفيت وجهى بكلتا الراحتين ، وتوهمت أنى أسمع ضوضاء فرفعت بصرى . ولعمرى لقد رأيت الرجل الذي أجهزت عليه ودفنته مقيما بالطرف الثانى من الفراش

هناك على بعد ست أقدام منى كان جالساً يشير إلى برأسه وينظر بعين شاحبة ويقهقه . وليت الأدبار من النار ودخلت فى غابة واستلقيت ، ولكن هناك على بعد ست أقدام منى كان وجه ذلك الرجل أيضاً

أيقظت شجاعتى وخاطبته ولكن لم يبد جواباً . حاولت القبض عليه فأفلت وكان على بعد ست أقدام ، ووجهه دائماً أمامى خررت على الأرض ساجداً وغطيت وجهى بأيديها وآليت لا أرفع رأسى حتى يحين الليل وينسدل الظلام

وقتئذ قمت وعدت إلى النار واضطجعت فى فراشى ، فنام بجانبى الرجل ، فغضبت وحاولت أن آخذ بتلابيبه فلم أتمكن

أخيراً أغمضت جفنى ورقد بجانبى . مرت الأيام والحال لا تتغير فى الداخل ولا فى الخارج ، فى المنزل وفى الفراش ، فى القيام وفى الرقاد ، بالليل أو أثناء النهار . هناك فى طرف فراشى وعلى بعد ست أقدام لا أكثر ولا أقل كان الميت الشاحب

وما كدت أنظر إلى الأرض الجميلة والسماء الصافية وإلى هذا الصاحب المخيف حتى قلت : لا أعيش وحيداً بعد ذلك ، فضحك الرجل بملء شدقيه . رست فى النهاية سفين فحييتها وأقلتنى وما وطئت قدمى سطحها حتى ظننت أنى بمنجى من مزعجى ، ولكن سرعان ما رأيته يعتلى سطحها ، واجتهدت عبثاً أن ألقيه فى اليم ، ولكنه كان بجانبى دائماً يأكل معى وينام كسابق عهده وصلت إلى مسقط رأسى واندمجت فى الزحام . شهدت الولائم وسمعت الألحان ، جملت ثلاثين رجلاً يجالسون معى وظللت أراقبه



تنظيم أوراق البردى المصرية

كانت الحكومة المصرية قد استدعت فى العام الماضى العلامة الأثرى الألمانى الدكتور هوجو إبشر أمين المحفوظات البردية فى متحف برلين ليقوم بإصلاح مجموعة البردى المصرية وتنظيمها . وفى المتحف المصرى مجموعة كبيرة من هذه الوثائق القديمة التى لم تنظم ولم تعرف جميع محتوياتها بعد ؛ وقد قدم الدكتور إبشر إلى مصر فى شهر مايو الماضى وقضى ثلاثة أشهر فى تنظيم المجموعة البردية بالمتحف المصرى ، ولكنه لم يستطع يومئذ أن يتم كل مهمته ، وما زال كثير من الوثائق البردية فى حاجة إلى عنايته

ومن ثم فقد استدعى الدكتور إبشر لاستئناف عمله فى القاهرة مرة أخرى ؛ وقد قدم العلامة إلينا منذ أيام قلائل ليتم تنظيم مجموعة البردى ؛ وسوف ينتهز هذه الفرصة ليزور البقاع الأثرية التى وجدت فيها مجموعات من البردى ، ولا سيما منطقة بحيرة قارون التى وجدت فيها منذ أعوام أوراق بردية ثمينة تحتوى

ليلاً ونهاراً ، ولكن رفاقى كانوا واحداً وثلاثين وأخيرهم كان أكثرهم ألفة وعشرة

تخاطبت نفسى : أهذا وهم أم هو خداع الحواس ؟ ولا بد أن أستشير الاخصائيين فى هذا الاضطراب لكي أعود إلى الوحدة ؛ دعوت عرافاً ذائع الصيت فى طرد ما علق برأسى من الأوهام واستحلفته أن يكتم السر ورويت له قصتى ، وكان رجلاً جريئاً عالماً فوعدني الخلاص والنجاة ، ثم سألنى مبتسماً : أين هذا الشخص الآن فانى لا أراه ، وإن كان حقاً ما تقول فان حواسى لا تقل إدراكا عن حواسك ؟ وكان فى خطابه كما يكون الأستاذ مع تلميذه وأنا لا أعارضه ولا أساجله ، وأمرت الخدم أن يهيئوا غرفة ويكنسوا أرضها بالرمل . ولما صدعوا بالأمر التمست من طبيبى أن يتبعنى إليها وأحكمت رتاجها ، فسألنى : أين الشخص الآن ؟ فقلت : إنه على بعد ست

على شروح كاملة لبعض كتب الفيلسوف مانى ؛ وشروح أخرى لمذهب زرادشت ؛ وقد نقلت هذه المجموعات من مصر سراً إلى برلين ، وتولى الدكتور إبشر تنظيمها وقراءتها ، وكان لظهورها ضجة كبيرة فى جميع الأوساط الأثرية

وقد روت الصحف الألمانية بهذه المناسبة أن الدكتور إبشر سيقوم لجلالة ملك مصر بمهمة خاصة ، وهى إصلاح خريطة قديمة ثمينة لإفريقية كانت ملكاً لمحمد على باشا رأس الأسرة المالكة ، وقد بليت وتآكلت بعض أجزائها ، وكان المغفور له الملك فؤاد يتوق إلى إصلاحها وردها إلى أصلها ؛ وسيقوم الدكتور إبشر بهذه المهمة ، وهو اليوم أشهر علماء الصيانة الأثرية

معرضان للفن الأجنبى فى مصر

نظم فى هذا الأسبوع معرضان للفن الأجنبي بدار الجمعية الزراعية الملكية بالقاهرة ، أحدهما معرض هولندى للتجارة والصناعة ، وقد افتتح فى الخامس من فبراير الجارى ؛ والثانى

أقدام منا . فابتسم الطبيب فأهبت به أن ينظر إلى الأرض وأشرت إلى بقعة منها قائلا له : ما ذا ترى ؟ فارتجف وتعلق بى حتى لا يهوى ثم قال حينما دخلنا : كان الرمل ناعماً ولكنى أرى فى هذه البقعة أثراً لأقدام آدمى ، فضحكت ومشيت مع رفيق الحى إلى الأمام وقلت له : انظر ماذا يتبعنا كلما تحركنا ، فحاول الطبيب أن يتنفس الصعداء ثم قال : صاحب هذه الأقدام ، فصحت به فجأة صيحة اليائس المغضوب : ألا تستطيع أن تدبرنى وهل قضى على ألا أعيش بعد منفرداً ؟ غير أنى رأيت آثار هذا الهالك تخط على الرمل هذه الكلمات :

« لم تخلق الوحدة للمجرمين . الأفكار السيئة رفيقات الساعة ، ولكن الأعمال السيئة صديقات إلى قيام الساعة »

أبو حامد أكمل

معرض فرنسى للفنون الجميلة والزخارف الفنية ، وقد افتتح فى الثامن من فبراير ، وتفضل صاحب الجلالة الملك فاروق الأول بافتتاحه بحضور مسيو جان زاي وزير المعارف الفرنسية الذى قدم إلى مصر خصيصاً لذلك ، وعدة من الشخصيات الكبيرة مصرية وأجنبية . وقد بذلت الحكومة الفرنسية فى تنسيق هذا المعرض جهوداً عظيمة ، وعرضت فيه مجموعات فنية نادرة من الصور والتحف الفنية الدقيقة استحضرت من فرنسا ؛ وهذا دليل جديد على ما تبديه فرنسا في العهد الأخير من الاهتمام بتوطيد نفوذها الثقافى بمصر بعد أن تطورت الأحوال السياسية والاجتماعية عقب عقد المعاهدة المصرية وإلغاء الامتيازات الأجنبية

ذكرى الفيلسوف شوبنهاور

تحتفل ألمانيا فى العشرين من الشهر الجارى بذكرى فيلسوفها العظيم شوبنهاور لمناسبة انقضاء مائة وخمسين عاماً على مولده . وتقام لهذه الذكرى بالأخص حفلات عظيمة فى مدينة دانتزيج مسقط رأس الفيلسوف ومدينة فرانكفورت حيث قضى شطراً عظيما من حياته . وستذاع فى كل منهما محاضرات وخطب بالراديو عن الفيلسوف الراحل وآثاره وآرائه ، ويقام فى كل منهما حفل تذكارى رسمى، وتوضع أكاليل الزهر التى ترسلها مختلف الهيئات العلمية على قبره فى فرانكفورت

وكان مولد الفيلسوف فى دانتزيج سنة ١٧٨٨، ولكنه لم يلبث بها طويلا فغادرها مع أسرته سنة ١٧٩٣ . وبعد أن قضى حداثة مضطربة ، درس فى برلين وجتنجن ، ثم قدم إلى فرانكفورت فى سنة ١٨٣١ فاستقر بها حتى وفاته فى سنة ١٨٦٠ . وفى سنة ١٩١١ ألفت فى ألمانيا جمعية شوبنهاور ، وفى سنة ١٩٢٩ نظمت هذه الجمعية جميع الوثائق والمراجع المتعلقة بحياته وفلسفته ، وأنشأت مكتبة عظيمة نادرة تضم جميع الكتب والشروح المتعلقة بفلسفته

وقد كان شوبنهاور من أعظم فلاسفة العصر الحديث ، وفلسفته تمتاز بطابع واضح من التشاؤم ، وأعظم كتبه هو كتاب « العالم كإرادة وفكرة » ، وفيه يبسط أعظم وأقوى آرائه ، ونظرياته الفلسفية ، وقد ترجم إلى معظم اللغات الحية . وله عدة كتب ورسائل فلسفية أخرى ، مثل كتاب « الإرادة فى الطبيعة » وكتاب « الأساس الرباعى لمبدأ العقل الكافى » ورسالة فى « الرؤيا واللون » وغيرها ، بيد أنهما دون كتابه الجامع قوة وطرافة . وقد تأثر شوبنهاور فى فلسفته بأفلاطون وكانت تأثيراً كبيراً ؛ بيد أنه يعتبر مؤسس مذهب فلسفى جديد فى التشاؤم . وقد كان لتفكيره ونظرياته أثر كبير فى تطور الفلسفة الألمانية فى أواخر القرن التاسع عشر

من مكتشف أستراليا

ثار فى الأسابيع الأخيرة جدل علمى تاريخى بين الصحافتين الانكليزية والهولندية حول المكتشف الحقيق للقارة الأسترالية وذلك لمناسبة الاحتفالات التى أقيمت أخيراً فى أستراليا لمناسبة مرور مائة وخمسين عاماً على تأسيس أول مستعمرة أوربية فى خليج « بوتانى » ، والمعروف أن هنالك رأيين فى هذا الموضوع : الأول النظرية الهولندية ، وهى ترجع الفضل فى اكتشاف أستراليا إلى البحارة الهولنديين فى أواخر القرن السابع عشر ، والثانى نظرية بعض المؤرخين الانكليز وهى ترجع الفضل فى هذا الاكتشاف إلى الرحالة الانكليزى الكبتين كوك بين سنتى ١٧٧٦ و ١٧٧٩ . والواقع أن الرأى الأول أقوى وأرجح ، والبحارة الهولنديون هم أول من أطلق اسم أستراليا على هذه القارة ، وظهر هذا الاسم لأول مرة فى كتاب ظهر فى امستردام سنة ١٥٩٧ وسميت فيه هذه الأرض الجنوبية Terra Australis وقد كان البحارة الهولنديون يبحثون قبل ذلك عن قارة مجهولة فى الجنوب ، وهم الذين وضعوا أول تحديد علمى لموقعها

وقد بسط هذه النظرية العلامة المؤرخ الهولندى هيريس فى كتابه ، فذكر أن الرحالة الهولندى دوفكن اكتشف جزءاً من خليج كربنتاريا فى سنة ١٦٠٥ ؛ وفى سنة ١٦١٦ سار الرحالة ديرك هارتوجس إلى المياه الجنوبية فى السفينة الهولندية اندراخت ووصل حتى خليج شارك . وتدل وثائق العصر على أن هذا الرحالة هو أول أوربي وضع قدمه فى أستراليا

وعلى ذلك فانه من الخطأ أن ينسب فضل اكتشاف القارة الجنوبية إلى الكبتين كوك الذى لم يزر هذه المياه إلا بعد ذلك بنحو مائة وخمسين عاماً . على أن كثيراً من المؤرخين الانكليز يفضل هذه النظرية التى يستند إليها استعمار انكلترا للقارة الأوسترالية ، وما زال هذا الرأى يلقى على طلبة المدارس ؛ وقد كررته بعض الصحف الانكليزية فى المناسبة الأخيرة ، أما الكبتين كوك فان فضله لا ينكر فى اكتشاف الجزائر الأقيانوسية فى هذه المياه

مخطوط جديد للشاعر بيرون

لمناسبة الاحتفالات التى أقيمت أخيراً فى أثينا تخليداً للذكرى المائة والخمسين لمولد الشاعر الإنكليزى الأشهر (لورد بيرون) ، والتى أشارت إليها الرسالة في عددها الماضى ، أعلن الأستاذ سقراط كوجياس الأكاديمية الأثينية غداة الاحتفال بأنه عثر فى مخطوطات المكتبة الوطنية اليونانية على مخطوط جديد للشاعر الكبير هو عبارة عن القسم الأول لقصيدة « تشايلد هارولد » ؛ وفى ظهر المخطوط مذكرة بخط الشاعر عن إحدى قرى جزيرة دلفى . ومسودة القصيدة ملأى بالتصحيحات والتعديلات التى لم تظهر فيما ظهر من طبعات هذه القصيدة الشهيرة . ولم يعرف بعد كيف وجد هذا المخطوط فى المكتبة الوطنية ، ولكن وجد فى ذيله بالإنكليزية ما ترجمته : « مهدى إلى فرند كلادان المعجب باللورد بيرون ، من أخته أوجستالاى » أعنى أخت الشاعر ؛ ووجد هامش آخر فيه : إن المخطوط كتب بيد الشاعر ، وأهدى منه إلى كلادان هذا ، وهو أحد أشراف أثينا فى هذا العصر ومن هواة الخطوط الأثرية

موسم فاجنر فى لايبزج

فى أنباء ألمانيا الأخيرة أنه تبدأ منذ ١٣ فبراير الجارى فى مدينة لايبزج حفلات الموسيقى الشهير فاجنر ، وتمثل فيها أوبراته الخالدة كلها ، ومنها تآليف حداثته ، وسيراعى فى تنظيم أدوارها ، ما وضعه فاجنر نفسه فيما بعد . وقد استدعى بهذه المناسبة عدة من أكابر الفنانين الأجانب الذين اشتهروا لتمثيل أوبرات فاجنر إلى لايبزج للإشتراك فى هذا الموسم ، وسيعاد تمثيل هذه القطع الشهيرة وعددها ثلاث عشرة من ٢٠ أبريل إلى ١٩ يولية القادم ، وقد اتخذت استعدادات فنية وموسيقية عظيمة لجعل موسم فاجنر من أعظم المواسم الفنية العالمية ، واختيرت مدينة لايبزج لأنها مسقط رأس الموسيقى العظيم ، وفيها بزغ مجده الأول

مصير اللغة الانجليزية

أذاع ولز محاضرة من لندن عن اللغة الانجليزية فى ديسمبر الماضى تناول فيها جملة تنبؤات طريفة عن مستقبل هذه اللغة ، وقد وازن ولز بين الانجليزية واللاتينية ، وبينها وبين اللغات السامية فطمأن سامعيه إلى استحالة أن يكون مصير الانجليزية كمصير هذه اللغات ؛ فالظروف التى ساعدت على تمزيق اللاتينية مثلا إلى فرنسية وإيطالية وقشتالية وقطلونية ... الخ قد زالت فى العصر الحديث ، أو أن الاختراعات ، وأهمها البخار والكهرباء والطباعة والراديو ، قد جنبت اللغات عامة والانجليزية خاصة شر المنقلب الذى انتهى إليه حال اللغة اللاتينية

الانجليزية لغة عالمية

وقد تنبأ ولز أن الانجليزية ستكون لغة عالمية فى العاجل القريب ، لأن الثلثمائة مليون الذين يتكلمونها في مختلف أنحاء العالم قد اختاروها أداة للتعبير عن خلجاتهم مختارين غير مجبورين ، وذلك لما آنسوا فيها من السهولة واليسر والطواعية ... ولكن ولز يبدى تألمه من بطء انتشار الانجليزية فى غير الامبراطورية البريطانية من سائر الدول ، حتى فى الولايات المتحدة الأمريكية التى تنازع الانجليزية فيها منازعة قوية لغات شتى ، أهمها الفرنسية والاسبانية والألمانية

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

6 me Année, No . 242

Lundi - 21 - 2 - 1938

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٤٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ ذى الحجة سنة ١٣٥٦ — ٢١ فبراير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

صفحة

صاحب المعالى هيكل باشا

أنت يا أخى أول أديب فى مصر العظيمة رفعه الأدب المحض إلى منصب الوزير ورتبة الباشا . وأقول « الأدب المحض » وإن كنت لا أنكر أن لثقافتك وكياستك وسياستك أثراً ظاهراً فى هذا الحادث الأدبى الخطير : لأن الأدب بمعناه الأصح لا يكمل إلا بهذه الصفات ، ولأن أدبك على الأخص مثال الأدب الكامل الذى يقوم على ألزم الخصائص للانسان وهى سراوة الخلق وذكاء القريحة وسداد الذهن وسعة الثقافة . وإذن لانستطيع أن نحلل تركيبك الأدبى إلى فقيه وأديب وصحفى وسياسى ، مادام أسلوبك الفكرى مزيجا من أولئك جميعاً . فاذا كان غيرك قد وصل بالأدب من غير خلق ، أو بالصحافة من غير أدب ، أو بالسياسة من غير صحافة ، فإنك لم تصل إلا بهذا الأدب الشامل الذى يشرق فيه وميض الروح ويسيطر عليه نبل النفس . لذلك نعد بلوغك هذه الغاية من المجد انتصاراً للأدب المجاهد ، وترضية للقلم المجهود ، وتمكيناً للفكر الجميل أن يؤدى رسالته فى عالم أوسع وعلى طريق أسدّ ؛ ولذلك نجعلك من بين الوزراء الصلة الطبيعية بيننا وبين أولى الأمر ؛ فقد قطعوا أسبابنا الواصلة ، وسفهوا حقوقنا المعلومة ، واعتقدوا أننا

حَلْيٌ تزين ولا تنفع ، ودُمًى توجد ولا تعيش

فمن غيرك اليوم يا باشا يستطيع أن يسمعهم أن الأدباء بعد انقطاع الوحي هم رسل الله وكتبه : في أقلامهم أقباس الهداية ، وفي أفواههم أبواق اليقظة ، وفي أيمانهم مفاتح الخلود ؟

مَن غيرك اليوم يا باشا يستطيع أن يقنعهم أن الشعب بغير صوتهم لا ينهض ، والجيش بغير روحهم لا ينتصر ، والرأى بغير منطقهم لا يجتمع ، والحكومة بغير سلطانهم لا تحكم ؟

من غيرك يا باشا يستطيع اليوم أن يقول لولاة الأمر، لِعَيشه فيهم وقربه منهم ، إن الأدباء هم الذين ينشئون الصحف للجمهور ، ويؤلفون الكتب للقراء ، ويدبجون الخطب للزعماء ، ويصوغون الشعر للوزراء ، ويكتبون التاريخ للملوك ؟

الأدب يا باشا كما تعلم هو شعاع الحس اللطيف ، وعطر النفس الزكية ، وزاد الإنسانية الدائبة من أفكار السلف وتجارب الماضي

والأدباء يا باشا كما تعلم هم أوصياء الخليقة على تراثها العقلي ، يحفظونه ويزيدونه ، ويتصرفون فيه ، ويجعلون منه مرشداً للحائر وقصداً للجائر وسنداً للضعيف

وقد عرفت الأمم الرشيدة فضل الأدب والأدباء فأطاعوهم كالقادة ، واتبعوهم كالرسل، ورفعوهم كالمصابيح . ولكن الأدب في مصر كما تعلم يا باشا لا يزال فريسة الإهمال والفوضى : يكابد طغيان السياسة في استسلام ، ويجاهد سلطان الجهالة في يأس ، ويقاسي مضض الحرمان في ضراعة ؛ وأولوا الأمر يقابلون جهده بالاستهانة ، ويكافئون بره بالعقوق ، ويستغلون سلطانه في الصحف وعلى المنابر ، ثم لا يدخلونه في الحساب يوم الغنيمة . والأدباء في مصر كما تعلم يا باشا لا ينفكون يؤدون رسالة الروح المضنية في بسالة وصبر ، وقرائحهم المجهودة تنضح بالمداد كما تنضح الجباه الناصبة بالعرق والصدور المحاربة بالدم ؛ ثم لا يلقون ممن يحملون لهم الشعلة إلا ما لقي أصحاب الرسالات من الكفران الغادر والخذلان المهين . وما حال الأدب في الأمة الأمية إلا كحال النبوة في الأمة المشركة ، إذا لم يكن له سند من الله وعون من الحكومة ذهب ذهاب المصباح في عواصف البيد المظلمة

فالأديب المضطر إنما يشتق للقوت لا للفن ، ويسعى للحياة لا للمجد ، وينتج للحاضر لا للمستقبل ؛ وإذن لا يلون الأدب إلا كما ترى : بخسٌ في الكيف ، ونقصٌ في الكم ، وشعوذة في الوسيلة ، وإسفاف في الغاية

كل ذلك علمته وكابدته وشكوته أيام كنت معنا في الطريق المزدحم الصاخب ، تعرض على فقراء المعرفة غذاء العقل والروح من عصارة مخك وقلبك ، فيعرضون عنك ويأبون إلا خَنْزَرَةً تسوف التراب وتلغ في القذر .

فماذا أعددت يا باشا لهذه الأعصاب المحترقة التي لا تبغي من الناس إلا أن يستفيدوا من احتراقها النور والحرارة ؟

لا نريد أن نصف لك العقدة ولا أن نقترح عليك الحل ، فإن ذلك بجانب علمك وخبرتك وتجاربك أنفال وفضول . وقصارى ما نرتجيه أن تبسط الحكومة على الأدب ظل الحماية ، فما يستطيع لضعف دولته وجهل رعيته أن يستقل . نريد ألا تدعوه لأهواء الجمهور ودوافع الحاجة ، فإن في إخضاع الأدب لشهوات الناس وضرورات العيش إفساداً لملكة الذوق وتكديراً لنقاء الضمير وتشويهاً لجمال الوحي .

ليس الأدب من المهانة بحيث تتخطاه رغبة الأمة . وليس الأدباء من الكثرة بحيث تضيق بهم معونة الحكومة ؛ ولكن السياسة الحزبية في البلد الجاهل تقلب الأوضاع ، وتغير المقاييس ، وتعامل كل فرد بحسب ما له من الدالة ، وتقدر كل شيء بمقدار ما فيه من السياسة . فالكتابة في غير السياسة لغو ، والسياسة على غير مذهبهم هَذَر !

فهل آن للأدب أن تنهض به عواثر الجدود ، وللأدباء أن ترِفَ عليهم ذوابل المنى ؟ إن الأدب الذي رفعك هذه المكانة وبوأك هذا المجلس ينتظر منك البر ، وإن الأدباء الذين صافيتهم على الشدة وعاهدتهم على التأييد يرجون منك الوفاء . فاخرج من عهدة ما وعدت يا صديقي واليد طائلة والرأى نافذ ، قبل أن تعود بعد عهد طويل زاهر إلى المكتب الذي ليس فوقه محفظة ، ولا أمام بابه حاجب ، فلا تملك إلا ما تملك من الشكاة والألم

احمد حسن الزيات

تحيـــة شوبنهور

للأستاذ عباس محمود العقاد

صديقنا القديم من جديد !

يوم قرأت أنهم سيحتفلون فى معاهد الغرب الفلسفية بانقضاء مائة وخمسين سنة على مولد « شوبنهور » كان شعورى بهذا النبأ كشعور السالك فى الطريق يلقاه على حين غرة صديق قديم مستحب اللقاء مذكور البدوات ، على شوف إلى مراجعة عهده السابق واستئناف عشرته القديمة

هذا أنت يا صاح ؟

وأين كل هذا الزمن الطويل ؟

فقد مضت فترة ليست بالقصيرة لم أصاحب فيها هذا « المعرى » من بنى الجرمان ولم أراجع كتبه ولم أساجل آراءه وخواطره وأفانين تفكيره ، فلما سمعت أنه سينبعث من جديد فى ذكرى ميلاده ، وأن ميلاد إمام المتشائمين القائلين بأن الولادة أدعى « الذكريات » إلى الحزن والندم — سيصبح فى الملأ كله موعداً للغبطة والتبجيل ، وأن الدنيا ستشهد هذا الحادث المتناقض كما شهدت نقائض شوبنهور فى إبان حياته — عادت إلى الذهن تلك النقائض كلها وتلك الطوائف المقرونة بها ، ولاح لى شوبنهور الظريف وهو أول ما يلوح للذهن منه قبل الفيلسوف وقبل الشيخ الوقور

وتلك أولى النقائض والبدوات من صاحبنا القديم : فيلسوف متشائم ولا يذكره الذاكر إلا ابتسم لفكاهاته ونكاته وغرائب عاداته ، وولع الدنيا بمناوأته واستخراج شكاياته

فإذا ذكرت « شوبنهور » فأنت تذكر الرجل الذى يبشر بالفناء ويستنكر الحياة ، ثم يسمع بظهور الهواء الأصفر فى برلين فلا يقف فى طريقه هرباً حتى يبلغ فرنكفورت ، ولا يعود منها حتى بعد جلاء الوباء بسنين

وتذكر الحكيم الزاهد فى عرض الحياة وهو لا يترك دانقاً من حسابه فى المصرف ، ولا يضع النقد إلا فى صندوق مكتوب عليه « مادة طبية » ... كما فعل العطار الذى يكتب عنوان الفلفل على صندوق الحلوى !

وتذكر الراهب الذى يعربد حتى يلحق به تلاميذه فى بيوت بنات الهوى ، وينعى لذاذات الدنيا وقد أخذ من جميع لذاذاتها بما استطاع من نصيب

وتذكر المبشر بالبرهمية فى بلاد الغرب وقد سمى كلبه « أتما » أى روح الوجود !! وأبى الصبية من جيرانه إلا أن يسموه شوبنهور الصغير ، إذ لم يكن فى البيت صغير غير ذلك الكلب المسكين ... الذى قال بعض المعجبين بالفيلسوف إنه هو أيضاً لا بد أن يكون من المتشائمين ، ولا بد أن يبدو على وجهه ما يبدو على وجه أستاذه من عبوس ظريف

وتذكر الفيلسوف وقد جلس إلى مائدته فى المطعم وأخرج من جيبه كعادته كل يوم جنيهاً انجليزياً فوضعه على المائدة بحيث يراه الحاضرون ، ثم يفرغ من طعامه فيرده إلى جيبه ويقول : « قد كسبت الرهان » ... أي رهان ؟؟ رهانه مع نفسه أن زوار المطعم من الضباط لن يتكلموا ذلك اليوم فى شئ غير النساء والكلاب وخيل السباق !

وتذكر طالب الجائزة من جامعة كوبنهاجن برسالة لا نظير لها فى كتابات عصره ، فلما ضنت عليه الجامعة بالجائزة — غفلة منها عن قيمة الرسالة — طبعها وكتب عليها بالخط العريض : « لم تظفر بالجائزة من جامعة كوبنهاجن » ... كأن هذا تزكية لها وضرب من الاعلان !

وتذكر المتهكم الحانق الذى نقم على بعض الممثلين ارتجاله العبارات من غير كلام المؤلف حتى شكاه الكتاب إلى مدير المسرح فنهاه وأنذره بالفصل إن عاد إلى مجونه... قال شوبنهور : فلما ظهر بعدها فى المسرح على ظهر جواده نسى الجواد موقفه وأتى بصوت لا يسمح به فى مسارح التمثيل ، فارتبك الممثل وصاح بالجواد : ألم تعلم أنهم يحرمون علينا الارتجال بغير تلقين ؟!

تذكر هذا وأشباهه قبل أن يطرأ على بالك شأن الفيلسوف العظيم وتفصيل ذلك المذهب المستفيض الزاخر المجتمع من بديهة الحكمة وسليقة الفن وشعور الرجل المتصل بالحياة على غير انقطاع ولا مجافاة ، كمجافاة النساك فى صوامع الدين ، أو النساك

فى صوامع العلم والدراسة

فإذا ذكرت ذلك المذهب فلملك واجد فيه من وشائج القربى مثل ما وجدت من طرائف صاحبه ونقائضه وأفانينه . لأنه مذهب شعر بفحواه كل شاب عالج الفلسفة واشتغل بالتفكير فى أوائل هذا القرن العشرين

لقد كان التشاؤم طبيعياً معقولاً فى زمان شوبنهور فأصبح طبيعياً معقولاً أن يتصل الرأى والشعور بينه وبين الشبان فى مثل عهده وفى مثل حاله وإن لم يكونوا على مثاله فى مزاجه وأطواره

وخير ما قرأناه فى تعليل التشاؤم عند ذلك الفيلسوف الكبير كلمة « دورانت » مقدم طبعته وملخص فلسفته حيث يقول عنه وعن بعض معاصريه :

« لماذا كان النصف الأول من القرن التاسع عشر مبعثاً لتلك الأصوات من أصداء العصر ينطق بها الشعراء المتشائمون على غرار بيرون فى انجلترا ودى موسيه فى فرانسا وهينى فى ألمانيا وليوباردى فى إيطاليا وبوشكين ولرمنتوف فى روسيا ، عدا الموسيقيين من أضراب شوبير وشومان وشوبان بل بيتهوفن المتشائم الذى حاول أن يقنع نفسه أنه من المتفائلين ؟ بل فوق ذلك جميعه فلسفة الحكيم العميق فى تشاؤمه ارثر شوبنهور ؟

« لقد ظهرت مجموعة الويل والهول المسماة بـ « الدنيا إرادة وفكرة » سنة ١٨١٨ وكانت سنة الحلف المقدس بعد أن قضى الأمر فى معركة واترلو وخمدت الثورة وقذفت الحوادث بابن الثورة إلى صخرة فى البحر السحيق يبلى عليها ويذوى . وإن قبساً من تقديس شوبنهور للإرادة مأخوذ ولا شك من ذلك الأقنوم الفخم المخضب بالدماء المجسد فى شخص ذلك الكورسيكى الصغير ، وإن قبساً من قنوطه وإحجامه عن الحياة مأخوذ ولا شك من جوانب جزيرة القديسة هيلانة حيث صارت الإرادة إلى الهزيمة والفشل فى النهاية ، وأصبح الموت وهو الظافر الوحيد المحوم على ميادين تلك الحروب ، وقد عاد البوربون إلى عرشهم ، ورجع الأمراء والنبلاء يطالبون بأرضهم ، وراح خيال الاسكندر الطامح إلى السلام يحتضن فى غفلة منه عصابة تقضى على التقدم من كل صوب وفى كل مكان . فقد ولى العصر العظيم وقعد جيتى يحمد الله على أنه ليس بالشاب الفتىّ فى عصر مفروغ منه مقضى عليه بالختام

« خشعت أوربا ، وانقرض ألوف الألوف من أشد الرجال ، وخربت بطاح واسمات ، وكتب على الحياة فى كل موضع على القارة الأوربية أن تبدأ من جديد وأن تبدأ من أعمق الأعماق كى تستعيد فى ألم وبطء شديد ذلك الفيض الذى التهمته الفتن والحروب . وكان شوبنهور يسيح خلال فرنسا والنمسا فى سنة ١٨٠٤ فيروعه ما يشهد من الفوضى والقذارة فى القرى ، ومن الفقر والبؤس بين الفلاحين ، ومن القلق والشقاء بين المدائن والحواضر . ذهبت حروب نابليون وأعداء نابليون وخلفت وراءها ندوب الويل والهلاك على وجه كل بقعة من هاتيك البقاع : فموسكو فى الرماد ، والبلاد الانجليزية على ما أصابها من فخر الانتصار قد مُنى فيها الفلاحون بكساد القمح وغلات الزراعة ، ومُنى فيها صناع المعامل بكل ما يبتلى به الصناع فى معمل لا رقيب عليه ولا حسيب ، وزاد تسريح الجنود فى نكبات البطالة . وروى كارليل عن أبيه فى تلك الآونة أن العمال كانوا يذهبون يومئذ فرادى إلى البرك والجداول يملأون بطونهم بالماء بدل الطعام ولا يعنيهم إلا أن يستروا ما بهم من الضنك عن الآخرين . ما كانت الحياة قط أفرغ من معنى ولا أخس مما كانت يومذاك »

هذا منشأ الفلسفة الشوبنهورية من أحوال السياسة وأطوار الدول والمجتمعات . ولهذه الفلسفة منشأ آخر من أطوار الفكر والعقيدة لا يقل فى أثره عن حروب نابليون وهزائم الجيوش ، وذاك هو شيوع الشك فى العقائد والأديان والأمثلة العليا بين الأوربيين بعد عصر النهضة العلمية وعصر الثورة الفرنسية ، فلا أمل فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا معنى للسعى ولا للقعود ، ولا خير فى التفكير ولا فى التسليم ، ولا مناص بعد ذلك من ترجمة هذه الحالة فى فلسفة منظمة منسوقة مقنعة كتلك التى بشر بها صاحبنا رسول التشاؤم ونذير الفناء

أي حالة هى أشبه بحالة الشاب القارئ فى أوائل القرن العشرين من حالة ذلك العصر أو حالة ذلك الانتقال ؟

كل شاب يخرج من حظيرة البيت إلى معترك العالم فإنما يخرج من دنيا أحلام وظنون إلى دنيا صراع لا هوادة فيه ، ولاسيما فى أوائل القرن العشرين حيث كان للعقائد سلطان ، وكان للأمثلة العليا بين الشرقيين خاصة مجال لم تضيقه الحقائق والتجاريب

لهذا كان بين شوبنهور وكثير من الشبان القارئين عندنا نسب قريب فى أوائل هذا القرن العشرين . ثم تقلبوا مع الحياة فنسوه بعض النسيان من أثر الواقع تارة ومن أثر التشاغل تارات ، أو من أثر التصحيح والتهذيب الذى لا محيص عنه مع تعاقب الأيام وتعدد القراءات

فلما قيل إن العالم سيحتفل بميلاد إمام المتشائمين كان فى القول ما يشبه الفكاهة والدعابة ؛ ولو قيل إن العالم سيحتفل بيوم وفاته لكان في القول بعض المجاراة لموضوع الاحتفال وصاحب المذهب . ولكن الرجل ظريف على الرغم منه ومن فلسفته ، فلتكن هذه من دعابات الزمن معه ، ومن وفاء الزمن له فى قرن واحد

أما فلسفة الرجل بتفاصيلها فيطول شرحها ولا يتسع لها مقال ولا سلسلة مقالات ، وهى مستمدة من حياته ومن سيرته ومن عصره . فمن عرف تاريخه عرف الكثير من بواعث آرائه وعلل أحكامه ، وعرف مكان الصدق فى المطابقة بين الوحى ومصدره وبين البيئة والتعبير عنها . ومجمل تلك الفلسفة فى سطرين : أن الإرادة هى صاحبة السلطان فى أعمال الأحياء وحركات الحياة ؛ وأن الإنسان يلتمس الأسباب والبراهين لأنه يريد ، ولا يريد لأنه يلتمس الأسباب والبراهين ؛ وأن الفكرة تلغى الإرادة وتشل الحركة وتنتهى بالحياة إلى سكون كسكون « النرفانا » عند الهنود ؛ وأن الإرادة تتعلق بالفردية ، أما الفكرة فتتعلق بالعمومية الشائعة فى الكون كله . ومن ثم يجىء الفن والدين والعبقرية على رأس الفكرة ومن وراء الإرادة أو من وراء عالم الأعمال والحركات ، فالمصير الذى يطوينا جميعاً ويطوى أعمالنا وآمالنا إنما هو الفناء أو ما يشبه الفناء

وفى مقال آخر سنطابق بين سيرة الرجل وفلسفته ، وبين العرض والجوهر فى هذه المطابقة . وحسبنا الآن وهم يحتفلون بميلاده فى الثانى والعشرين من شهر فبراير أن نزجى إلى ذكراه تحية الودة والإكبار ، وأن نهتف به : مرحى ! ومرحباً صديقنا القديم من جديد !

عباس محمود العقاد

غريب الهـــوى
في عيـــد القمر
للدكتور زكى مبارك

أتذكرُ يا قلبى ؟

أتذكرُ أن من الناس من يقول : (عيد الأضحى) ، وأن منهم من يقول : (العيد الكبير) ، وأن أهل سنتريس يقولون : (عيد القمر) كأنما عزّ عليهم أن يبقى القمر بلا عيد ؟

ليت شعرى أظلّ أهلى وأهلك يسمونه عيد القمر ، أم تغيرت من بعدنا الأسماء ؟

كان لى أهل ، وكان لك أهل ، يا قلبى

أما أهلى فبخير ، وإن كنت أتوجع كلما ذكرت أن أولئك الأهل خلا ناديهم من وجه أبى ؛ وكان لك أهل يا قلبى ، ولكن أخبارهم غابت عنى منذ أزمان . فان كانت عندك أخبار فحدثنى عنهم ، فما أحب لك أن تعيش فى دنياك عيش الغريب !

لا تكتم عنى شيئاً يا قلبى ، فما لك فى الدنيا آسٍ سواى . أما رأيت كيف كانت أحاديث الناس فى هذا المساء ؟ فما لقينى أحد من أعضاء المؤتمر الطبى إلا سألنى عن صحة ليلى . وما أذكر أبداً أن أحداً سألنى عنك ! وكذلك جاز أن يسأل الناس عن صحة القاتل ويسكتوا عن فجيعة المقتول ! والويل كل الويل للمغلوب

* * *

إن ليالى الأعياد ترجعنى إليك يا قلبى

فهل تذكر يوم كنا طفلين ، حين كان من المألوف أن يزور الناس المقابر وفى أيديهم المصابيح ؟ وهل تذكر أننا سألنا مرة عن الحكمة فى حمل المصابيح فى الليلة القمرة ، ليلة عيد القمر ، فكان الجواب أن الأموات يأنسون بالأضواء ؟

فهل تسمح بأن أحمل مصباحاً فى هذه الليلة ، وأخرج معك لزيارة المدفون من أوطارك وأحلامك ؟ ولكن أين المقابر التى دفنت فيها أوطارك وأحلامك حتى أونسها بضوء المصباح ؟ أين ؟ لا أين ، فانى أخشى أن تكون المقادير صنعت بأحلامك ما يصنع البحر بما يُدفن فيه من سرائر القلوب !

حدثني أين دفنتَ أحلامك ، فاني أعرف أنك قليل البخت في دنياك . ولو كان لك بخت لما جاز أن تبيت مشرَّد الأماني في ليلة عيد

قلبي ، قلبي !

يرحم الله غربتك بين القلوب !

قلبي !

أتذكر ما صنعتُ في سبيلك ؟

لقد فررت بك من سعير الحب في القاهرة ، ونقلتك إلى بغداد : دار السلام ، فهل كانت بغداد يا قلبي دار سلام ؟ أم كان اسمها من أسماء الأضداد ؟

لقد تجهمتْ أبشع التجهم حين وقع البصر عليها أول مرة ، واستقبلتني بوجه يتطاير منه شرر القسوة والوعورة ، فقلت : لا بأس ، فهي هدنة يستجمّ فيها قلبي ، ليقوى على مناضلة العيون حين يرجع إلى القاهرة . ولكنك استوحشت وأخذت تفتش عن « عيون المها بين الرصافة والجسر » وقد انخدعت لك فتركتك ترود مراتع الغزلان وأنا آمن ، فقد كنت سمعت أن بغداد لم يبق فيها للحب سامر ولا أنيس ، ثم وقعت الواقعة وأسرتك عيون المها بعد أسبوعين اثنين من قدومنا بغداد

قلبي !

لقـد كان يعز عليّ أن تخرج من بغداد بلا هوى ، فمن الفضيحة لبغداد أن لا تكون فيها عيون ترى فتصيب ، ولكني ما كنت أحب أن أحملك جريحاً محطّماً إلى الأنامل الرقاق التي تعبت في تضميد جروحك بين مصر الجديدة والزمالك . وما كان يخطر بالبال أن تكون دار السلام دار حرب ، وأن تتألب ظباؤها على قلب أعزل كان يرجو أن لا يعرف البلاء وهو ضيف العراق

من كان يظن أن هذه المدينة الجافية التي لا تعرف غير وصل النهار بالليل في سبيل الرزق أو المجد ، من كان يظن أن مثل هذه المدينة تعيش فيها مباسم وعيون لا تتقى الله في الناس ؟ من كان يظن أن ينعدم كرم الضيافة في بغداد حتى يستبيح ظباؤها انتياش قلبٍ غريبٍ لا يملك من وسائل الدفاع غير الأنين ؟

أهذا جزاء الصنع الجميل في بغداد ؟

أهذا جزاء من يملأ الصحف العربية بالثناء على العراق ؟

سيعود ناس إلى أوطانهم صِحاح القلوب ، وأعود إلى وطني بقلب ممزق لم تبق منه غير أطياف من الأشلاء

* * *

بغداد !

لقد كاد يسفر الصبح ولم تَغْـفُ عيناى . أكذلك تكون ليالى الأعيـاد ، يا بغداد ؟ ليتني أعرف أين يقيم اللصوص الذين سرقوا النوم من جفوني ! ليتني أعرف أين يقيم أولئك اللصوص فأنتقم منهم أشنع انتقام بتقبيل جفونهم في غفوات الليل !

بغداد !

خذى من نومى ما تشائين ، بل خذى من دمي ما تشائين ، فلن أنسى ما حييت تلك المؤامرة الوجدانية : مؤامرة العيون : عيون المها ، على قتلي ؛ فان من الشرف أن يكون المرء قتيل المَها في بغداد

إى والله ! هذا الصبح يتنفس وما غفت عيناى . فهل تعرف الظباء التي كانت تعترض طريقي لتصرعني أنني لا أزال بين الأحياء ؟

أنا أدعوها إلى مناضلتي مرة ثانية ، وموعدنا بَهْو أمانة العاصمة يوم الأربعاء

* * *

أحبابي في مصر الجديدة والزمالك !

ناموا هانئين وادعين ، وانهبوا ما شئتم من أحلام الأماني ، فسأغفر لكم جريمة النسيان والعقوق

أحبابي في بغداد !

تذكروا أن الشاعر لم يَعْنِ أحداً غيرى حين قال :

وكل محبٍّ قد سلا ، غير أنني غريبُ الهوى ، ياويح كل غريب !

زكى مبارك

حـــدود الحق والواجب

للأستاذ عبد الرحمن شكري
مفتش التعليم الثانوي

إني أرى أن رقي كل أمة لا يقاس بما فيها من مسببات الرفاهية والثروة أو معدات القتال إذا كان احترام حدود الحق والواجب غير شائع بين أبنائها . فإنها إذا فقدت هذا الاحترام فقدت العروة الوثقى التي تعتصم بها للمحافظة على مسببات الثروة والرفاهية وللانتفاع بمعدات القتال والدفاع . وإذا عرضنا حياة الأمم وتاريخها الاجتماعي وجدنا أن مسببات الثروة لا تلبث أن تزول إذا كان نظامها الاقتصادي غير مؤسس على احترام حدود الحق والواجب . إنها قد تزدهر فيها الثروة حيناً ، وقد يؤجل لها الخراب المحتوم زمناً ربما طال ، وربما يغرها طول هـذا الزمن الذي تستمر فيه رفاهيتها وثروتها بالرغم من ضياع احترام أبنائها لحدود الحق والواجب ؛ وما طول تأجيل خرابها إلا لما يزال فيها من العناصر الصالحة والقوة المدخرة من عهد الماضي الصالح ، كالقوة التي تدفع المرء إذا نزل من سيارة سائرة فيسير هو أيضاً بعد نزوله منها ؛ وقد تكون خطوات سيره قليلة أو كثيرة ، ولكنه إنما يسير إلى الأمام مدفوعاً لا مختاراً . وكذلك الأمة التي تنزل عن احترام حدود الحق والواجب إذا تقدمت فإنما يكون سيرها سيراً آلياً لا فضل لها فيه ، ولا يلبث أن ينتهي ، إلا إذا أدركتها أسباب جديدة تدعو إلى استمرار سيرها . وينبغي ألا نستبطئ أو نستعجل انتهاء تقدم مثل تلك الأمة التي فقد أبناؤها احترام حدود الحق والواجب ، فان خطوات الأمم أطول مدى من خطوات المرء الذي ينزل من سيارة سائرة ؛ وقد تستجد أمور تزيد خطوات سيرها إلى حين ، وكلما كانت السيارة التي ينزل المرء منها أسرع في سيرها كانت خطوات المرء الذي ينزل منها أكثر .

وهذه الظاهرة تشاهد في أمور مختلفة من أمور الأمم ، فهي إذا فقدت احترام حدود الحق والواجب لم يكن الخراب مقصوراً على حالتها الاقتصادية ، بل هو يشمل أيضاً خراب الأسرة وخراب التعليم وخراب كل شيء . وكثيراً ما نرى في التاريخ جيوشاً أقل عدداً وعدة تهزم جيوشاً أكثر عدداً وعدة من جيوش أمة فقد أبناؤها احترام حدود الحق والواجب . وهذا لا ينفي انتصار الفريق الأكثر عدداً وعدة إذا ظفر الفريقان المتحاربان بقدر متكافئ من احترام حدود الحق والواجب

ولكن القارئ غير الملم بحقيقة الأمر ربما يظن أن انتصار جيوش الدول الأوربية على جيوش الدول الشرقية كان دائماً بسبب كثرة حظ الجيوش الأوربيـة من عدد القتال وآلاته الحديثة . نعم إن الأمر كان كذلك في معارك كثيرة ، ولكنه لم يكن دائماً على هذه الحال . ففي واقعة بلاسي في الهند كان جيش سراج الدولة أكثر عدداً وعدة ، وكان قد اشترى من الفرنسيين مدافع وأسلحة كثيرة ، ولكنه — بالرغم من ذلك كله — دارت عليه الدائرة

وفقـدان احترام حدود الحق والواجب يفسد أيضاً أداة الحكومة وأداة التعليم ، ويفسد صلات أعضاء الأسرة الواحدة كما يوقع بين الأسرة والأسرة ؛ وهذا الفساد وهذا الخراب لا شك من مظاهر التدهور مهما كان في الأمة من مسببات الثروة أو مظاهر الحضارة والتفكير والأدب . فمن المعروف في التاريخ أن مظاهر الحضارة والتفكير والأدب والفنون قد تزدهر حتى والأمة على حافة التـدهور ؛ وقد تستمر وهي آخذة في التدهور فنحسب هذه المظاهر نضوجاً ، وإن كانت نضوجاً فهي نضوج المعطن المعفن كالفاكهة التي تعطن من كثرة النضج

ولقد كانت في أواخر مراحل الدول الإغريقية والرومانية والفارسية والعربية مظاهر كثيرة من مظاهر الحضارة والأدب والفنون حتى بعد أن أخذت في التدهور

ولاشك أن فقدان احترام أبناء الأمة لحدود الحق والواجب يفسد عليهم مظاهر الحضارة والتفكير والأدب ، ولكن هذا الفساد قد يعمل في السر عمل السوس ولا يظهر في أعظم أشكاله خطراً إلا في النهاية . وفي بعض الأحايين لا يحترس أبناء الأمة ولا يأخذون الحيطة والحذر لمنع أسباب التدهور اغتراراً منهم بكثرة المدارس ، وأنواع التعليم ، وكثرة الصناعات ، ورواج التجارة وانتشار التفكير ، وكثرة المؤلفات والمؤلفين ، وازدياد الأرض

المزروعة ، وغير ذلك من مظاهر الحضارة ككثرة المبانى الشاهقة الحديثة ، والشوارع المنتظمة ، والميادين الفسيحة ، والسيارات الفخمة ، ومهيئات الراحة والرفاهية ، ودواعى الاطمئنان وما يجلب اللذة والسرور ...

فإذا تنبه أحدهم إلى أمر ضرورى وهو احترام حدود الحق والواجب وافتقده ولم يجده فى النفوس بالرغم من كثرة المدارس والسيارات والعمارات والمنشآت وغيرها من وسائل الحضارة ، وإذا حذرهم وقال لهم إن افتقاده لا بد أن يؤدى حتماً إما آجلاً وإما عاجلاً إلى التدهور والخراب ـ عدوه متشائماً وخدروا عقولهم تخديراً بأن يحسبوا أن وسائل الحضارة هذه من مدارس وعمارات وميادين وسيارات وغيرها لا بد أن تجلب لنفوسهم هذه الصفة الضرورية وهى احترام حدود الحق والواجب ، إذا كانت حقيقة ضرورية لا غنى عنها إذا أريد تجنب التدهور لأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا كيف أن كل مظاهر الحضارة هذه لا تحميهم من التدهور والخراب إذا افتقد شىء غير مرئى ولا منظور وهو احترام حدود الحق والواجب

وهؤلاء الذين يأملون أن تعصمهم المنشآت والعمارات والسيارات والمدارس والميادين وغيرها من التدهور ، لأنها فى ظنهم لابد جالبة هذا الشىء المطلوب ، وهو احترام حدود الحق والواجب ، ربما كانوا أقل ضرراً من الفريق الذى يتبجح ويقول إن الحضارة الحديثة مؤسسة على عدم احترام حدود الحق والواجب ، وإن كان هذا الفريق يصوغ قوله فى قالب آخر فيقول مثلاً : ينبغى ألا نيأس ، فإن التفكير الحديث قد قلب الأخلاق رأساً على عقب ، وألغى الأخلاق القديمة وجاء بأخلاق تناسب رجل المستقبل . أو يقولون : إن الإنسان الذى يريد أن يكون رجلاً ينبغى أن يحرر نفسه من قيود الأخلاق القديمة . كأن الفلسفة الحديثة يمكنها أن تعطل سُنة من سنن الحياة ، وهى سنة تدهور الأمم إذا فقدت احترام حدود الحق والواجب

ومما يدعو إلى الأسف انتشار هذه النغمة بين بعض المثقفين المفكرين الذين كان ينبغى أن يكونوا أكثر فهماً لحقائق الحياة الثابتة والذين يستطيعون أن يروا كيف سرت هذه الحقائق فى الماضى فى حياة الأمم ، والذين ينبغى أن يفهموا أن ما يدعون إليه من الأخلاق الجديدة ماهو إلا عدم احترام حدود الحق والواجب ذلك الاحترام الذى إذا فقد تدهورت الأمة التى تفقده كما يشهد التاريخ

وهناك فريق آخر أكثر صراحة وأكثر أثرة وهم يفهمون حقيقة الأمر ، ولكنهم يقولون : الطوفان بعدنا . ويريدون أن يستفيدوا من فقد احترام حدود الحق والواجب ، وأن يعيشوا بهذه الفائدة قبل الطوفان

وهناك فريق آخر يدرك حقيقة الأمر ، ويحاول أن يزيل الخطر وأن يصلح الأمر ، ولكن بقوة مشلولة ، لأن الله إذا أراد بأمة سوءاً شل إرادتها وقوتها ، وهذه الطوائف الأربع هي الطوائف التى تكون فى الأمة التى فقدت احترام حدود الحق والواجب .

وإذا نظرنا إلى بلادنا وجدنا مظاهر الحضارة من مدارس ومنشآت وعمارات وصناعات وميادين فسيحة وسيارات ، ووجدنا من يظن أن هذه الأمور تعصم من التدهور الذى ينشأ من افتقاد احترام حدود الحق والواجب ، ووجدنا أيضاً طائفة من هذه الطوائف الأربع ، ووجدنا أيضاً ... فقدان احترام حدود الحق والواجب ، والشواهد على فقدانه لا يمكن أن تحصى فهى كعدد الرمال على شاطيء البحر

ولكنى سأقص على القارئ حوادث تدل على أن فقدان احترام حدود الحق والواجب أمر قد تفشى حتى في نفوس أرق الطبقات.

والحادثة الأولى حدثت عند ما كنت ناظراً لمدرسة ثانوية فى الأقاليم ، ورسب ابن أحد كبار رجال الإدارة وابن أحد كبار رجال البوليس في امتحان النقل . ويكفى أن نقول (أحد كبار الرجال) وكان رسوبهما فى اللغة الانجليزية ، ورفض الأستاذ الانجليزى مراقب تصحيح المادة أن يزيد درجتى الطالبين فى الامتحان ، والقانون يقضى أنه لا يمكن أن تزاد درجة إلا بواسطة مراقب التصحيح ، والنظم الحديثة التى كانت سائدة وقت الحادثة تحرم على ناظر المدرسة أن يزيد هو الدرجة ، فحاولت أن أطلع أحد الكبيرين على حقيقة الأمر ، وعلى حدود حقوقي وواجباتى كناظر مدرسة ، وعلى أن القانون يحرم علىّ زيادة الدرجة وإنجاح الطالبين ، فقال أحدهم : أنا لا أفهم كيف أننا نتصرف فى تطبيق قانون يتوقف عليه حياة النـاس ، ويتوقف عليه امتلا كهم لما يملكون ، وأنت لا يمكنك أن تتصرف فى تطبيق قانون (مدرسى) لا أقل ولا أكثر ! ثم ذهب ولم يصدق قولى . والحادثة الثانية تشبه هذه الحادثة تمام الشبه ، ولكنها حدثت فى مدرسة

قريبة من القاهرة ، فقد رسب أيضاً طالب فى اللغة الانجليزية ، ورفض المراقب زيادة الدرجة وإنجاح الطالب ، وأبى أبو الطالب ، وكان من الوجهاء المظام ، إلا أن يحمل لى ضغينة شديدة وأن يثير ضدى غيره من الناس وإن كنت لا أملك وسيلة قانونية لزيادة الدرجة إذا رفض مراقب اللغة الانجليزية أو غيرها من المواد إنجاح الطالب . كما أنى ما كنت أملك وسيلة لمنع مراقب التصحيح من إنجاح الطالب لو أراد إنجاحه ، ورأى أنه يستحق النجاح ، وفى هذا العجز عن منعه من إنجاح الطالب ما يدل على العجز عن منعه من إسقاطه ما دام يستعمل حقه القانونى وما دام الطالب يستحق التقدير الذى قدره له مراقب التصحيح

وقد اتضح لى أن أولياء أمور الطلبة فى مثل هذه الأحوال يريدون أن يوسطوا بعض المشتغلين بالتعليم فيزيد هؤلاء النار أجيجا . وقد ذكرت الآن حادثة ثالثة حدثت فى المدرسة الأخيرة وهى أن طالباً أهان أستاذاً فرفت الطالب بضعة أيام ، فجاء إلىّ والده وقريبه وهما من الأعيان ومعهما ثالث من المشتغلين بالعلم والتعليم ، وحاولوا من غير تلطف بل بوجاهتهم ونفوذهم : وقبل أن يعرفونى بأنفسهم أن يحملونى على نقض ما أبرمت ، ورأيت أنى لا أملك حق السماح للطالب أن يهين أستاذه ، فرفضت ، فحملوا لى الضغينة وكان أشدهم ضغينة ذلك المشتغل بأمر التعليم . وذكرت حادثة أخرى مثلها حدثت فى مدرسة من مدارس الوجه البحرى ، وتدخل أيضاً أحد المشتغلين بالتعليم بخطاب شفاعة من القاهرة فتلطفت فى رد طلبه ، فحمل لى ضغينة العمر . والذى أعرفه أن الطلبة كانوا قديماً لا ينقمون العقاب المدرسى إذا عرفوا حسن نية موقعه ، ولكن الحال قد تبدلت الآن لسوء قدوة الكبار . فإذا كان بين الطلبة من لا يحترم حدود الحق والواجب فقد لقنوا ألا يحترموه ، بل لقنوا أن احترامه ضعة ومهانة . وكثيراً ما كنت أشاهد أن الطالب قد يتذمر من العقاب ولكنه يعود إلى الصفاء والولاء . أما الشفيع المخذول فإنه لا ينسى أبداً أنه قد رفضت شفاعته ، وهذا كان قبل أن تسرى طباع الكبار إلى الطلبة . ومن عجائب الدهر أن أشد الناس لوماً للطلبة وتعنيفاً لهم وذماً لسلوكهم هم فى كثير من الأحايين أسوأ قدوة للطلبة ، وهم على نفس الطباع والخصال التى يذمونها فى الطلبة والتى سرت منهم إليهم ، وهؤلاء هم الكبار على اختلاف طبقاتهم وأعمالهم .

عبد الرحمن شكرى

١٩ . ١٠

من برجنا العاجى

يدهشنى فى حياة الملكة فكتوريا تلك الإرادة التى استطاعت بها أن تفصل بين « واجبها » كملكة تحكم ، وبين «قلبها» كامرأة تحب . إنها كانت مشغوفة بزوجها الأمير « ألبرت » ، ومع ذلك أقصته أول الأمر فى قسوة عن دفة الملك وشئون الحكم ، وهو الرجل الذكى الواسع الاطلاع ، فكانت تدرس هى معضلات الدولة وتتركه هو يقتل الوقت بالقراءة وعزف الموسيقى . آه ! ما أحوجنى أنا إلى مثل هذه المرأة التى تتركنى أقرأ وأكتب وأسمع الموسيقى ، وتنصرف هى إلى حمل المسؤوليات وحل مشاكل العيش ... شىء آخر يعجبنى فى تلك الملكة العظيمة : إنها كانت تقرأ . إنى أحب الملوك والقادة الذين يقرأون . تلك هى الوسيلة التى بها يعرفون حاجات شعبهم . لقد قرأت فكتوريا بعض قصص « ديكنز » التى يصف فيها شقاء الطبقات الفقيرة ، وأحست وهى فى أبراج قصرها ما يعانيه ألوف من البشر يطؤهم ظلم أرستقراطية جامحة بعرباتها الفخمة وخيولها المطهمة ، فأدركت من خلال سطور ذلك الأديب كيف أن فى بلادها عالماً آخر مهملاً يئن من الجوع والبؤس ولا يلتفت إليه أحد . فتركت الملكة الكتاب وقامت صائحة مرتاعة لم يهدأ لها قرار حتى مدت يدها إلى أولئك المناكيد ، فرفعت عن أعناقهم نعال الفئة الباغية ، وأطلقتهم يعيشون فى هواء الحرية والرخاء كما يعيش الآدميون . فى مصر والشرق أيضاً بغى وبغاة ، وظلم وظالمون من جميع الأنواع ؛ وفيهما كذلك فقر وشقاء وجهل وظلام فى كل ركن من الأركان . ولقد يسألنى سائل : أين هو الأديب الذى يصف كل هذا البلاء ، ويصور هذه الدنيا التعسة المهملة التى لم تمتد إليها يد إصلاح منذ أجيال؟ جوابى على هذا السؤال بسيط : هات لى من يقرأ ، أحضر لك من يكتب . إن الطاهى لا يوجد إلا إذا وجد الآكلون . إن الشرق لن يتغير حتى يعلم قادته كيف يملؤون أدمغتهم بكل ما يمكنهم من فهم حال شعوبهم . إن ربان السفينة لا يركب البحر قبل أن يعرف بعض أسرار الريح والماء ونجوم السماء . فلنرج دائماً ممن يمسك بالزمام أن يمسك أيضاً بالكتاب

توفيق الحكيم

بين الوطنية والأممية

للأستاذ ساطع بك الحصرى

مدير الآثار بالعراق

الوطنية من أهم وأقوى النزعات الاجتماعية المتأصلة فى النفوس البشرية ، ومع هـذا فهى لا تسلم من أعداء وخصوم ، يسعون إلى كسر قوتها وإزالة تأثيرها ... إننى سأتحدث إليكم عن أهم أعداء الوطنية وأخطر خصومها ...

عنـد ما أقول « أعداء وخصوم » لا أقصـد بقولى هذا « الأشخاص والأفراد » بل أقصـد « الميول والنزعات » .. لا أقصد الأشخاص والأفراد الذين يعادون وطنهم ، ويخونون أمتهم .. بل أقصد الميول النفسية والنزعات الفكرية التى تعاكس الدواعى الوطنية ، وتوجه العواطف والأعمال إلى اتجاه يخالف اتجاهها ...

إن أهم وأعم الميول النفسية التى تعارض الوطنية وتعاديها بهذه الصورة هى « الأنانية » ... لأنها توجه النفوس نحو المصالح والملذات الذاتية ، وتحملها على تقديم هذه المصالح والملذات على كل شىء .. فى حين أن « الوطنية » — بعكس ذلك — تدعو إلى « الإيثار » و « التضحية » ، فى سبيل الوطن والقومية .. إنها تطلب من كل شخص أن يحب وطنه ويخدم أمته بكل ما أوتى من قوة ، وأن يضحى بشىء كثير من راحته وهنائه فى هذا السبيل ، حتى أنها تطلب منه أن يوصل هـذه التضحية إلى درجة « بذل النفس والحياة » عند اللزوم ..

ولذلك نستطيع أن نقول : إن الأنانيـة تعمل على الدوام عملاً معاكساً لدواعى الوطنية ... فالوطنية لا تستطيع أن تنمو وتقوى دون أن تتغلب على الأنانية المعادية لها

غير أن الأنانية لا تعادى النزعة الوطنية وحدها ، بل تعادى جميع الفضائل والنزعات الأخلاقية ، على اختلاف أنواعها .. فكسر قوة الأنانية ليس من الأمور التى تتطلبها النزعة الوطنية وحدها ، بل هو من الأمور التى تتطلبها سائر النزعات الأخلاقية بأجمعها

فنستطيع أن نقول لذلك : إن خلال النضال العنيف الذى يحدث بين الوطنية والأنانية لا تبقى الوطنية بدون أنصار ... بل إنها تجد لنفسها عدة أنصار من سائر النزعات الأخلاقية التى تشترك معها فى هذا النضال ...

***

غير أن هناك بعض النزعات التى تعادى الوطنية دون أن تعاكس سائر الفضائل الأخلاقية ؛ فالوطنية لا تجد لنفسها أنصاراً من تلك الفضائل خلال مناضلة مثل هـذه النزعات ، فتتحمل أعباء هذا النضال بمفردها بطبيعة الحال

أما منشأ هذه النزعات المعادية للوطنية فهو الآراء والمذاهب الفلسفية والاجتماعية التى تعتبر الوطنية من « النزعات البالية المضرة » فتدعو الناس إلى نبذها والتخلص منها

لعل أقدم هذه الآراء والمذاهب هى الفكرة التى تعرف فى بلاد الغرب باسم الـ « كوزموبوليتيه » cosmopolitisme بمعنى « مواطنية العالم » — أو بتعبير أقصر « العالمية » — هـذه الفكرة تدعو الناس إلى الترفع عن « النزعات الوطنية الخاصة » وتطلب إليهم أن ينزعوا إلى « حب العالم » دون أن يفرقوا بين مختلف الأوطان

أما الملاحظات التى تستند إليها « فكرة العالمية » فيمكن أن تلخص بهذه الكلمات :

ما الفرق بين الأوطان المختلفة ؟ ألم تكن كلها من أجزاء الأرض التى نعيش عليهـا ؟ وما قيمة الحدود التى تفصـل الأوطان بعضها عن بعض ؟ أفلم تكن كلها من الأمور الاعتبارية التى أوجدتها الوقائع الحربية أو المناورات السياسية ؟ وما الفرق بين الأمم المختلفة ؟ ألم تنحدر كلها من أصل واحد ؟ أفلا يجدر بالانسان — وهذه هى الحال — أن يسمو بأفكاره وعواطفه فوق الأوطان وفوق الأمم ، فيعتبر الأرض بأجمعها « وطناً » كما يعتبر أبناء البشر بأجمعهم « مواطنين » ؟

لقـد مر — فى الحقيقة — فى تاريخ حياة البشرية عهوداً طويلة ، كانت فيها « الرابطة الوطنية » ضيقة محدودة لا يتعدى نطاقها أسوار بعض المدن . كما كانت فيها الرابطة القومية محدودة المدى ، لا يتجاوز تأثيرها حلقات بعض القبائل . فقـد شهد التاريخ « الدور » الذى ارتفعت فيه الحدود من بين المدن التى

كانت متخالفة ، وانتفت فيه الضغائن من بين القبائل التى كانت متعادية ... فتوسعت فيه فكرة الوطنية والقومية إلى ما وراء حدود المدن ونطاق القبائل ، فوصلت إلى الحدود التى نشاهدها فى الحالة الحاضرة . إن سلسلة التطورات التى حدثت بهذه الصورة إلى الآن ، تدل على أن هذا التوسع سيستمر على الدوام ، فسيأتى يوم تندمج فيه الأوطان المختلفة بعضها فى بعض ، إلى أن يصبح « العالم » « الوطن المشترك » لكل الناس ، كما تمتزج فيه الأمم المختلفة بعضها ببعض إلى أن تصبح « الانسانية » بمثابة « القومية المشتركة » بين جميع أبناء البشر . وأما «النزعة الوطنية» التى نعرفها الآن فستزول حتماً بتقدم البشر وتسامى العواطف ، وستترك محلها لعاطفة إنسانيـة ، وأخوة شاملة ... فيجدر بالمفكرين أن يسبقوا سائر النـاس فى استقبال هذا التطور الجديد، فيسموا بأنفسهم — من الآن — فوق الوطنيات الخاصة ويعملوا بهذه الصورة على تعجيل حلول عهد الانسانية الحق ...

هذه هى سلسلة الآراء والملاحظات التى تستند إليها فكرة « الكوزموبوليتية » ، « فكرة العالمية » ...

لا شك فى أن هذه الآراء لا تخلو من قوة جذب وإغراء : لأنها تفسح أمام الأذهان مجالا واسعاً لأحلام الاخوة البشرية وأماني السلم الدائم ، وتصور أمام الخيال عالماً جديداً أرق وأسمى من العالم الذى نعيش فيه الآن ... فمن الطبيعى أن تستولى هذه الآراء — من الوهلة الأولى — على بعض النفوس التواقة إلى الكمال ، ولو كان فى الخيال ...

فقد انتشرت الفكرة — فعلاً — انتشاراً كبيراً بين المفكرين فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر... ولا سيما في ألمانيا ، وحيث أصبحت النزعة السائدة فى عالم الفكر والفلسفة .. فكان معظم الفلاسـفة والأدباء — من كوته إلى لسينغ ، ومن هردر إلى شللينغ — يقولون بها ويدعون إليها ؛ فكان « كوته » — مثلاً — يترفع عن النزعة الوطنية ، ويقول «وقانا الله إياها» ، وكان «هردر» يعتبر الوطنية «من النزعات التى لا تليق بالمستنيرين والمفكرين » ...

ومما يجدر بالانتباه والملاحظة أن هـذه النزعة الفكرية — مع انحدارها فى الأصـل من روح التشوّق إلى الكمال — تتفق — فى النتيجة — مع روح الاستكانة السلبية ، وتكتسب لذلك قوة من ميول الأنانية الخفية ...

لأن «فكرة الانسانية والعالمية» نزعة أفلاطونية ، لا تتطلب من الفرد عملاً فورياً وتضحية فعلية ، فى حين أن الوطنية نزعة واقعية تتصل بالحياة الحالية ، وتتطلب من المرء أن يقوم ببعض الأعمال والتضحيات بصورة فورية ؛ فالانصراف عن النزعة الوطنية ، استناداً إلى « الفكرة الانسانية » يكون بمثابة الانصراف عن الأعمال الإيجابية استكانة إلى الأوضاع السلبية .. ولهذا السبب يتفق هذا الانصراف اتفاقاً كبيراً مع روح الأنانية، التى كثيراً ما تتقنّع بأقنعة خداعة تستر وراءها كثيراً من الميول النفعية ...

لقد انتبه « جان جاك روسو » إلى هذه الحقيقة ، فانتقد « الفكرة العالمية » بأسلوب لاذع ، فقال : « إن بعض الناس يحبون أبناء الصين ، لكى يخلصوا من الواجبات الفعلية التى تترتب عليهم من جراء حب أبناء وطنهم الأقربين »

وعلى كل حال يمكننا أن نقول : إن فكرة « العالمية » انتشرت فى القرن التاسع عشر انتشاراً كبيراً بسبب تشوق المفكرين إلى الكمال الخيالى من جهة ... وبدافع ميل الناس إلى التخلص من ثقل الواجبات الفعلية من جهة أخرى

وهذا الانتشار صار عظيماً فى البلاد الألمانية بوجه خاص ؛ أولاً : لموافقة الفكرة لروح الفلسفة السائدة بين مفكرى الألمان عندئذ ، وثانياً : لعدم اصطدامها هناك بنزعة وطنية قوية بسبب انقسام الألمان إلى دويلات كثيرة ، واشتباك منافع هذه الدويلات وأمرائها اشتباكاً يحول دون نمو النزعات الوطنية والقومية نمواً سريعاً ... إننا نجد فى إحدى الكلمات التى كان قالها المفكر الألمانى « شله يجل » دليلاً قاطعاً على ما أسلفناه ؛ فقد قال : من العبث أن نحاول تكوين أمة ألمانية ، فالأجدر بنا أن نأخذ بالفكرة العالمية ، ونخدم الإنسانية ... »

واستمر الحال فى البلاد الألمانية على هذا المنوال حتى غزوة نابليون وهزيمة « يه نا » ...

ولا شك فى أن الانهزام الهائل الذي منى به الجيش البروسى فى واقعة « يه نا » كان من أبرز نتائج ضعف النزعة الوطنية

وانتشار الفكرة العالمية ... فإن الجنود كانوا ينهزمون من ساحة القتال تاركين أسلحتهم فيها دون أن يحاولوا استعمالها لصد غارة العدو الزاحف إلى بلادهم

غير أن كل ما حدث بعد ذلك بدد الأحلام العالمية والأمانى الإنسانية التى كانت مستولية على النفوس ... وأظهر لكل ذي عين بصيرة الفروق الهائلة بين « الوطن » الذى ينتسب إليه وبين غيره من الأوطان ... وبين « الأمة » التى ينحدر منها وبين غيرها من الأمم ...

فإن الذين كانوا انهزموا من ميدان القتال دون أن يستعملوا أسلحتهم لصد غارة الجيوش الأجنبية اضطروا — بعد بضع سنوات من تاريخ الواقعة — إلى الانخراط فى سلك الجيوش المذكورة ليخدموا مآرب قائدها الخاصة ... إنهم أرغموا على التجنيد وعلى العمل تحت إمرة قواد فرنسيين ليحاربوا — رغم أنوفهم — الدول والأمم التى أراد زعيم الفرنسيين الاستيلاء عليها دون أن يكون في كل ذلك أدنى مصلحة لهم ولوطنهم الخاص ولأمتهم الحقيقية ...

وهكذا قد شاهد مفكرو الألمان بأعينهم أنه بينما كانوا يغطون فى أحلام الإنسانية والعالمية استولت على بلادهم جيوش أمة بعيدة عن تلك الأحلام ، ومتشبعة بروح الوطنية بأشد وأحد أشكالها ، فأخذت تلك الأمة تسيطر عليهم وتستعبدهم ، وتذيقهم أنواع الذل وتسوقهم إلى حيث تريد ..

فكان من الطبيعى أن تنقلب الآراء والنزعات فى ألمانيا انقلاباً هائلاً تحت تأثير الدروس القاسية التى ألقتها هذه الوقائع والنكبات .. وفى الواقع لم يمض على واقعة « يه نا » مدة طويلة ، حتى تركت الفكرة العالمية محلها لحماسة وطنية شديدة ويقظة قومية جبارة ... وهذه الحماسة الوطنية واليقظة القومية هى التى أدت إلى نهضة بروسيا المغلوبة ، وخلصتها من نير الفرنسيين ثم قادت الأمة الألمانية بأجمعها نحو الاستقلال والوحدة والقوة والعظمة ...

ومن المفيد لنا أن نتتبع هذا التطور العميق فيما قاله وكتبه البعض من مفكرى الألمان أنفسهم فى ذلك العهد .. أود أن أذكر لكم مثالين بارزين : أحدهما من الحكماء وهو « فيخته » والثانى من الشعراء وهو « آرنت »

عند ما يذكر اسم — فيخته — فى ألمانيا ، يتبادر إلى الأذهان الخطب الحماسية التى وجهها « إلى الأمة الألمانية » خلال أيام النكبات التى بحثنا عنها ، تعتبر هذه الخطب من أهم عوامل النهضة في ألمانيا ، ومن أقوى موجهات القومية فيها ...

ألقى فيخته خطبه الأربع عشرة فى مدرج جامعة برلين ، عند ما كانت الجيوش المحتلة تقوم باستعراضات متوالية فى شوارع العاصمة البروسية وميادينها ... تحتوى هذه الخطب على نظرات فلسفية فى تاريخ حياة الأمة الألمانية ، وأبحاث شيقة عن الحيوية الكامنة فيها وعن وسائل التربية التى تكفل تجديد حياتها ... وكل هذه النظرات والأبحاث ترمى إلى غاية واحدة ، هى استنهاض الهمم فى سبيل بعث الأمة الألمانية ، وإعادة بناء مجدها ..

إن خطب فيخته تنم عن روح وطنية متأججة ، وتدعو إلى نزعة قومية متعصبة ، ولا سيما الخطبة الختامية ، فانها تعتبر آية من آيات التحميس والاستنهاض . يوجه « فيخته » فى خطبته هذه بعض الكلمات إلى الشباب ، ثم إلى الكهول ، ثم إلى رجال الدولة والمفكرين والأدباء ، وأخيراً الأمراء ، مصدراً كل واحدة من هذه الكلمات بقوله : « إن خطبىّ تستحلفكم وتبتهل إليكم ... »

بعد ذلك يضطرم حماسة ، فيقول لجميعهم : « إن أجدادنا أيضاً يستحلفونكم معى ، ويضمون صوتهم إلى صوتى (ويأخذ فى تصوير صوت الأجداد) بأسلوب حماسى جذاب . ثم يعقب ذلك بقوله : « إن أخلافكم أيضاً يتضرعون إليكم » . ويشرح صوت الأخلاف بأسلوب مؤثر خلاب

وأخيراً ينهى الخطبة بكلمات تدل على شعوره بغرور قوى عميق : « ... ولو تجاسرت لأضفت إلى كل ما تقدم قائلاً : إن القدرة الفاطرة أيضاً تستحلفكم وتستنهضكم ... لأنه لم يبق على وجه الأرض أمة حافظت على بذور قابلية التكمل البشرى بقدر ما حافظت عليه أمتكم الجيدة ... فإذا سقطت الأمة الألمانية سقط معها الجنس البشرى بأجمعه ، ولا يبقى له أدنى أمل فى السلامة ... »

(يتبع) ساطع الحصرى

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنـــكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٢ —

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى
نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم

ما لبثت الأسرة أن رأت فى عميدها « توماس لنكولن » ميلاً شديداً إلى الرحيل من « كنتوكى » إلى حيث يسهل عليه كسب قوته وقوتها مع اليسير من الجهد ، وكان توماس من النفر الذين يضيقون بالجهد والذين يطلبون أكلاف العيش من أيسر سبلها فهو لذلك لا يكدح إلا مضطراً ؛ وما فتئ يذكر اسم « انديانا » مقروناً بالخير والبركة وهو يزين لزوجه الرحيل إلى تلك الجهة ، ثم ذهب نخبرها بنفسه وعاد بعد قليل يحمل إليها متاعه وأسرته .

وما كان أسرعه بعد عودته فى توطيد ما اعتزم ! حزم متاع بيته وحمله على جوادين أعدهما لذلك ، وكان ابنه « أيب » يركب معه على ظهر أحد الحملين ، وتركب زوجه وابنته « سارا » على الآخر وقضوا فى الطريق زهاء أسبوع يشقون فى سيرهم الأحراج ويجتازون بعض مجارى المياه ، فاذا جنهم الليل قام عميد الأسرة على حراستهم حتى ألقوا رحالهم آخر الأمر فى « انديانا »

وشمر توماس لنكولن عن ساعديه وشمر معه أيب وأهوى بفأسه على الأشجار يقطعها ويشقها ويسوى فروعها وابنه يعاونه ما وسعه العون وهو لا ينى يشق هاتيك الخشبة ، ويقطع تلك ويشذب هذه ، حتى تم له إعداد ما يلزم لإقامة كوخ تأوى إليه الأسرة ، ثم دعا إليه بعض جيرانه ليساعدوه فى رفع تلك الأخشاب بعضها فوق بعض . وكان رفع الأخشاب عملية يدعى إليها الجيران فيلبون في سرور وإخلاص ، وكان يجرى فيها من فنون اللهو والمزاح ومن ضروب التندر واللعب بقدر ما يكون فيها من مشقة ونصب

أقامت الأسرة فى انديانا ، وتركت موطنها فى كنتوكى ، وإنك لترى هذا الارتحال من مكان إلى آخر ومن مقاطعة إلى مقاطعة أشبه بتنقل البدو فى الصحراء . ليس بين الحياتين من فرق إلا بمقدار ما يكون بين الغابة والبيداء ، وبين البيت يتخذ من الشعر أو يقام من كتل الخشب ؛ ومن ثم فليس بين المعيشتين من فرق من حيث أثرهما فى الخلق والخيال إلا بقدر ما يقوم بين الطبيعتين من اختلاف

وكان لهذا الترحال أثره فى نفس الغلام ، إذ أخذ الوطن منذ ذلك الحين يتسع فى نظره ويمتد حتى أصبح وطنه هو أمريكا كلها ؛ فهو مرتحل أبداً ما دام العيش يتطلب الارتحال ، وهو متخذ من كل مكان وطناً يتصل بنفسه ويعلق بخياله ، وظل ذلك شأنه حتى انتهت إليه زعامة الولايات جميعاً وحتى أخذ بيده مقاليد الحكم فيها

وكانت الحياة فى انديانا سهلة لا تكلف الناس عناء ولا ترهقهم عسراً ، إذ كانت تقوم على الصيد ، وكانت الحيوانات موفورة فى الغابات لمن يطلب الصيد ، ولكن تلك المعيشة كانت إذا قيست إلى معيشة المدن بعيدة كل البعد عن أسباب الرفاهة ، بل عن أبسط وسائل الراحة ، وحسبك دليلاً على ذلك أن الملابس كانت ما تزال تتخذ من جلود الحيوانات ، إلا فى بعض الأحيان حين كان يغزل الصوف وينسج بالأيدى وفى الأكواخ ، وأن البيوت كانت كما رأيت ، وما كانت تفتقر إليه تلك الأصقاع من المتاجر أو سبل الاتصال أو دور الاستشفاء أو دور التعليم إلا ما كان منها فى أبسط حالاته ، أو غير هذه من مظاهر العمران المعروفة فى غير تلك البيئة من البيئات

على أن الصبى كان مغتبطاً ببيته الجديد في أنديانا ، يأنس بكثرة الجيران هنا ، ويرى الحياة أكثر نشاطاً وأوسع مجالاً ، ولقد جاء ذوو قرباه فأقاموا معهم حيث كانوا يقيمون . ومرت الأيام فى هدوء وسلام وصفو ، وكان كل يقوم بنصيبه من العمل لم يتخلف عن ذلك حتى الصغار ؛ فهذا (أيب) وكان غلاماً قوى الساعدين — على نحافته — يبذر الحب فى الربيع ، ويشترك فى الحصاد وقت الصيف ، ويطعم الخنازير ، ويحلب الأبقار ، ويساعد أباه فى أعمال النجارة ؛ وهذه سارا تساعد أمها فيما لا يحسنه أيب

من أعمال البيت . وظل هذا حال تلك العشيرة مدة عامين

ولكن الزمن القاسي يأبى عليهم أن يظلوا فى أمنهم وسكنهم فتنتابهم حمى مروعة ينوء بها الناس والدواب ، ويحار الكبار والصغار فى أمرها وهم لا يجدون طبيباً . وهيهات أن يظفروا بطبيب إلا أن يقطعوا نيفاً وثلاثين ميلاً على الأقل . وهل كانوا يستطيعون أن ينتقلوا بضع خطوات ؟ ... لقد هدهم المرض فرقدت الأم ورقد الجيران من ذوى القربى . ثم جاء دور أيب وأخته ... وأخيراً حم القضاء ووقعت الكارثة فاتت الأم وقد أضنتها الحمى وفتكت بجسدها النحيل ! ماتت الأم ورزىء أيب بأول صدمة من صدمات الأيام . وأى صدمة ! لقد ضاقت فى وجهه الدنيا ، وأحس معنى اليتم إحساساً قوياً زاد من وقعه ما فطر عليه الصبي من عمق الخيال واشتداد العاطفة . ولقد ظل واقفاً أمام تلك البقعة من الأرض التى دفنت تحتها أمه حتى تناوحت من حوله رياح المساء ، ومشت فى الأفق ظلال الطفل ، فذرف الدمع سخيناً وعاد إلى الكوخ كسير القلب موجع النفس يحس كأنه غريب فى هذا الوجود الواسع !

وكان قد سبق أمه إلى الموت أبوها وأمها ، ذهبا كما ذهبت ضحية تلك الحمى القاسية ، وعلى ذلك صارت ربة الأسرة سارا الصغيرة التى لا تزيد سنها على الثانية عشرة ! وكانت سارا تخدم أباها وأخاها فيما يلزمهما من شؤون البيت ؛ ولكن الرجل لم يطق صبراً على تلك العيشة ، فترك — بعد سنة من وفاة زوجته — ابنه وابنته وصحبتهما طفلة دونهما فى العمر هى بقية العشيرة ؛ ثم عاد إليهم فى عربة يجرها أربعة من الجياد ! ونزلت من العربة سيدة يذكر أنه رآها قبل ذلك فى كنتوكى ، ونزل منها غلام وأختان له ، وكانت تلك السيدة — كما عرف — زوج أبيه !

ودهش أيب لما رأى من متاع جديد ! فقد رأى سرراً حقيقية وكراسى وخواناً ومائدة ومُدًى وسواها مما لم تقع عليه عينه من قبل بين جدران الكوخ . وسرعان ما توثقت عرى المودة بين الجميع ، فكوّن الصغار رفقة تربطها المودة والمحبة ، لا يحسون جوراً فى المعاملة من جانب ربة البيت الجديدة ؛ فلقد كانت امرأة صالحة طيبة القلب ، رقيقة العاطفة حلوة الشمائل ، ذكية الفؤاد ، ازدادت محبة فى نفس أيب إذ رأى منها — فوق ما أولته من عطف — ميلاً إلى تعليم الصغار ، وسمعها تجادل زوجها فى ذلك وتصر على أن يذهبوا عصبة إلى المدرسة ؛ وكان الزوج في بداوته يقدم الفأس على القلم ويضن بابنه وقد أنس من قوة ساعديه ومهارة يده أن يرسله إلى المدرسة وهو أحوج ما يكون إلى مساعدته ، ولكن رأيها تغلب فى النهاية وسار الأولاد إلى المدرسة وكانت على مسافة ميل ونصف ميل من كوخهم

وفي المدرسة أقبل أيب على تعلم القراءة والكتابة إقبالاً لم يعرف له مثيل فى قرنائه . أليس ذلك غاية مبتغاه ومنتهى هواه ؟ . لقد كان يعمد إلى قطع الفحم إذا عاد إلى الكوخ فيكتب بها على غطاء صندوق من الخشب تارة ، أو على ظهر لوح الخشب الذى كانوا يحركون به النار تارة أخرى ! يكرر ذلك فى غير ملل مع صعوبة الكتابة بالفحم على مثل تلك الأشياء . وأنى له الحبر والورق إلا ما ندر من قصاصات رديئة كان يضن بها على التمرن فلا يخط عليها إلا ما يحسنه فيزهى به ويباهي ... هكذا تعلم إبراهام لنكولن القراءة والكتابة !

لكن أباه لا يهتز لذلك ولا يهش له ، بل إنه ليقطع عليه أكثر الأحيان هويته فيستصحبه إلى الغابة ليعاونه فيما كان يراه أجدى على الأسرة من الأعمال . وهو يرى فيه الآن وقد ناهز الرابعة عشرة خير عون له إذ كان الفتى حاذقاً قوياً حتى لتبدو قوته مدهشة تحمل على العجب ما رأى الجيران مثلها قط فيمن كان فى مثل عمره . ورأى فيه أبوه فوق ذلك قدرة على الرماية تجلت له فى حادثة واحدة ولكنها كانت مقنعة : تناول البندقية ذات يوم وصوبها نحو فرخ برى فأصابه فى مهارة وخفة ... على أنه قد جزع وأخذه الرعب وندم على ما فعل ، وعافت نفسه هذا الفعل وما فيه من قسوة ، وما رآه أحد بعدها يصوب سلاحاً نحو مخلوق ...

وما كان إذعان إبراهام لأبيه إذا دعاه ليصرفه عما مالت إليه نفسه ، فكان يختلس الساعات فيكتب ويقرأ ويكتب ويقرأ والشوق يحدوه واللذة تدفعه حتى صار قادراً على تناول الكتب ! وأول ما تناوله من الكتب الانجيل وخرافات إيزوب وروبنسن كروزو ورحلة الحاج . وكم كان لهذه الكتب من أثر فى خياله ووجدانه ، ذلك أن نفسه أخذت تتفتح للحياة كما تتفتح الزهرة أحست دفء

الربيع ونوره وصفاءه ! وتاقت تلك النفس الذكية إلى تاريخ العظماء ، فقرأ حياة هنرى كلي وحياة فرانكلن ثم حياة وشنجطون بطل الاستقلال وزعيم الحرية . ولقد كان جد معجب بهذا الزعيم العظيم مأخوذاً بما يطالع من مواقفه فى حرب الاستقلال ، مسحوراً بما تجلى فى تلك الحرب من أعمال البطولة . ولا يخفى ما تركته مثل هاتيك المطالعة من عميق الأثر فى تلك النفس الوثابة الجياشة بأنبل المعانى

وعرف عنه وهو فى السادسة عشرة من الشمائل ما لا يتحقق إلا للمصطفين الأخيار . كان على قوة جسمه مضرب المثل فى دماثة الخلق وعفة اللسان واليد ، وكان حديث القوم فى أمانته ونزاهته وسمو أدبه . تحدثت عنه زوج أبيه مرة فقالت : « لم يوجه إلى مرة كلمة نابية أو نظرة جافة ، ولم يعص لى أمراً قط سواء أ كان ذلك في مظهره أم فى حقيقة أمره » ويروى عنه أنه استعار من أحد الجيران كتاباً عن وشنجطون لمؤلف آخر فأقبل عليه يطالعه حتى جن عليه الليل فوضعه فى شق بين الكتل الخشبية فى أحد جدر الكوخ فبلله المطر، فلما رآه فى الصباح اشتد أسفه وحمله إلى صاحبه ، وهو لا يقوى على الوقوف أمامه من شدة الخجل ، ولا يدرى كيف يعتذر ! ثم بدا له فعرض على صاحب الكتاب أن يدفع ثمنه ، وكان ذلك الثمن أن يأجره الرجل عنده ثلاثة أيام فى عمل من أعمال الزراعة ! وقد تم له ذلك فطابت به نفسه وصار الكتاب ملكا له ، وذلك ما اغتبط له أشد الاغتباط

وراح يقرأ وهو يقتبل شبابه كل ما تصل إليه يده . يقرأ فى ضوء النهار حتى ينقضى فيقبع فى الليل إلى جانب الموقد يقرأ على ضوء اللهب ! لا يكل له طرف ولا تأخذه سنة حتى لينسى طعامه وشرابه إذا كان حيال فقرة قوية أو حديث ساحر

ومالت نفســه إلى تفهم أسرار الحيــاة وهو بعد فى تلك السن ، فأخذ يتأمل ويتأمل ، يلتقط جريدة قديمة فيقرأ فيها مايعجب له ولا يفهمه ، يقرأ عن الانتخابات وعن مسألة العبيد ، ويسمع أشباه ذلك فى الكنيسة وفى أحاديث الجيران فيعجب بينه وبين نفسه ، وهو لايدرى كنه هذه الأشياء على وجه اليقين وأخذ يدرس من كثب طباع الناس ، وكانت له نظرة نافذة إلى أعماق الأشياء ، وكانت نفسه بطبيعة تكوينها تنفعل للجمال والحق وتنفر من الشر وتنأى عنه . لو رآه خبير بطباع البشر يومئذ لظن أنه حيال شاعر تنبسط جوانب نفسه ، وتتهيأ لرسالة من الرسالات روحه . ولقــد كان إبراهام يكتب الشعر يومئذ ويقرأه على خلانه ؛ وصارت للشاعر بيرنز عنده مكانة سامية حتى لقد حفظ ديوانه عن ظهر قلب ، وصار لا يقدم عليه شاعراً سوى شكسبير

عجيب حقاً أمر هــذا الفتى الذى تنقسم حياته بين المدرسة وبين أعمال النجارة فى الغابة ، والذى يقرأ مثل هذا النوع من الكتب قراءة تمعن وتمحيص ! ولـكنها العبقرية تتفتح وتعلن عن وجودها بشتى الصور والأساليب ، وهى هى الجوهر الثابت لا تدركه الأبصار وإن أحسته القلوب والعقول .

هو الآن يتخطى السادسة عشرة ، طويل الجسم مديد القامة عريض الصدر ، ولـكنه نحيف تستوقف الأبصار نحافته كما يستوقفها طوله ، وهو على نحافته قوى الجسم قوة ما توافت لمثله فى هذه السن ؛ وكأنما تجمعت تلك القوة فى ساعده ، فليست هناك دوحة تقوى عليه إذا هو أهوى بفأسه عليها . بذ أباه فى قطع الأشجار وتسوية الأخشاب ، وغالب أقرانه فى الغابة حتى سلموا له بالتفوق مكرهين

وكانت هيئته وحشية بسبب شعره الأشعث المغبر وهندامه الساذج المهدل ، وتقاطيع وجهه المسنون الذي يبرز فيه الأنف بروزاً شـديداً فيبدو كأنه أضخم من حقيقته ، ولذلك ما كان يطمع ابراهام وهو فى سن الأحلام والتطرف أن تنظر إليه فتاة نظرة ذى علق ... وهل كان يتجه خياله إلى شئ من هذا ؟ حسبه ما هو فيه مما هو أسمى من ذلك وأجدى

ولاحظ عليه أقرانه شيئاً من الشذوذ يومئذ ، فهو يلقى بفأسه أثناء العمل فى الغابة ويخرج من جيبه كتاباً فيقرأ ويقرأ فى صوت جهورى كأنه خطيب ... وهو يضحك أحياناً بلا سبب ظاهر وقد يعلو فى ضحكه مبتدئاً من ابتسامة حتى يصل إلى قهقهة ، وهو على رقة عاطفته ورفق قلبه يقوم للجيران إذا دعوه بأعمال الجزارة فيقتل لهم الخنازير بوقذها فى جباهها فى جرأة وسرعة .. وبينا يرى الناس منه ذلك يعجبون العجب كله إذ يرونه يمد يد المساعدة إلى الضعفاء والبؤساء . لقى وهو فى طريقه مع رفيق له رجلاً قد ألقاه جواده فى الطريق وقد ذهبت الخمر بلبه ، فما زال به يوقظه وهو لا يستيقظ ولا يفيق ، فتبرم صديقه ، فرد عليــه أنه

لا يستطيع أن يترك هذا الرجل على الرغم من سكره فريسة للبرد وحمله على ظهره إلى كنه؛ وأقام إلى جانبه ردحاً من الليل.

وسمعه الناس يعلن عطفه على الهنود الحمر قائلاً إنهم أصحاب تلك الأرض وإنهم أخرجوا من ديارهم وأنهم لذلك جديرون بالرحمة والعطف!. ولم يقف به عطفه عند الإنسان، بل لقد أظهر غير مرة الرأفة بالحيوان، فوقف ذات يوم ينقذ كلباً وقع في الثلج وقد ناله في ذلك من التعب ما ناله. ورأى بعض خلانه يلعبون بسلحفاة أوقدوا على ظهرها ناراً فعنفهم وذهب من فوره فكتب موضوعاً في الرفق بالحيوان وقرأه على من صادفهم من جيرانه!

ومما يعرف من ميوله يومئذ ميله إلى المحاماة، ولعل مرد ذلك إلى حدبه على المستضعفين. عرف هذه المهنة حين قصد ذات يوم إلى جلسة قضائية في بلد قريب ليتفرج، وقد أعجب بدفاع أحد المحامين ودفعه إعجابه إلى أن يتقدم إلى ذلك المحامي مهنئاً، فاقتحمته عين المحامي المدل بنفسه وازدراه وهو يرى من هيئته ورث ثيابه ما يرى، ولم يدر أنه كان يزدري من سيكون يوماً رئيس الولايات المتحدة! ومنذ ذلك اليوم تاقت نفسه إلى معرفة القانون علّه يستطيع أن يخطب ويدافع فينصر المظلومين، فلقد صار ذلك العمل محبباً إلى نفسه.

ولكن أنى له المال الذي يهيئ له سبل الدراسة والظهور في المجتمعات؟ أنى له المال وهو لا يكاد يراه. ها هو ذا يصنع قارباً بيديه ويحمل فيه بعض حاصلات إقليمه ليبيعها في سوق قريبة ولكنه يبيعها بثمن زهيد؛ بيد أنه حدث أن حمل في تلك الرحلة بعض الناس في قاربه من شاطئ النهر إلى حيث أدركوا قارباً بخارياً في عرض النهر، وما كان أعظم دهشته حين مد إليه أحدهم يده بقطعتين من الفضة كانتا تساويان ريالاً، وما كان أعظم فرحه بذلك. أشار إلى ذلك الحادث يوماً وهو في منصب الرياسة يخاطب صديقه ستيوارت فقال: «إني لم أكد أصدق عيني. ربما رأيت ذلك يا صديقي أمراً تافهاً، أما أنا فإني أعتبره أهم حادث في حياتي. لقد كان من العسير عليّ أن أصدق أني — وأنا ذلك الفتى الفقير — قد كسبت ريالاً في أقل من يوم؟ لقد اتسعت الدنيا في ناظريّ وبدت لي أكثر جمالاً؛ وازداد أملي وثقتي بنفسي منذ تلك اللحظة».

(يتبع)

الخفيف

المثل الأعلى للشاب المسلم

للأستاذ علي الطنطاوي

تتمة

هذه هي الصفة الأولى للشباب، وهذا هو المثل الأعلى فيها. تزوج ثم أحب زوجتك، وأولها قلبك، وامنحها عاطفتك.

أما الصفة الثانية فهي البطولة، وحظ الشباب المسلمين فيها أوفى من حظوظ شباب الأمم. وعلى الشباب المسلمين واجب أضخم، ذلك أن المصلحين كانوا يتلفتون قبل عشرين عاماً فلا يرون حولهم إلا ظلاماً لا تسطع في ثناياه بارقة أمل، ونوماً (أو قل موتاً) لا ترى في خلاله أمارة حياة، وخيبة مستمرة في السياسة والعلم والعمل؛ ثم انجلت الحرب العامة عن جسم واحد، حاول الأقوياء الغالبون أن يخالفوا فيه سنة الله ونواميسه في كونه، فيجعلوا الرأس يحيا وحده، واليدين تعيشان وتفكران على استقلال، والقلب يصبح إنساناً برجلين؛ فقرروا أن تكون هذه الحكومات الكثيرات المضحكات في بلد مجموع سكانه أقل من نصف سكان لندن، فكأنهم جرّبوا ألا يكون الواحد ربع الأربعة، بل يكون كل واحد أربعة كاملة!

كان المصلح يرى ذلك كله ولا يرى إلى جانبه ما يبعث في النفس أملاً أو يحيي فيها رجاء، فكان يتشاءم ويقنط؛ ولكن الزمان يا سادتي قد تحوّل، وختمت يد القدرة المجلّد الثاني من تاريخ الأمة الإسلامية، ذاك الذي سجلت فيه عصر الانحطاط والتأخر، وافتتحت اليوم المجلد الثالث من هذا التاريخ لتسجل فيه عهد البعث والتقدم. إن المصائب التي اشتدّت وآلمت، وتتالت وتعاقبت، قد نبّهت وأيقظت، وحذّرت وأنذرت، فأفاقت شعوب هذا الشعب الإسلامي مذعورة تفتش عن طريق الحياة، وتبحث عن سبيل العمل؛ وظهرت بوادر يقظة قوية، ونهضة شاملة، ولكن (يا سادتي) ينقصنا الإيمان بهذه الحقيقة الواقعة فليكن اجتماعنا هذا تبشيراً بها ودعوة إليها. يجب أن نؤمن بهذه النهضة إيماننا بوجود أنفسنا، ويجب ألا يبقى فينا متشائم

لقد نهضنا ، ولكن القافلة تجتاز اليوم أشدّ مرحلة من الطريق ، وأخطر مغارة فى هذه البادية . كانت القافلة تسير نائمة يقودها أدلاء جهلوا الطريق ، وحادوا بها عن المحجة ، وتنكبوا بها الصراط المستقيم ، فلما سمعت صوت القدر على لسان أولئك الأعلام : الأفغانى ، ومحمد عبده ، والقاسمى ، والشيخ طاهر ، والألوسى ، وسعد ، ورشيد رضا ، وشكيب أرسلان ، والرافعى وأمثالهم — أفاق منها من أفاق ، فنهض وفتح عينيه من لم ينهض ، وقال كلٌّ كلمته ، فوقعت المعركة بين الداعين المصلحين والأدلاء الجاهلين ، وانقسم الناس بينهم انقساماً ؛ فكانت بلبلة ، وكانت جلبة ، وكان اضطراب ، ولكن القافلة تمشى ... تمشى على الطريق لأنها أفاقت ، ومن أفاق وانتبه لا يتبع دليلاً جاهلاً

إن هذه النَّبتة على قوتها مختفية بين مئات من الأعشاب الجافة التى بقيت من الموسم الماضى ، إنها ستشق طريقها من بينها وتحيا من دونها ، لأن النبتة الجديدة أمُّ المستقبل : نصيبها الغد ، وتلك الأعشاب بنت الماضى فستذهب مع الأمس إلى غير ما رجعة . إن صوت النهضة الجديدة ، صوت الحق ، ضائع الآن فى الصيحات التى تُدوّى اليوم فى الأسماع صدى للأصوات الماضية لا يلبث أن يخفت ، لأن الصدى ينتهي ، أما الصوت فانه يبدأ

***

هذه النهضة واضحة ، فآمنوا بها يا شباب ، وانظروا إلى الحياة من ناحية الأمل المشرق الواسع لا من جهة اليأس الضيق القاتم

إن شبابنا متشائمون : اقرؤا قصائد الشعراء من الشباب ، إنها مليئة بالآلام ، مغمورة بالكآبة ، غارقة فى الدموع . اسمعوا موسيقى الشباب كلها بكاء ، كلها نحيب : يا لوعتى يا شقايا ، ضاع الأمل من هوايا ... فما لشعرائنا وموسيقينا الشباب لا يرون في الدنيا لذة ولا سروراً ؟ لم يبصرون ظلام الليل ولا يرون بهاء الشمس ؟ لم يفكرون فى وحشة الخريف ولا يفكرون في روعته ؟ لم ينتبهون إلى عُرى الشتاء ولا ينتبهون إلى خشوعه ؟ إن كلّ ما فى الدنيا جميل بهيّ ولكن فى عين الشاب الصحيح القوى . أما المريض ، أما المسلول المحطوم ، فلا يرى إلا الظلام . فياشبابنا داووا نفوسكم من سُلِّ اليأس

***

لقد استدار الزمان كيوم ظهر الاسلام ، واحتضرت الحضارة وكادت تأتى عليها مادية الغرب ، فتذهب بها كما كاد يذهب بالحضارة الأولى تَفَسُّخ الحكومتين الكبيرتين فارس والروم . إن العالم اليوم بين حجرى الرحا التى تطحن المدنية ، وتتركها هباء منثوراً كما تكهن وِلْز . العالم بين مادية الغرب وحياته الحديدية الآلية وروحية الشرق الأقصى وفناء الهنود فى ماوراء المادة ، ولا سبيل إلى النجاة إلا بالنهج السوي نهج الاسلام

فيا شباب المسلمين تجردوا لأداء الواجب ، وإسماع العالم صوت الاسلام

إن هذا الدور الذي تجتازه اليوم أمم الشرق الإسلامى ، يشبه دور البعث « الرونسانس » فى أوروبا ، وعلى الشباب أكبر الوجائب فى هذا الدور

على الشباب واجب علمى هو أن يبعثوا المكتبة العربية القديمة بحلل جديدة ، وأساليب مستحدثة . إن فى هذه الكتب الصفراء علماً جماً ولكنه مطمورٌ تحت أنقاض الأسلوب الماضى . فى كتب الفقه مثلاً ما يستنبط منه القانون الأساسى ، والقانون الجزائي ، والقانون المدنى ، والقانون الادارى ، وقانون أصول المحاكات ، ولكن هذه الكتب موضوعة على طريقة لا نسيغها اليوم ، ولا نألفها ولا تصلح لنا ولا نصلح لها ، وإن كانت تصلح كل الصلاح فى عهد من ألفوها ، فيجب على الشباب أن ينقطع منهم فئة إلى دراسة هذه الكتب وتفهمها ، ومعرفة ما فيها ، واستخلاص موادّها العلمية ، وعرضها بشكل جديد

إن الأساليب (يا سادتى) أزياء ، وقد تبدل الزي اليوم ، فليأخذ الخياط الماهر هذا الثوب القديم ، وليصنع من قماشه ثوباً جديداً ، على ألاَّ يضيع منه خيطاً واحداً . إن من العار أيها السادة أن ترتقي أساليب التأليف فى كل العلوم ونبقى نحن ، فى علومنا ، على ما كنا عليه . إن الذين كتبوا هذه الشروح وهذه الحواشى وهذه التقارير عظماء أجلاء ، لأنهم

أنتجوا شيئاً ، وعرضوه على أحسن شكل يألفه عصرهم ، وليس عليهم من ذنب ، ولكن الذنب علينا ، نحن الذين لا يؤلفون ، ولا يشتغلون ، ولا ينتجون ، وإنما يعيشون عالة على أجدادهم كهذا النبات الطفيلي الضعيف الذي يتمسك بأقدام النخلة الباسقة

***

وإن على الشباب واجباً اجتماعياً هو أن يدرسوا الإسلام ، ويكشفوا عن رأيه في هذه المعضلة الاجتماعية : إن العالم سيضيع بين الاشتراكيين والماليين الفرديين ، ولا طريق إلى النجاة إلا الطريق الأوسط الذي يهبط عن خيالات الشيوعيين وأحلامهم التي لا تتحقق أبداً ، ويترفع عن أفق الماليين الذين يستعبدون الناس بأموالهم ، ويسخرون المجموع لمصلحة الفرد

وإني على يقين أن للإسلام القول الفصل في هذا الباب ، ولكن أحداً من العلماء لم يكلف نفسه عناء البحث عن رأي الاسلام الاجتماعي

وإن على الشباب المسلمين واجباً أخلاقياً ، هو إنقاذ العالم المتردّي في مهاوي الرذيلة التائه في مهامه الظلام . ارفعوا منار الاسلام ، وانشروا مكارم الأخلاق التي بعث نبيكم صلى الله عليه وسلم لا تمامها

أليس من العجيب يا سادتي أن يُسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المؤمن : هل يسرق ؟ هل يزني ؟ فيجيب باحتمال ذلك ، وإن كان نادراً ، فاذا سئل : هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . أليس من العجيب أن يجعل النبي صلى الله عليه وسلم الكذب ثلث النفاق ، وإخلاف الوعد الثلث الثاني ؛ ثم يكون في المسلمين اليوم أكذب الناس ، وأخلفهم للمواعيد ؟

أليس عجيباً أن يأخذ الإفرنج غير المسلمين أخلاقنا ، فتكون لهم عادة وطبعاً ، ويضيع المسلمون أخلاقهم ؟

أليس عجيباً أن يقول الله في كتابه : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ، ثم يكون المؤمن أذل الناس في نفسه وأضيع الناس لكرامته ، ويكون المسلمون أمة ذليلة بين الأمم ، لا عزة لها ولا كرامة ؟

فيا شباب المسلمين تخلقوا بأخلاق الاسلام وانشروها بين الناس وانقذوا بها العلم

***

أتحبون بعد هذا أن ألخص لكم المثل الأعلى للشاب المسلم ؟

بسم الله الرحمن الرحيم :

والعصر ، (إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا) بالله وعلموا أنه الأول والآخر ، وأنه المريد القادر ، وأيقنوا أن كل شيء بإرادته ، لا شريك له في ملكه ، ولا شفيع عنده إلا باذنه ولا يعلم الغيب إلا هو ، فلم يغفلوا عنه ، ولم يعبدوا غيره ، ولم يقدسوا سواه ، ولم ينتظروا النفع والضر إلا منه ، وعلموا أن له جنداً لا نراهم وملائكة وجناً ، وعوالم لا نبصرها ، وآخرة وجنة وناراً ، وسموات وعرشاً ... وأنه بعث أنبياء وأنزل كتباً (وعملوا الصالحات) فأدوا حق الله عليهم من صلاة وزكاة وصيام وحج ، وتقربوا إليه بالنوافل والأعمال الحسنة ، وأدوا حق الناس فلم يتعدوا على أحد في ماله ولا عرضه ولا جسمه ، وأدوا حق أهليهم ووالديهم ومن له فضل عليهم ، وأدوا حق الأمة بالسعي في نجاحها وتقوية روابطها العامة ، وضمان مصالحها المرسلة ، والعمل على كل ما يرفع شأنها ، ويعلي مقامها بين الأمم من علم أو فن أو صناعة أو زراعة ، أو وعظ وإرشاد ، أو تعليم وتهذيب ، (وتواصوا بالحق) ، أوصوا به نفوسهم ، ووصوا به غيرهم ، وتحروه في أمورهم ، فكان الحق إمامهم ودليلهم ورفيقهم وقائدهم ولم يكونوا من أنصار الباطل أبداً ، فلا يقبلون من المبادىء والعلوم والفنون إلا ما هو حق لا باطل فيه (وتواصوا بالصبر) على أداء الواجب وعلى التواصي بالحق ، واجتناب الباطل والابتعاد عن الرذائل مع منازعة النفس إليها ، وإقبالها عليها . هذا هو المثل الأعلى للشاب المسلم : إيمان كامل لا شرك فيه ، وتصديق بكل ما جاء من عند الله على مقدار ما جاء عند الله ، وعبادات منزهة عن البدعة ، وعمل صالح ينفع الفرد والمجموع ، ودعوة إلى الحق وتمسك به ، وصبر على تحقيق هذا المنهج ، وأداء هذه الواجبات

علي الطنطاوي
المدرس في كلية بيروت الشرعية

مهداة إلى جماعة دار العلوم العليا بمصر

حـــــلم !

في ملتقى العواصم

للأستاذ عبد المنعم خلاف

من مبلغ عني تلاميذ علم الاسكندرى ومحبي شعر الجارم بمصر أنى ظفرت بما لم يظفروا به وشهدت ما لم يشهدوا ... ؟ شهدت شيخ الأدب العباسى أستاذنا الجليل ومؤدب الجيل الشيخ أحمد الاسكندرى المتلىء بدنيا بغداد — يدب على أديم بغداد « ملتقى العواصم » ويناقل الخطو على مواقع أقدام الجاحظ ... وعلى فمه ابتسامة عريضة شفافة أعرف معناها معرفة التلميذ معانى أستاذه . هى ابتسامة للأرواح والأطياف التى تطفر من رأسه الكبير لتعيش فى جوها وملاعب وجودها الأول ... أو هى ابتسامة الحاج إلى كعبة فكره ومعالم أنسه الروحى

ويشهد الأدب أني حين أدرس « العصر العباسى » فى كلية دار العلوم بالأعظمية أو المدرسة المتوسطة الغربية ، أستحضر صورة مجلسه فى دار العلوم بمصر وإيمانه بهذا العصر وامتلاءه من علومه وآدابه وأخباره ؛ ويشاء الله أن أراه فى بغداد لأحظى بالصورة الكاملة للعالم والمعلوم

ومن مبلغهم أخرى أنى رأيت للمرة الثانية قلب شاعرنا الموسيقى الممثل على بك الجارم يرقص على الأجواء التى رقص عليها قلب النواسى والبحترى وابن الرومى وأبى تمام ... فى الضوء الذى بنوا منه أبياتهم الخالدة ... ويسكب فى أسماع أحفاد بابل سحر بابل ... من الخمر التى عتقت ألفاً فى دِنانٍ من الأذهان . حادرة من إبريق إلى إبريق حتى رأيناها شيِّقةً ريِّقةً مترقرقة فى فيه... ويهمس فى أذن دجلة الراقدة ، بصدى الأصوات البعيدة التي رفّت عليها أيام أن كانت حدائقَ وبلابل وظلال بنود ، ومعسكر جنود ، وسوامر إنشاد ، وملتقى كل واد ... وفى عينيه بريق وتحديق إلى السماء التى أوحت بكواكب الأشعار إلى مفرغى قلوبهم فى قلبه ، وباسطى أجنحتهم على خياله ... ؟ !

إنى رأيت ذلك كله ... وكان لا بد لى منه ... كان لا بد من الاسكندرى فى دار العلوم العليا بمصر حتى أعرف العراق فى عالم الفكر ذى الوقود الأبيض ...

وكان لا بد من الجارم حتى أعرفها فى عالم القلب ذى الوقود الأحمر ... وكان لا بد أن أراهما معاً فى بغداد حتى تتم الصورة ويشبع الخيال الجائع فيمزج الثلج بالنار !

ولقد سمعت الجارم العام الماضى فى رثاء الزهاوى ولكن جو الرثاء لم يكن طليقاً أمام هذا الطائر الصداح

ثم كان صباح المؤتمر الطبي العربى فى « بهو أمانة العاصمة » ببغداد ، وجلس شاعرنا قلقاً فى مجلسه من فيض شعوره « بجو الساعة » الذى قذف فى قلوب الجميع ، حتى أبناء العلم والمخابير والمباضع ، شعلة الشعر والاحساس بالتاريخ الذى يسير فى الدم .. والحاضر الذى يخلق الثقة ، والمستقبل الذى ينادى إلى العمل . وجلس الإسكندرى يتفرس ويقلب الصور ويستحضر البعيد ... من ابن سينا والرازي والزهراوى ، وجلست أرقبهما وأرصد طرفى عليهما وأتسلل بقلبي إلى قلبيهما فيرجع بالذكرى بعيدة وقريبة .

ثم ابتدأ الجو الروحى بكلمة فخامة رئيس الوزراء جميل بك المدفعى التى يتجمل بها ويقول — وهو رجل مسئول — « ولا شك أن وحدة النزعة العلمية والأدبية هى فى الوقت ذاته تمثل وحدة الفكر والرأى بينكم وتؤلف منكم أخوة من أمة واحدة عبثا حاولت الحدود والحواجز أن تفرق بين قلوبكم وأهدافكم ... »

ثم يقف بعد فخامته الدكتور شوكة الزهاوى رئيس الجمعية الطبية العراقية فيقول : « إن من جملة ما يقوم به هذا المؤتمر من الأعمال الصالحة هو توحيد صفوف أطباء العرب وجمع آرائهم حول مكافحة الأمراض ومعالجتها بالطرق الفنية فضلا عن أنه يقرب الأقطار العربية من بعضها ويبعث على تكاتفها وتعاضدها فى مختلف النواحى الحيوية ، وأعد هذا المؤتمر خطوة مباركة منبعثة من الشعور المتقابل ونتيجة من نتائج الثقافة العامة التى أخذت تتغلغل فى بلادنا العزيزة وفاتحة عهد حافل بالأمانى السامية ... »

ثم يعقبه سعادة على باشا ابراهيم بخطابه الجميل الذى يقول

فيه : « ولعمرى إنه لأسبوع مبارك ميمون الطلعة بوقوف الأطباء فى بغداد إبان وقفة الحج فى عرفات نضم إلى دعواتهم المتصاعدة إلى السماء فى رحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دعاءنا أن يبسط على بلاد الناطقين بالضاد ظل رضاه ونعمته وأن يوطد بالاتحاد سؤددها وبالعلم عروشها ويغمر بالسلام والصحة ربوعها »

ثم يقف الدكتور كامل رجيمة فيرفع صوت سورية العربية المجاهدة العاملة بقصيدة عصماء برهنت على أن حرفة الأدب تتسلل دائماً إلى كل مهنة فى سورية

***

ثم وقف الجارم يرسل قلبه فى صوته المعهود الذى يخيل إلىّ أنه كله هاء عميقة ... من فرط الشجو وإثارة النفس واستحضار المعانى الكامنة التى لا تظهر وتستعلن إلا إذا تلا لها ساحر رُقْيَة ... أو عزف لها عازف برَنَّة ... أو شدا لها شاد بحَنَّة ... أو خيل لها مخيل بريشة ...

وقف يقلب وجهه فى السماء والأرض والجهات الأربع فى قلق وغيبوبة شاعر ... ويمسح على أبصار الجمع بحركاته ويرسل نشيده ، فيخيل إلينا من سحره أن كلماته أجسام تسمى ... أو أمواج تطفى على قلوبنا فتملؤها بالذكرى الحادة ، ثم بالفخر النافخ ، ثم بالضحك المرسل ، ثم بالعزم المرمّس الدافع ، ثم بالأمل القريب ، فيخرج الدكتور زكى مبارك — طبيب ليلى المريضة بالعراق — عن طوره وعن حدود وقار الحفل فيستعيد ويطلب المزيد وبخاصة إذا جاء بيت فيه ذكر « الحسان » ووعود الحسان

ثم ينتهى الحلم السعيد بجوه الروحى وقلوبنا راقصة وأكفنا دامية ؛ ويقبل الأدباء والأطباء على الجارم يطلبون منه ثمن دواء للأكف المتسلخة والقلوب الجريحة ... ويقبل « طبيب ليلى » فيطبع على خديّ الجارم بك قبلتين ذواتى رنين أدار الأبصار إلى مصدر ضجتهما ... ثم ينقلب يفخر علىّ بأنه نال بهما ما لم أنلْ ... ثم يرتد إلى الجارم بك يبشره بأنه من أول الداخلين إلى الجنة جزاء خدماته بشعره للغة القرآن ... ولله فى الدكتور زكي شؤون !

***

وكنت أرقب خلسة وجهى طبيبين أوربيين أخذا مجلسهما بجانبى ، يستمعان فى غير فهم إلى ما يقال ، ويريان صداه صفق كف بكف وتلاقي هتاف بهتاف فأعرف ما يقول قلباهما الفقيران جداً إلى الشعور بمثل هذه الأخوة الملموسة المعانة بين أبناء الشرق الإسلامى ...

هنا الأخوة من غير دم ... والواشجة من غير نسب ... والحب من غير غرض ... والتفدية من غير ثمن ... والتلاقى من غير رياء ... والكلام من غير خَبِيء يا أوروبا !

هنا التاريخ لا يزال واحداً فى العقول والقلوب والألسنة والأهداف حتى فى وحدة الأمراض ! كما يقول الدكتور شوكة الزهاوى

***

خذاها منى يا أستاذَىَّ تحية فى نشوة الذكرى وسكرة الآمال أنا اليقظان أبداً ... الساهد القلب أبداً ... العائش فى التاريخ أبداً ... تاريخ المجد والحياة ؛ ومعكما السلامة

« بغداد » عبد المنعم خلاف

فلسفة التربية

كما يراها فلاسفة الغرب

الناحيتان الاجتماعية والنفسية

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٠ —

« لا يعيش المرء بالخبز وحده »

« الانجيل »

« إن عقل الرجل ليضيق ، وإن مشاعره إزاء غايات الانسانية لتتحجر إذا ما قصر فكره على الحشرات ، أو المعادلات الجبرية ، أو تدبيب أسنان الدبابيس ! »

« جون ستيوارت مل »

« لا كمال إلا باتحاد الجهد والشوق ، وهنا يكون المرء سابحا «مع» التيار ؛ أما الشوق دون ماجهد فطفو فوق التيار، كما أن الجهد دون ما شوق سباحة ضد التيار »

« هورن »

رأيت فى المقال لآنف ما تستطيع أن تستفيده التربيـة من علمى الحياة ووظائف الأعضاء . وسترى اليوم فائدتها بالمثل من علمى النفس والاجتماع

الناحية الاجتماعية

وتتلو هذه الناحية ناحية الفسيولوجيا . والتربيـة هنا هى الأسلوب الذى يجعل الفرد مشاركا فى حياة الجنس ، ويعنى بعلاقته مع غيره من أعضاء الجماعة ومثلهم العليا . وعناصر هذه الناحية ثلاثة : الإدراك والوجدان والنزوع ، أى الحق والجمال والخير .

١ — أما « الحق » فسبيله « العقل » الذى يبدأ بالمحسوس وينتهى بالمعقول ، والذى تشمل علومه « الموضوعيـات » و « الذاتيات » على السواء . وتعرفنا هـذه « العلوم » بالعالم وتشجعنا على البحث وتحررنا من الأوهام . فدراسة الطبيعة مثلا تقوى فينا « الملاحظة » و « الاستقراء » وبعد « النظر » و « التجويد » ، وتمكننا من السيطرة على القوى الطبيعيـة ، وتنتهى بنا إلى فكرة « الوحدة » التى يندمج فيها الكون كله . ودراسة الرياضة تعطينا كما يقول المسيو Berthelot : فكرة واضحة عن « القياس » ، وتنتهى بتفكيرنا إلى نتائج مؤكدة ، وتبث فينا احترام الحق ، وتقدم لنا أكبر أداة للبحث الدقيق فى علوم الطبيعة . أما الفلسفة والأخلاق واللغة والفن والدين فقيمتها جميعاً عظيمة إلى أبعد حد وإن خلت من النفع المحسوس كما يتهكم دعاة « الخبز » ! ؛ ألم يقل الإنجيل « لا يعيش المرء بالخبز وحده » ؟ أو لا ترتفع هـذه العلوم بالمرء إلى عليين وتجعله فوق البشر ؟

٢ — وأما « الجمال » فسبيله العاطفة ويشمل الفن والدين . والجمال المحسوس وحدة تسيطر على كثرة ، وتبدو فى مادة تجسم معنى . وأرقى الفنون هو « الأدب » ، وأرق ما فى الأدب « الشعر » ، والعلاقة بين الفلسفة والأدب هى أن هذا يعبر عن الحياة بالإلهام ، وتلك تعبر عنه بالمنطق ؛ كما أن العلاقة بين الفن والدين هى أن هذا تعبير عن الشعور إزاء الشىء الإلهى ، وذلك تعبير عنه إزاء الشىء الجميل . هذا وقيمة الفنون فى التربية عظيمة بحيث لا سبيل إلى إغفالها . أليس الإحساس بالجمال أمتع شعور يستطيع أن ينعم به العقل ؟ أو لا يمدنا ذلك الإحساس بقوة سامية تعيننا على الرفعة فى الحياة ؟ أو لم يعترف « دارون » بطل التاريخ الطبيعى المشهور فى مذكراته الخاصة : أن انكبابه على « العلم البحت » قد أفقده لذة ذلك الشعور العظيم بالجمال ؟ أو لم يصرح بأنه لو ارتد صغيراً لأخذ نفسه كل يوم بترتيل قصيدة من الشعر ، وسماع لحن من الموسيقى ، ورؤية آية من آيات الفن لئلا يفقد على مر الزمن أسمى شعور بالسعادة يتاح للإنسان ؟ وكذلك قيمة الدين فى التربية عظيمة ولاسيما فى هذا العهد المادى الجشع الذى يملأ الإنســان عتواً وغروراً . ذلك أن الشعور الأساسى فى الدين هو الضعف والاعتماد ، ويؤدى ذلك بنا إلى الاحساس « بالجوهر الخالد » فى أمثل صوره وأعظمها ، وإلى الفناء فيـه والرضا بقضائه وقدره فيسهل علينا احتمال الحياة ، ونقدم على الكفاح فيها بقوة وبأس وإقدام . ولـكن لما كانت دراسة الدين فى المدارس تؤدى أحياناً إلى نزعات وعصبيات

طائفية ، فان الأمل فى « المعلم » وفى لباقته وحسن منزعه لم يزل كبيراً . ذلك أنه يستطيع أن يكون أمام التلاميذ « نبياً » لا شيخاً ولا حاخاماً ولا مطراناً !

٣ — وأما « الخير » فسبيله « الارادة » ويشمل الأخلاق والقانون والنظم والدساتير والتاريخ . ويرى « هيجل » أن هذا الأخير (التاريخ) « هو النحو الذى يكافح به الحق على مسرح الحياة ، والذى تحقق به إرادة الانسان إرادة الله » ؛ أما الدساتير فهى إرادة الأمة ممثلة فى وثيقة ، وأما القوانين فهى إرادة الجماعة فيما يخص خيرها العام (١) ، وأما الأخلاق فهى كلمة الضمير فيما يخص قدر الانسان وأعماله مع الناس ، ومجال الحرية فيها أفسح وأسمى من مجال القانون ... وقيمة هذه العلوم فى التربية عظيمة أيضاً ، إذ بهـا يعلم الناشىء مركزه فى الجماعة ويدرك أنه غاية ووسيلة معاً ، كما أنه يستمد من التاريخ ملكة الحكم الصحيح ويملأ ذاكرته وخياله بحوادث فريدة ومثـل عليا وبطولات فذة ؛ وهـذا وغيره يجعله عضواً اجتماعياً يفهم ما له وما عليه ، ويصدر أحكامه الخلقية والدستورية على المواقف المعقدة التى تعرض له فلا يكون مجرد « إمعة » يصفق لـكل متكلم ، ويتشيع لـكل كاتب ، ويعبد ما لا يستحق أن يعبد ، ويتغير ويتحول بهبوب العواصف الطبيعية أو المصطنعة ... ! كما أنه يجعله طامحاً أبداً إلى أن يكون بطلاً هو أيضاً ، فيقف موقف الجهاد الذى وقفه « وشنطن » ، أو يصرخ صرخة الحق التى صرخها « سعد زغلول » !

وأما فائدة الجماعة ذاتهـا من التربية فلا تـكاد تقدر — إذ هى تحفظ لها « الماضى » وتصونه كالحارس الأمين (٢) كيما تستطيع الأجيال أن تبنى عليه لتعليه ، وهى تصون الحاضر وتسعد أهله وتقوى الرأى العام كما قال الزعيم وشنطن ، وتحرر الناس وتضمن لهم حكومة صالحة . ثم هى تمحو الإجرام أو تقلله بفضل تنميتها للشعور والإرادة والمسئولية ، وبفضل تحويلها النزعات الشاذة إلى نواح أخرى صالحة ، وتقويتها الشعور ضد الإجرام . يقول الأستاذ « فالـكنر » إن الإجرام يقل فى الأمم المتمدنة من حيث معناه الأدبى ، فإن وجد بعد ذلك إجرام بالمعنى القانونى فإنما مرجعه ظروف أخرى تقتضى الإصلاح والتعديل (١) ؛ وأخيراً تضمن التربية مستقبل الجماعة إلى حد كبير . أليس الإبقاء على الماضى الجدير بالإبقاء تحسيناً للمستقبل ؟ أو لا يزيد امتلاكنا للطبيعة كل يوم بفضل ما ندخله على الماضى من تحسين ؟ أو لا توجد علوم الطبيعة عملاً لملايين العمال ؟ أو لا تخرج لنا أولئك العلماء الأفذاذ يخضعون البحر والجبل والهواء لإرادتنا ؟ ثم إذا كانت التربيـة لا تخلق عبقرية الفنان أو العالم أو الفيلسوف أفليست تصيدها بشبكتها المحكمة ؟ أو ليست تمدها بمادة الإزهار والإيناع ؟ (٢)

وإذاً فالتربية فى هذه الناحية الإجتماعية ، كما يقول الأستاذ هورن : « هى أحسن وسيلة للملاءمة بين الفرد وبين البيئة العقلية والعاطفية والإرادية »

الناحية النفسية

وأما هذه الناحية فتبحث فى طبيعة النشاط العقلى ، وفى نوع النمو العقلى ، وفى صفات العقل النامى :

١ — فمن حيث طبيعة النشاط العقلى : يرى الجميع أن العقل أساس الإدراك والوجدان والنزوع ، وأنه لا ينمو بغير عمل كما هو الشأن فى كل شىء ، وأنه مرتبط فى نموه بنمو الجهاز العصبى وبدرجة احتكاكه بالوسط حوله ، وأنه يحتاج فيما يتعرض له من تقليد وشوق وجهد إلى رعاية حتى يكون نموه كاملاً . فمثلاً يجب أن يرى الطفل مُثلاً حسنة يقلدها ، ويجب أن تكون المدرسة آية فى النظافة والنظام والجاذبية والجمال حتى يرتاح إليها ويعمل بتعاليمها ، ويجب أن تكون شخصية المدرس قوية تحمل

---

(١) ويكون علم القانون مع علم الدستور علم السياسة

(٢) ويقول فيلسوف : « إذا هدم صرح العلم الذى أقامته الانسانية فى قرون طويلة فلن يستطيع أحد إعادة بنائه سريعاً سوى الله تعالى »

(١) ومن هنا كان ماينفق على التعليم يعوض فى نواحى المحاكم والسجون والمستشفيات والاصلاحيات وغيرها

(٢) أثبت الاحصاء أن الخالدين من رجال الجامعات أكثر من غيرهم . فمن كل أربعين جامعيا يخلد رجل واحد بينا لا يخلد من كل ألف من غير الجامعيين غير واحد . وكل خريج جامعى يعادل ٢٥٠ رجلا عادياً (أنظر كتاب هورن فى فلسفة التربية)

النشء على احترامها وحبها والأخذ منها[1] ، هذا من حيث التقليد الذي هو إعلان للنفس يؤدي إلى الاستقلال

أما من حيث الشوق فيجب أن يكون موضوع الدراسة مثيراً لرغبة الطفل وحافزاً لاهتمامه ، لأن ذلك كما يرى الأستاذ « شيرمان » أهم كلمة في التعليم . وأضمن سبيل لإثارة الشوق هو المدرس نفسه إذا كان محباً لمهنته ومتحمساً لمادته . وأما من حيث الجهد — وهو ما يبذله المرء في عمل لا يساير شعوره — فيجب — لتقويته — غرس الآمال العذبة البعيدة في نفوس الناشئين ، ويجب تعويدهم مخالفة أهوائهم في أمور طفيفة كل يوم حتى تكون لديهم المناعة الكافية ضد كل إغراء دنيء . ويجب التوفيق بين الشوق نفسه والجهد بحيث يصبح الأول كالنسيم الذي يهب على سفينة حياتنا أحياناً ، ثم ينحرف عنها أحياناً أخرى ، فيقوم لنا الجهد حينئذ مقام المجاديف التي توصلنا إلى البر سالمين ، ولنعتقد أبداً أن الكمال كائن في اتحاد الشوق والمجهود حتى يكون المرء سابحاً « مع » التيار لا فوقه ولا ضده ...

٢ — وأما من حيث نوع النمو العقلي فقد أثبت علم النفس أن هناك مراحل تجب رعايتها في حلقات التربية والتعليم حتى يكون النمو سليماً . فالطفولة مثلاً تمتاز باللذة والألم وتزعزع الإرادة . وإذاً فلتكن التربية هنا حسية بحتة كثيرة التسامح واللعب . وفي الشباب الباكر تنمو الصداقة والحب ، والطموح وروح الاجتماع ، وإحساس الخير والجمال ، كما تتذبذب الأخلاق وتسود العاطفة . وإذاً فلتكن الدراسة هنا مليئة بالتاريخ الطبيعي ، والسياسي ، وبالقصص السامي ، وبكل ما يؤدي إلى سرعة الحكم ودقته ، وإلى كل ما يتسامى بالعواطف والغرائز ويغرس روح المحبة والتعاون ، ويرشد الناشئ إلى كيفية حماية نفسه مما يتعرض له من عادات سرية وسقوط خلقي وانهيار جنسي ... (وإن كان لا يزال هناك من يعتقد أن التحدث في مثل ذلك للشبان وقاحة وفسق ...!!) ؛ وفي الشباب المتأخر تتمركز الشخصية ويستقر العقل وتسود الوحدة . وإذاً فلتكن الدراسة هنا مرتقية إلى نظرات كلية جامعة لقوانين الوجود العامة ... ويتلخص هذا كله في أن الطفل « يرى » ، والشاب الباكر « يفهم » ، والشاب المتأخر « يتأمل ويحكم »

٣ — بقيت صفات العقل النامي ، ويمكن إيجازها في أن التعليم نشاط وخلق لا تسلم وقبول ، وتأمل وتفكير لا وعي وحفظ ، وقوة معرفة أكثر منه معرفة فحسب : حواس مرهفة ، وعقل واسع المدى راغب في المعرفة بريء الاتجاه ؛ وحب للحق المجرد عن التدجيل والتهويش ؛ ومعرفة بالعالم لا تترك شيئاً فيه خرافياً ، وإحاطة بالنفس بعد الاحاطة بالعالم ؛ وخيال يقدم الفروض للعلم والابداع للفن ، والاحياء للتاريخ ؛ وحكم مدرب حصيف عام النظرة منطقي الخطوات ؛ وذوق جميل مهذب يدمج الانسان في الكون ويجعله جميلا في كل شيء ؛ وشعور أخلاقي راق يدرك الخير والشر ، ويحكم على الخير والشر ، ويلوح بساعد الارادة القوية أمام كل إغراء حقير ؛ وحب للعمل وتلذذ به ؛ وإحساس بالسعادة يمتلك قوى الشخص جميعاً ويجعله يعيش هانئاً مطمئناً حي الضمير حر الارادة جريء الجنان ؛ واتفاق مع السماء واطمئنان للنهاية المحتومة التي تنقلنا من عالم ناقص إلى عالم كامل . هذا إلى تواضع نزيه ، وعشق لأحسن ما في الحياة كله حماس ؛ ووفاق تام مع النفس لا يترك في الشخص أدنى نزاع ؛ وتعليم للغير هو رسالة النور تبدد ظلام الحياة ؛ وحياة تفنى النفس في الكون لا الكون في النفس ، ولا تشغل المهندس أو الطبيب عن نواحي العيش الأخرى بما فيها من خير وجمال ...

يقول « هكسلي » : « للرجل المثقف جسم خاضع لارادته ، وعقل صاف متئد القوى سهل العمل ملئ بما في الطبيعة من حق عظيم وقوانين كلية . هذا إلى امتلاء بالحياة المنسجمة الخادمة لضميره الحي ، وإلى حب للجمال وكره للقبح ، وإلى احترام للنفس وللناس ، وإلى وفاق تام مع الطبيعة يفيدها فيه ويستفيد منها ، ويسير معها كوزيرها أو ترجمانها وهي كأمه الحنون »

وتكون التربية هنا هي « الملاءمة بين الرجل التام النمو الجسمي والعقلي ، وبين بيئته العقلية والعاطفية والارادية »[1]

(١) قال القديس بطرس للمسيح عليه السلام : « إلى من تذهب أيها الأب الأقدس ؟ إن كلامك في الحياة كلام الخلود »

(١) أنظر كتاب الأستاذ هورن في فلسفة التربية ، وقد اعتمدنا عليه في هذه المقالة والمقالة السابقة اعتماداً كبيراً

أمطار التربية

بقيت كلة صغيرة نختم بها هذا البحث الذى مهدنا به لنقد التربية فى مصر ، وهى كيف تفسر الفلسفة إمكان التربية من الناحية الميتافيزيكية ؟ يقول « كانت » في كتابه عن التربية : « إذا تدخل مخلوق أرقى منا فى تربيتنا فلسوف نرى إلى أى مستوى يبلغ الإنسان ، وإن الإنسان لا يصير إلى ما يستطيع أن يكونه إلا بالتربية . كما تسأل : أين هى النفوس التى فطرها الطبع على الشر حتى تبقى مستعصية على حزم أم رحيمة وسلطة أب محب ؟ » . فترى هل يقوى الدرس حقًا على التأثير فى الناشئ ، أو بالأحرى هل الإنسان « حر » حتى تصلحه التربية ؟ أما العلم فيقول « بجبرية » المادة وباعتماد العقل — وهو أساس التربية — على « مادة المخ » ... فكيف إذاً نستطيع تغييره ؟ ينقذنا الأستاذ « هيزنبرج[1] » فيقول : « إن « جبرية » المادة نفسها موضع شك لأنا لانستطيع التنبؤ بحالة «الأتوم» المستقبلة إلا بمعرفة مركزه وسرعته في لحظة واحدة . وذلك محال ... ومع كل فها هو الإنسان قد خلق لنفسه دنيا واسعة عريضة من التأمل ، وبما يخلقه وتطور وتغير ، وخرج على ما قد خالوه « قانوناً » ، مما يثبت أنه « حر » بالفعل . وإذا قال قائل : إن العالم يسير وراء « غاية » خفية ، وإن الإنسان لجزء منه مضطر أن يحقق « مجبوراً » هذه الغاية ؟ سألنا : وهل تمنع « حريته » من تحقيق الغاية الكبرى إذا كانت هذه الحرية محدودة بحدودها الخاصة ؟ إن القول بالغائيــة والجبرية الضيقتين يجعل الإنسان مجرد ألعوبة ، ومسؤوليته الخلقية مجرد تناقض محزن . يقول برجسن فى كتابه[2] : « الحريه تجربة راسخة وإن كان الفكر ينكرها »

(يتبع) **محمد حسن ظاظا**

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية الأميرية

* * *

يسرنى أن أسجل هنــا شكرى « للرسالة » الغراء على تكرمها بإفساح صدرها لهــذا البحث المتواضع ، وأعدها وأعد القراء الكرام بتطبيق الحقائق الآنفة على التربية فى مصر ابتداء من العدد القادم إن شاء الله ، وأرجو كل من يريد أن يتكرم على بملاحظة ما أن يكتب إلى على مدرسة شبرا الثانوية الأميرية للبنين

(١) أنظر كتاب Attlee في « الفلسفة في نظرية التربية »

(٢) أنظر كتابه Les Donnèes !mmed. de La Cone.

موت ســـقراط

La Mort de Socrate

للشاعر الفرنسى الكبير لامارتين

ترجمة السيد احمد عيتانى

تذكر لنا الرواية اليونانية أن سقراط حينما حكم عليه بالموت أشار عليه أصدقاؤه بمغادرة أثينا والنجاة بنفسه ، فأبى عليهم ذلك ، وآثر الموت على الفرار . ولما قدمت إليه كأس السم تجرعها بجرأة ورباطة جأش ، ولم يكد يفرغ من تناول مافيها حتى أجال نظره بين أصحابه ، فلمح عبراتهم تتساقط على وجناتهم حزناً عليه ، وألماً لما حل به ؛ فآلمه هذا المشهد ، ووقف فى أصدقائه خطيباً وهو فى نزاعه الأخير ، يشرح لهم الموت ونظرته إليه ، ويطلب إليهم أن يكفوا عن البكاء . وقد نظر الشاعر الفرنسى الكبير لامارتين إلى هذه الرواية ، فنظم حوادثها فى شعر يفيض رقة وعذوبة وجمالا وسلاسة ، وجعل عنوانها « موت سقراط » . وفيما يلى خطبة سقراط بعد تجرعه السم ، وهى من أروع ما جاء فى هذه القصيدة الفذة « أحمد عيتانى »

ماذا ؟ ! أتبكون أيها الأصدقاء ؟ !
أتبكون وقد تحررت روحى من أثقالها الجسدية الدنيئة
فهى كالبخور تحرقه الكاهنة
على وشك الطيران نحو الآلهة ؟ !
أتبكون أيها الأصدقاء
حينما ترحب روحى بهذا اليوم الطاهر
الذى كانت تطمح إليه ؟ !
حينما توشك على السفر فى رحله مقدسة
تبحث فيها عن الحقيقة
فتعثر عليها ، وتتعرف إليها ؟ !

* * *

إذاً علام الحياة إذا لم يكن مصيرنا للموت ؟ !
علام أحببت الألم فى سبيل العدالة ؟ !
علام كانت نفسى الحبيسة
تقاوم حواسها وميولها الدنيئة العنيفة
أثناء تلك الميتة التى تسمونها الحياة ؟ !
ماذا عسى تكون الفضيلة بغير الموت أيها الأصدقاء ؟ !
ذاك ثمن المعركة ، ذاك تاج سماوى

يمنحنا إياه حكم زكى فى نهاية المرحلة

* * *

إن صوت جوبيتر يدعونى إليه
ألا فلنقدسه أيها الأصدقاء
فإنى أستمع إليه الآن !
لقد كان بوسعى ، لو رغبت فى بقية من الأجل
أن أحمل السماء على ترديد ندائها إلىّ .
ولكن ، لِتحفظنى الآلهة من هذا !
فأنا حين تدعونى إليها أُلبيها عبداً مطيعاً !

* * *

وأنتم أيها الأصدقاء : إذا كنتم محبوننى
فأريقوا على رؤوسكم العطور ،
شأنكم فى أبهج أعيادكم ،
وعلقوا على حائط سجنى قرباناً ،
ثم خذوا بيدى نحو ذراعى الموت ،
وقد توجتم جباهكم بأطواق الرياحين
كما يؤخذ بيد العريس الشاب إلى سرير زفافه ،
وقد أخذت الجموع المتدافعة
تنثر أمامه الأزهار ، أمام عتبة عروسه !

* * *

وبعد ، فما الموت ؟ إن هو إلا تحطيم هذه العقدة الدنسة ؛
إن هو إلا فسخ هذا الاقتران الشائن بين الروح والأرض ؛
إن هو إلا إزاحة عبء ثقيل نرى به فى القبر !
إن الموت انتقال أيها الأصدقاء ، وليس فناء !
والإنسان ما دام رازحاً تحت هذا الجسد المقيد به
يزحف بعناء عظيم نحو الخير الحق .
وما دامت رغباته السافلة تقطع عليه هذا السير
فسيسير وراء الحقيقة بخطوات راجفة ، وربما أضاعها أيضاً !
ألا إن من يصل إلى آخر حياته التى يرجوها
ويبدو له شعاع فجر يومه الأبدى
ليعودُ ثانية نحو السماء ، وكأنه شعاع من أشعة السماء !
ويرتدُّ ثانية إلى جوار الآلهة ، بعد ما أُقصى عنها
حيث يحتسى بشَرهٍ ذلك الرحيق المسكر
ويبدأ حياته من ذلك اليوم الذى يقضى فيه !

* * *

ألا إن الموت ألم ، والألم شر أيها الأصدقاء !
ولكن ما يدرينا ذلك ؟ !
ولو كانت ساعة الموت الرهيبة
ساعةً يتألم فيها جسمنا الفانى
كما تتألم الضحية الذبيحة
أو ليس عن الشر يصدر كل الخير ؟ !
إن الشتاء ليتمخض عن الصيف ، وإن الليل لينكشف عن النهار !
لقد وضع الله تعالى بنفسه هذه السلسلة ،
ونحن ، وقد جئنا إلى هذه الحياة على الرغم منا ؛
فليست هذه الميتة الهائلة التى يرهبها ضعاف النفوس
إلا ابتداء حياتنا فى العالم الخالد !

* * *

ولكن ، أيكفى أن نموت لنبعث ثانية ؟ !
لا ! بل يجب أن نحرر أنفسنا من نير حواسنا
ونعملَ لنصرتها على ميولنا الفانية !
يجب أن تكون حياتنا هذه موتاً طويلاً !
إن حياتنا معركة ، والموت انتصار لنا فيها !
إن الأرض لدار يطهر فيها الإنسان نفسه ؛
فعليه ، وهو فيها على عتبة الموت قد تجرد عن حواسه ،
أن يقذف إلى النار بثوبه المدنس
قبل أن يتقدم بروحه ، ضحيةً طاهرةً
إلى الآلهة الزكية فى الدار الصالحة !

* * *

إنهم (الأشخاص الصالحين) يلحقون بالأبطال والآلهة لدى الاشارة الأولى !
يلحقون بهم فى السماء حيث لا يوجد موت !
إنهم يلحقون بهؤلاء الذين دمروا شهواتهم إبان حياتهم القصيرة
فأخضعوا المادة للعقل وأذلوها له .
هؤلاء الذين خضعوا للشرائع والقانون ،
وأصغوا إلى صوت ضميرهم الداخلى ،
واتبعوا طريقاً سوياً بعيداً عن الناس ،
وخدموا الآلهة وعبدوها ، وفى ذلك أصل الفضيلة ،
وأحبوا الحقيقة ، وتألموا للفضيلة ،
فاستعادوا حريتهم من الآلهة ابنة السماء

احمد محمد عيتانى
عضو بعثة جمعية المقاصد فى معهد التربية

الترجمـــة

خطرها وأثرها فى الأمم المختلفة

للدكتور عبد العزيز عزت

٢ – عند الرومان

ونجد أثر الرواقيين والأكاديمية الجديدة فى كل كتبه الأخرى وعلى الخصوص فى « غايات الخير والشر » وهو أهم كتاب لشيشرون بإجماع مؤرخى الفلسفة ، ويشرح فيه الأخلاق النظرية ، وهى ترتكز على حرية الإرادة التى تتضمن سياسة النفس الفردية وانسجامها مع منطق المجتمع البشرى ، وتفهم إرادة الوجود العالى الذى فيه الإنسان جزء بسيط فى مرتبة الكائنات المختلفة التى تتسلسل في درجات متصاعدة حتى تبلغ القداسة السماوية . كذلك فى كتابه الواجبات ويشرح فيه الأخلاق العملية معلناً أن مغريات الحياة الخارجية أعراض زائلة يجب الزهد فيها ، ويجب التماس النافع منها لتقوية روح الإنسان لفعل الخير ومقاومة الشهوات الجامحة والانفعالات الثائرة ، كى يصل الإنسان إلى تلك الجنة النفسية الداخلية التى يصورها الرواقيون فى تفكر الفلاسفة والحكماء ، وكذلك فى « طبيعة الآلهة » حيث يعرض للإلهيات والطبيعة . وبينما يتأثر فى الجزء الأول منها بأبيقور ومذهبه فى اللذة فى مجال الأخلاق وفلسفة الطبيعة عامة ، يتأثر فى الجزء الثانى بفلسفة الرواقيين من حيث خلق العالم وترتيب نظامه وعناصره ومخلوقاته ، ثم هرمه وتناقصه حتى المبدأ الفطرى الأول حيث تحصل الطهارة ويخلق العالم من جديد وتتم دورة نظامه . وهو أهم هذه الأجزاء لأنه يبسط آراء كريزيب وكلبانت ، وفى الجزء الثالث يحدثنا كوتا عن آراء أرسطو

وبجوار ذلك ترجم شيشرون الكتب الآتية من أولها لآخرها وهى كتاب لزينوفون ، (ولقد ضاعت هذه الترجمة) وكتاب البروتا جوراس لأفلاطون وهى من كتب عهد الصبا حيث يتأثر أفلاطون بتعاليم سقراط الأخلاقية إذ يتساءل فيها عن صفات الفضيلة : أهى طبيعية فينا أم هى مكتسبة بالتعلم والتمرن والعادة ؟ (ولقد ضاعت هذه الترجمة) ، وترجم لأفلاطون كذلك كتابه العظيم الخالد ، الذى يلخص كل فلسفته وكل العلم اليونانى حتى زمان أفلاطون وهو كتاب « طيماوس » وفيه يتكلم أفلاطون عن رحلاته وعن روح العالم ، وكيف تتوسط بين الخالق الفنان وبين سائر المخلوقات التى تنتظم فى ترتيب يحقق جمال عالم المثل . وبعد أن يعرض لطبائع المخلوقات بالتفصيل مبتدئاً من الله ومعقباً بالعالم السماوى ثم بالإنسان والحيوانات والنباتات والجمادات ، يمهد لرأيه فى السياسة الذى يبسطه بعد ذلك فى « جمهوريته » وفى نواميسه . « فطيماوس » هذا هو أهم كتاب فى نظرى تركه العالم اليونانى وسار سواء فى العالم الرومانى عن طريق شيشرون أم فى العالم العربى بعد ذلك حيث ترجمه حنين بن إسحاق وأصلحه يحيي بن عدي كما يؤكد ذلك العلامة لكليرك فى كتابه « تاريخ الطب عند العرب » الجزء الأول ، وكما يؤكد القفطى في مقالته عن أفلاطون فى أخبار الحكماء . ولقد شرحه أخيراً بالفرنسية أستاذنا العلامة ألبير ريفو فى مجموعة بيدى

فمؤلفات شيشرون بنوعيها سواء الترجم منها أم التى يسودها الترجمة فى أغلب أجزائها تدل دلالة واضحة على أنه لا أهمية لشيشرون كمؤلف ، لأنه لم يضف شيئاً جديداً إلى ما قاله اليونان القدماء . وهذا راجع إلى أن عقلية الرومان عقلية عملية تهتم بالحياة الجارية أكثر من الحياة الفكرية ، وبحياة الفتح والغزو أكثر من حياة الاستقرار والانتاج ، وبحياة القهر والاستعباد والقانون والعقاب أكثر من حياة الحقيقة المجردة والخطأ الفكرى وإصلاحه وواجب الفضيلة وتأنيب الضمير . عقلية تمتزج بعوارض الدنيا ، وإذا أرادت أن تتحرر من قيود المادة هامت على وجهها فى ميدان العقل . فنجد مثلا شيشرون يخطىء فى التعليق على آراء الفلاسفة كما يفعل عند ما يتكلم عن عناصر المادة فى الكاديميك مما دعا العلامة تيوكور فى رسالته لدكتوراه الدولة أن يصفه بأنه فيلسوف بالواسطة لا بالذات . وأهمية شيشرون فى نظر هذا العلامة تنحصر فى أن مؤلفات شيشرون تكون موسوعة لا يسبر غورها لفلسفة اليونان وخصوصاً للفلاسفة الذين جاءوا بعد أفلاطون وأرسطو مباشرة وضاعت كتبهم أى الفلاسفة

الرواقيون ، لأن العلامة لوسيان ليفى فى شرحه « لنواميس » شيشرون يذكر أن لكريزيب نحو سبعمائة كتاب أغلبها إن لم يكن كلها قد فقد . ولخلق مثل هذه الشخصية العظيمة يرجع أستاذنا إميل برهييه E, Bréhier فى كتابه عنه إلى شيشرون فى كل صفحة من صفحاته . ولزيادة الدقة فى البحث نذكر أن الكتب الرواقية المفقودة والتى نستعيض عنها بمؤلفات شيشرون هى كتب الرواقيين القدماء أى زينون وكليانت وكريزيب ، وليست كتب الحديثين منهم أى بنيتيوس وبسدونيس الذين كادوا يعاصرون شيشرون فى زمانه ، ونحن فى هذا نعتمد على رأى العلامة جورنز

ويجب ألا يتطرق إلى ذهن القارىء أن ضعف شيشرون فى هضم الفلسفة يرجع إلى عيب فى مداركه ، فللحكم عليه يجب ألا نتأثر بحالتنا الراهنة للفلسفة فى أوروبا ، وإنما يجب أن نرجع إلى حالة الفلسفة فى عهده . فسنجد أن ما نسميه الآن ضعفاً كان قوة ، وكان هو سيد العبقريين فى زمانه بين أهله وعشيرته ، بل إن ما نسميه الآن ضعفاً كان فضيلة لها ميزتان : الأولى أنه أخلص لعبقرية جنسه فأثبت أنه عريق فى الرومانية يمت إلى أهله بأصل ثابت ، فلم ينفرد عنهم بقوة التجريد . الثانيــة أنه لم يتصرف فيما نقله عن فلاسفة اليونان فكانت مؤلفاته أو بالأحرى « ترجماته » خير معبر صادق عما ضاع من نصوص ، وخير معين على تتبع حركة الفكر عند اليونان دون ضياع حركة ما

ويجب أن يعلم القارىء مع ذلك أن شيشرون لم يكن فيلسوفاً « محترفا » وإنما كان على وجه الخصوص سياسياً ماهراً وخطيباً مصقعاً لم يعرف التاريخ له مثيلا ، وأنه اتخذ من الفلسفة وسيلة لتدعيم مركزه فى الأوساط الرومانية وبين أعضاء مجلس الشيوخ بروما ، فكلما حيل بينه وبين منبر الخطابة ذهب إلى الفلسفة ليشرح إلى بنى وطنه أصول المعرفة فيتصل بهم عن طريق العقل والآراء فلا ينسونه وهو بعيد عن حظيرة السياسة . كذلك وجد فى الفلسفة وسيلة لتربية ابنه ، وسائر أبناء وطنه فهو يقول : « إذا كان الخطيب المصقع له الحق أن يعلم ذلك الفن الذى أثبت قدرته فيه مرات ، فللسياسى الحق أن يلقن شباب المستقبل بعضاً من المبادئ والدروس البالغة » (إقرأ لكليرك « مؤلفات شيشرون الجزء الثانى عشر صفحة ٣) . ويذكر العلامة بيشون فى كتابه « تاريخ الأدب اللاتينى » أن شيشرون اتخذ من الفلسفة وسيلة لتفهم القانون الرومانى الذى ساد فى زمانه واستيحاء هذا القانون خلال تلك المبادىء العقلية فى خلق فلسفة سياسية نجدها فى جمهوريته ونواميسه . والفلسفة بعد ذلك كانت وسيلة للعزاء فى آخر حياة شيشرون لأنه فقد زوجته بعد حياة ثلاث وثلاثين سنة واضطر إلى الزواج من أخرى صغيرة السن لم تستقم سيرتها مع ابنته التى ماتت بعد ذلك فى شبابها المبكر ؛ فلزم الحزن وسطر كتابه « التأسى » (اقرأ القسيس العلامة برتران فى كتابه « منتخبات من مؤلفات شيشرون فى الفلسفة ») وعليه فالفلسفة عند شيشرون لاحقة بالسياسة وتابعة لها وهى وسيلة عنده لا غاية ، وإن كان هذا يقلل من قيمته كمؤلف إلا أن مؤلفاته لنفس هذا السبب ذات قيمة تاريخية عظيمة جداً .

ومهما يكن من شىء فشيشرون فى جملة القول يتأثر فيما يبسطه فى كتبه بمذهب الرواقيين ومذهب الأكاديمية الجديدة ؛ وإن مؤلفاته تحل محل المؤلفات اليونانية الضائعة فلا تضيع حركة تاريخ الآراء والمذاهب عندهم . ثم إن لمؤلفاته قيمة أخلاقيــة إذ شرحت للناس طوال القرون الوسطى فى أوروبا أصول الفضائل العملية والنظرية لأن أفلاطون وأرسطو لم يعرفا على حقيقة أمرهما إلا عن ترجمة آباء الكنيسة للتراث الاسلامي ، وبمساعدة علماء اليهود في اسبانيا إبان القرن الثالث عشر الميلادى . ولها فى النهاية قيمة أدبية لأن أسلوب شيشرون له مميزاته ، فهو يبسط الآراء لا فى شكل متتابع بل فى شكل حوار ؛ فهو يقلد أفلاطون فى ذلك ، ولم يخرج عن هذه القاعدة من مؤلفاته إلا ال de officiis أى الواجبات ؛ وال Paradox أي المحيرات

عبد العزيز عزت
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

في المؤتمر الطبي ببغداد

بغـــــداد

للأستاذ علي الجارم بك

بغداد ! يا بلد الرشيدِ ومنارة المجد التليدِ
يا بسمة لما تزل زهراء في ثغر الخلود
يا موطن الحب المقيم ومضرب المثل الشرود
يا سطر مجد للعروبة خُط في لوح الوجود
يا راية الإسلام والإسلام خفاق البنود
يا مغرب الأمل القديم ومشرق الأمل الجديد
يا بنت دجلة قد ظمئت لرشف مبسمك البرود
يا زهرة الصحراء ردي بهجة الدنيا وزيدي
يا جنة الأحلام طال بقومنا عهد الرقود
يا بهرة الملك الفسيح وصخرة الملك الوطيد
يا زورة تحيي المنى إن كنت صادقة فعودي

* * *

بغداد يا دار النهى والفن ، يا بيت القصيد
نبت القريض على ضفافك بين أفنان الورود
مرق التدلل من (عنان) والتفنن من (وحيد)
يشدو كأن لهاته شُدَّت على أوتار عود
بغداد أين البحتري وأين أين ابن الوليد ؟
ومجالس الشعراء في بيت ابن يحيى والرشيد
أين القيان الضاحكات يَمِسن في وشي البرود
الساحرات الفاتنات الحسن من هيف وغيد
الساهرات مع النجوم الآنفات من الهجود
من كل بيضاء الطلى مهضومة الكشحين رُود
يخطرن حتى تعجب الأغصان من لين القدود
وإذا سفرن فأين ضوء الشمس من شفق الخدود
يعبثن بالأيام والأيام أعبث من وليد !
خبأ الجمال لهن كنزاً بين سالفة وجيد

* * *

كم جاش جيشك بالفوارس من أساورة وصيد
للنصر في أعلامهم صلة بأبناء الغمود
مجد إذا صورته عجز الخيال عن الصعود
وجهود جبارين تصغر دونها شم الجهود
الرسل تتلو الرسل من بيض صقالبة وسود
ساروا (لقصر الخلد) يعشى طرفهم وهج الحديد
يتعثرون كأنهم يمشون في حلق القيود
الجو يسطع بالظُّبا والأرض تزخر بالجنود
حتى إذا رجعوا بدا بجباههم أثر السجود

* * *

الفلسفات عرفتها والعلم طفل في المهود
والغرب ينظر في خمود نحو قاتلة الخمود
كم موئل للمستجير ومنهل للمستفيد
(والجاحظ) المرح اللعوب يغوص للدر الفريد

* * *

بغداد يا وطن الأديب وأيكة الشعر الفريد
جددت أحلامي وكنت صحوت من عهد عهيد
جمع الخيال فما اطمأن ولا استقر إلى خلود
جاز القرون النائيات وفك أسرار العقود
ذكر العهود فأنَّ للذكرى وحن إلى المهود
واهتاجه الطيف البعيد فجن للطيف البعيد
وصبا إلى ظل العروبة في حمى الملك العتيد
يا أمة العرب اركضي ملء العنان ولا تهيدي
سودي . فآمال المنى والعبقرية أن تسودي
هذا أوان العدو لا الإبطاء والمشي الوئيد
المجد أن تتوثبي وإذا وثبت فلا تحيدي
وتحلقي فوق النجوم بلا شبيه أو نديد

وإذا شدا الكون الفا خر كنت عنوان النشيد
لا تخطى حد العلا ما للمعالي من حدود
من يصطد النمر الوثو ب يعف عن صيد الفهود

* * *

هذي طلائع نهضة ذهبت بآثار الركود
بغداد أشرق نجمها وبدا بها سعد السعود
سلكت إلى المجد القديم محجة النهج السديد
وزهت بأقصار الهدى وسطت بأظفار الأسود
بغداد إنا ـ وفد مصر نفيض بالشوق الأكيد
جئنا نحيي العلم والـ آداب في العدد العديد
لقياك عيد للمنى فزنا بها في يوم عيد
أهلوك أهلونا وأبـ ـناء العشيرة والجدود
بين القلوب تشوف كتشوف الصب العميد
حتى يكاد يحب نخـ ـلك نخل أهلي في (رشيد)(١)
شطت منازلنا وما احتا ج الفؤاد إلى بريد !
الرافدان تمازجا في الحب بالنيل السعيد
وتعانق الظلان : ظـ ـلا (الطاق) والهرم المشيد

* * *

جئناك نستبق الخطى أنضاء أودية وبيد
طالت بنا الصحراء حتى خلتها أبد الأبيد
يتخلص المرى المديد بها إلى مرمى مديد
كتخلص الحسناء من وعد طوته إلى وعود
بحر بلا شطآن يز خر بالتنائف والنجود
وسفينتي (نون) بها ما في فؤادي من وقود
جئنا إلى الغازي سليل العُرب والحسب المجيد
نختال بين هباته في ظل إحسان وجود
أحيا المنى بالعزم والتد بير والسعي الحميد
وغدت به سوح العر وبة منهلا عذب الورود
في نهضة الفاروق والغـ ـازي غنى للمستزيد
فاروق منبثق الرجا ء وملتقى الركن الشديد
ما عاش عاش الشرق في عز وفي عيش رغيد

علي الجارم

(١) بلدة مصرية وهي بلد الشاعر

وحي الشاعرية

عصريات

للأستاذ حسن القاياتي

الكيدُ ما تُعلِن السجايا والحقدُ ما تضمرُ الطوايا !!
يا عصرُ ما فيك من عوادٍ يا عهدُ ما فيك من خفايا ؟؟
ما للثنايا ترِفُّ بِشرا على الجوى يصدعُ الحنايا ؟(١)
لا قُدِّس العصرُ من أوانٍ تُذَمُّ في حمده التحايا !!
علامَ نزْهَى بفجر علمٍ كأنه للدجى بقايا ؟؟
لدى البغايا لنا خلالٌ وما لنا فتنةُ البغايا !!
نُطالعُ الحفلَ بالمخازي يا قُبحُ لا تنظرِ المرايا(٢)
لو شِمْتَ ـ نزهتَ ـ ما نواري أقمتَ في مرقص العرايا !!
إنّا لفي الخُلْد من زمانٍ تُنيل فِردَوْسَهُ الخطايا
جيلٌ تباهى بلُبٍّ حُرٍّ وظلّ عبداً لدى العطايا !!
رَغِّبْ وأوْعِدْ فسوى تحوِي ضمائر الصيد في الهدايا !!
مَن ادَّعَى أنهُ طليقٌ إلام يختال في السبايا ؟؟

* * *

يا عصرُ ما فيك من فتونٍ لا رُشد فيه سوى المنايا ؟؟
سَلِ الأضاليل كيف لاقَتْ حُنوَّ موسى على الوصايا ؟؟
شَقِيتَ بالحق فتَرُمْهُ بحيث تشق به القضايا
صباحةُ الحق حجبتْهُ فقرَّ والحسنَ في الخبايا !!
لا يحسنُ العدلَ من تولّى فغادرَ العدلَ في الشكايا(٣)
جزَالةُ الرأي من فؤادي يطير من فتنةٍ شظايا

* * *

(١) الحنايا : هي حنايا الضلوع
(٢) المرايا : جمع المرآة
(٣) الشكايا : جمع الشكية

جاذَبتْ عصرى مُنى سَرِيٍّ   فعَرْبدَ العصرُ فى مُنَايَا
شدا فأشجى بكل وَاهٍ   لبُلبُل العصر مشتكايا
قيل: انتخابٌ. فقلت: سَبْقٌ   إلى الكرامات بالدنايا
وَقيعةٌ والخنا قِسِيٌّ   وهدنة والنُّهى رمايا
هوَى الكراسىِّ والغوانى   أنّى تغنّتْ به الضحايا
حديث ندْبٍ لناخبيه   شكاة آسٍ إلى البلايا
سُرّى تُباعُ القلوبُ فيه   سوافر الهون أو نقايا(1)
من شام فالنقد والتّهادِى   أو شمّ فاللحم والقلايا(2)
صِلْنِى بدينارك المرجَّى   أهَبْكَ خيرَ الورى مزَايَا

***

لعينىَ النبل حين أغزو   قُوَى مبارىً فى سرايا
مشوا إلى الكيد فى الغوانى   فلا سراةٌ ولا سَرَايا(3)
شكا من الجوع فاشتكانى   مُرَفَّهُ العيش فى حمايا
للخبز دون الجلال تُسْبَى   فوَاتِنُ المال والصفايا
بكى عدوى إلى صَفيِّى   فردَّه الدمعُ من عِدَايا
ضَعْفٌ ترامى عليه ضعفٌ   كالغيد مالت على الحشايا(4)
لَدَى العشايا حمدت رأياً   فسَلْهُ ماأنتَ فى الغدايا ؟؟
سَماَ بطِفل الجلال شعبٌ   ثوَى بمَعْليه فى الزّوايا
سَماَ وما لقّنوهُ حرْفاً   كَوثبة الميت إن تحايا !!
من سوّد النذل فى الأعالى   فهَدَّ للحفرة الثنايا ؟؟(5)
هى السجايا لخيثُ جارت   ترَقّبْ الجور فى القضايا

***

هوَى بيانٌ كما تَلاشَى   تبسُّمُ الدّلّ فى الثنايا !!
بيــان هادٍ غذته آيٌ   من المثانى فوق آيا
يراعةٌ صُرِّفَتْ جمَالاً   كما يشق اليراع نايا(1)
ياسقطة والفنون ليلٌ   كسقطة الشمس فى العشايا
إن عزَّنى بالنجاح نذْلٌ   فرُبّ لكعاء فى الحظايا
أَدَلّ شعبٌ على فتَاهُ   ليضحك المجد من فتايا !!
على قطيعٍ سَرى غبيٌّ   بلغتَ ياراكب المطايا
بالعلم فليصحب الليالى   من صَاحَبَ القفْرَ بالرّوايا(2)

***

تبًّا لعصر الجلال يمشى   لسُدّة الجهل فى الرعايا
يا مُنصف اللُّبِّ كم أجاري   بصبيةٍ ألّبت صبَايا ؟؟
أنصف بوزنى ومن يُبارى   فلا هواهُ ولا هوَايا
باعد سجاياه من خلالى   وقس حجاه على حجايا
من اعتلى والهدى حُلاه   شأوْتُهُ والهدى حُلايا
العزُّ فى النفس، رُبَّ وَغْدٍ   بجــده تشرف البرايا

***

وَيْحَ الأمانىّ كم تُعادِى   حلو الأمانىّ والسجايا ؟؟
إنى وللحمد ماأعانىَ   كالبدر في ظلمة سُرَايَا
بَرٌّ إذا حَفّتِ العوادى   تَنهّدَ الناسُ من حشايا
أُصَدُّ والحظ يبتغينى   أقول باسمى دعا سوايا
الحرُّ يمشي إلى المساعي   كمشية النحل في الخلايا

« الكرية ــ دار القاياتى »   حسن القاياتى

(١) النقايا بالفتح : جمع النقاية بالضم وهى خيار الشئ وصفوته
(٢) القلايا : ما يقلى من اللحم يراد بها دعوات الطعام والمأدبات
(٣) السراة والسرايا : أشراف الأمة وشريفاتها
(٤) الحشايا كالمقاعد المحشوة أو الوسائد
(٥) الثنايا : الجبال ، أو الطرق فى الجبال

(١) اليراع : القصب المتعارف تصنع منه الأقلام ونايات الغناء ، واحدته يراعة وهى القلم
(٢) الروايا : الجمال تحمل قرب الماء للمسافرين أو هي القرب نفسها يحملها المسافرون



من الأدب الايطالي

حياة جـــــديدة

من دومنيكو ماريا مانى

للأستاذ دريني خشبة

رآها أنطونيو فشُغف بها حباً ، وكانت نظرته الأولى إلى وجهها المشرق الجميل الرائع فاصلاً عظيما فى حياته التى جَدّ بها الظمأ ، ففجأها وابل من كوثر الحب ، فروىت ، ولكنه وا أسفاه كان رِوًى أحرّ من قاتل الظما ، وآلَمَ لنفسه من شديد الجُواد وأحبته جينفرا ، وكانت تقضى لياليها مثله مؤرقة مسهدة ، تفكر فى روحه الشاعرة الحلوة التى تطل عليها من عينيه الحبيبتين وقلبه الذى يرسل إليها نبضاته الموسيقية على أجنحة الأثير ...

ولبث أنطونيو يجد فى ميادين الحياة ليبنى دعامة مستقبله على لبنات من مادتها ، حتى إذا تقدم إلى والد جينفرا تقدم وفى يديه حفنة من ذهب قارون لاتطمئن ألباب الآباء إلا إليه ، ولا تطبُ إلا به ، ولا تقيس العيش إلا بعياره ... وكان يعمل دائباً وفى عينيه صورة جينفرا ما تفارقهما ، وفى قلبه المعمود تمثالها المعبود ما يبارحه ، حتى إذا تصرمت سنون أربع طوال كالدهر وتقدم إلى والدها دلجى اميرا يخطب إليه ابنته ، رده الأب الجبار رداً لا رحباً ولا كريماً ، لأن فتى من أسرة أجولانتى يقال له فرانسيسكو كان قد تقدم إلى الرجل يخطبها على نفسه ، فقبل الرجل يده ، من غير أن يستشير ابنته ، ومن غير أن يقيم للحب الذي صهر فؤادها وزناً ، مع علمه به ، ورثائه لها من أجله ...

وكانت المادة التى عمل أنطونيو على اكتسابها جهده سبب رد الوالد التاجر إياه ، لأن أسرة الفتى فرانسيسكو كانت أسرة جاه ويسار ومجد ، وإن يكن الفتى نفسه من هذا الشباب القَنِعِ الذى لا خير فيه ، وإن يكن قلب جينفرا لم يجْزِه إلا صدوداً ، ولم يُشعره إلا جفاء وسلواناً

ولكن ما قيمة أن تأبى الفتاة فى هذا العصر العنيف الظالم مالا يأباه أبواها من أمر لا يعنيهما بقدر ما يعنيها ، لأنه أمر حياتها ولأنه أمر سعادتها أو شقوتها ؟ لا ! لا قيمة لاعتراض الفتاة ... وهى مرغمة على أن تقر صاغرة ما اختار لها أبواها ... وإن كرهت ... فلا بد إذن من أن ترضى جنيفرا بهذه الزيجة لأنها صفقة من صفقات قارون ، وصفقات قارون رابحة مطلقاً ، لأنها تمشى بالفتاة على أرض من ذهب ، وإن تك فى قلبها جحيما من لظى ولهب ، وهكذا زفت جينفرا المسكينة إلى زوجها المفروض عليها ... وهكذا انتصر العالم الفانى على العالم الباق ، وصرع شيطان الأرض ملاك السماء ، وتسلط التراب على الروح فعفر وجهها الحر الكريم

وذهبت الفتاة إلى زوجها جسما بلا روح ، ودمية من اللحم والدم والعظم ليس لها قلب ، لأن روحها وقلبها مع رجل آخر غير هذا الرجل ... مع أنطونيو لا مع فرنسيسكو ... مع الحبيب الذى منحها وجوده ، وجعلها علة بقائه ، مع الشاب الذى ثوى ملء جوانحها يضرمها بأخلاصه ، ويؤججها بآماله التى انهارت فى الأرض ، وثبتت فى السماء ...

***

وذهب أنطونيو يبكى من أعماقه ، وينشد النظرة الخاطفة من حبيبته فى الكنائس والمسارح والمجتمعات ، ويقسم جهد أيمانه أن يعيش على ذكراها ، وألا يتصل بأنثى من بنات حواء ما دامت جينفرا قد أفلتت من يديه . ولم لا ؟ أليس بحسبه أن يعرف أن قلبها له ، وأن جسمها لزوجها الذى لم يكن لها يد فى اختياره ، ولابد من الرضاء به ؟ ثم أليس بحسبه أن يكون وفياً

لها مادامت قد أرغمت على شيء لايستطيع أحد أن يرغمه هو على مثله ؟ ! ، وما الفرق بين أن ترغم جينفرا فتتزوج ، ولا يرغمه أحد فيتزوج ؟ إنه إن فعل فانها تفضله ؛ وإن لم يفعل عاش كما عاش المحبون المخلصون من قبل، وعاش خالداً في القديسين الخالدين

***

في سنة ١٤٠٠ نكبت أكثر المدن الايطالية بطاعون عظيم ذهب ضحيته أكثر سكانها ، وكانت قرى بأكملها تصبح خلاء من أناسيها وحيوانها ، وكانت فلورنسا الجميلة ، عروس المدائن الايطالية في ذلك العصر من أكثر البلدان ضحايا وشهداء

ولم تسلم جينفرا من هـذا الوباء ، بل تعذبت به طويلا ، وكلت حيـل الأطباء في سبيل إنقاذها ، فأسلموها للمقادير ، وانصرفوا عنها يائسين .. ولم تمض أيام حتى وقعت فريسة لنوبات جنونية كانت تعصف بها عصفاً شديداً ، وتعذبها عذاباً مبرحاً ، وتذيب من حولها قلوب ذويها أسفاً عليها ... وأغمى عليها مرة إغماءة قاسية فحسب أهلها أنها أسلمت الروح ... وسواء أحسبوا ذاك أم لم يحسبوه فإنهم كانوا قد ضاقوا بمريضتهم ذرعا ، وملئت قلوبهم منها ذعرا ، لأن أنفاسها وباء ، وبزاقها داء ، وأنينها لهم أنين ، وحملها عبء إن كانوا قد استطاعوا حمله أياماً فانهم عليه مع هذا الجنون غير صُبُر

وكان الناس لا يتورعون أن يدفنوا مرضاهم أنصاف أحياء خشية استفحال الوباء ، فلمـا أغمى على جينفرا ، وطال عليهم إغماؤها ، وقر في قلوبهم أنه الموت ، فجهزوها مسرعين ، وحمل تابوتها طائفة من القسيسين فهرولوا به إلى مدفن العائلة ، وكان قبواً عظيما تحت الأرض بعيداً من المدينة ، فدفنوها فيه في احتفال بسيط ؛ ووقف زوجها وأهلها وعارفو فضلها يذرفون عبراتهم على ثراها ... ثم انصرفوا ... وأقبل أنطونيو المحزون يبكيها بدوره ، ويسكب عليها شئونه لا كما يسكبها غيره من الناس ، بل كما ينبغي أن يفعل العاشق الصب وسـد الناس قلبه تحت الثرى و الصفاح

كذا فليجل الخطب ، وليفدح الأمر ، وليبك أنطونيو رونديناللي !

لقد وقف المسكين على ثرى معبودته ، وعند قبوها الهائل ، وراح ينثر بقايا روحه على جدثها الطاهر العزيز ... ثم جلس في ذهول وفي شبه إغماء ، وانطلق يحلم بماضيـه الجميل ، ويرسل عينيه وراء سجفه الشفشافة ليراه جالساً إلى جينفرا يناجيها ، ويتحدث إليها حديثاً كقطع الروض ، ومنضور الورد ، ويقبلها تلك القبل الحالمة الناعمة فوق ثغرها وفوق نحرها وفوق ذراعيها .. ثم يفيق المسكين ... فيراه جالساً يبكي ... فوق قبرها ... وهي تحت هـذا الجندل المركوم والتراب المهيل جثة هامدة ساكتة صامتة ، لا يتحرك لسانها ، ولا تنفرج شفتاها ، ولا يتفتح الورد في خديها ، ولا ينبعث النور واللألاء من جبينها ووجنتيها فيحس كأنما روحه تساقط مع أنفاسه الباردة لتثوى مع جينفرا تحت التراب .

ويقف أنطونيو فجأة ويحدج القبر بعينيه الباكيتين ، ويقسم أنها ليست فيه ! ... ليكُن ! قد يكون ما يعني روحها .. أو .. ذكرياتها .

ثم يمضي إلى المدينة ، ويذهب إلى منزله مصدوع القلب ، ذائب النفس ، خفق الأحشاء ، ليس أسمج في عينيه من هذه الدنيا الكريهة الغادرة !

***

لم تكن جينفرا قد ماتت كما وهم القوم ، بل كانت مغمى عليها إغماء شـديداً ... وليت أنطونيو ما فارق ثراها ، حتى يسمع صوتها الضعيف داخل القبو بعد إذ انصرف بلحظات ...

لقد هبت المسكينة من غفوتها في العالم الآخر ، فجاهدت كثيراً حتى نهضت من تابوتها ، وسرعان ما عرفت مصيرها فلم تُذعر ولم تنزعج مع ما كانت تضيق به من برد المقبرة وهوائها المرطوب ، وريح الكتور القارسة

ثم أنشأت تعالج التخلص من تلك الأكفان التي لم تخلق للبوس هذه الحياة الدنيا ، وكانت تسبح بأسماء الآلهة والقديسين وتتوكل عليهم فيما هي فيه من الضيق ، وكانت شعاعة ضئيلة من أشعة القمر تنسرق إلى القبو من شق صغير فيه ، فكانت لها في شدتها وحرجها كبسمة الأمل الحلو الذى ضاعف جهادها في سبيل الحيـاة ... واستطاعت بعد لأى أن تخلص من بعض أكفانها ، وأن تخطو في ضعف وإعياء نحو باب القبو ...

وتهالكت على نفسها حتى صعدت فوق الدرج .. وهناك جلست لتستريح لحظة ، وتستجم لما أمامها من العمل ... حتى إذا أحست فى ذراعيها قوة أعملتهما فى الحجارة التى كانت تسد باب القبو ، والتى كانت تتماسك بطبقة رقيقة من الملاط ، كانت ما تزال لينة رطبة ، فسهل على جينفرا إزالة بضعة منها ، بحيث أحدثت ثغرة تكفى لخروجها فى شىء من الصعوبة ، وقليل من العناء

وشجعها ما كانت فيه من هلع على نفسها داخل القبو ، وما نالته من الظفر فاحتملت قر الليل وصرير الريح ووحشة الوادى ، وجعلت تخطو بقدمين متخاذلتين فى الطريق المقفر إلا من أشعة القمر ، المنجرد إلا من عشب هنا وعشب هناك ، حتى وصلت إلى المدينة ...

لله ما أروع هـذا الشبح السارى فى ضوء القمر يدب على التراب الندى بقدمين عاريتين ، وفى أكفان حريرية كأنفاس البخار تصّاعد من النبع !

ولله هذا الوجه الشاحب الذي برز الساعة من ظلال الموت وحدود الفناء ، وجعل يتدَهْدَى فى طرقات المدينة حتى بلغ دَاىْ كالزَاجولى !

لقد كان فرنسيسكو جالساً يستدفئُ بالقرب من النار المتأججة فى المدفأ ، ووجهه عابس وجبينه مقطب ، وعليه من بداوات الأسى وعلائم الحزن ما كان ينبئُ عما في قلبه من ثورة الوجد على عروسه التى لم يعش في كنفها الوارف أكثر من أشهر ثلاثة ثم قضت ... وفاز بها الطاعون دونه !

وكان يهم أن يخلع ثيابه ، ثم يمضى لينام ، لولا أن سمع صوتاً خافتاً وراء الباب ، ونقراً خفيفاً ضعيفاً على الباب ، فذهب ليرى من الطارق بلَيْل ؟

لله ما كان أروع القمر السارى فى ملكوت الله وهو يلقى أشعته على الشبح الواقف لدي الباب !

لشد ما ذعر فرنسيسكو ...

لكنه ركع أمام الشبح ، وأخـذ يرسم علامة الصليب بسبابة مرتعشة ، ونظرات مغضية ، ثم نهض فتوسل إلى الروح الكريم أن يذهب ... فلما لم تتحرك جينفرا مما دهاها من الدهش ... أغلق فرنسيسكو الباب ، وأحكم رتاجه ... ومضى إلى فراشه وبه رجفة تزلزله زلزالاً عظيماً ... ثم نذر أن يتصدق على روح زوجته ما وسعه ذلك ، وأن يقيم على جدثها الطاهر ما لم يؤد لها من قُدَّاسات

وبكت جينفرا ما شاء لها أن تبكى ، ثم جعلت تجمجم وتقول : « وَىْ ! أذاك هو مدى ما أحببتنى يا فرنسيسكو ؟! وى ! لا بد أننى كنت عبئاً عليك ، ووزراً تنوء به ، وتود لو تخلصت منـه ! وا أسفاه ! أين أذهب يا ربى ؟ أأفلت من ظلام القبر لأموت من البرد والضنى والجوع فى أشعة القمر ؟ » . وذكرت أن بيت أبيها قريب فانقلبت ... وشرعت تخطو ...

ولم يكن أبوها هناك ...

وكانت أمها فى الطابق العلوى ، توشك أن تمضى إلى سريرها فتنام ... فلما سمعت همس جينفرا وصوتها الخافت المستنجد أطلت من النافذة لترى من الطارق ...

وكان الشبح المريض المهزول يتكئُ على مصراع الباب مما به من ونى وإعياء ؛ ولم تَستَرِب به الأم المحزونة ، فقالت له وهى تتوسل إليه : « انصرف فى سلام أيها الروح ... ! » ثم أغلقت النافذة ، وانكفأت إلى فراشها لتصل أحزانها على جينفرا ... !

وَعرَتْ الفتاة رعشة من الحسرة لا من البرد ، فشدت ذراعيها ، وذهبت على وجهها لا تعرف أيان تمضى ... ثم خطر لها أن تلجأ إلى بيت من بيوت أعمامها ، فلم تصل إليه إلا بعد أن جلست مرات ومرات تستريح وتستجم ، وتمزج دموعها وأحزانها بضياء القمر الذى كان يبدو كأنه يبكى لها ويرثى لحالها ، ويحوطها بغلالة دافئة من قمرائه

وا أسفاه عليك يا جينفرا !

لقد وقفت بباب عمها فلم تلق أطيب مما لقيت في المرات السابقة ، ثم وقفت بباب عمها الثانى ، فعمها الثالث ، ثم بباب خالها ، فخالها الآخر ، فأبواب جميع أقاربها ، فكانوا يردونها على أنها روح سارية ، ويغلقون أبوابهم جميعاً دونها

واعتزمت آخر الأمر أن تلجأ إلى مُسْتَرَاح سان بَرتولوميو لتنام فيه أو لتموت فيه ، ولتستريح من هذه الدنيا التى تجهمت لها ، وعبست بألف وجه من وجوه أقربائها ... وما كادت عيناها الحزينتان تغمضان كما تغمض النرجسة الذابلة ، حتى خطر لها أن

تنهض من فورها ، وتمضى إلى بيت حبيبهـا الوفى ، أنطونيو روندينللى ، وإن تكن بينها وبينه مسافة طويلة ، ضاعفها ضربها فى المدينة أضعافاً مضاعفة ...

ثم هجست فى ضميرها بكلمات باكيات فكأنما كانت تقول : « ولكن ! ... ماذا أنتظر من رجل لقى الويلات منى ومن ذَوِيّ ؟ وماذا عساه يصنع لى وقد ذادني كل أهلى عن منازلهم ؟ يا رب ! وحق أسمائك ما خنته ! وحق ربوبيتك ماضَيّعت موثقه ! »

وذهبت تدلف إلى بيت أنطونيو وتهدج ، حتى كانت لدى الباب ، فوقفت تستمع إلى دقات قلبها ، قبل أن تصغي إلى نقرها فوقه

وفتح أنطونيو البـاب ... ولم يكد يقع بصره عليها حتى تقدم نحوها بدافع غريب قوى من الحب ، أو من الشجاعة ، ولم يتقاعس كما تقاعس ذَوُوها ، ثم طفق يحملق فيها ويقلب فيها عينيه من إخمصيها إلى ذؤابة رأسها ، فلما أيقن أنها هى ، تنفس صعداء ، وقال : « أأنت حقاً جينفرا ؟ أم أنت روحها القِدّيسة المطهرة ؟ » ولم ترد عليـه ، بل أرسل الحب ذراعيه القويتين إليها ، فاحتملها كالطفلة ، ثم أخذ يصيح من الجذَل ، داعياً أمّه وخدَمه ليزف إليهم البشرى ، ولكن سرعان ما ارتد هؤلاء من الفزع حين أقبلوا ليرَوْا فيما دعاه أنطونيو لهم ، لما رأوه يحمل فتاة كالشبح فى أكفان ! !

وهرول بهـا أنطونيو إلى مخدعه فسجّاها فى سريره ، وهتف بخادمٍ فأحضرت الموقد ليدفئها بما بقى فيه من قَبَس ، ثم دعا أمه فطمأنها ، وجلست مع الفتاة فى السرير تضمها وتجعلها فى حضنها لتدفئها كذلك

وكان الهلع يغشى أنطونيو خشية ألا يشيع الدفء فى كيان حبيبته البارد المرتجف ، فتذهب ضحية القر ؛ بيد أنه اطمأن حينما رآها تثوب ، وكان فرحه بها أشد من حزنه عليها ، عند ما فوجئ بنبأ وفاتها ، وجلس عنـد قدميها فوق أرض الغرفة يرعاها ويتولاها بعنايته ، غير مطمئن إلى ما كانت تبذل أمه من التلطف بها ، والحدب عليها

وانتعشت جينفرا ، فهبت من السرير لجأة ، ونزلت إلى الأرض ، ثم أهوت على قدمي أنطونيو تقبلها ، وتريق عليهما دموع محبتها وشكرانها ، وترجوه أن ينشر عليها جناح الطهر من وده وصداقته ، وأن ينسى إلى حين ما أنها حبيبته ، وإن تكن تمد نفسها خادمةً له ، وترتضى العبودية فى كنفه ... ثم ذكرت والدموع تحجب عينيها ، ما كان من شجاعته عند ما رآها أمام بابه ، فلم يفر ولم ينزعج كما فر أهلوها وانزعجوا ... وارتبك أنطونيو ، وهم من مجلسه فركع أمامها ، وراح يطلب صفحها عما عسى أن يكون قد بدر منه ، مما أثار ظنونها ...

ولم تستطع جينفرا أن ترد عليه بلسانها ، فأخذت كفيه ، وضغطت عليهما بكفيها الواهيتين ، ثم انطلقت تغمرها بالقبل ، وتنضحها بالدموع ··· وكان التأثر قد بلغ من أنطونيو مبلغاً عظيماً ، فراح يبادلها دموعاً بدموع ، وينكر على نفسه أنه أدّى لها يداً غير ما يقتضيه الواجب والمروءة والانسانية ، وأنه لم يكن ينتظر جزاء على ما صنع إلا أن تتدفق الحياة فى جينفرا العزيزة ··· المعبودة !

ثم سألها إن كانت تحب أن ينهض معها من فوره فيردها إلى ذراعى زوجها . قال :

« لا ترتبكى يا جينفرا ... إن هذا واجب ... إنى أحضك عليه وإن يكن فى قضائه قضاء عليّ ... »

وامتزج بكاء جينفرا بجوابها فقالت : « كلا ... كلا ... كلا ... لن أعود إليه ... لا أود أن أراه ... إنى أوثر أن ألقى فى دير فأعيش فيه ميتة ، على أن أعود إلى فرنسيسكو ... وفضلاً عن هذا .. فلقد فرق بيني وبينه الموت .. لقد مت فى اعتباره .. ومشى فى جنازتى ··· ووسدنى التراب بيـديه ··· وقبل ساعة كنت أطرق بابه ، فلمـا رآنى فزع وطردنى ··· وأغلق الباب دونى ··· أرجوك يا أنطونيو ··· أرجوك ألا تردد اسمه أمامى ··· وإن أرغمنى أحد على العودة إليـه فسأشكو أمرى إلى القضاء العادل ليفصل بيننا من جديد ··· سأقصد إلى كل محكمة ··· إلى كل سلطة دينية ··· لقد شهدوا جميعاً أننى مت ، وصرحوا بدفنى فدفنت حية ، وله ؟ لا لشئ إلا ليستريحوا منى ؛ أفإن شاء القضاء السماوى أن أنهض فى رمسى بمعجزة ، وعدت إلى الدنيا ولم أمت فى القبر أشنع موتة ، جاءوا من كل فج ليناوئونى ، ويحجروا عليّ من جديد ؟! »

وصمتت جينفرا ، وأكب أنطونيو يسكب عبراته تحت قدميها الجليلتين المرتعدتين ، وما كانت دموعه تلك إلا دموع الفرح بما سمع من حُسْن توكيداتها

ولبثت جينفرا لدى حبيبها الأول الوفي

ثم حدث أن رأى فرنسيسكو أجولانتى غادةً هيفاء من ذوات اليسار فغزل بها وغزلت به ، وأغرم كل بصاحبه ، فعقدا النية على الزواج ... وما أن علم أنطونيو بذلك حتى انتهز هو أيضاً فرصته ، وجعل يسعى لدى فرنسيسكو حتى اشترى منه كل جواهر جينفرا ، وهو لا يدرى أنها حية ترزق ، وأنها قد نجت من براثن الطاعون والفناء بإرادة السماء ... وعادت من عالم القبور لتخلق خلقاً آخر

***

في صبيحة يوم من أيام الآحاد ذهب أنطونيو روندينللى من أعيان فلورنسة ، ومعه السيدة جينفرا دِجلي أميرا ، وأمه العجوز الوقور المتضعضعة ، وخادم من خدم قصره ، إلى كنيسة المدينة الخالدة ليعقد على حبيبته جينفرا

وهناك فى بهو الكنيسة الكبير ، التقى هذا الجمع اليسير بجمع آخر حاشد غاية الحشد ، فيه الفتى فرنسيسكو أجولانتى وأمه وملأٌ عظيم من ذويه وأصدقائه ... ذاهبين للعقد على غادة فرنسيسكو الهيفاء الفتية المثرية ، ولما يمض على دفن جنيفرا ثلاثة أشهر أو نحوها ... والمؤلم المبكي أن أمها الساذجة كانت من ضمن المحتفلات بزوج ابنتها السابق ... فما كادت العيون والأرواح تتعارف حتى ساد بهو الكنيسة صمت كصمت القبور ، ووقف الجمعان خاشعين خابتين ، ينظر بعضهم إلى بعض ولا يصدقون ما يرون !

تُرى ! من يتقدم ومن يتأخر ؟

ولم تنتظر جينفرا طويلا ... بل تقدمت مسرعة نحو أمها التى أخذت تحدق فيها بصرها ، وترنو إليها مبهوتة مشدوهة « أحقاً هذه جينفرا ابنتى ؟ لم يكن شبحاً ما رأيت إذن ... ويلاه ! ... ولكن ... كيف عادت إلى هذه الدنيا يا ترى؟ وأنى لها هذا الشباب وتلك النضارة ؟ إنها تميس فى شفوف وأفواف »

ولم تتركها جينفرا لتصل هذه السلسلة من أحلام اليقظة ، بل قطعتها عليها قائلة :

« أما وقد ذهبتم بى إلى القبر فوسدتمونى التراب بعد إذ شهد أطباؤكم بموتى ، وبعد أن تلا القس زيته القدس على جثمانى معلنا بذلك أننى انتهيت من هذه الدنيا ، فانى أعلن بدورى أننى لم أعد أمت إليكم بوشيجة ، لاسيما بعد أن رفضتم جميعاً إيوائى حين عدت إلى دنياكم بمعجزة من معجزات القدر فى حين قد آوانى ملاكى أنطونيو روندينللي فأعادني إلى الحياة والحب ، ولولا ذاك لقتلنى البرد والمرض أمام باب من أبوابكم ، ولعدت إلى القبر عودة لا رجعة لى بعدها إلى دنياكم ... من أجل هذا كله أقرر أمامكم وأمام الحبر الجليل سيد هذه الكنيسة ، وفى هذا المكان المقدس أننى أصبحت ملكا لحبيبى ... وأننى إنما جئت اليوم ليشهد الله لنا ... »

ثم ودعت أمها ، وبعض الأعزاء من ذويها ، وانفلتت إلى أنطونيو فضمته على مشهد من الجميع ... وهنا ... تأخرت جماعة فرنسيسكو حتى يروا بماذا يحكم الحبر الجليل ... فوقف هذا ... وهتف بأنطونيو ثم بجينفرا فبارکهما ، وكتب لهما ، ودفع الصحيفة إلى أحد الرهبان فتلا مافيها بما لا يزيد عما ذكرت جينفرا من الحجج ... ثم دعا للكنيسة ... وتم القداس لبسيط فكان أروع قداس أبرم فى كنيسة فلورنسا منذ أنشئت ...

دريني خشبة



تكريم شاعر الهند محمد اقبال

من أنباء الهند الأخيرة أنه أقيمت فى جميع المدن حفلات لتكريم الشاعر الفيلسوف الهندى الكبير السير محمد إقبال بمناسبة عيد ميلاده (٩ يناير) وألقيت فى هذه الحفلات الخطب والقصائد فى نواحى شعره واستعراض مناقبه وخلاله . واشترك فيها كبار الكتاب والشعراء الهنود من كل الطوائف

وكانت أهم تلك الحفلات فى بلدة حيدر آباد ، حيث رأس الحفلة حضرة صاحب السمو أعظم جاه ولى عهد مملكة حيدر آباد وفى بلدة لاهور حاضرة إقليم بنجاب حيث يقطن الشاعر ، فرأس فيها الحفلة الأولى السير كوكل شند نارنج (وهو عالم هندوكى كبير) ؛ وألقى فيها عقب تلاوة القرآن الأستاذ يوسف سليم شستى ، والعلامة الفاضل عبد الله يوسف على ، والدكتور شكوروتى (وهو عالم هندوكى كبير وأستاذ بكلية F.C. بلاهور) والأستاذ كورشرن سنج (وهو عالم كبير من أتباع ديانة سيخ وأستاذ فى كليتهم المسماة « خالصة كالج » بلاهور) والسيد بشير احمد ، والأستاذ السيد نذير نيازى محاضراتهم القيمة . ثم تلاهم حضرات الشعراء نور محمد ، وجلال الدين ، وحامد على خان ، فألقوا قصائدهم . ورأس الحفلة الثانية والثالثة حضرة صاحب العزة السير عبد القادر ، وألقى فيها حضرات الشعراء أسلم جيراجبورى (وهو أستاذ بالجامعة الملية الإسلامية بدهلى) ، والأستاذ سراج الحق ، والأستاذ خوشى محمد قصائدهم الرائعة . وألقى كذلك الأستاذ خواجه غلام السيدين عميد الجامعة الإسلامية بعليكره محاضرة قيمة ، كما ألقى الدكتور محمد دين تاثير محاضرته العلمية فى شعره وألقى الشاعر حفيظ هوشيار بورى قصيدته الرائعة فنالت استحسان الجميع

وخلاصة ما قال الخطباء ، هو أن السير إقبال يعتبر اليوم بتمكنه من الشعر والفلسفة فى الشرق والغرب ذهناً عالياً ، وداعية وطنياً عظيما يعمل على إزالة الفوارق الجنسية والطائفية ؛ وهو اليوم فى طليعة زعماء الشعر الأوردى والفارسى معاً ؛ وقد ذاعت شهرته منذ سنة ١٩٠٨ كشاعر عميق الفكرة وترجم ديوانه الفارسى « أسرارى خودى » (أسرار النفس) إلى الانكليزية بعناية المستشرق المعروف الأستاذ نيكلسون ؛ والسير اقبال سليل أصل كريم من علماء كشمير ، وقد تلقى تربية متينة فى معاهد لاهور وعليكره ، وفى كليات أوربا ، وكان تلميذاً للسير توماس أرنولد والسير عبد القادر الهندى الذى كتب ترجمته ؛ وهو ينظم شعره بافاضة مدهشة ، ويستطيع أن ينشده غيباً بسهولة ، وفى كتابه « تنظيم التفكير الدينى فى الاسلام » (بالانكليزية) نراه داعية إلى إحياء الدين على ضوء التطورات الحديثة ؛ ومن رأيه أن الحياة التى تستحق الحب هى حياة النشاط والدأب ، والتى تتخللها الصعاب والمتاعب ، وشعره فى الأوردية يعتبر من أثمن وأجل تراث ظفرت به إلى يومنا

ومع أن السير إقبال مسلم صادق العقيدة والنزعة ، فهو لا يكتب أو ينظم بروح طائفية . وهو يحاول أن يصور الاسلام فى أصدق وأبسط مبادئه الديموقراطية ؛ وهو وطنى كبير يدعو إلى مبادىء الوحدة والاخاء

ذكرى السيد جمال الدين الأفغانى

السيد جمال الدين الأفغانى ضحى حياته فى خدمة الشرق الإسلامي وغذى النهضات المصرية والعربية والإيرانية والهندية فى العصر الحاضر بأعماله المجيدة وآرائه السديدة ، ومع ذلك لم تقم بما وجب عليها من تكريمه وتبجيله لا فى حياته ولا بعد وفاته . حتى ضريحه لم يُبن إلا أخيراً وعلى نفقة المستشرق الأمريكى مستر كرائن . وقد فكر أخيراً المسلمون فى الهند فقرروا إحياء ذكراه فى ٩ مارس القادم فى طول الهند وعرضها وهو اليوم الذى انتقل فيه المرحوم إلى الرفيق الأعلى . وحبذا لو نهجت الأمم الإسلامية الأخرى منهج المسلمين فى الهند فيكون الاحتفال بذكراه عاماً فى يوم واحد

كتاب عن الشئون المالية للأمم الإسلامية

صدر في مدينة ڤينا منذ أيام قلائل كتاب بالألمانية من نوع جديد يعالج ناحية هامة من نواحي الحياة العامة في الأمم الإسلامية عنوانه : « من عالم المالية في الأمم الاسلامية Aus der Finanzwelt des Islams » بقلم الكاتب الاقتصادي الدكتور يوسف هانس J. Hans ، وقد زار المؤلف مصر منذ أشهر قلائل واستقى كثيراً من المعلومات والمواد المتعلقة ببحثه . وهو يعالج الشئون المالية لمصر وباقي الأمم الاسلامية بوضوح وإيجاز ، ويستهل بحثه بفصل تمهيدي عن التطورات السياسية التي جازتها الأمم الإسلامية منذ نهاية الحرب الكبرى ، ثم يتناول أحكام الشريعة الإسلامية في الربا ، وما تعلق بتنظيمه في القوانين المدنية بمصر وتركيا ، ويتحدث بعد ذلك عن النقد والسياسة النقدية في الأمم الإسلامية ، ويخص كلا منها بفصل يتحدث فيه عن أهم العوامل والظروف الاقتصادية المتعلقة بها ؛ ويتناول بحثه الأمم الآتية : تركيا ، والعراق ، وإيران ، وأفغانستان ، ومصر ، وسوريا ، وفلسطين ، وشرق الأردن ، والمملكة العربية السعودية واليمن ، وحضرموت ، ويقدم عن كل منها خلاصة حسنة عن أحوالها المالية والنقدية ؛ ويقدم إلينا في هذه البحوث الدقيقة معلومات طريفة عن طرق النقد والتعامل والموارد المالية لكل منها

ويخص المؤلف مصر بفصل يتناول فيه أحوال الورق النقدي (البنكنوت) وإنشاء بنك مصر والدور الذي لعبه في الحياة الاقتصادية المصرية منذ سنة ١٩٢٠ إلى يومنا . ويقدم إلينا إحصاءات مقارنة عن أعماله وميزانيته . كذلك يقدم إلينا خلاصة حسنة عن الميزانية المصرية ، ومركز مصر المالي

ولا ريب أن هذه ناحية هامة من نواحي الحياة العامة للأمم الاسلامية لم يتناولها الكثيرون من قبل ، ولم تظهر فيها بالعربية كتب أو بحوث ذات شأن

وقد تخصص المؤلف من أعوام طويلة في هذه المباحث النقدية والمالية ، وقصر جهوده على دراستها في الأمم الشرقية والاسلامية وأخرج من قبل كتابين في هذا الباب هما « النقد والذهب في آسيا » و « التطورات النقدية في الشرق » وكلاهما بالألمانية

ذكرى الفيلسوف سويدنبورج

احتفلت السويد بذكرى فيلسوفها ومفكرها الأكبر أمانويل سويدنبورج لمناسبة انقضاء مائتين وخمسين عاماً على مولده . وتلقت لجنة الذكرى رسائل تقدير للفيلسوف الراحل من ملك السويد وملك إنكلترا والرئيس روزفلت . ويعتبر سويدنبورج من أعظم أساتذة التفكير الحديث . وكان مولده في سنة ١٦٨٨ ، ووفاته سنة ١٧٧٢ ؛ ودرس دراسة مستفيضة ونبغ في الرياضيات والفلسفة الطبيعية وترك تراثاً فكرياً عظيماً ، واشتهر بالأخص بكتبه ورسائله الفلسفية ، وفي مقدمتها كتابه عن « فلسفة اللانهاية وأسباب الوجود » و « عبادة الله وحبه » و « الجنة والنار » و « الحب الإلهي والحكمة الإلهية » وله عدة كتب ورسائل أخرى في الرياضيات والفسيولوجيا والعلوم الطبيعية وغيرها . وقد وضع معظم مؤلفاته باللاتينية ، وترجم الكثير منها إلى معظم اللغات . وقضى سويدنبورج حياة طويلة حافلة ، وملأ العالم بكتبه وأفكاره ، وقضى أعوام حياته الأخيرة في إنكلترا وهولنده . ولقي كثيراً من عنت خصومه ولا سيما رجال الدين ؛ وحاول بعضهم أن يرميه بتهمة الكفر والمروق ، ورفعت عليه القضية الجنائية بالفعل ولكنه برئ ، وفشلت مساعي خصومه من الأحبار المتقين

كتاب جديد للرئيس هريو

ظهر أخيراً كتاب جديد للكاتب والسياسي الفرنسي الكبير إدوار هريو رئيس مجلس النواب الفرنسي عنوانه : «Lyon n'est plus» ، وليس الرئيس هريو زعيماً سياسياً فقط ، ولكنه أيضاً كاتب عبقري ومن أعضاء الأكاديمية الفرنسية . وكتبه الأدبية والسياسية تفيض طرافة وقوة ، وكتابه الجديد عن تاريخ الثورة الفرنسية في ليون . وليون هي بلده ومسقط رأسه ، وهو إلى اليوم عمدتها ونائبها . وقد لعبت هذه المدينة دوراً كبيراً في الثورة ، وكانت بعد باريس قلبها النابض . ويقص الرئيس هريو حوادث الثورة في ليون بأسلوبه القوي الساحر ، ويعرضها بروح المؤرخ المنصف المنزه عن الأهواء والنزعات . وسيكون كتاب الثورة في ليون أول قسم من سلسلة كتب عن الثورة ينوي أن يخرجها الرئيس هريو

التمثيل فى المدارس

أصـدر معالى بهى الدين بركات باشا وزير المعارف قراراً بتأليف لجنة من الأساتذة محمد قاسم بك ناظر مدرسة دار العلوم ومحمد رفعت مراقب تعليم البنات المساعد، وتوفيق الحكيم مدير إدارة التحقيقات عهد إليها دراسة موضوع التمثيل فى المدارس المصرية دراسة مستوفاة على أساس أنه أداة صالحة تستعين بها الوزارة فى تثقيف طلاب المدارس وتهذيبهم ، وتصفية ذوقهم وتنقيته ، ومساعدتهم على حسن الأداء وإجادة النطق والتعبير . وستجتمع اللجنة للمرة الأولى فى غضون هذا الأسبوع

وتتجه اللجنة فى دراستها إلى استيفاء هـذا الموضوع من أصوله ، والخروج عن القاعدة العتيقة السابقة ، والتقدم إلى الوزارة بمشروع جديد كبير يرق من شأن المسرح ، ويحقق الأغراض التى تنشدها الوزارة فى هذا الشأن

وسيكون لعلاج رواية المسرح المدرسى أوفى نصيب من تلك الدراسة ، فسيقضى على الفكرة القديمة الغالبـة ، وهي اختيار روايات مثلت من قبل فى بعض دور المسرح المصرى ، وبذلك تصبح للمسرح المدرسى روايات تتفق والقاعدة السليمة التى ينشأ من أجلها هذا المسرح

وستقوم اللجنة إلى جانب هـذه الدراسة التمثيلية بدراسة أخرى تتفرع عن الحاجة إلى فن الالقاء ، وتدريسه فى مدارس المعلمين كما ستعنى بتهيئة الأساتذة الذين سيشرفون على التمثيل فى مدارس الحكومة وغيرها من المدارس الخاضعة للتفتيش

جمعيات تحفيظ القرآن فى المدن والقرى

يشتد الضغط هذه الأيام على الأزهر الشريف وعلى المعاهد الدينية اشتداداً عجيباً بعد ما كان من انصراف الناس عنها قبل خمس سنين أو سبع ؛ والضغط ملحوظ ، بل هو على أشده فى المعاهد الابتدائية ، وهذه حالة تبعث على الإعجاب والرضى لتنبه الشعور الدينى فى قلوب المسلمين ، وتفضيلهم التربية الدينية التى تناولها الإصلاح الكثير على التربيـة فى المدارس التى تقذف كل عام بعثات المتبطلين للشوارع والمقاهى ... ونحن لا نغض بهذا من قيمة التعليم المدنى ، ولكنا نقرر أن التعليم الدينى الذى أدخلت عليه إصلاحات كثيرة مدنية قد أوشك أن يبذ التعليم المدنى الصرف من كل الوجوه . ولو عنى الأزهر بتقرير دراسة لغة أو لغتين أجنبيتين فى معهد أو معهدين من معاهده لسبق المدارس الدينية بألف شوط فى مضمار الحياة ...

على أننا نتساءل : لمن كان الفضل فى هذه النهضة التى تشبه البعث ؟ ! ليس شك فى أن كثيراً من الفضل راجع إلى الرجل المصلح الذي وجه الأزهر هذا التوجيه ، ولكنا لا نخفى أن أكبر الفضل فى تزويد الأزهر بالأبناء النابغين هو لهؤلاء الرجال الذين فكروا فى إنشاء مدارس تحفيظ القرآن ، فهذه المدارس لم تخدم القرآن فقط ، بل خدمت الأزهر خدمة عظيمة خالدة ... ولكن مالية هذه المدارس ضعيفة لاعتمادها على موارد غير ثابتة ، فهل كثير على الأزهر وأوقافه العظيمة وعلى وزارة المعارف أن تمد إليها يد المساعدة ؟ !

سارة للأستاذ عباس محمود العقاد

نشر الأستاذ الجليل عباس محمود العقاد قصة وجدانية تحليلية بعنوان (سارة) وهى فيما نظن أول ما عالج أو نشر من هذا النوع . لذلك سنفرد لها فصلاً خاصاً فى عدد آت من الرسالة . وهى ذات حجم لطيف وطبع أنيق ؛ وتقع فى قرابة مائتى صفحة ، وتباع بعشرة قروش فى أغلب المكاتب

غرفة قراءة للمتحف المصرى

فى الأخبار الانجليزية أن غرفة القراءة بالمتحف البريطانى ستظل مفتوحة للزوار ساعة بأكلها فوق الوقت المعتاد . ولا ندرى ما ذا يمنع مصلحة الآثار عندنا من إنشاء قاعة للقراءة بالمتحف المصرى على نمط قاعة المتحف البريطانى ؟ هل المتحف المصرى (للفرجة) فقط ؟ وهل يصح أن يكون كذلك وعلى مقربة منه جامعة مصرية باذخة بها كلية للآداب ، وفى مصر نهضة، وفي مصر قراء ... ؟

وعلى ذكر هذه القاعة التى نأمل أن يفكر المتحف سريعاً فى إنشائها نتساءل أيضاً : ماذا يمنع علماء الآثار المصريين وعلى رأسهم الأستاذ سليم حسن بك من التأليف فى تاريخ مصر القديم بالعربية ؟ أو على الأقل لماذا لا يترجمون كتبهم إلى لغتنا ؟



المسرح والسينما

هنرى إيرفنج
HENRY ERIVNG

١٨٣٨ - ١٩٣٨

بقلم محمد على ناصف

منذ مائة عام فى مثل هـذا الشهر من اليوم السادس على الترجيح كان مولد الطفل جون هنرى بردريب ، ولم يكن بعد « هنرى إيرفنج »

ولد فى سومرست ، وقضى سنيه الأولى الباكرة فى كورنوول. وفى الحادية عشرة انتظم بإحدى مدارس التجارة بلندن وتركها بعد سنتين ليلتحق بأحد مكاتب المحاماة حيث كان من المأمول أن يكون كاتباً نابهاً . وبعد عامين آخرين (١٨٥٣) حدث له وهو فى الخامسة عشرة مثل ماحدث للممثلين العظيمين تالما وكين فظهرت دلالات ميوله إلى المسرح

وقد أشبع هوايته بعض الشبع بتعرفه بعد عام إلى وليام هوسيكنز الممثل الذى تلقى عليه هنرى أول دروسه فى التمثيل فيما بين الثامنة والتاسعة من صباح كل يوم قبل ذهابه إلى العمل .



ظل هنرى طوال مدة عمله بمكتب المحاماة نهبا موزعا بين وساوس أحلامه وزخارفها ، بين جحيم المكتب ونعيم المسرح ، فكان يجلس إلى مائدة الكتابة ينسخ الصحائف ويدون الأرقام..

متحف لمكسيم جوركى

افتتح أخيراً فى موسكو متحف ضخم لآثار الكاتب الروسى الأشهر مكسيم جوركى ؛ وقد توفى هذا الكاتب الكبير منذ نحو عامين ، وترجمته الرسالة فى حينه . ويضم المتحف الجديد أحد عشر بهواً عرض فيها كل ما يتعلق بحياة جوركى وكتبه ومخطوطاته وآثاره المختلفة ، وخصص فيها بهو لقطعه المسرحية ، عرضت فيه نماذج من أشخاص مسرحياته . وقد خصت حكومة موسكو جوركى بهذا التكريم باعتباره « عميد الأدب السوفيتى الاشتراكى الجديد وزعيمه » . والواقع أن جوركى هو أعظم كتاب الثورة الاشتراكية بلا نزاع ، كما كان تولستوى فى أواخر القرن الماضى أعظم كتاب الثورة الاجتماعية الروسية . وقد عرض قضية العمال وبؤس الطبقات العاملة فى قصصه أقوى عرض . ومما تجدر ملاحظته أن الحركة الأدبية فى روسيا الاشتراكية تبوأت مكانتها من القوة والازدهار ، ولم تتعرض لها الحكومة بأكثر من التوجيه نحو الغايات الثورية التى تطبع سياستها الاقتصادية والاجتماعية ، ولم تلق شيئاً من ذلك الاضطهاد الشامل الذى قضى على الأدب الألمانى فى ظل النظام الهتلرى

ولكنه كثيراً ما كان يحس فجاءة بجمهور كبير من حوله ، من الحسان ، ومن الكبار ، يتطلع إليه ، ويصفق له ، فيهيم فى أودية الخيال ويقفز من لباس إلى لباس ، ومن مكان إلى مكان ، ومن شخص إلى شخص ، ومن عصر إلى عصر ... ذلك نعيم المسرح

(فترة راحة صغيرة)

« أكتب هذا ثانية ياسيد برودريب لو تفضلت »

(شخص أقبل ثم ذهب . سكون مخيم قابض)

وسرعان ماهبط السيد برودريب من حالق . سرعان ما تتبخر الأحلام وتتجسم الحقائق ، وتتكدس الأوراق أمامه ، وتتراجع الكلمات الحلوة من فوق شفتيه لينطق بجملة واحدة مريرة ...

« هذا جحيم المكتب »

ولم يطل تردده بين نعيمه وجحيمه . فذات مساء فى أواخر يولية سنة ١٨٥٦ كان وليام هوسكينز جالساً أمام نار المدفأة مستغرقاً فى بعض شئونه ، وإذا بطرق متواصل على بابه لم يدعه طويلاً رب الدار الذى أسرع نحو الباب ، فإذا به يجد الطارق تلميذه هنرى ، وقد بدا مشرق الوجه بنور باهت هادىء أوضح ما يرى على وجه تخلص صاحبه من عذاب طويل .

علم الأستاذ أن تلميذه قد انتهى من الاختيار ، وأنه اختار النعيم الذى ارتآه

وقد ودعه هوسكينز فى ذات الليلة بعد أن سلمه خطاباً فضه هنرى فى الطريق فطرب من كلمات الثناء التى قدمه بها معلمه إلى ا . د . دافيز بمسرح الليسام Ly ceum بسندرلاند . ولم يكن فى تقدير هوسكينز أو هنرى أو دافيز أو أى أحد أن هذا الزائر الجديد سيصبح مدير الليسام وأحد قادة المسرح فى جميع العصور

وفى ١٨ من سبتمبر عام ١٨٥٤ رفع الستار لأول مرة على هنرى كممثل محترف . وكانت كلمات المسرحية الأولى « إنا نبدأ المسعى » ... ولم تكن بداءة مشجعة لهنرى ، فقد نصحه بعض الناقدين وقتئذ بمغادرة المدينة على أول باخرة فاستجاب إليهم ، ولكن ليواصل جهاده فى أدنبره حيث قوبل في أول الأمر بالصفير والهزء كممثل طريد ، ولكنه سرعان مانقض هذا الحكم ، وسرعان ما أصبح نجم الليسام وأحب ممثل إلى الجماهير

ولقد مثل فى هذه الفترة ٤٢٩ دوراً مختلفاً فى ٧٨٢ يوماً ، وهذا رقم قياسى فى تاريخ كبار الممثلين . مثل فى جميع أنواع المأساة والملهاة : مثل الذئب فى Little Bo. Peep وأوجور فى Puss - in - Boots وكاسيوفى Othello وسيلفيو وأورلاندو فى As You Like Et وسبعة أدوار مختلفة فى Hamlet

وفى عام ١٨٧١ ظهر لأول مرة على الليسام بلندن وصار من ذلك الحين « هنرى ايرفنج »

وقد عزى إلى إيرفنج أنه لم يكن يحفل باختيار ممثلين تتكافأ صفاتهم مع صفته ومكانته ، حتى قال برنارد شو فى إحدى مقالاته فى النقد سنة ١٨٩٧ : « إن المرء فى الليسام معرض للجنون فى الفترات التى يخلو المسرح فيها من هنرى إيرفنج وأليس بترى » غير أن هناك من ينتحل الأعذار لإيرفنج فى هذا الصدد لاشتغاله ممثلاً ومديراً ومخرجاً فى آن واحد ؛ فلم يكن يستطيع فوق ذلك أن يتفرغ لشئون تلاميذه وممثليه . ومن هؤلاء المدافعين عن هذه النظرية Dame May Whitty التى سافرت إلى هوليوود قريباً ، وكانت فى صباها من ممثلى الليسام ...

وعلى ذكر شو نقول إنه من الكتاب القليلين الذين اجترأوا على نقد إيرفنج ؛ وكان أكثر ما يأخذه عليه مسخه لشكسبير وإهماله لإبسن . ففى شكسبير كان شو يعتقد أن الجماهير تذهب لمشاهدة إيرفنج لا من أجل الكاتب الانجليزى الكبير . وأما مسرحيات إبسن فقد كان إيرفنج يتخلى عنها لألين بترى وجنفياف وارد فى الأدوار الرئيسية

ومهما قيل فى إيرفنج فليس هناك من ينكر فضله بين زعماء المسرح الخالدين

ولقد قدر أخيراً لجون هنرى برودريب ابن أحد فلاحى سومرست أن يأتى مضجعه الأخير فى وستمنستر آبى مقر عظماء الانجليز باسم « سير هنرى إيرفنج » وأن يكون الممثل الوحيد الذى يقام له تمثال فى لندن يحج إليه فى السادس من هذا الشهر كبار ممثلى انجلترا يحيون أعظم رجل عرفه المسرح الانجليزى

محمد على ناصف

6me Année, No. 243 | Lundi - 28 - 2 - 1938

بدل الاشتراك عن سنة
م
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٤٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٧ ذى الحجة سنة ١٣٥٦ — ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـرس

صفحة

محنة الآنســـة مى

أمسكنا عن الحديث فى محنة الكاتبة النابغة مي ضناً على فضول الناس أن يتخذ أرجح العقول وأبرع الأذهان مجالاً للظنون الكاذبة وموضعاً للفروض الجريئة . وكنا منذ سفرها إلى الجبل منذ عامين نتنسم أخبارها من كل مصرى يصيف فى لبنان ، وسورى يُشَتى بالقاهرة ، فلم يقع لنا من ذلك ماينقع الشوق أو يُطمئن الخاطر ، حتى أخذت صحف بيروت فى الأسابيع الأخيرة تذكر من حال الكاتبة الجليلة ما يثير الهم فى الصدور ويُضرم الحزن فى الأفئدة ، وحتى أهاب رئيس المجلس النيابى السورى بأعضاء المجلس النيابى اللبناني وهو يزور ندوتهم فى منتصف هذا الشهر قال :

« كيف لا تهتمون بهذه النابغة اللبنانية ؟ وكيف تسجن (مي) بين جدران أربعة فى مستشفى المجانين ولا يثور الرأى العام اللبنانى ويظل هذا الخبر سراً مكتوماً ؟ لقد كان حديثها لى حلواً لا إبهام فيه ولا تعقيد . لقد وجدت فيها (مى) الكاتبة الشاعرة التى عرفناها فى الماضى ، فكيف دبرت هذه المؤامرة الدنيئة على نابغة النابغات ؟ أنقذوا مى وابذلوا جهدكم فى الترفيه عليها . وحرام أن تعامل الأنوثة التامة والنبوغ والعبقرية هذه المعاملة التى عوملت بها مى » (١)

(١) جريدة بيروت ١٥ / ٢ / ١٩٣٨

وجرائد بيروت آذانها أقرب إلى استقطار الخبر على صحته ، والأستاذ فارس الخورى بك ممن يُعتقد قوله ويُعتمد خبره ، والقنصل المصرى سمعنا أنه تدخل فى الأمر ؛ وتدخله دليل على أن هناك مجانفة للحق ومخالفة للعدالة ؛ فلم يبق إذن شك فى أن صديقتنا (مى) تكابد من ظلم القدر ولؤم الناس ما لا يجوز الصبر عليه ولا ينبغى السكوت عنه

***

كانت مى فى النصف الأول من سنة ١٩٣٥ مرهفة الطبع جمة النشاط دائبة الإنتاج لا تبخل بظرفها وأدبها على سامر ولا صحيفة ؛ وكان أكثر نشاطها حينئذ مصروفاً إلى مجلة الرسالة ومحطة الإذاعة . ومن أثر ذلك تلك المسابقة[1] الأدبية التى اقترحتها على الشعراء ، وذلك «المجلس النادر[2]» الذي أقامته للصلح بين بعض الأدباء . وكانت في مجالسها الخاصة تصرف الكلام وتساجل أعيان الأدب ببديهة حاضرة ولقانة عجيبة ، تمثل لك صورة من صور أولئك الأديبات اللاتى أنشأن باستعدادهن للأدب مجالس فى عهوده الزاهرة ، كسكينة ابنة الحسين ، والولادة ابنة المستكفى ، ومدام دي رمبوييه ، ومدام جوفرين ، والأميرة نازلى فاضل ، وأضرابهن ممن وفّقن بين اللغة والبلاغة ، وبين الأدب والذوق ، وبين الفن والسمو ؛ ثم وشين ثقافة عصورهن بألوان شتى من أناقة المعرض وجمال الأداء وحسن المبادهة . وكان من حسن حظ الرسالة أن وقعت بقلب الكاتبة العظيمة ، فكانت كلما صدرت فى يومها تحيينى مى بالتليفون تحية الروح الملهم من عالم الغيب ، والأمل المشجع من وراء الغد ، فكان ذلك يبسط من انقباضى عن الناس ، ويجرئنى على إغباب الزيارة للأديبة الكريمة . وكان يصحبنى إليها صديقها الأستاذ عنان فنجدها وحدها أو معها الأستاذ خليل ثابت ، فنسمر عندها هزيعاً من الليل تناقلنا شجون الحديث بصوت جميل النغم ، ومنطق رخيم الحواشى ، وعقل سريع الإدراك ، وظرف بارع الفاكهة ، حتى أقبل الصيف وعقدت سمائمه على وجهى (الوادى) غشاء من الزفير والدخن ، فلحظنا ذات مساء على الآنسة المهللة بطبعها انقباضاً فى المزاج واضطراباً فى النفس ، سببه على ما قالت خلاف طرأ بينها وبين محطة الإذاعة ، فقد أرادت أن تذيع خطابها من غير أن تطلع عليه الإدارة ؛ وأبت عليها عزتها أن تقبل تنبيه المذيع اللبق إلى أن قانونها يحتم الاطلاع على ما يلقى قبل إذاعته . فانصرفت غاضبة على الرغم من اعتذار الإدارة عن هذا التنبيه وقبولها أن تذيع مى من غير قيد ولا شرط . فهوّنا عليها الحادث وجلونا عن صدرها همه . ولكن الأمر بعد ذلك عظم فى نفسها وأصبحت تظن أن الحكومة تضطهدها وتراقبها فقررت ألا تخرج من البيت ، وشعرت أنها غير مقدورة ولا مشكورة فصدفت عن الكتابة ، واقتصرت من الغذاء على شراب الليمون ، ومنعت إذنها عن الناس فلم يدخل عليها إلا أربعة أو خمسة من أصدقائها الأدنين . ودخلنا عليها ذات ليلة فوجدناها كئيبة النفس كأنما انصرفت من جنازة حبيب . فسألناها ما بها ، فقالت إنها الساعة مزقت وأحرقت ستة وثلاثين مخطوطاً من رواياتها ومقالاتها آخرها رواية (المصرى الجديد) لأنها لم تجد رداً على ظلم الحكومة وعقوق الناس أبلغ من هذا الصنيع . فبدا على وجوهنا مهوم الأسى والجزع على هذه الثروة الأدبية تخسرها العربية من بلاغة مى . كل ذلك ومي محافظة على هدوء الطبع ورصانة العقل وألمعية الذهن وسلامة الحديث ، فعزونا هذه الحال النفسية إلى حزنها على أمها ، ووحدتها فى بيتها ، وعزلتها عن أهلها ، فأشرنا عليها مع الطبيب أن تسافر إلى لبنان انتجاعاً للراحة وطلباً للنسيان وابتغاء للأنس ، فكانت ترفض ، حتى حملها بعض قرابتها على أن تسافر فسافرت ، وفى مرجونا أن تعود مى إلى مصر رخية البال سعيدة النفس رافهة البدن ، وما كان فى حسبان أحد ممن ساعد على هذا السفر أن مي معبودة القلوب وريحانة المجالس وفخر النهضة تقع فى حبالة الطمع الدنىء والهوى المريض والذمة الغادرة ، فيعتقلونها فى مستشفى الجنون اعتقال الشريدة ، ثم يفتشونها بالحجب ، ويحيطونها بالأسرار ، ويئدونها بالترك ، حتى يجهلها الحياة وينساها الناس وتخلص لهم الغنيمة

إن الآنسة مي التى غذت نهضة الفكر العربى مدى ربع قرن ، فكان لها فى كل موضوع رأى ، وفى كل قلب ذكرى ، وفى كل مكتبة أثر ، لا يمكن أن تضيع هذه الضيعة الذليلة بين مصر ولبنان . وسينظر الناس ماذا يصنع جمهور الأديبن وحكومة البلدين بعد ما برح الخفاء وانكشفت النية وانهتك ستار المأساة

احمد حسن الزيات

(١) الرسالة عدد ٧٩ (٢) الرسالة عدد ٨٣

اللورد كتشنر

كما يصوره صاحب « المشرقيات »

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

راقتنى من كتاب « الشرقيات » للسير رونالد ستورس ، على الخصوص ، طائفة من الصور الوصفية لجماعة من مواطنيه الانجليز الذين كان يعمل تحت رياستهم . وكان السير رونالد هو السكرتير الشرقى لدار المعتمد البريطانى فى مصر ، أو قصر الدوبارة كما كانت تسمى قبل الحرب ، وقد ظل يعمل تسع عشرة سنة فى مصر وفلسطين بعد فتحها وجلاء الترك عنها ، ويقوم بأثقل الأعباء وأخطر المهمات ، وهو يعد — فى اصطلاح الوظائف — « ظهورات » والمراد بذلك أنه غير « مُثبت » ولا يحسب له معاش ، ولا يمنح شيئاً سوى الشكر والثناء إذا ترك الوظيفة أو استغنت عنه حكومته . ولم ينتظم فى سلك الموظفين الدائمين إلا بعد أن تخلى الجيش البريطانى عن إدارة فلسطين وأسلم الأزمة إلى حكومة مدنية برياسة مندوب سام

فهذه واحدة قد تكون فيها عبرة للمصريين

ومن أشهر المعتمدين البريطانيين الذين تعاقبوا على مصر قبل الحرب وبعدها اللورد كتشنر ، وقد قص عنه السير رونالد بضع نوادر تصوره أبرع تصوير . منها أنه على أثر مقدمه ، سبقه السير رونالد — وكان لا يزال المستر ستورس — إلى قصر الدوبارة ، وجلس إلى مكتبه ينتظر أن يقرع له الجرس . وكانت حكومته قد أنبأته أنه سيكون مع اللورد كتشنر « تحت الاختبار » فإذا رضى عنه فبها ، وإلا فهو مفصول لا محالة . ولم يكن المستر ستورس يرجو خيراً ، أو يطمع في رضى رئيسه ، فراح يحسب ما ادخره ليرى هل يكفى لنفقات السفر على الدرجة الأولى وهو عائد إلى بلاده . وإذا بالجرس يدق ، فنهض ودخل على كتشنر يحمل إليه آلافاً من برقيات التهنئة التى تلقتها الدار

قال ستورس : « وكان الفيلد مارشال يحدق فى مكتبه وهو يسأل عن هذه الأوراق ما هى . فأخبرته ، فسألنى ماذا أنوى أن أصنع بها ؟ فقلت : إن رأيى هو أن التهنئات الواردة من أعضاء الأسرة المالكة ومن الوزراء الحاليين والسابقين يكون الرد عليها بضمير المتكلم إذا كانت هناك معرفة شخصية ، أو بضمير الغائب إذا لم تكن ثم معرفة كهذه بينه وبين مهنئيه ، وأن غير هؤلاء من الأفراد المعروفين أو الجديرين بالاحترام يتولى السكرتير الشرقى شكرهم ، وأن الباقين يكون جوابهم — الصمت

« فأدهشنى وأفزعنى أن أناقى منه أمراً بالمساواة بينهم جميعاً . وقد تعود الفيلد مارشالات الطاعة السريعة التى لا تعرف التردد أو المناقشة ؛ ولعل اللورد كتشنر أصرمهم فى هذا . وقد بدا لى وأنا واقف أمامه أن المجادلة لا محل لها ، وخاصة ممن كان مثلى مدنياً لا عسكرياً ؛ ولكنه لم يسعنى مادمت فى وظيفتى ، إلا أن أكون مستحقاً للأجر الذى أتقاضاه عليها ، ولذلك تشددت وأنا على مقربة من الباب ، وأجريت لسانى بما يفيد الطاعة ، وزدت على ذلك أن فى وسعنا على كل حال أن نهمل النتائج . وكنت كأنى فى حلم ، وكأنى أحس ـ لا أسمع ـ سؤاله « أى نتائج ؟ »

فقلت بلهجة اليائس : إن أهل الطبقة الأولى سيرون أنهم أهينوا لأنهم عوملوا كأهل الطبقة الثانية ، وإن أهل الطبقة الثانية سيعدون هذه سابقة ، وينتظرون فى كل حال أن يُسووا بمن فوقهم ، وإن أهل الطبقة الثالثة سيستخدمون اسم سعادته (يعني كتشنر) فى ابتزاز المال من الجهلاء والأميين من أبناء الريف .

«وساد سكون مزعج سألت نفسى فيه — بسرعة البرق — إذا طردت هل يسعنى أن أسافر على الدرجة الأولى ، ولو بطريق البحر الطويل ؟ وسمعت كما يسمع الحالم صوتاً يقول : « اصنع مابدا لك » واستيقظت فى غرفتى حيث عجلت بارسال ردود الشكر قبل أن يغير رئيسى رأيه

وفى الأسبوع الأول من عهد كتشنر ، سمع المستر ستورس أن طائفة من الموظفين الانجليز ينوون أن يستقيلوا ، بعضهم لكراهتهم له ، والبعض الآخر لأنهم يتوقعون منه أن يقيلهم . فرأى المستر ستورس من واجبه أن يبلغه ذلك من غير أن يذكر له أسماء . فقال له كتشنر : « إذهب إلى النادى (تيرف كلوب) وأعلن هناك أن عندى هنا فى هذا الدرج استمارات مطبوعة بقبول الاستقالات » . فأذاع المستر ستورس هذا الخبر ، فلم ترد استقالة واحدة !

ويقول المستر ستورس إنه اشتاق إلى الاطلاع على هــذه الاستثمارات العجيبة ، ففتح الدرج فألفى فيه صندوقاً فيه سجاير ! وتغدى سلاتين باشا مرة مع كتشنر ، فقال على الطعام ، تمهيداً للكلام فى أمر « معاشه » :

« إن من دواعى أسفى أنى لم أوفق فى حسن تدبير الجانب المالى من حياتى »

فقال كتشنر : « إن من يعرفك ياعزيزى سلاتين لا يخطر له غير ذلك »

ولم يكن هذا بالرد المشجع على الاسترسال ولكن سلاتين باشا لم ينهزم فقال :

« هأنذا ظللت فى أسر المهــدى اثنتى عشرة ســنة ، عارياً مكبلاً أكثر الوقت ، وقد وقعت فى هذا الأسر وأنا فى الخدمة ، ومع ذلك لم آخذ قرشاً واحداً طول هذه المدة »

فكان رد كتشنر : « صحيح ياسلاتين ، ولكنك لاتستطيع أن تزعم أنك أنفقت شيئاً فى هذه المدة ! »

وبعد هذا الجواب انتقل الحديث فجأة إلى الطيران ومحصول القطن !

ولما جاء إلى مصر كامل باشا الذى تولى الصدارة العظمى فى تركيا أربع مرات ، زاره اللورد كتشنر فى فندق سميراميس ، فتذكر كامل باشا أنه لما كان والياً فى الأناضول كان كتشنر قنصلاً لدولته هناك ، فقال كتشنر :

« نعم ، ولكنك توقلت فى معارج الرقى بسرعة ، أما أنا فكنت يومئذ قنصلاً ، وقد احتجت إلى ثلاثين سـنة لأصبح قنصلاً عاماً » !

وكان إذا جاءه البريد من لندن ، يفتح منه أول ما يفتح ، كتاب وكيله الذى يصف له فيه مبلغ التقدم فى إعداد بيته هناك وإصلاحه . ويقول ستورس : إن العمل فى بيت كتشنر استغرق سنوات وسنوات ، لأنه كان ينفق عليه مما يستطيع أن يدخره من مرتبه . وكان هذا البيت هو كل ما يعنيه من أموره الخاصة ؛ وشاء القدر ألا يسكنه قط ، لأنه غرق قبل أن ينتقل إليه

ولم يكن يحسن الكتابة أو يقبل على القراءة ويعنى بالاطلاع مثل كرومر . وكان قلما يلعب غير الشطرنج في القطار أو على الباخرة . ولم يكن له ذوق غورست وفهمه للموسيقى والعلوم الطبيعية ، أو ولع اللنبي بالألعاب الرياضية والشعر ، ولكنه كان مشغوفاً بالعاديات وفنون الزينة

وقد قامت الحرب ، وهو فى إجازته فى انجلترا ، فأراد أن يعجل بالعودة إلى مصر لأنه كان يخشى أن تكل إليه حكومته وظيفة استشارية . فلما صار على ظهر الباخرة تلقى برقية من رئيس الوزارة يطلب بقاءه ، فعاد إلى لندن ومعه السير رونالد ستورس وفى نيته ألا يقبل شيئاً دون وزارة الحربية مع اطلاق يده فيها . فأعطوه ما طلب . فأراد أن يتخذ السير رونالد سكرتيراً خاصاً له وأمره أن يستأجر له بيتاً ، ويجيئه بسيارة من طراز « رولز رويس » وأن يذهب إلى الخارجية للاتفاق معها على الانتقال مع كتشنر إلى الحربية . وكان السير رونالد لا يريد هذا الانتقال لأنه ليس من رجال الحرب ولا دراية له بشئونها ، ولكن كتشنر كان رئيسه — لأنه لم يستقل من وظيفته فى مصر — فأطاع . فأبى رجال الحربية أن يسمحوا بهذا النقل ، ولكنهم كرهوا أن يعارضوا كتشنر ، فكلفوا ستورس نفسه أن يتولى هو عنهم إقناعه وإبلاغه أنهم محتاجون إليه فى مصر

فلما عاد إلى وزارة الحربية ألفى كتشنر يغسل وجهه ، وهو نصف عار ، ووراءه عدد من القواد الفرنسيين ، فانتظر حتى فرغ مما هو فيه ، ثم أخبره الخبر ، فاقتنع كتشنر ، وقال : إن رجال الخارجية على حق . وكان من مزاياه — على ما يروى السير رونالد ستورس — أنه لا يتردد فى الرجوع إلى الحق ، ولا يخجل أو يستنكف من ذلك

ابراهيم عبد القادر المازنى

اختلاف حدود الحق والواجب

للأستاذ عبد الرحمن شكرى
مفتش التعليم الثانوي

إن حدود الحق والواجب تختلف فى الأماكن المختلفة بعض الاختلاف كما أنها قد تختلف في الأزمنة المختلفة أو فى المكان والزمان لاختلاف الطبائع والصفات النفسية وما يتبعها من الآراء . وهذا الاختلاف فى تعريف حدود الحق والواجب وتعيينها قد يغر الناس فى عصور الانقلاب الاجتماعى فينبذونها كلها ويحاولون أن لا يتقيدوا بها وأن لا يجعلوا لها شأناً، ويحسبون أن الحياة تستطيع أن تقوم وأن تحسن وتصلح من غيرها ، ويغالطون أنفسهم كى يستثمروا نبذها لجلب مطالب وقضاء لبانات

والحقيقة أن للحق والواجب حدوداً لا يختلف فيها أحد وإن اختلف الناس فى حدود حقوق وواجبات أخرى ، وأن كثيراً من الناس ينبذون حتى الحدود التى يعترفون بها عجزاً عن كبح أثرتهم وأن الحياة لا تصلح إلا بنصيب كبير من احترام حدود الحق والواجب التى تحددها القوانين الانسانية والضمير والشرائع الدينية حتى فى عصور التغير الاجتماعى التى يكثر فيها العبث بتلك الحدود ، بل ربما كانت تلك العصور أحوج إلى طوائف من الناس يزداد تشبثها بتلك الحدود حفظاً للتوازن الحيوى لأن الحياة قائمة على التوازن وسنته هى سنتها . ومن درس كتب التاريخ وجد فى الأمم المختلفة حتى فى إبان الثورات والحروب والكوارث الطبيعية وفى وسط ماتبتعثه من الاضطراب الخلقى والاجرام — أناساً يعملون أعمالهم اليومية فى حدود الحق والواجب ، وأناساً يزداد تشبثهم بتلك الحدود حسب سنة التوازن الحيوى التى أشرنا إليها

ومن الناس من يقول إن حدود الحق والواجب إذا استعبدت الناس استعباداً مطلقاً وتقيدوا بحروفها دون معانيها وظروفها منعت من تحوير الحقوق والواجبات لإنمائها وتحسينها كما يتطلبه رقى الانسانية . ولعل الصواب الذى فى هذا القول أقل من المغالطة المقصودة أو غير المقصودة ، وأقل من سوء التطبيق الذى تدفع إليه الرغبة فى التخلص من بعض تلك الحدود، وأقل من الغفلة التى تمنع من يقول هذا القول من أن يعرف أن أكثر الحقوق والواجبات اللازمة لرقي الانسانية معروف، وإنما هو القصور عن عليائها الذى يمنع من الرقى فى أكثر الأحوال

ولا ننكر أن بعض عصور الانقلاب الاجتماعى التى جرت فى أذيالها شيئاً مما دعا إلى طمس بعض حدود الحق والواجب القديمة قد أدى إلى تعديل وتحوير وتحسين في حالة الانسانية ، ولكن المصلحين المثقفين كانوا يختلفون عن الدهماء وأمثال الدهماء ، فإن المثقفين كانوا يعتبرون هذا الطمس ضرراً عارضاً مؤقتاً لابد من منع شره من أن يستطير ، وأنه ليس سبب الرقى ولا أساسه ، وأنه ينبغي قصره على الحد الذي يمكن الدهماء إذا كانوا لا يمكنون إلا معه من الرغبة فى الحقوق والواجبات الجديدة . أما أمثال هؤلاء الدهماء وأنصاف المثقفين وذوو الأثرة والجشع والمكر والخبث ممن ينعق فى أثر كل مصلح فيحاولون طمس جميع حدود الحق والواجب كى ينتفعوا ولا يبالون ما يكون بعد انتفاعهم

وبالرغم من سنة التوازن التى تؤدى إلى زيادة تشبث بعض الطوائف الإنسانية إذا نقص تشبث غيرها بحدود الحق والواجب قد يتدهور المجتمع الإنسانى بسبب قوة عوامل الخراب التى تطغى وتشل أثر هذه السنة حتى ولو كان التغير المطلوب مما يرجى فيه خير الإنسانية ، وبعض التغير لا رجاء فيه فتكون المصيبة أكبر والخسارة مضاعفة

ومن المستطاع التمييز بين وهي حدود الحق والواجب الناشئ من التغير المؤدى إلى رقي ، وبين وهيها الناشئ من تغير لا يؤدى إلى رقي — وإن اختلطا في أذهان الناس ونفوسهم — فالوهي الأول لا يكون شاملاً لجميع الطوائف والطبقات والأفراد ، بل نرى من الطوائف من لا يتأثر به ولا سيما طائفة المحافظين على القديم . أما الوهى الثانى الذى يؤدى إلى تدهور فيكون شاملاً ، ومن دلالاته أن الطائفة المحافظة على القديم قد تكون من أكثر الطوائف تأثراً به بالرغم مما يتفاخر أفرادها من المحافظة على حدود الحق والواجب . والنوع الأول مقصور على بعض حدود الحق

والواجب غير شامل لها ، وإنما يقصر على ما يراد تعديله وإعاؤه من الحق والواجب . أما النوع الثانى فانه يظهر بمظهر شامل لجميع حدود الحق والواجب أو أكثرها ؛ والنوع الأول نرى من خلفه حقوقاً وواجبات أخرى يتقيد بها الانسان . أما النوع الثانى فلا يلبح بشيء من ذلك

وبهذا القياس نستطيع أن نقيس حالة الأمم . فاذا كان احتقار حدود الحق والواجب شاملاً لطوائفها وطبقاتها حتى وإن أنكر بعضهم شموله ، وإذا كان غير مقصور على بعض الحدود ، وإذا كان لا يبشر بحدود أعلى وأتم وأحسن ، وإذا لم كان غير مصحوب بالغيرة على المثل العليا ، ولم تكن تلك المثل الداعية إليه ، فهو نذير شؤم وتدهور واضمحلال .

ولكن مما يؤسف له أن بعض المثقفين لا يميزون هذا التمييز ولا يعيرون هذا القياس اهتماماً بل يكتفون برؤية مظاهر تغير اجتماعى مصحوبة بومى حدود الحق والواجب فيحسبون أن ذلك إنما كان لتسهيل قبول حدود حقوق وواجبات جديدة أكثر قداسة ، ويفترضون أن مظاهر التغير هذه لا بد أن تؤدى إلى الرقي المؤجل الدائم . ومما يسهل انخداعهم أن تكون تلك المظاهر مصحوبة برقى فى الماديات ، ويحسبون أن ذلك الرقي فى الماديات سيكون خالداً ومؤدياً حتماً إلى زيادة حدود الحق والواجب متانة وظهوراً فى النهاية وإن أضعفها وطمسها فى البداية ، ولا يميزون أنواع ذلك الضعف والطمس ولا يقيسونها بما ذكرنا من الشرائط .

وربما يسهل انخداعهم أيضاً أن بعض المصلحين يعمدون إلى إضعاف تلك الحدود أو بعضها تقريباً لمبادئ جديدة كما يعمل الهادم معوله فى البناء القديم كى يهدمه وكى يؤسس مكانه بناء جديداً . وأكثر هؤلاء يحسبون أنه مهما بلغ من الفساد بسبب طمسهم حدود الحق والواجب فانهم قادرون على علاج الفساد الذى سببوه . وهذا نوع من الغرور يختص به بعض دعاة الاصلاح ويسلكهم فى زمرة المفسدين الذين لا يبالون أصلحت الدنيا أم خربت ، حتى أن المفكر لا يستطيع أن يميز بين الطائفتين وأن يحكم على رجل من أى نوع هو

وينبغى للمفكر أن يميز بين المجتمع الانسانى والبنيان ، فالبناء حجر أصم يمكن هدمه وإقامة بناء آخر مكانه ولا خطر في ذلك إذا تهيأت الأسباب والوسائل ، أما المجتمع الانساني فهو حى نام شبيه بجسم الانسان الحى النامي لا بالبناء الأصم ، والذين حاولوا إدخال إصلاحاتهم على اعتبار أن المجتمع كبناء من حجر أصم ما لبثوا أن عرفوا خطأهم ، وزادتهم خبرتهم وزادتهم أخطاؤهم يقيناً أن المجتمع الانسانى ليس كالبناء المصنوع من حجر أصم بل كجسم الانسان النامي الحي ، ولكن بعض هؤلاء أخطأ فى حسابه وبالغ فأفلتت منه الأمور واضمحلت . وينبغى لكل من يعالج أمراً من أمور المجتمع الانساني أن يقدر أنه قد يكون مخطئاً أو مغالياً حتى على شدة الثقة برأيه فيتخذ الحيطة . واجتماع هذه الأمور لا يكون إلا فى مراتب الثقافة الانسانية العالية . وينبغى لهذا المعالج لأمور الناس أن يحذر من أن يؤدى عمله إلى احتقار حدود الحق والواجب احتقاراً يصبح ناراً تلتهم كل الحقوق والواجبات أو تحاول التهامها ويصير مرضاً مزمناً فى المجتمع الانسانى ، وهو إذا حاول استخدام احتقار حدود الحق والواجب الناشيء من المكر والخبث والجشع ، واستثمارها بتقديم أصحاب هذه الصفات كان عمله آفة لا إصلاحاً ، وصارت أمور الناس ضيعة يستغلها من لا يبالى أصلحت الدنيا أم خربت . وقد يستغلها ويخربها باسم الاصلاح بقدوته ونفوذه العلنى والسرى ، والثانى شر من الأول لأنه مختف فيندفع صاحبه غير هياب ولا وجل فى إفساد الأخلاق والذمم والضمائر والنفوس . ويكون معالج أمور الناس الذى قدمه كالمرأة التى تغزل بيد وتنقض غزلها باليد الأخرى ، وربما سطت بتلك اليد الأخرى على غزل غيرها ونسجه فتتلفه أيضاً .

عبد الرحمن شكرى

بين تيمورلنك وبايزيد

قصة الملك الأسير في قفص من حديد

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لما زرت أنقرة عاصمة تركيا الجديدة منذ أعوام ، وتأملت المدينة الناشئة التي اختارها القدر لتكون مبعث حياة جديدة للأمة التركية ، تذكرت أن هذه الهضاب القفرة التي تحيط بالعاصمة التركية الجديدة كانت مسرحاً لحدث عظيم في تاريخ الدولة العثمانية ، وأنها إذا كانت اليوم مركز القوة والحياة في تركيا الجديدة ، فقد كانت ذات يوم مبعث الدمار والويل لدولة بني عثمان وكادت أن تكون قبراً لسلطانهم الناهض ومجدهم الفتى

كان ذلك في سنة ١٤٠٢م ، حينما انقض تيمورلنك الفاتح التترى بجيوشه الجرارة على هضاب الأناضول كالسيل ، وحينما نشبت في هاتيك الهضاب الوعرة بينه وبين السلطان بايزيد الأول موقعة أنقرة الشهيرة التي سحقت فيها قوى آل عثمان وأسر ملكهم وأمراؤهم ، وكادت تمحى دولتهم من الوجود لولا أن تطورت الحوادث بعد ذلك بسرعة ، وتوفى الفاتح التترى بعد ذلك بقليل ، وانهارت دعائم ذلك الصرح العسكرى الهائل الذى شاده تيمور بغزواته وفتوحاته وانتصاراته العظيمة

وكان تيمور قد بدأ حياة الفتح بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً ، وخرج من سمرقند عاصمة ملكه الناشىء يثخن في الأمم والممالك المجاورة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، ويفتتح قطراً بعد قطر ، ويسحق مملكة بعد أخرى ؛ فلم يمض على هذا البدء ثلاثون عاماً حتى استطاع أن يجتاح جميع الممالك الواقعة بين سمرقند والشأم ، وبين قزوين والخليج الفارسى ، وأن يفتتح الهند وخوارزم وفارس والجزيرة والقوقاز وأرمينية ، وأن يبسط حكمه الشامل على تلك الممالك والأنحاء الشاسعة ، وأن يبلغ ذروة الظفر والسلطان الباذخ

وفى سنة ١٣٩٩ م خرج تيمور من سمرقند بجيشه الظافر لآخر مرة ؛ وكان قد نفذ إلى الهند قبل ذلك العام وأثخن في بسائطها وقواعدها ؛ واستولى على دهلى حاضرتها ، وتم بذلك افتتاحه لممالك آسيا الوسطى ؛ واخترق تيمور بجيشه الزاخر فارس واتجه نحو بلاد الكرج وأرمينية ؛ وكانت هذه المنطقة مثار خلاف دائم بينه وبين بنى عثمان ، إذ كانوا يغيرون عليها من وقت إلى آخر ؛ وكانت أملاك تيمور وبنى عثمان تلتقى هنالك عند أرضروم والفرات ؛ وزحف تيمور على سيواس ، وكان الترك العثمانيون قد احتلوها قبل ذلك بقليل ، واستولى عليها ؛ وبلغت هذه الأنباء سلطان الترك بايزيد الأول ، وهو معسكر بجيشه تحت أسوار قسطنطينية يحاصرها ، فلم يستطع شيئاً ؛ واخترق تيمور بلاد الأناضول ، وزحف نحو الشأم وهى يومئذ ولاية مصرية ، يقصد افتتاحها ؛ ثم يفتتح مصر ؛ وبذلك يبسط سلطانه على الشرق الإسلامى بأسره . واستولى تيمور على مدينة حلب في مناظر هائلة من السفك والعيث والنهب ، وانقض سيل التتار المخرب على ربوع الشأم يثخن فيها ويحمل أمامه كل شىء . وزحف الغزاة على دمشق في أوائل سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠م) ؛ فروعت مصر لهذه الأنباء ، وهرع ملك مصر الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التترى ونزل بدمشق في جمادى الأولى ، واشتبك جند مصر مع جند الفاتح في معارك محلية كانت سجالاً ؛ ولكن السلطان اضطر أن يعود فجأة إلى القاهرة لأنباء مزعجة نميت إليه فترك دمشق لمصيرها ؛ واستولى تيمور على دمشق صلحاً ، ولكنها لم تنج من سفكه وعيثه ؛ على أنه لم يمكث طويلاً بالشأم إذ وصلته الأنباء عن أهبة بايزيد وحركاته ؛ فغادر الشام شرقاً إلى الفرات ، ثم سار شمالاً الى بلاد الكرج ، وأشرف مرة أخرى على حدود مملكة « الروم »

* * *

وهنا تبدأ بين هذين العاهلين العظيمين وقائع تلك المعركة الشائقة التي تسبغ عليها تفاصيلها لوناً من الخيال الساحر ، فقد استقبل تيمور سفراء بايزيد وأنبهم على مسلك مليكهم ، وكتب إلى بايزيد رسالة يلومه فيها على حمايته لبعض الأمراء الذين خرجوا عليه ، ويفاخره بفتوحاته الباهرة وسلطانه الباذخ ويحذره من سطوته وبطشه ويتحداه في عبارات جافية مثيرة ؛ فرد عليه بايزيد برسالته الشهيرة التي تذكرنا عباراتها وأسلوبها برسائل الملوك الأقدمين وعهد الأساطير ، وفيها يسخر منه وينتقص من قدره وقدر فتوحاته وغزواته ، وينسب توفيقه فيها إلى غفلة الزمن وإلى

ضآلة شأن خصومه ، ويحمل على و[illegible]له فى الحرب والسياسة ، ويرميه بالعدوان والغدر ، ويرمى جنده ومواطنيه التتار بالعجز والخور ؛ وينوه بقوته ومقــدرة جنده ، وعظيم اسـتعداده للحرب والطعان . على أنـــ ذلك لم يكن شيئاً بالقياس إلى ذلك التحدى الغريب الذى اختتم به بايزيد رسالته إلى تيمور ، إذ يقول له : « فان لم تأت تكن زوجاتك طوالق ثلاثا ؛ وإن قصـدت بلادى وفررت عنـك ولم أقاتلك فزوجاتى إذ ذاك طوالق ثلاثا » . ويعنى ابن عربشاه مؤرخ تيمور[1] عناية خاصة بذكر محتويات الرسائل التى تبادلها الملكان ، ويقول لنا إن تيموراً حينما وقف على هــذا القسم الغريب الذى يلقيه بايزيد فى وجهه ثارت نفسه غضباً ، « لأن ذكر النساء عندهم من العيوب ، وأكبر الذنوب » ، فـكيف بهذه الإشارة المثيرة إلى نســاء الفاتح وحليلاته

وهكذا اعتزم العاهلان أن يخوض كلاهما ذلك النضال الذى يشهره كلاهما فى وجه الآخر ؛ فبادر تيمور إلى الزحف فى جيشه الزاخر شرقاً نحو هضاب الأناضول ، ونفذ إلى مملـكة الروم ، واستولى في طريقه على مدينة قيصرية ، ثم اخترق نهر هاليس ، وطوق مدينة أنقرة ؛ وكان بايزيد قد استطاع فى الفترة التى قضاها تيمور فى الشام أن يجمع قواته وأن يستكمل أهبته . وتقول لنا الروايات المعاصرة إن جيش التتار بلغ يومئذ زهاء ثمانمائة ألف مقاتل ، وأن جيش الترك بلغ زهاء أربعمائة ألف ، وهي أرقام هائلة فى تلك العصور وخصوصاً إذا ذكرنا ما كانت عليه وسائل النقل والتموين يومئذ من نقص وصعوبة . وكان الجيش العثمانى يتفوق على جيش التتار بنظامه ، ويمتاز بالأخص بفرق الانكشارية الجريئة ؛ ولـكن جيش التتار فضلا عن تفوقه العددى ، كان متفوقاً فى روحه المعنوي . وكانت هذه الانتصارات المتوالية التى أحرزها التتار ما بين السند والأناضول قد بثت فى نفوس الغزاة روحاً من الثقة الوطيدة . ولما وقف بايزيد على مقدم تيمور هرع إلى لقائه فى ظاهر أنقرة ، وكان هذا اللقاء الشهير بين الجيشين العظيمين فى يوم الأربعاء ٢٧ ذى الحجة سنة ٨٠٤ [2] (أواخر يولية سنة ١٤٠٢) وأبدى بايزيد وجيشه شجاعة فائقة ؛ ولـكن سرعان ما دب الوهن إلى قواته ، وانسحب بعضها من الميدان باغراء تيمور ووعوده . وسرعان ما حلت النـكبة بالترك فمزقت قواتهم وسحقت ، وأسر بايزيد وعدة من ولده وآله ؛ وفر ولده سليمان فى بقية من الجيش صوب العاصمة ؛ وطارد الغزاة العدو المنهزم ، واستولوا على كوتاهية ؛ ثم زحف محمد سلطان حفيد تيمور إلى بروصه عاصمة مملـكة الروم فاستولى عليها ، وعاث فيها ونهب القصور الملـكية وسبى حريم السلطان ، وفر سليمان إلى الشاطىء الأوربى حاملاً ما استطاع إنقاذه من خزائن أبيه . وسحق ملك بنى عثمان تحت سنابك الغزاة مدى حين

وهنا تعرض للحرب صفحة فى تلك المأساة الشهيرة ، فان ابن عربشاه مؤرخ تيمور يقول لنا إن الفاتح التترى سجن بايزيد فى قفص من الحديد كما فعل قيصر مع سابور ملك فارس [1] ؛ وهى رواية عربية تؤيدها الروايات اليونانية واللاتينية المعاصرة ؛ بيد أن رواية ابن عربشاه ليست فى حاجة إلى التأييد ، فهو مؤرخ معاصر كتب روايته بعد وفاة تيمور بنحو ثلاثين عاماً فقط ، واستقى مادته فى سمرقند ذاتها حيث عاش مع أسرته ردحاً من الزمن وسمع أقوال رواتها وشيوخها المعاصرين لتيمور ، واستقاها كذلك من بلاط السلطان محمد الأول بن السلطان بايزيد ، حيث قضى فى خدمته حيناً وتقلد لديه ديوان الانشاء ، واطلع على جميع المصادر والوثائق التركية والفارسية التى تتعلق بسيرة تيمور وغزواته ؛ وإذن فليس فى روايته عن القفص الحديدى الذى سجن فيه بايزيد ما يدعو إلى الريب

وهنالك رواية أخرى يقدمها إلينا مؤرخ فارسي معاصر ، هو شرف الدين على الذى كتب سيرة تيمور بعد وفاته بعشرين عاماً ، تحقيقاً لرغبة حفيده السلطان ابراهيم . وخلاصة هذه الرواية هو أن تيمور حينما علم بأن السلطان الأسير (بايزيد) قد اقتيد إلى خيمته ، نهض للقائه ، وأكرم وفادته ، وأجلسه إلى جانبه ، وعتب عليه فى لفظ رقيق ، وحمله تبعة ما وقع ، ووعده بصون حياته وشرفه ؛ فتأثر بايزيد لـكرم خصمه ، وأعرب عن ندمه وقبل منه خلعته ، وعانق ولده موسى الذى أسر معه والدمع ينهمر من عينيه ؛ وأنزل السلطان وباقى الأمراء الأسرى منزلا حسناً . ولـمـا وصلت زوج السلطان وهى الملـكة رسبنا اليونانية وابنتها

(١) فى كتابه عجائب المقدور فى أخبار تيمور
(٢) ابن عربشاه (مصر) ص ١٣٠

(١) ابن عربشاه (مصر) ص ١٣٩

وباقي حريم السلطان ، حملن إليه مكرمات معززات . ولما دعى السلطان إلى الحفلة التى أقامها تيمور ابتهاجاً بالظفر ؛ وضع تيمور التاج على رأسه ، ووعده برد عرشه وملكه ، ولكن السلطان الأسير مالبث أن توفى ؛ فحزن تيمور عليه وأمر بدفنه بين مظاهر التكريم فى المدفن الذي أقامه لنفسه فى بروصه ، واختار ولده موسى ملكاً على الأناضول

على أن هذه الرواية لا يمكن أن تنال من الثقة ما تناله منا رواية ابن عربشاه ، فهى على ما يلوح رواية قَصْرٍ أريد بها تمجيد ذكرى الفاتح وعرض مناقبه . ويحاول المؤرخ الفيلسوف جيبون أن يوفق بين الروايتين ، فيقول لنا إن رواية شرف الدين فى شقها الأول صحيحة لا ريب فيها ، فقد استقبل تيمور أسيره برقة وأكرم وفادته ، ولكن بايزيد قابل كرمه بكبرياء وغطرسة ، فاستاء تيمور واعتزم أن يقود أسيره فى ركبه الظافر إلى سمرقند ؛ ولكن محاولة بذلت لإنقاذ الملك الأسير حملت تيمور على التشدد فى معاملته ، فزج به إلى قفص من الحديد ، اقتداء بما قرأه فى بعض السير القديمة من أن سابور أحد ملوك الفرس وقع فى قبضة قيصر فسجنه فى قفص من الحديد[1] . ويضيف ابن عربشاه إلى ذلك أن تيموراً أراد أن يذهب فى التنكيل بأسيره إلى ذروة القسوة والمهانة ، فدعاه ذات يوم إلى حفل أنس عقده ؛ ولما جاء دور الشراب ، التفت بايزيد فإذا بنسائه وجواريه يتولين سقاية الفاتح وصحبه أمام عيني مليكهن ؛ وقد كان ذلك من تيمور مبالغة فى الانتقام من خصمه والتشفى منه لما اجترأ عليه من ذكر النساء فى مكاتبته[2] . وقد كان لهذه الآلام المادية والمعنوية أثرها فى الملك الأسير ، فلم يمض على محنته بضعة أشهر حتى توفى فى غمر الحسرات والأسى ، وكانت وفاته فى مارس سنة ١٤٠٣ م

وكانت هذه أيضاً آخر غزوات تيمور وانتصاراته ؛ فلم يمض قليل على عوده إلى مملكته حتى لحقه المرض وتوفى فى شهر فبراير ١٤٠٥ ؛ وكانت وفاته نذير انحلال ذلك الصرح الشامخ الذى شاده بعبقريته وظفره وسعد طالعه

محمد عبد الله عنان

(١) جيبون : Decline and Fall of the Roman Empire الفصل الخامس والستون

(٢) ابن عربشاه ص ١٣٣

عبرة السيرة

بين يدى « العدد الممتاز » من الرسالة

للأستاذ على الطنطاوى

إن مائة ألف قارئ فى مشارق الأرض ومغاربها ، سيأخذون (غداً) العدد الممتاز من (الرسالة) وسيقرؤونه وسيحيي فى نفوسهم هذه الذكرى العظيمة المحبوبة التى نقف عندها فى كل رأس عام هجرى ، كما يقف المُصْحِر فى واحة مخضرة ظليلة ... تنشق منها عبير المجد ، وتسمع أغاريد النصر ، وتجتلى فى طلعتها طيف الأيام الباسمة التى كان من قطوفها ألف معركة ظافرة حملت غارها الراية الاسلامية ، وألف مدرسة وألف مكتبة نالت فخارها وجنت ثمارها البلاد الاسلامية ، وكان من حصادها هذه الحضارة التى نمت فى أفيائها الانسانية ، وكانت إحدى الحضارات العالمية الثلاث بل كانت أسماها (من غير شك) وأحفلها بالعظمة والفضيلة والحق !

نقف كل عام لنحيي ذكرى الهجرة ونحييها ، فنكتب فيها ونقرأ ونذكر ونتأمل ، ونرتفع على جناح هذه الذكرى إلى جوّ عال من العظمة والفضيلة والشرف ، نبقى فيه مابقي المحرَّم ، فإذا مر مر معه كل شيء : صوّحت الآمال ، وهجعت الذكريات ، وعدنا نتخبط فى سواد اللجة ... لا نربح من هذه الذكرى إلا ما يسيل على أقلام أولئك الأعلام البلغاء من طرائف البيان يحويها عدد الرسالة الممتاز ، ولا نفيد من المحرم إلا ما (قد) نقرؤه فى الصحف والمجلات من القصص والقصائد والمقالات . وكثير مما يكتب فى العدد الممتاز ، وبعض مما ينشر فى الصحف والمجلات ، قيم ثمين ، نعتده ثروة جديدة تضم إلى آدابنا الغنية الحافلة بثمرات القرائح الخصبة المرعة فى الأعصار الطويلة ، ولكن ذلك لا يكاد يجدي علينا فى نهضتنا إذا نحن لم نحى هذه الذكرى إحياء ، ونكتبها مرة ثانية على صفحات الوجود ، ونأخذ منها عبرة تنفعنا فى نهضتنا ، وهذا ما أنشىء له العدد الممتاز ، وهذا ما يراد من إصداره .

وفى هذه السيرة من القوة والسمو والحياة، ما يغذي عشرين نهضة ويمدها بالقوة، لا تدانيها فى هذا سيرة فى التاريخ ولا تشبهها، بل إن هذه السيرة أعجوبة التاريخ ومعجزته، وهى خيال بالغت الدنيا فى تزيينه وتزويقه، وأودعته مثلها العليا كلها. فجعله الله حقيقة واقعة ...

ولقد قرأت هذه السيرة مرات الله أعلم بعددها، فى كتب لا أكاد أحصيها، ثم عدت اليوم أقرؤها لأجد فى ثنى من ثناياها قصة مطوية أو حادثة مخبئة، أبني عليها فصلاً أكتبه للعدد الممتاز، وفى ظنى أنى لن أسير فى قراءتها إلا قليلا حتى أملها وأعزف عنها لأنى لا أجد فيها — وقد قرأتها حتى حفظتها — خبراً جديداً ... وأقسم أني لم أسر فيها غير بعيد حتى أحسست بلذة فنية تملك علىّ أمرى، وتستأثر بنفسى، كاللذة التى أحسها عند ما أقرأ الأثر الأدبى البارع لأول مرة، وتغلبنى حتى تضطرنى أحياناً إلى قطع القراءة لأمسك بقلبي الواجب، أو أمسح عيني المستعبرة، أو أصغى إلى صوت الحق فى ضميرى، ومنادي الفضيلة فى قلبي؛ ثم أسير فيها، فأنتقل من اللذة الفنية، والشعور بالجمال، إلى شىء أعلى من الفن وأسمى من الجمال: أحس بحلاوة الإيمان؛ وإن للإيمان لحلاوة عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها، فمن عرف درى ما أقول، ومن جهل لم ير إلا حروفاً فارغة من المعنى ... وإذا جاء الايمان جاءت معه البطولة بأروع أشكالها، والتضحية بأعجب أنواعها، وجاء معه الصبر والإيثار والقوة والشعور، وكل فضيلة من فضائل البشر ... وكذلك كانت حياة أصحاب هذه السيرة!

كانت حياةً أسمى وأجل من كل حياة عرفتها أو قرأت عنها أو تخيلتها: معرفة للغاية التى خلق الله الناس من أجلها، وجهاد فى سبيل هذه الغاية، وجرى على هذا الجهاد، وترفع عن خدع الحياة وألاعيبها، واتصال بالله يكاد والله يرفعهم من رتبة الإنسانية إلى رتبة الملائكة ويخرج بهم من ثوب الجسم المادّى، حتى يكونوا روحاً خالصاً ...

عرفوا ما هى الغاية من الحياة وفهموها، على حين جهل الناس هذه الغاية فهم يسألون أبداً: لماذا نعيش؟ أوخدعوا عنها بغايات دنيئة قريبة ... أما هؤلاء الغربيون فحسبوا الغاية من الحياة هى الحياة. جعلوا السبب هو المسبَّب، والوسيلة هى الغاية، فمدوا إلى ترْفيهِ الحياة، واستخدموا لأجل ذلك ما قدروا عليه، فصارت حضارتهم آلية جامدة، وصاروا لطول ما اشتغلوا بالحديد والنحاس يفكرون بعقول من حديد ونحاس، وانقطعت صلتهم بالروح وانبتّوا مما وراء المادة ... وأما هؤلاء المشرقيون، من الهنود وأمثالهم، فساروا على الضد، وأهملوا الجسم وعاشوا للروح، فظنوا بأن غاية الحياة الفناء فى المطمح الروحى، فقتلوا أجسامهم، وأعرضوا عن دنياهم، وأغرقوا أعمارهم فى تأمل لا أول له ولا آخر، ولا جدا منه ولا منفعة .. أما الفلاسفة فكان منهم الماديون الذين بلغ من رقاعتهم أن أنكروا الروح إنكاراً وجحدوا الله، وقال متكلمهم: (إن الدماغ يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء ...) فجعل الفكر مادة سائلة ... ومنهم الروحيون الذين كانوا أصحّ نظراً، وأدنى إلى الحق، ولكنهم لم يصلوا إليه ... تساءلوا منذ بدؤوا يفكرون: لماذا نعيش؟ ولا يزالون مختلفين يتساءلون هذا السؤال الذى عرف المسلمون وحدهم جوابه، حين قرأوا قول الله الذى أنزله على عبده ورسوله: «وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ ليعبدون»

استدلّ المسلمون بالمخلوق على الخالق، وأرشدهم الله إلى عظمة هذا الكون (المكوَّن) فعرفوا منها ما لم يعرفه أصحاب الفلك من العلماء الماديين، غاية ما يعرف هؤلاء أن بيننا وبين الشمس كذا، وأنها أكبر من أرضنا هذه بكذا، ثم إن من هذه الكواكب كواكب لو ألقيت الشمس فيها لكانت رملة فى صحرائها، أو نقطة من مائها، وما بين مشرق كوكب منها ومغربه أضعاف أضعاف ما بين الشمس والأرض، وغاب عنهم ما بعدُ من الكواكب، ووقفت دون رؤيته نظاراتهم ومكبراتهم، وعجزت عن الإحاطة به عقولهم وتصوراتهم، فسموه (فضاء غير متناهٍ)، كما يظنّ الطفل أن البحر لا ينتهى وليس له آخر ... وهل شىء ليس له آخر، إلا مَنْ هو الأول والآخر؟ أما المسلمون فعرفوا أن وراء هذا الفضاء مخلوقاً عظيماً، يحيط به (كالسقف المرفوع) لا تقاس به هذه الكواكب إلا قياس (المصابيح) إلى السقف، تهون عنده هذه الكواكب العظيمة وتضؤل، لأن له من الكبر والجلال ما لا نجد فى لغتنا هذه التى وضعت لهذه

الأرض الحقيرة كلمة تدل عليه ؛ هـذا المخلوق هو السماء الدنيا ، ومن فوقها ستّ سموات أخرى طباقٌ بعضها فوق بعض ، ومن فوقها أشياء أجلّ وأ كبر ، لا تكاد هذه السموات تعدّ إذا قيست بها شيئاً ، هي العرش والكرسى ، وهناك الجنة، عرضها السموات كلها والأرض ... هذه هى المخلوقات ، التى كانت بكافٍ ونون ، فما ظنك بالمكوِّن الباق ؟ ومن عرف هـذا الجلال للمخلوق ، كيف يكون إجلاله للخالق ؟ وهل يجد لحياته غاية إلا الاتصال به وعبادته ؟ وهل يقف به عقله وهمته فى هذه الأرض ؟ ... أى شىء هى الأرض فى هذا الكون ؟ ماهى فى جنب الله ؟

فهموا عقيدة القضاء والقدر أصحّ فهم وأجوده — وعقيدة القدر محنة العقل البشرى ، تزل فيهـا العقول الكبيرة وتضل المدارك العالية — فكان فهمهم إياها أعونَ شىء لهم على ماوفقوا إليه من عمل ، وأمضى سلاح بلغوا به ما بلغوا من ظفر . علموا أن كل شىء بخلق الله وبعلمه ، ولـكن الله لم يضطر أحداً إلى الخير اضطراراً ، ولم يجبره على الشر إجباراً ، وإنما أعطاه العقل المميز ، ودله على الطريقين المختلفين ، وقال له : هذا إلى الجنة والسعادة ، وهذا إلى النار والعذاب ، وتركه وعقله ... وأنه قدّر الأرزاق فلا زيادة ولا نقصان ، وحدّد الآجال فلا تقديم ولا تأخير ، فما كان لك سوف يأتيك على ضعفك ، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك ؛ وإذا جاء أجلك فلا تستأخر لحظة ولا تستقدم . رفعت الأقلام وجفّت الصحف ... فمضوا لايهابون الموت فى سبيل الله ولايخافونه ، لأنهم آمنوا إيماناً بأن المرء ليس أدنى إلى الموت ، وهو فى غمار المعركة الحمراء منه وهو فى كسر بيته بين أهله وولده...

ولـكن المسلمين الأولين لم يلقوا بأيديهم إلى التهلـكة اعتماداً على أن الأجل محدود ، ولم يُعرضوا عن سنن الحياة التى لا تجد لها تبديلا ، بل اتبعوا قوانين الوجود ، وساروا على نهج الحق ، وحرصوا على الحياة حين يكون الواجب داعياً إلى الحياة ، ورضوا بالموت حين يدعوهم الواجب إلى الموت ... ولم يعرفوا هذا التوكل السخيف ، فيناموا ويتقاعسوا عن العمل ، لأنهم علموا أن السماء لاتمطر ذهباً ولا فضة ، ولـكن الله يرزق الناس بعضهم من بعض. وقرأوا فى القرآن قول الله الذى أنزله على عبده ورسوله : « فإذا عزمْتَ فتوكل على الله » فعزموا على العمل ، وتوكلوا فلم يتكاسلوا عنه ، ولم يتكالبوا على الدنيا ؛ وجدّوا كل الجـد ، ولـكنهم لم يطلبوا شيئاً إلا من طريقه المشروع ، وعملوا لدنياهم كأنهم يحيون أبداً ، ولـكنهم عملوا لآخرتهم كأنهم يموتون غدا

عرفوا هذه العقيدة على وجهها ، فكانوا أعزّ الناس على الناس ، ولـكنهم كانوا أذلهم لِله وللمؤمنين ؛ وكان منهم أزهد الناس وهو أغناهم ، لأن المال كان في يده لا فى قلبه ؛ وكان منهم الملك الزاهد ، والعالم الغنى ، والفقير العزيز ... وما شئت من خصلة من خصال الخير إلا وجدتها فيهم

كانوا إذا قرأوا فى الصـلاة قوله تعالى : « إيّـاكَ نَعْبدُ وإيّـاكَ نَـسْتَـعين » كانوا صادقين ، لا يعبدون إلا الله ، ولا يستعينون إلا به ؛ لا يسألون غير الله مالا يقدر عليه إلا الله ، ولا يستعينون بالأموات الذين عجزوا عن معونة أنفسهم . ولقد قرأت السيرة وتلوت القرآن ، فلم أجد فى القرآن إلا أن محمداً صلى الله عليه وسلم بشر كسائر البشر ، في تركيب جسمه ، وصحته ومرضه وطبيعة فكره ، وخطئه وصوابه ، ولـكن الله اختاره للرسالة الـكبرى ، فعصمه من كل ما يدخل الخطأ على الرسالة ، أو يؤدى إليه ، أو يشين الرسول ، فكان صادقاً مصدقاً ، لا ينطق عن الهوى ، ولا يقول (إذا بلغ عن ربه) إلا الحق ، ولا يشرع من الدين إلا ما أذن به الله . وكان منزهاً عن الذنوب والمعايب التى لا يليق بصاحب الرسالة أن يتصف بها ، فإذا جاوز الأمر تبليغ الرسالة وما يتصـل بالدين إلى أمور الدنيـا فهو بشر يخطئ ويصيب ، وإن كان من أكثر الناس صواباً ، وأقلهم غلطاً لأنه كان أكمل الناس عقلاً وأثقبهم بصيرة ؛ وما دام بشراً فإنه يموت إذا جاء أجله . وإنه الآن ميت ليس حياً فى قبره كما يظن الجهلة من العوام وأشباه العوام ، ويمنعون الناس أن يقولوا إنه ميت ، وقد قال الله ذلك فى كتابه ، وقاله أبو بكر صاحب الرسول وصديقه على منبر الرسول فى مسجده ، بحضرة أصحابه وعترته . أما الذى قاله عمر ساعة من نهار فانما كان مصدره الألم المفاجئ ، والحب الطاغي على الفكر ، فلما سمع من أبى بكر ما سمع ، لم تحمله رجلاه فسقط ... قرأت السيرة من ألفها إلى يائها ، فلم أجد أحداً من المسلمين دعا الرسول أو لجأ إليه إذا حاق به الخطب الذى لا يقدر

البشر على دفعه، وإنما كانوا يلجؤون إلى الله ويدعونه، لا يقولون مقالة البوصيرى :

يا أكرم الرسل، مالى من ألوذ به
سواك... عند حلول الحادث العمم !

ولا قول الآخر يخاطب عبد الله ورسوله بهذا الخطاب الذى لا يخاطب به مؤمن إلا الله وحده :

يا أكرم الرسل على ربه .. ...
عجل بإذهاب الذى أشتكى فان تأخرت فمن أسأل ؟

لا يدرى من يسأل إذا تأخر رسول الله بإذهاب الذى يشتكى ؟ وهو يقرأ كل يوم سبعة عشرة مرة (على أقل تقدير) : « إيّاكَ نعبدُ وإيّاكَ نستعين » ؟ ! ولم أجد صحابياً لجأ إلى الرسول بعد موته يستشيره فى أمر، أو يراه فى منام فيبنى على رؤياه حكما ويأخذ منها علماً . ولقد اختلفوا على الخلافة والنبى صلى الله عليه مسجًّى في بيته لم يدفن، فما فكروا أن يلجؤوا إليه وأن يستشيروه، وهل يستشار الميت ؟

صدقوا بإمكان المعجزات والكرامات (وهى ممكنة والإيمان بإمكانها من أصول الدين) ولكنهم لم يكونوا يفهمونها على نحو ما نفهمها اليوم ، ولم أجد للصحابة — وهم أفضل المسلمين — مثل هذه الكرامات التى نقرأ حديثها ونسمعه كل يوم ... ووجدت كتب السيرة كلما تأخر بها الزمن ، زادت فيها أحاديث المعجزات حتى بلغت هذه الموالد العامية (مولد البرزنجى وشبهه) التى جاء فيها ما نصه : « ونطقت بحمله صلى الله عليه وسلم كل دابة لقريش بفصيح الألسن القرشية ! » ... « وتباشرت به وحوش المشارق والمغارب » ... « وحضرت أمه ليلة مولده آسية ومريم فى نسوة من الحظيرة القدسية ... ! »

* * *

وقرأت السيرة كلها ، ودققت فى كل سطر منها فما شممت رائحة اختلاف بين المسلمين ، لا فى العقيدة ولا فى المذهب ولا فى الطريقة ، وإنما المسلمون كلهم إخوة في أسرة واحدة ، عقيدتهم واحدة ، عقيدة بلغت من الوضوح واليسر و (البساطة) إلى حيث لا تدع مجالاً لاختلاف . وهل يختلف فى أن الواحد يساوي الواحد ؟ هذه هي عقيدتنا ... ولكن المتكلمين أدخلوا فيها مسائل ليست من العقيدة فى شيء ، وملؤوا بها كتبهم التى عقدوا فيها هذه العقيدة حين حشوها بحكاية كل مذهب مخالف والرد عليه . وجئنا نحن نزيد البلاء بلاء حين نحفظ الطلاب هذه المذاهب والرد عليها وقد انقرض أصحابها منذ دهور ...

أما هذه (الطرق) فليست فى أصل ولا فرع ، ولا تكاد تمشى مع المأثور من الذكر ، وإن أكثرها مسخرة ولهو ولعب : رقص سموه ذكراً ، وغناء دعوه عبادة ؛ فما أدرى أهم أنبياء بعد محمد ؟ (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) ؟ وإلا فما بال هذه الحمحمات وهذه الدمدمات ، وهذه الطامات المخزية التى نشهدها فى تكية الدراويش المولوية وأشباهها من دور أصحاب الطرق أو ... قطاعها !

ولقد قرأت السيرة كلها وأجهدت نفسى لأجد شيئاً من الأشياء ، أو مكاناً من الأمكنة قدسه المسلمون وتبركوا به ، فلم أجد إلا ما كان من تقبيل الحجر الأسود أو استلامه . وقول عمر : « إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله قبلك ما قبلتك » ... وتمنيت أن أرى في السيرة ذكر المحمل الذى صار فى مصر من شعائر الحج ، يتبرك عظماء مصر بلمس عنان جمله ، ويعرض ذلك في (أفلام السينما) على أنه من أركان الحج . وأجد فى السيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان — وهو يعانى آلام مرض الموت — ينهى عن اتخاذ القبور مساجد ، فأعجب من حال المسلمين اليوم إذ لا أرى مسجداً كبيراً إلا بنى على قبر أو كان فيه قبر ...

* * *

هذا قليل من كثير عرضته مثالاً لما فى السيرة من عبرة تنفعنا فى نهضتنا ، ودرس يفيدنا فى حاضرنا . فكرت قبل عرضه وترددت ، ثم آثرت إرضاء الحق ومصلحة الأمة ، ففتحت هذا الباب لتدخل إلى هذه السيرة العظيمة فلا تخرج منها إلا بالحياة والعز والمجد ، والمزايا التى تعيد للأمة الإسلامية مكانتها فى الدنيا !

(بيروت) على الطنطاوى

بين الوطنيـــة والأممية

للأستاذ ساطع بك الحصري

مدير الآثار بالعراق

— ٢ —

تصوَّروا أيها السادة أن هـذا المفكر الذى استرسل فى التحمس إلى القومية الألمانية بهذه الصورة العجيبة ، كان قد ظل بعيداً عن التفكير فى الوطن والوطنية حتى نكبة « يه نا » الألمية… إنه تجاوز العقد الرابع من عمره ، ولم يكتب كلمة واحـدة عن الوطن والوطنية ، مع أن أبحاثه الفلسفية كثيراً ما كانت تتناول مسائل الحياة الأخلاقية والاجتماعية … بل بعكس ذلك ، أظهر ميلاً واضحاً نحو النزعة العالمية حتى أنه في أحد الدروس التى ألقاها فى الثانية والأربعين من عمره — احتقر « الذين يرون وطنهم فى الأرض والأنهر والجبال » ، فقال : « إننى أسأل : — ما هو وطن الأوربى المسيحى المتمدن حقيقة ؟ — هو أوربا بوجه عام ، والدولة الأوربيـة التى تشغل الصف الأعلى فى سلم الحضارة على وجه أخص … » وكان يشير فيخته فى قوله هـذا إلى الدولة الفرنسية نفسها !

إن المدة التى مرت بين نشر هذه الـكلمة وبين حـدوث واقعة « يه نا » كانت عبارة عن تسعة أشهر فقط ! وأما المدة التي مرت بين نشر هذه الـكلمة وبين إلقاء الخطب الوطنية التى بحثت عنها ، فلم تتجاوز ثلاث السنوات ! … فإن الوقائع التى حدثت خلال هذه المدة القصيرة اضطرت فيخته إلى الانتقال من الفكرة العالمية المتساهلة إلى النزعة الوطنية المتشددة ، وجعلته من أشد المتعصبين للقومية الألمانية ، ومن أقوى وأنشط الداعين إليها

وأما (آرنت) فقد اشتهر بأشعاره الوطنية التى أيقظت فى نفوس الألمان روح الحماسة والتضحية ، وأوقدت فى قلوبهم ضرام النخوة والحمية فى تلك الأيام المملوءة بأنواع المصائب والنكبات

فاسمحوا لى أن أسوق إليكم نموذجاً من أشعاره الحماسية قال:

« أعطونى وطناً حراً ، وأنا أرضى أن أفقد كل شهرتى ، فيصبح اسمى منسياً ، لا يذكر فى غير دارى ودار جارى …

«أعطونى بقعة أرض فى جرمانيا ، يستطيع فيها العندليب أن يغرد دون أن يرى بسهم فرنسى …

«أعطوني كوخاً حقيراً يستطيع أن يصبح ديكى فوق حاجزه ، دون أن يقع فريسة فى يد فرنسى … وأنا أصبح عندئذ مثل الديك وأغرد مثل العندليب بكل فرح وسرور ، … ولو أفقد كل ما ملكته يداى ، فلم يبق لى شىء يستر جسمى غير قميص بال …»

تصوروا أيها السادة أن هذا الشاعر الذى أظهر مثل هذا الشعور الوطنى الرقيق بهذا الشكل الطريف ، فى هذا الشعر الحماسى ، وفى مئات من أمثاله … هذا الشاعر أيضاً كان بعيداً عن فـكرة الوطن والوطنية — بتأثير النزعة العالمية السائدة حوله إذ ذاك — حتى حروب نابليون … إنه اعترف بذلك هو نفسه ، فقال : « إننى عرفت وطنى فى ثورة الغضب ، وأحببته فى ساعة النكبة ، وآمنت بأنه لا بشرية بلا أمم ، ولا أمة بلا وطن حر … »

أعتقد أن هذين المثالين يكفيان لإظهار التطور العميق الذى حدث في الآراء والنزعات فى البلاد الألمـانية عقب استيلاء الفرنسيين عليها ، فى العقد الأول من القرن التاسع عشر ..

نستطيع أن نقول إن الفكرة العالمية فقدت قوتها ونفوذها فى ألمانيا تماماً ، وتركت محلها لروح وطنية متأججة ، استمر اضطرامها طول القرن التاسع عشر ..

مع هذا لم تندثر تماماً فى سائر البلاد ، بل بعكس ذلك — وجدت فى بعضها تربة صالحة لنموها — تحت شـكل جديد ، هى فكرة « السلم الدائم العام … »

فقد تألفت عدة جمعيات تدعو إلى السلم والتآخى ، منذ سنة ١٨١٤ ، وأخذت تسعى لنشر مبادئها بين المفكرين والناس بصور ووسائل شتى : إنها أخذت تدعو إلى توحيد الأوطان ؛ حتى أنها لم تتردد فى بعض الأحيان فى توجيه حملات عنيفة على الوطنية فى سبيل هذه الدعوة .. إن فـكرة السلم والتآخى وجدت بهذه الصورة عدداً غير قليل من الأنصار والمريدين ، بين الأدباء والمفكرين ورجال الدين .. وصار هؤلاء يعقدون سلسلة مؤتمرات أممية .. بقصد نشر فـكرة السلم والتآخى بين الأمم ..

غير أننا إذا تتبعنا سير انتشار هذه الفكرة ، نجد أن هذا الانتشار لم يجر باطراد ، على وتيرة واحدة — فإن الفكرة كانت

تنتشر انتشاراً لا بأس به مدة من الزمن ثم تتقلص وهلة، عند ما تصطدم بالوقائع، وتشهد حدوث حروب جديدة، فتبدد الأحلام المستولية على الأذهان، وتثير ضغائن جديدة بين الأمم...

نستطيع أن نجد خير مثال لذلك فيما كتبه وقاله الشاعر الفرنسي المظيم « فيكتور هوجو ». انجذب هذا الشاعر إلى فكرة توحيد الأوطان، ونشر ألوية السلم على العالم. فاشترك في مؤتمرات السلم، وألقى في بعضها بعض الخطب، وأرسل إلى بعضها بعض الرسائل؛ وفي كل ذلك أظهر نزوعاً شديداً نحو السلم العام، وإيماناً عميقاً في أمر توحيد الأوطان.. وتخيل في إحدى خطبه العهد الذي ستتحد فيه الدول الأوربية بأجمعها، والعهد الذي ستتصافح فيه الولايات المتحدة الأوربية « مع الولايات المتحدة الأمريكية » من وراء البحار، وتوحد أعمالها لخير البشر العام... كما حلم في العهد الذي ستنتقل فيه المدافع إلى المتاحف، وستترك القذائف محلها إلى أوراق التصويت في ندوة عالية، تكون السيادة فيها للمناقشة العلمية والرأي الحر... وتحت تأثير هذه الأحلام وجه الشاعر دعوة حارة لإزالة الحدود والفوارق من بين الأمم، قائلاً: إن رأس البلاء هو الحدود؛ لأن مفهوم الحدود يتضمن المخفر، والمخفر يتطلب الخفير، والخفير يستوجب الجيش، والجيش يدعو إلى الحرب... فلنحذف الحدود.. لكي نرى ألوية السلم سائدة على العالم، وروح الأخوة منتشرة بين البشر...

ومن غريب الصدف أن هوجو كان قد أرسل هذا البيان إلى مؤتمر السلم الذي انعقد في لندن سنة ١٨٦٩، أي قبل نشوب حرب السبعين بسنة واحدة فقط! وما كادت الحرب تنشب بين فرنسا وألمانيا، حتى ترك الشاعر هذه الأحلام جانباً وأخذ يبدع سلسلة أشعار حماسية، تتأجج فيها روح وطنية ثائرة...

إن هذا الشاعر لم يكن من الشواذ في هذا الباب. بل ظهر له أمثال كثيرون في كثير من البلاد... فعدد غير قليل من المفكرين انجذبوا مدة من الزمن إلى فكرة توحيد الأوطان، ثم عادوا إلى النزعة الوطنية والقومية تحت تأثير الوقائع والحادثات..

لا ننكر أن بعضهم ظل متمسكاً بهذه الفكرة طول حياته، كما فعل « تولستوى » الشهير... فإنه ظل يدعى أن الوطنية من بقايا العهود الهمجية وأن من يعيش عيشة فكرية حقيقية لا يمكن أن يعترف بالوطن والوطنية... وظل يدعو الناس إلى نبذ النزعات الوطنية مهما كانت أشكالها، وإلى الامتناع عن الحروب مهما كانت الأسباب الداعية إليها... غير أن (روزفلت) الكبير أجاب على آراء « تولستوى » في إحدى خطبه بكلمة طريفة جداً قال:

« نعم، قد يأتي عهد — في أغوار عصور المستقبل البعيد — تفقد فيه الوطنية قيمتها وفائدتها... كما أنه قد يأتي عهد يندثر فيه نظام الأسرة فالزواج... غير أنه يجب أن نعرف جيداً أن الرجل الذي لا يفرق بين وطنه وسائر الأوطان — في المجتمع الذي نعيش فيه الآن — يكون عنصراً مضراً، كالرجل الذي لا يفرق بين زوجته وسائر النساء... »

إن دعاة السلم العام والأخوة البشرية الشاملة الذين ظهروا طول القرن التاسع عشر، وفي أوائل القرن العشرين، حتى الحرب العالمية — كانوا يتكهنون بقرب تحقق أحلامهم وأمانيهم... غير أن الوقائع والحادثات كانت تأتي على الدوام معاكسة لتلك الأماني والأحلام... كانوا يتكهنون بأن ساحات الحرب ستتحول إلى أسواق تجارية. غير أن الوقائع أتت بنتائج معكوسة لذلك تماماً، لأن الأسواق التجارية أصبحت مثاراً للحروب...

كانوا يقولون بأن المدافع ستنتقل إلى المتاحف... ولا ننكر أنه قد حدث شيء من ذلك، فإن المدافع التي كان يعرفها هؤلاء الدعاة انتقلت فعلاً إلى المتاحف؛ غير أن ذلك لم يحدث من جراء انتصار فكرة السلم العام، كما أنه لم يؤد إلى تقوية الفكرة المذكورة... بل إنه حدث من جراء اختراع أنواع جديدة من المدافع تفوق قوتها الحربية قوة تأثير المدافع القديمة مئات من الدرجات...

كانوا يوجهون أنواع السهام إلى « الحدود » التي تفصل الدول بعضها عن بعض؛ وكانوا يتمنون زوالها خدمة للسلم العام فقد حدث فعلا في الحدود التي كانوا يعرفونها، انقلابات عظيمة أدت إلى تبدل عشرات منها وزوال مئات... غير أن كل ذلك لم يحدث على أساس توحيد الأمم بأجمعها، ولا على أساس توحيد

الأمم المتمدنة وحدها ... بل حدث من جراء تحقيق النزعات القومية ، وإعادة بناء الدول حسب مقتضيات تلك النزعات ... فقد اتحدت الدويلات الكثيرة التي كانت تنقسم إليها بعض الأمم ؛ فكونت دولة كبيرة أشد وطنية وأصلب قومية من جميع الدويلات التي اندمجت فيها ... هذا ومن جهة أخرى قد تجزأت بعض الدول الكبيرة التي كانت تتألف من أمم مختلفة النزعات ، وانقسمت إلى عدة دول مستقلة ؛ غير أن ذلك أيضاً حدث بتأثير النزعات القومية ، وأدى إلى تقوية تلك النزعات ...

تجاه هذه النتائج الفعلية فقدت الفكرة العالمية كل ما كان لديها من قوة ؛ فأخذت فكرة السلم العالم ونزعة الأخوة البشرية اتجاهاً جديداً يختلف عما كان يقصده دعاة العالمية كل الاختلاف .

هذا الاتجاه الجديد ، هو الدعوة إلى التعاون والتضامن بين الأمم داخل نطاق الوطنية والقومية تماماً . فلتبق كل أمة متمسكة بوطنيتها على أن تحترم وطنية الأمم الأخرى أيضاً . فلتبق كل أمة مستقلة في شؤونها على أن تتعاون مع سائر الأمم في مختلف ساحات النشاط البشرى من العلم والثقافة إلى الاقتصاد والمواصلات ...

إن هذه النزعة الجديدة لم تكن من نوع التمنيات الخالية ، بل هي من النزعات العملية التي أنتجت نتائج باهرة ، وساعدت على تكوين « مؤسسات أممية » كثيرة ... من « اتحاد البرق والبريد الأممى » إلى « مؤسسة التعاون الفكرى الأممى » ... ولا سيما بعد الحرب العالمية ...

فنستطيع أن نقول لذلك : « إن نزعة الوطنية خرجت سالمة ظافرة من الكفاح العنيف الذى حدث بينها وبين فكرة العالمية بأشكالها المختلفة ... »

* * *

غير أن الوطنية — بالرغم من تغلبها على النزعات المعادية التي ذكرناها آنفاً — وجدت نفسها منذ مدة ، أمام نزعة معادية أخرى ، أشد خطراً من جميعها . هذه النزعة هي « الماركسية » — نسبة إلى مؤسسها « كارل ماركس » — وبتعبير آخر هي :

« الأممية الشيوعية »

إن دعاة هذه « النزعة الأممية » لم يحلموا بآمال السلم العام ، ولم يعللوا أنفسهم بأمانى الأخوة البشرية الشاملة ... بل على العكس من ذلك آمنوا بضرورة الحرب ، واستعدوا لها ؛ غير أنهم قالوا إن هذه الحرب يجب أن تكون من نوع جديد . يجب أن تنشب بين الطبقات المختلفة لا بين الأمم المختلفة . يجب على عمال العالم أن يتحدوا على اختلاف أوطانهم ليحاربوا الرأسماليين مهما كانت قومياتهم ...

إن دعاة الأممية الشيوعية يريدون تغيير نظام المجتمع الحالى من أساسه ، ويعتقدون أن ذلك لا يمكن أن يتم دون ثورة وحرب ، ويقولون بأن هذه الثورة يجب ألا تتقيد بقيود الوطنية بل يجب أن تعمل ضدها ...

يقول الماركسيون إن الوطنية من وسائط حكم الرأسمالية ، هي من الأسلحة التي تستعملها الرأسمالية لخداع الصعاليك ، واستخدامهم لأغراضها الخاصة فلا يمكن أن يتأسس النظام الشيوعى ما لم تهدم فكرة الوطنية الخداعة وتمحي الحدود التي تولدت منها ... فالأممية الماركسية تدعو إلى نبذ الفكرة الوطنية ، ومحاربة الرأسمالية ، أينما كانت ، وبأية واسطة كانت ... لذلك تطلب إلى العمال أن يتحدوا دون أن يلتفتوا إلى الحدود التي أقامتها النزعات القومية الوطنية ، ودون أن يتقيدوا بالروابط التي أوجدتها هذه النزعات ، ولهذا السبب تبدأ دعوة الماركسيين كل يوم بهذه الصيحات :

« يا عمال العالم اتحدوا ... »

تدعو الماركسية جميع عمال العالم إلى الاتحاد ، لأنها تقول بأن وطن العامل هو المعمل وحده ... وأما مواطنه الحقيقى فهو العامل الذى يكد مثله مهما كانت قوميته ؛ كما أن عدوه الأصلى هو الرأسمالى الذى يستغله مهما كان الوطن الذى ينتسب إليه ... فعدوّ العامل الفرنسى مثلا — ليس الجندى الألمانى أو الانكليزى أو الروسى — بل هو الرأسمالى ، سواء كان من الفرنسيين أو الألمان أو الانكليز أو الروس ... فيجب على جميع عمال العالم أن يتحدوا لمحاربة الرأسماليين على اختلاف أوطانهم وقومياتهم ..

(البقية فى العدد القادم) ساطع الحصرى

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١١ —

وصلت طلائع من كتائب المؤتمر الطبي فى صباح اليوم . فليكن من هواي أن أتسمّع أحاديث الأندية فى المساء

* * *

لم يصل إلى فندق تايجرس غير طبيب واحد . وقد قضيت معه لحظة ففهمت أنه خالى الذهن من الغرض الصحيح لمقد المؤتمر الطبي فى بغداد . وليس هـذا بمستغرب من مثله ، لأنه بولونى لا يعرف ما يساور شعراء العرب من المعضلات الوجدانية . وقد حاولت أن أفهمه أن المؤتمر إنما يعقد فى بغداد لمعاونتى على مداواة ليلى فلم يفهم إلا أن اسم ليلى قد يكون اسماً لمرض من الأمراض . وما علينا إذا لم يفهم البولونيون !

* * *

لم يعرفنى أحد من أطباء فلسطين وسورية ولبنان ، فالذين قرأوا (مدامع العشاق) يحسبوننى فتى لا يجاوز الثلاثين ، والذين قرأوا (الأخلاق عند الغزالى) يحسبونني شيخاً يصافح الثمانين ؛ وهم جميعاً يعتقدون أنى مطربش لا مُسَدَّر ، فدخولى بينهم بالسدارة يوهمهم حتما أنى من فتيان العراق

وكذلك استطعت أن أسرق أحاديثهم فى فندق استوريا من حيث لا يشعرون

تحدث طبيب منهم قال : ما كنت أحسب الزمن يسمح بمثل هذا الجنون ؛ وما كنت أظن أن الجمية الطبية المصرية تدعو أطباء العرب لعقد مؤتمر طبي يختبر حال ليلى المريضة فى العراق . ولولا لجاجة زوجتى ما حضرت ، فهى ترى التخلف عن هذا المؤتمر تحدّياً للجنس اللطيف

واعترضه آخر فقال : هى فرصة طيبة لمشاهدة ليلى . وهى أيضاً مواساة للطبيب المصرى الشهير زكى مبارك الذى هجر وطنه وأهله فى سبيل الوجدان ، ومن الواجب أن يكون بين أبناء العرب أطباء يتخصصون فى طب القلوب

وقال ثالث : الذى يهمنى هو مشاهدة ليلى ثم دعوتها لشرب كأس أو كأسين فى فندق الفرات

وقد ضج الحاضرون بالضحك والقهقهة وكادوا يجمعون على طرافة هذا الإسفاف

* * *

كنت خليقاً بالحزن على ما صار إليه أدب الناس ، ولكنى حزنت على نفسى . حزنت حتى غلبنى الدمع

فهؤلاء الذين يتصورون أن العافية لا تطلب لليلى إلا لتصلح لمعاقرة الكأس ، هؤلاء تقدموا وتأخرت ؛ هؤلاء تفردوا بالفوز وتفردت بالخيبة . وهل كنت أقل سفها منهم حتى يفوزوا وأخيب ؟

إن خراب عيادتى فى شارع المدابغ ، وتدهور عيادتي فى شارع فؤاد ، وحياتي المشردة بين القاهرة وباريس وبغداد ، كل أولئك النكبات سهدٌ من عزيمتى ، أنا الطبيب المسكين الذى أضاعه الأدب فلم يعد يصلح لغير طب القلوب ، فى زمن خلا من القلوب

* * *

لن أسمح بخروج ليلى ، ولن يراها أحد من أعضاء المؤتمر الطبي بعد الذي سمعت

ولكن هل كان ما سمعت هو كل السبب فى حماية ليلى من أهل الفضول ؟

الحق أنى مريض بالغيرة . مريض ، مريض لا يرجى له شفاء .

وكان مرض الغيرة خف بعض الخفة فى سنة ١٩٢٧ ثم عاد فأضرعنى

وتفصيل ذلك أنى جلست أصطبح فى قهوة الروم فى باريس ، فرأيت فتاة فصيحة العينين تجالس رجلاً فانياً ، فأخذت أداعبها بنظراتى ؛ وكنت فتى فصيح العيون يرسل بعينيه إشارات وخطابات وبرقيات إلى من يشاء ؛ وكانت الفتاة تفهم عنى فتعبس تارة وتبسم تارة وفقاً لسياق الحديث . ورآها ذلك الشيخ موزعة بين الابتسام والعبوس ، فسألها فلم تنكر ، فأشار إلى أن أقترب فاقتربت ، فقال بلهجة صارمة : ماذا تريد ؟

وقد أزعجنى السؤال ، وتخوفت العواقب ، فقد كنت فى كل أدوار شبابى أبغض الذهاب إلى إدارة الشرطة ، ولو لتأدية شهادة ؛ وتلطف الله عزت قدرته فستر عيوبى ، وأعفانى من ذل الاستجواب في مراكز البوليس . تباركت يا إلٰهى وتعاليت ! فلولا لطفك لأذلتنى شماتة الأعداء

وكنت فى تلك الساعة أتصور بشاعة الذهاب إلى إدارة التحقيق فاضطربت وتلعثمت

وأعاد الشيخ سؤاله : ماذا تريد ؟ خبرنى ماذا تريد ؟

فجمعت قواى وقلت : سيدى ، أنا شاب من الشعراء ، أنا من سلالة العباس بن الأحنف ؟

فهدأ الشيخ قليلاً وقال: ومَن العباس بن الأحنف ؟ فأجبت: هو الذى يقول :

أتأذنون لصبٍّ فى زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمر السوء إن طال الجلوس به عف الضمير ولكن فاسق النظر

وترجمت له البيتين ترجمة مقبولة فابتسم وقال : ومعنى ذلك أنك تحب أن ترى وجه هذه الفتاة وتسمع صوتها ؟ فقلت : إن سمح سيدى ! فقال : Mais vous êtes mal placé

ففهمت إشارته ودنوت فزاحمت بركبتى ركبة الفتاة

رباه ! متى تعود أيامى !

وأفهمنى الشيخ أنه شاعر سويسرى ، وأنه لا يرجو من هذه الفتاة إلا أن تكون مصدر الوحى . وتلطف فقال إنه يسمح لى بمصاحبتها حين أشاء

فقلت : عفواً ، يا سيدى ، فجبى يعجز عن تكاليف الحب

فقال : لك الحب ، وعلىّ التكاليف

فأهويت على يده فقبلتها قبلة ما سمحت بمثلها لشيوخى فى الأزهر الشريف

وكانت فرصة عرفت فيها أن الغيرة لها حدود

ولن أنسى ما حييت عبارات ذلك الشيخ الجليل فقد كان يسألنا بعد كل نزهة : ماذا صنعتم يا أطفالى ؟ فكنت أقول مثلا : رأينا پارك سان كلو ، وطربنا لجمال الطبيعة هناك

فيقول : ثم ماذا ؟

فأجيب : ثم رجعنا

فيقول فى ألم وسخرية : وهذا كل ما صنعتم ؟ !

وتفهم الفتاة ما يريد الشيخ فتقول : أؤكد لك يا مولاى أن المسيو مبارك ليس من العقلاء . وكان يدهشنى أن يستريح الشيخ لهذا التصريح فأمضى وأقص ما افترعنا من المغامرات

رباه ! متى تعود أيامى !

ولم يدم هذا النعيم غير أربعة أشهر ، ثم سافر الشيخ والفتاة إلى جنيف ، وعاد مرض الغيرة يساورنى من جديد . وسأكون بالتأكيد من أشرف صرعاه

ولكن هل تكون هذه الغيرة ضرباً من الغباوة والحمق ؟

لا ، لا ، وإنما هى فيض من المروءة والشرف ، فقد قضيت دهرى وأنا أحقد على من يهينون الجمال . ولهذا سبب معقول ؛ فالمرأة التى تجود عليك بابتسامة يكون من حقها عليك أن تحفظ معها الأدب فى السر والعلانية . والمرأة تعطى كثيراً جداً حين تجود بابتسامة . والعاشق فى جميع أحواله أقل تضحية من المعشوق ، لأن العاشق يأخذ والمعشوق يمنح ، والفرق بين الحالين بعيد . ولكن أين من يفهم المعانى ؟

وقد أهلكنى مرض الغيرة وأفسد جميع شؤونى وكاد يرزأنى بالخراب . ولولا عناية الله لكنت اليوم ممن ينبذهم المجتمع ويتحاماهم الأهل والأقربون

فقد كان لى صديق من كبار الموظفين ؛ صديق فيه شيء من الظرف وأشياء من السخف . وكان هذا الصديق يحب أن يطوف بى على رفيقاته من حين إلى حين ؛ وكنت أعرف ماذا يريد ؟ كان يريد أن أتعلم التسامح لأطوف به على رفيقاتي حين يشاء . وكنت أعرف ما يضمر وأسكت ، لأنى كنت أحب أن أقف على أمراض المجتمع لأحاربها عن علم لا عن جهل

وفى ذات يوم ابتدرنى بهذه العبارة فى لهجة جدّية :

— يا دكتور زكى ، يا حضرة الفيلسوف ، أما تحب أن تعرف رأى إخوانك فيك ؟

— رأى إخوانى ؟ وماذا يرى إخوانى ؟ فما كنت إلا خير صاحب وأكرم رفيق

— أنا ؟ أنا بخيل ؟ وكيف وكان إخوانى يغامرون ماطاب لهم الهوى ، اعتماداً على الجيب الملآن ، جيب الرجل الذى يجوع ليشبع الرفاق ؟

— هم لا يتهمونك بالبخل من الناحية المادية ، وإنما يتهمونك بالبخل من الناحية الغرامية

وعندئذ شعرت بأنى مقبل على خطر فقلت :

— وماذا يريد إخوانى ؟

— يريدون أن تطوف بهم على رفيقاتك

فقلت : ليس لى رفيقات

فقال : يا سيدى ، ياسيدى ، على منطق الدكاترة !

فقلت : أؤكد لك ولسائر الإخوان أنى لا أعرف غير الكتاب والقلم والدواة والقرطاس

فقال : تعجبنى حين تتخذ من حياتك العلمية ستاراً لحياتك الغرامية !

فقلت : أتحداك أن تذكر اسم امرأة واحدة يتصل بها غرامي

فقال : هل تنكر أن لك علاقات مع السيدة (...)

ونطق السفيه المجرم باسم امرأة مصونة أفديها بروحى. فلطمته لطمة أطارت ما كان وقع على صدره من أغربة الأحلام والأمانى

فنظر إلى فى تخاذل وقال : وَحْش !

فقلت : ولا يؤدب الأوباش غير الوحوش

وأراد أن يجمع ما تناثر من أشلاء شجاعته ليقابل العدوان بالعدوان ، فنظرتُ إليه نظرة ساخت بها روحه ، فانصرف وهو يقول : طوّل بالك !

وقد طوّلت بالى ، وكنت أتوقع أن يعود بعد ساعة أوساعتين وفى يده مسدّس ، ولكنه لم يعد أبداً

ثم عرفت بعد حين أنه انتقم منى على طريقة أمثاله من الأنذال ، فكان يرسل الخطابات المجهولة إلى الدوائر التى يؤذينى أن أذكر عندها بالقبيح ، فتلطخت سمعتى بالمنكرات فى أقل من أسبوعين

رباه ! ماذا نعاني فى سبيل المروءة والشرف ؟

ومشيت يوماً فى شارع فؤاد أروّح عن نفسى قليلاً برؤية اللؤلؤ المنثور ، اللؤلؤ الذى يتوهج بذلك الشارع في الأصائل والمشيات ، فلقينى صاحب قديم فقلت : من أين قدمت ؟

فقال : كنت فى منزل (... باشا)

فقلت : وكيف حاله ؟ فقد طال شوقي إليه

فقال : لم أجده فى المنزل ، وإنما جلست مع زوجته لحظة ، جلسة بريئة بالطبع

فنظرت إليه نظرة ساخرة وقلت : أتريد أن توهمنى أنك كنت تملك الفجور وعففت مع أنك أضعف من الخصيان ؟

وخلاصة القول أنى أتهم المجتمع ، وأرى من النذالة أن نعرض بناتنا وأخواتنا وزوجاتنا للناس . ولا يضايقنى أن يغضب صديقى الدكتور إبراهيم ناجى وهو يكرر كلمة المرحوم زكي باشا إذ قال : إن زكى مبارك عاش فى باريس ما عاش وظل مع ذلك فلاحاً من سنتريس

نعم ، فلاّح ، ثم فلاّح ، فإن شاء أبنائى أن يثوروا على أبيهم الفلاح فليحملوا إن استطاعوا رذائل المجتمع . أما أنا فقد نجوت ولله الحمد ، فكانت زوجتى ترفض أن تستقبل أخاها الشقيق وأنا غائب . ويسرنى أن أسجل اعترافى بالجميل لزوجتى الفلاحة التى سارت سيرة أمها وجدّاتها فحفظت قلبى سليما من الهموم التى تزلزل عزائم الرجال

وإذاً فلن تخرج ليلى ولن يراها أعضاء المؤتمر الطبى

كذلك صممت ولن أرجع عما صممت

* * *

ومضيت إلى دار المعلمين العالية فإذا خطاب بالبريد الجوى وعلى غلافه :

« وزارة المعارف العمومية »

« مكتب الوكيل »

وزارة المعارف ومكتب الوكيل ؟ وبالبريد الجوى ؟

يا فتاح يا عليم !

أتكون وزارة المعارف أرادت أن ترجعنى إلى مصر للتفتيش بالسنة التوجيهية والعياذ بالله ؟

أتكون وزارة المعارف فكرت فى الغاء انتدابى لمداواة ليلى المريضة فى العراق ؟

ومرّت بالبال خواطر كثيرة ، إلا خاطراً واحداً ، هو أن تكون وزارة المعارف فكرت فى تسديد ما عليها من الديون . وهل فى الدنيا إنسان يبادر بتسديد ما عليه من ديون بلا طلب وبلا إلحاح ؟ إن ديونى على وزارة المعارف ديون ثقيلة ؛ ولن تدفعها إلا يوم يشهد معالى الوزير أو سعادة الوكيل بأننى رجل مظلوم لن يصل إلى مناصب تلاميذه إلا بعد أعوام طوال

ثم تشجعت وفضضت الخطاب فإذا سعادة العشماوى بك يخبرنى بأنه قادم مع أعضاء المؤتمر الطبي ، وأنه يسره أن يرانى وأن يرى المصريين المقيمين بالعراق

ولكن لماذا اختصني سعادة العشماوى بك بهذا الخطاب ؟

أغلب الظن أن يكون بعض الدساسين كتب إليه أنى لا أؤدى الواجب فى خدمة ليلى ، فهو يريد أن يرى بعينيه ما صنعت فى خدمة ليلاى

وإذاً فسيكون من الحتم أن تخرج ليلى لحضور حفلة الافتتاح

فما هذه المشكلات التى تثور فى وجهى من حين إلى حين ؟

من حق العشماوى بك أن يرى ليلى ، ومن حقى أن أحجب عنه ليلاى

وأشهد أنى قضيت يومين فى درس هذا الموضوع الخطير . وكنت لا أعرف بالضبط : هل أغار على ليلى ؟ أم أخاف على العشماوى بك ؟ والحق أني أغار على ليلى وأخاف عليه ، أما غيرتى على ليلى فهى مفهومة لا تحتاج إلى شرح ؛ وأما خوفى عليه فيرجع إلى اعتقادى أنه من أرباب القلوب . وربما جاز لى أن أصرح بأنه كان من عبيد الجمال فى صباه ؛ وإلا فكيف اتفق أن يكون دائماً من أنصار الآداب والفنون ؟ وهل يعطف على الأدب والفن غير أرباب القلوب ؟

***

ثم مرّ بالبال خاطر سخيف ؛ ولكن لا بدّ من تدوينه فى هذه المذكرات . ألم أقل أنى أدوّن عيوبى قبل أن يدوّنها الكرام الكاتبون ؟

أنا مفتش بوزارة المعارف المصرية ؛ ومن واجبى نحو نفسى أن أحسّن علاقاتى بوكيل الوزارة . أستغفر الله ! فما أردت إلا أن أقول سعادة الوكيل . ولا تؤاخذنى يا عشماوى بك فما أقصدك بالذات . وسعادة الوكيل يستطيع أن يكتب مذكرة يقول فيها إنه ثبت أن مواهب الدكتور زكى مبارك أعلى من مستوى التفتيش ، وإنه لا بدّ من تحويله إلى منصب مناسب بالجامعة المصرية

وهنا وجه الخطر ، فناصب الجامعة لا تنفعنى ، لأنى لا أستطيع أن أشفي بها ما فى نفسى من مرض السيطرة ، لأن السيطرة فى الجامعة مقصورة على العمداء ، والظروف الحاضرة لا تمنحنى العمادة ولو فى كلية الآداب ، لأن العمادة تتوقف على شرطين : أصوات الأساتذة، وموافقة الوزير . والأساتذة لن يعطونى أصواتهم أبداً ، لأنى جرحتهم جميعاً فى جريدة البلاغ ؛ والوزير الحاضر وهو معالى بهى الدين بركات باشا لن ينسى أنى هجمت عليه فى مقال نشرته بجريدة المصرى . ومن المحقق أنه لن ينتقم منى ، ولكن من المحقق أيضاً أنه لن يتحمس لإنصافى فيرانى أصلح الناس لمنصب العميد

لا بدّ لى على أى حال من أن أبقى مفتشاً بوزارة المعارف . وهل فى الوزارة منصب أعظم من منصب المفتش ؟ إن لى فى هذا المنصب ذكريات تقضى بأن أخاطر في سبيله بكل شىء إلا ليلى ، إلا ليلى ، إلا ليلى

منصب المفتش منصب عظيم جداً ، فمن كان فى ريب من ذلك فليسمع :

دخلت المدرسة التوفيقية صباح يوم ، فهالنى أن أرى مظاهر القلق فى جميع الصفوف ، فقلت للناظر : ما هذه الجلبة ؟ فقال : إن التلاميذ يتطلعون من النوافذ ليمتعوا أنظارهم بطلعة سعادة المفتش . فقلت فى تعجرف : هذا أدب ما بعد الحرب ، وكان الواجب أن يقهرهم الخشوع . فقال الناظر : الرأى لك يا سعادة المفتش !

وقد عزّ علىّ أن يجاملنى الناظر إلى هذا الحد ، مع أنه أكبر منى سناً وعلماً ، ولكن ماذا أصنع وأنا لا أخلو من لؤم ، ومن حقى أن أستفيد من فساد المجتمع ؟

ودخلت يوماً المدرسة الإبراهيمية فوجدت مدرساً كان من زملائى . وكان فيما أذكر أبصر منى بالدقائق النحوية والصرفية واللغوية ، فأبيت إلا أن أتعجرف عليه وأستطيل . وجدته يطلب من التلاميذ أن يتكلموا عن فوائد السينما ، فقلت : لماذا لا تقول الخيالة ؟ ورأيته يمرّ على كلمة «تطوّر» في دفاتر التلاميذ فلا يصححها، فحاسبته أشد الحساب فقال : إن الله يقول في كتابه العزيز « وخلقنا كم أطواراً » فقلت : نعم إن الله خلقنا « أطواراً » ومن أجل ذلك لا يصح أن « نتطور » يا أستاذ !

وقد هدانى اللؤم إلى أن أقترح على وزارة المعارف أن تعهد إلىّ التفتيش في المدارس الأهلية والأجنبية ، لأن التفتيش فى مدارس الحكومة يضايقنى قليلا ، إذ كان المدرسون فى المدارس الثانوية قد ثبتت صلاحيتهم للتدريس منذ سنين ؛ وأمثال هؤلاء لا يمكن قطع أرزاقهم بسهولة . أما المدارس الأجنبية والأهلية فيمكن فيها زعزعة مركز المدرس بإشارة أو إشارتين ؛ وكذلك أستطيع السيطرة بلا عناء

ومن مزايا التفتيش أن يحفظ التلاميذ أشعارى بفضل « لباقة » المدرسين . وأذكر أنى دخلت يوماً إحدى المدارس فأردت أن أختبر الطلبة فى المحفوظات ، فرأيت تلميذاً قيل إنه ابن وزير سابق . فقلت : أسمعنى يا شاطر بعض ما تحفظ ، فابتدأ يصيح :

قال سعادة الدكتور زكى بك مبارك :

يا جيرة السين يحيا فى مرابعكم ... فتى إلى النيل يشكو غربة الدار

جَـنَتْ عليه لياليه وأسلمه ... إلى الحوادث صحبٌ غير أبرار

تخشيت التورط فى سماع شعرى فأشرت على الطالب بأن ينشد شعراً غير هذا ، فصاح :

وقال سعادته أيضاً :

نسيتم العهد واسترحتم   من لوعة الحافظ الأمين

فأسكتُّ الطالب وقلت للأستاذ : أليس لدى الطلبة محفوظات غير أشعار زكي مبارك ؟

فقال : لقد أعطيتهم خمس قطع من أشعار زكى مبارك وثلاث قطع من أشعار على الجارم ، فحفظوا شعرك وصعُب عليهم حفظ شعر الجارم

فقلت : هذا عجيب ، مع أن شعر الجارم لا بأس به !

وأنا موقن بأن الطلبة والأساتذة يسخرون منا ، ولكن ما الذى يمنع من أن نستفيد من فساد المجتمع ؟

* * *

والتفتيش سيكون قنطرة لعضوية المجمع اللغوى . ولكنه لن يكون كذلك إلا إذا عرفت كيف أستفيد . وأنا قد عرفت ، ولله الحمد . وهل من الصعب أن أجلس فى مكتب تفتيش اللغة العربية ثم أنقد تقارير المدرسين ؟ جاءنى يوماً تقرير من الأستاذ الأول فى مدرسة أسيوط الثانوية ، فأخذت التقرير إلى البيت ، وكتبت تقريراً بما فى التقرير من أغلاط لغوية ، ورجعت في اليوم التالى فحدثت جميع الموظفين بهذه الفضيحة ، فلم ينقض اليوم إلا وأنا عمدة المحققين ، وجهبذ المدققين

وكنت نسيت الموضوع الأصيل الذى كُتب من أجله ذلك التقرير ولكن لم يسألنى أحد ماذا فيه

وربما كانت مدرسة أسيوط الثانوية لا تزال تنتظر رأى الوزارة فى موضوع ذلك التقرير إلى اليوم ، والصبر طيِّب !

وكان لى أسلوب فى مضايقة المدرسين ، أسلوب بديع ؛ ولكنى لم أبتكره مع الأسف ، وإنما ابتكره شيوخٌ لنا من قبل . كنت آخذ كراريس التلاميذ إلى البيت ، وأدرس موضوعاً واحداً من كل كراس . أدرسه بدقة وأمامى المعاجم والمراجع لأبين ما فات المدرسين من أغلاط ، وأنسى أن المدرس لا يستطيع أن يستشير المعاجم فى كل كراس . ولكن ماذا يهمني ؟ المهم أن يشيع فى بقاع الأرض أنى محقق مدقق لأكون خليفة العوامرى بك على الأقل ، وذلك مغنم ليس بالقليل ، وهو بفضل هذه الحذلقة مضمون

ومن عادتى أن أدعو المدرسين الذين أفتش عليهم « للتفضل » بانتظارى فى المدرسة بعد خروج التلاميذ ، وأكون تغديت وأخذت نصيبى من القيلولة ، ويكون هم قد اكتفوا بما تيسر من الشطائر الجافة ، وقضوا الوقت فى التحضير والتصحيح ، وتكون النتيجة أن أقدم عليهم بعافية ، وأن يتلقونى وقد نال منهم الاعياء ، فأُرغى وأزبد ماشاء التعسف ، ويصدهم التعب عن درء الشر بالشر فيسكتون

* * *

قلت إنى أفضل المدارس الأهلية والأجنبية على المدارس الأميرية لأستطيع قطع الأرزاق حين أشاء . ثم تبينت وأنا راغم أن الأرزاق بيد الله ، وأنى لا أملك إيذاء مخلوق ، وأن اللؤم الذى تنطوى عليه نفسى لن يضر أحداً غيرى ، فقد ذهبت للتفتيش على المدرسة المرقسية بالأسكندرية . ذهبت إليها فى يوم مطير يحبس موظفى البنوك فى البيوت . وكان أهم ماصنعته فى ذلك اليوم أن أعدّ الغائبين ، ثم كتبت إلى الوزارة تقريراً مزعجاً أقول فيه إن المواظبة منعدمة فى المدرسة المرقسية ، وإن ستة أسباع التلاميذ كانوا غائبين يوم حضرت للتفتيش

وما كان الغائبون (ستة أسباع) ولكني رأيتها كلمة لم يكتبها أحد من قبل . وما فضل التجديد إن لم أبتكر بعض التعابير ؟

وقد أرسلت الوزارة تستجوب المدرسة ، فكتبت إدارة المدرسة إلى الوزارة أن اليوم الذى غاب فيه التلاميذ كان يوماً مطيراً عاصفاً ، وأن الزوابع هدمت بعض مبانى الشاطئ وأغرقت ثلاث سفائن ، وأن حضرة المفتش يعرف ذلك ويذكر أنه تزحلق ثلاث مرات فى الطريق ، وأن منظره فى ذلك اليوم كان يخلق الإشفاق فى أقسى القلوب

ودعاني وزير المعارف يسألنى ، فقلت يا معالى الوزير : أنت تعلمت فى فرنسا وزرت جميع الممالك الأوربية . فهل رأيتهم يرون المطر من الأعذار ؟ والأسكندرية كلها مرصوفة الشوارع ، ومن الواجب أن نشدد فى المواظبة لنخلق فى الجو المدرسى طوائف جديدة من التقاليد

ويظهر أن الوزير استراح إلى تذكيره بأيام الشباب فى فرنسا

واستظرف كلمة التقاليد فقال : أحسنت أحسنت ! ويشهد الله أني لم أكن يومئذ من المحسنين

أما التفتيش فى المدارس الأجنبية فلى فيه نوادر تضحك الثوا كل ، وربما جاءت مناسبة لسردها فى هذه الذكرات

والحاصل – كما يقول أهل بغداد وكما كان يقول الأزهريون – الحاصل أننى أريد التلطف مع سعادة العشماوى بك لأبقى مفتشاً وأنتقم من المدرسين الذين يهمّون بنقد مؤلفاتى وأشعارى فى الجرائد والمجلات

وهو سيسأل عن ليلى ، فلا بأس من أن يرى ليلى . وما أظنه سيخطفها من يدى ، ولكن مرض الغيرة تعاودنى أعراضه من حين إلى حين

***

وشاع فى أروقة وزارة المعارف أن العشماوى بك حضر قبل الموعد ، فمضيت للبحث عنه فى فنادق بغداد فعرفت أنه لم يحضر . فتمنيت لو أسمع أنه عدل نهائياً عن الحضور مع شدة الشوق إليه

وفى مساء اليوم التالى سألت فعرفت أنه فى المفوضية المصرية ، فذهبت للسلام عليه فاستقبلني بالعناق ، فعرفت أن الشر الذى ساورنى كان من أوهام الظنون

وبعد لحظة دعانى إلى حديث خاص فقلت : لعله خير . فقال: كيف حال ليلى ؟ لا تكتم عنى شيئاً ، فليس لك فى وزارة المعارف صديق أخلص منى . إنهم يشيعون فى مصر وفي العراق أنك لا تخدم ليلى بإخلاص ، فهل هذا صحيح ؟

فقلت : إنك تعلم يا سعادة الأستاذ أنى لا أملك غير ذخيرة الإخلاص . وقد بذلت فى سبيل ليلى ما بذلت ، وعند الله جزائي

فقال : هذه مسألة هينة ، وسيحكم فيها المؤتمر الطبى

فقلت : أى مؤتمر يا مولاى ؟

فقال : المؤتمر الذى نظمته الجمعية الطبية المصرية لمعاونتك على مداواة ليلى المريضة فى العراق

فقلت : وإذا كانت ليلى لا تريد أن ترى أحداً غيرى من الأطباء ؟

فقال : ليس الأمر إلى ليلى ولا إليك ، فقد تكونان عاشقين يطيب لكما الاستشهاد فى الحب . ويجب أن تفهم أن الحكومة لا تقبل أن يتحول الجد إلى مزاح

وارتفع صوت العشماوى بك ، فأقبل عزام بك يسأل عما بيننا من خلاف . فلخصت القضية فقال : وما الذى يخيفك من أعضاء المؤتمر الطبى ؟

فقصصت عليهما ما سمعت فى فندق استوريا . فثار العشماوى بك وقال : الحق معك يا دكتور زكى . ولكن ماذا أقول حين أرجع إلى مصر وليس معى وثيقة رسمية عن صحة ليلى ؟

وهنا ظهرت البراعة السياسية لوزير مصر المفوض فى العراق فقال : تحضر ليلى حفلة الافتتاح وهى متنكرة فى زى امرأة حضرية عرفت أزياء باريس ، ويسلم عليها سعادة العشماوى بك نائباً عن وزارة المعارف ، وفضيلة الشيخ السكندرى نائباً عن المجمع اللغوى ، وسعادة الدكتور على باشا إبراهيم نائباً عن الجامعة المصرية ، وبذلك ينفضّ الإشكال

***

ومررت على فندق مود فرأيت جماعة من الأطباء يتحدثون عن آمالهم فى مشاهدة ليلى فقلت : موتوا بغيظكم إن كنتم صادقين

وتلفتّ فرأيت بهو الفندق يموج بكرام العراقيين الذين جاءوا للتسليم على العشماوى بك ومن بينهم أصحاب السعادة طه الراوى وساطع الحصرى وتحسين ابراهيم وابراهيم حلمى العمر فحدثتهم بما وقع بينى وبين سعادة العشماوى بك فقالوا : الرأى رأيك فى هذه القضية ، فأنت وحدك طبيب ليلى المريضة فى العراق ، ونحن لا نشير أبداً بتعريض ليلى لأعين الناس ، ولو كانوا أطباء

إلى هنا سارت الخطوات بسلام

فما الذى سيجدّ فى أيام المؤتمر ؟ ما الذى سيجدّ ؟

لُطفك اللهم ورحمتك ، فان قلبى يحدثنى بأنْ ستقع غرائب يشيب لها مَفرِق الوليد . قلبى يحدثنى بأنى مقبل على أيام تموج فيها الفتن والمعاطب ، وما كان قلبى من الكاذبين

بغداد ، بغداد !

خذى زمامى ، فأنا فى يمناك طيّعٌ ذَلول . وليكن مايكون . فانى واثق بأن الله لن يفضح الشاعر المخلص الأمين

« للحديث شجون » زكى مبارك

فى معرض الآراء

للأستاذ أديب عباسى

أعتقد أنى أنصف الأستاذ العقاد وأختار اختياراً عادلاً إذ أقتبس الفقرات التالية من مناقشته لردى السابق ، فأحاول مناقشتها فيما يأتى من هذه الكلمة . قال الأستاذ :

« ومن طرائف المناقشات أن تأتي هذه المناقشة من الأستاذ أديب عباسى تعقيباً لما أسلفنا فى مقال الحدود الحاسمة الذى قلنا فيه إننا قد نستغنى فى الحدود والتعريفات عن الاحصاء والاستقصاء لما هو معلوم غنى عن البيان من ضرورة الاستثناء فى كل قاعدة . فاذا قال الانسان إن النهار مضيء وإن الليل مظلم فليس من الواجب بعد ذلك أن يحصى أيام الغيم ولا الأغوار المحجوبة التى تظلم بالليل والنهار »

« فقد حدثت كشوف جغرافية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ولكنها كلها لا تخرج عن التتمات التى تأتى بعد الفراغ من الأسس والأركان واستقرار البناء على نظامه الأخير »

« فلما انتهت كشوف القرن السابع عشر انتهى الخلاف فى الأشكال والظواهر وانفتح المجال للبحث فى الحقائق والبواطن أو لمعرفة الانسان نفساً بعد أن عرفناه تركيباً ووضعناه فى موضعه من عالم الأحياء الظاهرين »

« ولقد ذكر الأستاذ « أديب » كشوف الكواكب وكشوف الذرة وأمواج الأثير ... التى حدثت بعد القرن السابع عشر ولا تزال تحدث فى هذه الأيام »

« ولكن ما شأن هذه الكشوف وما نحن فيه ؟ وأين هى من الحاسة الاجتماعية التى تعلق بها القصص وأبطال الرواية وأبطال السياحات ... ؟ »

***

قلت أخشى أن يجرّنا الخوف من « الحدود الحاسمة » إلى الترخّص فى الدقة العلمية والضبط الفكرى وهما السمتان اللتان تتّسم بهما اليوم جميع مباحث العلم وكثيرٌ من مباحث الأدب والفلسفة أيضاً . نحن لا ننكر أنه يجب أن يُستغنى فى الحدود والتعريفات عن الاحصاء والاستقصاء — كما رغب الأستاذ العقاد — فلا نعير الاستثناء بالاً كبيراً ، ولكن على شرط ألا يبلغ هذا الاستثناء الحدّ الذى ينقلب التعريف عنده أو الحدّ من الضدّ إلى الضد

فما قول الأستاذ إذا صارحناه أن هذه الاكتشافات الجغرافية التى جاءت « بعد الفراغ من الأسس والأركان واستقرار البناء على نظامه الأخير تكاد — فى رأينا — تفوق فى إثارة الحسّ الاجتماعى الذى ينوّه به الأستاذ تنويهاً قوياً اكتشافاتِ القرن السابع عشر فى الأمريكتين وأفريقيا وآسيا جميعاً ؟

ماذا كانت حوافز الارتياد والاكتشاف الصحيحة فى القرن السابع عشر ، ثم ماذا كانت النتائج القريبة والبعيدة لذلك ؟ قبل أن نحاول الاجابة عن هذا السؤال نقرر أن الكشوف الجغرافية يجب ألاّ تقدَّر تقديراً هندسياً ولا تحسب بكذا ألوف وملايين الأكيال والأميال إذا أردنا تقدير الأثر النفسى أو الحسّ الاجتماعى لها فى نفوس الروّاد والقاعدين وراءهم من شعوبهم أو غير شعوبهم

هذا كولب أعظم المكتشفين ، أى إحساس اجتماعى وأية معانٍ إنسانية كانت تحفزه إلى الكشف والارتياد ؟ أنقول : لقد جهز كولب مراكبه وأعد عدته وغامر مغامرته استجابة لما كان يجيش فى نفسه ونفوس قومه من حب الاطلاع على الشعوب المجهولة والأقطار المأهولة الضائعة وراء الاطلانطيك ، فيستطيع أن يصحح للناس آراءهم الخاطئة فى هاته الشعوب والأقطار ؟ أم الأصح أن نقول : إن كولب غامر مغامرته ليصل إلى الهند التى لم تكن مجهولة إذ ذاك ، ويفتح طريقاً للاتجار وتبادل السلع معها ، غير الطريق القديم ، فقاده وهمه إلى أرض جديدة وشعوب جديدة غير أرض الهند وغير شعوبها ؟ فأية حاسة اجتماعية فى هذا ، وأى معنى من معانى التواصل الانسانى الصحيح ؟

ثم هذه الشعوب التى كانت وراء كولب ؟ ألم يخفَ كولب ويوشك أن يدب اليأس المرير إلى صدره فى الانتقال من عاصمة

إلى عاصمة من عواصم أوربا يستجدى مناصرة الأمراء والملوك قبل أن تمن عليه إزابيلا بما منّت ومكّنته من المضىّ فى مغامرته؟ قابل هذا بما يلاقيه الرائد اليوم من العطف والتشجيع المادى والأدبى من جميع طبقات الشعب ، فتدرك أى فرق ثمة بين العصرين !

هذا ولينظر الأستاذ العقاد ما أصاب كولمب بعدها من حمق النفلة ، ولؤم المنافسة ، ليدرك أىّ المعانى الانسانية وأى الحواس الاجتماعية ، وأى الشكر لهـذا الفتح العظيم قد أثار كولمب فى صدور قومه ! !

قد يقول الأستاذ العقاد : ليس من الضرورى أن تكون الغاية ما ذكرنا من حب التواصل الإنسانى والاستجابة لدواعى الغريزة الاجتماعية ، ويكفى أن تجىء النتيجة كذلك فى هـذه المغامرات والكشوف . أحسب أن الأستاذ يعفينى هنا من الإجابة الطويلة . فهو لا ريب يعلم علم اليقين النتائج المحزنة التى أفضى إليها اكتشاف كولمب ودى جاما ومجلان لأميركا وغيرها من الأقطار المجهولة ، ويعلم أن الذهب والفضة والقتل والتحريق والتدمير والاسترقاق والاستعمار كانت النتـائج الأولى لذلك الاكتشاف ؛ فأية حاسة اجتماعية هنا وأى تواصل صحيح بين الناس ؟ !

قابل بين أغراض الاكتشاف وحوافزه ونتائجه هـذه فى القرن السابع عشر ، وبينها فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، فترى كيف يجب ألا نقدر الاكتشافات الجغرافية ، من حيث الحس الاجتماعى ، تقديراً هندسياً .

فأنا أرى أن ارتياد القطبين والمعيشة بين الاسكيمو ودراستهم درس العطف والفهم الصحيح لقيمة الحياة البشرية ، وأرى أن اختراق رمال الربع الخالى والاطلاع على نماذج الحياة الأولى فى البادية العربية أجل وأسمى فى الأغراض والنتائج الانسانية من كشف الأميركتين وأفريقيا والهند جميعاً . وأرى أن الفتاة التى تقضى السنين فى إحدى جزر الباسفيك تدرس الحياة الجنسية لأهل تلك الجزيرة وتكتب كتاباً رائعاً تقول فيه : إن هذا الشعب الذي لا يزال على الفطرة أكثر إنسانية وأعظم مدنية فى ممارسة الغريزة الجنسية من أرق الشعوب الأوربية . هذه الفتاة فى رأيى أعظم فى مجال إثارة الإحساس الاجتماعى والتقدير الصحيح لمركز الرجل المتمدن من جميع الروّاد القدماء

هذا ويجب ألا يفوتنا أن عصرنا وحده هو عصر الارتياد الجغرافى الزمانى ؛ فالباحث الأثرى اليوم بمعوله ومجرفته فى رمال مصر وربى فلسطين وصحراء العراق يفعل ما لم يفعله ملاح أو رائد من الروّاد القدماء

نضيف إلى هذا أن دارون عاد من طوافه بقارات العالم بأعظم أداة من أدوات إزالة الجهل والغرور والاعتقاد بالكيان الأوحد المنعزل ، حينما سوى بين الإنسان والإنسان ، ووصل بين الإنسان والحيوان ، ولم يكن هذا طبعاً فى القرن السابع عشر

***

وأخيراً كشوف الكواكب وكشوف الذرة والأثير وسؤال الأستاذ : « ولكن ما شأن هذه الكواكب وما نحن فيه ؟ وأين هى من الحاسة الاجتماعية التى تعلق بها القصص وأبطال الرواية وأبطال السياحات ؟ »

وهل قلت قط إن الكواكب أو الذرة أو الأثير تثير حسًّا اجتماعيًّا فى النفوس ؟ هل قلتها صراحة أو ضمناً ؟ إننى أتهم نفسى وأعود إلى مقالى أقرأه حرفاً حرفاً فلا أجد شيئاً من ذلك وإنما أجد هناك أننى قلت : « ليست الكشوف الظاهرة قاصرة على الضرب فى مجاهل الأرض واكتشاف أرجائها المجهولة ، وإنما هنا لأنواع وضروب أخرى من الكشف الظاهرى لا تقل روعة وشدهاً للخيال وصرفاً للإنسان من داخله إلى خارجه عن أعظم المغامرات الجغرافية (١) » . وقد سقت ذلك فى معرض التدليل على أن بواعث الانصراف من الداخل إلى الخارج لا تكفى لتعليل

---

(١) هنا نجل الأستاذ العقاد أن يذهب به السهو بحيث يقدر أن الغربيين (وهم المعنيون بهذا الحديث) مثل معظم الشرقيين فى ضئولة الثقافة وعدم الاحاطة بمختلف العلوم والمعارف فلا يعنون بكشف علمى يكشف . ويكفى أن يلاحظ الأستاذ رواج المجلات العلمية فى أوروبا من شهرية وأسبوعية ثم كيف تذاع أخبار الاكتشاف الهامة على أسلاك البرق فإن لهذا دلالته التى لا تنكر

ظاهرة الاختصاص وبروز الفروق فى الأدب . فهذا عصرنا ملىء ببواعث الانصراف من الداخل إلى الخارج كما كان العصر السابع عشر ، ولكن علم النفس مع ذلك يتقدم باطراد ، ولكن الرواية النفيسة التحليلية تحتل المكانة الأولى فى مكتبة الأدب الحديث

وأحسب أن من الخير أن أعيد هنا ما كنت ذكرته فى مقالى السابق تعليلا لظهور الدراسات الباطنة وما تلاها من تأسيس علم النفس التحليلى الذى تهداه أدباء الأجيال الحديثة فى كتابة القصة النفيسة أو التحليلية فقد قلت هناك :

« إن هذه الدراسات الباطنة للنفس كانت مظهراً عادياً يتساوق مع المظهر العام لنشاط الفكر البشرى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فلما كشفت الكشوف الفلكية والطبيعية والكيميائية والفزيولوجية ، كشفت كذلك الكشوف فى مجاهل النفس وخوافى الحس . ثمذ اصطنعت الطريقة العلمية فى البحث وأخذ العلماء يجرون على أسلوب المشاهدة والفحص والاختبار اتخذت دراسة النفس خطة منظمة مجدية ، فظهر أولا علم النفس العام وتلاه علم النفس التحليلى ؛ ولكنا نعود ونقول إن هذه الدراسة لم يكن الحافز فيها والباعث عليها انتهاء الكشوف الظاهرة ، وإنما كان الحافز عليها اتساع هذه الكشوف وسيرها على خطة علمية منظمة مُجدية شملت الجماد والحيوان والانسان جميعاً ... الخ »

***

وأخيراً نحن نسلم للأستاذ العقاد بنظريته جملة إذا فسر لنا نشأة علم النفس العام والتحليلى بعده معزولين عن فروع المعرفة الأخرى فى القرن السابع عشر وبعده ، أما إذا اضطر أن يعيد علم النفس فى نشأته وتقدمه إلى حظيرة العلوم الأخرى من حيث الصلة والزمن ، فأحسب أن نظريته لا تسلم له مهما حاول أن يستفيد من « الحس الاجتماعى » و « الدراسة الباطنية » و « الدراسة الظاهرية »

وفى الختام آمل ألا أكون أثرت فى صدر الأستاذ الكبير بهذا الكلام غير الشعور الذى يثيره طلب الحق ونشدان الصدق

أديب عباسى

من برجنا العاجى

مضت أعوام عديدة على ذلك اليوم الذى شعرت فيه بغتة بدوار الصعود الفكرى ، على أثر مطالعات كثيرة وتأملات عميقة فى عزلة طويلة . وبدا ذلك على وجهى فسمعت طبيباً يسدى إلى النصيحة أن أترك كل شىء وأذهب من فورى إلى البحر ، أستنشق الهواء وأغمض عينى بغير تفكير . لقد كنت أحسب التأمل كل شىء فى حياة الأديب ؛ وكنت أعتقد أن حياتى ستمضى قراءة كلها وتفكيراً على ذلك النحو وبذلك القدار ، فكنت أستهول العاقبة وأتساءل عن النتيجة

ومرت الأيام فإذا بى أنصرف بعض الشىء عن المطالعة والتأمل . وإذا الأعوام تنفق فى شىء آخر لم يكن فى الحساب: هو البحث عن الجسم الذى تحل فيه تلك الأفكار الهائمة كالأرواح . هنا وضحت لعينى المعضلة . وفهمت أن التفكير فى ذاته يسير ، ولكن العسير هو أن أقيم « الفكرة » على قدميها كائناً نابضاً يتحرك ويسير . إن القليل من عمر الفنان هو الذى يبذل فى التفكير الصرف ، والكثير منه هو الذى يذهب فى سبيل صنع ذلك اللحم والدم الذى ينبغى أن تسكنه الأفكار

إن « الطبيعة » أستاذنا الأعظم نحن الأدباء والفنانين ، تفكر هى أيضاً ، غير أنها لا تفكر « كلاماً » فهى تجهل « اللغات الحية » ، ولكنها تفكر « مخلوقات حية »

« تفكير » الطبيعة «أسلوب» . وإن طريقتها الواحدة فى تركيب الكائنات جميعها : من عالم الجراثيم إلى عالم الأجرام لهى وحدها التى نقرأ منها تفكيرها . « الخلاق » فى الفن أيضاً لن يستحق هذا الاسم حتى يصبح التفكير عنده مماثلاً لتفكير الطبيعة ، فيملك تلك القدرة السحرية أو الهبة السماوية التى بها يخرج أفكاره من رأسه تجرى لابسة أثواب الحياة

كذلك خالقو الشعوب وبناة الحضارات ، كل عبقريتهم أنهم لا يفكرون « كلاماً » ، وأن الأفكار والتأملات عندهم هم أيضاً لا تكتب كما هى ولا تقال ، إنما ترى قائمة متحركة فى صورة أمة ناهضة أو على شكل ثورة متفجرة

ذلك معنى «الخلق» . وتلك هى «الأفكار» فى لغة كل خلاق

توفيق الحكيم

التاريخ فى سير أبطاله

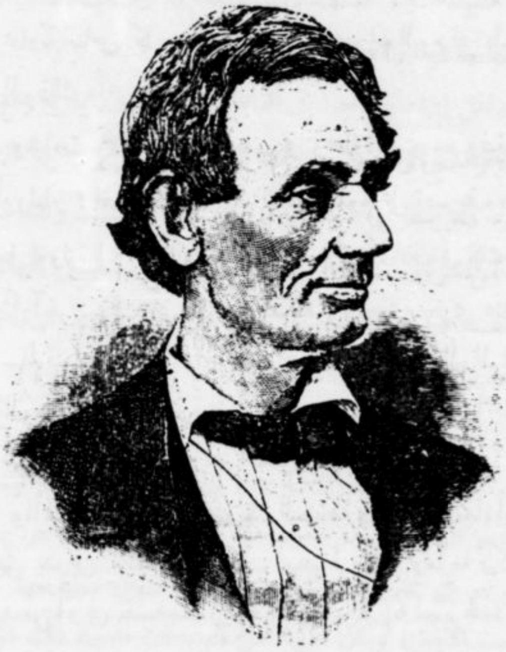
ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٣ —

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم



ما كانت الفاقة لتعوق ابن الأحراج عما كانت تتوق نفسه إليه . وهيهات أن تركن النفس الكبيرة إلى دعة أو ترضى بمسكنة . ها هو ذا فتى الغابة يهدف للثامنة عشرة ، لا يذكر أنه منذ قوى على حمل الفأس كان كلا على أحد . بنى نفسه كأحسن ما تبنى النفوس ، غذاء جسده من قوة ساعده ، وغذاء روحه من توقد ذهنه ودأبه وجلده وبعد همته

كان ابراهام عصامياً فى أوسع وأدق معنى لتلك الكلمة ؛ عال نفسه وربى نفسه وعلم نفسه . وكان على استغنائه عن الناس يخفض جناحه للبعداء والأقربين . ولله ما أجمل تلك النفس فى تواضعها ودمائتها ، وما أجمل ذلك التواضع من فتى لا يرى لامرىء عليه يدا ؛ وهو لولا كرم عنصره ونقاء جوهره جدير أن يدل بذلك وأن يزهى ؛ وما الإنسان ؟ أوليس هو يطغى أن رآه استغنى ؟

استغنى ابراهام بجده وقناعته فى مطالب معيشته عن الناس ، ولكنه أحسن معاشرة الناس وأنسوا منه لين الجانب وعذوبة الروح وهدوء الطبع وشدة الحياء . على أن ما زادهم محبة له وإقبالاً عليه حلاوة حديثه وحصافة رأيه وأصالته ، وكان قد أحب منذ أن أعجب بذلك المحامى المدل أن يتحدث إلى الناس ما واتته فرصة إلى ذلك ، وهو بطبعه بارع السياق قوى الحجة ممتاز كلماته — وإن لم يقصد — بقرب المأخذ وبعد المرمي ، وهى صفة سيدرك فائدتها فى مستقبل أيامه

ساقت إليه الأقدار وهو فى التاسعة عشرة عملاً خرج به من الغابة أياماً إلى دنيا الحضارة ! فقد استأجره أحد ذوى الثراء فى تلك الجهة ليذهب ببضاعة في قارب إلى مدينة نيوأورليانز ؛ وقبل الفتى وإن قلبه ليخفق ، وإن نفسه لتتنازعها عوامل الخوف والأمل والرضاء وحب الاستطلاع . وما له لا يخاف وهو لم يقم بمثل تلك الرحلة الطويلة من قبل ، ولا عهد له بالمدن وعيشتها وأهلها ؟ ولكنه قبل وتأهب . وما كان حب المال هو الذى حفزه إلى القبول ولكنها كانت رغبته الشديدة فى رؤية الدنيا ! وهو يومئذ تواق إلى المعرفة ، لهج برؤية الحياة فى بيئة غير الغابة

وخرج معه فتى من أهل الجهة ليعاونه ، واتخذا سبيلهما فى نهر الأهايو ومنه إلى ذلك النهر العظيم : نهر المسيسبى ، حتى إذا أتيا مدينة نيوأورليانز بعد أن قطعا ألفاً وثمانمائة ميل ، رأيا خلالها على الضفاف حيوانات وأشجاراً وأناساً غير ما ألفا فى إقليمهما . وكم كانا معجبين بما رأيا وما سمعا ممن أويا إليهم من سكان البلدان التى نزلا عندها ليالى رحلتهم . ولن ينسى الفتى ما رأى من بطولة أيب حين هاجمهما ذات ليلة وهما فى نومها سبعة من الزنوج ، فقد رآه يعمد — وقد أفاق على همسهم — إلى مجراف فيحاربهم فى بسالة حتى يضطرهم إلى الفرار وهم منه خائفون

دخل إبراهام وصاحبه مدينة نيوأورليانز ، ولك أن تتصور مبلغ ما بعثته تلك الزيارة من أثر في نفسه ، وقد جاء وهو يافع من الغابة فرأى مدينة كبيرة لأول مرة ! وأية مدينة هى ؟ لقد رآها تموج بأنماط من الناس وأخلاط من العبيد . ما هؤلاء السادة الذين تغدو وتروح بهم المركبات الفخمة ؟ وما هؤلاء النسوة اللائى يخطرن فى دلال ويبرزن فى عطاف الثراء والنعمة ؟

ما هؤلاء وما هؤلاء ممن يرى أمام ناظريه ... ؟ وما هذه الدنيا التى يضطربون فيها وما حياتهم وما مبلغ بعدها من حياة الغابة ... ؟ ثم ما هؤلاء العبيد ... ؟ أجل ما هؤلاء العبيد وما حظهم من تلك الحياة الفوارة بالقوة والجاه ؟ أهؤلاء هم الذين قرأ عنهم وسمع من أخبارهم مالم يفهم على وجه اليقين ؟ نعم هؤلاء هم العبيد ... وهو محررهم ومحطم أغلالهم فى غد !

عاد إبراهام بعد أن أدى مهمته على خير وجه ، وقد قضى فى رحلته هذه ثلاثة أشهر بعيداً عن أنديانا ، ولكن ما تركته تلك الأشهر الثلاثة فى نفسه من الأثر يجعلها كما لو كانت ثلاث سنين ، فقد أحست نفسه الفرق بين المدنية والهمجية إحساساً قويًّا . إنه يتساءل بينه وبين نفسه : أى الحياتين أقرب إلى المدنية حقًّا !

عاد إلى موطنه ، ولكن أى موطن وهو ابن الأحراج ربيب الترحال والأسفار ؟ لقد شد أبوه الرحال من جديد على رأس الأسرة إلى مقاطعة جديدة هى الينويس ، تحفزه نفس الدوافع التى حركته من كنتوكى إلى أنديانا ؛ وكان إبراهام هذه المرة عضد أبيه ، فهو يومئذ فى الحادية والعشرين . ولما حطوا رحالهم بعد أسبوعين قام كوخهم الجديد على ما شقت يده الفتية من أشجار . لقد صغرت أمام قوته ومهارته قوة أبيه ومهارته ، وسرعان ما أصبح أيب حديث الجيران فى البقعة الجديدة

عمد إلى الزراعة فخرث قطعة من الأرض وبذر فيها القمح وسورها بسور من قطع الخشب سوتها فأسه ، وكان يعاونه فى ذلك فتى من ذوى قرباه ؛ وترك أيب القمح ينمو وتناول فأسه وراح يعمل فى الغابة أجيراً وقد ذاع صيته وتقدمه أينما سار ، وهو يحس اليوم أن دخله من فأسه يزيد هنا عما كان يحصل عليه فى أنديانا . ولكن أى دخل هذا إذا هو قيس إلى ما عسى أن يكسبه رجل غيره فى بيئة أخرى ؟ . لقد استأجره أحد الأثرياء ليقطع له خشباً يسور به مزرعته ، فرضى أيب أن يقدم لذلك الرجل أربعمائة قطعة من الخشب نظير كل « ياردة » من القماش الساذج الذى طلبه أيب ليتخذ منه سروالاً !

وتجلت للناس فتوته وشهامته فى عدة مواقف ، فهو لا يفتأ يمد يده إلى البائس والملهوف فى كرم وإخلاص ، وهو لا ينى يضرب بفأسه فى نشاط وإقبال ، ولقد تحداه ذات يوم رجل ذو قوة وبأس أن يصارعه ، فنازله على كره منه ، إذ كان ينفر من القسوة والعنف ، وما لبث أن غلبه على أعين الناس فازدادوا له إكباراً

وما انصرف ابراهام يوماً عن المطالعة على الرغم من شواغله ، فأوقات فراغه للقراءة لا لغيرها مما يقضى فيه الفراغ من ملاذ الحياة ومباهجها . وأى شيء هو أحب إليه من القراءة والدراسة ؟ يا عجباً ! هل كان يدرى أن القدر يمده لأمر خطير سوف ينقل به تاريخ بلاده من صفحة إلى صفحة ؟ ! كانت قراءته يومئذ فى القانون ، فقد ألقت المصادفات فى يده كتاباً يدور البحث فيه على قوانين المقاطعة الجديدة . على أنه قد قرأ قبل ذلك كتاباً غير هذا فى القانون ، فهو جد مشغوف بالمحاماة والخطابة ، وكأنه كان يهيئ نفسه لهذه المهنة التى هام بها وجدانه ، وهو بفطرته ميال إلى محادثة الناس كما سلف أن ذكرت ، وإنه اليوم ليخطبهم كلما دعا إلى ذلك داع

وشاءت الأقدار أن يذهب فى رحلة أخرى مع رفيقين إلى نيوأورليانز ؛ فقد اختاره أحد التجار ليقوم على تصريف بضاعته وجعل له ولزميليه أجراً فى نظير ذلك . ولقد صادف فى تلك الرحلة حادثاً آخر : ذلك أن القارب اصطدم بحاجز صخري عند بلدة نيو سالم فتعلق وانحدر وأوشكت حمولته أن تهوى إلى الماء لولا ما كان من مهارة أيب وقوة ساعديه ، تلك المهارة التى أعجب بها نفر من أهل تلك البلدة وقد تجمعوا يشهدون الحادث

ولما فرغ ابراهام من أمر تلك البضاعة ولى وجهه تجاه أسواق الرقيق يدرس حالها من كثب وهو لم ينس يوماً ما تركه حال العبيد من أثر فى نفسه منذ زيارته الأولى . ألا إنه ليهتم لهذا الأمر أكبر اهتمام ويقلبه فى خاطره على كافة وجوهه ، كل ذلك فى عمق وتمحيص فتلك خلة من أبرز خلاله ؛ فهل كان يعلم ابن الغابة أنه سيؤدى للعالم من عنده رسالة جديدة ويخطو بالانسانية خطوات واسعة نحو النور بتحريره هؤلاء العبيد وفك أصفادهم ؟ كلا ! ما كان يدور بخلده يومئذ شيء من هذا

رأى وياهول ما رأى ! رأى فى تلك الأسواق جماعات من السود ذكوراً وإناثاً جيء بهم قسراً من مواطنهم مقرنين فى الأصفاد يباعون كما تباع الماشية ، يلهب التجار جلودهم بالسياط ويسوقونهم كما تساق الأنعام كأنهم لا يمتون إلى البشرية بصلة . وما كانت نفسه الكبيرة ، وما كان قلبه الرحيم ليمر بتلك المناظر كما يمر غيره من الناس ، كلا بل ستبقى مسألة العبيد فى أعماق نفسه حتى يحين الفرصة

أخذت عيناه فيما رأى فتاة جميلة المحيا مرهفة القوام يعرضها الباعة على النظار وهى نصف عارية كما يعرضون فرساً كريمة، وقد افتتن بقسماتها وقوامها الشاهدون؛ وإبراهام تتحرك نفسه من أعماقها ويتألم ماوسمه الألم. وصفه أحد زميليه فقال: «رأى لنكولن ذلك وإن قلبه ليدمى. لم تتحرك شفتاه وظل صامتاً، ومشت فى وجهه كدرة الهم؛ وأستطيع أن أقول وأنا به عليم، أنه فى تلك الرحلة قد كون لنفسه رأيه فى مسألة العبيد»

ومما روى عنه فى تلك الرحلة أن عرافة لقيته فقالت وهو يمازحها: «يافتى سوف تكون رئيساً للولايات ويومئذ سيتحرر جميع العبيد» وما كانت كلمات العرافة إلا كلمات القدر تجرى على لسانها فى نبوءة عجيبة!

وقفل إبراهام راجعاً إلى الغابة وقد ازدادت تجاربه ومعرفته بالحياة والناس وهو فى سن الدراسة والتطلع إلى معرفة النفس البشرية وما تنطوى عليه من معانى الخير والشر. ولقد سلمت نفسه من شرور المدنية، فلم تعلق بها أوشاب! وهل كان لنفس مثل نفسه حصنها الشدة وعصمتها الحياة المحصورة فى الغابة، أن تزل أو ترق إليها غواية؟

لم يقم إبراهام طويلا فى كوخ أبيه؛ فما لبث أن خرج فى طلب العيش. وقد أدرك أنه بعد أن تجاوز الحادية والعشرين يستطيع أن يغادر أباه ليقوم على شؤونه بنفسه. خرج من الكوخ إلى غير عودة إليه! فترمى به النوى مطارحها كلما تصرمت الأيام، وكان أول عمل قام به أن فتح له ذلك الرجل الذى استأجره فى رحلته الثانية إلى أورليانز — حانوتاً فى نيوسالم وأقامه فيه ليبيع نائباً عنه وذلك لما خبر من مهارته وأمانته. ولقد قطع أيب المسافة إلى نيوسالم على قدميه؛ وأخذ يبيع فى الحانوت فى خفة ولباقة كأنه مارس التجارة من قبل. وأتاح له ذلك العمل فرصة لقاء الناس، ولقد رأوا من خلاله ما امتلك به قلوبهم؛ رأوا منه لين الجانب وسعة الصدر وحلاوة اللسان وسرعة اليد وحسن الملاطفة والممازحة، ورأوا منه فضلا عن ذلك جميعاً الأمانة كأعظم ما تكون الأمانة. وأتاح له ذلك العمل أيضاً أوقاتاً يقضيها فى المطالعة فكان يتمدد على ظهر صندوق ويقرأ حتى يقصده مشتر فيبيعه ما يطلب ثم يعود إلى كتابه

ولشد ما أعجب الناس بإبراهام وخلاله وصار يعرف بينهم باسم أيب الأمين، وصارت تلك الصفة منذ ذلك اليوم أشهر صفاته وأحبها إليه وإلى الناس. حدث أنه أعطى لامرأة ذات مرة على جهل منه مقداراً من الشاى أقل من حقها، فلما أدرك ذلك سار إليها آخر النهار مسافة طويلة يحمل إليها باقى الشاى؛ وحدث أنه أخذ خطأ بعض دريهمات من رجل فلما عد ماله آخر النهار سأل عنه حتى اهتدى إليه ودفع له دريهماته. وكان الناس يعلمون هذا وغيره فيقبلون عليه معجبين. ولم ينس فى تلك البلدة ما جبلت عليه نفسه من النجدة والمروءة والحدب على الضعفاء. ونمى أمره فى ذلك إلى جماعة من الفتيان فى البلدة كانوا يجعلون العربدة هويتهم والشغب مسلاتهم؛ وكان على رأسهم فتى مفتول الساعدين شديد المراس يقال له أرمسترنج. فجاءوا عصبة إلى ابراهام يسخرون منه ويتحدونه أن ينازل زعيمهم، وهو يعرض عنهم وتأبى عليه نفسه أن يحفل بهم؛ ولكنهم يسرفون فى التحدى والقحة، حتى يخرج إليهم ويسير إلى قائدهم ويشتد الصراع بين الفتيين ويستجمع ابن الغابة قوته ويدفع خصمه فإذا هو ملقى على وجهه متدحرج كأنه كتلة من الخشب! والفتية لا يصدقون أعينهم من الدهش. ولقد نهض صاحبهم فصافحه وسلم له بالغلبة. وشاعت فى الناس بطولة فتى الحانوت وشدة بأسه. وما كان ابراهام غليظاً أو رجل شر، بل لقد كان يسعى أبداً فى القضاء على الإحن والمنازعات، وكم له من يد فى هذا المضمار

عرف الناس ابراهام فوق ذلك باستقامته فما عهد عليه من سوء قط؛ كان لا يقرب الخمر ولا الميسر ولا يعرف الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وأين ذلك الرجس من تلك النفس العصامية الطامحة؟ إن له من نفسه خير عاصم، وله من الكتب ما يملأ به فؤاده؛ وكانت كتبه إلا قليلاً مستعارة؛ يسمع عن كتاب يطلبه فيجده عند أحد الناس فيسعى إليه ويرجوه أن يعيره إياه حتى يقرأه فيعيده إليه؛ ومن ذلك أنه سمع وهو فى الحانوت عن كتاب فى قواعد اللغة الانجليزية، وكان قوى الرغبة فى تعرف قواعد اللغة ليستعين بها على ضبط عبارته، فمشى نحو ستة أميال حتى جاء صاحب الكتاب فأعاره إياه، فأكب عليه حتى أتقن فهمه. ومما قرأه ايب فى تلك الآونة صحيفة كانت تكتب فى السياسة، اشترك فيها وهو مملق، وكان يقبل على قراءتها فى لذة واستمتاع قراءة تعمق ودراسة

ساقه إلى السياسة رجل رأى من فطنته وطلاقة لسانه وصدق إخلاصه وتطلعه إلى المعرفة ما أيقن معه أن سوف يكون له شأن غير شأنه إذ ذاك. وكان إبراهام يحادث الناس كما ذكرنا كلما سمحت بذلك فرصة، وقد ألفوه جذاب الحديث بارع السياق يضرب الأمثال فى غير توقف ويسوق الأدلة فى غير عوج! وإنك لترى من ذلك أنه يستطيع أن يخوض السياسة، فماذا اعتزم؟ عقد النية على أن يتقدم للناس ليختاروه نائباً عنهم في مجلس مقاطعة النيويس! وكان فى تواضعه يرى الخطوة جريئة. على أنه كان يدرك أن اليد قصيرة والجيب خال والجاه منعدم. فعلام يعول ابن الغابة وإلى من يستند؟ ليس أمامه غير نفسه؛ ولكن حسبه تلك النفس

وكان أيب فى الثالثة والعشرين من عمره وإنه ليحق لنا أن نتساءل كيف خلت حياته إلى ذلك اليوم من الحب على قوة روحه ونبل عواطفه وشدة بنيته؟ الحق أنه كان ينفر من النساء ومخالطتهن، وكان شديد الخجل خافض الطرف متلجلج اللسان متبلبل الخاطر كلما وجد نفسه على رغمه فى مجلس يضم فتاة أو فتيات. وكان هذا الحياء الشديد مما عرف من صفاته؛ بيد أنه يحس اليوم كأن شيئاً يختلج بين جنبيه، فلقد زار ذات ليلة ذلك الرجل الذى وجهه إلى السياسة في خانه، وكان صاحب ذلك الخان؛ ورأى هناك ابنته، وكانت حسناء فى الثامنة عشرة، فمال إليها قلبه ولكنه ما لبث أن علم أنها خطيبة فتى غيره؟ وهل كان لمثله أن يطمع فى تلك الفتاة على ما هو فيه من خصاصة وعلى ما كان ينعم به أبوها من ثراء؟

وهو فى شغل اليوم بالسياسة؛ ذهب إلى الخان حيث يجتمع فتية الحى ورجاله، وبعد أن استمع إلى حديثهم برهة وثب إلى مرتقى وقام فيهم خطيباً! ولعلها كانت أولى خطبه إذا أردنا معنى الكلمة. راح يحدثهم عن رغبته فى الإصلاح وعن أفكاره فى السياسة؛ ولما كان يجهل السياسة العليا فقد قصر حديثه على إصلاح الطرق والأنهار وهو جد خبير بها. ومما قاله «إن سياستى قصيرة حلوة كرقصة العجوز، إنى أحبذ مشروع المصرف الأهلى وأحبذ الإصلاح الداخلى والحماية الجمركية. هذه هى ميولى ومبادئي السياسية، فان اخترتمونى فأنا شاكر وإلا فلن يغير ذلك شيئاً من نفسى» وقال فى نداء مطبوع أذاعه فى الناس «ولدت ونشأت فى مدارج متواضعة، وليس لدى ثراء أو أهل ذوو جاه، أو أصدقاء يقدمونني إليكم؛ وقضيتى مبسوطة بين أيدى الناخبين الأحرار، فان اخترت فقد أولونى جميلاً لن أوفيه مهما بذلت فى خدمتهم، وإن أملت عليهم حكمتهم أن يتركونى حيث أنا فانى قد ألفت من مواقف الانخذال ما لا أحس معه لذلك غماً»

تلك هى صراحة لنكولن، وتلك هي بسالته تتجلى فى كلماته كما تجلت فيها بساطته وإخلاصه وسمو تواضعه وعزة نفسه

وكان صاحب الحانوت قد أدى بمسلكه المعوج إلى بيع حانوته إلى تاجر آخر، وترك إبراهام أول الأمر بلا عمل، ولم يكن لديه مال يستعين به حتى على القوت، اللهم إلا ما تسوقه الأقدار إليه من وجوه الرزق. ومنها أنه قاد زورقاً بخارياً ليخرجه من منطقة عسيرة فى مجرى الماء، وكان أجره على ذلك أربعين دولاراً

وساقت إليه الأقدار بعد ذلك عملاً غريباً بالنسبة إليه! ذلك هو التطوع مع فرقة من شبان الجهة لمحاربة الهنود الحمر! وكان كبيرهم —ويعرف باسم الصقر الأسود— قد هاجم البيض يريد أن يسترد أرضاً كان باعها للحكومة؛ وما كان أيب يميل إلى الحرب ولكنه تطوع إذ لم يجد لديه عملاً، ولعل تطوعه هذا وما عساه أن يبديه فى الحرب يشفع له فى الانتخاب ويزيد صيته رفعة ... وعلى ذلك خرج مع المتطوعين على رأس فرقة ولكن الحرب لم تدم طويلا، ولا هي استدعت مقاومة عنيفة. وما عرف عنه أنه مس إنساناً بأذى وهو فى الميدان، بل لقد تجلت مروءته فى حادث نرويه لدلالته على نفس أيب وخلقه: آوى إلى معسكر المتطوعين أحد رجال الصقر الأسود وفى يده بطاقة أمان من أحد القواد؛ ولكن بعض المتطوعين وكانوا محنقين هموا به ليقتلوه فوقف بينهم وبينه ابراهام، وبنادقهم مصوبة إلى صدره وهو يصرخ فيهم «إنكم لن تقتلوا هذا الرجل» ولم يكن بعيداً أن تنطلق إليه الرصاصات فى ثورة غضب كتلك الثورة ولكن الله سلم ونجا الرجل ونجا مخلصه!

وبعد أن رجع أيب إلى نيوسالم جرت الانتخابات ولكنه خذل فيها، إذ لم يكن الحزب السياسى الذى يدين بمبادئه محبوباً يومئذ للناس! خذل ابراهام ولكن طابت نفسه الأمر وارتاحت، ذلك أنه وجد أن أكثر أصوات بلدة نيو سالم كانت له

«يتبع»

الخفيف

تحية العام الهجرى الجديد

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

يوم تبسّم فى الأيام وازدهرا ... وسيرةٌ عطرَت من لطفها السيرا
يا يومُ حدِّث شباب النيل وارو لهمْ ... وقصَّ من ذكرك العالى لهم خبرا
واجمع على الدين والأخلاق عقدهمُ ... فقد تفرق هـذا العقد وانتثرا
وأضيعُ الناس من يقضي الحياة ولا ... يقضى من الدين والدنيا بها وطرا

* * *

يا رب أدرك من الإسلام أمتَه ... واجمع على نهجك الأفراد والأسرا
يا حارس الروض إن الروض إن عصفت ... به الأعاصيرُ جف الروض وانتثرا
والدوحُ إن لعبت ريح السموم به ... لا يُنبتُ الغصنَ أو لا يُطلع الثمرا..

* * *

هلاَّ تعيدون للإسلام صولتَه ... وللعروبة ما ولَّى وما غبرا ؟
دار (ابن لقمان)[1] لا زالت معالمها ... فاسأل بها البهو أو فاسأل بها الحجرا
دار أفاء على الإسلام صيِّبها ... وطوَّحت بالصليبيين والأمرا..
سلوا الفرنجة لما ألَّفوا فرقا ... وطيرَّوا فى نواحى الملة الشررا
استأصلتهم سيوف المسلمين كما ... تستأصل الريح فى هبَّاتها الشجرا

* * *

هيَّا انصروا المبدأ الدينىَّ مبدأكم ... فالله ينصر مَن للملة انتصرا
الدين قد كان يمشى لا عثار به ... ما باله اليوم فى آماله عثرا
قد كان إخوانكم لا يقدمون على ... مخاطر المجد إلا ذللوا الخطرا
ولا يبالون إن ساروا لمحمدة ... طال الطريق بهم لله أم قصرا..

* * *

الدين والخلق العالى يؤيده ... سيرفعان لكم بين الأنام ذُرا
لا خير فى الدين إن لم يحمه خلق ... ولا صلاح له إن ضل أو فجرا

* * *

سافرتُ للغرب والآمال تدفعنى ... أكرِمْ به للأمانى والعلا سفرا
رأيتُ فيه الليالى وهى عاصفة ... والبحرَ مضطربا والجو معتكرا..
شَطَّ المزار فما شطَّت فضائلنا ... ولا تغيرَّ منا القلب أو نفرا
إن الغريب وإن طابت مناظره ... رنا إلى الوطن المحبوب أو نظرا..
لا اللهو فى الغرب أنسانا مبادئنا ... ولا أضاع لنا من ديننا الذكرا
رأيت فى الغرب، أخلاقاً مطهرة ... كما رأيت به الأرجاس والقذرا
إنا أخذنا محاراً لا غناء به ... وغيرُنا أخذ الأصداف والدررا

* * *

بالأمس قامت لنا فى الدين قائمة ... ما بالنا اليوم عفَّينا به الأثرا
إنا فتحنا به الدنيا مطأطئةً ... وباسمه قد غزونا البدو والحضرا
سلوا القياصر تلقوا عندها نبأً ... وسائلوا الفرس تلقوا عندها خبرا
هنا رأينا بساط الفرس مندثراً ... مخرقاً .. ولواء الروم منكسرا..

* * *

يا مرسل الدين قد أرسلته حكما ... وصُغْتَه رحمةً بالناس أو عبرا
ألَّفتَ منه سبيل العدل فأْتلفتْ ... وجئتَه داعياً للحق فانتصرا
بعثتَ بالسيد الهادى رسالته ... نوراً على الأرض يمحو الشك والخطرا
ويملأ الأرض من صافى رسالته ... صفواً كما امتلأت من قبله كَدَرا

* * *

وارحمتا للنبى فى قبيلته ... كم ثبطوه وودُّوا أنه عثرا
يظل يسقيهمو ودًّا ومرحمةً ... وهم يساقونه من لؤمهم كَدِرا
عجيبة أنه يسعى لينفعهم ... ويشتهون له المكروه والضررا

* * *

يا أحمد الخير قد آذوك وانصرفوا ... يؤلبون عليك الجمع والزمرا
حاشى لربك لم تحذر بوائقهم ... (ولا ينال العلا من قدم الحذرا)
لما استمرتْ قريشٌ فى غوايتها ... صبرتَ لله . والعقبى لمن صبرا
هاجرت لله من قدس إلى قدُس ... وسرت تطوى إلى غاياتك المدرا
فيالها هجرةً لله خالصةً ... تدفَّق الدينُ منها بعدُ وانهمرا

(المنصورة)

محمد عبد الغنى حسن
مدرس بالمدرسة الثانوية

(١) دار ابن لقمان التى أسر فيها لويس التاسع وهى لا تزال باقية فى المنصورة



أقصوصة من جبرييل دانونزيو

سنسناتوس (١)

مأساة عاشق مخبول

للأستاذ دريني خشبة

كان يتثنى كأنه غصن بان ؛ وكان نحيلاً ممروقاً فى غير طول ، وله لِبْدَةٌ تهدّل كغابة من أشجار الكستناء فوق كاهله وكتفيه ، ثم تتحوى ذوائبها وتفدودن حين يعبث بها الهواء ، فتكون كعُرْفِ الفرس . أما لحيته ... فيهودية كثة مغبرة ، غير مُحَلقة ، تعلق بها دائماً نثائر من القش ... أما عيناه فسادرتان ترنوان أبداً إلى قدميه الحافيتين ! فإذا حدث أن رفعهما إلى أحد فإنهما تقذفان فى قلبه الذعر ، بما ركب فيهما من ألغاز وأسرار ... فهما تارة تشفّان عن بَله ، وتنمّان عن عتـه ؛ وتارة أخرى تتأججان بنيران حامية كنيران الحمّى ... ثم تنطفئان بغتة ، فتراهما حائلتين آسنتين كمياه المستنقع ... فإذا لمح بهما خطفتا كسيوف طليطلة (٢) !

وكانت له (جاكتة) حمراء يلقيها على كتف واحد كما يلتفع الأسبان عباءاتهم فى كبرياء وزهو ، فكان إذا مشى يَدَّحِ فى عظمة وجلال

ويدعوه الناس سِنْسناتوس ، ويقولون إن به لوثة أصابته إثر حب خانه فيه محبوبه ، فلم يملك إلا أن يطعنه ، ويمضى على وجهه فى الأرض حيران

وكانت سنه عند ما عرفته ستا وسبعين ، بينما كنت أنا فى الثالثة عشرة ... وقد رأيته تخلبنى ... وكان اليوم قائظاً ، والماء يغمر الميدان ، والأرصفة تتقد بحر الشمس ، ولم يكن ثمة مخلوق غير كلاب قليلة سائبة ... ولا صوت إلا جعجعة الطاحونة القريبة

وكنت لا أمل أن أقف نصف ساعة ألاحظ سنسناتوس من وراء ستار النافذة ، وهو يمشي متثاقلاً مختالاً ، وقد اشتد قيظ الظهيرة ؛ وكان يدلف أحياناً نحو الكلاب فى هدوء ومهل حتى إذا ظن أنها أمنته ، التقط حجراً وحذفها به ثم اعتـدل وولاها دبره ، كأنما يوهمهـا أنه لم يمسها بأذى ... وقد تجتمع الكلاب حوله فلا تنفك تبصبص بأذنابها ... ويفتر هو باسماً ... ثم يضحك ضحكات بائسة ... فلا أملك إلا أن أضحك أنا أيضاً !

وتشجعت يوماً فأطللت برأسى من النافذة ، ثم هتفت به : « سنسناتوس! » فاستدار حوله ، حتى إذا بصر بى تبسم ضاحكا ، فقطفت قرنفلة جميلة من طاس أزهاري وأرسلتها إليه ... ومنذ ذلك اليوم ، ونحن صديقان ... وأى صديقين ؟!

وقد سماني « كيرلى لوكس ! » . فنى أمسية يوم سبت من شهر يوليو بينما كنت واقفاً على الجسر الجميل أرقب سفائن الصيد عائدة أدراجها ، ومن خلفها الشمس الرائعة تصبغ السحاب بالذهب ، وتُوشى حواشيه بالقِرمز ، وتنصب بالنهر فى لجة البحر ذَوْباً من اللألاء واللُّجين ... فى حين تنعكس العُدْوتان ، وما نما فوقهما من قصب وغاب ، وما بسق عليهما من حور وشاهبلوط ، فى مائه العذب ، فتكسوانه حُلةً من سندس وإستبرق !

وكانت الزوارق تلقى مراسيها فى بطء وتتضامُّ على رُوَيد ، وشُرُعها البرتقالية تصطفق وتتكسر ، فترتسم عليها النقوش

(١) من الأقاصيص التى يبدو فيها دانونزيو أديب إيطاليا العظيم مصوراً أكثر مما يبدو روائيا

(٢) نسبة السيوف إلى طليطلة نسبة أندلسية مستحدثة ، وعرب المشرق ينسبونها إلى الهند أو إلى اليمن فيقولون هندوانى ويمانى ومهنـد ويمان ، ويجب بقاء النسبة الأندلسية فى الأدب الايطالى إلى اليوم

العربية ، فتبدو غرابيبَ سودا ... وقد بدأ الصيادون ينزلون أسماكهم من زورقين كبيرين ، فرحين جَذِلين بما رزقهم الله ، منشدين متغنين

وتلفتُّ حولى فجأة فرأيت سنسناتوس واقفاً حِيالى والعرق يتفصّد من وجهه ، وقد خبأ شيئاً فى يده وراء ظهره ، فمددت إليه يدى المذعورة المرتجفة ، وناديته : « أوْه ! سنسناتوس ! » ورفت على شفتيه ابتسامة ساذجة كابتسامة الطفل ، ثم مد إلىّ يده وفيها باقة رائعة من أزهار الخشخاش ، وسنابل القمح ، فاختلطت حمرة (أبى النوم) بذهب البُرّ ، حتى ما تمالكت أن صحت : « شكراً لك وألف شكر ! ألا ما أجمل وما أبهى !! » وبدلاً من أن يرد علىّ ، فقد أرسل أصابعه فوق جبينه ووجنتيه لينزح العرق ، ثم حملق فى يده وحملق فىّ ، ثم ضحك من أعماقه ضحكاً رقيقاً باكياً ... وقال : « لقد وجدت تلك الأزهار الأرجوانية نامية وسط حقل من القمح ، فأحببت أن أقطفهن لك ... ألا ما أجمل وما أبهى ! ! لقد قطفتهن لك ، ولم أبال الشمس التى كانت تصب نيرانها فوق رأسى ! »

وكان يتكلم فى هدوء واستسلام ؛ وكان يرسل الكلمة ويستأنى ، ثم يرسل الأخرى ويستجم ؛ وكان يبدو عليه التعب ، لكنه كان يحاول وصل كلماته حتى لا يفلت منه زمامها ... وكان يبدو كأن ألف فكرة تزدحم فى رأسه ، وألف صورة من صور ماضيه المؤلم تربك تفكيره ... فكان يستذكر منها الصورة والصورتين والثلاث ، ويترك الباقيات تتفرق كسِرب من اليعاسيب ... وكنت ألمح ذلك فى عينيه ... فيزداد تفرسى فى وجهه الذى كان يبدو لى جميلاً رائعاً ... وكأنما لحظ ذلك منى ، فالتفت إلى الزوارق فجأة وقال : « أنظر ... الشُّرُع ! ما أجمل الشرُع ! شراعان رائعان : أحدهما فى الماء والآخر فى الهواء ! » أى أنه لم يكن يعرف أن الشراع الذى فى الماء ما كان إلا صورة منعكسة ؛ ولقد حاولت أن أفهمه ذلك ... وقد أطلت فى الشرح إلا أنه كان يبدو كالذاهل عما أقول ... وكانت كلمة « شفشاف » تصدمه ، وتَفِرُ فى أذنه

وتمتم بهذا النداء : « ديا فانوس ! ! » ... ثم تبسم ، وعاد يحملق فى الشراع العجيب !

وانتثرت بَتلة من أزهار الخشخاش فسقطت فى الماء ، فجعل يتبعها بنظره حتى غابت ، ثم أنشأ يقول : « إنها ذاهبة ... ذاهبة بعيداً ! » وكانت نبرات الأسى تتكسر فى أطراف صوته ، كأنما فقد شيئاً عزيزاً عليه !

وصمتنا لحظة ، ثم سألته : «ألا تخبرنى مابلدك ياسنسناتوس؟»

لكنه التفت عنى وأشاح ، ثم مد بصره فى السماء الزبرجدية الصافية ، حيث ذهبت الجبال فى السماء كالجبابرة التى تمط وتتثاءب؛ وكان الجسر البعيد الممتد فوق النهر يُقطّع السماء إلى صور جميلة بارعة ، وقد أخذت ظلال الشاطئ الأخضر المنعكسة فى مائه تتحول إلى لون داكن قاتم ، يختلط بأهازيج الصيادين ونكاتهم المرحة الساذجة

وأشرقت أسارير صاحبى قليلاً ، ثم أسرع يقول :

— أجل ... لقد كان لى بيت أبيض ، وكانت له حديقة صغيرة تنمو فيها أشجار الخوخ ... وفى المساء ... كانت تَرزا تأتى إلىّ ... جميلة حُسَّان ... مفتان ! ... عيناها ... ولكن ... هُوَ ! هُوَ !

ثم صمت فجأة ... لأن الهواجس السوداء كالخفافيش طافت برأسه فجأة ... وانطفأ البريق الذى كان يشع من عينيه فصارتا غائمتين قاتمتين !

بيد أنه لم يلبث أن انفرجت أساريره ، وأشرق وجهه ... ثم لوى عنانه ، وذهب عني ، وهو ينشد ويغنى :

Amoi , Amoi , aecirecheme sa rame .

وهو غناء لا أدرى ما ذا كان يقصد به !

***

ولقيته بعد ذلك مرات ، وكنت كلما رأيته ماراً بمنزلنا دعوته لأعطيه شيئاً يأكله ، أو يتبلغ به ، وأعطيته مرة درهمات كنت قد أخذتها من أمى ، فما كدت أضعها في يده ، حتى نظر إليها هازئاً ساخراً ، وردها إلىّ فى امتعاض ، وولى مدبراً ... وفى المساء لقيته عند آل بورتانوفا ، فتقدمت إليه قائلاً: «سنسناتوس! اغفرلي ... و ... اعف عنى ! » ولكنه هام على وجهه ، واختفى فى الغابة

وفى صباح اليوم التالى ، وجدته ينتظرنى قريباً من منزلى ، فلما رآنى تبسم ابتسامة محزونة ، ومد إلىّ يده الواهية بباقة

يانعة من أزهار المرغريت ... وكانت عيناه دامعتين ، وشفتاه مرتعشتين ... مسكين ! لك الله يا سنسناتوس !

ومرة أخرى ، بينما كنا جالسين فى طرف الطريق المعروش بالشجر ، فى أواخر شهر أغسطس ، والشمس الغاربة تختفى رويداً وراء الجبال ، والأصداء المختلفة تتجاوب فى جنبات السهل القار الهادئ بين لحظة وأخرى ... وحواشى الأدغال الصنوبرية تبتعد وتبتعد حتى تتناهى فى ظلام البحر ، وقد أخذ القمر النحاسى يبزغ فى هوادة وبطء خلال السحب العجيبة الرائعة ... حينئذ... نظر سنسناتوس إلى القمر ، وحدق فيه بصره ... ثم أخذ يتمتم ويجمجم ... ويقول : « أنظر ... إنك تستطيع الآن أن تراه.. وليس فى وسعك الآن أن تراه ! أجل ... قد يمكنك أن تراه الآن ... وقد لا يمكنك قط أن تراه !

وظل برهة يتأمله ثم عاد يقول :

« القمر ! ! إن له لعينين وأنفاً وفماً مثلنا نحن البشر ! ! ومن يدرى فيم عساه يفكر ... من يدرى ؟ ! »

ثم شرع يغنى أغنية سجواء من كاستللامير ... أغنية طويلة كثيرة الرفع والخفض ، مما يتغنى به أهل تلك الهضاب فى ليالى الخريف ، فى عقابيل الحصاد .. وبعد لحظات لحنا فى ظلام البعد مصباحى قاطرة مقبلة ، كأنما يتأججان فى لحمة الغسق كما تتأجج عينا هولة ... وقد مر القطار وهو يهزم كالرعد فوق الجسر ، ويرسل صفارته الهائلة ، وينفث دخانه القاتم ... وبعد لحظة غاب فى الأفق ، وساد الصمت ، وعاد الهدوء إلى الكون وهب سنسناتوس واقفاً فقال :

— إذهب ... إذهب ... انطلق بعيداً ، أيها التنين ، بما أجج الشيطان فى صدرك من نار ومن حمم ! ! »

ولن أنسى ماحييت فزعة سنسناتوس حين مر بنا القطار.. فلقد رعد فجأة ، وجرجر فى هدوء الطبيعة ، فأيقظ صاحبى المجنون من تأملاته وروعه ... فلما عدنا أدراجنا إلى القرية ... لم يصح من أحلامه قط ! !

***

وذهبنا مرة معاً فى أصيل يوم جميل من أيام سبتمبر إلى سيف البحر ... وكانت لانهائية الماء الأزرق العميق تضطرب تحت بيضة الأفق التى كانت تلتمع بأمواه السماء ... وكانت قوارب الصيادين تتهادى فوق العباب الزاخر ، مثنى مثنى ، كأزواج من طير عظيم مختلف أنواعه ، وقد نشرت أجنحتها الصفراء والقرمزية ... ومن ورائنا نهضت كثبان الرمال الشاحبة ، الممتدة فوق الشاطئ القائم ، حتى تتصل بسندس النبت من وراء

وانطلق سنسناتوس يحدث نفسه فى صوت حنون أخاذ ، كالذي تولاه طائف من الذعر والدهش : « البحر ... الخضم ... الأزرق ... خضم ... خضم ... وفيه سمك كبار تأكل الناس ! وفى أعماقه أوركوس المحبوس فى قفصه الحديدى ! ! إنه هناك يستغيث ويستنجد ، ولا من مغيث ولا منجد ... إنه سيظل هناك إلى الأبد ... وفى المساء تمر به السفينة ... التى ترى الموت من يراها ! ! »

وسكت سنسناتوس ... ثم هب من مقامه ، فتهادى نحو الماء ، حيث وقف عند هامش الموج الذى أخذ ينضح قدميه

وبعد فهل نستطيع أن نستشف تلك الأفكار التى كانت تحوم كالسمادير فى رأسه الفقير المريض المختل ؟ أجل ... لقد كان يتخيل دنى من ورائها دنى ... بعيدة ... نائية ... متألقة ... وكان يرى أطيافاً من الألوان المضطربة ، بعضها عريض طويل ، وبعضها لانهائي ، وبعضها عجيب غريب ... ولشد ما كان يضل إدراكه فى تيه هذه الظلال التى لم يكن يدرى كنهها

وكنت أدرك هذا من عباراته التى يربطها رابط برغم ما كانت تصور به المناظر الرائعة فى سذاجة ... و ... عمق فى آن واحد!

ولم ينبس ببنت شفة حينما كنا نطوى الطريق عائدين إلى القرية ... وكنت أنظر إليه لحظة بعد أخرى ، فتتردد فى فؤادى هواجس شتى ... ولما اقتربنا من الطريق ، نظر إلى فجاة وراح يقول فى صوت هادئ متهدج ، بعد أن قبض على يدى : « إن لك أماً تنتظرك لتقبلك عند ما تعود إلى البيت ... ! »

وكانت الشمس تهبط إلى خدرها خلف الجبال فى سماء صافية وكان النهر يضطرب بأشعتها الذهبية الرائعة ... فلما قال لى ما قال سألته بدوري ، والدموع تترقرق فى مقلتى : « وأنت أين أمك الآن يا ترى ؟ ! » بيد أنه اشتغل عنى بعصفورى جنة ، فانحنى

إلى الأرض حين رآهما ، وتناول حجراً ثم سدده إليهما فى انتباه عظيم ، كأنما حسب أنه يصمم بندقية وأرسله فى عنف ... وطار العصفوران كسهمين مُرَاشَيْن من غير أن يصيبهما أذى ...

وقال سنسناتوس ، وهو ينظر إليهما يزفان إلى السماء اللؤلؤية مفترًّا عن فه : « طِيرَا ... طيرا ... طيرا ... طيرا » يرددها فى نغمة متسقة أربع مرات

* * *

ولقد لاحظت تبدّلاً فى سلوكه منذ بضعة أيام ... وكان يبدو كأنما تشتعل الحمى بين جنبيه ... مسكين ! ... لقـد كان ينطلق وسط الحقول يعدو ويجري ، فلا يقف حتى يهده التعب ، فيسقط ويتحوى كالثعبان ، ويبرّق بعينيه المفزوعتين فى شمس الظهيرة الساطعة ! فإذا كان الأصيل ألقى جاكتته فوق كتفه وراح يتخلج كالأشراف الأسبان ، فى خطى واسعة بطيئة مهطماً مرة ، مستأنياً متمهلاً مرة أخرى

وقد أهملنى ... ولم يعـد يحضر لى باقات الخشخاش ولا أزاهير المرغريت ... ولشـد ما أحزننى ذلك منه برغم إشاعات الهُجر ، وألسن السوء التى كانت تقدح فيما بينى وبينه ...

فنى صبيحة جميلة مشرقة ذهبت لألقاه حيث تعودنا أن نتقابل ، لـكنه لم يعن بى ، ولم يتوجه بعينيه نحوى ... فقلت له وقال لى :

— ماذا يا سنسناتوس ؟ !

— لا شىء ! !

— هذا كذب ...

— لا شىء ! !

— هذا كذب ... هذا كذب ! !

وكنت ألمح فى عينيه لهباً يتأجج فيهما ، فالتفت حيث كان يرسل بصره ، فرأيت فتاةً جميلةً فلاحةً ، واقفةً فوق وصيد دكان قريب

وسمعته يتمتم فى تحرّق وشغف ، وقد اصطبغ جبينه بورس الحب : « تريزا !! تريزا !! ... » ثم تحدرت عبراته فجأة ... لقد رأى المسكين فى الفتاة الفلاحة طيف تريزا ... تريزا الجميلة... حبيبته التى خلبت لبه ، وخبلت عقله ، وسحرت فؤاده !

ولقيها بعد ذلك بيومين ، فهرول نحوها وهو يبكى ويقول : « أنت أجمل من شمس الضحى ! » ... ولـكن الفتاة القاسية مدت يدها البضة ولطمته فى حر وجهه !

ولمحه غلمان فأحدقوا به ... ثم طفقوا يلمزونه ويستهزئون به وأخذوا يحذفونه بأعواد الـكرنب الملقاة فى الشارع ، فأصابه أحدهم بعود منها فى وجهه ...

وثار سنسناتوس ! وانطلق فى إثر الغلمان كالثور المجروح ، وأمسك بأحدهم فرفعه فى الهواء ، ثم ألقى به على الأرض ... كحزمة من الخرق ! !

* * *

ورأيت رجلين من الشرطة بعد ذلك يقتادانه تحت شباكى ، والدم يتحدر من وجهه فيضرّج لحيته الـكثة ، وقد حنا رأسه توقياً لسخريات الناس به ... ... فبكيت !! بل استخرطت فى البكاء ! !

ولحسن الحظ لم يكن الفتى قد أصيب إلا بسحجات بسيطة فأطلق سراح سنسناتوس بعد يوم أو يومين ...

مسكين سنسناتوس ! لقد غدا مسبوهاً شارد اللب أكثر مما كان ، وأظلت وجهه سحابة من الحزن لم تنجل ... وشهدته ذات مساء يعدو كالـكلب فى أزقة القرية المظلمة

* * *

وفى صبيحة جميلة من أيام اكتوبر ، مموهة السماء بلون البنفسج وأضواء الشمس ، وُجدت جثـة سنسناتوس ممزقة مهشمة فوق شريط السكة الحديدية مما يلى الجسر ... فهنا إحدى ساقيه ... وهناك ... على مسافة خطوات ... ساق أخرى جرها القطار وراءه ... وظل الدم يتدفق من الرأس الذى نزعت عنه لحيته ... وقد جحظت عيناه لتثيرا الرعب فى قلوب أبناء آدم !

مسكين سنسناتوس !! إنه لا بد قد ذهب هناك ليرى إلى الهولة التى تنطلق فى جوف الوادى ، فتذهب بعيداً ... بعيداً... كما تعوّد أن يقول ... التنين الهائل الذى أجج الشيطان النار فى صدره ...

— « تريزا ... ... »

دريني خشبة



كتاب مصرى جديد لاميل لودفيج

لم تمض أشهر قلائل على ظهور كتاب « النيل » الذى وضعه المؤرخ الألمانى الكبير إميل لودفيج حتى ظهر له كتاب جديد يتناول أيضاً موضوعاً مصرياً شائقاً هو « كليوباترة » ؛ وكما أثار كتاب « النيل » إعجاب القراء والنقدة ، فقد أثار الكتاب الجديد أيضاً إعجاب الدوائر الأدبية . وكتاب كليوباترة دراسة تاريخية بديعة لحياة هذه الملكة المصرية الخالدة ، وشخصيتها الساحرة ، وموتها المؤسى ؛ وقد ظهرت عن كليوباترة كتب كثيرة من أقلام كتاب أعلام ؛ ولكن كتاب لودفيج يمتاز بأسلوبه الساحر الذى تخال عند قراءته أنك تقرأ قصة شائقة لا دراسة تاريخية معقدة ؛ وهذه أعظم مزايا أميل لودفيج كمؤرخ ، فهو يكتب التاريخ الحق ، ولكن بأسلوب خاص ، فيتخذ من حوادث الحياة اليومية ، والصفات والعواطف الشخصية مادة لا يفطن إليها الكثيرون من كتاب التاريخ ؛ ويرى فى هذه الأعمال والحوادث البسيطة ما لا يراه فى الحوادث العامة التى ترتبط بحياة مترجمه ؛ والترجمة التاريخية تعتمد فى الغالب على هذه الحوادث العامة ، ولكن إميل لودفيج يعتقد أن الدراسة الشخصية للعواطف والميول والشهوات الخاصة تفصح عن شخصية المترجم أكثر من أى شىء آخر ؛ وهو مع ذلك يكتب التاريخ ولا يحيد عنه

وهذا المزيج القوى من نظرة لودفيج إلى التاريخ يتخذ صورة ساحرة فى كتاب كليوباترة ؛ فهذه الملكة الحسناء التى كانت أول ملكة جلست على عرش الفراعنة ، والتى انتهت بحياتها دولة البطالسة ، يرسمها لنا لودفيج بكل جمالها كامرأة ، وجلالها كملكة ، ويصور لنا دقائق حياتها الشخصية والعامة تصوير المؤرخ الدقيق والقصصى البارع ؛ وهو يصل فى كتابه الجديد إلى ذروة فنه كمترجم لا يجارى لشخصيات التاريخ البارزة ؛ وقد وضع الكتاب بالألمانية ، وترجم فى الوقت نفسه إلى الانكليزية ، كمعظم كتب لودفيج

وفاة شاعر روسى مسلم

توفى فى روسيا أخيراً الشاعر سليمان ستالسكى S.stalsky وهو مسلم من أهالى داغستان ، ولد منذ نحو سبعين عاماً ، ونشأ فى أسرة فقيرة من الفلاحين والرعاة ، ولم يتلق تربية مدرسية ما ، بل نشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك فقد نظم الشعر منذ حداثته ، وطارت شهرته منذ نحو أربعين عاماً فى القوقاز وفى روسيا كلها ، وكان يميل بالأخص إلى نظم القصائد الريفية والشعبية . ولما قامت الثورة البلشفية كان سليمان ستالسكى من أقوى دعاتها فى بلاد داغستان والكرج التى ينتمى إليها ستالين زعيم روسيا الحالى ، وقد لفتت قصائده الوطنية التى ترجم الكثير منها إلى الروسية أنظار الزعماء والمفكرين ، ولفتت إليه بالأخص أنظار مكسيم جوركى عميد الأدب الروسى الثورى فنعته بأنه « هوميروس القرن العشرين » ؛ وكان فى أعوامه الأخيرة موضع عطف ستالين ، وعطف زعماء الأدب الروسى كله لما تحتويه قصائده من قوة الفطرة وحرارة الاخلاص ؛ وكان لوفاته وقع عميق فى موسكو وفى روسيا كلها

كتاب عن طاغور

يصدر فى أوائل الصيف القادم كتاب بالانكليزية عن شاعر الهند وفيلسوفها رابندارانات طاغور عنوانه « طاغور ، شخصيته وعمله » Togore Personality and work ، بقلم الأستاذ لسنى Lesny ، وهو عبارة عن دراسة تحليلية دقيقة لشخصية الشاعر الكبير ، وتراثه الشعري والفلسفى ، ومدى تأثيره فى الأدب الهندى والأدب العالمى . والكاتب من أصدق أصدقاء الشاعر

وأعظم المتخصصين فى دراسة الأدب الهندى ؛ وقد وجه إليه طاغور كتاباً أثبت فى صدر الكتاب وجاء فيه : « إنها لمعجزة أن تنفذ فى مثل هذا الوقت القصير إلى روح اللغة البنغالية وإلى آثارى ؛ ولم أر من قبل قط مثل هذه المقدرة النقدية فى كاتب أجنبى آخر »

علماء فوق الجليد

كانت الحكومة الروسية قد أوفدت منذ بضعة أشهر بعثة من العلماء الروس إلى القطب الشمالى لتقوم ببعض الأبحاث الجوية والمائية فى هذه المناطق الثلجية ؛ فطار أعضاء البعثة إلى القطب فى طيارات صنعت خصيصاً للطيران فى هذه الأنحاء ، واستطاعت البعثة أن تنزل فوق منبسط من الجليد على مقربة من القطب ، وأن تهيء مكاناً لسكناها ، ومطاراً لنزول الطيارات ، ومرصداً للقيام بأبحاثها ؛واستمرت تجرى أعمالها بضعة أسابيع والطيارات تختلف إلى مقامها لتموينها بالطعام والوقود والشحم ؛ ولكن حدث فى ديسمبر الماضى أن ذابت الثلوج حول مقام البعثة ، وانفصلت الكتلة الثلجية التى تحتوى على مساكنها وآلاتها ، ثم ترك هؤلاء العلماء البواسل دون مأوى ودون طعام فوق كتلة متحركة من الجليد أخذت تسير بهم ببطء إلى مصاير مجهولة . وكان من حسن الطالع أنهم احتفظوا بآلة اللاسلكى ، فبعثوا إشارات الاستغاثة إلى روسيا ، واهتمت حكومة موسكو واتخذت كل أهبة لإنقاذ العلماء البواسل

ومنذ أسابيع تحلق الطيارات وتسير نسافات الجليد إلى حيث مقر البعثة ؛ وفى الأنباء الأخيرة أن النسافتين تيمر ومورمان استطاعتا تحطيم الجليد ، واللحاق بالعلماء المنكوبين بعد أن سارت بهم قطعة الجليد التى بقوا عليها نحو ألفى كيلومتر من القطب حتى شواطىء الأرض الخضراء ، واستطاعتا إنقاذهم وإنقاذ آلاتهم وموادهم العلمية

وتقول الأنباء أيضاً إن رئيس البعثة العلامة الشاب بابانين استطاع أن يقوم في الحوض القطبي ببحوث هامة ، ودلت التجارب المختلفة لسبر أغوار الجليد أن هنالك تياراً حاراً يأتى من الأطلانطيق ؛ واكتشف العلماء أيضاً وجود بعض الطيور على مقربة من القطب وهو ما كان يظن استحالته ؛ ووضع العلامة الفلكي فيدروف خريطة فلكية للمنطقة القطبية ؛ وجمعت البعثة كثيراً من المواد والحقائق العلمية عن خواص المناطق القطبية المختلفة .

قاموس سياسى

أصدرت الأكاديمية السياسية الدولية بباريس قاموساً من طراز جديد ، هو القاموس السياسى (الدبلوماسى) Dictionnaire Diplomatique ، وقد وضع بإشراف الكاتب المعروف مسيو فرانجليس سكرتير الأكاديمية ، وأحد مندوبى فرنسا لدى عصبة الأمم ، واشترك في وضعه سبعة وعشرون رئيس حكومة ، وأكثر من خمسمائة وزير وسفير منهم أقطاب السياسة العالمية مثل الرئيس روزفلت وإيدن وموسولينى وشاخت وبنيس وهيريوتا وغيرهم ، وعولجت فيه أهم المسائل الدولية المعاصرة بأقلام هؤلاء الأقطاب . غير أن أهم مزايا القاموس السياسى ، هو أنه مرجع شامل لجميع الأنظمة والمعاهدات السياسية والدولية الجديدة التى عقدت بين مختلف الدول فى الأعوام الأخيرة ، مثل الأنظمة والمعاهدات الجديدة الخاصة بمصر والهند وسوريا، ومسائل البحر الأبيض ، ونزع السلاح البحرى ، وتجارة السلاح ، ونظام اللاجئين ، ومسائل الصين واليابان والحبشة وغيرها مما يشغل الدول والسياسة الدولية الحاضرة ؛ وقد رتبت هذه المجموعة على مثل القاموس ليسهل استعراضها ؛ وهى تقع فى ثلاثة مجلدات كبيرة ، ولا ريب أنهـا مرجع نفيس للباحثين فى التاريخ السياسى المعاصر

مؤتمر عام للأدب العربى

تلك فكرة جميلة يسعى لتحقيقها السيد محمد الفاضل بن عاشور بتونس ، ومهمة هذا المؤتمر على ما جاء فى برنامجه ، السعى لتوحيد طرق الثقافة ودراسة الآداب العربية فى جميع أقطار العروبة ، وإنشاء مدون عن أطوار الأدب العربى فى كل قطر من تلك الأقطار ، وتوكيد الصلات بين رجال القلم من أبناء العربية ، وإنشاء لجان فرعية للمؤتمر فى كل قطر تتلقى بحوث ونظريات

الأدباء لإحالة المفيد منها إلى المؤتمر بعد دراستها ، وتقوم برحلات القصد منها استطلاع مدى الحركة الأدبية ، والسعى فى إنشاء كليات أدبية فى الجهات التى لم تؤسس فيها كليات لذلك . والشرط فى ذلك كله أن تكون العربية الفصحى لسان أعضاء المؤتمر ولغة لجانه وقراراته ونشراته ، وستصدر نشرة دورية تكون سجلاً للمؤتمر فى جميع خطواته التى يخطوها فى سبيل غايته

هذا وقد تألفت لجنة تحضيرية فى تونس تضم جملة من الأساتذة الأفاضل برياسة السيد محمد بن عاشور ، وهى توالى اجتماعاتها بمعهد ابن خلدون للعمل على تحقيق الفكرة وإخراجها إلى الوجود ؛ والرسالة وهى سجل الأدب العربى ترجو للسادة الأفاضل التوفيق فى غايتهم الشريفة ومهمتهم النبيلة

قاعة القراءة بالمتحف البريطانى

جاء فى عدد الرسالة رقم (٢٤٢) بين نبذ البريد الأوربى خبر بأن غرفة القراءة بالمتحف البريطانى ستظل مفتوحة للزوار ساعة كاملة فوق المتاد . ثم علقتم على هذا النبأ بأن تمنيتم لو عنيت مصلحة الآثار فأنشأت قاعة القراءة بالمتحف المصرى على نمط قاعة المتحف البريطانى ، وهى تمنيات طيبة صادرة من قلب محب للعلم حريص على نشره . بيد أنى أخشى أن إيراد الخبر على هذا الوجه يجعل القارئ العام الذى لا يعرف شيئاً عن قاعة المطالعة Reading Room بالمتحف البريطانى يحسب أنها لا تحوي سوى الكتب الخاصة بالآثار ووصفها — في حين أن المتحف المذكور ينقسم إلى قسمين رئيسيين : المكتبة وقسم الآثار ، وتعد المكتبة أكبر مكتبات العالم كله ، وقاعة مطالعتها التى ورد ذكرها فى هذا النبأ قاصرة على طائفة معينة من المتعلمين ، فلا يسمح بالدخول فيها للاطلاع إلا لمن يقوم بأبحاث عميقة فى مختلف العلوم والفنون وعليه أن يعين فى طلبه نوع هذا البحث والمدة التي يريد أن يتردد فيها على القاعة من أجله ، وهى تفتح أبوابها لهذه الطائفة فقط من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة السادسة مساء (قبل التغيير الأخير) وهى لا تعير كتباً فى الخارج ، ثم إن القانون الانجليزى يفرض على كل ناشر أن يبعث إلى المكتبة المذكورة بنسخة من كل مطبوع يطبع فى الجزر البريطانية

أما قسم الآثار فزيارته مباحة لكل من يريد وبلا مقابل ، على هذا نرى أنه ليست هناك علاقة بين المتحف البريطانى وبين قاعة المطالعة فيه سوى أنهما فى بناء واحد — ونلاحظ أن وظيفة هذه القاعة تشبه إلى حد ما وظيفة دار الكتب الملكية عندنا . وقصارى ما نرجيه أن تنشئ الحكومة فى بعض أحياء القاهرة مكتبات عامة للجمهور تخفف الضغط على المكتبة الملكية بحيث تصبح هذه الأخيرة قاصرة على طائفة معينة من القراء وأهل العلم والبحث

نجيب احمد هاشم

الإسلام فى العالم

ظهر فى لاهور (الهند) كتاب « الإسلام فى العالم » لمؤلفه الدكتور زكى على ؛ وعلى رغم أن المؤلف الفاضل مصرى النشأة والمربى فقد كتب كتابه هذا باللغة الانجليزية . لأننا أحوج ما نكون اليوم إلى أن ننشر تاريخنا ومبادئ ديننا على أعين الأجانب ليروا ...

والكتاب قسمان : الأول يتحدث عن النشأة الأولى للإسلام منذ ظهور أول قبس من نوره حتى استيلاء العرب على الأندلس ؛ والثانى يعرض النهضة الإسلامية الحديثة فى لمحات خاطفة تشمل الأقطار الإسلامية جميعاً : تركيا الكمالية ومصر المستقلة وفلسطين وشمال أفريقية والصين والهند وأفغانستان والعراق وإيران و ...

وفى الكتاب أبحاث قيمة لمسائل ذات شأن منها : ما عساه أن يكون وراء النهضة الإسلامية الحديثة ؟ أفتحمل فى أضعافها ثورة جامحة تعصف بسلام أوروبا ؟ أفتكون من القوى الإسلامية المختلفة جبهة شديدة تتدافع سيلاً جارفاً من الجيوش الثائرة فتلتهم ماعداها من الدول والممالك شأن المسلمين في عصرهم الأول ؟ ماذا عسى أن تكون سياسة الدول الإسلامية الكبرى فى الحرب العالمية القادمة ؟ أفنستطيع أن نجد الوفاق بين العالم الإسلامي والغرب المسيحى ؟ و ... و ... مما يضطرب فى خواطر القادة والزعماء ... وفى الكتاب ولا ريب أبحاث طريفة ممتعة يجدر بالمشتغلين بأمور الاسلام والعرب والشرق أن يطلعوا عليها

الفتاة الصينية والتعليم

تبدأ نهضة الفتاة الصينية منذ سنة ١٩٠٧ فقط ، أي أنه قد مضى على نهضتها ثلاثون عاماً هي مع قصرها في حياة أمة عظيمة قديمة كالصين حقبة مليئة بجلائل الأعمال التي تمت للفتاة الأوربية في قرن بأكمله ، وبعد مصادمات عنيفة بين الجنس اللطيف الناعم والجنس القوى الخشن . والفضل في نهضة الفتاة الصينية ترجع إلى سيدة عظيمة تدعى شيوشان Ch'iu Chin ، لا كما هو الحال عندنا إذ ترجع هذه النهضة إلى الجهود الجبارة التي قام بها المرحوم قاسم بك أمين . وقد دعت شيوشان إلى وجوب إنشاء المدارس للفتاة الصينية ، ووجوب الإقلاع عن التقاليد التربيوية الكونفوشية التي تحرم على البنت نور العلم الحديث ، فلم تزل تكتب وتخطب وتشن الحرب على القابضين على زمام الأمر من أتباع مانشو حتى فازت في سنة ١٩٠٧ بإنشاء المدارس الأولية للفتيات ومدارس التربية للمعلمات . ولم يمض ربع قرن حتى كان في الصين مليونان من تلميذات المدارس ، وحتى أصبحت نسبة الفتيات من طالبات الجامعات ٥ر١٤ ٪ من عدد الذكور ... والأعجب من كل ذلك أن الفتاة الصينية نالت المساواة بالرجال في جميع الحقوق المدنية والسياسية قبل أن تفوز بها أختها في كثير من الممالك الأوروبية .

وفاة الشاعر أحمد نسيم

في غضون الأسبوع المنصرم طوى الموت صحيفة الأستاذ أحمد نسيم الشاعر المعروف ، وكان رحمه الله شاعراً في شعره معنى اسمه كما يقول مطران ، فله عرف أبي الطيب ، ونفحات النسيم . ولقد قضى الشطر الأول من حياته ينافح عن الوطن بشعره إلى جانب حافظ ، وله في ذلك « وطنيات نسيم » جزآن كلاهما صيحات في جانب الوطن ، وجدال في السياسة . ثم عين مصححاً في دار الكتب ، واستطاع أن يخدم الأدب في حدود تلك الوظيفة ، فأشرف على جملة نافعة من مطبوعات الدار كديوان مهيار والنابغة الشيباني وصرور وجران العود وغيرهم ، ولقد ظل عاملاً إلى آخر حياته ، على الرغم من تمكن الداء وإلحاح العلة

ونود أن نعود بالحديث الشامل إلى ذلك الشاعر في فرصة أوسع

جمعية بناء جامع فارسوفيا

جاءنا من الأستاذ الفاضل صاحب الامضاء ما يأتي :

أرجو نشر نداء جمعية بناء جامع فارسوفيا في مجلتكم الغراء وإني أتقدم إليكم بجزيل الشكر

لا تخفى عليكم المساعدة التي تقدم بها إخواننا المسلمون بالهند لصاحب الفضيلة مفتى إسلام الجمهورية البولونية الدكتور يعقوب سينكيفش الذي يتبعه ١٥٠٠٠ من مسلمي التتار في تأسيس جامع يؤمه المسلمون في فارسوفيا . ولما كانت المادة تعوزه لإتمام تشييده رأى صاحب الفضيلة عمل رحلة إلى البلاد المصرية والجهات العربية يستحث فيها أهل المروءة على مد يد المساعدة حتى يتم تشييد هذا الجامع . هذا وإني أضع تحت تصرفكم البيانات الكافية عن انتشار الاسلام في بولنده إذا مارغبتم في ذلك لتنوير الرأى العام لديكم . وبنشركم هذا النداء في مجلتكم تقومون نحو إخوانكم المسلمين في بولنده بأجل الخدمات التي نشكركم لأجلها . وإنا نرجوكم إرسال بعض النسخ من مجلتكم التي تنشر فيها كلمتنا والسلام عليكم ورحمة الله

برلين ٣٠ يناير سنة ١٩٣٨ — مصطفى كوبجنى

أصول الفواكه والبقول

قدم العلامة الفرنسي الأستاذ بيفو إلى أكاديمية بوردو بحثاً علمياً مستفيضاً عن أصول معظم الفواكه والبقول التي تنمو الآن في أوربا ؛ وخلاصة بحثه أن معظمها قد نقل إلى أوربا من آسيا ومصر ، فشجرة الخوخ مثلا قد نقلت من الصين ، ونقلت شجرة المشمش من التركستان ، ونقلت شجرة اللوز من أفغانستان ، كما نقلت شجرة الزيتون من مصر ، وعرفت أشجار الكروم في أوربا لأول مرة في غاليس (جنوب فرنسا) ، والمفهوم أنها نقلت من آسيا ، ونقلت بذور الذرة من المشرق أيضاً ، وكان أول من زرعها القوط في اسبانيا ، أما البطاطس التي تعتبر اليوم أهم الخضر الأوربية فهي أمريكية الأصل ، وقد نقلت بذورها لأول مرة من شيلي في أمريكا الجنوبية على يد المستعمرين الأسبان



نظر ونقد

٢ - شعراؤنا فى موكب الزفاف
الجارم بك

ولنقف أول ما نقف مع أستاذنا الجارم بك ، فقد كان فى شعراء الزفاف أبعدهم صوتاً ، وأطولهم نفساً ، وأشدهم عارضة ، وأسمحهم قريحة ، وأطوعهم بياناً . لم يرض لنفسه أن يكون « مفرد » القصيد ، فأرسل « الجارمية » فى إثر « الجارمية » ، وكل جارمية تهدف إلى المائة أو تزيد ، ونقد أدى ذلك كله بأدائه الجارمى الرائع ، ولحنه القوي الحنون ، فبلغ من رضا الجمهور والصحافة غاية لا تتجاوز ، حتى كان من هذا الرضا أن اتفق الناس على أنه طليعة الشعراء ، وأنه جاء كالبعث لما بعد شوقى وحافظ

على أن الجارم لم ينتظر تقريظ الجمهور ، وتقدير الصحافة ، وحكم النقد ، فسبق الجميع بالشهادة لنفسه ، وقدر مرتبته فكانت إلى جانب لبيد ... وازدرى بشاراً حتى أثار الغبار فى وجهه ... وادعى أن « الوحى » قد بادهته آياته ورسائله ! واسمع له جانباً من تلك الشهادة إذ يقول مخاطباً الفاروق :

دعوت إليك الشعر فانقاد صعبه ... وقد كان قبل اليوم شُمساً جوافله
وما كدت أدعو الوحى حتى سمعته ... تبادهنى آياته ورسائله !
خيال إذا أرسلته إثر « نافر » ... أتت بأعز الآبدات حبائله
ولفظ كوجه الروض فى ميمة الضحى ... وقد صدحت فوق الغصون عنادله
إذا قلته ألقى عطارد سمعه ... وساءل شمس الأفق من هو قائله
وإن سارت الريح « المحبوب » بجرسه ... فآخر أكناف الوجود مراحله !

ومهما يكن فى هذه الأبيات من الذهاب بالنفس إلى حد الاغراق ، فأنا لا أنكر على الجارم بك أن يذهب بنفسه فى تقريظ شعره ، فقديماً قال شيخنا أبو الطيب : « وما الدهر إلا من رواة قصائدى »

على أنى مع الأستاذ الجارم فى أنه صاحب خيال يقتنص كل « نافر » ، وأن لفظه كوجه الروض فى ميمة الضحى ، وأن أسلوبه حلو الجرس والتقاسيم ، ولكنا كنا نود أن نرى مع هذا كله الاحساسَ الذى هو الشعر ... ودقة التصوير التى هى حقيقة الفن ... وصلة التعبير بالعصر التى هى دليل الطبع ... ولقد بادهت الجارم بك آيات الوحى ورسائله حقاً كما يقول ، ولكنه ليس الوحى الذى يهبط من سماء الشعر على الشاعر الصافي القريحة ، القوى الطبع ، الذى يرى ويلمس من بدائع الوجود ما يحلم به الغير ، والذى تنكشف له بواطن الأمور فتنطبع فى ذهنه وتظهر فى بيانه صوراً فنية رائعة ؛ تبرزها الشاعرية فإذا هى أبرع وأملح من الأصل ... وإذا هى جمال فى جمال وحسن فوق حسن ؛ وإنما هو الوحى الذى يهبط من العلم بالعربية والاحاطة بدواوين السابقين ، فإذا ما قرأت شعر الجارم فى الزفاف ، أحسست كأنك تقرأ تشبيهات كانت صوراً لحياة بدوية خالية ، وقد مضى بها الزمن وطواها التقدم الحديث ؛ ولقد تحاول أن تلمح عنده شيئاً من روح العصر فيعييك ذلك

ودونك الجارمية التى ادخرها الجارم ليوم وزارة المعارف فى الاحتفاء بالزفاف ، فصال بها وجال بين جدران « الأوبرا » الملكية ، ونقلها المذياع إلى الناس ونقل معها إعجاب السامعين فى تصفيقهم وهتافهم فاسمع له إذ يقول فى مطلعها ، والمطلع هو موطن البراعة كما يقول علماء البديع :

صفا ورده عذباً وطابت مناهله ... وجلت يد الدهر الذي عز نائله
وأقبل منقاد العنان مذللاً ... تطامن متناه ودانت صوائله

يطاطئ للفاروق رأساً وتنحنى أمام سنا الملك المهيب كواهله

فهذا شعر — كما ترى — يملأ سمعك بقوة لفظه ، ويخلب لبك برقة جرسه ، ولكن انظر وتدبر . ألست معى على أن هذا المطلع إنما كان موضعه اللائق أن يكون فى التهنئة بفتح أو أي أمر عظيم يعز إدراكه ، وتبعد غايته ، ويطلب بالمجاهدة والمغالبة حتى يصح لشاعرنا أن يقول « وجلت يد الدهر الذى عز نائله » وأن يكون على حق إذ يصفه بأنه أقبل منقاد العنان يطاطئ الرأس للفاروق ؟ ثم ألست معى فى استنكار هذه الصورة الغريبة « النافرة » التى اقتنصها خيال الجارم بك ، وتحملها ذوقه وارتضاها تقديره ، فقدم الدهر لسنا الملك المهيب يمشى على أربع ، قد تطامن متناه ، ودانت صوائله ؟ ! لقد أنكر القدماء على الطائى قوله :

سأشكر فرجة اللب الرخى ولين أخادع الدهر الأبى

فاستقبحوا استعارة الأخادع للدهر ، وعدوها خارجة عن حد الاستعمال والعادة ، فكيف لو أدركوا الجارم يصور الدهر وله عنان ومتنان وصوائل ورأس وكواهل ؟ على أني أعرف أن علماء اللغة وإن اختلفوا فى تحديد الكاهل ، إلا أنهم اتفقوا على أن للشىء كاهلاً واحداً ، ولكن الجارم يصور الدهر وله كواهل كثيرة وهذا لا يصح إلا على تخريج بعيد إن جاز فى كتب الأزهر فلن يجوز فى الشعر

وبعد هذا المطلع « الذى رأيته » يتدفع الجارم فى تعداد سجايا الملك وإكبار فضائله ، ولا شك أن فضائل الفاروق — كما يقول الجارم — إنما يزدهى بها الشعر ، ويحيا بوصفها القريض ، وقد ذكر الجارم من فضائل الملك أول ما ذكر قوة العزم فقال :

يذوب مضاء السيف عند مضائه فما هو إلا غمده وحمائله

وهذا بيت قوى رائع يذكرنا لفظه ومعناه بقول المعرى :

يذيب الرعب منه كل عضب فلولا الغمد يمسكه لسالا

وبقوله :

فإن كان فى لبس الفتى شرف له فما السيف إلا غمده والحمائل

وأصل ذلك كله قول أبى تمام صاحب الجارم ودليله فى مدح المعتصم :

وجرد سيف الحق حتى كأنه من السل مودٍ جفنُه وحمائله

ثم يمضى الأستاذ الجارم فى الاشادة بالملك إلى أن يقول :

هو الأمل البسام رف جناحه فطارت به من كل قلب بلابله

وأحب لك أن تتأمل هذا البيت ، ففيه شعر ، وفيه روعة ، وفيه الحقيقة الصادقة ، ولكن الجارم أبى إلا أن يعيد معناه ضئيلاً فيقول :

ترى بسمة الآمال فى بسماته وتلمح سر النبل « حين تقابله »

ونعوذ بالله من « حين تقابله » فإنها ضعف من الضعف ، وكأن الجارم لم يكتف بهذا فانحدر بالمعنى إلى وضع أمثال وأمثال إذ يقول :

رأى فيك « هذا » الشعب آماله التى تمنى على الأيام وهى تماطله

وينتقل الجارم بعد ذلك فيصف الملك باعتدال القوام فيقول :

يفديه غصن الدوح ريان ناضراً إذا اهتز فى كف النسائم مائله

وجمع نسمة أو نسيم على نسائم خطأ من الأخطاء الشائعة التى يعنى بالتنبيه عليها أستاذنا الكبير ، وقد سبقنا أحد الأفاضل فأشار إلى هذا الخطأ فى عدد سابق من الرسالة

ثم يعود الجارم بعد ذلك كله فيكرر الإشادة بعزيمة الملك وطوله فيقول :

علاء تحدى الدهر فى بعد شأوه فمن ذا يدانيه ومن ذا يفاضله

ورأى كأنفاس الصباح وقد بدا تشف مجاليه وتهفو غلائله

وأنا أبقاك الله لا أفهم وجه الشبه فى قوله « كأنفاس الصباح » وقد كان الأنسب أن يقول : كأنوار الصباح حتى يلائم وجه الشبه ما جاء فى بقية البيت

ثم يقول الجارم بك :

رأى ملكاً يحيا القريض بوصفه فضائله جلت وعمت فواضله

رأى ملكاً يزهى به الدين والتقى شمائل أملاك السماء شمائله

رأى ملكاً كالنيل أما عطاؤه فغمر وأما المكرمات فساحله

وهذا شعر حسن ، غير أن الجارم لم يترك شيئاً من اللفظ والمعنى للطائى إذ يقول :

إلى قطب الدنيا الذى لو بفضله مدحت بنى الدنيا كفتهم فضائله

من البأس والمعروف والدين والتقى عيال عليه رزقهن شمائله

إلى أن يقول :

هو البحر من أى النواحى أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

وتأمل ياصاح قول الطائى « كفنهم فضائله » وقول الجارم « وعمت فواضله » ، ثم قابل بين قول الطائى « هو البحر » وقول الجارم « ملكاً كالنيل » لتعرف الفرق بين المحكى والصدى

ثم يقول الجارم :

حملت له الريحان أرفع « معصمى » إلى الملك الفرد الذى فاز آمله

وقدملأ الأنس الوجوه فأشرقت من البشر حتى كاد يقطر سائله

وكلمة « المعصم » كلمة ضعيفة لا تليق بالجارم الفحل ، ثم ما سائل البشر الذى يقطر ؟ لعله كماء الملام فى شعر أبى تمام

وبعد أن فرغ الجارم من مديح الملك أخذ فى مديح المليكة ، فذكر أن الفاروق قد تخيرها فريدة المجد والنبل والجاه ، ونسى الشاعر العظيم حقيقة السر في هـذا الاختيار ، ذلك الاختيار « الشعبى » النبيل الذى استنه الملك فؤاد وتبعه فيه الفاروق . وإذا غفل الشاعر عن هـذه الحقائق الجليلة التى هى حياة الشعر وروحه وعصبه ، خصوصاً فى مثل هذا الموقف التاريخى الحافل ، فما يكون شعره بعد ذلك ؟ !

وعلى هذا انتهى الجارم من قصيدته : مدح الملك والمليكة وزكى نفسه وشعره ، وكان كل ما عنده من حديث الزفاف تزاحم المواكب واحتشاد الناس ... فلننتظر فلعل الرجل يكون قد أبر وأوفى فى جارميته الأخرى ولعله يكون قد أدى بها حق الزفاف

(م . ف . ع)

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾

Lundi - 7 - 3 - 1938

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

6 me Année, No . 244

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٢٤٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٥ محرم سنة ١٣٥٧ — ٧ مارس سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

في حفلة أدبيـــة !

أدبت السيدة إيمى خير مأدبة لرجال الأدب ونسائه ، كانت على رأى من شهدوها مظهراً لذلك الأدب النَّغْل الذى يعييك أن تعزوه إلى وطن وتنسبه إلى أمة

تفرنس فيها المدعوون حتى حماة اللغــة والأدب ! بعضهم ملكته الحذلقة فاستكثر ظرفه وعلمه على اللغة العربية ، وبعضهم غلبته المجاملة فخاطب الأديبات بلغتهن ولغتهن الفضلى هى الفرنسية . وكان الذين يتعصبون للعربية أو يتأدبون بالانجليزية قلالاً قد انتثروا فى غمار الحفل أول ما دخلوا ؛ فلما أنكروا اللسان المتحدث بين القوم تراجعوا متزايلين مستوحشين إلى هامشه ثم طفقوا ينظرون بعين المتفرج المتعجب إلى جمعى المذكر والمؤنث وهما يضطربان فى الأبهاء والحجر على غير قياس :

هذا يمثل الباريسى اللبق فيسلك طريقته فى السلام ، ويتخذ لهجته فى الكلام ، ويسمُت سَمْتَه فى التظرف ؛ وهذه تمثل إحدى (عالمات) موليير فتتصنع المعرفة ، وتتكلف الذكاء ، وتقدِّر نفسها بالقياس الطويل والوزن الثقيل فيمالق الذكى ويصدق الأبله ؛ وهــذان يتضاحكان لحركة لاحظاها أو نكتة قالاها ، ثم يكتكتان فى الضحك ليلفتا إليهما السمع المشغول والنظر الغافل ؛ وهاتان تتحدثان ووجهاهما متقابلان ، ونظراهما متدابران ، وكل

منهما تبحث ذات اليمين وذات الشمال عن محدث أو معجَب ؛ وهؤلاء يتناقشون فى موضوع غريب بلسان غريب لم يوحه الوطن الذى نحيا به، ولا المجتمع الذى نضطرب فيه، ولا الأدب الذي نعيش له، وإنما أوحاه رأى فى كتاب أو مقال فى صحيفة جاء به البريد الأخير من البلد الذى استوطنوه بالفكر واستقبلوه بالعبادة!

حدثنى أحد الذين دُعوا إلى هذه المأدبة وهو أديب ظريف لا يعرف لغة هذا الصالون قال: كنت جالساً وراء القوم كأننى أحد (أولاد البلد) فى دار من دور السينما يشاهد فلماً فرنسيًا، فهو يرى ولا يعلم، ويسمع ولا يفهم، ولكنه مأخوذ بالمناظر التمثيلية التى تتقلّب على عينيه فيغيب وهو حاضر، ويحلم وهو يقظ. فإذا خشيت أن يلحظ الناس انقباضى عنهم بطول القعود قمت أتنقل بين المثنيات والجموع، فأجدنى أشبه بالأطرش فى الزفة، يرى الوجوه تنبلج، والشفاه تنفرج، والأيدى تتحرك، وهو شاخص البصر، مفغور الفم، لا يدرى ما الذى يشيع السرور ويبعث الضحك.

ثم جلستُ على مقربة من الأستاذ المازنى فرأيت ربة الدار تقبل عليه وتقدم إليه سيدة يقولون إنها من الأديبات النوابه. عرّفت إليها الأستاذ ونوهت بأثره فى الأدب ومكانه من النهضة، ثم تركتهما معاً وذهبت إلى غيرهما. وانتظر الأستاذ أن تتحدث إليه السيدة الأديبة فى قصة من قصصه أو فى رأى من آرائه، فيكون فى ذلك بعض الترضية للأدب العربى المهان فى بلده وبين قومه؛ ولكن السيدة الأديبة بدأت الحديث بهذا السؤال:

حضرتك من مصر ولاَّ من الشام؟

ولا أدرى أألقت على المازنى كلاماً فيه معنى أم ذَنوباً فيه ماء؟! فقد تخلص منها بلباقة وأقبل علينا يقول:

— وا ضيعتاه! أبعد ثلاثين عاماً قضيتها فى الأدب أكتب فى كل يوم مقالاً، وألقى فى كل أسبوع محاضرة، وأخرج فى كل سنة كتاباً، أجد فى المتعلمات بالقاهرة من تسأل: أمن الشام أنا أم من مصر؟!

* * *

هذه حفلة أقامتها صاحبتها الأديبة لصحابتها الأدباء، وقد رأيت وسمعت كيف كان حرص أدبائنا على اللغة، وإلى أين بلغ علم أديباتنا بالأدب. فهل تصدق أن يكون لهؤلاء أدب مستقل وهم ينكرون أن لهم لغة مستقلة؟ لا جرم أن هذا النوع من الأدب الحرام يزيف الأديب على أمته كما يزيفه على الأمم الأُخرى. وإذا جاز لأولئك السيدات الأديبات أن يلغَين بغير لغتهن، بحكم نشأتهن وطبيعة ثقافتهن، فكيف يجوز لأساتذة اللغة وزعماء الأدب أن يديروا فى أفواههم ذلك اللسان الأجنبى وما كانت قيمتهم فى الناس ودعوتهم إلى هذا الحفل إلا لأنهم يحذقون اللغة العربية، ويتزعمون الثقافة العربية؟!

إن من هوان نفسك عليك وإهانة جنسك فى الناس أن تتكلم غير لغتك فى بلدك وبين قومك من غير ضرورة ولا مناسبة؛ فإن ذلك إن دل على شىء فإنما يدل على عدم استقلالك فى خليقتك وعقيدتك ونمط تفكيرك وأسلوب عملك

هل تستطيع أن تدلنى على بقعة من بقاع الأرض غير مصر ولبنان يجتمع فى دور من دورها مجلس من مجالس الأدب يحضره لفيف من أساتذة الجامعة وجهابذة الأدب وأقطاب الصحافة، ثم لا يكون حديثهم إلا بالفرنسية، ولا يدور نقاشهم إلا على موضوعات أجنبية؟؟

يا قومنا إن لغة المرء تاريخه وذاته، فالغض منها غض منه، والتفضيل عليها تفضيل عليه، ولا يرضى لنفسه الضعة والصَّغار إلا مهين أو عاجز!

احمد حسن الزيات

تحيـــة شوبنهور

للأستاذ عباس محمود العقاد

— ٢ —

ختمنا مقالنا السابق واعدين أن « نطابق فى مقال آخر بين سيرة الرجل وفلسفته ، وبين العرض والجوهر فى هذه المطابقة »

وإنما رأينا ضرورة هذه المطابقة لأننا اعتقدنا أن كثيراً من القراء سيلمحون جانباً من التناقض الكبير بين دعوة الرجل وسيرته فى حياته : بين رجل يزدرى الحياة ويستمتع بلذاتها ، ورجل يقتضى مذهبه الزهد وهو يحرص على المال ، ورجل يهرب من الوباء وهو يبشر « بالنرفانا » والفناء ، ورجل عبوس الرأي مشرق الفكاهة

فمن المفيد ولا ريب أن نبين وجهة النظر التى نتجه إليها فى تعليل ذلك التناقض ، وأن نشرح التوافق الباطن فى هذا التناقض الظاهر ، وأن نقول إن مذهب الحرص ومذهب التشاؤم كلاهما يصدر عن منبع واحد ، فلا اختلاف هناك ولا غرابة من وراء الحجاب ، وإن بدا لنا الأمر على ظاهره مختلفاً جد الاختلاف مستغرباً جد الغرابة

كان شوبنهور إمام المتشائمين الساخطين على الحياة المستريبين بالناس ، المتوجسين من ضمائر الغيب

كان لا يسلم وجهه قط إلى حلاق مخافة أن يذبحه أو يجرحه ، وكان يغلق الأقفال على أدوات تدخينه مخافة أن تمزج بالسموم ، وكان ينام وإلى جانبه مسدساته محشوة مهيأة للإطلاق ، وكان لا يطيق معاشرة الناس ولا سماع الأصوات ، وكان يقول إن الحياة نقمة لا تحمد ومحنة لا تطاق

كان كذلك وكان يخاف الموت ويهرب من الطاعون ، فكيف يكون التوفيق بين هذا الفزع من الموت وذلك التشاؤم بالحياة ؟

هما فى الحقيقة شىء واحد !

فالمتشائم لا يتشاءم إلا لأنه شديد الإحساس بالخطر ، شديد الغلو والاغراق فى هذا الإحساس ؛ وليس مقتضى ذلك أن يطمئن إلى الأوبئة والأمراض ويركن إلى السرائر والنيات كما يلوح فى بادئ الرأى ، بل مقتضاه أن يفزع من النذر إذا كان غيره لا يفزع من الحقيقة الواقعة ، وأن يكتفى بالإيماء إذا كان غيره لا يكتفى إلا بالصيحة العالية ، وأن يهرب من الطاعون قبل أن يهرب منه المستريحون المطمئنون إلى العيش الواثقون بالمصير

وكان شوبنهور يبغض الحياة ويستمتع بلذاتها ، فكيف يكون التوفيق بين البغضاء والاستمتاع ؟

هما كذلك شىء واحد فى الحقيقة . فلولا أنه يحب الاستمتاع بها لما أبغضها ، ولولا أن الرجل يعرف لذة المعشوقة لما استعرت فى نفسه بغضاؤها حين يحال بينه وبين متعتها كما يشتهيها ، ولولا الإحساس المرهف لما كان الألم ولا كانت الحاجة إلى الترفيه عن النفس المتألمة بالاقبال على اللذات والتشاغل بالسرور ، فإنما اللذات هنا ترياق لا يحتاج إليه إلا من هو مريض فى المستشفى ، بل هو مرقد لا يحتاج إليه إلا من فارقه الرقاد ولازمه السهاد

وكان شوبنهور ينفر الناس من الدنيا ويحرص على ماله ولا يفرط فيه ، فكيف يكون التوفيق بين مذهب التنفير ودافع الحرص الشديد ؟

هما أيضاً شىء واحد فى بواطن الأمور

فالحرص على المال علامة فى بعض حالاته على الحذر الشديد من الناس ، وقلة الركون إلى الوفاء والإخلاص والمعونة من الأصدقاء والأقرباء ، فإذا افتقر إليهم فهو على يقين أنهم لا يسعفونه ولا يحفلون بما يصيبه ؛ وإذا نظر إلى المستقبل فهو على يقين أنه سيفتقر أو يستهدف للنكبات والمتاعب ، لعظيم خوفه من العواقب وإشفاقه من غدرات الحوادث ، وعلى قدر هذا الخوف وهذا الإشفاق يكون الحرص على المال الذي ينفعه حين لا ينفعه صاحب ولا قريب

وكان شوبنهور عبوس الرأى مشرق الفكاهة كثير التنكيت والتبكيت ، فكيف التوفيق بين الخصلتين ؟

لا ضرورة إلى الإطالة فى التماس التوفيق بينهما ، فهما متفقتان لا تتعارضان

فالمرهف الإحساس يتألم ، والمرهف الإحساس يفطن للفارق الدقيق بين طوايا الناس ودعاواهم ، وهذا — أي الفارق الدقيق بين الطوايا والدعاوي — هو ينبوع التهكم الذى لا ينضب

ومبعث الفكاهة ومادة «القفش» كما نقول فى لغتنا نحن المصريين والمرهف الإحساس من جهــة أخرى يشعر بالألم فيحتاج إلى الضحك والسخرية وعنده المادة موفورة كما أسلفنا ، فيتزود منها حيناً بعد حين بمــا يريحه إذا التمس الراحة ، وما يصول به على خصومه إذا تعاوروه بالإساءة والإيذاء ، وهو يتهمهم أبداً بأنهم يفعلون ذلك وإن لم يفعلوه

ومن راقب إخوانه وعشراءه عرف بالتجربة والمشاهدة أن النكتة المريرة أنفذ وأمضى وأدعى إلى المفاجأة من نكات المرح والخفة والمجانة ، ولا سيما إذا اقترنت بالذكاء الثاقب والخبرة الواسعة والاطلاع الموفور ، وكل أولئك كان من خصال شوبنهور ولوازم طبعه ، ولو ضعفت مرارته لضعفت فكاهته على خلاف المنظور فى ظواهر الصفات

وهكذا يؤدى بنا تطبيق المنطق على الخلائق الإنسانية إلى نقيض المتبادر من قريب ، فنستغرب الأمر لأول وهلة ثم نمضى قليلاً إلى ماوراء ذلك فإذا المستغرب هو المألوف ، وإذا المألوف فيما زعمنا أولاً هو الغريب البعيد

وخطأ أن يقال إن منطق العواطف غير منطق المعقول ... كلا ! بل هما منطق واحد فى جميع الحالات ، وكل ما هنالك أننــا لا نستحضر وجوه المقارنة جميعها إذا بحثنا فى ظواهر العواطف والأخلاق ، فإذا استحضرناها وجمعنا أسبابها فالحكم على كل حال لا بد أن يطرد ويستقيم

وهكذا نصنع إذا حكمنا فى قضية لها عشرون شاهداً من الجانبين ولم نسمع إلا خمسة شهود من جانب واحد . فهل يجوز لنا إذا اختل حكمنا أن نقول إن منطق القضايا المدنية أو الجنائية غير منطق المعقول ؟ كلا . بل نقول إن المنطق واحد لا تناقض فيه ، ولكننا نحن نسينا أسبابه وأغفلنا جوانب الحكم والمقابلة

من هنا يتبين لنا أن «شوبنهور» يعرض لنا صورة منسوقة من سيرته وفلسفته ، وأن شذوذه هو اللون الصادق فى جلاء تلك الصورة والموافقة بين أنوارها وظلالها ، وأنه ابن مزاجه وتكوينه فى كتبه وفى حياته ، كما كان ابن زمانه وأسرته وبلاده وما اختبره واطلع عليه

وما من رأى فى كتب الفيلسوف إلا وله مرجعه إلى حالة من حالات زمانه أو دخيلة من دخائل بيته ، فقد رأينا كيف علة سقوط نابليون أن العمل للإرادة وأن الارادة إلى فشل وحبوط . فهل من علة لتقسيم الارادة والذكاء بين الرجل والمرأة أو بين الآباء والأمهات ؟ أو هل من علة لحقده على جنس النساء وكراهته للنسل والزواج ؟

نعم . علة ذلك أن أباه كان من رجال الأعمال وقد مات مجنوناً وقيل إنه بخع نفسه بيديه ، وإن أمه كانت ذكية حصيفة تكتب الروايات وتنافس ابنها فى عالم التأليف ، وكانت تعيش بعد أبيه عيشة مريبة فاعتزلها ولم يرجع إليهــا بقية عمرها . فمن ثم كان اعتقاده أن الولد يرث الإرادة من الأب والفكرة من الأم ، وأن تمام الفكرة والإرادة فى الإنسان إنما يكون على هذا المنوال ، فيصبح وهو مثال الدنيا التى تنتهى من الإرادة إلى الفكرة إلى « النرفانا » وما يشبه الفناء

شوبنهور عجيب ، وأعجب ما فيه أن شذوذه كله يستقيم مع التعليل وتتفق فيه الظواهر والأسباب ، ويعرض لنا نموذجاً صادقاً لنقائض الأخلاق ، وهى فى باطن الأمر أقرب ما تكون إلى المألوف المطرد المنظور

عباس محمود العقاد

مظاهر داء الشعور بالحقارة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

من الأمراض الاجتماعية التى حققها المفكرون حديثاً ، مرضان نفسيان : الأول داء الشعور بالمظمة ، وقد يظهر بمظاهر المظمة أو بمظاهر التواضع المكذوب الذى ينم عن الكبر ؛ وداء الشعور بالحقارة، وهذا أيضاً يظهر بمظهرين مختلفين : مظهر التواضع المتناهى وتحقير النفس ، ومظهر التعاظم الذى يراد به ستر مايشعر به المرء من احتقاره لنفسه . وهذا الشعور قد يكون مؤسساً على أمور في العقل الباطن فلا يتنبه صاحبه إلى حقيقة أمره ولا يعرف أنه مريض بداء الشعور بالحقارة

وقد يختلط المرضان لأن كلا منهما يظهر إما بالتعاظم وإما بالتواضع ، ويغالى فى التعاظم أو التواضع ، ولكن تعاظم المصاب بداء الشعور بالمظمة يكون مقروناً بشىء من الاطمئنان والثقة . وقد يبلغ الاطمئنان مبلغاً يجعل صاحبه لا يدرك سخر الناس ؛ أما تعاظم المصاب بداء الشعور بالحقارة فهو تعاظم يساوره القلق وغطرسة تنتابها حُمّى الحقد والحسد ، فالخلط بين الداءين من هذه الناحية يدل على خطأ فى الاستقراء ونقص فى الخبرة وخطل فى التفكير . وكذلك الخلط بين تواضع المصاب بداء الشعور بالمظمة وتواضع المصاب بداء الشعور بالحقارة ؛ فالتواضع الأول مقرون بالثقة أيضاً ، ويظهر من ورائه اطمئنان صاحبه إلى عظم نفسه . أما تواضع المصاب بداء الشعور بالحقارة ، فهو تواضع يظهر من ورائه الحقد والحسد ؛ وليس من لوازم داء الشعور بالحقارة أن يجمل مظهريه مظهر التعاظم ومظهر التواضع فى رجل واحد في أوقات مختلفة . إنه قد يفعل ذلك ولكن كثيراً ما نرى أنه يختص رجلاً بالتعاظم وآخر بالتواضع ؛ وأكثر شيوع داء الشعور بالحقارة يكون فى الأمم التى لبثت عصوراً طويلة مغلوبة على أمرها ، ولا يهم التمييز بين أصحاب الغلبة فى تفسير نشأة هذا المرض الاجتماعى

وأكثر ضرر داء الشعور بالحقارة يكون إذا صال به وجال أناس قد بلغوا شيئاً من الجاه والمنزلة والثروة أو كانت لهم سلطة ، فان اقتران القدرة به والنفوذ والسلطة مفسدة وأى مفسدة . وكذلك إذا كان صاحبه قدوة لغيره ، فإنه يفسد النفوس بما ينشره هذا الداء الوبيل داء الشعور بالحقارة من الأحقاد والضغائن والأكاذيب والشرور والحقارة والفساد ، ولا تستطيع أمة أن ترقى إلا إذا تمكنت من اقتلاع جرثومة داء الشعور بالحقارة من نفوس أفرادها ، وإلا إذا عالجته فى مدارسها علاجاً نفسياً صحيحاً باطلاع الطلبة والتلاميذ على حقيقة نتائجه ، فإن نتائجه قد تظن محمدة واعتزازاً بالنفس ، أو قد تظن غير ذلك على حسب مايظهر به داء الشعور بالحقارة من المظاهر سواء مظاهر المظمة التى يساورها القلق والحقد والحسد أو مظاهر التواضع التى تساورها هذه الأمور أيضاً . ومن الحكمة جمع الشواهد والأدلة وتفسيرها ، فالغيبة والنميمة مظهران من مظاهره ولاشك ، لأن منشأهما الرغبة فى الإستعلاء بوسائل غير مشروعة يتخذها من يشعر في نفسه بالعجز عن أسباب الاستعلاء الفاضلة لتمكن داء الشعور بالحقارة من نفسه ، وكذلك حب الظهور من شواهد هذا الداء وأدلته ولو كان ظهوراً يؤدى إلى ضياع الثروة والعقارات والفدادين . ومن شواهده الولوع بالفكاهة اللاذعة للسخر حتى بالغرباء ، كل هذه محاولات من المرء أن يقهر شعوره بحقارة نفسه وأن يقنعها بأنه أفضل من غيره . ومن شواهد داء الشعور بالحقارة أيضاً عدم احترام حدود الحق والواجب ، لأن العظيم حقاً يجد من عظم نفسه الحقيقى ما يسليه عن الفشل فى نيل أمر تمنع من نيله حدود الحق والواجب ، أما الذى يشعر فى نفسه بداء الحقارة ، فإنه يرى فى طمس حدود الحق والواجب زيادة فى قدرته وعظمته وشفاء لما يشعر به من ألم الحقارة أو لما يتحسسه فى أعماق العقل الباطن من هواجس هذا الداء إذا كان صاحبه لا يدرك حقارة نفسه أو لألم الحقارة وهواجس العقل الباطن معاً . ومن شواهد هذا المرض وأدلته أيضاً الامتعاض من لباب الأمور ، فإن صاحبه يكره اللباب المحض الصريح لأنه يشعر أنه يبرز عجزه ويهتم للبهرج المزيف لأنه براق خادع ولا يكلف ما يكلفه اللباب . وليس من الضرورى أن يكون المريض بداء الشعور بالحقارة غبياً أو بليداً . وهذا الشعور بالحقارة قد يعظم فى نفس صاحبه حتى أنه قد يدفعه إلى الاثم والجرم الشنيع . وقد يصير جنوناً أو شبه جنون وحتى تصبح نفس صاحبه كالمفرزات القذرة التى يتصاعد منها الذباب الكثير الألوان ، فمن ذباب أزرق وذباب أصفر وآخر أسود وغيره أحمر إلى آخر أنواع هذا الذباب الذى ينبعث من الأقذار . وقد

يعظم داء الشعور بالحقارة فى نفس صاحبه حتى كأنما يخيل له أن الأرض لا تستطيع أن تحمل ثقل شعوره بحقارة نفسه وهى هي الأرض التى حملت الجبال وحملت الناس والحيوانات حتى الحيوانات الهائلة التى اندثرت قديماً ؛ وهى الأرض التى حملت طوفان نوح وفلكه المشحون وحملت حماقة الناس وآثامهم وغباوتهم وجهلهم من عهد سيدنا آدم ، وحملت الأرض كل هذه الأشياء ولكن كأن المسكين يخشى أن تلك الأرض نفسها ربما لا تستطيع أن تحمله وأن تحمل ثقل شعوره بحقارة نفسه . وهذا الشعور بالحقارة مما يزيد الحياة مرارة وألما . وله عدوى في بعض البيئات مثل عدوى الأمراض الجثمانية المعدية . ومن درس التاريخ عرف أن الأمراض النفسية تكون لها فى بعض الأحايين عدوى مثل عدوى الأمراض الجثمانية المعدية . أو لعل تلك الأمراض النفسية تكون مصحوبة بأمراض عصبية كمرض (الهستريا) . وقد شوهدت عدوى تلك الأمراض النفسية وشوهد وباؤها بصفة خاصة في عصور الانقلاب الفكرى والاجتماعى والاقتصادى وفى عصور الكوارث الطبيعية الكبيرة والثورات والحروب ، ولكنها تظهر فى شكل أقل شدة وحدة فى حياة الناس اليومية

وداء الشعور بالحقارة قد يصيب الغبي كما يصيب الذكى ، وقد يصيب الوضيع المنزلة كما قد يصيب الرفيع المنزلة الذى ارتفع بعد ضعة أو ارتفع أبوه أو جده بعد ضعة أجداده . وهو فى أشد حالاته يكون مصحوباً بجنون خلقى لا يميز صاحبه الخير من الشر ، ولكن ليس كل جنون خلقى يكون مصحوباً بداء الشعور بالحقارة

والشواهد على وجوده كثيرة ؛ فالوضيع الذى يتعالى ويتعاظم مصاب به ، والرفيع المنزلة الذى تصيبه حمى إذا رأى ميزة فى إنسان أو استضعفه وحاول القضاء عليه بوسائل تنجيه من العقاب والمؤاخذة . ومثله مثل الفلاح الذي يسلط الأشقياء على الناس لسبب تافه أو لغير ما سبب إلا حب الأذى وحب الظهور . وقد عرفنا أناساً من هـذا القبيل يصابون (بالسادزم) نسبة إلى الكونت دى ساد الفرنسى الذي كان مصاباً بداء التلذذ بالتوحش والقسوة . فترى أن داء الشعور بالحقارة فى أشـد حالاته يكون مصحوباً بالجنون الخلقى وبجنون التلذذ بالتوحش والقسوة . وسنحصى بعض شواهد هذا المرض فى مقال آخر

عبد الرحمن شكرى
المفتش بوزارة المعارف

من برجنا العاجي

طالما جلست فى صباى ساعات طويلة أتأمل قوافل النمل تسير على الحيطان . وكنت أحياناً أدنو منها وأصيح بأصوات مدوية ، فما يبدو عليها أنها سمعت شيئاً ؛ فالنظام هو النظام ، والخطى هى الخطى ، والتجارة الضخمة المحمولة على الأعناق : وهي جناح « صرصار » كبير ، مازالت تتهادى مطمئنة فى طريقها إلى عاصمة المملكة المتيدة داخل ذلك الثقب البارز فى أسفل الجدار . وكانت الجيوش قد قاربت المدينة ؛ وخرجت جيوش أخرى تستقبل القادمين وتحمل عنهم بعض العبء . وكأن الجميع فى فرح وحركة ولغط لا يصل صداه إلى مسامعى الغليظة ؛ كما أن أصواتى الراعدة لا تبلغ آذان تلك المخلوقات الدقيقة . فحدثتنى النفس أن أحدث حدثاً فى تاريخ هـذه « البشرية » الصغرى ، فأتيت بكوب من ماء وصببت مما فيه على القوافل الظافرة . ولبثت أنظر إلى الكارثة فى ابتسام ، فإذا شمل الجيوش قد تمزق ، وإذا الذعر قد دب فى الجموع . ولكن الفلول سرعان ماعادت تحمل « التجارة » من جديد فى حرص المستميت . عند ذلك أقصيت الكوب وقد تحرك قلبي وقلت في نفسى : إن هـذه المملكة ولا ريب تأخذ الآن عبثي على سبيل الجد ، وأنها ولاشك تحسب ماحدث الساعة ظاهرة من ظواهر الطبيعة القاسية . فما هذا عندها إلا سيل العرم ، أو طوفان هائل ، أو قضاء هبط من السماء . وتأملت لحظة شأننا نحن « البشرية » الكبرى ، وقلت : من أدرانا أنا لسنا أحسن حالاً من هذا النمل ؟ ومن أدرانا أن ما نسميه ظواهر جوية وطبيعية من زوابع وأمطار وزلازل وبراكين ليس إلا عبث مخلوقات أخرى ذات أحجام وصفات لانستطيع لها تصوراً ؟ ومن أدرانا أن ليست فى هذا الكون أصوات هيهات لآذاننا الصغيرة أن تدرك وجودها ؟ لم لا نكون نحن أيضاً نملاً أرق من هذا النمل وأحط من نمل آخر من جوهر آخر لا نعرف ماهو ؟ إن الله لأعظم مما نظن ؛ وإن حواسنا لأقل إدراكا لما فى الكون مما نتخيل !

توفيق الحكيم

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٢ —

... وبكّرت إلى منزل ليلى بكور الندى لأدعوها إلى شهود حفلة الافتتاح . فوجدت الشقية فى الفستان المصرى الفضّاح الذى زارت به معرض القاهرة فى ربيع سنة ١٩٢٦ ، وكان يجب على ذلك الفستان أن (يذوب) بعد أن (ذابت) به أكباد وقلوب ، ولكنها حفظته تذكِرةً لحبها الأول ، الحب المشئوم الذى أورثها الضنى والذبول ، الحب الذى عجز عنه الأطباء والذى أجاهد فى خلاصها منه بحب أقوى وأعنف ، إن كانت الصبابات القديمة أبقت فى عزيمتى ذخيرة للجهاد .. وقد اهتاجت الغيرة فى صدرى حين رأيت ذلك الفستان فكدت ألطم ليلى على خدها الأسيل . ثم تراجعتُ حين تذكرت أن بلواها من بلواى . وهل كان حبي فى بغداد أول حب حتى أنتظر أن تحبنى ليلى أول حب ؟ إن المسكينة تعرف أن طبيبها من قدماء المحاربين ، وتعرف أنه لم يحمل النظارة إلا بعد أن تعبت عيناه من نضال العيون . فليكن أنسها بحبي أنس الجريح بالجريح ، ولتفهم أني أشفيها من جواها لتشفيني من جواى

وقديماً قال الشاعر :

يا خليلىّ والرفيق مُعينٌ ... أسعفانى ببعض ما تملكانِ
أبتنى آسياً فقد عِيل صبرى ... من توالى الوجيب والخفقانِ
أبتنى صاحباً تولّه قبلى ... وشجاه من الجوى ما شجانى
فلقد يُسعف الجريح أخاه ... ويواسى الضريب فى الأحزانِ

***

وبعد تناول ما تيسر من الصَّبوح خرجنا فى سيارة إلى بهو أمانة العاصمة ، فترجلت عند باب المعظَّم لتدخل وحدها ، ومضيت أحمل آمالى وآلامي ، فلما وصلت إلى مدخل البهو اعترضنى أحد الضباط قائلاً : سيدى ، هذه الحفلة خاصة بالأطباء . فقلت : وأنا طبيب ليلى . فابتسم وقال : تفضل ، تفضل

وسألت بعد ذلك عن الرجل الشهم الذى أفسح الطريق لطبيب ليلى فعرفت أنه السيد سليم محمود معاون مدير شرطة السير والمرور ، وسيحدثنا الضابط عبد الحسيب فيما بعد أن الغرام بالأدب من أظهر صفات الضباط بالعراق

وكانت ليلى تعرف أن طبيبها يكره أن تأخذها العيون ، فنظرت فى أماكن السيدات فلم تجد أصلح من جيرة السيدة التى تنطق أساريرِ وجهها بأصدق معانى الكرم والنُّبل ، عقيلة الرجل الشهم الذى يمثل المروءة المصرية فى العراق

أما أنا فأخذت مكانى بين الدكتور عُسَيران والدكتور عَلاَّوى .

وكنت — مع الأسف — ذهبت إلى الحفلة وأنا أضمر الشر للأستاذ على الجارم ، فقد كـتِب فى منهاج الاحتفال أنه « شاعر مصر » وأنا أبغض الألقاب الأدبية . فلما وقف ليلقى قصيدته لم أصفق ، وأعديت مَن حولى بروح السخرية فلم يصفقوا ، ولكن الجارم قهرني وقهر الحاضرين جميعاً على أن يدموا أكفهم بالتصفيق .

وغاظنى أن تصفق ليلى لشاعر يرى بحكم منصبه أنه رئيسى ، لأنه كبير المفتشين بوزارة المعارف المصرية . ولولا حكم الأقدمية لكنت الرئيس وكان المرءوس ، ولكن ماذا أصنع وقد سبقنى إلى الأستاذية بأعوام طوال ؟

وأنا والله أظلم نفسى بهذا الكلام ، فما أذكر أبداً أنى حقدت على إنسان . وما أذكر أبداً أنى عرفت معانى الحسد والضغن إلا على الدهر المخبول الذى يتسفل فيرفع الأدعياء . وقد هجمت على شاعرنا الجارم عدة مرات ، وحاربته فى وزارة المعارف يوم رأى زميلى الأستاذ أبو بكر أن يكتب فى نشرة رسمية أنه أمير الشعراء . وقد عرف الجارم خطر ما أصنع ، فكان هو أيضاً يحاربنى فى مكتب تفتيش اللغة العربية ؛ ولولا سماحة الأستاذ جاد المولى بك لكانت النتيجة أن أعيش بين المفتشين بلا صديق

فيا أيها العدوّ المحبوب الذى اسمه على الجارم ، تذكر أنك كنت حقاً وصدقاً شاعر مصر فى المؤتمر الطبي العربى ، وستمر أجيال وأجيال ولا ينساك أهلِ العراق

وهل تعرف مصر أنك رفعت رأسها فى العراق وأنك كنت

خليفة شوقى فى المعانى وخليفة حافظ فى الالقاء ؟

إننى أطلب المستحيل حين أطلب من مصر إنصافك . وهل أنصفتنى مصر حتى تنصفك ؟ هل أنصفتنى مصر وكنت مجنونها وكانت ليلاى ؟

يرحمنى الله ويرحمك ، فعنده وحده جزاء المجاهدين

* * *

وعند نهاية الاحتفال دعوت ليلى للتسليم على سعادة العشماوى بك ، وسعادة على باشا ابراهيم ، وفضيلة الشيخ السكندرى

أما العشماوى بك فسلّم تسليما خفيفاً ، سلم تسليم «المتباهين» ليظهر أنه أكبر من أن يفتنه الجمال ، والعشماوى بك « يتباله » فى جميع الأحوال ، وقد درسته حق الدرس ، فعرفت أنه يحمل كبداً أرق من أكباد المحبين ، ولكن له قدرة عظيمة على « التباله » فمن الذي علّمه هذا الأسلوب ؟

وقد حقدت عليه ليلى ، فليعرف سعادته أن غضب ليلى سيحل عليه ، وسيرى عواقب ذلك فى الأيام المقبلات !

أما يخِفُّ وقارُك مرة ياعشماوي بك ؟ اتق الذوق إن لم تتّق الجمال !

وقد قهقه الشيخ السكندرى حين رأى ليلى وقال : كنت والله أحسبك تمزح يا دكتور زكى ، وما كنت أظن أنك جئت حقيقة لمداواة ليلى المريضة فى العراق

والشيخ السكندرى معذور ، فهو يظن أن العشق انتهى من الدنيا بعد قيس وليلاه ، وأن النـاس لم يعودوا يحبون غير الملوخية الخضراء !

أما الدكتور على باشا إبراهيم فنظر إلى ليلى نظرة الأرقم وقال : ما أستطيع الحكم بشفاء ليلى إلا بعد أن أفحصها بنفسى

ورأت ليلى أنى غضبت فقالت : إنى أحترم رأى سعادة رئيس المؤتمر الطبى ، ولكنى أفضل الموت على الحياة فى سبيل الأدب مع طبيبى الخاص

ولم أرد أن تطول اللجاجة بينى وبين رجل كان رئيس اللجنة التى أديت أمامها الامتحان النهائى فى كلية الطب ، فأخذت بذراع ليلى وانصرفت

وأراد سعادة العشماوى بك أن يترضانى فرفضت ، لأنى كنت أعرف ما يريد . وهل كان يريد غير إيناس عينيه بوجه ليلى ؟ إطْلَع من « دُولْ » يا سعادة الوكيل !

وفى الطريق سألتنى ليلى عن العشماوى بك ، وقد ساءها أن يتلقاها بوجه صامت التقاسيم ، فشهدت عند ليلى بأنه رجل فاضل ، وأن جوده فى حضرتها لم يكن جمود استهانة ، وإنما كان جمود تعقُّل ، والرجال الرسميون يغلب عليهم التعقل فى أكثر الأحيان !

فهل يعرف سعادة العشماوى بك أننى ذكرته بالخير فى حضرة ليلى ؟

لا أمُنُّ عليه ، فهو يستحق ذلك ، وأكثر من ذلك

* * *

وفى مساء ذلك اليوم أرادت ليلى أن تحضر مي فى الحفلة التى أقامها فخامة رئيس الوزراء ، فقاومتها مقاومة شديدة ، وكانت حجتى أنها ستكون من الحفلات التى يختلط فيها الحابل بالنابل ، وأنه ليس من العقل أن تتعرض ليلى لأنظار اللثات من الناس ، وفيهم الفاضل والمفضول

وكنت على حق فى منع ليلى من حضور حفلة المساء ، فهى امرأة محجوبة عن المجتمع منذ سنين ؛ وسيكون مَثلها حين ترى اختلاط الرجال بالنساء مَثل العين الرمداء التى تواجه الشمس بعد أن حجبها الطبيب عدة أسابيع فى الظلام ، ولكنها ألحت ، ثم انتقلت من الالحاح إلى التوسل ، ومن التوسل إلى البكاء ، والمرأة أقوى ما تكون حين تنتحب ، فتخاذلت وقلت فى نفسى : لعل هذه اللجاجة تعود عليها بالنفع ، ولعلها حين ترى تسامح المجتمع الحديث لا ترى غضاضة فى أن أغازلها حين أشاء

ولكن هذا الخاطر تبدّد فى مثل لمحة الطرف ، فأنا أعرف أن وزير المعارف من علماء النجف ، وهو بالتأكيد يكره سفور المرأة ، وإن ساير العصر فأباح اختلاط الجنسين فى المعاهد العالية . ومن المحتمل أن يكره ظهور ليلى فى المجتمع بلباس السهرة . ومالى لا أقول الحق كله فأقرر أن أهل العراق فى النجف وغير النجف ينظرون إلى سفور المرأة بعين الارتياب ؟ مالى لا أذكر بصراحة أن أكثر وزراء العراق يكرهون حضور زوجاتهم فى الحفلات الساهرات ؟ مالى لا أنص — للحقيقة والتاريخ — على أن

وزراء العراق أكثرهم من رجال الجيش ، والجيش يطبع أبناءه على الخشونة والصرامة والعنف ، وأنهم لأجل ذلك من أغير الناس على كرامة ربات الحجال ؟

وأخيراً أعلنتُ ليلى بالرفض المطلق ، فأغربت فى البكاء والشهيق

غضبة الله عليك يا ليلى وعلى جميع بنات حواء !

ورأيتُنى مع الأسف طفلاً فى حضرة هذه المرأة ، فقد استبكتنى فبكيت

ومع ذلك جمعت أشلاء عزيمتى وأصررت على الرفض

وعندئذ تدخلت ظمياء وهى تقول : هل لك أن تسمح بأن تخرج ليلى معك فى ثياب فتًى من الأعراب ؟

فكدت أطير من الفرح لهذا الاقتراح الطريف ، ومضت ظمياء فأحضرت ملابس ابن عمها عبد المجيد ، فلبست ليلى بسرعة البرق ، وخرجت معى

ولكنا ما كدنا نخطو بضع خطوات حتى تنبهت إلى الخطر المخوف ، فقد تذكرت أن ليلى وهى فى ثياب الفتى البدوى لن تقضى السهرة كلها فى صمت ، وهل يمكن لامرأة أن تسكت ؟ وليلى تملك صوتاً هو فى ذاته من كبريات الفضائح ، وقد نصحت فيما سلف على أن لصوتها رنيناً مبحوحاً لم تسمع مثله أذناى على كثرة ما تذوقت من ُبغام الملاح

فالتفت إليها وقلت : ليلى ، ليلاى ، اسمعى واعقلى ، فإن صوتك سيفضحنا فى الحفلة

فقالت : أتعهد بالصمت المطلق

فقلت : وكيف ؟ وهل أضمن السلامة من واغل سخيف يسلم علىّ عمداً ليظفر منك بتحية ، فتكون نبرة واحدة من صوتك المقتول نذيراً بمواصف الفضائح ؟

ولنفرض أنك تلزمين الصمت ويلزم الناس الأدب فكيف تخفين هذه المشية ؟

إن مشيتك ياليلى فضيحة ولو لبست ثياب الجاحظ ، والسامرون ينظر بعضهم إلى بعض ، وأنت ستخطرين حتماً بين السامرين ، وما أضمن أن يتأدب الجميع فلا تطرق سمعك كلمة نابية أقع بسببها فى معركة تطنطن بها الجرائد فى مصر والشام والعراق

إعقلى يا ليلى ، إعقلى ...

ولكن اللئيمة لم تسمع ، ومضت تخطر فى الطريق ، فلطمتها لطمتين ورجعتها صاغرة إلى البيت ، فودّعتنى وهى تقول : سلمت يداك ، فإنى أحب الرجل البطاش

* * *

دخلت الاحتفال فوجدته يموج بالطرابيش فتهيبت وتخوفت وانتظرت حتى يأخذ المدعوون أمكنتهم من السماطين ، لأتخيّر مكاناً ليس فيه طرابيش . ولا أدرى ولا المنجم يدرى كيف أخاف الطرابيش ! وربما كان السبب في ذلك أنى أريد أن أحيا فى الحفلة حياة سعيدة ، وهى لا تكون كذلك إلا إن خلت من التوقر ، وما يمكنني أن أخرج على التوقر فى حضور المطربشين . وهل لبست السدارة إلا لأنجو من عنجهية المطربشين ؟

عفا الله عن مصر ! فقد قتلت ما فى صدرى من شاعرية بفضل ما درجت عليه من التزمت والجمود

ولكن أين أجلس على المائدة ؟ أين ؟ أين ؟

الحمد لله ! هذا مكان يزدان بعمامتين من وطن سيدنا عمر ابن أبى ربيعة رضى الله عنه ، وكان عمر بن أبى ربيعة من المجاهدين الذين قال فيهم جميل :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة — وأى جهاد غيرهن أريد
لكل حديث عندهن بشاشة — وكل قتيل بينهن شهيد

ومن مزايا سيدنا عمر بن أبى ربيعة أنه وُلدَ فى الليلة التى مات فيها سيدنا عمر بن الخطاب . وقد اشترك هذان القرشيان فى الجهاد ، فكان ابن الخطاب يغزو الممالك والشعوب ، وكان ابن أبى ربيعة يغزو الأفئدة والقلوب

وأريد أن أقول إن عمر بن أبى ربيعة لا بد أن يكون ترك فى الحجاز بعض التقاليد الصالحات ، وقد أجاز له القرشيون أن يقول :

نظرت إليها بالمحصَّب من مِنًى — ولى نظر لولا التحرج عارمُ

ولا يمكن أن يكون النظر إلى امرأة فى المؤتمر أخطر من

النظر إلى امرأة فى المحصَّب ، وما جاز فى مكة وهى بلد حرام لايمنع فى بغداد وهى بلد حلال

وكذلك اطمأننت على المائدة كل الاطمئنان

ولكن ما هذه المفاجآت ؟ أرانى لا أخرج من مأزق إلا وقعت فى مأزق

هذه عمامة ثالثة ، وهى من نوع خطر ، لأنها عمامة وزير المعارف ...

ونظرت فرأيتني فرغتُ من التهام الحساء ، وتغيير المكان بعد ذلك باب من السخف

وما الذى يخيفنى من وزير المعارف وهو من كبار الشعراء ولا يخلو شاعر من صبوات ؟

ما الذي يخيفنى من جيرة شاعر سليم الذوق مثل معالى الأستاذ محمد رضا الشبيبى ؟

يخيفنى أنه أديب صار وزيراً ، وحياتى امتلأت بالأكدار والأوحال بفضل صحبتى لرجل أديب صار من الوزراء . وأنا فى هذه المذكرات لا أتجنى على أحد ، وإنما أسجل صور المجتمع. وكان فى مصر أديب يعطف على أدبى أشد العطف ، فلما صار وزيراً فسد حالى عنده أشد الفساد . كان فى حاله الأول يقول : زكي مبارك شاب يجيء منه ؛ وكان فى حاله الثانى يقول : مذهب زكى مبارك فى الأدب سيفسد عشرة أجيال

وقد تعبت فى تعليل هذه الظاهرة النفسية ، ثم اهتديت إلى أن الأدباء الوزراء يهمهم أن يصححوا مراكزهم فى المجتمع ، ذلك بأن المجتمع يتوهم وهو خاطىء أن الأدباء يستبيحون من ألوان الحياة ما لا يستبيح ، فالأديب حين يصير وزيراً يضيّع وقته فى تصحيح مركزه الذى جرّحته أوهام المجتمع ، فينقلب إلى رجل متحرج متكلف لا يعوزه غير عمامة عجراء ليصبح شيخ الأزهر أو نقيب الأشراف

وكنت خليقاً بأن أعلل النفس بأن ما أخافه فى مصر قد لا أخافه فى العراق

ولكنى تذكرت حكاية الثعلب الذى همّ بالرحيل عن مصر فى سنة ١٩١٦ فقد سألوه : لماذا تهاجر يا أبا الحصين ؟ فقال :

« ألم تعلموا أن السلطة العسكرية قررت جمع ما فى مصر من جمال ؟ فاعترض عمدة الباجور وقال : وهل أنت جَمَل ؟ إنما أنت ثعلب . فقال الثعلب وهو يحاور حضرة العمدة : إلى أن يثبت أنى ثعلب لا جَمَل أكون ضِعت

وكذلك أخشى أن أضيع قبل أن يثبت أن العقلية العراقية تباين العقلية المصرية . وعلى أساس هذا المنطق جلست على المائدة فى غاية من الأدب والاحتشام . وأنا رجل يزدان بالأدب فى قليل من الأحيان

***

ولكن معالى وزير المعارف ستشغله ألوان الطعام عن مراقبة ما يصنع زكى مبارك ! !

وهل كنت مغفلاً حتى تفوتني هذه الحقيقة الأولية ؟

انتظرتُ حتى علَتْ قعقعةُ الشوكات والملاعق والسكاكين وأرسلت بصرى فرأيت امرأة تحادثنى عن بُعد بعينين ترسلان أشعة العذوبة والحلاوة والرفق

ورأيت الفرصة سانحة لدراسة هاتين العينين لأضع عنهما فصلاً فى كتاب (سحر العيون) الذى شرعت فى تأليفه منذ أعوام . وحضور هاتين العينين زاد اقتناعى بفوائد المؤتمرات ، ولا سيما المؤتمرات الطبية ، وسأكون بإذن الله عضواً فى جميع المؤتمرات لأجد الموادّ الشائقة لكتاب (سحر العيون)

ورأت المرأة أنى أسأت الأدب فصوبتْ سهام عينيها لتقتلنى ، ولكنها لم تفلح ، فقد حاربتنى قبل ذلك عيون وعيون ثم نجوت . ولو كانت العيون تقتل حقيقة لكان لى ضريح يزوره العشاق فى باريس

فإن سأل قارىء هذه المذكرات عن جوهر هاتين العينين فأنى أجيب بأنهما توحيان الحب ، ولا توحيان الاثم . وسأعيش ما أعيش وأنا أتشوف إلى تقبيل قدمى هذه المرأة التى سحرت المؤتمر وهى فى سذاجة الأطفال . وربما كنت أول من نظر إليها بعين الطُّهر والعفاف . ولو كنت مثّالاً لاشتريت الساعة بألف دينار لأضع منها تمثالاً يفضح تمثال أفروديت . وليتها تعرف ذلك فيستهويها حب المال ، لأنى لن أفرغ من صب تمثالها

فى أقل من عامين . وعلىّ عهد الله أن أقنع منها بما يقنع السارى من بدر السماء

قلت فيما سلف إني رجل مفضوح النظرات . وكذلك وقعتُ ، فلم تمض لحظات حتى تنبه زوجها إلىّ ، فما كان يسير بها إلا وحوله جيش من المعارف والأصدقاء ليصدّ غارة الآثم والفتون

وماذا يهمنى ؟ إنه يتوهم أنى سأحاول مع زوجته ما حاوله عمر بن أبى ربيعة مع زوجة أبى الأسود الدؤلى فى الطواف ، ولكنه مخطىء ، فأنا بالتأكيد أحسن أخلاقاً من أستاذى عمر ابن أبى ربيعة ، وأنا قد تفوقت على أساتذتى فى أشياء كثيرة ، منها هذا الشىء . أنا أَجِدُّ وعمر كان يمزح ، وهل ترك ابن أبى ربيعة غير أشعار ملوّثة بالمجون ؟ أما أنا فسأترك بعون الله ورعاية الهوى ثروة فلسفية تشرح ما استبهم من أسرار الجمال

سيعادينى هذا الزوج وسأعاديه ، ولكنى سأعرف كيف أتقى شره فأدرس عَينىْ زوجته من بعيد بحيث لا يجرؤ على اتهامى بالفضول

وأسارع فأقرر أنى اشتركت فى جميع الحفلات والرحلات لأستطيع التمكن من دراسة هاتين العينين ؛ واستعنت بالدكتور محمد صبحى بك فى تحديد ما خفى علىّ من الدقائق البصرية ، ولم يبق إلا شىء واحد هو الوطن الذى تسرح فيه هذه العيون ، فكيف أصل إلى ذلك وزوجها بالمرصاد ؟

انتظرت وانتظرت ، ثم انتظرت ، إلى أن جمع بيننا زحام المرقص بعد ثلاث ليال ، فدنوت منها فى خفية وقلت :

tu m'oublieras un jour !

فقالت فى عبارة تجمع بين العتب والرفق : « دخيلك ، دخيل الله ، اتركنى لحالى ! »

فعرفت أنها من بنات عمنا القديم دماشق بن قانى بن مالك ابن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام

رباه ! أنت تعلم ما نعانى فى سبيل الحقائق الأدبية والذوقية والفلسفية ، وتعلم أن الناس لا يجزوننا بغير العقوق ، فاغمرنى بلطفك واكتبنى عندك من الصادقين

***

وأعود إلى حفلة رئيس الوزراء فأقول إنها كانت في غاية من الجفاف ، فلم يشرب فيها المدعوون غير أقداح الماء القراح . وقد تشاكى السامرون بعضهم إلى بعض ، وعرف أحد الأطباء ما فى نفسى فقال : هل سمعت تصريح معالى أمين العاصمة ؟ فقلت : لا . فقال : إنه يقول إن هذه الليلة من ليالى مكة ، وأنه سيرينا فى مساء الغد ليلة من ليالى بغداد

وطاش صوابى فمضيت أبحث عن أمين العاصمة لأسجل عليه الوعد ؛ فرأيته يحادث رجلاً عرفت فيما بعد أنه وزير المالية ، فما كاد يرانى حتى قال : أنا أفتش عليك يا دكتور مبارك

فقلت : وأنا أفتش عليك يا معالى الأمين . ولكن قبل أن أخبرك لماذا أبحث عنك ، أسألك لماذا تبحث عنى ؟

فقال : كنت أحب أن أوجه نظرك إلى وجوب خلع السدارة فى السهرة

فقلت : وأنا لا أخلع السدارة لأنى أكره أن أعطيها أدب القُبَّعَةِ

فقال : ولكن نحن اصطلحنا على خلع السدارة فى المجتمعات

فقلت : هذا غير صحيح ، فقد رأيت عشرات من النواب يحملون السدائر فى حضرة جلالة الملك وهو يلقى بنفسه خطاب العرش . ورأيت ثلاثة من النواب يخطبون وهم مسدَّرون . وزرت معالى رئيس مجلس النواب في بيته فكان يحمل السدارة وهو فى غرفة الاستقبال . والصحف تنشر صورة جلالة الملك مسدراً وهو يقرأ الفاتحة على قبر أبيه

فقال : قلت لك إننا اصطلحنا على خلع السدارة فى المجتمعات

فقلت : وأنا أرى الشواهد التى قدمتها كافية لإقناعك بوجوب التسامح فى هذا الاصطلاح

فقال : أنت أستاذ وأعمالك قدوة ، وأخشى أن أقول إنك تعطل ما نسعى إليه من جر الشعب إلى المدنية

فقلت : وأنا أخشى أن تجروه إلى الحيوانية

فظهر الغضب على وجهه وقال : ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟

وعرفت أن الموقف سيسوء فأسرعت إلى تحديد ما أريد وقلت : أقول يا معالى الأمين إن الانسان هو الحيوان الوحيد

الذى يغطى رأسه ، وما عداه من الحيوان لا يعرف تغطية الرأس . وكذلك أحكم بأن كشف الرأس يقرب الانسان من الحيوانية

فأخذنى من يدى وانتحى ناحية وقال : كيف تقول أمام معالى وزير المالية إننا حيوانات ؟

فقلت : معاذ الأدب أن أقول ذلك ، وإنما شرحت المسألة من وجهة علمية ، فقررت أن الانسان هو الذى يغطى رأسه من بين سائر الحيوان

فقال : ولكنك على كل حال جرحتنى ، فان كنت جاداً فلتعلم أنه لا يستطيع أحد فى العراق ولا فى مصر أن يخاطبني بمثل هذا الكلام . وإن كنت مازحاً فاسمح لى أن أصارحك بأن للرجل أن يمزح ، ولكن ليس له أن يخرج على الذوق

فقلت : ما كنت جاداً ولا كنت مازحاً ، وإنما كنت أقرر حقيقة علمية

فقال : يظهر أن ما سمعت عنك صحيح

فقلت : وماذا سمعت ؟

فقال : سمعت وقرأت أنك رجل مشاغب ، ومن واجبى أن أنبهك إلى أنى سحبت منك الدعوة لحضور السهرة المقبلة

فقلت : ذلك ما لا تملك

فقال : ستعرف أن ذلك مما أملك

وانصرف وانصرفت

***

ورجعت إلى منزلى مُبَلْبل الخواطر وأنا أقول : هذا ذنب ليلى ، هذا جزاء من يخالف ليلى ، فلو كانت ليلى معى فى السهرة لغُفِرت جميع ذنوبي ، فقد علمتنى التجارب أن الرجال الذين لهم زوجات سوافر تُقضى لهم مصالح لا تُقضى لأمثالنا أبداً ، نحن المحافظين المغفلين الذين يجهلون خُلق الزمان

أيستطيع أمين العاصمة أن يحجبنى عن ليلة بغداد بعد أن أضعت من العمر ما أضعت فى التغنى بتاريخ بغداد ؟ أفى الحق أنه أعرق منى لأنى من مواليد مصر وهو من مواليد العراق ؟

سترى يا أمين العاصمة أينا أقرب إلى قلب بغداد ، وسترى فى الليلة القادمة كيف تلقانى وألقاك

(للحديث شجون) زكى مبارك

بين الوطنيـــة والأممية

للأستاذ ساطع بك الحصرى

مدير الآثار بالعراق

تتمـــة

يجب أن تتفكك أوصال الأوطان الموجودة وتنحل الروابط الوطنية الحالية ... يجب أن تزول كل هذه الروابط التى تجمع « العمال وأصحاب رؤوس الأموال » فى كل وطن تحت لواء واحد ، وتفرق بين العمال الذين ينتسبون إلى دول وأوطان عديدة ... يجب أن تترك هـذه الروابط الوطنية محلها إلى رابطة جديدة مؤسسة على أساس الطبقات ... بهذه الصورة وحدها يتم النصر للنظام الشيوعى فى كل العالم ، وبهذه الصورة وحدها تتم سيادة العمال ورفاهتهم ...

هذه هى — على وجه الإجمال — أهم الآراء التى تدلى بها « الشيوعية الأممية » فى أمر النزعات الوطنية ...

إن هـذه الدعاية الشيوعية كانت تقوم على عواتق بعض الأفراد والجمعيات ، حتى زمن الحرب العالمية ...غير أن الشيوعيين تمكنوا — فى أواخر الحرب العالمية — من الاستيلاء على مقاليد الحكم فى دولة من أعظم دول العالم ، وأسسوا فيهـا نظاماً شيوعياً ... وهذه الدولة الشيوعية — أى روسيا السوفيتية — أخذت على عاتقها مهمة الدعوة إلى الشيوعية فى كل أنحاء العالم ، وصارت تقوم بهذه المهمة بكل ما لديها من وسائط مادية ومعنوية ، من أموال وافرة إلى تشكيلات منتظمة ...

إن آلام الفقر وآمال الرفاهة التى تستولى على نفوس العمال من جهة ، والدعاية الخلابة التى تقوم بها روسـيا السوفيتية — مستندة إلى تشكيلات واسعة النطاق ومحكمة الترتيب — من جهة أخرى ... قوّت النزعة الأممية الشيوعية فى بعض البلاد ، وأقامت بهـذه الصورة أمام النزعة الوطنية عدواً جديداً خطراً جداً ...

والنزعة الوطنية لم تتقاعس عن العمل تجاه هذا العدوّ بطبيعة الحال . إنها أخذت تناضل الشيوعية بحزم شديد وقوة كبيرة ،

فانتصرت عليها فى بعض البلاد ، كما فعلت النازية فى ألمانيا والفاشية فى إيطاليا ... غير أن النضال لا يزال سجالاً بين النزعتين ، مادة وجهاراً ، كما فى أسبانيا ، أو معنى وخفية — كما فى عدد غير قليل من سائر البلدان

فيجدر بنا أن نتعرف إلى أوجه هــذا النضال من قرب ، وبشىء من التفصيل :

إن الانقلاب الصناعى الذى بدأ فى أوائل القرن الأخير — والذى لا يزال يستمر إلى الآن — زاد فى فروق الثروة بين الناس زيادة هائلة ، وأوصل مشاكل المعيشة إلى درجة لم يسبق لها مثيل ... لا شك فى أن هذا التطور المظيم الذى حدث فى الحياة الاجتماعية كان يتطلب نظرات وأنظمة حقوقيــة جديدة تضمن للــكل حق الحياة والعمل بالعدل الذى يقتضيه هذا التطور العميق .

غير أن الحكومات لم تقدر خطورة هــذه الأوضاع حق قدرها ، فلم تقدم على سن القوانين الضرورية لمالجتها ... وذلك أفسح مجالاً أمام أصحاب رؤوس الأموال للاستبداد بحيــاة العمال بدون تأمل ، وللاسترسال فى استغلال أتعابهم بدون إنصاف ... وهذه الحالة ولدت الاشتراكية التى أخذت تطالب الحكومات بوضع حد لهذا الاستبداد ، وسن قوانين جديدة تثبت حقوق العمل وتضمن إنصاف العمال ، وتمنع تضخم رؤوس الأموال على شقاء الآلاف بل اللايين من العمال ... غير أن الحكومات قاومت فى بادئ الأمر الحركة الإشتراكية ومطالبها مقاومة شديدة ، وهــذه المقاومة أدت إلى حدوث سلسلة ثورات واعتصابات عنيفة كما أدت إلى تفرع الاشتراكية إلى فروع ومذاهب متنوعة . فاختلفت لذلك المذاهب الاشتراكية اختلافاً كبيراً من المعتدلة إلى المتطرفة ، ومن الوطنية إلى الأممية

إن الشيوعية هى « الطريقة المتطرفة » التى قامت لمعالجة قضية العمل على أساس هدم كل شىء يقف حجر عثرة فى سبيلها ، ولم تتردد فى إدخال « الوطنيــة » أيضاً فى عداد الأمور التى لا لزوم للتمسك بها .. حتى أنها أوصلت المغالاة إلى درجة القول بأن الوطنية أيضاً من المؤسسات التى يجب هدمها ...

وأما المذاهب الاشتراكية الأخرى ، فإنها تسعى إلى معالجة المشكلة دون أن تسترسل فى تضحية المؤسسات الاجتماعية وهدمها ، ودون أن تتهاون فى « الوطنية » فتقدم على مخالفتها ...

فإن « الاشتراكية الوطنية » — مثلاً — تقول بأن الحياة الصناعية تحتاج إلى معالجة جدية ، غير أن هذه المعالجة يجب أن تبقى دائماً داخل نطاق الوطنية ... إن للعمال حقوقاً طبيعية يجب أن ينالوها ، غير أنه يجب أن يعرفوا — فى الوقت نفسه — أن هناك أمة يجب أن يخدموها ، ووطن يجب أن يعتزوا به ، ودولة يجب أن يعتمدوا عليها ... ولأصحاب رؤوس الأموال أيضاً حقوق يجب ألا يفقدوها ، غير أنه يجب أن يعرفوا هم أيضاً أن هناك أمة ووطناً ودولة ، وأن الأموال التى تحت حيازتهم لم تتكون وتتجمع إلا بفضل مساعى العمال وبفضل أعمال الدولة التى تضمن الأمن العام ، وتنشىء المرافق العامة . فللدولة والأمة والعمال أيضاً حق فى هذه الأموال . فعلى الحكومة أن تتولى بنفسها تنظيم العلائق بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال على ضوء هذه الأسس ؛ عليهــا ألا تترك هاتين القوتين وشأنهما تتنازعان ، وعليها أن تعمل كل ما يمكن عمله لجعل هاتين القوتين متآزرتين كما تقتضيه مصالح الأمة والوطن ...

فنستطيع أن نقول بهذا الاعتبار إن الاشتراكية الوطنية السائدة فى ألمانيــا تكون قطباً معاكساً للشيوعية الحاكمة فى روسيا ... وأما النظم النقابية المؤسسة فى إيطاليا فهى أيضاً تقف فى هذه القضية بجانب الاشتراكية الوطنية موقفاً معاكساً لموقف الشيوعية ...

فإن الشيوعية لا تبالى بالوطنية ، وتدعو إلى الأممية ؛ فى حين أن النازية — مثــل الفاشية — تتمسك بالوطنيــة وتعارض الأممية ...

إن عنصر الأمميــة الذى يدخل فى تكوين الشيوعية هو الذى يجعلها خطراً على كيان سائر الدول ، ويضطر الأحزاب الوطنية فيها إلى مقاومتها بشدة ، ومناضلتها بعنف ... لأن البلشفية لا تهدد كيان الدول والأمم من جراء احتمال إقدامها على شن الغارة عليها بواسطة حملات عسكرية ترسلها من وراء حدودها فقط ... بل تهــدد كيان الدول والأمم فى داخلها

من جراء الدعايات التي تقوم بها بين أهليها ، وبواسطة التشكيلات التي توجدها بين أبنائها ...

وهذا الذي يجعل النضال بينها وبين معارضيها عنيفاً جداً ...

ماذا يجب أن يكون موقفنا نحن — أبناء العرب — من هذا النضال المنيف ؟ بين هذه المذاهب الاجتماعية المتضاربة ؟

أولاً — يجب أن نلاحظ قبـل كل شيء أن المشاكل التي نعانيها نحن أبناء العرب تختلف اختلافاً كبيراً عن المشاكل التي تعانيها تلك البلاد ؛ فمن الخطأ أن نفكر في اقتباس نظام من تلك النظم على علاته ... غير أن موقف هذه النظم المختلفة من النزعة الوطنيـة والقومية يجب أن يدلنا على النظام الذي يجب أن نتباعد عنه كل التباعد ، ونحذر منه كل الحذر ...

ويجب علينا أن نلاحظ في الوقت نفسه ، أن الأضرار التي تنجم من الاصغاء إلى الدعاية الأممية لا تكون متساوية في كل البلاد ، بل إنها تزداد وتنقص ، نظراً إلى ضعف النزعة الوطنية والقومية السائدة في البلاد أو قوتها

تصوروا الأمة ناهضة متحدة متصفة بشعور قوى عميق ، ونزعة وطنية شديدة ، قد تأصلت الوطنية والقومية في نفوس أبنائها حتى أنها دخلت في طور الافراط والتعدى ، فصارت تحمل القوم على التوسع على حساب غيرها عن الأمم . لا شك في أن رياح النزعة الأممية إذا هبت على النفوس في مثل هذه الأمة لا تستطيع أن تجتث شجرة الوطنية من جذورها ، فلا يتعدى تأثيرها حدود بعض الاضرار الطفيفة من نوع إسقاط الأوراق أو كسر الأغصان ... إن انتشار فكرة الأممية بعض الانتشار بين أبناء تلك الأمة لا يزعزع بناء الوطنية زعزعة خطرة ، وكل ما يعمله ينحصر في كسر ثورة الافراط ، وتخفيف أطماع التوسع والاستعمار ...

ثم تصوروا أمة — بعكس تلك — متأخرة في حضارتها ، متفرقة في سياستها ، مترددة في وطنيتها ، استيقظت من سبات عميق في عهـد قريب ؛ فلم يمض على يقظتهـا الوقت الـكافى لاختمار الفـكرة القومية في نفوس أبنائهـا ، فلم يتم بعد « تكوّن الشعور القوى » و « تأصل النزعة الوطنية » في تلك النفوس . لا شك في أن تأثير الرياح « الأممية » على أمة كهذه الأمة يكون خطراً جداً ، لأنه يوقف اختمار الفكرة القومية في بدء عملها ، ويحول دون تكوّن الشعور القوى العام في بدء عهده ؛ ويميت تباشير النزعة الوطنية الحق قبل أن تتأصل في النفوس ..

إنني أعتقد بأن نظرة واحدة إلى حالة البلاد العربية والأمة العربية — على ضوء هذه الايضاحات — تكفى دلالة قطعية على أن انتشار النزعة الأممية — ولو قليلا — يكون مضراً جداً ، بل مهلـكاً وقتالاً بالنسبة إلى أبناء الضاد ...

فينبغي علينا أن نبـذل أقصى الجهود لمنع تسرب النزعة الأممية إلى النفوس في جميع الأقطار العربية

هذا ، وقد لاحظت أن بعض الشبان ، في مختلف البلاد العربية ، يخلطون بين قضية السياسة الخارجية وأمر النظم الداخلية خلطاً غريباً . فكثيراً ما يتساءلون خلال مناقشة مثل هـذه المسائل : أية دولة أكثر مطامع في البلاد العربية ؟ هل لروسيا مطامع استعمارية في البلاد العربية ؟ ألم يكن خطر الاستعمار الايطالى أكبر من سائر الأخطار ؟

إننى أعتقد أن وقوف هذا الموقف تجاه المسائل الداخلية والاجتماعية لا يتفق مع منطق السياسة والاجتماع ، لأن علائق الدول الخارجية لا تتأسس على أشكال نظمها الداخلية . فالدول تتفق أو تتخاصم حسب منافعها ، دون أن تنظر إلى مشابهة أشكال إدارتها أو مخالفتها . فقد رأينا — مثلا — خلال الحرب العالمية أن فرنسا اتفقت مع انكلترا وروسيا ، مع أنها كانت جمهورية ، في حين أن انكلترا كانت ملـكية دستورية وروسيا القيصرية كانت من الحـكومات الاستبدادية . وقد انضم إلى هذه الدول الثلاث ، خلال الحرب العالمية ، عشرات من الدول الأخرى على اختلاف نزعاتها في السياسة الداخلية

فيجب علينا أن نعتقد كل الاعتقاد بأن اعتناق أى مذهب اجتماعى لا يخلصنا من الأخطار المحدقة بنا ، كما أن عدم اعتناق أى مذهب من المذاهب الاجتماعية لا يعرضنا إلى أخطار خارجية غير الأخطار التي تحيط بنا ...

فعند ما ننعم النظر في أمر صلاح أو عدم صلاح النظام الشيوعى لبلادنا لا يجوز لنا أن نبنى أحكامنا على سياسة إيطاليا أو روسيا في الأمور الدولية بوجه عام ، أو في أمور البلاد

العربية بوجه خاص ... بل يجب أن نفكر فى صلاح أو عدم صلاح هذا النظام بالنظر إلى أحوالنا الداخلية فقط ...

وربما كان وضع الدولة التركية تجاه هذه المسألة من أحسن الأمثلة وأقطع الأدلة فى هذا الباب

تعلمون أن تركية مدينة بشيء كثير من حياتها الآن إلى أوضاع روسيا السوفيتية ... لأن الدولة الروسية كانت عدوة تركيا التاريخية حتى نهاية الحرب العالمية ... غير أنها بعد أن تبلشفت تركت عداءها القديم ، بل بعكس ذلك أخذت تسند الدولة التركية ضد الدول الأوربية ، وصارت تساعدها بكل الوسائط الممكنة ، وفعلاً أمدتها بالأموال والأسلحة والعتاد خلال مناضلاتها الاستقلالية ، وحافظت على هذه السياسة نحوها منذ ذلك الحين . فتركية كانت أول دولة تصادقت مع روسيا السوفيتية ، وهى لا تزال من أخلص أصدقائها ... وهى مع كل هذا من أشد أعداء البلشفية ، وهى تطارد وتعاقب بشدة كل من ينتسب إلى الشيوعية أو يقوم بدعاية للشيوعية ... وروسيا البلشفية لا تزال صديقة تركية ، بالرغم من مخالفة الأخيرة للنظم البلشفية فى أمورها الداخلية ...

هذه حقيقة واقعية ... وكثيراً ما يصادف المرء فى الصحف التركية عدة فصول فى وصف حفلات التكريم التى تقام للوفود الروسية ... وبجانب هذه الفصول عدة فقرات تذكر أخباراً متنوعة عن محاكمة الأشخاص الذين سجنوا لانتسابهم إلى الشيوعية ، وعن الأحكام العقابية التى صدرت عليهم من المحاكم المختصة

فلا بد لي أن أذكر فى هذا الصدد كلمة مشهورة قالها أحد عظماء فرنسا خلال مناقشة برلمانية ، قبل مدة تزيد على نصف القرن : كان « جول فرى » من أبطال الفكرة العلمانية فى فرنسا . حارب الكهنوتية أشد المحاربة ، ووضع القوانين التى تحدد ساحة عمل رجال الدين تحديداً كبيراً ، وسعى طول حياته إلى حرمانهم حق فتح المدارس والاشتغال بالتربية والتعليم ... ومع كل ذلك لم يتوان عن مساعدة رجال الدين فى الأعمال التى يقومون بها خارج فرنسا ... حتى أنه لم يتردد أحياناً فى مساعدة أعمال الإرساليات التبشيرية بالوسائط الدبلوماسية أو بالقوة العسكرية ... فقد اعترض البعض على هذه السياسة المتناقضة ، واستنكروا حماية أعمال رجال الدين فى خارج فرنسا فى نفس الوقت الذى كانت تمنع فيه هذه الأعمال داخل فرنسا ... فصعد « جول فرى » على المنبر وقال كلمته المشهورة : إن عداوة الكهنوت ليست من الأمتعة التى يجوز تصديرها إلى الخارج ...

وأراد أن يقول بذلك : إن عداوتنا للكهنوت يجب أن تبقى من خصائص سياستنا الداخلية وحدها ... وهذه العداوة يجب ألا تمنعنا عن الاستفادة من رجال الدين فى سياستنا الخارجية فى أمر توسيع نفوذنا خارج فرنسا ...

إننى أعتقد بأن الوقائع والحقائق التى سردتها لكم لا تترك مجالاً للشك فى أن كل من يقول بوجوب اعتناق المذهب الشيوعى لدفع أخطار دولة أو لاسترضاء أخرى يكون قد سلك مسلكا لا يقره « منطق الحقائق » بوجه من الوجوه ...

فعلينا أن ننظر إلى القضية فى ذاتها كمسألة داخلية صرفة مجردة عن كل الاعتبارات الخارجية فنسأل أنفسنا : هل يجوز لنا أن نصغى إلى نداء الأممية الشيوعية أم لا ؟ ...

إننى أعتقد أن وضع المسألة على هذا الشكل الواضح لا يترك مجالاً للتردد فى الجواب اللازم لها ...

فقد قال أجدادنا :

بلادى وإن جارت على عزيزة وأهلى وإن ضنوا علىّ كرام !

أعتقد أن هذا القول يتضمن أحسن وأبلغ الأجوبة على نظرية الأممية الماركسية ...

لا أود أن أقول - بذلك - إنه يجب علينا أن نترك الأمور على حالها ، فلا نفكر فى إزالة الجور عن أفراد الأمة ... بل أقول - بعكس ذلك - يجب علينا أن نبذل كل الجهود لإصلاح الأحوال وإزالة الجور بأعظم ما يمكن من السرعة ... على ألا نخرج فى أعمالنا وتدابيرنا عن مقتضيات الوطنية ، وأن نعتقد فى كل حين : أن الوطن قبل كل شيء وفوق كل شيء ...

ساطع الحصرى

فلسفة التربية

تطبيقات على التربية فى مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١١ —

« التربية مهمة دينية ورسالة مقدسة »

« هربارت »

« من يدير المدرسة يوجه مستقبل الأمة »

« بسمارك »

« أم المسائل فى مصر مسألة التربية والتعليم ، فلو أن كل مصرى وضع فى تشييدها لبنة لأقمنا للوطن صرحاً يبقى ما بقى الزمان »

« الملك فؤاد » (١)

١ — اليوم والغد

رأيت فيما سلف ضرورة الفلسفة للتربية ، وتبينت الكثير من تلك « الأصول العامة » التى تقيم عليها الأمم الديمقراطية الحديثة تربيتها الصالحة وتعليمها السليم . والحق أن ذلك كله لم يكن غير مقدمة عامة أحببت أن أمهد بها لنقد التربية والتعليم فى مصر وطننا المحبوب . فلعلك قد وعيت ما قدمتُ وتود صادقاً أن ترى إلى أى طريق نحن مسوقون ، وأين نحن من تلك الأصول وهاتيك الفروع . ولعلك تشعر معى أن مثل ذلك الموضوع خطير كل الخطورة ، ودقيق كل الدقة ، لأنه وحده بيت الداء ومناط الرجاء ، وأننا محتاجون فيه إلى كثير من الصراحة وسعة الصدر حتى نستطيع أن نشخص الداء على حقيقته ، ونقرر الدواء الناجع والعلاج الصحيح ! ثم لعلك ترى أننا اليوم فى عصر جديد يتطلب منا تربية خاصة تحقق الأمل فى توطيد الديمقراطية وصون الاستقلال ، وبعث المجد القديم ، وتزعم الشرق الحديث ، وإعلاء القومية إزاء مطامع الطامعين ، ومسايرة الحضارة جرياً وراء قفز المتقدمين ... ! أجل ، ولعلك قد استطعت أن تتبين أن نهضتنا الحديثة ما تزال مشوبة بضعف فى الخلق والتواء فى الشخصية ، وضيق فى العقل وانحلال فى الشعور ، وأننا قد أصبحنا مهددين بثورتين جارفتين وقانا الله شرهما : إحداهما ثورة المتعلمين العاطلين ، والأخرى ثورة الجاهلين القانعين ...! أجل ؛ ولعلك قد استطعت أن تدرك أنه لا سبيل إلى تحقيق شىء من هذه المشروعات الاجتماعية الإصلاحية الكثيرة التى يقترحها المقترحون ، إلا إذا كوّنا أولئك « الرجال البواسل » الذين نستطيع أن نعهد إليهم حقاً بمباشرة تنفيذها ، لأن نفوسهم قد تهيأت بالفعل لها وآمنت بها ... وأن الدولة التى تنفق على التربية والتعليم كثيراً وتخصهما بأعظم عنايتها تحيط نهضتها بكل أسباب القوة والنجاح ، وتوفر على نفسها من الجهود والمشقات ، والأموال والاضطرابات ، مالا أول له ولا آخر (١) ...

لعلك إذن تعرف ذلك كله ، وتود حقاً أن تعلم أين نحن وإلى أين نسير ؛ وتعجب كل العجب من إغفال الأحزاب السياسية فى هذا البلد لقضية التربية والتعليم كجزء من برامجها لا يتجزأ ، وكخطة فى الإصلاح جوهرية لها فلسفتها المعقولة وحدودها المرسومة (٢) ، وكوسيلة لتحقيق الأمانى القومية تغنى عن التشريع المزعزع ، وتمهد لنتائج وأحوال مضمونة كل الضمان ومؤكدة كل التأكيد .. !

أجل ! ولعلك تعجب كذلك من ندرة البحوث التى يقدمها الكتاب والمحاضرون الرأى العام فيما بين الآن والآخر متعلقة بذلك الشأن ، ودائرة على الخصوص حول التجريح وإظهار العيوب ! ! كأنما الموضوع مقدس لا يجوز الاقتراب منه ! أو كأنما هو ضئيل الشأن فى حياتنا المادية والمعنوية فلا ضرورة للاهتمام به ! ! أو كأنما هو سر من أسرار الدولة لا داعى لإشراك الرأى العام فيه ! !

أجل ، ولعلك تقول معى الآن إن النهضات الكبرى التى

---

(١) من حديث جلالته رحمه الله تشرف بسماعه منه الأستاذ العمروسى وورد فى أول كتاب « فى التربية والتعليم » للأستاذ

(١) فمثلاً نشر التعليم بين الطبقات الفقيرة يقلل فيها الجرائم والأمراض فتقل بالطبع نفقات المحاكم والمستشفيات والسجون ... ومثلاً بناء منازل صحية للقرويين قبل غرس مبادئ الصحة فيهم لا يؤدى إلى أكثر من استبدال بيت ببيت ! !

(٢) تحررت ألمانيا من بطش فرنسا عن طريق إصلاح مدارسها وانتصرت إنجلترا فى الحرب العظمى عن طريق ملاعبها ! !

ازدانت بها صفحات التاريخ لم تقم إلا على أساس من النقد الذي هدم البالي وأقام الجديد ، وأننا في نهضتنا وظروفنا الحاضرة محتاجون كل الاحتياج إلى هذا النقد الحر النزيه ، وإلى سعة في الصدر تسمح به وتشجعه وتقابله بالكثير من الهوادة والرفق ، وتصفح عما قد يتعرض له من خطأ وشطط ... !

قالوا ومازالوا يقولون : لنستر العيوب لنستر العيوب ! وأقول ومازلت أقول : وماذا بعد ستر العيوب ؟ وما جدوى السير في طريق شائك نهايته تعسة إذا كانت القافلة التي تسير فيه هي قافلة الأمة ؟ ؟ على أني لست أذهب في التشاؤم إلى هـذا الحد فأدعي أن تعليمنا شائك كله ونهايته تعسة كلها ؟ ! بل إنه لمن الخير أن أسجل بمداد الفخر أننا قد بدأنا نلمس الضعف منذ أعوام ونعمل على إصلاحه ، فراحت وزارتنا تطلب رأي الخبيرين ، وراح أحد وزرائنا يكتب بنفسه في التعليم الثانوي ، وأقيمت بالفعل مدارس جديدة ، وأدخلت إصلاحات مهمة وخطيرة . هـذا إلى ما يُدرس الآن تمهيداً لاعتماده وتنفيذه... وتلك ولا ريب باكورة طيبة تذكر بالشكر لرجال المعارف ويرجى منها خير جزيل . وما دام الأمر كذلك فلا مندوحة لنا كرجال تربية من معاونة الوزارة في مهمتها بتقديم آرائنا وتجاربنا وكل ما نملك من قول أو فعل يحقق للوطن أمانيه وينجيه من عيوبه وأمراضه ...

فترى ما هي هذه العيوب وتلك الأمراض ؟ كل منا يستطيع أن يذكر الكثير من ذكرياته كطالب ومن تجاربه كمعلم ، وكل منا يستطيع أن يقرر أن ماضينا كطلبة ملئ بألوان من التربية لاتتفق وتلك الأصول التي قدمناها في كثير ولا قليل ، ولا تصلح إلا لأن تكون ذكريات مرة فيها ما يضحك ويبكي ويؤلم ويؤسف[1] ، وكل منا يستطيع أن يقرر أن حاضره كمعلم مشوب بأساليب من النقص بعضها هين يسير وبعضها ثقيل عسير . ومن اشتغل منا « بالتعليم الحر » أو درسه عن كثب يستطيع أن يقدم للقراء قصة فيها من المآسي والفواجع ما يثير التقزز والاشمئزاز ويبعث على الأسف والرثاء[2] ؛ ولقد كنت أعد نفسي

(١) وحسبك أن تذكر هنا العصا والحبس وغيرهما خصوصاً إذا كنت قد أمضيت صباك في غير مدارس الحكومة

(٢) ولا وجود بالطبع لمثل هذه القصة في الجمعيات المحترمة التي لا تبغى الربح بقدر ما تبغى خدمة الأمة . وقد شربت بنفسي الكأس المرة في إحدى الجمعيات « الأخرى » وأطمع أن أعرض على القراء في الفرصة المناسبة قطرات منها ليعلم من يريد أن يعلم أهي جمعية للدين ونبل الأخلاق أم هي عصابة لسلب المال عن طريق مستور !!

وأنا — أكتب مقدمتي للقراء — لمثل هذا النقد البرئ ، فوقعت في يدي رسالة حديثة صغيرة بالانجليزية لأحد أساتذة المعهد[1] وهو الدكتور « جاكسون » ، تناول فيها بعض نواحي التربية في مصر بالنقد الحصيف والاقتراح الصائب ، فأعجبت بها كل الاعجاب ، وشعرت أنها قد ذكرت الكثير مما كنت أريد وزادت عليه ، ولذلك لم أر بداً من تلخيصها والتعليق عليها وتقديمها لقراء العربية كنظرة عامة جادت بها قريحة انجليزي خيِّر خدم التربية في مصر ودرسها عن كثب ، وأبى إلا أن يرد لهذه البلاد العزيزة فضلها عليه بشئ من النقد والإرشاد

فإلى اللقاء إذاً حيث نستعرض هذه النظرة ونتبعها بأخرى .

وإلى اللقاء حيث أسمعك ما قد يصلني من إجابات حضرات رجال التعليم من مفتشين ونظار ومعلمين على الأسئلة الآتية :

١ — ما هي أهم عيوب التربية المصرية في العصر الحاضر ؟

٢ — وما هي الأغراض التي يجب أن تتوخاها التربية المصرية حتى تحقق للوطن أمانيه الجديدة ؟

٣ — وماذا يروقك في ماضي التربية وحاضرها ؟[2]

« يتبع » محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

(١) معهد التربية

(٢) أكون شاكراً كل الشكر إذا تكرم حضرات رجال التربية بردود مختصرة على هذه الأسئلة

محنة الآنسه « مي »

للأستاذ عبد الله مخلص

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

عزيزي صاحب الرسالة

سلام الله عليك ورحمته . وبعد فقد ذكرتم في العدد ٢٣٨ من (الرسالة) الغراء تماثل النابغة الآنسة (مى) زيادة من مرضها الذي لازمها نحو عامين ، وبشرتم أهل العلم والفضل بهذه البشرى التي أثلجت الصدور وأقرت الأعين ، فقمتم بعملكم هذا بحق الأدب عن كل أديب جزاكم الله خير الجزاء

ولكن قارئ هذا الخبر يظن أن الآنسة (مي) كانت حقيقة مريضة في لبنان وأنها الآن في دور النقاهة ، مما يخالف الواقع ويسدل ستاراً كثيفاً على المأساة التي أراد بعض من لا أخلاق لهم أن يمثلوها ويحولوا بين هذه العبقرية وبين ما كانت تنثره من الدرر الغوالي وتبديه من الأفكار النيرة وتخدم به المجتمع العربي

وأظنكم لا تضنون على قادرى قدر (مي) وعارفي فضلها بإزاحة ذلك الستار الأسود عن تلك النفوس المريضة والوجوه السود التي قذفت بأرق شخصية أدبية في المارستان ثم بالمستشفى تحت جنح الظلام ومنعتها من الاختلاط بالناس فجعلوا منها ميت الأحياء

وعلى هذه العقيدة أكتب للرسالة الغراء — لا لك ولا لي ، ولكن للحقيقة والتاريخ — عما أصاب (مى) من المصائب ، وانتابها من النوائب ، في خلال السنتين المنصرمتين حتى عادت شبحاً من الأشباح تنقم على البشرية الظالمة وتعتب على جيرانها الأقربين ، وخصوصاً سيدات العرب اللائى انتصرت لهن في كل مواقفها . وإلى القارئ العزيز فصول هذه المأساة وله أن يحكم بنفسه في أي عصر من عصور المدنية نحن ؟ وما هذا الذى يجرى في معاهد العلم والفن من المآسى والمخازى التي تشيب لهولها الولدان وتضطرب الأفئدة ؟

لا شك في أن كل أديب وأديبة في لبنان ومصر وفلسطين وسورية والعراق وجميع بلدان العرب يعرفون فضل (مي) على النهضة العلمية عامة والنهضة النسائية خاصة ، ولكنهم ربما لا يعرفون أين نبتت هذه الزنبقة العطرة ، فرأينا أن نقتضب من سيرتها ما يجب معرفته

الآنسة مى هى مارى ابنة المرحوم الأستاذ إلياس زيادة من عرمون غزير في لبنان الذى كان مسقط رأسها ومنبت غرسها كما كانت مصر التى انتقلت إليها مهبط أنسها ومهوى نفسها

وهناك في بلد العلم في العالم العربى بدأت حياتها المجدية المفيدة فنشرت كتاب باحثة البادية [1] وهو بحث انتقادى طبع سنة ١٩٢٠ ثم عززته بثان وثالث هما ابتسامة ودموع أو الحب الألماني طبع سنة ١٩٢١ ، وكلمات وإشارات وهو يحتوي على خمس عشرة خطبة ألقتها في مناسبات مختلفة وهو أول كتاب جمعت فيه خطب سيدة شرقية عربية وقد طبع سنة ١٩٢٢

ثم كتاب بين الجزر والمد ، ودمعة وابتسامة ، وظلمات وأشعة ، وقد طبعت جميع هذه الكتب في سنة ١٩٢٣

ثم كتاب الصحائف الذى طبع سنة ١٩٢٤ وكتاب سوانح فتاة والمساواة ، غير الأبحاث الناضجة والآراء الاجتماعية الصائبة التي كانت تنشرها في المجلات والصحف حتى وصلت إلى درجة كانت جريدة الأهرام الكثيرة الأنصار الواسعة الانتشار تفتح لرسائلها صدرها وتجعلها أولى مقالاتها

ومما يدل على علو منزلة الآنسة (مى) أن بين الذين قرظوا كتابها (المساواة) الأمير شكيب أرسلان فكتب له المرحوم الدكتور يعقوب صروف أحد صاحبي المقتطف رسالة جاء فيها ما يلى :

« والمساواة مقالات نشرت أولاً تباعاً في المقتطف ثم جمعت وطبعت كتاباً على حدة فراقنى جداً وصفكم له ، وأرجح أنها لم تترجم شيئاً ترجمة لأنها تتكلم مى في كل الموضوعات الأدبية والفلسفية كما تكتب ، فإنها قوية الذاكرة إلى حد يفوق التصور ، وقد قرأت كثيراً من الكتب في اللغات التي تحسنها : الفرنساوية والانكليزية والايطالية حتى لقد تستشهد في كلامها مى بأبيات من شكسبير أو بيرون كما تستشهد بالمتنبي والمعرى

وحفظت أيضاً كثيراً من قصائد شوقي والمطران وحافظ وأظنها تصوغ معانيها في ذهنها بالفرنساوية والانكليزية قبلما تعبر عنها بألفاظها العربية »

(١) هو الاسم المستعار الذى كانت تتستر وراءه السيدة ملك ابنة العالم المصرى المعروف المرحوم حفنى ناصف في كتابة مباحثها النسائية

وشاء القدر أن تفقد مى والديها واحداً إثر واحد كما يفقد كل إنسان أبويه فى هذه الحياة ، ولكن مى الشاعرة العطوف الرقيقة الحواس تزلزل منها هاتان الصدمتان قوتها واحتمالها ، وتساورها الهموم والأحزان فتقبع فى عقر دارها تناجى نفسها وتندب حظها بفقد أعز الناس عليها ، فيأتى إليها بعض ذوى قرباها في ثياب الحمل وهم ذئاب خاطفة ويحملونها على السفر إلى لبنان وطنها الساحر على أمل أن تجد في جوه الجميل ومائه النمير ومناظره الخلابة وجباله الشم ما يرفه عن نفسها المشوبة بالأكدار

وتحقن مى بمصل مخدر سواد ليلة من الليالى فتصبح بياض نهارها بين المجانين فى مستشفى الأمراض العقلية المسمى بالعصفورية فى ضاحية بيروت فتثور ولكن على من ؟ وتستنجد ولكن بمن ؟ إنها أصبحت فى عداد الذين أفقدتهم صدمات الحياة الرشد وأقعدتهم المصائب هذا المقعد الأليم . وتنقطع مى عن الطعام والشراب إلا ما تسد به الرمق وتستبقى بواسطته الحياة

وبعد أن تقضى السنة فى ذلك المارستان [1] ينقلها أولئك الذئاب إلى مستشفى ربيز فى بيروت ولكن يحوطونها برقابة شديدة ويمنعونها من الاختلاط بأحد لئلا يطلع على ما بيتوا لها من شر مستطير وأعدوا لها من ظلم صارخ فتتم سنة أخرى بين العقلاء الذين لا تستطيع الدنو منهم والتحدث إليهم

ويسعف الحظ فيؤتى بسيدة من آل الجزائري فى دمشق إلى المستشفى وتوضع فى غرفة مجاورة لغرفة مى السجينة فتسمع (مى) صوت السيدة وهي تتململ فى فراشها من شدة الألم الذى أعقب عملية جراحية فتفتح الباب الموصل بين الغرفتين بجهد وتدخل إلى غرفة السيدة الجريح لمواساتها على تخفيف آلامها وتكرر مى هذه الزيارات ليلاً فى خلسة من الرقباء

وتستأنس السيدة الجزائرية بجارتها الحنون لا سيما بعد أن اندمل جرحها فتسألها عن حالها وسبب مقامها فى المستشفى فتنفجر (مى) بكل ما في نفسها من آلام وتشكو أمرها وما تقاسيه من عنت الظالمين إلى السيدة التى تألم كثيراً لها وتستعين بأوليائها من الرجال على كشف مظلمتها ويقوم هؤلاء السراة الأمجاد أحفاد الأمير عبد القادر الجزائرى ويعملون على إطلاق سراحها

وينتهى الأمر بتدخل إدارة الأمن العام وإخراج (مى) النابغة من سجنها

فتعود الذئاب الخاطفة التى تخشى أن ترد إلى (مى) حقوقها الشرعية بالتصرف فى أموالها وحليها ومكتبتها الفنية التى وضعوا أيديهم عليها ظلماً وعدواناً ، وتصرفوا بها تصرف المالك فى ملكه اعتسافاً وطغياناً — يعودون إلى مزاعمهم الأولى من اختلاط عقلها وضعف مداركها ويلحون باستشارة أهل الاختصاص من الأطباء ، وتكون النتيجة دعوة طبيبي مستشفى العصفورية وربيز لمعرفتها السابقة بحالتها وطبيبين آخرين ، فتقرر هذه الهيئة الطبية المستشارة أن حالتها الحاضرة تبعث على الرضى ، ولكن بالنظر لضعف جسمها يخشى أن تتأثر أعصابها مرة أخرى ، ولذلك يشيرون عليها بقضاء دور النقاهة فى منزل مناسب ببيروت

وتنقل بالفعل إلى ذلك المنزل هى وممرضتها الموكول إليها أمر العناية بها والقيام على حاجاتها ولوازمها

وعقيدة الطبيب فى مريض من مرضى العقول لها تأثيرها في نفسه . فهو يظن به الظنون ولا يريد أن يقتنع بصحة مداركه مهما كانت ظواهره حسنة ولعل هذا هو الذى حدا بالطبيبين المداويين لها قبلا على الإصرار على رأيهما فيها إن لم يكن هناك دافع آخر يدفعهما إلى ذلك التعنت

ويستمع الناس ولا سيما الطبقة المستنيرة إلى ما آل إليه أمر (مي) فيأتون زرافات ووحداناً إلى كعبة الفضل يحجون إليها ويكون فى طليعة هؤلاء الحجاج الكرام صديقنا فارس بك الخورى رئيس المجلس النيابى السورى وقرينته الفضلى . واستمع إلى ما يقوله هذا الرئيس الجليل لمندوب أكبر صحيفة يومية لبنانية عن الآنسة (مى) :

« يمكننى أن أقول بكل صراحة إننى تحدثت إلى أناس كثيرين فى بيروت فلم أر فيهم من هو أعقل من الآنسة (مي) . وأزيد على ذلك أننى سمعت من بعضهم أخطاء لم تفه (مى) بواحد منها . فهى بحالة عقلية تامة ، ولكن صحتها الجسدية ضعيفة جداً

(1) بيمارستان كلمة فارسية استخدمها العرب للمستشفى الذى يوضع فيه المرضى والأعلاء ولكنهم اليوم يطلقونه فى بلاد الشام على مستشفى الأمراض العقلية الذى أقيم فى بعض المارستانات القديمة ويقولون له مارستان كما عربوه قديماً

ومما قالته لي والألم ينبعث من عينيهـا : « تصور مي زيادة على بعد عشرين دقيقة من بيروت قلب الشرق العربي وعاصمة لبنان الجبل الخالد ومهد الحضارة والنور وأم الجامعات والمؤسسات العلمية ودار الجميات الأدبية والخيرية ومركز جمعية النهضـة النسائية . أجل تصور (مي) سجينة على بعد عشرين دقيقة من البلد الذى ذكرت »

ثم تلتفت مي إلى السيدة قرينته فتقول لها :

« أهذا ما كنت أنتظره يا سيدتي ؟ أهذه هي المكافأة التي أعدتها لي المرأة الشرقية بعد جهاد طويل ؟ أهذا ما تلقاه الأديبة في الشرق ؟ »

ولم يقتصر عمل فارس بك على الإدلاء بآرائه إلى الصحف ، بل إنه ذهب وبرفقته الأمير عادل أرسلان إلى ندوة المجلس النيابي اللبناني وتحدث عن زيارته لي وعن الأثر المؤلم الذى تركته هذه الزيارة في نفسه

وشاع ما عوملت به مي من العمل السيء وذاع في لبنان فراع الناس ما سمعوا وأذهلهم ما قرءوا ، فاندفع أنصار الفضيلة إلى الأخذ بضبعها وشد أزرها ورد عاديات العادين عنها ، وتقدم الجميع المحامي المشهور معالي الأستاذ حبيب أبي شهلا وزير الداخلية السابق في الحكومات اللبنانية المختلفة ، وتطوع للدفاع عن حقها الهضيم وحريتها السليبة أمام القضاء الذى أقيم لإنصاف المظلوم من الظالم ، والأخذ للضعيف من القوى ، فسر الناس لهذه الغضبة المضرية والنعرة الانسانية ، وبدءوا يذكرونها بكل شفة ولسان ، ويكبرون هذا العمل من شخصية كبيرة مشهورة في الأوساط القضائية والادارية ، وهم على مثل اليقين من حصول القصد ونجاح المسعى لما عرف عن معالي الأستاذ أبي شهلا من قوة الحجة ووفور العلم وصحة المنطق مما يضمن الفوز له في هـذا المعترك

وبلغ أمر مي إلى أسماع الفلسطينيين الذين يجلون هذه النابغة ويبجلونها ككل عربي فقامت أقرب مدينة من فلسطين إلى لبنان وهي عكا تثأر للفضيلة وتنتصر للعلم والأدب وتقـدمت بواسطة الهاتف برسالة إلى المحامي الأستاذ حبيب أبي شهلا على يدى كاتب هذه السطور هذا نصها : —

إن محدثكم الآن وحوله جماعة من أدباء وعلماء هذه المدينة التاريخية عكا يتوجهون بخالص الأماني وكبير الرجاء إلى الوزير الذى لم تبطره النعمة ولم تمنعه من الدفع عن المظلومين لتتولوا بما عرفتم به من الهمة المشكورة والغيرة المحمودة الدفاع عن مفخرة أديبات العرب في القرن العشرين ونابغة النساء في الأقطار العربية الآنسة مي زيادة

إن إنقاذها من هـذه الكارثة يسجل لـكم يداً كبيرة مشكورة بيضاء في خدمة الأدب العربي واللغـة العربية فنرجو أن يحقق الله على يديكم هذه المبرة العظيمة لنهضة النساء في هذا الشرق العربي المتطلع إلى المستقبل الباسم بهمة أمثالـكم وتقبلوا تحياتنا في هذه المدينة ...

ومما أذكره عن (مي) أني كنت في بيت المقدس في أوائل سـنة ١٩٢٣ لجاءته الآنسة (مي) زائرة دارسة وراح الأدباء والفضلاء للترحيب بها والتعرف إليها ، وقصدت أنا ورفيق لي إلى زيارتها في النزل الذى نزلت فيـه فلم نجدها إذ ذاك ، وفيما نحن عائدون قال لي صاحبي وهو يحاورني : أتدرى أن علم (مي) جنى عليها ؟ فقلت له : أفصح عما في ضميرك فيظهر أن للـكلام بقية . فقال : أنا أحد الذين كانوا يرون السعادة كل السعادة في الاقتران (بمي) لما وهبها الله من الخلق الجميل والصفات الطيبة ولـكني كنت أرى أن مستواها العلمي فوق مستواى فلم أجرأ على طلب يدها . قال : وكان لي أمثال كثيرون ولـكنهم كانوا يرون رأيي فيها وكنا حين نلتقي بمي النابغة نشعر بعاطفة الاكبار والاجلال لآدابها الرفيعة

والذى قال لي هذا القول لم يكن من عامة الناس بل هو من خريجي الجامعة الأميركية ومن أصحاب الثروات الطائلة والذين أثروا في الحياة الاجتماعية والمدنية ، ولـكنه كان يرى نفسه دونها في العلم والفضل ويعترف بذلك ، فانظر ماذا كان مصير هذه العلوم والفضائل بين أعدائها الألداء ، عاملهم الله بما يستحقون وأذاقهم عذاب الهون

عبد الله مخلص

التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الاحراج الى عالم المدينة

للأستاذ محمود الخفيف

— ٤ —

يا شباب الوادي ! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم



وماذا يصنع وقد خذل في الانتخاب وآل الحانوت إلى ما آل إليه جزاء بما فعل صاحبه ؟ الحق أنه ألقى نفسه في مأزق ولعله كان يندم بينه وبين نفسه أن ترك حياة الغابة ... ماذا يصنع ابراهام ليكسب قوت يومه ؟ ليس أمامه الآن غير التجارة ، لذلك اتخذ له شريكاً واشترى ما بقي من الحانوت من ذلك الرجل الذي اشتراه من قبل وعاد يبيع الناس من بضاعته ، وقد حمل العبء كله إذ كان صاحبه لا يكاد يفيق من سكره . على أنه كان عبئاً هيناً إذا كان البيع قليلا لقلة البضاعة ولقلة المشترين . وكان في البلد حانوت آخر سطا عليه أولئك الفتية المعتدون لما شجر من خلاف بين صاحبه وبين زعيمهم آرمسترنج ، وعرض صاحب ذلك الحانوت بضاعته للبيع فاشتراها ابراهام ، ولكن بطريق الدين ؛ كتب على نفسه مائتين وخمسين دولاراً وعد بدفعها حين يتيسر له ذلك ... ولكن صاحبه لا يكاد يفيق من سكره فهو كلٌّ عليه أينما يوجهه لا يأت بخير ؛ وليس لدى أيب مال ليدفع إليه نصيبه ويخلص منه .

وأراد الله أن ييسر له أمره بعض اليسر ، فاختير حاملا للبريد في تلك الجهة ؛ اختاره القائمون بالأمر لما علموا من أمانته ونشاطه ؛ وفرح ابراهام بما ساقه الله إليه ، فقد حاقت الخسارة بالتجارة وخرج منها بدين أثقل كاهله كان يسميه لفداحته بالنسبة إليه الدين الأهلي ! ... فرح ابراهام بعمله الجديد وأقبل عليه في همة إذ أتاح له ذلك العمل أن يتصل بالناس وأن يتعرف أحوالهم ويدرس طبائعهم من قرب ، وهو كلف بذلك حريص عليه يريد به أن ينفذ إلى أعماق النفس كما هو شأنه في كل ما يعرض له .

وحبب إليه ذلك العمل ، فوق ما كان من اتصاله بالناس ، ما مهده له من سبل القراءة ، فهو يقرأ الصحف قبل أن يعطيها أصحابها ، وهو يلتهم الكتب في ساعات فراغه التهاماً . وكان أكثر ما يقرأ يومئذ كتب القانون ، ولعله كان ينوي أن يتخذ المحاماة عملاً له ، فلقد كان الناس يأتونه ليحكموه فيما يشجر بينهم من خلاف ، وهو عندهم القوي الأمين ؛ لا يتحيز إلى شخص أو فئة ، ولا يتعثر في أمر ، ولا يسمح لأحد أن يلبس أمامه الحق بالباطل ، كل ذلك في رفق ودراية ولباقة ... وكان إذا عرض له أمر رده إلى ما عرف من القانون ليتبين وجهه ، أو أفاد من دراسته وبحثه علماً جديداً . وقد ألقت الأقدار إليه ذات يوم كتاباً في القانون يقع في أربعة أسفار عثر عليه كما يعثر على كنز . وبيان ذلك أنه اشترى بثمن بخس من رجل انتوى الرحيل بعض متاعه ، وكان صندوقاً به أوراق ، قلبه فعثر في قاعه على كنزه وهو كتاب « نظرات في تاريخ انجلترا » لمؤلفه بلاكستون ، وكان من أشهر ما كتب في القانون في تلك الأيام !

وهو يعيش اليوم على راتبه الضئيل من عمله في البريد ومما كان يرسله الناس من قوت إلى الأسرة التي كان يقيم بينها نظير ما كان يقدمه إليهم من نصح أو يسوي بينهم من خلاف . وإنك لتلمح شخص المحامي الناشئ في شخص عامل البريد هذا ... على أنه تقدم فعلاً ليدافع عن بعض الناس أمام المحلفين في بعض

الجلسات القضائية فى تلك الجهة . وعرف بسداد الرأى وقوة العارضة ومتانة الحجة ، وما وقف يدافع يوماً إلا عما يعتقد أنه الحق

ومست قلبه فى تلك الأيام لذعة من الألم ، فقـد ألم به ما يلم بالشباب من علل الشباب ، وانعقدت أمام بصره سحب قاتمة من الهم كان مبعثها مادب فى قلبه من أمل جديد نحو آن ابنة صاحب الخان ، فلقد علم ، وهو صاحب البريد ، أن فتاها انصرف عنها ونسى ما كان بينها وبينه لما نزل بأبيها من فاقة ، وخيل إلى أيب أنه اليوم يستطيع أن يصل إلى قلبها ، لولا مزاحم جديد يُدِلُّ عليه بماله وهو لا يدانيه فى كفاية ولا خلق ... على أنه فى خجله من النساء لا يعرف ما يأخذ مما يدع ، فهو فى حيرة من أمره ، وهو كما علمت متقد العاطفة موفور القوة مشبوب الخيال ، وذلك ما صور له طيوفاً من الشجن أخذت تتزايد حتى ليضيق بها قلبه ويكاد الأمر أن يصل به إلى القنوط . روى عنه أنه قال لأحد خلانه : « ربما ظهر منى حينما أكون فى رفقة أننى أستمتع بالحياة فى نشوة ، ولكنى إذا أويت إلى عزلتى أخذتنى غالباً حال من الهم حتى لا أجرؤ أن أحمل معى مبراة »

وللشباب هواجس وأحلام يحار المرء فى تفسيرها وتعرف مصدرها ، فهى من خفايا النفس الإنسانية ، وكثيراً ما ينقبض المرء وهو فى حال من الرضا أو هو فى مثل حال الرضا ... هل كان مرد همه إلى طموح نفسه وتوثب همته ؟ أم كان ذلك إلى نوازع قلبه وهواجس خاطره ؟ هل كان أيب يحب آن حقاً كما يكون الحب ، أم أن إحساسه بما ينقص قدره فى أعين الفتيات كان هو مبعث هواجسه ومدعاة زلفاه ؟

إن فى انصرافه إلى عمله وهو يحمل الخطابات فى قبعته من دسكرة إلى دسكرة ما يلهيه بعض الوقت ، وإن له فى الكتب لعزاء وسلوة : له فى شكسبير وبرنز ما تأنس به روحه ويثلج خاطره ، وله فى تراجم العظماء — وقد كان مقبلا عليها — من معانى السمو ومواقف البطولة ما يبهج نفسه ويثبت قلبه

وأضيف إلى عمله فى البريد عمل آخر دله عليه أحد خلصائه وهو تخطيط الأرض ورسم المصورات للطرق الجديدة التى كانت الحكومة تنشئها وتوضح معالمها للناس ليهتدوا بها فى مسيرهم فى تلك الأصقاع . ولقد حذق ابراهام هذا العمل الجديد وصار بعد توزيع البريد — وهو قليل — يحمل منظاره ولوحته وقلمه ويتنقل بين الأحراج يرسم الطرق ، وكان يأتى ذلك بما عرف عنه من الدقة فى كل ما يعهد به إليه ... ولكن الدائنين لم يدعوه فيما هو فيه ، فأقبل أحدهم وباع جواد ابراهام وسرجه ولجامه فى مزاد نظير ماله ؛ وقد عزّ على ابراهام أن يشهد هذا البيع فابتعد حتى يتم ؛ ولكن صاحباً له يدعى جرين تقدم فدفع المال المطلوب وخلص له الجواد ولقيه فقال له : « رد لى هذا المال حينما تصبح قادراً على ذلك ، فإن لم تقدر فلا عليك منه ياصديقى » وأراد بعض الدائنين أن يبيعوا تلك الأدوات التى يقتات من العمل بها فجمع لهم بعض ذوى المروءة من أهل الجهة ما كانوا يطلبون من المال وأعفوا أدوات صاحبهم من ذلك البيع . ولقد مات جرين بعد حين وقام ابراهام يرثيه فاستعصت عليه الكلمات ولم يجد لديه غير الدموع

وجاء موعد الانتخابات وتقدم ابراهام من جديد يقدم نفسه للناس ، وكتب له النجاح هذه المرة ؛ وذهب ليتخذ مقعده فى مجلس الينويس نائباً عن جهة سنجمون وكان المبدأ الذى نجح عليه هو مبدأ الهوجز إذا أردنا السياسة ، وهو مبدأ الفضيلة والنبل والسمو إذا أردنا الخلق ...

ذهب عامل البريد ومخطط الأرض إلى حيث يجلس مع المنتخبين ، وإن له فى السياسة لشأناً بعد حين . هو الآن فى الخامسة والعشرين وقد اختاره الناس لما خبروا من خلاله وما رأوا من من سعة اطلاعه ورجاحة عقله ؛ ولكنه فقير فكيف يذهب في ملابسه البالية إلى المجلس ؟ ... اقترض ذلك الشاب المدخر لرياسة أمريكا فى غد — بعض النقود فاشترى حلة جديدة وذهب إلى فانداليا عاصمة الينويس فاتخذ مكانه بين ممثلى الولاية ... جلس يدرس ويفكر ، لا تفوته عبارة ولا تفلت منه قضية ، وكانت مشكلة العبيد تشغل بال الناس يومئذ فى وضع من أوضاعها ، كما كانت تشغل بالهم أموراً أخرى تنحصر فيما كانوا يتوخون من وجوه الإصلاح فى التجارة والصناعة وسبل الاتصال . اتضح من خلال إبراهام فى المجلس ما عطف عليه القلوب ، فقد رأى منه زملاؤه الإخلاص والحماس فى غير تعصب ، فهو يدافع عما يعتقد أنه الصواب أو الحق فى قوة وفى إصرار يشبه العناد ، حتى إذا تبين له أن الحق فى جانب مجادله سلم له في سرعة تسليم

الرضاء والغبطة . ورأى منه زملاؤه فوق ذلك قوة فى التعبير عما يريد كان مبعثها حسن اختيار اللفظ أو كان مبعثها لقانة تواتيه بالكلمة المطلوبة لا تزيد ولا تنقص . ولقد أعجبوا منه بتلك الخلة التى ستكون فى غد جانباً من أهم جوانب زعامته ... وأنسوا منه خارج المجلس إلى خلة أخرى من خلاله اشتهر بها منذ كان فى الغابة ، تلك هى تلاوة الحكايات ، فهو ما يفتأ يقص عليهم من قصصه ما يطربهم ويعجبهم

وكان ابراهام يزور نيوسالم كلما سمح له وقته بزيارة . وهو اليوم يحب آن كما يكون الحب . أكبرت صفاته وأعجبت برجولته وصارت لا تعدل به غيره ؛ ثم أحبته وليس بعد الحب رابطة . وألفى ابراهام نفسه — وهو من عرفت قوة عاطفة وصحة وجدان — فى ربيع العمر حقاً ، لا يرى حوله إلا جمال الربيع ونشوة الربيع ، ولا يحس إلا سحر الربيع ووحى الربيع ، يروح ويغدو مع صاحبته وكأنهما من فرط مرحهما طائران من طيور الخمائل ... ولكن وا أسفاه ! لن يطول هذا الربيع ، بل إنه لينقلب إلى جحيم فى سرعة خاطفة ! ... نزلت الحمى كما نزلت من قبل فى كنتوكى فكان من ضحاياها طائره الجميل ! وغدا ابراهام يرمض الحزن قلبه ويأكل الجوى أحشاءه ... وتلك هى الصدمة الثانية بعد فجيعته فى أمه تحل به ، فكأنها الضربة تأتيه فى مقتل ! لقد وهنت عزيمته وخارت قوته وذوى عوده ، وصار الناس يرونه أحياناً هائماً على وجهه وهو يهذى كأن به جنة ، حتى نصح له طبيب أن يرحل ، فنزل ضيفاً عند أسرة صديقة كانت تقيم فى مكان بعيد عن نيوسالم ، ولكن همه ذهب معه إلى هناك حتى لقد شاطره الحزن ذات ليلة نفر من جلسائه حين سمعوه يصرخ من أعماق قلبه : « لا أطيق أن أذكر أنها ترقد هناك وحدها حيث ينزل المطر وتصخب العاصفة فوق قبرها » ولكم قطع من الأميال مرات بعد ذلك على قدميه فحج إلى ذلك القبر وبلله بدمعه !

ولكن اليأس يسلمه ثانية إلى الحياة حيث لا حيلة فى البلوى ولا معدى عن الحياة ... ويحين موعد الانتخابات مرة ثالثة فيتقدم فيفوز وقد ازداد الناس محبة له كما ازدادوا له إكباراً بقدر ما اكتسب من خبرة فوق ما سلف من خبرته ، وأظهرته الانتخابات هذه المرة للعامة خطيباً كأحسن ما يكون الخطيب ، قام يحمل عليه أحد خصومه من الحزب الديمقراطى ، وكان قد حصل بتغييره مبدأه على مرتب سنوى غير قليل ؛ وقد علم الناس أنه كان يقيم فى منزل أنيق فى سبرنجفيلد فى قمته تلك الحديدة التى يضمونها هناك لتمنع الصواعق . ولقد أسرف ذلك الخصم فى الطعن على ابراهام وأعلن أنه يريد أن يحط من قدره فى نفوس الناس . فوقف ابن الأحراج ورد عليه بقوله : « رأى هذا السيد أن يشير إلى حداثة سنى ، ولقد نسى أنى أكبر فى العمر مني فى ألاعيب الساسة وتجارتهم . إني أود أن أعيش كما أود أن أرقي وأن تلحظ مكانتى ، ولكنى أفضل الموت على أن أحيا فأرى اليوم الذى أفعل فيه ما فعل ذلكم السيد ، فأغير مبدئي من أجل ثلاثة آلاف دولار فى العام ، وأرانى بعد ذلك مضطراً أن أقيم على رأس بيتى مانعة للصواعق لأحمي ضميراً آثماً من غضب رب أسأت إليه »

وإنك لتتبين مهارته السياسية فوق ما تلمح من صفاته فى هذا الخطاب الذى أرسله إلى أحد رجال الحزب الديمقراطى .

كتب لنكولن [1] « أنبئت أنك أذعت فى الناس أثناء غيابى فى الأسبوع الماضى أن لديك حقيقة أو حقائق لو اطلع عليها الناس لقضت نهائياً على أملى وأمل ن . ادوارد فى حركة الانتخاب القائمة ، ولكنك تأبى عليك مجاملتك إياى أن تعلنها . وأنا أقول لك إنه ما من شخص يطلب الجميل أكثر مما أطلب ؛ كذلك قلَّ فى الناس من يقبل الجميل كما أقبل ؛ ولكن الجميل إلى فى هذه الحال معناه الجور فى حق الناس ؛ ولذلك فإنى أستميحك أن تنصرف عنه . إن حيازتى ثقة أهل سنجمون ذات مرة أمر واضح ؛ فإذا كنت قد أتيت أمراً من شأنه إذا عرف أن يحرمنى تلك الثقة ، سواء كان إتيان ذلك الأمر عن إصرار أو عن خطأ فإن الذى يعرف هذا الأمر ثم يخفيه إنما يخون صالح بلاده . وأنا لا يقوم فى ذهنى شىء عما عساه أن تكون الحقيقة أو الحقائق التى تتحدث عنها واقعية كانت أو مزعومة ؛ بيد أن ما أعهده فيك من الصدق لا يسمح لى برهة أن أشك فى أنك على الأقل تعتقد ما تقول . إني أرانى مديناً لك بهذا الاعتبار الشخصى الذى أظهرته نحوى ، ولكنى آمل أن ترى إذا تأملت من جديد أن صالح الناس أهم من ذلك . وعلى هذا فلا تتحرج أن تعلن الحق . وأؤكد لك أن ذكرك ما لديك من الحقائق فى صدق وأمانة لن يفصم ما بينى وبينك من عرى الصداقة . هذا وإنى أرجو أن

(1) Speeches aud Lettere of Abraham Lincoln P. 2.

يأتيني رد منك على هــذا ولك الحرية أن تنشر الكتابين إذا أردت » .

اقرأ هذا الخطاب تر كيف ملك إبراهام قلوب الناس بأمانته وإخلاصه ودمائته . ثم انظر إلى قوة حجته وروعة منطقه ودهائه؛ وتأمل فى أدبه وتحشمه وهو يرد الاهانة عن نفسه .. تلك لعمرى خلال أحرار الشمائل وعظماء الرجال ...

فاز لنكولن فى الانتخاب وحق له أن يفوز . ولقد خطب الناس مرة فكان مما قاله : « سأسعى أن يفوز جميع البيض من يدفع منهم ضرائب ومن يحمل السلاح بحق الانتخاب (لا أستثنى من ذلك النساء بأى حال) فاذا انتخبت فسأعتبر أهل سنجمون جميعاً هم مرسلىّ سواء من اختارنى منهم ومن لم يفعل ، وحينما أعمل فى المجلس كنائب عنهم سوف أصدر فى عملى عن إرادتهم فى كافة الأمور التى أستطيع أن أعرف إرادتهم فيها ؛ وفى غير ذلك سأسير وفق ما يمليه على تقديرى مراعياً مصالحهم أبداً »

ذلك هو دستور لنكولن وتلك هى أخلاقه فى مجال السياسة ذلك المجال الذى سينضج فيه شخصه وتكتمل رجولتــه وتبرز مواهبه وتسفر مظاهر عبقريته . كان له فى المجلس أصدقاء منهم ثمـانية كانوا مثله فى طول القامة ، ولقد كانوا يجلسون رفقة يتحدثون ، فعرفوا باسم التسعة الطوال ، ولـكن ابراهام كان أطولهم باعاً فى المعرفة وأعلاهم مقاما فى الخلق، فلقد ظهرت صفات ابن الغابة لهم فى وضوح ، فهم معجبون بدمائته وأناته وبعد نظره ، وهم مفتونون ببلاغته وأسلوبه فى الحوار والمجادلة ، وهم يغبطونه على سعة صدره وشجاعته وصراحته ، يحمدون له رقة عاطفته وشفقته وسلامة طويته ، وهم فوق ذلك يلذهم حديثه وتطربهم أقاصيصه ويأسر قلوبهم تواضعه وأدبه وسذاجته

وإنه اليوم ليقرأ قراءة منظمة فقد مرّ العهد الذى كان يتناول فيه أى كتاب يصادفه . هو اليوم يقلب صفحات التاريخ فليس ألزم منها لرجل السـياسة ؛ وهو يستزيد من القانون نصوصه وفقهه ؛ وهو يدرس أحوال أمريكا من شتى نواحيها ؛ يطيل النظر فى تاريخ ساستها ويتأمل فى مناهجهم فى الاصلاح وأساليبهم فى توطيد سياستهم ؛ يستوعب ذلك كله ليسير على ضوئه فيما هو مقبل عليه . ومما استرعى اهتمامه يومئذ مسألة العبيد وتاريخها وتطورها ومكانها من السياسة العامة

يتخذ اليوم ابراهام لنكولن مكانه المرة الثانيـة فى مجلس مقاطعة النيوس وهو فى السابعة والعشرين ، ولا يدرى هو ولا من يحيطون به من ممثلى الجهات فى ذلك المجلس ماذا يخبئه الغد لذلك الرجل الطويل القامة ، عامل البريد ، مخطط الأرض ، ابن الأحراج ، ربيب العسر والفاقة ومحن الأيام !

(يتبع) الخفيف

من والد إلى ولده

للأستاذ محمود خيرت بك

المهندس الشاب أبو بكر خيرت ، ولد صديقنا الشاعر محمود بك خيرت ، هدية من هدايا النبوغ لمصر . تخرج في هندسة العمارة من مدرسة الفنون الجميلة العليا بباريس بدرجة التفوق والامتياز ، ثم بهر بأعماله الفنية رابطة المهندسين فى فرنسا وانجلترا فمنحوه الجوائز والأنواط تقديراً لنبوغه ؛ وتقدم إلى المسابقة التى اقترحها بنك مصر لفندقه وعمارته فى ميدان ابراهيم بالقاهرة فأحرز قصب السبق على ثلاثة وعشرين مهندساً عالمين من أجانب ومصريين وفاز بالجائزة الأولى الممتازة ، وكرمه المهندسون المصريون وعلى رأسهم معالى حسين سرى باشا ، فهز كل أولئك من شعور أبيه فعبر عن سروره بولده . واعترافه للبنك ، وشكره لله ، بهذه القصيدة:

أين حُسن الربيع فى إقبالِهْ   تتنشّى مِن الصَّفا فى ظلالِهْ
وابتهاجُ السماء والبدر سارٍ   يتهادى فى هالةٍ من جلاله
واهتزازُ الغصون تشدو القماري   فوقها شَدْوَ زاخرِ الشوق وَالِه
وابتسامُ العروس فى ثوبها الشّـَفِّ   تبدّت أعطافُها من خلاله
أين هذا من مُنتدًى عَمَرَته   نشوة البشر يوم عيد احتفالِه
كرّموا فيه صفوةً من شبابٍ   هام بالفن وارتوى من زلاله
وفتًى منهمُ عرفناه لمّا   أحرز السبق رابضاً فى مجاله
والدّجى مظلم الجوانبِ إلاّ   إن بدا فى السماء وجهُ هلاله
كان للفن من حضارة ميناً   والأُلَى قد سروْا على منواله
روعةٌ تسحر النفوس ومعنًى   يفتن المعجَبين سحرُ جماله
إنما كرّت الليالى عليْه   فطوتْه موسّداً فى رماله
لا ترى حسنه البديع ولا تَلْـ   ـمَس من مجده سوى أطْلاله
كالأسير الهزيل تنكره العيـ   ـن وتبكي عليه فى أغلاله
آن أن يرسل الزمان إليه   مِن بَنيه من حَلّه مِن عقاله
بعَثَ الفنَّ من ثراهُ أبو بكـ   ـرٍ وأوفى على نواحى كمالِه
كان بَرًّا ومَن أحنُّ على الفـ   ـنِّ طواه الزمان من أشباله
أين شوقى وأين حافظُ كانا   ينظمان الجُمان فى رئباله

يافتى مصرَ مَن بِمدْحك أولى   مِن أبٍ أنت ذخره فى اكتهاله
كم جَرى دمعهُ على عارضَيه   هاطلا كالسحاب فى تَهطاله
يوم آثرتَ الاغتراب لكيما   تأخذ العلم ناضجا عَن رجاله
كان من نفسك الشّجيّة أشهى   من حبيب شجاك يومُ وصالِه
نتقرّاهُ عند كل صباحٍ   وترى إن غفوْت طيف خياله
شارداً لا يقرّ جنبك إلاّ   إن رشفت العتيق من جِرْياله
فتنقّلت كالهلال وهل يصـ   ـبح بدراً إلا بفضل انتقاله
لم يكن مسرفا أبوك لدى الظّـ   ـنِّ ولا كان سابحاً فى ضلالِه
يوم ألفاك وحدةً لجلال الفـ   ـن تُحيى الرثيث من آماله
فلقد شاءت المقادير أن عُدْ   تَ إليه وأنت مِن أبطاله
والذى يعشق العلى يسهر اللّيـ   ـل طويلا وجدّه رأس ماله
ذاك فضل أفاضه بنك مصر   هو بعض الطّريف من إفضاله
كل يوم نرى له حَسَناتٍ   فخرهُ أنها صدى أعماله
وينمّ العبيرُ عن عاطر المسـ   ـك وكسْبُ السّباق عن خيّاله
أنت يا بنكُ للكنانة عصر   ذهبيٌّ يجرّ ذيل اختياله
كنتَ للنّيل مطلع استهلاله   ورأيناك غاية استقلالِه
قُمت بالعبء أنت وحدك لا يلـ   ـويك عنه الثقيل من أحماله
ومهَرت البلاد صرحاً سيبقى   للمدى شامخاً على أمثاله
شاهداً أن مصر فيها شبابٌ   لا يُدانيه غيره فى نضاله
قد كسبتَ الرضى من الله والنا   س وكنتَ المشكورَ فى أفعاله

محمود خيرت

وحى الشاعرية

للأستاذ حسن القاياتى

١ — الدينار فى الطبق

هى فتنة بنضارة الأُفُقِ   فتألّقى يا أنجم الغسَق
تهدى إلىّ البدرَ هالَتُهُ   كتحية الدينار في الطبق



أقصوصة من بول هيس (١)

جنـــون ...

للأستاذ دريني خشبة

كان الصبح يتنفس عليلاً في الأفق الشرقي، وكان الفيزوف ينفث دخانه فينعقد سحاباً طويلاً داكناً فوق نابولي والقرى المجاورة، وكان البحر النائم ملقياً رأسه الجبار على أوَاذيّ سورنتو، حيث انتشر الصيادون فوق الشاطئ وفي الماء وفوق الزوارق يعملون ويدأبون، لا فرق بين شيبهم وشبابهم، وكانت النساء يرفرفن فوق الأسطح القريبة كالأعلام المُنَشرة يؤدين أعمال الصباح ... وكان الكل مبتهجاً سعيداً ولاسيما الفتى البحار أنطونيو الذي وقف في زورقه يملأ ناظريه من جمال الطبيعة المتبرجة فوق الشاطئ الإيطالي الفتان

لقد كان أنطونيو سعيداً هذا الصباح، لأن كثيرين من أهل سورنتو يذهبون في مثل ذلك اليوم من كل أسبوع إلى قرية كابري ليبيعوا في سوقها ويشتروا ... ولم يكن سعيداً لكثرة زبائنه فقط، بل كان سعيداً لشيء آخر ... شيء عزيز ... شيء هو حلم القلوب، وغذاء النفوس، ومسبح الخيال، ومستراد الحلم..

وأقبل قسٌّ من سورنتو، فجعل يدلف حتى وقف على السِّيف أمام أنطونيو ... ثم قفز فكان في الزورق، والفتى مع ذلك في شغل عنه ... وعن الدنيا جميعاً

— أنطونيو يا بني!! ماذا يمنعك أن تبحر قبل أن تشتد الشمس؟

— لا شيء أيها الأب ... سنبحر حالاً!

ولكن أنطونيو كان لا يني يبحث في الشاطئ بعينيه، يرسلها وراء أيكة ... وكان القس القلق يرى في نظراته الحائرة طيف حبيب تائه ... في عالم مجهول ...!! فيعذره!!

ثم بدت فتاة جملت تخطر بين دَوْح السنديان وتُلوح بمنديلها فوق الشاطئ، فهفا قلب أنطونيو، وطفح وجهه بالبشر المفاجئ وارتجفت يده، وشاع فيه مرح عجيب، فسأله القس!

— وبعدُ يا أنطونيو؟! ألا تبحر بنا يا بني؟

— سنبحر ... سنبحر أيها الأب ...

وكانت الفتاة تتواثب فوق النؤى خفيفة رشيقة، فلما اقتربت هبّ الملاحون الخبثاء يغمزون ويلمزون، وإن فرض عليهم وجود القس احتشاماً كان يغيظهم ويحنقهم ... ثم ركبت في فلك أنطونيو، ووقفت قريباً من القس الذي حياها قائلاً:

— لوريلّلا!! عِمى صباحاً يا صغيرتي! أتصحبيننا إلى كابري؟

— أجل يا أبانا

— أحسب أن ليس معك نقود من أنطونيو؟! أوْه! إن أنطونيو شاب طيب ... وهو بلا ريب لا ينتظر من أمثالك

(١) من أدباء بلاط ملك مكسمليان ملك بافاريا سنة ١٨٥٤ ومن أبرع كتاب الأقاصيص

٢ — اليوسفي

ويوسفيٍّ أصفر أنيقٍ تحية الصديق للصديق
وتحفة العشيق للعشيق جرّدته من قشره الرقيق
فجاء مثل الرَّكَبِ الحليق

٣ — الورد يعصر

تَنَظَّرَ صُبحَ النجم والصبح يسفر لدى كبرياء الخطب والعزم أكبرُ
فتى النُبْل يزكو بين لينٍ وشدَّةٍ فكالورد يُستهدى وكالورد يعصرُ

أجراً ... بل بالعكس ، لقد فرش لك قميصه ، ولم يفعل ذلك من أجلى ... ولكن أين عشرة قسيسين مثلى ، فى فتاة ريانة مثلك ، فى نظر هؤلاء الشباب ! ! وماذا تحملين إلى كابرى يا لوريللا ؟ »

وقبل أن تجيبه الفتاة مدت يدها إلى قميص أنطونيو فنحّته ، ثم جلست وقالت تجيب الأب :

— ثوب ، وحرير ، ورغيف أيها الأب ... الثوب لامرأة تصنع الأشرطة فى أنا كابرى ! والحرير لامرأة أخرى ... والرغيف لى ... أتبلغ به ...

— والحرير من غزلك أنت ؟

— أجل أيها السيد

— أذكر أنك كنت تصنعين الأشرطة بيديك ؟ أليس كذلك ؟

— بلى أيها الأب ، ولكن أمى قد تقدمت بها السن ، ثم هى مريضة ، بل شبه مقعدة ، ونحن فقراء ... فمن لنا بنول نشتريه وليس معنا من ثمنه شىء ؟

— أمك ؟ ! وا أسفاه ! لقد أذكر أننى رأيتها فى عيد الفصح الماضى !

— أجل ... ولكنها مريضة اليوم ... وهى تقاسى من زوابع الربيع ما لا تقاسيه فى فصل غيره ... أضف إلى ذلك زلازل الفيزوف ورجفاته ...

— صلى من أجلها يا فتاتى ، واضرعى إلى العذراء أن تكلأها ... ولكن ... خبرينى يا لوريللا ... لقد سمعت الملاحين الخبثاء يلمزونك وأنت مقبلة ، فيقولون لك (هلمى أيتها العربية ...) وهو نداء لا يليق بمسيحيه تقية مثلك ، فما سبب هذا ؟

— إنهم طالما يدعوننى كذلك ، مستهزئين بى ، لأننى لا أشركهم فى رقصهم وغنائهم وسائر عربداتهم ... وهذا بالرغم من مسالمتى لهم دائماً ...

وأغضت الفتاة ، وجعلت تبحث فى خضرة المياه بعينيها المحزونتين ، كأنما راعها ما عرف القس من أمرها وأمر هؤلاء الملاحين ...

وساد الصمت ، وكان أنطونيو قد دفع الفلك فى البحر فاحتواها الماء ، وصارت سورنتو تبتعد وتبتعد ، وتسطع منازلها البيضاء فى خضرة حدائق البرتقال ، وفوهة الفيزوف تقذف بمثل ما فى صدر لوريللا من حميم ... ثم سألها القس :

— ألم تعودى تعلمين من أمر المصور شيئاً يا لوريللا ؟ لقد سمعت أنه ذهب إليك مرة ليعمل لك صورة ، وأنك رفضت فلِمَه؟

— ولم يريد أن يصورنى أنا من دون بنات سورنتو ؟ إن منهن من هى أروع منى جمالا وأكثر فتنة ! فلم يصورنى أنا ؟ لقد ذكرت أمى أنه ربما تصبانى بها ، أو أتلف بها روحى ، ومن يدرى فربما أضمر بها قتلى ؟ من يدرى ؟ !

— يا صغيرتى لا تصدقى هذه الخزعبلات ! ألا تؤمنين بالله ؟ ألا تثقين أنك دائماً فى حفظه ؟ وأن شعرة واحدة منك لن يصيبها أذى إلا بإذنه ؟ فماذا يصنع واحد من بنى الموتى بصورة فى يده إن أراد بك سوءاً ؟ ... على أننى أعرف أنه كان مغرماً بك ، مشغوفاً بجمالك ... وأنه لذلك أراد الزواج منك ، لكنك أبيت ! ولست أدرى لماذا ... إن الناس كلهم يمدحونه ويطرون أخلاقه ... ولقد كان فى وسعه أن ينتشلكم مما تقاسون من ضيق وشظف ، ويريحكم من عناء ما تنسجون من أجل الحياة ...

— تالله يا أبانا لقد كان فقرنا سبب إحجامنا ... إذ كيف يطيق ما نحن فيه من عوز ، وما تقاسى أمى من مرض ؟ لقد كنا نصير كلاًّ عليه ... هذا ... وأنا ؟ ! كيف أعيش فى كنفه ذليلة بفقرى وبيئتى ؟ هل أنا سينوره ؟ ! ماذا يقول لرفاقه حين يغشون داره ؟ إنه يهرب منى حينذاك ... أو ... يذوب حياء

— كيف تقولين هذا يا لوريللا ؟ ! إن الرجل الذى يحب لا يبالى ما تقولين ... على أنه كان يستطيع أن يهاجر إلى بلد بعيد فيعيش فى جنة بفنه ، ويسعد بك إلى الأبد ... أوه ! ... لقد كان رسولا من السماء بعثته لإنقاذكم فطردتموه !

— لا علينا من ذلك أيها الأب ! إننى من جهتى ... لا أرغب فى الزواج مطلقاً ...

— تعنين أنك نذرت أن تكونى راهبة ؟

— ... ؟ ...

— عنيدة ! ما أحسبك تزيدين أمك إلا مرضاً يا لوريللا ؟ بأى حق ترفضين هذه اليد الكريمة التى بسطتها لك السماء لتخلصك ولتنقذ حياة والدتك ؟

— آه ! إن لدى سبباً ... بيد أننى لا أبتغى أن أبوح به لأحد !

— حتى ولا لى ؟ ! ولا لى أنا ... موضع اعتراف العذارى

جميعاً ؟! أنا يا لوريللا الذى طالما كنت صديقك ومفزّع الأحزان عن فؤادك ؟

— ... ؟ ...

— لا ، لا يا صغيرتى ! إنك لا تعرفين من هذه الحياة إلاقليلا ، فأزيحى عن فؤادك ما ينوء به ... ثم إنى أعدك أن أكون أول مؤيد لك إن كنت على حق ...

وقبل أن تجيبه لوريللا ، أرسلت عينيها ناحية الملاح الشاب الذى كان موزع الفكر بين الحبيبة وبين الشراع وبين البحر ... والذى كان يحجب عينيه بطرف من وفاء رأسه وهو مع ذاك مصغ لحديث القس

ثم تكلمت لوريللا فذكرت للحبر الجليـل ما يفزعها من الزواج ، لأنها تحتفظ بذكريات مشجية مما كان يحدث بين أبويها من نضال وشقاق ... « حتى لقد كان لا يتورع أبى من مد يده إلى أمى بالضرب المبرح الذى كان سبب ما تقاسيه اليوم من الأمراض ... أبداً لا أنسى هذه الوحشية أيها الأب ، تلك الوحشية التى أسميها وحشية الزواج ، والتى من أجلها أوثر أن أظل عانساً إلى الأبد ... ثم أنا لا أعرف قيمة هذه العلاقة التى تنشئونها بين رجل وامرأة ، فيظل الرجل قويًّا وتظل المرأة ضعيفة ، يقبلها إذا أراد ، ويتجهم لها إن شاء ، ويلعب بها كما تلعب الرياح بالريشة التى لا حول لها ... أوه ! أقسم لك أيها الأب ، لو أننى كنت فى مقام والدتى لعرفت كيف أذود وحشية زوجى وأدفع أذاه ! ! تالله لأسقيته ضعف ما كان يحاول أن يسقينى ! مسكينة يا أمى ! لقـد كنت ضعيفة فلم تحاولى أن تدافعى عن نفسك ، وسميت ضرب أبى إياك محبة ، والسكوت عن هذا الضرب طاعة ... »

ويحاول القس أن يخفف من نقمتها على حيـاة الزوجية ، ولـكن محاولاته تذهب مع الريح ؛ ويذكر لها أن الأزواج ليسوا سواسية ، وأنهم ليسوا جميعاً قساة القلوب غلاظ الأكباد كما تظن ، وأن الشاب المصور الذى أحبها كان له قلب رءوف رحيم بحكم فنه وميوله الروحية العالية ... ولـكن لوريللا تدفع عظاته فى ثورة جامحة ونقمة على الرجال لا تعرف التسليم

ويسمع أنطونيو هذا كله ... فيقف من الفتاة على مثل فوهة فيزوف !

***

ومتع النهار ، وألقت الفلك مراسيها عند كابرى ، ونزل أنطونيو فى المـاء ليحمل القس إلى الشاطئ ، ثم عاد ليحمل لوريللا ...

— لا ... لن يحملنى زجل ماحييت !

ثم حسرت عن ساقيها ... الساقين الجميلتين المرمريتين ... ونزلت إلى الماء السعيد ! حاملة حزمتها ... وتبعها أنطونيو ... وفوق كتفه سلة من البرتقال سيبيعها فى سوق كابرى

ورجاها القس أن تذكره عند أمها ، وأن تذكر لها أنه ربما زارها غداة غد ... ثم أخـذ طريقه إلى كابرى ... وأخذت طريقها إلى أنا كابرى ...

وكانت فى نفسها أشياء .. وكانت فى نفس أنطونيو أشياء .. فلما بعد القس التفتت فجأة لترى إلى أنطونيو فى الفلك .. فما كان أشد حياءها حين رأته خلفها ، وعيناه مسمرتان فى عينيها !

وباع أنطونيو برتقاله ... وعاد فى ساعة إلى الفلك ... وجلس فيه على أحر من الجمر ينتظر عودة لوريللا !

وما هى إلا ساعة أو نحوها حتى أقبلت الفتاة تتهادى كالقطاة وقد نهد ثدياها واهتزا ، ولعبت فوقهما شياطين البحر الأبيض .. فلما رآها أنطونيو وثب فى الفلك ، ونشر الشراع ، ورفع المرساة واستعد للاقلاع بصاحبته من فوره

وجلست لوريللا فى طرف المركب ، وولت ظهرها للملاح الشاب ، بحيث لم يكن يستطيع أن يرى إلا صورة جانبية (بروفيل) من وجهها الجميل ، مطبوعة فى السماء الصافية مرة ، وفى الماء الساكن مرة أخرى

لقد كان نصف فمها الجميل الخمرى الأحمر ، وخدها الأسيل الوردي ، ووجنتها الناصعة ذات الزغب ، وعنقها الطويل الشفشاف ، لقد كان ذلك يثير فى قلب أنطونيو صنوفاً من العذاب الخائف ، والألم المذعور ... لا عهد له بمثلها أبداً ...

ولم يقلع أنطونيو ... وأخرجت الفتاة رغيفها وأخـذت تتغدى ...

وأخرج الملاح برتقالات فقدمها لها وقال : « لا تحسبي أننى ادخرتها لك ... بل ... لقد سقطت من غير قصد من السلة قبل أن تنزل إلى البر ، فان شئت فكليها ...

— بل كلها أنت ... فالخبز القفار يكفينى !

— إنهن خير ما يؤكل فى هذا الحر القائظ ، لا سيما وقد مشيت كثيراً !

— لقد شربت فى الطريق ، وهذا حسبى !

— إذن ... خذيها لوالدتك !

— عندنا برتقال كثير ، وسنشترى غيره إن نفد !

— وماذا لو أخذت هذه البرتقالات ، وقدمتها إليها مع تسلياتى ؟!

— وكيف ، وهى لا تعرفك ؟

— خبريها عنى !

— أخبرها عنك وأنا لا أعرفك ؟

لقد كذبت لوريللا فى هذه الدعوى ... فلقد كانت تعرف أنطونيو ، وكان أول هذه المعرفة فى يوم كان بينها حبيبها المصور هواه عند شاطئ البحر

يا له من يوم هائل ذلك اليوم ! لقد لمح نفر من الملاحين الحبيبين الصغيرين يتناجيان فتغامزوا بهما ، ثم أنشأوا يحذفونهما بحصوات ... لكن أنطونيو الشجاع ، لم يرضه ذلك المسلك المعيب الشائن من رفاقه ، فانبرى لهم ، ودفع عن الحبيبين أذاهم ... فكيف مع ذاك لا تعرفه لوريللا ! ؟

ثم جلسا صامتين ... وبدا للملاح العاشق أن يبحر من فوره قبل أن يصل أحد فيتلف عليه تدبيره الذي خطر له فى مثل البرق

وتعمد أنطونيو أن يدخل بالفلك فى صميم البحر ... ليكون بعيداً من الشاطئ ما استطاع ... فلما حصل ثمة ... أنزل الشراع فجأة ، وترك الفلك تتقاذفها الأمواج ... ثم توجه نحوها وهتف بها يقول :

— أنت لا تعرفيننى ؟ إذن يجب أن أضع حدًا لعبثك بى ! وينبغى أن أطلعك على ما أترع به قلبي بسببك ... إننى لا أطيق أن أصبر على طول صدك يا لوريللا ... !

— ماذا تعني ؟ أى صد وأى عبث ؟ أتعنى أنك تحبنى ؟ إذن فاعلم أنني لن أحبك ، ولن أقبل أن أتخذك بعلاً ؛ لا أنت ولا أحداً غيرك ، أسمعت ؟

— كلام ترسلينه فى الهواء ! غرور وخيلاء ! أليس لك قلب ؟ لم جئت إلى هذه الدنيا إذن ؟ إنك أنثى ، أليس كذلك ؟ فلم خلقت أنثى ؟ إنك لا بد متزوجة يوماً ما ... ولو برغمك !

— من يدرى ؟ هل اطلعت الغيب ؟ ثم ما أنت وهذا ؟

— ما أنا وهذا ؟ ألم تدركى بعد ؟ إني أخشى أن تكونى من نصيب غيرى ! إن هذا يخرج بى عن صوابى ! إنه يصيبنى بالجنون

— وإذا أصبت بالجنون ، فما أنا وذاك ؟ هل وعدتك بشيء فأنت تجن إذا أخلفتك موعدى ؟ أى حق لك علىّ ؟ !

— أى حق ؟ حق عظيم يا لوريللا ... حق ليس صكا على ورق ، بل هو هنا ... فى صفحة قلبى ... حق يجعلك لى من دون العالمين ... لن أطيق أن أراك ذاهبة إلى قداس مع سواى؟! الموت دون ذاك ... !

— أنت حر تقول ما تريد ... ولن تخيفنى تهديداتك ... ثم أنا حرة كذلك ...

— وينبغى ألا تتمادى فى هذا الغى ... إنى لن أسمح لفتاة شموس عنيدة مثلك أن تعذبنى هذا العذاب الطويل ... هذا غير محتمل ... أنت هنا فى قبضتى ... ويجب أن تنفذى مشيئتى ! !

— إذا استطعت أن تفعل شيئاً فدونك ! ... أتريد أن تقتلنى ... إن ... خالفتك ؟

— أنا لا أحب أن أصنع شيئاً فاتي على نصفه ، وأترك النصف الآخر ... إن هذا البحر الزاخر اللجى يسعنا جميعاً ، ولن يضيق بى وبك ... يجب أن نقر فى أعماقه معاً ... أنا ... وأنت

ثم انقض عليها وأمسك بذراعها ، وحاول أن يحملها ليهبط معها إلى البحر ... بيد أنه صرخ فجأة ... لأن لوريللا كانت فى هذه اللحظة كاللبؤة المغضبة ... فقد فتحت فمها الجميل الفاتن ثم أهوت على يمين أنطونيو ، فقضمت أنامله ، وانبجس الدم الحار الثائر متفجراً كأنه يتدفق من ينبوع ...

— ها ... أرأيت ؟ ها قد امتثلت لأوامرك كما ادعيت ... والآن ... ربما ما تزال تحسب أننى فى قبضتك ... أنظر ! !

ثم قفزت فى البحر الهائج الجياش ... وغاصت فى الماء ...

وصرخ أنطونيو ... وأرسل عينيه الفزوعتين تبحثان فى اللج ، وتضربان فى ثنايا الموج ... لكنه لم ير شيئاً ... ولما التفت إلى الخلف ، وجد الفتاة تسبح نحو الشاطئ ، وهى تكافح العباب المتلاطم ، وتركب بجسمها الأهيف الجميل فوق أعراف الموج المضطرب

— لوريللا ... لوريللا ... قفى ... عودى إلى الفلك ...

إن المسافة طويلة... نحن من الشاطىء على ثلاثة فراسخ يا أختاه...

لكن الفتاة أصمت أذنيها ... وانطلقت تسبح ...

وفى سرعة البرق ، نشر أنطونيو شراعه ، ولوى عنان الزورق الكبير ، وذهب فى إثرها ... وجعل يرجوها ويتوسل إليها ... لكنها مضت فى سبيلها فى البحر سرباً ...

— لوريللا ... وماذا تصنعين إذا بلغت الشاطىء ؟ إننا على مسيرة ساعات من سورنتو ... عشرون ميلا يا أختاه ! !

ولم تعره لوريللا التفاتاً ... بل ذهبت تذرع البحر فى غير مبالاة... فلما كانت على سبحة أو سبحتين من الشاطىء ، لوت رأسها نحو الفلك ، وقالت لأنطونيو مستهزئة : « أما وقد وصلت فسأركب ... وحسبي أن أريتك أننى لست فى قبضتك ! ! » وتعلقت فى حبال السفينة ، ووثبت كالغزالة ، وراحت تعصر الماء من ملابسها ، فانهمر من تضاعيفها غزيراً ثجاجاً

ونظرت إلى يديه ، فوجدت الدم ما يزال يتدفق من يده ، فنزعت منديل رأسها ، وألقته إليه قائلة : « خذ ... أربط بهذا جرحك » لكن أنطونيو لم يفعل ، بل ظل يرنو إليها بعينين جائعتين ظامئتين معجبتين ... فتقدمت هى ، وربطت يده ، ثم جلست بجانبه ، وتناولت أحد المجاذيف ، وراحت تعمل به فى الماء ، لأن الريح كان قد تغير هبوباً ... وحدجته لوريللا وقالت له : « وسترى أيضاً أننى أعرف منك بصناعتك ... هلم فاعمل كما أعمل إن استطعت ...

* * *

وكانت أم الملاح الشاب تنتظره عند المرفأ ، فلما رأت ما به سألته ماذا أصابه .. لكنه تضاحك ، وقال إن مسماراً خدشه ..

ونزلت لوريللا ... وهتفت بالملاح أنها ستعوده ، وستأتيه بحشائش وأعشاب لها نفع عظيم فى مثل جرحه

ولم ينم أنطونيو برغم ضعفه الشديد وإعيائه المضنى ، ولم يخف ألمه برغم الماء الساخن الذى أعدته له أمه ، والذى نضحه على الجرح مراراً .. بل ظل الدم يتدفق .. وظل الفتى يتقلب .. وظل مع ذلك يفكر فى لوريللا

وكان ينظر إلى منديلها كأنه قنية غالية ، أو نفحة من السماء أو تذكار عزيز لهذه المعركة التى انهزم فيها فى عرض البحر ... وفى ... معمعان الحب !

وفى الوقت الذي قطع أنطونيو فيه كل أمل من لقاء لوريللا... وفى هدأة الغسق الساكن ... دخلت لوريللا الجميلة الهيفاء ... لوريللا ... الحلم الجميل الساحر ... تحمل الأعشاب التى وعدت أن تأتى بها لمعالجة الجرح ، فقال لها أنطونيو :

— آه ... منديلك ، لقد أتيت تفتقدين منديلك

لكنها لم تجب ... بل بحثت عن وعاء ، وتناولت يد أنطونيو ففكت الرباط عن الجرح ، وكان قد تورم قليلا ، فغسلته بماء عصرت فيه من أعشابها ، ثم وضعت من الأعشاب عليه ما لا يؤذيه ، وربطت اليد المحمومة الساخنة برباط نظيف تيلى أحضرته معها ... فما هى إلا لحظة حتى زال ألم أنطونيو ... فافتر باسماً وهو يقول :

— أشكرك يا لوريللا ... وإذا كان لى أن أطلب شيئاً ، فهو أن تغفرى لى !

— بل أنا الذى أطلب الصفح يا أنطونيو ... فى الحق ... لقد غاليت معك فى هذه الوسائل العنيفة ... والآن ... ما بال هذه العضة ؟ !

— لقد صنعت ما صنعت دفاعاً عن نفسك ... وأنا ما أزال أشكرك !

— وشىء آخر يا أنطونيو ! ألا تدرى أنك قد فقدت (جاكتتك) فى البحر وفيها نقودك ... أجور المسافرين ... وثمن ... البرتقال !

— هذا لا يهم يا لوريللا !

— بل ... لقد كنت أوثر أن أعوضك عنها لو استطعت... على أننى لا أملك إلا هذا الصليب الفضى ... خذه ... لقد تركه لى المصور يوم أن جاء يخطبنى

— وما أنا وهدية من خطيبك ؟ إننى لن أمسه أبداً

— لا تحسب أننى أقدمه هدية بدورى ... لا ... بل خذه فإنه ينفعك !

— بل خذيه وانصرفى مشكورة

وأخذت المنديل والصليب ، ثم وضعتهما فى السلة الصغيرة التى حملت فيها الأعشاب ... وحينما حاولت أن تنهض من جانب أنطونيو ... نظرت إليه ... وإذا عبرات حرار تتحدر فوق خديها فجأة ... وينظر إليها الملاح النائم ... فينهض كالظليم ...



وفاة دانونزيو شاعر إيطاليا العظيم

نعى البرق فى ٢ مارس الجارى شاعر إيطاليا العظيم جبرييل دانونزيو Gabriele D'Annunzio عن ٧٥ سنة مليئة حافلة ، وبعد حياة مشكورة موفورة ··· وقد ولد الشاعر سنة ١٨٦٣ ، وظهر أول دواوينه سنة ١٨٨٠ ، أى فى سن السابعة عشرة ، ثم والى نشر أشعاره بعد ذلك فدل على حيوية دائبة ونبوغ عظيم .

وقد كان دانونزيو مولعاً بمواطنه الكبير كاردوتشى الذى يطلق عليه الايطاليون (أبا الشعر) وأبا الأدب الايطالى الحديث ، ولذا فقارئ دانونزيو يحس تأثره فى كثير من الأحيان بكاردوتشى ولا سيما فى قصيدته الطويلة (أنشودة للشيطان) التى ثار فيها على المسيحية وعزا إليها انحطاط إيطاليا وتأخرها بعد أن كانت سيدة العالم فى زمن الرومان ··· على أن دانونزيو مزيج عجيب من الاغريق واللاتين والفرنسيين والانجليز ، وقد ترك فيه كل من هؤلاء أثراً كبيراً كان يطفو بأدبه على عباب آدابهم الزاخرة ، ومع ذلك فقد كانت له شخصيته القوية المستقلة ··· وكثير من نقاد الآداب يخالفون الإيطاليين فى نسبة نهضة الأدب والشعر فى إيطاليا إلى كاردوتشى ، فينسبونها إلى دانونزيو ··· وهذا حق ··· فقد أدخل دانونزيو على الشعر الإيطالى كثيراً من صنوف التجديد استعارها له من الشعرين الانجليزى والفرنسى ، واستطاع أن يلفت إليها مواطنيه ، بل أن يفتنهم بها ··· وكان يتوسل إلى ذلك بالأغانى ، حتى إذا استساغوها أنشأ ينظم لهم الأقاصيص الغنائية فأقبلوا عليها إقبالاً شديداً

والميزة التى يتفرد بها دانونزيو على جميع شعراء العصر الحاضر هى قدرته القوية على الوصف . وفى قصة (الرسالة) التى نشرت فى الأسبوع الماضى دليل على ذلك وإن تكن أقصوصة قصيرة . ودانونزيو يصف الوصف البارع ثم يضفى على وصفه أزهى ألوان الطبيعة ، وهو هنا مصور دقيق يربط اللون بالضوء ربطاً عجيباً ... وقد يشغله ذلك عن القصة نفسها ، ولذلك يضيق به بعض قرائه فى حين يفتتن به بعضهم افتتاناً يخرج بهم إلى حد الغرام ... وأستاذ دانونزيو فى تلوين أشعاره على هذا النحو هو الشاعر الانجليزى كيتس

وقد كان دانونزيو مولعاً بالأسلوب الجزل والعبارة الفخمة ، وكانت له قدرة مدهشة على استعمال الغريب استعمالاً يجعله أرق فى فؤاد القارئ من الموسيقى ... وذلك ملحوظ فى شعره ونثره على السواء

وكما كان دانونزيو إمام شعراء إيطاليا فكذلك كان إمام كتابها ... وستعيش قصصه ، وتخلد ، لأنها قصص من النمط العالى الرفيع ... وإذا كان هناك ما يؤسف له فى هذه القصص ، فذاك ... هو هذا الإفحاش البالغ ، والأدب المكشوف الذى كان دانونزيو مولعاً بهما فى شبابه ، مما جعله زعيم المنحطين فى الأدب الإيطالى الحديث ... ولعله قد تأثر بالمنحطين فى الأدب الانجليزى وعلى رأسهم أوسكار ويلد وچويس ولورنس

وأحسن قصصه هى على التوالى (طفل السرور Il Piacere) والفريسة — وانتصار الموت — وعذارى الصخور — ولهب الحياة

ومن أروع دراماته فرنشسكا دراپمينى وجيوكندا . هذا

ويأخذها فى ذراعيه .:. ويطبع على فمها الصغير المرتجف قبلة ... ليس مثلها قط قبلة ... ثم ينحط فى فراشه فيبكى ... ويستخرط فى البكاء ...

— لوريللا ... أليس الأفضل أن نتزوج ؟!

— وهل فى الدنيا أفضل من ذلك يا أنطونيو ... ؟

دريني خشبة

وسنعرض لبعض آثاره فى أعداد تالية

وقبل أن نختم هذه النبذة يجب أن نشير إلى سخط الأدباء فى العالم أجمع أثناء الحرب الحبشية حين أرسل الشاعر تحيته إلى الجنود الإيطاليين الذين ذهبوا إلى الحبشة لتقتيل أبنائها ... والشاعر معذور بطبعه فى موقفه إزاء هذه الحرب ، فلقد كان جندياً وكان طياراً وقد اشترك فى حرب فيومى المعروفة

المجمع اللغوى فى دورته الأخيرة

اختتم المجمع الملكى للغة العربية دورة اجتماعه الخامسة فى الشهر الماضى بعد أن عقد خمساً وثلاثين جلسة نظر فى أثنائها فى كثير من المصطلحات فى علوم الأحياء والرياضة والطبيعة ، فأقر منها قرابة خمسمائة مصطلح ، ثم نظر فيما قدم إليه من قوائم الأعلام الجغرافية التى أخرجها حضرات الأعضاء على القواعد التى وضعها المجمع فى كتابة الأعلام الأجنبية بحروف عربية فأعاد النظر فيما سبق أن أقره

واستأنف البحث فى قواعد جديدة وقرر إعادة القوائم إلى الأعضاء لمراجعتها وإصلاحها بحسب القواعد التى استحدثت

ثم نظر فى قائمة وضعها الأستاذ الدكتور نلينو عضو المجمع وأحصى فيها ما عثر عليه من الأغلاط الشائعة فى المصورات الجغرافية المستعملة فى المدارس المصرية والشرقية فيما يتعلق بالبلاد الآسيوية الإسلامية والسودان وصحراء لوبيا . فناقش المجمع فى هذه القائمة وراجعها على المصادر المعتمدة ثم قرر إرسالها إلى وزارة المعارف لكى تتلافى هذه الأغلاط

وكذلك بحث المجمع فى موضوع إصلاح الكتابة العربية وابتكار طريقة للكتابة تغنى عن الشكل وتضمن النطق الصحيح فتألفت لذلك لجنة طلب إليها أن تواصل البحث والمراجعة وتعد نتائجها للدورة القبلة

ومن قرارات المجمع فى هذه الدورة الاتصال بأصحاب الآلات الكاتبة المشهورة والتفاهم معهم على وضع الرموز التى أقرها المجمع للأعلام الجغرافية بين حروفها ، وطبع المصطلحات التى أقرها فى العلوم والفنون والآداب فى قوائم مستقلة على ترتيب معجمى تيسيراً لإذاعتها ، والاتصال بالجهات الرسمية فى الدول للحصول على القوائم الشاملة لأعلام البلاد كالجامعة العثمانية للحصول على أسماء بقاع الهند ومصلحة الصحراء للحصول على أسماء الأمكنة بين النيل والبحر الأحمر واتحاد البريد الدولي للحصول على دليل البريد الذى يصدره .

معاهد الأزهر واللغة الأجنبية

جاء في بريد الرسالة (٢٤٣) وهي تتحدث عن اشتداد الرغبة فى الأزهر ومعاهده والاقبال عليه ـ أنه (لو عنى الأزهر بتقرير دراسة لغة أو لغتين أجنبيتين فى معهد أو معهدين من معاهده لسبق المدارس المدنية بألف شوط في مضمار الحياة)

وهذه مسألة ظاهرة الفائدة ، وقضية واضحة اللزوم ، وليس من حاجة إلى تجربتها فى معهد أو معهدين من معاهد الأزهر ، بل الواجب تعميمها فى كافة المعاهد على أنها قد جربت في (كلية بيروت الشرعية) التى أقدم على إنشائها برغم الصعوبات والمعارضات وقلة الواردات سماحة مفتى لبنان الأستاذ الشيخ توفيق خالد ، فكانت فائدتها جليلة جداً ، إذ أصبح طلابها يستطيعون إذا شاءوا دخول فحوص البكالوريا العامة ، كما أنهم يستطيعون أن يدخلوا فى إحدى كليات الأزهر العالية . ثم إن كليتنا تدرس مقرر الأزهر الثانوى كاملا وتزيد عليه اللغة والآداب الفرنسية ، وهى كما قال سعادة العشماوى بك وكيل وزارة المعارف المصرية فى زيارته الأخيرة إياها فى هذا الأسبوع : « ليست إلا معهداً من معاهد الأزهر » ويرى المدرسون فى الأزهر الشريف خريجى هذه الكلية فى العام المقبل إذا شاء الله

هذا هو الطريق الوسط الذى لا طريق غيره . فياليت هذا الطريق يكثر سالكوه ، فينشأ أمثال هذه الكلية فى الشام والعراق . ويا ليت المدارس المدنية تنى (أيضاً) بتدريس القرآن والعلوم الاسلامية . إن لم يكن ذاك لأنها دين لا بد منه فليكن تدريسها لأنها مواد علمية قيمة ، وثقافة لا بد منها لكل رجل مهذب ، وعالم متخصص

علی الطنطاوی

بين سابور وفالريان

جاء فى مقال الأستاذ محمد عبد الله عنان (بين تيمورلنك وبايزيد) المنشور فى العدد الأخير من الرسالة أن تيمورلنك وضع بايزيد بعد أسره فى قفص من حديد كما فعل قيصر الروم مع سابور ملك الفرس

وهذا على النقيض مما وقع تماماً ، إذ أن سابور الأول هو الذى أسر قيصر الروم الذى ظل فى أسره إلى أن مات

وذلك أن سابور بعد فترة هدوء بينه وبين الروم مدة أربعة عشر عاماً تقريبا — كان فى خلالها منهمكا فى حروب مع أعدائه الطورانيين التاخمين لحدوده الشرقية — رأى أن الفرصة مناسبة ، بسبب اضطراب الحالة الداخليـة فى الامبراطورية الرومانية ، لاقتطاع بعض أجزائها المتاخمة لحدوده الغربية وضمها إلى رقعة ملكه الواسـعة . فسار على رأس جيش كبير يرفرف عليه علم فارس المرصع[1] وبدأ بمهاجمة المدينتين الحصينتين إدسا ونصيبين اللتين لم تلبثا أن وقعتا فى قبضة يده

وكان قيصر الروم إذ ذاك هو الامبراطور فاليريان Valerian فهرع لملاقاة عدوه ومحاولة صـد تياره الجارف ولـكن بمناورة حربية بارعة تمكن سابور من وضع الامبراطور فى موضع لم يجد معه بداً من الاستسلام بجيشه بأسره لسابور الظافر

وبعد الانتهاء من فتوحاته التي اقترنت بالنار والدم عاد سابور إلى عاصمة ملكه حاملا معه أسيره الامبراطورى الذى ظل فى أسره إلى أن مات

ولا يعلم بالضبط مدى صحة الإشاعة التى تقول إن سابور كان يضع أسيره فى قفص من حديد ولا يبعد أن يكون قد فعل ذلك زيادة فى النكاية بالروم وإمعاناً فى إهانتهم وإذلالهم ، غير أن بعض المؤرخين يستبعد ذلك ويرجح أن سابور كان يعامل فاليريان معاملة حسنة بل وكان يوليه شيئاً من الإكرام

أما بعد وفاة فاليريان فالمحقق أن سابور أمر بنزع جلده وحفظه تخليداً لنصره الباهر على الروم ولإضافته إلى مفاخر فارس الحربية

وقد سجل سابور أيضاً هذا الحادث الفريد بنحته نحتاً بارزاً ضخما على الصخر بالقرب من السابورية وهى المدينة التى أنشأها سابور وسماها باسمه ، فنى هذا النحت نرى سابور ممتطياً صهوة جواده وقد ركع فاليريان على الأرض أمامه ووقف خلف سابور عشرة فرسان يمثلون الجيش الفارسى الظافر ، بينما اصطف خلف فاليريان عدد من الجنود الرومانية يمثلون الجيش الرومانى المأسور

هذه ملاحظة عنت لى لدى قراءة مقال الأستاذ عنان الشائق رأيت أن أسجلها خدمة — كالمعتاد — للحق والتاريخ

قارىء

(١) وهو العلم الذى وقع بعد أربعة قرون تقريباً من ذلك التاريخ لأول وآخر مرة فى قبضة العرب فى موقعة القادسية الخالدة . ولهـذا العلم قصة خيالية (legend) شائقة ربما عدنا إليها

النشاط المدرسى فى المدارس المصرية

اقترح علماء التربية عطلة بعد الظهر في منتصف الأسبوع لاراحة المدرس والتلميذ على السواء ولتكون فترة استجمام وتجديد قوى الذهن لبقية أيام الأسبوع ... وكان جميلا جداً أن يطبق هذا النظام فى مصر ، فعطلت الدراسة بعد ظهر يوم الاثنين من كل أسبوع ، وقد تحقق أثر هذه العطلة القصيرة ، وبدا النشاط الذهنى فى المدارس عامة نتيجة له ... ولـكن سرعان ما انعكست الآية وضاعت الفائدة من هذه العطلة بتكليف الجماعات المدرسـية بالحضور بعد ظهر يوم الاثنين إلى مدارسهم لتسخيرهم فى ألوان من الأذى والارهاق ، يسمونها ألوان النشاط المدرسى ... وهو نشاط أشبه بالركود ، بل الموت ! فهذه جماعة تعمل أشغالا من الأركت بعد الغداء بساعة أو ساعتين ، وتلك أخرى تنشد أناشيد ميتة لا روح فيها ، وثالثة اجتمعت للتفرج بكتب لا غناء فيها ، ورابعة ، وخامسة ، والـكل يشكو فى سره إلى الله من هـذا التكليف السخيف الذى أطار من خيرة التلاميذ عطلة بعد ظهر الاثنين التى أصبح التلميذ الغبي وحده هو الذى ينتفع بها . ولا ندرى لم لا يخصص وقت للنشاط المدرسى فى صلب جدول توزيع الحصص ليشترك فيه جميع التلاميذ ، وليكون أجدى مما هو فى شكله المرهق وأسلوبه السقيم ؟ (معلم)

أول نشرة جوية فى التاريخ

منذ مائة سنة (١٩ يناير سنة ١٨٣٧) أصدر شاب إيرلندي يدعى بَتْرِك مارفى أول نشرة جوية عرفها التاريخ لسنة كاملة تنبأ فيها عن الحالة الجوية لأيام السنة يوماً فيوماً من حيث الحرارة والبرودة والمطر والزوابع . والعجيب فى أمر هذا الشاب أنه لم يكن من علماء هـذه الأبحاث المناخية ، لـكنه مع ذلك تنبأ فى نشرته أن الحرارة ستنخفض إلى أدناها فى يناير من ذلك العام ، وحذر الناس بالفعل من العواقب الوخيمة التى ستنجم عن هذا الانقلاب المناخى المفاجىء ... لـكن الناس وفى مقدمتهم العلماء سخروا منه واستهزأوا به ، فلما كان الأجل المضروب صدقت نبوءة مارفى إلى حد بعيد ، فاشتد البرد وانخفضت درجة الحرارة فى جهات شتى إلى ١٤ تحت الصفر (٤٦ درجة تجمدية !) وبدأ الناس يموتون بالمئات في الشوارع والحقول ، وأخذت القطط

والكلاب تفنى بالآلاف كل يوم ، وانفجرت مواسير المياه وأنابيب الغاز فى أكثر المدن وتلفت المحصولات ، ونفقت البهائم وعمت المصائب والويلات ، وعجزت الحكومة عن مقاومة الكارثة وتخفيف آثارها ... ولما خفت وطأة البرد أهرع الناس إلى (دكان) يترك مارفى ليشتروا نشرته ، وأقبلوا من كل صوب يتلقفونها بثمنها (شلن ونصف) واشتد زحامهم حتى استدعى ذلك تدخل البوليس ... وقد يعجب القارئ إذا عرف أن كل مطابع المدينة كانت تعمل ليل نهار فى طبع الأعداد المطلوبة والتى انتشرت فى أنحاء بريطانيا خاصة وأوروبا عامة ... ولم تمض سنوات حتى أصبح مارفى من أغنياء العالم وعلمائه على السواء

استراليا بعد ١٥٠ سنة من الاستعمار البريطانى

فى ٢٦ يناير الماضى أتم الاستعمار البريطانى لقارة استراليا سنته الخمسين بعد المائة ، إذ يرجع تاريخ هذا الاستعمار العتيد إلى ٢٦ يناير سنة ١٧٨٨ ، حينما أقلع القبس أميرال آرثر فيليب بجانب عظيم من الأسطول البريطانى لإنشاء ويلز الجديدة الجنوبية أولى المستعمرات الانجليزية فى هذه القارة الفنية الواسعة . هذا ويرجع الفضل فى استكشافات استراليا إلى الكابتن كوك قبل قيام هذا الاستعمار بسبعة عشر عاماً (١٧٧٠) . والشعب الاسترالى الذى هب هذا العام يحتفل بتلك الذكرى العظيمة هو شعب راق متمدين ، لا يقل حضارة عن إنجلترا نفسها ، وقد أنشأ مدناً جميلة آهلة بالسكان على الشاطئ الشرقى والجنوبى الشرقى من القارة لا تقل بهاء عن أجمل المدن الأوروبية . وهذا الشعب مولع (باليُوجَنيّة) أى علم استحداث الأحياء الراقية من الأحياء الوضيعة . وقد أفلح فى إيجاد الخيول الاسترالية القوية والخنازير السمينة والأغنام التى تمد العالم بنصف محصوله من الصوف النظيف الناصع ، والأرانب التى تنمر فراؤها أسواق لندن وباريس . وقد نجحوا نجاحاً عجيباً فى الانتخاب النباتى ، فهذا قمحهم الجيد يغمر الأسواق وهذه فاكهتهم تباع فى مصر بأرخص مما تباع فاكهة ممالك البحر الأبيض

والاستراليون أذكياء جداً ، ولعل السبب فى ذلك هو أن ٩٠٪ منهم أحفاد المجرمين وذوى السوابق من البريطانيين الذين نفوا من انجلترا لاستعمار استراليا

الجريدة أم المجلة ؟

مما نشكر عليه الجرائد المصرية إفرادها إحدى صحائفها للفنون والعلوم والآداب ، وهذا خير ولا تثريب على جرائدنا فيه . بيد أننا نلاحظ أن كثيرين من أدبائنا الجهابذ وعلمائنا الأجلاء يؤثرون الجرائد ببحوث جليلة الفائدة فى التاريخ والآداب والعلوم والفنون ، قد لا ينتفع بها عامة القراء ، وقد لا يلتفت إليها خاصتهم ، وإذا راقت أحدهم وقرأها فقد لا يستطيع الاحتفاظ بالصحيفة أكثر من يوم أو يومين ، بله عاما أو عامين ، ومن هنا تضيع قيمة البحث وتندثر فائدته ، ولو قد نشر فى مجلة من مجلات مصر المحترمة لوجد طائفة كبيرة من خاصة القراء تعرف له قيمته وتحتفظ به إلى ماشاء الله . وأمثال هذه البحوث كثيرة ، وقد قرأنا منذ حين بحثاً جليلاً فى تحقيق أسماء المدن الأسبانية وآخر فى أصول الأدب المصرى القديم، وثالثاً فى تاريخ الكتابة الهيروغليفية..الخ ... فأين هى هذ البحوث اليوم ؟ ! (د . خ)



النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة
تأليف الأستاذ محمد عرفة

بقلم الأديب محمد فهمى عبد اللطيف

منذ أعوام نشبت معركة أدبية بين الجامعة والأزهر حول نسبة الشعر الجاهلى ، وكانت شعواء صاخبة جرفت إلى ميدانها كثيراً من رجال الفكر وأعلام الأدب ، واتخذت من صفحات الصحف وردهات الأندية ميداناً واسعاً شاملاً ، وعج عجيجها فاتصلت بالسياسة وكان لها حديث تحت قبة البرلمان كاد أن يطيح بوزارة ، واتصلت بالدين فكان اتهام أمام النيابة واحتكام إلى القضاء ؛ ومع هذا كله فقد انتهت تلك المعركة وما تركت إلا النقع يخنق النفوس ، والغبار يقذى العيون ، وبقيت نسبة الشعر الجاهلى كما هى خاوية لا تقوم على تحقيق ثابت ، واهية لا ترتكز على بحث علمى صحيح ، معقدة لا يجليها رأى مبتدع ، مظلمة لا ينيرها فكر ثاقب

واليوم تنشب المعركة ثانية بين الأزهر والجامعة حول النحو وقواعده والنحاة وجهودهم . فالأستاذ إبراهيم مصطفى الأستاذ بكلية الآداب فى كتابه « إحياء النحو » ينتقد النحويين في قصرهم مباحث النحو على الإعراب والبناء ، دون أن يبحثوا خصائص الكلام من التقديم والتأخير ، والنفى والاستفهام ، والاثبات والتأكيد ، ثم يرد على النحاة فى زعمهم أن الإعراب أثر لفظى لا يؤدى معنى ، ولا صلة له بتصوير المفهوم ، وإثبات أن حركات الإعراب دوال على معان قصدت من الكلام ، فالضمة علم الاسناد ، والكسرة علم الاضافة ، والفتحة علم الخفة ، ثم هو ينتقد النحاة فى زعمهم أن هذه الحركات اجتلبها العامل ، وراح يثبت أن المتكلم هو الذى أحدثها ، وخالفهم فذهب إلى أن التنوين علم التنكير ، فلك فى كل علم ألا تنونه

والأستاذ محمد عرفة الأستاذ بكلية اللغة العربية يرى فى ذلك منكباً للقصد ، وحيفاً على الحق ، فوضع للرد عليه كتابه (النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة) وهو يعتقد أن الأستاذ مصطفى قد نحل النحاة مذاهب لم يقولوها ونقدها وأبان خطلها ، كما أنه قعّد قواعد فى العربية لو أخذ الناس بها لغيرت من روح العربية ولأفضى ذلك إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله على غير وجههما ، حتى لقد عمم فى الطعن ولم يخصص ، فأدخل سيبويه وكتابه ! يقول الأستاذ عرفة : «ولقد تمثلت هؤلاء النحاة وهم فى أجداثهم يهضمون هذا الهضم بعد أن ملأوا الدنيا علما ، ويحاف عليهم هذا الحيف وقد خرست ألسنتهم الناطقة ، وإذ قد آلوا إلى ما آلوا إليه ، فقد صار حتما على أبنائهم أن يردوا عنهم هذه التهم كما هو الواجب الانسانى ، وواجب الأساتذة على أبنائهم الذين هذبوا عقولهم ، ثم واجب اللغة العربية وواجب العلم فى نفسه ، وأخيراً واجب التلاميذ على أساتذتهم »

و « الفكرة » فى كتاب الأستاذ عرفة هى مجاوبة للفكرة فى كتاب « إحياء النحو » ، فهو يرى أن النحو العربى فى حاجة إلى تبسيط قواعده وعرضه بطريقة تقربه من طبيعة المتكلمين وتكشف عن سر العربية ، ولكن على نمط قويم لا على ذلك النمط الذى انتهجه صاحب « إحياء النحو » فحادبه عن السداد ، ولو ثبت لكان خطراً على اللغة العربية ، وعلى فهم كتاب الله وسنة رسوله

ولقد أعجبنى الأستاذ عرفة فى ثبات جنانه فما اشتط فى الخصومة ، ولا جمح به القلم ، فإذا هو مع خصمه من أول الكتاب إلى آخره على ما تقضى به كرامة العلم والخلق الحميد ، عف الأسلوب ، مهذب العبارة ، نزيه الغرض ، صريح فى الحق ، لا يخاتل صاحبه ولا يموه على قارئه ؛ إن قسا فبالحجة ، وإن

احتكم فالى النصوص المدونة والنقول الثابتة ، وإلى العلم والمنطق تلك هى معركة اليوم بين الجامعتين ، وذلك هو مداها : أستاذ يهاجم وأستاذ يدافع الرأى بالرأى ، والحجة بالحجة ، و «الكتاب» «بالكتاب» ، وما نريد أن نزيد مدى المعركة على هذا الحد ، ولا أن يخرج عن هذا الاعتبار ، ولا نحب أن تتجاوز الأستاذين إلى غيرهما حتى ينتهيا إلى آخر الشوط ، ويصلا إلى نتيجة ترضى الحق والعلم

أما الآن فالكلمة نحب أن نسمعها من صاحب « إحياء النحو » فهو أولى الناس بالذود عن حوضه ، وخير من ينافح عن فكرته ، خصوصاً وأنه يريد أن يعمم هذه الفكرة فى وزارة المعارف وأن يقحمها فى مناهج التعليم ؛ وقيل إنه قابل الوزير لذلك الغرض فشجعه الوزير ووعده الخير . فليتقدم الأستاذ مدافعاً عن نفسه أو مسلماً لخصمه ؛ وعلى أى حال سواء أمكنه أن ينهض بفكرته وأن يرفع لواءها سليماً من الطعن ، أو نكص بها مردوداً من قريبه ومنازله ، فإنه مشكور له أجر المجتهد أخطأ أم أصاب ، وحبذا الناضل والمنضول في سبيل الحقيقة العلمية خالصة لله منزهة عن الأغراض

محمد فهمى عبد اللطيف

رئيس التحرير وقصص أخرى

(مجموعة أقاصيص أصدرها الأديب صلاح الدين ذهنى)

للأستاذ زكى طليمات

القصة المصرية تسير بل تركض ...

فمذ أطلت برأسها علينا فى (حديث عيسى بن هشام) للمويلحى تخفى وجهها بخمار عربى من وشى أنامل تذكرنا بنسيجها الأول فى (مقامات الحريرى) و (بديع الزمان) ، إلى أن أسفرت عن وجهها مصرية من غير نقاب فى (زينب) لهيكل ، إلى أن صلب عودها واستفاضت بشرتها بحمرة مياه النيل فى قصص محمود تيمور ، وقبل ذلك فى أقاصيص شقيقه محمد ، إلى مالم تدخره حافظتى من أسماء قصاصين من أدباء مصر والشرق العربى أبوا إلا أن يغامروا بأقلامهم في معالجة هذا اللون الجديد من الأدب العربي .

منذ ذلك الحين والقصة المصرية توالينا بنتاج لا ينقطع ، وكأنها تأبى إلا أن تكون شغل الأدب والنقد فى هذه الأيام

القصة المصرية صبية جامحة تياهة مزهوة فهى لا تعرف فضيلة التواضع ، تتحدث بصوت جهير كلما ملكتها شهوة الكلام ، ولا تدرى فعل التفكير والمراجعة وأثر التحرى والاستجمام فى إتيان الوثبة الواسعة ؛ وما هذا بالأمر المستغرب لأنه يرجع إلى طبيعة الشيء . وكأنى بالأديب المصرى اليوم ، وقد استشعر ماهية شخصيته بتأثير النضال الاستقلالى وبعوامل النزاع القومى وبما يعمر رأسه من أصداء الأدب الغربى وفى مقدمتها القصة . كأنى به أصبح لا يرتاح إلى الإفصاح عن خلجات نفسه والشكاية من حصره إلا عن طريق التدخل فى أديم شخصيات يبتدعها خياله بعد أن ينتزع معينها من البيئة التى يعيش فيها ، فيسجل ببراعة دقائق هذه الشخصيات فى سرد قصصى يطريه الحوار وتغلفه أجواء تفيض بالصبغة المصرية المحلية ، وتتمشى فيها أعراق من الإنسانية العامة . وأغلب الظن أن القصة المصرية أصبحت المجال الذى يعمل فيه الأديب المصرى اليوم لاستخلاص (المصرية) ولاستكمال مقومات أدب حديث ؛ وهى مظهر من مظاهر تحررنا من أساليب الأدب العربى القديم بعد أن غمرتنا أمواج ثقافة غربية جديدة ، وطالعتنا أحداث الزمن بما جعلنا ننفر إلى الجهاد فى سبيل حياة مستقلة

ومهما حاول النقد مخلصاً أن ينال من القصة المصرية باخراج أكثر نتاجها من دائرة الفن الرفيع فلن يستلبها بهاء الشباب وروعة الفتوة . وإذا لم نجد فيها — وأعنى أكثريتها — عمق التفكير وجزالة الطبع القوى وصدق التحليل النفسى الذى يحس به ولا يلمس ، وطرافة المعالجة ، فحسبنا أنفاس عطرة دافئة تهب علينا من بين سطورها ، هى أنفاس مؤلفيها ، وهم أدباء يحاولون أن يدخلوا لوناً جديداً على الأدب العربى وأن ينشئوا أدباً قومياً

أكتب هذا وأمامي مجموعة أصدرها الأديب الشاب (صلاح الدين ذهنى) باسم (رئيس التحرير وقصص أخرى) ، وهي مجموعة تقف بجدارة إلى جانب أحسن ما أخرجته أقلام القصاصين الحديثين من المصريين . ولعل أبين ما تمتاز به أنها

جاءت في أسلوب يتسامى بجزالته عن مثيله فيما قرأت من قصص الناشئين من القصاصين

إلا أن الجزالة في اللفظ والفصاحة ليست كل شيء في الأسلوب، وهو من معاني القصة قوالبها وأداة معالجتها. والحكم على طرافة القصة ومنزلتها من الأدب الرفيع لا يكون الممدة فيه موضوعها، بل أسلوب معالجة هذا الموضوع. وما ترك الأول للآخر فكرة أو موضوعاً لم يعالجه أو يشر إليه؛ فقد يحدث أن يعالج الموضوع الواحد عدد كبير من الكتاب، ولكن التفوق والخلود لا يكتبان إلا لواحد منهم، وهو من يكون قد حذق معالجة هذا الموضوع وبرع فيه

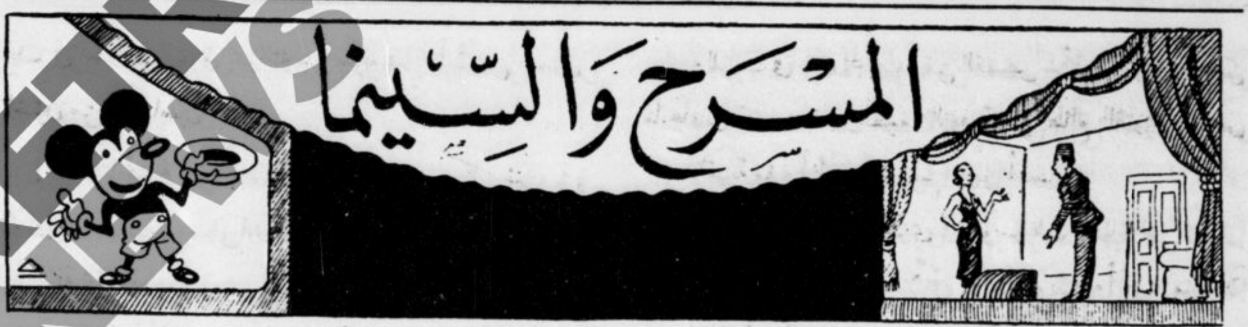
والمعالجة الطريفة لموضوع القصة تكون في حبكتها الشيقة وإنزالها في القالب الذي تخرج منه منسقة الحوادث من غير عنت، متينة البناء في غير افتعال، متزنة محكمة الأسلوب، تومىء وتفصح، وتقطر وتفيض. وحظ القصص التي بين يدي مما ذكرت غير متجانس، فبعضها يأخذ سمت المعالجة الطريفة في خطو وئيد، والبعض الآخر يتعثر في نواح من نواحيه، إلا أنها عثرات سرعان ما تقال. ويبدو هذا في القصة الأولى من المجموعة وعنوانها (حسنة)، في حين أن قصة (رئيس التحرير) تعد أنموذجاً لحذق كاتبها من حيث معالجة الموضوع وخصب البيان. وحسبنا من المؤلف أن يصيب مرة ويخطىء مرات، وهو في الحالتين لا يألو جهداً في أن ينزع نحو الكمال الفني المنشود

و(رئيس التحرير) قصة فكهة (كاريكاتورية) الأشخاص والأسلوب. وأبين ما تبين عنه هذه القصة نزعة ساخرة يفيض بها قلم كاتبها، وهي نزعة يخالطها الأسى وتمازجها الشكاية في قصة (مذكرات فنان) حيث نرى المؤلف متبرماً بمجتمعه متململاً بما شاع فيه من التطاول والادعاء؛ ينقد عن ملاحظة دقيقة أوضاعه المقلوبة، مما يدل على أن (صلاح الدين) على حس مرهف وعين بصيرة بحقائق الأشياء وتفاريق الألوان في مجتمعه، فهو يرى ويشعر ويحيا ويتألم ويسخر ويصخب، وشأنه في هذا شأن صفوة الشباب المعذب في هذا الجيل، ولعل هذه القصة أحسن ما تكشف عن نفسية المؤلف

وللريف في هذه المجموعة من القصص شأن يذكر، وأحسن ما جاء في قصصه تلك الصبغة الريفية التي تطالع القارئ فيحس بريح القرية ملء أنفه وبهدوئها يشمل أعصابه

وللمؤلف جولات أخرى في موضوعات الحياة التي تتصل ببيئته، فهو تارة تراه متدخلاً في زوايا البيوت، وأخرى متغلغلاً في طوايا السرائر؛ وهو في معالجة هذه الموضوعات يركض ويتباطأ، ويهبط ويصعد، ويستقيم ويلتوي؛ ولكنه يريد دائماً أن يذهب بعيداً ليستقر في آفاق طريفة من التأمل والتفكير، وهو فيما يريد أن يذهب إليه يصيب مرة ويخيب أخرى، وهو في خيبته غير مهزوم

زكي طليمات



ســاعة التنفيذ

إنتاج استوديو وهبي

على ستار «كوزمو»

ممثلو وممثلات الفلم

أمينة رزق — لطفية نظمى — زوزو نبيل — زينات صدق — ليلى سلطان — لطفية أمين — يوسف وهبي — عبد القادر المسيرى — عبد العزيز أحمد — حسين صدق عبد المجيد شكري — أبو العلا على — لطفى الحكيم — توفيق صادق — محمد ابراهيم — محمود المليجى

ملخص الرواية

عاد رؤوف سامي (يوسف وهبي) من أوربا بعد أن أصبح طبيباً فوجد خطيبته سامية (أمينة رزق) زوجة لفؤاد بك راجى التاجر الثرى مع أنها لا تزال تكن له الحب فتتوثق العلاقة من جديد بين رؤوف وسامية ...

وقد نتج من هذه العلاقة طفل لرؤوف من سامية ولكنه شرعاً يعتبر ابناً لفؤاد بك ... تعرف الدكتور رؤوف بفؤاد بك فأكرمه وأحله محل الأخ ، فأخذ ضمير رؤوف يؤنبه ، وأراد أن يقطع علاقته بسامية ؛ غير أن الظروف جعلت فؤاد بك يعرف تلك العلاقة الأثيمة . وفاجأ ذات مرة زوجته بين يدى صديقه ، فلم تتحمل الزوجة الصدمة وألقت بنفسها من النافذة تاركة الزوج والخليل والابن (إحسان) ، وحين كانت تلفظ النفس الأخير باحت لزوجها بسر مولد إحسان ، وطلبت إليه أن يحتفظ بالطفل الذى كان محبوباً من الجميع

توارى رؤوف غير أن توبيخ ضميره طارده وأفقده مركزه الأدبى والمادى ، وقد أراد أن يكفر عن ذنوبه فاصطدم بحوادث عديدة صيرته بين كبار المجرمين ، وقد جعل رؤوف حياته وقفاً على خدمة ولده الذى لا يعرفه ، فكان يحميه عن بعد دون أن يعرف سر أبيه ...

وحدث أن أراد أحد الخدم أن يفشى سر مولد إحسان وقد تقدم للانتخابات لمجلس النواب خدمة لخصمه ، فقتله رؤوف وقبض عليه وسيق إلى المحاكمة وإذا بالمحقق هو ولده إحسان وكيل النيابة ... قدم رءوف للمحاكمة وكان إحسان فى ذلك الوقت قد اعتزل الوظيفة ، وأصبح محامياً وعضواً بمجلس النواب ... وفى جلسة محكمة الجنايات فوجىء رؤوف بابنه إحسان وقد دفعه دافع خفى للدفاع عن أبيه دون أن يعرف الحقيقة ... وطلب منه أمام القضاة أن يعترف بأسباب الجريمة فهو يشعر أن المجرم قد اقترف القتل لسبب نبيل .. فما كان من الوالد إلا أن سخر بدفاعه ووقف يؤكد للمحكمة أنه مجرم وقاتل وعريق فى الاجرام ... وبينما كان حكم الاعدام ينفذ في الوالد .. كان الولد يهنأ بعروسه فى شهر العسل

يوسف وهبي

ويقوم الأستاذ يوسف وهبي فى هذا الفلم بأدوار ثلاثة ، فهو المؤلف والمخرج وممثل البطل ... وهو فى ذلك يشبه الممثل الكبير شارلى شابلن الذى يؤلف ويخرج ويمثل أفلامه القوية الناجحة ، ونحن نهنئ الأستاذ يوسف وهبي على هذا المجهود الكبير

ونؤجل نشر نقدنا الفنى لهذا الفلم إلى الأسبوع المقبل

السيدة منيرة المهدية

تعود إلى المسرح

وأخيراً عادت السيدة منيرة المهدية إلى الظهور بعد احتجابها الطويل فى المسرحية الجديدة «الاوبريت» (الأميرة روشنارا الهندية) وهي من تأليف الكاتب المعروف الأستاذ بديع خيرى وتلحين الأستاذ زكريا أحمد. وسنتناول فى الأسبوع القبل نقد هذا الفلم من جهاته الفنية

الأميرة كوكا

بطلة فلم (تاجر الملح)

ابتداء من اليوم تقدم سينما رويال بالقاهرة فلم (جريكو) أو (تاجر الملح) الذى أخذت أكثر مناظره فى مصر وبين ظهرانينا



كوكا وبول روبسون

وبطل الفلم رجل أسود له شهرة فى عالمى التمثيل والغناء تضارع شهرة أقوى ممثل أومغن من الجنس الأبيض، إن لم تفقه. وقد سبق أن رآه جمهورنا ناجحاً قوياً فى عدة أفلام على ستار أكثر دور السينما فى مصر ... واسم هذا الزنجى الشهير بول روبسون

أما بطلة (تاجر الملح) فهى فتاة مصرية اسمها الحقيقى ناجية ابراهيم، ولقبها الانكليز فى جرائدهم بالأميرة (كوكا) فأصبحت تعرف بهذا اللقب. وهى فتاة برنزية اللون ذات عينين خلابتين وجسم معتدل مما ساعدها على ارتقاء سلم النجاح فى عالم السينما بسهولة وسرعة

وقد اضطرت ناجية ابراهيم إلى السفر مرتين إلى بلاد الانكليز لإتمام إخراج هذا الفلم العظيم ... وهناك فى إنجلترا تعلمت كوكا رقصة الكلاكيت التى أصبحت تتقنها .. غير أن هذه الرقصة قد كلفتها كثيراً، فإنها مازالت حتى الآن تعانى الأمرين من آلام ظهرها

وسنرى أى نجاح تصيب هذه النجمة المصرية الجديدة .. !

بدرية رأفت

بطلة الفلم المصرى الجديد:

نفوس حائرة

تعرض سينما الكوزمو فى هذه الأيام إشارة إلى فلم مصري جديد ستظهر على ستارها عما قريب ذلك هذا الفلم هو (نفوس حائرة)

وأما أبطاله فهم بدر لاما، وبدرية رأفت، وعبد السلام النابلسى، وسميحة



بدرية رأفت

فهمى، وفؤاد المصرى الخ ...

والمخرج هو الأستاذ ابراهيم لاما المخرج المعروف، وقد أخرج لنا بضعة أفلام مصرية ناجحة

فؤاد زمكحل



النجمان المعروفان إريك ليندن وسيسيليا باركر
كما يبدوان فى منظر من « ربيع الغرام »
الرواية القوية التى تعرضها سينما ريجال بالقاهرة ابتداء من اليوم (الاثنين ٧ مارس)

وزارة الصحة العمومية

تقبل عطاءات بمكتب حضرة مدير مخازنها لغاية الساعة العاشرة من صباح يوم ١١ ابريل سنة ١٩٣٨ عن توريد :

١ — الزجاج والقطرميزات وأوراق المساحيق وأنابيب الكاوتشوك والفلين وأسطوانات الأكسوجين الخ ...

٢ — الميكروسكوبات ولوازمها

ولغاية الساعة العاشرة من صباح يوم ٩ مايو سنة ١٩٣٨ عن توريد القطن والغيارات والماكينتوش الخ ... اللازمة للوزارة لعام ٣٨ / ٣٩ — والعطاءات يجب أن تكتب على استمارة خاصة تطلب من إدارة مخازن الصحة العمومية بالقاهرة ومن القنصليات الملكية فى الخارج ما عدا انجلترا حيث يمكن الحصول عليها من المكتب الهندسى للحكومة المصرية بلندن مقابل دفع ٥٠ مليما عن كل من مناقصتى الميكروسكوبات والقطن والغيارات ، و ١٠٠ مليم عن كل قائمة من مناقصة الزجاج — ويمكن الاطلاع عليها بمراكز الغرف التجارية بالقطر المصرى

وكل عطاء غير مصحوب بتأمين ابتدائى ٢٪ من قيمته لا ينظر فيه ويجب أن يوقع على شروط التوريد والقائمة من مقدم العطاء

٢ — ٢ ٣٦٠١

إدارة البلديات العامة

طرق

تقبل العطاءات بادارة البلديات العامة لغاية ظهر ١٩ مارس ١٩٣٨ عن توريد وتركيب طروفيات وتوريد حجر دبش وزلط ورمل لمجلس قنا المحلى وتطلب الشروط من الادارة نظير ٢٠٠ مليم

٢ — ٢ ٣٥٩١

إدارة البلديات العامة

قسم الكهرباء

تقبل العطاءات بادارة البلديات بمصر حتى ظهر يوم ١٤ ابريل سنة ١٩٣٨ عن توريد فحم غاز الاستصباح لعملية الانارة بالغاز ببورسعيد . وتطلب الشروط من الادارة نظير مائتى مليم

١ — ٢ ٣٦٢٧

وزارة الزراعة

تقبل العطاءات بادارة المخازن والمشتريات والورش بالدقى لغاية الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ٢٠ مارس سنة ١٩٣٨ عن توريد أدوات خيام لأعمال دودة القطن لعام ١٩٣٧ / ١٩٣٨ ويمكن الحصول على الشروط والمواصفات من الادارة المذكورة يومياً ما عدا العطلات الرسمية مقابل دفع مبلغ ٣٠ مليما

٣٥٩٠

محكمة السنطه الأهلية

إعلان بيع

فى القضية المدنية ن ١٩٨٥ سنة ١٩٣٦

إنه فى يوم الثلاثاء ٥ ابريل سنة ٩٣٨ الساعة ٨ أفرنكى صباحا بسراى المحكمة سيباع بالمزاد العلنى الأطيان الآتى بيانها بعد المملوكة إلى الست زنوبه وحسين أولاد المرحوم محمد احمد كحله والست زنوبه ابراهيم كحله القيمين بمصر بشارع الطباخ ن ١١ بالعباسية بمنزل محمد افندى فؤاد تبع قسم الوايلى وهذا بيان الأطيان

١٣ س ٥ ط أطيان كائنة بزمام شبرابلوله السمنودية مركز السنطه بحوض رزيق بالقطعة ضمن ١٧ يحد بحرى بسيونى بك الخطيب وأخواته والشرق ترعة عمومية والقبلى ورثة حنا بك رزق والغربى سكة زراعية عمومية

١٣ س و ٥ ط خمسة قراريط وثلاثة عشر سهماً لا غير

وهذا البيع بناء على طلب الست زينب احمد نيازى القيمة بمصر بالعباسية وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ١٢٤ كتوبر سنة ١٩٣٧ المسجل بمحكمة طنطا الأهلية فى ١٢٦ كتوبر سنة ٩٣٧ ن ٩٠٦ سنة ٩٣٧

وهذا البيع وبناء لمبلغ ٢٠ ج خلاف المصاريف وما يستجد منها بثمن أساسي قدره ١٦ ج خلاف المصاريف وشروط البيع وجميع الأوراق مودعة بملف القضية بقلم كتاب المحكمة لمن يريد الاطلاع عليها فعلى من له رغبة فى الشراء الحضور فى الزمان والمكان المحددين أعلاه للمزايدة قانوناً

كاتب البيوع

فى يوم ٢٠ مارس سنة ١٩٣٨ الساعة ٨ صباحاً والأيام التالية بناحية العقال القبلى مركز البدارى إذا دعت الحالة سيباع علناً المواشى الموضحة بالمحضر ملك سيد محمد مكى من الناحية نفاذاً للحكم نمرة ٨٤٧ سنة ١٩٣٧ مدنى البدارى وفاء لمبلغ ٨٤٢ قرش صاغ وذلك بخلاف أجرة النشر كطلب مهنى فرغلى من الناحية فعلى راغب الشراء الحضور

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

6 me Année, No . 245

Lundi - 14 - 3 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العــــدد ٢٤٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٢ محرم سنة ١٣٥٧ — ١٤ مارس سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

« ســـارة »

للأستاذ عباس محمود العقاد

كنت أقول للذين يحلو لهم أن يصنفوا الكتَّاب إلى كاتب مقالة وكاتب قصة وكاتب نقد وكاتب سياسة وكاتب تمثيل : إن الكاتب الخليق بهذا الاسم يجب أن يكون أولئك جميعاً . فإذا قصر جهده على بعضها فليس معنى ذلك قصوره عن بعضها الآخر ، بل معناه أن عمل الكاتب فى التعليم أو فى الصحافة ، أو حظ الأمة من الحضارة والثقافة ، أو حال المجتمع من الرخاء والاستقرار، يساعد اتجاهاً على اتجاه ، ويُغلِّب نوعاً على نوع . وما الكاتب إلا فنان موهوب ميزته تأليف الكلام الجميل تعبيراً عما يقع فى حسه وعلمه ، وتصويراً لما يجرى فى خياله وذهنه ؛ فاذا استمد الإلهام والمعرفة أحاط إحاطة (الجاحظ) و (جيته) ، وإذا استملى الشعور والعاطفة ألم إلمام (البديع) و (موسيه) . وانفساح ذرعه أو انحصار طبعه لا يدخل فى حسابه بالزيادة ولا بالنقص ، لأن الأصل فى فنه أن يجيد الكشف عما يحس والابانة عما يعلم

قالوا إن العقاد باحث جرىء الرأي، وناقد نافذ البصيرة، وجدلى دامغ الحجة ، ولكنه لا يملك أن يكون قصصياً يكشف بالوحى حجب الغيب ، وينمق بالخيال صور الحقيقة ، ويحيي بالعاطفة خمود الفكرة ، وتلمسوا لذلك الأدلة والعلل من طبيعة مزاجه

واتجاه تفكيره وروح أسلوبه، حتى رووا عنه أنه عاب القصة ونفى أن تكون نوعاً جدياً من أنواع الأدب. وكان الذين يسمعون هذا الكلام يقابلونه بالتصديق ويؤيدونه بالواقع، فكنا نقول لهؤلاء إن الذي يعرض هذا العرض، ويصف هذا الوصف، ويحلل هذا التحليل، لا يُعضل عليه — إن أراد — أن ينقل المشهد الذي رآه، ويقص الخبر الذي علمه. وليس القصص كله خيالاً حتى يسوغ في العقل أن الكاتب الذي يضيق خياله ويضعف وهمه باتساع عقله وقوة فكره يقصر باعه عن القصة

وجاءت (سارة) والرأي على ما خيّل الراوون فأقرت الأمر في موضعه من صميم الحق؛ وقدمت الدليل القاطع على أن هذه الشخصية الأدبية قد بلغت الغاية في كل ناحية من نواحي الأدب، حتى الناحية التي لم تتجه إليها إلا منذ أمس.

وهل صحيح أن أمس كان أول عهد العقاد بالقصة، وأن سارة كانت أول ما كتب العقاد من القصص؟ الحق أن الكاتب المطبوع يولد وفي قريحته أصول الأنواع الأدبية؛ تنمو بنموه، وتطوّر بتطوره، وترقي برقيه؛ ولكن ذلك يحصل لبعضها بالفعل، ويحصل لبعضها الآخر بالقوة. فلو أن العقاد كتب (سارة) أيام كتب (مجمع الأحياء) لكان من الراجح أن يكتبها من نوع غير هذا النوع، وبأسلوب غير هذا الأسلوب؛ ولكنه كتبها حين كتب (سعد زغلول) فجاءت من النوع التحليلي البارع، وبالأسلوب المنطقي المشرق. والقصة التحليلية هي آخر أطوار القصة، كما أن الشعر الفلسفي هو آخر مراحل الشعر. ونتاج الذهن يتطور بين الطفولة والكهولة في الفرد والأمة والخليقة؛ فالأسطورة تنتهي إلى القصة، والملحمة تصير إلى الرواية، وشعر الغناء يؤول إلى شعر الفلسفة

* * *

(سارة) قصة فتاة مثقفة لعوب أرملة، وصفها العقاد في فصلين لا نجد كثيراً من أمثالها في أدب العالم، وهما (من هي) و (وجوه). عرفها همام المهذب العقل الطيب القلب وهو في وسط عقده الرابع أعزب وحيد، فشغفته حباً للأسباب التي حللها الكاتب في فصل من هذه الفصول؛ ثم وصلت بينهما الطبيعة بالصلة التي لا حيلة فيها لانتظار ولا اختيار ولا خبرة؛ وظلت هي على غريزتها الأنثوية تعابث وتخابث وتلبس تارة لباس (مانون)، وتارة أخرى لباس (مادلين)؛ وظل هو على شكيكته العلمية يؤوّل، ويعلل، ويفرض الفروض، ويثير الشكوك، ويقوى حيناً فيكون (دون جوان)، ويضعف حيناً فيكون (دى جِرْيو) حتى ذوى الحب بين الشك منه والسأم منها فتفرق العاشقان

ليس في القصة إذن حادثة تروعك، ولا مفاجأة تدهشك، ولا عقدة تشوقك؛ ولكن هذا الحادث العادي المطروق أصاب ذهناً شديد النفاذ، وفكراً دقيق الملاحظة، وشعوراً صادق الحس، فتجلى في (سارة) صوراً واضحة الخطوط، ناطقة الملامح، عبقرية الألوان، تمثل هذه المرأة في جميع حالاتها وعلى كل وجوهها تمثيلاً عارياً لا ينفع فيه ثوب رياء ولا ورق تين. ولعل الطريف في (سارة) أنها تحلل تركيب العشق في قلبي عاشقين من ذوي الثقافة والفكر، فتنتهي إلى أن الفلسفة لا تجعل من العاشقة إلا امرأة ككل امرأة، ولا من العاشق إلا رجلا كأي رجل

* * *

أما أسلوب (سارة) فهو أسلوب العقاد: صريح لا رغوة فيه، جلي لا غبار عليه، مستقيم لا التواء به؛ يتصل فيه اللسان بالعقل فلا يلغو، ويعتمد فيه القلم على القريحة فلا يهين. على أن العقاد في سارة قد احتفل لأسلوبه واحتشد لفنه فجاء من النمط العالي، لا تجد خللاً في سبكه، ولا قلقاً في اطراده، ولا وهناً في منطقه، ولا سقطاً في ألفاظه، ولا شططاً في معانيه. وفي رأيي أنك لا تعرف العقاد على حقيقته إنساناً وفناناً إلا في (سارة)

إن سارة تقدم مثلاً جديداً في بلاغة الأسلوب، وتفتح فصلاً جديداً في أدب القصة، وتسجل اتجاهاً جديداً في أدب العقاد

احمد حسن الزيات

عود إلى داء الشعور بالحقارة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

والمصاب بداء الشعور بالحقارة إذا أفدته علماً أو مالاً تباهى به عليك وتلمس الوسائل كى يظهر بمظهر المانح كأنما يمنحك فضلاً أو عوناً، إما بأخذه ما أخذ منك، وإما بدلا منه. وهو لا ينسى لك فضلاً ويحسدك على نعمتك حتى تزول ولو كان في زوال نعمتك زوال نعمته، ويحاول أن يخفى فضلك عليه حتى على أكثر الناس علماً بما أفدته، ويحاول أن يجند منهم أعواناً له ضدك بأن يظهرك بمظهر العداوة لهم وقلة الخير والزهد فيهم، فإذا عاتبته واضطررت أن تذكره بمعونتك كى تبتعث الحنان فى قلبه عدّ إشارتك التى استثارها بعمله أو حديثه امتناناً منك عليه، فيزداد لك عداوة. وهو بالرغم من مقابلته المعروف بالاساءة يطمع فى المزيد مما عندك وإن ظهر بمظهر العائف له. وهو سلاح فى يد أعدائك حتى وإن لم يدر ذلك، لأنه قد يغالط نفسه أو يغالطونه ويخادعونه

ومن المصابين بداء الشعور بالحقارة من ينغص عيشة من يباشره باظهار حدة الطبع ورفع الصوت والعراك، لأنه يرى فى كثرة العراك تعاظماً وتعالياً يخفى ما يشعر به فى سريرة نفسه من الوجل والخوف من أن يحقر. ومن المصابين بهذا الداء من يعد سفاهة لسانه سياجاً يحوط به عظمته الموهومة التى يخفى بها ماهو كامن فى سريرة نفسه من الشعور بالحقارة التى قد يظنها عظمة

ومنهم من يتلمس الفرص كى يسمع الناس صوته كأنما صوته جرس يدق إيذاناً بالعظمة التى يخفى بها خوفه من التحقير

وترى الواحد من هؤلاء لا يتعفف عن مدح نفسه والاشادة بآرائه وأفكاره وإعجاب الناس بها واحترامهم إياه بسببها، وهذه الخطة قد تكون مكراً ووسيلة كوسيلة التاجر فى الاعلان عن بضاعته وإن عرف أن بضاعته غير مزجاة؛ وصاحبها مع ذلك مطمئن النفس لا يبالى إذا لم يصدقه السامع، ولكنها قد تكون خطة مسعور متكالب على الناس يرجو احترامهم ولا يستطيع أن يعيش من غيره ولا يهنأ حتى ولو فقد مثقال ذرة منه، وهو يتفرس في وجوه الناس كى يرى هل صدق السامع حديث إعجاب الناس به. وكلما كان الرجل من هؤلاء المصابين بداء الشعور بالحقارة مفلساً من المال أو الجاه أو العلم كان حقده أشد، ونكايته أنكى، وصوته أكثر إيذاناً بالعظمة التى يحاول أن يخفى بها المرض. وقد تزول أسباب المرض من إفلاس فى مال أو علم أو جاه، ولكنه يبقى طبعاً فى النفس لا تستطيع مداواته. ومن العجيب فى أمر المصابين بداء الشعور بالحقارة أنهم قد يخلصون أو يتظاهرون بالاخلاص — وهو الصواب — لمن لا يرجون منه خيراً ولا نفعاً، ويختصون بالاعنات من يرجى منه الخير أو من أصابهم منه خير، لأن الدَّينَ ربما عدوه نقصا. وهؤلاء المصابون بداء الشعور بالحقارة يود بعضهم بعضا بالغريزة، ويساعد بعضهم بعضا ما دام ليست بينهم خصومة على خير مرجو، وما دام لا يحجب أحدهم الآخر عن الظهور؛ وهم عند ما يساعد بعضهم بعضا يكونون كأنما هم حلف على الباطل قد عمل بحرف الحديث: (أنصر أخاك ظالما أو مظلوما) وأغفل معناه الحقيقى؛ وهم إذا تعاونوا على الباطل يعرفون أنهم لا يشبعون نهمهم من العظمة الباطلة التى يخفون بها ما كمن من الشعور بالحقارة إلا بالتساند؛ أما إذا تخاصموا على مظهر من مظاهر التعاظم فلا يتعففون من التحارب بأقذر سلاح كما كانوا يتعاونون به

وهم يضحون بالسعادة والصحة والمال وبأحب عزيز وبسعادة كل من يعوقهم كى يبلغوا مظاهر التعاظم التى يخفون بها ما كمن فى العقل الباطن وفى السريرة من الشعور بالحقارة. وإذا بلغ هذا المرض أشده لم يحجم صاحبه عن الجرائم؛ وقد يؤدى إلى الجنون وهو مرض شائع، وبعض مظاهره ليست حادة ولا مسببة للحزن والتعاسة كما تسبب حالاته الشديدة. فمن حالاته البسيطة التى ربما كانت تدعو إلى الفكاهة أن يقابلك إنسان مصاب بهذا المرض وهو يعرف اسمك تمام العرفان فيناديك باسم آخر، فإذا كان اسمك محمدا قال: كيف حالك يا مصطفى بك؟ وهو يفعل ذلك كي يشعرك أنه أعظم شأناً من أن يتذكر اسمك؛ فإذا صححت له اسمك اعتذر ثم يعود بعد قليل فيناديك بالاسم الخطأ: قائلاً أليس الأمر كذلك يامصطفى بك؟ ولا يناديك باسمك مهما صححت خطأه. ومنهم الصغير المنزلة الذى يقابلك فيتلطف فى الحديث فإذا لمح إنساناً يعرفه رفع صوته بلهجة الآمر كى يشعر السامع أنك تقبل منه هذه اللهجة لعظم أمره. ومنهم صاحب الأباريق فى قصة الموظف المشهورة الذى أحيل على المعاش فاشترى أباريق وملأها ماء وجلس عند المسجد الجامع يقول لكل طالب ماء بلهجة الآمر: خذ هذا ... لا تأخذ ذاك. وهذا المثل الأخير قد

يكون من أمثلة داء الشعور بالعظمة ، والحقيقة أن مظاهر داء الشعور بالعظمة ، ومظاهر داء الشعور بالحقارة قد تختلط ، ولكن المحك الذي تعرف به وتميز هو إما ثقة صاحب الداء بنفسه وعظمتها ثقة لا تدعو إلى القلق ، وإما أن مظاهر تعاظمه يخالطها القلق والحقد والحسد والدناءة والسفالة ، فالأول أكثر اطمئناناً حتى أنه قد لا يشعر بسخر الساخر به ، وقد يكون فى تكبره كريماً أو رحيم النفس ، وهو إذا ارتكب إثماً فإنما يرتكبه باسم العظمة والاصلاح ، ويرتكبه وهو مطمئن وادع لا حقد يشوب إثمه ولا قلق ولا دناءة كما تشوب هذه الصفات إثم المصاب بداء الشعور بالحقارة ، والأول إذا تواضع تواضع فى كبر المبالغ الواثق بنفسه ، وإذا تكبر تكبر بكبر الواثق بنفسه الذى لا يشعر بسخر الناس به ، وهذا المصاب بداء العظمة لا يتلصص فى تحايله ووسائله كما يفعل صاحب الشعور بالحقارة الذى هو أميل إلى الكيد والدس

والموظف الصغير المنزلة فى المصرف أو فى الدواوين الذي يتعالى ويتعاظم ويتصام ويتفخم ويحملق فى وجوه أصحاب الحاجات ويتباطأ فى إجابتهم من غير سبب أو معذرة إنما هو مصاب بداء الشعور بالحقارة . ولعله يتشفى بهذه الأحوال مما أصاب نفسه من تعاظم من هو أعلى منه منزلة ، تعاظماً شعرت به الذلة والمسكنة . وفى بعض حالات هذا المرض لا نرى سبباً ظاهراً له ، فقد يصاب به الرجل من بيت عز وعلم فتتلمس العلل الخفية فتقول هل طغى عليه أبوه فى تربيته في الصغر طغياناً يشعره الذلة والمسكنة ، فاذا ورث أباه غطى ما ورثه على ذلك الداء من غير أن يعصمه من الأقوال والأعمال الناشئة منه ، أم هل ورث هذا الشعور عن أجداده ، أم أنه داء يعدى كما تعدى بعض الأمراض النفسية بالمحاكاة ولطول العشرة وحكم البيئة

ومما يلاحظ أن المحاكاة والعشرة والبيئة قد تنقل مظاهر هذا الداء فى المدارس من تلاميذ مصابين به إلى تلاميذ على الفطرة والسذاجة . ولعل المدارس المصرية أكثر مدارس العالم ديمقراطية لكثرة مجانية الفقر للتفوق ولانخفاض المصروفات فهى تساعد انتقال الصفات من طبقة إلى طبقة ، فالفقراء يحاكون الأغنياء فيخسرون ، وأبناء الأسر الطيبة تحاكى أبناء أسر أقل طيبة فيخسرون أيضاً وإن كان لهذه الديمقراطية مزايا

عبد الرحمن شكرى

من برجنا العاجى

من أحب المطالعات إلى نفسى كتب العالم الرياضى «هنرى بوانكاريه» . عندى من مؤلفاته ثلاثة كتب : «العلم والطريقة» و «العلم والفرض» و «قيمة العلم» . قرأتها لأول مرة منذ عشر سنوات . وأعود إليها من حين إلى حين . إنها لتسحرني كما تسحر الأطفال قصص ألف ليلة وليلة . فأنا الآن لا أقرأ كثيراً كتب الأدب . لأنى أنا نفسى أصنع كتباً فى الأدب . ولكني أحب أن أصغى إلى أولئك الذين يبحثون فى صمت عن الحقيقة . هؤلاء الذين عندهم ما يقولون ولكنهم يترفعون عن الكلام . فإن الحقيقة التى يحاولون أن يتصيدوا شبح خطاها خلف «المكرسكوبات» و «التلسكوبات» لأروع من أن توضع فى ألفاظ وعبارات . على أن ما يعنينى من كلام هؤلاء العلماء ليس الأرقام والمعادلات أى «الوسائل» ، ولا يعنيني كذلك ما وصلوا إليه من «نتائج» ، ولكن الذى أقرأ من أجله كتبهم هو تلك الإشراقات الذهنية التى تلمع من خلال بحوثهم فتضيء جانباً من جوانب الفكر المهجورة . ليس العلم فى ذاته هو الذى يهمنى ، ولكن هى «العقلية العلمية» فى مصادمتها ومواجهتها للأشياء . لا شيء يلذ لي مثل مجالسة «عالم» متسع الأفق . وهذا النعت لا ألقيه جزافاً ، فإن من كبار رجال العلم من هم ضيقو الأفق ، أى سجناء معادلاتهم وأرقامهم ، يصلون بها مع ذلك إلى نتائج باهرة فى صميم العلم ، ولكنهم قلما ينظرون إلى العالم الخارجى . إنما الطراز الذى أقصد ، هو طراز رجل العلم المطبوع الذى يخرج بعد ذلك لينظر بعين العلم وعقلية العلم إلى الكون بمعناه الواسع . هى «فلسفة العلم» . ما أريد هنا بعد هذه القراءات أن يتضح لي أنا «رجل الأدب» كيف أن مخلوقاً آخر يسمى «رجل العلم» ينظر إلى ذات الأشياء التى أنظر إليها ويفكر فى هذا الكون الذى أفكر فيه ولكن بعين أخرى وعقل آخر . ومن يدرى ؟ لعل أكثر هؤلاء العلماء هم أيضاً لا يلذ لهم شيء مثل قراءة ومجالسة «رجال الأدب» فما الأمر فى باطنه إلا شوق وحب استطلاع بين نوعين مختلفين من هذا الحيوان المفكر

توفيق الحكيم

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٣ —

لقد آذانى معالى السيد أرشد العمرى ، وكظمت غيظى فلم أسمعه ما يكره ، وقلت فى نفسى : إن الرجل تصور أننى أهنته فسحب منى الدعوة ، والجروح قصاص

وقلت : هم سيقضون السهرة فى الرقص وسأقضيها فى التأليف وأنا أجد لذة ممتعة حين أرانى أجدّ فى وقت يلعب فيه الناس

وتذكرت أنى أشغل مطبعتين فى بغداد ، وأن من الخير أن أعتكف فى المنزل فأحضر بعض الوقود لجحيم المطابع

وكذلك اطمأننت إلى الزهد فى ليلة بغداد التى وُعِدَ بها المؤتمرون !

***

ولكن ما هذه الدعوة الجديدة ؟ هى دعوى لسياحة طريفة فى ضواحى الكرخ وبغداد ، نتفرج بها على إسالة الماء . وأنا قد أمضيت نحو خمسة أشهر محبوساً بين المكاتب والأوراق ، ولم أر فى بغداد غير الجادة والدربونة ودار المعلمين العالية وكلية الحقوق وما تيسر من سواد العيون

ومررت مع السائرين للتفرج على إسالة الماء وأنا أرمى إلى غرضين : الأول الترويح عن النفس ، والثانى كتابة بحث لمجلة المقتطف عن تكوين الصهاريج

فهل روحت عن نفسى وأعددت موادّ البحث المنشود ؟

ما صنعت شيئاً من ذلك ، وإنما دارت الأرض تحت قدمىّ حين رأيت صاحبة العينين ، فكان المهندسون يشرحون الدقائق العلمية فى تقطير المياه لتزويد الكرخ وبغداد بالماء النمير ، وكنت أنظم الخطط لأكون دائماً بالقرب من صاحبة العينين . ومن العجيب أن أمري لم ينكشف ؛ ومضى المهندسون وهم يعتقدون أننى كنت المستمع الواعى ، وأن سائر المستمعين لم يفهموا إلا أن الكرخ وبغداد تسقيان من دجلة لا من الفرات

ولمثل هذه المواقف منحنا الله نعمة العقل !

ومضينا فتناولنا الشاى والفاكهة فوق المشب الأخضر وبين الأشجار التى أذوتها أرواح الشتاء ، وأُدير على الحاضرين صوت أم كلثوم :

على بلد المحبـوب وديـنى ‏ ‏ ‏ ‏ زاد وجدى والبعد كاوينى

فكانت بلد المحبوب عندى هى المائدة التى تجلس عليها صاحبة العينين ، ولكن أين من « يودينى » هناك ؟ إن أسوان أقرب من هذه المائدة وليس بينى وبينها غير ثلاث خطوات

يا مسافر على بحر النيـل ‏ ‏ ‏ ‏ أنا لىّ فى مصر خليـل

فرمقتني صاحبة العينين بنظرة حنان . فمن الذى أعلمها أنى نشأت فى ديار النيل ؟ مَنْ أعلمها ذلك وعلى رأسى سدارة ، والمصريون كلهم مطربشون !

وهممت بالتسليم عليها ، ولكن صدتنى العصابة التى كانت تحرسها منى ، وصدنى أن مكانى كان قريباً من مكان رئيس الوزراء ثم تقوض المجلس وانفض الناس ، والدنيا اجتماع وافتراق

***

كيف السبيل إلى رؤية هذه الظبية فى المساء ؟

إنها ستكون بالسهرة البغدادية التى وُعد بها المؤتمرون

وأنا ممنوع من سهرة بغداد

ولكن من الذى يمنعنى ؟

هو أمين العاصمة حضرة صاحب المعالى أرشد العمرى .

أهلاً وسهلاً بمعالى الأمين !

أأنت الذى يمنع الدكتور مبارك من ليلة بغداد بعد أن كتب عن مجد بغداد ما لم يكتب مثله كاتب في قديم ولا حديث ؟

أنت مهندس بغداد ، وأنا أديب بغداد ، وسترى لمن يكون الخلود ...

***

وأخذت أفكر فيما سأصنع ، فهذه الظبية ستكون فى الرقص وسأجد الفرصة لمخاصرتها مرة أو مرتين بعد أن يتلطف الشراب فى رياضة العصابة التى تحرسها مني !

وأنا قد تعلمت الرقص فى باريس وأخشى أن أنساه ، وحياة العلم مذاكرته كما قال القدماء

وهل من الإثم أن أهتم بمذاكرة ما تعلمت ؟ وهل أنفقت من الوقت والمال فى سبيل الرقص ما أنفقت لتضيع منى فرصة لن تعود من فرص بغداد ؟

لا بُدّ من حضور هذه السهرة .

لا بُدّ مما ليس منه بُدّ

* * *

ولكن كيف ألقى معالى أرشد العمرى وهو غضبان ؟

أنقف فنتناوش ونتضارب ؟ وهل أرسلتنى مصر إلى العراق لأصنع ما يصنع الأطفال ؟

لو كانت المسألة بينى وبين هذا الرجل مسألة شخصية لضاربته وقاتلته بلا تهيب . وما أحسبه يزعم أنه أقوى منى ، ولكن المسألة أنى مصرى وهو عراقى ، وأنا أنفق دمى فى خلق الصلات بين مصر والعراق ، وإقامتى فى بغداد أقنعتنى بأن مصر لا بدّ لها من مودة العراق ، فالعراق يكاد يكون هو الشعب الوحيد الذى يسلم فيه المصريون من أذى الناس . وهذه العواطف ليست جديدة عندى ، وإنما تلقيتها منذ سنة ١٩١٧ عن الأستاذ أحمد صالح حين كان يدرس التاريخ القديم بالجامعة المصرية ، فقد حدثنا عن مودات صوادق أقامها الحلف الشريف بين المصريين والبابليين ، وما جاز فى عهد الجاهلية لا يستحيل فى عهد الاسلام إلا أن نكون من الأغبياء

وتذكرت أن بغداد تحوطنى بأشرف معانى العطف ، وأنه ليس من الذوق أن أحرج رجلاً هو أمين بغداد ، وهو أكبر منى سناً ولعله أكثر تجربة ، والتحامل عليه ضرب من العقوق

وتذكرت شعار مصر وشعار العراق

أما شعار مصر فهو : « أحرار فى بلادنا ، كرماء لضيوفنا »

وأما شعار العراق فهو :

سيوفنا قاطعة لِلِّى يقابحنا   ورقابنا قنطرة لِلِّى يسامحنا

وتذكرت أصل الخلاف فوجدته يرجع إلى كشف الرأس فى السهرة ، وأنا أكره كشف الرأس لأنه قد يجرّ إلى الزكام ، وأنا مدرس ، والمدرس المزكوم منظره سخيف ، فما الذى يمنع من الذهاب إلى السهرة بالطربوش وهو لا يجب خلعه فى السهرات هذا حلٌّ موفّق ، ولكن لابدّ من الاحتياط ، والاحتياط هو أن أذهب قبل الموعد بساعة إلى مكان الاحتفال عملاً بمذهب حلفائنا الفضلاء أبناء العم جون بول ، ومذهبهم هو أن تحتل أولاً ، ثم تفاوض بعد ذلك !

* * *

كان طريقى من باب المعظم إلى بهو أمانة العاصمة يوحى الشعر والخيال ، فقد كانت ليلة عيد ، وكان القمر ينظر إلىّ فى ترفق كأننا فى سنتريس ، ولكن صدرى كان مكروباً بعض الكرب . فقد كانت ليلة العيد لا تقع إلا وهى موعد غرام ، وهى فى هذه المرة قد تكون حومة قتال

مشيت مشية المتمهل لأجتلى طلعة القمر ، أو لأؤخر الشر لحظات .

فلما دخلت البهو وجدته خالياً ، وكيف لا يكون كذلك وقد سبقتُ الموعد المحدد للسهرة بأكثر من ثلاثة آلاف ثانية ؟ لقد وجدت البهو كالقلب الخلىّ الذى تفكر المقادير فى شغله بالحب ، وجدته كالغادة التى تنتظر العاشق الصوال

دخلت وحدى وتلفتّ فلم أجد أحداً ؛ وبعد لحظة لمحت شبح معالى الأمين وهو يتمرن على الطواف قبل قدوم الحجيج

وبعد دقائق نظرت فرأيت رجلاً يعدو إلىّ عَدْواً فقلت : هذه طليعة الشر ، وتأهبت للصيّال

ولكن الرجل أخلف ظنى كل الإخلاف ، فقد حيانى أجمل تحية ، وأخذ يدى برفق فدلنى على المقصف فحسبته صديقاً قديماً أنستنيه الأيام ، فقلت :

سيدى ، هل لك أن تُذكّرنى متى تلاقينا أول مرة ؟ أترانى عرفتك فى القاهرة أو فى باريس ، ذكرنى فقد نسيت !

فأجاب فى لطف :

ما أذكر يا مولاى أننا تلاقينا قبل اليوم ، وإنما رأيت الطربوش فوق رأسك فعرفت أنك من مصر العزيزة ، وللمصرى على العراق حقوق الأخ الشقيق

فرفعت الكأس وقلت : تعيش بغداد ، ويحيا العراق . !

وسألت بعد ذلك عن اسم هذا الرجل الشهم فعرفت أنه المهندس نجيب نورس الياور ، وكذلك استحال على معالى أمين العاصمة أن يلقانى بغير الابتسام

* * *

نحن الآن فى بغداد ، فى ليلة ما رأى مثلها الرشيد ، وإن تعبَ الواصفون فى التذكير بليالى الرشيد . هي ليلة بغدادية لا قاهرية ، لأن القاهرة حين تعرف أمثال هذه الليلة تنقلها نقلاً عن الغرب ، ويختلف حولها الفقهاء ؛ أما بغداد فتعرف الليالى الساهرة عن الآباء والجدود . هى ليلة سيذكرها من رآها وستحتل أقطار ذهنه إلى اللحظة التى يعانى فيها سكرات الموت ؛ هى ليلة تمثل الفتوة العراقية وتذكر الجاهلين بأن الشعب الطروب لن يموت

كان الناس كلهم فى سماحة الملوك ، وكنت وحدى أبخل الحاضرين ، فقد سألنى رجل عظيم متى أرقص ، فكذبت عليه وقلت لن أرقص ، مع أنى ذهبت إلى ناحية قصيّة وراقصت ثلاث فتيات ، وعاقرت الثغور سبعين مرة أو تزيد ، وعند الكرام الكاتبين جريدة الحساب

لا أدرى والله ماذا صنعت فى تلك الليلة ، إلا حادثتين اثنتين : الأولى حين دخلت المقصف بعد الدورة الرابعة من دورات الرقص فقد ارتفعت الأصوات : يحيا الدكتور زكى مبارك ! وكان الأستاذ على الجارم بك بين الحاضرين فانتظرت أن يهتف باسمى فلم يتردد كما كنت أتوقع ، وإنما هتف هتاف الصديق ؛ ثم شق الصفوف إلىّ فعانقنى وهو يقول : أنا فرحان لك يا دكتور زكى ! فرحان لك يا أخوى ، فرحان لك يا حبيبى ، فرحان لك يا نور العيون يا زهرة مصر فى العراق

وإنما عددت هذه حادثة لأن المواطنين لا يفرح بعضهم لبعض إلا فى قليل من الأحيان

ولا مؤاخذة يا جارم بك ، يا حبيبى يا نور عيونى ، يا أحلى من ملح رشيد !

أما الحادثة الثانية فهى طرفة لا تقع من رجل سواى

فقد عثرت فى الطواف على فتاة خشنة جافية تصلح لأن تكون مديرة لإحدى المدارس الثانوية ، ولكنها لا تصلح لأن تكون غادة فى مرقص ، فقلت فى نفسى : ما الذى يمنع من التصدق على هذه الفتاة بقبلة أو قبلتين ؟

وأنا فى الحقيقة « رجل إنسان » كما يعبر أهل القاهرة ، أو « رجل آدمىّ » كما يعبر أهل دمشق . وما أذكر أبداً أن سائلا سألنى وخيبته ، وأنا لا أستحى من الجود بالقليل لأنه على كل حال أفضل من المنع ؛ وقد أكرمنا الله بالغنى ، فمن اللؤم أن نكون بخلاء

طافت هذه الخواطر بنفسى وأنا ألمح تلك الفتاة الجافية فقلت إن ليلتى هذه لن تخلو من سيئات ، ولا بد من حسنة تمحو ما سأقترف من سيئات ، فتوكلت على الله وأقدمت

سلمت على الفتاة فاستراحت للسلام ، وإن كنت لا أعرفها ولا تعرفني

وقبلت يدها فابتسمت

فقبلت جبينها وخديها ، ثم قبلت جبينها وخديها ، وانصرفت ولكني لم أكد أخطو بضع خطوات حتى سمعت رجلاً يصيح : يا دكتور مبارك ! يا دكتور مبارك !

فالتفتّ مذعوراً فاذا سكرتير مجلس الوزراء . فقلت : وقعت الواقعة وحقّت الفضيحة ، وجمعتُ أشتات قواي وقلت : نعم ، يا سيد !

فقال : لن نحاكمك إلا إلى قول شاعركم شوقى

فقلت : وماذا قال شوقى ؟

فأجاب إنه قال :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

فهو قد فرض أن تسبق القُبلة بستة أشياء ، وأنت قبّلت بدون مقدمات

فقلت : يا سعادة الأستاذ ، لقد عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء . إن شوقى قال هذا البيت منذ خمسين سنة يوم كان القطار أسرع ما عرف الناس ، ونحن اليوم فى عصر اللاسلكى والطيران فلا تلمنى إن قبّلت بدون مقدمات ، فمن العقل أن نتخلق بأخلاق الزمان

طابت السهرة وطابت ثم طابت ، وعرفت فيها طبيباً نبيلاً كان يصادقني عن طريق مؤلفاتى ، وسيكون من الذين أقبل من أجلهم ثرى بغداد يوم أفارق بغداد ، وصداقة الأرواح شىء نفيس ، ومودة العقول من ذخائر الرجال

وكانت ليلتنا كما قال ابن المعتز :

ثم انقضت والقلب يتبعها · في حينما وقعت من الدهر

فأين ليلتنا من الدهر ؟ أين ؟ أين ؟ إنك يا دهر لظلوم !

كنت أول من دخل البهو فى تلك الليلة ، وكنت آخر من خرج ، ولولا الحياء لطلبت البيت هناك لأستنشق ما بقى من أنفاس الظباء

رجعت إلى المنزل ، ولا أذكر كيف رجعت ، فقد استيقظت قُبيل الشروق ، فرأيت مصابيح البيت كلها مضاءة ، ورأيتنى فى ثياب السهرة كما كنت ، فعرفت أننى دخلت البيت بلا وعى ولا إحساس

ولكن لا بأس فقد عشت ليلة من ليالى بغداد

وإلى معالى أرشد العمرى تحيتى وثنائى !

***

هذا صباح العيد ، وهذا طوافى برياسة مجلس الوزراء ، أصافح الرجال الذين عناهم الشريف الرضي حين قال :

محاسن أقمار الدجى بوجوههم فنبهرها نوراً ونغلبها سعداً
تخالهم غِيداً إذا بذلوا الندى وتحسبهم جناً إذا ركبوا الجردا

هذا هو الرجل العذب الروح النبيل الشمائل جميل المدفعى رئيس الوزراء الذى لا يصدق من يرى صباحة وجهه أنه من صناديد القتال ، والليث لا يكون شثناً فى كل حين

وهذا وزير المواصلات ، الصديق الذى أحببته منذ رأيته فى سهرات رمضان

وهذا وزير الداخلية يلوم ويعتب لأنه يرانى أستبيح من أساليب التعبير ما لا يستبيح أدباء باريس

***

ويتفضل صديق عزيز فينقلنى بسيارته إلى منزل صاحب الفخامة نورى باشا السعيد ، وكنت أتمثل نورى باشا رجلاً كهلاً أضوته السنون ، فأراه فتًى خفيف الروح كأنما قدم بالأمس من ملاعب مونبارناس ؛ ويقبل علىّ فخامته فيقول : أنا تلميذك بالفكر ، يا دكتور مبارك ، لأنى قرأت جميع مؤلفاتك

ويروعنى هذا اللطف فأقول : « لقد علم الله كرم نفسك فحفظ عليك شبابك يا فخامة الرئيس »

ويقبل علىّ الحاضرون فيسألون عن صحة ليلى ، فيبتسم نورى باشا ويقول :

« إن ليلى المريضة فى العراق هى شبكة ينصبها الدكتور زكى مبارك لتقع فيها احدى الليليات »

وأتألم من ذلك فأقول : « إن مولاي نسى أنه تلطف فأعان الضابط عبد الحسيب على الانخراط فى سلك الجيش العراقى سنة ١٩٢٦ »

ويمسح نورى باشا جبينه ويقول : « تذكرت ، تذكرت ، شفى الله ليلى على يديك »

***

ثم نمضى فنزور معالى مولود مخلص رئيس مجلس النواب فنرى الرجل الذى أفهم العالم أن من واجب الجيش الانجليزى أن يحسب ألف حساب للجيش العراقي ، ونسمع الفصاحة العربية التى كانت تعذُب وتطيب على ألسنة الغزاة الفاتحين

وفى مساء يوم العيد نحتفل بعيد صاحب الجلالة فاروق الأول احتفالاً فخماً يشاركنا فيه أقطاب العراق

وفى اليوم التالى أمضى لإلقاء محاضرتى فى المؤتمر الطبي فيقبل علىّ عشرون طفلاً وهم يصيحون : « الدكتور زكى مبارك ، الدكتور زكى مبارك »

ويجيء صديق من الأطباء السوريين فيقول : « لقد صارت طلعتك بهجة لأطفال بغداد يا دكتور مبارك ! » فينهمل دمعى وأقول : « نعم ، فهذه الطفلة تشبه كريمة ، وهذا الطفل يشبه عبد السلام ، وهذا يشبه عبد المجيد ، وتلك الفتاة تشبه زينب ، وهذا الفتى يشبه سليمان »

أبنائى الأعزاء ، لقد نهبتنى منكم بغداد ، فاغفروا لى ذنبي فما ذقت حلاوة العيش إلا فى بغداد

***

تحدثت عن الليلة السعيدة التى أقامها معالى أمين العاصمة ، وكنت أحسبها خاتمة الليالى الملاح ، ثم ظهر أن هناك ليلة أروع وأظرف ، وهى ليلة الجمعية الطبية العراقية . فلنذكر بالتفصيل ما وقع فى تلك الليلة من ضروب الفُتون ، فقد تمر أعوام قبل أن تشهد مثلها بغداد ، وقد تسكت عنها الأقلام فتذهب ذكراها من القلوب

ومن الواجب علىّ وقد أجاب الأطباء دعوتي فعقدوا المؤتمر العاشر فى بغداد ليعاونوني على مداواة ليلى ، من الواجب أن أسجل بقلمى ما صنعوا من الطيبات حين عطروا بغداد بليال أروع وأنضر من ليالي الرشيد ، ولن يكون هذا آخر العهد بالأنس يا بغداد .

« للحديث شجون »

زكى مبارك

الى سر السيد جمال الدين

بمناسبة ذكرى وفاته

للأستاذ عبد المنعم خلاف

على القبر الذى فى ضفاف البوسفور سلام دائم كِفاء الحرب الدائمة التى شنها مدى عمره على الطواغيت الثلاثة : الجهل والاستبداد والتفرق ... عناصر الشر العريق الخالد ، وثالوث الشقاء الأسود الذى تبتلى به الإنسانية حين يراد ضياعها وإهدارها وتبديد معناها

وسلام على القصر الذى سلسله فيه عبد الحميد بسلاسل الذهب وأضواه فيه بالموفور الميسور من الغذاء والديباج والخز ... وخنقه فيه بشذا الورد والريحان ... ثم أعجل أجله بالطب ... حتى اطمأن إلى أن درع روحه قد ووري التراب ...

وقبلات طاهرة مقدسة على اليد البالية التى أشارت لمحمد عبده وسعد زغلول وشكيب أرسلان وغيرهم إلى الطريق فسلكوا بالقطيع فيه ليخرجوه من المهالك والمضايق والجدب والعقم ...

***

يا أيتها النفس المطلقة الحرة التى ضرب الله بها مثلاً لسطوة العلم والروح وبطشهما بقوة الملك والسياسة ... تُرَى ما الذى تَيَّمك حتى يَتَّمك من الأرض والوطن وفطمك من حياة الزوجية والاستقرار والهدوء والعيش السالم الناعم ؟!

ترى ما الذى شرد النوم من جفونك ورمى بجسمك المرامى القاصية ، وجعلك « طيراً على كل غصن » يضرب بجناحه فى أجواء الشرق الإسلامى ويصرخ فى الأرض النائمة ليوقظ صرعى الطواغيت الثلاثة فى الهند والأفغان وإيران والعراق والشام والحجاز ومصر وتركيا والمغرب ... ؟

ثم ما الذى شرد النوم من جفون « جونبول » وعبد الحميد وناصرشاه وتوفيق ، حتى طاردوك وتآمروا ودبروا وكادوا واحتالوا باليد الباطشة الحمراء ... و « العين » الرنانة الصفراء ؟.

أهو روح النار التى كانوا يخافونها على ما جمعوه من هشيم ... ؟

أهو روح القوة التى خافوها من مثل صيحتك فى ميدان باب الخلق بالقاهرة بكلمتك المشهورة : « أيها الفلاح المصرى الذى يشق الأرض بالمحراث ، لم لاتشق به قلوب مستعبديك ؟! » تخشوا أن تحيل النفوس الخزفية إلى حديد ذى بأس شديد ... وأن تركِّب براثن ومخالب وأنياباً لذوات الحوافر والأظلاف ، والقواضم والأضراس من القطعان السائمة التى ترعى لتذبح أو تحلب أو تجرجر الأثقال الدائمة أو تدور على نفسها في الحظائر تمضغ الجفاف وتجترُّه فى غيبوبة عن الدنيا ذات الجنات والأنهار والعيون ... ؟

أم هو روح الحق الذى تقمصك فجمل مرآك ومنطقك ومجلسك ثلاثة مفاتيح تفك الأغلاق والأقفال والقيود عن العانين المأسورين للأصنام الإنسانية والطواغيت الثلاثة ؟

أم هو روح النور الذى مدَّت خيوطَه إلى كل عين رأتك فرأت به الظلام الممدود على الشرق والواقعَ الأليم على الاسلام ؟

أم هو روح الثورة التى تضرمها عيناك فى كل قلب يراك حتى ولو من وراء عدسة المصور ... وأنت فى بطن الأرض ؟!

بل كل هؤلاء جميعاً هو سرك الذى أعيا أعداءك جهادُه ..

***

رأى الدنيا ذات الصبح العريض المالئ للآفاق ، المشرق على الناس من الغرب . وهو فى أعماق الشرق بين جبال الأفغان أو إيران فقبس لمصباحه منه وأخذ عصاه رحالةً يقرع أبواب المسلمين النائمين الحالمين من الحاكمين والمحكومين ، وينفخ فى بوقه هاتفاً بالصوت الموقظ المنَذر فى الأرض النائمة ، مشيراً بعصاه إلى الضوء الجديد فى الأفق البعيد ...

ثم سار فى خرائب الممالك الاسلامية وأطلال المجد القديم يلتقط النفوس الدُّرِّيَّة والحديدية من الخزف والحطام والتراب . ويقبض عليها بيديه القويتين فما يتركها حتى يصقلها وتمسها كهرباؤه وتتصل بمرجل الثورة في قلبه ثم ينثرها على الآفاق الاسلامية تكهرب الجو وتضيء وترن وتحطِّم ...

سَلِم من خديعة الشيطان ومكره بالعلماء رجال الدين الذين يكتفون فى جهاد الإثم والجهل بأن يعكفوا على الدفاتر والمحابر فيسكروا بما فيها كما يسكر العاكفون على الخمر فيغيبون عما

حولهم من أحداث الدنيا وسياسة الحياة ، ويتركون القلوب فارغة ويملأون الرءوس بالبلبلة والأحافير وألاعيب الألفاظ . يبتغون الخلود بزعمهم فى التاريخ والصحف ... وهم يفقدون نفوسهم فى الحياة

فبَرِئَ جمال الدين من العلم الصامت البارد وأدخل تعاليمه إلى نفوس تلاميذه ومريديه فى حرارة بعد أن هزهم هزاً عنيفاً ، وكتب رسالته على أرواحهم ومات فقيراً من ميراث الورق المسطور ... الذى يتباهى به أكثر العلماء الحفاظ ، بعد أن عاش فى ألفاظه وتعاليمه وعلم تلاميذه أن يعيشوا كذلك ... ولذلك أحدث كل منهم ثورة وسار على قدم أستاذه فسجن وعذب ونفى وشرد

***

هذه مقاطع آلامه كما رواها تلميذه الأمير شكيب أرسلان

« لا أريد أن أمس المسلمين بكلمة ، هؤلاء قوم كما قال لهم الانسان : كونوا بنى آدم ... أجابوه : إن آباءنا قد كانوا كذا وكذا ... وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه اليوم من الخمول والضعة »

« قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حد أن لا أمل بأن يصلحوا إلا بأن ينشأوا خلقاً جديداً وجيلا مستأنفاً . فحبذا لو لم يبق منهم إلا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر ، فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسير بهم فى طريق السلامة »

« إن المسلمين قد سقطت هممهم ونامت عزائمهم وماتت خواطرهم وقام شىء واحد منهم وهو شهواتهم [(١)] »

وهذه مطالع آماله كما ترجمها تلميذه الأكبر الامام محمد عبده :

« صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام ، والاسلام يقتضي ذلك ، لأن أول ركن بنى عليه صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام ... وأن تكون نفوس الأمم مستقبلة وجهة الشرف طامحة إلى بلوغ الغاية منه ما عدا رتبة النبوة فإنها بمعزل عن المطمع ...

« وإن دين الاسلام فتح أبواب الشرف فى وجوه الأنفس وكشف لها عن غايته وأثبت لكل نفس صريح الحق فى أى فضيلة

(١) حاضر العالم الاسلامى

« وليس الاسلام كدين «برهما» الذى قسم الناس إلى أربعة أقسام وقرر لكل منزلةً لا يتجاوزها ... ولا هو كاليهودية التى تخص شعب اسرائيل بالكرامة والاجلال وتذكر غيرهم بالتحقير ، ولا هو كالمسيحية التى تذهب إلى أن رؤساء الدين أقرب إلى الله من جميع البشر وأنهم وساطة رضاء الله ...

« وأن تكون عقائد الأمة مبنية على البراهين القويمة مجانِبةً مُطالَـمَة الظنون وتقليد الآباء كما يحتم القرآن

« وأن يكون فى كل أمة طائفة تختص بتعليم سائر الأمة ، وطائفة أخرى تقوم على النفوس بالتهذيب والتعديل ... »

وهذه عزائم جهاده في السياسة كما لخصها الأستاذ الجليل مصطفى عبد الرازق بك :

١ — تخليص بلاد الإسلام من نفوذ أوروبا وخصوصاً انجلترا .

٢ — تخليصها من الاستبداد وإنشاء النظم الحرة الدستورية فيها

٣ — جمع كلها بجميع فرقها تحت زعامة واحدة

وهذه وسائله السريعة التى تخيرها لتحقيق غاياته كما رآها « تشارلز آدمز » : « الثورة السياسية التى عرف أنها أسرع الطرق وآكدها لتحرير الشعوب الإسلامية وتغذيتها بالحرية الضرورية لتنظيم شئونها . أما وسائل الإصلاح التدريجى والتعليم فكان يرى أنها بطيئة جداً غير محققة العاقبة »

فهو الذى أوحى بالثورة الفارسية التى بدأت بالهياج ضد احتكار التنباك فى سنة ١٨٩١ وانتهت بوضع دستوره فى أغسطس سنة ١٩٠٦ ، ووالاها بالتشجيع والتأييد

وهو الذى مهد بتهييجه المتواصل للحركة التركية الموفقة التى قامت سنة ١٩٠٨

وهو الذى دفع الحركة الوطنية المصرية التى ساء ختامها بفشل الفتنة العرابية

وهكذا كان أيان يذهب يترك وراءه ثورة تغلى مراجلها [(١)]

***

وصفوه لنا ...

فقالت أقلام الشرق : « حنيفى حنفى مع ميل إلى مشرب

(١) من كتاب الاسلام والتجديد تعريب عباس محمود

السادة الصوفية رضى الله عنهم » « هو حليم يسع حلمه ماشاء الله أن يسع إلى أن يدنو أحد ليمس دينه أو شرفه فينقلب إلى غضب تنقض منه الشهب ، فبينما هو حليم أواب إذا هو أسد وثاب ... »

« وبالجملة فلو قلنا إن ما أوتيه من الذكاء هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنا غير مبالغين »

هذا بعض قول محمد عبده فيه . وهاك بعض ما قاله الأمير شكيب :

« كان فى أطوار حياته فيلسوفاً كاملاً عالماً عاملاً ... فكان يفطم نفسه عن الشهوات ، ولا يرى من اللذات إلا اللذة العقلية . وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يعلق قلبه بالمال والبنين ويشغله بزينة الدنيا وراوده على الزواج فأبى وأعرض وقال له : « قضيت حياتى مثل الطير على الغصن ، فلا أريد في آخر أيامى أن أتعلق بعائلة » وقال فى مثل هذا المقام : « لم تدخل روح الفلسفة فى هذه الأمة »

وقالت أقلام « رينان » و « روشفور » و « براون » من الغرب :

« كنت أتمثل أمامى عند ما كنت أخاطبه ابن سينا أو ابن رشد أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين »

« السيد جمال الدين الأفغانى من سلالة النبى ، والمعدود هو أيضاً أنه أشبه بنبي ... »

« كان رجلاً ذا خلق قوي ، غزير العلم موفور النشاط ، لا يجد الوهن إليه سبيلاً ، جريئاً مقداماً ؛ وكانت فصاحته لا تجارى خطيباً كان أم كاتباً ؛ وكان لطلعته هيبة فى النفس وعظمة وجلال ؛ وكان فيلسوفاً وكاتباً وخطيباً وصحافيًّا ، ولكنه كان فوق ذلك سياسيًّا ... »

* * *

سياسى يغربل الحوادث ويعلق عليها ويرسم حدود الدولة والحكم الصالح للأجسام ... وحبر دينى يصقل جوهر الإنسان ويرسم حدود الحكم الصالح للأرواح ... وفيلسوف يخشى على حكمته التى رأى أمته فى حاجة ماسة إليها ، أن يجلب لها ضرائر تكيدها وتصرفه عنها ، فلم يبتغ صاحبة يبنى لها عشاً أو يقيم لها سقفاً يحن إليهما ويجبن بهما ويبخل ...

وصوفىٌّ لا يُخدع بالتراب المزوَّق ، وينفق من الكنوز الخفية فى ملكوت السموات والأرض . ولذلك أبى قبول الرتب والأوسمة التى عرضها عليه السلطان ، فلما سئل فى ذلك قال : « أ أكون كالبغل يحمل على صدره الجلاجل ؟! »

وكذلك لما أصدر الخديو توفيق أمره بنفيه وعرض عليه قبيل السفر أحد أصدقائه الأثرياء من المصريين بعض النقود ليستعين بها فى السفر قال له : « أبقها لك فان الأسد لا يعدم فريسة أينما حل (1) »

* * *

رجل رمزى فنان ! رأيت له صورتين ما يفطن إلى شرح وضعه فيهما أحد فيما أعلم : إحداهما صورته وهو واقف قابض بيده على نموذج الكرة الأرضية . وهو رمز عظيم ومعنى جليل يدل على اتساع روحه ورحابة نفسه

وثانيتهما صورته وهو على سرير المرض فى أواخر أيامه ، وقد أمسك بيده المصحف الكريم ومسبحة ، وبسط أمامه صحيفة أفرنجية ، وذلك رمز واضح الدلالة على المعانى التى كانت تملك نفسه من الدين والتصوف والسياسة ، وخلاصة مفيدة عن ذلك الرجل الذي التقى فيه الشرق والغرب لقاء عجيباً !

يلتفت إليك الشرق الاسلامى كله فى هذه الأيام يا أيها القبر الذى ضم جثمان نذيره فى القرن التاسع عشر بعد أن ختله مرض الجبابرة والعباقرة : السرطان .. أو غول السياسة .. كما يتحدثون والديان أعلم !

عبد المنعم خلاف

(1) سمعتها من السيد رشيد رضا رحمه الله

فلسفة التربيـــــة

تطبيقات على التربية في مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٢ —

« لا معرقل لنهضة الأمة أشد وأفدح من تباعد ثقافتها وانقسام عقليتها »

« *** »

« لقد قررنا أن نجعل كل مواطن موضع عناية الدولة وحمايتها . فعشرات الملايين محرومة الآن مما نسميه بمقاييسنا الدنيا « ضرورات الحياة » ! ولذلك سيكون مقياس نجاحنا هو : لا هل أضفنا زيادة لأغلب أولئك الذين عندهم الكثير ! بل هل قدمنا الكفاية لأولئك الذين ليس عندهم إلا أقل القليل » ؟!

« الرئيس وشنطن »

٢ — الأمية وانقسام الثقافة

تبينت في المقال السابق أهمية الموضوع وخطورته بالنسبة لمصر ولا سيما في عصرها الراهن ، وعلمت بأمر هذه الرسالة النقدية الحصيفة التي قد أخرجها « الدكتور جاكسن » أخيراً متناولاً فيها بعض نواحي النقص بالتجريح والعلاج ، وستقرأ منذ اليوم تلخيصاً وتعليقاً على هذه الرسالة الفريدة ، كما ستقرأ فيما بعد ما أستطيع أن أقدمه من ملاحظات واقتراحات ...

١ — فرصة ملائمة للإصلاح

والحق أن الفرصة الحاضرة ملائمة من جميع نواحيها لإصلاح التربية في مصر . ذلك أن تيار الوطنية الجارف قد أوجد شعوراً عاماً بوجوب النهضة ، وبعث المجد القديم ، والاحتفاظ بما كسبنا من حقوق ، فالتنبيه إلى أن التربيـة الصالحة خير أداة لتحقيق هذه النهضة المنشودة يجد صداه بسهولة في الرأي العام ، ويجد مكانه اللائق به في برامج الأحزاب ونفوس الزعماء ؛ وإذاً فلا مندوحة لنا من انتهاز هذه الفرصـة المواتية والعمل على الاستفادة منها ، ولنحذر تماماً مغبة الاندفاع الكلي إلى شئون الدفاع الوطني وحده لأن السيف كما يقولون لا يعمل إلا في يد بطل ! ولنكتف بما كان فنصرف الطلبة إلى شئون الدراسة وحدها لأن السياسة قد جنت على ثقافة البلد وأخلاقه بتخفيضها نسبة النجاح نزولا على صيحات الكسالى الراسبين !!

٢ — الحاجة الى الزعماء الكثيرين

فترى إذاً ماهى حاجة النهضـة المرموقة ؟ أحسب أن هذه النهضة تتطلب أولاً وقبل كل شئ زعماء كثيرين جديرين ، يستطيعون أن يحملوا الشعلة وينطلقوا إلى تبديد الظلام في شتى نواحي الضعف والنقص بقلوب فتية ، ونفوس حازمة ، وضمائر نقية تقدر المسئولية وتتفانى في التضحية وضرب المثل الأعلى ؛ زعماء لا سياسيين فحسب ، ولكن أخلاقيين واقتصاديين ورياضيين واجتماعيين وغير ذلك مما تتطلبه نواحينا الكثيرة المتباينة ... ويقع عبء تخريج هؤلاء الزعماء على المدرسة والبيت بما فيهما من معلمين وآباء !! أو قل إنه يقع على المعلمين بوجه خاص ، فاذا نجحنا في إخراج هؤلاء فقد وضعنا الأساس القوى المكين . ولا سبيل إلى هذا النجاح إلا بتعليم إنساني يحفز ويثير ويقوى الشخصية ويخلق رجل المشروعات ...! وهنالك تنحط الزعامة على كثير من الخريجين وتسمو إليهم ...! أما تعليم الحفظ والاستيعاب والجمود والانكماش فلا يخرج إلا أفراداً مصبوبين في قالب واحد ، لاخلق فيهم ولا تكوين ، ولا إزهار ولا إبداع !

٣ — محور الأمية وتوحيد الثقافة

ثم ماذا ؟ ؟ يتبقى بعد تكوين هؤلاء الزعماء أن نجد « الشعب » الذي يتبعهم عن فهم وتقدير وبحماس واتحاد ؟ ! فهل لدينا ذلك الشعب ؟ ثمانون في المائة ياعزيزي أميون ! وأغلب الأقلية المتعلمة لا يدرى من شـئون العلم غير مجرد القراءة والكتابة ! ! وأغلب ما يتبقى بعد ذلك سطحى الثقافة فج العلم ملتوى الشخصية خامـد الشعور ! ! ثم ليت هؤلاء — مع الأقلية الراقيـة الثقافة — متحدين في العقل والقلب والعقائد والأماني ! ! أليس فيهم المصرى الشرقي والمصري الغربي ؟ ! أليس فيهم المعمم بكل ما له من منطق يخالف المطربش ولا يكاد يتفق معه في فهم الحياة ولا سيما ناحيتها الحديثة ؟ ؟ كيف إذاً نستطيع أن نرجو لهذه الأمة نهضة وهى جاهلة ومنقسمة ؟ ؟ كيف نستطيع أن نسوقها إلى الحرية والاستقلال والمجد وسوادها الأعظم يعيش كما تعرف في كفاف العيش ، وظلام العقل ،

ومستوى الحيوان ؟ ! وكيف نستطيع أن نطمع في اتحادها وزهرة رجالها متباعدون لا يجمعهم عقل واحد ، ومتنازعون يحاول كل منهم أن يفرض تقاليده على الآخر ؟ ؟

٤ — روح التعليم الراهن

ومع كل فهل روح التعليم في الثقافة الشرقية (وتتمثل في الأزهر الشريف وكلياته وما يقترب منــه) والثقافة الغربية (وتتمثل على الخصوص في المـدارس الابتدائية والثـانوية والمخصوصة والجامعة) صالح كل الصلاح ؟ يرى « الدكتور جاكسون » أن ذلك الروح ما يزال مشوباً في كلتا الثقافتين بألوان من النقص كثيرة . فالتعليم الشرقي بالرغم من سموه على التعليم الغربي بروحانيته العالية ، وأخلاقه الدينية ، وعقائده السليمة ، يعنى كثيراً بالتكرير والتقليد لا بالكشف والخلق والإبداع . ولذلك كانت نتائجه سالبة أكثر منها موجبة ، وكان أثر خريجيه في إصلاح الشعب أقل مما يجب وإن كان في مجموعه عظيماً . ولئن قيل إن العلوم الحديثة قد أدخلت أخيراً في هذه الثقافة فالراجح أن إدخالها لم يزل شكلياً في طريقته ونتائجه ، ولذلك لم تزل هناك حاجة قصوى للتعديل فيه والإصلاح ؛ أما التعليم الغربي فنواحي نقصه كذلك كثيرة . ومن هذه النواحي إخراج الطالب مخالفاً لتقاليد عائلته وأمته ومنقسماً عليها ، وراغباً في التجديد الأعمى الذي لا يحفظ له شخصيته كمصري وشرقي ، ولئن كانت به عناية أكثر بالكشف والخلق والابداع فان تكوين الروح الاجتماعية ما يزال ضعيفاً فيه ، وعنايته بالحفظ والحشو تكاد تطغى به على غيرها

هذا من ناحية . ومن ناحية إعداد « المعلمين » في كلتا الثقافتين نرى كذلك من التباعد وعدم توحيد المجهود واختلاف النزعة الشيء الكثير[1] ... وقد نجم عن ذلك تباعد طوائف المعلمين في المشرب وعدم تعاونهم واتحادهم في دراسة قضية التربية مع أنهم جميعاً تلك الطائفة المختارة التي قد ألقت إليها الأمة بفلذات أكبادها لإعدادها خير إعداد ! أفي المحامين أو الأطباء انقسام وتباعد كما في المعلمين[2] ؟

(١) فمثلا في مصر ثلاثة معاهد مختلفة لتخريج معلمي اللغة العربية وهي الجامعة ومعهد التربية — ودار العلوم — ومدارس المعلمين ! !

(٢) وأثر ذلك التباعد في « قضية المعلمين » ذاتها لا يحتاج إلى بيان . ونرجو أن يتسع لنا الوقت فيما بعد لنتناول حياة المعلم الحاضرة وما يجب أن تكون عليه بالنقد والاقتراح

٥ — ضرورة التقارب والتوحيد

هناك نزاع إذاً بين الثقافتين عنيف ، والواجب هو التقريب والتوحيد بقدر المستطاع ! مهما حاولنا أن نبقى الشرق شرقاً والغرب غرباً ، لأن الاتصال بينهما يزداد كل يوم ويتضاعف ، ولأن في الغرب من القوة والحياة كل ما هو جدير بالاتساق والانسجام مع عظمة الشرق ومجده ! لسنا ندعو إذاً إلى طغيان أحدهما على الآخر ، لكننا نريد تناسقاً يخلق لنا حياة أغنى وأعمق وأكثر بعثاً للرضى والتآلف والارتياح . يقول فرويد Froude « إن عدم التغيير موت » ! فلنأخذ من الغرب مثلاً رياضته وهندسته وتربيته وفنه ، ولنبق للشرق خلقه وكرمه وروحانيته ، وليكن رائدنا في جميع ما نأخذ وما ندع هو الرغبة في التقدم الذي يحفظ لنا شخصيتنا ولا يتركنا متخلفين وراء الغرب ، ولتكن خطتنا هي التقريب بين المعاهد المختلفة لتحسين خططها وتوحيد غرضها وتقليل نفقاتها ، بحيث ينجم عن ذلك التقارب تعاون متناسق يعمل من أجل غرض واضح مرسوم . ذلك أن العقل الناجح هو ذلك الذي تعمل خلاياه باختلاف ولكنها ترجع جميعاً إليه كعقل واحد منتظم . وإذا بحثنا عن ذلك العقل الموحد في هيئاتنا التعليمية لم نجد بين خلاياه اتصالاً معقولاً ، ولم نجد له غرضاً واحداً موضوعاً تعمل الجهود المختلفة على تحقيقه

٦ — اقتراحات للإصلاح

ولئن كانت مصر قد أخذت بكثير من نواحي العلاج ، وستستفيد بلا ريب من احتكاكها بعصبة الأمم في نواحي الصحة والطفولة والعمال والتعاون الفكري فلا شك أنها محتاجة لبحث الشئون الآتية كوسائل ضرورية للعلاج :

(١) النظر في أية ثقافة جديرة بالتشجيع ؟ وأية حياة مثلى يجب أن تسيطر على نظام التربية ؟[1]

(٢) نشر التعليم ومحو الأمية والارتقاء بمستوى السواد

(١) ونستطيع أن ترجع هنا للمقدمة السابقة الطويلة التي قدمناها . ولعلك ترى معي وجوب العناية بالناحية الخلقيــة والقومية والاجتماعية والدينية في ثقافتنا . هذا إلى جعل عملية الثقافة ذاتها متفقة وأصول التربية الحديثة التي تنص على تقوية الفكر واستعمال اليد وإرهاف الحس وتغذية الشعور . الخ فلا يتعلم الأطفال القراءة والكتابة فقط . بل يفكرون لأنفسهم ويصدرون أحكاماً نزيهة عادلة على الأشياء كما هي ، ويساهمون في المجتمع فخورين بعضويتهم فيه مقدرين لعظمائهم وفنهم وتقاليدهم وأدبيهم ، ناظرين إلى دولتهم كعضو عامل في العالم الأكبر له مكانته الحاضرة ومجده القديم

الأعظم إلى حيث تتحقق الحياة الديمقراطية الصحيحة

(٣) تعديل التعليم الثانوى على نحو أكثر تحقيقاً للحياة العملية والاجتماعية درءا لأزمة البطالة الراهنة

(٤) تقريب معاهد الثقافة بعضها من بعض على النحو الآنف . ويشمل هذا التقريب الطلبة والمدرسين على السواء

(٥) حسن اختيار المعلمين والارتفاع بمستواهم حتى تصبح مهنتهم جديرة بالاحترام اللائق مغرية للنبهاء والنابغين بالعمل فيها

(٦) تكوين مجلس أعلى للتعليم يضم كبار رجال التربية إلى جانب رجال الاقتصاد والدين والفكر والاجتماع

ولما كانت ناحية محو الأمية وتثبيت قدم الديمقراطية أهم هذه النواحى جميعاً ، فإنا سنتعرض لها بإسهاب فى العدد القادم إن شاء الله

« يتبع »

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

حلبي يزور باريس
فى سنة ١٨٦٧
للدكتور حسين فوزى

هذا الحلبي هو الخواجة فرنسيس ، شخص إلى باريس لدراسة الطب سنة ١٨٦٦ وترك لنا عن رحلته أثراً فذاً : كتاباً طبع فى بيروت سنة ١٨٦٧ ، عثرت عليه أخيراً فى مكتبة المرحوم والدى . والغالب أن الخواجا فرنسيس كان رجلاً رقيق الحال ، لا لأن كتابه الذى يقع فى سبعين صفحة قد طبع على نفقة غيره فحسب ، بل لأن « غيره » هذا نعت نفسه بالعبد الفقير حنا النجار . تصور إذاً ماذا كان المؤلف وهذا ناشره عبد فقير ! ومع ذلك عنى هذا العبد الفقير بكتاب الخواجا عناية فائقة ، فوشى أركان غلافه بنقوش ملتوية ورسوم ورود وأوراق أشجار ، وطبع فوق عنوان الكتاب طغراء فرنسية يظهر للمدقق فيها شكل نسر نابليونى واقف على حسام يتطاير منه الشرر (أو هى صواعق جوبيتر ؟) ويحيط به قلادة « اللجيون دونير » يتدلى منها الصليب الذى خصصه نابليون لرجاله الشجعان . والعبد الفقير حنا النجار كان رجلا عصرياً محباً للتقدم إذ طبع على ظهر الغلاف قاطرة بخارية ذات مدخنة عالية ترسل عموداً كثيفاً من الدخان ، وباخرة ذات مدخنة أعلى تطلق سحباً من الدخان وهى تمخر العباب برفاصات جانبية كالتى لا نزال نراها فى بواخر النيل

ورحالتنا يمكن أن يلقب بذى الصناعتين ، فهو مالك لأعنة النظم والنثر ، شاعر حتى فى نثره ، وناثر حتى فى شعره . وسنرى كيف استطاع أن يعمد إلى النظم بوصف نثرى لباريس ، وكيف عمد إلى النثر بوصف شعرى لمدينة النور

أسلوبه صور تتوالى . فهو يرى « الحسد والطمع لابسين أجساماً نارية ذريمة المنظر ، وجالسين فى ذلك السحاب على مائدة السكر » والسحاب هو الذى رآه الخواجا فرنسيس « على الأفق نارياً كثيفاً ذا لون كأنه من مصبغة الموت ، تقشعر منه الأبدان وتزهق الأرواح ، ومصنوع من زفرات البشر ، وكان الخمر دماء ، والأقداح جماجم ، وهما يصرخان الخ » ويرى أقواماً « يرضعون الذل من أثداء أمهاتهم وعلى ظهورهم أحمال ثقيلة تحنيهم إلى الأرض ، وفى أيديهم حقاق فولاذية مطبوقة على أفكارهم وحريتهم » كما يرى « راية المصائب والأوصاب تخفق على كل هامة ، ورياح الآلام والأوجاع تعصف بكل روح ... » وهو إذا ركب السفن « امتطى ظعن البخار ، وأخذ يطوى بيد البحار »

والخواجا فرنسيس كما ترى فيلسوف متشائم ، فهو يبدأ كتابه بالقول إنه لما « أدرك رشده ، وبلغ أشده ، دخل العالم ليتجسسه ويرى كيف يجب اعتباره منه . فعند ما تبصره كافياً ، وجده سوقاً عظيما لا حد له ، وجميع الخلائق أقامت فيه حوانيتها وكلها تنادى على بضائعها ، وكأنما لا يسوغ لأحد مشترى شىء من هذا السوق مالم يضع على عينيه نظارة تختلف لوناً وقوة ... فكلٌ يرى هذا السوق على كيفية نظارته وماهية نظره . فالبعض لا يشاهدون فيه معتبراً سوى معدنى الذهب والفضة ، فيندفعون جماحاً إلى نوالهما على أى أسلوب كان »

ولعلك حذرت أن رحالتنا الخواجا فرنسيس ليس من هؤلاء وليس من البعض الذين « لا يفهمون العالم سوى مقر اللذات والطرب ، لأنهم لا يدركون بنظاراتهم سواها ، فلا يعتبرون إلاها . فيعيشون ناشرين شراع الليل ، وطاوين بساط النهار فى الولوع والسكر والرقص والخلاعة . هـذا إذا لم ينهرهم حارس هذا السوق ، أعنى به ذلك العفريت الجهنمى المدعو الزمان »

أما هو « المسكين ، فقد كانت نظارته لسوء حظه مصنوعة من أشنع الألوان ، وأبشع الأشكال » لأنه حين وضعها على عينيه « وجد عالماً ذريعاً ترتعد منه الفرائص ، وتميد عمد القلوب وينبو عنه كل ذوق سليم » . ولا داعي إلى الاسترسال فى نقل الصورة المدلهمة التى يرسمها لنا الخواجا فرنسيس ، فهو متشائم فحسب ، وقد رأى هـذه السوق « المدعو عالماً » ، فخلا فى نفسه ليرى أى بضاعة يبتاعها » فلم يجد « أشرف من انتقاد هـذه الحوادث ، والبحث عن حركات هذا العالم » فهو يريد أن يكون كاتباً أخلاقياً « moraliste » ، وكتابه سوف يظهرنا على مبلغ نجاحه فى هذا السبيل

إلا أنه ، وقد بلغ العشرين ، شرع « يمتحن نفسه ليرى ماذا جنى من الثمرات . ولـكنه لم يجد فى مخيلته سوى كمية وافرة من ألوف مسائل العلم العربى — نحن فى سـنة ١٨٥٦ — ولم يعثر فى خزانته على غير كتب مطولات ومختصرات فى النحو والصرف وما يلحقها» . وهو إذ تأمل «الفائدة لم يجدها سوى نظم الشعر» فهو يقول فى تواضع مؤثر «فها أنا شاعر إذا أراد شعراء العصر» ولـكنى لا أحسب شعراء عصره — وأقل منهم شعراء عصرنا — يريدون تضخم الصناعة إلى هـذا الحد ! ثم هو على كل حال لم يهمل أن يلاحظ « جملة أضرار تقابل هـذه الفائدة . وهى أولاً كساد سوق الشعر ، ومقت العامة له» — أما نحن الخاصة فسوف نذوب صبابة فى شعره بعد لحظة — لذلك أوحت إليه « كراهته تلك الفائدة المفتداة بأنحر سنى حيوته أن يتعكف إلى طلب العلوم العالية واللغات » . ثم اتفق له أحد مهرة أطباء الانكليز « فألقى ثقله على مسايرته ، وبدأ يدرس عليه العلوم الطبية وهو فى سن الخمسة والعشرين ، حتى هضم أربع سنين كوامل على هذه الدراسة ، وصار طبيباً » وعلى رأي المعلم وحده مع الأسف ، أما فى رأى ما « نقول المدارس فقد كان جهولا »

وشرع « يباشر الأمراض متلاعباً بصناعة إيبوقراط » . ثم أوعز إليه ضميره أن يرحل إلى « باريس محط عرش الافرنسيس » . وكان لهذا الحادث الهام الفضل فى الـكتاب الفذ الذى نلخصه لقراء « الرسالة » بعد سبعين سنة من نشره

فنى اليوم « الواقع فى ٧ إيلول ١٨٦٦ ، وهو داخل فى دايرة الثلثين » خرج من « أبواب الشهباء صحبة الـكروان ، ممتطياً ظهر كديش أخى قزل » (ألم أقل إن الخواجا فرنسيس شاعر فى نثره ؟) فبلغ « الاسكندرونة مينا حلب » . وترك لنـا وصفاً للطريق يوقف الشعر هلعا . فمن « أوعار ملقاة فى الطريق كأنها أمواج البحر الجامد » إلى « جبال صلعاء القمم » إلى « هضاب ممحلة منفردة كاللصوص فى درب أبناء السبيل» ومن « عواصف وقواصف تهب من مرابضها الجهنمية على السرى » إلى « أنهار راكدة على فراش الأوصال تمارض سير القوافل» . وفى إحدى مراحل هذا الطريق « ينجلى » الخواجا فرنسيس فنتعرف إليه لأول مرة ناظماً ، ولا أقول شاعراً فان شاعريته قد بزغت فى نثره كما رأينا . وقد أسالت « جمرة الفراق جمودة قريحته فهرع إلى القلم ونقش أبياتاً كأنها منشودة من أحد أعراب البادية ... إلا قليلا » . وقد حكم إذ ذاك أن للشعر « علاقة ثابتة مع الموضوعات التى يراها الشاعر » . وسأوفر عليك عناء قراءة هذا الشعر البدوى الذى كتب فى بادية الشام ما بين حلب والاسكندرونة . ويكفى أن تعلم بما فيه من حداء السرى والخيام والحى والعيس . وقد لا تمانع فى أن تسمع بيتين من جزل شعر الخواجا فرنسيس :

فهل ذكرت تلك المنيمة فى الخبا ... شريداً طحاه البين وهو غلامها

وهل علمت أسماء ـ وهي عليمة ـ ... صبابة نفس قد تسامى مرامها

نسيم الصبا هل ... إلى آخر البيت

وهو رجل غدا الآن واسع الخبرة بالدنيا إلى حد أن يختم قصيده قائلاً :

ومن خبر الدنيا وأدرك شرها ... تساوى لديه حربها وسلامها

وقد تأثر عند مشاهدته مدينة الاسكندرونة « حينما أذكر التشكل الدولى حول هذا المرفأ ولوائه ! » وكان تأثره « صاعقة لأنه رآها هاوية في أعمق هاوية من القهقرة » أهذا « مينا حلب مدخل تجارة الزوراء وتركستان ، ومخرج أنسجة ومحصولات عربستان ، صايرة مرسحاً للملاعب الخراب .. حتى تكاد أن لا تعتبر سوى كمبصقة للبحر ، أو مداس للدهر ؟ »

وامتطى «ظهر البخار ، وأخذ يطوى بيد البحار ، حتى عانق باع اللاذقية » ولـكنه لم ينزل إليها « وخفقت به أجنحة البخار إلى مدينة طرابلس ، فوجدها ظريفة وعليها أبهة العمار ، وكأنها تهم إلى التقدم فتدفعها نحوس الأقدار »

ثم زار بيروت ورأى أن لا بدع فى أن « جلست هـذه

المدينة على المرتبة الأولى ما بين مدن سوريا . وأصبحت مبزغاً لكل نور » وبعد نهاية « أجل المرسى عاود إلى المركب وطار به إلى يافا ، فنزل إليها بعد تردد وخوف من مطاردة الأمواج ، الدايمة الهياج » ولكنه ما عتم أن عاد آسفاً على الشجاعة التى بذلها فى منازلة أحط صماليك المدن كما يقول

بعد ذلك أخذت « تخفق له أجنحة نسر البحر إلى جانب الاسكندرية » فبلغها بعد ثمانية أيام من مغادرته حلب ورأى فيها مدينة « قايمة على ساق التجدد » ، ودعاها تاج المشرق وعنوان المغرب . ووجد فيها وقود « النور الايدروجينى خاصة فى الساحة المدعوة عندهم بالمنشية »

ثم « أوحت له شياطين الملل أن يرحل إلى القاهرة . فركب أجنحة عفريت البر ، فطار به كالباشق — يقيناً إن الرجل شاعر غير نادم ! — حتى أوقعه هذا العفريت بعد خمس ساعات على مدينة الأهرام ، أعنى الأثر الوحيد الذى أبقته القدمية تميمة على رأس هذه المدينة . وجعل يتفرج على مشهورات القاهرة مدة ستة أيام ، فلم يعثر على ما يستحق الذكر أو يروق الخاطر — حتى ولا النور الايدروجينى ؟ — سوى خزانة التحف المصرية وجامع القلعة الذى بناه محمد على باشا من الحجر الكهربائى — لم أعرف قبلا أن هذه ترجمة albâtre ! — مع السرايا المحاذية له . كما بنى سرايا شبرى ذات الحوض الرمرى العظيم الذى أنشأه لكى يتنزه فيه على قارب تجدفه جوار حسان (كذا !) أما الأزبكية الشهيرة فلا عادت تنطوي سوى على بعض أشجار بلح مغروسة بين أمواج الرمال »

أما أسواق القاهرة « فلا يوجد أقبح منها لشدة ضيقها وأوخامها ، حتى أن البعض لشدة ضنا كته يكاد أن يرفض مسير اثنين معاً ، ولا يقبل الضوء ، ولا يوجد شارع يعتبر بالنسبة إلى البقية سوى الشارع الملقب بالموزكى أو طريق الإفرنج حيثما اختار التجار الحلبيون إقامة حوانيتهم »

ووجد مع ذلك فى هذا البلد « كثيراً من الأثارات والبقايا القديمة ... وعدداً جزيلاً من الجوامع وأخصها جامع الأزهر الذى كان زاهراً بعلوم العرب وفنونهم . وقد تقوض حسب اقتضاء روح العصر بالمدرسة العالية التى جددها حضرة اسماعيل باشا قبل مصر » — لو رأى الخواجا فرنسيس هذا الجامع فى أيامنا !

وعاد رحالتنا إلى الأسكندرية « يستنظر المركب الذى سيصحبه إلى أوروبا . وورد الصاحب المستنظر فقلع معه الخواجا فرنسيس فى ١٤ تشرين الأول . وفى صباح العشرين منه انقض به باشق البحار على مدينة مرسيليا ، ووجد ذاته حينئذ مرتاحاً فى حضن الغرب ، متخطراً تحت سماء أوروبا » ؛ وبعد إقامته ثمانية أيام فى هذه المدينة « المصاغة من عسجد الظرافة ، والمطرزة بلؤلؤ الجمال ، ركب بخار البر فى طريق الحديد وأخذ جهة ليون »

وهنا يصف الرحالة الفذ شعوره فى بخار البر وطريق الحديد ، وحيال المناظر التى مرّ بها معترفاً « بعجزه عن الشرح ، وموجز القول بأن تلك المساحات التى مرّ عليها ، فلوات وجبالاً وهضاباً ، كانت بستاناً واحداً ومدينة واحدة ؛ وما كان يشاهد لون التراب الطبيعى سوى بين اسطوانات طريق الحديد ، حيثما تكر العجلات »

ولم يزل الخواجا فرنسيس « مضطجعاً فى المركبة الطايرة على أجنحة البخار ، مطلاً من كواتها البلورية على نفايس هذه الطبيعة إلى أن حط به طاير النار على مدينة ليون نحو نصف الليل ، حيثما كانت سابحة فى أنوارها العرمرمية »

وهنا تعاود رحالتنا جنة الشعر ، فيهرع إلى القلم ليحبس هذه الخيالات المنثورة فى بيوت منظومة ، ولكنه يبدو فى هذه المرة شاعراً حضرياً عصرياً ، ألم يحكم بأن للشعر « علاقة ثابتة مع الموضوعات التي يراها الشاعر ؟ »

إلى جنة الفردوس هل أنا ساير ترى أم إلى دنياء أخرى مسافر
وهل أنا مع نسر السما طاير إلى سما أم بخار الماء بى هو طاير
وعهدي أن الماء يضعف إن غدا بخاراً فكيف الآن ذا الضدصاير

ويواصل نظمه ثلاثين بيتاً يتغزل فى « عفريت البر وباشق البخار » ويقارن بين راحة السفر على أجنحته وتعب الأسفار على ظهور الإبل :

ولم يبق من ظعن سوى العجلات فى
حديد تكر الدهر وهى صوابر
أبت غير نيران اللظى علفاً لها
وهن على خير المشيم دواير

ولما لمع وجه الصباح ، نهض من فراش النعام وطفق يطوف ليون ليتفرج على ما تشتمل عليه من المحاسن واللطايف ؛ وهو

يذكرنا إذ يتغنى بجمالها وكمالها وما « اجتمع لها من المقومات المدنية والأدوات التمدنية بأن أول من شرع في رفع شأنها أحد أولاد قلويس (Clovis) ملك الغوليين ذى الشهرة العظيمة في غاليا la Gaule] بإدخاله إلى هذه المملكة جملة نظامات وتجديدات لمع بها زمانه ، وأهمها إدخاله الديانة المسيحية في الغوليين بعد أن أدخلته فيها امرأته بقصها عليه أخبار قسطنطين الكبير ، وباقناعها له أنه إذا سلك مسلك ذاك الملك المنتصر بالتنصر ، إنما يقهر نظيره كل أعدائه »

وركب الخواجا فرنسيس نسر البحار بعد تمضية ثلاثة أيام في ليون ، فطار به إلى باريس حيث وصل قرب انفلاق الصباح

ولنا أن نتوقع انفجار — أو ربما قال انفطار ؟ — نفس رحالتنا في قلب باريس ، وأن نترقب هبوط وحي الشعر عليه . ويظهر أن خواجتنا رجل يحسن « الإخراج » فهو تاركنا نشتاق إلى شعره بعد أن حببنا إليه ببعض الخطرات ، ليمضى في وصف نثرى لباريس حتى قبيل آخر الكتاب ، ثم هو مطبق علينا بقصيدة مخمسة عددت شطراتها فكانت خمسمائة شطرة والعياذ بالله . وبذلك يكون الخواجا فرنسيس قد أفرغ فينا شعره مرة واحدة

وكان المتوقع أن يترك رحالتنا للشعر مهمة التعبير عن إحساساته في باريس ، وأن يودعه تفكيره العالى ، تاركاً للنثر وصف المتاحف والميادين . ولكن رجلنا شعره منثور ونثره منظوم كما سبق لنا القول ، فبينا هو يتغنى نثراً بباريس « مركز مجد العالم ، ومصب أنهار العجايب ، وموقع أنوار التمدن ... وها قد أخذت عيناه ترى ما كان يراه ذاك الذى خطفته أرواح الآلهة إلى السماء الثالثة » إذا به يصطحبنا بشعره كأنه « بيديكر » فينصح بأن نترك الدرس لنتمشى في شوارع باريس :

ياصاحبي حتىم ترعى الوسوسة   ها كافة الدراس عافوا المدرسة
وكل نفس قد غدت مستأنسة   بهدنة في الدرس تطفى قبسه
وتضرم الأشواق ضمن الصدر

هيا بنا نسع إلى البولفار   إلى مكان الشهب والأقمار
حيث نرى بدايع المعار   مقرونة ببدع الأفكار
حيث الغنى حيث افتقار الفقر

كنى فسر بنا إلى فندوم   حتى نرى تمثال ذى الهجوم[1]

(١) يقصد نابليون طبعاً !

يجلى على عموده المنظوم   من سلب الحرب مع الخصوم[1]
بطرس نابليون عالى الذكر[2]

ها قد نظرنا أثر الشقاق[3]   فلننطلق لساحة الوفاق[4]
ذات رنين الصيت في الآفاق   ذى ساحة تسطو على الأحداق
وتسكر العقـل بغير خمر

ولننعطف نحو مقام التوللرى   أعنى بلاط العاهل المظفر[5]
هناك بستان عجيب المنظر   فكله شوارع من شجر
وفسـحات زخرفت بالزهر

كلا ! لست أنوى أن أسرد عليك كل هذه الخريدة العظيمة ، والدرة اليتيمة . إنما أنا أقتطف من شطراتها الخمسمائة هنا وهناك لأجمع لك باقة عاطرة من شعر الخواجا فرنسيس . ثم أى بأس في هذه النزهة الباريسية الفريدة ؟ الناس يرتادون باريس في « الأتوكار » ، والمعلم فرنسيس يصطحبك بقصيدته الحماسية إلى كثير من أماكنها الهامة . ها هو ذا يناديك من بوقه الشعرى :

فلننطلق المسـعى لدار اللوفر

ها قد بلغنا الآن دار التحف   حتى نرى عالم دنيا السلف
نرى حيوة الناس في العهد الخفى   وهتك ستر الزمن المنصرف
كل له داب بهتـك السر

جماعة الأشـور والعمالق   يبدون من ذاك الظلام الغاسق
يجلون في الثياب والقراطق   طبق لباس الناس في المشارق
فذاك زى الشرق منذ الفطر

كذا نرى جميع أعمال اليد   منهم وكل الأدوات الشرد
وكل معبود لهم ومعبـد   لكنما الضحك في ذا الصـدد
إلههم ثور برأس حـبر[6]

وهكذا سكان مصر السالفة   مع آل أشور لهم محالفة
كانوا على الأرض أجل طايفة   أجسادهم محنطات واقفـة
ولا نرى هذا سـوى في مصر

(له بقية)   حسين فوزى

(١) عمود فاندوم صب من المدافع التى غنمتها جيوش نابليون

(٢) أنظر ورقة ميلاد نابليون لتعرف إذا كان بطرس من أسمائه

(٣) يقصد الحرب

(٤) أى ميدان الكونكورد

(٥) نابليون الثالث في قصر التويلرى وقد أحرق القصر بعد سقوط الامبراطورية الثانية

(٦) أترى التنكيت البارع الممتع ؟ presque voltairien

١٠ • ٢٧

جمال الدين الأفغاني

للأديب محمد سلام مدكور

بمناسبة مرور إحدى وأربعين سنة على وفاته إذ توفى فى يوم ٩ مارس سنة ١٨٩٧ ودفن بالأستانة فى مقبرة « نشان طاش » حتى شيد له مقبرة خاصة المستر « كراين » سنة ١٩٢٧ م

بهذا الاسم تنطق ملايين الشفاه عند ذكر نهضات الشرق وعند أى مناسبة سياسية أو ظاهرة وطنية ، يذكرونه بالثناء والإعجاب ، ويتناولونه بالمدح والفخار ؛ يتعجبون لصبره وأناته وعمله وجهاده ، وكلما تذكروه أو تكلموا فى تاريخه فكأن وحياً من الشجاعة هبط عليهم ، وروحاً من العزة سرت فيهم ، ودبيباً من اليقظة نبههم ؛ فقد كان جريئاً فى الحق ، قوياً فى وجه العدو ، رابط الجأش ثابت الجنان ، فى نفسه ثورة مشتعلة ولهب يتطاير ، وآمال وثابة إلى المجد والرفعة

نكتب عن السيد جمال الدين ، ومن الفخر أن يتحدث المرء عنه ما وسعه الحديث ، وأن يطنب فى سيرة شخصيته الفذة ما شاء ؛ فالتحدث عن تاريخ هذا الفيلسوف الحكيم يشرح الصدر ويغمر النفس بالفرح والإعجاب ؛ والإطناب فى الكلام عن هذا الزعيم الكبير لا يمله إنسان

فلجمال الدين أثره البين فى نهوض الشرق وتطلعه إلى الحرية ، فقد ظل الشرق زمناً طويلاً خاملاً يرزح تحت نير العبودية ، ويرسف فى أغلال الاستعمار ؛ فلما جاء السيد جمال الدين نفخ فيه روح اليقظة ، وأهاب بالأمم الإسلامية أن تطرح ذلك الجمود الفكرى وتلك الأوهام التى ليست من الإسلام فى شىء ، والتى كانت سبباً فى تأخر المسلمين

فكان شأن السيد جمال الدين فى الناحية الدينية مثل شأن « مارتن لوثر » فى الديانات المسيحية ؛ وكان شأنه فى الناحية الفكرية مثل « جان جاك روسو » وغيره من فلاسفة الفكر ؛ وكان شأنه فى السياسة وتحرير البلاد من يد الغاصب مثل شأن « واشنطن » محرر « أمريكا » و « مازينى » محرر إيطاليا وغيرهما من رجال السياسة

وبالجملة كان لجمال فى كل ناحية من نواحى الإصلاح والتجديد أثر ظاهر وفضل لا ينكر

ولقد كان من مبادئ السيد جمال الدين : « أن الإسلام والذل لا يجتمعان فى قلب واحد » ولعمرى إنه لمبدأ خالد يكتب بماء الذهب فى تاريخ أعظم عظماء الاسلام ويضمن له البقاء والخلود ويسمو به إلى مراتب أقرب إلى مراتب الملائكة والأنبياء

نعم إنه لآية من آيات الحق ، ووحى هبط من السماء ، وتأييد من الله يؤيد به عباده المصلحين ، وهداية من الرحمن ونعمة يسبغها الله على من يشاء إنه عليم قدير

أى مسلم يقرأ هذا المبدأ القويم دون أن يسكب الدمع مدراراً ، ودون أن تذهب نفسه حسرات على ما كان للمسلمين فى غابر الأزمان من عز وسؤدد ، وما هو عليه أكثرهم اليوم من الذلة والانحطاط

نعم فهو يلفظ القول ليصيب به موقع الماء من ذى الغلة ، وينزل فيه بالحكمة التى هى أبعد من العنقاء وأعلى منالاً من الجوزاء إلى مستوى تستطيع أن تحمله الدهماء ، إن فى ذلك لعبرة

تلك هى روح السيد جمال الدين ، وهذا هو مبلغه من التأثير فى نفوس الطالبين ، وكذلك الزعامة الصادقة ، والهداية الموفقة ، وذلك صنع الله لعباده من المصلحين

وهذا لعمرى هو الذى جمع الناس عليه وجعلهم من جميع الطبقات يهرعون إليه ومكن له فى نفوس الملوك والعظماء والعامة والدهماء ، فاستطاع أن يظفر بالجو الصالح لبث هدايته حيثما حل وأينما ارتحل

وأرى أن السيد جمال الدين فى آرائه وحكمته ، وعلو نفسه ، وكرم أخلاقه ونبله زعيم إسلامى بعثه الله ليجدد للاسلام حياته التى كانت زاهرة زاخرة فى عهوده الأولى ، ويكون هذا أصدق شاهد على قول النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »

فقد كان أول المجددين فى القرن التاسع عشر الحكيم القدير والمصلح العظيم ، والمجاهد الكبير ، والثائر الخطير السيد جمال الدين سيد النابغين ، وأمير الخطابة والبيان ، فيلسوف الاسلام وآية الحق القاهرة ، وحجة الشرق الناهضة ، وكوكب الاصلاح الذى ظهر ساطعاً فى آفاق الشرق بعد أن كان فى ظلام حالك

كانت حياة هذا الفيلسوف سلسلة جهاد موفق ، وحلقة كفاح مثمر ، حياة خصيبة ممرعة ثرية ممتعة لها من الآثار الحميدة

والأيادى البيضاء والأعمال المجدية ما لا سبيل إلى تقديره ؛ فلقد كان يجول بفكره فى ميدان مترامى الأطراف من متنوع الفنون ، ويتناول فى مباحثه أجل الشئون مما يهم البشر ، يهتك غشاء الباطل عن الحق بنظرات نافذة وتفكير صحيح

والحقيقة التى لا شك فيها أن المرء لا يكاد يقف على عمل من أعماله أو رأى من آرائه ، أو يقلب صفحة من حياته حتى يشعر أنه بين يدى ذهن مستقل جبار لا يرتضى دون الحرية مطلباً ، ولا يبتغى غير محاربة الاستبداد شيئاً

بقى السيد جمال مناراً وهاجاً فى الحرية يهتدى به ، ومرجعاً صادقاً يفزع إليه في شتى نواحى الأمور . ولا بدع فانه يعمل لمبدأ خالد لن يغير تيار الحوادث منه ما دام الانسان إنساناً

ولست مغالياً فى مدح السيد جمال ، ولا أكيل له تلك العبارات جزافاً مندفعاً وراء العاطفة ، إذ هناك الكثير من الكتاب الغربيين الذين لا تربطهم أية صلة بجمال الدين إلا الاعتراف بالفضل ، والتقدير للنبغاء والمصلحين ، فهذا « هنرى روشفور » الكاتب الفرنسى الشهير يقول فى كتابه « ماجريات حياتى » :

« السيد جمال الدين من سلالة النبي ، والمعدود هو أيضاً أنه أشبه بنبي . ثم قال : إننى شعرت نحو هذا الرجل بعاطفة الحب التى أجدها تربطنى بكل داع إلى ثورة أو مقاوم لسلطة »

وهاك (رينان) الفيلسوف الكبير يقول عنه : « يخيل إلىّ من حرية فكره ، ونبالة شيمه وصراحته ، وأنا أتحدث إليه ، أنني أرى وجهاً لوجه أحد من عرفتهم من القدماء الفلاسفة ، وأنى أشهد ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الانسانية من الإسار »

جميل جداً أن نسمع تلك الحقيقة من فلاسفة الغرب ، وأن يشهدوا بفضله وعلمه ، وقوته وحكمته ، وهم الذين لم يستفيدوا منه شيئاً طائلاً ، وليس بجميل منا نحن الشعوب التى رضعت من ثدى علمه ، واستفادت من إرشاده ، وتمتعت بالحرية التى كان ينشدها أن نجهله أو نتجاهله ، وألا نحتفل بذكراه ونضع الأسفار الضخمة فى تاريخ حياته وتحليل نفسيته

* * *

اذكروا الرجل ، واحتفلوا بيوم ذكراه فإن فى ذكراه عظة وعبرة ... اكتبوا المقالات الطوال ، واقرضوا الشعر الرصين ، فليس هو بالذى ينقضى عمله بموته ، وإنما هو صاحب العمل الخالد والمجد الدائم ، إنما هو رجل الأمم والجماعات

فيا أيها الشعب الإسلامى ، ويا أبناء الشرق ، هذا هو السيد جمال الذى ما اتخذ له وطناً ولا ولداً ، فليس هو بالذى تتناساه الشعوب أو تهمل ذكراه الأمم

أما أنت أيها الشعب المصرى فهذا الذى أنقذك من براثن الظلم والجبروت ، وعادى من أجلك دول الاستعمار ، وقضى شطراً كبيراً من حياته فى المدافعة عنك ومناصرتك ، ولاقى الصعاب والأهوال

أما أنتم يا رجال النهضة ، ويا زعماء البلاد ، ويا نواب الأمة فهذا السيد جمال الذى بعث فى نفوسكم تلك الروح وعمل جهده على إيجاد الحياة النيابية فى مصر

أما أنتم يارجال الدين ، وياعلماء الأزهر ، لكم وحدكم بوجه العتاب . ألم يكن جمال هذا هو المحرر للأزهر من ذلك الجمود الفكرى الذى كان راسخاً فيه ؟ ألم يكن جمال هذا هو الذى خرج لكم فى مدرسته الامام الخالد الذكر الشيخ (محمد عبده) وكان يقول عنه عند نفيه « خرجت من الدنيا ولم أترك مؤلفاً ولا ولداً ولكن تركت لكم محمد عبده وكفى به لمصر عالماً »

أما أنت أيتها الصحافة ، أما أنت يا لسان الأمة الناطق ، وآيتها البينة وحجتها القوية ، وميدانها الفسيح ؛ أما أنت يا مشعل الوادى ، ويا منار الأفكار ، فهذا السيد جمال الذى أنبتك فى مصر وجعل منك ذلك المصباح الوهاج ، فهذا أستاذك صاحب العروة الوثقى

أما أنت أيتها الروح المقدسة الطاهرة الزكية البريئة العالية السابحة فى ملكوت الله . أما أنت يا روح جمال فإليك أتقدم بالاحترام الفائق والاجلال التام ، والمعذرة الصادقة عن تقصيرنا السابق ، وغفلتنا الطويلة

وإنى أخيراً لأفتخر بالسيد جمال الدين الأفغانى فى الإسلام وأقول « حسبه من عظمة ومجد أنه فى تاريخ الشرق الحديث أول داع إلى الحرية ، وأول شهيد فى سبيل الحرية »

محمد سلام مدكور
مؤلف كتاب جمال الدين الأفغانى

الكميت بن زيد (*)

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

— ٦ —

وقد كان هناك من لا يعذر الكميت في مدحه بني مروان بعد بني هاشم ، ويصفه في ذلك بالتردد والرياء والنفاق ، وكأنه لا يرى في هذه التقية التي يأخذ بها جمهور الشيعة ما يبرر العذر ، ويمنع من توجيه اللوم

وإني لا أنكر أن التقية تدل على شيء من ضعف النفس ، وأن التاريخ يذكر بالاعجاب والتقدير تلك المواقف الباهرة التي لم يأخذ أصحابها بالتقية ، وآثروا تضحية النفس على الاذعان للخصم ، ولكني أرى أن من الضعف ما قد يكون أجدى من القوة ، ولهذا مدحت الحيلة كما مدحت الشجاعة ، ومدحت المداراة كما مدحت الصراحة ، وقد يكون في المداراة رجولة حرة كريمة جديرة بالعطف والرحمة ، بعيدة من اللوم والمؤاخذة ، وقد رثى المتنبي لمثل هذه المداراة في قوله :

ومن نكدِ الدنيا على الحرِّ أن يرى
عدوًّا له ما من صداقته بُدُّ

فيا نكدَ الدنيا متى أنت مُقصرٌ عن الحرِّ حتى لا يكون له ضدُّ
يروحُ ويغدو كارهاً لوصاله وتضطرُّهُ الأيامُ والزمنُ النكدُ

وكان أبو مسلم الخراساني ممن يأخذ الكميت بهذا الاذعان لبني مروان ، وقد دخل عليه المستهل بن الكميت يوماً فقال له : أبوك الذي كفر بعد إسلامه ! فقال : كيف وهو الذي يقول :

بِخاتَمِكم كرهاً تجوزُ أمورهمْ فلم أرَ غصباً مثله حين يُغصبُ

فأطرق أبو مسلم مستحيياً منه

وذكر أبو الفرج الأصبهاني أن المستهل بن الكميت دخل على عبد الصمد بن علي فقال له : من أنت ؟ فأخبره ، فقال له : لا حياك الله ولا حيا أباك ، هو الذي يقول :

فالآن صِرْتُ إلى أُميّـــة والأمور إلى المصاير

قال : فأطرقت استحياء مما قال ، وعرفت البيت ، قال ثم قال لي : ارفع رأسك يا بني ، فلئن كان قال هذا فلقد قال :

بِخاتمِكم كرهاً تجوز أمورُهم فلم أرْ غصباً مثله حين يُغصبُ

قال : فسلى عني بعض ما كان بي ، وحادثني ساعة ثم قال : ما يعجبك من النساء يا مستهل ؟ قلت

غَرَّاء تسحب من قيامٍ فَرْعَها جَثْلاً يزينه سوادٌ أفحمُ
فكأنها فيه نهار مشرق وكأنه ليل عليها مظلم

قال : يا بني هذه لا تصاب إلا في الفردوس ، وأمر له بجائزة

والظاهر أن هذه الحادثة كانت قبل حادثة المستهل مع أبي مسلم الخراساني ، وأن المستهل عرف من هذه الحادثة كيف يتخلص من أبي مسلم بهذا البيت الذي ذكره له عبد الصمد بن علي وقد عرف المستهل بعد هذا كيف يؤول هذا البيت :

اليوم صرت إلى أميـــة والأمور إلى المصاير

حين عيره به أبو العباس فقال : أبي إنما أراد — اليوم صرت إلى أمية والأمور إلى مصايرها أي بني هاشم

ولا يبعد أن يكون الكميت قد أراد هذا المعنى الذي ذكره ابنه المستهل ، فقد كان شاعراً عالماً يعرف مرامي الكلام ، ولا يقول الشعر إلا بعد التأني والتدبر ، وكان يصير في ذلك إلى الغرض البعيد ، ويرمي إلى الغاية الخفية ، ومن هذا ما ذكره محمد ابن أنس ، قال : حدثني المستهل بن الكميت قال قلت لأبي يا أبت إنك هجوت الكلبي فقلت :

ألا يا سَلْم من تِرْبِ أفي أسماء من ترب

وغمزت عليه فيها ، ففخرت ببني أمية وأنت تشهد عليها بالكفر ، فألا فخرت بعلي وبني هاشم الذين تتولاهم ؟ فقال : يا بني أنت تعلم انقطاع الكلبي إلى بني أمية وهم أعداء علي عليه السلام ، فلو ذكرت علياً لترك ذكري وأقبل على هجائه ، فأكون قد عرضت علياً له ولا أجد له ناصراً من بني أمية ، ففخرت عليه ببني أمية وقلت إن نقضها على قتلوه ، وإن أمسك قتلته غماً وغلبته ، فكان كما قال ، أمسك الكلبي عن جوابه ، فغلب عليه وأفحم الكلبي

نعم إنه يمكن أن يؤخذ على الكميت أنه لم يكن يتعصب في

(*) أنظر العدد ٢٣٦

شعره لأهل البيت إلا لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا نوع من العصبية التى ينكرها الاسلام ، وهو لا يهتم فى حكم المسلمين إلا بمحاربة الظلم وإقامة دعائم العدل ، ولا يهمه بعد هذا نظام الحكم الذى يحقق هذه الغاية ، ولا أشخاص القائمين بهذا الحكم ، فالناس سواء فيه ، وكلهم صالحون له ، ولا فرق فيه بين هاشمى وغير هاشمى ، ولا بين عربى وعجمى

ولكن هذا لا يصح أن يؤخذ على الكميت أيضاً ، لأنه لم يكن يدعو فى شعره إلى أهل البيت من أجل تلك العصبية المنكورة فى الاسلام ، وإنما كان يدعو إليهم لأنهم كانوا أمثل الناس لحكم المسلمين فى عصره ، وإصلاح الفساد الذى ظهر فى المسلمين بسبب حكم بنى مروان الذى كان يقوم على تلك العصبية

فكان المسلمون في حاجة إلى حكم إسلامي ينظر إلى كل شعوبهم على السواء ، ولا يقوم على أساس العصبية التى كان يقوم الحكم عليها عند الفرس والروم وغيرهم ، وكان بنو هاشم أجدر الناس بالقيام بهذا الحكم الصالح ، لأنهم كانوا ألين طباعاً من بنى مروان ، وأقرب منهم إلى فهم الغاية التى قام الاسلام من أجلها ، وإلى السير بالحكم بين الناس على أنه وسيلة لا غاية

وقد حكم بنو العباس من بنى هاشم بعد بنى مروان فكان حكمهم أشبه بحكم الخلفاء الراشدين من حكمهم ، ولم يفرقوا فيه بين عربى وعجمى ، بل رفع الأعاجم فيه رؤوسهم حتى ساووا العرب وأخلصوا للاسلام إخلاصهم ، وقد بذلوا فى خدمة العلوم على اختلاف أنواعها ما يفتخر به المسلمون فى عصرنا على غيرهم ، وإذا كان لهم فى حكمهم أيضا سيئات فانها كانت قليلة بجانب حسناتهم .

ونعود بعد هذا كله إلى أمر الكميت بعد عفو هشام عنه ، ورجوعه فائزاً بذلك على خالد بن عبد الله القسري ، فقد فسد بعد هذا ما بينهما ، وكان للكميت معه أخبار بعد قدومه إلى الكوفة بالعهد الذي كتبه هشام له ، ولم يجعل فيه لخالد إمارة عليه ، فكان خالد يلاينه حيناً ويقسو عليه حيناً ، وكل منهما يخادع صاحبه ، وينتظر السوء به . فلما أدبر أمر خالد وتحدث الناس بعزله عن العراق أظهر الكميت شماتته به ، وقد مر عليه خالد يوماً فلما جاز تمثل بهذا البيت :

أراها وإن كانت تحَبُّ كأنها ... سحابةُ صيفٍ عن قليل تَقشَّعُ

فسمعه خالد فرجع وقال : أم والله لا تنقشع حتى يغشاك منها شؤبوب برد ، ثم أمر به فجرد فضربه مائة سوط ، ثم خلى عنه ومضى

وقد كان للكميت مدائح فى خالد لعلها كانت قبل أن يفسد بذلك ما بينهما ، أو لعلها كانت فى بعض ما يزول فيه شىء من تلك الجفوة ، وقد يكون هذا من تلك التقية التى أخذ بها نفسه بعد أن عفا هشام عنه ، على أن خالداً كان للشيعة خيراً ممن ولى العراق بعده ، وقد روى محمد بن كناسة أن الكميت دخل على خالد القسرى فأنشده قوله فيه :

لو قيل للجود من حليفُكَ ما ... إنْ إلاَّ إليك يَنتسِبُ
أنت أخوه وأنت صورتُهُ ... والرأسُ منه وغيرُكَ الذَّنب
أحرزتَ فضل النضال فى مَهَلٍ ... فكلَّ يوم بكفكَ القصب
لو أن كعباً وحاتماً نُشرا ... كانا جميعاً من بعض ما تَهَب
لا تُخلفُ الوعد إن وعدت ولا ... أنت عن المتفين تحتجب
ما دونك اليوم من نوالٍ ولا ... خلفك للراغبين منقلبُ

فأمر له بمائة ألف درهم

وكان خالد قد ولى العراق سنة خمس ومائة ، وقد طالت ولايته على العراق وتمتع الناس ببعض من الأمن فى ولايته ، ولم يكن شديداً على الشيعة كغيره ، وكان إلى هذا جواداً كثيراً العطاء ، خطيباً مقدوراً من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة ، ولكنه كان يتهم فى دينه ، وكانت أمه نصرانية فبنى لها كنيسة تتعبد فيها ، وقد عزل عن العراق سنة عشرين ومائة . ويقال إن سبب عزله أن امرأة أتته فقالت : أصلح الله الأمير ، إنى امرأة مسلمة ؛ وإن عاملك فلانا المجوسى وثب علىّ فأكرهنى على الفجور وغصبنى نفسى ، فقال لها : كيف وجدت قلفته ؟ فكتب بذلك حسان النبطى إلى هشام فعزله وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفى ، وهو ابن عم الحجاج بن يوسف ، وأمره بمحاسبته ومحاسبة عماله ، فأخذ يوسف خالداً وعماله وحاسبه وعذبه ، ثم قتله فى أيام الوليد بن يزيد سنة ست وعشرين ومائة

وقد تكون هذه التهم من اختلاق أعداء خالد عليه ، وقد يكون السبب الحقيقى أن هشاما أراد أن يأخذ العراق بالشدة

بعد أن فشا فيه التشيع على عهد خالد بن عبدالله ، وجاهر به الكميت وغيره من شيعة أهل البيت ، فاختار لهم ذلك الثقفي ليأخذهم بما أخذهم به قبله الحجاج ابن عمه ، فسار فيهم سيرته . وكان من ضحاياه زيد بن على بن الحسين رضى الله عنه [1]

فاضطرب الكميت بعد هذا فى أمره ، وقد سبق أن زيداً دعاه إلى الخروج معه فلم يجب دعوته ، ولكنه ندم على هذا بعد قتله ، وقال يلوم نفسه :

دعانى ابنُ الرسول فلم أُجِبْه ألَهْفِى لَهْف للقلب الفَرُوق
حِذارَ منيَّةٍ لا بُدَّ منها وهل دُون المنية من طريق

وقال يهجو يوسف بن عمر :

يعِزُّ على احمــدِ بالذى أصاب ابنه أمس من يوسُف
خبيث من العصبة الأخبثين وإن قلتُ زَانِينَ لم أقْـذف

وقد كان مع هـذا يظهر التقرب إلى يوسف بن عمر ، ولا يبخل عليه بشىء من المدح . روى أنه دخل عليه بعد قتله زيداً فأنشده قوله فيه :

خرجتَ لهم تمشي البراحَ ولم تكن
كمن حِصْنُهُ فيه الرِّتاجُ المضبَّبُ
وما خالدٌ يستطعم المــاءَ فاغرًا
بعدلِكَ والداعى إلى الموت يَنعب

يعرض بخالد وقد خرج عليه الجعفرية وهو يخطب على المنبر ينادون : لبيك جعفر ، لبيك جعفر ، وهو لا يعلم بهم ، فدهش فلم يعلم ما يقول فزعاً ، فقال : أطعمونى ماء ، ثم خرج الناس إليهم فأخذوهم

وكان الجند القائمون على رأس يوسف يمانية فتعصبوا لخالد ، ووضعوا ذباب سيوفهم فى بطن الكميت فوجئوه بها وقالوا : أتنشد الأمير ولم تستأمره ! فلم يزل ينزفه الدم حتى مات ، ولا يبعد عندى أن يكون هذا بتدبير يوسف ليتخلص منه ، فليس من المعقول أن يجرؤ هؤلاء القوم على هذا مع ما سبق من عداوة يوسف لخالد

وقد مات الكميت سنة ست وعشرين ومائة ، وكان وهو يجود بنفسه يقول : ألهم آل محمد ، ألهم آل محمد . وقد أوصى ابنه المستهل أن يدفنه بموضع يقال له (مكران) غير ما يدفن الناس فيه بظهر الكوفة ، فكان أول من دفن فيه من بنى أسد

عبد المتعال الصعيدى

* * *

حاشية : ذكرنا أن الأعور الكلبي رمى امرأة الكميت بقصيدة يقول فيها « أسودينا وأحمرينا » وهذه رواية الأغانى ، وقد وجدنا هذا البيت فى شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك :

فما وجدت نساء بنى تميم حلائل أسودين وأحمرينا

وسنعود إلى ذكره فى مناقضات الكميت مع الأعور الكلبي

(١) وهذا أيضاً مما يؤيد ما ذكرناه من أن قتل زيد كان متأخراً على هاشميات الكميت

التاريخ في سير أبطاله

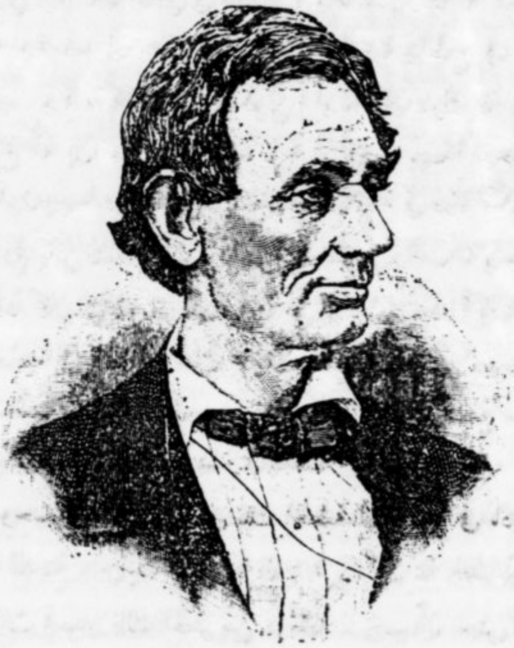
ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٥ —

يا شباب الوادي ! خذوا معاني العظمة في نبعها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم



أبرزت السياسة مواهب ابن الأحراج وأثارت ما استكن في نفسه من معاني الانسانية الصادقة ؛ وأخذت الأيام تعده ليؤدي للبشرية رسالة ... والعبقري مهما تناول من عمل فهو إنما يفرغ عليه من نفسه فيلبسه من المعاني مالا يستبطيه أو يحلم به الرجل العادي ؛ ولقد يكون العمل في ذاته متواضعاً فما هو إلا أن يمر به قبس من روحه حتى يصبح وقد استعظم واستعلى وخرج بذلك عن ذاتيته

أخذ الطوال التسعة يعملون عملهم مع أقرانهم في المجلس ، وكانت تشغلهم يومئذ مسائل كثيرة ، فالبلاد تواقة إلى الاصلاح المحلي في شتى ضروبه ، ومسألة العبيد يتزايد خطرها يوماً بعد يوم .. ولكن ابراهام حيال مسألة عارضة ، تلك هي الدعوة إلى نقل مقر المجلس إلى مدينة أخرى يراها أحسن موقعاً وأوسع مجالا من فنداليا ؛ وهو في ذلك يعبر عن رأي الكثيرين من ناخبيه ، وما زال بالمجلس حتى ظفر بعد جهد — هو ومظاهروه — باقناعه ، ومن ثم أصبح مقر مجلس القاطعة في سبرنجفيلد ...

دخل إبراهام سبرنجفيلد على جواد هزيل استأجره ، يحمل كل مايملك من متاع الدنيا في عِدل صغير ، وفي جيبه مبلغ لا يقل عن سبعة دولارات ! وكاهله ما زال مثقلا بما سماه الدين الأهلي .. دخل المدينة الجديدة لايدري أين يتخذ مأواه ، أو على الأقل أين يلقي رحاله لساعته . وسيظل في هذه المدينة حتى يخرج منها إلى واشنجطون العظيمة ليأخذ مقعده في البيت الأبيض !

وكانت المدينة يومئذ آخذة في الاتساع والنمو يسكنها ألف وثمانمائة نسمة ، بيد أنها كانت لا تزال تعلق بها مسحة من الغابة إذ كان منبتها كغيرها أول الأمر وسط الأحراج ؛ فهي كصاحبنا أيب تخلع عنها ما تخلف فيها من حياة الغابة شيئاً فشيئاً

قصد إبراهام إلى حانوت يملكه رجل من كنتوكي كانت له به من قبل معرفة طفيفة ، وأقبل على ذلك الرجل ومتاعه على ذراعه يسأله عما يلزم من المال لشراء سرير وفرش ، فلما أخبره الرجل بما يلزم أخذته الحيرة وقال له : « إني سأحترف المحاماة ولي في الربح أمل ، فهل لك أن تعطيني طلبتي على أن تمهلني إلى عيد الميلاد القادم ؟ » ثم أردف قائلاً : « وإذا أنا عجزت يومئذ عن أن أدفع لك حقك فلست أعلم هل أستطيع أن أؤدي لك ذلك أبداً ؟ »

وكان الرجل طيب القلب فما لبث أن ملكته الشفقة على ذلك الغريب الذي يبدو له من أمانته بقدر ما يبدو من فقره ؛ لذلك آواه عنده وعرض عليه أن يقتسم وإياه سريره القائم في حجرة صغيرة هناك فوق الحانوت ؛ وصعد إبراهام إلى الحجرة فألقى عدله . ونزل وعلى وجهه أمارات الرضا ...

كان إبراهام مزمعاً أن يتخذ من المحاماة مرتزقاً ، وهو قد ترك العمل في البريد وفي تخطيط الأرض منذ أن هم بالرحيل إلى سبرنجفيلد ، فأقبل على كتب القانون يستزيد منها علما ؛ وكان يعيره بعض الكتب محام في المدينة يدعى ستيوارت . ورأى ستيوارت من ذكاء صاحبه وطيب سريرته وحسن طويته ما دعاه إلى أن يشركه في العمل معه ؛ وقبل إبراهام ذلك مغتبطاً مسروراً يحس كأن الأيام توشك أن تبتسم له بعد تجهم وعبوس ، فله اليوم في السياسة مجال وله في المحاماة مجال

بيد أن هناك من الأمور مالا يزال يكدر خاطره ويكرب

نفسه ... ذلك ما كان من غرامه الثاني إن جاز لنا أن نسمي علاقته الجديدة بعد موت آن غراما

الحق أن هـذا الجانب من حياة لنكولن ، جانب علاقته بالفتيات ، أمر يدعو إلى العجب حتى ليحمله المرء على ما كابد من شذوذه أكثر مما يحمله على ما كان من حصافته ولقانته . عرف لنكولن فيمن عرف من أهل نيوسالم امرأة كانت تضيفه أحياناً فتحسن ضيافته ، وظل يغشى منزلها زمناً حتى أصبح كأنه من أهلها . وحدثته تلك المرأة فيما حدثته عن أخت لها غائبة ألقت عليها من الصفات ما تبتكره أخت لأختها حين تبحث لها من الشباب عمن يطلب يدها . ورد إبراهام مرة فقال وهو لا يدري أمازح هو فيما يقول أم جاد : إنه يرحب بالزواج من تلك الأخت ، وكان قد رآها قبل ذلك بثلاثة أعوام ، فلما عادت كانت تجلس إليه ويجلس إليها ...

وصور له خياله الخصب أن كلمة ميثاق لن يسمح له ضميره أن يتحلل منها . بيد أنه في حيرة دونها كل ما سبق من حيرة ! لا يحس في قلبه ما يحسه المرء حين يمر به طائف من الحب ؛ وهو مع ذلك لا يستطيع أن يقطع أنه لا يحبها !

لعل ما هو فيه اليوم من أمور السياسة ومن شؤون المحاماة يصرفه حيناً عن وساوسه وهواجسه ؛ لقد أخذ ستيوارت القضايا الكبيرة وترك لإبراهام ما خف من القضايا ؛ ولكن الحوادث ساقت إليه قضية معقدة كسبها ونمى إلى الناس خبرها فما لبث أن أصبح في مهنته الجديدة ملحوظ المكانة

وكان دستوره في المحاماة منبعثاً من أعماق نفسه ، لذلك كان قائماً على توخي الحق والدفاع عنه ونصرة المظلومين والضعفاء ؛ كان لا يقبل قضية لا يقتنع بصدقها ، ولا يقرب قضية يعلم أن الدفاع فيها يمس الخلق من قريب أو من بعيد ، وكان أسلوبه في المحاماة كذلك صورة لنفسه ، لا يعرف اللجاج ولا المطاولة ولا يلتوي في أمر أو يخفي في نفسه شيئاً لغاية في نفسه إلا إذا كان ذلك لستر عرض أو لحفظ كرامة ، على ألا يكون للمجاملة حساب في نفسه إذا انبنى عليها إساءة إلى الفضيلة أو انتقاص للعدالة

وخفت وطأة الأيام عليه حيناً ، فكانه في المحاماة — وهو يومئذ لم يعد الثامنة والعشرين — كما علمت ؛ ومكانه في السياسة قد جعله رأس حزبه في المجلس ، وهو كما مر بك حزب الموجز ؛ وهو إلى ذلك حبيب إلى أهل سبرنجفيلد لما كان له من يد في نقل المجلس إليها ، ولما آنسوا من طلاوة حديثه وروعة قصصه وعذوبة نفسه . ولقد توثقت المودة بينه وبين الكثيرين وعلى الأخص بينه وبين سبيد صاحب الحانوت ...

وكان من أحب الساعات إليه تلك التي يجتمع فيها وجماعة من حزبه في حانوت سبيد فيتحدثون ويقلبون الآراء في السياسة وقضاياها . ومن تلك الجماعة من سيكون لهم في غد شأن في سياسة بلادهم ، على أنه مهما يبلغ من شأنهم فسيظل دون ما سيكون لإبراهام من شأن . وممن كانوا يختلفون إلى ذلك المنتدى رجل من الحزب الديمقراطي صغير الجرم يدعى دوجلاس ، عرف لنكولن أيام كان المجلس في فندليا ، وقد اشتهر بلباقته وحدة ذكائه وعرف إلى جانب ذلك بالأثرة والغيرة والطمع في عليا المراتب . وكأنه كان يغار من لنكولن ؛ أو لعله كان يدرك منذ ذلك التاريخ أنه إن بذ الرجال جميعاً فإنه لن يلحق بهـذا الرجل . وسيكون بينهما من التنافس ما يفتح صفحات ممتعة في حياة لنكولن

ولم يكن نشاط لنكولن قاصراً على المجلس والمحكمة وحدهما بل لقد كان نشاطه خارجهما باعثاً على الاعجاب جديراً بالثناء ، فهو داعية إلى الثقافة ، حاث على الإصلاح بما ينشر ويذيع ؛ وذلك لعمري جد عجيب من رجل كان قبل ذلك ببضع سنين يقطع الأخشاب في الغابة يشتري بالمئات منها سروالا !

وحسبك منه ما ترى في تلك الخطبة التي ألقاها في ناد من أندية المدينة ، وإليك بعض ما قاله : « إذا كان ثمة خطر يتهدد الولايات فمصدر ذلك الخطر من داخلها . يجب أن نعيش أبداً أمة حرة أو نقتل أنفسنا ؛ إنما أشير إلى ما يتزايد من عدم مراعاة القانون في البلاد » ثم يذكر حادثاً خطيراً من حوادث الاغتيال ويعلق عليه بقوله : « تلك هي المناظر التي تتزايد يوماً بعد يوم في هذه الأرض التي اشتهرت أخيراً بحب القانون والنظام ... وماذا عسى أن نصنع لنقف في وجه هـذا ؟ . الجواب يسير : ليقسم كل أمريكي ، كل عاشق للحرية ، كل ذي نية طيبة نحو الفلاح ، ليقسم كل بما جرى من دماء في الثورة ألا يتعدى قوانين البلاد في أي جزئية منها ، وألا يسمح للغير بتعديها ، وكما فعل رجال عام ١٧٧٦ في تعضيدهم حركة إعلان الاستقلال ، كذلك ليفعل اليوم كل أمريكي في حرصه على الدستور والقانون ؛ وليقدم كل في سبيل ذلك حياته وشرفه المقدس وما ملكت يداه . إن في النابهين الطيبين من الناس ممن تتوفر فيهم الكفاية لأن

يحسنوا أى عمل يوكل إليهم — كثيرين لا تمتد أطماعهم إلى ماهو أبعد من مقعد فى المؤتمر أو من مركز فى الحكومة أو من وصول إلى كرسى الرياسة ؛ ولكن هؤلاء لا ينتمون إلى أسرة الضراغم ولا إلى جماعة النسور . وإهاً ! أتظنون أن مثل هذا يملأ عين اسكندر آخر أو قيصر ثان أو نابليون جديد ! كلا . إن العبقرية الشامخة لتحتقر الطريق التى وطئتها الأقدام من قبل ... لقد كانت العواطف قبل عوناً لنا ولكنا لن نركن إليها اليوم ولسوف تكون فى المستقبل عدواً لنا ، ألا لتكن الحكمة الباردة الحاسبة التى لا تعرف العواطف هي التى تمدنا بما يلزمنا فى مستقبلنا من أسباب القوة والدفاع »

يا ابن الغابة يا ربيب الفقر والبأساء ! أنى لك هذا كله ! ألا إنها العبقرية تستعلن فى الخطابة وتحمي على الحماسة وإن خفيت في الحديث الهادئ أو فى القصة الوادعة !

وماذا يريد لنكولن بإشارته إلى العبقرية الشامخة وما تتطلع إليه ؟ هل كان يرسم لنفسه ما يجب أن يفعله في غد ؟ كلا . ما كان يدرك يومئذ أو يحس أن له فى غد من عمله ما هو حرى أن يملأ عين اسكندر آخر أو قيصر ثان أو نابليون جديد

ومما عرف عنه فى السياسة موقفه فيما كان فى تلك الأيام من أمر العبيد . فلقد انبعثت صيحات قوية من أولئك المتطرفين من أهل الشمال الذين أهابوا بالمؤتمر أن يعلن تحرير السود فى جميع الولايات ؛ وهو يومئذ مطلب جرئ بل لقد كان يعد فى تلك الأيام حلماً من الأحلام . وقف إبراهام من تلك الدعوة موقفاً ينطوى على الكياسة وبعد النظر ، ويكشف عن ناحية أخرى من نفس هذا السياسى الناهض ، تلك هى ناحية التعقل والنظر إلى حقائق الأمور دون مغالطة فيها أو تناب عنها

كان إبراهام يمقت نظام العبيد من أعماق نفسه وها هو ذا يجد نفسه اليوم بين أمرين : تطرف الداعين إلى القضاء على هذا النظام طفرة ، وما اتخذه مجلس مقاطعته من قرارات رجعية لم يستطع هو وأنصاره تلافيها . أما عن قرارات المجلس فإنها كانت على الأرجح تعبر عن ميل أعضائه وخاصة الديمقراطيين إلى محاربة الدعوة القائمة لتحرير العبيد ؛ وكان أن أعلن إبراهام هو وزميل له احتجاجاً على قرار المجلس يتضمن أنهما وإن كانا يريان مسألة العبيد قائمة على الجور وخطل السياسة إلا أنهما يعتقدان أن ما يدعو إليه المتطرفون إنما يساعد على ازدياد الخلاف بين الولايات ؛ كذلك هما يعتقدان أن موقف المجلس فى قراراته لا يطابق الدستور . ولقد ذاع فى الناس هذا الاحتجاج فأضافوه إلى ما عرفوا عن لنكولن من حميد الخلال ؛ وها هو ذا ينتخب للمرة الثالثة وهو فى التاسعة والعشرين ؛ يطول باعه فى المحاماة كلما تصرمت الأيام ، وترسخ قدمه فى السياسة ، ويعلو كعبه فى الخطابة . وكان أكبر معارضيه ومناوئيه إذ ذاك دوجلاس وكانت له مواقف يظهر فيها على إبراهام فى المجلس بلفتات ذهنه ولباقته ، وسرعة انتقاله من فكرة إلى فكرة ومن قضية إلى قضية ؛ ولكن إبراهام كان المتفوق الظافر إذا كان الأمر أمر إخلاص أو أمانة أو بعد نظر أو دقة تحليل . وأحب الناس فى المجلس وفى خارجه مما أحبوا من صفات لنكولن الخطيب تساوق عباراته ودقة ألفاظه في التعبير عما يريد ؛ وأحبوا منه فوق ذلك براعته فى التهكم ، تلك الخلة التى كان لا يطيقها معارضوه ، كما أنسوا إلى تلك الأمثال البارعة التى لم يك يفتأ يضربها للناس فى جلاء وبصيرة يستعين بها على بيان ما يريد

لم تلهه السياسة وشواغلها ولا المحاماة وقضاياها ، ولا الجلسات فى حانوت سبيد وما كانت تثير فى نفسه من لذة ... لم يلهه ذلك كله عن نوازع قلبه وخلجات نفسه ؛ وأنى له ذلك وقد كانت مارى أوين ، تلك الفتاة التي ارتبط بها ، تلقاه بعد أن تزور أحياناً بعض ذوى قرباها فى سبرنجفيلد فتراه ويراها ، كما كان هو يذهب إلى نيوسالم فيغشى بيت أختها . إن أمره عجب فى ذلك ! لا يستطيع أن ينصرف عنها ولا يستطيع أن يؤمن أنه يحبها ! تلك حال من حالات الشباب ؛ أو هي حال من حالات لنكولن العجيب

كانت علاقتهما علاقة فتور يتجلى لهما في عدة مواقف ، ولكنهما كانا فى موقف تحسب الفتاة أنه لم يبق إلا أن يتقدم صاحبها بالاقتراح ، ويحسب الفتى أنه لم يبق إلا أن تنأى بجانبها عنه فتريحه . لقد كان منقبض النفس لهذه الحيرة يجعل للمسألة من الأهمية أكثر مما لها . نلمس ذلك فى مثل قوله : « لم أجدنى مرة مدة حياتى فى قيد حقيقياً كان أو خيالياً أرغب فى التحرر منه مثلما أرغب فى التحرر من هذا القيد »

وجمع أمره فكتب إليها خطاباً رقيقاً محكماً يشير فيه إلى دخيلة نفسه ويتلمس معرفة طويتها دون أن ينالها بكلمة قاسية . تكلم عن فقره وما عسى أن تجد عنده من تكون زوجاً له ، ثم

قال « ربما كان ما قلته لى من قبيل المزاح وإلا فأظنني لم أفطن إلى مرماه . إن كان كذلك فدعيه إلى النسيان ، وإن لم يكن كذلك فإنى أحب أن تفكرى تفكيراً جدياً قبل أن تقطعى فى الأمر ؛ وسأكون عند ما قلت إذا كان ذلك ما تشائين . وإنى أرى ألا تشائى ذلك فإنك لم تتعودى البأساء وربما كان الأمر أقسى مما تخالين » وكتب لها بعد ذلك خطاباً أكثر صراحة جاء فيه : « إذا كنت تشعرين أنك مقيدة نحوى بأى رباط فإنى أميل الآن إلى أن أطلقك منه إذا كانت هذه بغيتك ؛ بينما أرانى من جهة أخرى أميل إلى أن أمسكك علىّ إذا اقتنعت أن ذلك يزيد من سعادتك بقدر خليق بالاعتبار . تلك فى الحقيقة هى المشكلة بالنسبة إلى »

تلك هى تعللات المتردد الحائر تصور لنا حالا من الحالات المستعصية على الفهم ، بيد أن المسألة قد آلت آخر الأمر إلى الرفض وانصرفت عنه مارى أوين . وظل بعد انصرافه عنها حائراً لا يدرى أيحمل ذلك على الفوز أم يحمله على الخيبة ؛ على أنه يعلن فى عزم مصمم أنه لن يفكر بعد فى الزواج

ومن العظماء من تنطوى نفوسهم على نواحى ضعف تكافئ نواحى القوة فيها ؛ ومن هؤلاء لنكولن ، من نواحى ضعفه هذه الحيرة الخوارة إذا كان الأمر أمر نساء ؛ فهل كان يرى فى سكنه إلى زوجة قيداً يحرمه من حريته ، أم هل كانت تعوزه الكفاية لهذا الغرض ؟ من العسير أن نرد هذا إلى سبب واضح محدود ..

ومابإله يتورط بعد ذلك فى صلة جديدة ؟ ! ينصرف عن مارى أوين ليتصل بمارى تود ؟ كانت هذه الفتاة تنتمى إلى درجة دونها درجته ، وكانت مهذبة مثقفة ، شديدة الذكاء ، تدير الحديث إذا جمعها بالنابهين من أهل الدنية مجلس ، فتسخرهم بتوقد الذهن وقوة البادهة ولطف الإشارة وأناقة العبارة . وكانت مارى إلى ذلك ذات طمع وطموح ، فكانت نظرتها إلى الشباب من طبيعة نظرتها إلى الحياة ؛ المقدم فيهم عندها من تعرف أنه إذا نالت يده يخطو بها إلى ما تمد إليه عينها وخيالها من جاه ونفوذ . وكانت فتاة قلقة كأنها من فرط توثبها الطائر الدل لا يحط على غصن إلا ليثب منه إلى غصن ...

وكان لنكولن ممن يختلفون إلى دارها الجميلة التى تدور بها حديقة صغيرة فينانة ، كما كان دوجلاس ممن يختلفون إلى تلك الدار ؛ كأنما صحت عزيمة هذا الرجل أن يأخذ على منافسه كل طريق ! وأخذت الرجلين عينا مارى السريعتان النافذتان ولكنهما استقرتا على إبراهام . وكان دوجلاس خليقاً أن ينال عندها الحظوة بما كان يبدو من ذكائه ودهائه ولباقته وكياسته ، وبما كان يشع من ظرفه وحسن سمته وأناقة هندامه ، ولقد كان يبتغى إليها الوسيلة ، لا تفلت منه فى ذلك فرصة ولا تفوته حيلة . ولكنها اتجهت إلى ابن الغابة فى هندامه المتهدل القصير على جسمه المرهف الطويل ولم ينب فى عينيها وجهه المسنون الذي يحمل من البلاهة بين يديها قدر ما يحمل من هموم الأيام ، ولم ينب عن ذوقها شعره الأشعث الذى يصور للعين ألفاف الغابة !

ومضت الأيام وابراهام يتزيد من حبها بقدر ما يفقد دوجلاس ؛ ولكنه يسر إلى صديقه سبيد أنه لا يشعر نحوها من الحب بما عساه أن يفضى إلى الزواج ، ويهم أن يكتب إليها ذلك ، فيشير عليه صاحبه أن يشافهها بالأمر ، فيفعل ، ولكنه يعود إلى صاحبه ليخبره أن لا مناص ولا حيلة ، فهو اليوم رهين أسير ، ذلك أنه ما كاد ينبئ مارى بما يعتقد حتى هبت من مقعدها صارخة تقول : أصبح المخادع هو المخدوع ! قال لنكولن : « ووجدت الدموع تنحدر على خدى أنا فأخذتها بين ذراعى وقبلتها »

وظلت مارى بعد ذلك مدة عامين تحرص على ابراهام وتتحايل على كسب قلبه ؛ فلقد كانت ترى منه ما يبشر بأملها المرجو ، قالت عنه بعد ذلك بسنين : « لم يكن مستر لنكولن من الوجاهة كما كان مستر دوجلاس ، ولكن الناس لم يكونوا يلحظون أن قلبه كان من الكبر بقدر ما كان ذراعه من الطول » . ولكن ابراهام كانت تأخذه من الهم غاشية كلما مال الحديث إلى الزواج ، وعاد إليه تردده وتلدده ، وعاودته الرغبة في التخلص من مارى تود كما تخلص قبل من مارى أوين . وكان يومئذ فى حال إن لم تحملها على الخبل تحار على أى شىء غيره تحملها . وحسبك أنه ابتعد عنها بغتة فى اليوم السابق ليوم الزفاف ، وهو يأمل أن يسترد احترامه لنفسه ومقدرته على الحكم ، ولكنه أحس أن فعلته هذه ضد الشرف فحاق به اليأس . كتب إلى صديقه سبيد : « إما أن أموت وإما أن تتحسن حالى ، ولكن بقائى فيما أنا فيه من المستحيل » وبعد ذلك بأيام كان عند الطبيب

الخفيف

أناشيد غزلية

البســــتانى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

« تشكى إلى كثير من صحابتى ومن قراء (الرسالة) الغراء بعض ما وجدوا فى أناشيد جيتانجالى من شــدة وصعوبة وصلابة ؛ وفى الحق لقد وجدت فيها قوة السبك ومتانة الأسلوب وعمق الفــكرة الفلسفية ، فما استطعت أن أنحرف عما أراده المؤلف لأناشيده . وأنا أريد أن أنقل إلى العربية ترجمة صحيحة فيها الأمانة والدقة والاتقان ، فجاءت كما قرأها القارىء وكما تحدث إلى عنها المتحدث ... »

« ولقد وعدت رفاقى أن أرفه عنهم ببعض ما نالهم من أناشيد جيتــانجالى بأناشيد أخرى فيهــا رقة النسيم العليل وابتسامة الفجر الضاحك ، وحلاوة الأمل الباسم ... تلك هى أناشيد (البستانى) التى أقدمها للقراء اليوم وما بعده ، وهى أناشيد غزلية كتبها طاغور بالهندية وترجمها هو إلى الانجليزية وهى ٨٥ نبضة من نبضات قلب شاعر سما بقلبه وعقله معاً فوق الانسانية ليهبط عليها بوحى من نفسه الشاعرة الرقيقة »

« وهى كلها نوع من الغزل الرقيق الرفاف لم نر مثله فى اللغة العربية . فها هى ذى أترجمها كلها — إن شاء الله — والله أسأل أن يوفقنى ... » كامل

— ١ —

الخادم — أسبغى على خادمك بعض فضلك يا مليكتى !

الملكة — لقد انفض السامر وتفرق الخدم ، فلماذا جئت وقد انفرط عقد الليل ؟

الخادم — حين تخلو مليكتى إلى نفسها أبتغي أنا إليها الوسيلة. لقد جئت لأسألك ما ادخرت لخادمك من عمل

الملكة — وماذا تبتغى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

الخادم — مرى فأكون بستانىّ حديقة أزهارك

الملكة — يا للحمق !

الخادم — سأنفض عن نفسى كل عمل سوى هذا سألقى بسيفي ورمحى معاً جانباً . لا تقذفى بى إلى غيابة قصورك النائية ، ولا تدفعى بى إلى ميدان القتال ؛ ولكن مرى فأكون بستانىّ حديقة أزهارك

الملكة — وماذا تريد أن تعمل هناك ؟

الخادم — سأقوم على خدمتك فى ساعات الفراغ وأتعهد حشائش الطريق لتظل خضراء ناضرة ... الطريق الذى تجتازين كل صباح حيث تتناثر على قدميك أوراق الزهور التى تسير الهوينى فى طريق الفناء ، كأنها تحييهما فى ولاء

وأرجّح بك الأرجوحة بين أغصان الدوح ، حيث تجهد أشعة القمر نفسها أن تندفع خلال أوراق الشجر لتقبل ذيل مرطك

ثم أترع مصابيحك بالزيت العطر حين توشك أن تنضب ، وأنثر على موطىء قدميك الصندل والزعفران فى دقة وإتقان

الملكة — وماذا تنتظر من أجر ؟

الخادم — أجري أن تأذني فأمسك بيدك البضة الناعمة التي كأنها زهرة اللوتس الناضرة ، فأزين معصمها بسوار من زهر ؛ وأصبغ أخمص قدميك بعصير الزهر الأحمر ، ثم أنفض عنها ما عساه أن يعلق بها من ذرات التراب

الملكة — لقد أجبت سؤلك يا خادمى ، فاذهب فأنت منذ الآن بستانىّ حديقة أزهارى

— ٢ —

« آه ، أيها الشاعر! إن المساء يقبل فى أناة ، فيدب الشيب فى شعراتك »

« أفتسمع من خلال تأملاتك وأنت في خلوتك رسالة الغيب ؟ »

قال الشاعر : « حقاً ، إنه الليل ، وأنا جالس أتسمع لأن صوتاً سيرتفع — في جوف الليل — من جانب القرية »

« وأنا أرقب القلوب الشابة وهى تتلاقى بعد تيه ، فتنطلق نظرات الهوى تطلب الموسيقى لتصدع من حواليها السكون وتتحدث حديثها »

« من ذا يستطيع أن ينسج أغانيها على منواله إن أنا انزويت على شاطىء الحياة لا أستشعر فى نفسى سوى الموت والحياة الأخرى ؟ »

« لقد توارى أول نجم بزغ عند الغروب »

« ووميض نار الموتى (١) إلى جانب النهر الهادىء يخمد رويداً رويداً »

(١) نار الموتى : هى نار تشب عند الهنود ليحرقوا فيها جثث موتاهم وهو بعض طقوسهم الدينية

« وعواء أبناء آوى يرتفع من جنبات المنزل الموحش فى ضوء القمر الشاحب »

« وإذا تلبث مسافر هنا قليلاً ليرقب الليل ، وأطرق حيناً ليسمع همهمة الظلماء ؛ فمن ذا الذى يسكب فى مسمعيه أسرار الحياة إن أنا أوصدت دونه بابى لأتحلل من قيود الانسانية ؟ »

« إنها خرافة : أن يدب الشيب فى شعراتى »

« إننى دائماً شاب كأصغر شباب القرية ، وشيخ كأكبر كهولها »

« بعض النـاس ترتسم على شفاههم ابتسامة عذبة رقيقة ، والبعض يشع من نظراتهم الخبث »

« بعض تنهمر عبراتهم فى وضح النهار ، والبعض يكفكفون دموعهم فى هدأة الليل »

« كل أولئك فى حاجة شديدة إلىّ ، فأنا لا أجد فى عمرى مُنفسحاً لأفكر فى الحياة الآخرة »

« إننى أعيش مع كل أولئك ، فماذا يضيرنى إن دبّ الشيب فى شعراتى »

— ٣ —

عند الصباح طرحت شبكتى فى البحر

ثم جذبتها من الهوة السحيقة فألفيت فيها أشياء ذات بهجة وجمال : بعض يشع كالابتسامة ، وبعض يلمع كالعبرة ، وبعض يتألق كأنه خد عروس

وعند الأصيل عُدتُ إلى دارى أحمل ثقل يومى ؛ وعلى جانب الطريق رأيت التى أحب جالسة في الحديقة لا تجد عملاً فهى تعبث بأوراق زهرة

فاندفعت إليها وألقيت ثقلى عند قدميها ثم وقفت بإزائها صامتاً

ونظرت هى إلى أشيائى ثم قالت : « ما أعجب ما أرى ! ماذا يفيد كل هذا ؟ »

فأطرقت ملياً والخجل يعركنى عركا ، ثم طاف بخاطرى « أنى لم أجهد نفسى فى سبيل هـذا ، ولم أدفع له ثمناً ؛ إن كل ذلك لا يستأهل أن يكون هديتى إليها »

فقذفت بها جميعاً — واحدة فواحدة — إلى الطريق

وحين أسفر الصبح جاء السائحون أرسالا ، فالتقطوا كل ما قذفت به وحملوه إلى بلاد نائية

كامل محمود حبيب

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى

٣٥٣ — على هذا بنيت الدنيا

أنشـد عمر (رضى الله عنه) قول عَبْـدة بن الطيب

والمرء سـاع لأمر ليس يدركه
والعيش : شح وإشفاق ، وتأميل [١]

فقال : ما أحسن ما قسّم ! على هذا بنيت الدنيا

٣٥٤ — بلى ، إن للعينين فى الصبح راحة

فى (الوشح) للمرزبانى : الشعراء على أن الهموم متزايدة بالليل — متفقون ، ولم يشذ عن هـذا المعنى ويخالفه منهم إلا أحذقهم بالشعر . والمبتدىء بالاحسان فيه امرؤ القيس [٢] فانه بحذقه وحسن طبعه وجودة قريحته كره أن يقول : ان الهم فى حبه يخف عنه فى نهاره ويزيد فى ليله ، فجعل الليل والنهار سواء عليه فى قلقه وهمه وجزعه وغمه فقال :

ألا أيها الليل الطويل ، ألا انجلى
بصبح وما الاصباح منك بأمثل

فأحسن فى هـذا المعنى الذى ذهب إليه وإن كانت العادة غيره ، والصورة لا توجبه . ثم صبّ الله على امرئ القيس بعده شاعراً أراه استحالة معناه فى المعقول ، وأن القياس لا يوجبه ، والعادة غير جارية به ، حتى لو كان الرادّ عليه من حذاق المتكلمين ما بلغ فى كثير نثره ما أتى به فى قليل نظمه ، وهو الطرماح بن حكيم فانه ابتدأ قصيدة فقال :

ألا أيها الليل الطويل ألا اصبح
ببَمّ وما الاصباح فيك بأروح [٣]

فأتى بلفظ امرىء القيس ومعناه ثم عطف محتجاً مستدركا فقال :

---

(١) فى (مفضلية) طويلة جيدة ، مطلعها :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول
أم أنت عنها بعيـد الدار مشغول

(٢) امرؤ يعرب من مكانين (الهمزة والراء) ومن العرب من يعربه من الهمزة وحده ويدع الراء مفتوحة (التاج)

(٣) بم : (بالفتح وتشديد الميم) مدينة جليلة من أعيان مدن كرمان (معجم البلدان) وفى (اللسان) : للطرماح : أليلتنا فى بم كرمان أصبحي

بلى ، إن للعينين فى الصبح راحة
لطرحهما طرفيهما كلَّ مطرح

فأحسن فى قوله وأجل ، وأتى بحق لا يدفع ، وبين عن الفرق بين ليله ونهاره

٣٥٥ — أحسن منها على حيطان جيرانها

فى (كتاب الصناعتين) : قيل لبعضهم ما بلغ من حبك لفلانة ؟

فقال : إنى أرى الشمس على حيطانها أحسن منها على حيطان جيرانها

٣٥٦ — أبو رياح

فى (ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب) للثعالبي : أبو رياح تمثال فارس من نحاس بمدينة حمص على عمود حديد فوق قبة كبيرة بباب الجامع — يدور مع الريح حيث هبت ، ويمينه ممدودة ، وأصابعها مضمومة إلا السبابة ، فإذا أشكل على أهل حمص مهب الريح عرفوا ذلك به ، فإنه يدور بأضعف نسيم يصيبه ولذلك كنى بأبى رباح . وقد يقال للرجل الطائش الذي لاثبات له : (أبو رياح) تشبيهاً به ، وقيل :

أفّ لقاض لنا وقاح أمسى بريئاً من الصلاح
كأنّ دنيته عليه غراب نوح بلا جناح[1]
وليس فى الرأس منه شئ يدور إلا أبو رياح ...

٣٥٧ — فليس لخوفه يبدين حرفا

قال جحظة : كنت مع ابن الرومى فرأينا (أبا رياح) على دار ابن طاهر . فقلت له : صف هذه الشرفات وأبا رياح ، فقال :

ترى شرفاتها مثل العذارى خرجن لنزهة فقعدن صفا
عليهن الرقيب أبو رياح فليس لخوفه يبدين حرفا

٣٥٨ — حرمته ماواه ومرعاه

فى (السلوك) للمقريزى : فى سنة (٦٦٤) اشتد إنكار السلطان للمنكر ، وأراق الخمور ، وعفى آثار المنكرات ، ومنع الخانات والخواطئ بجميع أقطار مملكته بمصر والشام . قال ابن المنير قاضى الأسكندرية لما وردت إليه المراسيم بالأسكندرية وعفى متوليها أثر المحرمات :

ليس لإبليس عندنا أربٌ غيرُ بلاد الأمير مأواه
حرمتَه الخمر والحشيش معاً حرمتَه مأواه ومرعاه

وقال أبو الحسن الجزار :

قد عُطل الكوب من حبابه وأخلى الثغر من رضابه
وأصبح الشيخ وهو يبكى على الذى فات من شبابه

٣٥٩ — دعنى أمش فى ضوء رضاك

فى (أمالى) القالى : قال جحظة : دخل رجل على عمر بن فرج فتنصل إليه من ذنب له فرضى عنه ، فلما خرج قال : ياغلام ، خذ الشمعة بين يديه

فقال : دعنى أمشِ فى ضوء رضاك[1] . فاستحسن ذلك وأمر له بصلة حسنة

٣٦٠ — فيأخذها غيرهم فيزن فيها

فى (إرشاد الأريب) : جرى مع أسعد بن المهذب[2] حديث النحويين وأن أحدهم ينفد عمره فيه ولا يتجاوزه إلى شئ من الأدب الذى يراد النحو لأجله من البلاغة وقول الشعر ومعرفة الأخبار والآثار وتصحيح اللغة وضبط الأحاديث . فقال الأسعد هؤلاء مثلهم مثل الذى يعمل الموازين وليس عنده مايزن فيه ، فيأخذها غيرهم فيزن فيها الدر النفيس والجوهر الفاخر والدنانير الحمر[3]

قال ياقوت : وهذا عندى من حسن التمثيل

---

(١) الدنية : قلنسوة محددة الطرف يلبسها القضاة والأكابر ، وليست من كلام العرب إنما هى من الألفاظ المستعملة فى العراق (الشريشى) دنية القاضى قلنسوته شبهت بالدن (القاموس) الدن : الرقود العظيم ، الراقود : إناء خزف مستطيل مقير

(١) فى شرح النهج لابن أبى الحديد : رضى بعض الرؤساء عن رجل من موجدة ثم أقبل يوبخه عليها فقال : إن رأيت ألا تخدش وجه رضاك بالتوبيخ فافعل

(٢) نظم سيرة صلاح الدين ، وكتاب كليلة ودمنة ، وله ديوان شعر ، وفاته سنة ٦٠٦ (الوفيات)

(٣) الذهب أحمر وأصفر قالوا : الأحران والأصفران : الذهب والزعفران

مرأى الجمال وذكرى الجلال

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مقدمة : لمناظر الطبيعة الرائعة الجليلة لذة فى النفوس مثل مناظر الجبال الشاهقة والهاويات العميقة والأعاصير وأثرها والبحار وأمواجها ، وهي تبعث اللذة فى النفس حتى فى مخاوفها إذا لم تتملك مخاوف مناظرها النفس بالذعر والرعب ، وقد يتقلب الحنين المقهور فى النفس إلى الجمال فيصير ولوعاً بمناظر الجلال والروعة ، كما أن مناظر الجلال والروعة قد تشحذ الحنين إلى الجمال وتذكر المرء به ، وقد تطغى كل من العاطفتين على الأخرى ولهما أيضاً صلات أخرى غير ما ذكرنا . ومن مسرات التفكير والفنون أن يتتبع الانسان صلات العاطفتين فى نفسه وهذه القصيدة من قبيل هذا التتبع (الناظم)

ذكرتك فى البحار الزاخرات ... وفى مجرى السفين الجاريات
كأن البحر حى ذو جنان ... وموج اليم نبض النابضات (١)
وفى ذاك الجلال بلاغ راء ... وروع للنفوس الواعيات
ولكنى ذكرتك يا حبيبي ... كما حن المريض إلى الحياة
كما حن الهزار إلى ربيع ... وأفنان الرياض على الأضاة (٢)
وكم غلب الجمال على جلال ... كما غلب الرقاد على التفات
ذكرتك والقبور ترد طرفى ... وتسخر من هيام بالشيات (٣)
وتخبرنى بأن الحب فانٍ ... وأن العيش صنو للممات (٤)
ولكنى ذكرتك يا حبيبى ... وذاك الذكر خير الذكريات
ذكرتك والسقام يبيد لبى ... ويسلى النفس عن ماضٍ وآت
ويلهى النفس عن حب وشعر ... وعن سحر العيون الساحرات
ولكنى ذكرتك يا حبيبى ... كذكرى للسنين المقبلات
ذكرتك فى الطلول الدارسات ... وآثار العصور الغابرات (٥)
أرى الأهرام كالأعلام تزهو ... على عبث الصروف المهلكات (٦)
فأبصر من مضوا وأرى اعتزازاً ... لهم بالمصبيات الفانيات
فيضؤل عيش هذا الناس حتى ... لينسى المرء ذكر المصبيات
ولكنى ذكرتك يا حبيبى ... كذكرى للأمور الخالدات

عبد الرحمن شكرى

(١) الجنان القلب (٢) الهزار طائر — الأفنان الغصون — الأضاة غدير الماء (٣) الشيات ألوان الحيوانات (٤) الصنو بكسر الصاد القريب من أصل واحد (٥) الطلول جمع طلل آثار المبانى (٦) الأعلام الجبال

معاودة الذكرى

للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

سبق أن نشرنا أبياتاً غير مرتبة بعث بها إلينا الأستاذ من هذه القصيدة الرائعة ، وقد أرسل إلينا حضرته بنصها كاملاً ، وها هى :

عاوَدَ القَلْبَ حنِينُهْ ... مَنْ عَلَى الشَّوْقِ يُعِينُهْ
وَيْحَ قَلْبِي مِنْ غرامٍ ... هَاجَ بالذِّكْرَى كَمِينُهْ
يا لخفــاقٍ إذا ما ... قَرَّ هَزَّتْهُ شُجُونُهْ
واصِلٌ مَن صَدَّ عنــه ... صائن من لا يَصُونُهْ
خانَهُ الصَّبْرُ ولولا الصَّـ ... ـدُّ ما كان يخونُهْ
يا زَمَاناً لم تكُنْ إلاّ ... هُنَيْهاتٍ سنينُه (١)
كنتَ رَوْضاً حالياً بالـ ... ـوَصْلِ قد رَفَّتْ غُصونُهْ
حُلُمٌ إنْ يَمْحُهُ الدَّهْـ ... ـرُ فَفِي الذِكْرَى مَصُونُهْ
كلَّمــا مرَّ بقلبي ... ذِكْرُهُ جُنَّ جنونُهْ

***

لَوْ شَهِدْتِ النَّجْمَ أرْعَا ... هُ وَتَرْعَانِي عُيُونُهْ
أو رأيتِ الليـل أشكو ... هُ وتَشْكُونِي دُجُونُهْ
ومِهادَ النوم كم يقـ ... ـسُو على جَنْبَيَّ لِينُهْ
آه لَوْ تَدْرِينَ مَا بِي ... ضَاقَ بِالْقَيْدِ سَجِينُهْ
أنتِ تدرين ولكن ... لِصِباً الغِيــدِ فُتُونُهْ
أنتِ لى كلُّ شُئُونِي ... وَيْلَ مَنْ أنتِ شُئُونُهْ
كانَ لِي دَمْعٌ فمالي ... جَفَّ مِنْ دَمْعِي مَعِينُهْ
مَن لِصَبٍّ غَدَرَ الوا ... فِي به حَتَّى جُفُونُهْ
كُلَّمَا مَنَّاهُ ظَنٌّ ... عادَ باليأسِ يَقِينُهْ

***

(١) سنينه باثبات النون على مذهب من يعرب سنين بالحركات ومنه الحديث اللهم اجعلها عليهم سنيناً كسنين يوسف



أقصوصة من تشيكوف

١ ـ فى القرافة (١)

للأستاذ دريني خشبة

« الريح موشكة أن تهب فتكون عاصفة ، والليل موشك أن يضرب فوقنا بجِرانه ، أفلا يخلق بنا أن نعود أدراجنا إلى المدينة ؟ ! »

هذا حق فلقد كانت الرياح تزمزم فى أشجار البتولا (٢) فتملأ مخارف الوادى بأوراقها اليوابس ، وكانت شآبيب البرد قد أخذت تنهل فوق رؤوسنا فتنضح ثيابنا وتلفحنا ببَرد شديد ؛ وانزلجت رجل أحدنا فتعلق بصليب شاحب شاخص ليتفادى السقوط فى الوحل ، فلما اعتدل وقف مسبوهاً أمام اللوحة الرخامية وراح يقرأ اسم صاحب المقبرة :

« ييجور جريازنوروكوف ... مستشار ملكى وفارس »

أوه ! لقد كنت أعرف هذا السيد ، المغفور له ، لقد كان مشغوفاً بامرأته حباً ، وكان يمتثل أوامر ستانسلاف ... ولم يقرأ فى حياته شيئاً ... وكانت معدته تهضم الحديد ... فيا للحياة التى كانت حرّية أن تمتد وأن تستطيل ! لماذا مات يا ترى هذا ال (ييجور) ؟ ! إنه لم تكن به حاجة إلى الموت ، فلماذا قضى ؟ ! وا أسفاه عليه ! إنما هى عين المنية التى لا تنفع فيها التمائم قد أرصدت له ؛ فراح المسكين ضحية التجسس والفضول ! !

ذاك أنه كان يسترق السمع يوماً خلال ثقب المفتاح في منزل بعض أهله ، وكان من دأبه أن يتلصص عليهم دائماً ، فانفتح الباب فجأة ، وانفدغ الرأس الكريم ، وسقط ييجور يتشحط فى دمه ، ثم مات على الأثر !

وصاحب هذه المقبرة !

مسكين جداً ... لم يكن يعاف شيئاً فى حياته ، كما كان يعاف الشعر ... والشعراء ! فانظروا كيف سخر به الشعر الذى كان يعافه ، ويشمئز منه ، ويضيق به صدره ! لقد جصّصوا مقبرته كلها بأبيات من الشعر هى السخف بعينه ... مسكين يا هذا ، ذق إذن ... وتقزز ما شئت ... إنك لأنت العزيز الكريم !

من القادم يا ترى ؟

إنه فقير آفاق يلبس معطفاً كله مِزَق وأسمال ! وى ! إن له لوجهاً ناصعاً ! بخ بخ أيها البائس ! إنه يتأبط زجاجة من البودكا ! ترى منذا الذى يشرب نخبه هنا هذا الفقير ؟ ها ها ! !

(١) ذكر صاحب القاموس أن القرافة هى قرافة القاهرة خاصة والمقصود بها هنا الجبانة

(٢) البتولا (Pirch) شجرة صلبة الخشب ذات لحاء أبيض ناعم تغرس عادة فوق المقابر الروسية

سَكَنَ اللَّيْلُ فمَا لِلْـــقلبِ يجفُوهُ سُكُونُهْ
كم وَكم أقسَمَ أنْ يَسْــلُوَ فما بَرَّتْ يمينُهْ
كلَّما ظَنَّ سُلُوًّا كذَبَتْ فيه ظُنُونُهْ
كم فُنُونٍ ذاقَ فى الحـــبِّ وللحبِّ فُنُونُهْ
فليَذُقْ ما شاءَ مِنـهُ ما رَعَى العَهْدَ أمينُهْ
أيُّهـــا اللائِمُ دَعْهُ فَلَهُ فى الحبِّ دِينُهْ

أحمد الزين

إن الفتى يحمل ثقله (مَزَّتَه[1]) فى جيبه حَوَايا[2]، فهى تظل معه لتودع العالم هى الأخرى!

وترنح الرجل قليلاً، ثم سأل فى صوت مبحوح محشرج:

— أين قبر موسخين الممثل يا هذا؟

وقدناه إلى قبر موسخين الذى مات منذ حولين وسألته أنا وفى نفسى منه أشياء:

— أكاتب حكومى أنت يا صاح؟!

فقال:

— كلا! بل أنا ممثل! ماذا أصاب الناس فى هذا العصر؟ مالهم لا يفرقون بين الموظفين والممثلين؟ ولكن ... حسن؟ لا ضير!

***

لقد اندثر قبر موسخين أو كاد، ولقد سطع منه ريح كريه منتن، ونمت فوقه أعشاب الفناء الشاحبة الشوكية حتى أوشكت تخفيه عن الأبصار! إنه لا يشبه القبور الجاثمة هنا ... يا للصليب المعوج الرخيص المائل المكسو بالطحلب[3] السادر المكتئب، الذى يبدو كأنه سيموت هو أيضاً!

لقد نقشت على اللوحة المتآكلة هذه العبارة التى ذهبت يد العفاء بمعض حروفها:

(... الصديق المنسى، موسخين!)

فيا للزمان!

لقد أودى بالحروف الأولى التى كانت تجمل هذه العبارة أكذوبة الأكاذيب!

قال الممثل:

« ويحك يا موسخين، وسحائب رضوان الله عليك!! ما أشقاك بهؤلاء الممثلين ورجال الصحافة، الذين اكتتبوا بنقود ليشيدوا ضريحك ونُصُبك ثم أكلوها فيما بينهم ...! أسحتهم الله بأكلهم هذا المال!»

ثم سجد فى خشوع وعفر وجنتيه وجبينه بالثرى الندىّ

وقلت أسأله:

— ماذا تعنى يا صاح؟ كيف أكلوها فيما بينهم؟

فقال:

— ما أيسر هذا أيها الأخ! لقد فتحوا الاكتتاب، وأعلنوا أسماء المتبرعين فى الصحف ... ثم ... لا ضريح ولا نصب، لأنهم أكلوا النقود فيما بينهم ... وكان الله حسيبهم ...! وأنا بالطبع لا أقول هذا استنكاراً لصنيعهم، ولكن لتعلم ماصنعوا ... نُخبكم أيها السادة، ونُخب الراقد هنا — موسخين — المسكين! فى سبيل ذكراه الخالدة هذه الكأس!»

واحتسى كأس الفودكا، والتهم حوية من حواياه، ثم قال:

— يقول الغربيون (فى صحتكم) حين نقول نحن (نخبكم).. فيا لله! أى صحة فى ابنة الكرم، وأى عافية فى أن يصبح الفتى مجنوناً بها، عاكفاً عليها، مخبولاً مدمناً؟ ... هذا ... وأى ذكرى خالدة نرجوها لهذا الفتى؟! إن الذكرى الخالدة معناها الألم الخالد ... وخير من ذاك أن نبتهل إلى الله ليجعلها ذكرى ... مؤقتة، وهما فى مذهبى سيان!

— إن هذا حق لا ريب فيه! فقد عاش موسخين رجلاً ذائع الصيت طائر الذكر، ولما مات حملوا عشرين إكليلاً من أنضر الأزهار حول نعشه ... وما كاد يوسَّد فى الثرى حتى نسيه الجميع!

— ومن نسيه؟! لقد كان محبوه، والمعجبون به، فى المقدمة!! ومن ظل إلى اليوم يردد ذكراه؟! أعداؤه يا سادة! أعداؤه الذين عاش طوال عمره يشنّ عليهم حربه الضروس الشعواء!!

— فأنا مثلاً ... لن أنساه ماحييت! أبداً، أبداً ... فأنا لم ينلنى منه غير الأذى، لقد كان مولعاً بإلحاق الأضرار بى! فأنا لا أحبه، بل، أمقته!

فقلت له: وكيف كان إيذاؤه لك يا صاح؟

فتأوه من أعماقه، وانتشرت سحابة من الهم فوق وجهه الكاسف، ثم قال: «أبلغ الإيذاء أيها الصديق! لقد كان لصاً خبيثاً محتالاً، فلا عفا الله عنه!! أتصدق أننى لم أصبح ممثلاً

(١ — ٢) المزة هى الخمر ونحن نستعملها هنا بمعناها المعروف لدى الخمارين (الطعام القليل الذى يؤكل مع الخمر) على سبيل المجاز. والحوايا أحشاء البهيم الداخلية والمقصود بها هنا (السجق)

(٣) خضرة تعلو الماء الآسن وسطح البناء من الندى

إلا بفضل إصغائى إليه وشغفي به ، وإنعام النظر إليه ؟ لقد خلبنى بفنه ، وسحرنى بلفتاته ، ونفث فى صدرى روح الكبر والغرور والخيلاء فنزحت عن الديار بسببه ، واحتملت بلاء الغربة فى سبيل ما وعدنى من الغنى الضخم ، والثراء الواسع ... ولكن ... واحسرتاه علىّ ! ! إنى لم أجن من كل مواعيده إلا الدموع والأشجان !! وإلا الجد العاثر الذى هو نصيب الممثل من الحياة !!

« لقد فقدت كل شىء !! فقدت شبابى ، فقدت عِفتى ، فقدت أخلاق ، فقدت استقامتى ، ثم ... فقدت الله ! !

« هأنذا يا صاح لا أملك الدانق الذى أمتعِ به نفسى ، وأرفه به عن قلبى ... وهاك حذائى !! يا ربى لقد خصَّفته حتى استحييت من كثرة الخصف ، فما هو عقبى نَعْل له ! !

« وهاك (بنطلونى) ! ! لقد رفوته ورقعته ، حتى لقد ذهب الأصل وبقى الرقع ! !

« وهاك وجهى القبيح الشائه ... أليس يبدو كأنما هبره[1] كلب ! !

« ثم إيمانى ؟ ! لقد انتزع اللئيم إيمانى بالله ، وأغرانى بحرية الفكر ! ؟ ها ... حرية الفكر ؟ ! هذا الدماغ الفارغ العاجز يجب أن يكون حر التفكير ؟ ! أسمعت ؟ ! أليست هذه خرافة ؟ اللص ! لقد سلبنى لبي وسرق منى عقيدتى وإسلامى لله ! ثم أى جدوى عادت على ؟ ماذا كان الثمن الذى اقتضيته حينما خسرت حسن اعتقادى ؟ ! لاشىء !

« لقد اشتد البرد أيها السادة ، والريح يا رفاق ريح صر ، أفلا تشربون كأساً ؟ ! إن بالقارورة الصفراء ذات الأعنة ، ما يكفينا جميعاً ... ألا تشربون ؟ !

« هلم نشرب نخب هذا الجبار الثاوى هنا

« إنى لا أحبه ... بل ... إنى أمقته

« إنه ميت ... لقد انتهى فيما كان يزعم ... لن تقوم له قيامة بعد اليوم اللحد الكافر ... أوه ! مالى أسبه وقد كنت أحبه ؟ ! إنه كل شىء لى فى هــذه الحياة ! إنه كأى جزء من جسمانى عزيز علىّ ! آه ! لن أراه بعد اليوم !

« لقد قال الأطباء إنى سأموت قريباً بسبب إدمانى ، ولذا أتيت إلى قبره أودعه ، إذ ينبغى أن نصفح عن أعدائنا وأن نغفر لهم خطاياهم ! ألسنا سائرين فى دربهم الأبدى ؟

* * *

وهنا بدا لنا الممثل فى مسوح ملك الموت ففزعنا ، وتركناه يناجى موسخين ، وسرنا فى طريقنا السادر الوحش مدبرين !

وطلّنا رذاذ خفيف حلو فأنعش نفوسنا التى وجمت منذ حين

وعند المنعطف الذى يؤدى إلى المدينة حيث تنتثر الحصباء الناصعة كالدر فوق الأرض المرصعة بالبَرَد ، لقينا جنازة مقبلة .. جنازة صغيرة متواضعة ... أربعة أشخاص لاغير يحملون نعشاً حزيناً ... عاطلا !

وكان الظلام قد نشر فوق الكون طيلسانه ، فأخذ حاملو النعش يهرولون بحمالهم وهم يتزلجون ويتخلجون ، والآلة الحدباء تتأرجح فوق أكتافهم ذات اليمين وذات الشمال

« يا رفاق ! ما هــذه الدنيا ؟ إننا لم نمكث هنا غير ساعة أو ساعتين ، وهذا هو الميت الرابع ! ... هلموا بنا ... »

دريني خشبة

(١) هبره : قطعه ومزقه



الذكرى المئوية لمستشرق كبير

أقام مجمع العلوم والآداب فى باريس احتفالاً مهيباً فى يوم ٢٦ فبراير المنصرم لمناسبة الذكرى المئوية لوفاة العلامة سيلفستر دى ساسى المستشرق المشهور بين أهل الفكر فى الشرق والغرب، والذى كان سكرتيراً دائماً لهذا المجمع، وقد افتتح الاحتفال رئيس المجمع بخطاب شامل عن المستشرق العظيم قال فيه: إن سيلفستر ولد فى ٢١ سبتمبر من سنة ١٧٥٨ فى أسرة فقيرة لاطائل لها من نشب أو نسب، إذ كان أبوه جان سيلفستر مسجل عقود، أما صاحب الترجمة واسمه الأصلى أنطون إيزاك فإنه لم يسافر فى حياته إلا مرة واحدة، إذ ذهب إلى جنوى للبحث عن مخطوطات شرقية، وكان يقضى وقته فى العاصمة متنقلاً من معهد إلى معهد، ومن مكتبة إلى مكتبة، فهذا الرجل الذى أطلع الغرب على أسرار الشرق لم يذهب قط إلى الشرق، وإنما تلقى معلوماته من المخطوطات النادرة، وتلقف الأخبار التى كان ينقلها إليه تلاميذه وأصدقاؤه

ولقد حذق سيلفستر العربية كما عالج العبرية والسريانية، ولقد انتهج فى دراسة العربية نهجاً مهلاً يتفق من الوجهة المنطقية مع الأساليب الفرنسية ووضع كتاباً على هذا النهج لتدريس العربية فى مدرسة اللغات الشرقية فوفق كل التوفيق. وقد كان ينشر فى جريدة العلماء، والمجلة الأسيوية، وجريدة دائرة المعارف، كل مجهوده فى دراسة الأدب العربى وحضارة الشعوب الإسلامية، وإخراج المخطوطات النادرة، وكان فى جملة ما عنى به من كتب الأدب العربى «مقامات الحريرى» فنشرها كلها شرحاً ومتناً، وهو أول من نشر كتاب «كليلة ودمنة» لابن المقفع، وصدره بدراسة وافية فى أصل الكتاب وتاريخه وترجمته.

ثم قال رئيس المجمع: «لقد كان سيلفستر ممثلاً لضمير الشرق الحى المنبعث بين الغربيين، وقد كانوا يمدونه بعد وفاة العلامة كونياى أكبر عالم فى فرنسا ولم يأت بعده من يماثله فى التفوق بالعلم إلا العلامة باستور الكبير»

دار الكتب فى عهد جديد

دار الكتب المصرية فى حاجة إلى إصلاح شامل ونهضة قويمة طالما نادى بها الأدباء والمفكرون فى مصر، وقد لمس هذه الحاجة الماسة معالى وزير المعارف فاجتمع بمجلس الدار الأعلى الذى يتولى رياسته، وقد بحث فى طرق الإصلاح اللازمة، فوافق المجلس على تأليف لجان كل لجنة تتولى ناحية من نواحى الإصلاح والنهوض، فلجنة لدراسة الميزانية واقتراح سياسة إنشائية عامة لرفع مستوى الدار حتى تتمشى والتقدم الحديث الذى يشمل كل مرافق البلاد، ولجنة مهمتها دراسة موضوع إحياء الأدب العربى وبث المخطوطات المطمورة النافعة الجديرة بالبعث والإحياء، ولجنة تقوم بوضع تشريع لحماية المخطوطات النادرة على نمط التشريع الخاص المعمول به فى حماية الآثار المصرية، على أن تقدم هذه اللجان تقاريرها فى أجل لا تتجاوز غايته ستة أسابيع

ونحن نرجو نهضة موفقة لدار الكتب على يدى معالى الوزير المصلح بهى الدين بركات باشا فتتسع خطواتها فى خدمة الأدب والثقافة فى مصر والشرق

محاضرة عن الدستور الانجليزى

قام الاتحاد الإنجليزى المصرى بتنظيم سلسلة من المحاضرات الدستورية، وقد ألقى المحاضرة الأولى من هذه السلسلة حضرة الأستاذ ا. الكسندر المحامى بالقاهرة فى قاعة جمعية علم الحشرات الملكية، وقد كان موضوع هذه المحاضرة الدستور الإنجليزى وقد ابتدأ المحاضر القول بكلمة عن الدساتير عامة، فقال: إن

الدستور أداة صالحة في أيدي الرجال المصلحين كما أنه أداة فاسدة فى أيدى المفسدين ، وإن الحكومات الدستورية فى مصر ستمر حتماً بهذه التجارب ، وستجتاز كل هذه الأطوار ، كما وقع لكل حكومات الأمم الدستورية العريقة ؛ ثم استطرد فى الحديث عن الدستور المصرى وتكلم عن العلاقة بينه وبين الدستور الانجليزى ثم قال : إن هـذا الدستور المصرى الشاب قد أصبح موضع إعجاب المفكرين والمشرّعين فى العصر الحديث

وقد توسع الأستاذ فى الحديث عن الدستور الإنجليزى ، فأبان كيف بلغ قوته العظيمة دون أن يكون دستوراً مكتوباً ، ثم قال : إن موضع الإعجاب الحقيقى بالدستور الإنجليزى هو مبادئ الحكم الوطيدة التى يدعمها ذلك الدستور ، ويرعاها فى نزاهة وحكمة وتقدير صحيح

جوائز أدبية بمناسبة الزفاف الملكى

أقامت اللجنة الأهلية الأدبية فى الأسبوع الماضى حفلاً بدار الاتحاد النسائى لتوزيع الجوائز على الفائزين فى المباراة الأدبية التى أقامت مهرجانها بدار الأوبرا الملكية أيام الزفاف ، وقد حضر الحفل كثير من وجوه الفضل والأدب ، وقد وزعت الجوائز على اعتبار أن قصائد الأساتذة فوق المباراة ، وقد نال الأنواط الذهبية من الطلبة الأديب عبد المظيم بدوى بدار العلوم والأديب حسن جاد بكلية اللغة العربية ، والأديب محمد على الشلق من أدباء لبنان ، كما نال كثير من الطلبة أنواطاً أخرى فضية وبرنزية

حول قصة سابور وقيصر

نشرت الرسالة فى عددها الماضى (رقم ٢٤٤) كلمة بتوقيع قارئ ذكر فيهـا أنه جاء فى مقالى « بين تيمورلنك وبايزيد » (المنشور فى عدد ٢٤٢) أن تيمورلنك وضع بايزيد بعد أسره فى قفص من حديد كما فعل قيصر مع سابور ملك الفرس ، وافترض « قارئ » أن فى ذلك خطأ تاريخياً شاء أن يحمل نفسه مؤونة الرد عليه

وعرض الأمر على هذه الصورة بعيد عن الحقيقة أيما بعد ، فلم أقل فى مقالى ما زعم « قارئ » أننى قلت به وكل ما هنالك أننى ذكرت فى معرض النقل عن ابن عربشاه مؤرخ تيمور مانصه : « وهنا تعرض أغرب صفحة فى تلك المأساة الشهيرة فان ابن عربشاه مؤرخ تيمور يقول لنا إن الفاتح التترى سجن بايزيد فى قفص من الحديد كما فعل قيصر مع سابور ملك فارس » (عجائب المقدور ص ١٣٩) ؛ فهذه كلمات ابن عربشاه بنصها لم أشأ أن أعرض لها باثبات أو نفى لأنها لم تكن مقصودة لذاتها ؛ وهذا ما كان حرياً بكاتب الكلمة أن يذكره ، ولكنه أغفل ذكره ، وشاء أن ينسب القول إلي لحكمة لم أفهمها

على أني أزيد أيضاً أن ابن عربشاه لم يكن مخطئاً فى إشارته ، وأن « قارئاً » خلط بين واقعة تاريخية وبين أسطورة ، فقصة سابور ملك الفرس مع الامبراطور فاليريان قيصر الرومان لا الروم (وهذا تفريق تاريخى لابد منه) وانتصار سابور عليه على مقربة من حصن « الرها » القديم (سنة ٢٦٠ م) وأسره حتى وفاته ، أشهر من أن يخطئ فى نقلها أو ذكرها أحد ؛ وهذا ما لم يقصد ابن عربشاه أن يشير إليه ، وإنما قصد الإشارة إلى أسطورة تاريخية مشهورة أخرى ينسب وقوعها إلى ما بعد ذلك بنحو أربعين عاماً ، وخلاصتها أن الامبراطور جاليريوس فاليريوس (وليس فاليريان) حينما انتصر على الفرس فى جبـال أرمينية (سنة ٢٩٧م) أسر ملكاً أو أميراً من أمراء الفرس يدعى سابور ووضعه فى جلد بقرة ؛ أو على قول بعضهم فى قفص من الحديد ؛ وتنسب بعض الروايات هذه الواقعة إلى الامبراطور مكسميان ؛ بيد أنها تعتبر كلها فى عرف التاريخ أسطورة لا سند لها (راجع أدوارد جيبون — Roman Empire — الفصل الخامس والستين والهوامش)

وإذا كان « قارئ » ينشد الحقيقة فإنا ننشدها جميعاً بيد أنه يحسن دائماً أن توضع الحقائق موضعها وفى مناسباتها الصحيحة

محمد عبد الله عنان

تبسيط النحو والصرف

أصدر معالى وزير المعارف قراراً وزارياً بانشاء لجنة لتبسيط النحو والصرف والبلاغة ومهد القرار لتأليفها بما يلى :

بما أن الوزارة سبق لها أن عملت على تبسيط قواعد النحو والصرف والبلاغة فيما أخرجت من الكتب ، وكان لهذا العمل نتيجة مرضية

وبما أن هـذه الخطوة التى خطتها الوزارة فى الماضى لم تكن كافية ، إذ لوحظ أن صعوبة قواعد النحو والصرف والبلاغة لا تزال قائمة ، وأن المعلمين والمتعلمين يبذلون جهداً كبيراً ووقتاً

طويلاً فى تعليمها وتعلمها ، ولا يصلون بعد هذا كله إلى نتائج تتفق مع ما يصرف من زمن وجهد

وبما أننا نرى تشكيل لجنة مهمتها البحث فى تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة ، وتتقدم باقتراحاتها فى هذا الشأن مبينة مشروع التبسيط الجديد ، والأسس التى تشير بوضع قواعد النحو والصرف عليها ، على ألا يمس أصول اللغة العربية ، ولا شكلاً من أشكال الإعراب والتصريف ، وكذلك تبين اللجنة ما تراه من التغيير فى طرق تدريس علوم البلاغة وتبويبها

أما اللجنة فتؤلف من الأساتذة : عميد كلية الآداب ، والأستاذ أحمد أمين الأستاذ بها ، والأستاذ على الجارم بك مفتش أول اللغة العربية ، والأستاذ محمد أبو بكر إبراهيم المفتش بالوزارة ، والأستاذ إبراهيم مصطفى الأستاذ المساعد بكلية الآداب ، والأستاذ عبد المجيد الشافعى الأستاذ بدار العلوم

وقد حدد القرار مدة لا تتجاوز الشهرين تعرض اللجنة بعدها نتيجة عملها على الجمهور لتتبين الوزارة الآراء التى يبديها فيها المثقفون فى مصر وغيرها من البلاد العربية

مجلة رسمية للتربية والتعليم

أصدر معالى وزير المعارف قراراً بانشاء لجنة تضع نظاماً لإصدار مجلة فى التربية والتعليم ، وفيما يلى نصه بعد الديباجة :

نظراً لأن المصلحة تقتضى التعجيل في العمل على تحقيق التعاون الفكرى المنظم بين المشتغلين بأمور التربية والتعليم من طريق البحث فى كل ما يتصل بهما من الموضوعات وتهيئة الفرص والوسائل لكل قادر على البحث فى هذه المسائل أن يظهر ما يستطيعه من جهد فى هذا السبيل

وبما أننا نرى — تحقيقاً لهذا الغرض — أن تصدر وزارة المعارف مجلة تبحث فى شئون التربية والتعليم وتنشر فيها آراء الخبراء والفنيين فى هذه الشؤون وتمد رجال التعليم بنتائج الأبحاث الجديدة فيها ، وتذاع بواسطتها مشروعات الوزارة الفنية مما يساعد على إنهاض التعليم ونشر وسائل الإصلاح فى معاهده المختلفة . لذلك قرر :

المادة الأولى — تصدر وزارة المعارف العمومية مجلة للتربية والتعليم لتحقيق الأغراض المشار إليها فى ديباجة هذا القرار

المادة الثانية — تؤلف لجنة من وكيل الوزارة رئيساً ، ووكيل الوزارة المساعد والسكرتير العام للوزارة والأستاذ أحمد أمين الأستاذ بكلية الآداب ، والأستاذ إسماعيل القبانى ناظر مدرسة فاروق الأول والأستاذ عبد العزيز القوصى المدرس بمعهد التربية أعضاء

وتقوم هذه اللجنة باقتراح نظام لهذه المجلة من ناحية تحريرها وماليتها وإدارتها على أن تقدم اقتراحاتها فى مدة لا تتجاوز شهراً

اضطراب فى نسبة بيت شعرى

جاء فى شواهد تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى عند الكلام على تنكير المسند إليه هذا البيت :

له حاجبٌ عن كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب

وقد نسب هذا البيت فى مفتاح العلوم للسكاكي إلى ابن أبي السمط ، وتبعه فى هذا الخطيب القزوينى فى الايضاح ، وكذا تقى الدين السبكى فى عروس الأفراح فقال : « ومثل فى الايضاح للتعظيم والتحقير بقول ابن أبي السمط وهو مروان بن أبي حفصة ، وذكر البيت ، وكذلك صاحب معاهد التنصيص فى شرح شواهد التلخيص ، ولكنه حينما أراد أن يذكر ترجمته على عادته فى شرح هذه الشواهد قال : وابن أبى السمط اسمه ... وقطع الكلام فلم يتمه ، والظاهر أنه توقف فيه ومات قبل أن يصل إلى معرفة اسمه . وقد تبعهم العلامة الدسوقى فى حاشيته على شرح السعد ، ثم قال : وهو من قصيدة من الطويل ، وقبل هذا البيت :

فتًى لا يبالى المدلجون بناره ... إلى بابه ألاَّ تضىء الكواكبُ

يصمُّ عن الفحشاء حتى كأنه ... إذا ذكرت فى مجلس القوم غائب

وقد ذكر الأستاذ الجليل الشيخ أحمد المراغى فى كتابه « علوم البلاغة » أن هذا البيت لمروان بن أبى حفصة ، ولم يقل إنه لابن أبى السمط

فاذا صح أن هذا البيت لمروان ابن أبى حفصة فانه كان يكنى أبا السمط لا ابن أبى السمط ، وكذلك كان يكنى حفيده مروان الأصغر ، وهو مروان بن أبى الجنوب بن مروان بن أبى حفصة فكانت كنيته أبا السمط أيضاً ، وعلى هذا يكون فى نسبة ذلك البيت لابن أبى السمط تحريف بزيادة لفظ ابن ، وقد أردت قبل القطع بهذا الحكم أن أرجع إلى قراء مجلة الرسالة الغراء ، فلعل عندهم فى هذا علم ما لم أعلم

عبد المتعال الصعيدى

الآداب أم العلوم ؟ أيهما سبق ؟

أذاع فى هذا الموضوع من محطة لندن الدكتور ل . ب . جاكس فى فبراير الماضى. وهو موضوع طريف حبذا لو ساجل فيه أدباؤنا ، لأنه يستوعب مدنيتنا الحاضرة ، ويعرض لدقائقها بالتفصيل . وقد قسم الدكتور جاكس العلوم فجعلها شعبتين ، شعبة تتعلق بالإنسان فتتناول علم الأجناس وعلم النفس وعلم وظائف الأعضاء والاجتماع والدين وعلم الدول والأخلاق ... الخ . وشعبة تتعلق بالمادة فتتناول البخار والكهرباء واللاسلكى والديناميت والريون (الحرير الصناعى) والأصباغ والغازات والفلك وعلم طبقات الأرض ... الخ

ثم عرض الدكتور للعلاقة بين كل من العلوم والآداب وكيف يخلط الناس بين فروعهما فيجعلون الفلسفة والأخلاق وعلوم النفس والدين فروعاً من الآداب ، وينكر ذلك العلماء فيجعلونها علماً خالصاً

ويحل الاشكال فيرمز للعلوم بفرنسيس بيكون وللآداب بمعاصره العظيم وليم شاكسبير ، فأيهما سبق ؟ لا شك أن شاكسبير أعظم من معاصره بيكون ... ولكن الدنيا سارت فى طريق بيكون ولم تسر فى طريق شاكسبير ... وهذا حق ، ولكن ماذا أصابت الدنيا من اتجاهها ذاك ؟ هل أصابت الخير حين اتبعت وصية بيكون فى وجوب اتخاذ التجربة فى العلوم وإهمال المنطق ، أم أصابت الشر المستطير بما أثمرته التجربة من هذا التقدم العلمى الباهر ؟ !

ومسألة أخرى ، ماذا لو أن الدنيا سارت فى طريق شاكسبير وأهملت طريق بيكون ؟ أليس طريق شاكسبير هو طريق الفضيلة ؟ ألم يكن شاكسبير ينشد الطوبى وأن يكون فى الأرض ملائكة ؟ أفليس إلا العلوم تصل بالناس إلى هذا الأفق الأعلى ؟

هذا موضوع طريف حبذا لو ساجل أدباؤنا (وعلماؤنا طبعاً !) فيه

الشرقيون وتعلقهم بالدين

طاف المستر روم لاندو فى ممالك الشرق الأدنى فزار مصر وفلسطين وسوريا وتركيا واليونان وبلغاريا والعراق والحجاز واليمن ثم عاد إلى انجلترا حيث أصدر كتابه الطريف (البحث عن الغد) Search For Tomorrow تناول فيه الأحوال الدينية فى الشرق .

وقد قابل فى مصر أحمد حسنين باشا حينما كان رائداً لحضرة صاحب الجلالة الملك ، والأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ، وقد أثنى عليهما ثناء مستطاباً هما له أهل ، فقد استطاعا أن يعطياه فكرة طيبة عن الاسلام والمسلمين ، وعن الروحية القوية بيننا وبين الله سبحانه ، وأكدا له أنه لولا الاسلام لغزت الشيوعية مصر . وقد اقتنع المستر لاندو بهذه الحقيقة ، ولمس بيديه هذا السور المنيع بيننا وبين الفوضى . ومما زاده تحققاً أنه لمس تلك الحقيقة أيضاً فى سائر الممالك الاسلامية التى زارها ، حتى تركيا التى فصلت الدين عن الدولة . وقد أعجب المستر لاندو بمسلمى فلسطين وقرر أن نضالهم ضد اليهود نضال من النوع الصليبي ، أى أنه للدين وللوطن على السواء . وقد نعى على اليهود ماديتهم المسترذلة واحتقارهم للروحيات ، وانصرافهم عن معابدهم الجميلة التى أقاموها (للزينة !) فى تل أبيب ، وقد عاب صلفهم كذلك

وقد مدح المؤلف الرئيس أميل إده ، كما أعجب بجلالة الملك ابن السعود ، الذى كان يكلمه بقلبه قبل أن يكلمه بلسانه ... وكذلك أثنى على فضيلة المفتى وعلى بطريق دمشق

ومما عابه على الناس فى اليونان تفشى المعتقدات الوثنية بينهم على رغم تمسكهم بالمسيحية السمحاء وإخلاصهم لها

ترجمة انجليزية علمية للإلياذة

عني الأستاذ العلامة الجليل روبنسون سمث بترجمة الإلياذة لهوميروس ترجمة علمية دقيقة بحيث قد ذلل المصطلحات اليونانية القديمة الواردة فى الأصل الإغريقى للملحمة وهى المصطلحات التى يضطر المترجمون الآخرون فى كل لغة أن يغفلوها لعدم فهمهم إياها أو لأنها أصبحت من العبارات البائدة التى يعجز الفيلولوجيون (علماء اللغات) عن فك رموزها . وقد وفق الأستاذ روبنسون إلى ذلك توفيقاً عجيباً ، وأفرد لهذه العبارات مجلداً كبيراً ألحقه بالترجمة التى حرص على أن تشمل الأصل والترجمة الإنجليزية معاً . وهو عمل شاق يستحق من أجله أكبر الثناء وسينتفع به جميع طلاب الأدب الكلاسيكى فى كل زمان ومكان ، بل سيصبح جل اعتماد المشتغلين بالأدب الإغريقى على هذه الترجمة الفذة فى كل ما يتعلق بهوميروس



الفصـــول والغايات

تأليف أبى العلاء المعرى

ضبطه وصححه وشرحه وعلق عليه : الأستاذ محمود حسن زناتى

للأديب محمد فهمى عبد اللطيف

هـذا كتاب أنشأه المعرى ، وقد وصفه ياقوت فى معجم الأدباء فقال : «ومن كتبه الـكتاب المعروف بالفصول والغايات ، والمراد بالغايات القوافى ، لأن القافية غاية البيت أى منتهاه ، وهو كتاب موضوع على حروف المعجم ما خلا الألف ، لأن فواصله مبنية على أن يكون ما قبل الحرف المعتمد فيها ألفاً ، ومن المحال أن يجمع بين ألفين ، ولـكن تجئ الهمزة وقبلها ألف مثل العطاء والـكساء ، وكذلك الشراب والسراب فى الباء ، ثم على هذا الترتيب ، ولم يعتمد فيه أن تكون الحروف التى يبنى عليها مستوية الاعراب بل تجئ مختلفة

وفى الـكتاب قواف تجئ على نسق واحد ، وليست المطالقة بالغايات ، ومجيئها على حرف واحد مثل أن يقال : عمامها وغلامها وغمامها ، وأمرا وتمرا وما أشبه ، وفيه فنون كثيرة من هـذا النوع ، وقيل إنه بدأ بهذا الـكتاب قبل رحلته إلى بغداد ، وأتمه بعد عوده إلى معرة النعمان ، وهو سبعة أجزاء »

ولـكن هذه الأجزاء السبعة التى ذكرها ياقوت قد استبدت بهـا عوادى الزمن ، ومحن الأيام ، فضاعت فى أجواء العصور الخالية فيما ضاع من تراث المعرى الحافل ، بل من تراث العرب أيام حملة الصليبيين الأولى على الشام وسقوط المعرة فى أيديهم سنة ٤٩٢ هجرية ، وبقى الناس لا يعرفون من الفصول والغايات إلا اسمه ، وإلا هذه الكلمة التى أوردها ياقوت فى وصفه ، وإلا فرية افتراها كاشح ، إذ زعموا أن المعرى قد عارض به القرآن ، وأنه سئل فيه فقال : حتى تصقله الألسنة أربعمائة سنة فى المحاريب .

مكتبة خاصة بجورج برنردشو

ارتفع الأديب الايرلندى العظيم برنردشو إلى مرتبة الخالدين وبلغ إعجاب الـكثيرين به إلى حد الهوَس . ومن الأنباء الأخيرة أن الدكتور أرشيبولد هندرسون ، الأديب الـكبير الذى كتب أول ترجمة لشو ، قد أنشأ مكتبة حافلة كل ما فيها يتعلق بشو . فمن ذلك جميع كتبه ورسائله وإذاعاته ، ودراماته وقصصه ، فى اللغة الانجليزية وفى جميع اللغات التى ترجمت إليها ، ومنها العربية طبعاً ، وكل ما كتب عن شو فى جميع لغات العالم ، فى الـكتب وفى الصحف ، وفى المجلات ، بل وفى المحاضرات ... وكان جل حرص الدكتور هندرسون أن يجمع الطبعات الأولى لـكتب شو ، وإن إحداها اليوم ، ولا سيما القديمة ، لتساوى آلاف الجنيهات ... وبعد أن اجتمع للدكتور من ذلك جميعاً ما يعد تحفة بحق ، أهداه كله حلالاً خالصاً إلى جامعة ييل فى شيكاجو . وقد تصفحنا مجلة ييل Yale University Gazette (المجلد ١٢ — الجزء ٢) فهالنا هذا الثبت الجليل عن شو الذى جمعه كله الدكتور هندرسون

هدية أخرى لجامعة ييل

وقد أهدى المستر جورج . ت . كيتنج إلى جامعة ييل هدية أخرى هى عبارة عن مكتبة حافلة تحوى كل ما كتب الأديب الخالد جوزيف كونراد من قصص ومقالات وحكايات قصيرة ، سواء ما كتب منها بقلم الأديب نفسه وما ترجم من آثاره إلى اللغات الأخرى ، وقد اشترى من أرمل الأديب مخلفات أدبية جليلة القيمة كبيرة القدر يذكرون أنه دفع ثمناً لها آلافاً عديدة من الجنيهات

فهل يفكر أدباؤنا وذوو اليسار فينا فى إهداء آثار أدبائنا إلى الجامعة المصرية ؟ وهل فكرت الجامعة المصرية فى إنشاء متحف لما يصل إليها من هذا السبيل ؟

ولقد بقيت التهمة كما هي غير لازبة وغير مردودة ، وكان عذر الأدباء في ذلك أنهم لم يتيسر لهم الاطلاع على هذا الكتاب

وكأن الله قد أراد أن يبرئ ساحة الرجل من هذه التهمة الشنعاء ، وأن يكشف حقيقته وموقفه من جهة الدين بعد أن ظل ذلك غامضاً في القرون الغابرة ، إذ عثر أحد الأدباء على الجزء الأول من هذا الكتاب في دشت اشتراه من وراق بمكة ، وإذا بالكتاب عظة دينية ، قد أنشأه المعرى في « تمجيد الله والمواعظ » ، وإذا به وعاء قد أترعه المعرى بشتى العلوم من اللغة والأدب والعروض والنحو والصرف والأمثال والتاريخ والحديث والفقه والفلك وعلم النجوم ، وغير ذلك مما لم يثبت جمعه ولا إيراده بالطريقة التي سلكها شيخ المعرة . ذلك أنه يملي الفقرة على تلاميذه ثم يختمها بالغاية ، وهي عنده بمنزلة القافية من بيت الشعر . وقد تطول الفقرة وقد تقصر ، ثم يملي التفسير في أعقاب كل فقرة ، وأحسب أن إملاء التفسير كان رغبة من طلابه لتوضيح ما يخفى عليهم فهمه وإدراكه ، لأنه أملى أشياء في الكتاب ولم يفسرها ، وربما كان ذلك لوضوحها لدى طلابه ، فإذا انتهى من التفسير وأراد العودة إلى الاملاء قال « رجع » كأنه يريد نفسه أو يريد رجع إلى الإملاء . والكتاب كله على هذا النسق ، والجزء الذي بين أيدينا منه يبتدئ من أثناء حرف الهمزة وينتهي بحرف الخاء ، يقول ناشره الفاضل : « لقد بحثت عن باقي الكتاب في كل المظان فلم أجد له من أثر »

أما الذي نهض إلى إخراج هذا الأثر النافع فهو أستاذنا الفاضل الشيخ محمود حسن زناتي أمين الخزانة الزكية سابقاً ، فتولى تحقيقه وضبطه وتفسير غريبه وأنفق عليه من جهده وماله وراحته مدى عام كامل حتى جلاه للناس في حوالى خمسمائة صفحة من القطع الكبير في طبع أنيق ومظهر لائق . ولاشك أن الأستاذ الفاضل قد لاقى كثيراً من العناء في عمله ، وأدى في ذلك جهداً ما كان يستطيع أن يؤديه إلا تلميذ الشنقيطي اللغوي والمرصفي الأديب ؛ ذلك لأن لغة المعرى الأدبية لغة غامضة قد تقف المعاجم التي بين أيدينا دون إجلاء غامضها وكشف المعنى المقصود من اللفظ ، وإنما يستطيع كشف ذلك من ارتاض على أساليب المعرى ولغته . ولا شك أيضاً أن الأستاذ الفاضل بهذا العمل الجليل قد خدم الأدب والعربية ، والحقيقة والتاريخ ، إذ كشف للأدباء ناحية من نواحي المعري ظلت مطموسة في القديم والحديث ، وإذ يسر لأهل الضاد الانتفاع بهذا الأثر النافع . وقد كانوا في لهفة شديدة إليه

وحسبنا هذا القدر اليوم إشارة إلى قدر الفصول والغايات ، وإشارة إلى الجهد الذي بذله مصححه الفاضل ، وحسب القارئ أن يطلع على الكتاب حتى يقدر هذا الجهد بنفسه ، أما الكتاب من حيث قيمته الفنية ، ووضعه الأدبي ، ومن حيث هو صورة لنفسية المعرى ورأيه وفكره وفلسفته فسيكون ذلك موضوع مقالات نرجو أن تتسع لها صفحات الرسالة في القريب

محمد فهمي عبد اللطيف

المسرح والسينما

مراقبة الأفلام

عرض فلم «حوادث ١٩٣٨» وقد لاحظت من تفكك هذا الفلم فى بعض أجزائه أن يد الرقيب قد أعملت مقصها فى أكثر من موضع فاستبعدت بعض المشاهد غير اللائقة بالفلم، ونحن نحمد «مراقبة الأشرطة السينمائية» على أن يكون عملها هذا من محققات المراقبة الحاسمة، وإن كنا لا ننسى أن عين الرقيب تغفل — أو كانت تغفل — أحياناً. ونكتفى بأن نذكر دليلنا من فلمين حديثى العرض A Day At ، Fifty Roads To Town The Races فقد كان فيهما من المشاهد النابية ما لا نود أن يسمح بمثلها فى المستقبل

وقد أصبحت مراقبة الأفلام من الأمور التى تنال من اهتمام الحكومات نصيباً يزداد يوماً بعد يوم تمشيا مع تطور السينما وخطورتها؛ فلو أن المطبعة والاستديو اشتركا فى موضوع واحد لكان فى مقابل كل فرد يقرأ الكتاب عدة مئات يشهدون الفلم. فاذا كانت هناك مراقبة أدبية حازمة على المؤلفات فمن الواجب أن تكون المراقبة أشد حزماً على الأفلام، وبخاصة أن الفلم صور وحديث فأثره أبقى وأوضح من الكتاب المقروء.

ويقينى أنه لو كانت لدينا مثل هذه المراقبة لما انحط مستوى أكثر أفلامنا تبعاً لأسلوبها المبتذل وموضوعاتها الجوفاء

ولقد قيل إن الحكومة كانت تنتوى سن قانون لهذا الغرض، وإنها قد ألفت لجنة فى أواخر العام الماضى ظلت تنعقد وتنفض وتفكر وتقترح ثم تنعقد وتنفض، والأمر الذى لم تقترب منه خطوة واحدة هو «التنفيذ»

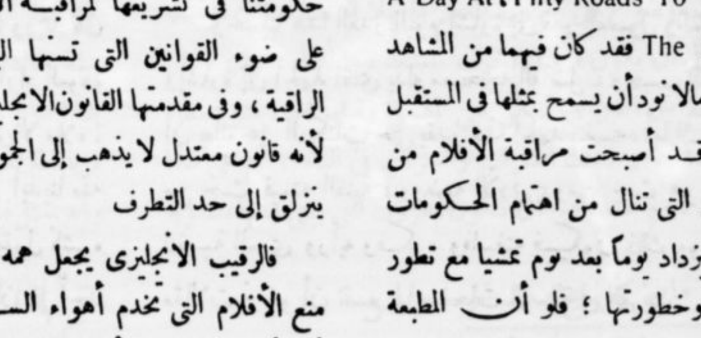
فإذا تحققت ظنوننا يوماً وقيل إنا بدأنا نعمل، فإني آمل أن تهتدى حكومتنا فى تشريعها لمراقبة الأفلام على ضوء القوانين التى تسنها البلاد الراقية، وفى مقدمتها القانون الانجليزى، لأنه قانون معتدل لا يذهب إلى الجمود ولا ينزلق إلى حد التطرف

فالرقيب الانجليزى يجعل همه أولاً منع الأفلام التى تخدم أهواء السياسة أو الأفكار الخاصة أو المذاهب الخطرة أو التى تتعرض للأديان، وفيما عدا ذلك فإنه يعطي الأفلام إحدى صفات ثلاث:

١ — عام Universal

٢ — للراشدين Adulted

٣ — مرعب Horrible



هجوم جنود السواري فى فلم «فرقة الانقاذ» حيث مدت الأسلاك

فأفلام الصفة الأولى هي التى يجوز للأسرة جميعاً مشاهدتها. وأفلام الصفة الثانية المحظورة على الغلمان هى الأفلام الغرامية المبتذلة وأفلام المرايا والأفلام التى تنصر الجريمة والمجرمين

أما الصفة الثالثة الخاصة بالأفلام المرعبة فهى حديثة الإضافة فى المراقبة الانجليزية، وقد عنى بها الرقيب حظر هذا النوع من الأفلام على الأطفال بعد أن تعدد وتنوع ووضح خطره

كما أن هناك أنواعاً أخرى من الأفلام لم يعن بها المشرع الانجليزى أو الفرنسى أو الأمريكى؛ تلك الأفلام التى تسيء إلى الشرق عامة وإلى مصر خاصة. هذه الأفلام جديرة بأن تكون فى المحل الأول من عناية الرقيب. ولقد عرضت علينا — وا أسفاه — طائفة كبيرة من هذه الأفلام نحسب أن منعها كان أفضل وأبقى على الكرامة وعلى الفائدة المرجوة من السينما

وثمت نوع آخر من الأفلام التى تظهر فيها ضروب من القسوة على الحيوانات تحت ستار الصيد أو القتال أو غير ذلك.

وفى ٩ ابريل الماضى أثار سير روبرت جوور في مجلس العموم البريطانى مناقشة حادة حول فلم «فرقة الإنقاذ» The Charge Of The Light Brigade الذى عرض ولا يزال يعرض بمصر لإظهاره نوعاً من القسوة على الجياد في مشهد هجوم لجأ المخرج فيه إلى حيلة تكسب الفلم صفة الجد فمد أسلاكاً دقيقة تعلو قليلاً عن سطح الأرض تعثرت بها الجياد عند الهجوم فسقط بعضها جريحاً.

محمد على ناصف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

6 me Année, No. 246

Lundi - 21 - 3 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مصـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٤٦ « القاهرة في يوم الاثنين ١٩ محرم سنة ١٣٥٧ — ٢١ مارس سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

العام الهجري

١٣٥٧



أهلّ هلال المحرم والعالم المسكين يكاد يفلت من قيوده ويتحلل من نظُمه؛ فكأنما ارتد إلى عهوده الأولى يترصد الفرائس في ألفاف الشجر وأجواف الحفر، ويتعقب الطرائد في بطون الأودية ومخارم الجبال، ثم يشتد عليه سلطان الغرائز المهلكة فيستنشي رَوْح الحياة فلا يجده، ويلتمس ظل الأمان فلا يدركه، ويبتغي عزاء النفس فلا يناله

هذه أوربا العالمة العاملة القوية، قد استحال بنو آدم فيها

إلى هيا كل صناعية ، تتحرك بالبنزين ، وتسير بالقيادة ، وتعمل بالحيلة ، وتهتلك في السبق ، حتى أوشكت أن تصطدم فتتحطم

أين الروح الذي كان يحييها ؟ وأين النور الذي كان يهديها ؟ رجعا إلى مصدرهما الإلهي في الشرق يوم تجهمت لحواريي المسيح ، وتنكرت لخلائف محمد ، وبنت الأخلاق على قواعد الاقتصاد ، والديمقراطية على استبداد الأحزاب ، والسلامَ على طغيان القادة . فكان من ذلك فجيعتها الأليمة في سلامها ونظامها وخلقها ، لأن مطامع الاقتصاد لا يقوم عليها خُلق ، ونوازع الأفراد لا يثبت بها نظام ، ونوازى القواد لا يدوم عليها عهد ؛ حتى عصبة الأمم التي جمعت فيها أوربا ما بقى لديها من هدى الأنبياء وحكمة الفلاسفة ، دفن أشلاءها هتلر في النمسا ، بعد ما قطع أوصالها الدتشي في الحبشة ! ! فحال أوربا اليوم كحال الضوارى الأوابد ، تتباعد بالأثرة ، وتتدانى بالخديعة ، وتتدافع بالقوة ؛ ثم أعوزتها الأنياب والأظفار فجعلت مصانع التجار مسالح ، وصهرت أجور العمال أسلحة . وأخذ الساسة والطغاة يتجاوبون بالزئير فوق المنابر ، فملأوا الصدور بالرعب ، وزعزعوا البيوت بالقلق ، وسمموا الحياة بالهمّ ، ونزعوا من قلوب الناس طمأنينة العيش وحرية التصرف ولذة التملك ، فانقلبوا عبيداً مسخرين لهذه النظم الطاغية ، لا يجدون سلاماً في الأرض ، ولا يعتقدون نعيما في السماء !

أخطرْ ببالك أمم التمدن الحديث ، فهل تجد غير صولة تناهض صولة ، ودولة تبلع دولة ، وأنظمة عراها تغير الإنسان فهي تحتضَر ، وأخرى هدى إليها الضلال فهي تُنتظر ؛ والشعوب بين أنصار هذه وأنصار تلك مواد تهلك في التجارب ، وأموال تنفق في الأهبة ، وأرواح تزهق في الصراع ، وآمال تذهب مع الريح ؟

دع هذا العالم المجهود البائس وجُل جولة بالفكر في بلاد العالم الإسلامي ، فهل تجد إلا السلام في المجتمع ، والوئام في الأسرة ، والسكينة في النفس ، والرضا في العيش ، والثقة في الحاكم ، والأمل في الله ؟ ذلك هو الفرق بين نظام يضعه الخالق ونظام يضعه المخلوق . وذلك هو الفرق بين مجتمع يعيش بالروح ، ومجتمع يعيش بالآلة . وذلك هو المفهوم من دين سماه الله الإسلام [١] ، وجعل تحية أهله (السلام) ، وقرن فيه الصلاة دائماً بالسلام ، وعرَّف أهله بأنهم (الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً)

ذلك هو معنى الإسلام وذلك هو مبدأه . وتستطيع أنت بأيسر الفهم أن تُرجع أصول الإسلام وفروعه إلى تحقيق هذا المعنى وتطبيق ذلك المبدأ ؛ فالصوم والصلاة سلام الفرد . والحج والزكاة سلام المجتمع ؛ والسنن والأنظمة والآداب التي انشعبت من هذه الأصول دستور ثابت خالد يحقق لهذا الإنسان ، طريد العدوان وعبد الطغيان ، أحاديث أحلامه ، وهواجس أمانيه ، من الأخوّة التي يعم بها النعيم ، والمساواة التي يقوم عليها العدل ، والحرية التي تخصب فيها المدارك ؛ لأنه دستور لم يوحه الجوع ولا الطمع ، وإنما أوحاه الذي خلق الموت والحياة ، وجعل الظلام والنور ، وأوجد الفساد والصلاح ، ليدرأ قوة بقوة ، ويصلح نظاماً بنظام ، وينقذ إنساناً بإنسان

إن الإسلام بشريعته السمحة ، وسياسته الحكيمة ، قد أزال الفروق ، وعدَّل المقاييس ، وألّف القلوب بالبر ، وشفى الصدور بالتعاون ، فلا يمكن أن يعيش في ظله نظام هادم ولا نحلة مفرقة . إفتحوا ثغوره للنظم الحمراء التي تشيع الفزع هنا ، وتثير الحرب هناك ، فسترونها تفد جارفة وفود النسور الخاطفة ، ثم لا تلبث أن تقع من دون ذراه المنيعة ، مهيضة الأجنحة ، ناسلة الريش ، لا تقوى على زفيف ولا حفيف ! وفي تركية الدليل الحاسم ، فإن بينها وبين الشيوعية جواراً وصداقة وعلاقة ؛ ومع ذلك لم تستطع الشيوعية — على فجورها وجرأتها — أن تقتحم على الإسلام غِيله .

إن في الإسلام من ديمقراطيته واشتراكيته وأخوّته مناعة على كل شر ، ومثابة لكل جنس ، ومودة لكل دين . فانتصاره انتصار للعقل ، وانتشاره انتشار للعدل ، وسيادته سيادة للسلام !

احمد حسن الزيات

---

(١) الاسلام معناه السلام ، ولذلك جعل مقابلا للجهل وهو السفه . ويؤيد هذا المعنى تفسير الرسول (ص) للمسلم بأنه من سلم الناس من لسانه ويده

عِبرَة الهجرة

لإمام المسلمين الأستاذ الأكبر
الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر



يذكرنا كر الغداة ومر العشيّ وما فيهما من نُعمى وبؤسى، وشدة ورخاء، وإقبال وإدبار — تقلبَ الأحوال وتبدلها فى هذه الحياة. ويذكّر كل أحد من الخلق بطيّ صحيفة من صحف الأجل، وبالخاتمة التى لا معدى عنها، وفى ذلك عبرة. «إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب»

ويذكرنا العام الهجرى خاصة بأكبر حادث فى تاريخ الإسلام له أجمل الأثر فى انتصاره، وفيه أكمل عبرة:

شريف من أشراف قومه، وقومه من أشرف الأقوام؛ ورجل قوى الخلق، حلو الشمائل، فصيح اللسان، قوى البيان، كامل الإنسانية، مهذب الطبع، رضى النفس، شجاع مؤيد بالوحى الإلهى وبقوة الحق — ينبو به وطنه ومكان مولده، فيهجر أرضاً حُلت فيها تمائمه، ويفارق دياراً عرفها وعرفته، ومشاهد حلت لنفسه واتصلت بها، وأهلاً وإخواناً أعزاء.

رجل هذه صفاته، وتلك مكانته، يضيق له صدر القوم، ويتنكر له الناس، ويكيدون له حتى يخرجوه! رجل هذه صفاته يفارق دياره وأهله؛ ولو لم يكن صاحبَ دعوة إلى الحق وإلى غير ما ألفه الناس وأخذوه عن الآباء والأجداد، لكان المحبب إلى النفوس، والمرموق بالأبصار، والمفدى بالأهل والولد. لكن الحق أزعج الباطل فلم يطق صبراً، ودفع أهله إلى قتله أو إخراجه؛ «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين»؛ وغطى على القلوب فأفسد على العقل ملكة التقدير «وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا، لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلا أساطير الأولين»

هذا موضع العبرة

وليس من غرضنا أن نلم بتاريخ الهجرة وما لابسها، فذلك معروف فى السير، كذلك ما لاقاه النبى صلى الله عليه وسلم، وما أصاب صحبه المتقين من جهد البلاء، وجهل الجهلاء، وكيد الكائدين، لا يغيب أكثره عن أكثر المسلمين

* * *

الأجسام الإنسانية معرضة للأمراض كسائر الكائنات الحية؛ وقد تعطل الأمراض وظائف الأعضاء أو تضعضعها. ومن الأمراض ما هو خاص ببعض البلاد أو بعض البيئات. وحال النفوس الإنسانية لا يختلف عن الجسوم: تصاب بالجهل، وبالعناد، وبالغرور، وبالحرص على لذات الدنيا من مال وثراء وجاه وعزة، وبالحقد على أصحاب النعم موروثة ومكتسبة، وبحب الانتقام والإسراف فيه، وبحب ما هو موروث عن الآباء والأجداد من مال وعقار وصفات وخلال وعقائد وتقاليد

مثل هذه النفوس المريضة لا يسهل تحولها من الشر إلى الخير، ولا يسهل قبولها الحق وهى بحاجة إلى داع قوى بصبره، قوى بحجته، فيه من المناعة الخلقية ما يقوى به على احتمال الأذى والمكروه فى نفسه وذويه، وعلى احتمال ما يرمى به مما يستفز الحليم، ويستنفد صبر الكريم، ويعجب له الرجل العادي، ويعده ضعيفُ الطبع شذوذاً وخروجاً عن المألوف. تجمعت هذه الأمراض فى قريش فاستعصى العلاج وتحير الحق، ولم يكن أمامه إلا أن يخلد إلى الذلة والاستكانة، أو يفر بنفسه من عنت الباطل إلى أن يجد السبيل ويعد العدة لمنازلته؛ فليست هذه البيئة مما ينفذ إليها ضياء الحق بالدليل والحجة، بل هي فى حاجة إلى السيف يضرب الرقاب ويفلق الهام، وإلى أسنة الرماح تصل إلى القلوب فتشعرها بوجوب التنبه والإصغاء إلى صوت الحق. تلك أسباب الهجرة. وقد ترك النبي صلى الله عليه وسلم هذه البيئة الموبوءة خوف أن يختنق الحق

في مهده ، ورجاء أن يجد له متنفساً في أرض حرة تحضنه ، وأن يجد له قوة تعينه ، حتى يحين الأجل المضروب ، ولكل أجل كتاب

هاجر وتم له ما أراد ، إذ فتح الله له فتحاً مبينا وأعز دينه وأعلى كلمته ونصر جنده ، ودانت له تلك القبائل التي ناصبته العداء ، ولم يرض إلا بعد أن رضي الحق وانتصر ، وبعد أن انتصر غفر . فهو خادم الحق وأمينه ، وناصره ومعينه ، لا يرى أن نفسه له ، ولا أن أهله له ، ولا أن شيئاً في الحياة له ، بل كل شيء عنده وفي مقدوره للحق وفي سبيل الحق . ولم يكن السيف في يده إلا مشرط الجراح يبتر به ما فسد من الأعضاء ، ولم تكن الأسنة إلا الإبر التي يبزل بها الطبيب مكان الداء ليخرج أذاه . وليس بدعاً من الحوادث حادث الهجرة وما لابسه إذا عُرض على مقاييس المعقول واعتبر الناس بسنن الاجتماع وهديه . ولا تزال هذه السنن مستمرة في هذه الحياة ؛ ولا زالت تعمل عملها وتحدث أثرها . والعاقل من يعتبر . « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »

وقد سار النبي صلى الله عليه وسلم على هذه السنن ، وامتاز بأكمل ما امتاز به الأنبياء وكبار الدعاة إلى الحق من اليقظة والحكمة ، وتخير الأوقات والأمكنة ، واختيار الأصحاب والأنصار . ولم ير الاكتفاء بالحجة والبرهان في مواضع لا تنفع فيها الحجة ولا يقنع البرهان ، بل أعمل الحيلة وأدار الرأي وطلب القوة في مظانها . لذلك كانت الهجرة ، وبذلك أدرك ما أراد . فظهر الإسلام وبسط ظله على أمم قوية كثيرة العدد والعُدد ، وحوّل أولئك الأميين إلى أئمة هدى وولاة عدل وفقهاء نفس وساسة يفخر التاريخ بهم ، وعلماء تروى آثارهم ويتحدث الناس بطيب أخبارهم ، وأساة للإنسانية وجروحها تتفجر منهم ينابيع الرحمة ويضعون نظم الإصلاح وقواعد الاجتماع . رفعوا قدر العلم بعد أن أنكروه ، وجعلوا العقل هادياً ومرشداً ، والقرآن إماماً . لم يخونوا أمانات الله ورسوله فأحياهم الله حياة طيبة ، وأعدّ لهم مكان صدق عند مليك مقتدر

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون . يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون »

محمد مصطفى المراغي

البحث عن غد

للأستاذ عباس محمود العقاد



الغربيون اليوم معنيون بالبحث في مسائل الشرق من جوانبه كافة : من جانب السياسة ، لأن نهضة شعوبه تضطرهم إلى حسبان حسابه والعدول عن خطة استغلاله والسيطرة عليه ؛ ومن جانب الدين ، لأنهم حائرون في شئونهم الروحية يلتمسون الهداية من مهبط الأديان ، أو يقابلون بين سلطان الدين عليه وسلطان الآراء الحديثة عليهم ؛ ومن جانب التجارة ، لأن العلاقات التجارية بين الدول الكبرى لا تستغني عن أسواق الشرق ومنابع الثروة فيه ؛ ومن جانب السياحة والرحلة واستكشاف مواقع التاريخ القديم ، وكل جانب تتحول إليه عناية الباحثين في مسألة عامة

ومن الباحثين الصحفيين المشغوفين بالمسائل الروحية « روم لاندو » صاحب كتاب « الله محجة مغامراتي » ، وصاحب هذا الكتاب الذي عنوانه « البحث عن غد » ، وموضوعه استطلاع أحوال الشرق القريب من جانب الدين والنهضة النفسية إن صح أن نطلق عليها هذا الاسم تمييزاً لها من النهضة العلمية البحت والنهضة الصناعية الاجتماعية التي تقابل نظيرتها في الأقطار الغربية

حضر إلى مصر وتحدث فيها إلى رجالات الفكر والسياسة ولخص هذه الأحاديث في كتابه ، وسنعرض لها جميعاً ، ونبدأ بنقل حديثه مع رئيسي الجامعتين الأزهرية والمصرية ، حيث قال بعد تمهيد طويل للحديث مع صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ

(1) Search for Tomorrow, by Rom Landau

مصطفى المراغى وقد زاره فى بيته بحلوان :

« سألنى : هل تبحث عن المسائل الدينية أو مسائل ما وراء الطبيعة ؟ ولما كان الفارق بين هذه وتلك ليس بالفارق العظيم فى نظرى أجبته بشئ من الروغان : كلاهما ؛ إلا أننى أشد عناية بما وراء الطبيعة

فقال الشيخ العلامة : قليلة المحصول ، قليلة المحصول جداً

وكانت لهذه الكلمة دلالتها ، لأنها تشير إلى طبيعة الإسلام العملية كما تمثلت فى أكبر رعاته بين المصريين

ومع علمى ببعض العلم بأساليب المناقشة الشرقية لاحظت على الأستاذ المراغى أنه يتنحى عن الجواب فى كثير من الأحيان ، وأن أسلوبه أسلوب رجال السياسة ؛ وناهيك بهم إذ يكونون شرقيين مع ذلك ، وعلى خبرة بالمواقف المعضلة ، وحرص من التورط فى التصريح ، فهو فى البيئة الغالبة على فقهاء الإسلام لا مراء

وعدت أقول : لقد سمعت أن الشبان عندكم يجنحون إلى نزعات « التفكير الحر » ويحاولون أن يزيدوا القرابة بين الدين والعلم . فهل صحيح ما سمعت ؟

فقال الشيخ : « لا أظن الشبان المصريين أقل تديناً اليوم من أمس ؛ إذ ليس فى القرآن ما يعارض الحقائق العلمية ، ولا تناقض بينهما فى شئ »

وأردت أن أخوض فيما هو أصرح وأجرأ مما تقدم فسألت : ألا ترى أن العنصر الروحى — أو الغيبي المتصل بما وراء الطبيعة — هو أهم العناصر فى الديانات ؟

قال الشيخ فى سكينة ولطف : من ذا الذى يعلم كنه الله وكنه الروح ؟ إن بعض أساتذتنا يتحدثون عن المادة كأنها حقيقة ، وبعضهم يتحدثون عنها كأنها وهم أو فرض مفروض ؛ وليس من يعلم الصواب علم اليقين ، فإن القرآن لا يفصل بين القولين ، ولكنه يحكم حكمه فى أمور شتى كأمور الزواج والمواريث والمعاملات

فسألته : وماذا تقولون فى قبول العلماء لنظرية قدم المادة ؟

ولا ريب أن الأستاذ المراغى لم يكن يتوقع قط أننى علمت شيئاً عن هذه القضية ، إلا أنه لم يظهر الدهشة ، ولم يبد عليه إلا قليل من مفارقة السكينة التى لزمته حتى الساعة كأنها قناع لإخفاء ماوراءها من قلة الاكتراث . فقد انبعثت الحياة من خلالها وقال:

« إنك لم تقع على الخبر الصحيح فى هذه القضية ، فليس هناك إلا أن عالماً كتب رسالته فى علم الأصول ليعبر فيها عن رأيه وما انتهى إليه اجتهاده »

فبادرت قائلاً : ألم يكن صاحب الفضيلة وأعوانه من العلماء مرجع الامتحان فى هذه القضية ؟

فابتسم الشيخ المراغى وهو يقول : « إن رأياً كهذا قد كان يحسب من الزندقة قبل خمسين سنة ، وما كان أحد ليجسر على تقديمه فى جامعة إسلامية . فما أعظم التغير فى أطوار الزمان ! نحن اليوم أدنى إلى الحرية والسماحة »

واستطرد الكاتب إلى أسئلة وأجوبة من هذا القبيل ، انتهى منها إلى المذاهب الاجتماعية والشطط فى الدعوات الفكرية ، وسجل رأى الشيخ الأكبر أن الوقاية من جميع ذلك إنما هى الدين وتعليم الإسلام على أصوله

* * *

أما حديثه مع صاحب المعالى أحمد لطفى السيد باشا فقد مهد له بوصف الأستاذ وملابسه الإفرنجية الأنيقة ومعيشته المصرية ، ثم استهله بهذا السؤال :

« ما هى أكبر رسالة ثقافية قامت مصر بأدائها فى رأيكم خلال القرون الأربعة التى خضعت فيها للحكومة التركية ؟ »

فأجاب وأصابعه النحيلة تعبث بحبات المسبحة العاجية :

« إنما هى عمل الجامع الأزهر فى جميع الكتب الفقهية »

فقلت : ألا ترون أن حصر رسالة ثقافية تؤديها الأمة فى عمل واحد لا يتجاوز جمع الموضوعات الفقهية خليق أن يشير إلى شئ من ضيق النطاق ؟

فرفع لطفى باشا حاجبيه هنيهة واضطرنى بذلك أن أعقب على ما أسلفت مستدركا :

« إن كثيراً من الغربيين يزعمون أن تفكير العرب تفكير « تجريدى » ... فإذا كانت العبقرية القومية لا تخرج فى مدى القرون الأربعة ثمرات ثقافية غير الفقه والشريعة فهذا الزعم ليس بالمخالف كل المخالفة للإنصاف فيما يلوح لأول نظرة »

فسألنى : ماذا تعنى بالتفكير التجريدى ؟

قلت : إن التفكير الإنجليزى مثلاً واقعى مجار للحوادث ، لأنه يتناول كل حادثة كما تعرض فى حينها ، وهو من ثم نقبض

الفروض النظرية والمباحث الجدلية . أما تفكير العرب فهو رهن بالقواعد المرسومة والنظريات الملومة ؛ ويلوح عليه أنه شبيه بهندسة البناء العربية ، لا يحتوى صورة من صورة الحياة الماثلة فى بنية الإنسان وملامح وجهه ، وكل ما فيه هندسة وتناسق خطوط ... »

قال لطفى باشا وهو يشفع كلامه بابتسامة معتذرة :

« آسف لأننى لا أستطيع مجاراتك فى حكمك . فالذى يبدو لى أن الفكر العربى أشد إيغالاً فى الواقعيات من الفكر الأوربى . وهذه شريعتنا الدينية التى استشهدت بها على نزعته التجريدية تتناول شؤون الحياة اليومية ولا تقتصر على مسائل اللاهوت والأخلاق كما هو الحال فى الشريعة المسيحية ؛ وهى تفيض بالوصايا فى أمور المعيشة والزواج والميراث وما شاكل ذلك . وأحسب أننا أقرب إلى معرفة الحقيقة حين ندرس « مخيلة » الأمة كما تتمثل فى ديانتها . فكيف ترى « المخيلة المسيحية » تتصور السماء والفردوس ؟ إن سماء المسيحيين هي نعيم غير ذى أشكال ، أو هى شيء لا يسعك أن تراه ولا تقع عليه العيون ، بل شيء لا يسعك أن تحيط به فى الخيال . أما المسلمون فكيف تراهم يتخيلون السماء ؟ إنها دار حقيقية فيها اللبن والعسل والمسجد ، وفيها الأزهار والأشجار والحور العين ، وهى كلها حقائق ومشاهدات ... أفليس هناك معنى ملحوظ لاتفاق المخيلة الدينية بين المسيحيين والمسلمين فى « ميدان سلبي » حين يتكلمون عن الجحيم؟ ففى هذا الميدان ترسم المسيحية نفسها صورة مشهودة هى صورة النيران والنفط الغالى وعذاب الأجساد

قال الكاتب : فأحجمت عن الجهر بملاحظة سنحت لى تلك اللحظة ، وفحواها أن المبالغة فى تمثيل الخيال تقترن عادة بالقصور فى ملكة البناء والانشاء الواقعية ، وآثرت أن أسأل :

ألا تزال الديانة قوة فعالة في الحياة المصرية ؟

فأجابنى الباشا : « فعالة على الأرجح فى عالم الاسلام أعظم من فعلها فى عالم المسيحية ، لأن شرائعنا كلها قائمة على القرآن ؛ ومن العسير فى البلاد الاسلامية أن تفصل بين الدين والحياة اليومية »

قلت : على أننى قد أخبرت أن الشبان المصريين يهجرون عقائد آبائهم جنوحاً منهم إلى البدع الغربية

قال : أعجب لو صح ذلك ... فلعلهم لا يغشون المساجد ولا يشهدون صلوات الجمع ، ولكنهم على الجملة متدينون ، وربما كان منهم أناس من الدارسين للفلاسفة الغربيين قد ألحدوا فى الدين إلا أنهم شذوذ قليل

فسألته : أيعنى المصريون عناية ما بما وراء الطبيعة أو بالأسرار الخفية والسبحات الصوفية ؟

قال : « ذلك نادر فى « فلسفتنا الحاضرة » . غير أن فلسفتنا وأدبنا لا يزالان فى مفتتح الحياة ؛ وينبغى ألا تنسى أن أربعة قرون من الحكم التركى قد عطلت ثقافتنا وتركتنا نحاول من جديد

فانتقلت إلى حديث الجامعة العربية وسألته : « وهل بعد انقضاء السيادة التركية أو السيادة الانجليزية يهتم المصريون بالجامعة العربية ؟

فرد الباشا جازماً : أما سياسياً فلا ، لأن الفوارق بين الشعوب العربية المختلفة جد كبيرة ؛ أما من الوجهة الثقافية فهى ممكنة ، وهي على ازدياد فى جوانب الشرق الأدنى ؛ ولكنها ليست بالسياسية ، لأن الجامعة العربية من حيث هي نزعة سياسية اختراع نَجَم فى الصحافة الانجليزية على ما أذكر ، ولا يحضرنى اسم صاحبه وإن كنت أرجح أنه مراسل للتيمس كان يراسلها من النمسا قبل أربعين سنة

وتنقل الحديث فى بعض الموضوعات الشرقية ثم سأل الكاتب: ما ظنك فى حقيقة ما يقال من أن الوطنية المصرية توصد ما بين المصريين وسائر العالم ، وتجتهد فى إبدال كل مصرى بكل أجنبي ؟ أتؤمن بامكان هذه العزلة ؟

قال الباشا : الحق أننى لا أومن بذلك ؛ ولعل محدثيك قد أخطأوا التقدير ، فان الوطنية عندنا لا تجور على الثقافة . ونحن إذا اكتفينا بمن هم عندنا من الأساتذة الأجانب فسبب ذلك قلة المال . إن الأستاذ الانجليزى يكلفنا من ثمانمائة إلى تسعمائة جنيه فى العام ، وليس ذلك بالميسور لنا إلا فيما ندر

وانتهى الحديث بعد تعقيب موجز فى هذا الموضوع ، وسنعود إلى سائر الأحاديث وإلى التعقيب عليها فى مقال تال

عباس محمود العقاد

من ذكريات الماضى

خطرات الشك فى صدور الشباب

للأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق بك

أستاذ الفلسفة بكلية الآداب



قضيت صدر النهار فى خمول من أثر البرد الذى نالنى وكدت آوى إلى مضجعى مريضاً ، ولكننى طاردت الضعف وتكلفت القوة واشتغلت ساعة مع زميل لى فرنسى، ثم اشتغلت من بعده وحدى .

وزارنى بعد الظهر ثلاثة من أصدقائى المصريين فقطعنا زمناً فى الحديث والسمر ، وذهب عنى شئ من الفتور فنهضت للخروج معهم . على أن الطقس كان ذا رطوبة وإن لم يكن كثير البرودة . وانصرف اثنان منهم وبقى ثالثهم معي فقال : إني سأحدثك بأمر عقيدتى لتعلم موطن القوة والضعف منها . أما الايمان بالله فقد وصل عندى إلى حد الاذعان الذى لا تزلزله ريبة ؛ وأما الرسل فما أراهم إلا رجالاً من صفوة أممهم وُهبوا أنفساً كبيرة ، وعقولاً راجحة ، فعملوا على إسعاد الناس وتقريبهم من الخير ، ووضعوا لذلك قوانين هُدوا إليها كما يهتدى الحكماء إلى وضع قواعد لإصلاح المجتمع الإنسانى أو إلى كشف ما خفى عن غيرهم من أسرار الكون

ولما رسخ فى يقينهم أن ما وصلت عقولهم الصافية إليه هو الحق ، قالوا إنه من الله وسموه وحياً ؛ وكأنما قولهم هذا من باب ثقة العالم بعلمه ، ولكنه لا يجعل آراءهم وما جاءوا به بنجوة من تمحيص العقول ، ولا يمنحهم من الثقة فوق ما يكون لإخوانهم الحكماء المصلحين فى كل زمان

سمعت قوله كله بإصغاء تام ولم أقطع عليه الطريق فى حديثه ولا أظهرت له إنكارا ، ولم يؤيسنى عدوله عما أعتقده الحق من عدوله إليه ، ذلك بأنه يتكلم بروية ، ويعبر عما فى نفسه ، ويدلى بالحجة القائمة عنده ؛ ومن كان هكذا عظم الرجاء فى عرفانه للحق إذا سطع له برهانه

أخذت أولاً فى اختبار إيمانه بالله لأذهب به من طريق الترتيب الطبيعى فوجدته لا يخالف فى شئ مما أثبتته الأديان لله وجعل أساساً للإيمان ، ثم انتقلت به إلى أمر الآخرة فقال إنه فى شك منها ولم يعطها حظها من النظر . فقلت له إن الإيمان بالحياة الثانية ينبغى أن يكون موضع بحثك قبل أن تصل إلى الرسالة ؛ وبسطت له ما تهدى إليه الفطرة ويدركه بادئ النظر من وجود دار جزاء ينال فيها المحسن ثواب إحسانه ، ويُسأل فيها المسئ عن إساءته . ومن أيقن بأن الله حكيم لزمه بالبداهة أن يقر بأن الناس لم يخلقوا سدى — أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون — عند ذلك قال إنه لا بد لى من فضل تفكير فى هذا . وهبني أذعنت له فماذا تقول فى الرسلين ؟ فقلت له ما عندى من أدلة الحاجة إلى الرسالة التى ينبغي أن تكون من عند الله ، لأن كثيراً من تعاليم الرسل لا يستقل العقل البشرى بها . وقد جاء كل رسول ببينة تؤيد دعواه أنه مرسل من عند الله . وإليك معجزة محمد عليه الصلاة والسلام وهى القرآن الكريم ، فهل ترى أن بشراً يقدر على مثله ؟ ونازعنى فى ما سقته إليه من الأدلة ونازعته ، حتى سكت فسكت عنه ، وتركته إلى نفسه يعرض عليها أدلة المخالف ويراجع أدلتها هى . وأرجو أن أعود إليه مرة أخرى فيكون الحق قد مهد لنفسه سبيلاً إلى قلبه . وإني وإياه لطلاب هدى.

ولوددت أن يبادر شبابنا بطلب اليقين إذا تلجلج الشك فى صدورهم ، فإن ذلك أحرى بأن يقتلع الشبه قبل رسوخها . وفلان ... أمثلهم فى هذا وإن كان يغلبه الشباب حيناً على الغضب لرأيه إذا شاء مجادله أن يظهر بالغلبة عليه »

هذه صورة من صور الحوار الذي كان يجرى أحياناً بين شباننا طلاب العلم في أوربا فى صدر هذا القرن عند ما كانت تتسرب إلى نفوسهم الغضة نزعات الشك فى العقائد ، وكانت نزعات الشك في العقائد يومئذ تشتعل فى أوربا اشتعالا

وقد يكون فى نشر هذه الصورة عبرة لشباب اليوم

ولسنا ندرى كيف يفعل شباب اليوم حين تتسرب نزعات الشك إلى عقائدهم

مصطفى عبد الرازق

سر العظمة

للأستاذ توفيق الحكيم



ينبغي لمن أراد أن يدرك سر عظمة النبي أن يتخيل رجلاً وحيداً فقيراً تمكنت من قلبه عقيدة فنظر حوله فإذا الناس كلهم في جانب، وإذا هو بمفرده في جانب. هو وحده الذي يدين بدين جديد، بينما الدنيا كلها: أهله وعشيرته، وبلده وأمته، والفرس والروم والهند والصين وكل شعوب الأرض لا يرون ما يرى، ولا يشعرون له بوجود. هذا موقف النبي، وهذا موقف العالم: رجل عاطل من كل قوة وسلاح، إلا مضاء العزيمة وصلابة الإيمان، أمام عالم تدعمه قوة العدد والعدة، وتؤازره حرارة عقيدة قديمة شب عليها وورثها عن أسلافه، واتخذت لها في قرارة نفسه وأعماق تاريخه جذوراً ليس من السهل اقتلاعها على أول قادم. فالنبي هو ذلك القادم الذي يريد أن يقتلع تلك الجذور ويضع مكانها غرساً جديداً. والعالم القديم هو ذلك السادن القوى لتلك الشجرة المتيدة، يذود عنها وتأبى كرامته أن يفرط في ورقة منها. إنها إذن « مبارزة » بين فرد أعزل، وبين عصر بأسره يزمجر غضباً: عصر زاخر بأسلحته ورجاله، وعقائده وفقهائه، وعلمائه ومشاهيره، وتقاليده وماضيه، ومجده وتاريخه... هذه المبارزة الهائلة العجيبة من يستطيع أن يقدم عليها غير نبي... على أن المعجزة بعد ذلك ليست في مجرد التحدي ورمي « القفاز » وارتفاع ذلك الصوت الضعيف على شاطئ ذلك البحر الطامي العجاج: « أن اترك أيها العالم دينك القديم واتبعني ». ذلك الصوت الذي لا جواب عليه إلا السخرية طويلة وقهقهة عريضة... وليست المعجزة كذلك في مجرد شفاء الأصم وإبراء الأعمى، إنما المعجزة حقيقة هي أن يخرج مثل هذا الرجل الوحيد الأعزل من هذه المعركة المخيفة ظافراً منتصراً؛ فإذا هذا العالم المتيد كله يجثو عند قدميه منكس الأسلحة، وقد انقلبت سخريته خشوعاً طويلاً، وقهقهته صلاة عميقة. كيف ربح هذا الرجل الموقعة؟ ما وسائله؟ هل كانت له خطط وأساليب وقوة من شخصه مكنته من النصر؟ أو أن الله هو الذي نصره دون أن يكون لشخصية النبي دخل في الانتصار؟ عقيدتي دائماً أن شخصية النبي لها أثر كبير

وهنا معنى الاصطفاء، فالله يختار من بين البشر عظيماً له كاهل يحتمل عبء الرسالة، ويوحي إليه بالعقيدة ثم يتركه يجاهد في سبيلها. فالنبي ليس آلة تحركها يد الله في كل خطوة؛ إنما هو رسول عهد إليه تبليغ دين والعمل على إذاعته بين الناس بالوسائل التي يراها الرسول كفيلة ببلوغ الغاية. فالله لا يريد نشر الأديان بين البشر إلا بالوسائل البشرية. فهو لا يتدخل بقدرته العلوية فيفرض الدين فرضاً على الناس كما تفرض عليهم الزوابع والأمطار؛ ولكنه يحب دائماً أن يخلي بين « الدين » وبين « الناس » حتى يتغلغل الدين من تلقاء نفسه في نفوسهم بجمال نوره وحده؛ ولكن أعين الناس لا ترى في كل الأحيان؛ فهم يعيشون في أعماق ماضيهم كالأسماك العمياء في أغوار المحيطات. هنا تبدأ متاعب النبي؛ وهنا تبدو عظمته؛ وهنا تظهر المعجزة الحقيقية وهي إبراء الأعمى، لا أعمى واحد ولكن ملايين العميان. فهو الذي يفتح أبصارهم على نور طالما جحدوا وجوده: نور الدين الجديد الذي أتى به. وهنا ينبغي التساؤل: كيف استطاع النبي أن يُري الناس ما يَرى، وأن يقنعهم بما جاء به؟. الجواب بسيط: حياة النبي وخلقه. إن الناس لا تقتنع بالكلام وحده. إنما يؤثر فيها الفعل والمثل. إن الناس يوم أيقنوا أن محمداً لا يسعى إلى غنى ولا إلى مُلك؛ وأنه يريد أن يبقى فقيراً يشبع يوماً ويجوع أياماً، وأن كل تلك المخاطر التي يتعرض لها في كل خطوة، وأن كل ذلك الهوان الذي يناله من سفهاء القوم وأكابرهم ... وأن كل

ذلك الجهاد الذى ملأ به حياته بأكملها إنما هو فى سبيل « العقيدة » التي يقول لهم عنها ؛ منذ ذلك اليوم الذى اجتمع فيه كبراء أمته وعرضوا عليه ثروتهم ووعدوه أن ينصبوه عليهم ملكاً على شرط أن يتركهم على دين آبائهم ، فرفض المال والمجد والسلطان ، وأبى إلا شيئاً واحداً صغيراً : « أن يؤمنوا معه بفكرته » ؛ عند ذاك أدرك أولئك القوم جميعاً أن الأمر جد لا هزل ؛ وأنهم أمام رجل لا ككل الرجال ؛ وأن الآدمى الذى لا يغريه فى الحياة شىء ، ولا يعيش إلا من أجل فكرة ، لا بد أن يكون قد أبصر فى هذه الفكرة جمالاً لم يبصروه هم . « فكرة » لا تقوَّم بمتاع من أمتعة هذه الدنيا الرخيصة ، و « جمال » يضحى فى سبيله خير ما فى الحياة . أمام هذا الرجل أخذ الناس يفكرون ملياً . وثبت لمن كان قد ارتاب فى أمره أن مثله لا يمكن على الأقل أن يكون أفاقاً يعمل لمغنم . إنما هو رجل صادق مخلص ، لا مطمع له من تلك المطامع التى يسعى إليها الناس فى هذه الدار . عند ذاك بدأ كثير من الناس يجلسون إليه ويصغون إلى كلامه ... فوسيلة النبي الأولى وخطوته التى نزل بها الميدان هى إقناع هذا الخصم الصاخب من الخلق أنه مجرد عن الغايات الدنيوية . وهنا كانت قوته ؛ فإن أمضى سلاح فى يد رجل يريد أن يقارع البشر ، هو أن يواجه البشر بيد خالية من أغراض البشر

ولكن هذا لا يكفى . فالناس قد تقتنع بأمانة النبي ، وقد تستمع إلى ما يقول ، ولكنها لا تستطيع أن تنبذ فى يوم وليلة كل ماضيها لتؤمن بهذا الكلام الجديد . إن صدر الجماهير كصدر المحيط العميق ذى الماء الكثيف ، يدفع إلى سطحه كل جسم غريب ، ولا ينفذ إلى أعماقه إلا شىء ذو وزن ، بعد زمن وجهد . وإن الناس لشديدة الحرص على ما تسميه كنوز تراثها وتقاليدها . فما أدراهم أن هذا الكلام الجميل الذى جاء به هذا النبي ذو الحديث الطلى ليس إلا بضاعة زائفة ووهماً خلاباً لعب بلب هذا الرجل ؟ ولم لا يكون هذا الرجل الأمين المسكين فريسة مرض ومس ؟ ما هو الأجدر بهم عندئذ ؟ يطلبون له الطب حتى يبرأ ، أو يلقون بكنوزهم ويتبعون حلمه ومسه . لقد وضعت المسألة إذن وضعاً آخر ، واتخذت الحرب ميداناً جديداً . ماذا يصنع النبي ؟ لا بد له من أن يبدد ضباب الشك المخيم على الأذهان حتى يصل إليها نور الدين . هنا صفتان لازمتان : الصبر والمثابرة ، فإن العاقبة فى الحرب لمن صبر وثابر . وإن أمامه لخصماً جديداً ، هو الشك الذى يقوم الآن فى رؤوس الناس . فإن كان حقيقة رجلاً عظيماً فليقتل هذا الشك بمفرده . وما هو بشك رجل واحد ، إنما هو شك أمة طامية . ولقد جاهد الرسول فعلاً فى كل لحظة من لحظات حياته ، إلى أن استطاع ذات يوم أن ينقل العقيدة التى فى قلبه حارة قوية إلى قلوب الناس جميعاً . وهنا كان النصر الأخير ، وتمت المعجزة . وتمكن هذا الرجل الواحد من أن يضع العالم في قبضته ، ويخضعه لفكرته ، ويطبعه إلى أبد الآبدين بخاتمه ، ويدخل إلى صدره أشعة نور جديد ؟

توفيق الحكيم

١٠٥٢٩

رعاية الطفولة فى الإسلام

للتربية الفاضلة الأستاذة
أسماء فهمى



درج أكثر الناس فى قياس مجد الأمم وحضارتها بمقاييس شتى أهمها النبوغ في الفنون والعلوم، أو ارتقاء النظم والقوانين، أو التفوق الحربي ووفرة الغنى واتساع الملك وقلما جعلوا رق الأمة الوجدانى وتغلغل مبادئ الرحمة والإحسان فيها من أول مقاييس الرقي الهامة. وما دامت هذه الناحية لا تلقى من الدراسة والعناية ما يرجح كفتها، ويرفع قيمتها، لتكون الحجر الأساسى فى بناء الحضارة، فسيظل العالم ولا شك بعيداً عن روح السلام والوئام

ولقد كان للحضارة الإسلامية أوفر الحظ من مبادئ العطف والإنسانية التى تجلت فى نواح عدة من الحياة، فظهرت مثلاً فى معاملة المسلمين لسكان البلاد التى خضعت لسلطانهم مما أنساهم عدة أجيال مذلة الفتح، كما ظهرت في معاملة الرقيق والمرأة، وتجلت فى الرعاية العظيمة التى كان يعامل بها الأطفال. على أن تلك الناحية الخطيرة التى يجب أن تعتبر بحق المقياس الأول للرقى، لم تنل كل ما تستحق من الاهتمام، فلم تأخذ مكانة المقاييس الأخرى بعد. وعلى ذلك فليس أنسب من أن ننتهز فرصة حلول العام الهجرى الجديد لندرس ناحية من نواحى الرقى الوجدانى عند المسلمين فى العصور الماضية، فنتعرف اهتمامهم بشئون الأطفال، وتربيتهم للنشء، لنسبر غور مبادئ الرحمة فيهم

لم يكن الاهتمام بشئون الأطفال مقصوراً على الدين الذى حرم قتل الأبناء خشية الإملاق، وصان حقوق اليتامى وأموالهم، ووضع القوانين للحضانة، وقيد سلطة الأب على أبنائه، ورفع مكانة الأمة إذا أنجبت ولداً لسيدها فأصبحت بسبب وليدها فى مأمن من البيع والشراء؛ بل إن موضوع تربية الطفل ووجوب تعهده بالرفق والعناية لاقى أكبر الاهتمام من كتاب المسلمين ومفكريهم. وإن روح الرفق لتبدو واضحة قوية فى كل ما كتبوا. والواقع أن الشاعر العربى الرقيق العاطفة لم يكن هو وحده الذى عبر بوضوح عن هذه النزعة الانسانية إذ قال:

وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشى على الأرض

بل إن الفيلسوف والمربى عالجا الموضوع بنفس الروح. فلقد اهتم بهذه الناحية نفر من أشهر مفكرى الإسلام مثل ابن سينا والغزالى والعبدرى وابن خلدون. وسنشير إلى بعض آرائهم تسجيلاً لناحية من نواحى الرقي الوجدانى التى تمتاز به الحضارة الإسلامية عما سبقها من الحضارات كالحضارتين الأغريقية والرومانية

فابن سينا يجعل أساس التربية مراعاة ميول الأطفال واستعدادهم، حتى لا يُرهَق الأطفال بأعمال يصعب عليهم أداؤها لأنها لا تجرى مع رغباتهم. وعلى ذلك فابن سينا يحترم الميول مهما كانت متواضعة. كذلك عالج هذا الفيلسوف مشاكل التأديب بطريقة يتجلى فيها الحزم الممزوج بالرفق، فرأى أن يجنب الصبي معايب الأخلاق بالترهيب والترغيب، والإيناس والإيحاش، والإعراض والإقبال، وبالحمد مرة وبالتوبيخ مرة أخرى، ما كان كافياً؛ فإن احتاج للاستعانة باليد لم يحجم عنها. وليكن أول الضرب قليلاً موجعاً كما أشار به الحكماء من قبل، بعد الإرهاب وبعد إعداد الشفعاء. وهكذا لا يجعل ابن سينا القسوة والضرب أول وسيلة للتأديب، بل هو لا يلجأ إلى الضرب إلا إذا فشلت الوسائل الأخرى

ولقد حدد علماء المسلمين عدد الضربات التى توقع على الطفل بثلاث، كما عينوا المواضع التى يحدث فيها الضرب حتى لا يتعرض الطفل للأذى

والغزالى الذى يعتبر حجة الإسلام، والذى كان لآرائه أكبر الأثر في تفكير المسلمين فى العصور التالية، يتكلم عن الطفولة بعطف ورقة لا حد لها. فهو يصف الطفل بأنه « أمانة عند والديه،

وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة ... » ومن ثَمَّ يجب على ولى أمر الطفل أن يقوم بإرشاده بأمانة وإخلاص . وهو يوجب مراعاة شعور الطفل فيقول : « إن الطفل المستحى لا ينبغى أن يهمل ، بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه » ، كما يرى : « ألا يؤخذ الطفل بأول هفوة ، بل يُتغافل عنه ولا يُهتك سره ، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد فى إخفائه » ؛ كما ينصح للمربى : « أن ينظر فى مرض المريض وفى حال سنه ومزاجه وما تحتمله نفسه من الرياضة ويبنى على ذلك رياضته »

والعبدرى الذى عاش بمصر فى القرن الثامن للهجرة يحمل حملة شعواء في كتابه (مدخل الشرع الشريف) على مؤدبى عصره ، وينعى على أولياء أمور الأطفال أنهم يقسون على الصبيان فيضربونهم بعصا اللوز اليابس وبالجريد . ويصر على أن يأخذ المعلم الأطفال بالرفق ما أمكن . ولكن إذا اضطر المربى إلى أن يضرب الصبي على تركه الصلاة متى بلغ السن التى تجيز ذلك ، فلا بأس أن يضربه ضرباً غير مبرح ، ولا يزيد على ثلاثة أصوات شيئاً إلا فى حالات نادرة جداً . وهنا يحدد عدد الأصوات بعشرة ، وهو الحد الأقصى . ولا ينسى العبدرى أن يذكر المربى بتفاصيل عدة لا يخرج مرماها عن مراعاة المسلمين لشعور الأطفال . فهو ينصح المؤدب مثلاً ألا يسمح للتلاميذ أن يحضروا غداءهم معهم إلى المكتب ، أو يحملوا نقوداً لشراء ما يرغبون من الطعام ، حتى لا يتألم الطفل الفقير الذى لا يمكنه مجاراة الموسرين فى مظاهر يسرهم . وعلى ذلك فهو يفضل أن يرجع الأطفال أجمعون إلى منازلهم للغداء

ويرى العبدرى أيضاً أن يلعب الأطفال لعباً جميلاً بعد انصرافهم من المكتب حتى تذهب عنهم آثار التعب والملل ، وحتى يستأنفوا دروسهم بشوق واهتمام

ولقد عقد ابن خلدون فى مقدمته الشهيرة فصلاً فى أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم ، ولا سيما فى أصاغر الولد . وذكر أن كل من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاه إلى الكسل ، وحمل على الخبث والكذب ، وفسدت معانى الإنسانية فيه ... وهكذا وقع لكل أمة حصلت فى قبضة القهر ونال منها العسف

كذلك لم تكن رعاية الأطفال مقصورة على المفكرين والمشتغلين بالتربية ، بل قام المحسنون بإنشاء المعاهد الخيرية لتعليمهم وحمايتهم . وكثير من الكتب الإسلامية تفيض بذكر الكتاتيب التى بنيت لتعليم اليتامى والمساكين وإطعامهم وكسوتهم . ولقد ساهمت المرأة المسلمة بقسط وافر فى هذا الميدان ، إذ يذكر المقريزى فى كتابه الخطط أسماء كثير من النساء اللاتى قمن ببناء الكتاتيب وحبسن عليها الأموال والأملاك لتعليم أبناء الفقراء كتاب الله . وكثيراً ما كان يبنى الكتاب بجانب المدرسة والبيمارستان مما سهل بطبيعة الحال حصول الأطفال على العلم والعلاج

وبلغ من عناية المسلمين بأمر الأطفال أن كلف رئيس الشرطة بتفقد أحوال الكتاتيب لمنع تعليم البنات الصغار أشعار الغرام والمجون مما قد يكون له أثر السيء فى أخلاقهن ، ولحماية الأطفال مما قد يصيبهم من قسوة المعلمين . وهكذا لم تقف الدولة موقفاً سلبياً فى أمر تربية الأطفال

من كل ما تقدم يتبين لنا مقدار تغلغل مبادئ العطف والإنسانية فى ناحية من أهم نواحى الحياة الإسلامية . على أن تقديرنا لمبادئ هذه الرحمة المتجلية فى الاهتمام بالأطفال لا يجعلنا نغض الطرف عن أن المسلمين لم يتخذوا الوسائل الكافية لحماية الطفولة ولسد حاجاتها فى النواحى المختلفة ، فلم يكن لديهم مثلاً قوانين تحمى الأطفال من مزاولة بعض الأعمال التى قد تعوق نموهم ، وتحدد السن التى لا ينبغى تشغيل الأطفال قبل بلوغهم إياها ؛ كما لم يحددوا سناً لبدء الزواج ، فكانت الفتاة تتزوج فى سن مبكرة ، وترهَق بواجبات الأمومة والزوجية وهى لم تزل بعد طفلة . كذلك لم تتوفر المنشآت الخيرية التى تكفى لسد حاجات الفقراء وذوى العاهات . على أن ذلك النقص فى وسائل العلاج لا يقلل من قيمة مبادئ العطف والإنسانية التى بنى عليها الإسلام ، ولا تُخفي روح الإحسان التى تفيض بها الحضارة الإسلامية ، والتى ظهرت فى ميدان الرفق بالأطفال

وإذا كان الغرض الأول من دراسة نواحى الحضارات الغابرة هو تفهم نواحى حياتنا الراهنة والوقوف على مقدار تقدمنا أو قصورنا ، فأنا لا نملك أن نشعر بالخزى من أنفسنا عند ما نستعرض أعمال السلف ونقارنها بمجهودنا الضئيل على رغم ما لدينا من وسائل

الهجـــرة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى



يبدو لى من مراجعة السيرة النبوية الشريفة أن الهجرة إلى المدينة لم تجئ عفواً ولا كانت من وحى الساعة، وإنما كانت خطة محكمة التدبير طال فيها التفكير بعد أن اتجه إليها الذهن اتجاهاً طبيعياً أعانت عليه الحوادث

وكان النبى عليه الصلاة والسلام فى أول الأمر يشير على المسلمين الذين ضاقوا ذرعاً بما كانت قريش تنزله بهم من الأذى أن يتفرقوا فى الأرض، وينصح لهم أن يذهبوا إلى الحبشة ليأمنوا الفتنة عن دينهم ويرتاحوا من العذاب الغليظ الذى كانت قريش تصبه عليهم حتى يأذن الله بالفرج. وأكبر الظن أنه كان يريد أن يؤمن هؤلاء المسلمين على دينهم من ناحية، وأن يحمل قريشاً على التوجس من عاقبة هذه الهجرة الأولى إلى الحبشة عسى أن تفئ إلى الاعتدال والهوادة. ومن الثابت على كل حال أن قريشاً أزعجتها هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة فبعثت إلى النجاشى برسولين منها ومعهما الهدايا ليقنعاه برد هؤلاء المهاجرين إلى مكة، ولكنى لا أظن أنه كانت لهذه الهجرة إلى الحبشة غاية أبعد من ذلك، فما كانت أكثر من معاذ إلى حين، وتدبير ألجأت إليه الحاجة لما اشتدت المحنة بالمسلمين، وتلويح لقريش بامكان العون والمدد من هذه الناحية. على أن بعد الحبشة واختلاف أهلها والمتها ودينها ثم الثورة التى ما لبثت أن شبت على النجاشى وكان من أسبابها إيواؤه المسلمين والعطف عليهم — كل هذا كان من شأنه أن يصرف عن الحبشة ويدعو إلى التفكير فيما هو أصلح منها

واختلف الحال فى مكة أيضاً إلى حد ما بعد أن أسلم عمر ورفض الاستتار والاستخفاء، وشرع يناضل قريشاً ويدفع المسلمين إلى الصلاة فى الكعبة نفسها، وأسلم رجال غير قليلين من قريش، فصارت لجاجة قريش فى تعذيب المسلمين وتقتيلهم كما كانت تفعل غير مأمونة العاقبة. نعم ظلت قريش تؤذى المسلمين وتسئ إليهم، ولكن المسلمين كثروا وصار محمد يعرض نفسه على القبائل وإن كان لم يفز بطائل كبير ولا كفت قريش عن مساءاتها إليه

وقد كبر الشأن واتسعت رقعة الأمل، ولكن التفكير فى أمر قريش وفى الراحة من عنتهم وفى الوسائل المؤدية إلى نشر الدين بأسرع مما ينتشر بقى واجباً ملحاً، ولا سيما بعد أن حوصر المسلمون فى الشعب، ونقضت الصحيفة، ومات أبو طالب وخديجة، وازداد أذى قريش، وردته القبائل عما كان يدعوها إليه من الدخول فى الاسلام؛ وتوالت السنون على هذا الحال، فكان من الطبيعى أن يفكر النبى عليه الصلاة والسلام فى مخرج حاسم يفرج الكرب ويزيل المحنة ويفسح مجال الأمل ويوطد الأمر. وأحسب أن من الطبيعى والمعقول أن يفكر فى يثرب أول ما يفكر، وأن تكون هذه أبرز ما يبرز وأول ما يخطر على البال وأسبق ما يرد على الخاطر، فقد كانت يثرب طريقه فى الزمن السالف أيام كان

وتجارب ومعرفة. وعلى الرغم من مرور كل هاتيك السنين لم تتقدم غير خطوات قليلة في ميدان الرفق بالأطفال. فثلاثة أرباع أطفالنا إما مصابون بداء الجهل والأمية وهو أصل كل شقاء، وإما جياع حفاة عراة تموج بهم الطرقات، وإما مرضى بأدواء شتى بسبب إهمالهم وحرمانهم حتى من ماء الشرب النقى. وأخشى كثيراً أن نظهر فى مؤخرة الأمم فى الحضارة والرقى إذا اعتبرنا مقياس التقدم الحقيقى هو مبلغ تغلغل مبادئ العطف والانسانية التى تقل مظاهرها لدينا لسوء الحظ

وفى ضوء هذه المآسى، ولشعورنا بما قدمنا وما أخرنا، يبدو لنا الماضى عظيماً حقاً، فنتجه إليه باعجاب وخشوع، ونتحدث عن آثاره حيناً من الدهر نشعر بعده بشئ من راحة المعترف بالفضل المقر بالذنب

أسماء فهمى
الأستاذة بمعهد التربية. درجة شرف فى التاريخ
ودرجة الأستاذية فى التربية من انجلترا

يعمل فى التجارة، ولم تكن طريقه فقط بل كانت له بها علاقة تجارة أيضاً؛ وله فيها عدا ذلك بعض ذوى القربى ونعنى بهم أخوال جده من بنى النجار؛ ثم إن أباه عبد الله بن عبد المطلب مدفون فيها، وقد كانت أمه فى حداثته تزور هذا القبر فى كل عام، وكانت تستصحب ابنها معها. وقد شاء القدر أن تمرض أمه وهى عائدة من إحدى هذه الزيارات وأن تموت وتدفن فى الطريق بين مكة ويثرب. فما من شك فى أن يثرب كان لها نوطة بقلبه وعلوق بنفسه فما يسعه أن ينسى طفولته ويتمه وأباه الدفين هناك وأمه الراقدة فى الفلاة على طريقها

وقد كان النبي صلوات الله عليه يعرض نفسه على القادمين من يثرب كما كان يعرض نفسه على رجال القبائل الأخرى، فأسلم أولا من الأوس واحد، ثم أسلم من الخزرج نفر استجابوا لدعوته وحدثوه بما بين الأوس والخزرج من العداوة التى بثها اليهود فيهم ليظفروا بهم ويتحكموا فيهم. وكان اليهود قد نجحوا فى إيقاد نار الفتنة بين هاتين القبيلتين، ولكنهم نجحوا فى أمر آخر لم يكونوا يقصدون اليه، فقد كان اليهود وهم أهل كتاب يذمون إلى الأوس والخزرج ما هم فيه من الوثنية والشرك ويحدثونهم عن دينهم وكتابهم، فتركوا فى نفوسهم أثراً روحياً لم يكن لمثله وجود فى أهل مكة. وقد عرف النبي عليه الصلاة والسلام هذا كله وعرف أيضاً أن الفريقين المتعاديين — الأوس والخزرج — قد فطنوا إلى ما هم فيه من الشر، وانتهوا إلى أن يجمعهم الله بعد طول العداوة، وأدرك أن دعوته خليقة أن تلقى هناك من حسن الاصغاء وطيب القبول ما لا تظفر بمثله فى مكان آخر وبلد غير يثرب. وقد صدق ظنه وتفتحت القلوب فى يثرب لدعوته؛ ولم يمض إلا عام واحد حتى جاءه رجال من يثرب يبايعونه البيعة التي تعرف ببيعة العقبة الأولى على ألا يشركوا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يكذبوا ولا يعصوا الله. ومما يدل على قيمة هذه البيعة أن النبى احتاج أن ينفذ إلى يثرب من يقريء المسلمين بها القرآن ويعلمهم ويثقفهم فى الدين. وكانت هذه فاتحة ميمونة لانتشار الاسلام فى يثرب على صورة جدية وفي نطاق واسع

وكان مقام المسلمين فى يثرب طيباً محموداً لا أذى فيه ولا مشقة، فغير معقول ألا يفكر النبي فى اتخاذ يثرب مهجراً للمسلمين الذين يعانون الأمرين فى مكة، ولنفسه أيضاً إذا كان لا بد من ذلك ولا معدى عن ذلك ... إن التفكير فى ذلك هو تفكير يبعث عليه ويوحى به واجب الدفاع عن النفس. يدل على ذلك أن النبى فى العام التالى — لما قدم مكة عشرات من مسلمى يثرب — لقيهم واقترح أو طلب أن يعقد مع مسلمى يثرب حلفاً دفاعياً لرد عدوان المشركين. وقد تم له ما أراد وعقدت بيعة العقبة الثانية وهي أول تدبير عملى فى سبيل الدفاع عن النفس. وقد أزعج خبرها قريشاً جداً فاضطربت وأشفقت وذهبت تسعى لتستوثق من الخبر، فان صحة الخبر معناها ذهاب كل أمل فى التغلب على النبي ... وقد بلغ من جزعهم من هذا الحلف وصحة تقديرهم لعواقبه المحققة أن قريشاً ائتمرت بالنبى تريد قتله ودبرت ذلك فعلا وأحكمت التدبير كما هو معروف مشهور، فأدى ذلك إلى التعجيل بهجرة النبى نفسه

وقد كانت الهجرة في سبيل الله وللدفاع عن النفس ولكنها أدت إلى أمور شتى. فقد كان النبى فى مكة حسبه أن يتقى أذى قريش ويتجلد ويصبر على عنتهم واضطهادهم، فلما هاجر لم يبق لمثل هذا الصبر مسوغ، ولا بالمسلمين إليه حاجة، وقد كثروا وصارت لهم قوة من جموع الأنصار والمهاجرين معاً. فنى وسعهم أن يردوا الأذى بالأذى ويقابلوا العدوان بالعدوان. ثم إن كثرة المسلمين فى يثرب جعلتهم جماعة يجب فضلا عن تثقيفهم فى الدين تنظيم أمورهم والنظر فى مصالحهم وإقامة علاقاتهم بغيرهم على قواعد مرضية. وقد بدأ التشريع الاسلامى بعد الهجرة، وبدأت كذلك الحروب باللسان ثم بالسلاح، وبدأ التعرض لتجارة قريش. ولا حاجة بنا إلى التفصيل فانه تاريخ معروف؛ ويكفى أن نقول إن الهجرة أتاحت للمسلمين أن يكونوا أمة، وأن ينتظموا كما تنتظم الأمم، وأن كسبتهم مركزاً تسنى لهم بفضله أن يتحكموا فى مكة اقتصادياً وحربياً أيضاً؛ وقد انتهى الأمر بالفعل بفتح مكة وإعلاء كلمة الله

ويكفى للدلالة على ما كان للهجرة إلى يثرب من قيمة فى التاريخ الإسلامي أنه لما أريد بعد ذلك تأريخ الحوادث أشار عمر ابن الخطاب رضى الله عنه باتخاذ عام الهجرة مبدأ لهذا التاريخ. والواقع أن هذه الهجرة كانت هى الباب الذى فتحه الله لنشر الدين وإعلاء شأنه والقضاء على الشرك والكفر، وجعل من العرب أمة لها فى العالم مقام وفى حياته أثر. ولو أن الهجرة كانت إلى الحبشة لما أثمرت شيئاً من هذا، ولخرج الأمر على كل حال من جزيرة العرب، ولكان الأرجح ألا ينتقل العرب إلى حال أخرى.

مجد العرب والإسلام

للأستاذ عبد الرحمن شكرى



فى سنة ١٩٠٩ كنت فى جامعة من جامعات انجلترة، وكان أحد أساتذتنا فى الجامعة قد دعانى إلى وليمة أعدها إلىّ كما دعوته إلى مثلها؛ وكانت هذه الدعوات عادة الأساتذة والطلبة، فجلسنا إلى مائدة الطعام ولم يمنعنا من الحديث فيما هو عملنا وبحثنا وهو التاريخ كما تفعل كل طائفة، فإن الناس لا يمتنعون حتى فى مباذلهم وأوقات راحتهم عن الحديث فى أعمالهم اليومية. ولما كان الإنجليز أمة تجار وتكثر فى إنجلترة الدكاكين فقد اشتقوا في لغتهم عبارة يعبرون بها عن هذه الظاهرة. فكلما تكلمت طائفة فى أمر من أمور أعمالها اليومية قالوا إن حديثهم كان دكاناً أو عن الدكان حتى ولو كانت الطائفة من المشتغلين بالعلم وليس لهم دكان

فأخذنا في الحديث عن التاريخ والحضارات، وكان أستاذنا صاحب الدعوة قد عودنا الصراحة فى القول والتفكير والبحث، فكان لا يخفي رأيه فى أمور حضارتنا كما كنا لا نخفى رأينا عنه فى أمور قومه وتاريخهم وحضارتهم. وكانت المناقشة لا تتعدى الوقار والأدب. فقال الأستاذ إن التاريخ يدل على أن مظاهر الرحمة فى الحضارات والدول الأوربية قديماً وحديثاً كانت أعظم من مظاهر الرحمة فى الحضارات والدول الشرقية، وقال إن هذا يدل على أن الحضارات الأوربية قديماً وحديثاً أرقى من الحضارات الشرقية، وكان الأستاذ يعرف حوادث تاريخ الشرق والغرب فى القرون الوسطى لأنه كان أستاذ تاريخ تلك العصور فذكر لنا قصة رجل خرج على الرشيد فظفر به الرشيد ومثل به تمثيلاً شنيعاً، ثم ذكر قصصاً عن سلخ بعض الفاطميين أسرى من أسراهم وهم على قيد الحياة. فقلت يا أستاذ: هذا تعميم كبير، ولا يتفق مثل هذا التعميم مع العلم الذى يقتضى فروق الزمان والمكان واختلاف طبائع الناس وحكامهم وتباين آرائهم وميولهم النفسية؛ وذكرت له كيف أن سيدنا على بن أبي طالب (رضه) عند ما أصابه عبد الرحمن بن ملجم أوصى قبل موته ألا يمثلوا بقاتله. وذكرته بالتمثيل الشنيع الذى كان حظ من يحاول قتل أمير أو ملك من ملوك أوربا فى تلك العصور؛ وذكرت له قصصاً من قصص عدل الخلفاء الراشدين وأخرى من قصص حلم معاوية للدلالة على اختلاف الطبائع وسموها، فذكرت فيما ذكرت قصة المرأة التى لم تجد قوت عيالها وكيف بكى عمر بن الخطاب (رضه) من خشية الله عند ما سمع صياحها واستغاثتها، ووصفت اهتمامه وخدمته لها وهو خليفة وحاكم من كبار حكام الدنيا؛ وذكرته بتقرب الإغريق وهم منبع النور والرحمة والعلم والحضارة فى أوربا إلى آلهتهم بالضحايا البشرية فى عصر من أزهى عصورهم وهو عصر حربهم مع الفرس، فقد أسروا أولاداً صغاراً من بيت

ولو أنها كانت إلى اليمن مثلاً لكان الأغلب أن تبقى مكة بمعزل عن الاسلام، ولكن المدينة كانت على طريق التجارة إلى الشام، فالذى يستولى على الأمر فيها يتسلط على مكة ويتحكم فى حياتها كما حدث بالفعل

ولاشك أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يفكر فى المدينة من زمان طويل قبل أن يقصد إليها، فقد كان كل شيء يدعو إلى ذلك: حنين قلبه ومصلحة المسلمين فى الدفاع عن أنفسهم أولا ثم فى التغلب على مكة والقضاء على شرك قريش. ولعل من الدلائل على طول التفكير واتجاه النفس وعلى الإيحاء أيضاً أن النبي كان أول الأمر يتجه فى الصلاة إلى المدينة جاعلاً قبلته المسجد الأقصى، فلما انتهى هذا الدور جعل الكعبة قبلته فى الصلاة فوجه المسلمين صوب مكة حتى استولى عليها

ابراهيم عبد القادر المازنى

***

حاشية — لا أحب أن يفهم أحد أن اتخاذ الكعبة قبلة كان القصد منه الايحاء إلى المسلمين بالاتجاه إليها والرغبة فى الاستيلاء عليها، فما أريد أكثر من أن تحويل القبلة إلى الكعبة كان هذا بعض نتائجه (المازنى)

الأمارة فى فارس فقدموهم ضحايا لآلهتهم كى تمنحهم النصر. وذكرته بالرومان وما جره ازدراؤهم للحياة البشرية من الفظائع، وقلت إن القسوة ليست مقصورة على الشرق، وليست الرحمة مقصورة على الغرب؛ وذكرته بفظائع الأشراف والأمراء فى قلاعهم فى العصور الوسطى وما نال اليهود وغير اليهود من أهوال؛ وذكرته بجرائم عصر إحياء العلوم وهو من العصور الأوربية الزاهرة وأساس حضارتها الحديثة؛ وأشرت إلى محاكم التفتيش وتمثيلها بضحاياها؛ وذكرته بالفظائع الدينية والسياسية فى عهد أسرتى تيودور وستوارت، وقبلها في عهد أسر بلانتاجنت ويورك ولانكستر؛ وذكرته بقسوة القانون الذى كان يشنق الطفل الصغير الجائع من أجل لقمة، وبمغالاة رجال القانون فى أوربا في العصور الوسطى مغالاة أدت بهم إلى محاكمة الحيوانات العجم وشنقها أو إعدامها أو التمثيل بها بعد محاكمة طويلة تذكرنا بقول الشاعر العربى وهو يسخر من حاكم أحمق:

أقاد لنا كلباً بكلب ولم يدع دماء كلاب المسلمين تضيع

وذكرته بالويل والهلاك وكانا نصيب كثير من النساء اللواتى كن يتهمن بالسحر فى أوربا حتى فى العصور القريبة المتحضرة. ثم ذكرته بما كانت عليه أوربا من القسوة والهمجية بينما كانت مظاهر الرحمة والنور تنبعث من أسبانيا العربية. وذكرته بما كان يرتكب فى الحروب الدينية فى أوربا من قسوة لا حد لها وتمثيل شنيع؛ وذكرته باستعباد الأطفال والنساء فى المصانع قبل التشريع الحديث؛ وذكرته بأسبانيا وما صنعته مع العرب واليهود، وما ارتكبته فى ممتلكاتها الأمريكية مع الهنود الحمر من فظائع تقشعر منها الأبدان، وما فعله المخاطرون الأوربيون فى جزر المحيط الهادى من قسوة، وما فعله رجال بعض الدول الأوربية — حتى فى عصرنا هذا — مع السكان الآمنين فى أوقات الحروب من قسوة وتعذيب وتقتيل وتمثيل. قال الأستاذ: كل هـذا لا شك فيه، ولـكن كان الحكام فى أوربا إذا فعلوا شيئاً مما ذكرت يجدون فى شعوبهم من يجرؤ على نقدهم؛ أما فى الشرق فلا. فذكرت له كيف كان الواعظ يدخل على الخليفة فيقرّعه حتى يبكى كما فعل أحدهم مع هرون الرشيد، وذكرت كيف أن من القضاة من كان يزهد فى منصب القضاء وإن أوذى من أجل رفضه. قال الأستاذ: يخيل إلى أن الحكم على حياة أمة من الأمم حكماً عاماً من حيث مظاهر الرحمة أو القسوة فيهـا من الصعوبة بمكان، أو لعله ليس من المستطاع، لأن المؤرخين لم يكن ميزانهم للحضارات وقياسهم لها بميزان الرحمة ومظاهرها فلم يحصوها كلها، ولو فعلوا لاستطعنا أن نحكم بإحصائهم. قلت: إذاً لا نستطيع أن نقول على التعميم إن مظاهر الرحمة فى الحضارات الأوربيـة كانت دائماً أكثر من مظاهرها فى الحضارات الشرقية أو العربيـة الإسلامية. قال الأستاذ: ربما كان الأمر كما تقول، ولـكن العرب أصلهم قوم بدو، والرحمة فى كثير من الأحايين لا تصل إلى قلوب البدو، لطبيعة أرضهم الجرداء القاسية وصعوبة نيل الرزق، فأعدتهم أرضهم القاسية بقسوتها. ولعلك تذكر غارات القبائل بعضها على بعض حتى بعد الإسلام، وما كان يحدث فى تلك الغارات فى بعض الأحايين من قتل النساء والأطفال. ولعلك تذكر أيضاً كيف كانوا يعاملون الحجاج الذين يقصدون مكة. ومن أجل هذه الطباع فيهم دخلت الحدود فى الإسلام لتكبح جماح البدو، وأريد تطبيقها فى بلاد طبيعة أهلها وطبيعة أرضها غير هـذه الطبيعة. ومن أجل شدة الحر فى بلاد العرب وإطلاق البدو أنفسهم على سجيتها دخل فى الإسلام رجم الزانى ثم نقل إلى بلاد أخرى. قلت: يا أستاذ فرض على الحاكم أن يدرأ الحدود بالشبهات، وذكرت له قصة عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع أبى بكرة، وكيف أنه جعل يتلمس الشبهات فى شهادة الشهود حتى نجى الرجل من حد الزنى، وذكرته أن التعزير من عقوبات الإسلام، وذكرته بما يفعله الناس فى أمم أوربا وأمريكا إذا قصر القانون أو استبطأوه، فإنهم يختطفون المتهم ويعاقبونه أقسى عقاب، وقد يمثلون به أشنع تمثيل؛ وقد يكون الرجل بريئاً مما نسب إليه. وذكرته بما تفعله أحدث الدول الأوربية إذا اضطرب حبل الأمن فى بقعة شرقية. وقلت له إن الحدود لم تمنع انبعاث مظاهر الرحمة والنور فى أسبانيا العربيـة بينما كانت أوربا غارقة فى بحر من ظلمات الجهل والقسوة، ويشهد بذلك كثير من المؤرخين الأوربيين

وإلى هنا انتهى حديثى مع ذلك الأستاذ الجامعى بعد أن ذكرته بأن سوء ظن الأمة بالأمة، وأهل القارة بأهل قارة أخرى، هو من قبيل سوء ظن الإنسان بإنسان آخر لا يعرفه أو لا يعرف عنه إلا القليل، وهى ظاهرة فى النفس الإنسانية عامة

يستوى فيها العالم والجاهل والفطن والغبى والمنصف والظالم

أقول إن هذه الظاهرة هى سبب ما نراه من نكران بعض المؤرخين الأوربيين لفضل العرب على الحضارة الأوربية أو تهوينهم أمر أثر العرب فى تلك الحضارة ، فبعضهم لا يقرون للعرب إلا بأنهم كانوا قنطرة عبرت عليها علوم الحضارة الأغريقية الرومانية إلى الحضارة الأوربية الحديثة ، وبعضهم يقول إن الحضارة الأوربية كانت نامية لا محالة حتى لو أن أوربا لم تتأثر بالحضارة العربية . ويقول إن العرب لم يكونوا كل مصادر الحضارة الأغريقية ، وإن المصادر الأخرى الأوربية كانت أجدى وأنفع وألصق . ومما يؤسف له أن بعض الشرقيين قد جاروا هؤلاء فى دعواهم من غير تقصٍّ ولا بحث عميق

إن الحضارة الأوربية كانت حقيقة نامية لا محالة لأسباب داخلة فى تاريخها ؛ ولولا استعداد الأوربيين للتأثر بالحضارة العربية ما أمكنهم قبولها ؛ واستعدادهم هذا يدل على بدء نمو الحضارة فيهم ؛ ولكن هذا لا ينفى أنهم تأثروا بالحضارة العربية تأثراً كبيراً . ولا تزال المعركة الكلامية قائمة بين من يمجد أثر العرب فى الحضارة الأوربية ومن يقلل من أثرهم من المؤرخين . والفريق الثانى ينظر إلى العيوب ويغفل عن الحسنات ، فينظر مثلا إلى إضاعة بعض علماء العرب وقتهم وجهدهم فى محاولة كشف إكسير الحياة أو حجر الفلاسفة ، ويغفل كشوفهم العديدة وفضلهم على العلوم الحديثة على اختلاف أنواعها ، فيغفل فضلهم فى نقل الورق إلى أوربا ، ولولاه ما أجدى اختراع المطابع وتحسينها ، ولا كانت للحضارة الحديثة مظاهرها الشاملة ؛ ويغفل ما نقلوه إلى أوربا من المصنوعات والمنسوجات والمزروعات المختلفة ، وما أعطوهم من مخترعات مثل الأسطرلاب وبيت الأبرة والعدسة ؛ ويغفلون فضلهم على الطب والتشريح والفلك والعلوم الرياضية وأنواع الهندسة والكيمياء ، كما يغفل أثرهم وقدوتهم في وسائل الرى وإعداد المدن بوسائل الراحة والرفاهية والنظافة كما فعلوا فى إسبانيا وغيرها . ويغفل أثرهم فى العلم والتعليم وكيف انتشر التعليم والاشتغال بالعلم انتشاراً لم يكن له مثيل . وقد أقر المؤرخ دريبر فى كتاب (نمو الفكر الأوربى) بهذا التعصب ضد الحضارة الإسلامية كما أقر به ماكاب في كتاب (مجد إسبانيا العربية) .

وقد ظهر أثر العرب فى التحاق أبناء الأغنياء الأوربيين بمدارسهم ، وكانوا يتجشمون الأسفار من أجل ذلك . وقد تعلم فى مدارس العرب بعض رجال الدين المسيحى ومنهم البابا سلفستر ؛ ونشر العرب مبادئ الفروسية وأخلاقها وسجاياها من شهامة ونجدة ظهرت فى بدء عصر الفروسية ، وكان لهم أثر فى تكوين آداب اللغات الأوربية الحديثة ، فظهر أثرهم فى شعراء الرومانس والتروفر والتروبادور كما ظهر فى آراء المصلحين الدينيين وفى رحلات الكشوف

والمؤرخ (ماكاب) رأى يتفق ورأيه الدينى وهو أن الحضارة العربية فى الأندلس لم يقض عليها الترف والتنعم والضعف ، وإنما قضى عليها التعصب الدينى من جانب الأسبان المسيحيين بعد أن أضعفها التعصب من جانب المرابطين والموحدين وإن صدوا الأسبان عنها زمناً . ولا يقصر هذا المؤلف وصفه على الحضارة العربية فى الأندلس ، بل يصف الحضارات العربية فى بقاع أخرى ولم يكن العرب وحدهم بناة هذا المجد وهذه الحضارة ، بل اشترك فى بنائهما الأمم التى اعتنقت الإسلام وتعلمت اللغة العربية حتى صارت لغة لها

عبد الرحمن شكرى

الى حجاج الجامعة المصرية

محمد يرجع !

للأستاذ عبد المنعم خلاف



محمد يرجع ويعمل عمله من جديد فى نفوس الشباب ويناديهم إليه ليربيهم فى المهد الذى أنشأ فيه نفوس أبوتهم الأولى

وهم يلبون نداءه سراعاً، خفافاً وثقالا، وفى طليعتهم ملك ... لأنهم أدركوا ببداهة الشباب وإحساسه بحاجات زمانه أنه نداء لا يمكن أن يعلو عليه لغو أو يحجبه ضجيج

وقد سارت إليه جماعات منذ سنوات تسمعه ينطق في القرن العشرين جديداً عجيباً غريباً كما كان جديداً عجيباً غريباً منذ ألف وثلاثمائة

بيد أن أدعى جماعة إلى الالتفات إليها هى هذه الجماعة الجامعية التى يحدو لها عقل « أمين » وروح « عزام » وخلق « العبادى »

***

لقد افتتحت الجامعة حياتها بروح تمرد وثورة على محمد ... ولكن مَن هذا الذى يغالب محمداً ولا يُغلب، ويحتك بروحه ولا يغطس ويجذب ؟! لقد استطاع روح الحق الذي تمثل فيه أن يكب كل عنيد على ذقنه ساجداً، ويأخذه إليه طائعاً أو كارهاً.

وقد عودنا تاريخ دعوته أنها تنمو حين تقاوَم، وتبدو حين تحجب

ألم يغزُ التتار دياره، ويخربوا آثاره، فغزا قلوبهم ودوخ رءوسهم ؟

ألم يرد الصليبيون محوه فمحا خرافاتهم وضلالاتهم وفتح أعينهم على مبادئ الحياة الجديدة ؟

ألم يعزم المستعمرون على تكبيل أهله بالقيود الأبدية فأضرم من ناره على الحديد فأساله، وأذاب أغلاله ؟

ألم يحاول المخدوعون الحالمون أن يهدموه فى نفوسهم ونفوس أمتهم فاذا به يعلو ويعلو فيخنق أصواتهم ويحطم معاولهم ثم يضطرهم أخيراً إلى البناء فيه ؟

***

من معجزات الاسلام أنه عزته اليوم تبنى على أيدى أحرار الفكر الذين أعلنوا فى كل مناسبة أنهم يؤمنون بحرية البحث.

وكأن القدر يقول للناس: هؤلاء الذين تظنونهم سبب شكوكم قد آمنوا فآمِنوا

ومن العجيب أيضاً أن الحج الذى هو منطقة كثير من التعبديات والرموز يكون أول مظاهرة روحية عملية تقوم بها الجامعة العقلية !

والأعجب أن تنبت الفكرة فى الجامعة لا فى الأزهر !

حادث عظيم فى طريقنا إلى الحياة القويمة لا ريب !

***

حج مبرور من بُناة العقل إلى أرض الروح. الروح الذى لم يجدوه فى الدفاتر والمخابر فراحوا يبحثون عنه فى الصحراء ... الكتاب الكبير المسطور بالرمال الخالدة والكلمات الصامتة التى قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شاب مثلهم ففهم بها خبر السماء وطلاسم الوحى

لا أستاذية ولا « دكترة » ولا مخابر ومنابر، وإنما هناك هيا كل خالدة عامرة أبداً بالنجوم، ومحاريب يسجد فيها الصباحَ والمساء، ومنصات تقف عليها الطبيعة صامتة متجردة لا تتشح «بالروب» ولا تهز ذقنها كما يهز العلماء لحاهم حين يلقون الدروس!

***

عشتم أياماً فى التاريخ، على هامش الحياة، فى مركز الأرض، فى مهد الانسان، فى حضن الأم الوالدة، فى مكان الخاثر، فى البدائيات

التفتت إليكم الجبال والرمال والآثار التى تعرف محمداً وأصحاب محمد من الشباب، إذ كنتم أول فوج عجيب زارها فى القرن العشرين، فعرفت أن الزمان يتمخض عن شىء

فاقلتم الخطا على مواقع أقدام رسولكم الأعظم وتلاميذه الأبطال ... فأحاطت بكم الأرواح والأطياف لتنظر براعم الربيع الجديد وتربيها ، وتعمل سحرها فيها

سيكون لكم فى التاريخ الجديد ما كان لنقباء « بيعة العقبة » فى التاريخ القديم ، يا نقباء الجامعة . فافهموا ما يشير إليه الزمان

* * *

وقفتم فى مركز الدائرة التى يقف المسلمون على محيطها بالاعتقاد فى الله الواحد، وبالمساواة فى الشرع الواحد ، وبالأخوة فى الدين الواحد ، وجباه المسلمين فى المشرقين والمغربين تحيط بكم من جميع الآفاق ساجدة يصعد إلى الله الأعلى كلها الطيب وعفرها الطاهر ... وتسافر إليكم نظراتها مخترقة الحجب والسدود حتى ترى فى الغيب ما ترون فى الشهادة ...

تجردتم عن المخيط من الثياب وعن الزينة والنعومة والتطرية وخرجتم نساكا شُعثاً غبراً طالت أظفاركم وتهدلت شعوركم ، وكل منكم ناحل ضامر فى استغراق روحى عميق ، نظيف المادة طاهر الخلق ... إنه مشهد « سينمائى » جيل تمثلون به حياة الأنبياء .. فصلوات الله عليكم !

نقل الله لكم ناس الدنيا جميعها لتسمعوا النشيد الخالد يرتلونه مجتمعين بلغة « الكتاب » لغة الأمة الأمية الخالدة ... ولتعرفوا معنى التوحيد الذى أراد الإسلام أن يطبع الإنسانية عليه ... ولتروا الأحلام الكبيرة التى طافت بعقول الفلاسفة ، حقائق وأجساداً تمشى على الأرض فى « المدينة الفاضلة » الآمنة ... أم القرى

هل يمكن أن يخرج مثل هـذا أكبر فنان ؟ لا فالواقع هنا أكثر من الخيال ، فلا حاجة إلى الكلام أو الأصباغ ...

* * *

رأيتم بدء النور فى « غار حراء ... » ، وبدء المحنة فى شعاب مكة ... وبدء الفرج فى « غار ثور » ، وبدء الأمل فى « بدر » وبدء البَذْل فى « أُحُد » ... وبدء النصر فى « الحديبية » ، وبدء الوحدة فى مكة

ورأيتم نهاية النبوات وخاتمة الرسالات تسكن أشباراً من الأرض القاحلة بعد أن صاحت فى آفاق الشرق والمغرب والشمال والجنوب « بالكلمة العليا » التى قام عليها صلاح العـالم ، وبأن « الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » فيجب أن تبدأ الانسانية عهداً جديداً

وحقيق على من رأى معالم البدء والنهاية من جهاد الرسول الأعظم أن ينقل صورها إلى كل نفس ، وأن يحافظ على حياتها دائماً فى قلوب الناس وأفكارهم حتى لا يطمسها جهل أو عقوق

ومسألة المسائل أمامنا وأمامكم أن نؤمن وأن نعلم وأن نعمل .

فاعملوا لذلك عمل المنقذين الذين يدركون شقاء النـاس والعلاج الذى فى مواريث الرسول الأعظم

* * *

ليس يغنينا علم ولا فلسفة إذا لم يكن لنا إيمان ... لأن العلم والفلسفة من مخلوقات الانسان .. ولن يعبد الانسان ما قد خلق ويسعد به ... أما الإيمان فهو الكنز الخفى الذى ننفق منه سراً وجهراً ولا ينفـد ، فنحن به فى غنى دائم لأننا منه فى فيض دائم .

وقد تتحطم الانسانية بالعلم ، وقد تهذى بالفلسفة وتتفرق بها شيعاً وقبائل ، ولكنها تُبنى دائماً بالايمان وتلتقى فى قدسه ورحابه

فزاوجوا بين ثلاثة الأقانيم هذه وأخرجوا منها معنى الحياة الخالدة للانسانية الفانية التى تأتى إلى الدنيا ولا تعرف لماذا أتت .. وتمضى إلى الأخرى وهى تحسب أن كل تاريخها فى الأرض قبر من القبور ...

أشبعوا الكفايات الإنسانية الثلاث التى أشار إليها « برتداندرسل » .. أشبعو « كفاية الاعتقاد » بالدين ، وكفاية الإثبات » بالعلم ، « وكفاية التأمل » بالفلسفة حتى توجدوا النفس الكاملة

وتلك رسالة الجامعة وهى تدركها لا ريب .

« بغداد » عبد المنعم خلاف

ذكرى الهجرة

طريق الجهاد

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

قم باسم ربك للجهاد وناضـــلِ
واصدع بصوت الحقِّ صوتَ الباطلِ

لا ترهبنك من قريش عصبةٌ ... ما بين لاهٍ في الضلال وغافلِ
أترك منازلهم وخلِّ ديارهم ... حُشْداً تعجُّ بجمعها المتطاول ..
دعهم يثيرون القلوبَ سخائما ... ويؤلبون عليك كلَّ مُصاول
ويجرِّئون عليك كلَّ مُسَفَّهٍ ... دانٍ إلى الإسفاف أرعنَ جاهلِ
هيهات ما لحقوا مَداك بطالع ... منهم ولا خَبأوا سناك بآفل
(الشِّرك) لم تفلح لديك شراكُهُ ... يوماً ولم تظفر لديك بطائل ..

* * *

يا أيها الواعي رسالةَ ربه ... اللهُ سيفك في القتال فقاتل
قوِّم بهذا السيف ركن المنحنى ... وأقم بهـــذا الرمح عودَ المائل
واهجم على الباغي بغير تهجم ... واحمل على العادى بغير تحامل
وأضئْ سبيل المشركين ولقِّهم ... وَحيَ النبيِّ وملهمات الـكامل
واطلع كما طلع الربيع مبشراً ... بالخير في البلد الجديب الماحل
وانشر على الدنيا السلام وقل لها ... طيبي بأمن في رباعك شامل
واجمع من الشمل المفرَّق أمةً ... قد أُحكمت بوشائج ووصائل
قامت إلى (كسرى) تدك بناءه ... وتهدُّ من (إيوانه) بمعاول
ومشت (لقيصر) في علاه كأنها ... قدَرٌ يصول بعزة وتطاول
البرُّ سيَّال الأباطح حافلٌ ... والبحر عالي المتن حشدُ الساحل

* * *

آذاك قومك فاحتملت لأجلهم ... عَنَتَ اللجوج وسوْءَةَ المتحامل
وصبرت والدنيا تهونُ لصابر ... وحملت والبلوى تخف لحامل
يا أوسع الدنيا العريضة فكرةً ... أيضيق صدرك بالخيال الزائل؟
من كان في الله الـكريم جهادُه ... لم يَعْيَ من عبء الحياة بكاهل
عاداك أهلك في الديار وأسرفوا ... واستنجد المخذول بالمتخاذل!
نَفَسوا عليك بأنفس مشبوبة ... تغلي بنار الحقد غليَ مراجل
عادَوْك لما كنت أكمل عقدهم ... والناس أعداء المثال الـكامل

* * *

إضرب بسيف الله كل منافق ... واغلب بمكر الله كل مخاتل
واصدع بأمر الله إن سبيله ... وضح المعالم مستقيم الداخل
واظهر فإن الله جارك في الوغى ... وسهامُ قوسك في الزحام النابل
لا تخش من تلك الجموع فإنها ... عند اشتباك الأمر جد قلائل ..

* * *

يا أيها الهادى بذلت على رضًى ... والنصر عاقبة الـكريم الباذل
وضحتْ دلائلُ من هداك وضوَّأتْ
(وقريشُ) سائرةٌ بغير دلائل
يمشون في الجهل القديم وقيده ... وظلامه كالعاثر المتثاقل
ماضر لو تبعوا خطاك وأخلدوا ... للسلم في الربع الأمين الآهل؟
لـكنهم رجعوا إلى أجدادهم .. ... واستعصموا منهم بركن مائل ..

* * *

يا أيها المعصوم حسبك قَوْمَةً ... لله مالقى الهـدى من جاهل
مالت (قريشُ) إلى الهوى وتآمرت
وأســاء جاهلها الـكبير لعاقل
كان «الإلٰه» بها صناعة ناحت ... ووليد أثملة وطُعمة[1] آكل!
عميتْ محجات البيان وأشكلت ... وتشابه الصوَّال بالمتصاول ...
وطغى على أرض الجزيرة جارف ... كالسيل في إثر الغمام الهاطل
غطَّى على «قيس» فأغطش ليلها ... واجتاح ما أبقى الزمان (بوائل)
فوضى .. فما سعدوا برأى صالح ... فيهم ولا ظفروا بحكم عادل

* * *

جاهدت لله الـكريم فلم تمل ... لهوًى ولم تجنح لرأى باطل
حتى إذا آذاك قومك لم تجد ... غير الرحيل فكنتَ أشرف راحل
يومٌ بدأتَ به الحياة جديدةً ... لله واستأنفتها مِنْ قابل ...
(الفتح) جاءك فيه بين أسنَّةٍ
(والنصر) جاءك فيه تحت عوامل[2] ..
ذكرى سنحييها لعل طريقها ... يهدى الشباب إلى الطريق الحافل!

محمد عبد الغني حسن
مدرسة بالمنصورة الثانوية

---

(١) كان بعض عباد الجاهلية صنع صنما من العجوة ثم أكله ...!
(٢) العوامل جمع عامل وهو قائم الرمح

الحكومة الإسلامية الأولى

للأستاذ الشيخ علي الخفيف
مدير المساجد



دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه . فبدأ دعوته في مكة حيث نشأ ، ومكث بها داعياً ثلاث عشرة سنة تبعه فيها السابقون الأولون من المؤمنين وهم قليل. فأوذوا في أنفسهم وأموالهم وفتنوا في دينهم . وحيل بين الدعوة وبين ظهورها ونشرها ، كما منع الناس من أن يطرق الحق آذانهم أو تصل الذكرى إلى قلوبهم . وكان ذلك بأيدي أولي القوة والحماية ، وبأعين أهل الحكم والولاية . وكان المؤمنون يومئذ فئة قليلة لا يملكون قوة ولا يستطيعون دفاعاً ولا يجدون أمناً ولا عدلاً . فلم يجدوا سبيلاً لحياتهم إلا الهجرة من ديارهم

هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهاجر إليها المؤمنون من قبله ومن بعده يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله ، فحلوا على الرحب والسعة بين إخوانهم وحلفائهم من الأوس والخزرج الذين آزروهم ونصروهم وأشركوهم في ديارهم وأموالهم ، وعقدوا معهم أخوة كوّنت منهم جميعاً جماعة لها من الأسرة توادها وتراحمها وتعاطفها واجتماعها على زعيم رءوف بها حريص عليها ، وفيها كل خصائص الدولة من التماسك والمنعة والخضوع لنظام واحد ، والسعي إلى غاية مشتركة ، والاختصاص بوطن معلوم

لقد كانت الهجرة النبوية بداية لعهد جديد افتتح به العالم طريق كماله الإنساني ، وحياته المفكرة ، ونظره المستقل ؛ فتغيرت لذلك وجهة الأمن ، وتبدل مجرى الحوادث ، وبدأ التاريخ فصلاً جديداً لتطور فكري منشؤه البحث والنظر ، وانقلاب اجتماعي أساسه المساواة والتعاون ، وانكشاف ديني غايته تزكية النفس وتكميل الخلق . ولم يكن للهجرة ذلك الأثر إلا لأنها هيأت للمسلمين قيام دولة إسلامية قامت بنشر الدعوة وحمايتها وإيصالها إلى من كان محجوباً عنها . ثم دافعت عن كل من دان بها ، فاذا الناس بهديها مهتدون ، وبنورها مستضيئون ، وبتهذيبها مفلحون ، وبآثارها متمتعون

بدأت هذه الدولة يوم أن دخل النبي (ص) المدينة المنورة ، واستقر بها زعيما للأوس والخزرج ومن هاجر إليهم من قريش ومن لازمهم من مسلمي العرب ، فتألفت منهم جماعة متحدة جعلت المدينة مقراً لها ووطناً ، واتخذت أوامر النبي (ص) ونواهيه نظاماً وحكما ، فكانت منهم دولة يحكمها الرسول له فيها سلطان الحكومة كاملاً ؛ فهو صاحب الولاية العامة ، وهو مصدر التشريع ، وله القضاء وإليه التنفيذ ، يدير الشؤون ويقود الجيوش ، ويجبي الأموال وينفقها في وجوهها ويوزعها على مستحقيها ، ويعقد العهود ويقوم على الوفاء بها وينبذ إلى من نقضها ، ويحمل الناس على الخطة المثلى ويهديهم صراطاً مستقيماً

وكانت هذه الشؤون على عهد الرسول قريبة الغور بسيطة التركيب رقيقة الحاشية قليلة العدد محدودة المكان ترجع في بساطتها ورقتها إلى ما ألفوه يومئذ من معيشة بدوية ، واعتادوه من عادات فطرية ، وتوارثوه من تقاليد طبيعية ، إذ كان نظام الحكم مستمداً من نظمهم المألوفة عندهم المعروفة لديهم ، ولكن استمداده لم يتجاوز الصور والأوضاع إلى ما كانت تحويه تلك النظم الجاهلية من هضم لحقوق الضعفاء ، وظلم للأبرياء ، وأخذ بالشبهات ، وتصديق بالخرافات ، واعتماد على الترهات ، بل كان خالصاً من الظلم ، نقياً من الدنس ، بريئاً من العيب ، صالحاً لزمانه ، ملائماً لأهله ، كفيلاً بتحقيق مصالحهم وتوفير طمأنينتهم وسد حاجاتهم . ذلك بأن أمره كان إلى الرسول يتلقى فيه وحي ربه ، ويهتدي في ترتيبه وتدبيره بهديه ، ويجتهد في تكميله بحكمته ونظره ، حسبما تقتضيه المصلحة والحاجة ، وعلى ضوء ما يدعو إليه التطور الجديد وتهدي إليه الحوادث

من ذلك يتبين أن نظام الحكومة الإسلامية الأولى لم يكن نتيجة خالصة لتطورات حكمية سالفة، ولا أثراً لثورات ماضية، كما لم يكن فكرة أفضت إليها أزمات استعصى حلها، أو حاجات تعذر قضاؤها، أو اختلاف في طرق الحكم لم ينته إلا بانكشافها، وإنما كان هدياً نبوياً وتوفيقاً إلهياً أخذ من النظم المألوفة والتقاليد الموروثة ما لاءم الفطر وصلح على الزمن وأوصل إلى الغاية، ثم نفى منها الفاسد الخبيث مما ساير الأهواء وأورثته المطامع والشهوات، ولم يعلُ فيما ابتدعه من ترتيب ووضعه من أسس ومبادئ عن مستوى الزمن ومدارك العامة من أهله واستعدادهم الاجتماعي وبيئاتهم الحاضرة، بل راعى في تشريعه جميع ما يلابسهم ويتصل بهم من ثقافة وتربية وعادات ووطن ودين اختير لإعلاء كلمته ونشر دعوته، وكذلك راعى الزمن وسيرة الحوادث وتقلباتها، والجماعات وتطوراتها، والحاجات وتغيراتها

لهذا جاءت أسس الحكومة الإسلامية قواعد كلية ومبادئ عامة جديدة لا يبليها الزمن، ومستقيمة لا يقومها التطور، ومثبتة لا تنال منها الحوادث، صارمة صريحة صالحة لكل أمة، ملائمة لكل زمن، قائمة في كل مكان. وهذه بعض تلك القواعد نكتفي بذكر أهمها لأن استيعابها لا يتسع له المقام ولا يناسب الحال:

١ — العدل: أمر الإسلام بإقامته وكرر الأمر به في صور شتى تارة بذكره كقوله تعالى: « اعدلوا هو أقرب للتقوى »، وقوله: « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »، وتارة بالنهي عن الظلم وكراهة أهله كقوله: « إن الله لا يظلم مثقال ذرة، إن الله لا يحب الظالمين »، وقوله عليه السلام: « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده »

٢ — المساواة: قرر الإسلام مبدأ المساواة في قوله تعالى: « إنما المؤمنون إخوة » وقوله: « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقوله عليه السلام: « المسلمون كأسنان المشط » وقوله: « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم »

٣ — التآلف والوحدة: دعا الإسلام في أكثر من موضع إلى الوحدة وعدم الفرقة، فقال تعالى: « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » وقال: « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » وامتن بها فقال لرسوله: « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » وقال عليه السلام: « المسلمون يد على من سواهم »

٤ — الشورى: حض الاسلام عليها فأمر بها نبيه بقوله: «وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله »، ومدح بها المؤمنين إذ وصفهم بها فقال: « وأمرهم شورى بينهم »

٥ — النصيحة: ويدخل فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد عني بأمرها الاسلام فجعلها من الدين، قال عليه الصلاة والسلام: الدين النصيحة، قالوا لمن يا رسول الله؟ قال لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. ولعن الله بني إسرائيل لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، وقال لبئس ما كانوا يفعلون. وقال عليه السلام: إن الله يرضى لكم ثلاثاً ثم ذكر منها: أن تناصحوا من ولاه الله أمركم

٦ — التعاون: فقد أمر به الكتاب فقال: « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان »

على هذه القواعد التي تقيم الحكم على أساس متين وتكفل له تحقيق أكمل غاياته قامت حكومة الرسول (ص) في المدينة المنورة وفيما جاورها من الأماكن القريبة. ولبساطتها وقلة التفرع في شؤونها وبعدها عن التشعب وعدم سعة أرضها كان أمر تدبيرها في جميع نواحيها إليه صلى الله عليه وسلم مباشرة. وساعد في ذلك أن أصحابه كانوا لأوامره مطيعين، ولأقواله حافظين، وبأفعاله مقتدين، ينشدون العدل ويطلبون الحق، يرون سعادتهم في طاعته وترسم آثاره، وشقاءهم في مخالفته وتنكب طريقه

وكانت الولايات على عهد الرسول تكاد تنحصر في قيادة الجند وولاية الصلاة والتعليم، وولاية الصدقات والأموال، وولاية القضاء والمظالم، وولاية التشريع

فأما قيادة الجند فكانت اليه. يدعو إلى الجهاد ويعبئ الجيش ثم يقوده بنفسه، ويشرف على ترتيبه وخططه، فاذا لم يخرج معه عهد إلى بعض أصحابه في ذلك ممن عرف بالكفاية في الحروب والحذق بفنونها والبصر بمكايدها. ولم يكن

له عليه السلام جيش خاص يقوم بذلك دون بقية المسلمين ، بل كان جميع المسلمين جنداً محاربين لا يعفى من الخروج إلا من أقعده المرض أو الضعف المعجز ، أو لم يجد نفقة ، وكان فى ذلك حزنهم وعظيم كربهم ، حتى أنزل الله تعالى قوله : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل، والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون) . كذلك كان يعفى من الخروج من عهد اليه بعمل عام فى المدينة أو لحقته ضرورة لافكاك منها ، على أن يكون له سهمه فى الغنائم . وكانت نفقاتهم فى أموالهم وأرزاقهم من مال الله الذى آتاهم أو فى أموال المحسنين منهم ممن كانوا يخرجون عن بعض أموالهم لهذه الأغراض . ولم يكونوا محصورين فى ديوان لعدم الحاجة إلى هذا الإحصاء لأنهم كانوا جميعاً محاربين ، ولم تتخذ سجلات الجيوش إلا فى عهد عمر رضى الله عنه

وأما ولاية الصلاة والتعليم فكان عليه السلام يؤمهم فى المدينة ويعنى بتعليمهم دينهم وإرشادهم أشد عناية ، لأن ذلك كان من أهم أغراض الرسالة . كان يعلمهم بنفسه ، يقوم بذلك فى المسجد ، وفى كل مجلس يجلسه ، وفى كل مقام يقومه ، فى الحضر والسفر ، والسلم والحرب ؛ وكان يحض المتعلم من أصحابه على أن يعلم الناس ، ويشجع من قام بذلك بقيامه على حلقته فى المسجد . وكان يستعين فى ذلك بأمثل أصحابه يرسلهم إلى الجهات النائية أو القبائل التى دانت بالاسلام ليؤموهم ويرشدوهم ويعلموهم القرآن وأحكام دينهم . ومن عنايته صلى الله عليه وسلم بالتعليم أن جعل فداء المعسر من أسرى بدر إذا كان قارئاً كاتباً تعليم عشرة من غلمان المدينة

وأما ولاية الصدقات والأموال فكانت جبايتها إلى من يختارهم من أصحابه العالمين بأحكامها ، يجمعونها من أهلها فى بلادهم المختلفة ويحضرون بها إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيوزعها لوقتها دون أن يدخر منها شيئاً . ولذا لم تكن لهذه الأموال على عهده خزائن لحفظها ولا سجلات لقيدها ، وإنما وجد ذلك بعد وفاته صلى الله عليه وسلم . وذلك يرجع إلى قلة ما كان يجمع منها على عهده وحاجة المسلمين إليه وقيامهم جميعاً بالدفاع والغزو . ولم تكن موارد هذه الأموال يومئذ تتعدى الصدقات والغنائم والجزية ؛ وكانت مصارفها ما بينه الكتاب الحكيم فى قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل) وفى قوله تعالى : (واعلموا أن ما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) .

وأما ولاية القضاء والمظالم فكانت إليه فى المدينة المنورة وما جاورها من الأماكن ، إذ لم تكن الخصومات كثيرة إلى الدرجة التى تدعو إلى الاستعانة بغيره . ولم تكن مع ذلك خصومات حقيقية ، بل كان أكثرها لا يعدو أن يكون اشتباهاً فى وجه الحق ، فإذا بينه عليه السلام بعد الترافع إليه فما أسرعهم إلى الرضا والتنفيذ دون حاجة إلى دافع أو ملجىء . على أنه عليه الصلاة والسلام لم يستغن عن معاونة غيره فى الحوادث التى تتطلب الانتقال ، وفى البلاد النائية التى فتحها الله عليه كاليمن والبحرين ومكة وغيرها ، فولى فيها ولاة جمع لهم بين ولاية القضاء والصلاة والصدقات والحرب ، وربما فرق بينها حسبما تدعو إليه الظروف والمصالح

وأما ولاية التشريع فكانت له وحده لأنه إنما أرسل ليشرع للناس دينهم ويهديهم إلى ربهم ، ويسلك بهم طريق سعادتهم وفلاحهم ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، لا ينطق فيه عن هوى ، وإنما يصدر فيه عن الوحى ينزل به الروح الأمين على قلبه فيقرؤه على الناس قرآناً مبيناً ، أو يحدثهم به حديثاً نبوياً ، أو يعلمهم إياه بفعل يأتيه أمامهم فيقتدون به ؛ فإن لم يكن وحى صدر عن البحث والنظر ينتهيان إلى استنباطه الحكم المطلوب معتمداً فى ذلك على ما استقر فى نفسه من روح الوحى وما يُرَاعِيه من مصالح الناس . وليس لغير الرسول أن يتولاه ، وليس له إلا الاجتهاد في تفهم النصوص وتطبيقها على الحوادث ، وإذا صدر منه ما أقره النبي كان شرعاً بإقراره عليه السلام لا بصدوره من صاحبه ؛ غير أن ما كان يليه الرسول أو يأتيه لم يكن كله دينا بل كان للدنيا منه كثير ؛ وما شرعه فى النوع الأول يجب اتباعه

ولا يجوز فيه تغيير، وما اتبعه فى النوع الثانى يصح أن يناله التغيير والتبديل تبعاً لتطور الزمن وتغير الناس واختلاف العادات، لأن الشأن فيه أن يسير مع المصلحة ويتقيد بالمنفعة، فجاز أن يتسع للبحث وأن يتقبل الخلاف. وكثيراً ما عدل الرسول عن رأيه إلى رأى أصحابه، وغير من رأيه حين اقتضت المصلحة التغيير. وقد ولى عليه السلام كثيراً من أمور الدنيا بحكم ولايته العامة فسلك فيها سياسة دعت إليها حاجات حاضرة وعادات قائمة ومصالح يومئذ مطلوبة، فإذا ما انتهت تلك الحاجات وتغيرت تلك المصالح وتطورت تلك العادات كان على المسلمين من بعده أن يغيروا فيها تبعاً لذلك؛ وقد حصل منهم ذلك فعلا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فى كثير من النظم

هذه هى أهم الولايات على عهد الرسول ولم تقتصر أعمال الحكومة فى عهده عليها بل تجاوزتها إلى كثير من الأعمال التى دعت إليها الحاجة واقتضاها ضبط الأمور وتنظيم العمل مثل الكتابة، والمحاسبة، والترجمة، وحفظ الختم، وحفظ السر، والعسس بالليل والحراسة فيه، فكان لكل هذه الأعمال عمال من أصحابه يقومون بها تحت رقابته وارشاده

كان عليه الصلاة والسلام المرجع فى كل هذه الأعمال يقوم على تدبيرها وتصريف شؤونها بما يوحى إليه فى ذلك من ربه أو بما يهديه إليه رأيه بعد بحث ونظر ومشورة يختص بها أولي الرأى والبصيرة من صحابته كحمزة بن عبد المطلب وأبى بكر وعمر وعلى وغيرهم؛ فكان عليه السلام يستشيرهم فى كثير مما يعن من الأمور التى لم ينزل عليه فيها كتاب، وبخاصة ما كان منها متصلاً أو متعلقاً بالغزو والدفاع، فاستشار الأنصار يوم بدر فى قتال المشركين، فقال له سيد الأوس سعد بن معاذ: «والله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لنخوضنه معك». وأخذ برأى الحباب ابن المنذر الأنصارى حين رآه ينزل عند أدنى ماء من بدر فقال له: «أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر أم هو الرأى والحرب والمكيدة» فقال له عليه السلام: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة» فقال: «يا رسول الله ليس لك هذا بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله» فقال عليه السلام: «قد أشرت بالرأى» ثم استشار أصحابه فى أسري بدر وأخذ برأى من أشار عليه بقبول الفداء فعاتبه الله فى ذلك وأقره. واستشارهم فى إطلاق زوج ابنته زينب ورد قلادتها التى أرسلت بها فداء إليها. واستشارهم فى غزوة أحد أيقيم بالمدينة حتى يلقى العدو على أبوابها أم يخرج إليه، وكان يرى المقام، ولكنه أخذ برأى الجمهرة منهم. واستشارهم فى طريقة الدفاع عن المدينة يوم الخندق. ولو أردنا أن نعدد ما استشار فيه عليه السلام أصحابه لطال بنا القول وما أحصينا أكثره؛ وإن ذلك ليكفى فى أنه عليه السلام وهو الوحي إليه المعصوم كان يعتمد فى حكومته على مشورة أصحابه يبحث معهم الأمر، يحزبهم ويناقشهم فيه حتى ينتهوا فيه إلى الحق، فلا يكون لأحد بعد ذلك خلاف. وذلك ما أدبه به ربه عز وجل بقوله: «وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله». وكان عليه السلام إلى هذا عادلا لا يميز بين أصحابه ولا يكرم عليه من بينهم قريب لقرابة أو ذو جاه لجاهه، بل أنه ليسوى بينهم وبينه فيرضى أن يقاد من نفسه. لقد تقدم إليه بعض صحابته يوماً ما بشفاعة فى قطع يد امرأة مخزومية فقال عليه الصلاة والسلام: أشفاعة فى حد من حدود الله؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها. ولقد أتاه يوماً رجل يتقاضاه ديناً فأغلظ له، فهم به بعض أصحابه، فقال عليه السلام: دعوه فان لصاحب الحق مقالا. وقال له أحد الأعراب وقد رآه يقسم بعض الغنائم: إعدل. فأجابه بقوله: فمن يعدل إن لم أعدل؟ خبت وخسرت إن لم أعدل. ومر عليه السلام بسواد بن غزية فى غزوة بدر وهو خارج عن الصف فضربه بالقضيب فى بطنه وقال له استقم يا سواد. فقال سواد أوجعتنى يا رسول الله وقد بعثت بالحق والعدل فأقدنى من نفسك. فكشف له الرسول عن بطنه وقال: استقد يا سواد. فاعتنقه سواد وقبل بطنه وقال إنما أردت أن يكون آخر العهد أن يمس جلدى جلدك؛ فدعا له بخير

يرى مما ذكرنا أن حكومته صلى الله عليه وسلم كانت شورية ما أمكن أن يكون للمشورة محل، لأنها كانت فى كثير من الأمور تستند إلى الوحى، ولم تكن عصمة الرسول وما أعطيه من الدرجة الرفيعة لتمنعه من أن يستشير أصحابه، وذلك ليعلمهم البحث ويهديهم إلى النظر الصحيح، وإلى وسائل الحكم الصالح المنتج، ويشعرهم بوجودهم ويعودهم بحمل نتائج بحثهم وتفكيرهم

وفى ذلك تطبيب لنفوسهم وتوفير لمرضاتهم . وقد كانت رياستها إليه وحده بحكم رسالته واختياره من ربه لإظهار دينه ونشر تعاليمه . فلما توفى كان لا بد للمسلمين من أن ينظروا فيمن يخلفه فى تلك الرياسة العامة ، فكان أول من بادر إلى التفكير فى ذلك جماعة الأنصار من الأوس والخزرج ، فاجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ، ولم يكد يلتئم اجتماعهم حتى وصل نبؤه إلى أبى بكر وعمر فأسرعا إليهم ، وكان بينهم نقاش وجدل فيمن هو أولى بالخلافة . أيليها أحد الأنصار أم أحد المهاجرين الأولين من قريش ، أم تكون شركة بينهم من الأنصار أمير ، ومن المهاجرين أمير ؟

لم يكن القوم يومئذ داعين إلى عصبية ولا طامعين فى تغلب وجاه ، ولا نافسين بعضهم على بعض مراكزهم ، ولكنهم فوجئوا بوفاة الرسول دون أن يستخلف أو يسن لهم فيه سنناً أو يشرع لهم فيه شرعاً ، يستبين به وجه الحق ويتعين به الخليفة ؛ فأسرعوا إلى بحث ذلك خشية الفرقة ، يبتغون الحق ، ويتبينون الصواب ، ويستجلون المصلحة ، فما إن خطبهم أبو بكر حتى ظهر لهم جميعاً الحق واندفعوا وراء عمر رضى الله عنه مبايعين أبا بكر ، حتى لقد سبقه بعضهم إلى يده وإن كان أسبقهم إلى طلب بيعته . لقد اتفقوا فى ذلك الاجتماع على أن يكون خليفة يخلف الرسول إمامته ، وعلى أن يكون الخليفة واحداً لا متعدداً ، وعلى أن يكون أبا بكر رضى الله عنه . وما ذاع ذلك حتى كان فيه رضا أولى الرأى من بقية المهاجرين والأنصار ، فأقبلوا على أبى بكر بالمسجد مغتبطين مبايعين ، ولم يتريث إلا بعض بنى هاشم ، تباطأوا ثم بعد ذلك بايعوا ، ولم يكن تباطؤهم مانعاً دون تمام خلافته وأخذه فى مباشرة أسبابها فى سيره فى حكومته على نهج الرسول

ولقد انتهى المسلمون فى أمر إقامة الخليفة إلى نتائج قيمة وثمرات صالحة طيبة ، أضاعها الخلف فحرموا طيباتها ، ومنوا بشرور مجنبها وويلات مجافاتها ، فأصابهم ما أصابهم مما هم فيه من الضعف والمهانة حتى أصبحوا أمماً مستعبَدين أو جماعات متخاذلين

أولها — أن الخليفة نائب عن الأمة وولايته مستمدة من ولايتها ، وسلطانه فرع من سلطانها ، فقد اختار المسلمون أبا بكر بعد وفاة الرسول من بينهم وأقاموه خليفة عليهم ليسوسهم ويدبر أمورهم وفق كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومهتدياً فى ذلك بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعتضداً بمشورة أولى الرأى منهم ، فهو وكيلهم فى ذلك ومعقد نظامهم ورأس وحدتهم ؛ وهو فى هذا الأمر كما كان الرسول ، غير أنه لا يأتيه الوحى ولا يزيد في الدين ولا ينقص منه ، ولا يمتاز فيه عن سائر أمته إلا بما قد يمتاز به أى فرد من أفرادها من سعة فى العلم وزيادة فى الفقه وتعمق فى النظر وإجادة فى الاستنباط

ثانيها — أن الخليفة لا يكون إلا واحداً حتى لا يكون تعدده مثار خلاف أو فرقة بسبب ما قد يحدث لكل من شيعة تتشيع له أو حزب ينتصر لرأيه ، وحتى لا يكون فى تصريف الأمور اختلاف يعوق دون الاسراع في تدبيرها وتلافى الأخطار التى قد تتعرض لها الدولة

ثالثها — أن اختيار الخليفة وانتخابه ليس إلا لمن يقدر خطر الخلافة ويزن نتائجها ويعرف ما يجب أن يتوفر فى الخليفة من جدارة وأهلية وقدرة وكفاية . وهؤلاء هم أولو الرأى فى الأمة المعروفون فى الصدر الأول بأهل الحل والعقد ؛ أما غيرهم فالشر كل الشر فى إيكال ذلك اليهم ، لأنهم يستمعون لكل صيحة ، ويهبون مع كل ناعق ، يخدعهم الرياء والسمعة ، ويغريهم الطلاء والبهرج ، وتطمعهم الأكاذيب ويعميهم الجاه والثراء . وأهم ما يلاحظ اليوم على المجالس النيابية من عيوب عدم كفاية أعضائها ، ووجودهم إنما يرجع إلى سوء اختيارهم ، وذلك بإيكاله إلى من لا يحسنه

رابعها — خضوع الأقلية فى ذلك لرأى الأكثرية حتى لا يتفرق الأمر وينقطع الحبل

وهناك نتائج أخرى لا يتسع المقام لتفصيلها ، ولذا نكتفى بهذا البيان عسى أن يكون فاتحة بحث جديد فى تفصيل أسس الحكم الاسلامي ، ومبدأ اتجاه فى إقامة الحكومات الاسلامية اليوم على سنن الحكومة الاسلامية الأولى حتى يعود للمسلمين على أيدى حكوماتهم ما كان لهم أيام حكومتهم الأولى من عزة ومجد وسؤدد .

على الخفيف

محمد الزوج
مؤامرة في بيت الرسول

للأستاذ محمود غنيم

— ١ —



دنت الرءوس من الرءوس، وهمست الأفواه في الآذان أن رسول الله غاضب. ورسول الله غاضب حقاً، غاضب على نسائه جميعهن حتى عائشة — وكم لعائشة من دالة عليه! — لقد كان يطوف بأبوابهن أصيل كل يوم، فما باله الآن في عزلة تامة لا يطرق لإحداهن باباً، ولا يكشف لها حجاباً؟

طال غضب الرسول، وطال احتجابه، فلم يعد الأمر سراً يحبس في الصدور، أو يتناجى به اثنان في همس، ولكنه تجاوز الصدور إلى الشفاه، والإسرار إلى الإعلان، والاثنين إلى الجماعة، حتى أصبح حديث الأندية في يثرب، وموضع التكهنات والتخرصات؛ والغمرة لا تنجلي، والغمام يتراكم في الأفق، واللازبة تشتد، حتى ترددت على الألسن كلمة «الطلاق» بما تحمل في طياتها من بشاعة وهول، وحتى أشيع أنه على وشك الوقوع، أو أنه وقع فعلاً وقضي الأمر

ولكن أين أبو بكر وعمر؟ أين كبار المهاجرين والأنصار؟ ألا يقابلون الرسول فيضعوا حداً لهذه التخرصات؟ كلهم تحدثه نفسه بذلك، ولكنه لا يقدم عليه. إن رسول الله ملء العيون، ملء القلوب، فلا يكلَّم إلا حين يبتسم؛ ولكنه عابس الوجه متغضن الأسارير، فمن هو الشجاع الذي يغامر بنفسه في هذا الميدان؟ لهم أن يخوضوا المعامع، ويقتحموا على اليهود حصونهم، ويرووا ذباب سيوفهم من دماء المشركين في بدر؛ أما أمام الرسول فهم عيون خاشعة، ورءوس منكسة، وأفئدة هواء

إيه يا نساء النبي، ويا أمهات المؤمنين، ما فعلتن برسول الله؟

— ٢ —

عجباً لرسول الله! تجبى إليه الأموال من كل فج في جزيرة العرب، ويضع يده على كنوز خيبر وقريظة والنضير، وتنصهر خزائن اليهود في لظى الحروب التي شنها عليهم، ثم يعود إلينا صفر اليد، طاوي البطن، ونحن نشاركه الطوى، ونقاسمه ألم الحرمان، أيرضيك هذا يا عائشة؟ وأنت يا حفصة؟ أجيبي يا سودة. وأنت يا أم سلمة مالك لا تتكلمين؟

على هذا النحو من الحديث جرت الألسنة في بيت عائشة، وقد انعقد المؤتمر من أمهات المؤمنين، وكلهن تائق إلى شيء من الترف يرجو أن يساهم فيما أفاء الله على رسوله، بعد أن حملت إليه الجزى، ووصلت إليه هدايا أرباب التيجان؛ فإذا هو يبعثر النضار ذات اليمين وذات اليسار، ثم يقنع بالعيش الظليف، والمأكل الطفيف، وينام بجانب زوجاته على بساط من أدم حشوه ليف

أوليس من حق نساء النبي أن يطمحن إلى ما هو فوق هذا المستوى من المعيشة، ويتطلعن إلى لون آخر من ألوان الحياة؟ ولم لا يفعلن وفيهن بنت أبي سفيان، وأبو سفيان زعيم قريش، وفيهن بنت حيي بن أخطب، وحيي كبير بني النضير، وفيهن غير هاتين ممن كن يرفلن في مطارف النعيم، ويجررن أذيال الرفه في بيوت آبائهن؟ فكيف لا يتبرمن بهذا اللون من الحياة الذي يعالجنه في بيت رسول الله؟

ولقد كن يلتمسن له شيئاً من العذر لو لم يكن هذا الشظف من صنع يده، ووليد زهده، وعزوفه عن الدنيا؛ أما والأمر ليس كذلك، فما هن والصبر عليه؟

لقد اتسعت آفاق معلوماتهن عن الدنيا، وعرفن كثيراً عن قيصر في الروم، وكسرى في الفرس، والنجاشي في الحبشة، والمقوقس في مصر؛ وهن يرين أنفسهن تحت أمير تدين له جزيرة العرب بالطاعة لا يقل خطراً عن هؤلاء الأمراء

وهل المرأة إلا المرأة منذ تحدرت من أعماق التاريخ إلى أحدث عصور المدنية والنور؟ امرأة البدو، هي هي امرأة الحاضرة؛ همها الأول زينتها. هي من ناحيتها تريد أن تساعد الطبيعة التي

سلحتها بالنعومة والجمال أداتي جاذبية وإغراء لحفظ النسل، كما سلحت الزهرة بطيب العرف وألوان الطيف، حتى تجتذب الطيور فتكون رسلاً تحمل حبوب التلقيح

لم يكن بدعاً إذن من نساء الرسول أن يأتمرن به على هذا النحو، حتى إذا دخل عليهن أحطن به إحاطة السوار بالمعصم، وانطلقت ألسنتهن في حماس

ولكن سيد الرسل يعتصم بسيد الأخلاق، ويقابل الأمر بابتسامة هادئة، ثم، ثم لا يفعل شيئاً

— ٣ —

ما بال رسول الله يبطىء في بيت زينب؟ ألم يأته نبأ عائشة وسائر زوجاته وهن ينتظرنه على أحر من الجمر، ويعددن له الثواني والدقائق؟

اعتاد الرسول أن يطوف ببيوت نسائه غب صلاة العصر، ولكنه اليوم يحتبس في بيت زينب زمناً طويلا، وعقارب الغيرة تنفث لعابها في نفوس عائشة وصواحبها. وهل تسلم المرأة من الغيرة وإن كانت زوجة رسول؟

انعقد المؤتمر في بيت عائشة، وطرح المسألة على بساط البحث، ثم قرر قراراً طابت به نفوس الجميع

لقد تعودت زينب أن تسقي الرسول عسلا ذا رائحة حادة، فما ضر المؤتمرات أن يتخذن من حلاوة هذا العسل أداة انتقام مرة، وسلاحاً يشهرنه في وجه الرسول؟ إيه يا حفصة! إيه يا سودة! إذا انصرف الرسول عن زينب إلى أبيتنا فلتبد شيئاً من الاشمئزاز، ولتقل إني أشم ريح مغافير (1). ونساء الرسول يعلمن مبلغ حرصه على النظافة، وعلى طيب نكهة فيه، ويعلمن أن الطيب إحدى ثلاث حُبِّبْنَ إليه، وأن النظافة وتطهير الجسد حجران يقوم عليهما دينه الجديد، فما ضرهن أن يستغللن هذه الناحية في هذا الظرف؟

ثم يتم الرسول طوافه فاذا برائحة المغافير تدخل كل أنف، وتخرج من كل فم، فيحرمه على نفسه، ثم ينكشف له السر

ولكن سيد الرسل يعتصم بسيد الأخلاق، ويقابل الأمر بابتسامة هادئة

— ٤ —

زادت الصَّلاَت واحدة بميلاد الطفل إبراهيم، وارتفعت مارية الجارية المصرية إلى مصاف زوجات الرسول من الحرائر العربيات. ها هو ذا يأمر أن يقام لها بيت يتاخم بيوت نسائه، بعد أن كانت تقيم بمكان ناء، وينظر اليها نظرة القرين إلى القرين، لا نظرة السيد إلى ملك اليمين. وها هو ذا يغدو ويروح وطفله على ذراعه يدلله ويناغيه، ويعطر جبينه بوابل من قبلات لا تستشعر لذتها إلا شفاه الآباء، ولم لا يفعل؟ أليس محمد بشراً قبل أن يكون رسولا؟ لقد هدف محمد للستين أو نيف عليها وليس له ابن من صلبه، ولقد تزوج بعد خديجة غير واحدة فلم تبشر إحداهن بخصب. وها هو ذا يرى حياته تبدأ من جديد، وصفحة طفولته تنشر من جديد في شخص الطفل ابراهيم. فلم لا تقر عينه بطفله، ويرفع أمه إلى مقام الحرية من أجله، ودين محمد يمقت الرق الذي ورثه جيله عن القرون البائدة، ويتشوف إلى الحرية ويتمحل لها الأسباب؟

ولكن عقارب الغيرة تعاود دبيبها من جديد. لقد كانت كل واحدة من أمهات المؤمنين تشتهي أن تكون أم الغلام، فأبت المقادير عليهن ذلك، ومنحته جارية لا تمت إلى العرب بنسب

لا غرو أن يحدث ذلك في نفوسهن غيرة، وإن شئت فقل حفيظة على أم ذلك الغلام. ولعل تلك الحفيظة تجاوزت أم الغلام إلى الغلام نفسه. ولعلهن أسرفن في ذلك حتى هممن بأمر جلل، هممن أن يشككن الرسول في صحة نسبة الغلام إليه حتى أنه ليدخل به يوما على عائشة، فيوجه نظرها إلى ما بينهما من شبه، فتهز كتفيها هزة النفي والانكار، بل تصرح بذلك في مواجهة الرسول، فلا يسعه إلا أن يرميها بالغيرة، ثم ينصرف

بيد أن الأمر لم يقف عند هذا الحد

هذه حفصة تغادر بيت بعلها إلى بيت أهلها لبعض الشؤون. وهذا رسول الله في بيت حفصة. وهذه مارية أم الغلام تدخل عليه، ثم يكون بينهما ما يكون بين المرء وزوجه، ولكن حفصة تعود في وقت كان من الخير ألا تعود فيه، فتري مشهداً مريباً،

(1) المغافير: طعام حلو حاد الرائحة كريهها كان مألوفاً عند العرب

أو تمسده هى مربياً ، فتعاتب الرسول قائلة : « لولا هوانى عليك ما فعلتها » ولكن الرسول يهدىء من روعها ، ثم يعتذر ، ثم يستكتمها الأمر ، فتعد ، ولكن متى كان للمرأة — وإن كانت زوجة رسول الله — أن تمسك لسانها عن سر إلا كما يمسك الماء الغرابيل ؟

أصبح الرسول فاذا سره أذيع من يوم حليمة ، وإذا سائر نسائه يتحدثن به ، ويعلقن عليه بما يحلو لهن

وهنا لا يعتصم سيد الرسل بسيد الأخلاق ، ولا يبتسم ابتسامته الهادئة ، ولكن يغضب الرجل الحليم ، وتكون القطرة التى فاضت بها الكأس ، والقشة التى قصمت ظهر البعير

لا بد من درس قاس يقف هذا التيار ، ويعيد إلى منزل الرسول صرح السعادة المنهار ، ثم ، ثم تكون العزلة

ولكن ، ليت شعرى إلى أى حد كان تأثير هذا الدرس فى نفوس أمهات المؤمنين ؟

— ٥ —

أرأيت ندامة الكسعى على قوسه ؟ أرأيت رسول الله وقد فتر عنه الوحى ثلاث سنوات ، ذهبت فيها نفسه حسرات ، حتى ليكاد يردى نفسه من شاهق ؟

تلك كانت حال نساء الرسول مدة عزلته — شهر أو قرابته — يقرعن السن ، ويعضضن البنان ، وتتنصل كل منهن ، وتلقى إحداهن التبعة على غيرها ، وينحين باللائمة على أنفسهن . مابالنا نحرج رسول الله ؟ أيكون هذا جزاء نصير المرأة من المرأة ؟

أى والله ما برزت شخصية المرأة ، ولا أخلى لها مكانها فى المجتمع إلا محمد ؛ محمد الذي انتشل المرأة من الهوان الذى تحدر إليها من أعماق التاريخ . لقد حرم وأدها صغيرة ، وجعل لها حق اختيار الزوج كبيرة ، وجعل لها نصيباً من الميراث بعد أن كانت العرب لا تورث إلا من يحمل السلاح ، ويقدر على الكفاح من الرجال دون النساء ، بله الأطفال

أما كانت المرأة عند الأثينيين معدودة من سقط المتاع ، حتى أنها لتباع وتشرى فى الأسواق ؟ أما كان الأسبرطيون يبيحون لأى عدد من الرجال الاشتراك فى زوجة واحدة ؟ أما كانت بعض طوائف اليهود يعتدون البنت فى مرتبة الخادم ، ويجيزون لأبيها بيعها ، ويحرمونها الميراث إلا عند فقد الذكور ؟ أما كانت المرأة تعتبر عند بعض الجاهلية ميراثاً يورث ، حتى أن المرأة لتؤول ملكيتها إلى ابنها بعد وفاة زوجها ؟

كان طبيعياً أن يذكر نساء النبى ذلك كله ، وأن يتحدثن مدة عزلة الرسول التى كان وقعها شديداً على أنفسهن . وكيف لا تكون كذلك وقد كان الرسول فى بيته نمطاً وحده ، يعامل نساءه على أسلوب لم تألفه العرب ؟ هو فى بيته مثال الدعة والأريحية كثير التدليل والمداعبة لنسائه ، حتى ليجترئن عليه بما لا يجترئن به على آبائهن وإخوتهن . قال عمر : « راجعتنى امرأتى فى شأن من الشؤون ، فانتهرتها فقالت : عجباً لك يا ابن الخطاب ! ما تريد أن أراجعك فى أمر وإن ابنتك لتراجع رسول الله حتى يظل يومه غضبان »

كان النبي صاحب الغزوات والملاحم ينقلب فى بيته ملاكاً وديعاً ، حتى أنه ليصلى فيتسلق ظهره الحسن بن على ، فيطيل سجوده ، حتى يترجل الغلام من تلقاء نفسه . وكان رحيما بنسائه ، حتى أنه لفى بعض رحلاته ، بمعض زوجاته ، فيغذ قائد راحلتهن السير ، فيقول له : « رفقاً أنجشة[1] بالقوارير »

هكذا كانت معاملة النبي لنسائه ، فمن لهن بالجلد على جفائه ؟ ومن الذى يخرجه من عزلته ، ويعيده إليهن سيرته الأولى ؟ إنه عمر

— ٦ —

ما كان عمر ليسعده التجلد على عزلة النبى أكثر من شهر ؛ عمر الرجل الصريح ، الشجاع فى الحق ، الذى ليس أقرب إليه من حسامه ينتضيه فى كل موقف ، والذى تسلل المسلمون إلى المدينة لواذاً نخرج هو جهاراً نهاراً يقول : من أراد أن تثكله أمه ، أو ييتم ولده فليتبعنى »

أخذ عمر سمته إلى مُعتَزل الرسول لا يلوى على شىء ؛ حتى إذا كان منه عن كثب نادى رَباحاً غلام الرسول : يارباح

(١) أنجشة : اسم قائد الراحلة ، وهو رجل حبشى

استأذن لى مولاك فى الدخول ؛ بيد أن الغلام يدخل ثم يعود بلا إذن . فيعاود عمر الكرة ، فيعود الغلام بلا إذن ، فيهتاج عمر ، فيقتحم المكان داخلا قائلا : يا رسول الله ، إن كنت ظننت أنى جئت من أجل حفصة ابنتى ، فوالذى بعثك بالحق ، لولا رهبتى إياك لوجأت عنقها ، ولكنى أريد أن تضع حداً لتخرصات المتخرصين

ثم يلتفت عمر ، فلا يرى غير قبضة من شعير ، وجسد طاهر أثر فيه الحصير ، فيبكى حتى تخضل لحيته ، ولكن رسول الله يهش لعمر ، ويهدئ من روعه ، ثم يغادر المكان إلى حجرات أمهات المؤمنين ، ثم يأمر بهن ، فيدخلن واحدة واحدة ، ويبدأ بعائشة :

إيه يا عائشة ! إنه قد ألقى إلىّ قول كريم « يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما ... الآيات » فأيهما تختارين ؟

أيهما تختار ! وهل يحتاج الأمر إلى الروية وكد الذهن ؟ ما كان لعائشة أن تختار غير الله ورسوله ، وما لغيرها من أمهات المؤمنين أن يخالف عائشة فى الاختيار

وبذلك عاود بيت النبي صفاؤه وسكونه ، وانقشعت عن أفقه تلك السحابة التى أظلته ردحاً من الزمن ، وكان الدرس ناجحاً

— ٧ —

وبعد ، فإنما أردت بهذا الفصل أن أعرض لحياة النبي المنزلية ولبعض المشاكل الزوجية التى كانت تعترضه ، ولأسلوبه فى معالجة تلك المشاكل ، حتى نعرف محمداً الزوج ، كما عرفنا محمداً القائد ومحمداً المشرّع ، وما أكثر عظمة النبى التى تحتاج إلى الدرس والتمحيص . على أن الناحية الزوجية ليست أقل خطراً إذا لاحظنا أن حياة الرسول فى بيته كانت بمثابة الحجر الأساسي لكل بيت مسلم ، وأن الأمة تتكون من مجموع بيوتها

ولعل القارئ لا يرتاع لتلك المؤامرات التى كانت تدبر فى بيت الرسول ، فقد تكون هينة لينة إذا قيست بما اعتيد تدبيره فى بيوت الأمراء من المؤامرات التى تنضح بالدماء

ولقد كانت حياة النبى فترة انتقال فى كل ظاهرة من ظواهر الحياة العربية ، وكانت المرأة حديثة عهد بالحرية . وقلما يحسن استعمال الحرية من هو حديث العهد بها ، كما يحسنه الناشئ عليها الدارج فى بحبوحتها

على أن توفيق النبى فى إدارة شؤون بيته لم يكن دون توفيقه فى حروبه ؛ ولعل مما يسترعى النظر أن كثيراً من القواد البارزين الذين عرفوا كيف يديرون دفة السياسة فى أممهم ، قد عجزوا عن إدارة بيوتهم . ولست أحدثك عن امرأة نوح أو امرأة لوط اللتين ورد ذكرهما فى التوراة والقرآن ، ولكنى أستطيع أن أذكر لك طائفة من أبطال التاريخ الحديث . ولعل من هؤلاء « نابليون » عاهل فرنسا و « مصطفى كمال » عاهل تركيا

ولعل حكمة الرسول فى إدارة شؤون بيته تتجلى بشكل أوضح ، إذا لاحظت أن سقفه كان يظل أمشاجا من الزوجات ، تفصلهن عنه فوارق بعيدة المدى ، كما تفصل بعضهن عن بعض أمثال تلك الفوارق ، فلقد كان فيهن من تصغره بنيف وأربعين عاما ، ومنهن ثيبات كن تحت أزواج قبله ، وكان بينهن من اعتنقت الاسلام بعد اليهودية ، ومن اعتنقته بعد المسيحية ، ومن اعتنقته بعد الوثنية ، وكان منهن ابنتا أصفى أصفيائه أبي بكر وعمر ، وابنة أعدى أعدائه أبي سفيان ، إلى غير ذلك من الفوارق التى تجعل إدارة دفة البيت أمراً عسيراً

وإنى لأرجو بعد هذا ألا أكون قد تدخلت بين الرسول وزوجاته إلا بمقدار ما صورت العبرة . والحق أني أشعر فى قرارة نفسى أن الموضوع وعر شائك ، ولعل وعورته هى التى حببت إلى اقتحامه ، وإن كنت أخشى أن يقال لى ما قالت « أم سلمة » أم المؤمنين لعمر بن الخطاب ، حينما ذهب إلى بيتها ينحى عليها باللائمة فى هذا الشأن فأجابته : « عجباً لك يا ابن الخطاب تدس أنفك فى كل شيء ، حتى فيما بين الرسول وزوجاته ! » فكأنما صبت عليه ذنوبا من ماء بارد ، فغادر بيتها ، وانصرف ، يقتلع رجليه من الأرض اقتلاعاً

« كوم حادة » **محمود غنيم**

يسر الإسلام

للأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري



لقد يملك كثرة الناس العجب من تمام عظمة الاسلام فى هذا الصدر اليسير من الزمن وبلوغه مابلغ فى غير عنف ولا مطاولة يكافئان هذا المجد كله ولا معظمه

ولست الآن بصدد ترديد ما أثر التاريخ ولا ما دوّن المؤرخون فى فتوح الإسلام وانتشاره السريع العجيب فى قواصى الأقطار وأدانيها، وما كان لأهله في كل مكان من منعة وعزة وسلطان، فذلك شيء قد فاضت به الكتب، واحتفلت بتفصيله الأسفار الضخام؛ وبحسبي — فيما جردت له هذا الكلام القصير — أن ألفت القارئ إلى أن أمة بادية جاهلة صائلة يكون منها فى هذا الزمن ما كان من العرب بفضل الاسلام. هذا فتح، وهذه سيادة، وهذا تعمير وتثمير، وهذى علوم وفنون وصناعات، وهذى حضارة لا تتعلق بأذيالها أعلى حضارات التاريخ!

لعمرى ما هذا كله؟ وكيف كان؟ وكيف تأتى بهذه السرعة لدولة الإسلام؟

اللهم إن أوثق يقينى أن مرجع هذا أجمعه إلى ما فى هذا الدين من يسر عظيم

الدين يسر، وبفضل هذا اليسر كان من دولة الاسلام ما كان!

ستقول: إن الإسلام ما ساد إلا لأنه حق، وأقول لك: وهل ثمة أيسر من الحق أو أعسر من الباطل؟ ومتى احتاج الحق فى تجليته إلى عنف أو إلى جهد؟ إن الباطل هو الذى يحتاج إلى هذا وهذا، وقل أن يثبت له مهما قرار!

وإذا قيل إن الإسلام دين الفطرة، فمعنى هذا أنه دين اليسر، لأن ما جاء على حكم الفطرة لا عسر فيه ولا مشقة. أما ما جاء على جهة التكلف والتصنع فذلك الذى يقتضى كثيراً أو قليلاً من الجهد والعناء

الدين يسر، وإن هذا اليسر ليغمره من جميع أقطاره. أرأيت أيسر من دعوته: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله). وأى شيء لعمرى في هذه الجملة ينشز على الفهم؟ بل أى شيء فيها يتعثر فيه الذهن وتضيق عنه مساحة أدنى التفكير؟

هذا اليسر فى هذا الحق الذى ليس وراءه حق، هو الذى سلك أقطار الأرض بدعوة الاسلام، واستفتح لها قلوب الأمم والجماعات فى غير علاج ولا استكراه!

هذه الدعوة اليسيرة الواضحة لقد تغنت بنفسها عن العنف والاضطرار: (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي). بل لقد استغنت عن استدراج الناس بفنون الإغراء والاستهواء

وهذه تكاليف الاسلام، ما قامت فيها مشقة إلا قامت بإزائها رخصة؛ ولا كان فى أحدها على أحد عسر إلا ذلل بين يديه طريق العذر. وهل بعد ذلك اليسر كله يسر؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه». وقال تعالى فى كتابه الكريم: (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) صدق الله العظيم

لم يقتض الاسلام أحداً احتمال ما لا طاقة له باحتماله، فهذه تكاليفه، من استطاع القيام بها، وإلا تخفف منها فى حدود أحكام الشرع الكريم، حتى تكافئ طاقته ويتسع لها ذرعه، ولا يتحرج بها وسعه، مقبولاً عذره، مكفولاً عند الله أجره

ولعل من الخير أن أنبه فى هذا المقام إلى شيء حقيق بالانتباه: ذلك بأن من القواعد المسلمة أن الضرورات تبيح المحظورات، (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه) فالتفريط فى غير ضرورة، والتخفف من أحكام الشرع من غير داع جدى إثم من الآثام. ومن القواعد الأصولية المقررة أن الضرورة تقدر بقدرها. ولا شك بعد هذا فى أن تتبع الرخص وتلمس المعاذير

إنما هو ضرب من الاحتيال للتهرب من تكاليف الدين ، وهيهات لا ينطلي على الله محال !

***

ومن يسر هذا الدين أنه لم يُقم بينك وبين ربك أية واسطة . وليس من شك فى أن ما تستطيع أن تتناوله بنفسك أيسر عليك وأدنى إليك مما لا تستطيع تناوله إلا بواسطة غيرك . فاذا زلّت بك القدم ، وقلّبك الشيطان فى المنكر ، أقبلت على ربك ، وسألته قبول توبك ، والعفو عما أسلفت من ذنبك ، مطمئناً إلى (أن الله يغفر الذنوب جميعاً) . ليس بك حاجة إلى من يمهد بين يديك سبيل المغفرة ، ولا من يعانى لك استخراج العفو والمغفرة

***

وبعد ، فان من يسر هذا الدين شدة تسامحه ؛ ولا يذهب عنك أن هذا التسامح إنما كان من أبلغ الأسباب فى عظمته

لا يدعوك الاسلام إلى كراهة ما يصدر عن مخالفك فى الدين لأنه يخالفك فى الدين ، بل يدعوك إلى أن تَكره منه ما يُكرَه ، وتُقرّ منه ما يُحبّ ويُؤثَر ، فهو وأخوك المسلم فى هذا بمنزلة سواء

ولقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس جُبة رومية ، وقال تعالى فى كتابه الكريم : (وطعام الذين أوتوا الكتاب حلٌّ لكم وطعامكم حلٌّ لهم) ، ولا ريب فى أن لهذا ولهذا دلالة كان لها أعظم الآثار فى نهضة الاسلام !

لم ينفر المسلمون من مخالفيهم فى الدين ولا فى الجنس ، ولم يحتجز بهم تعصب عن مخالطتهم والاتصال الوثيق بهم ، والانتفاع بكفاياتهم والأخذ عنهم . ولم يكد يستقيم أمر الملك لهم حتى أقبلوا على علوم من سبقوهم فترجموها إلى لغتهم ، وجعلوا يتروونها ويشيعون الأذهان فيها ، ويطبعونها على غرار عقولهم ، ويزيدون فيها ما فتق الرأى والذكاء لهم . كذلك كان شأنهم فى الفنون ، فقد حذقوها أتم الحذق ، وبرعوا فيها أعظم البراعة ، وأداروها على أذواقهم ، حتى اتسق لهم منها فن خاص ؛ وناهيك بالفن العربيّ الذى ما برحت آياته مسطورة على جبين الزمان

***

أرجو أن تكون قد اطمأننت بعد هذا ، إلى أن اليسر فى الاسلام ، كان من أبلغ الأسباب فى عظمة الاسلام

عبد العزيز البشرى

بين الشك واليقين

للأستاذ أحمد خاكى



تطغى على العالم اليوم موجة من الشك تكاد تخترم بقية اليقين التى يحرص عليها الفلاسفة . وقد أسرفت الجماهير فى الشك حتى لقد أصبح هو القاعدة لكل تفكير ، وأصبح اليقين شذوذاً لهذه القاعدة ؛ وحتى ليكاد الانسان يجزم بأننا نجتاز عصراً من عصور السفسطة التى فقدت عندها المعانى والأمثلة العليا أكثر قيمتها . وقد عانت تلك المعانى وهذه المثل العليا ما عانت لاختلاف وجهات النظر بين فريق وفريق ؛ وكل فريق يذهب إلى ما يذهب إليه لأنه يرضى حاجة ملحة فى نفسه ، فهو يتعلق به لأنه يرى فيه إرضاء لنزعاته الجامحة سواء أكانت نبيلة أم وضيعة . وقد أدى ذلك إلى أن تضعضعت قواعد الايمان وحل الشك فى كل بيئة سياسية أو اجتماعية يتذرع به كل مفكر حتى تستوي له الغاية التى يريد . ولعلنا لن ندرك حاجة العالم اليوم إلى اليقين حتى نبحث أصول الشك ، ولأننا نريد أن نقيم مثلاً أعلى يتألف قلوبنا ، فينبغى أن نتعمق البحث فى أصل ذلك الاضطراب الذى يصطخب به العالم

والحق أن الشك فى العصر الحاضر قد أدرك ما أدرك من القوة لأنه لبس لبوساً علمية خالصة . فقد ذهب كل فريق إلى الرأى الذى يرضيه ، لكنه جاهد فى إرضاء تفكيره بأن اتخذ من العلم مسوغاً يضعف ويقوى . وأصبح الشك لذلك علمياً يقوم على دراسات شتى . ووجد المفكرون والسياسيون فى تلك

الدراسات معيناً لا ينضب من القضايا يستدلون بها على ما يعملون مهما نبا عن جادة الخلق القويم . وسنحاول فى هذه المجالة أن نفصل تلك الدراسات المتشككة حتى نرى سبيلا واضحة إلى دراسة المثل الأعلى الذي نحاول أن نقيمه فى مصر

* * *

والشك قد ضرب فى أطواء الفكر الحديث حينما حل علم النفس محل فلسفة الأخلاق . فقد أصبح هذا العلم بعد ذلك مورداً يستمد منه كل مفكر قواعد يفسر بها الظواهر العقلية والنفسية . ولقد أقامت الفلسفة قبل ذلك ما أقامت ، يؤمن الناس والعلماء بأصولها ، لكنهم لم يقفوا إلا قليلا يحاجون طبيعة الايمان . ولم يكن هؤلاء ولا أولئك يفرقون بين مراتب العقيدة ولا ألوان التفكير ، ولكن حينما أبديت للعالم أصول علم النفس بما تحملته من مباحث التحليل النفسى ، وبما تضمنته من وصف نفسية الجماعة ، وبما فرقت بين العقل الواعى وبين العقل الباطن — حينما أبدي كل ذلك تطرق الشك فى قيمة الفكرة ، وأصبح الناس لا يرون للعقيدة نفس السلطان الذى كان لها فيما مضى ، بل لقد ذهبت الكثرة من علماء النفس ووراءهم الجمهرة من سائر العلماء إلى أن الفكرة شيء والعمل شيء آخر

ويرجع الشك فى قيمة الفكرة إلى أن علم النفس الحديث يرى أن الانسان مسيَّر أمام جملة من العوامل التى لا يحكمها العقل بل هى فى الواقع مؤثرات ودوافع تدفع بالانسان إلى أعمال أكثرها قد تحرر من سلطان التفكير القويم . وإنما يسيّر الانسان عند هؤلاء الرغبة والعاطفة والمزاج قبل الفكرة والعقل والفلسفة . وقد كانت فلسفة الأخلاق تؤمن بأن لكل فكرة مَسيراً تنتهجه ، فهى لا تنتهى عند مجرد التفكير وإنما تمتد إلى العمل والتنفيذ . فالفكرة لها شطران من تعقل وسلوك ، ولا يكون لها أثر خلق حتى تنقلب إلى هذا السلوك . لكن علم النفس حلّ فى تاريخ الفكر الحديث محل علم الأخلاق ، فباعد ما بين شطرى الفكرة ، وعالج الاحساس الضئيل مجرداً عن العمل ، وباين ما بين العقيدة والسلوك . وقد أدى ذلك إلى ذلك التناكر الذى نشهده اليوم بين ظهرانينا .

وعلم النفس لا يستطيع أن يخلق لنا مثلا أعلى لأنه غير قادر على تثبيت قِيَم الأشياء . ذلك لأنه علم وصفى يسير فى نطاق ضيق من التجارب التى تختلف على عقل الانسان وحسّه . ولأنه علم تجريبى ، فقد عالج حالات شاذة أو غير شاذة من غير أن يقيم معايير يستطيع المرء أن يتخذها لنفسه غاية أو سبيلا . فحينما طغى علم النفس على فلسفة الأخلاق فَقَدَ العالم كثيراً من الغايات الفلسفية التى كان قد استقر على الايمان بها . واستشرف قادة الفكر لحالة من الشك طافت بنفوسهم حتى أصبحوا يشكّون فى مبلغ عقائدهم هم أنفسهم .

وقد كان الفرد ضحية من ضحايا الدراسات النفسية ، لأنه تضاءل ثم تضاءل أمام دراسة الجماعة حتى لم يَعُد له إلا المكان الأدنى . ومن العجز أن نطالب الديمقراطية بما نطالبها به من تقدير المسئولية إذا كانت قد أنكرت المدرسة الحديثة حدود الفرد هذا الانكار . وإذن فالعبث بعينه هو أن نتهدّى بعلم النفس فى سيرنا إلى المثل الأعلى ؛ والعبث بعينه هو أن نحاول تأليف غاية نبيلة تتألف أصوله . فعلماء النفس يصفون حالات الجماعة ونفسية الجماهير بما يحكمها من عقلية الرعاع ، وبما يشينها من العقل الباطن غير المفكر . وكان حقيقاً بكل ذلك أن يدفع بالعالم إلى الشك ، وأن يزعزع إيمان الناس فى سمو المثل الأعلى . فقد أصبح الفرد يرى نفسه غير الملوم ، لأنه يتخذ من وجوده فى الجماعة ذريعة للتزكية والتبرؤ .

ولم ينفرد علم النفس بين العلوم فى إنتاج ذلك الجو المتشكك الذى يكاد يعصف بالفكر الحديث ؛ فالتاريخ وعلم الاجتماع كلاهما يعاونه فى ذلك . أما التاريخ فقد حاول المؤرخون أن يطبقوا على حوادثه مقاييسهم العلمية . وما زالوا يفصلون فصوله ويؤصلون أصوله حتى خيل إليهم أنهم قد استخلصوا من صحائفه طرقاً علمية محددة . وفى كل ذلك غبن للفرد وتحيف من مكانه ، لأن التاريخ العلمى تنكرَ لفلسفة الخلق ، وجافى فكرة السلوك ، وازورّ عن تقدير الفرد ، وحاول أن يقيم قواعد تستمد سلطانها من الجماعة . وقل مثل ذلك عن علم الاجتماع الذى ينكر مسئولية الفرد ويلاشيها فى الإرادة العامة ، والذى يخلو من أصول خلقية تنشيء الفكرة وتخرج منها عملاً نافعاً طيباً ينتجه الفرد

والحق أن علم النفس والتاريخ وعلم الاجتماع كل أولئك علوم

تجريبية لا خير فيها إذا حاولنا أن نقيم منها مثلاً أعلى ، فهي لن تزيد إيماننا فى سمو الفكرة ، ولا عقيدتنا فى سيطرة العقل على العمل . وكلما أمعنا فى دراستها زادتنا شكاً فى أصول الخلق وفى فلسفة الحياة . فهى تعالج ظواهر نفسية أواجتماعية أو اقتصادية ، لكنها لا تأتى بجديد في قيم الأشياء ، ولا تخلق ميزاناً عادلاً لحقائق الخلق ؛ وإنما نفيد من هذه العلوم إفادة سلبية لأنها جميعاً تبسط لنا حالات النفس والاجتماع التى ينبغى أن نتجنبها ؛ وهى لا تمحصنا الإيمان فى فكرة من الأفكار ، لأنها تبسط الشروح التى تؤيد كل فكرة . فعندنا أن الإغراق فى دراسة مثل تلك العلوم هو السبب فى حالة الشك العلمى التى ملكت مذاهب التفكير على كل مفكر ، وهى التي وجهت كل فرد وجهة من لا يؤمن بشيء هو فى نفسه حسن أو جميل نافع ، حتى أصبحت الفكرة الحديثة ضرباً من ضروب السفسطة الخادعة . وذلك عندنا هو السبب فى التناقض الذريع الذى خلق ذلك النضال الكاذب حول ألفاظ تكاد تخلو من المعانى ، وحول معان لايدين لها الناس بالولاء

* * *

وكما أن فلسفة الخلق قد تلاشت فى علم النفس ، فكذلك قد تلاشت الفلسفة السياسية فى علم الاقتصاد . ذلك بأن العالم قد أعمته اقتصادياته عن المثل العليا التى أقامها الفلاسفة والحكماء ، وأسرف فى اتخاذ مبادئ الاقتصاد إنجيلاً لا يكاد يؤمن إلا به . فكما أن الفرد يرى فى أصول علم النفس أن إرضاء النزعات والرغبات فيه شفاء لما يحز فى النفس من ألم ممض ، كذلك ترى الجماعات أن فى إرضاء رغباتها ونزعاتها الاقتصادية شفاء لما تعانيه من جفوة وشقاء . والاقتصاد كما هو الآن علم المنافسة الحادة على احتكار المادة والتطاحن على الكماليات ؛ وليس يخفف من حدته أي فكرة واضحة عن المعانى الأولى ؛ وليس ينهنه من شدته أى قوة دافعة إلى المثل الأعلى . وقد كان الاقتصاد نفسه مَعيناً يستمد منه المؤرخون وعلماء النفس ما يرونه من القضايا ليتشككوا فى قيم الخلق العام

* * *

تلك إذن هى الدراسات التى نفخت روح الشك فى العالم الحديث ، وزلزلت اليقين الذى استهدى به الفلاسفة الخلقيون والسياسيون عندما كان العالم أشد من ذلك إيماناً . وقد اضطربت قوائم السياسة والاجتماع والاقتصاد لهذه الحالة التشككة ، لأن العلماء أنكروا قوة الخلق فى الفرد ، وأنكروا كذلك قوة الخلق فى الجماعة ، فأدى ذلك إلى حالة من الاستهتار بالمثل العليا يعانى منها الغرب ما يعانى اليوم . وحينما ينادى الفلاسفة فى أوربا بفكرة السلام ، وحينما يعلنون للملأ سخطهم على الحرب ، فليس لنا إلا أن نسخر من كل ذلك ، لأننا نعلم فى نفس الوقت أن قادة الفكر عندهم قد سوّغوا الحرب بآلاف من الأدلة التى استخرجوها من علم النفس والاقتصاد والتاريخ والاجتماع . وإذا سمعنا بعد ذلك عن العدل والإخاء والمساواة والمحبة فينبغي علينا ألا نؤمن بأن أوربا شديدة الايمان بكل ذلك ، لأن مذاهب عملية تناقض كل هؤلاء قد شاركت حياة نظمهم الاجتماعية والاقتصادية . وشبت معها وهى ما زالت تدرج فى عنفوانها مع المدنية الحديثة

والسياسة التى يؤمن بها الجمهرة من الناس قد تأثرت تلك الفلسفة العلمية التى أنتجتها دراسة تلك العلوم . وقد مشت الحضارة الغربية بيننا بما تحملته من كل ذلك ، فاشتعب الناس فى مصر فئات متنافرة يلاحون عن مذاهب لا أصل لها فى صميم الفكرة . وكانت نتيجة كل ذلك فوضى اجتماعية ضربت بجرانها فى كل وجه من وجوه الحياة عندنا . ولن نستطيع أن ندرس المثل الأعلى حتى نقرر المبادئ التى ينبغى أن نلتزمها فى حياتنا العقلية والسياسية والاجتماعية ، وحتى نقدر الحقائق التى نمنو لها ونستهدى بها . ينبغي علينا أن نقدر قبل كل شيء أصالة الرأى والشرف والصدق فى حياة الفرد . وينبغى علينا أن نقدر مبادئ الحرية والنظام والديمقراطية والقومية والعالمية فى حياة الجماعة . يجب أن يكون ذلك الخطوة الأولى التى نخطوها لتنشئة المثل الأعلى — هل نؤمن بكل هؤلاء ؟ أنؤمن ببعضها ولا نؤمن بالبعض الآخر ؟ هل ينبغى أن يكون إيماننا من النوع الفلسفى الفعال أم من النوع النفسى الكاذب ؟ كل ذلك يجب أن نقرره قبل أن نقيم بناءنا ، فاذا استوت نفوسنا على الايمان خلقنا فكرة لها أثر فى العمل ، وكونا عقيدة لها سلطان على السلوك

* * *

ولعل أول ما ينبغى أن نعنى به فى هذا السبيل هو تنشئة الفرد .

وقد أسلفنا أن تلك الدراسات المتشككة قد أنكرت ما للفرد من وزن فى حياة الجماعة حتى لقد أصبح الفرد يحتمي فى نتائج تلك الدراسات ، فيرى نفسه غير مسئول عن الحالة السيئة التى وجد نفسه فيها . وإذا كان مثل هذا الاتجاه قد أساء إلى الحياة السياسية والاجتماعية فى الغرب ، فإنه يفسد حياتنا العامة نحن أيضاً . وهو عندنا أفدح أثراً ، لأن الفرد من نفسه مضعضع مستضعف . فنحن إذن نبدأ بتنشئة الفرد ، لأن التنظيم العقلى عند الفرد أساس للنظام الاجتماعى العام . فبين عقلية الفرد وبين نظام الجماعة صلات تتوثق وتتوافق كلما أحسنت تنشئة الفرد . ولذلك فلا بد لنا من أن نلقنه فلسفة يقيم بها قيماً ثابتة فى حياته . فلابد لنا من أن نكمل الدراسات التجريبية التي ذكرنا بدراسة الفلسفة الخلقية . ولابد لنا من أن نقيم أسساً لخلق الفرد من تربيتنا العامة ومن معايير خلقية خاصة نكمل بها دراساتنا فى التاريخ والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس

ثم علينا بعد ذلك أن نخفف كثيراً من غلوائنا فى تقدير الجماعة ما لها وما عليها ، لأن هذا فى نظرنا قد بعث سورة الشك التى أخذت بأكظام السياسيين والمفكرين فى العصر الحاضر . وإذا نحن حاولنا أن نتخذ طريقاً وسطاً بين الفرد والجماعة استطعنا أن نجد خطة مثلى تداول بين الطرفين . ولا مناص هنا أيضاً من أن نضم أصول الفلسفة السياسية إلى أصول الاقتصاد ، وأن نتخذ من ذلك الائتلاف معايير نطبقها على مبادىء السياسة والخلق العام . فاذا نحن خلقنا من كل ذلك فلسفة خلقية أو سياسية عامة كان ذلك كسباً فى سبيل المثل الأعلى

***

وبعد ، فاننا إذا تصفحنا تاريخ العقائد ، وإذا حاولنا أن نستخرج منها فلسفة خلقية أو سياسية ، فلن نجد خيراً من المثل العليا التى تنزل بها الاسلام . وقد بدأ الاسلام والعالم فى مثل ما عليه الآن من التبهم والتشكيك ؛ لكنه ما لبث أن فاض نوره على العالم من أقصى الأرض إلى أقصى الأرض ، وتجسمت الفكرة الأولى في نظام خاق للفرد ونظام خلق للجماعة على أكمل ما يكون . فاذا نحن حاولنا دراسة المثل الأعلى فعلينا بتلك الرجعة إلى المعايير الخلقية التى قامت عليها سيادة المسلمين

وإذا قام قادة الفكر منا يوجهون حياتنا نحو قيم خاصة لحقائق الحياة ، فإن الجمهرة وراء هؤلاء القادة سوف يهفون إلى القيم الصحيحة التى تنزل بها الدين . ذلك عندنا نهاية السفسطة الخبيثة التى نعانيها اليوم ، وذلك تنظيم لحياتنا الاجتماعية التى زلزلتها الفوضى . والفرد عندنا في كل ذلك أساس ينبغى أن نبدأ به ؛ وتربيته غاية فى نفسها ؛ والدين يعترف أول ما يعترف بسمو الفرد وخطره ، ويجب أن نعترف نحن أيضاً بهذا السمو

ولعل الاسلام أكثر الأديان تحديداً لواجبات الفرد وحدوده ؛ ولعله أشد الأديان احتفاء بخلق مثل أعلى يحدو الجماعة . وفى الاسلام فلسفة خلقية واضحة ليس علينا إلا أن نجلوها ، وفيه أيضاً فلسفة سياسية تعتمد على طائفة من المعانى . وإنما مال بنا عن كل تلك الأصول إعاننا بما حاول الغرب أن يقيمه من مثل عليا . ومثل الدراسات التى عالجنا تسيطر على حياة الغربيين . وإذا نحن حاولنا أن نقيم مثلا أعلى فعلينا أن نتخذ منها مُعيناً ، ولكن علينا ألا نسمح لها بأن تكون أخاذة مسيطرة

والفلسفتان الخلقية والسياسية أفضل ما ندعو لها ، لكن دراستهما سوف تقتصر على القادة دون العامة ، وعلى المتعلمين دون الجهلاء . ولكن الدين عندنا هو الذى يجمع بين الفلسفتين ، ويوازن بين الفريقين ، ويؤلف بين القلوب ، ويبث فى النفوس روحاً فعالة لا تستأنى ولا تسترتيب . وهو بعد ذلك أشد ما نحتاج إليه ليقيم لنا قيماً أخرى غير التى أقامها الغرب ، ومعايير أخرى غير التى فرضها علينا الغرب

أحمد فاكى

ابن دقيق العيد

للدكتور محمد مصطفى زيادة
الأستاذ المساعد بكلية الآداب



يظفر القارئ في تاريخ المماليك بمصر بشخصية رجل لا تربطه بغالبية أهل ذلك العصر العنيف صلة دنيوية ، لتنزهه عن المادة، وعزوفه عن شهوة المناصب وزخرفها ، ذلك هو قاضي القضاة ابن دقيق العيد (٦٢٥ — ٧٠٢ هـ) وهو الشيخ تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري المنفلوطي الشافعي المالكي المصري

وكان أصل لقب «ابن دقيق العيد» الذي عُرف به في كتب التاريخ حسبما ورد في النويري(١) أن جده وهب بن مطيع لبس في يوم عيد ثياباً بيضاء ، فرآه جماعة من أهل الريف فقال قائل منهم كأن ثيابه دقيق العيد لبياضها ، فلزمه هذا اللقب ، واشتهر به بيته وسلالته

تولى ابن دقيق العيد منصب قاضي القضاة بالديار المصرية سنة خمس وتسعين وستمائة هجرية ، والسلطان يومئذ الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري ؛ وكان قبل توليته تلك الوظيفة الكبرى قد درّس بالمدرسة الناصرية بالشافعي وبدار الحديث الكاملية وغيرها ، وصنّف التصانيف في فقه المذهبين المالكي والشافعي ، وفي الحديث ، وأفتى الفتاوى الكثيرة التي برهنت على أنه ثبت وحجة في علم الشريعة ؛ وعُرف في جميع أدوار حياته بالشدة في الحق ، والسير على مقتضى أصول الدين لا يحيد عنها قيد أنملة ، مهما كلفه ذلك من غضب سلطان أو أمير . وقد نقل عنه حسبما ذكر ابن العماد(١) أنه قال: «ما تكلمتُ بكلمة ولا فعلتُ فعلاً إلا أعددت له جواباً بين يدي الله تعالى »

ظل ابن دقيق العيد متولياً لمنصب قاضي القضاة بالديار المصرية حتى وفاته سنة ٧٠٢ هـ وكان كثير التطلع إلى أخبار نوابه بالأعمال المصرية ، يبعث إليهم بكتبه المشتملة على المواعظ والتحذيرات من عواقب الغفلة والاهمال في الأحكام . وقد نقل النويري(٢) أحد هذه الكتب التي أنفذها ابن دقيق العيد سنة ٦٩٧ هـ ونصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم : الفقير إلى الله محمد بن علي (يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون). هذه المكاتبة إلى فلان وفقه الله لقبول النصيحة ، وآتاه لما يقربه قصداً صالحاً ودنيا صحيحة . أصدرناها إليه بعد حمد الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ويمهل حتى يلتبس الإمهال بالاهمال على المغرور ، تذكرة بأمر ربك ، فإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ؛ ويحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون ، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار وينفعه، وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار ، فإني أخاف أن يتردّى فيجر من ولاه — والعياذ بالله — معه . والمقتضى لإصدارها ما لمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب ، ومن تقاعد الهمم على ما يجب للرب على المربوب ، ولا سيما القضاة الذين يحملون عبء الأمانة على كواهل ضعيفة ، وظهروا بصور كبار وهي نحيفة . والله إن الأمر لعظيم ، وإن الخطب لجسيم ، ولا أرى مع ذلك أمناً ولا قراراً ولا راحة ، وإلا رجلاً نبذ الآخرة وراءه ، واتخذ إلهه هواه ، وقصر همّه وهمته على حظ نفسه من دنياه ، فغايته مطلب الحياة والمنزلةُ في قلوب الناس وتحسين الزّي والملبس ، والركبة والمجلس ، غير مستشعر خسّة حاله ولا ركاكة مقصده ،

---

(١) النويري : نهاية الارب (مخطوط بدار الكتب المصرية) ج ٣٠ ص ٣٣٦

(١) ابن العماد : شذرات الذهب (طبعة مصر) ج ٦ ص ٥

(٢) النويري : نفس المرجع ج ٢٩ ص ٣١١ ا وما بعدها

فهذا لا كلام معه ، فإنك لا تُسمع الموتى وما أنت بمسمع من فى القبور . فاتق الله الذى يراك حين تقوم ، واقطع أملك عليه فالمحروم من أمله غير مرحوم . وما أنا وأنتم أيها النفر إلا كما قال حبيب العجمى ، وقد قال له قائل : « ليتنا لم نخلق » فقال : « قد وقعتم فاحتالوا » . وإن خفى عليك بعض هذا الخطر وشغلتك الدنيا أن تقضى من معرفته الوطر ، فتأمل كتاب النبوة : إن القضاة ثلاثة ، وقوله صلى الله عليه وسلم لمن خاطبه مشفقاً عليه : « لا تأمرنّ على اثنين ، ولا تليَنّ مال يتيم » ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم اهـ

وقد حدث في سنة ٦٩٧ هـ ، والسلطانُ يومئذ الملك المنصور حسام الدين لاجين ، أن نائب السلطنة منكوتمر أراد أن يستخلص من ابن دقيق العيد حكماً فى قضية ميراث لأحد أصحابه بغير بيّنة شرعية ، فامتنع قاضى القضاة من ذلك وهو عالم بأن منكوتمر أقوى شخصية فى الدولة قاطبة ، وتردّدت الرسل بينهما وابنُ دقيق العيد لا يتحرك عن موقفه ؛ فأغاظ ذلك منكوتمر وأرسل أحد الأمراء الكبار إلى قاضى القضاة لعلّه يفوز منه بطائل . وقد أورد المقريزى[1] قصة هذا الحادث فى تفصيل ، فذكر أن منكوتمر بعث إلى ابن دقيق العيد يعلمه أن تاجراً قد مات وترك أخاً ولم يخلف غيره ممن يرثه ، وأراد أن يثبت استحقاقه الإرث بمجرّد هذا الاخبار عنه ، فلم يوافق قاضى القضاة على ذلك . وتردّدت الرسل فخرج منكوتمر من ذلك وبعث إليه الأمير كُرْت[2] الحاجب ؛ فلما دخل كرت وقف بعد ما سلّم ، فقام له القاضى نصف قومة ، ورد عليه السلام وأجلسه . وأخذ كُرْت يتلطف به فى إثبات أخُوّة التاجر بشهادة منكوتمر ؛ فقال له ابن دقيق العيد : « وماذا ينبنى على شهادة منكوتمر ؟ » فقال له : « يا سيدي ! ما هو عندكم عدل ؟ » فقال : « سبحان الله ! » ثم أنشد :

يقولون هـذا عندنا غير جائزٍ
ومنْ أنتمُ حتى يكونَ لكم عِنْدُ ؟

وكرر ذلك ثلاث مرات ثم قال : « والله متى لم تقم عندي بيّنة شرعية ثبتت عندى وإلاّ فلا حكمت له بشىء باسم الله » فقام كرت وهو يقول : « والله هـذا هو الاسلام » . وعاد إلى منكوتمر واعتذر إليه بأن : « هذا الأمر لا بد فيه من اجتماعك بالقاضى إذا جاء دارَ العدل »

فلما كان يوم الخدمة ومرّ القاضى على دار النيابة بالقلعة ، ومنكوتمر جالس فى الشباك ، تسارعت الحجاب واحداً بعد آخر إلى القاضى وهم يقولون : «يا سيدى ! الأمير ولدك يختار الاجتماع بك لخدمتك» فلم يلتفت إلى أحد منهم . فلما ألحوا عليه قال لهم : « قولوا له : ما وجبت طاعتك علىّ » والتفت إلى من معه من القضاة وقال : «أشهدكم أنى عزلت نفسى باسم الله . قولوا له يولّ غيرى » وعاد إلى داره وأغلق بابه ، وبعث نقباءه إلى النواب فى الحكم وعقاد الأنكحة يمنعهم من الحكم وعقد الأنكحة

فلما بلغ السلطان ذلك أنكر على منكوتمر وبعث إلى القاضى يعتذر إليه ويستدعيه ، فأبى واعتذر عن طلوعه . فبعث إليه الشيخ نجم الدين حسين بن محمد بن عبود والطواشى مرشداً ، فما زالا به حتى صعدا به القلعة . فقام إليه السلطان وتلقاه ، وعزم عليه أن يجلس فى مرتبته ، فبسط منديله — وكان خرقة كتان خَلِقة — فوق الحرير قبل أن يجلس كراهة أن ينظر إليه ، ولم يجلس عليه . وما برح السلطان يتلطف به حتى قبل الولاية ، ثم قال له : «يا سيدي ، هذا ولدك منكوتمر خاطرك معه ، أدعُ له» وكان منكوتمر ممن حضر ، فنظر إليه قاضى القضاة ساعة وصار يفتح يده ويقبضها وهو يقول : « منكوتمر لا يجىء منه شىء » وكرّرها ثلاث مرات وقام . فأخذ السلطان الخرقة التى وضعها على المرتبة تبرّكاً بها ، وتفرّقها الأمراء قطعة قطعة ليدّخروها عندهم رجاء بركتها

هذا هو ابن دقيق العيد وتلك شدة مراسه فى الحق

محمد مصطفى زيادة

---

(١) المقريزي : السلوك (طبعة الدكتور زيادة) ج ١ ص ٨٤٨ وما بعدها

(٢) Zetterstceén : Beiträge zur Geschichte der Mamlûk-ensultane (Brill 1919) P. 10

من صميم السيرة

الإسراء

للأستاذ أمجد الطرابلسي

رقدتْ ملء عينها البيداء   واحتوتها فى سرّها الظلماء
وأوى موكبُ الطيور إلى النخـ   ـلِ وحنّتْ لزُغْبها الورقاء
والمها أطبقتْ على الصّفو عينيـ   ـها، ومالت إلى الكناس الظّباء
سكنَ الليلُ، لا هتافٌ ولا عز   فٌ ولا آهةٌ ولا ضوضاء
ليس إلاّ النجومُ تهمسُ فرحى   فى الرّحاب العُلى فتصغي الجِواء
وسجَتْ مكّةٌ، فلا اللهوُ لهوٌ   فى حِماها، ولا الغناء غناء
أطفأتْ فى الخيام كلَّ سراج   رقصتْ فوقَ ثغرهِ الأضواء
وانقضى كلُّ سامرٍ أثملته   بالفنونِ الرُّواةُ والشُّعراء
وتهادى النسيمُ بين الرّوابى   كلما هبّ هدّه الإعياء
ملء أعطافه أريج الخزامى   وبقايا الكؤوس، والأنداء
نامتِ البيد! هل رأيت سريراً   رقدتْ فوقَ صدرهِ عذراء؟
الطُّيوفُ الفرحى تطوف حواليـ   ـهِ كما طافَ بالقلوبِ الهناء
والمنى الضاحكاتُ تلثمُ خدّيـ   ـها فيفترُّ ثغرُها الوضّاء
يا جمالَ البيداء! ماذا ينالُ الـ   ـوصفُ منهُ، وما يُصيبُ الثناء؟!
كلُّها السحْرُ والرّحيقُ المُصفى   كلُّها الشعْرُ والهوى والبهاء
كلُّها المجدُ والبُطولةُ والسؤ   ددُ والعزُّ والنّدى والإباء!

* * *

إيهِ يا منبعَ الصّناديدِ يا بيـ   ـدُ إذا رجَّ جانبيكِ نداء!
يا مهبَّ الفرسانِ إن صرّخ المجـ   ـدُ يناديهمُ وهزَّ اللواء!
نامَ يا بيدُ فى سكونكِ ندبٌ   حفظتهُ وهدْهدتهُ السماء
سهرتْ حولَه العنايةُ ترعا   هُ وحامتْ من فوقهِ الآلاء
من ذؤاباتِ هاشم كلهُ طهـ   ـرٌ ونبلٌ ورحمةٌ ووفاء
أروعٌ أينَ من عزيمتهِ السيـ   ـفُ ومن جودِ كفّه الأنواء!
عربىٌّ تهلّلَ الكونُ لمّا   كرّمتهُ النبوّةُ الغرّاء
شعّ منهُ الهدى فهاجتْ وماجتْ   حنقاً — جاهليّةٌ رعناء
دينُها البغيُ والتناحرُ والثا   راتُ والبطشُ والأذى والدّماء
فاحفظيه يا بيدُ فهو رجاءُ الـ   ـكونِ وسطَ الظلامِ وهو الضياء
ما يدومُ العمى إذا أسفرَ الحقّ   ولا النور والظّلام سواء!!

* * *

إيهِ يا نائماً تداعبُ جفنيـ   ـهِ الخيالاتُ والرُّؤى الشمّاء!
يا نبيًّا فى صدرهِ خفقَ الكو   نُ جميعاً، جراحُهُ والدّواء!!
يا رسولاً ترنو لطلعته الأمـ   ـلاءُ حيرى قد عمّها الإدجاء!
أيُّها النائمُ انتبهْ! قد أتاكَ الـ   ـرُّوحُ يحدوهُ من علاهُ القضاءُ
والبُراقُ السعيدُ حمْحمَ فى البا   بِ اشتياقاً فاهتزّتِ الصّحراءُ
طِرْ عليهِ تمضِ القفارُ سِراعاً   تحتَ وثباتهِ ويُطوَ الفضاءُ
طِرْ عليهِ إنّ العوالمَ نشوى   مُذْ أتتها عن سعيكَ الأنباءُ
والسمواتُ تستعدُّ لمسرا   كَ وقد زغردتْ بها البشَراء
تتغنّى فيها الملائكُ فرحى   وتهادى البشائرَ الأنبياءُ
رفرفا فى سماء مكةَ. فالريـ   ـحُ ذلولٌ تحتَ البراقِ رُخاءُ
وامضِيا تمّحِ الفلا والمسافا   تُ كأنَّ ابتداءهنّ انتهاءُ
فإذا شِمتُما على البُعدِ سينا   ءَ ولاحت كثبانُها السمراءُ
فاهبطا، طرْفةَ العيونِ، إليها   يا لربّى لِما رأتْ سيناء!!
يومَ ناجى الكليمُ فى جانبيها   ربَّهُ، ملءُ أصغريه الرّجاءُ
فهوى مُرْعشاً وقد هاله النّو   رُ وأعشى عيونه اللألاءُ
ثمّ سيرا حتى إذا (بيْتُ لحْمٍ)   دوّمتْ من بُروجها الأصداءُ
فاهبطا تُرْبَها الذّكىَّ فمنـ   ـه
« أسفرَ الرّفقُ والهدى والحياء[1] »
وأتيا المسجد الذى باركَ اللـ   ـهُ حواليهِ منذ كان البناء

---

(١) : قال شوقى :
ولد الرفق يوم مولد عيسى   والمروءات والهدى والحياء

فاسجدا فيه للذى غمرَ الكو … نَ نداهُ وعطفهُ والرضاء
صلِّيا يَبْسِمِ المُصلَّى ابتهاجاً … لكما فى الدُّجى ويشدُ الفناء
واعرجا صاعدَيْن سبعاً طباقاً … لا حجابٌ، لا دُجْيَة، لا عماء
ألقٌ باهرٌ، وبحرٌ من النو … رِ خِضَمٌّ، ورَوْعَةٌ، وصفاء
ليس إلا ملائكٌ تحمل البـ … ـشرى ورسْلٌ أحِبَّةٌ أصفياء
اصعدا فى الجمال حتَّى تجلَّى … لكما سِدْرةُ العُلى العَصماءُ
وانظرا من عَلٍ إلى هذه الأجْـ … ـرامِ طُرًّا، يَجِلُّ عنها الهباءُ
نظـرةً تنظِمُ العوالمُ والآ … بادُ فيها وتلتقى الأملاء
اسموا، اسموا فما أعظم الأنـ … ـفُسَ تَفْنى من دونها العلياء!
ما أجلَّ الأرواحَ تَعلو وتَعلو … ثم تعلو، وإن تناهى العلاء!
ما أحبَّ الفناءَ فى النُّور إمَّا … كُرِهَ اللبثُ فى الثرى والفناء!

***

إيه مسرى النبيِّ! قد تُنكر الأنـ … ـوارَ والفجرَ مقلةٌ عمياءُ
ما على جاحديك لومٌ إذا ضلُّـ … ـوا، هلِ الناسُ كلُّهم أنبياء؟!

***

معرجَ المصطفى! إليكَ التَّحايا … شَعشَعتهـا دموعُنا والدِّماء
بوركتْ أرضُكِ النَّدِيَّةُ يا قُد … سُ ووشَّتْ رياضَكَ النَّعماء!
أنتِ أمُّ الدُّنى، ومهدُ النُّبُوَّا … تِ ومنكِ استفاءتِ الآناء
فيكِ موسى ألقى عصاهُ ارتياحاً … بعد أن طوَّحتْ بهِ الأرزاء
والمسيحُ العظيمُ فيكِ تجلى … يملأُ الأرضَ من هُداه السَّناء
علَّمَ الكونَ رحمةَ العبدِ للعبـ … ـدِ، فلا قسوةٌ ولا إيذاءُ
وغـذاه الحبُّ الطَّهورَ فلا بغـ … ـضٌ، ولا نَفْرةٌ، ولا أعداء
يا حماةَ المسيحِ فى القدسِ! ما فى
دينهِ أن يعذِّبَ الضُّعفاء!
ليس فيه طردُ الهزارِ من الأيـ … ـكِ لتحْتَلَّ وَكْرَهُ رقطاء!
يا جيوش الصليب فى القدس! ما فى
شرعِهِ أن تُقتَلُ الأبرياء!

ليس فى شرعِهِ هوانُ المواثيـ … ـقِ، إذا ما تواثَقَ الشُّرَفاء!
ليس فيه أن يبذلَ العرَبُ الأنْـ … ـفُسَ كى تسترقَّها «الحلفاء»!
يا لدمعِ المسيحِ ما كان أصفا … ه! ولكنَّ روحَكم كدراء!
سائلوا مهدَهُ المُطَهَّرَ هل صا … نته إلا العُروبةُ العرْباء؟!
سائلوه يا ناسُ عن عُمَرَ الفا … روقِ: «ما كانَ عدله والوفاء؟»
سائلوه عن ابنِ أيُّوبَ لما … عصفتْ جُنَّةٌ بكم هَوجاء
يومَ جاءتْ جُيوشُكُم مثلَمَا انحطَّـ … ـتْ على المنهَلِ النُّسور الظِّماء
تُغرِقُ المهـدَ مثلَمَا تُغرقُ المـ … ـجدَ منها الدِّماء والأشْلاء
يوم ضاقت عنها الأباطحُ فى البـ … ـرِّ وناءتْ بحملِها الدَّأماء
يُلهِبُ الحقدُ والعِداء مآقيـ … ـها، وتنزو فى صدْرِها الأدْواء
وابنُ أيُّوبَ يُطفئُ النَّارَ بالحِلْـ … ـمِ ويجري بنصرِهِ الأنباء
ويفك الملوكَ صفحًا ومَنًّا … بعدَ أسْرٍ يعزُّ فيه الفِداء
أنتمُ تَعرِفونَ عدلَ صلاحِ الـ … ـدِّينِ وسْطَ العجاجِ يا طُلَقاء؟
لم يهجكم للنار دينٌ، ولكنْ … جَشَعُ الذئبِ أثملتْهُ الدِّماء
أى دينٍ يُحِلُّ ذبحَ اليتامى … أىُّ شرعٍ تُبادُ فيه النساء
الأحابيشُ دينُهم مثلكم سَمْـ … ـحٌ كريمٌ، لكنَّهمْ ضُعفاء
وجلودُ الغُزاةِ بيضٌ لِطافٌ … أينَ منهنَّ جِلْدَةٌ سوداء؟!
إنما العُرْبُ نعمةُ اللهِ فى الأرْ … ضِ وهمْ فى ظَلَامِها الأضْواء
لَهُمُ العزُّ والنُّبُوَّةُ فيهـا … ولَهُمْ دونَ أهلِها الكبرياء
حملوا مشعلَ الحضارةِ والكو … نُ ظلامٌ وحيـرة وعَماء
هم شموسُ الورى وصفوةُ خلقِ اللّـ … ـه والمُخلصونَ والحُنَفاء
كلُّ مجدٍ لمجدِهِم يخفضُ الرَّأْ … سَ خشوعاً ولو نمته السَّماء!!

***

دمتِ قُدْسَ العُلى ودام لكِ العزُّ
وذلَّتْ فى غابكَ الدُّخـلاء
دمتِ فوقَ السُّها ودامَ لكِ العرْ … بُ فداء، وطابَ هذا الفِداء!

(دمشق) **أمجد الطرابلسى**

قالت هلم إلى الحديث، فقلت لا...

للأستاذ أحمد الشايب
مدرس بكلية الآداب

— ١ —



قال الراوي :

كانت السنة الثامنة منذ هاجر الرسول عليه السلام من مكة إلى المدينة ، وكان صُلح الحُدَيبية الذي يقف الحرب بين المسلمين والمشركين سنوات عشرا يقطع عامه الثاني ، ويتيح لقريش في مكة فرصة التروّي لعلهم ينجون بكرامتهم وحياتهم من هذه الدعوة المحمدية ، والنصرة الإلهية . وكان المسلمون في المدينة ، مهاجرين وأنصارا ، يستبعدون مدى هذه الهدنة ، ويعدونها نيلاً من عزتهم الدينية ، وقد علموا « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخُلُنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » وما كان لهم أن ينقضوا عهداً في أعناقهم أو يفكوا عقداً للرسول بإذن الله تعالى . ولكن الله قدر وقضى — لتصدق الرؤيا توًّا ويكون الفتح المبين — أن تغدر قريش ؛ فقد ثار بنو بكر ابن كنانة على خُزاعة ، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له الوتير يطلبونهم بدماء قديمة ، وكانت قريش ترفد بني بكر بالسلاح ، وتقاتل معهم خزاعة مستخفين بالليل حتى جاوزوا خُزاعة إلى الحرم . فلما انتهوا إليه قال بنو بكر لزعيمهم : يا نوفل ، إنا قد دخلنا الحرم ، إلهكَ ! إلهكَ ! فقال : كلمة عظيمة : لا إلهَ له اليومَ ! يا بني بكر أصيبوا ثأركم ، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم ، أفلا تُصيبون ثأركم فيه ؟ !

قال الراوي : فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا ونقضوا ما كان بينهم وبين الرسول من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة ، وكانوا في عقده وعهده ، خرج عَمرو بن سالم الخزاعي ، ثم أحدُ بني كعب ، حتى قدم على الرسول المدينة ، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال :

إن قريشاً أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكَّدا
فانصر هداك الله نصراً أعْتدا ... وادعُ عبادَ الله يأتوا مَددا

فقال رسول الله : نُصرتَ يا عَمرو بن سالم . ثم عرض لرسول الله عَنان من السماء ، فقال : إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب . ثم خرج بُدَيل بن وَرْقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على الرسول المدينة فأخبره بما أصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس : كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد في المدة ! ومضى بُدَيل بن ورقاء وأصحابه حتى لقوا أبا سفيان بن حرب بعسفان قد بعثته قريش إلى الرسول ليشد العقد ويزيد في المدة ، وقد رهبوا الذي صنعوا . فلما لقي أبو سفيان بُديل بن ورقاء قال : مِن أين أقبلت يا بديل ؟ وظن أنه قد أتى الرسول . قال سيّرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي . قال : أو ما جئت محمداً ؟ قال : لا . فلما راح بُديل إلى مكة قال أبو سفيان : لئن كان جاء بُديل المدينة لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحلته فأخذ من بعرها فَفتّهُ فرأى فيه النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بُديل محمداً

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فلما ذهب ليجلس على فراش الرسول طوته عنه . فقال : يا بُنية ، ما أدري أرغبتِ بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش الرسول . قال : والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر . ثم خرج حتى أتى الرسول فكلمه فلم يرد عليه شيئاً . ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله ، فقال : ما أنا بفاعل . ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال : أأنا أشفع لكم إلى الرسول ؟ ! فوالله لو لم أجد إلا الذّر لجاهدتكم به . ثم دخل على عليّ بن أبي طالب وعنده

فاطمة بنت رسول الله وعندها الحسنُ بن على يدب بين يديها ، فقال : يا على إنك أمسُّ القوم بي رَحِماً وإنى قد جئت فى حاجة فاشفع لى إلى رسول الله ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم الرسول على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة فقال : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بُنيّك هذا فيُجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله مابلغ بنىّ ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ فانصحنى . قال : والله ما أعرف لك شيئاً يغنى عنك شيئاً ، ولكنك سيدُ بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك . قال : أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئا ؟ قال : لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس ، وركب بعيره وانطلق . فلما قدم على قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ فقص عليهم ما جرى ، فقالوا : ذلك لا يغنى شيئاً ، قال : ما وجدت غير ذلك

— ٢ —

قال الراوى : وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه . فدخل أبو بكر على ابنته عائشة زوجة الرسول ، وهى تحرك بعض جهازه عليه السلام ، فقال : أى بنية ، أأمركم رسول الله أن تجهزوه ؟ قالت : نعم فتجهز . قال : فأين ترينه يريد ؟ قالت : والله ما أدرى . ثم إن الرسول أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال : اللهم خُذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها . فلما أجمع السير إلى مكة كتب حاطبُ بن أبى بَلْتَعةَ اللخمى كتاباً إلى قريش يخبرهم أن الرسول إليهم سائر ؛ ثم أعطاه امرأة وجعل لها جُعلاً على أن تُبلغه قريشاً فجعلته فى رأسها ثم فتلت عليه قرونها وخرجت به . ولكن الخبر قد أتى الرسول من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علىّ بن أبى طالب والزبير بن العوّام فأدركا المرأة فالتمسا الكتاب فى رحلها فلم يجدا شيئاً . فقال لها على : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك . فلما رأت الجد منه قالت : أعرض ، فأعرض فحلّت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منه فدفعته إليه ، فلما أتى به الرسول دعا حاطبا ، فقال : يا حاطبُ : ما حملك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله أمَا والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ماغيرت ولا بدلت ، ولكني صانعت القوم لأهل وولد لى بين أظهرهم . فقال عمر ابن الخطاب : دعنى فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق . فقال الرسول : وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسفره واستخلف على المدينة كلثوم بن حصين الغفارى . وخرج لعشر مضين من رمضان ، فصام وصام الناس معه ، حتى إذا كان بالكديد بين عسفان وأمج أفطر ؛ ثم مضى حتى نزل مَرّ الظهران — فى عشرة آلاف من المسلمين — وهو واد قرب مكة ، وقد عميت الأخبار عن قريش ، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يدرون ما هو فاعل

وخرج فى تلك الليالى أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، يتحسسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به ؛ وكان العباس بن عبد المطلب قد لقى الرسول ببعض الطريق مهاجراً بعياله ، وكان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته والرسول عنه راض . قال العباس فقلت : واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة دون أن يأتوه فيستأمنوه ، فهو هلاك قريش إلى آخر الدهر . قال : فجلست على بغلة رسول الله البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك لعلى أجد من يأتى مكة فيخبرهم بمكان الرسول ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة . قال : فوالله إنى لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول له : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً ، فيقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها . قال العباس : فعرفت صوته ، فقلت : يا أبا حنظلة ، فعرف صوتى فقال : أبا الفضل ؟ قلت : نعم . قال : مالك فداك أبى وأمى ؟ ! قال ، قلت : ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله فى الناس ، واصباح قريش والله ! قال : فما الحيلة ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى

آتى بك رسول الله فأستأمنه لك . قال : فركب خلفي ورجع صاحباه ، فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة الرسول وأنا عليها ، قالوا : عم رسول الله على بغلته ؛ حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال : من هذا ؟ وقام إليّ ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد . ثم خرج يشتد نحو الرسول فلاحقته إليه ، فقال : يارسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه . فقال العباس : إني قد أجرته يا رسول الله . فقال الرسول: يا عباس إذهب به إلى رحلك فإذا أصبحت فائتني به . قال : فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله فلما رآه قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد . قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه والله فان في النفس منها حتى الآن شيئاً . فقال له العباس : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك . قال : فشهد شهادة الحق فأسلم . قال العباس : قلت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً . قال : نعم ، مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فلما ذهب لينصرف قال الرسول : ياعباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها . قال : فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله أن أحبسه ، ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال : ياعباس من هذه ؟ فأقول سُلَيم ، فيقول مالي ولسُلَيم ؟ ثم تمر القبيلة فيقول ياعباس مَن هؤلاء ؟ فأقول مُزينة ، فيقول : مالي ولمزينة . حتى مرّ الرسول في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يُرى منهم إلا الحَدق من الحديد . فقال سبحان الله يا عباس مَن هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار . قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيما . قال العباس : قلت يا أبا سفيان إنها النبوة . قال : فنعم إذن . قلت : النجاء إلى قومك . فلما جاءهم صرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به . وأذاع فيهم ما جعل له الرسول فخراً ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد آمنين

— ٣ —

قال الراوي : إن أسماء ابنة أبي بكر قالت : لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي طوى عند مكة قال أبو قحافة — والد أبي بكر وكان كفيف البصر — لابنة له من أصغر ولده : أي بُنيَّة اظهري بي على أبي قُبيس . قالت : فأشرفت به عليه فقال : ماذا ترين يا بنية ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعاً . قال : تلك الخيل . قالت : وأرى رجلاً يسعى بين يديه ذلك السواد مقبلاً ومدبراً . قال : ذلك الوازع الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها ثم قالت : قد والله انتشر السواد . فقال : قد ، والله دفعت الخيل فأسرعي بي إلى بيتي . فانحطت به الفتاة وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته . قالت : وفي عنق الجارية طوق من ورق فيلقاها رجل فيقتطعه من عنقها . فلما دخل الرسول مكة ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده . فلما رآه الرسول قال : هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ! قال أبو بكر : يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت . قال : فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ، وقال له : أسلِم فأسلَم . ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته وقال : أنشد الله والاسلام طوق أختي ! فلم يجبه أحد فقال : أي أُخَيَّة احتسبي طوقك . ثم فرق الرسول جيشه من ذي طوى ، فدخلت فِرقُه مكة من نواحيها ونزل الرسول بأعلى مكة وضربت له هناك قبة

وكان صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عُمر ، قد جمعوا أناساً بالخَنْدَمة — جبل بمكة — ليقاتلوا المسلمين . وكان حِماس بن قيس من بني بكر يُعِدُّ سلاحا قبل دخول الرسول . فقالت له امرأته : لماذا تُعد ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه . قالت : والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شيء . قال : والله إني لأرجو أن أُخدمَك بعضهم . ثم شهد الخندَمة مع صفوان وسهيل وعكرمة وأناس من المشركين فهزمتهم رجال خالد بن الوليد ، فخرج حماس منهزماً حتى دخل بيته ، ثم قال لامرأته : أغلقي عليّ بابي . قالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنكِ لو شهدتِ يوم الخندمهْ   إذْ فر صَفوانُ وفر عكرِمهْ

وابو يزيد قائمٌ كالمؤتمه (١) ... واستقبلتهم بالسيوفِ المسلمه
يَقطعن كلَّ ساعدٍ وجُمجمه ... ضرباً فلا يسمعُ إلا غمغمه (٢)
لهم نَهيتٌ (٣) خلفنا وهمهمه ... لم تنطِق فى اللوْم أدنى كلمه

***

لما نزل الرسول مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمِحجَن فى يده . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له ، فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها. ثم وقف على باب الكعبة فقال : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، صَدقَ وعدَه ، ونصرَ عبدَه ، وهزم الأحزابَ وحده . ألا كلُّ مأثرة أو دم أو مال يُدعى فهو تحت قدمَيَّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج إلا وقتيلَ الخطإِ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مُغلَّظةً ، مائة من الابل . أربعون منها فى بطونها أولادها . يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتَعظُّمها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم من تراب . « يأيها الناس إنا خلقنا كم من ذكر وأنثي وجعلنا كم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ثم قال : يا معشر قريش ؛ ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء . ثم جلس رسول الله فى المسجد فقام اليه على بن أبى طالب ، ومفتاح الكعبة فى يده فقال : يارسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك . فقال الرسول : أين عثمان ابن طلحة ؟ فدُعِيَ له ، فقال : هاتِ مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء

قالوا : لما دخل عليه السلام البيت يوم الفتح رأى فيه صور الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم عليه السلام مصوَّراً فى يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : قاتلهم الله ! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ! ما شأن ابراهيم والأزلام ؟ ! « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » . ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست . وكان يقول وهو يشير إليها : « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً »

قال الراوى : أراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثى ليقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال الرسول : أفضالة ؟ قال : نعم فضالة . يا رسول الله قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لاشيء . كنت أذكر الله عز وجل . فضحك النبي ، ثم قال : أستغفر الله ! ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده من صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إلىّ منه . قال فضالة : فرجعت إلى أهلى فررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلمّ إلى الحديث ، فقلت : لا ، وانبعث فضالة يقول :

قالت : هلم إلى الحديث فقلت : لا ... يأبى عليك الله والإسلام
لو ما رأيتِ محمداً وقبيلهُ ... بالفتح يوم تُكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيِّناً ... والشرك يغشى وجهه الاظلام

قلت : هذه صفحة من أمجد صحف الاسلام ديناً ، وخلقاً ، وسياسة ، وأدباً ، وحماسة ، ليس لى فيها إلا تخليصها من أطواء السيرة ، وعرضها بأسلوبها ، لعل فى الذكرى نفعاً :

وإذا فاتك التفاتٌ إلى الما ... ضى فقد غاب عنك وجهُ التأسِّى

أحمد الشايب

---

(١) المؤتمة : اسطوانة (٢) الغمغمة : أصوات غير مفهومة من اختلاطها (٣) النهيت : صوت الصدر

عقبة بن نافع (*)

فاتح أفريقية وقاهر الروم والبربر

للأستاذ محمود الخفيف

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة … تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه … من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده … إليه الحفاظ المر والخلق الوعر



لئن كان ابن الوليد بجهاده فى الله قد سمى قاهر القياصرة ، ولئن كان سعد بما رابط وصابر فى أرض الفرس يوم التقى الجمعان قد استحق لقب مــذل الأكاسرة ، فإن البطل المجاهد عقبة ابن نافع الفهرى قد كسب لنفسه تحت راية الإسلام مرتبة لن تنزل به فيما أرى عن مرتبة ذينك البطلين . فهو فاتح أفريقية ، أمير المغرب ، قاهر البيزنطيين والبربر

حارب خالد قوماً هدمهم الغرور والترف ، كانوا قبل لقاء المسلمين بأسهم بينهم شديد ؛ فلم يكونوا حين ساقوا جموعهم يدافعون عن عقيدة أو يذودون عن مبدأ ، بل لقد كانوا يقفون فى وجه عقيدة منبعثة من الصحراء ، الموت فى سبيلها أحب إلى أصحابها من الحياة . وكان المسلمون تحت راية خالد وأبى عبيدة يقتلون ويُقتلون وقد باعوا أنفسهم وأموالهم من الله بأن لهم الجنة ؛ كلمتهم كلمة أميرهم ، ووجهتهم وجهة خليفة رسول الله فيهم ، فلا تنازع بينهم ولا تنابذ ولا إحن ولا انقسام ...

وكذلك كان المسلمون فى القادسية كالبنيان المرصوص ، لم يعرف الخلف سبيلاً إلى صفوفهم ، ولا وجد الوهن طريقاً إلى قلوبهم ، يسقطون عشرات ومئين ولا تسقط الراية ؛ ويشترون الآخرة بالأولى فى إيمان ويقين ، وغاية المجاهد منهم أن يغلب أو يدفع عن نفسه الهزيمة بالموت !

أما عقبة فقد جاء دوره بعد أحقاد وأحداث فرقت كلمة المسلمين وجعلتهم شيعاً وكادت تأتى على بنيانهم من القواعد . جاء دور عقبة فى الجهاد بعد ما كان فى الاسلام من قتل عثمان ، وبعد ما كان من أمر الجمل وصفين . جاء دوره بعد أن عرف الاسلام الخوارج وغيرهم من الأحزاب ، وبعد أن عرف المسلمون طريقة أخرى فى الغنائم والأسلاب ...

وكان عقبــة يحارب الروم والبربر ؛ وكان البربر أولى بأس وعناد . جبلوا على الحرية فلا يكادون يعرفون ما الخضوع ، طبيعة نفوسهم كطبيعة بلادهم ، فيها مناعة الجبال ووعورة الجبال ، وفيها صرامة البيد وبساطة البيد ؛ فهم لذلك فى القوة كالعرب الهاجين يطرحون نفوسهم تحت المنايا ولا يطرحونها تحت أقدام الفاتحين

وكانت البلاد التى أثخن فيها بخيله ورجله مترامية الأطراف مجدبة المطارح اللهم إلا واحة هنا أو غيضة هناك ، وبقاعاً خضراء قليلة على شواطئ البحر حول مجاري السيول والأنهار . وكانت تلك البلاد لامتــداد رقعتها وبعد ما بين أولها وآخرها أقساماً لكل منها اسم يميزه ! فهذا هو أفريقية ، ثم هذا هو المغرب الأدنى ، ثم هناك من ورائه المغرب الأقصي ... لذلك كان عقبة وجيشه يحاربون فى هذه الفيافى المترامية عدوين : البربر الغلاظ ، والطبيعة القاسية !

ولد عقبة بن نافع الفهرى فى عهد الرسول ولم تعرف له على الأرجح صحبة ، فكان لذلك من التابعين . وكان عقبة — كما سيتجلى لنا من أعماله — يمثل الخلق العربى أحسن تمثيل . كان شجاعاً مقداماً بعيد الهمة ، صليب العزيمة ، صريم الخلق ، شديد الايمان لا يهاب قلبه الكبير الموت فى أبشع صوره .. وكان فى إقدامه سريعاً ولكنه كان وثيق الخطو تذكرنا وثباته وثبات خالد حين كان يقطع البيد والمفاوز ، وحين ذهب فحج ثم كان بعد قليل فى ساقة الجيش

بعــد أن تم للعرب إعلان كلمة الله فى مصر واتجهوا نحو الغرب جاؤا برقة فأذعنت لهم بعد جهاد ؛ وصالحهم أهل تلك البلاد على الجزية ودانوا لهم بالطاعة ، ولكن الروم حين انحسر

(*) أجلت الكتابة عن لنكولن إلى العدد القادم

العرب عن برقة عادوا يبنون سلطانهم هناك من جديد ، وقد أذاقوا البربر صنوفاً من العذاب فلم يستموا لهم إلى مظلمة أو يبالوا بما عسى أن تكون عاقبة أمرهم

وكان العرب فيما هم فيه يومئذ ، بعد مقتل عثمان من بغضاء وتنازع ؛ وما زالوا فى شقاقهم حتى تم الأمر لمعاوية فوجههم من جديد وجهتهم الأولى ضد أعدائهم

ولقد كان لعقبة فى فتح البلاد أول الأمر من مصر إلى برقة جهاد ، وكانت له خطوات بارعة ، ولكن أعماله كانت لحقاً فى ذلك الفتح إذ لم تكن له القيادة يومئذ . ولقد بقى عقبة فيمن بقى من العرب فى حامية زويلا حتى كانت سنة خمسين للهجرة فأمده معاوية بعشرة آلاف ليغزو بهم أفريقيا !

أصبحت القيادة لعقبة ، وذلك ما طال انتظاره إياه ، وأحس هؤلاء الآلاف العشرة روحاً قوية تغمرهم وتشحذ عزائمهم تحت لوائه ، حتى كأن الواحد منهم بألف ، فما منهم إلا محب للجهاد ، مستهين بالأهوال ، مرحب بالموت كقائده . وزحف بهم عقبة فما شهد الروم ولا البربر زحفاً أشد هولاً من هذا الزحف . لم تغن عنهم كثرتهم ، ولم تغن عنهم عدتهم ، وكانت أقواتهم فى بلادهم موفورة لهم ؛ ولا أقوات لهؤلاء العرب المستبسلين إلا ما يستلبون منهم من غنائم

وكانت الحرب طاحنة ، وكان الجهاد مريراً ، فالبربر أهل جلاد ومصابرة ، وهم خبيرون ببلادهم عليمون بمسالكها ؛ فكانوا إذا اشتدت عليهم وطأة محاربيهم اعتصموا بالبيد فضربوا فى أرجائها ، وبالكثبان فكمنوا من ورائها ، حتى إذا زحف العرب وقد أخذ منهم الجهد بعد أن لم ينل منهم الخوف ، وقد انطوت على السغب أحشاؤهم الضاوية ، وتقرحت من الحر أكبادهم الصادية ، برزوا لهم كأنما يخرجون من الأرض ، ولكن ليتركوا من سلاحهم وزادهم بعد القتال شيئاً غير قليل فى أيدى أعدائهم

وكان عقبة يقسو فى قتال هؤلاء القوم لما خبر من طباعهم ، ولما عرف من غدرهم ومكرهم ، فهم إذا غلبوا على أمرهم يضعون السلاح ولكنهم لا يضعون الانتقام ، فاذا واتتهم الفرصة نشوا كل عهد واستخفوا بكل ميثاق . وكانت سيوف العرب ونبالهم تفعل فعلها القوى فى هؤلاء القوم كما كانت تفعل فيهم عزيمة العرب ومضاء العرب . وظل الحال كذلك وعقبة يرسل عليهم من جنده ذات اليمين وذات الشمال حتى تم له الأمر ، على بعد الشقة وترامى البيد وصرامة القتال ؛ فلما أشرف على موضع كان غير بعيد من موضع قرطاجنة القديمة ابتنى للعرب قاعدة جديدة

ابتنى عقبة القيروان ليقيم فيها المسلمون إذ لم يحب لهم أن يقيموا بين هؤلاء البربر . وكان موضعها بعيداً عن البحر حتى لا تطرقها مراكب الروم ، وهى فى البر بحيث تتوسط البلاد وتكون معقلا لصد البربر . وكان الموضع الذى اختاره أجمة عظيمة تسكنها السباع والحيات والأراقم ؛ ولعل هذه الخلائق روعت ، وقد أحاط جيش عقبة بالمكان ، فنفرت أسراباً تحمل صغارها هاربة إلى الصحراء ، وكان عقبة قد دعا الله أن ترحل ؛ وأسلم من البربر كثير ممن شاهدوا هذا الرحيل ؛ وهل يكونون من الوحوش والأفاعى أشد قسوة ؟ واختطت المدينة وشيد بها عقبة داراً للأمارة ، وبنى مسجداً ، وبنى الناس بيوتاً لهم ؛ واستقامت المدينة سنة خمس وخمسين وصارت تجاوب مآذنها مآذن الكوفة ودمشق والفسطاط ، كلما أذن المؤذنون ورفعوا أصواتهم يذكرون اسم الله ...

***

وهل كان لعقبة أن يقنع بما وصل إليه من فتوح وقد ضاقت البيد عن همته ؟ لقد عول على مواصلة الزحف ليحمل كلمة الله ، ويعلن اسم الله فى مواطن جديدة ؛ ولكن معاوية يجعل أمر مصر وأفريقية لمسلمة بن مخلد ؛ ويستعمل مسلمة على أفريقية مولى له هو أبو المهاجر ؛ ويقبل أبو المهاجر فلا يرعى لعقبة مقاماً فيوثقه ويسىء إليه كأن بينهما ترات ! ولكن الليث فى الحديد لن تنخلع عنه طبيعته ، فما زال عقبة صبوراً لا يعرف استخذاء ولا مسكنة . ويطلقه أبو المهاجر ليرحل عن تلك البلاد ، فيرحل عقبة وفى نفسه حنق أى حنق ، وقد تعاظمه الأمر وهو الفاتح القاهر ؛ ولكن الأرض لله يورثها من يشاء ، والأيام دول بين الناس . رحل عقبة برغمه وقطع بلاداً دانت من قبل لسيفه حتى جاء دمشق فعاتب معاوية عتاباً شديداً على ما كان من أمره بعد ما أبلى فى الله من بلاء ؛ وأراد معاوية أن يخفف عنه بعض ما به فوعده أن يرسله بعد حين إلى القيروان من جديد

وإنا لنحار فيما صنع معاوية ! هل كان يخشى قوة عقبة ويشفق أن يعظم ويعظم حتى يخرج عن سلطانه ؟ أم كانت تلك

هى فعلة مسلمة جازت على معاوية دون أن يتدبر لها ؟ الحق أنا لنى حيرة مما صنع ...

وكانت لأبى المهاجر سياسة فى أفريقية غير سياسة عقبة ؛ جعل السياسة والملاينة فى موضع السيف ، واتصل بكبراء البربر وخفض لهم جناحه وصانعهم فى أكثر الأمور . وكان يسفه آراء عقبة عندهم كما كان يسفهها عند المسلمين ، وكان لا يقر له بفضل أو يترك أحداً من شيعته دون أن يلحق به أذى حتى عظم ذلك على الناس . ولكن البربر أحبوا سياسته وصانعوه مثلما صانعهم . وكان كبيرهم فى ذلك رجل اعتنق الاسلام من قبل يقال له كسيلة ؛ وكان كسيلة هذا به كبرة مبعثها الفظاظة والغلظة ، وكان بطبعه أنوفا عيوفا لا يطيق أن يغلب على أمره .

وراح أبو المهاجر يمد الفتوح إلى المغرب وقد انحاز إليه البربر ، فحارب الروم فى قرطاجة ولكنه لم يقو عليهم ؛ على أنه مدّ سلطان المسلمين قليلا إلى الغرب ، ولبث فى تلك البلاد بضع سنين أقرب إلى الدعة منها إلى الجهاد ، وقد فترت فى المسلمين حميتهم إلا قليلا ؛ وكانوا يذكرون أيام عقبة وإقدام عقبة فتنطوى على الهم قلوبهم . وهم لا يعلمون ما تأتى به الأيام ...

* * *

ولكن للدهر صروفه وتقلباته ، فقد مات معاوية وصارت الخلافة لابنه يزيد . وفى سنة ثنتين وستين للهجرة أعيد عقبة إلى أفريقية . وجاء يسعى إليها يطوى البلاد طيا ، وفى قلبه من الحماسة للجهاد مثل ما فيه من الكيد لأبى المهاجر . وهل كان يستطيع عقبة أن ينسى ما كان من أبى المهاجر ، وقد كان يحز فى نفسه ما صنعه به منذ أخرج من أفريقية ؟ أوثقه اليوم عقبة كما أوثقه هو من قبل ، وشد عقبة وثاقه ، وبالغ فى الكيد له فكان يحمله فى غزواته مقرناً فى الأصفاد !

وفرح المسلمون للقاء قائدهم ، وانبعثت فى قلوبهم الحمية ، واجتمعوا تحت لوائه يبدأون الزحف من جديد ؛ وعاد للقيروان عزها ومنعتها ؛ وألقى الرعب فى قلوب البربر والروم وهم كما علموا لا قبل لهم بعقبة ؛ وكان عقبة يضمر الحقد لكل من كانت له صلة بأبى المهاجر ، وفى طليعة هؤلاء كسيلة رأس البربر

رفع اللواء واستؤنف الزحف ، وحلا الجهاد للصابرين . أنظر إلى عقبة يستخلف بالقيروان زهير بن قيس البلوى ويحضر أولاده فيقول : « إنى قد بعت نفسى من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله » ثم يوصى بما يفعل بعده ويتقدم على رأس جيشه يخوضها حروباً مستعرة متوالية ...

الشقة بعيدة ، والعدد متكاثر له فى الشعاب والقلل مخابئ . رفقاً يا عقبة بالبواسل القليلين ! ولكنهم على قلتهم كالسيل الأتىّ لا يصرفهم عن وجهتهم شئ ، ولا تقف من دونهم عقبة . هاهم أولاء يقربون من مدينة باغاية وفيها من الروم حشد عظيم ، والبربر من ورائهم يعركونهم ويتربصون بهم الدوائر ؛ ولكن العزم المصمم لا يعرف الحوائل . لقد التقى الجمعان واشتد القتال وزلزل الروم زلزالاً شديداً ؛ وكثرت مغانم المسلمين وكثر عدد صرعاهم ، واعتصم الروم بالمدينة فحاصرها عقبة ثم كره المقام عليها فاستأنف الزحف

رفقاً بالبواسل القليلين ! بعدت الشقة وقلت القلة ! ولكن عقبة لا يعرف النكوص ولا يخاف الموت وقد باع نفسه من الله ؛ ميدانه بعد باغاية بلاد الزاب ، وهى بلاد واسعة بها مدن وقرى . سار عقبة وجيشه حتى جاءوا مدينة أربة قصبة تلك الديار ، فوقف له الروم وظاهرهم عليه البربر واعتصموا بالجبال ، ثم التحموا بالعرب فى عدة معارك آثروا بعدها الفرار من الموت ، تاركين الكثير من أسلحتهم وخيلهم ...

إلى أين يا عقبة بعدها بالكرام الصابرين ؟ إلى تاهوت ، ويا للهول ما كان فى تاهوت ! تكاثر العدد واستقتل البربر ، ولكن العرب صابرون ؛ أحدق الخطر بالبواسل الأنجاد ، ولكن لهم فى عقبة وبلاء عقبة الحصن القوى والمعتصم الأمين . وما هى إلا غمرة ما لبثت أن انجلت على وميض السيوف والتماع الأسنة ، وعاد النصر إلى صفوف المجاهدين المستبسلين

والقائد الظافر بعد هذا النصر يطفر من الحماسة والجيش من ورائه يهبط الوهاد ويركب النجاد ، وقد عظم بعد ما بينه وبين القيروان ؛ ولكن ماله وللقيروان الآن وقد أصبحت البلاد كلها له ، وعرف الاسلام سبيله إلى قلوب المهتدين من أهلها ؟ سار الجيش حتى نزل على طنجة ، فأحسن يوليان بطريق الروم لقاء عقبة وقدم له الهدايا واستفهمه عقبة عن الأندلس ، ولكن أين السفين ليحمل الفاتحين ... ؟

وماذا بعد طنجة للغرباء الظافرين ؟ نزل بهم عقبة — أو نزل

اسكندر العرب كما يسميه جيبون — على بلاد السوس الأدنى ومعظم أهلها من البربر ولهم بأس شديد، إذ لم يكن لهم كغيرهم فى البلاد الأخرى كبير صلة بالروم؛ وكانوا كفاراً لم يعتنقوا النصرانية؛ فما زال بهم المسلمون حتى دانوا لهم، وآمن منهم من آمن بالكتاب وهرب من نجا من السيف إلى الجبال والمهامه، ثم إلى بلاد السوس الأقصى، وهى بلاد ذات خصب يكثر عدد ساكنيها من البربر. وأين المفر من عقبة وجيش عقبة، وهل ثمة ما يمنعه أن يغزو السوس الأقصى؟

احتشدت له البربر هناك فى أقصى الأرض جموعاً هائلة، وقاتلوه قتالاً شديداً تجلى فيه بأسهم وشجاعتهم، ولكن عقبة لم يزل بهم حتى فرق جموعهم وأذهب ريحهم، وأرسل الخيل من ورائهم تطاردهم فى الجبال والصحراوات وقد كثر ما غنمه منهم، وأخذ يعلن فيهم دين الله. وتقدم بعد ذلك فاذا الخضم الفسيح يمتد أمام بصره! أنظر اليه وقد وقف على شاطئ المحيط برهة ثم غمز جواده فنزل به في الماء حتى جاوز الماء صدره، وشهر سيفه ورفع إلى السماء بصره، ثم استمع اليه يقول: «يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهداً فى سبيلك»

لولا البحر لمضى عقبة الفاتح مجاهداً في سبيل الله، وهل كانت به حاجة إلى هذا القول وله من غزواته ما هو أبلغ من كل كلام؟ إنها لعمري قصيدة رائعة لا يزال الدهر يرويها ولا تزال فى سجل البطولة رائعة المقاطع رنانة القافية! وماذا أبلغ من تلك القلة تصل ما بين المشرق والمغرب، وتقاتل البربر والروم في بلاد مجهولة المسالك بعد ما بين قاصيها ودانيها؟ وأى بلاد هى بل وأى قوم! لم يلق المسلمون فى أى موطن فى مشرق الأرض مثل مالاقوا هنا من عراك وبلاء؛ بل لم يلق غير المسلمين من الغزاة قبل بلاء هو أشد مما لقى العرب فى بلاد المغرب من بلاء. كانت القبائل الموتورة تنزل من الجبال كما تنزل الكواسر فتنقض على جناحى الجيش الغازى مرة، أو تأتيه من خلفه مرة، بينما يتعرض القلب لقتال شديد من المتصدين له. ولو كان على رأسهم غير عقبة لما جاوزوا برقة إلا قليلاً

وقف البحر فى وجه عقبة وما استعصى عليه غير البحر، فكان لا بد من الرجوع. فأدار البواسل المجاهدون وجوههم يريدون القيروان ولم يلاقوا فى أوبتهم عنتاً أول الأمر؛ حتى أمن عقبة واستخف بالأمر فأرسلهم إلى القيروان قبيلاً يتلوه قبيل

ولكن البربر قلوبهم مطوية على الحقد، كما كانت نفوسهم مفطورة على الغدر، وكان كبيرهم كسيلة يتحين الفرصة ويتهيأ للانتقام. كانت بينه وبين عقبة أشياء فهو من شيمة أبى المهاجر، أسلم فى عهده وحسن إسلامه، فلما عاد عقبة استخف به وبالغ فى إيذائه؛ حتى لقد أمره مرة أن يسلخ الشياه مع السالخين وهو يقول هؤلاء غلمانى يقومون بما تريد، ولكن عقبة يأبى إلا أن يذله. ولقد نصح له أبو المهاجر أن يحسن معاملة عقبة وقبح فعله على ما بينهما من خصومة، ولكنه أبى واستكبر استكباراً. وعاد أبو المهاجر فأشار عليه أن يوثقه ولكنه أعرض حتى عن هذا

ليت عقبة سمع ما أبدى له من نصح فرعاه واتبعه، أجل ليته تدبر ما أشار به أبو المهاجر، إذاً لنجا مما كان يدبر له.

قصد عقبة فى أوبته تهوذا وفيها للروم جيش وحصن؛ لم يكن معه إلا بقية جيشه الفاتح، فاستهان الروم بالغازى وأغلظوا له القول، بل لقد وصل بهم الأمر إلى السباب وهو يدعوهم إلى الاسلام؛ فوقف ليذيقهم بأس سيفه، ولكنهم كانوا قد أخذوا للأمر عدته من قبل، فبينهم وبين كسيلة مؤامرة محكمة. وأقبل كسيلة فى هذا الموقف الذي يطيش فيه الكمى، فأصبح عقبة بين نارين: الروم من ورائه والبربر الأشداء من أمامه؛ ولكن قلبه لم يخلق له الفزع؛ تقدم ليلقى كسيلة ففر ريثما يتكاثر حوله البربر؛ وبلغه حينئذ من أبى المهاجر أنه ينشد فى وثاقه:

كفى حزناً أن تردى الخيل بالقنا ... وأترك مشدوداً علىّ وثاقيا
إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت ... مصارع من دونى تصم المناديا

سمع عقبة ذلك فغلبت عليه شيمته العربية وأطلق خصمه من وثاقه وقال له: «الحق بالمسلمين وقم على أمرهم وأنا أغتنم الشهادة»! ولكن أبا المهاجر يطمع فى الشهادة كما يطمع عقبة فوقف يقاتل تحت لوائه، وكسر البطل المجاهد عقبة غمد سيفه على ركبته وحمل على الأعداء، واحتذى العرب حذوه وتكاثرت جموع الروم والبربر، ودارت رحى الحرب والتمعت البيض، وبرقت الأسنة، وتطاير العثير، وعلا الضجيج، وطاب الموت فى سبيل الله، وانجلت الغمرة فاذا العرب جثث طريحة لم يفلت منهم إلا من أسر؛ واغتنم عقبة الشهادة، واغتنمها معه أبو المهاجر. وعرف ذلك البطل كيف يموت ميتة لا يدرك معناها إلا البسلاء

الخفيف

— ٦ —

قبل انبثاق الفجر

للأستاذ محمد سعيد العريان



— « أبي ! »

— « سلمان ! »

— « ما أريد يا أبي أن أكون بعد اليوم قطين النار ! »

— « وَيْ ! ما تقول يا بني ؟ لقد نذرتك للنار قبل أن تخرج إلى الحياة فأنت هبة الرب إلى أبيك ، وأنت وفائي للرب بما نذرت . أضلالاً بعد هدى ، وكفراً بعد إيمان ... ؟ »

— « إن روحي لتتمرد على هذه العبودية ؛ فما أرى هذه النار المعبودة تملك لي نفعاً أو تمنعه ؛ إنني أنا أوقدها وأذكيها ، ولو شئت لصببت عليها ذَنوباً من ماء يردّها رماداً رطباً ! »

— « أيْ بُنيّ ، إنه دينك ودين آبائك . أيّ نازية نزتْ بك فتمردت على ربك ؟ »

— « هيهات مني ما تريد يا أبي ، وبرغمي هـذا العصيان ! إن في السماء إلٰهاً يقتضيني حقه من العبادة والتقديس ، وإن صوته ليهتف بي في سدفة الليل ، وفي وحدة القلق ، وفي ظلمة اليأس ؛ فما أجد لي طاقة على الافلات من صوت الله ... ! »

***

جثا الشيخ الأصبهاني بين يدي ربه مطأطئاً رأسه في ذلة وانكسار ، وبسط ذراعيه إلى النار في ضراعة واسترحام يسأل الهدى لولده الذي يؤثره بالحب من دون ما يتمتع به من زينة الحياة . وراح اللهب المتراقص يمكس على وجهه المتغضّن أضواء تكشف عما يعتلج في نفس الشيخ من حسرة وأسى

وعلى مقربة من مجلس الشيخ جلس فتاه الأمرد « سلمان » معتمداً رأسه بين راحتيه وسبح في أحلامه . كان ما يزال يرن في أذنيه صدى تلك الأنغام الندية التي سمعها منذ قريب في معبد المسيحية على أطراف المدينة ، فشغل بهـا عما أرسله أبوه لقضائه من حاجته ... وهـفت نَـفْسُ الفتى إلى زورة ثانية لرهبان المعبد ، يستمتع فيها بما استمتع منذ ليال من عذب الأناشيد وحلو النغم ، وبما يسمع من أحاديث الرهبان عن الرب الموجود في كل مكان ولا تراه العين ...

وغدا الفتى مع الصبح على الكنيسة ، يشهد مع الرهبان صلاتهم ويستمع إلى أناشيدهم . لقد عاش قطين النار في المجوسية بضع عشرة سنة لم يحس فيها بمثل هذا الجلال الروحاني الذي يغمره وهو يستمع إلى أناشيد النصرانية بين جدران هذا المعبد القائم على حدود الصحراء . فما فرغ الرهبان من صلاتهم حتى دلف الفتى إلى كبيرهم يسأله أن يعقد بينه وبين هـذا الدين آصرة ... وربت الراهب على كتف الفتى وهو يقول : « لله هذا الايمان في فتى مثلك ريان العود لم تفتنه مباهج الحياة عن معرفة الرب الأعظم .. ما اسمك يا فتى ؟ »

— « سلمان الفارسي ! »

— « ليباركك الله يا سلمان وليمنحك التوفيق والهدى ! »

واعتنق سلمان النصرانية عن إيمان وتقى ؛ ولكن الفتى لم يقنع بما أفاء الله عليه حتى يعرف أين أصل هذا الدين فيسعى إليه

وفارق الفتى أصبهان وخلّف وراءه مولده ومرباه وأباً له جاه وسلطان ومال ، لم يكن أحدٌ أحبَّ إليه من ولده . وتلفّت الفتى إلى وراء ، فتحدرت على خديه دمعتان وهو يقول : « وداعاً يا بلادي الحبيبة ، وداعاً لا أدري متى ألقاك منه إلا أن يأذن الله ...! » وتلاشت آخر كلماته في زفرة حزينة ، ثم طأطأ رأسه ومسح دمعته واستأنف سيره إلى دمشق ، إلى حيث يعرف أصل هذا الدين ...

***

والتقى سلمان وأسقف الكنيسة في دمشق ، فلزمه يستمع إليه ويأخذ عنه ويصلي معه ؛ ولكن سلمان لم يجد في الأسقف ما كان ينتظر أن يجد في رجل نذر نفسه لله ؛ لقد كان رجل

سوء يأمر بالصدقة ويرغّب فيها ، فإذا اجتمع إليه شىء منها اكتنزه لنفسه فلا يتصدق به ، فإن المال عنده لأكداس ، وإن المساكين لملء الأبواب يستنْدون الأكف ويبيتون على الطوى؟

وضاقت نفس الفتى بما وجدت فلم يجد حيلة لنفسه مما يرهق نفسه ؛ لقد فرَّ من المجوسية إلى دين البر والرحمة والسلام ، فما وجد عند أهله شيئاً من البر والرحمة والسلام ؛ وعاد التمرُّد إلى الفتى وشغلته أشجانه فما يستبين طريق الرشاد ...

— « أى ربى ، إنك لتسمع دعائى ، وإنى لأراك فى قلبى ، ولكنى لا أجد سبيلاً إليك . فى بيت النار سلخت بضعة عشر عاماً من الشباب ألتمس الزلفى إليك بين البخور واللهب فما بلغت إليك ؛ وفى معبد المسيحية بين الهيكل والصليب وتماثيل القديسين ركعت ألتمس الزلفى إليك فما بلغت إليك ... تنزهْتَ يا رب أن تأمر بعبادة النار وإنها لجمر ودخان ، وتقدست يا إلهي أن تكون عبادتى لك سجوداً للتصاوير وركوعاً للصليب ، وخشوعاً لتمثال العذراء ، وحرصاً على جمع للمال فى القلال ليحرم منه الفقير والمسكين ... ! »

« ربى ، سألتك الهدى فأَنِرْ سبيلى ! »

* * *

وكانت الفتنة تعصف عصفها فى كل مكان ، والشهوات يتسلط سلطانها على كل نفس ؛ والناس فى الشرق والغرب ، فى فارس وقسطنطينية ، وفى بغداد ودمشق ، وفى الحبشة وبلاد العرب ، تعيش عيش البهم : لا وازع من دين ، ولا حرج من ظلم ؛ فلم ينج من فتنة الشهوات إلا من عصم الله ... والفتى « سلمان » من أشجانه فى همّ ناصب ، يتوزعه الشك واليقين ، ويتعاوره الإيمان والكفر ، ويراوح القلق بين نفسيه فى وحدته واجتماعه ؛ فما يجد له منجاة من أشجانه إلا الصبر والاستسلام حتى يجد لنفسه فرجاً من ضيق ...

وكان ثمة أربعة من الرهبان جمعتهم على دين الرب عقيدة راسخة ، وقلوب عامرة ، وإيمان بالله وطيد ؛ وكان لهم فى كل عام مزار يجتمعون إليه أياماً ثم يذهب كل إلى واديه . كانوا من الصلاح والخير وصفاء النفس بقية من الحواريين المخلصين ، عرفوا دين السلام عرفان الحق ، فأقاموا على هدى المسيح خالصاً يعبدون الله لا شريك له ؛ فاطمأنت نفوسهم على قلق الحياة ، واستراحت قلوبهم على شغب الفتنة ، فأصموا آذانهم عما ابتدع الرهبان فى الدين وما زادوا ونقصوا ، فبقوا على المسيحية الأولى حنفاء لله ، يدعون إلى الله ما قدروا على الدعوة ، أو يلزمون صوامعهم لتسبيح الديان

* * *

واستجاب الله دعاء « سلمان » فوصل بهم حبْله ليهدوه سبيل الرشاد

كانوا أربعة تفرّقت بهم البلاد : فراهب فى دمشق ، وراهب فى الموصل ، وثالث فى نصيبين ، ورابع في عمُّورية من أرض الروم . قد تقدمت بهم السن حتى أشرفوا على الآخرة ، ولكنهم جِدُّ حِراصٍ على الحياة ، لأن لهم فى الحياة أمنية موروثة يستشرفون إليها من بعيد

ولقى « سلمان الأصبهانى » أولهم فى دمشق فلزمه ، فلما صفا بينهما المورد جلس الراهب يتحدث إلى فتاه :

— « أىْ بنىّ ، إنها فتنة الحياة للأحياء ، ولكن صبراً صبراً يا بنى ؛ إن شعاعة من النور تلوح من بعيد ، وإنه ليوشك أن يشرق بعدها صبح أزهر . هنا من هذه الصحراء سينبثق النور الأعظم الذى يغمر الدنيا ويشرق بالخير والسلام على البشرية كلها ، إنه نبى قد أظل زمانه ... يا ليتنى فيها جذع ... ! »

وانتفض الفتى وقد غمرته موجة من السرور فهزت أعطافه فمال على الراهب وقد أمسك بكلتا يديه يهزها فى فرح ونشوة وهو يقول :

« ... نبىّ قد أظلّ زمانه ؟ من هذه البادية ؟ حدثنى يا أبى إن حديثك لينفذ إلى قلبي بكل مسرات الحياة : »

وابتسم الراهب وربت على ظهر الفتى وهو يقول : « صبراً ، صبراً يا بنىّ ... إن حديث هذا النبى لسطور في فؤادى ، وإنى به لمؤمن قبل مبعثه ، إنها لأمنية الحياة يا بنى أن أعيش حتى أراه ... ! »

ولكن الراهب الشيخ لم تمهله المنية حتى يحقق أمله ، فلم يلبث أن ذهب إلى ربه !

عاد السلام والأمن إلى قلب الفتى الفارسى ، وتقشعت ظلمات الشك والحيرة فى نفسه ، ولكن الأمل الجديد الذى بعثته فى

نفسه كلمات الشيخ لم تدع له أن يستقر ، فقرر رحلة ثانية من دمشق لعله يعرف جديداً من راهب الموصل عن النبي الذى أتى وقته ليرسم للانسانية الضالة حدود سعادتها فى معانى البر والرحمة والمساواة !

فتًى لدْن العود غض الاهاب ، يهاجر هجرتين فى سبيل الله ، من أصبهان إلى دمشق ، ومن دمشق إلى الموصل ، وليس معه مال ولا زاد ، إلا الايمان والتقى وقلب عامر بمحبة الله ؛ وقد خلف وراءه المال والأهل والسيادة ، وأبا لم يكن أحد أحب إليه من ولده !

***

— « سيدى ! »

— « ممن أنت يا فتى ؟ إن في وجهك لَنَضْرةَ أبناء الدهاقين والسادة ؛ ولكن عليك من وعثاء السفر مثل أبناء السبيل ! »

— « سيدي ! ... »

— سمعاً يا بنى ! »

— « أنا رسول (فلان) إليك — يرحمه الله — أفتأذن لى أن أقيم عندك لآخذ عنك من أمور دينى ... ؟ »

— « مهلاً وكرامة يا ولدى ، بارك الله عليك ! »

— « أبى ، إن الفتنة لتعصف عصفها ، وإن شهوات الناس لتبلغ بهم مبلغ الحيوان ، أفترى للانسانية منقذاً من ضلالها يهديها سواء السبيل ؟ »

— « أراك تعرف بعض ما أعرف يا بنى ؛ وإنك لتستشرف إلى أمل قريب . إن نبيًّا قد أظلّ أوانه ، إن لم يكن فكأنْ قد ... يا ليت لى فسحة فى العمر حتى أراه فأومن به ! إن موجة الاصلاح ستمد مدها عما قريب من هذه الجزيرة العربية حتى تفيض على البشرية جميعها من برها خيراً ورحمة ، وستغسل هذه الموجة أدران البشرية وتمسح على قلبها بالطهر القدسى حتى يمتلئ العالم سلاماً ومحبة ...

« سيمتد بك العمر يا بنى — إن شاء الله — حتى ترى هذا النبى ، فلا تتلبثْ فى اتباع دعوته ، إنه يدعو إلى خير الدنيا وخير الآخرة ... أتراك ستعرفه يا بنى حين تلقاه إن وصفتُ لك من خبره ... ؟ »

***

وآثر راهب الموصل جوارَ الله ، وخلّف الفتى الفارسىّ وليس معه إلا ربه ؛ فأزمع الرحلة ثالثة إلى نصيبين

وأقام « سلمان » عند راهب نصيبين ما شاء الله أن يقيم ، لا يشغله من دنياه إلا ذكر الله ، وأمل جياش يخفق به قلبه الكبير ، أن يرى ذلك النبي الكريم الذى تُنميه الصحراء لينشر الخصب والرخاء فى ربوع البشرية ويغسل نفوس الانسانية من أدران الشهوات

ثم هاجر هجرته الرابعة إلى عَمُّورية بعد ما فارق صاحب نصيبين إلى جوار ربه ...

« ... أيْ بنىّ ، والله ما أعلم اليوم أحداً على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه بعدى ، ولكنه قد أظل زمان نبي ، وهو مبعوث بدين ابراهيم — عليه السلام — يخرج بأرض العرب ، مهاجَرُه إلى أرض بين حَرَّتين ، بينهما نخل به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة . فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل ... »

وأقام سلمانُ بأرض عمورية ما شاء الله وهو يعمل لمعاشه ، وإن الأمل العذب فى لقاء النبي العربى ليداعبه فى يقظته وفي أحلامه ؛ واجتمع له مما يعمل بقرات وغنيمة ، فظل يتربّص حتى مر به نفر من تجار العرب ، فساومهم أن يعطيهم بقراته وغنيمته ويحملوه إلى بلاد العرب ... وسار الركب منطلقاً إلى الصحراء يحمل سلمان إلى أرض الميعاد ... !

يا للفتى مما احتمل فى سبيل الله !

خمس رحلات بلا زاد ولا مال ، وليس له من أمل فى دنياه إلا ربه ، وكل شأن من شئون الحياة يتصاغر فى عينيه حتى أهله ووطنه وجاه أبيه ... !

العثير تثيره الرياح إلى الحلقوم والخياشيم ، وذرات الرمل الساخنة تلطم الوجوه بمثل أطراف الإبر ، والشمس الحارة ترسل من أشعتها سهاماً من نار تشوى الوجوه والأقفاء ، والماء فى القِرب يوشك أن يجف من حر الصحراء ، والحادى يحدو البُعْران فى طريق لم يذلَّل بعد للأسفار ، والفتى على بعيره شارد الفكر مذهوب اللب ...

هذه رحلته الخامسة فى سبيل الله ، وقد خلّف الدنيا كلها

وراءه لا يقيم لها وزناً ولا تخطر له على بال ، لأنه مقبل على مهبط الوحى وأرض النبوّة ... والحادى يحدو وفى نبراته حنين ، وفى نغماته حزن وأسى ؛ فهتف الفتى وقد هاج الحداء ذكرياته :

« يا لأبى الشيخ المسكين ! يا لوطنى الذى فارقته منذ سنوات ولا أدرى متى أعود اليه ... ! ربّ ، في سبيلك هجرتي وإليك وجهت وجهى ، فا كتب لى الكرامة والظفر بلقاء نبيك المختار ، وأسبغ رحمتك يارب على أصبهان . إن فى أصبهان أبى ... وإن لى بأصبهان هوى الحبيب إلى الحبيب ... ! »

***

ومضى الركب إلى غايته ، فلما بلغ وادى القرى ، همس الركب بعضهم إلى بعض يتآمرون على الفتى الفارسىّ ؛ فباعوه من رجل يهودي عبداً ... !

لقد بلغوا بالفتى حيث أراد ولكنهم جعلوا غُلاً فى رقبته ، والفتى راضٍ صابر ، لأنه مؤمن بقضاء الله ، لأن له أملاً يريد أن يبلغ إليه فلا عليه مما يناله فى سبيله ... رحمة الله له !

وأرسل الفتى أذنه وراء كل اثنين يتهامسان ، لعله يسمع نبأ عن النبي العربي ... وبلغ فى النهاية ما أراد : هذه هى الأرض الموعودة ، أرض بين حَرّتين ، بينهما نخل به علامات لا تخفى . إنها هي ، فأين هو ؟ فإنه لفى رأس عزق يعمل فيه ذات يوم لسيده بعض العمل ، وسيده جالس تحته ، إذ جاءه النبأ :

هذا رجل قادم يتحدث إلى سيده حديثاً ذا بال : « إن بنى فلانة مجتمعون اليوم بقباء على رجل قدم عليهم من مكة يزعم أنه نبى ... ! »

يا للبشرى ! أيكون هو النبي الموعود ؟

وسمعها الفتى فانتفض انتفاضة أوشك منها أن يسقط على سيده ، فما هو إلا أن تمالك حتي نزل عن النخلة يستمع النبأ

— « ما ذا تقول يا رجل ؟ »

هكذا أقبل سلمان على القادم يستثبته وإن سيده ليشهد . فما إن سمعه يسأل حتى غضب فلكمه لكمة شديدة وهو يقول :

« ما لك ولهذا ؟ أقبل على عملك ! »

قال سلمان : « لاشىء ، إنما أردت أن أستثبته عما قال ! »

ثم دار على عقبه ليخفى عبرة تنحدر على خده ، وإن صدره ليجيش بعواطف شتى . فلما كان المساء جمع شيئاً من طعام كان له ثم ذهب إلى محمد بقباء :

« سيدى ، إنه قد بلغنى أنك رجل صالح ، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شيء كان عندى للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم ... ! »

وتناول النبي الكريم من يد الفتى الفارسى ما قدّم إليه ، فدفعه لأصحابه لم يأخذ شيئاً منه . وتحققت للفتى أمارة ...

ثم انصرف الفتى فجمع شيئاً وعاد إلى رسول الله يقول :

« سيدى ، إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، فهذه هدية أكرمتك بها ... ! »

فمد النبي إليها يده فأكل وأكل أصحابه معه . وتحققت أمارة . . .

وطغى شعور الفرح على سلمان حتى أنساه قيد الرق وذل الإسار ، فسارخلف النبي يتبعه لينظرمنه شيئاً قد بقى من أمارات النبوة . فإن النبي ليمشى إذ انحسر رداؤه عن ظهره فرأى ...

وتحقق الوعد المأمول فما تلبّث الفتى حتى أكب على النبي الكريم يقبله ويبكى ...

وآمن سلمان الفارسى بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم . وانبثق الفجر الذى كان يرقب شروقه منذ سنوات وسنوات ، وأضاء فى قلبه النور الذى غمر البشرية كلها فحدّد لها حدود سعادتها ورسم لها غايتها . ولم يمت سلمان حتى انتشر الصبح وأشرق على ربوع فارس وأصبهان ، وانتظمتها الدولة الإسلامية فصارت جزءاً من الوطن الإسلامى الذى يعيش فيه سلمان الفارسى

وما زال النور ينتشر وينتشر حتى عم أقطار الأرض . ومات محمد بن عبدالله ولكن شريعته ظلت باقية تمدُّ مدّها ذات اليمين وذات الشمال ، حتى عبرت المحيط ، وجازت الجبال ، وحطمت الحدود ، وأزالت السدود ، ورسمت حدود (الدولة الإنسانية) التى ما زال المصلحون يعملون جاهدين ليبلغوا إلى تحقيقها كى يعم السلامُ الأرض وينتشر الأمن والرخاء ؛ ولن يبلغوا إلى تحقيق هذه (الوحدة الإنسانية) إلا أن يعملوا على شريعة محمد . حينئذ تمّحى الجنسيات ، وتزول العصبيات ، ويذهب الطغيان ، ويعيش الناس إخواناً متحابين كما ينبغى أن يعيش أبناء الإنسانية

« شبرا » محمد سعيد العريان

البيئة الاسلامية

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى



يعجبنى من عادة «الرسالة» فى إخراج عددها الهجرى الممتاز أنها توجه قراءها فى أنحاء العالم الإسلامي العربى مرة فى العام على الأقل إلى موضوع هو أجل ما ينبغى أن يشغل بال المسلم: موضوع الإسلام والحياة به وله والجهاد فى سبيله

والمسلمون اليوم ينقصهم مذكر مؤثر يذكرهم بدين الله وبحقه عليهم: حق العمل وحق الجهاد. والعمل هو من الجهاد أو هو أكبره كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رجع من إحدى غزواته: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)

والمسلمون اليوم قد أضاعوا الجهادين، فلا هم يجاهدون العدو فيؤدوا الجهاد الأصغر، ولا هم يجاهدون النفس ويقومون بحق الله فى أنفسهم وفى الناس فيؤدوا الجهاد الأكبر. وليس ينقص المسلمين العلم بما عليهم لله فى أنفسهم وفى إخوانهم، فإنهم يعلمون من ذلك ما إن عملوا به لكفاهم، ولكن ينقصهم العمل بما عندهم من العلم المستفيض فيهم

والعجيب من أمرهم اليوم أنه لا يحول بينهم وبين العمل المنجى إلا صغائر الشهوة يعجزون عن مخالفتها، وحقائر المغريات يضعفون عن مقاومتها. وأعجب من هذا أن كثيرين منهم حين يطيعون المغريات يظنون بأنفسهم الحكمة ويحسبون أنهم يتابعون الصواب. وهذا شر ما فى الأمر كله وأفظعه وأهوله، فإنه يدل على مبلغ بعدهم عن الدين الذى ينتسبون إليه وقربهم من الشرك الذى يبرأون منه؛ وظنهم هذا بأنفسهم يزيد فى يأس اليائس منهم ويجعل عبء المتصدى لهدايتهم ثقيلاً لا يقوم به من ولى العزم إلا من يلحظه الله بتوفيق وتأييد

وعبء رد العاصى إلى الطاعة والضال إلى الهدى والمخطئ إلى الصواب عبء ثقيل على أى حال، لكن شتان بين من يقر بخطئه أو بمعصيته يود لو خرج من كل ذلك، وبين من يجادل فيما هو عليه لا يرى به بأساً إن لم يره عين الخير. فالأول ليس بينه وبين الطاعة أو الهدى أو الصواب إلا العادة، وليس أمام الداعى إلا أن يحرك فيه دواعى التغلب على العادة ويدله على الطريق حتى يتغلب بالفعل، فتنقلب العادة عوناً له بعد أن كانت عوناً عليه. أما الآخر فأصعب الصعب فى أمره إقناعه بخطئه أو ضلاله، وتحريك عوامل الأسف والندم فيه حتى يصبح كأخيه ليس بينه وبين الاستقامة إلا أن يجاهد العادة حتى يصبح سلطانها معه بعد أن كان عليه

والصنف الأخير من المسلمين قد أخذ يكثر كثرة تضيق منها الصدور وترتاع لها القلوب، ولم يكن الحال كذلك منذ ثلاثين عاماً أو أقل. كان هذا الصنف موجوداً لكنه كان قليل العدد قليل الجرأة خافت الصوت؛ وكان ما يسمى بالرأى العام ضدهم إذ ذاك فى الجملة؛ كان يدعهم وشأنهم ما داموا منزوين، لكنهم كانوا إذا حاولوا الظهور ولو باسم الإصلاح والتجديد لقوا منه عنتاً غير قليل

والرأى العام ليس وليد نفسه، ولكنه وليد بيئته. ولقد كانت البيئة فى ذلك الحين لا تزال دينية الروح إسلامية النزعة إلى حد كبير؛ لكنها الآن قد تغير روحها وانعكست الآية فيها فى المدن، ويوشك هذا التغير أن يتخطى المدن إلى القرى على أمواج الراديو وأفلام السينما وصفحات الصحف ولو بالتدريج. فهذه الثلاثة هى أهم مكونات البيئة اليوم، وقليل منها الآن ما لا يمكن أن يوصف بأن فيه من الإسلامية كثيراً أو قليلا

فالسينما أكثر أفلامها مصنوع فى الغرب وأقلها مصنوع فى الشرق. ومع أن هذا الأقل مصنوع فى مصر التى تطمع أن تتزعم الأقطار الإسلامية إلى الخير والعزة والمجد، فإنه وذلك الأكثر المصنوع فى الغرب سواء فى مجافاته للدين ومنافاته لما يليق، بل قد يبذ الشرق الغربى فى ذلك كعادته فى الإفراط والتفريط. لا يكاد الوالد الحريص يجد بين جميع ما يعرض فى مصر من الأفلام ما يمكن أن يروح عن أولاده بأخذهم إليه من غير

أن يعرضهم بذلك إلى تلويث الذهن وتدنيس الخاطر. بل لقد أصبحت السينما وخصوصاً ما تخرجه مصر من أفلامها خطراً حقيقياً على الأخلاق فى هذا القطر وما يتأسى به من الأقطار . فلقد كانت هناك مسارح للتهتك والخلاعة منزوية فى أماكنها التى كنا نحذرها ونحن صغار ، فأصبحنا وليس يغنى التحذير من مفاسدها شيئاً بعد أن أعطتها صناعة السينما قوة التكاثر كما تتكاثر الجراثيم فصارت تنتشر بأفلامها فى المدن والقرى ، تنشر عدوى الفساد الخلقى كما تنتقل الجراثيم فتنشر عدوى الأمراض

وما يقال فى تأثير السينما يمكن أن يقال مثله فى تأثير الراديو مع اختلاف فى المقدار . فهو كالسينما من العوامل الفعالة الطارئة على البيئة الإسلامية ، وهو جدير أن يغير منها إما إلى الخير وإما إلى الشر ، لكنه الآن إلى الشر أقرب . فإنك إذا استثنيت ما يذاع من القرآن الكريم والقليل من محاضرات الإرشاد ، تجد الغالب على إذاعاته المجون والخنوثة والاستهتار . خذ بيدك أى برنامج عادى للإذاعة فى أى يوم واحسب ما للهزل فيه وما للجد ، تجد ما للهزل أضعاف ما للجد ، وتجد أكثر هزله هزلاً غير برىء ، بل بعض جده جداً غير برىء كذلك

على أن المصيبة بالراديو أعظم من المصيبة بالسينما من بعض الوجوه ، فإنك تستطيع أن تتقى شر السينما فى خاصة نفسك بالقعود عن الذهاب بأولادك إليها ، وإن كان فى ذلك شىء من العنت . لكن ماذا تصنع وهذا الذى تهرب منه بحرمان نفسك من تسلية السينما يدخل عليك وسط دارك من الراديو وأنت بين أهلك وذويك ؟ إن مجون الريحانى وأضرابه وخلاعة مصابنى وأضرابها تلاحق المسلم بالراديو فى عقر داره . وإذا أمكن التحرز من ذلك إلى حين باغلاق الراديو فلابد أن يأتى يوم يمل الإنسان فيه الرقابة ، ويترك الراديو كالورد الخبيث مل الراعى ذود القطيع عنه . على أن المسألة ليست مسألة فرد أو أفراد يعرفون الخطر ويستطيعون توقيه بشىء من كبت الرغبة وضبط النفس ، ولكن المسألة مسألة الجماهير التى لا تستطيع تمييزاً ولا امتناعا . فإذا لم يكن ما يذيع الراديو سلبياً طيباً كان الراديو شراً ووبالاً على الناس ينقلهم خلسة عما ألفوا من الخير إلى ما لا يريدون أن يألفوا من الشر ومذاهبه ، وينبه فيهم من نزعات السوء ما لم يكن لولا الراديو ليتنبه فيهم . والراديو الآن يخلط الصالح بالسىء إلا أن سيئه أكثر من صالحه ، وهو على أى حال كان إلى الآن عاملاً على تغيير البيئة فى الأقطار الإسلامية تغييراً يبعد بها عن الإسلام

وغير الراديو والسينما من مكونات البيئة الحديثة ينحو منحاهما وإن لم يبلغ مبلغهما من القوة والذيوع . ولعل أهم هذه هى الصحف وهى مثلهما قوة هائلة تعمل فى كيان البيئة ، إما بتعمير وإما بتدمير . ولقد كان عهد ليس للصحف فى البيئة الإسلامية من أثر ، ثم جاءت الصحف وعرفها الناس لكنها فى أول عهدها لم تكن تجرؤ على الخروج عن مألوف الناس من فضيلة ودين . بل لقد كانت الكلمة العليا بين الصحف إذ ذاك للإسلامية منها أيام كان المؤيد واللواء ليس لهما فى ميدان الصحافة قريع . وكانا رحم الله أيامهما وعوض المسلمين خيراً منهما مهما اختلفت بهما سبل السياسة لا تختلف بهما سبيل الدين . فكانا لا يكادان يشيمان الخطر على الدين من ناحية ولو من بعيد حتى يهبا لاتقائه وتنبيه الناس إلى الاستعداد له قبل وقوعه . ثم ذهبت بهما الأيام فكأنما ذهبت بذهابهما ريح الدعوة لله والمنافحة عن الإسلام . وكثرت الصحف حتى صارت عشرات بعد آحاد ، لكنها كانت حرباً على الاسلام فى غالبها . كانت بين مهاجم له ومعين عليه بالسكوت أو بنشر الرد الضعيف بعد الهجوم المنيف ؛ وقل بينها ما كان يهب للدفاع حيناً بعد حين . أما الثبات فى الدفاع والصمود للخصم صمود المؤيد مثلا لربنان وهانوتو فلم يكن فى القائمين على الصحف الاسلامية من يجشم نفسه ذلك . وكان من أثر توالى الهجوم وتلكؤ الدفاع أن دخل الخصم من حصون البيئة الاسلامية حصناً بعد حصن . فذهب الحجاب وكأنما ذهب بذهابه الحياء ؛ وجاء السفور وكأنما جاء بمجيئه الفجور . وكان الفجور يكاد يكون وقفاً على الرجال فأصبحوا بعد أن فشا الرقص والاختلاط يغلبهم عليه النساء

إنا لله . لشد ما غفل عن دينهم المسلمون حتى أتوا من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون ! ماذا كان عليهم لو أنهم عملوا بدينهم وأطاعوه فكفوا أنفسهم كل هذه المصايب والويلات ؟ إن الرجل اليوم ليأمر ابنه فلا يسمع له ، ولا يجرؤ على أن يأمر ابنته خوفاً من أن تجترئ وتجاهره بالعصيان ، كأنما إقراره إياها على خطأ لا يجعلها ترتكب غيره من الأخطاء ، أو كأنما مجاراته إياها فيما لا يرضى الدين سيجنبها الهوة التى لا بد أن يتردى فيها كل من يعصى الدين

لقد كانت البيئة الاجتماعية يغلب عليها الشر قبل الاسلام ، فلما جاء الاسلام طفق يجتث منها أصول الفساد ، وطفق يصلح ويهذب ويطهر حتى ذهب عنهـا الرجس ، وشاع فيها الطهر ، وعم فيها النور ؛ وأصبحت من ينشأ فيها ينشأ سليماً صحيحاً قوياً كالزرع فى التربة الطيبة يأتيه النور من كلّ مكان . ثم أراد الله الذى يعلم أن الانسان ابن بيئته أن يديم للانسان نعمة إصلاحها فأقام حولها وفيهـا الحدود حداً بعد حد كحصن اجتماعى بعد حصن يقيها تطرق الفساد . فجلد على الخمر ، وجلد ورجم على الزنا ، وحرم الخلوة ومنع الاختلاط إلا لضرورة ، واحتاط في المنع فضرب الحجاب . وقطع يد السارق بعد أن منع الربا ، وأوجب الزكاة . فكانت بيئة طاهرة زكية يزكو فيها النشء كما يزكو النبات فى البـلد الطيب . فلما أصلحها للناس أمرهم أن يحافظوا على صلاحها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الحدود ، وأنزل عليهم (ولا تفسدوا فى الأرض بعـد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين) فأحسنوا وأطاعوا ما أقام بينهم الرسول . فلما علم صلى الله عليه وسلم أنه مفارقهم عن قريب حج بهم حجة الوداع وخطبهم خطبـة الوداع التي لا يكاد يحفظها الآن مسلم :

(أيها الناس اسمعوا منى أبين لـكم فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا فى موقفى هذا

أيها الناس ! إن دماءكم وأموالـكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ...

أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعن بعدى كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض ، فانى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده : كتاب الله وسنة نبيه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ...)

هذا بعض ما عهد الرسول به إلى المسلمين فى ذلك الموقف العظيم . فلما قبض صلى الله عليه وسلم أحسن المسلمون خلافته وأحسنوا السمع والطاعة لله ولرسوله وللخليفة الأول من بعده ؛ وسار فيهم رضى الله عنه متأسياً بالرسول ، حاملا إياهم على الحق ضاربا لهم المثل بنفسه ، جاعلاً طاعة الله أول الأمر وآخره (أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم . ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه)

فلما قبض رضى الله عنه خلفه فى المسلمين من كان يرعاهم رعى الأم ولدها ، ويذودهم عن المهالك ذود الراعى غنمه (اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلمة ، فانكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية . إن هذا الحق ثقيل مرىء ، وإن الباطل خفيف وبىء ؛ وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلا) . وكان أ كبر ما يحرص عليه رضى الله عنه ألا يتطرق إلى البيئة الاسلامية خلل أو فساد وأن يقى ضعيف النفس من المسلمين شر المغريات ، حتى أنه لما سمع المتمنية تتمنى نصر بن حجاج دعا به ، فلما رآه نفاه من الأرض ، وأمر ألا يغيب رجل فى الغزو عن بيته فوق أربعة أشهر كما أمر ألا ينزل المسلمون منازل المترفين في البلاد التى يفتحونها مخافة أن يخرجوا من أخلاقهم شيئاً فشيئاً إذا اختلفت بهم البيئات

ثم كان أن جاءت الفتن وتغير الحال ووجد الشيطان سبيلاً إلى تلك البيئة الإسلامية المصونة عن طريق الهوى . وترخص الخلفاء بعد عهد الراشدين واحتالوا على الجمع بين هواهم وبين الدين ، وهيهات ؛ فـكان منهم من امتُدح وتغنى المـادح عليه ألا يُحد فى الخمر فقال ذلك حد من حدود الله لا سبيل إلى إبطاله ، ولـكن سأحتال لك فـكتب إلى عامله على بلد الشاعر المتهتك : من أتاك بابن هرمة سكران فاجلده مائة واجلد ابن هرمة ثمانين ! وظن ذلك الأحمق أنه لم يبطل حد الله حين أفتاه شيطانه بهذا وقد أبطله بالفعل أيما إبطال إذ كان الناس يمرون على ابن هرمة مطروحاً فلا يمسونه ويقولون : من يشترى ثمانين بمائة ؟ ومع ذلك فقد كان ذلك الخليفة العباسى يوصف بفقه ويلحق بالعلماء

مثل هذا النوع من الحكام وهـذا الضرب من الاحتيال على إبطال أحكام الله حين تخالف منهم هوى أو شهوة هو الذى أفسد البيئة الإسلامية بعد إصلاحها ، ففسد بفسادها الناس ، فذهبت عنهم العزة وذهب ملـكهم عن أقطار استعمرها آباؤهم بالدين وحسن الطاعة لله والنزول على أمره . ولن يستقيم للناس حال حتى ترد البيئة إسلامية خالصة كما كانت (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله)

محمد احمد الغمراوى

التصوير التوضيحي في المخطوطات الإسلامية

للدكتور أحمد موسى



أتى على الباحثين في تاريخ الآثار والفنون الاسلامية حين من الدهر قصروا فيه جهودهم على درس ما كان بارزاً من تلك الفنون للعيان في المباني والآثار الظاهرة ذات الوجود المادي الضخم، مما شاهدوه من المساجد والمنائر والعمائر وكل ما بناه رجال التاريخ الإسلامي ليتخذ مكاناً بيناً في نظر الحاكمين والمحكومين؛ لأن الفنون الجميلة كانت ذات صفة يأبه لها الملوك والأمراء ويجيزون عليها أربابها؛ فلم يكن للفنان المسلم مجال يظهر به الفن لعامة الشعب، بل كان كل همه أن يتقدم إلى ملك عظيم بثمرة نبوغه الفني ليكافئه عليها. كما أن الملوك اتخذوا عادة تشييد البناء وما يتبعها من التزيين والتزويق والتأثيث تخليداً لأسمائهم وذكر عهودهم وما اشتهروا به من الغنى والقدرة على تسخير المواهب في تمجيد الدين تارة والمجد الدنيوي تارة أخرى

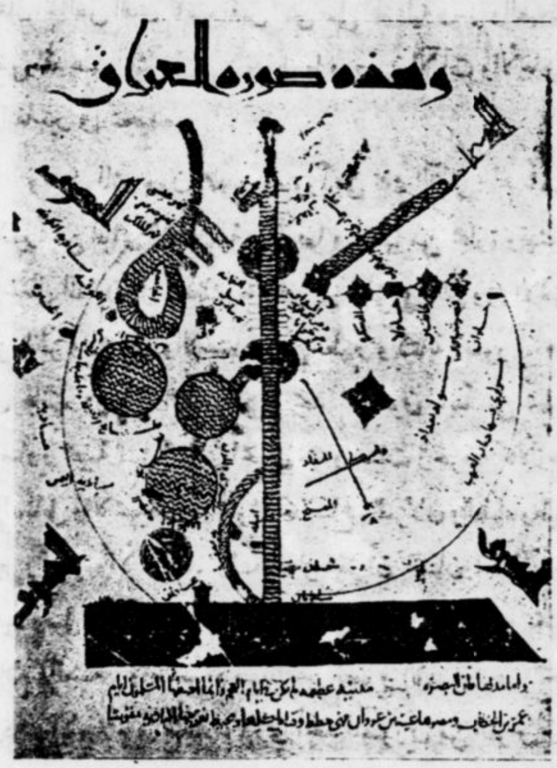
وعند ما انبرى مؤرخو الفنون الإسلامية إلى تقسيمها وتبويبها وتحديدها بعد انتشار الاستشراق في أنحاء أوربا المتحضرة، وبعد أن طاف فريق كبير من علماء الشرقيات بلاد الإسلام وعادوا بدراسات متوافرة ومُثل للآثار التي وقعت أبصارهم عليها ودرسوها في حواضر الشرق القريبة والبعيدة – طبق فريق منهم على تلك الفنون القواعد التي اتبعها علماء الفن الأوربي في ترتيب الآثار، فجعلوا أقساماً خاصة للعمارة، وأخرى للنحت والرسم البارز والحفر، وثالثة للتصوير وغيرها لأنواع التحلية والنقش والزخرفة

وكان هؤلاء العلماء يزعمون أن الدين الإسلامي يحرم التصوير مع أنهم رأوا آثاره، ومع أن الدين لم يكن ليمنع هذا الفن إلا من ناحية واحدة خشية أن يتجه التأويل إلى عبادة الأصنام. هذا في الوقت الذي لا يوجد فيه نص يتنافى مع تقدير الجمال الخالص الذي كانت نفس النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضى الله عنهم مشبعة به، بدليل ما ورد من الآيات والأحاديث والتفاسير في تمجيده

وجعل المؤرخون همهم مقصوراً على تلك الآثار؛ ثم فحصوا كثيراً من المباني الاسلامية بزخارفها وما فيها من نجارة وقيشاني وأشغال المعادن؛ كذلك ما كان على الحلي والحلل وفي الأقمشة من الخز والديباج والاستبرق من تطريز وكتابة وصور. هذا إلى جانب دواوين الشعر التي لم يجد المسلمون مانعاً من تحليتها بتصاوير عجيبة للنبات الذي اتخذوا منه وحدات زخرفية كالأزهار والسنابل والأشجار، والحيوان كالسباع والغزلان والظباء وطيور البر والبحر والأسماك. ولكنه لوحظ أن الفنان أمسك يده حينما وصل إلى تصوير الانسان، لا خشية الكفر ولكن خشية الملام والفتنة. واستمر الامساك عن تصوير الانسان حيناً حتى ازدهر الاسلام في بغداد، فترى أحد المصورين من الفرس يزين قصر أحد الملوك المسلمين في بغداد بفصول من قصة يوسف وزليخا توضيحا وشرحاً لديوان الشيرازي الذي جعل من تلك السورة القرآنية ملحمة شعرية أتى فيها على وصف الغرام الذي كان مستولياً على فؤاد تلك الأميرة المصرية نحو ذلك النبي العبري

إلا أن هناك جانباً من الفن الاسلامي لم يُلتفت إليه كثيراً قد اهتدينا إليه، وهو ما زينت به كتب العلماء والمؤرخين والأدباء من الصور التوضيحية في الكتب. وكان أولها القرآن الكريم الذي بذلت الجهود في تزويقه وتزيينه وتحليته، وإن لم يكن بنصوصه في حاجة إلى التجميل والتزويق. ولا تزال نسخ عدة منه الزينة الكبرى والحلية المثلى لكثير من المتاحف ودور الكتب في الشرق والغرب، التي اتخذت وجوده فيها مفخرة وبهجة ودليلا على الغنى الفني والثروة الأدبية.

ولم يكن فى استطاعة بعض المتزمتين من رجال التفسير أن يمنع فريقاً من الفنانين من إدخال التصوير فى الكتب ، بدليل ما جاء فى مقامات بديع الزمان المتوفى سنة ١٠٠٧ م ومقامات الحريرى[١] (١٠٥٤—١١٢١م) التى تجلى فيها التصوير بالألوان لتمثيل مغامرات البطل المشهور أبى زيد السروجى وغيره



١ — صورة العراق — منقولة من كتاب صور الأقاليم السبعة

وشمل غيرهما من الكتب ككليلة ودمنة ، وبعض أجزاء الأغانى[٢] للاصفهانى (٨٩٧—٩٦٧م) وألف ليلة وليلة ، كثيراً من الصور الرائعة التى دلت إلى حد بعيد على الدقة والتذوق .

ولا يمكننا أن ننكر أن فنانى الفرس كانوا أسبق إلى التصوير من سواهم ؛ فقد أعطاهم الشعراء الفحول كالفردوسي المولود سنة ٩٣٩ م ، وعمر الخيام المولود فى القرن الحادى عشر ، والسعدى (١١٨٤ — ١٢٩١ م) وحافظ المتوفى سنة ١٣٨٩ م وغيرهم ، موضوعات منوعة توحى إلى المصور فكرة الرسم لتوضيح النصوص . فالشاهنامة وحدها وهى تنطوى على جزء عظيم من تاريخ إيران ، أشبه شىء بالياذة هوميروس ، وفيها من أخبار الملوك والأمراء وخدع الحروب وحيل السياسة ووصف الأقطار ومواقع البلدان وجمال التصور وفتنة الجبال والوديان ما جعل التصوير فيها أمراً محتماً . وكذلك ما ورد فى شعر السعدى[١] من النوادر والقصص فى بستان الورد . دع عنك رباعيات الخيام[٢] وما اقتضته من تصاوير تمثل الشاعر الفنان المحب للخمر المفتون بالجمال المسحور برشاقة التكوين الجسمانى ، وهو يطرق باب الحان ليوقظ رفاقه لمعاقرة أقداح الشراب قبل بزوغ ألوان الفجر ، فلم يكن للمصور بد من الخضوع لذلك الالهام الشعرى الموسيقى القوى فى سبيل الحب واندفاع النفس . وهذا هو الذى حدا بالمصورين إلى تصوير الانسان فى أوضاع مختلفة أهمها أوضاع الحرب والحب ، ولا أجمل من تلك الصورة التى رسمت توضيحاً لقول الشاعر :

لم يخلق الرحمن أجمل منظرا ... من عاشقين على فراش واحد

لأن المصور قد أوتى من نقاوة الالهام وطهارة الروح وسمو الخيال وتمجيد الجمال ما جعل صورته آية فى العفة وجميل الظن مع اجتماع الحسن والشغف الظاهر فى أعين العاشقين .

من أجل هذا كله وجب على القارئ كلما قلب بين يديه كتاباً إفرنجياً مصوراً أو مزيناً بالرسوم ؛ أن يتذكر أن هذا الفن وهو توضيح النصوص بالتصاوير ، إنما هو اقتباس من فن شرقى قبل كل شىء ، وأن الذى فكر فى تزيين دواوين الشعراء وكتب القصص والتاريخ بالصور كانوا من أهل الشرق كالهنود والفرس وبعض السوريين ، فى الوقت الذي لا ننكر فيه على بعض علماء اليونان أنهم وضحوا كتباً من تأليفهم برسوم تعين على فهم النصوص دون أن يكون لهذا أثر كبير فى ابتكار المشارقة لفنون تحلية الكتب

وإننا لا نذكر أن هذا البحث لا يزال بكراً ، لم تتجه إليه الأنظار ولم يطرقه باحث ، كما أننا لا نذكر أنه كتلك الموضوعات التى سبق البحث فيها فلا تكلف كاتبها مجهوداً كبيراً ، إنما نذكر

(١) راجع مقدمة : De Sacy, Maqamat el Hariri, Paris 1882

(٢) انظر الصورتين الافتتاحيتين للجزء الثانى والرابع المحفوظين بدار الكتب المصرية (مخطوطات)

(١) راجع Der Fruchtgarten von Saadi, Ottokar Maria, Wien 1852.

(٢) راجع : Christensen, Omar Khajjams Rubaijat, Kopenhagen 1903.

أنه قد آن لنا أن نختط خطة أخرى فى دراسة الآثار الاسلامية ؛ فندرس الطريف الجديد

ولما كانت العلوم التطبيقية أول ما اتجه إليه نظرنا فى هذا البحث ، وكان أقدم الكتب المخطوطة فى هذا الموضوع حسب ما عثرنا عليه ، كتاب أبي زيد البلخي (نسبة إلى بلخ فى جنوب أفغانستان) رأينا أن نبدأ بتعريف إحدى صوره وهي صورة العراق فى زمانه ، والتى قصد بها أن تكون خريطة لتلك البلاد ، وهى الخريطة التى اصطحبها ياقوت الحموى الإغريقى الأصل (١١٧٩—١٢٩٩م) أثناء رحلته فى سوريا وفلسطين كما ذكر ذلك فى كتابه إرشاد الأريب ، عند ما نوه بذكر كتاب البلخى ، مما يدل على قيمته فى عهده

وقد جعل البلخى للأنهار صورة تشبه الخطوط الغليظة المهشرة رمزاً للماء ، وأحاط المدن والمعالم بدائرة تحدد القطر المقصود بالوصف ، ورسم نهر دجلة وسطه فقسم البلاد إلى قسمين ، وأظهر مصبه فى الخليج الفارسى عند شط العرب ، ورمز للمدائن بمربعات ومتوازيات أضلاع ودوائر ذات مساحات مختلفة تناسبت على ما يظهر مع قيمتها الدينية ، ولا يضيره أنه جعل الخريطة بأكملها منحرفة نحو خمس وأربعين درجة عن الأفق . ومن المدن الواضحة على الخريطة بغداد والبصرة كما يتضح من النظر إليها

والخريطة الثانية مختارة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للشريف الادريسى المولود حوالى عام ١١٠٠ ، وهو من أمهات الكتب فى علم وصف الأرض ومن أبرزها تأليفاً وأعرقها أثراً منذ القرون الوسطى . وقد نقل إلى كثير من اللغات الأوربية لاسيا اللاتينية والايطالية والفرنسية ، وضعه الادريسى تلبية لرغبة الملك رودريجو (روجر الثانى ١٠٩٧—١١٥٤ م) ملك صقلية ونابولى ، الذى كلفه بعد دعوته إلى بلاطه وضع هذا الكتاب ، وفرغ من تأليفه فى منتصف القرن الثانى عشر المسيحى . والمؤلف عالم مغربي من مواليد ثغر سويتا ، ذو ثقافة عربية أندلسية وذهن أوربى ، وكان فى مقدمة الرحالة الجغرافيين الذين جابوا الأقطار ، وهو سابق على الرحالة ليفنجستون [1] (١٨١٣—١٨٧٣) والرحالة ستانلى [2] (١٨٤١—١٩٠٤) وغيرهما من الذين قرروا أنهم كانوا أول من اكتشف منابع النيل ، ووضعوا هم ومن سبقهم أسماء ملوكهم وأمرائهم على البحيرات التى رسمها الادريسى فى إحدى خرائطه الفذة (ش٢) لسبعة قرون قبل مولد هؤلاء المستكشفين . فبينما ترى بحيرتى فيكتوريا نيانزا (أصلها أوكاريو نيانزا) وألبرت نيانزا (أصلها موتان نزيجا) اللتين تتكونان من المياه المنحدرة من جبال القمر قد تغير اسمهما فى الجغرافية الحديثة ، لاترى الادريسي يفكر فى إطلاق أسماء بعض خلفاء المسلمين أو أمرائهم على تلك البحيرات التى لا يبعد أن يكون قد رآها بعينه كما رسمهما بيده ، وترى نهر النيل بعد تدفقه من تلك البحيرات والتفافه فى وادي السودان وعبوره القطر المصرى ينصب فى البحر الأبيض المتوسط الذى هو جزء من بحر هائل أحاط بالخريطة الشاملة لبقع بيضاء تمثل الجزائر وأشباهها .

وإذا انتقلنا إلى فنون القاتلة التي كانت ولا تزال شاغلة لأذهان الملوك ، نجد سفراً شاملا لطرقها وقواعدها ، اسمه كتاب



٢ — خريطة الأدريسى — منقولة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق

(١) راجع The last journals of Daurid Luirinstone in Central Africa, publ. by H. Waller, 2 Vols., Lond. 1874.

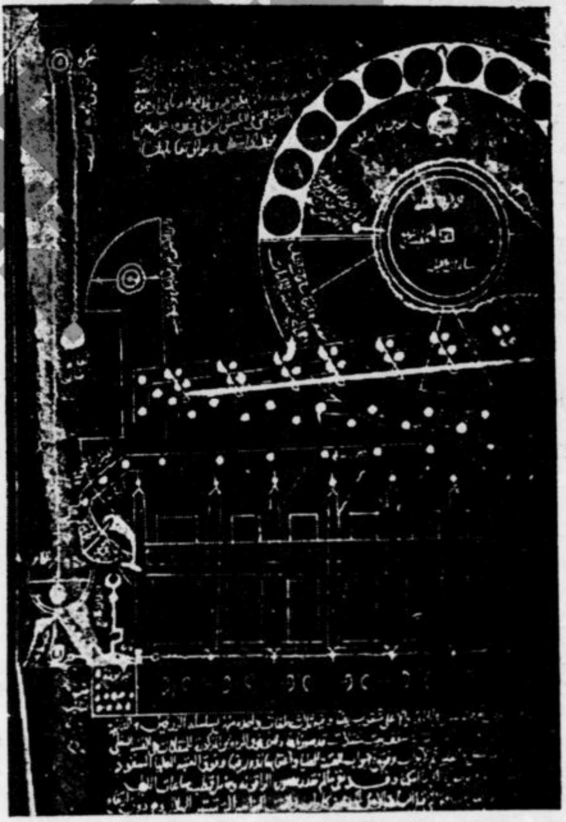
(٢) راجع Henry Morton Stanley, Through the dark Contintinent, Lond. 1878.

السؤال والأمنية فى أعمال الفروسية لمحمد بن زين الدين العثمانى ، يرجع تاريخ تأليفه إلى القرنَ الخامس عشر الميلادى ، وهو مزين بتصاوير توضح فصوله . والصورة (ش٣) تبين فارسين وقد امتطى كل منهما ظهر جواده وربط ذيل كل منهما بالآخر حتى لا يفترا ولا يبتعدا ؛ فيتمكن كل فارس من مبارزة خصمه ، ووقف الجوادان على أرض مزروعة ذات زهر ، وكان المصور حريصاً على تجميل الخيل وسروجها كما تلاحظ على اللوحة

ومما يثبت نجاح المسلمين فى العلوم الفلكية والميكانيكية التي بنى عليها فن التوقيت بالساعات بعد المزاول ، ما نراه فى الصورة الرابعة المنقولة من كتاب علم الساعات والعمل بها تأليف رضوان ابن محمد الخراسانى ، والتى تمثل دائرة عليها ساعات النهار الإثنتا عشرة ، وساعات الليل نظيرتها فى النصف الأعلى من الدائرة حيث ترى قنديلاً معلقاً بسلك رفيع . وإلى اليسار ثقلان معلقان بسلك آخر ، أحدهما توسط ارتفاع الصورة ، والآخر قريب مَن أسفلها ، وهما متصلان بالسلك المرتكز على بكرة فى الركن الأعلى الأيسر .



٣ — الفارسان — منقولة من كتاب السؤال والأمنية



٤ — صفحة منقولة من كتاب علم الساعات والعمل بها

وعند الثقل الأسفل تشاهد طيراً كان المقصود منه أن ينقر بمنقاره لتحديد الوقت . أما المجارى الرفيعة التى توسطت الصورة حيث النقط البيضاء المستديرة ، فهذه كانت طريقا لأثقال تمر منها فى أوقات معينة ، مارة بفتحة فى رأس الطائر الذى ترى عند قدميه وعاء نصف مستدير لجمع هذه الأثقال

والصورة الخامسة مأخوذة من فصل من كتاب السر الروحانى فى علم الكيمياء القديمة الذى يرجع تاريخ تأليفه إلى القرن السابع عشر الميلادى ، وكتب فيها السويد في الطبايع فى العمل الأول ، وبالنظر إليها ترى رأس الغول فى الركن الأعلى الأيسر ، وهو عبارة عن وجه مستدير لآدمى له عينان واسعتان مستديرتان وأنف أفطس وأسنان فظيعة ، وإلى جانبه عقاب واقف على قوس وآخر على شجرة مثمرة وهو أسود اللون ، قال المؤلف : « وقد طار الناس من هذا السواد الأول ، وأما الغراب الثاني فمنقاره أحمر » ، وفى وسط الصورة على اليسار ترى رجلا قد وقف إلى فرن ، ووضع على رأسه غطاء أشبه بالقاووق

وأمسك بيسراه شيئاً يخيل إلينا أنه بوتقة ليصهر فيها المادن الخسيسة بقصد تحويلها إلى ذهب ، وفى الوسط غراب أسود حالك السواد ، وطير مقفص على اليسار . وعند ذيله وعلى يمين الصورة تشاهد حوضاً رقد فيه إنسان بعينين مفتوحتين ورسمت أعضاؤه بكيفية لا تخرج عن طريقة رسم التوصيلات الكهربائية اليوم ، وكتب إلى جانب الحوض حمام مارية حيث تسلب روح الانسان بطريقة السالب والموجب ، أما الركن الأيسر فهو ملىء بصور الالآت والأدوات إلى جانب الرموز الكيميائية القديمة

ينتج مما تقدم أننا قد اهتدينا بالبحث إلى باب جديد من الفنون الإسلامية تناولناه بشىء مبسط من التسجيل العلمى ، لم تشرئب أعناقنا إلى قباب المساجد ، ولا إلى رؤوس المآذن ، ولا إلى سقف العمائر لنجده ، ولكننا وجدناه فى الكتب المهملة والكنوز المتروكة ، حيث نجدّ فى البحث والتنقيب عن معالم جديدة للحضارة الإسلامية المسجلة عن طريق الفن فى مؤلفات المسلمين ، الشاملة لعلوم الطب والجراحة والنبات والحيوان مما لا يتسع المجال هنا لذكره وإيضاحه . فان كتبنا اليوم لنفتتح هذا البحث فاننا نكتب ليكون استهلالاً لسلسلة بحوث تدل على عظمة الحضارة الاسلامية عن طريق التسجيل الفنى ، مؤملين أن يتناول المسلمون فى نهضتهم مؤلفات أجدادهم بتلك الروح التى تناولها بها أهل أوروبا ؛ فيكون لنا بعث وإحياء لا يقلان عن بعث وإحياء أوروبا فى عصر الرفعة أو ما يمهد السبيل إلى نظيره

أحمد موسى

الحائز على دبلوم الدراسات العليا لتاريخ الفن العام
وأجازة الدراسة الأركيولوجية الاغريقية
ودكتوراه الفلسفة من جامعة برلين



٥ — الكيمياء القديمة — منقولة من كتاب السر الروحانى

٣٢ • ١٠

قتيبة الباهلي

البطل الفاتح

للمستشرق الانجليزي هـ . أ . ر . جب
الأستاذ بجامعة اكسفورد

إن انتصار الجيوش الإسلامية في آسيا الوسطى أيام عهد الوليد الأول إنما يرجع قبل كل شيء إلى التعاون التام بين عبقرية الحجاج الحكيمة ومهارة قتيبة الحربية . ولقد بولغ — من بعض النواحي — في كفاية قتيبة بن مسلم الباهلي في قيادته الجحافل ، وإن كانت المصادر العربية لا تنكر الحقيقة الواضحة في أن مقدرته لا ترتكز كل الارتكاز على العبقرية . ويتجلى لنا مراراً كثيرة إلى أي مدى كان دؤوب الوالي على الاهتمام بتقدم جيوشه ، وما كان يأخذ به نفسه من وضع خطة القتال ، ولو أن فضل إظهارها وانتهائها بالنصر المؤزر يرجع في الحقيقة إلى قتيبة . ويظهر أن الحجاج كان كبير الثقة في قائده إلى غير حد ، وكما أنه لم يكن ليتوانى عن تعنيفه ولومه وتحذيره إذا جدّ ما استدعى ذلك ، كذلك كان لا يحجم عن إظهار تقديره لنجاح قتيبة . وسرعان ما أدرك العرب في جميع البقاع أن مقدرة الحجاج تشد من أزر قائدهم وإن استترت ، فكان ذلك الإدراك مبعث كثير من هذه الهيبة التي حالت دون حدوث أي خُلف في حياته

أما العامل الثاني الذي ساعد في الواقع على تلك الفتوح فقد كان ما قام به قتيبة خلال متابعته الفتح من توحيد جهات خراسان ، وتأليفه الفرس والعرب ، وقيس واليمن . ولم يكن من الهين عليه أن يستبقي حماسة جنده — التي لا يعرف التخاذل إليها سبيلاً — إزاء معارك طويلة الأجل حامية الوطيس ، وهيهات أن يقصر تفسير هذا الحماس على أنه الرغبة في الغنيمة الوفيرة فحسب . وليس من البعيد أن يكون مرجع نجاح قتيبة في الغالب إلى مقدرته الإدارية أكثر من رجوعه إلى حكمة قيادته . ويظهر أنه أدرك أن استتباب سلامة ودعائم الحكومة العربية في ولاية خراسان ينبغي أن يقوم — طوال حكمها — على تعاون الشعب الفارسي الذي يؤلف الغالبية العظمى في الإقليم : الأمر الذي لم يقم به حتى الآن أمير عربي في الشرق

ولقد أظهرت حدة النضال الحزبي عظيم الخطورة في الاعتماد على عون العرب فحسب ، وعلى الأخص في وجه حركة كتلك التي أضرم لهيبها يزيد . ومن ثم فقد اكتسب قتيبة — بعمله الإيجابي هذا — ثقة الفرس وكافأها من جانبه بالثقة أيضاً . حتى ليكاد يخيل الينا أنه باستعماله — طول حكمه — لموظفين من الفرس وتقديمه الولاة الايرانيين إنما كان يمدهم « العشيرة » التي كان يحتاج اليها بين العرب . وعلى الرغم من أن ذلك قد جلب عليه سخط العرب وكان عاملا قوياً في إسقاطه ، إلا أنه في ذلك كان أول دافع لإثارة الشعور باسترجاع العاطفة القومية في نفوس فرس خراسان .

كذلك كان مركز آسيا الوسطى مشجعاً للعودة إلى محاولة ضم بلاد ما وراء النهر الغنية إلى المستعمرات العربية ، وإن كنا في شك غير قليل إزاء الأخبار المتعلقة بمدى اهتمام العرب بهذه الناحية . ففي سنة ٦٨٢ م ، بينما دبّ الضعف الداخلي في الصين من جراء مكائد الامبراطورة ڤو Wu ، وبينما كانت يداها مصفدتين بحروبها مع التبت قام الأتراك الشماليون أو الشرقيون باسترداد استقلالهم ، ولم تفلح الامبراطورية الجديدة مطلقاً في بسط نفوذها ثانية على الأقاليم الغربية في الخانات السابقين ، غير أنها مدّت حكمها — بواسطة الحملات المتواصلة — على القبائل العشر التي تنزل إيلي Ili وتشو Chu التي يقال إنها « قد تلاشت في أغلبها » وفي سنة ٧٠١ م غزا الأتراك الشرقيون سُجْديانا Sogdiana ، بيد أنه ليس ثمت داع للاهتمام جدياً بالقول بأن قوات المهلب قد تأثرت بهذه الغزوة ، ولو أنه كثيراً ما رُدِّد هذا القول ، ولا بد أن التدمير والخسارة اللذين كانت تتسم بهما هذه الغزوات بلا استثناء قد ساعدا على إضعاف موارد أمراء الرعية الذين كان لهم نصيب وافر في اختيار ابن الخان ليقود القبائل العشر . وعلى أية حال فإن الحرب الدائمة التي كان يثير ضرامها الأتراك الشرقيون ضد التركش Türgesh من ٦٩٩ إلى ٧١١ م قد حالت في الواقع بينهم وبين إرسال نجدات إجابة لاستغاثات كانت تصلهم من سجديانا بطلب العون [1] منهم . كذلك لم يكن

(١) Chavannes : Documents sur les Tou-Kiue occidenteaux PP. 42, 282. (طبعة سنت بطرسبرج سنة ١٩٠٣)
Marquart : Die Chronologie der Alttürkischen Imschrifter P. 15. (ليزج ١٨٩٨) راجع كذلك الطبري ج٢ ص١٠٧٨ و١٠٨٠

من المستحيل على التركش التدخل فى سجديانا خلال هذا العهد نفسه (١)

ويقصد مؤرخو العرب — بلا استثناء — بكلمة « الترك » جميع السكان المحليين الذين لا يستبعد أنه كانت فيهم إبان ذلك الوقت عناصر تركية . والواضح أن الاشارات المرضية إلى الخاقان إنما هى نعوت نفر (اللهم إلا إذا أمكن إرجاعها إلى الرؤساء المحليين وذلك أمر بعيد الاحتمال) ؛ وإن قصة ٩٨ هـ التى اتخذتها فكرة التدخل دعامة لها إنما هى من نسج خيال باهلى بحت ، وخلاصة القول أن تجربة العرب فى السنوات الأخيرة ترينا أنه كان من المحال على قتيبة أن ينعم بهذا المجد الباذخ من النصر لو أن كتائب كبيرة من الترك وقفت وراء سجديانا تشد من أزرها فى مقاومتها . وتقع فتوح قتيبة بطبيعة الحال فى أربعة أوقات هى :

١ — سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) حيث استرد إقليم طخارستان الأدنى

٢ — فتح بخارى من ٨٧ — ٩٠ هـ (٧٠٦ — ٧٠٩ م)

٣ — تركيز نفوذ العرب فى وادى جيمون وامتداده إلى صغد بين سنتى ٩١ و ٩٣ هـ (٧١٠ — ٧١٢ م)

٤ — الحملات على ولايات تركستان ، من ٩٤ — ٩٦ هـ (٧١٣ — ٧١٥ م)

***

أما عن إقليم طخارستان الأدنى فقد كان الجهد قبل قتيبة منصباً على كبت كل ثورة تنشب فى هذا الاقليم . وفى ربيع السنة السابعة والثمانين للهجرة (٧٠٥ م) التأم الجيش وسار من « مروروذ » وطالقان إلى بلخ ، ولقد خضعت المدينة — كما ورد فى إحدى روايات الطبرى — دون نضال ما . وتشير رواية أخرى إلى شبوب ثورة بين بعض السكان ، وقد يمكن عدّ هذه الرواية وإن لم تكن فى وضوح الباهلية — كسابقتها لورودها على لسان أخى قتيبة ولأنه يُرى من ورائها لاقامة دعوى باهلية على البرامكة . ولقد يكون هذا الرأى هو الأدنى إلى الصحة ما دمنا نسمع

(١) كما يرى ذلك الأستاذ هوتسما ، راجع Gotting. Gelehrt Anz. 1899. PP. 386-387.

من أن بلخ قد أضحت خربة بعد أربع سنوات من ذلك (١)

وتلا إخضاعَ بلخ إخضاعُ تيش Tieh ملك شغانيان الذى يحتمل أنه تعاون مع الفضل فى الهجوم على ترمذ قبل ذلك بعام واحد . ويظهر أن الدافع له على عمله هذا إنما هو الصراع مع ملك شوهان فى الأودية العليا لنهرى سرخان وألينجاليا ، وكان يأمل أن يستخدم ضده الجيوش العربية جزاء مساعدته إياها . وحقيقة الواقع أن الفضل قد دبّر حملة ضد شومان قبل استغاثته ، وكانت قد خرجت تحت إمرة قتيبة الذى كان أكثر الجميع استعداداً للنهوض بها ما دامت تؤكد سلامة الوصول إلى الطريق الجنوبي للبوابة الذهبية . وبعد أن فرغ قتيبة من إخضاع ملك غِسلَشْتان Ghislashtan الذى كان من نبعة تركية كما يذكر يوان شوانج Yuan Chwang . وآب قتيبة بمفرده إلى مرو تاركا جيشه يسير تحت إمرة أخيه صالح الذى قام بعدّة غزوات صغيرة أثناء الطريق .

وإنه لمن الواضح الجلىّ — على الرغم من زعم البلاذرى — أن هذه الغزوات لا بد أنها قد وقعت فى الأقاليم المجاورة لنهر جيحون ، ومع ذلك فان فى رواية الطبرى نقصاً (٢)

وهكذا فإن قتيبة لما عزل (نيزك) فى بادغيس قلب الثورة أمضى شهور الشتاء فى مفاوضته عن طريق « سليم المشير » وهو فارسى نافذ الكلمة قد برهنت حنكته — أكثر من مرة — فى تصريف أصعب المفاوضات على حاجة قتيبة القصوى إليه . وقد أغرى « نيزك » على التسليم ، وسيق إلى مرو وقرّت الأغماد على ألا يدخل قتيبة بادغيس بشخصه . ومع ذلك فإن الحاكم — من باب الاحتياط — قد أمر أن يصحبه (نيزك) فى جميع حملاته ، ومن ثم فإنه — على الأقل فى هذه اللحظة — كان قد أمن من خطر اندلاع ثورة فى خراسان بطريقة شريفة لكلا الجانبين ؛ وقام ابن بيروز قافلاً إلى الصين ينتظر سنوح فرصة تكون أكثر مواتاة له (٣) .

ا . ه . جب

(١) راجع الطبرى ج ١ ص ١٢٠٦

(٢) من قراءات برتولد فى Turkyestan v' Epokhu Mongolskavo Nashystviy P. 91. N. 5 and P. 76. (سنت بطرسبرج ١٨٩٨)

(٣) الطبرى ص ١١٨٤ و ١١٩٠ والهمدانى فى كتاب البلدان

مظاهر الحكم في مصر الأموية

للدكتور حسن إبراهيم حسن
أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب



كانت لمصر في العصر الأموي بعض مظاهر عامة لا يستطاع إغفالها كظهور الروح القومية بين المصريين، وعلى الأخص بعد كتابة الدواوين بالعربية في عهد الوليد بن عبد الملك ابن مروان سنة ٨٧هـ بعد أن كانت تكتب بالقبطية، وما انطوى عليه هذا العمل من إقصاء القبط عن كثير من مناصب الدولة، وكانوا يقومون بجباية الخراج، وإليهم تسند الوظائف الكتابية؛ مما أدى إلى إحياء روح القومية عند القبط، ودفع بهم إلى الصياح والقيام في وجه الولاة، وما كان أيضاً من اشتداد العمال في جمع الخراج وظهور روح العصبية بين القبائل العربية، وكان لهذا العصر مزاياه ومظاهر حضارته، فقد امتاز بعض ولاته بعطفهم على القبط، فسمح مسلمة بن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) لهم بأن يبنوا كنيسة في الفسطاط

ولقد ولي مصر في هذا العصر رجال عرفوا بالكفاية والدراية وحسن السياسة فنشروا العدل بين الناس، وأتوا بضروب من الإصلاح تشهد بمبلغ اهتمامهم بترقية الزراعة والصناعة وفن العمارة وغيرها

ومن بين هؤلاء مسلمة بن مخلد [1] فقد بنى بالروضة مقياساً للنيل وداراً للصناعة [1]، وورد الروم على أعقابهم حينما نالوا البرلس، واهتم ببناء المساجد وإصلاحها، فأمر في سنة ٥٣ هـ بجامع عمرو ابن العاص فهدم وبنى من جديد، وأمر في السنة نفسها بابتناء منارات المساجد كلها

ولقد وفى شروط النيابة عن الامام فكان يقيم الصلاة بنفسه طول مدة ولايته، ونظم الأذان فكان مؤذنو الجامع العتيق يؤذنون الفجر إذا مضى نصف الليل، فاذا فرغوا من أذانهم أذن كل مؤذن في الفسطاط في وقت واحد، وأمر ألا يضرب بناقوس عند أذان الفجر.

وكان عبد العزيز بن مروان من أحسن الولاة الذين حكموا مصر في هذا العصر. جاء في صحبة أبيه مروان حين جاء لاسترداد هذه البلاد من عامل عبد الله بن الزبير، وبقي فيها شهرين. ولما عزم مروان على العودة إلى الشام جمل صلاة مصر وخراجها إلى ابنه عبد العزيز، وكان بعض المصريين في ذلك الوقت على الشنآن لمروان ولبني أمية، فخاف عبد العزيز عاقبة مُقامه في هذا البلد وأفضى بذلك إلى أبيه، فرسم له هذه الخطة المثلى التي ينبغي أن يسير عليها، فيتألف قلوب المصريين على اختلافهم. وتبين له أن هذا الأمر لا يمكن تحقيقه، إلا إذا أسرهم عبد العزيز بجوده وإحسانه، وجذبهم إليه بالمودّة ولين الجانب والبشاشة، وبين لكل زعيم أنه من خاصته، وبهذا وحده يتفانى الجميع في خدمته، ويجمع الكل على طاعته. يقول الكندي [2] قال عبد العزيز: « يا أمير المؤمنين، كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أمية؟ » فقال له مروان: « يابني عُمَّهم باحسانك يكونوا كلهم بني أبيك، واجمل وجهك طلقاً تَصفُ لك مودتهم، وأوْقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصَّتك دون غيره يكن عيناً لك على غيره وينقاد قومه إليك. وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً، وجعلت لك موسى ابن نصير وزيراً ومشيراً وما عليك يابني أن تكون أميراً بأقصى الأرض. أليس ذلك أحسن من إغلاقك بابك وخمولك في منزلك؟ »

هذه هي النصيحة الذهبية التي زود بها مروان ابنه عبد العزيز عند توليته أمر مصر. ولم يفت مروان أن يزيد ابنه من النصائح

---

(١) ذكر السيوطي (ج ٢ ص ٥) أن مسلمة ولي مصر من ٤٧ — ٥٩ هـ وهذا خطأ

(١) المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٦

(٢) الكندي: ص ٣٨ — ٤٠ والمقريزي: الخطط ج ١ ص ٣٠١ والانتصار لابن دقماق ج ٤ ص ٦٢ — ٦٣

في وصية أخرى ما يكفل له الراحة والطمأنينة في هذا البلد عند رحيله إلى الشام ، فلقد أوصاه بتقوى الله في السر والعلانية وبالبر بالفقراء ، وبتنفيذ وعده إذا ما وعد ولو حال دون ذلك شوك القتاد ، وأن تكون المشورة رائده قبل الفصل في أمور الدولة ، وبذلك تلهج الألسنة بالدعاء له ويأمن الفتن والقلاقل [(١)]

ولقد عمل عبد العزيز بنصائح أبيه فنجحت سياسته في مصر النجاح كله ، وأتى في عهده بكثير من ضروب الاصلاح فبنى مقياساً للنيل ، وزاد في الجامع العتيق من ناحية الغرب ، وأدخل في شماله رحبة فسيحة [(٢)] وأقام على خليج أمير المؤمنين قنطرة عند الحمراء القصوى بطرف الفسطاط وكتب عليها اسمه وذلك سنة ٦٩ هـ [(٣)] ، واتخذ حلوان داراً لاقامته بعد أن أصيب بداء الجذام على ما يخالف قول المؤرخين من أنه انتقل إليها لتفشي الوباء في الفسطاط ، وأنشأ بها بركة كبيرة ساق إليها الماء من العيون القريبة من المقطم على قناطر aqueducts تصل عيون الماء بالبركة . وفي حلوان غرس عبد العزيز النخيل والأشجار وبنى المساجد والعمارات الفخمة . حتى قيل إنه بذل في سبيل ذلك مليون دينار [(٤)]

ولقد بلغ من عنايته بفن العمارة والتماثيل أن ابتنى في الفسطاط حماما لابنه زبان ، وأقام على باب هذا الحمام تمثالاً عجيباً من زجاج على شكل امرأة وأطلق عليه أبو مرة ، وباسمه تسمت القيسارية التي كانت ملكا لعبد العزيز باسم قيسارية أبي مرة ، وكانت تعرف في زمن ابن دقاق (المتوفي سنة ٧١١ هـ) بحمام بثينة [(٥)]

نعم ! لقد طالت ولاية عبد العزيز على مصر فأتيح له أن يأتي بكثير من الاصلاح ، واستطاعت البلاد في أيامه أن تظهر بمظهر النشاط الأدبي والمادي . ولقد بالغ الشعراء فيما أتاه هذا الوالي من أعمال البر والاحسان والكرم ، فقال بعض المؤرخين إنه « كان له ألف جفنة تنصب حول داره ، ومائة جفنة تحمل على العجلات ويطاف بها على قبائل مصر . وفي ذلك يقول الشاعر :

كلُّ يومٍ كأنه يومُ أضحى ... عند عبد العزيز أو يومُ فِطر
وله ألف جفنة مترعاتٍ ... كلَّ يوم تمدها ألف قِدرِ [(١)]

هـذا وبالرغم من أن خراج مصر كان إلى عبد العزيز بن مروان ، فقد قيل إنه لم يترك عند وفاته من المال غير سبعة آلاف دينار عدا أملاكه في حلوان ، وقيسارية أبي مرة وما خلفه من الثياب والخيل والرقيق . فلا غرو إذا أجمع الناس على محبته ورضوا عنه وعن ولايته . ورثاه الشعراء أحسن رثاء فقال سليمان ابن أبان الأنصاري :

فمن ذا الذي يبني المكارم والعُلا ... ومن ذا الذي يُهْدَى له بعدك السَّفر
فكنتَ حليف العرف والخير والندى ... فمتن جميعاً حين غَيَّبكَ القبرُ
فبعدك لا يُرْجى وليدٌ لنفعةٍ ... وبعدك لا ترجى عوان ولا بكر

تلك هي مصر في فترة من حياتها الإسلامية الزاهرة في عهد عبد العزيز بن مروان من بني أمية .

حسن ابراهيم حسن

(١) الكندي ص ٤٨ ، والمقريزي في الخطط ج ١ ص ٢١٠
(٢) الانتصار لابن دقاق ج ١ ص ٦٣
(٣) الانتصار لابن دقاق ج ٤ ص ٦٣ ، ١٢٠
(٤) أبو صالح الأرمني ورقة ٥٢ ب ، ١٥٣
(٥) الانتصار ج ٤ ص ١٠٥

(١) الكندي : ص ٥١ — ٥٢

التصوف الإسلامي

نشأته وأصوله

للمستشرق الانجليزي الدكتور رينولد نيكلسون
الأستاذ بجامعة كمبردج



يعدّ الصوفيون الحسن البصري واحداً من جماعتهم. والواقع أنه كان إلى حد بعيد يعلّق أهمية عظمى على الاستقامة النفسية، ولم يكن قانعاً بالعبادات الظاهرية فحسب. ولقد قال: «مثقال ذرة من الورع السالم خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة[1]» بيد أنه على الرغم من أن بعض أقواله الواردة في التراجم المتأخرة تؤيد الزعم القائل بأنه كان صوفياً عميقاً، إلا أنه ليس ثمت شك في أن تصوّفه — إذا جاز أن ينعت بهذا الاسم — كان من النوع الشديد الاعتدال؛ وأنه كان في حاجة قصوى إلى الحمية والهيام اللذين نجدهما عند الصدّيقة الورعة رابعة العدوية التي تربطها به الأقاصيص[2]

ولقد اختلف الصوفية أنفسهم في تفسير أصل اسم «الصوفي» وذهبوا في ذلك مذاهب شتى متباينة، ومن بين الاشتقاقات التي ذكرت ثلاثة تستحق عناية الباحث وهي التي تربطها بكلمة

(١) القشيري: الرسالة القشيرية ص ٦٣ السطر الأخير (ص ٥٤ طبعة مصر ١٣٤٦ هـ)

(٢) مما هو جدير بالملاحظة أن القشيري المتوفى سنة ١٠٧٣ م وأحد القدامى الذين كتبوا عن التصوف لم يدرج الحسن البصري بين مشايخ الصوفية الذين ترجم لهم في رسالته (ص ٨ — ٣٥) ولم يتجاوز ذكره إياه ست مرات خلال رسالته، ولم يزد القشيري على ما جاء به الكامل من أقوال الحسن شيئاً

«سوفوس[1]» اليونانية (المقابلة لـ wise في الانجليزية) أو صفا[2] أو «صوف»

أما الاشتقاقان الأولان فلا يدعمها أي أساس لغوي[3] ولسنا بحاجة لنقاشهما. ولو أن الاشتقاق من «صفا» مقدم لدى من يعتد به من شيوخ الصوفية، ومقبول على العموم في الشرق[4]. والسبب في هذا الترجيح يتضح لنا من مثل هذه التعاريف كقولهم: «الصوفي من يحفظ قلبه صافياً لله[5]» و«الصوفية الاصطفاء» وإذا فهمناها على هذا الاعتبار فقد صارت الكلمة دلالة سامية هيأتها للاختيار دون سواها

ومهما يكن الأمر فإنه يمكن إرجاعها إلى أصل ضئيل، ذلك أنه كان من مألوف عادات المتقشفين والزهاد عادة في العصور الأولى من الإسلام وهي لبس الصوف لما كانوا عليه — كما يقول ابن خلدون — من مخالفة الناس الذين يرفلون في الثياب الغالية، ولهذا فإن اسم «صوفي[6]» الذي يدل لأول وهلة على المتقشف المرتدي الصوف صار كمدلول القاووق على الرهبان الكابوشيين؛ وطبقاً لما يذكره القشيري أصبح هذا اللفظ شائع

(١) Cf. Noeldecke : Sùfi. (Z. D. M. G.) vol. 48. P. 45.

(٢) يقول أبو الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ... فيه وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنسب هذا الاسم غير فتى ... صافى فصوفي حتى سمي الصوفي

(٣) يقول القشيري (ص ١٢٦ س ٣) وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق. والأظهر فيه أنه كاللقب، فأما قول من قال إنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف ... فذلك وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف؛ ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي، ومن قال إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة؛ وقول من قال إنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف   المترجم

(٤) وردت الاشارة إلى كلمة «صفاء» ١٣ مرة في التعاريف المتعلقة بكلمتي «صوفي والتصوف» في كتاب تذكرة الأولياء للمتصوف الفارسي المعروف فريد الدين العطار المتوفى حوالى ١٢٣٠م بينما كلمة «صوف» لم تذكر إلا مرتين فقط

(٥) قائله جنيد البغدادي (+ ٩٠٩ — ١٩١٠م) أحد مشاهير شيوخ الصوفية

(٦) يمكن أن يقرر الآن في اعتقاد جازم أن كلمة «صوفي» نشأت في الكوفة إبان القرن الثاني للهجرة، وكانت في بادئ الأمر مقصورة على متصوفي العراق، ومنذ ذلك الوقت أخذ التطور الأول للتصوف في الظهور في الآراء الشيعية والافريقية

التداول قبل نهاية القرن الثانى للهجرة أعنى منذ عام ٨١٥ م ؛ مع أنه فى خلال هذا الوقت أخذت حركة الزهد فى الإسلام تصطبغ إلى حدّ ما بصبغة جديدة[1] . ولا بد أن معنى صوفى — بفرض وجود الكلمة إذ ذاك — قد أصابه بعض التغيير . ويخيل إلىّ أن هذا اللقب الذى نحن بصدده الآن يعين نقطة انتقال من الزهد السنى ، وأنه — كما يقرّر الجامى — قد أطلق أولاً على أبي هاشم الكوفى المتوفى قبل سنة ٨٠٠ م الذى أسس « خانقاه » للصوفية فى الرملة بفلسطين . ومهما يكن الأمر ، فإن الفارق بين الزهد والتصوف (ذلك الفارق الذى هو على وجه العموم كالتفرقة بين الحياة الطهرية Via Purgative وبين طريق الكشف Via Illuminative فى التصوف الغربى فى القرون الوسطى) أقول إن هذا الفارق قد أخذ فى الظهور قبل انصرام العهد الأموى ، وسرعان ما تقدم فى صدر العصر العباسى تحت تأثير الأفكار الأجنبية وعلى الأخص الفلسفة اليونانية . ولندع الكلام عن مدى تطوّر هذه الحركة الأخيرة للكلام عنها فى فرصة أخرى وسنتناول الآن فى إيجاز أصل الصوفية كما تسمى عادة ، والظاهرة الأولى للدوافع الخاصة التى قامت عليها

***

أما فيما يتعلق بأصلها فلسنا نستطيع أكثر من نقل الملاحظات التى قدم بها ابن خلدون لفصله عن الصوفية فى مقدمة كتابه التاريخى الجليل[2] حيث يقول : « إن هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة

(١) يقول السهروردى « لم يكن هذا الاسم (الصوفى) زمن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقيل كان زمن التابعين ، ونقل عن الحسن أنه قال رأيت صوفياً فى الطواف ... وما روى عن سفيان أنه قال : لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء » وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يعرف قديماً ، وقيل لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة لأنه فى زمن الرسول كان أصحابه يسمون الرجل صحابياً ، وبعد انقضاء عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سمى من أخذ منهم العلم تابعياً » المترجم

(٢) المقدمة (طبعة بيروت ١٩٠٠) ص ٤٦٧ و ص ٨٥ — ٨٦ ج ٣ من ترجمة De Slane الفرنسية ، وقد أسهب السهروردى فى شرح التصوف فى كتابه عوارف المعارف (المطبوع على هامش الاحياء للغزالى طبعة مصر ١٢٨٩ هـ) ج ١ ص ١٧٢ وما يليها ، راجع أيضاً ما كتبه الأستاذ براون عن القشيرى فى كتابه A Lit. of History of Persia ج ١ ص ٢٩٧ — ٢٩٨

الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاماً فى الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوّفة »

من هذا يتضح لنا أن التصوف — إذا لم يكن فى أصله تطوّراً لحركة الزهد التى كان الحسن البصرى ممثلها البارز كما رأينا — قد نشأ على كل حال من هذه الحركة وتفرع عنها . ولم يكن التصوف نظاماً تأملياً كهرطقة المعتزلة ، ولكنه إيمان عملى وقاعدة للحياة ، فيقول الجنيد[1] : « ما أخذنا التصوف من القيل والقال ولكن من الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات »

وكان الصوفيون القدامى زهاداً نساكا ، كما كانوا أيضاً أكثر من ذلك ، ذلك أنهم إما طلعوا على الناس بالجوهر الروحى والرمزى الموجود فى الإسلام ، أو أنهم أدخلوه فيه إذا لم يكونوا قد وجدوه حينذاك . ويقول السهروردى[2] : « التصوف غير الفقر ، والتصوّف غير الزهد ، والتصوف اسم جامع لمعانى الفقر ومعانى الزهد مع مزيد وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيا وإن كان زاهداً فقيرا » ثم يمضى بعد قليل فى شرح الخلاف فى قوله : « الفقير فى فقره متمسك به متحقق بفضله ، يؤثره على الغنى متطلعاً إلى ما تحقق من العوض عند الله لحديث[3] نبوي ، فكلما لاحظ العوض الباقى أمسك عن الحاصل الفانى ، وعانق الفقر والقلة ، وخشى زوال الفقر لفوات الفضيلة والعوض ، وهذا عين الاعتلال فى طريق الصوفية ، لأنه تطلع إلى الأعواض وترك لأجلها ، والصوفى يترك الأشياء لا للأعواض الموعودة ، بل للأحوال الموجودة ، فإنه ابن وقته ، وأيضاً ترك الفقير الحظ العاجل ، واغتنام الفقر اختيار منه وإرادة ، والاختيار والإرادة علة فى حال الصوفى ، لأن الصوفى صار قائماً فى الأشياء بإرادة الله لا بإرادة نفسه ، فلا يرى فضيلة فى صورة فقر ولا فى

(١) السهروردى : عوارف المعارف (على هامش الاحياء) ص ١٣٦

(٢) السهرودي : شرحه ص ١٤٥

(٣) إشارة إلى الحديث النبوى الشريف « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام » المترجم

صورة غنى ، إنما يرى الفضيلة فيما يوفقه الحق فيه ويدخله عليه »

ومفتاح التصوف نكران الذات وعدم الأثرة أو بمعنى آخر « الحب » ومع أن هذه الفكرة ليست غريبة بأكملها ، إلا أنها كانت بعيدة جداً عن أن تكون معروفة للمسلمين الأتقياء الذين كانوا متأثرين تماماً بقوة الله وبطشه أكثر من رحمته وغفرانه .. وإن جل تاريخ التصوف لهو مناهضة التفرقة غير الطبيعية بين الله والإنسان ، وتبعاً لذلك لا أرى ثمة ضرورة تدعونا للبحث عن أصل المذاهب الصوفية في غير الاسلام ، على الرغم من أنه من الخطل ألا نذكر الأثر المسيحى الذي أثر ولا بد فى الحركة فى طورها الأول .

أما الطابع التفكيرى الذى أشربوه شيئاً فشيئاً ، والذى بدلهم على مر الزمن فقد كان بين مد وجزر وارتفاع وانخفاض طوال العصر الأموى وطيلة قرن تقريباً بعد تقلد بنى العباس مقاليد الخلافة والحكم . ولا يزال الصوفيون الأوائل ينهجون منهج السنة ، فصِلَتهم بالإسلام نسبياً كصلة متصوفي الأسبان فى القرون الوسطى فى الكنيسة الكاثوليكية . ذلك بأنهم كانوا يعلقون كبير أهمية على بعض النواحى الخاصة فى التعاليم الإسلامية ويولونها جل اهتمامهم بدرجة تجعل النواحى الأخرى تكاد تكون فى حيز العدم . وهم لا ينهمكون فى علم الكلام Dialectic ولكنهم يكرسون أنفسهم لمسائل تتعلق باللاهوت العملى ، وإن نكرانهم للذات وتقشفهم البالغ أقصى نهايته وتقواهم الحادة واعتزالهم ... كل هذه الأمور جعلت خواص رسائلهم الأولية توصف بالذهول

ترجمة : ع ٠ ع

من شهداء الإسلام

عمار بن ياسر

للأستاذ كامل محمود حبيب

« أبشروا آل عمار فان موعدكم الجنة »
(حديث شريف)



وقف بباب دار الأرقم رجل آدم طوال أصلع أشهل العينين بعيد ما بين المنكبين... وقف يردد بصره فيما حوله وإن الشيطان ليوسوس له يريد أن يثنيه عن عزمه ، وإن قلبه لينتفض مما استولى عليه من الرعب . وكيف لا يستلبه الفزع من بعض عقله وهو فى هذا البلد وحيد ؛ فما من عشيرة تحميه ، وما من أهل يدفعون عنه الأذى ؛ وقريش من ورائه فى الصولة والسلطان أشداء على صحابة محمد ورفاقه ، يصبون عليهم فنونا من القسوة والعذاب فى غير رحمة ولا شفقة ؟ واصطرع في رأس الرجل عاملان : هنا النبى الكريم يشرق النور الإلهى من جبينه فيسطع متألقاً يجذب اليه جماعة ممن رضى الله عنهم ، وهناك قريش لا تستطيع أن تنزل عن كبريائها فى هوان وذلة وهم سادة القوم وأمراؤهم فكيف يلقون السَّلم فى ضَعة ؟ كلا ، بل أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون

أفينكص الرجل على عقبيه ليتردى فى الغواية مرة أخرى ويعكف على أصنام من حجارة لا حول لها ولا طول ، أم يندفع

فيلج باب دار الأرقم ليلتي محمداً ... ثم يتلظى — بعد حين — بنار يؤج سعيرها وتنبعث من قلوب عليها أقفالها ... قلوب قريش المغيظة المحنقة ؟ وأطرق يفكر ما يطمئن إلى أمر ...

وجذبه من أخيلته صوت أقدام تسير اليه فى وناء وثبات ... فاذا صهيب بن سنان أمامه ، فاندفع يحدثه : « ماتريد ياصهيب ؟ » قال صهيب « بل ماذا تريد أنت يا عمّـار » قال : « أريد أن أدخل على محمد فأسمع كلامه » قال صهيب : « وأنا أيضاً ، فوربى لقد دفعنى قلبي إليه وإن خواطرى لتضطرب فى خيالى خشية مما ألاقى بعد » ثم انطلقا جنباً إلى جنب إلى حيث النبي فأسلما معاً ، وما استطاعا أن يبرحا الدار حتى خيم الظلام على الأرض ، فخرجا يتسللان ...

وأشرق نور الايمان فى قلب عمّـار بن ياسر فما استطاع أن يكتم نزوات الفرح والغبطة فى قلبه ، فراح إلى أبيه (ياسر) وأمه (سميّـة) يحبّـب إليهما الاسلام فأسلما . وانطلق هو يعلن عن إسلامه فى جرأة لا يرهب القوة الثائرة ، ولا يخاف العذاب الأليم

وافتنّ آل حذيفة في تعذيب آل ياسر — وما آل ياسر سوى عمّـار وأمه وأبيه — لا يتورّعون من شر ... لقد مات ياسر فى العذاب ، وماتت سمية إثر طعنة من يد أبى جهل ؛ وعمار يشهد فما وهن وما استكان ، فأغلظوا عليه وفى قلوبهم مراجل من الغيظ يُحمى عليها بنار من الصلف كلما خبت زادها الشيطان سعيراً .

وفى ذات مرة أخذوا يغطونه فى الماء المرة بعد المرة فما تركوه حتى نزل عند رأيهم وقد بلغ به الجهد مبلغه ، وهم يقولون له : « اللاّت والعزى إلهـك من دون الله » فيقول هو : « نعم » ويقولون له : « هذا الجعل إلهـك » فيقول : « نعم » . وحين انفلت من بين أيديهم استشعر وبال أمره فراح يكفر عن خطيئته بعبرات الأسى والندم ، ويستغفر الله أن زل لسانه ، وفى قلبه حسرات وحسرات . ولقيه رسول الله (ص) وهو فى أحزانه ما يستطيع أن يكفكف بعض عبراته فجعل يمسح عن عينيه وهو يقول : « ما وراءك ؟ » قال عمّـار : « شرٌ يا رسول الله ، والله ما تركتُ حتى نِلتُ منك وذكرت آلهتهم بخير » فقال : « وكيف تجد قلبك ؟ » قال : « مطمئن بالإيمان » قال « فإن عادوا فعد » فانطلق عمار وقد مسحت كلمات النبي (ص) على أحزانه

وانطلق الفوج الأول من المسلمين إلى الحبشة فراراً من أذى قريش وخوفاً من الهوان والفتنة ، وعلى أثره الفوج الثانى وفى أكبادهم حُرَق أن نأوا عن وطنهم وأولادهم وعشيرتهم ، وعمار صابر على أذى الكفار يتحمله فى جلد وصمت على حين لا يستطيع أن يصبر عن مشرق النور والرحمة من وجه النبى (ص) ، وما يزيده العذاب إلا إيماناً بمحمد (ص) ودين محمد

وهاجر عمار — فيمن هاجر — مع النبى (ص) إلى المدينة فهبطها ضُحى ، فما تلبث حتى أخذ يشيد للرسول مسجداً يقيم فيه الصلاة فى غير حذر ولا رقبة ، وفى نفسه اللذة والطرب وهو ينشد : « نحن المسلمون نبتنى المساجدا » ورسول الله يردد : « المساجدا » واندفع القوم يشد بعضهم أزر بعض يحمل كل واحد منهم لبنة لبنة غير عمار فهو يحمل لبنتين لبنتين ، وراع القوم أن يجهد عمار نفسه فتنقل الحديث فى همس : « إن عماراً يريد أن يقتل نفسه فهو يحملها فوق طاقتها ! » وسمع النبى (ص) الحديث فراح ينفض التراب عن رأس عمار وهو يقول : « ويحك ابن سمية ! تقتلك الفئة الباغية ! »

ولصق هو بالنبى ما ينأى عنه فى سلم ولا حرب لأن قلبه وإيمانه لا يطاوعانه على أن يفعل ...

***

ولحق النبى الكريم بالرفيق الأعلى فبكاه عمار — فيمن بكى — سحاً وتسكاباً ، وفى قلبه — من أثر الفراق — جرح ما يندمل إلا أن يلحق بسيده ، ثم هو لم يستشعر الوهن ولا الضعف فى دينه

وارتد مسيلمة وقومه حين انفرجت الثُغرة بموت الرسول فاندفع إليهم عمار — فيمن اندفع — ثائراً هائجاً يهدر يريد أن يؤدب قوماً على عصيانهم ، وحين وجد فى المسلمين هوادة وفتوراً ارتقى هو شرفاً عالياً ثم أخذ ينادى وقد قطعت أذنه : « إلىّ ، إلىّ يا معشر المسلمين ، أنا عمار بن ياسر ، أمن الجنة تفرون ؟ هلموا إلىّ ! » ثم اندفع إلى الصفوف يفرق ما اجتمع منها كأنه فتى فى الثلاثين ، وهو قد شارف السبعين من سنى حياته

***

رحم الله عمر بن الخطاب فلقد كان بصيراً بأقدار الرجال حين أمّر عمار بن ياسر على الكوفة وكتب إلى أهلها : « ... أما بعد ، فانى بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً وعبد الله بن مسعود وزيراً ومعلماً ، وإنهما لمن النجباء من أصحاب محمد من أهل بدر فاسمعوا لهما وأطيعوا واقتدوا بهما ... »

لقد تأمر عمار على الكوفة فما أخذته كبرياء المنصب ، ولا روعة الإمارة ؛ ثم عزله عمر فما استولى عليه اليأس ، وما حمل لأمير المؤمنين فى قلبه حفيظة ولا حقداً ، بل قال : « والله لقد ساءتني الولاية بقدر ما ساءنى العزل » واندفع على سننه لا يجد الخور ولا الفتور إلى نفسه سبيلاً

يا عجباً ! يا عجباً ! يتغلغل الايمان فى القلب فيحجب الانسان عن لذاذات الحياة ومباهجها لينقله إلى لذاذات ومباهج أخر هى لذاذات قلبه ومباهج دينه ؛ ثم ينزع عنه أطماع الدنيا وشهواتها فاذا سواء لديه أن يكون له ملك لا ينبغى لأحد من بعده ، أو يكون فقيراً لا يستطيع السبيل إلى اللقمة يقيم بها صلبه إلا بشق الأنفس

***

ووقعت الفتنة الكبرى بين المسلمين ، فانشقت العصا ، وغدا كل حزب يزعمون أن الحق إلى جانبهم ، فانضم عمار إلى علىّ وأصحابه وهو يقول : « تالله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمت أنَّـا على حق وأنهم على باطل » وراح يدفع عن الحق فما يهن ولا يستكين . وإنه فى يوم صفين لعلى رأس رجال من أصحاب النبى كأنه علم ، إن تيامن تبعوه وإن تياسر تبعوه ، وهو يحرضهم بقوله : « أتفرون من الجنة والجنة تحت البارقة . اليوم ألقى الأحبة : محمداً وحزبه » وفى يده حربة ترعد وهو ينادى : « ألا مَنْ يبارز ؟ ألا مَنْ يبارز ؟ »

« ويحك ابن سمية ! تقتلك الفئة الباغية ! »

وشهد هذا اليوم مشهداً مروعاً من مشاهد الحرب تنفطر له الأكباد ، هو قتل عمار بن ياسر ! لقد رماه أبو العادية المزنى بالرمح على حين غفلة منه فهوى إلى الأرض ... ثم أكب عليه آخر فاحتز رأسه فى غلظة وجفاء ... وانطلقا يختصمان لدى معاوية فى رأس عمار وكل واحد منهما يقول : « أنا قتلته » علّهما يصيبان أجراً . وعند معاوية عمرو بن العاص وابنه عبد الله ورجال من خاصته والمقربين إليه ، فقال عبد الله : « ليطب به أحدكما نفساً لصاحبه ، فانى سمعت رسول الله (ص) يقول : تقتله الفئة الباغية » وقال عمرو بن العاص : « والله إنهما ما يختصمان إلا فى النار ، ووالله لوددت أنى مِتّ قبل هذا بعشرين سنة » فاربدّ وجه معاوية وهو ما يستطيع أن يدفع عن نفسه بعض ما أصابها ، وفى قرارة نفسه أن جيشاً من أقوياء المسلمين وأشدائهم ما يقدر على أن ينال منه بعض مايناله حديث عمرو بن العاص وابنه إن هو شاع بين جنوده

وهناك فى العراء وقف علىّ بن أبى طالب عليه السلام بإزاء جثمان عمار بن ياسر يقول وفى قلبه الأسى والحزن على أن فقد صاحب رسول الله وحبيبه : « إن امرءًا من المسلمين لم يَعْظُم عليه قتل ابن ياسر ، وتدخل به عليه المصيبة الموجعة لَغيرُ رشيدٍ . رحم الله عماراً يوم أسلم ، ورحم الله عماراً يوم قُتل ، ورحم الله عماراً يوم يبعث ؛ لقد رأيت عماراً وما يذكر من أصحاب رسول الله (ص) أربعة إلا كان رابعاً ولا خمسة إلا كان خامساً ، وما كان أحد من قدماء أصحاب رسول الله يشك أن عماراً قد وجبت له الجنة فى غير موطن ولا اثنين ، فهنيئاً لعمار بالجنة ... »

وانطوت صفحة بيضاء ناصعة من صفحات الاسلام وانقض ركن من أركان الايمان الثابت ... فرحم الله عماراً

كامل محمود حبيب

ابن البناء المراكشي

للأستاذ قدري حافظ طوقان

كان ابن البناء من علماء القرن الرابع عشر للميلاد ، نبغ في الرياضيات والفلك وله فيهما مؤلفات قيمة ورسائل نفيسة تجعله في عداد الخالدين المقدمين في تاريخ تقدم العلم

ومن المؤسف ألا يُعطى نتاجه حقه من البحث والتنقيب ، ولولا بعض كتبه التي أظهرها المستشرقون الذين يعنون بالتراث العربي لما استطعنا أن نعرف شيئاً عن مآثره في العلوم . وعلى الرغم من قلة المصادر فقد استطعنا أن نجمع بعض المعلومات عن حياته وآثاره ، ورأينا أن الاخلاص للحقيقة يدعونا إلى إنصافه وعرض سيرته على الباحثين فقد يكون في هذا العرض ما يحفز البعض إلى الاهتمام بتراث ابن البناء وإزالة ما أحاط هذا التراث من غيوم الغموض والاهمال

وُلد ابن البناء في غرناطة في النصف الأخير من القرن الثالث عشر للميلاد ؛ واسمه أبو العباس احمد بن محمد بن عثمان الأزدي وكنى بابن البناء لأن أباه كان « بناء » كما اشتهر بلقب المراكشي لأنه أقام مدة في مراكش ودرّس فيها العلوم الرياضية . وقد نبغ على يديه علماء كثيرون لمعوا في ميادين العلوم وكان أحدهم أستاذاً للمؤرخ الشهير ابن خلدون

كان ابن البناء منتجاً وكان عالماً مثمراً ، فقد أخرج أكثر من سبعين كتاباً ورسالة في العدد والحساب والهندسة والجبر والفلك والتنجيم ضاع معظمها ولم يعثر العلماء الإفرنج والعرب إلا على عدد قليل منها ، نقلوا بعضه إلى لغاتهم . وقد تجلى لهم منها فضل ابن البناء على بعض البحوث والنظريات في الحساب والجبر والفلك

لقد قامت شهرة ابن البناء على كتابه المعروف بـ « كتاب تلخيص أعمال الحساب » الذي يعد من أشهر مؤلفاته وأنفسها ؛ وبقى هذا الكتاب معمولا به في المغرب حتى نهاية القرن السادس عشر للميلاد كما حاز على اهتمام علماء القرن التاسع عشر والقرن العشرين . ويعترف سمث وسارطون بأنه من أحسن الكتب التي ظهرت في الحساب ، وهو يحتوي على بحوث مختلفة تمكن ابن البناء من جعلها (على الرغم من صعوبة بعضها) قريبة التناول والمأخذ . أوضح النظريات المويصة والقواعد المستعصية إيضاحاً لم يسبق إليه فلا تجد فيها التواء ولا تعقيداً

في هذا الكتاب بحوث مستفيضة عن الكسور وقواعد لجمع مربعات الأعداد ومكعباتها ، وقاعدة الخطأين لحل المعادلات ذات الدرجة الأولى والأعمال الحسابية . ولولا أن الأتيان على هذه القاعدة يستدعي استعمال خطوات قد لا يجد فيها الكثيرون طرافة أو متاعاً لأتينا عليها تفصيلا . وفي هذا الكتاب أيضاً طرق لايجاد القيم التقريبية للجذور الصماء ، فلقد أعطى قيماً تقريبية للجذور التربيعية لبعض المقادير ، وكانت هذه القيم موضع دهشة العلماء الرياضيين وإعجابهم

وهناك قيم أخرى تقريبية للجذور التكعيبية لمقادير جبرية أخرى ، وهذه العمليات بالاضافة إلى عمليات القلصادي أبانت طرقاً لبيان الجذور الصماء بكسور متسلسلة

وكتاب التلخيص هذا كان موضع عناية علماء العرب واهتمامهم يدلنا على ذلك كثرة الشروح التي وضعوها له ، فلقد وضع عبد العزيز علي بن داود الهوازي أحد تلاميذ ابن البناء شرحاً . وكذلك لأحمد بن المجدي شرح ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع عشر للميلاد . ولابن زكريا محمد الأشبيلي شرح موجود في مكتبة أكسفورد .

وللقلصادي شرحان أحدهما كبير والآخر صغير ؛ وقد زاد على شرحه الكبير خاتمة تبحث في الأعداد التامة والزائدة والناقصة . وظهر لنا في أثناء مطالعاتنا في مقدمة ابن خلدون أن هناك شرحا لكتاب التلخيص وضعه ابن البناء اسمه كتاب رفع الحجاب ، « وهو مستغلق على المبتدىء بما فيه من البراهين الوثيقة المباني . وهو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظمه ، وهو كتاب جدير بذلك ، وإنما جاءه الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها وإذا قصد شرحها

فإنما هو إعطاء العلل فى تلك الأعمال وفى ذلك من العسر على الفهم مالا يوجد فى أعمال المسائل ... »

وقد رغب العالم (وويكه) أن ينقل محتويات كتاب التلخيص إلى الفرنسية فحال موته دون ذلك . وأخيراً نقله (أريستيد مار) إلى الفرنسية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر للميلاد . ويقضى علينا الواجب العلمى أن نشير إلى أن بعض علماء الغرب أغاروا على الكتاب المذكور وادعوا لأنفسهم دون أن يذكروا المصدر الذى اعتمدوا عليه ونقلوا عنه . وكان الرياضى الفرنسى الشهير (شال) أول من أشار إلى هذا فى رسالة قدمها إلى المجمع العلمى فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر للميلاد

ولابن البناء كتب ورسائل فى الحساب كرسائل « مقالات فى الحساب » التى تبحث فى الأعداد الصحيحة الكسور والجذور والتناسب ، وكتاب تنبيه الألباب ، ورسالة فى الجذور الصماء وجمعها وطرحها ، وكذلك له رسائل خاصة بالتناسب ومسائل الأرث

ولم يقف نتاج ابن البناء عند هذا الحد ، بل وضع كتابين فى الجبر أحدهما يسمى كتاب الأصول والمقدمات فى الجبر والمقابلة ، والثانى كتاب الجبر والمقابلة

وفى الهندسة له رسالة فى المساحات ، أما فى الفلك فله مؤلفات وأزياج عديدة ، منها كتاب اليسارة فى تقويم الكواكب السيارة ، وكتاب تحديد القبلة ، وكتاب القانون لترحيل الشمس والقمر فى المنازل ومعرفة أوقات الليل و النهار ، وكتاب الاسطرلاب واستعماله ، وكتاب منهاج الطالب لتعديل الكواكب . ويقول ابن خلدون إن ابن البناء اعتمد فى هذا الكتاب على ازياج ابن إسحق وأرصاد أخرى لفلكى كان يسكن صقلية . وقد توفق ابن البناء في هذا الكتاب إذ استطاع وضع بحوثه فى قالب حبب إليه الناس فى المغرب ورغبهم فيه وجعلهم يتهافتون عليه ويسيرون بموجبه فى بحوثهم الفلكية وعمل الأزياج

أما فى التنجيم فله مؤلفات كثيرة عُرف منها مدخل النجوم وطبائع الحروف وكتاب أحكام النجوم وكتاب فى التنجيم القضائى وله كتاب اسمه (كتاب المناخ) ويقول الدكتورسارطون إن كلة (almanac) مأخوذة عن هذه الكلمة (المناخ) والله أعلم

« نابلس » قدرى حافظ طوقان

من التاريخ الإسلامي

هجرة معلم

للأستاذ علي الطنطاوي



يرى كلّ من يعبر البادية من شرقها إلى غربها (إذا هو قارب الساحل) سلسلة طويلة من الجبال تلوح له، من مسيرة أيام، زرقاء كأنها معلقة فوق الأفق، أو غارقة في السماء. ولكنّ هذه الجبال تضح كلما دنا منها وتستبين، حتى إذا بلغها ألفاها بناء عظيماً من الصخر الأصمّ، إذا حاول أن يتقصى بنظره أعاليه سقط عقاله عن رأسه ولم ير شيئاً، لأن أعاليه غائبة وسط السحاب المتراكم، فيقرّ في وهمه أنما هو جدار قائم يمسك السماء أن تقع على الأرض، ويقف حياله خاشعاً خاضعاً شاعراً بالذلّة والهوان ...

هذه هي السلسلة الهائلة التي تخرج من الجنوب (من البحر) ثم تضطجع على الرمال بصخورها وجلاميدها، وأوديتها التي لا قرار لها، وذراها التي ليس لها عدد، وسفوحها التي يضل فيها الهدى، وثناياها التي تموت فيها الحياة، وصمتها المهول، وجلالها الخالد ... تضطجع متمددة بهذا الجسم الأزلي الجبار، حتى تصاقب الشام وتبلغ مشارفه، فتهبط سفوحها مترفقة مهلة متتالية حتى تفنى في تلك السهول الخضراء ...

***

إذا قدر لك أن تتوغل في هذه الأودية العميقة الموحشة، ثم تتسلق هذه الجبال ترتقي من ذروة إلى ذروة حتى تبلغ تلك القنن الشامخة التي لا يعلوها شيء، رأيت فيها طوداً باذخاً قد شهق واستطال في السماء واستعرض حتى ضاعت جوانبه في هذه الجبال التي تتشعب من حوله صاعدة منحدرة في تسلسل واتساق كأنها الأمواج العظيمة في البحر الهائج الغضوب لولا أن ماءها الرمل والحصى وجلمد الصخر، وأن عمر الموج ساعة وأنها من لدات الدهر ... كما ضاعت أعاليه في الغمام المسخر بين السماء والأرض ...

على ضهر[1] هذا الطود فوق قامة من تلك القلمات الراسيات كانت ترقد القرية ببيوتها ودروبها وبساتينها متوارية مختبئة ضالة في فلوات السماء، تشرف على الأرض من فوق السحاب فلا ترى منها إلا خيال هذه الصحارى الواسعة، يبدو من بعيد موشى بالرمال الخالدة المتسعرة الملتهبة، والسراب الذي يظلّ أبداً لامعاً خادعاً كأنه الحياة الدنيا ...

هذه الصخور وهذه الأودية وهذه الصحراء ... هي عند أهل هذه القرية الوجود كله!

***

في طرف من أطراف هذه القرية كان يجثم بيت صغير منفرد قائم على شفير الوادي ... إذا أنت دخلته لم تجد فيه إلا طائفة من الأولاد يجلسون على حصير قد مات وفني وتقطعت أوصاله من قبل أن يولدوا ... وشاباً على حشية قد طعنها الزمان فنثر أحشاءها. والشاب غضّ الاهاب، لدن العود، حديث السنّ، ولكن نظرة واحدة إلى عينيه تريك أنه قوي الارادة، ماضي العزيمة، وأن له وقار شيخ في السبعين من عمره ...

وبيد الشاب عصا طويلة يشير بها ويهزها فوق رءوس الصبية، وينال بها من أبشارهم، على حين يجيل فيهم نظرات مشتعلة يتطاير منها الشرر الأحمر، تلذع أفئدتهم كلذع العصا أجسامهم ...

تلك هي مدرسة القرية، وهؤلاء هم تلاميذها؛ أما الأساتيذ فعقيل صاحب المدرسة، وزميله الشاب: كليب!

***

وكانت أمسيّة طلقة أراق عليها الربيع بهاءه ورواءه، فصرف كليب التلاميذ، ووقف على باب المدرسة — على عادته

(١) الضهر (بالضاد) أعلى الجبل كما في اللسان والتاج، ولعل منها (ضهور الشوير) من سواحل الشام

فى كل مساء — ينظر إليهم وهم يقفزون من عتبتها ، مفاريح بالنجاة من المعلم وعصاه الطويلة ، وسحنته المتكفئة المقلوبة أبداً ، مماريح يضحكون للحرية والجمال والانطلاق ، يعدون إلى القرية عـدواً … حتى إذا غيبتهم هذه الجدران فى أطوائها ، ولم يبق منهم فى الرحبة أحد ، وسكنت الحركة فيها وسكتت الضوضاء التى انبعثت من أفواههم الصغيرة ، وحناجرهم الدقيقة الرنانة … زفر كليب (المعلم الشاب) زفرة أليمة اقتلعها من أعماق صدره ، وألقى عصاه وولى وجهه شطر الصحارى البعيدة ، يفتش فيها عن الطريق إلى أمنيته التى طالما جاشت فى نفسه ، وعاودته وكرّت عليه ، حتى أمست له فكرة لازمة[1] وبات لا يعرف غيرها ، ولا يفكر إلا فيها ، ولا يعيش إلا لتحقيقها ، وطالما حلم فى نومه وفى يقظته أنه قد بلغ أمنيته ، فتنعم بهـا ومرح فى جنانها ، ولـكن الحلم يتصرم وتعود الحقيقة الواقعة بوجهها الكالح القبيح ، فيرى أنه لم يصل إلى شىء

ولّى وجهه شطر الصحارى ، ولـكنه لم ينظر إليها ، وإنما جاز به خياله فيافيها المهلـكة ، وقفارها الواسعة ، إلى تلك البلاد التى يسمع عنها ويتسقط أحاديثها ، ويحمـل لها فى نفسه أجمل صورة تنفرج عنها مخيلة شاعر ملهم ، أو مصوّر فنان[2] ، إلى البلاد التى يعرش فيها الياسمين ، وينمو الآس ، ويزهر التفاح والسفرجل ، وتسيل الينابيع متحدرة من أعالى الجبال الشجراء … فوقف يحلم بالوصول إليها ، ويتأمل صورتها التى صنعها خياله ، وأقامها أمام عينيه ، خاشعاً خشوع العـابد فى محرابه ، مشوقاً شوق المحبّ المتيم إلى صاحبته ، مستغرقاً استغراق الصوفى فى مراقبته ، والحالم فى أحلامه ، لا يحس مما حوله شيئا !

وظل واقفاً شاخصاً إلى الأفق ، غارقاً فى تأملاته ، حتى لاح على الأفق من ناحيـة المشرق سواد خفيف ، لم يلبث أن اشتد حتى شمل الصحارى النائيـة ، ثم امتد حتى عمّ القفر كله ، ثم تسلّق السفوح حتى غمر القمم الواطية ، ثم وصل إلى الذرى العالية فلفها هى والقرية فى ثوبه القاتم ، وأحال الـكون كله كتلة من الظلام … عند ذلك انتبه كليب ، وأفاق من ذهلته ، فذهب إلى منزله خائباً يجرّ رجله جرّا وبات أرقا مسهداً ينتظر انبلاج الفجر ، ليحمل عصاه ويعود إلى صبيانه …

* * *

لم يكن كليب جاهلا ولا محمقاً ، وإنما كان أديباً أريباً فطناً ذكياً من أبلغ الناس لسانا ، وأجرئهم جناناً ، وكان من أحفظهم لـكتاب الله ، وأبصرهم بالشعر ، وكان فتى بادى الفتوة ، قوياً ظاهراً القوة ، لا يعرف اللهو ، ولا يميل إلى اللعب ، ولـكنه يعرف الجد فى أموره كلها ويحب النظام ، ويميل إلى الصدق ، ويأخذ تلاميذه وأصحابه بشىء من القسوة أحياناً ، واللين حيناً ، وكان يجنح إلى الحزم ولو اضطره الحزم إلى كثير من الشدة والصرامة ، ولم يكن يؤخذ عليه إلا هذه الأمنية التى كانت تخرج به فى كثير من أيامه عن الوقار والحزم ، وتدنو به أحياناً من اليأس والضعف وتعرضه على عيون الناس خفيفاً طياشاً ، وهو الرزين الوقور ، وتلقى الخلاف بينه وبين شريكه وزميله عقيل الذى كان أعرق منه فى الصناعة ، وأعلى فى السن وأكثر اختباراً للحياة ، وإن كان دونه فى مضاء عزيمته ، وقوة شخصيته ، حتى لقد اضطر عقيل إلى لومه مراراً . وحاول مرة أن يسخر من هذه الحماقة التى ملأت رأسه ، وأن يصرفه عنها ، وأن ينتزع من نفسه الرغبة الأمارة والسلطان … فكان يستمع إليه ساكتاً جامداً كالصحراء … فتجف الـكلمات على شفتى عقيل ، ولا يجد ما يقوله فيصمت هو أيضاً ويعاودان العمل

وكثيراً ما كانت تطغى على كليب أحلامه فتغلب عليه وتستأثر به فينسى حاضره الواقع ، ويعيش فى مستقبله المأمول ، فيحس كأنه فى دست الملك لا على حشيّة المعلم ، وأن أمامه الحاشيـة والأعوان ، لا الأولاد والصبيان . فيرفع صوته آمراً ناهياً ، ويستغرق فى أمره ونهيه ، ويعجب التلاميذ وتتحرك فى نفوسهم طبائعهم العابثة فتستبق القهقهات إلى شفاههم ثم تجمد عليها يردها خوفهم من هذا المعلم العابس وخشيتهم إياه ؛ ثم تغلبهم طبائعهم فينفجرون ضاحكين صائحين … فيتنبه المعلم الشاب ، ويزعق فيهم فيكفون ويسكتون ، ويتكرر ذلك ويقصّه الأولاد على آبائهم وأهليهم فيكذبونه بادى الرأى ، ثم يصدقونه ثم يشيعونه فى البلد ، فيصبح ملء الأفواه والأسماع أن كليباً المعلم الشاب قد

---

(١) idée fixe

(٢) مافى استعمال هذه الـكلمة بأس ولو كره المتحذلقون

أصابه طائف من الجن ، فيأسفون ويحزنون لما عرفوا فيه من البلاغة وما آنسوا فيه من الرجولة والحزم ، ولكنهم لا يعجبون وهل يعجب الناس من معلم يجن ؟ إنما يعجب الناس من المعلم إذا بقى عاقلا وهو يباشر أبداً هؤلاء التلاميذ ...

***

وفي ذات صباح غدا التلاميذ على مدرستهم فلم يجدوا معلمهم الشاب ، وكان من دأبه أن يسبقهم . فانتظروه فلم يحضر ، فذهبوا يطلبونه فى بيته . فعلموا أنه باع بيته ليلاًوقبض ثمنه ، ففتشوا عنه في كل مكان يظنون أنه يأوى إليه . فتشوا فى كل زقاق من أزقة القرية ، وفى كل ذروة من هذه الذرى القريبة منها ، وكل صخرة من هذه الصخور القائمة من حولها . فلم يجدوا له أثراً !

ولما راح الرعاة فى المساء سألوهم عنه ، فقالوا : لقد رأيناه منذ الصباح ينحدر وحده ، يقفز من حجر إلى حجر ، فحييناه فلم يرد علينا تحيتنا لأنه كان ذاهلاً ، قد تعلق بصره بالأفق النائى ... ونظن أنه سار يومه كله ، ولن تدركوه أبداً لأنكم لا تدرون أى سبيل سلك !

فاسترجع أهل القرية واستعبروا أسفاً على أن جُن هذا المعلم الشاب ، وأيقنوا أنه سيموت فى هذه البادية وحيداً فريداً شريداً ...

***

سار كايب يومين كاملين على غير ما طريق مسلوك أو جادّة واضحة ، يبتغى المنازل والمنحدرات ، تسلمه كل ذروة إلى التى تحتها ، وكل سفح إلى الذى يليه ، لا يحس تعباً ولا يخشى أذى لأن آماله قد ملأته شجاعة وصبراً ؛ ثم إنه كان فى أول الطريق فهو لا يزال نشيطاً قويًا ، ولا يزال زاده كاملاً ؛ ثم إن الحر لم يكن قد غمر هـذه الجبال وهى بعد فى أواسط الربيع . فلما بلغ الصحراء — والصحراء لا تعرف ، إذا تسعرت شمسها وحميت رمالها ، ربيعاً ولا خريفاً — ولما أوغل فيها واحتواه جوفها ، ونفد ما حمل من الزاد ، والتهبت شمس الضحا التهاباً ، وغلى الهواء غلياناً ... جففت هذه الشمس أحلامه الندية ، وأحالتها بخاراً ، وطيرت أمانيه من رأسه ووضعت عقله فى جلده ومعدته ، فواجه الحقيقة الواقعة ؛ فإذا الصحراء الرحيبة الرهيبة تضيق به ، وإذا هو يرى حيثما تلفت شبح الموت المروّع بعظامه البادية وفكيه الرعبين وجمجمته الفارغة ، يتراءى له على الأفق البعيد ، يرقب أن يعانقه قبل أن يصل إليه ، ويتمثل ذلك فى خاطره فيشعر ببرودة هذه العظام البادية تسرى فى جسمه ، ويتصورها ملتفة حول عنقه فيحس بالقشعريرة تمشى في أعضائه ، فيغض بصره عن الأفق فيتراءى له الشبح فى هذه الرمال ، ويخيل لنفسه أنها ليست إلا قبراً مفتوحاً ، فيكاد الخوف من الموت يهوى به ويقصف ركبتيه ، فيرفع نظره عن الأرض فيتراءى له الشبح فى هـذه الشمس التى تسكب عليه وعلى البادية وهج جهنم ، فيغمض عينيه فيتراءى له الشبح فى الجوع الذى يلهب أمعاءه والعطش الذى يحرق جوفه والضلال يملأ يومه وغده ... ثم يزول النهار ويشتد أوار الشمس ، ويبلغ لسان لهيبها قرارة دماغه ، فينسى الجوع والعطش ولا يبتغى إلا شبراً من ظل ... فيعدو كالمجنون ها هنا وها هناك ؛ والصحراء مبسوطة كالكف ليس فيها غار يأوى إليه ، ولا صخرة يستظل بها ، ولا بشر يلجأ إليهم ، ولا شجرة يستذرى بها ؛ فينبش فى الرمل بيـديه وأظافره ليجد فى بطن الأرض رطوبة يدس فيها أنفه ليريح رائحة الحياة ، ويوالى النبش بجنون ثم يطمر رأسه فى الرمل فلا يزيد على أن يدفن نفسه حيًّا فى رماد حار ... فيجفو الرمل وينطلق يعدو حتى ينقطع ويملوه البهر ويحس بأنه سيختنق ، فيقبل من ضيقه يلطم وجهه بكفيه ، وينتف شعره بيديه ... ويلعن المجد والسلطان ويلعن هذه الصحراء ويلعن نفسه حين استجاب لهذه الحماقة بخاض الصحراء وألقى بنفسه فى جوفها الملتهب ... يندم أشد الندامة ، ويتمنى لو وجد إلى العودة سبيلاً ، وهيهات أن يجد إلى العودة من سبيل ، لأن بينه وبين القرية هذه السفوح التى لا آخر لها ، وهذه الصحراء وهذه الأودية ، فإذا قطعها واستطاع أن يعرف طريقه بين آلاف التلال المتشابهة وآلاف الصخور المتشاكلة لم يعرف طريق النجاة من سخرية قومه وهزء صبيانه ، وهو ما لا يطيقه أبداً ولا يصبر عليه ، ويرى الموت أخف منه حملاً وأحلى مذاقاً ... وراح يذكر تلاميذه الصغار وطاعتهم إياه وحبهم له ، ويذكر بغضاءهم وعصيانهم ، ويذكر براءتهم وسذاجتهم ، ويذكر خبثهم وشيطنتهم ، ويذكر لينهم ويذكر قسوتهم ؛ فإذا هو يشعر بالحب لهم ، ويغمره هذا الحب ويكون لقلبه برداً وسلاماً ، ولمعدته ريًّا وشبعاً ، ولروحه حياة ، وينظر بعين الحب إلى قريته ، ويعرضها كلها بطرقها وبيوتها وبساتينها ، وهذه المعابر التى سلكها مرات لا يحصيها عد ، ويرى

داره ويبصر كل حجر فيها وكل زاوية منها ... ثم ينظر إلى هذه الصحراء المترامية من حوله فإذا بها قد ابتلعت هذا الحب وجففته ، وحياة الحب حياة قصيرة المدى ... وإذا به يحس بالألم ويشم من حوله رائحة الموت ويرى نفسه نبتة اجتثت من الأرض وقطعت جذورها ، ثم ألقيت على هذه الرمال التى يشوى عليها اللحم [(١)] لتجف وتعود حطبة يابسة ، بعد إذ هى غصن مورق فينان ، ويخيل إليه أنه فقد حياته كلها حين فقد بلده وأهله وسعادته ، فيلقى نظره على هذه الجبال التى خلفها بعد يومين فإذا هى بعيدة ، بعيدة جداً تبدو له من خلال السراب اللامع كأنها صورة الأمل المنير لا تكاد تظهر ... فيسترجع نظرته اليائسة مغسولة بدموع الندم ، ويوغل فى جحيم الصحراء تائهاً يائساً يمشى إلى ... الموت !

***

حتى إذا أطفلت الشمس ، ثم ضعفت وشحب لونها ، ثم أسلمت الروح ، فلبس السكون كله ثوب الحداد ، ثم برد الرمل واستحال إلى فراش لين جميل ، ولاحت فى السماء النجوم واضحة قوية ... شعر المعلم الشاب بالراحة ، فاستلقى على قفاه يتنفس الصعداء من هول هذا اليوم ... ويتأمل النجوم ... ويبصر امتداد الأرض والسماء من حوله ، فيعجب من جمال الصحراء وبهائها ، وينتشى بنسيمها الرخي الناعش ، وسكونها الشامل ، وجلالها المهيب ، ولا يستطيع أن يتصور كيف كان هذا العالم الجميل الفتان ، يموج قبل ساعات بأشباح الموت ، وتهاويل العذاب !

ورجع الليل إلى الفتى المعلم حماسته ونشاطه ، وأترع نفسه قوة وحياة ، فرأى أمله الذى بخرته شمس الضحا قد عاد رطباً ندياً ، فجلس وحيداً بين هذه المخلوقات العظيمة : النجوم والسماء ، والليل والصحراء ، يناجى أمانيه ، ويرسم طريقه إليها ... وكان الليل ساكناً هذا السكون العميق ، الذى لا تعرفه المدن ، ولا تدريه القرى ، ولا يقدر عليه البحر ، وإنما تعرفه الصحراء العظيمة بصمتها وضجيجها ، وقسوتها ولينها ، فراقه هذا السكون ، وملك عليه لبه ، فأصغى إليه إصغاء شديداً ، فكان يسمع فيه نشيداً سرمدياً متصلاً ، له من الروعة في القلب ، والأثر في النفس ، ما لا يكون لهذه الموسيقى المتكلفة الهزيلة ، الصاخبة الضاوية ، التى تخرج من أفواه ضيقة ، أو آلات حقيرة جامدة ، وإن هى عظمت فإنما مخرجها أغصان الدوح الذى يرتل ترتيلة العاصفة ، أو السحاب التى يغنى أغنية الرعد ، أو البركان الذى يزأر زئير الموت ... أما الصمت فهو نشيد الصحراء الخالد ، وأغنية الوجود كله !

غير أن هذا الصمت ينقطع فجاءة ، ويحمل نسيم الليل الهادىء إلى أذن المعلم الشاب صدى أصوات بعيدة وعميقة ، كأنها خارجة من أجواف الغيران ، أو من بطون القبور ... فلم يدر أهى من صنع الواقع ، أم هي من تزوير الخيال ... ولم يحفلها ، لولا أن النسيم حملها إليه كرة أخرى ، وهى أقوى وأشد وضوحاً ، ثم تبين فيها حداء حلواً ، فتخيل القافلة ، وهى تضرب فى الرمل الناعم البارد ، والإبل وقد راقها هذا الحداء ، فمدت أعناقها وأوسعت خطوها ، وهي طربة سكرى بخمرة الألحان ، ولمس الفرج يأتيه من حيث تأتى القافلة ، وأرهف أذنيه يتسمع هذا الصوت الذى يدنو أبداً يحمل إليه الأمل والسعادة ، فاذا بالصوت يتخافت ثم يضمحل ، وهو أشد ما يكون طرباً به وسروراً ، ويسيطر على البادية هذا الصمت العميق ، فيألم المعلم الشاب ويحس بالخيبة تحز فى قلبه ، ويضيق بهذا الصمت الذى كان ينعم به منذ لحظات. تنعقد السحب فتحجب عن عينيه هذه النجوم المتلألئة ، أو يخيل إليه أنها حجبت عنه ، فيدور ببصره فلا يرى إلا مخلوقاً واحداً هائلاً يحف به من كل مكان ، فيحس بالرعب ، وتثقل عليه هذه الوحدة الموحشة تحت ظلمات ثلاث : ظلمة الليل ، وظلمة الصمت وظلمة الخيبة ... ويهم بالتصريخ ، ولكنه يقر ويسكن حين يرى هذه النجوم قد ظهرت دانية قريبة ، كأنما هى قد استقرت على الأرض ، على قيد ذراعين منه ، تتراقص على ظهر اللجة السوداء ، تحاول أن تخترق حجب الظلام بأشعتها الكابية الكليلة ، ولا ينفك يحدق فيها ، حتى تختلط أفكاره فى رأسه ، ويحس بأنه قد هوى في واد مظلم سحيق... ثم لا يحس بعد ذلك شيئا ، لأن النوم قد غلب عليه وهو فى مكانه !

ويشعر المعلم الشاب بيد قوية تهزه هزاً فتقف كل شعرة فى جسمه ، ويفيق مذعوراً يظن أن الجن تداعبه وتوقظه ، فيضغط جفنيه ضغطاً شديداً ، ويستر وجهه بكفيه ، ولكن هذه اليد تقبض على كفيه فتنترهما نترا ، وتخالط أذنه أصوات عجيبة ولغط وضوضاء ، فلا يشك فى أنها أصوات الجن ، ويفتح عينيه مضطراً فإذا هو مسحور ، قد بلغ منه السحر أن حجب عن عينيه هذه

(١) لا على المجاز ، بل الحقيقة التى رأيناها فى بوادى الحجاز رأى العين

الظلمة الثقيلة التى كان يغيب فى أثنائها ، وطمس أضواء القافلة الكليلة التي كانت تتراقص أمام عينيه ، وبدّل كل شئ فى لحظة واحدة ... فاذا الدنيا ممتلئة إشراقاً وضياء ، وإذا هو قد انتقل من الصحراء القاحلة الجرداء ، إلى دنيا تمور بالأحياء ، وتموج بالناس ، فيبالغ فى فتح عينيه ، وقد كاد يجن لفرط الدهشة ... ولا يشك أن هؤلاء الذين يرى طائفة من الجن ... ثم يعود إليه وعيه ، ويصحو من نومه ، فيتلو قول الله تعالى (يرا كم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) ، فيعلم أن ليس هؤلاء جناً ، لأن الجن لا يمكن أن يراهم بشر ، ولكنه لا يزال على شكه ؛ أين هو ؟ وما هذا الذى يرى ؟ فيقول لمن كان يوقظه :

— أسألك بالذى تحلف به ، إلا ما أخبرتني أين أنا ؟

— أين أنت ؟ أنت فى هذه البادية !

— فى هذه البادية ؟ ! وما هذا الا...

— ويحك يا رجل لقد حبست القافلة

— اسقونى شربة ماء

فيمضى الرجل ليأتيه بالماء ، ويحدث كليب نفسه :

— إذن ، فأنا قد نمت إلى الصباح

— خذ اشرب ...

— الحمد لله ! أشكركم

— لقد حبست القافلة

— وماذا تريدون منى ؟

— نريد أن نعرف من أنت ... إنا لنظنك عيناً للعدوّ ، فمن أين أتيت ؟

— أتيت من أعالي هذه الجبال أريد الشام فضللت ونفد زادى ، وصهرت دماغى شمس الأمس ، فعدت أركض على غير هدى حتى انتهيت إلى هذا المكان ... ولست عدوًّا لأحد

— وما اسمك ؟

— إسمى كليب ، من آل أبي عقيل ... وأريد الشام ، فهل تمنون علىّ فتحملونى معكم ؟ هذه هى دراهمى !

ويفرغ كيسه على الرمل ، فتتكوّم الدراهم والدنانير ، تنعكس عليها أشعة الشمس فيخطف بريقها البصر !

— وفـر عليك دراهمك ، إنا لا نرزؤك شيئاً ، أنت فى حمى هذا السيد ، فاركب جملك راشداً

ويطغى الفرح على نفس المعلم الشاب ، حين يقدمون إليه هذا الجمل القوى البازل ، وينسيه أن يسأل عن هذا السيد الذى أصبح فى حماه ، وأن يشكره . ويعلو متن الجمل ببراعة الأعرابى وخفة الشاب ... ويسير به الجمل ، وهو يقلّب بصره فى هذه القافلة العظيمة ، فلا يستطيع أن يدرك به آخرها ، أو يحيط بها ، ويأخذه العجب حين يرى من حوله مدينة كاملة برجالها ونسائها وبيوتها وحاجاتها وجندها وحماتها ، تتنقل تحت عين الشمس ... ثم يشرع الحادى بأغنيته فيصغي إليها كليب حناً مأخوذاً ...

* * *

طوت القافلة الفلوات ، تتجنب الطرق المسلوكة ، وتنأى عن القرى القليلة ، القائمة فى الصحراء بين دمشق ويثرب ، لئلا تجد فيها ما تخشاه فى هذه الأيام المضطربة الحافلة بالثورات والحروب ... وكان أصحابها دائبين ينزلون النهار إلا أقله ، ويمشون أكثر الليل وجانباً من النهار ، يتجنبون حرّ البادية ، ووهج الشمس ، حتى رأوا (بصرى) تلوح لهم فى اليوم السادس عشر ، يبسم طيفها خلال أشعة الطفل ، فوثبت إليها قلوبهم ، وطارت أمانيهم ، وجدت القافلة المسير ، دأب المسافر إذا دنا من بلد ، أو شارف غاية . وكان المعلم الشاب أشدّهم طرباً وفرحاً ، فطفق يحدق فى هذا الطيف ، ويتأمل هذه الرمال ، يستمتع بأحلامه البهيجة الحبيبة ، فيرى الرمال إذ تمتد فى اتزان عجيب ، من قلب الجزيرة إلى أسوار (بصرى) يحملها هذا التيار المنبثق من قلب بلاد العرب ، فيصبها فى أرض الشام فتغمرها بروح الجزيرة ، وتعلمها معاني الرمل ، ومن معاني الرمل أن تكون الأمة مجتمعة كالرمل ، كثيرة كالرمل ، خالدة كالرمل ، صابرة كالرمل ...

ويغيم طيف المدينة ويظلم ثم يختفى فى ثنايا الليل ، ولكن المعلم الشاب لا يزال ممعناً فى التحديق ، قد نسى القافلة ، وغفل عن الزمان ، فلم يبصر اختفاء المدينة ، وإنما كان يبصر أحلام الجزيرة ، التى استهوته حتى استسلم إليها ، ووضع فى يدها قياده فساقته إلى عالم ناء لا يدرك العقل قرارته ، ولا يبلغ غوره ، عالم يفيض بالفتون والجمال والسحر ، فظل يستمتع بفتونه وجماله أمداً طويلاً ... ثم قادته الذكرى إلى ماضى الجزيرة ، فإذا هو يراها ممحلة جدبة ، قد تعرّت من الخضرة ، كما تعرت من الحضارة ، وغاضت فيها ينابيع الماء ، كما غاضت ينابيع العلم ... ثم يرى رجلين

يسيران من (أم القرى) إلى تلك (المدينة) الناعمة بين الحرّتين فينبت الزهر تحت أقدامهما، وتخضر الرمال التي يطؤونها، وتكتسى البادية من حولها أثواب الحياة . ويرى هذا الرجل يستقر في تلك (المدينة) فيبعث من بين حرتيها صيحته القوية، فيوقظ النيام، ويحيى الجماد، ويبعث في النفوس الفضائل والإمجاد، فإذا الجزيرة برملها وصخرها، وشمسها المحرقة، وجبالها الصلداء، تسير وراء محمد (أعظم إنسان، وأفضل نبي) لتحمل الحياة إلى سهول الشام والعراق ... يا عجباً! يا عجبا ... الصحراء القاحلة، تمنح الحياة السهول والبساتين؟!

رأى الجزيرة تمشى وراء محمد (صلى الله عليه وسلم) لتكون موقدة المعركة الحمراء التي أكلت الظلم والرذيلة والطغيان ... ثم تمشى مرة ثانية لتكون رمالها بذور الأزاهير والأشجار في السهول الخضراء ... ثم تمشى مرة ثالثة لتكون قرائحها وأدمغتها مادة هذه الصحف المجيدة البيضاء، ثم ... ثم ... ثم بالغ رفيقه في هزه، فانتبه كليب

— أفي كل يوم إغفاءة، أو إغماءة؟ مالك أيها الرجل؟

— ...

— انزل، هذه أسوار بصرى!

***

نزلت القافلة تحت أسوار (بصرى) في موهن من الليل، فلم تبصر في بصرى إلا قطعة من الظلام الراكد، ولم تجد أثراً لذلك الطيف البرّاق الزاهي، الذي كان يتراءى لهـا راقصاً على أشعة الطفل ... فهجعت مكانها تنظر الصباح

نامت القافلة يحرسها الحراس، ونام كليب نوماً عميقاً لا يطفو على وجهه حلم، حتى أحس بأنفاس الفجر الباردة على خديه ففتح عينيه، فرأى طلائع الفجر تضطرب تلقاء الشرق في خطوط ضعيفة، كأنها أضواء المصابيح الكليلة، فراقته وتعلق بها بصره وما شيء يعتلك لب الرائي، ويأخذ عليه مشاعره مثل انبلاج الفجر في الصحراء، حين يكون سفير النور، ومهبط الآمال على هذه النفوس التي ملّت ظلام الليل، وما يعيش في الظلام من مصائب وأوهام ... ولم يستطع كليب أن يحمل وحده كل هـذا الجمال، وأحب أن يجـد صديقاً يشاركه حمل الشعور، فكان يأتي على رفيقه النائم، من غير أن يحوّل وجهه عن المشرق:

— ما أجمل هذا!

وكان صوته هامساً خافتاً، كأنه كان يناجي نفسه، فإذا لم يجبه أحد، وطغى عليه شعوره، عاد يقول:

— ما أجمل هذا! ألا ترى؟

وكان الفجر قد انبلج، واستوى عموده، وامتدت خيوطه فإذا هي تملأ الفلاة كلها، وتحسر عن هـذه المشاهد التي كانت مخبوءة وراء حجاب الليل، فإذا هي بارعة فتانة، ولم يكن صاحبنا المعلم قد رآها من قبل، فشده حين ظهرت له بغتة، كأنها لوحة فنية أزيح عنها غطاؤها، أو كنز فتح له بابه، أو متحف فيه كل جميل آخاذ أضيئت له جوانبه، فلم يدر أين كان هذا كله مخبوءاً، وحارت نفسه بين خضرة البساتين التي تحف بالبلد، أينعم النظر إليها ويذوق حلاوتها بعد هـذه الأيام الطويلة التي ذاق فيها مرارة البادية، ويصغي إلى تهامس أوراقها المتلاصقة، ونجوى أفنانها المتعانقة، أم يتأمل هذه البنى العظيمة التي أودعها الفنانون من البيزنطيين أبدع ثمرة من جنى قرائحهم الخصبة، ونزلوا لها عن أجمل نتاج لعبقريتهم ونبوغهم، لتكون عروس البادية، تخطر بعظمتها وجمالها، وتتهادى بزخرفها وزينتها على الرمال الخالدة..

وكان الفجر قد امتد إلى نفس المعلم الشاب، فأضاء له عوالمها كما أضاء هـذا العالم، وحسر له عن آماله التي كانت مختفية في ظلام الأسفار، كما كانت هذه المشاهد غائبة في سواد الليل، فعاد إليها، وتمثلها قوية ظاهرة، وأحس كأن فجر حياته الماجدة قد انبثق، فختم صفحة هـذا الليل الأسود الذي قضاه معلماً في أعالي الجبال، ليفتح صفحة النهار الوضاء الذي يقضيه في المـدن الـكبيرة أميراً عظيما، وتلهى بأحلامه عن هاتين اللوحتين اللتين حار بينهما أولاً : اللوحة التي وشاها الربيع، واللوحة التي زينها الفن، وانطلق يفكر في دمشق، ماذا تكون إذا كان هذا كله لقرية من قراها؟

***

بقيت القافلة في (بصرى) ريثما باعت واشترت، وقضى تجارها وطراً من الربح والـكسب، ثم توجهت تلقاء دمشق، وكان المعلم الشاب يكلف ذهنه ضروباً من الـكدّ ليمثل له صورة لدمشق تشبه ما كان يسمع عنها من الأخبار التي كانت تشيع في الأرض حتى تبلغ تلك الذرى العالية التي لا تهجع عليها قريته

فتنشر فيها مكبرة منفوخة مكسوّة بأنواع المبالغات ، تصوّر له دمشق جنة كالتى وعد المتقون ، لها من العظمة والجلال ماتتضاءل أمامه عظمة (المدائن) التى كان يتحدث بها العجاز من قومه عن العجاز ، وتخيّل له من جلال الخليفة وضخامة سلطانه ما يصغر معه ملك كسرى ويهون ... ولم لا ؟ وملك كسرى كله عمالة من عمالات الخليفة ، وولاية من ولاياته !

كان المعلم الشاب يكدّ ذهنه ليتصور دمشق ، ويتبين طريقه إلى النجاح فيها ، وكان يحسب لطول ما عزم على السفر وتردد فيه ، ولعظم ما لاقى من الأهوال والمشاق ، أنه ليس بينه وبين المجد والولاية إلا أن يهبط دمشق ، فإذا هو والٍ أو أمير ...

وكانت القافلة قد علت نشزاً من الأرض فانكشفت أمامها دمشق العظيمة أقدم بلدان الأرض وأجلها ، وهى فى مثل حلّة العروس يضحك فى أعطافها الجمال تميس بثوب العرس الأبيض الشفاف الذي نسجته أكفّ الربيع من زهر المشمش الهفهاف تموج فى خديهـا دماء الشباب ظاهرة فى زهر الدرّاق الأحمر الفاتن ، وعبق أزهارها يعطر الجوّ كله ، الأرض والسماء والجبال والصحارى المجاورة ... فأخذ كليب بها أخذاً ورقص لها قلبه ، وفتن بها فتوناً . ومَنْذ الذى يرى غوطة دمشق — وهى فى ثوب الربيع — ثم لا يرقص لها قلبه ولا يفتن بها فتوناً ؟ ومنذا الذى يقطع عرض الفلاة حيث يعتدّ ظل الصخرة القائمة جنة حادرة ، ويرى الحشيشة الخضراء روضة ناضرة ، ويرى البئر الآسنة مورداً صافياً ... ثم يطل على الغوطة جنة الأرض حقاً [1] وروضة الدنيا بأشجارها المزهرة ، وطيبها وعطرها ، وفتونها وسحرها ، ثم لا يجنّ بهـا جنوناً ؟ وهل عدّ العرب الغوطة إحدى الروائع الأربع (chef d'æuvre) فى متحف الطبيعة إلا بعد نظر وفكر ؟ كان كليب سابحاً فى أحلامه ، وهو أشد ما يكون بها استمتاعاً حينما ارتفع هـذا الغبار من ناحية الشرق عالياً عريضاً . راع القافلة فوقفت تنظر إليه مذعورة ، فجفا أحلامه ووقف مع القافلة ينظر ، فاذا الغبار يعلو ثم تضربه الرياح فيتفرق ، ثم يعود فيجتمع ... ويفزع رجال القافلة الكبيرة ، ويظنون الظنون ، ويصغى كليب إلى حديثهم فيفهم منه أنهم لا يدرون ماذا يراد بهم . ولا يعلمون ما هـذا الغبار ، ويوغلون فى الحديث ويتشقق بينهم ، فيكشف لكليب عن أشياء كثيرة لم يكن يعرفها وهو فى قريته العالية ... يعلم كليب أن الدولة فى أزمة من هذه الأزمات الخطرة التى تعرفها الدول حين تعصف بهـا عواصف الانقسام والحرب الداخلية ، وأن عبد الملك قلق مسهّد لا ينام الليل إلا لماماً ، فاذا هجع رأى شبح ابن الزبير ينقض عليه فقام مرتاعاً يخشى أن ينتزع منه الشام ومصر كما انتزع الجزيرة كلها والعراق وخراسان ، وصار الحاكم المطاع فى شرق البلاد وجنوبها وطالت مدته وامتد كلمته ...

ثم تنقطع أحاديث القوم ، وينظرون إلى الغبار الدانى وسيوفهم فى أيديهم ، ومقاتلتهم أمامهم مستعدون للقتال ، فينشق الغبار عن الراية الأموية التى يبعث مشهدها الطمأنينة فى نفوسهم ، ويخرج من تحته بضع مئات من جند الشام يخالطون القافلة الكبيرة ويكشفون أمرهم على عجل ، فيعلم رجال القافلة أنهم حيال فرقة من حرس الصحراء ، خرجت من دمشق منذ أسبوع لتجول فى هذه الفلوات القريبة ، تقيم المواسم والمخافر ثم تعود لتفسح المجال لفرقة أخرى ، فتجاوزت حدها ، وأمعنت فى الضرب إلى الجنوب حتى دخلت فى أرض ابن الزبير والتقت بهذه الفرقة الحجازية التى كسرتها وردتها على أعقابها ، ولحقتها لتقضى عليها

وهز هذا الحديث القصير رجال القافلة ، فاصطفوا للقاء الفرقة الحجازية التى دنا غبارها ، وتلفتوا يفتشون عن الرجل الذى يقودهم إلى المعركة ويشق لهم طريق الظفر ، ويلزمهم طاعته إلزاماً ، ولن يكون هذا الالزام إلا بقوة الشخصية ، وبلاغة اللسان ، وكبر النفس . وكانت ساعة انتظار وتردد توجهت فيها الأنظار إلى كثير من السادة ، فخيبوا رجاء الناس فيهم ، وأوشكت الفرقة الحجازية أن تصل . وهم على جمودهم وانتظارهم ، عند ذلك تقدم كليب الذى كان يغالب نفسه ويقسرها على السكون ويمسك بركان حماسته أن ينفجر ، تقدم حين عجز عن ضبط نفسه ، ففتح له طريقاً وسط الفرسان ، وقد رأى أمانيه أدنى إليه من أنفه ، ومضى فيه مضىّ السهم حتى صار فى رأس القوم ، وهم يعجبون منه ، وينتظرون أن يقودهم كل رجل فى القافلة إلا هذا الشاب الذى أمضى طريقه كله صامتاً حالماً لم يتحدث بحديث ، ولم ينطق بكلمة ، والذى يظنونه عيياً لا يبين ولا يعرب عن نفسه . ولكن عجبهم لم يطل ، فان الفتى انطلق يخطب فيهم خطبة صارخة مجلجلة

(١) لا يعرف الجنة إلا من رآها

تلتهب كلماتها التهاباً ، وتحرك جملها الجلاميد الصم ، وتدع الجبان المخلوع القلب وهو البطل الحلاحل . وكان صوته القوى يدخل إلى حبات القلوب فتصيبها منه رجفة كما يرتجف الرجل يمسك بسلكة الكهرباء ؛ وكانت إشارات يده وسمات وجهه تنطق بمعانيه قبل أن ينطق بها لسانه ، فتحرك الناس وتقودهم حتى كأنهم معلقون بأصبعه . ولم ينته المعلم الشاب من خطابه حتى كان القوم قد خلعوا نفوسهم التى أضناها طول السفر ، وأرمضها حر الصحراء ، وأضعفها التردد والإحجام ، ولبسوا نفوساً جديدة ماضية لا تعرف التردد ، قوية لا تعرف التعب ، مؤمنة بالظفر لا شك عندها فيه . ولم ينته من خطابه حتى كان الجند الحجازيون قد وصلوا . فأطلق من فيه صرخة الحرب ، وأغار كالقضاء النازل ينشد أنشودة الموت والجند ومسلحة القافلة من ورائه تردد النشيد فتميد له البيد . فلم تكن إلا جولة واحدة حتى آثر الحجازيون السلامة ، ففروا لا يلوون على شيء . واستراحت القافلة حيناً . ثم أخذت طريقها إلى دمشق يقدمها كليب (المعلم البطل)

* * *

كانت دمشق فى زلزال شديد ، وكان أهلها فى هيجان واضطراب ، ينتظرون المعركة الفاصلة بينهم وبين ابن الزبير ، لينجو العالم الاسلامي من هـذا الانقسام الذى ينكره الاسلام ويأباه أشد الاباء ؛ وليعود إلى الوحدة التى جعلها أساس الحياة الدنيوية للمسلمين ، كما جعل التوحيد أساس الدين ... ولكن أهل دمشق فزعون مشفقون على الخلافة الأموية أن تنهار وتتحطم وهم بناتها وحماتها ، يرقبون الأحداث ، ويتسقطون الأخبار ، ويعدون نفوسهم للتضحية الكبرى فى سبيل المبدأ القويم ، والغاية الساذجة كدأب المسلمين في كل عصر وآن .

وكان (قصر الخضراء) مثوى الخلافة ، وسرة الأرض ، فى حركة دائمة ؛ فمن مجلس يجمع للشورى ، إلى ألوية تعقد للدفاع . وكذلك كان قصر (مستشار الدولة روح بن زنباع) الذي أمه كليب المعلم الشاب صبيحة وصوله إلى دمشق ، يقوده إليه زعيم الجند الذين أنقذهم كليب ، وأعانهم على عدوهم ، ليلقى عند روح جزاءه .

وكان قصر روح قائماً فى ظل المسجد ، دانياً من باب الفراديس يجري من تحته بردى متوارياً فى حى القصر ، ثم يظهر كرة أخري ، يتحدر ويهدر هديراً سائغاً عذبا ، وسط جنة دانية القطوف متشابكة الأفنان ، قد اتخذ فيها مجلس يقوم على سيقان من خشب الجوز المنقوش ، منغمسة فى بردى تغسلها أمواهه دائماً وتداعبها أمواجه الصغيرة ، فتقرصها ثم ترتد عنها ضاحكة مقهقهة ، وسماء هذا المجلس أغصان الأشجار قد تعاطفت وتعانقت ، يزينها الياسمين بزهره الناعم العطر ، وحول هذا المجلس إطار من الورد والنسرين والسيسنبر والنرجس والبنفسج ، فهو جنة تنعم فيها العين بهـذه الأزاهير المؤتلفة الألوان ، المختلفة الأشكال ، تمايل وتتهادى حين يمسها هذا النسيم الرخيّ ، فيفوح من أعطافها هذا الشذا الطيب ، الذى ينعم الأنف برياه ، كنعيم الأذن بهـذه (الاوركستر) الآلهية ، التى تعزف ألحان الفطرة الجميلة الساحرة على حناجر البلابل والشحارير ؛ وبردي فوق هذا كله يعزف لحنه السرمدى ، وتنعكس على صفحته المتموجة ألوان الزهر ، فيكون منها لوحة فنية تزرى بألوان الغروب فى لجة البحر .

والقصر طبقتان من الرخام الأبيض والأسود والمجزع ، له رواق على بابه ، قائم على أساطين من المرمر قد استفرغ صنعها وتزيينها عبقرية البنائين والمهندسين فبدت آية معجزة فى لغة البناء تحس لدقتها وأحكامها كأنها هى حية ناطقة نشوى بخمرة هذا الأريج العطر الذى يفوح من أشجار البرتقال والليمون المطلة بالزهر التى تنافس بعطرها الورد والياسمين ، وأشجار المشمش التى تظهر بزهرها الأبيض الشفاف كأنما هى فى حلة فى الثلج الحىّ المطر ، وأشجار الدراق التى تبدو بزهرها الأحمر كأنما هى محب ورد وجنتيه الخجل ، وأشجار الحور سكرى تميس بثوبها الجديد الذى خلعته عليها أيدى الربيع ... يتوج هذا كله منارة المسجد الشاهقة فى السماء ، تنشر فى الدنيا كلها العطر السماوى الخالد ، وتريق عليها السمو والجلال ، فتتطهر الأرض من الشرك والرذائل ، وتتطهر النفوس من المطامع والشهوات ، وتهب على الوجـود نسمة من نسمات الجنة حين يخرج منها النـداء : « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ! »

* * *

كانت دمشق (وما تزال ، وستبقى دمشق) جنة الأرض ، ودرة تاجها ، وواسطة عقدها ، ليس فى الأرض أجمل منهـا

ولا أحفل بكل محبوب ساحر أخاذ ، مما يشمّ أو يرى أو يسمع ...

وكان قصر روح من أجمل ما في دمشق ، وكان فوق الجمال جليلاً فخوراً بسا كنيه ، يملؤه الحجاب والجند وذوو الحاجات ، فلا ينصرفون إلا وافرين غانمين شاكرين . كان محط الجمال والجلال ، ولكن كليباً (المعلم البطل) لم يحفل شيئاً من هذا ، ولم ينظر إليه ، لأن من عادته ألا ينظر إلا أمامه ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة لئلا يشغله عن غايته شاغل ، أو يعوقه معوق . وكانت آماله هي غايته ، فمضى إليها قُدُماً ، لا يبصر إلا ظهر الجندي الذي سبقه ليدلّه على الطريق في هذا العالم الصغير ، حتى دخل على المستشار ..

* * *

ندع كليباً في حضرة روح بن زنباع مستشار الدولة ، ونقفز قفزة واحدة إلى واسط مدينة الحجاج ، نقطع في هذه القفزة سنوات طويلة مليئة بالأحداث الجسام ، من قتل مصعب وعبد الله ابني الزبير ، إلى عودة الوحدة الإسلامية على يد البطلين عبد الملك والحجاج ... فنرى في شوارع واسط الفسيحة شيخاً أعرابياً جافياً يتلفت تلفت المشدوه الذي لم يبصر في عمره مدينة كبيرة ، يتوسم في وجوه الناس بفضول ظاهر ، فيفرون منه حتى زال النهار ، وكلّت رجلاه من المسير فجلس في ظل دار من هذه الدور الجديدة ، كئيباً حزيناً

— مالك ياعمّ ؟

— ....

— مالك ؟ أخبرني ما شأنك ؟

فيرفع الأعرابي رأسه ويحدّق في وجه الرجل ، حتى يطمئن إليه ، ولا يرى فيه ما يريبه ، فيقول له :

— أريد أن تدلني على رجل يدعى كليب بن يوسف الثقفي ، من الطائف

فيضطرب الرجل ، ويسأله :

— أتدرى ويحك ماتقول ؟ ابن يوسف الثقفي ؟ أخو الحجاج ؟

فلا يسمع الأعرابي هذه الكلمة حتى يسرى عنه ، وينطلق ضاحكاً بملء فيه ، ويقول :

— بل هو والله الحجاج ، كنا نسميه كليباً ، قاتله الله ما أشد عقوقه ... ألا تخبرني أين هو هذا الخبيث ؟

— قبحك الله من أعرابي جاهل ، أبهذا تصف الأمير ؟

ويتلفت إلى كل جهة ، وقلبه يكاد ينخلع من الرعب يخشى أن يسمع حديثهما أحد ، ثم يقول للأعرابي هامساً :

— اخفض من صوتك ... سألتك بالله !

— ولم ويحك ؟

— ألا تعرف من هو الحجاج ... ؟ ألست من سكان هذه الأرض ؟

فيعود الأعرابي إلى الضحك وقد راقه ما يسمع ويقول له :

— بل أنا من سكان السماء ؛ هبطت الساعة من أعالي جبال الطائف ؛ أما الحجاج فأنا أعرف الناس به : معلم صبيان أحمق !

— ويلك يا أعرابي ، هو والله أمير العراقين ، وقاتل ابن الزبير ، وسيف الخلافة الأموية وثبت أركانها

— إنك تهزل !

— وهل في هذا هزل ؟ سل ويلك من شئت !

— كليب أمير العراقين ؟ يا ضيعة شيبتك يا عقيل ! ... ويلك يا هذا ، دلني عليه ... دلني عليه ...

* * *

— ... ...

— ... ...

— أدن يا عقيل !

— أوَ قد عرفتني ؟

— وهل ينكر الحجاج أصدقاء كليب ؟ كيف تركت صبياننا ؟

— ما أنت والصبيان ؟ أنت أمير العراقين ... ولكن خبرني ويحك يا كليب ، كيف بلغت هذا كله ؟

— بلغته لأني (أردت) أن أبلغه

ولم يدرك عقيل ما شأن الارادة هنا ؛ فانطلق يضحك يحسبها نكتة ، ثم سكت فجأة وقال :

— ولكنه شيء عظيم والله يا كليب ! أين هذا من ذاك في الطائف ؟

— وا شوقاه إلى داري في الطائف ، وإلى أيامي مع الصبيان ! لقد خلّفت فيها ربيع حياتي يا عقيل ، لقد خلفت فيها ربيع حياتي ... والآن يا مرحباً ، يا مرحباً برفيق الشباب ... ...[1]

« بيروت » علي الطنطاوي

(١) روى التاريخ أن الحجاج كان يدعى في صغره كليبا وكان معلم صبيان في الطائف ، وهذا كل ما روى التاريخ !

خالد بن الوليد وأمير حمص

رواية شعرية في فصل واحد

بقلم السيد محيي الدين الدرويش

« قواد العرب المسلمون مجتمعون للمداولة فى حرب الرومان »

أبو عبيدة :

أرى الرومان قد حشدوا جنوداً يضيق السهل عنها والفضاء
كأن الليل زحف وهو داجٍ ونحن على جوانبه ضياء
ولولا الصبرُ والإقدامُ فازت
جيوش الشرك وانكشف الغطاء

عمرو :

صدقت (أبا عبيدة) ما ونينا ولم يُفْلَلْ لضرمتنا مضاء
وكنا كالصواعق غاضبات تميد الأرضُ منها والسماء
ولكن كان جمهم عديدا فلم يوهنْ صفوفهم اللقاء
ولو أوتوا قلوباً لا تبالى لحاق بقومنا منهم بلاء
رأيت الجند بالعزمات يسمو وحقّ له مع اليأس الشقاء
و (خالد) لِمَ تأخر ؟

أبو عبيدة :

لست أدرى سأصبر علّ يحمله السماء
أتانى من (أبى بكر) كتاب فزال الكرب عنى والعناء
يبشرنى بمقدمه نصيراً بروحى منه ذيّاك السناء
هو البطل الذى قهر الأعادى وليس له سوى التقوى وقاء
تعالى الله حين مضى سريعاً ووجه الأرض تخفيه الدماء
رأينا كيف تنتزعُ المعالى ويرفع فى السماء لنا لواء
(تسمع ضجة)

ماذا ؟ هتاف ؟ ما الخبر ؟

عمرو :

لعل (خالداً) حضر

أبو عبيدة :

تبيّنوا ماذا جرى لم يبق لى من مصطبر
(تهليل من الداخل ونشيد من قبل القادمين)

الجنود :

جردوا البيض وسيروا للكفاح فنادي الحرب بالأعراب صاح
إن نيل المجد فى الدنيا متاح لشعوب زانها العزم الخطير

***

سوف يأتى (الروم) أنواع البلاء من كماة نافسوا الشهب علاء
نحن سر المجد بل رمز الإباء لا نبالى ما حيينا بعسير

***

أنتم الأبطال آساد العرين من رأى الآساد يوماً تستكين
فاشحذوا العزم ولبوا مسرعين لبناء المجد والعز الأثير

***

(خالدٌ) قائدنا يوم اللقاء ولنا من سيفه أقوى مضاء
زلزل الفرس فمغناهم خلاء ومضى فى نهجه غير حسير

خالد :

سلام عليكم ليوث العرين ونسل الكرام من الفاتحين

أبو عبيدة :

عليك السلام زعيم النضال وسيف الإله على الكافرين
أطلت علينا الغياب فأمست تسافر نحو (العراق) العيون
علام التأخر ؟

خالد :

شأنٌ عجيبٌ وشكٌّ تغلغل فيه اليقين

أبو عبيدة :

فديتك هات الحديث العجيب وأدل برأيك للمسلمين

خالد :

الله أكبر تم الفتح وارتفعت على (العراق) بنود النصر والظفر
خضنا معارك يرتاع الحديد لها حيث المنية لا تبقى على بشر
فاهتزت الأرض لما ثار ثائرنا وأصبحت دولة الأوثان فى سقر
رام الأعادى بنا كيداً وما علموا أن العروبة لا تخشى من الخطر
وعدت نحوكم بالجيش مرتقياً صحراء تزخر بالويلات والغير
لا ماء فيها ولا رغدٌ يلوح بها
ماذا شربتم إذن ؟

أبو عبيدة :

كنا على حذر

خالد :

أعطشت أينقنا ثم ارتوت عَلَلاً وكنت أنحرها فى وقدة السُّمُر
سريت خمس ليال ما شكا تعباً منا امرؤٌ

أبو عبيدة :

يالكم من فتية صُبُر

خالد :

أصليت (بهراء) حرباً فاستكان لنا
قوم سما مجدهم فى سالف العُصُر
و (مرج راهط) قد ريعت فوارسه
من بأسنا وكذا (بصرى) على الأثر

أبو عبيدة :

يحيا البطل ســيف الله

الجميع :

يحيا يحيا يحيا يحيا

خالد :

نبئونى عن حالكم إن قلبي يتنزى شـوقاً إلى الهيجاء

أبو عبيدة :

قد قهرنا الرومان فى (أجنادين) وأضحى (اليرموك) مثوى العناء

داهمونا بجيشهم فغـــدونا نتراءى كالشامة البيضاء

قد قسمنا جنودنا وصمدنا فملأنا الوهاد بالأشـلاء

خالد :

ما أراكم قد أصبتمُ بانقسام إنمـا الانقسام رأس البلاء

أجمعوا أمركم وكونوا بناء هـازئاً بالعواصف الهوجاء

إنمـا الفوز للقوى فسيروا نبتن العز فى ذرا الجوزاء

وامهروا المجـد بالدماء تفوزوا فى جنان الخلود بالآلاء

السلاح السلاح يا قوم إنى ســوف أغدو أمير هذ اللواء

أبو عبيدة :

يحيـا القائد يحيا خالد الجميع : يحيا يحيا يحيا يحيا

(يذهبون إلى الحرب وتنشب المعركة ثم يعود خالد بعد جلاء العدو)

خالد :

لك الحمد رب الكون تم لنا النصر

وقام عمود الحق وانقمع الكفر

ورف على الأكوان نور (محمد) فأشرقت الدنيا ولاح بها الفجر

فعاد لنفسي زهوها ورجاؤها وقرت بى العينان وابتسم الثغر

تمنيت أن ألقى الشهادة راضياً ولله أمر لا يغالبـه أمر

وأوردت نفسى مورداً دونه الردى

فأخطأنى والهفتا ذلك الأجر

عجبت من (الرومان) هانت نفوسهم

فلم يثبتوا عنـد اللقاء وهم كثر

لئن هيمن الضعف المهين على امرئ

فأجدى لهذا المرء من عيشه القبر

(دمشق) عروس الشام دانت لحكمنا

وأرجو (بحمص) أن يطالعنا النصر

جندى :

سيدى قد أتى من الرومان فارس لا تملّه العينان

يرتجى أن يراك

خالد :

أدخله حالاً لنرى ما يرومه من شان

(يدخل أمير حمص)

الأمير :

أيهـا القائد رفقاً بشَجٍ فلقد كنت نصير البائسين

إننى سيد (حمص)

خالد : مرحباً بفتى (غسان) وضاح الجبين

أوضح الأمر وقل لى ما الذى تشتكيه كي أبيد الغاشمين

صلة تجمعنا من (يعرب) لم يبدد عقدها مر السنين

الأمير :

قد أتيت اليوم أشكو ملكا آثر البغي وراع الآمنين

قيصر الروم (هرقل)

خالد : ويله سـيرى فى الغد عقبى الظالمين

الأمير :

قد بنى فى (حمص) قصراً شامخاً يتمايا عن ذراه الناظرون

دوحة (المياس) تهفو حوله ومياه النهر تروى الظامئين

ومضى يمعن فى آثامـه لا يبـالى بانتقاد اللائمين

فاستثارت (حمص) من أعمـاله

كيف ترضى (حمص) فعل الجاهلين ؟

إنما (حمص) منارٌ للألى عزمهم فى الرَّوع يأبى أن يلين

لم يكن يدرى (هرقل) أننا لا نبـالى ما حيينا بالمنون

عرب من آل (غسان) لنا طأطأ النـاس جميعاً خاشعين

أنتم إخواننـا أهلاً بكم وليمت فى كيده ذاك اللعين

إن يُفرّق بيننا الدين فقد وحّد الجنس قلوب المخلصين

قد أتينا اليوم نرجو عطفكم وغدونا فى ذَراكم لاجئين

أنتم السادة

خالد :

لا تخشى الأذى

قد وجدت الأهل

الأمير :

دمتم فائزين

خالد :

قد نهى الاسلام عن إيذائكم وقضى ذلك خير المرسلين

الأمير :

سوف نُمضى معكم عهداً على

أن تصونوا دمنا

خالد : لنا نمين

شـيمة العرب وفاء بالذى   وعدوا لا درّ درُّ الناكثين

أىُّ شأن لعهود قُطعت   ثم أضحت تُرّهات بعد حين !

لا تغُرَّنك قصاصات غدت   شَركاً تُنصبُ للمستضعفين !

إرجع الآن (لحمص) إننى   قد تصبّانى لمرآها الحنين

بشر الأقوام أنا فى غــد   سوف نبـدو فى رباكم فاتحين

(يذهب الأمير ويدخل القواد)

أبو عبيدة :

سـلام يا أمير المسلمينا   له أرَجٌ يفوق الياسمينـا

عمرو :

لقـد خضعت لعـزتك البرايا   ودان لك الأعادى صاغرينا

فكنت القائد النّدْب المرَجّى   وكنت أمامَنا حصناً حصينا

قائد :

وكيف نخاف للأعـداء بأساً   وسيف الله والإسلام فينا ؟

خالد ،

أراكم قد بلغتم فىَّ حـدًّا   تسامى فوق وصف الواصـفينا

ألستم عدتى عنـد الرزايا   ألستم فى الحوادث لى يمينـا

حمـدت جهادكم والهول باد   وقـد جنت بوادره جنـونا

وزلزلتم صروح الكفر لـا   أتيتم كالصواعق راعـدينا

تفرّدت العروبة بالمعالى   سلوا الأحقاب عنها والسنينا

ألم تمـلأ زمازمها البرايا   وتتركْ فى الزمان لهارنينا

فويلٌ للأُلى غمزوا قناها   لقد سلكوا سبيل الجاهلينا

إليك (أبا عبيدة) خذ كتابا   أتانى من أمير المؤمنينا

أتانى ناعياً

أبو عبيدة : من ذا توارى ؟

خالد : (أبو بكر) إمام المصلحينا

هوى طودٌ من الاسلام فابكوا   منى الأخلاق والحلم الرزينا

أبو عبيدة :

سنذكره على مَرّ الليـالى   وندرف بعده الدمع السخينا

وأيُّ خليفة أضحى بديلاً   لخير النـاس أخلاقاً وديناً ؟

خالد :

هو الفاروق منضور السجايا   إمام لا يرى فى الحق لينـا

أناط بك القيادة فاستلمها   فإنك كنت فى الدنيا أمينا

وأعلمه بأمر الفتح حالاً

أبو عبيدة :   معاذ الله أن أنسى الجهودا

أأغـدو قائد الأبطـال حقـًّا   و(خالد) يملأ الدنيـا رعودا

وكيف أرى البنود علىَّ تهفو   وسيف الله قد هزَّ البنودا ؟

تقدم أيهـا البطل المفـدَّى   فقد ذللت بالعزم الحـديدا

أشر للدهر يخضع للمعـالى   وأومئ للأنام تـكن عبيـدا

وسر بالمسـلمين إلى الـثريا   فقد كنا ولم نبرح جنودا

خالد :

(أبا عبيدة) ما حاربت مرتقباً   طيب الثناء ولم أطمح إلى الرتب

ولا صبوت إلى الدنيا وزخرفها   ولا سموت إلى مال ولا نشب

فى ذمة الله ما قدمت من عمل   تبقى مآثره دوماً على الحقب

عسـاه ينفعنى إما قدمت إلى   ربي ويعصمنى من سورة الكرب

بذلت نفسى قرير العين مغتبطاً   حتى تعالى لواء العرب فى السحب

ولم أكن غير جندى أهاب به   إلى الجهاد يقينٌ غير مضطرب

والآن سيروا إلى (حمص) فان بها   هان المسير وتم النصر للعرب

« حمص »   محى الدين الدرويش

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

6 me Année, No . 247

Lundi - 28 - 3 - 1938

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات

يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire

Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العــدد ٢٤٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٦ محرم سنة ١٣٥٧ — ٢٨ مارس سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهــرس

حول الكعبــة

للدكتور الحاج عبد الوهاب عزام



الليل مهوّد وسنان، ترى العين سكونه ، ويُحس القلب سكينته ؛ ونسيم السَّحر يسرى رفيقاً ينفح الخليقة لا أدرى أيبغى إيقاظها أم إنامتها ؛ والقمر ينضح الكون بأشعته يخفق مع النسيم نوره ؛ وقد أصحت السماء إلا قَزَعاً فى الأرجاء ؛ وتبدو فى سكون الليل ونور القمر قمم الجبال : غندمة وأبي قبيس وأجياد(١)

استغرقت الخليقة فى أحلامها الجميلة ، وشُغل الليل بشعره البليغ ، ففيه إصاخة الشاعر للمعنى الجميل المخترع

ولكن طرق مكة لا تنام ، ولا تفتر عنها الأقدام ، فأنظر فى ضوء القمر ، وفى ظلال الدور ، زرافات متمهلة أو مسرعة ، ذاكرة أو صامتة ، تؤم البيت الحرام

(١) جبال فى مكة

الليل هاجع ، والخليقة نائمة ، ولكن هذه القلوب الوالهة لا تهجع ؛ ولكن هذه العيون الباكية لا تغمض ، ولكن هذه الزفرات المردَّدة لا تسكن ، ولكن هذه الألسنة الذاكرة لا تفتر . قد استوى ليلها ونهارها ، وعشيها وأبكارها

هذا هو المسجد الحرام ! فهل تقع العين إلا على مُصَلٍّ خاشع ، وطائف بالكعبة واله ، وقارئ تنطق بضراعته الآيات ، وداع يرسل قلبه في كلمات ؟

كم قلب محزون حمل إلى هذا الجناب شكواه ، وفؤاد معذب بث في هذه الساحة نجواه ! وكم آثم حط في هذا الفناء الأوزار ، ليمحقها بالتوبة والاستغفار ! وكم دَنِس جاء ليتطهر من هذا النهر ، وكم يائس ورد يستقي الرجاء ، ومحروم أقبل يستدر العطاء ! وكم نفس مظلومة ترفع ظلاماتها ، وأخرى ظالمة تعترف بجناياتها ! وكم مكلوم جاء بجراحاته ، وأرسل آهاته وأناته ! وكم ثاكل يحمل قلبه كسيراً ، ويسيل دمعه غزيراً . كلٌّ ضارع على هذا الباب ، ضائع عند هذه السدَّة ، يهاب هذا العِظَم ، ويرجو هذا الكرم . أكداس من الآلام والآمال ، وأشتات من الهموم والأمانيّ ، والشكران والشكوى ، والدعاء والنجوى ، والتضرع والحمد !

ووراء هؤلاء في المشرق والمغرب قلوب توجهت شطر هذا البيت كما تتوجه الإبر[1] إلى القطب ، وتنزع إليه نزوع الغريب إلى ولده وداره . فكم مصلٍّ في أرجاء الأرض ولّى هذا الجناب وجهه وقلبه ! وكم داع قصد هذا القصد على بعد المزار ونأي الديار ! أترى الدعوات تهفو على الكعبة مع هذا النسيم ، والصلوات تتنزل عليها في هذا الضوء ، وأسراب الآمال طارت من المغرب والصين لتطوف مع الطائفين ؟ أترى سوداوات القلوب اجتمعت فكانت هذا البناء ، أم أناسيّ العيون تراكمت فكانت هذه البنيّة السوداء ؟

أنظرُ فلا أجد في هذا البناء تمثالا ولا صنما ولا وثناً ولا صورة ولا نقشاً . إنما هو التوحيد في خلوصه ، والعقيدة في يسرها ، والاسلام في فطرته . بيت لعبادة الله يؤمه عبَّاد الله ، تجتمع حوله القلوب ، وتلتقي فيه الدعوات ! بيت من التوحيد محسّ ، وبناء من الأخوة يُلمس

(١) إبر المغناطيس

ما أروع هذا مشهداً ! صلاة ودعاء ، وطواف وبكاء ، يسيل بها الأصباح والأمساء . من لي بالخلوة في هذا الزحام ، والوحدة في هذه الكثرة ، والسكون في هذا العباب ، والقرار في هذا المحشر ! بل من لي بأن أقف على الساحل من هذا البحر لأرى وأسمع !!

صعدت إلى مصلى الشافعي فوق زمزم فإذا هو خلاء ، فأشرفت على هذا الجمع أرى جموعاً متوحدة ، ودعوات متجسدة ، وألفاظاً تنطق بمعنى واحد ، وظلالا يمدها نور واحد . وكان للقلب مجال بين الكثرة والوحدة ، والظهور والخفاء ، والوجود والفناء . وليت اللحظات امتدت فاتصلت بالأزل والأبد !

وينبعث في هذا الدويّ ، بل يشع بين هذه الأصوات صوت الأذان : «الله أكبر . الله أكبر» ، وينتظم شعار التوحيد هذه الأصوات ؛ فإذا الدعاء صمت ، والحركة سكون ، وإذا هذا الجمع نفس واحدة تصيخ إلى صوت واحد

ما أجمل هذا الصوت وما أروعه ! عظمة الله تغشى هذا المشهد ، وكلمة التوحيد تملأ هذا المسجد . قلت لنفسي : « ليت الإنسان يستمع أبداً إلى أذان الفجر في جوار الكعبة !» قالت : « أما الأذان فهو دائم موصول لا تخلو منه ساعة من ليل أو نهار . فالأوقات في أقطار الإسلام مختلفة ، فما يسكن أذان في بلد إلا ارتفع أذان في آخر أبد الدهر . تكبير دائم لمن كان له سمع ، وذكر مستمر لمن كان له قلب . وأما الكعبة فأنت في جوارها كل حين إن لم تكن أسير البقاع ورهن الحجب »

هلم إلى الرحيل ! طفت طواف الوداع ، وأديت مع الجماعة صلاة الصبح ، وقد أُعدت السيارات والرفاق ينتظرون ؛ ولكن النهار لم يسفر فما يعجلني عن هذا المكان ؟ هلم قد حان الرحيل وليس من الذهاب بد . ولكن الرحيل يمكن إرجاؤه لأتزود للبين نظرات ، وأجمع للفراق ذكريات ... قد حان الرحيل ولا مناص :

خرجت أمشي يقول قلبي ... للرِّجل : بالله أنظريني

رحم الله حافظاً الشيرازي الذي يقول :

وكيف يطيب العيش في منزل المنى
وأجراس هذا السَّفر للبين تقرع[1]

عبد الوهاب عزام

(١) يعني أجراس القافلة

مجد العرب والاسلام

للأستاذ اسماعيل مظهر



كانت رومية قد لفظت آخر أنفاسها عندما اقتلع زعيم حربى من الهمج المتبربرة تاج الإمبراطورية الرومانية من رأس إمبراطور صبىٍّ أبيض الوجه ، وضّاح الجبين ، ليضمه فوق رأسه الكث الشعر ، الملبّد الفودين

أما الزمان فسنة ٤٧٦ بعد الميلاد . وأما المسرح فدرجات قصر رافِنّا الرخامية

كان الانحلال قد امتد إلى عظام رومية ينخرها منذ سنين ، فأخذت مِرّتها تضعف وقواها تتبدد شيئاً بعد شىء . أما آخر مشهد من مشاهد هذه المأساة التى مثلتها رومية على مسرح هذه الدنيا ، فقد مرّ مرور الحلم ولم يأبه له إنسان . وهنالك انسدل الستار على تلك المدينة القديمة وانطوت صفحتها الخالدة . أما المستقبل فكان طوع يمين تلك الشعوب الفتية القوية التى انحدرت من الشمال

خرجت تلك الشعوب من خلال المفاوز الجبلية المثلوجة ، وانحدرت من هضاب الشمال الهاوية ، وشقت طريقها إلى الجنوب حيث الأراضى الشامسة والحقول الخصبة . ولقد ركب بعضهم متن العباب على سفائن أشبه بالحيتان الضخام ، وامتطى آخرون عجلات من ذلك الصنف الذى يستخدمه البدو إذ يرعون أنعامهم . ولقد اتخذوا فى جوانب الطرق المرمرية التى أنشأها القياصرة العظام محاطّ يضربون فيها مخايمهم ، وكان البحر المتوسط مرمى أنظارهم ؛ ذلك بأن رومية لم تجمع ثروتها الضخمة إلا من شطآنه

مضوا يهيمون فى كل واد غاصبين مقاتلين ، فنشروا الرعب والفوضى فى ربوع المدائن القيصرية ؛ وكانوا فى جهالة ، فساء تصرفهم ، وفسدت أعمالهم ؛ وقد تمضى عليهم فترة يتفرقون فيها أشتاتاً ، ثم تنجدهم موجات جديدة من الهمج أمثالهم هابطة من الشمال أو من الشرق . ونُسِىَ القانون الرومانى فأصبح الحق للأقوى ، واحتكمت تقاليد العشيرة البدائية فى الجماهير ، تقاليد أولئك الذين نشّأتهم صحراء غوبى الجدبة فى جوف الصين

وظل العالم الحاف بالبحر المتوسط خمسة قرون ميداناً لتنقل تلك القبائل الهمجية ووحداتها الحربية . على أنهم إن ظلوا أمناء لتقاليد حياتهم البدائية ، واحتفظوا بروح العشيرة ، فإنهم فى خلال تلك الخمسمائة من السنين كانوا قد تقبلوا أثارة مما خلف العالم الرومانى الإغريقى من صور الثقافة

* * *

طوى رومية ظلام القرون ؛ فلما طواها خيم على أوربا ظلام الجهل والهمجية . ذلك الجهل وتلك الهمجية كانا طابع الشمال ، فعملت رومية جاهدة فى أن تصد طغيانهما عن الجنوب قروناً عديدة ؛ فلما لفظت رومية آخر أنفاسها ، استباحت فوضى الشمال حضارة الجنوب

وكانت الغابات المرطوبة على عهدها لم تتغير ، والخرائب المغبرة الحزينة على سابق حالها مذ سكنها البوم وأخذت تسبح فى أفنيتها وتنتقل فى كرومها القديمة . ولقد ألفتها الذئاب الجارحة تعيش جماعات متعاونة على الصيد والافتراس . أما المزارع فكانت رقعاً تتخلل الأرض الحجرية ، حيث القرى بأكواخها المشيدة فى لبنات مِلاطها الطين وسقوفها من البوص والهشيم ، تقوم هنالك فى سفح قصر منيف ذى أبراج ضخام لسيد من أسياد القطائع

أما الرعاة فكانوا ينامون فى العراء ، وفى الوديان المخيفة الموحشة ؛ مايؤنسهم من شىء إلا المفترس من الحيوان والجارح من الطير . ذلك لأن مفاوز الغابات كانت مآهلهم الأمينة ومرابيهم الأصيلة

وهنا وهنالك كنت تقع على ذلك التراب الأبيض السافى تتخلله قطع من الأحجار ، إن نمت عن شىء فعن أن التراب

والأحجار إنما هى بقايا طريق رومانى براه الزمان

بين الفينة والفينة كان يمر بذلك الطريق يهودى من بنى إسرائيل ومن ورائه شرذمة من الخيل ؛ أو تاجر تحيط به كتيبة من حملة الحراب ، وأقل ما يكون حدوثاً أن يثير غبار ذلك الطريق كتيبة لسيد من أسياد القطائع ، فإذا مرت اجتمع من حولها أهل الحقول ينظرون مأخوذين من رجال تلك الكتيبة الأشداء ، يؤخذون بمرأى الدروع السود المصفحة بالحديد ، واللافع الكبيرة التى يغشى أطرافها الفراء

قلّ من أهل الريف من رأى أكثر من ذلك ؛ اللهم إلا أن يكونوا قد رأوا علامة الصليب الكبيرة التى تشير إلى التقاء الطرق وتفرعها فى نهاية الوادى . أما ما وراء التلال فكان مجهولاً بل كان عدواً مخيفاً . ولم يكن لهم اتصال بالعالم الخارجى عن عالمهم هذا ، اللهم إلا عن طريق الرهبان لابسى المسوح ، أولئك الذين كانوا يجوبون الأنحاء حفاة من دير إلى دير ، أو عن طريق شاعر من مؤلفى الأغنيات ، يمر عجلان إلى البهو ليتناول وجبة فاته أوانها

ذلك بأن أهل أوربا فى عصور الظلام عاشوا مدفونين فى دنياهم التى نشأتهم ولم يروا مما وراءها شيئاً . قال حراث من أهل ذلك العصر انحدرت إلينا كلماته : « إذا تنفس الصبح خرجت تواً أقود الثيران إلى الحقل ، ثم أضعها فى المحراث ، لأن واجبى أن أحرث كل يوم حقلا ، وإلى جانبى ولد لى أبحّ صوته البرد والصياح . فاذا فرغت من عملى ذاك ملأت المذاود بالدريس وسقيت النَّعَم ثم أخرجت الرَّوْث . يا لله ! إن هذا العمل المرهق شاق ، ولكننى لست حراً »

وكثيراً ما كان القحط يحط عليهم . فأيام ممطرة حين البذار ، أو فساد فى المحصول ، أو سوس ينخر القمح ، أو جفاف أو حرب ، كل سبب من أولئك كان كافياً وحده أن ينشر الجوع والبلاء

قيل : « كان الطباشير يطلب من الأرض ويمزج بالدقيق ليصنع خبزاً . لقد اصفرت وجوههم وانحطت قواهم ، حتى لقد عجزوا عن أن يجروا أنفسهم من فوق الأرض جراً . وهيئت حفر ليسحب إليها المحتفرون ويلقون فى جوفها . وكانت هذه المصائب تلابسها مصائب أكبر وكوارث أعظم . فإن الذئاب وقد أنسوا على جوانب الطرق كثيراً من الجثث ، ملكتهم الشجاعة وأغواهم ضعف الناس ، فراحوا يهاجمون الأحياء . أما مواد الطعام فقد خص بها الأقوياء ليظلوا قادرين على العمل ، لعل الحقول تزرع ولا تبور »

وقيل : « رئى رجل فى سوق « تونير » حاملاً لحماً مطبوخاً ليبيعه فى سوق المدينة . فلما سئل فيه ادعى أنه لحم حيوان . ولكن ذلك لم ينجه فسيق إلى السؤال ، وهنالك لم ينكر جريمته فأحرق حياً . أما اللحم البشرى الذى أتى به الرجل فقد دفن باسم العدل والقانون . غير أن رجلا غيره نبش ذلك اللحم وأكل منه ، فكان جزاؤه الموت إحراقاً »

وفى مثل تلك الفترات كان الطاعون من بلايا الأحياء . فانهم كانوا يزحمون الأكواخ والدساكر ، حتى أن أسراً برمتها كثيرا ما كانت تذهب فريسة ذلك المرض ، فيتركها الباقون ويهجرون المنازل والربوع فزعاً من الموت وفراراً من البلاء . وكان المرضى يحملون إلى الكنائس ابتغاء الشفاء ، فتنتشر العدوى فى أولئك الذين أتوا ليؤدوا فريضة الصلاة عبادة خالصة لوجه الله

قال أوردريكوس فيتالس أحد مؤرخى القساوسة : « عمّ بلاء المرض فقضى بأهل بيوت كثيرة ، كما أن الجوع قد أفنى المرضى ؛ فلما أن خربت النيران الأرض ، خرج الأكثرون هائمين على وجوههم . فلما رأوا أن الأبْرَشيات قد طمست معالمها ودرست آثارها ، فروا من الكنائس الخاوية هرباً إلى حيث لا يعلمون »

* * *

هذه صورة مما كان فى أوربا الغربية ، لما انفلق صبح الزمان عن غلام يتيم من أبناء قريش ؛ فلما شب وترعرع ، ثم تفتى (١) وكاد يكتهل نزل عليه الوحى ليبشر بدين جديد ، وليؤدى الرسالة الربانية للناس أجمعين ، وكانوا من الهمجية على مثل ما رأيت فى أوربا ، يقتلون أولادهم خشية الإملاق ويئدون البنات ويعبدون أصناماً كثيرة تبول الثعالب برؤوسها ، ويدينون بقوى سحرية ، ويؤمنون بظواهر الطبيعة كآلهة . غير أنهم بالرغم من هذا صدقوا وآمنوا بما أنزل إليهم . فإن صلابة محمد فى نصرة الحق شدخت يافوخ الشرك والوثنية

(١) أى صار فتى

أدى محمد رسالته على خير ما تؤدى رسائل الوحى ، فلما قبض كان نور الإسلام قد انبلج فاعتنق أكثر العرب ذلك الدين القيم وآمنوا بالقرآن وآيتهما : « أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله »

وما لم يتح لنبى قريش أن يتم فى حياته ، أتمه من بعده خلفاؤه العظام . فان رجال تلك الصحراء ، وعلى رؤوسهم خوذات الحرب ، قد امتطوا صهوات جياد قضيفة ضئيلة الحجوم ، أوظهور إبل عجاف ، وخرجوا من فضائهم الأرحب ليغزوا ويمعنوا فى الغزو ، تعزيزاً للإسلام ونشراً لكلمة الله . ولقد اتقدت فى جوانحهم نار الحمية فانتشروا فى الأرض ومشوا فى مناكبها ، وتنقلوا فيها من مكان إلى مكان ، بسرعة أقلقت أهل العالم القديم

بدأت الغزوات فى حكم الخلفاء الراشدين ، أصحاب محمد المقربين منه . وفى أقل من قرن من الزمان رفعت راية الإسلام على الدنيا جميعاً من السند إلى جوف الصين ، ولمعت سيوفه فى مفاوز القوقاز وأغوارها ، وسقطت مصر فى يد العرب ، وتبعها شمال أفريقية ، ثم الأندلس

ومنذ فاتحة تلك الغزوات طغى مدها المظيم على وديان أورشليم الصخرية فاكتسحها ، وأحاط الإسلام بهيكل المسيح . أما طغيان الإسلام على أوربا جميعاً فلم يصده فى الظاهر غير عقبتين : شارل مارتل فى الغرب ، وحصون بوزنطية فى الشرق . أما السبب الحقيقى فى وقوف ذلك المدّ الإسلامى العظيم عند ذلك الحد ، وهبوطه بعد أنه كاد يبلغ الذروة العليا ، فيرجع إلى أن أصحاب محمد قد انقسموا أحزاباً وتفرقوا شيعاً ، واختص كل حزب منهم بجزء من الأرض المغزوة . ولو أنهم ظلوا مجمعين على كلمة الإسلام إذن لاندحر شارل مارتل ، وإذن لاندكت حصون بوزنطية ، وتحقق بذلك وعيد معاوية للامبراطور الرومانى إذ قال له فى كتاب أرسل به إليه لما علم بعزمه على غزو الشام إبان خلافه مع على بن أبى طالب : « لئن تممت على ما بلغنى لأصالحنّ صاحبى ، ولأكوننّ على رأس طلائعه إليك ، ولأجعلن القسطنطينية الحمراء حُمامة سوداء ، ولأخلعنك عن عرشك خلع الإسطفلينة ، ولأرسلنك فى الجبال ترعى الإبل »

لو لم ينشق المسلمون لتحقق هذا : « ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم »

ولقد كانت تلك الغزوات سبباً فى أن يقف العرب ، وهم يحملون أرقى الأديان وأمجد المدنيات ، وجهاً لوجه أمام أولئك الهمج الذين ثبتوا أقدامهم فى خرائب الامبراطورية الرومانية ، واعتنقوا دين عيسى فأصبحوا نصارى . وتجاورت قوات أوربا وقوات آسيا . فان طلائع قوى النصارى كانت تلحظ عن كثب مقدمة معاقل الاسلام

أما فى الغرب ، حيث شهدت الأندلس معارك أوربا والاسلام ، فان نصارى الفرنجة ، وقد انتهزوا فرصة اضطرام نار الخلاف الموروث بين القبائل منذ الجاهلية ، كانوا قد استردوا مفاوز « البرنيز » ، ومضوا يتقدمون بتؤدة ، مثبتين أقدامهم فى شبه الجزيرة خطوة بعد أخرى . ذلك على الضد مما كان فى الشرق . فان المسلمين كانوا قد تقدموا نحو أوربا مخترقين آسيا الصغرى

فيما بين هذين الطرفين : الأندلس غرباً ، وآسيا الصغرى شرقاً ؛ وفى وسط تلك الشقة ، كان للإسلام اليد العليا : فى الأرض كما فى البحر . ذلك بأن العرب قد ألفوا البحر بسهولة ، وشقوا عبابه مرحين . وابتنوا البوارج الفخام ، فتحولوا شيئاً بعد شىء من غزاة فاتحين بحد السيف ، إلى غزاة فاتحين بسلاح التجارة . ومن ثم ثبتوا أقدامهم فى جزر البحر المتوسط ، وبخاصة صقلية ، وركبوا متن نهر « التيبر » حتى بلغوا جدران رومية

ولم يمض غير قليل حتى أخذ العرب عن الشعوب التى غزوها مبادىء الثقافة القديمة ، واخترقت قوافلهم تلك الصحارى الشاسعات من بلاد الهند إلى أسواق حلب والاسكندرية ؛ وازدانت قرطبة والقاهرة بالقصور الشامخة ودور العلم الفخمة ، وحكم هارون الرشيد فى بغداد

وهدأت الحالة واستقرت الأمور على امتداد التخوم . ذلك بأن المسلمين كانوا أحد ذكاء وأكثر معرفة وأعرق مدنية وأعظم قوة من جيرانهم همج النصارى

حوالى ذلك الزمن بدت فى أوربا بوادر جديدة ، فان شارلمان ملك الفرنجة وحفيد شارل مارتل كان قد بدأ فى تنفيذ خطته . فان متابعة الحرب والمغازى المتتالية ، واستئثار رجل واحد بالحكم كان سبباً فى أن تتكون إمبراطورية لم يدم بقاؤها أكثر من

جيل واحد ، وفى أثناء ذلك اتجه شارلمان ونبلاء جيشه نحو الشرق ، ونصب أعينهم مدينة بوزنطية

أما الذين اتزنت عقولهم فقد اعتقدوا أن عمل شارلمان إنما هو بداءة النظام وفاتحة حكم القانون ، ذلك بأن آخر حكومة منظمة كانوا يذكرون قيامها ، إنما هى حكومة الأمبراطورية الرومانية . ولذا اعتقدوا أنه ما من حاكم يصلح للحكم إلا عاهل قيصرى ، يملك زمام الأمر ويجمعه فى يده . ولقد صحت نظرتهم فان موت شارلمان كان سبباً فى أن تتمزق تلك الأمبراطورية وتذهب بدداً

بذهاب الأمبراطورية التى شيدها شارلمان عادت لأوربا عصور الظلام . فتفرقت الأمم وتنازعت الشعوب ، من غير أن تعرف أمة أو يفقه شعب للخلاص طريقاً . لقد اقتتلوا كما اقتتل آباؤهم ، بشراهة الذئاب . وفيما هم على حالهم تلك ، ممزقة وحدتهم متفرقة كلمتهم ، هبطت عليهم من الشمال عشائر من الهمج هم الدانيون والنورمان ممتطين عباب الماء

برزوا إلى مسرح الحوادث العالمية ، وكأنهم برزوا من أغوار البحار المجللة بالظلام والضباب ، متلهفين إلى أرض مشمسة خصبة ، هى أرض الجنوب ، وكانوا غير مدجنين ، يلبسون جلود الثعالب وإهاب الحيتان ، ومن فوقها الذهب اللامع ، وفى أيديهم سيوفهم الطويلة وحرابهم المسنونة وفؤوسهم الغليظة ، فخربوا ودمروا وأحرقوا . واستقروا فى النهاية حذاء الشواطئ

ظلام من فوقه ظلام ، من فوقه ظلام . وفى ذلك الوقت تخيل إنسان من طيبي النصارى خيالا ، واعتقد بأن نهاية العالم أي القيامة ستكون سنة ألف ، أى فى اليوم الأخير من القرن العاشر الميلادى ، وارتقب الناس ذلك اليوم ، وأمضوا الليلة الأخيرة ساهرين ، يتوقعون النفخة فى الصور ، ليهرعوا جميعاً إلى موقف الحساب ، ولكن ذُكاء بزغت فى نهاية الأفق صامتة كعادتها ، منمشة كمهدها ، وظهرت الأرض لابسة حليتها المعروفة ، فلم يتغير بها من شيء

ظلام فى العقيدة وظلام فى الفكر وظلام فى الحضارة . تلك كانت حال تلك البقعة التى نعرفها باسم أوربا فى أواخر القرن الحادى عشر المسيحي . فكيف كان العرب والاسلام ؟

***

فى أواسط القرن التاسع الميلادى أى فى عهد الخليفة المأمون العبّاسى ، عاش محمد بن موسى الذى ألّف فى علم الجبر وعنه أخذت أوربا فى أواسط القرن الرابع عشر ، فان مقالته فى ذلك العلم قد ترجمت إلى اللاتينية واتخذت أساساً لتدريس الجبر فى عصر النهضة العلمية فى أوربا . وعقب عليه محمد بن جابر البتّانى المتوفى سنة ٩٢٩ ميلادية وهو صاحب الزيج المشهور المعروف باسم زيج الصابي ، وله عدا الزيج شروح على المجسطى وشرح مقالات بطليموس ومقالة في الفلك والجغرافية ؛ ويقول فيه المؤرخ أوليرى : « كان زيجه أضبط ما وجد من نوعه عند العرب ، وله عدة مستكشفات رياضية وفلكية ظلت العمدة فى علم الفلك عهداً طويلا فى القرون الوسطى وفى مدارس أوربا على الأخص ؛ وكان يلقب بطلميوس العرب لثبات قدمه فى علم الفلك وتضامه فيه »

وفى حدود سنة ٨٢٨ للميلاد أمر الخليفة المأمون بقياس درجة من الهاجرة لاستقراء جرم الكرة الأرضية ، وقام بهذا العمل أربعة من علماء الهيئة مدونة أسماؤهم فى صفحات التاريخ

قال أبو الفدا :

« قام بتحقيق حصة الدرجة طائفة من القدماء لبطليموس صاحب المجسطى وغيره ، فوجدوا حصة الدرجة الواحدة من العظيمة المتوهّمة على الأرض ستة وثلاثين ميلا وثلثي ميل . ثم قام بتحقيقه طائفة من الحكماء المحدثين فى عهد المأمون وحضروا بأمره فى برية سنجار وافترقوا فرقتين بعد أن أخذوا ارتفاع القطب محرّراً فى المكان الذى افترقوا منه . وأخذت إحدى الفرقتين تسير نحو القطب الشمالى والأخرى نحو القطب الجنوبى ، وساروا على أشد ما أمكنهم من الاستقامة حتى ارتفع القطب للسائرين فى الشمال وانحط للسائرين فى الجنوب درجة واحدة . ثم اجتمعوا عند المفترق وقابلوا على ماوجدوه فكان مع إحداهما ستة وخمسون ميلا وثلث ميل ، ومع الأخرى ستة وخمسون ميلا بلا كسر ، فأخذ بالأقل »

قيل : « واشتغل الرازى بالكيمياء واستكشف ما سماه «زيت الزاج» وهو الحامض الكبريتيك والكحول . استحضر الأول باستقطار كبريتات الحديد واسمه فى العربية الزاج الأخضر

فلما استقطره خرج منه سائل سماه زيت الزاج. ولا تزال الطريقة التي اتبعها الرازي في استخراج ذلك الحامض متبعة في استخراجه إلى اليوم. أما الكحول فقد استحضره باستقطار مواد نشوية وسكرية مختمرة

وقيل: «أسس المأمون الخليفة العباسي مدرسة ببغداد سنة ٢١٧هـ (٨٣٢م) وسماها بيت الحكمة وعهد بها إلى عناية يحيى بن ماسويه الذي توفي سنة ٨٥٧م. وكان من المؤلفين في السريانية والعربية. أما مقالته في الحميات فقد كانت العمدة في دراسة تلك الأمراض زمناً طويلاً. وقد نقلت من بعد إلى اللاتينية والعبرية

ويعتقد المؤرخون أن أكبر الأعمال التي قام بها بيت الحكمة شأناً ترجع إلى الجهود التي بذلها تلاميذ يحيى بن ماسويه ومنهم الرجل الفذ أبو زيد حنين بن إسحاق العبادي المتوفى سنة ٨٧٦م فقد نقل فضلاً عما نقل من المؤلفات الطبية، جزءاً من منطق أرسطو (الأورغانون) وبعد أن درس أبو زيد في بغداد رحل إلى الاسكندرية، وعاد منها مزوداً بكل ثمار الدرس التي كانت شائعة في عهده متقناً للغة اليونانية التي استخدمها في النقل إلى السريانية والعربية

ثم قيل: واجتمع معه في بيت الحكمة ابنه إسحاق وابن أخته حبيش الأعسم الدمشقي. وترجم حنين إلى العربية مقالات إقليدس وبضعة مؤلفات عن جالينوس وأبقراط وأرخميديس وابولونيوس الفرغاوسي، وهو أكبر من اشتغل بالهندسة في العالم اليوناني بعد إقليدس. ولقد ترجم أبو زيد عن غير هؤلاء كما ترجم الجمهورية، وكتاب طيماوس لأفلاطون وقاطيغورياس والموسيقا والماغنا موراليا أي الأخلاق الكبير عن أرسطوطاليس وتعليقات طيموستيوس على المقالة الثلاثين من الفيزيقا. كذلك ترجم كتاب أرسطوطاليس في المعادن، وهو كتاب ظل زماناً طويلاً مرجعاً من أهم المراجع في درس الكيمياء، وعن أصله اليوناني أخذ بولس الأجانيطي

ومما انحدر إلينا من أنبائهم أن إسحاق بن حنين قد ترجم إلى العربية — فضلاً عن الطب — كتباً من أشهر ما حوت حكمة الأقدمين؛ منها السوفسطائي لأفلاطون، والميتافيزيقا والروح (ده أنيما) والكون والفساد، وإرمانوطيقا، أو باري أرمنياس أي العبارة لأرسطوطاليس؛ كما نقل تعليقات عن فرفوريوس الصوري والاسكندر الأفروديسي وأمونيوس

وقيل: كان من عظماء المشارقة في عهد نهضتهم قسطا بن لوقا وأبو بشر متى بن يونس ويحيى ابن عدي وابن ناعمة وثابت بن قرة وجابر بن حيان والفارابي وابن سينا والغزالي وغيرهم

هذه أثارة مما كان في الشرق، بل إشارة إلى بعض ما وصل إلينا من أخبارهم وما انحدر إلينا من أحوالهم بعد أن اتخذ هولاكو من كتبهم قنطرة عبر عليها أحد الرافدين. ولك أن تقيس ما انبعث على يد العرب والإسلام من أنوار العلم والمدنية، على ما بعث أهل أوربا في ذلك العهد من ظلام على أهل الشمال

* * *

أما في الغرب — أي في بلاد الأندلس — فقد أرسل العرب على ذلك العالم الميت المظلم الذي نعرفه الآن باسم أوربا أول شعاع من أشعة النور. وليس لنا أن نأتي من عندنا بكلام نبين به عن أثرهم في تحضير العالم الحديث بل نترك الكلام للأستاذ «درابر» في كتابه «نماء أوربا العقلي ص٣٠ ج٢» قال:

«لما ثبت قدم العرب في بلاد الأندلس، بادروا إلى العمل على نشر العلم والحضارة، وقد نقلوا معهم إلى الغرب جميع المبادئ التي قامت عليها حضارتهم في أسيا. وكان أول ما التفتوا إليه نشر المعرفة وتظليلها بحمايتهم. وقد ازدهرت في عهدهم المدن وأقرب مثال لها قرطبة، فقد كانت تتألف من مائتي ألف بيت ويسكنها مليون من النسمات. ويكفي أن تعرف أن شارعها الأكبر كان يطول عشرة أميال وبضاء ليلاً للمارة بمصابيح كبيرة، وذلك مشهد من مشاهد الحضارة لم تعرفه مدينة لندن إلا بعد ذلك العهد بسبعمائة عام. وكانت طرقاتها مرصوفة بالأحجار في حين أن باريس ظلت قروناً بعد حضارة العرب في الأندلس مبركاً للمياه والأوحال التي تغوص فيها الأرجل إلى الركب في فصل الشتاء. ولم يقتصر الأمر على قرطبة، بل إن غرناطة وأشبيلية وطليطلة كانت مدناً تعد أشباهاً لقرطبة ونظائر. وكانت قصور الأمراء مثلاً من الفخامة الشرقية، بل كانت متاحف للفنون الرفيعة وعنواناً على حضارة عريقة، في حين أن المنازل التي سكنها أمراء ألمانيا وفرنسا وانجلترا لم تكن تفضل حظائر الماشية في شيء، فهي بلا مداخن أو نوافذ، وكان المخرج الوحيد

الذى يسلم إلى فضاء الجو كوة فى أعلى السقف يتصرف منها الدخان »

ولقد وصف المؤرخون قصور أمراء الأندلس وصفاً يقصر عن إدراك حقيقته الخيال ؛ فهل علمت أن قصورهم كانت مجهزة بأنابيب معدنية لتوزيع الماء على الأجنحة المختلفة ، وأن الماء كان يجرى دافئاً فى أثناء الشتاء وبارداً مثلوجاً فى أثناء الصيف ، وأن جهازات التهوية الصناعية كانت فى الأشياء التى اخترعها العرب فى فن البناء واستخدمت لأول مرة فى قصور الأندلس ؟ قيل إن من المفاخر التى كان يزهى بها أصحاب القصور ما تحوى من المكتبات النادرة . ويكفى أن نعرف أن مكتبة الخليفة الحاكم رصدت كتبها فى فهرس بلغت مجلداته أربعين مجلداً

كان قصر الحمراء مقر عبد الرحمن الثالث وما تزال آثاره حتى اليوم تحفة نادرة من تحف الفن العالى . كانت واجهته مقامة على ١٢٠٠ عمود من الرخام جلبت من مختلف بقاع العالم المتمدين : من اليونان وإيطاليا وأفريقية ؛ وكان البهو الأكبر مغشى بالذهب الخالص ؛ وكان بالقصر ٦٣٠٠ من الحاشية والخدم ، ومن حوله تكتات بها ١٢٫٠٠٠ من الحرّاس لباسهم من الحرير ومعاطفهم مطرزة بالذهب

كل هذا المجد يصغر ويتضاءل إلى جانب ما خلف ابن باجة ، وابن الطفيل ، وابن رشد وغيرهم من صور الفكر التى أصبحت بعد زمان النور الذى استهدى به العقل الأوربى وعنه أخذ ليؤسس نهضة أوربا الحديثة .

ثم غفا واستيقظ الزمان ، ورحنا فى سبات وعجلة الدهر من حولنا تدور ، حتى أصبحنا ولسان حالنا يقول مع شاعرنا حافظ :

لم يبق شىء من الدنيا بأيدينا	إلاَّ بقيـة دمع فى مآقينا
كنا قلادة هذا الدهر فانفرطت	وفى يمين العلا كنَّـا رياحينا
كانت منازلنا بالعز شامخـة	لا تطلع الشمس إلا فى مغانينا
والشهب لو أنها كانت مسخرة	لرجم من كان يبدو من أعادينا
فلم نزل وصروف الدهر ترمقنا	شَزْراً وتخدعنا الدنيا وتلهينا
حتى غدونا ولا مال ولا نشب	ولا صديق ولا خل يواسينا

هذا طرف من مجد العرب والاسلام وصورة تذكرنا أننا كنا منائر الأرض وحماة الحضارة والعلم والثقافة والمعرفة . فلنذكر هذا ولنذكره دائماً عسى أن تنفعنا الذكريات

اسماعيل مظهر

من برجنا العاجى

تمر بى فى الحياة لحظات أود فيها لو أسأل الله أن يفك أجزائى ويعيد بنائى ، « طبقاً لشروط أخرى ومواصفات جديدة » كما يقال فى لغة أهل العمارة والهندسة ؛ ولكن ... سرعان ما أذكر كلمة « باسكال » : « لو أن أنف كليوباترا كان أكبر قليلاً مما كان لتغير وجه التاريخ » . هذا صحيح . ومن يدرينى . لعل قائلاً يقول فى أمرى غداً : « لو أن أنفه كان أصغر قليلاً مما كان لتغير وجه الأدب العربى الحديث » . ولكن الواقع الذى أوقن به أن تركيب الإنسان كتركيب العقاقير . فقليل من « السلامكى » على قليل من الشمر والينسون ينتج « مليناً » للأمعاء . كذلك حياة كحياتى مع قليل من ميولى وقليل من مطالعاتى ... ينتج أدباً كأدبى ... فكيف إذن يغير الله بعض عناصر تركيبى دون أن تتغير النتيجة كل التغيير . وما الذى يحمله على ذلك ، إلا رغبتى ؟ ومتى كنا نخلق طبقاً لرغباتنا ؟ لقد قرأت يوماً كلمة عنى فى إحدى الصحف قيل فيها : « إنى أريد أن أعيش لفنى ، ولفنى فقط » . فابتسمت وقلت : « أنا أريد ؟ » كلمة أريد « تبدو ساذجة مضحكة من أفواه البشر وهم فى حضرة « القدر » ! ما أنا إلا تركيب كيميائى مثل ذلك الملين ، « لا بد له » بهذه العناصر مجتمعة » أن ينتج هذا « المفعول » الذى يسمونه « الفن » أو « الأدب » لافرق فى نظر « الطبيعة » بين « النحلة » و « الأديب » . كلاهما مخلوق يتنقل بين أزهار ، لينتج عسلاً آخر النهار . ومن هذه « المادة » الحلوة يصنع أحدها بناء فصيلته ، ويقيم الآخر بناء أمته . ولو سئلت « نحلة » عن رأيها فيما تفعل لما وجدنا عندها رأياً ولا إرادة . إنما هى تفعل ما تفعل بدافع من تركيبها « البيولوجى » . كذلك « الأديب » مدفوع إلى التفكير والانتاج بحكم هذا التركيب . ولطالما تفجرت ثائراً : « لماذا ولمن أقتل نفسى بهذا العمل المضنى ؟ » . فأسمع الجواب من أعماق : « إنك لا تنتج لشىء ولا لأحد ، ولكن لأنك لا تستطيع أن تفعل غير ذلك . ما أنت إلا نحلة تفرز الأدب شاءت أو كرهت .

توفيق الحكيم

الهجرة المحمدية أساس الحضارة الإسلامية

للأستاذ محمد لطفي جمعة

— ١ —



دعا نبينا محمد عليه الصلاة والسلام العرب فلبى دعوته الكثير، وتلكأ القليل ممن أعمتهم الأغراض والمنافع وأضلهم تنازع السلطان والسيادة . وقد أتى محمد بكتاب وآيات بينات ومبادئ كانت عقول العرب وطبائعهم مستعدة لقبولها وفهمها قبل نقدها نقداً ينتهى بالقبول والانضمام إليها . وكان نبأ ظهوره (عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون !) النبأ الأعجب ، مما سجل فى تاريخ الانسانية . ولم ينقض عليه جيل من الزمان حتى ثل عروشاً كانت ثابتة الأركان ، وحطم دولاً عالية البنيان ، واكتسح ممالك وامبراطوريات رفيعة الذرى مترامية الأطراف ، ومحا معتقدات عريقة فى القدم ، وهدم ديانات مرت عليها الأجيال والحقب ولم تنل منها ماناله الاسلام فى عشرين سنة . ويدهش المؤرخ العصرى أن يعلم أن سائر الأديان نمت وترعرعت فى ظل حاكم ناصر أو ملك قاهر ، اعتز به الدين وتأيد حتى رسخت قوائمه وثبت سلطانه ، ماعدا الاسلام . فكان الملوك والأمراء والأقوياء يقاومونه فيتغلب عليهم ، ثم يحمى المنسوبين إليه فيعتزون به ويستظلون بظله ويطمئنون فى أكنافه . وكان أول من علا شأنه بذلك الدين العرب أنفسهم ، فلم يكونوا قبله فى المكان الأرفع ولا المنزلة السامية من الوجود التاريخى ، فنصرهم نصراً خارقاً ، حتى أصبح علمهم عالياً خافقاً ، فى آسيا وأفريقية وأوربا . وإن سر هذا النجاح وسببه وأساسه هو الهجرة المحمدية التى انتقل بها محمد من مكة الجامدة الآسنة الراكدة العاصية المستغرقة فى الماديات المتشبثة بالسلطة الدنيوية الآخذة من الملذات والأسمار بأوفر نصيب ، إلى المدينة الهادئة الهينة اللينة التقية النقية العفيفة المتعلقة بالمعانى والأرواح والمثل العليا الطاهرة

— ٢ —

يفنى البرايا ويأتى الوقت مختلفاً ليخرج الدهر تاريخاً من الأمم

يدل استقراء التاريخ الخاص والعام على صدق القانون السبعى، ومقتضاه أن تكون الفترة الفاصلة بين جسام الحوادث سبعمائة عام تقريباً . وقد حددت أعمار تلك الفترات تحديداً دقيقاً فى كثير من كتب التاريخ كتجارب الأمم لابن مسكويه ، ومروج الذهب للمسعودى ، ومقدمة ابن خلدون ، وابن الأثير ؛ ومن كتب الأفرنج حوليات تاسيت الرومانى وتاريخ انحلال رومة لجيبون . ومن قبل هذه التواريخ العالمية أشارت التوراة والتلمود والمشناة وتفاسير الأحبار إلى هذا القانون . يقول بلا كنهيم : «إن تاريخ العالم مقسم إلى فترات قد تدوم الواحدة منها حوالى سبعة قرون ، وقد تنقص أو تزيد قليلا . فقد أسست روما قبل المسيح بسبعة قرون ودام سلطانها ونفوذها سبعمائة عام ، وفى نهايتها ظهر المسيح بدين جديد ينطوى على حياة جديدة ، وكان ظهوره مؤذناً بزوال تلك الدولة الرومانية العظمى التى حكمت العالم بالحديد والنار بعد أن فتحته بالقوة والحيلة . وظهر الاسلام فى نهاية القرن السابع المسيحى ودامت عظمة الدول الاسلامية سبعة قرون . وفى سنة ٧٥٠ م نقلت الخلافة إلى بغداد بقيام دولة بنى العباس ، ثم هاجمها المغول وقضوا عليها وعلى حضارتها » اهـ

ولم يظهر المغول وحدهم لمناوأة الإسلام ، فقد ظهر الصليبيون ونهضت أوروبا الحديثة تلك النهضة التى دامت سبعة قرون كانت نهايتها الحرب العظمى فى أوائل هذا القرن . وقد بدأت نهضة الاسلام الحديثة فى أوائل القرن الرابع عشر للهجرة . ومن العجيب أن تطبيق هذه النظرية السبعية أو القانون السبعى صحيح فى حياة الأمم إذا أخذت كل منها على حدة ، فقد استمرت عظمة الأغريق الحربية والبحرية وعهد الفلاسفة سبعمائة عام ، ودولة الفرس عمرت سبعة قرون من أول تأسيسها لعهد كسرى ،

ومضى على حكم الملوك فى انجلترا سبعة قرون ، وبقيت إرلاندا تحت الانجليز مثلها . ونحن نذكر هذا القانون السببى لا لأهمية خاصة به ، وإن كان في ذاته ظاهرة تاريخية عجيبة تدل على دقة نظام الكون والعالم وخضوع حياة الأمم لمقاييس من الزمان وموازين فى الأعمال ، ولكن نذكره لملاقته بظهور الإسلام ونهضته وهبوطه ، ثم بداية عهد الإحياء الذى ينبئ بالتجدد والبعث فى المائة الرابعة عشرة . وقد أوضح صحة هذا القانون أوزفالد شبنجلر فى كتابه « انحلال الغرب » وهستن شمبرلين فى « أسس القرن التاسع عشر » وولز فى كتابه « صورة العالم فى المستقبل » فليرجع إليها من يشاء من القراء

— ٣ —

إذن كانت بعثة الرسول وهجرته حادثين محتمين ، فكتب لهما التوفيق والنجاح على الرغم مما اكتنفهما من مظاهر الضعف . وقد أخطأ من ظن عداوة قريش للنبى وصحابته هزيلة أو وهمية ، أو أن زعماء الوثنية كانوا ضعفاء النكاية ، فقد كان المجتمع القرشى تام التكوين الاقتصادى والسياسى بالنسبة لحالة الحضارة المعاصرة ، وذا نظم حكومية وإدارية بارعة[1] . من ذلك أنهم جعلوا جائزة مالية لمن يطارد المهاجرين ويظفر بهما وهو ما تلجأ إليه شرطة الحكومات الغربية الحديثة . ومن الثابت أن محمداً وأبا بكر كانا منفردين لا ثالث لهما بعد أن تركا بطل الإسلام وسيفه ولسانه على ابن أبى طالب فى فراش النبى ليخدع المتآمرين بأن النبى ما زال فى داره ولم يغادر فراشه . وإن شجاعة على فى إيثاره وإقدامه على التضحية بنفسه لا تقل عن شجاعة أبى بكر فى مصاحبته . وكان من المستطاع أن يُغتال علىّ فى فراش محمد ظناً من أهل الوثنية أنه المقصود بأسيافهم وخناجرهم . ولكن حياة علىّ كانت ضرورية للاسلام فأنقذه الله وهو الفرد الراقد المستسلم لقضائه وقدره . أما محمد وأبو بكر فلم يكونا هاربين ولا مدبرين لينجوا بحياتهما من أخطار محققة محدقة ، ولكنهما كانا قاصدين إلى طيبة ليفتتحا عهداً جديداً ويستهلا عصر كفاح وجهاد وجلاد وسلسلة انتصارات لم يسبق لها مثيل فى تاريخ المعتقدات الدينية

— ٤ —

فطن القرشيون بما ركب فى غريزتهم من الذكاء وبعد النظر وسعة الحيلة إلى أن ظهور هذا النبى قرين زوال دولتهم المدنية التى نظموها على نسق يشبه نسق المدن الأغريقية . وكان اليونان زعماء النقل البحرى كما كان العرب زعماء النقل البرى وحلقة الاتصال بين الشرقين الأقصى والأدنى ، وإبلهم سفائن الصحراء حقيقة لا مجازاً ، كما كانوا مخالطين لكل شعوب البحر الأبيض وشواطئ المحيط الهندى والخليج الفارسى والبحر الأحمر ، ومطلعين على شؤون الأمم . فلما أدرك سادتهم وحكامهم أن دولتهم قد آذنت بزوال حصروا همهم فى ملاينة النبى وإغرائه ؛ فلما لم ينفع الاغراء والاستدراج لجأوا إلى التهديد والوعيد ، ثم إلى المقاطعة والتضييق فى شعاب مكة وغيرها ، ثم إلى التآمر والانتقام ، فهاجر النبى من مكة ، لأن الله هداه إلى أن ما بقى من عمره المبارك كاف لتعميم الدعوة ومقاومة ذلك البلد القوى الشكيمة الذى تألب نساؤه ورجاله على النكاية به ، ليحتفظوا بكيانهم القوى . كان المكيون محافظين ورجعيين فلم يرقهم أن يسلموا قيادهم للأحرار والمتطرفين من حزب محمد وأبى بكر وعلى وعمر وعثمان . وقد تعجب الأجيال التالية وأنسال المستقبل وأخلافهم كيف لم يقبل عرب قريش وخصوصاً أهل مكة على العقيدة الجديدة . والسر فى ذلك أن أرستوقراطية مكة حرصت على مالها وسلطتها ونفوذها وقوتها ، ورأت في القرآن والدعوة المحمدية ما يزعزع أركان كيانهم الاقتصادى ويهدمه وهم أصحاب رؤوس أموال وعباد للمادة ، حتى إن معبودهم هُبل لم يكن يتكهن إلا بعد أن يدفع السائل لسادنه سلفاً دراهم معدودة . وكان للمال وأرباح التجارة وفوائد الربا واكتناز الذهب والفضة أكبر الشأن ، ولكن محمداً وأصحاب محمد جعلوا المال فى الدرجة الأخيرة من الاكتراث ، واتخذوه وسيلة لا غاية « وقد روى عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخى أنه سار إلى المدينة فاستقبله أهلها ، فقال أين قصر رسول الله حتى أصلى فيه ؟ قالوا ما كان له قصر ، إنما كان له بيت لاطئ بالأرض . قال فأين قصور أصحابه رضى الله عنهم ؟ قالوا ما كان لهم قصور ، إنما كان لهم بيوت لاطئة بالأرض » وكثير من المؤرخين يغفلون العامل الاقتصادى فى حياة العرب قبل الاسلام وبعده ، مع أنه

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام تأليف كوصان

بجانب الثورة الاجتماعية التي أحدثها الاسلام قلب نظام المال رأساً على عقب، وحارب الرأسمالية، وحرم الربا، وقدح في البخل، وشرع الصدقة والزكاة، وحض على صلة ذوي القربى، ونظم المواريث ورتب حقوق المرأة، وألف القلوب بالبذل وبسط اليد للبعيد والقريب. وبالجملة أوجد طبقة جديدة من أوساط الناس لمقاومة عبادة المال، وحطم المثل العليا التي كان المكيون يمجدونها. ولم يكن هذا الانقلاب بالشيء القليل. والذي غاظ أهل مكة وأحنقهم وأحرق أكبادهم أن محمداً بلغهم أن هذا التبديل ليس من عنده، ولكنه من عند الله، فهو أمر محتوم واجب التنفيذ، لأن إرادته أقوى من إرادة كل هذه الأوثان المعسكرة في الكعبة والمنتشرة في الحواضر والبوادي العربية

— ٥ —

يدهش المؤرخ من قدرة محمد على مواجهة الشدائد والاضطلاع بأعقد المشاكل، فهذه المدينة التي هاجر إليها ولم يكن يعرفها من قبل إلا بالوصف والتصور بعد زيارته الأولى وهو طفل في حضانة أمه، كانت تضم إلى جانب الأنصار عناصر قوية وعنيدة من اليهود والمنافقين والمعادين من المترددين وغيرهم، وهي طبقات ثلاث يستطيعون أن يتغلبوا على المهاجرين والأنصار. وكان المنافقون واليهود والمعادون من حلفاء قريش أقوياء وأغنياء، والمهاجرون والأنصار ضعفاء وفقراء، حتى اضطر محمد لوضع نظام المؤاخاة. وقد اضطر بعض المهاجرين للعمل البدني لقاء أجور من التمر، ولكن محمداً رأى أشد الخطر في اليهود الذين جمعوا بين المال والذكاء والجمال ودين منزل سابق لدين محمد ودين سلفه الناصري، إلى حيلة واسعة، ثم خيبة أمل يعقبها حقد دفين ورغبة شديدة في الانتقام. فقد عرف اليهود في محمد النبي المنتظر، ولكن كبرياءهم أبت أن يطأطئوا رؤوسهم أمامه، لأن القرآن أذاع حقيقتهم فامتدح أنبياءهم وانتقد أطماعهم وعرض بأخلاقهم. وقد أعماهم مالهم، وأضلهم شهواتهم، وأصبحوا لا يقدرون الرجال إلا تبعاً « للرصيد » الذي يملكه أحدهم. ولم يكن محمد عميلاً لهم إلا في الاقتراض منهم ولو برهن بعض دروعه. ولم تكن له في صناديقهم وخزائنهم ودائع ضخمة ولا هزيلة، لأن كل ما كان يصل إلى يده ينفقه في سبيل الله وفي حشد الجيوش وإعداد الحملات الموفقة؛ فما زال يعالنهم حسب أمر ربه وطاعة لوحيه، حتى حاربوه في السر والعلن، فدسوا له السم، وأعانوا عليه أعداءه، وحرضوا جيشه على الفتنة، وألفوا حزباً من « دعاة التردد والهزيمة » وهم المنافقون ومن لف لفهم وتواطأوا على خذلانه؛ فلم ير بدأ من ضرورة طردهم من الجزيرة وإقصائهم وقطع دابرهم، فسبق حكام ألمانيا الحديثة بألف وأربعمائة عام في الوصول إلى الحقيقة المطلقة، وهي أن العنصر المعادي في الوطن يعمل على تدميره وتخريبه ويعطل حياته بعرقلة التعاون. فكانت موقعة خيبر موقعة حاسمة في تاريخ الإسلام بل في تاريخ العالم. أما النصارى فقد أوصى بهم خيراً. وكانت بيت المقدس في أيدي المسلمين منذ الفتح العربي؛ وكان الخليفة عمر يرعى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيما رعاية وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره وسننه

قد ندهش لتسامح الإسلام مع المعتقدات الأخرى في حين أنهم لم يألوا جهداً في النيل منه. وفي الحق أن محمداً جاء بالقرآن مصدقاً للتوراة والإنجيل وقال الله عنه إنه خاتم الأنبياء والمرسلين؛ وقد أمر باحترام النصارى واليهود وسماهم أهل الكتاب تمييزاً لهم عن عبدة الأوثان؛ وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير. وكان ضلع المسلمين في صدر الإسلام مع النصارى بالتخصيص بدليل آية « غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » وقد نال اليهود ما استحقوا بعد أن خانوا أمانة الله ونكثوا بالعهود وحاربوا نبيه

حرمت الشريعة الإسلامية الربا كما أن الشريعة المسيحية حرمته تحريماً لا يوصف، وكانت متشددة في ذلك ما استطاعت، فكانت النتيجة أن اليهود انبروا في الميدان وظلوا قروناً عديدة محتازين التجارة يجنون ثمارها، لا يشاركهم في ذلك مشارك ولا يزاحمهم مزاحم. وكانت الشريعة الإسلامية قائمة على تكريم العلم، والقرآن حافل بالآيات التي تحث عليه، وكذلك الحديث، فقد جاء فيه: « أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد. واطلبوا العلم ولو في الصين. والحكمة ضالة المؤمن. ويوزن مداد الحكماء بدم الشهداء يوم القيامة. والعلماء ورثة الأنبياء. وما خلق الله شيئاً أفضل من العقل »

— ٦ —

من أعمال نبينا عليه الصلاة والسلام تأسيس الرابطة الاسلامية التي جمعت بين قلوب المسلمين فى أنحاء العالم جمعاً إنسانيًّا ، فجعل العقيدة الروحية فوق الرابطة الجنسية ، وجعل للإنسانية مثلاً أعلى بجانب حب الوطن فقال إنه من الإيمان ، وحض على الأخاء وحب البشرية . وما كانت تلك الجامعة الاسلامية سوى الشعور بالوحدة العامة المتفقة مع فكرة التوحيد ووحدة الوجود . نعم كانت الجامعة الإسلامية العروة الوثقى لا انفصام لها ، وقد أنشأها النبي منذ شرع يجاهد بالمدينة فالتف حوله المهاجرون والأنصار والمؤمنون من كل طبقات المجتمع ، ففيهم الرقيق أمثال بلال ، والسادة الأعيان كعثمان بن عفان ، والأبطال كخالد بن الوليد . وقد ولدت تلك الجامعة التي ربطت بين قلوب المسلمين فى المدينة المنورة وهى التي أعانت على هزيمة المشركين بعد قتالهم وتأسيس الحضارة الإسلامية التي يفخر بها العالم

وفى أثناء الهجرة المحمدية أعد محمد وسائل الاستيلاء على مكة ، فقبل صلح الحديبية ونفذ بنوده بالدقة ، ونقض حياة القرشيين بالحرب والحيلة ، وقلب هزيمة أحد انتصاراً سياسياً باهراً ، واستعمل سلاح الدعاية فغزا عقولهم وقلوبهم وأخلاقهم قبل أن يغزو بلدهم ، وهزم إرادتهم قبل أن يهزم جنودهم ، وهدم حصون نفوسهم ، وحطم مثلهم العليا البالية قبل أن يهدم قلاعهم أو يحطم أصنامهم وأوثانهم طائعاً للوحى الإلهى ، وتابعاً للمشورة الحسنة من صحابته حتى الأجانب منهم كسلمان الفارسى الذى وهبه لقب الأمارة ، كما فعل بعده ملوك أوربا إذ جعلوا بيسمارك « برنساً » أو أميراً ، فقال محمد : « سلمان منا آل البيت » . وكان فى كل هذا إنساناً سامى الأخلاق كيِّساً ، مهذباً ناضج الرأى ، لين العريكة سمحاً ، لم يجد فيه خصومه عيباً . وهكذا شهد له الأغيار بعد انقضاء الأجيال فقال ولز فى تاريخه العام : « كان محمد أكثر الأنبياء نجاحاً » ولا عجب ولا غرابة فمحمد هو الإنسان الكامل

— ٧ —

كان محمد عليه الصلاة والسلام نبياً مرسلاً ومصلحاً ومشترعاً ، وجاء دينه وهو الأوحد الذي انطوى على شرائع وقوانين سياسية واجتماعية واقتصادية تقوم اعوجاج الفطرة البشرية ، وتؤهل الفرد للمعيشة فى المجتمع الإنسانى عيشة راضية راقية ، ومكنت لتابعيه تأسيس أعظم دولة عرفها الشرق والغرب . وقد طبقت قواعده وظهرت مزاياه الصالحة فى الحروب والمعاهدات والمعاملات الدولية وأثناء السلم ؛ ولو نفذ بنصوصه لأغنى العالم عن نزاع الرأسمالية والعمال ، ولامحت الشاغبة من الوجود ، لأن أحزاب الشمال فى أوربا ولا سيما روسيا لا يملقون إلا ببغض قواعده التي تقر العدل والرحمة والمساواة وضمان حرية الفرد وسعادته

وما كان يبغض شيئاً بُغضه الشرائع والقوانين الجامدة التي تقيد العقل فتقوده صاغراً أعمى . وليس القرآن إلا كتاب هدى للمؤمنين ورحمة وليس عثرة فى سبيل رقى المجتمع والآداب والشرائع والقوانين والمدارك العقلية . ونحن الآن فى القرن الرابع عشر الهجرى وقد بدأت فيه نهضة الإسلام حقاً كما بدأت نهضة أوروبا فى القرن الرابع عشر المسيحى . ومتى وضع الإسلام فى البوتقة وأخرج منه ما علق من الأباطيل الخداعة ، عاد إلى أصله وهو توحيد الله تعالى والإيمان بأن محمداً هو رسول الله عليه الصلاة والسلام

محمد لطفى جمعة

* * *

أهم المراجع :

سيرة النبي تأليف بوله ؛ دستور المدنية : لويلهاوزن ؛ إنحلال الغرب : لشبنجلر ؛ العرب قبل الاسلام : پرسيفال كوصان ؛ الطبقات الكبرى : لابن سعد ؛ السنة المحمدية : جولد زيهر ؛ كتب السيرة وتاريخ مكة : للأزرقى

إلى الأمة الإسلامية في عامها الجديد

للأستاذ محمد عرفة
أستاذ بكلية اللغة العربية



للشعوب أخطاء كما للأفراد أخطاء، وشر هذه الأخطاء ما يقع فى القواعد الاجتماعية، إذ الخطأ فيها تكون له نتائج سيئة الأثر تتجرع الأمم غصصها ما دامت فيها هذه الأخطاء.

وخير ما يسديه إلى أممهم رجال الاجتماع والعلماء بروح الجماعات وطبائع الشعوب أن يصلحوا لهم هذه الأخطاء ليجنبوهم شرورها، ويصلحوهم بإصلاحها. إن لكل خطأ مهما كان أضراره، فالرجل إذا أخطأت الجادة تردى صاحبها فى الحفرة أو تعثر بحجر، والمرء إذا أخطأ فى تجارته منيت بالبوار، وصاحبها بالخسار؛ وإذا أخطأ فى طعامه وشرابه ولباسه فقد الصحة وعاودته الأوجاع والأسقام

هذه أضرار تنشأ عن الأخطاء، وهي وإن كانت شديدة ولكنها لا تبلغ ضرر خطأ الجماعة فى قاعدة اجتماعية، لأن الضرر يكون عاماً بقدر ما فى هذه الجماعة من عموم دائم بقدر ما فى الخطأ من مكث، بالغ فى الشدة بقدر ما فى الخطأ من انحراف عن الصواب. وإن الأمة الاسلامية لها أخطاء فى القواعد الاجتماعية تجنى منها الألم والحسرة. وقد رأيت أن أصلح لها خطأ من هذه الأخطاء وأجعل ذلك هدية منى إليها فى مستهل هذا العام الجديد. وسأذكر هذا الخطأ وإصلاحه بعد أن أذكر بين يديه مقدمة

إن كل شىء فى الكون يتنازع الوجود، والبقاء فى هذا التنازع للأقوى، وقد كان الفرد قبل تكون الجماعات ينازع الفرد، ثم التمس أسباب القوة بالاجتماع، وقد أخذ الاجتماع أشكالاً عدة من الأسرة والعشيرة والبطن والقبيلة، وقد كان النزاع بين الأسرة والأسرة والقبيلة والقبيلة نتيجته غلبة الأقوى تبعاً لقانون إنما العزة للكاثر؛ ثم أخذ الاجتماع شكلا أوسع بالمدينة والمملكة فكان أهل كل مملكة يكونون وحدة مستقلة تجلب لنفسها الخير وتدفع عنها الضير، ثم جاء الدين الاسلامى فكون وحدة إسلامية لم تبلغ وحدة من العظم والتجانس ما بلغته هذه الوحدة

عمل الاسلام على غرس المحبة والتضامن بين أجزاء هذه الوحدة فقال: لن يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه

وقال: المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً.

وقال: ترى المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى

أحب المسلم أخاه المسلم وساد على المملكة الاسلامية المحبة والسلام فتعاونوا على جلب النافع ودفع الضار

لقد أتت هذه الوحدة بالمعجزة الاجتماعية العظمى فقد كان العرب قبل الاسلام ينتقصون من أطرافهم، وكان من بجوار الشام عمالاً للروم، ومن بجوار الفرس عمالاً للفرس. فلما جاء الاسلام أعز الله به العرب والمسلمين، فلم تمض عشرون سنة من عمره حتى هدد هؤلاء الأقلون المملكتين المتاخمتين الفرس والروم وانتقصوهما من أطرافهما، ثم عقب ذلك أن ورث ملك الأكاسرة ومعظم ملك القياصرة

هذه المعجزة الاجتماعية إذا بحث المرء عن سببها وجدها فى الوحدة الاسلامية، فقد بدل الاسلام تفرقهم اجتماعاً، وبغضهم حباً، وحربهم سلماً، وبعد أن كان بأسهم بينهم شديداً حول هذا البأس إلى الآخرين، لذلك منّ الله على المسلمين بهذه الألفة (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون)

(لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم)

للغرب طمع فى الشرق من قديم، وقد غالبه مرات وهو

يحقق. قامت الحروب الصليبية ، وزحف الغرب على الشرق وهاجمه فى عدة من ثغوره وبلدانه ولكنه لم تجده هذه المحاولة وهذه المهاجمة ، فعاد إلى الحيلة ورأى أنه يستطيع أن يدرك بالحيلة ما عجزت عنه القوة

الغرب عالم واسع العلم لا يسير إلا ومصباح العلم أمامه يهديه السبيل ، ويبصره مواقع أقدامه ، نظر إلى الجسم الاسلامى فرأى أنه ليس يضيره أن يبتر منه عضو من أعضائه . إنما الذى يضيره ويقدره عليه هو إضعاف روحه ؛ وقد رأى روحه الوحدة الاسلامية فعمد إليها وسماها تعصباً دينياً ممقوتاً ، وسمى التعاون الدينى تعصباً إسلامياً همجياً . وأسبغ عليه ماشاء من نعوت الذم والوحشية ، فدخل ذلك على الشرق — وهنا وصلنا إلى ما نريده من الخطأ الذى وقعت فيه الأمة الاسلامية — فآمنت بنظرية الغرب ، وسمتها تعصباً دينياً ، وخجلت من أن توصم بالتعصب الدينى ، فتركت هذه الوحدة المقدسة ، ونفرت من هذا التعاون الاسلامى ، فلما ضعفت الروح سهل التغلب على الجسم

كان على المسلمين أن يعلموا أنه لا مقاومة فى الوجود إلا بوحدة . وقد ظهرت هذه الوحدة بمظاهر مختلفة منها الوحدة الجنسية ومنها الوحدة الوطنية ، ومنها الوحدة الدينية ، وإذا استمسك الغرب بالوحدة الجنسية أو الوطنية لما فيها من الإقدار على الكفاح فى هذه الحياة ، فعلى المسلمين أن يستمسكوا بما صبوا فيه من وحدة إسلامية ليقدروا أيضاً على الكفاح فى هذه الحياة

كان على المسلمين أن يعلموا أن التعصب الدينى موجود فى أمم الغرب التى تعيب المسلمين بالتعصب الدينى ، يظهر ذلك فى أعمالهم وكثير من نواحى حياتهم ، وأقرب ذلك تطوع بعض الأوربيين والأمريكيين فى جيوش الأسبانيين ، والفرنسيين ضد الريفيين المسلمين الذين كانوا يدافعون عن وجودهم ، فلو أن التعاون الدينى كان نقيصة كما يزعمون لما نهوا عنه غيرهم وأتوه هم

كان على المسلمين أن يعلموا أن الوحدة الجنسية والوطنية فى أوربا قد أتت من الفظائع ما لم تأت بمثله ولا بأقل منه الوحدة الاسلامية فى الاسلام ، وآية ذلك معاملة الألمان لليهود ، وتلك الحروب الطاحنة تؤجج نارها العصبيات القومية أو الجنسية . ليس فى الوحدة الدينية ما يمكن أن تؤخذ به إلا أنه قد يكون فى الوطن الواحد أديان مختلفة؛ والوحدة الدينية ربما عادت بين هذه الوحدات، ولكن الاسلام قد احتاط لذلك ، وأوصى المسلمين بهم وأوجب أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم

حافظ الاسلام على أهل الذمة وذوى العهود والمواثيق من ذوي الأديان المخالفة (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)

على الأمم الاسلامية أن تقلع بعد اليوم عن هذا الخطأ وأن تعلم أنها وقعت فيه فى بعض تلك الموجات التى تغمر الأمم فتلهيها عن مصالحها ، ولا يخافن أهل الذمة فى بلاد المسلمين وذوو العهود مع المسلمين من إحياء الوحدة الاسلامية فانها تقوى جيرانهم وأهل عهدهم ولا تصيبهم بأذى لأن الاسلام كما قدمت يوصى بأهل الذمة وبالوفاء بالعهود

محمد عرفة

من ثمرات الهجرة

جهـــاد شهيد

للأستاذ سعيد الأفغاني

كلما أظل الكون عام جديد التفت المسلمون إلى الماضى البعيد يستوحونه العبرة ويتلقون منه الدرس . وكم فى صدر الاسلام من عظات ، وكم فيه من دروس ينقضى الزمان وهى لا تنفد وإنها لتجود على كل ناظر فيها بما يحفز الهمة ويوقظ الوجدان ويملأ النفس حمية والقلب خشوعاً . وما أحرى الأقطار العربية عامة أن تتأمل فى تاريخها المجيد وخاصة ما حف بحادث الهجرة الكبرى من أذى واضطهاد ، ظفر من بعدهما المؤمنون الصابرون ، لتستشعر القوة والاقدام وهى تكافح من طغيان المحتلين وكيدهم ما ينفد معه الصبر وتعيا الحيلة وتكل القوى . ومتى رأوا ما فعلت العقيدة والاخلاص في نفوس أسلافهم ، الذين كانوا أضعف منهم اليوم وأفقر وأقل عدداً ، مضوا فى جهادهم مستعينين بالله ، وليس بينهم وبين النصر إلا أن يفعلوا ما فعل الأولون

سمع دعوة الاسلام فانشرح لها صدره ، وطرب قلبه ، ودخل في الدين الحق فأشرب حبه والإخلاص له والاستماتة من أجله ، وشمل أهل بيته ما شمله من رحمة الله فاغتبطوا ذكوراً وإناثاً بما ساق إليهم ربهم من خير

وكان نعيمه من الدنيا أن يرى رسول الله أو يجلس معه أو يستمع إليه ، وهو يجد فى ذلك لذة تغمر وجوده كله فيذهل عن الدنيا وما فيها من متاع ولهو ليغرق فى غيبوبة روحية سامية ، يسمع الموعظة فيلتهمها التهاماً ثم لا يلبث أن يندفع عاملاً بها بحماسة جامحة تثير عاطفة الخير في كل قلب . وكان فى سيرته مثلاً كاملاً للمسلم الحق الذى آمن بالله فعبده مجتهداً حق العبادة ، وأحب الخلق جميعاً فمنحهم من نفسه الرحمة والخير والحب والإحسان

ولقد رقق من نفسه ما كان بلغه من سيرة الرسول فى مكة ، وما تحمل هو وأصحابه من أذى المشركين واضطهادهم فى سبيل الله ، حين دعاهم إلى الخير فصدوا عنه مستكبرين ، وعرض عليهم الإسلام فأسمعوه فى دينه وإلهه ما يكره ، ثم زادت وقاحتهم فرجموه وشتموه وأخرجوه وأجاعوه ؛ وهو مع أصحابه الأخيار صابر ساكت يدعو لهم وينتظر فرج ربه

وكان أنس بن النضر على عقيدة في الله راسخة وإيمان صليب ، ملك عليه الإسلام لبه وتمكن حب الله وحب رسوله من قلبه ، وهو مع كونه من خيار الأنصار قولاً وعملاً ومع فرط محبة النبي له ، شديد الحسرة على أنه لم يكن ممن أوذى فى الله بمكة ، وأنه فاته بذلك شرف عظيم استأثر به المهاجرون الأولون ؛ ولم يكن يعزيه إلا أنه يتلبث حتى تكون فرصة سعيدة يخرج فيها عن حق الله فى ماله وأهله ودمه

وكانت النفرة الأولى إلى بدر ، حيث تصاول الخير والشر كفاحاً ، وحيث وقف المؤمنون صفاً واحداً سلاحهم التقوى وإيمان بالله لا يتزعزع ، واثقين بأنه لابد ناصرهم مع قلتهم وضعفهم على الشرك وأهله الذين خرجوا بطرين مستطيلين ، عادين على الله وعلى رسوله والمسلمين . ولقد صدق المسلمون يومئذ الحملة وأخلصوا النية ، وأرخصوا فى سبيل الله دماءهم وأموالهم فنصرهم الله النصر المؤزر ، ورجعوا إلى المدينة مغتبطين بما أذل الله من الباطل ورفع من الحق ، وما مكّن لهم من صناديد قريش حتى أوسعوهم قتلاً وأسراً

وكان صاحبنا أنس قد عاقته العوائق عن شهود بدر ، فلما بلغه ما كان ثمة من جهاد واستماتة ، وما حل بالقوم من رحمة الله ورضوانه ، حزن حزناً ما حزنه أحد قط ، وكلما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم ما خص الله به أهل بدر من الفضل والخير ، تقطع قلبه حسرات على ما أخطأه من فرصة كان يترقبها بفارغ الصبر منذ عرف الإسلام ، لذلك أراد أن يأخذ على نفسه عهداً يُشهد عليه الله والنبي والمسلمين ، حتى لا يصيبه فى المستقبل ما أصابه فى الماضى ؛ فهرع إلى رسول الله مُنصرفَه من بدر وإن سيماءه لتفصح عن ندم شديد وعزيمة صادقة وحماسة متأججة ، عرف ذلك فى وجهه كل من رآه ، فلما وقف على النبي فى أصحابه قال له :

« يا رسول الله ! غبت عن أول قتال قاتلت به المشركين ، لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرينّ ما أصنع »

***

لبث أنس ينتظر مواتاة الفرص حتى بلغ أهل المدينة ما جمع لهم أبو سفيان من الخيل والرجْل ، وما طابت به نفوس المشركين من ربحهم فى العير لينفق على حرب النبي وأصحابه ، وكان ذلك

خمسين ألف دينار . وما كانت قريش ولا حلفاؤها لتسمح بهذا وهم التجار الحراص على المال[1] ، لولا ما ملأ صدورهم من الغيظ والحنق والكره للمسلمين على ما فعلوا بهم يوم بدر

شاور الرسول أصحابه فيما يصنع فكان الرأى أن يتحصنوا بالمدينة ، حتى إذا أتوهم قاتلوهم عنها . وكان من قول عبد الله بن أبى : « يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منهم . فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا »

وأنى لهم أن يجمعوا على هذا الرأى وفيهم من يتلهف شوقاً إلى حرب المشركين « فقد كان رجال من المسلمين أسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر لما سمعوا النبي يخبر بفضل من شهدها وعظيم ثوابه ، فودوا غزوة ينالون بها مثل ما ناله البدريون وإن استشهدوا » ؛ فلم يعجبهم ما قال المجربون من الرأى الهادئ الخمير ، وتغلبت عواطفهم الجياشة ، واشتد بهم الظمأ إلى الشهادة حتى قالت طائفة منهم :

« إنا نخشى أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج جبناً عن لقائهم فيكون هذا جراءة منهم علينا »

وقال حمزة : « والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة »

وقال النعمان بن مالك : « يا رسول الله لا تحرمنا الجنة ، فوالذى نفسى بيده لأدخلنها » الخ

ووافق هؤلاء مشيخة من المهاجرين والأنصار فكانت غزوة أحد ، وكان أول الناس إسراعاً إليها وأشدهم فرحاً بها أنس وأخته ، وخرج إليها كثير من الأحداث والنساء ، فأبلوا فيها البلاء المحمود ، دفاعاً عن دينهم وذياداً عن نبيهم وشوقاً إلى ما عند الله

* * *

شب القتال ؛ وكان المشركون ثلاثة أمثال المسلمين أو يزيدون ، ونصر الله المسلمين أول الأمر ، حتى إذا ترك الرماة مواقفهم التى أمرهم الرسول بلزومها كان ما هو معلوم للجميع ، وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً وكثر فيهم القتل وانهزم فريق وثبت فريق وأشيع أن رسول الله قد قتل وأسقط فى أيديهم . هنالك كان الامتحان الأعظم للبطولة والإخلاص فمحص الله للشهادة الأخيار ، وذاد القرومُ البواسل عن الرسول ذياد المستميت ، وعمد النساء إلى السلاح يأخذنه من المنهزمين فقاتلن به حتى كانت ضروب الشجاعة والبسالة التى أتاها النساء فقط ، صفحة مجيدة تتقطع دون الظفر بها رقاب الفحول المذاويد الأبطال ؛ وكان من ثبت من الصحابة نفراً ضئيلاً وقع عليهم نعى الرسول وقوع الصاعقة فحاروا فى أمرهم بعد أن ترك أكثرهم القتال ووهنت نفوسهم وألقوا بأيديهم ؛ إذ ذاك ، يدركهم الله بهذا البطل المجاهد المغوار ، أنس ابن النضر يسألهم فيم جلوسهم والحرب قائمة ؟ فيقولون : قتل رسول الله ! فيزداد حمية واستبسالاً ويهتز من فرعه إلى قدمه وتتجسد فيه معانى الجهاد السامية فتتألق عيناه ويلتمع وجهه ويكاد دمه ينفر من عروقه وترتسم عليه سمات الصلابة والعزيمة والاندفاع ويفتر ثغره عن هذه الكلمات الملهمات تذكرهم بالواجب الذى ذهلوا عنه ، وتحفزهم إلى الشهادة ، وتدفع أجبن الناس إلى اقتحام الغمرات

« فما تصنعون بالحياة بعده ؟ ! قوموا فموتوا على ما مات عليه ، أفلا تقاتلون على دينكم وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله عز وجل شهداء » ثم قال : « اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعنى أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعنى المشركين) » انقضت على سامعيه لحظة كانوا منها فى مثل لجج النور من كلماته ، فألهبهم ودفعهم إلى الموت دفعاً ؛ ثم انطلق نحو جموع المشركين فالتقى فى طريقه سعد بن معاذ فقال له : « يا سعد ؛ الجنة ! ورب النضر إني لأجد ريحها من دون أحد » ورمى بنفسه وسط الجموع الحانقة الظافرة ، ضارباً وطاعناً ، فأشرعت إليه الرماح وأصلتت عليه السيوف وسالت منه الدماء على جوانبه ، وهو لا يحس لتلك وخزاً ولا يشعر لهذه بألم ، ولا ينفك منقضاً على الأعداء مقتحماً صفوفهم ، يوسعهم تقتيلاً وإثخاناً ، غير آبه للرماح تتناوشه ، ولا للسهام تنفذ فيه ، ولا للسيوف تقطع منه ، وإنه مع هذا كله لا يرى أنه بذل فى الله طائلاً ، وكلما ازداد الدم منه انصباباً زاد على أعدائه كراً وإقداماً حتى أكرم الله هذه الروح الزكية فسالت على قِصَد القنا وظُبي السيوف فاستأثر سبحانه بها ، وأنالها ما تمنت من الشهادة لتنعم بلقائه وجواره فى عليين

(1) أنظر شرح ذلك وافياً فى كتابنا (أسواق العرب فى الجاهلية والاسلام) ص ١١٦ وما بعدها

ولقد أحمى بكلماته تلك أنوف المهاجرين والأنصار ، فشوا على أثره وكروا ثانية على العدو ، واجتهدوا فى القتال ؛ إلا أن أحداً ما بلغ مبلغ أنس رحمه الله ورضى عنه ، حتى إن سعد ابن معاذ — على ما أبلى فى العدو يومئذ — ليحدث عنه بعد الحرب فيقول : « ما استطعت يا رسول الله ما صنع »

***

انقضت المعركة حافلة بضروب البطولة ، وطفق المسلمون يتحرون قتلاهم لمواراتهم التراب ؛ وإنهم لفى شأنهم إذ وقفوا على جثة لم يعرفوا صاحبها لأن السيوف والرماح لم تبق على شيء من ملامحه قط . يا للهول ويا للبسالة ! بضع وثمانون بين طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم ، يتلقاها رجل واحد فقط ، ثم هو بعد ذلك لم يشف صدور أعدائه الحنقين عليه لما ملأ قلوبهم حرداً وغيظا من كثرة ما فتّل فيهم ، لم يبرّد أكبادهم كل ما نالوا منه ولم يُذهب غيظ قلوبهم قتله ، بل شوهوا الجثة ومثلوا بها ، لقد بلغ من المسلمين هـذا المنظر أمداً بعيداً ونفضهم نفضاً من شدة التأثر ، وعظمت رغبتهم فى معرفة صاحب الجثة ، ولبثوا مدة لا يهتدون إليه ، حتى تقدمت امرأة مجاهدة تحدّرت منها العبرات الحرار ، وهي تحدق فى أنامل الشهيد ثم قالت : « هو أخى أنس بن النضر ، عرفته ببنانه ! »

***

رجع المجاهدون الأبرار ، الذين اصطفاهم الله رسلاً إلى الإنسانية المعذبة يفيضون فيها الرحمة ، ويشيعون العدل والإحسان ، رجعوا إلى المدينة يحفهم رضوان الله وتتنزل عليهم رحمته ؛ وقد خلفوا فى أحد سبعين بطلاً استماتوا بإخلاص ليجعلوا كلمة الله هى العليا ، فنعمت أرواحهم بالشهادة . ولئن كان من بقى منهم على قيـد الحياة قد أبلى البلاء الحسن وبذل طاقته ومجهوده ، فان الحسرة لتذيب كبده على أنه لم يحظ بما حظى به إخوانه من شرف الشهادة ، ولم يخفف من حسرتهم إلا أملهم فى أن يكرمهم الله بها فيما ينتظرهم من معارك

لكن الله سبحانه رضى عن هؤلاء وأولئك ، وأنزل فيهم قرآناً ما يزال الناس يتلونه والعبرات تجرى غزاراً من مآقيهم ، وما زال هذا الصوت الإلهى المقدس يهيب بالمسلمين والمستضعفين مدوياً فى الآفاق :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يُقاتلون فى سبيل الله فيقتُلُون ويُقتَلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »

ونحمد الله على أن هـذا الفيض المقدس من شرف الدفاع ، ما زالت أمداده متصلة باستمرار ، وما زال الشهداء يتوافدون على ميادين الجهاد ؛ وما برحت هـذه الطائفة المختارة من المسلمين تتكالب عليها الأعداء من كل جانب ، وما انفكت عرضة لتألبهم وهمجيتهم وضراوتهم والله يمتحن الخلف بما امتحن به السلف ، ويخص من شاء منهم بكرامته . فنى كل بلد إسلامى ميدان جهاد وشهداء دفاع ، وفى كل بقعة عربية عدد مستبيح وقافلة تستشهد ولن نزال إلى قيام الساعة نستشهد ، ولن نزال إلى قيام الساعة نتأسّى بتلك العصبة الطاهرة من شهداء أُحد ومجاهديها ، ولا تفتأ منا طوائف تترى على آثار من سلف من أولينا كلما خلت مواضع فى الصف أحتلها فوج ؛ ولم ينس النـاس بعد تلك الأرواح البريئة التى صعدت إلى بارئها فى العراق وسوريا وفلسطين ومصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وهى تكافح أحفاد الصليبيين من بريطان وفرنسيس وطليان وإن هـذه القوافل لتستمر فى تلبية نداء ربهـا بتهافتها على الشهادة ، كلما ردّدت المحاريب ما أنزل الله فى أبطال أُحد :

« من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليـه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا »

فيا أيها الشهداء المخلصون الأبرار من لدن أُحد وبدر إلى معارك فلسطين وساحات المغرب الأقصى اليوم !

ويا أيتها الحلقة النورانية التي انتظم فيها أنس بن النضر وعبد الرحمن الغافقى ... حتى عمر المختار وعز الدين القسام وفرحان السعدى ومن يخلف هؤلاء وأولئك فى مشارق الأرض ومغاربها !

هنيئاً لـكم الكرامة فى دار الخلد ، فقد غضبتم للحق وحميتم الحرمة وحفظتم البيضة ، وجردتم سيوفـكم تذودون لصوص الأعراض والأموال والأديان من ذئاب البشر الجائمة الضارية ، وتدافعون عن الشرف والنبل والخير والمثل السامية ، حتى أسلمتم أرواحكم وقدمتم على ربكم بدمائكم تشكون وحشية الطامعين وفظائع المحتلين

يا أيها الشهداء المجاهدون : لا حرم الله دنيانا من أمثالكم فأنتم منار الهدى ومصابيح الظلام . وعليكم رحمة الله ورضوانه

(دمشق) سعيد الأفغانى

محمد في أطوار حياته

دراسة تحليلية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

(قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به
فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون)
(سورة يونس — ١٦)



بعث محمد صلى الله عليه وسلم فكانت معجزته الكبرى هذا القرآن الكريم بفصاحته الباهرة وما جاء به من تشريع قويم في أصول الدين وفروعه، على أنه كان مع هذا يلجأ إلى العقل فيستعين به في تأييد رسالته، وإلى العلم فيستخدمه في إثبات نبوته، وإلى هذا تشير تلك الآية الكريمة من سورة يونس (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون)

فهو يقيم في هذه الآية دليلاً على صحة نبوته يستند إلى دراسة تاريخه قبل النبوة وبعدها، وإلى دراسة نفسه في هذين الحالين، والدراسة الأولى فرع من علم التاريخ، والدراسة الثانية فرع من علم النفس، وسنقوم الآن بهاتين الدراستين، ونتتبع فيهما أطوار حياته صلى الله عليه وسلم

الطور الأول: ولد صلى الله عليه وسلم يتيماً عائلاً، لم يرث من والده شيئاً، لأن أباه مات قبل جده عبد المطلب وهو شاب لا يكاد يجاوز حد العشرين، فلم يرث شيئاً من مال أبيه، ولم يتمكن من أن يجمع شيئاً لابنه. بل مات بعد شهرين من حمله، ثم لم تلبث أمه أن ماتت بعد موت أبيه، فكفله جده عبد المطلب، ثم كفله بعد وفاة جده عمه أبو طالب

وكانت قريش تعيش في مكة عيشة متحضرة تعتمد على العمل والكسب، ولا تعرف ما تستنه البادية العربية في معيشتها من الغزو والنهب، فنشأ محمد صلى الله عليه وسلم على غريزة قومه، محباً للعمل، راغباً في الكسب الحلال، وهو الذي قال بعد هذا في رسالته: أطيب الحلال أن يأكل الرجل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده

فلما بلغ مبلغاً يمكنه معه أن يعمل عملاً أخذ يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع في البادية، ثم مضى في هذا العمل بعد أن رجع إلى مكة، فكان يرعى الغنم لأهلها على قراريط يأخذها منهم، كما روى هذا الامام البخاري في صحيحه

وكان في هذا الطور يميل إلى شيء من اللهو البريء، وتدركه عناية الله فيه كما تدرك كل شاب موفق، وقد حكى عن نفسه في ذلك بعد رسالته فقال: لما نشأت بُغِّضت إليّ الأوثان وبُغض إليّ الشعر، ولم أهمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، كلّ ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوء بعدها حتى أكرمني الله برسالته، قلتُ ليلة لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمرَ كما يَسمر الشباب، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدُّفوف والمزامير لعُرْس بعضهم، فجلست لذلك فضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، ولم أقض شيئاً، ثم عراني مرّة أخرى مثلُ ذلك

الطور الثاني: فلما بلغ صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة سنة أخذ يعمل في التجارة مع عمه أبي طالب، فسافر معه إلى الشام للتجارة وهو في هذه السن، ولما حذق التجارة انفرد بنفسه عنه.

وكان في مكة سيدة تاجرة ذات شرف ومال تدعى خديجة بنت خويلد من بني أسد بن عبد العزّى بن قصي، وكانت تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه، فسمعت عنه من الأمانة والصدق ما رغبها في أن تستأجره للتجارة في مالها، وكانت سنه في ذلك الوقت خمساً وعشرين سنة، فاستأجرته ليخرج في مالها إلى الشام للتجارة، على أن تعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره، فسافر إلى الشام مع غلامها ميسرة، فباعا وابتاعا وربحا ربحاً عظيماً، فسرت به تلك السيدة الكريمة، وكان زوجها قد توفي ولم تتزوج بعده فأرسلت إليه تخطبه لنفسها وكانت سنها نحو الأربعين، فقام مع

أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد فخطبها له منه عمه أبو طالب، فزوجها عمها له، وصارت بهذا زوجه خمساً وعشرين سنة، وكان يعمل فى مالها ويأكل من نتيجة عمله، على أنها ما كانت تضن عليه بشىء منه

الطور الثالث: وكان فى نفسه صلى الله عليه وسلم ميل إلى عبادة ربه، وإلى العزلة عن ذلك المجتمع الموبوء برذائل الجاهلية، فلما رزقه الله بتلك الزوج الكريمة، وصار له مال يساعده على قضاء حاجة نفسه من عبادة ربه، كان يقصد كل سنة فى شهر رمضان إلى غار حراء، فينقطع فيه للعبادة، وكانت قريش تفعل ذلك في جاهليتها، ولم يبتدع منه صلى الله عليه وسلم شيئاً جديداً لم يكن يفعله أحد من قومه

وكان يخلو بهذا الغار فيتعبد فيه الليالى ذوات العدد، فتارة عشراً، وتارة أكثر إلى شهر، ويأخذ لذلك زاده، فإذا فرغ رجع إلى زوجه فيتزود لمثلها

وهذا الطور آخر أطواره قبل النبوة، فإذا أردنا أن نستخلص منها شيئاً من خصائصه صلى الله عليه وسلم فيها وجدناه رجل عمل يعتمد على نفسه، ويأخذ فى ذلك بما اشتهر به قومه من الحذق فى التجارة، والرحلة فيها إلى الأقطار القريبة والنائية، لا يشغلهم عنها شاغل، ولا يهتمون بغيرها مما كان يهتم به غيرهم من العرب، حتى عيرهم بهذا بعض شعرائهم فقال:

ألهى قُصيًّا عن المجد الأساطيرُ ... ورشوة مثل ما ترشى السفاسيرُ
وأكلها اللحم بحتاً لا خليط له ... وقولها رحلت عيرٌ أتت عيرُ

وكان فى هذه الحياة العملية من أحسن قومه خلقاً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال، حتى كان من أفضلهم مروءة، وأكرمهم مخالطة، وخيرهم جواراً، وأعظمهم حلماً، فأحبوه وركنوا إليه ولقبوه الأمين حتى غلب على اسمه هذا اللقب

وكان على علمه بفساد ما عليه قومه من عبادة الأصنام وما إليها يكتفى من هذا بالعزلة التى أخذ نفسه بها، ويأخذ بما يأخذ به بعض الناس من الاهتمام بإصلاح نفسه وعدم الاهتمام بإصلاح غيره، وكأنه كان يضن بذلك الحب الذى يحبوه قومه به أن يفسده بتخطئتهم، وتسفيه ما ألفوه من عبادة أصنامهم، فهى لا يهمه إلا أمر نفسه، ولا يعنى بشىء من أمر غيره، اللهم إلا بعض الأعمال الصالحة التى كان يقوم قومه بها، فكان يشاركهم فيها ويقوم بنصيبه منها، كما حصل منه فى حلف الفضول بدار عبدالله بن جُدْعان التَّيمى، وكان المتحالفون فيه بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف، وبنى أسد بن عبد العزَّى، وبنى زهرة ابن كلاب، وبنى تيم بن مرَّة؛ تحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى ترد إليه مظلمته، فحضر محمد صلى الله عليه وسلم هذا الحلف مع أعمامه وقال فيه بعد رسالته: «لقد شهدت مع عمومتى حلفاً فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لى به حُمُرَ النَّعَم، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت»

ولم يعن صلى الله عليه وسلم فى هذه الأطوار بشىء من الفصاحة والبلاغة، ولم يحاول أن يكون بين قومه خطيباً أو شاعراً، بل كان يكره الشعر كرهه لعبادة الأصنام، مع أن الجزيرة العربية كانت تعج فى ذلك الوقت بالشعراء والخطباء، ولكن قريشاً كانت لا تعنى بشىء من ذلك، وإنما كانت تعنى بالمال والتجارة عناية أبناء عمومتهم من اليهود، حتى كان حظها من الشعر دون حظ غيرها من القبائل، وإن كانت لغتها أفصح اللغات العربية، وإن كانت مواسم الأدب وأسواقها لا تقوم إلا فى بلادها

وقد قضى محمد صلى الله عليه وسلم فى هذه الأطوار أربعين سنة من عمره، قضاها على ما وصفنا فى حياة هادئة، وعيشة مطمئنة، لا تحدثه نفسه فيها بشىء مما حصل منه بعدها، ولا تطمح فى أمنيها وقناعتها إلى أكثر مما وصلت إليه فيها

الطور الرابع: وقد بلغ صلى الله عليه وسلم أربعين سنة فإذا به ينتقل فجأة من تلك الحياة الهادئة إلى حياة عنيفة يشتد فيها الخصام بينه وبين قومه، وينقلب ما كان فيه من عدم المبالاة بأمرهم حرصاً على مودتهم إلى اندفاع شديد نحو الاهتمام بأمرهم، وإن أدى هذا إلى انقطاع تلك المودة التى كان يحرص عليها، وكان فى أهنأ ما يكون من العيشة بها بينهم؛ وإذا به وهو ذلك الأمى الذى لم يجلس إلى معلم، ولم يشتغل فى تلك الأربعين سنة إلا بما ذكرنا من التجارة ورعى الغنم، ينقلب إلى خطيب لا يدانيه

خطيب فى فصاحته ، وعالم لا يدانيه عالم في علمه ، وبيده كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يدعو به الناس أجمعين ، ويهديهم إلى دين الله الصحيح ، وترك ما دخله من التغيير والتبديل والتحريف ، ويجلب على نفسه بهذا عداء الوثنية وزعمائها من قومه ، وعداء المجوسية وزعمائها من الفرس وأكاسرتها ، وعداء النصرانية وزعمائها من الروم وقياصرتها ، وعداء اليهودية وزعمائها من اليهود وأحبارها

فما هذا كله ؟ وما هذا الذى جعل من محمد الأمين بين قومه عدوهم اللدود وخصمهم المنيد ؟ لقد اختلفوا عند بناء الكعبة وهو ابن خمس وثلاثين سنة فى الحجر الأسود أيهم يرجعه إلى موضعه من الكعبة ، ثم اتفقوا على أن يحكموا بينهم أول داخل إليهم ، فلما دخل إليهم قالوا : هذا الأمين رضيناه ، هذا محمد ، فبسط رداءه ووضع الحجر عليه ، وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه ، فأخذه ووضعه فيه

فما هذا الذى جعله بعد هذا يعرض نفسه لأن يتهموه بكل شنيعة من القول ؟ فيقولوا عنه مرة إنه ساحر ، ومرة إنه شاعر ، ومرة إنه كاهن ، ومرة إنه مجنون

إنه لم يفعل هذا من نفسه ، ولو أنه خلى ونفسه لمضى فى تلك الحياة الهادئة إلى نهاية أمره ، وإنما كان يعمل فى هذه الحياة الجديدة بأمر طرأ عليه ، وغير من نفسه ما شبت عليه فى تلك الأربعين سنة

فبينما هو في غار حراء قائم فى بعض الأيام على الجبل إذ ظهر له شخص وقال : أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة ، ثم قال له : إقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، لأنه كان أمياً كما سبق ، فأخذه فغطه بالنمط الذى كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله ، فقال : إقرأ ، فقال : ما أنا بقارىء ، فأخذه فغطه ثانية ثم أرسله فقال : إقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، فأخذه فغطه الثالثة ثم أرسله فقال : « إقرأ باسم ربكَ الذى خلقَ ، خلقَ الإنسانَ من علقٍ ، إقرأ وربكَ الأكرمُ ، الذى علمَ بالقلَم ، علمَ الإنسانَ ما لمْ يعلمْ »

فرجع بها صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده مما ألم به من الروع ، فدخل على خديجة زوجه فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه روعه ، فأخبرها الخبر ، وقال لها : لقد خشيت على نفسى ، فقالت له : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فلا يسلط الله عليك الشياطين أو الأوهام ، ولا مراء أن الله اختارك لهداية قومك

ثم ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان امرءاً قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فكان يكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره خبر ما رأى ، فقال له : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، ثم قال : يا ليتني فيها جذعاً إذ يخرجك قومك ، فقال : أومخرجى هم ؟ قال : لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى

وقد حقق الله نبوءة ورقة بهذه الهجرة التى نحيي ذكراها كل سنة

وهذا هو حكم التاريخ وعلم النفس فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا يا إلهى بعض جهادى فى نصر دينك أشكو إليك ما ألقاه بسببه من أذى ، وهو لذتي فى هذه الدنيا إذا التذ قوم بمتاعها ، وأنت حسبى ونعم الوكيل

عبد المتعال الصعيدى

دراسات أدبية

مقتل الحسين

وأثره فى الأدب العربى

للأستاذ ضياء الدين الدخيلى

هذا المحرم قد وافتك صارخة ... مما استحلوا به أيامُـه الحرم
يملأن سمعك من أصوات ناعية ... فى مسمع الدهر من إعوالها صمم
تنعى إليك دماء غاب ناصرها ... حتى أريقت ولم يرفع لكم علم

جاء المحرم فالمساجد العراقية مجللة بالسواد ، والوجوه تعلوها الكآبة ، هنا وهناك عويل ونواح بكربان القلب . الصدور موجعة بضرب الأيدى ، والمتون مكلومة باللدم بالسلاسل النحاسية ، والنفوس فزعة جزعة قد تملكها الهلع إذ خلبتها الألسن الذلقة التى لم تدع أسلوباً لتهويل فاجعة كربلاء إلا ركبت سبيله الأوعر والأشد إيلاماً والأنكى لذعة ولوعة . مواكب تجلببت السرابيل المضاعفة من الحزن خنقها الأسى فلا تأسى ، ورؤوس تشج بحد السيوف ، ودماء تراق على مذبح فاجعة كربلاء ، فما قيمة العبرات والزفرات والدموع المنصبة على أقدام هذه المأساة المؤلمة التى لم يع التاريخ أفجع منها ولا أكثر جلبة من تبعاتها . ففى إيران والعراق والهنـد وسورية والحجاز وهنا وهناك مآتم ومناحات تعقد لتسكب العبرات وتنفث الزفرات ، فكأن نفس الشرق الحالمة بالأشباح والرؤى ، المفعمة بالطموح وأحلام الغيب ، المتبرمة بالحياة وأحكامها التى ترزح بأعبائها — وجدت فى هذه المأساة مجالاً واسعاً لإعلان عويلها والتنفيس عن كربها

وإن شيعة العلويين التى لم تهيمن على مقدرات البلاد ولم تسيطر على أزمة الحكم وتقبض على السلطة الزمنية إلا قليلاً ، بقيت طوال الدهر ناقمة ساخطة على الدهر الهازل ، ساخرة من أقداره الملوءة بالمهازل ، فشاعرها (السيد جعفر الحلى صاحب ديوان سحر بابل وسجع البلابل) يقول :

وجه الصباح علىّ ليل مظلم ... وربيع أيامى على محـرم
بى قرحة لو أنها بيلملم ... نسفت جوانبه وساخ يلملم (١)

(١) جبل

ما خلت أن الدهر من عاداته ... تروى الكلاب به ويظما الضيغم
ويقدم الأموى وهو مؤخر ... ويؤخر العلوى وهو مقـدم
مثل ابن فاطمة يبيت مشرداً ... ويزيد فى لذاته متنعم
ويضيق الدنيا على ابن محمد ... حتى تقاذفه الفضـاء الأعظم
خرج الحسين من المدينة خائفاً ... كخروج موسى خائفاً يتكتم

وقد صبغ المحرم أدب الشيعة بصبغة سوداء قاتمة بالكآبة ، حمراء ملطخة بدم الشهداء ، كالحة تعلوها شارات التكدر والانزعاج من الوضع الراهن الواقعى ، وهذا الأدب الباكى تسوده الأحلام بفردوس مفقود أسسه العدالة ، يرجع فيه حق الحكم إلى أهله وذويه الشرعيين ، لذلك فهو أبداً يندب (صاحب الزمان) الذى غاب عن الأنظار ليعود فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملأت جوراً وعسفاً . وسوف يعم فى عهده الأمان ويسود السلام المجتمع حتى ترعى الشاة مع الذئب ، فاسمع السيد حيدر الحلى يندب الامام الغائب :

مات التصبر فى انتظا ... رك أيها المحيي الشريعة
بك تستغيث وقلبهـا ... لك عن جوى يشكو صدوعه
ما ذا يهيجك إن صبر ... ت لوقعة الطعن الفجيعه
حيث الحسـين بكربلا ... خيل العدى طحنت ضلوعه

والشيعة تعتقد أن حكم اليوم مضرج بدماء الأبرياء ، ملطخ ببقع سوداء من قضاء الجور والشبهات . وفي الحق أن الأدب الشيعى خير مثال لأدب التشاؤم الساخط على الحياة الحالم بالمثل الأعلى . ولا أريد أن أصدر حكماً عاماً شاملاً على أدباء الشيعة وأكسوهم بهذه الصبغة الحالكة ، فمن قرأ غزليات السيد محمد السعيد الحبوبى الشاعر النجفى (طبع ديوانه فى بيروت) وأسام سرح الطرف بين موشحاته الرقيقة وروضياته وخمرياته وجدها ضاحكة متهللة طروباً ، ومن خير ما يمثل الحياة المرحة البهيجة (وعسانا أن نتحدث إلى قراء الرسالة الكرام عن أدب هـذا الشاعر العبقرى) . إنما أعنى هذا القبيل الذى أترع أدبه بالعويل والنياحة ، وعلى رأس هذا الرعيل السيد حيدر الحلى ، وهاشم الكعبي ، وصالح الكواز ، وصالح القزوينى العلوي ، وابراهيم الطباطبائى ، وجعفر الحلى ، ورضا الهندى ، وكاظم الأزرى وعبد المطلب الحلى ، وعبد الحسين الأعسم ، وهؤلاء شعراء مطبوعون

لهم دواوين مفعمة بالأدب المشبع قوة وحيوية ؛ وقد أقاموا على شواطئ الفرات في غضون عصر النهضة دولة للشعر يدعمها خصب القرائح ورصانة الأساليب ومتانة السبك ودقة المعنى وسمو الخيال . وإنه لمن العقوق أن تتغافل عن دراسة أدبهم الأقلام العربية النزيهة بمصر ، وإنك إذا تصفحت ما خلفوه من شعر محكم الأسر ، قوى البيان ، فخم التعابير ، جزل الألفاظ ، وجدته طافحاً بالتهريج والتنديد بالأمويين وما استباحوه من الدماء المحرمة في كربلاء ، وما انتهكوه من حرمة ذرية الرسول ، فترى المحرم قد صبغ أدبهم بصبغة خاصة لا تجد نظيرها في كثير من الآداب العالمية ، وقد مزجوا بشعرهم الوجداني قصصاً ووقائع تاريخية فاستحدثوا لوناً يختلف عما ألفناه في أقسام الأدب العربي من قبل . وقد قرأت للأستاذ الزيات في كتابه (في أصول الأدب) كلمته الآتية ، قال عند استعراضه العوامل المؤثرة في الأدب :

« وتأثير الأديان في الأدب أمر ثابت بأدلة الطبع والسمع فإنها تخلق موضوعات جديدة لمصنفات جديدة ، وتؤثر في الأخلاق والعواطف تأثيراً يتردد صداه في مناحي الأدب ... فأن في كل دين من الأديان السماوية قسماً وجدانياً اجتهادياً يختلف أبناؤه في فهمه اختلافهم في الطبائع والنازع والغاية ، فأشعار الخوارج مثلا تنضح بالدماء وتطفح بالحماسة لتعصبهم وتصلبهم وجعلهم غاية الإسلام جهاد مخالفيهم في الرأي ، وأشعار الشيعة تفيض بإجلال زوج البتول وصهر الرسول وتمجيد ذكرى بنيه وتمثيل آلامهم ورثاء من قتل من أعلامهم »

وما لوّح إليه الأستاذ الزيات حقيقة راهنة تعضدها قواعد علم النفس وأصول التربية الحديثة وقواميس الاجتماع ويدعمها الوجدان بأنصع برهان ؛ فها هي ذي المجاميع المشحونة بالقصائد العصماء التي تتفجر حزناً لمقتل سيدنا الحسين عليه السلام ، ومن أحدثها (لواعج الأشجان) تأليف العلامة السيد محسن العاملي ، و (مثير الأحزان) وحسبك بأسمائها معرفاً بما انطوت عليه صدورها من مآسٍ

هذا عدا الدواوين المسودة بنعي شهداء هذه الوقعة ، وقد كان حامل لواء هذه السرايا هو الشريف الرضي (موضوع دراسة الدكتور زكي المبارك ضيف العراق الكريم فقد أخذ اليوم في تحليل أدبه الخالد فكانت أبحاثاً ممتعة أصبحت محور الحديث والمناقشة في الأوساط الأدبية هنا) ، وقد كان الشريف الرضي مفجوعاً كليم الفؤاد فتجد شعره في رثاء الحسين طافحاً بالأنين والحنين ، قال في قصيدة مقصورة :

وضيوف لفلاةٍ قفرة   نزلوا فيها على غير قرى
لم يذوقوا الماء حتى اجتمعوا   بحِدا السيف على ورد الردى
ووجوه كالمصابيح فمن   قمر غاب ونجم قد هوى
غيّرتهن الليالي وغدا   جائرَ الحكم عليهن البِلى
يا رسول الله لو عاينتهم   وهم ما بين قتالٍ وسِبا
من رميض يمنع الظل ومن   عاطش يُسقى أنابيب القنا
ومَسوقٍ عاثر يسعى به   خلف محمول على غير وطا
جزّروا جزر الأضاحي نسله   ثم ساقوا أهله سوق الإما
واقتيلاً قوّض الدهر به   عُمُد الدين وأعلام الهدى
غسلوه بدم الطعن وما   كفّنوه غير بوغاء(1) الثرى

وشاعر علوي آخر لا يقل في جودة شعره وروعة شوارده عن أبي الطيب المتنبي ، ولربما يجوزه في حماسه الملتهب وطموحه المتوثب المتحفز للانتقام في المستقبل الغامض ، ذلك هو السيد حيدر الحلي ولد عام ١٢٤٦ وتوفي سنة ١٣٠٤ ، وبلده الحلة مدينة كبيرة تقع على أحد فروع نهر الفرات قرب موقع بابل التاريخية ، وقد نبغ فيها عدد غفير من الشعراء النابغين : وإن شاعرنا هذا يمتاز بفخامة التعابير وروعة الأحلام ودقة الوصف والتصوير والمقدرة على التهويل وإلباس الحوادث جلباب الضخامة والجسامة ونحت هياكل الأشباح والأخيلة من مادة الواقع ولكن بتكبير وتعظيم ، وله براعة ممتازة في استنهاض الراقد وتحذير الغافل عن الخطر الداهم ولو كان موهوماً ، وقد عاش مفجوعاً بواقعة كربلاء التي تركت في نفسه أثراً عميقاً فظهر هذا الانفعال النفساني جليا في مراثيه . فمعظمه ينوح على شهيد الإباء ، وديوانه كما سلف نواح وتهديد وزمجرة ووعيد :

وادعت حولي الشجا ذات طوق   مات منها على النياح الهجوع
شاطرتني بزعمها الداء حزناً   حين أنت وقلبي المفجوع

(١) البوغاء : التربة الرخوة كأنها ذريرة ، وتأتي كفن من دون تضعيف متعدية لواحد فاذا ضعفت عديت إلى اثنين كسرب

يا طروب العشيّ خلفك عني لم يهجني صبابة وولوع
لم يرعني نوى الخليـــط ولكن
من جوى الطف [1] راعني ما يروع
أي يوم بشفرة البغي فيـــه عاد أنف الاسلام وهو جديع
أينما طارت النفوس شعاعاً فلطير الردى عليها وقوع
قد تواصت بالصبر فيه رجال فى حشا الموت من لقاها صدوع
سكنت منهم النفوس جسوماً هي بأساً حفائظ ودروع

وقوله يعرض بالهاشميين وتثاقلهم عن نصرته :

لتلو لوى الجيـد ناكسة الطرف
فهاشمها فى الطف مهشومة الأنف
ويا مضر الحمراء لا تنشرى اللوا
فان لواكِ اليـــوم أجدر باللف
ألستم إذا عن ساقها الحرب شمّرت
وعن نابها قد قلصت شفة الحتف
سحبتم إليها ذيل كل مفاضة [2]
ترد الظبـا باللثم والسمر بالقصف
فـكيف رضيتم من حرارة وترها
بماء الطلى [3] منكم ظبا القوم تستشفى

ثم يتجه إلى الامام على بن أبى طالب ويخاطبه مخاطبة الأحياء على الأساليب الشعرية المتبعة

أبا حسن أبناؤك اليوم حلّقت
بقادمة الأســياف عن خطة الخسف
لقد حشدت حشد العطاش على الردى
عطاش وما بلّت حشاً بسوي اللهف
فتلك على الرمضاء صرعى جسومهم
ونسوتهم هاتيك أسرى على العجف [4]
وهل زحف هـــذا اليوم أبقى لحيهم
عميـــد وغي يستنهض الحى للزحف

* * *

(١) الطف : المكان الذى قتل به الحسين (٢) درع واسعة
(٣) الرقاب وهى من مثانات قطرب . قال عبد الرحمن السنهورى :
ولد الظبيـة يدعى بالطـلا والراح ان تطبع تسمى بالطلا
وجمع أعناق الأنام فالطـلي تقـودها أزمـة الأقدار
(٤) العجف الابل المزال

وله من أخرى :

عثر الدهر ويرجو أن يقالا تربت كفك من راج محالا
لا أقالتنى المقـــادير إذا كنت ممن لك يا دهر أقالا

وتسمع هنا لكبرياء نفس الشاعر قعقعة وجلجلة ، وأى تعاظم يطاول بالمرء الدهر ويجعله عرضة لسخط الشاعر وغضبه بحيث يوقف موقف الذل والاستكانة حتى يطلب إقالته من عثرته

أزلال العفو تبغي وعلى أهل حوض الله حرمت الزلالا
الطاعنين إذا شبت وغى والمطاعيم إذا هبت شمـــالا
إن دعوا خفوا إلى داعى الوغى وإذا النادى احتبي كانوا ثقالا
وقفوا والموت فى قارعـــة لو بهـا أرمى ثهلان لزالا

وقوله حرمت الزلال يلوح إلى قتل الحسين وأصحابه عطاشاً وذلك من مآسى الواقعة التى أخذت مجالا لمناحة الشعراء

وقوله من أخرى :

وخائضين غمار الموت طافحة أمواجها البيض بالهامات تلتطم
مشوا إلى الحرب مشى الضاريات لها
فصارعوا الموت فيها والقنـا أجم
ولا غضاضة يوم الطف إن قتلوا صبراً بهيجاء لم تثبت لها قدم
فالحرب تعلم إن ماتوا بها فلقد ماتت بها منهم الأسياف لا الهمم
أبكيهم لعوادى الخيل إن ركبت رؤوسها لم يكفكف عزمها اللجم
وللسيوف إذا الموت الزؤام غدا فى حدها هو والأرواح يختصم
تنعى إليك دماء غاب ناصرها حتى أريقت ولم يرفع لكم علم
مسفوحة لم تجب عند استغاثتها إلا بأدمع ثكلى شفها الألم
حنت وبين يديها فتية شربت من نحرها نصب عينيها الظبا الخذم
موســـدين على الرمضاء تنظرهم
حرى القلوب على ورد الردى ازدحموا
سقياً لثاوين لم تبلل مضاجعهم إلا الدماء وإلا الأدمع السجم
أفناهم صبرهم تحت الظبا كرماً حتى مضوا ورداهم ملؤه كرم

* * *

وقد افتتح هذه القصيدة بحماسة تذكر بفخر المتنبي وتهديده ووعده ووعيده قال :

إن لم أقف حيث جيش الموت يزدحم
فلا سمت بي فى طرق العلى قدم

لا بد أن أنداوى بالقنا فلقد   صبرت حتى فؤادى كله ألم
عندى من العزم سر لا أبوح به   حتى تبوح به الهندية الخذم
لا أرضعت لى العلا ابناصفو درتها   إن هكذا ظل رحى وهو منفطم

ولربما أكثرنا من الاستشهاد بالمقطوعات الرثائية التي هي من. هذا الفرع الغض النضير بشعريته وإهابه الجهم الكالح بمؤداه الباكي بمغزاه ومعناه، ونظن أن فى هذا النوع طرافة وجدة عند قراء (الرسالة) الكرام

وبعد فانك واجد هذه الوقعة قد أثرت أثرها فى الأدب وأنشأت جانباً خاصاً له مميزاته ومزاياه تربطه صلة قوية العرى محكمة الحلقات، وليس هذا القسم من الشعر ثمرة الأيام الأخيرة، كلا فانه يمتد إلى عهد دعبل الخزاعى وتائيته التى مطلعها:

مدارس آيات خلت من تلاوة   ومنزل وحى مقفر العرصات

والحسن بن الضحاك الذى يقول:

ومما شجاقلبي وكفكف عبرتى   محارم من آل النبيّ استحلتِ

وجعفر بن عفان الشاعر العباسى الذى يقول من قصيدة:

ليبك على الاسلام من كان باكياً   فقد ضيعت أحكامه واستحلت
غداة حسين للرماح درية   وقد نهلت منه السيوف وعلت
وغودر فى الصحراء لحماً مبدداً   عليه عتاق الطير باتت وظلت

وسليمان بن قتة العدوى مولى بنى تيم وذلك حين مرّ بكربلا بعد قتل الحسين بثلاث، فنظر إلى مصارعهم واتكأ على فرس له عربية وأنشأ يقول، وقيل إنها لأبى الرجح الخزاعى، وقال ابن الأثير إنها للتيمى تيم مرة قال وكان منقطعاً لبنى هاشم:

مررت على أبيات آل محمد   فلم أرها أمثالها يوم حلتِ
ألم تر أن الشمس أضحت مريضة   لفقد حسين والبلاد اقشعرت
وكانوا غياثاً ثم أضحوا رزية   لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
وإن قتيل الطف من آل هاشم   أذل رقاب المسلمين فذلت
وقد أعولت تبكى السماء لفقده   وأنجمنا ناحت عليه وصلت

وعقبة بن عمرو العبسى وهو أول من رثى الحسين فيما حكاه سبط ابن الجوزى عن السدى:

مررت على قبر الحسين بكربلا   ففاض عليه من دموعى غزيرها
ومازلت أبكيه وأرثى لشجوه   ويسعد عينى دمعها وزفيرها

وآخر من عبد القيس قتل أخوه مع الحسين:

يا فرو قومى فاندبى   خير البرية فى القبور
ذاك الحسين مع التأوه   والتفجع والزفير

والفضل بن عباس:

أعينى إن لا تبكيا لمصيبتى   فكل عيون الناس عنى أصبر

وبديع الزمان الهمذانى:

يا لمة ضرب الزما   ن على معرسها خيامه
لله درك من خزا   مى روضة عادت ثغامه
لرزية قامت بها   للدين أشراط القيامه
لمضرج بدم النبوة   ضارب بيد الأمامه
متقسم بظبا السيوف   مجرع فيها حمامه

والسيد الحميرى:

أمرر على جدث الحسين وقل لأعظمه الزكية
يا أعظما لا زلت من   وطفاء ساكبة روية

وبعد فهذه صفحات من أدبنا القوى طوى المعارك المفرقة بين أمة الضاد التى أثارت دخان هذا الشعر — ما دهمنا من خطر الغرب، فنحن ندرسها للتاريخ لا أكثر، فقد دثر الهاشميون والأمويون وقبرت معهم منازعاتهم حول الملك

العراق — النجف الأشرف   ضياء الدين الدخيلى

مقالة تذكارية

ابن سينا

بمناسبة انقضاء تسعمائة سنة على وفاته

للدكتور زكي علي

في سنة ١٩٣٢ خطر لكاتب هذه السطور بينما كان يقوم ببعض الأبحاث في معهد تاريخ الطب بفينا أن يُحيي ذكرى طبيب الإسلام الأشهر « ابن سينا » في الوقت المناسب بنشر بعض الرسائل العلمية عن حياته في المجلات الطبية وغيرها

وجرى وقتئذ بيني وبين الأستاذ ماكس نويبرجر — وهو من أشهر علماء تاريخ الطب اليوم — حديث في هذا الشأن لفت نظري في سياقه إلى رسالة لأحد الأطباء من الأتراك الكماليين حاول فيها أن ينسب ابن سينا إلى العنصر التركي تمشياً مع نعرة الجنس التي تغلغلت في تركيا الكمالية وشوّهت في كثير من الأحيان وجه الحقائق التاريخية تبريراً لغاية قومية

وقد نشرت « الرسالة » في أحد أعدادها في الصيف الماضي نبأ مؤداه أن جامعة استانبول احتفلت بإحياء ذكرى « ابن سينا » أنبغ طبيب في الإسلام . ولما كان ابن سينا فارسي الأصل فقد أراد الكماليون بعملهم هذا تجريده من فارسيته وإقامة الدعوى الباطلة على أنه ينتمي إلى الجنس التركي ، وبذلك تكون عبقريته النادرة من مفاخر القومية التركية ؛ وفي هذا افتيات على التاريخ والعلم لا تبرره العصبية الجنسية

* * *

يلقب ابن سينا في الشرق « بالشيخ الرئيس » وفي الغرب « بأمير الأطباء » حيث عرفته أوروبا باسم Avicenna واسمه الكامل أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا ، وقد أجمع المؤرخون على اعتبار شخصيته إحدى الظواهر الفكرية العجيبة التي سجلها تاريخ الطب والفلسفة كما أنه من أعظم العلماء الذين أنجبهم الشرق إذ جمع في نفسه شخصية الطبيب والفيلسوف والشاعر والفلكي والسياسي والعالم بطبقات الأرض ، وبلغ بذلك ذروة النبوغ وقمة الشهرة بين علماء الإسلام شرقاً وغرباً ؛ وحسبك ما ذكره عنه الطبيب المؤرخ الأمريكي كامستون إذ قال : « يعتبر ابن سينا معجزة من معجزات العقل الراجح ويجوز أنه لم يسبقه ولم يظهر بعده من العلماء من يدانيه في حدة الذكاء وسرعة نبوغ العقل بالنسبة للعمر مع عزم ونشاط لا يعرف الملل وهمة شاسعة الحدود »

ولد ابن سينا بقرية تسمى « أفشنة » بالقرب من « خرميثن » من أعمال بخارى وذلك سنة ٩٨٠ م (٣٧٠ هـ) وكان أبوه من بلخ ثم انتقل إلى مملكة بخارى في زمن نوح بن منصور من الدولة السامانية وكانت يومئذ غاصة بالعلماء فوجهه أبوه إلى من حفّظه القرآن وعلوم الأدب

وظهرت بوادر نبوغ ابن سينا وعبقريته منذ الطفولة فما بلغ العاشرة من عمره حتى حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ودرس النحو والأدب والفقه ، ثم تعمق الفتى في دراسة شتى العلوم بحماسة وجد بالغين ، فأتى على منطق أرسطو وفلسفته وأكب على تحصيل الهندسة والطبيعة والفلك فأتقن ذلك كله ولم يتجاوز السادسة عشرة . وكان من نعومة أظفاره يحس من نفسه ميلاً خاصاً إلى دراسة الطب فأقبل على تعلمه بسرعة غريبة إذ أكمل معارفه فيه واشتهر أمره كطبيب بارع ونطاسي ماهر بعد أن جاوز عمره الثامنة عشرة بقليل . وصادف إذ ذاك أن مرض السلطان نوح بن منصور حاكم بخارى لذلك العهد ورأى أطباؤه أن يستشيروا ابن سينا في أمر معالجته ، فاستدعى صاحب الترجمة فأشار بعلاج حاسم كان فيه شفاء السلطان فأحسن مكافأته وسمح له بالاطلاع على نفائس مكتبته الخاصة التي حوت كثيراً من الكتب العلمية النادرة فوعى ابن سينا زبدة ما فيها وعكف على الدرس والبحث سنوات ما كان يذوق فيها طعم النوم إلا غراراً ، ومما قاله عن نفسه : « لازمت العلم وكنت كلما أحار في مسئلة ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل حتى يفتح لي المنغلق منه ويتيسر المتعسر . وكنت أشتغل ليلاً في داري بالكتابة والقراءة فإن غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إليّ قوتي ثم أرجع إلى القراءة ، فإن غلبني النوم حلمت بالمسائل التي كنت أعالج حلها حتى إن كثيراً منها اتضح لي بالمنام »

وأخذ ابن سينا فى التأليف وهو فى الحادية والعشرين من عمره فصنف موسوعة علمية ضمنها كثيراً من العلوم الطبيعية وكتب فى الفلسفة وما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) عدة رسائل

وفى غضون تلك المدة صار ابن سينا مضرب المثل فى البراعة الطبية وذاع صيته لما أوتيه من النجاح فى علاج المرضى الذين كانوا يفدون إليه من فجاج الأرض ، وله في ذلك كثير من النوادر العجيبة التى تناقلها الرواة والمؤلفون (١)

ثم لما بلغ صاحب الترجمة الثانية والعشرين من عمره نكب بوفاة والده فانتابته بعد ذلك الشدائد ، وزاد فى محنته وأهواله أن اضمحلت الدولة السامانية وكانوا حماته الذين تعهدوه بالرعاية والتشجيع ، فخرج من مملكة بخارى قاصداً « كركانج » عاصمة « خوارزم » التى كان يحكمها الأمير على بن مأمون ، غير أن الضيق لازمه فتنقل فى البلاد شريداً ثم ألقى عصا الترحال فى « جرجان » حيث كان يقصد أميرها « قابوس » الذى اشتهر بتأييده للعلماء فصادف وصوله سقوط قابوس عن عرشه وحبسه فى بعض القلاع وما لبث أن مات ، فتألم ابن سينا لذلك ألماً شديداً وأنشأ قصيدة قال فيها :

لما عظمت فليس مصرٌ واسعي   لما غلا ثمنى عدمتُ المشترى

ثم هام على وجهه فى الآفاق إلى أن وصل أخيراً إلى «همدان» ودخل فى خدمة أميرها شمس الدولة وعالجه علاجاً ناجحاً إذ كان يشكو مرضاً شديداً بالمعدة ، فأحسن الأمير صلته وقلده الوزارة ولم تمنعه أعمال الدولة ومهام المنصب عن مواصلة نشاطه الطبي وأبحاثه العلمية ، فألف في ذلك الوقت الجزء الأول من كتابه الأشهر « القانون فى الطب » ، وكان يقضى النهار فى مباشرة شئون الدولة ويحيي الليل بالمحاضرة والتدريس وإملاء المذكرات على تلاميذه ، فإذا انتهى من محاضرته استبق مستمعيه وهُيِّئ مجلس الغناء والأنس والموسيقى ترويحاً للنفوس من عناء الدرس

على أن هذه الحياة الحافلة بالعلم والعمل والنشاط ما لبثت أن عصفت بها رياح الفتن السياسية ودسّ أعداء صاحب الترجمة له واتهم بأن له صلة سياسية وثيقة بأمير أصفهان وسجن فى إحدى القلاع وهناك لازم التأليف . ثم إنه أفلح أخيراً فى الفرار من سجنه بعد أن تنكر فى زى الصوفية وقصد أصفهان حيث استقبله أميرها بكل أنواع الحفاوة والإكرام وصار موضع إكبار الجميع وصحب السلطان في كثير من غزواته إذ كان طبيبه الخاص ووزيراً للدولة وعكف على إنجاز مؤلفاته العديدة فى مختلف العلوم وفي مقدمتها كتابه « القانون فى الطب » الذى أذاع اسمه وخلّد شهرته فى الشرق والغرب مدى ستة قرون ، ودوّن كتبه فى الفلسفة والفلك وعلم النفس وفقه اللغة والعلوم الطبيعية والكيماوية وغيرها ، ولم ينقطع برغم هذا كله عن ممارسة مهنة الطب التى فاق فيها كل معاصريه وأوصله نبوغه فيها إلى مكانة ليس وراءها غاية

وقد أنهكت الجهود الجبارة والعمل الشديد المتواصل قواه فمات ولم يتجاوز عمره السابعة والخمسين سنة ١٠٣٧م

ويمتاز ابن سينا بغزارة مادته الأصلية فى التأليف ، وتنوع العلوم والفنون التى ترك فيها آثاراً قيمة ، وضخامة كثير من كتبه النفيسة التى كانت بمثابة دوائر معارف شاملة

ولا جدال فى أن كتابه « القانون فى الطب » — وهو أهم مؤلفاته ، وأضخمها إذ يحتوى على نحو مليون كلمة — الفضل الأكبر فى ذيوع تعاليم ابن سينا وآرائه الطبية فى كل الأقطار ، ثم فى بقاء تأثيره نافذاً متسلطاً على مصير الطب في الشرق والغرب مدى عدة قرون . وقد نوه الطبيب المؤرخ الإيطالى كاستليونى فى كتابه « تاريخ الطب » المطبوع سنة ١٩٣١ بأن تميز « قانون ابن سينا » على كل ما سواه من كتب الطب فى العصور الوسطى راجع إلى دقة ابن سينا فى الشرح والتحليل بطريقة تهذيبية تعليمية بارعة ، وإلى إتقان تبويبه وتقسيمه وترتيب المواضيع الطبية التى عالجها بحيث كفى الأطباء فى ذلك العصر مؤونة البحث فيما عداه »

وقد دون ابن سينا فى « قانونه » كل علوم الطب إلى زمنه ، ونقحها وزاد عليها آراءه وملاحظاته ومشاهداته الأكلينيكية ، ويقع فى خمسة كتب أساسية . وبقى هذا الكتاب يدرس في جامعات أوربا زهاء ستة قرون ، واستمر المرجع الأساسى فى تدريس الطب بجامعتى مونبلييه ولوفان حتى ختام القرن السابع عشر .

(١) ذكرنا شيئاً من ذلك فى رسالتنا « الطب العربى وتأثيره فى مدنية أوربا » طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٣١

وترجم « القانون » إلى اللاتينية فى طليطلة فى القرن الثانى عشر نقله جيرار دى كريمونا ثم ظهرت له بعد ذلك طبعات لاتينية أخرى تعد بالعشرات . ونشرت منه طبعة عربية فى روما سنة ١٥٩٣ ، وفى بولاق بمصر سنة ١٨٧٧ ، وظهرت له فى أوربا عدة شروح ، كما ترجمت أجزاء منه إلى الفرنسية والألمـانية والانجليزية وغيرها من لغات أوربا ، وترجم أيضاً إلى التركية والفارسية (١)

وقد أحصى العلامة الألماني وستنفلد من مؤلفات ابن سينا مائة وخمسة فى علوم الطب والفلسفة والدين والفلك واللغة والأدب والموسيقى والهندسة والمنطق والعلوم الطبيعية وغيرها ، ونكتفى هنا بذكر أسماء بعضها : فمن كتبه التى نقلت إلى اللاتينية وغيرها من لغات أوربا ، بعد « القانون » كتاب « قلب الانسان » و « الأرجوزة فى الطب » و « الشراب » و « مختصر الحيوان » « والحجر الفلسفى » و « السماء والعالم » و « النفس » و « ما بعد الطبيعة » و « الطبيعيات » و « الكيمياء » و « المنطق » و « الحدود » و « التعريفات » و « الفلسفة الأولى »

ثم كتاب « الشفاء » فى الفلسفة وترجم إلى اللاتينية بعنوان Liber Sufficientis ولا يزال الأصل العربى موجوداً . وله فى الفلسفة أيضاً كتاب « النجاة » و « الإشارات » ورسائل فى الإنصاف والمسائل العشرين ، والمباحثات ، والجوهر الذى لا يتحرك ، وتقسيم العلوم الفلسفية ، وحد الجسم ، وشرح كتاب النفس لأرسطو وما بعد الطبيعة ، وكل هذه لا تزال باقية

ومن كتبه فى الفقه والتوحيد الإلهيات والجانة الإلهية ثم له القصيدة العينية الشهيرة فى النفس التى مطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وفيها يقول:

إن كان أرسلها الإله لحكمة

طويت عن الفطن اللبيب الأروع

فهبوطها إن كان ضربة لازب لتكون سامعة بمـا لم تسمع

وتعود عالمة بكل خفيــة فى العـالمين فخرقها لم يرقع

وهى التى قطع الزمان طريقها حتى لقـد غربت بغير المطلع

فكأنهـا برق تألق للحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

وفى المنطق كتاب الإشارة وكتاب المشرقيين ورسالة العروس ؛ وله في العلوم الطبيعية والرياضية والآداب والسياسة والفقه والموسيقى واللغة العربية وعلومها مؤلفات كثيرة بعضها موجود فى مكاتب أوروبا وبعضها مفقود

وقد ترك ابن سينا وصفاً علمياً صحيحاً لتكوين الجبال ، ذكره درابر ووثنجتون ، واعتبره جاريسون الأمريكى مبرراً لتسمية ابن سينا « أبا علم طبقات الأرض » (الجيولوجى)

ويضيق بنا المقام هنا عن ذكر آراء ابن سينا الفلسفية ولهذا نقتصر على إيراد المهم من مشاهداته واكتشافاته الطبية

امتاز ابن سينا على أبقراط وأرسطو وجالينوس بدقتـه فى مناقشة الحالات المرضـية ومهارته فى فن تشخيص الأمراض (Semiologie) ومبحث أسباب المرض (aetiologie) وهو أول من وصف مرض الالتهاب السحائى « السرسام الحار » وصفاً صحيحاً وميزه عن الأمراض الحادة المصحوبة بالهذيان ، وكان ذلك يلتبس على أطباء اليونان ؛ كما أنه أتقن وصف سير هذا المرض والانذار فيه . ومما يدل على دقة ملاحظاته الاكلينيكية ذكره أن التهاب البلورا « ذات الجنب » والتهاب الرئة « ذات الرئة » قد تنتج عنهما أعراض سرسامية بهيئة مضاعفات ، وأن التهاب السحايا فى تلك الحالات يعتبر نذيراً سيئاً إذ تعقبه الوفاة عادة .

وأجاد ابن سينا أيضاً فى شرح أمراض الجهاز التنفسى ، وقال بضرورة التمييز عن تشخيص ذات الجنب بين التهاب البلورا الحقيقى ، وبين الالتهاب البسيط للعضلات بين الضلوع وبين التهاب المنصف الصـدري (الحيزوم) وخراج السطح الأعلى للـكبد .

وأتقن ابن سينا وصف الأمراض العصبية ، وبوجه خاص الأشكال المختلفة للشلل وللفالج النصفى ولشلل الوجه (اللقـوة) واهتدى إلى التمييز بين نوعى اللقوة : المركزى والوضعي وشرح بأسباب التشخيص التمييزى بينهما

(١) عنى بعض علماء أوربا في السنوات الأخيرة بالتعمق فى دراسـة مؤلفات ابن سينا الطبية والفلسـفية ونشرها فحبذا أن تعنى الحكومة المصرية باعادة طبع كتاب « القانون » طبعة حديثة إحياء لتراث العظماء من السـلف

ومما أشار إليه ابن سينا أن المخ والعظام خلافاً لرأي القدماء قد تكون مقراً للأورام

وكان يعالج تشوهات السلسلة الفقرية بالرد العنيف وهي طريقة أعاد إدخالها في العلاج الجراح الفرنسي كالو سنة ١٨٩٦ . ولابن سينا طريقة شائقة طريفة في وصف الأمراض العقلية ، وله الفضل في ابتكار كثير من طرق العلاج النفساني

وكان جالينوس يقول بأن السكتة (ضربة الدم أو النقطة) يندر أن تكون مسببة عن البليثورا وهذا خطأ ، تخالفه ابن سينا وقال بالعكس ، مستنداً إلى مشاهداته الإكلينيكية ، بأن البليثورا من أكثر الأسباب المهيئة لحدوث السكتة

ومما ذكره ابن سينا ولم يسبقه إليه أحد أن الحصبة أكثر ما تكون عدواها في الربيع والخريف وأنها أكثر وقوعاً في هذين الفصلين ، كما ذكر أن الأطفال يصابون بها أكثر من البالغين

ودرس ابن سينا بدقة أمراض الكبد وطريقة فحصه ووصف بمهارة أعراض اليرقان بأنواعه بما يتفق والأوصاف الحديثة ؛ وشرح عند الكلام على أمراض المعدة ، أعراض ضيق البوّاب والقرحة المعدية وأفاض في شرح أضرار إدمان الكحول على الكبد ، وعلّل السبب الفيزيولوجي لتلافيف الأمعاء . وتكلم ابن سينا طويلاً عن استطالة عنق الرحم وعن أورام الرحم وسقوطه وصلابته وعن خطر سرطان عنق الرحم

ووصف طريقة علاج البواسير بالشق ، وأشار عند الكلام على الدُّبَيلة (تجمع الصديد في جوف البلورا أو الإمبيما) بعلاجها بالشق عليها لتفريغ الصديد ، وذكر طريقة رد خلع الكتف بالضغط المباشر . وأما في علم الديدان فهو أول من وصف الدودة المعروفة باسم الفرْنيت أو العِرْق المديني Vera medinensis

ثم إن أوصاف ابن سينا في التشريح أكمل في بعض الأحيان من أوصاف جالينوس . وذكر بُوْرتال أن ابن سينا كان ذا معرفة تامة بتشريح القزحية وإنسان العين والقناة الدمعية وأنه أول من اكتشف اندغام عضلات العين

وقد أدخل ابن سينا في مادة الأدوية عدداً كبيراً من العقاقير الطبية التي لم تكن مستعملة من قبل

« جنيف »

زكي علي

العداء والفنـــاء

للأستاذ عبد الرحمن شكري

عفا الجاني وقد بلغ التشفي … وبعض العفو من فرح الشَّمات(١)

(الناظم)

قد يُعَزِّيك شامت يتشفى … باجتلاء الآلام لا بالعزاء

(الناظم)

مقدمة القصيدة :

إن العفو لا يكون من المظلوم المجني عليه وحده بل قد يكون أيضاً من الجاني الظالم إذا أقنع نفسه أنه المظلوم ، أو إذا أقنع الناس كي ينال عطفهم ومساعدتهم له في ظلمه وشره . وكثيراً ما يساعد الناس الشرير في شره اعتقاداً منهم أنه هو المظلوم أو . لأن مساعدته في العرض المظلوم فرصة لاراحة ميل كثير من الناس لانفاذ القسوة كما هو الحال في مرض السادزم عند إطلاق هذا المصطلح عليه في المعنى الأعم ؛ وهذا النوع من العفو الذي يجود به الظالم إنما هو من فرح الشماتة ، وهذا الشعور يشبه شعور الشامت الذي يعزي المصاب ويخفي فرح الشامت ويظهر الأسف ، وهو إنما يعزى كي يرى آلام المصاب أثناء التعزية . وهذه القصيدة تصف النفس الانسانية بين عواطف الخير والعر ، وقد تجتمع الأضداد منها في نفس واحدة من غفران وشمات ، ومن حقد الحياة وصفح الممات ، كما تصف عبث شقاء الحروب بين الأمم التي يتحالف بعدها الخصوم ويتعادى الأصدقاء

القصيدة :

إذا ما دنا الموت من هالك … وأيقن ألا يطول البقاء
وقد زال ما كان مِنْ نشوة … ومن شِرَّةٍ نال عنها العزاء(٢)
ولاح له عيشه ماثلا … وقد بُزَّ عما جناه الرياء(٣)
وأُفْهِمَ ما كان من حرصه … وأبصر ما قد طواه الخفاء
يُرَى آسفاً أنْ عدا أو جنى … وأنْ كان منه الأذى والعداء
وليس يُرَى آسفاً لاغتفار … دعاه قديماً فلبَّى الدعاء(٤)
فليس على صفحه آسفاً … ولكن على النَّيْلِ ممن أساء(٥)
أيأسف أنْ ضاع ثأر سُدَى … ومُتِّعَ خصم له بالبقاء(١)
عدوان عاشا على إحنة … وباعا السماحة بيع الإماء(٢)
أباحا النفاقَ وكيد اللئام … لنيل الحطام وكسب الهباء
إذا ما دنا الموت من واحد … أيشمت خصم له بالفناء
أيفرح مثل الجبان استراح … وبُشِّرَ بالأمن بعد العداء
أيطعنه طعن نذل خصيما … صريع التراب مُراق الدماء
ومرأى الحِمام كمرأى السَّقام … يذِلُّ العُتلَّ ويُخزي الجفاء(٣)
هو الموت يَشْفِي قلوب العدى … ويختم بالصلح حرب البقاء
وقد يُطْلَبُ الصلح من فرحة … تعير الشماتة ثوب السخاء(٤)
وكم من عداء غدا أُلْفَةً … فيا عبثا إذ تراق الدماء
كم احتربت أمم ثم عادت … كأنْ لم تذق في الحروب الشقاء(٥)
ألم تسمع الأرض نوح الجريح … يُوَدِّع حتى جنون الرجاء
أما اختلطت بالصديد الدماء … أما أفعم الموت نَتْنَ الهواء(٦)
وكم عُنُقٍ لقتيل ، به … عضاض عدو صريع العداء(٧)
عضاضٌ يحاول خلد الضغائن في جسد خَلْقُهُ للفناء
فيا عبثاً لجهود الأنام … سيمضي الرخاء ويمضي العناء
ويُصْبِحُ من كان خصماً لدودا … عزيزاً ويُبْغَضُ إلْفُ المساء(٨)

عبد الرحمن شكري

(١) الشمات : هو الشماتة
(٢) نشوة الحياة سكرة غرورها والشرة بكسر الشين نشاط الشباب الحيوي (٣) بز خلع ونزع
(٤) أي لا يأسف إذا فقد شرة الحياة على فلتات اغتفاره في الماضي
(٥) النيل من العدو وإصابته بالضر

(١) هذا التساؤل معناه هل يخالط اغتفاره أسف الحقد لضياع ثأره وبقاء خصمه وقد قلنا في المقدمة أن الصفات المتضادة قد تختلط في النفس
(٢) الأماء : الجواري . الأحنة : الحقد
(٣) السقام بفتح السين السقم والعتل الغليظ الشديد الجافي
(٤) السخاء الكرم : أي أن الصلح قد يكون من فرحة الشامت بالظفر فيظن العفو كرما
(٥) احتربت تحاربت قال البحتري (إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها)
(٦) الصديد هو القيح وأفعم ملأ وأترع والنتن خبث الرائحة
(٧) العضاض العض وقد لوحظ بين القتلى بعد المعارك قتيلا أنشب أسنانه في عنق قتيل آخر قبل الممات واستمر في الموت على هذه الحالة
(٨) أي بين مساء وصباح يصير العدو صديقاً والصديق عدواً وكأنما قد ضاع شقاء القتلى سدى



مقهى صـــورات

للفيلسوف الروسى تولستوى

كان فى بلدة صورات من أعمال الهنـد مقهى يجتمع فيه المسافرون من جميع أطراف العالم فيتحاورون ويتسامرون

وفى يوم من الأيام هبط إلى هذا المقهى عالم روحانى فارسى أفنى حياته فى درس اللاهوت وفى التأليف فيه . ومن كثرة ما فكر وقرأ وكتب وناقش اختلط عليه الأمر وأصبح لا يعتقد حتى بوجود إلـه . فلما سمع الشاه بذلك نفاه عن بلاد فارس

وكان لهذا الرجل عبد أفريقى لا يفارقه لحظة ، فلما دخل سيده المقهى جلس هو على صخرة بجانب الباب تحت أشعة الشمس يطرد عنه الذباب . فلما استوى الفارسى على أحد المقاعد طلب من النادل كوباً من الأفيون . ولم يكد يفرغ من شربه حتى أخذ الأفيون يعمل عمله فى رأسه ، فقال يخاطب عبده من الباب وقد كان مفتوحاً :

« قل لى أيها العبد البائس هل تعتقد بوجود إلـه ؟ »

فأجاب العبد : « طبعاً » . وفى لمح البصر أخرج من منطقته تمثالاً صغيراً من الخشب وقال : ها هو ذا . ذلك هو الإلـه الذى حمانى وحرسنى من يوم ولدت . وكل واحد من بلادنا يعبد الشجرة التى منها صنع هذا الإلـه .

دهش كل من كان فى المقهى لهذه المحاورة الشاذة بين الفارسى وعبده . وما أتم العبد كلامه حتى انبرى له واحد وكان من أتباع برهمة إله الهنود وقال : « أيها الغبى الحقير ! أتعتقد أن فى الامكان أن يحمل الله فى منطقة رجل ؟ لا يوجد غير إله واحد هو برهمة ، إنه أعظم من جميع العالم ، لأنه خلقه . برهمة هو وحده الإلـه العظيم ، ولأجله شـيدت المعابد على ضفاف الكانج وفيها يعبده البراهمة كهنته الحقيقيون الذين هم وحدهم يعرفون الإله الحقيقى دون سواهم . لقد مضى عشرون ألف سنة على ظهوره ، وبالرغم من الفتن والثورات المتوالية ظل هؤلاء الكهنة قابضين على ناصية الأمور ، وما ذلك إلا لأن برهمة قد حرسهم وحماهم طوال هذه السنين »

قال ذلك البرهمى وهو يعتقد أنه أقنعهم جميعاً ، إلا أن صيرفياً يهودياً كان حاضراً فأجابه قائلاً : « كلا ، ثم كلا . إن معبد الإله الحقيقى ليس فى الهند ، والإله الحقيقى ليس إله البراهمة ، وإنما هو إله إبراهيم واسحق ويعقوب ، ولا يحمى أحداً غير شعبه المختار ... بنى اسرائيل . إن شعبنا هو شعبه الذى يحبه ، وما تشردنا فى أنحاء العالم إلا لأنه يريد تجربتنا . ولقد وعد بجمع شتات شعبه فى أورشليم ، وعندئذ — فى معبد أورشليم ، أعجوبة العالم القديم بعد رده إلى سالف عزه ورونقه — سوف يحكم الاسرائيليون جميع الأمم »

وهنا أجهش اليهودى بالبكاء ، وأراد أن يستمر فى الكلام إلا أن مبشراً إيطالياً قاطعه قائلا : « إن هذا الذي تقوله ليس حقاً ، لأنك تنسب الظلم إلى الله جل جلاله . وإنه لمن المستحيل أن يحب الله شعبك أكثر من بقية الشعوب . إن كان حقـاً ما يقال من أن الله فى القديم قد فضل الإسرائيليين واصطفاهم على باقى العالمين ، فإنه قد مضى ألف وتسعمائة سنة على خروجهم عليه وإغضابهم إياه ، مما أدى إلى هلاكهم وتشريدهم فى بقاع الأرض حتى لا ينتشر مذهبهم . ولقد اضمحل إلا من بعض أنفاس

تصمّد هنا وهناك . إن الله سبحانه وتعالى لا يفضل أحداً على أحد ، ولكنه يدعو هؤلاء الذين يفنون الخلاص إلى أحضان كنيسة روما الكاثوليكية ، ولا خلاص لمن كان خارج حدودها»

فالتفت قسيس بروتستانتي — اتفق أن كان حاضراً — إلى المبشر الايطالي بوجه ممتقع وأخذ يقول له :

« كيف جاز لك أن تقول أن لا خلاص إلا لمن كان تابعاً لمذهبكم ؟ لا يخلص إلا هؤلاء الذين يخدمون الله من صميم قلوبهم كما جاء في الانجيل وكما أشار به المسيح » .

عندئذ التفت إلى هذين المسيحيين ، تركي من موظفي الكمارك في صورات ، وقد كان جالساً في المقهى يدخن في (غليون) ، وقال لهما بلهجة المسيطر :

« اعتقادكم في الديانة المسيحية باطل . لقد حل محلها قبل ألف ومائتي سنة دين صحيح هو دين محمد (ص) . ليس لك إلا أن تجيل بصرك في أرجاء العالم لترى انتشار هذا الدين الصحيح في أوربا وآسيا ، حتى في بلاد الصين المستنيرة . لقد قلتما أنتما إن الله غضب على اليهود وازدراهم ، وذكرتما على سبيل المثال حالة اليهود الآن وما يقاسونه من ذلة ومسكنة ، فما أحرى بكما أن تعترفا بصحة دين محمد لأنه هو الوحيد الظافر المنتشر طولاً وعرضاً . لا ينجو سوى تابعي محمد (ص) خاتم أنبياء الله »

وهنا أراد الفارسي ، وهو من أتباع الرسول العربي (ص) أن يتكلم ؛ إلا أن جدالا عنيفاً شجر بين جميع الأجانب الموجودين المنتمين إلى مذاهب شتى ، فقد كان بينهم مسيحيون من الحبشة ، ولاميون من تيبت ، واسماعيليون ومجوس ؛ وكان جدالهم في الله وكيف يجب أن يعبد ؛ وكل يؤكد أن الله الحقيق لم يعرف ولم يعبد إلا في بلده .

لم يبق واحد في المقهى لم يشترك في هذا الجدال والصياح إلا صينياً من أتباع كونفوشيوس . كان جالساً يرشف الشاي ويستمع إلى المتكلمين دون أن ينبس ببنت شفة . فلما رآه التركي جالساً على هذه الحالة تقدم إليه محاولاً اجتذابه إلى رأيه بهذه الكلمات : « أنت لم تنطق أيها الصيني العزيز حتى الآن بكلمة ، ولم يكدر صفوك كل هذا الصخب ، ولكنك إن تكلمت ففي وسعك أن تؤيد ما أقول . لقد حكى لي بعض التجار الصينيين الذين يطلبون مني المونة ، أنكم معشر الصينيين تعتقدون على كثرة ما عندكم من الأديان والمذاهب أن الديانة الاسلامية هي أفضل الديانات وأنكم تعتنقونها عن طيبة خاطر . أيد إذن كلامي وأبن لنا رأيك في الله الحقيق ونبيه »

فهتف القوم صائحين : « حسن ، حسن » ثم التفتوا إلى الصيني وقالوا « أسمعنا رأيك في هذا الموضوع »

فأغمض الصيني عينيه وأخذ يفكر ثم فتحهما ثانية وأخرج يديه من كمي ردائه العريضين وطواهما على صدره وأخذ يتكلم بصوت هادئ رزين :

سادتي : يظهر لي أن الذي يحول دون اتفاق الناس في قضايا الدين يرجع خاصة إلى الزهو الفارغ . فإن تفضلتم فأصغيتم إلي فسأقص عليكم قصة توضح لكم ما غمض من هذه المشكلة :

تركت الصين قاصداً هذه البلاد على ظهر باخرة انكليزية طافت حول العالم . وقد رست هذه بنا الباخرة على الساحل الشرقي من جزيرة صومترا لنفاد الماء . وكنا جماعة من مختلف الأجناس ، وكان الوقت ظهراً ، فنزلنا إلى البر وجلسنا تحت شجرة من شجر جوز الهند على شاطئ قريب من القرية . ولما جلسنا تقدم نحونا رجل أعمى علمنا بعدئذ أنه فقد بصره من كثرة ما حدق في الشمس محاولا سبر أسرارها ومعرفة كنهها . سعى كثيراً للوصول إلى مبتغاه وأطال التحديق في الشمس دون أن يدركه إعياء حتى أحرق وهج الشمس عينيه فأصبح أعمى . وبعد ما فقد بصره صار يكلم نفسه قائلا : « نور الشمس ليس سائلا ، إذ لو كان كذلك لكان في الامكان صبه من آنية في أخرى وتحريكه كما يحرك الهواء الماء ؛ ولا هو نار ، إذ لو كان ناراً لأطفأه الماء ؛ ثم هو ليس روحا لأنه منظور ، ولا هو مادة لأن المادة تنقل ؛ وبما أن نور الشمس ليس سائلا ولا ناراً ولا روحا ولا مادة فهو إذن لا شيء »

على هذه الطريقة كان يحاور . وبنتيجة تحديقه المستمر في

الشمس وكثرة تفكيره فيها كما أسلفنا فَقَدَ بصره وعقله وأصبح لا يعتقد بوجود الشمس

وكان لهذا الأعمى عبد يقوده ، فلما اقتربا منا أجلس العبد صاحبه تحت شجرة وارفة ، ثم التقط جوزة من الأرض وأخذ يصنع منها سراجاً : ابتدأ أولا بتقشير الجوزة ، ثم أخذ ليفة فبرمها ثم عصر دهناً من الجوزة فى القشرة ، ثم نقع الفتيلة فيها فأصبح له من ذلك كله سراج يضيء له الظلام

وهنا تنهد الأعمى وقال لعبده : « ألم أكن على حق حين قلت لك يا عبد أن لا وجود للشمس ؟ ألا ترى هـذا الظلام الدامس ؟ ومع ذلك يقول الناس بوجود شمس ! إذا كان صحيحاً ما يقولون ، فما هى ؟ »

قال العبـد : « لا أعرف ما هى الشمس . تلك ليست مصلحتى ، ولكنى أعرف ما هو النور . ها قد صنعت نوراً أستطيع به أن أخدمك وأن أجد كل ما أطلبـه فى الكوخ »

وهنا التقط العبد قشرة الجوزة قائلاً : « هذه شمسى »

وكان رجل أعرج جالساً وإلى جانبه عكازه ينصت إلى هذا الحوار الشائق ، وما كاد يلفظ العبد كلمته الأخيرة حتى أغرق فى الضحك وقال يخاطب الأعمى :

يظهر أنك ولدت أعمى ! ولما كنت لا تعرف ما هى الشمس فسأقول لك ما هي . الشمس كتلة من نار تخرج من البحر كل صباح ، وترتفع ثم تهبط كل مساء ، وتتوارى بين جبال جزيرتنا . لقد رأى الناس جيماً هذا ، ولو كنت بصيراً لرأيتها أنت أيضاً

ثم أعقبه سماك كان يستمع إلى الحديث موجهاً الكلام إلى الأعرج :

« يظهر لى أنك لم تر ما وراء جزيرتك . ولو طفت كما طفت أنا فى زورق الصيد لعلمت أن الشمس لا تغيب فى جبال جزيرتنا ، ولكنها كما تشرق من البحر كل صباح ، تغيب فى البحر كل مساء . إن هـذا الذى أقوله لك صحيح لا شك فيه لأني أشاهده بعيني كل يوم »

وهنا قاطعه هندي كان من جماعتنا قائلاً : لشدّ ما يدهشنى أن أسمع هذا الهراء من رجل عاقل مثلك ! كيف يجوز لكتلة نار أن تهبط فى الماء ولا تنطفىء ؟ الشمس ليست كتلة نار أبداً بل هى إلـه يدعى « ديفا » وهو ما ينفك يركب عجلة يدور بها حول جبل فيدو الذهبي فتهجم عليه فى بعض الأحيان الحيتان المشئومتان (راكو وكيتو) وتبتلعانه ؛ وعند ذلك تصبح الأرض فى ظلام . إلا أن كهنتنا لا ينفكون يصلون ويضرعون لذلك الإله حتى يطلق سراحه . لا يظن أن الشمس تضيُ بلدته وحدها إلا من كان غبياً مثلك لم يبرح جزيرته قط »

فقاطعه ربان سفينة مصرية وقال له: « أنت أيضاً مخطئ ، ليست الشمس إلهاً ولا هى تدور حول الهند ولا حول جبلها الذهبي فحسب» لقد طوفت كثيراً فى البحر الأسود وعلى طول سواحل جزيره العرب ، ورأيت أيضاً مدغشقر وجزائر الفيلبين ، وفى كل هذه الأماكن تبزغ فيها الشمس ، مما يدل على أن الشمس لا تضيُ الهند وحدها ولكن تضيء الأرض كلها ؛ ولا هى تدور حول جبل واحد وإنما تشرق فى الشرق الأقصى وراء جزر اليابان ، ثم تغرب بعيداً ... بعيداً فى الغرب وراء الجزر البريطانية . ولهذا السبب يسمى اليابانيون بلدتهم « نيبون » ومعناه « مولد الشمس» . أعرف هذا جيداً لأنى رأيت كثيراً ، وسمعت أكثر من جدى الذى ركب البحار كلها »

وكان يريد المصرى أن يستمر في حديثه لو لم يقاطعه بحار انكليزى كان فى سفينتنا قائلا :

« لا يعرف أحد عن حركات الشمس قدر ما يعرفه الناس في انكلترا . ليس للشمس مشرق ولا مغرب ، وإنما هى تدور دائماً حول الأرض . إن هذا الذى أقوله لا شك فيه . ألم ننته الآن من طوافنا حول العالم ومع ذلك لم نصطدم بالشمس ؟ أينما حللنا وجدنا الشمس تطلع صباحاً وتغيب مساء كشأنها هنا ! .

وأخذ الانكليزى عصاً وراح يرسم دوائر على الرمل ليرينـا حركات الشمس وكيف تدور حول الأرض ، إلا أنه لم يستطع شرحها بوضوح فقـال مشيراً إلى ربان السفينة : أترك شرحها إلى هذا الرجل فهو أعلم بذلك منى »

وكان ربان السفينة رجلا ذكياً يصغى إلى الحديث بسكون دون أن ينبس بكلمة ، فلما طُلب منه الكلام اتجهت الأنظار إليه وبدأ يقول :

« أنتم تحاولون التضليل وما تضلون سوى أنفسكم . إن الشمس لا تدور حول الأرض ، بل الأرض هي التي تدور حول الشمس مرة في كل سنة ، وتدور حول نفسها مرة في كل أربع وعشرين ساعة . فيتضح من هذا أن لا فرق بين اليابان وجزر الفيلبين وسومطرا وأفريقيا وأمريكا وأوربا وغيرها ، فإن نصيب الجميع من أشعة الشمس واحد . فالشمس إذاً لا ترسل نورها على جبل واحد ولا جزيرة واحدة ولا بحر واحد حتى ولا على أرض واحدة ، وإنما تستضيء بنورها جميع الكواكب أيضاً . فلو نظرتم في السموات عوضاً عن نظركم إلى الأرض لأدركتم كل هذا ولما زعمتم بعد ذلك أن الشمس تضيء لكم أو لمدينتكم فقط »

هكذا تكلم الربّان الحكيم ، وإذا تكلم فإنما يتكلم عن خبرة واسعة من كثرة ما ساح في البحار ومن طول ما حدّق في السموات

***

هذا الذي قيل في الشمس يقال أيضاً في الدين . إن السبب الذي يحول دون اتفاق الناس في مسألة الدين إنما هو التفاخر وما يسببه من شحناء . كل رجل يريد إلهاً له ، أو على الأقل إلهاً خاصاً لأمته ، وكل أمة تريد أن تحصر في معبدها الله الذي لا يسعه العالم

وما هذه المعابد بالنسبة إلى العالم الذي خلقه الله ليجمل فيه الناس أمة واحدة وديانة واحدة ألا وهي الإنسانية ؟

لقد شيدت المعابد الإنسانية على غرار هذا المعبد الذي شيده الله للناس ، كل معبد له أحواضه وأقبيته وصوره ونحوته ونقوشه وكتبه ومذابحه ومحاريبه وكهنته . ولكن أيوجد معبد له حوض كحوض الاقيانوس أو قبو كقبو السموات ؟ وأين تلك المصابيح الباهتة التي تضيء المعابد الإنسانية من الشمس والقمر والنجوم ؟ أو تلك الصور الجامدة من رجال أحياء تغمر قلوبهم بالحب ؟

وهل يوجد وصف في أي سفر من الأسفار عن كمال الله وحسنه أروع أو أبسط من هذه النعم التي أسبغها الله على عباده لخيرهم وسعادتهم ؟ وهل من تضحيات أسمى وأرفع من هذه التي يقدمها الرجال والنساء على مذبح الحب ؟ ثم ما هذه الذبائح المنصوبة في الكنائس إذا قيست بقلب رجل كريم يطفح حباً وحناناً وقد رضي الله به مذبحاً لتقديم القرابين له

كلما سما الإنسان في فهم الله ازداد به علماً ، وكلما ازداد به علماً اقترب منه ، وذلك باحتذائه إياه في إحسانه وعطفه وحبه

ليكف إذن ذلك الذي يرى نور الشمس يغمر العالم عن احتقار ذلك الرجل الخرافي الذي يرى في معبوده قبساً من هذا النور . ليكف حتى عن ازدراء الكافر ، لأنه أعمى ولا يرى الشمس ألبتة »

هكذا تكلم الصيني تابع كونفوشيوس ، فصمت كل من كان في المقهى ولم يعد أحد يدعى أن ديانته هي الفضلى

يوسف روشا



توحيد برامج التعليم في الشرق

علمنا أن الأستاذ الجليل محمد العشماوي بك وكيل وزارة المعارف يفكر في عقد مؤتمر عربي شرقي في القاهرة لدراسة الحالة العلمية والثقافية في البلاد الشرقية لمعالجة مشاكل التعليم معالجة تقوم على أساس صالح، وتستند إلى هدى القواعد التي تقررت في التربية الحديثة بما يلائم روح الشرق ويتمشى مع شخصيته.

ولعل الباعث لهذه الفكرة ما لقيه المؤتمر الطبي العربي الذي عقد أخيراً في بغداد من النجاح وما ترتب عليه من النتائج الطيبة التي قوّت الروابط وأحكمت الأواصر.

وتتجه الفكرة لعقد هذا المؤتمر على أن تقوم هيئات المعلمين في مصر بتوجيه الدعوة إلى مثيلاتها في أنحاء الأقطار الشرقية، على أن تقوم الحكومة المصرية برعاية المؤتمر من الناحية المادية، وبكل ما يتصل بتكاليف المؤتمر. وقد علمنا كذلك أن بعض الهيئات المشتغلة بشئون التعليم مهتمة جد الاهتمام بإخراج هذه الفكرة إلى حيز الوجود في وقت قريب، ولا شك أن انعقاد هذا المؤتمر سيكون له شأن كبير في التقريب بين الأمم الشرقية، وأن اتحاد برامج التعليم فيها سيكون أكبر عامل في إيجاد الوحدة العربية التي تتلهف عليها النفوس منذ أزمان

المؤتمر الدولي للجذام

انعقد في يوم ٢١ مارس في مدينة القاهرة المؤتمر الدولي للجذام، وهو المؤتمر الذي نظمته الحكومة المصرية بالاشتراك مع الجمعية الدولية للجذام، فكان أول مؤتمر من نوعه وفي أهميته وخصوصاً أن مرض الجذام مرض خبيث لم يكتشف للآن المصل الواقي من شره، وكل وسائل العلاج المعمول بها الآن إنما هي عزل المرض وهي في الواقع طريقة للوقاية لا للعلاج، فمن صالح الانسانية ومن البر بها أن يجتمع أعلام الطب من كل دولة للبحث في شأن هذا المرض المضال

ولقد تفضل جلالة الملك فافتتح الجلسة الأولى للمؤتمر، وقد رفعت بهذه المناسبة أعلام الدول التي اشتركت فيه على دار الأوبرا الملكية، ويبلغ عدد تلك الدول ٥٥ دولة ويبلغ عدد الأعضاء الذين اشتركوا فيه حوالي ثلثمائة. وقد أقام معالي وزير المعارف حفلة تعارف بين الأعضاء بفندق الكونتننتال، ثم أقام الوفد الفرنسي حفلة أخرى ألقى فيها «عمدة باريس» خطبة نوه فيها بأهمية عقد الاجتماعات العلمية الدولية لخير الانسانية عامة وخصوصاً لبحث الأمراض المستعصية مثل الجذام، وأشاد بفضل مصر في كرمها ودعوتها، ثم وجه الدعوة للمؤتمرين بالنيابة عن الحكومة الفرنسية وعن بلدية باريس أن يكون الاجتماع الثاني للمؤتمر في مدينة باريس آملا أن تجاب الدعوة.

وقد شكر له الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك سكرتير عام المؤتمر تلك الدعوة ووعد بعرضها على لجنة تنظيم المؤتمر المصرية

القرآن في نظر الغربيين

ألقى الدكتور خالد شلدريك محاضرته الثالثة بقاعة المحاضرات بدار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة في موضوع «القرآن الكريم في نظر الغربيين»، وقد بدأ محاضرته بالكلام عن الأناجيل والكتب السماوية المنزلة، ثم تكلم عن الحروب الصليبية وتأثيرها في نهضة الغرب وإيقاظ الشعوب الأوربية، فان الصليبيين نقلوا من فلسطين المدنية والثقافة وكثيراً من المعارف والمظاهر التي لم تكن تعرفها أوربا في ذلك العهد، حتى لقد كانت تغط في نوم عميق من الجهل، وترسف في قيود التعصب المقوت والتدهور الأخلاقي. ثم انتقل الأستاذ المحاضر إلى الكلام عن ضعف الدعاية الاسلامية في أوربا، وعدم وجود

تراجم صحيحة للقرآن غير ترجمة « بكتول » الذى اعتنق الديانة الاسلامية عام ١٩٠٩ ، وقد أطلق على كتابه اسم « ترجمة معانى القرآن » ، ولكن من المتعذر على كل أوربي اقتناء نسخة من هذه الترجمة لفداحة قيمتها ، ثم ألمع إلى استعداد الأوربيين والأمريكيين لدرس تعاليم الدين الحنيف إذا ماوجدوا إلى ذلك سبيلا

ثم ختم محاضرته بالاشارة إلى إيجاد جبهة دينية منيعة لصد التيارات الشيوعية والاشتراكية وغيرها من المذاهب الاجتماعية الجديدة التى تخالف الأديان السماوية ، وتهدد المبادىء الصالحة ، والأخلاق والعقائد . وبهذه المناسبة نقول : إن القائمين بالأمر فى مصر قد عادوا يهتمون بمسألة ترجمة معانى القرآن ، وهم يرون إدخال عناصر جديدة مهمة فى اللجنة التى كانت قد تألفت لذلك من قبل

اللغة الايرانية والحروف اللاتينية

تريد الدولة الإيرانية أن تصنع بلغتها صنيع تركيا الجديدة ، فهى تعمل على أن تخلص معجمها من الألفاظ المستعارة والدخيلة وأن تكتبها بحروف لاتينية كما فعلت الحكومة التركية منذ سنوات . وقد عقد فى ١٨ الجارى مؤتمر لغوى برياسة جلالة الشاه ، وجرى البحث حول تنقية اللغة الإيرانية من الألفاظ الأجنبية ، وقد استعان المؤتمر ببعض المعمرين على انتقاء ألفاظ إيرانية قديمة لتستعمل مكان الكلمات الأجنبية ؛ ولكن لما طرحت على بساط البحث قضية استبدال الحروف اللاتينية بالحروف الإيرانية الفارسية ، لاقت معارضة قوية بحجة أن هذا التغيير يفقد اللغة الإيرانية قيمة مؤلفات أثرية واجتماعية لا يمكن نقلها إلى الإيرانية بحروف لاتينية ؛ ولذلك تأجل البحث فى هذه المسألة إلى وقت آخر حتى يتم النظر فى هذا الاعتراض القائم

ترجمة القرآن فى ألبانيا

اتجهت الأفكار فى بولونيا إلى تعريب القرآن ونقله إلى لغة البلاد وهى اللغة الأرناؤوطية ، وقد جاء فى البريد الأخير أن الحكومة هناك دعت رؤساء الدين إلى اجتماع عام فى دار الحكومة حضره جلالة الملك احمد زوغو ، وقد تناول البحث ترجمة القرآن ، ولعل من المعلوم أن اللغة الأرناؤوطية تكتب بحروف لاتينية من قبل الحرب العالمية ، وليست مسألة ترجمة القرآن إلا مظهراً من مظاهر نهضة شاملة فى النواحى الاسلامية تقوم بها الحكومة فى تلك البلاد

الكشف عن مسجد الحجاج

كانت دار الآثار فى بغداد قد قررت فى السنة الماضية أن تأخذ على عاتقها القيام بأعمال التنقيب فى أطلال « واسط »

وقد جاء فى البريد الأخير من بغداد أن التنقيبات التى أجريت كشفت عن مسجد صغير ومسجد كبير ومقبرة وضريح وحصن وسوق ، وقد عرضت الآثار التى استخرجت من الآثار المذكورة فى غرفتين من غرف دار الآثار العربية

ولم تترك هذه التنقيبات مجالاً للشك فى أن المسجد الذى كان قد اكتشف فى السنة الماضية هو المسجد الذى شيده الحجاج بن يوسف الثقفى عند تأسيس المدينة ، وقد أسفرت أعمال الحفر عن وجود ثمانية صفوف من الأعمدة الحجرية الضخمة ، ويبلغ قطر كل منها تسعين سنتيمتراً ، والقسم الأعظم منها منحوت ومزخرف بأشكال بديعة . وقد أدى اكتشاف مسجد الحجاج بهذه الصورة إلى تعيين موقع قصر الإمارة ، وتتوقع دار الآثار أن التنقيبات التى ستجرى خلال هذا الموسم وفى المواسم القادمة ستسفر عن نتائج علمية مهمة تتصل بتاريخ القرن الأول للهجرة

تذكارات مدام كورى

أذاعت الآنسة إيف كورى من لندن عن والدتها مدام كورى مكتشفة الراديوم ، فذكرت كيف كان والداها يدينان بالعلم ويخلصان له ، ويعرضان حياتهما للخطر الشديد فى سبيل استكناه أسراره ؛ فلما اكتشف اثنان من العلماء الألمان عنصر الراديوم سنة ١٩٠٠ ظل اكتشافهما بدون قيمة حتى أجرى آل كورى تجاربهما فى جسميهما فوجداه يحرق ويحترق . ولم يقف فقر آل كورى فى سبيل النجاح المنشود ، بل كانا يجريان تجاربهما فى بيت خرب (غير مبلط) ذي شبابيك مهشمة (بدون زجاج) وكانت لهما طفلة غير إيف ، كانت صرخاتها تشحذ فيهما همة العلماء الراسخين فى العلم ، وقد حدث أن منحت إحدى الجمعيات

آل كورى مدالية علمية ذهبية ، فسخر بها الوالد العالم ، ودفع بها إلى الطفلة تلعب بها ، وهو ينظر إلى جدران غرفته وشبابيكها ويتنهد من أعماقه ، ولولا أن أسعفه الحظ فنال جائزة نوبل للعلوم مرة ونالتها زوجته مرة أخرى ، لما عرف العالم قيمة الراديوم إلى اليوم

الإذاعة المصرية

أخذت محطة الإذاعة المصرية تنشط من سباتها قليلاً ، وأخذت تعنى بنواحى الجد من الحياة ، لكنها لم تنتبه بعد إلى أنهـا أداة هامة من أدوات تربية الذوق المصرى من جهة وأداة هامة من أدوات الإعلان عن مصر من جهة أخرى — فهى ما تزال تذيع الاسطوانات الرقيعة وما تزال تحجم عن معاملة الفنيين الذين هم من الطبقة الأولى كما يقولون

والمزعج أنه قد تقرر أن يكون لمصر موجة خاصة قوية (١٠٠ كيلو) يمكن بها أن تسمع مصر فى اليابان وأمريكا ، فماذا تذيع مصر على هـذه الموجة وزعماء الأدب والفكر لا يزالون بعيدين عن هذه المحطة ؟ ويجمل أن ننبه محطتنا إلى إذاعاتها من قاعة يورت ، وما تجره هـذه الإذاعات من أوخم العواقب على سمعة الأخلاق فى مصر ، فإنه يقصد إلى هذه القاعة أناس من المهرجين الصاخبين ، وهم يذهبون إليها ثملين عادةً ، فإذا أخذتهم النشوة خرجت من أفواههم عبارات وأصوات نحسبها لا تشرف مصر فى آفاق العالم ... فلتفهم محطة الإذاعة هذا

ولقد نشرت الاذاعة البريطانية تقريرها عن سنة ١٩٣٧ ، فإذا دخلها ٣٫٣٥٦٫٠٧٤ جنيهاً ، أفيدرى القارئ كم من هذه الملايين خصص (للبروجرام فقط) إنه ٥١ ٪ من مجموع الدخل أى ١٫٧٢٩٫٦١٥ جنيهاً ، والجمهور مع ذلك يطلب المزيد !

هل قتل جوركى ؟

حوكم فى روسيا فى الأيام الأخيرة طائفة من كبار الأطباء الذين كانت تستعملهم الحكومة فى طبها القضائى . وقد صـدر الحكم بإعدامهم رمياً بالرصاص . والتهمة التى وجهت إليهم هى أنهم قتلوا أو تسببوا فى قتل جوركى العظيم (أديب الصعاليك) الذى توفى منذ عامين والذى كان أعظم رجل يعيش فى روسيا إن لم يكن فى العالم أجمع ، كما تسببوا فى قتل ولده وقتل كثيرين من عظماء روسيا . وقد ذكرنا فى هذا الباب كيف استبعدت الحكومة المخرج الكبير مايرهولد حين أحست أن هواه ليس فى صفها فيما ينتجه للمسرح السوفييتى — وهـذا دليل على أن المتهم الأصلى فى هـذه المحاكمات الأخيرة لم يؤخذ بجرمه ، لأنه الحكومة نفسها . وفى الحق لقد كنا دائماً ندهش لموقف جوركى من الطاغية ستالين ومن الثورة البلشفية نفسها ، وكنا نجزم أنه موقف منافق لا ينطوى إلا على التسليم الذى يشبه تسليم العجائز ، ولا يبعد أن يكون ستالين قد عرف ذلك من سيد أدباء الروس فدبر له هذه القتلة الشنيعة بأيدى أولئك الأطباء المساكين

مصر والثقافة العربية فى اليمن

أوفدت الجامعة المصرية منـذ عامين بعثة من أعضاء هيئة التدريس بكليتى العلوم والآداب إلى اليمن ، وقد انتهت من دراسة طائفة كبيرة من المسائل التى وقفت عليها فى بلاد اليمن دراسة علمية بحتة ، ولا تزال بعض تلك المسائل قيد البحث والدراسة

وقد أعدت البعثة تقريراً أولياً عن الأعمال التى قامت بها فى بلاد اليمن ، والابحاث التى وفقت إليها وقامت بها على الهضاب المرتفعة وداخل وديان حضرموت

أما فيما يتصل بالثقافة العربية فى تلك البلاد ، فإن عضو كلية الآداب يضع تقريراً فى هذا الشأن ، ومما قال فيه : إن العراق أكثر عناية بإذاعة الثقافة العربية فى تلك البلاد ، وإن المستقبل لها فى اليمن ، على أن فى إمكان مصر أن تنشئ العلاقات بينهـا وبين اليمن بتقوية محطة الاذاعة اللاسلكية المصرية ، ووضع برنامج تعنى فيه الحكومة بأمر الثقافة التى تلائم اليمنيين ؛ وفى إمكان مصر كذلك أن توفد البعثات العلمية إلى تلك البلاد ، وأن تعد برنامجاً لمحاضرات تلقى فى مصر عن اليمن يتناول فيها المحاضرون حال تلك البلاد من مختلف الوجوه

ومما يجمل ذكره أن بعثة من مختلف المعاهد الانجليزية قد زارت اليمن ، وقامت بعدة أبحاث ودراسات وأن النتائج التى انتهت إليها هذه البعثة تتفق تماماً والنتائج التى انتهت إليها بعثة الجامعة المصرية التى أذيعت منذ حين فى الأوساط العالية العلمية والأدبية

محاضرات فى النبات المصرى القديم

تقيم فى مصر الآن السيدة فبى لورنت تكهولم ، إحدى الأجنبيات المشتغلات بالنباتات المصرية القديمة والحديثة . وهى زوج المرحوم العلامة جنار تكهولم أستاذ علم النبات بكلية العلوم الأسبق بالجامعة المصرية ، ومؤسس هذا العلم فيها سنة ١٩٢٥

وقد دعت الجامعة هذه السيدة لإلقاء محاضرات فى هذا العلم على طلاب السنتين الثالثة والرابعة بكلية العلوم

وكان زوجها قد حضر إلى مصر بعد أن رشحته جامعة سويدية لكرسى النبات فى الجامعة المصرية ، وبعد وفاته ظلت زوجه تقوم بأبحاثها فى هذا الموضوع ، وقد زارت مختلف الممالك الأوربية استزادة فى هذا الباب ، ووفقت لطائفة من المجموعات النباتية النادرة التى تعد ذات قيمة فنية كبيرة فى الأوساط العلمية .

وقد أعدت طائفة من البحوث فى هذا الموضوع واعتزمت تضمينها عدة مؤلفات ، فرأت الجامعة إزاء القيمة العلمية التى تعود على مصر سواء فى الدراسات الجامعية أم فى الدعاية فى الخارج ، أن تطبع هذه الكتب على نفقتها

وقد هيأت المؤلفة ، مجلدها الأول ، ويقع فى حوالى ٦٠٠ صفحة ، على أن توالى هذا العمل المظيم

موسوعة ثقافية عند الهند

صدرت بالإنجليزية موسوعة ثقافية عن الهند اشترك فى تأليفها كبار الأدباء الهنود وفلاسفتهم وعلماؤهم وكهنتهم وموسيقيوهم ، وساعدهم على ذلك أدباء وعلماء عالميون . فمن الهنود الشاعر الكبير رابندرانات طاغور ، والفيلسوف راضا كرشنان ، والموسيقى دبليب روى . ومن الأجانب رومان رولان ، والسير جون مارشال ... الخ . وقد تناولت الموسوعة ديانات الهند وكتبها المقدسة وتاريخها القديم والحديث وعلومها وآدابها وفنونها ، وقد خصت كاهنها الأكبر (راما كرشنا) بجزء عظيم من مجلداتها الثلاثة . وقد أثار صدور هـذه الموسوعة الحافلة البحث القديم المتعلق بمنشأ الحضارة على وجه الأرض ، أهو العراق كما برهن على ذلك الأستاذ الأثرى ليوناردولى الذى اكتشف آثار أور ، والذى أيده فى هذا الرأى الدكتور محمد عوض محمد ، أم كان منشأ هـذه الحضارة فى مصر كما برهن على ذلك أكثر علماء الآثار وفى مقدمتهم المرحوم الدكتور أليوت سميث الأستاذ بمدرسة الطب المصرية (قبل ثلاثين سنة) ، أم أن تلك الحضارة قد نشأت فى الهند فى مقاطعة البنجاب وحوض نهر السند كما يقول بذلك أحد محررى الموسوعة الهندية وهو السير جون مارشال ؟

والعجيب في ذلك الحوار أن كلا من محبذى إحدي هذه النظريات يستند فى صحة ماذهب إليه إلى تقدير السنين العددى لعمر الحضارة التى نشأت فى إحدى هذه الجهات ، والجميع لا يرجعون بها إلى أكثر من ستة آلاف سنة . فهل فاتهم أنه قد اكتشف فى البدارى (المدينة المصرية ذات التاريخ المعروف) مجموعة أثرية من أدوات الانسان الأول يرجع تاريخها إلى ماقبل ١٢٫٠٠٠ سنة ؟

نسبة بيت شعرى

فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى :

اطلعت على كلمتك فى بريد الرسالة الغراء عدد (٣٤٥) تسائل فيها قراء الرسالة عن نسبة البيت :

له حاجب عن كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب

فأعجبنى منك تلك الدقة الأدبية . والبيت كما يقول أبو هلال العسكرى فى كتابه ديوان المعانى (جـ ١ ص ٢٣) لأبي الطمحان مولى ابن أبي السمط . قال أبو هلال : وقول أبى الطمحان مولى ابن أبى السمط :

فتى لا يبالى المدلجون بنوره ... إلى مابه ألاَّ تضىء الكواكب
له حاجب عن كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب

والحق ما يقوله أبو هلال فقد عرف مروان بن أبى حفصة وروى له فى ديوانه ولقبه بأبى السمط (جـ ١ ص ٦٥) فلو كانت الأبيات له لما خفى عليه ، وقد اتفق مع الرواة فى رواية البيتين معاً ، وأبو هلال أحق بالقبول من كتاب البلاغة فى هذا المقام . أما أبو الطمحان فهو حنظلة بن الشرق القينى أدرك الإسلام ومات قبل الهجرة : ذكره أبو تمام فى حماسته وابن حجر فى الأصابة وضبطه القاموس

عبد الحسيب طه

تطور يتطور تطوراً

الألفاظ العربية قسمان : قسم نبت فى (الجزيرة) فى الجاهلية وقسم نشأ فيها وفى غيرها من البلاد الاسلامية فى وقت (الحضارة العربية) . وكتبُ اللغة المعروفة بالمعجمات حرصت على تقييد القسم الأول . والقسم الثانى (أى جلّ الكلمات العربية) إنما هو فى مؤلفات العلم والأدب والمصنفات الخاصة ، وهو ينتظر معجماً عاماً شاملا ينتظمه — وهمة العرب تلك الهمة — يوم القيامة إن شاء الله تعالى ...

ومن هذا القسم لفظة (التطور) وقد حسب الأستاذ أسعد خليل داغر صاحب (تذكرة الكاتب) وفاضل معروف من مراسلى (الرسالة) فى (دار السلام) فى هذه الأيام — أنها عصرية جرَدِيّة ، فغلّطاها

قال الأول : « ويبنون فعلا من الطور بمعنى الحال على تفعّل فيقولون تطورت الأمور وهم فى غنى عن مخالفة المنقول والمسموع بما فى اللغة من الأفعال التى تفيد هذا المعنى »

وقال الثانى : « ورأيته يمر على كلمة تطوّر فى دفاتر التلاميذ فلا يصححها ، فحاسبته أشد الحساب ، فقال : إن الله يقول فى كتابه العزيز : (وخلقناكم أطواراً) فقلت : نعم إن الله خلقنا أطواراً ومن أجل ذلك لا يصح أن نتطور يا أستاذ »

وهذه اللفظة — التى غلط هذان الفاضلان فى تغليطها — عربية كيّسة حضرية من (بنات الحضارة) وشيخة مسنة عمرها ألف سنة

قال السبكى فى (طبقاته الكبرى) : « من كرامات هذه الأمة التطور بأطوار مختلفة وهذا الذى تسميه الصوفية بعالم المثال »

وقال ابن خلدون فى (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) : وتطوروا — يعنى العرب — بطور الحضارة والترف فى الأحوال »

وقال أبو البقاء فى (كلياته) : « وإيجاد شىء لا عن شىء محال بل لا بد من سنخ للمعلول قابل لأن يتطور بأطوار مختلفة »

وقال الشوكانى فى (البدر الطالع) فى سيرة أبى الفضل الجدالى : « ثم رحل نحو المملكة المصرية وتطور على أنحاء مختلفة »

فوجب — وهذه أقوال القوم — أن يقبل الأديب العربى (التطور) غير متوقف ولا متلوّم (***)

الوصل والفصل

قال أحد الفضلاء فى الجزء (٢٤٥) من (الرسالة الغراء) :

« طابت السهرة وطابت ثم طابت » والقائل من الأساتذة الأدباء فكيف عطف (طابت) الثانية على (طابت) الأولى وبين الجملتين كال الاتصال وهو ظاهر مثل الشمس فى اليوم غير المغيم فكيف هذا العطف والاتصال كامل ؟ !

ومن أمثلة الفصل عند كال الاتصال فى كلام الله : « أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون » « فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا »

وقد قالوا فيما نحن فيه لخطر شأنه ، وعظم قدره : « قيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ قال : « معرفة الوصل من الفصل » وهذا القول فى (العقد) . وفى (دلائل الاعجاز) : « العلم بما ينبغى أن يصنع فى الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها قد بلغ من قوة الأمر أن جعلوه حداً للبلاغة ؛ ذلك لغموضه ودقة مسلكه ، وإنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معانى البلاغة . واعلم أنه إنما يعرض الإشكال فى (الواو) دون غيرها من حروف العطف »

وعبد القاهر فى طبّ الكلام حذام

فالأديب الأريب لا يصل ما يجب فصله ، ولا يقطع (من) يجب وصلها أو وصله ...

« الاسكندرية » (***)

تصحيح

فى النقلة (٣٥٦) : « كأنّ دنيته عليه » وهي : كأن دنيّةً عليه . وفى النقلة (٣٥٨) : « حرمته مَأوَاة ومرعاه » وهى : حرمته ماءه ومرعاه



نوابغ الشباب

للأستاذ قاسم جودة

يشتمل هذا الكتاب على عشرة تراجم من سير الأبطال والعباقرة « الذين كان الشباب صفة بارزة تقترن بما قدموا من خير ، أو بذلوا من جهد ، أو بلغوا من نجاح ، أو أبدوا من وطنية وشجاعة ، أو كسبوا لأنفسهم من فخر التضحية ، وشرف الجهاد » وقد أحسن المؤلف الفاضل إذ حرص على أن يكون هؤلاء النوابغ « من آفاق متباعدة ، وأجناس مختلفة ، وأزمان متباينة ، ففيهم رجل السياسة ، ورجل الحرب ، ورجل الموسيقى ورجل الشعر ، وفيهم العربى والمصرى والانجليزى والفرنسى واليونانى ، وقد تفاوت بينهم الزمن من عهد الحضارة الإغريقية القديمة ، إلى عهد الحضارة الآلية في القرن العشرين »

فأنت فى استجلاء هذا الكتاب تستجلى ألواناً من الرغبات والأهواء فى نفس الشباب العبقرى ، وتتبين وجوهاً واتجاهات تتباعد فى أشكالها بعوامل الزمان والمكان ، وتقف على عبقريات فنية تتوزع فى نواحٍ مختلفة من نواحى الحياة ، ثم أنت بعد هذا كله إزاء صور دقيقة رائعة كلها الفن والاتقان . وناهيك بصور تتجلى فيها شخصيات الاسكندر المقدونى الفاتح العظيم ، وطرفة بن العبد الشاعر القتيل ، وموتسارت طفل المعجزات ، وتوماس تشاترتون شهيد الأنفة وصريع الفاقة ، ووليم بت السياسى العنيف ، ومصطفى كامل فخر الشباب المصرى فى الوطنية وكيتس شاعر الحق والجمال ، وجان دارك رمز الايمان والتضحية وأندريه شنييه نصير الحرية والدستور ، وجينمر فارس الهواء الأعظم

ولقد نهض المؤلف بموضوع كتابه خير نهوض وأكمله ، فإنه شاب يتوثب للمستقبل ، ويتحفز للغد ، ولا شك أن الشباب خير من يفهم الشباب ويقدره حق قدره ، ثم هو أديب واسع الثقافة ، شامل المعرفة ، تتصل دراسته واطلاعه بكثير من الثقافات الأوربية الحية ، ومن ثم أمكنه أن يوفى القول عن شخصيات كتابه وهم — كما قال — من آفاق متباعدة ، وأجناس مختلفة ، وأزمان متباينة ؛ وإذا كانت التراجم بطبيعتها — كما قال كارليل — أكمل الموضوعات نفعاً ، وأعمها لذة ومتعة للنفوس ، فإن لهذا الكتاب ميزة ظاهرة يتميز بها فى نهجه وأسلوبه وتراجمه ، إذ جمع مؤلفه الفاضل « بين البحث التحليلى العميق ، وبين الجانب القصصى الطريف ، فليست فصول الكتاب بالتحليل العلمى الجاف ، ولا بالقصص التاريخى البحت ، ولكنها تجمع بين الفضيلتين ، ففيها نصيب للباحث المدقق الذى يطلب الحقيقة التاريخية فى مصادرها الثابتة ، وفيها حظ آخر للقارئ السطحى الذى ينشد المتعة الخفيفة وتزجية الفراغ » ومن هذه الناحية كان الكتاب رغبة كل قارئ ، وقد أحسنت دار الهلال فى اختياره هدية لقرائها الكرام

السير

للأستاذ محمد سعيد لطفى

نقرأ فى هذا الكتاب نخبة طيبة من المحاضرات التى أذاعها الأستاذ الفاضل محمد سعيد لطفى من دار الأذاعة المصرية على جمهور المستمعين ، وهى محاضرات تدور على سيرة الرسول

صلى الله عليه وسلم وسير بعض أصحابه وقرابته ، ومن جاء بعده من الخلفاء الراشدين ورجال بنى أمية وبنى العباس حتى نهاية الخليفة الأمين ، وما كان بينه وبين أخيه المأمون من حروب على الملك ، وتطاحن على السلطان

ولقد عنى الأستاذ الفاضل وهو يتحدث عن سير هؤلاء الأشخاص بالكشف عن مواهبهم الشخصية ، ونزعاتهم الذاتية ، وخصائصهم التى تميزوا بها فى حكمهم وسياستهم ، وما قاموا به من الأعمال الجليلة ، والأحداث الحافلة ، فجاء كتابه من وراء هذا صفحة مشرقة رائعة من التاريخ العربى ، تكشف عن كثير من النواحى القوية فيه ، وتعطى القارئ فكرة شاملة عن هذا التاريخ الحافل بالجلائل والأحداث

أما أسلوب الكتاب فأسلوب عربى سليم ، جزل متدفق ، تطل منه شخصية الأستاذ سعيد لطفى ، وتظهر فيه روحه ومشربه ، وهى روح تفيض بالدين واليقين ، وتمجد القومية العربية . ولقد أعجبنى الأستاذ إذ راعى فى مسلكه أقدار المخاطبين ؛ فتنكب التعسف والأثقال ، وابتعد عن الحشو فى الرواية التاريخية على نحو ما هو شائع فى المصادر القديمة ، بل نهج نهجاً قصصياً سائغاً يصفه هو لك إذ يقول : « رويت التاريخ كما تتحدث ساعات التسلية ، فلم أرهق المستمعين ، ولم أذكر اسماً إلا لضرورة ، ولا بلداً إلا لحادث جلل ، ونزهت من تناولت سيرهم جميعاً عما لهج به الحاسدون ، وأدخله عليهم الأعداء والموتورون »

وقد أحسن المؤلف الفاضل إذ عنى بإيراد كثير من الخطب والأشعار والرسائل والوصايا التى تعتبر من وثائق التاريخ العربى ، ثم فى الوقت نفسه تعتبر من النصوص الأدبية الرائعة ، ومن ثم لم يكن الكتاب كتاب تاريخ وسير فحسب ! بل كتاب أدب وتاريخ ، ينفع الأديب كما يفيد المؤرخ ، ولاشك أن في الكتاب هفوات ولكنها طفيفة ، ولعل الوقت ينفسح لنا فيما بعد فنتناول الكتاب بفصل شامل على صفحات الرسالة

محمد فهمى عبد اللطيف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

6me Année, No. 248

Lundi - 4 - 4 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٢٤٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣ صفر سنة ١٣٥٧ — ٤ ابريل سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـرس

محنة شهـــــر !!

ذلك الشهر كان شهر مارس ! ومارس فى أساطير الأولين إله الحرب ! ابتليت فيه مصر الوديعة بسطوة الهوى على الرأى ، وعدوان الشهوة على الخلق ، فجاءها بالخلاف وذهب بالأمن ، وابتدأ بالصراع وانتهى إلى الفجيعة . فليت شعري ماذا جنى الزاعمون (1) على الناس من بلايا الناس ؟

كانت مصر طوال هذا الشهر كالبركان الجهنمى الثائر ، يغلى بالحميم ويرمى بالحُمم ويطغى بصهيره الخانق على المغانى والربوع فيهلك الأموال ويزهق الأنفس ، ثم يكون ظلاماً فى الأرض ، وقتاماً فى الجو ، ونتناً فى الهواء ، ومواتاً فى الطبيعة

وكانت الأمة المسكينة تنفق على معارك الانتخاب الدائرة بين الأحزاب أكرمَ ما تملك من المال والدم والخلق ، وهى لا تدرى لهذه الضحايا الغالية التى لا ثواب عليها ولا عوض منها ، حكمةً ظاهرة ولا ضرورة ملجئة

وكان المرشّحون المتنافسون يتعاقبون على الدوائر الانتخابية تعاقب السنين المواحق ، فلا يتركون وراءهم إلا أُمَراً تتفرق ،

---

(1) زعم على الناس : تأمر عليهم وترأس

ووشائج تتمزق ، وضمائر تُشترى ، وذمماً تسرق ، وعصبية تثور ، وأحقاداً تُبعث ، وأموالاً تُهلك ، ودماء تسفك ، وأعمالاً تبور .

فتعالوا نناشدكم الله يا نوابنا وأحزابنا وزعماء الرأي فينا . هل تشعرون بثقل هذه الأوزار التي حُمِّلتموها في سبيل التكالب على النيابة والتسابق إلى الحكم ؟

ألاَ تريدون أن تنسوا أن العضوية في مجلس النواب أو في أندية الأحزاب ليست إلا وصفاً يتمم العنوان ، ومنصباً يلازم الغنى ، ووسيلة تعين على العيش ، وطريقة تؤدى إلى الجاه ؟

ألاَ تحبون أن تذكروا أن النيابة عن الأمة معناها حلول أمة في فرد ، واستيعاب فرد لأمة ؛ فهواها غالب على هواه ، ورضاها مقدَّم على رضاه ، ورأيها مستبد برأيه ، وصوتها مجلجل في صوته ، وهمها شاغل لفراغ باله ؛ فإذا مثل النائب في المجلس دور الكُمْبَرْس ، أو وقف في المناقشة موقف الإمَّعة ، كانت نيابته بعد انتخابه مصاباً بعد مصاب ، وويلاً بعد عذاب ، وكفراً بعد خطيئة ؟

ألا تودون أن تفهموا أن البرلمان بالأمس كان حَسْبُهُ أن يكون مظهراً من مظاهر الاستقلال ، وعنواناً من عناوين الدولة ، وأن العضو فيه كان حَسْبه أن يشارك في أبهته ، ويشرب أكواب الليمون في ردهته ، ويفتح مغاليق الأمور بقوته ؛ أما اليوم فهو تعبئة لكفايات الشعب ، وتجميع لرغبات الأمة ، وتهيئة لقواها العاطلة وأسلحتها الكليلة أن تضمن لنا حق الحياة والكرامة ، وللوطن حق العزة والسلامة ؟

الأسُود الروابض على حدود الوادي تتحلب أفواهها شرهاً إلى افتراسه ، والنسور الحوائم على حواشي الوطن تترقب الفرص لانتهاسه ، وطاغية روما الطموح ينذر الناس أنه يرصد الأُهب في البر والبحر والسماء لحرب جديدة . فهل يشق عليكم أن تدركوا أن للنائب في هذا الوقت العصيب عملاً غير الحفلات والوساطات والغنيمة ، وأنه إذا دخل المجلس من غير مبدأ ، وجرى فيه إلى غير غاية ، واستغل حقوقه من غير عمل ، كان داخلاً في غير أهله ، ونازلاً في غير ملجئه ؟

* * *

أحزابنا متعددة كتعدد الأحزاب الأوربية في البرلمانات الديمقراطية العظيمة ، ولها بمقتضى هذا التعدد أندية وصحف وأتباع ؛ ولكنها تختلف عن أحزاب الأمم بأن ليس لها خطة في الإصلاح مرسومة ، ولا غاية في السياسة معلومة ؛ فهي إلى اليوم تتميز بالأسماء لا بالبرامج ، وتتقارع بالمقالات لا بالخطط ، وتتنافس في بلوغ الحكومة لا في خدمة الأمة

من أجل ذلك كان مرشَّحو الأحزاب لا يجدون ما يقولون في خطبهم الانتخابية غير الجمل الجُوف ، والوعود المبهمة ، والتهم الجريئة ، والدعاوى العريضة ، والعيوب الخاصة ، حتى تركوا البلاد من صعيدها إلى ريفها ضجة من البذَاء ، وغمة من البلاء ، ومزَقاً من الأعراض والخلق

على أننا نرجو أن تكون هذه المحنة آخر المحن ، وأن تموت في سبيل الوطن هذه الحزازات والإحن ، وأن تنكشف عماية الحيرة عن عيون الأمة فتبصر وجه الرأى الذى تستقيم به الحال ، ويستقر عليه الأمر ؛ فقد عودنا شهر مارس أن يكون حميد الأثر في الحياة المصرية . ففي مارس من عام ١٩١٩ استيقظ أبو الهول ، وشبت ثورة النهضة ، وتنافس في الجهاد النساء والرجال ، وتعانق على الوداد الصليب والهلال ، وتسابق إلى الاستشهاد الشيوخ والأطفال ، وسالت أنفس الشباب ضحايا على مذبح الحرية !

وفي شهر مارس من عام ١٩٢٢ ألغيت الحماية ، وأعلن الاستقلال ، وصدر الدستور !

وفي شهر مارس من كل عام تتجدد الحياة ، وتهتز الأرض ، ويورق الشجر السليب ، ويمرع الوادى الجديب ، وينشد الربيع الباكر أناشيد الجمال والحب والأمل !

احمد حسن الزيات

داء الشعور بالحقارة أيضاً

للأستاذ عبد الرحمن شكري

قرأ أديب مقالة داء الشعور بالحقارة فقال إن الصفات التي ذكرتها صفات شائعة فى النفس الإنسانية . وكأنه بهذا القول يريد أن ينكر أن في النفس ما يصح أن يسمي داء الشعور بالحقارة . فذكرت الأديب بأن صفات الخير والشر كلها موجودة فى كل نفس ، فلكل نفس منها نصيب قل أو كثر ، ولكن هذه الحقيقة لا تمنع من تفاوت النفس تفاوتاً عظيماً حسب نصيبها من صفات الخير أو الشر . ولا نريد أن ننكر أن جرثومة الحقارة تلفى حتى فى النفوس العظيمة ؛ هذا أمر نريد أن نثبته وإلا ما استطاع القارئ أن يعترف بما ذكرناه فى مقالنا من أن داء الشعور بالحقارة قد يصير وباء فى بعض البيئات ، وأن له عدوى كعدوى الأمراض الجثمانية ؛ فلولا هذه الجرثومة التى تشترك فيها النفوس قاطبة ما استطاعت نفس أن تؤثر فى نفس أخرى وأن تحملها على محاكاتها فى الأفعال أو الأقوال الناشئة من شعورها بالحقارة

إن صفات الخير أو الشر شائعة فى النفوس الإنسانية ؛ وهذا سبب العدوى وسبب المحاكاة . ولكن شيوع صفة من الصفات فى النفوس لا يجعلها مرضاً مزمناً ، وإنما تصير تلك الصفة مرضاً إذا غلبت على النفس وصارت محور أعمالها وأقوالها وطغت على كل صفة أخرى أو حاولت هذا الطغيان وتملكت المشاعر . وفى هذه الحالة يكون الداء النفسى فى أشد حالاته ، ولكن له حالات أخف وأهون

وقد ذكرنا أن ذيوع داء الشعور بالحقارة يكون أعظم فى الأمم التى ظلت مغلوبة على أمرها عصوراً طويلة ، غلبة تشعرها الذلة والمسكنة سواء أكان الغالب قاهراً أتاها من الخارج أو حاكماً من أبنائها . وتظهر أعراض هذا الداء إذا قلت وطأة تلك الغلبة أو زالت أسبابها وزادت الحرية ، فتبرز وتعظم صفات القلق والألم والحقد والحسد خشية أن يفطن أحد إلى ما يشعر به صاحب داء الشعور بالحقارة في سريرة نفسه . وقد يكون شعوراً غامضاً لا يتبينه تماماً فيتعاظم تعاظماً لا اطمئنان فيه ، لأنه تساوره الأحقاد والحسد فينم تعاظمه عما يبطنه من الشعور وما يعالجه من داء الحقارة . وفى بعض النفوس يظهر الداء بمظهر التواضع وتحقير النفس تحقيراً يخالطه الحقد والحسد والقلق ، فتنم هذه الصفات أيضاً عما يعالجه المرء فى سريرة نفسه من الشعور بالحقارة . وقد يعالج هذا الشعور وهو لا يدركه ولا يفطن له تماماً ، وقد يدعى المتواضع المصاب بداء الحقارة أنه أكرم خلقاً من المتعاظم بهذا الداء . ولم نقل إن داء الشعور بالحقارة لا يظهر إلا فى تلك الأمم التى ظلت مغلوبة على أمرها عصوراً طويلة ، وإنما قلنا إن ذيوعه فيها أكثر ، وصفاته ومظاهره أكثر تنوعاً وتعدداً ، وأعراضه أشد : من حب للظهور ومن دس وكيد وحقد وحسد . ولم نقل إن الكيد والحقد والحسد والتنافر ليس لها إلا هذا السبب وإلا هذا المصدر ، فلها أيضاً أسباب أخرى ، ولكن إذا ظهرت الصلة بينها وبين داء الشعور بالحقارة فى مثل تلك الأمة أو البيئة الموصوفة كان هذا الداء هو سببها ، وحتى فى حالات الأفراد المصابين بهذا الداء فى بيئة سليمة منه قد تظهر صلات هذه الصفات بداء الشعور بالحقارة ظهوراً ليس مثله ظهور . أما فى البيئات الموبوءة فليست الصعوبة فى معرفة صلات هذه الصفات والمظاهر بالداء ، وإنما الصعوبة فى حصرها وعدها ولم شعثها وتشعبها تشعباً عظيماً ؛ وهذا التشعب والتفرع قد يبعدها عن أصلها لكثرة الفروع وفروع الفروع حتى يخيل للرائى أن لها أسباباً أخرى غير داء الشعور بالحقارة الذى هو منبتها وجذرها وجزعها فى تلك البيئة ، فتتكاثر صفاتها أمام الباحث تكاثر الظباء على خراش . على أن العقل لا يجد صعوبة فى أن يفهم منشأ هذا الداء فى الأمم التي ظلت مغلوبة على أمرها عصوراً طويلة تشعرها الذلة والمسكنة ، ثم جاءت الحرية . ومن لوازمها أن يخفى الحر ما يشعر به من صفات متوارثة أو غير متوارثة ، وهذه الرغبة فى إخفاء ما فى نفسه من داء الشعور بالحقارة قد تصير داء يتلمس كل وسيلة شريفة أو دنيئة ، وقد يشرف بصاحبه على الجنون أو يبلغه ، وقد يدفع إلى الجرم . وفى اعتقادى أن مباهاة التعس للتعس من فقراء الفلاحين مباهاة ربما دعت إلى الجرم والإثم من أجل سبب تافه إنما تنشأ من هذا الداء ومن هذه

المؤثرات الاجتماعية القديمة الحديثة . وكذلك حب الظهور الذي قد يودى بالأملاك ويؤدى إلى خراب الأسر إنما هو داء الشعور بالحقارة الخفي يبرز فى شكل تعاظم مصحوب بالقلق والحقد والحسد . وهذه المظاهر تشاهد أيضاً فى نفوس بعض الموظفين والطلبة وسكان المدن الكبيرة . ولا بد أن نقول مرة ثانية إن صلات هذه الصفات بداء الشعور بالحقارة فى بيئة اعتورها ذل ثم حرية بعد ذل طويل ، صلات ظاهرة لا تنكر ، وإن تلك الصفات ليست فى شكلها الذى تشترك فيه النفوس البشرية عامة بل زادت واشتدت حتى صارت داء ، وإنه لا يرجى رقى ولا تصلح تربية ولا يصلح تعليم ولا ترجى ثمراته كلها إلا إذا عولج داء الشعور بالحقارة وأعراضه

وكانت الحرية الكاشفة عن هذه الصفات الكامنة أشبه الأشياء فى فعلها بالخمر التي تظهر الصفات الكامنة ؛ فإذا كانت فى طبع المرء شراسة أظهرتها الخمر إذا سكر ، وإذا كان في طبعه إسراف زادته الخمر إسرافاً حتى يكاد السكران يخلع كل ثيابه ويتصدق بها على الناس ؛ وإذا كان في طبعه ميل إلى الإجرام دفعته الخمر إلى ارتكاب الكبائر

وليس بين القراء من لم يشاهد مريضاً بداء الشعور بالحقارة ، ولكن ذيوع هذا الداء فى بيئة يجعله مألوفاً ألفة تفقده الغرابة ، فلا يشعر به الإنسان فى تلك البيئة إلا إذا بحث عنه وتعمد الفطنة له

وكلما كان المصاب بداء الشعور بالحقارة مفلساً من العلم أو الذكاء كانت لجاجته فى جداله وحديثه أعظم ، وكان غضبه إذا خولف أشد ، وكان ادعاؤه العلم بكل شئ أوفى وأتم ادعاء ، وكان حقده على من يخالف رأيه أبعد أثراً وأطول عمراً وأعمق مقراً من نفسه ، حتى ليكاد يأتى ربه يوم القيامة وأوضح أثر في نفسه حقده على من خالفه فى رأيه فى الحياة الدنيا . والويل لك إذا عاشرت من اشتد به داء الشعور بالحقارة ، فإنك إذا عاونته حقد عليك من أجل فضلك عليه الذى يهيج شعوره بدائه ، وإذا لم تعاونه حقد عليك أيضاً من أجل حاجته إليك التى تهيج شعوره بدائه . وكلما كان المصاب بداء الشعور بالحقارة مفلساً من المال ادعى الثروة ، وقد يبلغ به داء الشعور بالحقارة منزلة يضن فيها بما معه من المال على عياله كى يظهر به فى المجالس والنوادى ، وبين الغرباء ، بمظاهر الأريحية والسخاء والثروة . وهو يتلطف ، وقد يتذلل لمن يريد أن يقنعه أن صفات الأريحية والسخاء من صفاته وإن لم يكن من طبعه إلا الشراسة والحقد . وهو يحقد على كل من لا يمكنه من الظهور بمظهر التعاظم والأريحية ومن لا يهيئ له السبيل إلى ذلك ، وعلى من لا يضحى بكل شئ فى سبيل تهيئة وسائل الظهور له ، وعبثاً تحاول أن تظفر لدى من اشتد به هذا الداء بوفاء أو ود ، وعبثاً تحاول أن تفهمه حقيقة الأمر ، فإنه يخادع نفسه حتى يعتقد أنك تحسده على ماله من مظاهر العظمة أو الأريحية أو الذكاء النادر أو على منزلته فى قلوب الناس . وفى البيئة التى يذيع فيها داء الشعور بالحقارة يعتقد كل إنسان أنه عظيم الشأن ، أو يحاول أن يعتقد هذا المعتقد وأن يحمل الناس على اعتقاده ، ويرى أن أكبر جريمة فى العالم هى أن يجيد إنسان أو أن يظن أن إنسانا أجاد (وإن لم يكن قد أجاد) فى عمل أو قول أو جهد أو رأى أو صنع ، سواء أكانت الأعمال والأقوال مما يرجى فيه الخير للجميع أو مما فيه خير خاص ، وسواء أكان فيها نفع للمريض بداء الشعور بالحقارة أو لم يكن فيها نفع ، وهذا الحقد الذى يشعر به هؤلاء قد يخفى نفسه ويظهر بمظهر العبث ؛ وقد لا يخفى نفسه . وقد يدعى الغيرة على الخير والفضل ، وقد لا يدعى ، وهو دائماً كالحيوان فى الغابة متحفز للوثوب والظهور إذا أتيحت الفرص ، فإذا لم تتح الفرص لم يثب . وكثيراً ما تراه فى أوجه أصحابه عبوساً خاصاً ينم عن جنون الحقد ، وفى مثل هذه البيئة لا يعد المريض بداء الشعور بالحقارة الشقة مشقة إذا كانت من أجل إحباط عمل زميل أو غير زميل ، كأنما تلك البيئة رقعة الشطرنج بين يدى لاعبين ماهرين لا يبقى كل منهما ولا يذر

ولعل السبب فى أن الإنسان فى تلك البيئة التى اعتورها ذل طويل ثم حرية لا هم له إلا منع غيره من الظهور (وكلما كان الظهور بالإجادة فى صنع أو قول كان الخوف منه أعظم) أقول لعل السبب هو الرجوع بالسريرة وبالنفس إلى عهود ذلك الذل الطويل وطغيان الذين ظهروا فى تلك العهود طغياناً سبب ذلك الذل الطويل وسبب داء الشعور بالحقارة ؛ وربما ظهر الظاهرون فى تلك العهود بقدرة أو إجادة فأصبح المرضى بداء الشعور

بالحقارة ، حتى بعد تلك العهود القديمة البائدة ، يكرهون كل ظهور بقدرة أو إجادة لأن فيه مذلة لأنفسهم

وهؤلاء الناس قد يتماونون في إظهار من برز بقدرة أو إجادة ولكنهم قلما يفعلون ذلك إلا إذا كانوا يرجون في إظهاره إظهاراً لأنفسهم وإبرازاً لها واكتساباً لأنفسهم شيئاً من الشهرة بالاجادة التي لصاحبهم ، أو إذا كانوا يرجون منه أن يعاونهم بقدرته على الظهور وإشباع نهمهم منه

ويبدو داء الشعور بالحقارة أيضاً بين طائفة الخدم والحشم والرعاع فيحسبون أنهم يخفون ما يشعرون به من ضعة منزلتهم الاجتماعية بمحاكاة من هم أرفع منهم منزلة في اللباس أو في فتل الشارب أو في التنحنح أو في الفكاهة أو في التعالي والتعاظم على أصحاب الحاجات وكل من يريد مقابلة مخدوميهم . وإذا كان المخدوم أيضاً مصاباً بداء الشعور بالحقارة ويخفيه بالسفاهة حرت وصرت لا تدرى أيأخذ الخادم من أخلاق مخدومه أم يأخذ المخدوم من أخلاق خادمه . وكثيراً ما يتخذ كل منهما الآخر نصيراً في خصوماته التي يخلقها من أجل شعوره بالحقارة . والفلاح الذي يغرى المجرمين والأشرار بمن لا يحبيه وهو جالس على المصطبة ولا يتزلف إليه مثل الموظف الصغير المنزلة أو كبيرها الذي يغرى الأشرار ممن لا يتزلف إليه

وهذه الطوائف كلها تجني على الصغار بتأثير قدوتها فيهم . وكثيراً ما يكون سبب إساءة التلميذ أدبه رغبته في حب الظهور الناشئة من هذا الداء . وحب الظهور صفة عامة في النفوس كما قلنا ، ولكنها في البيئات المريضة بداء الشعور بالحقارة تتخذ شكلاً وضيعاً خاصاً وهي تكون مصحوبة بالصفات النفسية الوضيعة التي ذكرناها . ومما يدل على أن داء الشعور بالحقارة ينشأ بسبب عصور الغلبة التي تشعر بالذلة والمسكنة أن صفاته تكثر وتشيع بين العبيد وأبناء الأرقاء ، أو من كان أجدادهم أرقاء في العصور الغابرة وبين أبناء الشعوب التي ظلت مغلوبة على أمرها عصوراً طويلة خلقت التواء في الخلق ولؤماً . ولعل هذا الأمر يفسر ما نقرأ في محاكات قضايا الروسيا من أعمال أبالسة أدنياء كانوا أرقاء أو مغلوبين على أمرهم عصوراً طويلة ، فلما نالوا الحرية أظهرت ما كمن في نفوسهم ، وهذا سواء أكانت هذه الأعمال قد فعلها من نسبت إليهم أم أنهم حملوا على الاعتراف بها كذباً بوسائل جهنمية ، ولا ينفي هذا الاستنتاج أن السياسة الدولية وعمالها السريين قد يستبيحون كل جريمة ضرورية وغير ضرورية في تنفيذ أغراض السياسة السرية وملحقات تلك الأغراض

ومن التلاميذ الصغار من يصاحب أهل الفساد أو المصابين بداء الشعور بالحقارة ، فيريد أن يخفى التلميذ شعوره بالنقص أو الفساد الذي لحقه بإساءة أدبه . وكثيراً ما يحاكي الصغار هذه الطوائف حتى من كان منها من الرعاع فيحاكونهم في مشيتهم وإشاراتهم وأقوالهم ، ويحسبون أن تلك المحاكاة تكسبهم رجولة وبطولة من غير أن يشعروا أن الرعاع أو من هم أكبر منهم منزلة وأعظم علماً من المصابين بداء الشعور بالحقارة يصدرون ويردون في أقوالهم وأعمالهم وإشاراتهم وحركاتهم وهم مُسَيَّرُون لا مخيرون ، وأنهم في كل هذه الأحوال طوع شعورهم بالحقارة وطوع الرغبة في ستر ذلك الشعور فكأنهم لعب خيال الظل يحركها المحرك من وراء ستار

عبد الرحمن شكري

صفات النساء النفسية

بين سذاجة الطفولة وعبقرية الفكر

للدكتور جميل صليبا

كثيراً ما بحث الأدباء فى النساء وصفاتهن وما يحمد ويذم من أخلاقهن، فوصفوا المرأة الصالحة والزوجة الموافقة، كما أفاضوا فى ذكر صفة المرأة السوء وشرها. فأحسن النساء عندهم من كانت شريفة في قومها، كاملة في عقلها، فصيحة اللسان صادقة محبة لزوجها، حافظة لسرها؛ وشرهن من كان كلامها وعيداً وصوتها شديداً، تدفن الحسنات وتفشى السيئات، صخوب غضوب ضيقة الباع. إلا أن هذه الصفات التي ذكروها لم تبن على استقراء علمى ولا تحليل نفسى. فما هى صفات النساء وما هى أنواعهن عند العلماء؟

بينما كنت ذات مرة ألقى درساً فى علم النفس على تلاميذ لم يتجاوزوا الثامنة عشرة من سنهم قال لى أحدهم بعد أن ذكرت صفات الحوادث النفسية: هل تنطبق هذه الصفات على المرأة، أم فى الأرواح تذكير وتأنيث؟

إن هذا السؤال — بالرغم من سذاجته — يتضمن شبهة فلسفية عميقة. فهل تشعر المرأة كما يشعر الرجل؟ وهل تفكر كما يفكر أو تريد كما يريد؟ وهل تختلف مشاعرها عن مشاعر الرجل كما يختلف جسمها عن جسمه؟

قال بعضهم: إن الفرق بين المرأة والرجل فى الحس والفكر والإرادة عظيم جداً، وإن المرأة كانت فى الجماعات الابتدائية للرجل لا فرق بينها وبين العبد، حتى لقد ذكر لكوفه Legouvé أن أحد المجامع المقدسة فى القرون الوسطى تناقش فى هذا السؤال: هل للمرأة نفس أم ينفرد الرجل وحده بهذه الصفة الإلهية؟ وقد ساقهم إلى هذه المناقشة ماجاء فى التوراة عن خلق المرأة من ضلع من أضلاع الرجل، وقول آدم: هذه عظم من عظامى ولحم من لحمى، وعدم قوله إنها ذات نفس شبيهة بنفسه

وزعم آخرون أنه لا فرق بين الرجل والمرأة في الحس والعقل والإرادة، وأن الفرق بين الرجال أنفسهم أكثر من الفرق بينهم وبين النساء. فما قاله أفلاطون: لا فرق بين الرجال والنساء. يجب أن يكون عدد النساء في جيش الجمهورية مساوياً لعدد الرجال. ويجب عليهن أن يتعلمن استعمال السلاح وركوب الخيل. وينبغى لهن أن ينزعن ثيابهن لممارسة الرياضة البدنية وألا يخجلن من ذلك كله لأن أحسن ثوب يصون المرأة هو ثوب الفضيلة. ومما قاله كوندورسه: يجب أن يكون التعليم واحداً بالنسبة إلى الجنسين لأن المرأة مساوية للرجل. ومما قالته مدام (نكردوسوسور): إن البنات لا يختلفن عن الصبيان أبداً قبل العاشرة من السن

فالباحث عن حقيقة المرأة إما أن يكون مثل بوسويه الهازئ بزينة النساء وزهوهن فيقول لهن: لا تنسين يا سيداتى أنكن خلقتن من ضلع زائد من أضلاع آدم؛ وإما أن يكون مثل أفلاطون الخيالى فيتصور مدينة فاضلة قائمة على سواعد الرجال والنساء معاً. وهذه المباحث الأولية لا تكشف الغطاء عن حقيقة المرأة، بل هى على مثال ما ذكره سائر الأدباء أقوال خطابية لا توضح الأمر بل تزيده ظلاماً، حتى لقد قال (ريدرو) فى ذلك: « إذا كتبت عن المرأة فاغمس ريشتك فى قوس قزح ثم رش على أوراقك غبار أجنحة الفراشة، لأن المرأة هي موجود إلهى »

فلنرجع إلى علم النفس ولنسأل ما هى حقيقة المرأة ولندرس أحوالها النفسية على ضوء العلم الحديث

***

إن تحليل صفات النساء يكشف لنا عن أنواع مختلفة، ويمكننا إرجاع هذه الأنواع إلى أربعة:

١ — المرأة الطفل ٢ — المرأة الحساسة
٣ — المرأة الحساسة الذكية ٤ — المرأة المفكرة

ولنبحث فى كل من هذه الأنواع على حدة:

١ — **المرأة الطفل**: إن هذا النوع من النساء مشتت الفكر والقلب معاً؛ فلا هو منظم الحكم، ولا هو ثابت الحس، بل يتبدل من صورة إلى أخرى بحسب الأهواء والعواطف. وقد وصفه (ديكنس) فى روايته دوريت الصغيرة (La petite Dorit). ويبين العلماء أن له نوعين: المرضي والطبيعى. فالمرضى يعرف بشدة قبوله للتلقين، والطبيعى يشتمل على النساء الخفيفات العقل الكثيرات الزهو اللواتى يتنقلن كالطير من فنن إلى آخر؛ أو يشتمل على النساء الواسعات الخيال الكثيرات القلق والعظيمات الأمل؛ فإذا تكلمن مزجن الحقيقة بالخيال وأسرعن فى التعبير عن أفكارهن أو تقدمت الألفاظ عندهن على الفكر. وقد يملن إلى الاطلاع ويرغبن فى الكشف عن خوافى الأمور، إلا أن ميلهن هذا بعيد جداً عن

محبة العلم ، فهن يرغبن فى المعرفة لا للمعرفة نفسها بل لحاجة فى نفوسهن تدفعهن إلى الحديث . وإذا رغبن فى شىء مجرداً عن المنفعة المباشرة رضين بالقليل منه واكتفين باليسير . قلت لطفل مرة : إذا أعطيتك ثلاث برتقالات وأخذت منها واحدة فكم يبقى معك منها ؟ فقال على الفور : كيف تقول لى إنك أعطيتنى ثلاث برتقالات وأنت حتى الآن لم تعطنى شيئاً ؟ فالمرأة الطفل لا تختلف عن هذا الطفل فى طلب العلم . إنها تفضل المحسوس على المجرد ، والقريب النفع على البعيد القصد . فهى إذن مثل هذا الطفل الذى لا يعرف الحساب إلا إذا تذوق حلاوة البرتقالة

٢ — المرأة الحساسة : يختلف هذا النوع عن الأول بشدة العاطفة وعمق الشعور وتغلب القلب على العقل . إن المرأة الحساسة لاتقيس الأشياء إلا بمقياس العاطفة ولا تزنها إلا بميزان الهوى . فكل ما وافق هوى من نفسها صحيح ، وكل ما أعرضت عنه فاسد . لقد جاء فى بعض روايات (جورج ساند) شىء من صفات هذه المرأة . إنها تنسي هواها القديم عند وقوعها فى الهوى الجديد ، ولا تهتم بوقوعها فى التناقض وانتقالها من ضد إلى آخر . نعم إن الرجل نفسه خاضع لمنطق العواطف ولكنه يحاول فى كل حال من أحواله أن يبرر عواطفه ويجعل هواه معقولا . مثال ذلك : أن (ألسست) Alceste يقول عن نفسه إنه لا يحب سيليمين Céliméne إلا ليرجع إليها الفضيلة المفقودة ، فهو إذن يجد لهواه سبباً معقولا . أما المرأة فلا تهتم بهذه الوساوس ولا تميل إلى سفسطة التشكك ، بل تعلن الأمر كما هو ؛ فاذا كرهت رجلاً كان قلبها وحده مبرراً لها فى كرهها ، وإذا أحبت شخصاً لم تبحث عن الأسباب الباعثة على تعلقها به ، بل تصغى إلى نداء قلبها من غير أن تجد حاجة لتحكيم العقل . إن هذا النوع من النساء شبيه بالنوع الأول فى خوفه من التجريد ، وعدم ميله إلى الحق . إن فكرة العدالة مفقودة عند هذين النوعين ، والنساء على الأغلب لا يملن الى العدالة المجردة ، بل يفضلن عليها عدالة القلب . من ذا الذى يستطيع أن يقنع الوالدة أن ابنها لا يستحق النجاح فى الفحص ؟ العدالة ضيقة النطاق ، وقلب المرأة أوسع من أن يتقيد بهذه الحدود الضيقة . قد تكون العواطف للعقل نوراً وللإرادة قوة ، وقد يبعث الهوى على التضحية الخالصة فيذهب إلى ماوراء العدالة ويكشف الحجاب عن ذخائر القلب فينشرها ويذيعها ولكنه كثيراً ما يشوش أحكام العقل فيملأها ظلاماً .

٣ — المرأة الحساسة الذكية : وقد تكون العاطفة مصحوبة بقوة من الذكاء خفية لا تخلو من الدقة وحدس الحياة ، فتربط المرأة عواطفها بأفكارها وتريد أن تتغلب بها على مشا كل الحياة . إن هـذا النوع من النساء قوى الملاحظة والانتباه والذاكرة ، واسع الخيال شـديد الحس ، إلا أن قوة الحكم عنده مشوبة بدخان العاطفة وسائق الغريزة . لذلك تجده قوى الشعور بالمنفعة كثير الميل إلى العمـل . كالزوجة التى تشعر بالرابط الاجتماعى وتقدره حق قدره وتبدل بعواطفها العفوية بالفكرة الاجتماعية أوالخلقية أو الدينية ؛ وكالوالدة التى تدرك نظام الحياة فتتصور مثلا أعلى له ثم تهيىء أولادها للفوز فى هذا النظام الجديد ؛ فهى تشعر بمشا كل الحياة وتريد أن تتغلب عليها بقوة الذكاء والإرادة . فكم شاب لم يتطلع إلى المعالى إلا بتأثير والدته ! وكم رجل لم يقدم على المغامرات السياسية أو المالية إلا بدافع من زوجته ! وكثيراً ما تكون المرأة هى القوة المحركة والدماغ المفكر والعقل المدبر ، ويكون الرجل هو الآلة المتحركة والواسطة المبلغة .

٤ — المرأة المفكرة : إن هذا النوع الأخير أقرب إلى الاهتمام بالمباحث العلمية من الأنواع السابقة ، فهو محب للاطلاع ميال إلى المعرفة ؛ إلا أنه كثيراً ما يضطرب أمام إشراق الفكر ويعجز جسمه اللطيف عن تحمل أعباء البحث . والسبب فى ذلك أن النساء عشن حقباً طويلة تحت وصاية الرجال بعيدات عن الحرية والحياة ، فلا غرو إذا ترددن فى البحث وشعرن بالقلق فى فضاء الفكر . وبالرغم من ذلك فان البنات أكثر اتباعاً للنظام من الصبيان . وقلما تجد فتاة تفضل الكسل على الاجتهاد ، بل إن أكثر البنات يصغين إلى أساتذتهن ويكتبن الأمالى ، ويحفظن دروسهن ؛ إلا أنهن لا يزلن حتى الآن أقل جرأة فكرية من الصبيان ، لأنهن يعتمدن على الذاكرة أكثر مما يعتمدن على قوة الحكم .

وقد تبين لعلماء العصر أن استعداد المرأة للرياضيات قوى جداً وأن فى وسعها أن تتعود التفكير المجرد ، إلا أنها لا تزال قليلة الثقة بنفسها فلا تبحث إلا فى الأشياء العملية النافعة أو فى الأمور المحددة . ومع أن مدام بيير كورى قد توصلت فى العلوم التجريبية الى درجة عالية فإن تلميذات فرع العلوم فى الجامعات أقل ثقة بنفوسهن من التلاميذ ، لأن التجريب العلمى يحتاج الى جرأة وتنظيم ، وهذان الأمران لا يزالان حتى الآن بعيدين عن المرأة .

ومما يؤيد هــذا أيضاً أن النساء اللواتى اشتهرن بالفلسفة (كهيباتيا) وغيرها لم يبدعن مذاهب جديدة بل إتبعن المذاهب القديمة وحللنها وهذبنها . فالمرأة أقرب الى الاتباع منها الى الابداع. وهى لا تقبل الحقائق المؤقتة ، بل تريد أن يكون كل شيء نهائياً فتسبغ على الحقائق العلمية حلة دينية وتقلب النسبي الى مطلق . إن تلاميذ الفلسفة يفضلون الـكليات الفلسفية على الجزئيات ، فيضخمون الفكر البسيطة ويعممونها حتى تشمل الكون كله . أما تلميذات الفلسفة فيملن الى الجزئيات ويرغبن فى التحليل دون التركيب : فعقل المرأة عقل تحليلي ، أما عقل الرجل فعقل تركيبي . نعم إن المرأة واسعة الخيال ، ومن صفات الخيال الواسع أن ينشيء ويبدع ، إلا أن خيال المرأة يصلح لتبديل صور الأشياء وتغيير حقائقها لا لإنتاج الفرضيات المنظمة وإصلاح الواقع بها .

***

تلك هي أنواع النساء من الوجهة النفسية . فالمرأة الحساسة تصلح للشعر والموسيقى والتصوير والتمثيـل ، والمرأة الحساسة الذكية تصلح للحياة العملية من تجارة وإدارة ، والمرأة المفكرة تصلح للعلم والفلسفة . وقد تمتزج هذه الصفات فتجتمع فى امرأة واحدة ، فيكون منها نوع معتدل صالح للقيام بجميع الأعمال .

وقد أخذت صفات المرأة تتبدل فى الهيأة الاجتماعية الحديثة لأنها قد شاركت الرجل فى جميع الأعمال من تجارة وصناعة وإدارة واقتصاد وسياسة ، فساقها التطور إلى استبدال كثير من صفاتها القديمة بصفات جديدة ، فاستبدلت بالحياء الجرأة ، وبالخشية الاقدام، وبالسكون الحركة ، وبالسذاجة الحيلة ، وبالعبودية الحرية ، وبالعاطفة العقل . وأعتقد أن هذه الصفات الجديدة لا تفسد جمال المرأة بل تزيد سحرها قوة ، لأن العلم لا يجفف القلب بل يبدد ظلمات الغريزة ، وينير طرائق العقل ، ويكشف عن جمال الأشياء ، ويولد فى المرأة صفات نفسية مشابهة لصفات الرجل فى تفكيره وانفعاله وعمله ؛ ويقلب حياة المرأة الاتباعية الى حيـاة مفعمة بالحرية والإبداع . وما أدرى لعل التطور يكشف لنا فى المستقبل عن نوع جديد أكمل من هذه الأنواع الأربعة تتحد فيه العاطفة بالفكر والإرادة بالعقل . إن الأحلام ليست أقل تأثيراً فى التطور من اشتباك الأسباب الحقيقية واختلاتها .

جميل صليبا
رئيس التعليم الثانوى بدمشق



رأيت فى نومى البارحة رؤيا أفزعتنى : رأيت أنى تزوجت . ولم تبين الرؤيا كيف تم ذلك ، ولكن وجدت نفسى على فرُش وثيرة من الدمقس الأزرق فى حجرة جميلة ذات سجُف من حرير متألق متماوج الألوان كرقبة اليمامة . وسمعت حولى من يقول :

— هذا جهازها — جهاز من ؟ — عروسك

— ومن الذى زوجنى ؟ وممن العروس ؟

— من بيت حسب ونسب . ذات جمال ومال وحلاوة لسان . وهى فرصة كان لا بد من انتهازها . وقد علت بك السن وكاد يفوت أوان الزواج

— ومن انتهز لي هذه الفرصة ؟

— أولاد الحلال ، من قرائك المعجبين الذين يهتمون لأمرك

— شيء لطيف . وهؤلاء القراء المعجبون الذين زوجونى ، كيف فعلوا ذلك ؟ وأين وجدوا لي هذه العروس ..؟

— لا شأن لك بكل هذه التفاصيل . ولا تشغل بالك إلا بما أنت فيه من نعيم مقيم

— والعروس ؟ أسبق لى رؤيتها ؟ — لا . ستراها الليلة

— عجباً ! وكيف يزوجوننى ممن لم أرها ونحن فى القرن العشرين ؟ آه أيها الناس ! إن هذا جاوز الحدود ...

— هى أيضاً لم ترك — أقرأت كتبي ؟

— لو كانت قرأت كتبك لما تزوجتك

— وكيف إذن أقنعوها ؟

— قالوا لها عنك كل شيء إلا الأدب والتأليف . فقد وجدوا من الحكمة وأصالة الرأى كتمان ذلك عنها إلى أن يتم العقد ويتعذر النقض

وفتحت عينى فى الصباح وأنا أقول : « اللهم أحمدك على استيقاظى قبل تمام العقد ، وقبل مواجهة الفتاة بذلك العيب الذي لا يغتفر ! نعم ان المرأة لن تتغير . إن شئون الفكر عندها شيء مخيف وكم من شعراء وأدباء أخفوا على نسائهم كنوز عقولهم ولم يظهروا لهن إلا كما يردنهم : رجالاً مبتذلين كبقية الرجال ! »

توفيق الحكيم

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٤ —

نحن فى اليوم الرابع من أيام المؤتمر الطبي العربى الذى بثّ الابتهاج والانشراح فى أرجاء بغداد ، وأنا أمضى إلى مدرج كلية الطب لألقى محاضرتى عن المصطلحات الطبية فأجد اسمى فوق اللوحة آخر الأسماء ؛ وأتلفت فأرى فتاة من قريبات ليلى جاءت لتسمع محاضرتى فأحقد على منظم المنهج ، لأن هذه الفتاة قد تضجر فتنصرف قبل أن تسمع صوتى ، فأنتهز أقرب فرصة وأدخل فى مناقشة حامية مع الدكتور فؤاد غصن ؛ وينهزم الدكتور فؤاد غصن ، فتصفق تلك الفتاة . وما أسعد الخطيب الذى تصفق له فتاة بغدادية ساجية الطرف مصقولة الجبين !

رباه ! متى يُعقد المؤتمر الطبي مرة ثانية ولو فى الصين ؟ !

ويقوم سعادة الأستاذ على الجارم بك فيلقى محاضرته فى صوت مطلول كأنداء الصباح

ثم يقوم فضيلة الشيخ السكندرى فيلقى محاضرة نفيسة جداً تضج لها الأرض وتطرب السماء ، ويصيح الدكتور القيسى : تحيا مصر ! تحيا مصر !

وأُقبل عليه أشكره على التحية التى وجهها إلى مصر فيقول : كنت أظن الذكاء المصرى خرافة أذاعها المصريون . واليوم رأيت وتحققت أن المصريين أذكياء وعلماء ، وقد تبددت الصورة المشوهة التى ارتسمت فى ذهنى بسبب المجوح الذى شهدته فيمن عرفت من الطلبة المصريين في باريس

وأعتذر عن مجوح شبابنا فأقول : لا تلم شبابنا على المرح والطرب ، فنحن شعب طال عهده بالهموم والأرزاء فهو يروح عن نفسه بتكلف السرور والارتياح . أما سمعت قول شاعركم الزهاوى فى مخاطبة أم كلثوم :

يا أم كلثوم إنّا أمةٌ رزحتْ   تحت المصائب أحقاباً فسلّينا

ويجيء دورى فى الخطابة فأعتلى المنبر فى زهو وخيلاء . ثم يروعنى أن أرى الناس ينصرفون ، فأذكر أن الموعد حان للغداء فى مضارب بنى تميم ، وأن المستمعين الكرام يفهمون جيداً أن الغرق فى المرق أشهى وأطيب من بلاغة سحبان !

ويرى سعادة الدكتور عبد الواحد الوكيل بك أنى متألم متوجع فيهمس فى أذنى أن المدرج لم تبق فيه فتاة واحدة. فأسأل: وكيف ؟ فيجيب بأن وعورة البحث الذى ألقاه الشيخ السكندرى أملَّتْ جميع الفتيات فانصرفن عابسات . ويسرنى ألا تشهد فتاة هزيمتى فأقول : إلى الغد ، إلى الغد ، يا حضرات الزملاء !

وقبل أن أدخل فى تفاصيل ماسأراه ، أذكر أني زرت ليلى شفاها الله فى مساء ذلك اليوم فحدثتنى أن خطبة الشيخ السكندرى ملأت مسامع أهل بغداد ، ولكنها أنكرت أن يتحذلق الشيخ السكندرى فيقول :

إن الأوكسيجين مثنًى أو كسيج ، وإنه يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء

فأصرخ فى وجه ليلى : هذا كذب ، هذا افتراء !

ثم أعرف بعد ذلك أن هذه دعابة ثقيلة أذاعها مصرى خبيث يقيم فى بغداد

ولم أنجح فى إقناع ليلى بأن هذا افتراء على الشيخ السكندرى إلا بعد أن هددتها بالغرق فى دجلة ، وليلى تحبنى يا بنى آدم ، فلا تستغربوا أن يهولها هذا التهديد

* * *

ثم أخرج للبحث عن سيارة تنقلنى إلى مضارب بني تميم ، فلا أجد غير سيارة بالأجرة ، فأتردد ، لأنى لم أدخر درهما واحداً فى بغداد ، فقد أنفقت مالى على المطابع ، وعند الله جزائى

وأهم بالزهد فى الولمية التميمية فأسمع صوتاً يقول : سيارتى فى خدمتك يا دكتور زكي . فأنظر فاذا طبيب لا أعرف اسمه ، ولو عرفته لشرفت به هذه المذكرات ، فأقول : ولكن معى صديقان فضيلة الشيخ السكندرى والأستاذ عبد المنعم خلاف . فيقول : سيارتى فى خدمتكم جميعاً يا مولاى

وقبل أن أدخل فى التفاصيل أذكر أنى أعطف على عبد المنعم خلاف لسببين : أما السبب الأول فلا أذكره ، وهو يعرف ما أعنى . وأما السبب الثانى فهو أن الشقىّ يشغل نفسه منذ أشهر طوال بالبحث عن مصدر الوحى : الوحى الهائل الخطير الذى جعل الدكتور زكى مبارك يكتب ثلاث مقالات في كل يوم بالرغم من اشتغاله بالتدريس والتأليف . وسيموت الشقى قبل أن يعرف مصدر الوحى . وسيموت قبله مصريون آخرون يهمهم أن يعرفوا

كيف استطاع الدكتور زكي مبارك أن يكون أصدق من استرقّت بغداد

ونمضى فى السيارة على غير هدى فى صحبة الطبيب النبيل الذى ينقلنا إلى مضارب بنى تميم ؛ ثم تتلفت فجأة فنرى نحو عشرين سيارة تتعقبنا فنعرف أننا ضللنا مع أننا فى رحاب عقرقوف الذى خلّد اسمه أبو نواس فى رحلته إلى مصر ، مصر التى فيها الزمالك ومصر الجديدة وحلوان ، والتى تسدل ستائرها على الجدائل المعطرة التى تشمتت بعد رحيلى إلى العراق

رباه ! إنك تعلم أن الظلام فى مصر الجديدة أندى وأطيب من النور الوهاج ، فمتى ترجعنى إليه !

ونصل إلى مضارب بنى تميم فنرى أفواجاً من الفرسان ينتظروننا على طول الطريق وهم يحيوننا بأناشيد كلها رفق وحنان . وفى زحمة الاحتفال يجيء طبيب نبيل فيدعونى للتسليم على سيدتين كريمتين ، لا أذكر اسمهما تأدباً ، ولو شئت لقلت إنهما من النفحات الربانية ، وقد رحلت الأولى إلى القاهرة وبقيت الثانية فى بغداد . فإليهما أقدم تحيتى وثنائى ، والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف . وعد السماط ، أو السماطان ، أو الأسمطة ، كما يشاء كرم الشيخ حسن سهيل

ثم يشيع بين الجمهور أن رجلاً غرق فى المرق ، فيصيح الطفل الجميل الذى اسمه عمر : بابا ، بابا ، أحب أن أطمئن على الدكتور زكى مبارك . فيقول سعادة وزير مصر المفوض فى العراق : اطمئن يا بُنىّ ، فان الدكتور مبارك من كبار السابحين!

ويقف عميد بنى تميم ليخطب فيشتد التصفيق ؛ ويقف الشيخ السكندرى ليخطب فيشتد الهتاف ؛ ثم يقول صديق كريم بصوت جهورى : الدكتور زكى مبارك باقى كلمة العراق ، فيتلفت وزير المعارف قائلا : ماذا ؟ ماذا ؟ فيجيب الصديق الكريم : الدكتور زكى مبارك يخطب باسم العراق : فيقول معالى الوزير : نعم ، نعم ، من حق الدكتور زكى مبارك أن يخطب باسم العراق

وألقى خطبة رنانة أشكر فيها إخوانى المصريين وأقول إن حياتى طابت فى العراق وإننى لا أحب الرجوع إلى مصر . فأرى دموع الشيخ السكندرى تتحدر وأسمعه يقول : وهل نسيت سنتريس ؟ !

فأقول بصوت صاخب : ونسيت سنتريس !

ومن واجبى أن أسجل فى هذه الذكرات أنى لم أر فى حياتى أياماً أطيب من أيام العراق . وسأظل من أنصار العراق فيما بقى من حياتي . حيّا الله العراق ، ونصر الله العراق !

* * *

أما بعد فنحن فى منتصف الساعة التاسعة من مساء ١٢ فبراير سنة ١٩٣٨ وهو مساء لم تشهد مثله بغداد منذ أجيال . وهذه سهرة فى بهو أمانة العاصمة أقامها الطبيب الشاب الدكتور شوكة الزهاوي . وهذا الدكتور زكى مبارك الملحد الفاجر فيما يزعمون ، يتلفت عن صاحبة العينين فلا يرى صاحبة العينين . ولكنه يرى الطبيب النبيل الذى سيقبل من أجله ترى بغداد يوم يفارق بغداد ، فيستشير صديقه فيما يأتى وما يدع ، فيعرف أن السهرة تنقسم إلى قسمين : قسم عربى وقسم أفرنجى ، فأقول : النبي عربى ، ولسان أهل الجنة فى الجنة عربى

وأمضى إلى القسم العربى فأجد الوزراء جميعاً وعلى رأسهم فخامة الرئيس . وأخرج عن وقارى فأمضى إلى رئيس الوزراء وأقول : سيدى ، أتسمح بأن أسجل فى مذكراتى أن إيثارك الجلوس فى المرقص العربى هو فى ذاته تزكية نبيلة للثقافة الذوقية فى حياة العروبة ؟ فيبتسم ابتسامة القبول

وأعود إلى مكانى وأجعل قلبى كله للمرقص ، وما هو فى الحقيقة بمرقص ، ولكنه مَغْنى كما يعبر المصريون . وأنظر فإذا فتاة مليحةٌ جدًّا تجلس بين القيان وعليها سيما الدَّل ، فيزعجنى أن تعجز عيونها الساحرة عن الاستبداد بألباب الناس ، فأنظر إليها بترفق وأرفع الكأس ، فتنظر بحنان وترفع الكأس ، ولا يكفينى ذلك ، بل أصنع الصنيع نفسه مع سائر القيان ؛ ويتقدم رجل لم تذهب الكأس بوقاره فيقول : يا دكتور مبارك ، إن مكانك قريب جدًّا من فخامة رئيس الوزراء ولعله يتأذى من مداعبة القيان ، وأنا أرى أن ما تصنع لا يليق بمقامك

فقلت فى عبارة صريحة : إن ما أصنع هو الذى يليق بمقامى

فتلعثم الرجل وقال : لطفاً يا سيدى ، لطفاً ! ولكن هل أستطيع أن أعرف جوهر رأيك فى هذه القضية ؟

فقلت وأنا أجدّ كل الجدّ : لستُ يا سيدى بفاجر ولا أثيم وإنما أنا رجل مؤمن ، ومن واجب المؤمن أن يتوجع لآلام المنكوبين ، وهؤلاء المغنيات والراقصات يعانين أبشع نكبة قاسها الإنسانية ، فهنّ مسئولات عن الوصول إلى قلوب الناس . ويا ويل مَن يحكم عليه الزمن بأن يكون من صنعته أن يُرضي الناس ؛ والناس ياسيدى يغلب عليهم اللؤم فلا يقابلون من يخطب

رضاهم بغير الجحود ، فهل يسوؤك وأنت عراقى كريم أن أكون من الكرماء ؟ هل يسوؤك أن أُدخل السرور على قلب فتاة بائسة قضى عليها الزمن الجائر بأن تطلب رضاى ورضاك ؟

فهدأ الرجل قليلاً ثم قال : وما رأيك فى هذا ؟

فقلت : وما هذا ؟

فقال : أما رأيت الراقصة ترفع الثوب عن فخذيها في وقاحة وسفاهة ؟

فقلت : نعم رأيت ، ثم رأيت ؛ ولكن من الملوم ؟ إن الراقصات يعرفن أن فينا الغوىّ والسفيه والمجرم ، فهن يتقربن إلينا بتزيين الرجس والدعارة والفحش . ولو كنّ يعرفن أننا جميعاً نغار على الكرامة لما جاز لإحداهن أن تكشف عن قدم أو ساق

ويقوم المغنى المطرب محمد القوميانجى فينشد :

أأحبابنا قد فرّق الدهر بيننا

فأصيح : قد جمّع الدهر بيننا

فيعرف أنه لم يراع المقام ثم تكون أغانيه بعد ذلك ضرباً من الارتجال

وأنتقل من مكانى لأرى كيف تموج الدنيا فى الرقص الأفرنجى فأعثر على الراقصة التى كنت أداعبها بالكأس منذ لحظات ، وأحييها فلا تردّ التحية ، كأنها ظنت أننى كنت فى مداعبتها من الماجنين

إننى أفهم حالك أيتها الصبية المسكينة ، ويسرنى أن أراك تتمنعين فالناس كلهم وحوش . ولا أستثنى نفسى فلتحذرى وليحذر أمثالك من حسن الظن بالناس

طوّفت بالمرقص الأفرنجى لحظات لأرى صاحبة العينين ، ولم أجدها فأين ذهبت ؟ أين ذهبت ؟ دلونى فقد عيل صبرى . وفوق أى مخدّة نام ذلك الخد الأسيل ؟ رحمك الحبُّ يا قلبى !

***

تحيا انجلترا ! !

كذلك قلتُ ، فدهش السامرون

تحيا بريطانيا ! !

كذلك قلتُ ، فتعجب السامرون .

تحيا بريطانيا العظمى ! !

كذلك قلتُ ، فضجّ السامرون

ومالىَ من ذنبٍ إليهم علمتهُ سوى أننى قد قلت يا سرحة اسلمى

نعم فاسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى ثلاث تحيات وإن لم تَكلمى

لقد كنت من أعضاء الحزب الوطنى ، وكنت من أوفى الناس لمباديء مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش . وكنت أذيع مبادىء الحزب الوطنى بلباقة فى الجرائد الوفدية ، وكان الوفديون يعرفون صدق وإخلاصى ونزاهتى فيتسامحون ويدعوننى أذيع فى جرائدهم ما أشاء . ولما أُمضيت معاهدة التحالف بين انجلترا وبين مصر قررت أن أؤلف كتاباً أدعو فيه المصريين إلى أن يتذكروا دائماً أن انجلترا كانت غزت مصر ورزأتها بالاحتلال

فما الذى جدّ فى أفق السياسة حتى أهتف بحياة انجلترا فى بغداد؟ ما الذى جدّ حتى يتغير زكى مبارك الذى أضاع نفسه فى مصر بفضل حرصه على مبادئه الوطنية وانعزاله عن الأحزاب التى تملك مصاير الأمور فى أكثر الشؤون ؟

فقد كنت ألمح من بُعد فتاة تسارقنى النظر بعينين زرقاوين ، وكنت لا أملك الانتقال إليها ولا تملك الانتقال إلىّ ؛ وكان جارى رجلاً ظريفاً كسائر البغداديين ، فترك مقعده عمداً لأستطيع دعوة الفتاة إلى جوارى . ولم تنتظر الفتاة الدعوة ، فما هى إلا لمحة طرف حتى كان وجهها إلى وجهى ، وكلمتنى بالانجليزية فلم أفهم ، فاستوضحتها بالفرنسية فلم تفهم ، فقالت بلسان عربى ملحون ما معناه : أرجوك أن تطلب من سليمه باشا أن تغنّى :

على بلد المحبوب ودّينى

ودار الصوت على الحاضرين ويدها فى يدى ، وعينها فى عينى ؛ وتلطف الكرام الكاتبون فلم يسجلوا غير الجميل

وبعد لحظات همّت الفتاة بالانصراف ، فجذبتُ يدها أقبلها فسمحت بعد تمنع واستحياء

ولم يكُ غير موقفنا فطارتْ بكل قبيلةٍ منا نَواها

فواهاً كيف تجمعنا الليالى وآهاً من تفرقنا وآها

***

ثم يجىء اليوم الخامس فألقى محاضرتى فى كلية الطب ، وأعربد على الدكتور عبد الواحد الوكيل وعلى الأطباء المصريين ، وأزعم أن أساتذة الطب فى مصر من أكسل الناس ، ولولا ذلك لنقلوا علوم الطب إلى اللغة العربية . ويصفق الحاضرون ، ويقبل الجارم ليهنئنى فأقول : أنا تلميذك . فيقول : لقد بذذت أساتذتك .

ويجىء المساء فأذهب إلى الحفلة التى تقيمها الجمعية الطبية المصرية ، فأراها وا أسفاه حفلة مصرية حقاً وصدقاً ، فلا شراب

ولا رقص ولا غناء ، فأقول فى نفسى فضحتمونا يا ناس !

ولكن الدكتور عبد الواحد الوكيل ينقذ الموقف فيلقى خطبة يقول فيها إن الجمعية الطبية المصرية عرفت أنها تعجز عن إقامة حفلة كالتى أقامها معالى أمين العاصمة ، أو حفلة كالتى أقامها سعادة رئيس الجمعية الطبية العراقية ، فقررت أن تقيم حفلة ترقص فيها الخطب ويغنّى فيها البيان

الله أكبر ! الله أكبر !

وكذلك قضينا ثلاث ساعات فى سماع الخطب والقصائد ، ثلاث ساعات قضيتها فى كرب ، لولا الخطبة الظريفة التى ألقاها سعادة المشهاوى بك ، ولولا الوجه الأصبح الذى كنت أتعزى بالنظر إليه.

***

ويجئ اليوم السادس وهو رحلة إلى السدة الهندية وأطلال بابل

وأصل إلى القطار فى آخر ثانية ، فقد كنت فى شواغل غرامية عاقتنى عن مراعاة الموعد ؛ ولكن حظى كان سعيداً ، ولا أذكر كيف ، فقد تتأذى بذلك بعض الوجوه الصّباح . ويمر القطار على قرية اسمها الاسكندريه فأقول : لعل هذه هى البلدة التى ينسب إليها أبو الفتح الأسكندرى الذى روى عنه عيسى ابن هشام فى مقامات بديع الزمان ؛ وأملأ عينى من نخيلها وأكواخها لأكتب عنها كلمة فى الطبعة الثانية من كتاب (النثر الفنى)

ثم يقذفنا القطار إلى السدة الهندية ، وليتنا غرقنا هناك !

والسدة الهندية قنطرة ظريفة على الفرات ؛ وللفرات فيها هدير جذّاب يذكر بهدير النيل على الرياح المنوفى بالقناطر الخيرية . وقد وقفت على السدة الهندية لحظات ظفرت فيها بوعد سأنعم به يوم أعود إلى وطني ، إن كان لى إلى أرض الوطن معاد

لا تحزن يا قلبى ، فليست هذه أول غربة ، فقد كنت غريباً فى كل أرض حتى فى سنتريس !

لا تحزن يا قلبى ، فأقرب الناس إلى الله هم الغرباء ، لأن الغريب يؤدى امتحاناً فى كل لحظة ، وتدرسه العيون فى كل مكان ، ويؤدّى حساباً إلى كل مخلوق ، ويعجز عن إصلاح ما يُفسد المفترون

لا تحزن ياقلبى ، فكل غيم يتلوه صحْو ، وكل ليل يعقبه صباح .

لا تحزن يا قلبي ، فأنا بجانبك أرعاك وأواسيك ، وسأكفنك بدموعى إن قضى الله أن تموت غريباً بين القلوب

لا تحزن يا قلبى ، لا تحزن يا قلبي !

ما هذا ؟ ما هذا ؟

أتريد أن تفرّ من قفص الضلوع ؟

والى أين ؟ حدثنى الى أين ؟ الى أين يا جاهل ؟ فأنت تجمح الى قلوب عرفت من بعدك كيف يحلو اللهو ، وكيف تُقرع الكأس بالكأس ، وكيف تطيب الأسمار والأحاديث . الى أين ؟ حدثنى الى أين ؟ وهل لك وطنٌ أيها القلب ؟

حدثني أين وطنك فقد نسيت ! أيكون وطنك بين تلك القلوب الغوادر التى تضن عليك بخطاب تكاليفه عشرة فلوس ؟ أيكون وطنك عند تلك الإنسانة الغادرة التى قطعت حبل الودّ لأنى دعوتها لزيارتك متنكرة فى بغداد ؟

أين وطنك يا قلبي ؟ أحب أن أعرف أين وطنك لأمضى معك اليه . أهو مصر ؟ كذبت ، ثم كذبت ، فلو عرفتك مصر حق معرفتك لكان لك اليوم مكان مرموق ، ولكنك فى مصر منبوذٌ مجهول

قلبي ! قلبي ! رحمةُ الله عليك ، فقد سعد ناس بالرفق المزيف ، وشقيت أنت بالرفق الصحيح

وقد وصل ناسٌ لأنهم كذبوا ، وتخلفت أنت لأنك صدقت .

ونَمَ ناسٌ لأنهم خانوا ، وشقيت أنت لأنك وفيت

وتقدم ناسٌ لأنهم هزلوا ، وتأخرت أنت لأنك جَدَدْت .

وانتفع ناسٌ لأنهم غدروا ، وخسرت أنت لأنك وفيت

قلبى ! قلبى ! أحسن الله إليك !

أنظر يا جاحد ! فها نحن أولاء فى رحاب أسد بابل ؛ وهذه صاحبة العينين . نعم هذه صاحبة العينين ، أما ترى يا قلبى ؟ أما ترى يا جاهل أن صاحبة العينين تُنحّى زوجها بعنف لتظهر فى الصورة بجانبك ؟ اعترف يا جاهل بأن الله رعاك حين كتب أن تظهر فى صورة عالية فى رحاب أسد بابل وفى جوار صاحبة العينين .

اعترف يا جاهل بأنك كنت فى إحدى لحظاتك أسعد القلوب

مولاتي صاحبة العينين :

أعترف بأنى آذيتك ببعض الإيذاء ، أو كل الإيذاء ؛ ولكن الشاعر مغفور الذنوب ، لو تعلمين ؛ وقد قرأ الناس مذكراتى

فى مجلة الرسالة فعرفوا من أنتِ . فهل أطمع يوماً فى أن تعرفى من أنا ؟ وهل يعرف زوجك الفضال أننى شاعر لا يهمه غير أنس الروح بالروح ؟

المهم عندى يا مولاتى أن يعرف أبناء العروبة أن الجمال غير مقصور على من أنجبتْ لنـدن وباريس وبرلين ، وأن فى بغداد ودمشق وبيروت ومكة والمدينة وصنعاء والقاهرة والاسكندرية والمنصورة ودمياط وتونس ومراكش والقدس وما شاء الهوى من الحواضر العربية أرواحاً فيها جمال وصفاء

مولاتى صاحبة العينين :

لست بالرجل الفاجر ، كما يزعم المرجفون ، وإنمـا أنا رجل شاعر يؤمن بأن من الوطنية أن يحبِّب العرب فى بلادهم بالاشادة بما فيها من صباحة وملاحة وأخلاق

فهل أستطيع أن أمرّ على بلدكم الجميل فى طريقى الى مصر ، مصر التى فيها الزمالك وحلوان ؟ مصر التى فيها شارع فؤاد ، والتى فيها الزيات ومحمد الهراوى ومحمد عبد الوهاب ومدحت عاصم والمخلوق السخيف الذى اسمه عبـد الله حبيب ؟ مصر التى فيها أحمد فريد رفاعى وطه حسين وإبراهيم مصطفى وأمين الخولى وعبد الحميد العبادى وأحمد أمين ؟ مصر التى فيها المكتبة التجارية والجامعة المصرية ؟ مصر التى فيها هوى القلب وشفاء الفؤاد ؟

مولاتى صاحبة العينين :

أنا أشرف من العصابة التى حرستْك منى ، فاسمحى لى بتقبيل قدميك قبل أن أموت ، ولـكن ... ولـكن ...

ولـكن أينسينى حديث العينين وصاحبة العينين ما شهدت يوم زيارة القوة الجوية العراقية ؟

إن تلك الزيارة تمثل روح العصر أصدق تمثيل ، فقد كان المفروض أن يحلق فى الجو بعض أعضاء المؤتمر الطبي ، وكان المظنون ألا تظهر هـذه الرغبة إلا عند عدد قليل من الأعضاء

ثم ظهر أن الناس كلهم يريدون امتطاء الطيارات حتى خشينا ألا يمر ذلك اليوم بسلام

وما كان يهمنى أن أشترك فى هذه النزهة فقد عرفت أمثالها من قبل وسجلتها فى كتاب ذكريات باريس ، ولـكني رجوت أن يكون هذا الزحام فرصة أداعب فيها فتاة أو فتاتين أو ثلاث فتيات ، ثم هالنى ألا أرى غير جماعات من « الخناشير » كلهم شُعثٌ غبرٌ كأنهم قدموا من البيداء ، ومزاحمة هؤلاء ضرب من الضياع

ومع ذلك صممت على الاشتراك فى هذه النزهة ، ولـكنى لم أفلح ، فما كانت طيارة تنزل حتى يهجم عليها الناس كالوحوش ورجعت أتعثر في أذيال الخيبة فما كدت أصل إلى باب المطار حتى سمعت رجلا يقول :

— أتريد أن تطير يا دكتور ؟

— نعم ، يا سيدى ، أحب أن أطير !

فدعانى إلى سيارته فركبت ومضينا الى ناحية قصيّة بمطار طيارة وقال : « هذه فى خدمتك فادع الى مصاحبتك من تشاء » فنظرت فإذا سيدة « تائهة » فأخذتها معى وطرت

وعند النزول رأيت السيارة وصاحبها فى انتظارى فركبت معه الى المقصف وأجلسنى مع جماعة من الضباط ، ثم قال بعد تناول الشاى والحلوى والفاكهة : « خذ حريتك يا دكتور وطوِّف حيث شئت »

فلما تركته كان أكبر همى أن أعرف من هو ، فسألت فعرفت أنه سعادة أمير اللواء حسين فوزى باشا رئيس أركان الجيش

ومع هذا يعجب ناس حين يروننى أطيل القول فى الثناء على العراق وأهل العراق

* * *

انتهت أيام المؤتمر ، سقاها الغيث ، ولـكن جدَّ ما لم يكن فى الحسبان ، فقد أذاع رئيس الجمعية الطبية العراقية أن البصرة هى المدينة التى وُلدت فيها ليلى المريضـة فى العراق . وكنت خليقاً بأن أعرف ذلك من قبل ، ولـكن ليلى لم تحدثنى عن وطنها الأول ، ولم أسأل عنه ظمياء ، فرأيت الفرصة سانحة لأن أمضى مع أعضاء المؤتمر لرؤية الثرى المندى بالمطر والريحان ، الثرى الطاهر الذى عرف النعيم يوم كان يتخطر فوقه ذلك القد الرشيق

إلى وطنك ياليلاى ، الى البصرة ، الى النخيل ، الى شط العرب الذى تحترب فى سبيله أمم وشعوب ، الى وطن الجاحظ ، الى وطن المبرد ، إلى وطن مولاى الحسن البصرى أمتطى القطار فى ظلام الليل

« للحديث شجون »　　　　زكى مبارك

قضية اللغة العربية

للأستاذ أحمد خاكي

١ — التقدم واللغة : يذهب الجمهرة من المربين فى العصر الحديث الى أن الغاية من التربية ينبغى أن ترمى إلى تدريب الطفل على أكثر أنواع المهارة التى تتطلبها حياته الحاضرة والمستقبلة، والتى تقتضيها الحضارة وطلب الرزق . بل لقد آمن الكثير منهم بأن الحضارة فى نفسها تقوم على المهارة فحسب ، وأن العصر الحالى يمتاز فيما يمتاز به بتلك الوجهة الآلية التى تلزمنا بها حاجات الحياة، وأن التقدم رهين بما تحسنه الجماعة من أنواع المهارة ، وأننا لن نبلغ المثل الأعلى الذى يحدونا الى التقدم حتى نتقن أكبر عدد منها

ويذهب أصحاب اللغات الى هذا الرأى فيما يتصل بتعليمها . فقد أمَّن هؤلاء على كل ذلك وزادوا عليه أن تعليم اللغات هو فى نفسه ضرب من ضروب المهارة التى يجب أن يكسبها المتعلم حتى يوفق بين نفسه وبين البيئة التى يعيش فيها . بل هو لا بد مرغم على كسبها اذا هو تطلع الى لون من ألوان الحياة أزهى من ذلك الذى اعتاده آباؤه وأجداده . فاللغة عند هؤلاء شبيهة بالمشى أو الجرى أو تناول الطعام أو احسان الرماية أو الطيران . فهى لا محيص للناشىء من أن يتلقنها فى بيئته ، بل هو مجبول على تلقنها ما دام يرى أن حياته تقوم على الاجتماع بسائر الأفراد ، وأن اتصاله الفكرى مع من حوله لا يستقيم الا اذا تلقن لغتهم كتابة وقراءة وحديثاً . واللغة فوق ذلك مهارة سامية جديرة بالإحسان لأنها تتحمل فى أطوائها تراث المدنيات التى تحدرت الينا ، ولأنها — اذا كانت أجنبية — مفتاح لمدنيات أخرى تتغلغل فى تاريخ البشرية نفسه

واللغة بعد ذلك دليل على التقدم الفكرى لأنها الوسيط الذى تتجسد فيه الأفكار والآراء . وليست اللغة من ذلك الوجه إلا رموزاً أطلقت على المعانى التى تتدفع فى نفس الإنسان . وهي التى تسيطر على موارد تلك المعانى ومصادرها . فكل كسب لتلك المهارة التى نسميها « اللغة » انما هو تحديد لغذائنا الفكرى . وكل تحديد لتفكيرنا انما هو فتح جديد للمنطق والفلسفة بل فتح لسائر العلوم

فاذا كانت اللغة تفيض بالمفردات التى تصف كل فكرة دقيقة من تلك الأفكار ، وإذا كانت ألفاظها قد تطورت مع الحضارة حتى كانت كفيلة بأن تصف المعانى التى تنثال فى خواطر المتحضرين ، كان ذلك دليلاً على كفايتها فى مسايرة التقدم العقلى . وليست قضية اللغة عندنا قضية ألفاظ فحسب ، ولا هى قضية تراكيب ، إنما القضية عندنا فى كفاية تلك الألفاظ وهذه التراكيب . فهل استطاعت هذه أن تساير الحضارة الحديثة؟ وهل استطاعت أن تنقل معانيها إلينا ؟ ذلك ما نشك فيه

ونحن نشك فى شىء آخر غير ذلك . إنه لا يمكن لغة أن تساير الحضارة أو الثقافة إلا إذا كانت مرنة تتسع لكل معنى حديث . وتلك المرونة التى تظهر بجلاء فى لغة كالانجليزية قد فقدت مكانها فى لغة كالعربية . وهى قد فقدت مكانها فى لغات أخرى قبل لغتنا لأنها قعدت عن أن تماشى الحضارة فى تقدمها . وأخص ما تمتاز به الانجليزية هو ذلك الاستيعاب الذى يظهر في كل وجه من وجوهها ؛ فهى قد استوعبت ألفاظاً من كل قطر حلت فيه فئة من الانجليز . وألفاظها تواتى المتحدث بها فى كل موضوع يطرق ، لكننا نتشكك كثيراً فيما إذا كانت العربية والانجليزية سواء . فالعربية غير مرنة ؛ وهى لغة تقليدية تتولى عن الألفاظ الدخيلة ؛ وقد بدأت تساير الحضارة الحديثة منذ وقت قليل لما يَكْـفِ لتغذيتها بألفاظ تطلق على المعانى التى تتجدد فى كل ساعة من ساعات الحضارة

لم يكن لنا أن نذكر كل ذلك لولا أننا نؤمن بأن فى اللغة استعداداً لقبول كثير من الإصلاح . ولعل أفعل إصلاح اللغة أن نبدأ بتفهم طرق التدريس التى من شأنها أن تجعل اللغة لغة أفكار ومعانٍ قبل أن تكون لغة ألفاظ ومفردات ، وتفهم طرق التربية التى تكسبها مرونة اللغات الأخرى . ويستطيع المعلمون أن يتغلبوا على تلك العقبات التى يلقونها اذا هم وجدوا أمة من أهل الرأى تجاهد معهم فى هذا السبيل . على أننا سوف نكتفى فى مقالنا هـذا بذكر وجه آخر من علاقة اللغات، ثم بتحديد أغراضنا من دراستها . وسوف نعالج فى مقال آخر الوسائل التى نراها

٢ — وحدة اللغة : وفى كل الذى أسلفنا أكثر من دليل على أن عنايتنا باللغة ينبغى أن تحل عندنا المكانة الأولى بين مختلف

المواد التي نعلمها . فهي حقيقة بالتقدير إذا تحدثنا عن أي مثل أعلى عالمي ؛ وفي دراستها توحيد للمعنى السامي الذي ما زال يلعب بخيال الانسانية ، والتقدم الفكري رهين بالتقدم اللغوي ، ولأن اللغة أساس صالح لتلك المواد ، ولأنها تتحكم في تلقينها وفي تلقفها ، فانا نرى أن إصلاح التعليم في مصر رهين بإصلاح أساليبنا في تعليم اللغة العربية وفي تغيير وجهتنا فيما يختص بالأغراض التي نرمي إليها

بل اللغة العربية متصلة وثيق الاتصال باللغات الأجنبية التي نعلمها اتصالها بتعليم المواد الأخرى . وإذا نحن نظرنا إلى تلك المواد نظرتنا إلى مجموعات متوافقة من الأفكار والمعاني استطعنا أن نرى كيف تحدد اللغة تفكيرنا ، وكيف تواتينا القدرة على تفهم تلك المواد إذا كانت اللغة مهارة مكسوبة أحسناها . فاللغة في مفرداتها وصيغها تكوّن وحدة عامة متصلة الحلقات مشتبكة الأطراف ، وهي في نفسها نتيجة لنماء العقل ونشاط التفكير . وليست مفردات اللغة كما قدمنا إلا رموزاً للأفكار التي يلتف بعضها حول بعض في حياة الانسان العقلية ، والتي تتألف حولها كثير من شعاب الدواعي . وحين يدرج الناشئ في السنين الأولى من طفولته يكسب كثيراً من تلك الأفكار التي يحاول أن يعبر عنها ، فما تزال حائرة تتردد في نفسه حتى تستقر في تلك الرموز التي تواضع عليها الناس ، وتصبح بعد ذلك مادة للحديث والتفكير والكتابة ، وتصبح سبيلا إلى تفهم التاريخ والجغرافية والطبيعة وغير ذلك

ولعل الطفل في حياته اللغوية يمثل الانسان الأول في كسب اللغة واصطناع ألفاظها ، فهو يتدرج في تعلمها من المحسوسات الى المعقولات ، وهو يحسن كل الاحسان أسماء المرئيات ، لكنه يعاني غير قليل من الجهد في تفهم المعاني . وقد مر الانسان الأول في مثل عصر الطفولة حينما كان العالم نفسه طفلا ، وحين دفعته الحاجة الى أن يتعلم الأسماء كلها . وتعقدت اللغة في أطوار الانسانية حتى انحدرت الينا وهي على ما هي عليه من التعمق والاغراق ؛ وحتى أصبحت دراستها تقتضي نصيباً كبيراً من الحس المرهف والتفطن الدقيق

فلغة الإنسان إذن وحدة في ذاتها تتألف من شتات من الجزئيات ، ولغته الأصلية هي التي صاحبت تكوينه العقلي . منها يستمد أفكاره ومنها يكون صوره العقلية ، بل هي التي توحي إليه ما توحيه الكلمات من حب وبغض وسرور وحزن . ففي ألفاظها كل المعاني التي تجيش بصدره ، وفي أعطافها ما يحرك قلبه ويهز فؤاده

ولأن اللغة وحدة في ذاتها تجد بين لغة الإنسان الأصلية وبين لغته الدخيلة أو الأجنبية كثيراً من الوشائج والأسباب ، فلا يستطيع متحدث أن يعالج الكلام عن الثانية إلا إذا بدأ بالأولى ، ولا يستطيع متعلم أن يقرب لغة أجنبية حتى يتخذ الأصلية عوناً على تفهمها . فاللغة الأصلية هي السجل الذي تنتظر فيه مراحل تفكيره ، وهي المرآة التي تنعكس عليها حياته العقلية والحسية في وقت معاً

من أجل ذلك كانت اللغة الدخيلة عالة في أفكارها ومعانيها على اللغة الأصلية ، وكان حرياً بها أن تكون كذلك عند الناشئين ؛ فالحق أن الأفكار والمعاني لا تعرف ألفاظاً تحدها في موضع ضيق تتقيد به ؛ ولأن اللغة الأصلية نتيجة لتفكير الإنسان ، ولأنها ثمرة لتقدمه العقلي كانت خليقة أن تكون أساساً لتعليم اللغة الأجنبية كما كانت الأساس في الدراسات الأخرى ، وخليقة أن تمتاز بالجلاء والوضوح ، وأن يعنى بها المربون أول شيء لأنها تتدخل في تعلم اللغات الأخرى وفي إحسان العلوم ، بل في نمو الإنسان وتفكيره

ولقد ذهب الى هذا الرأي كثير من الذين بحثوا دراسة اللغة وأخرجوه للناس كما لو كان كشفاً من كشوف العلم الحديث ، وكانت الجمهرة من علماء التربية يرون منذ بضع سنين أن اللغات منفصلة ، وأن الإنجليزية مثلاً لا تستقيم إلا إذا حبسنا تفكير الناشئ عن العربية في دروس الإنجليزية . وقد كان يشوب ذلك كثير من الخطأ ، فلم يكن يعترف عقل المتعلم بتلك الحدود المفروضة التي ضربت عليه ، وقد كان يخترق تلك الحدود ، وكانت اللغة العربية تلتقي بالإنجليزية في تفكير الطفل مهما حاولنا المباعدة بينهما . وقام في السنين الأخيرة علماء مثل الدكتور (وِسْت) صاحب الطريقة المشهورة يعترفون بتلك الصلة ويستعينون بها في تعليم الانجليزية . وحدث على أثر ذلك انقلاب سريع في أساليب التعليم عندنا ، وغدا للعربية وزن في تعليم الانجليزية في الست السنوات الدراسية الأولى

وعندنا أن موطن الإصلاح الأول هو اللغة العربية . وإصلاح مثل ذلك لن يتناول طرائق التعليم ، ولا أساليب الدراسة فحسب

بل لابد له أن يتأصل فى مادة التفكير التى يتغذى بها التلاميذ . إصلاح مثل هذا سوف تتأثر به الجغرافية والتاريخ والكيمياء والفلسفة والمنطق ، وكذلك سوف تستقيم به طرق التدريس التى نجاهد فى إدخالها على اللغة الانجليزية . ولعلنا لا نغلو كثيراً إذا قلنا إنه أساس كل إصلاح آخر

٣ — *الأغراض من تعليم اللغات* : ولأن يكون كلامنا محدداً ، ولئلا نخلط بين اللغة الأصيلة واللغة الدخيلة ، نرى أن نعالج الغرض الذى ينبغى أن نلتزمه فى تعلم اللغة العربية والغرض الذى ينبغى أن نلتزمه فى تعلم اللغة الانجليزية

فإذا كان بين اللغة الأصيلة واللغة الدخيلة مثل تلك الصلات الفكرية ، فإن بين الاثنتين فروقاً تحدد السبل التى تتخذها فى تعليم كل منهما . فللغة كما قدمنا آثار تختلف على حياة الإنسان لها أثر عقلى عميق يكاد يحكم نمو إدراكه وتطور تفكيره . ولها بعد ذلك أثر حسى يتصل اتصالاً وثيقاً بفكرة الجمال التى يكسبها من الشعر والأدب . ثم إن لها أثراً عملياً أو نفعياً يفيد منه فى حياته كأى مهارة أخرى . وهذه الأنواع الثلاثة من الآثار هى التى تختلف على متعلم اللغة إذا أحسنت تنشئته على الأصول النفسية التى جهد فى استنتاجها الذين أوتوا العلم من المعلمين والمربين .

ونحن فى حديثنا عن اللغات يجب أن نفرق بين هذه الآثار وارتباطها باللغة العربية أو باللغة الأجنبية . أما اللغة العربية فإنه يتمثل فيها كل الآثار التى ذكرنا . لها أثر عقلى يصاحب الإنسان عند النشأة الأولى ويلازمه فى كل طور من أطوار حياته ، ولها كذلك أثر حسى يحضه الشعور بالجمال ويفيض عليه كثيراً من ألوان السرور ، ولها أثر ثالث عملى لأنهما وسيلة الكتابة والحديث بين الأفراد والجماعات . أما أثر اللغة الأجنبية عندنا فهو نفعى أو قل عملى . حقاً قد يكون لهـا أثر عقلى إذ تتدخل فى تربية الانسان ونمائه ، وقد يكون لها أثر حسى إذا أحسن تعلمها . ولكن وجهها النفعى أوضح وجوهها ، وإنما يتعلم المرء اللغة الأجنبية لتكون صلة بينه وبين فروع المعرفة التى اتسعت لها ، وحسبه أن يحسن قراءتها . ولعلها تصبح مادة زاخرة توحى اليه العواطف ، وربما أصبح بينها وبين تفكيره صلات ولكنها على الحالين لن تدرك ما تبلغه لغته الأولى التى درج عليها والتى كانت أقرب الى عقله وقلبه ووجدانه .

فاللغة الأصيلة واللغة الدخيلة تختلفان فى تقديرنا اختلافاً شاسعاً . الأولى صاحبة الأثر العقلى الذى يدفع بتفكير المتعلم الى نواحى التقدم ، والثانية تستمد وجودها كأداة للتفكير من اللغة الأولى . واللغة الأصيلة ذخيرة تتجلى فيها آيات الجمال بما فى تراثها من أدب وحكمة ، وتنبلج فيها بدائع الشعر بما تتحمله من وحى وإلهام . أما الثانية فلن تبلغ هذا الأثر الا اذا أحسنها المتعلم كل الاحسان ؛ وليس يبلغ ذلك الا الخاصة الذين لا يقمون للمعلم فى حسبان . وهى عند كافة المتعلمين بعيدة عن نطاق الجمال والالهام غير قريبة من مواطن التفكير الدقيق أو جادة التفطن والتفصيل . واللغة الأصيلة واللغة الدخيلة بعد كل ذلك جديرتان أن نحسنهما قراءة ومطالعة ، لأن احسان قراءة الأولى واجب حتم ، ولأن قراءة الثانية هو سبيل الاتصال بحضارة أصحابها .

وفيما أسلفنا من حديث عن آثار اللغات مواضع تتعرف منها الغاية من تعلم اللغات كل منها على حدة ، فالمطالعة أو قل القراءة المستوعبة هى الغاية من تعلم اللغة الأجنبية ، لأن إتقانها هو السبيل الى فهم ما يكتب فيها ، ولأننا فى تعليمنا اللغة الأجنبية نرمى الى أن نفتح للمتعلم أبواب تلك اللغة حتى يتصل بثقافتها . نحن نتعلم اللغة الانجليزية لنقرأ مؤلفاتها ، ونحن نحسن الفرنسية لكي نلم بحضارة الفرنسيين ؛ وليست الفرنسية ولا الانجليزية إحداهما ولا كلتاهما بضرورة لازمة لحياتنا العقلية أو لتربيتنا النفسية ؛ واذن فيجب أن تدور جهودنا فى تعليم إحدى هاتين اللغتين حول تلك الغاية المثلى : يجب أن تدور حول المطالعة لأنها الغاية النفعية التى تحدثنا عنها . وليست الكتابة ولا الخطابة ولا تذوق الأدب بما فيه من قصص وتمثيل من شأننا فى تعليم الانجليزية ، فاذا جاء كل هؤلاء فانما يأتى بعد المطالعة لا قبلها

أما اللغة الأصيلة — وهي العربية عندنا — فينبغي أن تكون الغاية من تعليمها فوق ماذكرت . إن القراءة جزء من الغاية التى ننشدها اذ نعلمها . نحن نعلم العربية لنخرج مفكرين يحسنون تصور الكلام ويجيدون التعبير عما فى نفوسهم . بل يجب أن نعلمها حتى يتذوقوا التراث الأدبى الذى تزخر به اللغة نفسها . واذن فدراسة العربية ينبغى أن تكون تدريباً فكرياً وتدريباً نفسياً وتدريباً عملياً أيضاً ، وتتشعب هـذه الأغراض وتتعقد

فلسفة التربيـــة

تطبيقات على التربية فى مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٣ —

« إن مصر لتدين لعظمائها الفلاحين بأ كثر مما تدين لغيرهم ! »
« جا كسون »

« ولا بد من أن يطلب غداً أولئك الذين يخلقون ثروة الأمة شيئاً أ كثر من الكلمات ! » « جا كسون »

« قد تستطيع أن تسوق الجواد إلى النهر ؛ ولكنك لا تستطيع أن تجعله يشرب منه » « مثل سائر »

٣ — التعليم الالزامى والديمقراطية

رأيت فى المقال الماضى انقسام عقلية المثقفين القلائل فى الأمة إلى معسكرين متباعدين ، وتبينت ما في ذلك الانقسام من ضعف يؤثر فى وحدة الأمة ويعرقل نهضتها ، وسترى اليوم ناحية أخرى هامة وخطيرة هي ناحية التعليم الإلزامى ...

ويكون من مظاهرها الكتابة والقراءة والخطابة . ولكل من هذه الغايات أصول تمتد الى أعماق الفكر وتتصل بأطوار النفس

أما الأغراض التى نرمى اليها اليوم فهي قاصرة لأنها تقف عن أن تدرك كل تلك الغايات . إن تعليم العربية عندنا يقتصر على تلقين ألفاظ غيرمحددة وهو يخلومن الرياضة الجمالية التى ينبغى أن نرمى اليها . أما وجهتها النفسية فهى لا تعلو الى أن تكافىء حاجات كل يوم فضلاً عن حاجات النفس العميقة . ولا يستطيع معلم أن يقول انه يتجه اتجاهاً فكرياً فى تعليم الألفاظ ولا إنه يصطنع الدقة فى تلقينها الا قليلاً

أغراضنا اذن من تعليم العربية كما نعلمها الآن غير واضحة . وهى فى الحق شعبة من اتجاه الكتاب والمفكرين عندنا عامة . ولكننا نلخص الأغراض التى يجب أن تحل عندنا فى التدريب العقلى أولاً وفى الرياضة الجمالية الحسية ثانياً وفى الانتفاع بها ثالثاً

أحمد خاكى

١ — كلمة الديمقراطية

وأحسب أنك تدرى تماماً كلمة الديمقراطية فى ذلك المجال بعد كل ما قدمنا من قول ! بل وأحسب أنك تذكر يقيناً عبارة الرئيس « وشنطن » فى المقال الماضى ، وما فيها من مبدأ عظيم يجعل مقياس نجاح الحكومة منحصراً فى دائرة زيادة خير أولئك الذين لا تكاد توجد عندهم ضرورات الحياة الأولية فحسب ، لا أولئك الذين عندهم الكثير وأ كثر من الكثير ! ! وإذاً فلن تعجب إذا عرفت أن الديمقراطية تطالب هنا بمساواة « الجميع » فى فرصة إظهار الكفايات ، وتنظر للتربية كوسيلة جوهرية تنوم للشعب مقام الصلاحية للبقاء عند الحيوان ، وترتقى به من مستوى العجماوات إلى مستوى الإنسان ، وتسد ما بينه وبين الطبقات الراقية من هوة سحيقة مليئة بالبؤس والشقاء ، والفوضى والاضطراب ؛ وتؤهله أخيراً لأن يحقق معنى الحياة الديمقراطية بمطالبها الاجتماعية والسياسية على أصح وجه تنشده هذه الحياة !

٢ — التعليم الحاضر

فترى هل حقق التعليم الإلزامى المصرى الحاضر مطالب الديمقراطية الصحيحة أو نهج على الأقل نهجاً قوياً نحو تحقيقها ؟ ذلك هو السؤال الذى يجب أن نسأله ، والذى ينبغى أن نستمع فيه لاجابة النظار والمدرسين والفلاحين قبل أن نستمع لاجابة النواحى الأخرى ، والذى يجب أن نستوحى فى فحصه مبادىء الديمقراطية أ كثر مما نستوحيها فى غيره ، فترى ماذا عسى أن يكون الجواب ؟

أحسب الأمر واضحاً لا يحتاج إلى جلاء ، فأ كثر من خمسة وثمانين فى المائة من سكان هذا البلد أميون بكل ما فى الأمية من معنى الفقر الأدبى المروع ، وميزانية التعليم الالزامى ضئيلة إذا قيست بميزانية بعض النواحى الأخرى التى تقل عنها فى الضرورة والخطورة ؛ هـذا إلى أننا كثيراً ما نبعثر ألوف الجنيهات فى الكماليات التافهة غير ناظرين إلى حاجة مثل هذا التعليم إليها ، ومع ذلك فتعليمنا الالزامى الحاضر ما يزال مشوباً بألوان من النقص يسيرة وعسيرة ، وحسبك أن تعلم أولاً أن « مبدأ المساواة فى فرصة إظهار الكفايات » مهدوم حياله من أساسه لأن المتخرج منه لا يستطيع قط أن يطرق باب التعليم الابتدائى وما

بعده من فنى أو ثانوى أو جامعى إلا فيما شذ وندر[1] ، وبذلك أصبح الذكاء الشعبي محروماً من الدخول فى حومة الثقافة الراقية الواسعة والتلذذ بما فيها من نعيم ، وخدمة الوطن عن طريقها خدمة نافعة ! ثم حسبك أن تعلم أن أحد نظار مدارس هـذا التعليم قد كتب إلىّ مقرراً أشياء كثيرة خطيرة ، أهمها قلة مرتبات المدرسين بالقياس إلى عملهم المرهق الذى كثيراً ما يقفز إلى ٤٨ حصة فى الأسبوع[2] !! وكثرة أعمال الناظر (أو رئيس المكتب) الإدارية إلى جانب أعماله كمدرس مما يحول بينه وبين القيام بواجبه على النحو المنشود ، وسوء أماكن الدراسة وقذارتها وعدم وجود الأفنية والمظلات ، وتعسف حضرات المفتشين أحياناً وأخذهم المدرس باللوم أمام التلاميذ !! وجمع الكتب من الأولاد فى آخر الدرس ، وعدم اتفاق بعض هذه الكتب ومادة المنهج المرسوم !! ثم خروج المتخرج منها أخيراً دون أن يحذق أبسط تعاليمها وهي القراءة والكتابة ، نظراً لحشو المنهج بالمعلومات غير اللازمة من ناحية ، ولعدم استطاعة المدرسين البؤساء التعساء القيام بمهنتهم كما ينبغى من ناحية أخرى ...! !

هذا وقد بحث الأستاذ « جاكسون » تلك الناحية فى رسالته الآنفـة فراح يقول : كيف يكون التعليم مجدياً وهو إلزامى بكل مافى الإلزام من معنى ؟ إن التعليم الحق هو ما أتى من « الداخل » فحسب ، وكل تعليم لم يأت من هـذه الناحية لا يكون أكثر من طلاء خارجى كله تشدق بالألفاظ وغرور وكبرياء لا يجديان فتيلا . ولذلك ما يلبث أن يسقط غير تارك وراءه إلا المكر والاجرام إذا لم يحل محله غرس خلق متين ، وإذاً فكان الأفضل أن يترك القروى فى مثل هـذه الحال ليتعلم

(١) ليس لخريج التعليم الالزامي فى الغالب إلا الحقل أو الأزهر أو تجهيزية المعلمين وبالمثل ليس لخريج التعليم الأولى إلا مثل هـذا الطريق . ولا يكاد يدخل التعليم الابتدائى إلا أبناء الموسرين ومن إليهم ، والهوة سحيقة جداً بين هذا التعليم والتعليم الالزامى !!

(٢) ويوجد بجانب هـذا التعليم نظام التعليم الأولى . وبالرغم من أنه يشابه التعليم الالزامى فى المنهج وكفاية المدرسين إلا أن أجر المدرس فيه وعمله غيرهما فى التعليم الالزامي . وحسبك أن تعلم أن المدرس بالتعليم الأولى قد يمتد أجره الشهرى إلى ثمانية أو عشرة جنيهات بينما لا يمتـد أجر المدرس الالزامى إلى أكثر من أربعة جنيهات وربع جنيه ! هذا إلى أن عمل ذى الأجر الأكثر لا يزيد على ٢٨ حصة ، وإلى أن نظام تثبيت ناظر الالزامى عسير للغاية وفى كل ذلك بالطبع من إماتة نشاط المدرس وإخلاصه ما فيه

من الرياح والنجوم والذوق العام ، وأن يبقى أمياً بريئاً ساذجاً لا يعرف كيف يعلو على أهله ويحتقر الفأس والأرض ، ولا كيف ينزح إلى المدينة ليعيش عيشة أرق وأنظف !!

لذلك كله لم يستسغ الآباء بعد هذا التعليم ولم يشعروا شعوراً كافياً بالحاجة القصوى إليه ، ويساعدهم على ذلك ضعف الدعاية اللازمة ، وعدم جاذبية المدرسة ، واشتراك الناظر والمدرسين فى صب هذا « الالزام » على رؤوسهم ورؤوس أولادهم[1]

٣ — العلاج

وينحصر العلاج الناجع الذى يراه الدكتور « جاكسون » لتدارك هذا الموقف فى ناحيتين . الأولى تغيير المنهج بحيث يلائم حاجات البيئة ولا يبدو كأنه مفروض من سلطة متعسفة ؛ ويتأتى ذلك باشتماله على دراسة عملية للتربة أو الدورة الزراعية ، وأنواع الأسمدة ، وحياة الحشرات والنباتات والزهور ، والقيم الغذائية للمواد المختلفة ، وأصول صحة المنزل فى الدائرة القروية الممكنة ؛ كل ذلك إلى جانب القراءة والكتابة والمعلومات الأخرى التى تقرب بينه وبين الطبقات الأرقى وتحببه فى العمل والعاملين ، وتسد الهوة بينه وبين أبناء الأثرياء المنعمين !

أما الناحية الثانية : فتتلخص فى دعاية واسعة النطاق غايتها تحبيب الشعب فى ذلك التعليم بكل الوسائل حتى لا يكون هناك إلزام بالمعنى المكروه . ويحسن أن تكون هذه الدعاية عن طريق زعماء الشعب أنفسهم ونوابه وكل من يجلهم ويقدر كلمهم ، آناً بالحضور الشخصى وآناً بالإذاعة ، كما يحسن أن يشترك فى هذه الدعاية أغنياء القرى وذوو النفوذ بها ، وأن تصطحب الدعوة فكرة دينية أو وطنية ، وأن يقضى فيها نهائيًّا على القول القائل بأن معنى التعليم هو إلقاء الفأس وإمساك القلم ؛ وبهذا وبغيره يصبح التعليم ضرورة لدي الفلاح ، فيسعى إليه بنفسه ، ويعتبره فريضة دينية أو وطنية !

٤ — الحاجة الى مدارس جديدة

على أن الإصلاح لا ينبغى أن يقف عند هذا الحد . إذ يجب

(١) كثيراً ما يسوق المدرسون الأولاد إلى المدرسة بعـد الامساك بهم فى بيوت أهليهم . وكثيراً ما يحرر الناظر بنفسه إنذارات مخالفة قانون الاجبار . والعجيب بعد هذا أن محاكمة المخالفين لهذا القانون يطول أجلها أحياناً وتنتهى بضياع نصف السنة أو جلها على المتعلم

أن يختلف تعليم القرية تماماً تبعاً لاختلاف بيئتها ، ويجب أن يكون المحور الأساسي فيه هو ربط عمل المدرسة بعمل الحقل ، ويجب أن تتجدد المدرسة ذاتها فى نظامها العام والخاص تجدداً يزيل طابعها القديم فى نفوس الفلاحين . يجب أن يكون البناء جذاباً ويجب أن تزاد الثقافة الفنية للمدرسين على نحو خاص يمكنهم من النجاح التام فى أداء مهمتهم العظيمة الخطيرة[1] ويجب أن يكون بالمدرسة استعداد تام للخدمة الطبية ، وأن يكون التعليم الديني بها على وجه منتج ومفيد لا لمجرد آيات تقرأ وتحفظ فحسب ؛ هذا إلى وجوب نزول المدرسين بها إلى العمل مع التلاميذ حتى يضربوا لهم المثل الصالح فى حب العمل وتقديره ، وإلى وجوب تزويد كل ولد أو بنت بكتب الحفظ كالدين والأدب والعلم ، على أن يكون بالمدرسة ذاتها مكتبة عامة للتلاميذ والأهالى والخريجين جميعاً ...

ذلك من ناحية ، ومن ناحية أخرى ماذا يمنع أن تكون المدرسة مركزاً لتعليم الآباء والأمهات تعليماً خاصًّا ، ولإدخال السرور والابتهاج على أهالى القرية بما تقيمه فى الآن بعد الآخر من مباريات طريفة ؟ وماذا يحول بين رجالها وبين جمع الحكم والأغانى والذكريات والأشغال المحلية بين جدرانها حتى يخرج التلميذ عارفاً بحياة بيئته وبتاريخها وبشتى نواحى النشاط فيها ؟ إننا بهذه الطريقة نجعل المدرسة خير صديق للقرية ، ونجعل الحياة فى القرية ذاتها محبوبة لا تدعو إلى تفضيل حياة المدينة عليها

قد يقول قائل إن هذا مشروع ضخم وفى القطر حوالى ثلاثة آلاف وأربعمائة قرية ! ؟ وهو بالفعل كذلك ولكنه بعد ضرورة ملحة فى القرن العشرين ! ، قرن المدنية والنور ! وإذا فلتضغط الحكومة مصروفاتها الكمالية ضغطاً ، فانها إن فعلت استطاعت — مع الخطة الحكيمة — أن تنفذ هذا المشروع فى بضع سنين !

٥ — تعليم البالغين فى السويد وانجلترا

أما تعليم البالغين فيتطلب مجهوداً آخر . وها هى السويد قد أسست حوالى ٥٤ مدرسة لإشغال فراغهم بدراسة اللغة والاقتصاد المنزلى والرياضة والموسيقى وأشغال الإبرة والخشب والمعادن . وها هى انجلترا تبعث بمحاضر كفؤ ليحاضر طلبة أمثال هذه المدارس بها فى شئون عامة كالطفولة والتمريض ، وآداب اللياقة ونحوها ، وكثيراً ما يستمان هناك بالراديو فى نشر الثقافة القروية الملائمة[1]

فترى ماذا يمنع مصر من الأخذ بمثل هذا النظام ؟ وكيف السبيل إلى الاستفادة من مشروع « المجموعات القروية » مثلا إذا لم توجد أولا العقول المهيئة للاستفادة والفهم ؟

خاتمة

يجب إذاً أن نتيح للفلاح حياة أرقى ، وألا نتخذ من عدم شكواه وسيلة إلى إهماله . إن النور سيطرق بابه عاجلا أو آجلا ، وسوف لا يرضى حينئذ بحظه الراهن قط . بل هو على النقيض سيطالب بحياة أكثر تنوعاً ، وبعمل أقل إرهاقاً ، وبفرصة لكفاح أبنائه أكثر اتساعاً . نعم لا بد من أن يطلب غداً أولئك الذين يخلقون ثروة الأمة شيئاً أكثر من الكلمات ! .

« يتبع » محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية الأميرية

(١) اعترف لى بعض حضراتهم أن مقرر التاريخ يحوي دروساً عن الاسكندر ومينا وتحتمس وغير هؤلاء مما لم يحسنوا دراسته

(١) وتقوم جمعية « نهضة القرى » فى مصر بتكليف الطلبة بنشر بعض نواحى هذه الثقافة بين البالغين ، ولكن ما يزال الأمر محتاجاً إلى دقة الحكومة وحزمها وإشرافها

رسالة الأديب الى الحياة العربية

للكاتبة النابغة الآنسة «مى»

« نبشر أصدقاء « مي » وعشاق أدبها بانكشاف الغمة عن صحتها وحريتها ؛ فقد استطاعت أن تلقى هذه المحاضرة القيمة فى ٢٢ من شهر مارس فى العروة الوثقى بالجامعة الأمريكية على حفل حاشد من أعيان الفضل والأدب فكانت أقطع الحجج على ما أرجف به المرجفون من أصحاب الهوى والطمع . وإنا ليسرنا أن ننقل إلى قراء الرسالة هذه المحاضرة عن جريدة المكشوف اللبنانية ليروا أن (مي) لا تزال على عهدهم بها تشع بالنور ، وتنفح بالعطر ، وتنبض بالحياة »

سلاماً يا وست هول ، يا موطن الفكر والرأى والحياة المنظمة فى كرامة وحرية ! كم من مرة جلست بالخيال بين جدرانك أتبادل والجمع الحاشد قوة الحيوية ، وآخذ قسطى مما يعج فى فضائك من فائدة علمية واجتماعية ! كم من مرة عدت بالذكرى إليك أصغى بخشوع إلى رسالات الفضل والعلم والتهذيب يتلوها هنا العلماء والمفكرون والمصلحون !

سلاماً أيتها « العروة الوثقى » ، الساهرة على وظيفتك فى تنوير الأفهام ، الحريصة على غايتك فى إحكام الرابطة العلمية والأدبية بين أقطار الشرق العربى ! كم من صيحة أرسلها أقطابك وأتباعك وأنصارك من على هذا المنبر المضياف ، فمضت كالطير تسبح فى القريب والبعيد من الأجواء حاملة رسالة العلم الصادق والبحث الرصين والخير العميم ، فكونت فى أوساط قصية مواطن للفكر والرأى والحياة المنظمة فى كرامة وحرية !

ولئن أنا شكرت لك تشريفى بدعوتك واقتراح الموضوع ، فإنى كذلك شاكرة لأنك أفسحت لى مكاناً كريماً بين كرام ضيوفك ، عاملة بيدك القوية الوفية على إحكام الرابطة بينى وبين قومى ؛ وأشكر لكم أيها السادة والسيدات تفضلكم بالحضور .

إن اسم « العروة الوثقى » يلهم الفرد أنه ينقلب أمة عند ما يخاطب الأمة

وما أجمله موعداً موعدنا الليلة ! فنحن فى مطلع الربيع ، إذ باشرت الأرض إخراج زينتها وعرض مباهجها ، ونشرت السماء كواكبها وشموسها وأقمارها وضاءة فى رحيب الأفلاك ، وسرت الحياة نامية في فتى الغصون ، واهتزت الأرواح مترنحة لاستيعاب جديد النفحات . كذلك الشعوب العربية استيقظت من شتاء حالك الظلام طويل الأمد ، وانبرت تستقبل الفصل الجديد من حياتها ، متعهدة براعم الأمل والجد فى نهضتها ، ساعية إلى ازدهار ثقافتها ازدهاراً عامراً بهيجاً

الربيع يزف إلى الأرض رسالته ، ووست هول اليوم كما فى الأمس وفى الغد ، يؤدى الى المجتمع رسالته ، و « العروة الوثقى » تواصل العالم العربى برسالتها ، فماذا ترى تكون رسالة الأديب إلى الحياة العربية ؟

أيها السادة والسيدات :

إذا نحن تنحينا فى بحثنا عن الرسالة المثلى ، رسالة الأنبياء ، وجدنا أن الرسالة فى معناها الضيق هى الصفحة التى يكتب فيها الكلام المرسل ؛ بيد أن معنى الرسالة أرحب من ذلك وأشمل ، إذ لكل فرد ، وكل كائن ، وكل شيء ، رسالته فى معرض الوجود : فالشمس تؤدى رسالتها نوراً وحياة ، والزهرة تؤدى رسالتها عطراً ووسامة ، والجبال والوهاد تؤدى رسالتها تبياناً لطبقات الأرض وتنوع الخليقة ، والمروج والسهول تؤدى رسالتها خصباً وغذاء ، والسبل تؤدى رسالة الحركة والانتقال ، والانتقال يؤدى رسالة الأخذ والعطاء والتعاون المتبادل بين الأحياء

ولكل جمهرة من الناس فى كل بقعة من بقاع الأرض شؤون عدة ، إذا ما عولجت واستثمرت ونظمت وحسن التصرف فيها ، أصبحت تلك الجمهرة شعباً فأمة ، وصارت تلك البقعة بلداً فدولة ، وفى كل بلد صناعة ، وتجارة ، وعمارة ، وميكانيكا ، وإدارة ، وقوانين

ولكل أمة عادات وتقاليد وتاريخ وتربية وحكمة وثقافة وآداب وفنون . الشؤون المحسوسة ، على تعددها وعلى ما بينها من فروق ، متشابهة واحدة فى كل قطر ؛ وأخص خصائص الوحدة والتشابه نجده فى التقدم العلمى والميكانيكى ، وفى الحضارة الآلية السائدة فى كل مكان

ترى ما هو الفرق بين مخاطب بالتلفون ، ومخاطب بالتلفون ؟ بين مستمع إلى إذاعة راديو ، ومستمع إلى إذاعة راديو ؟ وبين راكب دراجة أو سيارة أو طيارة ، وراكب دراجة أو سيارة أو طيارة ؟ ليس من فرق بينهما من حيث الخدمة التى تؤديها الآلة . أجل ، ثمت فرق فى الغرض الذى نستخدم له الآلة ؛ وهذا ليس

موضوع البحث ؛ إنما الفرق كل الفرق فى الشخصية التى تستعمل الآلة ؛ والشخصية لا تتكون إلا من العوامل الأدبية : التاريخ ، الاختبار ، الذكرى ، اللغة ، الفن ، الأدب

الأدب إذن من أهم المقومات للشخصية ؛ وربما كان الأصح أن أقول إنه حجر الزاوية فى تكوين الذاتية الفردية والذاتية القومية بالتبع . والفرق بين الشخصية والذاتية فيما أظن هو أن الشخصية تتكون مما يحيط بنا ويتقلب علينا من شؤون وأحوال ، فى حين أن الذاتية هى ما نظل عليه دائماً فى صميمنا فى جميع الشؤون وفى جميع الأحوال . فما أبعدنا بهذا التعريف عن التعريف الشائع أن الأدب هو المستظرف من الشعر والنثر ، وأنه صناعة لفظية حذقت حيلة النكتة والتورية ، واستسيغت منها البلاغة والحلاوة فى وصف مجالس الأنس ، وتصوير جمال النساء ، وشرح لواعج الحب والغرام . كل هذا من الأدب بلا ريب ، وله أهميته ، وهو ذو إغراء ؛ ولكنه وجه فقط من الوجوه العديدة فى الأدب . ولئن اقتصر كل من العلوم والمعارف على نفسه دون غيره تقريباً ، فميزة الأدب فى أنه يحتضن الكثير من المعارف والعلوم ، وله أن يتغذى بها جميعاً ليعالجها على طريقته الخاصة ، فلا يكون بعد إلا أدباً

ولكم كانت المنتجات الأدبية والصور الخيالية سابقة للبحث العلمى ومعينته على الخروج من حيز القياس والإفتراض إلى حيز التطبيق العملى والاختراع ! أليس أن شاعرية الشعراء طارت إلى أجواز الفضاء قروناً طوالاً قبل اختراع الطيارات ؟ وفيالق العشاق (والعشاق شعراء وأدباء دواماً) ، ألم تناج أرواح الأحباب برغم شاسع الأبعاد قبل أن يصبح الراديو أداة من أدوات المنزل ؟ ومن ذا الذى يقرأ ولو كتاباً واحداً من كتب الأديب الفرنسى جول فرن الذى وصف الانطلاق من الأرض إلى القمر وصفاً علمياً قبل أن يقوم علماء الستراتوسفير برحلاتهم الجوية ، وحدث عن سلك أعماق البحار فى سفن ذات أجهزة ميكانيكية دقيقة قبل أن تحتوى أساطيل الدول على غواصات ترقب ما يجرى فى قلب اليم وعلى صفحة الماء ؟ من ذا الذى لا يذكر الكاتب الإنكليزى المعاصر ولز ، ومؤلفاته ذات الصبغة العلمية المتنبئة بمستقبل حياة ميكانيكية صرفة تترتب عليها حياة اجتماعية متوافقة ؟ لست من أشياع ولز ، ولكنى أشير إلى نظرياته شاهداً على رحابة الميدان للأدب

وإذا نحن عدنا إلى الكتب الدينية الثلاثة : التوراة، والإنجيل، والقرآن ، وجدناها متفقة على جعل الفردوس الأرضى فى شرقنا الأدنى . فكان لنا أن نقول إن مجد الآداب كمجد النبوات وكمجد الحضارات أشرق من بلادنا ، وكانت اللغات السامية أول أداة للإفصاح عنه

التوراة مليئة بالهجة الأدبية . والتوراة كتبت أولاً باللغة العبرية . والإنجيل ملىء بالهجة الأدبية ؛ والسيد المسيح تكلم بالآرامية والسريانية والعبرية ، قبل أن يكتب الإنجيل باليونانية واللاتينية لينقل بعدئذ إلى مختلف اللغات . والقرآن ملىء بالهجة الأدبية ؛ والقرآن هو الكتاب العربى المبين والمستودع الخالد لهذه اللغة التى لا تموت مهما توالت عليها القرون وتناهبتها تصاريف الحدثان

ترون من كل هذا أننا معشر الشرقيين عريقون فى الأدب ، وإن أدياننا عمدت إلى الهجة الأدبية لتكون أسرع اتصالاً بالنفوس وأبرع استيلاء على المشاعر . ولئن أجمع نفر من علماء اللغات فى الغرب على أن اللغات السامية حماسية ، غنائية ، بيانية ، خطابية ، أكثر منها اختصاصية علمية ميكانيكية ، فنحن نعتز بذلك . لأن اللغة الأدبية هى لغة النفس ، لغة الجوهر ، لغة البقاء . واللغة المحتوية على الجوهر لا تضيق دون العرض والطارىء والإضافى . وليس لنا إلا أن نتابع الجهود التى باشرناها أفراداً وجماعات علمية — ناهجين نهج أسلافنا الذين نسخوا وترجموا ونحتوا واشتقوا وعربوا — لنجعل أداة اللغة كافية وافية فى تأدية كل مستحدث من المعانى والمسميات والاختراعات العصرية . ولنا من اتساع اللغة ومرونتها ما يمكننا من صوغ المفردات وسبك القوالب على طريقة ترضى من الناحية الواحدة مولانا سيبويه ، وترضي الواقع والذوق من الناحية الأخرى ، فلا يكون اسم الراديو مثلاً : الطمطمان ، ولا يكون التلفون : أرزيزاً

ومعلوم أن الأدب كاللغة ، حليف التقهقر والتطور فى الشعوب التى تعالجه . وآدابنا فى تاريخها الطويل أصدق شاهد على صحة هذه النظرية لأنها ازدهرت ثم لازمها الجمود وفقاً لارتفاع الدول العربية

وهبوطها . وصدق تلك النظرية أظهر ما يكون في عصرنا الحاضر.

نظرة إلى البلدان العربية ، فماذا نرى ؟ بعد هجعة ثلاثة قرون أو تزيد استيقظت الشعوب العربية ، وحركات اليقظة لا تكون منتظمة في بادئ الأمر ، وإرادة المستيقظ لا تكون مستقرة ثابتة، وبصيرته تظل وقتاً ما غائمة غير صافية ولا نافذة . المستيقظ يلبث حيناً حائراً بين خيالات الليل وحقائق النهار ، ولكن كم في خيالات الليل من حقيقة ، وكم في حقائق النهار من خيال ! شعوبنا على همتها وتحفزها ما زالت قلقة مضطربة ، وأدبنا على وفرة جهوده وغزارة مادته ما فتىء مضعضعاً ، غير واثق من نفسه ، غير مستقر . فما هي حاجتنا اليوم من الناحية الأدبية ؟

إذا كان الأدب صورة للشخصية العامة من خلال الشخصية الفردية الخاصة بحسناتها وسيئاتها ، بحوافزها ومعلوماتها ، بنورها وظلامها ، بتقاليدها وأوهامها ، بخوالجها وممكناتها ، بيأسها ورجائها — إذا صح ذلك ، وهو صحيح — فنحن نحتاج اليوم إلى صوت الأديب وإلى رسالة الأديب .

المعترضون يقولون : ولكن الأقطار العربية متعددة ولكل قطر حياته الخاصة ولهجته الخاصة . أفيكون إذن لكل قطر أدبه الخاص ؟

كيف لا ؟ وهل غير ذلك في الامكان ؟ أو ليس هذا هو شأن سائر الآداب ؟ أو تتكون الثروة الأدبية واسعة في اللغة الواحدة إلا بتعدد الآداب المحلية وتنوعها ؟ أو ليس لكل من أميركا ، مثلا ، وانكلترا واسكوتلاندا وإيرلندا ، أدب خاص مجموعها يكون آداب اللغة الانكليزية عموماً ؟ وفي كل هاتيك الأقطار الغربية لهجة محلية هي غير اللغة الانكليزية ، والشعب يتخاطب بلهجته وباللغة الانكليزية ، ويكتب بهذه اللغة وبتلك اللهجة على السواء . فعلام نحن نشكو مما يراه الآخرون شيئاً جد عادى ؟ ومن المشاكل والمصالح والآلام والآمال ما هو مشترك بين جميع البلاد العربيـة . فرب زفرة حزن أو صيحة استبسال وجدت صداها متردداً في ملايين القلوب العربية ! ورب رسالة أدبيـة انطلقت من قطر واحد ، فاجتاحت عديد الأقطار العربية المتناثرة من شواطىء الاطلانطيق إلى خليج العجم !

أجل ، نحن في حاجة إلى أقلام تخاطبنا باللغة العربية ببيان جميل يصور شخصية الأديب ، ويشرح حالة الأمم ، وينشر أمامنا صحيفة الأزمنة الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل . فالماضي ينبثق انبثاق الينبوع فيخصب النفوس . وكما يكتنه الأديب ذخائر الماضي فكذلك هو يطلع على شؤون الحاضر ، متصلا بكبار الحوادث التي تهز قومه في النقمة وفي النعمة ، في السخط وفي الرضى ، وإذ يرى الحوادث داخلة في دور الغليان ، والشعوب فوارة صاخبة كالحمم في فوهة البركان ، وإذ يشهد الظلم والعذاب والمرض والنفاق فيبحث عن الانصاف والصحة والصدق والانشراح — عندئذ تتم في داخله عملية عجيبة ، ولا العمليات الكيميائية . يخيل إليه أن موسيقى شائعة رائعة تنطلق من الأزمنة والحوادث والشعوب موحية إليه سر الفن الجميل فينقل الينا منها ما ينقل ، جاعلا لكل شيء أهمية خاصة تهز منا المشاعر ، وتستثير الحماسة ، وتكيف الآراء . ومن معالجة الأديب للأزمنة والحوادث والشعوب ينبعث لنا المزيج الفتان فيلفتنا إلى أن في طبيعتنا رحاباً لم نكتشفها وإن في أرواحنا ممكنات توسع أمامنا أفق الحياة .

وإذ يحدثنا الأديب عن النظريات والمذاهب والشخصيات نتحزب مختارين لها أو عليها ، فننكر نظرية ونؤيد نظرية ، نمقت شخصية ونحب أخرى محاولين الاندماج فيهـا ، ندحر مذهباً وننتصر لغيره تائقين إلى نشره في الملأ مع رفاق نوليهم الثقة . كذلك الأديب يجوز بنا بحر الحياة المكفهر كسفينة استغنت عن الشراع والقلوع وعن الرياح المؤاتية ، لأن له من نفسه القوة التي تسوقه إلى الأمام . وليس من اختبار يمر به إلا تأثرت به كتاباته ، فلا نفتأ نتطلع إلى كل ما يحدث له متسائلين عن سر قوته في الناعة ، وعن سر قدرته في الإبداع ، ذلك السر الدفين ، ذلك الجوهر المكنون المرض عن كل تأويل وتفسير ، السباق إلى أجواء من التفكير والإحساس والتكوين ، لا نأبه لوجودها إلا بعد أن يجول جولته فيها

وسرعان ما يتصل الحاضر بالمستقبل في فن الأديب : جيل جديد يتخرج على آثاره وعلى مؤثراته ، فيشب حاملاً معه الفكرة التي تنيل الحياة قيمة في تذوق الجمال الحسي والأدبي ، وفي ممارسة الجمال تأملاً وسعياً وجهاداً ، رافعاً بيده مشعل الحب العتيد للوطن ، والرجاء ، وللتقدم ، وللشهامة وللبطولة ، ولإرضاء غريزة الحرية !

رسالة الأديب تعلمنا أن لكل قطر من الأقطار العربية حضارة غابرة حلت محلها الحضارة العربية ناسخة عنها وعن غيرها لتسبكها فى قالبها وتدمغها بطابعها الخاص . رسالة الأديب تعلمنا أن الغرب الحاذق عرف كيف يقتبس عن حضارتنا يوم كانت حضارته وثقافته وشيكة . ولكن ما أغزر ما استفاد وما أخصب ما أنتج ، وما أبدع ما ابتكر ! وإن الحضارة العربية كانت الصلة المتينة بين الغرب الجديد وحضارة اللاتين والأغارقة . وها هو ذا الغرب يرد إلينا الآن دينه كشماع من الشكر بما ينشره بيننا من ثقافة ، فعلينا أن نأخذ عنه بمثل المهارة التى أخذ بها عنا !

رسالة الأديب تعلمنا أن الحضارة الميكانيكية أدوات نستعبدها ونستخدمها ، لا أدوات تستخدمنا وتستعبدنا . وإنه لا يكفى أن يضغط امرؤ على الزر الكهربائى فينال سحرى النتائج ، وأن يمتطى سيارة أو طيارة فيطوى شاسع الأبعاد ، وأن يرقص رقصة ويصغى إلى إذاعة ويتعمل التأنق والحذلقة متكلما بخليط من لغتين أو ثلاث — لا يكفى كل ذلك ليكون شخصية ممتازة ترهب هيبتها الأكوان

رسالة الأديب تعلمنا أن الحضارة الآلية التى ألفناها ولم يكن يحلم بها أجدادنا تجعلنا اليوم أشد احتياجاً منا فى الماضى إلى ثقافة أدبيــة تدعم الحضارة الآلية وتكون لها ركناً ركيناً . وإن هذه الحضارة الآلية المتنقلة بسرعة من بلد إلى بلد ومن جيل إلى جيل ، ننعم بها — ونشقى ! — دون أن يكون لنا يد فيها . أما الثقافة الأدبية فيجب أن يحصلها كل فرد يوماً فيوماً ، وساعة فساعة ، مدى الحياة

رسالة الأديب تعلمنا أن للعالم العربى على تعدد أقطاره وحدة واحدة تشغل مكاناً فسيحاً فى القارتين الآسيوية والأفريقية . ويستطيع أن يقول هـذا القول علماء الجغرافيا وعلماء التاريخ وغيرهم . ولكن للأديب فناً مغرياً ينيلنا الثقافة والفائدة ، بينا نحن نرتع فى بحبوحة من اللذة والمتعة فى جو ممنطق أخاذ هو فى الواقع جو الحياة

رسالة الأديب تعلمنا أن نفاخر بلغتنا العربية الممتازة على سائر اللغات بأنها ولدت قبل لغات قديمة اندثرت منــذ قرون ، وما زالت العربية تفيض حياة ، مجارية حتى أحدث اللغات بالقوة والمرونة والجزالة والرشاقة . كل أمة تسعى الآن إلى نشر لغتها بين الأمم الأخرى ، باذلة فى سبيل ذلك المــال والإغراء والدعاية والجهود . أما نحن فانتشار لغتنا شىء واقع ، وميزتها هـذه تربط بين الأقوام العربية برباط قوى جاعلة الفرد الواحد منا ملايين

رسالة الأديب تعلمنا كيف نخلق حضارة أدبية ، إذ بهـا لا بغيرها تقاس مواهبنا ، ويسبر غور طبيعتها ، وهى التى تثبت وجودنا ، وتنطق بلساننا مترجمة عن مبلغ الانسانية فينا

رسالة الأديب تعلمنا حب العزلة والسكون ، وترجعنا عن الفخفخة وهوس الظهور ، فنمتكف على أنفسنا نعالج ممكناتها للظفر بمحمود النتائج . فالسنبلة المتمايلة على صفحة المروج ، حاملة بشائر الحياة ، لا تولد حبتها ولا تنضج إلا فى أحشاء الأرض ، فى جو الوحدة والهدوء والكتمان

رسالة الأديب تعلمنا ألا نخشى كارثة ، ولا نهيب مغامرة . كل زمن خطير فى التاريخ كان زمن اضطراب وكوارث ، وأعظم فوائد الانسانية نجمت عن عصور العــذاب والخطر . الخطر مرهف ، ولا يعرف شأن ذى الشأن إلا يوم الكريهة . والعاصفة لا تقتلع إلا ضعيف الأغراس ؛ أما الأشجار ذات الحيوية العصية فالأعاصير تلح عليها وتهزها هزاً عنيفاً فلا تزيدها إلا قوة ومناعة

رسالة الأديب تردنا عن عديد الشخصيات القومية التى تجذبنا من كل صوب لتركزنا فى شخصيتنا القومية الأبية

رسالة الأديب تعلمنا كيف نفهم كل شىء ونستفيد من كل شىء ، باحثين عن الصواب والكمال خلال كل نقص وكل زلل ، نازعين إلى الجمال الحسى والأدبى حيال كل دمامة خَلقية وخُلقية مساجلين النفوس والعناصر ، مناجين المنظور وغير المنظور ، لنجعل من حياة متنافرة متداعية ، حياةً متناسقة متماسكة

أى شىء لا تعلمنا رسالة الأديب ؟

إنها قوة تستفز قوتنا ، وموهبة تحفز مواهبنا ، وصرامة تردنا عن الحقارة ، وبسالة تدفعنا إلى البسالة ، وعذوبة تؤاسى أحزاننا ، وأغرودة تطرب أشجاننا ؛ وهى عالم مستقل متماسك يسوقنا إلى تكوين عالمنا المتآلف المستقل !

نحتاج إلى الأديب يأخذ منا ويعطينا ، فيرســل صوته أريباً رصيناً مسيطراً أخاذاً حضاناً !

ونحتاج إلى رسالة الأديب قوية غنية عنيدة ملهمة لتوقف قوميتنا فى مكانها المشروع فى معرض القوميات بميدان العمران العظيم !

« مى »

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٦ —

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم



وما حيلة الطب فى نوازع توبق الروح، وهواجس تعمى القلب؟ وإن بدت آثار هذه وتلك فى نواحى البدن عجز الطبيب، ولا عجب أن يعجز، وجاء الصديق ليفعل مالم يستطع الطبيب أن يفعل، وهو خبير بالعلة عليم بموضعها من نفس صاحبه

باع سبيد حانوته وعول على الرحيل إلى كنتوكى فعرض على صاحبه لنكولن أن يذهب معه إلى هناك علّه يشفى مما به فى تلك الأحراج التى درج منها أول ما درج. دعاه سبيد أن ينزع نفسه وجسمه من ذلك البلد الذى يكربه العيش فيه بعد أن كان منتجع آماله ومهوى خواطره، ورحل ابراهام مع صديقه وقد اخترم الهم جسده فزاده نحولا على نحول، وزين له الشيطان أن يطلب النجاة من الحياة ...!

ولبث فى كنتوكي أياماً، لقى فيها من كرم صاحبه وكرم أمه وأخته ما هون عليه أمره شيئاً قليلا، وصاحبه لا يفتأ يسرى عنه وينصح له، وهو يشكو إليه اضطراب أعصابه ويظهره على هواجس نفسه، ويذكر له والألم يبرح به فعلته التى فعل وكان فيها غير كريم، بل وكان من الضالين ... بيد أنه لم يلبث وقد كان يلتمس العون من صديقه أن رأى ذلك الصديق فى حاجة إلى من يعينه، فقد طاف به على حين غفلة طائف من الحب ملك عليه قلبه وعقله !

وانقلب الأمر فغدا لنكولن هو الناصح، وراح يجهد أن يهدى صاحبه حينا وسوست إليه نفسه معانى كتلك التى كانت تجول فى خاطره هو: معانى الحيرة والتردد والشك. فلقد أصبح سبيد يحار فى أمر حبه كما أصبح ينتابه الخور كلما اتجه فكره إلى الزواج شأنه فى ذلك شأن ناصحه. وكان فيما يسديه ابراهام من نصح لصاحبه مسلاة له أو شاغل يشغله عن وجده؛ على أنه وهو فى كنتوكى كتب رسالة فى الانتحار ترينا أن الغمة أو اليأس كان قد أوشك أن يذهب عنه. خذ لذلك مثلا قوله: «إنى لم أصنع فى الحياة شيئاً يذكّر أى إنسان أنى عشت. ومع هذا فان ما أعيش من أجله هو أن أربط اسمى بحوادث يومي وجيلى، وأن أقرن ذلك الاسم بصنيع فيه لمن حولى من الناس جدوى»

ولما عاد إلى سبرنجفيلد ظلت كتبه مدة أكثر من عام تترى على صاحبه، وفيها من حسن النصيحة وقوة الاقناع ورقة العاطفة ما يكشف لنا عن حقيقة نفسه ويصور نزعات وجدانه. كان يعزو ما بات صاحبه يشكو منه إلى اعتلال أعصابه وإلى ما تحدثه الوحشة والبعد عن الخلان وأحاديثهم فى مجالس لهوهم من انقباض وضيق، وإلى ما تركته الوراثة فى طبعه من شدة التأثر وقوة الانفعال؛ وكان يكتب ذلك في جلاء وقوة حجة هما من أبرز صفاته. وكان عجباً أن نرى مثل ذلك من لنكولن، فترى فيه العالم النفسانى، والشاعر الرقيق العاطفة، وهو الذى علم نفسه بنفسه ...!

وتزوج سبيد بعد ذلك وبقى لنكولن حيث هو، موقفه اليوم من مارى عين موقفه عقب ذلك الفرار الشائن؛ فعاد إليه بذلك ما شغلته عنه قصة صاحبه زمناً من هموم نفسه! وأصبح فإذا هو ضائق بوساوسه. وزاده تبرماً بحاله وإنكاراً

لشأنه ما كان يسمعه من صاحبه عن سعادته الجديدة بين يدى زوجه ... لذلك لم يكن عجيباً أن يلتمس السكينة من جديد عند فتاة ناهد كان قد عرفها قبل أن يعرف مارى . بيد أنه كان يتجه بينه وبين نفسه إلى مارى ، فهو لا يستطيع أن يبتعد بخياله عنها . قال فى كتاب من كتبه : « يخيل إلىّ أنه ينبغى أن أكون جد سعيد لولا تلك الفكرة الملازمة لى ، ألا وهى أن هناك شخصاً غير سعيد عملت أنا على أن يكون كذلك . إن تلك الفكرة ما تزال تريق روحى ؛ ولا معدى لى عن أن ألوم نفسى حتى على مجرد الأمل فى السعادة فى حين أنها على ما هى عليه »

وكان لنكولن يحدث نفسه أنها لا تزال على الرغم مما حدث بحيث يتأتى لهما أن يتصلا إن هما أرادا ذلك . وكانت هى من جانبها تحس أن ما كان منه من هجران وقطيعة قبيل ما استعدا له من زفاف قبل ذلك بعام ونصف عام لم يصل على شناعته إلى مثل الصدمة القاضية ...

ودبر رجل من صحابتهما وزوجه أن يدعواهما إلى مأدبة على جهل كل منهما بدعوة الآخر . وتم ذلك فالتقيا وتضاحكوا جميعاً بعد أن ذهبت عن ابراهام وصاحبته ربكة المفاجأة . وكان ذلك اللقاء والخطوة الأولى نحو التئام الصدع واجتماع الشمل ؛ إذ أصبح لنكولن يرى حقاً عليه أن يصلح ما أفسد وأن يضع حداً لما هو فيه من ضيق وشقاء

وحدث بعد ذلك أمر غريب فى ذاته ، على قدر غير قليل من الأهمية من حيث نتيجته : ذلك أن إبراهام ، وهو الرجل الذى ملك القلوب بدماثته ورقة حاشيته ، قد دخل غير متردد ولا هياب فى مبارزة تدور على السيف ! وكان لتلك المبارزة سبب يدهش له الإنسان أن كان مبعثه شخص مثل لنكولن ! فلقد نشر ابراهام فى إحدى الصحف كتاباً على لسان أرملة وجهته إلى أحد رجال السياسة تسفه فيه آراءه التى أذاعها ، وكان التهكم لاذعاً والنقد قاطعاً ، فأثار الكتاب فضول الناس كما أثار ضحكهم وإعجابهم ؛ ووردت على الصحيفة ردود قوامها المجانة والمعابثة وكلها غفلاء من أسماء أصحابها ... وكان لمارى فى هذه الردود نصيب . وثارت ثائرة ذلك السياسى وراح فى المدينة يتهدد ويتوعد ؛ وجاء صاحب الصحيفة فعنفه وتهدده بالانتقام إلا أن يعرف صاحب هذه المجانة . وعرض صاحب الصحيفة الأمر على لنكولن فقال له فى غير وناء ولا استخذاء : إنه يأخذ الأمر على عاتقه ، وإنه لذلك فى حل من أن يذيع اسمه . وتم ذلك فكانت المبارزة ... فلقد تحداه ذلك السياسى أن ينازله ، وشاع أمر ذلك فى الناس فاحتشدوا ليشهدوا ما يكون بينهما ...

وكان لإبراهام من طوله وفتوته وقوة ساعديه ما يضمن له الفوز على منازله القصير ؛ فتناول سيفاً طويلاً ولم يزد ـ والناس يتطلعون ـ على أن ضرب به غصناً فوق رأسه فألقى به بعيداً . ثم جلس وفى عينيه أنه يريد أن يلقى إليهم حديثاً وراح يحكى ويستجمع الأمثال ... ! وتداخل الناس وسووا ما كان بين المتخاصمين ، وانقلب الجد الصارم إلى فكاهة عابثة

بيد أن للحادث نصيبه من الأهمية ؛ فلقد ترك فى حياة لنكولن صفحة ظل يندى لها جبينه أبداً ، كما حق لمارى أن تتحدث إلى الناس أن إبراهام ما فعل هذا إلا دفاعاً عنها وحفاظاً أن ينالها شىء من غضب ذلك السياسى . وطاب إبراهام بذلك نفساً . وقربت الأيام بينهما حتى باتا من جديد يأخذان الأهبة للزواج . وما هى إلا أيام حتى ربطهما ذلك الرباط المقدس وهو يومئذ فى الثالثة والثلاثين

واستنشى ابراهام نسيم الراحة أن أخذت تتزايل هواجسه ويتضاءل هوانه على نفسه ، وأخذت تعود إليه ثقته بتلك النفس سيرتها الأولى ، وإن كان الذين شهدوا العروسين حين عُقِد قرانهما رأوا لنكولن وعلى وجهه سحابة من الكآبة والوجوم كانت تنقشع حيناً على ما يتكلف من بشاشة ثم تعود فتنعقد !

وأقام لنكولن أول الأمر وعروسه الطموح المستعظمة فى حجرتين صغيرتين فى نزل كانا يدفعان أجراً لهما أربعة دولارات كل أسبوع . وعظم ذلك على مارى فشكت إلى زوجها ولم يمض على زواجهما غير قليل ، وهو يلقى إليها المعاذير مشيراً إلى ضيق رزقه وإلى ما لا يزال يقتضيه الوفاء من ديونه ... وبسط الله له رزقه بعض البسط ، فانتقل الزوجان إلى بيت صغير استطاعا أن يدفعا فى غير عسر أجر إقامتهما فيه

وأخذت مارى فى بيتها الجديد تدبر شؤونه وترعى أمره ، وقد اتخذت لنفسها سلطة ربة البيت لا تتنازل عنها فيما عظم أو هان من الأمور ، حتى لقد كانت تأخذ زوجها بألوان من الشدة والعنف حينما كانت تدعوه إلى كيت وتصرفه عن كيت ، ورائدها

فى ذلك النظام كأدق ما يكون النظام . وكان يصل بها الغضب أحياناً إلى هياج شديد، وذلك حين كانت ترى من بعلها أن يأبى إلا أن يرسل نفسه على سجيتها ، فكثيراً ما لا يعبأ بمـا صالح الناس عليه أذواقهم من أوضاع وتقاليد يلزمونها وهم جلوس إلى مائدة الطعام ، أو وهم سامرون فى الثوى . وهل كان يستطيع ابن الأحراج أن يتكلف ما لم يجر فى طبعه ؟ ولـكن امرأته لا تفتأ توجهه إلى العناية بهندامه وبحثه على النظام وأنه ذلك خليق به وله فى الناس مكانته ؛ وهى تريده على أن يحمل الأمر على الجد وهو يجاريها ليخفف من حدتها ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يغير من طبعه . وكان إذا اشتد بها الغضب يلاطفها ويضاحكها ليصرف عنهـا غيظها ، فان عجز عن ذلك خرج من المنزل فشى ساعة أو بعض ساعة ...

وحق لزوجه أحياناً أن تغضب منه ؛ فهو سخى اليد وإن كانت به خصاصة ، وهى لا تريد أن تبسط يدها إلا بقدر ما تستطيع . وهو يلقى الناس فى البيت فى هيئة تنم على عدم المبالاة ، فثيابه مهدلة وشعره أشعث ، وعباراته ساذجة ، وهو يستلقى على ظهره أحياناً ويتمدد على الأرض وفى يده كتاب لا يصرف وجهه عنه ؛ ويتدخل أحياناً فيما ليس من أمره فيحلب البقرة فى الحديقة ، ويحمل اللبن فى وعائه بين يديه ويهرول به إلى الدار على أعين السابلة والجيران !

ولـكن زوجه على الرغم من ذلك تحبـه وتكبره ، وتنتظر ما يخبئه له الغد من جاه وسلطان كأنها تعلم الغيب أو كأنها ترى مالا يراه الناس . وكتب لنكولن إلى صديقه سبيد ينبئه أنه رضى النفس قرير العين ، ويعتذر له من عدم زيارته إياه بفقره وشواغله ، ثم يبشره أن قد صار لهما غلام ...

ذلك ما كان من أمر لنكولن فيما هو متصل بحياته الشخصية ؛ بيد أن زواجه من تلك المرأة كان حادثاً عظيم الأهمية فى حياته ؛ فلقد مر بك من صفاتها أنها امرأة ذات طمع وطموح . وأنها كانت ترى بما يشبه الأنانة الطريق المؤدية إلى عليا المراتب ، وما كانت تقنع بمـا هو دون مرتبة الرياسـة ! لذلك كانت لزوجها خير معين حين تقدمت خطواته فى ميدان السياسة . وكثيراً ما كانت ترده إلى الطريق السوى إن هو أوشك أن يتنكبها . ويتجلى ذلك فى عدة مواقف سيأتى حديثها بعد حين ...

نرجع بالحديث بعد ذلك إلى حياته العامة فى السياسة والمحاماة .

أما فى السياسة فقد ظل ينتخب نائباً عن سنجمون ، كلـما تجدد الانتخاب ، حتى لقد ظفر بثقة الناس أربع مرات متوالية . وأما فى المحاماة فقد تركه شريكه ستيوارت إلى وشنطون حيث اتخذ مقعده فى المجلس العام للولايات ؛ فعمل مع شريك آخر قبل زواجه من مارى بثلاث سنوات ؛ وكان هذا الشريك يدعى لوجان ، وكان لوجان من أكبر المحامين شهرة فى المدينة ، وكان له من صفات النظام والدقة والإلـمام بأوضاع المهنة ومطالبها ما كان يعوز صاحبه لنكولن . وكانت له فى العمل الرياسة . ورضى لنكولن بمكانه منه ولم يجد فى ذلك غضاضة إذ لم يكن منه بد ؛ وأخذ يتعلم عنه ويكتسب بمصاحبته المرانة والخبرة ؛ وهو قانع بنصيبه من الأجر ، وإن كان يرى من زميله أنه لا يعدل فى ذلك وإن كان لا يميل كل الميل . ولم يكن ثمت ما يحول دون استمرارهما معاً لولا أن فرقت بينهما ريح السياسة إذ كان كل منهما ينتمى إلى حزب يخالف حزب الآخر ...

ولـما قضى الأمر بينه وبين لوجان ، اتخذ له زميلاً آخر . وكان هذا الزميل شاباً دونه فى العمر بعشرة أعوام اسمه هرندن . وكان هرندن هذا من أشد الناس إعجاباً بأبراهام ومن أعظمهم محبة له وإكباراً ، فتوثقت عرى الصداقة بينهما . وكانت لأبراهام الرياسة هذه المرة ، وعظمت ثقة كل من الرجلين بصاحبه . وكان أصغرهما موفور الحظ من النشاط والذكاء ، كما كان كزميله فى مذهبه السياسى ومن الداعين إلى القضاء على العبيد ...

وعرف إبراهام فى المحاماة بما لم يعرف به أحد قبله فى المدينة ؛ فهو بسيط فى كل شىء ، يجعل الأمر أمر ذمة وإخلاص قبل أن يكون أمر قانون ومغالبة ؛ وينظر فى تنازع الناس نظرات يوحى بها قلبه قبل أن يرسمها عقله . يرد كل شىء إلى طبيعته إذ كان يقيس الأمور بما كان يدور فى نفسه ، ولا يتردد أن يفصل بين المتنازعين بما لو فكر فيه غيره لعده من ضروب الخيال والوهم ... ولـكن لنكولن كان له من إنسانيته خير سند ، ومن حسن طويته خيرها

جاءه ذات مرة رجل يطلب إليه أن يدافع عنه ليرد له مبلغاً من المـال عند خصم له ؛ فلما سمع لنكولن قضيته قال : « إنى أستطيع أن أربح قضيتك وأعيد إليك تلك الدولارات الستمائة ، ولـكنى إن فعلت ذلك جلبت الشـقاء إلى أسرة أمينة ، ولن

أستطيع أن أتبين سبيلي إلى ذلك . لذلك أحس فيّ الميل إلى أن أنصرف عن قضيتك وأجرك . على أني أبثك نصيحة لا أسألك عليها أجراً : إذهب إلى بيتك ففكر في طريقة نزيهة تكسب بها ستمائة دولار » ... بذلك وبأمثاله اتخذ أبي الأمين سبيله إلى قلوب الناس ، فما منهم إلا مكبره ومحبه . وكان الناس يجيئونه ليحكموه فيما شجر بينهم ، وكلا الخصمين يعلن أنه راض بما يقول سلفاً ؛ وسرعان ما كان يحسم النزاع بينهم كأنهم منه حيال قاض لا محام ! وهو لا يسألهم أجرا على ذلك ، وحسبه من الأجر منزلته في قلوبهم ...

وكان يرفع الكلفة بينه وبين الناس كأنه أحدهم مهما كانت درجتهم ؛ وكذلك كان يفعل مع صاحبه هرندن ، فهو لا يستحي أن يسأله ويستفهمه أن أشكل عليه أمر أو التوت عليه فكرة كأنه تابعه ! فإذا ساق إليه الله رزقاً عده وقسمه نصفين ونادى صاحبه : « هذا نصفك » ؛ كل ذلك دون أن يكتب شيئاً أو يطلب من صاحبه كتابة ، فما كانت بهما حاجة إلى ذلك وكلاهما يبذل من الاخلاص والود بقدر ما يبذل صديقه

وكان صديقه يراه الناس في المحكمة يدس أوراقه في جيبه حتى لينبعج وينتفخ ، ويرونه يدسها في قبعته كأنه يجعل منها قبعة وحقيبة . كان لا يعني في شيء بمظهر وإن حرص كل الحرص في كل شيء على الجوهر ... وكان في عمله كما كان في منزله ، يأبى إلا أن يرسل النفس على سجيتها ؛ وسيظل كذلك حتى تتحقق له كبرى الرياسات .. ولله ما كان أعظم تلك البساطة منه في كل شيء ! وهل ثمت بين المتكلف المتصنع وبين الصعلوك من كبير فرق ؟ إن أمرهما واحد فيما أرى وإن بلغ من تمويه أولهما ما يكفي لأن يحجب عن الأعين حقيقته ...

(يتبع) **الخفيف**

حلبي يزور باريس

في سنة ١٨٦٧

للدكتور حسين فوزي

تتمة مانشر في العدد ٢٤٥

وينتقل بنا الخواجا فرنسيس من أشور لمصر ليونان لروما ، فيقول في فلاسفة الإغريق :

فذاك أريسطو وذا إقليدس ذو منطق هـذا وذا مهندس
وهو ذا سقراط ذاك الأنفس من كان للآداب دوماً يغرس

ثم يكون من سوء حظ ديوجنيس أن يجيء في الشطرة الخامسة ، فتسلبه القافية الرائية مصباحه ، ولا يبقى له من فلسفته الكابتة إلا أن يكون :

وذا ديوجنيس ذو التعرّي !

ورحالتنا رجل حساس بجمال فن التصوير ، فهو يأمرنا :

أن نعرج نحو مكان الصور حتى نرى أجمل صنع البشر

حيث عينه الفنانة لا تخفى عليها خافية :

فهاك كل بطل مبلرز يلوح في أعضائه البوارز
وكل خود ذات طرف غامز وأجفن عن الهوى روامز
وطلعة تخسف وجه البدر

لاشك أنك تعبت من التجوال — أو من الشعر ! — والخواجا فرنسيس يشعر بذلك تواً ، فهو يلاحقك بشعره الفلسفي إذ يقول :

تبا لنفس حظها يصرعها وكل مايلزها (كذا!) يلذعها
آفها تضجر يتبعها فأينما سارت أنى يصفعها
وربما يلحقها للقبر

أظن أننا لن ننتهي بسلام من خماسية المعلم فرنسيس ، وقد تكفي الإشارة إلى أنه ينتقل بك فيها من حديقة «اللوكسمبور» إلى متحف « كلسوني » ومن دار البلدية إلى « بوتفار ميخائيل إلى لقا ينبوعه الجميل » . ولا ينسى أن يعرج بك على حديقة النبات ومتحف التاريخ الطبيعي حيث يدور بك شعراً في أقسامه من الجيولوجيا ، إلى المعادن ، إلى النبات ، إلى الحيوان . ثم هو

يأخذ بيدك إلى متحف « الفنون والصناعات » ، وينتهى بك إلى باريس فى الليل حيث يرى « الـكل يمشون بها أزواجاً — ويدخلون فى الصفا أفواجاً »

والآن وقد اجتزنا محنة شعر الخواجا فرنسيس ، يمكننا أن نتمتع دون وجل ببقية نثره . فنعود إليـه فى أول وصوله إلى باريس عند «انفلاق الصباح» تلك المدينة ذات الشوارع « رحبة العرض ، مستقيمة الطول ، حسنة التمهيد والتخطيط ... جامعة لـكل شروط النظافة والاتقان . فلا يقوم هناك للجيف الطاعونية انبعاث ، ولا للأقزار (كذا) الوبائية حشر » — لاشك أن صورة عمران العثمانيين لـوريا ماثلة لعين الحلبيّ المسكين وهو يكتب هذه الفقرة !

ودخل رحالتنا إلى مسارح باريس التمثيلية منها والغنائية ، فوجد الفرنسيين فيها « جامعين إلى دست واحد ما تفرقت قطعه فى رقاع السنين . وهكذا يحلون هذه الاستحضارات (ليفكرنّ صاحبنا بالمندل) والاستظهارات بقلايد الآداب ، وفصاحة اللغة ويرخمونها بآلات الطرب وحسن الصوت ، بحيث أن المشاهد لا يعود يدرى بأى حاسة يستقبل وقوع الطرب (بحاسة الشم غالباً !) أبعينه أم بأذنه . فيرحل حاملا فى دماغه نهاراً من الأدوار الأدبية ، وفى أعينه انبهاراً من الأضواء الطبيعية ، وفى قلبه أنهاراً من ينابيع الطرب والحبور »

ولا شك أن ضوضاء باريس فى سنة ١٨٦٧ كانت شديدة على آذان هذا الحلبيّ — ليت شعرى ماذا يقول لو عاد إلى باريس سنة ١٩٣٨ ! — « حينما تكون الأعين راتعـة فى تلك الآفاق الزاهرة ، تكون الآذان عرضة لالتطام تموجات الضوضاء الباريسية ، واصطدام تلك الرجات التى تبتلع لعلمات الرعود ، وتهتضم طلقات الصواعق . فهناك ألوف المركبات مندفعة على الدوام اندفاع الأمواج إزاء مهب العواصف ، وألوف صنوف العربات منسحبة وراء خيولهـا الجامحة (تصور ألوف الخيول الجامحة وسط المدينة العامرة !) انسحاب السحاب بأزمة الرياح »

وعن العمل والعمال والنشاط البادى فى كل مظاهر الحياة : « وهناك لا يفتر صياح ربوات أعمال الأيدى مطلوقاً من أفواه الآلات والأجهزة ، ولا تكف ألوف المعامل البخارية صافرة بأبواقها النارية لتدعو فرسان المقول ـ لاحظ اللغة التصورية ! ـ إلى مواصلة النزال فى حومة الابداع والاختراع ، تسديداً لواجبات القرائح ، وتشييداً لنظام الجماعة . وهناك الجميع يجرون إلى الأمام ، الجميع يحركون ، الجميع يتسارعون ، الجميع يشتغلون ، الجميع متعاضدون سوية ، منضمون إلى قوة واحدة ، للركض إلى اقتحام كل المصاعب ، والوصول إلى قمة الـكمال والجمال ... فـكم سرور واندهاش للأعين إذاً ، عند ما ترى هذه الأمة الفرنساوية تتموج على بعضها كقصعة واحدة ، بدون نزاع فى جزئياتها ، ولا انقسام فى كلياتها ، سابحة فى بحور الأمن والسلام ، بدون خوف من واثب أجنبي أو حسود غادر » ونسى الخواجا فرنسيس سياسياً فى برلين اسمه بسمارك يتربص بفرنسا ؛ ورسل « أولان » بروسيا يقتحمون باريس بعد أربع سنوات من كلامه عن « الواثب الأجنبى ، والحسود الغادر » ، ويعقدون تاج الأمبراطورية الألمانية على رأس غليوم الأول فى قصر فرساى . لذا واصل رحالتنا كلامه عن « عدم خوف الأمة الفرنساوية من وحش مفترس ، أو جبار مختلس — بالذات ! — رافلة بأذيال الحرية الـكاملة » — فى عهد الأمبراطور نابليون الثالث تلك الحرية الـكاملة !

أما عن أنوار باريس — ويقينا إن باريس كانت جديرة باسم « مدينة النور » حتى فى ذلك الوقت — فالخواجا يحدثنا عن « الأنوار الغازية المندفعة من أفواه ربوات أنابيبها تحت أشكال ألسن نارية تدعو باردى الروح إلى الدخول فى كرة التمدن المتوقدة بلهيب الحـكمة والآداب »

ورحالتنا الحلبى مدرك تمام الادراك أن « كل هذا الجمال العجيب والـكمال الغريب الذى رقت إليه هذه المدينة المعظمة » إنما هو نتيجة ارتقاء « العقل عندهم فى طريق التقدم والنجاح ، ولم يصعد العقل إلى القمة العالية إلا بدرج المدارس التى لا يفتر تشييدها ، ولا يكف نظامها . فيوجد عندهم لـكل قسم من العلوم مدرسة تحيط به وتجمع شمله جمعاً لا يقبل التفريق »

ثم هم « أقاموا فى كل جانب من المدينة مكتبة عظيمة ، معدة لقبول الجمهور مطلقاً . فيدخلون الناس إليها أفواجاً ، ويقرأون ما يريدون ، وينسخون ما يشتهون بكل راحة وهدوء بال ...

ولما كان يوجد جانب كبير من العلوم يستلزم كونه عملياً وعيانياً بعد كونه نظرياً ، فقد شادوا لذلك محلات مخصوصة يسمونها بالموزيوم ، وأشحنوها من كل المواد الضرورية لدراسة موضوعها» وقد وجـدها الخواجا فرنسيس مقسمة إلى ما يشتمل على « الاستحضارات التاريخية جيلاً فجيلاً ، وأمة فأمة ، إن يكن بالنظر إلى أعمال الأيدى ، أو إلى الأديان والعقايد ، أو إلى العادات .. وما يشتمل على المواد التى يتألف منها جسم الأرض وما يشتمل منها على الأجسام المشرحة مع كل أعضائها وأجهزتها حيث يتأمل الانسان كل نواميس نموه منـذ كونه دودة وليس بانسان ، إلى كونه إنساناً عظيما ... وما يشتمل على العالم النباتى بكل طوايفه ... أو العالم الحيوانى بكل أجناسه وأنواعه ... حتى يدرك نظام حيوة كل نوع وفرد ، فيعلم أخيراً أن الحيوان كلما انتصب هيكله ارتفع نوعه . حتى إذا ما وقع رأسـه عموداً على محور سلسلته كان إنساناً »

وقد رأى أن « هجوم الناس على العلوم والمعارف يشبه انحدار الغدران من أعالى الجبال . فترى الآباء يسرعون إلى وضع أولادهم فى المكاتب حالا بعد فطامهم (أى والله !) . »

ومن أدق ما لاحظه المعلم فرنسيس اهتمام الفرنسيين بدراسة لغتهم ، إذ يجب « أن يعلم كل منهم قواعد لغته وفهم أصولها . والذى يجهل ذلك يعتبر عندهم كالحيوان العديم النطق ، لعـدم معرفته صحة النطق ... وكلما ازداد الشخص معرفة وتعمقاً بلغته ، ازداد اعتباراً وكرامة وارتقاء ، إلى أن يجعلوه قاضياً فى محكمة اللغة إقرأ : (Membre de l'Académie Française) . »

وكيف يرى الخواجا فرنسيس الحلبىّ كل ذلك ولا يفكر فى ضعة الشرق وانحطاطه ، أو لا يقارن بين ما ينال العالم فى فرنسا وبين ما يصيب من له فى الشرق « هوس فى العلم ، فيميش مقطوع الخرج ، وربما يحتقر ويهـان . ولا يحصل على شىء من الجوائز سوى قول الناس عنه : هذا نحوى بارد ، أو شاعر مشعر ، أو بمرفينو ، أو فلفوس . وإذا كان يروى شيئاً من التاريخ يقول عنه : هذا حكا كاتى » . وخواجتنا العلامة لا يدعك تتساءل عن أصل هـذه الكلمات ، فهو يفتح قوساً ليقول لك بأنه « يوجد كثيرون يقلبون شـاعر إلى مشعر ، وعارف إلى بمرفينو ، وفيلسوف إلى فلفوس ، وحكاياتى (كذا !) إلى حكا كاتى ! »

ولقد لاحظ رحالتنا والألم يحز فى فؤاده أن مركز الطلبـة غير محترم فى باريس . وتفسير ذلك عنده « أنه مالم يحصل الدارس أولا على شهادة مدرسية ، فانه لا يمكنه الحصول على ثمرة دراسته وجائزة أتعابه . كما أنه بدون رنين هذه الشهادة لا يسمع أحد به ، فلا يوجد له اعتبار ، وربما كان ساقطاً من أعين الناس لـكونه دارساً . سيما إذا كان يدرس الطب أو الشريعة » . وسترى أن طلبة الطب والحقوق فى عصرنا إنمـا يحتفظون بسمعة قدمائهم السيئة . وإليك تفسير الخواجا فرنسيس ، وهو ينطبق في بعضه على العصر الحاضر :

« وما ذاك إلا لأن صيت درسـة (طلبة) هاتين الصنعتين لا يوجد عندهم أقبح منه . ولا جرم فى شيوع هذا الصيت الردى لأنه يوجد حقيقة قسم كبير من هؤلاء الدارسين مطلوق العنان إلى ارتكاب الـكباير والجرايم ، عوض الانـكباب على الدراسة والمطالعة . فترى جماعة هـذا القسم تايهين فى عالم الشهوات ، وضاربين فى أودية المعاصى . فهم يطوون النهار ويحيون الليل ما بين الدساكر والخمـارات ومحلات الانهماك على الفساد ... فتراهم هناك مفصوصى العرى ، محلولى الثياب ، مشوشى الشعر . وبرانيطهم مقلوبة إلى الوراء كأنها مجفلة من أماراتهم »

وكان من سوء حظ المعلم فرنسيس أن يشهد Chahut جامعياً فى داخل قاعة المحاضرات : « وقد شهدت شيئاً من ذلك ضـد أعظم معلمى النباتات عندهم . وهو أننى دخلت إلى القاعة المعدة للخطابات ، حينما كان المعلم مزمعاً أن يفتتح كلامه على النباتات . فرأيت المحفل مضاعف الاحتفال . أى أننى وجدت عدداً وافراً من الدارسين الذين لم أصادفهم قط فى محلات الدراسة . فحالما دخل المعلم لابساً ثيابه الرسمية ، وصعد على منبر الخطابة ، أخذ هؤلاء الدارسون يصيحون ضده ، ويصفرون ويزمرون ويدبدبون بأرجلهم حتى لم يتركوا له سبيلا للفظ كلمة . وكلما رأوا شـفتيه تتحرك أوتهم على الحركة أزادوا الضوضاء والصراخات . وفى أثناء ذلك دخل رئيس المدرسة نفسه ليرجوهم أن يستمعوا لهذا المعلم . فما نجم عن دخوله سوى تضاعف مربع الحركة ، ولم يلبثوا أن هبط الخطيب من منبره فانفض المجلس » .

لا حاجة إلى وصف الخواجا فرنسيس بأنه رجل ساذج فقد « عرته حينئذ جودة البهتة وصار مهوى لتيار الاقشعرار ، وكان

قلبه يقابل ارتجاف المحل بارتجاف الرعدة » . ولدى خروجه سأل البعض عن « سبب اندفاع هذا البركان البليغ ، فقيل له إن هؤلاء الدَّرَسة يمقتون كل معلم يدقق مسايل الامتحان لكونهم لا يدرسون إلا نادراً وقليلاً . ولذلك يريدون عزل هذا المعلم أو تنكيس أعلامه لشدة تدقيقه عليهم فى الامتحان النباتى بحيث لا يمكنهم احتمال ذلك لضعف دراستهم » . ويغلب على ظنى أن السبب فى هذا الـ Chahut كان سياسيًّا . وأقرب الحوادث من نوعه إلى أذهاننا مظاهرة طلبة الحقوق ضد البروفسور جيز أيام كان يدافع عن قضية النجاشى فى عصبة الأمم . نعم إن قسوة الأستاذ فى الامتحان ربما ساعدت على تظاهر الطلبة ، ولكنها لا يمكن أن تكون سبباً بعينها . وما رآه الخواجا فرنسيس يرجع فى ظنى إلى الشعور الجمهوري الذى كان ينفجر من آن لآخر بعد قلب الجمهورية الثانية وتنصيب البرنس نابليون إمبراطوراً باسم نابليون الثالث

وواضح أن الخواجا فرنسيس رجل قليل التسامح . فهو الدارس — برغم الثلاثين وبلّغها — يجارى الرأى العام فى الزراية بالدَّرسة حتى لينتقد لباسهم . ولا شك أن هذا الحلبى لابس القنباز كان آخر الناس أهلية للحكم على لباس الطلبة فى باريس ؛ وهذا الشرقى كان آخر من يحق له أن يحجر على حرية الطالب الباريسى ؛ ومع ذلك يقول : « والنظر الساذج إلى أولئك الدارسين يوشى بقبح سلوكهم ، لأن ملابسهم تعبر عن منافسهم ، فهم يلبسون بنطلونات هكذا ضيقة حتى تكاد تتمزق بين أفخاذهم ، وسترات هكذا قصيرة حتى لا تخفى شيئاً من الإليتين إلا قليلاً ، وشعورهم طويلة منفوشة ، وبرانيطهم عريضة كثيرة الانفراج هضيمة الكشح . وكلما كانت البرنيطة تامة فى هذا الشكل كان صاحبها أكثر تقدماً فى ذلك الضرب ، حتى تخال البعض من هذه البرانيط نظير غمامة سوداء على رأس حاملها ، فمتى لاح هكذا شخص قال الناس : هو ذا الدارس ! »

فالمعلم فرنسيس يأسف على وجود « هكذا سرب بين دُرُس الطب والشريعة أوجب سقوط الجميع من أعين العامة مدة الدراسة مع أن جماعة القسم الأكبر — والذى عليه المعول — لا يسلكون تلك الطريق ، بل يسيرون فى سبيل مضاد على الخط المستقيم ، وعوض أن يطفئوا بمياه الشباب لهبات الشهوات إنما يستقطرونها بأنابيق أدمغتهم المضطرمة بنار الاجتهاد والحمية »

ويستطرق رحالتنا من كلام عن الدرسة المجتهدين إلى ختام وصفه النثرى لباريس حيث له حديث طويل عن « بحار التمدن المتدفقة من محابر رجالها ، وأنهار الأدب جارية من ينابيع أفكارهم » وعن « ممالك الأباطيل والأضاليل ، وعروش الحقائق والهدى » . ثم يتحدث فى لغة سامية عن الفكر « وقوته التى تغلب جميع القوات ، ولا تعرف راداً إذا جمحت ، ولا صادماً إذا اندفعت » . ويضرب لهذه القوة أمثلة أجاد اختيارها حقاً ، فهو يقول : « أى قوة أوقفت حركة الأرض بعد ما أدارها غاليلى (جاليليو) على محورها ، ودفعها تكر على محيط دايرة البروج . وأى قوة هدمت بناية الإصلاح بعد ما أشادها فكرهوس (Jean Hiiss, de Prague) . وأى قوة أوقفت دوران الدم فى أوعيته بعد ما أجراه فكرهارفى (Horvey) . مع أن ذلك حبس وذاك حرق (جان هوس أحرق على ما أذكر) وذا اضطهد »

« ولما عرف بنو المغرب كونهم محملين بقوة الفكر ، أخذوا يهذبونها ويثقفونها ، ويستظهرون نتائجها بدون التفات إلى تهديدات المغرضين ، أو معارضات المبغضين » . وبذلك « بلغوا هذا المبلغ العظيم من الفلاح والنجاح ، وتركوا بقية العالم يتقهقر وراءهم ، ويتساقط تحت أحمال كبرائه ، وأثقال تقلائه ، فاقد التفكير وعديم النطق »

وهذه الإشارة المستترة إلى « تساقط الشرق تحت أحمال كبرائه وأثقال تقلائه ، فاقد الفكر وعديم النطق » تشترى كل كبوات الأسلوب عند الخواجا فرنسيس ، فهو رجل سليم التفكير جدير بالهنئة على كتابه الساذج ، ولو أن هذه الهنئة « تشيح بوجهها » أمام شعره . وإذا كان نثره « يصدمنا » بصوره العنيفة المزدحمة ، فإن خلوه من التسجيع الذى كان ضرورة من ضرورات الكتابة فى عصره ، يشهد للخواجا فرنسيس بروح استقلالية مشكورة ، كنا نود أن نراها تعمل على إقصائه نهائياً عن الشعر بعد أن عصمته من السجع

ويختتم الرحالة كتابه بفصل إضافى عن معرض باريس العام فى سنة ١٨٦٧ . ولكن هذا الفصل لا يمكن أن يزيد معرفتنا بالخواجا فرنسيس ... حتى ولا بذلك المعرض

حسين فوزى

ربيع !

للأديب صلاح الأسير

« إلى الأستاذ أمين نخلة »

حَلِمَ الوردُ بالصباحِ ، وجُنَّ الـ　　ـغصنُ شوقاً لزقزقاتِ الطيورِ
وارتمى العصفُ حائراً يتلوّى　　في دروبٍ محفوفةٍ بالعطورِ
يرقبُ القاصفَ السخيَّ من الرعـ　　ـدِ ترامى على يدِ الزمهريرِ
ورُؤى النورِ هوّمتْ في الروابي　　تحملُ الفجرَ في الفمِ المقرورِ
أتعبتها الرياحُ ، أتعبها البر　　دُ فلاحتْ مزروراتِ الثغورِ
فإذا الغابُ قطعةٌ من سوادٍ　　وإذا الأفقُ مكفهرُّ الستورِ
وإذا الناسُ تائهون حيارى　　رهبوا غمرة الظلام الضريرِ
وإذا النهرُ صاخبٌ يدفعُ الصخـ　　ـرَ ، ويرمى بنفسه فى الصخورِ

* * *

وتراءى الربيعُ ، في الرونقِ الضا　　حي سخيَّ الأجواءِ رحبَ المرادِ
يزرعُ الدفءَ في الفضاءِ ويهفو　　خاضباً بالطيوبِ وجهَ الوهادِ
ويريقُ الهناءَ ملءَ مرادِ الـ　　أرضِ خصباً وملءَ ظنِّ العبادِ
فترى الدوحَ واثباً في الأعالي　　أخضرَ الزهو ضاحكَ الميلادِ
يحضنُ الطائرَ الذي ضاق ذرعاً　　ببروقِ الشتاءِ والأرعادِ
ويطيبُ الهواءُ في موكبِ الصحـ　　ـوِ ويسرى العبيرُ في كلِّ وادِ
فترى الغابَ نضرةً والورودَ الـ　　ـحمرَ عرساً يغصُّ بالأورادِ
وإذا الكونُ حالمَ النعمِ الخضـ　　ـرِ تعالت صلاتُه في النجادِ

* * *

يا بنات الربيع غنينَ أحلا　　مي وغنينَ بالهوى والهناءِ
واستبقنَ الشعاعَ في الروضِ والثمـ　　ـنَ خفافاً بواكرَ الأنداءِ
ماترينَ الفراشَ يرقصُ في الز　　هرِ خفوق الجناح غضَّ الرواءِ
واثباً يلتقى المنى تتهادى　　دون أجوائه الرحابِ النوائى
والنسيمُ الندىُّ ينفحُ بالطيـ　　ـبِ وجوه العرائس الزهراءِ
يا بنات الربيع رفرفن في الجوِّ　　وداعبنَ رفرفاتِ الهواءِ
والتقين الربى تضيعُ بها العـ　　ـينُ نداءً لغفوةٍ خضراءِ
فكرةٌ أنتِ حارَ في فهمها الكو　　نُ وأعيا بها رحيبُ الفضاءِ

* * *

يا ربيعي تنامُ أنتَ وفي الكو　　ن ربيع يموج حلوَ البرودِ
وعذارى الربيع في القرية الوا　　هي يغنين خافقاتِ النهودِ
يا ربيعي أفقْ ودعْ لي صباحي　　تائهاً في رحابه والنجودِ
حالمَ ألتقيكَ في ولهِ الحـ　　ـيرةِ رؤيا على الربيع الجديدِ
أنتَ مني هوايَ أنت أغانيَّ　　وحلمٌ رأيتُ قبلَ وجودي
أنتَ طيفُ الإلهِ في عالمي البكـ　　ـرِ وأسطورة الزمان البعيدِ
قمْ بنا نحضنُ الربيع وأغدو　　في ربيعين ، يافعٍ ووليدِ
وأنا ابنُ الربيعِ إلفُ الضياءِ السـ　　ـمحِ وابنُ الجمالِ ، تربُ الخلودِ

« بيروت »　　　صلاح الأسير

إلى ...

للأستاذ ابراهيم العريض

تعالَيْ فإن الليلَ يبسطُ ظله　　لكى يتملّى ناشئُ الزهرِ حِلَّه
وإن فؤادي برعُمٌ في يدِ الصبا　　سأعدمُ نشراً منه إن لم أطله
وثمّتَ سرٌّ كامنٌ فيه كالشذا　　ولم أتنشَّقْ منه إلا أقله
طوى باكياً كالزهرِ أوّلَ صفحةٍ
من العمرِ حتى يضحكَ العمرَ كله
ولحنٍ كترجيع الربابِ إذا انثنى　　عليه بخمس مُطربٌ فاستهله
يوقّعه قلبي على وترِ الهوى　　تباعاً ... فأقضى ليلتي أتوله
ولا من نجيٍّ إذ أحاولَ بثَّه　　كأحسنِ مابثَّ المحبُّ هوًى له
سوى شبحٍ أن يطرفِ العينَ لمحه　　أينكرُ دمعي في الضلوعِ محله

ابراهيم العريض



شارلس لام يروى عن شاكسبير (١)

قصة الشتــاء

للأستاذ دريني خشبة

أحب ليونتس ملك صقلية زوجه الحسناء الفاضلة هرميون حباً يقرب من العبادة

وكان صديقه بوليكسينز ملك بوهيميا أحب الناس إليه بعد هرميون ، لأنه رفيق الصبا وخدن الشباب وزميل المدرسة ... فلما فصلت الأيام بينهما لارتقائهما أريكة الملك ، ظلا يسقيان فروض الصداقة ، ويرعيان عهود المودة ، ويتبادلان الهدايا والتذكارات واللُّهى

ثم دعا ليونتس صديقه لزيارته ، وألح فى دعوته ، فأقبل بوليكسينز ليحل ضيفاً على البلاط الصقلي ، ولقيه الملك لقاء المشوق المستهام ، وقدمه إلى زوجه هرميون أعز صديق بل أعز شقيق

وأخذا يتنادران فى النهار ويسمران فى الليل ، ويقص أحدهما على الآخر ذكرياته ، ويستعيدان مُلَح الطفولة ورقائقها ، ويستعرضان صور الشباب الوارف الفينان ، وهرميون أثناء ذلك تصغي إليهما وتقبل على حديثهما وتسرّ به ، وكان زوجها يوصيها خيراً بضيفه فكانت تحتفى به ، وتبتكر الأساليب لإدخال السرور على نفسه

واستأذن ملك بوهيميا صديقه فى الأوبة ، فأبى ملك صقلية إلا أن يَتلبّث... فألح ملك بوهيميا وأبى إلا أن يعود... وهنا سأل ليونتس زوجه هرميون أن تطلب إلى بوليكسينز أن يبقى... فلما فعلت لبّى ملك بوهيميا ، ونزل عند رجائها ، وأجل سفره إلى موعد آخر

وا أسفاه ! !

لقد نفثت ثعابين الغيرة سمومها فى قلب الملك ، واحتلكت الحياة فى عينيه ، ولم يفتأ يسائل نفسه لِمَ قَبِل ملك بوهيميا رجاء هرميون بمجرد أن كلمته ، مع أنه لم يقبل رجاءه هو ؟ !

« إن فى الأمر شيئاً ، وإن وراء ، لأكمة ما وراءها .. هذا لا ريب فيه ! لقد زاد عطف هرميون على هذا الضيف الثقيل ، حتى شككت فى أن يكون العطف حباً ... وهذه النظرات التى كانا يتخالسانها فى حضرتى ... وهذه الضحكات الفضية التى كانت هرميون تسقسق بها فى هواء المكان الذى كان يجمعنا وبوليكسينز ... ! »

وعلى هذا النحو راح الملك يجتر شكوكه ويوسع آفاقها ويلقى فى نارها وقود الظن حتى أنضجت فؤاده ، وحتى غدا بسببها وحشاً مغيظاً محنقاً ، ينظر إلى هرميون الجميلة الفتان الحصَان الطهور ، نظرته إلى المرأة الفاسقة المسافحة الهلوك وينظر إلى صديقه العف الحبيب ، كما ينظر إلى عدوه الفاجر اللدود

وأرسل الملك إلى أحد رجالات بلاطه — السيد كاميللو — فبث إليه خبيئة صدره ، وأمره أن يدس السم لملك بوهيميا فى طعامه وشاءت العناية ألا يمتثل كاميللو أمر مولاه ، وشاءت كذلك أن يلقى كاميللو بالسر كله إلى ملك بوهيميا ، وأن يحذره مغبة البقاء فى ضيافة ليونتس ؛ فيدبران الأمر معاً ، ويفران فى جنح الظلام إلى بوهيميا

ويثور ثائر الملك لهذا الفرار ، ويكبر فى روعه فيكون برهاناً جديداً لما دار فى خلده من شكوك وريب ، فيذهب من فوره إلى مخدع الملكة ، حيث جلست تصغي إلى قصة ظريفة يلقيها عليها ابنها مارميللوس ... الطفل اليافع الجميل ...

وكان الملك مقطب الجبين عابس الوجه ، يضطرب فى قلبه بركان من الغضب ، وتتدفق فى أعصابه سيول من الُحم ، فتقدم كالوحش المجروح فانتزع مارميللوس ، وأسلمه لمن يعنى به ... ثم أمر فسيقت الملكة إلى غيابة السجن

---

(١) خدم شارلس لام وأخته ماري لامب أدب شاكسبير بتلخيصه نثراً ليسهل تناوله على القراء . ونحسب أن قراء العربية أولى بذلك من الانجليز وها نحن أولاء نضع بين أيديهم (قصة الشتاء) نموذجا لما فعل شارلس ، وهى من أمتع درامات شاكسبير التى يمزج فيها الخيال بالواقع ، والأسطورة بالحقيقة

وأرسل الملك سيدين من رجاله — كليومين وديون — إلى دِلْفوس ليستوحيا له كهنة أبوللو فى أمر زوجته ، وفى حقيقة ما اتهمها به ... هل صحيح أنها خانته مع صديقه ، أم هى براء من هذه الجريمة الشنعاء ؟

***

فى تلك اللجة من الدموع ، وفى هذا الليل الزاخر من الأحزان ، وضعت هرميون فى سجنها السحيق أنثى ... كانت سلوى باكية لأمها المسجونة ؟

وهكذا ضم السجن ضحيةً أخرى ... مولودة شقية لا ذنب لها ولا جريرة ولا إثم ... أرسلها القادر إلى هذه الدنيا المموجة القاسية لتكون حياتها مأساة !

وكان للملكة صديقة من نساء سادة البلاط تحبها وتخلص لها الود ، تدعى ليدى پولينا ، زوجة أنتيجونوس الصقلى

فلما علمت بما أجاء الملكة فى سجنها من المخاض ، وما تلا المخاض من وضع ، ترقرقت دموع الألم فى أغوار قلبها من أجل مولاتها ، وانطلقت إلى السجن خفية ، فقالت لليدى أميليا ؛ السيدة الطيبة القلب المنوط بهـا السهر على الملكة : « أحسبك ياعزيزتى الليدى تشركيننى فى الألم لما أصاب الملكة ! » فلم يكن إلا أن تفجرت الدموع من عينى أميليا جواباً على ما قالت پولينا.. فقالت لها وقد سرها ما رأت من بكائها : « إذن تذكرين لها أننى هنا ... وأننى مستعدة لأن أذهب بالطفلة إلى الملك فأدافع عن هرميون ، وألقى إليه بابنته عسى إن هو رآها أن ترقق ما قسى من قلبه ، وتنير ما تدجّى من نفسه ، وتظهر له ما خفى عليه من برهان ربه » فأجهشت أميليا ، ودعت للسيدة ، وشكرت لها مجازفتها ، ثم ذكرت أن الملكة كانت تفكر فى مثل هذا

ودفعت الملكة بطفلتها إلى پولينا فذهبت بها إلى الملك رغم ما حذرها به زوجها من مغبة الإقدام على هذا الجنون ، خشية أن يُبطش بها ؛ فلما مثلت بين يديه كشفت عن المولودة البائسة فصاحت وأعولت ، ثم وضعتها عند قدميه ، وانطلقت تدفع عن صديقتها الملكة ما رماها به من الفحش ، وطلبت إليه أن يرحم الطفلة بالعطف على أمها ... وكانت تتدفق فى دفاعها كالسيل ، وترق فى استعطافها كالنسيم ، ساكبةً أثناء هذا وذاك دموعها تنثرها على كلماتها ، وتنضح بها عباراتها ، عسى أن يلين فؤاد الملك

ولكن الملك وا أسفاه لم يزدد إلا عتواً ولم يزده ما صنعت پولينا إلا استكباراً ، فأمر زوجها أن يذهب بها من بلاطه ... وأن يتركاه إلى شيطانه

ثم دعا الملك إليـه أنتيجونوس — وهو زوج پولينا — فأمره أن يحمل الطفلة إلى البحر ، وأن يقلع بهـا ليتركها عند أول شاطئ ، وديعةً مظلومة بين أيدى القضاء والقدر

وأتمر الرجل النبى بأمر الملك ، فحمل المولودة فى يديه الجبارتين ، وألقاها على صدره الصخرى ، ومضى بها إلى ... البحر !

وهكذا فصل الملك بينه وبين قطعة فؤاده فى ثورة الغضب الجامح ، غير منتظر عودة رسوليه بنبوءة أبوللو من دلفوس

ولم يكن بحسبه هذا ، بل أمر بقضاة المملكة وذوى الرأى فيها فاجتمعوا فى حشد عظيم لمحاكمة الملكة .. لمحاكمة هرميون .. بأعين الرعية ، وعلى ملأٍ من الجمهور

ولغطت ألسن السوء بما اتهم به الملك زوجته ، وراجت شائعات الضلالة ، وأهرع الناس من كل فج ليشهدوا مليكتهم التقية النقية تقف موقف الاتهام الوضيع ، والشك المزري ، ثم لتسمع بعد هذا الحكم الذى لا تدرى هل يكون عليها أم لها

وصمت الناس حتى لكأن على رؤوسهم الطير

وجلس القضاة فوق المنصة الكبرى وليس فى خد أحدهم قطرة من دم

وصدئ البريق فى عيونهم فانبعثت منها ظلمات من ورائها ظلمات !

وفغر الناس أفواههم حين شاهدوا الملكة المظلومة تبكي ، وهى برغم بكائها جميلة فينانة ريانة رائعة ... لأنها بريئة

وحضر الملك فلم يتحرك أحد للقائه ... وجلس فوق عرشه الصَّلِف ، وأخذت نظراته تزيغ هنا ، ثم تشرد هناك ... كنظرات الذئب قد فجأه ضبع ! !

وحينما دق كبير القضاة بيـده على المنضـدة مؤذناً ببدء المحاكمة ، شهد الناس سيدين من خيرة ساداتهم يشقان الجموع المحتشدة ، ويذهبان إلى هيئة المحاكمة صمدا ، ثم يتجهان ناحية الملك

أوه ! ! إنهما كليومين وديون قد عادا من دلفى !

تُرى ماذا فى هـذا الظرف الكبير المختوم بخاتم كاهن أبوللو الأكبر ؟ !

قال الملك : « افتح يا كليومين بإذنى ، واتلُ على الناس نبوءة دلفى ! !

وفض كليومين الظرف الكبير ، ونشر الصحيفة البردية ، وراح يتلو :

« بريئة هرميون »

« لا وزر على پوليكسينز »

« كاميللو من الرعايا المخلصين »

« ليونتس ظالم غيران[1] »

« سيعيش الملك بلا وارث إن لم تعد طفلته المفقودة ! ! »

وتبسم الملك مستهزئاً ، وظن أن النبوءة رجس من عمل هرميون وتلفيق أصدقائها ، ثم أمر القاضي الأكبر أن يأخذ فى المحاكمة ليتبين الرشد من الغى

وحينما دق القاضي بيده مؤذناً بدء المحاكمة ، إذا رجل طويل يقدم حتى يقف تلقاء الملك وهو يلهث ، فيقول

— مولاى ! الأمير يا مولاى ! ماميللوس !

— ماله يا رجل ؟

— ما ... ما ... ت ! !

— مات ؟ وله ؟

— حزناً على أمه الملكة يا مولاى ! لقد هاله أن تقف هذا الموقف لتفضح ظلماً فى شرفها وعرضها ... آه ياحبيبى الأمير ... آه يا أعز الناس علىّ ! ! »

وزاغت الأبصار كلها ... واستخرط الناس فى البكاء ... ووجم القضاة فلم ينبسوا بكلمة

أما الملكة ، أما هرميون المسكينة ، فقد ذاب قلبها ، ووهى جلدها ، ولم تطق أن تسمع أن ولدها الوحيد الحبيب قد لفظ نفسه الأخير وجداً عليها ، ورثاء لها ، فنظرت إلى الدنيا كأنها تسوخ تحت قدميها ، وإلى السماء كأنها تطوى من فوقها ، وإلى الناس كأنهم عيون ودموع وقلوب كسيرة مُفجَّعة ... فخرّت مغشياً عليها

وانتفض قلب الملك !

وتفجرت فى أغواره شآبيب الرحمة ، وانسرقت عبرة من عينه تغلى كالمهل لتكفر عن خطيئته ... فأشار إلى پولينا ومن معها من وصيفات الملكة ، فحملنها ، وأوصاهن بها خيراً

وأخذ الجمع الحاشد يتمزق أباديد

ولم يمض غير قليل حتى عادت پولينا وفى وجهها سحابة حزينة باكية ، وفى جسمها رجفة عظيمة ، وفى عينيها دموع سخينة حرار ... وفى فمها نعى هرميون ! !

ماتت هرميون إذن ، وخلّفت هذه الدنيا السمجة الملوثة بالرذيلة وراءها ... خلفتها للملك المغيار المسكين الذى لم تنفعه أن تتحرك الشفقة فى فؤاده حينما سمع بموت وليّه ماميللوس ، ولم ينتفع كذلك أن يؤمن ببراءة هرميون بعد إذ رماها بأم الموبقات

وذكر ليونتس طفلته التى نفاها وراء البحر مما جلبت عليه مظنّةُ السوء فى أمها من خبال ، فصار شجوه شجوين ، واعتاج فؤاده بهمّين ، وود لو يعطى عرشه وملكه لمن يرد إليه المولودة التى لا يعرف لها اسماً ، ولا يكاد يذكر لها رسماً

ولكن هيهات ! فها هى ذي السنين تمر ، والأيام تكر ، والملك المسكين يتلظى بنار الشجو والشجن ، ويغص بآلام الأسى والحزن فهو من عيشه فى سجن ، ومن قصره فى قبر ، ومن ضميره فى عناء ، ومن ذكرياته فى بلاء ، ومن رعيته فى شهود عليه بما قدمت يداه ! !

* * *

أما أنتيجونوس الذى ذهب بالطفلة وراء البحر ، فقد أقلع فى سفينة دفعتها الرياح ، وما زالت تدفعها ، حتى أرست على شاطىء بوهيميا ! حيث يحكم الملك پوليكسينز بأمره ... وهنا ... نزل الرسول الشقى بالأميرة الصغيرة إلى البر ، وما كاد يُصعّد فى حدوره حتى لمح غابة قريبة فجعل يدلف نحوها ، وفى ذراعيه الوديعة المسكينة تبكى وتصيح من الجوع ... أو ... من هذا الصدر البارد الذى لم يعرف حنان الأم ، ولم يجش فيه لبنها وحبها !

وتحت دوحة باسقة وارفة الظلال وضع أنتيجونوس الأميرة الصقلية ، وعاد أدراجه إلى البحر ... لكنه لم يبلغه ... وكيف يبلغه وهذا الدب المنتقم قد ترصده ، حتى إذا بعد عن الطفلة انقض عليه ، وأعمل فيه أنيابه ومخالبه ، وطهر ظهر الأرض من روحه المظلمة الظالمة التى لا تعرف الحنان !

وذهب الدب بعد إذ اغتذى وشبع

وبرز من الغابة رجل راع مجدود[1] طيب القلب كان مختبئاً ثمة من الدب ؛ وكان بكاء الطفلة يحز فى صدره ويذيبه وجداً عليها ...

واحتملها فى يديه الرحيمتين ، وراح ينظر فى وجهها الصغير

(١) غيران ومغيار وغيور بمعنى

(١) حسن الحظ



محاضر ألماني في القاهرة

دعت كلية الآداب بالجامعة الأستاذ الدكتور أدولف جروهمان لإلقاء بعض محاضرات عن « الادارة العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة » والمحاضر من أعلام الاستشراق في ألمانيا ، وأستاذ الثقافة الاسلامية واللغات السامية بجامعة براغ بتشكوسلوفاكيا ، وهو يعنى بناحية دقيقة في التاريخ الاسلامي وهي دراسة أوراق البردي العربية ، وعلى الرغم مما يكتنف هذه الناحية من البحث من الصعوبات الجمة فقد ذللها ببحوثه التي نشرها في مؤلفاته وفي المجلات الكبرى التي تعنى بالدراسات الشرقية . ومن ثم عهدت إليه الحكومة المصرية بدراسة أوراق البردي العربية المحفوظة في دار الكتب في القاهرة وهو ينوي إصدارها في سبعة مجلدات مع التعليق عليها ، نشر منها حتى الآن ثلاثة باللغة الانجليزية مع مقارنتها بأوراق البردي اليونانية المتعلقة بهذه الناحية الجديرة بالبحث في تاريخ مصر الاسلامية . وقد ترجم الجزءين الأولين منها الدكتور حسن ابراهيم أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب

وقد تناول الدكتور جروهمان في محاضرته الأولى كُوَرَ مصر كما كانت إبان مجيء العرب معتمداً في ذلك على ما جاء في المصادر اليونانية والسريانية وما عثر عليه في أوراق البردي العربية الموجودة في مصر وفي دور الكتب الأوربية ومكاتبها الكبرى كالمتحف البريطاني ومكتبة بودليان وأكسفورد وسُنْن وليبزج وغيرها

ومصر كما صورها الدكتور جروهمان في هذه المحاضرة تختلف عن مصر الحالية تمام الاختلاف في كُوَرها وبلدانها ، وتختلف عن مصر القديمة التي وصفها ستانلي ليبدبول في كتابه « سيرة القاهرة »

وألم الدكتور أدولف في المحاضرة الثانية بالجزية عند العرب وهو يسوق رأياً طريفاً في الصلة بين كلمة « جزية » و « كسية » ويتناول فيها نظام الضرائب والحركة المالية في مصر في عهد عمرو ابن العاص ومن خلفه وفي العصر الأموي

والمحاضر الدكتور جروهمان واسع الاطلاع في الثقافات العربية والأوربية الحديثة منها والقديمة ، وقد ذلّل له بحثه الشائك نظرُه في كثير من المصادر الجمة في مختلف اللغات الخاصة بهذه الناحية

ميزانية التعليم في انجلترا لسنة ٣٨ — ٣٩

قدرت ميزانية التعليم في إنجلترا للعام الدراسي ٣٨ — ٣٩ بهذا الرقم العجيب : (٥١،٠٠٢،٣٣٠) أي بما يزيد على مجموع ميزانية الحكومة المصرية كلها بأحد عشر مليوناً من الجنيهات .. وبما يزيد على ميزانية التعليم في إنجلترا للعام المنصرم (٣٧ — ٣٨) بمبلغ ٢،١٦١،٤١٣ من الجنيهات ؛ وهاك بعض الأرقام العجيبة في توزيع هذه الملايين الضخمة من الجنيهات

٣٥،٥١٣،٠٠٠ للتعليم الأولي والابتدائي (Elementary)

١١،٦٨٠،٠٠٠ « العالي

ويتعجب ، وينظر إلى لفائف الحرير الجميل والدمقس المفتل ويطرب ... ثم جلس ليصلح من شأنها ما علمته الأبوة الساذجة فاكتشف كنزاً من در وياقوت وجوهر ، وورقة كانت هرميون قد شبكتها في صدر ثوبها بدبوس وكتبت عليها ... برديتا ... وكلمات أخريات عرف منهن الراعي أن اسم لُقيته برديتا ، وأنها من نسل الملوك الصيد

وخفق قلب الرجل واشتد وجيبه ، وابتسم للدنيا وابتسمت الدنيا له ، وطبع قبلة على جبين الطفلة فسكنت ... وهرول بها إلى كوخه ... وهناك ...

(لها بقية) دريني خشبة

٧٫٨٨٧٫٠٠٠ لماشات المدرسين

٥١٤٫٦٥٠ للرياضة البدنية والرحلات

ولم يسبق أن أرصدت إنجلترا مبلغاً كهذا للتعليم إلا فى سنة ١٩٢١ — ٢٢ وبزيادة ١٢٫٣٣٥ جنيهاً على المبلغ الحالى

مجلة لكلية الآداب

لا تكاد توجد جامعة في أوروبا أو أمريكا إلا ولجميع كلياتها مجلات راقية تمثل الحياة الجامعية وتحدد مدى النشاط الجامعي وتسجله ؛ والجامعة الأميركية المصرية تصدر مجلة التربية الحديثة مقتدية فى ذلك بجامعات أوروبا ، ولسنا ندرى ماذا يمنع كلية الآداب المصرية من إصدار صحيفة دورية وهى بهذا العمل أولى دور العلم فى مصر ؛ وهذه صحيفة دار العلوم تصدر حافلة بالبحوث القيمة وتتبارى فيها أقلام المجدين

أما كلية اللغة العربية فقد علمنا أنهـا جادة فى إصدار صحيفة باسمها ... ولا غرو ، ففيها وفى دار العلوم تحيا العربية وتتجدد

ضرائب الأطيان فى مصر الرومانية

لعل كثيرين من القراء يحسبون أن بدعة تعداد الأمم هى سنة مستحدثة لم تعرفها إلا الشعوب الحديثة . لا . ليس الأمر كذلك . فقد ثبت أن قدماء المصريين كانوا أول من وضع نظام التعداد ، وكانوا يجرونه كل أربع عشرة سنة . ولم يكونوا يقتصرون على تعداد الأنفس فقط ، بل كانوا يحصون كل شىء فى الوطن المصرى : الناس والحيوان والمنازل والحدائق ودور الصناعة والمدارس والعاهات ... الخ ، وكانوا يتخذون من هذا التعداد ميزاناً لفرض الضرائب التى كانت فى الغالب قاصرة على الأرض وتجارة الوارد . وكانت ضرائب الأطيان فى مصر القديمة مضبوطة عادلة ، لكنها لم تبلغ الدقة المتناهية إلا في زمن البطالسة — فلما غزا الرومان مصر اعتمـدوا فى ربط الأموال على الأرض على النظام البطليموسى ، وبهرهم هذا النظام فاستعملوه فى إيطاليـا وطبقوه فى كل مستعمراتهم ، مستعينين فى ذلك بموظفين من المصريين . وقد تنبه العلماء المصريون إلى هذا الموضوع فألفوا فيه كتباً جيدة وأول هذه الكتب ألفه الأستاذ ولكن سنة ١٨٩٩ ، وفى سنة ١٩٣٦ خصص له الأسـتاذ جونس هوبكنز مجلداً من كتابه (التخطيط الاقتصادى فى رومة القديمة) . وقد صدر هـذا الشهر كتاب (الضرائب فى مصر — من عهد أغسطس إلى عهد ديوقليانوس) لمؤلفه العلامة شرمان لى روى ولاس . والكتاب يتناول غير هذا عصراً من أسود العصور التى رزحت تحتها مصر والتى كانت تعتبر فيهـا بقرة حلوباً للدولة المستعمرة أو كما كان يتبجح الرومان فيقولون (القمح فى مصر !) Corn in Egypt.

فتاة انكليزية تكتب عن مصر

تناولنا فى عدد مضى كتاب المستر روم لاندو (البحث عن الند) الذى تناول فيه مؤلفه أثر التدين فى الشرق الأدنى ، وبخاصة فى مصر والأقطار العربية ، والذى نقل منه الأستاذ العقاد صوراً سريعة لقراء الرسالة فى عددها الهجرى ... وقد كنا نقرأ عنـه فصلاً فى إحدى المجلات الانجليزية فراقنا من المحرر أن يستدرك على المؤلف أنه لم يندمج فى الشعوب التى زارها ، بل قصر مقابلاته على الفئة الراقية ، أو أعلام المثقفين ، الذين يهمهم بالطبع أن يعطوا لمحدثهم صورة جميلة عن بلادهم قد لا تكون صادقة . وأشارت المجلة بهذه المناسبة إلى كتاب طريف عن الفتاة المصرية Newsgirl in Egypt يسـد النقص الكبير الذى أخذته على كتاب المستر روم لاندو . والكتاب للمؤلفـة الاجتماعية النابغة باربارا بورد Barbara Board التى أتت إلى مصر لتشهد حفلات زفاف حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، والتى لم تنزل فى فنادق القاهرة الفخمة كما يفعل سائر السياح ، بل نزلت ضيفة على عائلة من الفلاحين فى بيت ريفي مطل على النيل فكانت تتغلغل منه في صميم الحياة المصرية التى تمثلها غالبية من المصريين الفلاحين . ثم ذهبت المؤلفة من ذلك البيت فى رحلة طويلة إلى ... الخرطوم ! فاختلطت ببنات جنسها فى جميع المدن والقرى المصرية ، ووصفت طبائعهن وأفراحهن وأحزانهن ، وتكلمت طويلا عن الفوكلور المصرى وترجمت منه كثيراً من النكات والأغانى والمواويل وأغانى الزار وأناشيد الذكر وأغانى الـكنائس البروتستنتية ...

ولم تهمل المؤلفة نهضـة الفتاة المصرية المتعلمة ، بل تناولتها فى إسهاب وإطناب وإعجاب

تيسير قواعد النحو واشراك البلاد العربية فيه

اقترحت إحدى الدوائر المختصة بدراسات اللغة العربية فى وزارة المعارف على الوزارة أن تعنى منذ الآن ، وقبل أن تمضى اللجنة التى تألفت لتيسير قواعد النحو والصرف وغيرها من علوم اللغة فى عملها ، بإشراك الأقطار العربية في أعمال تلك اللجنة منذ بدايتها

وبررت هـذا المقترح بأن مسألة القواعد مسألة لا تتعلق بالمصريين وحدهم ، وإنما هى مسألة جميع الأقطار العربية والمشتغلين بلغة العرب فى متباين أنحـاء العالم ؛ وإذا أقدمت الوزارة على استدعاء أئمة اللغة ، وذلك بتوجيه الدعوة الرسمية إلى وزارات المعارف فى الأقطار التى يعنيها الاقتراح ، فان الوزارة تـكون قد وفرت على نفسها عناء عرض المقترحات التى تقرها لجنة التيسير على الناطقين بالضاد فى المستقبل ، وحتى إذا ماتم عرض القرارات يكون المشتغلون بمثل تلك الشئون على بينة من الأبحاث والدراسات ، وبهذا يتم تنفيذ ما يقترح فى أقرب فرصة

وينتظر أن يكون هذا الاقتراح موضع النظر والدراسة حتى إذا وافقت الوزارة عليه وجهت الدعوة إلى الحكومات العربية بندب الذين يقع عليهم الاختيار لتمثيلها فى اللجنة المشار إليها

حصة مصر !

من أمتع الـكتب التى أخرجتها المطابع الإنجليزية فى الأسبوع الفارط كتابان ، أحدهما عن اليـابان وعنوانه : (إلى أين أنت ذاهب : إلى اليابان ؟) للكاتب اللبق وللاردپرس Willard Price ، والآخر عن الولايات المتحدة واسمه (نهضة أمريكا نحو القوة) أو تاريخ حديث لأمريكا : للـكاتب المحقق و . ا . وود وارد . والـكتابان متشابهان من حيث الموضوع ، وكل منهما يبشر بالوطنيـة الإنجليزية بين الإنجليز مع ضرب المثل من الخارج كما يعبرون . ومن أروع ما قرأناه فى الـكتاب الأول ما ذكره المؤلف عن طرائق وزارة المعارف اليابانية فى بث روح الوطنية فى نفوس النشء . وأحسن ما ذكره فى هذا الباب هو أن هذه الوزارة حتمت أن يكون فى صلب جداول توزيع الحصص فى المدارس اليابانية حصتان يطلق على كل منهما (حصة اليابان !) كما تقول حصة الحساب وحصة اللغة وحصة التاريخ ... الخ . وفى هذه الحصة يتناول المدرس أحاديث حرة عن الوطن اليابانى وعن روح التضحية وعن الأمبراطور وعن أعداء اليابان وعن الجيش وعن الأسطول والطيران . وقد لوحظ أن هاتين الحصتين صارتا أحب الحصص إلى نفوس الطلاب لمـا يتناوله المعلمون من هذه الأحاديث الحرة ، ولأن امتحاناً لا يعقد فيما يلقنه التلاميذ فيهما

فما قول رجال التربية عندنا فى إدخال هذا النظام فى المدارس المصرية فتكون فى جداول توزيع الحصص (حصة لمصر ؟)

الوعظ السلبى فى المساجد المصرية

ما تزال طائفة كبيرة من خطباء المنابر فى المساجد المصرية تخطب المصلين خطباً سلبية عقيمة تضيق بها نفوس المصلين ، وأقبح شيء فى هؤلاء الخطباء أنهم لا ينون يسبون المصلين الذين يخطبونهم سباً قد يصرف المتمردين منهم عن غشيان المساجد بسبب هؤلاء الخطباء الذين يتهمون المصلين بالزنا ومعاقرة الخمر وسوء الفهم وقلة الصلاة ... الخ ، ويبدو أن شيئاً من التبعة فى هذا ، إن لم يكن أ كثرها ، واقع على عواتق هذه الفئة المستنيرة المثقفة من وعاظ الأزهر العلماء ... ذلك أنهم لا يعنون بالاتصال بهؤلاء الخطباء أو جمعهم فى صعيد واحد وتلقينهم مبادئ الوعظ الحديث وأساليب الخطابة وطرق الإلقاء ، ثم معاونتهم في تحضير خطبهم ليلحظوا أن يتفوق الجانب الايجابى فيها على الجانب السلبي . وحبذا لو تعاون الأزهر ووزارة الأوقاف فيعملا على تجديد عقلية هؤلاء الخطباء

الحسين بن على

مقالة الأديب الشيخ ضياء الدين الدخيلى : (مقتل الحسين وأثره فى الأدب العربى) فى (الرسالة الغراء) — ذكرتنى ببيتين من قصيدة لزيد الموصلىّ النحوى المعروف بـ (مَرْزَكَّه) فى أبى الضيم (الحسين بن على) — رضى الله عنهما — فرأيت روايتهما فى (الرسالة) :

لـمـا جاءنا بعد (الحسين) غمامُ   فلولا بكاء المزن حزناً لفقده
لما انجاب من بعد (الحسين) ظلام   ولو لم يشق الليل جلبابه أسًى

(***)

(الاسكندرية)

مستشرق فرنسى كبير يحاضر بالجامعة المصرية

يلقى العلامة المستشرق الأستاذ ليفى بروفنسال أستاذ « تاريخ الغرب الإسلامى » بجامعة الجزائر والسوربون ونزيل مصر الآن محاضراته عن « الحضارة الاسلامية فى أسبانيا » تحت رعاية كلية الآداب

والأستاذ بروفنسال متخصص فى تاريخ المغرب والأندلس وله فى ذلك عدة مؤلفات وبحوث قيمة نذكر منها « تاريخ أسبانيا فى القرن العاشر » و« النقوش العربية فى أسبانيا » وهما بالفرنسية و« فهرس المجموعة العربية بمكتبة الاسكوريال » كذلك وفق الأستاذ بروفنسال إلى إصدار طبعة جديدة لتاريخ دوزى الشهير عن الأندلس وإصدار الجزء الثالث من تاريخ البيان المغرب لابن عذارى ، وهو الآن يعنى بنشر مؤلف أندلسى نفيس برعاية الجامعة المصرية هو « كتاب الذخيرة » لابن بسام عن نسخة كاملة وفق إلى اكتشافها

وسيبقى الأستاذ بمصر بضعة أسابيع أخرى إجابة لدعوة الجامعة المصرية

المجلس الدولى للاتحادات العلمية

طلب المجلس الدولى للاتحادات العلمية فى لاهاى إلى الحكومة المصرية أن تتخذ التدابير لكى تكون الهيئات العلمية فى مصر على اتصال به ، تأييداً للروابط العلمية والثقافية ، ورغبة فى تبادل الآراء والنظريات

وقد أحيل هذا الطلب إلى وزارة المالية ، فوقع اختيارها على الدكتور حسن صادق بك المدير العام لمصلحة المناجم والمساحة ليكون رابطة الاتصال العلمية بين مصر وهيئة هذا المجلس الدولى

ومما يذكر أن هذه الهيئة تبحث فى العلوم المختلفة كالفلك وطبقات الأرض والجغرافيا وغيرها

خطأ فى نسبة شاهد نثرى

ذكروا من شواهد الأسلوب الحكيم قول القبعثرى للحجاج « مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب » وقد قال له الحجاج متوعداً : « لأحملنك على الأدهم » يريد به القيد لا الفرس الأدهم ، وأول من نسب هـذا إلى القبعثرى الخطيب القزوينى فى كتابيه (تلخيص المفتاح ، والايضاح) وتبعه فى ذلك أصحاب الشروح والحواشى ، وذكروا أن القبعثرى كان من رؤساء العرب وفصحائهم ، ومن جملة الخوارج الذين خرجوا على الامام على رضى الله عنه

والحقيقة أن هذه النسبة خطأ ، وأن هذه المحاورة كانت بين الحجاج والغضبان بن القبعثرى الشيبانى ، لا القبعثرى نفسه ، وقد ذكر هذا أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشى فى شرح مقامات الحريرى (١٢٧ جـ ٢) وذكره الجاحظ فى البيان والتبيين (٢٠٠ جـ ١)

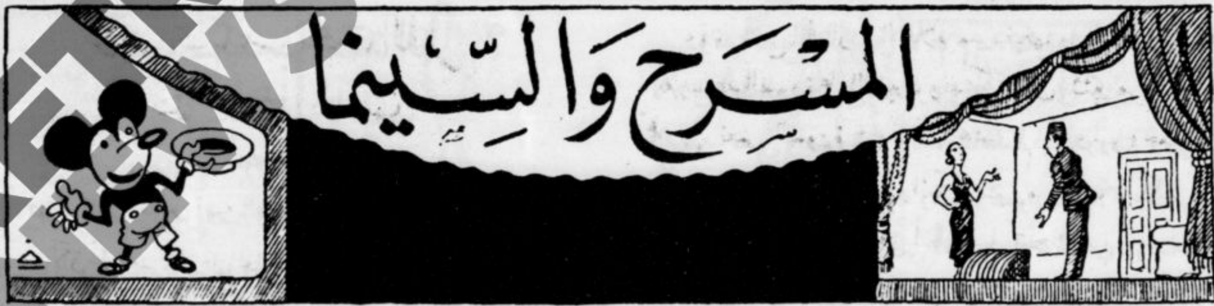
والحقيقة أيضاً أن الغضبان بن القبعثرى لم يكن من الخوارج المعروفين ، وإنما كانت تهمته عند الحجاج أنه أرسله إلى عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث ليأتيه بخبره حينما بلغه خروجه عليه ، وقد كان مع عبد الرحمن سعيد بن جبير والشعبى وغيرهما ممن لم يكن من أولئك الخوارج الذين خرجوا على الامام على وغيره ، فلما وصل إلى عبد الرحمن قال له : ما وراءك يا غضبان ؟ قال : شر طويل ، تغدّ الحجاج قبل أن يتعشاك ، ثم انصرف إلى الحجاج وكانت مقالته قد وصلته من جواسيسه قبل أن يصل إليه ، فأمر به فوضع القيد في رجليه ثم سجنه

عبد المتعال الصعيدى

تصويب

وقع فى قصة (هجرة معلم) للأستاذ على الطنطاوى فى العدد الممتاز أخطاء مطبعية غيرت المعنى هذا صوابها :

الصفحة	العمود	السطر	
٥١٠	٢	٢٩	فيكون (صوابها) فيلسون
٥١٤	١	٧	الصلداء («) الصلدة
٥١٥	١	٢٣	بأشجارها المزهرة ، وطيبها وعطرها (سقطت منها جملة هذا صوابها) : بأشجارها المزهرة المتعانقة ، وأدواحها الباسقة ، وعيونها الدافقة ، وأنهارها الرائقة ، ووردها وزهرها ، وعنبها وتمرها ، وطيبها وعطرها ، وفتونها وسحرها
٥١٦	١	٢٥	الغاية الساذجة (صوابها) الغاية السامية
٥١٧	٢	٢٦	أين هذا من ذاك («) أين هذا من دارك



الفرقة القومية

برنامجها ورواية طيف الشباب

عادت الفرقة القومية إلى إتمام موسمها الثالث وقد افتتحته بتمثيل رواية « طيف الشباب » لمؤلفها الأديب الذائع الصيت مارسيل بانيول ترجمة الأستاذ أحمد بدرخان

أرجئ الكلام عن موضوع هذه الرواية ، لأن ظاهرة غريبة ظهرت فى الفرقة حملتنى على الوقوف حيالها موقف الواجم المبهوت . وبيان الاستغراب فى هذه الظاهرة أن الفرقة بشرتنا بأنها ستتحفنا بتمثيل اثنتى عشرة رواية في الفترة الباقية من الموسم وهى لا تزيد على الشهر الواحد إلا بضعة أيام فقط ، وأن أربعا من هذه الروايات وضعت وترجمت حديثاً ، والثمانى الروايات الباقية مثلت من قبل

للإدارة الفنية فى الفرقة القومية الحرية فى استعادة تمثيل الروايات الناجحة ، ولكن ما بالك بالروايات الموضوعة التى سيعاد تمثيلها وهي التى بلغت من تفاهة المعنى وسخف المبنى ، وهزال الفن مبلغاً حفز جميع النقاد المسرحيين بدون استثناء إلى ابداء استهجانهم لها وعدوا قبول الفرقة إياها لا يتفق وتقدير فن التمثيل ، ولا يحقق الغرض الثقافى الذى رمت إليه وزارة المعارف من إنشاء الفرقة ؟

ما هو السر يا ترى فى عودة الفرقة إلى احتضان هذه الروايات وإحيائها من جديد ؟ بل ما هو الباعث على جمع رمم روايتى « اليتيمة ، وبناتنا سنة ١٩٣٧ » وكان الواجب أن تبقى مدفونة فى الرماد ؟ أهو التحدى للنقاد وإهمال آرائهم ودراساتهم أم الاستهتار بالغاية الثقافية التى أسست الفرقة من أجلها ؟

تحاول أن نجل الفرقة عن هذا التدهور ، ونؤثر لها السلامة على التورط في الغمرات ، ولكن الواقع صارخ لا سبيل إلى السكوت عنه

ليس الطريق إلى معرفة نجاح الرواية أو فشلها هى القروش التى يجمعها بائع التذاكر ، أو حشر ردهة الأوبرا ومقاصيرها بمعارف هذا الممثل أو أصدقاء ذاك الموظف ، ولا بالمقالات المأجورة التى تنشر كالاعلانات

لا ، ليس السبيل إلى ذلك إلا بالاستماع إلى أقوال الناقدين والأخذ بالرأى الناضج

كنت أوثر الكلام عن رواية « طيف الشباب » لسببين : الأول أن المترجم متشبع بروح المؤلف ، لم يجنح عن البساطة فى الكلام الذى يعرب به عن الغاية من الفكرة الأساسية ، ولم يطمس معالمها بالألفاظ المتقعرة النابية التى يتوسل بها فقراء الذهن عشاق التزمت

والسبب الثانى أن المترجم فنان سينمائى ، يحسن الاختيار ويقدر ما هو صالح ونافع تقدير فنان خبير ، يصطفى بعقل وتدبر الرواية التى تجمع بين المعنى والمبنى ، والفكر والصيغة

كان يطيب لى أن أهيب بالفرقة أن تو كل اختيار الروايات الغربية إلى أمثال الأستاذ احمد بدرخان وتترجم بسلاسة وبساطة كما ترجمها هو ، وأن أقول لها أشياء أخرى عن الروايات الموضوعة التى تتخبط فيها تخبط الضال فى غابة كثيفة بليل مدلهم الظلام

ولكن مالى أنصح الفرقة وأهديها ، ما فائدة الكلام فى إدارتها ورجال لجانها ، في ممثليها وممثلاتها ؟ لم العناء فى ذلك ؟ بل ما الفائدة منه مادامت تعمل وفق البداوات والنزوات ؟ ولم لا أقول لها أنت خير الفرق التى ماتت وأفضل الفرق السائرة فى طريق الموت ؟

حبيب الزحلاوى

كيف تكتب قصة الفلم ؟

بقلم محمد على ناصف

قصة الفلم : تعتبر قصة الفلم أهم النواحى الفنية فيه ؛ فإن من الميسور الآن أن نجد لأى فلم المخرج الذى يموّله ، والمدير الذى يتفهم إدارته ، والممثل الذى يحسن تمثيله ، ولكن ليس من السهل أن توفق إلى السيناريو الجيد الذى يبنى عليه عمل كل من هؤلاء ؛ ويقولون إن القصة الضعيفة تقتل النجم الكبير A weak story hills a great star ومثل هذا القول لم يكن على هذه الدرجة فى بدء صناعة السينما حيث كان الممثل هو أول وآخر من يحفل به ؛ ولكن أهمية الكاتب أصبحت ملموسة بعد أن صار الفلم ناطقاً ؛ وبعد أن ارتقت السينما وأخذت اتجاها أدبياً رفيعاً يظهر أثره يوماً بعد يوم

فمن نتائج الفلم الناطق أنه أشرك الأذن مع العين فى تذوق فائدة السينما ؛ والأذن - علمياً - أشد انتقاداً من العين ، لأنه من الجائز ألا تلمح عينك قبح وجه يخفيه طلاء متقن جميل ، ولكنك لن تستطيع أن تحمل أذنك على الإعجاب بقول قبيح تستمعه فى مناسبة جميلة

وقد أصبح الحوار فى الأفلام بعد تنقيفها من الخطورة بمكان لأنه يساعد الصورة على التعبير ، وقد يكون فى كثير من الأحيان أهم من نفس الصورة ؛ ولقد شاهدنا فلم « روميو وجوليت » فكان إخراجه قوياً وتمثيله رائعاً وتصويره جميلاً ، ولكن كان أهم ما بالفلم حكم شكسبير التى أنطق بها أشخاص روايته الخالدة

كاتب الفلم : يخطئ من يحسب أن كل من له دراية بكتابة الرواية أو المسرحية أو كل من له اسم كبير فى عالم الأدب يمكن الاستفادة منه في كتابة قصة الفلم ؛ وقد وقع فى هذا الخطأ كثير من المشتغلين بالأفلام فى بدء عهودها فتعاقد هؤلاء مع موريس مترلنك ، أرنولد بنيت ، سيرجلبرت باركر ، سومرست موغام ، ألينور جلين ، كدنان دويل وغيرهم ؛ ولكن واحداً من هذه العقود لم يجدد مرة أخرى ؛ وقد أصبحت حقيقة ملموسة أن أشهر كتاب القصة السينمائية ليسوا من الأسماء المعروفة فى عالم الأدب إلا أن تكون الشهرة الأدبية قد جاءت ملحقة بالشهرة السينمائية

ولقد اقتنع جميع الكتاب المعاصرين الذين تخرج مؤلفاتهم فى السينما بأن كتابة الأفلام شىء يختلف عن كتابة الكتب فسلّم أكثرهم مؤلفاتهم إلى أيدى كتاب الاستديو من غير قيد ولا شرط

محمد على ناصف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

6 me Année, No . 249

Lundi - 11 - 4 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٢٤٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٠ صفر سنة ١٣٥٧ — ١١ ابريل سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

كلمـــة فى أوانهـــا

ليس من دأبنا أن نعرض للسياسة إلا من حيث اتصالها بالخلق أو بالأدب . والخلق والأدب موضوع السياسة العليا التى لا تتحزب ولا تتعصب ولا تعرف تخوم المكان ولا حدود الزمن ؛ ولكن بينهما و بين السياسة الدنيا تفاعلاً وتبادلاً لا يفتران ! فهي تؤثر فيهما وهما يؤثران فيها ؛ وهى تغير منهما وهما يغيران منهـا . والخلق بخاصة مساك الأمة ومِلاك الأمر . ولم تُؤتَ النهضات القومية فى الشرق إلا من جهـة فساده . ذلك لأن الحال فى الأمة العائدة أو الناشئة التي يخرج أهلها وُحداناً من ظلام الجهل والغفلة ، أن يسعى المرء فيها ليغنى ، و يغنى ليتزعم ، و يتزعم ليحكم ، و يحكم ليستبد ، و يستبد ليطغى ، و يطغى ليتأله . سلسلة من الغرائز الجافية الرذيلة حلقاتها الشهوة والطمع والغلبة والأثرة والجموح والبغى ، يصل بينها جميعاً أنانية غالبة وفردية أصيلة . فالأهل والأصحاب والأحزاب إنمـا يتعاملون بغير الحق و يتجادلون بغير المنطق ، ابتغاء الفوز من وراء الباطل ، والغلبة من طريق القوة ؛ لأن (الأنا) لا يعرف (الغير) ، والذات لا تدرك المعنى ، إلا إذا أضاء العلم ما حولها فظهرت الأشخاص ، و بانت

الفروق، ووضحت الحقوق، وتميزت المعالم. وحينئذ يقول كل امرئ لنفسه أول مرة: إن فى العالم ناساً غيرى، وإن لهم حقاً كحقى. ومتى شعر المرء بالناس، وفطن إلى وجود الحق، تولدت فيه معانى الانسانية والديمقراطية والحرية والعدل، فيصبح خالصاً للجماعة إذا سعى، وللوطن إذا تزعم، وللدولة إذا حكم

***

نحن إلى اليوم لم نخرج عن ذواتنا فى العمل والسياسة والحكومة. نقيس كل شيء بمقياس الفائدة الخاصة، ونحمل كل أمر على محمل الهوى الفرد، ونغلّب إرادتنا على إرادة الأمة فى الحق المشاع، حتى اقتنع المستريب بأننا تعلمنا الكلام ولم نتعلم العمل، وحذقنا فنون الدعاية ولم نحذق أصول الحكم، وحفظنا مصطلحات الدستور ونسينا مبادئ الشورى.

كان ذلك محمولاً والجهل غاشٍ على العيون رائن على الأفئدة؛ أما الآن فقد تنبه الغفلان وتذكر الناسى. تنبه الغفلان إلى أن من استطاع أن يرفع المظلوم يسهل عليه أن يخفض الظالم؛ وتذكر الناسى أن له دستوراً يجعل مصدر السلطات فى فم المحكوم لا فى يد الحاكم. فمن ذا الذى يوسوس إليه شيطانه أن يرفع فى وجه الأسود وأشبال الأسود عصا القطيع؟ ومن ذا الذى يسول له طغيانه أن يرتفع على كواهل الشعب ليقول: أنا سيد الجميع!

***

لقد كان لبعضكم يا زعماء الساعة أخطاء على الأمة فى بعض الأمور ملكت عليها الصبر ولم تملك لها المغفرة. وقد أتاح لكم القدر العجيب هذه الفرصة لتصححوا بصواب اليوم خطأ الأمس، وتبددوا بيقين الحاضر ظنون المستقبل. فهل تدعونها تمر كما يمر أريج الطّيب بالرجل الأخشم [1]؟ إن بعضكم بلغ ساحل الحياة، وبعضكم جاوز حد الثروة، وكلكم تفرّع ذروة الجاه، فماذا يخزلكم عن ابتناء المجد المؤثل وابتغاء الذكر الخالد؟

نريد أن يكون الزعيم لجنسه لا لنفسه، ولشعبه دون حزبه، ولغده قبل يومه، حتى يتذوق هذا الشعب المجهود لذة الأخوة فى ظل الوطن، وعزة الحرية فى كنف الدستور، وجمال المساواة فى حمى الحكم الصالح

نريد أن تلغوا سياسة الخطب، وتقصّروا ألسنة الوعود، وتخفتوا ضجيج المظاهر، وتكفوا عن كرامة الناس صلف المنصب وزهو السلطان وبطر الجاه؛ فإن المصرى أكره الناس للزعيم المغرور والوزير المتغطرس والنائب الأَثِر

نريد أن تفتحوا لمصر عهداً جديداً من الهدوء والاستقرار، تدخلونه فى ثياب الإحرام صدوركم نقية من أحقاد الحزبية، ونفوسكم بريئة من شهوات العصبية، وميولكم نزيهة عن خسيس المطامع، فتصرفون القوى إلى الإنتاج، وتوجهون الجهود إلى الهدف، وترصدون ملكات الأمة وكفاياتها لطرد الجهل منها، ودفع الفقر عنها، ومعالجة المرض فيها، لتعيش كما تعيش الأمم الحية صحيحة الجسم سليمة الروح متماسكة الوحدة

***

إن الوزارة متسقة الأعضاء متحدة الهوى، وإن المعارضة نزيهة الأغراض مريرة القوى، وإن الأحزاب متقاربة الميول مستقلة الرأى، وإن الأمة يقظة الفؤاد كلوءة العين، وإن العرش من وراء كل أولئك محيط، يُقوِّم الصعَر، ويسدد الخطى، ويرقب الأمور، ويجمع الهوى الشتيت. فهل آن لنا أن نحيا حياة العاملين الأعزة فى وطن صريح الاستقلال قوى الشوكة، لا سلطان لقوة خارجية عليه، ولا سيادة للغة أجنبية فيه، ولا استبداد لشركة أوربية به. وهل آن لنا أن نتمتع بحرية مهذبة الأطراف مأمونة السفه، ينعم الفرد فيها بنفسه، ويأمن بها على رأيه، فى مجتمع راقي الطبقات مثقف النواحى، يؤلف نافرَه الخلق، ويرفه حياته الحب، ويؤويه إلى كنفه إلهٌ وعَلَمٌ ومَلِكٌ؟

احمد حسن الزيات

(١) الأخشم هو الذى فقد حاسة الشم أو ضعفت .

مع فتـــاة
حديث غير مفيد
للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

دق التليفون قبيل الظهر ، ودعيت إليه ، فسمعت صوتاً كدت أنساه من طول العهد به يسألني : « هل تستطيع أن تهبني من وقتك الثمين دقائق ؟ إن بي حاجة إليك فلا تخيب أملي فيك »

فشوقني ذلك إلى لقائها ، وإن كانت قد جفتني و نَبَتْ بي بلا موجب أعرفه ، فذهبت إليها ، وقلت وأنا أحدق في وجهها متفرساً :

« والآن ما الذى زوى بين هاتين العينين الجميلتين مذ كنتُ هنا آخر مرة ؟ »

قالت وهي تبتسم وتمد إليّ يديها بصندوق السجاير :

« خمّن وأراهن أنك لن تقع على الصواب ! »

قلت وأنا أشعل السيجارة على مهل :

« أهو شيء عجيب جداً إلى هذا الحد ؟ »

قالت : « نعم وجديد أيضاً »

وكانت مقطبة على الرغم من ابتسامها ، ولكن وجهها كان كأنه فى هالة . فقلت : « إن هذا الذي أطالعه فى محياك الوضيء لا يكون إلا من شيءٍ واحد . فن هو ؟ لا تطيلي عذابي »

قالت وهي تتنهد : « إنك لا تعرفه ... شاب أصغر مني ... قد يكون هذا جنوناً مني .. ولكنه هو أيضاً مجنون .. بالآثار .. »

قلت : « إن فى الدنيا ضروباً شتى من الجنون ، فلا تخشى أن أنكر عليك أو عليه شيئا ، ولكن الذي لا أستطيع أن أفهمه هو أن تضيعي وقتك مني وحقك أن تكوني معه »

قالت : « هذا ما أردت أن أتحدث معك فيه ... إن له صديقاً حمياً من علماء الآثار ... لا يفترقان ... ولا كلام لهما إلا فى هذه الآثار ... وأنا أزعم أني لا أبالي ... ولكنه يبدو لي أن هـذا الحال غير طبيعي »

قلت : « غيرى ؟؟ »

قالت : « نعم ، إلى حد ما ، وإنها لسخافة ، ولكن هذا هو الواقع ، ولا حيلة لى أراها »

قلت : « الحكمة القديمة تقول إن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده ؛ أما الحكمة الجديدة فتقول إنه لا يحيا بالحب وحده »

قالت : « أعرف هذا ولكن ... »

فقاطعتها وقلت : « ولكن يا فتاتى الغيرى يجب أن تعلمى أن للصداقة — كما للحب — مطالبها ومقتضياتها ؛ ومن الجلى أن هذه الصداقة تنيله ما لا يسمك أنت أن تنيليه . وإذا كان لى رجاء ، فهو ألا تحاولي أن تستحوذى على هـذا الشاب ، فإن من الخطأ الذى تقع فيه المرأة كثيراً أن تحاول أن تبلع الرجل... ومن يدرى ... لعل المرأة كانت أسبق من الرجل إلى أكل اللحم البشرى ، وعسى أن تكون هى التى علمته ذلك ... ولكننا ارتقينا يا فتاتى الجميلة ... خرجنا من عصور الاستيحاش ... ثم اسمعى ... لا تصدقى أن من الممكن إدماج حياة فى حياة ، وأن اثنين يمكن أن يكونا واحداً ... تذكرى ما تعلمت من علم الحساب ... وخير من هذا ، وأجلب للراحة أن توطن المرأة نفسها على أن للرجل حياته المستقلة ... فان محاولتها الاستحواذ على الرجل تؤدى إلى جعل الحب آفة ، والعكس أولى بأن يكون »

فقالت بلهجة مبطنة بالمرارة : « إن من الطبيعي ولا شك أن يكره الانسان المشاركة »

قلت : « الرغبة فى الاستحواذ مرة أخرى ... ولكن هل أنت مشاركة فيه ؟ هل فى وسعك أن تغنيه عن صديقه وأن تحلى محله ، وتشبعى الجوع الذى يحسه من هذه الناحية ؟ لا أظن فاقنعى بنصيبك منه ، ودعى له البقية التى لا يكون فى مقدورك أن تسدى الفراغ فيها ... إن من العسير أن تصبيه فى القالب الذى يروقك ... صعب جداً أن تغيرى الناس ... كل ما يمكن أن تنجحى فيه هو أن تسيئى إليه وتنفريه ... فما دام يشعر بالحاجة إلى صديقه هذا فدعيه له ، ولا تطمعى أن تسلبيه منه الآن ... إنك جديدة عليه فاتركي الوقت الكافى للتكيف .. ومن يدرى .. إنه لا يجد فيك الآن كل ما تصبو إليه نفسه ... قد يستغنى بك عن الدنيا قاطبة فيما بعد ... بعد أن تتكشف له نواحى نفسك

شيئاً فشيئاً ... ولـكن من يدرى أيضاً ... قد يتبين أنك أنت أيضاً لا تجدين عنده كل ما تطلبين من الحياة ... قد تجدين مثلا مجرد مثل ... أنك لا تستغنين عنى ، وأن بك حاجة ولو قليلة إلى صداقتى الفارغة . على كل حال ، لقد احتجت اليوم إلىّ ، ولو أنه كان حسبك من كل ناحية لما دعوتنى إليك »

وتناولت فنجان القهوة ، ورشفت منه رشفة ثم أعدته وقلت :

« وياسميحة ، كلمة أخرى ... إن من الخطر أن تتزوج المرأة رجلا أصغر منها ... واسمحى لى بأن أكون فظاً فان صداقتنا تعطينى هذا الحق ، وأنت أعز علىّ من أن أهمل فتح عينيك على الحقائق . نعم ، خطر كبير هذا ، فان المرأة تفقد جمالها بأسرع مما تفتر عواطف الرجل وتضعف قواه »

قالت : « يكفى ، فانى لا أجهل هذا »

قلت : « حسن ... إذن تعالى نتمشى »

ولـكنها فى الطريق لم تـكن خيراً منها فى البيت ، كانت قلقة مضطربة على الرغم من تكلفها الابتسام ، وحرصها على التظاهر بأن لا شيء يثقل عليها أو يكربها ، فاضطررت أن أقول لها : « إن من واجب المرأة حين تحب رجلاً أن تحرص على إسعاده ، كما تطلب أن يحرص هو على إسعادها ، والرجل على كل حال لايستطيع أن يفهم لماذا يكون هو المعطى والواهب والمضحى دائماً ؟ »

قالت : « إن كثيرين من الرجال يفعلون ذلك ولايتململون »

قلت : « ندع أنهم ليسوا رجالاً بخير معانى اللفظ ، وندع أن فتاة مثلك لا يرضيها واحد من هؤلاء الرجال المهازيل ، ويكفى أن أنبهك إلى أن هؤلاء الذين تذكرينني بأمرهم ساخطون ناقمون في قلوبهم ، وأنهم يحسون بأن عيشتهم سوداء ، ولا يشعرون برضى حقيق ، وإن كانوا لضعفهم لايجرءون أن يظهروا لنسائهم ما تخفى من أمرهم عليهن ، ولو أتيحت لواحد منهم فرصة التمرد لتمرد وجازف ... وهذا يحدث كثيراً ... ومجازفة الضعيف الخائف أفظع من مجازفة القوي المطمئن الواثق بنفسه ... فلا تنسى هذا ... »

قالت : « لماذا تتكلم هكذا ... إنى لا أحاول أن أتحكم فيه أو أسيطر عليه »

قلت : « قد يكون هذا صحيحاً ، ولـكنك تحاولين أن تغنميه أن يرضى نفسه من ناحية لا تستطيعين أنت أن ترضيه منها ... تحاولين أن تختطفيه من أصدقائه الذين يحس ويعرف أن به حاجة إليهم ... إن الرجل ليس كالمرأة ، وهو لا يفهم الحب كفهمها له ، والحب ليس كل شيء فى حياة الرجل ، وإن كان كل شيء فى حياة المرأة ؛ ثم إنه شيء لا دوام له فى الأغلب والفتور يعروه على الأيام؛ وهذا الاستحواذ الذى تنزى به طبيعة المرأة ليست له ثمرة إلا إعلال من الجانبين ... أظن أن كلامى ثقيل عليك جداً ، ولـكن ماذا أصنع وأنا مدعو لأكون ثقيلاً ؟ كالطبيب ... جعلت منى طبيباً لك لا صديقاً ، وما حيلة الطبيب إلا أن يثقل على الناس بما يمليه عليه علمه وفنه ؟ »

ولـكنها لم تسمع ولم تقتنع ، وأبت إلا أن تطيع طبيعتها . ولها العذر ، وتزوجت الرجل ، وفرقت ما بينه وبين صديقه العالم بالآثار

وبعد سنتين اثنتين لا أكثر دقت لى التليفون مرة أخرى فأحسست بأن الصوت معروف ، ولـكنى لم أذكره حتى قالت اسمها ، ودعتنى إليها ، ولـكن هذا حديث آخر يطوى ، فلنرجئه إلى وقت غير هذا ...

ابراهيم عبد القادر المازنى

شـــــق وسطيح

وابن خلدون والقرآن والعربانيون

لأستاذ جليل

طالعتُ في شبابي الجزء الأول من (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) وهو المعروف عند الناس بمقدمة ابن خلدون . وقد وعيتُ يومئذ مباحثه ، وقيدت الذاكرة ما استطاعت من فوائده — وإنها وأبيك لكثيرة — ثم فرّ جلّها ، وقرّ بعضها و « اختلافُ النهار والليل يُنسى [1] » كما يقول شاعرنا (أحمد الثالث [2]) . فلما قرأت في مقالة (التنويم المغناطيسي وقراءة الأفكار في القديم) في (الرسالة) الهادية الموقظة هـذه الجملة : « ولابن خلدون بحث عن الكهانة خذله فيه التحقيق » تذكرتُ كتاب عبد الرحمن ، ورجعت إليه أنشد حديثه عن الكهانة والكهان . وذهبت أتلوه تلاوة المتبصر ، فلما تممته لم أتمالك أن كررت عبارة تلك المقالة : « ... خذله فيه التحقيق » فقد ألفيتُ العبقرى الألمعى إمام الباحثين الناقدين ، ومعلن مغالط المؤرخين قد جرّه الضلال بجرير [3] طويل ، وقاده الوهم والخيال قَوْدَ الذلول ، فتقبّل — مطمئن النفس — شعبذات الكهانة ومخارق العرافة وخزعبيلات [4] العائفين ، وآمن بشق وسطيح . وهذه طائفة مما قال :

« إنا نجد في النوع الإنساني أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها مثل العرّافين والناظرين في الأجسام الشفّافة كالمرايا وطساس [5] الماء ، والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها ، وأهل الزجل في الطير والسباع ، وأهل الطَّرْق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى . وهـذه كلها موجودة في عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدُها ... »

« إن للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها ، وإنه يحصل من ذلك لمحة للبشر في صنف الأنبياء »

« وإن هنا صنفاً آخر من البشر — يعنى الكهان — ناقصاً عن رتبة الصنف الأول — يعنى الأنبياء — »

« وهذه القوة التي فيهم مبدأ لذلك الإدراك هي الكهانة »

« ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات »

« ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق النبي لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة »

« قد كان العرب يفزعون إلى الكهان في تعرّف الحوادث ، ويتنافرون إليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من إدراك غيبهم ، وفي كتب الأدب كثير من ذلك . واشتهر منهم في الجاهلية شق بن أنمار وسطيح بن مازن ، وكان يُدرج [1] كما يُدرج الثوب ، ولا عظم فيه إلا الجمجمة ... ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعة بن نصر وما أخبراه به من ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة المحمدية في قريش . ورؤيا الموبذان [2] التي أوّلها سطيح لما بعث إليه بها كسرى عبدَ المسيح فأخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس . وهذه كلها مشهورة ، وكذلك العرافون كان في العرب منهم كثير وذكروهم في أشعارهم »

فهناك عند ابن خلدون الكهانة تعلم الغيب ، وهي نبوة ناقصة ، وهناك الكاهن كأنه مرشح نبي ... وقد قال في تضاعيف كلامه متبجحاً على المسعودى بعلمه وتحقيقه : « وقد تكلم عليها المسعودى في (مروج الذهب) فما صادف تحقيقاً ولا إصابة ، ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ في المعارف فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله »

ومن قول المسعودى في الكهانة في (المروج) :

« ذهب كثير أنّ علة ذلك علل نفسانية ، وأن النفس إذا

---

(١) والعجز : (اذكرا لى الصبا وأيام أنسى)

(٢) أحمد الأول هو أبو الطيب المتنبي والثانى هو أبو العلاء والثالث أحمد شـوقي والثانى والثالث هما التلميذان الأكبران للأول ، ومن كبار تلاميذ المتنبي الشريف الرضى ، بيد أن المتنبية عنده قليلة

(٣) الجرير : الحبل

(٤) الخزعبل والخزعبيل : الباطل أو الأباطيل والخُزعبيلة : الأضحوكة

(٥) الطساس : جمع طسة مثل الطس لغة في الطست : إناء من نحاس لغسل اليد

---

(١) درجه : طواه ، لفه

(٢) الموبذان : (بضم الميم وفتح الباء وحكي فتح الميم أيضاً ، وحكى كسر الباء أيضاً) : فقيه الفرس وحاكم المجوس كقاضى القضاة للمسلمين (التاج)

قويت وزادت قهرت الطبيعة ، وأبانت للانسان كل سر لطيف ، وخبرته بكل معنى شريف ، وغاصت بلطافتها في انتخاب المعاني اللطيفة البديعة فاقتنصتها ، وأبرزتها عن الكمال »

فإذا قال المسعودي مثل هذا فزل وضل فان ابن خلدون لم يهتد . وما حديث أحدهما بأصدق من حديث صاحبه . إنهما في باب الكهانة والكهان سيان

* * *

وشقّ وسطيح اللذان آمن بهما ابن خلدون ، وصدق كونهما وأسطورتيهما هذا بعض ما قيل فيهما :

قال الدميري في (حياة الحيوان الكبرى) :

« كان شقٌّ شقَّ إنسان ، له يد واحدة ، ورجل واحدة ، وعين واحدة . وكان سطيح ليس له عظم ولا بنان ، إنما كان يطوى مثل الحصير ، وكان وجهه في صدره ، ولم يكن له رأس ولا عنق »

وقال ابن منظور في (لسان العرب) :

« سطيح هذا الكاهن الذئبي من بني ذئب كان يتكهن في الجاهلية ، سمي بذلك لأنه لم يكن بين مفاصله قصب تعمده ، فكان أبداً منبسطاً منسطحاً على الأرض لا يقدر على قيام ولا قعود ، ويقال : كان لاعظم فيه سوى رأسه »

وقال الثعالبي في (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) :

« سطيح الكاهن كان يُطوى كما تُطوى الحصير ، ويتكلم بكل أعجوبة في الكهانة ؛ وكذلك شق الكاهن ، وكان نصف إنسان »

وقال الزبيدي في (تاج العروس) : « شق كاهن قديم معروف قاله ابن دريد ، وحديثه مستوفى في الروض للسهيلي ، وإنما سُمي شقا لأنه ولد شقا واحداً ، وكان في زمن كسرى أنو شروان »

وقال الشريشي في (شرح المقامات الحريرية) :

« سطيح الغساني أكهن الناس ، كان يُدرج جسده كما يدرج الثوب خلا جمجمة رأسه ، وإذا مُست باليد أثرت فيه للين عظمها »

وقد زلق قلم ابن خلدون فقال : « كان سطيح يدرج كما يدرج الثوب ، ولا عظم فيه إلا الجمجمة » وكأنه استحى أن يذكر أن شقا كان شقا : ذا يد واحدة وعين واحدة ورجل واحدة ... فلم يعرّفه بحليته[1]

* * *

وأسطورتا هذين الكائنين المجيبين اللتان أشار إليهما ابن خلدون — ذكرهما مؤرخون ضالون كثيرون ، وأدباء ناقلون غير محققين ، ومفسرون ومحدثون ، منهم ابن اسحق صاحب السيرة ، وابن عبد ربه في العقد ، والماوردي في أعلام النبوة ، والرازي في مفاتيح الغيب ، وابن منظور في اللسان ، وابن عربي في محاضرة الأبرار ، والألوسي في بلوغ الأرب وغيرهم . ومما قيل في الأسطورة الأولى ، وهو من (سيرة) ابن هشام :

« إن ربيعة بن نصر ملك اليمن رأى رؤيا هالته ، فقال سطيح في تأويلها : أحلفُ بما بين الحرّتين[2] من حنش ، لتهبطن أرضكم الحبش ، فليملكُنّ ما بين أبينَ إلى جُرَش[3] . فقال له الملك : فتى هو كائن ؟ أوفي زماني هذا أم بعده ؟ قال : لا ، بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين ، يمضين من السنين . قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟ قال : لا ، ينقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يُقتلون ويخرجون منها هاربين . قال : ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم قال : يليه أرم بن ذي يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحداً منهم باليمن . قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع . قال : ومن يقطعه ؟ قال : نبي زكيّ ، يأتيه الوحي من قبل العليّ . قال : وممن هذا النبي ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر . قال : وهل للدهر من آخر ؟ قال : نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون . قال : أحق ما تخبرني ؟ قال : نعم ، والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبأتك به لحق »

وقال شق للملك مثل قول سطيح

---

(١) الحلية : الهيئة

(٢) الحرة من الأرضين الصلبة الغليظة التي ألبستها حجارة سود نخرة والجمع حرات وحرار (اللسان) والحرات في (الجزيرة) كثيرات

(٣) أبين مخلاف باليمن منه عدن وقال عمارة الشاعر أبين موضع في جبل عدن . وجرش من مخاليف اليمن من جهة مكة (معجم البلدان)

ومما جاء فى الأسطورة الثانية : « أن الموبذان رأى رؤيا أفزعت كسرى فسئل عنها عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغساني فقال : عِلمُ هذا عند خالى سطيح . قيل : فأته وسلهوأت بجوابه . فقدم على سطيح ، وقد أشفى على الموت فقال (أرجوزة) مطلعها :
أصم أم يسمع غطريف اليمن ؟ يا فاصل الخطة أعيت من ومن

فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه فقال : عبدالمسيح ، على جمل مشيح ، إلى سطيح ، وقد أوفى على الضريح . بعثك ملك بنى ساسان ، لارتجاس الايوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان . رأى إبلا صعاباً ، تقود خيلا عراباً ، قد أقحمت فى الواد ، وانتشرت فى البلاد . ياعبد المسيح ، إذا كثرت التلاوة ، وبعث صاحب الهراوة ، وفاض وادى السماوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس فليست بابل للفرس مقاماً ، ولا الشام لسطيح شاما . يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ما هو آتٍ آت »

***

ذانك شق وسطيح ، وتانك أسطورتاهما . والإسلامية غير مفتقرة إلى إعلام كاهن ، وخبر عرّاف . إن ضياء الشمس مستغن عن شهادة (الدساسة[١]) وهذا قول الاسلامية فى الكهانة والغيب :

فى الحديث : « من أتى كاهناً أو عرّافاً فقد كفر بما أُنزِل على محمد ، أى من صدقهم[٢]

«من أتى عرّافاً فسأله عن شىء لم يُقبل منه صلاة أربعين ليلة»

« نُهى عن حلوان الكاهن » أى أجرته . وفى (النهج) :

« أيها الناس ! إياكم وتعلُّم النجوم إلا ما يُهتدى به فى بَرٍّ أو بحر فانها تدعو إلى الكهانة ، والمنجم كالكاهن[٣]»

قال الشيخ محمد عبده فى شرح هذا الكلام : « الكاهن من يدعى كشف الغيب ، وكلام أمير المؤمنين حجة حاسمة لخيالات المعتقدين بالرمل والجفر والتنجيم وما شاكلهما ، ودليل واضح على عدم صحتها ومنافاتها للأُصول الشرعية والعقلية »

(١) الدساسة : دويبة لا ترى شمساً إنما هى مندسة تحت التراب أبدا (الأساس)

(٢) قال ابن الأثير : والحديث الذى فيه من أتى كاهناً قد يشتمل على اتيان الكاهن والعراف والمنجم

(٣) الاسلامية تؤيد معنى هذه الأحاديث الواردة هنا ، وتؤيد قول النهج — وهو من كتب إخواننا الامامية — وإن لم تصح النسبة للرسول وصاحبه

وقال الشيخ محمد عبده فى (شرح مقامات الهمذانى) :

« ويروى لنا من شعره ما يمتزج بأجزاء النفس رقة ، ويغمض عن أوهام الكهنة دقة — أراد بالكهنة أصحاب دعوى علم النجوم وأسرارها . واستطلاع المغيبات مما تفيضه أرواحها . وقد جاء الدين الاسلامى بتكذيبهم والنهى عن الاشتغال بمذاهبهم فى أوهامهم غير أنه بقى ذكرهم في الكلام من قبيل ضروب الأمثال »

وقال ابن أبى الحديد فى الشرح الكبير للنهج : « إن المعلوم ضرورة من دين رسول الله إبطال حكم النجوم وتحريم الاعتقاد بها ، والزجر عن تصديق المنجمين »

وابن خلدون الذى آمن بالكهانة قد كفر بالنجامة وفنّد مقالة النجامين أو المنجمين فى فصل طويل فى كتابه — تفنيداً :

متكهّن ومنجم ومعزّم وجميعُ ذاك تحيُّل لمعاش[١]

***

مجىء إلى الغيب

فى (مسند الربيع بن حبيب) :

« عن عائشة : من زعم أن محمداً يعلم ما فى غد فقد أعظم على الله الفرية ، لأن الله تعالى يقول : « قُلْ لا يعلم من فى السموات والأرض الغيبَ إلا الله[٢] وما يشعرون أيان يُبعثون »

وفى (كتاب الله) :

« قُلْ لا أقولُ لكم عندى خزائنُ الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك ، إنْ أتبعُ إلا ما يوحى إلىّ »

« ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك »

« قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ، ولو

(١) أبو العلاء ، عزم الراقى وعزم — بالتشديد — قرأ العزائم

(٢) فى (رسالة الغفران) لأبى العلاء أحمد بن سليمان : « وأما الحكاية عن أصحاب الحديث أنهم صحفوا رخمة فقالوا : رحمة فلا أصدق بما يجرى مجراها ، والكذب غالب ظاهر ، والصدق خفى متضائل ، وكذلك ادعاء من يدعى أن علياً (عليه السلام) قال تهلك البصرة بالزنج فصحفها أهل الحديث بالريح ، لا أومن بشىء من ذلك . ولم يكن على (عليه السلام) ممن يكشف له الغيب ، وفى الكتاب العزيز (لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) وفى الحديث المأثور : لا يعلم ما فى غد إلا الله) ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مئة سنة إن أمير حلب (حرسها الله) فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة — اسمه فلان بن فلان ، وصفته كذا ، فان ادعى ذلك مدع فانما هو متخرص كاذب »

كنتُ أعلم الغيبَ لاستكثرتُ من الخير وما مسنى السوء ، إنْ أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقوم يؤمنون »

« عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رَصَداً ليعلمَ أن قد أبلغوا رسالاتِ ربهم ، وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً »

قال الكشاف : « أى هو (عالم الغيب) فلا (يظهر) فلا يطلع و (من رسول) تبيين لمن ارتضى ، يعنى أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي هو مصطفى للنبوة خاصة لا كل مرتضى ، وفى هذا إبطال للكرامات لأن الذين تضاف إليهم — وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل ، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب . وإبطال الكهانة والتنجيم لأن أصحابها أبعد شيء من الارتضاء وأدخله فى السخط (فانه يسلك من بين يديه) يدى من ارتضى للرسالة (ومن خلفه رصداً) حفظة يحفظونه من الشياطين يطردونهم عنه ، ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم حتى يُبلّغ ما أوحى به إليه (ليعلم) الله (أن قد أبلغوا رسالات ربهم) يعنى الأنبياء ليبلغوا رسالات ربهم كما هى محروسة من الزيادة والنقصان »

والغيب فى كلام الله هو الوحى ، وحى النبوة كما قال الزمخشرى : (حتى يبلغ ما أوحى به إليه) لا كل غيب كما يظهر من كلام (الكشاف) في أول تفسيره . وقد جاء فى (فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير) : « وهو ما يتعلق برسالته كالمعجزة وأحكام التكاليف وجزاء الأعمال وما بينه من أحوال الآخرة لا ما يتعلق برسالته من الغيوب كوقت قيام الساعة ونحوه » وجاء فى (جامع البيان) — وهو تفسير ابن جرير الطبرى : « فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فأعلم الله (سبحانه) الرسلَ من الغيب الوحى ؛ أظهرهم عليه بما أوحى إليهم من غيبه ، وما يحكم الله فانه لا يعلم ذلك غيره . قال ابن زيد : « ينزل من غيبه ما شاء على الأنبياء ، أنزل على رسول الله الغيبَ القرآنَ ، وحدثنا فيه بالغيب ، بما يكون يوم القيامة »

وفى (موضوعات على القارى) :

« قد جاهر بالكذب بعض من يدعى العلم فى زماننا وهو متشبع بما لم يعط أن رسول الله كان يعلم متى تقوم الساعة . وهؤلاء الثلاة عندهم أن رسول الله منطبق على علم الله سواء بسواء ، فكل ما يعلمه الله يعلمه رسوله ، والله تعالى يقول : (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مَرَدوا على النفاق لا تعلمهم ، نحن نعلمهم ؛ سنعذبهم مرتين ثم يُردُّون إلى عذاب عظيم) وهذا فى (براءة) وهى من أواخر ما نزل من القرآن . هذا والمنافقون جيرانه فى المدينة »

فاذا كان صفوة النوع الانسانى ، وسيد المرسلين والنبيين والمظيمين هو كما قال الله ، فهل يعلم الغيب رسول أو نبى أو صحابى أو (ولى) أو (غوث) من الأغواث أو (قطب) من الأقطاب أو (بدل) من الابدال أو كاهن أو منجم أو دجال أو شق أو سطيح أو سقط أو مليص (١) ؟

أين عقول الناس ؟ أين عقول الباحثين ؟

***

وحديث الكاهنين (شق وسطيح) يبعثنا على أن نختم القول فيه بهذه السطور :

أسلوب القرآن هو أسلوب المبتدِع ، لا أسلوب المتبع ، والدليل الدينى أنه وحى الله ، والبرهان العقلى أنه الكتاب العبقرى ، والعبقرى فى الدنيا مقلَّد لا مقلِّد ، ومتبوع لا تابع . قال أبو العلاء احمد بن سليمان فى (رسالة الغفران) :

« أجمع ملحد ومهتد ، وناكب عن المحجة ومقتد ، أن هذا الكتاب الذى جاء به محمد بهر بالإعجاز ، ما حُذى على مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال . ماهو من القصيد الموزون ولا الرجز ، ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة ، وجاء كالشمس اللائحة (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون (٢)) وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض فى أفصح كلام يقدر عليه

(١) شق — فى اللغة — جنس من أجناس الجن ، والشق من كل شيء نصفه إذا شق ، والسطيح الذى يولد ضعيفاً لا يقدر على القيام والقعود ، والسطيح المستلقى على قفاه من الزمانة . والسقط — مثلثة — الولد لغير تمام وأمه مسقط ، والمليص الذى ألقته أمه مضغة وهي مملص ، ولولا اقتصاد من صاغ حكاية شق وسطيح فى الخبث لسمى صاحبيه سقطاً ومليصاً لجاء بعده مؤرخون وراوون يقولون : قال سقط ، حدث مليص...

(٢) قبله : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله)

المخلوقون فيكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح[1] غسق »

وقال أبو بكر محمد بن الطيب البلاقلاني في كتابه (إعجاز القرآن):

« إن نظم القرآن على تصرُّف وجوهه واختلاف مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم — يعني العرب — ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه »

ذلك هو (الكتاب) وذلك — كما قال هذان الإمامان — أسلوبه ، وقد أقبلت (أوأدبرت) طائفة من العربانيين — أعني المعروفين بالمستشرقين — تقول : (ليس أسلوب القرآن مبتدعاً وإنما قلد فيه سجع الكهان) وتلقف قولهم أو تخليطهم — جاهلين عَميهين — متلقفون

وقد قالت تلك الطائفة الغربية مقولتها وأتمها من العربانيين المحققين يقولون كما قلتُ قِدْماً وأقول اليوم : إنه لم يثبت من منثور الجاهلية شيء ، فكيف اهتدت الفئة الضالة إلى أصل الأسلوب القرآني ؟ وإلامَ استندت ؟ وعلام بنت مزعمها ؟ ؟

إن كان هاديَ القوم شق وسطيح وخنافر الحميري وسَواد ابن قارب وطَريفة وعُفيراء وأمثالهم من الكاهنين والكواهن وكانت الحجة تلكم الأساجيع — فقد ضلّ هاديهم ، وأودى الدليل .

إن سجع الكهان إنما قلد مفتعلوه في الاسلام نهج القرآن كما كان يقلده المخرق (المختار بن عُبيد الثقفي) الكيساني . والقرآنُ — كما قال ابن خلدون — لا يقلَّد ، فكان سجع الجماعة ذاك الكلام البهرج[2]

وإن القوة التي أبدعت في العربية ذلك (الكتاب) وأخرجت من العرب تلك الأمة فإن القوة التي فطرت من العدم وجوداً ومن العربية (قرآناً) ومن العرب أولئك (الأصحاب) صفوة الناس وجوهر البشرية — هي ربة ذلك الأسلوب

إن نهج القرآن هو نهج المبْدِئ المبتدع ، لا طريق المقلِّد المتبع ، وإنه لوَحْيُ الله ، وإنه لكتابُ الدهر

القارىء

(١) الجنح — بالكسر وبضم — : الطائفة من الليل

(٢) البهرج : الردئ . في (اللسان) : قيل هي كلمة هندية أصلها نبهله وهو الردئ فنقلت إلى الفارسية فقيل نبهره ثم عربت بهرج

ليلى المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

— ١٥ —

إلى البصرة ، إلى البصرة ! إلى المدينة التي تجرى من تحتها الأنهار . إلى مهد ليلى يطيب الإسراء

ولكن لابدّ من السلام على ليلى قبل الرحيل ، فقد صبرت النفس عن لقائها ثلاثة أيام ، بسبب حادثة وجدانية لا أجرؤ على تدوينها في هذه الذكرات ، وهي حادثة ضجّت لها أرجاء العراق ؛ ولكن لاموجب لتدوينها ، لأني أحب أن تموت وهي في المهد ، فقد تطويني طياً فأخرج من خدمة الحكومة المصرية وأفتح مكتب تصوير في بغداد ؛ وفي مصر رجل عظيم يعرف ما أعنى ، ويفهم كيف تستطيع هذه الحادثة أن تهدم ما بنيت من آمال

وأشهد أني كنت أملك نسيان ليلى أسبوعاً أو أسبوعين ، ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان

وتفصيل ذلك أني رجل محزون ، محزون ، محزون ، ولوشئت لكررتها ألف مرة ، ولكني من أقدر الناس على الفرار من أحزاني . ولعلي أشبه الرجال بالشاعر الذي يقول :

إني لأهلٌ لما ألقاه من زمني	جنَت عليّ الليالي غير ظالمةٍ
إلا بنيت على أجوازها سكني	فما رأيتُ من الأخطار عادية
إلا تقحّمتُها تجتاز من قُنن	ولا لمحتُ من الآمال بارقةً
في ذمة المجد ماشرّدت من وسن	أحلتُ دنياي معنىً لا قرار له

ولكن أحزاني تحقد على تجلدي أبشع الحقد فتجمع جيوشها وتهجم عليّ من حين إلى حين ، وقد انتصرتْ في هذا اليوم مع الأسف الموجع ، فلم أجد مفرًّا من السلام على ليلى ، علّها تجفف دموعي وتبرّد أحزاني

إليك يا ليلى المرجع ، وإليك يا ليلى المآب

***

دخلت على ليلى في المصرية لأقضي في رعايتها أربع ساعات إلى أن يحين الموعد لقطار البصرة فماذا رأيت ؟ ماذا رأيت من ليلى ربة العطف والحنان ؟

تلقتني غاضبةً بعينين تقذفان بالجمر المتوقد ، وتحت قدميها ظمياء

— من أتى بك إلى هذه الدار ؟

— من أتى بى إلى هذه الدار ؟ هذه دار ليلاى !

— ليلاك ؟ وهل يمكن لرجل مثلك أن يطمع فى أن أكون ليلاه ؟

— سيدتى ، ماذا حدث ؟ خبرينى فقد طار صوابى

— وهل تجهل ما حدث ؟ اسأل قلبك إن كان لمثلك قلب !

— إن قلبي يشهد بأننى وفىٌّ أمين

— وفى مثل ما صنعت تكون الأمانة ، ويكون الوفاء ! !

— سيدتى ، ماذا حدث ؟ خبّرينى فقد طار صوابي

— هل تنكر ما شاع عنك ؟

— وما الذى شاع عنى ؟

— يقول أهل بغداد إنك كنت مثال السخف فى سهرات المؤتمر الطبى . ويقولون إنك لم تترك سيدة إلا قبلت يديها ، وربما أوغلت فى السخف فقبلت جبينها وخديها

كذبوا ، فأنا لم أغازل أكثر من عشرين سيدة

— ما هذا التظرف السخيف ؟

— ليلى ، إسمعى ، أنت حمقاء

— أنت وحدك الأحمق

أنا وحدى الأحمق ؟ صدقتِ يا ليلى ، فلو كنت أعقل لرأيت لنفسى ألف مذهب فى الحياة غير مداواة الملاح !

— قلت لك إني أبغض هذا التظرف السخيف

— وهو كذلك ، تركت التظرف السخيف ، ولكن اسمعى يا ليلى ، سأرحل عن بلادكم بعد شهرين أو ثلاثة ، وستبكين أيامى

— أبكى أيامك ؟ وهل كانت لك مني أيام يطول عليها البكاء ؟

— ليلى ، اسمعى واعقلى ، أنا لا أنكر ما وقع منى فى سهرات المؤتمر الطبى ، ولكنى رجل حزين يداوى جراح قلبه بالعبث والمجون

— أعرف أنك حزين ، لأنى أعرف المرأة التى كوت قلبك

— ما كوى قلبى أحد ، وإنما همومى هموم رجال لا تعرفينها يا حمقاء

— أنت وحدك الأحمق

— شىء غريب ! أهذا أدب النساء فى بغداد ؟

— هذا هو أدب النساء فى بغداد ، وستعرف عواقبه بعد حين

— ليلى ، يظهر أنك امرأة كسائر النساء

— النساء أشرف من الرجال

— المرأة أجمل من الرجل ، ولكن الرجل أشرف من المرأة ، لأنه يحتمل مصاعب وأرزاء لا تحتملها المرأة ، ولو كنت فى مكانى يا لئيمة …

— أنت وحدك اللئيم

— من أين تعلمتِ هذه الألفاظ الغلاظ ؟

— تعلمتها منك !

— هل يسرّك أن نفترق ؟

— فى أمان الله !

* * *

وخرجت من غرفة ليلى والدمع في عينى ، فهذه آخر مرة أرى فيها المرأة التى آنست وحشتى فى بغداد . نعم هذه آخر مرة أرى فيها المرأة الجميلة التى عرفتُ بها كيف استطاع العراق أن يسيطر على الآداب العربية مئات من السنين . هذه آخر مرة أرى فيها المرأة الحلوة المذبة التى جعلت قلمي أطوع قلم ، وجعلت بيانى أعظم بيان . هذه آخر مرة أشرب فيها صُبابة الكأس ، والتى سبقى وأطوى لوائى ، إلى آخر الحياة ، إن كان لمثلى بعد ليلى حياة ! !

وفى تلك اللحظة بكت السماء على غير موعد فظننتها تبكى لبكائى ، أنا العاشق المسكين الذى لم يُحفظ له جميل

وقد سقطتُ على السلم مرتين ، فرأيت من الحزم أن أجلس لحظة فى الحجرة التي تقارب الباب إلى أن تجف دموعى وترجع قواى

وما كدت أجلس حتى أدركتنى ظمياء وهي تقول فى تلهف : عيونى ! دكتور زكى ! عيونى ، تعال ، تعال

ومدت يدها لترجمني إلى ليلى ، فدفعتها بعنف ، وخرجت

* * *

وفى أثناء الطريق عاد صوابى ، وقد عجبت من أن يعود بهذه السرعة ، ولكن قلب المحب له أحوال … وتذكرت أن ما وقع من ليلى غير مستغرب من النساء ، فإن من هوى المرأة أن تجحد

الجميل . تذكرت أن المرأة يؤنسها ويعجبها ويرضيها أن تنكر على الرجل كل شيء ، وهي تجد لذة في الجحود وتستروح به كما تستروح بعض الأفاعي بسواد الليل

وتذكرت أخطائي في معاملة النساء ، فقد كنت دائماً أعامل النساء معاملة وحشية ، لأنني عشت دهري مدللاً بين الملاح ، ولكن هذا الدلال كانت له عواقب سود ، فقد أضاع عليّ فرصة سأندبها ما حييت : أضاع عليّ المرأة الجميلة التي اتصلت بها منذ سنين بشارع الباطنية ، المرأة التي قسّم الله جسمها أجمل تقسيم ، وصاغها على أفضل نظام ؛ المرأة التي كانت تقول في كل لحظة : إيش سوّيت لي ؟ إيش صنعت لي ؟ وكنت يومئذ جاهلاً . وأي جهل أقبح من دعوة المرأة إلى حفظ الجميل ؟ وقد حملني هـذا الجهل على هجر تلك المرأة بقسوة وعنف .. ثم تطلّع إليها القلب بعد ذلك ، ولكني واحر قلباه عرفت أن رجلاً تزوجها ونقلها إلى دمياط

وكانت تلك المرأة على جانب عظيم من العفاف ؛ ولكني لا أزال أسأل : كيف كان يجوز في شريعتها أن تتمدد أمامي على السرير في غير ريبة ؟ وكيف كان يطيب لها أن تعرض عليّ محاسن جسمها في غير سوء ؟

أحب أن أعرف ما اختلف وما ائتلف من سرائر النساء ، فمتى أعرف ؟

أخشى أن يكون مصيري مصير الفرّاء الذي مات وفي نفسه شيء من حتّى !

والعشاق كالنحويين يموتون وفي أنفسهم أشياء
وحالي أغرب الأحوال ، لأني نحويٌ وعاشق

* * *

وتذكرت أن ليلى كانت قد رقّت ولطُفت في الأيام الأخيرة ، فكنت أنعم منها بفنون من الأنس لا تحيط بها أوهام ولا ظنون . وتذكرت أني سأكون ألأم الناس إذا نسيت تلك المعاني الوجدانية التي كنت أتلقاها من عيني ليلى في كل لقاء ، وتذكرت أنها عراقية ، وأهل العراق كأهل بدر تُغفَر لهم جميع الذنوب

أرجع إلى ليلى ؟ أرجع ؟

لا . لن أرجع

ولكن ليلى مريضة ، وهجر المريض لا يستبيحه طبيب أمين

أعود إلى ليلى أعود

أعود إلى ليلى ، أعود

أعود إلى المرأة التي قالت إنها تشتهي أن تموت ورأسها إلى صدري . أعود إلى المرأة التي ملأتْ رأسي بالنور ، وغمرت قلبي بالحنان . أعود إلى المرأة التي أعزتني أكرم إعزاز ، ورعتني أشرف رعاية . أعود إلى ليلى ، أعود إلى ليلاي

وفي أي قلب غير قلبي تحيا معاني الوفاء ؟

سيموت الرفق يوم تموت ليلى ، وسيموت الشّعر يوم أموت

أعود إلى ليلى ، أعود

ولكن ليلى أهانتني وجرحتني

لا بأس ، فليس يعيب الرجل أن تهينه الملاح . وأي هوان أقبح مما استبحت لنفسي في حيّ الحلمية يوم رجوت إحدى معشوقاتي أن تسمح لي بتقبيل نعليها

وكانت قبلة شهية جداً

أعود إلى ليلى ، أعود

أعود إلى الغرفة التي تزدان بمؤلفاتي وهي في صوان خاص ، وقد وُشّيت بالذهب وأُسدلت عليها ستائر الحرير الشفاف ، ثم أرى ما تصنع ليلى ، فعهدي بها تنظر إلى الصوان الذي يضم مؤلفاتي وتقول : هذا زكي مبارك العالم وهو رجل محترم ، ثم تشير إلي وتقول : وهذا زكي مبارك العاشق وهو رجل سخيف :

عفا الله عن ليلى الغداة فإنها إذا وُلِّيَتْ حُكماً عليّ تجورُ

وما هي إلا لمحة طرف حتى كنت عند ليلى فرأيت السكينة في حلة تثير الدمع من أقسى الجفون

ونظرت إليّ ظمياء في حنان وهي تقول : لقد صح أملي فيك فقد أكدت لليلى أنك سترجع وما كانت تصدّق أنك سترجع

وتسكت ليلى فلا تتكلم ، كأنها تقاسي نوبة إغماء ، ثم تفتح عينيها بتكلف وتقول :

— أنتم يا رجال ليس لكم أمان !

وأكاد أصعق ، لأني سمعت هذه العبارة مليون مرة ، ولعلها أول جملة سمعها آدم من حوّاء

— ليلى !

— مولاي !

— مولاك ؟ وكنت من لحظات ترفضين أن تكونى ليلاى ؟

— إن رجوعك بهذه السرعة يشهد بأنك عليل ، وقد صدق خصومك فى لبنان حين سموك « قيس المريض فى العراق »

— سنفترق فى حزيران

— ومن يضمن أن يحفظ العهد إلى حزيران ؟

— تأدبي يا ليلى ، فستبكين أيامي بالدمع

— تأدب أنت ، فستبكى أيامي بالدم

— الرجل أوفى من المرأة

— لم يخلق الله أغدر من الرجال

— المرأة سخيفة

— الرجل أسخف

وعند هذا الحد تدخلت ظمياء وهى تقول : أتريدون أن تمثلوا الرواية من جديد ؟ أنا لا أسمح لكم بهذا العبث ، اسكتى يا ليلى اسكت يا زكى

وقد عجبت من أن تكون لظمياء هذه السيطرة ، وأن ترفع الكلفة فى مخاطبتى مع أنى أستاذ عظيم . فقلت : وما شأنك أنت يا بنت ؟

فأجابت : احفظ أدبك ، فأنا حارسة هذا البيت ، وأنا ستّ الكُل .

— ست الكل ؟

— نعم ست الكل ! ألا تفهم ؟

ثم رفعت يدها ولطمتنى لطمة غارت منها ليلى ، فنظرت إليها بغضب وقالت : الغزَل ممنوع فى هذا البيت !

وكانت ظمياء كالعصفورة التى يفزعها المطر فتفزع إلى نوافذ البيوت وتزقزق لترحمها القلوب ، فتدخلتُ لإنصافها وقلت : ما هذا غَزَلاً ، إن هذا إلا تأديب

— ولن أسمح ليد أن تؤدبك غير يدى

— شرع الله ولا شرعك يا ليلى

فلطمتنى الشقية لطمة أحر وأعنف

ولم أفكر فى الدفاع عن نفسى ، وإنما أخذ قلبى يسأل : أى الكفين أندى وأرق ؟ كف ليلى أم كف ظمياء ؟

إن عينى تعودت لكل هنـد جمعت كفها مع الرفق لينا

ومن الواضح أن هذا الاعتداء كان إيذاناً بانتهاء الخصام

وفى لحظة واحـدة تحولت الدار إلى بحر يموج بالبهجة والانشراح

* * *

— ليلاى !

— مولاى !

— أنا أحبك !

— وأنا أبغضك !

— سمعت أنك بصرية

— أبى بصرىٌّ أما أمى فموصلية

— وأنا أستأذنك فى زيارة البصرة

— لا تفعل

— ولماذا ؟

— البصرة لا تزار فى هذه الأيام ، وإنما تزار فى الموسم

— أي موسم ؟

— موسم التمر ، حين تذهب الصبايا إلى النخيل مع تباشير الصباح ، موسم العيون والقلوب ، موسم الصيد يا جهول

— جهول ؟ وأنا أستاذ عظيم ؟

— الأساتذة أجهل الناس ، لأنهم يكتفون بما فى الكتب من وصف الأشياء ، ويجهلون حقائق الأشياء

ولكن أنا أحاول الوصول إلى حقائق الأشياء

— وإذاً فلن تصلح للأستاذية

— وكيف ؟

— ألم تفهم يا غافل أن الرجل لا يصلح للأستاذية إلا إذا كان قطعة من الثلج ؟ الأستاذ الحق فى بلاد الشرق هو الرجل الذى يحفظ

— ولا يعقل ؟

— ليس من الضرورى أن يعقل ، لأنه لا يشترط فى الأساتذة عندنا أن يكونوا يعقلون . الأستاذ الحق يا غافل هو الرجل الذى يضيع نصف الوقت أو كل الوقت فى التبرم بالمجتمع ، ويقول فى كل حين :

هذا الزمان الذى كنا نحاذره فى قول كعب وفى قول ابن مسعود

إن دام هذا ولم يحدث له عِوض لم يُبك مَيت ولم يُفرح بمولود

أو كما قال : يهمنى أن أعرف شيئاً فى هذا الموضوع يا ليلى ،

فأنا طبيب أضاعه الأدب ولم يبق أمامه غير احتراف التدريس

— زين ، زين ! وأنا أعلمك ، ولكن ادفع الثمن

— وما هو الثمن ؟

— قبّل يدى

— أقبّل يديك ورجليك يا ليلى

— اسمع يا زكي

— أنا الدكتور زكى

— لن تكون دكتوراً إلا يوم تصبح مثال الغباوة والجهل

— وهو كذلك . هاتى ما عندك يا داهيه !

— اسمع أيها الطفل الكبير ! إن الأمم المتأخرة تعيش بعقل القرن التاسع قبل الميلاد ، يوم كانت الأستاذية وقفاً على الكهان ، والكهان كانوا قوماً منافقين ، وإليهم كان الأمر فى التعليم والتثقيف ؛ وهم الذين سيطروا على المصريين والآشوريين والكلدانيين . ومن واجبى أن أحذرك عواقب الثقة بأهل عصرك من أهل الشرق ، فهم يتظرفون ليقال إنهم متمدنون . والبرهان على ذلك أنهم لا يشهدون لمحة من ضوء الفكر إلا أطفأوها بالبصق لا بالماء . فاحترس يا غافل من الثقة بأهل زمانك فانى أخشى أن أسمع من أخبارك ما يسوء بعد حين

— سيدتى ! إن مصر تحضرت وهى تقود الشرق

— لن أصدق أن مصر تحضرت إلا يوم يقام المرقص فى ميدان الأزهر كما يقام المرقص فى ميدان السوربون

— أنت سخيفة يا ليلى !

— وأنت أسخف !

— أنت لئيمة

— أنا أعرف ما تريد ، أعرف أنك تريد أن أعرك أذنك ، ولكنى لن أفعل

— ولماذا يا شقية ؟

— لأنك جهول

— أنا عالم علامة

— لو كنت عالماً لما فضحت نفسك بنشر أحاديث الحب فى الجرائد والمجلات

— إذاً ماذا أصنع ؟

— اكتم غرامك ونافِقْ ، كما يصنع فلان الذى يلقى الله بالفجور ويلقى الناس بالعفاف

— ولكن أنا أحب أن ألقى الناس بالفجور وألقى الله بالعفاف .

— غلَبتنى أيها المؤمن ، فإن الذى يصلح ما بينه وبين الله لا يضره أن يفسد ما بينه وبين الناس

— وآية ذلك يا مولاتى أن تلاميذى لم يفسد رأيهم فىّ أبداً ، فما اشتغلت بالتدريس فى معهد إلا شهدت أحجاره بأنى أصدق من عرف من المدرسين

— أنت إذاً موفَّق

— تحبيننى يا ليلى ؟

— أنا أبغضك !

— ولكن أنا أحبك !

— أمامك دجلة ، فاكرع منها كيف شئت !

— أستأذنك فى السفر إلى البصرة

— فى رعاية الله وأمان الهوى

— ألا تغارين من سفرى إلى البصرة ؟

— أنا لا أغار عليك !

— أنت إذاً لا تحبيننى !

— ما أنكر أنى أحبك بعض الحب ، ولكن لا موجب للغيرة ، فقد ضمنت أن تكون لى طول عمرك . ولقد قيدت قلبك بقيود من حديد . أما سمعت ما قال أحد فضلاء الحاضرين بمحطة الاذاعة الفلسطينية ؟

— وماذا قال ؟

— قال إنك تحبنى ، وأننى وهبتك الخلود ، وما يقال فى فلسطين تسجله السماء

— وأقول فى البصرة إنى أحب ليلى ؟

— قل فى البصرة إنك تعبد ليلى ليكرموك

— وأنت تحبيننى ؟

— أنا أبغضك

إلى البصرة ، إلى البصرة ! إلى وطن ليلى التى تبغضنى أمتطى قطار المساء ، وأنا على موعد مع صاحبة العينين ، فما الذى سيحدث فى القطار وفى البصرة ؟ أمرى إلى الله وإلى الحب !

« للحديث شجون » زكى مبارك

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢٥ —

« معذرة إلى القراء من هذه الفترة التي انقطعت فيها عن الكتابة ، وأشكر لهم . وعليّ العهد لهم أن أوالي الكتابة حتى أفرغ من هذا التاريخ . ومعذرة ثانية إلى صديق الأستاذ محمود أبورية مما كان مني إليه ، وسيأتيه ردي بعد قليل »

العريان

الرافعي والعقاد

لما مات المرحوم شوقي في خريف سنة ١٩٣٢ ، اهتزت لموته المجامع الأدبية في مصر والشرق ؛ فما تجد من كاتب أو أديب من أبناء العروبة إلا اهتم لهذا النبأ واحتفل به . وتهيأت « المقتطف » لكتابة فصل أدبي عن أمير الشعراء ، فأفرغت بضع عشرة صفحة من العدد الذي كان موشكاً أن يصدر ، وأبرقت إلى المرحوم الرافعي في طنطا أن يكتب هذا الفصل ويرسله إليها في أيام قبل أن يتم طبع العدد

ولم يكن بين الرافعي وشوقي من صلات الود ما يتيح له أن يعرف شيئاً من حياته يعينه على دراسة أدبه ؛ ولا كان الرافعي مستعداً لهذه الدراسة ولا تهيأتْ له من قبلُ أسبابها ودواعيها لينشئ موضوعه على الوجه الذي يرضاه في ذلك الوقت العاجل . وإن الرافعي لكثير الأناة والتأني فيما يكتب ، فلا يبدأ في إنشاء موضوعه حتى يخلّي له فكره أياماً وليالي ، يبحث ويوازن ، ويزاوج ويستنبط ؛ ثم يتهيأ للكتابة وقد استوى الموضوع في فكره كأنما قرأه لساعته في كتاب . ولكن كل أولئك لم يمنع الرافعي أن يجيب محرر المقتطف إلى ما طلب ، وأرسل مقاله في الموعد المضروب . وكانت دراسةً أعتقد أن أحداً من كتاب العربية لم يكتب مثلها عن شوقي أو يبلغ ما بلغ الرافعي بمقاله ، فأنصف شوقي ، وجلّى عبقريته ، وكشف عن أدبه وفنه ومذهبه . دع عنك بعض هنوات قليلة لا تغض من قيمة هذا البحث الفريد

(*) راجع العدد ٢٤١ من الرسالة

وكان مما أخذ الرافعي على شوقي وسماه غلطاتٍ في النحو أو اللغة ، أن شوقي ابتدأ بالنكرة في قوله :

ليلى ! منادٍ دعا ليلى فخفّ له نشوانُ في جنبات الصدر عربيد

وهي هناة صغيرة قد يجد لها بعض العلماء بقواعد العربية وجهاً من التعليل وباباً من العذر

والعقاد أديب له شهرته العريقة في عداوة شوقي والزراية بأدبه وفنه ؛ فما يعرف أدباء العربية أحداً كان أبلغ عداوة لشوقي أو أحدّ لساناً في نقده من العقاد !

ولكن العقاد لم يكد يفرغ من قراءة مقالة الرافعي في المقتطف ، حتى تناول قلمه ليكتب كلمة يرد بها رأي الرافعي في نقد هذا البيت ويعتذر عن شوقي ... وكان للعقاد نصيب من التوفيق فيما كتب !

ليت شعري ، أفعلها العقاد دفاعاً عن شوقي وهو مَن هو في عداوته ، أم تحدياً للرافعي ؟

أفلم يجد العقاد في بضع عشرة صفحة يكتبها الرافعي مباهياً بشوقي ، مفاخراً بأدبه وفنه وعبقريته شيئاً يستحق الرد والتعليق غير هذه الكلمة ؟ هذا سؤال سألته نفسي يومئذ ، وأحسب أن كثيراً من القراء سألوه أنفسهم ؛ ولكن جواب هذا السؤال معروف لكل من يعرف ما كان بين الرافعي والعقاد ، ثم ما كان بين العقاد وشوقي منذ قريب !

وقال لي الرافعي : « ماذا ترى فيما كتب العقاد ؟ »

قلت : « أنا وهو على رأي واحد فيما يردّ به ! »

فمط شفتيه ساخراً وهو يقول : « أخطأت ، وأخطأ العقاد ، وأخطأ المتأخرون من علماء النحو في العربية ... ليس الرأي ما يقول العقاد وتوافقه عليه ... »

وتملكه عناده وكبرياؤه ؛ فأنشأ مقالة طويلة مسهبة يرد بها رأي العقاد ، ويصر على تخطئة شوقي في الابتداء بالنكرة ، ويتهم المتأخرين من علماء النحو بالغفلة وقلة البصر بأساليب العربية ؛ ثم يفيض ويسترسل في بيان أوجه الابتداء بالنكرة وما يصيب منها وما يخطئ

وإذا لم يكن لي في هذا المجال أن أصرح بالرأي فيما كتب الرافعي في هذا الموضوع ؛ فإن لي أن أرد كل شيء إلى أسبابه ، فأزعم أن الرافعي لم يكتب ما كتب خالصاً لوجه العربية ، ولكنها الكبرياء والاعتداد بالنفس وخوف الهزيمة أمام العقاد في معركة أدبية ! ...

ولست أكتم هنا أن الرافعي كان يسيء الظن بفهم العقاد لقواعد اللغة ؛ فما يرى له شيئاً من مثل ما كتب في ذلك الموضوع مما يشير إلى بصره بقواعد العربية إلا اتهمه بأنه يستعين فيه بأصدقائه من أهل العلم بهذه اللغة . وأحسبه قال لي مرة : إن الذي يعين العقاد في ذلك هو صديقه الأستاذ عباس الجمل !

وانتهت هذه المعركة الصغيرة ولم تسفر عن أشلاء ، ولكني أحسب أن الرافعي نفسه لم يكن مقتنعاً بما كتب في الرد على العقاد فبقى في نفسه شيء يحمسه إلى معركة جديدة ، فلم يلبث إلا قليلاً ثم كانت المعركة الفاصلة ...

وحي الأربعين

وكانت هدنة استمرت بضعة أشهر ، ثم أصدر العقاد ديوانه « وحي الأربعين »

ومضى أسبوع أو أسابيع بعد صدور الديوان ؛ ثم كان عيد من الأعياد ، فغدوت على بيت الرافعي لأهنئه ، ثم خرجنا نطوف ببيوت بعض الأصدقاء ؛ حتى انتهى بنا الطواف إلى دار صديقنا الأديب الأستاذ حسنين مخلوف . والأستاذ مخلوف أديب مطلع ، لا يفوته كتاب مما تخرج المطبعة العربية . فلم يكن ثمَّةَ بدٌّ من الحديث في الأدب ، وفي الشعر ، وفي المطبوعات الجديدة ، وهو حديث يحلو للرافعي ، ويحلو لمخلوف ، ولو استغرق هذا الحديث سحابة يوم العيد من الضُحا إلى العصر ، والبطن خاو يطلب الطعام ، ورائحة الشواء تفوح في بيت المضيف وفي بيوت الجيران !

وسأل الرافعي مضيفه : « ماذا عندك من الجديد في الكتب؟ »

وضحك مخلوف وهو يغمز بعينه ويقول : « وحي الأربعين ! »

ووجد الرافعي طلبته ، فدعا بالديوان الذي يود أن يقرأه منذ أيام ويمنعه من شرائه أنه كتاب العقاد ... !

وجاء الديوان فوضعه الرافعي بين يديه وقال : « لست أريد أن أتجنى على العقاد الشاعر أو أحكم في ديوانه برأي قبل أن تتهيأ لي أسبابه ؛ وإني لأخشى أن أفتح الكتاب فتقع عيني أولَ ما تقع على أردإ ما فيه فأحكم على الديوان ببعضه ، وقد يكون فيه الجيد ، وما هو أجود ، وما تتقاصر أعناق شعراء العربية دون الوصول إليه . وإن بيني وبين العقاد لسابق عداوة ، وأنتما بريئان من التهمة وسوء الظن ؛ فدونكما الديوان فقلِّبا فيه النظر ، وتداولا فيه الرأي ، ثم دُلاني على أجود ما فيه لنقرأه معاً فنحكم له أو عليه مجتمعين ؛ ثم يكون ما اتفقنا عليه من الرأي في هذا الجيد المختار هو الرأي في الديوان كله ، من غير أن يتغلب الهوى أو تتحكم الشهوة ... ! »

ورضينا رأي الرافعي ، فأخذنا الديوان نقلبه صفحة صفحة ، ونقرأه بيتاً بيتاً ؛ والرافعي منصرف عنا إلى كتاب بين يديه ... ومضت فترة ، واستبطأنا الرافعي فيما دعانا إليه فقال : « أحسبكما لم تجدا ما تطلبان ! ولن تجدا ... ... إذن فلنقرأ الديوان معاً من فاتحته ؛ فما أحسب الشاعر يختار فاتحة الديوان إلا من أجود شعره ... ! »

وتناول الديوان يقرأ منه ونستمع إليه . ووقفنا عند أشياء ، وتداولنا الرأي في أشياء . وكان أكثرنا حماسة في النقد هو الأستاذ مخلوف . ومضت ساعات ونحن نقرأ ، ولكل رأي يبديه . ثم طوينا الديوان وأخذ الأستاذ مخلوف يتحدث في موضوعه ...

وقال الرافعي يخاطبه : « ... وما دمت على هذا الرأي في الديوان فلماذا لا تنشره ؟ إن لك لساناً وبياناً ، وإنه لنقد يستحق أن يقرأه أدباء العربية ... ! »

وتردد مخلوف قليلاً ثم سمع مشورة الرافعي ... وتهيأ لكتابة نقده ...

ومضى أسبوع ، ثم نشر « المقطم » في صدره مقالا مجوَّداً للأستاذ مخلوف في نقد ديوان وحي الأربعين ، تناوله بأدب وهدوء في بضعة عشر موضعاً ، وأرجأ بقية النقد إلى عدد تال .. ومضى يومان وكتب العقاد في صحيفة الثلاثاء من جريدة الجهاد ردَّه على مخلوف ...

لم يكن مخلوف حين كتب مقاله الأول للمقطم مقدِّراً أن الأستاذ العقاد سيتناوله بهذه القسوة ، ولكنه فوجئ مفاجأة شديدة بما كتب العقاد ...

لم يرد العقاد على مخلوف ردَّ الأديب على ناقده ، ولكنه راح يتهكم عليه ويسخر منه ويستهزئ بعلمه وأدبه ومقدرته على فهم الشعر . وإذ كان مخلوف من مدرسي اللغة العربية في مدارس الحكومة ، فإن العقاد قد انتهزها سانحة ليطعن على مدرسي اللغة العربية في مدارس الحكومة ، ويلحد في كفايتهم وعلمهم ، ويعود بالسبب في ضعف اللغة العربية في المدارس على مخلوف وزملاء مخلوف . ولم تسلم مدرسة دار العلوم ، ولا واحدٌ من

مدرسي اللغة العربية ، من تهكم العقاد وسخريته فى هذا المقال ، لأن واحداً منهم كتب ينقده ويحاول ردَّه إلى الصواب فيما رآه أخطأ فيه ... !

وكتب مخلوف مقاله الثانى يردّ مطاعن العقاد ، ويتمم ما بدأ فى نقد وحى الأربعين ؛ ولكن المقطم أغلقت دونه الباب ولم تنشره ، كرامة للعقاد وحرصاً على مودته ...

وغضب مخلوف وتألم ، ولكنه طوى صدره على ما فيه ... وكنا جماعةً من مدرسى اللغة العربية نصلى الجمعة كل أسبوع فى مسجد المنشاوى بطنطا ، فلقينا هناك مخلوف ؛ فما رآه المدرسون حتى انهالوا عليه وركبوه بالعتب القاسى ، وكلهم قرأ مقال العقاد فى الطعن على مدرسى اللغة العربية بسبب مخلوف ، وما منهم من قرأ مقال مخلوف إلا قليل . وحاول مخلوف أن يعتذر ، ولكن اعتذاره ضاع بين ضجيج إخوانه وحملتهم عليه فلم يستمع له أحد !

وقلت للرافعي مازحاً ولقد لقيته بعد ذلك : « لقد كنت أنت السبب فيما نال مخلوفاً من إخوانه ، وفيما نال مدرسى اللغة العربية من لسان العقاد ؛ فأنت الذي هِجْت مخلوفاً إلى هذه المعركة ، فانتهت إلى ما انتهت إليه بينه وبين إخوانه ؛ وكانت سبباً فيما كتب العقاد عن دار العلوم ومدرسى اللغة العربية ... »

وكان لمخلوف عند الرافعى منزلة ، ولدار العلوم فى نفسه مكان . ولكنه أجابنى : « وما ذا عليَّ أنا فيما كتب مخلوف ، وفيما ردّ العقاد ؟ »

قلت : « لولاك لم يكتب مخلوف فيتعرض لما تعرض له من لسان العقاد ومن عتب إخوانه . ولولا ما كتب مخلوف لبقيت دار العلوم بريئة من العيب لم يطعن فيها العقاد ولا غير العقاد ! »

وقصدت فيما قلت — ومعذرة إلى الأستاذ العقاد — أن أهيج الرافعى للكتابة عن العقاد ، فيشهد أدباء العربية معركة جديدة بين الأديبين الكبيرين يكون لهم من ورائها نفع ومتاع ولذة ... وبلغت ما قصدت إليه ، ووعد الرافعى بأن يكتب ما فى نفسه من ديوان وحى الأربعين ، ولكن على شرط : أن أشترى له نسخة على حسابى من الديوان ، لأن عليه قَسَماً من قبل ألا يدفع قرشاً من جيبه فى كتاب من كتب العقاد ... !

ونفَّذت الشرط ، وتهيأ الرافعي للكتابة عن وحي الأربعين ؛ ومضت أيام ، ثم دعانى ليملى عليَّ مقاله الأول فى نقد وحى الأربعين

« شبرا » محمد سعيد العريان

من برجنا العاجي

كنت أشكو ذات يوم عسراً فى الهضم وقلة فى النوم ، وأضيق ذرعاً بالأدب والأدباء ، وإذا بزائر أديب يلح فى طلب رؤيتى ولا يريد أن ينصرف حتى يجاب إلى ما طلب . وعلمت أنه ممن لم يسبق لهم أن رأونى ؛ فخطر لى خاطر سريع : ناديت تابعاً لى وأجلسته إلى مكتبى وطلبت إليه أن يقابل الزائر باسمى ، وانتحيت أنا جانباً أقرأ إحدى الصحف . ولم يلبث الزائر أن دخل وسلم على تابعى فى احترام قائلاً :

— يا أستاذ ! إنى سعيد جداً إذ استطعت أن أراك . فأنا من قرائك المدمنين ، اقتنيت كل كتبك ، وطالما رسمت لك فى مخيلتى صورة أراها الآن طبق الأصل ... فالحمد لله لم يخب ظنى فى شئ . إنى أراك الآن كما تخيلتك بين سطورك

فطرحت من يدى الصحيفة ونظرت إلى الرجل محملقاً . أهذا الرجل جاد صادق ؟ لا شك عندي فى ذلك ، فكلامه مفعم بالحرارة والاخلاص ، ولكن كيف انطبقت تلك الصورة « طبق الأصل » على غير « الأصل » بهذه السهولة ؟ ! وجعل هذا الزائر يكثر من ترديد اسمى ويسبغه فى اقتناع على سكرتيرى الجالس إلى مكتبى ، فشعرت بخالجة من شك هزت نفسى . ماذا بقى منى إذن ؟ هذا هو « توفيق الحكيم » إلى مكتبه كما يعتقد الآن هـذا الزائر ، وتلك صورته كما ظهرت له من بين السطور . أما أنا فشىء لا علاقة له بهذا الرجل ولا بما قرأ . إسمى قد انفصل عنى وانتزع منى فى تلك اللحظة كما تنتزع الأمضاء عن « الكمبيالة » . وما أنا فى تلك الساعة إلا كتلة من لحم ودم ملقاة على مقعد ! وقد خيل إليَّ أن لفظ « توفيق الحكيم » ليس أكثر من « ماركة » توضع فوق كتب ، مثل ماركة « الفابريكة » فوق علب « الساردين » . إن بعض « الأسماء » لتتخذ لها أحياناً حياة مستقلة عن أصحابها . وهذا « الاسم » هو وحده الذي يباع ويشترى فى سوق المكاتب والوراقين ، ولدى الصحف والمجلات ؛ أما الشخص فقد لا يعنى أمره كثيراً من الناس . ولأول مرة أدركت أنى غير موجود فى نظر الجمهور باعتبارى « شخصية آدمية » ؛ إنمـا الذى يعاملونه هو « الشخصية المعنوية » ، فمثلى فى ذلك إذن مثل شركة « النور » و « الغاز » و « المياه »

توفيق الحكيم

إبراهيم بك المويلحى

١٨٤٤ - ١٩٠٦

بقلم حفيده ابراهيم المويلحى



السيد إبراهيم المويلحى بن السيد عبد الخالق بن السيد إبراهيم بن السيد أحمد ابن السيد الشريف مصطفى وكيل المويلح. ينتهى نسبه إلى الحسين من جهة أبيه ، وإلى الحسن من جهة أمه فأسرة المويلحى يمتد نسبها إذن إلى الصادق « محمد صلى الله عليه وسلم » وإلى الصديق « أبي بكر » . وهذا النسب ثابت ثبوتاً قضائياً يرجع إلى أحكام شرعية مصرية ، لا إلى مجرد « الثبوت الإداري » المعروف فى مصر

والمويلحى نسبة إلى المويلح « بلدة فى جزيرة العرب على شاطىء البحر الأحمر كانت تابعة لمصر فى عهد « على بك الكبير » حتى سنة ١٨٩٢ ميلادية ، ثم ضمت إلى ولاية الحجاز

وقد انقسمت هذه الأسرة قسمين أحدهما فى مصر والآخر فى المويلح

وأول من وفد إلى مصر من المويلحيين السيد أحمد المويلحى بعد خدمة أداها لمحمد على باشا الكبير فى تسكين فتنة الوهابيين ثم أقام بها ، وأسس بيتاً تجارياً بجهة التربيعة بالقاهرة

ورزق السيد أحمد المويلحى بالسيد إبراهيم المويلحى جد صاحب هذه الترجمة ، فشب على حب الأدب وأولع به . وكان لا يخلو مجلسه من الأدباء والشعراء يطارحهم ويذاكرهم ، فكانت ألسنة الوجهاء تلهج بذكر أدبه وشعره ، حتى بلغ أمره « حبيب أفندى » كخيا المغفور له « محمد على باشا » فجعله كاتبه

ولقد أدى إبراهيم خدمة جليلة لوالى مصر « محمد على » فحفظها له البيت الخديوى ، فانتفع بها المترجم له فى حالة عسره كما سيتبين لك فيما بعد

ورزق السيد إبراهيم بالسيد عبد الخالق الذي انتحى ناحية الاشتغال بالتجارة فشب على حبها وأفرغ همه فيها ، فذاعت شهرته بصناعة نسج الحرير التى كانت رائجة بمصر فى ذاك الوقت فجمع ثروة طائلة

ثم أنجب ولدين هما « إبراهيم » صاحب هـذه الترجمة ، و « عبد السلام » واستقر رأيه على أن يجعل من إبراهيم رجلاً تجارياً . فبعد تعليمه العلوم الابتدائية فى البيت ، أخذ يوجهه نحو الاشتغال بالتجارة ، وأبقاه فى محله التجارى وأرسل أخاه « عبد السلام » إلى الأزهر ليكون عالماً . ولكن شاءت إرادة الله أن يكون إبراهيم هو العالم والأديب ، وأن يتفرغ عبد السلام فيما بعد للتجارة ومزاولتها ، فنهض فيها نهضة إبراهيم فى العلم والأدب

فكان إبراهيم مولعاً بالأدب والشعر منذ حداثة سنه ، وقد ورث ذلك عن جده ابراهيم ، ومن حسن حظه أن كان بجوار محله التجارى عطار لم يحضرنى اسمه كان من العلماء الأعلام الذين لم تتغلب عليهم التجارة فتنسيهم العلم ، فتتلمذ عليه إبراهيم بغير علم من والده ، فدرس عليه علوم الأدب والبلاغة والنحو والعروض حتى نبغ فيها

ومن نوادر ما يروى عن رغبته فى العلم والتحايل على الحصول عليه أنه كان معه بواب للمحل يدعى « على الأشمونى » فكان يتفق معه على أن يقف على ناصية الطريق حتى إذا ما رأى والده السيد عبد الخالق مقبلا نحو متجره راكباً مطيته يهرع إلى السيد إبراهيم المنشغل بدرسه ليقطع عليه لذة الدرس وينبهه إلى حضور والده السيد عبد الخالق ، فيذهب إلى المتجر متظاهراً بمداومة العمل

وما كان يخطر له ولا لوالده أنه سيجعل الأدب مهنته ، وهى

يومئذ مهنة الفقراء ، ولكن الأقدار ساقته إلى الاشتغال بها . فكان من أعظم نوابغها

وظل إبراهيم فى حجر والده آمناً سعيداً حتى توفى الوالد سنة ١٢٨٢ هجرية (١٨٦٥ ميلادية) فتولى هو تجارة أبيه وقبض على ثروته التى تبلغ ثمانين ألفاً من الجنيهات ، وجرى على خطته فى العمل حيناً فازداد تقدماً وصار عضواً فى مجلس التجار وعضواً فى مجلس مصر الابتدائى

ولا يفوتن القارىء أن كل هذه المشاغل لم تحل دون ميله للأدب والشعر إذ كانت هذه الملكة تنمو فيه شيئاً فشيئاً بين مشاغل السياسة والادارة والتجارة ، فاتفق مع المرحوم « عارف باشا » أحد أعضاء مجلس الأحكام وصاحب المآثر الكبرى فى نشر الكتب على تأسيس « جمعية المعارف » وكان جل همها نشر الكتب النافعة وتسهيل اقتنائها ، ثم أنشأ « إبراهيم بك » مطبعة باسمه سنة ١٢٨٥ هجرية (١٨٦٨ ميلادية) لتطبع تلك الكتب ، وتعد من أقدم المطابع المصرية ، وكانت كثرة العمل فيها تدفع الجمعية إلى طبع جزء من كتبها فى بعض الأحيان بمطابع أخرى ولا سيما « المطبعة الوهبية »

ولا شك فى أن هذه الجمعية كانت صاحبة اليد الطولى فى نشر كثير من الكتب القيمة ككتاب « تاج العروس » و « أسد الغابة » و « رسائل بديع الزمان » و «سلوك المالك» و « ألف با » و « محاورات الأدباء والشعراء والبلغاء » وغيرهما مما جعل لهذه الجمعية شأناً كبيراً فى تاريخ النهضة الأدبية الحديثة

أما صاحب الترجمة ففى السنة الثانية من إنشاء مطبعته اتحد مع « محمد عثمان جلال بك » لإصدار جريدة عربية سماها « نزهة الأفكار » ولم يكن من الصحف العربية يومئذ بمصر إلا « جريدة وادى النيل » و « الجريدة الرسمية »

ولسوء الحظ لم يصدر منها إلا عددان ، ثم أظهر المرحوم « شاهين باشا » للخديو إسماعيل تخوفه مما سوف تثيره مقالاتها من الأفكار وتولده من الفتن ، فأصدر الخديو أمراً بالغائها . وظلت المطبعة على ما هى عليه من طبع الكتب الأدبية والتاريخية والفقهية لجمعية المعارف ، كما كان يطبع المترجم كتباً على نفقته الخاصة

وكانت مضاربات البورصة حديثة العهد بمصر ، وقد تشدق الناس بمعجزاتها فى سرعة الإثراء . ولما كان إبراهيم طلاباً للعلا لم يكتف بما عنده من الرزق الواسع وحدثته نفسه بطلب المزيد ، فاندمج فى صف المضاربين ، يربح تارة فيطمع فى المزيد ، ويخسر أخرى فيطلب التعويض . وما هلت سنة ١٢٨٩ هجرية (١٨٧٢ ميلادية) حتى استنزف ثروته ، وأثقل بالديون وكاد البيت يتزعزع ، فرأى الخديو إسماعيل من اللازم أن يقيم أود ذلك البيت المشهور بعزه وجاهه فقال لشريف باشا وثابت باشا : « إن ما سأصنعه لهذا البيت واجب على ذمتنا ، فإن جدهم خدم جدى خدمات جليلة »

ثم طلب استدعاء إبراهيم وعبد السلام ، فلما مثلا بين يديه قال : من منكما الأكبر ؟ فقال إبراهيم : عبدكم يا مولاى . فسأله : كيف تسير أعمالكما التجارية بعد موت أبيكما ؟ فقال إبراهيم : إن علمها عند عبد السلام (وقد ذكرنا من قبل أنه هو الذى مارس التجارة وأدارها) لأنى انقطعت للعلم والأدب . فالتفت الخديو إلى عبد السلام ، فتقدم وبسط الحالة التجارية والمالية . وهنا تناول الخديو ورقة وخط فيها بيده الكريمة سطرين وناولها إبراهيم ليسلمها لرئيس الديوان

وبعد أن قام الأخوان بواجب الشكر ذهبا تواً إلى حيث أمرا وهما لا يعلمان ما خبأته لهما الأقدار !

وكم كانت دهشتهما عند ما علما أن بالورقة أمراً كريماً بتعيين إبراهيم عضواً فى مجلس الاستئناف براتب شهري قدره أربعون جنيهاً ، وبصرف أربعة آلاف جنيه لعبد السلام ليسدد ما عليهما من ديون ، وليتمكن من إقامة ما اعوج من شئون التجارة ، وبالإنعام على كل منهما برتبة بك من الدرجة الثانية

ولم يكتف إسماعيل باشا بكل هذا ، بل أبى عليه كرمه إلا أن يصدر أوامره إلى جميع من فى قصوره من النساء بأن يعدلن

عن لبس الأنسجة الأوربية إلى الأنسجة المصرية من صنع المويلحى ، وألا يدخل تشريفات السيدات سيدة مرتدية غير هذه المنسوجات ، كما أمر بصنع كمية كبيرة منها لإرسالها إلى معرض فينا فى تلك الأيام

وما زال المترجم له فى وظيفته بمجلس الاستئناف حتى آلت رياسته إلى المرحوم « حيدر باشا يكن » فوقع بينهما شقاق انتهى باستقالة « إبراهيم بك »

ولكن عناية الخديو إسماعيل مازالت ترعاه ؛ فأمر باعطائه مصلحة تمغة « المشغولات والمنسوجات » على سبيل الالتزام (الاحتكار) على أن يؤدى للحكومة جُعلا

ولما سقطت وزارة « نوبار باشا » سنة ١٢٩٦هـ سنة ١٨٧٩م التى كان فيها عضوان أجنبيان ، وخلفتها وزارة « شريف باشا » المعروفة باسم الوزارة الوطنية ، وهمت بإنشاء اللائحة الوطنية لتأسيس مبادئ الحكومة الدستورية — وقع الاختيار على المترجم له لوضع هذه اللائحة

ولما أن استقرت الوزارة الجديدة طلب المرحوم « راغب باشا » ناظر المالية وقتئذ من الخديو إسماعيل أن يكون إبراهيم بك معه فى المالية لما يتوسمه فيه من النجابة والنباهة وعلو الهمة وسداد الرأى ، فلم يمانع الخديو وسر بهذا الاختيار ، وأصدر الأمر بتعيينه ناظراً للقلم العربي بها . وهنا تجلى نبوغه وظهرت جدارته فأحيلت إليه نظارة قلم « العرضحالات » مع ملاحظة (قلم تركى المالية) وعين عضواً فى مجلس تسديد الديون السائرة

ولما تنازل الخديو عن العرش سنة ١٨٧٩م كما هو معروف ، وصدرت أوامر السلطان بنفيه ، طلب الإذن من السلطان بالاقامة فى استانبول أو أزمير ، فلم يصادف هذا الطلب قبولاً . فلما علم الملك « أومبرتو Umberto » ملك إيطاليا بهذا الرفض ، طيب خاطر صديق والده ، ووضع تحت تصرفه سراى « الفافوريتا La Favorita » بضواحى نابولى

على أن هذا النفى لم ينسه ذكر إبراهيم فبعث يستقدمه إليه . فلبى إبراهيم الأمر ، واستعفى من مناصبه وظل فى معية إسماعيل بضع سنوات كان يقوم فى أثنائها بوظيفة كاتب يده « سكرتيره العربى » يكتب عنه الرسائل إلى الملوك والأمراء ، كما كان يقوم بالتدريس لنجله سمو البرنس أحمد فؤاد « المغفور له صاحب الجلالة فؤاد الأول » وقد أرسل ابراهيم بك كتاباً إلى ابنه المرحوم السيد محمد بك المويلحى بتاريخ ١٥ مارس سنة ١٨٨٠ يطلب منه الاسراع بارسال بعض كتب النحو الصغيرة لهذا الغرض

وفى نفس هذه السنة أى سنة ١٨٨٠ م أنشأ جريدة « الاتحاد » بإيطاليا ، وأصدر منها ثلاثة أعداد كانت مقالاتها شديدة اللهجة على سياسة الدولة العلية مما جعل السلطان عبد الحميد يطلب من سفارته بايطاليا إيفاد مندوب من قبلها لدى الخديو إسماعيل ليرجوه أن يأمر « سكرتيره » بالكف عن نشر تلك الجريدة .

وفى أثناء إقامة الأسرة الخديوية بإيطاليا مرضت إحدى الأميرات من زوجات سمو الخديو إسماعيل « بالروماتزم » ، ووصف لها الأطباء بلدة « بورسة » خشية عليها من المكث فى الجو الذى هى فيه . فأشكل الأمر على الخديو ، وبث همه إلى « سكرتيره » وطلب منه أن يكتب لجلالة السلطان عبد الحميد رسالة يشرح له فيها حالة المريضة بذلك الأسلوب المتين الساحر

فكتب إبراهيم بك رسالته المشهورة عن لسان الخديو إسماعيل التماساً لدخول حرمه الآستانة وأفرغ فيها كل ما أوتى من بيان

ولما ترجمت وعرضت على السلطان عبد الحميد تأثر بها وأرسل برقيـة إلى سفيره فى إيطاليا بدعوة حرم الخديو إسماعيل إلى الآستانة للاستشفاء بمياه « بورسة » المعدنية

وقد يلذ القارئ أن يطلع على هذه الرسالة وهى رسالة طويلة نقتطف منها ما يأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، وخليفة رسول رب العالمين ، أطال الله بقاءه ، وجعلنى من كل مكروه فداءه . من عبد اكتنفه حرمان الرضا من ولى نعمته ، ومالك ناصيته ، فساعته شهر ، وليلته دهر ، وعبرته نهر ، وكذلك جواب دعائه جازعاً مما يقاسى من غضب أمير المؤمنين وقد قال الله تعالى حاثاً على العفو: « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس . . » وأمير المؤمنين أولى العالمين فى الاقتداء بآى الكتاب العزيز . وإنى أتضرع إلى

مقام خلافتكم العظمى ، وسلطنتكم الكبرى متوسلا بجناب صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أن يلحظ ما أعرضه لدى سدتكم الملوكية بعين الرضا ، ولو أن العذر إقرار بالذنب لملأت الصحائف أعذاراً ، ولعرضت التوبة ليلا ونهاراً

وهبني يا أمير المؤمنين جئت بكل ذنب . أليس في سعة عفوكم وساحة إحسانكم ما تغفر به الذنوب ؟ وأمير المؤمنين أعلى نظراً أن يؤاخذ بقول وهو إفك الوشاة ، أو يعاقب بكلام وهو بهتان السعاة ، من الذين اتخذوا حرفتهم أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، بعد أن أفنيت حياتي لهذا البيت المعمور في خدم قدمتها ، وأوامر أطعتها ، ونواهي امتثلتها ، موالاة جعلتها شرطاً سادساً لديني ومعتقدي ، وإتباعاً لقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ... إلى أن قال في آخرها :

« ... وإني أذكر أمير المؤمنين — فإن الذكرى تنفع المؤمنين بقوله تعالى : « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام » وإن بين جلالتكم وبين رعيتكم ، وهذه المريضة فرد من أفرادهم — الرحم الديني — الذي هو أولى بوجوب الصلة من رحم النسب ، قال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » أي واتقوا في أخوتكم في الدين برعاية عهودكم وحفظ حقوقكم ، فعلمنا أن الأخوة الدينية تقتضي مزيد الشفقة والرحمة ، ولا معنى للرحمة والشفقة إلا أن تنقذ المؤمن من المهالك ، وتؤمنه من المخاوف ، وتخلصه من الآفات ، وأن توصل إليه المبرات ما استطعت ؛ ولا يكمل عبد من الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وإني أتوسل إلى الله أن يلحق أمير المؤمنين بنزاهته وشفقته ورحمته وعدله وإيمانه ورعايته ، ما في يديه من ودائع الله التي هي أرواح المسلمين وأعراضهم . وصمته : الاستمرار على حرمان هذه المريضة من علاجها الممكن ، فإنها إنما تدخل تحت سطوة السلطنة العظمى وقوة الخلافة الكبرى ، في بلدة صغيرة من ممالك الدولة العثمانية

«ولو شاهد أمير المؤمنين هذه المريضة المسكينة وهي سائلتي : بماذا أجاب الخليفة ؟ أيرضى أمير المؤمنين أن أقول لها : قد أغضى عن الإجابة !؟ وهو تصريح بهتك الحجاب أو الموت — كبرت كلمة تخرج من الأفواه ! — فإذا قالت : فأين الدين والإيمان والحديث والقرآن والعدل والإحسان ؟ فلا مساغ يا أمير المؤمنين للجواب !

« يا خليفة رسول الله : هذه فرد من أفراد رعيتكم ، وقال صلى الله عليه وسلم : « وكل راع مسؤول عن رعيته » فالتمس من أعتاب مولانا المعظم أن يصدر أمره العالي بما يوافق شفقته وإرادته وأن يصفح عن عبده . وإني لممتثل لجميع أوامر مولانا أمير المؤمنين ، أعدها فرضاً واجباً ، فإن الحياة والله لا تصفو لعبد سدتكم وفي التصور أن ولي نعمته منغض عنه

«وأنا واقف على البعد أتلقى أوامركم بفريضة الامتثال ، وإن لم يصادف تضرعي ودعائي قبولاً فإني أخشى أن هذه المريضة وهي في الاحتضار ، تمديدها بكتاب الله قائلة : بيني وبين أمير المؤمنين هذا الكتاب العزيز في الدنيا والآخرة . والأمر لله من قبل ومن بعد ... ! »

« البقية في العدد القادم » ابراهيم المويلحي

جولات فى الأدب الفرنسى الحديث

تطور الحركة الأدبية

فى فرنسا الحديثة (١)

عبادة الذات

موريس باريس M. BARRÊS

١٨٦٢ — ١٩٢٣

للأستاذ خليل هنداوى

يقول « بورجيه » فى مقدمته لرواية (التلميذ) إن الإنسان أصبح اليوم « عدمياً لطيفاً » وقد استحال آلة فساد ناعمة الملمس ، ويوشك أن يكون كل منا هذا الإنسان . وهذه الآلة قد خلقها شك « رينان » ، ولكن شك « رينان » لم يكن شكاً لئيماً ولا متشائماً . وإنما كان شك « ستندال » و « نيتشه » هو الشك الأكثر طغياناً . على أن تأثير « ستندال » لم يبلغ أشده إلا فى مطلع عام ١٨٨٠ ، وتين وبورجيه ومن يتبعهما من الأنصار يمجدون فيه قدرته على التحليل النفسي ، ويندهلون بهذه العاطفة الذاتية التى تهيمن على تفكيره . « فالعاقل عنده ليس إلا من يعمل كثل عمله ، يفتش فى هذه الحياة عن لذة عقلية صافية » ولم يمط ستندال مذهبه تحليلاً فلسفياً ولذلك لبث تأثيره ضيقاً ، بعكس نيتشه الذى أعطى مذهبه قوة وتأثيراً . فنيتشة يتسامى بقوة ويهاجم شريعة العبيد التى أخذت بعد انتشار المسيحية تستعبد الناس . فالمحبة والمساواة والأخوة كلمات جبن وأوهام باطلة بجرب باطلاً أن تحتال على أنظمة الحياة وتتلاعب بها . ونظام مذهبه المقاتلة وسحق الضعيف وظفر القوى الذى يستحيل بعد خروجه من المعركة إنساناً كاملاً وسيداً . يقول زرادشت : « لقد مات الإله — الإله المسيحى . إننى أعلمكم الإنسان الكامل ، الإنسان هو شيء يجب أن يفوق نفسه » وقد ذاع هذا الإنسان الكامل فى الطبقات المثقفة خلال سنة ١٩٠٠ وفى هذا التاريخ نقلت آثاره وترجمت . وموريس باريس — فى رواياته الأولى — حاول أن يكسو هذه الذاتية الخارقة رداء فنياً ، فكتب عدة روايات وأعطاها عنوان « مقالات فى عبادة الذات » يتخللها تحليل بعيد يقذف بالنفس إلى عالم العزلة « وإنما يجب أن تحس أكثر ما يمكن عند ما تحلل أكثر ما يمكن » قد يكون هذا ، ولكن ينبغى عبادته ، لأنه هو الذى يمنحنا معرفة أنفسنا معرفة صحيحة ، ويجعلنا نعرف « ذاتاً » أفتى ممنى وأكثر تنوعاً وأكثر تأثيراً من ذات منظمة مأمورة . ألا فلنقدس اختلاط قوى النفس ، فهذه هي اللعبة ، أو معرفة هذه اللعبة التى هى ملح الحياة ، أو على الأقل التمرين البسيط للعقل الذى ليس بخداع

وفى هذا كله شك ؛ وإن ذات « باريس » كما يقول أناطول فرانس مزيج من اضطراب وحيرة واختلاط . وإن من العمل الظافر العمل على احتوائها . إن تهكماً دائماً يحيط بها ويلتهمها . على أن فى عبادة الذات شيئاً آخر ...

وقد يخاطب « باريس » فئة مثقفة تائهة فى الثقافة الإنسانية ، ويجد أن تعليل (الذات) المصنوعة فى العزلة البعيدة عن الكتب إنما هو راحته فى هذا التيه : « إن قوة العقل والإحساس تمت وحدها بهؤلاء الذين يعيشون باتصال صادق مع أنفسهم ، وهذا هو مذهب الشعراء والتصوفين . وهذا وحده يستطيع أن يلقينا خارج دائرة الشك ، ويقودنا إلى مثل أعلى . إننا بالانطلاق من هذه الذات الحالية نصبح رجالاً سائمين هذا المجتمع ... رجالاً لما يتكونوا ! » وقد تكون هذه الذات شديدة الاختلاف عن الإنسان الكامل (لنيتشه) الذى لا نظام له إلا الكمال المتكبر الأنانى ! على أن امتحان الذات ينبغى أن يرافقه شيء من الامتحان والبلاء . وذواتنا محدودة بأشياء وراثية . ومعرفة الذات تنتهى دائماً بأن تخلق لنفسها فضيلة ومراجعات جديدة ... وقد جهد (باريس) عند ما تطور أن تكون هذه الفضيلة خلل آثاره الشكوكية ، وفى هذه الآثار ما يرفع من الشك إلى الإيمان ومن التعليل إلى التأليف ؛ والتعليل ليس فى كل صورة مبعثاً للكسل ؛ هو ينقصه جهد يُقاد إما بمنطق مدرسى جاف ، أو بمنطق أسمى لشجرة تتحرى النور وتذهب إلى غايتها الباطنية « إننى لن أذهب باستقامة إلى الحقيقة كالسهم يريد هدفه . ففى أكثر الأحيان يخطئ

(١) عن الأستاذ « دانيال مورنى »

السهم المرمى . ولكن تمليل الذات بأناة ويقين يقود إلى هذه النتيجة حيث — الذات — مهما كانت مختلفة ودقيقة فهى ليست بمختلفة ولا بدقيقة إلا لأنها ليست إلا مظهراً . « الذات — خاضعة للتمليل — بقليل من الجد تفنى ولا يبقى إلا المجتمع الذى هى منه نتيجة ثانية . وبرغم الهوان والتصاغر ، فإن فكرتى التى تعاظمت من قبل لكونها حرة تصل إلى أن تعلن وتثبت اتصالها بهذه الأرض وبهؤلاء الموتى الذين — قبيل ولادتى — قد سيطروا عليها فى أشكالها وألوانها

المجتمع خصم للفرد

الفلاسفة والمؤرخون والنقّاد

إن خير المؤلفين — فى الفئة الواقعية — الناشدة للحقيقة لم يكونوا ذوى نزعة فردية . ولم تقدم دراساتهم إلى نتائج كنتائج نيتشه ، فالمجتمعات عندهم لا يقودها إلى الأمام رؤساء ولا رجال عبقرية ؛ ولكن المجتمعات تصنع نفسها بنفسها وتذود عن نفسها بنفسها ، لا بالعقل وحده لأنه قد يكون خاطئاً ، ولا بالإرادة وقد تكون عمياء ، ولكن بغريزة حية توفق الحياة الاجتماعية بوسائل الحياة ، وهى تنشأ من التقاليد ، وهذه تستطيع بل ينبغى أن تتطور وأن تتحور ؛ ولكن لا يمكن حذفها ولا قلبها دفعة واحدة كما أنه لا يمكن تبديل مناخ ولا صفة أرض ولا أخلاق ذرية ما . وإنما يجب أن نفهم هذه التقاليد عند ما نرغب أن نفهم حياة شعب ما

وهذه خلاصة آراء المؤرخين فى ذلك العصر ، ولا سيما (تين) الذى حاول أن يطبق هذه الآراء فى كتابه (أصل فرنسا الحديثة) ففرنسا الحديثة ينبغى أن تكون وليدة فرنسا الغابرة ، وهذه كانت بائسة ذليلة ، ولكن يجب إيجاد علاج لها ، وهذا العلاج إنما يستمد من تقاليدها وعاداتها لا من أفكار مجردة . إن فلاسفة القرن الثامن عشر قد أوجدوا (الخير لذاته) لكل الناس فى أى قطر من الأقطار فلم يُفض قولهم هذا إلا إلى نظم خيالية ، فالمذاهب المجردة لم تكن إلا كلمات عاجزة ، إنها لم تولد الثورة ولكنها ولدت مملكة الذعر والرعب الأعمى ، وفلاسفة القرن الثامن عشر وزملاؤهم الثائرون لم يحسنوا معرفة نظام الحياة الاجتماعية وهو الثابرة من أجل البقاء !

هنالك فلاسفة قد أخطأوا فى تفكيرهم فى المجتمعات على نسق تفكيرهم فى العلوم المنطقية ، إذ فى الحقيقة ليس هنالك أفراد للعالم النفسانى والروائى ، ولا يغنى فيهم أن تتكلم عن أثر البيئة فيهم ، لأنهم ليسوا إلا جزءاً من البيئة ، أو نقطة من مذهب هو جزء من القوات المؤثرة لا يمكن حله إلا بحل المذهب كله

يعلن (جابريال تارد) فى كتابه (شرائع التقليد) و (الرأى والجماعات) بأن منطق الجماعات لا يلتقى مع منطق الفلاسفة . فالناس لا يفكرون ولكنهم يقلدون ؛ وهم لا يتحققون ولكن يتبع بعضهم بعضاً ؛ وهم يتشابهون

فالعالم (البيولوجى) لا يدرس حركة القلب كما يدرس الرياضى حركة كتلة ثابتة على حالة واحدة . كذلك الحوادث الاجتماعية لها خصائص خاصة ، وطبيعتها تختلف بالعمق عن حوادث الحياة الفردية المدروسة عند علماء النفس إذ ليست كلها مجموعة وحدات ، فالمجتمع باستطاعته أن يحلل الفرد ، ولكن الفرد لا يحلل المجتمع

(يتبع) خليل هنداوى

التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

- ٧ -

يا شباب الوادي ! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم



وعادت السياسة تتطلب منه جهداً غير يسير ؛ فهو اليوم يتحفز لأن يخطو خطوة جديدة وله من امرأته حافز ومن طموحه حافز ... تطلع لنكولن إلى مقعد في ذلك المؤتمر الذي كانت تمثل فيه الولايات الأمريكية جميعاً والذي كان يعقد لينظر في الشؤون العامة لتلك الولايات ومقره وشنجطون . وما كان ابراهام ليستبعد الشقة أو ليستعظم الفكرة ، وقد قضى ثمانية أعوام في مجلس المقاطعة

ولكن رجال حزبه وجهوا أنظارهم إلى رجل غيره من أفراد ذلك الحزب ؛ وتقدم ذلك الرجل ليأخذ الطريق على ابراهام ولكنه لم يظفر بالترشيح ، ورشح رجل غيره وانتخب ؛ واضطر هو أن ينتظر عامين حتى جاء دوره فانتخب ؛ وظل بذلك لنكولن أربعة أعوام يتطلع إلى مقعد في المؤتمر ؛ ولقد آلمه وكدره أن يأخذ الطريق عليه رجلان من حزبه يراها دونه ؛ ولكن روحه الوثابة ما كانت لتعرف الملل فيما تتجه إليه من الأمور

سنحت الفرصة بعد تلك الأعوام الأربعة ولكنها أوشكت أن تفلت منه هذه المرة أيضاً لولا ما كان من مهارة زوجه ولباقتها في التأثير على رجال الحزب حتى ظفر آخر الأمر بالترشيح . ولما تم له ذلك راح يخوض المعركة وأمله في الفوز عظيم ...

وعجب الناس أن رأوا لنكولن يومئذ يعمل على كسب التأييد بوسائل منظمة وهو الذي اعتاد من قبل أن يصدر في أعماله عما تمليه عليه المواقف في غير تدبير أو ترتيب ... عجب الناس أن رأوه يرسم الخطط ويسدد السهام فلا تخطئ مرماها ، وكأنه في هذه المعركة الانتخابية قائد في معركة حربية يدبر الهجوم ويعد الدفاع وهو بصير بالموقف خبير بما يدور حوله ، يميز باللمحة الخاطفة ما يأخذ مما يدع ، ويتبين — مهما اشتد من حوله ضجيج الموقف — الطريق المؤدية إلى النصر

كتب إلى جميع أصدقائه في نواحي الدائرة يطلب إليهم العون ويسألهم أن يدلوه على مؤيديه ليكتب إليهم ، وعلى مخالفيه ليبتغي إلى إقناعهم الوسيلة ؛ وراح يتحدث في الأندية ، ويخطب في الجماعات ، لا يدع فرصة ولا يتخلف عن موعد ، وله من نباهة الذكر وطيب السمعة ومن محبة الناس لشخصه ما ينزله على الرحب أينما حل ... وهل كان الناس يعرفون في خلقه غميزة ؟ هل كان الناس يعرفون عن « أيب » الأمين إلا ما يحببه إلى قلوبهم ؟ هل كان يجهل خاصة الناس وعامتهم المحامي الصادق السر ؟ وهل كان ينسى العامة ذلك الرجل الطيب القلب الذي يجلس بينهم كأنه أحدهم ، فيشاركهم أفراحهم وأتراحهم ويبادلهم وداً بود وحباً بحب ، ويبثهم من نصائحه ما ينير لهم سبيلهم ، ويسمعهم من طريف أحاديثه وروائع أقاصيصه ما يبهجهم ويسرى عن نفوسهم ... ؟

لم ينسه الناس ولم يجهلوه ، ولكن للسياسة أحكامها ولها غرائبها ، وكم تأتي رياحها الهوج على ما بين الناس من مودة ، وكم تترك ألاعيبها وأضاليلها الناس في عماية وغواية ! وكم تصدم

الشهوات فى معركتها عن الحق وهم يعلمون ! أجل كم يَظهَر في السياسة الباطل على الحق ، وكم يُدلَّس الرأى بالهوى ، وكم يضيع ما تواضع عليه الناس من أصول الفضائل فيما تُزيِّن لهم من أوهام وأحلام ، وما توحى إليهم من غرور العيش ومطامع الحياة ؛ وكم يذهب ما درج عليه العرف وما نشأ عليه الذوق وما نمت عليه المشاعر هباء فيما تأتى به السياسة من بهتان !

هذا لنكولن راح يطعنه منافسه فى عقيدته ويلجأ إلى الدين فيتخذ منه سلاحاً فيكيد له به كيداً أليماً ؛ وهو لا يرعوى عن غيه بوازع من خلق أو بدافع من حياء ! أجل إن من كان له من حسن سيرته ونقاء طويتــه وصدق إخلاصه درع يرد عنه السهام مهما كانت صنوفها ، خليق ألا يأبه لما يتقول عليه المبطلون ؛ بل إنى لأعتقد أنهم يحسنون إليه من حيث أنهم يريدون إساءته ؛ إذ هم يشعرون الناس أنهم يتصيدون له العيوب حيث يرونه خلواً من العيوب ؛ ويلفقون له النقائص إذ يرونه يغيظهم بكماله ويسمو عليهم بفضائله ، ويباعد بينه وبينهم بأن يعرض عما يأفكون ... بيد أن للإشاعة دويها ، ولها مهما بطلت مجراها وإن تاهت آخر الأمر عن مرساها ؛ وذلك هو ما غاظ ابراهام وآلمه وتركه فى ضيق مما يفعل منافسه

وكان ذلك المنافس من الحزب الديموقراطى وهو رجل من رجال الوعظ الدينى يدعى كارتريت كان مما عرف عنه تدفق نشاطه وتوثب حيويته وذلاقة لسانه فيما ينافح عنه مما يزجيه من الآراء ؛ وهو اليوم يستعدى على ابراهام مواهبه ويسلط عليه لسانه فى غير إعياء أو سأم ؛ يتهمه بالزيغ والإلحاد مشيراً إلى بعض ما كتبه لنكولن من قبل من رسائل نقدية حمل بها على بعض رجال الدين أن رآهم ينقمون على الناس فجورهم وينكرون عليهم فواحشهم دون أن يقوموا بنصحهم أو يعملوا على خلاصهم مما هم فيه

ذهب لنكولن مرة إلى حيث انضم إلى جماعة يستمعون إلى منافسه فى حديث دينى ! وبعد هنيهة قال منافسه : « ليقف كل من يريد أن يحيا حياة جديدة وأن يسلم إلى الله قلبه وأن يذهب إلى الجنة » ... ثم أردف قائلاً : « ليقف كل من لا يريدون أن يذهبوا إلى الجحيم » ... ووقف الناس جميعاً ما عدا لنكولن فاتجه الرجل إليه وقال : « هل لى أن أسألك يا مستر لنكولن إلى أين أنت ذاهب ؟ » ونهض لنكولن فقال : « أتيت هنا لكى أستمع فى احترام ، ولم أكن أعلم أن الأخ كارترايت سيعمل على إفرادى هكذا ؛ إنى أومن أنه يجب أن تطرق المسائل الدينية بما هى جديرة به من التوقير . يسألنى الأخ كارترايت فى غير التواء إلى أين أنا ذاهب ، وإنى أجيبه فى غير التواء أيضاً أنى ذاهب إلى المؤتمر »

وجلس لنكولن بين ضحكات الإعجاب تنبعث من جوانب المكان ، وقد كسب عدداً جديداً من المؤيدين

وعلم لنكولن أن خصومه يرمونه فيما يرمونه به من الأباطيل بأنه أرستقراطى لا يحفل رجاء العامة ولا يستجيب لهم دعاء ؛ وأن هؤلاء الخصوم يتلمسون البرهان على دعواهم في زواجه من مارى ، فدفع تلك التهم عن نفسه باشارته إلى حياته الأولى حيث كان « غريباً لم يلق حظاً من التعليم ، معدماً يعمل فى قارب نظير أجر لا يتجاوز عشرة دولارات كل شهر »

وتم لابراهام النصر وكان يومئذ فى السابعة والثلاثين ؛ ورأى الناس وهم يعجبون أنه حصل على عدد من الأصوات لم يتسن لرجل قبله من رجال حزبه أن يظفر بمثله ؛ وكان الحزب قد أعطاه مائتى دولار لينفق منها فيما يتطلب الانتخاب من أوجه الانفاق ولكنه يرد إليهم المبلغ بعـد الانتخاب ولم ينقص سوى ثلاثة أرباع الدولار ، قائلاً إنه لم تكن به حاجة إلى النقود حيث أنه كان يتجول على جواده وأنه كان ينزل ضيفاً على أصدقائه ...

وفرحت مارى بالنصر وحق لها أن تفرح ولها فى الجهاد نصيب ، ولها فى المستقبل آمال . أجل أحست مارى أنها تخطو خطوة واسعة نحو هدفها ، وهل كان ذلك الهدف إلا كرسى الرياسة يتربع عليه زوجها ؟ إنها ما تفتأ تستحثه وتشد أزره وتحذر أن ينصرف عن وجهته ؛ عرض عليه قبل الانتخاب أن يشغل وظيفة حاكم مقاطعة النبوس ، ولكنها صرفته عنها ليستقيم على الطريق ويدلف إلى الغاية ...

صار لأبراهام اليوم بين رجال حزبه شأن غير شأنه بالأمس وأصبح له فى السياسة مكانته وخطره . على أن مهنته لازالت هى المحاماة وسيظل محامياً حتى تنتهى إليه الزعامة ، وتلقى إليه قضية البلاد الكبرى وتتوافى له أسباب تلك الرسالة التى هو مؤديها فى غد إلى أبناء وطنه جميعاً

وكانت مسألة العبيد قبيل انتخابه قد عادت تظهر فى وضع جديد؛ ذلك أن إحدى الولايات وهى تكساس كانت قد انسلخت عن المكسيك أو كادت ، فلما أرادت أن تنضم إلى الولايات المتحدة أعلنت المكسيك حقها عليها ، ولكنها لم تعبأ بذلك الحق وجعلت الأمر للسيف ؛ وخاضت بذلك المكسيك غمار حرب ضد تكساس وضد الولايات المتحدة التى كانت تعاونها من قبل على الاستقلال لتضمها إليها. وكان أهل الولايات الجنوبية يحبذون ضم تكساس إلى الاتحاد لكى يطبعوها بطابعهم ويضيفوها إلى الولايات التى يسمح فيها بمبدأ اقتناء العبيد؛ ولكن أهل الولايات الشمالية كانوا يتنكرون لذلك ويرغبون عن الحرب؛ وكان لنكولن ورجال حزبه ضد هـذه الحرب وهم فى ذلك يشايعون كلي زعيم الهوجز والمرشح يومئذ لرياسة الولايات ؛ ولقد تغلب الحزب الديموقراطي ، ففشل كلي فى الانتخابات بسبب آرائه عن تلك الحرب .

ولقد كان لنكولن قبيل انتخابه للمؤتمر ينقم على تلك الحرب ويدعو إلى انتخاب كلي للرياسة ؛ لا يفتأ يلقى الخطب وينشر الدعوة بكل ما يملك من الوسائل . ولم تكن نقمته على الحرب تشيعاً منه لزعيم الهوجز فحسب ، بل لقد كان يكرهها لأنها تمكن لأهل الولايات الجنوبيـة فى مسألة العبيد وهو يمقت تلك المسألة من أعماق قلبه ؛ وإن نفسه لتنفر منها منذ ذهب إلى أورليانز ورأى ما لا ينساه من منظر هؤلاء البشر يساقون فى الأغلال إلى حيث يباعون فى الأسواق كما تباع الدواب

وما أصل تلك المشكلة التى تظهر فى ميـدان السياسة حيناً بعد حين ؟

بدأت مشكلة العبيد من عهد بعيد ولقد كانت تلك المشكلة بعد استقلال الولايات الأمريكية عن انجلترا من أشد المشاكل خطراً حتى لقد كان الناس يرونها عقبة تحول دون بقاء الاتحاد . جلب التجار منذ بضعة قرون من أفريقيـا طوائف من الزنوج باعوها في أمريكا ، ورأى سكان الولايات — وجلهم من الأوربيين المهاجرين إليها من أوطانهم — فى اقتناء هؤلاء العبيد ما يهون عليهم الكدح فى طلب العيش ونظروا إليهم نظرتهم إلى الدواب ، فأخذوا يشترونهم ويسوقونهم إلى الأدغال والأحراج يشقونها تحت إمرتهم . ولما كان أهل الولايات الجنوبية أهل زراعة فقد كان اقتناء العبيد عندهم أمراً أساسياً يقوم على الضرورة إذ لا تستقيم حياتهم إلا به ؛ ومن ثم لم يكونوا ينظرون إلى مسألة العبيد تلك النظرة الانسانية التى أخذ ينظرها بعض الناس بعد الاستقلال ، فمنطقهم يقوم على المادة ويستند إلى الوقائع ، ولا عبرة بعد ذلك بآراء المشفقين العاطفين ...

ولما أعلنت حقوق الانسان فى مستهل الثورة ، كان فى مقدمتها أن الناس جميعاً أحرار ومتساوون في الحقوق وليس لأحد أن يسلبهم حقوقهم . وقد أخذ أهل الولايات الشمالية بهذه المبادىء فيما يتعلق بالعبيد فأعتقوهم ، ولم يكن السود عند أهل الشمال فى الجملة سوى خدم فى المنازل ، وذلك لأن أهل الشمال كانوا أهل صناعة أكثر منهم أهل زراعة ، فلم يكونوا كأهل الجنوب يرون اقتناء العبيد أمراً جوهرياً بالنسبة إلى حياتهم ، لا تتطلب زراعة القمح عندهم جهداً عسيراً ومن ثم فلا يتطلب استخدام العبيد ؛ ولكن القطن فى الجنوب يستلزم اقتناء هؤلاء السود الأقوياء الذين يتحملون الجهد ويقوون على الحر ويرضون بالقليل

وفى غداة الاستقلال هدّد أهل الجنوب أهل الشمال أنهم ينسحبون من الاتحاد إلا أن يترك لهم حق اقتناء العبيد قائلين إن السود عندهم ليسوا مجرد رجال بل هم بعض أدواتهم ، وخيل للناس أن الاتحـاد منفصمة عراه لا محالة ؛ وأشفق الزعماء أن يضيع الاستقلال الذى اشتروه بدمائهم وأموالهم ؛ لذلك لم يروا بدًّا أن يتهاونوا بعض الشىء وأن ينصوا فى القانون أنه لا يسمح بعد عشرين عاماً باستجلاب طوائف من السود من أفريقيا ؛ ومعنى ذلك أنهم يسلمون ولو إلى حين لأهل الجنوب بامتلاك العبيد ، ويسلمون بذلك فى صورة شرعية !

وتزايد إقبال الولايات الجنوبية على اقتناء العبيد حينما ازدادت أوروبا إقبالاً على طلب القطن ، وقد أخذت الآلات تعمل عمل الأيدى وعلى الأخص فى حلج القطن ؛ وكان كلما ازداد طلب القطن ازداد حشد السود لزراعته وجمعه فكانوا يساقون إلى الحقول جماعات تحت إمرة رئيس من البيض ، وإنهم لينظرون فى فزع إلى ما في يده من سوط طالما ألهب جلودهم فزقها وأدماها ؛ فاذا

١٠٤٠

غابت الشمس جيء بهم كالقطيع فأدخلوا فى حظيرة تأويهم جميعاً حتى الصباح ...

ولم يكن أحد من السادة أهل الجنوب ليسأل عما يفعل بعبيده؛ ولو أنه ساقهم إلى الموت كما يسوق كلابه لما أحس بينه وبين نفسه أنه يأتى أمراً منكراً؛ وكان يمن عليهم هؤلاء السادة أنهم يطعمونهم ويسقونهم كأنما هم يريدونهم أن يعيشوا بلا طعام ولا شراب! ولا تسل عما كانوا يلاقونه من صنوف العذاب إذا بدا لهم أن يظهروا ما ينم على استيائهم أو حتى على مجرد تألمهم لما يصب عليهم من وصب؛ بل ما كانوا يعانونه من بلاء إذا انتشرت الحمى وفشت فيهم وهم جوع متقاربون ...

وكانوا فى الأسواق يحشرون كما تحشر الخيل عارية أجسادهم فيباعون، وكثيراً ما كان ينتزع المرء من أخيه وأمه وأبيه، وكثيراً ما كانت ترسل الفتاة إلى مزرعة وأختها إلى مزرعة وأهلوها إلى حيث لا تعلم لهم مستقراً ولا مستودعاً. ولقد تسنى لابراهام أن يرى هاتيك الأسواق فى رحلته إلى نيو أورليانز فاستقر فى نفسه الألم؛ وكأنه رأى لساعته أن رسالته فى غد تحرير هؤلاء المساكين. وكثير من عظماء النفوس تقع فى نفوسهم الفكرة فى سرعة كلمحة البرق، وتظل تلك الفكرة وإن لم يشعروا بها فى أعماق وجدانهم كالبذرة فى أعماق التربة، وما تزال تنمو تلك الفكرة وتنمو حتى تملك عليهم آخر الأمر مشاعرهم فتحركهم وتوجههم حتى لا يكون لهم لغد من أمل فى الحياة سوى إبرازها ثم الدفاع عنها، ثم التضحية من أجلها ثم الموت فى سبيلها إن لزم الأمر ...

ذلك ما كان من أمر لنكولن فيما اعتقد، وإن لم يشعر هو فى صدر شبابه أنه عامل فى غده للقضاء على العبودية؛ ذلك ما كان من أمره وإن لم يلق باله إلى ذلك الأمر. إن نفسه لتجيش بكراهة هذا النظام، وإن إنسانيته لتنفر بطبيعتها من تلك الوحشية، ثم إن قلبه الكبير ليتمنى أن يخلص هؤلاء التعساء مما هم فيه من عذاب ومذلة، وما ذلك لعمرك إن لم يكن هو الارهاص؟

ولم يكن للعبيد حق حتى فى الهجرة، وكان إذا أبعد أحدهم إلى إحدى الولايات الشمالية التى أطلقت العبيد أعيد إذا عرف إلى سيده ومالكه بأمر القانون فلا ينفعه الفرار إلا أن يفر إلى الموت ...

ولقد أدى ما كان عليه العبيد إلى ظهور دعوة فى الشمال إلى تحريرهم ولكن أصوات الداعين كانت خافتة، كما كان عددهم ضئيلا، إذ كانوا يحسون ما تنطوى عليه دعوتهم من جرأة، وكانوا لا يأمنون أن يأتيهم الموت من كل مكان، فأهل الشمال مع أنهم لم يتمسكوا بالعبيد يخشون أن تؤدى الدعوة إلى تحريرهم إلى القضاء على الاتحاد، وأهل الجنوب كانوا كما علمنا يرون حياتهم فى بقاء العبيد. لذلك كان الداعون إلى التحرير عرضة لسخط الجانبين. ولقد حدث أن أصدر أحد الرجال من ذوى النفوس الكبيرة صحيفة تدعى «المحرر» كان يندد فيها بما يلاقى العبيد ويدعو إلى تحريرهم، أيام كان لنكولن فى الحادية والعشرين من عمره، فلما اشتدت حملاته هاجه الناس وحطموا دار الصحيفة وألقوا بأدوات الطباعة فى مجرى مائى، ولفوا حبلا حول وسطه وسحبوه فى الطرق تنكيلا به وزجراً لغيره

لذلك لم يكن عجباً أن تقدم الشكاوى إلى مجالس المقاطعات الشمالية يومئذ ضد حركة التحرير والداعين إليها خوفاً على الوحدة أن تتصدع. ولقد رأينا لنكولن يقدم احتجاجاً إلى مجلس مقاطعة الينوس هو وصديق له يدعى ستون وفيه يخطو خطوة جريئة فيعلن رأيه فى صراحة قائلا إن مسألة العبيد لا تقوم على شىء من العدالة، ولكنه يشير إلى مراعاة القانون فى النظر إلى تلك المسألة خوفاً على كيان الاتحاد

وها هو ذا اليوم يختار عضواً للمؤتمر وهو فى السابعة والثلاثين وقد عادت المعضلة تظهر بسبب ما حدث فى تكساس ومحاولة ضمها إلى الولايات

«يتبع» الخفيف

الفصــــول

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

طيرى أمانىَّ النفوس وغرّدى   فلقد دعاك الروض خير دعائهِ
هذى عيون للطبيعة قد رنت   فى الزهر من أكمامه وخِبائهِ
بَسَطَ الربيعُ على الحياة رِداءه   ياليتها أبداً تُرَى بردائه
بل ليته بُرْدٌ تَخيطُ على هوى   هذي النفوس لكى تُرى بروائه
والشى لولا أن يَرُوعَ بفقده   ما شاق عند قدومه بلقائه

* * *

لا كالشتاء تزايلت أوراقه   كتزايل المهجور عن قرنائه
تتناثر الأزهار عن أفنانه   كتناثر اللذات من أهوائه
وتخال إذ دَلَفَ الشتاء كأنما   ساق السنا بِدَبُورِه ورُخائه
هَرَبُ الضياء من السحاب وريحه.
هَرَب الكعاب من الهوى وقضائه
فر الخريف من الشتاء وخلفه   عادٍ يريد لحاقه بجرائه
مثل المريض يفر من عادى الردى   هيهات ذا والدهر من أعدائه
راع الشتاء بقُرِّه فكأنما   أنفاس ثغر الموت قُرّ هوائه
والريح مثل فم الشتاء وصوتها   شكوى العجوز يخاف من أبنائه
نَقِمَ العُقُوقَ فقام يشكو أمره   للناس ينشد آسياً لبكائه
والأرض تنظر فى فروج أديمها   نظر الفقير إلى ثقوب ردائه
من بعد ما نفدت نفائس كنزه   سَرَفاً وشح العيش بعد سخائه
وكأنما دجن الشتاء مُقطِّباً   ذكرى العجوز لزهوه وفَتَائِهِ
وكأنما دوح الخمائل فى الدجا   نشوى شياطين انتشت بسقائه
شربت من الإظلام حتى أكثبت
تبغى النهوض كَمُكْثِبٍ من دائه
فى كل غصن في الظلام نواظر   كنواظر للغيب خلف كِفَائه
وكأنما دوح الظلام ثوا كل   لبست حداد الثُكلِ فعل نسائه
تحنو عليك غصونها فكأنما   تبغى سرار السمع من إصغائه
والدوح يهفو كالمؤَرَّقِ فى الكرى
يلوى على الأفنان فضل كسائه
تتردد الأرواح فى أفنانه   كتنفس الرعديد فى لأوائه
وكأن فى إطراقها وسكونها   فِكَرُ المصيخ لروحه وندائه
ياليت بعض العمر تُقْطَعُ بِيدُهُ   وثْباً ويُمْهِلُ فى سنىّ رخائه
كالسِّفْرِ تقرأ بَعْضَهُ مُتَرَيِّثاً   جذلا وتطوى بعضه لهرائه
أو ليت حادى الأرض يعكس سيرها
عن بعض دورتها بوقع حدائه
أو ليت هذا الدهر عقرب ساعة   يَلْوِى به عن نحسه وشقائه
آمال أمس كزهرة قد صوّحَتْ   عود الربيع مُجَدِّدٌ لرجائه
يانفس لا تأسَىْ لعمر قد مضى   بربيعه زمن أتى بشتائه
تَتَشَوَّفين إلى قديم عهوده   نَظَرَ الغريق إلى السُّهَى وسمائه
بُشْرَاكِ خلف الموت لو ترديته   نبت الربيع يروق فى غلوائه
كالطير بعد الصيف تترك عشها   نحو الجنوب ترود أرض ثوائه

* * *

عطف النسيم على الأزاهر هامساً   أنَّ الربيع سعى إلى ندمائه
أنَّ الربيع أخا الصبيحة مُقْبِلٌ   إقبال وجه الحِبِّ فى لألائه
كالظئر بَشَّرَت النَّؤُومَ بأَنْ بدا   فجرٌ لِعيدٍ كان قيد رجائه
والقلب مثل الطير فى وَضَحِ الضُّحَى
يتلو على الإصباح آي غنائه
وكأنما أُمُّ الخلائق دوحة   من قبل آدم فهي من قربائه
تشدو كشدو الأم ناح وليدها   تحنو عليه لصونه ووقائه
والريح طير شاد فى أفنانها   وكرا كأن الزهر من أبنائه
وكأن أجنحة الملائك نسمها   نسم يطب برفقه وصفائه
وكأن ينبوع الحياة غديرها   خُلْدُ الصِّبا فى جرعة من مائه
والقلب مثل النهر باشَرَ ماءهُ   جسم الحبيب تراه فى سودائه
أهوَاكِ يا روح الربيع فَهَيِّئِى   جسماً كجسم الغيد فى لألائه
ثم اخطرى بين الخمائل فى الضحى   رقص المدِلِّ بحسنه وبهائه
فلعل فى قبلات ثغرك برء ما   أعْيا الأنام بِحُكْمِهِ وقضائه
أرد الخلود بقبلة وبضمة   تروى ظماء الخلد من لمائه
والزهر يبعث بالطيور إلى الضحى   تُفْضى إلى الآفاق من أنبائه
الأَرض أم للخلائق كلهم   والشمس بَعلٌ شاقها بفتائه

فالناس والأطيار فى وَضَح الضحى
والزهر فى الأكمام من أبنائه

النار والأمواه من آبائنا   والنار والأمواه من آبائه
يهنيك يا دوح الخميلة بعده   نسيان نيسان وطيب هوائه
تنسى الربيع كأنه مازفه   نغم البلابل فى مثير حِدَائه
لا تمنع المشتاةُ عَوْدَ زهوره   وأريج نسمته وحَلْيِ كسائه
يا ليت طيب العمر يُنْسى وِرْدُهُ   فأبيتُ مثلك لا أحن لمائه
لكنَّ طيب العمر ليس بعائد   لأخى صدًى يُظْميه صَوْبُ بُكائه
وترى كحالات النفوس تغيرا   فى روضه وسمائه ونمائه
فكأنما للكون روح خُلْقُه   يبدو لنا فى غيمه وضيائه
تتغير الأشياء فوق وجوهه   لتغير الأشجان فى حَوْبائه
من لي بأجنحة الزمان أهيضها   كى لا يطير بصفوه ورخائه
أوليته الفردُ الحبيسُ أقيمُهُ   كيما أُراح لشدوه وغنائه
كى يذكر العهد الأنيق وأوجهاً   كانت تُطِلُّ على وذيلة مائه
خلع الجمال قناعه وسعى إلى   عُشَّاقِه وعُفَاتِه وظِمائِه
والمرء لولا صيفه وربيعه   ما ذاق حُلْمَ السعد فى لأوائه
والروض باب للجنانِ وثغرة   منها ترى الفردوس خلف فنائه
وكأنما صبغ الأزاهرَ صابغٌ   فتكاد تأخذ منه إثر طلائه
والضوء غُدْرانٌ ترقرق تِبْرُها   وأراق منها الأفقُ فضلَ إنائه
واللونُ شِعرٌ للطبيعة وقعه   فى العين وقع اللحن فى سودائه
شهد الشتاء بأن أُفْقَ سمائه   أدنى إلينا من قصيٍّ فضائه
والنفس تعظم فى الربيع كأنها   فى زهره ونسيمه وصفائه
والضوء خمر للنفوس ونشوة   ودم الحياة يشام فى أثنائه
والأرض كالحسناء قُدَّ قميصُها   فبدت محاسن جسمها ووَضَائه
فكأنما رفع الربيع حجابها   فانجاب ستر الحسن عن حسنائه
والضوء كالحسناء بُزَّ رداؤها   فأماط عنها العُرْيُ ستر غطائه
والقلب مثل الطير هِيضَ جناحه   فى نَزْوِه وحنينه وغنائه
والطير أفواه الرياض فشدوها   أبدا يزجِّى الدَّهْرَ وَقْعُ حدائه
وكأنما نغم الخفيف هواتف   فى القلب تدوى منه فى أنحائه
والضوء من خَلَلِ الغصون كأنه   طير الفَرَاشِ نراه من شَجَرَائه
وكأنه والقلب يذكو شجوه   شرر الغرام يطير من حوبائه
نَثَرَتْ ذُكاه على البسيطة عسجدا
فاذخر ليوم الدجن كنز ثرائه

ولكل شىء منطق يشدو به   والنفس تعرف كنه سحر غنائه
تتلو عليك الطير طِيبَ ثماره   وأرِيجَ روضته ورقة مائه
والحسن ظل للسعادة فى الورى   إن السعادة لا تُرَى بفِنائه
ظل الجِنان على البسيطة واقع   فاستقبل اللذاتِ من آلائه
فكأنها كون حلمت بحسنه   حتى نُقِلْتَ إلى ذرى خضرائه

***

وكأنما زهر الخميلة إن بدا   حُلْمُ الهوى فى طيبه ووضائه
والطير أرواح الزهور وصيفها   عهد الشباب يروق فى لألائه
ضحك الزمان فذاع من ضحكاته   صيف يعيد الحب فى غلوائه
والقيظ يزفر بالهجير كأنما   يتنفس الولهان من بُرَحائه
فكأنما مرح الحياة وحسنها   لهب ترقرق فى خَفِيٍّ دمائه
وكأنما نغم الطيور أريجها   يُسْقاه زهر الروض فى أندائه
فيُحيله نشرا يَضُوعُ ورونقا   يشتار منه النحل أزكى عطائه
ودت ذواتُ الحسنِ أن حُلِيَّها   كحُلِيِّه ورداءها كردائه
مَرَحُ الكعاب الرُّود فى خطراتها   كالنهر يرقص فى ترقرق مائه
والريح تعبث بالغصون كأنها   طفل يعيث على رءوس إمائه
وترى جذور الدوح مثل أصابع   بسط الشحيح يصون كنز ثرائه
وكأنما نغم البلابل مَطْرَةٌ   فوق الهجين شجا مُرِنُّ إنائه
تَنَدَّى على القلب الجديب فينثنى   روضاً يرفُّ بزهره وأضائه
والزهر فى وَضَح الصبيحة قد صحا   صحو المفيق من الكرى وقضائه
وجلت ذُكاه ندى الزهور كأنها   أم الوليد تزيل فضل بكائه
حتى إذا اشتد الهجير حسبته   نشوان أثمله اللظى بسقائه
وإذا الأصيل علا السماء حسبته   ذا لوعة حانت نوى قربانه
وحمى على قُبَلِ الظلام ثغوره   كمعشَّقٍ متستِّرٍ بردائه
وتراه يرنو للنجوم كأنها   حُلْمٌ يُطِلُّ عليه فى حَوْبائه



شارلس لام يروى عن شاكسبير

٢ ـ قصة الشتاء

بقلم الأستاذ دريني خشبة

وهرول بها إلى كوخه ولقى زوجته هاشًّا ، ثم دفع بالطفلة الميمونة إلى صدرها اللطيف قائلاً : « أرضعيها ياموبسا ... أرضعى ابنة الملوك الصيد » ونظرت الراعية إلى بارديتا تارة ، وإلى طفلها أخرى ، وكأنما جزعت أن تشركه هذه الغريبة النازحة فى لبنه ، فقال الراعى وهو يوشك أن يجن : « أرضعيها ياموبسا فقد حملت إلينا كنزاً وجعلتنا سادة الرعاة ! » . فانبلجت إشراقة سعيدة فى أسارير المرأة ، وأبرزت ثديها الكبير الممتلئ باللبن فدست حلمته فى فم الطفلة ...

وخشى الراعى أن يبدو عليه الثراء المفاجئ إذا هو تصرّف في شيء من جواهر الطفلة بالبيع أو بغيره ، فرحل عن الإقليم كله ، ونزح إلى طرف سحيق ناء فى أقصى حدود بوهيميا . وهناك تلبث غير قليل ثم باع جزءاً من الكنز الملكى الكريم ، وابتاع بما حصل فى يديه من ألوف قطماناً كثيرة . وما هى إلا سنون حتى درّت له أخلاف الثروة ، ونضر الله الأرض تحت رجليه بالرزق ، فعاش عيشة راضية مُخفرجة ، وعلّم بارديتا ونشأها بين الضأن البُهْم ، فشبت فى هواء الطبيعة الحر الطليق وفى ميدانها السندسى الواسع ، لا صديق لها إلا كلبها الأمين الوفى ، ولاحديث إلا الأحلام الخافتة تتردد فى فم القمر الصامت ، ولا أطماع إلا أن تكبر البهم وتدر ألبانها

وشبت جميلة ناصعة كتمثال المرمر قد صقلته يد فنانة صناع ... رزينة كأنما أوحى إلى قلبها الصغير الخلى أنه مسرح لمأساة صامتة ومعبد لآلهة وسنانة تجثم فيه لحينها !

وكان لملك بوهيميا ابن مولع بالصيد ، يرتاد من أجله المسايل والوديان ومشارف الجبال . فبينا هو يصيد يوماً فى ذلك الصقع إذا عيناه تقعان فجأة على بارديتا ، وإذا هو يقف مسبوهاً زائغ البصر يعبد الفتاة البارعة الفينانة ، ويردّد عينيه فى عالم جسمها الزاخر بأمواه الجمال ...

لله لحمها الوردى . وجبينها السَّنيّ ، وفمها الخمرئ القرمزى وشعرها المُعْدَوْدِن الذهبى ، وطرفها الساجى ! ولله هذا الحمل

كالطفل يُبْصر فى الوذيلة وجهه فيخال ذاك الوجه من قرنائه
تحكى النجومُ الزُّهرُ فى دوراتها رقصَ المدلِّ بعيشه وروائه
والنجم من خلل الغصون كأنه ثمرٌ تدلّى من علىٍّ سمائه
والحي يحيا كالذى هو ناظر كالأفق يُرْسَمُ فى متون نهائه
والزهر يحلم بالفرادس طرفه حلم الغريب بأهله وفنائه
حسب الطيور تحاملت عن قلبه وبدت تبوح بشجوه ورجائه
والقلب مرآة الزمان فصيفه فى صيفه وشتاؤه كشتائه
والكون مرآة الفؤاد فقبحه وجماله فى نحسه ورخائه
والضوء خمر للربيع فلا تعفْ جُرَعاً تنيلُ الخلد من صهبائه

هذى الطيور لسانه وغناؤها مستأنف من شدوه وغنائه
والزهر فى حر الهواجز نائم سحرته باللحظات عين ذُكائه
والأرض تحلم بالجنانِ فصيفها حُلُمٌ يزيح القلب عن ضرّائه
بَسطَ الجمالُ على الفضاء جناحه فالصيف من لألائه وروائه
فكأنه مَلَكٌ يُحلّقُ فوقها فتصيب من آلائه وعطائه
يا ليت أن المرء فى أرجائها مُتفرّقٌ فى أرضه وسمائه
حتى يصير من الجمال بمنزل فى مائه ونسيمه وهوائه
وتظل تسمو النفس فى آفاقه كالطير حلّق فى أديم فضائه

عبد الرحمن شكرى

الناعم القطيفي الذي سلبته لها الطبيعة من خوخ بوهيميا ! لقد ملأت بارديتا قلب فلوريزيل وعينيه ، وسرت كالحُميّا في دمه ، فنقلته من دنيا إلى دنيا ، ومن مُـلك إلى مُلك ، وركبت له قلباً غير قلبه ، وإحساساً مرهفاً غير إحساسه ؛ وسرت في خياله طيفاً معبوداً جمل الحياة جيلة مثلها ، حبيبة لأنها فيها ...

وهكذا عمر قلب الفتى بحب الفتاة ، فبات لا يفكر إلا فيها ، ولا يتوجه بأحلامه إلا إليها ... وأخذ يكثر الصيد في هذه الجهة ويتردد على هيكل غرامه المقدس لينشق عبيره ، وينعم بأرج الحب في أكنافه ... ثم لم يطق أن يظل هذا حاله ، فتنكر في ثياب شعبية ، وصار يتردد على كوخ الراعي فيحدثه ويسمر إليه ، وآنس فيه لطفاً وظرفاً وتأدباً ، فمال إليه ، واطمأن فؤاده لصحبته ... وكان فلوريزيل فتى مشرق الشباب حلو الفم ، يتحدث فتنجذب إليه الأسماع ، ويصمت فتسرح في وجهه العيون

وأتى الفتاة فنمت عيناه الدنفتان بكل ما في قلبه ، وجميع ما يتأجج بين أضلاعه ففتحت له قلبها الخلي ... وهرول هو من عينيها الصافيتين الساحرتين ، ومن فمها القرمزي المُتَمْتِم ، إلى أبعد أغواره ...

وذكر لها أن اسمه دوريكليز ... !

***

وطال غيابه من حضرة أبيه الملك ، وتعدد ، وأصبح لا يهمه أن يغشى المجالس الملكية ، فجمجمت نفس أبيه بأشياء فراح يدبر أن يعرف منها ما حرص ابنه أن يخفيه عليه

وأرسل عيونه في عقبيه ، فعرفوا ما بينه وبين بردينا

ودعا الملك إليه صديقه كاميللو ، كاميللو المخلص الذي أنقذه من السم في بيت ليونتس ملك صقلية ، فكشف له عما في نفسه وذهبا متنكرين في إثر فلوريزيل إلى كوخ الراعي ... والد بردينا فيما زعم له الزاعمون

وكان عيد الصوف الذي يجزون فيه الأغنام ، وكان الكوخ وما حوله في حركة صاخبة ومرح ، وكان المدعوون جالسين إلى الموائد الحافلة بالآكال والأشربات والأشواب المعممة بالحبب ، وكان الولدان والعذارى والغانيات يرقصون على نغم الناي فوق العشب الأخضر ؛ وكان بائع متجول يجلس في ناحية وقد التف حوله فتيان وفتيات يشترون ويشترين ، هذا رباطاً وهذه قفازاً ... وكان فلوريزيل قد انتحى وبردينا ناحية ، وراحا يتناجيان ويتباثان ، غير معنيين بهذا الحفل الراقص ، المائد بالأذرع والسيقان ، المائس بالقدود والنهود

ودلف الملك نحو الجهة التي اعتزل ابنه الناس فيها ، ودلف وراءه كاميللو ، ثم جلسا عن كثب ، بحيث يسمعان نجواهما

— عجباً يا كاميللو ! إن هذا الجمال وهذا السمت كثيران على ابنة راعٍ نشأت بين البهم ، وشبت في جنبات المروج !

— ولم يا مولاي ؟ أليس الرجل أغنى رعاة بوهيميا ؟ إنه ملك القطعان ، وابنته من أجل ذلك ملكة اللبن والقشدة !

— إن فلوريزيل يجلس بين يديها كالحَمَل !

— وليس هذا عجيباً أيضاً ، لأنها خبيرة بتأديب الذئاب !

وتبسم الملك ثم ترك صاحبه وقصد إلى الراعي فسلم عليه ثم قال :

— عمرك الله أيها الأخ ! من هذا الدنف المتبول الذي يناجي فتاتك الهيفاء ؟

فقال الراعي : « ذاك الفتى ! إنهم يدعونه دوريكليز ، وكل منهما يهيم بصاحبه كما ترى ... ولست أدري أيهما أسعد بإلفه من الآخر ؛ بيد أنني لا أشك في أنه إذا اختارها لتشركه في حياته فإنه يفوز بشيء عظيم جداً ، لأن وراءها كنزاً لا يحلم مثـله بمثله !! »

وعم الملك شطر الحبيبين فقال يخاطب ابنه وهو يمضغ كلماته ويعطها ، حتى لا ينكشف أمره : « أنت أيها العاشق الصغير ، فيم اعتزالك هذا العيد بما فيه من لهو ومرح وقصف وعزف ! ويحك ! لقد جاء عليّ حين من الدهر أحببت فيه كما تحب أنت اليوم ... وكنت أسجل حبي بالهدايا والتذكارات ، فما لك لا تشترى لحبيبتك من البائع المتجول كما يشتري الولدان لِعذَاراهم ؟ »

وقال فلوريزيل ، وهو لا يدري أنه يخاطب أباه ومولاه :

« تالله يا أبتاه الشيخ لو اطلعت على ما في جوانحنا لاستقللت الدينا بأسرها هدية لحبيبتي بردينا . وإن هديتي لها هي هنا ... في هذا المكان الأمين ... في قلبي »

ثم التفت إلى الفتاة وقال : « أوه يا بردينا ! إصغي إلي يا حبيبتي ! لقد سأل هـذا الرجل الشيخ أن أقدم لك هدية كما كان يفعل إذ هو فتى ذو صبابة وذو هوى ! فهأنذا أقدم لك فؤادي بين يديه وأجعله شاهدي ؛ وهأنذا أعلن أمام الملأ أنني أكون أسعد الناس لو رضيني أبوك زوجاً لك ، ويسعدني أن يبارك هذا الشيخ عقد حبنا وصحيفة ارتباطنا ! ... »

ولم يطق الملك على تصرف ابنه صبراً . فانتزع دِمَامه[1] ، وكشف عن حقيقته ، ثم صرخ بابنه قائلاً : « بل أشهد على صحيفة طلاقكما أيها الشقى ! ما شاء الله يا ولى العهد ! لم يبق إلا أن تنسى دمك الملكى فتلطخه بدم هذه الراعية ! تلك الفجرية التى استهوت فؤادك وسَبَت لُبك ! الويل لك يا فلوريزيل ! إنى أنذركما معاً ! حذار أن يرى أحدكما الآخر ، وإلا كان الموت جزاءكما تجرعانه يا شقيين ! أتسمع أيها الراعى ! ذُدِ ابنتك عن سيدك أو ادفع رقبتك ثمناً لمصيانك .

ثم أمر كاميللو أن يتبعه مصطحباً فلوريزيل ، وامتطى هو جواده ، وذهب يعدو به ، وكأنه شيطان على فوهة بركان !!

وغلى الدم الملكى في عروق برديتا ، فوقفت تردد عينيها فى أثر الملك وتقول : « ويحك ! أيهذا الملك ! على هينتك ، فوالله ما أزعجتنى غضْبتُك ، ووالله لقد هممت أن أقول لك كما قلت لى ، وإن الشمس التى تشع بأضوائهـا على قصرك هى هى التى تشع بلألائها على كوخنا هذا الهادىء الصغير ! ولـكن ! واأسفاه ! لقد أيقظتنى لهجتك الجافة ذات الصرير من أحلامى السعيدة التى رفعتنى حيناً إلى مصاف الملوك ! فيا أحلامى ... وداعاً ... ووداعاً أيها الأمير ! وداعاً يا مولاى . ! أتركنى أرجوك !

أتركنى لخرافى ونعاجى الحبيبة أرعاها وأحتلبها ..! وأبكى معها فوق المروج الخضر والعشب الحلو !

وانهمرت عبراتها فجأة ، فوجم ولى العهد المعذب ، ووقف كاميللو ساهماً متأثراً ... ثم خطر له أن ينقذ الحبيبين ، وأن يصل حبلهما المقدس ، لأن قضيتهما من قضايا القلوب التى لا سلطان لأحد عليها ، والتى لا تقوى على فصمها حتى يد الموت التى هدَّد بها الملك المغيظ الغَـضِب

وكان كاميللو قد علم بما كان من حزن ملك صقلية وتوبته وحسن إعذاره وجميل إنابته ، بعد موت هرميون ، وكان الشوق إلى الوطن والحنين إلى الأهل قد برَّحا به ، ففكر لِتَـوِّه أن يفر بالحبيبين من وجه ملك بوهيميا ، إلى رحاب ملك صقلية ، حيث تق شفاعة ليونتس ، من غضب پوليكسينز ، وحيث تتيح[2] الفرصة للود القديم فيحيا ويتجدد ، وتتهيأ القلوب للمصافاة فتنسى

وعرض عليهما مابدا له من الفرار فانشرحا له ووافقا عليه ؛ ثم كلم الراعى فى شأنه ونعمه وقطعانه فتركها فى عهدة صديق له وجمع ما خف حمله من ماله وما احتفظ به من جواهر پرديتا وثيابها التى وجدها فيها والورقة التى كتب عليها اسمها وشىء من نسبها وحديث مأساتها ... ثم لاذ الجميع بالفرار

وكانت مجازفة مليئة بالشجن ، فى طريق محفوفة بالمخاطر واستأذن كاميللو على صديقه ملك صقلية ، فتلقاه بعينين باكيتين محزونتين ، وضمه إلى صدره كأنما كان يعانق أشباح الذكريات الحبيبة ، ويضم طيف الماضى العزيز ...

— مرحباً كاميللو... مرحباً بحبيبى المخلص،ومشيرى الأمين .

— مولاى ! ...

ثم انحبس منطق الرجل فلم يزد على هذا ، وترك لدموعه أن تتكلم !!

ولما هدأ ، وسكنت نفساها ، قدَّم إليـه كاميللو ولى عهد بوهيميـا ، ابن صديقه الأعز ، وحبيبه الأوفى ، پوليكسينز ! فتبسم له الملك ، وتلقاه بالأهل وبالسهل ، ثم طبع على جبينه قبلة التكفير عما ظن بأبيه من سوء . وقدم فلوريزيل فتاته پرديتا قائلاً : « خطيبتى الأميرة پرديتا يا مولاى ! » وهش لها الملك وبش ، ولـكن سرعان ما تبددت ابتساماته فى جو من الذكرى دَهَم فؤاده فجأة !

لقد نظر الملك إلى الفتاة الجميلة الرائعة فكأنما وقف فى ظهيرة غائمة قاتمة فوق قُلَّة جبل ، ينظر إلى أشعة الشمس تنمر سهلاً نائياً كله ورود ورياحين وأزهار !

لقد ذكر ماضياً سعيداً حافلاً بالهناءة عند ما رأى پرديتا !

لقد رأى فى عينيها أحلامه الرائعات !

لقد أحس بقلبه يثب من صدره إلى حدقته ليرى إلى الأميرة القادمة ؟!

وَيْ ! تُرى ! هل من الجنة آبت هرميون !

أليس هذا هو طيفها الحبيب يتمثل له فى هذه العذراء الفتان ؟

ولحظ الراعى ما بده الملك من پرديتا فوجب قلبه ، وطفت ذكرياته القديمة فوق بحر لجى من عباب نفسه ، لـكنه صمت مع ذلك ولم ينبس

« يتبع » دريني خشبه

(١) الدمام ما طلى به الوجه وغيره ونحن هنا نترجم بها كلمة المـكياج التى تزيد على الدمام بالشارب المصطنع واللحية وشعر الحواجب والرأس . وحبذا لو وافقنا علماء اللغة فخصصوا الدمام (للمكياج) والتطرية (للتواليت)

(٢) تاح يتوح ويتيح تهيأ



الحركة الفكرية والجامعية في مصر

أصدرت الحكومة المصرية في هذا الشهر كتاباً للدعاية عن مصر باللغة الانجليزية هو Egypt to doy وقد شمل كثيراً من نواحي النشاط الاقتصادي والعلمي والاجتماعي في القطر ، وكان مما اشتمله هذا السفر مقالة للدكتور محمد مصطفى زيادة الأستاذ المساعد بكلية الآداب عن النهضة الفكرية في مصر جاء فيه: « كان تأسيس الجامعة المصرية عام ١٩٠٨ أحد العوامل الفعالة الحيوية في قيام النهضة الذهنية في أرض الفراعنة ، أما قبل هذا التاريخ فكانت مدرسة الشيخ محمد عبده الأزهرية (المتوفى سنة ١٩٠٥) والمدارس العليا التابعة لوزارة المعارف المصرية هما القوى الوحيدة التي شنت حرباً عواناً صالحة على الجمود المُردي الذي كان ضارباً بجرانه على البلد ؛ بيد أن كلتا القوتين قد عاق تقدمهما طبيعة مجالهما ووجودهما ، مثال ذلك أن مدرسة الشيخ عبده كانت تتألف من شرذمة ضئيلة من المصلحين الغيورين الذين حاولوا — متفرقين — القيام بتغييرات شاملة في نواح عدة رغم ما كانت تهدّدهم به الرجعية والجمود ، ومن ثم فانه على الرغم من أن مشكلة التقدم الفكري كانت أقرب الأمور إلى نفوسهم إلا أن اتساع مدى مثلهم العليا لم يسمح لهذه الناحية إلا بالقدر الضئيل من اهتمامهم . أما المدارس العليا التي كانت تابعة لوزارة المعارف فإنها لم تستطع أن تتزعم الحركة الفكرية ، ولا تُؤوى إليها النهضة الذهنية في البلد ، ومرجع ذلك وجودها بالكيفية التي كانت عليها ؛ إذ أن مهمتها كانت تخريج موظفين مدنيين وحكوميين لمصالح الحكومة المختلفة .

ومن الحق أن تضخم عدد طلاب هذه المدارس الذين كانت توفدهم الجامعة إلى أوربا عاماً بعد عام للحصول على درجات وإجازات جامعية قد عاد على مصر بالفائدة المرجوة التي تكافئ المهمة التي أدوها للدولة ، إلا أن عدد هؤلاء الجامعيين كان محدوداً على العموم ، كما أن التعليم الجامعي في مصر كان « واردات غير منظورة » فكان داعياً لضرورة إيجاد جامعة واحدة على الأقل في مصر . وكان إنشاء الجامعة القديمة بدء ظهور معهد على فريد ولم تعقه صعاب المصلحين والمدارس العليا ، بل كان له أثره الصالح وفائدته المرجوة في مصر ؛ بيد أن الجامعة وجدت عقبة مالية كأداء في سبيلها إذ كانت تقوم على هبات شرعية سرعان ما اتضح أنها غير كافية ؛ ولكن لحسن الحظ أمكن التغلب على هذه الصعوبة عام ١٩٢٦ م حينما أشرفت عليها الحكومة — بإيحاء المرحوم الملك « فؤاد » الذي كان أول راع للجامعة وأول حادب على التعليم — وجعلتها في سلك النشآت الحكومية ومنذ ذلك الوقت والجامعة تخطو نحو الكمال . كما أن مبانيها الفخمة في الجيزة دليل ملموس على النهوض بالحركة الفكرية

وبفضل رعاية الحكومة لها زادت ماليتها من ١٠ر٠٠٠ جنيه في سنة ١٩٢٥ إلى ٢٧٨ر٧٨٦ جنيه مصري عام ١٩٣٢ كما أن عدد طلابها النظاميين يشير إلى روح التقدم السريع ، فلقد كانوا ١٠٧ طالب قبل سنة ١٩٢٥ ثم ما لبث أن بلغوا ٢٣٨١ في ١٩٣٢ ، وكان هذا العدد موزعاً بين كلياتها الأربع إذ ذاك وهي : الآداب ، والعلوم ، والحقوق ، والطب ، وإن كليتي الآداب والحقوق لها من الجامعة القديمة ، أما الطب والعلوم فمن آثار الجامعة الجديدة وإن كانتا في أصلهما مدرستين عاليتين

وفي سنة ١٩٣٥ ضمت المدارس العليا الأخرى للجامعة ، فأصبحت الآن تضم بين جوانبها سبع كليات هي : الآداب ، والعلوم ، والحقوق ، والطب (بما فيها الصيدلة وطب الأسنان والطب البيطري ومدرسة الممرضات) ، والهندسة ، والزراعة ، والتجارة . وبلغت ماليتها ٨٥٠ر٠٠٠ جنيه في ١٩٣٦ . وعدد طلابها النظاميين في العام الدراسي الحالي ٦٧٨١ طالباً

نظم الامتحانات ورابطة التربية الحديثة

تعقد رابطة التربية الحديثة، برياسة الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك مدير معهد التربية للبنين، اجتماعاً في الساعة الخامسة من يوم الأربعاء المقبل بمدرسة فاروق الثانوية بالعباسية

ويثير الأعضاء في هذا الاجتماع موضوع الامتحانات في مصر، وقبل المناقشة يتكلم الأستاذ الدمرداش محمد مراقب الامتحانات المساعد في نظم الامتحانات المتبعة في مصر ورأيه الشخصي فيها. ويتكلم كذلك الدكتور عبد العزيز القوصي في موضوع أثر الامتحانات في التربية

وبعد هذا يطرح الموضوع للمناقشة. وهو من الموضوعات القوية الحساسة التي ترتبط بها النهضة التعليمية في البلاد ارتباطاً وثيقاً

فإن الاعتراضات المختلفة ترد على نظم الامتحان. وكثيراً ما أخفق فيه النوابغ، وجازه المتأخرون الضعاف

وعند علماء النفس أن نظام الامتحان في بعض صوره جدير أن يربي عند التلاميذ الخوف والجبن والتملق. وهو عند آخرين لا يمكن أن يعتبر مقياساً صحيحاً للتفوق بين الأقران

ويراه فريق من علماء التربية شراً لابد منه، بينما يراه آخرون نظاماً تلعب فيه الصدفة دوراً عظيم الأهمية

محطة إذاعة مصرية بوليسية

تعنى محافظة العاصمة باستخدام الوسائل والاختراعات الحديثة التي تعين رجال البوليس على أداء أعمالهم بالقدر الذي تسمح به ميزانيتها

وقد ارتأت الحكمدارية أخيراً أن تستعين بالإذاعة اللاسلكية للبحث عن المجرمين الفارين، وإذاعة التعليمات على رجال البوليس في مختلف المناسبات، فأنشأت محطة خاصة بها في إحدى غرف الدور الأول بالحكمدارية لإذاعة أوامرها على موجة خاصة بجهازات رجال البوليس، وستذاع هذه التعليمات بواسطة « شفرة » خاصة لا يعرفها إلا البوليس

وأعدت الحكمدارية جهازات التقاط في جميع سيارات البوليس، وفي أقسامه المختلفة، لالتقاط ما تذيعه المحطة

وقد جهزت الحكمدارية غرفة الاذاعة بثلاث آلات للتليفون، لتلقي الأخبار المراد إذاعتها من أقسام البوليس في أنحاء القاهرة كما جهزتها بآلة للتلغراف لتلقي الأخبار من الأقاليم

وقد اقتبس هذا النظام من بعض دوائر البوليس في أوربا، والمنتظر تعميمه في إدارات البوليس في بعض المدن الأخرى

مؤتمر المستشرقين في دورته العشرين

تلقت الحكومة المصرية دعوة للاشتراك في الدورة القادمة لمؤتمر العلماء المستشرقين الدولي وهي الدورة العشرون المزمع عقدها في مدينة بروكسل في الفترة القائمة بين ٥ و١٠ من سبتمبر القادم

كتاب عن قناة السويس

قالت جريدة « الديلي ميل » في عددها الصادر في ٤ أبريل إن وزارة الخارجية منعت نشر بعض فقرات جوهرية من كتاب: « رواية قناة السويس » الذي يتضمن تاريخ الدسيسة السياسية الدولية التي أدت إلى حفر القناة والاشراف عليها، ثم قالت إن هذا المنع قد يؤدي إلى عدم طبع الكتاب

وقد توفي السر جون دافيز أحد مؤلفي هذا الكتاب، وعلى ذلك سيكون رفيقه المستر جرينول والناشرون أصحاب الحق في تقرير نشر الكتاب، ولما كان السر جون دافيز سكرتيراً خاصاً للمستر لويد جورج في أثناء توليه رياسة الوزراء فقد رأى قبيل وفاته أن يعرض الكتاب على وزارة الخارجية لتوافق عليه

وقد قال أحد موظفي الوزارة: « لقد درسنا الكتاب بعناية وهو يتعلق بمسألة معقدة جداً لها تأثير كبير في السياسة الدولية فرؤي أن هناك بعض فقرات في الكتاب غير مرغوب فيها لأنها من قلم رجل كان يشغل فيما مضى منصباً رفيعاً في الحكومة بحيث يحتمل أن يعتقد العالم أن هذه الآراء تعبر عن آراء الحكومة، ونحن نعرف أن السر جون دافيز كان قبل وفاته لا يعرف هل يسحب كتابه جملة أو يعدل الفقرات التي يعترض عليها »

وقد علمت جريدة « الديلي ميل » أن جزءاً من الكتاب يتعلق بمستقبل القنال عند ما ينتهي أجل الامتياز بعد ثلاثين سنة

رسالة مصري في باريس

سيدي صاحب « الرسالة »:

بعث إليّ شيخي وصديقي الأستاذ (لويس ماسينيون) بالجزء الأخير من المجلة النفيسة التي يخرجها في باريس « مجلة الدراسات الإسلامية Revue des Etudes Islamiques » (Année 1937. Cahiers II-III)

وموضوع هذا الجزء رسالة مسهبة فى الشعائر الخاصة بالجنازات فى مصر لهذا العهد . وأما صاحب الرسالة فشاب مصرى يدعى م . (؟) جلال ، وهو ممن يأخذ العلم فى باريس عن الأستاذ لويس ماسينيون ثم الأستاذ موس Mauss (مدرس علم الاجتماع فى الكوليج دى فرانس)

والرسالة تعرض « الطقوس » الخاصة بأحوال المرض والاحتضار فضلاً عن أحوال الموت والجنازة . ثم تبين الإضافات التى بين تلك « الطقوس » والشؤون الاجتماعية والدينية والأخلاقية

ثم تبسط ألوان الشعور وضروب العقائد التى ترجع إليها تلك الشؤون . وللرسالة ذيلان : مضمون الأول طائفة من المراثى القومية التى تغنيها النائحات (المدادات) ، ومضمون الثانى مجموعة من الصور الشمسية تبرز للعين مثل مائدة الغسل ، والصلاة فى المسجد ، وموكب الشيخين « والمدادة » والدفن ، وإطعام الفقراء ، إلى غير ذلك مما له علاقة بشؤون الموتى

وقد فرحت بقراءة هذه الرسالة فرحاً شديداً ، ذلك بأنها مؤلفة على طريقة استقام عمودها ، وهي طريقة البحث عن أحوال الشعب وتصوراته ؛ وهذا النوع من التأليف العلمى له مكانة رفيعة فى جامعات الفرنجة على حين ليس له فى جامعتنا قليل من الحظ ، حتى أن كل ما يتصل بشؤون الشعب المصرى من أعمال ووجدانيات ومعتقدات إنما ينتهى إلينا على أقلام نفر من البحاثين الغربيين

فلا يحسن بنا اليوم أن نغفل رسالة الأستاذ م . جلال ، إذ انصرف إلى اثبات ناحية من خصائص الشعب المصرى ربما لا يتاح لها أن تبقى على حالها . ثم إنه يحق لنا أن نذكر للأستاذ ماسينيون عنايته بنشر الرسالة ورعايته لهمة المؤلف ... واسلم سيدى الأستاذ لمن يخلص لك الود بشر فارس

حول المؤتمر العام للأدب العربى فى تونس

فى العدد ٢٤٣ من الرسالة نشرنا خبراً تلقيناه من تونس بأن السيد محمد الفاضل بن عاشور يسعى لعقد مؤتمر عام للأدب العربى لتوحيد طرق الثقافة ودراسة الآداب العربية فى جميع أقطار العروبة الخ . وقد كتب إلينا الأستاذ الشيخ محمد الشاذلى السنوسى يقول إنه هو صاحب الفكرة ومقترحها ويؤيد قوله بنشرات المؤتمر وأقوال الجرائد . وسواء أكان المقترح هذا أم ذاك فإن موضع الفخر هو فى تنفيذ الاقتراح وإنجاح الفكرة . إن الآراء كثيرة والأحلام أكثر ، والعبرة بالعمل لا بالقول ، وبنجاعة السعى لا بالشروع فيه . ونحن نتمنى لهذا المشروع الخطير النجاح على أى يد وبأى صورة

الاحتفال بتوزيع جوائز مختار

كانت جمعية أصدقاء مختار قد نظمت مسابقة لهذا العام موضوعها « جحا وحماره » فتبارى فيها كثير من الفنانين المصريين وفاز بعضهم بالجوائز المرتبة والتى تبرع بها هذا العام حضرة النائب المحترم محمد شعراوى

وقد دعت الجمعية نخبة من رجال الأدب والفن مصريين وأجانب لحضور الحفلة التى أقيمت لتوزيع الجوائز على الفائزين وبعد أن ألقيت الكلمات المناسبة في موضوع المسابقة بدئ فى تقديم الجوائز للفنانين وتولت ذلك حضرة صاحبة العصمة السيدة الجليلة هدى هانم شعراوى وألقت كلمة طيبة

ثم ألقى الأستاذ على الديب كلمة الفن فى موضوع « جحا وحماره » ومما قاله :

« موضوع جائزة مختار هذه السنة (جحا وحماره) موضوع وفقت فى اختياره جماعة أصدقاء مختار كل التوفيق . إن شخصية جحا إثبات لناحية الخيال الفذ ، وإظهار لما فيها من سعة فى التصوير وقوة فى التخيل ومبالغة فى التعبير وظرف فى الأداء ، ولا أشك فى أن الاتصال على تنفيذ هذه الفكرة وتبادلها — بالبحث والتصوير والتخيل بين شبابنا الفنى فى هذه السنة ، والذى كان مرجعه إلى ما فيها من طرافة ومجون — هما أقرب ما يكون إلى طبيعة المزاج المصري — سوف يحدو جماعة أصدقاء مختار إلى التوفيق دائماً فى اختيار موضوعات تعبر عن صور من الحياة والتفكير المحلى . وشخصية جحا شخصية محبوبة فى مصر معروفة عن طريق كتاب يسمى « نوادر جحا » ويقال إن اسم جحا الحقيقى هو نصر الدين خوجه أحد شيوخ الترك الذين عاشوا فى أوائل القرن الثامن الهجرى . وكان مشهوراً بالدعابة والتظرف

وينقلون رواية أخرى ، وهو ما أعتقده شخصياً .. أن جحا شخصيته خيالية من اختراع الشيخ نصر الدين خوجه . وكان نصر الدين هذا شيخاً عالماً وكان يشتغل بالتدريس — وكانت

النكتة ألزم له من طعامه وشرابه . وفى يوم من الأيام استقر رأيه على أن يقوم برحلة تعليمية بين أهل القرى والأرياف يلقنهم فيها دروساً فى التهذيب ، وقد وجد أن أحسن الطرق التى يصل بها إلى نفوس العامة بالمعانى والحكم هى أن يضمنها قصصاً ونوادر فكاهية تحمل المغزى أو المعنى الذى يريد الوصول به إلى أذهانهم فاخترع الشخصية الخيالية (جحا) وجعله بطل قصصه »

السير جرافتون اليوت سمث

لأول مرة يؤلف كتاب بالانجليزية عن العلامة صديق المصريين أليوت سمث الذى قضى أحسن شطر من حياته الطويلة العامرة يؤكد لعلماء الأنتروبولوجيه (تاريخ الانسان الطبيعى) أن الحضارة الانسانية نشأت أول ما نشأت على ضفاف النيل وبأيدى المصريين ، معارضاً فى ذلك الأستاذ ليوناردولى مكتشف آثار أور والذى يقول بأن العراق هو منشأ هذه الحضارة . والأستاذ السير جون مارشال الذى يقول إنها إنما نشأت فى السند وفى مقاطعة بنجاب . وقد اشترك فى ترجمة حياة الأستاذ إليوت سمث طائفة كبيرة من زملائه العملاء الذين ما زالون يتمتعون بحياة مليئة حافلة . وذكروا أنه ولد سنة ١٨٧١ بمدينة جرافتون باستراليا ، ومنها كان اسمه . وكان أبوه من المهاجرين الذين ضاق بهم سبيل العيش فى انجلترا فرحلوا إلى استراليا . وما زال دائباً حتى صار ناظر مدرسة جرافتون ، ثم ناظر مدرسة سدنى . وقد التحق إليوت سميث بمدرسة سدنى الطبية فأبدى ميلا خاصاً إلى التشريح واتصلت أسبابه بأسباب أستاذ هذا الفن فى المدرسة البروفيسير ج . ت . ولسن الذى اتخذه مساعداً له حتى نال الدكتوراه فى التشريح . وفى الخامسة والعشرين وضع الأستاذ إليوت رسالة صغيرة عن (المخ) فأحدثت ثورة فى عالم الطب ، وكانت نواة لمعلوماتنا عن التلافيف والمادة السنجابية . ثم رحل إلى انجلترا فى سنة ١٨٩٦ وقد سبقه إليها اسمه فصار يتردد بين جامعتى أكسفورد وكبردج لمجرد البحث العلمى . وظل دائباً على بحوثه ثلاثة أعوام حظى بعدها بشرف الزمالة فى جامعة سنت جونس وذلك لما حاز من إعجاب الأستاذ ماكالستر رئيس مصلحة التشريح الانجليزية الذى اختاره لتدريس علم التشريح بمدرسة الطب المصرية سنة ١٩٠٠ . وقد ابتدأت شهرته كعالم عالمي مصرولوجى منذ ذلك التاريخ فقد أكب على الموميات وجماجم المتحف المصرى يشرحها ويستنتج من تراكيبها عجائب الحضارة المصرية ، وكان البرق يطير بحوثه إلى جميع أنحاء العالم فينتفع بها العلماء ويجرى وراءها صيت مصر وينتشر اسمها فى الآفاق — ثم هال الانجليز ألا ينتفعوا بالملهم العبقرى فاستدعوه لكرسى الأستاذية فى جامعة منشستر ثم لرياسة فرع التشريح بجامعة لندن حتى وافاه أجله سنة ١٩٣٧

الشريعة الاسلامية فى كلية الحقوق بباريس

أخذ يلقى دروسه فى مدرسة الحقوق بباريس الأستاذ لطفى الدكتور فى الحقوق وفى الطب ، والعضو المراسل للجنة الاشتراع الأجنبي والحق الدولى فى وزارة الحقانية الفرنسية ، وقد كان الدكتور لطفى قنصلاً عاماً لتركيا فى باريس قبلا

وسيبحث فى هذه الدروس أهمية الفقه الاسلامى وتأثيره فى حضارة شعوب الشرق والبلدان الممتدة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، واشتراع تلك الشعوب . وسيبحث أيضاً التحول الحالى فى الاسلام والبلدان المنفصلة عن السلطنة العثمانية

ويقسم الدكتور لطفى بلدان الشرق إلى ثلاثة أقسام ، من الوجهة القانونية ، وفقاً لمزاولتها العمل بالتدقيق بمقتضى الشرع الاسلامي ، كالحجاز وشرق الأردن واليمن الخ ، أو بمزاولتها الشرع المختلط على ما هو جار فى مصر وسورية وفلسطين ، أو بمزاولة الشرع الغربى كتركيا وألبانيا

ومما لا شك فيه أن هذه الدروس ستلقى إقبالاً عظيماً وستمكن الطلبة الفرنسيين من التعمق فى معرفة البلدان الشرقية

وفاة الأستاذ محمد لبيب البتانونى

فقدت مصر فى الأسبوع المنصرم عالماً من خيرة علمائها ومؤلفاً بحاثة من كبار المؤلفين فيها وهو المنفور له الأستاذ محمد لبيب البتانونى بك

ولقد عرف عن الفقيد خلال حياته الحافلة بجلائل الأعمال شغفه بالعلم والأدب وتوفره على البحوث التاريخية التى كانت تزدان بها صور الصحف والمجلات لأكثر من ثلاثين سنة خلت . ذلك إلى ما ألفه من كتب الرحلات التى دل فيها على طول باعه فى الأدب وسعة علمه بالتاريخ وقدرته على وصف عادات الأمم وطبائعها

كتاب للتلاميذ الانجليز عن نهر النيل

الانجليز هم أبرع الأمم فى ابتكار الأساليب الفعالة فى تربية أبنائهم . والتلميذ الانجليزي لا يعيش فى انجلترا فقط ، بل هو يعيش بخياله فى العالم أجمع ، وهذا الخيال المغناطيسى هو من صنع الأساتذة البارعين الذين يتخذون من خيال الصغير طريقاً إلى عقله . والكتاب الذى يصدر للصغار فى انجلترا عن النيل ليس كهذه الكتب الجافة المتحجرة التى تصرف للتلاميذ المصريين بل هو أشبه شيء بمجلة راقية تفنن فى تنسيقها المصور والرسام والجغرافي والمؤرخ ورجل التربية ورجل المطبعة فجاء آية فى الابتكار وسلامة الذوق ....فهذا هو النيل في عهد الفراعنة ، وهذي هى الأهرام والبرابي والمعابد والمسلات والعواصم المصرية القديمة ... ثم هـذا هو النيل فى عصر البطالسة وفى العصر الرومانى وفى العصر العربى ... ثم ذاك هو النيل فى عصر محمد على وإسماعيل وفى العصر الحديث ، وهذه هى خزاناته وسدوده والمدن القارّة على حفافيه ... الخ وذلك كله على لوحات تبلغ إحداها ستة أقدام طولا مزدانة بالألوان الطبيعية الجميلة الزاهية التى تنطبع بمجرد النظرة فى خيال الصغير فلا يحتاج إلى قراءات طويلة مملة

وتصدر فى مصر مجلة للتلاميذ لا بأس بها إذا عنيت قليلا بما هو مصرى وقللت من هذا السخف الذى تدأب فى ترجمته عن الكتب الأوربية المقررة وغير المقررة . فهل فكر القائمون عليها — وهم من خيرة رجال التربية المصريين — فى إصدار أعداد ممتازة بالألوان على نسق كتاب النيل الذى سيصدر فى انجلترا للأطفال الانجليز ؟ عندنا الزراعة المصرية والصناعة المصرية وطرق المواصلات والموانئ والحدائق المصرية الناشئة ودور الكتب ومصر القديمة ... الخ . فماذا يمنع رجال المجلة من تخصيص أعداد ممتازة تتناول هذه الموضوعات !!

لقب شيانج كاى شك وأعماله

اشتهر هـذا العصر بطائفة من الزعماء كان لهم أثر بعيد المدى فى توجيه شعوبهم توجيهاً سيذكره التاريخ بما يستحقه من فخر ومجد ... والذى يلفت النظر أن كلا من أولئك الزعماء اشتهر بلقب عرفه به العالم أجمع . فهتلر هو الفوهرر ، وموسولينى هو الدوتشى ، ومصطفى كمال هو الأتاتورك ، وغاندى هو المهاتما ، وكان يطلق لقب النمر على كليمنصو ... أما القائد الصينى شيانج كاى شك فلقبه جنرالسّيمو أو القائد العام . وتاريخ حياة شيانج هو قصة البطولة التى يفخر بهـا كل شرقى والتى ينبغى أن تكون مثالاً لكل من ينشد المجد لبلاده . وقد طلب إليه مرة أن يلخص هذا التاريخ فذكر أنه ولد فى شيكيانج وأنه تربى تربيته العسكرية فى اليابان وأنه تتلمذ للدكتور صن — يات — سن Sun - Yat - Sen — ثم سكت !! وقد اشترك فى الثورة على الأمبراطورية وبناء الجمهورية ، فلما مات الدكتور صن يات سن أصبح هو زعيم الصين وجامع كلمتها بعد انتصاره حربياً على خصومه . ويُعرف جيشه باسم (هوامبو) وهو أقوى فرق الصين وأكثرها نظاماً . ولو كانت الجيوش الصينية على نظام الهوامبو لما استطاعت اليابان اجتياح منشوريا ولا إذلال الصين . وقد تعلق الصينيون بشيانج تعلقاً عجيباً أظهره فى أعين العالم بمظهر الدكتاتور مع أنه أشد الناس مقتاً للاستبداد ، ومقته للاستبداد هو الذى أخجل القائد سيوليانغ فأطلق سراحه بعد أن اعتقله ومضى هو فسلم نفسه له بعد ذلك

ولا تنقص الهزائم المتوالية فى ميدان الصين من قدرشيانج ، لأن الجيش الصينى كما وصفه أحد قواده لحم ودم أمام قوى ميكانيكية فتاكة

هذا وقد صدر بالانجليزية كتاب قيم عن تاريخ حياة هذا البطل لمؤلفه العلامة الأستاذ هولنجتن . ك . تونج

الشنتو SHINTO

ما كادت صيحة النورديين تهدأ فى ألمانيا بعد طرد اليهود منها حتى ارتفعت فى اليابان صيحة تشبهها فى النعرة والتغنى بالمحتد وتأليه الأرومة والتبرؤ من الانتساب إلى الصينيين فى العنصر ، والادعاء بأنهم (أى اليابانيين) سلالة مستقلة لا عن الصين فقط بل عن جميع البشر ، لأنها منحدرة مباشرة من الآلهة ... ! وهذه دعوى عريضة جديدة ، كان الناس يضحكون من قدماء المصريين واليونانيين حين ادعوها ... وقد اتسعت آفاق الشنتويزم فشملت ديانة اليابانيين ووطنيتهم وفدائيتهم ومذاهبهم السياسية والاجتماعية ، وتغلغلت فى جميع مرافقهم الحيوية ... من عنابر المصانع ... إلى رمال الصحراء التى يقرأون فى صفحتها الغيب ... ومهما حاول اليابانيون التبرؤ من منشئهم فالثابت هو أنهم مزيج من المغول والآينو وأقوام البحار الجنوبية . كما أن الألمان ليسوا من سلالة نوردية خالصة ، وكما أن اليهود ليسوا شعب الله المختار



مفـــرق الطريق

مسرحية في فصل واحد للدكتور بشر فارس

نقد بقلم الأستاذ زكى طليمات

مفتش شئون التمثيل بوزارة المعارف

أصدر الشاعر الأديب الدكتور بشر فارس كتابه « مفرق الطريق » وهى مسرحية طريفة قدم لها بتوطئة بليغة فى المذهب الرمزى

ويقينى أن المؤلف ، وقد أحس غموض المنهج الذى انتهجه فى كتابة مسرحيته ، كما عرف جدته على الناطقين بالضاد ، لم يأل جهداً فى الشرح والتبيين مفصحاً عن ماهية (الرمزية) فى عالم الأدب وفى عالم الفن ، كاشفاً عنها سجف الغموض والإبهام ، وغايته من ذلك تيسير الفهم على القارئ إذا ما طالمه الإبهام وحيره انقلاب المعانى ، وقد طاح به الشغف بين سطور الرواية ، فجاءت التوطئة بحثاً شائقاً فريداً فى بابه باللسان العربى ، خصباً فى معارفه، محكماً فى تعابيره، بليغاً فى الدعاية لهذا المذهب الأدبى الطريف

ونبادر بتسجيل ما وضعه المؤلف فى توطئة كتابه وصفاً للرمزية بأنها (استنباط ما وراء الحس من المحسوس ، وإبراز المضمر وتدوين اللوامع والبواده بإهمال العالم المتناسق المتواضع عليه المختلق اختلاقاً بكد أذهاننا طلباً للعالم الحقيقى الذى نضطرب فيه ، تدهشنا ظواهره وتردعنا بواطنه وتعجزنا مبادئه) . إذ أن فى هذا الوصف ما يكشف للقارئ عن الكثير مما يتضمنه هذا المقال . وبالقياس إلى هذا الوصف أو التعريف نصدر رأياً فى المسرحية ومكانها من الرمزية فى هذا المقال ، على أن نعالج مذهب الرمزية فى بحث آخر موعدنا به العدد القادم :

الحادثة فى هذه الرواية ضئيلة ليس فيها شىء من المشوقات أو المفاجآت ، ولو وجدت لما أعرناها كبير انتباه ، ولما جعلنا منها قياساً للحكم على طرافة الرواية ، إذ الحادثة فى هذا النوع من الروايات وسيلة لا غاية نأتى بملخصها فى سطور عابرة :

(سميرة) تتحدث مع (الأبله) الذى يومئ ولا يجيب ، ثم يأتى (هو) شاب ظريف فيتبادل مع (سميرة) الحديث ، حديث الماضى والحاضر ، وترتفع أصوات ناى من مكان لا يرى ، فهى تارة نائحة وأخرى شجية ليسدل الستار بعد ذلك وقد غابت سميرة فى طريق ، وانحدر (الأبله) و (هو) فى طريق آخر !

أما إطار الرواية ، فقد أتى المؤلف على وصفه فى البيتين إذ قال :

(فى مفرق الطريق أى حيث ينفرج يميناً منارا وصاعداً ، ويساراً مظلماً ومنحدراً ، يلتقى العقل والشعور فيتجاذبان المرء ، ولكل منهما خطة من القوة والغلبة ، وأما الجانب المظلم فحيث يقهر الشعور العقل فينحدر المرء وقد عمى رشده إلى غاية يحترق عندها النفس ، أما الجانب النار فحيث يصرع العقل الشعور فيسلك المرء فى صعود مثلوجة يحيا عندها بنجوة من الاحتراق)

وهو وصف معبر للمعالم المنوية التى تجرى فيها حادثة الرواية وهى معالم أقامها الرمز عن طريق الاضاءة فى صعود الحظ أو هبوطه؛ وبهذا برز للرمزية فى الرواية طابع مرئى من حيث المبنى ، وهو سبيل التعبير فى الرواية عن المعنى

وما كان للمؤلف ، لولا حرصه على تيسير الفهم على القارئ للرواية ، أن يورد بعد ذلك فى تبيينه أوصاف شخصيات الرواية ، إذ أن فى حوارها المقتضب والمضطرب ، والذى يشير ولا يبين ، ما يكفى للابانة عن أنها شخصيات تتحرك وتتكلم فى إشراق روحانى وبإيماء من العقل الباطن ، وتبدر منها اللوامع النفسية متجردة من السجف والأقنعة

(سميرة) المحور الأساسى فى الرواية ، هى الرمز الحى للانسان الذى ينتهبه الماضى بحلاوته والماضى بمرارته ، وفيها يتجلى الصراع الذى لا ينقطع عن القيام بين العقل والعاطفة ، وهو صراع لم يكتب لأحدنا أن يكون فى منجاة منه ، وإنما تختلف مواقفنا منه

باختلاف انفعالات وملابسات الأحوال .

أما باعث الخامد ومثير الماضى فهو الشخصية التى أطلق عليها المؤلف اسم (هو) ، فمنه ينطلق التيار فتختلج (سميرة) مترنحة بين العقل والعاطفة ، ويقطب (الأبله) وجهه وقد ساورته المخاوف

وما (الأبله) ، وهو الشخصية الثالثة فى الرواية إلا رمز لمسكة العقل التى نجدها بعد أن يعيينا الضرب فى مفاوز العاطفة الضالة فنتعلق بها لنستريح ونربح

وتهب أنفاس المؤلف على هذه الشخصيات نافخة فيها حياة غزيرة متدفقة فإذا بها تتحرك فى رمز وتتكلم فى رمز وسط الإطار الذى ابتدعه المؤلف فى حذق ، فجاء الإطار والعقل رمزاً للنور والطريق الصاعدة، والعاطفة رمزاً للظلمة والطريق المنحدرة . وهكذا يبدو الرمز كاملاً من حيث المبنى والمعنى . وتستقر الرواية بذلك فى صميم الرمزية ، وقد تسامت على الرمزية السطحية المقصورة على الرمز بشيء إلى شيء آخر دون إظهار المبهم والمغلق من خلجات النفس ولوامعها

وأسلوب (مفرق الطريق) فصيح وبليغ ، بل إنه لتطلع إلى الشأو البعيد ، الذى قد يراه بعض القراء تفاصحاً . وربما يؤاخذ هذا الأسلوب من جانبهم بأنه أسلوب مكبوت النغم مقبوض الإيقاع إذا قورن بالأسلوب الذي كتب به شعراء الرمزية ، إلا أن واجب الإنصاف يقضى بأن نشير إلى أن الشعر شىء والنثر في مسرحية كهذه شيء آخر . هذا مع العلم بأن الشاعرية كامنة فى تضاعيف حوار هذه المسرحية

وبشر فارس كتب مسرحيته هذه متثبتاً من صيغ الرمزية وفقيها فى ضروبها ... ولا أدرى ، لو طالت مشاهد هذه الرواية أكان النفس يواتيه بمثل ما واتاه الآن . فلا تلمح العين طغيان الصناعة الحاذقة على الإلهام المحض الذى يورد الشىء وهو لا يدرى أسبابه وبواعثه ! !

وجملة القول أن (مفرق الطريق) حدث جديد فى تأليف المسرحية المصرية ، جدير بالعناية من الكتاب ومن رجال المسرح ، وحرى بالثناء وكل ما أرجوه أن تطالع هذه المسرحية النور يوماً على المسرح ، وأن تجد المخرج المسرحى الذى يحسن فهمها ليحسن تفهيمها للجمهور .

زكى طليمات



حظ العلماء والأدباء في السينما

اشتهرت السينما فى بادئ الأمر بوصف أنها وسيلة للتسلية حظ الجماهير منها أكبر من حظ الخاصة والمثقفين . فكانت أكثر الأفلام رواجاً وازدياداً تلك التى تدور حول حياة رعاة الأبقار والأفلام البهلوانية والأفلام المسلسلة ذوات الموضوعات الغثة التافهة . فلما ارتقت الصناعة ارتقت معها الأفكار ولكن هذا التطور كان يسير تدرجاً وغايته الأولى هى توفير « المتعة » مع الارتقاء إلى أفق أوسع

وقد بدأ أولا حظ الملوك ذوى العروش والتيجان والقصور ، ففى هذا الوسط متعة وبهرج وجاه يلذ الأعين ويخطف الأبصار . ومن الملوك الذين أخرجت حياتهم وأعمالهم على الشاشة قيصر روسيا ، وهنرى الثامن ، وكاترين الروسية ، وكليوباترا ، وفكتوريا رجينا ، ومارى الاسكتلندية ، وكرستينا السويدية . ومن هؤلاء من أخرج عدة مرات فى أفلام مختلفة فى عهدى السينما الصامتة والناطقة

وبجانب أفلام أصحاب التيجان تلتقى أفلام الساسة والقادة فهؤلاء يثيرون الحروب ويتحكمون فى مصائر الشعوب ويغيرون معالم الأمم ، ولكل واحد منهم ناحية خاصة تثير فى المرء الشعور وتدفعه إلى الاستطلاع ، ومن القادة الذين أخرجت حياتهم على الشاشة نابليون ، ونلسن ، وغاريبالدى ، ولافاييت ، وبانشوڤيلا المكسيكى . ومن الساسة دزرائيلى ، وريشيليو ، وبارنل الايرلندى ومترنيخ النمسوى ، وبسمارك ، وأندرو جاكسون الأمريكي ، ولنكولن

وقطعت السينما خطوة أخرى فشملت حياة الفنانين وسيرهم وهذه لاتخلو كذلك من المآسى والغراميات والمؤثرات التى يطرب لها الجمهور . ومن هؤلاء الفنانين الذين شاهدنا عنهم أفلاماً : موزار ، وشوبيرت ، ورجراند المصور ، وفاجنر ، وستراوس ، ودافيد جارك الممثل . وهناك مشروعات أخرى لاخراج حياة بتهوفن ، وليزت ، ونيجفسكى ، وساره برنار

وكان العلماء والأدباء حتى هذه المرحلة أقل هؤلاء الناس حظاً من حيث الاهتمام بأشخاصهم فى عالم السينما وإن كانت أعمالهم هى المادة التى تفخر وتحيا بها السينما ؛ ويرجع عزوف رجال السينما عن إخراج سير العلماء والأدباء إلى أن حياتهم فى الغالب حياة جافة تخلو من النعومة ومن النساء ومن الحوادث التى تثير فى الناس غرائز الاستمتاع والبهجة ؛ ولكن السينما كما قلنا فى تدرج وفى اطراد ، فلا بد لها أن تبلغ هذا الأمر فتظهره فى الثوب الحقيقي به وتبرز النواحى الانسانية فيه فتعوض بها النواحى السفلى التى تثيرها حادثة غرام أو معركة أو حريق



الفريد نوبل العالم الكيمائى صاحب الجوائز المعروفة باسمه وستخرج حياته على الشاشة

وقد نجحت المحاولة ووفق أصحابها فرأينا على الشاشة أول مارأينا فولتير ثم باستير وزولا يلهبون الأكف تصفيقاً ويملأون السمع والقلب والبصر حكمة وموعظة وتخراً

ومن المشروعات التي تشغل الأذهان الآن في عالم السينما إخراج فلمين عن تولستوي وألفريد نوبل العالم الكيمائي مخترع الديناميت وصاحب الجوائز التي باسمه لخدمة العلم والأدب والسلم



العلامة فرويد وينوى إخراج فيلم عن مذهبه فى التحليل النفسى

ولكن الخطوة الأكثر تقدماً نحو الخوارق هي الاشتغال باعداد فلم عن مذهب العلامة سيجموند فرويد في التحليل النفسي؛ وصاحب الفكرة هو الممثل الألماني كونراد فاليت الذي يعتمد في إخراج هذا الفلم على المخرج الكبير الكسندر كوردا صاحب شركة أفلام لندن

وهكذا تتطور السينما من حسن إلى أحسن فتتوطد مكانتها كوسيلة ثقافية فضلاً عن وظيفتها كوسيلة استمتاع

محمد علي ناصف

جماعة أنصار التمثيل والسينما

في السابع عشر من هذا الشهر تحتفل جماعة أنصار التمثيل والسينما بيوبيلها الفضي في حفلة تقام بدار الأوبرا الملكية تفضل برعايتها حضرة صاحب الجلالة الملك ووعد بتشريفها

وقيام جماعة أنصار السينما من الأسباب الحقيقية التي تحمل الانسان على الاعتقاد بوجود مسرح مصري، لجدها المتواصل وعملها المنتج؛ وقد أخرجت عدة روايات ناجحة ما تزال تمثل للآن على مختلف المسارح. وعلى الرغم من كونها جماعة هواة فقد أفاد المسرح على يديها مالم يفده من أكثر المحترفين جماعات وأفراداً. وكثير من الفنانين الذين تعتمد عليهم مسارحنا قد بدأوا طريقهم بين هذه الجماعة

ونصيب السينما من عملها لا يقل عن نصيب المسرح فقد أخرج على أيدي أعضائها عدة أفلام من أنجح أفلامنا المصرية

وقد بدأ حماسها يشتد ونشاطها يزداد أخيراً لما تشرفت به من الرعاية الملكية السامية في أكثر من مناسبة، تلك الرعاية التي تشمل الآن العلوم والفنون وتبشر لها بعهد زاهر سعيد في العصر الفاروق المجيد

والرسالة تتقدم بهذه المناسبة بالتهنئة إلى جماعة أنصار التمثيل والسينما راجية لها اطراد التقدم والنجاح

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧

6 me Année, No . 250

Lundi - 18 - 4 - 1938

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٢٥٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٧ صفر سنة ١٣٥٧ — ١٨ ابريل سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

شركة تنشيف الريق !.

للأستاذ عبد العزيز البشرى

أكثرت الصحف فى هذه الأيام من ذكر مقابلات لحضرة صاحب المعالى وزير الأشغال ، خاصة بتخفيض ثمن المياه فى القاهرة ، كما تردد خبر اجتماعات اللجنة المؤلفة لهذا الغرض من قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان ! . ولقد زعم لي زاعم من المؤرخين أصحاب الإحصاء أن اجتماعها الأخير كان الاجتماع الـ ٤١١ ، ٥٣٢ ، ٦٢٤ ، ٨٥٣ ، ٤٧١ ! .

فترى هل آن أن ينجح المسعى ، ويحط الشركة من أثمان الماء ، فقد مضي على سكان القاهرة ستون عاماً ، وستون عاماً غير قليل ، وهم يغصون بماء النيل . وكأن الشاعر كان ينظر بلحظ الغيب إلى القاهريّين ومايعانون من شركة المياه حين قال :

نفرّ إلى الشراب إذا غصصنا ... فكيف إذا غصصنا بالشراب؟

ترى هل ينجح السعى هذه المرة ويحق لساكن القاهرة أن يتمثل بقول الشاعر :

فساغ لى الشراب وكنت قبلاً ... أكاد أغص بالماء الفرات ؟

يا قومنا : أقسم لكم بالله تعالى ، غير حانث ولا آثم ، إن الشركة ليست تأتينا بالماء من إڤيان ، ولا من إكس ليبان ، ولا من ڤيشي ولا من بلاد اليابان حتى يُلتمس لها العذر ، بنفقات النقل فى البر والبحر ، وأجور الحزم واللفّ والتعبئة والصفّ ، والتأمين خوف الغرق والحريق ، وما عسى أن يدركه من العطب فى أثناء الطريق . وناهيكم بحساب ما قد يكسد فى الأسواق منه ، وما قد يبور فى المتاجر بانصراف (الهواة) عنه . ومن يدرى فلربما ظهرت (ماركة) ماء جديدة . (موديل سنة ١٩٣٨ أو ١٩٣٩) ، فيها من المزايا ما ليس فى هذا الماء ، فى ريّ العطاش وبلّ صَدَى الظّماء !

ليست تجيئ بشيء من هذا حتى تغلو هذا الغلوّ فى الأسعار ، توقّياً للنفقات وتوقياً للخسار . إنما تدفع إلينا الماء من نيلنا الذي يشقّ مدينتنا ، والذى يجرى بين أيدينا ، والذى طالما طغى وزاد ، حتى أغرق البلاد ، وأهلك العباد ، وأتى على اليابسة والخضراء ، وألقى بربّان الحذور إلى متن العَراء . بل إن من يرى متدفقه في دمياط أو فى رشيد ، ليحسب أنه ماض لريّ العالم القديم والعالم الجديد . وتراه يغذوا فى شمالنا وجنوبنا ألف ترعة ، فإذا جازبنا ضيقت الشركة ذرعه ، وباعتنا ماءه (بالشربة) والجرعة ! حتي أصبحنا ، ونحن نغدو على حافتيه ونروح ، نتناشد قول الشاعر :

يا صرحة المـــاء قد سُدّت موارده
أما إليك طريق غير مســدود ؟

* * *

حقاً يا سيدتى الشركة ، لقد سامتنا (عداواتك) رهقاً وعذابا ، وجرّعتنا من نيلنا علقماً وصابا ، وكان من قبل سكراً مذابا ، وكان شهدًا وجُلاّبا ، لقد ساغ ورداً وحلا شرابا ! .

* * *

حقا ، يا سيدتى الشركة ، إنك لتروّقين المـاء ولكنك تعكّرين النفوس ، وتملأين الآنية ولكنك تخلين الجيوب حتى من الفلوس !

* * *

يا سبحان الله ، يا شركة ! تعطيننا المـاء وتقتضين الذهب ، ولو كان مالنا نيلا لجفّ يا شركةُ من كثرة النزع ونضب !

إرحمينا ، يا شركة ، واعملى معنا بالمثل الذى قالته العامة من قديم الزمان : « المية ما تفوتشى على عطشان » !!!

وبعد ، فعندى ، يا سيدتى الشركة ، أكثر من هذا ، ولكن :

فى فمى ماء وهل ينـــطق من فى فيه ماء

* * *

ونرجع إلى سياقة الحديث فنقول : أفآن لوزارة الأشغال أن تنجز الوعود ، ولشركة المياه أن تعدل عن دلّها المعهود ، فترفق فى ثمن المـاء ، وتخفف عن كواهلنا ما يهدّدها من الأعباء ، فقــد اعترانا الداء من ناحية الدواء . ولله در شاعر الغبراء :

من غصّ داوى بشرب المـاء غصته
فكيف حال الذى قد غصّ بالمـاء ؟

فإن فعلت وإلا فقد طابت الهجرة إلى البرارى والقفار ، لنتعوّض عن ماء النيل ماء الآبار والأمطار . وإني لأخشى أن تلاحقنا الشركة هناك ، وتبسط علينا سوط (الاشتراك) ، بعد أن تحوز ماء الغمام فى مواسير ، وتختم بالعداد على كل بير . فالشركة وراءنا ولو تعلقنا بالسحاب ، أو تدسّسنا فى التراب ، وأمرنا إلى من له المرجع والمآب !

* * *

أرجو أن تنصفينا ، يا شركة المياه ، وتفرّجى عنا من هذا الضــيق ، وإلا اضطررنا إلى أن ندعوك « شركة تنشيف الريق » ... والسلام

عبد العزيز البشرى

قضية اللغـــة العربية

للأستاذ أحمد خاكى

يرى الكاتب أن اللغة ينبغي أن تكون لغة معان قبل أن تكون لغة ألفاظ . وأن تعليمها ينبغى أن يرمي إلى ثلاثة أغراض : أولها التدريب العقلى ، وثانيها الخبرة الحسية أو الجمالية ، وثالثها الوجهة النفسية . وهو يبحث فى بعض وسائل تعليم اللغة العربية وينقدها فى هذا المقال

١ – أصول نفسية لتعليم اللغات

إذا نحن عالجنا الوسائل التى تكفل إدراك الغايات من تعلم اللغة العربية ، وجدنا أنها شعبة من الخطط العامة التى ترسمها المربون وعلماء النفس فى العصر الحديث . ويسيطر على التربية فى هذا العصر مدرستان متكافئتان من مدارس الفكر : أولاهما يتزعمها فرويد ، وثانيتهما كان زعيمها بافلوف

ويذهب الأولون إلى أن النفس جماع الغرائز والميول الفطرية ، وهذه تأتلف فى أحيان وتختلف فى أحيان أخرى . ولقد اتجهت التربية فى هـذا العصر وجهة من يحاول أن ينشئ تلك الميول سواء أكان ذلك بالاستعلاء بها أم بالتهدّى إليها . وقامت فلسفة التربية على أساس من تلك الغرائز المتوافقة المتناكرة ، بل لقد كان فتحاً جديداً فى التربية أن أصبح الطفل موضع العناية عند المربين . ولعل روسو وأضرابه من فلاسفة القرن الثامن عشر كانوا أول من نادي بتربية الطفل كطفل ، وأول من هيأ السبيل للعلماء المحدثين . على أن تلك المسألة قد اختلجت بين الفلسفة والأدب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، حتى قام فرويد يؤصل أصولها النفسية فى السنوات القليلة الماضية . وهنا ظهرت فى التربية مبادئ الحرية التي تحاول أن تساير ميول الطفل وغرائزه ، وذهب المربون يصطنعون وسائل التعليم على هدى تلك المبادئ الحديثة ، فأفلحوا في اصطناع الكثير منها فيما يتصل بكل فروع المعرفة ومنها اللغات .

والطفل عند هؤلاء عامل كبير فى تربية نفسه ، فليس هو جهازاً مستقبلا ، وليس موقفه سلبياً محضاً ، وليس ينعم بتلك القابلية التى تستوعب أيّ شئ وكل شئ من غير أن يكون له من نفسه سلطان على ما يعلم وما يعمل ، وإنما نفسية الطفل عندهم فعالة مؤثرة ، فهو تتنازعه الهواجس والعواطف والميول . وعلينا نحن أن نبسط له من العلوم ما يتروّاه وينعم به . أما وسائلنا نخيرها ما ساير ميول الطفل حتى يدفعه الشوق إلى الاستزادة من ألوان المعرفة ، وحتى يصبح تعليمه داخلياً فعالاً لا خارجياً لا يكاد يتدمّى إلى الصميم

وإلى جانب تلك المدرسة النفسية الغامرة ظهرت مدرسة أخرى تؤمن بالغرائز وبالميول أيضاً ، لكنها تؤمن فوق كل ذلك بما يسمونه الأفعال المنعكسة reflex actions وتلك مدرسة العالم النفسي بافلوف ؛ فلا يذهب هؤلاء فى تقدير الغرائز مثل ما يذهب أصحاب فرويد ولا يمعنون فى تقديرها مثلما يمعن الأولون ، وإنما يضعونها جنباً إلى جنب مع الأفعال المنعكسة التى يستطيع أن يكسبها الطفل ، ويؤمن هؤلاء بأن الغرائز والميول قابلة للتعديل عند الإنسان وأنه قد يكسب نوعاً خاصاً من المهارة إذا هو وضع تحت مؤثر دائم متكرر . فالتقليد والتكرار والمراجعة كل أولئك جديرة بأن ترشد المتعلم إلى إحسان المهارات وهى جديرة بأن تكون أساساً ثابتاً لعلوم كسب المهارة

ومدرسة بافلوف ومدرسة فرويد كلتاهما على حق . وهما فى ذاتهما تمثلان وجهتى نظار مختلفتين لكنهما متكاملتان . أما الأولى فهي تمثل الحرية فى التربية ، وأما الثانية فهى تمثل النظام . الأولى تعترف بملكات الطفل وقواه ، والثانية تحاول أن تشيع نظاماً خاصاً يأتلف تلك الملكات ، والأولى تسمح للطفل بأن ينمى كل ما وهب من مدارك ، والثانية تربط تلك المدارك بعضها ببعض حتى تصبح موثوقة الأجزاء مرتبطة الأطراف

والآراء النفسية التى يذهب إليها الفريقان تخلق دستوراً بأ كمله تجتلى فيه أحسن الوسائل لتعليم اللغات ، فاللغة من ناحية ينبغى لها أن ترتبط بالميول والغرائز التى تجتمع لدى الطفل . وينبغى أن تكون مادتها بحيث تهز مشاعره وتحرك أعطاف قلبه ، وهى من ناحية أخرى إحدى المهارات التى يكسبها الأطفال كأى فعل منعكس آخر ، ولن يتأتى ذلك حتى يكون إحسانها نتيجة لمؤثر أو باعث شديد دائم متكرر . من هذين الوجهين ينبغى لنا أن نثبت الوسائل التى تكفل إدراك الغايات من تعلم العربية . وسنرى فى نقد وسائل التعليم الحاضرة أنها بعيدة كل البعد عن ميول التلاميذ من جهة ، وأنها لا تقوم على بواعث شديدة متكررة من

جهة أخرى ، وأن تعليمها عندنا لن يستقيم حتى نداول بين هذين الوجهين من وجوه التربية الحديثة

٢ — طرق التعليم

تتصل طرق تعليم اللغات إذن بميول الانسان وغرائزه . وقد بحث المربون أقرب تلك الميول وأكثرها مواتاة فوجدوا أن اللعب يجلوها ، واتخذه كثير من المربين وسيلة من وسائل التعليم ، واللعب بمعناه النفسي فيض من النشاط الذي يغمر نفس الطفل ، وهو أشد أثراً فيها من العمل . فالعمل يفرض فرضاً لكن اللعب بادرة من وحي النفس ، وللعمل غرض قد يكون نفعياً يفسد النشاط ويخبث النفس ، ولكن اللعب لا يعرف لنفسه حدوداً ، ولا ينقلب شراً إلا إذا أصبح عبثاً غير محمود . وفي اللعب تتنظر قوى الأطفال بأكملها وتتوافى مداركهم ، واللعب في المدرسة الحديثة وسيلة للعمل فاذا أفلح معلمو اللغات في اتخاذه وسيلة لتعليمها حققوا ما ذهب إليه علماء النفس وربطوا اللغة بالميول الفطرية ربطاً محكما لا انفصام له

ولعل القصة أول أنواع اللعب التي نستعين بها في تعليم اللغة . وعند الطفل ميل طبيعي للتمثيل . ولسنا نقصد بالتمثيل ذلك النوع المسرحي الذي يحسنه الممثلون ، وإنما نقصد ما يميل إليه الأطفال من إحلال أنفسهم محل بطل القصة أو بطلتها . وأنت إذا بحثت عقيدة الطفل — بل إذا تعمقت عقائدنا الأدبية — وجدت أنها خليط من الحقيقة والخيال . ففي القصة يتمثل القارئ أو السامع نفسه في الشخصية الروائية التي يميل إليها . فالبطل ينقذ فتاة ، والبطل يقود أمة نحو المجد ، والبطل كثير الحيطة أيد شجاع ، وخلال القصة تنمو عقيدة الطفل حتى ليحسب الخيال واقعاً ، وحتى ليتداخله الزهو فيخال نفسه بطلا . ذلك عندنا نوع اللعب الذي يدفع بالناشئين إلى القراءة ، فهو يستغرق تفكيرهم ، وهو يستهلك جهدهم . وهو بعد ذلك دعامة لا تتزايل من دعامات اللغة

ولسنا ندري من اللوم على حالة الكساد التي قضت على أدب الطفولة عندنا ، لكنا نرى عند الطفل الانجليزي آلافاً من الكتب الجميلة التي تزخر بالصور والرسوم . والطفل الانجليزي يمتع في صباه بما يرى وما يقرأ ، وهو يندفع وراء القراءة بوحي نفسه ، لأن كل هذه الكتب تصادف هواه ، لكن الطفل المصري محدود الاختيار . فالمدرسة لا تعترف بما يقرأه في الخارج مهما بلغت عنايته بالقراءة ، وهو لا يجد إلا قليلاً من القصص المترجم إذا شاء أن يقرأ ، وإنه ليصرفه عن القراءة تبرم بعض المدرسين بالقصة ووصفها بأنها نوع من أنواع العبث . هذا على أنه لا يجد « مكتبة » من القصص ، لأن وزارة المعارف هي التي تحكم مصائر الأمور في التعليم ، ولأن وزارة المعارف لم تتضمن مركزيتها الاعتراف بالقصة أداة للتعليم في العربية ، ولو أنها اعترفت بها أداة للتعليم في الانجليزية منذ زمن بعيد

عالج المسترمان Mann خبير التربية هذه المشكلة في تقريره عندما تحدث عن الفرق بين لغة الحديث ولغة الكتابة في مصر . وعنده أنه لن ترقى لغة الكتابة في مصر ولن ينقص الفرق بينها وبين لغة الحديث حتى نخلق أدباً قائماً للأطفال يتضمن مادة جذابة توافق عقل الطفل . وينبغي لكتب الطفولة في رأيه « أن تحتوي تلك القصص ذات اللون الخاص التي تتمثل في أدب كل شعب من الشعوب » . والحق أن العربية ذات أدب شعبي تمثله كتب كألف ليلة وليلة . لكن ألف ليلة وليلة طبع بالانجليزية مئات المرات في أشكال وأحجام جميلة مختلفة . وقد بلغ من عنايتنا الضئيلة بمثل هذا الكتاب أننا بدأنا الآن فقط بترجمة ترجماته الانجليزية إلى العربية . ومثل هذا يقال في القصص الأخرى التي انتقلت في عصر النهضة من الشرق إلى الغرب

ولقد يطول الحديث بنا إذا نحن استرسلنا في الكتابة عن تقصيرنا في خلق أدب الطفولة . وحسبنا أن نقول إن وزارة المعارف هي الهيئة الوحيدة التي تستطيع أن تخلق مثل هذا الأدب . وما دامت المركزية أصلاً من أصول إدارة التعليم عندنا فوزارة المعارف هي التي تستطيع أن تنتخب مدرسين وكاتبين تحبسهم على عمل مثل هذا . ولا غناء عندنا في جهود فردية محمودة يقوم بها الفينة بعد الفينة أفراد متحمسون

* * *

والتمثيل المسرحي نفسه وسيلة تكفل حرص الأطفال على تعلم اللغة . ولسنا نقصد بذلك أن يكون له — كما له اليوم — إدارة خاصة مركزية . ولا أن يكون قاصراً على بضعة أفراد من التلاميذ يمثلون فصلاً أو فصلين في العام لأن ذلك قد ساير المدارس الثانوية عندنا منذ نشأتها إلا أنه لم يفد اللغة إلا قليلاً . وإنما نقصد بالتمثيل المسرحي أن يكون لكل مدرس اتجاه خاص يحبب إلى تلاميذه

ممارسة التمثيل . فإذا هو أمدهم بالقصص المسرحية العربية وعاونهم على تمثيلها من غير مسرح ولا ستائر كان فى ذلك إدراك للغرض من تعلم اللغة ، وكان فيه رياضة جمالية سامية . وخيال الطفولة ضمين بأن ينشىء مسرحاً خيالياً ، وكفيل بأن يسير بالقصة إلى حد كبير من الإتقان

والتمثيل راسخ كوسيلة من وسائل تعليم اللغة لأنه يقوم على التقليد ؛ والتقليد ميل غريزى هو الأساس الأول لدروس كسب المهارة . فإذا اتخذنا التمثيل ذريعة لتعليم اللغة أوفينا على الغاية مما نرمى إليه من تعليم العربية ؛ وأدركنا في نفس الوقت غرضنا الحسى أو الجمالى الذى أسلفنا الحديث عنه

ومثل ذلك فكرة الموسيقى والأناشيد وإلقاء الشعر والخطب عند الأطفال . والذى قلناه عن التمثيل ينطبق جميعه على كل هؤلاء ؛ وليس يكفينا فى هذه المرة أيضاً أن تكون هناك إدارة مركزية للموسيقى تلقن عدداً من الأطفال بضعة أناشيد كل عام ، بل الذى يعنينا أن تكون الأناشيد والموسيقى من بين الكفايات التى يحسنها المدرسون حتى يوفقوا بينها وبين دروس العربية ، وحتى يتخذوها مُعيناً على إحسان التوقيع وإتقان الخطابة ، والسيطرة على مخارج الحروف والكلام . دع عنك ما تراه الطفولة فى كل ذلك من الترفيه ، وما تجده من الدواعى إلى الاستزادة من معين اللغة

فإذا درج الطفل إلى الصبا بعد ذلك كان فى الأدب مجال واسع لتحبيب اللغة إليه . والأدب الذى ندعو إلى دراسته هو الأدب الذى لا يقف جامداً عند سير الشعراء والأدباء ، ولا يتغير بعصور السياسة ، ولا تنقطع بصاحبه الأسباب دون تذوق الجمال . والناشئ الذى قضى أيام الطفولة فى جو خيالى من القصص والغناء والتمثيل خليق به أن يصل ذلك بالأدب الموروث ، وأن يتأتى لأدب الرجال بما يزخر من شعر سام وبما يحتوى من نثر على منتظم

ينبغى أن يكون من أغراض الأدب أن نحيط المتعلم علماً بما ازينت به اللغة من جمال ، وأن نروض الفتيان على أسرار القول المتسق . والعبث بعينه أن نحاول تحفيظهم أين ومتى مات الأدباء والمتفننون . والعبث بعينه أن نفرض عليهم استذكار سير الأدباء وما اتصف به شعر كل منهم من جزالة اللفظ ، وما يترقرق فى كلامهم من رقة المعنى ولطف الروح ، وألا يكون ذلك إلا كلاماً يرددونه كالببغاوات ابتغاء النجاح فى الامتحان . بل الخير كل الخير أن ندفع بهم فى غمار المأثور من الأدب نعلمهم الأصول ونزكيهم فى نفس الشعر ونفس القصص ونفس المقامات حتى يخلق كل واحد منهم لنفسه مزاجاً أدبياً أو فنياً خاصاً فيما يتصل بشئون اللغة والأدب

ولعلنا نستطيع بعد الذى أسلفنا من وصف الاتجاه الحديث فى تعليم اللغات أن نلمس موطن العلة فى أساليبنا الحاضرة . وبين الذى فصلناه وبين الذى يقع الآن اختلاف عريض ليس من سبيل إلى تلافيه حتى تتكثر الجهود بعد الجهود ، وحتى تقوم مدرسة من مدارس الفكر لتخلق جواً آخر غير الذى تعيش فيه اللغة . وقد تحدرت فى أصول التعليم عندنا تقاليد ما زالت تنكر على الطفل حياته الوجدانية الخاصة ، فلم يقم إلا القليل يبعثون القصص التى توائم الطفولة . ولم يدرك أحد بعدُ الملاقة بين اللعب الحر وبين اللغة ، ولا نحسب أننا فى حالة نتوقع فيها أن نقيم العلاقة بين اللغة وبين الموسيقى والغناء ، فإن هذا أمل غير قريب التحقيق

على أن الذى نراه قريب التحقيق هو شىء واحد ينتظم كل ما ذكرنا . فإن المعلمين يخلطون دائماً بين الوسيلة وبين الغاية . ويؤمنون بأن الذى اتخذوه وسيلة إنما هو غاية فى نفسه . فقد اتخذ المعلمون الأقدمون النحو وعلوم البلاغة وسائل لتقويم اللسان وسلامة المعنى ، ويتخذها المعلمون المحدثون غايات فى نفسها يعقدون فيها أعسر الامتحانات . ولو أنهم علموا أن إحسان القول وإتقان القراءة والكتابة هى نفسها الغايات لتغيرت نظم التعليم عندنا ولتهيأ جو صالح يتحول فيه تعليم اللغات إلى المرتبة التى نبغى

* * *

ولشد ما يعجب المرء حينما يمر بنظرة عجلى على الكتب التى يدرسها تلاميذ المدارس الثانوية فى مختلف الفرق . وأشهد أنى لأتردد كثيراً أن أعقد موازنة بين الكتب العربية التى يدرسونها والكتب الانجليزية . ولعلك تدرك قليلا من مثل هذا التردد إذا علمت أن التلميذ فى السنة الأولى يقرأ حوالي أربعمائة صفحة من الانجليزية وهو يقرأ مثل هذا القدر فى السنة الثانية ، ويزيد على الخمسمائة فى الثالثة ثم يربى على الستمائة فى الرابعة . أما إذا سألتنى ماذا يقرأ هؤلاء فى العربية أجبتك بأن التلميذ لا يقرأ نصف هذا

القدر فى فرقته . ويا لضياع مجهود البلاغة والنحو لو لم يستعن بعض هؤلاء التلاميذ بالمجلات وروايات الجيب ثم بعد ذلك بالأدب الرخيص

ولنا حديث آخر عن تعليم النحو والقواعد ، واتصال ذلك بفكرة الأفعال المنعكسة نرجو أن نزجيه إليك فى الأسبوع القادم إن شاء الله .

أحمد مما كى

الحبشة تهدد مصر

بمنع زيادة النيل سنة ٨٤٧

لأستاذ جليل

المفاوضات والمخاوضات[1] بين (الحليفة) بريطانية ! و(الجارة) إيطالية ! « يا جارتا ما أنت جارة[2] ! » — بعثتنى على أن أنشر فى (الرسالة) الغراء هذه الكلمة ذات العنوان تبصرة وذكرى

* * *

قال شاعرنا شوقى :

فصر الرياض ، وسودانها عيون الرياض وخلجانها
وما هو ماء ولكنه وريد الحياة وشريانها
تتمم مصر ينابيعه كما تمم العين إنسانها
وأهلوه منذ جرى عذبه عشيرة مصر وجيرانها[3]

إذا لم يعتقد المصرى أن السودان مصر وأن مصر السودان ،

وإذا لم يؤمن بوحدة وجودها

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرته أبصرتنى وإذا أبصرتنى أبصرتنا[4]

* * *

(١) تخاوضوا : تفاوضوا ، وبينهما مفاوضة ومخاوضة ، وخاوضه فى البيع : عارضه ، وخوضه فى الماء (الأساس ، التاج) . والمعضلة هي فى الدأماء ... البحر

(٢) (جارتا) ياء المتكلم قلبت ألفاً (ما) تعجبية مبتدأ (أنت) الخبر (جارة) تمييز . يتعجب من حسن جوارها عادا إياها من أهل البيت ... لا جارة مجاورة فقط ...

(٣) من قصيدة ختامها :

ودعوى القوى كدعوى السباع من الناب والظفر برهانها

(٤) قيل : للحلاج

إذا تبدّي حبيبى بأى عين أراه ؟
بعينه لا بعينى فما يراه سواه[1]

فإن المصرى إذا لم يعتقد ذلك الاعتقاد ، ويؤمن بتلك (الوحدة) إيمانه بالله ورسوله وقرآنه فهو كافر حقُّ كافرٍ بالمصرية .

وما أريد فى هذه الكلمة أن أثبت أن الكون حقيقة وليس بوهم ، وأن شمساً فى السماء تطلع علينا كل يوم ، فإن البديهيات اليقينيات هن بديهيات يقينيات

وليس يصح فى الأفهام شىء إذا احتاج النهار إلى دليل[2]

وبعد فهذا خبر فى كتاب (التبر المسبوك) للعلامة (السخاوى) فى الصفحة (٧٠) فى رسالة من (النجاشى) ملك الحبشة إلى الملك الظاهر (جقمق) ملك مصر المعظم فى سنة (٨٤٧) أرويه ليتلوه المصرى متبصراً فيه ، مفكراً فى بعد مراميه .

قال النجاشى متهدداً متوعداً :

« وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجرُّ إليكم من بلادنا ، ولنا الاستطاعة على أن نمنع الزيادة التى تروى بها بلادكم عن المشى إليكم ، لأن لنا بلاداً نفتح لها أماكن فوقانية يتصرف فيها إلى أماكن أُخَر قبل أن يجىء إليكم ، ولا يمنعنا عن ذلك إلا تقوى الله تعالى . وقد عرضنا على مسامعكم ما ينبغى إعلامه ، فاعملوا أنتم بما يلزمكم »

هذا كتاب النجاشى ، وهو لا يحتاج إلى تفسير ولا هامش ولا تعليق . وإنه ليدمغ باطل ألف مقالة ومقالة — مثل ألف ليلة وليلة — ينمقها ويلفقها سوفسطائى[3] منحط فى هوى العدو « أكل من حلوائهم ، فانحط فى أهوائهم » ليبرهن أن الإنسان مالكَ الماء ، متمدناً (أوربياً) لن يقتل أخاه الإنسان — وإن ناكره[4] وخاصمه — بالعطش[5]

« ىه »

(١) محيي الدين بن عربى

(٢) المتنبي

(٣) في (المحصل) : السوفسطائية الذين قدحوا فى الحسيات والبديهيات . وفى (التعريفات) : السفسطة قياس مركب من الوهميات والغرض منه تغليط الخصم وإسكاته

(٤) ناكره : حاربه

(٥) إشارة إلى صحف كانت تهون أمر السودان وبتره وتقول مثل هذا القول

في المذهب الرمزى

للأستاذ زكى طليمات

مفتش التمثيل بوزارة المعارف

« كتبنا فى العدد الماضى نقداً (لمفرق الطريق) وهى مسرحية تنزع نزعة رمزية فى مبناها ومعناها كتبها الأستاذ بشر فارس فجاءت تحفة فنية رفيعة . ومقال اليوم بحث فى الرمزية على القدر الذى لا تضيق به صفحات الرسالة » ز ك

الرمزية إحدى الاتجاهات النفسية فى الإفصاح والتبيين ، فهى وسيلة من وسائل التعبير عن خلجات النفس تتجاوز الرمز بشىء إلى شىء آخر ، إلى إظهار الغامض والمبهم والتائه فى منلفات الروح ، وتسجيل أصداء العقل الباطن

الرمزية عريقة فى الانسان

ليس الرمز بالشىء الجديد فى نتاج الشعور الإنسانى . ولو رجعنا إلى الوراء نتأثر مصدر الرمز لوجدناه بعيداً فى أغوار الشعور الإنسانى منذ القدم ؛ فقد سجل الإنسان الغابر فى أجواف الماضى بالنقش على الحجر والحفر على جدران المغاور ، خلجات نفسه ونجوى التائه فيها ، بعد أن أعياه الفكر فى الكشف عنها ومعرفة بواعثها ، فجاءت رموزاً تومئ ولا تفصح الافصاح كله عن أصداء النفس ولوامعها . بل من الرمز انبثقت العقائد لدى الزنوج . وما سائر طرائق الوثنية إلا رموز متتابعة لحيرة النفس أمام عجزها عن تفهم المظاهر الطبيعية الغامضة وقصورها عن إدراك أسرار القوى الخفية كالقدر والحياة والموت والبعث

فلما كد الذهن مستنبطاً أوضاعاً للحياة مصطنعاً دعائم المدنية ، وتقدم شأن العلم فحسر اللثام عن حقائق لم تتح معرفتها للأولين ضعفت النزعة إلى الرمز بعض الشىء ، ولازمها الضعف متزلاً بهـا الشحوب والهزال كلما دق الفكر فى وضع الصيغ واستنباط القيم ، وكلما كشف العلم عن حقول جديدة خفية من مظاهر الكون . وسرعان ما شغل الإنسان بالملموس من الأشياء عن التفكير وراء اللمس والحس ، وصارت خلجات النفس تصدر مصنوعة فى قوالب ، فكانت (كلاسيكية) التفكير والأدب والفن وقويت دعوة العلم بعد أن هيمن الإنسان على القوى الطبيعية فنظم عملها ، وسخرها لنفعته ولرفاهيته هازئاً بما راعه من جبروتها الأول ؛ ولكن لينلق سخريتها أحياناً وهو كظيم حينما يعاودها هذا الجبروت ، وهو طبيعة فيها ، فينفلت قيادها من يده وتطغى على قدرته . وبلغت هذه الدعوة أوجها فى أوائل النصف الأخير من القرن الماضى بعد أن سخر البخار فى وسائل النقل وإدارة الآلة ، وجاء العلم (بالمعمل) يفسر الغوامض ويحلل المركبات فقويت نزعة الإنسان إلى الأخذ بما ينتجه التحليل ، وصار العقل الصرف هو الميزان لديه فى الحكم على كل ما يقع عليه الحس وما لا يقع ، فاستنبط الفكر متأثراً (بالمعمل) ، واقعية الأدب والفن ، وهى النقل المجرد عن الطبيعة فى المحسوس والمرئى الظاهر من الأشياء ، وبذلك كمل طغيان المحسوس على ما وراء الحس

بيد أنه على الرغم من طغيان المحسوس على ما وراء الحس فإن النزعة الرمزية لم تمت فى النفس ، بل كانت لها يقظات خلال هذه المراحل المتوالية من التقدم الذهنى ، ترفع صوتها كلما راعها القصور عن إدراك كنه الحالات التى تعترضها

وما (رومانسية) الأدب والفن إلا مظهر شاحب من هذه الحالة ، وهى نزعة حطمت فى وقت ما القوالب والصيغ الكلاسيكية التى هى من فعل الفكر الخالص ، وأرسلت من القلب خلجة إحساسية مترعة ، وكان ذلك فى أواخر القرن السادس عشر فى انجلترا ، ثم فى أوائل القرن التاسع عشر فى فرنسا

وليس هذا بالأمر المعجيب المستغرب ، فالانسان يحيا بغرائزه أحياناً أكثر مما يعيش بعقله الخالص . وآية ذلك أن الإنسان ما برح يخاف الموت وهو موقن بعقله أنه نهاية محتمة على كل حى

وكان بعد ذلك أن أفلس العلم فى كثير من المسائل الحيوية على الرغم من اختراع الكهرباء وتنظيم شئون الحياة ، فقلل العلم من غلوائه فى تفسير كل شىء ، وأخفت من صوته فى دعواه الكشف عن كل غامض ، وسرعان ما استيقظت نزعة الرمز من جديد ، وبرز لها طابع فى أدب أهل الشمال من أوروبا ، وهم قوم يسكنون بلاداً يخفى الضباب معالمها فى وضح النهار ، وتطغى قتمة السحب على زرقة السماء طوال العام إلا أشهراً معدودة

هنريك ابسن وشعراء الرمزية

فطلع (أبسن) — وذلك فى أقصى الشمال ببلاد النرويج — بروايات رمزية أهمها (براند) و (بيرجينت) ، وانحدرت الرمزية

إلى البلجيك وهولندا ، فلاقت مستقراً خصباً إذ الطبيعة فى تلك البلاد تبدو كأنها غارقة فى التفكير والتروى والمراجعة ، وسرت عدوى الرمزية إلى فرنسا فطبعت أدبها وفيها ردحاً من الزمن تحتفظ منه واعية الأدب بأسماء (فيرهارين) و (رودنباخ) و (فان لربرج) و (رامبو) و (فيرلين) و (مالارميه) فى الشعر ، ثم (ماترلنخ) فى الروايات التمثيلية . وكانت الحقبة الأخيرة من القرن الماضى عصر ازدهار للأدب الرمزى فى فرنسا ، وكانت الحركة فى صميمها نزعة إلى التحرر من أدب الواقع والملموس إلى ارتياد آفاق جديدة طلباً للبحث عن الغامض من العواطف والتائه من الخلجات فى منعطفات الروح ومثانى المادة ؛ وهاديهم فى البحث والتنقيب الإحساس المرهف والإدراك المحض (والتخيل المنسرح) ، وصاغوا ما انتهوا إليه فى أسلوب طريف مترع بالأخيلة مشرق بالروحانية . إلا أنه كان للبعض منهم شطحات فى الخيال ، وجولات بعيدة فيما وراء المادة ، وغوص عميق فى متاهات القلب لم يخرجوا منه بكثير يؤبه له

ولا يتسع هذا المقام للإحاطة بالرمزية فى آداب الأمم الأخرى

الرمزية فى الأدب الاسلامى

أما فى العربية الاسلامية ، فالصوفية أبين مظاهر الرمزية . إلا أن الرمزية كانت لدى العرب علماً وليست فناً ؛ وبين العلم والفن فارق معروف ، ولذلك لم تفرض طابعها على كثير من الأدب الاسلامي ، وإن استقامت لها طريقة فى شعر (الخيام) وأمثاله ، ومن أخذ عنهم ، أو نحوا نحوه

والرمزية عند (الخيام) ضرب من الفورة الحسية حلت فيها عبقة روحانية

ولعل السبب فى أن الأدب العربى لم ينحرف إلى الرمزية الغامضة فى كثير من نتاجه ، ويخرج عن الواقعية و (الكلاسيكية) يرجع إلى الطبع البدوي الذى يميل إلى الوضوح والبساطة ، وإلى طبيعة البلاد التي نشأ ودرج وشب فيها ، حيث الشمس تسطع من أول النهار إلى آخره في سماء صافية متدخلة فى الثنايا والشقوق ، كاشفة عن ظواهر الأشياء فى جلاء ساطع ، كما أن الأدب الإسلامى لم يخرج عن الأوضاع الذى أورثه إياها الأدب الجاهلى ، واقتصر أمر التوليد فيه على التنميق فى الصيغ الشكلية

ويقيني أننا نتحرج إذا قضينا بأن الأدب العربى أو الاسلامى لم يعرفا الرمزية فى تراثهما الكبير ، إذ أن معين هذين الأدبين هو نفس المعين الذى أخذ منه الأدب الأوربى ، ألا وهو النفس البشرية . ومابرح البحث والاستقراء يتعقبان مخلفات الأدب العربى والاسلامى ، وهى مخلفات ، وياللأسف ، ما برحت مشتتة فى دور الكتب ما بين أوربا وأمريكا ليلقيا كل حين ضوءاً جديداً عليها

هذا والرمزية كما أسلفنا شيء كامن فى النفس ، تبدو صريحة كلما استشفتها الرغبة الذهنية إلى التطلع إلى ما وراء المحسوس ، وهو الباطن الثائر فى أعماق النفس ، أو كلما أحست النفس بهزيمة العقل أمام الغامض من الأمور . وها نحن أولاء فى القرن العشرين ، وهو قرن أصبحت للعلم فيه دولة ، ومع ذلك فقد قامت نظريات جديدة تدحض نظريات علمية وفلكية اتفقت عليها الآراء وقطعت بصحتها منذ مئات السنين . وهناك بديهيات عديدة ما برح للعقل فيها حيرة . ولم يبالغ (بوانكاريه) حينما قرر أن تقدم العلم تقدم آلى عجيب ، إلا أنه عجز عن أن يكشف الكشف الكامل عن كثير من الحقائق

الرمزية فى الأدب العربى المستحدث

أما ما يحضر أذهاننا من آثار الرمزية فى الأدب العربى المستحدث فينحصر فى كتابات (جبران خليل جبران) وهو لبنانى المولد عاش دهراً طويلاً من حياته فى المهجر الأمريكى فتأثر بكثير من كتاب الغرب ، واستقامت فى كتاباته طريقة رمزية تخالطها نزعة رومانسية . وقرأنا بعد ذلك شعراً رمزياً فى الأداء للدكتور بشر فارس وذلك منذ عشر سنوات فى مجلة المقتطف

وفى مؤلفات (توفيق الحكيم) نلمح الرمزية لامعة فى بعض ما أخرجه للمسرح ، ولا سيما فى روايته (شهر زاد) . وليس فى هذا ما يبعث على العجب ، فلتوفيق الحكيم نزعة صوفية أصيلة ، كما أنه أحسن استيعاب مسرحيات الايطالى (بيراندللو) ، وهو أبرز مؤلفى المسرحية الرمزية فى هذا العصر ؛ وتفهم مسرحيات الفرنسى (لونورمان) ؛ وليست مؤلفات (فرويد) و (بيرجسون) مما لم يحسن مطالعتها

فبشر فارس وتوفيق الحكيم يفترقان من مصدر واحد ، الأول يكتب متثبتاً بما تلقنه ، والثاني يؤلف بطبعه وخياله ، إلا أن لكل منهما طرائقه فى التعبير عن رمزيته ، وكلاهما يعيش بذهنه فى أوربا ويحيا بجسمه فى القاهرة .

زكى طليمات

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٣٦ —

وحي الأربعين

أصدر العقاد ديوانه « وحي الأربعين » في سنة ١٩٣٣ ؛ والسياسة المصرية يومئذ تسير في طريق معوج ، وحكومة صدقي باشا تمكن لنفسها بالحديد والنار ، و « الوفد » ومن ورائه الأمة كلها يجاهد حكم الفرد ويكافح للخلاص ، والعقاد يومئذ هو كاتب الوفد الأول ، يكتب المقالة السياسية فترن رنيناً ويلقفها آلاف القراء بلهفة وشوق في كل مدينة وكل قرية ؛ فلا عجب أن يكون العقاد بذلك عند عامة القراء هو أبلغ من كتب وأشعر من نظم ، حتى ليؤول أمره من بعد إلى أن ينحله الدكتور طه حسين بك الوفديُّ المتحمس ، لقب أمير الشعراء ، تملقاً للشعب ونزولاً على هواه ... !

ولقد يكون العقاد يومئذ على حقيقته هو سيدَ الكتاب وأمير الشعراء أو لا يكون ؛ ولكن هذه هي كانت منزلته عند الشعب يومئذ ؛ فلا يعاديه أحد إلا كان عدو الأمة ، ولا يعرض له أحد بالنقد في أي منشآته الأدبية أو السياسية إلا كان في رأي الشعب « دسيسة » وطنية أو صنيعة رجعية ...

هذه هي كانت الحقيقة في تلك الحقبة من التاريخ التي امتزج فيها الأدب بالسياسة امتزاجاً جعل طائفة كريمة من الأدباء يؤثرون الصمت واعتزال الأدب على أن ينزلوا بأنفسهم إلى معترك لا يعرفون أين تبلغ بهم عواقبه . ولكن الرافعي رجل - كان - لا يعرف السياسة ولا يخضع لمؤثراتها ؛ فهو لا يعتبر إلا مذهبه في الأدب وطريقته ؛ وسواء عنده أكان رأيه هو رأي الجماعة أم لا يكون ، ما دام ماضياً على طريقته ونهجه . ولقد قدمت القول بأن الرافعي كان يتربص بالعقاد منذ قريب لينزل إليه في معركة حاسمة تنقع غلته وتبرئ ذات صدره ، فما إن تهيأت له الأسباب بصدور « وحي الأربعين » حتى تحفز للعراك . وكان ما بين العقاد ومخلوف هو السبب المباشر الذي ألهب حمية الرافعي فنزل إلى الميدان مستكملاً أهبته مزوداً بسلاحه ، غير مكترث بما قد يناله من غضب الآلاف من القراء الذين يقدسون العقاد الكاتب تقديساً أعمى فلا يفرقون بين العقاد السياسي والعقاد الأديب ... !

وأرسل الرافعي يستدعيني إليه ذات مساء ، فرحت إليه بعد العشاء بقليل ؛ فإذا هو جالس إلى مكتبه ، وعلى مقربة منه « وحي الأربعين » وإن عليه لثوباً أحمر في لون عرف الديك ، وفي عينيه فتور وضعف ينبئ عن السهر والجهد العميق ؛ فإنه ليبدو في مجلسه ذاك كأنه عائد لساعته من معركة حمراء ... !

قال : « لقد فرغت من قراءة الديوان منذ قليل ، وإن لي فيه رأياً . فهل تساهرني الليلة حتى أملي عليك ما أعددت في نقده ؟ »

كانت هذه أول مرة يملي الرافعي عليَّ فيها من مقالاته ؛ فكانت فرصةً سعيدة لي ، أشهد فيها الرافعي حين يلقى الوحي ، وأصحبه في سبحاته الفكرية يقتنص شوارد الفكر وأوابد المعاني . وكانت فرصة سعيدة له : أن وجد يداً غير يده تحمل له القلم حين يكتب ليفرغ لنفسه ، ويخلو بفكره ؛ وما تعوَّد قبلها أن يكتب وفي مجلسه إنسان . وإن أثقل شيء عليه أن يكتب بيده ، ولكن أثقل من ذلك عليه أن يعرف أن عيناً تلاحظه وهو يكتب ، فما زال يكتب لنفسه منذ بدأ متبرماً بهذه المهمة ، ضيق الصدر بما يبذل في الكتابة من جهد . وإن خطه لأردأ خط قرأت في العربية ... حتى اصطفاني لهذا الواجب ، فلزمته ثلاث سنين لا يهم بكتابة مقال إلا دعاني ليمليه عليَّ ، حتى انتقلت من طنطا فعاد إلى ما كان من عاداته : يملي على نفسه ويكتب لنفسه ، ولم يسترح إلى كاتب بعدي يشركه في جلوة الوحي وخلوة الكتابة !

***

وجلس فأملى عليَّ مقاله في نقد « وحي الأربعين » ، من قصاصات في يده لا تزيد إحداها على قدر الكف ، فما فرغ من الاملاء حتى أذن الفجر ، وحتى كانت هذه القصاصات بضعاً وعشرين صفحة كبيرة ، تشغل بضعة عشر نهراً من جريدة البلاغ .

وكانت ليلة تحملت فيها من الجهد والمشقة ما لم أتحمل فى ليلة غيرها فقمت منهوك القوة عيّان؛ وقام الرافعى فى مثل نشاط الشاب فى عنفوانه، كأنما كان عليه عبء فرماه عن كتفيه ... !

وكان بين البلاغ والعقاد خصام، وكان بينه وبين الرافعى مودة، فما كادت تصل إليه مقالة الرافعى فى البريد المستعجل ظهر ذلك اليوم، حتى أعلن عنها وبشر القراء أن ينشرها فى غد ... وشغلت من البلاغ ثلاث صفحات فى يومين ... وكان نقداً مُراً حامياً اجتمع فيه فن الرافعى، وثورة نفسه، وحدة طبعه، وحرارة بغضائه، ولكنه كان نقداً منزهاً عن العيب

أستطيع أن أقول ويقول معى كثير من أدباء العربية: إن هذه المقالة هي خير ما كتب الرافعى فى نقد الشعر، وأقربها إلى المثال الصحيح، لولا هفوات قليلة يعفيه من تبعتها أنه إنسان !

من قرأ « على السَّفُّود » فعابه على الرافعى وأنزله غيرما كان ينزله من نفسه، فليقرأ مقال الرافعى فى نقد « وحى الأربعين » ليرى الرأى المجرَّد فى شعر الأستاذ العقاد عند الرافعي ...

ومضى يوم واحد، وظهرت صحيفة الثلاثاء من جريدة الجهاد وفيها رد العقاد على الرافعى، وقد نفذ إليه من باب لم يحسب الرافعى حسابه، فتغير وجه الحق، ودارت المعركة حول محور جديد ...

كان عنوان مقالة العقاد « أصنام الأدب » فيما أذكر، وكان مدار القول فيهـا هو الطعن على رجلين: هما إسماعيل مظهر، والمهزار الأصم مصطفى صادق الرافعى. وكان أكثرُها سباباً وشتيمة وأقلها فى الرد والدفاع. على أن العقاد لم يردّ رأى الرافعي فيما أخذ عليه من مآخذ إلا فى مواضع قليلة، وترك الرد فى أكثر ما عاب عليه الرافعى، مستعيضاً عن الرد بالشتم والسباب ... !

وإذا كان السبب مفهوماً فى طعن العقاد على الرافعى وشتيمته إياه، فأى سبب حمل العقاد على أن يشرك الأستاذ إسماعيل مظهر مع الرافعي فيما وجَّه إليه من الشتم والتهمة ؟

جواب ذلك يفهمه من يعرف أن الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب المصور، هو طابع كتاب « على السفود » وناشره ومروّجه. أفنستطيع أن نحكم من هذا بأن العقاد لم يكن يعنى الرد على مقال الرافعي الأخير وحده ؛ ولكنه وجدها فرصة لتصفية الحساب القديم كله بينه وبين الرافعى وصاحبه الذى أغراه على كتابة « على السفود »

وكان الباب الذى نفذ منه العقاد فى الطعن على الرافعى، هو اتهامه فى وطنيته، وإيهام قرائه بأن الرافعى لم يكن لينقده إلا لأنه هو العقاد السياسى الوفدى عدو الحكومة المتسلطة على الناس بالحديد والنار ! وحسبك بها من تهمة حين يقولها العقاد !

إن للعقاد مفاجآت عجيبة فى النقد، تمثل العقاد الكاتب المرن المحتال فى أساليب السياسة، أكثر مما تمثله ناقداً محيطاً يدفع الرأى بالرأى والبرهان بالبرهان !

وقرأت مقالة العقاد فى الرد على الرافعى، فوجدت أسلوباً فى الرد لم أكن أنتظره، يؤلم ولا يفحم، ويقابل الجرح بالجرح لا بالعلاج. فما فرغت من قراءة المقال حتى تمثل لى الرافعى مربّد الوجه من غيظ وغضب، مزبد الشدقين من حنق وانفعال ؛ فسرنى أن أسعى إليه قبل ميعادى لأراه فى غيظه وحنقه وانفعاله، فانتهزت ساعة فراغ فى الظهر، فمضيت إليه فى (المحكمة) ؛ فما كاد يرانى مقبلا عليه حتى هتف بى وهو يبتسم ابتسامة السرور ثم قال: « أقرأت مقالة العقاد ؟ » قلت: « نعم » قال: « فماذا رأيت فيها ؟ » قلت: « لقد كان شديداً مؤلماً ! » فضحك وقال: « والله ما رأيت كاليوم ! لقد ضحكت حتى وجعنى قلبى من شدة الضحك ... إنه لم يكتب شيئاً، ولم يرد على شيء ؛ إن سبابه وشتمه لن يجعله عند القراء شاعراً كما يشتهى أن يكون، وإن حسب أنه به يكسب المعركة. لقد حق عليه ما قلت فيه، وإنه ليعترف. إن فراره من الرد إلى السباب والشتيمة ليس إلا اعترافاً بالعجز ... »

قلت: « إذن فأنت لا تنوى الرد ؟ »

قال: « وأى شيء تراه يستحق الرد فيما كتب ؟ »

قلت: « ولكن القراء لن يفهموا سكوتك على وجهـه، ولن يسموه إلا انسحاباً من المعركة ... ! أفترضى أن يقال عنك ... ؟ »

وبدا على الرافعى كأنه اقتنع، وهاجته كلماتى مرة أخرى إلى النضال. ومعذرة ثانية إلى الأستاذ العقاد !

إن معركة تدور رحاها بين العقاد والرافعى جديرة بأن

يحتفل لها الأدباء وأن تنال من اهتمامهم أوفى نصيب ، وإن لهم فيها لمتاعاً ولذة وفائدة . وما كان لى أن أقنع وقد هجت هذه المعركة بما فيها من متاع ولذة وفائدة بأن تنتهي من أول شوط ! »

وقال لى الرافعى : « فهل توافيني الليلة لأملى عليك ؟ »

فواعدته وذهبت إليه فى المساء ، فأملى علىّ فصلا من نسخته الخاصة لكليلة ودمنة ، بعنوان « الثور والجزار والسكين ! » ثم أتمه مقالا فى الرد على العقاد . وكان فصلا قاسياً عنيفاً ، ليس من مذهب المقال الأول ولا نهجه ، إذ لم يكن المقصود به النقد وحسب ، بل الرد والسخرية والإيلام ، ثم قطع السبيل وتدعيم الدليل وتقرير المعنى فيما قدّم من مواضع النقد

ثم رد العقاد ليعلن انسحابه من المعركة ، شاكراً للذين أيدوه ، معتذراً عن عدم الاستمرار فى مناقشة دعوى الرافعى ! واستمر الرافعى يكتب حتى فرغ ...

وكان النصر للرافعي عند طائفة ، ولكنه خسر عطف الآلاف من أصدقاء العقاد الكاتب الوطني الكبير ، إذ لم يروا عداوة الرافعى له فى الأدب إلا دسيسة سياسية من خصوم العقاد !

***

وانتهت المعركة الأخيرة بين الرافعى والعقاد ، ولكن الرافعى لم يقتنع بما نال من النصر عند الصفوة من القراء الذين يفرقون بين الأدب والسياسة ، إذ كان على يقين أنه وإن كانت له الغلبة ، قد خسر أكثر الطائفتين من قرائه لأنهم على مذهب العقاد السياسى ، فظل مغيظاً محنقاً إلى حين ...

ومضت سنتان ، وتقلبت السياسة المصرية من تقلباتها ، فاذا العقاد الذى كان كاتب الوفد الأول ، خارج على الوفد ، يطعن عليه وعلى رئيسه ؛ وأنصار الوفد ما يزالون إلى يومئذ أكثر الأمة ... ووجد الرافعى فرصة سانحة لينتقم ، وليستخدم السياسة فى النَّيل من خصمه فى الأدب ، فيكيل له صاعاً بصاع ، ويحاربه بمثل سلاحه ؛ فكتب مقالاً بغير توقيع فى كوكب الشرق ، جريدة الوفد ، بعنوان : « أحمق الدولة ! » وكان مقالا له رنين وصدى ...

ونشر فى (الرسالة) يومئذ كلمات تحت عنوان « كلمة وكليمة » عرّض فيها بالعقاد الخارج على الوفد تعريضاً أليماً يؤذيه ، لم ينتبه إلا القليل

وكان مقاله عن العقاد فى كوكب الشرق ، وكلماته فى الرسالة سبباً فى أن يدعوه الأستاذ توفيق دياب ليحرر فى الجهاد بأجر كبير ؛ ولكن لم يتم بينهما اتفاق

ولم تكن تسنح للرافعي سانحة لغيظ العقاد إلا انتهزها ، فما كتب الرافعى عن شاعر من الشعراء بعد ذلك إلا جعل نصف كلامه تعريضاً بشعر العقاد . ومن ذلك ما كتب عن الشاعر المهندس على محمود طه فى المقطم ، وما نشره عن الشاعر محمود أبو الوفا فى الرسالة ، ومقالته « بعد شوق » معروفة لقراء الرسالة عامة ؛ وكلها تعريض بشعر العقاد الذى نحله الدكتور طه حسين إمارة الشعر فى يوم من الأيام بعد شوق !

***

والعداوة بين الرافعى والعقاد من العداوات المشهورة بين أدباء الجيل ، ولها أثر أى أثر فيما أنتج كل من الأديبين الكبيرين فى أدب الوصف ؛ ولا تدانى هذه العداوة فى الشهرة إلا العداوة بين الرافعى وطه حسين

وأحسب أنه كان فى الإمكان أن يجتمع العقاد والرافعى فى تحرير الرسالة لولا ما كان بينهما من خلاف وعداوة . قال لى الأستاذ الزيات مرة منذ عامين : « وددت لو يكتب العقاد فى الرسالة ! ولكنما يمنعنى من دعوته إلى ذلك أننى لا أستطيع أن أنشر له وللرافعى فى عدد واحد ! »

قلت : « فما يمنع ؟ »

قال : « أنت تعرف أخلاق الرافعى ، وأنا أعرف أخلاق العقاد ، وإن لكل منهما اعتداداً بنفسه بازاء صاحبه ، فأى المقالين أقدم وأيهما أؤخر فى ترتيب النشر ؟ إن تقديم مقال على مقال ليس شيئاً ذا بال ، ولكنه بين الرافعى والعقاد له شأن أى شأن ! »

وظل الأستاذ الزيات معنياً بهذا الأمر ، حريصاً على أن يجمع بين الأديبين الكبيرين فى مجلته ، وهو يلتمس السبيل إلى ذلك فلا يوفق ، حتى مات الرافعى فانحلت المشكلة ؛ ودخل العقاد ، ولكن بعد ما خرج الرافعى !

رحم الله الراحل ، ونفع بالباقي !

محمد سعيد العريان

عبقرية الشريف الرضى

للدكتور زكي مبارك

« قبل نهاية هذا الشهر يصدر فى بغداد كتاب في جزأين للدكتور زكي مبارك . وهذه فاتحة ذلك الكتاب ، وهي تشرح مذهب المؤلف فى دراسة الأدب العربي وطريقته فى التأليف »

أما بعد فهذا كتاب « عبقرية الشريف الرضى » وما أقول إنى شغلت به نفسى سنة كما قلت يوم أخرجت شرح « الرسالة العذراء » ، ولا سبع سنين كما قلت يوم أخرجت كتاب « النثر الفنى » ، ولا تسع سنين كما سأقول باذن الله يوم أُخرج كتاب « التصوف الإسلامي »

فما شغلت نفسى بكتابى هذا غير خمسة أشهر . ولكنها من أشهر بغداد لا أشهر القاهرة ولا باريس . وما كان لى فى بغداد لهو ولا فتون ، فكانت الليلة فى بغداد كليلة القدر ، خير من ألف شهر ، والتوفيق من أشرف الأرزاق

وكتابى هذا هو مجموعة المحاضرات التى ألقيتها فى قاعة كلية الحقوق ، وكانت تلك المحاضرات من أشهر المواسم فى حياتى ، فقد كان أصدقائى يخشون أن يمل الجمهور بعد أسبوع أو أسبوعين ، ولكن الجمهور كان يزداد إقباله من أسبوع إلى أسبوع ، ولم ينقذنى منه غير التصريح بأنى أنفقت كل ما كنت أملك ، ولم يبق إلا أن أستريح !

ومحاضراتى بكلية الحقوق فى بغداد هى الموسم الثاني بعد محاضراتى عن « المدائح النبوية » وهى المحاضرات التى ألقيتها باسم الجامعة المصرية فى قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة ، فهل يتسع العمر لموسم ثالث فى القاهرة أو فى بغداد ؟

لا تسألونى كيف ظلمت نفسى فأعددت هذه المحاضرات وأنشأت معها مقالات كثيرة جداً نشرتها صحف مصر ولبنان والعراق ورججت الحياة الأدبية فى بغداد رجاً عنيفاً ، فذلك كان أقل ما يجب أن أصنع فى مقابل الثقة التى شرفتنى بها حكومة العراق ؛ وذلك كان أقل ما يجب أن أصنع لأحفظ لنفسى مكاناً بين الأساتذة المصريين الذين تشرفوا بخدمة العراق من أمثال محمد عبد العزيز واحمد حسن الزيات والسنهورى وعبد الوهاب عزام ومحمود عزمي ؛ وذلك كان أقل ما يجب أن أصنع فى خدمة تلاميذى وتلميذاتى فى بغداد ، وقد رأيت فى وجوههم وجوه أبنائي وبناتى فكلفت نفسى فى خدمتهم فوق ما أطيق

لا تسألونى كيف ظلمت نفسى فأنفقت من العافية ما أنفقت؟ فقد ساءنى أن أعرف أن « دار المعلمين العالية » لها فى بغداد تاريخ ، فكانت تفتح ثم تغلق ، وتفتح ثم تغلق ، فاستعنت الله واستعنت بعطف معالى وزير المعارف الأستاذ محمد رضا الشبيبى وأريحية الأستاذ طه الراوى ومودة الدكتور فاضل جمالى ، وعولت على همة زميلى وصديقى الدكتور متى عقراوى ، وأقمنا لدار المعلمين العالية أساساً من متين التقاليد الجامعية ، فأغنينا مكتبتها بالمؤلفات القديمة والحديثة وعلمنا طلابها كيف يبحثون ويراجعون ، وغرسنا فيهم الشوق إلى التحقيق والاستقصاء

ورأيت أن يكون من تقاليد هذا المعهد العالى أن يخرج فى كل سنة كتاباً عن شاعر أو أديب أو مفكر لم يدرسه أحد من قبل ، فألفت كتابى هذا عن الشريف الرضى . فإن ترفقت شواغلى بمصر وأذنت لى بالرجوع إلى بغداد فسأخرج فى كل سنة كتاباً جديداً . وإن أبت تلك الشواغل أن أتمتع مرة ثانية بالاستصباح بظلام الليل فى بغداد فسيذكر من يخلفنى أنى طوقت عنقه بطوق من حديد ، وأن لا مفر له من أن يشقى فى سبيل « دار المعلمين العالية » كما شقيت

وإنما نصصت على هذه المعانى فى مقدمة هذا الكتاب لأجتذي العطف على « دار المعلمين العالية » . وممن أجتديه ؟ من حكومة العراق ، فلا يجوز أن يغلق هذا المعهد ، وإنما يجب أن تبذل الجهود ليصبح منافساً قوياً لكلية الآداب بالجامعة المصرية

قد يقول قوم من خلق الله : ولماذا ابتدأت بالشريف الرضى ! إن قالوا ذلك ، فالجواب عند الأستاذ عباس محمود العقاد ، فهو يذكر جيداً أنى قلت له يوم أخرج كتابه عن ابن الرومى : كان الأفضل يا أستاذ أن تنفق هذا الجهد فى دراسة أشعر الشريف الرضى

إن قالوا ذلك فالجواب عند الأستاذ الدكتور طه حسين ، فهو يذكر جيداً أني نبهته إلى أن الاهتمام بدراسة شعر الشريف الرضى كان أولى من الاهتمام بدراسة شعراء القرن الثالث

إن قالوا ذلك فالجواب عند نادى الموظفين بالقاهرة فقد طلب فى سنة ١٩٣٢ أن ألقى محاضرة عن أعظم شاعر فى اللغة العربية فكانت محاضرتى عن الشريف الرضى

ابتدأت بالشريف الرضى على غير موعد ، فقد رأيتنى فجأة بين دجلة والفرات ، فتذكرت أن قد جاء الأوان لدراسة هذا الشاعر الذى تعصبت له منذ أعوام طوال

ويشهد الله وهو خير الحاكمين أنى لم أفكر فى إنصاف الشريف الرضى إلا يوم قدم لى الدكتور شريف عسيران نسخة من كتاب الأستاذ المقدسى عن أمراء الشعر فى العصر العباسى ، فأزعجنى أن يهتم بابن المعتز وينسى الشريف الرضي ، مع أن ديوان ابن المعتز لا يساوى قصيدة واحدة من قصائد الشريف

فمن شاء له هواه أن يزعم أن لى غاية فى التعصب للشريف الرضى فليتق الله فى نفسه ، وليذكر أن الدكتور زكى مبارك لو كان أنفق نشاطه في الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء ، ولكنه بلا أسف سيموت فقيراً لأنه أنفق نشاطه فى خدمة الأدب العربى

والأدب العربى خليق بأن يكون له شهداء ، وأنا فى طليعة أولئك الشهداء

سيرى قراء هذا الكتاب أننى جعلت الشريف أفحل شاعر عرفته اللغة العربية ، وقد سمع بذلك ناس فذهبوا يقولون فى جرائد بغداد : أيكون الشريف أشعر من المتنبى ؟

وأستطيع أن أجيب بأن الشريف فى كتابى أشعر من المتنبى فى أى كتاب . لن يكون المتنبى أشعر من الشريف إلا يوم أؤلف عنه كتاباً مثل هذا الكتاب . والقول الفصل فى هذه القضية أن المتنبى فى بابه أشعر من الشريف ، والشريف فى بابه أشعر من المتنبى ، وكل عبقرى هو فى ذاته أعظم الناس لأن ميدانه لا يجاريه فيه أحد سواه ، والشريف بهذا المعنى أفحل الشعراء لأنه جرى فى ميادين سيظل فارسها السباق على مدى الأجيال

وما الذى يضر أنصار المتنبي حين أقدّم عليه الشريف ؟

هل فيهم من يحفظ ديوان المتنبى كما أحفظ ديوان المتنبى ؟

إن سجلات كلية الآداب بالجامعة المصرية تشهد بأنني كنت أول من دعا إلى الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبى ، ولى على ذلك شهود منهم الشيخ السكندرى والأستاذ عباس محمود والدكتور منصور فهمى

وما الذى يضر أهل العراق من أن أهتمّ بشاعر لا يعرف العراقيون موضع قبره على التحقيق ؟ أليس من العجائب أن يعرف العراقيون قبر معروف الكرخى ويجهلوا قبر الشريف الرضى ؟

إن هذا هو الشاهد على أن العوام أحفظ للجميل من الخواص !

إن كان خصومى فى بغداد دهشوا من أن أتعصب لشاعر رضى عنه ناس وغضب عليه ناس فليذكروا أننى كنت كذلك طول حياتي فوضعت بالنقد قوماً ورفعت آخرين ، وفقاً للحق لا طوعاً للأهواء

وأنا والله راض بأن يغضب علىّ أهل بغداد ، فقد غضبوا على أبى طالب المكي فمنحوه الخلود

أنا أحب الخصومات لأنها تذكي عزيمتى ، ومن أجل هذا أنظر نظر الجزع إلى مصير خصوماتى فى بغداد ، فلن يكون لي فى بغداد خصوم بعد ظهور هذا الكتاب ؛ وإنه لقادر على أن يفجر العطف فى القلوب المنحوتة من الجلاميد . سيذكر أدباء بغداد أننى أحببت شاعراً هو من ثروة العروبة وثروة العراق . سيذكر أدباء بغداد أننى وفيت لمدينتهم السحرية حين اهتممت بشاعر كان أصدق من عرف النعيم والبؤس فوق ثرى بغداد

وكتابى هذا تطبيق لما شرعت من قواعد النقد الأدبى ، تلك القواعد التى أذعتها فى كتاب (الموازنه بين الشعراء) ، وهو من أجل هذا لون جديد فى اللغة العربية . وسيكون له تأثير شديد فى توجيه الدراسات الأدبيـة ، وقد يصلح ما أفسد الزمان من عقول الباحثين

وبيـان ذلك أنى لم أقف من الشاعر الذى أدرسه موقف الأستاذ من التلميذ كما يفعل المتحذلقون ، وإنما وقفت منه موقف الصديق من الصديق . والتشابه بينى وبين الشريف الرضى عظيم جداً ؛ ولو خرج من قبره لعانقنى معانقة الشقيق للشقيق ، فقد عانى فى حياته ما عانيت في حياتى : كافح فى سبيل المجد ما كافح وجهله قومه وزمانه ، وكافحت فى سبيل المجد ما كافحت وجهلنى قومى وزمانى

وهذا الترفق فى معاملة الشريف ليس نزوة شخصية ، وإنما هو وثبة علمية ، فما كان يمكن أن أكون وفياً للبحث إلا إن سايرت الشاعر الذي أعرض عقله وروحه على تلاميذى . وهذه هي المزية التى أتفرد بها بين أساتذة الأدب العربى

سايرت الشريف مسايرة الصديق للصديق : فإن آمن آمنت ، وإن كفر كفرت . إن جدّ الشريف جددت ، وإن لعب لعبت . إن عقل الشريف عقلت ، وإن جن جننت . إن قال الشريف إن غاية الرجل العظيم هى الحرب ، قلت : صدقت . وإن قال : إن الحياة هى الحب ، قلت : والحب الحياة !

ولكنى مع هذا عاملته معاملة الصديق الأمين فنبهته إلى عيوبه بتلطف وترفق ؛ نبهته تنبيهاً دقيقاً جداً لا يفطن إليه إلا الأذكياء ، وفى بنى آدم أذكياء . نبهته إلى عيوبه أكثر من ستين مرة ؛ وما أظنه يحقد علىّ ، لأن الصديق الذى فى مثل حالى تغفر له جميع الذنوب

والشواهد فى هذا الكتاب كثيرة جداً ؛ وذلك هو أسلوبى فى البحث ، فأنا أشغل القارئ بالشاعر الذى أدرسه أكثر مما أشغله بنفسى ، وهذه إشارة أرجو أن ينتفع بها المتحذلقون

اعتمدت على طبعة بيروت وصححت ماصادفنى فيها من أغلاط ، وشرحت ما يجب شرحه من الأشعار خدمة للقارئ الجاحد الذى لا يفهم قيمة الوقت الذى ينفقه الشارح فى تحديد المعانى ؛ وصححت الكتاب كله بنفسى تصحيحاً دقيقاً . فإن رأى فيه القارئ أغلاطاً فذلك ذنب المجلة لا ذنبى . وأدخلت فنوناً من الذوق على الطباعة فى بغداد سيذكرها أصحاب المطابع ببغداد !

هذا كتابى ، أقدمه بيمينى فى تهيب واستحياء ؛ فإن رضيت عنه فذلك لطف ورفق ، وإن غضبت عليه فلست أول حسناء تجحد الجميل

اصنعى فى ودادى من التنكر والتقلب ما شاء لك الدلال . أما أنا فأشهد أنك صنعت بقلبى وعقلى ما عجزت عنه القاهرة وباريس !

أنت مظلومة يا بغداد ، وأنا مظلوم يا بغداد ؛ والظلم يجمع بين القلوب ، نصرك الله ونصرنى ، ورعاك ورعانى ، إنه سميع مجيب . وعليك منى السلام .

زكى مبارك

من برجنا العاجى

سألنى الأستاذ أحمد أمين من أيام عن فكرة غريبة قال إنها جالت بخاطره ؛ وخاطره هذا كنز لا يفنى من الأفكار الغريبة . قال :

« ترى ماذا يفعل الانسان إذا علم أنه سيموت بعد عام ؟ »

فقلت له : الجواب يتوقف على معرفة نوع هذا الانسان وطبيعته وعمله

فقال : « أنا وأنت مثلاً . ماذا كنا نصنع ؟ »

فأجبته على الفور :

أنا وأنت ؟ كنا ننكبّ فى الحال على التأليف والكتابة ليل نهار . فقال فى دهشة :

— كنت أحسبك تقول العكس ، وترى أن قرب الموت قد يجعلنا نطلق العمل ونفزع إلى حياة اللهو والمتعة ، أو على الأقل حياة الهدوء والراحة

— نحن يا صديقى نفعل ما يفعله كل أب بار . فما الذى يصنعه الأب البار بأبنائه حينما يدنو منه الموت ؟ ألا يتمنى أن يتركهم وقد اكتمل نضجهم ؟ ألا يفكر ليل نهار فى إتمام تربية هذه الأكباد حتى تقوى على المشي فوق الأرض ؟ وأنا وأنت لسنا أكثر من آباء ، لنا أكباد تمشي لا على الأرض ... لكن على الورق ....فكيف نموت وفى خزائن أحدنا صفحات من كتاب لم يكتمل فى « ضحى الإسلام » أو فى « النقد الأدبى » ، وعلى مكتب الآخر قصص تمج بأشخاص نصف أحياء يطالبون بحقهم فى الحياة ، ويمسكون بتلابيب « مؤلفهم » لا يدعونه يموت قبل أن ينفخ فيهم بعض الروح ؟ إنه ليخيل إلىّ أحياناً أن حياتنا متصلة بحياة إنتاجنا ، وإن فى أعماق كل « خلاّق » شبه غريزة داخلية تدفعه إلى الانتاج البطىء أو السريع طبقاً لطول حياته أو قصرها . إنا قد بعنا أنفسنا لشيطان « التأليف » ، ولن يتركنا هذا « الشيطان » فى راحة إلا عندما نلفظ النفس الأخير ؟!

توفيق الحكيم

المخترعات

وكتاب الفصول والغايات

لباحث كبير

(اللزوميات) هي عبقرية المعرى[1] فى النظم ، و (الفصول والغايات) هى عبقريته فى النثر . والعبقريتان فى أكثر المقاصد والمرامى تلتقيان . وفى هذه العبقرية (المعجزة الأحمدية) يقول أبو العلاء :

« إن شاء الملك قرب النازح وطواه ، حتى يطوف الرجل في الليلة الدانية بياض الشفق من حمرة الفجر ، طوفه بالكعبة حول قاف ، ثم يؤوب إلى فراشه والليلةُ ما همّت بالإسحار ، ويسلم بمكة فيسممه أخوه بالشام ، ويأخذ الجمرة من تهامة[2] فيوقد بها ناره فى يبرين[3] وقاصية الرمال »

وقد شاء الله أن يكون فى هذا الزمان كل ذلك ، فإن المرء ليسرى[4] من (الاسكندرية) طائراً إلى (قاف) سلع ، الجبل فى المدينة (يثرب) ؛ ثم يؤوب ويأوى في فراشه والليلة ما همت بالإسحار ، وطوفه حول (قاف) القصاصين و (قاف) بعض المفسرين — أى حول الكرة الأرضية — فى يوم أو ليلة هو فى الغد ، و « مهما تعش تره[5] »

وإن المصلى (أو غير المصلى) ليسلم فى مكة فيسمعه أخوه فى (سان فرنسيسكو) وأخوه الذى هو فى (طوكيو) ، ويسمعه كل صاحب (مِصْوان[6]) فى الأرض

(١) احمد بن عبد الله بن سليمان ، وفى مقدمة (القاموس) ومقالة (شق وسطيح) فى الجزء الماضى من الرسالة : احمد بن سليمان ، وسليمان جده

(٢) تهامة : مكة ، وبلاد شمالى الحجاز

(٣) يبرين من أصقاع البحرين ، ويبرين قرية من قرى حلب (معجم البلدان)

(٤) سرى وأسرى لغتان (الكشاف) وكلتاهما فى (الكتاب)

(٥) مهما حرف فى الشرط بمنزلة ما ، والهاء فى تره للسكت ومفعول تر محذوف والتقدير : ما تعش تر أشياء عجيبة ، أى ما دمت تعيش ترى شيئاً عجيباً (الميدانى)

(٦) وضعت (المصوان) لأداة الراديو وأنا أكتب هذه الكلمة عجلا ، وقد يجلب البحث والتفكير أحسن منها

وإن مركونى — وهو فى سفينته في ميناء فى إيطالية — قد أضاء بشرارة — لا بجمرة — مدينة (سدنى) فى استرالية

هي العبقرية وهم العبقريون يقذفون بالقول فيفسره الدهر بعد أحقاب أو يحققه

وقد شاء الله (جلت قدرته) أن يجىء فى هذا الزمان ما تخيله أبو العلاء فى وقته

وقد شاء الله (عظمت منته) أن يظهر اليوم هذا الكنز العظيم : كتاب (الفصول والغايات) المكتنز بالفوائد ، محققاً مضبوطاً مشكولاً مشروحاً يشرح الصدر ، ويسر العين ، ويبهج القلب ، وينور العقل

وهذا القول فى هذا الكتاب حق كله ، ولم يُهده مُهدٍ إلى فيقول الإهداء : هات الثناء . بل افتلذت ، اقتطعت ثمنه (والله) من عيشى[1] ، ومن قوتى ، وكنت لمقلى وروحى من المحسنين . وفى سبيل أبى العلاء والعلم الصومُ ووهنُ الجسم

(* * *) (الاسكندرية)

(١) قال الزمخشرى : أهل الحجاز يسمون الطعام عيشاً

فلســـفة التربية

تطبيقات على التربية فى مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٤ —

« إذا لم تكن البطالة ناشئة عن نقص فى الشخص نفسه ، فهى ناجمة من غير شك عن خطأ فى روح تعليمه !! » (١)

« إن من يأنف اليوم من حمل الفأس ومن تلويث يديه بالطين لن يصلح غداً لاصلاح أمره إذا ما ضاقت به الحياة وقسا عليه القدر ! »

« لقد أفقدناهم الحماس وا أسفاه ، وجعلناهم يقبلون على العلم بخمود دائب ، وتحجر متواصل ، وبطء شديد ! »

« من رسالة الدكتور جاكسن »

٤ — المتعلمون العاطلون

تبينت فى المقال السابق بعض نواحى الضعف فى التعليم الازهرى وبعض وجوه الاصلاح ، وسترى اليوم ناحيـة أخرى جديرة بالدرس والعلاج نظراً لمـا فيها من خطر شديد على كيان المجتمع القائم حاضره ومستقبله :

١ — العاطلون

أترى أولئك المتعلمين العاطلين ؟ أتسمع عن جيوشهم فى كل مدينة من مدن القطر ؟ أتلحظ حقدهم على كل حكومة لم تسلكهم فى سلك الموظفين المجدودين ؟ أتتبين تقاعدهم وتسكعهم وعجزهم عن المجاهدة فى الحياة إزاء الأجنبى الدخيل ؟ ثم نفورهم كبراً وتيهاً من أعمال البيع والشراء وغير البيع والشراء ، مما يظنون أنهم لم يخلقوا له فى كثير ولا قليل ؟

ذلك هو الشكل الذى نبسطه اليوم ونعالجه على ضوء التربية والتعليم ! والذى ينبغى على الدولة أن توليه من عنايتها نصيباً موفوراً نظراً لأن أولئك المتعلمين العاطلين خير تربة صالحة لانماء المبادئ والأفكار التى فيها كما قلت الخطر كل الخطر على كيان المجتمع نفسه حكومة وشعباً !

تُرى بِمَ نجمت هذه البطالة ؟ ومن هو المسئول عنها ؟ أفى البلد أزمة اقتصادية عنيفة فهم لا يجدون فيها عيشا ؟ وما بال أولئك « الأجانب » يملأون المتاجر والمصارف ويقومون بمختلف المشروعات وينجحون فيها كل النجاح ؟ ألست ترى إلى الرومى أو غيره يدخل البلد فقيراً معدماً ثم يغدو بعـد سنين صاحب متجر عظيم ومُلكٍ أعظم ؟ إن الخير فى هذا البلد كثير ، والعيش يسير ، ولكن العيب وا أسفاه فى المتعلم نفسه وما قد طُبع عليه من كره للعمل والعاملين ، وعشق « للديوان » الثابت والراتب المضمون !! ولذلك يقول الدكتور « جاكسون » : إن الخطأ إنما يقوم فى روح التربية المعطاة وما يوحيه من أن المدرسـة تأخذ بالأيدي من « الطين » حيث الجهد والنصب ، إلى « المكتب » حيث الراحة والكلام !! ألست تسمع أنشودة « الوظيفة » من أمك وأبيك وأقاربك وذويك ؟ ألست ترى « للموظف » قدراً فى المجتمع دونه قدر التاجر أو الصانع أو الفلاح ؟ ألست ترى طابع « الحكومة » يميز حامليه ويملأهم عجباً وتيهاً وزهواً وفخرا ؟ ألست ترى حولك كثيرين ممن يرون فى « العمل » حطة لهم ولعائلاتهم مع أنه قد يكون السبيل الوحيد لمعاشهم ؟ وأخيراً ألست تشاهد المئات من خريجى المدارس الزراعية والتجارية والصناعية يتكالبون على الوظائف الفنية وغير الفنية ، مع أن الدولة قد أنفقت عليهم الألوف لتجعل منهم طبقة فنية راقيـة تأخذ بيد مرافق البلد الاقتصادية وترقيها ، وتحررها من قيود الجهل والتقاليد ، وتطبعها بالطابع القوى المنشود ؟(١)

٢ — العلاج

تلك إذاً هى « الفكرة الخاطئة » التى يجب أن نمحوها محواً بمختلف أساليب التربية والاقتصاد ، لأن التربية لا تستطيع

(١) هذا إذا نحينا الأزمات الاقتصادية جانبا ...

(١) والعجيب أن العشرات من هؤلاء الفنيين ممن يدخلون الحكومة لا يلتحقون بأعمال تتفق وثقافتهم ! فكثير منهم كتاب لا أكثر ولا أقل ، وكثير غير هؤلاء يعملون فى أعمال تخالف أعمالهم الفنية الخاصة مخالفة كبيرة أو صغيرة . ومنهم من لا يتاح له استعمال ثقافته إلا فى ناحية ضيقة محصورة كمعاونى الزراعة الذين يبخرون الأشجار فحسب ، أو ينبهون الحكومة إلى دود القطن ... ! ومعنى ذلك أننا ننفق الالوف المؤلفة فى بناء المدارس الفنية وفى تعليم المئات دون أن نعمل على استغلال هذه الثقافة الفنية الواسعة إلى أبعد حدودها ... ألست ترى هـذا عجبا ؟ أعرف أحد خريجي المدارس الصناعية الذين يئسوا من الوظيفة فنصحه البعض أن يؤسس مصنعا للسبك فأسسه بالفعل ونجح فيه نجاحا مبشراً بكل فوز ، ولكنى حين أسأله عن رأيه فى الوظيفة أسمع منه ميلا شديداً إلى ترك المصنع والالتحاق بها ... !

وحدها أن تصلح كل شئ . يجب أن يحسّن الأسواق القائمة ، وأن نفتح أسواقاً جديدة ، وأن نعمل كما يقول الأستاذ جاكسون على زيادة « الطلب » ليرتفع أجر العامل ويغريه بالعمل وترك الحكومة ، كما يجب كذلك أن نجعل مدارسنا الفنية مسلحة بكل تجديد كهربائي أو ميكانيكي لتستطيع أن تواجه حاجات العصر ، وأن تصمد لمنافسة المحصولات الرخيصة التي تمطرنا بها أوربا وأمريكا واليابان ، وأن نحول مدارسنا الالزامية والابتدائية والثانوية إلى نظام آخر يسمح بكثير من « العمل » اليدوى مادام العاطلون من خريجي هذه المدارس أكثر عدداً وأفدح خطراً من خريجي المدارس الفنية . أفي المدارس الالزامية « عمل » بالمعنى الساذج البسيط ؟ وهل في المدارس الابتدائية غير ساعتين للعمل في الأسبوع منفصلتين تماماً في « عملهما » عن المواد الأخرى ؟ وهل يعدو « العمل » في التعليم الثانوي « اللهو والفراغ » عند أغلبية الطلبة الساحقة ؟؟

٣ — الصعوبة القائمة

وهناك فضلاً عن ذلك صعوبة كبرى هي قبول المدارس الثانوية لعدد عظيم من الطلبة لا تستطيع أن تقبله فيما بعد الجامعة والمدارس العالية لأنها لا تتسع له . ويقول بعض حضرات النظار إن حوالى ٣٠٪ من طلبة البكالوريا يقعون في هذا المشكل ، ويمضون حياتهم في يأس وقنوط وألم وشقاء . وإذاً فإما أن ينقص عدد الملتحقين بالمدارس الثانوية حتى يستطيعوا أن يجدوا لهم منفذاً في التعليم العالي ، وإما أن يصبح التعليم الثانوي نفسه غاية ووسيلة معاً لا وسيلة تعد الناشئ للجامعة فحسب . والحل الثاني أليق بمصر ، لأن خمساً وعشرين مدرسة ثانوية للبنين ، وسبعاً أخرى للبنات ، ليس بالعدد الكثير على بلد سكانه خمسة عشر مليوناً !! وإذاً فلننظر فيما ينبغي أن يكون عليه هذا التعليم :

٤ — الإصلاح المنشود

ينبغي أولاً أن يسود فيه الشعور بأنه إعداد للحياة لا للدراسة العليا فحسب . ويتأتى ذلك فيما يرى الدكتور جاكسن بوضع أساس عملي لا يجنى على « كيف » التعليم فيه ، وذلك بأن ندخل فيه الزراعة والطباعة وأشغال الخشب والحديد على نحو « جدى » مع تعديل المقرر أو بالأحرى تخفيفه تخفيفاً مناسباً . فمثلاً في السنتين الأولى والثانية : عشرون درساً للغات من أربعة وثلاثين ، ودرس رسم واحد ، ودرس أشغال لا يقوم به إلا قلائل لا يفيدون . فماذا يمنع من استعمال اللغة في تجارة عملية بدلا من قصرها على هذه الحصص الكثيرة التي لا تؤدى بالطالب بعد تسع سنوات إلى القدرة على كتابة خطاب تجارى صحيح النحو مستقيم المعنى؟[1] وماذا يحول بين الطلبة وبين جمعهم لحروف مجلتهم وطبعهم لها بأنفسهم ؟؟ ولم لا يزرع الطلبة حديقة المدرسة ويسهرون على تهذيب أغصانها وإروائها بدلا من رجل واحد تعينه المدرسة لهذا الشأن ؟ وكيف يتكلم المدرس عن الذباب وخطره والمدرسة ذاتها لا تعمل على منعه من دخول الفصل ؟؟

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يجب أن يعنى التعليم بغرس الروح الاجتماعية عن طريق « دراسة المشروعات » والجمعيات العلمية والرياضية والفنية التي تسودها روح التعاون والمحبة والتضحية واحترام القانون[2] ، ويجب أن يتاح للمدرس من الوقت ما يساعده على الاشراف التام على أعمال هذه الجمعيات و « العيش » فيها كمرشد حكيم ؛ هذا مع غرس السرعة والابتكار والذوق في نفوس الطلبة تلبية لحاجات « رجال الأعمال » الذين يريدون كل حاضر البديهة ، حكيم التصرف ، جميل الذوق وديع المحضر ، مطيعاً للقانون !

٥ — التوجيه المهني

ثم لا ينبغي أن يقف الأمر عند ذلك . إن مصر لفي حاجة كبرى إلى توجيه أبنائها توجيهاً سليماً يتفق وميولهم النفسية ، ويضمن على الأقل نجاحهم في عملهم وثقافتهم إن لم نقل نبوغهم فيها . والشبان عندنا لا يطرقون أبواب المدارس المختلفة جرياً وراء إشباع ميولهم الشخصية بقدر ما يطرقونها تحقيقاً لمطامعهم القاصرة في مهن محترمة كالقضاء أو الطب أو المحاماة ! أليس عندنا من يدخل الحقوق ليكون نائباً أو وزيراً ، ثم يفشل أخيراً في

---

(١) وهم يدخلون في أمريكا الكتابة على الآلة مع دراسة اللغة نحواً وهجاء فيقومون بثلاث عمليات في عملية واحدة

(٢) وفي المدارس أساليب من هذا النشاط كثيرة ، ولكن ما يزال ينقصها الروح الاجتماعي الصحيح بحيث تكاد تكون قشوراً أكثر منها لباً

موقفه أمام القاضى ويخاطبه كما يخاطب التلميذ الأستاذ ؟[1] أليس عندنا من يدرس الفلسفة ليدعى فيلسوفاً ، ثم لا يكون بينه وبين الفلسفة الصحيحة إلا هوة سحيقة من الجهل والاعوجاج ؟ كم من مئات الحقوقيين قد أثبت له قدراً فى عالم القانون ؟ وكم من خريجى التجارة أو الهندسة قد سجل لبلاده فخراً فى مجال دراسته الخاصة ؟ إنها إذاً لآفة كبرى يجب علاجها علاجاً علمياً صحيحاً ينحصر فيما يسمى الآن « بالتوجيه المهنى ! » ويستطيع الأستاذ فى ذلك التوجيه أن يدرس ميول الطالب الحقيقية لا الوهمية أو المصطنعة ، وأن يقدم له النصح والإرشاد على أساس هذه الدراسة يستطيع أن يختبر ذكاءه وميله الأدبى أو الفنى أو العلمى باختبارات خاصة يجرونها الآن فى أوربا وأمريكا ؛ ويستطيع أن يلاحظه ويدرسه عن كثب طيلة أعوام الدراسة ليضم إلى نتائج هذه الاختبارات درايته الشخصية ؛ ويستطيع أن يقول له أخيراً عليك بالآداب أو الحقوق أو الطب أو الصناعة أو التجارة ، لأنك لا تليق ولا تنبغ ، ولا توفق ولا تسعد ، إلا فى ذلك الذى دلتنى عليه دراستى العلمية وخبرتى الشخصية ؛ ثم يستطيع باتصاله بذويه أن يسدى لهم النصح فى مستقبل ولدهم حتى لا يقفوا عثرة فى السبيل كما أراد لى والدى يوماً أن أدرس « التجارة » وأنا لا أهضم « الحساب » على الاطلاق ! ، وأخيراً يستطيع الناظر عملا برأى الأساتذة أن يزود تلميذه بخطاب خاص يحمله كشهادة محترمة لرؤساء المعاهد أو الأعمال التى يريد أن يطرقها كيما يكون « واسطته » فيها . . .

وبذلك وبغيره نوجد أعمالا للعاطلين ، وتوفيقاً ونبوغاً للمتعلمين ! . . .

« يتبع » **محمد حسنى ظاظا**

مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الاميرية

---

(١) ويرجع جلوس المثقفين عندنا فى المقاهى وانحرافهم الخلقى إلى أسباب أهمها أن المدرسة لم تحببهم فى العلم للعلم ، وأنهم لم ينشدوا مهنتهم عن ميل صحيح فيهم ، وأنهم يلقون فى عملهم اليومى ما ينفرهم من الاشتغال فى فراغهم بما يفيد ، وهذه الأسباب جديرة بكل إصلاح لأن العمل إذا لم يقم به الانسان وهو محب له كان مصدر شقاء وانحراف لصاحبه ، وترجع أغلب أعمال الموظفين الفاشلة إلى هذا النوع من العمل البغيض

إبراهيم بك المويلحى

١٨٤٤ – ١٩٠٦

بقلم حفيده ابراهيم المويلحى

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

ثم سافر إبراهيم بك إلى باريس سنة ١٨٨٤ م وحرر العدد الرابع من جريدته « الاتحاد » بعد صمت أربع سنوات وطبع منها أعداداً كثيرة ، وكانت أشد لهجة من أخواتها فاستشاط السلطان غيظاً وحنق على إبراهيم حتى أنه أرسل إلى « أسعد باشا » سفير الدولة العلية فى باريس بمذكرة مستعجلة يريد بها إبلاغ رغبته إلى الخديو إسماعيل بأن يأمر سكرتيره « إبراهيم بك » بالكف نهائياً عن إصدار جريدة « الاتحاد » المحررة تحت رعاية سموه

فلما تفاوض « أسعد باشا » مع الخديو أعلمه بأن لا يد له فيها مطلقاً وأنه برىء من تلك الظنون . فما كان من السفير العثمانى إلا أن طلب من الحكومة الفرنسية ، بناء على رغبة السلطان ، نفى المترجم له من فرنسا

ولما كان هذا النفى غير مسبوق بأى محاكمة فقد انبرى المسيو بود دى مورسلى Baude de Maurceley يدافع عن إبراهيم ويستنكر وقوع مثل هذا الإجراء ويأخذ على وزير الداخلية الفرنسية تسليم إبراهيم لأسعد باشا بهذه السهولة ، فى مقال نشر فى حينه فى جريدة «الفيجارو» عدد ٣٣١ سنة ١٨٨٤ م اختتمه بقوله : « إنى أسأل بصراحة المسيو ولدك روسو Waldack Rousseau عن الضرر الذى يسببه وجود إبراهيم بك فى باريس . أم هل فقد بلدنا الجمهورى « حق الاقامة » فيه وأضحى غير قادر على منح الضمان الكافى للمحكوم عليهم سياسياً ! وإلا فما هو الأمان الذى يمكن أن يجده عندنا كل غريب فقد حق التمتع بمصالح بلده ؟ ألا يظن حضرة وزير الداخلية أنه من السذاجة أن ننال بسهولة وبدون محاكمة إبعاد صحفى فرنسى غير راض عن سياستنا الحالية من استانبول أو لندرة مثلاً ، لأنه يصدر جريدة عدائية هناك ؟ ! »

إن القبض على إبراهيم بك ونفيه بدون محاكمة لا يعد فقط عملاً استبدادياً ، بل أمراً منكراً ربما استحق الاستجواب عنه فى البرلمان »

فلما رأى إبراهيم بك نفسه مرغماً على ترك فرنسا بأمر السلطان ، سافر تواً إلى « بروكسيل » فكتب إليه السيد جمال الدين الأفغانى لما كان بينهما من روابط الصداقة أيام كانا فى مصر ، يشير عليه بالتوجه إلى لندرة ليتحدا فى الدفاع عن حقوق الأمة ونصرة الدين . فاستصوب إبراهيم هذه الفكرة ولاسيما أنه كان غيوراً على دينه ، شديد الحب لوطنه . فأبحر إلى « لندرة » وتسنى له التعرف هناك باللورد تشرشيل واللورد سالسبورى وأخذ يعاون السيد جمال الدين فى تحرير « العروة الوثقى » وأنشأ لنفسه جريدة « الأنباء » ثم « عين زبيدة » وأفاض فيهما ولاء خالصاً للسلطان ، وأظهر حرصاً على صيانة الدولة بانتقاده الشديد لسياسة غلادستون نحو الدولة العلية فى ذاك الوقت

وبلغ مسامع السلطان عبد الحميد أمر هاتين الجريدتين فسر من خطة إبرهيم هذه وأرسل إليه يستقدمه بواسطة سفيره فى لندرة

ولما كان إبراهيم بك لا يتوقع هذا العفو السريع سنة ١٣٠٣ هـ — ١٨٨٥ م ظن أنها مكيدة من السلطان ليتمكن بها من الانتقام منه ، فامتنع عن الذهاب إليه ، وكلف ابنه السيد محمد بك المويلحى — الذى كان بصحبته فى انجلترا — السفر إلى استانبول ليستطلع جلية الأمر

فتوجه محمد بك إلى الآستانة عن رغبة والده ، وأرسل إليه خطاباً يطمئنه فيه من جهة السلطان

فدخل إبرهيم بك الآستانة وكتب إلى جلالة السلطان الخطاب الآتى يشكره فيه على عفوه عنه ويعتذر عن تأخره فى المثول بين يدى جلالته : « المعروض على سدة أمير المؤمنين ، وخليفة رسول رب العالمين ، أن العبد لا يصف عفو أمير المؤمنين إلا كما قيل لأخ جلالتكم فى الخلافة المعتصم العباسى : « لو علم الناس ما تجدون من اللذة فى العفو لتقربوا إليكم بالذنوب » . والحمد لله على تلك النعمة التى أسداها أمير المؤمنين لعبده الصادق . وإنما كان تأخيرى عن التشرف بسدة الخلافة لأمور هامة فى فائدة الدولة والملة قد تم بعضها . وإنى ألتمس أن أعرضها على ذات مولانا المقدسة حفظها الله للإسلام »

وبعد أيام طلب السلطان مثوله بين يديه ، فأكرم مقابلته وعينه عضواً فى مجلس « انجمن المعارف » سنة ١٣٠٣ هـ — ١٨٨٥ م . وكان ناظرها وقتئذ العالم الجليل المغفور له صاحب الدولة منيف باشا ، فقدر إبرهيم حق قدره ، وقربه إليه وعرفه بالشيخ الشنقيطى اللغوى الشهير

وتصادق المترجم له مع إبرهيم بك أدهم صاحب جريدة « الحقائق » التى كانت تصدر فى استانبول ، فكان ينشر فيها وصف جلال الوكب السلطانى فى كل مرة يذهب فيها لتأدية فريضة الجمعة

ومكث إبرهيم بك فى وظيفته هذه عشر سنوات تقريباً من سنة ١٨٨٥ هـ — ١٨٩٥ م . حدث فى أثنائها أن كتب بعض الجواسيس إلى السلطان عبد الحميد تقريراً جاء فيه أن إبراهيم بك لا يزال يراسل الجرائد فى مصر خفية بما لا يتفق وسياسة السلطان ! فما كان من جلالته إلا أن أرسل إلى صاحب المطوفة « كامل بك » ناظر الضبطية لاستجواب صاحب الترجمة والتحقيق معه فيما وصل إلى السلطان

ولقد كان هذا الجاسوس صادقاً فى تقريره . وهكذا كانت خطة إبرهيم بك فى جميع مراحل حياته السياسية لا يعرف التملق ولا التزلف ، ولم تحِدْه تلك الرتب والإنعامات الشاهانية عن طريقته المثلى فى حبه لمصلحة البلاد والدفاع عنها وانتصاره لها

وقد رأى شطط السياسة من جراء ما زينه المتلفون حول عرش جلالته ، فأخذ ينشر مقالاته الانتقادية فى المقطم ، وكان يذيلها بأمضائه المستعار : « أحد الثمانيين الأفاضل »

وكان إبرهيم بك فى اليوم الذى قبض عليه فيه يحمل مسودة مقالة كان يريد نشرها ، فأسقط فى يده وأخذ يجهد فكره فى التخلص منها بأية وسيلة ! واتفق أن كان الناظر فى هذه الساعة مشغولا بتحقيقات أخرى — وما أكثر التحقيقات فى الآستانة — فأمر بأبقائه فى غرفة تجاور غرفة التحقيق ريثما ينتهى من استجواب الذين بين يديه

ففكر إبرهيم بك ، وهو المنزل فى الغرفة ، أن يتخلص من

المقلة التي في جيبه خشية تفتيشه ، فهم بحرقها ، فحدثته نفسه أن رائحة الدخان قد تبعث الشك في إدانته ، كما خشى تمزيقها خوف وصول بعض وريقاتها إلى يد بعض الجواسيس المنتشرين بدار الضبطية . وبينا هو في شغل شاغل إذ سمع صياح ديك فنظر حوله فرأى نافذة صغيرة بحواجز حديدية ، ففتح زجاجها وأطل من بين قضبان النافذة فرأى ذلك الديك وحوله أفراخ كثيرة ينقرن في الأرض بحثاً عن القوت ؛ فما كان منه إلا أن أخذ يقطع الورقة قطعاً صغيرة ويضعها في فمه حتى تمتزج بلعابه فيمضغها حتى تصير على شكل الحب ثم يرمى بها إلى الأفراخ فتتسابق إلى ابتلاعها حتى أتت على آخرها ، وأغلق النافذة وحمد الله

وبعد ساعة تقريباً اقتيد إبرهيم بك إلى غرفة التحقيق وابتدىء بتفتيشه فلم يعثروا على شىء ، وبعد مناقشات طويلة أسفر التحقيق عن براءته مما جاء في تقرير الجاسوس ، وطير الخبر إلى جلالة السلطان فأمر باستدعائه إلى « المابين » ، وأنعم عليه بالرتبة الأولى من الصنف الثاني سنة ١٣١١ هـ — ١٨٩٣ م . وصاحبها يلقب « بسعادتلو أفندم » وهى توازى رتبة الميرميران الملكية التى يلقب صاحبها بلقب « باشا »

وفى نفس هذه السنة قدم الخديو « عباس الثانى » ومعه بعض الوجهاء من المصريين لزيارة الآستانة والتشرف بمقابلة جلالة السلطان « لعرض الشكر والعبودية على أعتاب الخلافة السنية » فرأى ابراهيم بك من واجبه كمصرى مقيم فى استانبول أن يتشرف بمقابلة سمو الخديو عباس ، فذهب إلى القصر الكائن « بدفتر دار برونى » الذى يقيم فيه سموه ، ولكن « محمود باشا شكرى » أشار على سمو الخديو عباس باشا الثانى لشيء في نفسه من جهة إبراهيم أن يمتنع عن مقابلته تجنباً لخطره وسطوة قلمه . فسوّف الخديو تحت هذا التأثير مقابلة إبراهيم الذى خرج حانقاً والشرر يتطاير من عينيه !

ولما كان يعلم أن جلالة السلطان سيدعو سمو الخديو والوفد الذى جاء معه إلى سراى « يلدز » مرت بخاطره فكرة جهنمية يستطيع بها تحريك غضب عبد الحميد عليهم أجمعين ! فحرر عريضة من تلقاء نفسه اختلقها اختلاقاً ، كأن هؤلاء الوجهاء يرومون رفعها إلى الأعتاب الشاهانية وبعث بها إلى المقطم فنشرها ، والتقطتها التلغرافات الأجنبية وترجمتها الصحف الإنجليزية وعلقت عليها ما شاءت أن تعلق ، وذهب سفير انجلترا في تركيا بأمر من رئيس الوزارة الانجليزية إلى الصدر الأعظم ليستفسر عما أجاب به السلطان على هذه العريضة التى قد تسبب توتر الملاقات بين بريطانيا العظمى والدولة العلية

فحدث من جراء هذه العريضة أن امتنع السلطان عن الإنعامات التى كان يرغب فى الإنعام بها على من كان بمعية سمو الخديو كما هى العادة فى مثل هذه الظروف ، إرضاء لخاطر انجلترا حتى لا تعتقد أن لهذه العريضة أثراً فى نفسه

وإليك صورة هذه العريضة بعد ديباجة الحمد والثناء :

« إن الله عز وجل نظر إلى العالم نظرة رحمة فاختارك يا أمير المؤمنين من بين البرية خليفة على عباده ، وجمع فيك شرائط الخلافة وبسط لك من القوة والسطوة ، وآتاك من الحزم والعزم وأصالة الرأى ما يفتخر به هذا العصر على سائر الأعصار ، وقرن طاعتك بطاعته وطاعة نبيه فى كتابه العزيز ، وجعل حبك إيماناً والخروج عن أمرك مروقاً من الدين ، وحبب إليك الإقدام لمصلحة الإسلام . دأب الخلفاء السابقين ، وأودع فى يديك أرواح المسلمين وأموالهم تحكم فيها عن رضى وتسليم منهم . وقد عاهدوك على بذل دمائهم فى طاعتك بأيمان البيعة التى ربط الله بها لك القلوب على المحبة فى خلواتها ونجواها

فالمسلمون كلهم قاصيهم ودانيهم مجمعون على الانقياد لك فى السر والعلانية لا يحيل بهم عن هذه السنن قول ولا فعل لتوقف سعادتهم على طاعتك فى الدنيا والآخرة

هذا ما جعل الله لك يا أمير المؤمنين ، وقد جعل لهم بهذا من جانب جلالتك أن تكلأ بيقظاتك بلاد الاسلام بعيدها وقريبها من طوارئ السوء وغوائل الشر على نسق واحد لا فرق بين مطلقها وممتازها ، وأن تدفع عنها كل صائل ومحتال ، وأن تذود عنها بالحجة والسيف والقلم وما يمكن أن يدافع به ماديًّا ومعنويًّا

هذه مصر — أيد الله بك مقام الخلافة ، وثبت بك أركان السلطنة ، ونصرك النصر الوشيك — فريدة التاج العثماني ، والقسم الأكبر من السلطنة السنية والطريق الأعظم إلى الحرمين الشريفين . قد أصبحت تمديد الفزع الصارخ إلى عظمتك ، وتنظر كالمغشى عليه من الموت إلى حياتها فى يدك الكريمة ؛ فامنن

عليها بالحياة يا أمير المؤمنين ، وخلصها ممن تجاسر على حوزة الإسلام بلا حجة ولا قوة ، وفى يد جلالتك الحجة والقوة ، وهذه أرواحنا رهينة ثلاثة أحرف من عظمتك ، فأمرنا بما تريد لتخلص الاسلام المتخبط فى تلك الأشراك . وقد بقينا يا أمير المؤمنين سنين عدة معلقين لا ندرى أنحن تحت حكم الخلافة والسلطنة السنية فتطمئن قلوبنا ، أم تحت حكم هذا الذى دخل فى يوم على وعد أن يخرج فى غده فبقى إلى الآن تخفق راياته على مساجد المسلمين فى بلد هى عش الأولياء ومرقد آل البيت النبوى ومجد جدك السلطان سليم خان ؛ فطفق هذا الداخل يستهوينا باسم الحرية التى لا توافق قيودنا الدينية ولا عاداتنا الأدبية فمال إليه جماعة منا ، ويوشك إن استمر فى سيره أن يفسد الحاسيات والأخلاق بهذا التساوى المخالف للتفضيل الإلهى

فالآن قد وفدنا على دار الخلافة مع سمو وكيلك المطبوع على محبة جلالتك ، المفتخر بنظرات الرضى عليه من ألطاف عظمتك ، الواقف موقف السمع والطاعة لأوامرك ، راجين من السدة السنية إجراء الوسائط الفعالة لإخراج هذا الداخل على وطننا وإبعاده عن الأراضى المقدسة التى يدأبون على التدخل فيها ، فانهم إذا استمروا — لا قدر الله — فى البقاء بمصر سهل عليهم الدخول فيها وفى غيرها لطبيعة الموقع

ونسأل الله أن يؤيد جلالة مولانا الخليفة الأعظم وينصره على الباغين »

وفى أوائل سنة ١٨٩٥ م سئم العيشة فى جو استانبول المكتظ بالجواسيس المختنق بالفتن والوشايات وشعر بالحنين إلى وطنه بعد طول الغربة . فعزم على الرحيل إلى مصر ودبر طريقة سفره فى الخفاء على باخرة بخارية قادته إلى الاسكندرية

ولما علم جلالة السلطان عبد الحميد بخبر اختفائه وسفره إلى مصر بدون أن يقدم استقالته ، بعث يستعلم بواسطة « مختار باشا » المندوب فوق العادة للباب العالى عن السبب الذى جعل ابراهيم بك يترك وظيفته فى « أنجمن المعارف »

فأبدى إبراهيم أسفه لمختار باشا وأفهمه أن قدومه إلى مصر إنما هو من باب الحنين إلى الوطن والشوق إلى رؤية ابنيه « محمد » و « خليل » ، وأنه لا يدرى كيف يشكر السلطات على نعمه

ولما كان ابراهيم بك مشغوفاً بالتحرير أخذ ينشر فى المقطم من وقت إلى آخر مقالته الانتقادية فيما رآه فى الآستانة العلية مدة إقامته فيه تحت عنوان « ما هنالك » ثم جمعها وطبعها كتاباً سنة ١٨٩٦ ميلادية . فبعث السلطان عبد الحميد بأمره بإرسال جميع النسخ التى فى حيازته إلى « المابين » ؛ فخضع ابراهيم لأمر جلالته وأرسلها جميعاً إليه ماعدا بضع نسخ كان قد وزعها على عائلته وأصدقائه . لذلك يندر وجوده

وفي سنة ١٨٩٨ م أنشأ جريدة أسبوعية سماها « مصباح الشرق » وقفها على خدمة الأدب ونصرة الدين والدفاع عن حقوق الدولة العلية . وكان يعاونه فى تحريرها ابنه السيد محمد بك المويلحي . وكان طلاب الأزهر يقفون على باب المطبعة الساعات الطويلة ينتظرون صدور أعدادها بفارغ الصبر ، وكانت تباع بقرش صاغ واحد ، وكان يعز مطلبها فى اليوم الثانى من صدورها حتى كانت تشترى بخمسة قروش

وكان ابراهيم بك يسافر من وقت إلى آخر للآستانة لعرض ولائه على الأعتاب الشاهانية ، وليتسنى له الاطلاع بنفسه على ما فى الجو السياسى من أخبار ، فكان فى كل مرة يعود مثقلا بالانعامات والعطايا حتى نال « الرتبة الأولى من الصنف الأول » وصاحبها يلقب « بسعادتلو أفندم حضرتلرى » وهى توازى رتبة « روم ايللى بكاربكى » الملكية . لكنها تتقدم عليها فى التشريفات

وقد نال حظوة عليا لدى حضرة صاحب السمو الخديو عباس الثاني حتى إنه كثيراً ما كان يكلفه بأعمال سياسية هامة ، فكان يقوم بها خير قيام فنال بذلك ثقته . ولم يقف دون رغبة سموه إلا مرة واحدة غضب عليه فيها بضعة أشهر ثم رضى عنه فكتب إليه الخطاب الآتى :

« قد وضعنى ولى النعمة فى بودقة الامتحان وأوقد علىّ بنار غضبه زماناً طويلا كما اقتضته حكمته ، حتى إذا صفانى وخاف على أن أحترق نقلنى كما اقتضته رحمته وسمته . فأشكر ولى النعم شكرين : شكراً على تصفيتى وتهذيبى ، وشكراً على رضاه عنى

وقد بعث الله لنبيه الملكين جبريل وميكائيل فشقا صدره صلى الله عليه وسلم ، وأخرجا ما يكون بناموس الطبيعة فى قلوب البشر ، ثم ختماه على الحكمة . وكذلك فعل ولى النعم : بعث

إلى عبده[1] فأصبح قلبي مختوما عليه بطابع الإخلاص والقيام بفروض الخدمة لدرجة التفاني فيها . فلو ذوبوني لم يجدوا في تركيب صدري إلا ثلاثة أشياء : الوفاء والدعاء والولاء ، لولي النعماء كل هذا انتهى وتم على موجب الحكمة العالية حكمة ولي النعم الذي اعتنى بتربية عبيده على هذا الأسلوب الحكيم .

لخدمة الأعتاب السنية هي قبلتي التي أوجه وجهي إليها ، وأصرف عزمي إليها . وهذا اعتقادي وهذا قولي وهذا خطي على ذلك والله شاهد ووكيل »

وفي سنة ١٩٠٣ كف عن إصدار الجريدة فجأة ! وهكذا كان إبراهيم بك يعطل كل جريدة ينشئها إذا نال منها غرضه

وكان يرسل في بعض الأحيان مقالاته السياسية إلى بعض الجرائد كالمؤيد والمقطم عند ما كان يرى أن حقاً للأمة هضم

ثم أنشأ جريدة « المشكاة » باسم ابنة « السيد خليل بك المويلحي » و « حمدي بك يكن » ولم يصدر منها إلا أربعة أعداد فقط سنة ١٩٠٥ . وفي أواخر سنة ١٩٠٥ اعتلت صحته فاعتزل السياسة ليعالج مرضه حتى وافته المنية في ٢٩ يناير سنة ١٩٠٦

* * *

ولقد كان المرحوم سريع الخاطر ، طيب اللسان ، شديد الميل إلى النقد والمداعبة لا يفرق في ذلك بين قريب أو صديق حتى قيل فيه : « لم ينج من قوارص قلمه إلا الذي لم يعرفه »

وكان سريع الفهم ، قوي الاحاطة بخفايا الأمور ، وغوامض السياسة ، ولقد تقلب في أعمال كثيرة بين تجارية وحكومية وصحافية وسياسية ، لكنه لم يبلغ الهدف الذي كان يرمي إليه في كل واحد منها مع شدة ذكائه وحدة ذهنه . ولعل السبب في عدم ثباته هذا يرجع إلى طموحه إلى النجاح السريع ورغبته في بلوغ الدرجات العلى طفرة واحدة ، فانه لو ثبت في عمل واحد لبلغ أوجه

ويجمل بنا أن نقول قبل أن نختم ترجمته إنه كان مشغوفاً بتعلم اللغات الأجنبية حتى حذق التركية ومهر في الفرنسية وتعلم الانجليزية في آخر سني حياته عليه رحمة الله

ابراهيم المويلحي

(١) هو أحمد بك العريس

أبي ! !

للأديبة بهية فرج الله زكي

أبي ! سلاماً من وراء دجلة ! سلاماً عليك من قلب وحيدتك ! سلاماً من قلب جريح ! سلاماً على الروح السابح في لجة الأبد ، سلاماً على الجسد الهامد في التراب !

أبي ! لقد مات أبي ، وطار البرق الحزين ينعى بقية الأمل إلى القلب الحزين .. مات أبي ، وفي مصر خمدت جذوة حياته الذاكية ، فانطفأ في العراق مصباح رجائي المشتعل .. مات ، وقد كان وهو حي رسول البسمات إلى الثغور ، فأصبح وقد مات رسول الدموع إلى العيون

أبي ! حتى في ساعة الموت لا أراك ! وفي ساعة الوداع لا أطبع على جبينك القبلات ، وفي ساعة الرحيل إلى المثوى البعيد ، يحول دوني ودونك البحر المائج والبلد السحيق !

أبي ! يا منى النفس ، ويا روحا ضاقت بها حدود الأرض فطلبت فسحة الحياة في السماء . لماذا استسلمت للكرى فنمت نوم الأبد ؟ لماذا تركتني وحيدة وكنت بك جماً لا يخذل . . صوتي يملأ الفضاء ، وتجاوب أصداءه الأرض والسماء . ولكني لا أسمع جواباً ، فأين أبي ؟

أبي ! كنت تستلهم السماء خبر الغيب ، فهل قرأت في لوح الأجل موعد هجرتك من دنياك الفانية إلى عقباك الباقية ، فبكيت حين تحرك بي القطار ، وأنت الرجل الجلد الذي يسخر بالعواصف ، وجريت مع القطار وأنت الرجل الرزين الذي تخضع جوارحك أبداً لعقلك الكبير ، وأتبعتني النظر الحائر وما حيرك الدهر المضطرب بالحادثات ... بلى لقد أحسست بالموت فكتمت سر الموت عن الأحياء

أبي ! لأنك تحب العراق آثرت الرحيل إلى العراق ؛ البلد الذي لم تبخل عليه بفلذة كبدك ، البلد الذي خلت فيه حياة خصيبة لأملاك الروحي ... فلماذا تركتني في وطن قلبك ونزحت أنت إلى وطن الخلود

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنـــــكولن

هدية الاحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٨ —

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم

نجح لنكولن فى الانتخاب ، فظفر بمقعد فى المؤتمر ظل ينزع إليه سنوات أربعا طويلة ؛ وكان هذا النجاح كفيلاً أن يبث فى قلبه من الغبطة والبهجة بقدر ما بثه فيه الانتظار الملل من السأم والضجر ، ولكنه كتب إلى صديقه سبيد ينبئه أنه لم يهتز كثيراً للنجاح كما خيل إليه قبل أنه فاعل إذا ظفر . وتلك حال من حالاته العجيبة ، بل هي حال من حالات النفس البشرية تدعو إلى العجب والاعتبار ! فكثيرا مايتمنى المرء ما ليس فى يده حتى لتكون سعادته كلها مجتمعة فى أن ينال ذلك الذى يتمناه ، فإذا اقترب من بغيته أو شبه له أنه مقترب راح يطفر من الفرح ، ورأي فى كل شيء حوله معانى الحبور والغبطة ، وإذا بعد عن ضالته أو خيل إليه أنه مبتعد ، ضاقت فى وجهه الدنيا وبات من همه كأنه فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج ؛ حتى إذا قدر له آخر الأمر أن يرسو على الشاطئ وأن يلمس بيده مبتغاه وقف حياله وقفة من لم يجد شيئاً ، وفتح عينيه على الحقيقة كمن يفيق من حلم ذابت ألوانه وتلاشت أطيافه وتبددت رؤاه ... ذلك هو غرور الحياة ، ولكن ما ألذه من غرور ! وما الحياة فى جلتها إن هى خلت من هاتيك الأحلام ؟

وانقضى عام بين نجاحه وذهابه إلى المؤتمر . ولقد صحبته زوجه إلى وشنجطون العظيمة ، وزارت البيت الأبيض ، ولعلها كانت تحدث نفسها فى زهو أنه في غد مقر بعلها . ومشى ابن الأحراج فى المدينة تستوقف الأبصار هيئته إذ كانت لا تزال روح الغابة تصحبه كأنما هو نوع من الشجر جيء به إلى غير منبته ... وسرعان ما أنس الناس به ، فهم إذا جلسوا إليه يشعرون أن روحاً قوياً يسرى إليهم منه وإن لم يتبينوا ما هو ؛ وكذلك أخذت تطل عليهم نفسه فى فيض من قصصه ...

أما فى المجلس فقد كان أول الأمر بحيث لا يحسب أحد أنه سيكون يوماً من النابهين ، ولكنه ما لبث أن بدد هذا الزعم بخطاب احتفل له وجعل له كثيراً من الأهمية ، يتبين لنا ذلك فيما كتبه فى هذا الشأن إلى صديقه هرندن ؛ وكان الخطاب يدور حول الحرب القائمة في تكساس ، وجه فيه لوماً عنيفاً إلى رئيس الاتحاد أن خرج بهذه الحرب عن الدستور كما فرط بها فى جانب العدالة والخلق

قال لنكولن : « ليذكر الرئيس أنه يجلس حيث كان يجلس وشنجطون ، وليجب إذا ذكر كما كان يجيب وشنجطون ، وكما أنه لا يليق بأمة أن تهرب من الحق ، والله لا يسمح أن يُهرَب منه . كذلك ليتجنب الرئيس الهرب والمراوغة ؛ فإذا استطاع بعد ذلك أن يقيم الدليل على أن الأرض التى سالت عليها الدماء أول ما سالت هى أرضنا فإني موافقه فيما يسوق من مبررات . ولكنه إن عجز عن ذلك أو أحجم عنه فإنى حينئذ خليق أن آخذ على اليقين ما يقوم فى نفسى فعلاً مما هو أكثر من الظن ، فأرى أنه يشعر بخطئه ، وأنه يشعر أن الدم الذى سال فى تلك الحرب هو كدم هابيل يستصرخ السماء ضده »

أبى ! لن أنسى ما حييت رسالتك ، رسالة المحبة والسلام ، وسأظل ذاكرة إلى الأبد ما سطرته إلى يدك وأنت تعالج الموت : « عاشرى الناس بروح المحبة . كونى قدوة حسنة ، ارفعي الفوارق الموجودة بين الناس . . . إننا كلنا أوراق أغصان شجرة واحدة . . . »

أبى ! سأعيش كما عشت بهذه المبادئ ، وسأموت لها . وإذا كان الوفاء هو دين الميت على الحى ، فان دينى الذى لا أمطله جهاد لجهادك ، ودعوة إلى الحب كدعوتك ، وذكرى طيبة ترضيك ، وعمل فى سبيل الانسانية يرضى الله

أبى ! سلام عليك فى الذاهبين ، سلام على قبرك بين قبور المخلصين ، سلام علي وحيدتك الجريحة ، سلام على بغداد التى أحببتها وسأحبها من أجلك !

بهيجة فرج الله زكى
مدرسة بمدارس العراق

ولـكن تلك الحرب كانت فى نظر الناس أمراً مستساغاً لأنها ستضم إلى الولايات أرضاً جديدة ، كما أن جيوش الولايات كانت ظافرة فيها . من أجل ذلك لم ينل ابراهام بخطابه من الرئيس ، كما أنه لم يظفر بتأييد أو قبول من جانب زملائه . ولقـد أحس هو بضعف موقفه ولهذا جعل الأمر فى المهاجمة أمر خلق لا أمر سياسة ؛ وأخذ يندد بضم تكساس على رغمها ويستنكر ذلك الفعل على الأخص أن كان صدوره من دولة تدعو إلى الحرية وتباهى العالم بأنها أرض الحرية

وكان مما جاء فى ذلك الخطاب قوله : « إن من حق أية أمة فى أية جهة إذا أحست فى نفسها الميل واستشعرت القوة أن تثور فى وجه الحكومة القائمة وتعصف بها ، ثم تقيم بعـد ذلك من الحكومات ما يكون أكثر ملاءمة لها » . وإنا لنراه بذلك يجعل للثورات صفة شرعية ، كما أننا نفهم من هذا المبدأ مبدأ آخر جاء ضمنه ألا وهو مبدأ سلطة الأمة ووجودها فى أساس كل سلطة !

تلك هى خطبة لنكولن التى احتفل لها وافتتح بها عمله فى المؤتمر ؛ تراها وإن لم تصب بموضوعها موضع العطف من نفوس أعضاء المؤتمر ، قد رفعت ذلك المحامى فى أعين رجال السياسة ، وعلم من لم يكن يعلم منهم مقدار ما أوتيه ابن الأحراج من قوة البادهة ومتانة الحجة وفصاحة اللسان ، ومقدار ما رزق من قوة الجنان ويقظة الوجدان ، ورأوا فيه إلى جانب القصاص الذى لا يبارى ، الخطيب الذى يعرف كيف يسحر السامعين وإن كانوا عن آرائه معرضين . !

وكم للتاريخ من مواقف تدعو إلى العجب ! فهذا لنكولن اليوم فى المؤتمر يندد بالحرب ، وقد تعاظمه سفك الدماء وإزهاق الأنفس ؛ وهذا لنكولن يقرر حق الشعوب فى اختيار ما ترضى من الحكومات ... ولسوف يتخذ أهل الجنوب فى غد من أقواله حجة عليه ؛ يوم يهمون بالانسلاخ من الاتحاد وهو يأبى عليهم ما يبتغون ، ويعمد إلى الحرب فيصليهم ناراً حامية ويسفك الدماء ويزهق الأرواح حتى يكرههم على الاتحاد وهم صاغرون !

وتهيأت له الأسباب ليسير فى البلاد فيزداد بالناس اتصاله ويستزيد منهم أعواناً له ومحبين . فلقد انتهت وهو فى المؤتمر مدة الرئيس القائم وأخذت البلاد تنتخب رئيساً جديداً ؛ وكان حزب الهوجز الذي كان أبراهام من أفراده قد رشح للرياسة أحد زعمائه ويدعى تيلور . وهل نسى إبراهام تيلور وقد كان رئيسه فى الحرب ضد الصقر الأسود ؟ على أنه على الرغم من محبته لتيلور يأسف أن يراه ممن يتماسكون العبيد على نمط أهل الجنوب ... ولـكن لا ضير الآن فهو ممن لا يريدون أن تزداد ولايات العبيد ، كما أنه أقل من منافسه من الحزب الديمقراطي تشيعاً لمبدأ اعتناقه العبيد وأضعف منه استمساكا به ...

أخذ لنكولن يجوب البلاد شرقاً وغرباً ويخطب فى الناس مؤيداً رجل حزبه ؛ فكان إذا قام فى جماعة لم يروه من قبل جذب إليه الأنظار بطول قامته وغرابة ملامحه ، فإذا أطلق العنان لكلامه سرت فى الجموع منه روح عجيبة لا يدرون كنهها وإن أدركوا فعلها ... ورأوا عينيه تلتمعان حتى ما يعرف الناس أنهم رأوا مثلهما قبل ، وأبصروا فى ملامحه معانى أبلغ من كل كلام ، وأعمق أثراً من كل حجة ... والخطيب ينتقل بهم من مثل إلى مثل ومن حكاية إلى حكاية ؛ ثم يرسل الجملة بين حين وحين ، فإذا هم يضحكون ملء نفوسهم ؛ وهو فى حماسته يشمر ردنى حلته ويفعل مثل ذلك بقميصه . ولقد يحل رباط عنقه أو ينتزعه من موضعه كأنه مقبل على مبارزة ! ولا يكاد يفرغ من خطابه حتى يهرع الناس إليه متدافعين بالمناكب لـكى يزدادوا نظراً إليه من كثب ... وظفر تيلور بالرياسة ، وعرف لإبراهام يده وحسن صنيعه ...

وكان ممـا صادفه فى تجواله هذا أن استمع فى بوستن إلى خطبة من أقوى الخطب التى وجهت ضـد امتلاك العبيد ، وقد ألقاها رجل من كبار الداعين إلي التحرير ، هو سيوارد ذلك الذى سيكون له فى غد شأن فى هذا الأمر مع لنكولن حين يهم بتأدية رسالته . استمع لنكولن إلى الخطبة فى بوستن واستشعرتها نفسه ، وكان مما عقب به عليها قوله : « أعلن أنك محق . لقد آن أن نطرق معضلة العبيد وأن نلق إليها من اهتمامنا بأكثر مما كنا نفعل من قبل »

وفى عودته إلى وشنجطون أخذ يعضد حركة أخرى كانت موجهة ضد العبيد على يد داعية آخر من دعاة التحرير ، هو

ولت الذى كان يدعو بكل قواه إلى منع انتشار العبيد فى الأراضى التى تستخلص من المكسيك ؛ وفى المؤتمر تقدم لنكولن يطلب القضاء على العبودية فى ولاية كولومبيا وفى عاصمة البلاد ، وكان فى مقترحه عادلا يجمع إلى المدالة الكياسة وبعد النظر ، ولكن ذلك المقترح وا أسفاه قد حيل بينه وبين أن يكتسب الصفة الشرعية إذ عمل رجال المؤتمر على تأجيله مخافة أن يثير من الجدل ما لا يحبون ، حتى أوفى دور الانعقاد على الانتهاء فاعتذروا من عدم النظر فيه على الرغم مما بذله لنكولن من جهود وما أنفقه من حيلة ...

وانقضت أيام ذلك المؤتمر ، وهو المؤتمر الثلاثون فى تاريخ الولايات وعاد لنكولن وهو يخطو إلى الأربعين ليعيش من جديد فى سبرنجفيلد ...

عاد ابراهام الى سبرنجفيلد وهو يحس بينه وبين نفسه مرارة الهزيمة فى السياسة ، فلقد خذله رجال المؤتمر فى مقترحه كما رأينا وأعرضوا عن خطبته التى وجهها ضد الحرب فى تكساس ، تلك الخطبة التى لامه عليها الكثيرون من رجال حزبه حتى هرندن نفسه أحب أصحابه اليه

لذلك انصرف عن السياسة وعاد من جديد إلى المحاماة ؛ بيد أن رجال حزبه يزينون له أن يطلب منصباً رسميا ويشيرون إلى حقه فى ذلك وهو من جانبه لا يحجم فيطلب الى الرئيس أن يهيء له منصباً ثم يزيد فيطلب منصباً معينا لا يلبث أن ينافسه فى السعى إليه آخرون حتى يفلت من يده ، ويريد الرئيس أن يجامله فيعرض عليه منصباً غيره ؛ ولكن زوجه تقف بينه وبين هذا المنصب ، وتصر على موقفها معلنة أنها لن تقبل لزوجها عملا يعود بهما إلى الأدغال حيث كان مقر ذلك العمل واحدا من تلك الأصقاع الداخلية ؛ ويرفض إبراهام المنصب آخر الأمر . وهكذا نرى زوجه للمرة الثانية حريصة على أن توليه القبلة التى لا ترضى له غيرها قبلة ..

وكانت المحاماة وظيفته الطبيعية إذا فرغ من السياسة الى حين ؛ فما باله يريد أن يتنكب طريقه ويستبدل بعمله عملا آخر لا يتصل بطبعه ولا يستقيم مع خلقه ؟ ما باله يريد أن يحيد عن الغاية وقد قطع فى سيره اليها شوطاً ليس باليسير ؟ ترى ماذا كان يحدث لو أنه كان غير وجهته واتخذ له غاية غير غايته ؟ ولكن الدهر يضن به ويدخره لغد ويأبى أن يغير تاريخ قومه بطمس رسالته ...

عاد من السياسة الى المحاماة عودة ظن الناس معها أنه لن يقرب السياسة بعد ذلك ؛ وكان قد ترك العمل كله لصديقه هرندن ؛ وهو اليوم فى المحاماة أعظم خبرة من ذى قبل وأكثر معرفة بأحوال الناس وشئون حياتهم

وكان من أبرز صفاته سرعة ألفته للمواقف الجديدة فى حياته ، وترك مواضيها حتى تبعثها الأسباب . لذلك أقبل على المحاماة إقبالا لا يظن امرؤ معه أن قد كانت له صلة بمهنة سواها ، وكأن العمل فى السياسة لم يكن إلا عارضاً مر وانقضى فليس اليه رجعة . هذا والسياسة مستكنة فى نفسه ومعضلة العبيد فى أعماق وجدانه تنتظر أول صيحة لتبرز من جديد وهى أعظم قوة وأشد وضوحا وأكثر اقتراباً من الغاية ...

وضاق إبراهام ذرعا بما تثيره زوجه من عوامل الشقاق فهى ما تفتأ تريه التبرم والسخط وتأخذه بألوان من العنف يوشك أن ينفد لها صبره ويطيش حلمه ، لولا أنه يعود بالسبب على مزاجها الحاد ؛ وإن كان ليسأل نفسه بين حين وحين أهى مغضبة عليه حانقة لما أصاب من فشل فى السياسة ، فما تزال تتعلق بأوهى الأسباب لمجادلته ومغاضبته وقد صغر فى عينها وهان لديها شأنه ؟ ... ولكنه يحس من زوجه أنها على شغفها بتعنيفه تضمر له المحبة والاعجاب كعهده بها فيطمئن قلبه ويرد الأمر فى هذا الشقاق الى ما يعرف من طباعها

ولكن الشقاق متصلة حلقاته وان وهت دواعيه ؛ والمدينة أضيق فى عينه اليوم منها قبل ، وهو ابن الاحراج والغابات والبقاع المترامية ؛ وهو الذى لم يألف الاستقرار فى موطن . لذلك عول على أن يعمل فى المحاكم المتجولة فيقضى أشهراً بعيدا عن المدينة وعن بيته ، يتبع المحكمة أينما سارت ، إذ كانت المحاكم يومئذ فى تلك الأصقاع هى التى تذهب إلى الناس !

وبرزت فى المحاماة مواهبه من جديد وظهرت خلاله ، وأخذ ينشر مبادئه بالعمل لا بالقول . جعل الحق رائده والصدق شعاره كما جعل مرد كل شىء عنده إلى معانى الانسانية والفضيلة لا إلى أصول القانون وملابساته . وليس معنى ذلك أنه أهمل جانب القانون

كلا إنما كان يهمل جانب القانون إذا أدت ملابساته إلى التعمية وإظهار الباطل فى زائف من ثياب الحق ؛ ولذلك جعل الفضيلة فوق القانون ، والصدق فوق المهارة فى الحوار واللباقة فى المجادلة . وكان يحث أصدقاءه من المحامين ومحبيه من الناشئين على ألا يفرطوا فى جنب الفضيلة قائلا فى صراحة وفى بساطة : ان هناك رأيا شائماً فى الناس مؤداه أن المحامي رجل يتهاون عادة فى حق الأمانة ؛ ولذلك فلا بد من أن يتمسك المحامي بالأمانة فيما صغر أو كبر من الأمور لكى يدرأ تلك التهمة الشنعاء عنه وعن طائفته . ومن عباراته الشهيرة فى ذلك قوله : « يجب أن تبث فى المهنة روح الفضيلة لكى تطرد تلك الروح الأدنين » وقوله ينصح أحد الناشئين : « إعمل على أن تكون محامياً أميناً . فاذا لم تستطع أن تكون أميناً وأنت محام فخير لك أن تكون أميناً وألا تكون محامياً »

أما عن مسلكه فى معاملة الناس فظل هو هو الرجل المتواضع القنوع . كان يرضى بالقليل من الأجر إذ كان يعتبر طلب الأجر الباهظ من أكبر آثام المهنة . ويذكر أنه دافع مرة عن حق رجل فى مبلغ ستمائة دولار ولم يتقاضه أجراً على ذلك سوى ثلاثة ونصف ! ويذكر أيضاً أنه لم يتفق على الأجر مرة . فلما ربح القضية أرسل إليه موكلوه خمسة وعشرين دولاراً ، فرد إليهم عشرة منها قائلاً : إن ما بقى هو ما يستحقه !

وكان أينما حل يأسر القلوب بسجاياه ، فهو لا يتكلف ما ليس له . ولذلك كان يخالط الناس كأنه أحدهم ، يضاحكهم ويلاطفهم ويسرى عنهم بأقاصيصه ، والناس يفطنون إلى عذوبة روحه وطيب قلبه ويقظة وجدانه ، فيفرحون أن عرفوه ويحرصون أشد الحرص على مودته . ولا فرق عنده بين غنيهم وفقيرهم أو بين كبيرهم وصغيرهم ، حتى الصبية كان يغمرهم بعطفه فيذهب أحياناً إلى جماعاتهم يتفرج على ألعابهم لحظة ، ثم إذا هو بينهم طفل كبير . ولا عجب فقد كان قلبه الكبير مليئاً بمعانى الانسانية فى نسقها الأعلى . وتلك لعمرى هي العظمة الحق التى تعمر قلوب بعض البشر فتسمو بهم عن بشريتهم وهم بين الناس يعيشون كما يعيشون

وكان فى المحكمة كما كان فى خارجها الرجل المتواضع العف يدخل وجيوبه منتفخة بأوراقه ، وقبعته ثقيلة بما حوت ، لا يعرف أبهة المظهر وقد سلم له الجوهر ، ولا يدرى ما التطاول والتعاظم وقد عظم حتى صارت العظمة هي كما يفعل !

كان الصدق فى الدفاع أول وسائله فى الاقناع . وقد يتبين له أثناء دفاعه أن الحق قد ألبس عليه بالباطل فيترك القضية لأنه لا يستطيع أن يلائم بينها وبين طبعه ، أو أن يرفعها إلى مستوى حماسته وصدق شعوره . على أنه ما كان ليفعل ذلك لو أنه استطاع . وكان المنطق السليم والانصاف بعد ذلك أدواته ووسائله ؛ يضاف إليهما الدراسة الدقيقة لما ينهض له ، والاحاطة بجميع تفاصيله . هذا إلى ما امتاز به من صفاء الذهن صفاء يساعده على تبين الطريق إلى غايته فى يسر ووضوح ، حتى ما يلتوى عليه أمر أو يعزب عن ذهنه حادث

وعرف عنه فيما عرف الأناة حتى لقد كانت تغضب منه زوجه وترميه بالبلادة . وكثيراً ما تبرم صديقه هرندن وتملل لأناته . فانظر الى إبراهام يسأله أن يأتيه بمبراة وسكين فاذا أحضرهما قال له : إن سلاح تلك المبراة أقصر وأحدوا ملك تظنها بذلك أنفع من السكين إذ هى أسرع ، ولكن أيتهما أبعد من الأخرى غوراً إذا تفذتا فى جسم ؟ ويقتنع صاحبه بعدها أن التأنى فى الأمور أبعد فى سبر الأمور غوراً ، ولا يشتكى بعد من أناته ويطيق معه صبراً !

وكان مما يهابه منه المحامون تهكمه ، فهو يعمد فى دفاعه أحياناً إلى التهكم اللاذع فيزلزل به قدمى خصمه حتى ليذهل عن رشده بين ما ينبعث من جوانب القاعة من الضحكات ...

وكان إذا جاءه أحد الناس يطلب إليه المدافعة عنه استفهمه حتى يستقصى خبره ، وهو على طيبة قلبه يقرأ فى وجه محدثه أمارات الكذب إذا هم أن يكذب ، فما يزال به حتى يرده إلى الصدق فى مهارة دون أن يسيئه فى شعوره ! فهو وإن لم يك من الماكرين لا يقدر أحد أن يمكر به . فاذا جاء دور الأجر طلب إلى موكله أن يدفع مايستطيع . فان كان موكله مملقاً فكثيراً ما كان يكتفى من الأجر بالثواب وبالجميل يغرسه فى قلبه . ذلك ما حدث حين قام يدافع عن ابن متحديه القديم أرمسترنج وقد اتهم فى جناية فانه لم يتقاضه على تبرئته أجراً إلا المودة

« يتبع »

الخفيف

تطور الحركة الأدبية

في فرنسا الحديثة[1]

فرديناند برونتيير F. BRUNETIÈRE

١٨٩٤ — ١٩٠٦

للأستاذ خليل هنداوى

— ٢ —

نقده التطورى

كان (برونتيير) في نقده معارضاً أشد المعارضة للنقد المنفعل وزعيمه (جول ليمتر). والنقد الشكي وصاحبه (أناطول فرانس)، كان يؤمن بأن في خارج عوالمنا حقيقة معهودة وأن ليس حقاً أن تكون الآراء مختلفة وأنواع المذاهب عميقة التباين إلى غير حد. إذ في الإمكان أن نعرف — وبمقياس خاص — أن نحلل فنحدد تاريخ أثر ما، وأن نفسر أخلاق كاتبه، وندرس تاريخ بيئته كما صنع سانت بوف وأن نعمل خيراً مما عملوا. يمكننا هذا ويجب أن نناقشه. أما النقاد المنفعلون فيعملون على ألا يبدوا إلا انفعالاتهم دون أن يجزموا بها. على أن هنالك قواعد كثيرة مرهقة دقيقة تخص الأدب والفن، تجبرنا على أن نناقش الآثار الأدبية ونعمل على تصنيفها وبحسب هذه القواعد شن (برونتيير) الغارة على الواقعية والرمزية، وهنالك شيء غير هـذا يتعلق بالقواعد الفنية

فنظرية الفن من أجل الفن نظرية خطرة يجب ألا تقفنا مجردين إزاء الخير والشر في الأخلاق، إن أرادوا أو لم يريدوا، فإن أثراً ما قد يثير تأثيراً حسناً أوسيئاً. ومن واجبهم أن يقضوا عليـه مهما كانت بواعث المؤلف إذا كان تأثيره تأثيراً خطراً. والناقد في نظريته هذه يوافق تلميذ بول بورجيه.

وقد أراد — برونتيير — أن يعطى نقده صفة علمية، وقد زعم أنه اكتشف قانوناً يحيط بالأنواع الأدبية ويصنفها، يقول: إن الأنواع الأدبية مهما كانت البواعث عليها من ضرورة أو حاجة أو بيئة، فهى مثل الأنواع الحية للأحياء التى درسها «داروين». «كل شيء يتطور. لا شيء يبقى ساكناً». كذلك الأنواع الأدبية تتطور، تمشى حيناً إلى صلاح وحيناً إلى فساد، وقد درس الشعر العاطفى والقصصى وبنى نقده على مذهبه التطورى.

وإذا لم يبق لبرونتيير شيء من هـذا المنطق العلمى فإن تطوراته جاءت تحتوى تنظيما للتغيرات الأدبية، تصنف الآثار الأدبية كما يصنف علم الطبيعة أنواع الأحياء. وكان لنقده تأثير كبير في الأندية الأدبية. ولم يكن هذا النقد يعتمد على الأحوال العلمية فحسب، بل كان يرجع إلى التاريخ وإلى معرفة واسـعة للآثار والنصوص. وذلك ما كان مجهولاً قبله، ولقد كان قبل كونه نقاداً محارباً نقاداً قاسياً ذكياً. فهو وحده أعلى شأن الـكتاب المهملين وشأن كل الحركات الفكرية المهجورة لأنها لم تأت في أثر مذكور، أو قول مأثور. وكان ذا موهبة خطابية يعلمها من كان يشهد محاضراته، وتشهد عليهـا تلك الأمواج الـكثيرة التى كانت تسحرها لهجته ويفتنها بيانه

أدب الحياة

إن المدرسة الرمزية كالمدرسة البرناسية تعمل على الانطلاق من حياة الجماعات، لا يؤلف أصحابها إلا لأنفسهم خاصة. فهم ينظمون شعراً لفئة خاصة، وإذا هم ترنموا بالحياة لم يترنموا بالحياة العامة التى يظهر فيها القطيع الإنسانى قطيعاً بائساً يمشى على إيقاع القوات الحاكمة. والعودة إلى الأدب الإجتماعى ومحو التشاؤم (البرناسى) قد ولدا مدارس وآثاراً تريد أن تترنم بالحياة وتملأها شدواً وحناناً وجمالاً. وقد أسس (بوهيلي ومونتفور وموريس) مذهباً يميد للإنسانية جمالها البطولى، وينظم الروابط التى تصلها بالوجود، وينير شعاعها القوى في الطبيعة. وهـذا الشاعر (فرناند جيك) يذود عن الإنسانية التى تحتل مكانها في الوجود بواسطة الإنسان. وبعد هذا فإن الوحدة التى أعلنها (جول رومان) والتى تسعى إلى التعبير بصورة رمزية لا عن نفس ولا عن أنفس، ولـكن عن النفس الإنسانيـة عامة التى تبدو حيناً متحدة وحيناً منقسمة. هى النفس الحقيقية العميقة من

(١) عن الأستاذ «دانيال مورنى»

النفوس البشرية ؛ ومن أظهر آثاره فى هـذه المنى (الجيش فى الدنية)

ومثال ذلك من الشعراء مقاطيع (أميل فار هارم) الشاعر البلجيكى . ولد فى (سانت راماند) بالقرب من (أنفرس) سنة ١٨٥٥ . وقد درس الحقوق فى أول عهده ثم وقف حياته كلها على الشعر ، ودرس خلال ذلك أسرار النفوس الخفية . ومات سنة ١٩١٦

عاش « فارهارم » وتثقف في بلد هادئ ، وفى قلب أسرة متدينة غنية بالعافية مطمئنة القلب . ونشأ هو درِّيساً مرحاً وإنساناً يجنح إلى الطرب . وبعد أن قل ميله إلى المدرسة الكلاسيكية وتروعه إلى لامرتين وهوجو أخذ ينظم شعراً واقعياً حساساً . ولكنه استنفد قواه ، أو أن قواه كانت أضعف مما كان يظن ، فأصابه بلاء فى صحته ، حتى أصبحت أعصابه المتوترة لا تستطيع أن تحتمل أية ضجة ، لا وقع لحن ولا وطء قدم . وهذا بلاء تولد عن بلاء نفسى . فلقـد كانت طفولته مشحونة بالأساطير ، طافحة بالتقوى والاعترافات والصلوات ! ولكنه شك فجأة وجرب باطلاً بأن يستعيد إيمانه ، فكان أن فرَّ الإيمان وأقبل الألم

فأخذ يجد فى السياحة فى أطراف البلاد طالباً التعزية لنفسه فكتب ونظم ... وفى هذه الفترة أصاب وطنه أزمات اجتماعية عنيفة حتى أقوت القرى من سكانها ، وعفت المدن بمن استهوتهم بألوانها . ولكن (فارهارم) عاوده الشفاء رويداً رويداً ، فعاد يجد الحب والإيمان . أما الحب فلم يتكلم عنه إلا بمقاطيع محجبة ولكنه يبدى إيمانه به . فالمدن قد فتحت أذرعها إلى القرى لتخليها من أهلها ولكنها — برغم عيوبها وشرورها — قد أوجدت العزم والقوة . وإنها لقوة مشوشة ، ولكنها جيلة مخصبة لأن البرية المنجذبة أخذت تموت . فلتترنم الآن بالقوة التى تحيي الموات . هذه هى ألحان الحياة الحاضرة ...

ولكن شفاءه لم يجعل منه إنساناً صافى الشعور . فقد ظل على ارتعاشه وهيامه الباطل . وقد علمنا أن له — منذ طفولته — إحساساً عصبياً عنيفاً ، وبعض الذكريات من هذه الطفولة قد ولدت فيه أنواعاً من حب الأسرار ناهيك بطغيان المخيلة عليه . وقد جرى خلف مدارس أدبية حديثة ، فاستمد من شوبنهاور ومن بودلير ومن فرلين ومن مالارمى . فكان هو ومعه فئة من بنى قومه أسسوا الفن الحديث في بلجيكا الحديثة ، وكانوا ينشرونه فى المجلات الرمزية . وهذه الرمزية كان مزاج شاعرنا يميل إليها

هنالك صور مفاجئة تتولد من نفسه فى ظلمة نفسه بصيحة من نفسه ، أو حلم أو حالة مجهولة ، ومنها تتولد صور أخرى تحف بها فتكون قصيدة رمزية ، لأنها ليست مظهراً عددياً للتأمل . ولكنها نوع من هذا الهيام الباطنى حيث كل خيال يعكس حالة من حالات النفس ، وكل نغمة تمثل فكرة موزونة

وهكذا قدر لشاعرنا أن يعبر فى ديوانيه « القرى الباطلة » و «البرارى الهائمة» عما لا يقدر عليه شاعر آخر من معان تفر من الوضوح ومن التعبير الواضح . فكان بهذا شاعر المطر والريح والسكون وكآبة الهجر والعزلة . وكان بهـذا شاعر الكآبة المنجذبة الشاردة للأشياء . ولكن سرعان ما شفى من هذه الحالة النفسية فلم يعـد يميل إلا إلى الطرب والنور . وبدلا من تلك المطاحن السوداء والمآسى وحفارى القبور وكل ما يمت على الأسى أخذ ينظر إلى السنابل المتحركة والمطاحن الفرحة ويسمع الصراصير ويفهم كل أشكال النور والخصب وفرح الحياة . ألم يكن يجد فى كل حالة شقاء له وكمداً دون أن يقدر على الفرار من هـذا الكمد ! كان يحيا في عالم صاخب ، ومذ عاد إليه إيمانه الاجتماعى وتفاؤله نشأ عنده ميل إلى كل ما يرن ويدوى ، وإلى كل ما لا يسقط كالسهم فى النور . وإنما ينساح كالجدول المنساب فى الغابة . فتش فوجد الشعر العاطفى هو الذى يقدر أن يعبر عن هذا الشعر للحياة الهامسة المضطربة ، هذا الشعر الخطابى حيث تدور الفصاحة فيه وتسيطر عليه . وأطياف من الصور القاسية التى تنتهى بالذوبان فى شبه وحدة متحركة فى الايقاع الناعم القامى لحياة لا تجرى على نظام متبوع !

« يتبع » خليل هنداوى



رسالة الشعر



الباحث

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

المقدمة

قد صور كثير من المفكرين والشعراء حياة الانسان عصراً بعد عصر كأنها حياة إنسان واحد أو كأنها بحث متصل دهراً بعد دهر ، وهذا البحث هو ما يزكون به حياة الانسان وما يعذرون به شقاءها وآلامها ويأملون آمالاً كباراً من وراء تقلب الانسانية فى بحث الحياة . ومن هذه الآمال رجاؤهم أن يعم الشعور بوحدة الانسانية على اختلاف الأجناس والشعوب والمطامع والضرورات والمطالب والنزعات النفسية ، ويأملون إذا عم هذا الشعور بوحدة الانسانية أن يقلل الاحساس العام بوحدتها من البغضاء والشرور والحروب والآلام والجشع ، وأن يؤدى إلى التعاون على الحياة بدل التقاتل عليها . وهذا البحث الانسانى المستفيض دهراً بعد دهر للحياة وما يدعو إليه من الاحساس بكل شعور وكل حالة من الحالات كى يعم مبدأ وحدة الانسانية هو الذى دعا إلى تخيل إنسان يعيش دهراً بعد دهر فى كل حال وفى كل مكان حتى يملأ العطف قلبه ويرى أن نشدان الحق غاية الحياة ، وعلى فرض أن هذا الأمل الكبير فى أن يعم الاحساس بوحدة الانسانية حتى تنمحى شرور الجشع فى التقاتل عليها لن يتحقق فان بقاءه كمثل أعلى مما يخالط مرارة الحياة بحلاوة منه

وعلى فرض أن المثل الأعلى لا يكون فى تحقيق وحدة الانسانية ؛ ففى القصيدة مثل آخر وهو أن نشدان الحق هو الشعلة المقدسة التي ينبغي أن يرعاها الفرد ، وأن ترعاها الانسانية عامة

القصيدة

بينما كنتُ سائراً لاح شيخ ... ذو سكون ونظرة هوجاء (1)

ويكاد الضـياء ينفذ منه ... فهو بين الأنام صنوُ الهواء (2)

باحث فى السماء يطلب شيئاً ... غاب عن عين غيره فى السماء

وهو فينا جزء من الزمن الأ ... ول ذكرى لسالف الآباء

وجهه رائع كوجه أبي الهو ... ل رأى ما مضى على الغبراء

قلت ياشيخ ما دهاك وما شأ ... نك بين الأموات والأحياء

قال من يدرس الحياة طويلاً ... لَخَليقٌ بضَحْكةِ الجهلاء

كنت والكون فى الطفولة أغدو ... وشـباب الأيام فى الغُلواء

وصرعت المنون حتى لأنسا ... نِيَ طولُ الحياةِ حُكمَ الفناء

دُوَلٌ قد أتت وأخرى تَقَضَّتْ ... وبقائي بين الأنام بقائي

وشهدتُ الصروفَ من قبل عادٍ ... والمنايا تَجُرُّ ذيلَ العفاء

أَنْشُدُ الحقَّ لستُ أَلْوِي إلى البا ... طل فالحق يُطَّبى بالرجاء (1)

عشت دهري بالبحث والأمل الحا ... و ولولاه لم أفُزْ بالنجاء

من سهام المنون إنَّ سهام الـ ... ـموت فينا كثيرة الإصماء (2)

هِمْتُ يوماً من قريتي أنشد الحـ ... ـق . لعلي أراه فى الدهماء

عِفتُ بيتي و بلدتي وهجرت الـ ... أهل أبغي رِيَّ النفوس الظِماء

ظمأ النفس مثله ظمأ الجسـ ... ـم وداء النفوس كالأدواء

زعم الناس بي الجنونَ وقالوا ... طالب الحق أخرق الأحياء

كلما لاح شامخ قلت إن الـ ... ـحق يغدو من خلفه بإزائي

ورَعَيْتُ الظلماء عَلِّي أراه ... خارجاً من مرائر الظلماء (3)

(1) هوجاء ، لأنها لا تستقر لتطلعه إلى ما ينشده من الحق في كل ناحية
(2) صنو : قريب

(1) يطبى : يستمال (2) الاصماء : إصابة المقتل ضد الاشواء
(3) على : أى لعلي

وجزعت الصحراء أرجو لقاء
منه يُرجَى فى وحدة الصحراء(١)

ولكم غُصْتُ فى العُبَابِ عليه إنما الدر منه فى الأحشاء
وأثَرْتُ الأصداء أبغى جوابا لسؤالى فى منطق الأصداء
وسألت الرياح عنه فَصَمَّتْ عن دعائى فلا تُجيبُ دعائى
وسألت السماء تبرز وجهـا
منه يَبْهَى فى الأُفق جَمَّ الضياء(٢)

وأعارَتْنِيَ الطيورُ جناحا أرتجي منه لقية فى الفضاء
طالما خاب ناشد الحق لكن رجائى كما عهدتُ رجائى
قد يجيء الصباح منه بوجه طالما كان مُضْمَراً فى الخفاء
أو تُبِينُ الأحلام منه ضياء فى سماء الأحلام مثل ذُكاء(٣)
قد صحبت الانام طرًّا كأنى بينهم فى تَلَوُّنِ الحرباء
كان لى نوح فى السفينة خِدْناً فنجونا من مُهْلِكِ الأنْواء
وحبانى أشور فى نَيْنَوَى العُظْمَى بِسَيْبٍ من جوده وثناء(٤)
ورآنى فرعون أُقْدِمُ فى الجيش مُشِيحاً ورافعاً للواء(٥)
وتَجَلَّى آمون فى معبد الأقصر يقضى فى شعبه بالقضاء
ولكم جُلْتُ فى أثينا وأفلا طون يتلو فصاحة الحكماء
ورأيت الرومان فى رومة العُظْمَي عظامَ الأعمال والأهواء
وصحبت المسيح فى القُدْسِ دهراً وحبانى من روحه بالصفاء
وعبدت النيران قِدْماً ولكن قد سما بى الإيمان للسمحاء(٦)
وحمدت النعيم والترفَ الوا فر قِدْماً فى صحبة الخلفاء
وحَسَوْتُ النعيم والبؤس حتي لم أدَعْ كأس لذة أو شقاء
وصحبت العبيد فى ظُلُمَاتِ العيش حتى جُنِنْتُ بالضَّرَّاء
وألِمْتُ الآلام طرًّا وَلُقِّيتُ عذاباً أُتيح للتعساء
وصحبت الوحوش فى البيد حتى أَنِسَتْ بى الوحوش فى البيداء
وأرقت الدماء فى الحرب حتى جُنَّ قلبى من نشوة الهيجاء
لم أدع خَطْرَةً أُتيحَتْ ولا معنى ولا فكرة من الأراء
أو شعورا أو هاجسا أو طموحا لا ولا مَشْهَدًا تركتُ لرائى
أنشد الحق بالتقلب فى العيش وأبغى سريرة الأشياء
أنت أيضاً شهدت هذا جميعا غير أنْ لا تُعَدَّ فى الفطناء
قال ما قال ثم غاب عن العين كما يخفت الصَّدَى فى الهواء(١)

عبد الرحمن شكرى

(١) جزعت : قطعت (٢) يبهى : يحسن
(٣) ذكاء هى الشمس
(٤) نينوى : مقر ملك الآشوريين ، والسيب العطاء
(٥) مشيحاً : المشيح المانع لما وراءه من إقدامه وإقباله
(٦) يراد بالسمحاء الديانة الاسلامية

(١) خفوت الصوت تضاؤل جرسه ، وفى البيت تشبيه امحاء الصورة أو الخيال من العين بامحاء الصوت من الأذن

في سكون الليل

للأستاذ ابراهيم العريض

غفا الكَوْنُ .. إلا ما يكونُ من الصبَا
إذا حرّكت مهدَ الزهورِ النواعس

تخالينها – يا ميُّ – طهراً مجسّما على كل غصنٍ فى الخميلة مائس
ويحبس من أنفاسها الليلُ ريثما يخالطها بردُ الندى المتقارس
فترسِلِ طيباً حولها فى دوائرٍ تدورُ إلى أن يغمرَ الطيبُ هاجسى
وقد سكنت حتى المياهُ كأنها هنالك تُصغى فى الظلام لهامس
يصقلها مرُّ النسيم فتنجلى بها صورُ الأشياء شبهَ رواكس
وينظرُ فى مرآتها النجمُ حائراً فليس يرى إلا شرارة قابس
أتزعمُ أن اللهَ أبدعَ هذه لنقضِى ريحانَ الصبا فى المجالس
ولا طيرَ إلا وهوَ طاوٍ جناحه على الرأسِ حتى المنكبين كبائس
تخالينه من هيئة الشكل ناعساً ولكنهُ – يا ميُّ – ليس بناعس
فإن لذكرى كل لحنٍ شدا به سحابةَ يومٍ هزّةً فى المغالس
تؤرّقه تلك الهواجسُ موهِناً فيشفقِ من جرّاء تلك الهواجس
وكم دوحة فى الروض حال سوادُها بأنوارِ بدرٍ شعّ بين المغارس
فألبسَها من نسجه بعد عُريها وشاحاً لُجينيَّ السنا كالعرائس
وتحتَ شعاع البدرِ أسفرتِ المنى وعاينتُها تحنو حنوَّ الأوانس
تعالى هُنا نخلدْ من العمرِ ساعة يداً بيدٍ فى نجوةٍ وتهامس

ابراهيم العريض



شارلس لام بروى عن شاكسبير

٣ ـ قصة الشتاء

بقلم الأستاذ دريني خشبة

تتمة

والتفت الملك إلى فلوريزيل يقول: « مرحباً بك يا ابن أعز الأحباب وأوفى الأصدقاء! لقد فقدت محبة أبيك الذى أهفو إليه وأحن له، وبنفسى ما ألقي من الشوق للقائه! ولكن ... بحسبي أن أنظر اليك فكأنما أنظر إليه ... وبحسبى أن أنظر إلى الأميرة الجميلة، فكأنما أنظر إلى هرميون!

— ومن هرميون يا مولاى؟

— هرميون! ويلاه علىّ! إنها زوجتى المغفور لها يا بنى! لقد ماتت منذ ست عشرة سنة ... وفقدت كل شىء بموتها! حتى ابنتي الوحيدة التى لا أعلم أين تعيش اليوم إن كانت ما تزال حية! آه يا هرميون! لشد ما تشبهك هذه الأميرة الصغيرة! ولشد ما تنطبق صورتها على صورتك فى ذهنى المعذب بذكراك! آه يا بُنيتى! أين أنت اليوم لأفتديك بملكى ونفسى! »

ثم انحدرت عبرات من عينى الملك، فازدحمت الآلام فى قلب الراعى، وتأكد أن ابنة الملك هى برديتا الحبيبة التى وجدها فى الغابة؛ ثم جعل يستعرض براهينه، فذكر الجواهر التى كانت الواحدة منها تشرى له قطيعاً بأكمله، وأيقن أنها لا تكون إلا مما يقتنى الملوك ... ثم ذكر ما هو مكتوب فى الورقة فلم يزده إلا ثقة فى حقيقة ما حدس ...

وتقدم الراعى إلى الملك واستأذنه فى الحديث فأذن له، فأخذ يسرد قصة برديتا كيف تركها رجل فى ظل دوحة على الشاطئ البوهيمى، وكيف قتل الدب هذا الرجل واغتذى به، ثم كيف سمع الطفلة تبكى وتئن من البرد والجوع، وما كان من ذهابه بها إلى زوجته، وما وجده فى ثيابها من الجواهر واللآلئ وغالى الحلى، وما وجده مكتوباً فى ورقة مثبتة فى صدرها بدبوس

ولم يكد الراعى يبرز الورقة وما تبقى معه من الجواهر، ولم يكد الملك ينظر إلى الجواهر فى يديه، حتى أهرع إلى برديتا وهو يصيح: « ابنتى! ابنتى! تعالى يا برديتا! تعالى إلى صدر أبيك الشقى! » ثم ضمها إلى صدره، وراح ينشج نشيجاً مؤلماً ويذرى عبراته الحرار على صدر الفتاة المشدوهة، التى تركت نفسها حائرة مستريبة فى حضن الملك، وهى لا تفهم من هذا المشهد المؤثر شيئاً مطلقاً ...

إذن قد عرف الملك جواهره التى أهداها بيديه إلى هرميون ليلة زفافها! فهذه آية لا يسمو إليها الشك ...

وكانت بولينا — زوجة أنتيجونوس حاضرة — وهى التى حملت برديتا من السجن لتلقى بها بين يدى الملك — فلما أخذت الورقة من يد الراعى لم تشك فى أنها هى نفس الورقة التى كتبها زوجها(١) وثبتها بيده فى ثوب الطفلة... فكانت هذه آية أخرى. وبالرغم مما علمت بولينا من أمر زوجها، وما صنع به الدب، فانها فرحت بعودة برديتا فرحاً أنساها أشجانها

وآية ثالثة ... فقد ذكر الملك الشطر الأخير من نبوءة دلفى « سيعيش الملك بلا وارث إن لم تمد إليه طفلته المفقودة! » فأيقن أنها هى، وأن أبوللو لم يكذب!

وفى هذه الثورة الهائلة من الوجد الجارف، والذكريات المؤلمة، تقدمت بولينا إلى الملك ببشرى رائعة!

ذلك أنها كانت قد حرست على تخليد ذكرى هرميون، فكلفت المثال الصناع الشهير جوليو رومانو بنحت تمثال للملكة المغفور لها، فجاء التمثال طبقاً لهرميون الخالدة، ثم توسلت إلى الملك أن يتفضل فيذهب إلى منزلها، ليرى أن تمثال هرميون هو صورة حقيقية لبرديتا!

---

(١) ذكرنا أن هرميون هى التى كتبت هذه الورقة ولكنا عدنا إلى قصة شاكسبير نفسها فعلمنا أن أنتيجونس هو الذى كتبها

وذهب الجميع الى بيت بولينا ... وأزاحت بولينا الستار فبدا التمثال الرائع ... ووقف الملك مسبوهاً أمامه يتأمله ...

وذكر الملك أن هرميون تبدو فى التمثال أكبر من سنها الحقيقية ، فلفتته بولينا إلى أن المثال قد أضاف الى عمر هرميون هذه الست عشرة سنة !

ولاحظت بولينا ما انتاب الملك من الحزن ، فاستأذنته فى إسدال الستار على التمثال ... وهنا — يدور هذا الحديث الباكى :

— لا ... لا تسدلى الستار يا بولينا ! ليتنى مت قبل هذا !! أنظريا كاميللو ؟! ألا ترى إليه كأنه يتنفس يا صديق ؟! ألا ترى إلى عينيها كأنما تتحركان وترنوان ؟! ... لا تسدلى الستار يا بولينا ! إنى أحس كأن عشرين سنة تتكلم من فم هذا التمثال ! أوه — هاهى ذى الحياة تدب فيه ! فياللناحت الذى يضع الأنفاس فى الصخر ؟ ! ليهزأ بى من يهزأ ، فلا بد أن أقبل الشفتين الحراوين !

— مولاى ... حاشاك يا مولاى ... إن الزيت ما يزال غضا وقد تعلق الحمرة بفمك ! فلأسدل الستار ، فهذا خير !

— لا ... ليست هذه السنون العشرون ! »

وبينما كان الملك يتكلم ، كانت بردیتا الحزينة ساجدة أمام التمثال تبكي وتصلى ، وتتمتم باسم أمها الميتة

وتوسلت بولينا إلى الملك مرة ثالثة فى أن تنزل الستار على التمثال رحمة به ... « وإلا ، فأذن لى يا مولاى أن آمر التمثال فيتحرك ويتكلم ، فإنى قد عُلمتُ من السحر ما أصنع به هذا ! »

وعجب الملك ، ثم أذن لها ... « لأنى مستعد أن أرى بعينى وأن أسمع بأذنى ! »

وهتفت بولينا بأسماء كثيرة ، فسمع الواقفون موسيقى عذبة تنسكب فى آذانهم وتدب منها فى أرواحهم ، ثم أشارت إلى التمثال فنزل من فوق قاعدته المرمرية ، وخطر نحو الملك ، ثم ألقى ذراعيه على عنقه وقبله ... وضمه فى حنان وعطف ، وتركه وتوجه نحو بردیتا فاحتضنها كذلك ، وطبع ألف قبلة على خديها وفمها وجبينها ، ثم جعل يتكلم فيقول : آه يا ابنتى ! الحمد للآلهة فقد عدت أخيراً إلىّ ! ... »

مرحى بولينا مرحى !!!

لم يكن هذا تمثالا كما زعمت بولينا ، بل كانت هرميون نفسها !

إى والله ! كانت هرميون لأنها لم تمت ، كما زعمت بولينا للملك ، لكى تنقذ الملكة من سجنها السحيق ، ومن مأساتها الدامية

وعاشت هرميون مع بولينا طوال هذه السنين مفضلةً ألا تعود إلى الملك الذي تأكد من براءتها ، لأنها لم تشأ أن تغفر له ما صنع بابنتها ... فلما أعلن عن عودة برديتا ، دبرت بولينا هذا اللقاء العجيب !

***

وفزع بوليكسينز لما علم من هرب ولى عهده . وتأكد أن كاميللو أبق به إلى صقلية ، فاقتص آثارهما — فيا لمحاسن الصدف ؟!

لقد وصل بوليكسينز فى هذه اللحظة السعيدة التى التقى فيها الأحباب ، واطمأنت عندها القلوب !

وعرف أن برديتا لم تكن راعية شاء ولا رفيقة بُهْم ... وأنها ابنة صديقه الأعز ملك صقلية ، فلم يكن أحب إلى نفسه من أن تكون زوجة ولى عهده .

دريني خشبة



معرض الفن بكلية الحقوق

أقامت لجنة الفنون الجميلة بكلية الحقوق معرضها الأول السنوى الشامل لمجهودات طلابها وأستاذين من أساتذتها في التصوير والرسم ؛ وقد وفقت هذه اللجنة الفنية المباركة التي يرأسها الدكتور على أبو هيف أجمل توفيق فى بلوغ الغاية التى تنشدها ، واستطاعت أن تقدم من الفن الجميل آيات إذا كان هـذا يومها فأكرم بغدها

وإن المجموعة الأولى التى قدمها الدكتور أبو هيف ليتجلى فيهـا روح الفنان الموهوب فلقد وفق فى إبراز المعاني الخفية فى جلاء ووضوح ، ولعل الناحية التى يبدو فيهـا فنه هى الناحية الغريزية فى النفس ، فإن الناظر ليرى فى عينى صاحبة « نشوة الألم » كل المعانى التى تجول فى خاطرها فهي تكاد تثب وثوباً من مقلتيها ، أما صورة « الندم » فقد كان أولى بها أن تسمى « بالذكرى » أو « الحنين » إذ يتبين الناظر فى ضم ذراعى صاحبتها معانى اللهفة الحائرة ، أو كأنها تخشى أن تنسرب من نفسها نشوة لحظة فهى تضم ذراعيها فى قوة وتشبكهما على صدرها . وتتجلى مقدرة الأستاذ الفنان في تصوير الناحية الجنسية Sex فى صورته الفحمية الرائعة « نداء الذكريات » ففيها استلهام لماض معسول ، وانتشاء بذكرى عابرة عاطرة ، كما استطاع فى هـذه الصورة نفسها أن يبرز بدائع التكوين الجسدى وروائع الفتنة . وهناك ناحية أخرى لازم التوفيق فيها الدكتور أبا هيف ، تلك هى نقوشه الرائعة لصور الطبيعة ، فلقد جلى خبايا الحسن والروعة فيها فى دقة بالغة فى « فجر الربيع » وفى « سكون الصباح وسحر الغروب » وكلها تنطق بأنه فنان ملهم عرف فى هـذه الصور وغيرها كيف يوفق بين الألوان واتساق الظلال والأضواء كما يبدو ذلك فى «هيكل الحب» وهى صورة غلب فيها خيال الشاعر على إدراك الفنان فجاءت مزيجاً من الاثنين معاً

ويطول بنا الكلام لو وقفنا عند مجموعة كل طالب فنان ، وحسبنا أن نشير هنا إلى أن هذه الصور تدل على نبوغ كامن فى نفوس لاينقصها غير التشجيع والأخذ بيدها فى هذه الطريق فإنها ولاشك ستبدع وستكون للفن الجميل خير معوان

ويغلب على الطلبة في هذه النواحى الميل لصور الطبيعة ، وعلى الأخص مناظر النيل الساحر فى مختلف الأحوال ، ففيها بذلك روح مصرية جميلة نرجو أن نجد من الحدب ما يأخذ بها فى سبيل التقـدم ومعارج الكمال . ومن هؤلاء كمال نجيب وزكي واعيش وإحسان والدالى والسمنودي ودسوقي وحتاتة ويحيى سامى وحنفى وحمزة ومدكور والشموتى . وإن ما أبدعته ريشة الفنان الشاب إحسان أحمد ابراهيم لما يدل على روح فنية أصيلة يرجى منها الخير ، والحق أن ما عرضه آية فى بابه يستحق عليه التهنئة ويستأهل عليه الثناء ، وصوره هذه تشير إلى نبوغ فطرى فيه سيؤتى أكله فى القريب إذا والى العناية بهذه الناحية . ولقد أجاد وأوفى فى الإبداع فى « الغروب بالأقصر » فإن تعانق الشمس بالمياه فى هذه اللوحة لما يلهم الخاطر شتى المعانى وتتدفق حيالها الأخيلة الرفافة ، فهذه الشمس معبودة المصريين القدماء تحنو على المياه التى مدت متنها مركباً ذلولا لفراعنة مصر وكأنها تهمس فى أذنها بمعانى الخلود ، وتنغم أغنية العصور فى مسمع الدهر

كذلك استطاع الأسـتاذ لوسيان شيرون الأستاذ بكلية الحقوق أن يقدم باقة عطرة من صوره للآثار المصرية والاسلامية وهى على قلتها تنبىء عن مقدرته التامة التصويرية ، كما تشير لميله للآثار .

ع . حبشى

ألدوس هوكسلى

إذا عد الثلاثة الأوائل من زعماء الفكر فى انجلترا فى العصر

الحديث فلا شك أن ألدوس هوكسلي يكون ثالثهم ؛ وأولهم — فيما نرى — هوبرنر دشو . وثانيهم هو هـ . ج ولز — وقد نظم برتراند رسل بهذا الترتيب ، وهو على كل حال رابعهم ، وله مزاياه التي يتفرد بها بينهم ... وألدوس هوكسلي هو ابن العلامة الأشهر توماس هوكسلي الذي اهتدى إلى نظرية النشوء قبل أن ينشر داروين كتابه (أصل الأنواع) بثمانية أعوام ، والذي لولاه ولولا كتاباته الخالدة لم يكن لداروين هذا الذكر وذاك الخلود ... وهوكسلي الصغير هو أحد الكتاب الشباب ، وإن يكن قد جاوز الأربعين ، الذين برزوا إلى الوجود بعد الحرب الكبرى ، والذين ثاروا على القديم تلك الثورة الهدامة التي كادت تأتي على أسس الأدب الانجليزي المحافظ . وقد اشترك مع هوكسلي في هذه الثورة لورنس وجويس وفَلسَفها شو ، لكن لورنس وجويس كانا يتخذان في ثورتهما سلاحاً من العاطفة مسنوناً ، ومادة من الجنس يتغلغلان بها إلى أعماق القلوب ، وكذلك كان يفعل هافلوك أليس ، وما يزال ؛ إلا أن أليس عالم يحلل النفس وكأنه في معمل من هذه الحياة ، وقصته (أوليسز) آية علمه ، وقصته الجديدة (رقصة الحياة) آية أخرى... وألدوس هوكسلي ثائر من صنف أليس ، وعالم مثله ، وبينه وبين ولز صداقة حميمة ، ويحسبه القارئ من تلاميذ شو ، لكنه في الحقيقة تلميذ السويدي العظيم هنريك إبسن ، وقد ظل طوال حياته الأدبية متأثراً بطريقته فهو يهدم ولا يبني ، ويشخص ولا يصف العلاج ... ولكن انقلاباً عظيماً حدث فجأة في حياة هذا الأديب الكبير ، فقد أصدر كتاباً جديداً له أسماه الغايات والوسائل Ends & Means تناول فيه علل الحياة الحاضرة من سياسة وتعليم واقتصاد وأطماع فجعل يبدئ ويعيد في أسبابها ، ثم يشرع بعد ذلك في وصف الدواء لكل حالة . وقد فزع هوكسلي في مقدمة كتابه من الحالة المخيفة التي انتهى إليها العالم جملة والأفراد متأثرين بما يرون من أعراض العلل التي تنتاب الأمم في موكبها المضطرب الذي تسير فيه إلى نكبة محققة ... وقد اعتدل هوكسلي في مؤلفه الجديد فيما يخص الأديان ، بل هو يعترف أن التدين سيلعب دوره الخطير في رد العالم إلى التعقل ، ويبدو هنا أنه تأثر بالأديب الفيلسوف الفرنسي الكبير برغسون الذي وقف لوالد المؤلف ولداروين بالمرصاد ، يرد نظرياتهم المادية ، ويقفها صامتة جامدة أمام حججه الروحية التي لم يستطيعا نقضها ، والتي جاء مؤلف هوكسلي يؤيدها ويبشر بها ... وينعى هوكسلي على طرق التعليم والتربية المنتشرة في العالم اليوم أنها رثة بالية ، وأن مكروب الفساد الذي ينخر في كيان البشرية في هذا العصر ينتشر من رممها ويتكاثر فيها ، ودليله أن أرقى الأمم وأقواها ، وأكثرها مدنية ومدارس وجامعات هي التي تهدد سلام العالم وتتربص بغيرها الدوائر ، وتعد أدوات الدمار لساعة الجد ؛ ولو كانت وسائل التربية والتثقيف ناجعة لما نامت الملائكة واستيقظت الشياطين وتأججت الحفائظ بالعداوات بين الدول ... وهوكسلي هنا يبدو من أنصار فكرة السلام العالمي ، بل هو من دعاة البشرية التي بحّ صوت ولز بتحبيذها ... وقد وجم الرأسماليون الانجليز من صيحة هوكسلي ، وبدأوا يسفهون فلسفته الاجتماعية الجديدة ، وهذا لأنه عاب توزيع الثروة العالمية بين الأمم ، وصرح بأن استئثار بعض الدول دون البعض بخيرات الأرض هو شلل لنشاط أمم ناهضة عاملة ، كما أنه تخمة تشل نشاط الأمم المالكة

وسنعود إلى هذا الكتاب القيم حين نفرغ من قراءته

الحبشة بعد الفتح الايطالي

قام الميجر . ا . و بولسون نيومان الانجليزي برحلة طويلة في بلاد الحبشة بعد استقرار الفتح الإيطالي فيها استغرقت ثلاثة أشهر (من مارس إلى يونيه سنة ١٩٣٧) متبعاً طريق الغزو التي سار فيها الجنرال بادوليو مبتدئاً من مصوع ومارًّا بعدوه وأكسوم وماكالي وكوارم ... إلى ديسي . ثم إلى أديس أبابا ثم إلى لهمتى (!) فسابو فجمبيلا لحدود السودان ، ثم انثنى بطريق الجنرال جرازياني إلى مقدشو على المحيط الهندي . ثم ركب الطائرة من قسمايو في (الصومال) فطاف بمقاطعة أوجادن إلى دريدوا وإلى هرر ومن دريدوا بالسكة الحديدية إلى جيبوتي وبالباخرة إلى الميناء الإيطالي الجديد عند عصب . وقد كان أهم ما لفت نظر الميجر بولسون هو زوال روح الجفاء بين الأحباش المقهورين والايطاليين الغزاة ، وهذا النشاط العجيب الذي يبديه الإيطاليون في تحضير الحبشة وترقية مرافقها الحيوية وانتشار المدارس الايطالية في أرجاء إمبراطورية أسد يهوذا . وقد ألف الميجر في رحلته هذه

كتاباً هو أحسن ما وصفت به الحبشة إلى اليوم . وبالرغم من أن المؤلف إنجليزي فالكتاب موضوع فى أسلوب حي وروح غير عدائى .

كتاب جديد للمستر ولز

من أنشط المؤلفين فى العصر الحديث وأكثرهم إنتاجاً هو الكاتب الأشهر هـ . ج ولز الذى لا يكاد يمضى عام إلا ويتحف قراءه — وهم عشرات الملايين — بكتاب جديد تحتاج قراءته إلى عام أو أكثر من عام ؛ وأحسن ما ألف ولز هى طوبوياته التى يدفع بها الإنسانية إلى السبرمان . وقد دعا فى السنوات الأخيرة إلى وجوب عالمية التعليم وهى عالمية لا تفهمها القومية ولا تريد أن تستسيغها ، لأنها نقيض لها ، فالعالمية هى الديمقراطية بين الأمم ، أما القومية فهى الاستبداد بين الأمم ، وسلاح الأولى السلم والصالح العام ، أما سلاح الثانية فالحرب والتغلب والتبرير . وولز من أجل ذلك يدعو إلى وجوب جعل التعليم عالميًا ، وانتزاع أخبار الحروب والصدام بين الأمم وتراجم الطغاة والمستبدين من صلب منهاج التاريخ الذى يدرس للتلاميذ فى مدارس العالم قاطبة حتى لا تخدعهم الكبرياء الوطنى عن صالح البشرية العام . وهو يدعو أيضاً إلى تأليف موسوعة عالميـة تبشر بالأخاء الإنسانى وتكون إنجيلاً حديثاً يوجه البشرية ويعهد لحكومة عالمية تحل محل عصبة الأمم التى ماتت ورنقت الغربان الجائمة فوق جيفتها تنوشها وتمزقها . وقد طاف ولز أنحاء العالم وراح يدعو إلى مذهبه فى جامعاته ، وقد حاضر في أمريكا وفى انجلترا وفى فرنسا فنور الأذهان لما دعا إليه ، ثم جمع محاضراته وأحاديثه ومقالاته وأصدرها فى كتاب واحد سماه World Brain وهو اسم غريب تشوهه الترجمة

رابطة التربية الحديثة

زار مصر الأستاذ برفيه مدير معهد جان جاك روسو وكان من أثر زيارته أن اقترح إنشاء فرع فى مصر لرابطة التربية الحديثة يكون من أغراضه مناقشة شئون التربية والتعليم والوقوف على التيارات المتصلة بها فى العالم الحديث وإحداث تجارب في هذا الصدد محليا ، وعقد الاجتماعات الدورية الخاصة ، وإلقاء محاضرات عامة ، وعقد المؤتمرات ، ونشر البحوث الفنية ، وإنشاء مكتبة لهذا الغرض ، والاتصال بالهيئات التربوية فى الخارج

وقد أنشئت فعلا هذه الرابطة من كبار رجال التعليم وألف مجلس إدارتها من صاحب العزة الدكتور احمد عبد السلام الكردانى بك ناظر معهد التربية . والأستاذ اسماعيل القبانى ناظر مدرسة فاروق الأول الثانوية ، والدكتور عبد العزيز القوصى الأستاذ بمعهد التربية ، والأستاذ محمد فريد أبو حديد الموظف بالمعارف ، والدكتور سيد أبو باشا ناظر مدارس النيل ، والدكتور أمير بقطر الأستاذ بالجامعة الأميريكية ، والآنسة أسماء فهمى ، والآنسة سمية فهمى ، والأستاذ محمد عبد الواحد خلاف مدير التعليم بالجمعية الخيرية الإسلامية ، والأستاذ احمد خلف الله المدرس بالجامعة ، والأستاذ على النحاس بمعهد التربية للبنات ، والاستاذ رياض عسكر وكان أول ما فكرت فيه موضوع الامتحانات فى مصر على نحو ما ذكرناه فى العدد الماضى

ذكرى الرافعى

اعتزمت مصلحة الإذاعة الفلسطينية بالقدس الاحتفال بذكرى المرحوم الرافعى لمناسبة مرور عام على وفاته فى ٩ مايو سنة ١٩٣٨ ودعت بعض أدباء المصريين للمساهمة فى هذا الاحتفال . وإنه لوفاء يستحق الإشادة والذكر كنا نرجو أن تكون محطة الاذاعة المصرية أسبق إليه إحياء لذكرى فقيد العروبة الكبير الذي نشأ فى مصر وكانت لها حياته وفيها مثواه . على أن الوقت ما زال متسعاً لتفكر محطة الاذاعه المصرية فى القيام بهذا الواجب ؛ جرياً على سنتها فى الاحتفال بذكرى الخالدين من أدباء العربية ، ومنها الأسوة فى الاحتفال بذكرى الشاعرين الكبيرين شوقى وحافظ إبراهيم

مدرسة الخدمة الاجتماعية فى خدمة الفلاح

أنشئت مدرسة الخدمة الاجتماعية فى القاهرة لإعداد الشباب لخدمة المجتمع ، واستغلال جهودهم للصالح العام . وكان طبيعياً أن تتجه الفكرة فى المدرسة إلى تنظيم دراسة الخدمة الاجتماعية فى القرية فوضعت لذلك برنامجاً منظماً وافياً يشمل كل نواحى القرية ويدرس أكثر المشاكل الريفية دراسة عملية قائمة على الخبرة والتجارب ونظرة إلى هذا البرنامج تبعث فى نفوسنا الاطمئنان على ما تقدمه الخدمة الاجتماعية فى القرية :

تقدمة عن تاريخ الفلاح . اقتصاد زراعى وتعاون ومسائل صحية . التعليم . تجميل القرية والمسكن . ترغيد الحياة الريفية الأمن العام . الفلاح والدولة . مسائل اجتماعيـة . الخدمات الاجتماعية فى الريف

وقد بدأت هذه الدراسة الريفية يوم ١٣ أبريل وتستغرق نحو شهرين وتلقى المحاضرات فى أحد مدرجات كلية الطب ويقوم بإلقائها نخبة ممتازة من المتصلين بشئون القرية والمهتمين بانهاض الفلاح ، نذكر منهم الآنسة ابنة الشاطئ وإبراهيم رشاد بك والدكتور محمد خليل عبد الخالق بك والدكتور على بك حسن والدكتور حلمى السعيد والدكتور القللى بك والدكتور عبد الله العربى بك والدكتور مأمون عبد السلام والدكتور احمد حسين

وإلى جانب هذه الدراسات العلمية المنظمة تقوم المدرسة بزيارات عملية للريف

كتاب شواهد القبور

نشر الأستاذ جاستون فييت مدير الآثار العربية « كتاب شواهد القبور » وهو السفر التاريخى الذى يسجل فيه هذا العالم ما يعثر عليه من شواهد القبور فى العهود الاسلامية المختلفة فى مصر ، ونورد فيما يلى نموذجاً من هذه الشواهد ، وما كتب عليها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، هذا قبر محمودة بنت عبد الله بن موسى بن خالد توفيت يوم الجمعة لأربعة عشر ليلة خلت من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين وثلثمائة »

وكتاب الشواهد موضوع باللغتين العربية والفرنسية ويقع الجزء الخامس منه — وهو الذى صدر أخيراً — فى نحو مائتى صفحة حافلة بما وجد على القبور من مثل هذه النقوش ، كما ألحق بها رسوم واجهات هذه القبور فى نحو خمسين صفحة من الورق الفاخر المصقول

اشتراك مصر فى معرض البندقية الفنى الدولى

يقام معرض الفنون الجميلة الدولى المعروف باسم « البينالى » فى مدينة فنيسيا فى الصيف القادم ويعد هذ المعرض من أكبر معارض الفنون الجميلة وتشترك فيـه الدول كلها فيمثلها كبار الفنيين من مصورين ومثالين

وقد قررت وزارة المعارف المصرية الاشتراك لأول مرة فى هذا المعرض ، فخصص للفنانين المصريين جناح كبير تعرض فيه مبتكراتهم التى عنى بانتقائها الأستاذ ريمون مراقب الفنون الجميلة فى الوزارة

وألفت لجنة من حضرات الأساتذة محمود سعيد ومحمد ناجى ومحمد حسن وراغب عياد ويوسف كامل وأحمد صبرى ولبيب تادرس وسعيد الصدر وعلى الديب ومحميا سعد من رجال الفنون المصورين والمثالين لترتيب المعروضات وتنسيقها فى المعرض

جائزة للتعاون الدولى

نظم « مركز نشر الفكر الفرنسى » مبـاراة لنيل جائزة « رحلة الى فرنسا » مقدارها عشرة آلاف فرنك

وهـذه الجائزة تمنح لشاب مصرى يضع أحسن بحث فى الموضوع الآتى :

« الإبانة على نور الحوادث والتجارب بعـد الحرب ، عن مدى التضامن الاقتصادى وقوته ، الذى يربط الأمم بعضها ببعض حتى ولو تغاضت عنه »

ويجب أن يكون المتبارون مصريين ، دون الخامسة والثلاثين من العمر ، وأن يكونوا من تلاميذ مدرسة عالية أو من خريجيها ، وان يقدم كل منهم « بحثه » فى هـذا الموضوع قبل ١٠ مايو القادم ، إلى عميد مدرسة الحقوق فى الجيزة ، على ألا يزيد هذا البحث على خمس وعشرين صفحة ، مكتوبة بالآلة الكاتبة ، وأن يقدم منه ثمانى نسخ ، ولا ينبغى أن تذيل هـذه النسخ بتوقيع صاحبها ، بل يجب أن ترفق برسالة فيها اسم صاحبها ، وتكتب « البحوث » باللغة الفرنسية أو باللغة العربية مع ترجمتها بالفرنسية

لعبة الشطرنج عند قدماء العراقيين

أثبتت الآثار القديمة المكتشفة أخيراً فى العراق أن سكان العراق القدماء كانوا يلعبون الشطرنج ، وأن هذه اللعبة كانت إحدى وسائل اللهو عندهم . وقد أثبت هذا معهد الأبحاث التاريخية وبعثة بنسلفانيا الأمريكية التى تباشر أعمال التنقيب فى العراق . وقد وجدت بعض القطع فى شمال العراق . ويرجع عهـدها إلى أربعة آلاف سنة ق . م . ويدل وضع هذه القطع على أنها استعملت كثيراً فى اللعب

تعداد سكان العراق

ظهر من السجلات الرسمية أن النفوس المسجلة فى العراق فى الوقت الحاضر بلغت ١ر٨٤٦ر٩١٥ نسمة من أهالى المدن و١ر٥٢٣ر١٩٦ نسمة من العشائر فالمجموع ٣ر٣٧٠ر١١١ نسمة. وتقدر النفوس غير المسجلة من سكان المدن بعشرة فى المائة أى ١٨٥ر٠٠٠ نسمة ، ومن العشائر بستين فى المائة أى ٩١٤ر٠٠٠ نسمة ، فيكون مجموع النفوس غير المسجلة ١ر٠٩٨ر٠٠٠ نسمة ومجموع نفوس العراق ٤ر٤٦٨ر٠٠٠ نسمة

وفاة المغنى الشهير شاليابين

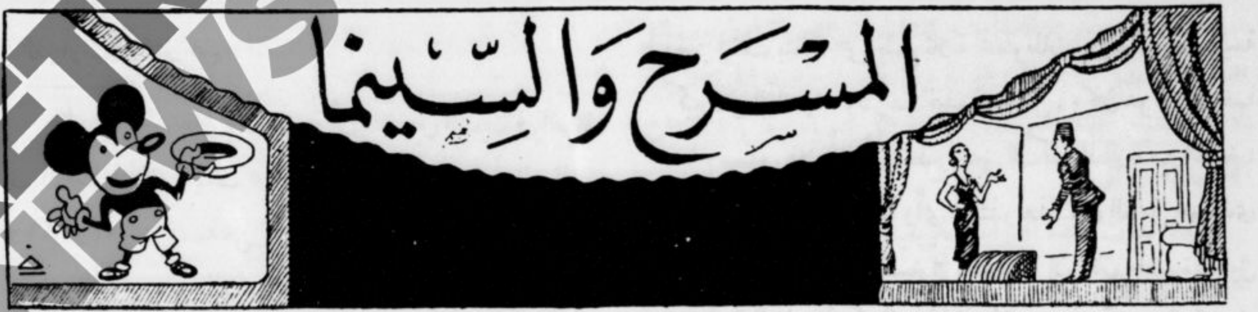
توفى المسيو فيدور شاليابين المغنى الروسى الذائع الصيت . وقد ولد فى بلدة كازان بروسيا أول فبراير سنة ١٨٧٣ واشتغل عدة أشهر « صبياً » لصانع أحذية ثم موظفاً صغيراً فى السكك الحديدية وتلقى مبادئ الموسيقى الأولى عند انضمامه إلى فرقة المرتلين بكنيسة بلدته كازان ولما بلغ السابعة عشرة من عمره انضم إلى فرقة تمثيلية متنقلة ، وكان يقوم فيها بالغناء والرقص . وتلقى الدروس الموسيقية الأولى على الأستاذ أوستانوف فى مدينة تفليس سنة ١٨٩٢ وظهر لأول مرة في دار الأوبرا فى رواية «حياة القيصر» بمدينة بتروجراد ١٨٩٤ ثم أخذ يتنقل فى جميع دور الأوبرا فى روسيا ، وكان ظهوره لأول مرة خارج روسيا فى لاسكالا دى ميلانو وتنقل بعد ذلك فى عواصم أوربا وأميركا وكانت أولى رواياته السينمائية رواية « دون كيشوت » وله عدة مؤلفات منها « صفحات من حياتى» و «الرجل والقناع » وكان يميل إلى الرسم والتصوير وصيد السمك

المطابع السارقة

إلى مجلة الرسالة الغراء

يرى الأستاذ المازنى أن « تنظيم النشر » فى مصر يكفى لازالة أسباب الشكوى التى يشكوها الكتاب والمؤلفون ، وأن هذا التنظيم وحده هو أعود عليهم بالربح والجدوى . وللأستاذ الحق فى هذا الرأى ، غير أن علة أخرى لم ينتبه إليها مع أنها من أكبر أسباب الغبن الذي أدرك الأدباء العرب فى هذا العصر حدثنى أحد باعة الكتب فى الجزائر بأنه كان سافر إلى مصر ليقف بنفسه على طبع ثلاثة مخطوطات ، وتعاقد مع مطبعة كبيرة فى القاهرة . وشرعت هذه فى العمل ، وكان هو يتردد عليها صباح مساء . فلاحظ أنها تطبع ضمن الكمية المطلوبة من النسخ ، فذكر لصاحب المطبعة ما رأى فاعتذر هذا بأن العامل هو الذى أخطأ ، وتمهد بإعدام النسخ الزائدة ، إلا إن كان حضرة العميل في حاجة إليها . فأكد له هذا أنه لا يريدها . ثم حدث للعميل ما حمله على زيارة مطبعة أخرى . ولم يكد يدخلها حتي استولت عليه الدهشة ، فقد رأى أكواماً من الملازم المطبوعة من نفس الكتاب الذى يقوم هو على طبعه ، وذلك لأن المطبعة الأولى بعد ما افتضح أمرها صارت كلما طبعت ملزمة نقلت الحروف مصفوفة مربوطة إلى هذه المطبعة الأخرى فتطبع فيها العدد المسروق . قال الراوى : وقامت بيني وبين صاحب المطبعة الأولى خصومة حادة عنيفة كادت تنتهى إلى الحاكم . ولكنها سويت على صورة غريبة صرت بموجبها شريكا له فى السرقة ، فقد ناولنى كمية مهمة من الكتب القيمة التى طبعها أخيراً على نفقة أصحابها المؤلفين الشهورين . قال : « ومنذ ذلك اليوم أصبحت من عملائه الكثيرين المنتشرين فى كثير من البلدان العربية والإسلامية ... » قلت : « وهل كل هذا صحيح ... » قال : « نعم . وهنالك أصحاب مطابع أخرى ، وهنالك ناس ينسجون على هذا المنوال . وفى القاهرة رهط من الناس (ومنهم أصحاب مكتبات يحترفون ترويج الكتب المسروقة ووسقها إلى خارج القطر المصرى ... »

لقد ارتبت لأول مرة فى صحة هذا الكلام وما لبثت أن استيقنت عند ما اطلعت على حوادث أخرى من هذا القبيل ؛ فقد عرض علينا ذات يوم أحد باعة الكتب فى فاس قائمة بأسماء كتب قيمة طبعت ولا يزال بعضها يطبع فى القاهرة (وهى بأقلام أئمة الأدب فى العصر الحديث) بأسعار مخفضة إلى حد غير معقول . فقلت لايخلو الأمر من إحدى اثنتين: إما أن تكون هذه الكتب فى منتهى الرداءة طبعاً ، وورقاً أو أن عارضها قد ارتبكت أحواله المالية وأشرف على الافلاس فهو يبيعها بأي ثمن ثم عرفت أنه لا هذه ولا تلك وإنما هذا الرجل هو أحد عملاء المطابع السارقة ... وكان أحد المتعهدين فى الجزائر



السينما فن وذوق
وليست أكاذيب وجهالة

أجازت الحكومة المصرية فى الشهر الماضى لشركة «راديو» الأمريكية أخذ فلم عن الحياة المصرية وتطوراتها من نوع الأفلام التى تخرجها هذه الشركة بعنوان « دورة الزمن » The March of Time ولقد شهدنا عدة أفلام من هذا النوع نذكر منها فلماً جيلاً عن تركيا ؛ والرأى الذى استخلصناه بعد رؤية عدة حلقات من « دورة الزمن » أن هذه الأفلام تقوم على أساس تاريخى صحيح وأنها ليست من نوع أفلام الدعاية الهزيلة أو من نوع الأشرطة الاخبارية العادية . على أننا نشفق مع ذلك أن تخطئ الشركة المصادر التى تستق منها مادة الفلم أو أن تعتمد على ما تلفقه عادة الأفلام الأجنبية عن مصر وشعبها ؛ وكثيراً ما رأينا القوم يصوروننا قبائل رحلا فى بلد صحراوى تناثرت فيه بعض المدن المليئة بالمآذن والقباب ، وفيما عدا ذلك فرمال وجمال وخيام . فلعل أولى الأمر لا تفوتهم مباشرة هذه الحقائق ومعالجتها بما يكفل لنا كرامتنا ولتاريخنا وقائعه الصحيحة

ولهذه المناسبة أذكر كثيراً من الأفلام التي مسخت الحوادث وشوهت من حقائق التاريخ فاساءت إلى بعض الشعوب . وأول ما يعنينا من هذه الأفلام فلم مصرى حديث الانتاج كان من شخصياته الرئيسية شخصية كسرى وقد أخرجت بشكل مزر غضب له إخواننا الايرانيون . وقد كتبت رأيى فى هذا الفلم فى العام الماضى من تقرير قدمته إلى لجنة تشجيع السينما بوزارة الداخلية طلبت فيه منع مثل هذه الأفلام وهذا الفلم على الخصوص الذى حاول أصحابه أن يعرضوه على رغم حقارته بمعرض البندقية الدولى . وقد صادرت الحكومة هذا الفلم ولكنها مصادرة جاءت متأخرة

نقدم مثل هذه الاساءة إلى قطر صديق فى غير ضرورة يبيحها الفن أو الذوق أو حتى التقدير التجارى . وقبل عرض هذا الفلم بزمن قصير يحمل لنا البرق خبر شجار كبير حدث فى إحدي دور العرض بأمريكا الجنوبية بين جماعة من الأهالى وفريق من إخواننا السوريين المستوطنين هناك عند عرض شريط عن مصر قابله الأمريكيون بسخرية استفزت إخواننا السوريين فثاروا لكرامتنا وقابلوا المعتدين بالضرب

نسمع هذا فى الوقت الذى نقدم فيه هذا المثل غير اللائق لإيران

* * *

وطالما تولدت الأزمات المشابهة فى كثير من الأفلام ، ومن ذلك أن شركة براموت قد أخرجت فلماً عرض باسم « مات الجنرال فى الفجر » وفيه تحقير للشعب الصينى . فما أن علمت الحكومة الصينية بأمر هذا الفلم حتى بعثت للشركة إنذاراً بسحب

قد عرض مجلة الرسالة (التى يصدرها فى القاهرة الأستاذ الزيات) على صغار الباعة والمتعهدين بثمن بخس جداً ... وتبين أنه كان يستوردها من مكتبة بالقاهرة لها صلة وثيقة بمطبعة سارقه كانت « الرسالة » تطبع فيها قبل أن تتخذ لنفسها مطبعة خاصة . وأكثر هؤلاء «العملاء» ينشرون الدعوة ضد مطبوعات «لجنة التأليف والترجمة والنشر» في القاهرة . وسبب ذلك (فيما يظهر) هو أنهم لم يستطيعوا أن يسرقوها ... وهذه الأشياء فضلاً عن كونها تؤذى سمعة مصر أذى شديدا ، فهي ضربة قاضية على الحركة الأدبية فى مصر والعالم العربى . ونعتقد أنه لابد للحكومة المصرية أن تعالج هذه الحالة بما تراه ناجعاً . لكى تسير حركة النشر فى طريقها المشروع

« وهران » الوفاق محمد السعيد الزاهرى

هذا الفلم من جميع أسواق العالم وإلا تحرم الحكومة الصينية عرض أي فلم في المستقبل من إنتاج شركة براموننت . وقد انصاعت الشركة للأمر لأنها لا تستطيع أن تضحى بسوق كبيرة مثل الصين . وقد أخرجت نفس الشركة قبل ذلك فلماً آخر يسىء إلى أسبانيا بعنوان « الشيطان امرأة » مثلته « ارلين ديتريش وشهده الجمهور المصرى فمنع عرض هذا الفلم بأسبانيا وأرسلت حكومتها احتجاجاً قابلته الشركة بالاعتذار والأسف

* * *

وهناك حكومات يقظة تتنبه إلى الأمور قبل وقوعها ، ومثل ذلك مافعلته الحكومة التركية مع شركة مترو إذ أعلنت هذه أن من مشروعاتها الكبيرة إخراج فلم بعنوان « أيام موسى داغ الأربعون » وفى تصوير هذا التاريخ ما يجرح الشعور التركي ، فلما علمت الحكومة التركية بنية الشركة نصحتها بالعدول عن المشروع واستجابت الشركة فعلا للنصيحة ودفن المشروع

وقد كانت شركة (فوكس — القرن العشرون) قد انتوت إخراج سلسلة من الأفلام الشرطية على غرار أفلام « شارلى شان » الشرطى الصينى لبطل يابانى للأفلام الجديدة اسمه « موتو » وقد أخرجت الشركة بالفعل أول هذه الأفلام Think fast Mr. Moto ولم يعرض فى بلادنا بعد ، ومثل الشرطي اليابانى المثل المعروف بيتر لور . وقد طلبت الحكومة اليابانية بعد إخراج هذا الفلم من الشركة المذكورة أن تطلعها على موضوع كل فلم من هذا النوع للموافقة عليه قبل البدء فى إخراجه . وقد أدى هذا التدخل إلى وقف سلسلة مستر موتو

الرأى الذى نخرج به أخيراً أن السينما كأى فن يجب أن يقوم على الحقائق . فاذا أهملت الحقيقة عن غير عمد فيجب على الأقل ألا يهمل الذوق . فاذا لم يراع هذا أو ذاك فقد فقدت السينما وظيفتها وفائدتها وأصبحت شيئاً يستحق المصادرة والمحاربة

محمد على ناصف

فى السينما

أخطار السينما

تثبت احصاءات شركات التأمين بالولايات المتحدة أن مبالغ التعويض التى دفعت فى العام الماضى ضد أخطار السينما تقل ٤٥٫٠٠٠ جنيه عنها فى عام ١٩٢٩ . ففى هذا العام بلغ عدد الاصابات ٧٧٠٠ إصابة وقف فى العام الماضى عند ٤٥٠ فقط .

ومع ازدياد الانتاج السينمائي وقطعه مراحل كبيرة كانت تعتبر من المعجزات وخاصة في إخراج حوادث الحرب وتصوير نكبات الطبيعة من زلازل وعواصف وسيول فان هذا الاحصاء يدل دلالة قاطعة على تقدم الصناعة وأمنها

ومن أشأم الحوادث فى تاريخ السينما موت المخرج كينث هوكس من تصادم طائرتين أثناء إخراجه فلم « رجال مجازفون » وكذلك الحوادث التى اقترنت ببعض الأفلام مثل : « ملائكة الجحيم » و « ثورة على السفينة بونتي » و « الطريق الخانق » و « الوريثة المتشردة » والفلم الأخير يعرض الآن بالقاهرة

وتعتبر الاحصاءات أن استديوهات شركة وارنر أكثر الأستديوهات أخطاراً وتتبعها شركة مترو جولدوين . وقد اعتبر إخراج فلم « فى شيكاغو القديمة » لشركة (فوكس — القرن العشرون) شيئاً يشبه المصادفة لعدم حدوث أى إصابة رغم تعدد حوادث الفلم من حريق وفيضان وثورة قطمان الماشية واجتياحها آلاف الخلائق ، أما أكثر الأفلام أخطاراً فهى أفلام رعاة الأبقار

فى المسرح

ايفور نوفيلو من أبرز شخصيات المسرح الانجليزى

انتقل ايفور نوفيلو بموسيقيته Crest of the Wave من مسرح درورى لين إلى تريهام هيل لاجراء بعض الاصلاحات بالدرورى قبل أن يفتتح فيه مسرحيته الجديده

ويعتبر نوفيلو من أسعد رجال المسرح فى جميع العصور فهو فى الخامسة والأربعين من عمره يؤلف مسرحياته ويلحنها ويخرجها ثم يمثلها . ولا تزال فرقته منذ سنة ١٩٣٥ دائمة العمل فى موسيقياته الثلاث الأخيرة لا يقف عملها إلا فى الفترات التى بين مسرحية وأخرى ؛ ويقدر له العارفون أن روادمسرحه في هذه المدة بلغوا ١٫٧٥٠٫٠٠٠ وانه أحيا ٧٥٠ حفلة متوسط دخل الحفلة الواحدة ٦٠٠ جنيه

وبعملية بسيطة يكون دخله فى هذه المدة ٤٥٠٫٠٠٠ جنيها دفع منها ضرائب فقط ٦٧٫٥٠٠ جنيه

***

تمثل الآن على مسارح برودواى مسرحية « النساء » وجميع شخصياتها نساء وقد رفض الرقيب الانجليزى تمثيلها على مسارح انجلترا إلا بعد تعديل منظر لفتيات مجتمعات فى قاعة نوم ولكن المؤلف رفض اجراء هذا التعديل .

***

يعتبر هـذا الموسم من أكسد مواسم التمثيل فى أمريكا ، ولذلك فان قيام مسرحية ناجحة وسط عدة مسرحيات فاشلة شىء يقابل بالضجة والتهليل ، وهــذا ما لقيته مسرحية Gm Borrowed Time التى اقتبسها للمسرح بول اوسبورن من رواية لورنس ادوارد انكنس ومثل الدور الأول فيها بنجاح كبير دادلى دمجز الممثل المعروف فى السينما والمسرح

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾